المهذب في فقه السياسة الشرعية

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنَّة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ ٢٠١٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،وأفضل الصلاة وأتمٌ التسليم ،على على سيد الأنبياء والمرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

فإن فقه السياسة الشرعية أمر ضروري تحتاج إليه الأمة المسلمة في كل زمان ومكان ...

وقد كتب العلماء منذ القدم كتباً كثيرة في هذا الموضوع الجلل منها :

الأحكام السلطانية للماوردي (٤٥٠)

الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (٤٥٨)

غياث الأمم في التياث الظلم (٤٧٨)

التبر المسبوك في نصيحة الملوك (٥٠٥)

الجوهر النفيس في سياسة الرئيس (بعد ٦٧٣)

الحسبة لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيقي

السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (٧٢٨)

الطرق الحكمية لابن القيم

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (٧٠٩)

المنهج المسلوك في سياسة الملوك (نحو ٥٩٠)

النصيحة للراعي والرعية للتبريزي (٦٣٦)

تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك (٧٥٨)

الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء (٨٤٣)

بدائع السلك في طبائع الملك (٨٩٦)

التراتيب الإدارية = نظام الحكومة النبوية (١٣٨٢) وغيرها كثير

وقد كتب المعاصرون كتباً كثيرة في هذا الموضوع منها :

الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة

الحسبة على الحاكم ووسائلها في الشريعة الإسلامية

السياسة الشرعية أبو عمر:محمد بن عبدالله بن سيف

السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية (١٣٧٥)

السياسة الشرعية - جامعة المدينة

الشورى بين الديمقراطية والديكتاتورية

الشورى فريضة إسلامية (معاصر)

الشورى في الشريعة الإسلامية

ومن أشهر هذه الكتب كتاب السياسة الشرعية أبو عمر:محمد بن عبدالله بن سيف رحمه الله

وهو كتاب قيم تكلم فيه المؤلف رحمه الله عن أهم موضوعات النظام الإسلامي .....

وقد تطرق للموضوعات المعاصرة بشكل واضح وصريح ...بحيث لا يمكن أن يستغني عنه طالب علم يريد أن يفهم الساسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية على حقيقتها،ومن مصادرها الساسية .

وأما ما يؤخذ على الكتاب فما يلي :

أولا- النصوص الشرعية من القرآن والسنة ليست منقولة بشكل دقيق وخاصة الأحاديث النبوية وهي كثيرة جدا،فلم يخرج المؤلف حديثا واحدا منها بالشكل المعتبر اليوم .

ثانيا- لا يوجد شرح للآيات القرآنية ولا للأحاديث النبوية والآثار إلا نادراً جدا .....

ثالثاً- غالب الأحاديث التي ساقها لم يسقها من مصادرها المباشرة بل من مصادر أخرى نقلت عنها فوقعت أخطاء في متونها .

رابعاً- غالب الأحاديث غير مشكلة .....

خامساً – نحا المؤلف رحمه الله نحو التشدد في العديد من الموضوعات

سادساً- ترك بعض الموضوعات الهامة لم يتعرض لها ......وغير ذلك

أما عملي في الكتاب فهو ما يلي :

أولا- لقد اعتبرت الكتاب مادة أولية ليس إلا

ثانيا- غيرت جميع النصوص التي فيه وأتيت بها مباشرة من مصادرها سواء من القرآن الكريم أو السنة النبوية والآثار .....

ثالثا- قمت بتخرج الجميع سواء الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية والآثار ....
رابعا- أما بالنسبة للنصوص القرآنية فقد نقلت تفسيرها من عدة كتب في التفسير قديمة وحديثة،وبينت مصدر كل قول منها في الهامش،وجلها مفسرة بشكل كافي وافي إن شاء الله تعالى.
خامساً- وأما الأحاديث الشريفة فقد قمت بتخريجها من مصادرها الأساسية والحكم عليها جرحا وتعديلا إذا لم تكن في الصحيحين أو أحدهما،ولم أنح منحى المتشددين ولا المتساهلين في الجرح والتعديل .بل وزدت كثيرا من الأحاديث والآثار ذات الصلة المباشرة بالموضوع .
وحذفت بعض الأخبار المنكرة وأتيت بأخبار قوية بدلا منها .
سادساً- قمت بشرح غريب جميع الأحاديث،وشرحت الكثير منها بما يلزم،وربما بشكل مفصل مع بيان مصدر أي قول في الهامش.
سابعاً- جميع الأقوال في هذا الكتاب والتي ليست لي معزوة لأصحابها بنهاية كل كلام في الهامش.
ثامنا-ناقشت المؤلف رحمه الله في المسائل التي أرى أنه أخطأ فيها وقد بينت ذلك بقولي :قلت،ومنها حول الديموقراطية وكيفية الانتخاب،وإلزامية الشورى عند الاختلاف،وتشكيل أحزاب إسلامية ......
تاسعا- هناك العديد من القضايا لم يتعرض لها المؤلف رحمه الله بشكل واضح أو سكت عنها وضحتها في مكانها ....
عاشراً- زدت المبحثين الأخيرين كلهما لأهميتهما البالغة في الظروف الراهنة وغير ذلك بحيث صار كتابا شاملا لعامة الموضوعات التي تتعلق بالسياسة الشرعية بين الراعي والرعية
وقد تضمن هذا الكتاب المباحث التالية :

المبحث الأول=الحكم لله تبارك وتعالى

المبحث الثاني=خيرية الأمة الإسلامية

المبحث الثالث=الشكر على النصر

المبحث الرابع=مفهوم السياسة الشرعية

المبحث التاسع والعشرون= بذل المعروف والإحسان إلى الناس وتقديم الخدمات لهم

المبحث الثلاثون=الأخوة الإيمانية

المبحث الحادي والثلاثون=الوعد بالتمكين وعودة الخلافة

المبحث الثاني والثلاثون=الثورات العربية من الاستبداد إلى الخلافة الراشدة

المبحث الثالث والثلاثون= التنظيم الراشدي وشروط النصر

أسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه والدال عليه في الدارين .

قال تعالى :{ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } [ص:٢٦]

الباحث في القرآن والسنة

وعضو الهيئة العامة للعلماء المسلمين بسورية

علي بن نايف الشحود

يوم الخميس في ١١ رجب ١٤٣٣ هـ الموافق ل ٢٠١٢/٥/٣١ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ترجمة المؤلف رحمه الله

- هو أبو عمر:محمد بن عبدالله بن سيف الجابر آل بوعينين،وترجع عائلته آل بـــوعينين إلى قبيلة بني تميم،وهي من أشهر القبائل العربية.

(البدايات)

- ولد أبو عمر رحمه الله عام ١٣٩٠ في بلدة القيصومة،شمالي بلاد الحرمين،وعاش فيها قرابة العقدين من الزمان،وكان من صغره هادئ الطباع محبوباً عند معارفه.
- بدأت علاقة الشيخ بالجهاد في سنة ١٤١٠،حين بلغ العشرين من عمره؛حيث سافر إلى أفغانستان للإعداد للجهاد،ومكث هناك ستة أشهر،ثم رجع إلى بلده،ثم عاد مرة أخرى إلى أفغانستان ومكث عاماً وزيادة في جبهة (لوقر)،استغلها بالدعوة إلى الله وإقامة الدروس،مع جهاده ورباطه في الثغور.
- بعد عودته من سفره واصل الشيخ ارتباطه بالجهاد عن طريق جمع التبرعات،ثم قرر الشيخ رحمه الله أن يعمق تحصيله العلمي؛فالتحق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم،واتصل بالشيخ محمد بن عثيمين في حلقاته العلمية،ومكث كذلك حتى تخرجه من الجامعة.
- كانت قضية الجهاد حاضرة معه،وفور تخرجه من الجامعة التحق بركب المجاهدين،وذلك في ربيع الآخر عام ١٤١٧ حيث ألقى عصا الترحال في بلاد الشيشان،وكان ذلك إبان الحرب الأولى وقبيل انسحاب الروس منها بثلاثة أشهر.

(مرحلة الشيشان)

- حين وصول أبي عمر إلى الشيشان انخرط في معسكرات التدريب،ولم يكن معروفاً آنذاك لرغبته في أن يكون في غمار الناس،ولم يكن ممن يشهر نفسه،حتى رآه بعض قيادات المجاهدين فعرف به ونبه على فضله.

- وبعد توقف الحرب،طفق الشيخ أبو عمر يقيم الدروس،ويركز على التعليم والتربية،وله تعليقات على كتاب طريق الهجرتين ومدارج السالكين لابن القيم،وحمل عن كاهل القيادة حملاً ثقيلاً في هذا الباب.
- في هذه المرحلة أراد الرئيس الشيشاني سليم خان باندرييف رحمه الله أن يطبق الشريعة الإسلامية،وتمت المراسلات بينه وبين الشيخ أبي عمر عن طريق مندوب الرئيس الخاص وبعض المشايخ الشيشانيين؛وهم ممن رأوا الشيخ أبا عمر وعلموا فضله،فلما ظهر لأبي عمر جدية الرئيس في ذلك طلب مقابلته.
- تمت المقابلة في رجب ١٤١٧ بحضور أحد القادة والمشايخ الشيشانيين،وجرى حديث مطول عن ضرورة إقامة الشريعة،والانتقال إلى خطوات عملية تفصيلية،وتتابعت اللقاءات بعد ذلك،ووقف الشيخ أبو عمر معه وقفة قوية،ودعمه مادياً ومعنوياً،وكان يؤكد دائماً أن هذا هو ثمرة الجهاد في سبيل الله.
- وكان من آثار ذلك أن أصدر الرئيس سليم خان عدة مراسيم؛كمرسوم تأسيس المحاكم الشرعية،وجهاز الحسبة المسمى حرس الشريعة،ومراسيم أخرى لتنظيم التعليم والمساجد وغيرها.

(في عمق السياسة الشرعية)

- تفاعل الشيخ أبو عمر مع هذه الخطوات الكبرى،ونذر وقته لها،فأسس الشيخ معهد القضاء الشرعي،ومعهد حرس الشريعة،وكان يعد القضاة ويعلمهم ويدارسهم في أقضية الناس،ويباشر القضاء أيضاً،وتخرج على يديه ثلة من القضاة وطلبة العلم،وأسس فيما بعد معهد الإمام الشافعي،ثم أسس فيما بعد جمعية الهدى الخيرية التي تعنى بالفقراء والأرامل والأيتام،بالإضافة إلى أعمال الدعوة والمساجد والتعليم،والتي طبع عن طريقها مئات الآلاف من النسخ باللغتين الروسية والشيشانية،وكان هذا دافعاً كبيراً للشيخ أبي عمر في التعمق في السياسة الشرعية،والدخول بها من الأطر التأصيلية إلى معايشة الواقع.

- وظهرت آثار القيام بالشريعة في حياة الناس،فأمنوا على أموالهم وأعراضهم،وبنيت المساجد وكثر المصلون،وانتشرت حلق التعليم ومنع الفساد في بلد كانت تأكله الفوضى والعصابات والجهالة.
- وكان وقته رحمه الله موزعاً بين التعليم،والإفتاء،والقضاء،والتأليف،والخطابة،والمشاركة في سياسة الدولة المسلمة،والمساندة لصف المجاهدين،والتعبد لله تعالى بالذكر والقيام.
- واستمر الشيخ أبو عمر في عمله،مع ما عصف به من شدائد يقتضيها الطريق،وهي على شدهًا أتاحت للشيخ معايشة للسياسة الشرعية في شقها السِّلْمي،وفي بناء الدولة،حتى قامت مرةً ثانية.
- وبقيام الحرب الشيشانية الثانية انخرط الشيخ أبو عمر في صفوف المجاهدين،بل في مقدمتهم،وكان مرتكزاً للمشورة والإفتاء،مما أتاح للشيخ معايشة جديدة للسياسة الشرعية شقها الجهادي.
- طفق الشيخ يحرض على الجهاد ودفع الصائل،وكاتب العلماء والمحسنين والمسلمين في العالم لدعم الجهاد،وكانت له عناية خاصة بجمع الكلمة وتأليف القلوب،فكان أحد المؤسسين وأبرز الداعمين لمجلس الشورى العسكري للمجاهدين في الشيشان،وظل متنقلاً مع المجاهدين في مختلف تضاريس الشيشان مذكراً ومثبتاً،ومرجعاً لهم في استفتاءاهم،ومقاتلاً في صفوفهم.

(من حياة الشيخ العلمية)

- حرص الشيخ أبو عمر على توثيق صلاته بالعالم الإسلامي،وبعلماء الأمة الكبار،سواء في نقل الصورة الحقيقية لهم،أو مشاورهم في نوازل المسائل،وكان ذلك على قدر من التوقير والخلق؛ولم يكن ممن يهاجم العلماء أو يغض من شأنهم ولو اختلف معهم،وكان همزة الوصل بين المجاهدين في الشيشان وعلماء كثيرين،خاصة علماء الجزيرة العربية،والشيخ ابن عثيمين خصوصاً.
- تميز الشيخ أبو عمر بالحرص على اتباع القرآن والسنة،علماً وعملاً ويظهر من كتاباته كثرة استشهاداته بهما،مع عمق الاستدلال،وقد عرف حرصه على منهج السلف ومن

سار على مسيرهم،وكان كثير الإيراد لكلام شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحم الله الجميع.

- كان رحمه الله في حياته –كما كان في أول عمره– على قدر كبير من الخلق،والعفة،والحياء،وحفظ اللسان،وعلى جانب كبير من العبادة،ومداومة الذكر،وكان رغم أعبائه وامتلاء وقته من أهل قيام الليل،وتميز رحمه الله بالذكاء والفراسة،والشخصية القوية المهابة عند الجميع،على تواضع وحلم وصبر وطول بال،وتأني في الفتوى وتأمل في القرارات،وكان كثير الصمت،هادئ الطبع،سهل المعاشرة،مع ماله من عزيمة وإصرار،وجد في العمل.
- كانت للشيخ عناية خاصة بالجوانب الإعلامية،حيث أصدر عددا من الصحف في أنحاء الشيشان،وأسس إذاعة لبث البرامج النافعة،وسعى في إطلاق قناة تلفزيونية على مستوى القوقاز.
- كان للشيخ أثر ظاهر في ترشيد الجهاد وتوعية المجاهدين،والارتباط بمنهج السلف الصالح في العقيدة والأخلاق والسلوك،ساهم في توازن الجهاد الشيشاني،وحفظه من غوائل الغلو والانحراف الفكري.
- جمع رحمه الله العلم والعمل،وجاهد بنفسه وماله ولسانه وقلمه،وأصيب في مواجهات كثيرة مع العدو،في مواضع كثيرة في جسمه،ألزمته الفراش في بعض المرات،وقد شارك في مسيرة "شاتوي" في حالة عصيبة من البرد ووعورة الطريق والحصار والقصف،مع معاناة الجرحى والمرضى،وجرت محاولات لاغتياله نجا منها،وهو يطلب الشهادة في مظانها حتى ظفر بها –نحسبه كذلك–.

(خاتمة)

- قتل رحمه الله في شهر شوال عام ١٤٢٦،بعد مواجهة مع العدو،مقبلاً غير مدبر،تقبله الله في الشهداء.

- ويعد كتابه "السياسة الشرعية" من آخر ما كتب،وقد جعله بمثابة الوصية بعد موته،بعد تجربة ناضجة في العلم والعمل،وفي السياسة الشرعية سلمها وحربها،وفي التقلب بين الجندية والقيادة،ختمها بتوقيع من حبر دمه.
- رحم الله أبا عمر،وتقبله في الشهداء،ونفع بهذا الكتاب مؤلفه وقارئه وناشره،والحمد لله رب العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف رحمه الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين وإمام المجاهدين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذا الكتاب في السياسة الشرعية التي يجب على المسلمين أن يتمسكوا بها،وألا يحيدوا عنها إلى ما انتحله وافتراه الكافرون المفترون من السياسات والأنظمة والقوانين والأحكام التي أكثرت في الأرض الفساد،وارتفع بسببها صوت الكفر والإلحاد،وقد ازداد خطرها واستطار شرها في هذه السنوات مع الحملة الصليبية العالمية المتحالفة مع اليهود والمشركين والمرتدين لمحاربة الإسلام والمسلمين.

وقد تصدرت هذه الحملة وتولت كبرها،رأس الشر في هذه الحملة الولايات المتحدة التي أجلبت بجنودها وأسلحتها وضجيج إعلامها على الأمة الإسلامية،وغزتها في قعر دارها في أفغانستان والعراق،ونشرت قواعدها في دول الخليج وفي باكستان وغيرها،وسارع إلى موالاتها،والدخول في حلفها،والقتال في صفها،والإيمان بفتنتها- المسماة بالديمقراطية- المارقون المرتدون والمنافقون الذين قال الله تعالى عنهم وهو أحكم الحاكمين:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)} [المائدة:٥١ - ٥٣] وقال تعالى:{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا } [الأحزاب:١٤] .

وكثير من المرتدين والمنافقين في زماننا قبل أن تدخل البلاد من أقطارها،وتقتحم من حدودها،قد استجابوا لفتنة الديمقراطية،وائتمروا بأمر راعيتها الولايات المتحدة.

وقد قام لجهاد هؤلاء الصليبيين وحلفائهم،وتصدى لمدافعتهم ومقارعتهم،المجاهـدون طلائـع الخلافة الإسلامية،وجنود الله في الأرض،الطائفـة الناجيـة المنصـورة المجاهـدة،فعَنِ ابْـنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»،قَالَ:" فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْـنُ مَـرْيَمَ ﷺ،فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ:تَعَالَ صَلِّ لَنَا،فَيَقُولُ:لَا،إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّـةَ " أخرجه مسلم[1].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا،يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِـنَ الْمُسْلِمِينَ،حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» أخرجه مسلم[2].

وعن يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ،قَالَ:سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،ذَكَرَ حَدِيثًا رَوَاهُ عَنِ النَّبِـيِّ ﷺ،لَـمْ أَسْمَعْهُ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مِنْبَرِهِ حَدِيثًا غَيْرَهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ،وَلَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَـقِّ ظَـاهِرِينَ عَلَـى مَـنْ نَاوَأَهُمْ،إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» أخرجه مسلم[3].

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ،قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ،وَعِنْدَهُ عَبْـدُ اللهِ بْـنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْـقِ،هُمْ شَـرٌّ مِـنْ أَهْـلِ الْجَاهِلِيَّةِ،لَا يَدْعُونَ اللهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ،فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،فَقَالَ لَـهُ مَسْلَمَةُ:يَا عُقْبَةُ،اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللهِ،فَقَالَ عُقْبَةُ:هُوَ أَعْلَمُ،وَأَمَّا أَنَـا فَسَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ،قَاهِرِينَ لِعَـدُوِّهِمْ،لَا يَضُـرُّهُمْ مَـنْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:أَجَلْ،«ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا كَـرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ،فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَـتْهُ،ثُمَّ يَبْقَـى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ» أخرجه مسلم[4]

---

[1] - صحيح مسلم (١/ ١٣٧)٢٤٧ - (١٥٦)

[2] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٢ - (١٩٢٢)

[3] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٥ - (١٠٣٧) [ش (ناوأهم) أي عاداهم]

[4] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٦ - (١٩٢٤)

فكسروا شوكة الغزاة الصليبيين،ومزقوا بفضل الله حلفهم وشتتوا جمعهم،وألحقوا الهزائم المتوالية في أعتى دولة من دول العالم وأشدها تمردا وكفرا،وحربا لله ورسوله ﷺ،فحاق مكر الصليبيين بهم،ودارت الدائرة عليهم،وفشلت أهدافهم ومخططاتهم،وجاءت النتائج على عكس ماكانوا يظنون ويتمنون ويريدون،فقد ازدادت ولله الحمد قوة المجاهدين الذين جددوا في نفوس المسلمين معاني الجهاد والاستشهاد والعزة والشجاعة والصدق،حيث تجددت فريضة الجهاد في الأمة تجددا لم يسبق مثله منذ أزمان،وأقبل الكثير من المسلمين على دينهم الذي هو مصدر عزهم وقوتهم ورفعتهم بعد أن تساقطت الشعارات اللادينية (العلمانية) في المنطقة عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِه،وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ،فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا،تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ،وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ،وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ،فَقَالَ عُمَرُ:«أَوَّهْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ».رواه الحاكم[٥].

ويئس الصليبيون وحلفاؤهم من رد المسلمين الصادقين عن دينهم،وأصبح حالهم كحال سلفهم من الكفار،الذين قال الله تعالى عنهم:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة:٣]

والمجاهدون الذين يسيرون بصدق وثبات على طريق الجهاد،لتكون كلمة الله هي العليا،ويحكم الإسلام في الأرض،ويشرق نور الخلافة الإسلامية من جديد،عليهم ألا يقتصروا في حذرهم على الكفار المحاربين والمرتدين الديمقراطيين الذين يسعون لإزالة الإسلام،وتحكيم الكفر المسمى بالديمقراطية في بلاد المسلمين،بل عليهم أن يحذروا أيضا من بعض من ينتسبون إلى العلم الشرعي الذين يخلطون الحق بالباطل،وقد قال تعالى:{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة:٤٢]،وهذا الخلط واللبس من صفات اليهود،ومن تشبه بهم من أهل

[٥] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ١٣٠)(٢٠٧) صحيح

العلم في هذه الأمة الإسلامية ممن يرفعون شعارات إسلامية،ويتصدرون للفتوى والإرشـــاد،ثم يخلطون ما عندهم من الحق بالدعوة إلى الباطل كالدعوة إلى الكفر المسمى بالديمقراطية بحجـــة المصلحة الوطنية أو غيرها.

وتكمن خطورة هذا الصنف في مكانة بعضهم عند بعض عوام المسلمين،وربما كان من بينـــهم من يدعون إلى قتال المحتلين،ولكنهم قد زلوا في فتنة الديمقراطية التي ضل فيها كثير من النـــاس كما ضل الكثير من الناس في عبادة الأصنام كما قال تعالى:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِـــي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) } [إبراهيم]

إن الواجب على كل مسلم فضلا عمن تصدر للفتوى وانتسب للدعوة الإسلامية أن يأمر بمـــا أمر الله به من الإيمان،ولا يأمر بالكفر كدعوة المسلمين وحثهم على القبول بالديمقراطية،وقـــد قال تعالى:{وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِـــالْكُفْرِ بَعْـــدَ إِذْ أَنْـــتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران:٨٠].

فالنبي ﷺ لا يأمر المسلمين بالكفر، كاتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله،وكذلك من تصدر للفتوى وتبليغ أحكام الله،لا يأمر إلا بما أمر الله به ورسوله ﷺ،ولا ينهى إلا عما نهى الله عنـــه ورسوله ﷺ،وأعظم ما أمر الله به ورسوله ﷺ توحيد الله،وإفـــراده بالعبادة،ومنـــها الحكـــم والتشريع،وأعظم ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ الشرك،ومنه التحاكم إلى الديمقراطية وقوانينـــها وبرلماناتها،وقد روى عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْـــنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ،أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ:أَرْسَلَ إِلَيْهِ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ،ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي أُرْسِلَ بِهِ مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى،فَدَفَعَهُ إِلَيَّ هِرَقْلُ فَقَرَأَهُ،فَإِذَا فِيـــهِ:" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ،سَلَامٌ عَلَى مَـــنِ اتَّبَعَ الْهُدَى،أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ،أَسْلِمْ تَسْلَمْ،يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ،فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } [آل عمران:٦٤] " أخرجه البخاري ومسلم[٦]

قال الطبري :" قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ:{تَعَالَوْا} [آل عمران:٦١] هَلُمُّوا {إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ} [آل عمران:٦٤] يَعْنِي إِلَى كَلِمَةِ عَدْلٍ {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران:٦٤] وَالْكَلِمَةُ الْعَدْلُ:هِيَ أَنْ نُوَحِّدَ اللَّهَ فَلَا نَعْبُدَ غَيْرَهُ،وَنَبْرَأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.وَقَوْلُهُ:{وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا} [آل عمران:٦٤] يَقُولُ:وَلَا يَدِينُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بِالطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ،وَيُعَظِّمُهُ بِالسُّجُودِ لَهُ،كَمَا يَسْجُدُ لِرَبِّهِ.{فَإِنْ تَوَلَّوْا} [آل عمران:٣٢] يَقُولُ:فَإِنْ أَعْرَضُوا عَمَّا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلِمَةِ السَّوَاءِ الَّتِي أَمَرْتُكَ بِدُعَائِهِمْ إِلَيْهَا،فَلَمْ يُجِيبُوكَ إِلَيْهَا،فَقُولُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِلْمُتَوَلِّينَ عَنْ ذَلِكَ:اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ...

وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا} [آل عمران:٦٤] فَإِنَّ اتِّخَاذَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا،هُوَ مَا كَانَ بِطَاعَةِ الْأَتْبَاعِ الرُّؤَسَاءَ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ وَتَرْكِهِمْ مَا نَهَوْهُمْ عَنْهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ،كَمَا قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا} [التوبة:٣١]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:{وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [آل عمران:٦٤] يَقُولُ:" لَا يُطِعْ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ،وَيُقَالُ:إِنَّ تِلْكَ الرُّبُوبِيَّةَ أَنْ يُطِيعَ النَّاسُ سَادَتَهُمْ وَقَادَتَهُمْ فِي غَيْرِ عِبَادَةٍ إِنْ لَمْ يُصَلُّوا لَهُمْ " وَقَالَ آخَرُونَ:اتِّخَاذُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَرْبَابًا:سُجُودُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ،فعَنْ عِكْرِمَةَ،فِي قَوْلِهِ:{وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [آل عمران:٦٤] قَالَ:«سُجُودُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ» وَأَمَّا قَوْلُهُ:{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤] فَإِنَّهُ يَعْنِي:فَإِنْ تَوَلَّى الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ إِلَى الْكَلِمَةِ السَّوَاءِ عَنْهَا وَكَفَرُوا،فَقُولُوا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَهُمُ:اشْهَدُوا عَلَيْنَا بِأَنَّا بِمَا تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ،وَأَنَّهُ الْإِلَهُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ مُسْلِمُونَ،يَعْنِي خَاضِعِينَ لِلَّهِ بِهِ مُتَذَلِّلِينَ لَهُ بِالْإِقْرَارِ بِذَلِكَ بِقُلُوبِنَا وَأَلْسِنَتِنَا.."[٧]

---

[٦] - صحيح البخاري (١/ ٨)(٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٩٣)٧٤ - (١٧٧٣) والأدب المفرد مخرجا (ص:٣٧٩)(١١٠٩)

[٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٤٧٣)

وقد كانوا أربابا لهم حين اتخذوهم مشرعين،يحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال،فهـــذا هو دأب اليهود والنصارى من القديم إلى يومنا هذا أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا مشرعين من دون الله،وإن اختلفت المسميات والصور،وهذا من الشرك الذي دعا رســول الله ﷺ هرقــل عظيم الروم لتركه،والواجب على حملة العلم الشرعي أن يقتدوا بنبيهم ﷺ وينكــروا شــرك الديمقراطية،ويدعوا عظيم الروم في زماننا إلى تركه،ولكن انعكس الأمر عند بعض المنتســبين للعلم فاستجابوا لفتنة الديمقراطية التي يروج لها ويدعوا لها"عظيم الروم" وحلفاؤه.

فهذا أحد الأمثلة الكثيرة على خلط الحق بالباطل،وما قد شاب السياسة الشرعية،وخلط بهــا من السياسات الجائرة التي أخذت من الأنظمة الكفرية كالديمقراطية وغيرهــا ثم نســبت إلى السياسة الشرعية كذبا وزورا.

ولهذا فالواجب على أهل العلم أن يبينوا السياسة الشرعية،وأن يميزوا بينها وبين ما خلط بها من الباطل ويحذروا منه،وأن يعتنوا بالكتابة الجادة في السياسة الشرعية،وأن يدِّرسوها في حلق العلم كغيرها من العلوم الشرعية.

وهذا الكتاب قد كتب للمجاهدين الصادقين الجادين في جهادهم وسعيهم لإقامة ديــن الله في الأرض في العراق وأفغانستان وفلسطين والشيشان وغيرها،وقد تضمن قواعد كلية وأصــولا وأحكاما عامة في السياسة الشرعية مع التفصيل في عدد من المواضع،فما كان فيه من حق فهو من الله تعالى وحده،وما كان فيه من خطأ مما يخالف الكتاب والسنة فأنا راجع عنه في دنيــاي وبعد وفاتي.

كتبه

أبو عمر محمد بن عبد الله السيف.



المبحث الأول

الحكم لله تبارك وتعالى

إن الحكم والتشريع من خصائص الألوهية،ومن نازع الله تعالى في الحكم والتشريع فقد تجاوز حد العبودية،ورام الألوهية،فهو طاغوت،وكلمة طاغوت مشتقة من الطغيان وهو مجاوزة الحد،وكل من آمن بهذا الطاغوت،واتخذه حكما ومشرعا،فقد اتخذه ربا،وعبده من دون الله تعالى،كما قال تعالى: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [التوبة:٣١].

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ.فَقَالَ:«يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ»،وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة:٣١]،قَالَ:«أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ،وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ،وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[٨]

وأخرج ابن جرير عَنِ السُّدِّيِّ:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة:٣١] قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ:«لَمْ يَأْمُرُوهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُمْ،وَلَكِنْ أَمَرُوهُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ،فَأَطَاعُوهُمْ،فَسَمَّاهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ أَرْبَابًا»[٩]

و أخرج ابن جرير بإسناده عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال " أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم،ولا يصلون لهم،ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه،وإذا حرموا عليهم شيئا أحله الله لهم حرموه،فتلك كانت ربوبيتهم".

وأخرج ابن جرير بإسناده عن أبي البختري رحمه الله قال " انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حراما،وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالا،فأطاعوهم في ذلك،فجعل الله طاعتهم عبادتهم،ولو قالوا لهم:اعبدونا. لم يفعلوا ".

---

[٨] – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٧٨)(٣٠٩٥) حسن

[٩] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٤٢٠) فيه انقطاع

وعَنْ أَبِي الْعَالِيَة:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا} [التوبة:٣١] قَالَ:قُلْتُ لِأَبِي الْعَالِيَةِ:كَيْفَ كَانَتِ الرُّبُوبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ قَالُوا:" مَا أَمَرُونَا بِهِ ائْتَمَرْنَا،وَمَا نَهَوْنَا عَنَّا انْتَهَيْنَا،لِقَوْلِهِمْ:وَهُمْ يَجِدُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا أُمِرُوا بِهِ وَمَا نُهُوا عَنْهُ،فَاسْتَنْصَحُوا الرِّجَالَ،وَنَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ".[10]

وعَنْ حُذَيْفَةَ:" {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة:٣١] قَالَ:لَمْ يَعْبُدُوهُمْ،وَلَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي الْمَعَاصِي "[11]

وهذه الآية كقوله تعالى:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } [آل عمران:٦٤]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:{وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [آل عمران:٦٤] يَقُولُ:" لَا يُطِعْ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ،وَيُقَالُ:إِنَّ تِلْكَ الرُّبُوبِيَّةَ أَنْ يُطِيعَ النَّاسُ سَادَتَهُمْ وَقَادَتَهُمْ فِي غَيْرِ عُبَادَةٍ إِنْ لَمْ يُصَلُّوا لَهُمْ " وَقَالَ آخَرُونَ:اتِّخَاذُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَرْبَابًا:سُجُودُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ"[12]

فكانت عبادهم لهم باتباعهم في التشريع،وهو التحريم والتحليل،وقد قرن الله تعالى من اتخذ الأحبار والرهبان أربابا مشرعين،بمن اتخذ المسيح عليه السلام ربا،فكما أن من عبد المسيح،فقد اتخذه ربا،وكفر بالله العظيم،فكذلك من اتخذ غير الله مشرعا،فقد اتخذه ربا وعبده من دون الله،وكفر كفرا يخرج من الملة.

والآية الكريمة تشير إلى أن الشرك في التشريع،والتحاكم إلى غيرالله،من سجايا اليهود والنصارى القديمة،التي لا تزال باقية،ولكن زادوا صورا وأشكالا جديدة من التحاكم إلى غير الله تعالى،كالتحاكم إلى قوانينهم،ومحاكمهم الكفرية،وإلى برلماناهم،وهيئاهم المحلية والدولية كهيئة الأمم المتحدة،وغيرها من الصور والأشكال،التي تجتمع في حقيقة واحدة،وهي رجوعهم إليها في الحكم والتشريع،وأنها أصبحت أربابا تعبد من دون الله تعالى.

---

[10] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٤٢٠) صحيح

[11] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٤٢٠) صحيح لغيره

[12] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٤٧٩) صحيح

فمن تحاكم إلى غير الله تعالى،واتخذ غير الله حكما ومشرعا،فقد أشرك بالله شركا أكبر يخــرج من ارتكبه من الإسلام،كما قال تعالى:{ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } [الكهف:٢٦]،وفي قراءة:{وَلاَ تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَداً}،بصيغة النهي عن الإشراك بـالله تعالى في الحكم والتشريع،وهذه الآية كقوله تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف:١١٠]،فالشرك في التشريع والتحاكم هو من الشرك في العبادة،فإن التحاكم من العبادة،كما قال تعالى:{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [يوسف:٤٠].

وقال تبارك وتعالى:{وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام:١٢١][١٣]،أي إذا أطعتم المشركين في حل أكل الميتة {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}،فتأمل هذه الآية،فقد حكم الله تعالى عليهم بأنهم مشركون إذا أطاعوا المشركين في مسألة واحدة،فكيف بمن تحاكم إلى غير الله كالقوانين،أو الهيئات،أو غيرها،في جميع شؤون الحياة أو بعضها،وكيف بمن اتخذ نفسه مشرعا،وحكّم القوانين الوضعية في البلاد،وألزم الناس بها،وحماها ودافع عنها بجنده وإعلامه،فإذا حكم الله تعالى على من أطاع المشركين في مسألة واحدة بالشرك،فالحكم على الحكام المبدلين لشرع الله بالكفر والشرك،والخروج من الإسلام من باب أولى.

وهذه المسألة من مسائل الإجماع،والأدلة عليها واضحة وصريحة،ولا يتعامى عنها إلا من أعمى الله بصيرته وصرفه عن الحق،قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله " وَالْإِنْسَانُ مَتَى حَلَّلَ الْحَرَامَ - الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ - أَوْ حَرَّمَ الْحَلَالَ - الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ - أَوْ بَدَّلَ الشَّرْعَ - الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ - كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ."[١٤].

---

[١٣] - فَإِنْ أَطَعْتُمُ الْمُشْرِكِينَ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ فَإِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ،لأَنَّكُمْ تَكُونُونَ قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ شَرْعِ اللهِ وَأَمْرِهِ،إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ،فَقَدَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ،وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩١١،بترقيم الشاملة آليا)

[١٤] - مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦٧)

وقال ابن كثير رحمه الله:" فمنْ ترك الشّرْع الْمُحْكم الْمُنزّل على مُحمّد بْن عبْد اللّـه خاتم الْأنْبياء،وتحاكم إلى غيْره من الشّرائع الْمنْسُوخة كفر،فكيْف بمنْ تحاكم إلى "الْياساق " وقدّمها عليْه؟ منْ فعل ذلك كفر بإجْماع الْمُسْلمين.قال اللّهُ تعالى:{أفحُكْم الْجاهليّة يبْغُون ومنْ أحْسنُ من اللّه حُكْمًا لقوْمٍ يُوقنُون} [المائدة:٥٠] " الْمائدة:".وقال تعالى:{فلا وربّك لا يُؤْمنُون حتّى يُحكّمُوك فيما شجر بيْنهُمْ ثُمّ لا يجدُوا في أنْفُسهمْ حرجًا ممّا قضيْت ويُسلّمُوا تسْليمًا} [النساء:٦٥] "[15].

وقال العلامة الشنقطي رحمه الله عند قوله – تعالى –:وما اخْتلفْتُمْ فيه منْ شيْءٍ فحُكْمُهُ إلى اللّه.ما دلّتْ عليْه هذه الْآيةُ الْكريمةُ منْ أنّ ما اخْتلف فيه النّاسُ من الْأحْكام فحُكْمُهُ إلى اللّه وحْدهُ،لا إلى غيْره – جاء مُوضّحًا في آيات كثيرةٍ.فالْإشْراكُ باللّه في حُكْمه كالْإشْراك به في عبادته،قال في حُكْمه:ولا يُشْركُ في حُكْمه أحدًا [١٨\ ٢٦].وفي قراءة ابْن عامرٍ من السّبْعة ولا تُشْركْ في حُكْمه أحدًا بصيغة النّهْي.

وقال في الْإشْراك به في عبادته:فمنْ كان يرْجُوا لقاء ربّه فلْيعْملْ عملًا صالحًا ولا يُشْركْ بعبادة ربّه أحدًا [١٨\ ١١٠]،فالْأمْران سواءٌ كما ترى إيضاحهُ إنْ شاء اللّهُ.

وبذلك تعْلمُ أنّ الْحلال هُو ما أحلّهُ اللّهُ،والْحرام هُو ما حرّمهُ اللّهُ،والدّين هُو ما شرعهُ اللّهُ،فكُلُّ تشْريعٍ منْ غيْره باطلٌ،والْعملُ به بدل تشْريع اللّه عنْد منْ يعْتقدُ أنّهُ مثْلُهُ أوْ خيْرٌ منْهُ – كُفْرٌ بواحٍ لا نزاع فيه.

وقدْ دلّ الْقُرْآنُ في آيات كثيرةٍ على أنّهُ لا حُكْم لغيْر اللّه،وأنّ اتّباع تشْريع غيْره كُفْرٌ به،فمن الْآيات الدّالّة على أنّ الْحُكْم للّه وحْدهُ قوْلُهُ – تعالى –:إن الْحُكْمُ إلّا للّه أمر ألّا تعْبُدُوا إلّا إيّاهُ [١٢\ ٤٠].وقوْلُهُ – تعالى –:إن الْحُكْمُ إلّا للّه عليْه توكّلْتُ الْآية [١٢\ ٦٧].وقوْلُهُ – تعالى –:إن الْحُكْمُ إلّا للّه يقُصُّ الْحقّ وهُو خيْرُ الْفاصلين [٦\ ٥٧].وقوْلُهُ:ومنْ لمْ يحْكُمْ بما أنْزل اللّهُ فأُولئك هُمُ الْكافرُون [٥\ ٤٤].وقوْلُهُ – تعالى –:ولا يُشْركُ في حُكْمه أحدًا [١٨\ ٢٦].وقوْلُهُ – تعالى –:كُلُّ شيْءٍ هالكٌ إلّا وجْههُ لهُ الْحُكْمُ وإليْه تُرْجعُون [٢٨\

[15] – المفصل في فقه الجهاد – ط٢ (ص:١٣٤٣) والبداية والنهاية ط هجر (١٧/ ١٦٢)

٨٨].وقوْلُهُ – تعالى –:لهُ الْحمْدُ فِي الْأُولى والْآخِرةِ ولهُ الْحُكْمُ وإِليْهِ تُرْجعُون [٢٨\ ٧٠].والْآياتُ بِمِثْلِ ذلِك كثِيرةٌ.

وقدْ قدّمْنا إِيضاحها فِي سُورةِ «الْكهْفِ» فِي الْكلامِ على قوْلِهِ – تعالى –:ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أحدًا [١٨\ ٢٦].

وأمّا الْآياتُ الدّالّةُ على أنّ اتِّباع تشْرِيعِ غيْرِ اللّهِ الْمذْكُورِ كُفْرٌ،فهِي كثِيرةٌ جِدًّا،كقوْلِهِ – تعالى –:إِنّما سُلْطانُهُ على الّذِين يتولّوْنهُ والّذِين هُمْ بِهِ مُشْرِكُون [١٦\ ١٠٠].وقوْلِهِ – تعالى –:وإِنْ أطعْتُمُوهُمْ إِنّكُمْ لمُشْرِكُون [١٦\ ١٢١].وقوْلِهِ – تعالى –:ألمْ أعْهدْ إِليْكُمْ يابنِي آدم أنْ لا تعْبُدُوا الشّيْطان الْآية [٣٦\ ٦٠].والْآياتُ بِمِثْلِ ذلِك كثِيرةٌ جِدًّا،كما تقدّم إِيضاحُهُ فِي «الْكهْفِ».[16]

وتأمل الآيات التي تصف من أطاع الشيطان واتبع تشريعه بأنه قد أشرك بالله،وعبد الشيطان من دون الله،كقوله تعالى:{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } [النحل:١٠٠].

وقوله تعالى:{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) } [يس].

وأخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لأبيه:{ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)} [مريم:٤٤،٤٥].

وقال تبارك وتعالى:{ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [إبراهيم:٢٢].

فتبرأ الشيطان من المشركين وشركهم وبيَّن الشيطان أن شركهم وعبادهم له كانت بطاعتهم لدعوته،كما قال تعالى مبينا قول الشيطان لأتباعه:{ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ

[16] – المفصل في فقه الجهاد – ط٢ (ص:١٣٤٤) وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٧)

دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ }.

وقال تعالى:{وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:١٠٠]،أي جعل المشركون الشياطين شركاء لله في العبادة،وعبادتهم لهم إنما هي في الطاعة والتشريع،والله تعالى هو خالقهم،وهو تبارك وتعالى الذي له الحكم والتشريع،فكيف يشرك معه غيره في الحكم والتشريع،وقال تعالى:{ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)} [النساء:١١٥ - ١٢٠].

فقوله تبارك وتعالى:{وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً} أي إن يعبدون إلا شيطانا مريدا،لأنهم إذا عبدوا الأوثان التي يسمونها بتسمية الإناث،فقد عبدوا الشيطان في نفس الأمر،لأن الشيطان هو الذي حسَّن لهم هذا الشرك وأمرهم به،فعبادتهم للشيطان كانت بطاعته واتباع تشريعه،فدلت الآية على أن من اتخذ غير الله مشرعا وحكما،فقد عبده من دون الله.

وقال تعالى:{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [الأنعام:١٣٧]،فسماهم الله تعالى شركاء،لأنهم أطاعوهم في قتل أولادهم،وانقادوا لتشريعهم.

وقال تعالى:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) } [سبأ:٤٠ - ٤١]،فنزهت الملائكة الله تعالى عن الشريك،وتبرأت من المشركين وشركهم،وذكرت أن الشياطين كانوا يعبدون الجن أي الشياطين الذين أمروهم بعبادة الملائكة

وغيرهم،فكانت عبادهم للشياطين بطاعتهم لهم في الشرك،فهم مؤمنون بالشياطين،ومصدقون لهم،ومنقادون لتشريعهم،كما قال تعالى:{ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ }،فدل على أن من اتخذ غير الله مشرعا،فقد آمن به ربا،وعبده من دون الله،ولا فرق بين من أطاع الشيطان واتخذه مشرعا،وبين من اتخذ القوانين،والبرلمانات،أو هيئة الأمم،أو غيرها مرجعا في الحكم والتشريع،فالجميع قد صرفوا العبادة لغير الله،فهم مشركون خارجون عن الإسلام.

وقال تعالى:{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الشورى:٢١]،فسمى تبارك وتعالى المشرعين شركاء،فكل من اتخذ غير الله مشرعا،فقد أشركه في العبادة.

وقال تعالى:{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة:٣٧]،فبين تعالى أن الكفار الذين يحلون ما حرم الله،قد ازدادوا كفرا على كفرهم الأصلي،والزيادة في الكفر كفر.

وقال تعالى:{ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ

وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) } [المائدة]،وألفاظ الكفر،والظلم،والفسق تأتي في الكتاب والسنة،ويراد بها في مواطن الكفر الأكبر،والظلم الأكبر،والفسق الأكبر،وكلها مما يخرج من الملة،وتأتي في مواطن،ويراد بها الكفر الأصغر،والظلم الأصغر،والفسق الأصغر،وهي لا تخرج من الملة.

فإذا كان الحاكم لا يحكم بما أنزل الله،وقد بدل شرع الله،وسن القوانين الكفرية،وتحاكم إلى غير الله تعالى،فهذا كفره،وظلمه،وفسقه،مما يخرج من الملة،وأما الكفر دون كفر،أو الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة،فهو الحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله،لقرابة،أو لرشوة،أو لهوى،كالحاكم المسلم الذي يحكم بالإسلام في جميع شؤون الحياة،ولا يتحاكم لغير شرع الله من القوانين،أو الهيئات أو غيرها،ولكنه حكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله،و لم يسن قانونا لهذه القضية،أو غيرها،و لم يستحل هذا الجور في الحكم الذي ارتكبه،وإنما حمله هواه على ترك الحكم بما أنزل الله في هذه القضية المعينة،فهذا قد ارتكب كفرا أصغر لا يخرجه من الملة.

وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) } [النساء]،فجعل الله تعالى الرد إلى الله ورسوله ﷺ عند التنازع شرطا في الإيمان،وذكر كلمة {شَيْءٍ} وهي نكرة في سياق الشرط،فتعم كل ما تنازع فيه المتنازعون في جميع شؤون الحياة،وبين تعالى أن التحاكم إلى كتابه وسنة رسوله ﷺ،هو خير في الدنيا والآخرة،وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة،ثم قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا

بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠]،وهي صيغة تعجب من حال المنافقين وتناقضهم،فهم يزعمون الإيمان بما أنزل إلى رسول الله ﷺ،وما أنزل من قبله،ثم يخالفون هذا الزعم بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت،فهذا تناقض ونقض لما يدعون من الإيمان،كقوله تعالى في الآية الأخرى:{ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } [النور:٤٧]،فإن الإيمان يقتضي التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ والكفر بالطاغوت وليس التحاكم إليه،ولهذا قال تعالى:{وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠]،وإنما ضلوا هذا الضلال البعيد لشركهم وكفرهم بالله تعالى،كما قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } [النساء:٤٨].

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ بِأَنَّهُ لاَ يَغْفِرُ لِعَبْدٍ جَاءَ اللهُ مُشْرِكاً بِعِبَادَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَأَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ مِنَ الذُّنُوبِ،لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ،وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ ارْتَكَبَ ذَنْباً عَظِيماً،لاَ يَسْتَحِقُّ مَعَهُ الغُفْرَانَ.

وَالشِّرْكُ ضَرْبَان:

- شِرْكٌ فِي الأُلُوهِيَّةِ - وَهُوَ الشُّعُورُ بِسُلْطَةٍ وَرَاءَ الأَسْبَابِ وَالسُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ.
- شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ - وَهُوَ الأَخْذُ بِشَيءٍ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ عَنْ بَعْضِ البَشَرِ دُونَ الوَحْيِ.[17]

والطاغوت مشتق من الطغيان،قال الإمام ابن جرير رحمه الله في تعريفه:" وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي فِي الطَّاغُوتِ أَنَّهُ كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللَّهِ فَعُبِدَ مِنْ دُونِهِ،إِمَّا بِقَهْرٍ مِنْهُ لِمَنْ عَبَدَهُ،وَإِمَّا بِطَاعَةٍ مِمَّنْ عَبَدَهُ لَهُ،وَإِنْسَانًا كَانَ ذَلِكَ الْمَعْبُودُ،أَوْ شَيْطَانًا،أَوْ وَثنا،أَوْ صَنَمًا،أَوْ كَائِنًا مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ."[18]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله " وَالطَّاغُوتُ:كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ؛فَطَاغُوتُ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،أَوْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ،أَوْ

---

[17] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٤١،بترقيم الشاملة آليا)

[18] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٤/ ٥٥٨)

يَتْبَعُونَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنْ اللَّهِ،أَوْ يُطِيعُونَهُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ؛فَهَذِهِ طَوَاغِيتُ الْعَالَمِ إذَا تَأَمَّلْتَهَا وَتَأَمَّلْتَ أَحْوَالَ النَّاسِ مَعَهَا رَأَيْت أَكْثَرَهُمْ [عَدَلُوا] مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ إلَى عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ،وَعَنْ التَّحَاكُمِ إلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ إلَى التَّحَاكُمِ إلَى الطَّاغُوتِ،وَعَنْ طَاعَتِهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ إلَى طَاعَةِ الطَّاغُوتِ وَمُتَابَعَتِهِ،وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَسْلُكُوا طَرِيقَ النَّاجِينَ الْفَائِزِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ – وَهُمْ الصَّحَابَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ – وَلَا قَصَدُوا قَصْدَهُمْ،بَلْ خَالَفُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَالْقَصْدِ مَعًا،ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ إذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ،وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي،وَرَضُوا بِحُكْمِ غَيْرِهِ،ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِأَنَّهُمْ إذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ فِي عُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَبَصَائِرِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِسَبَبِ إعْرَاضِهِمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَتَحْكِيمِ غَيْرِهِ وَالتَّحَاكُمِ إلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ} [المائدة:٤٩] اعْتَذَرُوا بِأَنَّهُمْ إنَّمَا قَصَدُوا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ،أَيْ بِفِعْلِ مَا يُرْضِي الْفَرِيقَيْنِ وَيُوَفِّقُ بَيْنَهُمَا كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَرُومُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَيْنَ مَا خَالَفَهُ،وَيَزْعُمُ أَنَّهُ بِذَلِكَ مُحْسِنٌ قَاصِدٌ الْإِصْلَاحَ وَالتَّوْفِيقَ،وَالْإِيمَانُ إنَّمَا يَقْتَضِي إلْقَاءَ الْحَرْبِ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَيْنَ كُلِّ مَا خَالَفَهُ مِنْ طَرِيقَةٍ وَحَقِيقَةٍ وَعَقِيدَةٍ وَسِيَاسَةٍ وَرَأْيٍ؛فَمَحْضُ الْإِيمَانِ فِي هَذَا الْحَرْبِ لَا فِي التَّوْفِيقِ،وَبِاَللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثُمَّ أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ عَلَى نَفْيِ الْإِيمَانِ عَنْ الْعِبَادِ حَتَّى يُحَكِّمُوا رَسُولَهُ فِي كُلِّ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ مِنْ الدَّقِيقِ وَالْجَلِيلِ،وَلَمْ يَكْتَفِ فِي إيمَانِهِمْ بِهَذَا التَّحْكِيمِ بِمُجَرَّدِهِ حَتَّى يَنْتَفِيَ عَنْ صُدُورِهِمْ الْحَرَجُ وَالضِّيقُ عَنْ قَضَائِهِ وَحُكْمِهِ،وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ أَيْضًا بِذَلِكَ حَتَّى يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا،وَيَنْقَادُوا انْقِيَادًا.

وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب:٣٦] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَيْسَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَخْتَارَ بَعْدَ قَضَائِهِ وَقَضَاءِ رَسُولِهِ،وَمَنْ تَخَيَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا."[١٩]

فالإيمان لا يتحقق إلا بالكفر بالطاغوت،كما قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٥٦][٢٠]،والعروة

[١٩] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٤٠)

الوثقى هي الإسلام،وشهادة أن لا إله إلا الله،والشهادة:نفي وإثبات،والنفي هو "لا إله"و هو الكفر بالطاغوت،والإثبات "إلا الله" وهو الإيمان بالله تعالى،فدل على أن من لم يكفر بالطاغوت كالديمقراطية،أو الهيئات والبرلمانات التشريعية،أو غيرها من الطواغيت،أنه لم يؤمن بالله و لم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله،ثم قال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا } [النساء:٦١] أي يعرضون إعراضا عن التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،ثم قال تعالى:{فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا } [النساء:٦٢]،أي فكيف إذا حلت بهم مصيبة بسبب ذنوبهم،وإعراضهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،{ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا }،أي إن أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الإسلام والأنظمة المخالفة له،والإيمان يقتضي الكفر بالأنظمة المخالفة للإسلام،وليس التوفيق والجمع بينها وبين الإسلام،وهذا كحال من يسعى من الأفراد أو الأحزاب إلى التوفيق بين الإسلام وبين الديمقراطية أو غيرها من الطواغيت.

وقال تبارك وتعالى:{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥][٢١]،فنفى الإيمان عمن لم يتحاكم إلى الرسول ﷺ،وأكد النفي بتكرار أداة النفي وبالقسم،و لم يقتصر على مجرد التحاكم بل ضم إليه انتفاء الحرج من الحكم والانقياد والتسليم له،وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«لَا

---

[٢٠] - فَمَنْ كَفَرَ بالأَنْدَادِ وَالأَوْثَانِ وَمَا يَدْعُو إِلَيهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبادَةِ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ (أَيْ وَمَنْ كَفَرَ بِمَا تَكُونُ عِبَادَتُهُ وَالإِيمَانُ بِهِ سَبَباً فِي الطُّغْيَانِ وَالخُرُوجِ عَنِ الحَقِّ مِنْ عِبَادَةِ مَخْلُوقٍ) فَقَدْ ثَبَتَ أَمْرُهُ،وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ المُثْلَى،وَأَمْسَكَ بِأَوْثَقِ عُرَى النَّجَاةِ التِي تَمْنَعُهُ مِنَ التَّرَدِّي فِي مَهَاوِي الضَّلاَلاَتِ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢١] - يُقْسِمُ اللهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الكَرِيمَةِ المُقَدَّسَةِ عَلَى أنَّ أولَئِكَ الذِينَ رَغِبُوا عَنِ التَّحَاكُمِ إلى الرَّسُولِ،وَمَنْ مَاثَلَهُمْ مِنَ المُنَافِقِينَ،لاَ يُؤْمِنُونَ إِيمَاناً حَقّاً (أَيْ إِيمَانَ إِذْعَانٍ وَانْقِيَادٍ) إلاَّ إِذَا كَمُلَتْ لَهُمْ ثَلاثُ خِصَالٍ:

- أنْ يُحَكِّمُوا الرَّسُولَ فِي القَضَايَا التِي يَخْتَصِمُونَ فِيهَا،وَلاَ يَبِينُ لَهُمْ فِيهَا وَجْهُ الحَقِّ.

- ألاّ يَجِدُوا ضِيقاً وَحَرَجاً مِمَّا يَحْكُمُ بِهِ،وَأَنْ تُذْعِنَ نُفُوسُهُمْ لِقَضَائِهِ،إِذْعَاناً تَامّاً دُونَ امْتِعَاضٍ مِنْ قَبُولِهِ وَالعَمَلِ بِهِ،لأَنَّهُ الحَقُّ وَفِيهِ الخَيْرُ.

- أَنْ يَنْقَادُوا وَيُسَلِّمُوا لِذَلِكَ الحُكْمِ،مُوقِنِينَ بِصِدْقِ الرَّسُولِ فِي حُكْمِهِ،وَبِعِصْمَتِهِ عَنِ الخَطَأ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرُ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا أَبْصَارَهُمْ وَهُوَ حِينَ يَنْتَهِبُهَا مُؤْمِنٌ» فَقُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ مَا هَذَا؟ فَقَالَ:عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْبَلَاغُ،وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ[٢٢].

وقال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)} [محمد:٢٥ - ٢٨]،فهؤلاء ارتدوا عن الإسلام لقولهم "سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ" فإذا كفر هؤلاء بمجرد الوعد بالطاعة سرا وإن لم يفعلوا،فكيف بمن أطاعهم واستجاب لهم،وحكّم قوانينهم في بلاد المسلمين،وحماها،وألزم الناس بها،وتحاكم إلى هيئاتهم،ومحاكمهم،وبدل أحكام الله وغير مناهج التعليم طلبا لمرضاتهم،فلا شك أن ردته من باب أولى.

وقال تبارك وتعالى:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:٥٤]،فالله تعالى هو خالق كل شيء،وهو رب كل شيء ومليكه،وله تبارك وتعالى الأمر وحده لا شريك له،فكما أن له الخلق،فكذلك له الأمر والتشريع،وهو تبارك وتعالى خالق العباد،وهو أعلم بما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة،قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ الْخلق وَالْأَمر وَهَذَا يَقْتَضِي أَن من الْحَوَادِث مَا لَيْسَ فِيهِ أَمر وَلَا نهي فَلَا يكون لله فِيهِ حكم لَا باستحباب وَلَا كَرَاهَة."[٢٣]

وقال تعالى:{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ

---

[٢٢] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٤١٤)(١٨٦) صحيح

[٢٣] - جامع الرسائل لابن تيمية - رشاد سالم (٢/ ١٦٣) ومجموع الفتاوى (١٠/ ٥٢٨)

الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)} [الشورى]،قال العلامة الشنقيطي في كلام قيم له عند هذه الآيات " اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - بَيَّنَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ صِفَاتِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ لَهُ،فَعَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَتَأَمَّلَ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةَ الَّتِي سَنُوَضِّحُهَا الْآنَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَيُقَابِلَهَا مَعَ صِفَاتِ الْبَشَرِ الْمُشَرِّعِينَ لِلْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ،فَيَنْظُرُ هَلْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ صِفَاتُ مَنْ لَهُ التَّشْرِيعُ،سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ.

فَإِنْ كَانَتْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ - وَلَنْ تَكُونَ - فَلْيَتَّبِعْ تَشْرِيعَهُمْ.

وَإِنْ ظَهَرَ يَقِينًا أَنَّهُمْ أَحْقَرُ وَأَخَسُّ وَأَذَلُّ وَأَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ،فَلْيَقِفْ بِهِمْ عِنْدَ حَدِّهِمْ،وَلَا يُجَاوِزْهُ بِهِمْ إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي عِبَادَتِهِ أَوْ حُكْمِهِ أَوْ مُلْكِهِ.

فَمِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَوْضَحَ بِهَا - تَعَالَى - صِفَاتِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ وَالتَّشْرِيعُ قَوْلُهُ هُنَا:وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ،ثُمَّ قَالَ مُبَيِّنًا صِفَاتِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ:ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٤٢ \ ١٠ - ١٢] .

فَهَلْ فِي الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ الْمُشَرِّعِينَ لِلنُّظُمِ الشَّيْطَانِيَّةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي تُفَوَّضُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ،وَيُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ،وَأَنَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - أَيْ خَالِقُهُمَا وَمُخْتَرِعُهُمَا - عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ،وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لِلْبَشَرِ أَزْوَاجًا،وَخَلَقَ لَهُمْ أَزْوَاجَ الْأَنْعَامِ الثَّمَانِيَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -:ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ الْآيَةَ [٦ \ ١٤٣]،وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ،وَأَنَّهُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ - أَيْ يُضَيِّقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ - وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَتَفَهَّمُوا صِفَاتِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُشَرِّعَ وَيُحَلِّلَ وَيُحَرِّمَ،وَلَا تَقْبَلُوا تَشْرِيعًا مِنْ كَافِرٍ خَسِيسٍ حَقِيرٍ جَاهِلٍ.

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [٤ \ ٥٩]،فَقَوْلُهُ فِيهَا:فَرُدُّوهُ إِلَى

اللَّه كَقَوْله فِي هَذه:فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّه.وَقَدْ عَجبَ نَبيُّهُ – ﷺ – بَعْدَ قَوْله:فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّــه مــنَ الَّذينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ مَعَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمُحَاكَمَةَ إِلَى مَنْ لَــمْ يَتَّصــفْ بصــفَات مَــنْ لَــهُ الْحُكْمُ،الْمُعَبَّر عَنْهُ فِي الْآيَة بالطَّاغُوت،وَكُلُّ تَحَاكُمٍ إِلَى غَيْرِ شَرْعِ اللَّه فَهُــوَ تَحَــاكُمٌ إِلَــى الطَّاغُوت،وَذَلكَ فِي قَوْله – تَعَالَى –:أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ منْ قَبْلكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضلَّهُمْ ضَلَالًا بَعيدًا [٤ \ ٦٠] .

فَالْكُفْرُ بالطَّاغُوت الَّذي صَرَّحَ اللَّهُ بأَنَّهُ أَمَرَهُمْ به فِي هَذه الْآيَة – شَرْطٌ فِي الْإِيمَان كَمَا بَيَّنَهُ – تَعَالَى – فِي قَوْله:فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِــالْعُرْوَةِ الْــوُثْقَى [٢ \ ٢٥٦] .

فَيُفْهَمُ منْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى،وَمَنْ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِهَا فَهُــوَ مُتَرَدٍّ مَعَ الْهَالكينَ.

وَمنَ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى ذَلكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى –:لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ منْ دُونه منْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمه أَحَدًا [١٨ \ ٢٦] .

فَهَلْ فِي الْكَفَرَة الْفَجَرَة الْمُشَرِّعِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْــأَرْضِ؟ وَأَنْ يُبَالَغَ فِي سَمْعه وَبَصَره لإِحَاطَة سَمْعه بِكُلِّ الْمَسْمُوعَاتِ وَبَصَره بِكُلِّ الْمُبْصَرَات؟ وَأَنَّــهُ لَيْسَ لِأَحَد دُونَهُ منْ وَلِيٍّ؟

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَمنَ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى ذَلكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى –:وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّه إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ [٢٨ \ ٨٨] .

فَهَلْ فِي الْكَفَرَة الْفَجَرَة الْمُشَرِّعِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ؟ وَأَنَّ كُلَّ شَــيْءٍ هَالكٌ إِلَّا وَجْهَهُ؟ وَأَنَّ الْخَلَائقَ يَرْجعُونَ إِلَيْه؟

تَبَارَكَ رَبُّنَا وَتَعَاظَمَ وَتَقَدَّسَ أَنْ يُوصَفَ أَخَسُّ خَلْقه بِصفَاته.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى –:ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ [٤٠ \ ١٢] .فَهَلْ فِي الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ الْمُشَرِّعِينَ النُّظُمَ الشَّيْطَانِيَّةَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ فِي أَعْظَمِ كِتَابٍ سَمَاوِيٍّ بِأَنَّهُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ؟

سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِكَ وَجَلَالِكَ.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى –:وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٢٨ \ ٧٣] .

فَهَلْ فِي مُشَرِّعِي الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّ لَهُ الْحَمْدَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ،وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُصَرِّفُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ،مُبَيِّنًا بِذَلِكَ كَمَالَ قُدْرَتِهِ،وَعَظَمَةَ إِنْعَامِهِ عَلَى خَلْقِهِ.

سُبْحَانَ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ – جَلَّ وَعَلَا – أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي حُكْمِهِ أَوْ عِبَادَتِهِ أَوْ مُلْكِهِ.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى –:إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [١٢ \ ٤٠] .

فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ هُوَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ،وَأَنَّ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ هِيَ الدِّينُ الْقَيِّمُ؟

سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ – تَعَالَى –:إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [١٢ \ ٦٧] .

فَهَلْ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُتَوَكَّلَ عَلَيْهِ،وَتُفَوَّضَ الْأُمُورُ إِلَيْهِ؟

وَمِنْهَا قَوْلُهُ – تَعَالَى –:وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا

مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [٥ \ ٤٩ - ٥٠] .

فَهَلْ فِي أُولَئِكَ الْمُشَرِّعِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّ حُكْمَهُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِاتِّبَاعِ الْهَوَى؟ وَأَنَّ مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ أَصَابَهُ اللَّهُ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِ؟ لِأَنَّ الذُّنُوبَ لَا يُؤَاخَذُ بِجَمِيعِهَا إِلَّا فِي الْآخِرَةِ؟ وَأَنَّهُ لَا حُكْمَ أَحْسَنُ مِنْ حُكْمِهِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟

سُبْحَانَ رَبِّنَا وَتَعَالَى عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى -:إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ [٦ \ ٥٧] .

فَهَلْ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ يَقُصُّ الْحَقَّ،وَأَنَّهُ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ؟

وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى -:أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا الْآيَةَ [٦ \ ١١٤ - ١١٥] .

فَهَلْ فِي أُولَئِكَ الْمَذْكُورِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْكِتَابَ مُفَصَّلًا،الَّذِي يَشْهَدُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ،وَبِأَنَّهُ تَمَّتْ كَلِمَاتُهُ صِدْقًا وَعَدْلًا - أَيْ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ،وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ - وَأَنَّهُ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ؟

سُبْحَانَ رَبِّنَا،مَا أَعْظَمَهُ،وَمَا أَجَلَّ شَأْنَهُ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى -:قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ [١٠ \ ٥٩] .

فَهَلْ فِي أُولَئِكَ الْمَذْكُورِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الرِّزْقَ لِلْخَلَائِقِ،وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَحْلِيلٌ وَلَا تَحْرِيمٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ؟ لِأَنَّ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنَّ مَنْ خَلَقَ الرِّزْقَ وَأَنْزَلَهُ هُوَ الَّذِي لَهُ التَّصَرُّفُ فِيهِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ؟

سُبْحَانَهُ - جَلَّ وَعَلَا - أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى -:وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [٥ \ ٤٤] .فَهَلْ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْوَصْفَ بِذَلِكَ؟

سُبْحَانَ رَبِّنَا وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ – تَعَالَى –:وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١٦ \ ١١٦ – ١١٧] .

فَقَدْ أَوْضَحَت الْآيَةُ أَنَّ الْمُشَرِّعِينَ غَيْرَ مَا شَرَّعَهُ اللَّهُ إِنَّمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ،لِأَجْلِ أَنْ يَفْتَرُوهُ عَلَى اللَّهِ،وَأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ،وَأَنَّهُمْ يُمَتَّعُونَ قَلِيلًا ثُمَّ يُعَذَّبُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ،وَذَلِكَ وَاضِحٌ فِي بُعْدِ صِفَاتِهِمْ مِنْ صِفَاتِ مَنْ لَهُ أَنْ يُحَلِّلَ وَيُحَرِّمَ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ – تَعَالَى –:قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ [٦ \ ١٥٠] .

فَقَوْلُهُ:هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ صِيغَةُ تَعْجِيزٍ،فَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ بَيَانِ مُسْتَنَدِ التَّحْرِيمِ.وَذَلِكَ وَاضِحٌ فِي أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ لَا يَتَّصِفُ بِصِفَاتِ التَّحْلِيلِ وَلَا التَّحْرِيمِ.وَلَمَّا كَانَ التَّشْرِيعُ وَجَمِيعُ الْأَحْكَامِ – شَرْعِيَّةً كَانَتْ أَوْ كَوْنِيَّةً قَدَرِيَّةً – مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ – كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ – كَانَ كُلُّ مَنِ اتَّبَعَ تَشْرِيعًا غَيْرَ تَشْرِيعِ اللَّهِ قَدِ اتَّخَذَ ذَلِكَ الْمُشَرِّعَ رَبًّا،وَأَشْرَكَهُ مَعَ اللَّهِ.

وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ،وَقَدْ قَدَّمْنَاهَا مِرَارًا وَسَنُعِيدُ مِنْهَا مَا فِيهِ كِفَايَةٌ،فَمِنْ ذَلِكَ – وَهُوَ مِنْ أَوْضَحِهِ وَأَصْرَحِهِ – أَنَّهُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – وَقَعَتْ مُنَاظَرَةٌ بَيْنَ حِزْبِ الرَّحْمَنِ وَحِزْبِ الشَّيْطَانِ فِي حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ،وَحِزْبُ الرَّحْمَنِ يَتَّبِعُونَ تَشْرِيعَ الرَّحْمَنِ فِي وَحْيِهِ فِي تَحْرِيمِهِ،وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ يَتَّبِعُونَ وَحْيَ الشَّيْطَانِ فِي تَحْلِيلِهِ.

وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا وَأَفْتَى فِيمَا تَنَازَعُوا فِيهِ فَتْوَى سَمَاوِيَّةً قُرْآنِيَّةً تُتْلَى فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ» .

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمَّا أَوْحَى إِلَى أَوْلِيَائِهِ فَقَالَ لَهُمْ فِي وَحْيِهِ:سَلُوا مُحَمَّدًا عَنِ الشَّاةِ تُصْبِحُ مَيْتَةً،مَنْ هُوَ الَّذِي قَتَلَهَا؟ فَأَجَابُوهُمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي قَتَلَهَا.

فَقَالُوا:الْمَيْتَةُ إِذًا ذَبِيحَةُ اللَّهِ،وَمَا ذَبَحَهُ اللَّهُ كَيْفَ تَقُولُونَ إِنَّهُ حَرَامٌ؟ مَعَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّمَا ذَبَحْتُمُوهُ بِأَيْدِيكُمْ حَلَالٌ،فَأَنْتُمْ إِذًا أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ وَأَحَلُّ ذَبِيحَةً.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ بِإِجْمَاعِ مَنْ يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَوْلَهُ – تَعَالَى –:وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ [٦ \ ١٢١]،يَعْنِي الْمَيْتَةَ،أَيْ وَإِنْ زَعَمَ الْكُفَّارُ أَنَّ اللَّهَ ذَكَّاهَا بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ بِسِكِّينٍ مِنْ ذَهَبٍ.وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ [٦ \ ١٢١]،وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْأَكْلِ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ:وَلَا

تَأْكُلُوا،وَقَوْلُهُ:لَفِسْقٌ،أَيْ خُرُوجٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ،وَاتِّبَاعٌ لِتَشْرِيعِ الشَّيْطَانِ.وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ [٦ \ ١٢١] .أَيْ بِقَوْلِهِمْ:مَا ذَبَحْتُمُوهُ حَلَالٌ وَمَا ذَبَحَهُ اللَّهُ حَرَامٌ،فَأَنْتُمْ إِذًا أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ،وَأَحَلُّ تَذْكِيَةً،ثُمَّ بَيَّنَ الْفَتْوَى السَّمَاوِيَّةَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ،فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -:وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ [٦ \ ١٢١] فَهِيَ فَتْوَى سَمَاوِيَّةٌ مِنَ الْخَالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - صَرَّحَ فِيهَا بِأَنَّ مُتَّبِعَ تَشْرِيعِ الشَّيْطَانِ الْمُخَالِفِ لِتَشْرِيعِ الرَّحْمَنِ - مُشْرِكٌ بِاللَّهِ."[٢٤]



[٢٤] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٩)

المبحث الثاني

خيرية الأمة الإسلامية

لقد جعل الله تبارك وتعالى الأمة الإسلامية أمة وسطا،أي عدلا خيارا،كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة:١٤٣]

كَانَ النَّاسُ،قَبْلَ الإِسْلاَمِ،فئتين:

– فِئَةً مَادِّيَّةً لا هَمَّ لَهَا إلاَّ تَحْقيقُ مَا يَتَطَلَّبُهُ الجَسَدُ وَلَذَائذُهُ كَالمُشْرِكينَ وَاليَهُودِ،وَقَالُوا إنْ هيَ إلاَّ حَيَاتُنا الدُّنيا،وَمَا يُهْلكُنا إلاَّ الدَّهرُ.

وَفئَةً طَغَتْ عَلَيها النَّزعَةُ الرُّوحَانيَّةُ الخَالصَةُ،وَسَيْطَرَتْ عَلَيهَا فكْرَةُ تَرْكِ الدُّنيا وَمَا فيهَا مِنَ اللَّذائذ الجَسَديَّة كَالنَّصَارَى وَالصَابئَة وَبَعْضِ طَوَائف الهُنُود.

فَجَاءَ الإسلامُ ليَجْعَلَ المُسْلمينَ وَسَطاً بَيْنَ هؤلاءِ وَهؤُلاءِ،فَقَالَ بتَحقيق مَطَالبِ الجَسَدِ بِلا إسْرافٍ وَلاَ مُبَالَغَة،مَعَ المُحَافَظَة عَلَى السُمُوِّ الرُّوحيِّ،لأَنَّ الإنسَانَ جَسَدٌ وَرُوحٌ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ المُسْلمينَ أُمَّةً وَسَطاً لَيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى المَاديِّينَ الذينَ فَرَّطُوا في جَنْبِ الله،وَأخلَدُوا إلى اللَّذات،وَصَرَفُوا أنفُسَهُمْ عَنْ قَضَايَا الرُّوحِ،وَشُهَداءَ عَلَى الغُلاة في الرُّوحَانيَّة الذينَ قَالُوا بتَخَلِّي الإنسَانِ عَن اللَّذاتِ الجَسَديَّة،وَبحرْمَانِ النَّفْسِ منْ جَميعِ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ في هذه الحَيَاة الدُّنيا.

وَليَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ،وَهُوَ القُدوَةُ والمَثَلُ الأَعلَى للمُؤْمنينَ بالله،شَهيداً عَلَى المُسلمينَ إن كَانُوا اتَّبعُوا سيرَتَهُ وَشَرْعَهُ،او انحَرَفُوا وَحَادُوا عَنِ الاعتدال.[٢٥]

وعَنْ أَبِي سَعيد،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" يَجيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ،فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى،هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ،فَيَقُولُ لأُمَّته:هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لاَ مَا جَاءَنَا منْ نَبيٍّ،فَيَقُولُ لنُوحٍ:مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ:مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ،فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ،وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذكْرُهُ:{وَكَذَلكَ

---

[٢٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٥٠،بترقيم الشاملة آليا)

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة:١٤٣] وَالوَسَطُ العَدْلُ " أخرجه البخاري[٢٦].

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعا،فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها،وتقول:هذا حق منها وهذا باطل.لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها.وهي شهيدة على الناس،وفي مقام الحكم العدل بينهم ..وبينما هي تشهد على الناس هكذا،فإن الرسول هو الذي يشهد عليها فيقرر لها موازينها وقيمها ويحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن ما يصدر عنها،ويقول فيه الكلمة الأخيرة ..

وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها ..لتعرفها،ولتشعر بضخامتها.ولتقدر دورها حق قدره،وتستعد له استعدادا لائقا ..

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل،أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد،أو من الوسط بمعناه المادي الحسي ..

«أُمَّةً وَسَطاً» ..في التصور والاعتقاد ..لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي.إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد،أو جسد تتلبس به روح.وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد،وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها،وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع،بلا تفريط ولا إفراط،في قصد وتناسق واعتدال.

«أُمَّةً وَسَطاً» ..في التفكير والشعور ..لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة ...ولا تتبع كذلك كل ناعق،وتقلد تقليد القردة المضحك ..إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب وشعارها الدائم:الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها،في تثبت ويقين.

---

[٢٦] - صحيح البخاري (٤/ ١٣٤)(٣٣٣٩)

[ش (أنه قد بلغ) أي قومه ما أرسل به إليهم.(وهو قوله) أي هذا هو مصداق قوله تعالى أو هو المراد به.والآية من / البقرة ١٤٣ /]

«أُمَّةً وَسَطاً» ..في التنظيم والتنسيق ..لا تدع الحياة كلها للمشاعر،والضمائر،ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب.إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب،وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك،فلا تكل الناس إلى سوط السلطان،ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان ..

ولكن مزاج من هذا وذاك.

«أُمَّةً وَسَطاً» ..في الارتباطات والعلاقات ..لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته،ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته ..إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه.

ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو،ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادما للجماعة،والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق.

«أُمَّةً وَسَطاً» ..في المكان ..في سرة الأرض،وفي أوسط بقاعها.وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب،وجنوب وشمال،وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا،وتشهد على الناس جميعا وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

«أُمَّةً وَسَطاً» ..في الزمان ..تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها.

وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات،ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك.

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها،إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها،واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارهـــا الله لها،واصـــطبغت بصيغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.

وأمة تلك وظيفتها،وذلك دورها،خليقة بـــأن تحتمـــل التبعـــة وتبـــذل التضـــحية،فللقيادة تكاليفها،وللقوامة تبعاتهـــا،ولا بـــد أن تفـــتن قبـــل ذلـــك وتبتلى،ليتأكـــد خلوصـــها لله وتجردها،واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة.[٢٧]

وجعل الله تعالى أهلها خير الناس للناس نفعا ودعوة ونصيحة للخلق وأمرا بالمعروف،ونهيا عن المنكر،فحققوا الإيمان في أنفسهم ودعوا الناس إليـــه،وإنما نـــالوا هـــذه الخيريـــة باتصـــافهم بشرطها،وهو الإيمان،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،كما قال تعالى:{كُنْتُمْ خَيْـــرَ أُمَّـــةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:١١٠]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ فِي الوُجُودِ،لأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ إِيمَاناً صَادِقاً بِاللهِ،وَيَظْهَرُ أثَـــرُهُ فِي نُفُوسِهِمْ،فَيَنْزِعُهُمْ عَـــنِ الشَّرِّ،وَيَصْـــرِفُهُمْ إِلَـــى الخَيْرِ،فَيَـــأْمُرُونَ بِـــالمَعْرُوفِ وَالأَعْمَـــالِ الصَّالِحَةِ،وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرَاتِ وَمَا حَرَّمَ اللهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالبَغْيِ.[٢٨]

وعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران:١١٠] قَالَ:«أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَـــى اللَّهِ»[٢٩].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ،قَالَ:«خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَـــأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ،حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ» رواه البخاري[٣٠].

---

[٢٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٣٩) -

[٢٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٩] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٢٦)(٣٠٠١) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٤٣٣)(٤٢٨٨) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٣/ ٢١٩) (٢٠٠١٥) صحيح

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ:يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ ، وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ،وإِنَّمَا حَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ،فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ،وَبَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرْعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ لَمْ يُعْطَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ وَلَا رَسُولٌ مِنْ الرُّسُلِ ، فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِ مَقَامَهُ.تحفة الأحوذي - (ج ٧ / ص ٣٢١)

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ عَلِيٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ " فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،مَا هُوَ قَالَ؟:" نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ،وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ،وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ،وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا،وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ " أخرجه أحمد[31].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:أُعْطِيتُ سِتًّا لَا أَقُولُهُنَّ فَخْرًا،لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي،غُفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ،وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرُ الْأُمَمِ،وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلُّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي،وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا،وَأُعْطِيتُ الْكَوْثَرَ،وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ صَاحِبَكُمْ لَصَاحِبُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.[32]

وقد بين الله تعالى أن اليهود والنصارى والمشركين،هم شر من خلق الله تعالى،وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير الخليقة،فقال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) } [البينة:٦،٧].

هَؤُلاَءِ الكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ الذِينَ دَنَّسُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ،وَاجْتِرَاحِ السَّيِّئَاتِ وَالمَعَاصِي وَالآثَامِ،وَإِنْكَارِ الحَقِّ الوَاضِحِ بَعْدَمَا عَرَفُوهُ،سَيُجَازِيهِمْ رَبُّهُمْ بِالعَذَابِ الأَلِيمِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ،وَبِمَا أَعْرَضُوا عَنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ،وَهَؤُلاَءِ هُم شَرُّ المَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا لأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا الحَقَّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ،وَقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ.

أَمَّا الذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ،وَاهْتَدَوا بِهُدَاهُ،وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ،وَعَمِلُوا الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ،فَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَفِي جِهَادِ أَعْدَائِهِ،وَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الخَيْرِ والبِرِّ،وَأَحْسَنُوا مُعَامَلَةَ خَلْقِ اللهِ.فَأُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ النَّاسِ لأَنَّهُمْ أَدَّوا حَقَّ العَقْلِ الذِي شَرَّفَهُمُ اللهُ بِهِ،فَاتَّبَعُوا الهُدَى،وَحَفِظُوا الفَضِيلَةَ بِعَمَلِهِم الصَّالِحِ.[33]

---

[30] - صحيح البخاري (٦/ ٣٧)(٤٥٥٧)

[ش (أخرجت) أظهرت / آل عمران ١١٠ /.(تأتون بهم) أي أسرى مقيدين.(حتى يدخلوا في الإسلام) يكون أسركم لهم سبب إسلامهم وتحصيل سعادة الدنيا والآخرة لهم]

[31] - مسند أحمد ط الرسالة (٢/ ١٥٦)(٧٦٣) حسن

[32] - مسند السراج (ص:١٧٤)(٤٩٠) صحيح

[33] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠١٣،بترقيم الشاملة آليا) -

فهذا حكم الله تعالى في الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين بأنهم شر الخليقة،وإن ادعوا في إعلامهم الخيرية فهي دعوى زائفة،كدعوى إمامهم الشيطان الذي أخبر الله تعالى عنه أنـــه قال:{ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [الأعراف:١٢].

لقد جعل إبليس له رأيا مع النص.وجعل لنفسه حقا في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو مـــن سبب وعلة مع وجود الأمر ..وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر،ويبطـــل التفكر وتتعين الطاعة،ويتحتم التنفيذ ..وهذا إبليس – لعنه الله – لم يكن ينقصه أن يعلـــم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بإذنه وقدره ..ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه و لم ينفذه ..بمنطق من عند نفسه:«قالَ:أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِـــنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» ..

فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوه:«قالَ:فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها،فَـــاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» ..

إن علمه بالله لم ينفعه،واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه ..وكذلك كل من يتلقى أمـــر الله ثم يجعل لنفسه نظرا في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه وحاكمية في قضية قضى الله فيهـــا من قبل يرد بها قضاء الله في هذه القضية ..إنه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقـــاد.فـــإبليس لم يكن ينقصه العلم،و لم يكن ينقصه الاعتقاد! لقد طرد من الجنة،وطرد من رحمة الله،وحقـــت عليه اللعنة،وكتب عليه الصغار.[٣٤]

لقد اجتبى الله تعالى الأمة الإسلامية لحمل رسالة الإسلام وتبليغهـــا وجهـــاد أعـــدائها،فقال تعالى:{ { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَـــرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَـــهِيدًا عَلَـــيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَـــاكُمْ فَـــنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الحج:٧٨]

---

[٣٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٧١٧)

يَأْمُرُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالجِهَادِ وأَخْلَصَهُ:بالأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والأَلْسِنَةِ،فَقَدْ اصْطَفَى اللهُ المُـؤْمِنِينَ مِـنْ هَذِهِ الأُمَّةِ،واخْتَارَهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُم،وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ مَا لاَ يُطِيقُونَ،وَلَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْهِم فِـي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِم،بَلْ وَسَّعَ عَلَيهِم،فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِم،بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِم،كَمَا وَسَّعَ فِي مِلَّةِ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِم فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِم،بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِم،كَمَا وَسَّعَ فِي مِلَّةِ إِبْراهِيمَ عَلَيْـهِ السَّلاَمُ (وَنَصَبَ مِلَّةِ) عَلَى تَقْدِيرِ الزَمُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)،وَقَدْ سَمَّاهُم اللهُ تَعَالَى بِالمُسْـلِمِين فِـي شَرْعِ إِبْرَاهِيمَ وَفِي الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ،وَفِي هَذَا القُرْآنِ (مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا) .وَقَدْ جَعَلَ اللهُ المُسْلِمِينَ أُمَّةً وَسَطاً عُدُولاً لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ،لأَنَّ النَّاسَ جَمِيعاً يَعْتَرِفُـونَ بِفَضْـلِ المُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ،فَلِهَذَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَيْهِم،فِي أَنَّ الرُّسُلَ أَبْلَغَتْهُم رِسَـالَةَ أَبْلَغَـتْهُم رِسَالَةَ رَبِّهِمْ،والرَّسُولُ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ أَنَّهُ أَبْلَغَهَا مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيهِ،فَلْيُقَابِلِ المُسْلِمُونَ هَذِهِ النِعْمَةَ العَظِيمَةَ بِالقِيَامِ بِشُكْرِ اللهِ عَلَيهَا،وَأَداءِ حَقِّ اللهِ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِم،ومِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ إِقَامَـةُ الصَّلاَةِ وأداؤها حَقَّ أَدَائِها،وَدَفْعُ الزَّكَاةِ،والاعْتِصَامُ باللهِ،وَالاسْتِعَانَةُ بِـهِ،والاتِّكَالُ عَلَيْـهِ،فَهُوَ مَوْلاَهُمْ وَحَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ،وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّاصِرِ عَلَى الأَعْداءِ.[٣٥]

أي جاهدوا الكافرين حق الجهاد بأنفسكم،وأموالكم،وألسـنتكم،فإن الله تعـالى اجتبـاكم واصطفاكم لدينه،وحمل رسالته،ومحاربة أعدائه وجهادهم،وفضلكم على جميع الأمم،وخصكم بأكمل الشرائع،وبأفضل المرسلين عليهم جميعا صلوات الله وسلامه،فيا له من تشـريف مـا أعظمه،ومترلة ما أعلاها وأرفعها،أن يجتبي ويصطفي الخالق العظـيم تبـارك وتعـالى عبـده الضعيف،ويخصه بنعمة الهداية،ويمن عليه بسعادة الـدنيا والآخرة،ويختـاره لعبوديتـه،وحمل رسالته،ومجاهدة أعدائه،ويجعله من جنوده في الأرض الـذين يـذودون عـن دينـه،ويعلون كلمته،فأي تكريم أعظم من هذا التكريم،وأي رفعة أعظم من هذه الرفعة.

وقال تعالى:{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [فاطر:٣٢]،وهم هذه الأمة الـتي اصطفاها الله تعالى لوراثة الكتاب علما وعملا،فمنهم ظالم لنفسه بالمعاصي التي لا تصـل إلى الكفر،فعنده أصل الإيمان ومحبة الإسلام وأهله وموالاقم،فهو وارث للكتـاب بحسـبه،ومنهم

[٣٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

المقتصد المقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات،ومنهم السابق بـــالخيرات الـــذي يفعـــل الواجبات والمستحبات،ويترك المحرمات،والمكروهات،وفضول المباحات،فهم وإن تفـــاوتوا في إيمانهم،ووراثتهم للكتاب،إلا أن الجميع مشـــتركون كـــل بحســـبه في نصـــرة الـــدين،وحمل الرسالة،وجهاد أعداء الله،وهذا أمر ينبغي التفطن والتنبه له في سياسة الدولة الإســـلامية،وهو ضـــرورة إشـــعار جميـــع المســـلمين،من الظـــالمين لأنفسهم،والمقتصدين،والســـابقين بالخيرات،باشتراكهم في حمل الرسالة،وبناء دولة الإسلام وتقويتها،فكل منهم على ثغـــر،وإن تفاوتت مسؤولياتهم وأعمالهم.

عن أَيُّوبَ بْنِ سُوَيْدٍ،سَمِعْتُ الْأَوْزَاعِيَّ،يَقُولُ:كَانَ يُقَالُ:مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى ثَغْـــرَةٍ مِنْ ثُغَرِ الْإِسْلَامِ،فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا يُؤْتَى الْإِسْلَامُ مِنْ ثَغْرَتِهِ فَلْيَفْعَلْ"[٣٦].

فالظالم لنفسه وإن كان لا يولى في الولايات العامة التي تشترط لها العدالة،إلا أن الواجب على ولاة الأمر أن يوفروا له من العمل ما يناسب ما عنده من القدرة والاختصـــاص،فمن الخطـــأ إشعار الظالم لنفسه بأنه ليس من حاملي رسالة هذا الدين والمدافعين عنه،فإن هذا سوف يحصر حمل بناء الدولة وتقويتها على فئة قليلة من الصـــالحين،كما أن الأعـــداء المتربصـــين بدولـــة الإسلام،قد يستغلون هذا التباعد بين ولاة الأمـــر وبـــين مـــن ظلمـــوا أنفســـهم بـــبعض الذنوب،فيسعون إلى استمالتهم إليهم،وإبعادهم عن نصرة دولة الإسلام.



[٣٦] – السنة للمروزي (ص:١٣)(٢٩) حسن

المبحث الثالث

الشكر على النصر

وعد الله تعالى عباده المؤمنين إن حقّقوا الإيمان والعمل الصالح أن ينصرهم على أعـــدائهم،وأن يمكّن لهم في الأرض فقال تعالى:{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منْكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الْأَرْض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ منْ قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ منْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لَا يُشْرِكُونَ بي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الْفَاسـِــقُونَ } [النور:٥٥]

هَذَا وَعْدٌ منَ الله تَعَالَى لرَسُوله ﷺ بأَنَّهُ سَيَجْعَلُ منْ أُمَّته خُلَفَاءَ في الأَرْض،وَأَئمَّةً للنَّاس،وَأَنَّـــهُ سَيُبَدِّلُهُمْ بَعْدَ خَوْفهمْ منَ النَّاسَ أَمْناً وَحُكْماً فيهمْ.عَنْ أَبي الْعَاليَة،في قَوْله:{وَعَدَ اللَّهُ الَّـــذينَ آمَنُوا منْكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الْأَرْض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّـــذينَ مـــنْ قَـــبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهَمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ،وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ منْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا} [النور:٥٥] إلَى آخر الْآيَة،قَالَ:كَانَ النَّبيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بمَكَّةَ نَحْوًا منْ عَشْر سنينَ يَدْعُونَ إلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَعبَادَته وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَهُ سرًّا وَهُمْ خَائفُونَ لَا يُؤْمَرُونَ بالْقتَال حَتَّى أُمرُوا بَعْدَ الْهجْرَة إلَـــى الْمَدينَة،فَقَدمُوا الْمَدينَةَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بالْقتَال وَكَانُوا بهَا خَائفينَ يُمْسُونَ في السِّلَاح،وَيُصْبحُونَ في السِّلَاح،فَغَبَرُوا بذَلكَ مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ إنَّ رَجُلًا منْ أَصْحَابه قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه أَبَـــدَ الـــدَّهْر نَحْنُ خَائفُونَ هَكَذَا،مَا يَأْتي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فيه وَنَضَعُ فيه السِّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" لَنْ تَغْبُرُوا إلَّا يَسيرًا حَتَّى يَجْلسَ الرَّجُلُ منْكُمْ في الْمَلَأ الْعَظيم مُحْتَبيًا لَيْسَتْ فيه حَديدَةٌ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منْكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الْأَرْض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ منْ قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ منْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا} [النور:٥٥] " إلَى آخر الْآيَة فَأَظْهَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ نَبيَّهُ عَلَى جَزيرَة الْعَرَب فَأَمنُوا وَوَضَعُوا السِّلَاحَ،ثُمَّ إنَّ اللَّهَ قَبَضَ نَبيَّهُ ﷺ فَكَانُوا كَذَلكَ آمنَيْن في إمَارَة أَبي بَكْرٍ وَعُمَرَ،وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فيمَا وَقَعُـــوا

وَكَفَرُوا بِالنِّعْمَةِ فَأَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ الَّذِي كَانَ رُفِعَ عَنْهُمْ،وَاتَّخَذُوا الْحَجَزَةَ،وَالشُّرَطَ وَغَيَّرُوا فَغَيَّرَ مَا بِهِمْ"[37]

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ سَيَسْتَخْلِفُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الأَرْضِ،كَمَا اسْتَخْلَفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِهِم،وَسَيَكُونُ لَهُم الأَمْرُ.وَحَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَمَنْ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ،وَجَحَدَ نِعَمَهُ عَلَيْهِ،فَقَدْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ وَكَفَى بِذَلِكَ ذَنْباً عَظِيماً.[38]

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:قَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ عَلَى الْأَدْيَانِ بِأَنْ أَبَانَ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ وَمَا خَالَفَهُ مِنَ الْأَدْيَانِ بَاطِلٌ،وَأَظْهَرَهُ بِأَنَّ جِمَاعَ الشِّرْكِ دِينَانِ أَهْلُ الْكِتَابِ وَدِينُ الْأُمِّيِّينَ فَقَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ الْأُمِّيِّينَ حَتَّى دَانُوا بِالْإِسْلَامِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَقَتَلَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَسَبَى حَتَّى دَانَ بَعْضُهُمْ بِالْإِسْلَامِ وَأَعْطَى بَعْضٌ الْجِزْيَةَ صَاغِرِينَ وَجَرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُهُ ﷺ وَهَذَا ظُهُورُ الدِّينِ كُلِّهِ وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥] فَوَعَدَهُمْ فِي حَالِ الْخَوْفِ وَالشِّدَّةِ وَغَلَبَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ ظُهُورَهُمْ وَاستِخْلَافَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتَمْكِينَهُمْ مِنَ الْقِيَامِ بِأُمُورِ دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَتَبْدِيلَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ بِالْأَمْنِ،فَفَعَلَ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ جَمِيعَ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِي دَعْوَتِهِ ﷺ"[39]

فالصحابة رضي الله عنهم حقّقوا الإيمان التام والعمل الصالح التام،فحصل لهم التمكين التام في الأرض،وعندما نقص إيمان مَن بعدهم،ونقصت أعمالهم الصالحة نقص تمكينهم بحسب ما نقص من إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

والله تعالى عليم بنوايا العباد،وما تنطوي عليه قلوبهم،وهو عالم بما هم فاعلون لو مكّن لهم في الأرض،فإذا علم الله تعالى من عباده الصدق في نصرة دينه،وإقامة شريعته،في حاضرهم

---

[37] – تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل – مخرجا (٨/ ٢٦٢٩)(١٤٧٧٢) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٧/ ٣٤٨) صحيح مرسل

[38] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٢٨،بترقيم الشاملة آليا)

[39] – الاعتقاد للبيهقي (ص:٢٦٤) صحيح

ومستقبلهم نصرهم على أعدائهم،ومكّن لهم في الأرض،كما قال الله تبارك وتعالى:{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)} [الحج:٤٠،٤١].

إنَّ اللهَ قَادِرٌ وَحْدَهُ عَلَى نَصْرِ المُسْلِمِينَ دُونَ عَوْنٍ مِنْهُمْ،وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُم فِي طَاعَةِ رَبِّهِم،وأَن يَقُومُوا بِواجِبِهِم فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفسِهِم وَدِينِه.

إنَّهُمُ الذِينَ إِذَا مَكَّنَ اللهُ لَهُمْ فِي الأَرْضِ،وَحَقَّقَ لَهُمُ النَّصْرَ والغَلَبَةَ،وَجَعَلَ لَهُمُ العَاقِبَةَ،عَمِلُوا بِأمْرِ اللهِ،وَاجْتَنَبوا مَا نَهَاهُم عَنْهُ،فَأَقَامُوا الصَّلاَةَ،وأَدَّوهَا حَقَّ أَدَائِها،وَدَفَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ،وَأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ،وَحَثُّوا النَّاسَ عَلَى فِعْلِ الخَيْرِ وَمَا يُرْضِي اللهَ،وَنَهَوْا المُتَجَاوِزِينَ عَلَى حُدُودِ اللهِ عَنْ فِعْلِ المُنْكَرِ.وَعِنْدَ اللهِ حِسَابُ النَّاسِ جَمِيعاً فِي نِهَايَةِ المَطَافِ،وَلَهُ عَاقِبَةُ الأُمُورِ،فَيجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِه.[40]

والله تعالى يبتلي العباد بالسرّاء والضرّاء،كما قال تبارك وتعالى:{وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الأعراف:١٦٨] أي بالنعم والمصائب

إِنَّهُ اخْتَبَرَهُمْ (بَلَوْنَاهُمْ) جَمِيعاً بِالرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ،وَبِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ،وَبالعَافِيَةِ وَالبَلاَءِ،لَعَلَّهُمْ يَثُوبُونَ إِلَى الحَقِّ،وَيَرْجِعُو،إلى أَمْرِ اللهِ،فَيَعُودَ إِلَيْهِمْ فَضْلُ اللهِ وَإِحْسَانُهُ وَرَحْمَتُهُ.[41]

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد،وتذكير دائم لهم،ووقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار.[42]

وقال تبارك وتعالى:{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء:٣٥]

يَخْتَبِرُ اللهُ النَّاسَ بِالمَصَائِبِ تَارَةً،وبالنِّعمِ تَارَةً أُخْرَى،فَيَنْظُرُ مَنْ يَشْكُرُ مِنْهُم وَمَنْ يَكْفُرُ،ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلى اللهِ فَيُجَازِيهِم عَلَى أعْمَالِهِمْ.[43]

---

[40] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥١٨،بترقيم الشاملة آليا)

[41] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٢٣،بترقيم الشاملة آليا)

[42] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٨٥٦)

[43] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٦٠،بترقيم الشاملة آليا)

والابتلاء بالشر مفهوم أمره.ليتكشف مدى احتمال المبتلى،ومدى صبره على الضر،ومدى ثقته في ربه،ورجائه في رحمته ..فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان ..

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة،وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ..

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف.ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة.ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم الجامحة في أوصالهم.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل.ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان.وما يغريان به من متاع،وما يثير انه من شهوات وأطماع!

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم،ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم.ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء!

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح.ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال.وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذلل الأرواح!

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء،ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب،فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها.أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة! لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح،حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء!

وذلك شأن البشر ..فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر.والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان ..[٤٤]

والمؤمن يتقي الله تعالى في جميع أحواله فيشكر عند السرّاء،ويصبر عند المصيبة،كما قال ﷺ:عَنْ صُهَيْبٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ،إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ،إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ،فَكَانَ خَيْرًا لَهُ،وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ،صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رواه مسلم[٤٥]

---

[٤٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٧٨) -

[٤٥] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥)٦٤ - (٢٩٩٩)

وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) } [الحديد:٢٢ - ٢٤]

مَا أَصَابَكُمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ مَصَائِبَ فِي آفَاقِ الأَرْضِ كَقَحْطٍ وَجَدْبٍ وَقِلَّةِ رِزْقٍ...وَمَا أَصَابَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَسْقَامٍ وَنَكَبَاتٍ..إِلاَّ وَهُوَ مَسْطُورٌ فِي أَمِّ الكِتَابِ عِنْدَ اللهِ،قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ اللهُ هَذِهِ الخَلِيقَةَ (أَوْ قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ اللهُ هَذِهِ النُّفُوسَ)،وَعِلْمُ اللهِ السَّابِقُ بِمَا سَيَقَعُ مِنْ أَحْدَاثٍ فِي الأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ،وَإِثْبَاتُهُ فِي كِتَابٍ،هُوَ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَيهِ،لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ.

وَقَدْ أَعْلَمَكُمُ اللهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا النَّاسُ بِتَقَدُّمِ عِلْمِهِ لِمَا سَيَقَعُ مِنَ الأَحْدَاثِ،وَبِسَبْقِ كِتَابَتِهِ كُلَّ مَا سَيَقَعُ قَبْلَ حُدوثِهِ،لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكُمْ،فَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَتَحَسَّرُوا،وَلِكَيْلاَ تَقُولُوا:لَوْ فَعَلْنا كَذَا لَكانَ كَذَا،وَلَوْ لَمْ نَفْعَلْ كَذَا لَمَا كَانَ كَذَا.وَلِكَيْلاَ تَفْخَرُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ،فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَعْيِكُمْ،وَلاَ بِكَدِّكُمْ،وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَرِزْقِهِ،فَلاَ تَتَّخِذُوا نِعْمَةَ اللهِ أَشَراً وَبَطَراً،وَتَفْخَرُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ.[٤٦]

قال العلامة السعدي رحمه الله:" يقول تعالى مخبرا عن عموم قضائه وقدره: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ} وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق،من خير وشر،فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ،صغيرها وكبيرها،وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول،بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب،ولكنه على الله يسير،وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم،ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر،فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم،مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه،لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ،لا بد من نفوذه ووقوعه،فلا سبيل إلى دفعه،ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر،لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم،وإنما أدركوه بفضل الله ومنه،فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم،ولهذا قال: {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} أي:متكبر فظ غليظ،معجب

---

[٤٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٧٥،بترقيم الشاملة آليا) - زياة مني

بنفسه،فخور بنعم الله،ينسبها إلى نفسه،وتطغيه وتلهيه،كما قال تبارك وتعالى:{ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بل هي فتنة}[٤٧].

وقال تعالى:{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)} [هود:٩ - ١١] والمراد بالإنسان في الآية جنس الإنسان،كقوله تعالى:{وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}وقد وصفه الله تعالى بصفتين:اليأس من رحمة الله إذا أصابته مصيبة بعد نعمة،وبالفرح والفخر وترك الشكر إذا ذاق نعمة بعد ضراء أصابته.ثم استثنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَمَّا فِي نُفُوسِ البَشَرِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَمِيمَةِ،إلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ،فَإِذَا أَصَابَتْهُمْ شِدَّةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ،اعْتَرَاهُمُ اليَأْسُ وَالقُنُوطُ مِنْ أَنْ يُفَرِّجَ اللهُ عَنْهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةٍ فِي المُسْتَقْبَلِ،وَكَفَرُوا بِنِعَمِ اللهِ وَفَضْلِه.

وَكَذَلِكَ الحَالُ إِذَا أَصَابَتْهُمْ نِعْمَةٌ،بَعْدَ نَقْمَةٍ وَشِدَّةٍ،فَسَيَقُولُونَ:لَنْ يُصِيبَنَا بَعْدَ هذَا ضَيْمٌ وَلاَ سُوءٌ،وَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى الفَرَحِ بِمَتَاعِ الدُّنْيَا،وَعَلَى المُبَالَغَةِ فِي التَّفَاخُرِ عَلَى النَّاسِ،فَيَنْشَغِلَ قَلْبُهُمْ عَنْ شُكْرِ رَبِّهِمْ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ.

وَيَسْتَثْنِي اللهُ تَعَالَى مِنَ الأُنَاسِ اللَّجُوجِينَ القَنُوطِينَ،المُؤْمِنِينَ الذِينَ صَبَرُوا عَلَى الشَّدَائِدِ وَالمَكَارِهِ،إِيمَاناً بِاللهِ،وَاحْتِسَاباً،وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ،فَهؤُلاَءِ سَيَغْفُرُ اللهُ لَهُمْ بِمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَّاءِ،وَسَيَجْزِيهِمْ أَجْراً كَبِيراً بِمَا أَسْلَفُوا فِي زَمَنِ الرَّخَاءِ مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ.[٤٨]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ،إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ،فَإِنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ،حَصَلَ لَهُ يَأْسٌ وَقُنُوطٌ مِنَ الْخَيْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ،وَكُفْرٌ وَجُحُودٌ لِمَاضِي الْحَالِ،كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ خَيْرًا،وَلَمْ يَرْجِ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَجًا.وَهَكَذَا إِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِقْمَةٍ {لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي} أَيْ:يَقُولُ:مَا بَقِيَ يَنَالُنِي بَعْدَ هَذَا ضَيْمٌ وَلَا سُوءٌ،{إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} أَيْ:فَرِحٌ بِمَا فِي يَدِهِ،بَطِرٌ فَخُورٌ عَلَى غَيْرِهِ.قَالَ اللَّهُ

---

[٤٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٤٢)

[٤٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٨٣،بترقيم الشاملة آليا)

تَعَالَى: {إلا الَّذِينَ صَبَرُوا} أَيْ:فِي الشَّدَائِد وَالْمَكَارِه، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} أَيْ:فِي الرَّخَاء وَالْعَافِيَة، {أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} أَيْ:بِمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَّاء، {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} بِمَا أَسْلَفُوهُ فِي زَمَنِ الرَّخَاء،كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث عَنْ مُحَمَّد بْنِ عَمْرِو بْن عَطَاءِ الْعَامِرِيِّ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا سَعِيد الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ ،وَلَا حَزَنٌ ،وَلَا وَصَبٌ ،وَلَا نَصَبٌ ،وَلَا أَذًى إِلَّا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ ".[٤٩]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ شَيْئًا،إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ».[٥٠]

وَهَكَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [سُورَةُ الْعَصْرِ]،وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلا الْمُصَلِّينَ} الآية [المعارج:١٩ -٢٢] .[٥١]

وخلاف الصبر عند الضرّاء،والشكر على السرّاء،أن يظهرالعبد الجزع وعدم الصبر عند المصيبة كالنياحة على الميت،وشقّ الجيوب،ولطم الخدود،و أن يقابل نعمة الله بمعصيته كالفخر،والبطر،وإظهار المعازف أو غيرها من المعاصي،عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّخْلِ وَمَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْف،فَانْتَهَى إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ،وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ،فَوَضَعَ الصَّبِيَّ فِي حِجْرِهِ،فَبَكَى،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:يَا رَسُولَ اللَّهِ تَنْهَانَا عَنِ الْبُكَاءِ؟ قَالَ:«لَمْ أَنْهَ عَنِ الْبُكَاءِ،إِنَّمَا نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ فَاجِرَيْنِ،صَوْتِ مِزْمَارٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ،مِزْمَارِ شَيْطَانٍ وَلَعِبٍ،وَصَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ،شَقِّ الْجُيُوبِ،وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ،وَإِنَّمَا هَذِهِ رَحْمَةٌ»[٥٢].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ:" «صَوْتَانِ مَلْعُونَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:مِزْمَارٌ عِنْدَ نِعْمَةٍ،وَرَنَّةٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ» "[٥٣]

فنعمة النصر على الأعداء،وتمكين المجاهدين في الأرض،من أعظم النعم التي تستوجب الشكرمن المجاهدين،بالاستقامة على طاعة الله،وتقواه في جميع سياسات الدولة الداخلية والخارجية،وقد

---

[٤٩] – شرح مشكل الآثار (٥/ ٤٧٤)(٢٢٢٥) صحيح لغيره

[٥٠] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٢/ ٥٠٧)(٧٢٨) صحيح

[٥١] – تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٣٠٩)

[٥٢] – مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٢٦٣)(١٧٨٨) حسن

[٥٣] – مسند البزار = البحر الزخار (١٤/ ٦٢)(٧٥١٣)صحيح لغيره

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)} [الأنفال].

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بالاسْتِجَابَةِ إِلَى دَعْوَتِهِ تَعَالَى،وَإِلَى دَعْوَةِ رَسُولِهِ ﷺ التِي أَمَرَهُ اللهُ بِإِبْلاَغِهَا إِلَيْهِمْ،لأَنَّهَا تُزَكِّي نُفُوسَهُمْ وَتُطَهِّرُهَا،وَتُحْيِيها بالإِيمَانِ،وَتَرْفَعُها إِلَى مَرَاتِبِ الكَمَالِ فَتَحْظَى بِرِضَا اللهِ،ثُمَّ يُعْلِمُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى قُلُوبِ العِبَادِ يُوَجِّهُهَا كَيْفَ يَشَاءُ،فَيَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَبَيْنَ قَلْبِهِ،فَيُمِيتُ الإِحْسَاسَ وَالوِجْدَانَ وَالإِدْرَاكَ فِيهِ،فَتُشَلُّ الإِرَادَةِ،وَيَفْقِدُ الإِنْسَانَ سَيْطَرَتَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ،وَيَتْبَعُ هَوَاهُ،فَلاَ تَعُودُ تَنْفَعُ فِيهِ المَوَاعِظُ وَالعِبَرُ.وَاللهُ تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ القَادِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِمَّا تَرَدَّوْا فِيهِ،إِذَا اتَّجَهُوا إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

ثُمَّ يَحْشُرُ اللهُ العِبَادَ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ،وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا بِمَا يَسْتَحِقُّونَ.

يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وُقُوعِ البَلاَءِ وَالفِتَنِ بَيْنَهُمْ إِذَا لَمْ يَقُومُوا بِوَاجِبِهِمْ نَحْوَ دِينِهِم وَجَمَاعَتِهِمْ فِي الجِهَادِ،وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَفِي الضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ،وَفِي النُّصْحِ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ،وَفِي إِطَاعَةِ أُوْلِي الأَمْرِ.وَيُنَبِّهُهُمْ تَعَالَى إِلَى أَنَّ العِقَابَ الذِي يُنْزِلُهُ اللهُ بِالأُمَمِ الْمُقَصِّرَةِ بِالقِيَامِ بِوَاجِبَاتِهَا لاَ يُصِيبُ السَّيِّىءَ وَحْدَهُ،وَإِنَّمَا يَعُمُّ بِهِ الْمُسِيءَ وَغَيْرَهُ،وَيُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ لِلأُمَمِ التِي تُخَالِفُ سُنَنَهُ وَهُدَى دِينِهِ،وَتُقَصِّرُ فِي دَرْءِ الفِتَنِ،وَفِي التَّعَاوُنِ عَلَى دَفْعِهَا،وَالقَضَاءِ عَلَيْهَا.

يُنَبِّهُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الوَفِيرَةِ،فَقَدْ كَانُوا قَلِيلِي العَدَدِ،مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ،يَعْتَدِي عَلَيْهِمُ النَّاسُ،خَائِفِينَ مِنْ مُجْرِمِي قُرَيْشٍ،فَقَوَّاهُمْ وَآوَاهُمْ،وَنَصَرَهُمْ وَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ،وَكُلُّ هَذِهِ النِّعَمِ التِي أَنْعَمَ بِهَا اللهُ عَلَيْهِمْ تَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا،فَاللهُ تَعَالَى مُنْعِمٌ يُحِبُّ الشُّكْرَ مِنْ عِبَادِهِ.[٥٤]

---

[٥٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨٥،بترقيم الشاملة آليا) —

وقال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [آل عمران:١٢٣].

لَقَدْ نَصَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوْقِعَةِ (بَدْرٍ)،وَكَانُوا قَلِيلِي العَدَدِ أذلاَّءَ،وَأَذَلَّ اللهُ الشِّرْكَ،وَهَزَمَ حِزْبَهُ،وَذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ،لاَ بِكَثْرَةِ العَدَدِ وَالعُدَّةِ،فَإِنْ تَصْبِرُوا لأمْرِ اللهِ يَنْصُرْكُمْ كَمَا نَصَرَكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ،فَاتَّقُوا اللهَ بِطَاعَتِهِ،وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ،لِتُعِدُّوا أَنْفُسَكُمْ لِشُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ عَلَى أعْدَائِكُمْ،وَإِظْهَارِ دِينِكُمْ.[٥٥]

وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) } [إبراهيم].

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى،عَلَيْهِ السَّلاَمُ،امْتَثَلَ لأَمْرِ رَبِّهِ،فَأَخَذَ بِدَعْوَةِ قَوْمِهِ،وَوَعْظِهِمْ،وَتَذْكِيرِهِمْ بِمِنَنِ اللهِ وَأَنْعُمِهِ عَلَيْهِمْ،فَقَالَ لَهُمْ:يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْقَذَكُمْ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ،الذِينَ كَانُوا يَسُومُونَكُمُ العَذَابَ الشَّدِيدَ الْمُهِينَ (سُوءَ العَذَابِ)،إِذْ كَانُوا يُذَبِّحُونَ الذُّكُورَ مِنْ أَبْنَائِكُمْ،وَيَسْتَبْقُونَ الإِنَاثَ زِيَادَةً فِي الإِذْلاَلِ وَالتَّنْكِيلِ،فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ البَلاَءِ،وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَيْكُم أَنْتُمْ عَاجِزُونَ عَنِ القِيَامِ بِشُكْرِهِ عَلَيْهَا.وَفِي كُلِّ مَا ذُكِرَ مِنَ التَّعْذِيبِ،وَالإِنْجَاءِ...اخْتِبَارٌ مِنَ اللهِ عَظِيمٌ،لِيُظْهِرَ مِقْدَارَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ عَلَيْهِ.

وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ آذَنَكُمْ رَبُّكُمْ،وَأَعْلَمَكُمْ بِوَعْدِهِ،فَقَالَ:لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ مِنْهَا،وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ النِّعَمَ وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا،لأُعَاقِبَنَّكُمْ عِقَاباً شَدِيداً عَلَى كُفْرِهَا،وَلأَسْلُبَنَّكُمْ إِيَّاهَا.[٥٦]

و قال تعالى: { قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف:١٢٩].

---

[٥٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٦،بترقيم الشاملة آليا)– زياة مني

[٥٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٥٧،بترقيم الشاملة آليا)

قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى:لَقَدْ آذَوْنَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنَا،وَذَبَحُوا أَبْنَاءَنَا،وَهُمْ يُعِيدُونَ ذلكَ الآنَ بَعْدَ أَنْ جِئْتَنَا.فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى:اصْبِرُوا عَلَى أَذَاهُمْ عَسَى اللهُ أَنْ يُهْلِكَ هؤُلاءِ الأَعْدَاءِ،وَيَجْعَلَكُمْ،وَهَلْ سَتَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَى نِعَمِهِ وَآلائِهِ عَلَيْكُمْ.أَمْ تَكْفُرُونَ؟ هَلْ سَتُصْلِحُونَ أَمْ تُفْسِدُونَ لِيَجْزِيَكُمْ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ.[57]

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ مَسْعُود قَالَ:سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ وَمُصِيبُونَ وَمَفْتُوحٌ لَكُمْ،فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلكَ منْكُمْ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»رواه الترمذي وأحمد[58]

فقوله ﷺ "**إنكم منصورون**" أي على أعدائكم "**ومصيبون**" أي للغنائم "**ومفتوح لكم**" أي تفتح لكم البلاد،وأمر النبي ﷺ من أدرك ذلك أن يتقي الله وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وعَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ مَالِكٍ الطَّائِيِّ قَالَ:سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ،قَالَ:إِنَّ لِلشَّيْطَانِ مَصَالِيًا وَفُخُوخًا،وَإِنَّ مَصَالِيَ الشَّيْطَانِ وَفُخُوخَهُ:الْبَطَرُ بِأَنْعُمِ اللَّهِ،وَالْفَخْرُ بِعَطَاءِ اللَّهِ،وَالْكِبْرِيَاءُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ،وَاتِّبَاعُ الْهَوَى فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" رواه البخاري في الأدب المفرد[59].

فشكر الله تعالى على النصر بتقواه،وتحكيم شرع الله في جميع شؤون الحياة،فإن هذا هو الغاية التي شرع الجهاد لأجلها،كما قال تعالى:{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣]

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الكُفَّارِ حَتَّى لاَ تَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَفْتِنُونَ بِهَا الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ،وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ إِظْهَارِهِ،وَالدَّعْوَةَ إِلَيهِ،وَحَتَّى لاَ يَكُونَ هُنَاكَ شِرْكٌ،وَحَتَّى تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا،وَدِينُهُ هُوَ الظَّاهِرَ العَالِيَ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ.فَإِنِ انْتَهَى الْمُشْرِكُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ،وَكَفُّوا عَنْ

---

[57] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٠٨٤،بترقيم الشاملة آليا)

[58] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٢٤)(٢٢٥٧) ومسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٢٢٠)(٤١٥٦) صحيح

[59] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٩٤)(٥٥٣) وأمالي ابن بشران - الجزء الثاني (ص:٢٦٠)(١٤٦٧) حسن

المصالي:جمع مصلاة أي الشرك.

قتَالِ المُسْلمينَ،فَلاَ سَبيلَ للْمُسْلمينَ إلى قتَالِهِمْ،لأَنَّ القتَالَ إنَّما شُرِعَ لــرَدْعِ الكُفْــرِ وَالظُّلْــمِ وَالفِتْنَةِ.وَالعُدْوَانُ لاَ يَكُونُ إلاَّ عَلَى مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بالكُفْرِ وَالمَعَاصِي،وَتَجَاوَزَ العَدْلَ.[٦٠]

وليحذر المجاهد أن يقابل نعمة النصر بــالكبر علــى الناس،والإعجــاب بــالنفس،والفخر والبطر،وطلب العلوّ في الأرض،أو غيرها من المعاصي،وقد قال كعب بن زهــير في وصــف المهاجرين رضي الله عنهم[٦١]:

لا يفرحون إذا نالت سيوفهم *** قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وقال حسّان بن ثابت رضي الله عنه في وصف الأنصار رضي الله عنهم[٦٢]:

لا فَخْرَ إنْ هُمْ أصابُوا من عَدُوّهِم،وَإنْ أُصِيبُوا فلا خُورٌ ولا جُزُعُ

كأنهمْ في الوغى،والموتُ مكتنعٌ،أسدٌ ببيشةَ في أرساغها فدعُ

إذَا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لا نَدب لَهُمْ،كما يدبُّ إلى الوحشيةِ الذرعُ

أكرمْ بقومٍ رسولُ اللهِ شيعتهمْ،إذا تفرّقَت الأهْوَاءُ والشِّيَعُ

فالشكر سبب لدوام النعم وزيادتها،وأمــا الكفــر بــالنعم فهــو ســبب لزوالهــا،وحلول العقوبات،وانقلاب الأحوال،وتبدّل الأمن خوفاً،وقد قال الله تبارك وتعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّــرُوا مَــا بِأَنْفُسِــهِمْ وَأَنَّ اللَّــهَ سَــمِيعٌ عَلِــيمٌ } [الأنفال:٥٣].

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَدْلِه فِي حُكْمِه فِي أُمُورِ العِبَادِ،وَأَنَّهُ تَعَالَى لاَ يُغَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَــى أَحَدٍ إلاَّ بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ.وَأَنَّهُ إنَّمَا أَخَذَ قُرَيْشاً - بِكُفْرِهَا بِنِعَمِ اللهِ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ رَبِّهِمْ،فَكَذَّبَهُ الكُفَّارُ مِنْهُمْ وَأَخْرَجُوهُ وَحَارَبُوهُ - كَمَا أَخَذَ الأُمَمَ المُكَذِّبَةَ قَــبْلَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ.[٦٣]

---

[٦٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٦١] - دراسة في نصوص العصر الجاهلي تحليل وتذوق (ص:١٩٠)

[٦٢] - تراجم شعراء موقع أدب (٨/ ٥٧) وديوان حسان بن ثابت (ص:١٣١)

[٦٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢١٤،بترقيم الشاملة آليا) —

وقال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) } [النحل:١١٢ - ١١٤].

جَعَلَ اللهُ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ مَكَّةَ مِثْلَ حَالِ هَذِهِ القَرْيَةِ،التِي كَانَتْ آمِنَةً لاَ تَخَافُ عَدُوّاً،وَقَدْ تَدَفَّقَ الرِّزْقُ الوَفِيرُ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،فَكَفَرَ أَهْلُهَا بِأَنْعُمِ اللهِ عَلَيْهِمْ،وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ،فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الخَوْفَ،وَأَذَاقَهُمْ مَرَارَةَ الجُوعِ.كَذَلِكَ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ،فَقَدْ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِها،وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِناً،لاَ يَخَافُ شَيْئاً،وَكَانَ الرِّزْقُ الوَفِيرُ يَتَدَفَّقُ عَلَيْهَا هَنِيئاً سَهْلاً مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَمَكَانٍ،فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ،وَجَحَدَتْ بِهَا،وَأَعْظَمُ هَذِهِ النِّعَمُ هِيَ بِعْثَةُ رَسُولٍ مِنْهُمْ.وَلِهَذا بَدَّلَ اللهُ أَهْلَهَا بِحَالَيْهِمْ (الأَمْنِ وَالعَيْشِ الرَّغِيدِ)،بِحَالَيْنِ جَدِيدَيْنِ،هُمَا:(الجُوعُ وَالخَوْفُ - لِبَاسَ الجُوْعِ وَالخَوْفِ) فَقَدْ جَاءَتْهُمْ سِنُونَ شِدَادٌ فَجَاعُوا،وَهَاجَرَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ إِلَى المَدِينَةِ فَكَانَتْ سَرَايَا المُسْلِمِينَ تَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَى قَوَافِلِهِمْ إِلَى الشَّامِ،فَخَافُوا.وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ عِقَاباً لَهُمْ مِنَ اللهِ بِسَبَبِ سُوءِ صَنِيعِهِمْ،وَبَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ.

لَقَدْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِأَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ،وَيُذَكِّرُهُمْ بِمِنَنِ اللهِ عَلَيْهِمْ،إِذْ جَعَلَ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يَتَخَطَّفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ،وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ،وَلَكِنَّهُمْ بَدَلاً مِنَ الشُّكْرِ كَذَّبُوا الرَّسُولَ،وَاسْتَكْبَرُوا،وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ،فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ،وَأَذَلَّهُمُ اللهُ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ،فَهُزِمُوا فِي بَدْرٍ،وَتَتَالَتْ هَزَائِمُهُمْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ.[64]

وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا

[64] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠١٣،بترقيم الشاملة آليا)

بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)} [الأعراف].

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ نَبِيّاً إلى قَوْمٍ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،ثُمَّ أَعْرَضُوا عَنْ قُبُولِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيهِ نَبِيُّهُمْ،إلاَّ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِإِصَابَتِهِمْ بِأَبْدَانِهِمْ بِالأَمْرَاضِ وَالأَسْقَامِ،وَبِإِنْزَالِ الفَقْرِ وَالحَاجَةِ بِهِمْ،وَذَلِكَ لِكَيْ يَتَضَرَّعُوا إِلَيهِ تَعَالَى لِيَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ ضَرّاءِ وَبَأْسَاءِ .

فَإِذَا اسْتَمَرُّوا فِي كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ يَمْتَحِنُهُمْ رَبُّهُمْ بِالعَافِيَةِ وَالرَّخَاءِ،فَيُبَدِّلُ حَالَهُمْ مِنْ بُؤْسٍ وَضِيقٍ وَمَرَضٍ إِلَى رَخَاءٍ وَصِحَّةٍ لِيَشْكُرُوا اللهَ عَلَى ذَلِكَ،فإذا كَثُرَتْ أَوْلاَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ (عَفَوْا)،وَاسْتَمْرَؤُوا العَيْشَ الهَنِيءَ،وَنَسُوا نِعْمَةَ اللهِ،وَفَضْلَهُ عَلَيْهِمْ،وَقَالُوا لَقَدْ مَسَّتْنَا السَّرَّاءَ وَالضَّرَّاءُ مِثْلَمَا سَبَقَ لَها أنْ أَصَابَتْ آبَاءَنا فِي سَالِفِ الأَيَّامِ،وَهَذا هُوَ حَالُ الدُّنيا،فَلا الضَّرَّاءُ عِقَابٌ عَلَى ذَنْبٍ يُرْتَكَبُ،وَلا السَّرَّاءُ جَزَاءٌ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ يُكْتَسَبُ ....فَإِذَا صَرَفُوا هَمَّهُمْ إِلَى هَذَا وَأَمْثَالِه أَخَذَهُمُ اللهُ بِالعَذَابِ فَجْأَةً،وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بِمَا سَيَحِلُّ بِهِمْ،لأَنَّهُمْ جَهِلُوا سُنَنَ اللهِ فِي خَلْقِهِ،فَلاَ هُمُ اهْتَدُوا إِلَيها بِعُقُولِهِمْ،وَلاَ هُمْ صَدَّقُوا الرُّسُلَ فِيمَا أَنْذَرُوهُمْ بِهِ .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ القُرَى آمَنُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ النَّبِيُّونَ،وَصَدَّقُوهُمْ،وَاتَّبَعُوا النُّورَ الذِي جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ،وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ،وَتَرْكِ الُمحَرَّمَاتِ،لأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ بِإِذْنِ رَبِّهَا،وَلَفَاضَتِ الأَرْضُ بِالخَيْرَاتِ،وَلكِنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ،فَعَاقَبَهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ،بِإِهْلاَكِهِمْ عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ المَآثِمِ وَالَمحَارِمِ .

أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى الكَافِرَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ اللهِ وَنَكَالُهُ لَيْلاً (بَيَاتاً)،فَيُبَيِّتَهُمْ فِي دُورِهِمْ،وَهُمْ نَائِمُونَ مُطْمَئِنُّونَ لاَ يَتَوَقَّعُونَ بَلاءً؟

أَوْ أَمْنَ أَهْلُ القُرَى الكَافِرَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ اللهِ،وَقْتَ الضُّحَى،وَهُمْ مُطْمَئِنُونَ فِي أَشْغَالِهِمْ وَمَلاَعِبِهِمْ (يَلْعَبُونَ)،لاَ يَتَوَقَّعُونَ حُلُولَ العَذَابِ بِهِمْ؟

أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرى الكَافِرَةِ مَكْرَ اللهِ بهِمْ،وَبَأْسَهُ وَنَقْمَتَهُ وَاسْتدْرَاجَهُ إِيَّاهُمْ وَقُدْرَتَهُ عَلَى أَخْذهِمْ،وَتَدْمِيرِهِمْ فِي حَالِ مَنْ سَهْوِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ؟ وَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القَوْمَ الضَّالُونَ الذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَدَمِ إِدْرَاكِهِمْ مَا فِيهِ صَلاَحُهُمْ وَخَيْرُهُمْ .[٦٥]

إنما يأخذ الله المكذبين برسله بالبأساء والضراء،لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خير يرجى وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمد متى كانت فيها بقية وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار يتضرعون إليه ويطلبون رحمته وعفوه ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له – والعبودية لله غاية الوجود الإنساني – وما بالله سبحانه من حاجة إلى تضرع العباد وإعلان العبودية:«وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ.إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» ..

عَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلَا تَظَالَمُوا،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ،فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ،إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ،فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ،إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ،فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ،يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا،فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ،يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي،فَتَنْفَعُونِي،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ،مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ،مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ،مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ،يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ،ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا،فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا،فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ،فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[٦٦] ..

---

[٦٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٠٤٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٦٦] – صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)٥٥ – (٢٥٧٧)

[ش (إلا كما ينقص المخيط) قال العلماء هذا تقريب إلى الإفهام ومعناه لا ينقص شيئا أصلا كما قال في الحديث الآخر لا يغيضها نفقة أي لا ينقصها نفقة لأن ما عند الله لا يدخله نقص وإنما يدخل النقص المحدود الفاني وعطاء الله تعالى من رحمته

ولكن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم هم ويصلح حياتهم ومعاشهم كـــذلك ..فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه ..تحرروا من العبوديـــة للشـــيطان الذي يريد ليغويهم – كما جاء في أوائل السورة – وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم.وتحـــرروا من العبودية للعبيد من أمثالهم واستحيوا أن يتبعوا خطوات الشيطان واستحيوا أن يغضبوا الله بعمل أو نية وهم يتجهون إليه في الشدة ويتضرعون،واستقاموا على الطريقة الـــتي تحـــررهم وتطهرهم وتزكيهم،وترفعهم من العبودية للهوى والعبودية للعبيد! لذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها نبيا فتكذبه،بالبأساء في أنفسهم وأرواحهم،وبالضراء في أبدانهم وأموالهم.استحياء لقلوبهم بالألم.والألم خير مهذب،وخير مفجر لينابيع الخير المســـتكنة،وخير مرهف للحساسية في الضمائر الحية،وخير موجه إلى ظلال الرحمة التي تنسم علـــى الضـــعاف المكروبين نسمات الراحة والعافية في ساعات العسرة والضيق ..«لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ» ..

«ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ» ..فإذا الرخاء مكان الشدة،واليسر مكـــان العســـر،والنعمة مكان الشظف،والعافية مكان الضر،والذرية مكان العقر،والكثرة مكان القلـــة،والأمن مكـــان الخوف.وإذا هو متاع ورخاء،وهينة ونعماء،وكثرة وامتلاء ..وإنما هو في الحقيقة اختبار وابتلاء ..

والابتلاء بالشدة قد يصبر عليه الكثيرون،ويحتمل مشقاته الكثيرون.فالشدة تســـتثير عناصـــر المقاومة وقد تذكر صاحبها بالله – إن كان فيه خير – فيتجه إليه ويتضرع بين يديه،ويجـــد في ظله طمأنينة،وفي رحابه فسحة،وفي فرجه أملا،وفي وعده بشرى ..فأما الابتلاء بالرخاء فالذين يصبرون عليه قليلون.فالرخاء ينسي،والمتاع يلهي،والثراء يطغي.فلا يصبر عليه إلا الأقلون مـــن عباد الله.

«ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا،وَقالُوا:قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ» ..أي حـــتى كثروا وانتشروا،واستسهلوا العيش،واستيسروا الحياة:ولم يعودوا يجدون في أنفسهم تحرجا من

وكرمه وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص فضرب المثل بالمخيط في البحر لأنه غاية ما يضرب به المثل في القلة والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه فإن البحر من أعظم المرئيات عيانا وأكبرها والإبرة من أصغر الموجودات مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء]

شيء يعملونه،ولا تخوفا من أمر يصنعونه ..والتعبير:«عفوا» – إلى جانب دلالته على الكثرة – يوحي بحالة نفسية خاصة:حالة قلة المبالاة.حالة الاستخفاف والاستهتار.حالة استسهال كل أمر،واتباع عفو الخاطر في الشعور والسلوك سواء ..وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة،حين يطول بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء – أفرادا وأمما – كأن حساسية نفوسهم قد ترهلت فلم تعد تحفل شيئا،أو تحسب حسابا لشيء.فهم ينفقون في يسر ويلتذون في يسر،ويلهون في يسر،ويبطشون كذلك في استهتار! ويقترفون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ويرتعش لها الوجدان،في يسر واطمئنان! وهم لا يتقون غضب الله،ولا لوم الناس،فكل شيء يصدر منهم عفوا بلا تحرج ولا مبالاة.وهم لا يفطنون لسنة الله في الكون،ولا يتدبرون اختباراته وابتلاء اته للناس.ومن ثم يحسبونها تمضي هكذا جزافا،بلا سبب معلوم،وبلا قصد مرسوم:«وَقالُوا:قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ» ..وقد أخذنا دورنا في الضراء وجاء دورنا في السراء! وها هي ذي ماضية بلا عاقبة،فهي تمضي هكذا خبط عشواء! عندئذ ..وفي ساعة الغفلة السادرة،وثمرة للنسيان واللهو والطغيان،تجيء العاقبة وفق السنة الجارية:«فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» ..

جزاء بما نسوا واغتروا وبعدوا عن الله وأطلقوا لشهواتهم العنان،فما عادوا يتحرجون من فعل،وما عادت التقوى تخطر لهم ببال! هكذا تمضي سنة الله أبدا.وفق مشيئته في عباده.وهكذا يتحرك التاريخ الإنساني بإرادة الإنسان وعمله – في اطار سنة الله ومشيئته – وها هو ذا القرآن الكريم يكشف للناس عن السنة ويحذرهم الفتنة ..فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء ..وينبه فيهم دواعي الحرص واليقظة،واتقاء العاقبة التي لا تتخلف،جزاء وفاقا على اتجاههم وكسبهم.فمن لم يتيقظ،ومن لم يتحرج،ومن لم يتق،فهو الذي يظلم نفسه،ويعرضها لبأس الله الذي لا يرد.ولن تظلم نفس شيئا.

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ،وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» ..

فذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية.فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب،واتقوا بدل الاستهتار لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ..هكذا ..«بركات من السماء

والأرض» مفتوحة بلا حساب.من فوقهم ومن تحت أرجلهم.والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر،الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات ..

وأمام هذا النص – والنص الذي قبله – نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء.وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان،تغفل عنه المذاهب الوضعية وتغفله كل الإغفال.بل تنكره كل الإنكار! ..

إن العقيدة الإيمانية في الله،وتقواه،ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة،وعن خط تاريخ الإنسان.

إن الإيمان بالله،وتقواه،ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض.وعدا من الله.ومن أوفى بعهده من الله؟ ونحن – المؤمنين بالله – نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن،فنصدقه ابتداء،لا نسأل عن علله وأسبابه ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله ..نحن نؤمن بالله – بالغيب – ونصدق بوعده بمقتضى هذا الإيمان ..

ثم ننظر إلى وعد الله نظرة التدبر – كما يأمرنا إيماننا كذلك – فنجد علته وسببه! إن الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية وصدق في الإدراك الإنساني،وحيوية في البنية البشرية،ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود ..وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان بالله قوة دافعة دافقة،تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها،وتتجه بها إلى وجهة واحدة،وتطلقها تستمد من قوة الله،وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها،وفي دفع الفساد والفتنة عنها،وفي ترقية الحياة ونمائها ..وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد.وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله،أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة.من العبيد للهوى ولبعضهم بعضا! وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور،في دفعة الحركة ودفعة الحياة

وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج،فلا يعتدي،ولا يتهور،ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح.

وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح،عاملة في الأرض،متطلعة إلى السماء،متحررة من الهوى والطغيان البشري،عابدة خاشعة لله ..تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه.فلا جرم تحفها البركة،ويعمها الخير،ويظلها الفلاح ..والمسألة – من هذا الجانب – مسألة واقع منظور – إلى جانب لطف الله المستور – واقع له علله وأسبابه الظاهرة،إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود ..

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون،في توكيد ويقين،ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها.وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان،النابع من كل مكان،بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان.فهي البركات بكل أنواعها وألوانها،وبكل صورها وأشكالها،ما يعهده الناس وما يتخيلونه،وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال! والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة،لا صلة لها بواقع الناس في الأرض،لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله – سبحانه – وكفى بالله شهيدا.

ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ.وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» ..

ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمما – يقولون:إنهم مسلمون – مضيقا عليهم في الرزق،لا يجدون إلا الجدب والمحق! ..ويرى أمما لا يؤمنون ولا يتقون،مفتوحا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ ..فيتساءل:وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف؟

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال! إن أولئك الذين يقولون:إنهم مسلمون ..لا مؤمنون ولا متقون! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله،ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم،يتألهون عليهم،ويشرعون لهم – سواء القوانين أو القيم والتقاليد – وما أولئك بالمؤمنين.فالمؤمن لا يدع عبدا من العبيد يتأله عليه،ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره ..ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان

مسلمين حقا.دانت لهم الدنيا،وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض،وتحقق لهم وعد الله.

فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق ..فهذه هي السنة:«ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا،وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ»! فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره.وهو أخطر من الابتلاء بالشدة ..

وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون.فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به،وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح ..وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة،مهددة في أمنها،مقطعة الأواصر بينها،يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال.فهي قوة بلا أمن.وهو متاع بلا رضى.وهي وفرة بلا صلاح.وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد.وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال ..

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى،بركات في الأشياء،وبركات في النفوس،وبركات في المشاعر،وبركات في طيبات الحياة ..بركات تنمي الحياة وترفعها في آن.وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال"[٦٧]



[٦٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٧٩٨) -

المبحث الرابع

مفهوم السياسة الشرعية

السياسة الشرعية هي العمل لإقامة دين الله في الأرض،وإصلاح أحوال الناس في أمور دينهم حتى تكون كلمة الله هي العليا،ويقام العدل بين الناس،وتحكم شريعة الإسلام في جميع شؤون الحياة،وإصلاح أحوال الناس في أمور دنياهم،وتدبير شؤون معاشهم،وقد قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) } [النساء:٥٨،٥٩]

إن الله تعالى يأمركم بأداء مختلف الأمانات،التي اؤتمنتم عليها إلى أصحابها،فلا تفرطوا فيها،ويأمركم بالقضاء بين الناس بالعدل والقسط،إذا قضيتم بينهم،ونِعْمَ ما يعظكم الله به ويهديكم إليه.إن الله تعالى كان سميعًا لأقوالكم،مُطَّلعًا على سائر أعمالكم،بصيرًا بها.

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه،استجيبوا لأوامر الله تعالى ولا تعصوه،واستجيبوا للرسول ﷺ فيما جاء به من الحق،وأطيعوا ولاة أمركم في غير معصية الله،فإن اختلفتم في شيء بينكم،فأرجعوا الحكم فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ،إن كنتم تؤمنون حق الإيمان بالله تعالى وبيوم الحساب.ذلك الردُّ إلى الكتاب والسنة خير لكم من التنازع والقول بالرأي،وأحسن عاقبة ومآلا.[٦٨]

وقال تبارك وتعالى:{ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } [ص:٢٦].

قَالَ اللهُ تَعَالَى لِدَاوُدَ:إِنَّهُ جَعَلَهُ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ،نَافِذَ الكَلِمَةِ والحُكْمِ بَينَ الرَّعِيَّةِ،فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَالعَدْلِ،وَأَنْ لاَ يَتَّبعَ الهَوَى لأَنَّ اتِّبَاعَ الهَوَى يَكُونُ سَبَباً لِلضَّلاَلَةِ وَالجَوْرِ

[٦٨] - التفسير الميسر (١/ ٨٧)

عَنِ الطَّرِيقِ القَويمِ الذي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى.ثَمَّ يَقُولُ تَعَالَى:إنَّ الذينَ يَضلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَهُدَاهُ لَهُمْ فِي الآخرَةِ (يَوْمَ الحِسَابِ) عَذَابٌ شَديدٌ لنسْيَانِهِمْ ذَلِكَ اليَومَ،وَإِنَّ اللهَ سَيُحَاسِبُ العِبَادَ فِيهِ عَلَى أَعَمَالِهِمْ جَميعاً،صَغيرِهَا وَكَبِيرِهَا.[٦٩]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِوُلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ فَيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ وَقَدْ تَوَعَّدَ [اللَّهُ] تَعَالَى مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ،وَتَنَاسَى يَوْمَ الْحِسَابِ،بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ.
قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ،حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ جَنَاحٍ،حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ أَبُو زُرْعَةَ -وَكَانَ قَدْ قَرَأَ الْكِتَابَ-أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ:أَيُحَاسَبُ الْخَلِيفَةُ فَإِنَّكَ قَدْ قَرَأْتَ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ،وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَفَقِهْتَ؟ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَقُولُ؟ قَالَ:قُلْ فِي أَمَانٍ.قَلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ أَوْ دَاوُدُ؟ إِنِ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ-جَمَعَ لَهُ النُّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ:{يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ} الْآيَةَ."[٧٠]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله:" فَالْمَقْصُودُ الْوَاجِبُ بِالْوِلَايَاتِ:إصْلَاحُ دِينِ الْخَلْقِ الَّذِي مَتَى فَاتَهُمْ خَسِرُوا خُسْرَانًا مُبِينًا،وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ مَا نَعِمُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا،وَإِصْلَاحُ مَا لَا يَقُومُ الدِّينُ إلَّا بِهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُمْ.وَهُوَ نَوْعَانِ:قَسْمُ الْمَالِ بَيْنَ مُسْتَحِقِّيهِ،وَعُقُوبَاتُ الْمُتَعَدِّينَ،فَمَنْ لَمْ يَعْتَدِ أَصْلَحَ لَهُ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ.عَنْ أَبِي فِرَاسٍ،قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،أَلاَ إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ،وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ،وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ،أَلاَ وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِ انْطَلَقَ وَقَدِ انْقَطَعَ الْوَحْيُ،وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ،مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ،وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ،سَرَائِرُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ،أَلاَ إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأَنَا أَحْسِبُ أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللَّهَ وَمَا عِنْدَهُ،فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرَةٍ،أَلاَ إِنَّ رِجَالاً قَدْ قَرَؤُوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ،فَأَرِيدُوا اللَّهَ

[٦٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٨٧٥،بترقيم الشاملة آليا)

[٧٠] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٦٢)

بقِرَاءَتِكُمْ،وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ،أَلاَ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ،وَلاَ لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ،وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ،فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ،فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذَنْ لأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ،فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،أَوَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ،فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ،أَئِنَّكَ لَمُقْتَصُّهُ مِنْهُ ؟ قَالَ:إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ،إِذَا لأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ،أَنِّي لاَ أُقِصَّنَّهُ مِنْهُ،وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ،أَلا لاَ تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ،وَلاَ تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ،وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ،وَلاَ تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ..[71]

فَلَمَّا تَغَيَّرَتْ الرَّعِيَّةُ مِنْ وَجْهٍ،وَالرُّعَاةُ مِنْ وَجْهٍ،تَنَاقَضَتِ الْأُمُورُ،فَإِذَا اجْتَهَدَ الرَّاعِي فِي إِصْلَاحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ،كَانَ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ،وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً،وَحَدٌّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَزْكَى فِيهَا مِنْ قَطْرِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[72]

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا:إِمَامٌ عَادِلٌ،وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُ عَذَابًا:إِمَامٌ جَائِرٌ "[73]

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ،يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:الإِمَامُ العَادِلُ،وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ،وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ،وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ،وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ،فَقَالَ:إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ،وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ،أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ،وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ "[74].

---

[71] – مسند أحمد (عالم الكتب) (١/ ١٦٣)(٢٨٦) حسن

[72] – فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١١٨)(١٦) حسن

[73] – مسند أحمد ط الرسالة (١٧/ ٢٦٤)(١١١٧٤) وبنحوه من مرسل ابن شهاب الأموال لابن زنجويه (١/ ٦٩)(١٧) حسن لغيره

[74] – صحيح البخاري (١/ ١٣٣)(٦٦٠) وصحيح مسلم (٢/ ٧١٥)٩١ – (١٠٣١)

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِه:" أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ،مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا،كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ،وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ،وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ،وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ،وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا،وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ،فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ،إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَقَالَ:إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ،وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ،تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ،وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا،فَقُلْتُ:رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً،قَالَ:اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ،وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ،وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ،وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ،وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ،قَالَ:وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ،وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ،وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ،قَالَ:وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ:الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ،الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا،وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ،وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ،وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ «وَذَكَرَ» الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ "[٧٥]

[ش(سبعة) أشخاص وكل من يتصف بصفاقم.(ظله) ظل عرشه وكنف رحمته.(معلق في المساجد) أي شديد الحب لها والملازمة للجماعة فيها.(اجتمعا عليه) اجتمعت قلوبهما وأجسادهما على الحب في الله.(تفرقا) استمرا على تلك المحبة حتى فرق بينهما الموت.(طلبته) دعته للزنا.(ذات منصب) امرأة لها مكانة ووجاهة ومال ونسب.(أخفى) الصدقة وأسرها عند إخراجها.(لا تعلم شماله) كناية عن المبالغة في السر والإخفاء.(خاليا) من الخلاء وهو موضع ليس فيه أحد من الناس.(ففاضت عيناه) ذرفت بالدموع إجلالا لله وشوقا إلى لقائه]

[٧٥] - صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧)٦٣ - (٢٨٦٥)

[ش (كل مال نحلته عبدا حلال) في الكلام حذف أي قال الله تعالى كل مال الخ ومعنى نحلته أعطيته أي كل مال أعطيته عبدا من عبادي فهو له حلال والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك وأنها لم تصر حراما بتحريمهم وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق (حنفاء كلهم) أي مسلمين وقيل طاهرين من المعاصي وقيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية (فاجتالتهم) هكذا هو في نسخ بلادنا فاجتالتهم وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل وقال شمر اجتال الرجل الشيء ذهب به واجتال أموالهم ساقها وذهب بها (فمقتهم) المقت أشد البغض والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ﷺ (إلا بقايا من أهل الكتاب) المراد بهم الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل (إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك) معناه لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده والصبر في الله تعالى وغير

وَفِي السُّنَنِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«الْعَامِلُ عَلَى الصَّدَقَةِ بِالْحَقِّ كَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِه"[٧٦].

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى،لَمَّا أَمَرَ بِالْجِهَادِ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّــه فَــإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣].وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً،وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً،وَيُقَاتِلُ رِيَاءً،أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٧٧].

فَالْمَقْصُودُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ،وَأَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا،وَكَلِمَةُ اللَّهِ اسْــمٌ جَــامِعٌ لِكَلِمَاتِهِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا كِتَابُهُ،وَهَكَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُــمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد:٢٥].

فَالْمَقْصُودُ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ،وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ،أَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ،فِي حُقُوقِ اللَّــهِ،وَحُقُوقِ خَلْقِهِ.ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّــهُ مَــنْ يَنْصُــرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ } [الحديد:٢٥]."[٧٨]

فتحقيق عبودية الله تعالى،وتحكيم شرع الله في الأرض،وإقامة دولة الإسلام،هو الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها،وهو مقصود الجهاد في سبيل الله،وهو الهدف السياسي الذي يجاهد لأجلــه

ذلك وأبتلي بك من أرسلتك إليهم فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته ومن يتخلف وينابذ بالعداوة والكفر ومن ينافق (كتابا لا يغسله الماء) معناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على ممر الزمان (إذا يثلغوا رأسي) أي يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز أي يكسر (نغزك) أي نعينك (لا زبر له) أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي وقيل هو الذي لا مال له وقيل الذي ليس عنده ما يعتمده (لا يتبعون) مخفف ومشدد من الاتباع أي يتبعون ويتبعون وفي بعض النسخ يبتغون أي يطلبون (والخائن الذي لا يخفى له طمع) معنى لا يخفى لا يظهر قال أهل اللغة يقال خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته وكتمته هذا هو المشهور وقيل هما لغتان فيهما جميعا (وذكر البخل أو الكذب) هكذا هو في أكثر النسخ أو الكذب وفي بعضها والكذب والأول هو المشهور في نسخ بلادنا (الشنظير) فسره في الحديث بأنه الفحاش وهو السيئ الخلق]

[٧٦] – سنن أبي داود (٣/ ١٣٢)(٢٩٣٦) صحيح

[٧٧] – صحيح البخاري (١/ ٣٦)(١٢٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٣)(١٥٠ – (١٩٠٤) واللفظ له

[ش (حمية) هي الأنفة والغيرة والمحاماة عن عشيرته]

[٧٨] – السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية –ط١ ت علي نايف الشحود (ص:٢٦) فما بعد

المجاهدون،ويبذل فيه الدماء الصادقون الاستشهاديون،كما قال تعالى:{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) } [الأنفال:٣٩،٤٠]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُقَاتِلُوا الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ حَتَّى لاَ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ يَسْتَطِيعُ فِتْنَةَ المُؤْمِنِينَ،عَنْ دِينِهِمْ بِالعَذَابِ وَالإِيذَاءِ وَالتَّهْدِيد،وَحَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله.فَإِذا انْتَهَى المُشْرِكُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ،وَكَفُّوا عَنْهُ (وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بِوَاطِنَهُمْ) فَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَكِلُوا بِوَاطِنَهُمْ إِلَى اللهِ،فَهُوَ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.

وَإِن اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلاَفِهِمْ لَكُمْ،وَمُحَارَبَتِهِمْ إِيَّاكُم فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِكُمْ،وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّاصِرُ،فَأَيْقِنُوا بِنَصْرِ اللهِ لَكُمْ،وَهُوَ مُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ،فَلاَ تُبَالُوا بِهِمْ،وَلاَ تَخْشَوْهُمْ.[٧٩]

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ الرَّجُلُ:يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ،فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» مُتَّفَقٌ عليه[٨٠].

فالإسلام دين كامل،ونظام شامل للحياة،لا يقيمه إلا الأقوياء الصادقون المجاهدون،فهو لا يقبل التمييع أو الهزل أو الضعف،وإنما جاء ليؤخذ بقوة وجد وصدق،وعندما يأخذه الصادقون بقوة حينها فقط يمكن لهم في الأرض،ويكونون أهلا لحمل الرسالة والأمانة.

وأما المهازيل المهزومون الذين استحوذ عليهم الرعب من أعدائهم،وكبلتهم شهواتهم ورغباتهم،وقعدوا عن الجهاد،وعوقوا وبَطّؤوا غيرهم عنه،فهيهات أن يقيم هؤلاء وأمثالهم دولة الإسلام،فإن سنن الله تعالى لا تتبدل،ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

إن القوة ملازمة لأخذ هذا الدين،وحمل الرسالة،قبل التمكين في الأرض وبعد التمكين،قال تعالى:{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } [مريم:١٢].

---

[٧٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٨٠] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠)(٢٨١٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٣)١٥٠ - (١٩٠٤)

[ش (رجل) قيل هو لاحق بن ضميرة الباهلي رضي الله عنه.(للمغنم) أي من أجل الغنيمة.(للذكر) الشهرة بين الناس.(ليرى مكانه) مرتبته في الشجاعة]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«أُرِيتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أَنْزِعُ بِدَلْوِ بَكْرَةٍ عَلَى قَلِيبٍ،فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا،أَوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا،وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ،ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا،فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ،وَضَرَبُوا بِعَطَنٍ» متفق عليه[81]

وفي رواية لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُرِيتُ أَنِّي أَنْزِعُ عَلَى حَوْضِي أَسْقِي النَّاسَ،فَجَاءَنِي أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ الدَّلْوَ مِنْ يَدِي لِيُرَوِّحَنِي،فَنَزَعَ دَلْوَيْنِ،وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ،وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ،فَجَاءَ ابْنُ الْخَطَّابِ فَأَخَذَ مِنْهُ،فَلَمْ أَرَ نَزْعَ رَجُلٍ قَطُّ أَقْوَى مِنْهُ،حَتَّى تَوَلَّى النَّاسُ،وَالْحَوْضُ مَلْآنُ يَتَفَجَّرُ»[82]

وعن إِبْرَاهِيمَ الْحَرْبِيِّ أنه سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ «حَتَّى ضَرَبَ النَّاسَ بِعَطَنٍ» ؟ قَالَ:يَعْنِي الْمَوْضِعَ الَّذِي فِيهِ الْإِبِلُ،قَالَ:«فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ»،قَالَ:عَبْقَرٌ أَرْضٌ بِالْحِجَازِ،وَقَالَ:عَبْقَرٌ أَرْضٌ بِالْيَمَنِ يَعْمَلُ فِيهَا الْبُسُطُ،يَفْرِي فَرْيَهُ،قَالَ:لَمْ أَرَ أَحَدًا يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَهُ "[83]

وهو يدل على حسن سياسته للرعية،ومناصحته لهم،وتدبيره لشؤونهم،والقوة في ذلك،(قَالَ:الشَّافِعِيُّ) :قَوْلُهُ وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ يَعْنِي قِصَرَ مُدَّتِهِ وَعَجَلَةَ مَوْتِهِ وَشَغْلَهُ بِالْحَرْبِ لِأَهْلِ الرِّدَّةِ عَنْ الِافْتِتَاحِ وَالتَّزَيُّدِ الَّذِي بَلَغَهُ عُمَرُ فِي طُولِ مُدَّتِهِ وَقَوْلُهُ فِي عُمَرَ " فَاسْتَحَالَتْ فِي يَدِهِ غَرْبًا " وَالْغَرْبُ الدَّلْوُ الْعَظِيمُ الَّذِي إنَّمَا تَنْزِعُهُ الدَّابَّةُ أَوْ الزُّرْنُوقُ وَلَا يَنْزِعُهُ الرَّجُلُ بِيَدِهِ

---

[81] - صحيح البخاري (5/ 10)(3682) وصحيح مسلم (4/ 1862)19 - (2393)

[ش (بكرة) بتسكين الكاف هي الشابة من الإبل أي أنزع بدلو يستقى بها وقيل (بكرة) بتحريك الكاف وهي الخشبة المستديرة التي تعلق فيها الدلو.(قليب) هي البئر بعدما حفرت وقبل أن تبنى جدرانها.(عتاق) حسان جمع عتيق وهو الرائع الجيد من كل شيء.(الطنافس) جمع طنفسة وهي البساط الذي له خمل والخمل الأهداب وهو يفسر اللفظ الوارد في قوله تعالى {وزرابي مبثوثة} / الغاشية 16 / أي منشورة ومفرقة]

[82] - صحيح مسلم (4/ 1861)18 - (2392)

[ش (ليروحني) قال العلماء فيه إشارة إلى نيابة أبي بكر عنه وخلافته بعده وراحته ﷺ بوفاته من نصب الدنيا ومشاقها كما قال ﷺ مستريح ومستراح منه الحديث والدنيا سجن المؤمن ولا كرب على أبيك بعد اليوم]

[83] - السنة لأبي بكر بن الخلال (2/ 314)

لطُولِ مُدَّتِهِ وَتَزَيُّدِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يَزَلْ يُعَظِّمُ أَمْرَهُ وَمُنَاصَحَتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ كَمَا يُمْتَحُ الدَّلْوُ الْعَظِيمُ"[٨٤]

وقال ابن رجب رحمه الله:" وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عُمَرَ لَمْ يَمُتْ حَتَّى وَضَعَ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا،وَاسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ،وَذَلِكَ لِطُولِ مُدَّتِهِ،وَتَفَرُّغِهِ لِلْحَوَادِثِ،وَاهْتِمَامِهِ بِهَا،بِخِلَافِ مُدَّةِ أَبِي بَكْرٍ فَإِنَّهَا كَانَتْ قَصِيرَةً،وَكَانَ مَشْغُولًا فِيهَا بِالْفُتُوحِ،وَبَعْثِ الْبُعُوثِ لِلْقِتَالِ،فَلَمْ يَتَفَرَّغْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْحَوَادِثِ،وَرُبَّمَا كَانَ يَقَعُ فِي زَمَنِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ،وَلَا يُرْفَعُ إِلَيْهِ،حَتَّى رُفِعَتْ تِلْكَ الْحَوَادِثُ إِلَى عُمَرَ،فَرَدَّ النَّاسَ فِيهَا إِلَى الْحَقِّ وَحَمَلَهُمْ عَلَى الصَّوَابِ.

وَأَمَّا مَا لَمْ يَجْمَعْ عُمَرُ النَّاسَ عَلَيْهِ،بَلْ كَانَ لَهُ فِيهِ رَأْيٌ،وَهُوَ يُسَوِّغُ لِغَيْرِهِ أَنْ يَرَى رَأْيًا يُخَالِفُ رَأْيَهُ،كَمَسَائِلِ الْجَدِّ مَعَ الْإِخْوَةِ،وَمَسْأَلَةِ طَلَاقِ الْبَتَّةِ،فَلَا يَكُونُ قَوْلُ عُمَرَ فِيهِ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.وَإِنَّمَا وُصِفَ الْخُلَفَاءُ بِالرَّاشِدِينَ،لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ،وَقَضَوْا بِهِ،فَالرَّاشِدُ ضِدُّ الْغَاوِي،وَالْغَاوِي مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَعَمِلَ بِخِلَافِهِ."[٨٥].

فقد كان عمر رضي الله عنه قويا صارما في أمر الله تعالى،لا يخاف في الله لومة لائم،فقوى دعائم الخلافة الراشدة،وفتح بلاد الفرس والشام التي كانت بأيدي الروم وغيرها،وردع أهل النفاق والزيغ،وحاسب الأمراء حتى أصبحت سياسته الراشدة مرجعا في السياسة الشرعية يرجع إليها،ويتأسى بها السياسيون المسلمون من بعده،عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ» رواه البخاري[٨٦]

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ» قَالَ:وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ » رواه الترمذي[٨٧]

وعَنْ عَائِشَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَاصَّةً» رواه الحاكم[٨٨].

---

٨٤ - الأم للشافعي (١/ ١٨٩)

٨٥ - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ١٢٦)

٨٦ - صحيح البخاري (٥/ ٤٨)(٣٨٦٣)

٨٧ - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٦١٧)(٣٦٨١) صحيح

٨٨ - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ٣٠٦)(٦٨٨٢) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٨٩) (٤٤٨٥) صحيح لغيره

السياسة الشرعية لا تعطّل المنافع الدنيوية،التي هي من وسائل إعـداد القوة،وبنـاء الدولـة الإسلامية،والتي منها ما هو من ضرورات الناس وحاجاتهم،وقد قال الله تعالى:{وَمِـنْهُمْ مَـنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) } [البقرة:٢٠١،٢٠٢]

وَإِلى جَانب أُولَئِكَ الْمُهْتَمِّينَ بِأَمْرِ الدُّنْيا فَقَطْ،آخَرُون يَهْتَمُونَ بِأَمْرِ الآخِرَةِ إلى جَانبِ اهْتِمَامِهِمْ بِأَمْرِ الدُّنيا فَيَقُولُونَ:رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيا حَسَنَةً (وَتَشْمَلُ كُلَّ مَطْلَبٍ دُنْيَوِيٍّ) وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً (وَتَشْمَلُ دُخُولَ الجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ)،وَهَذا يَقْتَضِي تَيْسِيرَ أَسْبَابِهِ فِي الدُّنْيا:مِـن اجتِنَـابِ المَحَارِمِ وَالآثَامِ،وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ وَالمُحَرَّمَاتِ.وَهؤلاءِ لَهُمْ نَصِيبٌ مَضْمُونٌ مِمَّا كَسَبُوهُ بِالطَّلَـبِ وَالرُّكُونِ إِلَى اللهِ،لا يُبْطِئُ عَلَيْهِمْ،فَاللهُ تَعَالَى سَرِيعُ الحِسَابِ،وَهُوَ يَجْزِي كُلاً بِمَا يَسْتَحِقُّهُ.[89]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:"الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي مـن عافيـة ودار رحبة وزوجة حسنة ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح ومركب هنيّ جَمَعَتْ هَذِهِ الـدعوةُ كلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا،وصرَفت كُلَّ شَرٍّ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا تشملُ كُلَّ مَطْلُـوبٍ دُنْيَـوِيٍّ،مِنْ عَافِيَةٍ،وَدَارٍ رَحْبَةٍ،وَزَوْجَةٍ حَسَنَةٍ،وَرِزْقٍ وَاسِعٍ،وَعِلْمٍ نَافِعٍ،وَعَمَلٍ صَالِحٍ،وَمَرْكَبٍ هَنِيءٍ،وَثَنَـاءٍ جَمِيلٍ،إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ عباراتُ الْمُفَسِّرِينَ،وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا،فَإِنَّهَا كُلَّهَا مُنْدَرِجَةٌ فِي الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا.وَأَمَّا الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ فَأَعْلَى ذَلِكَ دُخُولُ الْجَنَّةِ وَتَوَابِعُهُ مِنَ الْأَمْنِ مِـنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ فِي العَرَصات،وَتَيْسِيرِ الْحِسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ الصَالحة،وَأَمَّا النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ فَهُوَ يَقْتَضِي تَيْسِيرَ أَسْبَابِهِ فِي الدُّنْيَا،مِنَ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ وَالْآثَامِ وَتَـرْكِ الشُّـبَهَاتِ وَالْحَرَامِ."[90].

---

[89] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٨،بترقيم الشاملة آليا)

[90] – تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٥٥٨)

وأما السياسة التي تبتغي الدنيا ومتعتها فقط،وتعرض عن الآخرة فهي سياسة الكافرين،الـذين قال الله تعالى عنهم:{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)} [هود:١٥،١٦]

مَنْ كَانَ يَطْلُبُ الحَيَاةَ الدُّنْيا،وَالتَّمَتُّعَ بِلَذَّاتِهَا مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ،وَزِينَتَهَا مِنَ الثِّيَاتِ وَالأَثَاثِ وَالأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ،دُونَ اسْتِعدَادٍ للحَيَاةِ الآخِرَةِ بِعَمَلِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ،وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ،نُؤَدِّ إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتِ أَعْمَالِهِمْ وَافِيةً تَامَّةً،وَلاَ يُنْقِصُونَ شَيْئاً مِنْ نَتَاجِ كَسْبِهِمْ لأَجْلِ كُفْرِهِمْ،لأَنَّ مَدَارَ الأَرْزَاقِ عَلَى الأَعْمَالِ لاَ عَلَى النِّيَّاتِ وَالمَقَاصِدِ،فَجَزَاءُ الأَعْمَالِ فِي الدُّنْيا مَنُوطٌ بِأَمْرَينِ:كَسْبِ الإِنْسَانِ،وَقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ.وَأَمَّا جَزَاءُ الآخِرَةِ فَهُوَ بِفِعْلِ اللهِ تَعَالَى بِلاَ وَسَاطَةِ أَحَدٍ.

وَهَؤُلاَءِ الذِينَ لاَ هَمَّ لَهُمْ إِلاَّ الدُّنْيا،وَزِينَتُهَا،وَزُخْرُفُهَا...لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارَ،لأَنَّ الجَزَاءَ فِيهَا مُتَرَتِّبٌ عَلَى الأَعْمَالِ فِي الدُّنْيا،وَهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا فِي دُنْيَاهُمْ لآخِرَتِهِمْ شَيئاً لِيَنْتَفِعُوا بِهِ.[91]

وقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)} [يونس:٧،٨]

إِنَّ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالبَعْثِ وَلِقَاءِ اللهِ فِي الآخِرَةِ،وَاعْتَقَدُوا وَاهِمِينَ أَنَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا هِيَ مُنْتَهَاهُمْ،وَلَيْسَ بَعْدَهَا حَيَاةٌ،فَاطْمَأَنُّوا بِهَا،وَلَم يَعْمَلُوا لِمَا بَعْدَهَا،وَغَفَلُوا عَنْ آيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَى البَعْثِ وَالحِسَابِ...فَهَؤُلاَءِ سَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ،لِيَصْلِيَهُمْ بِنيرَانِهَا،وَسَيَجْعَلُهَا مَأْوًى لَهُمْ وَمَنْزِلاً،جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ،وَعَلَى مَا اكْتَسَبُوا فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ المَعَاصِي وَالآثَامِ وَالخَطَايَا وَالإِجْرَامِ.[92]

وقال تعالى:{وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)} [الروم:٦،٧]

---

[91] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٨٩،بترقيم الشاملة آليا)

[92] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٧٢،بترقيم الشاملة آليا)

وَهذا الذي أَخْبَرَكَ به رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَنَّهُ سَيَنْصُرُ الرُّومَ عَلَى الفُرسِ،هُوَ وَعْدٌ حَقٌّ مِنَ اللهِ تَعَالى،واللهُ لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ أَبداً،لأَنَّ سُنَّتَهُ قَدْ جَرَتْ بِأَنْ يَنْصُرَ أَقْرَبَ الطَّائِفَتَينِ إلى الحَقِّ،وَيَجْعَلَ لَهَا العَاقِبَةَ.ولكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ذلِكَ لِجْهْلِهِمْ،وَعَدَمِ تَفَكُّرِهِمْ في النَّواميسِ التِي وَضَعَهَا اللهُ في الكَوْنِ.وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ إلاَّ بالأُمُورِ الدُّنْيا:كَتَدْبيرِ مَعَايِشِهِمْ،وَتَنْمِيَةِ مَتَاجِرِهِمْ،واسْتِثْمَارِ مَزَارِعِهِمْ..وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ أُمُورِ الدِّينِ،وما يَنْفَعُهُمْ في الآخِرَةِ،كَأَنَّ أَحَدَهُمْ مُغَفَّلٌ لا عَقْلَ لَهُ.[93]

وقال تعالى:{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) } [النجم]

فَأَعْرِضْ عَنْ مِثْلِ هؤُلاءِ الذينَ أَعْرَضُوا عَنِ القُرآنِ وَمَا فِيه مِنَ الحَقِّ والهُدَى،وَجَعَلُوا هَمَّهُمُ الدُّنيا وَمَا فِيها مِنْ مُتَعٍ وَمَلَذَّات،وَاهْجُرْهُمْ وَلاَ تَهْتَمَّ بِمَصيرِهِمْ.وَذلِكَ الذي يَتْبَعُونَه في عَقَائِدهمْ وَأَعْمَالِهِمْ هُوَ مُنْتَهَى مَا وَصَلُوا إليه مِنَ العِلْمِ،وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُفَكِّرُونَ في شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الآخِرَةِ،وَإِنَّما جَعَلُوا الدُّنيا أَكْبَرَ هَمِّهِمْ،وَاللهُ تَعَالى هُوَ الخَالِقُ لِلْخَلْقِ،وَهُوَ العَلِيمُ بِأَحْوالِهِم وَأَفْعَالِهِم وَمَصَالِحِهِم،وَهُوَ الذي يَهدي مَنْ يَشَاءُ،وَهُوَ العليمُ بِمَنْ جَعَلَ العَمَلَ للآخِرَةِ هَمَّهُ،وَسَعَى لَها سَعْيَها،وَمَنْ جَعَلَ الدُّنيا هَمَّهُ،وَسَعَى في طَلَبِها مِنْ كُلِّ بَابٍ،وَسَيَجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الجَزاءِ.[94].

وتأمل كيف قرن الله تعالى بين تمكين ذي القرنين في الأرض وبين الأسباب التي أعطاها إياه،فقال تعالى:{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا } [الكهف:٨٤]،والسبب هو ما يتوصل به إلى نيل الغرض والمقصود،فآتاه الله من كل شيء ما يتوصل به إلى أغراضه وأهدافه من تقوية سلطانه،وإقامة العدل والنظام في الأرض،ومنها الأسباب التي غلب بها الأعداء وفتح بها البلاد وكف بها المفسدين في الأرض،ومنها الأسباب التي مكنته من العمران والبناء،والانتقال إلى مشرق الأرض ومغربها،وغيرها من الأسباب.

---

[93] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

[94] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٩٢،بترقيم الشاملة آليا)

والأسباب التي يتسبب بها إلى تقوية الدولة وتثبيت دعائمها واطراد التنمية والإبداع فيها،تكون بالعلم والتخصص فإن العلم من أعظم الأسباب الموصلة إلى تقوية الدولة في جميع المجالات الصناعية والتقنية والطبية وغيرها،وتكون بالقدرة والاستطاعة بإعداد الجنود وتوفر الصناع والعمال والمزارعين وغيرهم،ومن الأسباب الآلات والأجهزة والأموال وغيرها مما يتوصل به إلى الأغراض والمقاصد.

فالمسلم يتخذ الأسباب طاعة لله تعالى ويتوكل على الله،وقد قال تعالى:{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [هود:١٢٣]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الذِي يَعْلَمُ الغَيْبَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ،وَأَنَّ المَرْجِعَ وَالمَآبَ إِلَيْهِ،وَأَنَّهُ سَيُؤْتِي كُلَّ عَامِلٍ جَزَاءَ عَمَلِهِ يَوْمَ الحِسَابِ،فَلَهُ الخَلْقُ وَلَهُ الأَمْرُ كُلُّهُ.ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ،فَإِنَّهُ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ،وَيَقُولُ لَهُ:إِنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَى رَبِّكَ حَالُ مُكَذِّبِيكَ يَا مُحَمَّدُ،فَهُوَ عَالِمٌ،بِأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ،وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الجَزَاءِ،فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ،وَسَيَنْصُرُكَ وَحِزْبَكَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.[٩٥]

فجمع الله تعالى في الآية بين العبادة ومنها اتخاذ الأسباب والتوكل.

وقال تعالى:{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) } [المزمل]

وَدُمْ عَلَى ذِكْرِ رَبِّكَ لَيْلاً وَنَهَاراً،بِالَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ،وَالتَّحْمِيدِ،والصَّلاَةِ،وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ،وَانْقَطِعْ إِلَيهِ بِالعِبَادَةِ،وَجَرِّدْ نَفْسَكَ إِلَيهِ،وَأَعْرِضْ عَمَّنْ سِوَاهُ.وَاللهُ رَبُّكَ،هُوَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ،وَالمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا،لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ،وَلاَ مَعْبُودَ سِوَاهُ،فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ.[٩٦]

وقال تعالى:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩]

---

[٩٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٥٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٩٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٣٦١،بترقيم الشاملة آليا)

أمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بأَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَهَفَوَاتِهِمْ،وَأنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُم الله،وَأنْ يُشَاوِرَهُمْ فِي الأَمْرِ تَطيِيباً لِقُلُوبِهِمْ،وَشَحْذاً لِهِمَمِهِمْ.ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِه.فَإذا شَاوَرْتَهُمْ فِي الأَمْرِ،وَعَزَمْتَ عَلَى إنْفَاذِه،فَتَوكَّلْ عَلَى الله فيه،لأنَّ اللهَ يُحبُّ مَنْ يَتَوكَّلُ عَلَيْه،وَيَثِقُ بنَصْرِه.[97]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ،خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ،وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ،وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ،فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا،وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ،فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»رواه مسلم[98]

وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ:أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟،قَالَ:«اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ».رواه ابن حبان[99]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرْسَلَ رَاحِلَتِي وَأَتَوَكَّلُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«بَلْ قَيِّدْهَا وَتَوَكَّلْ»[100]

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الزَّاهِدُ الْمُصَنِّفُ:أَصْلُ التَّوَكُّلِ السُّكُونُ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِه،وَهُوَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ،وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ،وَإِذَا تَحَقَّقَ الْعَبْدُ بِذَلِكَ سَكَنَ مِنْهُ الاضْطِرَابُ،وَسَقَطَ عَنْهُ السُّكُونُ إِلَى الْأَبْوَابِ.وَمَنْ صَحَّ تَوَكُّلُهُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى فَوَاتِ حَظِّهِ،وَلَا إِلَى إِصَابَتِهِ،فَيَسْتَوِي فِيهِ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا؛لِأَنَّهُ إِنَّمَا تَوَكَّلَ عَلَى مَا سَبَقَ،وَسَكَنَ

---

[97] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

[98] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٢)٣٤ - (٢٦٦٤)

[ش (المؤمن القوي خير) المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداما على العدو في الجهاد وأسرع خروجا إليه وذهابا في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلبا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك (وفي كل خير) معناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات (احرص على ما ينفعك) معناه احرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة]

[99] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٥١٠)(٧٣١) حسن

[100] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٧٢٢)(٦٦١٦) وشعب الإيمان (٢/ ٤٢٧)(١١٥٨) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٤/ ١٩٩٤)(٥٠٠٩) حسن

إِلَيْه،وَهُوَ لَا يَدْرِي مَاذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ:فَوَاتُ حَظِّه،أَوْ إِصَابَتُهُ فَأَمَّا مَنْ تَوَكَّلَ لِتَحَـرُّزٍ مِـنْ فَوْت مَا عِنْدَهُ أَوْ نَيْلِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ فَلَيْسَ بِمُتَوَكِّلٍ عَلَى الْحَقِيقَة،أَوْ قَدْ يَجُوزُ فِي قَـدَرِ اللَّـه تَعَالَى فَوْتُ مَا عِنْدَهُ،وَحِرْمَانُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ،وَلَا مَرَدَّ لِقَضَاءِ اللَّه،وَلَا رَادَّ لِحُكْمه،فَسَوَاءٌ تَوَكَّـلَ أَوْ تَمَسَّكَ بِالسَّبَب،وَاخْتَلَطَ فِي الطَّلَب،أَلَا يَرَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«لَوْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّه حَـقَّ تَوَكُّله،لَرَزَقَكُمُ اللَّهُ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ،تَغْدُو خِمَاصًا،وَتَعُودُ بِطَانًا»[101].،وَمَعْلُومٌ أَنَّ الطَّيْـرَ لَـا تَوَكُّلَ لَهَا،وَلَكِنَّهَا لَا تَلْتَفِتُ إِلَى فَوَات أَوْ نَيْلٍ،فَقَالَ:لَوْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ غَيْرَ مُلْتَفِتِينَ إِلَى الْأَسْـبَابِ وَلَا مُتَعَلِّقِينَ بِهَا،وَلَا مُضْطَرِّينَ فِيمَا تُكُفِّلَ لَكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ لَأَدْرَكْتُمْ مَا قُسِمَ لَكُمْ مِـنْ غَيْـرِ حَرْث،وَلَا زَرْعٍ،وَلَا تَكَلُّف،فَأَمَّا التَّحَرُّزُ لِدَفْعِ الْمَضَارِّ وَالْمَكَارِه وَحِفْظِ الْحُظُوظِ وَنَيْلِهَا،فَإِنَّهَـا مَأْذُونٌ فِيهَا غَيْرُ مَدْعُوٍّ إِلَيْهَا،إِلَّا مَا كَانَ فِيهَا مَنْفَعَةٌ لِلْأَغْيَار،وَصَوْنًا لِلدِّينِ الْوَطَنِيِّ،وَالدَّلِيلُ عَلَـى ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي صِفَة السَّابِقِينَ قَالَ:«هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ،وَلَا يَسْتَرْقُونَ،وَلَا يَكْوُونَ،وَلَـا يَكْتَوُونَ،وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[102] وَقَدْ رَقَى رَسُوُل اللَّه ﷺ،وَعَلَّمَ الْمَعَاوِذَ،وَكَوَى سَعْدُ بْـنُ الرَّبِيعِ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ:«لَا تَلُومُنَّ فِي أَبِي أُمَامَةَ» يَعْنِي سَعْدَ بْنَ الرَّبِيـعِ فَكَـوَاهُ،يَعْنِي:لَـأُعْزَرَنَّ فِيه،فَأَخْبَرَ أَنَّ التَّوَكُّلَ رَفْضُ هَذِه الْأَسْـبَاب؛لِأَنَّ الرُّقَـى وَالْكَـيَّ إِنَّمَـا يُسْـتَعْمَلَان رَجَـاءَ الْعَافِيَة،وَالْمُتَوَكِّلُ لَا يُبَالِي بِالْمَرَضِ وَالصِّحَّة،وَإِنَّمَا يَخْتَارُ مَا يَكُونُ مَا لَا يُرِيدُ،وَيَكُونُ سُـكُونُهُ إِلَى مَا سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ مِنْ صِحَّة،أَوْ مَرَضٍ،أَوْ نَيْلٍ،أَوْ فَوَات،فَإِنَّهَا الْأَسْبَابُ الَّتِي جَاءَ التَّرْغِيبُ فِيهَا مِنَ الْمَكَاسِبِ وَالْحِرَفِ وَالتِّجَارَات،فَعَلَى شَرْطِ التَّعَاوُنِ نَصَحَ،وَالْمُتَوَكِّلُ يَفْعَـلُ هَذِه كُلَّهَا لَا يَجْتَرُّ بِهَا نَفْعًا إِلَى نَفْسه،لَكِنْ لِيَنْفَعَ الْأَغْيَارَ،وَيَصُونَ بِه عِرْضَهُ وَدِينَهُ.وَرُوِيَ عَـنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا اسْتِعْفَافًا عَنِ الْمَسْأَلَة وَسَعْيًا عَلَى عِيَاله،وَتَعَطُّفًا عَلَـى جَارِه لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى وَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ،وَمَنْ طَلَبَهَا حَلَالًا مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ عَلَيْه غَضْبَانُ»[103] فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ تَنَاوُلَ الْأَسْبَابِ لِصَوْنِ الدِّينِ وَالْعِرْضِ،وَنَفْعِ الْغَيْرِ،فَأَمَّا مَـا يُتَحَرَّزُ بِه مِنَ الْآفَات فَهُوَ غَيْرُ مُعَوَّلٍ إِلَيْهَا إِلَّا أَنَّهُ مَأْذُونٌ فِيهَا إِلَّا مَا يُتَحَرَّزُ بِـه مِـنْ آفَـات

---

[101] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٥٠٩)(٧٣٠) صحيح

[102] - صحيح مسلم (١/ ١٩٩) ٣٧٤ - (٢٢٠)

[103] - شعب الإيمان (١٣/ ١٧)(٩٨٨٩) حسن لغيره

الْأَغْيَارِ.وَقَوْلُهُ ﷺ:«قَيِّدْ وَتَوَكَّلْ»،إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ التَّوَكُّلَ؛لِئَلَّا تَفُوتَهُ فَائِتَةٌ،وَكَانَ تَوَكُّلُهُ لِتَحَرُّزٍ مِنَ الْآفَةِ لَا سُكُونٍ إِلَى الْمُقَدَّرِ،فَاحْتَاطَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّحَرُّزِ،فَقَالَ:قَيِّدْ لِتَبْلُغَ الْعُذْرَ فِي التَّحَرُّزِ،وَتَوَكَّلْ لِئَلَّا تُؤْتَى إِنْ أُتِيتَ مِنْ جِهَةِ الْخِلَافِ،وَهُوَ أَنْ تُرَدَّ إِلَى فِعْلِكَ وَتَحَرُّزِكَ،فَيَكُونَ قَدْ أَحْكَمْتَ مِنَ الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا،وَكَذَا الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْتَشَارٍ أَنْ يَحْتَاطَ إِلَى الْمُسْتَشِيرِ،وَيَدُلَّ عَلَى أَحْكَمِ الْأُمُورِ،وَأَوْثَقِ الْأَسْبَابِ،وَأَبْعَدِهَا عَنْ مَوَاضِعِ التَّلَفِ؛لِأَنَّ الْمُسْتَشِيرَ طَالِبٌ لِلْأَرْفَقِ بِهِ مُؤْثِرٌ لَهُ،خَائِفٌ مِنْ ضِدِّهِ،لَمْ يَسْتَكْمِلْ قُوَّةَ التَّوَكُّلِ وَالسُّكُونِ إِلَى مَا قُدِّرَ لَهُ،فَهُوَ كَالْمُضْطَرِبِ فِيهِ.أَلَا يَرَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ:«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ،فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»[104]،وَقَالَ لِبِلَالٍ:«أَنْفِقْ بِلَالُ،وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا»[105]،وَقَالَ لَهُ لَمَّا خَبَّأَ لَهُ شَيْئًا:«أَمَا تَخْشَى أَنْ يُخْسَفَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»[106]،وَكَانَ خَبَّأَ لَهُ شَيْئًا مِنْ تَمْرٍ؛لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ مُسْتَكْمِلَ التَّوَكُّلِ سَاكِنًا إِلَى مَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرَ مُضْطَرِبٍ فِيهِ،وَلَا مُلْتَفِتٍ إِلَى نَفْسِهِ،بَلْ كَانَ نَظَرُهُ إِلَى مَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ،سَوَاءٌ كَانَ فِيهِ رِفْقُهُ أَوْ غَيْرُهُ ،وَعَلِمَ مِنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ مَيْلًا إِلَى رِفْقِهِ وَإِيثَارًا لِحَظِّهِ،فَقَالَ لَهُ:« أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ» لِئَلَّا يَضْطَرِبَ سِرُّهُ،وَكَذَلِكَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ حِينَ قَالَ:أُقَيِّدُ وَأَتَوَكَّلُ،كَأَنَّهُ قَالَ:بِأَيِّهِمَا أَحْتَاطُ لِنَفْسِي بِالْقَيْدِ أَوْ بِالتَّوَكُّلِ؟ فَقَالَ:بِكِلَا الْأَمْرَيْنِ لِيَتِمَّ سُكُونُكَ،وَلَا يَضْطَرِبَ سِرُّكَ "[107]

وأما تعطيل أسباب بناء الدولة ووسائل القوة فهو من الجهل والضلال عن هدي القرآن وسنة خير المرسلين عليه الصلاة والسلام.

والآية تعم كل سبب مشروع يوصل إلى المقاصد الشرعية العظيمة،فإن الأمة مأمورة بتحصيله والتوصل به إلى إقامة دولة الإسلام في الأرض وتقويتها،وحمل رسالة الإسلام وإبلاغها للعالم،والجهاد في سبيل الله وغيرها من المقاصد الشرعية.

السياسة العادلة

[104] - صحيح البخاري (٤/ ٢٧٥٧)

[105] - شعب الإيمان (٢/ ٤٨٣)(١٢٨٣) صحيح

[106] - معجم ابن عساكر (١/ ٢٨٥)(٣٣٥) حسن لغيره

[107] - بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص:١٢٨) - زياة مني

السياسة العادلة هي جزء من شرع الله تعالى،وأما السياسة الظالمة فليست من شرع الله تعالى،بل شرع الله تعالى جاء بإنكارها وإزالتها كغيرها من المنكرات والمحرّمات.

عَنْ فُرَاتٍ الْقَزَّازِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ،قَالَ:قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ،فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ،كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ،وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي،وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ» قَالُوا:فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:«فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ،أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ» متفق عليه[108].

فولاة الأمر في الأمة يخلفون رسول الله ﷺ في سياسة الأمة السياسة العادلة،عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قَالَ:سَمِعْتُهُ يَقُولُ:قَامَ عَلِيٌّ عَلَى الْمِنْبَرِ فَذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ،فَعَمِلَ بِعَمَلِهِ وَسَارَ بِسِيرَتِهِ،حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ،ثُمَّ اسْتُخْلِفَ عُمَرُ فَعَمِلَ بِعَمَلِهِمَا،وَسَارَ بِسِيرَتِهِمَا،حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ.[109].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَوُلَاةُ الْأُمُورِ فِينَا هُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ في الْحَدِيثِ الصَّحِيحِعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ،كُلَّمَا ذَهَبَ نَبِيٌّ خَلَفَ نَبِيٌّ،وَإِنَّهُ لَيْسَ كَائِنٌ فِيكُمْ نَبِيٌّ بَعْدِي»،قَالَ:فَكَيْفَ يَكُونُ؟،قَالَ:«تَكُونُ خُلَفَاءُ وَتَكْثُرُ»،قَالُوا:فَكَيْفَ نَصْنَعُ؟،قَالَ:«فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ،أَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْأَلُهُمُ الَّذِي عَلَيْهِمْ»[110]

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ،قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ،فَأَتَاهُ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ،إِنِّي أَتَيْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ فِي حَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ،أَمَا جِئْتَ لِتِجَارَةٍ،أَمَا جِئْتَ إِلَّا لِهَذَا الْحَدِيثِ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:فَإِنِّي

---

[108] - صحيح البخاري (٤/ ١٦٩)(٣٤٥٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٤ - (١٨٤٢)

[ش(تسوسهم) تتولى أمورهم والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه.(فيكثرون) أي يكون أكثر من حاكم واحد للمسلمين في زمن واحد.(فوا) من الوفاء.(ببيعة الأول فالأول) أي إن الذي تولى الأمر وبويع قبل غيره هو صاحب البيعة الصحيحة التي يجب الوفاء بها وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها مطلقا.(أعطوهم حقهم) أطيعوهم في غير معصية.(سائلهم) محاسبهم بالخير والشر عن حال رعيتهم]

[109] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ١٠١)(٧٢) حسن

[110] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤١٠)(٧١٣١) صحيح

سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ،يَقُولُ:«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فيه علْمًا،سَلَكَ اللَّهُ به طَرِيقًا منْ طُرُق الْجَنَّة،وَالْمَلَائكَةُ تَضَعُ أَجْنحَتَهَا رضًا لطَالب الْعلْـم،وَإِنَّ الْعَـالمَ يَسْـتَغْفرُ لَـهُ مَـنْ فـي السَّمَاوَات،وَمَنْ في الْأَرْض،وَالْحيتَانُ في الْمَاء،وَفَضْلُ الْعَالم عَلَى الْعَابد،كَفَضْل الْقَمَـر لَيْلَـةَ الْبَدْر عَلَى سَائر الْكَوَاكب،إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبيَاء،إِنَّ الْأَنْبيَـاءَ لَـمْ يُوَرِّثُـوا دينَـارًا وَلَـا درْهَمًا،وَأَوْرَثُوا الْعلْمَ،فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافرٍ».[111]

وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«رَحْمَةُ اللَّه عَلَى خُلَفَائي» ثَلَاثَ مَـرَّات قَـالُوا:وَمَـنْ خُلَفَاؤُكَ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ:«الَّذينَ يُحْيُونَ سُنَّتي وَيُعَلِّمُونَهَا عبَادَ اللَّه»[112] .

فَهَؤُلَاء هُمْ وُلَاةُ الْأَمْر بَعْدَهُ وَهُمْ الْأُمَرَاءُ وَالْعُلَمَاءُ"[113]

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:أَي أَنَّهُم كانُوا إِذا ظَهَرَ فِيهِم فَساد بَعَثَ الله لَهُم نَبِيًّـا لَهُـم يُقيم أَمرهم ويُزِيل ما غَيَّرُوا من أَحكام التَّوراة،وفيه إِشارَة إِلَى أَنَّهُ لا بُدّ للرَّعِيَّـة مِـن قـائم بِأُمُورها يَحملها عَلَى الطَّرِيق الحَسَنَة ويُنصف المَظلُوم مِنَ الظّالم."[114] .

وعَنْ رَافِعِ بْنِ عَمْرٍو الطَّائيِّ قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ عَمْرَو بْنَ الْعَـاصِ عَلَـى جَـيْشِ ذَات السَّلَاسلِ،وَبَعَثَ مَعَهُ في ذَلكَ الْجَيْشَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا وسَرَاةَ أَصْحَابه،فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا جَبَلَ طَيِّئٍ،فَقَالَ عَمْرٌو:انْظُرُوا إِلَى رَجُلٍ دَليلٍ بالطَّرِيق،فَقَالُوا:مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا رَافعَ بْـنَ عَمْرٍو،فإِنَّهُ كَانَ رَبِيلًا في الْجَاهليَّة – فَسَأَلْتُ طَارِقًا:مَا الرَّبِيلُ؟ قَالَ:اللِّصُّ الَّذي يَغْـزُو الْقَـوْمَ وَحْدَهُ فَيَسْرِقُ – قَالَ رَافعُ:فَلَمَّا قَضَيْنَا غَزَاتنَا وَانْتَهَيْتُ إِلَى الْمَكَـان الَّـذي كُنَّـا خَرَجْنَـا منْهُ،تَوَسَّمْتُ أَبَا بَكْرٍ،رَضيَ اللهُ عَنْهُ،فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ:يَا صَاحبَ الْخَلَّال إِنِّي تَوَسَّمْتُكَ مِـنْ بَـيْنِ أَصْحَابكَ،فَائتني بشَيْءٍ إِذَا حَفظْتُهُ كُنْتُ مثْلَكُمْ فَقَـالَ:«أَتَحْفَـظُ أَصَـابعَكَ الْخَمْـسَ؟»

---

[111] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ٢٨٩)(٨٨) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتمٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ:في هَذَا الْحَديث بَيَانٌ وَاضحٌ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذينَ لَهُمُ الْفَضْلُ الَّذي ذَكَرْنَا،هُمُ الَّذينَ يُعَلِّمُونَ علْمَ النَّبيِّ ﷺ،دُونَ غَيْره منْ سَائر الْعُلُوم،أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ:«الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبيَاء» وَالْأَنْبيَاءُ لَمْ يُوَرِّثُوا إِلَّا الْعلْمَ،وَعلْمُ نَبيِّنَا ﷺسُنَّتُهُ،فَمَنْ تَعَرَّى عَنْ مَعْرفَتهَا لَمْ يَكُنْ منْ وَرَثَة الْأَنْبيَاء.

[112] – جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٠٧)(٢٢٠) والإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٢٠١)(٣٧) صحيح مرسل

[113] – مجموع الفتاوى (١٩/ ١١٧)

[114] – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٦/ ٤٩٧)

قُلْتُ:نَعَمْ،قَالَ:«تَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،وَتُقِيمُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ،وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ إِنْ كَانَ لَكَ،وَتَحُجُّ الْبَيْتَ،وَتَصُومُ رَمَضَانَ،حَفِظْتُ؟» قُلْتُ:نَعَمْ،قَالَ:«وَأُخْرَى لَا تَؤَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ» قُلْتُ:هَلْ تَكُونُ الْإِمْرَةُ إِلَّا فِيكُمْ أَهْلَ بَدْرٍ؟ قَالَ:«يُوشِكُ أَنْ تَفْشُوَ حَتَّى تَبْلُغَكَ وَمَنْ هُوَ دُونَكَ،إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا بَعَثَ نَبِيَّهُ ﷺ دَخَلَ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ،فَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ فَهَدَاهُ اللهُ،وَمِنْهُمْ مَنْ أَكْرَهَهُ السَّيْفُ،فَهُوَ عَوَّادُ اللهِ وَجِيرَانُ اللهِ فِي خِفَارَةِ اللهِ،إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ أَمِيرًا،فَتَظَالَمَ النَّاسُ بَيْنَهُمْ،فَلَمْ يَأْخُذْ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ،انْتَقَمَ اللهُ مِنْهُ،إِنَّ الرَّجُلَ لَتُؤْخَذُ شَاةُ جَارِهِ فَيَظَلُّ نَاتِئَ عَضَلَتِهِ غَضَبًا لِجَارِهِ،وَاللهُ مِنْ وَرَاءِ جَارِهِ» قَالَ رَافِعٌ:فَمَكَثْتُ سَنَةً،ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ اسْتُخْلِفَ،فَرَكِبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ:أَنَا رَافِعٌ،كُنْتُ لَقِيتُكَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا مَكَانَ كَذَا وَكَذَا،قَالَ:«عَرَفْتُ»،قُلْتُ:كُنْتَ نَهَيْتَنِي عَنِ الْإِمَارَةِ،ثُمَّ رَكِبْتَ بِأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ،قَالَ:«نَعَمْ،فَمَنْ لَمْ يُقِمْ فِيهِمْ بِكِتَابِ اللهِ فَعَلَيْهِ بَهْلَةُ اللهِ» يَعْنِي لَعْنَةَ اللهِ"[115].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" ومن له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالها وعدلها وسعتها ومصلحتها وأن الخلق لا صلاح لهم بدونها البتة علم أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها وأن من أحاط علما بمقاصدها ووضعها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة. فإن السياسة نوعان:سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها،وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر وهي من الشريعة علمها من علمها وخفيت على من خفيت عنه"[116]

وقال أيضا:" فَلَا يُقَالُ:إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَادِلَةَ مُخَالِفَةٌ لِمَا نَطَقَ بِهِ الشَّرْعُ،بَلْ هِيَ مُوَافِقَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ،بَلْ هِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَائِهِ،وَنَحْنُ نُسَمِّيهَا سِيَاسَةً تَبَعًا لِمُصْطَلَحِهِمْ،وَإِنَّمَا هِيَ عَدْلُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،ظَهَرَ بِهَذِهِ الْأَمَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ."[117]

وقال أيضا:" وَتَقْسِيمُ بَعْضِهِمْ طُرُقَ الْحُكْمِ إِلَى شَرِيعَةٍ وَسِيَاسَةٍ كَتَقْسِيمِ غَيْرِهِمْ الدِّينَ إِلَى شَرِيعَةٍ وَحَقِيقَةٍ،وَكَتَقْسِيمِ آخَرِينَ الدِّينَ إِلَى عَقْلٍ وَنَقْلٍ،وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْسِيمٌ بَاطِلٌ،بَلْ السِّيَاسَةُ

---

[115] - المعجم الكبير للطبراني (٥/ ٢١)(٤٤٦٧) صحيح

[116] - بدائع الفوائد (٣/ ١١٧)

[117] - الطرق الحكمية (ص:١٤)

وَالْحَقِيقَةُ وَالطَّرِيقَةُ وَالْعَقْلُ كُلُّ ذَلِكَ يَنْقَسِمُ إلَى قِسْمَيْنِ:صَحِيحٌ،وَفَاسِدٌ؛فَالصَّحِيحُ قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِ الشَّرِيعَةِ لَا قَسِيمٌ لَهَا،وَالْبَاطِلُ ضِدُّهَا وَمُنَافِيهَا،وَهَذَا الْأَصْلُ مِنْ أَهَمِّ الْأُصُولِ وَأَنْفَعِهَا،وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ،وَهُوَ عُمُومُ رِسَالَتِهِ - ﷺ - بِالنِّسْبَةِ إلَى كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ الْعِبَادُ فِي مَعَارِفِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ،وَأَنَّهُ لَمْ يُحْوِجْ أُمَّتَهُ إلَى أَحَدٍ بَعْدَهُ،وَإِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إلَى مَنْ يُبَلِّغُهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ بِهِ،فَلِرِسَالَتِهِ عُمُومَانِ مَحْفُوظَانِ لَا يَتَطَرَّقُ إلَيْهِمَا تَخْصِيصٌ:عُمُومٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْمُرْسَلِ إلَيْهِمْ،وَعُمُومٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مَنْ بُعِثَ إلَيْهِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ؛فَرِسَالَتُهُ كَافِيَةٌ شَافِيَةٌ عَامَّةٌ،لَا تُحْوِجُ إلَى سِوَاهَا،وَلَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ بِهِ إلَّا بِإِثْبَاتِ عُمُومِ رِسَالَتِهِ فِي هَذَا وَهَذَا،فَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ الْمُكَلَّفِينَ عَنْ رِسَالَتِهِ،وَلَا يَخْرُجُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَقِّ الَّذِي تَحْتَاجُ إلَيْهِ الْأُمَّةُ فِي عُلُومِهَا وَأَعْمَالِهَا عَمَّا جَاءَ بِهِ."[118]

فإن الله تعالى أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالحق والعدل،كما قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد:٢٥].

فجعل الله تعالى المقصود من إرسال الرسل،وإنزال الكتب قيام الناس بالعدل في حق الله وحقوق العباد،فالقرآن والميزان وهو العدل وما يعرف به العدل متلازمان،فكل ما جاء به شرع الله فهو حق وعدل،وكل ما خرج عن شرع الله وخالفه من سياسات أو أحكام أو غيرها فهو ظلم وجور،وقد قال الله تعالى:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة:٤٥].

فكلُّ حكم غير حكم الله تعالى فهو ظلم وكفر،وكل من حكم بين الناس بغير شرع الله تبارك وتعالى فهو كافر ظالم قد حكم بالظلم،ولو ادّعاه عدلا.



[118] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ٢٨٥)

المبحث الخامس

الاعتصام بالكتاب والسنة

لا يصح إيمان العباد إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة،والتحاكم إليهما في جميع الأقوال والأعمال والسياسات،فإن سياسة الدولة كغيرها من شؤون الحياة الحكم فيها لشرع الله تعالى،ولا يجوز اتباع غير شرع الله في شيء منها،كاتباع الأهواء والاستحسانات العقلية،أو اتباع أنظمة الكفار وقوانينهم أو غيرها،فإن هذا من الشرك بالله تعالى في الحكم والتشريع،وقد قال الله تبارك وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩].

فِي هَذِه الآيَة يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمنِينَ بِإطَاعَته تَعَالَى،وَبالعَمَلِ بكتَابه،وَبإطَاعَة رَسُوله،لأَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ منْ عنْد الله،وَيُبَلِّغُ عَنِ الله شَرْعُ وَأَوَامرَهُ،كَمَا يَأْمُرُ اللهُ بِإطَاعَة أُوْلِي الأمْرِ،منْ حُكَّامٍ وَأُمَرَاءِ وَرُؤَسَاءِ جُنْد،ممَّنْ يَرْجعُ النَّاسُ إلَيْهِمْ فِي الحَاجَات،وَالمَصَالحِ العَامَّة،فَهَؤُلاءِ إذَا اتَّفَقُوا عَلَى أَمْرٍ وَجَبَ أنْ يُطَاعُوا فيه،بشَرْط أنْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ،وَأنْ لاَ يُخَالفُوا أَمْرَ الله،وَلاَ سُنَّةَ نَبِّيه التي عُرِفَتْ بالتَّوَاتُر،وَأنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ فِي بَحْثهِمْ فِي الأَمْرِ،وَاتِّفَاقهِمْ عَلَيْه غَيْرَ مُكْرَهينَ عَلَيه بقُوَّة أَحَد أَوْ نُفُوذه.

وَكُلُّ مَا اخْتَلَفَ فيه المُسْلمُونَ فَمنَ الوَاجب رَدُّهُ إلى كتَاب الله،وَسُنَّة رَسُوله،وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلكَ،وَيَحْتَكمْ إلَى كتَاب الله وَسُنَّةَ نَبِيِّه،فَلَيْسَ مُؤْمناً بالله وَلاَ باليَوْم الآخر.

وَمَنْ يَحْتَكم إلى شَرْعِ الله،وَسُنَّة رَسُوله،فَذَلكَ خَيْرٌ لَهُ وَأَحْسَنُ عَاقبَةً وَمَآلاً (تَأْويلاً)،لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ للنَّاسِ إلاَّ مَا فيه مَصْلَحَتُهُمْ وَمَنْفَعَتُهُمْ،وَالاحْتِكَامِ إلى الشَّرْعِ يَمْنَعُ الاخْتِلافَ المُؤَدِّي إلَى التَّنَازُعِ وَالضَّلاَل.[١١٩]

[١١٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى:{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران:١٠٣].

يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللهِ،أيْ بِعَهْدِهِ وَدِينِهِ وَذِمَّتِهِ وَقُرْآنِهِ،وَمَا أمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الإلْفَةِ وَالمَحَبَّةِ وَالاجْتِمَاعِ،وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ،وَيَطْلُبُ إلَيْهِمْ أنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيهِمْ إذْ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ،وَآخَى بَيْنَهُم بَعْدَ العَدَاوَةِ الْمُسْتَحْكِمَةِ،وَالفُرْقَةِ التِي كَانَتْ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ،فَقَدْ كَانُوا عَلَى مِثْلِ شَفِيرِ النَّارِ،بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلاَلِهِمْ وَاقْتِتَالِهِمْ،فَهَدَاهُمُ اللهُ وَأَنْقَذَهُمْ.

وَكَمَا بَيَّنَ لَهُمْ رَبُّهُمْ،فِي هَذِهِ الآيَاتِ،مَا يُضْمِرُهُ لَهُمُ اليَهُودُ مِنْ شَرٍّ وَخِدَاعٍ وَغِشٍّ،وَمَا كَانُوا عَلَيهِ فِي حَالِ جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَفُرْقَةٍ وَاقْتِتَالٍ،وَمَا صَارُوا إليهِ بِفَضْلِ الإسْلاَمِ مِنْ وَحْدَةٍ وَإِخَاءٍ،كَذَلِكَ يُبَيِّن سَائِرَ حُجَجِهِ فِي تَنْزِيلِهِ عَلَى رَسُولِهِ،لِيُعِدَّهُمْ لِلاهْتِدَاءِ الدَّائِمِ،حَتَّى لا يَعُودُوا إلى عَمَلِ أهْلِ الجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالعَدَاوَةِ وَالاقْتِتَالِ.[120]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ:{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا} [آل عمران:١٠٣]،قَالَ:" حَبْلُ اللَّهِ:الْقُرْآنُ "[121]

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:" إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ،تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ يُنَادُونَ:يَا عِبَادَ اللَّهِ،هَذَا الطَّرِيقُ فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ،فَإِنَّ حَبْلَ اللَّهِ الْقُرْآنُ "[122]

فأمر تعالى بالاعتصام بكتابه والاجتماع على ذلك،ونهى عن التفرق والاختلاف الذي منشأه من اتباع الأهواء والبدع والشهوات،عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ،قَالَ :خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ :أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟ قَالُوا :نَعَمْ،قَالَ :فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ،فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا.[123]

---

[120] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٦،بترقيم الشاملة آليا) —

[121] - التفسير من سنن سعيد بن منصور - مخرجا (٣/ ١٠٨٣)(٥١٩) صحيح

[122] - سنن الدارمي (٤/ ٢٠٩١)(٣٣٦٠) صحيح —

[123] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٤٦١)(٣٠٦٢٨) والمعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ١٨٨)(٤٩١) صحيح

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ،قَالَ:خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«أَبْشِرُوا وَأَبْشِرُوا،أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ » قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:«فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ،وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ،فَتَمَسَّكُوا بِهِ،فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا،وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا».[١٢٤]

وقد نهى الله تعالى عباده أن يتفرّقوا كما تفرّق واختلف الذين من قبلهم من الأمم الماضية اتباعا لأهوائهم،من بعد ما جاءهم البيّنات الموجبة لهدايتهم واجتماعهم،فقال تبارك وتعالى:{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) } [آل عمران]

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى المُسْلِمينَ عَنْ أنْ يَكُونُوا كَأَهْلِ الكِتَابِ الذينَ تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ،وَكَانُوا شِيعاً تَذْهَبُ كُل شيعَة مِنْهَا مَذْهَباً تَدْعُو إليه،وَتُخَطِّئُ غَيْرَها،وَلِذَلِكَ تَعَادَوْا وَاقْتَتَلُوا.

وَلَوْ كَانَ فيهِمْ جَمَاعَةٌ تَأْمُرُ بالمَعْرُوف،وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ،وَتَتَّجِهُ إلى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ،لَمَا تَفَرَّقُوا،وَلَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.وَهَؤُلاءِ المُخْتَلِفُونَ المُتَفَرِّقُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخُسْرَانٌ فِي الدُّنيا،وَعَذَابٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ.

وَفِي يَوْمِ القِيَامَةِ تَبْيَضُ وُجُوهُ المُؤْمِنِينَ،وَيُسَرُّونَ لِمَا يَعْمَلُونَهُ مِنْ حُسْنِ العَاقِبَةِ.وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الكُفْرِ وَالضَّلاَلَةِ وَالاخْتِلاف،لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ،وَمَا يَحِلُّ بِهَا مِنَ النَّكَالِ وَالوَبَالِ.وَيَسْأَلُ الذينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالاخْتِلاَف،وَيُقَالُ لَهُمْ:أَكَفَرْتُمْ بالله،وَخَالَفْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الاعْتِصَامِ بِحَبْلِ الله،وَبالوِفَاقِ وَاتِّحَادِ الكَلِمَةِ؟ فَذُوقُوا العَذَابَ الذي تَسْتَحِقُونَهُ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ.

وَأَمَّا المُؤْمِنُونَ الذينَ ابْيضَّتْ وُجُوهُهُمْ بالإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ،وَباتِّحَادِ الكَلِمَةِ،وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ،فَيَكُونُونَ فِي الدُّنيا فِي نَعِيمٍ،مَا دَامُوا عَلى تِلْكَ الحَالِ،وَيَكُونُونَ فِي الآخِرَةِ فِي رَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ،وَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ لِيَكُونُوا فِيهَا خَالِدينَ أَبداً.[١٢٥]

---

[١٢٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٣٢٩)(١٢٢) صحيح

[١٢٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٨،بترقيم الشاملة آليا) —

يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ:وَلَا تَكُونُوا يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاخْتَلَفُوا فِي دِينِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ،مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ،فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ،وَعَلِمُوا الْحَقَّ فِيهِ،فَتَعَمَّدُوا خِلَافَهُ،وَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ،وَنَقَضُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ،جَرَاءَةً عَلَى اللَّهِ،وَأُولَئِكَ لَهُمْ:يَعْنِي وَلِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا،وَاخْتَلَفُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ عَذَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَظِيمٌ،يَقُولُ جَلَّ ثناؤُهُ:فَلَا تَفَرَّقُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دِينِكُمْ تَفَرُّقَ هَؤُلَاءِ فِي دِينِهِمْ،وَلَا تَفْعَلُوا فِعْلَهُمْ،وَتَسْتَنُّوا فِي دِينِكُمْ بِسُنَّتِهِمْ،فَيَكُونَ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ[126]

وإذ يأمر الله تعالى الجماعة الإسلامية بهذا،فإنه يحذّرها من أن تذهب مذاهب

وقوله تعالى:«يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» الظرف هنا متعلق بقوله تعالى:«وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ..» أي أنهم يعذبون عذابا أليما فى هذا اليوم،يوم الحساب والجزاء..يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه..

وابيضاض الوجوه واسودادها،كناية عن البهجة والنعيم الذي يعلو وجوه المؤمنين،والخزي والسوء الذي يحيط بالكافرين،فى ذلك اليوم العظيم.

وفى قوله تعالى:«فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ» بيان لما أجمل فى قوله تعالى:«يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» .

و لم يجىء هذا التفصيل مرتبا على حسب ما جاء فى المجمل قبله،إذ كان الترتيب يقضى بأن يبدأ بالذين ابيضت وجوههم،حيث بدئ بهم أولا.

والذي جاء عليه النظم القرآنى،هو البيان المبين،الذي هو سمة الإعجاز من كلام ربّ العالمين،فقدّم أولا الذين ابيضت وجوههم وهم المؤمنون،لأن ذلك كان تعقيبا على ذكر الأمة الإسلامية،وما ينبغى لها أن تصون نفسها عنه،مما وقع فيه أهل الكتاب من فرقة وخلاف،كان لعلمائهم فيه الدور الأول..ثم ذكر إزاء هذه الصورة صورة أهل الكتاب،وما يكون عليهم حالهم يوم القيامة:«يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ» المؤمنين «وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» الكافرين من أهل الكتاب! ..وفى هذا ما فيه من تطمين للأمة الإسلامية،وترسيخ لأقدامها على الإيمان،والوحدة والألفة.

---

[126] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٦٦٢)

فإذا جاء تفصيل هذا الإجمال،ووقع تأويله،وسيق الناس إلى الحساب والجــزاء قــدّم أولئــك الكافرون،ليقفوا موقف المذنبين للمحاكمة،و لم يمهلوا،وذلك إشعار لفظاعة جرمهم،وشــناعة ذنبهم،الذي يقتضى تعجيل الجزاء السيّء الذي ينتظرهم..وهــذا مــا يشــير إليــه قولــه تعالى:«أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّــفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ» (٨٧،٨٨:آل عمران) .

وفى التعجيل بعرض هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب ما يدخل الطمأنينة على المؤمنين،الــذين ينتظرون دورهم فى ساحة الحكم..فهذا الحكم الذي يقضى به على هؤلاء الكافرين فيه براءة ضمنية لغيرهم من المؤمنين،ولكنها براءة مشوبة بالخوف،محفوفة بالخشية..فإذا جاء بعدها هذا الرضوان الذي يفتح لهم أبواب الجنات،وما يلقون فيها من نعيم- زادهــم ذلــك نعيمــا إلى نعيم،ورضوانا إلى رضوان..

«فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُــرُونَ وَأَمَّــا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» .

وانظر كيف كانت مساءلة الكافرين،وكيف كان خزيهم وعيّهم عن ردّ الجواب «أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ؟» ..ثم انظر كيف كان الجواب على هذا السؤال:«فَــذُوقُوا الْعَــذابَ بِمــا كُنْــتُمْ تَكْفُرُونَ» وفى قوله تعالى:«أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ» إشارة إلى أن هؤلاء الكــافرين هــم أهــل الكتاب الذين تحولوا من الإيمان إلى الكفر،وهم الذين أشار إليهم الله سبحانه وتعالى فى قولــه تعالى:«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّــالُّونَ» (٩١:آل عمران) وفى قوله تعالى:«فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» إشارة ثانية إلى هــؤلاء الكافرين من أهل الكتاب الذين كذّبوا بمحمد،وكفروا بآيات الله التي بين أيديهم،فيما تحدّث به عنه.

والمعنى:فذوقوا العذاب بسبب هذا الذي كنتم تكفرون به،وهو «محمد» وما تحدثكم به التوراة عنه.ثم انظر بعد هذا،وفى الجانب الآخر من الصورة،تجد المؤمنين وقــد انتقلــوا مــن هــذا

الموقف،موقف المحاكمة،فى لحظة خاطفة،دون أن يسألوا..فإذا هم فى رحمـــة الله هـــم فيهـــا خالدون..«وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ» .[127]

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ،قَالَ:«أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الِاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ ،وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ»[128]

وأخرج ابن جرير عَنِ الرَّبِيعِ،فِي قَوْلِهِ:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [آل عمران:١٠٥] قَالَ:" هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ،نَهَى اللَّـــهُ أَهْـــلَ الْإِسْـــلَامِ أَنْ يَتَفَرَّقُـــوا وَيَخْتَلِفُوا،كَمَا تَفَرَّقَ وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْكِتَابِ،قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِـــيمٌ} [آل عمران:١٠٥] "[129]

وعَنِ الْحَسَنِ،فِي قَوْلِهِ:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَـــا جَـــاءَهُمُ الْبَيِّنَـــاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥] قَالَ «هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى»[130]

وعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ،قَوْلَهُ:{وَلَا تَكُونُوا} [آل عمران:١٠٥] يَعْنِي:لِلْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ:لَا تَكُونُـــوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مُوسَى،فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَفَرَّقُوا مِنْ بَعْـــدِ نَبِـــيِّهِمْ كَفِعْلِ الْيَهُودِ"[131]

وعَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ ،قَالَ:لَقِيتُ الشَّعْبِيَّ ،فَقَالَ:«مَا حَـــدَّثُوكَ عَـــنْ أَصْـــحَابِ مُحَمَّـــدٍ ﷺ فَخُذْ،وَمَا حَدَّثُوكَ سِوَى ذَلِكَ فَأَلْقِهِ فِي الْحُشِّ»[132]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،قَالَ:«إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَشَـــعَّبَتْ بِهِـــمُ السُّـــبُلُ وَحَـــادُوا عَـــنِ الطَّرِيقِ،فَتَرَكُوا الْآثَارَ وَقَالُوا فِي الدِّينِ بِرَأْيِهِمْ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[133]

---

[127] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٥٤٢)

[128] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٤٣)(٢١٢) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٦٧٠) وتفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١٣١٤)(٧٤٢٦) حسن

[129] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٦٦٣) صحيح

[130] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٦٦٣) صحيح

[131] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ٧٢٨)(٣٩٤٧) صحيح

[132] - الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥١٧)(٦٠٧) صحيح

[133] - جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٠٥٠)(٢٠٢٦)حسن

وأخرج عبد بن حميد عَنْ حُمَيْد بْنِ مِهْرَانَ قَالَ:سَأَلْتُ الْحَسَنَ:كَيْفَ يَصْنَعُ أَهْلُ هَذِهِ (الْأَهْوَاءِ الْخَبِيثَةِ) بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي آلِ عِمْرَانَ:{وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} قال:"نبذوها وربّ الكعبة وراء ظهورهم" .[١٣٤]

وقوله تعالى:{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} أي تبيضّ وجوه أهل الإيمان،وتسودّ وجوه أهل الكفر وأهل البدعة والفرقة.

وقال تعالى:{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام:١٥٣]

دَلَّ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ المُوصِلِ إِلَيْهِ تَعَالَى،وَدَعَاهُمْ إلى اتِّبَاعِهِ،فَقَالَ لَهُمْ:إنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً لاَ عِوَجَ فِيهِ،فَعَلَيْكُمْ أنْ تَتَّبِعُوهُ إنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الهِدَايَةَ،وَالفَوْزَ بِرِضَا رَبِّكُمْ وَرِضْوَانِهِ.فَاتَّبِعُوا سَبِيلَ اللهِ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ،لأَنَّهُ سَبِيلٌ وَاضِحٌ وَاحِدٌ،وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ المُتَفَرِّقَةَ المُضِلَّةَ،حَتَّى لا تَتَفَرَّقُوا شِيَعاً وَأَحْزَاباً،وَتَبْعُدُوا عَنْ صِرَاطِ اللهِ السَّوِيِّ.[١٣٥]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:وَهَذَا الَّذِي وَصَّاكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ قَوْلِهِ:{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [الأنعام:١٥١] وَأَمَرَكُمْ بِالْوَفَاءِ بِهِ،هُوَ صِرَاطُهُ،يَعْنِي طَرِيقَهُ وَدِينَهُ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ.{مُسْتَقِيمًا} [النساء:٦٨] يَعْنِي:قَوِيمًا لَا اعْوِجَاجَ بِهِ عَنِ الْحَقِّ.{فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام:١٥٣] يَقُولُ:فَاعْمَلُوا بِهِ،وَاجْعَلُوهُ لِأَنْفُسِكُمْ مِنْهَاجًا تَسْلُكُونَهُ فَاتَّبِعُوهُ.{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} [الأنعام:١٥٣] يَقُولُ:وَلَا تَسْلُكُوا طَرِيقًا سِوَاهُ،وَلَا تَرْكَبُوا مَنْهَجًا غَيْرَهُ،وَلَا تَبْغُوا دِينًا خِلَافَهُ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمِلَلِ،فَإِنَّهَا بِدَعٌ وَضَلَالَاتٌ.{فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام:١٥٣] يَقُولُ:فَيُشَتِّتُ بِكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ السُّبُلَ الْمُحْدَثَةَ الَّتِي لَيْسَتْ لِلَّهِ بِسُبُلٍ وَلَا طُرُقٍ وَلَا أَدْيَانٍ،اتِّبَاعَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ،يَعْنِي:عَنْ طَرِيقِهِ وَدِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ لَكُمْ وَارْتَضَاهُ،وَهُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي وَصَّى بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَأَمَرَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَكُمْ.{ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ} [الأنعام:١٥١] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:هَذَا الَّذِي وَصَّاكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ قَوْلِهِ لَكُمْ:إِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ،وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

---

[١٣٤] - الاعتصام للشاطبي ت الشقير والحميد والصيني (١/ ٧٨) صحيح

[١٣٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٤٣،بترقيم الشاملة آليا)

يَقُولُ:لِتَتَّقُوا اللَّهَ فِي أَنْفُسِكُمْ فَلَا تُهْلِكُوهَا،وَتَحْذَرُوا رَبَّكُمْ فِيهَا فَلَا تَسْخَطُوهُ عَلَيْهَا فَيُحِلَّ بِكُمْ نَقْمَتَهُ وَعَذَابَهُ.[١٣٦]

وقد أخرج الإمام أحمد عَنِ ابْنِ مَسْعُود،قَالَ:خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ:«هَذِهِ سُبُلٌ،عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو لَهُ»،ثُمَّ قَرَأَ:«{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا،فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} الْآيَةَ كُلَّهَا.[الأنعام:١٥٣] "[١٣٧].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُود،قَالَ:" خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا،ثُمَّ خَطَّ يَمِينًا وَشِمَالًا،ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ:{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام:١٥٣]،فَقَالَ:هَذِهِ السُّبُلُ مُشْتَرَكٌ،وَلَيْسَ مِنْ هَذِهِ سَبِيلٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ،ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ:{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام:١٥٣] "[١٣٨]

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ فِي قَوْله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام:١٥٣] قَالَ:اعلموا انما السَّبِيل سَبِيل وَاحِد جمَاعَة الْهدى ومصيره الْجنَّة وَأَن إِبْلِيس اشترع سبلاً مُتَفَرِّقَة جماعها الضَّلَالَة ومصيرها النَّار"[١٣٩].

وقَالَ الْحَسَنُ:«رَحِمَ اللهُ امْرَأً عَرَفَ ثُمَّ صَبَرَ ثُمَّ أَبْصَرَ فَبَصُرَ فَإِنَّ أَقْوَامًا عَرَفُوا فَانْتَزَعَ الْجَزَعُ أَبْصَارَهُمْ فَلَا هُمْ أَدْرَكُوا مَا طَلَبُوا وَلَا هُمْ رَجَعُوا إِلَى مَا تَرَكُوا،اتَّقُوا هَذِهِ الْأَهْوَاءَ الْمُضِلَّةَ الْبَعِيدَةَ مِنَ اللهِ الَّتِي جِمَاعُهَا الضَّلَالَةُ وَمِيعَادُهَا النَّارُ لَهُمْ مِحْنَةٌ مَنْ أَصَابَهَا أَضَلَّتْهُ وَمَنْ أَصَابَتْهُ قَتَلَتْهُ،يَا ابْنَ آدَمَ دِينَكَ دِينَكَ فَإِنَّهُ لَحْمُكَ وَدَمُكَ إِنْ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ يَسْلَمْ لَكَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَنَعُوذُ بِاللهِ فَإِنَّهَا نَارٌ لَا تُطْفَأُ وَجُرْحٌ لَا يَبْرَأُ وَعَذَابٌ لَا يَنْفَدُ أَبَدًا وَنَفَسٌ لَا تَمُوتُ،يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ وَمُرْتَهِنٌ بِعَمَلِكَ فَخُذْ مِمَّا فِي يَدَيْكَ لِمَا بَيْنَ

---

[١٣٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٦٦٩)

[١٣٧] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ١٨١)(٧)ومسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٤٣٦)(٤٤٣٧) صحيح

[١٣٨] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٥/ ١٤٢٢)(٨١٠٢) صحيح

[١٣٩] - الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/ ٣٨٥)

يَدَيْكَ،عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ إِنَّكَ مَسْئُولٌ وَلَا تَجِدُ جَوَابًا،وَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هَمِّهِ»[140]

وعَنْ مُجَاهِدٍ:{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} [الأنعام:١٥٣] :«الْبِدَعَ وَالشُّبُهَاتِ»[141]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:{فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام:١٥٣] وَقَوْلُهُ:وَ {أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى:١٣] وَنَحْوُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ،قَالَ:«أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الِاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ،وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ»[142]

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:" {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام:١٥٣]،يَقُولُ:لَا تَتَّبِعُوا الضَّلَالَاتِ "[143]

فوحّد الله تعالى سبيل الحق،وعدّد سبل الضلالة في الآية لكثرتها،كما وحّد الله تعالى النور وعدّد الظلمات في قوله تعالى:{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢٥٧]

اللهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ،فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ والشَّكِّ وَالرَّيبِ إلى نُورِ الحَقِّ الوَاضِحِ.وَالمُؤْمِنُ لاَ وَلِيَّ لَهُ،وَلاَ سُلْطَانَ لأَحَدٍ عَلَى اعْتِقَادِهِ إلاَّ اللهُ تَعَالَى.أَمَّا الذِينَ كَفَرُوا فَوَلِيُّهُمُ الشَّيْطَانُ،يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ وَالجَهَالَةِ،وَيُخْرِجَهُمْ عَنْ طُرِيقِ الحَقِّ وَنُورِهِ،إلى الكُفْرِ وَظُلُمَاتِهِ،وَيُؤَدِّي بِهِمْ إلى نَارِ جَهَنَّمَ لِيَبْقَوا فِيها خَالِدِينَ أَبَداً.وَالنُّورُ هُوَ الحَقُّ،وَالحَقُّ وَاحِدٌ،أَمَّا الظُّلُمَاتُ وَهِيَ الكُفْرُ فَهِيَ أَجْنَاسٌ.[144]

---

[140] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٤٥)

[141] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٦٧٠) وتفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٥/ ١٤٢٢)(٨١٠٤) وسنن الدارمي (١/ ٢٨٦)(٢٠٩) صحيح

[142] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٦٧٠) حسن

[143] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٥/ ١٤٢٢)(٨١٠٣) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٦٧٠) ضعيف

[144] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

فصراط الله تعالى المستقيم واحد وهو دين الإسلام،وأما طرق الشيطان فهي كثيرة ومتعدّدة،وهي التي تشعّبت بأكثر الناس،وأخذت بهم إلى أنواع الكفر وصنوف الانحراف.
وقد أمر الله تعالى عباده بإقامة الدين وعدم التفرق فيه،فقال تبارك وتعالى:{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) } [الشورى].
شَرَعَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا شَرَعَ لِنُوحٍ،وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَرْبَابِ الشَّرَائِعِ وَأُوْلِي العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ،وَأَمْرَهُمْ أَمْراً مُؤَكَّداً مِمَّا هُوَ أَصْلُ الإِيْمَانِ،وَأَصْلُ الشَّرَائِعِ،مِمَّا لاَ يَخْتَلِفُ بِاخْتلاف الزَّمَانِ وَالمَكَانِ:كَالإِيْمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَالإِيْمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ،وَالإِيْمَانِ بِالمَلاَئِكَةِ وَالكُتُبِ والرُّسُلِ.وَقَدْ أَوْصَاهُمْ تَعَالَى جَمِيعاً بِإِقَامَةِ دِينِ التَّوْحِيدِ والتَّمْسُّكِ بِهِ،وَبِحِفْظِهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِيهِ زَيغٌ أَوِ اضْطِرَابٌ،وَبِأَلاَّ يَتَفَرَّقُوا فِي أُصُولِ الشَّرِيعَةِ وَمَبَادِئِهَا.(أَمَّا فِي التَّفَاصِيلِ فَقَدْ جَاءَ كُلُّ مُرْسَلٍ بِمَا يُنَاسِبُ قَوْمَهُ وَزَمَانَهُ (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) .وَقَدْ شَقَّ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ،وَتَركِ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ،وَمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ،وَاللهُ يَصْطَفِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيُقَرِّبُهُمْ إِلَيهِ،وَيُوَفِّقُهُمْ لِلعَمَلِ بِطَاعَتِهِ،وَأَتِّبَاعِ رُسُلِهِ.
يُبَيِّنَ اللهُ تَعَالَى الأَسْبَابَ التِي حَمَلَتِ النَّاسَ عَلَى التَّفَرُّقِ والاختلاَفِ فِي الدِّينِ،مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُمْ جَمِيعاً بِأَمْرٍ وَاحِدٍ،وَطَلَبَ مِنْهُم الأَخْذَ بِهِ،وَعَدَمَ التَّفَرُّقِ فِيهِ.فَقَالَ تَعَالَى:إِنَّهُمْ لَمْ يَتَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ عَلِمُوا أَنَّ الفُرْقَةَ ضَلاَلَةٌ،وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ بَغْياً وَطَلَباً لِلرِئَاسَةِ وَلِلحَمِيَّةِ وَالعَصَبِيَّةِ،وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَذْهَبُ مَذْهَباً وَتَدْعُو إِلَيهِ،وَتُقَبِّحُ مَا سَوَاهُ لِلظُّهُورِ وَالتَّفَاخُرِ،وَلَوْلاَ الكَلِمَةُ السَّابِقَةَ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِأَنْ يُؤَخِّرَ حَسَابَهُمْ،وَالفَصْلَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ،لَعَجَّلَ لَهُمْ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا.وَالذِينَ وَرِثُوا التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ عَنْ أَسْلاَفِهِم السَّابِقِينَ،هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ

كِتَابِهِمْ،لأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ حَقَّ الإِيْمَانِ.وَهُمْ يَقَلِّدُونَ أَسْلاَفَهُمْ بِلاَ حُجَّةٍ وَلاَ دَلِيلٍ وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ فِي شَكٍّ وَحِيرَةٍ مُقْلَقَيْنِ.[145]

وقد أخبر النبي ﷺ أن الأمة سوف تفترق،وبيّن سبيل النجاة عند الافتراق والاختلاف،فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَقْرَ وَنَتَخَوَّفُهُ،فَقَالَ:«آلْفَقْرَ تَخَافُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا،حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِيهْ،وَايْمُ اللَّهِ،لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ،لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ»[146]

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:صَدَقَ وَاللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَرَكَنَا وَاللَّهِ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ،لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ»

وعن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ،لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا،لَا يَزِيغُ بَعْدِي عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ».رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة.[147]

وقال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ،وَحُجْرُ بْنُ حُجْرٍ الْكَلَاعِيُّ،:أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ:{وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة:٩٢]،فَسَلَّمْنَا وَقُلْنَا:أَتَيْنَاكَ زَائِرَيْنَ وَمُقْتَبِسَيْنِ،فَقَالَ الْعِرْبَاضُ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً،ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ:«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ،وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،فَتَمَسَّكُوا بِهَا،وَعَضُّوا عَلَيْهَا

---

[145] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

[146] – سنن ابن ماجه (١/ ٤)(٥) حسن

[ش (نتخوفه) أي نظهر الخوف.(آلفقر) بمد الهمزة على الاستفهام.وهو مفعول مقدم.(إلا هيه) هي ضمير الدنيا.والهاء في آخره للسكت.أي لا يميل قلب أحدكم إلا الدنيا.(على مثل البيضاء) المعنى على قلوب بيضاء نقية عن الميل إلى الباطل لا يميلها عن الإقبال على الله تعالى السراء والضراء.

[147] – السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٦)(٤٨) صحيح

بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»رواه أبو داود والترمذي[148]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،يَقُولُ:وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ:«قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا،لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ،مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي،وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا،فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ،حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ»[149]

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،قَالَ:خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَوَعَظَ النَّاسَ وَرَغَّبَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ثُمَّ قَالَ:«اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ وَأَطِيعُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ وَلَا تُنَازِعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا أَجْدَعَ وَعَلَيْكُمْ بِمَا تَعْرِفُونَ وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ فَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[150]

---

[148] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ١٧٨)(٥) وسنن أبي داود (٤/ ٢٠٠)(٤٦٠٧) وسنن ابن ماجه (١/ ١٥)(٤٢) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٤)(٢٦٧٦) صحيح

[ش (ذات يوم) لفظة " ذات " مقحمة.(بليغة) من المبالغة.أي بالغ فيها بالإنذار والتخويف.(وجلت) كسمعت أي خافت.(وذرفت) أي سالت.وفي إسنادها إلى العيون مع أن السائل دموعها مبالغة.والمقصود أنها أثرت فيهم ظاهرا وباطنا.(وان عبدا حبشيا) أي وإن كان الأمير عبدا حبشيا.(الخلفاء الراشدين) قيل هم الأربعة رضي الله عنهم.وقيل بل هم ومن سار سيرتهم من أئمة الإسلام.فانهم خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام في إعلاء الحق وإحياء الدين وإرشاد الخلق إلى الصراط المستقيم.(النواجذ) الأضراس.قيل أراد به الجد في لزوم السنة كفعل من امسك الشيء بين أضراسه وعض عليه منعا من أن ينتزع.أو الصبر على ما يصيب من التعب في ذات الله.كما يفعل المتألم بالوجع يصيبه] .

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ فِي قَوْلِهِ ﷺ:«فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي» عِنْدَ ذِكْرِهِ الِاخْتِلَافَ الَّذِي يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ بَيَانٌ وَاضِحٌ أَنَّ مَنْ وَاظَبَ عَلَى السُّنَنِ،قَالَ بِهَا،وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْآرَاءِ مِنَ الْفِرَقِ النَّاجِيَةِ فِي الْقِيَامَةِ،جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ

[149] - سنن ابن ماجه (١/ ١٦)(٤٣) صحيح

[ش (على البيضاء) أي الملة والحجة الواضحة التي لا تقبل الشبه أصلا.(فإنما المؤمن) أي شأن المؤمن من ترك التكبر والتزام التواضع.(الأنف) أي الذي جعل الزمام من أنفه.فيجره من يشاء من صغير وكبير إلى حيث يشاء.(حيثما قيد) أي سيق] .

[150] - السنن الواردة في الفتن للداني (٢/ ٣٨٢)(١٢٦) صحيح

وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ،وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ» قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَنْ هُمْ؟ قَالَ:«هُمُ الْجَمَاعَةُ» رواه ابن ماجة[١٥١]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ،حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ،وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً،وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً،كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»،قَالُوا:وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» رواه الترمذي[١٥٢].

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَامَ حِينَ صَلَّى الظُّهْرَ بِالنَّاسِ بِمَكَّةَ فَقَالَ:أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِينَا فَقَالَ:«أَلَا إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ

---

[١٥١] - السنة لابن أبي عاصم (١/ ٣٢)(٦٣) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٢٢)(٣٩٩٢) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١١٢)(١٤٩) ومسند الشاميين للطبراني (٢/ ١٠٠)(٩٨٨) صحيح

[١٥٢] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٦)(٢٦٤١) والبدع لابن وضاح (٢/ ١٦٧)(٢٥٠) حسن

قال البيهقي:"قَدْ ذَكَرْنَا فِي كِتَابِ الْمَدْخَلِ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْخِلَافَ الْمَذْمُومَ مَا خُولِفَ فِيهِ كِتَابٌ أَوْ سُنَّةٌ صَحِيحَةٌ أَوْ إِجْمَاعٌ،أَوْ مَا فِي مَعْنَى وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ وَذَلِكَ كَخِلَافِ مَنْ خَالَفَ أَهْلَ السُّنَّةِ فِيمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ،فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [آل عمران:١٠٥] وَقَدْ جَاءَ الْكِتَابُ ثُمَّ السُّنَّةُ ثُمَّ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ بِإِثْبَاتِ مَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرُؤْيَتِهِ وَشَفَاعَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَغَيْرِ ذَلِكَ،فَمَنْ نَفَاهُ وَاخْتَلَفَ فِيهِ كَانَ ذَلِكَ اخْتِلَافًا بَعْدَ مَجِيءِ الْبَيِّنَةِ،وَرَدُّ مَنْ رَدَّ مَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ جَهَالَةٌ مِنْهُ بِلُزُومِهِ اتِّبَاعَ مَا بَلَغَهُ مِنْهُ،وَتَأْوِيلُ مَنْ تَأَوَّلَ مَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْكِتَابِ غَيْرُ سَائِغٍ فِي الشَّرِيعَةِ،فَلَا وَجْهَ لِتَرْكِ الظَّاهِرِ إِلَّا بِمِثْلِهِ أَوْ بِمَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُنَا مِنْ ذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ،وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ اخْتِلَافُ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ أُرِيدَ بِمَا رُوِّينَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالَّذِي يُؤَكِّدُهُ مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ:كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً،وَهِيَ الْجَمَاعَةُ.وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ:إِلَّا وَاحِدَةً الْإِسْلَامُ وَجَمَاعَتُهُمْ.وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو:إِلَّا وَاحِدَةً،مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي.وَإِنَّمَا اجْتَمَعَ أَصْحَابُهُ عَلَى مَسَائِلِ الْأُصُولِ فَإِنَّهُ لَمْ يُرْوَ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ خِلَافُ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ،فَأَمَّا مَسَائِلُ الْفُرُوعِ فَمَا لَيْسَ فِيهِ نَصُّ كِتَابٍ وَلَا نَصُّ سُنَّةٍ فَقَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى بَعْضِهِ وَاخْتَلَفُوا فِي بَعْضِهِ،فَمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ مُخَالَفَتُهُمْ فِيهِ،وَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ فَصَاحِبُ الشَّرْعِ هُوَ الَّذِي سَوَّغَ لَهُمْ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الِاخْتِلَافِ حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَبِالِاجْتِهَادِ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ،وَجَعَلَ لِلْمُصِيبِ مِنْهُمْ أَجْرَيْنِ وَلِلْمُخْطِئِ مِنْهُمْ أَجْرًا وَاحِدًا،وَذَلِكَ عَلَى مَا يُحْتَمَلُ مِنَ الِاجْتِهَادِ،وَرَفَعَ عَنْهُ مَا أَخْطَأَ فِيهِ"الاعتقاد للبيهقي (ص:٢٣٣)

وَسَبْعِينَ مِلَّةً،وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ،اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ،وَهِيَ الْجَمَاعَةُ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ:رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا حَذِرَ هَذِهِ الْفِرَقَ،وَجَانَبَ الْبِدَعَ وَلَمْ يَبْتَدِعْ،وَلَزِمَ الْأَثَرَ فَطَلَبَ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ،وَاسْتَعَانَ بِمَوْلَاهُ الْكَرِيمِ"[153]

وعَنْ أَبِي غَالِبٍ قَالَ:كُنْتُ بِدِمَشْقَ،زَمَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ،فَأُتِيَ بِرُءُوسِ الْخَوَارِجِ،فَنُصِبَتْ عَلَى أَعْوَادٍ،فَجِئْتُ لِأَنْظُرَ هَلْ فِيهَا أَحَدٌ أَعْرِفُهُ؟ فَإِذَا أَبُو أُمَامَةَ عِنْدَهَا،فَدَنَوْتُ مِنْهُ،فَنَظَرْتُ إِلَى الْأَعْوَادِ فَقَالَ:«كِلَابُ النَّارِ – ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ،وَمَنْ قَتَلُوهُ خَيْرُ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ» – قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – ثُمَّ اسْتَبْكَى فَقُلْتُ:يَا أَبَا أُمَامَةَ،مَا يُبْكِيكَ؟ كَانُوا عَلَى دِينِنَا،ثُمَّ ذَكَرْتُ مَا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ غَدًا.فَقُلْتُ لَهُ:شَيْئًا تَقُولُهُ بِرَأْيِكَ،أَمْ شَيْئًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ:«إِنِّي لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا مَرَّةً،أَوْ مَرَّتَيْنِ،أَوْ ثَلَاثًا إِلَى السَّبْعِ مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ أَمَا تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي آلِ عِمْرَانَ» :{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران:١٠٦] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ،{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران:١٠٧] ثُمَّ قَالَ:«اخْتَلَفَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً سَبْعِينَ مِنَ النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ،وَاخْتَلَفَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً إِحْدَى وَسَبْعُونَ فِرْقَةً فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ،وَتَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ» .فَقُلْنَا:انْعَتْهُمْ لَنَا،قَالَ:«السَّوَادُ الْأَعْظَمُ»[154]

فبيّن ﷺ أن الطائفة الناجية هي التي تكون على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم،وهو التمسّك بالقرآن والسنة علما وعملا والاجتماع عليهما،وقد قال تعالى:{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة:١٠٠]

---

[153] - سنن أبي داود (٤/ ١٩٨)(٤٥٩٧) والشريعة للآجري (١/ ٣١٤)(٢٩) حسن،وانظر كتابي المفصل في تخريج حديث افتراق الأمة

[154] - المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٧٣)(٨٠٥١) حسن

يُخبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ،(وَهُمُ الذِينَ هَاجَرُوا قَبْلَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَة)،وَمِنَ الأَنْصَارِ (وَهُمُ الذِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ فِي بَيْعَتَي العَقَبَة وَالرِّضْوَانِ)،وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.وَيُخْبِرُ تَعَالَى بِرِضَاهُ عَنْهُمْ بِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِي الدُّنْيَا،مِنْ عِزٍّ وَنَصْرٍ وَمَغْنَمٍ وَهُدًى،وَبِمَا أَعَدَّهُ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ،مِنْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الأَنْهَارُ فِي جَوَانِبِهَا،وَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهَا أَبَداً.وَالفَوْزُ الذِي فَازَ بِهِ هَؤُلاَءِ الكِرَامُ البَرَرَةُ هُوَ أَعْظَمُ الفَوْزِ.[155]

وعن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«خَيْرُكُمْ قَرْنِي،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» – قَالَ عِمْرَانُ:لاَ أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً – قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ،وَيَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ،وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يَفُونَ،وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ» رواه البخاري ومسلم[156] .

وعَنْ قَتَادَةَ قَالَ:قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا وَأَحْسَنَهَا حَالًا،قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ،فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»[157]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:«مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ،أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ،أَبَرَّهَا قُلُوبًا،وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا،وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا،قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَنَقْلِ دِينِهِ،فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ فَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ،كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ» وَاللهِ رَبِّ الْكَعْبَةِ.يَا ابْنَ آدَمَ،صَاحِبِ الدُّنْيَا بِبَدَنِكَ،وَفَارِقْهَا بِقَلْبِكَ وَهَمِّكَ،فَإِنَّكَ مَوْقُوفٌ عَلَى عَمَلِكَ،فَخُذْ مِمَّا فِي يَدَيْكَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَيْرُ "[158]

---

[155] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

[156] – صحيح البخاري (٣/ ١٧١)(٢٦٥١) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٦٤)٢١٤ – (٢٥٣٥)

[ش (قرني) أهل قرني وهم أصحابي والقرن مائة سنة أو أهل زمان واحد سموا بذلك لاقترانهم في الوجود وقيل غير ذلك.(يلونهم) يأتون بعدهم قريبن منهم.(يظهر فيهم السمن) المعنى أنهم يحبون التوسع في المآكل والمشارب التي هي أسباب السمن وقيل غير ذلك]

[157] – جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٧)(١٨١٠) فيه انقطاع

[158] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٠٥) فيه ضعف

وعَنْ عَبْد رَبِّه قَالَ:كُنَّا عنْدَ الْحَسَنِ فِي مَجْلِسٍ ،فَذَكَرَ كَلَامًا ،وَذَكَرَ [ص:١٦٨٦] أَصْحَابَ النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ:«أُولَئكَ أَصْحَابُ مُحَمَّد كَانُوا أَبَرَّ هَذه الْأُمَّة قُلُوبًا ،وَأَعْمَقَهَا علْمًا ،وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا ،قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لصُحْبَة نَبِيِّه ،وَإِقَامَة دينه ،فَتَشَبَّهُوا بأَخْلَاقهِمْ وَطَرَائقهِمْ ،فَإِنَّهُمْ كَانُوا وَرَبِّ الْكَعْبَة عَلَى الْهَدْيِ الْمُسْتَقيم»[١٥٩]

وعَنْ عَبْد الله بْنِ مَسْعُود،قَالَ:" إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوب الْعبَاد،فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّد ﷺ خَيْرَ قُلُوب الْعبَاد،فَاصْطَفَاهُ لنَفْسه،فَابْتَعَثَهُ برِسَالَته،ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوب الْعبَاد بَعْدَ قَلْب مُحَمَّد،فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابه خَيْرَ قُلُوب الْعبَاد،فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبيِّه،يُقَاتلُونَ عَلَى دينه،فَمَا رَأَى الْمُسْلمُونَ حَسَنًا،فَهُوَ عنْدَ الله حَسَنٌ،وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عنْدَ الله سَيِّئٌ " رواه الإمام أحمد[١٦٠].

---

[١٥٩] - الشريعة للآجري (٤/ ١٦٨٦)(١١٦١) صحيح

[١٦٠] - مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٨٤)(٣٦٠٠) صحيح

وَقَوْلُهُ:«وَأَهْلُ الْبرِّ وَالتَّقْوَى» أَيْ أَنَّهُمْ أَرْبَابُ النُّفُوسِ،وَالْمُجَاهَدَات وَأَصْحَابُ الْمُعَامَلَات وَالْمُكَابَدَات،فَالْبرُّ هُوَ صدْقُ الْمُعَامَلَة للَّه تَعَالَى،وَالتَّقْوَى حُسْنُ الْمُجَاهَدَة فِي اللَّه تَعَالَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{لَيْسَ الْبرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قبَلَ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب وَلَكنَّ الْبرَّ مَنْ آمَنَ باللَّه وَالْيَوْمِ الْآخرِ} [البقرة:١٧٧] إِلَى قَوْله {وَأُولَئكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة:١٧٧]،فَأَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الْبرَّ هُوَ صدْقُ الْمُعَامَلَة للَّه تَعَالَى،وَهَذه أَوْصَافُ أَرْبَاب الْمُعَامَلَات،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَالَّذينَ جَاهَدُوا فينَا لَنَهْديَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت:٦٩]،وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هيَ الْمَأْوَى} [النازعات:٤١] .فَهَذَا حُسْنُ التَّقْوَى،فَكَأَنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ عَنِ الطَّبَقَة الثَّانيَة أَنَّهُمْ أَرْبَابُ الْمُعَامَلَات،وَأَصْحَابُ الْمُجَاهدَات،وَوَصْفُهُ للطَّبَقَة الثَّالثَة بالتَّوَاصُلِ وَالتَّرَاحُمِ دَليلٌ عَلَى أَنَّهُمْ عَامَلُوا اللَّهَ تَعَالَى بوَاسطَة الدُّنْيَا في الْعُزُوف عَنْهَا وَالتَّرْك لَهَا،وَوَاسطَة الْخَلْق بالشَّفَقَة عَلَيْهِمْ وَالْبَذْل لَهُمْ،سَخطَت الطَّبَقَةُ الثَّالثَةُ بالنُّفُوسِ فَبَذَلُوهَا للَّه تَعَالَى بتَحَمُّلِ أَفْعَاله،وَأَنْصَبُوهَا في الْمُثُول بَيْنَ يَدَيْه،وَأَتْعَبُوهَا بالْخدْمَة لَهُ،وَلَمْ يَبْلُغُوا دَرَجَةَ الطَّبَقَة الْأُولَى في مُشَاهَدَات الْقُلُوب،وَسَخطَت الطَّبَقَةُ الثَّالثَةُ بالدُّنْيَا،فَبَذَلُوهَا لخَلْق اللَّه تَعَالَى شَفَقَةً عَلَيْهِمْ،وَنَظَرًا إِلَيْهِمْ،وَلَمْ يَبْلُغُوا دَرَجَةَ الطَّبَقَة الثَّانيَة في بَذْل النُّفُوس،فَكَانُوا في سَخَاوَة الدُّنْيَا عَلَى صنْفَيْنِ،فَصنْفٌ سَخَتْ عَلَيْهَا نُفُوسُهُمْ فَتَرَكُوهَا لأَرْبَابهَا،وَصنْفٌ سَخَتْ بهَا أَيْديهمْ،فَبَذَلُوهَا لطُلَّابهَا،فَالصِّنْفُ الْأَوَّلُ أَهْلُ التَّوَاصُلِ؛لأَنَّهُمْ لَمَّا تَرَكُوهَا وَأَعْرَضُوا عَنْهَا سَلمُوا منَ التَّقَاطُعِ،إِذْ كَانَ سَبَبُ التَّقَاطُعِ مُجَاذَبَةَ الدُّنْيَا بَيْنَهُمْ،وَمُنَازَعَتَهُمْ فيهَا،وَمُقَاتَلَتَهُمْ عَلَيْهَا .قَالَ عُمَرُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ:وَوَقَفَ عَلَى مَنْ عَلَا،فَأَخَذَ مَنْ كَانَ مَعَهُ بالْفَهْمِ،فَقَالَ:مَا لَكُمْ هَذه دُنْيَاكُمُ الَّتي تَنَازَعْتُمْ عَلَيْهَا،فَأَخْبَرَ أَنَّ مُجَازَتَهَا بَيْنَهُمْ سَبَبُ التَّقَاطُعِ،فَتَرْكُهَا لطُلَّابهَا سَبَبُ التَّوَاصُلِ.وَالصِّنْفُ الثَّاني:أَهْلُ التَّرَاحُمِ؛لأَنَّ الدُّنْيَا لَمَّا حَصَلَتْ في أَيْديهمْ بَذَلُوهَا شَفَقَةً عَلَيْهِمْ،وَرَحْمَةً لَهُمْ،فَهُمْ أَهْلُ التَّرَاحُمِ فيمَا بَيْنَهُمْ،فَكَأَنَّهُ ﷺ وَصَفَ طَبَقَتَهُ وَطَبَقَةَ أَصْحَابه أَنَّهُمْ أَرْبَابُ الْقُلُوب،وَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْمُكَاشَفَات وَالْمُشَاهَدَات،وَوَصَفَ الطَّبَقَةَ الثَّانيَةَ:أَنَّهُمْ أَرْبَابُ النُّفُوسِ،وَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْمُجَاهدَات وَالْمُعَامَلَات،وَوَصَفَ الطَّبَقَةَ الثَّالثَةَ:أَنَّهُمْ أَهْلُ بَذْلٍ وَسَخَاءٍ وَشَفَقَةٍ وَوَفَاءٍ،وَالطَّبَقَةُ الرَّابعَةُ:أَهْلُ تَنَازُعٍ وَتَجَاذُبٍ،فَصَارُوا أَهْلَ تُقَاطُعٍ وَتَدَابُرٍ؛لأَنَّهُمْ لَمَّا أَقْبَلُوا عَلَى الدُّنْيَا قَطَعَتْهُمْ عَنِ الْآخرَة،وَانْقَطَعَت الْأُخُوَّةُ الَّتي أَوْجَبَهَا الْإِيمَانُ

وأخرج ابن أبي حاتم عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ،قَالَ:«سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُلَاةُ الْأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَنًا ،الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَتِهِ ،وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ ،لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا ،وَلَا النَّظَرُ فِي رَأْيِ مَنْ خَالَفَهَا ،فَمَنِ اقْتَدَى بِمَا سَنُّوا اهْتَدَى ،وَمَنِ اسْتَبْصَرَ بِهَا أَبْصَرَ ،وَمَنْ خَالَفَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَوَلَّاهُ وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا»[١٦١]

وولاة الأمر في هذا الأثر هم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم،قال الإمام الشاطبي رحمه الله:" وَبِحَقٍّ مَا كَانَ يُعْجِبُهُمْ؛ فَإِنَّهُ كَلَامٌ مُخْتَصَرٌ،جَمَعَ أُصُولًا حَسَنَةً مِنَ السُّنَّةِ:

مِنْهَا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ:" لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا وَلَا النَّظَرُ فِي شَيْءٍ خَالَفَهَا "،قَطْعٌ لِمَادَّةِ الِابْتِدَاعِ جُمْلَةً.

وَقَوْلُهُ:" مَنْ عَمِلَ بِهَا مُهْتَدٍ إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ مَدْحٌ لِمُتَّبِعِ السُّنَّةِ،وَذَمٌّ لِمَنْ خَالَفَهَا بِالدَّلِيلِ الدَّالِّ عَلَى ذَلِكَ،وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥].

وَمِنْهَا مَا سَنَّهُ وُلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَهُوَ سُنَّةٌ؛ لَا بِدْعَةَ فِيهِ أَلْبَتَّةَ،وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ نَصٌّ عَلَيْهِ عَلَى الْخُصُوصِ،فَقَدْ جَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ،وَذَلِكَ نَصُّ حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ فِيهِ:

«فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،تَمَسَّكُوا بِهَا،وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ».

فَقَرَنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا تَرَى سُنَّةَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِسُنَّتِهِ،وَإِنَّ مِنِ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ اتِّبَاعَ سُنَّتِهِمْ،وَإِنَّ الْمُحْدَثَاتِ خِلَافُ ذَلِكَ،لَيْسَتْ مِنْهَا فِي شَيْءٍ،لِأَنَّهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِيمَا سَنُّوهُ:إِمَّا مُتَّبِعُونَ لِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسِهَا،وَإِمَّا مُتَّبِعُونَ لِمَا فَهِمُوا مِنْ سُنَّتِهِ ﷺ فِي الْجُمْلَةِ وَالتَّفْصِيلِ عَلَى وَجْهٍ يَخْفَى عَلَى غَيْرِهِمْ مِثْلُهُ،لَا زَائِدَ عَلَى ذَلِكَ.وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ بِحَوْلِ اللَّهِ.

بِتَنَابُحِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا،وَتَنَافُسِهِمْ فِيهَا،وَأَدْبَرُوا عَنِ الْآخِرَةِ بِإِقْبَالِهِمْ عَلَيْهَا"بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص:١٥٠)

[١٦١] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١٠٦٧)(٥٩٦٩) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٠٥)(١٣٤) والإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٣٥٢)(٢٣١) صحيح لغيره

عَلَى أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمَ نَقَلَ عَنْ يَحْيَى بْنِ آدَمَ قَوْلَ السَّلَفِ الصَّالِحِ:" سُنَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "،أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ:" أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ السُّنَّةِ،وَأَنَّهُ لَا يُحْتَاجُ مَعَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ إلَى قَوْلِ أَحَدٍ ".

وَمَا قَالَ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ،فَهُوَ مِمَّا يَحْتَمِلُهُ حَدِيثُ الْعِرْبَاضِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَلَا زَائِدَ إذًا عَلَى مَا ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ إلَّا أَنَّهُ قَدْ يُخَافُ أَنْ تَكُونَ مَنْسُوخَةً بِسُنَّةٍ أُخْرَى،فَافْتَقَرَ الْعُلَمَاءُ إلَى النَّظَرِ فِي عَمَلِ الْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ،لِيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي مَاتَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَاسِخٌ،لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ بِالْأَحْدَثِ فَالْأَحْدَثِ مِنْ أَمْرِهِ.

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى بَنَى مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ فِي احْتِجَاجِهِ بِالْعَمَلِ،وَرُجُوعِهِ إلَيْهِ عِنْدَ تَعَارُضِ السُّنَنِ.

وَمِنَ الْأُصُولِ الْمُضَمَّنَةِ فِي أَثَرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ:أَنَّ سُنَّةَ وُلَاةِ الْأَمْرِ وَعَمَلَهُمْ تَفْسِيرٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ،لِقَوْلِهِ:" الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ،وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَةِ اللَّهِ،وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ ".وَهُوَ أَصْلٌ مُقَرَّرٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ،فَقَدْ جَمَعَ كَلَامُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ أُصُولًا حَسَنَةً وَفَوَائِدَ مُهِمَّةً.

وَمِمَّا يُعْزَى لِـ أَبِي إِلْيَاسَ الْأَلْبَانِيِّ:" ثَلَاثٌ لَوْ كُتِبْنَ فِي ظُفُرٍ؛ لَوَسِعَهُنَّ،وَفِيهِنَّ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:اتَّبِعْ لَا تَبْتَدِعْ،اتَّضِعْ لَا تَرْتَفِعْ،وَمَنْ وَرِعَ لَا يَتَّسِعُ ".وَالْآثَارُ هُنَا كَثِيرَةٌ."[١٦٢].

قال ابن أبي العز رحمه الله:" السُّنَّةُ:طَرِيقَةُ الرَّسُولِ ﷺ،وَالْجَمَاعَةُ:جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ،وَهُمُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ،فَاتِّبَاعُهُمْ هُدًى،وَخِلَافُهُمْ ضَلَالٌ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ:{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران:٣١] ،وقال:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النِّسَاءِ:١١٥] ،وَقَالَ تَعَالَى:{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النُّورِ:٥٤] ،وَقَالَ تَعَالَى:{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الْأَنْعَامِ:١٥٣] ،وَقَالَ تَعَالَى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

---

[١٦٢] - الاعتصام للشاطبي ت الهلالي (١/ ١١٧)

وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آلِ عِمْرَانَ:١٠٥] ،وَقَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الْأَنْعَامِ:١٥٩].[١٦٣]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الصحابة رضي الله عنهم:" وَلِهَذَا كَانَ مَعْرِفَةُ أَقْوَالِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَأَعْمَالِهِمْ خَيْرًا وَأَنْفَعَ مِنْ مَعْرِفَةِ أَقْوَالِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ عُلُومِ الدِّينِ وَأَعْمَالِهِ كَالتَّفْسِيرِ وَأُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ خَيْرٌ مِنْ الِاقْتِدَاءِ بِمَنْ بَعْدَهُمْ وَمَعْرِفَةُ إجْمَاعِهِمْ وَنِزَاعِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ خَيْرٌ وَأَنْفَعُ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يُذْكَرُ مِنْ إجْمَاعِ غَيْرِهِمْ وَنِزَاعِهِمْ.وَذَلِكَ أَنَّ إجْمَاعَهُمْ لَا يَكُونُ إلَّا مَعْصُومًا وَإِذَا تَنَازَعُوا فَالْحَقُّ لَا يَخْرُجُ عَنْهُمْ فَيُمْكِنُ طَلَبُ الْحَقِّ فِي بَعْضِ أَقَاوِيلِهِمْ وَلَا يُحْكَمُ بِخَطَأِ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِهِمْ حَتَّى يُعْرَفَ دَلَالَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى خِلَافِهِ قَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩] "[١٦٤].

ومن جرت به الأهواء وارتكب البدع وأعرض عن الكتاب والسنة فإن عمله مردود عليه،فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما توفر فيه شرطان:أولهما إخلاص النية لله تعالى،والثاني متابعة النبي ﷺ،عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ،فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه[١٦٥]

---

[١٦٣] - شرح الطحاوية - ط دار السلام (ص:٣٨٢)

[١٦٤] - مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤)

[١٦٥] - صحيح البخاري (٣/ ١٨٤)(٢٦٩٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣)١٧ - (١٧١٨)

[ش (أحدث) اخترع.(أمرنا هذا) ديننا هذا وهو الإسلام.(ما ليس فيه) مما لا يوجد في الكتاب أو السنة ولا يندرج تحت حكم فيهما أو يتعارض مع أحكامها وفي بعض النسخ (ما ليس منه).(رد) باطل ومردود لا يعتد به]

(مَنْ أَحْدَثَ)،أَيْ:جَدَّدَ وَابْتَدَعَ أَوْ أَظْهَرَ وَاخْتَرَعَ فِي أَمْرِنَا هَذَا)،أَيْ:فِي دِينِ الْإِسْلَامِ،وَفِي إِيرَادِ اسْمِ الْإِشَارَةِ بَدَلًا أَوْ صِلَةً إِفَادَةُ التَّعْظِيمِ،وَإِشَارَةٌ إِلَى تَمْيِيزِ الدِّينِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ،وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْأَمْرِ تَنْبِيهًا عَلَى) أَنَّ هَذَا الدِّينَ هُوَ أَمْرُنَا الَّذِي نَهْتَمُّ لَهُ وَنَشْتَغِلُ بِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْلُو عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أَقْوَالِنَا وَأَفْعَالِنَا.قَالَ الْقَاضِي:الْأَمْرُ حَقِيقَةٌ فِي الْقَوْلِ الطَّالِبِ لِلْفِعْلِ،مَجَازٌ فِي الْفِعْلِ وَالشَّأْنِ،وَالطَّرِيقُ أُطْلِقَ هُنَا عَلَى الدِّينِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ طَرِيقُهُ وَشَأْنُهُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ (مَا لَيْسَ مِنْهُ):كَذَا فِي " الصَّحِيحَيْنِ

وعَنْ سَعْد بْنِ إِبْرَاهِيمَ،قَالَ:سَأَلْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّد،عَنْ رَجُلٍ لَهُ ثَلَاثَةُ مَسَاكِنَ،فَأَوْصَى بِثُلُثِ كُلِّ مَسْكَنٍ مِنْهَا،قَالَ:يُجْمَعُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي مَسْكَنٍ وَاحِد،ثُمَّ قَالَ:أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[١٦٦]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ،وَعَلَا صَوْتُهُ،وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ،حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ:«صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»،وَيَقُولُ:«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»،وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ،وَالْوُسْطَى،وَيَقُولُ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ،وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّد،وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا،وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» ثُمَّ يَقُولُ:«أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ،مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ،وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ».رواه مسلم[١٦٧]

"،وَالْحُمَيْدِيِّ وَ"جَامِعِ الْأُصُولِ " وَ " شَرْحِ السُّنَّةِ " وَفِي" الْمَشَارِقِ"وَبَعْضِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ مَا لَيْسَ فِيهِ (فَهُوَ)،أَيِ:الَّذِي أَحْدَثَهُ (رَدٌّ)،أَيْ:مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَيَصِحُّ الْكَسْرُ اهـ.

وَالصَّوَابُ أَنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ لِأَنَّهُ عَلَى مَا فِي" الْقَامُوسِ".بِمَعْنَى الْعِمَادِ.قَالَ الْقَاضِي:الْمَعْنَى مَنْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ رَأْيًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ سَنَدٌ ظَاهِرٌ أَوْ خَفِيٌّ مَلْفُوظٌ أَوْ مُسْتَنْبَطٌ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ،قِيلَ:فِي وَصْفِ الْأَمْرِ بِهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِسْلَامِ كَمُلَ وَانْتَهَى وَشَاعَ وَظَهَرَ ظُهُورَ الْمَحْسُوسِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى كُلِّ ذِي بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ،فَمَنْ حَاوَلَ الزِّيَادَةَ فَقَدْ حَاوَلَ أَمْرًا غَيْرَ مَرْضِيٍّ لِأَنَّهُ مِنْ قُصُورِ فَهْمِهِ رَآهُ نَاقِصًا،فَعَلَى هَذَا يُنَاسِبُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ (هُوَ) رَاجِعٌ إِلَى (مَنْ) أَيْ فَذَلِكَ الشَّخْصُ نَاقِصٌ مَرْدُودٌ عَنْ جِنَابِنَا مَطْرُودٌ عَنْ بَابِنَا،فَإِنَّ الدِّينَ اتِّبَاعُ آثَارِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَاسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ مِنْهَا،فَالضَّمِيرُ إِلَى الشَّخْصِ أَبْلَغُ وَإِلَى الْأَمْرِ أَظْهَرُ،وَفِي قَوْلِهِ:مَا لَيْسَ مِنْهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ إِحْدَاثَ مَا لَا يُنَازِعُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَمَا سَنُقَرِّرُهُ بَعْدُ لَيْسَ بِمَذْمُومٍ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٢٢)

وانظر:الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢١/ ٢٧٢) ذَمُّ الْمُبْتَدِعِينَ وَبِدَعِهِمْ:

[١٦٦] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣)١٨ – (١٧١٨)

[ش (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول أنا ما أحدثت شيئا فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به]

[١٦٧] – صحيح مسلم (٢/ ٥٩٢)٤٣ – (٨٦٧)

[ش (واشتد غضبه) قال النووي ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمرا عظيما وتحذيره خطبا جسيما (بعثت أنا والساعة كهاتين) روي بنصبها ورفعها والمشهور نصبها على المفعول معه قال القاضي يحتمل أنه تمثيل لمقاربتها وأنه ليس بينهما أصبع أخرى كما أنه لا نبي بينه وبين الساعة (ويقرن) هو بضم الراء على المشهور الفصيح وحكى كسرها (السبابة) سمت بذلك لأنهم كانوا يشيرون بها عند السب (وخير الهدي هدي محمد) هو بضم الهاء وفتح الدال فيهما وبفتح الدال وإسكان الدال أيضا ضبطناها بالوجهين وكذا ذكرها جماعة بالوجهين وقال القاضي عياض رويناه في مسلم بالضم وفي غره بالفتح وبالفتح ذكره الهروي وفسره الهروي على رواية الفتح بالطريق أي أحسن الطرق طريق محمد يقال فلان حسن الهدي أي الطريقة

وقد قال تعالى:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة:٣]

إن المؤمن يقف أولا:أمـــام إكمـــال هـــذا الـــدين يســـتعرض موكـــب الإيمان،وموكـــب الرسالات،وموكب الرسل،منذ فجر البشرية،ومنذ أول رسول – آدم عليه السلام – إلى هذه الرسالة الأخيرة.رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين ..فماذا يرى؟ ..يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل.موكب الهدى والنور.ويرى معالم الطريق،على طول الطريق.ولكنه يجد كل رسول – قبل خاتم النبيين – إنما أرسل لقومه.ويرى كل رسالة – قبل الرسالة الأخيرة – إنمـــا جـــاءت لمرحلة من الزمان ..رسالة خاصة،لمجموعة خاصة،في بيئة خاصة ..ومن ثم كانت كـــل تلـــك الرسالات محكومة بظروفها هذه متكيفة بهذه الظروف ..كلها تدعو إلى إله واحد – فهذا هو التوحيد – وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الدين – وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الإسلام – ولكن لكـــل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف ..

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة،رسولا خاتم النبيين برســـالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة،في زمان خاص،في ظروف خاصة ..رســـالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة لأنها تخاطب فطرة الإنسان الـــتي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير:«فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» ..وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافهـــا،وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير

والمذهب ومنه اهتدوا بهدي عمار وأما على رواية الضم فمعناه الدلالة والإرشاد قال العلماء لفظ الهدي له معنيان أحدهما بمعنى الدلالة والإرشاد وهو الذي يضاف إلى الرسل والقرآن والعباد وقال الله تعالى وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وهدي للمتقين ومنه قوله تعالى وأما ثمود فهديناهم أي بينا لهم الطريق ومه قوله تعالى إنا هديناه السبيل وهديناه النجدين والثاني بمعنى اللطف والتوفيق والعصمة والتأييد وهو الذي تفرد الله به ومنه قوله تعالى إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء (وكل بدعة ضلالة) هذا عام مخصوص والمراد غالب البدع قال أهل اللغة هي كل شيء عمل على غير مثال سابق (أنا أولى بكل مؤمن من نفسه) هو موافق لقول الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم أي أحق (ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي وعلي) قال أهل اللغة الضياع بفتح الضاد العيال قال ابن قتيبة أصله مصدر ضاع يضيع ضياعا المراد من ترك أطفالا وعيالا ذوي ضياع فأوقع المصدر موضع الاسم]

الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان ..وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات،لكي تستمر،وتنمو،وتتطور،وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار ..وقال الله – سبحانه – للذين آمنوا:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي.وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

فأعلن لهم إكمال العقيدة،وإكمال الشريعة معا ..فهذا هو الدين ..ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين – بمعناه هذا – نقصا يستدعي الإكمال.ولا قصورا يستدعي الإضافة.ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير ..وإلا فما هو بمؤمن وما هو بمقر بصدق الله وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن،هي شريعة كل زمان،لأنها – بشهادة الله – شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان،في جيل من الأجيال،في مكان من الأمكنة،كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه،إلا أن تخرج من اطار الإيمان! والله الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة.

فلا يقول:إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم،إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانيا:أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين،بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة،كما تمثل نشأته واكتماله.«فالإنسان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له.وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين.وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه،كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و «الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحـــده وقبـــل أن ينـــال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هي بدء مولد «الإنســـان» ..إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوي يمكن أن يكون «حيوانا» أو أن يكون «مشـــروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنسان» في أكمل صورة للإنسان،إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن ..

والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة،وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان!

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهليـــة في التصـــورات الاعتقاديـــة حـــول ربوبيـــة الأصنام،والملائكة،والجن،والكواكب،والأسلاف وسائر هذه الأساطير الســـاذجة والخرافـــات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد.إلى أفق الإيمان بإله واحـــد،قادر قـــاهر،رحيم ودود،سميـــع بصير،عليم خبير.عادل كامل.قريب مجيب.لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد،والكل لـــه عبيد ..ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة،ومن سلطان الرياسة،يوم حررهم مـــن ســـلطان الوهم والخرافة ..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعـــادات والأخـــلاق والصـــلات الاجتماعية ..كان قد التقطهم من سفح البنت المـــوءودة،والمرأة المنكـــودة،والخمر والقمـــار والعلاقات الجنسية الفوضوية،والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها،والثارات والغارات والنهب والسلب،مع

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح،في كل جانب من جوانب الحياة.في جيل واحد.عرف السفح وعرف القمة.عرف الجاهلية وعـــرف الإسلام.ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معـــنى قـــول الله لهـــم:«الْيَـــوْمَ أَكْمَلْـــتُ لَكُـــمْ دِينَكُمْ،وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي،وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

ويقف المؤمن ثالثا:أمام ارتضاء الله الإسلام دينا للذين آمنوا ..يقف أمام رعاية الله – سبحانه – وعنايته بهذه الأمة،حتى ليختار لها دينها ويرتضيه ..وهو تعبير يشي بحب الله لهـــذه الأمـــة ورضاه عنها،حتى ليختار لها منهج حياتها ..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا،يكافىء هذه الرعاية الجليلة ..أستغفر الله ..فما يكافىء هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه ..وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة،ومعرفة المنعم ..وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه،وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه.

إن ارتضاء الله الإسلام دينا لهذه الأمة،ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار.ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار ..وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل – بله أن يرفض – ما رضيه الله له،ليختار لنفسه غير ما اختاره الله! ..وإنها – إذن – لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء،ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا وقد رفض ما ارتضاه له الله ..ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم،يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين ..فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه ..واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله ..فلن يتركهم الله أبدا ولن يمهلهم أبدا،حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون![١٦٨]

فقد أكمل الله تعالى هذا الدين،فمن ابتدع في دين الله وأحدث من العبادات ما لم يترّل الله تعالى به سلطانا فقد رد هذه الآية الكريمة،قال الإمام الشاطبي رحمه الله:" إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الشَّرِيعَةَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ فِي تَكَالِيفِهِمُ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا،وَتَعَبُّدَاتِهِمُ الَّتِي طَوَّقُوهَا فِي أَعْنَاقِهِمْ،وَلَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَمُلَ الدِّينُ بِشَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ؛حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣] فَكُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بَقِيَ فِي الدِّينِ شَيْءٌ لَمْ يَكْمُلْ فَقَدْ كَذَبَ بِقَوْلِهِ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٣].

فَلَا يُقَالُ:قَدْ وَجَدْنَا مِنَ النَّوَازِلِ وَالْوَقَائِعِ الْمُتَجَدِّدَةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ نَصٌّ عَلَيْهِ،وَلَا عُمُومٌ يَنْتَظِمُهُ،وَأَنَّ مَسَائِلَ الْجَدِّ فِي الْفَرَائِضِ،وَالْحَرَامِ فِي الطَّلَاقِ،وَمَسْأَلَةَ السَّاقِطِ عَلَى جَرِيحٍ مَحْفُوفٍ بِجَرْحَى،وَسَائِرَ الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي لَا نَصَّ فِيهَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ فَأَيْنَ الْكَلَامُ فِيهَا؟

---

[١٦٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٢٢٢)

فَيُقَالُ فِي الْجَوَابِ:أَوَّلًا إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٣] إِن اعْتُبِـــرَتْ فِيهَا الْجُزْئِيَّاتُ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالنَّوَازِلِ فَهُوَ كَمَا أَوْرَدْتُمْ،وَلَكِنَّ الْمُرَادَ كُلِّيَّاتُهَا،فَلَمْ يَبْقَ لِلـــدِّينِ قَاعِدَةٌ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي الضَّرُورِيَّاتِ وَالْحَاجِيَّاتِ أَوِ التَّكْمِيلِيَّاتِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَتْ غَايَةَ الْبَيَـــانِ،نَعَمْ يَبْقَى تَنْزِيلُ الْجُزْئِيَّاتِ عَلَى تِلْكَ الْكُلِّيَّاتِ مَوْكُولًا إِلَى نَظَرِ الْمُجْتَهِدِ،فَإِنَّ قَاعِدَةَ الِاجْتِهَادِ أَيْضًـــا ثَابِتَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،فَلَابُدَّ مِنْ إِعْمَالِهَا.وَلَا يَسَعُ النَّاسَ تَرْكُهَا،وَإِذَا ثَبَتَ فِي الشَّرِيعَةِ أَشْعَرَتْ بِأَنَّ ثَمَّ مَجَالًا لِلِاجْتِهَادِ،وَلَا يُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ.وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْآيَـــةِ الْكَمَـــالَ بِحَسَبِ تَحْصِيلِ الْجُزْئِيَّاتِ بِالْفِعْلِ،فَالْجُزْئِيَّاتُ لَا نِهَايَةَ لَهَا،فَلَا تَنْحَصِرُ بِمَرْسُـــومٍ،وَقَدْ نَـــصَّ الْعُلَمَاءُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى،فَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَمَالُ بِحَسَبِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَجْـــرِي عَلَيْهَا مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ النَّوَازِلِ.

ثُمَّ نَقُولُ ثَانِيًا:إِنَّ النَّظَرَ فِي كَمَالِهَا بِحَسَبِ خُصُوصِ الْجُزْئِيَّـــاتِ يُـــؤَدِّي إِلَـــى الْإِشْـــكَالِ وَالِالْتِبَاسِ،وَإِلَّا فَهُوَ الَّذِي أَدَّى إِلَى إِيرَادِ هَذَا السُّؤَالِ،إِذْ لَوْ نَظَرَ السَّائِلُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْهَا الشَّرِيعَةُ،وَهِيَ حَالَةُ الْكُلِّيَّةِ لَمْ يُورِدْ سُؤَالَهُ،لِأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ عَلَى الْأَبَدِيَّةِ،وَإِنْ وُضِعَتِ الدُّنْيَا عَلَى الزَّوَالِ وَالنِّهَايَةِ.

وَأَمَّا الْجُزْئِيَّةُ فَمَوْضُوعَةٌ عَلَى النِّهَايَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْحَصْرِ فِي التَّفْصِيلِ،وَإِذْ ذَاكَ قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهَا لَمْ تَكْمُلْ فَيَكُونُ خِلَافًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل:٨٩] الْآيَةَ،وَلَا شَكَّ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ الصَّـــادِقُ،وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ الْمُخَالِفُ.فَظَاهِرٌ إِذْ ذَاكَ أَنَّ الْآيَةَ عَلَى عُمُومِهَا وَإِطْلَاقِهَا،وَأَنَّ النَّوَازِلَ الَّتِي لَا عَهْـــدَ بِهَا لَا تُؤَثِّرُ فِي صِحَّةِ هَذَا الْكَمَالِ لِأَنَّهَا إِمَّا مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا وَإِمَّا غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا،فَـــإِنْ كَانَـــتْ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَهِيَ مَسَائِلُ الِاجْتِهَادِ الْجَارِيَةِ عَلَى الْأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ فَأَحْكَامُهَا قَدْ تَقَـــدَّمَتْ،وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْظَرُ الْمُجْتَهِدِ إِلَى أَيِّ دَلِيلٍ يَسْتَنِدُ خَاصَّةً وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَـــا،فَهِيَ الْبِـــدَعُ الْمُحْدَثَاتُ،إِذْ لَوْ كَانَتْ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا لَمَا سَكَتَ عَنْهَا فِي الشَّـــرْعِ،لَكِنَّهَا مَسْـــكُوتٌ عَنْهَـــا بِالْفَرْضِ وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ،فَلَيْسَتْ بِمُحْتَاجٍ إِلَيْهَا.فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ قَدْ كَمُلَ الـــدِّينُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ."[١٦٩].

[١٦٩] - الاعتصام للشاطبي ت الهلالي (٢/ ٨١٦)

لقد تمسك الصحابة بكتاب الله تعالى وتأسوا برسول الله ﷺ،حيث اجتمعت هممهم على اتباع القرآن،والتخلق بأخلاقه،والاقتداء برسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن[170]،ولم تشب علومهم،وتشتت هممهم،وتصرفهم عن القرآن،وتشغلهم عن الجهاد،ما أحدثه من جاء بعدهم من البدع والأهواء،والاستحسانات العقلية،والأقيسة الفاسدة،والفلسفة،والمنطق،وقد قال الله تبارك وتعالى:{اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } [الأعراف:٣]

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ،فَهُوَ وَحْدَهُ الذي لَهُ الحَقُّ في شَرْعِ الدِّينِ لَكُمْ،وَفَرْضِ العبَادَاتِ عَلَيْكُمْ وَتَحْلِيلِ مَا يَنْفَعُكُمْ،وَتَحْرِيمِ مَا يَضُرُّكُمْ،لأَنَّهُ العَليمُ بمَا فيه الفَائدَةُ أَو الضَّرَرُ لَكُمْ،وَلا تَتَّخذُوا مِنَ النَّاسِ،أَوْ مِنَ الشَّيَاطِينِ الذينَ يُوَسْوِسُونَ إِلَيْكُمْ،أَوْلِيَاءَ تُوَلُّونَهُمْ أُمُورَكُمْ،وَتُطيعُونَهُمْ فيمَا يَرُومُونَ مِنْكُمْ مِنْ ضَلاَلِ التَّقَاليدِ،وَالابْتِدَاعِ في الدِّينِ.وَقَليلٌ مِنَ النَّاسِ هُمُ الذينَ يَتَذَكَّرُونَ وَيَتَّعظُونَ (أَوْ قَليلاً مَا تَتَّعظُونَ بمَا تُوعَظُونَ به) .[171]

وقال تعالى:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة:١٢١]

وَمِنْ أَهْلِ الكتاب طَائِفَةٌ يَقْرَؤُونَ التَّورَاةَ بخُشُوعٍ وَإِمْعَانٍ،وَيَتدبَّرُونَ مَعْنَاهَا،وَيَفْقَهُونَ أَسْرَارهَا وَحكَمَها،وَأُولئكَ هُمُ الذينَ يَعْقلُونَ أَنَّ مَا جئتَ به يَا مُحَمَّدُ هُوَ الحَقُّ،فَيُؤْمنُونَ به،وَيَهتَدُونَ بهَدْيه إلى سَوَاءِ السَّبِيلِ،(كَعَبْد الله بْنِ سَلاَّمٍ) .وَمَنْ يَكْفُرْ بمَا أُنْزِلَ إليكَ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ الحَقُّ،منَ الرُّؤَسَاءِ المَعَاندينَ،وَالجُهَّالِ المُقَلِّدينَ،فَأُولئكَ هُمُ الذينَ خَسرُوا سَعَادَةَ الدُّنْيَا،وَالمَجْدَ وَالسِّيَادَةَ التي يُعْطيهَا اللهُ مَنْ يَنْصُرُ دينَهُ.[172]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:" {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ "

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:" فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:يُحِلُّونَ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ وَلَا يُحَرِّفُونَ "

---

[170] - عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ:"كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ:يَرْضَى لِرِضَاهُ وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ "دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (١/ ٣٠٩) والأدب المفرد مخرجا (ص:١١٥)(٣٠٨) صحيح

[171] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

[172] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٨،بترقيم الشاملة آليا)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ:" فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ "

عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَنْ يُحِلَّ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ،وَيَقْرَأَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ،وَلَا يُحَرِّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ،وَلَا يَتَأَوَّلَ مِنْهُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ»

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ:" فِي قَوْلِهِ:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] أَنْ يُحِلَّ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ،وَلَا يُحَرِّفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ "

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:" {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ "

عَنْ أَبِي رَزِينٍ:" فِي قَوْلِهِ:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ "

عَنْ مُجَاهِدٍ:" {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:عَمَلًا بِهِ "

عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ:" {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ؛أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِهِ:{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} [الشمس:٢] يَعْنِي الشَّمْسَ إِذَا تَبِعَهَا الْقَمَرُ "

عَنْ مُجَاهِدٍ:" فِي قَوْلِهِ:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ "

عَنْ مُجَاهِدٍ،قَالَ:«يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ»

عَنْ مُجَاهِدٍ:" {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ "

عَنْ مُجَاهِدٍ:" فِي قَوْلِهِ:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ "

عَنْ عَطَاءٍ:" قَوْلَهُ:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ،يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ "

عَنِ الْحَسَنِ:" {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ،وَيَكِلُونَ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ إِلَى عَالِمِهِ "

عَنْ قَتَادَةَ:" {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:أَحَلُّوا حَلَالَهُ،وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ،وَعَمِلُوا بِمَا فِيهِ "

ذُكِرَ لَنَا أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَقُولُ:«إِنَّ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَنْ يُحِلَّ حَلَالَهُ،وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ،وَأَنْ يَقْرَأَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَلَا يُحَرِّفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ»

وعن قَتَادَةَ قال:" {يَتْلُونَهُ حَقَّ تلَاوَته} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِــهِ قَــالَ:اتِّبَاعُــهُ يُحِلُّونَ حَلَالَهُ،وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ،وَيَقْرَءُونَهُ كَمَا أُنْزِلَ "

َنْ عِكْرِمَةَ:" فِي قَوْله:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تلَاوَته} [البقرة:١٢١] قَالَ:يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعه،أَمَا سَــمِعْتَ قَوْلَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ:{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} [الشمس:٢] ؟ قَالَ:إِذَا تَبِعَهَا " وَقَالَ آخَرُونَ {يَتْلُونَــهُ حَقَّ تلَاوَته} [البقرة:١٢١] يَقْرَءُونَهُ حَقَّ قِرَاءَته.وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي تَأْوِيــلِ ذَلِــكَ أَنَّــهُ بِمَعْنَى:يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعه،مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ:مَا زِلْتُ أَتْلُو أَثَرَهُ،إِذَا اتُّبِعَ أَثَرُهُ؛لِإِجْمَاعِ الْحُجَّة مِــنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عَلَى أَنَّ ذَلكَ تَأْوِيلُهُ.وَإِذَا كَانَ ذَلكَ تَأْوِيلَهُ،فَمَعْنَى الْكَلَامِ:الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَبِمَا جِئْتَهُمْ بِه مِنَ الْحَقِّ مِنْ عِنْــدِي،يَتَّبِعُونَ كِتَــابِي الَّذِي أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهُ عَلَيْه،فَيُؤْمِنُونَ بِه،وَيُقِرُّونَ بِمَا فِيــه مِــنْ نَعْتِــكَ وَصِفَتِكَ،وَأَنَّكَ رَسُولِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ طَاعَتِي فِي الْإِيمَان بِكَ وَالتَّصْدِيقِ بِمَا جِئْــتَهُمْ بِــه مِــنْ عِنْدِي،وَيَعْمَلُونَ بِمَا أَحْلَلْتَ لَهُمْ،وَيَجْتَنِبُونَ مَا حَرَّمْتَ عَلَيْهِمْ فِيه،وَلَا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِه وَلَا يُبَدِّلُونَهُ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ كَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَيْهِمْ بِتَأْوِيلٍ وَلَا غَيْرِه.أَمَّا قَوْلُهُ:{حَقَّ تلَاوَته} [البقــرة:١٢١] فَمُبَالَغَةٌ فِي صِفَة اتِّبَاعِهِمُ الْكِتَابَ وَلُزُومِهِمُ الْعَمَلَ بِه،كَمَا يُقَالُ:إِنَّ فُلَانًا لَعَالِمٌ حَقَّ عَالِمٍ،وَكَمَا يُقَالُ:إِنَّ فُلَانًا لَفَاضِلٌ كُلَّ فَاضِلٍ.[١٧٣]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِه:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَــهُ حَــقَّ تلَاوَتِــه} [البقــرة:١٢١] قَالَ:«يُحِلُّونَ حَلَالَهُ،وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ،وَلَا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِه» وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ نَحْوُ ذَلكَ

عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِه:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تلَاوَته} [البقرة:١٢١] قَالَ:«يَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِه،وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِه،وَيَكِلُونَ مَا أُشْكِلَ عَلَيْهِمْ إِلَى عَالِمِه»

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِه:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تلَاوَته} [البقرة:١٢١] قَالَ:«يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِــه»،ثُــمَّ قَرَأَ:{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} [الشمس:٢] يَقُولُ:«اتَّبَعَهَا» وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ،وَعَطَاءٍ،وَمُجَاهِدٍ،وَأَبِي رَزِينٍ،وَإِبْرَاهِيمَ النَّخْعِيِّ نَحْوُ ذَلكَ

---

[١٧٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢/ ٤٨٨) فما بعدها

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ:{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:«إِذَا مَرَّ بِذِكْرِ الْجَنَّةِ سَأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ،وَإِذَا مَرَّ بِذِكْرِ النَّارِ تَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ»

عَنْ قَتَادَةَ:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:«مِنْهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ،وَصَدَّقُوا بِهَا»

وعن يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ:سَأَلْتُ زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [البقرة:١٢١] قَالَ:«يَتَكَلَّمُونَ بِهِ كَمَا أُنْزِلَ وَلَا يَكْتُمُونَهُ»[١٧٤]

وعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَوْفٍ الشَّيْبَانِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ،يَقُولُ:«لَقَدْ لَبِثْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرٍ،وَأَحَدُنَا لَيُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ تَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَنَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا،وَأَمْرَهَا وَزَاجِرَهَا،وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا كَمَا يَتَعَلَّمُ أَحَدُكُمُ السُّورَةَ،وَلَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ يَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ،مَا يَعْرِفُ حَلَالَهُ وَلَا حَرَامَهُ،وَلَا أَمْرَهُ وَلَا زَاجِرَهُ،وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ» [١٧٥]..

وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:«كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ غِلْمَانٌ حَزَاوِرَةٌ فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا».[١٧٦]

وعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ قَالَ:سَمِعْتُ جُنْدُبًا الْبَجَلِيَّ قَالَ:" كُنَّا فِتْيَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ،فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ،ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا،وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ "[١٧٧]

وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ:«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا هُوَ فَلْيَعْرِضْ نَفْسَهُ عَلَى الْقُرْآنِ»[١٧٨]

---

[١٧٤] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (١/ ٢١٨)(١١٥٨ - ١١٦٢)

[١٧٥] - الإيمان لابن منده (١/ ٣٦٩)(٢٠٧) وقال:«هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى رَسْمِ مُسْلِمٍ وَالْجَمَاعَةِ إِلَّا الْبُخَارِيَّ»

البرهة:الزمان الطويل =النثر:التساقط والتفرق =الدقل:الرديء اليابس من التمر والمراد أن القارئ يرمي بكلمات القرآن من غير رؤية وتأمل كما يتساقط الدقل من العذق إذا هُزَّ.

[١٧٦] - الإيمان لابن منده (١/ ٣٧٠)(٢٠٨) صحيح وسنن ابن ماجه (١/ ٢٣)(٦١) صحيح

[ش (حزاورة) جمع الحزور وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم]

[١٧٧] - شعب الإيمان (١/ ١٥٢)(٥٠) صحيح

[١٧٨] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ١٣)(٣٧) صحيح

وعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ،قَالَ:«حَدَّثَنَا الَّذِينَ،كَانُوا يُقْرِؤُنَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَقْرَئُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،فَكَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ،لَمْ يُخْلِفُوهَا حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ،فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»[١٧٩].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:«كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ،لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يُعْرَفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ»،فتأمل قوله رضي الله عنه " حتى يعرف معانيهن والعمل بهن "[١٨٠]

وهو يبين منهج الصحابة رضي الله عنهم في تلقي القرآن،فقد كانوا يتدبرون آياته،وينقادون لأوامره وينتهون عما نهى عنه،وبهذا حصل لهم التمكين في الأرض والنصر على أعدائهم،وهذه الهداية في التلقي هي التي خالفهم بها كثير من الخلف،وهذه المخالفة في التلقي عند الكثير من الخلف هي السبب الحقيقي في تنكب الكثير عن التمسك بالكتاب والسنة علما وعملا في السياسة وغيرها،وإبطائهم عن الجهاد في سبيل الله،وهي السبب الحقيقي وراء ظاهرة غياب من تحصل بهم الكفاية من أهل العلم عن مواطن الجهاد ومنازلة الأعداء،وإعراض بعض أهل العلم عن تبليغ الرسالة كاملة والصدع بكلمة الحق.

لقد أوجب الله تعالى على عباده أن يقرأوا سورة الفاتحة في كل ركعة،وقد تضمنت سؤال الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم،وهو الطريق الواضح الذي لا عوج فيه،لضرورة العباد إلى هداية الله وتوفيقه في جميع الأحوال والأوقات وفي كل قول وعمل.

وسؤال الهداية يتضمن التوفيق إلى الحق والثبات عليه،وأن يزيد الله تعالى عبده هداية وتوفيقا،وأن يهديه إلى العلم بتفاصيل الأحكام وجزئياتها،وأن يهديه للعمل بالعلم،فإن العبد قد يفوته الكثير من العلم والعمل،وقد يتمكن من التعلم،ولكنه يحتاج إلى هداية الله له بالعمل بالعلم.

فالصراط المستقيم هو دين الإسلام،وهو طريق الذين أنعم الله عليهم،الذين عملوا بالعلم والمواعظ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين،كما قال الله تعالى:{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ

---

[١٧٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١/ ٧٤) صحيح

[١٨٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١/ ٧٤) صحيح

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) } [النساء:].

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى أنَّ الإيمَانَ لاَ يَتِمُّ إلاَ بِتَحْكِيمِ الرَّسُولِ،مَعَ التَّسْلِيمِ وَالانْقِيادِ لِحُكْمِه،ذَكَرَ هُنَا قُصُورَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ،لِضَعْفِ إيمَانِهِمْ،فَقَالَ:لَوْ أَنَّهُمْ أُمِرُوا بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ،كَمَا أُمِرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِذَلِكَ تَطْهِيراً لأَنْفُسِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ العِجْلِ،أَوْ لَوْ أُمِرُوا بِالهِجْرَةِ مِنْ دِيَارِهِمْ إِلى دِيَارٍ أُخْرَى،لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لأَنَّهُ لاَ يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ.فَالمُنَافِقُونَ يَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى حَرْفٍ،فَإِنْ أَصَابَهُمْ خَيْرٌ اطْمَأَنُّوا بِهِ،وَإِنْ نَالَهُمْ أَذَى انْقَلَبُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ قَدْ خَسِرُوا الدُّنيا وَالآخِرَةَ.أَمَّا صَادِقُو الإيمَانِ فَإِنَّهُمْ يُطِيعُونَ اللهَ فِي كُلِّ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ،فِي السَّهْلِ وَالصَّعْبِ،وَالمَحْبُوبِ وَالمَكْرُوهِ.وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ،وَتَرَكُوا مَا يَنْهَونَ عَنْهُ،لَكَانَ ذَلِكَ خَيْراً لَهُمْ مِنْ مُخَالَفَةِ الأَوَامِرِ،وَارْتِكَابِ مَا يَنْهَونَ عَنْهُ،وَأَشَدَّ تَصْدِيقاً وَتَثْبِيتاً لَهُمْ فِي إِيمَانِهِمْ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ،وَتَرَكُوا مَا يَنْهُونَ عَنْهُ،وَأَخْلَصُوا فِي ذَلِكَ،لآتَاهُمُ اللهُ مِنْ عِنْدِهِ أَجْراً عَظِيماً وَهُوَ الجَنَّةَ،وَفِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ،وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ،وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.وَلَهَدَاهُمُ اللهُ إِلى الطَّرِيقِ المُوصِلِ إِلى رِضْوَانِ اللهِ وَجَنَّتِهِ،فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَرَسُولَهُ،وَعَمِلَ بِمَا أَمَرا بِهِ،وَانْتَهَى عَمَّا نَهَيَا عَنْهُ،فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسْكِنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ،وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقاً لِلأَنْبِيَاءِ،ثُمَّ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ،وَهُمُ الصِّدِّيقُونَ،ثُمَّ الشُّهَدَاءُ،ثُمَّ عُمُومُ المُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الذِينَ صَلُحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلاَنِيَتُهُمْ وَمَا أَحْسَنَ رِفْقَةَ هَؤُلاءِ الذِينَ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ.

وَالفَوْزُ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ العَظِيمَةِ،مِنْ مُرَافَقَةِ النَّبِيِّينَ،وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ،هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ،وَهُوَ الذي أَهَّلَهُمْ لِذَلِكَ،وَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ،وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً بِالمُخْلِصِينَ وَبِالمُنَافِقِينَ،وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ.[181]

[181] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٩،بترقيم الشاملة آليا)

ثم يسأل المصلي ربه ألا يجعله من المغضوب عليهم ولا الضالين،وهؤلاء هـــم الزائغـــون عـــن صراط الله المستقيم،فالمغضوب عليهم هم الذين علموا و لم يعملوا كاليهود ومن فســـق وزاغ من علماء الأمة،والضالون الذين عملوا بلا علم كالنصارى ومن ابتدع وضل من عبَّاد الأمة.

فتضمنت فاتحة الكتاب التي يقرأها المسلم في كل ركعة المنهاج السياسي لكـــل مســـلم،وهذه مسألة عظيمة عليها مدار الهداية.

فبينت فاتحة الكتاب أن الهداية في جميع الأمور السياسية وغيرها تكون باتباع المسلم لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ والعمل بهما،فإن التلقي في السياسة وغيرها من غير الكتـــاب والســـنة ضـــلال وخروج عن الصراط المستقيم،كنسبة بعض علماء السوء سياسات الملوك الجائرة للإســـلام،أو تلقف بعض المفتونين ما افتراه الكفار المفترون من السياســـات والأنظمـــة كالديمقراطيـــة[١٨٢] وغيرها ثم ينسبونها إلى الإسلام ويحتجون لذلك بالحجج الواهية ويتبعون الآيات المتشـــابهات طلبا للفتنة والصد عن سبيل الله تعالى.

فهداية المسلم إلى الصراط المستقيم في السياسة وغيرها أن يتلقى العلم من الكتاب والسنة وأن يعمل بعلمه،فإذا علم مثلا أن الجهاد فرض وأن الله تعالى أوجب جهاد الغزاة المعتدين،فعليه أن يعمل بعلمه ويجاهد في سبيل الله،حتى يكون من المهتدين الصادقين.

وفاتحة الكتاب فيها تحذير للمسلم من مسلكين جائرين في السياسة وغيرها وأولهما:هو مسلك المغضوب عليهم،وهم الذين علموا و لم يعملوا:كاليهود،ومن سلك سبيلهم،وانتهج نهجهم من عوام الأمة،أو من علماء السوء،الذين كتموا الحق وناصروا الطواغيت،والثاني:هـــو مســـلك الضالين الذين عملوا على غير علم:كالنصارى ومن ضل من عباد الأمة.

وقد تضمنت سورة الفاتحة التحذير من الديمقراطية وغيرها من السياسات الجائرة التي افتراهـــا المغضوب عليهم اليهود والضالون النصارى،فإن من سبلهم القديمة الجائرة أن يتخذ بعضـــهم بعضا أربابا من دون الله تعالى،كما قال تعالى:{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } [التوبة:٣١] فقد اتخذوهم أربابا حين اتبعوهم في التحليل والتحريم وهو التشريع[١٨٣]،وهذا

---

[١٨٢] – يعني الذين يأخذون بها بعجرها وبجرها دون تمييز بين الوسائل والمقاصد

[١٨٣] – انظر:أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

الكفر القديم لا يزالون يعمهون فيه ويهيمون في ظلماته،وقد زادوا في هذه الأزمـــان صـــورا وأشكالا للطواغيت المشرعين من هيئات وبرلمانات وغيرها.

فمن سلك طريق الكفر المسمى بالديمقراطية وهو يقرأ في الصلاة بفاتحة الكتاب فهـــو زائـــغ جاهل ضال عما تضمنته فاتحة الكتاب من الهداية بالتمسك بالإسلام علمـــا وعملا،ومجانبـــة سبيل المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى ونحوهم.



المبحث السادس

العقل

لقد أرسل الله تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام بالكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط،وهو العدل والحق،كما قال الله تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد:٢٥]

لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ بِالْمُعْجزَاتِ وَالحُجَجِ الدَّالَّةِ عَلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنَ اللهِ إِلَى أَقْوَامِهِمْ،وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الكُتُبَ وَالشَّرَائِعَ،فِيهَا الهِدَايَةُ لِلنَّاسِ،وَفِيهَا صَلاَحُ أُمُورِهِمْ،وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَتَعَامَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالعَدْلِ،وَبِأَلاَّ يَظْلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَداً.وَلَمَّا كَانَ لاَ بُدَّ لإِقَامَةِ العَدْلِ مِنْ سُلْطَةٍ وَقُوَّةٍ وَسِلاَحٍ،لِذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الحَدِيدَ تُصْنَعُ مِنْهُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ والدُّرُوعُ وَعُدَدُ الحُرُوبِ،التي تَرْدَعُ مَنْ يَتَجَاوَزُ الحُدُودَ،وَيَأْبى إِقَامَةَ العَدْلِ،بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.كَمَا جَعَلَ اللهُ فِي الحَدِيدِ مَنَافِعَ لِلنَّاسِ،يَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ،وَمَعَايِشِهِمْ،كَأَدَوَاتِ العَمَلِ وَالحَرْثِ...وَالسِّلاَحِ والسُّفُنِ...وَإِنَّمَا فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ مَنْ يَنْوِي اسْتِعْمَالَ السِّلاَحِ فِي نَصْرِ دِينِ اللهِ،وَمَنْ يَنْوِي اسْتِعْمَالَهُ فِي الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَاللهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى الخَلْقِ،وَإِنَّمَا شَرَعَ الجِهَادَ لِيَبْلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.[١٨٤]

فجعل تعالى المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط وهو العدل في حقوق الله وحقوق العباد،وجعل الله تعالى الكتاب والميزان متلازمين كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى:{اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} [الشورى:١٧]

اللهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كُتُبَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ مُتَضَمِّنَةً الحَقَّ الذي لاَ شُبْهَةَ فِيهِ،وَأَنْزَلَ العَدْلَ (المِيزَانَ) لِيَقْضِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِالإِنْصَافِ دُونَ حَيْفٍ وَلاَ جَوْرٍ.والسَّاعَةُ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلاَ شَكَّ،وَسَيَبْعَثُ اللهُ

---

[١٨٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٧٨،بترقيم الشاملة آليا)

الخَلْقَ مِنْ قُبُورِهِمْ،وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ،وَقَدْ يَكُونُ مَوْعِدُ السَّاعَةِ قَرِيباً وَأَنْتَ لاَ تَدْرِي،فَعَلَى العَاقِلِ أَنْ لاَ يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا،وَأَنْ يُشَمِّرَ عَنْ سَاعِدِ الجِدِّ لِلعَمَلِ لآخِرَتِهِ لَعَلَّهُ يَكُونُ مِنَ الفَائِزِينَ.[185]

وقال تعالى:{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)} [الرحمن:٧ - ٩]

وَقَدْ رَفَعَ اللهُ تَعَالى السَّماءَ وَأقَامَ العَالَمَ عَلَى العَدْلِ،وَفَرَضَ العَدْلَ عَلَى عِبَادِهِ،لِكَي تَنْتَظِمَ شُؤُونُ الحَيَاةِ.وَقَدْ أقَامَ اللهُ الخَلْقَ عَلى العَدْلِ،وَفَرَضَ العَدْلَ عَلَى العِبَادِ لِكَيلا يَعْتَدُوا وَيَتَجاوزُوا حُدُودَ مَا يَنْبَغِي مِنَ العَدْلِ والإِنْصَافِ.وَقَوِّمُوا وَزْنَكُم بالعَدْلِ،وَلاَ تُنْقِصُوهُ شَيْئاً،وَلا تَبْخسُوا النَّاسَ أشْياءَهُمْ وَحُقُوقَهُمْ.[186]

أي ووضع العدل لتكون أحوال الخلق كلها قائمة بالعدل والحق،والميزان هو العدل وما يعرف به العدل كالأقيسة الصحيحة،والعلل والحكم الشرعية،والميزان المعروف ونحوه،والفطر والعقول السليمة فإن الله تعالى فطر العباد على توحيده تبارك وتعالى كما قال الله تعالى:{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم:٣٠]

فَوَجِّهْ وَجْهَكَ إلى الدِّينِ شَرَعَهُ اللهُ لَكَ،وَهُوَ الحَنِيفيّةُ مِلَّةُ إبراهيمَ التِي هَدَاكَ اللهُ إليها،وَفَطَرَكَ عَليها،كَمَا فَطَرَ الخَلْقَ عَلَيهَا،وبهذهِ الفِطَرِ السَّلِيمةِ يَهْتَدِي البَشَرُ إلى مَعرفَةِ رَبِّهِمْ وخَالِقِهِمْ تَعَالى وَتَقَدَّسَ،وأَنَّهُ وَاحِدٌ لا شَريكَ لهُ.وَقَدْ سَاوَى اللهُ تَعَالى بينَ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ في الفِطْرَةِ،لا تَفَاوُتَ بينَ النَّاسِ في ذَلِكَ،وَلِذَلكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ في مَعْنَى (لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) :إن ذَلِكَ يَعني لاَ تَبديلَ لِدِينِ اللهِ.[187]

فأمر تعالى بأن يسدّد وجهه وقصده لهذا الدين الذي هو فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها،وقوله تعالى:{لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} أي لا تغيّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله

---

[185] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٦٨،بترقيم الشاملة آليا)

[186] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٧٨٧،بترقيم الشاملة آليا) -

[187] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٢١،بترقيم الشاملة آليا)

عليها،فيكون خبرا بمعنى الطلب،وقيل:المعنى أن الله تعالى خلق العباد،وسوّى بينهم في الفطرة،ولا اختلاف بينهم في أصل الفطرة،وإنما تفسد الفطرة بما يطرأ عليها من الكفر والانحراف،كما جاء عَنِ الزُّهْرِيِّ،أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ،فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه،وَيُنَصِّرَانِه،أَوْ يُمَجِّسَانِه،كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ،هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ} [الروم:٣٠] رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري[188]

أي تلد البهيمة بهيمة جمعاء،وهي التي لا نقص في خلقها،فلا يحس فيها من جدعاء وهي مقطوعة الأذن،والمعنى أن أهلها هم الذين غيّروا خلقها بجدع أذنها،وكذلك المولود يولد وقد فطر على معرفة التوحيد،ولكن أبواه يغيّرانه عن فطرته،وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِه:" أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ،مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا،كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ،وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ،وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ،وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ،وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا،وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ،فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ،إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَقَالَ:إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ،وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ،تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ،وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا،فَقُلْتُ:رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً،قَالَ:اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ،وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ،وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ،وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ،وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ،قَالَ:وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ،وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ،وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ،قَالَ:وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ:الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ،الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا

---

[188] - صحيح البخاري (٢/ ٩٥)(١٣٥٩) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧)٢٢ - (٢٦٥٨)

[ش (لا تبديل لخلق الله) لا تفاوت بين الناس في أصل خلقتهم ولا يستطيع أحد أن يغير طبيعة نفوسهم حقيقة.(القيم) المستقيم والمقوم لأمور الناس]

مَالًا،وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ،وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ،وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ «وَذَكَرَ» الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ " رواه مسلم[189].

وقال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [هود:١٧]

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى نُورٍ وَبَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ – وَهُوَ مُحَمَّدٌ وَكُلُّ مُؤْمِنٍ تَابَعَهُ عَلَى دِينِهِ – وَيُؤَيِّدُهُ نُورٌ غَيْبِيٌّ يَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ،وَهُوَ القُرْآنُ الُمشْرِقُ بِالنُّورِ وَالهُدَى،وَيُؤَيِّدُهُ شَاهِدٌ آخَرَ جَاءَ قَبْلَهُ،وَهُوَ الكِتَابُ الذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى،حَالَ كَوْنِهِ إِمَاماً مُتَّبَعاً فِي الهُدَى وَالتَّشْرِيعِ،وَرَحْمَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ،أَفَمَنْ كَانَ عَلَى هَذِهِ الأَوْصَافِ،كَمَنْ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا الفَانِيَةَ،وَيَظَلُّ مَحْرُوماً مِنَ الحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ التِي تُوصِلُ إِلَى سَعَادَةِ الدَّارِ الآخِرَةِ الدَّائِمَةِ؟

وَهَؤُلاَءِ الذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ البَيِّنَةِ المَوْهُوبَةِ،وَالبَيِّنَةِ الُمكْتَسَبَةِ،لِيُؤْمِنُوا بِهَذَا القُرْآنِ إِيمَانَ يَقِينٍ وَإِذْعَانٍ،وَيَجْزِمُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ.أَمَّا مَنْ يَكْفُرُ بِهَذَا القُرْآنِ،وَيَجْحَدُ فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ،مِمَّنْ

---

[189] - صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧)٦٣ – (٢٨٦٥)

[ش (كل مال نحلته عبدا حلال) في الكلام حذف أي قال الله تعالى كل مال الخ ومعنى نحلته أعطيته أي كل مال أعطيته عبدا من عبادي فهو له حلال والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك وأنها لم تصر حراما بتحريمهم وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق (حنفاء كلهم) أي مسلمين وقيل طاهرين من المعاصي وقيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية (فاجتالتهم) هكذا هو في نسخ بلادنا فاجتالتهم وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل وقال شمر اجتال الرجل الشيء ذهب به واجتال أموالهم ساقها وذهب بها (فمقتهم) المقت أشد البغض والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ﷺ (إلا بقايا من أهل الكتاب) المراد بهم الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل (إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك) معناه لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده والصبر في الله تعالى وغير ذلك وأبتلي بك من أرسلتك إليهم فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته ومن يتخلف وينابذ بالعداوة والكفر ومن ينافق (كتابا لا يغسله الماء) معناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على ممر الزمان (إذا يثلغوا رأسي) أي يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز أي يكسر (نغزك) أي نعينك (لا زبر له) أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي وقيل هو الذي لا مال له وقيل الذي ليس عنده ما يعتمده (لا يتبعون) مخفف ومشدد من الاتباع أي يتبعون ويتبعون وفي بعض النسخ يبتغون أي يطلبون (والخائن الذي لا يخفى له طمع) معنى لا يخفى لا يظهر قال أهل اللغة يقال خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته وكتمته هذا هو المشهور وقيل هما لغتان فيهما جميعا (وذكر البخل أو الكذب) هكذا هو في أكثر النسخ أو الكذب وفي بعضها والكذب والأول هو المشهور في نسخ بلادنا (الشنظير) فسره في الحديث بأنه الفحاش وهو السيئ الخلق]

تَحَزَّبَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ،وَزُعَمَاءِ قُرَيْشٍ لِصَدِّ النَّاسِ عَنْهُ،فَإِنَّ مَصِيرَهُ سَيَكُونُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مِنْ جَرَّاءِ تَكْذِيبِهِ لِوَعِيدِ اللهِ.فَلاَ تَكُنْ،أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ،فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِ هَذَا القُرْآنِ فَإِنَّهُ الحَقُّ الذِي لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ.وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ الإِيمَانَ الكَامِلَ.[190]

فالمؤمن على إيمان وهدى من ربه،ويتبع هذا الإيمان ويوافقه ولا يخالفه شاهد من الله وهو القرآن.

وقال الله تبارك وتعالى:{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [النور:٣٥]

اللهُ تَعَالَى هَادِ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ بِمَا نَصَبَ مِنَ الأَدِلَّةِ فِي الأَنْفُسِ والآفَاقِ،وَبِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ مِنَ البَيِّنَاتِ،فَهُمْ يَهْتَدُونَ إلى الحَقِّ بِنُورِهِ،وَبِهِ يَنْجونَ مِنْ حيرَةِ الشَّكِّ والضَّلالِ.وَمَثَلُ الأَدِلَّةِ التِي بَثَّهَا اللهُ فِي الآفَاقِ،والتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ،فَهَدَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ،كَمَثَلِ النُّورِ الثَّاقِبِ الْمُنْبَعِثِ مِنْ سِرَاجٍ ضَخْمٍ (مِصْبَاح) مَوْضُوعٍ فِي كُوَّةٍ غَيْرِ نَافِذَةٍ مِنْ جِدَارٍ (مِشْكَاةٍ)،والمِصْبَاحُ يَقُومُ فِي قِنْدِيلٍ مِنْ زُجَاجٍ أَزْهَرَ صَافٍ (زُجَاجَة)،وَهَذِهِ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ ضَخْمٌ مَضِيءٌ مِنْ دَرَارِي النُجُومِ ذَاتِ اللَّمَعَانِ الشَّدِيدِ،وَقَدْ رُوِّيَتْ فَتِيلَةُ هَذَا المِصْبَاحِ بِزَيْتٍ صَافٍ جداً يُسْتَخْرَجُ مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةِ زَيْتُونٍ كَثِيرَةِ الخَيْرِ والمَنَافِعِ (مُبَارَكَةٍ)،زُرِعَتْ عَلَى جَبَلٍ عَالٍ،أَوْ فِي صَحْرَاءَ وَاسِعَةٍ،فَهِيَ مُعَرَّضَةٌ لِلشَّمْسِ،لاَ يُظِلُّها جَبَلٌ،وَلاَ يَحْجُبُ نُورَ الشَّمْسِ عَنْهَا شَيءٌ،مِنْ طُلُوعِ الشَّمُسِ،حَتَّى غُرُوبِهَا (وَمِثْلُ هَذِهِ الزَّيْتُونَةِ يَكُونُ زيتُها أَشَدَّ مَا يَكُونُ الزَّيْت صَفَاءً) .

(وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ،إِنَهَا لاَ شَرْقِيَّةٌ فَحَسْبُ،فَتَقَعُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ جِهَتِهَا الشَّرْقِيَةِ فَحَسْبُ،وَلاَ تُصِيبُهَا مِنْ طَرَفِهَا الغَرْبِيِّ،كَذَلِكَ لَيْسَتْ هِيَ غَرْبِيَّةً فَحَسْبُ،وَإِنَّمَا تُصِيبُهَا الشَّمْسُ طُولَ النَّهَارِ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ حَتَّى مَغِيبِهَا،وَمِنْ جميعِ جِهَاتِهَا) .

[190] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٩١،بترقيم الشاملة آليا)

وَهَذَا الزَّيْتُ يَكَادُ يُضِيءُ بِنَفْسِه لِشدَّة صَفَائِه،وَلَوْ لَمْ تَمْسَسهُ نارٌ،فَإِذَا أُشْعِلَ اجْتَمَعَ نُورُ الزَّيْت،وَنُورُ النَّارِ فِيه وَأَضَاءَا مَعاً (نورٌ عَلَى نُورٍ) .

وَكَذَلِكَ قَلْبُ المُؤْمِنِ يَعْمَلُ بالهُدَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيه العِلْمُ،فَإِذَا جَاءَهُ العِلْمُ ازْدَادَ نُوراً على نُورٍ،وَهُدى عَلَى هُدىً،وَاللهُ يُرْشدُ مَنْ يَشَاءُ إلى الصَّوَاب بالنَّظَر والتَّدَبُّر،وَليدركُوا بهَا مَعَاني مَا أَرَادَ اللهُ.واللهُ تَعَالَى عَليمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الهِدَايَةَ فَيَهْديه،وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَلاَلَ فَيُضِلُّهُ.[191]

قال الإمام ابن القيم رحمه الله " وَالْمِصْبَاحُ هُوَ نُورُ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ وَالشَّجَرَةُ الْمُبَارَكَةُ هِيَ شَجَرَةُ الْوَحْيِ الْمُتَضَمِّنَةُ لِلْهُدَى،وَدِينُ الْحَقِّ وَهِيَ مَادَّةُ الْمِصْبَاحِ الَّتِي يَتَّقِدُ مِنْهَا،وَالنُّورُ عَلَى النُّورِ:نُورُ الْفِطْرَةِ الصَّحِيحَةِ وَالْإِدْرَاكِ الصَّحِيحِ،وَنُورُ الْوَحْيِ وَالْكِتَابِ،فَيَنْضَافُ أَحَدُ النُّورَيْنِ إِلَى الْآخَرِ فَيَزْدَادُ الْعَبْدُ نُورًا عَلَى نُورٍ،وَلِهَذَا يَكَادُ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَالْحِكْمَةِ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ " مَا " فِيهِ بِالْأَثَرِ ثُمَّ يَبْلُغُهُ الْأَثَرُ بِمِثْلِ مَا وَقَعَ فِي قَلْبِهِ وَنَطَقَ بِهِ فَيَتَّفِقُ عِنْدَهُ شَاهِدُ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ وَالْفِطْرَةِ وَالْوَحْيُ فَيُرِيَهُ عَقْلُهُ وَفِطْرَتُهُ وَذَوْقُهُ " أَنَّ " الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ هُوَ الْحَقُّ لَا يَتَعَارَضُ عِنْدَهُ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ الْبَتَّةَ بَلْ يَتَصَادَقَانِ وَيَتَوَافَقَانِ فَهَذَا عَلَامَةُ النُّورِ عَلَى النُّورِ،عَكْسُ مَنْ تَلَاطَمَتْ فِي قَلْبِهِ " أَمْوَاجُ " الشُّبَهِ الْبَاطِلَةِ،وَالْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةِ مِنَ الظُّنُونِ الْجَهْلِيَّاتِ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُهَا الْقَوَاطِعَ الْعَقْلِيَّاتِ،فَهِيَ فِي صَدْرِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور:٤٠] فَانْظُرْ كَيْفَ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ طَرَائِفَ بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ أَتَمَّ انْتِظَامٍ،وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَكْمَلَ اشْتِمَالٍ."[192]

فالقلب السليم الباقي على فطرته يطمئنُّ إلى الحق،ويصدقه ويؤمن به،وينكر الكذب والباطل ولا يطمئن إليه،بل يحدث له ريبة وقلقا لمخالفته لفطرته السليمة،عَنْ نَوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ،قَالَ:أَقَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ سَنَةً مَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَّا الْمَسْأَلَةُ،كَانَ أَحَدُنَا إِذَا هَاجَرَ لَمْ يَسْأَلْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ،قَالَ:فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

[191] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٠٨،بترقيم الشاملة آليا)

[192] - اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٥٢)

ﷺ:«الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ،وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ،وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» رواه مسلم[193].

وعن أبي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ،قُلْتُ :يَا رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي بِمَا يَحِلُّ لِي،وَيُحَرَّمُ عَلَيَّ،قَالَ :فَصَعَّدَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَوَّبَ فِيَّ النَّظَرَ،فَقَالَ :الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ،وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ،وَالإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ،وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ،وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ،وَقَالَ :لاَ تَقْرَبْ لَحْمَ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ،وَلاَ ذَا نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ.رواه أحمد[194].

وعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ قَالَ:جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَلَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَدَعَ مِنَ الْبِرِّ،وَالْإِثْمِ شَيْئًا إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي عِصَابَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَوْلَهُ،فَجَعَلْتُ أَتَخَطَّاهُمْ لِأَدْنُوَ مِنْهُ فَانْتَهَرَنِي بَعْضُهُمْ فَقَالَ:إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقُلْتُ:إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«دَعُوا وَابِصَةَ،ادْنُ مِنِّي يَا وَابِصَةُ»،فَأَدْنَانِي حَتَّى كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ:«أَتَسْأَلُنِي أَمْ أُخْبِرُكَ؟»،فَقُلْتُ:لَا،بَلْ تُخْبِرُنِي،فَقَالَ:«جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ» قُلْتُ:نَعَمْ،فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدْرِي،وَقَالَ:«الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ،وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ،وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ مَا أَفْتُوكَ»[195]

عَنِ الْبِرِّ) أَيِ:الطَّاعَة (وَالْإِثْمِ) أَيِ:الْمَعْصِيَة (فَقَالَ:الْبِرُّ) أَيْ:أَعْظَمُ خِصَالِهِ أَوِ الْبِرُّ كُلُّهُ مُجْمَلًا (حُسْنُ الْخُلُقِ) أَيْ:مَعَ الْخَلْقِ بِأَمْرِ الْحَقِّ أَوْ مُدَارَاةُ الْخَلْقِ،وَمُرَاعَاةُ الْحَقِّ.قِيلَ:فُسِّرَ الْبِرُّ فِي الْحَدِيثِ بِمَعَانٍ شَتَّى فَفَسَّرَهُ فِي مَوْضِعٍ بِمَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ،وَفَسَّرَهُ فِي مَوْضِعٍ بِالْإِيمَانِ،وَفِي مَوْضِعٍ بِمَا يُقَرِّبُكَ إِلَى اللَّهِ،وَهُنَا بِحُسْنِ الْخُلُقِ،وَفُسِّرَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِاحْتِمَالِ الْأَذَى وَقِلَّةِ الْغَضَبِ وَبَسْطِ الْوَجْهِ وَطِيبِ الْكَلَامِ،وَكُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى ذَكَرَهُ

---

[193] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠)١٥ - (٢٥٥٣)

[ش (ما يمنعني من الهجرة إلا المسئلة) قال القاضي وغيره معناه أنه أقام بالمدينة كالزائر من غير نقلة إليها من وطنه لاستيطانها وما منعه من الهجرة وهي الانتقال من الوطن واستيطان المدينة إلا الرغبة في سؤال رسول الله ﷺ عن أمور الدين فإنه كان سمح بذلك للطارئين دون المهاجرين وكان المهاجرون يفرحون بسؤال الغرباء الطارئين من الأعراب وغيرهم لأنهم يحتملون في السؤال ويعذرون ويستفيد المهاجرون الجواب]

[194] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٦/ ٨٩)(١٧٧٤٢) ١٧٨٩٤- ومسند الشاميين للطبراني (١/ ٤٤٤)(٧٨٢) صحيح

[195] - المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ١٤٨)(٤٠٣) صحيح

الطِّيبِيُّ.وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ:الْبِرُّ هُنَا الصِّلَةُ وَالتَّصَدُّقُ وَالطَّاعَةُ،وَيَجْمَعُهَا حُسْنُ الْخُلُقِ.وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ:تَلْخِيصُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ يُقَالَ:الْبِرُّ اسْمٌ جَامِعٌ لِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ الْمُقَرِّبَاتِ،وَمِنْهُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ،وَهُوَ اسْتِرْضَاؤُهُمَا بِكُلِّ مَا أَمْكَنَ،وَقَدْ قِيلَ:إِنَّ الْبِرَّ مِنْ خَوَاصِّ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَيْ:كَمَالُ الْبِرِّ إِذْ لَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يُوجَدَ فِي الْأُمَّةِ مَنْ يُوصَفُ بِهِ،وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِمَا مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ - ﷺ - بِقَوْلِهِ:حُسْنُ الْخُلُقِ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ حُسْنِ الْعِشْرَةِ،وَالصُّحْبَةِ مَعَ الْخَلْقِ بِأَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُمْ أُسَرَاءُ الْأَقْدَارِ،وَإِنْ كَانَ مَا لَهُمْ مِنَ الْخُلُقِ وَالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْأَجَلِ بِمِقْدَارٍ،فَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ حَسَبَ الِاقْتِدَارِ،فَيَأْمَنُونَ مِنْهُ وَيُحِبُّونَهُ بِالِاخْتِيَارِ.قُلْتُ:وَقَدْ أَشَارَ الشَّاطِبِيُّ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ:

يُعَدُّ جَمِيعُ النَّاسِ مَوْلًى لِأَنَّهُمْ ...عَلَى مَا قَضَاهُ اللَّهُ يَجْرُونَ أَفْعُلَا

هَذَا مَعَ الْخَلْقِ،وَأَمَّا مَعَ الْخَالِقِ فَبِأَنْ يَشْتَغِلَ بِجَمِيعِ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ،وَيَأْتِيَ لِأَنْوَاعِ الْفَضَائِلِ عَالِمًا بِأَنَّ كُلَّ مَا أَتَى مِنْهُ نَاقِصٌ يَحْتَاجُ إِلَى الْعُذْرِ،وَكُلَّ مَا صَدَرَ مِنَ الْحَقِّ كَامِلٌ يُوجِبُ الشُّكْرَ،قُلْتُ:وَإِلَيْهِ إِيمَاءٌ فِي قَوْلِ الشَّاطِبِيِّ:

يَرَى نَفْسَهُ بِالذَّمِّ أَوْلَى لِأَنَّهَا ...عَلَى الْمَجْدِ لَمْ تَلْعَقْ مِنَ الصَّبْرِ وَإِلَّا لَا

ثُمَّ يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ بِدَوَامِ الْإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ،وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَدَوَامِ ذِكْرِهِ،حَتَّى يَكْتَحِلَ الْقَلْبُ بِنُورِ ذِكْرِ الذَّاتِ فَصَارَ بَحْرًا مَوَّاجًا مِنْ نَسَمَاتِ الْقُرْبِ،وَجَرَى فِي جَدَاوِلِ أَخْلَاقِ النَّفْسِ صَفَاءُ النُّعُوتِ وَالصِّفَاتِ،وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ نِهَايَةُ التَّحْقِيقِ بِعِنَايَةِ التَّوْفِيقِ.(وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ) أَيْ:تَرَدَّدَ وَتَحَرَّكَ وَأَثَّرَ (فِي صَدْرِكَ) :وَرِوَايَةُ الْأَرْبَعِينَ:فِي نَفْسِكَ بِأَنْ لَمْ تَنْشَرِحْ لَهُ وَحَلَّ فِي الْقَلْبِ مِنْهُ الشَّكُّ وَالْخَوْفُ مِنْ كَوْنِهِ ذَنْبًا وَأَقْلَقَهُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ،قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:يُرِيدُ أَنَّ الْإِثْمَ مَا كَانَ فِي الْقَلْبِ مِنْهُ شَيْءٌ فَلَا يَنْشَرِحُ لَهُ الصَّدْرُ،وَالْأَقْرَبُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ يَتَهَيَّأُ لِمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ دُونَ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ،وَقَالَ شَارِحٌ:يَعْنِي الْإِثْمَ مَا أَثَّرَ قُبْحُهُ فِي نَفْسِكَ أَيْ تَرَدَّدَ فِي قَلْبِكَ وَلَمْ تُرِدْ أَنْ تُظْهِرَهُ لِكَوْنِهِ قَبِيحًا،وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ:(وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) أَيْ:أَعْيَانُهُمْ وَأَمْثَالُهُمْ إِذِ الْجِنْسُ يَنْصَرِفُ إِلَى الْكَامِلِ،وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ بِطَبْعِهَا تُحِبُّ اطِّلَاعَ

النَّاسِ عَلَى خَيْرِهَا،فَإِذَا كَرِهْتَ الِاطِّلَاعَ عَلَى بَعْضِ أَفْعَالِهَا فَهُوَ غَيْرُ مَا تُقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ،أَوْ غَيْرُ مَا أَذِنَ الشَّرْعُ فِيهِ،وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا بِرَّ،فَهُوَ إِذًا إِثْمٌ وَشَرٌّ."[١٩٦]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَّامٍ،عَنْ جَدِّهِ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ يَقُولُ:سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ:مَا الْإِثْمُ؟ فَقَالَ:" إِذَا حَكَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ فَدَعْهُ ".قَالَ:فَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ:" إِذَا سَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ،وَسَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ." رواه أحمد.[١٩٧]

وعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:الْإِثْمُ حَوَازُ الْقُلُوبِ،فَمَا كَانَ مِنْ نَظْرَةٍ فَلِلشَّيْطَانِ فِيهَا مَطْمَعٌ ،يَعْنِي بِنَظْرَةِ تَأْخِيرَ الشَّيْءِ.[١٩٨]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:«إِنَّ الْإِثْمَ حَوَازُّ الْقُلُوبِ،فَمَا حَزَّ فِي قَلْبِ أَحَدِكُمْ شَيْءٌ فَلْيَدَعْهُ»[١٩٩]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللهِ:«إِيَّاكُمْ وَأَحْوَازَ الصُّدُورِ»[٢٠٠]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ،وَالسُّكُونِ إِلَيْهِ وَقَبُولِهِ،وَرَكَّزَ فِي الطِّبَاعِ مَحَبَّةَ ذَلِكَ،وَالنُّفُورَ عَنْ ضِدِّهِ.

وَقَدْ يَدْخُلُ هَذَا فِي قَوْلِهِ فِي حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ:«إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ مُسْلِمِينَ،فَأَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ،فَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ،وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا» .وَقَوْلُهُ:«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ،فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ،أَوْ

---

[١٩٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٧٣)

[١٩٧] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٤٨٤)(٢٢١٥٩) صحيح

أَيْ إِذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً وَحَصَلَ لَكَ فَرَحٌ وَمَسَرَّةٌ بِتَوْفِيقِ الطَّاعَةِ وَإِذَا فَعَلْتَ سَيِّئَةً وَوَقَعَ فِي قَلْبِكَ حُزْنٌ وَمَسَاءَةٌ خَوْفًا مِنَ الْعُقُوبَةِ (فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ) ؛فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ يُمَيِّزُ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ،وَيَعْتَقِدُ الْمُجَازَاةَ عَلَيْهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ،بِخِلَافِ الْكَافِرِ فَإِنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا وَلَا يُبَالِي بِهِمَا (قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا الْإِثْمُ؟) أَيْ مَا عَلَامَتُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَصٌّ صَرِيحٌ،أَوْ نَقْلٌ صَحِيحٌ،وَاشْتَبَهَ أَمْرُهُ،وَالْتَبَسَ حُكْمُهُ؟ (قَالَ:(إِذَا حَاكَ) أَيْ تَرَدَّدَ (فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ) وَلَمْ يَطْمَئِنَّ بِهِ قَلْبُكَ،وَأَثَّرَ فِيهِ تَأْثِيرًا يُدِيمُ تَنْفِيرًا (فَدَعْهُ) أَيِ اتْرُكْهُ،وَهُوَ كَقَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -:(«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»)،وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَرْبَابِ الْبَوَاطِنِ الصَّافِيَةِ،وَالْقُلُوبِ الزَّاكِيَةِ،أَوِ الْمَعْنَى:اتْرُكْهُ احْتِيَاطًا إِذَا كَانَ الْأَحْوَطُ تَرْكَهُ،وَإِذَا كَانَ الْفِعْلُ أَوْلَى فَاتْرُكْ ضِدَّهُ لِئَلَّا تَقَعَ فِي الْإِثْمِ،وَقِيلَ:الْجَوَابَانِ مِنْ أُسْلُوبِ الْحَكِيمِ،وَقَدْ تَصَحَّفَ عَلَى السَّيِّدِ السَّنَدُ،فَقَرَأَ " حَاكَ " جَاءَكَ،بِصِيغَةِ الْمَاضِي مِنَ الْمَجِيءِ " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١١٨)

[١٩٨] - الزهد لأبي داود (ص:١٣٥)(١٢٥) صحيح -حوَّاز القلوب:يجمع القلوب ويغلب عليها

[١٩٩] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٤٩)(٨٧٤٨) صحيح

[٢٠٠] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٥٠)(٨٧٥٠) صحيح لغيره

يُنَصِّرَانِه،أَوْ يُمَجِّسَانِه،كَمَا تُنْتِجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ،هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [الروم:٣٠] » .
وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ مَا أَمَرَ بِهِ مَعْرُوفًا،وَمَا نَهَى عَنْهُ مُنْكَرًا،فَقَالَ:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} [النحل:٩٠] [النَّحْلِ:٩٠]،وَقَالَ فِي صِفَةِ الرَّسُولِ ﷺ:{وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف:١٥٧] [الْأَعْرَافِ:١٥٧] وَأَخْبَرَ أَنَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَطْمَئِنُّ بِذِكْرِهِ،فَالْقَلْبُ الَّذِي دَخَلَهُ نُورُ الْإِيمَانِ،وَانْشَرَحَ بِهِ وَانْفَسَحَ،يَسْكُنُ لِلْحَقِّ،وَيَطْمَئِنُّ بِهِ وَيَقْبَلُهُ،وَيَنْفُرُ عَنِ الْبَاطِلِ وَيَكْرَهُهُ وَلَا يَقْبَلُهُ.[201]

وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ،وَأَبِي أُسَيْدٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ،وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ،وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ،فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ،وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ،وَتَنْفِرُ عَنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ،وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ،فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ».رواه أحمد[202].

ضعف الإنسان في إدراكه ومعرفته بالمصالح:

فالله تعالى هو الذي خلق الخلق،وهو أعلم بما يصلحهم في دنياهم وآخرتهم،كما قال تعالى:{ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:١٤].

وقال تعالى:{ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ } [البقرة:١٤٠] وقال تعالى:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة:٢١٦]

إنه منهج في التربية عجيب.منهج عميق بسيط.منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة.بالحق وبالصدق.لا بالإيحاء الكاذب،والتمويه الخادع ..فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمرا ويكون فيه الخير كل الخير.وهو حق

[201] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٩٩)

[202] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٢٦٤)(٦٣) ومسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٥١١) (١٦٠٥٨) ١٦١٥٥ صحيح

كذلك أن تحب النفس أمرا وتتهالك عليه.وفيه الشر كل الشر.وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم النـــاس ممـــا وراء الســـتر المسدل؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور؟! إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالما آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه.وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل في صميم الكون،وتقلب الأمور،وترتب العواقب على غير ما كان يظنـــه ويتمناه.

وإنها لتتركه حين يستجيب لها طيعا في يد القدر،يعمل ويرجو ويطمع ويخاف،ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل،وهو راض قرير ..إنه الدخول في السلم من بابه الواسع ..فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله.وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان! إن الإذعان الواثق والرجـــاء الهـــادئ والسعي المطمئن ..هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده الذين آمنوا ليـــدخلوا فيـــه كافـــة ..وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط.في يسر وفي هوادة وفي رخاء.يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال.فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال.

وإن هذا الإيحاء الذي يحمله ذلك النص القرآني،لا يقف عند حد القتال،فالقتال ليس إلا مـــثلا لما تكرهه النفس،ويكون من ورائه الخير ..إن هذا الإيحاء ينطلق في حياة المؤمن كلها.ويلقـــي ظلاله على أحداث الحياة جميعها ..إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكـــون الشـــر ..لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر يطلبون عير قريش وتجارتها،ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم الله إياها هي فئة العير والتجارة.لا فئة الحامية المقاتلة من قريش.ولكن الله جعـــل القافلة تفلت،ولقاهم المقاتلة من قريش! وكان النصر الذي دوّى في الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام.فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين! وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم؟ والله يعلم والناس لا يعلمون! ولقد نسي فتى موسى ما كانا قد أعداه لطعامهما – وهو الحوت – فتسرب في البحر عند الصخرة.«فَلَمَّا جاوَزا قـــالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً.قالَ:أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِـــيتُ

الْحُوتَ،وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ..قالَ:ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً:فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا ..» ..وكان هذا هو الذي خرج له موسى.ولو لم يقع حادث الحوت ما ارتدا.ولفاتهما ما خرجا لأجله في الرحلة كلها! وكل إنسان – في تجاربه الخاصة – يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم.ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم.وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوّت عليه هذا المطلوب في حينه.وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها.ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل.

إن الإنسان لا يعلم.والله وحده يعلم.فماذا على الإنسان لو يستسلم؟ إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية.لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء،بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف ..[203]

فأنى لهذا الإنسان الضعيف من كل وجه أن يدرك مصلحته بنفسه،وأن يحيط بما فيه نفعه على وجه الكمال والتمام،فإن الإنسان ضعيف ظلوم جهول،كما قال الله تبارك وتعالى:{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } [الأحزاب:٧٢] ولو خلِّي بين الناس وبين أنفسهم وتقديراتهم واستحساناتهم لأهلكوا أنفسهم،ولأوردوها موارد الشقاء والضلال،فإن الناس ضعفاء في علومهم وإدراكهم،بل لا يعلمون حقيقة الأرواح التي في أبدانهم،كما قال الله تبارك وتعالى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء:٨٥]

وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل.ولكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه.فلا جدوى من الخبط في التيه،ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه.والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه،وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها.وعلم

[203] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٦١)

الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق،وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود.والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة،إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض،ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه،في حدود علمه القليل.

ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف - الروح - لا يدري ما هو،ولا كيف جاء،ولا كيف يذهب،ولا أين كان ولا أين يكون،إلا ما يخبر به العليم الخبير في التتريل.وما جاء في التتريل هو العلم المستيقن،لأنه من العليم الخبير.ولو شاء الله لحرم البشرية منه،وذهب بما أوحى إلى رسوله،ولكنها رحمة الله وفضله.[٢٠٤]

ولكن هذا المخلوق الضعيف الذي خلقه الله من نطفة إذا كفر جاهر بكفره،وخاصم ربه وعارض أحكامه بأقيسته وأدلته العقلية الفاسدة،كما قال الله تبارك وتعالى:{ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)} [عبس:١٧ - ٢٣]،وقال تعالى:{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) } [يس] فهذا الكافر استدل بعقله الفاسد على إنكار البعث بتشبيه قدرة الخالق بقدرة المخلوق،قال الإمام ابن جرير رحمه الله:" أَوَلَمْ يَرَ هَذَا الْإِنْسَانُ الَّذِي يَقُولُ:{مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [يس:٧٨] أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَسَوَّيْنَاهُ خَلْقًا سَوِيًّا {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ} [يس:٧٧] يَقُولُ:فَإِذَا هُوَ ذُو خُصُومَةٍ لِرَبِّهِ،يُخَاصِمُهُ فِيمَا قَالَ لَهُ رَبُّهُ إِنِّي فَاعِلٌ،وَذَلِكَ إِخْبَارٌ للَّهِ إِيَّاهُ أَنَّهُ مُحْيِي خَلْقِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ،فَيَقُولُ:مَنْ يُحْيِي هَذِهِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ إِنْكَارًا مِنْهُ لِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِحْيَائِهَا

وَقَوْلُهُ:{مُبِينٌ} [البقرة:١٦٨] يَقُولُ:يُبَيِّنُ لِمَنْ سَمِعَ خُصُومَتَهُ وَقِيلَهُ ذَلِكَ أَنَّهُ مُخَاصِمٌ رَبَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ

---

[٢٠٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٩٣٧)

وَمَثَّلَ لَنَا شَبَهًا بِقَوْلِهِ:{مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [يس:٧٨] إِذْ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْيَاءِ ذَلِكَ أَحَدٌ،يَقُولُ:فَجَعَلَنَا كَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْيَاءِ ذَلِكَ مِنَ الْخَلْقِ {وَنَسِيَ خَلْقَهُ} [يس:٧٨] يَقُولُ:وَنَسِيَ خَلْقَنَا إِيَّاهُ كَيْفَ خَلَقْنَاهُ،وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا نُطْفَةً،فَجَعَلْنَاهَا خَلْقًا سَوِيًّا نَاطِقًا،يَقُولُ:فَلَمْ يُفَكِّرْ فِي خَلْقِنَاهُ،فَيَعْلَمَ أَنَّ مَنْ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ حَتَّى صَارَ بَشَرًا سَوِيًّا نَاطِقًا مُتَصَرِّفًا،لَا يَعْجَزُ أَنْ يُعِيدَ الْأَمْوَاتَ أَحْيَاءً،وَالْعِظَامَ الرَّمِيمَ بَشَرًا كَهَيْئَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا بِهَا قَبْلَ الْفَنَاءِ يَقُولُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:{قُلْ} [البقرة:٨٠] لِهَذَا الْمُشْرِكِ الْقَائِلِ لَكَ:مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ {يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} [يس:٧٩] يَقُولُ:يُحْيِيهَا الَّذِي ابْتَدَعَ خَلْقَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس:٧٩] يَقُولُ:وَهُوَ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ ذُو عِلْمٍ كَيْفَ يُمِيتُ،وَكَيْفَ يُحْيِي،وَكَيْفَ يُبْدِئُ،وَكَيْفَ يُعِيدُ،لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ خَلْقِهِ"[٢٠٥].

وإذا تأمل المسلم الكثير من شبه المجادلين بالباطل وجدها من هذا الضرب،فإن اعتراضاتهم وشبههم وأقيستهم الفاسدة قائمة على تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق كصفة العلم أو القدرة أو القوّة أو غيرها من الصفات،وأحيانا يسوون المخلوق بالخالق في العبادة،فيجعلون ما هو حق لله تعالى لغيره من الخلق،كما قال تعالى:{تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩)} [الشعراء:٩٧ - ٩٩]

والله لَقَدْ كُنَّا ضَالِّينَ بِصُورَةٍ جَلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ،إذِ اسْتَجَبْنَا لَكُمْ أَيُّهَا المَعْبُودُونَ،وعظَّمْنَاكُمْ تَعْظِيمَ المَعْبُودِ الحَقِّ،وسَوَّيْنَاكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ في اسْتِحَاقِ العِبَادَةِ.ومَا دَعَانا إلى ذَلِكَ،ولا حَمَلَنَا عَلَيْهِ إلاَّ المُجْرِمُونَ من السَّادَةِ والكُبَرَاءِ،الذينَ أَضَلُّونَا السَّبِيلَ.[٢٠٦]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" أَيْ:نَجْعَلُ أَمْرَكُمْ مُطَاعًا كَمَا يُطَاعُ أَمْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ،وَعَبَدْنَاكُمْ مَعَ رب الْعَالَمِينَ.{وَمَا أَضَلَّنَا إلا الْمُجْرِمُونَ} أَيْ:مَا دَعَانَا إِلَى ذَلِكَ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ."[٢٠٧]

---

[٢٠٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ٤٨٨)

[٢٠٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٩١١،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٠٧] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ١٥٠)

سوّوا طواغيتهم بالله تعالى في المحبة،والتعظيم،والعبادة،والطاعة كالديمقراطيين وغيرهــــم مـــن اللادينين (العلمانيين) الذي يجعلون التشريع والطاعة للمخلوق.

فكثير من شبه المجادلين بالباطل قائمة على تشبيه المخلوق بالخالق تبارك وتعالى بالصـــفات،أو تسوية المخلوق بالخالق في العبادة.

وهذا التشبيه الضال والحيرة التي تاه فيها هؤلاء الحيارى إنما هي بسبب كفرهم وجهلهم بربهم تبارك وتعالى،فلم يقدِّروا الله حقَّ قدره،و لم يعظِّموه حقَّ تعظيمه،بل شبَّهوه وسوَّوه بخلقه تعالى الله عما يظن الظالمون علوًّا كبيرا،وقد قال تعالى:{ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَـــارًا (١٣) وَقَـــدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)} [نوح:١٣،١٤]

مَا لَكُمْ لاَ تَخَافُونَ عَظَمَةَ اللهِ تَعَالَى،وَلاَ تَعَظِّمُونَهُ حَقَّ التَّعْظِيمِ الذي يَسْتَحِقُّهُ؟

وَقَدْ خَلَقَكُمْ رَبُّكُمْ عَلَى أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَة،فَمِنْ نُطْفَة إِلَى عَلَقَة إِلَى مُضْغَة إِلَى طِفْلٍ.[٢٠٨]

وقد أخرج سعيد بن منصور وغيره عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،{مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح:١٣] قَالَ:مَا لَكُمْ لَا تُعَظِّمُونَ اللَّهَ حَقَّ عَظَمَته "[٢٠٩]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِه:{مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح:١٣] قَالَ:مَا لُكُمْ لَا تَعْلَمُونَ لِلَّهِ عَظَمَةً؟ .[٢١٠]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُـــوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِـــبُ وَالْمَطْلُـــوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) } [الحج:]

يُنَبِّه اللهُ تَعَالَى إِلَى تَفَاهَة الأَصْنَام،وَسَخَافَة عُقُول عَادِيهَا،فَيَقُولُ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ جَعَلَ الْمُشْرِكُونَ لِي أَشْبَاهاً وَأَنْدَاداً مِنَ الأَصْنَام والأَوْثَان التي يَعبُدُونَهَا مَعِي،فَأَنْصِتُوا وَتَفَهَّمُوا حَالَ هَـــؤلاَءِ المَعْبُودِينَ:لَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ مَنْ يَعْبُدُهُم البَشَرُ مِـــنْ دُون الله عَلَـــى أَنْ يَخْلُقُـــوا ذُبَابـــاً لَمَـــا اسْتَطَاعُوا،وَلَعَجُزُوا عَنْ ذَلِكَ،وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُقَاوَمَةِ الذُّبَابِ إِذَا سَلَبُهُمْ شَيئاً مِمَّا عَلَـــيْهِمْ

[٢٠٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٣١٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٠٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣/ ٢٩٦) صحيح

[٢١٠] - الزهد لأبي داود (ص:٢٩٧)(٣٤١) صحيح –

وَغَيْرِه،وَلَوْ أَرَادُوا اسْتِنْقَاذَهُ مِنْهُ لِمَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ،فَإِذًا عَجزَ هَؤُلاءِ عَنْ خَلْقِ الذُّبَابِ،وَعَنْ مُقَاوَمَتِه،وَهُوَ مِن أَضْعَفِ مَا خَلَقَ اللهُ،فَهُمْ أَعْجَزُ عَنِ الإِتْيَانِ بِشيءٍ آخَرَ،فَكَيْفَ يَعْبُدُهم عَاقِلٌ؟ ضَعُفَ الصَّنَمُ الطَّالِبُ،وَضَعُفَ الذُّبَابُ المَطْلُوبُ.

مَا عَرَفَ هَؤُلاءِ المُشْرِكُونَ قَدْرَ اللهِ وَعَظَمَتَهُ حِينَ أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي العِبَادَةِ سِوَاهُ مِنَ الأَصْنَامِ التي لاَ تَسْتَطِيعُ مُقَاوَمَةَ الذُّبَابِ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِها.واللهُ هُوَ القَادِرُ الذي خَلَقَ الكَوْنَ وَكُلَّ مَا فيه،وَلاَ يُعْجِزُه خَلْقٌ وَلاَ مَخْلُوقٌ،وَهُوَ العَزِيزُ الذي لا يَضام وَلاَ يُرَامُ.[211]

وقال تعالى:{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر:٦٧]

مَا عَظَّمَ هَؤُلاَءِ المُشْرِكُونَ اللهَ حَقَّ التَّعْظِيمِ الذي يَسْتَحِقُّهُ جَنَابُهُ،إذ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ،وَهُوَ العَظِيمُ القَادِرُ،المَالِكُ لِكُلِّ شَيءٍ،وَالأَرْضُ كُلُّهَا تَكُونُ فِي قَبْضَتِهِ تَعَالَى،وَطَوْعَ أَمْرِهِ وَتَحْتَ قَدَرِه وَسُلْطَانِه،والسَّمَاوَاتُ تُطْوَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِيَمِينِهِ تَعَالَى طَيَّ السِّجِلِ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الكِتَابَةِ،لاَ يَسْتَعْصِي عَلَيهِ شَيءٌ،تَعَالَى اللهُ وَتَنَزَّهَ عَمَّا يَقُولُهُ المُشْرِكُونَ،وعَمَّا يَجْعَلُونَ لَهُ مِنَ الشُّرَكَاءِ وَالأَنْدَادِ،والصَّاحِبَةِ والوَلَد.[212]

فمن جهل صفات الله تبارك وتعالى وأشرك معه غيره لم يقدِّره حقَّ قدره،وكذلك لم يقدِّر الله حق قدره من ظنَ أن الله تعالى خلق الجن والإنس عبثا،وأنه يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسلا يدعونهم إلى عبودية الله وتحكيم شريعته،كما قال الله تبارك وتعالى:{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام:٩١].

مَا عَرَفَ مُنْكِرُو الوَحْيِ،مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ،اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِه،وَلاَ عَظَّمُوهُ حَقَّ التَّعْظِيمِ الذي يَسْتَحِقُّهُ،إِذْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ ﷺ؛وَقَالُوا:(مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيءٍ)،فَقُلْ،يَا مُحَمَّدُ،لِهَؤُلاَءِ

---

[211] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٤٨،بترقيم الشاملة آليا)

[212] –أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٠٤،بترقيم الشاملة آليا) –

الْمُنْكِرِينَ إِنْزَالَ كِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْبَشَرِ:مَنِ الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى،لِيَكُونَ نُــوراً يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي كَشْفِ الغَوَامِضِ،وَحَلِّ الْمُشْكِلاَتِ،وَهُدىً يَهْتَدِي بِهِ مِنْ ظُلَمِ الشُّبُهَاتِ؟
وَمُشْرِكُو العَرَبِ يُقِرُّونَ بأَنَّ التَّوْرَاةَ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى رَسُولِهِ مُوسَى،لِذَلِكَ يَكُونُ تَعَــالَى قَدْ أَقَامَ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بَأَنَّ اللهَ يُنَزِّلُ الوَحْيَ وَالكُتُبَ عَلَى مَنْ يَخْتَارُهُمْ مِــنْ خَلْقِــهِ لِحَمْــلِ رِسَالاَتِهِ.
وَقَدْ أَرْسَلَ مُشْرِكُو قُرَيشٍ وَفْداً إِلَى المَدِينَةِ يَسْأَلُونَ أَحْبَارَ اليَهُودِ عَمَّا يَجِدُونَهُ فِي كُتُبِهِمْ عَــنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِفَتِهِ،فَرَدَّ الأَحْبَارُ عَلَيْهِم:إِنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ عَنْــهُ شَــيْئاً.وَقَــدْ اهْتَــدَى اليَهُــودُ بِالتَّوْرَاةِ،وَصَارُوا خَلْقاً آخَرَ مُتَمَسِّكاً بِالحَقِّ وَالعَدْلِ،حَتَّى اخْتَلَفُوا،وَنَسُوا حَظّاً مِمَّــا ذُكِّــرُوا بِهِ،وَاتَّبَعُو أَهْوَاءَهُمْ،وَجَعَلُوا كِتَابَهُمْ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا عِنْدَ الحَاجَةِ،فَكَانَ الحِبْرُ مِنْ أَحْبَــارِهِمْ إِذَا اسْتُفْتِيَ فِي مَسْأَلَةٍ لَهُ هَوًى فِي إِظْهَارِ حُكْمِ اللهِ فِيهَا كَتَبَ ذَلِكَ الحُكْمَ فِي قِرْطَــاسٍ،وَأَظْهَرَهُ لِلْمُسْتَفْتِي وَخُصُومِهِ.وَكَانُوا يُخْفُونَ كَثِيراً مِنْ أَحْكَامِ الكِتَابِ وَأَخْبَارِهِ،إِذَا كَانَ لَهُمْ هَوًى فِي ذَلِكَ وَمَصْلَحَةً.وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الكِتَابَ كَانَ فِي أَيْدِي الأَحْبَارِ،وَلَمْ تَكُنْ فِي أَيْدِي العَامَّةِ نَسَخٌ مِنْهُ،وَقَدْ أَخْفَى اليَهَودُ حُكْمَ رَجْمِ الزَّانِي فِي المَدِينَةِ،وَأَخْفَوا البِشَارَةَ الوَارِدَةَ فِي التَّــوْرَاةِ بِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ،وَكَتَمُوا صِفَتَهُ عَنِ العَامَّةِ،وَصَرَفُوهَا إِلى مَعَانٍ أُخْرَى بِالنِّسْبَةِ لِلْخَاصَّــةِ،لِكَيْلاَ يَتْبَعَهُ اليَهُودُ.
وَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَتَوَلَّى هُوَ الجَوَابَ عَنْ هَذا السُّؤَالِ إِذَا سَكَتَ الكُفَّارُ:وَلْيَقُلْ إِنَّ الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ هُوَ اللهُ،ثُمَّ عَلَيهِ أَنْ يَتْرُكَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الضَّــلالِ يَخُوضُــونَ وَيَلْعَبُــونَ كَالصِّبْيَانِ.[٢١٣]

وقال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِــكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)} [المؤمنون:١١٥،١١٦].
هَلْ ظَنَنْتُمْ أَيُّهَا الأَشْقِيَاءُ أَنَّنا خَلَقْنَاكُمْ لَعِباً وَبَاطِلاً (عَبَثاً)،وَأَنَّنا لاَ حِكْمَةَ لَنَا فِي خَلْقِكُمْ؟ إِنَّنا لَمْ نَخْلُقْكُم عَبَثاً وَلاَ بَاطِلاً لِلَّعِبِ وَالتَّسْلِيَةِ،وإِنَّمَا خَلَقْنَاكُمَ لِتَعْبُدوا اللهَ،وَتُقِيمُوا أَوَامِرَهُ،فَهَلْ حَسَبْتُمْ أَنَّكُمْ لاَ تَرْجِعُونَ إِلَيْنَا فِي الآخِرَةِ لِنُحَاسِبَكُم عَلَى أَعْمَالِكُمْ؟

---

[٢١٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٨٨١،بترقيم الشاملة آليا) -

فَتَعَالَى اللهُ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَخْلقُ شَيْئاً عَبَثاً،فَإِنَّهُ المَلِكُ الحَقُّ المُنَزِّهُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ،لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ،وَرَبُّ العَرْشِ،(والعَرْشَ هُوَ سَقْفُ جَمِيعِ المَخْلُوقَات) فَهُوَ تَعَالَى المُهَيْمِنُ المُسَيْطِرُ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الوُجَود،وَهُوَ الكَرِيمُ.[٢١٤]

وقال تعالى:{ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) } [القيامة:٣٦ - ٤٠]

أَيَظُنُّ الإِنْسَانُ المُنْكِرُ لِلْبَعْث أَنَّ اللهَ خَلَقَهُ بِغَيْرِ غَايَة،وَأَنَّهُ يَتْرُكُهُ وَشَأْنَهُ فِي الحَيَاةِ يَفْعَلُ فِيهَا مَا يَشَاءُ،لاَ يُؤْمرُ بِأَمْرٍ،وَلاَ يُنْهَى عَنْ نَهْيٍ،وَلاَ يُبْعَثُ وَلاَ يُحَاسَبُ؟

كَلاَّ إِنَّهُ لَنْ يُتْرَكَ سُدًى،وَسَيُبْعَثُ وَسَيُحَاسَبُ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَاله.

وَيُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى الإِنْسَانَ كَيْفَ بَدَأَ اللهُ خَلْقَهُ مِنْ نُطْفَة ضَعِيفة مِنْ مَنِيٍّ يَقْذفُهُ الرَّجُلُ فِي رَحِمِ الأُنْثَى،فَالذي بَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَان قَادرٌ عَلَى إِعَادَته،لأَنَّ الإِعَادَةَ أَهْوَنُ منْ البَدْءِ.

ثُمَّ جَعَلَ اللهُ النُّطْفَةَ عَلَقَةً،ثُمَّ تَدَرَّجَ فِي خَلْقه حَتَّى سَوَّاهُ وَأَخْرَجَهُ طِفْلاً كَاملَ الخَلْق.

وَجَعَلَ اللهُ تَعَالَى المَوَاليدَ ذُكُوراً وَإِنَاثاً،لِتَسْتَمرَّ الحَيَاةُ عَلَى الأَرْضِ عَنْ طَرِيقِ التَّزَاوُجِ بَيْنَ الذُّكُورِ والإِنَاث.أَلَيْسَ الذي أَنْشَأَ هَذَا الخَلْقَ،منْ هَذه النُّطْفَة الضَّعِيفَة،بِقَادرٍ عَلَى أَنْ يُعِيدَ خَلْقَ الإِنْسَان مِنْ جَديد،وَأَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى؟ مَعَ أَنَّ الإِعَادَةَ أَهْوَنُ منَ الابْتدَاءِ؟[٢١٥]

قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله:وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة:٣٦] قَالَ الشَّافعيُّ:مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى،وَقَالَ غَيْرُهُ:لَا يُثَابُ وَلَا يُعَاقَبُ،وَهُمَا مُتَلَازِمَان،فَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ يَحْسَبُ ذَلِكَ،فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَبِيحٌ تَأْبَاهُ حِكْمَتُهُ وَعِزَّتُهُ،وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِه،وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَتْرُكُهُ سُدًى بِقَوْله:{أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى} [القيامة:٣٧] إِلَى آخرِ السُّورَة،وَلَوْ كَانَ قُبْحُهُ إِنَّمَا عُلمَ بِالسَّمْعِ لَكَانَ يَسْتَدلُّ عَلَيْه بِأَنَّهُ خلَافُ السَّمْعِ،وَخلَافُ مَا أَعْلَمْنَاهُ وَأَخْبَرْنَا بِه،وَلَمْ يَكُنْ إِنْكَارُهُ لِكَوْنه قَبِيحًا فِي نَفْسه،بَلْ لِكَوْنه خلَافَ مَا أَخْبَرَ به،وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَيْسَ وَجْهَ الْكَلَام.

---

[٢١٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٦٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٢١٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٤٦٥،بترقيم الشاملة آليا) -

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [ص:٢٧] وَالْبَاطِلُ الَّذِي ظَنُّوهُ:لَيْسَ هُوَ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ،بَلِ الَّذِي ظَنُّوهُ:أَنَّهُ لَا شَرْعَ وَلَا جَزَاءَ،وَلَا أَمْرَ وَلَا نَهْيَ،وَلَا ثَوَابَ وَلَا عِقَابَ،فَأَخْبَرَ أَنَّ خَلْقَهَا لِغَيْرِ ذَلِكَ هُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي تَنَزَّهَ عَنْهُ،وَذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي خُلِقَتْ بِهِ،وَهُوَ التَّوْحِيدُ،وَحَقُّهُ وَجَزَاؤُهُ وَجَزَاءُ مَنْ جَحَدَهُ وَأَشْرَكَ بِرَبِّهِ.

وَقَالَ تَعَالَى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية:٢١] فَأَنْكَرَ سُبْحَانَهُ هَذَا الْحُسْبَانَ إِنْكَارَ مُنَبِّهٍ لِلْعَقْلِ عَلَى قُبْحِهِ،وَأَنَّهُ حُكْمٌ سَيِّئٌ،وَالْحَاكِمُ بِهِ مُسِيءٌ ظَالِمٌ،وَلَوْ كَانَ قُبْحُهُ لِكَوْنِهِ خِلَافَ مَا أَخْبَرَ بِهِ لَمْ يَكُنِ الْإِنْكَارُ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُبْحِ اللَّازِمِ مِنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ،الْمُسْتَقِرِّ قُبْحُهُ فِي فِطَرِ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ،وَلَا كَانَ هُنَا حُكْمٌ سَيِّئٌ فِي نَفْسِهِ يُنْكَرُ عَلَى مَنْ حَكَمَ بِهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص:٢٨] وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ،فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ،مُنْكَرٌ تُنْكِرُهُ الْعُقُولُ وَالْفِطَرُ،أَفَتَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يَلِيقُ بِنَا أَوْ يَحْسُنُ مِنَّا فِعْلُهُ؟ فَأَنْكَرَهُ سُبْحَانَهُ إِنْكَارَ مُنَبِّهٍ لِلْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ عَلَى قُبْحِهِ،وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ.[٢١٦]

اقتران العنت والفساد بالأهواء:

قال الله تعالى:{ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)} [الحجرات:٧،٨]،أي لو يطيعكم فيما ترونه بآرائكم وتقولونه باجتهادكم لهلكتم وشقيتم،والعنت هو المشقة والشدة والإثم والهلاك،ولكن الله مَنَّ عليكم وحفظكم وعصمكم من أن ينالكم العنت بأن حبب إليكم الإيمان بالله ورسوله ﷺ وحسنه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان،ولهذا فأنتم

[٢١٦] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٢٥٢) وبدائع الفوائد (٤/ ١٦٦)

لا تقدمون بين يدي الله ورسوله ﷺ،وتطيعون رسول الله ﷺ وتتبعونه،ولو لم تفعلوا واتبعتم آراءكم المخالفة للكتاب والسنة لنالكم العنت.

وقد أخرج الترمذي وغيره عَنْ أَبِي نَضْرَةَ،قَالَ:قَرَأَ أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ:{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} [الحجرات:٧] قَالَ:«هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ يُوحَى إِلَيْهِ،وَخِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ لَوْ أَطَاعَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُوا،فَكَيْفَ بِكُمُ اليَوْمَ؟»[٢١٧].

وقوله "خيار أمتكم" يعني الصحابة رضي الله عنهم،وقوله "فكيف بكم اليوم" أي كيف يكون حالكم لو أُخذ بآرائكم واجتهاداتكم المخالفة للقرآن والسنة وخطابه موجه للتابعين،فإذا كان العنت والهلاك والشقاء سوف يلحق بالصحابة رضي الله عنهم إذا قدموا آراءهم على الكتاب والسنة فكيف يكون الحال في زماننا الذي فشت فيه الآراء والأهواء والأفكار المضللة.

وما تعانيه الأمة من شدة وعنت وضعف وتراجع في الصناعة ووسائل وأدوات القوة،هو بسبب الإعراض عن الحكم بما أنزل الله،وانجراف الأنظمة الحاكمة مع أمواج الردة العاتية التي تجتاح العالم الإسلامي من ديمقراطية واشتراكية وغيرها،فإن التقدم في الصناعة والإبداع في المجال التقني والكشوفات العلمية ليس حكرا على الكفار في الغرب أو الشرق،فالمسلمون قادرون بإذن الله تعالى على المنافسة في هذه المجالات والإبداع فيها كفرض من فروض الكفاية ووسيلة من وسائل القوة والتمكين،إلا أن الحقيقة الواقعة أن الإسلام ليس له دولة ممكنة مستقرة في وقتنا هذا،فإن الإبداع في المجال الصناعي والتقني لا بد له من الإرادة الصادقة الجادة،والأفق الحضاري،حيث يتطلع المسلم إلى أن تكون الأمة الإسلامية في صدارة الأمم ومقدمتها،إلا أن الأنظمة اللادينية "العلمانية" الجاثمة على صدر الأمة ترسخ الشعور بالإحباط،والتبعية للأعداء،وضعف الإرادة،وتسعى لتغييب التطلع إلى الأفق الحضاري والحافز المشجع على الإبداع،وتضع العراقيل وتوصد الأبواب أمام أصحاب الإبداع والاختراع.

إن الدول الكافرة الصناعية تتنافس فيما بينها لشعور كل منها بالانتماء الخاص والمستقل عن الدول الكافرة الأخرى،ولهذا لا ترضى كل دولة منها أن تكون تابعة للأخرى،بل تتنافس معها

---

[٢١٧] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٣٨٨)(٣٢٦٩) صحيح
أَيْ:كَيْفَ يَكُونُ حَالُكُمْ لَوْ يَقْتَدِي بِكُمْ وَيَأْخُذُ بِآرَائِكُمْ وَيَتْرُكُ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ.تحفة الأحوذي (ج٨ص١٢٥)

في مجال الصناعات والإنتاج والاقتصاد وغيرها،ولهذا توصلوا إلى ما توصلوا إليه من صناعات وغيرها،وأما الأنظمة العلمانية المتخلفة المسيطرة على الحكم في بلاد المسلمين فتتولى حماية مصالح الولايات المتحدة من أي منافسة اقتصادية أو صناعية قد يقوم بها المسلمون،وترسخ هذه الأنظمة عند الشعوب المقهورة الشعور بالإحباط والتبعية للصليبيين فكريا وعسكريا واقتصاديا.

ومن مكر الصليبيين وعملائهم ومن أساليبهم المضللة أن يشيعوا بين المسلمين بأن السبب في تراجعهم في المجال الصناعي والتقني وغيره هو تمسكهم بدين الإسلام،وهؤلاء المجرمون المفترون يعلمون جيدا أن الإسلام ليس له دولة قائمة وممكنة في الأرض،ولكنهم يسعون إلى تراجع المسلمين تراجعا عاما،بتراجعهم أولا عن دينهم وأخلاقهم،وما يتبع ذلك من تراجع وتخلف في المجالات الصناعية والتقنية والطبية وغيرها،فالسبب الحقيقي في تراجع المسلمين في التقدم الصناعي والتقني هو ابتعاد الكثيرين منهم عن دينهم وقعودهم عن الجهاد في سبيل الله،مما مكن الأعداء أن يتداعوا على الأمة من كل صوب،فينهبوا خيراتها ويتصرفوا في شؤونها في حملات صليبية حاقدة تحت غطاء الاستعمار فيما مضى،واليوم تحت غطاء مكافحة الإرهاب،وأن ينصبوا عملاءهم حكاما على بلاد المسلمين أو حراسا على المسلمين حتى لا ينهضوا من كبوتهم أو أن يشكلوا خطرا على الغزاة الناهبين في فلسطين أو العراق أو أفغانستان أو غيرها.

ومثل الآية المتقدمة قول الله تبارك وتعالى:{وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون:٧١]

وَلَوْ سَلَكَ القُرْآنُ طَرِيقَهُمْ بِأَنْ جَاءَ مُؤَيِّداً الشرْكَ بالله،وَاتِّخَاذَ الوَلَد،وَتَزْيينَ الآثام،وَالحَثَّ عَلَى اجْتِرَاحِ السَّيِّئَاتِ..لاخْتَلَّ نِظَامُ الكَوْنِ،ولَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ،وَمَنْ فِيهِنَّ لِفَسَادِ أَهْوَائِهِمْ:

- فَلَوْ أَنَّهُ أَبَاحَ الظُّلْمَ،وَتَرْكَ العَدْلِ لَفَسَدَ أَمْرُ الجَمَاعَاتِ.
- وَلَوْ أَبَاحَ لِلْقَوِيِّ الاعْتَدَاءَ عَلَى الضَّعِيفِ لَمَا اسْتَتَبَّ الأَمْنُ وَلاَ سَادَ النِّظَامُ.
- وَلَوْ أَبَاحَ الزِّنى لَفَسَدَتِ الأَنْسَابُ،وَلَمَا عَرَفَ وَلَدُ وَالِدَهُ فَيَكُونُ الأَوْلاَدُ فِي الطُّرُقَاتِ كَالبَهَائِمِ السَّارِحَةِ وَلاَ يَقُومُ عَلَى أُمُورِهِمْ أَحَدٌ.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى:إِنَّهُ جَاءَهُمْ بالقُرْآنِ الذي فِيهِ فَخْرُهُمْ وَشَرَفُهُم فَأَعْرَضُوا عَنْهُ،وَكَذَّبُوا بِهِ وَجَعَلُوهُ هُزْواً.[218]

وقال الطبري :"يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:وَلَوْ عَمِلَ الرَّبُّ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِمَا يَهْوَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ،وَأَجْرَى التَّدْبِيرَ عَلَى مَشِيئَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ ،وَتَرَكَ الْحَقَّ الَّذِي هُمْ لَهُ كَارِهُونَ،لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ؛وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ ،وَالصَّحِيحَ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْفَاسِدَ.فَلَوْ كَانَتِ الْأُمُورُ جَارِيَةً عَلَى مَشِيئَتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ مَعَ إِيثَارِ أَكْثَرِهِمُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ،لَمْ تَقِرَّ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ،لِأَنَّ ذَلِكَ قَامَ بِالْحَقِّ ."[219]

فالحق واحد ثابت،والأهواء كثيرة متقلبة.وبالحق الواحد يدبر الكون كله،فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض،ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة.ولو خضع الكون للأهواء العارضة،والرغبات الطارئة لفسد كله،ولفسد الناس معه،ولفسدت القيم والأوضاع،واختلت الموازين والمقاييس وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى،والكره والبغض،والرغبة والرهبة،والنشاط والخمول ..وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات ..وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد،على قاعدة ثابتة،ونهج مرسوم،لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد.

ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره،جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءا من الناموس الكوني،تتولاه اليد التي تدبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعا.والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله،ويدبره في تناسق عجيب.بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل:«وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ» إنما يخضع للحق الكلي،ولتدبير صاحب التدبير.

وهذه الأمة التي جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق الذي يتمثل فيه.ففوق أنه الحق هو كذلك مجد لها وذكر.وما كان لها من ذكر لولاه في العالمين:«بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ» ..وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها في تاريخ العالم حتى جاءها

---

[218] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

[219] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٧/ ٨٨) -

الإسلام.وقد ظل ذكرها يدوي في آذان القرون طالما كانت به مستمسكة.وقد تضاءل ذكرها عندما تخلت عنه،فلم تعد في العير ولا في النفير.ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفيء إلى عنوانها الكبير ...![220]

والآية تدل على أن الله تعالى هو الخالق وهو أعلم بما فيه صلاح العباد واستقامة أمورهم فله تبارك وتعالى الخلق والأمر،ولو اتبع الحق أهواء المخلوقين لفسدت السماوات والأرض.

وتدل الآية على أن السماوات والأرض إنما تقوم على الحق،وأما الأهواء المضطربة المختلفة فلو اتبعها الحق لاختل نظام العالم،وعمه الفساد والفوضى والاضطراب.

وفيها أن المخلوقين ضعفاء في عقولهم وإدراكهم فلا يعلمون بعواقب الأمور،ولا يحيطون بمصالحهم،فلو اتبع الحق أهواءهم لانفرط نظام العالم وخرج عن الصلاح.

وفيها أن الشريعة جاءت بعبودية الله تعالى وإصلاح العباد،وهمت عن اتباع الأهواء حتى يكون الناس عبادا لله تعالى،ولو انعكس الأمر واتبع الحق أهواء الناس لترك الإسلام،وخرج الناس من عبودية الله تعالى،وعمهم الفساد والضلال.

وفيها أن الإصلاح إنما هو باتباع الحق،وأما اتباع الأهواء فهو إفساد في الأرض،ولو ادعاه المفسدون إصلاحا،وسموا أنفسهم بالمصلحين أو الإصلاحيين كالمنافقين الذين قال الله تعالى عنهم:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) } [البقرة].

فَإِذَا قِيلَ لِهؤلاءِ الْمُنَافِقِينَ:لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ،وَلاَ تُثِيرُوا فِيها الفِتَنَ وَالحُرُوبَ،وَلاَ تُحَرِّضُوا الأَعدَاءَ عَلَى المُؤْمِنِينَ،وَلاَ تُفْشُوا أَسْرارَ المُؤْمِنينَ لأَعْدَائِهِمْ،وَلاَ تَرتَكِبُوا المَعَاصِيَ وَغَيْرَ ذلكَ مِنْ فُنُونِ الشَّرِّ...قَالُوا:إنَّنا نُرِيدُ الإِصْلاَحَ،فَنَحْنُ بَعِيدُونَ عَنِ الإِفْسَادِ وَشَوَائِبِه.والمُفْسِدُونَ يَدَّعُونَ دَائماً أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الإِصْلاَحَ.

وَلكِنَّهُمْ فِي الحَقِيقَةِ هُمُ المُفْسِدُونَ،لأَنَّ مَا يَقُومُونَ به هُوَ عَيْنُ الفَسَادِ،وَلكِنَّهُمْ لِجَهْلِهِمْ لا يَشْعُرونَ بِأَنَّهُ فَسَادٌ،وَلاَ يُدْرِكُونَ سُوءَ العَاقِبَةِ الذي سَيَصِيرُون إِليه.[221]

---

[220] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٩٨)

[221] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨،بترقيم الشاملة آليا)

وفيها أن إصلاح الرعية والإحسان إليهم لا يكون باتباع أهوائهم،فإن الحق لو اتبع أهـــواءهم لاضطربت الدولة واختل نظامها وعمها الفساد.

وفيها أن الحق لو اتبع أهواء الصليبيين الأمريكان وعملائهم من المرتدين والمنافقين لفسد الناس فسادا عظيما،بانسلاخهم من الإيمان،وولوجهم في ظلمات الكفر المسمى بالديمقراطية،واستعباد بعضهم لبعض،حيث يصبح بعضهم أربابا يشرعون لعبيدهم المنقادين لهم،فيخطون مســتقبل حياتهم،ويسيرون شؤونهم بأهوائهم في جميع مناحي الحياة،ويشرعون ويحكمــون في دمــائهم وأموالهم وأعراضهم،والجموع المستعبدة المستغفلة قد غُرر بها من خــلال أقــوال الشــياطين المزخرفة بأن السلطة لها والقرار بأيديها،وهي في حقيقة الأمر تسير وتساق ويتلاعب بها مــن قبل أئمة الكفر الذين يملكون المال والإعلام،والديمقراطية كفر أكبر وردة جامحة على أي حال سواء كان الحكم للشعب كما يزعمون أو كان لأئمة الكفر كما هو الواقــع[٢٢٢]،فالتشــريع والتحاكم عبودية وخضوع لا يكون إلا لله تعالى،فمن جعل التشريع لغير الله تعالى كالبرلمــان أو الشعب أو هيئة من الهيئات فقد عبدها من دون الله وخضع لها،فلا فرق بين مــن رضــي بالصنم الأمريكي المسمى بالديمقراطية واتبعه،وبين من عبد صنما من الأصــنام كــاللات أو العزى أو غيرها،فكلاهما قد صرف العبادة لغير الله تعالى.

ولو اتبع الحق أهواء الأمريكان وعملائهم لشاع الفساد والانحطاط الأخلاقي والخنوثــة بــين الناس،فبدعوى الحرية الأمريكية تستباح الفواحش كالزنا واللواط والسحاق ومــا يســمونه بزواج المثليين،وبدعوى الحرية يشيع في المجتمع أبناء الزنا وتختلط الأنساب وتتفكك الأســرة والمجتمع،وبدعوى الحرية تنسلخ الأمة من خلقها وعفتها وحيائها،وبدعوى الحرية تنزع المــرأة حجابها التي كرمها الله به وصانها وحفظها به من العيون الخائنة وأذى الفســاق وســكارى الشهوة وحب الفاحشة،وقد قال الله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِــكَ وَبَنَاتِــكَ وَنِسَــاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب:٥٩] أي يعرفن بأنهن عفيفات فلا يؤذين من مرضى القلوب.

---

[٢٢٢] – يقصد بجانبها العقدي أو إذا كانت بديلاً عن الدين الحق،وتعتمد على قوانين وضعية ما أنزل الله بها من سلطان .

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالى رَسُولَه ﷺ بأَنْ يَأْمُرَ نسَاءَهُ وَبَنَاته والنِّسَاءَ المُؤْمنَات،بأَنْ يُـــدْنينَ عَلَـــيْهِنَّ مِـــنْ جَلاَبيبهنَّ،وَأَن يُغَطِّينَ وُجُوهَهُنَّ منْ فَوْق رُؤُوسهنَّ،وَأَنْ يُغَطِّينَ ثَغْرَةَ نُحُورِهنَّ بالجَلابيب التي يُدْنينَهَا عَلَيهنَّ.وَالغَايَةُ منْ ذَلكَ التَّسَتُّرُ،وَأَن يُعْرَفْنَ بأَنَّهُنَّ حَرَائرُ فَلا يُؤْذيهنَّ أَحَدٌ،وَلا يَتَعَـــرَّضُ لَهُنَّ فَاسقٌ بأَذى وَلا ريبَة،وَرَبُّكُمْ غَفَّارٌ لمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ صَدرَ منَ الإْخْلاَل بالسِّتْر،كَثيرُ الرَّحْمَة لمَن امْتَثَلَ أَمْرَهُ،وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ عَمَّا يُمْكنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَّرَ في مُرَاقَبَته في أُمُور التَّسَتُّر يُدْنينَ عَلَيهنَّ – يُرْخينَ وَيُسْدلْنَ عَلَيْهنّ.[٢٢٣]

ولو اتبع الحق أهواء الأمريكان وعملائهم في المنطقة وتخلت الأمة عن دينها،وعن عقيدة الولاء والبراء،وعن الجهـــاد في ســـبيل الله تعالى،لاســـتعبدها الصليبيون،وســـلخوها مـــن عزهـــا وكرامتها،وأذلوا أهلها وساموهم أنواع العذاب من قتل وانتهاك للأعراض وتعذيب وحبس في السجون والمعتقلات،واستباحوا أرضهم وخيراهم ونفطهم،ونصبوا عملاءهم حكاما على بلاد المسلمين بالوكالة عنهم من خلال الصنيعة الغربية المســـماة بالديمقراطيـــة،كالعملاء الـــذين نصبوهم حكاما في أفغانستان والعراق وفلســـطين وغيرها،وقـــد قـــال الله وهـــو أصـــدق القائلين:{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّه النَّاسَ بَعْضَهُمْ ببَعْضٍ لَفَسَدَت الْأَرْضُ وَلَكنَّ اللَّـــهَ ذُو فَضْـــلٍ عَلَـــى الْعَالَمينَ } [البقرة:٢٥١]

وَلُوْلا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بَأسَ أهْلِ البَغْيِ وَالجَـــوْرِ وَالآثَام،بأهْـــلِ الصَّـــلاَحِ وَالخَيْرِ،لغَلَـــبَ أَهْـــلَ الفَسَاد،وَبَغَوْا عَلَى الصَّالحينَ،وَصَارَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فَفَسَدَت الأرْضُ،فَكَانَ منْ رَحْمَة الله أنْ أذنَ للْمُصْلحينَ بقتَال البُغَاة المُفْسدينَ.وَاللهُ يَمُنُّ عَلَى عبَاده وَيَرْحَمُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ،وَلَـــهُ الحكْمَـــةُ وَالحُجَّةُ عَلَى خَلْقه في جَميع أَقْوَاله وَأَفْعَاله.[٢٢٤]

وقال تعالى:{وَقَاتلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للَّه فَإن انْتَهَوْا فَـــإنَّ اللَّـــهَ بمَـــا يَعْمَلُونَ بَصيرٌ (٣٩) وَإنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نعْمَ الْمَوْلَى وَنعْـــمَ النَّصـــيرُ (٤٠) } [الأنفال:٣٩،٤٠]

---

[٢٢٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ بِأَنْ يُقَاتِلُوا الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ حَتَّى لاَ يَكُونَ هُنَـاكَ مَـنْ يَسْـتَطِيعُ فِتْنَـةَ المُؤْمِنينَ،عَنْ دِينِهِمْ بِالعَذَابِ وَالإِيذَاءِ وَالتَّهْدِيدِ،وَحَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ.فَإِذا انْتَهَى المُشْرِكُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ،وَكَفُّوا عَنْهُ (وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بِوَاطِنَهُمْ) فَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَكِلُوا بِوَاطِنَهُمْ إِلَى اللهِ،فَهُوَ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.وَإِن اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلاَفِهِمْ لَكُمْ،وَمُحَارَبَتِهِمْ إِيَّاكُم فَـاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِكُمْ،وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّاصِرُ،فَأَيْقِنُوا بِنَصْـرِ اللهِ لَكُمْ،وَهُوَ مُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ،فَلاَ تُبَالُوا بِهِمْ،وَلاَ تَخْشَوْهُمْ.[٢٢٥]

وقال تعالى:{ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْـتُمْ عَيْلَـةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِـنَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَـتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَـاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)} [التوبة]

استحسانُ العقول واتباعُ الأهواء

فالكفار وأنصارهم من المرتدين والمنافقين يعارضون أحكام الله تبارك وتعالى بمـا تستحسـنه عقولهم وتهواه أنفسهم وتزيِّنه لهم شياطينهم،كما قال الله تبارك وتعالى:{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِـنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [الجاثية:٢٣].

أَفَلا تَرَى إِلى حَالِ هذا الذي اتَّبعَ هواهُ،وأَتبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها،فَلا يَهوَى شَيْئاً إِلا فَعَلَه،لاَ يَخَـافُ رَبّاً،وَلا يَخشَى عِقَاباً،وأَضَلَّهُ اللهُ فَلَمْ يَجْعَلْهُ يَسْلكُ سَبيلَ الرَّشَادِ،لأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّه لا يَهْتَدي وَلَو

[٢٢٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

جَاءَتْهُ كُلُّ آية.وَخَتَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى سَمْعِه فَأَصْبَحَ لاَ يَتَأَثَّر بما يُتلى عَلَيه مِنْ آيَات الله،وَخَتَم عَلَى قَلبه فَلَم يَعُدْ يُبصِرُ حُجَجَ الله وآيَاته،وَلَمْ يَعُدْ يَنْتَفِعُ بها.فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أن يُوَفِّقَ مِثْلَ هـذَا الضَّالِّ،الخَاضِعِ لهوَاهُ،إلى الهُدَى،وَإِصَابَة الحقِّ إنْ لم يَهده اللهُ،أَفَلا تَتَفكَّرُونَ وَتُدْرِكُونَ؟[226]

وقال تعالى:{ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان:٤٣]

انْظُرْ إلى حَالِ الذي جَعَلَ هَوَاهُ إلهَهُ،بأَنْ أطَاعَهُ وبَنَى عليه أمرَ دينـه،وأعْرَضَ عـن اسـتماع الحَقِّ،والحُجَجِ،والبَراهينِ الواضحَة الدَّالَّة على وَحْدَانيَّة الله،وعظيمِ قُدْرَته،واعْجَبْ منْهُ،ولا تَعْبَأْ به فإنَّكَ لستَ حَفيظاً عليه،وليسَ عَلَيْكَ هُدَاهُ،وإنّما عَليكَ إبلاغُهُ الرِّسَـالَةَ،ثُمّ إنْ شَـاءَ اللهُ هَدَاه،وإنْ شَاءَ أضَلَّهُ.[227]

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ:{أَرَأَيْتَ} [الكهف:٦٣] يَا مُحَمَّدُ {مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ} [الفرقان:٤٣] شَهْوَتَهُ الَّتِي يَهْوَاهَا؛وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَانَ يَعْبُدُ الْحَجَرَ،فَإِذَا رَأَى أَحْسَنَ مِنْـهُ رَمَـى بِه،وَأَخَذَ الْآخَرَ يَعْبُدُهُ،فَكَانَ مَعْبُودُهُ وَإِلَهُهُ مَا يَتَخَيَّرُهُ لِنَفْسِه؛فَلِذَلِكَ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ،أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان:٤٣] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:أَفَأَنْتَ تَكُونُ يَـا مُحَمَّدُ عَلَى هَذَا حَفِيظًا فِي أَفْعَالِه مَعَ عَظِيمِ جَهْلِه؟ {أَمْ تُحْسَبُ} [الفرقان:٤٤] يَا مُحَمَّدُ أَنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ {يَسْمَعُونَ} [البقرة:٧٥] مَـا يُتْلَـى عَلَيْهِمْ،فَيَعُـونَ {أَوْ يَعْقِلُـونَ} [الفرقان:٤٤] مَا يُعَايِنُونَ مِنْ حُجَجِ اللَّه فَيَفْهَمُونَ؟ {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـامِ} [الفرقـان:٤٤] يَقُولُ:مَا هُمْ إِلَّا كَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ مَا يُقَالُ لَهَا،وَلَا تَفْقَهُ،بَلْ هُمْ مِنَ الْبَهَائِمِ أَضَلُّ سَبِيلًا؛لِأَنَّ الْبَهَائِمَ تَهْتَدِي لِمَرَاعِيهَا،وَتَنْقَادُ لِأَرْبَابِهَا،وَهَؤُلَاءِ الْكَفَرَةُ لَا يُطِيعُونَ رَبَّهُمْ،وَلَا يَشْكُرُونَ نِعْمَةَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ،بَلْ يَكْفُرُونَهَا،وَيَعْصُونَ مَنْ خَلَقَهُمْ وَبَرَأَهُمْ.[228]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:قَوْلُهُ:" {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الفرقان:٤٣] قَالَ:كَانَ الرَّجُـلُ يَعْبُـدُ الْحَجَرَ الْأَبْيَضَ زَمَانًا مِنَ الدَّهْرِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَإِذَا وَجَدَ حَجَرًا أَحْسَنَ مِنْهُ يَعْبُدُ الْآخَرَ وَيَتْـرُكُ الْأَوَّلَ " وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ نَحْوُ ذَلِكَ

[226] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٧٥،بترقيم الشاملة آليا)

[227] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٨٠،بترقيم الشاملة آليا)

[228] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٧/ ٤٥٩)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، " {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الفرقان:٤٣] قَالَ:ذَلِكَ الْكَافِرُ اتَّخَذَ إِلَهَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ وَلَا بُرْهَانٍ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ يَقُولُ:أَضَلَّهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ "

وعَنِ الْحَسَنِ، " {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الفرقان:٤٣] قَالَ:لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا اتَّبَعَهُ "

وعَنِ الْحَسَنِ،فِي قَوْلِهِ:" {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الفرقان:٤٣] قَالَ:ذَلِكَ الْمُنَافِقُ نَصَبَ هَوَاهُ فَمَا هَوَى مِنْ شَيْءٍ رَكِبَهُ "

وعَنْ قَتَادَةَ:قَوْلُهُ:" {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الفرقان:٤٣] وَاللَّهِ لَكُلَّمَا هَوِيَ شَيْئًا رَكِبَهُ وَكُلَّمَا اشْتَهَى شَيْئًا أَتَاهُ لَا يَحْجِزُهُ عَنْ ذَلِكَ وَرَعٌ وَلَا تَقْوَى "[٢٢٩]

وقال تعالى:{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [فاطر:٨].

أَفَمَنْ حَسَّنَ لَهُ الشَّيطَانُ عَمَلَهُ السَّيِّءَ،مِنْ مَعَاصِي اللهِ،وَالكُفْرِ بِهِ،وَالإِشْرَاكِ فِي عِبَادَتِهِ مَنْ هُمْ دُونَهُ..فَرَأى ذَلِكَ حَسَناً،وَظَنَّ قَبِيحَهُ بِهِ جَمِيلاً،هَلْ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِيهِ حِيلَةٌ؟ وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْتَ أَنْ تَهْدِيَهُ إِلى الحَقِّ والصَّوَابِ؟ وَهَلْ يَسْتَوِي هَذا الضَّالُّ مَعَ مَنْ هَدَاهُ اللهُ،وَوَفَّقَهُ إِلى الإِيمَانِ فَرَأَى الحَسَنَ حَسَناً فَفَعَلَهُ،وَالقَبِيحَ قَبِيحاً فَاجتَنَبَهُ؟ إنَّ ذَلِكَ إِنَّما يَتمُّ بِقَدرٍ مِنَ اللهِ،فَهُوَ تَعَالى الذي يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ،وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ،وَلاَ رَادَّ لأَمْرِهِ،وَقَدَرِهِ،فَلاَ تَأْسَفْ أَنْتَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِدَعْوَتِكَ،وَعَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ،فَإِنَّ اللهَ حَكِيمٌ فِي قَدَرِهِ،وَهُوَ تَعَالى عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ،وَسَيَجزِيهِم بِهِ.[٢٣٠]

وقال تعالى:{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) } [الزخرف].

وَمَنْ يَتَغَافَلْ وَيَتَعَامَ عَنِ القُرْآنِ،وَعَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى،وَيَنْهَمِك فِي المَعَاصِي،وَلَذَّاتِ الدُّنْيا وَشَهَوَاتِهَا..فَإِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ فَيَكُونُونَ لَهُ قُرَنَاءَ،يُزَيِّنُونَ لَهُ ارْتِكَابَ المَعَاصِي،وَالاشْتِغَالَ بِاللَّذَّاتِ،فَيَسْتَرْسِلُ فِيهَا فَيَحِقُّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللهِ وَعِقَابُهُ.وَهَؤُلاَءِ القُرنَاءُ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ والجِنِّ،الذِينَ يُقَيِّضُهُم اللهُ لِكُلِّ مَنْ يَعْشُوا عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ،يُحَاوِلُونَ صَرْفَهُ عَنِ

---

[٢٢٩] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٨/ ٢٦٩٩)(١٥١٩٩ -١٥٢٠٣) وهو يدور بين الصحة والحسن

[٢٣٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٤٩،بترقيم الشاملة آليا)

الحَقِّ إِلَى البَاطِلِ،وَيُوسْوِسُونَ لَهُ أَنَّهُ عَلَى جَادَّةِ الهُدَى والحَــقِّ والصَّــوَابِ،وَأَنَّ غَيْــرَهُ عَلَــى البَاطِلِ،وَيُكَرِّهُونَ إليه الإِيْمَانَ فَيُطِيعُهُمْ.[٢٣١]

وقال تعالى:{ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُــوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [الأنعام:١٣٧].

وَكَمَا زَيَّنَت الشَّيَاطِينُ لِهَؤُلاَءِ أَنْ يَجْعَلُوا لله نَصِيباً مِمَّا خَلَقَ مِنَ الحَــرْثِ وَالأَنْعَامِ،وَلِلأَوْثَــانِ نَصِيباً آخَرَ،كَذَلِكَ زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ،خَشْيَةَ الفَقْرِ وَالإِمْلاَقِ،وَوَأْدَ البَنَاتِ خَشْــيَةَ العَــارِ (وَالشُّرَكَاءُ،هُنَا،هُمُ الشَّيَاطِينُ) .وَقَدْ زَيَّنَــتْ لَهُــمُ الشَّــيَاطِينُ هَــذِهِ المُنْكَرَاتِ،لِيُهْلِكُــوهُمْ بِالإِغْوَاءِ،وَيُفْسِدُوا عَلَيْهِمْ فِطْرَتَهُمْ،فَتَنْقَلِبَ عَوَاطِفَ وِدِّ الوَالِدِينِ،مِنْ رَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ،إِلَى قَسْــوَةٍ وَوَحْشِيَّةٍ،فَيَنْحَرَ الوَالِدُ وَلَدَهُ،وَيَدْفُنَ الأَبُّ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ.وَقَدْ لَبَسَت الشَّيَاطِينُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَدَّعُونَهُ مِنَ التَّمَسُّك بِدِينِ أَبِيهِمْ إِسْمَاعِيلَ،وَجَدِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ،عَلَيهِمَا السَّلاَمُ.وَقَدْ اخْتَلَطَ عَلَــيْهِمْ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَقَالِيدِ الشِّرْكِ،حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ مَا هُوَ الأَصْلُ،وَمَا هُوَ المُبْتَدَعُ فِيهِ.وَلَوَ شَاءَ اللهُ أَلاَّ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مَا فَعَلُوهُ،وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ وَحِكْمَتَهُ قَضَتَا بِجَعْلِهِمْ مُسْتَعِدِينَ لِلتَّأَثُّرِ بِكُلِّ مَا يَرِدُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الأَفْكَارِ وَالآرَاءِ،وَاخْتِيَارِ مَا يَتَرَجَّحُ لَدَيْهِمْ.فَذَرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَمَا يَتَقَوَّلُــونَ وَمَــا يَفْتَرُونَ وَيَبْتَدِعُونَ.[٢٣٢]

وقال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) } [البقرة].

وقال تعالى:{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الــدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) } [الكهف].

قُلْ،أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلاَءِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَكَ بِالبَاطِلِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ:هَلْ تُرِيدُونَ أَنْ أُخْبِــرَكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً؟ إِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا الله عَلَى غَيْرِ طَرِيقَةٍ يَرْضَاهَا تَعَالَى،وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُــمْ مُصِيبُونَ فِيهَا،وَأَنَّ عَمَلَهُمْ مَقْبُولٌ.وَهُمْ فِي الحَقِيقَةِ مُخْطِئُونَ وَاهِمُونَ،وَعَمَلُهُمْ مَرْدُودٌ.

---

[٢٣١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٤٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٣٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٢٧،بترقيم الشاملة آليا)

يُفَسِّرُ اللهُ تَعَالَى هُنَا مَعْنَى (الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً)،وَيَدُلُّ عَلَيْهِمْ،فَيَقُولُ:إِنَّهُمُ الَّذِينَ عَمِلُوا أَعْمَالاً بَاطِلَةً عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِه،وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيءٍ مِنَ الهُدَى وَالصَّوَابِ،وَأَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ وَمَحْبُوبُونَ،وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ حَسَنَةٌ يَقْبَلُهَا اللهُ تَعَالَى.[٢٣٣]

وقال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [محمد:١٤]

أَفَمنْ كَانَ عَلَى بَصِيرَةٍ برَبِّهِ وَخَالقه،وَبِما أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ،فَهُوَ يُدْرِكُ أَنَّ لَهُ رَبّاً خَلَقَهُ وَرَعَاهُ،وأَنَّهُ سَيُجَازِيه على أعْماله فِي الآخِرةِ بإدخَاله الجَنَّةَ،كَمَنْ حَسَّنَ لَهُ الشَّيطَانُ عَمَلَهُ القَبيحَ،وَأَراهُ إِيَّاهُ جَميلاً فأَقَامَ عَلَيه،وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَشَهَوَاتِهِ فَانْغَمَسَ فِي المَعَاصِي غَيْرَ مُفَكِّرٍ فِي بَعْثٍ وَلاَ حِسَابٍ،وَلاَ فِي جَزَاءٍ عَلَى الأعمالِ،إِنَّهُ بِلا شَكٍّ مُفَكِّرٍ فِي بَعْثٍ وَلاَ حِسَابٍ،وَلاَ فِي جَزَاءٍ عَلَى الأعمالِ،إِنَّهُ بِلا شَكٍّ لاَ يَتَساوَى المُؤْمِنُ الصَّالِحُ،مَعَ الكَافِرِ الفَاجِرِ،فِي الجَزَاءِ عِندَ اللهِ فِي الآخِرَةِ.[٢٣٤]

وغيرها من الآيات التي تدلُّ على أن ما تهواه الأنفس وتستحسنه العقول ليس هو الميزان الذي يرجع إليه في معرفة الحسن والقبيح،فإن العقول إذا فسدت وانحرفت عن فطرتها ترى الحق باطلا والباطل حقا،وتستحسن ما فيه ضررها:كالكفر والمعاصي،وتكره ما فيه نفعها وصلاحها:كالإيمان والاستقامة على طاعة الله تعالى.

فالإفساد في الأرض مثلا عند الأمريكان وحلفائهم إصلاحا،وشيوع الفواحش بأنواعها،والانحطاط الأخلاقي الذي لم تصل إليه البهائم هو عندهم نشر للحرية،والتلفظ بكلمات الكفر والفجور بجميع صورها وأشكالها هو عندهم من حرية الكلمة[٢٣٥]،والتسلط على بلاد المسلمين،ونهب خيراتها ونفطها،واستعباد أهلها وانتهاك حرماتهم،يسمونه تحريرا للبلاد وأهلها،فقد انقلبت في عقولهم الشيطانية كل القيم والموازين والأخلاق الشرعية العادلة،فهم شياطين،هذه حقيقتهم وطبيعتهم،فالشيطنة سجيتهم،والتمرد على عبودية الله تعالى

---

[٢٣٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٤٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٣٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٣٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٣٥] – انظر كتابنا " مفهوم الحرية بين الإسلام والجاهلية "

وصفهم،إلا أن قبحهم وإجرامهم يغطون عليه بالبث الإعلامي الكثيف الضاغط على الأمة،وبزخرفة الأقوال والشعارات،وانتقاء الكلمات المموهة المزينة،وبالثرثرة والجدل بالباطل الذي لا يكل ليلا ولا نهارا،وقد قال تعالى عن الكافرين الصادين عن سبيله الذين يبغونها مائلة معوجة:{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)} [الأعراف:٤٤،٤٥].

بَعْدَ أَنْ يَسْتَقِرَّ أَهْلَ الجَنَّةِ فِيهَا،وَيَحْمَدُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى النَّعِيمِ الذِي أَسْبَغَهُ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ،يَطَّلِعُونَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ،فَيَرَوْنَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ وَالنَّصَبِ،وَيَرَوْنَ قَوْماً مِمَّنْ عَرَفُوهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا،وَكَانُوا يُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللهِ،وَيَكْفُرُونَ بِهَا،وَيَسْخَرُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ،وَيُشَكِّكُونَ فِي صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ عَنْ ثَوَابِ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ،فَاعِلِي الخَيْرِ،وَعَنِ العَذَابِ الذِي يَنْتَظِرُ المُكَذِّبِينَ المُجْرِمِينَ،فَيُخَاطِبُونَهُمْ قَائِلِينَ:لَقَدْ وَجَدْنَا نَحْنُ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا مِنْ نَعِيمٍ،وَجَنَّاتٍ،حَقّاً،جَزَاءً عَلَى الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ،فَهَلْ وَجَدْتُمْ أَنْتُمْ يَا أَصْحَابَ النَّارِ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ عَذَابٍ وَنَكَالٍ حَقّاً؟ فَيُجِيبُهُمْ أَهْلُ النَّارِ:أَنْ نَعَمْ،لَقَدْ وَجَدْنَا ذَلِكَ.وَبَعْدَ أَنْ يُقروا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ،يُعْلِنُ مُعْلِنٌ:أَنْ لَعْنَةَ اللهِ مُسْتَقِرَّةٌ عَلَى الظَّالِمِينَ لأَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ وَالمَعَاصِي.

وَيُعَرِّفُ اللهُ تَعَالَى هَؤُلاَءِ الظَّالِمِينَ لأَنْفُسِهِمْ فَيَقُولُ:إِنَّهُمُ الذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ،وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنْ اتِّبَاعِ مَا شَرَعَ اللهُ مِنَ الهُدَى،وَمَا جَاءَتْ بِهِ النُّبُوَّاتُ،وَيَبْغُونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ اللهِ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ حَتَّى لاَ يَسْلُكَهَا أَحَدٌ،وَيَكْفُرُونَ بِلِقَاءِ اللهِ فِي الآخِرَةِ،لاَ يُصَدِّقُونَ وَلاَ يُؤْمِنُونَ،وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَرِ القَوْلِ وَالفِعْلِ،لأَنَّهُمْ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَ اللهِ وَحِسَابَهُ.[٢٣٦]

وقال تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) } [هود:١٨،١٩].

---

[٢٣٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٩٩،بترقيم الشاملة آليا)

يُبَيِّنُ اللهُ حَالَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْه،وَفَضِيحَتهم فِي الـدَّارِ الآخِـرَةِ عَلَـى رُؤُوسِ الأَشْـهَاد مِـنَ الخَلائِق،وَيَقُولُ تَعَالَى:لاَ أَحَدَ أَكْثَرَ ظُلْماً ممَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ فِـي أَقْوَالِـه أَوْ فِـي أَحْكَامِه،أَوْ فِي صِفَاتِه،أَوْ فِي الزَّعْمِ أَنَّهُ اتَّخَذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً،أَوْ فِي تَكْذِيبِ مَـا جَـاءَ بِـه الرُّسُلُ...وَيُعْرَضُ هؤُلاَءِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَبِّهِمْ لِمُحَاسَبَتِهِمْ عَلَى أَعْمَـالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ،وَيَقُـولُ الذِينَ يَتَقَدَّمُونَ لِلشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ،مِنَ المَلاَئِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ وَصَالِحِي الْمُؤْمِنِينَ:(هَؤُلاَءِ الذِينَ كَـذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ،وَافْتَرُوا،أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) .

وَيُعَرِّفُ اللهُ هَؤُلاَءِ الظَّالِمِينَ فَيَقُولُ:إِنَّهُمُ الذِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ،وَيَمْنَعُـونَهُمْ مِـنَ الإِيمَانِ،وَيَسْعَوْنَ لأَنْ تَكُـونَ سَـبِيلُ اللهِ مُعْوَجَّةً،مُوَافِقَـةً لِشَـهَوَاتِهِمْ وَأَهْـوَائِهِمْ،وَيَكْفُرُونَ بِالآخِرَةِ،وَيُكَذِّبُونَ بِوُقُوعِهَا.[237]

وقال تعالى:{الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِـمْ إِلَـى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِـنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)} [إبراهيم:١ - ٣].

هَذَا القُرْآنُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ لِتُخْرِجَ بِهِ النَّاسَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ وَالضَّلاَلِ،إِلَى نُورِ الهُدَى وَالرَّشَادِ وَالإِيمَانِ،بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَتَوْفِيقِه،فَمِنْ قَدَّرَ اللهُ لَهُ الهِدَايَةَ أَرْسَلَ نُوراً يَهْدِي قَلْبَهُ فَيَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ اللهِ العَزِيزِ الذِي لاَ يُمَانِعُ وَلاَ يُغَالِبُ،المَحْمُودُ فِي جَمِيـعِ أَفْعَالِـهِ وَأَقْوَالِـهِ وَشَرْعِه،الصَّادِقِ فِي خَبَرِه.

وَرَبُّهُم هُوَ اللهُ الذِي يَمْلِكُ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ،وَيَتَصَرَّفُ بِهِ كَيْفَ يَشَاءُ،وَالوَيْلُ وَالهَلاَكُ لِلكَافِرِينَ،يَوْمَ القِيَامَةِ،مِنَ العَذَابِ الشَدِيدِ الذِي يَنْتَظِرُهُمْ،إِذَا خَـالَفُوكَ يَـا مُحَمَّـدُ وَكَذَّبُوكَ.

وَهَؤُلاَءِ الكَافِرُونَ الذِينَ يُهَدِّدُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالوَيْلِ،يَوْمَ القِيَامَةِ،هُمُ الـذِينَ يُفَضِّـلُونَ الحَيَـاةَ الـدُّنْيَا،وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَـى الآخِرَةِ،وَيَعْمَلُـونَ لِلْدُّنْيا،وَيَنْسَـوْنَ الآخِرَةَ،وَيَتْرُكُونَهَـا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ،وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ {وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ}،وَيُحِبُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ

[237] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٩٢،بترقيم الشاملة آليا)

اللهِ مُعْوَجَّةً،غَيْرَ مُسْتَقِيمَةِ،لِكَي يَنْفِرَ النَّاسُ مِنْهَا.وَبِمَا أَنَّ سَبِيلَ اللهِ مُسْتَقِيمَةٌ فِي ذَاتِهَا فَلاَ يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا،وَلاَ مَنْ صَدَّ عَنْهَا،وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ فِي اخْتِيَارِهِمْ حُبُّ الدُّنيا العَاجِلَـةِ،وَفِي صَـدِّهِمْ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ دِينِ الإِسْلاَمِ،وَفِي ابْتِغَائِهِمْ أَنْ تَكُونَ سَبِيلَ اللهِ مُعْوَجَّةً..إِنَّمَا هُمْ فِـي جَهْـلٍ وَضَلاَلٍ،وَبُعْدٍ عَنِ الحَقِّ،وَلاَ يُرْجَى لَهُمْ صَلاحٌ.

مِنْ لُطْفِ اللهِ بِخَلْقِه أَنَّهُ لاَ يُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَى النَّاسِ إِلاَّ بِلِسَانِهِمْ،لِيَفْهَمُوا مِنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ قَوْلَـهُ لَهُمْ،وَلِيُوَضِحُوا لَهُمْ مَا أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ بِهِ،لِتَقُومَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ،وَيَنْقَطِعَ العُـذْرَ.وَبَعْـدَ أَنْ يَقُـومَ الرُّسُلُ بِمُهِمَّةِ الدَّعْوَةِ وَالإِيضَاحِ وَالبَلاَغِ،وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَى النَّاسِ،يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الحَقِّ وَالهُدَى،وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِهِ المُسْتَقِيمِ،وَاللهُ هُوَ العَزِيزُ الذِي لاَ يُقْهَرُ،مَـا شَـاءَ كَانَ،وَهُوَ الحَكِيمُ فِي شَرْعِهِ وَأَفْعَالِه.[٢٣٨]

وقال تعالى:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًـا وَأَنْـتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّـهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)} [آل عمران].

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لأَهْلِ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى:لِمَ تَمْنَعُونَ المُؤْمِنِينَ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الإِيمَـانِ المُسْتَقِيمِ المُوصِلِ إلى اللهِ،وَتُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَرِسَالَتِه،كُفْراً وَعِنَـاداً،وَكِبْراً وَحَسَـداً،وَتُلْقُونَ الشُّبُهَاتِ البَاطِلَةَ فِي قُلُوبِ الضُّعَفَاءِ مِنَ المُسْلِمِينَ بَغْياً وَكَيْداً لِلنَّبِيِّ؟ هَلْ تُرِيْـدُونَ اعْوِجَـاجَ الأُمُورِ،وَسِيَادَةَ الشَّرِّ وَالفَسَادِ فِي الأَرْضِ؟ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ عَلَى صِحَّةِ مَا أَقُولُ،وَعَلَى صِدْقِ مَـا جَاءَنِي مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ وَأنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لاَ يَغِيبُ عَنْ عِلْمِ اللهِ شَيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ مِنْ صَدٍّ وَكُفْـرٍ وَبَغْيٍ.

يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ مِنْ إِطَاعَةِ اليَهُودِ الذِينَ يَحْسُدُونَ المُؤْمِنِينَ عَلَى مَا آتَـاهُمُ اللهُ مِـنْ فَضْلِه،وَمَا مَنَحَهُمْ مِنْ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ،لأنَّ ذَلِكَ قَدْ يُؤَدِّي بِهِمْ إِلَى الكُفْرِ.

وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِه الآيَةُ فِي اثْنَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ.فَيُروَى أنَّ الأَوْسَ وَالخَزْرَجَ كَانَـتْ بَيْـنَهُمْ فِـي الجَاهِلِيَّةِ حُرُوبٌ شَدِيدَةٌ،وَعَدَاوَاتٌ مُسْتَحْكِمَةٌ،وَلَمَّا دَخَلُوا فِـي الإِسْـلاَمِ أَلَّـفَ اللهُ بَـيْنَ

[٢٣٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

قُلُوبِهِمْ،وَأَصْبَحُوا إِخْوَةً فِي الإِسْلاَمِ.وَمَرَّ يَهُودِيٌّ فَرَأَى الأَوْسَ وَالخَزْرَجَ مُجْتَمِعِينَ وَهُمْ أَكْثَرُ مَا يَكُونُونَ تَوادّاً وَصَفَاءً،فَسَاءَهُ ذَلِكَ،فَدَسَّ يَهُودِياً يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ الحُرُوبِ بَيْنَهُمْ،وَبِمَا كَانُوا يُفَاخِرُونَ بِهِ مِنْ أَشْعَارٍ،ففَعَلَ،فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَوْسِ وَآخَرُ مِنَ الخَزْرَجِ فَتَلاسَنَا،وَأَثَارَ كُلٌّ مِنْهُمَا جَمَاعَتَهُ،وَدَعَاهُمْ بِدَعْوَةِ الجَاهِلِيّةِ،وَتَسَلَّحَ النَّاسُ وَخَرَجُوا لِلْقِتَالِ،فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَخَطَبَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ بِإِيمَانِهِمْ فَسَكَنُوا،فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ وَالتِي قَبْلَهَا.

وَيَسْتَبْعِدُ اللهُ تَعَالَى عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَكْفُروا،وَحَاشَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ)،فَآيَاتُ اللهِ تُنَزَّلُ عَلَى رَسُولِهِ لَيْلاً وَنَهَاراً،وَهُوَ يَتْلُوهَا عَلَيْهِمْ،وَيُبَلِّغُهَا إِلَيْهِمْ،وَلاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَلْتَفِتُوا إلى قَوْلِ هَؤُلاءِ الأَعْدَاءِ،بَلِ الوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْجِعُوا،عِنْدَ كُلِّ شُبْهَةٍ يَسْمَعُونَها مِنْ هَؤُلاءِ اليَهُودِ،إلى الرَّسُولِ ﷺ حَتَّى يَكْشِفَ لَهُمْ عَنْهَا،وَيُزِيلَ مَا عَلقَ بِقُلُوبِهِمْ مِنْهَا.وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ،وَيَتَوَكَّلْ عَلَيهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُبْعِدُهُ عَنِ الغَيِّ وَالضَّلاَلِ،وَيُوصِلُهُ إلى الهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ،وَطَرِيقِ السَّدَادِ.[239]

وقال تعالى:{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [النحل:٨٨].

أَمَّا الذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ،وَقَامُوا بِصَدِّ النَّاسِ عَنِ الإِيمَانِ بِاللهِ،وَاتِّبَاعِ الرُّسُلِ فَيَزِيدُهُمُ اللهُ تَعَالَى عَذَاباً،يُعَذِّبُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ،وَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى صَدِّ النَّاسِ عَنِ الإِيمَانِ،وَعَلَى الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ.[240]

فالصليبيون وحلفاؤهم الذين تغيرت فطرهم،وفسدت عقولهم،يجادلون بالباطل ليصدوا الناس عن الحق،ويروجون لكفرهم وباطلهم بالكلام المزخرف المموّه،ويثيرون الأكاذيب والشبه الباطلة حول الحق وأهله،وقد سخروا إمكانياتهم وطاقاتهم،وما تحمله عقولهم من صنوف الكيد والمكر،لمحاربة دين الإسلام،والسعي لتبديل أصوله وأحكامه،كتبديل الحكم بما أنزل الله تعالى،وعقيدة الولاء والبراء،والجهاد في سبيل الله،وغيرها من شعائر الإسلام،ويظاهرهم في ذلك الحكام العملاء من خلال تغيير المناهج الدراسية،وتغيير الخطاب الديني بحسب تعبيرهم،والسعي لتجريد المرأة من حجابها وحيائها وخلقها،ومن خلال فتاوى علماء السوء

[239] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٢،بترقيم الشاملة آليا)

[240] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٨٩،بترقيم الشاملة آليا)

المضللة،ومن خلال بث الضلال والفساد في وسائل الإعلام،ومن خلال قوة السلاح وسفك الدماء،وغيرها من أساليب المكر والإفساد التي يحركها ويوجهها وحي الشيطان وتزيينه،وقد قال الله تبارك وتعالى:{ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام:١٢١].

وأمام هذا التقرير الأخير نقف،لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والاتباع في هذا الدين ..

إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله،ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية ..أن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله،إلى الشرك بالله.وفي هذا يقول ابن كثير:

«وقوله تعالى:(وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) ..أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه،إلى قول غيره،فقدمتم عليه غيره ..فهذا هو الشرك ..كقوله تعالى:«اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» ..الآية.وقد روى الترمذي في تفسيرها عَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ – ﷺ – وَفِى عُنُقِى صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ.فَقَالَ «يَا عَدِىُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ».وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِى سُورَةِ بَرَاءَةَ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[٢٤١].

أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام.وما حلله فهو الحلال،وما شرعه اتبع،وما حكم به نفذ) ..

فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير ..وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح – مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه،ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك – أن من أطاع بشرا في شريعة من عند نفسه،ولو في جزئية صغيرة،فإنما هو مشرك.وإن كان في الأصل مسلما ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضا ..مهما بقي بعد ذلك يقول:أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه.بينما هو يتلقى من غير الله،ويطيع غير الله.

[٢٤١] – سنن الترمذى- المكنز [١١/ ٣٥٤] (٣٣٧٨) صحيح لغيره

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم – في ضوء هذه التقريرات الحاسمة – فإننا نـــرى الجاهليـــة والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلا من عصم الله،فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية و لم يقبل منها شرعا ولا حكما ...إلا في حدود الإكراه ..[٢٤٢]
وقال تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْــضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِــدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)} [الأنعام:١١٢،١١٣].
وَكَمَا جَعَلْنَا هؤُلاَءِ وَأَمْثَالَهُمْ أَعْدَاءً لَكَ يَا مُحَمَّدُ،يُخَالِفُونَكَ وَيُعَانِدُونَكَ،وَيُعَادُونَكَ،كَــذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَعْدَاءً مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ (شَيَاطِينُ الإِنْسِ هُمُ الكُبْرَاءُ وَمَــنْ يُضِلُّونَ النَّاسَ عَنِ الهُدَى بِالوَسْوَسَةِ وَالإِغْرَاءِ وَالمُخَادَعَةِ)،وَيُلْقِي بَعْضُ هَؤُلاَءِ الشَّــيَاطِينِ مِــنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ إِلى بَعْضٍ القَوْلَ المُمَوَّهَ الذِي يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتُرُونَ بِهِ قُبْحَ بَاطِلِهِمْ،وَيُؤَدُّونَهُ بِطُرُقٍ خَفِيَّةٍ لاَ يَفْطَنُ إِلَى بَاطِلِهَا كُلُّ وَاحِدٍ،حَتَّى يَغُرُّوا النَّاسَ وَيَخْــدَعُوهُمْ وَيُمِيلُــوهُمْ إِلَــى مَــا يُرِيدُونَ،كَمَا وَسْوَسَ الشَّيْطَانُ لآدَمَ وَحَوَّاءَ لِلأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ التِي نَهَاهُمَــا اللهُ عَنْهَا،وَكَمَــا يُوَسْوِسُ شَيَاطِينُ الإِنْسِ لِمَنْ يَجْتَرِحُونَ السَّيِّئَاتِ،فَيُزَيِّنُونَ لَهُمْ مَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ اللَّذَّةِ،وَالتَّمَتُّعِ بِالحُرِّيَّةِ،وَيُمَنُّونَهُمْ بِعَفْوِ اللهِ.وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ لاَ يَفْعَلُوا ذَلِكَ لَمَا فَعَلُوهُ وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ إِذْ خَلَقَ النَّاسُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِقُبُولِ الحَقِّ وَالبَاطِلِ،وَالخَيْرِ وَالشَّرِّ.
وَيُوحِي هَؤُلاَءِ الشَّيَاطِينُ،بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ،القَوْلَ المُمَوَّهَ لِيَغُرُّوا بِهِ المُؤْمِنِينَ،وَيَصْــرِفُوهُمْ عَــنِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ،وَيَفْتِنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ،وَلِتَمِيلَ إِلَيهِ قُلُوبُ الكَافِرِينَ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ،لأَنَّــهُ المُوَافِقُ لأَنْفُسِهِمْ إِذْ هُمْ يَمِيلُونَ إِلَــى حُــبِّ الشَّــهَوَاتِ التِــي مِــنْ جُمْلَتِهَــا الأَقَاوِيــلُ المُزَخْرَفَةُ،وَالأَبَاطِيلُ المُمَوَّهَةُ،فَيَرْضَوْنَ ذَلِكَ لأَنْفُسِهِمْ بِلاَ بَحْثٍ وَلاَ تَمْحِيصٍ فِيهِ،وَيَرْتَكِبُونَ مِنَ المَآثِمِ وَالمَعَاصِي مَا هُمْ مُرْتَكِبُونَ بِغُرُورِهِمْ.[٢٤٣]
وقال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) } [الحج].

---

[٢٤٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٦٣٥)

[٢٤٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٠٢،بترقيم الشاملة آليا) –

بَعْدَ أَنْ شَرَحَ الله تَعَالَى حَالَ النَّاسِ يَوْمَ الحَشْرِ،وَبَعْدَ أَنْ أَكَّدَ أَنَّ الحَشْرَ وَالفَزَعَ وَاقِعَـان يَـوْمَ القِيَامَةِ لا مَحَالَةَ،قَالَ تَعَالَى:وَمَعَ ذَلِكَ فإِنَّ هُنَاكَ بَعْضَ النَّاسِ يُجَادِلُونَ فـي الله:فـي وُجُـودِ الله،وَفِي وحْدَانِيَّتِه،وفِي قُدْرَتِه عَلَى إحيَاءِ المَوْتَى..وَفِي عِلْمِه.وَجِـدَالُهُمْ هـذا بغَـير عِلْـمٍ صَحِيحٍ،وَبِدُون دَلِيلٍ وَاضِحٍ،وَهُوَ جدالٌ نَاتِجٌ عنِ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ المُتَمَرِّدِ عَلَى رَبِّه.[٢٤٤]

وقال تعالى:{ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [مريم:٨٣].

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله سَلَّطَ الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَـافِرِينَ وَالمُشْـرِكِينَ،لِيَغْوُوهُمْ،وَيُغْرُوهُمْ بِارْتِكَـابِ المَعَاصِي،وَيَهِيجُوهُمْ لِلْوُقُوعِ فِيهَا؟[٢٤٥]

وقال تعالى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِـنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)} [الأنفال:٤٧،٤٨].

وَعَلَيْكُمْ،أَيُّها المُؤْمِنُونَ،أَنْ تَمْتَثِلُوا لِمَا أَمَرَكُمْ بِه رَبُّكُمْ مِنْ طَاعَتِه تَعَالَى،وَطَاعَةِ رَسُولِه الكَـرِيمِ ﷺ،وَالتِزَامِ أَوَامِرِهِمَا،وَلاَ تَكُونُوا كَأَعْدَائِكُمْ المُشْرِكِينَ الذِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ بَطَراً بِمَا أوتُـوا مِنَ النَّعْمَة،وَمُرَاءَاةً لِلنَّاسِ لِيُعْجَبُوا بِهِمْ،وَيُثْنُوا عَلَيْهِمْ بِالغِنَى وَالقُوَّةِ وَالشَّـجَاعَة..وَهُـمْ إِنَّمَـا يَقْصِدُونَ بِخُرُوجِهِم الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ الله،وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ،وَالحَدَّ مِنْ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ،وَاللهُ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ،وَلاَ يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِه شَيءٌ،وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَة.

وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ إِذْ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ أَعْمَالَهُمْ بِوَسْوَسَتِه،وَإِذْ حَسَّـنَ فـي أَعْيُنِهِمْ مَا جَاؤُوا لَهُ،وَمَا هَمُّوا بِه،وَأَطْمَعَهُمْ بِأَنَّهُمْ مَنْصُـورُونَ،وَأَنَّهُمْ لاَ غَالِـبَ لَهُـمْ مِـنَ النَّاسِ،وَطَمْأَنَهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْتَوْا فِي دِيَارِهِمْ أَثْنَاءَ غَيْبَتِهِمْ فِي قِتَالِ المُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ،لأَنَّهُ جَارٌ لَهُمْ وَمُجِيرٌ،فَلَمَّا التَقَى المُسْلِمُونَ بِالمُشْرِكِينَ،وَرَأَى الشَّيْطَانُ مَلاَئِكَةَ الله يَحْمُونَ المُسْلِمِينَ،وَلَّى هَارِباً {نَكَصَ على عَقِبَيْهِ}،وَقَالَ لأَوْلِيَائِه مِنَ الكُفَّارِ:إِنَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُمْ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ يَرَوْنَ،إِنَّهَ

---

[٢٤٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٤٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٣٣٣،بترقيم الشاملة آليا)

يَرَى المَلاَئكَةَ يَنْصُرُونَ المُسْلمينَ،وَإنَّهُ يَعْلَمُ منْ عَظَمَـــة الله وَقُوَّتـــه وَسَـــطْوَّته،مَا لاَ يَعْلَمُـــهُ أَوْليَاؤُهُ،وَلذَلكَ فَإنَّهُ يَخَافُ اللهَ،وَيَعْرفُ أَنَّهَ تَعَالَى شَديدُ العقَاب.[٢٤٦]

وقال تعالى:{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَـــانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) } [الحج].

ومن الكفار مَن يجادل بالباطل في الله وتوحيده واختياره رسوله ﷺ وإنزالـــه القرآن،وذلـــك الجدال بغير علم،ولا بيان،ولا كتاب من الله فيه برهـــان وحجـــة واضـــحة،لاويًا عنقـــه في تكبر،معرضًا عن الحق؛ليصد غيره عن الدخول في دين الله،فسوف يلقـــى خزيًـــا في الـــدنيا باندحاره وافتضاح أمره،ونحرقه يوم القيامة بالنار.ويقال له:ذلك العذاب بسبب ما فَعَلْتَ مـــن المعاصي واكتسبت من الآثام،والله لا يعذب أحدًا بغير ذنب.[٢٤٧]

وقال تعالى:{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَـــادِلُ الَّـــذِينَ كَفَـــرُوا بِالْبَاطِـــلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا } [الكهف:٥٦].

وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ قَائلاً:إنَّهُ لاَ يُرْسلُ الرُّسُلَ إلاَّ مُبَشِّرينَ منْ صَدَّقَهُمْ،وَآمَنَ بِـــدَعْوَتهمْ،بأَنَّ لَهُمْ عنْدَ رَبِّهم الحُسْنَى؛وَمُنْذرينَ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ،عقَابَ الله وَعَذَابَهُ،وَأَنَّهُ تَعَالَى لاَ يُرْسِـــلُ المُرْسَلينَ ليَقْتَرحَ عَلَيْهمُ الظَّالمُونَ منْ أَقْوَامهمْ،وَيَطْلُبُوا منْهُمْ مَا لاَ قبَلَ لَهُـــمْ بِـــه.وَالظَّـــالمُونَ الكُفَّارُ لاَ يُجَادلُونَ،وَلا يَقْتَرحُونَ للاسْترْشَاد وَالاهْتدَاء،وَإنَّمَا يُجَادلُونَ بالبَاطل ليُضْعفُوا الحَـــقَّ الذي جَاءَهُمْ به الرُّسُلُ،وَيُبْطلُوهُ (ليُدْحضُوا به الحَقَّ)،وَلَنْ يَبْلُغُوا غَايَتَهُمْ.وَقَد اتَّخَذُوا جَميـــعَ الحُجَج وَالمُعْجزَات التي جَاءَهُمْ بهَا رُسُلُهُمْ،وَالعَذَاب الَّذي حَذَّرُوهُمْ منْهُ،وَخَوّفُوهُمْ منْ نُزُوله بهمْ...هُزْواً وَسُخْريَةً.[٢٤٨]

وقال تعالى:{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَـــدَلًا } [الكهف:٥٤].

---

[٢٤٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٤٧] - التفسير الميسر (١/ ٣٣٣)

[٢٤٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٩٦،بترقيم الشاملة آليا)

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ بَيَّنَ لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ كُــلَّ مَــا هُــمْ بِحَاجَــةٍ إِلَيْــهِ فِــي أُمُــورِ دِينِهِمْ،وَدُنْيَاهُمْ،وَفَصَّلَهُ لِكَيْلاَ يَضِلُّوا عَنِ الحَقِّ،وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيقِ الهُدَى وَالصَّوَابِ،وَلِيَذْكُرُوا فَيُنِيبُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَيَعْتَبِرُوا،وَيَزْدَجِرُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَسُوءِ العَمَلِ.وَمَعَ هَــذا البَيَــانِ وَالتَّوْضِيحِ فَإِنَّ الكَافِرِينَ طَلَبُوا مُعْجِزَاتٍ أُخْرَى غَيْرِ القُرْآنِ،وَالإِنْسَــانُ فِــي طَبِيعَتِــهِ حُــبُّ الجَدَلِ،وَمُعَارَضَةُ الحَقِّ بِالبَاطِلِ،إِلاَّ مَنْ هَدَى اللهُ.[٢٤٩]

وقال تعالى:{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَــادَلُوا بِالْبَاطِــلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)} [غافر:٤،٥].

لاَ يُخَاصِمُ فِي القُرْآنِ بِالطَّعْنِ فِيهِ،وَتَكْذِيبِهِ،وَلاَ يَدْفَعُ الحَــقَّ بِالبَاطِــلِ بَعْــدَ البَيَــانِ،وَظُهُورِ البُرْهَانِ،إِلاَّ الجَاحِدُونَ لآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ،المُعْرِضُــونَ عَــنِ الحَــقِّ مَــعَ ظُهُــورِهِ وَوُضُوحِهِ،فَلاَ يُغْرُرْكَ انْتِقَالُهُمْ فِي البَلاَدِ،وَأَسْفَارُهُمْ فِيهَا لِلتِّجَــارَةِ والتَّكَسُّــبِ،ثُمَّ عَــوْدَتُهُمْ سَالِمِينَ،بَعْدَ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ،فَإِنَّ عَاقِبَتُهم الهَلاَكُ.

يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ عَمّا يُلاَقِيهِ مِنْ تَكذِيبِ المُكَذِّبِينَ،وَإِعْرَاضِ المُعْرِضِينَ،فَيَقُولُ لَــهُ:إِنَّ الأُمَمَ السَّابِقَةَ كَذَّبَتْ رُسُلَهَا،وَلَمْ يُؤْمِن لَهُمْ إِلاَّ القَلِيلُ،فَلمُحَمَّدٍ فِي الأَنْبَيَاءِ السَّــابِقِينَ أُسْــوَةٌ حَسَنَةٌ.فَقَدْ كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ،نَبِيَّهُم نُوحاً عَلَيهِ السَّلاَمُ،وَتَحَزَّبَ مِنْ كُلِّ أُمــةٍ جَمَاعَــةٌ عَلَــى رَسُولِهِمْ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ،وَحَرَصَتْ كُلُّ أُمَّةٍ عَلَى الإِسَاءَةِ إِلَى رَسُــولِهِمْ وَإِيذَائِهِ،وَخَاصَــمُوا رَسُولَهُمْ بِالبَاطِلِ،بِإِيرَادِ حُجَجٍ وَشُبهٍ لاَ حَقِيقَةَ لَهَا،فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ،وَاستَأْصَلَ شَأفَتَهُمْ،فَكَانَ عِقَاباً أَلِيماً لَهُم.

وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ بِالْمُكَذِّبِينَ مِنْ قُرَيْشٍ مِثْلَ ذَلِكَ.[٢٥٠]

وقال تعالى:{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّــذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } [غافر:٣٥]

---

[٢٤٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٩٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠١٦،بترقيم الشاملة آليا)

وَهَؤُلاَءِ الُمسْرِفُونَ الُمرْتَابُونَ هُمُ الذينَ يُجَادِلُونَ فِي حُجَجِ اللهِ التي أَتَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ لِيَدْحَضُـــوهَا بالبَاطِلِ،دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ وَلاَ بُرْهَانٌ عَلَى صِحَّةِ مَا يَقُولُونَ.وَيَسْتَتْبعُ ذَلكَ الجَدَلُ الَمقْتَ الكَبيرَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى،وَعِنْدَ الُمؤْمِنينَ.وَكَمَا طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الُمسْرِفِينَ الذينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ،كَذَلِكَ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ يَسْتَكْبِرُ عَنِ الإِيْمَانِ بِـــاللهِ،وَعَنْ تَصْدِيقِ رُسُلِهِ،وَيَتَجَبَّرُ فِي الأَرْضِ بِالقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ.[251]

أي أن الله تعالى يمقت أشد المقت الذين يجادلون بلا حجة جاءهم مـــن الله تعالى،وكـــذلك المؤمنون يبغضون المجادلين بغير حجة من الله تعالى.

وقال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [غافر:٥٦]

إنَّ الذينَ يُجَادِلُونَكَ لِدَفْعِ الحَقِّ بِالبَاطِلِ،وَيُحَاوِلُونَ رَدَّ الحُجَجِ الصَّحِيحَةِ بالشُّبَهِ الفاســدَةِ،بِلاَ بُرْهَانٍ وَلاَ دَلِيلٍ لَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى صِحَّةِ مَا يَقُولُونَ،إنَّما يَفْعَلُونَ ذَلكَ لِمَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اسْتِكْبَارٍ عنْ اتِّبَاعِ الحَقِّ،وَاحْتِقَارٍ لِمَنْ جَاءَهُمْ بهِ،وَلَنْ يَبْلُغُوا مَا يَرْومُونَ وَمَا يُرِيدُونَ وَيُؤمِّلُـــونَ بهِ مِنْ إِخْمَادِ الحَقِّ،وَإِعلاَءِ البَاطِلِ،وَسَيَبْقَى الحَقُّ هُوَ الغَالِبَ دَائماً،فَالْتَجِئْ إِلَى اللهِ مُسْتَعِيذاً بِـــهِ فِي دَفْعِ كَيْدِ هَؤُلاَءِ الُمسْتَكْبِرِينَ الُمجَادِلِينَ بِالبَاطِلِ،فَهُوَ السَّمِيعُ لِـــدُعَائِكَ وَاسْـــتِعَاذَتِكَ،وَلِمَا يَقُولُونَ وَيَأْفِكُونَ،وَهُوَ البَصِيرُ بِحَالِكَ وَحَالِهِمْ.[252]

أي ما في صدور هؤلاء الكفار إلا تكبر على الحق وأهله،ولن يبلغوا ما يريـــدون مـــن دفـــع الحق،وغلبة الباطل،فإن الله ناصر دينه ومعل كلمته،فاستعذ بالله من حال هؤلاء أو مـــن شـــر هؤلاء.

ومن أعظم الناس جدلا وخصومة بالباطل،المنافقون الذين فسدت عقـــولهم وفطرهم،وأصـــبح الفساد في الأرض عندهم إصلاحا،كما قال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَـــالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَـــا إِنَّهُـــمْ هُـــمُ الْمُفْسِـــدُونَ وَلَكِـــنْ لَـــا يَشْـــعُرُونَ (١٢)} [البقرة:١١،١٢].

---

[251] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٤٧،بترقيم الشاملة آليا)

[252] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٦٨،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)} [البقرة:٢٠٤ - ٢٠٦]

وَهُنَاكَ أُنَاسٌ مُنَافِقُونَ تُعْجِبُ المَرْءَ حَلاَوةُ أَلْسِنَتِهِمْ،وَيَتَظَاهَرُونَ بِالوَرَعِ وَطِيبِ السَّرِيرَةِ،وَيُشْهِدُونَ اللهَ عَلَى صِدْقِ طَوِيَّتِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ،وَقُلُوبُهُمْ فِي الحَقِيقَةِ هِيَ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ،فَهُمْ يَقُولُونَ حَسَناً،وَيَفْعَلُونَ سَيِّئاً،وَهُمْ شَدِيدُو الجَدَلِ،لا يُعْجِزُهُمْ أَنْ يَغُشُّوا النَّاسَ بِمَا يَظْهَرُ عَلَيهِمْ مِنَ المَيْلِ إلى الإِصْلاَحِ.

فَإِذَا انْصَرَفَ الوَاحِدُ مِنْ هؤُلاءِ إلى العَمَلِ،أَوْ إذا تَوَلَّى وَلاَيَةً يَكُونُ لَهُ فِيهَا سُلْطَانٌ،اتَّجَهَ إلَى الشَّرِّ وَالفَسَادِ فِي قَسْوَةٍ وَجَفْوَةٍ،تَتَمَثَّلُ فِي إِهْلاَكِ النَّبَاتِ وَالحَرْثِ،وَإِتْلافِ النَّسْلِ الذِي يُمَثِّلُ امْتِدَادَ الحَيَاةِ،وَاللهُ تَعَالَى يَكْرَهُ الفَسَادَ وَالمُفْسِدِينَ.

فَإِذَا أَخْرَجَ هذَا المُنَافِقُ حِقْدَهُ عَنْ طَرِيقِ التَخْرِيبِ وَالفَسَادِ،وَقِيلَ لَهُ:لاَ تَفْعَلْ ذلِكَ وَاتَّقِ اللهَ،وَاسْتَحِ مِنْهُ،اسْتَعَزَّ بِالإِثْمِ وَالخَطِيئَةِ،وَرَفَعَ رَأْسَهُ فِي وَجْهِ الحَقِّ.فَإِنْ يَفْعَلْ هذا المُنَافِقُ ذلِكَ فَجَهَنَّمُ حَسْبُهُ،وَفِيهَا الكِفَايَةُ لَهُ،وَهِيَ بِئْسَ المَقَرُّ وَالمِهَادُ لَهُ،وَهِي الجَزَاءُ الأَوْفَى عَلَى أَفْعَالِهِ وَآثَامِهِ.[٢٥٣]

أي يظهر من الأقوال ما يعجب السامع {وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ} أي يظهر الإسلام ويبارز الله تعالى بما في قلبه من الكفر والنفاق،وقيل:إنه يحلف ويشهد الله أن ما قاله موافق لما في قلبه،والألد:هو الأعوج الشديد في الخصومة،وهذا هو حال المنافق الذي لا يستقيم في حال مخاصمته ولا يرجع للحق،بل يكذب في أقواله ويفجر في خصومته،ويدعي الحق باطلا والباطل حقا،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ:إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " رواه البخاري ومسلم[٢٥٤]

---

[٢٥٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١١،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥٤] - صحيح البخاري (١/ ١٦)(٣٣) وصحيح مسلم (١/ ٧٨)١٠٧ - (٥٩)

[ش(آية) علامة.(كذب) أخبر بخلاف الحقيقة قصدا.(اخلف) لم يف بوعده]

وعَنْ عَائشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ» رواه مسلم[٢٥٥].

فأهل الردة وأهل النفاق قد استبدلوا التحاكم إلى الكتاب والسنة بالتحاكم إلى عقولهم القاصرة الفاسدة،وأهوائهم واستحساناهم،حيث جعلوا عقولهم الفاسدة طاغوتا،يرجعون إليه عند التنازع والخلاف،وأصبح دأبهم في أقوالهم وكتاباهم وفي وسائل إعلامهم رد كلام الله تعالى بما تستحسنه عقولهم،والمجاهرة بالكفر والنفاق والطعن في دين الله تعالى،عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ،قَالَ:«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ اليَوْمَ شَرٌّ مِنْهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ،كَانُوا يَوْمَئِذٍ يُسِرُّونَ وَاليَوْمَ يَجْهَرُونَ» رواه البخاري[٢٥٦]

وعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:«إِنَّمَا كَانَ النِّفَاقُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ،فَأَمَّا اليَوْمَ فَإِنَّمَا هُوَ الكُفْرُ بَعْدَ الإِيمَانِ» رواه البخاري[٢٥٧].

فإن هؤلاء الذين يَدْعُون في وسائل الإعلام وغيرها إلى الرد عند التنازع إلى عقولهم الفاسدة واستحساناهم هم من جنس المكذبين بالرسل عليهم الصلاة والسلام،فيقال لهم أولا:إن الإسلام قد فطر الله تعالى العباد عليه،فلا يتعارض مع العقول السليمة،وقد تقدم الكلام في هذا،ويقال ثانيا:إن معارضتكم لأحكام الإسلام باستحساناتكم العقلية الفاسدة ينافي ما تزعمونه من الإيمان بكلام الله تبارك وتعالى وكلام رسوله ﷺ،كما قال تعالى:{ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ

---

[٢٥٥] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٤)٥ - (٢٦٦٨)

[ش (الألد) شديد الخصومة مأخوذ من لديدي الوادي وهما جانباه لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ في جانب آخر (الخصم) الحاذق بالخصومة والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق أو إثبات باطل]

[٢٥٦] - صحيح البخاري (٩/ ٥٨)(٧١١٣)

[٢٥٧] - صحيح البخاري (٩/ ٥٨)(٧١١٤)

الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)} [النور:٤٦ - ٥١].

وقال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) } [النساء:]

يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَدَّعِي الإِيمَانَ بِاللهِ،وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ،وَهُوَ مَعْ ذَلِكَ يُرِيدُ أنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَصْلِ الخُصُومَاتِ إلى غَيْرِ كِتَابِ اللهِ،وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ.

(وَقِيلَ:إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنْصَارِيٍّ وَيَهُودِيٍّ اخْتَلَفَا فِي شَيْءٍ،فَقَالَ اليَهُودِيُّ:بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ.وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ:بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ (وَهُوَ مِنْ كُبَرَاءِ اليَهُودِ) .وَيَذُمُّ اللهُ تَعَالَى الذِينَ يَعْدِلُونَ عَنْ شَرْعِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ،إلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ البَاطِلِ (وَهُوَ المُرَادُ هُنَا بِالطَّاغُوتِ)،وَقَدْ أُمِرُوا بِأَنْ يَكْفُرُوا بِهِ،وَبِحُكْمِ الجَاهِلِيَّةِ،وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْعُوهُمْ الى اتِّبَاعِهِ لِيُضِلَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَشَرْعِهِمْ وَهُدَى رَبِّهِمْ،وَيُبْعِدَهُمْ عَنْهَا.

وَإِذَا دُعِيَ هَؤُلاءِ - الذِينَ يَدَّعُونَ الإِيمَانَ،ثُمَّ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إلى الطَّاغُوتِ - إلى رَسُولِ اللهِ لِلتَّحَاكُمِ لَدَيْهِ،وِفْقاً لِمَا شَرَعَ اللهُ،اسْتَكْبَرُوا وَأَعْرَضُوا وَرَغِبُوا عَنْ حُكْمِ رَسُولِ اللهِ إعْرَاضاً مُتَعَمَّداً مِنْهُمْ.[٢٥٨]،والتحاكم إلى عقول الناس تحاكم إلى الطاغوت.

ألم تر إلى هذا العجب العاجب ..قوم ..يزعمون ..الإيمان.ثم يهدمون هذا الزعم في آن؟! قوم «يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ».ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر،وإلى منهج آخر،وإلى حكم آخر ..يريدون أن يتحاكموا إلى ..الطاغوت ..الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.ولا ضابط له ولا ميزان،مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ..ومن ثم فهو ..طاغوت ..طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية.وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضا!

---

[٢٥٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

وهم لا يفعلون هذا عن جهل،ولا عن ظن ..إنما هم يعلمون يقينا ويعرفون تماما،أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه:«وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» ..فليس في الأمر جهالة ولا ظن.بل هو العمد والقصد.

ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم.زعم أهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك! إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب ..

«وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً» ..فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادهم التحاكم إلى الطاغوت.وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادهم التحاكم إلى الطاغوت! هذا هو الدافع يكشفه لهم.لعلهم يتنبهون فيرجعوا.ويكشفه للجماعة المسلمة،لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك.

ويمضي السياق في وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله إلى الرسول وما أنزل من قبله ..ذلك الذي يزعمون أهم آمنوا به:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ،رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً».يا سبحان الله! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري ..وإلا ما كان نفاقا ...

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان،أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به،وإلى من آمن به.فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليه.ثم دعي إلى هذا الذي آمن به،ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية.فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية.ويكشف عن النفاق.وينبيء عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله – سبحانه – أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله.ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله.بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودا! ثم يعرض مظهرا من مظاهر النفاق في سلوكهم حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت.ومعاذيرهم عند ذلك.وهي معاذير النفاق:«فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ – بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ – ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ:إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» ..

وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة - يومذاك - حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء في الوسط المسلم.فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليه ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها ..إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان.وكل ما له من الإيمان زعم كزعم هؤلاء وكل ما له من الإسلام دعوى وأسماء! أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت في قضية من قضاياهم.أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم.لعلهم يتفكرون ويهتدون ..

وأياما كان سبب المصيبة فالنص القرآني،يسأل مستنكرا:فكيف يكون الحال حينئذ! كيف يعودون إلى الرسول - ﷺ -:«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» ...

إنها حال مخزية ..حين يعودون شاعرين بما فعلوا ...غير قادرين على مواجهة الرسول - ﷺ - بحقيقة دوافعهم.وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين:أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت - وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية - إلا رغبة في الإحسان والتوفيق! وهي دائما دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته:أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب،التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة ..إنها حجة الذين يزعمون الإيمان - وهم غير مؤمنين - وحجة المنافقين الملتوين ..هي هي دائما وفي كل حين![٢٥٩]

فحقيقة هؤلاء أنهم من جنس المكذبين بالرسل عليهم الصلاة والسلام،وقد ذكر الله تعالى في كتابه اعتراضات المكذبين باستحساناتهم وعقولهم الفاسدة علي أخبار الله تعالى وأحكامه،كقوله تعالى:{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)} [الفرقان:٧ - ٩]

---

[٢٥٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٣٨)

وَقَالَ هَؤُلاَءِ الكُفَّارُ،إمْعاناً فِي عِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ:إنَّ هَذَا الرَّسُولَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ مِثْلَمَا نَأْكُلُ،وَيَشْرَبُ كَمَا نَشْرَبُ،وَيَتَجَوَّلُ فِي الأَسْوَاقِ طَلَباً لِلتَّكَسُّبِ والتجارَةِ،فَكَيْفَ يُرِيدُنَا أَنْ نَصَدِّقَهُ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ وَهَلاَّ أَنْزَلَ اللهُ مَلَكاً مِنْ عِنْدِهِ،فَيَكُونَ شَاهِداً لَهُ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يَدَّعِيهِ؟

وَهَلاَّ أُنْزِلَ عَلَيْهِ عِلْمٌ عَنْ مَكَانِ كَنْزٍ يُنْفِقُ مِنْهُ،أو يَكُونُ لَهُ بُسْتَانٌ (جَنَّةٌ) يَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهِ،وَقَالَ الكَافِرُونَ،الظالِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ:إِنَّ مُحَمَّداً رَجُلٌ مَسْحُورٌ قَدْ أَثَّرَ فِيهِ السِّحْرُ فَهُوَ يَهْذِي وَيَخْلِطُ.

وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحَقِّقَ لِرَسُولِهِ جَمِيعَ مَا سَأَلُوهُ،وَقَالُوا لَهَ عَنْهُ،وَلَكِنْ،لَهُ الحِكْمَةُ فِي تَرْكِ ذَلِكَ،وَلَهُ الحُجَّةُ البالِغَةُ،لأَنَّهُ إنْ أجَابَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا ثُمَّ استَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ،دَمَّرَهُمُ اللهُ كَمَا دَمَّرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ.فَانْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيفَ عَلَيْكَ،وَكَيْفَ جَاؤُوا بِمَا يَقْذِفُونَكَ بِهِ،وَيَكْذِبُونَ بِهِ عَلَيْكَ،فاخْتَرَعُوا لَكَ صِفَاتٍ وَأَحْوَالاً بَعِيدَةً كُلَّ البُعْدِ عَنْ صِفَاتِكَ التي أنت عليها (وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ ساحِرٌ وَمَجْنُونٌ وَشَاعِرٌ وَمُغفْتَرٍ...) وَكُلُّهَا بَاطِلَةٌ،فَضَلُّوا عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ والهَدَى،وَصَارُوا حَائِرِينَ مُتَرَدِّدِينَ لاَ يَهْتَدُونَ إلى سَبِيلِ الرِّشَادِ،وَلاَ يَدرُونَ ما يَقُولُونَ فِيكَ.[260]

وقوله تعالى:{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة:١٤٢]

كَانَ النَّبيُّ ﷺ وَهُوَ فِي مَكَةَ يَسْتَقْبِلُ فِي صَلاَتِهِ الصَّخْرَةَ التي فِي بَيْتِ المَقْدِسِ،كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبلَهُ،وَلكنَّهُ كَانَ يُحبُّ استقْبَالَ الكَعْبَةِ،وَيَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ اللهَ حَوَّلَ القِبْلَةَ إِلَيها،وَلِذلكَ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ استِقْبَالِ الكَعْبَةِ وَبَيتِ المَقْدِسِ،فَيَقِفُ جَنُوبيَّ الكَعبَةِ مَسْتَقْبلاً الشِّمَالَ،فَتَكُونُ الكَعْبَةِ وَالصَّخْرَةُ فِي جِهةٍ وَاحِدَةٍ،وَتَابَعَ المُسْلِمُونَ نَبِيَّهِمْ فِي ذلكَ.وَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ إلى المَدِينَةِ تَعَذَّرَ عَلِيهِ الجَمْعُ بَينَ القِبلَتَينِ،فَصَلَّى مُستَقْبلاً بَيْتَ المَقْدِسِ،وَبَقِيَ عَلَى ذلكَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً.وَنَبَّه اللهُ رَسُولَهُ – وَقبلَ أَنْ يَقَعَ ذلكَ – إلى أَنَّ اليَهُودَ سَيَتَّخِذُونَ مِنْ ذلكَ التَّحَوُّلِ ذَرِيعةً لِلدَّسِّ والتَّشْكِيكِ لِلادِّعَاءِ بِأَنَّ دِينَهُمْ هُوَ الدِّينُ الحَقُّ،لأنَّ مُحَمَّداً وَصَحْبَهُ كَانُوا

[260] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٤٤،بترقيم الشاملة آليا)

اتَّجَهُوا إلى قِبْلَتهِمْ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ،فَمَا الذي صَرَفَهُمْ وَوَلاَّهُمْ عَنْ القِبْلَةِ التي كَانُوا عَلَيها؟ وَقَدْ تَأَثَّر بِذلِكَ المُنَافِقُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ وَمَرَضٌ - وَهؤُلاءِ جَميعاً هُمُ السُّفَهَاءُ الذينَ عَنَاهُمُ اللهُ تَعَالَى - فَقَالُوا:مَا وَلَّى المُسْلمينَ عَنْ قِبْلَتِهِمْ؟

وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى هؤلاءِ قَائلاً:إنَّ المَشْرِقَ وَالمَغْرِبَ للهِ وَلَهُ الأَمرُ كُلُّهُ،وَلا فَضْلَ لِجهَةٍ عَلَى جِهَةٍ،وَحيثُما تَوَجَّهَ المُؤْمِنُ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ،وَالمُهِمُّ أَنْ يَمْتثِلَ النَّاسُ لأَمرِ اللهِ مِنْ غَيرِ تَشَكُّكٍ،وَدُونَ ارتِيَابٍ،وَهُوَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى الصَّلاحِ وَالطَّرِيقِ المُستَقِيمِ المُوصِلِ إلى جَنَّةِ اللهِ تَعَالَى.[261]

وقوله تعالى:{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) } [الزخرف]

وَقَالُوا كَالمُعْتَرِضِينَ عَلَى اخْتِيَارِ اللهِ رَسُولَهُ الكَرِيمَ:إنَّ مَنْصِبَ الرِّسَالَةِ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ،فَلاَ يَلِيقُ إلاَّ بِرَجُلٍ شَرِيفٍ عَظِيمِ الجَاهِ كَثِيرِ الثَّرَاءِ مِنْ أَهْلِ مَكَةَ أَوْ مِنْ أهْلِ الطَّائِفِ (القَرْيَتينِ) لأَنَّ مُحَمَّداً لَيْسَ بِذَلِكَ الغَنِيِّ العَظِيمِ الجَاهِ،يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى المُشْرِكِينَ مَا قَالُوا رَدّاً عَلَى اعْتِرَاضِهِمْ هَذَا:إنَّ أَمْرَ اخْتِيَارِ الأَنْبِيَاءِ لَيْسَ مَرْدُوداً إِلَيْهِم حَتَّى يَقْتَرِحُوا عَلَى اللهِ مَنْ يَخْتَارُونَهُ هُمْ،وَلَكِنَّ الأَمْرَ للهِ،وَحْدَهُ،وَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه،فَهُوَ لاَ يُنَزِّلُهَا إلاَّ عَلَى أَزْكَى الخَلْقِ قَلْباً وَنَفْساً،وَأَشْرَفِهِمْ بَيْتاً،وَأَطْهَرِهِمْ أَصْلاً.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:إنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ العِبَادِ عَلَى بَعْضٍ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا:فِي القُوَّةِ والغِنَى وَالشُّهْرَةِ والنَّشَاطِ،لأَنَّهُ لَوْ سَوَّى بَيْنَهُمْ جَميعاً فِي شُرُوطِ الحَيَاةِ لَمْ يَخْدُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً،وَلَمْ يَسْتَخْدِمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحْداً،فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ فَسَادُ نِظَامِ الحَيَاةِ.وَرَحْمَةُ اللهِ بِخَلْقِه خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَجْمَعُونَهُ مِنَ الأَمْوَالِ،والمَتَاعِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا.[262]

،وقوله تعالى:{ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) } [يس]،وقوله تعالى:{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ

---

[261] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٩،بترقيم الشاملة آليا) -

[262] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٣٥،بترقيم الشاملة آليا)

لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) } [المدثر]،وقوله تعالى:{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢٧٥]،وقوله تعالى:{وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام:١٢١]،والآيات في هذا كثيرة.

ومن المنافقين من تظاهروا بهيئة الصالحين،وانتسبوا إلى الدعوة الإسلامية،ليهدموا الإسلام من الداخل بحججهم العقلية التي يردون بها نصوص الكتاب والسنة من علماء السوء أو ممن يسمون بالعصرانيين وغيرهم،عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ،قَالَ:إِنِّي لَجَالِسٌ تَحْتَ مِنْبَرِ عُمَرَ،وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ،فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ "[٢٦٣].

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:حَذَّرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ "[٢٦٤].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»،ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ:{مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف:٥٨]:" رواه أحمد والترمذي وابن ماجة[٢٦٥].

---

[٢٦٣] - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٣٩٩)(٣١٠) صحيح

[٢٦٤] - مسند البزار = البحر الزخار (١/ ٤٣٤)(٣٠٥) صحيح

[٢٦٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٣٧٨)(٣٢٥٣) وسنن ابن ماجه (١/ ١٩)(٤٨) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٤٩٣)(٢٢١٦٤) حسن

وقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ:«كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِجَدَلِه» اعتقاد أهل السنة للالكائي[266]

وعن ابْنِ الطَّبَّاعِ قالَ:جاءَ رَجُلٌ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فَسَأَلَهُ فَقَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَذَا.فَقَالَ:" أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ كَذَا؟ قَالَ مَالِكٌ:"{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور:٦٣] .قَالَ:فَقَالَ مَالِكٌ:«أَوَ كُلَّمَا جَاءَ رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنَ الْآخَرِ رَدَّ مَا أَنْزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» ؟[267]

وعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،قَالَ:قَالَ لِي عُمَرُ:«هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟» قَالَ:قُلْتُ:لَا،قَالَ:«يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ،وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ» رواه الدارمي في السنن.[268]

فبين رضي الله عنه أن الإسلام يهدمه زلة عالم،وهو العالم صحيح الاعتقاد يزل في مسألة من المسائل،وقوله " وجدال المنافق بالكتاب " فإن المنافق لا يؤمن بالقرآن،وإنما يجادل بالقرآن دفعا للمخالف،وليس طلبا للهداية واتباعا للقرآن،واستدلاله بالقرآن إما بتحريف الآيات عن معانيها،أو باتباع المتشابه،كما هو حال أهل الزيغ الذين قال الله عنهم:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [آل عمران:٧]

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الذي أَنْزَلَ القُرآنَ عَلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَانَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنْ جَعَلَ مِنْهُ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ مُحَدَّدَةَ المَعْنَى،بَيِّنَةَ المَقَاصِدِ،هِيَ الأَصْلُ وَإِليهَا المَرْجِعُ (أُمُّ الْكِتَابِ) .وَجَعَلَ مِنْهُ آيَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ،يَدِقُّ فَهْمُ مَعْنَاهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ،وَتَشْتَبِهُ عَلَى غَيْرِ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ.

فَيَأخُذُونَ المُتَشَابِهَ الذي يَسْتَطِعُونَ تَحْرِيفَهُ لِيَسْتَخْدِمُوهُ فِي الوُصُولِ إلى أغْرَاضِهِم الفَاسِدَةِ مِنْ إضْلاَلِ النَّاسِ لاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَصْرِفُونَهُ إِلَيْهِ.امَّا المُحْكَم فَإِنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِعُونَ الإِفَادَةَ مِنْهُ لأَنَّهُ دَامِغٌ لَهُمْ،وَحُجَّةٌ عَلَيهِم.

---

[266] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٦٣)(٢٩٣) صحيح

[267] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٦٣)(٢٩٤) صحيح

[268] - سنن الدارمي (١/ ٢٩٥)(٢٢٠) صحيح

امَّا الذينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ عَنِ الحَقِّ،فَإِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ المُتَشَابِهَ رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي إِثَارَةِ الفِتْنَةِ،وَيَسْتَعِينُونَ فِي ذَلِكَ بِمَا فِي غَرَائِزِ النَّاسِ وَطِبَاعِهِمْ مِنْ شَكٍّ فِيمَا لَمْ يَصِلْ إِليهِ عِلْمُهُمْ،وَلاَ يَنَالُهُ حِسُّهُمْ.كَالإِحْيَاءِ بَعْدَ المَوْتِ،وَجَمِيعِ شُؤُونِ العَالَمِ الآخَرِ.وَيَأْخُذُونَ المُتَشَابِهَ عَلَى ظَاهِرِهِ دُونَ نَظَرٍ إلى المُحْكَمِ،وَيَرْجِعُونَ فِي تَفْسِيرِ المُحْكَمِ إلى أَهْوَائِهِمْ،دُونَ نَظَرٍ إلى المُحْكَمِ،وَيَرْجِعُونَ فِي تَفْسِيرِ المُحْكَمِ إلى أَهْوَائِهِمْ،وَتَقَالِيدِهِمْ،لاَ إلى الأَصْلِ المُحْكَمِ الذي بُنِيَ عَلَيهِ الاعْتِقَادُ.وَتَأويلُ المُتَشَابِهِ مِنَ القُرَآنِ لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ،المُتَمَكِّنُونَ مِنْهُ.وَهَؤُلاءِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَرُدُّونَ المُتَشَابِهَ إلى المُحْكَمِ،وَيُؤْمِنُونَ بِهذَا وَهذا عَلَى حَقٌّ وَصِدْقٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَلاَ يُفَرِّقُونَ بَينَ مُحْكَمِ القُرَآنِ وَمُتَشَابِهِهِ.وَلاَ يَعْقِلُ ذَلِكَ وَلاَ يَفْهَمُهُ إلاّ أصْحَابُ العُقُولِ السَّلِيمَةِ التِي لاَ تَخْضَعُ لِتَأْثِيرِ الهَوَى والشَّهَوَاتِ.[٢٦٩]

فالمنافق يتبع المتشابه طلبا للفتنة،وأهل العلم والإيمان يردون المتشابه إلى المحكم لمعرفة معناه،قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ،أَيْ:بَيِّنَاتٌ وَاضِحَاتُ الدَّلَالَةِ،لَا الْتِبَاسَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ،وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخَرُ فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ،فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ،وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ،فَقَدِ اهْتَدَى.وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ؛وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:{هُوَ الَّذِي أَنزلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} أَيْ:أصله الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الاشْتِبَاهِ {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} أَيْ:تَحْتَمِلُ دَلَالَتُهَا مُوَافَقَةَ الْمُحْكَمِ،وَقَدْ تَحْتَمِلُ شَيْئًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَالتَّرْكِيبِ،لَا مِنْ حَيْثُ الْمُرَادِ.

وَقَد اخْتَلَفُوا فِي الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ،فَرُوِيَ عَنِ السَّلَفِ عِبَارَاتٌ كَثِيرَةٌ،فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [أَنَّهُ قَالَ] الْمُحْكَمَاتُ نَاسِخُهُ،وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ،وَحُدُودُهُ وَفَرَائِضُهُ،وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَيُعْمَلُ بِهِ.

وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ،وَمُجَاهِدٍ،وَقَتَادَةَ،وَالضَّحَّاكِ،ومُقاتل بْنِ حَيّان،وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ،والسُّدِّي أَنَّهُمْ قَالُوا:الْمُحْكَمُ الَّذِي يُعْمَلُ بِهِ.

---

[٢٦٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٠١،بترقيم الشاملة آليا)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ:الْمُحْكَمَاتُ [فِي] قَوْلِهِ تَعَالَى:{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [الْأَنْعَامِ:١٥١] وَالْآيَتَانِ بَعْدَهَا،وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ} [الْإِسْرَاءِ:٢٣] إِلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ بَعْدَهَا.رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ،وَحَكَاهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ [ثُمَّ] قَالَ:حَدَّثَنَا أَبِي،حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ،حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ،عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ سُوَيْدٍ أَنَّ يَحْيَى بْنَ يَعْمَرَ وَأَبَا فَاخِتَةَ تَرَاجَعَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ:{هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} فَقَالَ أَبُو فَاخِتَةَ:فَوَاتِحُ السُّوَرِ.وَقَالَ يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ:الْفَرَائِضُ،وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ،وَالْحَلَالُ وَالْحَرَامُ .

وَقَالَ ابْنُ لَهِيعَةَ،عَنْ عَطَاءِ بْنِ دِينَارٍ،عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ:{هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} يَقُولُ:أَصْلُ الْكِتَابِ،وَإِنَّمَا سَمَّاهُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ؛لِأَنَّهُنَّ مَكْتُوبَاتٌ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ.

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ:لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ أَهْلِ دِينٍ إِلَّا يَرْضَى بِهِنَّ.

وَقِيلَ فِي الْمُتَشَابِهَاتِ:إِنَّهُنَّ الْمَنْسُوخَةُ،وَالْمُقَدَّمُ مِنْهُ وَالْمُؤَخَّرُ،وَالْأَمْثَالُ فِيهِ وَالْأَقْسَامُ،وَمَا يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ.رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَقِيلَ:هِيَ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ،قَالَهُ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ:الْمُتَشَابِهَاتُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا.وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ:{كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} [الزُّمَرِ:٢٣] هُنَاكَ ذَكَرُوا:أَنَّ الْمُتَشَابِهَ هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يَكُونُ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ،وَالْمَثَانِي هُوَ الْكَلَامُ فِي شَيْئَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ كَصِفَةِ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ النَّارِ،وَذِكْرِ حَالِ الْأَبْرَارِ ثُمَّ حَالِ الْفُجَّارِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ فَأَمَّا هَاهُنَا فَالْمُتَشَابِهُ هُوَ الَّذِي يُقَابِلُ الْمُحْكَمَ.

وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ،وَهُوَ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ،رَحِمَهُ اللَّهُ،حَيْثُ قَالَ:{مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} فِيهِنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ،وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ،وَدَفْعُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ،لَيْسَ لَهُنَّ تَصْرِيفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وُضِعْنَ عَلَيْهِ.

قَالَ:وَالْمُتَشَابِهَاتُ فِي الصِّدْقِ،لَهُنَّ تَصْرِيفٌ وَتَحْرِيفٌ وَتَأْوِيلٌ،ابْتَلَى اللَّهُ فِيهِنَّ الْعِبَادَ،كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ أَلَّا يَصْرِفْنَ إِلَى الباطل،ولا يحرّفن عن الحق.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ} أَيْ:ضَلَالٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ {فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} أَيْ:إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِالْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُحَرِّفُوهُ إِلَى مَقَاصِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ،وَيُنْزِلُوهُ عَلَيْهَا،لِاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَصْرِفُونَهُ فَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ

فيه؛لِأَنَّهُ دَامِغٌ لَهُمْ وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ،وَلِهَذَا قَالَ:{ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ} أَيِ:الْإِضْلَالِ لِأَتْبَاعِهِمْ،إِيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى بِدْعَتِهِمْ بِالْقُرْآنِ،وَهَذَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ،كَمَا لَوِ احْتَجَّ النَّصَارَى بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَطَقَ بِأَنَّ عِيسَى هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ،وَتَرَكُوا الِاحْتِجَاجَ بِقَوْلِهِ [تَعَالَى]{إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} [الزُّخْرُفِ:٥٩] وَبِقَوْلِهِ:{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آلِ عِمْرَانَ:٥٩] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ الْمُصَرِّحَةِ بِأَنَّهُ خَلْقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ،وَعَبْدٌ،وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ.وَقَوْلُهُ:{وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} أَيْ:تَحْرِيفِهِ عَلَى مَا يُرِيدُونَ وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ:يَبْتَغُونَ أَنْ يَعْلَمُوا مَا يَكُونُ وَمَا عَوَاقِبُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُرْآنِ."[270]

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:تَلاَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ،مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ،وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} ،فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ،وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ،وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ،وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ:آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»[271]

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله في قوله تعالى:{ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ}:" مَعْنَاهُ إِرَادَةُ الشُّبُهَاتِ وَاللَّبْسِ،فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذًا:فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَيْلٌ عَنِ الْحَقِّ وَحَيْفٌ عَنْهُ،فَيَتَّبِعُونَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ مَا تَشَابَهَتْ أَلْفَاظُهُ،وَاحْتُمِلَ صَرْفُهُ فِي وُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ،بِاحْتِمَالِهِ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ إِرَادَةَ اللَّبْسِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ،احْتِجَاجًا بِهِ عَلَى بَاطِلِهِ الَّذِي مَالَ إِلَيْهِ قَلْبُهُ دُونَ الْحَقِّ الَّذِي أَبَانَهُ اللَّهُ فَأَوْضَحَهُ بِالْمُحْكَمَاتِ مِنْ آيِ كِتَابِهِ.وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِيمَنْ ذَكَرْنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ،فَإِنَّهُ مَعْنِيٌّ بِهَا كُلُّ مُبْتَدِعٍ فِي دِينِ اللَّهِ بِدْعَةً،فَمَالَ قَلْبُهُ إِلَيْهَا،تَأْوِيلًا مِنْهُ لِبَعْضِ مُتَشَابِهِ آيِ الْقُرْآنِ،ثُمَّ حَاجَّ بِهِ وَجَادَلَ بِهِ أَهْلَ الْحَقِّ،وَعَدَلَ عَنِ الْوَاضِحِ مِنْ أَدِلَّةِ آيِهِ

---

[270] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٦)

[271] - صحيح البخاري (٦/ ٣٤)(٤٥٤٧) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٣)١ - (٢٦٦٥)

(محكمات) مبينات مفصلات أحكمت عبارتها ووضحت وحفظت من احتمال التأويل والاشتباه.(أم الكتاب) أصل الكتاب والعمدة منه.(متشابهات) محتملات في معانيهن للتأويل.(ابتغاء) طلب.(الفتنة) أي يفتنوا الناس عن دينهم ويوقعوهم في الشك.(تأويله) تفسيره حسبما يشتهون.(سمى الله) أي ذكرهم في كتابه بأنهم في قلوبهم زيغ"

الْمُحْكَمَات إِرَادَةً مِنْهُ بِذَلِكَ اللَّبْسَ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَطَلَبًا لَعِلْمِ تَأْوِيلِ مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ،وَأَيَّ أَصْنَاف الْبِدْعَة كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّة كَانَ أَوِ الْيَهُودِيَّة أَوِ الْمَجُوسِيَّة،أَوْ كَانَ سَبَئِيًّا،أَوْ حَرُورِيًّا،أَوْ قَدَرِيًّا،أَوْ جَهْمِيًّا،كَالَّذِي قَالَ ﷺ:«فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ بِهِ فَهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»"[٢٧٢]

وأخرج ابن جرير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:وَذُكِرَ عِنْدَهُ الْخَوَارِجُ وَمَا يَلْقَوْنَ عِنْدَ الْفِرَارِ،فَقَالَ:" يُؤْمِنُونَ بِمُحْكَمِهِ،وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ:{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:٧] " الْآيَةَ" [٢٧٣]

وقد عزر عمر رضي الله عنه بالضرب صبيغ بن عسل لأنه كان يسأل عن متشابه القرآن،وأمر ألا يجالس.[٢٧٤]

وقول عمر رضي الله عنه "وحكم الأئمة المضلين" أي الأمراء من أهل الضلال،الذين إذا استولوا على البلاد أفسدوا فيها،وأضلوا الناس،وصدوهم عن الإسلام،قال ابن أبي العزالحنفي رحمه الله:" فَالْمُلُوكُ الْجَائِرَةُ يَعْتَرِضُونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالسِّيَاسَاتِ الْجَائِرَةِ،وَيُعَارِضُونَهَا بِهَا،وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.وَأَحْبَارُ السُّوءِ،وَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْخَارِجُونَ عَنِ الشَّرِيعَةِ بِآرَائِهِمْ وَأَقْيِسَتِهِمُ الْفَاسِدَةِ،الْمُتَضَمِّنَةِ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَتَحْرِيمَ مَا أَبَاحَهُ،وَاعْتِبَارَ مَا أَلْغَاهُ،وَإِلْغَاءَ مَا اعْتَبَرَهُ،وَإِطْلَاقَ مَا قَيَّدَهُ،وَتَقْيِيدَ مَا أَطْلَقَهُ،وَنَحْوُ ذَلِكَ.وَالرُّهْبَانُ وَهُمْ جُهَّالُ الْمُتَصَوِّفَةِ،الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالشَّرْعِ،بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِيدِ وَالْخَيَالَاتِ وَالْكُشُوفَاتِ الْبَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ،الْمُتَضَمِّنَةِ شَرْعَ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ،وَإِبْطَالَ دِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ،وَالتَّعَوُّضَ عَنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ بِخُدَعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ.فَقَالَ الْأَوَّلُونَ:إِذَا تَعَارَضَتِ

---

[٢٧٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٢١٣)

[٢٧٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٢١٤) صحيح

[٢٧٤] - عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يُقَالُ لَهُ:صَبِيغُ بْنُ عِسْلٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ كُتُبٌ ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَبَعَثَ لَهُ ، وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ جَلَسَ فَقَالَ لَهُ:" مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:أَنَا صَبِيغٌ ، فَقَالَ عُمَرُ:وَأَنَا عُمَرُ عَبْدُ اللَّهِ ، ثُمَّ أَهْوَى إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِتِلْكَ الْعَرَاجِينِ حَتَّى شَجَّهُ ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَقَالَ:حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ وَاللَّهِ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ فِي رَأْسِي "الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٦١٠)(٧٨٩) صحيح

السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ! وَقَالَ الْآخَرُونَ:إذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا الْعَقْلَ! وَقَالَ أَصْحَابُ الذَّوْقِ:إذَا تَعَارَضَ الذَّوْقُ وَالْكَشْفُ،وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمْنَا الذَّوْقَ وَالْكَشْفَ."[٢٧٥]

وأما المؤمنون بالله تبارك وتعالى،الذين يؤمنون بأن الله تعالى {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } [طه:٩٨]،وأنه {أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}،وأنه {خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}،وأنه تبارك وتعالى {خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}،وأنه {أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}،وأن أحكامه تبارك وتعالى مشتملة على العلم والحكمة والرحمة والعدل،فلا يعارضون أحكامه بآرائهم وعقولهم القاصرة،أو بشبهة أو شهوة،بل ينقادون لأمر الله ظاهرا وباطنا،ويقولون كما أخبر الله تعالى عنهم:{وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة:٢٨٥]،وقال تعالى:{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [النور:٥١].

فإن أحكام الله تعالى كلها حق وعدل،وما خالفها فهو كفر وظلم،وقد قال تعالى:{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة:٥٠]،وقال تعالى:{ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ } [البقرة:١٣٨]،وقال تعالى:{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)} [الإسراء:٩،١٠]

فالقرآن يهدي للتي هي أقوم وأعدل وأصوب في جميع الأقوال والأعمال والسياسات وشؤون الحياة،

" إنه يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور،بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض،والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة،وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء،وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه،وبين مشاعره وسلوكه،وبين عقيدته وعمله،فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم،متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض،وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله،ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة.

---

[٢٧٥] - شرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (ص:١٧٢)

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة،فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء.ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار.ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض:أفرادا وأزواجا،وحكومات وشعوبا،ودولا وأجناسا،ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ولا تميل مع المودة والشنآن ولا تصرفها المصالح والأغراض.الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه،وهو أعلم بمن خلق،وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل،فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها،وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام."[٢٧٦]

ومن ظن ولو في مسألة واحدة أن في أحكام الله تعالى حيف فقد كفر بالله تعالى،وقد قال تعالى:{ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)} [النور:٤٧ - ٥٠]

" إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك.والإسلام عقيدة متحركة،لا تطيق السلبية.فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخارج ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع.ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون.مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة،لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل.

---

[٢٧٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨٩١)

وهؤلاء كانوا يقولون:«آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا» ..يقولونها بأفواههم،ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم.فيتولون ناكصين يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان:«وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم.والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ثم يدعها ويمضي.إنما هو تكيف في النفس،وانطباع في القلب،وعمل في الواقع،ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير ..ولقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان يخالفون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله – ﷺ – على شريعة الله التي جاء بها:«وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ.وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ» .. فلقد كانوا يعلمون أن حكم الله ورسوله لا يحيد عن الحق،ولا ينحرف مع الهوى،ولا يتأثر بالمودة والشنآن.وهذا الفريق من الناس لا يريد الحق ولا يطيق العدل.ومن ثم كانوا يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله – ﷺ – ويأبون أن يجيئوا إليه.فأما إذا كانوا أصحاب حق في قضية فهم يسارعون إلى تحكيم رسول الله،راضين خاضعين،لأنهم واثقون أنه سيقضي لهم بحقهم،وفق شريعة الله،التي لا تظلم ولا تبخس الحقوق.

هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان،ثم يسلك هذا السلوك الملتوي،إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان.المنافقين الذي لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر،فيتظاهرون بالإسلام.ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله،ولا أن يحكم فيهم قانونه،فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير «وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» فما يستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله.إلا أن تكون لهم مصلحة في أن يتحاكموا إلى شريعة الله أو يحكموا قانونه! إن الرضى بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق.وهو المظهر الذي ينبئ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب.وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله.وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيّئ الأدب معتم،لم يتأدب بأدب الإسلام،و لم يشرق قلبه بنور الإيمان.

ومن ثم يعقب على فعلتهم هذه بأسئلة تثبت مرض قلوبهم،وتتعجب من ريبتهم،وتستنكر تصرفهم الغريب:«أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؟ أَمِ ارْتابُوا؟ أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ؟ » ..

والسؤال الأول للإثبات.فمرض القلب جدير بأن ينشئ مثل هذا الأثر.وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة.إنما هو المرض الذي تختل به فطرته عن استقامتها،فلا تتذوق حقيقة الإيمان،ولا تسير على نهجه القويم.

والسؤال الثاني للتعجب.فهل هم يشكون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان؟ هل هم يشكون في مجيئه من عند الله؟ أو هم يشكون في صلاحيته لإقامة العدل؟ على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين! والسؤال الثالث للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب.فهل هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟

وإنه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان.فالله خالق الجميع ورب الجميع.فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه؟

إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف.لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحدا.وكل خلقه أمامه سواء،فلا يظلم أحدا منهم لمصلحة أحد.وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف.فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم.أفرادا كانوا أم طبقة أم دولة.وحين يشرع فرد ويحكم فلا بد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه.وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة،وحين تشرع دولة لدولة.أو كتلة من الدول لكتلة ..فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة.إنما هي العدالة المطلقة،التي لا يطيقها تشريع غير تشريع الله،ولا يحققها حكم غير حكمه.من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون،الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر ولا يحبون للحق أن يسود.فهم لا يخشون في حكم الله حيفا،ولا يرتابون في عدالته أصلا «بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» ..

فأما المؤمنون حقا فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله.ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم هو القول الذي يليق بالمؤمنين وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور:«إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا:سَمِعْنا وَأَطَعْنا.وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف.السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى النابعان من التسليم المطلق لله،واهب الحياة،المتصرف فيها كيف يشاء ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم.فالله الذي خلق أعلم بمن خلق ..

«وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ..المفلحون لأن الله هو الذي يدبر أمورهم،وينظم علاقاتهم،ويحكم بينهم بعلمه وعدله فلا بد أن يكونوا خيرا ممن يدبر أمورهم،وينظم علاقاتهم،ويحكم بينهم بشر مثلهم،قاصرون لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ..والمفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد،لا عوج فيه ولا التواء،مطمئنون إلى هذا المنهج،ماضون فيه لا يتخبطون،فلا تتوزع طاقاتهم،ولا يمزقهم الهوى كل ممزق،ولا تقودهم الشهوات والأهواء.والنهج الإلهي أمامهم واضح مستقيم."[٢٧٧]

فمن أوصاف المنافقين الذين نفى الله تعالى عنهم الإيمان في هذه الآيات ظنهم الحيف في حكم الله تعالى ورسوله ﷺ.

ضلال وحيرة الكفار والمنافقين:

أرشد الله تعالى عباده إلى تدبر القرآن فقال تعالى:{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } [النساء:٨٢]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى هَؤُلاءِ المُنَافِقِينَ بَأنْ يَتَدَبَّروا مَعَانِيَ القُرْآنِ،وَيَتَفَهَّمُوا مَا فِيهِ مِنْ إحْكَامٍ وَبَلاَغَةٍ،وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ،لَعَلِمُوا أنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ،وَأنَّ مَا وَعَدَ بِهِ اللهُ المُتَّقِينَ الصَّادِقِينَ وَمَا أنْذَرَ بِهِ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ،وَاقِعٌ لاَ مَحَالَةَ.وَيُخْبِرُهُمْ بِأنَّهُ لاَ اخْتِلاَفَ فِيهِ،وَلاَ اضْطِرَابَ،وَلاَ تَعَارُضَ،لأنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ،وَلَوْ كَانَ مُنْزَلاً مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَمَا خَلاَ مِنِ اخْتِلافٍ وَتَعَارُضٍ،لأنَّهُ يَكُونُ مِنْ عَمَلِ المَخْلُوقَاتِ،وَعَمَلُ المَخْلُوقَاتِ لاَ يَخْلُو مِنَ الاخْتِلافِ وَالتَّنَاقُضِ.[٢٧٨]

---

[٢٧٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٢٥٨)

[٢٧٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٥،بترقيم الشاملة آليا)

وبين تعالى أن القرآن ليس فيه تناقض وتفاوت وتعارض،لأنه من عند الله تبارك وتعـــالى،ولو كان من عند غير الله كما يزعم المشركون المفترون لوجدوا فيه تناقضا واختلافا كثيرا.
فالقرآن لا تتناقض ولا تتعارض أحكامه وأخباره،فأحكامـــه كلـــها عـــدل،وأخباره كلـــها صدق،فهي مطابقـــة للواقـــع،ولا يزيـــدها مـــرور الأوقـــات والاكتشـــافات العلميـــة إلا تصديقا،وبعكس ذلك من يكذب في أخباره،ويتكلم بمجرد الخرص والظن،فإن ما افتراه لا بد أن يظهر وينجلي لتناقضه ومصادمته للواقع.
والآية تدل على أن الباطل كثير الاختلاف والتشعب،وهذا دليل على فساده وضـــلال أهلـــه وحيرتهم،ولهذا يفرد الله تعالى سبيله إذا ذكره في كتابه ويعدد سبل الضلالة لكثرتها واختلافها.
فكل من كذب بالحق فهو في ضلال وحيرة واضطراب،كما قال تعالى:{ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ } [ق:٥]،أي مختلف وملتبس ومضطرب
لَقَدْ كَذَّبُوا بِالنُّبُوَّة الثَّابِتَة بِالأدِلَّة وَالآيات مِنْ فَوْرِهم،دُونَ تَفَكُّرٍ وَلا تَدَبُّرٍ،وَمَنْ كَذَّبَ بِـــالنُّبُوَّة فَقَدْ كَذَّبَ بِمَا أَنْبَأ به النَّبيُّ مِنَ البَعْثِ والنَّشُورِ،فَهُم في قَلَـــقَ وأمْرٍ،مُضْـــطَرِبٍ،فَتَارَةً يَنْفُـــونَ الرِّسَالةَ عَنِ البَشَرِ،وَأخْرى يَقُولُونَ إنَّها سِحْرٌ وَكِهَانةٌ.[279]
وكما قال تعالى:{ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) } [الذاريات]
لَقَدْ أقسَمَ تَعَالى عَلَى أنَّكُمْ يَا أيُّها المُشْرِكُونَ المُكَذِّبون للرُّسُلِ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ مُضْـــطَرِبٍ،لا يَلْتَئِمُ وَلاَ يَجْتَمِعُ،وَلاَ يَثْبُتُ ولا يَسْتَقِرُّ،وَلا يُروجُ إلا عَلَى ضَالٍّ لأنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ.وَإنَّ هذا القَوْلَ المُخْتَلِفَ،يُصْرَفُ عَنْهُ مَنْ صُرِفَ،وَيَبْقَى مَنْ بَقِيَ،فَلا اسقرارَ عَليه،وَلاَ تَوَافُقَ،وَلا ثَبَاتَ.[280]
وقال تعالى:{قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:٧١]
قَالَ المُشْرِكُونَ لِلْمُسْلمِينَ اتْرُكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ وَاتَّبِعُوا سَبِيلَنَا،فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذه الآيَةَ.وَفِيهَـــا يَقُولُ لِرَسُولِه ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ أنْ يَرُدُّوا عَلَى هَؤُلاءِ الدَّاعِينَ مُوَبِّخِينَ:هَلْ يَصِحُّ أنْ نَعْبُـــدَ غَيْـــرِ

[279] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥١٤،بترقيم الشاملة آليا)
[280] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٦٢،بترقيم الشاملة آليا)

اللهِ،ممَّا لاَ يَمْلكُ جَلْبَ نَفْعٍ،وَلاَ دَفْعَ ضُرٍّ،وَنَنْتكسَ فِي الشِّرْك،بَعْدَ أَنْ هَدَانَا اللهُ إِلَى الإِيمَان،فَيَكُونَ مثْلَنَا مثْلَ رَجُلٍ خَرَجَ مَعْ قَوْمٍ عَلَى طَرِيقٍ،فَضَلَّ الطَّرِيقَ،فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينَ وَاسْتَهْوَتْهُ فِي الأَرْضِ،وَأَصْحَابه عَلَى الطَّرِيقِ فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ لَهُ:ائْتنا،فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيق،فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ.فَذَلكَ مَثَلُ مَنْ يَتَّبعُ هَؤُلاَءِ الكُفَّار،بَعْدَ أَنْ عَرَفَ دِينَ مُحَمَّد ﷺ.وَمُحَمَّدُ هُوَ الذي يَدْعُو إِلَى الطَّرِيق،وَالطَّرِيقُ هُوَ الإِسْلاَمُ.وَقُلْ لَهُمْ:إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهُدَى،وَمَنْ يَهْد اللهُ فَلاَ مُضلَّ لَهُ،وَإِنَّنَا أُمرْنَا بإِخْلاص العبَادَة لله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ.[٢٨١]

وقال تعالى عن المنافقين:{مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا } [النساء:١٤٣]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" يَعْنِي:الْمُنَافِقِينَ مُحَيَّرِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ،فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا،وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا،بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ.وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الشَّكُّ،فَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ،وَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى أُولَئِكَ {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا} الْآيَةَ [الْبَقَرَةِ:٢٠][٢٨٢] .

فالمُنَافقُونَ مُحَيَّرُونَ بَيْنَ الإِيمَان وَبَيْنَ الكُفْر،فَلاَ هُمْ مَعَ المُؤْمنينَ،ظَاهراً وَبَاطناً،وَلاَ هُمْ مَعَ الكَافرِينَ،وَمنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيه الشَّكُّ،فَتَارَةً يَميلُ إِلَى هَؤُلاَء،وَتَارَةً يَميلُ إِلَى أُوْلَئكَ.وَمَنْ صَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ الهُدَى،فَلَنْ تَجدَ لَهُ مُنْقذاً وَلاَ مُرْشداً،فَإِنَّهُ تَعَالَى لاَ مُعَقِّبَ عَلَى حُكْمه،وَلاَ يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ،وَهُمْ يُسْأَلُونَ.[٢٨٣]

وقال تعالى:{ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة:٢٠]

يَكَادُ بَرْقُ الإِيمَان يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ لشدَّة ضَوْئه،فَكُلَّما ظَهَرَ لَهُمْ شَيْءٌ منَ الإِيمَان،اسْتَأْنَسُوا به واتَّبَعُوهُ،ثُمَّ تَعْرِضُ لَهُمُ الشُّكُوكُ فَتُظْلمُ نُفُوسُهُمْ،وَيَقفُونَ حَائرِينَ مُتَرَدِّدينَ.وَكَذَلكَ يَكُونُ حَالُ المُنَافقينَ مُتَفَاوِتينَ فِي الدَّرَجَة يَوْمَ القيَامَة.وَلَو شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ،لمَا تَرَكُوا

---

[٢٨١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٨٦١،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٨٢] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٤٣٩)

[٢٨٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

مِنَ الحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ،وَاللهُ وَاسِعُ القُدْرَةِ،إذا أَرَادَ شَيَئاً فَعَلَهُ،ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ أَبَداً فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ.[٢٨٤]

أي وقفوا حائرين،فهؤلاء الحيارى الضلال لا يعقلون،وفي تيههم يتخبطون،والعجب أنهم يدعون لأنفسهم العقل والذكاء،وهم في ظلمات الكفر والشك حائرون،فلا يميزون الحق من الباطل،فالحسن ما تستحسنه عقولهم،والقبيح ما تستقبحه عقولهم المتناقضة المختلفة،ولا يبصر العبد الحقائق،وينجلي له الحق من الباطل،ويخرج من تيه الظلمات إلا بنور الوحي،ولا يحيى بعد أن كان ميتا بسبب كفره إلا بالإيمان،كما قال تعالى:{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام:١٢٢]

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ الذي كَانَ مَيْتاً فِي الكُفْرِ وَالضَّلاَلِ فَأَحْيَا اللهُ قَلْبَهُ بالإِيمَانِ،وَهَدَاهُ وَوَفَّقَهُ إِلَى اتِّبَاعِ رُسُلِهِ،وَجَعَلَ لَهُ نُوراً يَهْتَدِي بِهِ كَيْفَ يَسِيرُ،وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ وَالنُّورُ هُوَ القُرْآنُ وَالإِسْلاَمُ.وَيَقُولُ تَعَالَى هُلْ يَسْتَوِي المُهْتَدِي السَّائِرُ عَلَى هُدَى وَبَصِيرَةٍ،مَعَ الضَّالِّ السَّائِرِ فِي ظُلُمَاتِ الكُفْرِ وَالجَهَالَةِ وَالضَّلاَلِ،وَلاَ يَهْتَدِي إِلَى مَنْفَذٍ يَسْتَطِيعُ مِنْهُ الخُرُوجَ مِمَّا هُوَ فِيهِ؟

وَكَمَا زَيَّنَ اللهُ الإِيَمَانَ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الإِيمَانِ،كَذَلِكَ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِهَؤُلاَءِ الضَّالِينَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الجَهَالَةِ وَالضَّلاَلِ،وَذَبْحِ القَرَابِينِ لِغَيْرِ اللهِ،وَتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ بِمِثْلِ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ المُتَقَدِّمِ ذِكرُهَا.[٢٨٥]

روى بن جرير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} يَعْنِي:مَنْ كَانَ كَافِرًا فَهَدَيْنَاهُ،{وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [الأنعام:١٢٢] يَعْنِي بِالنُّورِ:الْقُرْآنَ،مَنْ صَدَّقَ بِهِ وَعَمِلَ بِهِ،{كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ} [الأنعام:١٢٢] يَعْنِي بِالظُّلُمَاتِ:الْكُفْرَ وَالضَّلَالَةَ"[٢٨٦]

---

[٢٨٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٨٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩١٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٨٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٥٣٥) حسن

وأخرج عبد بن حميد وغيره عَنْ قَتَادَةَ:{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} :" هَذَا الْمُؤْمِنُ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَبَيِّنَةٌ يَعْمَلُ بِهَا وَيَأْخُذُ وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي:كِتَابُ اللَّهِ.{كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام:١٢٢] :وَهَذَا مَثَلُ الْكَافِرِ فِي الضَّلَالَةِ مُتَحَيِّرٌ فِيهَا مُتَسَكِّعٌ،لَا يَجِدُ مَخْرَجًا وَلَا مَنْفَذًا"[٢٨٧]

وعَنْ قَتَادَةَ ،قَوْلَهُ:{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} هَذَا الْمُؤْمِنُ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ بَيِّنَةٌ بِهَا يَعْمَلُ وَبِهَا يَأْخُذُ وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ"[٢٨٨]

وقال تعالى:{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الملك:٢٢]

وَهَذَا مَثَلٌ يَضْرِبُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ وَالكَافِرِ،فَالكَافِرُ مَثَلُهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ كَمَثَلِ مَنْ يَمْشِي مُنْحَنِياً يَتَعَثَّرُ فِي طَرِيقِهِ،وَيَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ لِتَوَعُّرِ طَرِيقِهِ،لاَ يَعْرِفُ أَيْنَ يَسْلُكُ،وَلاَ كَيْفَ يَذْهَبُ،وَالمُؤْمِنُ مَثَلُهُ كَمَثَلِ مَنْ يَمْشِي مُنْتَصِبَ القَامَةِ،مُسْتَوِياً،فَهُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ مَسْلَكِهِ،وَعَلَى هُدًى مِنْ طَرِيقِهِ،فَكَمَا أَنَّهُ لاَ يَسْتَوِي الذِي يَسِيرُ مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ،مَعَ مَنْ يَسِيرُ مُنْتَصِبَ القَامَةِ،كَذَلِكَ لاَ يَسْتَوِي المُؤْمِنُ،الذِي يَكُونُ عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ،مَعَ الكَافِرِ،الذِي ضَلَّ طَرِيقَ الهُدَى وَالرَّشَادِ.[٢٨٩]

وقال تعالى:{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢٥٧] وغيرها من الآيات.

اللهُ وَلِيُّ الذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ،فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ والشَّكِّ وَالرَّيبِ إلى نُورِ الحَقِّ الوَاضِحِ.وَالمُؤْمِنُ لاَ وَلِيَّ لَهُ،وَلاَ سُلْطَانَ لأَحَدٍ عَلَى اعْتِقَادِهِ إلاَّ اللهُ تَعَالَى.أَمَّا الذِينَ كَفَرُوا فَوَلِيُّهُمُ الشَّيْطَانُ،يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ وَالجَهَالَةِ،وَيُخْرِجَهُمْ عَنْ طُرِيقِ الحَقِّ

---

[٢٨٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٥٣٥) صحيح

[٢٨٨] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١٣٨٢)(٧٨٥٩) صحيح

[٢٨٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١٤١،بترقيم الشاملة آليا)

وَنُوره،إلى الكُفْرِ وَظُلُمَاته،وَيُؤدِّي بِهِمْ إلى نَارِ جَهَنَّمَ لِيَبْقَوا فِيها خَالِدِينَ أَبَداً.وَالنُّورُ هُوَ الحَقُّ،وَالحَقُّ وَاحِدٌ،أَمَّا الظُّلُمَاتُ وَهِيَ الكُفْرُ فَهِيَ أَجْنَاسٌ.[290]

لقد خلق الله تعالى للكفار والمنافقين السمع ليسمعوا به آياته تبارك وتعالى والمواعظ،وخلق لهم الأبصار ليبصروا بها آياته،وخلق لهم أفئدة ليعقلوا بها ما فيه صلاحهم ونفعهم،ولكنهم لم يستعملوا ما أعطاهم الله تعالى في طاعته،وإنما استعملوها في الجحد بآيات الله،كما قال تعالى:{وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [الأحقاف:٢٦]

وَقَدْ مَكنَّا لِقَومِ عَادٍ فِي الدُّنيا فِيمَا لَمْ نُمَكِّنْكُمْ فيهِ،وَأَعْطَينَاهُمْ مَا لَمْ نُعْطِكُم مِثْلَهُ،وَلاَ قَرِيباً مِنْهُ،مِنَ الأَمْوالِ الكَثِيرَة،وَالأَولادِ،وَبَسْطَةِ الأَجْسَامِ،وَقُوَّةِ الأَبدَانِ،وَجَعَلْنا لَهُمْ أَسْماعاً وَأَبْصَاراً،فَلَم يَسْتَعْمِلُوا شَيئاً مِنْ أَسْماعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وأَفْئِدَتِهِمْ فِيما خُلِقَتْ لَهُ،وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بها في الاهتداءِ إلى وُجودِ الخالِقِ وَوحْدَانيتِه،وَقُدْرَتِه العَظِيمَةِ عَلَى الخَلْقِ،لأَنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ رُسُلَ اللهِ،وَيُنْكِرُونَ آياتِهِ فَأَنزَلَ اللهُ تَعالى بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ عَلَيهِم،وَأَحَاطَ بِهِم العَذَابُ الذي كَانُوا يَسْتَهزِئُونَ بِهِ،وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ بِهِمْ،فَاستَعْجلُوهُ.فَلْيَحْذَرْ مُشْرِكُو مَكَّةَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِقَوْمِ عَادٍ،إذا استَمَرَوُا عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ.[291]

فدلت الآية على أن الكفار من النصارى واليهود وغيرهم من سائر الملل الكافرة والمرتدين والمنافقين الذين يجحدون بآيات الله تعالى أنهم لم ينتفعوا بما جعل الله لهم من السمع والأبصار والأفئدة،وقال تعالى:{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:١٧٩]

لَقَدْ خَلَقْنَا كَثِيراً مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ لِيَكُونُوا وَقُوداً لِجَهَنَّمَ،لأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَ أَهْلِهَا،وَلاَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيءٍ مِنْ جَوَارِحِهِمْ التِي جَعَلَها اللهُ سَبِيلاً لِلْهِدَايَةِ،فَلاَ يَسْمَعُونَ الحَقَّ بِآذَانِهِم،وَلا يَفْقَهُونَهُ

[290] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

[291] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤١٥،بترقيم الشاملة آليا)

بِقُلُوبِهِمْ،وَلا يَرَوْنَ النُّورَ بِعُيُونِهِمْ،فَهُمْ كَالبَهَائِمِ وَالأَنْعَامِ السَّارِحَةِ،لاَ تَنْتَفِعُ بِحَوَاسِّهَا إلا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَعَاشِهَا وَبَقَائِهَا،أَوْ هُمْ شَرٌّ مِنَ الدَّوَابِّ وَأَكْثَرُ ضَلالاً،لأَنَّ الدَّوَابَّ قَدْ تَسْتَجِيبُ لِراعيها إذا أنسَتْ بِهِ،وَإِنْ لَمْ تَفْقَهْ كَلاَمَهُ،بخلاف هَؤُلاءِ.ولأنَّ الدَّوَابَّ تَفْعَلُ مَا خُلِقَتْ لَهُ،إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا.أَمَّا الكَافِرُونَ فِإِنَّهُمْ خُلِقُوا لِيَعْبُدُوا اللهَ وَيُوَحِّدُ هُ،فَكَفَرُوا بِاللهِ،وَأشْرَكُوا بِهِ فَهُمُ الغَافِلُونَ.[292]

وقال تعالى:{ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)} [الفرقان]

انْظُرْ إلى حَالِ الذي جَعَلَ هَوَاهُ إلهَهُ،بأَنْ أطَاعَهُ وبَنَى عليه أمرَ دِينِه،وأعْرَضَ عن استماع الحَقِّ،والحُجَجِ،والبَراهينِ الواضِحَةِ الدَّالَّة على وَحْدَانِيَّةِ اللهِ،وعظيمِ قُدْرَتِه،واعْجَبْ مِنْهُ،ولا تَعْبَأْ بِهِ فإنَّكَ لستَ حَفيظاً عليه،وليسَ عَلَيْكَ هُدَاهُ،وإِنّما عَليكَ إبلاغُهُ الرِّسَالَةَ،ثُمّ إنْ شَاءَ اللهُ هَدَاه،وإنْ شَاءَ أضَلَّهُ.

هَلْ تَظُنُّ يا محمدُ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ يَسمَعُون أو يَعْقلونَ؟ إنهم في الحَقيقَةِ لا يَسْمعُونَ حقَّ السَّماعِ،ولا يُدْرِكُون حقَّ الإِدْرَاكِ ولا يفْهَمُونَ فَهْما صَحيحاً ما تَتْلُوه عليْهِمْ مِنَ الآياتِ والمواعظِ الداعِيَةِ إلى الإيمانِ وإلى الخَيْرِ،حَتَّى تَجْتَهِدَ في دَعْوَتِهِمْ،وتَحْفِلَ بإرشَادِهِمْ،وتذكيرِهِمْ،وتَطْمَعَ في إيمَانِهِمْ،فَهُمْ أَسْوَأُ من الأنْعَامِ السَّارِحَةِ،وأضَلُّ سَبيلاً،لأنَّ الأنْعَامَ السَّارِحَةَ تنقَادُ لصَاحِبِها الذي يَتَعَهَّدُهَا،وتعرفُ مَنْ يُحْسِنُ إليها ومن يُسيءُ،وتطلبُ ما يَنفَعُها،وتَجتنبُ ما يَضرُّها،وتَهتدي لِمَرْعَاها ومَشْرَبِها.أما هؤلاءِ المُشركونَ فإنهمْ لا يَنْقادُونَ لِخَالِقِهِمْ وبارِئِهم،ولا يَعْرِفُونَ إحْسَانَهُ إليهم،ولا يعْرِفُونَ إساءَةَ الشيطانِ وعَدَاوتَهُ لَهُم،وهوَ الذي يزيِّنُ لهمُ الكُفْرَ واتِّباعَ الشَّهَوات.[293]

وقال تعالى:{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج:٤٦]

---

[292] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

[293] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٨٠،بترقيم الشاملة آليا)

إن إن مصارع الغابرين حيالهم شاخصة موحية،تتحدث بالعبر،وتنطق بالعظات ..«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» فيروها فتوحي لهم بالعبرة؟ وتنطق لهم بلسانها البليغ؟ وتحدثهم بما تنطوي عليه من عبر؟ «فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها» فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تتبدل.«أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها» فتسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهدمة والآبـــار المعطلة والقصور الموحشة؟.أفلم تكن لهم قلوب؟ فإنهم يـــرون ولا يدركون،ويســـمعون ولا يعتبرون «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»!

ويمعن في تحديد مواضع القلوب:«الَّتِي فِي الصُّدُورِ» زيادة في التوكيد،وزيادة في إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التحديد! ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى،وجاشت بالعبرة،وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة في مصارع الغابرين،وهي حولهم كثير..[٢٩٤]

وقال تعالى:{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة:١٧١]

وَمَثَلُ الذينَ كَفَرُوا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الغَيِّ والضَّلاَلِ،وَالجَهْلِ وَتَقْلِيدِ الآبَـــاءِ والرُّؤَسَـــاءِ،كَمَثَلِ الدَّوَابِّ السَّارِحَةِ التي لاَ تَفْقَهُ شَيْئاً مِمَّا يُقَالُ لَهَا،فَإِذَا نَعَـــقَ فِيهـــا رَاعِيهـــا فَإِنَّهـــا تَسْـــمَعُ صَوْتَهُ،وَلكِنَّها لاَ تَفْقَهُ مَا يَقُولُ وَلاَ تَفْهَمُهُ،فَهُمْ صُمٌّ عَنْ سَـــمَاعِ الحَـــقِّ،وَبُكْمٌ لاَ يَتَفَوَّهُـــونَ بِهِ،وَعُمْيٌ عَنْ رُؤْيَةِ طَرِيقِهِ وَمَسْلَكِهِ،لاَ يَعْقِلُونَ شَيئاً وَلاَ يَفْهَمُونَ.[٢٩٥]

وقال تعالى:{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)} [الملك:١٠،١١]

وَقَالُوا مُبْدِينَ أَسَفَهُمْ وَنَدَمَهُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ،فِي وَقْتٍ لاَ يَنْفَعُ فِيهِ النَّدَمُ:لَوْ كَانَتْ لَنَا آذَانٌ تَسْمَعُ،أَوْ عُقُولٌ تُدْرِكُ،وَنَعِي بِهَا مَا أَنْزَلَ اللهُ،لَمَا كُنَّا أَقَمْنَا عَلَى الكُفْرِ بِاللهِ،وَالاغْتِرَارِ بِالـــدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا،وَلَمَا صِرْنَا إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ اليَوْمَ مِنَ الخَزْيِ والعَذَابِ الأَلِيمِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

---

[٢٩٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٤١)

[٢٩٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٨،بترقيم الشاملة آليا)

فَاعْتَرَفُوا بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ كُفْرٍ وَتَكْذِيبٍ لِلرُّسُلِ،وَمِنْ انْهِمَاكٍ فِي مَلَذَّاتِ الدُّنْيَا،وَلَكِنَّ هَـذَا الاعْتِرَافَ لَنْ يُفِيدَهُمْ شَيئاً فِي ذَلِكَ اليَوْمِ،فَسُحْقاً وَبُعداً مِنْ رَحْمَةِ اللهِ لِلَّذِينَ يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ نَارِ جَهَنَّمَ الْمُسْتَعِرَةِ.[٢٩٦]

فدلت الآيات على أن الكفار والمرتدين والمنافقين الذين يعارضون الكتاب والسنة بعقولهم الفاسدة أنهم لا يعقلون،وأن عقولهم الفاسدة قد ارتكست بهم حتى أصبحوا أضل من الأنعام،ودلت على أن الأمر ليس كما يزعمون من كونهم من أولي العقول والأفهام،بل هم أهل أهواء قد اتخذوا أهواءهم إلها يعبدونه من دون الله تعالى .



[٢٩٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١٢٩،بترقيم الشاملة آليا)

المبحث السابع

مزايا الشريعة ومقاصدها

تتميز الشريعة الإسلامية بمزايا تختلف فيها اختلافا كاملا عن جميع القوانين والأنظمة التي هـــي من تشريع البشر،ومن هذه المزايا:

أولا:أن الشريعة الإسلامية من عند الله تعالى:

فالقرآن كلام الله أنزله الله تعالى،وفيه علمه تبارك وتعالى،كما قال الله تعالى:{لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [النساء:١٦٦]

لَمَّا أَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الكَافِرِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ كُفْرَهُمْ بِمُحَمَّد ﷺ،وَتَكْذِيبَهُمْ بِنُزُولِ الوَحْيِ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ،وَتَعَنُّتَهُمْ فِي طَلَبِ المُعْجِزَاتِ مِنْهُ،قَالَ اللهُ تَعَالَى:إِنَّهُ يَشْهَدُ بِأَنَّهُ أَنْزَلَ وَحْيَهُ عَلَـــى رَسُولِهِ،بِعِلْمٍ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ الرَّسُولُ وَلاَ قَوْمُهُ (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ)،وَالمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ بِـــذَلِكَ،وَكَفَى بِمَنْ يَشْهَدُ اللهُ لَهُ صِدْقاً.[297]

روى ابن أبي حاتم عن عَطَاءَ بْنِ السَّائِبِ ،قَالَ:أَقْرَأَنِي أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ الْقُرْآنَ ،وَكَانَ إِذَا قَرَأَ أَحَدُنَا الْقُرْآنَ قَالَ:قَدْ أَخَذْتُ عِلْمَ اللَّهِ فَلَيْسَ أَحَدٌ الْيَوْمَ أَفْضَلَ مِنْكَ إِلَّـــا بِعَمَـــلٍ ،ثُـــمَّ قَرَأَ:{أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [النساء:١٦٦][298]

وقال تعالى:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُـــوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) } [هود].

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى إِعْجَازَ القُرَآنِ،وَيَرُدُّ عَلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ فِي قَوْلِهِمْ:إِنَّ مُحَمَّداً افْتَرى القُرْآنَ،وَأَتَى بِهِ مِنْ عِنْدِهِ،وَنَسَبَهُ إِلَى اللهِ،افْتِرَاءً مِنْهُ عَلَيْهِ،فَقَالَ لَهُمْ:إِنْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ وَتَزْعُمُونَ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ،وَاسْتَعِينُوا بِكُلِّ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ فِي ذَلِكَ إِنْ كُنْـــتُمْ صَـــادِقِينَ فِيمَـــا

---

[297] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٥٩،بترقيم الشاملة آليا) -

[298] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١١٢١)(٦٢٩٦) صحيح

تَقُولُونَ:إِنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّد.وَإِذَا كَانَ القُرْآنُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَمِنَ المَفْرُوضِ أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ قَوْلَ مِثْلِه لأنَّ مُحَمَّداً مِنْهُمْ.

ثُمَّ يُشْعِرُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِعَجْزِهِمْ عَنْ ذَلِكَ،وَيَقُولُ لِلرَّسُولِ ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ:فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِلَى مَا طَلَبْتُمْ مِنْهُمُ الإِتْيَانَ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِ هَذا القُرْآنِ،فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ،وَأَنَّ البَشَرَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الإِتْيَانَ بِمْثِله،وَأَنَّ القُرْآنَ إِنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ،وَأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ لاَ إِلهَ إلاَّ هُوَ،فَأَسْلِمُوا لَهُ،وَأَخْلِصُوا إِلَيْهِ فَي إِيمَانِكُمْ.[299]

وهو تبارك وتعالى خالق الخلق،وهو أعلم بما فيه صلاحهم وطهارتهم واستقامة أحوالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة،وقد قال الله تعالى:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:14]،وقال تعالى:{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة:140]،وقال تعالى:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة:216]،وقال تعالى:{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)} [آل عمران:65 - 68]،وقال تعالى:{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة:232]،وقال تعالى:{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم:32]،فالله تعالى قد أحاط بكل شيء علما،ولا يحيط الخلق بشيء من علمه إلا بما شاء أن يعلمهم،قال تعالى:{وَقَالُوا

---

[299] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:1487،بترقيم الشاملة آليا)

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦) } [الفرقان]

وَقَالَ هَؤُلاَءِ الكُفَّارُ أيضاً:إنَّ القُرْآنَ الذي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ،إنْ هُوَ إلاَّ قِصَصُ الأوَّلِينَ (أساطِيرُ الأوَّلِينَ) وَكُتُبُهِمْ اسْتَنْسَخَا مُحَمَّدٌ (اكْتَتَبَهَا)،فَهِيَ تُقْرَأُ عَلَيْهِ صَبَاحاً وَمَسَاءً (تُمْلَى عَلَيْهِ) خفْيَةً،لِيَحْفَظَهَا غُدْوَةً وَعَشِيَّةً،فَلا يَقِفُ النَّاسُ عَلَى حَقِيقَةِ الحَالِ.وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى سُخْفِ عُقُولِهِمْ،فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّداً لاَ يَقْرَأُ وَلاَ يَكْتُبُ،وَكَانَ بينَهُمْ طَوَالَ حَيَاتِهِ حَتَّى بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ،وَهُمْ يَعْرِفُونَ صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ،فَمَا كَانَ لِيكْذِبَ عَلَى اللهِ وَيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ - كَمَا قَالَ هرقلُ لأَبِي سُفْيَانَ بن حَرْبٍ.

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ:إنَّ الذِي نَزَّلَ القرآنَ هُوَ اللهُ،الذي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ،وَيَعْلَمُ السَّرَائِرَ،كما يَعْلَمُ الظَواهِرَ،وَهُوَ غَفُورٌ لِمَنِ اسْتَغْفَرَهُ وَتَابَ إِلَيْهِ،وَهُوَ تَعَالَى يَدْعُوهُمْ إلى التَّوْبَةِ والإقْلاَعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ،وَيَعِدُهُمْ بالمَغْفِرَةِ إنْ تَابُوا وأَخْلَصُوا في تَوْبَتِهِمْ.[٣٠٠]

وقال تعالى:{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة:٢٥٥]،وقال تعالى:{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف:١٠٩]

قُلْ يَا مُحَمَّدُ:لَوْ كَانَ مَاءُ البَحْرِ كُلُّهُ حِبْراً (مِدَاداً) لِلْقَلَمِ الَّذِي تُكْتَبُ بِهِ كَلِمَاتُ اللهِ،وَحِكَمُهُ وَآيَاتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ،لَنَفِدَ مَاءُ البَحْرِ قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِي كِتَابَةُ ذَلِكَ وَتُسْتَنْفَدُ،وَلَوْ كَانَ وَرَاءَ البَحْرِ بُحُورٌ أُخْرَى تَمُدُّهُ.[٣٠١]

وقال تعالى:{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [لقمان:٢٧]

---

[٣٠٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٤٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٤٩،بترقيم الشاملة آليا)

وَلَوْ أَنَّ جَميعَ أَغْصَانِ الشَّجَرِ المَوْجُودَةِ فِي الأَرْضِ جُعِلَتْ أَقْلاَماً لِتُكْتَبَ بِهَا كَلِمَاتُ اللهِ،وَلَوْ أَنَّ مَاءَ البَحْرِ جُعِلَ حِبْراً (مدَاداً)،ثُمَّ أَمَدَّتْهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مِنْ بَعْدِه،فإِنَّ جَمِيعَ الأَقْلامِ تَتَحَطَّمُ،وَجَمِيعَ البِحَارِ تجِفُّ مِيَاهُها قَبلَ أَنْ تَنْتَهِيَ كِتَابَةُ كَلِمَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِه،والمُعَبِّرَةِ عَمَّا خَلَقَ،وَعَنْ خَصَائِصِ مَا خَلَقَ..فَاللهُ تَعَالى عَزِيزٌ لا يُضَامُ،حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَشَرْعِه وَتَدْبِيرِه.[302]

وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر،فعن سَعِيدَ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ:إِنَّ نَوْفًا البَكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ؟ فَقَالَ:كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ:أَنَا أَعْلَمُ،فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ،إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ،فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ:أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ،هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.قَالَ:يَا رَبِّ،وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ:احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ،فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ،فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ،وَحَمَلاَ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ،حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا،فَانْسَلَّ الحُوتُ مِنَ المِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا،وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا،فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ:آتِنَا غَدَاءَنَا،لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا،وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ،فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ:(أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ) قَالَ مُوسَى:(ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ،إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ،أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ،فَسَلَّمَ مُوسَى،فَقَالَ الخَضِرُ:وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ؟ فَقَالَ:أَنَا مُوسَى،فَقَالَ:مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا قَالَ:إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا،يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ،وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ،قَالَ:سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا،وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا،فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ،لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ،فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ،فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا،فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ،**فَجَاءَ عُصْفُورٌ،فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ،فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي البَحْرِ،فَقَالَ الخَضِرُ:يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا**

[302] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٧٧،بترقيم الشاملة آليا)

كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ،فَعَمَدَ الخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ،فَنَزَعَهُ،فَقَالَ مُوسَى:قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ قَالَ:أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ:لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا – فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا –،فَانْطَلَقَا،فَإِذَا غُلاَمٌ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ،فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاَهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ،فَقَالَ مُوسَى:أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ قَالَ:أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ – قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ:وَهَذَا أَوْكَدُ – فَانْطَلَقَا،حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا،فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا،فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ،قَالَ الخَضِرُ:بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ،فَقَالَ لَهُ مُوسَى:لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا،قَالَ:هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى،لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا» أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري[٣٠٣].

وأما الناس فهم ضعفاء في علومهم وإدراكهم،بل هم لا يعلمون حقيقة الأرواح التي في أبدانهم،كما قال تعالى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:٨٥]،قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" وَقَوْلُهُ:{قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} أَيْ:مِنْ شَأْنِهِ،وَمِمَّا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ دُونَكُمْ؛وَلِهَذَا قَالَ:{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا} أَيْ:وَمَا أَطْلَعَكُمْ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ،فَإِنَّهُ لَا يُحِيطُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَالْمَعْنَى:أَنَّ عِلْمَكُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ،وَهَذَا الَّذِي تَسْأَلُونَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الرُّوحِ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ تَعَالَى،وَلَمْ يُطْلِعْكُمْ عَلَيْهِ،كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُطْلِعْكُمْ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ عِلْمِهِ تَعَالَى."[٣٠٤].

---

[٣٠٣] - صحيح البخاري (١/ ٣٥)(١٢٢) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٤٧)(١٧٠ - (٢٣٨٠)

[ش (نوف البكالي) هو تابعي من أهل دمشق فاضل عالم لا سيما بالإسرائيليات وكان ابن امرأة كعب الأحبار ويل غير ذلك.[فتح](كذب عدو الله) أي أخبر بما هو خلاف الواقع.ومراد ابن عباس رضي الله عنهما الزجر والتحذير لا المعنى الحقيقي لهذه العبارة.(فعتب) لم يرض منه بذلك وأصل العتب المؤاخذة.(بمجمع البحرين) ملتقى البحرين وفي تسمية البحرين أقوال.(مكتل) وعاء يسع خمسة عشر صاعا.(فانسل) خرج برفق وخفة.(سربا) مسلكا يسلك فيه.(نصبا) تعبا.(مسا) أثرا وفي رواية (شيئا).(مسجى) مغطى.(وأنى بأرضك السلام) كيف تسلم وأنت في أرض لا يعرف فيها السلام.(نول) أجر.(فعمد) قصد.(الأولى) المسألة الأولى.(زكية) طاهرة لم تذنب.(وهذا أوكد) أي قوله.(ألم أقل لك) لزيادة لك فهذا أوكد في العتاب.(استطعما) طلبا طعاما.(ينقض) يكاد يسقط.(قال الخضر بيده) أشار بها.(من أمرهما) ممن الأعاجيب والغرائب]

[٣٠٤] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١١٦)

وأما القوانين الوضعية فهي ناقصة وقاصرة لنقص وقصور عقول البشر عن الإحاطة بمصالحهم،مع ما تشتمل عليه هذه القوانين من الكفر،والأهواء،والشهوات،والضلالات،والعصبية لفئة أو قوم،والجهل،لصدورها ممن اتصف بهذه الأوصاف واصطبغ بها.

ثانيا:تحقيق العبودية لله تعالى وتزكية النفوس وطهارتها:

إن الشريعة الإسلامية جاءت لتحقيق عبودية الله وتزكية النفوس وصلاحها،وطهارتها من الشرك والفواحش ومساوىء الأخلاق،قال الله تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) } [الذاريات]

وَاللهُ تَعَالى لَمْ يَخْلُقِ الإِنْسَ وَالجِنَّ إلاَّ لِيَعْرِفُوهُ،وَيَقُومُوا بِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَحَمْدِهِ عَلَى أنْعُمِهِ التِي لا تُحصَى.

وَاللهُ تَعَالى لا يُرِيدُ أنْ يَسْتَعِينَ بِالخَلْقِ لِجَلْبِ مَنْفَعةٍ لَهُ،وَلا لِدَفْعِ ضَرَرٍ عَنْهُ،وَلا يُصَرِّفُهُمْ في تَحْصِيلِ الأَرْزَاقِ وَالمطَاعِمِ،كما يَفْعَلُ المَوالي مَعَ عَبِيدِهِمْ.

وَالله تَعَالى غَيْرُ مُحتَاجٍ إليهم فَهُوَ خَالِقُهُم وَرَازِقُهُمْ،وَهُمْ مُحتَاجُونَ إليهِ،وَهُوَ الغَنَيُّ عَنْهُم،وَعَمَّنْ سِوَاهُمْ،وَهُوَ تَعالى ذُو القُوَّةِ الشَّدِيدُ الذي لا يُعْجِزُه شَيءٌ.[٣٠٥]

وقال تعالى:{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [آل عمران:١٦٤]

مِنْ فَضْلِ الله عَلَى المُؤْمِنِينَ أنْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ جِنْسِهِمْ،وَمِنْ أَهْلِ بَلَدِهِمْ وَلُغَتِهِمْ (مَنْ أنْفُسِهِمْ)،لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ مُخَاطَبَتِهِ وَمُجَالَسَتِهِ،وَالانْتِفَاعِ بِصُحْبَتِهِ وَسُؤَالِهِ عَمَّا سَيَتَشْكلُ عَلَيْهِمْ فِي أمُورِ دِينِهِمْ،وَيَتْلُو عَلَيهِم القُرآنَ (آياتِ اللهِ) وَيَأمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ،وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ،لِتَزْكُوَ

---

[٣٠٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦١٠،بترقيم الشاملة آليا)

أَنْفُسُهُم،وَتَطْهُرَ مِنْ أرْجَاسِ الجَاهِلِيَّةِ،وَيُعَلِّمُهُمُ القُرآنَ (الكِتَابَ) وَالسُّنَّةَ (الحِكْمَةَ) فَقَدْ كَـانُوا قَبْلَ هَذا الرَّسُولِ فِي غَيٍّ وَجَهَالَة (ضَلاَلٍ) ظَاهِرَيْنِ لِكُلِّ أَحَد.[٣٠٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ.رواه أحمد.[٣٠٧]

وقد أمر الله بالصلاة وبين أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر،فقال تعالى:{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت:٤٥]

وأقِمِ الصَّلاةَ،وأدِّهَا عَلَى الوَجهِ الأكمْلِ بخُشُوعِها ورُكُوعِها وسُجُودِهَا،لأَنَّ الصَّلاَةَ إِنْ تَمَّـتْ عَلَى الوَجهِ الأكْمَلِ كَانَتْ لَها فَائِدَتَان:

- أَنها تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ وَتَحْمِلُ المُؤْمِنَ عَلى مُجَانِبَتِها،وَتركِها لِمُنَافَاةِ الصَّلاةِ لِفعْلِ الفَاحِشَةِ والمُنكَرِ والبَغْيِ.

- وفيها فَائِدَةٌ أَعْظَـمُ،أَلا وهـي ذكـرُ اللهِ لعبَـاده الـذينَ يذكُرُونَـهُ،ويُؤدُّونَ الصّـلاةَ بشُرُوطِها،ويُسَبِّحُونه ويَحْمَدُونَهُ،واللهُ تَعَالى يَعلَمُ ما تَفْعَلُونَ مِنْ خَيرٍ وشَـرٍ،وهوَ مُجَـازِيكُمْ بِه.[٣٠٨]

وأمر بزكاة المال وبين أن فيها طهارة لهم وتزكية لنفوسهم،فقال تعالى:{خُذْ مِـنْ أَمْـوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُـمْ وَاللَّـهُ سَـمِيعٌ عَلِـيمٌ} [التوبة:١٠٣]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِ الذينَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ،صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ البُخْلِ،وَالطَّمَعِ،وَالقَسْوَةِ عَلَى الفُقَرَاءِ،وَتُزَكِّي بِهَا أَنْفُسَهُمْ،وَتَرْفَعُهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الأَبْـرَارِ بِفِعْـلِ الخَيْرَاتِ حَتَّى يَكُونُوا أَهْلاً لِلسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.ثُـمَّ أَمَـرَ اللهُ رَسُـولَهُ بِـأَنْ يَـدْعُوَ

---

[٣٠٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٧] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٣/ ٤٠٠))(٨٩٥٢) ٨٩٣٩- صحيح

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:«مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ عَشَرَةٌ تَكُونُ فِي الرَّجُلِ وَلَا تَكُونُ فِي ابْنِهِ،وَتَكُونُ فِي ابْنِهِ وَلَا تَكُونُ فِيهِ،وَتَكُونُ فِي السَّيِّدِ وَلَا تَكُونُ فِي عَبْدِهِ،وَتَكُونُ فِي الْعَبْدِ وَلَا تَكُونُ فِي سَيِّدِهِ» وَذَكَرَ هَذِهِ الْخِصَالَ بِعَيْنِهَا،صِدْقُ الْحَدِيثِ،وَصِدْقُ الْبَأْسِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ،وَإِعْطَاءُ السَّائِلِ،وَمُكَافَأَةُ الصَّنِيعِ،وَصِلَةُ الرَّحِمِ،وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ،وَالتَّذَمُّمُ لِلْجَارِ،وَالتَّذَمُّمُ لِلصَّاحِبِ،وَقِرَى الضَّيْفِ،وَرَأْسُهُنَّ الْحَيَاءُ "الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٥٩٥)(٤٩٦) ومكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (ص:٢٦)(٣٦) وشعب الإيمان (١٠/ ١٦٣)(٧٣٢٥) صحيح لغيره

[٣٠٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

لَهُمْ،وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ)،لأنَّ صَلاَةَ الرَّسُولِ رَحْمَةٌ بِهِمْ،وَرَاحَةٌ لأَنْفُسِهِمْ،وَاللهُ سَـــمِيعٌ لاعْتِرَافِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ،وَسَمِيعٌ لِدُعَاءِ الرَّسُولِ لَهُمْ،عَلِيمٌ بِإِخْلاَصِهِمْ فِي تَوْبَتِهِمْ،وَنَدَمِهِمْ مِن هَـــذِهِ الذُّنُوبِ.[٣٠٩]

وأمر الله بالحجاب،وبين أن فيه طهارة للقلوب،فقال تعالى:{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْـــأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّـــهِ وَلَـــا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } [الأحزاب:٥٣]

وَإِذا طَلَبْتُم مِنْ أَزْواجِ النَّبِيِّ وَنِسَاءِ المُؤمِنِينَ شَيئاً تَتَمَتَّعُونَ بِهِ،مِنْ مَاعُونٍ،وَغيرِه،فَاطْلُبُوهُ مِنْ وَرَاءِ سِتْرٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ.وَذلكَ الدُّخُولُ بَعْدَ الاسْتِئذَانِ،وَعَدَمُ البَقَـــاءِ بَعْـــدَ الطَّعَـــامِ للاسْـــتِئْنَاسِ بالحَدِيثِ،وَسُؤالُ نِسَاءِ النَّبِيِّ المَتَاعَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ..كُلُّ ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِ الرِّجَالِ وَقُلُـــوبِ النِّسَاءِ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ،وَأَبْعَدُ عَنْ الرِّيبِ والشُّكُوكِ،وَلاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤمِنِينَ أَنْ يَفْعَلُوا فَعْـــلاً فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ يُؤْذِيهِ وَيُزْعِجُهُ،وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُؤْذُوهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ بالتَّزَوُّجِ بِنِسَائِهِ.فَإِيذَاءُ النَّبِيِّ فِـــي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ لاَ يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إِلاَّ اللهُ تَعَالى.[٣١٠]

وأمر الله تعالى بغض البصر وحفظ الفرج،وبين أن ذلك أزكى للنفوس،فقال تعـــالى:{قُـــلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [النور:٣٠]

يَأْمُرُ اللهُ عِبَادَهِ المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَغُضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِم،فَـــإِذَا اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ البَصَرُ عَلَى مُحَرَّمٍ عَلَيْهِمْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَعَلى المُؤْمِنِ أَنْ يَصْـــرِفَ عَنْـــهُ بَصَـــرَهُ سَرِيعاً،كَمَا يَأْمُرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِحِفْظِ فُرُوجِهِم عَنِ الزِّنَى،وبِحِفْظِها مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا،فَذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِهِمْ وَأَزكَى لِدِينِهِم.[٣١١]

وأمر الله تعالى بالوضوء عند القيام إلى الصلاة،وبالغسل من الجنابة،والتيمم إذا عدم الماء،وبين أنه لم يشرع ذلك للتضييق عليهم،وإنما أمرهم بذلك ليطهرهم وليتم نعمته عليهم،ولعلـــهم أن

---

[٣٠٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٣٩،بترقيم الشاملة آليا) -

[٣١٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٣١١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

يشكروا الله تعالى على نعمه،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة:٦].

فِي هَذِهِ الآيَةِ يَبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ شُرُوطَ الوَضُوءِ وَالتَّيَمُّمِ،وَيَأمُرُ المُؤْمِنِينَ بِالوُضُوءِ إذا قَامُوا إلى الصَّلاَةِ وَهُمْ مُحْدِثُونَ (وَيُسْتَحَبُّ الوُضُوءَ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ) .وَالوُضُوءُ هُوَ غَسْلُ الوَجْهِ،وَغَسْلُ اليَدَينِ إلى المِرْفَقَيْنِ،وَمَسْحُ الرَّأسِ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ،وَغَسْلُ الرِّجْلَيْنِ إلَى الكَعْبَيْنِ.وَيَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ:إذَا كُنْتُمْ جُنُباً فَاغْتَسِلُوا،وَإذَا كُنْتُمْ مَرْضَى لاَ تَسْتَطِيعُونَ مَسَّ المَاءِ لِلْوُضُوءِ وَالاغْتِسَالِ،أَوْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ،وَلَمْ يَتَيَسَّرْ لَكُمُ المَاءُ،وَإذا أَحْدَثْتُمْ (جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ)،أَوْ بَاشَرْتُمُ النِّسَاءَ.وَلَمْ تَجِدُوا مَاءَ لِتَغْتَسِلُوا وَتَتَوضَّؤُوا فَتَيَمَّمُوا مَا صَعَدَ عَلى سَطْحِ الأَرْضِ مِنْ تُرَابٍ طَاهِرٍ (طَيِّبٍ) فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ،وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يُيَسِّرَ الأَمْرَ عَلَيْكُمْ،وَلاَ يُحْرِجَكُمْ فِي أمُورِ دِينِكُمْ،وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ أنْ يُطَهِّرَكُمْ،وَأَنْ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ،فَيَجْمَعَ لَكُمْ بَيْنَ طَهَارَةِ الأَبْدَانِ وَطَهَارَةِ الرُّوحِ،لِيُعِدَّكُمْ بِذَلِكَ لِدَوَامِ شُكْرِهِ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ،وَعَلَى مَا يَسَّرَهُ لَكُمْ.[٣١٢]

وأما القوانين الوضعية فلا تعوّل على طهارة النفوس وزكاتها،وليس من أهدافها صلاح المجتمع واستقامته وطهارته من المنكرات،بل تحمي هذه القوانين أنواع الكفر،والفسوق،والانحطاط الأخلاقي،مما جعل المجتمعات التي تتحاكم إليها تعاني من شيوع الكفر والرذيلة والفواحش،ومن تفكك الأسرة والمجتمع.

فالقوانين الوضعية قائمة على الكفر بالله والإعراض عن دينه،ولهذا فليس من أهدافها استقامة العباد على طاعة الله تعالى وتزكيتهم،بل غايتها واحدة وهي تحصيل المتعة بأنواعها والأكل،كما قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

[٣١٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٧٦،بترقيم الشاملة آليا)

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ } [محمد:١٢].

وَفي يَوْمِ القِيَامةِ يُدخِلُ اللهُ تَعَالى الذِينَ آمَنُوا به،وَبكُتبِه،وَرُسُله،وَعَملُوا الأعْمَالَ الصَّالحَات،جَنَّات تَجري في أرْضِها الأنهَارُ جَزاءً لَهُم عَلَى إِيمَانِهِمْ.أمَّا الكَافِرُونَ الذين كَفَرُوا باللهِ وبكُتُبه،وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ،فَإِنَّهُم يَتَمَتَّعُونَ بما في هذه الدُّنيا منْ مَتَاعٍ زَائلٍ،وَيَأكُلونَ فيها كَالأنعَامِ،غَيرَ مُفَكِّرِينَ في عَواقِبِ أمُورِهِمْ،وَلا مُعْتَبرينَ بما أقَامَهُ اللهُ للْعِبَادِ منَ الأدلَّة على وُجُودِه ووَحْدَانِيَّته تَعَالى،وَسَيَصِيرُونَ في الآخرَة إلى جَهَنَّمَ فَتَكُونُ مَسْكَنَهُمْ وَمَأوَاهُمْ.[٣١٣]

وَالَّذِينَ جَحَدُوا تَوْحِيدَ اللَّه،وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ ﷺ يَتَمَتَّعُونَ فِي هَذِه الدُّنْيَا بحُطَامِهَا وَرِيَاشِهَا وَزِينَتِهَا الْفَانِيَة الدَّارِسَة،وَيَأْكُلُونَ فِيهَا غَيْرَ مُفَكِّرِينَ فِي الْمَعَاد،وَلَا مُعْتَبرِينَ بِمَا وَضَعَ اللَّهُ لخَلْقِه منَ الْحُجَجِ الْمُؤَدِّيَة لَهُمْ إِلَى عِلْمِ تَوْحِيد اللَّه وَمَعْرِفَة صِدْق رُسُله،فَمَثَلُهُمْ فِي أَكْلِهِمْ مَا يَأْكُلُونَ فِيهَا منْ غَيْرِ عِلْمٍ منْهُمْ بذَلكَ وَغَيْرِ مَعْرِفَة،مَثَلُ الْأَنْعَامِ منَ الْبَهَائمِ الْمُسَخَّرَة الَّتِي لَا همَّةَ لَهَا إِلَّا فِي الاعْتِلَاف دُونَ غَيْرِه {وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد:١٢] يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:وَالنَّارُ نَارُ جَهَنَّمَ مَسْكَنٌ لَهُمْ،وَمَأْوًى،إِلَيْهَا يَصِيرُونَ منْ بَعْد مَمَاتِهِمْ"[٣١٤]

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون في الأرض أحيانا من أطيب المتاع ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقي الضخم للمؤمنين – وهو نصيبهم في الجنة – والنصيب الكلي للكافرين الذي لا نصيب لهم سواه.ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله في جنات تجري من تحتها الأنهار.فالله هو الذي يدخلهم.وهو إذن نصيب كريم علوي رفيع.وهم ينالونه من بين يدي الله في علاه جزاء على الإيمان والصلاح،متناسقا في رفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح.

ونصيب الذين كفروا متاع وأكل «كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ» ..وهو تصوير زري،يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره،والمتاع الحيواني الغليظ.بلا

---

[٣١٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٣١٤] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢١/ ١٩٧)

تذوق،وبلا تعفف عن جميل أو قبيح ..إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة،ولا من اختيار،ولا حارس عليه من تقوى،ولا رادع عنه من ضمير.
والحيوانية تتحقق في المتاع والأكل،ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم،وحس مدرب في اختيار صنوف المتاع،كما يتفق هذا لكثير من الناشئين في بيوت النعمة والثراء.وليس هذا هو المقصود.إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذي يملك نفسه وإرادته،والذي له قيم خاصة للحياة فهو يختار الطيب عند الله.عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة،ولا يضعفها هتاف اللذة.ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام،وفرصة متاع بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح! إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان:أن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة،المتلقاة من الله خالق الحياة.فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه،وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله.[٣١٥]
والتمتع عام فيشمل جميع أنواع التمتع:كالتمتع بالأموال،واللباس،والمركب،والبيت،والتمتع بارتكاب الفواحش والمعاصي،ومن صور التمتع تمتع حكامهم الطغاة بالعلو في الأرض،واحتلال بلاد الآخرين،ونهب خيراتهم،وغيرها الكثير من صور التمتع التي جاءت قوانينهم وأنظمتهم الوضعية بتحصيلها،وتنميتها،وحمايتها من التهديدات والمنغصات.
ومن الأمثلة على انحطاط قوانينهم الوضعية في أهدافها أن هذه القوانين لا تحمي الضرورات الخمس التي جاء الإسلام بحفظها،وهي:الدين والعرض والنفس والمال والعقل[٣١٦].
فلا يحافظون على الدين والعرض والعقل،لأن المحافظة عليها تعني أن يحال بينهم وبين كفرهم وشهواتهم،وأما ضرورتا النفس والمال فهم لا يحافظون عليها المحافظة العادلة التي جاء بها الإسلام،وإنما يحمون هاتين الضرورتين حماية ضالة ناقصة بما يتوافق مع رفاهيتهم وشهواتهم وتمتعهم في حياتهم الدنيا،ويسنون لذلك القوانين الجائرة.
وأما الإسلام فقد جاء بالمحافظة على هذه الضرورات الخمس التي لا صلاح للعباد ولا سعادة لهم في الدنيا والآخرة إلا بالمحافظة عليها،فشرع الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن

[٣١٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٠١)
[٣١٦] - انظر:الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٨/ ٢٠٨) الْمُحَافَظَةُ عَلَى الضَّرُورِيَّاتِ:

المنكر،والجهاد في سبيل الله،وحد الردة وغيرها من الأحكام لحفظ ضرورة الدين،وشرع سبحانه وتعالى حد الزنى والقذف للمحافظة على الأعراض،بل جاءت الشريعة بتحريم جميع الوسائل الموصلة والمقربة إلى الزنى كالنظر إلى النساء الأجنبيات،والخلوة بالأجنبية،وسفر المرأة وحدها،ومس المرأة الأجنبية،واختلاط النساء بالرجال،والتبرج والسفور كما قال تعالى:{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [النور:٣٠].

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الأحزاب:٥٩].

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَه ﷺ بِأَنْ يَأْمُرَ نِسَاءَهُ وَبَنَاتِه والنِّسَاءَ المُؤْمِنَات،بِأَنْ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ،وَأَن يُغَطِّينَ وُجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِنَّ،وَأَنْ يُغَطِّين ثَغْرَةَ نُحُورِهِنَّ بالجَلابيب التي يُدْنِينَهَا عَلَيهِنَّ.وَالغَايَةُ مِنْ ذَلِكَ التَّسَتُّرُ،وَأَن يُعْرَفْنَ بِأَنَّهُنَّ حَرَائِرُ فَلا يُؤْذِيهِنَّ أَحَدٌ،وَلا يَتَعَرَّضُ لَهُنَّ فَاسِقٌ بِأَذى وَلا رِيبَة،وَرَبُّكُمْ غَفَّارٌ لِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ صَدرَ مِنَ الإِخْلاَلِ بالسِّتْرِ،كَثِيرُ الرَّحْمَة لِمَنِ امْتَثَلَ أَمْرَهُ،وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَّرَ فِي مُرَاقَبَتِه فِي أُمُورِ التَّسَتُّرِ يُدْنِينَ عَلَيهِنَّ - يُرْخِينَ وَيُسْدِلْنَ عَلَيْهِنّ.[317]

وقال تعالى:{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب:٣٣].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ،فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ،وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَبِّهَا إِذَا هِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا»[318]

---

[317] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

[318] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٤١٣)(٥٥٩٩) صحيح

أَيْ زَيَّنَهَا فِي نَظَرِ الرِّجَال وَقِيلَ:أَيْ نَظَرَ إِلَيْهَا لِيُغْوِيَهَا وَيُغْوِيَ بِهَا وَالْأَصْلُ فِي الِاسْتِشْرَاف رَفْعُ الْبَصَر لِلنَّظَرِ إِلَى الشَّيْء وَبَسْطُ الْكَفِّ فَوْقَ الْحَاجِب وَالْعَوْرَةُ السَّوْأَةُ وَكُلُّ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ إِذَا ظَهَرَ،وَقِيلَ أَنَّهَا ذَاتُ عَوْرَة وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَرْأَةَ غَيَّرَهَا بِهَا فَيُوقِعُهَا أَوْ أَحَدَهُمَا فِي الْفِتْنَة أَوْ يُرِيدُ بِالشَّيْطَان شَيْطَانَ الْإِنْس مِنْ أَهْلِ الْفِسْقِ أَيْ إِذَا رَأَوْهَا بَارِزَةً اسْتَشْرَفُوهَا بِمَا بَثَّهُ الشَّيْطَانُ فِي

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ،«جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَائِلَةً بِثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ خَرَاجَةٍ وَلَّاجَةٍ» رواه ابن أبي حاتم.[319]

وعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ:«يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ،فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ» رواه الترمذي وأبو داود[320].

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:«سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي» رواه مسلم.[321]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ؟ قَالَ:«الحَمْوُ المَوْتُ» رواه البخاري ومسلم.[322]

نُفُوسِهِمْ مِنَ الشَّرِّ وَمُحْتَمَلٌ أَنَّهُ رَآهَا الشَّيْطَانُ فَصَارَتْ مِنَ الْخَبِيثَاتِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢٠٥٤)

[319] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٩/ ٢٩٦٥) هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ:السَّلْفَعُ مِنَ الرِّجَالِ:الْجَسُورُ،وَمِنَ النِّسَاءِ:الْجَرِيئَةُ السَّلِيطَةُ،وَمِنَ النُّوقِ:الشَّدِيدَةُ..تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٢٢٨)

[320] - سنن أبي داود (٢/ ٢٤٦)(٢١٤٩) وسنن الترمذي ت بشار (٤/ ٣٩٨)(٢٧٧٧) حسن

[321] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٩٩)٤٥ - (٢١٥٩)

[ش (نظر الفجاءة) ويقال بفتح الفاء وإسكان الجيم والقصر الفجأة لغتان هي البغتة ومعنى نظر الفجأة أن يقع نظره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك فيجب عليه أن يصرف بصره في الحال فإن صرف في الحال فلا إثم عليه وإن استدام النظر أثم قال القاضي قال العلماء وفي هذا حجة أنه لا يجب على المرأة أن تستر وجهها في طريقها وإنما ذلك سنة مستحبة لها - ويجب على الرجال غض البصر عنها في جميع الأحوال]

قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ:هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي نَظَرِ الْفَجْأَةِ أَنْ يَصْرِفَ بَصَرَهُ.فَالَّذِي رُوِيَ فِي حَدِيثِ بُرَيْدَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ لِعَلِيٍّ:«لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ،فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ» .إِنَّمَا أَرَادَ:فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى الَّتِي لَمْ تَقْصِدْهَا،وَإِنَّمَا وَقَعَ بَصَرُكَ عَلَيْهَا مُفَاجَأَةً،وَلَيْسَ لَكَ الْآخِرَةُ،يَعْنِي:أَنْ تُدِيمَ النَّظْرَةَ أَوْ تُعِيدَهَا أَوْ تَبْتَدِئَ بِهَا.وَرُوِّينَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:«إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ،وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ،فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّهُ يُضْمِرُ مَا فِي نَفْسِهِ»الآداب للبيهقي (ص:٢٤٥)(٥٩٩)

[322] - صحيح البخاري (٧/ ٣٧)(٥٢٣٢) وصحيح مسلم (٤/ ١٧١١)٢٠ - (٢١٧٢)

[ش (إياكم والدخول على النساء) احذروا من الدخول على النساء غير المحارم ومنع الدخول يستلزم منع الخلوة من باب أولى.(أفرأيت الحمو) أخبرني عن دخول الحمو على المرأة والمراد بالحمو أقارب الزوج من غير المحارم كالأخ والعم والخال وأبنائهم.(الحمو الموت) لقاؤه الهلاك لأن دخوله أخطر من دخول الأجنبي وأقرب إلى وقوع الجريمة لأن الناس يتساهلون بخلطة الرجل بزوجة أخيه والخلوة بها فيدخل بدون نكير فيكون الشر منه أكثر والفتنة به أمكن]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» فَقَامَ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً،وَاكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا،قَالَ:«ارْجِعْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ» متفقٌ عليه[323] .

وعَنْ أَبِي مَعْبَدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ:«لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ،وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»،فَقَامَ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً،وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا،قَالَ:«انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ»[324] .

وَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ:«لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ "».رواه الطبراني والبيهقي[325] .

وعَنْ عَلِيٍّ،قَالَ عَلِيُّ بْنُ حَكِيمٍ فِي حَدِيثِهِ:"أَمَا تَغَارُونَ أَنْ تَخْرُجَ نِسَاؤُكُمْ؟ "وفي رواية " أَلَا تَسْتَحْيُونَ أَوْ تَغَارُونَ؟ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ نِسَاءَكُمْ يَخْرُجْنَ فِي الْأَسْوَاقِ يُزَاحِمْنَ الْعُلُوجَ " رواه أحمد[326] .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ،فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ،وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَبِّهَا إِذَا هِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا» رواه الترمذي وغيره[327] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا،قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ،وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ،رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ

---

[323] - صحيح البخاري (٧/ ٣٧)(٥٢٣٣) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٨)٤٢٤ - (١٣٤١)

[324] - صحيح مسلم (٢/ ٩٧٨)٤٢٤ - (١٣٤١)

[325] - المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٢١١)(٤٨٦ و٤٨٧) ومسند الروياني (٢/ ٣٢٣)(١٢٨٣) صحيح

وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ٣٥٩)

الْمخيط بِكَسْر الْمِيم وَفتح الْيَاء هُوَ مَا يخاط به كالإبرة والمسلة وَنَحْوهمَا

[326] - مسند أحمد ط الرسالة (٢/ ٣٤٣)(١١١٨) حسن

[327] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٤١٣)(٥٥٩٩) وسنن الترمذي ت بشار (٢/ ٤٦٧)(١١٧٣) صحيح

الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ،لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ،وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا،وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» رواه مسلم[٣٢٨]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى سُرُوجٍ كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ،يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ،نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ،عَلَى رُءُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ،لَوْ كَانَ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ خَدَمَهُنَّ نِسَاؤُكُمْ،كَمَا خَدَمَكُمْ نِسَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ»[٣٢٩]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ :إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ الْمُنَزَّلِ صِنْفَيْنِ فِي النَّارِ :قَوْمٌ يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ لاَ يُدْخِلُونَ بُطُونَهُمْ إِلاَّ خَبِيثًا،وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلاَتٌ مُمِيلاَتٌ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا.[٣٣٠]

---

[٣٢٨] -صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٠)١٢٥ - (٢١٢٨)

[ش (صنفان الخ) هذا الحديث من معجزات النبوة فقد وقع هذان الصنفان وهما موجودان وفيه ذم هذين الصنفين(كاسيات عاريات) قيل معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارا لجمالها ونحوه وقيل معناه تلبس ثوبا رقيقا يصف لون بدنها(مميلات) قيل يعلمن غيرهن الميل وقيل مميلات لأكتافهن(مائلات) أي يمشين متبخترات وقيل مائلات يمشين المشية المائلة وهي مشية البغايا ومميلات يمشين غيرهن تلك المشية (البخت) قال في اللسان البخت والبختية دخيل في العربية أعجمي معرب وهي الإبل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج (والفالج البعير ذو السنامين وهو الذي بين البختي والعربي سمي بذلك لأن سنامه نصفان) الواحد بختي جمل بختي وناقة بختية ومعنى رؤسهن كأسنمة البخت أي يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها]

قَالَ الْقَاضِي:مَعْنَاهُ أَنَّهُنَّ لَا يَدْخُلْنَهَا وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا حِينَ مَا يَدْخُلُهَا وَيَجِدُ رِيحَهَا الْعَفَائِفُ الْمُتَوَرِّعَاتُ،لَا أَنَّهُنَّ لَا يَدْخُلْنَ أَبَدًا لِقَوْلِهِ ﷺفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ:(«وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ») ثَلَاثًا.أَقُولُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَحْمُولًا عَلَى الِاسْتِحْلَالِ،أَوِ الْمُرَادُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالتَّغْلِيظُ،وَيُمْكِنُ أَنَّهُنَّ لَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنْ دَخَلْنَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠٢)

[٣٢٩] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٣/ ٦٤)(٥٧٥٣) صحيح لغيره -

[٣٣٠] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢١/ ٣٤٨)(٣٨٨٩٧) صحيح ومثله لا يقال بالرأي،

قوله:"ينزلون"،أي:يحضرون المساجد راكبين.قوله:"كاسيات عاريات"،قال ابن الأثير:معنى الحديث أنهن كاسياتٌ من نعم الله،عاريات من الشكر،وقيل:هو أن يكشفن بعض جسدهن،ويُسدلن الخُمُر من ورائهن،فهن كاسيات كعاريات،وقيل:أراد أنهن يلبسن ثياباً رقاقاً يصفن ما تحتها من أجسامهن،فهن كاسيات في الظاهر،عاريات في المعنى.قوله:"كأسنمة البُخْت":قال

وعن أبي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالشُّحُّ،وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ،وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ،وَتَظْهَرَ ثِيَابٌ كَأَفْوَاجِ السَّحَرِ،يَلْبَسُهَا نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ،وَيَعْلُو التُّحُوتُ الْوُعُولَ " أَكَذَاكَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ سَمِعْتَهُ مِنْ حِبِّي رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ:نَعَمْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ،قُلْتُ:وَمَا التُّحُوتُ الْوُعُولَ؟ قَالَ:فُسُولُ الرِّجَالِ،وَأَهْلُ الْبُيُوتَاتِ الْغَامِضَةِ،يُرْفَعُونَ فَوْقَ صَالِحِيهِمْ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ "[٣٣١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّهُ قَالَ:«نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ،مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ،وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا،وَرِيحُهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ»[٣٣٢]

فإذا كان هذا الوعيد العظيم على التبرج والتمايل في المشي فكيف بالتمايل فيما هو أعظم فتنة كتمايل النساء بالرقص أمام الرجال في الأعراس وغيرها.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ،وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا،فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ،فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ،فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» رواه مسلم[٣٣٣].

كما جاءت الشريعة بالترغيب في النكاح لما يحصل فيه من غض البصر وحفظ الفرج،وعَنْ عَلْقَمَةَ،قَالَ:كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ،فَلَقِيَهُ عُثْمَانُ بِمِنًى،فَقَالَ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَخَلَوَا،فَقَالَ عُثْمَانُ:هَلْ لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي أَنْ نُزَوِّجَكَ بِكْرًا،تُذَكِّرُكَ مَا كُنْتَ تَعْهَدُ؟ فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ اللَّهِ أَنْ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى هَذَا أَشَارَ إِلَيَّ،فَقَالَ:يَا عَلْقَمَةُ،فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ

ابن الأثير:هُن اللواتي يتعممْن بالمقانع على رؤوسهن يُكبرها بها،وهو من شعار المُغنيات.والأسنمة جمع سنام.والبُخْت:جمال طوالُ الأعناق.مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٦٥٦)

[٣٣١] - شرح مشكل الآثار (١٠/ ٧٩)(٣٩٣٣) صحيح

[٣٣٢] - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٩١٣)(٧) صحيح -

[٣٣٣] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨)٩٩ - (٢٧٤٢) [ش (إن الدنيا حلوة خضرة) يحتمل أن المراد به شيئان أحدهما حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلبا حثيثا فكذا الدنيا والثاني سرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين (إن الله مستخلفكم فيها) أي جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم (فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) هكذا هو في جميع النسخ فاتقوا الدنيا ومعناه اجتنبوا الافتتان بها وبالنساء وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن وأكثرهن فتنة الزوجات لدوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن]

يَقُولُ:أَمَا لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ،لَقَدْ قَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ:«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ،وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» رواه البخاري ومسلم[٣٣٤].

ولحفظ النفس جاءت الشريعة بحرمة اعتداء المسلم على نفسه أو على أنفس الآخرين،ولهذا شرع الله تعالى القصاص في الأنفس والجراح والأطراف.ولحفظ المال جاءت الشريعة بحرمة الإسراف والتبذير وإضاعة المال،كما جاءت بحرمة الاعتداء على أموال الآخرين وعقوبة المعتدين بحد الحرابة،أو بحد السرقة،أو التعزير بحسب نوع العدوان.ولحفظ العقل جاءت الشريعة بتحريم الخمر،وإقامة الحد على من شربها،وجاءت بتحريم كل ما يسكر ويفتر كالمخدرات.

---

[٣٣٤] - صحيح البخاري (٧/ ٣)(٥٠٦٥) وصحيح مسلم (٢/ ١٠١٨)١ - (١٤٠٠)
[ش(بكرا) امرأة لم يسبق لها أن تزوجت.(تذكركم ما كنت تعهد) من نفسك من حيوية ونشاط]

ثالثا:تقوى الله في السِّرِّ والعلن:

جاءت الشريعة الإسلامية باستقامة المؤمنين،وتقواهم لله في السر والعلن،حيث يراقب المؤمن ربه في حركاته وسكناته وفي سره وجهره،وقد قال الله تعالى:{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس:٦١]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجمِيعِ أَحْوَالِ رَسُولِهِ وَأُمُورِهِ،سَوَاءٌ مِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌ بِهِ،أَوْ مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِشُؤُونِ الدَّعْوَةِ،وَأَنَّهُ لاَ يَتْلُو مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مِنْ قُرْآنٍ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ تَعَبُّداً وَتَهَجُّداً بِهِ،أَوْ تَبْلِيغاً لَهُ لِلنَّاسِ،وَلاَ يَقُومُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ،مِنَ المُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ،بِعَمَلٍ صَالِحٍ أَوْ غَيْرِ صَالِحٍ،كَبِيرٍ أَوْ صَغِيرٍ،إِلاَّ كَانَ اللهُ تَعَالَى رَقِيباً عَلَيْهِمْ فَيَحْفَظُهُ لَهُمْ،وَيَجْزِيهِمْ بِهِ،وَأَنَّهُ تَعَالَى لاَ يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيءٌ صَغُرَ أَوْ كَبُرَ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ،أَوْ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ،فَكُلُّ شَيءٍ مُحْصًى عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.[٣٣٥]

وقال تعالى:{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة:١]

يَقُولُ تَعَالَى:إِنَّهُ سَمِعَ شَكْوَى المَرْأَةِ التي جَاءَتْ تُرَاجِعُ النَّبِيَّ ﷺ فِي شَأْنِ زَوْجِهَا،وَتَبُثُّ شَكْوَاهَا إِلَى رَبِّهَا،وَهُوَ تَعَالَى يَسْمَعُ كُلَّ مَا تَتَرَاجَعَانِ بِهِ مِنَ الكَلاَمِ،وَهُوَ مُحِيطٌ سَمْعُهُ بِكُلِّ مَا يُسْمَعُ،وَمُحِيطٌ بَصَرُهُ بِكُلِّ مَا يُبْصَرُ.[٣٣٦]

وقال تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [المجادلة:٧]

وَكَيْفَ لاَ يَعْلَمُ اللهُ مَا عَمِلَ هَؤُلاَءِ،وَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَالِكُهُمَا،وَالمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا،وَيَعْلَمُ مَا فِيهِمَا،فَلا يَتَنَاجَى ثَلاَثَةٌ إِلاَّ كَانَ مَعَهُمْ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ،وَيَعْلَمُ مَا يُدَبِّرُونَ،وَلاَ

[٣٣٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٣٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٨٣،بترقيم الشاملة آليا)

يَجْتَمِعُ خَمْسَةٌ إِلاَّ وَيَكُونُ اللهُ تَعَالَى سَادِسَهُمْ،وَلاَ يَجْتَمِعُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ العَدَدِ وَلاَ أَقَلُّ،وَلاَ يَتَنَاجَوْنَ إِلاَّ كَانَ مَعَهُمْ يسْمَعُ وَيَرى،وَيُثْبِتُ ذَلِكَ عِنْدَهُ،ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُنَبِّئُهُمْ بِنَجْوَاهُمْ وَأَسْرَارِهِمْ،وَاللهُ تَعَالَى عَالِمٌ وَلاَ تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ تَصَرُّفَاتِ خَلْقِه.[٣٣٧]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ،وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا،وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» رواهُ التِّرْمذيّ[٣٣٨]

وعَن أَنَس،عَن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:ثَلاثٌ كَفَّارَاتٌ وَثَلاثٌ دَرَجَاتٌ وَثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ:فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ وَانْتِظَارُ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ:فَإِطْعَامُ الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل وَالنَّاسُ نِيَامٌ وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ:فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَشُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ.رواه البزار واللفظ له والبيهقي وغيرهما[٣٣٩]

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ،فَدَخَلَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ،فَصَلَّى صَلَاةً خَفَّفَهَا،فَمَرَّ بِنَا فَقِيلَ لَهُ:يَا أَبَا الْيَقْظَانِ،خَفَّفْتَ الصَّلَاةَ،قَالَ:أَوَ خَفِيفَةً رَأَيْتُمُوهَا؟ قُلْنَا:نَعَمْ،قَالَ:أَمَا إِنِّي قَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدُعَاءٍ قَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.ثُمَّ مَضَى،فَأَتْبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ،قَالَ عَطَاءٌ:اتَّبَعَهُ أَبِي – وَلَكِنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَقُولَ اتَّبَعْتُهُ – فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ،ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْبَرَهُمْ بِالدُّعَاءِ:«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ،وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ،أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي،وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي،اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ،وَكَلِمَةَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا،وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الفَقْرِ وَالْغِنَى،وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَبِيدُ،وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ،وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ،وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ،وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ

---

[٣٣٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٨٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٣٨] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٥٥)(١٩٨٧) حسن

[٣٣٩] – مسند البزار = البحر الزخار (١٣/ ١١٤)(٦٤٩١) والترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين (ص:١٨)(٣٣) والترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين (ص:١٥١)(٥٢٥) وشعب الإيمان (٢/ ٢٠٣)(٧٣١) وطبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها (٢/ ٦٠)حسن لغيره

إِلَى وَجْهِكَ،وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ،فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ،وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ،اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ،وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[340].

وعَنْ ثَوْبَانَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّهُ قَالَ:«لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا،فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا»،قَالَ ثَوْبَانُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا،جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ،وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ،قَالَ:«أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ،وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ،وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ،وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا» رواه ابن ماجه[341].

ومن ضعف إيمانه،ورق خوفه من عذاب الله،وارتكب المحرمات و لم يردعه الإيمان،فيردع ويكف بالحدود والعقوبات الشرعية،وقد قال تعالى:{وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } [الإسراء:٨٠]

يُعَلِّمُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ دُعَاءً يَدْعُوهُ بِهِ هُوَ وَأُمَّتُهُ،وَهُوَ أَنْ يَقُولَ:رَبِّ أَدْخِلْنِي فِي كُلِّ مَقَامٍ تُرِيدُ إِدْخَالِي فِيهِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ مُدْخَلاً صَادِقاً،أَيْ يَسْتَحِقُّ الدَّاخِلُ فِيهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَنْتَ صَادِقٌ فِي قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ،وَأَخْرِجنِي مِنْ كُلِّ مَا تُخْرِجُنِي مِنْهُ مُخْرَجَ صِدْقٍ،أَيْ يَسْتَحِقُّ الخَارِجُ مِنْهُ أَنْ يُقَالَ لَهُ:أَنْتَ صَادِقٌ،وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُ سُلْطَاناً وَهَيْبَةً وَقُوَّةَ حُجَّةٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ،يَسْتَعْلِي بِهَا عَلَى سُلْطَانِ أَهْلِ الأَرْضِ،وَقُوَّةِ المُشْرِكِينَ،وَيَنْصُرُ بِهَا كَلِمَةَ اللهِ،وَكُتُبَهُ وَحُدُودَهُ،وَفَرَائِضَهُ.فَحِينَمَا ائْتَمَرَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بِالرَّسُولِ ﷺ فِي مَكَّةَ،أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بِالخُرُوجِ إِلَى المَدِينَةِ،وَعَلَّمَ نَبِيَّهُ هذَا الدُّعَاءَ،لِيَدْعُوهُ حِينَ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ،وَحِينَ دُخُولِهِ إِلَى المَدِينَةِ.[342]

وقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} [الإسراء:٨٠] «فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُخْرَجَ صِدْقٍ،وَأَدْخَلَهُ الْمَدِينَةَ مُدْخَلَ صِدْقٍ»،قَالَ:«وَنَبِيُّ اللَّهِ ﷺ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا

---

[340] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٥/ ٣٠٥)(١٩٧١) صحيح

[341] - سنن ابن ماجه (٢/ ١٤١٨)(٤٢٤٥) صحيح

[342] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١١٠،بترقيم الشاملة آليا)

الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ،فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ اللَّهِ وَحُدُودِ اللَّهِ،وَلِفَرَائِضِ اللَّهِ،وَلِإِقَامَةِ كِتَابِ اللَّهِ،وَأَنَّ السُّلْطَانَ عِزَّةٌ مِنَ اللَّهِ جَعَلَهُ بَيْنَ أَظْهُرِ عِبَادِهِ،وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،وَأَكَلَ شَدِيدُهُمْ ضَعِيفَهُمْ»[343]

وأخرج الإمام ابن جرير عَنِ الْحَسَنِ،فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:{وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء:٨٠] يُوعِدُهُ لَيَنْزِعَنَّ مُلْكَ فَارِسَ،وَعِزَّ فَارِسَ،وَلَيَجْعَلَنَّهُ لَهُ.وَعِزَّ الرُّومِ،وَمُلْكَ الرُّومِ،وَلَيَجْعَلَنَّهُ لَهُ"[344]

وقال الإمام ابن جرير "ذَلِكَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ بِالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُؤْتِيَهُ سُلْطَانًا نَصِيرًا لَهُ عَلَى مَنْ بَغَاهُ وَكَادَهُ،وَحَاوَلَ مَنْعَهُ مِنْ إِقَامَتِهِ فَرَائِضَ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ وَعِبَادِهِ.وَإِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ،لِأَنَّ ذَلِكَ عَقِيبَ خَبَرِ اللَّهِ عَمَّا كَانَ الْمُشْرِكُونَ هَمُّوا بِهِ مِنْ إِخْرَاجِهِ مِنْ مَكَّةَ،فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ عُوجِلُوا بِالْعَذَابِ عَنْ قَرِيبٍ،ثُمَّ أَمَرَهُ بِالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِخْرَاجَ صِدْقٍ يُحَاوِلُهُ عَلَيْهِمْ،وَيُدْخِلُهُ بَلْدَةً غَيْرَهَا،بِمُدْخَلِ صِدْقٍ يُحَاوِلُهُ عَلَيْهِمْ وَلِأَهْلِهَا فِي دُخُولِهَا إِلَيْهَا،وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُ سُلْطَانًا نَصِيرًا عَلَى أَهْلِ الْبَلْدَةِ الَّتِي أَخْرَجَهُ أَهْلُهَا مِنْهَا،وَعَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ لَهُمْ شَبِيهًا،وَإِذَا أُوتِيَ ذَلِكَ،فَقَدْ أُوتِيَ لَا شَكَّ حُجَّةً بَيِّنَةً"[345]

وقال ابن كثير رحمه الله:"وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ قَوْلَ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ،وَهُوَ الْأَرْجَحُ؛لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ قَهْرٍ لِمَنْ عَادَاهُ وناوأه.[346]

وقال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد:٢٥]

لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالحُجَجِ الدَّالَّةِ عَلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنَ اللهِ إِلَى أَقْوَامِهِمْ،وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الكُتُبَ وَالشَّرَائِعَ،فِيهَا الهِدَايَةُ لِلنَّاسِ،وَفِيهَا صَلاَحُ أُمُورِهِمْ،وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ

---

[343] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٤)(٤٢٦٠) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ٥١٧) صحيح

[344] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٥/ ٥٨) صحيح

[345] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٥/ ٥٩)

[346] -تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١١١)

يَتَعَامَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالعَدْلِ،وَبِأَلاَّ يَظْلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَداً.وَلَمَّا كَانَ لاَ بُدَّ لإِقَامَةِ العَدْلِ مِنْ سُلْطَةٍ وَقُوَّةٍ وَسِلاَحٍ،لِذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الحَدِيدَ تُصْنَعُ مِنْهُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ والدُّرُوعُ وَعُـدَدُ الحُرُوبِ،التِي تَرْدَعُ مَنْ يَتَجَاوَزُ الحُدُودَ،وَيَأْبَى إِقَامَةَ العَدْلِ،بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.كَمَا جَعَـلَ اللهُ فِي الحَدِيدِ مَنَافِعَ لِلنَّـاسِ،يَنْتَفِعُونَ بِـهِ فِـي أُمُـورِ دُنْيَاهُمْ،وَمَعَايِشِـهِمْ،كَأَدَوَاتِ العَمَـلِ وَالحَرْثِ...وَالسَّلاَحِ والسُّفُنِ...وَإِنَّمَا فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ مَنْ يَنْوِي اسْتِعْمَالَ السِّلاَحِ فِي نَصْرِ دِينِ اللهِ،وَمَنْ يَنْوِي اسْتِعْمَالَهُ فِي الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَاللهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْـرِ احْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى الخَلْقِ،وَإِنَّمَا شَرَعَ الجِهَادَ لِيَبْلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.[347]

فمن لم يقوِّمه الكتاب قوّم بالحديد،وقال تعالى:{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة:٢٥١]

وَلَوْلا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بَأسَ أَهْلِ البَغْيِ وَالجَـوْرِ وَالآثَامِ،بِأَهْـلِ الصَّـلاَحِ وَالخَيْرِ،لِغَلَـبَ أَهْـلَ الفَسَادِ،وَبَغَوْا عَلَى الصَّالِحِينَ،وَصَارَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فَفَسَدَتِ الأَرْضُ،فَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ أنْ أذنَ لِلْمُصْلِحِينَ بِقِتَالِ البُغَاةِ المُفْسِدِينَ.وَاللهُ يَمُنُّ عَلَى عِبَادِهِ وَيَرْحَمُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ،وَلَـهُ الحِكْمَـةُ وَالحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.[348]

وعن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ:أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:«لَمَا يَزَعُ السُّلْطَانُ النَّاسَ أَشَدُّ مِمَّا يَزَعُهُمُ الْقُرْآنُ»[349]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،يَقُولُ:لما يزع اللَّه بالسلطان أعظـم ممـا يـزع بالقرآن[350].

فجمعت الشريعة بين الردع بالقرآن والردع بالسلطان،قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله" وَلَكِنْ فِي بَعْضِ فَوَائِدِ الْعُقُوبَاتِ الْمَشْرُوعَةِ فِي الدُّنْيَا ضَبْطُ الْعَوَامِّ.كَمَا قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عفان –

---

[347] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٧٨،بترقيم الشاملة آليا)

[348] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

[349] – تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٩٨٨) فيه انقطاع – (يَزَع):وزع يزع:إذا كف وردع.

[350] – تاريخ بغداد ت بشار (٥/ ١٧٢) وسنده ضعيف جدا –

وفي تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١١١) وَفِي الْحَدِيثِ:"إِنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ" أَيْ:لَيَمْنَعُ بِالسُّلْطَانِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْآثَامِ،مَا لَا يَمْتَنِعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ،وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْأَكِيدِ،وَالتَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ،وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:" إنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ " فَإِنَّ مَنْ يَكُونُ مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَالْفُجَّارِ فَإِنَّهُ يَنْزَجِرُ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ الْعُقُوبَاتِ وَيَنْضَبِطُ عَنْ انْتِهَاكِ الْمُحَرَّمَاتِ فَهَذَا بَعْضُ فَوَائِدِ الْعُقُوبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ الْمَشْرُوعَةِ.."[٣٥١]

وأما القوانين الوضعية فيتظاهر أتباعها بالتمسك بها علنا،وأما في السِّر والخفاء فيخالفونها،ويحتالون بأنواع الحيل على تحاوزها،ولهذا عمت الجريمةُ والفساد في مجتمعاتهم،و لم تستطع قوانينهم وتقنياتهم الحديثة تحقيق الأمن لهم،وردع المجرمين[٣٥٢].

رابعا:أن الشريعة جاءت بما فيه سعادة العباد في الدنيا والآخرة:

فالشريعة جاءت بما فيه سعادة العباد وفلاحهم في الدنيا والآخرة،كما قال تعالى:{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:٩٧]

مَنْ عَمِلَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةَ،وَقَامَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ،وَهُوَ مُؤْمِنٌ باللهِ،مُصَدِّقٌ كُتُبَهُ وَرُسُلَهُ،فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعِدُهُ بِأَنْ يُحْيِيَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً،تَصْحَبُهَا القَنَاعَةُ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ،وَالرِّضَا بِمَا قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ،إِذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ رِزْقٍ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ بِتَدْبِيرِ اللهِ تَعَالَى وَقِسْمَتِه،وَاللهُ مُحْسِنٌ كَرِيمٌ،لاَ يَفْعَلُ إِلاَّ مَا فِيهِ المَصْلَحَةُ،وَفِي الآخِرَةِ يَجْزِيهِ اللهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى،وَيُثِيبُهُ أَحْسَنَ الثَّوَابِ،جَزَاءَ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ،وَمَا تَحَلَّى بِهِ مِنْ إِيمَانٍ.[٣٥٣]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ،وَأَوْفَى بِعُهُودِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى مِنْ بَنِي آدَمَ {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [النساء:٩٢] يَقُولُ:وَهُوَ مُصَدِّقٌ بِثَوَابِ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ أَهْلَ طَاعَتِهِ عَلَى الطَّاعَةِ،وَبِوَعِيدِ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ،{فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل:٩٧] .وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الَّذِي عَنَى اللَّهُ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي وَعَدَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَنْ يُحْيِيهِمُوهَا،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:عَنَى أَنَّهُ يُحْيِيهِمْ فِي الدُّنْيَا مَا عَاشُوا فِيهَا بِالرِّزْقِ الْحَلَالِ،وَقَالَ آخَرُونَ:{فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً

---

[٣٥١] - مجموع الفتاوى (١١/ ٤١٦)

[٣٥٢] - انظر كتاب التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي للشهيد عبد القادر عودة رحمه الله

[٣٥٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٩٨،بترقيم الشاملة آليا)

طَيِّبَةً} [النحل:٩٧] بِأَنْ نَرْزُقَهُ الْقَنَاعَةَ،وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ يَعْنِي بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ الْحَيَاةَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ عَامِلًا بِطَاعَتِهِ،وَقَالَ آخَرُونَ:الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ السَّعَادَةُ،وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ:الْحَيَاةُ فِي الْجَنَّةِ....

وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ:تَأْوِيلُ ذَلِكَ:فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً بِالْقَنَاعَةِ،وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا قَسَمَ لَهُ مِنْ رِزْقٍ لَمْ يَكْثُرْ لِلدُّنْيَا تَعَبُهُ،وَلَمْ يَعْظُمْ فِيهَا نَصَبُهُ،وَلَمْ يَتَكَدَّرْ فِيهَا عَيْشُهُ بِاتِّبَاعِهِ بُغْيَةَ مَا فَاتَهُ،مِنْهَا وَحِرْصُهُ عَلَى مَا لَعَلَّهُ لَا يُدْرِكُهُ فِيهَا.وَإِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ أَوْلَى التَّأْوِيلَاتِ فِي ذَلِكَ بِالْآيَةِ،لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَوْعَدَ قَوْمًا قَبْلَهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ إِنْ عَصَوْهُ أَذَاقَهُمُ السُّوءَ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ،فَقَالَ تَعَالَى:{وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا،وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [النحل:٩٤] فَهَذَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا،وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ،فَهَذَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ مَا لِمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَطَاعَهُ فَقَالَ تَعَالَى:مَا عِنْدَكُمْ فِي الدُّنْيَا يَنْفَدُ،وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ،فَالَّذِي أَوْعَدَ أَهْلَ الْمَعَاصِي بِإِذَاقَتِهِمْ هَذِهِ السَّيِّئَةَ بِحِكْمَتِهِ أَرَادَ أَنْ يُعَقِّبَ ذَلِكَ الْوَعْدَ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ بِالْإِحْسَانِ فِي الدُّنْيَا،وَالْغُفْرَانِ فِي الْآخِرَةِ،وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى ذِكْرُهُ.وَأَمَّا الْقَوْلُ الَّذِي رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ الرِّزْقُ الْحَلَالُ،فَهُوَ مُحْتَمَلٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ،مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى يُقْنِعُهُ فِي الدُّنْيَا بِالَّذِي يَرْزُقُهُ مِنَ الْحَلَالِ وَإِنْ قَلَّ،فَلَا تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَى الْكَثِيرِ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ،لَا أَنَّهُ يَرْزُقُهُ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَلَالِ،وَذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ الْعَامِلِينَ لِلَّهِ تَعَالَى بِمَا يَرْضَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ لَمْ نَرَهُمْ رُزِقُوا الرِّزْقَ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَلَالِ فِي الدُّنْيَا،وَوَجَدْنَا ضِيقَ الْعَيْشِ عَلَيْهِمْ أَغْلَبَ مِنَ السَّعَةِ.وَقَوْلُهُ:{وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل:٩٧] فَذَلِكَ لَا شَكَّ أَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ،وَكَذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ"[٣٥٤]

إن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال.فقد تكون به،وقد لا يكون معها.وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية:فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه.وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة،وسكن البيوت ومودات القلوب.وفيها الفرح

[٣٥٤] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٣٥٠) فما بعدها

بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة ..وليس المال إلا عنصرا واحدا يكفي منه القليل،حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله.وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة.وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا،ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات.فما أكرمه من جزاء!.[355]

وقال تعالى:{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران:١٤٦ - ١٤٨]

فِي هَذِهِ الآيَةِ يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَمَّا وَقَعَ فِي نُفُوسِهِمْ يَوْمَ أحُد،فَقَالَ لَهُمْ:كَمْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ وَهُوَ يُقَاتِلُ،وَكَانَ مَعَه جَمَاعَات كَثِيرَةٌ (رِبِّيُّونَ) مِمَّنْ آمَنُوا بِهِ،وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ،فَمَا وَهنُوا،وَمَا ضَعُفُوا بَعْدَ قَتْلِ النَّبِيِّ،وَمَا اسْتَكَانُوا،وَمَا استَذَلُّوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَفِي سَبِيلِ إعْلاَءِ دِينِهِ،وَإِنَّمَا صَبَرُوا عَلَى قِتَالِ الأَعْدَاءِ،وَلَمْ يَهْرُبُوا مُوَلِّينَ الأَدْبَارَ،لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ فِي سَبِيلِ نَبِيِّهِمْ،فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ أنْ تَعْتَبِرُوا بأولَئِكَ الرِّبِّيِّينَ،وَتَصْبِرُوا كَمَا صَبَرُوا فَإِنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ،وَسُنَّتَهُ فِي خَلْقِهِ وَاحِدَةٌ.

فَاحْتَسَبَ هَؤُلاءِ المُؤْمِنُونَ (الرِّبِّيُّونَ) اللهَ عِنْدَ اشْتِدَادِ الخَطْبِ،وَهُمْ يُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَهُمْ،وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَوْلٍ عِنْدَ نُزُولِ الكَوَارِثِ إلاَ الدُّعَاءُ إِلَى اللهِ أنْ يَغْفِرَ لَهُمْ بِجِهَادِهِمْ مَا كَانُوا أَلَمُّوا بِهِ مِنْ ذُنُوبٍ،وَتَجَاوُزَوا فِيهِ حُدُودَ الشَّرَائِعِ،وَأن يُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ القَوِيمِ،حَتَّى لا تُزَحْزِحَهُم الفِتَنُ،وَلاَ يَعْرُوهُمُ الفَشَلُ حِينَ مُقَابَلَةِ الأعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الحَرْبِ.

فَآتَاهُمُ اللهُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى الأَعْدَاءِ،وَهُمَا ثَوَابُ الدُّنْيا،وَجَمَعَ لَهُمْ،إِلَى ذَلِكَ الظَّفَرِ،حُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ،وَهُوَ الفَوْزُ بِرُضْوَانِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ،وَاللهُ يُحِبُّ الذِينَ يُحْسِنُونَ العَمَلَ،لأَنَّهُمْ يُقِيمُونَ سُنَّتَهُ فِي أَرْضِهِ،وَيُظْهِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ جَدِيرُونَ بِخِلاَفَةِ اللهِ فِيهَا.[356]

---

[355] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨٥٩) - كله

[356] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٩،بترقيم الشاملة آليا)

فإن القلوب فطرت على عبودية الله والاطمئنان بذكره،وإذا ابتعدت القلوب عـــن عبوديـــة الله،استولت عليه الشياطين،وأحاطت بها الهموم والضنك في الدنيا،ثم مصير أصحابها إلى الشقاء في الآخرة،كما قال تعالى:{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧)} [الزخرف:٣٦،٣٧]

وَمَنْ يَتَغَافَلْ وَيَتَعَامَ عَنِ القُرْآنِ،وَعَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى،وَيَنْهَمك فِـــي المَعَاصِـــي،وَلَذَّاتِ الـــدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا..فَإِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ فَيَكُونُونَ لَهُ قُرْنَاءَ،يُزَيِّنُونَ لَـــهُ ارْتِكَـــابَ المَعَاصِي،وَالاشْتِغَالَ بِاللَّذَّاتِ،فَيَسْتَرْسِلُ فِيهَا فَيَحِقُّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللهِ وَعِقَابُهُ.

وَهَؤُلاَءِ القُرنَاءُ من شَيَاطِينِ الإِنْسِ والجِنِّ،الذينَ يُقَيِّضُهُم اللهُ لكُلِّ مَنْ يَعْشُـــوا عَـــنْ ذِكْـــرِ الرَّحْمَنِ،يُحَاوِلُونَ صَرْفَهُ عَنِ الحَقِّ إِلَى البَاطِلِ،وَيُوسْوِسُونَ لَهُ أَنَّهُ عَلَى جَادَّةِ الهُـــدَى والحَـــقِّ والصَّوَابِ،وَأَنَّ غَيْرَهُ عَلَى البَاطِلِ،وَيُكَرِّهُونَ إِلَيه الإِيْمَانَ فَيُطِيعُهُمْ.[٣٥٧]

وقال تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِـــذِكْرِ اللَّـــهِ تَطْمَـــئِنُّ الْقُلُـــوبُ} [الرعد:٢٨]

هؤلاَءِ الذينَ يَهْدِيهِمُ اللهُ هُمُ المُؤْمِنُونَ،الذينَ آمَنُوا باللهِ،وَتَطِيبُ قُلُوبُهُمْ،وَتَهْـــدَأُ إِلَـــى جَانِـــبِ اللهِ،وَتَسْكُنُ عِنْدَ ذِكْرِهِ،وَتَرْضَى بِهِ مَوْلًى وَنَاصِراً.وَفِي الحَقِيقَةِ إِنَّ القُلُـــوبَ المُؤْمِنَـــةَ تَطْمَـــئِنُّ وَتَسْكُنُ وَتَهْدَأُ عِنْدَ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى.[٣٥٨]

تطمئن بإحساسها بالصلة بالله،والأنس بجواره،والأمن في جانبه وفي حماه.تطمئن مـــن قلـــق الوحدة،وحيرة الطريق.بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير.وتطمئن بالشعور بالحماية مـــن كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء،مع الرضـــى بـــالابتلاء والصـــبر علـــى البلاء.وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة:«أَلا بِذِكْرِ اللَّـــهِ تَطْمَـــئِنُّ الْقُلُوبُ» ..ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطـــت بشاشة الإيمان قلوبهم،فاتصلت بالله.يعرفونها،ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخـــرين الذين لم يعرفوها،لأنها لا تنقل بالكلمات،إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها وينـــدى

---

[٣٥٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٤٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٥٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام،ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفردا بلا أنيس.فكل ما حوله صديق،إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه.وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله.ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون،لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون.ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود.ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا في فلاة،عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين.

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله،مطمئنا إلى حماه،مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد ..ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله،فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله:«أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» ..[٣٥٩]

وقال تعالى:{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)} [طه:١٢٣ - ١٢٧]

قال الله تعالى لآدم وحواء:اهبطا من الجنة إلى الأرض جميعًا مع إبليس،فأنتما وهو أعداء،فإن يأتكم مني هدى وبيان فمن اتبع هداي وبياني وعمل بهما فإنه يرشد في الدنيا،ويهتدي،ولا يشقى في الآخرة بعقاب الله.

ومن تولَّى عن ذكري الذي أذكِّره به فإن له في الحياة الأولى معيشة ضيِّقة شاقة -وإن ظهر أنه من أهل الفضل واليسار-،ويُضيَّق قبره عليه ويعذَّب فيه،ونحشره يوم القيامة أعمى عن الرؤية وعن الحجة.

قال المعرِض عن ذكر الله:ربِّ لِمَ حَشَرْتني أعمى،وقد كنت بصيرًا في الدنيا؟

---

[٣٥٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٧٠٧)

قال الله تعالى له:حشرتك أعمى؛ لأنك أتتك آياتي البينات،فأعرضت عنها،و لم تؤمن بها،وكما تركتَها في الدنيا فكذلك اليوم تُترك في النار.

وهكذا نعاقب مَن أسرف على نفسه فعصى ربه،و لم يؤمن بآياته بعقوبات في الدنيا،ولَعــذاب الآخرة المعدُّ لهم أشد ألمًا وأدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي.[360]

«فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى» ..فهو في أمان من الضلال والشقاء باتبــاع هــدى الله.وهما ينتظران خارج عتبات الجنة.ولكن الله يقي منهما من اتبع هداه.والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقا في المتاع.فهذا المتاع ذاته شقوة.شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة.وما من متاع حرام،إلا وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه.وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع مــن طــرف إلى طــرف لا يســتقر ولا يتــوازن في خطاه.والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء.ومــن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض،وفي ذلك عوض عــن الفــردوس المفقود،حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود.

«وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً» والحياة المقطوعــة الصــلة بــالله ورحمتــه الواسعة،ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع.إنه ضنك الانقطــاع عــن الاتصــال بــالله والاطمئنان إلى حماه.ضنك الحيرة والقلق والشك.ضنك الحرص والحذر:الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت.ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت.ومــا يشــعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله.وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بــالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ..إن طمأنينة الإيمان تضــاعف الحيــاة طــولا وعرضــا وعمقــا وسعة،والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان.

«وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي» وانقطع عن الاتصال بي «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً» ..«وَنَحْشُرُهُ يَــوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» ..وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا.وذلك جزاء على إعراضه عن الــذكر في الأولى.حتى إذا سأل:«رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً؟ » كان الجواب:«كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى.وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْــرَفَ وَلَــمْ يُــؤْمِنْ بِآيــاتِ

[360] – التفسير الميسر (١/ ٣٢٠)

رَبِّهِ.وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى»! ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه.أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر،وأسرف في انفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئا.فلا جرم يعيش معيشة ضنكا! ويحشر في يوم القيامة أعمى! اتساق في التعبير.واتساق في التصوير ..هبوط من الجنة وشقاء وضلال،يقابله عودة إلى الجنة ونجوة من الشقاء والضلال.وفسحة في الحياة يقابلها الضنك،وهداية يقابلها العمى ..[٣٦١]

وقد أخرج ابن جرير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ،وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ،ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ:{فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه:١٢٣][٣٦٢] .

خامساً:موافقة الشريعة للفطرة:

من مزايا الشريعة الإسلامية موافقتها للفطرة،فهي لا تتعارض مع الفطرة السليمة،ما دام أن الإنسان باق على أصل فطرته و لم تتغير فطرته و لم تنحرف،وأما إذا تغيرت فطرته بسبب المؤثرات المحيطة به ففي هذه الحالة يعارض بعقله الفاسد الشريعة ويخالفها وينفر منها،وقد قال تعالى:{ { فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)} [المدثر:٤٩ - ٥٣]

فَمَا لِهَؤُلاَءِ الُمشْرِكِينَ مُعْرِضِينَ عَنِ القُرْآنِ الذي يُذَكِّرُهُم الرَّسُولُ بِهِ،وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ؟

كَأَنَّهُمْ،فِي نِفَارِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الحَقِّ،حُمُرُ وَحْشٍ تَفِرُ نَافِرَةً.تَفِرُّ مِنْ أَسَدٍ يُرِيدُ صَيْدَهَا.

وَقَدْ بَلَغَ بِهِم العِنَادُ حَدّاً لاَ تَنْفَعُ مَعَهُ التِّذْكِرَةُ،إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مَفْتُوحٌ مِنَ السَّمَاءِ،مُوَجَّهٌ إِلَيْهِ،يُخْبِرُهُ اللهُ فِيهِ أَنَّ مُحَمَّداً صَادِقٌ فِي رِسَالَتِهِ إِلَيْهِمْ.

---

[٣٦١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٥٨)

[٣٦٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٦/ ١٩١) صحيح

وَيُوَبِّخُهُمْ اللهُ تَعَالَى،وَيَزْجُرُهُمْ عَلَى اقْتِرَاحِهِمْ إِنْزَالَ صُحُفٍ مُنَشَّرَةٍ إِلَيْهِمْ،وَيَقُولُ لَهُمْ:إِنَّهُمْ لَنْ يُؤْتَوْا هَذِهِ الصُّحُفَ المُنَشَّرَةَ،وَإِنَّ الذي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا الاقْتِرَاحِ هُوَ أَنَّهُمْ لاَ يُصَدِّقُونَ بِالآخِرَةِ،وَلاَ يَخَافُونَ أَهْوَالَهَا،وَمِنْ ثَمَّ أَعْرَضُوا عَنِ التَّأَمُّلِ فِي تِلْكَ المُعْجِزَاتِ.[٣٦٣]

فهذا الإعراض،والنفور،والفرار عن الحق هو بسبب تغير الفطرة عن أصل خلقتها،وقد قال تعالى:{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم:٣٠]

فَوَجِّهْ وَجْهَكَ إِلى الدِّينِ شَرَعَهُ اللهُ لَكَ،وَهُوَ الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبراهِيمَ التِي هَدَاكَ اللهُ إليها،وَفَطَرَكَ عَليها،كَمَا فَطَرَ الخَلْقَ عَلَيهَا،وبهذه الفطرِ السَّلِيمة يَهْتَدي البَشَرُ إلى مَعرفَةِ رَبِّهِمْ وخَالقِهِمْ تَعَالى وَتَقَدَّسَ،وأَنَّهُ وَاحِدٌ لا شَرِيكَ لهُ.وَقَدْ سَاوَى اللهُ تَعَالى بينَ خَلْقه كُلِّهِمْ فِي الفِطْرَةِ،لا تَفَاوُتَ بينَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ،وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مَعْنَى (لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) :إن ذَلكَ يَعني لاَ تَبديلَ لدينِ اللهِ.ثُمَّ قَالَ تَعالى:إنَّ التّمَسُّكَ بالشَّرِيعَةِ،وبالفِطْرَةِ السَّلِمَةِ،هُوَ الدِّينُ القَيِّمُ المُستَقِيمُ،وَلكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فَهُمْ عَنْهُ نَاكِبُونَ.[٣٦٤]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ،فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ،كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ،هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»،ثُمَّ يَقُولُ:{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ} [الروم:٣٠] رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.[٣٦٥]

فإن النفوس فطرت على الطمأنينة بالحق ومعرفته،كما جاء عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ،قَالَ:سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ:«الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ،وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ،وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» رواه مسلم[٣٦٦].

---

[٣٦٣] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٤٢٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٦٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٢١،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٦٥] - صحيح البخاري (٦/ ١١٤)(٤٧٧٥) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧)٢٢ - (٢٦٥٨)

[٣٦٦] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠)١٤ - (٢٥٥٣)

وعَنْ وَابِصَةَ الأَسَدِيِّ،قَالَ :أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لاَ أَدَعَ شَيْئًا مِنَ الْبِرِّ وَالإِثْمِ إِلاَّ سَأَلْتُهُ عَنْهُ،وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَفْتُونَهُ،فَجَعَلْتُ أَتَخَطَّاهُمْ،فَقَالُوا :إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ،فَقُلْتُ :دَعُونِي فَأَدْنُوَ مِنْهُ،فَإِنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ،قَالَ :دَعُوا وَابِصَةَ،ادْنُ يَا وَابِصَةُ مَرَّتَيْنِ،أَوْ ثَلاَثًا،قَالَ :فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ،فَقَالَ :يَا وَابِصَةُ أُخْبِرُكَ أَمْ تَسْأَلُنِي ؟ قُلْتُ :لاَ،بَلْ أَخْبِرْنِي،فَقَالَ :جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ :نَعَمْ،فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدْرِي،وَيَقُولُ :يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ،وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ،الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ،وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ،وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ،وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ.رواهُ أحمدُ،والدَّارَمِيُّ[٣٦٧]

وعَنْ أَبِي الحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ،قَالَ:قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ:مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ:حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ،فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ،وَإِنَّ الكَذِبَ رِيبَةٌ» رواهُ الترمذي وغيره[٣٦٨]

قال ابن رجب رحمه الله " وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ يَرْجِعُ إِلَى الْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ وَاتِّقَائِهَا،فَإِنَّ الْحَلَالَ الْمَحْضَ لَا يَحْصُلُ لِمُؤْمِنٍ فِي قَلْبِهِ مِنْهُ رَيْبٌ - وَالرَّيْبُ:بِمَعْنَى الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ - بَلْ تَسْكُنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ،وَيَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ،وَأَمَّا الْمُشْتَبِهَاتُ فَيَحْصُلُ بِهَا لِلْقُلُوبِ الْقَلَقُ وَالِاضْطِرَابُ الْمُوجِبُ لِلشَّكِّ....

وَقَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذَا عَلَى أَنَّ الْخُرُوجَ مِنِ اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ أَفْضَلُ،لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الشُّبْهَةِ،وَلَكِنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ عَلَى إِطْلَاقِهِ....

وَقَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى:" «إِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ» " يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الِاعْتِمَادُ عَلَى قَوْلِ كُلِّ قَائِلٍ كَمَا قَالَ فِي حَدِيثِ وَابِصَةَ:" «وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ» " وَإِنَّمَا

[ش (البر) قال العلماء البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق (حاك) أي تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر وحصل في القلب منه الشك وخوف كونه ذنبا]

[٣٦٧] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٦/ ١٧٣)(١٨٠٠٦) ١٨١٦٩- ومسند أبي يعلى الموصلي (٣/ ١٦٠)(١٥٨٦) والمعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ١٤٨)(٤٠٣) وسنن الدارمي (٣/ ١٦٤٩)(٢٥٧٥) حسن

[٣٦٨] - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ١١٧)(٥٢٠١) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٨)(٢٥١٨) صحيح

يُعْتَمَدُ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ الصِّدْقَ،وَعَلَامَةُ الصِّدْقِ أَنَّهُ تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ،وَعَلَّامَةُ الْكَذِبِ أَنَّهُ تَحْصُلَ بِهِ الرِّيبَةُ،فَلَا تَسْكُنُ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ،بَلْ تَنْفِرُ مِنْهُ."[٣٦٩]

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:أَيْ:مَا اعْتَرَضَ لَكَ الشَّكُّ فِيهِ مُنْقَلِبًا عَنْهُ إِلَى مَا لَا شَكَّ فِيهِ،يُقَالُ:دَعْ ذَلِكَ إِلَى ذَلِكَ أَيِ:اسْتَبْدِلْهُ بِهِ.اهـ.وَالْمَعْنَى:اتْرُكْ مَا تَشُكُّ فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ أَنَّهُ نَهْيٌ عَنْهُ أَوَّلَا أَوْ سُنَّةٌ أَوْ بِدْعَةٌ،وَأَعْدِلْ إِلَى مَا لَا تَشُكُّ فِيهِ مِنْهُ،وَالْمَقْصُودُ أَنْ يَبْنِيَ الْمُكَلَّفُ أَمْرَهُ عَلَى الْيَقِينِ الْبَحْتِ وَالتَّحْقِيقِ الصِّرْفِ،وَيَكُونُ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ (فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ) :بِفَتْحِ الْكَافِ وَكَسْرِ الذَّالِ،وَفِي نُسْخَةِ السَّيِّدِ ضَبَطَهُ بِكَسْرِ الْكَافِ وَسُكُونِ الذَّالِ،وَالْأَوَّلُ هُوَ الْأَفْصَحُ الْوَاقِعُ فِي الْقُرْآنِ وَالثَّانِي لُغَةٌ،وَقَدْ يُقَالُ:إِنَّهُ إِذَا قُوبِلَ بِالصِّدْقِ فَهُوَ أَوْلَى لِحُسْنِ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَهُمَا،(رِيبَةٌ) بِكَسْرِ الرَّاءِ وَحَقِيقَتُهَا قَلَقُ النَّفْسِ وَاضْطِرَابُهَا،فَإِنَّ كَوْنَ الْأَمْرِ مَشْكُوكًا فِيهِ مِمَّا يَقْلَقُ لَهُ النَّفْسُ،وَكَوْنُهُ صَحِيحًا صَادِقًا مِمَّا تَطْمَئِنُّ لَهُ،وَمِنْهُ رَيْبُ الْمَنُونِ أَيْ مَا يُقْلِقُ النُّفُوسَ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ،وَقِيلَ الْمَوْتُ هَذَا،وَقَدْ قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:جَاءَ هَذَا الْقَوْلُ مُمَهِّدًا لِمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكَلَامِ،وَمَعْنَاهُ إِذَا وَجَدْتَ نَفْسَكَ تَرْتَابُ فِي الشَّيْءِ فَاتْرُكْهُ،فَإِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَطْمَئِنُّ إِلَى الصِّدْقِ وَتَرْتَابُ مِنَ الْكَذِبِ،فَارْتِيَابُكَ فِي الشَّيْءِ مُنْبِئٌ عَنْ كَوْنِهِ بَاطِلًا أَوْ مَظَنَّةً لِلْبَاطِلِ فَاحْذَرْهُ،وَاطْمِئْنَانُكَ إِلَى الشَّيْءِ مُشْعِرٌ بِكَوْنِهِ حَقًّا فَاسْتَمْسِكْ بِهِ،وَالصِّدْقُ وَالْكَذِبُ يُسْتَعْمَلَانِ فِي الْمَقَالِ وَالْفِعَالِ وَمَا يَحِقُّ أَوْ يَبْطُلُ مِنَ الِاعْتِقَادِ،وَهَذَا الْأَمْرُ مَخْصُوصٌ بِذَوِي النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ الْقُدْسِيَّةِ الطَّاهِرَةِ مِنْ أَوْضَارِ الذُّنُوبِ وَأَوْسَاخِ الْآثَامِ.اهـ[٣٧٠]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَنَّ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ عَائِذَ اللَّهِ،أَخْبَرَهُ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ عُمَيْرَةَ – وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – أَخْبَرَهُ قَالَ:كَانَ لَا يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلذِّكْرِ حِينَ يَجْلِسُ إِلَّا قَالَ:«اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ»،فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَوْمًا:" إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ،وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ،وَالرَّجُلُ،وَالْمَرْأَةُ،وَالصَّغِيرُ،وَالْكَبِيرُ،وَالْعَبْدُ،وَالْحُرُّ،فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ:مَا لِلنَّاسِ لَا

[٣٦٩] – جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٢٨٠)

[٣٧٠] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٨٩٩)

يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ،فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ،فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ،وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ،فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ،وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ "،قَالَ:قُلْتُ لِمُعَاذٍ:مَا يُدْرِينِي رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ وَأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ:«بَلَى،اجْتَنِبْ مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهِرَاتِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مَا هَذِهِ،وَلَا يُثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ،فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ،وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا»،قَالَ أَبُو دَاوُدَ:قَالَ مَعْمَرٌ،عَنِ الزُّهْرِيِّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ،وَلَا يُنْئِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ،مَكَانَ يُثْنِيَنَّكَ،وَقَالَ صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ،عَنِ الزُّهْرِيِّ،فِي هَذَا:الْمُشَبِّهَاتِ،مَكَانَ الْمُشْتَهِرَاتِ،وَقَالَ:لَا يُثْنِيَنَّكَ كَمَا قَالَ عُقَيْلٌ،وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ،عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ بَلَى مَا تَشَابَهَ عَلَيْكَ مِنْ قَوْلِ الْحَكِيمِ حَتَّى تَقُولَ مَا أَرَادَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ" [٣٧١]

فقوله رضي الله عنه " الله حكم قسط،هلك المرتابون " أي حكم عادل،هلك الشاكون،وقوله:"ويفتح فيها القرآن" أي يشيع فيها إقراء كتاب الله حتى يقرأه المؤمن والمنافق،والرجل والمرأة،والكبير والصغير،والعبد والحر،وقوله:"فيوشك قائل أن يقول ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره،فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة" وهذا كحال من يخالف القرآن ويبتدع في دين الله قاصدا بذلك كثرة الأتباع،والتفاف الناس حوله،وهذا الانحراف عن صراط الله المستقيم كثيرا ما يقع في مثله بعض الدعاة إلى الله بحجة مصلحة الدعوة،والتفاف الناس حولهم،وقوله رضي الله عنه:"وأحذركم زيغة الحكيم،فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم،وقد يقول المنافق كلمة الحق.قال:قلت لمعاذ:ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة،وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال:بلى اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات،التي يقال لها ما هذه،ولا يثنينك ذلك عنه،فإنه لعله أن يراجع وتلق الحق إذا سمعته،فإن على الحق نورا" يدل على أن النفوس فطرت على معرفة الحق،فإن على الحق نورا،فإذا زل العالم وجاء بما ينكر من القول ويشتبه على سامعيه حتى يقال:ماذا يريد بهذا القول؟ فإن هذا العالم لا يتابع في زلته،وأما كلمة الحق فيؤخذ بها،ولو كان قائلها منافقا.

---

[٣٧١] - سنن أبي داود (٤/ ٢٠٢)(٤٦١١) صحيح

وأما القوانين الوضعية التي هي من وحي الشياطين،كما قال تعالى:{وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُـذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام:١٢١]

إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله،ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية ..أن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله،إلى الشرك بالله.وفي هذا يقول ابن كثير:

«وقوله تعالى:(وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) ..أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه،إلى قول غيره،فقدمتم عليه غيره ..فهذا هو الشرك ..كقوله تعالى:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» ..الآية.وقد روى الترمذي في تفسيرها عَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ – ﷺ – وَفِى عُنُقِى صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ.فَقَالَ «يَا عَدِىُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ».وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِى سُورَةِ بَرَاءَةَ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[٣٧٢].

أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام.وما حلله فهو الحلال،وما شرعه اتبع،وما حكم به نفذ) ..

فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير ..وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح – مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه،ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك – أن من أطاع بشرا في شريعة من عند نفسه،ولو في جزئية صغيرة،فإنما هو مشرك.وإن كان في الأصل مسلما ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضا ..مهما بقي بعد ذلك يقول:أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه.بينما هو يتلقى من غير الله،ويطيع غير الله.

[٣٧٢] – سنن الترمذى- المكنز [١١/ ٣٥٤] (٣٣٧٨) صحيح لغيره

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم – في ضوء هذه التقريرات الحاسمة – فإننا نـــرى الجاهليـــة والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلا من عصم الله،فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية و لم يقبل منها شرعا ولا حكما ...إلا في حدود الإكراه ..[٣٧٣]

وقوله تعالى:{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُـــوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام:١٣٧]

وَكَمَا زَيَّنَتِ الشَّيَاطِينُ لِهَؤُلاَءِ أَنْ يَجْعَلُوا للهِ نَصِيباً مِمَّا خَلَقَ مِنَ الحَـــرْثِ وَالأَنْعَامِ،وَلِلأَوْثَـــانِ نَصِيباً آخَرَ،كَذَلِكَ زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ،خَشْيَةَ الفَقْرِ وَالإِمْلاَقِ،وَوَأْدَ البَنَاتِ خَشْـــيَةَ العَـــارِ (وَالشُّرَكَاءُ،هُنَا،هُمُ الشَّيَاطِينُ) .وَقَدْ زَيَّنَـــتْ لَهُـــمُ الشَّـــيَاطِينُ هَـــذِهِ المُنْكَرَاتِ،لِيُهْلِكُـــوهُمْ بِالإِغْوَاءِ،وَيُفْسِدُوا عَلَيْهِمْ فِطْرَتَهُمْ،فَتَنْقَلِبَ عَوَاطِفَ وِدِّ الوَالِدَيْنِ،مِنْ رَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ،إِلَى قَسْـــوَةٍ وَوَحْشِيَّةٍ،فَيَنْحَرَ الوَالِدُ وَلَدَهُ،وَيَدْفُنَ الأَبُّ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ.وَقَدْ لَبَسَتِ الشَّيَاطِينُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَدَّعُونَهُ مِنَ التَّمَسُّكِ بِدِينِ أَبِيهِمْ إِسْمَاعِيلَ،وَجَدِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ،عَلَيهِمَا السَّلاَمُ.وَقَدْ اخْتَلَطَ عَلَـــيْهِمْ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَقَالِيدِ الشِّرْكِ،حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ مَا هُوَ الأَصْلُ،وَمَا هُوَ المُبْتَدَعُ فِيهِ.وَلُوَ شَاءَ اللهُ أَلاَّ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مَا فَعَلُوهُ،وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ وَحِكْمَتَهُ قَضَتَا بِجَعْلِهِمْ مُسْتَعِدِينَ لِلتَّأَثُّرِ بِكُلِّ مَا يَرِدُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الأَفْكَارِ وَالآرَاءِ،وَاخْتِيَارِ مَا يَتَرَجَّحُ لَدَيْهِمْ.فَذَرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَمَا يَتَقَوَّلُـــونَ وَمَـــا يَفْتَرُونَ وَيَبْتَدِعُونَ.[٣٧٤]

فهي مناقضة للفطرة السوية،ولا تقبل بهذه القوانين،وتميل إليها إلا النفـــوس الـــتي فســـدت فطرهّا،وكفرت بخالقها.

سادسا:كمال الشريعة الإسلامية وشمولها ووفاؤها بجميع الأحكام والأقضية في كل زمـــان ومكان:

---

[٣٧٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٦٣٥)

[٣٧٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٢٧،بترقيم الشاملة آليا)

لقد جاءت الشريعة الإسلامية بالنصوص والقواعد العامة والأحكام الكلية،التي تنـدرج فيها جميع الحوادث والنوازل الطارئة إلى يوم القيامة،وقد الله تعالى:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]

اليوم أكملت لكم دينكم دين الإسلام بتحقيق النصر وإتمام الشريعة،وأتممت عليكم نعمتي بإخراجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان،ورضيت لكم الإسلام دينًا فالزموه،ولا تفارقوه.[٣٧٥]

قال الإمام الشاطبي رحمه الله:" إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الشَّرِيعَةَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ فِي تَكَالِيفِهِمُ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا،وَتَعَبُّدَاتِهِمُ الَّتِي طَوَّقُوهَا فِي أَعْنَاقِهِمْ،وَلَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَمُلَ الدِّينُ بِشَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ؛حَيْثُ قَالَ تَعَالَى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣] فَكُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بَقِيَ فِي الدِّينِ شَيْءٌ لَمْ يَكْمُلْ فَقَدْ كَذَبَ بِقَوْلِهِ:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٣].

فَلَا يُقَالُ:قَدْ وَجَدْنَا مِنَ النَّوَازِلِ وَالْوَقَائِعِ الْمُتَجَدِّدَةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ نَصٌّ عَلَيْهِ،وَلَا عُمُومٌ يَنْتَظِمُهُ،وَأَنَّ مَسَائِلَ الْجَدِّ فِي الْفَرَائِضِ،وَالْحَرَامِ فِي الطَّلَاقِ،وَمَسْأَلَةَ السَّاقِطِ عَلَى جَرِيحٍ مَحْفُوفٍ بِجَرْحَى،وَسَائِرَ الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي لَا نَصَّ فِيهَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ فَأَيْنَ الْكَلَامُ فِيهَا؟

فَيُقَالُ فِي الْجَوَابِ:أَوَّلًا إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٣] إِنِ اعْتُبِرَتْ فِيهَا الْجُزْئِيَّاتُ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالنَّوَازِلِ فَهُوَ كَمَا أَوْرَدْتُمْ،وَلَكِنَّ الْمُرَادَ كُلِّيَّاتُهَا،فَلَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ قَاعِدَةٌ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي الضَّرُورِيَّاتِ وَالْحَاجِيَّاتِ أَوِ التَّكْمِيلِيَّاتِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَتْ غَايَةَ الْبَيَانِ،نَعَمْ يَبْقَى تَنْزِيلُ الْجُزْئِيَّاتِ عَلَى تِلْكَ الْكُلِّيَّاتِ مَوْكُولًا إِلَى نَظَرِ الْمُجْتَهِدِ،فَإِنَّ قَاعِدَةَ الِاجْتِهَادِ أَيْضًا ثَابِتَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،فَلَابُدَّ مِنْ إِعْمَالِهَا.وَلَا يَسَعُ النَّاسَ تَرْكُهَا،وَإِذَا ثَبَتَ فِي الشَّرِيعَةِ أَشْعَرَتْ بِأَنَّ ثَمَّ مَجَالًا لِلِاجْتِهَادِ،وَلَا يُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ.وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ الْكَمَالَ بِحَسَبِ تَحْصِيلِ الْجُزْئِيَّاتِ بِالْفِعْلِ،فَالْجُزْئِيَّاتُ لَا نِهَايَةَ لَهَا،فَلَا تَنْحَصِرُ بِمَرْسُومٍ،وَقَدْ نَصَّ

---

[٣٧٥] - التفسير الميسر (١/ ١٠٧)

الْعُلَمَاءُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى،فَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَمَالُ بِحَسَبِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ النَّوَازِلِ.

ثُمَّ نَقُولُ ثَانِيًا:إِنَّ النَّظَرَ فِي كَمَالِهَا بِحَسَبِ خُصُوصِ الْجُزْئِيَّاتِ يُؤَدِّي إِلَى الْإِشْكَالِ وَالِالْتِبَاسِ،وَإِلَّا فَهُوَ الَّذِي أَدَّى إِلَى إِيرَادِ هَذَا السُّؤَالِ،إِذْ لَوْ نَظَرَ السَّائِلُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْهَا الشَّرِيعَةُ،وَهِيَ حَالَةُ الْكُلِّيَّةِ لَمْ يُورِدْ سُؤَالَهُ،لِأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ عَلَى الْأَبَدِيَّةِ،وَإِنْ وُضِعَتِ الدُّنْيَا عَلَى الزَّوَالِ وَالنِّهَايَةِ.

وَأَمَّا الْجُزْئِيَّةُ فَمَوْضُوعَةٌ عَلَى النِّهَايَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْحَصْرِ فِي التَّفْصِيلِ،وَإِذْ ذَاكَ قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهَا لَمْ تَكْمُلْ فَيَكُونُ خِلَافًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل:٨٩] الْآيَةَ،وَلَا شَكَّ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ الصَّادِقُ،وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ الْمُخَالِفُ.فَظَاهِرٌ إِذْ ذَاكَ أَنَّ الْآيَةَ عَلَى عُمُومِهَا وَإِطْلَاقِهَا،وَأَنَّ النَّوَازِلَ الَّتِي لَا عَهْدَ بِهَا لَا تُؤَثِّرُ فِي صِحَّةِ هَذَا الْكَمَالِ لِأَنَّهَا إِمَّا مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا وَإِمَّا غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا،فَإِنْ كَانَتْ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَهِيَ مَسَائِلُ الِاجْتِهَادِ الْجَارِيَةُ عَلَى الْأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ فَأَحْكَامُهَا قَدْ تَقَدَّمَتْ،وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْظَرُ الْمُجْتَهِدِ إِلَى أَيِّ دَلِيلٍ يَسْتَنِدُ خَاصَّةً وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا،فَهِيَ الْبِدَعُ الْمُحْدَثَاتُ،إِذْ لَوْ كَانَتْ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا لَمَا سَكَتَ عَنْهَا فِي الشَّرْعِ،لَكِنَّهَا مَسْكُوتٌ عَنْهَا بِالْفَرْضِ وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ،فَلَيْسَتْ بِمُحْتَاجٍ إِلَيْهَا.فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ قَدْ كَمُلَ الدِّينُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ."[٣٧٦]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:تَرَكْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ،وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ،إِلَّا وَهُوَ يُذَكِّرُنَا مِنْهُ عِلْمًا،قَالَ:فَقَالَ:ﷺ:«مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ،إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ» رواه الطبراني في الكبير[٣٧٧].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:«تَرَكَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَمَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا عِنْدَنَا مِنْهُ عِلْمٌ».[٣٧٨]

[٣٧٦] - الاعتصام للشاطبي ت الهلالي (٢/ ٨١٦)

[٣٧٧] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٥٥)(١٦٤٧) صحيح

[٣٧٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٢٦٧)(٦٥) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:مَعْنَى «عِنْدَنَا مِنْهُ» يَعْنِي بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ،وَأَخْبَارِهِ،وَأَفْعَالِهِ،وَإِبَاحَاتِهِ ﷺ

وقال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)} [النحل:٨٩،٩٠]

وَقَدْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ عِلْمَ كُلِّ شَيءٍ يَحْتَاجُهُ النَّاسُ،فِي أَمْرِ دِينِهِمْ،وَفِي أُمُورِ مَعَاشِهِمْ،وَهُوَ هُدًى لِلْقُلُوبِ،وَرَحْمَةٌ مِنَ اللهِ بِعِبَادِهِ،إِذْ يَدُلُّهُمْ عَلَى طَرِيقِ الخَيْرِ وَالرَّشَادِ،وَفِيهِ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ الجَنَّةَ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ الذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِالعَدْلِ وَالإِنْصَافِ،وَيَنْدُبُ إِلَى الإِحْسَانِ وَالفَضْلِ،وَيَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحْمِ وَإِعْطَاءِ ذَوِي القُرْبَى مَا هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ،وَيَنْهَى عَنِ ارْتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ وَالمُنْكَرَاتِ وَالفَوَاحِشِ،مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،مِمَّا يَأْتِيهِ العَبْدُ سِرّاً وَخفْيَةً وَاللهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالخَيْرِ،وَيَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَالشَّرِّ،لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ فِي الفِطْرَةِ مِنْ وَحْيٍ قَوِيمٍ أَصِيلٍ،فَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ.[٣٧٩]

أخرج ابن جرير عَنْ مُجَاهِدٍ،فِي قَوْلِهِ:" {تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل:٨٩] مِمَّا أَحَلَّ لَهُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ " [٣٨٠]

وفي رواية:عَنْ مُجَاهِدٍ،قَوْلُهُ:{تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل:٨٩] قَالَ:«مَا أَمَرَ بِهِ،وَمَا نَهَى عَنْهُ» [٣٨١]

وقال العلامة السعدي رحمه الله:" وقوله:{وَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} في أصول الدين وفروعه،وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد،فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية،حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت،وإعادتها في كل ساعة،ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب،وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس،واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها

[٣٧٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٩٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٨٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٣٣٤) صحيح

[٣٨١] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٣٣٤) صحيح

من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى،فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم.فانقطعت به حجة الظالمين وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون بـــه إلى أمر دينهم ودنياهم،ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة.فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح.

والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة،كصلاح القلب وبـــره وطمأنينتـــه،وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعـــاني وأعلاها،والأعمـــال الكريمـــة والأخلاق الفاضلة،والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعـــالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده،فالعدل في ذلـــك أداء الحقـــوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منـــهما في حقه وحق عباده،ويعامل الخلق بالعدل التام،فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى،وولاية القضاء ونواب الخليفة،ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه،وعلى لسان رسوله،وأمرهم بسلوكه،ومن العـــدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات،بإيفاء جميع ما عليـــك فـــلا تبخس لهم حقا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم.فالعدل واجب،والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم،وغير ذلك من أنواع النفع حـــتى إنـــه يـــدخل فيـــه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى -وإن كان داخلا في العموم- لتأكـــد حقهـــم وتعـــين صـــلتهم وبرهم،والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله:{وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ} وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها،فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات،فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه.وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه،وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال،فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء."[٣٨٢]

وَقَوْلُهُ:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل:٨٩] يَقُولُ:نَزَّلَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ هَذَا الْقُرْآنَ بَيَانًا لِكُلِّ مَا بِالنَّاسِ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ،وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ {وَهُدًى} [البقرة:٩٧] مِنَ الضَّلَالَةِ {وَرَحْمَةً} [البقرة:١٥٧] لِمَنْ صَدَّقَ بِهِ،وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ،فَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ {وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل:٨٩] يَقُولُ:وَبِشَارَةً لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ،وَخَضَعَ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ،وَأَذْعَنَ لَهُ بِالطَّاعَةِ،يُبَشِّرُهُ بِجَزِيلِ ثَوَابِهِ فِي الْآخِرَةِ،وَعَظِيمِ كَرَامَتِهِ.[٣٨٣]

وقال تعالى:{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)} [الزلزلة:٧،٨]

فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ خَيْرٍ فَإِنَّهُ سَيَجِدُ ثَوَابَهُ مَهْمَا كَانَ حَقِيراً،حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي وَزْنِ الذَّرَّةِ.وَمَنْ عَمِلَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ سُوءٍ فَإِنَّهُ وَاجِدٌ جَزَاءَهُ عِنْدَ رَبِّهِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ.[٣٨٤]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،أَنَّ أَبَا صَالِحٍ ذَكْوَانَ،أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ،لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا،إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ،صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ،فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ،فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ،كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ،فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ،حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ،فَيَرَى سَبِيلَهُ،إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ،وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»

---

[٣٨٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٤٧)

[٣٨٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٣٣٣) -

[٣٨٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٢٢،بترقيم الشاملة آليا)

قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،فَالْإِبِلُ؟ قَالَ:«وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا،وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا،إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ،بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ،أَوْفَرَ مَا كَانَتْ،لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا،تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا،كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا،فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ،حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ،فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ،وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»

قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ:«وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ،وَلَا غَنَمٍ،لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا،إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ،لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا،لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ،وَلَا جَلْحَاءُ،وَلَا عَضْبَاءُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا،كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا،فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ،حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ،فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ،وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»

قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،فَالْخَيْلُ؟ قَالَ:" الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ:هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ،وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ،وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ،فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وِزْرٌ،فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنِوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ،فَهِيَ لَهُ وِزْرٌ،وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ،فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ،ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي ظُهُورِهَا وَلَا رِقَابِهَا،فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ،فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ،فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ،فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ،أَوِ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ،إِلَّا كُتِبَ لَهُ،عَدَدَ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٌ،وَكُتِبَ لَهُ،عَدَدَ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا،حَسَنَاتٌ،وَلَا تَقْطَعُ طِوَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا،أَوْ شَرَفَيْنِ،إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأَرْوَاثِهَا حَسَنَاتٍ،وَلَا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ،فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا،إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ،عَدَدَ مَا شَرِبَتْ،حَسَنَاتٍ "

قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،فَالْحُمُرُ؟ قَالَ:«مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي الْحُمُرِ شَيْءٌ،إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَاذَّةُ الْجَامِعَةُ»:{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:٨] " مُتَّفَقٌ عليه وهذا لفظُ مُسْلمٍ[٣٨٥]

---

[٣٨٥] - صحيح مسلم (٢/ ٦٨١)٢٤ - (٩٨٧) وصحيح البخاري (٣/ ١١٣)(٢٣٧١)

[ش (لا يؤدي منها حقها) قد جاء الحديث على وفق التنزيل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله الآية فاكتفى ببيان صاحب الفضة عن بيان حال صاحب الذهب لأن الفضة مع كونها أقرب مرجع للضمير أكثر تداولا في المعاملات من الذهب ولذا اكتفى بها (صفحت له صفائح) الصفائح جمع صفيحة وهي العريضة من الحديد وغيره أي جعلت كنوزه الذهبية والفضية كأمثال الألواح (من نار) يعني كأنها نار لا أنها نار (كلما بردت) هكذا هو في بعض النسخ بردت بالباء وفي بعضها ردت وذكر القاضي الروايتين وقال الأولى هي الصواب قال والثانية رواية الجمهور (فيرى سبيله) ضبطناه

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:" فَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ – عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ بِكَلَامِهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ جَمِيعَ مَا أَمَرَهُ بِهِ وَجَمِيعَ مَا نَهَى عَنْهُ وَجَمِيعَ مَا أَحَلَّهُ وَجَمِيعَ مَا حَرَّمَهُ وَجَمِيعَ مَا عَفَا عَنْهُ،وَبِهَذَا يَكُونُ دِينُهُ كَامِلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [المائدة:٣] وَلَكِنْ قَدْ يَقْصُرُ فَهْمُ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنْ فَهْمِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ وَعَنْ وَجْهِ الدَّلَالَةِ وَمَوْقِعِهَا،وَتَفَاوُتُ الْأُمَّةِ فِي مَرَاتِبِ الْفَهْمِ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللَّهُ،وَلَوْ كَانَتْ الْأَفْهَامُ مُتَسَاوِيَةً لَتَسَاوَتْ أَقْدَامُ الْعُلَمَاءِ فِي الْعِلْمِ،وَلَمَا خَصَّ – سُبْحَانَهُ – سُلَيْمَانَ بِفَهْمِ الْحُكُومَةِ فِي الْحَرْثِ،وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ وَعَلَى دَاوُد بِالْعِلْمِ وَالْحُكْمِ.وَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي مُوسَى فِي كِتَابِهِ إلَيْهِ " الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا أُدْلِيَ إلَيْكَ ".

وَقَالَ عَلِيٌّ " إلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ "،وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – «وَدَعَا النَّبِيُّ – ﷺ – لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنْ يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ وَيُعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ» وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْفِقْهِ وَالتَّأْوِيلِ أَنَّ الْفِقْهَ هُوَ فَهْمُ الْمَعْنَى الْمُرَادِ،وَالتَّأْوِيلُ إدْرَاكُ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَئُولُ

بضم الياء وفتحها وبرفع لام سبيله ونصبها ويكون يرى بالضم من الإراءة وفيه إشارة إلى أنه مسلوب الاختيار يومئذ مقهور لا يقدر أن يذهب حتى يعين له أحد السبيلين (حلبها) هو بفتح اللام على اللغة المشهورة وحكى إسكانها وهو غريب ضعيف وإن كان هو القياس (بطح لها بقاع قرقر) بطح قال جماعة معناه ألقي على وجهه وقال القاضي ليس من شرط البطح كونه على الوجه وإنما هو في اللغة بمعنى البسط والمد فقد يكون على وجهه وقد يكون على ظهره ومنه سميت بطحاء مكة لانبساطها والقاع المستوي الواسع من الأرض يعلوه ماء السماء فيمسكه قال الهروي وجمعه قيعة وقيعان مثل جار وجيرة وجيران والقرقر المستوي أيضا من الأرض الواسع (كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها) هكذا هو في جميع الأصول في هذا الموضع قال القاضي عياض قالوا هو تغيير وتصحيف وصوابه ما جاء بعده في الحديث الآخر كلما رد عليه أولاها وبهذا ينتظم الكلام (ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء) قال أهل اللغة العقصاء ملتوية القرنين والجلحاء التي لا قرن لها والعضباء التي انكسر قرنها الداخل (تطؤه بأظلافها) الأظلاف جمع ظلف وهو للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس (فأما التي هي له وزر) هكذا هو في أكثر النسخ التي ووقع في بعضها الذي وهو أوضح وأظهر (ونواء على أهل الإسلام) أي ماوأة ومعاداة (فرجل) أي فخيل رجل (ربطها في سبيل الله) أي أعدها للجهاد وأصله من الرباط وهو حبس الرجل نفسه في الثغر وإعداده الأهبة لذلك (في مرج وروضة) قال ابن الأثير المرج هو الأرض الواسعة ذات نبات كثير يمرج فيه الدواب أي تسرح والروضة أخص من المرعى (ولا تقطع طولها) أي حبلها الطويل الذي شد أحد طرفيه في يد الفرس والآخر في وتد أو غيره لتدور فيه وترعى من جوانبها ولا تذهب لوجهها قال النووي ويقال طيلها بالياء وكذا جاء في الموطأ (فاستنت شرفا أو شرفين) معنى استنت جرت وعدت والشرف هو العالي من الأرض وقيل المراد هنا طلقا أو طلقين وقال ابن الأثير الشرف هو الشوط (فالحمر) جمع حمار أي فما حكمها (ما أنزل علي في الحمر الخ) معنى الفاذة القليلة النظير والجامعة أي العامة المتناولة لكل خير ومعروف ومعنى الحديث لم ينزل علي فيها نص بعينها لكن نزلت هذه الآية العامة]

إِلَيْهَا الْمَعْنَى الَّتِي هِيَ أُخَيَّتُهُ وَأَصْلُهُ،وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ فَقِهَ فِي الدِّينِ عَرَفَ التَّأْوِيلَ،فَمَعْرِفَةُ التَّأْوِيلِ يَخْتَصُّ بِهِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ،وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ تَأْوِيلَ التَّحْرِيفِ وَتَبْدِيلَ الْمَعْنَى؛فَإِنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ بُطْلَانَهُ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ بُطْلَانَهُ "[٣٨٦]

وقال:" وَإِذَا كَانَ أَرْبَابُ الْمَذَاهِبِ يَضْبِطُونَ مَذَاهِبَهُمْ وَيَحْصُرُونَهَا بِجَوَامِعَ تُحِيطُ بِمَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ عِنْدَهُمْ مَعَ قُصُورِ بَيَانِهِمْ فَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ أَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ،فَإِنَّهُ – ﷺ – يَأْتِي بِالْكَلِمَةِ الْجَامِعَةِ وَهِيَ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ وَقَضِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ تَجْمَعُ أَنْوَاعًا وَأَفْرَادًا وَتَدُلُّ دَلَالَتَيْنِ دَلَالَةَ طَرْدٍ وَدَلَالَةَ عَكْسٍ.

وَهَذَا كَمَا سُئِلَ – ﷺ – عَنْ أَنْوَاعٍ مِنْ الْأَشْرِبَةِ كَالْبِتْعِ وَالْمِزْرِ،وَكَانَ قَدْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ فَقَالَ «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»،وَ «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» «وَكُلُّ قَرْضٍ جَرَّ نَفْعًا فَهُوَ رِبًا» «وَكُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ» «وَكُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ» «وَكُلُّ أَحَدٍ أَحَقُّ بِمَالِهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» «وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» «وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ» وَسَمَّى النَّبِيُّ – ﷺ – هَذِهِ الْآيَةَ جَامِعَةً فَاذَّةً:{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} [الزلزلة:٧] {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:٨] وَمِنْ هَذَا قَوْله تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:٩٠] فَدَخَلَ فِي الْخَمْرِ كُلُّ مُسْكِرٍ،جَامِدًا كَانَ أَوْ مَائِعًا مِنْ الْعِنَبِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ،وَدَخَلَ فِي الْمَيْسِرِ كُلُّ أَكْلِ مَالٍ بِالْبَاطِلِ،وَكُلُّ عَمَلٍ مُحَرَّمٍ يُوقِعُ فِي الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَيَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ.وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ:{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [التحريم:٢] كُلُّ يَمِينٍ مُنْعَقِدَةٍ،وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ:{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} [المائدة:٤] كُلُّ طَيِّبٍ مِنْ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْفُرُوجِ،وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ:{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى:٤٠]،{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة:١٩٤] مَا لَا تُحْصَى أَفْرَادُهُ مِنْ الْجِنَايَاتِ وَعُقُوبَاتُهَا حَتَّى اللَّطْمَةِ وَالضَّرْبَةِ وَالْكَسْعَةِ كَمَا فَهِمَ الصَّحَابَةُ.

---

[٣٨٦] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٢٥٠)

وَدَخَلَ فِي قَوْلِه:{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف:٣٣] تَحْرِيمُ كُلِّ فَاحِشَةٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ،وَكُلُّ ظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ فِي مَالٍ أَوْ نَفْسٍ أَوْ عِرْضٍ،وَكُلُّ شِرْكٍ بِاَللَّهِ وَإِنْ دَقَّ فِي قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ إرَادَةٍ بِأَنْ يَجْعَلَ لِلَّهِ عَدْلًا بِغَيْرِهِ فِي اللَّفْظِ أَوْ الْقَصْدِ أَوْ الاعْتِقَادِ،وَكُلُّ قَوْلٍ عَلَى اللَّهِ لَمْ يَأْتِ بِهِ نَصٌّ عَنْهُ وَلَا عَنْ رَسُولِهِ فِي تَحْرِيمٍ أَوْ تَحْلِيلٍ أَوْ إيجَابٍ أَوْ إسْقَاطٍ أَوْ خَبَرٍ عَنْهُ بِاسْمٍ أَوْ صِفَةٍ نَفْيًا أَوْ إثْبَاتًا أَوْ خَبَرًا عَنْ فِعْلِهِ؛فَالْقَوْلُ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ حَرَامٌ فِي أَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَدِينِهِ.

وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ:{وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [المائدة:٤٥] وُجُوبُهُ فِي كُلِّ جُرْحٍ يُمْكِنُ الْقِصَاصُ مِنْهُ،وَلَيْسَ هَذَا تَخْصِيصًا،بَلْ هُوَ مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِهِ:{قِصَاصٌ} [المائدة:٤٥] وَهُوَ الْمُمَاثَلَةُ،وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ:{وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} [البقرة:٢٣٣] وُجُوبُ نَفَقَةِ الطِّفْلِ وَكِسْوَتِهِ وَنَفَقَةِ مُرْضِعَتِهِ عَلَى كُلِّ وَارِثٍ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ،وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ:{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة:٢٢٨] جَمِيعُ الْحُقُوقِ الَّتِي لِلْمَرْأَةِ وَعَلَيْهَا،وَأَنَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إلَى مَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ وَيَجْعَلُونَهُ مَعْرُوفًا لَا مُنْكَرًا،وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ كَفِيلَانِ بِهَذَا أَتَمَّ كَفَالَةٍ."[٣٨٧]

فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم،واختصر له الكلام اختصارا،فعَنْ خَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَذَكَرَ حِكَايَةً طَوِيلَةً،فِيهَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وخواتيمه،وَاخْتُصِرَ لِي الْكَلَامُ اخْتِصَارًا ".[٣٨٨]

وعَنْ أَبِي موسى،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ،فَقَالَ:«ادْعُوَا النَّاسَ،وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا،وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا»،قَالَ:فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ،أَفْتِنَا فِي شَرَابَيْنِ كُنَّا نَصْنَعُهُمَا بِالْيَمَنِ الْبِتْعُ وَهُوَ مِنَ الْعَسَلِ،يُنْبَذُ حَتَّى يَشْتَدَّ،وَالْمِزْرُ وَهُوَ مِنَ الذُّرَةِ وَالشَّعِيرِ،يُنْبَذُ حَتَّى يَشْتَدَّ،قَالَ:وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أُعْطِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ بِخَوَاتِمِهِ،فَقَالَ:«أَنْهَى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ أَسْكَرَ عَنِ الصَّلَاةِ» رواه البخاري ومسلم[٣٨٩]

---

[٣٨٧] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٢٥١)

[٣٨٨] - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (١٥/ ٦٣٤)(٣٨٤٨) صحيح لغيره –

[٣٨٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٨٦)٧١ - (٢٠٠١) وصحيح البخاري (٨/ ٣٠)(٦١٢٤)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ،وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ،وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي»،قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:فَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتُمْ تَلْغَثُونَهَا،أَوْ تَرْغَثُونَهَا،أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا" رواه البخاري ومسلم[390]

وقال الإمام البخاري:" قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:" وَبَلَغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الكَلِمِ:أَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الأُمُورَ الكَثِيرَةَ،الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ فِي الكُتُبِ قَبْلَهُ،فِي الأَمْرِ الوَاحِدِ،وَالأَمْرَيْنِ،أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ "[391]

وقال ابن رجب رحمه الله:" فَجَوَامِعُ الْكَلِمِ الَّتِي خُصَّ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ نَوْعَانِ:أَحَدُهُمَا:مَا هُوَ فِي الْقُرْآنِ،كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} [النحل:٩٠] (النَّحْلِ:٩٠) قَالَ الْحَسَنُ:لَمْ تَتْرُكْ هَذِهِ الْآيَةُ خَيْرًا إِلَّا أَمَرَتْ بِهِ،وَلَا شَرًّا إِلَّا نَهَتْ عَنْهُ.وَالثَّانِي:مَا هُوَ فِي كَلَامِهِ ﷺ،وَهُوَ مُنْتَشِرٌ مَوْجُودٌ فِي السُّنَنِ الْمَأْثُورَةِ عَنْهُ "[392]

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]،وقوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:٥٨]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَدَاءِ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا.وَأَدَاءِ الأَمَانَاتِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الأَمَانَاتِ الوَاجِبَةِ عَلَى الإِنْسَانِ:مِنْ حُقُوقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (مِنْ صَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ...) وَمِنْ حُقُوقِ العِبَادِ

[ش (قد أعطى جوامع الكلم بخواتمه) أي إيجاز اللفظ مع تناوله المعاني الكثيرة جدا وقوله بخواتمه أي كأنه يختم على المعاني الكثيرة التي تضمنها اللفظ اليسير فلا يخرج منها شيء عن طالبه ومستنبطه لعذوبة لفظه وجزالته]

[390] - صحيح البخاري (٩/ ٩١)(٧٢٧٣) وصحيح مسلم (١/ ٣٧١)٦ - (٥٢٣)

[ش (بالرعب) الخوف أي بمجرد الخبر الواصل إلى العدو يفزعون مني وربما يؤمنون.(تلغثوها) من اللغيث وهو الطعام المخلوط بالشعير والمعنى تأكلونها كيفما اتفق.وقيل اللغيث ما يبقى في الكيل من الحب والمعنى تأخذون المال فتفرقونه بعد أن تحوزوه.(ترغثوها) ترضعونها من رغث الجدي أمه أي رضعها يقال ناقة رغوث أي غزيرة اللبن.(كلمة تشبهها) تشبه إحدى الكلمتين في اللفظ والمعنى مثل تنتثلونها من الإنتثال وهو الاستخراج]

[391] - صحيح البخاري (٩/ ٣٧)

[392] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٥٥)

(كَالوَدَائِعِ وَغَيرَ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْتَمَنُ الإِنْسَانُ عَلَيهِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ بِيَدِ أَصْحَابِهَا وَثَائِقَ وَبَيِّنَاتٍ عَلَيهَا)
.
وَيَأْمُرُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالعَدْلِ،وَأَنْ يَكُونَ العَدْلُ عَاماً لِلْبَرِّ وَالفَاجِرِ،وَلِكُلِّ أَحَدٍ،وَأَنْ لاَ يَمْنَعَهُمْ مِنْ إِقَامَةِ العَدْلِ حِقْدٌ أَوْ كَرَاهِيَةٌ أَوْ عَدَاوَةٌ.ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ،وَيَعِظُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ،هُوَ الشَّرْعُ الكَامِلُ،وَفِيهِ خَيْرُهُمْ،وَاللهُ سَمِيعٌ لأَقْوَالِ العِبَادِ،بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ،فَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ بِمَا يَسْتَحِقُّ.[٣٩٣]

وقوله تعالى {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [الشورى:٣٨] }

{وَأَمْرُهُمْ} الديني والدنيوي {شُورَى بَيْنَهُمْ} أي:لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم،وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادِدهم وتحاببهم وكمال عقولهم،أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها،اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها،حتى إذا تبينت لهم المصلحة،انتهزوها وبادروها،وذلك كالرأي في الغزو والجهاد،وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء،أو غيره،وكالبحث في المسائل الدينية عموما،فإنها من الأمور المشتركة،والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله،وهو داخل في هذه الآية.[٣٩٤]

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية.والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية.

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرا،وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها.

إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية،وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية.وهي من ألزم صفات القيادة.أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوبا في قالب حديدي فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان،لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية.والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة،وليست نصوصا حرفية،إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب،وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة.والبحث في

---

[٣٩٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥١،بترقيم الشاملة آليا) —

[٣٩٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٦٠)

أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء ..وليس هذا كلاما عائما غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية.

فهذه العقيدة – في أصولها الاعتقادية البحتة،وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها – تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري،يهيئ لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع،لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها.ولكي يقوم أي شكل من أشكال النظم الإسلامية،لا بد قبلها من وجود مسلمين،ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر.وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة،ولا تحقق نظاما يصح وصفه بأنه إسلامي ..

ومتى وجد المسلمون حقا،ووجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته،نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية،وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها وتحقق المبادئ الإسلامية الكلية خير تحقيق.[٣٩٥]

وقوله تعالى:{ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران:١٠٤]

أي:وليكن منكم أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله {أمة} أي:جماعة {يدعون إلى الخير} وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه {ويأمرون بالمعروف} وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه {وينهون عن المنكر} وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه،وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه،ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين،والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام،ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة،والمجاهدون في سبيل الله،والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام،وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة،وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية

---

[٣٩٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٩٦٨)

الكريمة في قوله {ولتكن منكم أمة} إلخ أي:لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة،ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به،كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام،وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها،وبناء المدارس للإرشاد والعلم،ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال،وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه،وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين،ولهذا قال تعالى عنهم:{وأولئك هم المفلحون} الفائزون بالمطلوب،الناجون من المرهوب"[٣٩٦]

وقوله تعالى {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) }(العصر)

يُقْسِمُ اللهُ تَعَالَى بِالدَّهْرِ لِمَا فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ وَعِبَرٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى قَدْرَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

إِنَّ الإِنْسَانَ لَخَاسِرٌ فِي أَعْمَالِهِ.وَأَعْمَالُهُ مَصْدَرُ شَقَائِهِ،وَهِيَ التِي تُوقِعُهُ فِي الهَلاَكِ (وَهَذَا هُوَ جَوَابُ القَسَمِ) .

قَالَ تَعَالَى:إِنَّ بَنِي الإِنْسَانِ خَاسِرُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ إِلاَّ الذِينَ اعْتَقَدُوا اعْتِقَاداً صَحِيحاً بِوُجُودِ اللهِ وَوحْدَانِيتِهِ،وَبِمَا أَنْزِلَ مِنَ الكُتُبِ عَلَى رُسُلِهِ الكِرَامِ ثُمَّ عَمِلُوا صَالِحَةً تُرْضِي اللهَ،وَاجْتَنَبُوا مَا حَرَّمَ اللهُ وَأَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالصَّبْرِ عَنِ المَعَاصِي التِي تَشْتَاقُ إِلَيهَا النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ،وَبالصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ التِي يَشُقُّ عَلَى النُّفُوسِ القِيَامُ بِهَا..فَهؤُلاَءِ المُسْتَثْنَوْنَ هُمُ الرَّابِحُونَ الفَائِزُونَ.[٣٩٧]

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ،رَحِمَهُ اللَّهُ:لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ،لَوَسِعَتْهُمْ.[٣٩٨]

---

[٣٩٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٤٢)

[٣٩٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٥٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٩٨] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٧٩)

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)} [آل عمران:١١٨،١١٩]

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الكُفَّارِ وَاليَهُودِ وَالمُنَافِقِينَ بِطَانَةً وَخَوَاصَّ لَهُمْ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ،يُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سِرِّهِمْ،وَمَا يُضْمِرُونَ لأعْدَائِهِمْ.لأنَّ هَؤُلاءِ لاَ يَأْلُونَ جُهْداً،وَلاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْ عَمَلٍ فِيهِ إِيْذَاءٌ وَإِضْرَارٌ بِالمُؤْمِنِينَ،فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ وُقُوعَ المُؤْمِنِينَ فِي الضِّيقِ وَالمَشَقَّةِ.وَلَقَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ وَالعَدَاوَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بِمَا يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ كَلِمَاتِ الحِقْدِ،وَصُدُورُهُمْ تُخْفِي حِقْداً أَكْبَرَ،وَبُغْضاً أَعْظَمَ لِلإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ،وَهُوَ أَمْرٌ لاَ يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ،وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى الدَّلاَلاَتِ الوَاضِحَةَ التِي يُعْرَفُ بِهَا الوَلِيُّ مِنَ العَدُوِّ.

إِنَّكُمْ تُحِبُّونَ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ الذِينَ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَكُمْ،وَلاَ يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِكُمْ،وَتَمَنِّي عَنَتِكُمْ.وَيُظْهِرُونَ لَكُمُ العَدَاوَةَ وَالغِشَّ،وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ رَيْبَ المَنُونِ،فَكَيْفَ تُوادُّونَهُمْ وَتُواصِلُونَهُمْ،وَهُمْ لاَ يُحِبُّونَكُمْ لا ظَاهِراً وَلاَ بَاطِناً،وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ الذِي أنْزِلَ عَلَيْكُمْ،وَبِالكُتُبِ التِي أُنْزِلَتْ قَبْلَهُ،وَلَيْسَ لَدَيْكُمْ شَيءٌ مِنَ الشَّكِّ فِي شَيءٍ مِنْهَا،وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِكُمْ،وَعِنْدَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَكٌّ وَحَيرَةٌ،فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِبُغْضِهِمْ مِنْهُمْ لَكُمْ،فَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا:آمَنَّا إِرْضَاءً لَكُمْ،وَحَذَراً مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْكُمْ.وَإِذَا فَارَقُوكُمْ،وَاخْتَلَوا بِأَنْفُسِهِمْ،عَضُّوا عَلَيْكُمْ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِمْ مِنْ غَيْظِهِمْ مِنْكُمْ،فَقُلْ لَهُمْ:مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فَلَنْ يَضُرَّنَا ذَلِكَ شَيئاً،وَاللهُ مُتِمٌّ نِعْمَتَهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ،وَاللهُ هُوَ الذِي يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ مِنَ البَغْضَاءِ وَالحَسَدِ وَالغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ.[٣٩٩]

وعَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِي أَنَّهُ ،سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ،وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ،فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ

[٣٩٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١١،بترقيم الشاملة آليا)

فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ،وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ،أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ،فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» [400]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَضَى أَنْ لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» [401]

قال ابن رجب :"وَاخْتَلَفُوا:هَلْ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ – أَعْنِي الضُّرَّ وَالضِّرَارَ – فَرْقٌ أَمْ لَا؟ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:هُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ عَلَى وَجْهِ التَّأْكِيدِ،وَالْمَشْهُورُ أَنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا،ثُمَّ قِيلَ:إِنَّ الضَّرَرَ هُوَ الِاسْمُ،وَالضِّرَارَ الْفِعْلُ،فَالْمَعْنَى أَنَّ الضَّرَرَ نَفْسَهُ مُنْتَفٍ فِي الشَّرْعِ،وَإِدْخَالُ الضَّرَرِ بِغَيْرِ حَقٍّ كَذَلِكَ.

وَقِيلَ:الضَّرَرُ:أَنْ يُدْخِلَ عَلَى غَيْرِهِ ضَرَرًا بِمَا يَنْتَفِعُ هُوَ بِهِ،وَالضِّرَارُ:أَنْ يُدْخِلَ عَلَى غَيْرِهِ ضَرَرًا بِلَا مَنْفَعَةٍ لَهُ بِهِ،كَمَنْ مَنَعَ مَا لَا يَضُرُّهُ وَيَتَضَرَّرُ بِهِ الْمَمْنُوعُ،وَرَجَّحَ هَذَا الْقَوْلَ طَائِفَةٌ،مِنْهُمُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ،وَابْنُ الصَّلَاحِ.وَقِيلَ:الضَّرَرُ:أَنْ يَضُرَّ بِمَنْ لَا يَضُرُّهُ،وَالضِّرَارُ:أَنْ يَضُرَّ بِمَنْ قَدْ أَضَرَّ بِهِ عَلَى وَجْهٍ غَيْرِ جَائِزٍ.

وَبِكُلِّ حَالٍ فَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا نَفَى الضَّرَرَ وَالضِّرَارَ بِغَيْرِ حَقٍّ.

فَأَمَّا إِدْخَالُ الضَّرَرِ عَلَى أَحَدٍ بِحَقٍّ،إِمَّا لِكَوْنِهِ تَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ،فَيُعَاقَبُ بِقَدْرِ جَرِيمَتِهِ،أَوْ كَوْنِهِ ظَلَمَ غَيْرَهُ،فَيَطْلُبُ الْمَظْلُومُ مُقَابَلَتَهُ بِالْعَدْلِ،فَهَذَا غَيْرُ مُرَادٍ قَطْعًا،وَإِنَّمَا الْمُرَادُ:إِلْحَاقُ الضَّرَرِ بِغَيْرِ حَقٍّ،وَهَذَا عَلَى نَوْعَيْنِ:أَحَدُهُمَا:أَنْ لَا يَكُونَ فِي ذَلِكَ غَرَضٌ سِوَى الضَّرَرِ بِذَلِكَ الْغَيْرِ،فَهَذَا لَا رَيْبَ فِي قُبْحِهِ وَتَحْرِيمِهِ،وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ النَّهْيُ عَنِ الْمُضَارَّةِ فِي مَوَاضِعَ:مِنْهَا فِي الْوَصِيَّةِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ} [النساء:١٢] [النِّسَاءِ:١٢]...

وَمِنْهَا:الرَّجْعَةُ فِي النِّكَاحِ،وَقَالَ تَعَالَى:{فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [البقرة:٢٣١]

وَمِنْهَا فِي الرَّضَاعِ،قَالَ تَعَالَى:{لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ} [البقرة:٢٣٣]

---

[400] - صحيح البخاري (١/ ٦)(١) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٥)١٥٥ - (١٩٠٧)

[401] - سنن ابن ماجه (٢/ ٧٨٤)(٢٣٤٠) صحيح لغيره

[ش - (لاضرر ولاضرار) الضرر خلاف النفع.والضرار من الإثنين فالمعنى ليس لأحد أن يضر صاحبه بوجه.ولالاثنين أن يضر كل منهما بصاحبه ظنا أنه من باب التبادل فلا إثم فيه.]

وَمِنْهَا فِي الْبَيْعِ قَدْ وَرَدَ النَّهْيُ عَنْ بَيْعِ الْمُضْطَرِّ،

وَمِنْ أَنْوَاعِ الضَّرَرِ فِي الْبُيُوعِ:التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فِي الْبَيْعِ

وَمَسَائِلُ الضَّرَرِ فِي الْأَحْكَامِ كَثِيرَةٌ جِدًّا،وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا عَلَى وَجْهِ الْمِثَالِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي:أَنْ يَكُونَ لَهُ غَرَضٌ آخَرُ صَحِيحٌ،مِثْلَ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مِلْكِهِ بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَهُ،فَيَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى ضَرَرِ غَيْرِهِ،أَوْ يَمْنَعُ غَيْرَهُ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِمِلْكِهِ تَوْفِيرًا لَهُ،فَيَتَضَرَّرُ الْمَمْنُوعُ بِذَلِكَ.[402]

وعَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ،قَالَ:قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ:حَفِظْتُ مِنْهُ:«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»[403]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».[404]

---

[402] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢١٢)

[403] - سنن النسائي (٨/ ٣٢٧)(٥٧١١) صحيح

وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ يَرْجِعُ إِلَى الْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ وَاتِّقَائِهَا،فَإِنَّ الْحَلَالَ الْمَحْضَ لَا يَحْصُلُ لِمُؤْمِنٍ فِي قَلْبِهِ مِنْهُ رَيْبٌ - وَالرَّيْبُ:بِمَعْنَى الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ - بَلْ تَسْكُنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ،وَيَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ،وَأَمَّا الْمُشْتَبِهَاتُ فَيَحْصُلُ بِهَا لِلْقُلُوبِ الْقَلَقُ وَالِاضْطِرَابُ الْمُوجِبُ لِلشَّكِّ.جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٢٨٠)

[404] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٤٦٦)(٢٢٩) صحيح

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْأَجَلُّ الْعَارِفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ:«تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» مِنْ أَوْصَافِ النَّاسِ،وَأَقْوَالِهِمْ،فَلَا يَكَادُ يَذْكُرُهُمْ،وَلَا يَنْظُرُ إِلَى عُيُوبِهِمْ،وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِمْ فِي أَخْلَاقِهِمْ؛لِأَنَّهُ قَدْ أَسْلَمَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،فَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يُطَالِبُهُمْ بِصِدْقِهِمْ فِي أَفْعَالِهِمْ،وَصِحَّةِ أَعْمَالِهِمْ،وَيُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ،وَيُشْفِقُ عَلَيْهِمْ،وَيَنْصَحُ لَهُمْ،وَيَقْبَلُ مِنْهُمْ ظَوَاهِرَهُمْ،وَيُوَكِّلُ سَرَايِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِمَّا يَعْنِيهِ،فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ،وَيَدِهِ،فَهُوَ الْمُسْلِمُ،وَالْإِسْلَامُ لَهُ صِفَةٌ،وَالْحُسْنُ لِإِسْلَامِهِ صِفَةٌ،فَهُوَ لَمَّا حَسُنَ إِسْلَامُهُ فِي إِسْلَامِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى اللَّهِ تَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ مِنَ الْبَحْثِ عَنْ سَرَائِرِهِمْ،وَمُطَالَبَةِ الصِّدْقِ إِذَا صَلُحَتْ ظَوَاهِرُهُمْ،وَالْإِعْرَاضِ عَنْ مُخْتَلَفِ أَحْوَالِهِمْ إِلَّا فِيمَا يَلْزَمُهُ فَرْضُ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ،أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ فِي رِقَّةٍ بِهِمْ،وَشَفَقَةٍ عَلَيْهِمْ،وَإِرَادَةِ الصَّلَاحِ لَهُمْ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ حُسْنَ تَسْلِيمِهِ،وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} [التوبة:١١١] الْآيَةَ،فَقَدِ اشْتَرَى اللَّهُ مِنْهُمْ نُفُوسَهُمْ،فَعَلَيْهِمْ تَسْلِيمُ الْمَبِيعِ،وَقَدْ بَاعَ الْبَائِعُ الشَّيْءَ،وَيَلْتَوِي فِي تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ،حَتَّى يَنْتَزِعَهُ الْمُشْتَرِي مِنْهُ بِحَقِّ الْبَايِعِ،فَأَمَّا مَنْ حَسُنَ تَسْلِيمُهُ سَلَّمَ الْمَبِيعَ أَوْفَرَ مَا كَانَ،وَأَتَمَّهُ فِي سَعَةٍ مِنْ صَدْرِهِ،وَطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ،خَاصَّةً إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ اسْتَحَقَّ مِنَ الثَّمَنِ أَضْعَافَ أَضْعَافِ الْقِيمَةِ،فَمَتَى حَسُنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ حَسُنَ تَسْلِيمُ نَفْسِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، غَيْرَ مُلْتَوٍ وَلَا مُتَرَبِّصٍ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ:{أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ،وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [البقرة:١٣٢]،وَمِنْ حُسْنِ تَسْلِيمِهِ أَنْ لَا يَعْتَرِضَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْكَامِهِ عَلَيْهِ،وَقَضَايَاهُ فِيمَا شَاءَ،وَسَرَيَانُ الِاعْتِرَاضِ مِنْهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَسَخُّطِ قَضَائِهِ،وَالتَّأَنِّي لِمَعْقُولِ أَحْكَامِهِ هُوَ الَّذِي لَا يَعْنِيهِ؛لِأَنَّ الْمُشْتَرِي إِذَا أَحْدَثَ فِيمَا اشْتَرَاهُ مِنْ هَدْمِ بِنَاءٍ فِيهِ،أَوْ تَغْيِيرِ شَيْءٍ

وعَنْ شَدَّاد بْنِ أَوْسٍ،قَالَ:ثِنْتَان حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ،وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ،وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ،فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[٤٠٥]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،قَالَا:كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ،فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ،فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ،وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»[٤٠٦]

وعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ،حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٤٠٧]

مِنْهُ،أَوْ نَقْضٍ فِيهِ،أَوْ إِبْرَامٍ،فَاعْتَرَضَ الْبَائِعُ فِيهِ مِمَّا لَا يَعْنِيهِ مِنْ قَوْلِهِ لِمَ فَعَلْتَ،وَأَنَا صَنَعْتَ كَذَا،وَلَوْ فَعَلْتَ كَذَا،وَلَيْتَكَ صَنَعْتَ كُلَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْنِيهِ ، فَحَصَلَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ:«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»،عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ الرِّضَا بِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى،وَالتَّلَقِّي بِالْبِشْرِ،وَالسُّرُورِ،ثُمَّ الْقَضَاءُ،وَالصَّبْرُ تَحْتَ أَثْقَالِ مَا يَكْرَهُهُ،وَالاسْتِسْلَامُ،وَالانْقِيَادُ بِذُلِّ الْعُبُودِيَّةِ لِلْمَلِكِ الْقَهَّارِ،فِيمَا يُجْرِيهِ مِنْ أَحْكَامِهِ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ أَرْضِهِ،وَسَمَائِهِ،وَفِي نَفْسِ الْعَبْدِ مِمَّا يُؤْلِمُهُ وَيَلَذُّهُ،أَوْ يَسُرُّهُ،وَيُحْزِنُهُ.قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:وَايْمُ اللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا الْفَنَاءُ،وَالْفَقْرُ،وَمَا أُبَالِي بِأَيِّهِمَا ابْتُلِيتُ،وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ:ابْتُدِيتُ ، فَهَذَا مِنْ حُسْنِ الْإِسْلَامِ أَنْ لَا يَعْتَرِضَ عَلَى اللَّهِ،وَلَا يَخْتَارَ تَسْلِيمًا لِنَفْسِهِ إِلَيْهِ،وَتَفْوِيضًا لِأَمْرِهِ إِلَيْهِ،كَمَا نَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ ..."بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص:١٤١)

[٤٠٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٤٨)٥٧ - (١٩٥٥)

[ش (القتلة) بكسر القاف وهي الهيئة والحالة(وليحد) يقال أحد السكين وحددها واستحدها بمعنى شحذها(فليرح ذبيحته) بإحداد السكين وتعجيل إمرارها وغير ذلك ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها]

وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْعُمُومُ الشَّامِلُ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ حَيًّا وَمَيِّتًا،وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ ﷺرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ وَأَنَّهُ بُعِثَ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَنَّ لِأُمَّتِهِ نَصِيبًا وَحَظًّا مِنْ هَذَا الْوَصْفِ بِمُتَابَعَتِهِ،وَلِذَا أَتَى بِالِاسْمِ الْجَامِعِ،وَلَمْ يَقُلْ أَنَّهُ الرَّحْمَنَ مَعَ أَنَّهُ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ رَحْمَتِهِ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ:أَوْجَبَ مُبَالَغَةً؛لِأَنَّ الْإِحْسَانَ هُنَا مُسْتَحَبٌّ وَضَمَّنَ الْإِحْسَانَ مَعْنَى التَّفْضِيلِ وَعَدَّاهُ بِعَلَى،وَالْمُرَادُ بِالتَّفَضُّلِ إِرَاحَةُ الذَّبِيحَةِ بِتَحْدِيدِ الشَّفْرَةِ وَتَعْجِيلِ إِمْرَارِهَا وَغَيْرِهِ.وَقَالَ الشُّمُنِّيُّ:عَلَى هُنَا بِمَعْنَى اللَّامِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْإِحْسَانِ،أَوْ بِكَتَبَ،وَلَا بُدَّ مِنْ عَلَى أُخْرَى مَحْذُوفَةٍ.بِمَعْنَى الِاسْتِعْلَاءِ الْمَجَازِيِّ مُتَعَلِّقَةٌ بِكَتَبَ،وَالتَّقْدِيرُ كَتَبَ عَلَى النَّاسِ الْإِحْسَانَ لِكُلِّ شَيْءٍ،(فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ):بِكَسْرِ الْقَافِ الْحَالَةُ الَّتِي عَلَيْهَا الْقَاتِلُ فِي قَتْلِهِ كَالْجِلْسَةِ وَالرِّكْبَةِ،وَالْمُرَادُ بِهَا الْمُسْتَحِقَّةُ قِصَاصًا،أَوْ حَدًّا،وَالْإِحْسَانُ فِيهَا اخْتِيَارُ أَسْهَلِ الطُّرُقِ وَأَظُنُّهَا أَقَلَّهَا إِيلَامًا (وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٦٤٩)

[٤٠٦] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٣٠)١٣٠ - (١٣٣٧)

[٤٠٧] - صحيح البخاري (١/ ١٢)(١٣)

[ش (لا يؤمن أحدكم) الإيمان الكامل.(ما يحب لنفسه) من فعال الخير]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ،وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا،وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[408]

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ:صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ،فَأَوْصِنَا " ،قَالَ:" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ،وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ ،وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ

---

[408] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٥٥)(١٩٨٧) صحيح لغيره

(اتَّقِ اللَّهَ) أَيْ:بِالْإِتْيَانِ بِجَمِيعِ الْوَاجِبَاتِ وَالِانْتِهَاءِ عَنْ سَائِرِ الْمُنْكَرَاتِ،فَإِنَّ التَّقْوَى أَسَاسُ الدِّينِ،وَبِهِ يَرْتَقِي إِلَى مَرَاتِبِ الْيَقِينِ،ثُمَّ التَّحْقِيقُ أَنَّ التَّقْوَى أَدْنَاهَا التَّبَرُّؤُ عَنِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ،وَأَعْلَاهَا الْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ،وَمَا بَيْنَهُمَا مَرَاتِبُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنْ تَرْكِ الْمَحْظُورِ،ثُمَّ الْمَكْرُوهِ،ثُمَّ الْمُبَاحِ مِمَّا لَا يَعْنِي (حَيْثُمَا كُنْتَ) أَيْ:فِي الْخَلَاءِ وَفِي النَّعْمَاءِ وَالْبَلَاءِ،فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِسِرِّ أَمْرِكَ كَمَا أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى ظَوَاهِرِكَ،فَعَلَيْكَ بِرِعَايَةِ دَقَائِقِ الْأَدَبِ فِي حِفْظِ أَوَامِرِهِ وَمَرَاضِيهِ،وَالِاحْتِرَازِ عَنْ مَسَاخِطِهِ وَمَسَاوِيهِ،وَعَنْ دَاوُدَ الطَّائِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ قَبْرٍ:أَلَمْ أُزَكِّ أَلَمْ أُصَلِّ أَلَمْ أَصُمْ أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا؟ أُجِيبَ:بَلَى يَا عَبْدَ اللَّهِ،وَلَكِنْ إِذَا خَلَوْتَ بَارَزْتَهُ بِالْمَعَاصِي وَلَمْ تُرَاقِبْهُ.(وَأَتْبِعِ):أَمْرٌ مِنْ بَابِ الْأَفْعَالِ:هُوَ مُتَعَدٍّ إِلَى مَفْعُولَيْنِ (السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ) أَيِ:التَّوْبَةَ وَالطَّاعَةَ مُطْلَقًا،أَوْ بِأَنْ تُبَاشِرَ حَسَنَاتٍ تُضَادُّ آثَارُهَا تِلْكَ السَّيِّئَاتِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:فَسَمَاعُ الْمَلَاهِي يُكَفَّرُ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ وَبِمَجَالِسِ الذِّكْرِ وَالْوَعْظِ عَنِ الْمَنَاهِي،وَشُرْبُ الْخَمْرِ يُكَفَّرُ بِالصِّدْقِ بِكُلِّ شَرَابٍ حَلَالٍ،وَعَلَى هَذَا فَقِسْ لِأَنَّ الْمَرَضَ يُعَالَجُ بِضِدِّهِ،وَالْمُتَضَادَّاتُ هِيَ الْمُنَاسَبَاتُ،فَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَمْحُوَ كُلَّ سَيِّئَةٍ بِحَسَنَةٍ مِنْ جِنْسِهَا لَكِنْ تُضَادُّهَا،فَالْبَيَاضُ يُزَالُ بِالسَّوَادِ لَا بِغَيْرِهِ،وَحُبُّ الدُّنْيَا لِأَنَّ أَثَرَ السُّرُورِ بِهَا فِي الْقَلْبِ،فَلَا جَرَمَ كَفَّارَتُهُ كُلُّ أَذًى يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ اهـ.

وَلَا خَفَاءَ أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ حُسْنُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ حُبِّ الدُّنْيَا،وَمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمُشَاكَلَةِ لِأَنَّ الْهَمَّ وَالْغَمَّ لَيْسَا مِنَ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الْمُرَادُ بِهَا فِي الْحَدِيثِ،عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْ قَوْلِهِ:أَتْبِعِ،فَالصَّوَابُ أَنَّ مُقَابَلَةَ حُبِّ الدُّنْيَا بِضِدِّهَا،وَهُوَ بُغْضُهَا بِأَنْ يَتَصَدَّقَ وَلَوْ بِبَعْضِهَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ غَيْرُ لَازِمَةٍ فِي مَحْوِ السَّيِّئَاتِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود:١١٤] وَقَدْ وَرَدَتِ الْآيَةُ فِيمَنْ قَبَّلَ امْرَأَةً،ثُمَّ صَلَّى مَعَهُ - ﷺ- وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(تَمْحُهَا) أَيْ:تَدْفَعُ الْحَسَنَةُ السَّيِّئَةَ وَتَرْفَعُهَا وَالْإِسْنَادُ مَجَازِيٌّ،وَالْمُرَادُ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا آثَارَهَا مِنَ الْقَلْبِ أَوْ مِنْ دِيوَانِ الْحَفَظَةِ،هَذَا إِذَا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى،فَإِنْ تَعَلَّقَتْ بِالْعَبْدِ فَتُدْفَعُ الْحَسَنَةُ إِلَى خَصْمِهِ عِوَضًا عَنِ الْمَظْلَمَةِ أَوْ يُرْضِيهِ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ،حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ رُئِيَ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهُ:مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ:غَفَرَ لِي وَأَحْسَنَ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّهُ حَاسَبَنِي حَتَّى طَالَبَنِي بِيَوْمٍ كُنْتُ صَائِمًا،فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْإِفْطَارِ أَخَذْتُ حِنْطَةً مِنْ حَانُوتِ صَدِيقٍ لِي فَكَسَرْتُهَا فَذَكَرْتُ أَنَّهَا لَيْسَتْ لِي،فَأَلْقَيْتُهَا عَلَى حِنْطَتِهِ،فَأَخَذَ مِنْ حَسَنَاتِي بِمِقْدَارِ أَرْشِ كَسْرِهَا.قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ:صَغَائِرُ الذُّنُوبِ تَقَعُ مُكَفَّرَةً بِالْحَسَنَاتِ،وَكَذَا مَا خُفِيَ مِنَ الْكَبَائِرِ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء:٣١] وَالْحَدِيثِ،أَمَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَتَحَقَّقَ عِنْدَ الْحَاكِمِ،فَلَا يَسْقُطُ حَدُّهَا وَلَا بِالتَّوْبَةِ،وَلَمَّا وَصَّاهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِصْلَاحِ نَفْسِهِ دُونَ مَا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ الْعِبَادِ فَقَالَ:(وَخَالِقِ النَّاسَ):أَمْرٌ مِنَ الْمُخَالَقَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ الْخُلُقِ مَعَ الْخَلْقِ أَيْ:خَالِطْهُمْ وَعَامِلْهُمْ (بِخُلُقٍ حَسَنٍ):وَهُوَ بَسْطُ الْمُحَيَّا وَبَذْلُ النَّدَى وَتَحَمُّلُ الْأَذَى"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٧٧)

مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ ،فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ "[٤٠٩]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ،وَالنِّسْيَانَ،وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[٤١٠]

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمِ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ،فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ،فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ.قَالَ:ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرِقٍ،ثُمَّ جَاءَ آخَرُ،ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً،فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ،كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا،وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ،وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً،فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ،كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا،وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[٤١١]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ.فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[٤١٢] .وغيرها.

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٤٠٩] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٩٥)(٢٠٣٣٨) صحيح

[٤١٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٢٠٢)(٧٢١٩) صحيح

[٤١١] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٩)١٥ - (١٠١٧)

[٤١٢] - صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ - (٤٩)

المبحث الثامن

العدل

لقد جعل الله تعالى الكتاب والميزان متلازمين،فكل ما جاء به الشرع فهو موافق للميزان،وكل ما خالف الشرع فهو مخالف للميزان،والميزان هو العدل وما يعرف بـه العـدل،كما قـال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَـا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيـزٌ } [الحديد:٢٥].

فالعدل في حق الله وفي حق العباد هو المقصود من إرسال الرسـل وإنـزال الكتب،وقـال تعالى:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة:٤٥] .

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كُتُبِهِ مِنْ شَرْعٍ،فَأولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ،لأَنَّهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا المَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ،فِي أَمْرٍ أَمَرَ اللهُ بِالعَدْلِ وَالمُسَاوَاةِ فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِ خَلْقِهِ.[٤١٣]

فالآية تدل على أن كل ما خالف شرع الله فهو ظلم وجور ولو سماه أهلها عدلا،قال الإمـام ابن القيم رحمه الله:" إِنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِـي الْمَعَـاشِ وَالْمَعَادِ،وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا،وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا،وَمَصَالِحُ كُلُّهَا،وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا؛فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عَنْ الْعَدْلِ إلَى الْجَوْرِ،وَعَنْ الرَّحْمَةِ إلَى ضِدِّهَا،وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إلَى الْمَفْسَدَةِ،وَعَنْ الْحِكْمَـةِ إلَـى الْبَعْثِ؛فَلَيْسَتْ مِنْ الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ؛فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ،وَرَحْمَتُـهُ بَيْنَ خَلْقِهِ،وَظِلُّهُ فِي أَرْضِهِ،وَحِكْمَتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ وَعَلَى صِـدْقِ رَسُـولِهِ – ﷺ – أَتَـمَّ دَلَالَـةً وَأَصْدَقُهَا،وَهِيَ نُورُهُ الَّذِي بِهِ أَبْصَرَ الْمُبْصِرُونَ،وَهُدَاهُ الَّذِي بِهِ اهْتَدَى الْمُهْتَدُونَ،وَشِفَاؤُهُ التَّامُّ الَّذِي بِهِ دَوَاءُ كُلِّ عَلِيلٍ،وَطَرِيقُهُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي مَنْ اسْتَقَامَ عَلَيْهِ فَقَدْ اسْـتَقَامَ عَلَـى سَـوَاءِ السَّبِيلِ.

فَهِيَ قُرَّةُ الْعُيُونِ،وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ،وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ؛فَهِيَ بِهَا الْحَيَاةُ وَالْغِذَاءُ وَالدَّوَاءُ وَالنُّورُ وَالشِّـفَاءُ وَالْعِصْمَةُ،وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الْوُجُودِ فَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْهَا،وَحَاصِلٌ بِهَا،وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْوُجُـودِ

---

[٤١٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧١٥،بترقيم الشاملة آليا)

فَسَبَبُهُ مِنْ إضَاعَتِهَا،وَلَوْلَا رُسُومٌ قَدْ بَقِيَتْ لَخَرِبَتْ الدُّنْيَا وَطُوِيَ الْعَالَمُ،وَهِيَ الْعِصْمَةُ لِلنَّاسِ وَقِوَامُ الْعَالَمِ،وَبِهَا يُمْسِك اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا،فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَرَابَ الدُّنْيَا وَطَيَّ الْعَالَمِ رَفَعَ إلَيْهِ مَا بَقِيَ مِنْ رُسُومِهَا؛فَالشَّرِيعَةُ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ هِيَ عَمُودُ الْعَالَمِ،وَقُطْبُ الْفَلَاحِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ."[٤١٤]

وقال تعالى:{ {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]

الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به.فأمر الله عباده بأدائها أي:كاملة موفرة،لا منقوصة ولا مبخوسة،ولا ممطولا بها،ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.وقد ذكر الفقهاء على أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها.قالوا:لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛فوجب ذلك.

وفي قوله:{إِلَى أَهْلِهَا} دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن،ووكيلُه بمترلته؛فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديا لها.

{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض،القليل من ذلك والكثير،على القريب والبعيد،والبر والفاجر،والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام،وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به.ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال:{إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه،لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما،لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية،ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.[٤١٥]

فأما الحكم بالعدل بين «الناس» فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا «بين الناس» جميعا.لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب.ولا عدلا مع أهل الكتاب،دون سائر الناس ..وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه «إنسانا».فهذه الصفة – صفة الناس – هي التي يترتب عليها حق

---

[٤١٤] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١١)

[٤١٥] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٨٣)

العدل في المنهج الرباني.وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعا:مؤمنين وكفارا.أصدقاء وأعداء.سودا وبيضا.عربا وعجما.والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت في أمرهم - هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط - في هذه الصورة - إلا على يد الإسلام،وإلا في حكم المسلمين،وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية ..والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة فلم تذق له طعما قط،في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعا.لأنهم «ناس»! لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه «الناس»! وذلك هو أساس الحكم في الإسلام كما أن الأمانة - بكل مدلولاتها - هي أساس الحياة في المجتمع الإسلامي.

والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل هو التذكير بأنه من وعظ الله - سبحانه - وتوجيهه.ونعم ما يعظ الله به ويوجه:«إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ» ..

ونقف لحظة أمام التعبير من ناحية أسلوب الأداء فيه.فالأصل في تركيب الجملة:إنه نعم ما يعظكم الله به ..ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة،فيجعله «اسم إن» ويجعل نعم ما «نعما» ومتعلقاتها،في مكان «خبر إن» بعد حذف الخبر ..ذلك ليوحي بشدة الصلة بين الله - سبحانه - وهذا الذي يعظهم به ..

ثم إنها لم تكن «عظة» إنما كانت «أمرا» ..ولكن التعبير يسميه عظة.لأن العظة أبلغ إلى القلب،وأسرع إلى الوجدان،وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياء! ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه:«إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً» ..

والتناسق بين المأمور به من التكاليف وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وبين كون الله سبحانه «سميعا بصيرا» مناسبة واضحة ولطيفة معا ..فالله يسمع ويبصر،قضايا العدل وقضايا الأمانة.والعدل كذلك في حاجة إلى الاستماع البصير وإلى حسن التقدير،وإلى مراعاة الملابسات والظواهر،وإلى التعمق فيما وراء الملابسات والظواهر.وأخيرا فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور.[416]

---

[416] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٣٢)

وقال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الأنعام:١١٥] أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام

وَتَمَّتْ رَحْمَةُ رَبِّكَ فِيمَا وَعَدَكَ به مِنَ النَّصْرِ،وَفِيمَا أَوْعَدَ بِهِ الْمُسْتَهْزِئِينَ مِنَ الهَلاَكِ وَالخِذْلاَنِ،كَمَا تَمَّتْ فِي الرُّسُلِ قَبْلَكَ وَفِي أَعْدَائِهِمْ.وَقَدْ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً لِحُصُولِهَا عَلَى الوَجْهِ الذي أَخْبَرَ بِهِ،وَعَدْلاً بِجَزَاءِ كُلٍّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالكَافِرِينَ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ،وَقَدْ يُزَادُ الْمُؤْمِنُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرَحْمَةً،وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُبَدِّلَ مَا قَضَى اللهُ بِهِ،وَلاَ أَنْ يَرُدَّ مَا حَكَمَ بِهِ،وَهُوَ السَّمِيعُ لِمَا يَقُولُهُ هَؤُلاَءِ الْمُكَذِّبُونَ الْمُخَادِعُونَ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ،وَهُوَ العَلِيمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْمَقَاصِدِ وَالنِّيَّاتِ،وَبِمَا يَقْتَرِفُونَهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالآثَامِ.[٤١٧]

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل:٩٠]

فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده،فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده،ويعامل الخلق بالعدل التام،فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى،وولاية القضاء ونواب الخليفة،ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه،وعلى لسان رسوله،وأمرهم بسلوكه،ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات،بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم.فالعدل واجب،والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم،وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى -وإن كان داخلا في العموم- لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم،والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

---

[٤١٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٠٥،بترقيم الشاملة آليا)

وقوله:{وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ} وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش.
ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.
وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.
فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها،فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات،فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به.وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه.وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه،وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال،فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء.
ولهذا قال:{يَعِظُكُمْ} به أي:بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم.{لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه،فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.[٤١٨]
وقال تعالى:{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [الأنعام:١٥٢]
إنَّ مِمَّا وَصَّى بِهِ النَّاسَ أَيْضاً العَدْلُ فِي القَوْلِ وَالفِعْلِ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ،وَفِي كُلِّ حَالٍ:فِي الشَّهَادَةِ وَفِي الحُكْمِ وَفِي الكَيْلِ وَالمِيْزَانِ،وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِقَرِيبٍ،فَإِنَّ القَرَابَةَ وَالصَّدَاقَةَ يَجِبُ أَلاَّ تَصْرِفَا الإِنْسَانَ عَنْ قَوْلِ الحَقِّ،وَعَنِ العَدْلِ فِيهِ.[٤١٩]
وقال تعالى:{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } [الإسراء:٩]،أي أصوب وأعدل في العقائد والأحكام وفي جميع الأمور والأحوال والسياسات،فمن اهتدى بالقرآن وتحاكم إليه من الولاة وغيرهم فهم أقوم الناس وأعدلهم

[٤١٨] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٤٧)
[٤١٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٤٢،بترقيم الشاملة آليا)

يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه {يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} أي:أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق،فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.[420]

وقال تعالى:{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } [ص:٢٦]

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِدَاوُدَ:إِنَّهُ جَعَلَهُ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ،نَافِذَ الكَلِمَةِ والحُكْمِ بَينَ الرَّعِيَّةِ،فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ بالحَقِّ وَالعَدْلِ،وَأَنْ لاَ يَتَّبِعَ الهَوَى لأَنَّ اتِّبَاعَ الهَوَى يَكُونُ سَبَباً لِلضَّلاَلَةِ وَالجَوْرِ عَنِ الطَّرِيقِ القَويمِ الذِي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى:إِنَّ الذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَهُدَاهُ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ (يَوْمَ الحِسَابِ) عَذَابٌ شَدِيدٌ لِنِسْيَانِهِمْ ذَلِكَ اليَومَ،وَإِنَّ اللهَ سَيُحَاسِبُ العِبَادَ فِيهِ عَلَى أَعَمَالِهِمْ جَمِيعاً،صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا.[421]

فبين الله تعالى أن الواجب على ولاة الأمر الحكم بين الناس بالحق والعدل،ونهى عما يضاد العدل ويصد عن سبيل الله وهو اتباع الهوى،وقال تعالى:{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف:١٨١] أي يهتدون بالحق ويهدون غيرهم،فهم صالحون مصلحون لغيرهم،وبالعدل يحكمون بين الناس ويقضون،وهؤلاء هم أئمة الناس في العدل والهداية.

أي:ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها،مكملة لغيرها،يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق،فيعلمون الحق ويعملون به،ويعلِّمونه،ويدعون إليه وإلى العمل به.

{وَبِهِ يَعْدِلُونَ} بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات،وغير ذلك،وهؤلاء هم أئمة الهدى،ومصابيح الدجى،وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح،والتواصي بالحق والتواصي بالصبر،وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة،وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو مترلته،فسبحان من

[420] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٥٤)

[421] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٨٧٥،بترقيم الشاملة آليا)

يختص برحمته من يشاء،والله ذو الفضل العظيم[٤٢٢].وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء:١٣٥]

العَدْلُ هُوَ نِظَامُ الوُجُود،لِذَلِكَ أَمْرُ اللهِ المُؤْمِنِينَ بِأنْ يَجْعَلُوا العِنَايَةَ بِإقَامَةِ العَدْلِ،عَلَى وَجْهِهِ الصَّحِيحِ،صِفَةً ثَابِتَةً لَهُمْ،رَاسِخَةً فِي نُفُوسِهِمْ (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ) .

وَالعَدْلُ كَمَا يَكُونُ فِي الحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ،يَكُونُ أيْضاً فِي العَمَلِ:كَالقِيَامِ بِمَا يَجِبُ مِنَ العَدْلِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ وَالأَوْلاَدِ،فِي النَّفَقَةِ،وَالمُسَاوَاةِ بَيْنَهُمْ.وَيَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأنْ يَكُونُوا شُهَدَاءَ للهِ،بِأنْ يَتَحَرَّوا الحَقَّ الذِي يَرْضَاهُ اللهُ،وَيَأْمُرُ بِهِ،مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةٍ لأَحَدٍ،وَلاَ مُحَابَاةٍ لَهُ،وَلَوْ كَانَت الشَّهَادَةُ عَلَى نَفْسِ الإِنْسَانِ،بِأَنْ يُثْبِتَ بِهَا الحَقَّ عَلَيهِ (وَمَنْ أقَرَّ عَلَى نَفْسِهِ بِحَقٍّ فَقَدْ شَهِدَ عَلَيْهَا) أَوْ عَلَى وَالِدَي الإِنْسَانِ،أَوْ عَلَى أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ،إِذْ لَيْسَ مِنْ بِرِّ الوَالِدَينِ،وَلاَ مِنْ صِلَةِ الرَّحْمِ،أنْ يُعَانُوا عَلَى أَكْلِ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ حَقٌّ،بَلِ البِرُّ وَالصِّلَةُ فِي الحَقِّ وَالمَعْرُوفِ.

وَيُوصِي اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِالتِزَامِ العَدْلِ فِي الشَّهَادَةِ،وَإنْ كَانَ المَشْهُودُ عَلَيهِ مِنَ الأَقَارِبِ،سَوَاءً أَكَانَ فَقِيراً أَوْ غَنِياً،فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْلَى بِهِ،وَشَرْعُهُ أَحَقُّ بِأَنْ يُتَّبَعَ فِيهِ،فَحَذَارِ أَنْ تُحَابُوا غَنِيّاً طَمَعاً فِي بِرِّهِ،أَوْ خَوْفاً مِنْ سَطْوَتِهِ،وَحَذَارِ أَنْ تُحَابُوا فَقِيراً عَطْفاً عَلَيهِ،أَوْ شَفَقَةً بِهِ فَمَرْضَاةُ المَشْهُودِ عَلَيهِ لَيْسَتْ خَيراً لَكُمْ وَلاَ لَهُ مِنْ مَرْضَاةِ اللهِ،فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى لِئَلاَّ تَعْدِلُوا عَنِ الحَقِّ إلى البَاطِلِ.

وَيَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ أَنْ لاَ يُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ وَلاَ يَتَعَمَّدُوا الكَذِبَ فِيهَا،وَأَنْ لاَ يُعْرِضُوا عَنْ أَدَائِهَا إِذَا مَا دُعُوا إلى الشَّهَادَةِ،وَيُخْبِرُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لا تَخْفَى عَلَيهِ خَافِيَةٌ مِنْ تَصَرُّفَاتِ العِبَادِ،فَلاَ يَخْفَى عَليهِ قَصْدُهُمْ،وَأَنَّهُ مُجَازِيهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ.[٤٢٣]

أي كونوا قوامين بالقسط،وهو العدل في جميع أقوالكم وأعمالكم في حق الله تعالى وفي حقوق العباد،ثم نهى الله تعالى عما يصد عن العدل وهو اتباع الهوى فقال{فَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُواْ

---

[٤٢٢] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣١٠)

[٤٢٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٢٨،بترقيم الشاملة آليا)

وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} واللي:هو تحريف الكلام ومجانبة الحق فيه،والإعراض:هو الامتناع عن القيام بالعدل في الحكم أو الشهادة بكتمها وتركها،قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ،أَيْ بِالْعَدْلِ،فَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شَمَالًا وَلَا تَأْخُذَهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ،وَلَا يَصْرِفَهُمْ عَنْهُ صَارِفٌ،وَأَنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَاضِدِينَ مُتَنَاصِرِينَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ:{شُهَدَاءَ لِلَّهِ} كَمَا قَالَ {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} أَيْ:لِيَكُنْ أَدَاؤُهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ،فَحِينَئِذٍ تَكُونُ صَحِيحَةً عَادِلَةً حَقًّا،خَالِيَةً مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْكِتْمَانِ؛وَلِهَذَا قَالَ:{وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} أَيْ:اشْهَدِ الْحَقَّ وَلَوْ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْكَ وَإِذَا سُئِلت عَنِ الْأَمْرِ فَقُلِ الْحَقَّ فِيهِ،وَإِنْ كَانَ مَضرة عَلَيْكَ،فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مَنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضِيقُ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ:{أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ} أَيْ:وَإِنْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ عَلَى وَالِدَيْكَ وَقَرَابَتِكَ،فَلَا تُراعهم فِيهَا،بَلِ اشْهَدْ بِالْحَقِّ وَإِنَّ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْهِمْ،فَإِنَّ الْحَقَّ حَاكِمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ،وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى كُلِّ أَحَد.

وَقَوْلُهُ:{إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا} أَيْ:لَا تَرْعَاهُ لِغِنَاهُ،وَلَا تُشْفِقْ عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ،اللَّهُ يَتَوَلَّاهُمَا،بَلْ هُوَ أَوْلَى بِهِمَا مِنْكَ،وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا.

وَقَوْلُهُ {فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا} أَيْ:فَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ الْهَوَى وَالْعَصَبِيَّةُ وبغْضَةُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ،عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أُمُورِكُمْ وَشُؤُونِكُمْ،بَلِ الْزَمُوا الْعَدْلَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [الْمَائِدَةِ:٨]

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ،لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُصُ عَلَى أَهْلِ خَيْبَرَ ثِمَارَهُمْ وَزَرْعَهُمْ،فَأَرَادُوا أَنْ يُرْشُوه لِيَرْفُقَ بِهِمْ،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَيَّ،وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ أَعْدَادِكُمْ مِنَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ،وَمَا يَحْمِلُنِي حُبِي إِيَّاهُ وَبُغْضِي لَكُمْ عَلَى أَلَّا أَعْدِلَ فِيكُمْ.فَقَالُوا:"بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ".

وَقَوْلُهُ:{وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا} قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ:{تَلْوُوا} أَيْ:تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ وَتُغَيِّرُوهَا،"وَاللَّيُّ" هُوَ:التَّحْرِيفُ وَتَعَمُّدُ الْكَذِبِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ [لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] [آل عِمْرَانَ:٧٨] .وَ"الْإِعْرَاضُ" هُوَ:كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ وَتَرْكُهَا،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [الْبَقَرَة:٢٨٣] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"خَيْرُ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسأَلها".وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ:{فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} أي:وسيجازيكم بذلك.[٤٢٤]

وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة:٨]

يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لِيَكُنْ هَمَّكُمْ وَدَأْبُكُمُ التِزَامَ الحَقِّ فِي أَنْفُسِكُمْ (بِدُونِ اعْتِدَاءٍ عَلَى أَحَدٍ)،وَفِي غَيْرِكُمْ (بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَحْدَهُ،لاَ لأَجْلِ إِرْضَاءِ النَّاسِ،وَاكْتِسَابِ السُّمْعَةِ الحَسَنَةِ عِنْدَهُمْ)،وَكُونُوا شُهَدَاءَ بِالعَدْلِ (القِسْطِ)،دُونَ مُحَابَاةٍ لِمَشْهُودٍ لَهُ،وَلاَ لِمَشْهُودٍ عَلَيهِ،فَالعَدْلُ مِيزَانُ الحُقُوقِ،وَمَتَى وَقَعَ الجُورُ فِي أُمَّةٍ،زَالَتِ الثِّقَةُ مِنْ نُفُوسِ النَّاسِ،وَانْتَشَرَتِ المُفَاسِدُ،وَتَقَطَّعَتْ رَوَابِطُ المُجْتَمَعِ.وَلاَ تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتُكُمُ الشَّدِيدَةُ لِقَوْمٍ،وَبُغْضُكُمْ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ العَدْلِ فِي أَمْرِ الشَّهَادَةِ لَهُمْ بِحَقِّهِمْ إِذَا كَانُوا أَصْحَابَ حَقٍّ،أَوْ عَلَى عَدَمِ الحُكْمِ لَهُمْ بِذَلِكَ،فَالمُؤْمِنُ يُؤْثِرُ العَدْلَ علَى الجُورِ وَالمُحَابَاةِ.ثُمَّ يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ السَّابِقَ بِضَرُورَةِ إِقَامَةِ العَدْلِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالقِسْطِ فَيَقُولُ:اعْدِلُوا لأَنَّ العَدْلَ أَقْرَبُ لِتَقْوَى اللهِ،وَأَبْعَدُ عَنْ سَخَطِهِ،وَاتَّقُوا سَخَطَ اللهِ وَعِقَابَهُ لأَنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا،وَاحْذَرُوا أنْ يُجَازِيَكُمْ بِالعَدْلِ عَلَى تَرْكِكُمُ القِيَامَ بِالعَدْلِ.[٤٢٥]

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى عباده بأن يقوموا بالحق قياما لله وحده شاهدين بالقسط،وقاصدين للعدل مع الصديق والعدو،ولا يحملنهم بغض قوم وعداوتهم ولو كانوا كفارا على ترك العدل،بل عليهم أن يلزموا العدل ويتمسكوا به ولو مع الأعداء،فإن العدل أقرب إلى تقوى الله تعالى،وقد قال تعالى في العدل مع الكفار من أهل الكتاب:{ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ

---

[٤٢٤] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٤٣٣)

[٤٢٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٧٨،بترقيم الشاملة آليا)

اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى:١٥]

فَادْعُ النَّاسَ إِلَى إِقَامَةِ الدِّينِ القَوِيمِ،الذي أَوْحَى بِهِ اللهُ إِلَى جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ،الذِينَ جَاؤُوا قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ،وَبِذَلِكَ تَكُونُ قَدْ دَعَوْتَ إِلَى تَحْقِيقِ وَحْدَةِ الدِّينِ كَمَا أَنْزَلَهَا اللهُ،وَاثْبُتْ أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ،وَعَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ دِينٍ وَشَرْعٍ كَمَا أَمَرَكُمْ،وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الْمُشْرِكِينَ،الذِينَ شَكُّوا فِي الحَقِّ بِمَا ابْتَدَعُوهُ وَافْتَرَوْهُ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ والأَوْثَانِ،وَقُلْ:إِنَّنِي صَدَّقْتُ بِجَمِيعِ الكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ مِنَ التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ،لا أُكَذِّبُ بِشَيءٍ مِنْهَا،وَإِنَّ رَبِّي قَدْ أَمَرَنِي بِالعَدْلِ فِي الحُكْمِ والقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ،فَلا أَحِيفُ وَلاَ أَجُورُ،وَأَمَرَنِي رَبِّي بِأَنْ أَقُولَ لِهَؤُلاَءِ الْمُكَذِّبِينَ:إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَعْبُودُ لاَ إِلهَ غَيْرُهُ،وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ،وَنَحْنُ نُقِرُّ بِهِ طَوْعاً وَاخْتِيَاراً،وَأَنْتُمْ تُنْكِرُونَ رُبُوبِيَّتَهُ،وَلَكِنَّ ذَلِكَ لاَ يَضِيرُهُ بِشَيءٍ فَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً،وَنَحْنُ بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ،فَنَحْنُ نُجْزَى بِأَعْمَالِنَا،وَأَنْتُمْ تُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ وَلاَ يَحْمِلُ أَحَدٌ وِزْرَ أَحَدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ؛وَلاَ خُصُومَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ وَلاَ احْتِجَاجَ،فَإِنَّ الحَقَّ قَدْ وَضَحَ وَلَيْسَ لِلمحَاجَّةِ مَجَالٌ،وَاللهُ تَعَالَى سَيَجْمَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ،فَيَقْضِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ بِالحَقِّ فِيمَا كُنَّا نَخْتَلِفُ فِيهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا،وَإِلَيهِ الْمَرْجِعُ والْمَآبُ فَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ بِعَمَلِهِ إِنَّ خَيْراً فَخَيْراً،وَإِنْ شَرّاً فَشَراً.[٤٢٦]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،أَنَّهُ قَالَ:" أَفَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا كَانُوا،وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ،فَبَعَثَ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ،فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ،ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ،أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ،قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللهِ،وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ،قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ،فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ،وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي،فَقَالُوا:بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ،قَدْ أَخَذْنَا،فَاخْرُجُوا عَنَّا " رواه أحمد[٤٢٧].وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ:اخْتَصَمَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ وَيَهُودِيٌّ،فَرَأَى عُمَرُ أَنَّ الْحَقَّ لِلْيَهُودِيِّ،فَقَضَى لَهُ.فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ:وَاللَّهِ لَقَدْ قَضَيْتَ بِالْحَقِّ.فَضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ

---

[٤٢٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٦٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٤٢٧] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٣/ ٢١٠)(١٤٩٥٣) صحيح

الْخَطَّابِ بِالدِّرَّةِ،ثُمَّ قَالَ:وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ:إِنَّا نَجِدُ أَنَّهُ لَيْسَ قَاضٍ يَقْضِي بِالْحَقِّ،إِلَّا كَانَ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكٌ،وَعَنْ شِمَالِهِ مَلَكٌ،يُسَدِّدَانِهِ وَيُوَفِّقَانِهِ لِلْحَقِّ مَا دَامَ مَعَ الْحَقِّ،فَإِذَا تَرَكَ الْحَقَّ عَرَجَا وَتَرَكَاهُ " رواه مالك[428]

وعن أنس،قال:أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال:يا أمير المؤمنين،عائذ بك من الظلم،قال:عذت معاذا،قال:سابقت "ابن" عمرو بن العاص فسبقته،فجعل يضربني بالسوط،ويقول:أنا ابن الأكرمين! فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم بابنه معه.فقدم فقال عمر:أين المصري؟ خذ السوط فاضرب،فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر:اضرب ابن الأكرمين .ثم قال للمصري:ضعه على صلعة عمرو،قال:يا أمير المؤمنين،إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه،فقال عمر لعمرو:مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا! قال:يا أمير المؤمنين، لم أعلم و لم يأتني .[429]

وروى أبو نعيم في "الحلية" أن عليا رضي الله عنه خاصم يهوديا في درع عند شريح القاضي فقضى بالدرع لليهودي،فلما رأى اليهودي هذا العدل أقر أن الدرع لأمير المؤمنين رضي الله عنه وأسلم،وسيأتي لفظه في باب آخر.

وقال تعالى:{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)} [النساء:]

إنا أنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن مشتملا على الحق؛ لتفصل بين الناس جميعًا بما أوحى الله إليك،وبَصَّرك به،فلا تكن للذين يخونون أنفسهم -بكتمان الحق- مدافعًا عنهم بما أيدوه

---

[428] - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٧١٩)(٢) صحيح

[429] - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ٥٧٨) وفتوح مصر وأخبارها (ص:١٨٣) وجامع الأحاديث (٢٥/ ٤٧١)(٢٨٣٩٢) ضعيف

لك من القول المخالف للحقيقة.واطلب من الله تعالى المغفرة في جميع أحوالك،إن الله تعالى كان غفورًا لمن يرجو فضله ونوال مغفرته،رحيمًا به.ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بمعصية الله.إن الله -سبحانه- لا يحب مَن عَظُمَتْ خيانته،وكثر ذنبه.يستترون من الناس خوفًا من اطلاعهم على أعمالهم السيئة،ولا يستترون من الله تعالى ولا يستحيون منه،وهو عزَّ شأنه معهم بعلمه،مطلع عليهم حين يدبِّرون -ليلا- ما لا يرضى من القول،وكان الله -تعالى- محيطًا بجميع أقوالهم وأفعالهم،لا يخفى عليه منها شيء.ها أنتم -أيها المؤمنون- قد حاججتم عن هؤلاء الخائنين لأنفسهم في هذه الحياة الدنيا،فمن يحاجج الله تعالى عنهم يوم البعث والحساب؟ ومن ذا الذي يكون على هؤلاء الخائنين وكيلا يوم القيامة؟[430]

لما أمر الله تعالى بالحكم بالكتاب بين الناس نهى عن ضده من الظلم والجور بالمخاصمة على الخائنين والذب عنهم،ولو كان الذي وقعت عليه الخيانة والظلم كافرا معاهدا،قال ابن جرير رحمه الله " " وَلَا تَكُنْ لِمَنْ خَانَ مُسْلِمًا أَوْ مُعَاهَدًا فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ ،خَصِيمًا تُخَاصِمُ عَنْهُ ،وَتَدْفَعُ عَنْهُ مِنْ طَالَبَهُ بِحَقِّهِ الَّذِي خَانَهُ فِيهِ.{وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ} [النساء:١٠٦] يَا مُحَمَّدُ وَسَلْهُ أَنْ يَصْفَحَ لَكَ عَنْ عُقُوبَةِ ذَنْبِكَ فِي مُخَاصَمَتِكَ عَنِ الْخَائِنِ مَنْ خَانَ مَالًا لِغَيْرِهِ {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:٢٣] يَقُولُ:«إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ يَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِتَرْكِهِ عُقُوبَتَهُمْ عَلَيْهَا ،إِذَا اسْتَغْفَرُوهُ مِنْهَا ،رَحِيمًا بِهِمْ ،فَافْعَلْ ذَلِكَ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ ،يَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ مَا سَلَفَ مِنْ خُصُومَتِكَ عَنْ هَذَا الْخَائِنِ.وَقَدْ قِيلَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ خَاصَمَ عَنِ الْخَائِنِ ،وَلَكِنَّهُ هَمَّ بِذَلِكَ ،فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ مِمَّا هَمَّ بِهِ مِنْ ذَلِكَ»

عَنْ مُجَاهِدٍ ،فِي قَوْلِ اللَّهِ:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء:١٠٥] إِلَى قَوْلِهِ:{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ} فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي طُعْمَةَ بْنِ أُبَيْرِقٍ وَدِرْعِهِ مِنْ حَدِيدٍ الَّتِي سَرَقَ ،وَقَالَ أَصْحَابُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلنَّبِيِّ:اعْذُرْهُ فِي النَّاسِ بِلِسَانِكَ.ورَمَوْا بِالدِّرْعِ رَجُلًا مِنْ يَهُودَ بَرِيئًا "

عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ ،عَنْ أَبِيهِ ،عَنْ جَدِّهِ ،قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ ،قَالَ:كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالَ لَهُمْ بَنُو أُبَيْرِقٍ:بِشْرٌ وَبَشِيرٌ وَمُبَشِّرٌ ،وَكَانَ بُشَيْرٌ رَجُلًا مُنَافِقًا ،وَكَانَ يَقُولُ الشِّعْرَ يَهْجُو بِهِ

---

[430] - التفسير الميسر (١/ ٩٥)

أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَنْحِلُهُ إِلَى بَعْضِ الْعَرَبِ ،ثُمَّ يَقُولُ:قَالَ فُلَانٌ كَذَا ،وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا ،فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ الشِّعْرَ ،قَالُوا:وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ إِلَّا هَذَا الْخَبِيثُ ،فَقَالَ:

أَوَكُلَّمَا قَالَ الرِّجَالُ قَصِيدَةً ...أَضِمُوا وَقَالُوا ابْنُ الْأُبَيْرِقِ قَالَهَا

قَالَ:وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ فَاقَةٍ وَحَاجَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ،وَكَانَ النَّاسُ إِنَّمَا طَعَامُهُمْ بِالْمَدِينَةِ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ ،وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ بِالدَّرْمَكِ ابْتَاعَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ ،فَخَصَّ بِهِ نَفْسَهُ ،فَأَمَّا الْعِيَالُ:فَإِنَّمَا طَعَامُهُمُ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ.فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ ،فَابْتَاعَ عَمِّي رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ حِمْلًا مِنَ الدَّرْمَكِ ،فَجَعَلَهُ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ ،وَفِي الْمَشْرُبَةِ سِلَاحٌ لَهُ:دِرْعَانِ وَسَيْفَاهُمَا وَمَا يُصْلِحُهُمَا.فَعُدِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ اللَّيْلِ ،فَنُقِبَتِ الْمَشْرُبَةُ ،وَأُخِذَ الطَّعَامُ وَالسِّلَاحُ.[ص:٤٦٠] فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ:يَا ابْنَ أَخِي تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ عُدِيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ ،فَنُقِبَتْ مَشْرُبَتُنَا ،فَذُهِبَ بِسِلَاحِنَا وَطَعَامِنَا.قَالَ:فَتَحَسَّسْنَا فِي الدَّارِ وَسَأَلْنَا ،فَقِيلَ لَنَا:قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ اسْتَوْقَدُوا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ،وَلَا نَرَى فِيمَا نَرَاهُ إِلَّا عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ.قَالَ:وَقَدْ كَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ:وَاللَّهِ مَا نَرَى صَاحِبَكُمْ إِلَّا لَبِيدَ بْنَ سَهْمٍ ،رَجُلٌ مِنَّا لَهُ صَلَاحٌ وَإِسْلَامٌ ،فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ لَبِيدٌ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ ،ثُمَّ أَتَى بَنِي أُبَيْرِقٍ فَقَالَ:وَاللَّهِ لَيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ.قَالُوا:إِلَيْكَ عَنَّا أَيُّهَا الرَّجُلُ ،فَوَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا.فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا ،فَقَالَ عَمِّي:يَا ابْنَ أَخِي ،لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ.قَالَ قَتَادَةُ:فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ ،إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلُ جَفَاءٍ ،عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ فَنَقَبُوا مَشْرُبَةً لَهُ ،وَأَخَذُوا سِلَاحَهُ وَطَعَامَهُ ،فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنَا سِلَاحَنَا ،فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَأَنْظُرُ فِي ذَلِكَ» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَيْرُ بْنُ عُرْوَةَ ،فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ ،وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ،فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ ،إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدُوا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إِسْلَامٍ وَصَلَاحٍ يَرْمُونَهُمْ [ص:٤٦١] بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبَتٍ.قَالَ قَتَادَةُ:فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ ،فَقَالَ:«عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبَتٍ» قَالَ:فَرَجَعْتُ وَلَوَدِدْتُ

أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ.فَأَتَيْتُ عَمِّي رِفَاعَةَ ،فَقَالَ:يَا ابْنَ أَخِي مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ،فَقَالَ:اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.فَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء:١٠٥] يَعْنِي:بَنِي أُبَيْرِقٍ {وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ} [النساء:١٠٦] أَيْ مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَةَ {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} [النساء:١٠٧] أَيْ بَنِي أُبَيْرِقٍ {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ} [النساء:١٠٧] إِلَى قَوْلِهِ:{ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١١٠] أَيْ أَنَّهُمْ إِنِ يَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ يَغْفِرْ لَهُمْ {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا} [النساء:١١١] وَإِثْمًا مُبِينًا قَوْلَهُمْ لِلَبِيدٍ {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ} [النساء:١١٣] يَعْنِي أُسَيْرًا وَأَصْحَابَهُ {وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [النساء:١١٣] إِلَى قَوْلِهِ:{فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٧٤] فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالسِّلَاحِ ،فَرَدَّهُ إِلَى رِفَاعَةَ.قَالَ قَتَادَةُ:فَلَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بِالسِّلَاحِ وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،[ص:٤٦٢] وَكُنْتُ أَرَى إِسْلَامَهُ مَدْخُولًا؛فَلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسِّلَاحِ ،قَالَ:يَا ابْنَ أَخِي ،هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.قَالَ:فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَهُ كَانَ صَحِيحًا.فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بَشِيرٌ بِالْمُشْرِكِينَ فَنَزَلَ عَلَى سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ سَهْلٍ ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ {وَمَنْ يُشَاقِقِ} [النساء:١١٥] الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قَوْلِهِ:{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا} [النساء:١١٦] بَعِيدًا فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلَافَةَ رَمَاهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرٍ ،فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا ثُمَّ خَرَجَتْ فَرَمَتْهُ بِالْأَبْطَحِ ،ثُمَّ قَالَتْ:أَهْدَيْتَ إِلَيَّ شِعْرَ حَسَّانَ ،مَا كُنْتَ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ "

وعَنْ قَتَادَةَ:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء:١٠٥] يَقُولُ:" بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَيَّنَ لَكَ {وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء:١٠٥] فَقَرَأَ إِلَى قَوْلِهِ:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء:١٠٧] ذَكَرَ لَنَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ أُنْزِلَتْ فِي شَأْنِ طُعْمَةَ بْنِ أُبَيْرِقٍ وَفِيمَا هَمَّ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ مِنْ عُذْرِهِ ،وَبَيَّنَ اللَّهُ شَأْنَ طُعْمَةَ بْنِ أُبَيْرِقٍ

،وَوَعَظَ نَبِيَّهُ ﷺ وَحَذَّرَهُ أَنْ يَكُونَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.وَكَانَ طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ،ثُمَّ أَحَدَ بَنِي ظَفَرٍ ،سَرَقَ دِرْعًا لِعَمِّهِ كَانَتْ وَدِيعَةً عِنْدَهُ ،ثُمَّ قَذَفَهَا عَلَى يَهُودِيٍّ كَانَ يَغْشَاهُمْ ،يُقَالَ لَهُ زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ ،فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ [ص:٤٦٣] يَهْتِفُ ،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَوْمُهُ بَنُو ظَفَرٍ جَاءُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ لِيَعْذِرُوا صَاحِبَهُمْ ،وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ هَمَّ بِعُذْرِهِ ،حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهِ مَا أَنْزَلَ ،فَقَالَ:{وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} [النساء:١٠٧] إِلَى قَوْلِهِ:{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} يَعْنِي بِذَلِكَ قَوْمَهُ {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [النساء:١١٢] وَكَانَ طُعْمَةُ قَذَفَ بِهَا بَرِيئًا.فَلَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ شَأْنَ طُعْمَةَ نَافَقَ وَلَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهِ:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ،قَوْلُهُ:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء:١٠٥] وَذَلِكَ أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْأَنْصَارِ غَزَوْا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ ،فَسُرِقَتْ دِرْعٌ لِأَحَدِهِمْ ،فَأَظَنَّ بِهَا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ،فَأَتَى صَاحِبُ الدِّرْعِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ،فَقَالَ:إِنَّ طُعْمَةَ بْنَ أُبَيْرِقٍ سَرَقَ دِرْعِي.فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ،فَلَمَّا رَأَى السَّارِقُ ذَلِكَ ،عَمَدَ إِلَيْهَا فَأَلْقَاهَا فِي بَيْتِ رَجُلٍ بَرِيءٍ ،وَقَالَ لِنَفَرٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ:إِنِّي قَدْ غَيَّبْتُ الدِّرْعَ وَأَلْقَيْتُهَا فِي بَيْتِ فُلَانٍ ،وَسَتُوجَدُ عِنْدَهُ.فَانْطَلَقُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ لَيْلًا ،فَقَالُوا:يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ صَاحِبَنَا بَرِيءٌ ،وَإِنَّ سَارِقَ الدِّرْعِ فُلَانٌ ،وَقَدْ أَحَطْنَا بِذَلِكَ عِلْمًا ،فَاعْذُرْ صَاحِبَنَا عَلَى رُءُوسِ [ص:٤٦٤] النَّاسِ وَجَادِلْ عَنْهُ ،فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَعْصِمْهُ اللَّهُ بِكَ يَهْلِكْ.فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَرَّأَهُ وَعَذَرَهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء:١٠٥] يَقُولُ:" احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فِي الْكِتَابِ {وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} [النساء:١٠٧] الْآيَةُ ،ثُمَّ قَالَ لِلَّذِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلًا:{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ} [النساء:١٠٨] إِلَى قَوْلِهِ:{أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء:١٠٩] يَعْنِي الَّذِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِينَ بِالْكَذِبِ.ثُمَّ قَالَ:{وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ

يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا} [النساء:١١٢] وَإِثْمًا مُبِينًا يَعْنِي:السَّارِقَ وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ عَنِ السَّارِق "

عَنِ السُّدِّيِّ:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء:١٠٥] قَالَ:" أَمَّا {مَا أَرَاكَ اللَّهُ} :فَمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ؛قَالَ:نَزَلَتْ فِي طُعْمَةَ بْنِ أُبَيْرِقٍ ،وَاسْتَوْدَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ دِرْعًا ،فَانْطَلَقَ بِهَا إِلَى دَارِهِ ،فَحَفَرَ لَهَا الْيَهُودِيُّ ثُمَّ دَفَنَهَا ،فَخَالَفَ إِلَيْهَا طُعْمَةُ فَاحْتَفَرَ عَنْهَا ،فَأَخَذَهَا.فَلَمَّا جَاءَ الْيَهُودِيُّ يَطْلُبُ دِرْعَهُ كَافَرَهُ عَنْهَا ،فَانْطَلَقَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ عَشِيرَتِهِ ،فَقَالَ:انْطَلِقُوا مَعِي ،فَإِنِّي أَعْرِفُ وَضْعَ الدِّرْعِ.فَلَمَّا عَلِمَ بِهِمْ طُعْمَةُ أَخَذَ الدِّرْعَ فَأَلْقَاهَا فِي دَارِ أَبِي مُلَيْلٍ الْأَنْصَارِيِّ ،فَلَمَّا جَاءَتِ الْيَهُودُ تَطْلُبُ الدِّرْعَ فَلَمَّا تَقْدِرْ عَلَيْهَا ،وَقَعَ بِهِ طُعْمَةُ وَأُنَاسٌ مِنْ قَوْمِهِ ،فَسَبُّوهُ ،وَقَالَ أَتُخَوِّنُونَنِي؟ فَانْطَلَقُوا يَطْلُبُونَهَا فِي دَارِهِ ،فَأَشْرَفُوا عَلَى بَيْتِ أَبِي مُلَيْلٍ ،فَإِذَا هُمْ بِالدِّرْعِ ،وَقَالَ طُعْمَةُ:أَخَذَهَا أَبُو مُلَيْلٍ.وجَادَلَتِ الْأَنْصَارُ دُونَ طُعْمَةَ وَقَالَ لَهُمُ:انْطَلِقُوا مَعِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا لَهُ يَنْضَحُ عَنِّي وَيُكَذِّبُ حُجَّةَ الْيَهُودِيِّ ،فَإِنِّي إِنْ أُكَذَّبْ كَذَبَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْيَهُودِيُّ.فَأَتَاهُ أُنَاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ ،جَادِلْ عَنْ طُعْمَةَ وَأَكْذِبِ الْيَهُودِيَّ.فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ:{وَلَا تَكُنْ [ص:٤٦٧] لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ} [النساء:١٠٦] مِمَّا أَرَدْتَ {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء:١٠٦] ثُمَّ ذَكَرَ الْأَنْصَارَ وَمُجَادَلَتَهُمْ عَنْهُ ،فَقَالَ:{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ} [النساء:١٠٨] يَقُولُ:" يَقُولُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ثُمَّ دَعَا إِلَى التَّوْبَةِ ،فَقَالَ:{وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١١٠] ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَهُ حِينَ قَالَ:أَخَذَهَا أَبُو مُلَيْلٍ ،فَقَالَ:{وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ} [النساء:١١١] " {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا} [النساء:١١٢] وَإِثْمًا مُبِينًا ثُمَّ ذَكَرَ الْأَنْصَارَ وَإِتْيَانَهُمْ إِيَّاهُ أَنْ يَنْضَحَ عَنْ صَاحِبِهِمْ وَيُجَادِلَ عَنْهُ فَقَوْلُهُ:{لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [النساء:١١٣] يَقُولُ:"

النُّبُوَّةَ.ثُمَّ ذَكَرَ مُنَاجَاتِهِمْ فِيمَا يُرِيدُونَ أَنْ يكْذِبُوا عَنْ طُعْمَةَ ،فَقَالَ:{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ} [النساء:١١٤] إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ فَلَمَّا فَضَحَ اللَّهُ طُعْمَةَ بِالْمَدِينَةِ بِالْقُرْآنِ ،هَرَبَ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ ،فَكَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِه.ونَزَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ بْنِ عِلَاطٍ السُّلَمِيِّ ،فَنَقَبَ بَيْتَ الْحَجَّاجِ فَأَرَادَ أَنْ يَسْرِقَهُ ،فَسَمِعَ الْحَجَّاجُ خَشْخَشَةً فِي بَيْتِهِ وَقَعْقَعَةَ جُلُودٍ كَانَتْ عِنْدَهُ ،فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ بِطُعْمَةَ ،فَقَالَ:ضَيْفِي وَابْنُ عَمِّي وَأَرَدْتَ أَنْ تَسْرِقَنِي؟ .فأَخْرَجَهُ فَمَاتَ بِحَرَّةِ بَنِي سُلَيْمٍ كَافِرًا ،وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ:{وَمَنْ يُشَاقِقِ} [النساء:١١٥] الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى إِلَى:{وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:٩٧] "

عَنْ عِكْرِمَةَ ،قَالَ:اسْتَوْدَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طُعْمَةَ بْنَ أُبَيْرِقٍ مَشْرُبَةً لَهُ فِيهَا دِرْعٌ ،وَخَرَجَ فَغَابَ.فَلَمَّا قَدِمَ الْأَنْصَارِيُّ فَتَحَ مَشْرُبَتَهُ فَلَمْ يَجِدِ الدِّرْعَ ،فَسَأَلَ عَنْهَا طُعْمَةَ بْنَ أُبَيْرِقٍ ،فَرَمَى بِهَا رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ.فَتَعَلَّقَ صَاحِبُ الدِّرْعِ بِطُعْمَةَ فِي دِرْعِهِ؛فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَوْمُهُ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ ،فَكَلَّمُوهُ لِيَدْرَأَ عَنْهُ فَهَمَّ بِذَلِكَ ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} [النساء:١٠٦] يَعْنِي طُعْمَةَ بْنَ أُبَيْرِقٍ وَقَوْمَهُ {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} مُحَمَّدٌ ﷺ وَقَوْمُ طُعْمَةَ {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١١٠] مُحَمَّدٌ وَطُعْمَةُ وَقَوْمُهُ ،قَالَ:{وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ} [النساء:١١١] الْآيَةُ ،طُعْمَةُ {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا} [النساء:١١٢] يَعْنِي:زَيْدَ بْنَ السَّمِينِ {فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [النساء:١١٢] طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ} [النساء:١١٣] يَا مُحَمَّدُ {لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ} [النساء:١١٣] قَوْمُ طُعْمَةَ بْنِ أُبَيْرِقٍ {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء:١١٣] مُحَمَّدٌ ﷺ {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ} [النساء:١١٤] حَتَّى تَنْقَضِيَ الْآيَةُ لِلنَّاسِ عَامَّةً {وَمَنْ يُشَاقِقِ

الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء:١١٥] الْآيَةُ.قَالَ:لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي طُعْمَةَ بْنِ أُبَيْرِقٍ لَحِقَ بِقُرَيْشٍ وَرَجَعَ فِي دِينِهِ ،ثُمَّ عَدَا عَلَى مَشْرُبَةٍ لِلْحَجَّاجِ بْنِ عِلَاطٍ الْبَهْزِيِّ ثُمَّ السُّلَمِيِّ حَلِيفٍ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ ،فَنَقَبَهَا ،فَسَقَطَ عَلَيْهِ حَجَرٌ فَلَحِجَ.فَلَمَّا أَصْبَحَ أَخْرَجُوهُ مِنْ مَكَّةَ ،فَخَرَجَ فَلَقِيَ رَكْبًا مِنْ بُهَرَاءَ مِنْ قُضَاعَةَ ،فَعَرَضَ لَهُمْ ،فَقَالَ:ابْنُ سَبِيلٍ مُنْقَطِعٌ بِهِ.فَحَمَلُوهُ حَتَّى إِذَا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ عَدَا عَلَيْهِمْ فَسَرَقَهُمْ ،ثُمَّ انْطَلَقَ فَرَجَعُوا فِي طَلَبِهِ فَأَدْرَكُوهُ ،فَقَذَفُوهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى مَاتَ.قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:فَهَذِهِ الْآيَاتُ كُلُّهَا فِيهِ نَزَلَتْ إِلَى قَوْلِهِ:{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٨] أُنْزِلَتْ فِي طُعْمَةَ بْنِ أُبَيْرِقٍ ،يَقُولُونَ:إِنَّهُ رَمَى بِالدِّرْعِ فِي دَارِ أَبِي مُلَيْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَزْرَجِيِّ ،فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بِقُرَيْشٍ ،فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ "

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَأَوْلَى التَّأْوِيلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْآيَةِ قَوْلُ مَنْ قَالَ:كَانَتْ خِيَانَتُهُ الَّتِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ جُحُودُهُ مَا أُودِعَ ،لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَعَانِي الْخِيَانَاتِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛وَتَوْجِيهُ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَشْهَرِ مِنْ مَعَانِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَا وُجِدَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِ."[431]

والآيات تدل على حرمة النيابة عن الظالمين في خصومتهم،والجدال عنهم فيما ارتكبوه من خيانات،لدفع التهمة عنهم أو دفع ما يترتب على خياناهم من العقوبات الشرعية،ومثلهم الدعاة إلى البدع والضلال وأهل الباطل جميعا،فلا تجوز المخاصمة عنهم،أو الذب عن باطلهم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ،يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:الإِمَامُ العَادِلُ،وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ،وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ،وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ،وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ،فَقَالَ:إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ،وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ،أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ،وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ " متفقٌ عليه[432].

---

[431] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ٤٥٧)

[432] - صحيح البخاري (١/ ١٣٣)(٦٦٠) وصحيح مسلم (٢/ ٧١٥)٩١ - (١٠٣١)

[ش(سبعة) أشخاص وكل من يتصف بصفاهم.(ظله) ظل عرشه وكنف رحمته.(معلق في المساجد) أي شديد الحب لها والملازمة للجماعة فيها.(اجتمعا عليه) اجتمعت قلوهما وأجسادهما على الحب في الله.(تفرقا) استمرا على تلك المحبة حتى

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ،عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ،وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ،الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُــوا» رواهُ مسلم[٤٣٣]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ فِي اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا» رواه النسائي وغيره[٤٣٤].

وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ:" أَلَــا إِنَّ رَبِّــي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ،مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا،كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ،وَإِنِّي خَلَقْــتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ،وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ،وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْــتُ لَهُمْ،وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا،وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْــلِ الْــأَرْضِ،فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ،إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَقَالَ:إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ،وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ،تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ،وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا،فَقُلْتُ:رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً،قَالَ:اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَــا اسْــتَخْرَجُوكَ،وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ،وَأَنْفِــقْ فَسَــنُنْفِقَ عَلَيْكَ،وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ،وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ،قَالَ:وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَــةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ،وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْــلِمٍ،وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ،قَالَ:وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ:الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ،الَّذِينَ هُمْ فِــيكُمْ تَبَعًــا لَــا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا،وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ،وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ،وَرَجُلٌ لَا يُصْــبِحُ وَلَــا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ «وَذَكَرَ» الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّــاشُ " رواهُ مسلم[٤٣٥]

فرق بينهما الموت.(طلبته) دعته للزنا.(ذات منصب) امرأة لها مكانة ووجاهة ومال ونسب.(أخفى) الصدقة وأسرها عند إخراجها.(لا تعلم شماله) كناية عن المبالغة في السر والإخفاء.(خاليا) من الخلاء وهو موضع ليس فيه أحد من الناس.(ففاضت عيناه) ذرفت بالدموع إجلالا لله وشوقا إلى لقائه]

[٤٣٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٨)١٨ - (١٨٢٧) [ش (ولوا) أي كانت لهم عليه ولاية]

[٤٣٤] - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٣٩٥)(٥٨٨٦) ومسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٢٤)(٦٤٨٥) صحيح

[٤٣٥] - صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧)٦٣ - (٢٨٦٥)

[ش (كل مال نحلته عبدا حلال) في الكلام حذف أي قال الله تعالى كل مال الخ ومعنى نحلته أعطيته أي كل مال أعطيته عبدا من عبادي فهو له حلال والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك وأنها لم

وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ:ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ،وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ،وَرَجُلٌ فَقِيرٌ عَفِيفٌ مُتَصَدِّقٌ»[٤٣٦]

(قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ) أَيْ:ثَلَاثَةُ أَجْنَاسٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ (ذُو سُلْطَانٍ) أَيْ:حُكْمٍ.قَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ:سُلْطَانٌ ؛ لِأَنَّهُ ذُو قَهْرٍ وَغَلَبَةٍ مِنَ السَّلَاطَةِ،وَهِيَ التَّمَكُّنُ مِنَ الْقَهْرِ.قَالَ تَعَالَى:{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ} [النساء:٩٠]،وَمِنْهُ سُمِّيَ السُّلْطَانُ،وَقِيلَ:ذُو حُجَّةٍ لِأَنَّهُ يُقَامُ الْحُجَجُ بِهِ (مُقْسِطٌ) بِالرَّفْعِ صِفَةُ الْمُضَافِ أَيْ:عَادِلٌ،يُقَالُ:أَقْسَطَ فَهُوَ مُقْسِطٌ:إِذَا عَدَلَ،وَقَسَطَ فَهُوَ قَاسِطٌ:إِذَا جَارَ،فَالْهَمْزَةُ فِيهِ لِلسَّلْبِ كَمَا يُقَالُ:شَكَا إِلَيْهِ فَأَشْكَاهُ (مُتَصَدِّقٌ) أَيْ:مُحْسِنٌ إِلَى النَّاسِ (مُوَفَّقٌ) أَيِ الَّذِي هُيِّئَ لَهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ،وَفُتِحَ لَهُ أَبْوَابُ الْبِرِّ (وَرَجُلٌ رَحِيمٌ) أَيْ:عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ (رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى) خُصُوصًا (وَمُسْلِمٍ) أَيْ:لِكُلِّ مُسْلِمٍ عُمُومًا.قَالَ الطِّيبِيُّ:مُفَسِّرٌ لِقَوْلِهِ (رَحِيمٌ) أَيْ:يَرِقُّ قَلْبُهُ،وَيَرْحَمُ لِكُلِّ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ لُحْمَةُ الْقَرَابَةِ أَوْ صِلَةُ الْإِسْلَامِ.اهـ

وَالظَّاهِرُ أَنْ يُرَادَ بِالرَّحِيمِ صِيغَةٌ فِعْلِيَّةٌ يَظْهَرُ وَجُودُهَا فِي الْخَارِجِ،وَبِالرَّقِيقِ صِفَةٌ قَلْبِيَّةٌ سَوَاءٌ ظَهَرَ أَثَرُهَا أَمْ لَا.وَالثَّانِي أَظْهَرُ،فَيَكُونُ بِاعْتِبَارِ الْقُوَّةِ وَالْأَوَّلُ بِاعْتِبَارِ الْفِعْلِ،وَيُمْكِنُ أَنْ تَتَعَلَّقَ

تصر حراما بتحريمهم وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق (حنفاء كلهم) أي مسلمين وقيل طاهرين من المعاصي وقيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية (فاجتالتهم) هكذا هو في نسخ بلادنا فاجتالتهم وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل وقال شمر اجتال الرجل الشيء ذهب به واجتال أموالهم ساقها وذهب بها (فمقتهم) المقت أشد البغض والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ﷺ (إلا بقايا من أهل الكتاب) المراد بهم الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل (إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك) معناه لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده والصبر في الله تعالى وغير ذلك وأبتلي بك من أرسلتك إليهم فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته ومن يتخلف وينابذ بالعداوة والكفر ومن ينافق (كتابا لا يغسله الماء) معناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على ممر الزمان (إذا يثلغوا رأسي) أي يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز أي يكسر (نغزك) أي نعينك (لا زبر له) أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي وقيل هو الذي لا مال له وقيل الذي ليس عنده ما يعتمده (لا يتبعون) مخفف ومشدد من الاتباع أي يتبعون ويتبعون وفي بعض النسخ يبتغون أي يطلبون (والخائن الذي لا يخفى له طمع) معنى لا يخفى لا يظهر قال أهل اللغة يقال خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته وكتمته هذا هو المشهور وقيل هما لغتان فيهما جميعا (وذكر البخل أو الكذب) هكذا هو في أكثر النسخ أو الكذب وفي بعضها والكذب والأول هو المشهور في نسخ بلادنا (الشنظير) فسره في الحديث بأنه الفحاش وهو السيئ الخلق]

[٤٣٦] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٦/ ٤٩٠)(٧٤٥٣) صحيح

رَحْمَةُ الرَّحِيمِ إِلَى الْمَعْنَى الْأَعَمِّ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ الشَّامِلِ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَالدَّوَابِّ،فَيَكُونُ الثَّانِي أَخَصَّ.وَالْحَاصِلُ أَنَّ التَّأْسِيسَ أَوْلَى مِنَ التَّأْكِيدِ.

(وَعَفِيفٌ) بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ الثَّالِثُ مِنَ الثَّلَاثَةِ أَيْ:مُجْتَنِبٌ عَمَّا لَا يَحِلُّ (مُتَعَفِّفٌ) أَيْ:عَنِ السُّؤَالِ مُتَوَكِّلٌ عَلَى الْمَلِكِ الْمُتَعَالِ فِي أَمْرِهِ وَأَمْرِ عِيَالِهِ مَعَ فَرْضِ وُجُودِهِمْ،فَإِنَّهُ أَصْعَبُ،وَلِهَذَا قَالَ:(ذُو عِيَالٍ) أَيْ:لَا يَحْمِلُهُ حُبُّ الْعِيَالِ وَلَا خَوْفُ رِزْقِهِمْ عَلَى تَرْكِ التَّوَكُّلِ بِارْتِكَابِ سُؤَالِ الْخَلْقِ،وَتَحْصِيلِ الْمَالِ الْحَرَامِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِمْ عَنِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ،وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَشَارَ بِالْعَفِيفِ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمَانِعَةِ عَنِ الْفَوَاحِشِ،وَبِالْمُتَعَفِّفِ إِلَى إِبْرَازِ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ وَاسْتِعْمَالِ تِلْكَ الْقُوَّةِ لِإِظْهَارِ الْعِفَّةِ عَنْ نَفْسِهِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَإِذِ اسْتَقْرَيْتَ أَحْوَالَ الْعِبَادِ عَلَى اخْتِلَافِهَا لَمْ تَجِدْ أَحَدًا يَسْتَأْهِلُ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ،وَيَحِقُّ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا وَهُوَ مُنْدَرِجٌ تَحْتَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ غَيْرُ خَارِجٍ عَنْهَا (وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ) إِشَارَةٌ إِلَى كَثْرَتِهِمْ (الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ) بِفَتْحِ الزَّايِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ أَيْ:لَا رَأْيَ وَلَا عَقْلَ كَامِلًا يَعْقِلُهُ،وَيَمْنَعُهُ عَنِ ارْتِكَابِ مَا لَا يَنْبَغِي،وَقَدْ وَرَدَ:«الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ،وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ،وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ»،وَفِي الْقَامُوسِ:الزَّبْرُ الْعَقْلُ وَالْكَمَالُ وَالصَّبْرُ وَالِانْتِهَارُ وَالْمَنْعُ وَالنَّهْيُ.اهـ.وَلِكُلٍّ وَجْهٌ فِي الْمَعْنَى.

وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ أَيْ:لَا عَقْلَ لَهُ،وَفِي الْغَرِيبَيْنِ يُقَالُ:مَا لَهُ زَبْرٌ أَيْ عَقْلٌ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:الْمَعْنَى لَا يَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ لَا تَكْلِيفَ عَلَيْهِ،فَكَيْفَ يُحْكَمُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ،وَأَرَى الْوَجْهَ فِيهِ أَنْ يُفَسَّرَ بِالتَّمَاسُكِ،فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يَقُولُونَ لَا زَبْرَ لَهُ أَيْ:لَا تَمَاسُكَ لَهُ،وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ،وَالْمَعْنَى:لَا تَمَاسُكَ لَهُ عِنْدَ مَجِيءِ الشَّهَوَاتِ،فَلَا يَرْتَدِعُ عَنْ فَاحِشَةٍ وَلَا يَتَوَرَّعُ عَنْ حَرَامٍ.قُلْتُ:التَّمَاسُكُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ كَمَالِ الْعَقْلِ وَحَاصِلٌ بِالصَّبْرِ فَيُحْمَلُ عَلَى أَحَدِهِمَا.

وَأَغْرَبَ الطِّيبِيُّ فِي قَوْلِهِ:لَعَلَّ الشَّيْخَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ:(الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ) قِسْمٌ آخَرُ مِنَ الْأَقْسَامِ الْخَمْسَةِ،وَلِذَلِكَ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ يَعْنِي بِهِ الْخُدَّامَ الَّذِينَ يَكْتَفُونَ بِالشُّبُهَاتِ،وَعَلَيْهِ كَلَامُ الْقَاضِي ؛ حَيْثُ قَالَ:الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ يُرِيدُ بِهِ الْخُدَّامَ الَّذِينَ لَا مَطْمَحَ لَهُمْ وَلَا مَطْمَعَ إِلَّا مَا يَمْلَأُونَ بِهِ بُطُونَهُمْ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ كَانَ،وَلَا تَتَخَطَّى هِمَمُهُمْ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرٍ دِينِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ.أَقُولُ:وَالظَّاهِرُ أَنَّ الضَّعِيفَ وَصْفٌ بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ تَارَةً بِالْمُفْرَدِ،وَبِاعْتِبَارِ الْجِنْسِ أُخْرَى

بِالْجَمْعِ،أَوِ الْمَوْصُولُ الثَّانِي بَيَانٌ أَوْ بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ لِعَدَمِ الْعَاطِفِ كَمَا فِي الْأُصُولِ الْمَشْهُورَةِ،وَعَلَيْهِ كَلَامُ الْأَشْرَفِ ؛ حَيْثُ قَالَ:الَّذِي فِي قَوْلِهِ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ بِمَعْنَى الَّذِينَ لِلْجَمْعِ،وَهُوَ الَّذِي جَوَّزَ جَعْلَ قَوْلِهِ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ.اهـ كَلَامُهُ.وَعَلَى هَذَا لَا يَتَوَجَّهُ الْإِشْكَالُ الَّذِي أَوْرَدَهُ الشَّيْخُ التُّورِبِشْتِيُّ،وَيَتَعَيَّنُ تَقْسِيمُ الْأَقْسَامِ الْخَمْسَةِ.أَحَدُهَا:الضَّعِيفُ،وَثَانِيهَا:الْخَائِنُ،وَثَالِثُهَا:رَجُلٌ،وَرَابِعُهَا:الْبَخِيلُ،وَخَامِسُهَا:الشِّنْظِيرُ.تَمَّ كَلَامُ الطِّيبِيِّ.

وَوَجْهُ غَرَابَتِهِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ وَالْقَاضِي مَا يَدُلُّ عَلَى جَعْلِهِ قِسْمًا آخَرَ،وَهُمَا أَعْقَلُ مِنْ أَنْ يُخَالِفَا النَّصَّ عَلَى الْخَمْسِ بِالزِّيَادَةِ عَلَيْهِ،لَا سِيَّمَا عِنْدَ عَدَمِ وُجُودِ الْعَاطِفِ عَلَى مَا فِي الْأُصُولِ الْمَشْهُورَةِ،وَلَا دَلَالَةَ لِتَفْسِيرَيْهِمَا عَلَى مَا تَوَهَّمَ الْفَاضِلُ،إِذْ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْوَصْفِ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ،بَلِ الثَّانِي مُمَيِّزٌ لِلْأَوَّلِ،وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ هُوَ جِنْسُ الضَّعِيفِ فِي أَمْرِ دِينِهِ النَّاقِصُونَ فِي عُقُولِهِمُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ (لَا يَبْغُونَ أَهْلًا) أَيْ:لَا يَطْلُبُونَ زَوْجَةً وَلَا سُرِّيَّةً،فَأَعْرَضُوا عَنِ الْحَلَالِ وَارْتَكَبُوا الْحَرَامَ (وَلَا مَالًا) أَيْ:وَلَا يَطْلُبُونَ مَالًا حَلَالًا مِنْ طَرِيقِ الْكَدِّ وَالْكَسْبِ الطَّيِّبِ،فَقِيلَ:هُمُ الْخَدَمُ الَّذِينَ يَكْتَفُونَ بِالشُّبُهَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي سَهُلَ عَلَيْهِمْ مَأْخَذُهَا عَمَّا أُبِيحَ لَهُمْ،وَلَيْسَ لَهُمْ دَاعِيَةٌ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ،وَقِيلَ:هُمُ الَّذِينَ يَدُورُونَ حَوْلَ الْأُمَرَاءِ وَيَخْدُمُونَهُمْ،وَلَا يُبَالُونَ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ يَأْكُلُونَ وَيَلْبَسُونَ،أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ،لَيْسَ لَهُمْ مَيْلٌ إِلَى أَهْلٍ وَلَا إِلَى مَالٍ،بَلْ قَصَرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ،ثُمَّ الْإِشْكَالُ الَّذِي أَوْرَدَهُ الشَّيْخُ عَلَى مَعْنَى لَا زَبْرَ لَهُ لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَهُ قِسْمًا آخَرَ أَوْ لَا.وَاللَّهُ أَعْلَمُ.ثُمَّ قَوْلُهُ:تَبَعٌ هُوَ الْأَصْلُ وَفِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ وَهُوَ بِفَتْحَتَيْنِ جَمْعُ تَابِعٍ كَخَدَمٍ جَمْعُ خَادِمٍ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:تَبَعٌ فِي بَعْضِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ مَرْفُوعٌ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلُ الظَّرْفِ أَوْ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ الظَّرْفُ،وَالْجُمْلَةُ خَبَرُهُمْ،وَفِي بَعْضِهَا مَنْصُوبٌ كَمَا فِي الْحُمَيْدِيِّ وَجَامِعِ الْأُصُولِ،وَهُوَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَتِرِ فِي الْخَبَرِ.اهـ.وَقَوْلُهُ:لَا يَبْغُونَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَتَسْكِينِ الْمُوَحَّدَةِ وَضَمِّ الْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ فِي النُّسَخِ الْمُصَحَّحَةِ الْمُعْتَمَدَةِ،وَفِي بَعْضِهَا بِفَتْحِ الْيَاءِ وَتَشْدِيدِ الْفَوْقِيَّةِ وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ وَالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ مِنَ الِاتِّبَاعِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِضَمِّ الْيَاءِ وَسُكُونِ الْفَوْقِيَّةِ

وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ وَالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:لَا يُتْبِعُونَ بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ يُخَفَّفُ وَيُشَدَّدُ مِنَ الِاتِّبَاعِ وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ يَبْغُونَ بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ (وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ) مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ قَالَ الْقَاضِي أَيْ:لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُطْمَعَ فِيهِ (وَإِنْ دَقَّ) بِحَيْثُ لَا يَكَادُ أَنْ يُدْرَكَ (إِلَّا خَانَهُ) أَيْ:إِلَّا وَهُوَ يَسْعَى فِي التَّفَحُّصِ عَنْهُ،وَالتَّطَلُّعِ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِدَهُ فَيَخُونُهُ،وَهَذَا هُوَ الْإِغْرَاقُ فِي الْوَصْفِ بِالْخِيَانَةِ.قُلْتُ:بَلْ هُوَ إِغْرَاقٌ فِي وَصْفِ الطَّمَعِ،وَالْخِيَانَةُ تَابِعَةٌ لَهُ،وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَتَعَدَّى عَنِ الطَّمَعِ،وَلَوِ احْتَاجَ إِلَى الْخِيَانَةِ،وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:الطَّمَعُ فَسَادُ الدِّينِ وَالْوَرَعُ صَلَاحُهُ.قَالَ:وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ (خَفِيًّا) مِنَ الْأَضْدَادِ وَالْمَعْنَى لَا يَظْهَرُ لَهُ شَيْءٌ يَطْمَعُ فِيهِ إِلَّا خَانَهُ،وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا.قُلْتُ:لَا خَفَاءَ فِي أَنَّ الْمَعْنَى الْأَسْبَقَ أَبْلَغُ وَأَنْسَبُ بِقَوْلِهِ:وَإِنْ دَقَّ،فَهُوَ بِالِاعْتِبَارِ أَوْلَى وَأَحَقُّ،وَإِنْ كَانَ تَعْدِيَةُ (خَفِيَ) بِاللَّامِ فِي مَعْنَى الْإِظْهَارِ أَظْهَرُ،فَإِنَّهُ يُقَالُ خَفِيَ لَهُ أَيْ:ظَهَرَ،وَخَفِيَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ أَيِ:اسْتَتَرَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الشُّرَّاحِ،لَكِنْ فِي الْقَامُوسِ خَفَاهُ يَخْفِيهِ:أَظْهَرَهُ وَخَفِيَ كَرَضِيَ لَمْ يَظْهَرْ،اهـ

فَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْمُعَوَّلُ فِي فَتْحِ الْفَاءِ فِي لَا يَخْفَى إِلَّا إِنْ ثَبَتَتِ الرِّوَايَةُ بِكَسْرِهَا كَمَا لَا يَخْفَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ) أَيْ:بِسَبَبِهِمَا فَعَنْ بِمَعْنَى الْبَاءِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} [النجم:٣]،عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ،الْكَشَّافِ فِي قَوْلِهِ:{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} [البقرة:٣٦]،أَيْ:حَمَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَلَى الزَّلَّةِ بِسَبَبِهَا (وَذَكَرَ) أَيِ:النَّبِيُّ - ﷺ - إِنْ كَانَ الشَّكُّ الْآتِي مِنَ الصَّحَابِيِّ،أَوْ ذَكَرُ عِيَاضٍ إِنْ كَانَ مِنَ التَّابِعِيِّ وَهَلُمَّ جَرًّا (الْبُخْلَ) أَيْ:فِي الْقِسْمِ الرَّابِعِ (أَوِ الْكَذِبَ) :قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ أَيِ:الْبَخِيلُ وَالْكَذَّابُ أَقَامَ الْمَصْدَرَ مَقَامَ الْفَاعِلِ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ:وَلَعَلَّ الرَّاوِيَ نَسِيَ أَلْفَاظًا ذَكَرَهَا - ﷺ - فِي شَأْنِ الْبَخِيلِ أَوِ الْكَذَّابِ،فَعَبَّرَ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ،وَإِلَّا كَانَ يَقُولُ:وَالْبَخِيلُ أَوِ الْكَذَّابُ.قُلْتُ:الْمَعْنَى كَمَا قَالَ الشَّيْخُ،سَوَاءٌ كَانَ هُنَاكَ صِفَةٌ أُخْرَى لَهُمَا أَمْ لَا.هَذَا وَرُوِيَ بِالْوَاوِ وَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يُجْعَلَ اثْنَيْنِ مِنَ الْخَمْسَةِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ:(وَالشِّنْظِيرَ) مَنْصُوبًا عَطْفًا عَلَى الْكَذِبِ تَتِمَّةً لَهُ،وَإِمَّا أَنْ يُجْعَلَا وَاحِدًا فَيَكُونُ الشِّنْظِيرُ مَرْفُوعًا.كَذَا قَالَهُ شَارِحٌ،لَكِنْ قَوْلُهُ:تَتِمَّةً لَهُ غَيْرُ صَحِيحٍ ؛ لِأَنَّ التَّعَدُّدَ الْمَفْهُومَ مِنَ الْوَاوِ،وَهُوَ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ وَاقِعٌ فِيهِ،وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الشِّنْظِيرُ عَطْفَ تَفْسِيرٍ لِلْكَذِبِ لِمَا

بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَايُنِ،فَالصَّوَابُ أَنَّ الْوَاوَ بِمَعْنَى " أَوْ " كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْأُصُولُ الْمُعْتَمَدَةُ وَالنُّسَخُ الصَّحِيحَةُ،ثُمَّ الشِّنْظِيرُ بِكَسْرِ الشِّينِ وَالظَّاءِ الْمُعْجَمَتَيْنِ بَيْنَهُمَا نُونٌ سَاكِنَةٌ السَّيِّئُ الْخُلُقِ،وَهُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى التَّصْحِيحِ كَمَا سَبَقَ.قَوْلُهُ:(الْفَاحِشُ) نَعْتٌ لَهُ،وَلَيْسَ بِمَعْنَى لَهُ أَي:الْمُكْثِرُ لِلْفُحْشِ،وَالْمَعْنَى:أَنَّهُ مَعَ سُوءِ خُلُقِهِ فَحَّاشٌ فِي كَلَامِهِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّلَازُمِ الْغَالِبِيِّ،هَذَا وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ فِي أَكْثَرِ النُّسَخِ:أَوِ الْكَذِبَ بِأَوْ وَفِي بَعْضِهَا بِالْوَاوِ،وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشْهُورُ فِي نُسَخِ بِلَادِنَا،وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:رِوَايَتُنَا عَنْ جَمِيعِ شُيُوخِنَا بِالْوَاوِ إِلَّا ابْنَ أَبِي جَعْفَرٍ عَنِ الطَّبَرِيِّ،وَقَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ:وَلَعَلَّهُ الصَّوَابُ،وَبِهِ تَكُونُ الْمَذْكُورَاتُ خَمْسَةً.قَالَ الطِّيبِيُّ:فَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ:وَالشِّنْظِيرُ مَرْفُوعٌ فَيَكُونُ عَطْفًا عَلَى رَجُلٍ كَمَا سَبَقَ،وَعَلَى تَأْوِيلِ الْوَاوِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا مِنْ تَتِمَّةِ الْكَذِبِ أَوِ الْبُخْلِ أَوِ الْبَخِيلُ السَّيِّئُ الْخُلُقِ الْفَحَّاشُ أَوِ الْكَذَّابُ السَّيِّئُ الْخُلُقِ الْفَحَّاشُ.اهـ.وَمَا قَدَّمْنَاهُ هُوَ التَّحْقِيقُ وَإِنْ خَفِيَ عَلَى بَعْضِ أَرْبَابِ التَّدْقِيقِ وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.[٤٣٧]

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ،سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ»«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ،وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ،وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي،وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي،وَإِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ،فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ» رواه البخاري ومسلم[٤٣٨]

قال الإمام النووي رحمه الله:" قَوْلُهُ ﷺ (الْإِمَامُ جُنَّةٌ) أَيْ كَالسِّتْرِ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْعَدُوَّ مِنْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ وَيَمْنَعُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَحْمِي بَيْضَةَ الْإِسْلَامِ وَيَتَّقِيهِ النَّاسُ وَيَخَافُونَ سَطْوَتَهُ

---

[٤٣٧] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣١٠٦)

[٤٣٨] – صحيح البخاري (٤/ ٥٠)(٢٩٥٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٣ – (١٨٤١)

[ش (الأمير) أمير السرية أو ولاة الأمور مطلقا.(الإمام) الحاكم الأعلى القائم بشؤون الأمة.(جنة) سترة ووقاية لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويمنع الناس من أذى بعضهم بعضا.(يقاتل من ورائه) يقاتل معه الكفار والبغاة وسائر أهل الفساد.(يتقى به) يحتمى به ويتقوى وقيل يرجع إليه في الرأي والتدبير.(بغيره) أمر بغير تقوى الله تعالى وعدله.(فإن عليه منه) فإن الوبال الحاصل منه عليه لا على المأمور]

وَمَعْنَى يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ أَيْ يُقَاتَلُ مَعَهُ الْكُفَّارُ وَالْبُغَاةُ وَالْخَوَارِجُ وَسَائِرُ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ مُطْلَقًا "[439]

فِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ الْخِلَافَةِ وَالنِّيَابَةِ قِيلَ:كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعَرَبِ لَا يَعْرِفُونَ الْإِمَارَةَ وَلَا يَدِينُونَ لِغَيْرِ رُؤَسَاءِ قَبَائِلِهِمْ،فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَوَلِيَ عَلَيْهِمُ الْأُمَرَاءُ أَنْكَرَتْهُ نُفُوسُهُمْ وَامْتَنَعَ بَعْضُهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ،فَقَالَ لَهُمْ ﷺ لِيُعَلِّمَهُمْ أَنَّ طَاعَتَهُمْ مَرْبُوطَةٌ بِطَاعَتِهِ وَعِصْيَانَهُمْ مَنُوطَةٌ بِعِصْيَانِهِ لِيُطِيعُوا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأُمَرَاءِ

(فَإِنَّمَا الْإِمَامُ) أَيِ الْخَلِيفَةُ أَوْ أَمِيرُهُ (جُنَّةٌ) بِضَمِّ الْجِيمِ أَيْ كَالتُّرْسِ فَهُوَ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ (يُقَاتَلُ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ (مِنْ وَرَائِهِ) بِكَسْرِ الْمِيمِ (وَيُتَّقَى بِهِ) بَيَانٌ لِكَوْنِهِ جُنَّةً أَيْ يَكُونُ الْأَمِيرُ فِي الْحَرْبِ قُدَّامَ الْقَوْمِ لِيَسْتَظْهِرُوا بِهِ وَيُقَاتِلُوا بِقُوَّتِهِ كَالتُّرْسِ لِلْمُتَتَرِّسِ،وَالْأَوْلَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ يَكُونُ مَلْجَأً لِلْمُسْلِمِينَ فِي حَوَائِجِهِمْ دَائِمًا،قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ (يُتَّقَى بِهِ) بَيَانٌ لِقَوْلِهِ (يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ)،وَالْبَيَانُ مَعَ الْمُبَيَّنِ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ:«وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ» .قَالَ النَّوَوِيُّ:أَيْ هُوَ كَالسَّاتِرِ ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْعَدُوَّ مِنْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ،وَيَمْنَعُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ،وَيَحْمِي بَيْضَةَ الْإِسْلَامِ،وَيَتَّقِيهِ النَّاسُ وَيَخَافُونَ سَطْوَتَهُ،وَمَعْنَى (يُقَاتَلُ) وَ (مِنْ وَرَائِهِ) أَنْ يُقَاتلَ مَعَهُ الْكُفَّارَ وَالْبُغَاةَ وَالْخَوَارِجَ وَسَائِرَ أَهْلِ الْفَسَادِ وَيُنْصَرَ عَلَيْهِمْ (فَإِنْ أَمَرَ) أَيِ الْإِمَامُ (بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ) أَيْ قَضَى بِحُكْمِ اللَّهِ (فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا) أَيْ عَظِيمًا (وَإِنْ قَالَ) أَيْ فِي الْأَمْرِ وَالْحُكْمِ (بِغَيْرِهِ) أَيْ بِغَيْرِ مَا ذُكِرَ مِنَ التَّقْوَى وَالْعَدْلِ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ قَوْلُهُ (قَالَ) أَيْ حَكَمَ،يُقَالُ:قَالَ الرَّجُلُ إِذَا حَكَمَ وَمِنْهُ الْقِيلُ وَهُوَ الْمَلِكُ الَّذِي يَنْفُذُ قَوْلُهُ وَحُكْمُهُ وَقَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:أَيْ أَحَبَّهُ وَأَخَذَ بِهِ إِيثَارًا لَهُ وَمَيْلًا إِلَيْهِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِكَ:فُلَانٌ يَقُولُ بِالْقَدَرِ،وَمَا أَشْبَهَهُ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يُحِبُّهُ وَيُؤْثِرُهُ،وَقَالَ الْقَاضِي:أَيْ أَمَرَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ تَقْوَى وَلَا عَدْلٌ،بِدَلِيلِ أَنَّهُ جُعِلَ قَسِيمًا فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْقَوْلُ الْمُطْلَقُ أَوْ أَعَمُّ مِنْهُ وَهُوَ مَا يَرَاهُ وَيُؤْثِرُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ:فُلَانٌ يَقُولُ بِالْقَدَرِ،أَيْ وَإِنْ رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ وَآثَرَهُ قَبُولًا كَانَ أَوْ فِعْلًا لِيَكُونَ مُقَابِلًا لِقَسِيمِهِ بِقُطْرَيْهِ وَمَا سَدَّ الطُّرُقَ الْمُخَالِفَةَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى هَيْجِ الْفِتَنِ الْمُرْدِيَةِ (فَإِنَّ عَلَيْهِ) أَيْ وِزْرًا ثَقِيلًا (مِنْهُ) أَيْ مِنْ صَنِيعِهِ ذَلِكَ فَمِنْهُ جَارٌّ وَمَجْرُورٌ وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي نُسَخِ الْمَصَابِيحِ

---

[439] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٣٠)

وَبَعْضِ نُسَخِ الْمِشْكَاةِ (مُنَّةً) بِضَمِّ الْمِيمِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ الْمَفْتُوحَةِ وَتَاءِ التَّأْنِيثِ فَتَحْرِيفٌ وَتَصْحِيفٌ ؛ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى الْقُوَّةِ وَلَا وَجْهَ لَهَا هُنَا.

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:عَلَيْهِ كَذَا وَجَدْنَا مِنْهُ بِحَرْفِ الْجَرِّ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَكِتَابِ الْحُمَيْدِيِّ وَجَامِعِ الْأُصُولِ وَقَدْ وَجَدْنَاهُ فِي أَكْثَرِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ:مُنَّةً.بِتَشْدِيدِ النُّونِ عَلَى أَنَّهُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ،وَهُوَ تَصْحِيفٌ غَيْرُ مُحْتَمِلٍ لِوَجْهٍ هُنَا،قَالَ الْقَاضِي:فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ،أَيْ وِزْرًا ثَقِيلًا وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ،قَالَ النَّوَوِيُّ:فِيهِ حَثٌّ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَسَبَبُهَا اجْتِمَاعُ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ الْخِلَافَ سَبَبٌ لِفَسَادِ أَحْوَالِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.اهـ وَيُسْتَثْنَى مِنْ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ حَالُ الْمَعْصِيَةِ لِمَا يُسْتَفَادُ مِنْ صَدْرِ الْحَدِيثِ...[٤٤٠]

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ مِنْ شَدِيدِهِمْ لِضَعِيفِهِمْ؟ » رواه ابن حبان[٤٤١]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِذَا حَكَمْتُمْ فَاعْدِلُوا،وَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا،فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ» رواه الطبراني في الأوسط[٤٤٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،مَغْلُولَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ،أَطْلَقَهُ الْحَقُّ أَوْ أَوْبَقَهُ» رواه أحمد[٤٤٣]

وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ قَالَ:حَدَّثَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ.."[٤٤٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :مَا مِنْ أَمِيرِ ثَلَاثَةٍ إِلاَّ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ أَطْلَقَهُ الْحَقُّ،أَوْ أَوْثَقَهُ.[٤٤٥]

---

[٤٤٠] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٩١)

[٤٤١] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٤٤٥)(٥٠٥٩) صحيح

[٤٤٢] - المعجم الأوسط (٦/ ٤٠)(٥٧٣٥) صحيح

[٤٤٣] - سنن الدارمي (٣/ ١٦٣٥)(٢٥٥٧) ومسند أحمد ط الرسالة (١٥/ ٣٥١)(٩٥٧٣) صحيح

[٤٤٤] - شعب الإيمان (٣/ ٣٥٧)(١٨١٨) صحيح لغيره

[٤٤٥] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٣٧٧)(٣٣٢٢١) حسن

وعَنْ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ عَطَاءِ اللهِ الْقُرَشِيِّ،حَدَّثَنِي ابْنُ الْقَارِئِ،قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ نَضْلَةَ فَقَالَ:أَخْبَرَنِي كَعْبٌ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" مَا مِنْ أَمِيرِ عَشْرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا حَتَّى يَكُونَ اللهُ يَرْحَمُهُ أَوْ يَقْضِيَ فِيهِ بِغَيْرِ ذَلِكَ "[446]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" ثَلَاثَةٌ لَا يَرُدُّ اللهُ دُعَاءَهُمْ:الذَّاكِرُون اللهَ كَثِيرًا،وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ،وَالْإِمَامُ الْمُقْسِطُ "رواه البيهقي في شعب الإيمان[447]

وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ وَمَا هِيَ؟ أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ،وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ،وثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ عَدَلَ» رواه الطبراني[448]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ،قَالَ:سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ،فِي مَسْجِدِ رَابِقٍ [رابح] يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ ،وَمَا فِيهَا» ،فَقُمْتُ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي:مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ ،وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ ،وَثَالِثُهَا عَارٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ عَدَلَ ،وَكَيْفَ يَعْدِلُ مَعَ أَقَارِبِهِ؟»[449]

وعن سَعِيدٍ،أَنَّ مُعَاوِيَةَ،أَخَذَ الْإِدَاوَةَ بَعْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ يَتْبَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهَا،وَاشْتَكَى أَبُو هُرَيْرَةَ،فَبَيْنَا هُوَ يُوَضِّئُ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ،فَقَالَ:" يَا مُعَاوِيَةُ،إِنْ وُلِّيتَ أَمْرًا فَاتَّقِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْدِلْ "،قَالَ:فَمَازِلْتُ أَظُنُّ أَنِّي مُبْتَلًى بِعَمَلٍ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى ابْتُلِيتُ" رواه أحمد [450]

---

[446] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/ ٢٣٨٣)(٥٨٤٠) حسن

[447] - شعب الإيمان (٢/ ١٠٤)(٥٨٢) صحيح

[448] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ٧١)(١٣٢) صحيح

[449] - مسند الشاميين للطبراني (٢/ ٢٠٦)(١١٩٥) صحيح –

[450] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ١٢٩)(١٦٩٣٣) صحيح لغيره

قلت:وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف في فضائل معاوية رضي الله عنه ولكن المتأثرين بالفكر الشيعي الرافضي من أهل السنة قد ضعفوا جميع الأحاديث التي وردت في فضائله من باب التعصب والهوى،والصواب قول الحق،ومعاوية رضي الله عنه لا يقل عن الخلفاء الراشدين في الحكم والسياسة،بل يفوقهم في أشياء.

(أَمْرًا)؛أَيْ مِنْ أُمُورِ الْوِلَايَةِ وَالْحُكُومَةِ (فَاتَّقِ اللَّهَ)؛أَيْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ (وَاعْدِلْ)؛أَيْ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ (قَالَ)؛أَيْ مُعَاوِيَةُ (فَمَا زِلْتُ أَظُنُّ أَنِّي مُبْتَلًى بِعَمَلٍ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – ﷺ- حَتَّى ابْتُلِيتُ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ،وَحَتَّى غَايَةٌ لِقَوْلِهِ:أَظُنُّ،أَوْ فَمَا زِلْتُ،قَالَ الطِّيبِيُّ:الْفَاءُ فِيهِ لِلتَّسَبُّبِ؛يَعْنِي بِسَبَبِ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ-،وَحُصُولِ ظَنِّي فَإِنَّ حَمْلَ " إِنْ " قَوْلَهُ – ﷺ-:(إِنْ وُلِّيتَ) عَلَى الْجَزْمِ،كَمَا فِي قَوْلِهِ – ﷺ- فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ:" إِنْ يَكُنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ " وَكَأَنَّ الْمَلَكَ أَخْبَرَهُ بِالْقَضِيَّةِ،كَانَ الظَّنُّ

وعَنْ عُمَرَ،أَوْ قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،يَقُولُ:«وَيْلٌ لِدَيَّانِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ دَيَّانِ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِالْعَدْلِ وَقَضَى بِالْحَقِّ وَلَمْ يَقْضِ عَلَى هَوًى وَلَا عَلَى قَرَابَةٍ،وَلَا عَلَى رَغَبٍ وَلَا رَهَبٍ وَجَعَلَ كِتَابَ اللَّهِ مِرْآةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ:فَحُدِّثْتُ هَذَا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،وَمُعَاوِيَةَ،وَيَزِيدَ،وَعَبْدِ الْمَلِكِ "[٤٥١]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«اتَّقُوا الظُّلْمَ،فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَاتَّقُوا الشُّحَّ،فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»رواه مسلم[٤٥٢]

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ:ثُمَّ قَرَأَ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود:١٠٢] متفق عليه[٤٥٣]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ مُعَاذًا،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ

بِمَعْنَى الْيَقِينِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ} [البقرة:٤٦] فَيَكُونُ مَعْنَى الْغَايَةِ فِي (حَتَّى) نَقْلًا مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى حَقِّ الْيَقِينِ،وَإِنْ حُمِلَ التَّرْدِيدُ فَالظَّنُّ مَجْرِيٌّ عَلَى مَعْنَاهُ؛لِأَنَّ تَرْدِيدَ مِثْلِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ-؛لَا يَكُونُ إِلَّا رَاجِحًا عِنْدَ أُمَّتِهِ فَمَعْنَى الْغَايَةِ فِي (حَتَّى) النَّقْلُ مِنَ الظَّنِّ إِلَى الْيَقِينِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤١٧)

[٤٥١] - فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٦٤)(٤٤) صحيح

[٤٥٢] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٦)٥٦ - (٢٥٧٨)

[ش (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) قال القاضي قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلا حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر أي شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات (واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم) قال القاضي يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر عنهم به في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظهر ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة قال جماعة الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده]

[٤٥٣] - صحيح البخاري (٦/ ٧٤)(٤٦٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٧)٦١ - (٢٥٨٣)

[ش(ليملي) ليمهل.(لم يفلته) لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه.(وكذلك) أي كما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب.(أخذ ربك) إهلاكه وعذابه.(أخذ القرى) أخذ أهلها / هود ١٠٢ /]

افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أخرجه مسلم[٤٥٤]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيْفِيٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا مَعْبَدٍ،مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ:لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ:«إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ،فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى،فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ،فَإِذَا صَلَّوْا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ،تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ،فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ،وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»[٤٥٥]

وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ،السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا،مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ،ثَلاَثٌ مُتَوَالِيَاتٌ:ذُو القَعْدَةِ،وَذُو الحِجَّةِ،وَالمُحَرَّمُ،وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ،أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ " قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،قَالَ:«أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،قَالَ:«أَلَيْسَ البَلْدَةَ؟» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،قَالَ:«أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:" فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ مُحَمَّدٌ:وَأَحْسِبُهُ قَالَ - وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ،كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا،فِي بَلَدِكُمْ هَذَا،فِي شَهْرِكُمْ هَذَا،وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ،فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ،أَلاَ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا،يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ،أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ،فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ - وَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا ذَكَرَهُ قَالَ:صَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ،ثُمَّ قَالَ - أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ،أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ " متفقٌ عليه[٤٥٦]

---

[٤٥٤] - صحيح مسلم (١/ ٥٠)٢٩ - (١٩) [ش (وكرائم أموالهم) الكرائم جمع كريمة قال صاحب المطالع هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم أو صوف (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) أي أنها مسموعة لا ترد]

[٤٥٥] - صحيح البخاري (٩/ ١١٤)(٧٣٧١ و٧٣٧٢)

[٤٥٦] - صحيح البخاري (٧/ ١٠٠)(٥٥٥٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٠٥)٢٩ - (١٦٧٩)

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" رَجُلَانِ مَا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي:إِمَامٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ،وَآخَرُ غَالٍ فِي الدِّينِ مَارِقٌ مِنْهُ ".رواه ابن أبي عاصم في السنة[٤٥٧]

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«رَجُلَانِ لَا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ،إِمَامٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ عَسُوفٌ،وَآخَرُ غَالٌّ فِي الدِّينِ مَارِقٌ مِنْهُ»[٤٥٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أَرْبَعَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ:الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ،وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ،وَالشَّيْخُ الزَّانِي،وَالْإِمَامُ الْجَائِرُ» رواه النسائي[٤٥٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:الشَّيْخُ الزَّانِي،وَالْإِمَامُ الْكَذَّابُ،وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ»رواه البزار[٤٦٠]

وعَنْ أَبِي مِحْجَنٍ،قَالَ:أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي ثَلَاثًا:حَيْفُ الْأَئِمَّةِ،وَإِيمَانٌ بِالنُّجُومِ،وَتَكْذِيبٌ بِالْقَدَرِ " رواه ابن عساكر[٤٦١]

وعَنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ثَلَاثٌ:حَيْفُ الْأَئِمَّةِ،وَإِيمَانٌ بِالنُّجُومِ،وَالتَّكْذِيبُ بِالْقَدَرِ "[٤٦٢]،وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ» رواه أبو يعلى.[٤٦٣]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ،وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ»[٤٦٤]

---

[٤٥٧] - السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٣)(٤١) صحيح لغيره

[٤٥٨] - البعث والنشور للبيهقي (ص:٦٤)(١٨) صحيح لغيره

[٤٥٩] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٣٦٨)(٥٥٥٨) وسنن النسائي (٥/ ٨٦)(٢٥٧٦) صحيح

العائل:الذي له عيال يحتاج أن يقوم بأمورهم.=المزهو:هو الذي يعجب بنفسه كبرا وفخرا،زهي الرجل فهو مزهو،ويقال:زها الرجل،والأول أكثر.

[٤٦٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٢٦١)(٤٤١٣) ومسند البزار = البحر الزخار (٦/ ٤٩٣)(٢٥٢٩) صحيح

قال يزيد:العائل المزهو:الفقير الفخور.

[٤٦١] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٦/ ٣٠٢٦)(٧٠١٥) وجامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧٩٥)(١٤٨٢) وعساكر٤٠١/٥٨ صحيح لغيره

[٤٦٢] - الإبانة الكبرى لابن بطة (٤/ ١١٣)(١٥٣٣) صحيح لغيره

[٤٦٣] - مسند أبي يعلى الموصلي (٢/ ٣٤٣)(١٠٨٨) حسن لغيره

[٤٦٤] - سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٦٠٩)(١٣٢٩) حسن لغيره

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«أَفْضَلُ عِبَادِ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ:إِمَامٌ عَدْلٌ رَفِيقٌ وَشَرُّ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ:إِمَامٌ جَائِرٌ،خَرِقٌ»[465]

«إِنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ رَفِيقٌ») ؛ أَيْ لَيِّنُ الْجَانِبِ مَعَ الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ،لَطِيفٌ مَعَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ («وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»)،وَفِي الْعُدُولِ عَنْ شَرِّ عِبَادِ اللَّهِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْمُقَابَلَةُ ؛ مَا لَا يَخْفَى مِنَ النُّكْتَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سَيِّئُ الْمُعَامَلَةِ (إِمَامٌ جَائِرٌ) ؛ أَيْ ظَالِمٌ (خَرِقٌ) بِفَتْحٍ فَكَسْرٍ ؛ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِنَ الْخَرْقِ ؛ وَهُوَ ضِدُّ الرِّفْقِ،وَفِي الْحَدِيثِ " «الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالْخَرَقُ شُؤْمٌ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ بَابَ الرِّفْقِ فَإِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ وَإِنَّ الْخَرَقَ لَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ» " الْحَدِيثَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَائِشَةَ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَجُعِلَ الرَّفِيقَ لِلْعَادِلِ مِنْ بَابِ التَّكْمِيلِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ تَعَالَى وَسَلَّمَ لَمَّا وَصَفَهُ بِالْعَادِلِ ؛ رَأَى أَنَّ الْوَصْفَ بِمُجَرَّدِ الْعَدْلِ غَيْرُ وَافٍ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْعَادِلُ جَافِيًا غَلِيظَ الْقَلْبِ فَكَمَّلَهُ بِالرَّفِيقِ،وَجَعَلَ الْجَائِرَ مُرْدِفًا بِالْخَرَقِ مِنْ بَابِ التَّتْمِيمِ ؛ لِأَنَّ الثَّانِي زَادَ مُبَالَغَةً فِي مَعْنَى الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ الْجَفَاءَ وَالْغِلْظَةَ تَزِيدُ فِي جَوْرِهِ وَخَرَقِهِ.[466]

وأخرج ابن أبي حاتم عَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:" كَتَبَ أَبِي وَصِيَّةً سَطْرَيْنِ:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنْيَا حِينَ يُؤْمِنُ الْكَافِرُ وَيَتَّقِي الْفَاجِرُ وَيَصْدُقُ الْكَاذِبُ أَنِّي اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،فَإِنْ يَعْدِلْ فَذَاكَ ظَنِّي بِهِ وَرَجَائِي فِيهِ،وَإِنْ يَجُرْ يُبَدِّلْ فَلَا أَعْلَمُ {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء:٢٢٧] "[467]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

---

[465] - المعجم الأوسط (١/ ١١٢)(٣٤٨) حسن

[466] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤١٩)

[467] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٩/ ٢٨٣٧)(١٦٠٨٤) والسنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ٢٧٦)(٣٣٨) صحيح

المبحث التاسع

الحضارة

إن الحضارة الحقة هي الحضارة التي تنشأ لتحقيق الغاية التي خلق لأجلها الإنس والجن،وهي عبادة الله وحده لا شريك له،كما قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)} [الذاريات:٥٦ - ٥٨]

وما خلقت الجن والإنس وبعثت جميع الرسل إلا لغاية سامية،هي عبادتي وحدي دون من سواي.ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون،فأنا الرزاق المعطي.فهو سبحانه غير محتاج إلى الخلق،بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم،فهو خالقهم ورازقهم والغني عنهم.

إن الله وحده هو الرزاق لخلقه،المتكفل بأقواتهم،ذو القوة المتين،لا يُقْهَر ولا يغالَب،فله القدرة والقوة كلها.[٤٦٨]

هذه الغاية،التي خلق الله الجن والإنس لها،وبعث جميع الرسل يدعون إليها،وهي عبادته،المتضمنة لمعرفته ومحبته،والإنابة إليه والإقبال عليه،والإعراض عما سواه،وذلك يتضمن معرفة الله تعالى،فإن تمام العبادة،متوقف على المعرفة بالله،بل كلما ازداد العبد معرفة لربه،كانت عبادته أكمل،فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله،فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه،تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه،وإنما جميع الخلق،فقراء إليه،في جميع حوائجهم ومطالبهم،الضرورية وغيرها،ولهذا قال:{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ} أي:كثير الرزق،الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها،ويعلم مستقرها ومستودعها،{ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} أي:الذي له القوة والقدرة كلها،الذي أوجد بها الأجرام العظيمة،السفلية والعلوية،وبها تصرف في الظواهر والبواطن،ونفذت مشيئته في جميع البريات،فما شاء الله كان،وما لم يشأ لم يكن،ولا يعجزه هارب،ولا يخرج عن سلطانه أحد،ومن قوته،أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم،ومن قدرته

[٤٦٨] - التفسير الميسر (١/ ٥٢٣)

وقوته،أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى،وعصفت بتـــرابهم الرياح،وابتلعتـــهم الطيـــور والسباع،وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار،ولجج البحار،فلا يفوته منهم أحد،ويعلم ما تـــنقص الأرض منهم،فسبحان القوي المتين.[٤٦٩]

إن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة،من أضخم الحقائق الكونية التي لا تســـتقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها.سواء كانت حياة فرد أم جماعـــة.أم حيـــاة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي،تندرج كلـــها تحـــت هـــذه الحقيقـــة الضخمة،التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنـــس.تتمثـــل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غايـــة وجوده وأصبح بلا وظيفة،وباتت حياته فارغة من القصد،خاوية من معناهـــا الأصـــيل،الذي تستمد منه قيمتها الأولى.وقد انفلت من الناموس الذي خـــرج بـــه إلى الوجود،وانتـــهى إلى الضياع المطلق،الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود،الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء.

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود.هي العبادة لله.أو هي العبوديـــة لله ..أن يكون هناك عبد ورب.عبد يعبد،ورب يعبد.وأن تستقيم حياة العبد كلها على أســـاس هذا الاعتبار.

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة،ويتبين أن مدلول العبادة لا بـــد أن يكـــون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر.فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر والله لا يكلفهم هذا.وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم.وقد لا نعرف نحـــن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان.نعرفها مـــن القرآن من قول الله تعالى:«وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ:إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـــةً» ..فهـــي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني.وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيـــوي في

[٤٦٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨١٣)

عمارة الأرض،والتعــرف إلى قواهــا وطاقاتها،وذخائرهــا ومكنوناتهــا،وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها.كما تقتضي الخلافة القيام على شــريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام.

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفــة الإنســان الأولى،أوسع وأشمل من مجرد الشعائر وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعــا.وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين:

الأول:هو استقرار معنى العبودية لله في النفس.أي استقرار الشــعور علــى أن هنــاك عبــدا وربا.عبدا يعبد،وربّا يعبد.وأن ليس وراء ذلك شيء وأن ليس هناك إلا هذا الوضــع وهــذا الاعتبار.ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود وإلا رب واحد والكل له عبيد.

والثاني:هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير،وكل حركة في الجوارح،وكــل حركــة في الحياة.

التوجه بها إلى الله خالصة،والتجرد من كل شعور آخر ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ويصبح العمل كالشعائر،والشعائر كعمــارة الأرض،وعمــارة الأرض كالجهاد في سبيل الله،والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقــدر الله ..كلها عبادة وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها وكلــها خضــوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.عندئذ يعيش الإنسان في هــذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى،جاء لينهض بها فترة،طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها،ولا غاية له من ورائها،إلا الطاعة،وجزاؤها الذي يجــده في نفســه مــن طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله،ومن أنس برضى الله عنه،ورعايته له.ثم يجــده في الآخــرة تكريما ونعيما وفضلا عظيما.وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقا.يكون قد فر من أوهاق هــذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة.

ويكون قد تحرر بهذا الفرار.تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال.وخلص لله،واستقر في الوضــع الكوني الأصيل:عبدا لله.خلقه الله لعبادته.وقام بما خلق له.وحقق غاية وجوده.فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض،وينهض بتكاليفها،ويحقق أقصى ثمراتها وهــو

في الوقت ذاته نافض يديه منها خالص القلب من جواذبها ومغرياتها.ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها.

ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها،ثم الفرار إلى الله منها! ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها.فلتكن النتائج ما تكون.فالإنسان غير معلق بهذه النتائج.إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ولأن جزاءه ليس في نتائجها،إنما جزاؤه في العبادة التي أداها ..ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيرا كاملا تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال.فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها.ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته.ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك.فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه،وليست من شأنه.إنما هو قدر الله ومشيئته.وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته.

ومتى نفض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد وشعر أنه أخذ نصيبه،وضمن جزاءه،بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد،فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة.فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف.

ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض،وثمرات هذا النشاط.فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته.

والقرآن يغذي هذا الإحساس ويقويه.بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهمّ الرزق ومن شح النفس.فالرزق في ذاته مكفول.تكفل به الله تعالى لعباده.وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه – سبحانه – أو يرزقوه.حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه،والقيام بحق المحرومين فيه:«ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ.إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» ..

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق.بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة،الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة.ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقا بتحقيق معنى العبادة في الجهد،طليقا من التعلق بنتائج الجهد ..وهي مشاعر

كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصور الكريم.وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها،فذلك لأنها لم تعش – كما عاش جيل المسلمين الأول – في ظلال هذا القرآن.ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم.وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق.أفق العبادة.أو أفق العبودية.ويستقر عليه،فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة.ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا.

فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم.ومن جهة أخرى فهو لا يعني نفسه ببلوغ الغايات،إنما يعني نفسه بأداء الواجبات،تحقيقا لمعنى العبادة في الأداء.أما الغايات فموكولة لله،يأتي بها وفق قدره الذي يريده.ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله،وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله.

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير،وطمأنينة النفس،وصلاح البال،في جميع الأحوال.سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها.تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها.فهو قد أنهى عمله،وضمن جزاءه،عند تحقق معنى العبادة.واستراح.وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته ..وقد علم هو أنه عبد،فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد.وعلم أن الله رب،فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب.واستقرت مشاعره عند هذا الحد،ورضي الله عنه،ورضي هو عن الله.وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة،التي تقررها آية واحدة قصيرة:«وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» ..وهي حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر حقا في الضمير ...[٤٧٠]

وقال تعالى:{ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام:١٦٢،١٦٣]

وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ،الذِينَ يَذْبَحُونَ الذَّبَائِحِ عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللهِ:إِنَّكَ مُخَالِفٌ فِي ذَلِكَ،فَإِنَّ صَلاَتَكَ وَنُسُكَكَ وَمَحْيَاكَ عَلَى اسْمِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،خَالِصاً لِوَجْهِ اللهِ الذي خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ،وَهُوَ رَبُّ العَالَمِينَ جَمِيعاً.وَأَنَا أُؤْمِنُ بِأَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ بِذَلِكَ،وَأَنَا أَوَّلُ

[٤٧٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٢٣٧)

الْمُسْلِمِينَ الْمُمْتَثِلِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ.(لَقَدْ كَانَتْ دَعْوَةُ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلاَمِ:هِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ)[٤٧١] .

{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي} أي:ذبحي،وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما،ودلالتهما على محبة الله تعالى،وإخلاص الدين له،والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح،وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال،لما هو أحب إليها وهو الله تعالى.ومن أخلص في صلاته ونسكه،استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله.وقوله:{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي} أي:ما آتيه في حياتي،وما يجريه الله عليَّ،وما يقدر عليَّ في مماتي،الجميع {لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {لا شَرِيكَ لَهُ} في العبادة،كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير،وليس هذا الإخلاص لله ابتداعا مني،وبدعا أتيته من تلقاء نفسي،بل {بِذَلِكَ أُمِرْتُ} أمرا حتما،لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} من هذه الأمة.[٤٧٢]

إنه التجرد الكامل لله،بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة.بالصلاة والاعتكاف.وبالمحيا والممات.بالشعائر التعبدية،وبالحياة الواقعية،وبالممات وما وراءه.

إنها تسبيحة «التوحيد» المطلق،والعبودية الكاملة،تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات،وتخلصها لله وحده.لله «رب العالمين» ..القوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم للعالمين ..في «إسلام» كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبدها لله،ولا يحتجز دونه شيئا في الضمير ولا في الواقع ..«وبذلك أمرت» ..فسمعت وأطعت:«وأنا أول المسلمين».[٤٧٣]

وقال تعالى عمن ظن أن الله تعالى خلق الخلق عبثا وباطلا،ولم يخلقهم لعبادته:{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) } [ص].

---

[٤٧١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٤٧٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٨٢)

[٤٧٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٦٨٧)

إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَبَث وَاللَّهْوِ والتَّسْلِيَة،وَإِنَّمَا خَلَقَهَا بالحَقِّ وَقَائِمَةً عَلَى الحَقِّ،للْعَمَلِ فيهَا بأَمْرِ الله وَطَاعَته،والانْتهَاء عَمَّا نَهَى اللهُ عبَادَهُ عَنْهُ،وَإِنَّهُ تَعَالَى لَنْ يَتْرُكَ الخَلْقَ سُدىً،بَلْ إِنَّهُ سَيَبْعَثُهُمْ يَوْمَ القيَامَة مَرَّةً أُخْرَى ليُحَاسبَهُمْ عَلَى أَعْمَالهمْ في الدُّنْيا،ثُمَّ يَلقَى كُلُّ وَاحد جَزَاءَهُ حَسْبَ عَمَله.

والذينَ كَفَرُوا ظَنُّوا أَنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ عَبَثاً وَبَاطلاً،وَلَمْ يُدْرِكُوا الحكْمَةَ منْ خَلْقه،وَأَنَّ الخَلْقَ إِنَّمَا وُجدَ ليَكُونَ دَليلاً عَلَى وُجُود الله تَعَالَى الذي خَلَقَهُ،وَبُرْهَاناً عَلَى وَحْدَانيَّته فَالوَيْلُ والهَلاَكُ للكَافرينَ منَ النَّار،التي سَيُعَذِّبُهُم اللهُ فيهَا،جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرهمْ وَسُوء أَعْمَالهمْ.

إنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يُسَوِّي بَينَ الأَخْيَار،الذينَ آمَنُوا بَرَبِّهمْ،وَعَملُوا الأَعْمَالَ الصَّالحَات،وَبَينَ الفُجَّار،الذينَ كَفَرُوا برَبِّهمْ،واجْتَرحُوا السَّيِّئَات والفَسَادَ في الأَرْض،وَلاَ يَجْعَلُ الذينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ كالفُجَّار والمُفْسدينَ،وَإِنَّهُ سَيَجْمَعُ الجَميعَ يَومَ القيَامَة ليَجْزِيَ كُلَّ وَاحد بعَمَله،وَهَذا دَليلٌ عَلَى عَدْل الله تَعَالَى التَّام.[٤٧٤]

إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلا،ولم يقم على الباطل.إنما كان حقا وقام على الحق.ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق.الحق في خلافة الأرض.والحق في الحكم بين الخلق.والحق في تقويم مشاعر الناس وأعمالهم فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ولا يكون وزن المتقين كوزن الفجار.والحق الذي جاء به الكتاب المبارك الذي أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغي أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة،التي لا يتصورها الكافرون،لأن فطرهم لا تتصل بالحق الأصيل في بناء هذا الكون،ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئا ..«ذلكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ للَّذينَ كَفَرُوا منَ النَّار» ..

إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه في خلق الكون.وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس.

وإن العدل الذي يطالب به الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلي،لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف.وإن الانحراف عن شريعة الله

[٤٧٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٨٧٦،بترقيم الشاملة آليا)

والحق في الخلافة والعدل في الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكوني الذي قامـــت عليـــه السماء والأرض وهو أمر عظيم إذن،وشر كبير،واصطدام مع القوى الكونية الهائلة لا بـــد أن يتحطم في النهاية ويزهق.فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنة الله وناموس الكـــون وطبيعة الوجود ..ما يمكن أن يصمد بقوته الهزيلة الضئيلة لتلك القوى الساحقة الهائلة،ولعجلة الكون الجبارة الطاحنة! وهذا ما ينبغي أن يتدبره المتدبرون وأن يتذكره أولو الألباب ..[٤٧٥]

والعبادة في الإسلام لا تعني الرهبانيـــة،والانقطاع عـــن إعمـــار الأرض،والاســـتفادة مـــن خيراها،واكتشاف منافعها وكنوزها،فإن الانقطاع عن المصالح والمنافع الدنيوية لا يتوافق مـــع الإسلام،الذي جاء لتكون كلمة الله هي العليا،وتقام دولة الإسلام،ويحكم الإسلام في جميـــع شؤون الحياة،ويجاهد في سبيل الله،وتعد العدة اللازمة،ويقام العدل بـــين النـــاس،ويتولى ولاة الأمور سياسة الرعية،ورعاية شؤوهم،وتأدية حقوقهم،والإحسان إليهم،وقد قال تعالى:{هُـــوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } [الملك:١٥] وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الذي سَخَّرَ الأَرْضَ لِلْعِبَادِ،وَجَعَلَهَا مُذَلَّلَةً سَاكِنَةً،وَأَرْسَـــاهَا بِالجِبَـــالِ لِكَـــيْلاَ تَضْطَرِبَ وَتَمِيدَ بِمَنْ عَلَيهَا مِنَ الخَلاَئِقِ،وَأَخْرَجَ مِنْهَا المِيَاهَ،وَسَـــلَكَهَا فِـــي الأَرْضِ جَـــدَاوِلَ وَأَنْهَاراً،لِيَنْتَفِعَ بِهَا الخَلْقُ فِي الشُّـــرْبِ،وَفِي رَيِّ زُرُوعِهِـــمْ وَأَنْعَامِهِمْ،وَجَعَـــلَ فِـــي الأَرْضِ سُبُلاً،فَسَافِرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ فِي أَرْجَائِهَا حَيْثُ شِئْتُمْ،وَتَرَدَّدُوا فِي أَرْجَائِهَا وَأَقَالِيمِهَا طَلَباً لِلرِّزْقِ وَالتِّجَارَةِ،وَكُلُوا مِمَّا أَخْرَجَهُ لَكُمْ مِنْهَا مِنَ الرِّزْقِ،وَإِلَى اللهِ مَرْجِعُ الأَمْرِ،وَإِليهِ يَصِيرُ الخَلْقُ يَـــوْمَ القِيَامَةِ لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ جَمِيعاً.

والمَخْلُوقَاتُ تَسْعَى فِي الرِّزْقِ وَفْقَ الأَسْبَابِ اللاَزِمَةِ لَهُ وَلَكِنَّ سَعْيَهَا وَحْـــدَهُ لاَ يَكْفِـــي،وَلاَ يُجْدِي عَلَيْهَا نفعاً إِلاَّ أَنْ يُيَسِّرَهُ اللهُ لَهَا،فَالسَّعْيُ فِي السَّبَبِ لاَ يُنَافِي التَّوَكُّلَ.[٤٧٦]

والناس لطول ألفتهم لحياقم علـــى هـــذه الأرض وســـهولة اســـتقرارهم عليها،وســـيرهم فيها،واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعا ..ينسون نعمة الله في

[٤٧٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٠٧)

[٤٧٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

تذليلها لهم وتسخيرها.والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة،ويبصرهم بها،في هذا التعبير الــذي يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول.

والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى،هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة،وبالفلك التي تمخر البحار.والمذللة للزرع والجني والحصاد.والمذللة للحياة فيها بمـا تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات.

وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم – فيما اهتدى إليه حتى اليوم – تفصيلا يمـد في مسـاحة النص القرآني في الإدراك.فمما يقوله العلم في مدلول الأرض الذلول:إن هذا الوصف:«ذَلُولًا» ..الذي يطلق عادة على الدابة،مقصود في إطلاقه على الأرض! فالأرض هذه التي نراها ثابتـة مستقرة ساكنة،هي دابة متحركة ..بل رامحة راكضة مهطعة!! وهي في الوقت ذاته ذلـول لا تلقي براكبها عن ظهرها،ولا تتعثر خطاها،ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول! ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول! إن هذه الدابة التي نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميـل في الساعة،ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في السـاعة.ثم تركض هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة،مبتعدة نحو برج الجبار في السماء ..ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحا مطمئنا معافى لا تتمزق أوصاله،ولا تتناثر أشلاؤه،بل لا يرتج مخه ولا يدوخ،ولا يقع مرة عن ظهـر هذه الدابة الذلول! وهذه الحركات الثلاث لها حكمة.وقد عرفنا أثر اثنتين منها في حياة هـذا الإنسان،بل في الحياة كلها على ظهر هذه الأرض.فدورة الأرض حول نفسها هي التي ينشـأ عنها الليل والنهار.ولو كان الليل سرمدا لجمدت الحياة كلها من البرد،ولو كان النهار سرمدا لاحترقت الحياة كلها من الحر ..ودورتها حول الشمس هي التي تنشأ عنها الفصول.ولـو دام فصل واحد على الأرض ما قامت الحياة في شكلها هذا كما أرادها الله.أما الحركة الثالثـة – فلم يكشف ستار الغيب عن حكمتها بعد.ولا بد أن لها ارتباطا بالتناسق الكوني الكبير.وهذه الدابة الذلول التي تتحرك كل هذه الحركات الهائلة في وقت واحد،ثابتة على وضع واحـد في أثناء الحركة – يحدده ميل محورها بمقدار ٢٣،٥ لأن هذا الميل هو الذي تنشأ عنـه الفصـول الأربعة مع حركة الأرض حول الشمس،والذي لو اختل في أثناء الحركة لاختلـت الفصـول

التي تترتب عليها دورة النبات بل دورة الحياة كلها في هذه الحياة الدنيا! والله جعل الأرض ذلولا للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى،كما جعل لها ضغطا جويا يسمح بسهولة الحركة فوقها.ولو كان الضغط الجوي أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير ويتنقل – حسب درجة ثقل الضغط – فإما أن يسحقه أو يعوقه.ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله،كما يقع لمن يرتفعون في طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء! والله جعل الأرض ذلولا ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح.ولو كانت صخورا صلدة – كما يفترض العلم بعد برودها وتجمدها – لتعذر السير فيها،ولتعذر الإنبات.ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هي التي فتتت هذه الصخور الصلدة،وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة.وأنشأ ما فيها من النبات والأرزاق التي يحلبها راكبو هذه الدابة الذلول! والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل الهواء المحيط بها محتويا للعناصر التي تحتاج الحياة إليها،بالنسب الدقيقة التي لو اختلت ما قامت الحياة،وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس.فنسبة الأكسجين فيه هي ٢١ تقريبا ونسبة الأزوت أو النتروجين هي ٧٨ تقريبا والبقية من ثاني أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى.

وهذه النسب هي اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض! والله جعل الأرض ذلولا بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة ..ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر،وبعد الأرض عن الشمس والقمر.ودرجة حرارة الشمس.وسمك قشرة الأرض.ودرجة سرعتها.وميل محورها.ونسبة توزيع الماء واليابس فيها.وكثافة الهواء المحيط بها ..إلى آخره ..إلى آخره.

وهذه الموافقات مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولا.وهي التي جعلت فيها رزقا،وهي التي سمحت بوجود الحياة،وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص.والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق ليعيها كل فرد وكل جيل بالقدر الذي يطيق،وبالقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته،ليشعر بيد الله – الذي بيده الملك – وهي تتولاه وتتولى كل شيء حوله،وتذلل له الأرض،وتحفظه وتحفظها.ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الكون كله وتحطم بمن عليه وما عليه! فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمن الرحيم بالمشي

في مناكبها والأكل من رزقه فيها:«فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ».والمناكب المرتفعات،أو الجوانب.وإذا أذن له بالمشي في مناكبها فقد أذن له بالمشي في سهولها وبطاحها من باب أولى.فمتى أذن له في الشموس منها فقد أذن له في الذلول! والرزق الذي فيها كله من خلقه،وكله من ملكه،وهو أوسع مدلولا مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق.فليس هو المال الذي يجده أحدهم في يده،ليحصل به على حاجياته ومتاعه.إنما هو كل ما أودعه الله هذه الأرض،من أسباب الرزق ومكوناته.وهي في الأصل ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض من عناصرها التي تكونت منها،وطبيعة تقسيم هذه العناصر بهذه النسب التي وجدت بها.ثم القدرة التي أودعها الله النبات والحيوان - ومنه الإنسان - على الانتفاع بهذه العناصر.......والأرزاق المخبوءة في جوف الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التي لابستها.ولا نطيل شرحها.فالرزق في ضوء هذه البيانات السريعة أوسع مدلولا مما يفهمه الناس من هذا اللفظ.وأعمق أسبابا في تكوين الأرض ذاتها وفي تصميم الكون كله.وحين يأذن الله للناس في الأكل منه،فهو يتفضل بتسخيره لهم وتيسير تناوله كما يمنح البشر القدرة على تناولها والانتفاع بها:«فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِه» ..
وهو محدود بزمن مقدر في علم الله وتدبيره زمن الابتلاء بالموت والحياة،وبكل ما يسخره الله للناس في هذه الحياة.فإذا انقضت فترة الابتلاء كان الموت وكان ما بعده:«وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» ..إليه ..وإلّا فإلى أين إن لم يكن إليه؟ والملك بيده؟ ولا ملجأ منه إلا إليه؟ وهو على كل شيء قدير؟ [٤٧٧]

وقال تعالى:{ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) } [الجاثية:١٢،١٣]
يَمْتَنُّ اللهُ تَعَالى عَلَى عِبَادِهِ بما سَخَّرَ لَهمْ مِنَ البَحْرِ لِتَسيرَ فيهِ السُّفُنُ وَالمَراكبُ بأَمرهِ تَعَالى،تَحملُهم مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ هُمْ وَبَضَائِعَهُم وأَمتِعَتَهُم.ليتجِرُوا بِها،وَيؤَمِّنُوا رزقهم وَمَعَاشَهُمْ،وَما يَحْتَاجُونَ إِليهِ مِنَ الأَقواتِ،وَليسْتَخرِجُوا مِن البَحرِ اللُّؤْلُؤَ والمرجَانَ

---

[٤٧٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٥٣٩)

والأَسْماكَ،وغَيْرَ ذَلكَ.وَقَدْ مَنَّ الله تَعَالى بِذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى عِبادِهِ لَعَلَّهُم يَشْكُرُونَه عَلَى هذهِ النِّعَمِ الوَفيرة،فَيعبُدُوهُ وَيَطِيعُوا أَمرَهُ.

وسَخَّرَ اللهُ تَعَالَى لعِبادِه ما في السَّماواتِ مِنْ نُجومٍ وَكَواكِبَ،وَمَا في الأَرْضِ مِنْ بِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَدَوابَّ وَأَشْجَارٍ،وَنَباتَات،وَرِيَاحٍ،وَأَمْطَارٍ..لِتَقُومَ بِهِ مَعَايِشُهُمْ وَمَصَالِحُهُمْ،وَفِي كُلِّ ذلكَ آياتٌ تدلُّ أَصْحَابَ العُقولِ السَّليمةِ عَلَى أَنَّ الخَالِقَ الرَّازِقَ،الُمسَخِّرَ لِكُلِّ ذَلِكَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ.[٤٧٨]

وقال تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠].

أمر الله المؤمنين بالاستعداد للحرب التي لا بد منها لدفع العدوان وحفظ الأنفس والحق والفضيلة.

ويكون ذلك بأمرين:

(١) إعداد المستطاع من القوة،ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان،فالواجب على المسلمين فى هذا العصر:صنع المدافع والطيارات والقنابل والدبابات وإنشاء السفن الحربية والغواصات ونحو ذلك،كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول الله ﷺ فى غزوة خيبر وغيرها،

روى مسلم عن عقبة بن عامر أنه سمع النبي ﷺ وقد تلا هذه الآية يقول:«ألا إن القوّة الرمي» قالها ثلاثا،

وذلك أن رمى العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة أو نحو ذلك،وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدفع والبندقية ونحوها،فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفة فى عصره ﷺ.

---

[٤٧٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٦٤،بترقيم الشاملة آليا)- ويادة مني

(٢) مرابطة الفرسان فى ثغور البلاد وحدودها،إذ هى مداخل الأعداء،ومواضع مهاجمتهم للبلاد.

والحكمة فى هذا أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فجأها العدو على غرّة،وقوام ذلك الفرسان لسرعة حركتهم وقدرتهم على القتال وإيصال الأخبار من الثغور إلى العواصم وسائر الأرجاء،ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها،ولا يزال للفرسان نصيب كبير فى الحرب فى هذا العصر الذي ارتقت فيه الفنون العسكرية فى الدول الحربية.

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) أي أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية ومن الفرسان المرابطة لترهبوا عدو الله الكافرين به وبما أنزله على رسوله وعدوكم الذين يتربصون بكم الدوائر،إذ لا شيء يمنع الحرب إلا الاستعداد للحرب،فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات خافوهم،وإلى هذا يشير أبو تمام إذ يقول:

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم ...إن الدّم المغبّر يحرسه الدم

وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه:

(ا) يجعل أعداءهم لا يعينون عدوا آخر عليهم (ب) يجعلهم يؤدون الالتزامات المطلوبة منهم.

(ج) ربما حملهم ذلك على الدخول فى الإسلام والإيمان بالله ورسوله (وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) أي وترهبون به أناسا غير هؤلاء الأعداء المعروفين لكم،وهم مشركو مكة ومن والاهم ممن يجمعون بين هاتين العداوتين حين نزول الآية عقب غزوة بدر- ممن لا تعلمون الآن عداوتهم بل يعلمهم الله وهو علام الغيوب.

والخلاصة- إن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم أنهم أعداء- يرهب الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء،فالاستعداد للحرب يرهبهم جميعا ويمنعهم من الإقدام على القتال،وهذا ما يسمى فى العصر الحديث (السلام المسلح) (وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ) أي وما تنفقوا من شيء قليلا كان أو كثيرا فى إعداد المستطاع من القوة والمرابطة فى سبيل الله- بالله يعطيكم عليه الجزاء الوافي التام.

(وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) أي والحال أنه لا يلحقكم ظلم ولا اضطهاد من أعــدائكم،فإن القــوىّ المستعد لمقاومة المعتدى قلما يعتدى عليه أحد،وإن اعتدى عليه فقلّ أن يظفر به.

وفى هذا إيماء إلى أن إعداد المستطاع من القوة الحربية والمرابطة فى سبيل الله لا يمكن تحقيقهما إلا بإنفاق الكثير من المال،ومن ثم رغّب سبحانه عباده المؤمنين فى الإنفاق فى ســبيله،ووعدهم بأن كل ما ينفقون فيها يوفى إليهم إما فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة فحسب.[٤٧٩]

فإن إعداد القوة،وصناعة أنواع الأسلحة،واستخدام وسائل الإعلام الحديثة،وتصنيعها لإبــلاغ الدعوة وإرشاد الناس،والتصدي لإعلام الأعداء المفسد،وتوفير جميع ما تحتاجه البلاد في المجال التقني والصناعي وغيرها مما يساهم في بناء الدولة الإسلامية،وتقويتها،وقيادتها للبشرية،كل هذا من الواجبات الشرعية،التي لا يسع المسلمين تركها،فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

كما أن العلوم الدنيوية النافعة:كالطب،والصناعة،والزراعة وغيرها،هي من فروض الكفاية التي يجب على الدولة الإسلامية أن تقوم بها،وتؤهل من الرعية من يقوم بهذا الفرض.

وامتثال هذا الأمر يقتضى أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد بأن يتعلم كل فرد مــن أفرادها فنون الحرب ويتمرن عليها،وأن تقتنى السلاح الذي تحتاج إليه فى هذا النضـــال،وتعلم كيفية استعماله فى كل زمان بما يناسبه.ومن هذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليهـــا أن تقيم هذا الواجب بنفسها لا أن تبقى عالة على غيرها،وعلى الأمة أن تساعدها عليه،بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه،بعكس ما نراه الآن من تراخى الأمم الإســلامية وضــعفها وتوانيهــا فى ذلك،حتى طمعت فيها كل الدول التي تجاورها واجتاحتها من أطرافها واجتثت كــثيرا مــن كورها وأقاليمها.[٤٨٠]

فكل قوة مستطاعة يجب على الأمة أن تتضافر على إيجادها،وإلا أثمت كلها،و لم ينج مــن الإثم فقيرها وغنيها ولا قويها أو ضعيفها،فالقادر بقدرته،والضعيف بلسانه.....

---

[٤٧٩] - تفسير المراغي (١٠/ ٢٤)

[٤٨٠] - تفسير المراغي (٥/ ٨٨)

وقوله تعالى:(تُرْهِبونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَكُمْ) ترهبون أي تخيفون،وتفزعون،وتربون في نفوس أعدائكم المهابة،وتلقون في قلوبهم الرهبة وسمى الكفار عدو الله؛لأنهم كفروا به وكذبوا آياته،وسماهم " عدوكم؛لأنهم يريدون بكم الأذى،ويناصبونكم العداوة لإيمانكم وكفرهم.

وقال تعالى:(وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) وقوله:(مِن دُونِهِمْ) أي من غيرهم،أي من غير الذين يجاهرون الآن بعداوتكم من المشركين واليهود وغيرهم ممن يلاقونكم من الرومان الذين يعاصرونكم،ويشير بهذا إلى الذين يجيئون بعد ذلك الذين لَا يعلمهم المسلمون في عصر النبي - ﷺ -،ومن والاه والله تعالى يعلمهم؛لأنه علام الغيوب،وإن الله تعالى يشير بذلك إلى الأخلاف الذين يجيئون بعد ذلك،فإنه بمجرد أن انتشر الإسلام في الأرض ودخل الناس في الدين أفواجا،صار المسلمون في مذأبة من الأرض،فأوربا أرادت أن تنقض على الإسلام من الشرق والغرب....والتتار أخذوا ينقصون على المسلمين الأرض من أطرافها.

وكان لابد من قوة تقهر وترهب هؤلاء،وتلقي مهابة المسلمين في قلوبهم،ولكن مع ذلك لم يستجيبوا لنداء الله،و لم يعدوا ما استطاعوا من قوة،وإن ذلك الاستعداد كان يوجب أولا - أن يكون لهم مصانع تصنع لهم الأسلحة لَا أن يستعينوا بأسلحة من غيرهم،إن شاء أعطى وإن شاء منع،وفي عطائه ومنعه يعمل لمصلحة نفسه،ولا يريد بالإسلام خيرا.

ويوجب ثانيا:أن ينافسوا الناس في اختراع الأسلحة ليدفعوا أذاهم،وإلا كانوا - وهم هم المرهوبون - يُرهَبُون ولا يُرهبون،يَخافون،ولا يُخيفون،وتتبدد قواهم ضياعا.

ويوجب ثالثا:تعاونهم جميعا في ذلك،حتى لَا يؤكلوا في الأرض.

وقد كان عكس ذلك،فتقطعت وحدتهم،وضرب الناس بهم في افتراقهم فتوزعتهم الأرض،وأكلتهم ذئابها،وصيروا الخير لغيرهم دونهم،وصاروا لأعداء الله وأعدائهم ما يصنعون به السلاح ليستعمل لإرهابهم،وإرهاب كل من يعاونهم،ولا حول ولا قوة إلا بالله..

هذا وإن إعداد عدة الحرب،والحرب ذاتها تحتاج إلى المال،ولذا قال تعالى:(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ).

إن الحرب تحتاج إلى نفقات،وإعداد العدة يحتاج إلى نفقات،وفي أيامنا تحتاج العدة إلى الإنفاق من الدولة والجماعات،ولقد كان من أصحاب رسول الله - ﷺ - من يخرج من ماله كله

للجهاد في سبيل الله،كأبي بكر،ومنهم من كان يخرج من نصف ماله كعمر،ومنهم من كـــان يجهز جيشا بأسره كذي النورين عثمان بن عفان،وأنى لنا بأمثال هؤلاء من أمـــراء المســـلمين وملوكهم،وعندهم المال الوفير من أكناز الأرض.

ومن لَا ينفق ألقى بنفسه وبقومه في التهلكة،ولقد قال تعالى في الإنفاق في الحرب:(وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...).

(وَمَا تُنفقوا) و " ما " هنا شرطية،أي أن تنفقوا في سبيل الله تعالى،وسبيل الله تعالى هو الجهاد (يوَفَّ إِلَيْكمْ) أي بالبركة في رزقكم وبتيسير الرزق لكم وتسهيل ســبل الحياة،والنمــاء في أموالكم،وبعد ذلك الجزاء في الآخرة،وهي خير وأبقى،وأوفى وأتم بهذا التفسير الدنيوي والنماء في هذه الحياة،والجزاء في الآخرة لَا يظلمون لَا تُنقصون شيئا مما قدمتم.[٤٨١]

وأما الكفار فقد أعرضوا عن الغاية التي خلقهم الله لأجلها،وهي عبادته وحـــده لا شـــريك له،وانصرفت أذهانهم وهممهم إلى التمتع بالدنيا،وتحصيل شهواتها،واستفرغوا في هذا قـــدراتهم وطاقاتهم،وبنوا على هذا حياتهم ودولهم وسياساتهم،واقتصرت على هذا علومهم،وقـــد قـــال تعالى:{وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَـــاهِرًا مِـــنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) } [الروم:]

وَهذا الذي أَخْبَرَكَ به رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ منْ أَنَّهُ سَيَنْصُرُ الرُّومَ عَلَى الفُرسِ،هُوَ وَعْدٌ حَقٌّ مِـــنَ اللهِ تَعَالى،واللهُ لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ أَبَداً،لأَنَّ سُنَّتَهُ قَدْ جَـــرَتْ بـــأَنْ يَنْصُـــرَ أَقْـــرَبَ الطَّـــائِفَتَينِ إلى الحَقِّ،وَيَجْعَلَ لَهَا العَاقِبَةَ.ولكنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ذلِـــكَ لِجَهْلِهِمْ،وَعَـــدَمِ تَفَكُّـــرِهِمْ في النَّواميسِ التي وَضَعَهَا اللهُ في الكَوْنِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ إلاَّ بالأُمُورِ الدُّنْيا:كَتَدْبيرِ مَعَايشـــهِمْ،وَتَنْمِيَةِ مَتَاجرِهِمْ،واسْـــتِثْمَارِ مَزَارِعِهِمْ..وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ أُمُورِ الدِّينِ،وما يَنْفَعُهُمْ في الآخِرَةِ،كَأَنَّ أَحَدَهُمْ مُغَفَّـــلٌ لا عَقْـــلَ لَهُ.[٤٨٢]

---

[٤٨١] - زهرة التفاسير (٦/ ٣١٧٤)

[٤٨٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

وهؤلاء الذين لا يعلمون أي:لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها.وإنما {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئا،فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها.

{وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة،فلا الجنة تشتاق إليها ولا النار تخافها وتخشاها ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم عاجزا عما أقدرهم الله عليه،فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب،قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون وفي ضلالهم يعمهون وفي باطلهم يترددون نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون.

ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها و [ما] حرموا من العقل العالي فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده وإن هو إلا توفيقه وخذلانه فخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه،ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرُّقِيَّ العالي والحياة الطيبة،ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير] .[٤٨٣]

أي وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس،والله لا يخلف ما وعد،ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لجهلهم بشئونه تعالى وعدم تفكرهم فى النواميس والسنن التي وضعها فى الكون،فإنه قد جعل من تلك السنن أن وعده لا يخلف إذ هو مبنى على مقدمات ووسائل هو

---

[٤٨٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٣٧)

يعلمها،وقد رتب عليها تلك العدة التي وعدها،وجعل قانون الغلب فى الأمم والأفراد مبنيا على الاستعداد النفسي والاستعداد الحربي،فلا تغلب أمة أخرى إلا بما أعدت لها من وسائل الظفــر بها،وما كان لها من صفات تكفل لها هذا الظفر من أناة وصبر وتضحية بما تملك مــن عزيــز لديها من مال ونفس.

وهكذا حكم الفرد فهو لا ينجح فى الحياة إلا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامــل الأيــام حتى يغلبها بجدّه وكدّه،فهذه الأمور وأمثالها تحتاج إلى دقة نظر لا يدركها إلا ذوو البصائر.

(يَعْلَمُونَ ظــاهِراً مِــنَ الْحَيــاةِ الــدُّنْيا) كتــدبير معايشهم،وإحســان مســاكنهم،وتنمية متاجرهم،وتصرفهم فى مزارعهم،على النحو الذي يجعلها تزدهر وتفى بحاجة المجتمع (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) أي وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت وأنها ستلبس ثوبا آخر فى حياة أخرى،وستنال إذ ذاك جزاء ما قدمت من خير أو شر،ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق ولا تجد النفوس لاحتمالها سبيلا،وهى مــا قبلــت تلك الآلام واحتملتها إلا لأنها توقن بسعادة أخرى وراء ما تقاسى مــن المناعــب فى هــذه الحياة،ولله در القائل:

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ...فى صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة فى ماله ...وإذا يصاب بدينه لم يشعر[٤٨٤]

أخرج ابن جرير وغيره عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،فِي قَوْلِهِ:"{يَعْلَمُونَ ظَــاهِرًا مِــنَ الْحَيَــاةِ الــدُّنْيَا} [الروم:٧] يَعْنِي مَعَايِشَهُمْ،مَتَى يَحْصُدُونَ،وَمَتَى يَغْرِسُونَ "[٤٨٥]

وأخرج ابن جرير وغيره عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:" {ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الروم:٧] يَعْنِــي الْكُفَّارَ،يَعْرِفُونَ عُمْرَانَ الدُّنْيَا،وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَّالٌ "[٤٨٦]

وأخرج ابن جرير وغيره عَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ " {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا] مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الروم:٧] مِنْ حِرْفَتِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَبُغْيَتِهَا،{وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم:٧] "[٤٨٧]

---

[٤٨٤] - تفسير المراغي (٢١/ ٢٩)

[٤٨٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٤٦١) صحيح

[٤٨٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٤٦٢) حسن

[٤٨٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٤٦٣) صحيح

وقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:وَاللَّهِ لَبَلَغَ مِنْ أَحَدِهِمْ بِدُنْيَاهُ أَنَّهُ يَقْلِبُ الدِّرْهَمَ عَلَى ظُفْرِهِ،فَيُخْبِرُكَ بِوَزْنِهِ،وَمَا يُحْسِنُ أَنْ يُصَلِّيَ. [488]

وقال ابن كثير رحمه الله " أَيْ:أَكْثَرُ النَّاسِ لَيْسَ لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وَمَا فِيهَا،فَهُمْ حُذَّاقٌ أَذْكِيَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا وَوُجُوهِ مَكَاسِبِهَا،وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ،كَأَنَّ أَحَدَهُمْ مُغَفَّلٌ لَا ذِهْنَ لَهُ وَلَا فِكْرَةَ. [489].

وقال تعالى:{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) } [النجم]

فَأَعْرِضْ عَنْ مِثْلِ هؤُلاءِ الذينَ أَعْرَضُوا عَنِ القُرآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الحَقِّ والهُدَى،وَجَعَلُوا هَمَّهُمُ الدُّنيا وَمَا فِيها مِنْ مُتَعٍ وَمَلَذَّاتٍ،وَاهْجُرْهُمْ وَلاَ تَهْتَمَّ بِمَصِيرِهِمْ.

وَذلِكَ الذي يَتْبَعُونَه فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ هُوَ مُنْتَهَى مَا وَصَلُوا إليهِ مِنَ العِلْمِ،وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُفَكِّرُونَ فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الآخِرَةِ،وَإِنَّما جَعَلُوا الدُّنيا أَكْبَرَ هَمِّهِمْ،وَاللهُ تَعَالى هُوَ الخَالِقُ لِلْخَلْقِ،وَهُوَ العَلِيمُ بِأَحْوالِهِم وَأَفْعَالِهِم وَمَصَالِحِهِم،وَهُوَ الذي يَهدي مَنْ يَشَاءُ،وَهُوَ العليمُ بِمَنْ جَعَلَ العَمَلَ لِلآخِرَةِ هَمَّهُ،وَسَعَى لَها سَعْيَها،وَمَنْ جَعَلَ الدُّنيا هَمَّهُ،وَسَعَى فِي طَلَبِها مِنْ كُلِّ بَابٍ،وَسَيَجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الجَزاءِ. [490]

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم لا غرض لهم في اتباع الحق،وإنما غرضهم ومقصودهم،ما تهواه نفوسهم،أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره،الذي هو الذكر الحكيم،والقرآن العظيم،والنبأ الكريم،فأعرض عن العلوم النافعة،و لم يرد إلا الحياة الدنيا،فهذا منتهى إرادته،ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده،

فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها،كيف حصلت حصلوها،وبأي:طريق سنحت ابتدروها،{ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} أي:هذا منتهى علمهم وغايته،وأما المؤمنون بالآخرة،المصدقون بها،أولو الألباب والعقول،فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة،وعلومهم أفضل

---

[488] - الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٤٨٤) وتفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٣٠٥)

[489] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٣٠٥)

[490] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٩٢،بترقيم الشاملة آليا)

العلوم وأجلها،وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه،ممن لا يستحق لك فيكله إلى نفسه،ويخذله،فيضل عن سبيل الله،ولهذا قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.[491]

أي فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا و لم يأخذوا بما فيه مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة وقصص الأولين المذكّرة بأمور الآخرة وما فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم،واقتصروا على شئون الدنيا ورضوا بزخرفها وجدّوا فى بلوغ أسمى المراتب فيها كما فعل النضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأضرابهما.

والخلاصة- لا تبالغ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك فى أمور الدنيا،وجعلها منتهى همته،وأقصى أمنيته،وقصارى سعيه،فلا سبيل إلى إيمان مثله،فلا تبخع نفسك على مثله أسفا وحزنا كما قال:«لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» .

ثم أكد ما مضى من أن همتهم مقصورة على الحياة الدنيا بقوله:(ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) أي إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا،ويتمتعوا باللذات،ويتصرفوا فى التجارات،ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة فى المال،وسعة فى الرزق،ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان،وما به يذكرون لدى الناس،ولا يعنون بما وراء ذلك،فشئون الآخرة دبر أذنهم،ووراء ظهورهم،لا يعرفون منها قبيلا من دبير....

ثم ذكر السبب فى الأمر بالإعراض عنهم فقال:(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى) أي إن ربك هو العليم بمن واصل ليله بنهاره،وصباحه بمسائه،مفكرا فى آياته فى الكون،وفيما جاء على ألسنة رسله،حتى اهتدى إلى الحق الذي ينجيه فى آخرته،ويبلغه رضوان ربه،ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التي وضعها فى خليقته،فاحتذى حذوها،وسار على إثرها- وبمن حاد عن طريق النجاة وجعل إلهه هواه وركب رأسه،فلم يلو على شيء مما جاء به الداعي الناصح الأمين،وإنه لمجاز كلّا بما كسب واكتسب،وسيجزيه على الجليل والحقير،والصغير والكبير،بحسب ما أحاط به واسع علمه،وبمقدار فضله على من أخبت

[491] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٢٠)

إليه كما قال:«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ» ونكاله بمن دسّى نفسه واجترح السيئات،مصداقا لقوله:«نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ،وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ» .

والخلاصة- إن هؤلاء قوم لا تجدى فيهم الذكرى،ولا تؤثر فيهم العظة،فلا تبتئس بما كانوا يفعلون.[٤٩٢]

هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله،ولم يؤمن بالآخرة،ولم يرد إلا الحياة الدنيا.موجه ابتداء إلى الرسول - ﷺ - ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم وعدم إيمانهم بالآخرة.

وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله ويعرض عن الإيمان به ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها،لا ينظر إلى شيء وراءها،ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها.ويرى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده،لا غاية بعدها ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار،فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبر أمره،ويحاسبه على عمله،بعد رحلة الأرض المحدودة،وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية.

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله - فضلا على أن يعامل أو يعايش - من يعرض عن ذكر الله،وينفي الآخرة من حسابه.لأن لكل منهما منهجا في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته،ولا في نقطة واحدة من نقاطه.وجميع مقاييس الحياة،وجميع قيمها،وجميع أهدافها،تختلف في تصور كل منهما.فلا يمكن إذن أن يتعاونا في الحياة أي تعاون،ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض.مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها،وغاية هذا النشاط.وما دام التعاون والمشاركة متعذرين فما داعي الاهتمام والاحتفال؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا.وينفق طاقته التي وهبه الله إياها في غير موضعها.

---

[٤٩٢] - تفسير المراغي (٢٧/ ٥٦)

على أن للإعراض اتجاها آخر،هو التهوين من شأن هذه الفئة.فئة الذين لا يؤمنــون بــالله ولا يبتغون شيئا وراء الحياة الدنيا.فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة،قاصــرون عــن إدراكها،واقفون وراء الأسوار.أسوار الحياة الدنيا ..«ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ».وهو مبلغ تافــه مهما بدا عظيما.قاصر مهما بدا شاملا.مضلل مهما بدا هاديا.وما يمكن أن يعلم شيئا ذا قيمة من يقف بقلبه وحسه وعقله عند حدود هذه الأرض.ووراءها - حتى في رأي العين - عــالم هائل لم يخلق نفسه.ووجوده هكذا أمر ترفضه البداهة.ولم يوجد عبثا متى كان له خالق.وإنــه لعبث أن تكون الحياة الدنيا هي نهاية هذا الخلق الهائل وغايته ..فإدراك حقيقة هذا الكون من أي طرف من أطرافها كفيل بالإيمان بالخالق.وكفيل كذلك بالإيمان بالآخرة.نفيا للعبث عــن هذا الخالق العظيم الذي يبدع هذا الكون الكبير.ومن ثم يجب الإعراض عمن يتولى عن ذكــر الله ويقف عند حدود الدنيا،الإعراض على سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل في غــير موضــعه والإعراض على سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه.ونحن مأمورون بهذا إن أردنــا أن نتلقى أمر الله لنطيعه.لا لنقول كما قالت يهود:سمعنا وعصينا ..والعياذ بالله مــن هــذا! «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى» ..

وقد علم أن هؤلاء ضالون.فلم يرد لنبيه ولا للمهتدين من أمته أن يشغلوا أنفســهم بشــأن الضالين.ولا أن يصاحبوهم.ولا أن يحفلوهم.ولا أن يخــدعوا في ظــاهر علمهــم المضــلل القاصر،الذي يقف عند حدود الحياة الدنيا.ويحول بين الإدراك البشري والحقيقة الخالصة،التي تقود من يدركها إلى الإيمان بالله،والإيمــان بــالآخرة،وتتخطى بــه حــدود هــذه الأرض القريبة،وهذه الحياة الدنيا المحدودة.

وإن العلم الذي يبلغه هؤلاء القاصرون الضالون ليبدو في أعين العوام وأشباههم،عوام القلــب والإدراك والحس،شيئا عظيما ذا فاعلية وأثر في واقع الحياة الدنيا.ولكن هذا لا ينفــي صــفة الضلال عنهم في النهاية،ولا صفة الجهل والقصور.فحقيقة الارتبــاط بــين هــذا الوجــود وخالقه.وحقيقة الارتباط بين عمل الإنسان وجزائه.

هاتان الحقيقتان ضروريتان لكل علم حق.وبدونهما يبقى العلم قشورا لا تؤثر في حياة الإنسان ولا ترقيها ولا ترفعها.وقيمة كل علم مرهونة بأثره في النفس وفي ارتباطات البشر الأدبية.وإلا

فهو تقدم في الآلات وانتكاس في الآدميين.وما أبأسه من علم هذا الذي ترتقي فيه الآلات على حساب الآدميين!!! وشعور الإنسان بأن له خالقا خلقه وخلق هذا الكون كله،وفق ناموس واحد متناسق.يغير من شعوره بالحياة،وشعوره بما حوله وبمن حوله ويجعل لوجوده قيمة وهدفا وغاية أكبر وأشمل وأرفع،لأن وجوده مرتبط بهذا الكون كله فهو أكبر من ذاته المعدودة الأيام.وأكبر من أسرته المعدودة الأفراد وأكبر من قومه،وأكبر من وطنه وأكبر من طبقته التي يطنطن بها أصحاب المذاهب المادية الحديثة.وأرفع من اهتمامات هذه التشكيلات جميعا! وشعور الإنسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة ومجازيه.يغير من تصوراته ومن موازينه ومن حوافزه ومن أهدافه.ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله،فيزيدها قوة وفاعلية.لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله.ومن ثم يقوى «الإنسان» ويسيطر على تصرفات هذا الكائن.لأن الرقيب الحارس قد استيقظ! ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك.ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي.حتى لو رآه ينهزم في الأرض في بعض الجولات! وهو مكلف دائما أن ينصر الخير ويكافح في سبيله سواء هزم في هذه الأرض أم انتصر لأن الجزاء النهائي هناك! إنها مسألة كبيرة هذا الإيمان بالله والإيمان بالآخرة.مسألة أساسية في حياة البشر.إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء.وإنها إما أن تكون فيكون «الإنسان» وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان! وحين تفترق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف،فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام.ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعاون،أو أخذ وعطاء،أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله،وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا.وكل قول غير هذا فهو محال ومراء،يخالف عن أمر الله"[٤٩٣]

قال الزجاج:"إنما يعلمون ما يحتاجون إليه في معايشهم وقد نبذوا أمر الآخرة "،وقال الإمام ابن كثير رحمه الله:" أَيْ:أعرِضْ عَنِ الَّذِي أعرَضَ عَنِ الْحَقِّ وَاهْجُرْهُ.

---

[٤٩٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٢٦٥)

وَقَوْلُهُ: {وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أَيْ:وَإِنَّمَا أَكْثَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ الدُّنْيَا،فَذَاكَ هُوَ غَايَةُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ.وَلِذَلِكَ قَالَ: {ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} أَيْ:طَلَبُ الدُّنْيَا وَالسَّعْيُ لَهَا هُوَ غَايَةُ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا] قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ،وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ،وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ"[٤٩٤]

وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ عَنْ نَافِعٍ قَالَ:كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا لَمْ يَقُمْ حَتَّى يَدْعُو لِجُلَسَائِهِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ،وَزَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهِنَّ لِجُلَسَائِهِ:«اللهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تُحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ،وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ،وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا،اللهُمَّ أَمْتِعْنَا بِأَسْمَاعِنَا،وَأَبْصَارِنَا،وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا،وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا،وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا،وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا،وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا،وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْثَرَ هَمِّنَا،وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا،وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا» [٤٩٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ،جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ،حِمَارٍ بِالنَّهَارِ،عَالِمٍ بِأَمْرِ الدُّنْيَا،جَاهِلٍ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ».رواه البيهقي[٤٩٦]

فالأساس الذي تقوم عليه حياة الكفار،وما تهدف إليه سياساتهم وقوانينهم،هو توفير الأكل،وحصول التمتع بأنواعه:كالتمتع بالمال واللباس والمركب والمسكن والتمتع بارتكاب

---

[٤٩٤] - مسند أحمد ط الرسالة (٤٠/ ٤٨٠)(٢٤٤١٩) وشعب الإيمان (١٣/ ١٨٥)(١٠١٥٤) والزهد لابن أبي الدنيا (ص:١١٧)(٢٤٠) وبنحوه عن ابن مسعود شعب الإيمان (١٣/ ١٨٤)(١٠١٥٣) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ٥٠١)(٣٦٨٥٧) صحيح لغيره

[٤٩٥] - السنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٥٤)(١٠١٦١) والدعاء للطبراني (ص:٥٣٥)(١٩١١) والزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ١٤٤)(٤٣١) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٢٨)(٣٥٠٢) صحيح وانظر تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٤٥٩)

قَوْلُهُ:«وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا» أَيْ أَبْقِهِ مَعِي حَتَّى أَمُوتَ،قِيلَ:أَرَادَ بِالسَّمْعِ وَعْيَ مَا يُسْمَعُ وَالْعَمَلَ بِهِ،وَبِالْبَصَرِ الاعْتِبَارَ بِمَا يَرَى،وَقِيلَ:يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بَقَاءَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بَعْدَ الْكِبَرِ وَانْحِلالِ الْقُوَى،فَيَكُونُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَارِثَيْ سَائِرِ الْقُوَى،وَالْبَاقِيَيْنِ بَعْدَهَا،وَرَدَّ الْهَاءَ إِلَى الإِمْتَاعِ،فَلِذَلِكَ وَحَّدَهُ،فَقَالَ:«وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا»شرح السنة للبغوي (٥/ ١٧٥)

[٤٩٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٢٧٤)(٧٢) والسنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٢٧)(٢٠٨٠٤)
صحيح

الجعظرى:الغليظ المتكبر،الجواظ:الجموع المنوع للخير،جيفة بالليل:كثير النوم =حمار بالنهار:فى الدأب وراء الدنيا

الفواحش كفاحشة الزنا وغيرها،والتمتع بسائر المحرمات كمشاهدة الأفلام المحرمة واستماع المعازف وغيرها،والتمتع باللهو واللعب،وتمتع حكامهم الظلمة بالعلو في الأرض،والتسلط على الآخرين ونهب خيراتهم،والانشغال بصناعة وإنتاج أدوات المتعة والترف،وقد قال الله تبارك وتعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ } [محمد:١٢]

وَفِي يَوْمِ القِيَامةِ يُدخِلُ اللهُ تَعَالى الذِينَ آمَنُوا بهِ،وَبكُتُبِه،وَرُسُلِه،وَعَمِلُوا الأعْمَالَ الصَّالِحَاتِ،جَنَّاتٍ تَجري فِي أرْضِها الأنهَارُ جَزاءً لَهُم عَلَى إيمَانِهِمْ.أمَّا الكَافِرُونَ الذين كَفَرُوا باللهِ وبِكُتُبِه،وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ،فَإِنَّهُم يَتَمَتَّعُونَ بما في هذهِ الدُّنيا مِنْ مَتَاعٍ زَائِلٍ،وَيَأكُلُونَ فيها كَالأنعَامِ،غَيرَ مُفَكِّرِينَ فِي عَواقِبِ أمُورِهِمْ،وَلا مُعْتَبِرِينَ بما أقَامَهُ اللهُ للْعِبَادِ منَ الأدِلَّةِ علَى وُجُودِهِ ووَحْدَانِيَّتِه تَعَالى،وَسَيَصِيرُونَ في الآخِرَةِ إلى جَهَنَّمَ فَتَكُونُ مَسْكَنَهُمْ وَمَأوَاهُمْ.[٤٩٧]

أي والذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله ﷺ يتمتعون فى هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية،ويأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ومنتهى أمورهم،ولا معتبرين بما نصب الله لخلقه فى الآفاق والأنفس من الحجج المؤدية إلى معرفة توحيده وصدق رسوله،فمثلهم مثل البهائم تأكل فى معالفها ومسارحها،وهى غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح،فكذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم ساهون لاهون عن عذاب السعير.

(وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) أي ونار جهنم مسكن ومأوى لهم يصيرون إليها بعد مماتهم والخلاصة- إن المؤمنين عرفوا أن نعيم الدنيا ظل زائل فتركوا الشهوات،وتفرغوا للصالحات،فكانت عاقبتهم النعيم المقيم فى مقام كريم،وإن الكافرين غفلوا عن ذلك فرتعوا فى الدّمن كالبهائم حتى ساقهم الخذلان،إلى مقرهم من درك النيران،أعاذنا الله منها.[٤٩٨]

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون في الأرض أحيانا من أطيب المتاع ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقي الضخم للمؤمنين – وهو نصيبهم في الجنة – والنصيب الكلي للكافرين الذي لا نصيب لهم سواه.ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله في جنات تجري من

---

[٤٩٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٤٩٨] – تفسير المراغي (٢٦/ ٥٥)

تحتها الأنهار.فالله هو الذي يدخلهم.وهو إذن نصيب كريم علوي رفيع.وهم ينالونه من بين يدي الله في علاه جزاء على الإيمان والصلاح،متناسقا في رفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح.

ونصيب الذين كفروا متاع وأكل «كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ» ..وهو تصوير زري،يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره،والمتاع الحيواني الغليظ.بلا تذوق،وبلا تعفف عن جميل أو قبيح ..إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة،ولا من اختيار،ولا حارس عليه من تقوى،ولا رادع عنه من ضمير.

والحيوانية تتحقق في المتاع والأكل،ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم،وحس مدرب في اختيار صنوف المتاع،كما يتفق هذا لكثير من الناشئين في بيوت النعمة والثراء.وليس هذا هو المقصود.إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذي يملك نفسه وإرادته،والذي له قيم خاصة للحياة فهو يختار الطيب عند الله.عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة،ولا يضعفها هتاف اللذة.ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام،وفرصة متاع بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح! إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان:أن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة،المتلقاة من الله خالق الحياة.فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه،وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله.[٤٩٩]

فيتمتعون المتاع القليل المليء بالمنغصات،والمحشو بالرزايا والعقوبات،ثم مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير،كما قال تعالى:{ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) } [آل عمران]

لاَ تَنْظُرْ إِلَى مَا أُتْرِفَ فِيهِ هَؤُلاءِ الكُفَّارُ مِنَ النِّعْمَةِ وَالغَبْطَةِ وَالسُّرُورِ.وَلاَ تَعْجَبْ مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي الأَسْفَارِ لِلتِّجَارَةِ وَالتَّكَسُّبِ ثُمَّ عَوْدَتِهِمْ سَالِمِينَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَدِيَارِهِمْ.فَإِنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ زَائِلٌ،يَتَمَتَّعُونَ بِهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا،ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمُسْتَقَرُّ وَالمَهْدُ.[٥٠٠]

[٤٩٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٠١)

[٥٠٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٨٩،بترقيم الشاملة آليا)

وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للـذين كفـروا مـن متـاع الـدنيا،وتنعمهم فيها،وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات،وأنواع العز،والغلبـة في بعـض الأوقات،فإن هذا كله {متاع قليل} ليس له ثبوت ولا بقاء،بل يتمتعون به قلـيلا ويعـذبون عليه طويلا هذه أعلى حالة تكون للكافر،وقد رأيت ما تؤول إليه.
وأما المتقون لربهم،المؤمنون به- فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها {لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} .فلو قدر أنهم في دار الدنيا،قد حصل لهم كل بؤس وشـدة،وعناء ومشقة،لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم،والعيش السليم،والسرور والحبور،والبهجـة نـزرا يسيرا،ومنحة في صورة محنة،ولهذا قال تعالى:{وما عند الله خير للأبرار} وهم الـذين بـرت قلوبهم،فبرت أقوالهم وأفعالهم،فأثابهم البر الرحيم من بره أجرا عظيما،وعطاء جسـيما،وفوزا دائما.[٥٠١]

متاع قليل ..ينتهي ويذهب ..أما المأوى الدائم الخالد،فهو جهنم ..وبئس المهاد!
وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات.وخلود.وتكريم من الله:«جَنَّاتٌ تَجْرِي مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهارُ» ..«خالِدِينَ فِيها» ..«نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» ..«وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ» ..
وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة،وهذا النصيب في كفـة،أن مـا عنـد الله خـير للأبرار.وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هـذا الميزان.وما يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الألبـاب! إن الله - سبحانه - في موضع التربية،وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصـور الإسـلامي لا يعـد المؤمنين هنا بالنصر،ولا يعدهم بقهر الأعداء،ولا يعدهم بالتمكين في الأرض،ولا يعدهم شـيئا من الأشياء في هذه الحياة ..مما يعدهم به في مواضع أخرى،ومما يكتبه على نفسه لأوليائـه في صراعهم مع أعدائه.
إنه يعدهم هنا شيئا واحدا.هو «ما عِنْدَ اللَّهِ».فهذا هو الأصل في هذه الدعوة.وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة:التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية،ومن كل مطمع - حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله - حتى هذه الرغبة يريد الله أن

---
[٥٠١] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٦٢)

يتجرد منها المؤمنون،ويكلوا أمرها إليه،وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لهـا ولـو كانت لا تخصها! هذه العقيدة:عطاء ووفاء وأداء ..فقط.وبلا مقابـل مـن أعـراض هـذه الأرض،وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء ..ثم انتظار كل شيء هنـاك! ثم يقع النصر،ويقع التمكين،ويقع الاستعلاء ..ولكن هذا ليس داخلا في البيعة.ليس جـزءا مـن الصفقة.

ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا.وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء ..والابتلاء ..

على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة وعلى هذا كان البيع والشـراء.و لم يمـنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء و لم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشـرية،إلا حـين تجردوا هذا التجرد،ووفوا هذا الوفاء:

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ - ﷺ - الْعَقَبَةَ ،فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:" يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطْ لِأَصْـحَابِكَ ،فَقَالَ - ﷺ -:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ،وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُـونِي مِمَّـا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ،وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَـمْ يَخْطُـبِ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ:فَمَا لَنَا قَالَ:" الْجَنَّةُ " قَالَ:ابْسُـطْ يَـدَكَ فَأَنَـا أَوَّلُ مَـنْ بَايَعُكَ.ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ،إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّـهُ رَسُـولُ اللهِ - ﷺ - ،وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ ،فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ ،وَإِمَّـا أَنْـتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ ،فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنَّـهُ يَـدَكَ فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا ،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَـرْطِ الْعَبَّـاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ."[٥٠٢]

هكذا ..«الجنة» ..والجنة فقط! لم يقل:النصر والعز والوحدة.والقوة.والتمكين.والقيادة.والمال.

---

[٥٠٢] - أخبار مكة للفاكهي - (٤/ ٢٣٢) (٢٥٤٠) صحيح لغيره

والرخاء – مما منحهم الله وأجراه على أيديهم – فذلك كله خارج عن الصفقة! وهكذا ..ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل ..لقد أخذوها صفقة بين متبايعين أنهي أمرها،وأمضي عقدها.

و لم تعد هناك مساومة حولها! وهكذا ربى الله الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض،وزمام القيادة،وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها،وكل رغباتها،وكل شهواتها،حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها،والمنهج الذي تحققه،والعقيدة التي تموت من أجلها.فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه،أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة.[٥٠٣]

وقال تعالى:{كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ } [المرسلات:٤٦]

يُهَدِّدُ اللهُ تَعَالَى المُكَذِّبِينَ فَيَقُولُ لَهُمْ،كُلُوا وَتَمَتَّعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ مُدَّةَ الآجَالِ البَاقِيةِ لَكُم فِيهَا،وَهِيَ قَلِيلَة عَلَى كُلِّ حَال،ثُمَّ تُسَاقُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ لأَنَّكُمْ مُجْرِمُونَ.[٥٠٤]

وقال تعالى:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة:١٢٦]

وَاذْكُرْ لِقَوْمِكَ إِذْ دَعَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ فَقَالَ:رَبِّ اجْعَلْ هذِهِ البُقْعَةَ المُحِيطَةَ بِالكَعْبَةِ بَلَداً آمِناً مِنَ الخَوْفِ فَلاَ يُرْعَبُ أَهْلُهُ،وُارْزُقْ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِهِ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ مِنَ الثَّمَرَاتِ.فَرَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيهِ قَائلاً:إِنَّهُ سَيَرْزُقُ المُؤْمِنِينَ وَغَيْرَ المُؤْمِنِينَ مِنَ النَّاسِ،لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لاَ يَخْلُقُ خَلْقاً لا يَرْزُقُهُ.وُلكِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ ذلِكَ الرِّزْقَ لِمَنْ كَفَرَ مَتَاعاً قَلِيلاً،مُدَّةَ وُجُودِهِمْ فِي الدُّنيا،ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ وَيَسُوقُهُمْ إِلى نَارِ جَهَنَّمَ سَوْقاً لِيُعَذِّبَهُمْ فِيها،وَمَا أَسْوَأَهُ مِنْ مَصِيرٍ.[٥٠٥]

---

[٥٠٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٦٨)

[٥٠٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٤٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٥٠٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٣،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } [الزمر:٨]

وَالإِنْسَانُ الكَافِرُ لاَ يَتَذَكَّرُ رَبَّهُ إِلاَّ عِنْدَ الحَاجَةِ،فَإِذَا أَصَابهُ البَلاَءُ فِي جَسَدِهِ،أَوْ أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ فِي مَعِيشَتِهِ،أَوْ نَزَلَ بِهِ خَوْفٌ عَلَى حَيَاتِهِ اسْتَغَاثَ بِرَبِّهِ،وَلَجَأَ إِلَيْهِ،وَدَعَاهُ مُخْلِصاً مُنِيباً لِيَكْشِفَ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ بَلاَءٍ وَشِدَّةٍ،فَإِذَا صَرَفَ اللهُ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ،وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ،نَسِيَ اللهَ،وَتَرَكَ التَّضَرُّعَ إِلَيهِ،وَجَعَلَ للهِ شُرَكَاءَ،وَأَضَلَّ النَّاسَ،وَمَنَعَهُمْ مِنَ الإِيْمَانِ بِاللهِ.

وَيَتَوَعَّدُ اللهُ هَذَا الكَافِرَ وَأَمْثَالَهُ،فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ الكَرِيمِ قُلْ لَهُ:تَمَتَّعْ بِما أَنْتَ فِيهِ مِنْ زُخْرُفٍ وَنَعِيمٍ زَائِلٍ،وَلَذَّةٍ عَابِرَةٍ،فَمَا هِيَ إِلاَّ مُدَّةٌ يَسِيرَةٌ فَيَنْتَهِي أَجَلُكَ،ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى النَّارِ،فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِهَا،وَتَخْلُدُ فِيهَا أَبداً.[٥٠٦]

وقال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) } [القصص]

كُلُّ مَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا مِنْ زِينَةٍ زَائِفَةٍ،وَزَهَرَةٍ فَانِيَةٍ،وأَموَالٍ وأَوْلاَدٍ هُوَ مَتَاعٌ مَحْدُودٌ مُؤَقَّتٌ تَافِهٌ بِالنِّسْبَةِ إِلى مَا أَعدَّهُ اللهُ فِي الحَيَاةِ الآخِرَةِ مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ دائِمٍ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ المُخلصِينَ،فَلا تَصْرِفَنَّكُمْ،أَيُّها العِبَادُ،العَرُوضُ الفَانِيةُ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا،عَنِ النَّعِيمِ الخَالِدِ فِي الحَيَاةِ الآخِرَةِ،وَحَكِّمُوا عُقُولَكُمْ فِي أُمُورِكُم بَدَلَ أَهوَائِكُم تَفُوزُوا.

لاَ يَسْتَوِي مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِاللهِ،مَصَدِّقٌ بِمَا وَعَدَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ المُؤمِنِينَ،مِنْ عَظِيمِ الأَجرِ والثَّوابِ،عَلَى الإِيمَانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ،فَاستَحَقَّ وَعْدَ اللهِ الحَسَنَ بِالجَنَّةِ،وَحُسْنَ الثَّوابِ،مَعَ مَنْ كَفَرَ وَكَذَّبَ بِلقَاءِ اللهِ،وَوَعْدِهِ،وَوَعِيدِهِ،وجَنَّتِهِ وَنَارِهِ،فَهُوَ يَتَمَتَّعُ بِالحَيَاةِ الدُّنيا وَزُخْرُفِهَا أَيَّاماً قَلِيلَةً ثُمَّ يكُونُ يَومَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ لِلْحِسَابِ،المُلاقِينَ لِلْعِقَابِ.[٥٠٧]

---

[٥٠٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٤٥،بترقيم الشاملة آليا) -

[٥٠٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣١٩٤،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى:{ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) } [لقمان]

يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ فَيَقُولُ لَهُ:أَمَّا مَنْ كَفَرَ بِمَا جِئْتَهُ بِهِ،فَلاَ تَحزَنْ عَلَيهِ،فإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ بِقَدَرِ اللهِ،وَسَيَرْجِعُ النَّاسُ إلى اللهِ يومَ القِيَامَةِ فَيَعْرِضُ اللهُ تَعَالى عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ،وَيَجْزِيهِمْ بِهَا،وَلا تَخْفَى عليهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ خَافِيةٌ،وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يُكِنُّونَ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ نَوايا.

واللهُ تَعَالى يُمْهِلُهُمْ فِي الدُّنيا زَمَناً قَليلاً يَتَمتَّعُونَ فِيه،وَيَنْعَمُونَ بِزَخَارِفِ الحَيَاةِ الدُّنيا الفَانِيةِ،ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ عَلَى كُرْهٍ مِنْهُمْ (نَضْطَرُّهُمْ) لِيَذُوقُوا فِيها العَذابَ الأَليمَ الكَبيرَ الشَّاقَّ عَلى نُفُوسِهِم.[٥٠٨]

وقال تعالى:{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)} [الروم:٣٣،٣٤]

وإِذا مَسَّ هؤلاءِ الْمُشْرِكينَ ضُرٌّ كَقَحْطٍ وَبَلاءٍ وَمَرَضٍ وَشِدَّةٍ..دَعَوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ والعِبَادَةَ وأَفْرَدُوهُ بالتَّضرُّعِ والاسْتِغَاثَةِ،وَرَجَوْهُ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُم مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ شِدَّةٍ،وَلكنَّهُمْ حِينَما يَكْشِفُ اللهُ عَنْهُمْ ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ وَبَلاءٍ يَعودُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ إلى مَا كَانُوا عَليهِ مِنَ الشِّرْكِ باللهِ.

فَلْيَكْفُرُوا بِنِعَمِ اللهِ وبِمَا آتَاهُمْ مِن فَضْلِه،ولْيَجْحَدُوا بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيهِمْ مِنْ كَشْفِ الضُّرِّ والبَلاَءِ،ولْيَتَمتَّعُوا بمَا آتاهُمْ مِنَ الرَّخَاءِ والنِّعَمِ،فَإِنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ كَيفَ يأخُذُ اللهُ المشركينَ الْمُفْسدِينَ،وكيفَ يَعَاقِبُهُمْ علَى كُفْرِهِمْ وإِفْسَادِهِمْ فِي الأَرْضِ.[٥٠٩]

وقال تعالى:{رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)} [الحجر:٢،٣]

---

[٥٠٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٥٠٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

يَتَهَدَّدُ اللهُ تَعَالَى الكَافِرينَ،وَيَقُولُ لِرَسُولِه الكَرِيمِ:دَعْهُمْ فِي غَفَلاتِهِمْ،يَتَمَتَّعُوا وَيَأْكُلُوا وَيُلــهِهِمُ الأَمَلُ بِالحَيَاةِ عَنِ التَّوْبَةِ وَالإِنَابَةِ إِلى اللهِ،فَسَوفَ يَعْلَمُونَ سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ إِذَا هُمْ عَــايَنُوا سُــوءَ الجَزَاءِ.[510]

أي دعهم أيها الرسول فى غفلاتهم يأكلون كما تأكــل الأنعــام،ويتمتعون بلــذات الــدنيا وشهواتها،وتلهيهم الآمال عن الآجال،فيقول الرجل منهم غدا سأنال ثروة عظيمة،وأحظى بما أشتهى،ويعلو ذكرى،ويكثر ولــدي،وأبنى القصــور،وأكثر الــدور،وأقهر الأعــداء،وأفاخر الأنداد،إلى نحو ذلك مما يغرق فيه من بحار الأماني والآمال وطلب المحال.

ثم علل الأمر بتركهم بقوله:(فَسَوْفَ يَعْلَمُــونَ) ســوء صــنيعهم إذا هــم عــاينوا ســوء جزائهم،ووخامة عاقبتهم وفى هذا وعيد بعد تهديد،وإلزام لهم بالحجة ومبالغة فى الإنذار،وقــد جاء فى أمثالهم (أعذر من أنذر) وإيماء إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها- ليس من أخلاق المؤمنين.[511]

أي يلههم ويشغلهم ظنهم بطول الأعمــار،وتحقق الحاجــات والرغبــات والشــهوات،وأن مستقبلهم خال من المنغصات والعقوبات،كل هذا يشغلهم عن الإيمان والتوبة.

فمن تأمل حال الكفار فلا يجد أهدافهم وسياساتهم وقوانينهم تخرج عن هــذين المقصــدين الأكل والتمتع بأنواعه،التي تشترك وتتساوى فيها معهم الأنعام السارحة،بل هم أضــل منــها كما قال تعالى:{ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَــبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) } [الفرقان]

انْظُرْ إلى حَالِ الذي جَعَلَ هَوَاهُ إلهَهُ،بأَنْ أطَاعَهُ وبَنَى عليه أمرَ دينــه،وأعْرَضَ عــن اســتماع الحَقِّ،والحُجَجِ،والبَراهينِ الواضِحَةِ الدَّالَّةِ على وَحْدَانِيَّةِ اللهِ،وعظيمِ قُدْرَتِه،واعْجَبْ منْهُ،ولا تَعْبَأْ بِه فإِنَّكَ لستَ حَفيظاً عليهِ،وليسَ عَلَيْكَ هُدَاهُ،وإِنّما عَليكَ إبلاغُهُ الرِّسَــالَةَ،ثُمّ إِنْ شَــاءَ اللهُ هَدَاه،وإِنْ شَاءَ أضَلَّهُ.

---

[510] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨٠٦،بترقيم الشاملة آليا) -

[511] - تفسير المراغي (١٤/ ٥)

هَلْ تَظُنُّ يا محمدُ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ يَسمَعُون أو يَعْقلونَ؟ إنهم في الحَقيقَة لا يَسْمعُونَ حقَّ السَّماعِ،ولا يُدْرِكُون حقَّ الإِدْرَاكِ ولا يفْهَمُونَ فَهْما صَحيحاً ما تَتْلُوه عليْهِمْ مِنَ الآياتِ والمواعظِ الداعيَةِ إلى الإيمانِ وإلى الخَيْرِ،حَتَّى تَجْتَهِدَ في دَعْوَتهِمْ،وتَحْفلَ بإرشَادهِمْ،وتذكيرهِمْ،وتَطْمَعَ في إيمَانِهِمْ،فَهُمْ أَسْوَأُ من الأنْعَامِ السَّارِحَة،وأضَلُّ سَبيلاً،لأنَّ الأنْعَامَ السَّارِحَةَ تنقَادُ لصَاحبِها الذي يَتَعَهَّدُهَا،وتعرفُ مَنْ يُحْسِنُ إليها ومن يُسيءُ،وتطلبُ ما يَنفَعُها،وتَجتنبُ ما يَضرُّها،وتَهتدي لمَرْعَاها ومَشْرَبها.

أما هؤلاءِ المُشركونَ فإنهُمْ لا يَنْقادُونَ لخَالقهِمْ وبارئهم،ولا يَعْرِفُونَ إحْسَانَهُ إليهم،ولا يعْرِفُونَ إساءَةَ الشيطانِ وعَدَاوتَهُ لَهُم،وهوَ الذي يزيِّنُ لهمُ الكُفْرَ واتِّباعَ الشَّهَوات.[512]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" أَيْ:أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ،فَإِنَّ تِلْكَ تَعْقِلُ مَا خُلِقَتْ لَهُ،وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَيُشْرِكُونَ بِهِ،مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ،وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ."[513]

أي انظر فى حال هذا الذي جعل هواه إلهه،بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه،وأعرض عن استماع الحجة الباهرة،والبرهان الجلى الواضح،واعجب ولا تأبه به،فإنك لن تكون حفيظا على مثل هذا تزجره عما هو عليه من الضلال وترشده إلى الصراط السوىّ.

وخلاصة ذلك- كأنه سبحانه يقول لرسوله:إن هذا الذي لا يرى معبودا له إلا هواه،لا تستطيع أن تدعوه إلى الهدى،وتمنعه من متابعة الهوى،إن عليك إلا البلاغ.

ونحو الآية قوله:«لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» وقوله:«وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» وقوله:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ» .

وفى هذا الأسلوب تعجيب لرسوله من سوء أحوالهم بعد أن حكى قبيح أقوالهم وأفعالهم،وتنبيه له إلى سوء عاقبتهم.

قال ابن عباس:كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا،فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول فأنزل الله الآية.

---

[512] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٨٠،بترقيم الشاملة آليا)

[513] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ١١٣)

(ح) (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) أي بل أتظن أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما تتلو عليهم من الآيات،أو يعقلون ما تتضمنه من المواعظ الداعية إلى الفضائل ومحاسن الأخلاق،حتى تجتهد فى دعوتهم،وتحتفل بإرشادهم وتذكيرهم،وتطمع فى إيمانهم فما حالهم إلا حال البهائم فى تركهم للتدبر فيما يشاهدون من البينات والحجج،بل هم أضل منها سبيلا،هى قد تنقاد لصاحبها الذي يتعهّدها،وتعرف من يحسن إليها ومن يسىء،وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها،وتهتدى لمراعيها ومشاربها،وتأوى إلى معاطنها ومرابضها،لكن هؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم،ولا يعرفون إحسانه إليهم وإساءة الشيطان لهم،وهو الذي قد زين لهم اتباع الشهوات- إلى أنهم لا يرجون ثوابا،ولا يخافون عقابا،إلى أن جهالة الأنعام مقصورة عليها،وجهالة هؤلاء تؤدى إلى وقوع الفتنة والفساد،وصدّ الناس عن سنن السّداد،ووقوع الهرج والمرج بين العباد،إلى أن البهائم إذ لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك،بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عنادا ومكابرة وتعصبا وغمطا للحق،إلى أنها لم تعطّل قوة من القوى المودعة فيها،فلا تقصير من قبلها عن الكمال،أما هؤلاء فهم مبطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة التي فطر الله الناس عليها،وقد قالوا الملائكة روح وعقل،والبهائم نفس وهوى،والبشر مجمع الكل للابتلاء والاختبار،فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام،وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام.وتخصيص الأكثر بالذكر،لأنه قد كان منهم من آمن،ومنهم من عقل الحق وكابر،استكبارا وخوفا على الرياسة[514]

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة،حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة،والموازين المضبوطة،وتخضع لهواها،وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها،فلا تخضع لميزان،ولا تعترف بحد،ولا تقتنع بمنطق،متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلها يعبد ويطاع.

والله - سبحانه - يخاطب عبده في رفق ومودة وإيناس في أمر هذا النموذج من الناس:«أَرَأَيْتَ؟ » ويرسم له هذه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذي لا جدوى

[514] - تفسير المراغي (١٩/ ٢٠)

من المنطق معه،ولا وزن للحجة،ولا قيمة للحقيقة ليطيب خاطره من مرارة الإخفاق في هدايته.فهو غير قابل للهدى،وغير صالح لأن يتوكل الرسول بأمره،ولا أن يحفل بشأنه:«أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا؟ » ..

ثم يخطو خطوة أخرى في تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم،ويحكمون شهواتهم،ويتنكرون للحجة والحقيقة،تعبدا لذواتهم وهواها وشهواتها.يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل.

ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام إلى درك أسفل وأحط:«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ.بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا».وفي التعبير تحرز وإنصاف،إذ يذكر «أَكْثَرَهُمْ» ولا يعمم،لأن قلة منهم كانت تجنح إلى الهدى،أو تقف عند الحقيقة تتدبرها.فأما الكثرة التي تتخذ من الهوى إلها مطاعا،والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول،فهي كالأنعام.وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك،والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع،ووقوف عند الحجة والاقتناع.بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة،لأن البهيمة تهتدى بما أودعها الله من استعداد،فتؤدي وظائفها أداء كاملا صحيحا.بينما يهمل الإنسان ما أودعه الله من خصائص،ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة:«إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» ..[515]

وقال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:١٧٩]

لَقَدْ خَلَقْنَا كَثِيراً مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ لِيَكُونُوا وَقُوداً لِجَهَنَّمَ،لأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَ أَهْلِهَا،وَلاَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيءٍ مِنْ جَوَارِحِهِمْ التِي جَعَلَها اللهُ سَبِيلاً لِلْهِدَايَةِ،فَلاَ يَسْمَعُونَ الحَقَّ بِآذَانِهِم،وَلا يَفْقَهُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ،وَلا يَرَوْنَ النُّورَ بِعُيُونِهِمْ،فَهُمْ كَالبَهَائِمِ وَالأَنْعَامِ السَّارِحَةِ،لاَ تَنْتَفِعُ بِحَوَاسِّهَا إلا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَعَاشِهَا وَبَقَائِهَا،أوْ هُمْ شَرٌّ مِنَ الدَّوَابِّ وَأَكْثَرُ ضَلالاً،لأَنَّ الدَّوَابَّ قَدْ تَسْتَجِيبُ لِرَاعِيها

[515] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٢٩٩) –

إذا أنسَتْ بِه،وَإنْ لَمْ تَفْقَهْ كَلاَمَهُ،بِخلاف هَؤُلاء.ولأنَّ الدَّوَابَّ تَفْعَلُ مَا خُلقَتْ لَهُ،إمَّا بطَبْعِهَا وَإمَّا بتَسْخيرهَا.أمَّا الكَافرُونَ فإنَّهُمْ خُلقُوا ليَعْبُدُوا اللهَ وَيُوَحِّدُوهُ،فَكَفَرُوا باللهِ،وَأشْرَكُوا بهِ فَهُمُ الغَافلُونَ.[516]

وقال تعالى:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنفال:٥٥]

هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث:الكفر،وعدم الإيمان،والخيانة،بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه،هم شر الدواب عند الله فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها،لأن الخير معدوم منهم،والشر متوقع فيهم،فإذهاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين،لئلا يسري داؤهم لغيرهم[517]

أي إن شر ما يدب على وجه الأرض فى حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان:

(١) الإصرار على الكفر والرسوخ فيه بحيث لا يرجى إيمان جملتهم أو إيمان جمهورهم،لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول ﷺ معاندون له جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم،وفيهم يقول سبحانه:«يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ» وإما مقلدون جامدون على التقليد لا ينظرون فى الدلائل والآيات.

وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذي غلب استعماله فى ذوات الأربع،لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط،بل هم أضل من العجماوات،لأن لها منافع وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى فى أمثالهم:«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» .

(٢) نقض العهد،وقد كان النبي ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهدا أقرّهم فيه على دينهم وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم،فنقض كل منهم عهده.

روى عن ابن عباس أنهم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله ﷺ وأعانوا عليه بالسلاح فى يوم بدر ثم قالوا:نسينا وأخطأنا،فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالئوا الكفار على رسول الله ﷺ

---

[516] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

[517] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢٤)

يوم الخندق وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فخالفهم على محاربة النبي ﷺ.وقوله:وهم لا يتقون،أي لا يتقون الله فى نقض العهد ولا فيما قد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم.[518]

ولفظ «الدواب» وإن كان يشمل كل ما دب على الأرض،فيشمل الأناسي فيما يشمل،إلا أنه – كما أسلفنا – يلقي ظلا خاصا حين يطلق على الآدميين ..ظل البهيمة ..ثم يصبح هؤلاء الآدميون شر البهيمة التي تدب على الأرض! وهؤلاء هم الذين كفروا حتى بلغ بهم الكفر ألا يصير حالهم إلى الإيمان! وهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة ولا يتقون الله في مرة! فهؤلاء الذين كفروا ولجّوا في الكفر «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» ..ففسدت بذلك فطرتهم،وباتوا بذلك شر الدواب عند الله.هؤلاء الذين ينقضون كل عهد أبرموه،فتجردوا بذلك من خصيصة إنسانية أخرى – خصيصة التقيد بالعهد – وانطلقوا من كل قيد،كما تنطلق البهيمة،لولا أن البهيمة مقيدة بضوابط فطرتها،وهؤلاء لا ضابط لهم.فهم بذلك شر الدواب عند الله! هؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم وجوارهم ..جزاؤهم هو حرمانهم الأمن كما حرموا غيرهم الأمن وجزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم،والضرب على أيديهم بشدة لا ترهبهم وحدهم،إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم،والرسول – ﷺ – ومن بعده من المسلمين،مأمورون – إذا التقوا بأمثال هؤلاء في القتال – أن يصنعوا بهم ذلك الصنيع:«فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» ..وإنه لتعبير عجيب،يرسم صورة للأخذ المفزع،والهول المرعب،الذي يكفي السماع به للهرب والشرود.

فما بال من يحل به هذا العذاب الرعيب؟ إنها الضربة المروّعة يأمر الله تعالى رسوله – ﷺ – أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد،وانطلقوا من ضوابط الإنسان،ليؤمن المعسكر الإسلامي أولا،وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيرا وليمنع كائنا من كان أن يجرؤ على التفكير في الوقوف في وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد ..

إنها طبيعة هذا المنهج التي يجب أن تستقر صورتها في قلوب العصبة المسلمة.إن هذا الدين لا بد له من هيبة،ولا بد له من قوة،ولا بد له من سطوة،ولا بد له من الرعب الذي يزلزل

---

[518] – تفسير المراغي (١٠/ ٢٠)

الطواغيت حتى لا تقف للمد الإسلامي،وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل طاغوت.والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ،في وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت،هم ناس لا يعرفون شيئا عن طبيعة هذا الدين! وهذا هو الحكم الأول يتعلق بحالة نقض العهد فعلا مع المعسكر الإسلامي وما ينبغي أن يتبع في ضرب الناقضين للعهد وإرهابهم وإرهاب من وراءهم بالضربة القاصمة المروعة الهائلة.

فأما الحكم الثاني فيتعلق بحالة الخوف من نقض العهد وتوقع الخيانة وذلك بظهور أفعال وأمارات تدل على أن القوم يهمون بنقض العهد فعلا:«وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ.إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ» ..

إن الإسلام يعاهد ليصون عهده فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية و لم يخن و لم يغدر و لم يغش و لم يخدع وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم.فليس بينه وبينهم أمان ..وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة،وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة ..إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض و لم تنبذ ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم ..فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة،لأن كل خصم قد أخذ حذره فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة!

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع ويريد للبشرية أن تعف فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة،ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة ..إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزا ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة،فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة ..وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية،فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية،لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات ..إن الشط الممرع لا يغري

المسلم بخوض بركة من الوحل،فإن الشط الممرع لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة في النهاية ..من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة.«إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ».
ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق.لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان ..قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت.ويجب أن نذكر كذلك أن قانون الغابة هو الذي ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها بعد ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي حيث لم تكن أوربا تعرف شيئا عن المعاملات الدولية إلا ما تقتبسه في أثناء تعاملها مع العالم الإسلامي.ثم هي لم ترتفع قط حتى اللحظة إلى هذا الأفق في عالم الواقع حتى بعد ما عرفت نظريا شيئا اسمه القانون الدولي! وعلى الذين يبرهم «التقدم الفني في صناعة القانون» أن يدركوا حقيقة «الواقع» بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعا! وفي مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر،ويهوّن عليهم أمر الكفار والكفر! «وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا،إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ» ..فتبييتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق،لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم،ولن يفلت الخائنين لخيانتهم.والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم،وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم.فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة – متى أخلصوا النية فيها لله – من أن يسبقهم أصحاب الوسائل الخسيسة.[٥١٩]

وبهذا يتبين أن حياة الكفار التي تشبه حياة الأنعام بل هي أسوأ،لا يمكن أن تسمى حضارة وتقدم،بل هي تخلف وتأخر عن الاستقامة والصلاح والطهارة والعفة،وانحطاط في الغايات والعقائد والأخلاق،فقد أتقنوا صناعة الحديد والآلات،وشيدوا المصانع والعمارات،ولكنهم غفلوا عن بناء الإنسان والأسرة والمجتمع،ولهذا أصبحت مجتمعاتهم تعاني الضلال العقائدي والانحراف الأخلاقي،والتفكك الأسري،والضنك،والأمراض النفسية،والجسدية،والجريمة والمخدرات،يقول سيد قطب رحمه الله في كتابه القيم معالم في الطريق " الإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات ...مجتمع إسلامي،ومجتمع جاهلي ..

[٥١٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٨٤)

" المجتمع الإسلامي " هو المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام ..عقيدة وعبادة،وشريعة ونظاماً،وخلقاً وسلوكاً ..و " المجتمع الجاهلي " هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام،ولا تحكمه عقيدته وتصوراته،وقيمه وموازينه،ونظامه وشرائعه،وخلقه وسلوكه ..

ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم ناساً ممن يسمون أنفسهم " مسلمين "،بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع،وإن صلى وصام وحج البيت الحرام ! وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه – غير ما قرره الله سبحانه،وفصَّله رسوله – ﷺ –،ويسميه مثلاً " الإسلام المتطور " !

و " المجتمع الجاهلي " قد يتمثل في صور شتى – كلها جاهلية – :

قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى،ويفسر التاريخ تفسيراً مادياً جدلياً،ويطبق ما يسميه " الاشتراكية العلمية " نظاماً .

وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى،ولكن يجعل له ملكوت السماوات،ويعزله عن ملكوت الأرض،فلا يطبق شريعته في نظام الحياة،ولا يحكِّم قيمه التي جعلها هو قيماً ثابتة في حياة البشر،ويبيح للناس أن يعبدوا الله في البيَع والكنائس والمساجد،ولكنه يحرِّم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم،وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله في الأرض،التي ينص عليها قوله تعالى :{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } ..[الزخرف :٨٤] . ومن ثم لا يكون هذا المجتمع في دين الله الذي يحدده قوله :{ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } ..[يوسف :٤٠] .

وبذلك يكون مجتمعاً جاهلياً،ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله،في البيَع والكنائس والمساجد ." المجتمع الإسلامي " – بصفته تلك – هو وحده " المجتمع المتحضر "،والمجتمعات الجاهلية – بكل صورها المتعددة – مجتمعات متخلفة ! ولا بد من إيضاح لهذه الحقيقة الكبيرة .

لقد كنت قد أعلنتُ مرة عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان :" نحو مجتمع إسلامي متحضر " ..ثم عدت في الإعلان التالي عنه فحذفت كلمة " متحضر " مكتفياً بأن يكون عنوان البحث – كما هو موضوعه – " نحو مجتمع إسلامي " ..

ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائري (يكتبه بالفرنسية) ففسره على أنه ناشئ من " عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام " وأسف لأن هذه العملية – غير الواعية – تحرمني مواجهة " المشكلة " على حقيقتها !

أنا أعذر هذا الكاتب ..لقد كنت مثله من قبل ..كنت أفكر على النحو الذي يفكر هو عليه الآن ..عندما فكرت في الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة ! ..وكانت المشكلة عنـــدي – كما هي عنده اليوم – هي مشكلة :" تعريف الحضارة " !

لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسي،وهي رواسب آتية من مصادر أجنبية ..غريبة على حسي الإسلامي ..وعلى الرغم من اتجـــاهي الإســـلامي الواضح في ذلك الحين،إلا أن هذه الرواسب كانت تغبِّش تصوري وتطمسه ! كان تصـــور " الحضارة " – كما هو الفكر الأوروبي – يخايل لي،ويغبش تصوري،ويحرمني الرؤية الواضـــحة الأصيلة .

ثم انجلت الصورة .." المجتمع المسلم " هو " المجتمع المتحضر " .فكلمة " المتحضر " إذن لغو،لا يضيف شيئاً جديداً ..على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حس القارئ تلك الظلال الأجنبيـــة الغربية التي كانت تغبش تصوري،وتحرمني الرؤية الواضحة الأصيلة !

الاختلاف إذن هو على " تعريف الحضارة " ..ولا بد من إيضاح إذن لهذه الحقيقة !

حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده – متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية – تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر ..وتكون هذه هي " الحضارة الإنسانية " لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساســـية مـــن التحـــرر الحقيقي الكامل للإنسان،ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع ..ولا حرية – في الحقيقة – ولا كرامة للإنسان – ممثلاً في كل فرد من أفراده – في مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضـــه عبيد يطيعون !

ولا بد أن نبادر فنبيِّن أن التشريع لا ينحصر فقط في الأحكام القانونية – كما هـــو المفهـــوم الضيق في الأذهان اليوم لكلمة الشريعة – فالتصورات والمنـــاهج،والقيم والموازين،والعـــادات والتقاليد ..كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه .وحين يصنع الناس – بعضهم لبعض – هـــذه

الضغوط،ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع،لا يكون هذا المجتمع متحرراً،إنما هو مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيد – كما أسلفنا – وهو – من ثم – مجتمع متخلف ..أو بالمصطلح الإسلامي .." مجتمع جاهلي " !

والمجتمع الإسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه إله واحد،ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل،الذي ترتكز إليه حضارة الإنسان،وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له،وهو يعلن خلافته في الأرض عنه،ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الأعلى ..

وحين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة،ويكون هذا كله صادراً من إله واحد،تتمثل فيه السيادة العليا للبشر،وليس صادراً من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ..يكون ذلك التجمع ممثلاً لأعلى ما في " الإنسان " من خصائص ..خصائص الروح والفكر ..فأما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقوم والأرض ...وما إلى ذلك من الروابط،فظاهر أن الجنس واللون والقوم والأرض لا تمثل الخصائص العليا للإنسان ..فالإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض،ولكنه لا يبقى إنساناً بعد الروح والفكر ! ثم هو يملك – بمحض إرادته الحرة – أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته،ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه،كما إنه لا يملك أن يحدد مولده في قوم ولا في أرض ..فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر ..اما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية فهو المجتمع المتخلف ..أو بالمصطلح الإسلامي ..هو " المجتمع الجاهلي " !

والمجتمع الإسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية،والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر والعربي والرومي والفارسي والحبشي وسائر أجناس الأرض في أمة واحدة،ربها الله،وعبوديتها له وحده،والكرم فيها هو الأتقى،والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم،ولم يشرعه أحد من العباد !

وحين تكون " إنسانية " الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع،وتكون الخصائص " الإنسـانية " فيه هي موضع التكريم والاعتبار،يكون هذا المجتمع متحضراً ..فأما حين تكون " المادة " – في أية صورة – هي القيمة العليا ..سواء في صورة " النظرية " كما في التفسير الماركسي للتاريخ ! أو في صور " الإنتاج المادي " كما في أمريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التي تعتبر الإنتـاج المادي قيمة عليا تهدر في سبيلها القيم والخصائص والإنسانية ..فإن هذا المجتمع يكون مجتمعـاً متخلفاً ..أو بالمصطلح الإسلامي مجتمعاً جاهلياً !

إن المجتمع المتحضر ..الإسلامي ..لا يحتقر المادة،لا في صورة النظرية (باعتبارها هـي الـتي يتألف منها هذا الكون الذي نعيش فيه ونتأثر فيه ونؤثر فيه أيضاً) ولا في صـور " الإنتـاج المادي " .فالإنتاج المادي من مقومات الخلافة في الأرض عن الله – ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص " الإنسان " ومقوماته ! ..وتهدر من أجلها حريـة الفرد وكرامته .وتهدر فيها قاعدة " الأُسرة " ومقوماتها،وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماتـه ..إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الـوفرة في الإنتاج المادي !

وحين تكون " القيم الإنسانية " و " الأخلاق الإنسانية " التي تقوم عليهـا،هي السـائدة في مجتمع،يكون هذا المجتمع متحضراً .والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيماً " متطورة " متغيرة متبدلة،لا تستقر علـى حـال ولا ترجـع إلى أصل،كما يزعم التفسير المادي للتاريخ،وكا تزعم " الاشتراكية العلمية " !

إنها القيم والأخلاق التي تنمِّي في الإنسان خصائص الإنسان التي يتفرد بها دون الحيـوان،والتي تُغَلِّب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويعزوه عن الحيوان،وليست هي القيم والأخلاق التي تنمِّـي فيه وتُغَلِّب الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان .

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم " وثابـت " لا يقبـل عمليـة التمييع المستمرة التي يحاولها " التطوريون " ! و" الاشتراكيون العلميون " !

عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وعرفها هو الذي يحدد القيم الأخلاقية،إنما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت ..عندئذ لا يكون هناك قيم وأخلاق " زراعية " وأخرى " صـناعية " ! ولا

قيم وأخلاق " رأسمالية " وأخرى " اشتراكية "،ولا قيم وأخلاق " برجوازيـــة " وأخـــرى " صعلوكية " ! ولا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومستوى المعيشة وطبيعة المرحلـــة ..إلى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية ..إنما تكون هناك – من وراء ذلك كله – قيم وأخلاق " إنسانية " وقيم وأخلاق " حيوانية " – إذا صح هذا التعبير ! – أو بالمصطلح الإسلامي :قيم وأخلاق " إسلامية " وقيم وأخلاق " جاهلية " .

إن الإسلام يقرر قيمه وأخلاقه هذه " الإنسانية " – أي التي تنمِّي في الإنسان الجوانب الـــتي تفرقه وتميزه عن الحيوان – ويمضي غي إنشائها وتثبيتها وصيانتها في كل المجتمعات التي يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات في طور الزراعة أم في طور الصناعة،وسواء كانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعي أو مجتمعات حضرية مستقرة،وسواء كانت هذه المجتمعات فقـــيرة أو غنية ..

إنه يرتقي صعداً بالخصائص الإنسانية،ويحرسها من النكسة إلى الحيوانية ..لأن الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي من الدرك الحيواني إلى المرتفع الإنساني ..فإذا انتكس هذا الخط – مع حضارة المادة – فلن يكون ذلك حضارة ! إنما هو " التخلف " أو هو " الجاهلية " !

وحين تكون " الأسرة " هي قاعدة المجتمع .وتقوم هذه الأسرة على أساس " التخصص " بين الزوجين في العمل .وتكون رعاية الجيل الناشئ هي أهم وظائف الأسرة ..يكون هذا المجتمـــع متحضراً ..ذلك أن الأسرة على هذا النحو – في ظل المنهج الإسلامي – تكون هي البيئة التي تنشأ وتُنَمِّى فيها القيم والأخلاق " الإنسانية " التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة،ممثلة في الجيل الناشئ،والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة،فأما حين تكون العلاقـــات الجنسية (الحرة كما يسموها) والنسل (غير الشرعي) هي قاعدة المجتمـــع ..حـــين تقـــوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال،لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأُسرة ..حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة ..وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجيل الجديد،وتُؤْثر هي – أو يُؤْثر لها المجتمـــع – أن تكـــون مضيفة في فندق أو سفينة أو طائرة ! ..حين تنفق طاقتها في " الإنتاج المـــادي " و " صـــناعة الأدوات " ولا تنفقها في " صناعة الإنسانية " ! لأن الإنتاج المادي يومئذ أغلى وأعز وأكـــرم

من " الإنتاج الإنساني "،عندئذ يكون هنا هو " التخلف الحضاري " بالقياس الإنساني ..أو تكون هي " الجاهلية " بالمصطلح الإسلامي !

وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع ..متخلف أم متحضر،جاهلي أم إسلامي ! ..

والمجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية في هذه العلاقة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة،مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي والعلمي ! إن هذا المقياس لا يخطئ في قياس مدى التقدم " الإنساني " ..

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفموم " الأخلاقي " ؛بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز " الإنساني " عن الطابع " الحيواني " ! ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية – ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة – رذيلة أخلاقية ..إن المفهوم الأخلاقي يكاد ينحصر في المعاملات الاقتصادية – والسياسية أحياناً في حدود " مصلحة الدولة " – ففضيحة كريستين كيلر وبروفيمو الوزير الإنجليزي – مثلاً – لم تكن في عرف المجتمع الإنجليزي فضيحة بسبب جانبها الجنسي ..إنما كانت فضيحة لأن كريستين كيلر كانت صديقة كذلك للملحق البحري الروسي .ومن هنا يكون هناك خطر على أسرار الدولة في علاقة الوزير بهذه الفتاة ! وكذلك لأنه افتضح كذبه على البرلمان الإنجليزي ! والفضائح المماثلة في مجلس الشيوخ الأمريكي،وفضائح الجواسيس والموظفين الإنجليز والأمريكان الذين هربوا إلى روسيا .إنها ليست فضائح بسبب شذوذهم الجنسي ! ولكن بسبب الخطر على أسرار الدولة !

والكُتَّاب والصحفيون والروائيون في المجتمعات الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات :إن الاتصالات (الحرة) ليست رذائل أخلاقية .الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته أو تخذع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود،بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدت ! والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة ! ..عشرات من القصص هذا محورها ! ومئات التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتورية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها ..

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة ..غير متحضرة ..من وجهة نظر " الإنسان " وبمقيـــاس خط التقدم " الإنساني " ..

إن خط التقدم الإنساني يسير في اتجاه " الضبط " للنزوات الحيوانية،وحصـــرها في نطـــاق " الأسرة " على أساس " الواجب " لتؤدي بذلك " وظيفة إنسانية " ليست اللذة غايتـــها،وإنما هي إعداد جيل إنساني يخلف الجيل الحاضر في ميراث الحضارة " الإنسانية " التي يميزها بـــروز الخصائص الإنسانية ..ولا يمكن إعداد جيل يترقى في خصائص الإنسان،ويبتعد عن خصائص الحيوان،إلا في محضن أسرة محوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفي،وقائمة علـــى أســـاس الواجب الذي لا يتأرجح مع الانفعالات الطارئة .وفي المجتمع الذي تنشئ تلك التوجيهـــات والإيحاءات الخبيثة المسمومة،والذي ينحسر فيه المفهوم الأخلاقي،فيتخلـــى عـــن كـــل آداب الجنس،لا يمكن أن يقوم ذلك المحضن الإنساني من أجل ذلك كله تكون القـــيم والأخـــلاق والإيحاءات والضمانات الإسلامية هي اللائقة بالإنسان .ويكون " الإسلام هـــو الحضـــارة " ويكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر ..بذلك المقياس الثابت الذي لا يتميـــع أو لا " يتطور " .

وأخيراً فإنه حين يقوم " الإنسان " بالخلافة عن " الله " في أرضه على وجهها الصحيح :بـــأن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره،وأن يحقق منهج الله وحده ويـــرفض الاعتـــراف بشرعية منهج غيره،وأن يُحَكِّم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكـــر تحكـــيم شـــريعة سواها،وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة .ثم بـــأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله في هذا الكون المادي،ويستخدمها في ترقية الحياة،وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها،وجعل تلك النواميس الكونية أختامها،ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذي يلزم لـــه في الخلافة ..أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه،ويصبح وهـــو يفجـــر ينابيع الرزق،ويصنع المادة الخامة،ويقيم الصناعات المتنوعة،ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله ..حين يصبح وهو يصنع هذا كله " ربانيـــاً " يقوم بالخلافة عن الله على هذا النحو – عبادة الله .يومئذ يكـــون هـــذا الإنســـان كامـــل

الحضارة،ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة ..فأما الإبداع المادي – وحده – فلا يسمى في الإسلام حضارة ..فقد يكون وتكون معه الجاهلية ..وقد ذكر الله من هذا الإبداع المـــادي في معرض وصف الجاهلية نماذج :{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ،وَتَتَّخِذُونَ مَصَـــانِعَ لَعَلَّكُـــمْ تَخْلُدُونَ،وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ،فَاتَّقُوا اللَّـــهَ وَأَطِيعُونِ،وَاتَّقُـــوا الَّـــذِي أَمَـــدَّكُمْ بِمَـــا تَعْلَمُونَ،أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ،وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ،إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَـــذَابَ يَـــوْمٍ عَظِـــيمٍ } .[الشعراء :١٢٨ – ١٣٥] .

{ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ،فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ،وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ،وَتَنْحِتُونَ مِـــنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ،فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ،وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ،الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ } .[الشعراء :١٤٦ – ١٥٢] .

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَـــذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ،فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ...[الأنعـــام :٤٤ – ٤٥] { حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَـــادِرُونَ عَلَيْهَـــا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ } .[يونس :٢٤] .

ولكن الإسلام – كما أسلفنا – لا يحتقر المادة،ولا يحتقرالإبداع المادي،إنما هو يجعل هذا اللون من التقدم – في ظل منهج الله – نعمة من نعم الله على عباده،يبشرهم به جزاء على طاعته :{ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً،يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً،وَيُمْدِدْكُمْ بِـــأَمْوَالٍ وَبَـــنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً } ...[نوح :١٠ – ١٢] .

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِـــنْ كَـــذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } ...[الأعراف :٩٦] .

المهم هو القاعدة التي يقوم عليها التقدم الصناعي،والقيم التي تسود المجتمع،والتي يتـــألف مـــن مجموعها خصائص الحضارة " الإنسانية "

وبعد ..فإن قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي،وطبيعة تكوينه العضوي،تجعلان منه مجتمعاً فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضـــوي

..المجتمع الإسلامي وليد الحركة،والحركة فيه مستمرة،وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم،ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم .

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي،ومن خارج المحيط البشري ..إنها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر،تنشئ لهم تصوراً خاصاً للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات،وتحدد لهم منهجاً للعمل يترجم هذا التصور ..الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة الكون ..إنها – كما قلنا – آتية لهم من خارج النطاق الأرضي،ومن خارج المحيط البشري ..وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه .إنه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الإنسان وعن محيط الكون المادي .

وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه،ودون أن يكون للإنسان يد فيه – في ابتداء الأمر – تبدأ أولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الإسلامي،ويبدأ معها عمل " الإنسان " أيضاً .إنسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبي،الجارية بقدر الله وحده .وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكماً) ..إن الإنسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه ..إنه سينطلق بها ..هذه طبيعتها ..طبيعة الحركة الحية ..إن القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزه حتماً ! ..إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدماً .

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر،فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم :أنتم الآن مجتمع،مجتمع إسلامي مستقل،منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة،ولا تسود فيه قيمها الأساسية – القيم التي أسلفنا الإشارة إليها – وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وُجِدَ (فعلاً) !

والثلاثة يصبحون عشرة،والعشرة يصبحون مائة،والمائة يصبحون ألفاً،والألف يصبحون إثني عشر ألفاً ..ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي !

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره،وانفصل بقيمه واعتباراته،وانفصل بوجوده وكينونته،عن المجتمع الجاهلي - الذي أخذ منه أفراده - وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع،وأعطته وزنه ومكانه في هذا المجتمع - حسب الميزان والاعتبار الإسلامي - ويكون وزنه هذا متعرفاً له به من المجمتع دون أن يزكي نفسه أو يعلن عنه بل إن عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليوراي نفسه عن الأنظار المتطلعة إليه في البيئة !

ولكن " الحركة " التي هي طابع العقيدة الإسلامية،وطابع هذا المجتمع الذي انبثق منها،لا تدع أحداً يتوارى ! إن كل فرد من أفراد هذا المجتمع لا بد أن يتحرك ! الحركة في عقيدته،والحركة في دمه،والحركة في مجتمعه،وفي تكوين هذا المجتمع العضوي ..إن الجاهلية من حوله،وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله،والمعركة مستمرة،والجهاد ماض إلى يوم القيامة .على إيقاعات الحركة،وفي أثناء الحركة،يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع،وتتحدد وظيفته،ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه .

هذه النشأة،وهذا التكوين،خاصيتان من خصائص المجتمع الإسلامي تُميزانه،تُميزان وجوده وتركيبه،وتُميزان طابعه وشكله،وتُميزان نظامه والإجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً،وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة،لا تعالج بمفهومات اجتماعية أجنبية عنها،ولا تدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها،ولا تنفذ بإجراءات مستمدة من نظام آخر !

إن المجتمع الإسلامي - كما يبدو من تعرفينا المستقل للحضارة - ليس مجرد صورة تاريخية،يبحث عنها في ذكريات الماضي،إنما هو طلبة الحاضر وأمل المستقبل .إنه هدف يمكن أن تستشرفه البشرية كلها اليوم وغداً،لترتفع به من وهدة الجاهلية التي تتردى فيها،سواء في هذه الجاهلية الأمم المتقدمة صناعياً واقتصادياً والأمم المتخلفة أيضاً .

إن تلك القيم التي أشرنا إليها إجمالاً هي قيم إنسانية، لم تبلغها الإنسانية إلا في فترة " الحضارة الإسلامية " .(ويجب أن ننبه إلى ما نعنيه بمصطلح " الحضارة الإسلامية " ..إنها الحضارة التي

توافرت فيها تلك القيم،وليست هي كل تقدم صناعي أو اقتصادي أو علمي مع تخلف القـــيم عنها)

وهذه القيم ليست " مثالية خيالية " إنما هي قيم واقعية عملية،يمكن تحقيقها بالجهد البشري – في ظل المفهومات الإسلامية الصحيحة –،يمكن تحقيقها في كل بيئة بغض النظر عن نوع الحياة السائدة فيها،وعن تقدمها الصناعي والاقتصادي والعلمي ..فهي لا تعارض – بـــل تشـــجع بالمنطق العقدي ذاته – التقدم في كافة حقول الخلافة،ولكنها في الوقت ذاته لا تقف مكتوفـــة اليدين في البلاد التي لم تتقدم في هذه الحقول بعد .إن الحضارة يمكن أن تقوم في كل مكـــان وفي كل بيئة ..تقوم بهذه القيم .أما أشكالها المادية التي تتخذها فلا حد لها،لأنها في كل بيئـــة تستخدم المقدرات الموجودة بها فعلاً وتنميها

المجتمع الإسلامي إذن – من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه – لـــيس صـــورة تاريخية ثابتة،لكن وجوده وحضارته يرتكنان إلى قيم تاريخية ثابتة ..وحين نقول :" تاريخية " لا نعني إلا أن هذه القيم قد عرفت في تاريخ معين ..وإلا فهي ليست من صنع التاريخ،ولا علاقة لها بالزمن في طبيعتها ..إنها حقيقة جاءت إلى البشرية من مصدر رباني ..مـــن وراء الواقـــع البشري .ومن وراء الوجود المادي أيضاً .

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبـــها المـــادي والتشـــكيلي،ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة،لأنها هي مقومات هذه الحضارة :(العبوديـــة لله وحـــده .والتجمع على آصرة العقيدة فيه .واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة .وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته ..وحرمة الأسرة .والخلافة في الأرض علـــى عهـــد الله وشرطه ..وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة) ..

إن " أشكال " الحضارة الإسلامية التي تقوم على هذه الأسس الثابتـــة،تتأثر بدرجـــة التقـــدم الصناعي والاقتصادي والعلمي،لأنها تستخدم الموجود منها فعلاً في كل بيئة ..ومن ثَمَّ لا بد أن تختلف أشكالها ..لا بد أن تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمستويات في الإطار الإسلامي،والتكيف بالقيم والمقومات الإسلامية ..وهـــذه المرونـــة – في الأشـــكال

الخارجية للحضارة – ليست مفروضة على العقيدة الإسلامية التي تنبثق منها تلك الحضارة إنما هي من طبيعتها .ولكن المرونة ليست هي التميع ..والفرق بينهما بعيد جداً !

لقد كان الإسلام ينشئ الحضارة في أواسط أفريقية بين العراة ..لأنه بمجرد وجـوده هنـاك تكتسي الأجسام العارية ويدخل الناس في حضارة اللباس التي يتضمنها التوجيـه الإسـلامي المباشر،ويبدأ الناس في الخروج كذلك من الخمول البليد إلى نشاط العمل الموجـه لاسـتغلال كنوز الكون المادي،ويخرجون كذلك من طور القبيلة – أو العشيرة – إلى طور الأمة،وينتقلون من عبادة الطوطم المنعزلة إلى عبادة رب العالمين ..فما هي الحضارة إن لم تكن هـي هـذا ؟ ..إنها حضارة هذه البيئة،التي تعتمد على إمكانياتها القائمة فعلاً ..فأما حين يدخل الإسلام في بيئة أخرى فإنه ينشئ – بقيمه الثابتة – شكلاً آخر من أشـكال الحضـارة يسـتخدم فيـه موجودات هذه البيئة وإمكانياتها الفعلية وينميها .

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة – بطريقة الإسلام ومنهجه – على درجة معينة مـن التقـدم الصناعي والاقتصادي والعلمي .وإنْ كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم – عنـد وجوده – وتدفعه إلى الأمام دفعاً،وترفع أهدافه .كما إنها تنشئه إنشاءً حين لا يكون،وتكفـل نموه واطراده ..ولكنها تظل في كل حال قائمة على أصـولها المسـتقلة .ويبقـى للمجتمـع الإسلامي طابعه الخاص،وتركيبه العضوي،الناشئان عن نقطة انطلاقه الأولى،التي يتميز بها مـن كل مجتمعات الجاهلية ..

{ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً } ...[البقرة :١٣٨] .."[٥٢٠]

ولا بد للمسلم أن يعلم أن إقامة الدولة الإسلامية وبناء الحضارة الحقة لا يتحقق إلا بالقوة التي تحمي الحق وتدافع عنه،وهي سنة لا تتبدل ولا تتغير،كما قال تعالى:{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّـهِ النَّـاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٢٥١]

وَلُوْلا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بَأسَ أَهْلِ البَغْيِ وَالجَـوْرِ وَالآثَامِ،بِأهْـلِ الصَّـلاَحِ وَالخَيْرِ،لغَلَـبَ أَهْـلَ الفَسَادِ،وَبَغَوْا عَلَى الصَّالِحينَ،وَصَارَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فَفَسَدَتِ الأرْضُ،فَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ أنْ أذنَ

[٥٢٠] – معالم في الطريق بتحقيقي (ص:١٠٤) فما بعد

لِلْمُصْلِحِينَ بِقِتَالِ البُغَاةِ المُفْسِدِينَ.وَاللهُ يَمُنُّ عَلَى عِبَادِهِ وَيَرْحَمُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ،وَلَـهُ الحِكْمَـةُ وَالحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.[٥٢١]

والآية تدل على سنة التدافع بين الحق والباطل ولولا أن الله تعالى يدفع بالمجاهدين في سـبيله الكفار وغيرهم من المفسدين لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وتحكيم كفـرهم فيهـا كالديمقراطية أو غيرها،وفتنة المسلمين وصدهم عن دينهم.

ومن الإفساد انتهاك الأعراض،وإزهاق الأنفس البريئة،والتجبر والاستطالة على المسلمين،ونهب خيراتهم ونفطهم.

ومن الإفساد ما ترتكبه الولايات المتحدة من جرائم،وإهلاك للحرث والنسل بأسلحة الـدمار الشامل،وهو ما تفعله بأسلحتها الكيماوية وغيرها في العراق[٥٢٢]،وقد قال الله تعـالى:{وَمِـنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) } [البقرة:].

وَهُنَاكَ أُنَاسٌ مُنَـافِقُونَ تُعْجِـبُ المَـرْءَ حَـلاَوَةُ أَلْسِـنَتِهِمْ،وَيَتَظَاهَرُونَ بِـالوَرَعِ وَطِيـبِ السَّرِيرَةِ،وَيُشْهِدُونَ اللهَ عَلَى صِدْقِ طَوِيَّتِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ،وَقُلُوبُهُمْ فِي الحَقِيقَـةِ هِـيَ أَمَـرُّ مِـنَ الصَّبْرِ،فَهُمْ يَقُولُونَ حَسَناً،وَيَفْعَلُونَ سَيِّئاً،وَهُمْ شَدِيدُو الجَدَلِ،لا يُعْجِزُهُمْ أَنْ يَغُشُّوا النَّاسَ بِمَـا يَظْهَرُ عَلَيهِمْ مِنَ المَيْلِ إلى الإِصْلاَحِ.

فَإِذَا انْصَرَفَ الوَاحِدُ مِنْ هؤُلاءِ إلى العَمَلِ،أَوْ إذا تَوَلَّى وَلاَيَةً يَكُونُ لَهُ فِيهَا سُلْطَانٌ،اتَّجَهَ إِلَـى الشَّرِّ وَالفَسَادِ فِي قَسْوَةٍ وَجَفْوَةٍ،تَتَمَثَّلُ فِي إِهْلاَكِ النَّبَاتِ وَالحَرْثِ،وَإِتْلافِ النَّسْلِ الذِي يُمَثِّـلُ امْتِدَادَ الحَيَاةِ،وَاللهُ تَعَالَى يَكْرَهُ الفَسَادَ وَالمُفْسِدِينَ.[٥٢٣]

---

[٥٢١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٥٢٢] - قلت:والنظام النصيري الفرعوني في سورية فعل بالشعب المسلم الذي طالب بحقوقه أسوأ مما فعل اليهود والأمريكان والروس.

[٥٢٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١١،بترقيم الشاملة آليا)

ومن الإفساد هدم المساجد،وإلحاق الخراب والدمار الهائل في منشئات ومساكن المسلمين،وقد قال الله تعالى:{ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج:٤٠]

وهذا يدل على حكمة الجهاد،وأن المقصود منه إقامة دين الله،وذب الكفار المؤذين للمؤمنين،البادئين لهم بالاعتداء،عن ظلمهم واعتدائهم،والتمكن من عبادة الله،وإقامة الشرائع الظاهرة،ولهذا قال:{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين،{لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ} أي:لهدمت هذه المعابد الكبار،لطوائف أهل الكتاب،معابد اليهود والنصارى،والمساجد للمسلمين،{يُذْكَرَ فِيهَا} أي:في هذه المعابد {اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} تقام فيها الصلوات،وتتلى فيها كتب الله،ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر،فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض،لاستولى الكفار على المسلمين،فخربوا معابدهم،وفتنوهم عن دينهم،فدل هذا،أن الجهاد مشروع،لأجل دفع الصائل والمؤذي،ومقصود لغيره،ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله،وعمرت مساجدها،وأقيمت فيها شعائر الدين كلها،من فضائل المجاهدين وببركتهم،دفع الله عنها الكافرين،قال الله تعالى:{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}

فإن قلت:نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب،مع أنها كثير منها إمارة صغيرة،وحكومة غير منظمة،مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج،بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة،وأهلها آمنون مطمئنون،مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها،والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض،لهدمت هذه المعابد،ونحن لا نشاهد دفعا.

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال،داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها،فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها،وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها،وداخل في حكمها،تعتبره عضوا من أعضاء المملكة،وجزء من أجزاء الحكومة،سواء كانت تلك الأمة [ص:٥٤٠] مقتدرة بعددها أو عددها،أو مالها،أو عملها،أو خدمتها،فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب،الدينية والدنيوية،وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها،وتفقد بعض

أركانها،فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم،خصوصا المساجد،فإنها –ولله الحمد– في غاية الانتظام،حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة،نظرا لخواطر رعاياهم المسلمين،مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى،الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة،فتبقى الحكومة المسلمة،التي لا تقدر تدافع عن نفسها،سالمة من [كثير] ضررهم،لقيام الحسد عندهم،فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها،خوفا من احتمائها بالآخر،مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين،ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت –ولله الحمد– أسبابه [بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل]فنحمده ونسأله أن يتم نعمته،ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع:{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} أي:يقوم بنصر دينه،مخلصا له في ذلك،يقاتل في سبيله،لتكون كلمة الله هي العليا.{إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} أي:كامل القوة،عزيز لا يرام،قد قهر الخلائق،وأخذ بنواصيهم،فأبشروا،يا معشر المسلمين،فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم،وقوي عدد عدوكم وعدهم (٣) فإن ركنكم القوي العزيز،ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون،فاعملوا بالأسباب المأمور بها،ثم اطلبوا منه نصركم،فلا بد أن ينصركم.{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} وقوموا،أيها المسلمون،بحق الإيمان والعمل الصالح،فقد {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}[٥٢٤]

أي فليقاتل المؤمنون الكافرين،فلولا القتال وتسليط المؤمنين على المشركين فى كل عصر وزمان لهدّمت فى شريعة كل نبى معابد أمته،فهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود ومساجد المسلمين التي يذكرون فيها اسم الله كثيرا.

وفى هذا ترقّ وانتقال من الأقل إلى الأكثر حتى انتهى إلى المساجد وهى أكثر عمّارا وأكثر عبّادا وهم ذوو القصد الصحيح.

[٥٢٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٣٩)

والخلاصة- إنه لولا ما شرعه الله للأنبياء والمـؤمنين مـن قتـال الأعداء،وإقامـة حـدود الأديان،لاستولى أهل الشرك على مواضع العبادة وهدموها،وقد يكون المراد لولا هذا الـدفع لهدمت فى زمن موسى الكنائس،وفى زمن عيسى الصوامع والبيع،وفى زمن محمد ﷺ المساجد.
(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) أي وليعينن الله من يقاتل فى سبيله،لتكون كلمتـه العليـا،وتكون كلمة عدو دينه السفلى،ولقد أنجز الله وعده.وسلط المهاجرين والأنصار على صناديد قـريش وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم.
ونحو الآية قوله:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ.وَالَّذِينَ كَفَـرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ» .(إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) أي إن الله لقوى على نصر من جاهـد فى سبيله من أهل طاعته،منيع فى سلطانه،لا يقهره قاهر،ولا يغلبه غالب.ونحو الآية قوله:«كَتَـبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي،إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» وقوله:«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ.إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ.وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ» .[٥٢٥]
والصوامع أماكن العبادة المنعزلـة للرهبـان،والبيع للنصـارى عامـة وهـي أوسـع مـن الصوامع،والصلوات أماكن العبادة لليهود.والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.
وهي كلها معرضة للهدم – على قداستها وتخصيصها لعبادة الله – لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها،ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض.أي دفـع حمـاة العقيـدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها،ويعتدون على أهلها.فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عـن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول.ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عـدوان الباطل عليه،بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه.وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان."[٥٢٦]
وتأمل هذا التخريب والتدمير والإفساد في أفعال الغزاة الصليبيين من الأمريكان أو البريطانيين أو الروس أو غيرهم.

[٥٢٥] - تفسير المراغي (١٧/ ١١٩)
[٥٢٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٣٥)

وفي الآية أن أئمة الكفر المجرمين الذين يسعون إلى العلو في الأرض والإفساد فيها لن يوقـــف زحفهم ويصد عدوانهم،المهزومون القاعدون عن الجهاد،بل يدفعهم ويكف عدوانهم المجاهدون الصادقون،فإن أئمة الكفر لا تخيفهم وترهبهم إلا القوة التي تحول بينـــهم وبـــين مخططـــاتهم وأطماعهم،وهذا هو سبب بغضهم للجهـــاد في ســـبيل الله الـــذي أرق مضـــاجعهم،وأذل غرورهم،ونغص أمنهم وعيشهم،وأدخل في حياتهم الخوف والرعب والترقب،وكشف زيـــف قوتهم المدعاة.

وفي الآية أن الحياة سوف يشيع فيها الفساد والرذائل والسقوط الأخلاقي والتراجع الحضاري والهدم والتخريب والنهب إذا لم يصد المسلمون أعداءهم الصليبيين النهابين المعتدين وعملائهم عن بلاد المسلمين.

إن الأمة الإسلامية يجب أن تكون مجاهدة في سبيل الله وحينها يســتطيع الأمـــراء والعلمـــاء والخبراء والأطباء والمهندسون والصناع وغيرهم من أهـــل الاختصـــاص أن يقيمـــوا دولـــة الإسلام،ويشيدوا الحضارة الحقة المحمية بالقوة والجهاد من عدوان المفسدين الهدامين المخربين.

وأما إذا لم تتمسك الأمة بدينها،ولم تقم بفريضة الجهاد في سبيل الله،فقد تخلت عـــن شـــرط خيريتها على سائر الأمم،وتراجعت عن أسس حضارتها،ورضيت بالحياة الذليلـــة والتراجـــع الحضاري،وجعلت نفسها عرضة للنهب والعدوان،عَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّـــهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ،وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ،سَـــلَّطَ اللَّـــهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» أخرجه أبو داود[٥٢٧].

[٥٢٧] - سنن أبي داود (٣/ ٢٧٥)(٣٤٦٢) صحيح

العينة:عين التاجر يعين تعيينا وعينة،وذلك:إذا باع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم،ثم اشتراها منه بأقل من الثمن الذي باعها به،وقد كره العينة أكثر الفقهاء،فإن اشترى التاجر بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن أكثر مما اشتراه بها إلى أجل مسمى،ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن الذي اشتراها به،فهي أيضا عينة،وهي أهون من الأولى،وأكثر الفقهاء على إجازة العينة مع الكراهية من بعضهم لها،وجملة الأمر:أنها إذا تعرت من شرط يفسدها فهي جائزة،وإن اشتراها المتعين بشرط أن يبيعها من بائعها الأول،فالبيع فاسد عند الجميع،وسميت عينة ؛لحصول النقد لصاحب العينة ؛لأن اشتقاقها من العين،وهو النقد الحاضر.جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (١١/ ٧٦٥)

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»،فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ،وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ،وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:«حُبُّ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» أخرجه أبو داود[٥٢٨]

وفي رواية لأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ :سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِثَوْبَانَ :كَيْفَ أَنْتَ يَا ثَوْبَانُ،إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ ؟ قَالَ ثَوْبَانُ :بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ،أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا ؟ قَالَ :لاَ،بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ قَالُوا :وَمَا الْوَهَنُ ؟ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ :حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ.[٥٢٩]



[٥٢٨] - سنن أبي داود (٤/ ١١١)(٤٢٩٧) صحيح

[٥٢٩] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٣/ ٣٤٥)(٨٧١٣) ٨٦٩٨- صحيح لغيره

المبحث العاشر

الإمامة الكبرى

الإمامة واجبة على المسلمين،وهي ضرورة لقيام دينهم،وحكمه في الأرض،وإصـــلاح أمـــور دنياهم ومعاشهم،وقد قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَـــى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَـــى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيـــدُونَ أَنْ يَتَحَـــاكَمُوا إِلَـــى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْـــفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًـــا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَـــيْتَ وَيُسَـــلِّمُوا تَسْـــلِيمًا (٦٥) } [النساء]

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ قَالَ:" تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ الْأَرْضَ الْأَرْضَ إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ وَلَـــا إِمَـــارَةَ إِلَّـــا بِطَاعَةٍ،أَلَا فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى فِقْهٍ كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْـــهٍ كَـــانَ ذَلِكَ هَلَاكًا لَهُ وَلِمَنِ اتَّبَعَهُ " رواه الدارمي[٥٣٠]

[٥٣٠] - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٦٣)(٣٢٦) وسنن الدارمي (١/ ٣١٥)(٢٥٧) فيه ضعف

وقال الماوردي رحمه الله:" مَوْضُوعَةٌ لِخِلَافَةِ النُّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا،وَعَقْدُهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا فِي الْأُمَّةِ وَاجِبٌ بِالْإِجْمَاعِ وَإِنْ شَذَّ عَنْهُمْ الْأَصَمُّ."[٥٣١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" يجبُ أن يعرف أن وِلاَيَةَ أَمْرِ النَّاسِ مِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الدِّينِ،بَل لاَ قِيَامَ للدِّينِ إلاَّ بِهَا،لأنَّ بَنِي آدَمَ لاَ تَتِمُّ مَصْلَحَتُهُمْ إلاَّ بِالاجْتِمَاعِ،لِحَاجَةِ بَعْضِهِمْ إلَى بَعْضٍ،وَلاَ بُدَّ لَهُمْ عِنْدَ الاجْتِمَاعِ مِنْ رَأْسٍ،حَتَّى قَال النَّبِيُّ - ﷺ -:«إذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ».رَوَاهُ أَبُو دَاوُد،مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ،وَأَبِي هُرَيْرَةَ .[٥٣٢]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَالَ:" لَا يَحِلُّ أَنْ يَنْكِحَ الْمَرْأَةَ بِطَلَاقِ أُخْرَى،وَلَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَبِيعَ عَلَى بَيْعِ صَاحِبِهِ حَتَّى يَذَرَهُ،وَلَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلَاةٍ إِلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ،وَلَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلَاةٍ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا "[٥٣٣]

فَأَوْجَبَ - ﷺ - تَأْمِيرَ الْوَاحِدِ فِي الاجْتِمَاعِ القليل العارض في السفر،تنبيهاً بذلك عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الاجْتِمَاعِ.وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِقُوَّةٍ وَإِمَارَةٍ.وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا أَوْجَبَهُ مِنَ الْجِهَادِ وَالْعَدْلِ وَإِقَامَةِ الْحَجِّ وَالْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ.وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَالْإِمَارَةِ؛وَلِهَذَا رُوِيَ عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ،قَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:«إِنَّ السُّلْطَانَ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ،يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ،فَإِذَا عَدَلَ كَانَ لَهُ الْأَجْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْرُ،وَإِذَا جَارَ كَانَ عَلَيْهِ الْإِصْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْرُ»[٥٣٤]

وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ:«السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ،فَمَنْ أَكْرَمَهُ أَكْرَمَ اللَّهَ،وَمَنْ أَهَانَهُ أَهَانَهُ اللَّهُ»[٥٣٥]

---

[٥٣١] - الأحكام السلطانية للماوردي (ص:١٥) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ٢٧١) والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص:٧) والخلافة (ص:١٧) والشورى في الشريعة الإسلامية (ص:١١٢)

[٥٣٢] - سنن أبي داود (٣/ ٣٦) (٢٦٠٨ و٢٦٠٩) صحيح

[٥٣٣] - مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٢٢٧) (٦٦٤٧) حسن

[٥٣٤] - الأموال لابن زنجويه (١/ ٧٧) (٣٢) صحيح مرسل - زيادة مفصلة مني،وانظر شرحه في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤١٩)

[٥٣٥] - السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٤٩٢) (١٠٢٤) وشعب الإيمان (٩/ ٤٧٨) (٦٩٨٨) حسن

وقيل:" إِنَّ السُّلْطَانَ ظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ،يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ،فَإِذَا عَدَلَ كَانَ لَهُ الْأَجْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْرُ،وَإِذَا جَارَ كَانَ عَلَيْهِ الْإِصْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْرُ،وَإِذَا جَارَتِ الْوُلَاةُ قَحِطَتِ السَّمَاءُ،وَإِذَا مُنِعَتِ الزَّكَاةُ هَلَكَتِ الْمَوَاشِي،وَإِذَا ظَهَرَ الزِّنَا ظَهَرَ الْفَقْرُ وَالْمَسْكَنَةُ،وَإِذَا خُفِرَتِ الذِّمَّةُ أُدِيلَ الْكُفَّارُ "[٥٣٦]

وَيُقَالُ " سِتُّونَ سَنَةً مِنْ إِمَامٍ جَائِرٍ أَصْلَحُ مِنْ لَيْلَةٍ واحدة بِلَا سُلْطَانٍ "[٥٣٧].وَالتَّجْرِبَةُ تُبَيِّنُ ذَلِكَ.

قلت:لكن ذلك في الإمام الذي انتخبه المسلمون ويحكم بما أنزل الله،ويقيم الحدود وينصف المظلوم من الظالم،ويقاتل أعداء الإسلام،فلو قصَّر في بعض الأمور تغفر أمام عظائم الأمور التي يطبقها من خلال شرع الله تعالى،وأما الحاكم الذي جاء بالحديد والنار ولا يحكم بما أنزل ولا يقيم الحدود،ولا يجاهد في سبيل الله،وينهب أموال الأمة،ويوالي أعداء الإسلام فهو كافر مرتد لا تحل ولايته ولا طاعته،ويجب الخروج عليه بالإجماع – انظر كتابي:الأحكام الشرعية للثورات العربية ط١ (ص:٧٦) المبحث الحادي عشر أنواع الخروج على الحاكم

[٥٣٦] – شعب الإيمان (٩/ ٤٧٦) (٦٩٨٤) ضعيف واه،ولكن معناه صحيح ...

وَعَن عَليّ رَضِي الله تَعَالَى عَنهُ:إِمَام عَادل خير من مطر وابل.وَذَلِكَ لِأَن النَّاس على دين الْملك،فَإِذا عدل لَزِمت الرّعية الْعدْل وقوانينه،فانتعش الْحق،وتناصف النَّاس،وَذهب الْجور،فترسل السَّمَاء بركاهما،وَتخرج الأَرْض نباها،وتكثر الْخيرَات وتنمو التِّجَارَات.تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام (ص:٥٠)

وَعَن أزدشير أَنه قَالَ لِابْنِهِ:يَا بني إِن الْملك وَالدّين أَخَوان لَا غنى لأَحَدهمَا عَن الآخر فالدين أس وَالْملك حارس وَمَا لم يكن لَهُ أسس فمهدوم وَمَا لم يكن لَهُ حارس فضائع.

وَعَن كَعْب مثل الْإِسْلَام وَالسُّلْطَان وَالنَّاس مثل الْفسْطَاط والعمود والأوتاد والأطناب،فالفسطاط الْإِسْلَام والعمود السُّلْطَان والأطناب والأوتاد وَالنَّاس لَا يصلح بَعضهم إِلَّا بِبَعْض "بدائع السلك في طبائع الملك (١/ ١٠٦) وتهذيب الرياسة وترتيب السياسة (ص:٩)

[٥٣٧] – قلت:هذا الكلام لا يستقيم إلا إذا كان الإمام يطبق شرع الله تعالى،ولكنه قصر في بعض الجوانب القليلة،فعَنْ يَحْيَى بْنِ الْحُصَيْنِ،عَنْ أُمِّهِ قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ،اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا،وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "مسند أحمد ط الرسالة (٢٧/ ٢٠٩) (١٦٦٤٩) صحيح

والذي لا يحكم بما أنزل الله من الحكام ليس مسلماً أصلاً {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:بَلَغَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«مَا أَحَدٌ أَقْرَبُ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ،بَعْدَ مَلَكٍ مُصْطَفًى أَوْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ مِنْ إِمَامٍ عَدْلٍ،وَلَا أَبْعَدُ مِنَ اللَّهِ مَجْلِسًا مِنْ إِمَامٍ جَائِرٍ يَأْخُذُ بِأَخِيهِ» الأموال لابن زنجويه (١/ ٦٩) (١٧) صحيح مرسل

بل يجب علينا جهادهم بكل ما نستطيع،عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا

وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ - كَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا- يَقُولُونَ:لَوْ كَانَ لَنَا دَعْوَةٌ مُجَابَةٌ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ.[٥٣٨]

شروط الخليفة (الإمامة الكبرى)

الشرط الأول:أن يكون عالما مجتهدا

أن يكون عالما مجتهدا يستطيع الاجتهاد فيما يعرض عليه من شؤون البلاد،ويسوس الدولة سياسة شرعية،فكما أن العلماء ورثة الأنبياء،فكذلك الحكام يسيرون في سياسة الدولة بسيرة النبي ﷺ وهديه،ولا يمكن لمن يجهل أحكام الشريعة أن يسوس البلاد والعباد سياسة شرعية،ولهذا فالواجب أن يكون الإمام عالما مجتهدا يقود الناس على علم وبصيرة،وقد قال تعالى:{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٤٧]
كَانَ مُلْكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سِبْطِ يَهُوذا وَلَمَّا قَالَ لَهُم النَّبِيُّ إنّ المَلِكَ سَيَكُونُ طَالُوتَ،وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ يَهُوذا،احْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ،وَقَالُوا كَيْفَ يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَينا وَهُوَ لَيْسَ مِنْ بَيْتِ المَلِك،وَلَيْسَ مِنَ الأغْنِياءِ الذينَ يَسْتَطِيعُونَ تَحَمُّلَ نَفَقَاتِ المُلْك؟ فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ:إنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ عَلَيْكُمْ،وَاللهُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِه،وَزَادَهُ عِلْماً وَقُوَّةً فِي بَدَنِه،وَجَعَلَهُ أَصْبَرَ مِنْكُمْ عَلَى الحُرُوب،وَاللهُ هُوَ الحَاكِمُ الذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ،وَلا يُسْأل عَمَّا يَفْعَلُ،وَهُوَ وَاسِعُ العِلْمِ وَالفُضْلِ،يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ،وَهُوَ عَليمٌ بِمنْ يَسْتَحِقُّ المُلْكَ مِمَّنْ لاَ يَسْتَحِقُّهُ.[٥٣٩]

يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» صحيح مسلم (١/ ٦٩) ٨٠ - (٥٠)

[٥٣٨] - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٤١) (١١١٠) والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية -ت علي نايف الشحود -الْفَصْلُ الثَّامِنُ -وُجُوبُ اتِّخَاذِ الْإِمَارَةِ

[٥٣٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٤،بترقيم الشاملة آليا)

وفي كتاب السنة للخلال عَنْ إِبْرَاهِيمَ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:" مَنْ أَسْتَخْلِفُ؟ لَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ،فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ؟ فَقَالَ:قَاتَلَكَ اللَّهُ،وَاللَّهِ مَا أَرَدْتَ بِهَا اللَّهَ،أَسْتَخْلِفُ رَجُلًا لَمْ يُحْسِنْ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ "[٥٤٠]

فتأمل قول عمر في ابنه عبد الله رضي الله عنهما وهو من كبار علماء الصحابة رضي الله عنهم،وعَنِ الأَحْنَفِ،قَالَ :قَالَ عُمَرُ :تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا.أخرجه ابن أبي شيبة وغيره وصححه الحافظ ابن حجر،[٥٤١] وقال البخاري قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:«وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا وَقَدْ تَعَلَّمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِبَرِ سِنِّهِمْ»[٥٤٢] وهذا الأثر يدل على أهمية التعلم قبل الولاية،حتى يسوس الأمير الرعية على بصيرة وعلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

الشرط الثاني:أن يكون الإمام قويا في الحق

أن يكون الإمام قويا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم،وخبيرا مجربا ذا رأي وحكمة،وحسن سياسة وتصرف في تجييش الجيوش،وخوض الحروب،وحماية البلاد،وردع أهل الفساد والظلم في الأرض،والانتصار للمظلومين،وأن يكون صارما حازما،لا تأخذه رأفة في تنفيذ القصاص والحدود وسائر العقوبات،وقد قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ } [البقرة:٢٤٧]

إنَ اللهَ اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ عَلَيْكُمْ،وَاللهُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِهِ،وَزَادَهُ عِلْماً وَقُوَّةً فِي بَدَنِه،وَجَعَلَهُ أصْبَرَ مِنْكُمْ عَلَى الحُرُوبِ،وَاللهُ هُوَ الحَاكِمُ الذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ،وَلا يُسْأل عَمَّا يَفْعَلُ،وَهُوَ وَاسِعُ العِلْمِ وَالفُضْلِ،يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ،وَهُوَ عَليمٌ بِمنْ يَسْتَحِقُّ المُلْكَ مِمَّنْ لاَ يَسْتَحِقُّهُ.[٥٤٣]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ} أَيِ:اخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ.يَقُولُ:لَسْتُ أَنَا الَّذِي عَيَّنْتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي بَلِ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِ لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ

---

[٥٤٠] - السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ٢٧٩)(٣٤٤) فيه انقطاع

[٥٤١] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٣٣٦)(٢٦٦٤٠) صحيح

[٥٤٢] - صحيح البخاري (١/ ٢٥)

[ش (تسودوا) تصبحوا سادة ورؤساء لأنهم ربما استنكفوا عن الفقه والعلم عندئذ]

يَعْنِي قَبْلَ أَنْ تَجْلِسُوا لِلنَّاسِ،فَتُسْأَلُوا -الزهد لوكيع (ص:٣٢٨)

[٥٤٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٤،بترقيم الشاملة آليا)

{وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} أَيْ:وَهُوَ مَعَ هَذَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ،وَأَنْبَلُ وَأَشْكَلُ مِنْكُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَصَبْرًا فِي الْحَرْبِ وَمَعْرِفَةً بِهَا أَيْ:أَتَمُّ عِلْمًا وَقَامَةً مِنْكُمْ.وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ ذَا عِلْمٍ وَشَكْلٍ حَسَنٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي بَدَنِهِ وَنَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ:{وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ} أَيْ:هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعَلَ وَلَا يُسأل عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ لِعِلْمِهِ [وَحِكْمَتِهِ]وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ؛وَلِهَذَا قَالَ:{وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أَيْ:هُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُلْكَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ."[544]

وقال العلامة السعدي رحمه الله:"فأجابهم نبيهم:إن الله اختاره عليكم؛بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛وقوة الجسم،اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة،وحسن التدبير،وأن الملك ليس بكثرة المال؛ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم،فالله يؤتي ملكه من يشاء."[545]

لقد اصطفاه الله عليهم..«وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ» ثم إن هذا الذي اصطفاه عليهم قد زاده الله بسطة فى العلم والجسم،فإذا كان فيهم من يفضله فى المال،فهو يفضلهم فى كمال الجسم وتمام العقل،وذلك مما يكمل به الملك ويجمل به الملوك! جمال وروعة فى المظهر،وفى المخبر..معا..

«وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ» يصطفى من يشاء لما يشاء،وسع فضله كل شىء،وأحاط علمه بكل شىء،فلا معقّب لحكمه،ولا منازع له فى سلطانه.«فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً» ؟[546]

وقال تعال:{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } [البقرة:٦٣] عَنِ السُّدِّيِّ:" {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} [الأعراف:١٤٥] قَالَ:بِجَدٍّ وَاجْتِهَادٍ " أخرجه ابن جرير[547]

وقال تعالى:{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [القصص:٢٦]

---

٥٤٤ - تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٦٦٦)

٥٤٥ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٥٢)

٥٤٦ - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٣٠٧)

٥٤٧ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٠/ ٤٣٩) صحيح

إن موسى أولى من استؤجر،فإنه جمع القوة والأمانة،وخير أجير استؤجر،من جمعهما،أي:القوة والقدرة على ما استؤجر عليه،والأمانة فيه بعدم الخيانة،وهذان الوصفان،ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملا بإجارة أو غيرها.فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما،وأما باجتماعهما،فإن العمل يتم ويكمل،وإنما قالت ذلك،لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه،ما عرفت به قوته،وشاهدت من أمانته وديانته،وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما،وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى.[548]

هكذا تكشف لأبيها عن معدن الرجل الذي يستأجره،وأنه في الرجال يتزين بأجمل صفتين:القوة،والأمانة..وقد رأت قوته فيما كان منه من السقي لهما،كما رأت أمانته في غض بصره عنها،وقد جاءته وحدها تدعوه إلى أبيها.[549]

إنها وأختها تعانيان من رعي الغنم،ومن مزاحمة الرجال على الماء،ومن الاحتكاك الذي لا بد منه للمرأة التي تزاول أعمال الرجال.وهي تتأذى وأختها من هذا كله وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى.والمرأة العفيفة الروح،النظيفة القلب،السليمة الفطرة،لا تستريح لمزاحمة الرجال،ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة.

وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوى أمين.رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقي لهما.وهو غريب.والغريب ضعيف مهما اشتد.ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته.فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل.وهو قوي على العمل،أمين على المال.فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه.وهي لا تتلعثم في هذه الإشارة ولا تضطرب،ولا تخشى سوء الظن والتهمة.فهي بريئة النفس،نظيفة الحس ومن ثم لا تخشى شيئا،ولا تتمم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها.[550]

---

[548] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦١٤)

[549] - التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٣٣٧)

[550] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٤٣٣)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:" أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ:الْعَزِيزُ حِينَ تَفَرَّسَ فِي يُوسُفَ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ:{أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} [يوسف:٢١] وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ تَفَرَّسَ فِي عُمَرَ.وَالَّتِي قَالَتْ:{يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص:٢٦] "[٥٥١]

وقال تعالى:{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف:١٤٥]،أي بجد واجتهاد،وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:" {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} [الأعراف:١٤٥]،قَالَ:بِجَدٍّ وَحَزْمٍ " أخرجه ابن أبي حاتم [٥٥٢]

وعن قتادة في قوله تعالى:{فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} قال:"إن الله تعالى يحب أن يؤخذ أمره بقوة وجد " أخرجه عبد بن حميد[٥٥٣]

وقال تعالى:{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } [مريم:١٢]

يَا يَحْيَى تَعَلَّمِ التَّوْرَاةَ (خُذِ الكِتَابَ) وَاعْمَلْ بِمَا فِيهَا بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ.وَآتَاهُ اللهُ الفَهْمَ وَالعِلْمَ وَالْجِدَّ وَالعَزْمَ،وَالإِقْبَالَ عَلَى الخَيْرِ،وَالاجْتِهَادِ فِيهِ وَهُوَ حَدَثٌ صَغِيرُ السِّنِّ.[٥٥٤]

دل الكلام السابق على ولادة يحيى،وشبابه،وتربيته،فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة،أي:بجد واجتهاد،وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه،وفهم معانيه،والعمل بأوامره ونواهيه،هذا تمام أخذ الكتاب بقوة،فامتثل أمر ربه،وأقبل على الكتاب،فحفظه وفهمه،وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة،ما لا يوجد في غيره ولهذا قال:{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} أي:معرفة أحكام الله والحكم بها،وهو في حال صغره وصباه.[٥٥٥]

---

[٥٥١] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٣/ ٦٣) صحيح

[٥٥٢] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٥/ ١٥٦٥) فيه ضعف

[٥٥٣] - الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/ ٥٦١)

[٥٥٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٦٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٥٥٥] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٩٠)

والكتاب هو التوراة كتاب بني إسرائيل من بعد موسى،وعليه كان يقوم أنبياؤهم يعلمون بـه ويحكمون.وقد ورث يحيى أباه زكريا،ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم،لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة ..[٥٥٦]

فالأمير ينبغي أن يكون قويا بلا عنف،وأن يكون لينا بلا ضعف،وقال تعالى:{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ } [الأحقاف:٣٥]

فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلى مَا تُلاقِيه مِنْ تَكْذِيب قَومِكَ لَكَ،كَمَا صَبَرَ أَصْحَابُ القُوَّة والثَّبَات،مِنَ الرُّسُلِ الذينَ سَبَقُوكَ،عَلَى تَكْذِيبِ أَقْوامِهِمْ لَهُمْ حِينَما أَبْلَغُوهُمْ دَعْوَةَ اللهِ إلى الإِيمَانِ بِهِ.وَلا تَسْتَعْجِلْ بِسُؤَالِ رَبِّكَ أَنْ يُنزلَ بِهِم العَذَابَ،فَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ لا مَحَالَةَ.وَأَنَّهُمْ حِينَما يَنْزِلُ بِهِم العَذَابُ يَومَ القِيَامَةَ يَرَوْنَ أَنَّ مُدَّةَ لَبثِهِمْ فِي الدُّنيا (أَوْ فِي قُبُورِهِمْ) كَانَتْ قَصِيرةً،حَتَّى لَيَحْسَبُوها سَاعَةً مِنْ نَهارٍ.

وَهذا الذِي وُعِظْتُم بِه لكَافٍ فِي المَوعِظَة،وَلاَ يَهلِكُ بالعَذَابِ إلا الكَافِرُونَ الخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَأَمْرِهِ،لأَنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ إِلا مَنْ يَسْتَحِقُّ العَذَابَ.[٥٥٧]

أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم،وتم يقينهم،فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبرا لم يصبره نبي قبله حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة،وقاموا جميعا بصده عن الدعوة إلى الله وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة،وهو ﷺ لم يزل صادعا بأمر الله مقيما على جهاد أعداء الله صابرا على ما يناله من الأذى،حتى مكن الله له في الأرض وأظهر دينه على سائر الأديان وأمته على الأمم،فﷺ تسليما.وقوله:{وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} أي:لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب فإن هذا من جهلهم وحمقهم فلا يستخفنك بجهلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك فإن كل

---

[٥٥٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٠٢)

[٥٥٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

ما هو آت قريب،و {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا} في الدنيا {إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ} فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل.[٥٥٨]

توجيه يقال لمحمد – ﷺ – وهو الذي احتمل ما احتمل،وعانى من قومه ما عانى.وهو الذي نشأ يتيما،وجرد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحدا بعد واحد.الأب.والأم.والجد.والعم.والزوج الوفية الحنون.وخلص لله ولدعوته مجردا من كل شاغل.كما هو مجرد من كل سند أو ظهير.

وهو الذي لقي من أقار به من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين.وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلا نصرة.وفي بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان،فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل.

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه:«فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ».

ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة.وطريق مرير.حتى لتحتاج نفس كنفس محمد – ﷺ – في تجردها وانقطاعها للدعوة،وفي ثباتها وصلابتها،وفي صفائها وشفافيتها.تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين.

نعم.وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة،وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر.وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهي المختوم.

«فَاصْبِرْ.كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» ..تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية ..ثم تطمين:«كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ» ..

إنه أمد قصير.ساعة من نهار.وإنها حياة خاطفة تلك التي يمكثونها قبيل الآخرة.وإنها لتافهة لا تترك وراءها من الوقع والأثر في النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار ..ثم يلاقون المصير المحتوم.ثم يلبثون في الأبد الذي يدوم.وما كانت تلك الساعة إلا بلاغا قبل أن يحق الهلاك

[٥٥٨] -تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٨٤)

والعذاب الأليم:«بَلاغٌ.فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ» ..لا.وما الله يريد ظلما للعباد.لا.وليصبر الداعية على ما يلقاه.فما هي إلا ساعة من نهار.ثم يكون ما يكون ...[559]

قال ابن عباس "ذوو الحزم والصبر" والحزم هو ضبط الأمر وتنقيحه والاحتياط فيه والحذر من الخطأ وشدة الاهتمام في تحصيل المصلحة،قال ابن عطية:" والحزم:جودة النظر في الأمور وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه،و«العزم» :قصد الإمضاء،والله تعالى يقول:وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ،فَإِذا عَزَمْتَ [آل عمران:١٥٩] فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم،والعرب تقول:قد أحزم لو أعزم."[560]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ،خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ،وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ،وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ،فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا،وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ،فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رواه مسلم[561].

ومن القوة أن يكون الإمام شجاعا قادرا على خوض الحروب ومواجهة الأعداء من الكفار والمنافقين،قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الولاة:" وهذا عام في ولاة الأمور وفي الرعية إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فعليهم أن يصبروا على ما أصيبوا به في ذات الله كما يصبر المجاهدون على ما يصاب من أنفسهم وأموالهم،فالصبر على الأذى في العرض أولى وأولى،وذلك لأن مصلحة الأمر والنهي لا تتم إلا بذلك،وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

---

[559] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٧٩)

[560] - تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٥١)

[561] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٢)٣٤ - (٢٦٦٤)

[ش (المؤمن القوي خير) المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداما على العدو في الجهاد وأسرع خروجا إليه وذهابا في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلبا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك (وفي كل خير) معناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات (احرص على ما ينفعك) معناه احرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة]

وقد يندرج في ذلك ولاة الأمور فإن عليهم من الصبر والحلم ما ليس على غيرهم،كما أن عليهم من الشجاعة والسماحة ما ليس على غيرهم؛لأن مصلحة الإمارة لا تتم إلا بذلك،فكما وجب على الأئمة الصبر على أذى الرعية وظلمها إذا لم تتم المصلحة إلا بذلك أو كان تركه يفضي إلى فساد أكثر منه.وكذلك يجب على الرعية الصبر على جور الأئمة وظلمهم إذا كان في ترك الصبر مفسدة راجحة.

فعلى كل من الراعي والرعية حقوقا للآخر،حقوقا عليه أداؤها كما ذكرت بعضه في كتاب الجهاد والقضاء،وعليه أن يصبر على الآخر ويحلم عنه في أمور،فلا بد من السماح والصبر في كل منهما،كما قال تعالى:{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [٩٠/١٧] وفي الحديث عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قِيلَ لَهُ:مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ:«إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَطِيبُ الْكَلَامِ» قِيلَ:فَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ:«السَّمَاحَةُ وَالصَّبْرُ» قِيلَ:فَمَنْ أَفْضَلُ الْمُسْلِمِينَ إِسْلَامًا؟ قَالَ:«مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» قِيلَ:فَمَنْ أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا؟ قَالَ:«أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»،قِيلَ:فَمَا أَفْضَلُ الْهِجْرَةِ؟ قَالَ:مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ "[٥٦٢] وفي أسماء الله "الغفور،الرحيم" فبالحلم يعفو عن سيئاتهم،وبالسماحة يوصل إليهم المنافع،فيجمع بين جلب المنفعة ودفع المضرة،فأما الإمساك عن ظلمهم والعدل عليهم فوجوب ذاك أظهر من هذا،فلا حاجة إلى بيانه .[٥٦٣]

وقال تعالى:{ {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [التوبة:٧٣]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَبْذُلَ الْجَهْدَ فِي مُقَاوَمَةِ الكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ،الذينَ يَعيشُونَ بَيْنَ ظَهْرانِي الْمُسْلِمِينَ،مِثْلَما تَبْذُلُهُ هَاتَانِ الطَّائِفَتَانِ فِي عَدَاوَةِ الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ،كَمَا يَأْمُرُهُ بِمُعَامَلَتِهِمَا بِالشِّدَّةِ وَالغَلْظَةِ لِتَرْتَدِعَا،وَيَرْتَدِعَ مَنْ خَلْفَهُمَا.وَمُجَاهَدَةُ الْكُفَّارِ تَكُونُ بِالسَّيْفِ،وَمُجَاهَدَةُ الْمُنَافِقِينَ تَكُونُ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ،وَسَيَكُونُ مَصِيرُ الكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَيَخْلُدُونَ فِيهَا أَبداً،وَبِذَلِكَ يَجْتَمِعُ لَهُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.[٥٦٤]

---

[٥٦٢] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٦٠٤)(٦٤٣) صحيح

[٥٦٣] - المستدرك على مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٦) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ١٨٠)

[٥٦٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٠٩،بترقيم الشاملة آليا)-

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:١٢٣]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنينَ الطَّرِيقَ الأَمْثَلَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْدَؤُوا بِقِتَالِ الأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ مِنْهُمْ إلى أَرْضِ الإِسْلاَمِ،وَبِذلِكَ لاَ يَبْقَى مَجَالٌ لأنْ يُؤْخَذَ المُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِمْ،إذَا تَرَكُوا مَنْ هُمْ قُرْبَهُمْ وَذَهَبُوا لِيُقَاتِلُوا مَنْ خَلْفَ أَعْدَائِهِمْ،وَلِهَذَا بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ بِقِتَالِ المُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ العَرَبِ شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ،لأَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ.وَهَكَذَا كَانَ المُسْلِمُونَ كُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ هُمْ بَعْدَهُمْ،ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ العُتَاةِ الفُجَّارِ وَهَكَذَا.

وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمنينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَشِدّاءَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَأَنْ يُظْهِرُوا لَهُمْ غِلْظَةً وَشِدَّةً وَخُشُونَةً فِي القِتَالِ،لِيُدْخِلُوا الوَهَنَ إِلَى نُفُوسِهِمْ،وَنُفُوسِ مَنْ خَلْفَهُمْ.وَمِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفَّارِ،رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ.وَيُخْبِرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ مَعَهُمْ يُثَبِّتُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ إِذَا اتَّقَوْهُ وَأَطَاعُوهُ. [٥٦٥]

وقال تعالى:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } [محمد:٤]

يُرشِدُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ إلى وُجُوبِ قِتَالِ المُشْرِكِينَ الذِينَ يَكْفُرُونَ باللهِ،وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِهِ حَتَّى يَنْخَذِلَ الشِّرْكُ وَأَهْلُهُ،وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الأَسْلُوبَ الذِي يَعْتَمِدُونَهُ فِي قِتَالِهِمْ فَيَقُولُ تَعَالَى:إذا لَقِيتُمُ المُشْرِكِين فِي سَاحَةِ الحَرب فَاحْصُدُوهُم حَصْداً بالسيُّوفِ،حَتَّى إذا تَمَّتْ لَكُمُ الغَلَبَةُ عَلَيهِم،وَقَهَرْتُم مَنْ تَبَقَّى مِنْهُمْ حَيّاً،وَصَارُوا أسْرى فِي أيدِيكم،شُدُّوا وِثَاقَهُمُ لِكَيلاَ يَعْمَدُوا إلى الهَرَبِ،أوِ العَوْدَةِ إلى القِتَالِ،وَبَعْدَ انتهَاءِ الحَرْبِ فأَنْتُم بالخِيارِ بَيْنَ المَنِّ عَلَيهِم وإطْلاقِ سَرَاحِهِمْ بِدُونِ فِدَاءٍ،وَبَيْنُ مُفَادَاتِهِمْ.وَقَدْ تَكُونُ المُفَادَاةُ بمالٍ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ لإِضْعَافِ شَوْكَتِهِم،وَقَدْ تَكُونُ بأَسْرى مِنَ المُسْلِمينَ.وهذه هيَ السُّنَّةُ فِي قِتَالِ المُشْرِكِينَ والكُفَّارِ حَتى تَنْتَهِيَ الحَرْبُ وَتَضَعَ أَوْزَارَها،وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَنْتَقِمَ منهُمْ بِعُقُوبةٍ عَاجِلَةٍ لَفَعَلَ،وَلَكَفَاكُمْ أَمْرَهُمْ،وَلَكِنَّهُ شَرَعَ

---

[٥٦٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٥٩،بترقيم الشاملة آليا)

الجِهَادَ،وَقتَالَ الأعداء،لِختَبرَ المُؤمنينَ وَصَبْرَهُمْ عَلَى القتَال،وَيَخْتَبرَ المُشركينَ،فَيُعَاقبَ مَنْ شَاءَ منْهُمْ بأيدي المُؤْمنينَ،وَيَتَّعظَ منْهُمْ مَنْ شَاءَ وَيَرْجعَ إلى الحَقِّ.واللهُ يَجْزي الشَّهَداءَ الذينَ قُتلُوا في سَبيله تَعَالى،وَيَتَجَاوزُ عَنْ سَيِّئَاتهمْ،وَيُثَمِّرُ لَهُمْ أعْمالَهُمْ وَيُنَمِّيها لَهُمْ.[٥٦٦]

وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه وَالَّذينَ مَعَهُ أَشدَّاءُ عَلَى الْكُفَّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا منَ اللَّه وَرضْوَانًا سيمَاهُمْ في وُجُوههمْ منْ أَثَر السُّجُود ذَلكَ مَثَلُهُمْ في التَّوْرَاة وَمَثَلُهُمْ في الْإنْجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقه يُعْجبُ الزُّرَّاعَ ليَغيظَ بهمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات منْهُمْ مَغْفرَةً وَأَجْرًا عَظيمًا} [الفتح:٢٩]

إن مُحمداً ﷺ رَسُولُ الله حَقّاً وَصدْقاً،بلاَ شَكٍّ وَلاَ رَيب،وَإنَّ أصْحَابَهُ يَتَّصفُونَ بالصِّفَات الجَميلة الحَسَنة،فَهُمْ أشدَّاءُ غلاَظُ القُلُوب عَلَى الكُفار،وَهُمْ رُحَماءُ مُتَوَادُّونَ فيما بَيْنَهم يَرَاهُم النَّاظرُ إليهمْ دَائبينَ عَلَى أدَاء الصَّلاة،مُخْلصينَ فيها لله،مُحْتَسبينَ أجْرَهَا عنْدَ الله،يَبْتَغُونَ بصَلاتهمْ رضَا الله وَرضْوَانَهُ،تَتْرُكُ نُفُوسُهُمُ المُطْمَئنَّةُ أثَراً عَلَى وُجُوههمْ،فَهي هَادئَةٌ مُطْمَئنَّةٌ مَسْتَبْشرَةٌ،وَهَذه هيَ صفَاتُ المُؤمنينَ المُخْلصينَ في التوراة.وَجَاءَ وَصْفُهُمْ في الإنجيل أنَّ أتْبَاعَ مُحَمَّد سَيَكُونُونَ قَليلينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلظُونَ كَزَرْعٍ أخْرَجَ مُحَمَّد سَيَكُونُونَ قَليلينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلظُونَ كَزَرْعٍ أخْرَجَ فُروعَهُ (شَطْأَهُ) التي تَتَفَرَّعُ منْهُ عَلَى جَوَانبه،فَيَقْوى وَيَتَحَوَّلُ من الدِّقَّة إلى الغلْظَة،وَيَسْتَقيمُ عَلَى أصُوله فَيُعْجبُ به الزَّراع لخصْبه،وَقُوَّته،وَحُسْنِ مَظْهَره،وَقَدْ نَمَّاهُمُ اللهُ وأكْثَرَ عَدَدَهُم ليَغيظَ بهم الكُفَّارَ،وَقَدْ وَعَدَ اللهُ المُؤْمنينَ بالله وَرَسُوله،العَاملينَ للصَّالحَات،بأن يَغْفرَ لَهُمْ ذُنُوبَهمْ،وَأنْ يُجْزلَ لَهُمُ الأجْرَ والعَطَاءَ،وبأنْ يُدْخلَهُمْ جَنَّاته،وَاللهُ لاَ يُخْلفَ وَعْدَهُ أبَداً.[٥٦٧]

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ منْكُمْ عَنْ دينه فَسَوْفَ يَأْتي اللَّهُ بقَوْمٍ يُحبُّهُمْ وَيُحبُّونَهُ أَذلَّة عَلَى الْمُؤْمنينَ أَعزَّة عَلَى الْكَافرينَ يُجَاهدُونَ في سَبيل اللَّه وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائمٍ ذَلكَ فَضْلُ اللَّه يُؤْتيه مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسعٌ عَليمٌ } [المائدة:٥٤]

---

[٥٦٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٢٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٥٦٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٩١،بترقيم الشاملة آليا) -

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ عَظِيمِ قُدْرَته وَيَقُولُ إنَّ الذينَ يَرْتَدَّونَ عَـنْ دِيـنِهِمْ مِـنَ الإِيمَـانِ إلى الكُفْرِ،وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ نُصْرَة دينه،وَإِقَامَة شَرِيعَته،فَإِنَّ اللهَ سَيَسْتَبْدِلُ بِهِمْ مَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ،وَأَشَـدُّ مَنَعَةً،وَأَقْوَمُ سَـبِيلاً،يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ،يَتَّصِـفُونَ بِصِـفَاتِ المُـؤْمِنِينَ وَهِـيَ:العِـزَّةُ عَلَـى الكَافِرِينَ،وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُعُ مَعَ المُؤْمِنِينَ،يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَلاَ يَرُدُّهُمْ رَادٌّ عَنْ إذاعَة أَمْرِ اللهِ،وَإِقَامَة حُدُوده،وَقِتَالِ أَعْدَائِه،يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوف،وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ.وَمَـنِ اتَّصَـفَ بِهَـذِه الصِّفَاتِ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْهِ كَبِيراً،وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ،عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ فَيُعْطِيهِ،مِمَّنْ لاَ يَسْتَحِقُّهُ فَيَحْرِمُهُ إِيَّاهُ.[٥٦٨]

فوصف الله تعالى الذين يحبهم ويحبونه بالذلة على المؤمنين،والعزة على الكافرين،والجهـاد في سبيل الله،وعدم الخوف من لوم اللائمين،فلا يصدهم عن إقامة شرع الله والجهاد في سبيل الله لوم أهل الكفر والنفاق،وما يفترونه في وسائل إعلامهم،فإن القلـب لا يلتفـت إلى أقـوالهم ويحرص على مراعاتها،إلا إذا كان فيه من التعبد لأعداء الله بحسب ما فيه من مراعاتهم وطلب مرضاتهم،قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{أَذِلَّةٍ عَلَـى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَـى الْكَافِرِينَ} هَذِه صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الكُمَّل أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَوَلِيِّهِ،مُتَعَزِّزًا عَلَـى خَصْمِه وَعَدُوِّه،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّـارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ} [الْفَتْحِ:٢٩] .وَفِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ:"الضَّحُوكُ الْقَتَّالُ" فَهُوَ ضَحُوكٌ لِأَوْلِيَائِـه قَتَّـالٌ لِأَعْدَائِه.

وَقَوْلُهُ [تَعَالَى]{يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ} أَيْ:لَا يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَة اللَّه،وَقِتَالِ أَعْدَائِه،وَإِقَامَة الْحُدُود،وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،لَا يَـرُدُّهُمْ عَـنْ ذَلِكَ رَادٌّ،وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادٌّ،وَلَا يَحِيكُ فِيهِمْ لَوْمُ لَائِمٍ وَلَا عَذْلُ عَاذِلٍ."[٥٦٩]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ:"أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ،وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ،وَأَمَرَنِـي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي،وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي،وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ،وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا،وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا،وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ

[٥٦٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٢٤،بترقيم الشاملة آليا) -

[٥٦٩] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣٦)

لَائِمٍ،وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ:لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ،فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ " رواه أحمد[٥٧٠]

(أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ)،أَيْ:وَالْقُرْبِ مِنْ حَالِهِمْ،أَوِ التَّقَرُّبِ مِنْ مَآلِهِمْ (وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي) أَيْ:فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ (وَلَا أَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي)،أَيْ:فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ الدَّنِيَّةِ (وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ)،أَيْ:وَلَّتْ بِأَنْ غَابَتْ أَوْ بَعُدَتْ،وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا،وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ:" «صِلُوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ» ".وَقَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْ:وَإِنْ قُطِعَتْ عَلَى مَا وَرَدَ:«صِلْ مَنْ قَطَعَكَ»،وَأَسْنَدَ الْإِدْبَارَ إِلَى الرَّحِمِ مَجَازًا لِأَنَّهُ لِصَاحِبِهَا (وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ) أَيْ:لَا أَطْلُبَ (أَحَدًا شَيْئًا)،وَمِنْ دُعَاءِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ:اللَّهُمَّ كَمَا صُنْتَ وَجْهِي عَنْ سُجُودِ غَيْرِكَ فَصُنْ وَجْهِي عَنْ مَسْأَلَةِ غَيْرِكَ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَحَدًا عَلَى عُمُومِهِ شَاءَ عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ أَرْبَابِ الْكَمَالِ إِلَهِي كَفَى عِلْمُكَ بِالْحَالِ عَنِ الْمَقَالِ وَكَرَمُكَ عَنِ السُّؤَالِ وَهُوَ الْمَقَامُ الْجَلِيلُ الْمَأْخُوذُ مِنْ حَالِ الْخَلِيلِ حَيْثُ قَالَ لَهُ جِبْرَائِيلُ:أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ:أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا.قَالَ فَسَلْ رَبَّكَ.قَالَ:حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْجَمِيلِ:{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:١٧٣] وَفِي الْحِكَمِ لِابْنِ عَطَاءِ اللَّهِ:رُبَّمَا اسْتَحْيَى الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ اكْتِفَاءً بِمَشِيئَتِهِ فَكَيْفَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ؟ (وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ) أَيْ:أَتَكَلَّمَ بِهِ (وَإِنْ كَانَ مُرًّا)،أَيْ:عَلَى السَّامِعِ أَوْ صَعْبًا عَلَيَّ (وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافَ) أَيْ:ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا (فِي اللَّهِ) أَيْ:فِي حَقِّهِ أَوْ فِي سَبِيلِهِ وَلِأَجْلِهِ (لَوْمَةَ لَائِمٍ)،مَلَامَةَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ (وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)،أَيْ:لِلِاسْتِعَانَةِ عَلَى الطَّاعَةِ وَإِصَابَةِ الْمُصِيبَةِ،وَالِاسْتِعَانَةِ عَلَى دَفْعِ الْمُصِيبَةِ خُصُوصًا الْعُجْبُ وَالْغُرُورُ وَالْمَخِيلَةُ (فَإِنَّهُنَّ) أَيْ:هَذِهِ الْكَلِمَاتُ (مِنْ كَنْزِ تَحْتَ الْعَرْشِ) .أَيْ:مِنْ جُمْلَةِ كَنْزٍ مَعْنَوِيٍّ مَوْضُوعٍ تَحْتَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ،أَوْ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ لِأَنَّ الْعَرْشَ سَقْفُهَا،وَأَبْعَدَ مَنْ قَالَ فَإِنَّهُنَّ أَيِ:الْخِصَالُ السَّبْعُ مِنْ كَنْزِ تَحْتَ الْعَرْشِ إِذْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ،بَلْ وَرَدَ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ وَأَخْرَجَهُ السِّتَّةُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،وَأَحْمَدُ وَالْبَزَّارُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،وَالطَّبَرَانِيُّ عَنْ مُعَاذٍ،وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي ذَرٍّ

[٥٧٠] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٣٢٧)(٢١٤١٥) صحيح

أَيْضًا مَرْفُوعًا:" «قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» ".وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَاهُ فَقِيلَ:سَمَّى هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَنْزًا ؛ لِأَنَّهَا كَالْكَنْزِ فِي نَفَاسَتِهِ وَصِيَانَتِهِ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ،أَوْ أَنَّهَا مِنْ ذَخَائِرِ الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ مُحَصِّلَاتِ نَفَائِسِ الْجَنَّةِ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ:الْمَعْنَى أَنَّ قَوْلَهَا يَحْصُلُ ثَوَابًا نَفِيسًا يُدَّخَرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْجَنَّةِ انْتَهَى.وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ الْعَاجِلَةِ:فَمَنْ قَامَ بِهَا وَأَدْرَكَ مَعْنَاهَا وَاسْتَمَرَّ عَلَى مَبْنَاهَا،فَإِنَّهُ ظَفِرَ بِكَنْزٍ عَظِيمٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى كُنُوزٍ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهَا وَمُنْتَهَاهَا،فَقَدْ رَوَى الْبَزَّارُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:«كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُهَا،فَقَالَ:" تَدْرِي مَا تَفْسِيرُهَا؟ " قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.قَالَ:" لَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَّا بِعِصْمَةِ اللَّهِ،وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ» ".قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:هِيَ كَلِمَةُ اسْتِسْلَامٍ وَتَفْوِيضٍ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُ حِيلَةٌ فِي دَفْعِ شَرٍّ وَلَا قُوَّةٌ فِي جَلْبِ خَيْرٍ إِلَّا بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى انْتَهَى،فَيَكُونُ صَاحِبُهَا فِي مُلْكٍ جَسِيمٍ وَكَنْزٍ عَظِيمٍ حَالَ كَوْنِهِ حَاضِرًا بِقَلْبِهِ مُشَاهِدًا فِعْلَ رَبِّهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ،فَصَحَّ مَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن:٤٦] جَنَّةٌ فِي الدُّنْيَا وَجَنَّةٌ فِي الْعُقْبَى."[571]

وقال الإمام ابن جرير عَنْ سَالِمٍ،قَالَ:كَانَ عُمَرُ إِذَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَنَهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ جَمَعَ أَهْلَهُ،فَقَالَ:إِنِّي نَهَيْتُ النَّاسَ عَنْ كَذَا وَكَذَا،وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ- يَعْنِي إِلَى اللَّحْمِ- وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لا أَجِدُ أَحَدًا مِنْكُمْ فَعَلَهُ إِلا أَضْعَفْتُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَدِيدًا عَلَى أَهْلِ الرِّيَبِ،وَفِي حَقِّ اللَّهِ صَلِيبًا حَتَّى يَسْتَخْرِجَهُ،وَلَيِّنًا سَهْلا فِيمَا يَلْزَمُهُ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ،وَبِالضَّعِيفِ رَحِيمًا رَءُوفًا " [572]

وفي كتاب الزهد لابن أبي عاصم عن مُعَاوِيَةَ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ:" بَعَثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِفَتْحِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ،فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فِي الظَّهِيرَةِ فَأَنَخْتُ رَاحِلَتِي بِبَابِ الْمَسْجِدِ ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ إِذْ خَرَجَتْ جَارِيَةٌ مِنْ مَنْزِلِ عُمَرَ فَرَأَتْنِي سَاحِبًا عَلَى ثِيَابِ السَّفَرِ فَانْصَرَفْتُ،فَقَالَتْ:أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ قَالَ:يَا جَارِيَةُ هَلْ مِنْ طَعَامٍ؟

---

[571] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٩٢)

[572] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٧) صحيح مرسل

فَأَتَتْ بِخُبْزٍ وَزَيْت قَالَ:كُلْ،فَأَكَلْتُ عَلَى حَيَاء قَالَ:كُلْ فَإِنَّ الْمُسَافِرَ يُحِبُّ الطَّعَامَ،ثُمَّ قَالَ:يَا جَارِيَةُ هَلْ مِنْ تَمْرٍ فَأَتَتْنِي بِتَمْرٍ فِي طَبَقٍ قَالَ:كُلْ فَأَكَلْتُ عَلَى حَيَاءٍ ثُمَّ قَالَ:مَاذَا قُلْتَ يَا مُعَاوِيَةُ حِينَ أَتَيْتَ الْمَسْجِدَ؟ قَالَ قُلْتُ:إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَائِلٌ قَالَ:بِئْسَ مَا قُلْتَ أَوْ بِئْسَ مَا ظَنَنْتَ لَئِنْ نِمْتُ النَّهَارَ لَأُضَيِّعَنَّ الرَّعِيَّةَ وَلَئِنْ نِمْتُ اللَّيْلَ لَأُضَيِّعَنَّ نَفْسِي،فَكَيْفَ بِالنَّوْمِ مَعَ هَذَيْنِ يَا مُعَاوِيَةُ" [٥٧٣]

وقد كان رضي الله عنه صارما في أمر الله،قويا في الحق،لا تؤخذه في الله لومة لائم،قد جعل الله له هيبة في قلوب العباد،عَنْ يُونُسَ ،قَالَ :كَانَ الْحَسَنُ رُبَّمَا ذُكِرَ عُمَرَ ،فَقَالَ :وَاللهِ مَا كَانَ بِأَوَّلِهِمْ إِسْلاَمًا ،وَلاَ أَفْضَلِهِمْ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ ،وَلَكِنَّهُ غَلَبَ النَّاسَ بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالصَّرَامَةِ فِي أَمْرِ اللهِ ،وَلاَ يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ.مصنف ابن أبي شيبة [٥٧٤]

وعن عَبْد اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:مَكَثْتُ سَنَةً وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ،فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ،هَيْبَةً لَهُ حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا،فَخَرَجْتُ مَعَهُ،فَلَمَّا رَجَعَ فَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَى الْأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ،فَوَقَفْتُ لَهُ حَتَّى فَرَغَ،ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ،فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ،فَقَالَ:تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ،قَالَ فَقُلْتُ لَهُ:وَاللهِ،إِنْ كُنْتُ لَأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا مُنْذُ سَنَةٍ،فَمَا أَسْتَطِيعُ هَيْبَةً لَكَ،قَالَ:فَلَا تَفْعَلْ،مَا ظَنَنْتَ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَسَلْنِي عَنْهُ،فَإِنْ كُنْتُ أَعْلَمُهُ أَخْبَرْتُكَ،قَالَ:وَقَالَ عُمَرُ:وَاللهِ،إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا،حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ،وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ،قَالَ:فَبَيْنَمَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَأْتَمِرُهُ إِذْ قَالَتْ لِي امْرَأَتِي:لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا،فَقُلْتُ لَهَا:وَمَا لَكِ أَنْتِ،وَلِمَا هَاهُنَا؟ وَمَا تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ،فَقَالَتْ لِي:عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ،مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ،وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ،قَالَ عُمَرُ :فَآخُذُ رِدَائِي،ثُمَّ أَخْرُجُ مَكَانِي حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى حَفْصَةَ،فَقُلْتُ لَهَا:يَا بُنَيَّةُ إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ؟ فَقَالَتْ حَفْصَةُ:وَاللهِ إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ،فَقُلْتُ:تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللهِ،وَغَضَبَ رَسُولِهِ،يَا بُنَيَّةُ،لَا يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي قَدْ أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا،وَحُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا،ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ

---

[٥٧٣] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١٠١)(٦٤٦) صحيح

[٥٧٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٦٧)(٣٢٦٧٣) صحيح مرسل

لِقَرَابَتِي مِنْهَا،فَكَلَّمْتُهَا،فَقَالَتْ لِي أُمُّ سَلَمَةَ:عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب قَدْ دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ،حَتَّى تَبْتَغِيَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَزْوَاجِه،قَالَ:فَأَخَذَتْنِي أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ،فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا،وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ،وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ،وَنَحْنُ حِينَئِذٍ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ،ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا،فَقَدِ امْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ،فَأَتَى صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ الْبَابَ،وَقَالَ:افْتَحِ افْتَحْ،فَقُلْتُ:جَاءَ الْغَسَّانِيُّ؟ فَقَالَ:أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ،اعْتَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ،فَقُلْتُ:رَغِمَ أَنْفُ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ،ثُمَّ آخُذُ ثَوْبِي،فَأَخْرُجُ حَتَّى جِئْتُ،فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ يُرْتَقَى إِلَيْهَا بِعَجَلَةٍ،وَغُلَامٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَسْوَدُ عَلَى رَأْسِ الدَّرَجَةِ،فَقُلْتُ:هَذَا عُمَرُ،فَأُذِنَ لِي،قَالَ عُمَرُ:فَقَصَصْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ هَذَا الْحَدِيثَ،فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ،تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ،وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ،حَشْوُهَا لِيفٌ،وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَضْبُورًا،وَعِنْدَ رَأْسِهِ أُهُبًا مُعَلَّقَةً،فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَبَكَيْتُ،فَقَالَ:«مَا يُبْكِيكَ؟» فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ،وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا،وَلَكَ الْآخِرَةُ» رواه البخاري ومسلم[٥٧٥].

---

٥٧٥ - صحيح مسلم (٢/ ١١٠٨)٣١ - (١٤٧٩) وصحيح البخاري (٣/ ١٣٣)(٢٤٦٨)

[ش (الأراك) جاء في المعجم للعلايلي الأراك في وصف القدماء شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان خوارة العود يستاك بفروعها أي تنظف بها الأسنان وهو طيب النكهة له حمل كحمل عناقيد العنب ويعد اليوم من فصيلة الزيتونيات (عدل إلى الأراك لحاجة) عدل عن الطريق المسلوكة الجادة منتهيا إلى شجر الأراك لحاجة له كناية عن التبرز (أأتمره) معناه أشاور فيه نفسي وأفكر ومعنى بينما وبيننا أي بين أوقات ائتماري (تراجع) مراجعة الكلام مرادته برجع جوابه أي إعادته (غسان) الأشهر ترك صرف غسان (رغم أنف حفصة وعائشة) هو بفتح الغين وكسرها والمصدر فيه بتثليث الراء أي لصق بالرغام وهو التراب هذا هو الأصل ثم استعمل في كل من عجز عن الانتصاف وفي الذل والانقياد كرها (بعجلة) قال النووي وقع في بعض النسخ بعجلها وفي بعضها بعجلتها وفي بعضها بعجلة وكله صحيح والأخيرة أجود قال ابن قتيبة وغيره هي درجة من النخل كما قال في الرواية السابقة جذع (من أدم) هو جلد مدبوغ جمع أديم (مضبورا) وقع في بعض الأصول مضبورا بالضاد المعجمة وفي بعضها بالمهملة وكلاهما صحيح أي مجموعا (أهبا معلقة) بفتح الهمزة والهاء وبضمهما لغتان مشهورتان جمع إهاب وهو الجلد قبل الدباغ على قول الأكثرين وقيل الجلد مطلقا (ولك الآخرة) هكذا هو في الأصول ولك الآخرة وفي بعضها لهم الدنيا وفي أكثرها لهما بالتثنية وأكثر الروايات في غير هذا الموضع لهم الدنيا ولنا الآخرة وكله صحيح]

كما يجب على الإمام أن يكون قويا في تنفيذ أحكام القضاء والقصاص والحدود وسائر العقوبات،وألا تأخذه رأفة في ذلك،قال الله تعالى:{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النور:٢].

هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين،أهما يجلد كل منهما مائة جلدة،وأما الثيب،فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة،أن حده الرجم،ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة [بهما] في دين الله،تمنعنا من إقامة الحد عليهم،سواء رأفة طبيعية،أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك،وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله،فرحمته حقيقة،بإقامة حد الله عليه،فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه،فلا نرحمه من هذا الجانب،وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة،أي:جماعة من المؤمنين،ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع،وليشاهدوا الحد فعلا فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل،مما يقوى بها العلم،ويستقر به الفهم،ويكون أقرب لإصابة الصواب،فلا يزاد فيه ولا ينقص،والله أعلم.

هذا بيان لرذيلة الزنا،وأنه يدنس عرض صاحبه،وعرض من قارنه ومازجه،ما لا يفعله بقية الذنوب،فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء،إلا أنثى زانية،تناسب حاله حالها،أو مشركة بالله،لا تؤمن ببعث ولا جزاء،ولا تلتزم أمر الله،والزانية كذلك،لا ينكحها إلا زان أو مشرك {وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} أي:حرم عليهم أن ينكحوا زانيا،أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية:أن من اتصف بالزنا،من رجل أو امرأة،ولم يتب من ذلك،أن المقدم على نكاحه،مع تحريم الله لذلك،لا يخلو إما أن لا يكون ملتزما لحكم الله ورسوله،فذاك لا يكون إلا مشركا،وإما أن يكون ملتزما لحكم الله ورسوله،فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه،فإن هذا النكاح زنا،والناكح زان مسافح،فلو كان مؤمنا بالله حقا،لم يقدم على ذلك،وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب،وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب،فإن مقارنة الزوج لزوجته،والزوجة لزوجها،أشد الاقترانات والازدواجات،وقد قال تعالى:{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} أي:قرناءهم،فحرم الله ذلك،لما فيه من الشر العظيم،وفيه من قلة الغيرة،وإلحاق الأولاد،الذين ليسوا من الزوج،وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها،مما بعضه كاف

للتحريم وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمنا،كما قال النبي ﷺ:" لا يزني الزاني حين يزني وهـــو مؤمن " فهو وإن لم يكن مشركا،فلا يطلق عليه اسم المدح،الذي هو الإيمان المطلق.[٥٧٦]

فهي الصرامة في إقامة الحد وعدم الرأفة في أخذ الفاعلين بجرمهما،وعدم تعطيل الحد أو الترفق في إقامته،تراخيا في دين الله وحقه.وإقامته في مشهد عام تحضره طائفة مـــن المؤمنين،فيكـــون أوجع وأوقع في نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين.

ثم يزيد في تفظيع الفعلة وتبشيعها،فيقطع ما بين فاعليهـــا وبـــين الجماعـــة المســـلمة مـــن وشيجة:«الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً،وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ.وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» ..

وإذن فالذين يرتكبون هذه الفعلة لا يرتكبوها وهم مؤمنون.إنما يكونون في حالة نفسية بعيدة عن الإيمان وعن مشاعر الإيمان.وبعد ارتكابها لا ترتضي النفس المؤمنة أن ترتبط في نكاح مـــع نفس خرجت عن الإيمان بتلك الفعلة البشعة لأنها تنفر من هذا الرباط وتشمئز.حتى لقد ذهب الإمام أحمد إلى تحريم مثل هذا الرباط بين زان وعفيفة،وبين عفيف وزانية إلا أن تقع التوبة التي تطهر من ذلك الدنس المنفر.وعلى أية حال فالآية تفيد نفـــور طبـــع المـــؤمن مـــن نكـــاح الزانية،ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد:«وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» ..وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصـــنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة.

والإسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعلة المستنكرة الشـــائنة لم يكـــن يغفل الدوافع الفطرية أو يحاربها.فالإسلام يقدر أنه لا حيلة للبشر في دفع هذه الميول،ولا خـــير لهم في كبتها أو قتلها.

و لم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعية التي ركبها الله في كيانهم،وجعلها جزءا من ناموس الحياة الأكبر،يؤدي إلى غايته من امتداد الحياة،وعمارة الأرض،الـــتي اســـتخلف فيهـــا هـــذا الإنسان.

---

[٥٧٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٦١)

إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد،أو لا تهدف إلى إقامة بيت،وبناء عش،وإنشاء حياة مشتركة،لا تنتهي بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة! وأن يقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية،التي تجعل من التقاء جسدين نفسين وقلبين وروحين،وبتعبير شامل التقاء إنسانين،تربط بينهما حياة مشتركة،وآمال مشتركة،وآلام مشتركة،ومستقبل مشترك،يلتقي في الذرية المرتقبة،ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك،الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان.

من هنا شدد الإسلام في عقوبة الزنا بوصفه نكسة حيوانية،تذهب بكل هذه المعاني،وتطيح بكل هذه الأهداف وترد الكائن الإنساني مسخا حيوانيا،لا يفرق بين أنثى وأنثى،ولا بين ذكر وذكر.مسخا كل همه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة.فإن فرق وميز فليس وراء اللذة بناء في الحياة،وليس وراءها عمارة في الأرض،وليس وراءها نتاج ولا إرادة نتاج! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية،لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار.وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع،الذي يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها،وإنما هي انفعال حيواني يتزيا بزي العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان! إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها إنما ينظمها ويطهرها،ويرفعها عن المستوي الحيواني،ويرقيها حتى تصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية.فأما الزنا - وبخاصة البغاء - فيجرد هذا الميل الفطري من كل الرفرفات الروحية،والأشواق العلوية ومن كل الآداب التي تجمعت حول الجنس في تاريخ البشرية الطويل ويبديه عاريا غليظا قذرا كما هو في الحيوان،بل أشد غلظا من الحيوان.ذلك أن كثيرا من أزواج الحيوان والطير تعيش متلازمة،في حياة زوجية منظمة،بعيدة عن الفوضى الجنسية التي يشيعها الزنا - وبخاصة البغاء - في بعض بيئات الإنسان! دفع هذه النكسة عن الإنسان هو الذي جعل الإسلام يشدد ذلك التشديد في عقوبة الزنا ..ذلك إلى الأضرار الاجتماعية التي تعارف الناس على أن يذكروها عند الكلام عن هذه الجريمة،من اختلاط الأنساب،وإثارة الأحقاد،وتهديد البيوت الآمنة المطمئنة ..وكل واحد من هذه الأسباب يكفي لتشديد العقوبة.

ولكن السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية،ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس،والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد ..هذا السبب هو الأهم في اعتقادي.وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى.على أن الإسلام لا يشدد في العقوبة هذا التشديد إلا بعد تحقيق الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل،ومن توقيع العقوبة إلا في الحالات الثابتة التي لا شبهة فيها.فالإسلام منهج حياة متكامل،لا يقوم على العقوبة إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة.ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ في الوحل طائعا غير مضطر.[٥٧٧]

وأما الضعيف فلا يصلح للإمارة،عَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا،وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي،لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ،وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ» رواه مسلم[٥٧٨]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ:فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي،ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنَّكَ ضَعِيفٌ،وَإِنَّهَا أَمَانَةُ،وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا،وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا» رواه مسلم[٥٧٩].

الشرط الثالث:أن يكون الإمام تقيا عدلا

أن يكون الإمام تقيا عدلا،ولا خلاف بين أهل العلم أن الإمامة لا يجوز أن تعقد لفاسق،وقد قال تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٢٤]

---

[٥٧٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٢١١)

[٥٧٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧)١٧ - (١٨٢٦)

[ش (لا تأمرن) بحذف إحدى التاءين أي لا تتأمرن وكذلك قوله تولين أي تتولين]

[٥٧٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧)١٦ - (١٨٢٥)

[ش (إنك ضعيف وإنها أمانة) هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلا لها أو كان أهلا و لم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة]

وَاذكُرْ يَا مُحَمَّدُ لأَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ اختِبَارَ اللهِ لإِبراهيمَ بِمَا كَلَّفَهُ بِـــه مِـــنَ الأَوَامِـــرِ وَالنَّواهِي،فَقَامَ بِها عَلَى الوَجْهِ الأَكْمَلِ،فَجَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ قُدْوَةً وَإِمَاماً.فَدَعَا إِبْرَاهِيمَ النَّاسَ إِلَـــى تَوحِيدِ اللهِ،وَالبَراءَةِ مِنَ الشِّرْكِ.وَسَأَلَ إِبراهِيمُ رَبَّهُ أَنْ تَكُونَ الإِمَامَةُ فِي ذُرِّيَّتِه،فَأَجَابَهُ اللهُ،جَـــلَّ شَأْنُهُ،إِلى مَا سَأَلَ،وَلكِنَّهُ قَالَ لَهُ:إِنَّ عَهْدَهُ سُبْحَانَهُ لا يَنَالُ الظَّالِمِينَ،وَلِذلِكَ فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الظَّالِمُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِهِمْ.[٥٨٠]

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يختارون أفضلهم للخلافة،ولهذا كـــان ترتيـــب الخلفـــاء الراشدين في الفضل هو ترتيبهم في الخلافة،فأفضل الأمة بعد نبيها ﷺ،أبو بكر الصديق رضـــي الله عنه الخليفة الأول،ثم عمر رضي الله عنه وهو الخليفة الثاني،ثم عثمان رضي الله عنه وهـــو الخليفة الثالث،ثم علي رضي الله عنه وهو الخليفة الرابع.

وعَنْ عَلِيٍّ،قَالَ:قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ،مَنْ نُؤَمِّرُ بَعْدَكَ؟ قَالَ:" إِنْ تُؤَمِّرُوا أَبَا بَكْرٍ،تَجِدُوهُ أَمِينًا،زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا،رَاغِبًا فِي الْآخِرَةِ،وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عُمَرَ تَجِدُوهُ قَوِيًّا أَمِينًا،لَا يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ،وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عَلِيًّا – وَلَا أُرَاكُمْ فَاعِلِينَ – تَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا،يَأْخُذُ بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْـــتَقِيمَ " رواه أحمد وغيره[٥٨١]

وقد تضمن هذا الحديث العظيم طريقة اختيار الإمام مـــن خـــلال الشـــورى،لقوله ﷺ في الحديث:"**إن تؤمروا**"،وتضمن بعض الصفات التي تشترط في الإمام وأولها:الزهـــد في الـــدنيا والرغبة في الآخرة،وهذه من صفات أئمة العدل الذين زهدوا في الدنيا وطهرت نفوسهم مـــن طلب العلو في الأرض والتكبر على الخلق ومن حظوظ النفس وأطماعها،ورغبوا بما عنـــد الله تعالى،ومن كان هذا وصفه فجدير به أن يقيم العدل ويحكم بين الناس بالحق بعد أن طهـــرت نفسه من الأهواء والأطماع الدنيوية التي تصد عن الحق،وقد قال تعالى:{ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ

---

[٥٨٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣١،بترقيم الشاملة آليا)

[٥٨١] – فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٢٣١)(٢٨٤) ومسند أحمد ط الرسالة (٢/ ٢١٤)(٨٥٩) والأحاديث المختارة = المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (٢/ ٨٦)(٤٦٣) صحيح

وزعم شيخنا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند أنه ضعيف فيه زَيْدُ بْنُ يُثَيْعٍ،لم يرو عنه غير أبي إسحاق،قلت:وثقه عدد من الأئمة،والصواب أنه ثقة،انظر إكمال تهذيب الكمال (٥/ ١٧٤)(١٧٩٥) ولذلك لا يجوز الاعتماد على تضعيفاته ولا تضعيفات الشيخ ناصر رحمه الله

خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّـــذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } [ص:٢٦].

يا داود إنا استخلفناك في الأرض وملَّكناك فيها،فاحكم بين الناس بالعدل والإنصاف،ولا تتبع الهوى في الأحكام،فيُضلك ذلك عن دين الله وشرعه،إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذاب أليم في النار؛بغفلتهم عن يوم الجزاء والحساب.

وفي هذا توصية لولاة الأمر أن يحكموا بالحق المترل مـــن الله،تبـــارك وتعـــالى،ولا يعـــدلوا عنه،فيضلوا عن سبيله.[٥٨٢]

أي يا داود إنا استخلفناك في الأرض،وجعلنـــاك نافـــذ الحكـــم بـــين الرعيـــة،لك الملـــك والسلطان،وعليهم السمع والطاعة،لا يخالفون لك أمرا،ولا يقيمون في وجهك عصا.

ثم ذكر ما يستتبع ذلك فقال:(فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) المترل من عندى،والـــذي شـــرعته لعبادى لما فيه من المصلحة لهم في الدنيا والآخرة.

ثم أكد ما سلف بالنهى عن ضده فقال:(وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى) فى الحكومة وغيرها من أمور الـــدين والدنيا.

وفي هذا إرشاد لما يقتضيه منصب النبوة،وتنبيه لمن هو دونه لسلوك هذا الطريق القويم.

ثم بين سوء عاقبة ذلك فقال:(فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي فيكون اتباعك للـــهوى ســـببا في الضلال عن الدلائل التي نصبت،والأعلام التي وضعت،للارشاد إلى سبل السلام،بإصلاح حال المجتمع فى دينه ودنياه،وتهذيبه حتى يسلك طريق الحق بينه وبين ربه،وبينه وبين الناس.

ثم بين غائلة الضلال ووخامة عاقبته فقال:(إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَـــدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ) أي إن الذين يتركون الحق ويضلون عن سبيل معالمه- لهـــم مـــن الله العذاب الشديد يوم الحساب لنسيانهم ما في ذلك اليوم من الأهوال،وأن الله سيحاسب كـــل نفس بما كسبت،فمن دسّى نفسه وسلك بها سبيل المعاصي فقد حق عليه العذاب الذي كتبـــه على العاصين جزاء وفاقا على أعمالهم التي كسبوها بأيديهم.[٥٨٣]

---

[٥٨٢] - التفسير الميسر (١/ ٤٥٤)

[٥٨٣] - تفسير المراغي (٢٣/ ١١٢)

بَلَغَنِي أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ:" لَوْ مَاتَتْ سَخْلَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ ضَيْعَةً لَخِفْتُ أَنْ أُسْأَلَ عَنْهَا " " فَكَيْفَ بِمَنْ حُرِمَ عَدْلَكَ وَهُوَ عَلَى بِسَاطِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ تَدْرِي مَا جَـاءَ فِـي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَدِّكَ:{يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى} " قَالَ:" يَا دَاوُدُ،إِذَا قَعَدَ الْخَصْمَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ فَكَانَ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا هَوًى فَلَـا تَتَمَنَّيَنَّ فِي نَفْسِكَ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لَهُ فَيُفْلِحَ عَلَى صَاحِبِهِ فَأَمْحُوكَ عَنْ نُبُوَّتِي ثُـمَّ لَـا تَكُـونَ خَلِيفَتِي وَلَا كَرَامَةَ،يَا دَاوُدُ إِنَّمَا جَعَلْتُ رُسُلِي إِلَى عِبَادِي رُعَاةً تَرْعَى الْإِبِلَ لِعِلْمِهِمْ بِالرِّعَايَـةِ وَرِفْقِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ،لِيَجْبُرُوا الْكَسْرَةَ،وَيَدُلُّوا الْهَزِيْلَ عَلَى الْكَلَأِ وَالْمَاءِ،يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ قَـدْ بُلِيتَ بِأَمْرٍ لَوْ عُرِضَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ لَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهُ وَأَشْفَقْنَ مِنْـهُ،يَا أَمِـيرَ الْمُؤْمِنِينَ "[584]

والثانية:أن يتصف بالأمانة وقد قال الله تعالى:{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَـنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص:٢٦]

أي قالت واحدة من بناته:استأجر موسى ليرعى عليك ما شيتك،فإن خير من تستأجره للرعى القوىّ على حفظ الماشية والقيام عليها فى إصلاحها وصلاحها،الأمين:الذي لا تخاف خيانتـه فيما تأتمنه عليه منها.

ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة،لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان:الأمانة والكفاية فى القائم بأداء أمر من الأمور تكلّل عمله بالظفر وكفل له أسباب النجاح[585].

أي:إن موسى أولى من اسـتؤجر،فإنه جمـع القـوة والأمانـة،وخير أجـير اسـتؤجر،من جمعهما،أي:القوة والقدرة على مـا اسـتؤجر عليه،والأمانـة فيـه بعـدم الخيانة،وهـذان الوصفان،ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملا بإجارة أو غيرها.فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما،وأما باجتماعهما،فإن العمل يتم ويكمل،وإنما قالـت ذلك،لأنهـا

---

[584] - شعب الإيمان (٩/ ٥٠٦)

[585] - تفسير المراغي (٢٠/ ٥١)

شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه،ما عرفت به قوته،وشاهدت من أمانته وديانته،وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما،وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى.[٥٨٦]

والأمانة تشمل القيام بالواجبات واجتناب المحرمات،ومن الأمانات الولاية على المسلمين فيجب النصح والإحسان فيها ويحرم الغش فيها والخيانة،ومن الأمانات إسناد الوظائف والأعمال إلى أهلها،ومن الأمانات أداء الأموال إلى الرعية بعدل وإنصاف،ومن الأمانات المال العام فيجب حفظه وتجنب التعدي فيه وإضاعته والإسراف في إنفاقه أو إهماله والتفريط في حفظه وصيانته،ومن الأمانات أسرار الدولة وغيرها فيجب حفظها ويحرم إفشاؤها،عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ» رواه أحمد وأبو داود والترمذي[٥٨٧].

الثالثة:أن يتصف بالقوة وألا يخاف في الله لومة اللائم،وقد تقدم الكلام فيها.

الرابعة:الهداية،وهي تتضمن العلم والعمل بالعلم والدعوة إليه،فيجب أن يكون الإمام عالما مجتهدا وأن يعمل بعلمه،وأن يقود الأمة إلى الصراط المستقيم.

فإن الإمام التقي الناصح العادل هو المؤتمن على الإسلام والمسلمين،وأما الفاسق الذي لم يتصف بالتقوى والعدل،ولا تقبل شهادته على اليسير من المال،فأنَّى لمثل هذا أن يكون أهلا لإقامة دين الله في الأرض والعدل بين الناس،وهو لم يقم العدل والصلاح في نفسه،وكيف يقيم الناس على الحق ويأطرهم عليه من كان مائلا عنه ومعرضا عن التمسك به.

والناس تبع لولاة الأمر وهم العلماء والأمراء،فإذا صلح هذان الصنفان صلح الناس،وإذا فسدا فسد الناس[٥٨٨].

وفي صحيح البخاري عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا زَيْنَبُ،فَرَآهَا لاَ تَكَلَّمُ،فَقَالَ:«مَا لَهَا لاَ تَكَلَّمُ؟» قَالُوا:حَجَّتْ مُصْمِتَةً،قَالَ لَهَا:«تَكَلَّمِي،فَإِنَّ

---

[٥٨٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦١٤)

[٥٨٧] - سنن أبي داود (٤/ ٢٦٧)(٤٨٦٨) والمسند الجامع (٤/ ٢٦٧)(٢٧٧٧) حسن

[٥٨٨] - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلُحَا صَلُحَ النَّاسُ:الْأُمَرَاءُ وَالْفُقَهَاءُ "جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٤١)(١١٠٨) وسنده واه لا يحتج به وقد جاء عن عَبْدِ الرَّزَّاقِ؛قَالَ:سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ:صِنْفَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلُحَا صَلَحَ النَّاسُ:الْقُرَّاءُ،وَالْأُمَرَاءُ.المجالسة وجواهر العلم (٢/ ٣٠٨)(٤٦٩) صحيح مقطوع

هَذَا لاَ يَحِلُّ،هَذَا مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ»،فَتَكَلَّمَتْ،فَقَالَتْ:مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:«امْرُؤٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ»،قَالَتْ:أَيُّ المُهَاجِرِينَ؟ قَالَ:«مِنْ قُرَيْشٍ»،قَالَتْ:مِنْ أَيِّ قُرَيْشٍ أَنْتَ؟ قَالَ:«إِنَّكِ لَسَئُولٌ،أَنَا أَبُو بَكْرٍ»،قَالَتْ:مَا بَقَاؤُنَا عَلَى هَذَا الأَمْرِ الصَّالِحِ الَّذِي جَاءَ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ:«بَقَاؤُكُمْ عَلَيْهِ مَا اسْتَقَامَتْ بِكُمْ أَئِمَّتُكُمْ»،قَالَتْ:وَمَا الأَئِمَّةُ؟ قَالَ:«أَمَا كَانَ لِقَوْمِكِ رُءُوسٌ وَأَشْرَافٌ،يَأْمُرُونَهُمْ فَيُطِيعُونَهُمْ؟» قَالَتْ:بَلَى،قَالَ:«فَهُمْ أُولَئِكِ عَلَى النَّاسِ»[٥٨٩]

وفي السنن الكبرى للبيهقي عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ مَوْتِهِ:" اعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ لَنْ يَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا اسْتَقَامَتْ لَهُمْ وُلَاتُهُمْ وَهُدَاتُهُمْ "[٥٩٠]

وعَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ :قَالَ حُذَيْفَةُ :إِذَا كَانَ وَالِي الْقَوْمِ خَيْرًا مِنْهُمْ لَمْ يَزَالُوا فِي عَلْيَاءَ،وَإِذَا كَانَ وَالِيهُمْ شَرًّا مِنْهُمْ أَوْ قَالَ شَرُّهُمْ لَمْ يَزْدَادُوا إِلَّا سفالا "[٥٩١]

الشرط الرابع:أن يكون الخليفة من صميم قريش

أن يكون الخليفة من صميم قريش،عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَلَغَ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ عِنْدَهُ فِي وَفْدٍ مِنْ قُرَيْشٍ:أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَيَكُونُ مَلِكٌ مِنْ قَحْطَانَ،فَغَضِبَ مُعَاوِيَةُ،فَقَامَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِنْكُمْ يَتَحَدَّثُونَ أَحَادِيثَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ،وَلاَ تُؤْثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأُولَئِكَ جُهَّالُكُمْ،فَإِيَّاكُمْ وَالأَمَانِيَّ الَّتِي تُضِلُّ أَهْلَهَا،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لاَ يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ،إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ،مَا أَقَامُوا الدِّينَ» رواه البخاري[٥٩٢].

---

[٥٨٩] - صحيح البخاري (٥/ ٤٢)(٣٨٣٤)

[ش (أحمس) اسم قبيلة.(مصمتة) صامتة ساكنة.(هذا) ترك الكلام.(لسؤول) كثيرة السؤال.(الأمر الصالح) الإسلام وما فيه من العدل ومكارم الأخلاق]

[٥٩٠] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٢٨١)(١٦٦٥١) صحيح

[٥٩١] - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١/ ٢٨٧) فيه انقطاع

[٥٩٢] - صحيح البخاري (٤/ ١٧٩)(٣٥٠٠)

[ش (الأماني) جمع أمنية وهي ما يؤمله الإنسان ويرغب أن يحصل له في مستقبل الأيام.(الأمر) الخلافة والإمارة.(كبه الله) أذله وخذله وألقاه منكوسا في جهنم.(ما أقاموا الدين) أي تجب طاعتهم وعدم منازعتهم طالما أنهم يقيمون شرع الله عز وجل ويلتزمون حدوده فإن قصروا في ذلك أو تجاوزوه جازت منازعتهم وسقطت طاعتهم]

"وَيُشْتَرَطُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ أَنْ يَكُونَ الإِمَامُ قُرَشِيًّا لِحَدِيثِ :الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ[٥٩٣] وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلاَّنِيُّ،وَاحْتَجُّوا بِقَوْل عُمَرَ :لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ،وَلاَ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ هَاشِمِيًّا وَلاَ عَلَوِيًّا بِاتِّفَاقِ فُقَهَاءِ الْمَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ،لأَنَّ الثَّلاَثَةَ الأُوَل مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَمْ يَكُونُوا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ،وَلَمْ يَطْعَنْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي خِلاَفَتِهِمْ،فَكَانَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ[٥٩٤]

"قلت :هذا منوط بإقامتهم للدين،وبحال الأمة الطبيعي،وأما في غير هذه الحالة،فتجوز خلافة كل مسلم يحكم بما أنزل الله،وهو الشرط الأساسي الذي لا يمكن التجاوز عنه،فعَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَدَّتِي،تُحَدِّثُ،أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ،وَهُوَ يَقُولُ:«وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[٥٩٥]

(إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ) أَيْ:أَمْرَ الْإِمَارَةِ (فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ)،أَيْ:لَا يُخَالِفُهُمْ (إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ) أَيْ:أَسْقَطَهُ،وَفِي رِوَايَةٍ:إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ (عَلَى وَجْهِهِ):وَالْمَعْنَى أَذَلَّهُ وَأَهَانَهُ (مَا أَقَامُوا)،أَيْ:قُرَيْشٌ (الدِّينَ)،أَيْ:أَحْكَامَ دِينِ الْإِسْلَامِ،ثُمَّ مَا:مَصْدَرِيَّةٌ وَالْوَقْتُ مُقَدَّرٌ،وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ:كَبَّهُ اللَّهُ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ أَيْ؟ مُدَّةَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ،وَقِيلَ:الْمُرَادُ الصَّلَاةُ لِرِوَايَةِ:مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ،لَكِنْ عَلَى هَذَا إِنَّمَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى إِذَا عُلِّقَ قَوْلُهُ:مَا أَقَامُوا بِكَبِّهِ إِلَّا بِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ؛لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُقِمِ الصَّلَاةَ وَلَمْ يُصْرَفْ عَنْهُ الْأَمْرُ،كَذَا قَالَهُ التُّورِبِشْتِيُّ،وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اخْتِصَاصِ الْإِمَامَةِ بِقُرَيْشٍ،وَهُمْ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ،وَجَمِيعُ بُطُونِهَا فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ،وَلَعَلَّ ذَلِكَ لِعِلْمِهِ - ﷺ- أَنَّهُ يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ هُوَ جَامِعٌ لِأَوَامِرِ الْمُلْكِ وَالدِّينِ وَصَالِحٌ لِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ.وَفِي شَرْحِ الطِّيبِيِّ،قَالَ الْمُظْهِرِيُّ:الْخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ وَلَا يُخَالِفُهُمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَذَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى،مَا دَامُوا يُحَافِظُونَ الدِّينَ اه كَلَامُهُ.

وَيُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ التُّورِبِشْتِيِّ أَنَّ قَوْلَهُ:مَا أَقَامُوا الدِّينَ إِذَا عُلِّقَ بِكَبِّهِ يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى إِذَا حُمِلَ الدِّينُ عَلَى الصَّلَاةِ،وَأَمَّا إِذَا حُمِلَ عَلَى الدِّينِ بِأُصُولِهِ وَتَوَابِعِهَا.فَلَا،لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ غَيَّرَ وَبَدَّلَ وَلَمْ يُصْرَفْ عَنْهُ الْأَمْرُ،وَقِيلَ:مَعْنَى الْحَدِيثِ لَا يُخَالِفُ قُرَيْشًا أَحَدٌ فِي الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ فِي الدِّينِ بِأَنْ أَرَادُوا نَقْضَهُ وَبُطْلَانَهُ،وَقُرَيْشٌ تُرِيدُ إِقَامَتَهُ وَإِمْضَاءَهُ إِلَّا أَذَلَّهُ اللَّهُ وَقَهَرَهُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَاللَّفْظُ لَا يُسَاعِدُ إِلَّا مَا عَلَيْهِ لِيَظْهَرَ وَهُوَ أَظْهَرُ.أَقُولُ:الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّلَاةِ الدِّينُ،وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِهَا لِأَنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ،وَلِكَوْنِهَا أُمَّ الْعِبَادَاتِ،وَأَنَّهَا تَنْهَى عَنِ السَّيِّئَاتِ أَوْ ذَكَرَهَا عَلَى مِنْوَالِ الْمِثَالِ أَيِ الصَّلَاةَ وَنَحْوَهَا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٨٦٣)

[٥٩٣] - المسند الجامع (٢/ ٣٤٦)(١٣١٥) والمسند الجامع (١٥/ ٤٩٢)(١١٨٥٣) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٢٨٥)(٣٣٠٥٥) وهو صحيح مشهور

[٥٩٤] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ٢١٩)

[٥٩٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٨)٣٧ - (١٨٣٨)

وعَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ الْأَحْمَسِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَتْنِي جَدَّتِي وَاسْمُهَا أُمُّ حُصَيْنٍ الْأَحْمَسِيَّةُ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«إِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ يَأْخُذُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[٥٩٦]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ الْحُصَيْنِ،عَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ أَنَّهَا حَدَّثَتْهُ،قَالَتْ:حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ،فَرَأَيْتُ أُسَامَةَ أَوْ بِلَالًا يَقُودُ بِخِطَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَالْآخَرَ رَافِعُ ثَوْبَهُ يَسْتُرُهُ بِهِ مِنَ الْحَرِّ،حَتَّى رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ،ثُمَّ انْصَرَفَ،فَوَقَفَ النَّاسُ وَقَدْ جَعَلَ ثَوْبَهُ مِنْ تَحْتِ إِبْطِهِ الْأَيْمَنِ عَلَى عَاتِقِهِ الْأَيْسَرِ،قَالَ:فَرَأَيْتُ تَحْتَ غُضْرُوفِهِ الْأَيْمَنِ كَهَيْئَةِ جُمْعٍ،ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلًا كَثِيرًا،وَكَانَ فِيمَا يَقُولُ ﷺ:«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ،فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا»،ثُمَّ قَالَ:«هَلْ بَلَّغْتُ؟ »[٥٩٧]

ويؤيد ذلك ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي بَيْتٍ،فَكُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا تَأَخَّرَ عَنْ مَجْلِسِهِ لِيَجْلِسَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَامَ عَلَى الْبَابِ،فَقَالَ:" الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ،وَلَهُمْ حَقٌّ،وَلِي حَقٌّ مَا فَعَلُوا ثَلَاثًا:إِنْ حَكَمُوا عَدَلُوا،وَإِنْ عَاهَدُوا وَفَّوْا،وَإِنِ اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا،فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ "[٥٩٨]

وعَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فِي الْجَنَّةِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:«الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ أَبْرَارُهَا أُمَرَاءُ أَبْرَارِهَا ،وَفُجَّارُهَا أُمَرَاءُ فُجَّارِهَا ،وَلِكُلٍّ حَقٌّ،فَآتُوا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ،وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ ،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا لَمْ يُخَيِّرْ أَحَدَكُمْ بَيْنَ إِسْلَامِهِ وَبَيْنَ ضَرْبِ عُنُقِهِ ،فَإِنْ خُيِّرَ بَيْنَ إِسْلَامِهِ وَبَيْنَ ضَرْبِ عُنُقِهِ فَلْيَمْدُدْ عُنُقَهُ ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ ،فَلَا دُنْيَا وَلَا آخِرَةَ بَعْدَ ذَهَابِ إِسْلَامِهِ (دينه) »[٥٩٩]

---

[٥٩٦] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٠٢)(٧٠٩٧) صحيح

[٥٩٧] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٢٧)(٤٥٦٤) صحيح

(يَقُودُكُمْ) أَيْ يَأْمُرُكُمْ (بِكِتَابِ اللَّهِ) أَيْ بِحُكْمِهِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى حُكْمِ الرَّسُولِ قَالَ الْقَاضِي:أَيْ يَسُوقُكُمْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى مَا هُوَ مُقْتَضَى كِتَابُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ (فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا) فِيهِ حَثٌّ عَلَى الْمُدَارَاةِ وَالْمُوَافَقَةِ مَعَ الْوُلَاةِ عَلَى التَّحَرُّزِ عَمَّا يُثِيرُ الْفِتْنَةَ وَيُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٩٢)

[٥٩٨] - المعجم الكبير للطبراني (١/ ٢٥٢)(٧٢٥) صحيح

[٥٩٩] - المعجم الصغير للطبراني (١/ ٢٦٠)(٤٢٥) حسن

وَعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:كُنَّا فِي بَيْتٍ فِيهِ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ،فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَجَعَلَ كُلُّ رَجُلٍ يُوَسِّعُ رَجَاءَ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى جَنْبِهِ،ثُمَّ قَالَ إِلَى الْبَابِ،فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيْهِ،فَقَالَ:«الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ،وَلِي عَلَيْكُمْ حَقٌّ عَظِيمٌ،وَلَهُمْ ذَلِكَ مَا فَعَلُوا ثَلَاثًا:إِذَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا،وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا،وَإِذَا عَاهَدُوا وَفُّوا،فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[600]

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ،إِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا،وَإِذَا عَاهَدُوا وَفَوْا،وَإِنِ اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا،فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ»[601]

قال القاري :"(وَإِنْ كَانَ)،أَي:الْمُطَاعُ يَعْنِي مَنْ وَلَّاهُ الْإِمَامُ عَلَيْكُمْ (عَبْدًا حَبَشِيًّا) :فَأَطِيعُوهُ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى نَسَبِهِ بَلِ اتَّبِعُوهُ عَلَى حَسَبِهِ،وَلَفْظُ الْأَرْبَعِينَ:وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ،أَيْ:صَارَ أَمِيرًا أَدْنَى الْخَلْقِ فَلَا تَسْتَنْكِفُوا عَنْ طَاعَتِهِ،أَوْ وَلَوِ اسْتَوْلَى عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَأَطِيعُوهُ مَخَافَةَ إِثَارَةِ الْفِتَنِ،فَعَلَيْكُمُ الصَّبْرَ وَالْمُدَارَاةَ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ،وَقِيلَ:هَذَا وَارِدٌ عَلَى سَبِيلِ الْحَثِّ وَالْمُبَالَغَةِ عَلَى طَاعَةِ الْحُكَّامِ لَا التَّحْقِيقِ،كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ مِثْلَ مَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» " وَقِيلَ:ذُكِرَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَلِ إِذْ لَا تَصِحُّ خِلَافَتُهُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ» ".

قُلْتُ:لَكِنْ تَصِحُّ إِمَارَتُهُ مُطْلَقًا،وَكَذَا خِلَافَتُهُ تَسَلُّطًا كَمَا هُوَ فِي زَمَانِنَا فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ،وَكَأَنَّ ذِكْرَ الْحَبَشِيِّ لِكَوْنِهِ الْغَالِبَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ وَإِلَّا فَغَيْرُهُ كَالزِّنْجِيِّ أَخَسُّ مِنْهُ فَكَانَ أَنْسَبَ بِالْغَايَةِ،أَوِ الْمُرَادُ بِالْحَبَشِيِّ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ فَيَشْمَلُ الزِّنْجِيَّ وَالْهِنْدِيَّ ثُمَّ التُّرْكِيُّ يُعْلَمُ بِالْأَوْلَى "[602]

قلت :

وقد زلت أقدام كثير من المؤلفين ممن كتب في نظام الحكم في الإسلام حول بعض شروط الخليفة،فوقعوا بأخطاء جسيمة فذكروا الشروط المثالية للخليفة،و لم يراعوا الواقع العملي للأمة

---

[600] - المعجم الأوسط (٦/ ٣٥٧)(٦٦١٠) صحيح

[601] - مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٥٩٥)(٢٢٤٧) صحيح

[602] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٥٢)

وهو الذي يجب أن تصاغ له الأحكام الشرعية من خلال السياسة الشرعية والأخذ بيدهم نحو الأفضل والأحسن.."[٦٠٣]

والخامس:أن يكون الإمام حرا

أن يكون الإمام حرا." فَلاَ يَصِحُّ عَقْدُ الإْمَامَةِ لِمَنْ فِيهِ رِقٌّ،لأِنَّهُ مَشْغُولٌ فِي خِدْمَةِ سَيِّدِهِ."[٦٠٤]

والسادس:أن يكون مسلما

أن يكون مسلما،فإن الله تعالى قطع الموالاة بين المسلمين والكافرين،فلا ولاية لكافر على مسلم." لأِنَّهُ شَرْطٌ فِي جَوَازِ الشَّهَادَةِ.وَصِحَّةُ الْوِلاَيَةِ عَلَى مَا هُوَ دُونَ الإْمَامَةِ فِي الأْهَمِّيَّةِ.قَال تَعَالَى:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } [النساء:١٤١]الإْمَامَةُ كَمَا قَال ابْنُ حَزْمٍ:أَعْظَمُ (السَّبِيل)،وَلِيُرَاعَى مَصْلَحَةُ الْمُسْلِمِينَ."[٦٠٥]

والسابع:أن يكون ذكرا

أن يكون ذكرا،" لِأَنَّ هَذَا الْمَنْصِبَ تُنَاطُ بِهِ أَعْمَالٌ خَطِيرَةٌ وَأَعْبَاءٌ جَسِيمَةٌ تَتَنَافَى مَعَ طَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ،وَفَوْقَ طَاقَتِهَا .فَيَتَوَلَّى الإِمَامُ قِيَادَةَ الْجُيُوشِ وَيَشْتَرِكُ فِي الْقِتَال بِنَفْسِهِ أَحْيَانًا "[٦٠٦].

وقد ذَهَبَ جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى اشْتِرَاطِ الذُّكُورَةِ لِصِحَّةِ تَوَلِّي الْوِلاَيَاتِ الْعَامَّةِ،وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء:٣٤] حَيْثُ دَل عَلَى أَنَّ الرَّجُل هُوَ الْقَائِمُ عَلَى الْمَرْأَةِ،فَكَيْفَ تَقُومُ هِيَ عَلَى شُؤُونِ الأُمَّةِ ؟،وَلِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ،قَالَ:لَقَدْ نَفَعَنِي اللَّهُ بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيَّامَ الجَمَلِ،بَعْدَ مَا كِدْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِأَصْحَابِ الجَمَلِ فَأُقَاتِلَ مَعَهُمْ،قَالَ:لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ،قَدْ مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَى،قَالَ:«لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» رواه البخاري.[٦٠٧]

---

[٦٠٣] - انظر كتاب:السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيقي ط٢ -أقسام الناس في الملك والمال

[٦٠٤] - الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢١٩)

[٦٠٥] - الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢١٨)

[٦٠٦] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ٢١٨)

[٦٠٧] - صحيح البخاري (٦/ ٨)(٤٤٢٥)

فَقَدْ قَرَنَ الرَّسُول عَلَيْه الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَدَمَ الْفَلاَحِ لِلأُْمَّةِ بِتَوَلِّي الْمَرْأَة شُؤُونَهَا .[٦٠٨]

(قَالَ لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا) بِالتَّشْدِيدِ ؛ أَيْ فَوَّضُوا (أَمْرَهُمْ) ؛ أَيْ أَمْرَ مُلْكِهِمْ (امْرَأَةً) فِي شَرْحِ السُّنَّةِ ؛ لَا تَصْلُحُ الْمَرْأَةُ أَنْ تَكُونَ إِمَامًا،وَلَا قَاضِيًا ؛ لِأَنَّهُمَا مُحْتَاجَانِ إِلَى الْخُرُوجِ لِلْقِيَامِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ،وَالْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ لَا تَصْلُحُ لِذَلِكَ،وَلِأَنَّ الْمَرْأَةَ نَاقِصَةٌ ؛ وَالْقَضَاءُ مِنْ كَمَالِ الْوِلَايَاتِ ؛ فَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا الْكَامِلُ مِنَ الرِّجَالِ.[٦٠٩]

وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ امْرَأَةٌ»[٦١٠]

وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ فَتْحٌ فَسَجَدَ فَجَعَلَ يَسْأَلُ الرَّسُولَ،وَعِنْدَهُ خَبَرُهُمْ مَنْ أَمَّرُوا؟ أَوْ مَنْ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ؟ فَقَالَ:امْرَأَةً،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلَكَتِ الرِّجَالُ حِينَ مَلَكَتِ النِّسَاءُ»[٦١١]

[ش (أيام الجمل) أي كان إنتفاعي بتلك الكلمة أيام وقعة الجمل التي وقعت بين علي رضي الله عنه ومن معه وعائشة رضي الله عنها ومن معها وسميت بذلك لأن عائشة رضي الله عنها كانت تركب في هودج على جمل كان مرجع الناس ورمز ارتباطهم وحوله كانوا يلتفون وعن التي تركبه يدافعون وإليه الخصم في ضرباقم يسددون.وكان إنتفاع أبي بكرة رضي الله عنه بتلك الكلمة أن كفته عن الخروج والمشاركة في الفتنة.(لن يفلح) لا يظفرون بالخير ولا يبلغون ما فيه النفع لأمتهم.(ولوا أمرهم امرأة) جعلوا لها ولاية عامة من رئاسة أو وزارة أو إدارة أو قضاء]

[٦٠٨] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤٥/ ١٤٢)

[٦٠٩] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٦)

[٦١٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٣٧٥)(٤٥١٦) صحيح

وهذا الحديث جاء عَلَى مَعْنَى الْإِمْرَةِ،لِأَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ لَمَّا تُوُفِّيَ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ امْرَأَةٌ " عَلَى مَعْنَى الْإِمْرَةِ لَا عَلَى مَعْنَى الْمَشُورَةِ "الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٣٠٨)

[٦١١] - مسند البزار = البحر الزخار (٩/ ١٣٧)(٣٦٩٢) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٤/ ١٠٦)(٢٠٤٥٥) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٣٢٣)(٧٧٨٩) حسن

وأعله الألباني في ضعيفته بعلتين (٤٣٦) الأولى:ببكار بن عبد العزيز بن أبي بكرة ونقل عن الميزان:قال ابن معين:ليس بشيء وقال ابن عدي:هو من جملة الضعفاء الذين يكتب حديثهم" وفي الضعفاء:ضعيف مشاه ابن عدي"

والثانية أنه ليس بصحيح المعنى على إطلاقه .

قلت:وكلامه خطأ في العلتين:

أما الأولى:فقد قال عنه في التقريب (٧٣٥) صدوق يهم وفي التهذيب:قال ابن معين:ليس بشيء وفي رواية أخرى:صالح،وقال ابن عدي:أرجو أنه لا بأس به وهو من جملة الضعفاء الذين يكتب حديثهم،وقال البزار:ليس به بأس وقال مرة:ضعيف،وذكره ابن حبان في الثقات ...التهذيب ٤٧٨/١ و٤٧٩ وانظر الكامل ٤٣/٢ فما ذكره عن العلة الأولى يتهاوى بعد هذه النقول فالرجل مختلف فيه والراجح أنه لا بأس به

والثامن:أن يكون سليم الأعضاء

أن يكون سليم الأعضاء،ليس مصابا بالزمانة أو العمى أو نحوه،لقول الله تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ}.

قلت :السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَسَلاَمَةُ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ .ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهَا شُرُوطُ انْعِقَاد،فَلاَ تَصِحُّ إِمَامَةُ الأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَمَقْطُوعِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ ابْتِدَاءً،وَيَنْعَزِل إِذَا طَرَأَتْ عَلَيْهِ،لأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْقِيَامِ بِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ،وَيَخْرُجُ بِهَا عَنْ أَهْلِيَّةِ الإِمَامَةِ إِذَا طَرَأَتْ عَلَيْهِ .

وَذَهَبَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُشْتَرَطُ ذَلِكَ،فَلاَ يَضُرُّ الإِمَامَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ فِي خَلْقِهِ عَيْبٌ جَسَدِيٌّ أَوْ مَرَضٌ مُنَفِّرٌ،كَالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَقَطْعِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْجَدْعِ وَالْجُذَامِ،إِذْ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ قُرْآنٌ وَلاَ سُنَّةٌ وَلاَ إِجْمَاعٌ ."[612]

والتاسع والعاشر:أن يكون بالغا عاقلا.

"فقد أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى اشْتِرَاطِ الْبُلُوغِ لِصِحَّةِ تَوَلِّي جَمِيعِ الْوِلاَيَاتِ،لأَنَّ الصَّغِيرَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَنْ يَلِي أَمْرَهُ،فَلاَ يَصِحُّ أَنْ يَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ .يَدُل عَلَى ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاث:عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ،وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ،وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ "[613] حَيْثُ أَفَادَ عَدَمَ تَكْلِيفِ الصَّغِيرِ لأَنَّهُ لاَ يَعْقِل الأُمُورَ،وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ لَمْ يَصِحَّ تَوْلِيَتُهُ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ،وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ رَأْسِ السَّبْعِينَ وَمِنْ إِمْرَةِ الصِّبْيَانِ.[614]

وأما الثانية: لم يقل أحد من أهل العلم أنه يؤخذ به على إطلاقه وهذا تفسير غير صحيح بل هو محمول على طاعة النساء في غير مرضاة الله تعالى

[612] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ٢١٩) وحاشية الطحطاوي ١ / ٢٣٨،وابن عابدين ١ / ٣٦٨،و٣ / ٣١٠،والدسوقي ٤ / ١٩٨،وشرح الروض ٤ / ١١١،والقليوبي ٤ / ٤،والفصل في الملل والنحل ٤ / ١٦٧

[613] - سنن النسائي (٦/ ١٥٦)(٣٤٣٢) صحيح

[614] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢١/ ٨٦)(٣٨٣٩٠) حسن لغيره والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ٢١٨)

وفي هذا الفصل نذكر بعض الواجبات الأساسية على الإمام على سبيل الاختصار:

وأولها:إقامة الدين كاملا في جميع شؤون الحياة

إقامة الدين كاملا في جميع شؤون الحياة،والدعوة إلى دين الإسلام في داخل البلاد وخارجها،وحفظ الدين ونصرته،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،والتصدي لأهل النفاق والبدع الذين يسعون إلى الإفساد في الأرض،وصد الناس عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ،وقد أمر الله تعالى بالدخول في الإسلام كافة،فقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)} [البقرة:٢٠٨،٢٠٩]،والسلم هو الإسلام

يَدْعُو اللهُ الْمُؤْمِنينَ إِلَى الأَخْذِ بِجَميعِ عُرَى الإِسْلاَمِ وَشَرَائِعِهِ،وَالعمَلِ بِجَميعِ أَوَامِرِهِ،وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ،وَيُرشِدُهُمْ تَعَالَى إِلَى أَنَّهُ مِنْ شَأنِ الْمُؤْمِنينَ الاتِّفَاقُ والاتِّحادُ،لاَ التَّفَرُّقُ وَالانْقِسَامُ.

ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنينَ بِأَنْ يَجْتَنِبُوا مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ الشَّيْطَانُ لأَنَّهُ يَأْمُرُ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ،وَيَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ،وَلِهذَا كَانَ الشَّيْطَانُ عَدُوّاً بَيِّنَ العَدَاوَةِ لِلإِنْسَانِ.

فَإِنْ عَدَلْتُمْ عَنِ الحَقِّ،وَحِدْتُمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الذِي دَعَاكُمُ اللهُ إِلَيهِ،وَهُوَ السِّلْمُ،وَسِرْتُمْ فِي طَرِيقِ الشَّيْطَانِ،وَهُوَ طَرِيقُ الخِلاَفِ وَالافْتِرَاقِ،بَعْدَمَا قَامَتِ الحُجَّةُ عَلَى أَنّ صِرَاطَ اللهِ هُوَ طَرِيقُ الحَقِّ،فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ فِي انتِقَامِهِ،لاَ يَفُوتُهُ هَارِبٌ،وَلاَ يَغْلِبُهُ غَالِبٌ،حَكِيمٌ فِي أَحْكَامِهِ،وَفِي نَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ.[٦١٥]

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا {فِي السِّلْمِ كَافَّةً} أي:في جميع شرائع الدين،ولا يتركوا منها شيئا،وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه،إن وافق الأمر المشروع هواه فعله،وإن

[٦١٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٥،بترقيم الشاملة آليا)

خالفه،تركه،بل الواجب أن يكون الهوى،تبعا للدين،وأن يفعل كل ما يقدر عليه،من أفعـــال الخير،وما يعجز عنه،يلتزمه وينويه،فيدركه بنيته.

ولما كان الدخول في السلم كافة،لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشـــيطان قـــال:{وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} أي:في العمل بمعاصي الله {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} والعدو المـــبين،لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء،وما به الضرر عليكم.

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل،قال تعالى:{فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْـــدِ مَـــا جَـــاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ} أي:على علم ويقين {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

وفيه من الوعيد الشديد،والتخويف،ما يوجب ترك الزلل،فإن العزيز القاهر الحكيم،إذا عصـــاه العاصي،قهره بقوته،وعذبه بمقتضى حكمته فإن من حكمته،تعذيب العصاة والجناة.[616]

يا أيها الذين آمنوا بالألسنة والقلوب،دوموا على الإسلام فيما تستأنفون مـــن أيـــامكم،ولا تخرجوا عن شيء من شرائعه،بل خذوا الإسلام بجملته وتفهموا المراد منه،بأن تنظروا في كـــل مسألة إلى النصوص القولية والسنة المتبعة فيها وتعملوا بذلك،لا أن يأخذ كل واحد بكلمة أو سنة ويجعلها حجة على الآخر،وإن أدى إلى ترك ما يخالفها من النصوص والسنن،وبهذا يرتفع الشقاق والتنازع ويعتصم المسلمون بحبل الوحدة الإســـلامية الـــتي أمرنـــا الله باتباعهـــا في قوله:«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا» ونهانا عن ضـــدها في قولـــه:«وَلا تَنـــازَعُوا فَتَفْشَلُوا» وقوله ﷺ «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض» .

ولكنّ المسلمين قد خالفوا هذا فتفرّقوا وتنازعوا وشاقّ بعضـــهم بعضـــا،واتخذوا مـــذاهب متفرّقة،كل فريق يتعصب لمذهب ويعادى سائر إخوانه المسلمين زعما منه أنه ينصر الدين وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين،فهذا سنّى يقاتل شيعيا،وهذا شافعى يغرى التتار بالحنفية،وهؤلاء مقلّدة الخلف يحادّون من اتبع طريق السلف.

(وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ) أي ولا تتبعوا سبله في التفرق في الدين أو في الخلاف ســـبله التي يزينها للناس،ويسوّل لهم فيها المنافع والمصالح،فقد كانت اليهود أمة واحدة مجتمعة علـــى كتاب واحد،فوسوس لهم الشيطان فتفرقوا وجعلوا لهم مذاهب وشيعا،وأضافوا إلى الكتاب ما

---

[616] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٤)

أضافوا،وحرّفوا من حكمه ما حرّفوا،فسلّط الله عليهم أعداءهم فمزقوهم كل ممزّق،وهكـــذا فعل غيرهم من أهل الأديان،كأهم رأوا دينهم ناقصا فكملوه،وقليلا فكثّروه فثقل عليهم بذلك فوضعوه،فذهب الله بوحدهم و لم تغن عنهم كثرهم،إذ سلّط عليهم الأعداء وأنزل هم البلاء.

ثم ذكر السبب في النهى عن اتباع خطوات الشيطان فقال:(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) أي إنه ظـــاهر العداوة لكم،فإن جميع ما يدعو إليه ظاهر البطلان،بيّن الضرر لمن تأمل فيـــه وتفكـــر،ومن لم يدرك ذلك في مبدأ الخطوات أدركه فى الغايات،حين يذوق مرارة العاقبة،فلا عذر لمن بقـــي على ضلالته بعد تذكير الله وهداية عباده إلى سبل الخير،وتحذيره إياهم من سلوك طرق الشر.

ثم توعدهم إذا هم حادوا عن الهج السويّ والطريق المستقيم فقال:(فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْـــدِ مـــا جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أي فإن حدتم عن صراط الله وهو السلم،وسرتم في طريق الشيطان وهى طريق الخلاف والافتراق،بعد أن بيّن لكم عداوته،وهاكم عن اتبـــاع طرقه وخطواته،فاعلموا أن الله يأخذكم أخذ عزيز مقتدر،فهو عزيز لا يغلب على أمره،حكيم لا يهمل شأن خلقه،ولحكمته قد وضع تلك السنن في الخليقة،فجعل لكل ذنب عقوبة،وجعل العقوبة على ذنوب الأمم ضربة لازب في الدنيا،و لم يؤخرها حتى تحلّ ها في الحياة الأخرى.ولا تقوم للأمم قائمة إلا إذا أقامت العدل بين أفرادها،وكانت صالحة لعمارة الأرض كمـــا قـــال تعالى:«وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّـــالِحُونَ» وهكـــذا الأفراد إذا لم ينهجوا النهج السوىّ ويتحلّوا بفاضل الأخلاق،فلن يوفّقـــوا في دنيـــاهم ولا في أخراهم.[617]

إها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان.هذا الوصف المحبب إليهم،والذي يميزهم ويفردهم،ويصـــلهم بالله الذي يدعوهم ..دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ..

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياهم لله،في ذوات أنفســـهم،وفي الصـــغير والكبير من أمرهم.أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشـــزة مـــن تصـــور أو شعور،ومن نية أو عمل،ومن رغبة أو رهبة،لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه وقضاه.استســـلام

[617] - تفسير المراغي (٢/ ١١٤)

الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية.الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير،في الدنيا والآخرة سواء.

وتوجيه هذه الدعوة إلى الذين آمنوا إذ ذاك تشي بأنه كانت هنالك نفوس ما تزال يثور فيها بعض التردد في الطاعة المطلقة في السر والعلن.وهو أمر طبيعي أن يوجد في الجماعة إلى جانب النفوس المطمئنة الواثقة الراضية ..وهي دعوة توجه في كل حين للذين آمنوا ليخلصوا ويتجردوا وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد الله بهم،وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم،في غير ما تلجلج ولا تردد ولا تلفت.

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله سلام.عالم كله ثقة واطمئنان،وكله رضى واستقرار.لا حيرة ولا قلق،ولا شرود ولا ضلال.سلام مع النفس والضمير.سلام مع العقل والمنطق.سلام مع الناس والأحياء.سلام مع الوجود كله ومع كل موجود.سلام يرف في حنايا السريرة.وسلام يظلل الحياة والمجتمع.سلام في الأرض وسلام في السماء.وأول ما يفيض هذا السلام على القلب يفيض من صحة تصوره لله ربه،ونصاعة هذا التصور وبساطته ..

إنه إله واحد.يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه فلا تتفرق به السبل،ولا تتعدد به القبل ولا يطارده إله من هنا وإله من هناك – كما كان في الوثنية والجاهلية – إنما هو إله واحد يتجه إليه في ثقة وفي طمأنينة وفي نصاعة وفي وضوح.

وهو إله قوي قادر عزيز قاهر ..فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقة الوحيدة في هذا الوجود.

وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح.ولم يعد يخاف أحدا أو يخاف شيئا،وهو يعبد الله القوي القادر العزيز القاهر.ولم يعد يخشى فوت شيء.ولا يطمع في غير من يقدر على الحرمان والعطاء.

وهو إله عادل حكيم،فقوته وقدرته ضمان من الظلم،وضمان من الهوى،وضمان من البخس.وليس كآلهة الوثنية والجاهلية ذوات النزوات والشهوات.ومن ثم يأوي المسلم من إلهه إلى ركن شديد،ينال فيه العدل والرعاية والأمان.

وهو رب رحيم ودود.منعم وهاب.غافر الذنب وقابل التوب.يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

فالمسلم في كنفه آمن آنس،سالم غانم،مرحوم إذا ضعف،مغفور له متى تاب ..

وهكذا يمضي المسلم مع صفات ربه التي يعرفه بها الإسلام فيجد في كل صفة ما يؤنس قلبه،وما يطمئن روحه،وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام

كذلك يفيض السلام على قلب المسلم من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب.وبين الخالق والكون.وبين الكون والإنسان ..فالله خلق هذا الكون بالحق وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة.وهذا الإنسان مخلوق قصدا،وغير متروك سدى،ومهيأ له كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده،ومسخر له ما في الأرض جميعا.

وهو كريم على الله،وهو خليفته في أرضه.والله معينه على هذه الخلافة.والكون من حوله صديق مأنوس،تتجاوب روحه مع روحه،حين يتجه كلاهما إلى الله ربه.وهو مدعو إلى هذا المهرجان الإلهي المقام في السماوات والأرض ليتملاه ويأنس به.وهو مدعو للتعاطف مع كل شيء ومع كل حي في هذا الوجود الكبير،الذي يعج بالأصدقاء المدعوين مثله إلى ذلك المهرجان! والذين يؤلفون كلهم هذا المهرجان! والعقيدة التي تقف صاحبها أمام النبتة الصغيرة،وهي توحي إليه أن له أجرا حين يرويها من عطش،وحين يعينها على النماء،وحين يزيل من طريقها العقبات ..هي عقيدة جميلة فوق أنها عقيدة كريمة.عقيدة تسكب في روحه السلام وتطلقه يعانق الوجود كله ويعانق كل موجود ويشيع من حوله الأمن والرفق،والحب والسلام.

والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفي القلق والسخط والقنوط ..إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة ..إن الحساب الختامي هناك والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب.فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه.ولا قلق على الأجر إذا لم

يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس،فسوف يوفاه بميزان الله.ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد،فالعدل لا بد واقع.وما الله يريد ظلما للعباد.

والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات.

بلا تحرج ولا حياء.فهناك الآخرة فيها عطاء،وفيها غناء،وفيها عوض عما يفوت.وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة وأن يخلع التجمل على حركات المتسابقين وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود! ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنساني هي العبادة،وأنه مخلوق ليعبد الله ..من شأنها – ولا شك – أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضيء.ترفع شعوره وضميره،وترفع نشاطه وعمله،وتنظف وسائله وأدواته.فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه وهو يريد العبادة بالخلافة في الأرض وتحقيق منهج الله فيها.فأولى به ألا يغدر ولا يفجر وأولى به ألا يغش ولا يخدع وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة.وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل،وألا يعتسف الطريق،وألا يركب الصعب من الأمور.فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب في حدود الطاقة ..ومن شأن هذا كله ألا تثور في نفسه المخاوف والمطامع،وألا يستبد به القلق في أية مرحلة من مراحل الطريق.

فهو يعبد في كل خطوة وهو يحقق غاية وجوده في كل خطرة،وهو يرتقي صعدا إلى الله في كل نشاط وفي كل مجال.

وشعور المؤمن بأنه يمضي مع قدر الله،في طاعة الله،لتحقيق إرادة الله ..وما يسكبه هذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار والمضي في الطريق بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق وبلا قنوط من عون الله ومدده وبلا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء ..ومن ثم يحس بالسلام في روحه حتى وهو يقاتل أعداء الله وأعداءه.فهو إنما يقاتل لله،وفي سبيل الله،ولإعلاء كلمة الله ولا يقاتل لجاه أو مغنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة.

كذلك شعوره بأنه يمضي على سنة الله مع هذا الكون كله.قانونه قانونه،ووجهته وجهته.فلا صدام ولا خصام،ولا تبديد للجهد ولا بعثرة للطاقة.وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته،وتهتدي بالنور الذي يهتدي به،وتتجه إلى الله وهو معها يتجه إلى الله.

والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة.لا تتجاوز الطاقة ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ولا تنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثماني والروحي لا تلبيها في يسر وفي سماحة وفي رخاء ..ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه.يحمل منها ما يطيق حمله،ويمضي في الطريق إلى الله في طمأنينة وروح وسلام.

والمجتمع الذي ينشئه هذا المنهج الرباني،في ظل النظام الذي ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة،والضمانات التي يحيط بها النفس والعرض والمال ..كلها مما يشيع السلم وينشر روح السلام.

هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق.هذا المجتمع الذي حققه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صوره.ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب،تختلف درجة صفائه،ولكنه يظل في جملته خيرا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر،وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية! هذا المجتمع الذي تربطه آصرة واحدة – آصرة العقيدة – حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان،واللغات والألوان،وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان ..

هذا المجتمع الذي يسمع الله يقول له:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (١٠) سورة الحجرات ..والذي يرى صورته في قول رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».[٦١٨] ..

هذا المجتمع الذي من آدابه:{وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} (٨٦) سورة النساء ..{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا

[٦١٨] – صحيح مسلم– المكنز – (٦٧٥١)

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (١٨) سورة لقمان ..{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} (٣٤) سورة فصلت ..{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (١١) سورة الحجرات ..{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات ..

هذا المجتمع الذي من ضماناته:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} (٦) سورة الحجرات ..{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (٢٧) سورة النور ..وقول رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - «لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ.التَّقْوَى هَا هُنَا».وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ».[٦١٩]

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة ولا يتبجح فيه الإغراء،ولا تروج فيه الفتنة،ولا ينتشر فيه التبرج،ولا تتلفت فيه الأعين على العورات،ولا ترف فيه الشهوات على الحرمات،ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا ..هذا المجتمع الذي تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة،والذي يسمع الله -

[٦١٩] - صحيح مسلم- المكنز - (٦٧٠٦)

سبحانه – يقول:{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (١٩) سورة النور ..{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} (٢) سورة النور ..{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (٤) سورة النور

{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (٣٠) سورة النور ..{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٣١) سورة النور

والذي يخاطب فيه نساء النبي – أطهر نساء الأرض في أطهر بيت في أطهر بيئة في أطهر زمان {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)} سورة الأحزاب ..

وفي مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها،ويأمن الزوج على زوجته،ويأمن الأولياء على حرماتهم وأعراضهم،ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم.حيث لا تقع العيون على المفاتن،ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم.فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب ..بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن،ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان!

وأخيرا إنه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملا ورزقا،ولكل عـــاجز ضـــمانة للعـــيش الكريم،ولكل راغب في العفة والحصانة زوجة صالحة،والذي يعتبر أهل كل حـــي مســـؤولين مسؤولية جنائية لومات فيهم جائع حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية.

والمجتمع الذي تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكـــم التشـــريع،بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع.فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة،ولا يتسور على أحـــد بيتـــه،ولا يتجسس على أحد فيه متجسس،ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهبا والحدود حاضرة.

المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون.كما يقوم على المساواة والعدالة الصـــارمة التي يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شـــريعة الله لا بـــإرادة حـــاكم،ولا هـــوى حاشية،ولا قرابة كبير.

وفي النهاية المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية،الذي لا يخضع البشر فيه للبشـــر.إنمـــا يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشـــريعته وينفـــذون حـــاكمين ومحكـــومين حكـــم الله وشريعته.فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمام الله رب العالمين وأحكم الحـــاكمين،في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين ..

هذه كلها بعض معاني السلم الذي تشير إليه الآية وتـــدعو الـــذين آمنـــوا للـــدخول فيـــه كافة.ليسلموا أنفسهم كلها لله فلا يعود لهم منها شيء،ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ إنمـــا تعود كلها لله في طواعية وفي انقياد وفي تسليم ..

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعربد القلـــق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان،في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام،أو التي عرفتـــه ثم تنكـــرت له،وارتدت إلى الجاهلية،تحت عنوان من شتى العنوانات في جميع الأزمان ..هـــذه المجتمعـــات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخاء المادي والتقدم الحضاري،وسائر مقومات الرقي في عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلة الموازين.

وحسبنا مثل واحد مما يقع في بلد أوربي من أرقى بلاد العالم كله وهو «السويد».حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومي ما يساوي خمسمائة جنيه في العام.وحيث يستحق كل فـــرد

نصيبه من التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقدا والعلاج المجاني في المستشفيات.وحيث التعليم في جميع مراحله بالمجان،مع تقديم إعانات ملابس وقروض للطلبة المتفوقين وحيث تقدم الدولة حوالي ثلاثمائة جنيه إعانة زواج لتأثيث البيوت ..وحيث وحيث من ذلك الرخاء المادي والحضاري العجيب ..

ولكن ماذا؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادي والحضاري وخلو القلوب من الإيمان بالله؟

إنه شعب مهدد بالانقراض،فالنسل في تناقص مطرد بسبب فوضى الاختلاط! والطلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتبرج الفتن وحرية الاختلاط! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المسكرات والمخدرات ليعوض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة.والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب ..ثم الانتحار ..والحال كهذا في أمريكا ..والحال أشنع من هذا في روسيا ..

إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة.فلا يذوق طعم السلم الذي يدعى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة،ولينعموا فيه بالأمن والظل والراحة والقرار:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ..وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ.إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» ..

ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ...حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان.فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان.إما الدخول في السلم كافة،وإما اتباع خطوات الشيطان.إما هدى وإما ضلال.إما إسلام وإما جاهلية.إما طريق الله وإما طريق الشيطان.وإما هدى الله وإما غواية الشيطان وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه،فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدا منها،أو يخلط واحدا منها بواحد ..كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته،ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته،ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر ..إن هذا في سبيل الشيطان،سائر على خطوات الشيطان ..

ليس هنالك حل وسط،ولا منهج بين بين،ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هنـــاك! إنمـــا هناك حق وباطل.هدى وضلال.إسلام وجاهلية.منهج الله أو غوايـــة الشـــيطان.والله يـــدعو المؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة ويحذرهم في الثانيـــة مـــن اتبـــاع خطـــوات الشيطان.ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم،ويستثير مخاوفهم بتذكير هـــم بعـــداوة الشـــيطان لهم،تلك العداوة الواضحة البينة،التي لا ينساها إلا غافل.والغفلة لا تكون مع الإيمان.ثم يخوفهم عاقبة الزلل بعد البيان:«فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» .. وتذكيرهم بأن الله «عَزِيزٌ» يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة،وأنهم يتعرضون لقوة الله حين يخالفون عن توجيهه ..وتذكير هم بأنه «حَكِيمٌ» ..فيه إيحاء بأن ما اختاره لهم هو الخير،ومـــا نهاهم هو الشر،وأنهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره ولا ينتهون عمـــا نهـــاهم عنـــه ..فالتعقيب بشطريه يحمل معنى التهديد والتحذير في المقام ..[٦٢٠]

وقال تعالى:{ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُـــوكَ عَـــنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) } [المائدة:٤٩،٥٠]

وَفِي هَذِه الآيَةِ يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ الحُكْمِ بَيْنَ أَهْلِ الكِتَابِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِ فِي القُرْآنِ،وَيُحَذِّرُهُ مِنْ أَنْ يَفْتِنَهُ اليَهُودُ،وَيَصْرِفُوهُ عَنِ الحَقِّ،وَيَأْمُرُهُ بِألاَّ يَغْتَرَّ بِهِمْ،فَهُمْ كَذَبَةٌ كَفَرَةٌ.ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ:فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْ حُكْمِكَ بَعْدَ تَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ،فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ إِرَادَةِ اللهِ،وَمَشيئَتِهِ،وَحِكْمَتِهِ فِيهِمْ،أنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الهُدَى لِيُعَذِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ،وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ،مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ.

أَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ حُكْمِكَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ؟ فَهَلْ يُرِيدُونَ حُكْماً كَحُكْمِ الجَاهِلِيَّةِ المَبْنِي عَلَى التَحَيُّـــزِ وَالهَوى،وَتَرْجِيحِ جَانِبِ القَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً،وَمَنْ أَعْـــدَلُ مِنْـــهُ فَصْلاً؟ لِمَنْ عَقَلَ شَرْعَ اللهِ وَآمَنَ بِهِ؟[٦٢١]

---

[٦٢٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٠)

[٦٢١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧١٩،بترقيم الشاملة آليا)

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) أي لا أحد أحسن حكما من حكم الله لقوم يوقنون بدينه ويذعنون لشرعه،لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق من الحاكم،والقبول والإذعان من المحكوم له والمحكوم عليه،وبهذا يحصل التفاضل بين الشرائع الإلهية والقوانين البشرية.

والخلاصة- إن مما ينبغى التعجب منه من أحوالهم أنهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر،ويؤثرونه على حكم الله العادل،وفى الأول تفضيل القوىّ على الضعيف واستذلاله واستئصال شأفته،وفى الثاني العدل الذي يستقيم به أمر الخلق،وبه يستتب الأمن والرضا والطمأنينة بين الناس ويشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير.[٦٢٢]

فحذر الله تعالى من أن يصدوه عن بعض ما أنزل الله إليه،وقال تعالى:{وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) } [الإسراء:٧٣ - ٧٥]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ تَأْيِيده لِرَسُوله الكَرِيم،وَعَنْ تَثْبِيته إِيَّاهُ،وَعِصْمَته لَهُ مِنْ شَرِّ الأَشْرَار،وَكَيْد الفُجَّار،وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ المُتَوَلِّي أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ،فَقَدْ حَاوَلَ المُشْرِكُونَ فِتْنَتَهُ عَمَّا أَوْحَى اللهُ إِلَيْه،لِيَفْتَرِيَ عَلَى اللهِ غَيْرَهُ،وَهُوَ الصَّادِقُ الأَمِينُ،فَقَدْ سَاوَمُوهُ عَلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ رَبَّهُ،مُقَابِلَ أَنْ يَتْرُكَ التَّنْدِيدَ بِآلِهَتِهِمْ،وَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ.وَسَاوَمُوهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لِبَعْضِ كُبَرَائِهِمْ مَجْلِساً غَيْرَ مَجْلِسِ الفُقَرَاءِ،وَلَوْ أَنَّهُ رَضِيَ مُسَايَرَتِهِمْ فِيمَا أَرَادُوا لاتَّخَذُوهُ خَلِيلاً،وَلَكَفُّوا عَنْ إِيذَائِهِ وَتَكْذِيبِهِ.

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى ثَبَّتَ رَسُولَهُ ﷺ،وَعَصَمَهُ عَنِ الانْحِرَافِ عَنِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ.وَلَوْلاَ عِصْمَةُ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ لَرَكَنَ إِلَى الكُفَّارِ بَعْضَ الشَّيءِ.وَالانْحِرَافُ الطَّفِيفُ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ يَنْتَهِي إِلَى الانْحِرَافِ الكَامِلِ فِي نِهَايَتِهِ.

[٦٢٢] - تفسير المراغي (٦/ ١٣٣)

وَلَوْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَكَنَ إِلى الكُفَّارِ،وَلَوْ قَلِيلاً،لَعَاقَبَهُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ الرُّكُونِ بِإِذَاقَتِهِ عَذَابَ الدُّنْيا،وَعَذَابَ الآخِرَةِ مُضَاعَفَيْنِ،وَبِإِفْقَادِهِ الُمعِينَ وَالنَّصِيرَ.وَلأَنَّ الرَّسُولَ العَظِيمَ قُدْوَةٌ لِلمُؤْمِنِينَ يَقْتَدُونَ بِهِ،فَأَيُّ تَصَرُّفٍ مِنْهُ يُتَابِعُهُ الُمؤْمِنُونَ عَلَيْهِ،وَيَتَّخِذُونَهُ سُنَّةً.[623]

" أي ولو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات:أي ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة،فهو ﷺ لو ركن إليهم يكون عذابه ضعف عذاب غيره،لأن الذنب من العظيم يكون عقابه أعظم،ومن ثم يعاقب العلماء على زلاتهم أشد من عقاب العامة لأنهم يتبعونهم.

وخلاصة ذلك- إنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك،وعقدت على الركون همّك،لا ستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة،ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة.

وقد ذكروا فى حكمة هذا- أن الخطير إذا ارتكب جرما وخطا خطيئة يكون سببا فى ارتكاب غيره مثله والاحتجاج به،فكأنه سن ذلك،سنة سيئة .."[624]

وقال تعالى:{فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) } [القلم]

قال الإمام ابن جرير رحمه الله:"معنى ذلك:وَدَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَا مُحَمَّدُ لَوْ تَلِينُ لَهُمْ فِي دِينِكَ بِإِجَابَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الرُّكُونِ إِلَى آلِهَتِهِمْ،فَيَلِينُونَ لَكَ فِي عِبَادَتِكَ إِلَهَكَ،كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:{وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ} [الإسراء:٧٥] وَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الدُّهْنِ شَبَّهَ التَّلْيِينَ فِي الْقَوْلِ بِتَلْيِينِ الدُّهْنِ"[625]

وخلاصة ذلك- ودوا لو تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم،فيفعلون مثل ذلك،ويتركون بعض ما لا ترضى،فتلين لهم ويلينون لك،وترك بعض الدين كله كفر بواح.والمراد من هذا النهى التهييج والتشدد فى المخالفة والتصميم على معاداتهم.[626]

---

[623] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

[624] - تفسير المراغي (١٥/ ٧٩)

[625] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣/ ١٥٧)

[626] - تفسير المراغي (٢٩/ ٣١)

يقول الله تعالى،لنبيه ﷺ: {فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} الذين كذبوك وعاندوا الحق،فإنهم ليسوا أهلا لأن يطاعوا،لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم،وهم لا يريدون إلا الباطل،فالمطيع لهم مقدم على ما يضره،وهذا عام في كل مكذب،وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب،وإن كان السياق في شيء خاص،وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ،أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم،ويسكتوا عنه،ولهذا قال: {وَدُّوا} أي:المشركون {لَوْ تُدْهِنُ} أي:توافقهم على بعض ما هم عليه،إما بالقول أو الفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، {فَيُدْهِنُونَ} ولكن اصدع بأمر الله،وأظهر دين الإسلام،فإن تمام إظهاره،بنقض ما يضاده،وعيب ما يناقضه.[٦٢٧]

فهي المساومة إذن،والالتقاء في منتصف الطريق.كما يفعلون في التجارة.وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير!

فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها لأن الصغير منها كالكبير.بل ليس في العقيدة صغير وكبير.إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء.لا يطيع فيها صاحبها أحدا،ولا يتخلى عن شيء منها أبدا.وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق،ولا أن يلتقيا في أي طريق.وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان.جاهلية الأمس وجاهلية اليوم،وجاهلية الغد كلها سواء.إن الهوة بينها وبين الإسلام لا تعبر،ولا تقام عليها قنطرة،ولا تقبل قسمة ولا صلة.وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق!

ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبي – ﷺ – ليدهن لهم ويلين ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم،أو يتابعهم في شيء مما هم عليه ليتابعوه في دينه،وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول! ولكن الرسول – ﷺ – كان حاسما في موقفه من دينه،لا يدهن فيه ولا يلين.وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبا وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير.فأما الدين فهو الدين! وهو فيه عند توجيه ربه:«فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ»! ولم يساوم – ﷺ – في دينه وهو في أحرج المواقف العصيبة في مكة.وهو محاصر بدعوته.

---

[٦٢٧] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٧٩)

وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون في الله أشد الإيذاء وهم صابرون.و لم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تقال في وجوه الأقوياء المتجبرين،تأليفا لقلوبهم،أو دفعا لأذاهم.و لم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد ..[٦٢٨]

وأخرج الطبري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:{لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم:٩] يَقُولُ:لَوْ تُرَخِّصُ لَهُمْ فَيُرَخِّصُونَ"[٦٢٩]

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد:{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} يقول " لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمالئونك"[٦٣٠]

وقَالَ ابْنُ زَيْد،فِي قَوْله:" {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود:١١٣] قَالَ:الرُّكُونُ:الْإِدْهَانُ.وَقَرَأَ:{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم:٩] قَالَ:تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ،وَلَا تُنْكِرُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا:وَقَدْ قَالُوا الْعَظِيمَ مِنْ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ.قَالَ:وَإِنَّمَا هَذَا لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ،وَلَيْسَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ،أَمَا أَهْلُ الذُّنُوبِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ،مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُصَالِحَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ،وَلَا يَرْكَنُ إِلَيْهِ فِيهَا "[٦٣١]

وقال القرطبي" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطِيَّةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ:وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُ فَيَتَمَادَوْنَ عَلَى كُفْرِهِمْ.وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا:وَدُّوا لَوْ تُرَخِّصُ لَهُمْ فَيُرَخِّصُونَ لَكَ.وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَالْكَلْبِيُّ:لَوْ تَلِينَ فَيَلِينُونَ لَكَ.وَالادِّهَانُ:التَّلْيِينُ لِمَنْ لَا يَنْبَغِي لَهُ التَّلْيِينُ،قَالَهُ الْفَرَّاءُ.وَقَالَ مُجَاهِدٌ:الْمَعْنَى وَدُّوا لَوْ رَكَنْتَ إِلَيْهِمْ وَتَرَكْتَ الْحَقَّ فَيُمَالِئُونَكَ.وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ:وَدُّوا لَوْ تَكْذِبُ فَيَكْذِبُونَ.وَقَالَ قَتَادَةُ:وَدُّوا لَوْ تَذْهَبُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ فَيَذْهَبُونَ مَعَكَ.الْحَسَنُ:وَدُّوا لَوْ تُصَانِعُهُمْ فِي دِينِكَ فَيُصَانِعُونَكَ فِي دِينِهِمْ.وَعَنْهُ أَيْضًا:وَدُّوا لَوْ تَرْفُضُ بَعْضَ أَمْرِكَ فَيَرْفُضُونَ بَعْضَ أَمْرِهِمْ.زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ:لَوْ تُنَافِقُ وَتُرَائِي فَيُنَافِقُونَ وَيُرَاءُونَ[٦٣٢].

---

[٦٢٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٥٦٤)

[٦٢٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣/ ١٥٦) حسن

[٦٣٠] - الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٨/ ٢٤٥)

[٦٣١] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٢/ ٦٠١)

[٦٣٢] - تفسير القرطبي (١٨/ ٢٣٠)

وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)} [البقرة:٨٤ - ٨٦]

يَذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى فِي هذه الآيَةِ اليَهُودَ بِأَهَمِّ مَا نَهَأهُمْ عَنْهُ،وأَخَذَ المِيثَاقَ عَلَيهِمْ لاجْتِنَابِه،فَيَقُولُ تَعَالَى:إِنَّهُ أَخَذَ المِيثَاقَ فِي التَّورَاةِ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنْ لاَ يَسْفِكَ بعضُهُمْ دَمَ بَعْضٍ،وَأَنْ لا يُخْرِجَ بَعْضُهُم بَعْضاً مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ،وَإِنَّ يَهُودَ المَدِينَةِ يُقِرُّونَ بِذلِكَ،وَيَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَتْ بِه دِيَانَتِهِمْ فِي ذلِكَ،فَالحَجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيهِمْ.

كَانَ فِي المَدِينَةِ ثَلاَثُ قَبَائِلَ مِنَ اليَهودِ:بَنُو قَيْنُقَاعَ وَبَنُو النَّضِيرِ،وَهُمْ حُلَفَاءُ الخَزْرَجِ،وَبَنُو قُرَيْظَةَ وَهُمْ حُلَفَاءُ الأَوْسِ،وكَانُوا إِذَا وَقَعَتِ الحَرْبُ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ انتَصَرَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ اليَهُودِ لِحُلَفَائِه،وَانْضَمَّ إِلَيهِمْ يُقَاتِلُ خُصُومَهم.وَكَثِيراً مَا كَانَ اليَهودِيُّ يَقْتُلُ اليَهُودِيُّ فِي الحَرْبِ،وَيُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِه،وَيَنْتَهِبُ مَالَهُ وَأَثَاثَ مَنْزِلِه،وَكلُّ ذلكَ محَرَّمٌ عَلَيهِمْ فِعْلُهُ بِنَصِّ التَّورَاةِ.

وَلكِنَّهُمْ كَانُوا إِذا وَضَعَتِ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا يَقُومُونَ بِافْتِكَاكِ الأَسْرَى وَمُفَادَاتِهِمْ،عَمَلاً بِنَصِّ التَّورَاةِ،فَاسْتَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى أَفْعَالَهُمْ هذه،فَهُمْ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً خِلاَفاً لِلنَّصِّ،وَلكِنَّهُمْ يَفْتَكُّونَ الأَسْرَى وَيُفَادُونَهُمْ عَمَلاً بِنَصِّ التَّورَاةِ.

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ مُسْتَنْكِراً تَصَرُّفَاتِهِمْ هذه:أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَعْمَلُونَ بِه،وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِه وَتُخَالِفُونَهُ؟ وَتَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ،وَيَكْفُرُ بِبَعْضِه الآخَرِ بِالخِزْيِ وَالمَذَلَّةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا،وَبِالعَذابِ الأَلِيمِ الشَّدِيدِ يَوْمَ القِيَامَةِ.ثُمَّ يُذَكِّرُهُمْ اللهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ غَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

وَهؤُلاءِ الذينَ يُخَالِفُونَ أَوَامِرَ التَّوراةِ،وَيَعْمِلُونَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ فِيهَا،هُمُ الذينَ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنيا،وَآثَروها وَفَضَّلُوهَا عَلَى الآخِرَةِ،بِمَا أَهْمَلُوا مِنَ الشَّرَائِعِ،وَبِمَا تَرَكُوا مِنْ أَوَامِرِهَا التِي

يَعْرِفُونَها (كَالانتصَارِ للحَليفِ المُشْرِك وَمُظَاهَرَته عَلَى قَوْمِهِمْ فِي الدِّينِ وَالنَّسَبِ،وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِمْ مِنْ دِيَارِهِم ابْتِغَاءَ مَرْضَاة ذلكَ الحَليفِ المُشْرِك)،فَكَانُوا كَمَنِ اشْتَرَى الحَيَاةَ الدُّنيا بالآخرَة.وَهؤلاءِ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم نَاصِراً يُنْقِذُهُمْ مِنَ العَذَابِ،وَلا مُجيراً يُجيرُهُمْ.[٦٣٣]

وقال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)} [محمد:٢٥،٢٦]

إنَّ الذينَ ارتَدُّوا عَنِ الإيمان،وَرَجَعُوا إلى مَا كَانُوا عليه من الكُفْرِ،مِنْ بَعْدِ مَا تَبَينَّ لَهُمُ الحَقُّ،والهُدَى،والإيمانُ،الشَّيطَانُ هو الذي زيَّن لَهُم ذَلكَ،وَحَسَّنَه في أعْيُنِهم،وَمَدَّ لَهُمْ في الآمَالِ الكَاذبة،وَوَسْوَسَ لَهُم أنَّ الحَيَاةَ لَذيذَةٌ حُلْوةٌ يَسْتَطِيعُونَ التَّمَتُّعَ بِها،ثُمَ يَتُوبُونَ وَيَعُودُونَ إلى التَّقْوى وَالإخلاصِ في الإيمان.

وَكَانَ السَّبَبُ الَّذي جَعَلَ للشَّيْطَانِ سُلْطَاناً عليهم فأَدَّى ذَلكَ بِهِمْ إلى الارْتِدَاد عَنِ الإِسْلاَم،بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا حَلاَوَةَ الإيمَان،هُو أَنَّهُمْ مَالَؤُوا يَهُودَ المدينة،وَنَاصَحُوهُمْ سِرّاً عَلَى المُؤْمنينَ،وَاللهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعلنُونَ وَلا يَخْفَى عَلَيه مِنْ أمُورِهِمْ خَافيةٌ.وَاليهُودُ كَرِهُوا أنْ يَبْعَثَ اللهُ رَسُولاً منَ العَرَب،فَكَادُوا للرَّسُولِ وَالإسلامِ والمُسْلمينَ،وَحَارَبُوهُم حَرْباً لا هَوَادة فيها،مَعَ أَنَّهم كَانُوا يَعْلَمُونَ مِنْ كُتُبِهم أنَّ اللهَ سَيَبْعَثُ رَسُولاً مِنْ بَنِي إسْمَاعيلَ (أيْ مِنَ العَرَب)،وَكَانُوا هُمْ قَبلَ مَبْعَثِ الرَّسُولِ يَسْتَنْصِرُونَ به عَلَى عَرَب المَدينَة،وَيَقُولُونَ لَهُم:إنَّهُمْ سَيُحَارِبُونَ العَرَبَ تَحْتَ لِوائِه،وَسَيَنْتَصِرُونَ عَلَيهِم،فَلَمَا بُعثَ الرَّسُولُ مِنْ غَيْرِهِمْ كَفرُوا بِهِ وَبرِسَالته.[٦٣٤]

فكل هذه الآيات توجب على ولاة الأمر وعموم المسلمين التمسك بدين الله كاملا،وألا يعرضوا عن شيء منه طاعة للكافرين والمنافقين أو اتباعا للهوى،عَنِ ابْنِ شِهَاب،قَالَ:أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،أَنَّ عَائشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ،أَنَّ فَاطِمَةَ – عَلَيْهَا السَّلاَمُ – ابْنَةَ

---

[٦٣٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩١،بترقيم الشاملة آليا)

[٦٣٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٤٩،بترقيم الشاملة آليا)

رَسُول اللَّه ﷺ،سَأَلَتْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعْدَ وَفَاة رَسُول اللَّه ﷺ،أَنْ يَقْسمَ لَهَا ميرَاثَهَا،ممَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ممَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْه،فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ:إنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«لاَ نُورَثُ،مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»،فَغَضبَتْ فَاطمَةُ بنْتُ رَسُول اللَّه ﷺ،فَهَجَرَتْ أَبَا بَكْرٍ،فَلَمْ تَزَلْ مُهَاجرَتَهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ،وَعَاشَتْ بَعْدَ رَسُول اللَّه ﷺ ستَّةَ أَشْهُرٍ،قَالَتْ:وَكَانَتْ فَاطمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصيبَهَا ممَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ منْ خَيْبَرَ،وَفَدَك،وَصَدَقَتَهُ بالْمَدينَة،فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلكَ،وَقَالَ:لَسْتُ تَاركًا شَيْئًا،كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَعْمَلُ به إلَّا عَملْتُ به،فَإنِّي أَخْشَى إنْ تَرَكْتُ شَيْئًا منْ أَمْره أَنْ أَزيغَ فَأَمَّا صَدَقَتُهُ بالْمَدينَة فَدَفَعَهَا عُمَرُ إلَى عَليٍّ،وَعَبَّاس،وَأَمَّا خَيْبَرُ،وَفَدَكٌ،فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ،وَقَالَ:هُمَا صَدَقَةُ رَسُول اللَّه ﷺ،كَانَتَا لحُقُوقه الَّتي تَعْرُوهُ وَنَوَائبه،وَأَمْرُهُمَا إلَى مَنْ وَليَ الأَمْرَ،قَالَ:فَهُمَا عَلَى ذَلكَ إلَى اليَوْم،قَالَ أَبُو عَبْد اللَّه:«اعْتَرَاكَ افْتَعَلْتَ منْ عَرَوْتُهُ،فَأَصَبْتُهُ وَمنْهُ يَعْرُوهُ وَاعْتَرَاني» رواه البخاري ومسلم[٦٣٥] .

الثاني:الحكم بين الناس بالعدل

الحكم بين الناس بالعدل،وفصل الخصومات،وأداء الحقوق إلى أهلها،ونصرة المظلوم،وتنفيذ أحكام القضاء والقصاص والحدود وسائر العقوبات،وقد قال تعالى:{إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَات إلَى أَهْلهَا وَإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بالْعَدْل إنَّ اللَّهَ نعمَّا يَعظُكُمْ به إنَّ اللَّهَ كَانَ سَميعًا بَصيرًا } [النساء:٥٨].

الأمانة على أنواع:

١) أمانة العبد مع ربه،وهي ما عهد إليه حفظه من الائتمار بما أمره به والانتهاء عما نهاه عنه،واستعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقرّبه من ربه.

٢) أمانة العبد مع الناس،ومن ذلك رد الودائع إلى أربابها وعدم الغش وحفظ السر ونحو ذلك مما يجب للأهل والأقربين وعامة الناس والحكام.

---

[٦٣٥] - صحيح البخاري (٤/ ٧٩)(٣٠٩٢ و٣٠٩٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨١)٥٤ - (١٧٥٩)

[ش (أفاء الله) من الفيء وهو يأخذه المسلمون من عدوهم بدون قتال.(فهجرت) أي لازمت بيتها ولم تلتق به.(فدك) مكان بينه وبين المدينة مرحلتان.(صدقته) أملاكه التي صارت بعده صدقة موقوفة.(فدفعها) سلمها إليهما ليتصرفا فيها وينتفعا منها بقدر حقهما كما كان يتصرف النبي ﷺ لا على أنها ملك لهما.(تعروه) تنزل به وتنتابه.(نوائبه) جمع نائبة وهي الحادثة التي تصيب الإنسان.(على ذلك) أي لم يغير حكمهما عما كان عليه زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما]

ويدخل فى ذلك عدل الأمراء مع الرعية وعدل العلماء مع العوام بأن يرشدوهم إلى اعتقادات وأعمال تنفعهم فى دنياهم وأخراهم من أمور التربية الحسنة وكسب الحلال،ومن المواعظ والأحكام التي تقوّى إيمانهم وتنقذهم من الشرور والآثام وترغبهم فى الخير والإحسان،وعدل الرجل مع زوجه بألا يفشى أحد الزوجين سرا للآخر ولا سيما السر الذي يختص بهما ولا يطلع عليه عادة سواهما.

٣) أمانة الإنسان مع نفسه،بألا يختار لنفسه إلا ما هو الأصلح والأنفع له فى الدين والدنيا،وألا يقدم على عمل يضره فى آخرته أو دنياه،ويتوقى أسباب الأمراض والأوبئة بقدر معرفته وما يعرف من الأطباء،وذلك يحتاج إلى معرفة علم الصحة ولا سيما فى أوقات انتشار الأمراض والأوبئة.

(وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) أمر الله بالعدل فى آيات كثيرة:منها هذه الآية،ومنها «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى» وقوله «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ» وقوله «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» والحكم بين الناس له طرق:منها الولاية العامة والقضاء وتحكيم المتخاصمين لشخص فى قضية خاصة.

والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور:

١) فهم الدعوى من المدّعى والجواب من المدّعى عليه،ليعرف موضوع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين.

٢) خلوّ الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين.

٣) معرفة الحاكم الحكم الذي شرعه الله ليفصل بين الناس على مثاله من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة.

٤) تولية القادرين على القيام بأعباء الأحكام.

وقد أمر المسلمون بالعدل فى الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق،قال تعالى «وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى» .

ثم بين حسن العدل وأداء الأمانة فقال:(إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ) أي نعم الشيء الذي يعظكم به أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس،إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم فى الدارين.

(إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً) أي عليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه،فإنه أعلم منكم بالمسموعات والمبصرات،فإذا حكمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم،وإن أديتم الأمانة فهو بصير بذلك.

وفى هذا وعد عظيم للمطيع،ووعيد شديد للعاصى،وإلى ذلك الإشارة بقوله عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه،فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وفيه أيضا إيماء إلى الاهتمام بحكم القضاة والولاة لأنه قد فوض إليهم النظر فى مصالح العباد.[636]

والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى ..الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها،وحملها «الإنسان» ..أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه.فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة.فكل ما عدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به،والاهتداء إليه،ومعرفته،وعبادته،وطاعته.وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا اتجاه.والإنسان وحده هو الذي وكل إلى فطرته،وإلى عقله،وإلى معرفته،وإلى إرادته،وإلى اتجاهه،وإلى جهده الذي يبذله للوصول إلى الله،بعون من الله:«وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» ..وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات (١).

ومن هذه الأمانة الكبرى،تنبثق سائر الأمانات،التي يأمر الله أن تؤدى:

ومن هذه الأمانات:أمانة الشهادة لهذا الدين ..الشهادة له في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له.ترجمة حية في شعورها وسلوكها.حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس.فيقولوا:

ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون ..والشهادة له بدعوة

---

[636] - تفسير المراغي (٥/ ٧٠)

الناس إليه،وبيان فضله ومزيته - بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية - فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه،إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك،وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان.وهي إحدى الأمانات ..

ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض منهجا للجماعة المؤمنة ومنهجا للبشرية جميعا ..المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة،وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة.فإقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات بعد الإيمان الذاتي.ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة ..ومن ثم ف «الْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»على هذا الأساس ..أداء لإحدى الأمانات ..ومن هذه الأمانات - الداخلة في ثنايا ما سبق - أمانة التعامل مع الناس ورد أماناتهم إليهم:أمانة المعاملات والودائع المادية.وأمانة النصيحة للراعي وللرعية.وأمانة القيام على الأطفال الناشئة.وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها ...وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الإجمال ..فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدى ويجملها النص هذا الإجمال ..

فأما الحكم بالعدل بين «الناس» فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا «بين الناس» جميعا.لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب.ولا عدلا مع أهل الكتاب،دون سائر الناس ..وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه «إنسانا».فهذه الصفة - صفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني.وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعا:مؤمنين وكفارا.أصدقاء وأعداء.سودا وبيضا.عربا وعجما.والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت في أمرهم - هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط - في هذه الصورة - إلا على يد الإسلام،وإلا في حكم المسلمين،وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية ..والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة فلم تذق له طعما قط،في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعا.لأنهم «ناس»! لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه «الناس»! وذلك هو أساس الحكم في الإسلام كما أن الأمانة - بكل مدلولاتها - هي أساس الحياة في المجتمع الإسلامي.

والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل هو التذكير بأنه من وعظ الله – سبحانه – وتوجيهه.ونعم ما يعظ الله به ويوجه:«إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ» ..

ونقف لحظة أمام التعبير من ناحية أسلوب الأداء فيه.فالأصل في تركيب الجملة:إنه نعم ما يعظكم الله به ..ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة،فيجعله «اسم إن» ويجعل نعم ما «نعما» ومتعلقاتها،في مكان «خبر إن» بعد حذف الخبر ..ذلك ليوحي بشدة الصلة بين الله – سبحانه – وهذا الذي يعظهم به ..

ثم إنها لم تكن «عظة» إنما كانت «أمرا» ..ولكن التعبير يسميه عظة.لأن العظة أبلغ إلى القلب،وأسرع إلى الوجدان،وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياء! ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه:«إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً» ..

والتناسق بين المأمور به من التكاليف وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وبين كون الله سبحانه «سميعا بصيرا» مناسبة واضحة ولطيفة معا ..فالله يسمع ويبصر،قضايا العدل وقضايا الأمانة.والعدل كذلك في حاجة إلى الاستماع البصير وإلى حسن التقدير،وإلى مراعاة الملابسات والظواهر،وإلى التعمق فيما وراء الملابسات والظواهر.وأخيرا فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور.[٦٣٧]

الثالث:تحقيق الأمن في البلاد

تحقيق الأمن في البلاد،وبسط نفوذ الدولة،وسيطرتها على جميع أطراف البلاد لمنع المفسدين والمعتدين من ترويع الآمنين،والاعتداء عليهم،حتى ينعم الناس بنعمة الأمن في مساكنهم،وأعمالهم،وأسفارهم،فإن الأمن من نعم الله على العباد،كما قال تعالى:{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)} [قريش:٣،٤]

فَلْيَعْبُدُوا اللهَ رَبَّ هَذَا البَيْتِ الذِي جَعَلَ لَهُمْ حَرَماً آمِناً،فَهُوَ الذِي مَنَّ عَلَيْهِمْ بالأَمْنِ،فِي الحَلِ وَالتِّرْحَالِ،وَهُوَ الذِي جَعَلَهُمْ،بِسَبَبِ ذَلِكَ،فِي مَرْكَزٍ تِجَارِيٍّ هَامٍّ،وَلْيَشْكُرُوهُ عَلَى مِنَنِهِ

[٦٣٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٣١)

عَلَيْهِمْ،وَنِعْمه التي لاَ تُحْصَى.فَقَدْ جَعَلَ اللهُ مَكَّةَ فِي وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ لاَ تُنْبِتُ وَلاَ تُغِلُّ،وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَسَّرَ تَدَفُّقَ النَّاسِ وَالتِّجَارَةِ إِلَيْهَا فَأَشْبَعَ أَهْلَهَا،وَآمَنَهُمْ مِمَّا يَخَافُهُ غَيْرُهُمْ.[٦٣٨]

وقال تعالى:{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [النحل:١١٢]

جَعَلَ اللهُ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ مَكَّةَ مِثْلَ حَالِ هَذِهِ القَرْيَةِ،التي كَانَتْ آمِنَةً لاَ تَخَافُ عَدُوّاً،وَقَدْ تَدَفَّقَ الرِّزْقُ الوَفِيرُ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،فَكَفَرَ أَهْلُهَا بِأَنْعُمِ اللهِ عَلَيْهِمْ،وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ،فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الخَوْفَ،وَأَذَاقَهُمْ مَرَارَةَ الجُوعِ.كَذَلِكَ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ،فَقَدْ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِها،وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِناً،لاَ يَخَافُ شَيْئاً،وَكَانَ الرِّزْقُ الوَفِيرُ يَتَدَفَّقُ عَلَيْهَا هَنِيئاً سَهْلاً مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَمَكَانٍ،فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ،وَجَحَدَتْ بِهَا،وَأَعَظْمُ هَذِهِ النِّعَمُ هِيَ بِعْثَةُ رَسُولٍ مِنْهُمْ.وَلِهَذا بَدَّلَ اللهُ أَهْلَهَا بِحَالَيْهِمْ (الأَمْنِ وَالعَيْشِ الرَّغِيدِ)،بِحَالَيْنِ جَدِيدَيْنِ،هُمَا:(الجُوعُ وَالخَوْفُ – لِبَاسَ الجُوْعِ وَالخَوْفِ) فَقَدْ جَاءَتْهُمْ سِنُونَ شِدَادٌ فَجَاعُوا،وَهَاجَرَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ إِلَى المَدِينَةِ فَكَانَتْ سَرَايَا المُسْلِمِينَ تَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَى قَوَافِلِهِمْ إِلَى الشَّامِ،فَخَافُوا.وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ عِقَاباً لَهُمْ مِنَ اللهِ بِسَبَبِ سُوءِ صَنِيعِهِمْ،وَبَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ.[٦٣٩]

وهي حال أشبه شيء بحال مكة.جعل الله فيها البيت،وجعلها بلدا حراما من دخله فهو آمن مطمئن،لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا،ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو في جوار بيت الله الكريم.وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة في حراسته وحمايته آمنون مطمئنون.كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة،مع أنهم في واد قفر جدب غير ذي زرع،فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شيء فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل.

---

[٦٣٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٦٣٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠١٣،بترقيم الشاملة آليا)

ثم إذا رسول منهم،يعرفونه صادقا أمينا،ولا يعرفون عنه ما يشين،يبعثه الله فيهم رحمة لهم وللعالمين،دينه دين إبراهيم باني البيت الذي ينعمون في جواره بالأمن والطمأنينة والعيش الرغيد فإذا هم يكذبونه،ويفترون عليه الافتراءات،ويترلون به وبمن اتبعوه الأذى.وهم ظالمون.

والمثل الذي يضربه الله لهم منطبق على حالهم،وعاقبة المثل أمامهم.مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله،وكذبت رسوله «فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ» وأخذ قومها العذاب وهم ظالمون.

ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا،لأن الذوق أعمق أثرا في الحس من مساس اللباس للجلد.وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس.لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون.

وفي ظل هذا المثل الذي تخايل فيه النعمة والرزق،كما يخايل فيه المنع والحرمان،يأمرهم بالأكل مما أحل لهم من الطيبات وشكر الله على نعمته إن كانوا يريدون أن يستقيموا على الإيمان الحق بالله،وأن يخلصوا له العبودية خالصة من الشرك،الذي يوحي إليهم بتحريم بعض الطيبات على أنفسهم باسم الآلهة المدعاة:«فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً،وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

ويحدد لهم المحرمات على سبيل الحصر.وليس منها ما يحرمونه على أنفسهم من رزق الله من بحيرة أو سائبة أو وصيلة أوحام:«إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ،وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» ..وهي محرمة إما لأن فيها أذى للجسم والحس كالميتة والدم ولحم الخترير،أو أذى للنفس والعقيدة كالذي توجه به ذابحه لغير الله.«فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فهذا الدين يسر لا عسر.ومن خاف على نفسه الموت أو المرض من الجوع والظمأ فلا عليه أن يتناول من هذه المحرمات قدر ما يدفع الضرر (على خلاف فقهي ذكرناه من قبل) غير باغ على مبدأ التحريم ولا متجاوز قدر الضرورة التي أباحت المحظور.

ذلك حد الحلال والحرام الذي شرعه الله في المطعومات،فلا تخالفوه اتباعا لأوهام الوثنية،ولا تكذبوا فتدعوا تحريم ما أحله الله.فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله.فهما

تشريع.والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر.وما يدعي أحد لنفسه حق التشريع بدون أمـــر من الله إلا مفتر،والمفترون على الله لا يفلحون:«وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ:هـــذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَـــذِبَ،إِنَّ الَّـــذِينَ يَفْتَـــرُونَ عَلَـــى اللَّـــهِ الْكَـــذِبَ لا يُفْلِحُونَ.مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» ..

لا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم وتحكيه:هذا حلال وهذا حرام.فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هي الكذب عينه،الذي تفترونه على الله.والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل في الدنيا ومن ورائه العذاب الأليم،والخيبة والخسران ..

ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله،وبغير نص في شريعته يقـــوم عليـــه مـــا يشرعونه من القوانين،وينتظرون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله![٦٤٠]

الرابع:الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله،وإعداد العدة،وتصنيع الأسلحة بأنواعها،وتدريب الرجال البالغين القادرين على الجهاد،وتربيتهم التربية الإيمانية الجهادية لحماية البلاد من الأعداء المتربصين الذين يتحينون الفرص للعدوان على بلاد المسلمين،وقد قال تعالى:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِـــنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَـــا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠].

لقد سلط الله النبيّ والمسلمين على هذا العدوّ المتربّص بهم،الكائد لهم،وأمرهم بأن يضـــربوهم الضربة القاضية التي تأتي عليهم،وتكون مثلا وعبرة لغيرهم.

ولكن..ما الذي يمكّن للنبى والمسلمين من أن يبسطوا يدهم على عدوّهم وينزلوه على حكمهم فيه؟ إنه لا شىء إلا القوة التي يكون عليها المسلمون فى الرجال والعتاد..

ومن هنا أتبع القرآن الكريم الأمر بتأديب العدوّ وبسط اليد عليه- أتبع ذلك بـــالأمر باتخـــاذ الوسائل المحققة لهذا الأمر،وذلك بالأخذ بكل أسباب القوة،التي ترجح بها كفة المســـلمين فى ميادين القتال،ومصادمة العدوّ.

---

[٦٤٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨٦٨)

وفى قوله تعالى:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»،أمر باتخاذ القوة،والعمل على بنائها،والتوسل إليها بوسائلها،ومن أهم تلك الوسائل «الخيل» ..إذ كانت فى هذا الوقت أقوى مظهر من مظاهر القوة والفروسية..فحيث كانت الخيل،وكان فرسانها،كانت القوة والمنعة..

وفى التعبير عن «الخيل» بقوله تعالى:«وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ» إشارة إلى الإكثار من الخيل،وإعدادها للحرب،وتدريبها على القتال،وحبسها على هذا المجال،فلا تتخذ لغرض آخر،بل تكون دائما مرصودة للقاء العدوّ،مهيأة للاشتباك معه فى أية لحظة..إنها مرابطة كما يرابط المجاهدون على الثغور لحماية المسلمين،وسد الثغور التي ينفذ منها العدو إليهم.!

وفى قوله تعالى:«تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» الضمير فى «به» يعود إلى رباط الخيل،وأنه مصدر رهبة للعدوّ.إذا كان هذا الرباط من الكثرة والإعداد على صورة يهابها العدوّ ويعمل حسابها..وهذا يعنى استعراض تلك القوة المعدّة من الخيل وفرسان الخيل،وإظهارها بحيث يراها العدوّ،ويرى فيها ما يرهبه،ويقتل فى نفسه كل داعية من دواعى الطمع فى المسلمين،وفى لقائهم على ميدان القتال..وهذا يعنى أيضا أن يكون هذا الرباط على صورة محقّقة لإلقاء الرعب والفزع فى نفس العدوّ،وإلا كان ستر هذا الرباط وإخفائه أولى وأحكم من إظهاره.

وهذا يعنى كذلك أن الإعداد للحرب ليس لإشباع شهوة الحرب،وإنما هو لإرهاب العدوّ أولا،حتى يترجر،ولا تحدّثه نفسه بالحرب حين يرى القوّة الراصدة له.ومن هنا يرى أن الإسلام دين سلام،يعدّ للحرب،حتى تجتمع له القوة الممكنة له من النصر والغلب،ولكنه لا يبدأ الحرب،ولا يسعى إليها،وإنما يجىء إليها مكرها،ويدخل فيها مدافعا،لا مهاجما!! وفى قوله تعالى:«وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» إشارة وتنبيه للمسلمين إلى ألّا يكون حسابهم فى إعداد القوة مقصورا على هذا العدوّ الظاهر لهم،ومقدورا بقدره،بل يجب أن يعملوا فى تقديرهم حسابا لأعداء آخرين، لم يظهروا لهم،ولم يواجهوهم بعداوة أو قتال..

وهذا يعنى أن يبذل المسلمون كثيرا لإعداد هذه القوة التي يحاربون بها أعداءهم الذين يرونهم،والتي يرصدونها للعدوّ الخفىّ الذي لم يظهر لهم بعد..

ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك:«وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ» – جاء داعيا إلى البذل والإنفاق فى سبيل الله،فإنّ الله سبحانه وتعالى سيؤتى المنفقين أجرهم،ويجزل لهم العطاء،فلا يضيع شىء مما بذلوا وأنفقوا،لأن فى ضياعه ظلما لهم..«وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» .[641]

إن اليوم الذي تخلّى فيه المسلمون عن القوة،كان هو اليوم الذي فيه حينهم ومصرعهم،بأيدى من يملكون القوة..

ثم لم يكن للمسلمين من قوة يستندون إليها إلا الإسلام،الذي منحهم الإيمان،والصبر،والعزم،وعمر قلوبهم باليقين بأن شاطىء النجاة قريب منهم،إن هم تمسّكوا بدينهم،وقاموا على شريعته،وأخذوا بهديه،والتمسوا أسباب القوة المادية التي أمرهم الله بها فى قوله تعالى:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» إلى جانب القوة الروحية التي عمر الإسلام قلوبهم بها..ومن خلال هذه المشاعر كانت تنقدح فى صدور المسلمين شرارات الأمل والرجاء،فيشتدّ عزمهم،ويقوى إيمانهم،وتذهب وحشتهم،وهم فى صحبة دينهم،وفى ظلّ مما يفىء عليهم من خيره الكثير.

فلنحذر إذن هذه الدعوى الخبيثة،التي تجعل من همّ الإسلام عندها،أنه قام على السيف،ولنعدّل موقفنا تجاه هذه الدعوى،فإننا– عن حسن نية– قد علمنا جاهدين على دفعها،وتبرئة ساحة الإسلام منها،كما أننا حمدنا لبعض المستشرقين– ونواياهم معروفة– ما كان منهم من دفاع فى تبرئة ساحة الإسلام من هذه التهمة!! فليكن الإسلام قام على السيف أو لم يكن،وإنما الحقيقة التي لا جدال فيها هو أننا الآن– أمم المسلمين– ندين بالإسلام..دينا فى قلوبنا،ينير طريقنا فى الحياة،ويسدّد ويثبت خطانا على مواقع الحقّ،كما أننا ندين أو يجب أن ندين بالقوة،سلاحا فى أيدينا نحمى به مجتمعنا،ونصون بها مقدّساتنا،وندفع بها يد المعتدين على أوطاننا..[642]

ومن أساليب الحرب النفسية– تخويف العدو وإرهابه،بما يرى فى جيش المجاهدين من أمارات القوة،ووسائل الغلب..وشبيه بهذا ما تقوم به الأمم من عرض قوتها فى تلك العروض

[641] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٦٥)

[642] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٤٨)

العسكرية،التي تكشف بها عن بعض عددها وعتادها،على حين أنها إذ تكشف عن بعض قوتها،فإنها تشير إلى أن وراء هذا الذي أعلنته قوى كثيرة خفية،أشد أثرا،وأقوى فتكا،من هذا الذي عرف الناس أمره،وأن ذلك سرّ من أسرارها الحربية،التي لا تظهر إلا عند الحرب!!.

ولهذا الجانب من الحرب النفسية أثر كبير فى كسر شوكة العدو،وفى قتل مطامعه فى النّيل من عدوه،فلا يقدم على العدوان وهو يرى هذه القوى المهيأة للحرب،الراصدة لكل عدو..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» (٦٠:الأنفال) .كل هذا الذي يراه العدو فى جيش المسلمين،من استخفاف بالموت،وإيثار للموت فى سبيل الله على الحياة،والثبات فى ميدان المعركة حتى النصر أو الموت،والإعداد الدائم لعدد الحرب ورجالها- كل هذا يبعث الرعب فى قلوب الأعداء الذين يواجهون مثل هذا الجيش،الذي لا يرجع من المعركة إلا منتصرا،أو مستشهدا..وإلى هذا يشير الرسول فى قوله فى مقام تعداد فضل الله سبحانه وتعالى عليه،إذ يقول:«ونصرت بالرعب مسيرة عام» أي أن أعداءه المحيطين به،يجدون فى أنفسهم رهبة له،ولجيش المسلمين،وذلك على امتداد مسيرة عام بينه وبينهم،لما يتناقل الناس من أخبار المجاهدين المسلمين،واسترخاصهم لنفوسهم فى ميدان القتال،حتى ليكون ذلك حديث الدنيا كلها..[٦٤٣]

والقيام بجهاد الطلب عند القدرة لإزالة الطواغيت الذين يحيلون دون إقامة شرع الله في الأرض وهداية الناس.قال تعالى:{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة:٣٣]

وَاللهُ تَعَالى هُوَ الذَي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودَين الإِسْلام،لِيَجْعَلَ الإِسْلاَمَ - وَهُوَ دينُ الحَقِّ - ظَاهِراً عَلَى جَميعِ الأَدْيَانِ في الأَرْضِ،وَقَدْ وَعَدَ رَسُولَهُ بدُخُولِ المَسْجد الحَرَامِ مَعَ أَصْحَابه،وَهُمْ آمنُونَ،فحَقق اللهُ ذَلكَ الوَعْدَ،وَسَيُحَققُ وَعْدَهُ لرَسُوله بأنَّهُ تَعَالى سَيُظْهِرُ الإِسْلاَمَ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ،وَهُوَ تَعَالى شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ،وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ أبداً.[٦٤٤]

---

[٦٤٣] - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٣٨٤)

[٦٤٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٩٠،بترقيم الشاملة آليا)

إنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ..ويجب أن نفهم «الدين» بمدلوله الواسع الذي بيناه،لندرك أبعاد هذا الوعد الإلهي ومداه ..

إن «الدين» هو «الدينونة» ..فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس لـــه بالطاعة والاتباع والولاء ..

والله سبحانه يعلن قضاءه بظهور دين الحق الذي أرسل به رسوله على «الدين» كلــه بهــذا المدلول الشامل العام! إن الدينونة ستكون لله وحده.والظهور سيكون للمنهج الذي تتمثل فيه الدينونة لله وحده.

ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول الله – ﷺ – وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلــة مــن الزمان.وكان دين الحق أظهر وأغلب وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونــة لله تخــاف وترجف! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه خطوة فخطوة بفعل عوامــل داخلــة في تركيــب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى،المنوعة الأساليب،التي أعلنها عليــه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء ..

ولكن هذه ليست نهاية المطاف ..إن وعد الله قائم،ينتظر العصبة المسلمة،التي تحمــل الرايــة وتمضي،مبتدئة من نقطة البدء،التي بدأت منها خطوات رسول الله – ﷺ – وهو يحمل ديــن الحق ويتحرك بنور الله ..[٦٤٥]

وشهادة الله لهذا الدين بأنه «بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ» هي الشهادة.وهي كلمة الفصل التي لــيس بعدها زيادة.ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله.ظهر في ذاته كدين،فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته.فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال.وأمــا الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها،وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها،فهو هــي،في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان.

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها مــا لــيس منها،ونقصــت مــن أطرافها،وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة.وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا

---

[٦٤٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٥٣)

تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبدا،لأنها جاءت في تقـدير الله لأمد محدود.

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته.فأما من ناحية واقع الحياة،فقد صدق وعد الله مرة،فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان.ثم زحف زحفا سلميا بعد ذلك إلى قلب آسيا وإفريقية،حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى ..وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة – منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي «البطل» الذي صنعوه! – وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد،ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها،ظاهرا بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعد الله،الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل،مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

ولقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى.وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر،وإن هم إلا أداة.وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم،وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة.بإذن الله.[٦٤٦]

الخامس:تقوية اقتصاد البلاد وتوفير سبل المعاش

تقوية اقتصاد البلاد،وتوفير سبل العمل والمعاش من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها،وجباية الزكاة لبيت المال،وصرف المال العام في مصارفه الشرعية،وإعطاء الناس حقوقهم من بيت المال كاملة،ومساعدة الفقراء والمحتاجين،وتلبية حاجاتهم،وتفقد أحوالهم،والرحمة بالرعية،والرفق

[٦٤٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٤٦)

بهم،وقد قال الله تبارك وتعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]

وأخرج ابن جرير وغيره عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:قَالَ عَلِيٌّ:حَقٌّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ،وَأَنْ يُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ،فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا،وَأَنْ يُجِيبُوا إِذَا دُعُوا" [٦٤٧]

وقال تعالى:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } [آل عمران:١٥٩]

لَقَدْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِكَ مَا يَسْتَحِقُّ المَلاَمَةَ وَالتَّعْنِيفَ،بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ،إِذْ تَخَلَّوْا عَنْكَ حِينَ اشْتِدَادِ الحَرْبِ،وَشَمَّرُوا لِلْهَزِيمَةِ وَالحَرْبِ قَائِمَةٌ،وَمَعَ ذَلِكَ لِنْتَ لَهُمْ،وَعَامَلْتَهُمْ بِالحُسْنَى،لِرَحْمَةٍ أَوْدَعَهَا اللهُ فِي قَلْبِكَ،وَخَصَّكَ بِهَا.وَقَدْ مَدَحَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِحُسْنِ الخُلُقِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ العَزِيزِ.ثُمَّ قَالَ لَوْ كُنْتَ خَشِناً جَافِياً فِي مُعَامَلَتِهِمْ لَتَفَرَّقُوا عَنْكَ،وَلَنَفَرُوا مِنْكَ،وَلَمْ يَسْكُنُوا إِلَيْكَ،وَلَكِنَّ اللهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ،وَأَلاَنَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأَلُّفاً لِقُلُوبِهِمْ.ثُمَّ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَهَفَوَاتِهِمْ،وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُم اللهَ،وَأَنْ يُشَاوِرَهُمْ فِي الأَمْرِ تَطْيِيباً لِقُلُوبِهِمْ،وَشَحْذاً لِهِمَمِهِمْ. [٦٤٨]

«وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» وفى هذا كشف للطبيعة البشرية،وأن الناس إنما يألفون من يتألفهم،ويحسن إليهم،ويلقاهم بالصفح الجميل..وعلى غير هذا من كان حادّ الطبع،شرس الخلق،غليظ القلب،لا يقيل عثرة،ولا يغفر زلة..إنه لن يجد من الناس إلّا المقت والنفور..

وأنه إذا صح لإنسان- وهو غير صحيح- أن يسوّى حسابه مع الناس على هذا الوجه،القائم على الغلظة والشدة،والمنتهى به إلى القطيعة والعزلة- فإنه لا يصح أبدا،ولا يستقيم بحال،لمن

---

[٦٤٧] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ٩٨٦)(٥٥٢٠) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٦٩) صحيح

[٦٤٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

كان بمكان الرياسة والقيادة لأية جماعة من الجماعات،كثر عددهم أو قلّ..فإن الخيط الـذي يمسك بـه كيـان الجماعـة ويشـدّها إليـه،هو مـا يفـيض عليهـا مـن قلبـه،من رحمة،وحدب،ولين،ولطف،وإلّا تقطعت بينه وبينها الأسباب،ولو كـانوا أبنـاءه وخاصـة أهله![٦٤٩]

وقال الإمام ابن جرير رضي الله عنه:" كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِيمَا ذُكِـرَ عَنْـهُ- يَعُـسُّ بِنَفْسِه،وَيَرْتَادُ مَنَازِلَ الْمُسْلمِينَ،وَيَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهُمْ بِيَدَيْه.

ذِكْرُ الْخَبَرِ الْوَارِدِ عَنْهُ بِذَلِكَ:حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ،قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ،قَالَ:حَدَّثَنَا قُرَّةُ بْنُ خَالِد،عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ،قَالَ:جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى بَابِ عَبْـدِ الـرَّحْمَنِ بْـنِ عَـوْف فَضَرَبَهُ،فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ فَفَتَحَتْهُ،ثُمَّ قَالَتْ لَهُ:لا تَدْخُلْ حَتَّى أَدْخُلَ الْبَيْتَ وَأَجْلِسَ مَجْلِسِـي،فَلَمْ يَدْخُلْ حَتَّى جَلَسَتْ،ثُمَّ قَالَت:

ادْخُلْ،فَدَخَلَ،ثُمَّ قَالَ:هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَأَتَتْهُ بِطَعَامٍ فَأَكَلَ،وَعَبْدُ الـرَّحْمَنِ قَـائِمٌ يُصَـلِّي،فَقَالَ لَهُ:تَجَوَّزْ أَيُّهَا الرَّجُلُ،فَسَلَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ حِينَئِذٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْه،فَقَالَ:مَا جَاءَ بِكَ فِي هَذِه السَّاعَة يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ:رُفْقَةٌ نَزَلَتْ فِي نَاحِيَةِ السُّوقِ خَشِيتُ عَلَيْهِمْ سُـرَّاقَ الْمَدِينَـة،فَانْطَلِقْ فَلْنَحْرُسْهُمْ،فَانْطَلَقَا فَأَتَيَا السُّوقَ،فَقَعَدَا عَلَى نَشَزٍ مِنَ الأَرْضِ يَتَحَدَّثَانِ،فَرُفِعَ لَهُمَا مِصْبَاحٌ،فَقَالَ عُمَرُ:أَلَمْ أَنْهَ عَنِ الْمَصَابِيحِ بَعْدَ النَّوْمِ! فَانْطَلَقَا،فَإِذَا هُمْ قَوْمٌ عَلَى شَرَابٍ لَهُمْ،فَقَالَ:انْطَلِقْ فَقَـدْ عَرَفْتُهُ،فَلَمَّا أَصْبَحَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ:يَا فُلانُ،كُنْتَ وَأَصْحَابُكَ الْبَارِحَةَ عَلَى شَرَابٍ؟ قَـالَ:وَمَـا عِلْمُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

قَالَ:شيء شهدته،فقال:أو لم يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ التَّجَسُّسِ! قَالَ:فَتَجَاوَزَ عَنْهُ.(تاريخ الطبري)[٦٥٠]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى حَرَّةَ وَاقِمٍ،حَتَّـى إِذَا كُنَّـا بِصِرَارٍ إِذَا نَارٌ،فَقَالَ:يَا أَسْلَمُ،إِنِّي لَأَرَى هَا هُنَا رَكْبًا قَصَّرَ بِهِمُ اللَّيْلُ وَالْبَرْدُ،انْطَلِقْ بِنَا،فَخَرَجْنَـا نُهَرْوِلُ حَتَّى دَنَوْنَا مِنْهُمْ،فَإِذَا بِامْرَأَةٍ مَعَهَا صِبْيَانٌ صِغَارٌ وَقِدْرٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَـى نَـارٍ وَصِـبْيَانُهَا يَتَضَاغَوْنَ،فَقَالَ عُمَرُ:السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَصْـحَابَ الضَّـوْءِ،وَكَرِهَ أَنْ يَقُـولَ:يَـا أَصْـحَابَ

---

[٦٤٩] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٢٧)

[٦٥٠] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٥) صحيح مرسل

النَّارِ،فَقَالَتْ:وَعَلَيْكَ السَّلَامُ،فَقَالَ:أَدْنُو؟،فَقَالَت:ادْنُ بِخَيْرٍ أَوْ دَعْ،فَـدَنَا فَقَـالَ:مَـا بَـالُكُمْ؟ قَالَتْ:قَصَّرَ بِنَا اللَّيْلُ وَالْبَرْدُ،قَالَ:فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الصِّبْيَةِ يَتَضَاغَوْنَ؟ قَالَت:الْجُوعُ،قَالَ:فَأَيُّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْقِدْرِ؟ قَالَتْ:مَا أُسْكِتُهُمْ بِهِ حَتَّى يَنَامُوا،وَاللَّهُ بَيْنَنَا وَبَـيْنَ عُمَرَ،فَقَـالَ:أَيْ رَحِمَـكِ اللَّهُ،وَمَا يُدْرِي عُمَرَ بِكُمْ؟ قَالَتْ:يَتَوَلَّى عُمَرُ أَمْرَنَا ثُمَّ يَغْفُلُ عَنَّا.قَالَ:فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَـالَ:انْطَلِـقْ بِنَا،فَخَرَجْنَا نُهَرْوِلُ حَتَّى أَتَيْنَا دَارَ الدَّقِيقِ،فَأَخْرَجَ عِدْلًا مِنْ دَقِيقٍ وَكَبَّةً مِنْ شَحْمٍ،فَقَالَ:احْمِلْـهُ عَلَيَّ،فَقُلْتُ:أَنَا أَحْمِلُهُ عَنْكَ،قَالَ:أَنْتَ تَحْمِلُ عَنِّي وِزْرِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَحَمَلْتُهُ عَلَيْـهِ فَانْطَلَقَ،وَانْطَلَقْتُ مَعَهُ إِلَيْهَا،نُهَرْوِلُ،فَأَلْقَى ذَلِكَ عِنْدَهَا وَأَخْرَجَ مِنَ الدَّقِيقِ شَيْئًا،فَجَعَلَ يَقُـولُ لَهَا:ذُرِّي عَلَيَّ،وَأَنَا أُحَرِّكُ لَك،وَجَعَلَ يَنْفُخُ تَحْتَ الْقِدْرِ ثُمَّ أَنْزَلَهَا،فَقَالَ:أَبْغِينِـي شَـيْئًا،فَأَتَتْهُ بِصَحْفَةٍ فَأَفْرَغَهَا فِيهَا ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ لَهَا:أَطْعِمِيهِمْ وَأَنَا أُسَطِّحُ لَهُمْ،فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى شَبِعُوا،وَتَرَكَ عِنْدَهَا فَضْلَ ذَلِكَ،وَقَامَ وَقُمْتُ مَعَهُ،فَجَعَلَتْ تَقُولُ:جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا،كُنْتَ أَوْلَى بِهَذَا الْأَمْرِ مِـنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،فَيَقُولُ:قُولِي خَيْرًا إِذَا جِئْتِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،وَجَدْتِنِي هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ تَنَحَّى نَاحِيَةً عَنْهَا ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا فَرَبَضَ مَرْبَضًا،فَقُلْنَا لَهُ:إِنَّ لَنَا شَأْنًا غَيْرَ هَذَا،وَلَا يُكَلِّمُنِي حَتَّى رَأَيْـتُ الصِّبْيَةَ يَصْطَرِعُونَ ثُمَّ نَامُوا وَهَدَأُوا،فَقَالَ:يَا أَسْلَمُ،إِنَّ الْجُوعَ أَسْهَرَهُمْ وَأَبْكَاهُمْ،فَأَحْبَبْتُ أَنْ لَا أَنْصَرِفَ حَتَّى أَرَى مَا رَأَيْتُ.[٦٥١]

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ:أَنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ قَالَ لَهُ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،قَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ فَـأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ:«فِي الْجَنَّةِ هُوَ»،قَالَ:تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ:«ذَاكَ الْأَوَّاهُ عِنْـدَ كُـلِّ خَيْـرٍ يُبْغَى»،قَالَ:تُوُفِّيَ عُمَرُ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ:«إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَحَيَّهَلًا بِعُمَرَ»[٦٥٢]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَحَيَّهَلًا بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.[٦٥٣]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ:إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَحَيَّهَلًا بِعُمَرَ،إِنَّ عُمَـرَ كَـانَ حَائِطًا حَصِينًا،يَدْخُلُهُ الْإِسْلَامُ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ،فَلَمَّا قُتِلَ عُمَرُ انْثَلَمَ الْحَائِطُ،فَالْإِسْلَامُ يَخْرُجُ مِنْـهُ وَلَا يَدْخُلُ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي خَادِمٌ لِمِثْلِ عُمَرَ حَتَّى أَمُوتَ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ

---

[٦٥١] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٢٩٠)(٣٨٢) حسن

[٦٥٢] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٢٣١)(٢٠٤٠٦) حسن

[٦٥٣] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٢٦٣)(٣٤٠) صحيح

أَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ الْيَوْمَ وُضِعُوا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ،وَوُضِعَ عُمَرُ فِي الْكِفَّةِ الْـأُخْرَى،لَرَجَحَ شَـقُّ عُمَرَ،إِنَّ عُمَرَ كَانَ يَأْمُرُ بِالْجَزُورِ فَتُنْحَرُ فَتَكُونُ الْكَبِدُ وَالسَّنَامُ وَأَطَايِبُهَا لِابْنِ السَّـبِيلِ،وَيَكُونُ الْعُنُقُ لِآلِ عُمَرَ،إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَحَيَّ هَلَا بِعُمَرَ.[٦٥٤].

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:" تَقَرْقَرَ بَطْنُ عُمَرَ قَالَ:وَكَانَ يَأْكُلُ الزَّيْتَ عَامَ الرَّمَادَةِ وَكَانَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهَـا السَّمْنَ،قَالَ:فَنَقَرَ بَطْنَهُ بِإِصْبَعِهِ وَقَالَ:تَقَرْقَرْ إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ عِنْدَنَا غَيْرُهُ حَتَّى يَحْيَى النَّـاسُ " رواه الزهد لأحمد بن حنبل[٦٥٥]،وعام الرمادة كان عام مجاعة.

السادس:تعيين الأمراء والوزراء من أهل النصح والإتقان

تعيين الأمراء والوزراء والموظفين من الأمناء أهل النصح والإتقان في العمل،الذين يؤتمنون على الدولة الإسلامية ورعاية شؤون الناس،وحفظ المال العام،وقد قال الله تعالى:{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [القصص:٢٦]،وقال تعـالى:{إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّـا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]،ومن الأمانات الأعمال والوظائف الـتي يجب أن توسد إلى أهلها.وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِذَا ضُـيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِـهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[٦٥٦]

قَالَ ابن بَطَّال:مَعْنَى أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ أَنَّ الْأَئِمَّةَ قَدِ ائْتَمَنَهُمُ اللَّهُ عَلَى عِبَـادِهِ وَفَـرَضَ عَلَيْهِمُ النَّصِيحَةَ لَهُمْ فَيَنْبَغِي لَهُمْ تَوْلِيَةُ أَهْلِ الدِّينِ فَإِذَا قَلَّدُوا غَيْرَ أَهْلِ الدِّينِ فَقَدْ ضَيَّعُوا الْأَمَانَـةَ الَّتِي قَلَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهَا "[٦٥٧]

السابع:متابعة أعمال الدولة والإشراف عليها بنفسه

أن يقوم الإمام بمتابعة أعمال الدولة،وألا يعول على غـيره في إقامـة شـرع الله،وسياسـة الدولة،وتصريف شؤونها،وتفقد أحوال البلاد والرعية،بل يقوم بنفسه بمتابعة الأعمال،وتسـيير

---

[٦٥٤] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٢٧٠)(٣٥٦) فيه انقطاع

[٦٥٥] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٩٦)(٦٠٨) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٤٨) صحيح

[٦٥٦] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٤)(٦٤٩٦)

[٦٥٧] - فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٤)

شؤون البلاد،وإقامة العدل بين الناس،ومحاسبة الأمراء،والوزراء على أعمالهم،فإن الذمة لا تبرأ بتشاغله وغفلته عما أوجب الله عليه،قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب:«لَوْ مَاتَتْ شَاةٌ عَلَى شَطِّ الْفُرَاتِ ضَائعَةً لَظَنَنْتُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَائلي عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَة» رواه أبو نعيم في الحلية[٦٥٨]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«لَئِنْ عِشْتُ،إِنْ شَاءَ اللَّهُ،لَأَسِيرَنَّ فِي الرَّعِيَّةِ حَوْلًا،فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ لِلنَّاسِ حَوَائِجَ تُقْطَعُ دُونِي،إِمَّا هُمْ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيَّ،وَإِمَّا عُمَّالُهُمْ فَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَيَّ،فَأَسِيرُ إِلَى الشَّامِ فَأُقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى الْجَزِيرَةِ فَأُقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ،ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى مِصْرَ فَأُقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ،ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ فَأُقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ،ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى الْكُوفَةِ فَأُقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ،ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى الْبَصْرَةِ فَأُقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ،وَاللَّهِ لَنِعْمَ الْحَوْلُ هَذَا»[٦٥٩]

حقوق الإمام

أولا:طاعته بالمعروف:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى وُجُوبِ بَذْلِ الطَّاعَةِ لِأَوْلِيَاءِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى،[٦٦٠]فمن حقوق الإمام أن يطاع بالمعروف،كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩]

فِي هَذِهِ الآيَةِ يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِإِطَاعَتِهِ تَعَالَى،وَبِالعَمَلِ بِكِتَابِهِ،وَبِإِطَاعَةِ رَسُولِهِ،لأَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَيُبَلِّغُ عَنِ اللهِ شَرْعُ وَأَوَامِرَهُ،كَمَا يَأْمُرُ اللهُ بِإِطَاعَةِ أُوْلِي الأَمْرِ،مِنْ حُكَّامٍ وَأُمَرَاءِ وَرُؤَسَاءِ جُنْدٍ،مِمَّنْ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي الحَاجَاتِ،وَالمَصَالِحِ العَامَّةِ،فَهَؤُلاءِ إِذَا اتَّفَقُوا عَلَى أَمْرٍ وَجَبَ أَنْ يُطَاعُوا فِيهِ،بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ،وَأَنْ لاَ يُخَالِفُوا

---

[٦٥٨] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٥٣) فيه انقطاع

[٦٥٩] - تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٢١) صحيح مرسل

[٦٦٠] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤٥/ ١٤٩)

أَمْرَ اللهِ،وَلاَ سُنَّةَ نَبِّيه التي عُرِفَتْ بالتَّوَاتُرِ،وَأنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ فِي بَحْثِهِمْ فِي الأَمْرِ،وَاتِّفَـاقِهِمْ عَلَيْهِ غَيْرَ مُكْرَهِينَ عَلَيه بقُوَّة أَحَد أَوْ نُفُوذه.وَكُلُّ مَا اخْتَلَفَ فيه الْمُسْلمُونَ فَمنَ الوَاجِـب رَدُّهُ إلى كِتَابِ اللهِ،وَسُنَّة رَسُولِهِ،وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ،وَيَحْتَكِمْ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَيْسَ مُؤْمناً باللهِ وَلاَ باليَوْمِ الآخرِ.

وَمَنْ يَحْتَكِم إلى شَرْعِ اللهِ،وَسُنَّة رَسُوله،فَذَلكَ خَيْرٌ لَهُ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلاً (تَـأْوِيلاً)،لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ لِلنَّاسِ إلاَّ مَا فِيه مَصْلَحَتُهُمْ وَمَنْفَعَتُهُمْ،وَالاحْتِكَامِ إلى الشَّرْعِ يَمْنَعُ الاخْـتِلافَ المُؤَدِّي إلَى التَّنَازُعِ وَالضَّلاَلِ.[٦٦١]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبيِّ ﷺ،أَنَّهُ قَالَ:«عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ» متفقٌ عليه[٦٦٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ:«عَلَيْـكَ السَّـمْعَ وَالطَّاعَـةَ فِـي عُسْـرِكَ وَيُسْرِكَ،وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ،وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ» رواهُ مسلم[٦٦٣]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اسْمَعُوا وَأَطِيعُـوا،وَإِنِ اسْـتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ،كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ» رواه البخاري[٦٦٤]

وعَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ،قَالَتْ:أَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ بِمِنًى،قَدِ الْتَحَفَ بِثَوْبِـهِ،وَإِنَّ عَضَـلَةَ عَضُدِهِ تَرْتَجُّ،وَهُوَ يَقُولُ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا،وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ،فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى»[٦٦٥]

---

[٦٦١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٦٦٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٨ - (١٨٣٩) وصحيح البخاري (٤/ ٤٩)(٢٩٥٥)

[٦٦٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٧)٣٥ - (١٨٣٦)

[ش (عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك) قال العلماء معناه تجب طاعة ولا ة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية فإن كان معصية فلا سمع ولا طاعة(ومنشطك ومكرهك) هما مصدران ميميان أو اسما زمان أو مكان(وأثرة) بفتح الهمزة والثاء ويقال بضم الهمزة وإسكان الثاء وبكسر الهمزة وإسكان الثاء ثلاث لغات حكاهن في المشارق وغيره وهي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهموهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال وسببها اجتماع كلمة المسلمين فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم]

[٦٦٤] - صحيح البخاري (٩/ ٦٢)(٧١٤٢)

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ،وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ،وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي،وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»متفقٌ عليه[٦٦٦].

كَمَا اتَّفَقُوا عَلَى حُرْمَةِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ عَادِلاً،أَمَّا الْخُرُوجُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ جَائِرًا فَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حُكْمِه .[٦٦٧]

ثانيا:نصرته ومعاونته على البر والتقوى:

تجب معاونة الإمام على إقامة شرع الله في جميع شؤون الحياة ونصرته في ذلك،وقد قال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]

وَفِيهَا يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤمنِينَ بالتَّقْوَى،وَبالتَّعَاوُنش عَلَى فِعْلِ الخَيْرَاتِ (وَهُوَ البرُّ)،وَعَلَى تَرْكِ المَعَاصِي والمُنْكَرات (وَهُوَ التَّقْوَى)،وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى البَاطِلِ،وَالتَّعَاوُنِ عَلَى المَآثِمِ وَالمَحَارِمِ،وَيُحَذِّرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ مِنْ بَطْشِهِ وَعِقَابِهِ،لأَنَّهُ تَعَالَى شَدِيدُ العِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَتَعَدَّى حُدُودَهُ.[٦٦٨]

{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} أي:ليعن بعضكم بعضا على البر.وهو:اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه،من الأعمال الظاهرة والباطنة،من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع:اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله،من الأعمال الظاهرة والباطنة.وكلُّ خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها،أو خصلة من خصال الشر المأمور

---

[٦٦٥] - المعجم الكبير للطبراني (٢٥/ ١٥٦)(٣٧٧) صحيح

[٦٦٦] - صحيح البخاري (٩/ ٦٢)(٧١٣٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٦)٣٢ - (١٨٣٥)

[ش (أميري) هو كل من يتولى على المسلمين ويعمل فيهم بما شرعه رسول الله ﷺ] [ش (من أطاعني فقد أطاع الله) وقال في المعصية مثله لأن الله تعالى أمر بطاعة رسول الله ﷺ وأمر هو ﷺ بطاعة الأمير فتلازمت الطاعة وقد ذكر الخطابي سبب اهتمام النبي ﷺ بشأن الأمراء حتى قرن طاعتهم إلى طاعته فقال كانت قريش ومن يليهم من العرب لا يعرفون الإمارة ولا يدينون لغير رؤساء قبائلهم فلما كان الإسلام وولى عليهم الأمراء أنكرت ذلك نفوسهم وامتنع بعضهم عن الطاعة فأعلمهم ﷺ أن طاعتهم مربوطة بطاعته ومعصيتهم بمعصيته حثا لهم على طاعة أمرائهم لئلا تتفرق الكلمة]

[٦٦٧] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤٥/ ١٤٩)

[٦٦٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٧١،بترقيم الشاملة آليا)

بتركها،فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه،وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها،بكل قول يبعث عليها وينشط لها،وبكل فعل كذلك.{وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ} وهو التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها،ويحرج.{وَالْعُدْوَانِ} وهو التعدي على الخَلْق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم،فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه،ثم إعانة غيره على تركه.[٦٦٩]

والأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية فى القرآن،إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضا على كل ما ينفع الناس أفرادا وجماعات فى دينهم ودنياهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم.

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد كما تفعله الجماعات اليوم،فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره،ولكن لما نكثوا ذلك العهد صاروا فى حاجة إلى تأليف هذه الجماعات لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب (التعاون على البر والتقوى) .

وقلما ترى أحدا الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطا بعهد معك لغرض معين ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالبا.[٦٧٠]

يجعل تعاون الأمة المؤمنة في البر والتقوى لا في الإثم والعدوان ويخوفها عقاب الله،ويأمرها بتقواه،لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضبط،وعلى التسامي والتسامح،تقوى لله،وطلبا لرضاه.

ولقد استطاعت التربية الإسلامية،بالمنهج الرباني،أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر القوية،والاعتياد لهذا السلوك الكريم ..وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوي وعن هذا الاتجاه ..كان المنهج العربي المسلوك والمبدأ العربي المشهور:«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا،أَوْ مَظْلُومًا» (١) ..كانت حمية الجاهلية،ونعرة العصبية.كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى وكان الحلف على النصرة،في الباطل قبل الحق.وندر أن قام في الجاهلية حلف للحق.وذلك طبيعي في بيئة لا ترتبط بالله ولا تستمد تقاليدها ولا

---

[٦٦٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢١٩)

[٦٧٠] - تفسير المراغي (٦/ ٤٦)

أخلاقها من منهج الله وميزان الله ..يمثل ذلك كله ذلك المبدأ الجاهلي المشهور:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما» ..وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلي في صورة أخرى،وهو يقول:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت،وإن ترشد غزية أرشد!

ثم جاء الإسلام ..جاء المنهج الرباني للتربية ..جاء ليقول للذين آمنوا:«وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا.وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى،وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ.وَاتَّقُوا اللَّهَ،إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» ..

جاء ليربط القلوب بالله وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله.جاء ليخرج العرب – ويخرج البشرية كلها – من حمية الجاهلية،ونعرة العصبية،وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء ..

وولد «الإنسان» من جديد في الجزيرة العربية ..ولد الإنسان الذي يتخلق بأخلاق الله ..وكان هذا هو المولد الجديد للعرب كما كان هو المولد الجديد للإنسان في سائر الأرض ..ولم يكن قبل الإسلام في الجزيرة إلا الجاهلية المتعصبة العمياء:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما».كذلك لم يكن في الأرض كلها إلا هذه الجاهلية المتعصبة العمياء!

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية،وأفق الإسلام هي المسافة بين قول الجاهلية المأثور:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما».وقول الله العظيم:«وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا.وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى،وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ».وشتان شتان![٦٧١]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى»،شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ،قَالَ:وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ:التُّقَى – «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا

---

[٦٧١] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٢١٧)

مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[٦٧٢]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ؛قَالَ:لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَعَدَ الْمِنْبَرَ،فَنَزَلَ مِرْقَاةً مِنْ مَقْعَدِ النَّبِيِّ ﷺ،فَحَمَدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:اعْلَمُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التُّقَى،وأن أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ،وَإِنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَإِنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَحْسَنْتُ؛فَأَعِينُونِي،وَإِنْ زِغْتُ؛فَقَوِّمُونِي،وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا،وَلا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللهُ بِالْفَقْرِ،وَلا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ؛إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْبَلاءِ؛فَأَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ؛فَلا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ،أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ"[٦٧٣]

وعن محمد وطلحة وزياد بِإِسْنَادهِمْ- خَرَجَ عُمَرُ حَتَّى نَزَلَ عَلَى مَاءٍ يُدْعَى صِرَارًا،فَعَسْكَرَ بِهِ وَلا يَدْرِي النَّاسُ مَا يُرِيدُ،أَيَسِيرُ أَمْ يُقِيمُ وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ رَمَوْهُ بِعُثْمَانَ أَوْ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،وَكَانَ عُثْمَانُ يُدْعَى فِي إِمَارَةِ عُمَرَ رَدِيفًا- قَالُوا:وَالرَّدِيفُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ الرَّجُلُ الَّذِي بَعْدَ الرَّجُلِ،وَالْعَرَبُ تَقُولُ ذَلِكَ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَرْجُونَهُ بَعْدَ رَئِيسِهِمْ- وَكَانُوا إِذَا لَمْ يَقْدِرْ هَذَانِ عَلَى عِلْمِ شَيْءٍ مِمَّا يُرِيدُونَ،ثَلَّثُوا بِالْعَبَّاسِ،فَقَالَ عُثْمَانُ لِعُمَرَ:مَا بَلَغَكَ؟ مَا الَّذِي تُرِيدُ؟ فَنَادَى:الصَّلاةُ جَامِعَةٌ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ،فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ ثُمَّ نَظَرَ مَا يَقُولُ النَّاسُ،فَقَالَ الْعَامَّةُ:سِرْ وَسِرْ بِنَا مَعَكَ،فَدَخَلَ مَعَهُمْ فِي رَأْيِهِمْ،وَكَرِهَ أَنْ يَدَعَهُمْ حَتَّى يُخْرِجَهُمْ مِنْهُ فِي رِفْقٍ،فَقَالَ:اسْتَعِدُّوا وَأَعِدُّوا فَإِنِّي سَائِرٌ إلا أَنْ يَجِيءَ رَأْيٌ هُوَ أَمْثَلُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ بَعَثَ إِلَى أَهْلِ الرَّأْيِ،فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ وُجُوهُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَعْلامُ الْعَرَبِ،فَقَالَ:أَحْضِرُونِي الرَّأْيَ فَإِنِّي سَائِرٌ فَاجْتَمَعُوا جَمِيعًا،وَأَجْمَعَ مَلَؤُهُمْ عَلَى أَنْ يبعث رجلا من اصحاب رسول الله ص وَيُقِيمُ،وَيَرْمِيهِ بِالْجُنُودِ،فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَشْتَهِي مِنَ الْفَتْحِ،فَهُوَ الَّذِي يُرِيدُ وَيُرِيدُونَ،وَإِلا أَعَادَ رَجُلا وَنَدَبَ جُنْدًا آخَرَ،وَفِي ذَلِكَ مَا يَغِيظُ الْعَدُوَّ،وَيَرْعَوِي الْمُسْلِمُونَ،وَيَجِيءُ نَصْرُ اللَّهِ

---

[٦٧٢] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨) صحيح لغيره

[٦٧٣] - المجالسة وجواهر العلم (٤/ ١١٢)(١٢٩٠) صحيح

بِإِنْجَازِ مَوْعُودِ اللَّهِ فَنَادَى عُمَرُ:الصَّلاةُ جَامِعَةٌ،فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ،وَأَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ ع،وَقَدِ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ،فَأَتَاهُ،وَإِلَى طَلْحَةَ وقد بعثه عَلَى الْمُقَدِّمَةِ،فَرَجَعَ إِلَيْهِ،وَجَعَلَ عَلَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ الزُّبَيْرَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ،فَقَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَ عَلَى الإِسْلامِ أَهْلَهُ،فَأَلَّفَ بَيْنَ الْقُلُوبِ،وَجَعَلَهُمْ فِيهِ إِخْوَانًا،وَالْمُسْلِمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ كَالْجَسَدِ لا يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ أَصَابَ غيره،وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ،فَالنَّاسُ تُبَّعٌ لِمَنْ قَامَ بِهَذَا الأَمْرِ،مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَرَضُوا بِهِ لَزِمَ النَّاسُ وَكَانُوا فِيهِ تُبَّعًا لَهُمْ،وَمَنْ أَقَامَ بِهَذَا الأَمْرِ تَبِعٌ لأُولِي رَأْيِهِمْ مَا رَأَوْا لَهُمْ وَرَضُوا بِهِ لَهُمْ مِنْ مَكِيدَةٍ فِي حَرْبٍ كَانُوا فيه تبعا لهم يا ايها النَّاسُ،إِنِّي إِنَّمَا كُنْتُ كَرَجُلٍ مُنْكُمْ حَتَّى صَرَفَنِي ذَوُو الرَّأْيِ مِنْكُمْ عَنِ الْخُرُوجِ،فَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُقِيمَ وَأَبْعَثَ رَجُلا،وَقَدْ أَحْضَرْتُ هَذَا الأَمْرَ،مَنْ قَدَّمْتُ وَمَنْ خَلَّفْتُ:وَكَانَ علي ع خَلِيفَتَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ،وَطَلْحَةُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ بِالأَعْوَصِ،فَأَحْضَرَهُمَا ذَلِكَ "[٦٧٤]

ثالثا:النصيحة للإمام:

والنصح للإمام هو شدة العناية والحرص على القيام بحقه وطاعته بالمعروف ومعاونته ونصرته،وتبيين الحق له،وتقويمه إذا أساء،وجمع الرعية حوله،وتجنب مفارقته والخروج عليه،وحث الناس على القيام بحقه،ففي صحيح مسلم عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا:لِمَنْ؟ قَالَ:«لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[٦٧٥]

---

[٦٧٤] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٤٧٩)

[٦٧٥] - صحيح مسلم (١/ ٧٤)٩٥ - (٥٥)

[ش (الدين النصيحة) قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله الحج عرفة أي عماده ومعظمه عرفة (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) أما النصيحة لله تعالى فمعناها منصرف إلى الإيمان به ونفي الشريك عنه وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصح نفسه فالله سبحانه وتعالى غني عن نصح الناصح وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابه وأما النصيحة لرسول الله ﷺ فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به والمراد بأئمة المسلمين الخلفاء

(النَّصِيحَةُ) :وَهِيَ تَحَرِّي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فِيهِ صَلَاحٌ لِصَاحِبِهِ،أَوْ تَحَرِّي إِخْلَاصِ الْوُدِّ لَهُ،وَالْحَاصِلُ أَنَّهَا إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ وَهُوَ لَفْظٌ جَامِعٌ لِمَعَانٍ شَتَّى.قَالَ الْخَطَّابِيُّ:النَّصِيحَةُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ جُمْلَةٍ هِيَ إِرَادَةُ الْخَيْرِ،وَلَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِكَلِمَةٍ وَجِيزَةٍ يُحْصِيهَا وَيَجْمَعُ مَعْنَاهَا غَيْرُهَا،كَمَا قَالُوا فِي الْفَلَاحِ لَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ كُلِّهِ أَجْمَعُ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْهُ،فَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» " يُرِيدُ عِمَادَ الدِّينِ وَقِوَامَهُ،إِنَّمَا هُوَ النَّصِيحَةُ وَبِهَا ثَبَاتُهُ،كَقَوْلِهِ – ﷺ:" «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ» " وَكَمَا فِي قَوْلِهِ:" «الْحَجُّ عَرَفَةُ» " فَالْحَصْرُ ادِّعَائِيٌّ وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا اشْتُهِرَ مِنْ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ أَحَدُ أَرْبَاعِ الْإِسْلَامِ،وَأَمَّا عَلَى مَا اخْتَارَهُ النَّوَوِيُّ مِنْ أَنَّهُ عَلَيْهِ مَدَارُ الْإِسْلَامِ كَمَا سَيَأْتِي،فَالْحَصْرُ حَقِيقِيٌّ وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ نَصَحْتُ الْعَسَلَ:إِذَا صَفَّيْتَهُ مِنَ الشَّمْعِ،شَبَّهُوا تَخْلِيصَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مِنَ الْغِشِّ بِتَخْلِيصِ الْعَسَلِ مِنَ الشَّمْعِ (ثَلَاثًا) أَيْ:ذَكَرَهَا ثَلَاثًا لِلتَّأْكِيدِ بِهَا وَالِاهْتِمَامِ بِشَأْنِهَا،وَلَيْسَ لَهُ ذِكْرٌ فِي الْأَرْبَعِينَ لِلنَّوَوِيِّ،ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ النَّصِيحَةُ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ اسْتُفْصِلَتْ،فَقَالَ الرَّاوِي:(قُلْنَا) أَيْ:مَعْشَرُ الصَّحَابَةِ وَالْمُرَادُ بَعْضُهُمْ (لِمَنْ؟) أَيِ:النَّصِيحَةُ لِمَنْ؟ (قَالَ) أَيِ:النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:(لِلَّهِ) أَيْ:بِالْإِيمَانِ وَصِحَّةِ الِاعْتِقَادِ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ وَتَرْكِ الْإِلْحَادِ فِي صِفَاتِهِ وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي عِبَادَتِهِ،وَبَذْلِ الطَّاقَةِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ،وَالِاعْتِرَافِ بِنِعْمَتِهِ وَالشُّكْرِ لَهُ عَلَيْهَا،وَمُوَالَاةِ مَنْ أَطَاعَهُ،وَمُعَادَاةِ مَنْ عَصَاهُ،وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْإِضَافَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى الْعَبْدِ فِي نَصِيحَةِ نَفْسِهِ لِلَّهِ،وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ نُصْحِ كُلِّ نَاصِحٍ،كَذَا ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ،وَخُلَاصَتُهُ أَنَّ النَّصِيحَةَ لِلَّهِ هِيَ التَّعْظِيمُ لِأَمْرِهِ وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِهِ.وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ:هِيَ الْإِيمَانُ بِوُجُودِهِ بِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ وَرَاءَ التَّحَيُّزَاتِ مَوْجُودًا خَالِقًا وَبِصِفَاتِهِ الثُّبُوتِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ وَالْإِضَافِيَّةِ،وَبِأَفْعَالِهِ بِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ الْمُسَمَّى بِالْعَالَمِ،فَإِنَّمَا حَدَثَ بِقُدْرَتِهِ،وَهُوَ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَظَمَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَقَلُّ مِنْ خَرْدَلَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ،وَبِأَحْكَامِهِ بِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا غَيْرُ مُعَلَّلَةٍ بِغَرَضٍ،وَأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ شَرْعِهَا مَنَافِعُ عَائِدَةٌ إِلَى الْعَبْدِ،وَأَنَّ لَهُ الْحُكْمَ كَيْفَ يَشَاءُ،وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ،إِنْ أَثَابَ فَبِفَضْلِهِ وَإِنْ عَذَّبَ فَبِعَدْلِهِ.وَأَسْمَائِهِ بِأَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّهَا تَوْقِيفِيَّةٌ،ثُمَّ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ

وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمور فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم]

وَالْحُبِّ لَهُ وَالْبُغْضِ فِيه (وَلِكِتَابِه) أَيْ:وَالنَّصِيحَةُ لِكِتَابِه بِالْإِيمَانِ بِه،وَبِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّـهِ وَوَحْيُـهُ وَتَنْزِيلُهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِه أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ،وَإِقَامَةُ حُرُوفِه فِي التِّلَاوَةِ،وَالتَّصْـدِيقُ بِوَعْـدِه وَوَعِيدِه وَالِاعْتِبَارُ بِمَوَاعِظِه،وَالتَّفَكُّرُ فِي عَجَائِبِه،وَالْعَمَلُ بِمُحْكَمِه،وَالتَّسْلِيمُ بِمُتَشَابِهِه ذَكَـرَهُ الْخَطَّابِيُّ.

وَقِيلَ:هُوَ أَنْ يُكْرِمَهُ وَيَبْذُلَ مَجْهُودَهُ فِي الذَّبِّ عَنْهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَابْتِهَالِ الْمُبْطِلِينَ.وَقَالَ بَعْضُ الْمُدَقِّقِينَ:الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنُ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِه يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ،أَوْ جِنْسِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ،إِذِ الْجِنْسُ الْمُضَافُ يُفِيدُ الْعُمُومَ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ.عَلَـى أَنَّ صَـاحِبَ الْمِفْتَاحِ صَرَّحَ بِأَنَّ اسْتِغْرَاقَ الْمُفْرَدِ أَشْمَلُ مِنِ اسْتِغْرَاقِ الْجَمْعِ،وَلِذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:الْكِتَـابُ أَكْثَرُ مِنَ الْكُتُبِ لِتَنَاوُلِه وُحْدَانَ الْجِنْسِ بِخِلَافِ الْكُتُبِ،لَكِنْ حَقَّقَ بَعْضُ الْأَفَاضِلِ أَنَّ الْجَمْـعَ الْمُحَلَّى بِاللَّامِ يَشْمَلُ كُلَّ فَرْدٍ مِثْلُ الْمُفْرَدِ.قُلْتُ:وَلَوْ سَلِمَ،فَلَيْسَ شُمُولُ الْجَمْعِ مِثْـلَ شُـمُولِ الْمُفْرَدِ،ثُمَّ وُقُوعُ الْكِتَابِ فِي جَوَابِ (مَنْ) عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيبِ (وَلِرَسُولِه) بِالتَّصْـدِيقِ لِنُبُوَّتِـه وَقَبُولِ مَا جَاءَ بِه وَدَعَا إِلَيْه،وَبَذْلِ الطَّاعَةِ لَهُ فِيمَا أَمَرَ بِه وَنَهَى عَنْهُ،وَالِانْقِيَادِ لَهُ وَإِيثَارِه بِالْمَحَبَّةِ فَوْقَ نَفْسِه وَوَلَدِه وَوَالِدِه وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،وَالْمُرَادُ مُحَمَّدٌ - ﷺ - أَوِ الْجِنْسُ لِيَشْمَلَ الْمَلَـكَ أَيْضًا إِذْ هُمْ رُسُلٌ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا} [فاطر:١]،وَقَالَ:{اللَّـهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج:٧٥]،(وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ) بِأَنْ يَنْقَادَ لِطَـاعَتِهِمْ فِي الْحَقِّ،وَلَا يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ إِذَا جَارُوا،وَيُذَكِّرَهُمْ بِرِفْقٍ وَلُطْفٍ،وَيُعْلِمَهُمْ بِمَا غَفَلُوا عَنْـهُ وَلَـمْ يَبْلُغْهُمْ مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ،وَيُؤَلِّفَ قُلُوبَ النَّاسِ لِطَاعَتِهِمْ،وَمِنَ النَّصِيحَةِ لَهُمْ:الصَّلَاةُ خَلْفَهُـمْ وَالْجِهَادُ مَعَهُمْ وَأَدَاءُ الصَّدَقَاتِ إِلَيْهِمْ،وَأَنْ لَا يُغْرِيَهُمْ بِالثَّنَاءِ الْكَاذِبِ عَلَيْهِمْ،وَأَنْ يَـدْعُوَ لَهُـمْ بِالصَّلَاحِ،هَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَئِمَّةِ الْخُلَفَاءُ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَقُومُ بِأُمُورِ الْمُسْـلِمِينَ مِـنْ أَصْحَابِ الْوِلَايَةِ،وَمُجْمَلُ مَعْنَى الْإِمَامِ مَنْ لَهُ خِلَافَةُ الرَّسُولِ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ بِحَيْثُ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ عَلَى الْكُلِّ،وَقَدْ يَتَنَاوَلُ ذَلِكَ الْأَئِمَّةَ الَّذِينَ هُمْ عُلَمَاءُ الدِّينِ،وَأَنَّ مِـنْ نَصِـيحَتِهِمْ قَبُـولَ مَـا رَوَوْهُ،وَتَقْلِيدَهُمْ فِي الْأَحْكَامِ،وَإِحْسَانَ الظَّنِّ بِهِمْ (وَعَامَّتِهِمْ) أَيْ:وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَعَلَّ حِكْمَةَ تَرْكِ إِعَادَةِ الْعَامِلِ هُنَا إِشَارَةٌ إِلَى حَطِّ مَرْتَبَتِهِمْ بِسَبَبِ تَبَعِيَّتِهِمْ لِلْخَوَاصِّ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ بِخِلَافِ مَا قَبْلَهُ،فَإِنَّ كُلًّا مِنَ الْمَعْمُولَاتِ مُسْتَقِلٌّ فِي قَصْدِ النَّصِيحَةِ،ثُمَّ نَصِيحَةُ الْعَامَّـةِ بِإِرْشَـادِهِمْ إِلَـى

مَصَالِحِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَكَفِّ الْأَذَى عَنْهُمْ وَتَعْلِيمِهِمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،وَإِعَانَتِهِمْ عَلَيْهِ قَوْلًا وَفِعْلًا،وَسَتْرِ عَوْرَاتِهِمْ،وَسَدِّ خَلَّاتِهِمْ،وَدَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْهُمْ،وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ لَهُمْ،وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ بِرِفْقٍ،وَتَوْقِيرِ كَبِيرِهِمْ وَرَحْمِ صَغِيرِهِمْ،وَتَخَوُّلِهِمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَتَرْكِ غِيبَتِهِمْ وَحَسَدِهِمْ وَالذَّبِّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ،وَمُجْمَلُهُ أَنْ يُحِبَّ لَهُمْ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَيَكْرَهَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّرِّ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:وَجُمَّاعُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّ النَّصِيحَةَ هِيَ خُلُوصُ الْمَحَبَّةِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ وَالتَّحَرِّي فِيمَا يَسْتَدْعِيهِ حَقُّهُ،فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُدْخِلَ فِيهِ نَفْسَهُ بِأَنْ يَنْصَحَهَا بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ،وَأَنْ يَأْتِيَ بِهَا عَلَى طَرِيقَتِهَا مُتَدَارِكَةً لِلْفُرُطَاتِ مَاحِيَةً لِلسَّيِّئَاتِ،وَيَجْعَلَ قَلْبَهُ مَحَلًّا لِلنَّظَرِ وَالْفِكْرِ،وَرُوحَهُ مُسْتَقَرًّا لِلْمَحَبَّةِ،وَسِرَّهُ مَنَصًّا لِلْمُشَاهَدَةِ،وَعَلَى هَذَا أَعْمَالُ كُلِّ عُضْوٍ مِنَ الْعَيْنِ بِأَنْ يَحْمِلَهَا عَلَى النَّظَرِ إِلَى الْآيَاتِ النَّازِلَةِ،وَالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ،وَاللِّسَانِ عَلَى النُّطْقِ بِالْحَقِّ وَتَحَرِّي الصِّدْقِ وَالْمُوَاظَبَةِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَثَنَائِهِ.قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء:٣٦]،

قَالَ النَّوَوِيُّ:هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ،وَعَلَيْهِ مَدَارُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ،وَأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُ أَحَدُ أَرْبَاعِ الْإِسْلَامِ أَيِ:الْأَحَادِيثِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَجْمَعُ أُمُورَ الْإِسْلَامِ،فَلَيْسَ كَمَا قَالُوا،بَلِ الْمَدَارُ عَلَى هَذَا وَحْدَهُ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:فِيهِ أَنَّ النَّصِيحَةَ تُسَمَّى دِينًا وَإِسْلَامًا وَأَنَّ الدِّينَ يَقَعُ عَلَى الْعَمَلِ كَمَا يَقَعُ عَلَى الْقَوْلِ،وَقَالُوا:النَّصِيحَةُ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهِ وَاحِدٌ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ،وَالنَّصِيحَةُ لَازِمَةٌ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ إِذَا عَلِمَ النَّاصِحُ أَنَّهُ تُقْبَلُ نَصِيحَتُهُ وَيُطَاعُ أَمْرُهُ،وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ الْمَكْرُوهَ،وَإِنْ خَشِيَ أَذًى فَهُوَ فِي سَعَةٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.[٦٧٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا،وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا،يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا،وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ،وَيَسْخَطُ لَكُمْ قِيلَ،وَقَالَ:وَإِضَاعَةَ الْمَالِ،وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»[٦٧٧]

---

[٦٧٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣١١١)

[٦٧٧] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٨/ ١٨٢)(٣٣٨٨) صحيح

وعَنْ زَيْد بْنِ ثَابت،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا،فَرُبَّ حَامِلِ فقْه غَيْرِ فَقيه،وَرُبَّ حَاملِ فقْه إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ منْهُ» " ثَلَاثٌ لَا يُغلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلمٍ:إخْلَاصُ الْعَمَلِ للَّه،وَالنُّصْحُ لأَئمَّة الْمُسْلمينَ،وَلُزُومُ جَمَاعَتهمْ "[٦٧٨]

وعَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْد اللَّه بْنِ مَسْعُود،عَنْ أَبيه قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَحَفظَهَا وَبَلَّغَهَا،فَرُبَّ حَاملِ فقْه غَيْرُ فَقيه،وَرُبَّ حَاملِ فقْه إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ منْهُ،ثَلَاثٌ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلمٍ:إِخْلَاصُ الْعَمَلِ،وَمُنَاصَحَةُ أَئمَّة الْمُسْلمينَ،وَلُزُومُ جَمَاعَتهمْ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحيطُ مَنْ وَرَاءَهُمْ "[٦٧٩]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ الْمَرْوَزِيُّ:«جمَاعُ تَفْسيرِ النَّصيحَة عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا فَرْضٌ،وَالْآخَرُ نَافلَةٌ،فَالنَّصيحَةُ الْمَفْرُوضَةُ للَّه هيَ شدَّةُ الْعنَايَة منَ النَّاصحِ لاتِّبَاعِ مَحَبَّة اللَّه في أَدَاءِ مَا افْتَرَضَ وَمُجَانَبَة مَا حَرَّمَ،وَأَمَّا النَّصيحَةُ الَّتي هيَ نَافلَةٌ فَهيَ إِيثَارُ مَحَبَّته عَلَى مَحَبَّة نَفْسه.فَأَمَّا الْفَرْضُ منْهَا فَمُجَانَبَةُ نَهْيه،وَإِقَامَةُ فَرْضه بجَميعِ جَوَارحه مَا كَانَ مُطيقًا لَهُ،وَأَمَّا النَّصيحَةُ الَّتي هيَ نَافلَةٌ لَا فَرْضٌ فَبَذْلُ الْمَجْهُود بإِيثَارِ اللَّه عَلَى كُلِّ مَحْبُوب بِالْقَلْب وَسَائرِ الْجَوَارِحِ حَتَّى لَا يَكُونَ في النَّاصحِ فَضْلٌ عَنْ غَيْره.وَأَمَّا النَّصيحَةُ لكتَاب اللَّه فَشدَّةُ حُبِّه وَتَعْظيمُ قَدْره إِذْ هُوَ كَلَامُ

---

[٦٧٨] - سنن ابن ماجه (١/ ٨٤)(٢٣٠) صحيح لغيره

[ش (نضر الله امرءا) قال الخطابي دعا له بالنضارة وهي النعمة.يقال نضر ونضر.من النضارة.وهي في الأصل حسن الوجه والبريق.وأراد حسن قدره.وقيل روى مخففا وأكثر المحدثين يقول بالتثقيل.والأول الصواب.والمراد ألبسه الله النضرة وهي الحسن وخلوص اللون.أي جمله وزينه وأوصله الله إلى نضرة الجنة أي نعيمها ونضارتها.قال ابن عيينة ما من أحد يطلب الحديث إلا وفي وجهه نضرة لهذا الحديث،وقال القاضي أبو الطيب الطبري رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت يا رسول الله أنت قلت (نضر الله امرءا) وتلوت عليه الحديث جميعه ووجهه يتهلهل.فقال لي " نعم.أنا قلته ".(لا يغل) من الإغلال وهو الخيانة.ويروى " يغل " من الغل وهو الحقد والشحناء.ويحتمل أن يكون قوله " عليهن " حال من القلب الفاعل.فيكون المعنى قلب الرجل المسلم حال كونه متصفا بهذه الخصال الثلاث لا يصدر عنه الخيانة والحقد والشحناء ولا يدخله مما يزيله عن الحق.ويحتمل أن يكون قوله " عليهن " متعلقا بقوله " يغل " أي لا يخون في هذه الخصال أي من شأن قلب المسم أن لا يخون ولا يحسد فيها بل يأتي بها بتمامها بغير نقصان في حق من حقوقها.(إخلاص العمل لله) معنى الإخلاص أن يقصد بالعمل وجهه ورضاه فقط.دون غرض آخر دنيوي أو أخروي.أو لا يكون له غرض دنيوي من سمعة ورياء.فالأول إخلاص الخاصة والثاني إخلاص العامة،وقال الفضيل بن عياض العمل لغير الله شرك وترك العمل لغير الله رياء.والإخلاص أن يخلصك الله منها.(والنصح) أي إرادة الخير ولو للأئمة.(ولزوم جماعتهم) أي موافقة المسلين في الإعتقاد والعمل الصالح] .

[٦٧٩] - مسند الحميدي (١/ ٢٠٠)(٨٨) صحيح

الْخَالِقِ وَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِي فَهْمِهِ ثُمَّ شِدَّةُ الْعِنَايَةِ لِتَدَبُّرِهِ وَالْوُقُوفُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ بِطَلَبِ مَعَانِي مَا أَحَبَّ اللَّهُ أَنْ يَفْهَمَهُ عَنْهُ فَيَقُومُ بِهِ لِلَّهِ بَعْدَ مَا يَفْهَمُهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى،ثُمَّ يَنْشُرُ مَا فَهِمَ فِي الْعِبَادِ وَيُدِيمُ دِرَاسَتَهُ وَالتَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِهِ وَالتَّأَدُّبَ بِآدَابِهِ،وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ فِي حَيَاتِهِ فَبَذْلُ الْمَجْهُودِ فِي طَاعَتِهِ،وَنُصْرَتُهُ،وَمُعَاوَنَتُهُ،وَالْمُسَارَعَةُ إِلَى مَحَبَّتِهِ،وَأَمَّا بَعْدَ وَفَاتِهِ فَالْعِنَايَةُ بِطَلَبِ سُنَّتِهِ وَالْبَحْثُ عَنْ أَخْلَاقِهِ،وَآدَابِهِ وَتَعْظِيمُ أَمْرِهِ وَلُزُومُ الْقِيَامِ بِهِ وَشِدَّةُ الْغَضَبِ،وَالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ يَدِينُ بِخِلَافِ سُنَّتِهِ،وَالْإِعْرَاضُ عَمَّنْ ضَيَّعَهَا لِدُنْيَا يُؤْثِرُهَا عَلَيْهَا كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا ثُمَّ التَّشَبُّهُ بِهِ فِي جَمِيعِ هَدْيِهِ،وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَحُبُّ صَلَاحِهِمْ وَرُشْدِهِمْ وَعَدْلِهِمْ وَاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَيْهِمْ،وَكَرَاهِيَةُ افْتِرَاقِ الْأُمَّةِ عَلَيْهِمْ،وَالتَّدَيُّنُ بِطَاعَتِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَالْبُغْضُ لِمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ،وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ فَأَنْ يُحِبَّ لَهُمْ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَيَكْرَهَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ،وَيُشْفِقَ عَلَيْهِمْ،وَيَرْحَمَ صَغِيرَهُمْ،وَيُوَقِّرَ كَبِيرَهُمْ،وَيَفْرَحَ بِفَرَحِهِمْ،وَيَحْزَنَ بِحُزْنِهِمْ،وَيُحِبَّ صَلَاحَهُمْ،وَأُلْفَتَهُمْ،وَدَوَامَ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ،وَنَصْرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ» .[680].

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ النَّصِيحَةَ لَمَّا كَانَتْ إِحْسَانًا يَصْدُرُ عَنْ رَحْمَةٍ وَشَفَقَةٍ،وَيُقْصَدُ بِهِ صَلَاحُ الْمَنْصُوحِ،لَزِمَ أَنْ تَقَعَ بِالرِّفْقِ وَاللُّطْفِ وَاللِّينِ وَالْحُسْنَى،لاَ بِالذَّمِّ وَالْهَتْكِ وَالْقَدْحِ وَالتَّعْيِيرِ،[681]
فعن شُرَيْحَ بْنِ عُبَيْدٍ الْحَضْرَمِيُّ،وَغَيْرُهُ،قَالَ:جَلَدَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ صَاحِبَ دَارَا حِينَ فُتِحَتْ،فَأَغْلَظَ لَهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ الْقَوْلَ حَتَّى غَضِبَ عِيَاضٌ،ثُمَّ مَكَثَ لَيَالِيَ،فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ هِشَامٌ لِعِيَاضٍ:أَلَمْ تَسْمَعِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا،أَشَدَّهُمْ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا لِلنَّاسِ "؟ فَقَالَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ:يَا هِشَامُ بْنَ حَكِيمٍ،قَدْ سَمِعْنَا مَا سَمِعْتَ،وَرَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ،أَوَلَمْ تَسْمَعْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ،فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً،وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ،فَيَخْلُوَ بِهِ،فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ،وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ

---

[680] - الإيمان لابن منده (١/ ٤٢٣)

[681] - النووي على مسلم ٢ ٣٨ والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤٥/ ١٥٠)

"،وَإِنَّكَ يَا هِشَامُ لَأَنْتَ الْجَرِيءُ،إِذْ تَجْتَرِئُ عَلَى سُلْطَانِ اللهِ،فَهَلَّا خَشِيتَ أَنْ يَقْتُلَكَ السُّلْطَانُ،فَتَكُونَ قَتِيلَ سُلْطَانِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى "[٦٨٢]

وعَنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ،قَالَ:«مَنْ جَلَسَ عَلَى وِسَادَةِ الْأَمِيرِ فَقَدْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ»[٦٨٣]

رابعا:احترامه وتوقيره:

ومن حقوق الإمام احترامه وتوقيره وإكرامه،فعَنْ زِيَادِ بْنِ كُسَيْبٍ العَدَوِيِّ،قَالَ:كُنْتُ مَعَ أَبِي بَكْرَةَ تَحْتَ مِنْبَرِ ابْنِ عَامِرٍ وَهُوَ يَخْطُبُ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ رِقَاقٌ،فَقَالَ أَبُو بِلَالٍ:انْظُرُوا إِلَى أَمِيرِنَا يَلْبَسُ ثِيَابَ الفُسَّاقِ،فَقَالَ أَبُو بَكْرَةَ:اسْكُتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الأَرْضِ أَهَانَهُ اللَّهُ» رواه الترمذي وقال حديث حسن[٦٨٤]

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ،وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ،وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»رواه أبو داود[٦٨٥]

وعَنْ مُعَاذٍ قَالَ:عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَمْسٍ مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ:" مَنْ عَادَ مَرِيضًا،أَوْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ،أَوْ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ،أَوْ دَخَلَ عَلَى إِمَامٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ تَعْزِيرَهُ وَتَوْقِيرَهُ،أَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ فَيَسْلَمُ النَّاسُ مِنْهُ وَيَسْلَمُ " رواه أحمد[٦٨٦]

وعَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ،وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«الْوَالِي الْعَادِلُ الْمُتَوَاضِعُ ظِلُّ اللَّهِ وَرُمْحُهُ فِي الْأَرْضِ،فَمَنْ نَصَحَهُ فِي نَفْسِهِ وَفِي عِبَادِ اللَّهِ حَشَرَهُ اللَّهُ فِي وَفْدِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ،وَمَنْ غَشَّهُ فِي نَفْسِهِ وَفِي عِبَادِ اللَّهِ خَذَلَهُ اللَّهُ يَوْمَ

---

[٦٨٢] – مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٤٨)(١٥٣٣٣) حسن لغيره

[٦٨٣] – فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٧٠) (٤٧) حسن

[٦٨٤] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٠٢)(٢٢٢٤) صحيح

[٦٨٥] – سنن أبي داود (٤/ ٢٦١)(٤٨٤٣) حسن

[٦٨٦] – مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٤١٢)(٢٢٠٩٣) حسن

الْقِيَامَةِ»،قَالَ:«وَيُرْفَعُ لِلْوَالِي الْعَادِلِ الْمُتَوَاضِعِ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلُ سِتِّينَ صِدِّيقًا،كُلُّهُمْ عَابِدٌ مُجْتَهِدٌ» "[٦٨٧].

وعن إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ:سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ،يَقُولُ:«ابْنُ آدَمَ وِعَاءٌ،فَمَنْ جُعِلَ فِيهِ شَيْءٌ كَانَ،وَلَوْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ جَعَلْتُهَا فِي الْإِمَامِ» زَادَنِي غَيْرُهُ:«فَإِنَّ صَلَاحَهُ صَلَاحُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ،وَفَسَادَهُ فَسَادُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ»[٦٨٨]

خامسا:تحريم خيانته وغشه والغدر به والخروج عليه:

يحرم على المسلم أن يخلع يدا من طاعة،وأن يخرج على الإمام المسلم(العادل) ويغدر به،وقد تقدم حديث "**الدين النصيحة**"،وعَنْ نَافِعٍ،قَالَ:جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ،زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ،فَقَالَ:اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً،فَقَالَ:إِنِّي لَمْ آتِكَ لِأَجْلِسَ،أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُهُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ،لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ،وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ،مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» رواه مسلم[٦٨٩]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ،فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» متفقٌ عليه[٦٩٠]

---

[٦٨٧] - الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء (٤/ ١١٧)(٣١٩٣) والترغيب والترهيب لقوام السنة (٣/ ١١٣)(٢١٨٨) وأبو القاسم الجرجانى فى تاريخ جرجان (٦٩/١) وفضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٢٦)(١٨) فيه جهالة

[٦٨٨] - فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٧١)(٤٨)

[٦٨٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٨)٥٨ - (١٨٥١)

[ش (عبد الله بن مطيع) هو عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي القرشي كان ممن خلع يزيد وخرج عليه وكان يوم الحرة قائد قريش كما كان عبد الله بن حنظلة قائد الأنصار إذ خرج أهل المدينة لقتال مسلم بن عقبة المري الذي بعثه يزيد لقتال أهل المدينة وأخذهم بالبيعة له فلما ظفر أهل الشام بأهل المدينة انهزم عبد الله ولحق بابن الزبير بمكة وشهد معه الحصر الأول وبقي معه إلى أن حصر الحجاج ابن الزبير فقاتل ابن مطيع معه يومئذ وهو يقولأنا الذي فررت يوم الحره ...والحر لا يفر إلا مرهيا حبذا الكرة بعد الفره ...لأجزين فرة بكره(لا حجة له) أي لا حجة له في فعله ولا عذر له ينفعه]

[٦٩٠] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٨)٥٦ - (١٨٤٩)

[ش (كره من أميره شيئا) رأى منه ما يكره وينكر في شرع الله عز وجل أو ما يسيئه هو ويكرهه.(خرج من السلطان) من طاعته.(شبرا) قدر شبر وهو كناية عن عدم الطاعة بأدنى شيء.(جاهلية) كموت أهل الجاهلية من حيث إنهم لم يعرفوا طاعة الإمام]

فالواجب على المسلم لزوم جماعة المسلمين وإمامهم وتجنب الفرقة،وشق الصف والخروج على الإمام المسلم(العدل)

وعن حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قال:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» رواه البخاري ومسلم[691].

وعن رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ،عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ أَتَاهُ بِالْمَدَائِنِ،فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ :مَا فَعَلَ قَوْمُكَ ؟ قَالَ :قُلْتُ :عَنْ أَيِّ بَالِهِمْ تَسْأَلُ ؟ قَالَ :مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ،يَعْنِي عُثْمَانَ،قَالَ :قُلْتُ :فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ وَفُلاَنٌ،قَالَ :سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ وَاسْتَذَلَّ الإِمَارَةَ لَقِيَ اللَّهَ وَلاَ وَجْهَ لَهُ عِنْدَهُ.رواه أحمد [692]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا السُّلْطَانِ الَّذِي،ذَلَّتْ لَهُ الرِّقَابُ وَخَضَعَتْ لَهُ الْأَجْسَادُ،مَا هُوَ؟ قَالَ:«هُوَ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ،فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُمُ الْأَجْرُ

---

[691] - صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ - (١٨٤٧)

[ش(أسأله عن الشر) أستوضحه عنه.(مخافة أن يدركني) خوفا من أن أقع فيه أو أدرك زمنه.(دخن) من الدخان أي ليس خيرا خالصا بل فيه ما يشوبه ويكدره وقيل الدخن الأمور المكروهة.(تعرف منهم وتنكر) أي ترى منهم أشياء موافقة للشرع وأشياء مخالفة له.(جلدتنا) من أنفسنا وقومنا وقيل هم في الظاهر مثلنا ومعنا وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم وشؤونهم وجلدة الشيء ظاهره.(جماعة المسلمين) عامتهم التي تلتزم بالكتاب والسنة.(إمامهم) أميرهم العادل الذي اختاروه ونصبوه عليهم.(تعض بأصل شجرة) أي حتى ولو كان الاعتزال بالعض على أصل شجرة والعض هو الأخذ بالأسنان والشد عليها والمراد المبالغة في الاعتزال]

[692] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٧/ ٧٤٩)(٢٣٤٥٢) ٢٣٨٤٥- حسن

وَعَلَيْكُمُ الشُّكْرُ،وَإِنْ أَسَاءُوا فَعَلَيْكُمُ الصَّبْرُ وَعَلَيْهِمُ الْإِصْرُ،لَا تَحْمِلَنَّكُمْ إِسَاءَتُهُ عَلَى أَنْ تَخْرُجُوا مِنْ طَاعَتِهِ،فَإِنَّ الذُّلَّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ خُلُودٍ فِي النَّارِ،لَوْلَاهُمْ مَا صَلَحَ النَّاسُ»[٦٩٣]

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ،قَالَ:«لَا تَسُبُّوا السُّلْطَانَ فَإِنَّهُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ،بِهِ يُقِيمُ اللَّهُ الْحَقَّ،وَيُظْهِرُ الدِّينَ،وَبِهِ يَرْفَعُ اللَّهُ الظُّلْمَ وَيُهْلِكُ الْفَاسِقِينَ»[٦٩٤]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَيَلِيكُمْ أُمَرَاءُ يُفْسِدُونَ وَمَا يَصْلُحُ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرُ،فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَلَهُمُ الْأَجْرُ وَعَلَيْكُمُ الشُّكْرُ،وَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَعَلَيْهِمُ الْوِزْرُ وَعَلَيْكُمُ الصَّبْرُ»[٦٩٥]

وعَنْ عُمَرَ،أَوْ قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،يَقُولُ:«وَيْلٌ لِدَيَّانِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ دَيَّانِ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِالْعَدْلِ وَقَضَى بِالْحَقِّ وَلَمْ يَقْضِ عَلَى هَوًى وَلَا عَلَى قَرَابَةٍ،وَلَا عَلَى رَغَبٍ وَلَا رَهَبٍ وَجَعَلَ كِتَابَ اللَّهِ مِرْآةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ:فَحُدِّثْتُ هَذَا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،وَمُعَاوِيَةَ،وَيَزِيدَ،وَعَبْدِ الْمَلِكِ[٦٩٦]

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَرَسِيِّ،مِنْ حَرَسِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ:دَخَلَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ،فَقَالَ:«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَجِيرُ» فَقَالَ النَّاسُ:مَهْ،الْأَمِيرُ يَا أَبَا مُسْلِمٍ،ثُمَّ قَالَ:«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَجِيرُ» فَقَالَ النَّاسُ:الْأَمِيرُ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ،فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ:«إِنَّمَا مَثَلُكَ مَثَلُ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَوَلَّاهُ مَاشِيَتَهُ وَجَعَلَ لَهُ الْأَجْرَ عَلَى أَنْ يُحْسِنَ الرِّعْيَةَ،وَيُوَفِّرَ جِزَازَهَا وَأَلْبَانَهَا،فَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ رِعْيَتَهَا وَوَفَّرَ جِزَازَهَا حَتَّى تَلْحَقَ الصَّغِيرَةُ وَتَسْمَنَ الْعَجْفَاءُ أَعْطَاهُ أَجْرَهُ وَزَادَهُ زِيَادَةً،وَإِنْ هُوَ لَمْ يُحْسِنْ رِعْيَتَهَا وَأَضَاعَهَا حَتَّى تَهْلَكَ الْعَجْفَاءُ وَتَعْجَفَ السَّمِينَةُ وَلَمْ يُوَفِّرْ جِزَازَهَا وَأَلْبَانَهَا غَضِبَ عَلَيْهِ فَعَاقَبَهُ وَلَمْ يُعْطِهِ الْأَجْرَ» فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ "[٦٩٧]

---

[٦٩٣] – فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٥٦) (٤٠) فيه ضعف

[٦٩٤] – فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٥٦)(٤١) حسن

[٦٩٥] – فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٦٢)٤٣ – حسن لغيره

[٦٩٦] – فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٦٤)(٤٤) حسن

[٦٩٧] – فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٦٦)(٤٦) حسن

وعن شَبِيبَ بْنِ شَيْبَةَ،قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَقَالَ لِي:يَا أَبَا مَعْمَرٍ حَدِّثْنِي عَنْ عَمْـــرِو بْـــنِ عُبَيْدٍ،فَوَاللَّهِ لَرَأَيْتُهُ يَوْمًا وَدَخَلَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ فَقَالَ لَهُ:«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ قَـــدْ أَعْطَاكَ الدُّنْيَا بِكَمَالِهَا.فَاشْتَرِ نَفْسَكَ مِنْهُ بِبَعْضِهَا،وَاعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ،وَسَـــائِلُكَ عَـــنْ مَثَاقِيلِ الذَّرِّ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ،وَإِنَّهُ لَا يَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِمَا لَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ إِلَّـــا بِـــهِ،وَأَنْتَ لَـــا تَرْضَى إِلَّا بِأَنْ يُعْدَلَ عَلَيْكَ،وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَرْضَى إِلَّا بِالْعَدْلِ عَلَى الرَّعِيَّةِ،يَا أَمِـــيرَ الْمُـــؤْمِنِينَ إِنَّ وَرَاءَ بَابِكَ نَارًا،تَأَجَّجُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْجُورِ،وَاللَّهِ مَا يُعْمَلُ خَلْفَ بَابِكَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ نَبِيِّـــهِ ﷺ» قَالَ:فَبَكَى أَبُو جَعْفَرٍ بُكَاءً شَدِيدًا،فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ بْـــنُ مُجَالِـــدٍ:اكْفُـــفْ عَـــنْ أَمِـــيرِ الْمُؤْمِنِينَ،فَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيْهِ،فَقَالَ:" إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ غَدًا،وَكُلُّ مَا تَـــرَى هَاهُنَـــا أَمْـــرٌ مُفْظِعٌ،وَأَنْتَ جِيفَةٌ بِالْعَرَاءِ،فَلَا يُغْنِي عَنْكَ إِلَّا عَمَلُكَ،وَلَهَذَا الْجِدَارُ خَيْرٌ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكَ إِذَا طُوِيَتْ عَنْهُ النَّصِيحَةُ،وَافَقْتَ مِنَ الْفَضِيحَةِ،ثُمَّ قَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ اتَّخَذُوكَ سُـــلَّمًا لِشَهَوَاتِهِمْ،فَكُلُّهُمْ يُوقِدُ عَلَيْكَ نَارَهُ،ثُمَّ تَلَا {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} [الفجر:٦] إِلَـــى أَنْ بَلَغَ {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر:١٤]،يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَنْ عَمِلَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ وَفَعَلَ مِثْـــلَ فِعَالِهِمْ،يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْلَا أَنَّهَا مَضَتْ عَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ مِنْهَا شَـــيْءٌ،فَاعْلَمْ أَنَّكَ وَارِثُ مَنْ مَضَى وَمُوَرِّثٌ غَدًا،وَقَادِمٌ عَلَى رَبِّكَ،وَمَجْزِيٌّ بِعَمَلِكَ،فَاتَّقِ لَيْلَةً تَمَخَّضُ عَـــنْ يَوْمٍ لَا لَيْلَةَ بَعْدَهُ،وَهِيَ لَيْلَةُ الْقِيَامَةِ.قَالَ:فَخَلَعَ أَبُو جَعْفَرٍ خَاتَمَهُ وَقَالَ:دُونَكَ مَا وَرَائِي يَـــا أَبَـــا عُثْمَانَ،فَادْعُ لِي أَصْحَابَكَ وَاسْتَعْمِلْهُمْ،فَوَاللَّهِ إِنِّي لَآمُرُ عُمَّالِي بِالْعَـــدْلِ،وَأَكْتُبُ ذَلِـــكَ فِـــي عُهُودِهِمْ.قَالَ:كَلَّا ادْعُ أَصْحَابِي لِعَدْلٍ تُظْهِرُهُ،وَاطْرُدْ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ عَنْ بَابِكَ لِأَنَّ أَهْلَ الدِّينِ لَنْ يَأْتُوكَ،وَهَؤُلَاءِ بِبَابِكَ لِأَنَّهُمْ إِنْ عَمِلُوا بِمَا يُرْضِيكَ أَسْخَطُوا خَالِقَهُمْ،وَإِنْ عَمِلُوا بِمَا يُرْضِـــي خَالِقَهُمْ أَسْخَطُوكَ فَأَرَّشُوكَ،وَلَكِنِ اسْتَعْمِلْ عَلَى الْعَمَلِ الْوَاحِدِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةً،كُلَّمَا رَابَـــكَ وَاحِدٌ فَاعْزِلْهُ وَوَلِّ غَيْرَهُ،فَوَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ هَؤُلَاءِ أَنَّكَ لَا تَرْضَى مِنْهُمْ إِلَّا بِالْعَدْلِ،وَلَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَّا عَلَيْهِ لَقَدْ تَقَرَّبَ إِلَيْكَ بِهِ مَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ فِيهِ،وَلَا حِسْبَةَ،ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ "[٦٩٨]

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ،" أَنَّ مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ خَرَجَ يَسِيرُ فِي مَمْلَكَتِهِ وَهُوَ مُسْتَخْفٍ مِنَ النَّاسِ حَتَّـــى نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ لَهُ بَقَرَةٌ،فَرَاحَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْبَقَرَةُ،فَحُلِبَتْ فَإِذَا حِلَابُهَا مِقْدَارُ ثَلَاثِينَ بَقَرَةً،فَحَدَّثَ

[٦٩٨] - فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٧٠)

الْمَلكُ نَفْسَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا،فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ غَدَت الْبَقَرَةُ إِلَى مَرْعَاهَا ثُمَّ رَاحَتْ فَحُلبَتْ،فَنَقَصَ لَبَنُهَا عَلَى النِّصْف،وَجَاءَ مقْدَارُ حلَاب خَمْسَ عَشْرَةَ بَقَرَةً،فَدَعَا الْمَلكُ صَاحبَ مَنْزله فَقَالَ:أَخبرْني عَنْ بَقَرَتكَ رَعَت الْيَوْمَ في غَيْر مَرْعَاهَا بالْأَمْس؟ قَالَ:لَا،قَالَ:فَشَربَتْ في غَيْر مَشْرَبهَا بالْأَمْس،قَالَ:لَا،قَالَ:فَمَا بَالُ لَبَنهَا نَقَصَ عَلَى النِّصْف؟ قَالَ:أَرَى أَنَّ الْمَلكَ هَمَّ بأَخْذهَا فَنَقَصَ لَبَنُهَا،فَإِنَّ الْمَلكَ إذَا ظَلَمَ أَوْ هَمَّ بظُلْم ذَهَبَت الْبَرَكَةُ،قَالَ الْمَلكُ:أَنَّى عَرَفْتَ ذَلكَ؟ قَالَ:هُوَ ذَاكَ كَمَا قُلْتُ لَكَ،قَالَ:فَعَاهَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلكُ في نَفْسه أَنْ لَا يَأْخُذَهَا وَلَا يَمْلكَهَا،وَلَا تَكُونَ لَهُ في مُلْكه أَبَدًا،قَالَ:فَغَدَتْ فَرَعَتْ ثُمَّ رَاحَتْ ثُمَّ حُلبَتْ فَإذَا لَبَنُهَا قَدْ عَادَ مقْدَارَ حَلْب ثَلَاثينَ بَقَرَةً،فَقَالَ الْملكُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسه وَاعْتَبَرَ فَقَالَ:إنْ كَانَ الْمَلكُ إذَا ظَلَمَ أَوْ هَمَّ بظُلْم ذَهَبَت الْبَرَكَةُ،لَا جَرَمَ لَأَعْدلَنَّ وَلَأَكُونَنَّ عَلَى أَفْضَل حَالٍ "[699]

سادسا:جَعْل رزْقه منْ بَيْت الْمَال :

" نَصَّ جُمْهُورُ الْفُقَهَاء عَلَى أَنَّ لمُتَقَلِّد الْولاَيَة الْعَامَّة حَقًّا في بَيْت الْمَال،بحَيْثُ يُرَتَّبُ لَهُ رزْقٌ منْهُ يَكْفيه وَعيَالَهُ بمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ مَكَانَته وَحَاجَته،وَذَلكَ قيَاسًا عَلَى عَامل الصَّدَقَة الَّذي نَصَّ الْقُرْآنُ عَلَى اسْتحْقَاقه الرِّزْقَ – مَعَ غنَاهُ – منْ مَال الزَّكَاة لقيَامه عَلَى مَصَالحهَا،كَذَلكَ أَهْل الْولاَيَات الْعَامَّة يَسْتَحقُّونَ رزْقَهُمْ منْ بَيْت مَال الْمُسْلمينَ لتَفَرُّغهمْ بالْقيَام عَلَى مَصَالحهمْ وَاحْتبَاسهمْ بحَقِّ الْعَامَّة .

فَلَوْ لَمْ يُفْرَضْ لَهُمْ ذَلكَ منْ بَيْت الْمَال لَتَعَطَّلَت الْمَصَالحُ وَضَاعَت الْحُقُوقُ لانْشغَالهمْ عَنْهَا بالسَّعْي في الاكْتسَاب،وَرُبَّمَا أَدَّى ذَلكَ لأَخْذهمُ الرِّشْوَةَ أَوْ غَيْرَهَا منَ الْمَال الْحَرَام .فَمنْ أَجْل ذَلكَ كَانَ لاَ بُدَّ منْ سَدِّ الذَّريعَة إلَى ذَلكَ بكفَايَتهمْ وَمَنْ يَعُولُونَ منْ بَيْت الْمَال . "[700]

---

[699] – فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٧٢)(٤٩)

[700] – شرح أدب القاضي للصدر الشهيد ٢ ١١،روضة القضاة ١ ٨٥،وروضة الطالبين ١١ ١٣٧،والمهذب ٢ ٢٩٠،والمبسوط ١٦ ١٠٢،وشرح منتهى الإرادات ٣ ٤٦٢،وتحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال ص ١٤٩،والسياسة الشرعية ص ٧٤،وأحكام القرآن للجصاص ٢ ٣٦٣،وأحكام القرآن لابن العربي ١ ٣٢٦ .**الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٧/ ١٧٥)**

فعَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:«مَنْ كَانَ لَنَا عَامِلًا فَلْيَكْتَسِبْ زَوْجَةً،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَكْتَسِبْ خَادِمًا،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَكْتَسِبْ مَسْكَنًا»،قَالَ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ:أُخْبِرْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«مَنِ اتَّخَذَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ أَوْ سَارِقٌ»[٧٠١]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:لَمَّا اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ،قَالَ:«لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنَّ حِرْفَتِي لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ عَنْ مَئُونَةِ أَهْلِي،وَشُغِلْتُ بِأَمْرِ المُسْلِمِينَ،فَسَيَأْكُلُ آلُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذَا المَالِ،وَيَحْتَرِفُ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ»[٧٠٢]

(قَالَ) :أَيِ اعْتِذَارًا عَنْ إِنْفَاقِهِ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ (لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي) :قِيلَ:أَرَادَ بِهِمْ قُرَيْشًا،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ (أَنَّ حِرْفَتِي) :وَهِيَ مَا كَانَ يَشْتَغِلُ بِهِ مِنَ التِّجَارَةِ قَبْلَ الْخِلَافَةِ فِي النِّهَايَةِ:الْحِرْفَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَجِهَةُ الْكَسْبِ (لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ) :بِكَسْرِ الْجِيمِ وَيُفْتَحُ،فَفِي الْقَامُوسِ:الْعَجْزُ الضَّعْفُ وَالْفِعْلُ كَضَرَبَ وَسَمِعَ (عَنْ مَئُونَةِ أَهْلِي) :بِفَتْحِ مِيمٍ وَضَمِّ هَمْزَةٍ وَسُكُونِ وَاوٍ،؛ أَيْ نَفَقَةِ عِيَالِي وَقَدِ اشْتَغَلْتُ (بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ) :وَفِي نُسْخَةٍ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ؛ أَيْ بِإِصْلَاحِ أُمُورِهِمْ،فَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّفَرُّغِ لِلتِّجَارَةِ (فَسَيَأْكُلُ) :أَيْ يَنْتَفِعُ (آلُ أَبِي بَكْرٍ) :أَيْ تَبَعًا لَهُ،وَالْمُرَادُ أَهْلُهُ وَعِيَالُهُ وَفِيهِ الْتِفَاتٌ (مِنْ هَذَا الْمَالِ) إِشَارَةٌ إِلَى الْحَاضِرِ فِي الذِّهْنِ،وَهُوَ مَالُ بَيْتِ الْمَالِ لِلْمُسْلِمِينَ (وَيَحْتَرِفُ) :أَيْ أَبُو بَكْرٍ (لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ) :أَيْ فِي مُقَابَلَةِ مَا أَكَلَ مِنَ الْمَالِ عِوَضًا لَهُ،فَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِ:فَسَيَأْكُلُ وَأَرَادَ بِالْاحْتِرَافِ فِيهِ التَّصَرُّفَ فِيهِ،وَالسَّعْيَ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ،وَنِظَامِ أَحْوَالِهِمْ وَجِيءَ بِالْحِرْفَةِ مُشَاكَلَةً لِوُقُوعِهِ فِي صُحْبَةِ قَوْلِهِ:إِنَّ حِرْفَتِي.قَالَ الشُّمُنِّيُّ:وَفِيهِ أَنَّ لِلْحَاكِمِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يَكْفِيهِ،وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ تَاجِرًا فِي الْبَزِّ،وَعُمَرُ فِي الطَّعَامِ،وَعُثْمَانُ فِي التَّمْرِ وَالْبُرِّ،وَعَبَّاسٌ فِي الْعِطْرِ انْتَهَى.وَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ التِّجَارَةِ الْبَزُّ،وَهُوَ الثِّيَابُ،ثُمَّ الْعِطْرُ.وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ:«لَوِ اتَّجَرَ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَاتَّجَرُوا فِي الْبَزِّ،وَلَوِ اتَّجَرَ أَهْلُ النَّارِ لَاتَّجَرُوا فِي الصُّوفِ» .رَوَاهُ أَبُو مَنْصُورٍ فِي مُسْنَدِ الْفِرْدَوْسِ،وَقَالَ الْمُظْهِرُ:اللَّامُ فِي (لَقَدْ عَلِمَ) قَسِيمَةٌ أَقْسَمَ أَنَّهُ كَانَ مُشْتَهِرًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنَّهُ

---

[٧٠١] - سنن أبي داود (٣/ ١٣٤)(٢٩٤٥) صحيح

[٧٠٢] - صحيح البخاري (٣/ ٥٧)(٢٠٧٠)

[ش (حرفتي) عملي الذي كنت أكتسب منه.(من هذا المال) من بيت مال المسلمين.(يحترف للمسلمين فيه) يتاجر لهم به حتى يعود عليهم من ربحه بقدر ما أكل وأكثر]

كَانَ كَسُوبًا وَمُحَصِّلًا لِمَئُونَةِ أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ بِحِرْفَةِ التِّجَارَةِ،وَلَمْ يَكُنْ عَاجِزًا عَنْ ذَلِكَ،وَهَذَا تَمْهِيدٌ مِنْهُ وَاعْتِذَارٌ مِنْهُ فِي قَدْرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ،وَمِنْ ثَمَّ أَتَى بِالْفَاءِ فِي قَوْلِهِ فَسَيَأْكُلُ ؛ لِأَنَّهَا فَاءُ النَّتِيجَةِ،وَ (آلُ أَبِي بَكْرٍ) أَهْلُهُ وَعِيَالُهُ وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ نَفْسُهُ،وَفِي نَسَقِ الْكَلَامِ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِآلِ أَبِي بَكْرٍ نَفْسَهُ،وَهُوَ قَوْلُهُ:وَيَحْتَرِفُ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ أَيْ يَكْتَسِبُ بِالتَّصَرُّفِ فِي أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ يَدُلُّ عَلَى مَا يَتَنَاوَلُ ذَلِكَ.قَالَ الطِّيبِيُّ:أَرَادَ بِنَسَقِ الْكَلَامِ أَنْ يَحْتَرِفَ مُسْنَدًا إِلَى ضَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ،وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى (فَسَيَأْكُلُ)،فَإِذَا أُسْنِدَ إِلَى الْأَهْلِ تَنَافَرَ وَانْخَرَمَ النَّظْمُ.وَقَالَ الْقَاضِي:آلُ أَبِي بَكْرٍ أَهْلُهُ،عَدَلَ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ،وَقِيلَ:نَفْسُهُ،وَالْآلُ مُقْحَمٌ لِقَوْلِهِ:وَيَحْتَرِفُ لَيْسَ بِشَيْءٍ بَلِ الْمَعْنَى إِنِّي كُنْتُ أَكْسِبُ لَهُمْ فَيَأْكُلُونَهُ،وَالْآنَ أَكْسِبُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالتَّصَرُّفِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَنُظُمِ أَحْوَالِهِمْ،فَسَيَأْكُلُونَ مِنْ مَالِهِمُ الْمُعَدِّ لِمَصَالِحِهِمْ وَهُوَ مَالُ بَيْتِ الْمَالِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:لَا بُدَّ فِي الِانْتِقَالِ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ عَلَى مَا سَمَّاهُ الْتِفَافًا مِنْ فَائِدَةٍ،فَقَوْلُهُ:آلُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ بَابِ التَّجْرِيدِ،جَرَّدَ مِنْ نَفْسِهِ شَخْصًا مُتَّصِفًا بِصِفَةِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ كَوْنِهِ كَسُوبًا مُحَصِّلًا لِمَئُونَةِ الْأَهْلِ بِالتِّجَارَةِ،ثُمَّ تَكَفَّلَ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ مِنْ تَوَلِّي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ،وَامْتَنَعَ مِنَ الِاكْتِسَابِ لِمَئُونَةِ أَهْلِهِ وَغَيْرِهِ،وَهُوَ هُوَ،وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِالْعَلِيَّةِ وَإِنَّ مَنِ اتَّصَفَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَأْكُلَ هُوَ وَأَهْلُهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:فَرَضَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِنَفْسِهِ مُدَّيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَإِدَامًا زَيْتًا،أَوْ نَحْوَهُ،وَإِزَارًا وَرِدَاءً فِي الصَّيْفِ،وَفَرْوَةً،أَوْ جُبَّةً فِي الشِّتَاءِ،وَظَهْرًا مُعِينًا لِحَاجَتِهِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ.قَالَ الْمُظْهِرُ:وَفِيهِ بَيَانٌ أَنَّ لِلْعَامِلِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ عَرَضِ الْمَالِ يَعْمَلُ فِيهِ قَدْرَ مَا يَسْتَحِقُّهُ لِعِمَالَتِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ إِمَامٌ يَقْطَعُ لَهُ أُجْرَةً مَعْلُومَةً.[٧٠٣]

أثر صلاح ولاة الأمر في صلاح الأمة

ولاة الأمر هم الأمراء والعلماء،وبصلاح هذين الصنفين يصلح الناس،وبفسادهما يفسد الناس،وقد جعل الله تعالى وجوب نصرة الدين وتبليغ العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

[٧٠٣] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٣٤)

على ولاة الأمر آكد من غيرهم،لما اجتمع عندهم من العلم والقدرة والسلطان،قال تعالى:{ { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)} [المائدة:٦٢،٦٣]،والربانيون:هم العلماء أصحاب الولايات،والأحبار:هم العلماء فقط،قال الإمام ابن كثير رحمه الله:أَيْ:يُبَادِرُونَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَاطِي الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالاعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ،وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أَيْ:لَبِئْسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلُهُمْ وَبِئْسَ الاعْتِدَاءُ اعْتِدَاؤُهُمْ.

قَوْلُهُ:{لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} يَعْنِي:هَلَّا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ.وَالرَّبَّانِيُّونَ وَهُمُ:الْعُلَمَاءُ الْعُمَّالُ أَرْبَابُ الْوِلَايَاتِ عَلَيْهِمْ،وَالْأَحْبَارُ:وَهُمُ الْعُلَمَاءُ فَقَطْ.{لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:يَعْنِي الرَّبَّانِيِّينَ،أَنَّهُمْ:بِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.يَعْنِي:فِي تَرْكِهِمْ ذَلِكَ.وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ:قَالَ لِهَؤُلَاءِ حِينَ لَمْ يَنْهُوا،وَلِهَؤُلَاءِ حِينَ عَلِمُوا.قَالَ:وذلك الأركان.قال:"ويعملون"و "ويصنعون" وَاحِدٌ.رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[٧٠٤].

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله " هَلَا يَنْهَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِ الرُّشَا فِي الْحُكْمِ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَبَّانِيُّوهُمْ ،وَهُمْ أَئِمَّتُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ،وَسَاسَتُهُمُ الْعُلَمَاءُ بِسِيَاسَتِهِمْ وَأَحْبَارُهُمْ ،وَهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ وَقُوَّادُهُمْ {عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ} [المائدة:٦٣] يَعْنِي:" عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ؛وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْكُمُونَ فِيهِمْ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ ،وَيَكْتُبُونَ كُتُبًا بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ:هَذَا مِنْ حُكْمِ اللَّهِ ،وَهَذَا مِنْ كُتُبِهِ.يَقُولُ اللَّهُ:{فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة:٧٩] وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} [المائدة:٦٢] فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ الرِّشْوَةَ الَّتِي كَانُوا يَأْخُذُونَهَا عَلَى حُكْمِهِمْ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ لِمَنْ حَكَمُوا لَهُ بِهِ.وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَحْبَارِ وَمَعْنَى السُّحْتِ بِشَوَاهِدِ ذَلِكَ فِيمَا مَضَى بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.وَأَمَّا قَوْلُهُ:{لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [المائدة:٦٣] وَهَذَا قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ أَقْسَمَ بِهِ ،يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:أَقْسَمَ لَبِئْسَ الصَّنِيعُ كَانَ يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ فِي تَرْكِهِمْ نَهْيَ

---

[٧٠٤] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٤٤)

الَّذينَ يُسَارِعُونَ مِنْهُمْ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِ السُّحْتِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ.وَكَانَ الْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ:مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدَّ تَوْبِيخًا لِلْعُلَمَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أَخْوَفَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا"""[705]

وَتَرَى كَثِيراً مِنْ هَؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ يُبَادِرُونَ إِلَى ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللهُ مِنَ المَآثِمِ وَالمَحَارِمِ،بالاعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ،وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ (أَكْلِهِم السُحْتَ)،وَلَبِئْسَ العَمَلُ عَمَلُهُمْ،وَبِئْسَ الاعْتِدَاءُ اعْتَدَاؤُهُمْ،وَلَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ مِنْ أَنَّ مَجِيئَهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِنَّمَا هُوَ لِتَسَقُّطِ الأَخْبَارِ،وَالتَّوَسُّلِ إِلَى ذَلِكَ بِالنِّفَاقِ وَالخِدَاعِ.

هَلاَّ نَهَاهُمُ الرَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ مِنْهُمْ عَنْ قَوْلِ الإِثْمِ وَالفُحْشِ،وَعَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ؟ فَلَبِئْسَ مَا صَنَعَ هَؤُلاَءِ الأَحْبَارِ وَالرَّبَّانِيُّونَ مِنْ تَرْكِ النَّصِيحَةِ وَالنَّهْيِ عَنِ ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللهُ مِنَ المَعَاصِي،وَلَبِئْسَ مَا صَنَعَ هَؤُلاَءِ الآثِمُونَ.[706]

والمسارعة مفاعلة تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا في الإثم والعدوان،وأكل الحرام.وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع،ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد وتسقط القيم ويسيطر الشر ..وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال،فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر ..إلى الإثم والعدوان،قويهم وضعيفهم سواء ..فالإثم والعدوان - في المجتمعات الهابطة الفاسدة - لا يقتصران على الأقوياء بل يرتكبهما كذلك الضعفاء ..فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم.وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعا.ولكن يعتدي بعضهم على بعض.ويعتدون على حرمات الله.لأنها هي التي تكون في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات! وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام ..وكذلك أكلهم للحرام ..فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن! «لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»! ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة وهو يستنكر سكوت

---

[705] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٥٠)

[706] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٣٢،بترقيم الشاملة آليا)

الربانيين القائمين على الشريعة،والأحبار القائمين على أمر العلم الديني ..سكوتهم على مسارعة القوم في الإثم والعدوان وأكل السحت وعدم نهيهم عن هذا الشر الذي يتسابقون فيه:«لَوْلا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ! لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ! » ..

فهذه السمة – سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الديني عما يقع في المجتمع من إثم وعدوان – هي سمة المجتمعات التي فسدت وآذنت بالانهيار ..وبنو إسرائيل «كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ» ..كما حكى عنهم القرآن الكريم ..

إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي،ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

وهكذا وصف الله الأمة المسلمة فقال:«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ،تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» ووصف بني إسرائيل فقال:«كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ» ..فكان ذلك فيصلا بين المجتمعين وبين الجماعتين.

أما هنا فينحي باللائمة على الربانيين والأحبار،الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت،الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله.وإنه لصوت النذير لكل أهل دين.فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر كما قلنا من قبل في الظلال،يقتضي «سلطة» تأمر وتنهى،والأمر والنهي أمر غير الدعوة.فالدعوة بيان،والأمر والنهي سلطان.وكذلك ينبغي أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذي يجعل لأمرهم ونهيهم قيمته في المجتمع فلا يكون مطلق كلام![٧٠٧]

فالناس يطيعون ولاة الأمر،ويستجيبون لدعوتهم أكثر من غيرهم ممن لم يكن في مكانتهم وقدرهم،وقد وعَنْ بِلَالٍ يَعْنِي ابْنَ يَحْيَى،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«قَدْ عَلِمْتُ

[٧٠٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٢٤)

مَتَى صَلَاحُ النَّاسِ وَمَتَى فَسَادُهُمْ إِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الصَّغِيرِ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ الْكَبِيرُ وَإِذَا جَاءَ الْفِقْهُ مِنْ قِبَلِ الْكَبِيرِ تَابَعَهُ الصَّغِيرُ فَاهْتَدَيَا»[٧٠٨]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،مَتَى نَدَعُ الِائْتِمَارَ بِالْمَعْرُوفِ،وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ:" إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ،إِذَا كَانَتِ الْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ،وَالْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ،وَالْعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ "[٧٠٩]

والمراد بالصغر في هذا الأثر صغر القدر،وليس صغر السن،فإن من كان صغير القدر لا يستجيب له إلا القليل من الناس،ويستعصي عليه كبارهم،وأما إذا كانت الدعوة والإرشاد والتعليم من كبار القدر والمكانة بين الناس من ولاة الأمر من الأمراء والعلماء والوزراء،فإن الكثير من الرعية سوف يتبعونهم ويستجيبون لنصحهم،وهذا هو المشاهد في الواقع،فليس دعوة من بيده السلطة والقدرة في البلاد،كمن لا سلطة له ولا قدرة.

وفي صحيح البخاري عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا زَيْنَبُ،فَرَآهَا لاَ تَكَلَّمُ،فَقَالَ:«مَا لَهَا لاَ تَكَلَّمُ؟» قَالُوا:حَجَّتْ مُصْمِتَةً،قَالَ لَهَا:«تَكَلَّمِي،فَإِنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ،هَذَا مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ»،فَتَكَلَّمَتْ،فَقَالَتْ:مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:«امْرُؤٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ»،قَالَتْ:أَيُّ المُهَاجِرِينَ؟ قَالَ:«مِنْ قُرَيْشٍ»،قَالَتْ:مِنْ أَيِّ قُرَيْشٍ أَنْتَ؟ قَالَ:«إِنَّكِ لَسَئُولٌ،أَنَا أَبُو بَكْرٍ»،قَالَتْ:مَا بَقَاؤُنَا عَلَى هَذَا الأَمْرِ الصَّالِحِ الَّذِي جَاءَ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ:«بَقَاؤُكُمْ عَلَيْهِ مَا اسْتَقَامَتْ بِكُمْ أَئِمَّتُكُمْ»،قَالَتْ:وَمَا الأَئِمَّةُ؟ قَالَ:«أَمَا كَانَ لِقَوْمِكِ رُءُوسٌ وَأَشْرَافٌ،يَأْمُرُونَهُمْ فَيُطِيعُونَهُمْ؟» قَالَتْ:بَلَى،قَالَ:«فَهُمْ أُولَئِكِ عَلَى النَّاسِ»[٧١٠]

---

[٧٠٨] - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦١٥)(١٠٥٥)وفتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٠١) ونصيحة أهل الحديث (ص:٣٥) والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ١٥٨) فيه انقطاع وصححه الحافظ في الفتح

[٧٠٩] - أمالي ابن بشران – الجزء الأول (ص:١١٦) (٢٤٧) والمسند الجامع (٢/ ٢٨٠)(١٢١٩) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٠/ ٢٧٣)(١٢٩٤٣) صحيح

[٧١٠] - صحيح البخاري (٥/ ٤١)(٣٨٣٤)

[ش (أحمس) اسم قبيلة.(مصمتة) صامتة ساكنة.(هذا) ترك الكلام.(لسؤول) كثيرة السؤال.(الأمر الصالح) الإسلام وما فيه من العدل ومكارم الأخلاق]

فقولها:"هذا الأمر الصالح" تعني الإسلام،وما تضمنه من التوحيد والعــدل والصــلاح،وقوله رضي الله عنه:"ما استقامت بكم أئمتكم" يدل على أن الناس يتبعون أئمتهم،فمن ضل منـــهم أضل غيره،ومن استقام سعى واجتهد في إصلاح الناس،ولهذا اشترطت التقــوى والعدالـــة في الإمام والأمراء،لما يترتب على صلاحهم من إقامة شرع الله في البلاد وإصلاح الناس،وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" و(أولو الأمر) أصحاب الأمر وذووه،وهم الذين يــأمرون الناس،وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام،فلهــذا كــان أولــو الأمــر صنفين:العلماء،والأمراء،فإذا صلحوا صلح الناس،وإذا فسدوا فسد الناس،كما قال أبو بكــر الصديق رضي الله عنه للأحمسية لما سألته:ما بقاؤنا على هذا الأمر؟ قال:ما اســتقامت لكـــم أئمتكم،ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان،وكل من كان متبوعــا فإنــه مــن أولي الأمر،وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به،وينهى عما نهى عنه،وعلى كل واحـــد ممن عليه طاعته أن يطيعه في طاعة الله،ولا يطيعه في معصية الله"[٧١١]

وعَنْ حَيَّةَ بِنْتِ أَبِي حَيَّةَ،قَالَتْ:دَخَلَ عَلَيْنَا رَجُلٌ بِالظَّهِيرَةِ فَقُلْتُ:يَا عَبْدَ اللَّهِ مِنْ أَيْــنَ أَقْبَلْــتَ؟ قَالَ:«أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبٌ لِي فِي بُغَاءٍ لَنَا فَانْطَلَقَ صَاحِبِي يَبْغِي وَدَخَلْتُ أَنَا أَسْــتَظِلُّ بِالظِّــلِّ وَأَشْرَبُ مِنَ الشَّرَابِ».فَقُمْتُ إِلَى لُبَيْنَةٍ حَامِضَةٍ – ورُبَّما قَالَتْ:فَقُمْتُ إِلَى ضَيْحَةٍ حَامِضَـــةٍ – فَسَقَيْتُهُ مِنْهَا،فَشَرِبَ وَشَرِبْتُ.قَالَتْ:وَتَوَسَّمْتُهُ فَقُلْتُ:يَا عَبْدَ اللَّهِ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَــالَ:«أَنَــا أَبُــو بَكْرٍ».قُلْتُ:أَنْتَ أَبُو بَكْرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي سَمِعْتُ بِهِ؟ قَالَ:«نَعَمْ».قَالَتْ:فَذَكَرْتُ غَزْوَنَا خَثْعَمًا،وَغَزْوَةَ بَعْضِنَا بَعْضًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ،وَمَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأُلْفَةِ وَأَطْنَابِ الْفَسَاطِيطِ – وَشَبَّكَ ابْنُ عَوْنٍ أَصَابِعَهُ،وَوَصَفَهُ لَنَا مُعَاذٌ،وَشَبَّكَ أَحْمَدُ – فَقُلْتُ:يَا عَبْدَ اللَّهِ حَتَّى مَتَى تَــرَى أَمْرَ النَّاسِ هَذَا؟ قَالَ:«مَا اسْتَقَامَتِ الْأَئِمَّةُ»،قُلْتُ:مَا الْأَئِمَّةُ؟ قَالَ:«أَمَا رَأَيْتَ السَّيِّدَ يَكُونُ فِــي الْحِوَاءِ فَيَتَّبِعُونَهُ وَيُطِيعُونَهُ؟ فَمَا اسْتَقَامَ أُولَئِكَ» رواه الدارمي[٧١٢]

وعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَابِرٍ الْأَحْمَسِيَّةِ قَالَتْ:خَرَجْتُ أَنَا وَصَاحِبَةٌ لِي حَاجَّةٌ ،حَجَّتْ مُصْــمِتَةً،فَأَتَانَا رَجُلٌ بِمَكَّةَ،قُلْتُ:مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:أَبُو بَكْرٍ ،قُلْتُ:صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ:نَعَمْ،قُلْــتُ:يَــا

---

[٧١١] – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية (ص:٥٣) والاستقامة (٢/ ٢٩٥) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ١٧٠)

[٧١٢] – سنن الدارمي (١/ ٢٩٢)(٢١٦) حسن

صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّا مَرَرْنَا بِأَقْوَامٍ كُنَّا نَغْزُوهُمْ وَيَغْزُونَا،فَلَمْ يَعْرِضُوا لَنَا،وَلَمْ نَعْرِضْ لَهُمْ،مَتَّى ذَلِكَ؟ قَالَ:ذَا مِنْ قِبَلِ الْأَمْرِ،قُلْتُ:فَمَتَى يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ:إِذَا اسْتَقَامَتْ لَكُمْ أَئِمَّتُكُمْ،قُلْتُ:وَمَا الْأَئِمَّةُ؟ قَالَ:إِنَّكِ لَسَئُولٌ،أَمَا لَكُمْ رُؤُسٌ قَادَةٌ،قُلْتُ:بَلَى قَالَ:فَهُمْ أُولَئِكَ،ثُمَّ قَالَ:مَا لِصَاحِبَتِكِ لَا تَكَلَّمُ؟ قُلْتُ:إِنَّهَا حَجَّتْ مُصْمِتَةً قَالَ:قُولِي لَهَا تَتَكَلَّمْ،لَا حَجَّ لِمَنْ لَا يَتَكَلَّمُ"[٧١٣]

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ،قَالَ:قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ:«إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ،وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» رواه أحمد[٧١٤]

وعن ثَوْبَانَ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:" إِنَّ رَبِّي زَوَى لِيَ الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَأَعْطَانِي الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا،وَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً لَمْ يُرَدَّ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَلَا أُظْهِرُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ بِعَامَّةٍ،وَلَوِ اجْتَمَعَ مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ هُوَ يُهْلِكُ بَعْضًا هُوَ يَسْبِي بَعْضًا،وَإِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ،وَلَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ،وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ،وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "،وَأَنَّهُ قَالَ:«كُلُّ مَا يُوجَدُ فِي مِائَةِ سَنَةٍ،وَسَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ،وَأَنَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ،لَا نَبِيَّ بَعْدِي،وَلَكِنْ لَا تَزَالُ فِي أُمَّتِي طَائِفَةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»،قَالَ:وَزَعَمَ «أَنَّهُ لَا يَنْزِعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ ثَمَرِهَا شَيْئًا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِثْلَهَا»،وَأَنَّهُ قَالَ:«لَيْسَ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ رَجُلٌ بِأَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ،ثُمَّ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»،قَالَ:وَزَعَمَ " أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ عَظَّمَ شَأْنَ الْمَسْأَلَةِ،وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَاءَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْمِلُونَ أَوْثَانَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ،فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ:مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ:رَبَّنَا لَمْ تُرْسِلْ إِلَيْنَا رَسُولًا،وَلَمْ يَأْتِنَا أَمْرٌ وَلَوْ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا لَكُنَّا

---

[٧١٣] - معجم ابن الأعرابي (٣/ ١٠٦٩)(٢٣٠٢) حسن

[٧١٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٣١)(٤٥٧٠) ومسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٨٣٤)(١٧٢٤٥) صحيح

أَطْـــوَعُ عِبَـــادِكَ لَـــكَ،فَيَقُولُ لَهُـــمْ رَبُّهُـــمْ:أَرَأَيْـــتُمْ إِنْ أَمَـــرْتُكُمْ بِـــأَمْرٍ أَتُطِيعُـــونِي؟ قَالَ:فَيَقُولُونَ:نَعَمْ.قَـــالَ:فَيَأْخُـــذُ مَـــوَاثِيقَهُمْ عَلَـــى ذَلِكَ،فَيَـــأْمُرُهُمْ أَنْ يَعْمَـــدُوا لِجَهَـــنَّمَ فَيَدْخُلُونَهَا،قَالَ:فَيَنْطَلِقُونَ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا رَأَوْا لَهَا تَغَيُّظًـــا وَزَفِيرًا،فَهَـــابُوا فَرَجَعُـــوا إِلَـــى رَبِّهِمْ،فَقَالُوا:رَبَّنَا فَرِقْنَا مِنْهَـــا،فَيَقُولُ:أَلَـــمْ تُعْطُـــونِي مَـــوَاثِيقَكُمْ لَتُطِيعُونِي،اعْمِـــدُوا لَهَـــا فَـــادْخُلُوا،فَيَنْطَلِقُونَ حَتَّـــى إِذَا رَأَوْهَـــا فَرَقُـــوا فَرَجَعُوا،فَقَـــالُوا:رَبَّنَـــا لَـــا نَسْـــتَطِيعُ أَنْ نَدْخُلَهَا،قَالَ:فَيَقُولُ:ادْخُلُوهَا دَاخِرِينَ " قَالَ:فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ:«لَوْ دَخَلُوهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ كَانَـــتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا» [715]

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»،قَالَ:وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَـــأْتِيَ أَمْـــرُ اللَّهِ» [716]

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،فَـــإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،فَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَـــتَهُمْ،فَإِنَّ رَبِّي،قَالَ:يَا مُحَمَّدُ،إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً،فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أُعْطِيكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَـــنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَـــيْهِمْ مِـــنْ أَقْطَارِهَا،أَوْ قَالَ:مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُـــهُمْ يُهْلِـــكُ بَعْضًـــا وَيَسْـــبِي بَعْضُـــهُمْ بَعْضًا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ،وَإِذَا وُضِعَ السَّـــيْفُ فِـــي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِـــي بِالْمُشْـــرِكِينَ وَحَتَّى تُعْبَدَ الْأَوْثَانُ،وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ،وَإِنِّـــي خَـــاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ » [717]

---

[715] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٩٦)(٨٣٩٠) صحيح

[716] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٠٥)(٢٢٢٩) صحيح

[717] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٢٢٠)(٧٢٣٨) صحيح

وعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،قَالَ:قَالَ لِي عُمَرُ:«هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟» قَالَ:قُلْتُ:لَا،قَالَ:«يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ،وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ» رواه الدارمي في السنن[٧١٨]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ :قَالَ عُمَرُ :الرَّعِيَّةُ مُؤَدِّيَةٌ إِلَى الإِمَامِ مَا أَدَّى الإِمَامُ إِلَى اللهِ،فَإِذَا رَتَعَ رَتَعُوا.رواه ابن أبي شيبة في مصنفه[٧١٩].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوقَةَ،قَالَ :أَتَيْتُ نُعَيْمَ بْنَ أَبِي هِنْدٍ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ صَحِيفَةً فَإِذَا فِيهَا مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :سَلاَمٌ عَلَيْك أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّا عَهِدْنَاك وَأَمْرُ نَفْسِكَ لَك مُهِمٌّ ،وَأَصْبَحْت وقَدْ وُلِّيت أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا،يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْك الشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ،وَلِكُلٍّ حِصَّتُهُ مِنَ الْعَدْلِ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ،فَإِنَّا نُحَذِّرُك يَوْمًا تَعْنُو فِيهِ الْوُجُوهُ،وَتَجِفُّ فِيهِ الْقُلُوبُ،وَتُقْطَعُ فِيهِ الْحُجَجُ مَلِكٌ قَهَرَهُمْ بِجَبَرُوتِهِ وَالْخَلْقُ دَاخِرُونَ لَهُ،يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ،وَإِنَّا كُنَّا نُحَدِّثُ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ سَيَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا :أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلاَنِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ،وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يَنْزِلَ كِتَابُنَا إِلَيْك سِوَى الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِنَا،فَإِنَّا كَتَبْنَا بِهِ نَصِيحَةً لَك وَالسَّلاَمُ عَلَيْك،فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا :مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمَا أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّكُمَا كَتَبْتُمَا إِلَيَّ تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا عَهِدْتُمَانِي وَأَمْرُ نَفْسِي لِي مُهِمٌّ وَأَنِّي قَدْ أَصْبَحْت قَدْ وُلِّيت أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا،يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيِ الشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ،وَلِكُلٍّ حِصَّةٌ مِنْ ذَلِكَ،وَكَتَبْتُمَا فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ،وَإِنَّهُ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ عِنْدَ ذَلِكَ لِعُمَرَ إِلاَّ بِاللهِ،وَكَتَبْتُمَا تُحَذِّرَانِي مَا حُذِّرَتْ بِهِ الأُمَمُ قَبْلَنَا،وَقَدِيمًا كَانَ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِآجَالِ

---

[٧١٨] - سنن الدارمي (١/ ٢٩٥)(٢٢٠) وأخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص:١٩٠)(٣٤٥) صحيح

(قَالَ):قَالَ لِي عُمَرُ:هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ أَيْ:يُزِيلُ عِزَّتَهُ،وَالْهَدْمُ فِي الْأَصْلِ إِسْقَاطُ الْبِنَاءِ:(قُلْتُ:لَا!) .أَيْ:لَا أَعْرِفُ (قَالَ:يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ):أَيْ عَثْرَتُهُ بِتَقْصِيرٍ مِنْهُ (وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ):الَّذِي يُظْهِرُ السُّنَّةَ وَيُبْطِنُ الْبِدْعَةَ (بِالْكِتَابِ):وَإِنَّمَا خُصَّ لِأَنَّ الْجِدَالَ بِهِ أَقْبَحُ،إِذْ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ (وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ):بِالْهَمْزَةِ وَالْيَاءِ (الْمُضِلِّينَ):قَالَ الطِّيبِيُّ:الْمُرَادُ بِهَدْمِ الْإِسْلَامِ تَعْطِيلُ أَرْكَانِهِ الْخَمْسَةِ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» " الْحَدِيثَ.وَتَعْطِيلُهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ زَلَّةِ الْعَالِمِ وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى،وَمِنْ جِدَالِ الْمُبْتَدِعَةِ،وَغُلُوِّهِمْ فِي إِقَامَةِ الْبِدَعِ بِالتَّمَسُّكِ بِتَأْوِيلَاتِهِمُ الزَّائِفَةِ وَمِنْ ظُهُورِ ظُلْمِ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ وَحُكْمِ الْمُزَوِّرِينَ،وَإِنَّمَا قُدِّمَتْ زَلَّةُ الْعَالِمِ لِأَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ فِي الْخَصْلَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ،كَمَا جَاءَ:زَلَّةُ الْعَالِمِ زَلَّةُ الْعَالَمِ " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣٣٤)

[٧١٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ١٤٠)(٣٥٥٩٠) فيه انقطاع

النَّاسِ يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ وَيُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ،وكَتَبْتُمَا تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا كُنْتُمَا تُحَدِّثَانِ،أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ سَيَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا :أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلاَنِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ،وَلَسْتُمْ بِأُولَئِكَ،لَيْسَ هَذَا بِزَمَانِ ذَلِكَ،وَإِنَّ ذَلِكَ زَمَانٌ تَظْهَرُ فِيهِ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ،تَكُونُ رَغْبَةُ بَعْضِ النَّاسِ إِلَى بَعْضٍ لِصَلاَحِ دُنْيَاهُمْ،وَرَهْبَةُ بَعْضِ النَّاسِ مِنْ بَعْضٍ، كَتَبْتُمَا بِهِ نَصِيحَةً تَعِظَانِي بِاللهِ أَنْ أُنْزِلَ كِتَابَكُمَا سِوَى الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِكُمَا،وَأَنَّكُمَا كَتَبْتُمَا بِهِ وَقَدْ صَدَقْتُمَا فَلاَ تَدَعَا الْكِتَابَ إِلَيَّ فَإِنَّهُ لاَ غِنَى لِي عَنْكُمَا وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُمَا."[٧٢٠]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ،قَالَ :كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى :أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةِ مَنْ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَإِنَّ أَشْقَى الرُّعَاةِ عِنْدَ اللهِ مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ،وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْتَعَ فَيَرْتَعَ عُمَّالُكَ،فَيَكُونَ مِثْلُكَ عِنْدَ اللهِ مِثْلُ الْبَهِيمَةِ،نَظَرَتْ إِلَى خَضِرَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَرَتَعَتْ فِيهَا تَبْتَغِي بِذَلِكَ السِّمَنَ،وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي سِمَنِهَا،وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ.رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.[٧٢١]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" اثْنَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ،وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ:الْعُلَمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ "[٧٢٢]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَ مَوْتِهِ:«اعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ،لَنْ يَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا اسْتَقَامَتْ لَهُمْ وُلَاتُهُمْ وَهُدَاتُهُمْ»[٧٢٣]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَنْ تَهْلَكَ الرَّعِيَّةُ وَإِنْ كَانَتْ ظَالِمَةً سَيِّئَةً إِذَا كَانَتِ الْوُلَاةُ هَادِيَةً مَهْدِيَّةً،وَلَكِنْ تَهْلَكُ الرَّعِيَّةُ وَإِنْ كَانَتْ هَادِيَةً مَهْدِيَّةً إِذَا كَانَتِ الْوُلَاةُ ظَالِمَةً سَيِّئَةً» قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ:وَالسُّلْطَانُ حَارِسُ الدِّينِ وَإِذَا وَلَّى الْأَمْرَ أَهْلَهُ حَمَى الدِّينَ الْمَتِينَ"[٧٢٤]

---

[٧٢٠] - مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٩/ ١٤٠)(٣٥٥٩٢) فيه انقطاع

[٧٢١] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٥٠) ومصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٩/ ١٣٩)(٣٥٥٨٩) فيه انقطاع

[٧٢٢] - فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٤٩)(٣٦) وسنده واه ومعناه صحيح

[٧٢٣] - فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٥١)(٣٧) صحيح

[٧٢٤] - فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٥٢)(٣٨) ومسند الشهاب القضاعي (٢/ ٩٣)(٩٥١) والعقوبات لابن أبي الدنيا (ص:٥١)(٥٤) حسن

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْإِسْلَامُ وَالسُّلْطَانُ أَخَوَانِ تَوْأَمٌ،لَا يَصْلُحُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ،فَالْإِسْلَامُ أُسٌّ وَالسُّلْطَانِ حَارِسٌ،وَمَا لَا أُسَّ لَهُ مُنْهَدِمٌ،وَمَا لَا حَارِسَ لَهُ ضَائِعٌ»[٧٢٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ،يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ،وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ،كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ،وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ»[٧٢٦]

والناس إنما يقتدون بولاة الأمر الذين توافق أقوالهم أفعالهم،فيتعلمون من أفعالهم وسيرهم وأخلاقهم كما يتعلمون من أقوالهم،قال الإمام ابن جرير رحمه الله " وَكَانَ عُمَرُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْمُرَ الْمُسْلِمِينَ بِشَيْءٍ أَوْ يَنْهَاهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا فِيهِ صَلاحُهُمْ بَدَأَ بِأَهْلِهِ،وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالْوَعْظِ لَهُمْ،وَالْوَعِيدِ عَلَى خِلافِهِمْ أَمْرَهُ كَالَّذِي حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاءِ،قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ،قَالَ:حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بِالْمَدِينَةِ،عَنْ سَالِمٍ،قَالَ:كَانَ عُمَرُ إِذَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَنَهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ جَمَعَ أَهْلَهُ،فَقَالَ:إِنِّي نَهَيْتُ النَّاسَ عَنْ كَذَا وَكَذَا،وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ- يَعْنِي إِلَى اللَّحْمِ- وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لا أَجِدُ أَحَدًا مِنْكُمْ فَعَلَهُ إِلا أَضْعَفْتُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ."[٧٢٧]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:حَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا نَهَى النَّاسَ عَنْ أَمْرٍ دَعَا أَهْلَهُ فَقَالَ لَهُمْ:قَدْ نَهَيْتُ النَّاسَ عَنْ كَذَا وَكَذَا،وَإِنَّمَا يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ،فَإِنْ هِبْتُمْ هَابَ النَّاسُ،وَإِنْ وَقَعْتُمْ وَقَعَ النَّاسُ،وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَا يَقَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي أَمْرٍ قَدْ نَهَيْتُ النَّاسَ عَنْهُ إِلَّا ضَاعَفْتُ لَهُ الْعَذَابَ؛لِمَكَانِكُمْ مِنِّي "[٧٢٨]

---

[٧٢٥] - فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم (ص:١٥٣)(٣٩) فيه جهالة - "أس":الأس أصل البناء .

[٧٢٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٣ - (١٨٤١)

[ش (الإمام جنة) أي كالستر لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويمنع الناس بعضهم من بعض ويحمي بيضة الإسلام ويتقيه الناس ويخافون سطوته ومعنى يقاتل من ورائه أي يقاتل معه الكفار والبغاة والخوارج وسائر أهل الفساد وينصر عليهم ومعنى يتقى به أي شر العدو وشر أهل الفساد والظلم مطلقا والتاء في يتقى مبدلة من الواو لأن أصلها من الوقاية]

[٧٢٧] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٦) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٦/ ١١١)(٣١٢٨٥)صحيح لغيره

[٧٢٨] - تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٥١) صحيح

وعَنْ سَالِمٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا نَهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ دَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ – أَوْ قَالَ:جَمَعَ – فَقَالَ:«إِنِّي نَهَيْتُ عَنْ كَذَا وَكَذَا،وَالنَّاسُ إِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ،فَإِنْ وَقَعْتُمْ وَقَعُوا،وَإِنْ هِبْتُمْ هَابُوا،وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُوتَى بِرَجُلٍ مِنْكُمْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَهَيْتُ عَنْهُ النَّاسَ،إِلَّا أَضْعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ لِمَكَانِهِ مِنِّي،فَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَقَدَّمْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَأَخَّرْ»[٧٢٩]

وعَنْ أُمِّ بَكْرٍ بنت المسور عن أبيها الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَ:كُنَّا نَلْزَمُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ نَتَعَلَّمُ مِنْهُ الْوَرَعَ[٧٣٠].

فالواجب على ولاة الأمر أن يأمروا الناس بالبر ويفعلوه،وأن ينهوهم عن المنكر ولا يقعوا فيه،وقد قال تعالى:{ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [البقرة:٤٤]

يَنْعِى اللهُ تَعَالَى عَلَى اليَهُودِ – وَهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ – أَنْ يَأْمُرُوا النَّاسَ بِالخَيْرِ وَالبِرِّ وَطَاعَةِ اللهِ،فِي حَالِ أَنَّهُمْ يَنْسَوْنَ وَعْظَ أَنْفُسِهِمْ،وَحَمْلَهَا عَلَى طَاعَةِ اللهِ،فَلاَ يَأْتَمِرُونَ بِمَا يَأْمُرُونَ بِهِ غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ،مَعَ أَنَّهُمْ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ المُنْزَلَ إِلَيْهِمْ،وَيَعْلَمُونَ مَا فِيهِ مِنْ عَقَابٍ يَحِلُّ بِمَنْ يُقَصِّرُ فِي القِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللهُ.وَلكِنَّ الأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ مِنْهُمْ لاَ يَذْكُرُونَ مِنَ الحَقِّ إِلاَّ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ،وَلا يَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الأَحْكَامِ إِذَا عَارَضَ شَهَوَاتِهِمْ.[٧٣١]

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ} أي:بالإيمان والخير {وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} أي:تتركونها عن أمرها بذلك،والحال:{وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ} وأسمى العقل (١) عقلا لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير،وينعقل به عما يضره،وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به،وأول تارك لما ينهى عنه،فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله،أو نهاه عن الشر فلم يتركه،دل على عدم عقله وجهله،خصوصا إذا كان عالما بذلك،قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية،وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل،فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} وليس في الآية

---

[٧٢٩] – جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٤٣)(٢٠٧١٣) صحيح

[٧٣٠] – الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٢٠) فيه ضعف

[٧٣١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١،بترقيم الشاملة آليا)

أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف،والنهي عن المنكر،لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين،وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين:أمر غيره ونهيه،وأمر نفسه ونهيها،فترك أحدهما،لا يكون رخصة في ترك الآخر،فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين،والنقص الكامل أن يتركهما،وأما قيامه بأحدهما دون الآخر،فليس في رتبة الأول،وهو دون الأخير،وأيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله،فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.[٧٣٢]

الخطاب موجه إلى حملة الكتاب من الأحبار والرهبان،فقد روى عن ابن عباس أن الآية نزلت في أحبار المدينة،كانوا يأمرون من نصحوه سرّا بالإيمان بمحمد ﷺ ولا يؤمنون به،وقال السّدى:إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يفعلون ما ينهون عنه.

والمراد من النسيان هنا الترك،لأن من شأن الإنسان ألا ينسى نفسه من الخير ولا يحب أن يسبقه أحد إلى السعادة،وعبر به عنه للمبالغة في عدم المبالاة والغفلة عما ينبغى أن يفعله،أي إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البرّ ووعيده على تركه فكيف نسيتم أنفسكم؟

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من التوبيخ والتأنيب الذي ليس بعده زيادة لمستزيد،فإن الآمر بما لا يأتمر به تكون الحجة عليه قائمة بلسانه.(وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ) فتعرفون منه ما لا يعرفه من تأمرونهم باتباعه،والفرق عظيم بين من يفعل وينقصه العلم بفوائد ما يفعل،ومن يترك وهو عليم بمزايا ما يترك.

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أي أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه،ويحذركم وخامة عاقبته،فإن من عنده أدنى مسكة من العقل لا يدّعى كمال العلم بالكتاب،ويقوم بالإرشاد إلى هديه،ويبين للناس سبيل السعادة باتباعه،ثم هو بعد لا يعمل به ولا يستمسك بأوامره ونواهيه.

[٧٣٢] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥١)

وهذا الخطاب وإن كان موجها إلى اليهود فهو عبرة لغيرهم،فلتنظر كل أمة أفرادا وجماعات في أحوالها،ثم لتحذر أن يكون حالها كحال أولئك القوم فيكون حكمها عند الله حكمهم،فالجزاء إنما هو على أعمال القلوب والجوارح لا على صنف خاص من الشعوب والأفراد.[٧٣٣]

إن آفة رجال الدين – حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة – أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم يأمرون بالخير ولا يفعلونه ويدعون إلى البر ويهملونه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى،ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص،ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين،لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان! كما كان يفعل أحبار يهود! والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه،هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها.وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم،لأنهم يسمعون قولا جميلا،ويشهدون فعلا قبيحا فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

إن الكلمة لتنبعث ميتة،وتصل هامدة،مهما تكن طنانة رنانة متحمسة،إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها.ولن يؤمن إنسان بما يقول حقا إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول،وتجسيما واقعيا لما ينطق ..عندئذ يؤمن الناس،ويثق الناس،ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق ..إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها ..إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة،لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل،وبين العقيدة والسلوك،ليست مع هذا أمرا هينا،ولا طريقا معبدا.إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة.وإلى صلة بالله،واستمداد منه،واستعانة بهديه فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيرا ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره،أو عما يدعو إليه غيره.والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته،لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه وقد يغالبها مرة ومرة ومرة ولكن لحظة

---

[٧٣٣] - تفسير المراغي (١/ ١٠٥)

ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى،ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله فأما وهو يـــركن إلى قـــوة الأزل والأبد فهو قوي قوي،أقوى من كل قوي.قوي على شهوته وضعفه.قوي على ضروراته واضطراراته.قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه.[٧٣٤]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) } [الصف:٢ - ٣]

يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَن يَعِدُ وَعْداً،أَوْ يَقُولُ قَوْلاً لاَ يَفِي بِه،فَيَقُولُ تَعَالَى:لأَيِّ شَـــيءٍ تَقُولُـــونَ لَوَدِدْنَا أَنْ نَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنْ أَفْعَالِ الخَيْرِ،حَتَّى إِذَا طُلِبَ مِنْكُمْ فِعْلُ ذَلِكَ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ وَلَـــمْ تَفْعَلُوهُ؟ ..

وَأَكَّدَ اللهُ تَعَالَى إِنْكَارَهُ هَذَا عَلَى هَؤُلاَءِ القَائِلِينَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ،فَقَالَ لَهُمْ:إِنَّهُ يَكْرَهُ كُرْهاً شَدِيداً أَنْ تَقُولُوا شَيئاً لاَ تَفعَلُونَهُ لأَنَّ الوَفَاءَ بِالعَهْدِ وَالوَعْدِ يُنَمِّي الثِّقَةَ بَينَ أَفْرَادِ الجِمَاعَةِ،كَمَا أَنَّ فُشُوَّ الخُلْفِ بِالوَعْدِ يُضْعِفُهَا.[٧٣٥]

هو إنكار من الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يلبسوا ثوب الإيمان ظاهرا،ثم يكـــون هـــذا الظاهر على خلاف مع الباطن..أو أن تقول ألسنتهم ما ليس فى قلوبهم..فهذا وجه من وجوه النفاق..لا يليق بالمؤمن أن يلمّ به،أو يدخل على إيمانه شىء منه..

فالأقوال التي لا يصدّقها العمل،لا تخلو من أحد وصفين:إما أن تكون لغوا من القول..وهذا مما ينبغى للمؤمن أن يتزه نفسه عنه..فإن الكلمة على لسان المؤمن يجب أن تكون عقدا بين المؤمن ونفسه،لا تبرأ ذمته حتى يفى بهذا العقد،ويحققه..فإنه عن الكلمـــة تلقّـــى المـــؤمن رســـالة السماء،وعرف شريعة الله..فليكن الكلمة عنده- سواء نطق بها هو،أو استمع إليها- حســـاب وتقدير..وإما أن تكون الكلمة التي ينطق بها اللسان،ولا يصـــدقها العمل،كلمـــة كاذبـــة أو منافقة..ولا يجتمع الإيمان مع النفاق.ومن أجل هذا جاء قوله تعالى:«كَبُرَ مَقْتاً عِنْـــدَ اللَّـــهِ أَنْ

---

[٧٣٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٦٧)

[٧٣٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣ ٥٠،بترقيم الشاملة آليا)

تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» تعقيبا على هذا الإنكار،وتجريحا لهذا القول الذي لا يصدّقه العمل،وأنه قول ممقوت عند الله،يبغضه،ويبغض أهله..[٧٣٦]

أي لأى شيء ولأىّ غرض تقولون لوددنا أن نعمل كذا وكذا من أفعال الخير حتى إذا طلب منكم ذلك كرهتم و لم تفعلوا؟

والتوبيخ والإنكار موجه إلى عدم فعلهم ما وعدوا به،وإنما وجّه إلى القول لبيان أن معصيتهم مزدوجة،وأنهم عملوا جرمين.فهم تركوا فعل الخير.وقد وعدوا بفعله.وبهذه الآية استدل السلف على وجوب الوفاء بالوعد،وبما ثبت فى السنة من قوله ﷺ «آية المنافق ثلاث:إذا وعد أخلف،وإذا حدّث كذب،وإذا اؤتمن خان» .

ثم بين شدة قبح ذلك وأنه بلغ الغاية فى بغض الله له فقال:(كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ) أي عظم جرما عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.ذاك أن الوفاء بالوعد دليل على كريم الشيم،وجميل الخصال،وبه تكون الثقة بين الجماعات،فترتبط برباط المودة والمحبة حين يتعامل بعض أفرادها مع بعض،ويكونون يدا واحدة فيما انتووا من الأعمال،والعكس بالعكس،فإذا فشا فى أمة خلف الوعد قلّت الثقة بين أفرادها،وانحلت عرا الروابط بينهم،وأصبحوا عقدا متناثرا لا ينتفع به،ولا يخشى منهم عدوّ إذا اشتدت الأزمات،وعظمت الخطوب،لما يكون بينهم من التواكل،وعدم ائتمان بعضهم بعضا.[٧٣٧]

وقد أخبر الله تعالى عن شعيب ﷺ أنه قال:{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود:٨٨]

قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ:هَلْ تَرَوْنَ لَوْ أَنَّنِي كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَهُدًى،وَأَنَّهُ آتَانِي النُّبُوَّةَ،وَرَزَقَنِي رِزْقاً حَلالاً طَيِّباً حَسَناً،ثُمَّ عَصَيْتُهُ فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيكُمْ،وَتَرَكْتُ دَعْوَتَكُمْ إِلَى الحَقِّ،وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ،فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ حِينَئذٍ؟ وَأَنَا لاَ أَنْهَاكُمْ عَنْ شَيءٍ وَأُخَالِفُكُمْ فِي السِّرِّ إِليهِ فَأَفْعَلُهُ،وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَقولَ لَكُمْ إِنَّ اللهَ أَكْرَمَنِي بِالرِّزْقِ الحَلالِ الحَسَنِ،دُونَ أَنْ أَحْتَاجَ إلى

---

[٧٣٦] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩١٦)

[٧٣٧] - تفسير المراغي (٢٨/ ٨٠)

التَّطْفِيف فِي المكْيَال وَالميزَان،وَدُونَ أَنْ أَبْخَسَ فِيهما.وَأَنَا لاَ أُرِيدُ مِنْ أَمْــرِي إِيّــاكُمْ بِعِبَــادَةِ اللهِ،وَبالإِقْلاعِ عَنِ المَفَاسِد،إلاَّ الإِصْلاَحَ بِقَدْرِ جَهْدِي وَطَاقَتِي.وَلا أَسْأَلُ غَيْرَ اللهِ التَّوْفِيقَ فِــي إِصَابَةِ الحَقِّ وَإِنَّنِي تَوَكَّلْتُ عَلَيهِ،وَإِلَيهِ أَخْلَصْتُ وَأَنْبْتُ فِي عِبَادَتِي وَطَاعَتِي.[٧٣٨]

أي لا أريد بدعوتكم إلى ترك عبادة الأصنام،أن أعبدها،وأستخلص عبادهّا لى من دونكم..وما أبغى بدعوتكم إلى الوزن بالقسـطاس،والكيل بالعـدل،أن أعـود أنـا فأحسـر المكيـال والميزان،وأستأثر بهذا الربح الحرام الذي كان يعود إليكم،من تلاعبكم بالمكاييل والموازين..كلا «ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» ..يقال:خلفه،وخالفه:أي جاء خلفه،وأخذ مكانـه الذي كان فيه.

- «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ» أي هذا هو كل الذي أبغيه مما أدعوكم إليه،ما أريد به إلا الإصلاح،إصلاح أمركم،وإقامة ما أنتم فيه من زيغ وعوج،وذلك فى حـدود مـا أقـدر عليه.وهو النصح لكم،وليس لى أن أكرهكم على شـىء ولـو كـان فى يـدى السـلطان القاهر..[٧٣٩]

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب،ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض.فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد.والشرك ألوان.منه هذا اللون الذي نعيش به الآن.وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كـل زمان وفي كل مكان! ويسخر أهل مدين من شعيب - كما يتوقح بالسخرية اليوم ناس علـى دعاة التوحيد الحق - فيقولون:«إنك لأنت الحليم الرشيد! » ..

وهم يعنون عكس معناها.فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بـلا تفكـير،وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليـوم الـذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!! ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحـق الذي معه ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم ..يتلطـف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من

---

[٧٣٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٥٦٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٧٣٩] - التفسير القرآني للقرآن (٦/ ١١٨٩)

العلم ما لم يؤتوا،وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات فهو لا يبغي كسبا شخصيا من وراء دعوته لهم فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس.وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون:{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)} [هود:٨٨] ..

«يا قوم ...» ..في تودد وتقرب،وتذكير بالأواصر القريبة.

«أرأيتم إن كنت على بينة من ربي؟ » ..أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنه هو يوحي إلي ويأمرني بما أبلغكم إياه.وعن هذه البينة الواضحة في نفسي،أصدر واثقا مستيقنا.

«وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً» ..ومنه الثروة التي أتعامل مع الناس مثلكم فيها.

«وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» ..فأنهاكم ثم أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه لأحقق لنفسي نفعا به!

«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت» ..الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي،ويضيع بعض الفرص.فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة ويعوض عنهما كسبا طيبا ورزقا حلالا،ومجتمعا متضامنا متعاونا لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام! «وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ» ..فهو القادر على إنجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي،وبما يجزي على جهدي.

«عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» ..عليه وحده لا أعتمد على غيره.

«وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» ..إليه وحده أرجع فيما يحزبني من الأمور،وإليه وحده أتوجه بنيتي وعملي ومسعاي.[٧٤٠]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:«لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ،وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ،وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ» قَالَ:فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ

[٧٤٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٥٦٠)

لَهَا:أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ،فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ:مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ،وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ،لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:«وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ:لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ فَقَالَ:" لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ،قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧] " فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ:فَإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الْآنَ،قَالَ:«اذْهَبِي فَانْظُرِي»،قَالَ:فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ فَلَمْ تَرَ شَيْئًا،فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ:مَا رَأَيْتُ شَيْئًا،فَقَالَ:«أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ نُجَامِعْهَا» أخرجه البخاري ومسلم [٧٤١]

وعند أحمد عَنْ مَسْرُوقٍ،أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ،فَقَالَتْ:أُنْبِئْتُ أَنَّكَ تَنْهَى عَنِ الْوَاصِلَةِ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَتْ:أَشَيْءٌ تَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللهِ،أَمْ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ:أَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللهِ،وَعَنْ رَسُولِ اللهِ،فَقَالَتْ:وَاللهِ لَقَدْ تَصَفَّحْتُ مَا بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ،فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ الَّذِي تَقُولُ قَالَ:فَهَلْ وَجَدْتِ فِيهِ:{مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧]،قَالَتْ:نَعَمْ،قَالَ:فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ " نَهَى عَنِ النَّامِصَةِ وَالْوَاشِرَةِ وَالْوَاصِلَةِ وَالْوَاشِمَةِ إِلَّا مِنْ دَاءٍ "،قَالَتِ الْمَرْأَةُ:فَلَعَلَّهُ فِي بَعْضِ نِسَائِكَ؟ قَالَ لَهَا:ادْخُلِي،فَدَخَلَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ،فَقَالَتْ:مَا رَأَيْتُ بَأْسًا،قَالَ:مَا حَفِظْتُ إِذًا وَصِيَّةَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ:{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} [هود:٨٨] "[٧٤٢]

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:قِيلَ لَهُ:أَلَا تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ؟ فَقَالَ:أَتَرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟ وَاللهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ،مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْرًا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ،وَلَا أَقُولُ لِأَحَدٍ،يَكُونُ عَلَيَّ أَمِيرًا:إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:"

---

[٧٤١] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٧٨)١٢٠ - (٢١٢٥) وصحيح البخاري (٧/ ١٦٤)(٥٩٣١)

[ش (النامصات) النامصة هي التي تزيل الشعر من الوجه والمتنمصة هي التي تطلب فعل ذلك بها

(والمتفلجات للحسن) المراد مفلجات الأسنان بأن تبرد ما بين أسنانها الثنايا والرباعيات وهو من الفلج وهي فرجة بين الثنايا والرباعيات وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها في السن إظهارا للصغر وحسن الأسنان لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغار فإذا عجزت المرأة كبرت سنها وتوحشت فتبردها بالمبرد لتصير لطيفة حسنة المنظر وتوهم كونها صغيرة ويقال له أيضا الوشر(لم نجامعها) قال جماهير العلماء معناه لم نصاحبها و لم نجتمع نحن وهي بل كنا نطلقها ونفارقها]

[٧٤٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٥٧)(٣٩٤٥) صحيح

يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،فَيُلْقَى فِي النَّارِ،فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ،فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَــدُورُ الْحِمَــارُ بِالرَّحَى،فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ،فَيَقُولُونَ:يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ،وَتَنْهَى عَــنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ:بَلَى،قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيــهِ،وَأَنْهَى عَــنِ الْمُنْكَــرِ وَآتِيــهِ " رواه مسلم[٧٤٣].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ.قَالَ:قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا:خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّــاسَ بِالْبِرِّ،وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ،وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ،أَفَلَا يَعْقِلُونَ " رواه أحمد[٧٤٤].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِيَ عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نارٍ فَقُلْتُ:مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ:هَؤُلَاءِ قَوْمٌ خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الــدُّنْيَا كَــانُوا يَــأْمُرُونَ النَّاسَ،وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ "[٧٤٥]

فإن من النفاق أن يأمروا الناس بالبر ولا يفعلوه،وينهوهم عن المنكر ويرتكبوه،ويدعوا النــاس بألسنتهم إلى الإسلام،ويصدوهم عنه بأفعالهم وسوء أخلاقهم،وقد قال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)} [البقرة:٢٠٤ - ٢٠٦]

وَهُنَاكَ أُنَاسٌ مُنَــافِقُونَ تُعْجِــبُ المَــرْءَ حَــلاَوَةُ أَلْسِــنَتِهِمْ،وَيَتَظَاهَرُونَ بِــالوَرَعِ وَطِيــبِ السَّرِيرَةِ،وَيُشْهِدُونَ اللهَ عَلَى صِدْقِ طَوِيَّتِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ،وَقُلُوبُهُمْ فِي الحَقِيقَــةِ هِــيَ أَمَــرُّ مِــنَ

---

[٧٤٣] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠)٥١ - (٢٩٨٩)

[ش (أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم) معناه أتظنون أني لا أكلمه إلا وأنتم تسمعون (ما دون أن أفتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من فتحه) يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ كما جرى لقتلة عثمان رضي الله عنه (فتندلق أقتاب بطنه) قال أبو عبيد الأقتاب الأمعاء قال الأصمعي واحدها قتبة وقال غيره قتب وقال ابن عيينة هي ما استدار في البطن وهي الحوايا والأمعاء وهي الأقصاب واحدها قصب والاندلاق خروج الشيء من مكانه]

[٧٤٤] - مسند أحمد ط الرسالة (١٩/ ٢٤٤)(١٢٢١١) صحيح لغيره

[٧٤٥] - شعب الإيمان (٧/ ٣٩)(٤٦١٤) صحيح

الصَّبْرِ،فَهُمْ يَقُولُونَ حَسَناً،وَيَفْعَلُونَ سَيِّئاً،وَهُمْ شَدِيدُو الجَدَلِ،لا يُعْجِزُهُمْ أَنْ يَغُشُّوا النَّاسَ بِمَـــا يَظْهَرُ عَلَيهِمْ مِنَ المَيْلِ إلى الإِصْلاَحِ.

فَإِذَا انْصَرَفَ الوَاحِدُ مِنْ هؤُلاءِ إلى العَمَلِ،أَوْ إذا تَوَلَّى وَلاَيَةً يَكُونُ لَهُ فِيهَا سُلْطَانٌ،اتَّجَهَ إلَـــى الشَّرِّ وَالفَسَادِ فِي قَسْوَةٍ وَجَفْوَةٍ،تَتَمَثَّلُ فِي إِهْلاَكِ النَّبَاتِ وَالحَرْثِ،وَإِتْلافِ النَّسْلِ الذِي يُمَثِّـــلُ امْتِدَادَ الحَيَاةِ،وَاللهُ تَعَالَى يَكْرَهُ الفَسَادَ وَالمُفْسِدِينَ.

فَإِذَا أَخْرَجَ هذَا المُنَافِقُ حِقْدَهُ عَنْ طَرِيقِ التَخْرِيبِ وَالفَسَادِ،وَقِيلَ لَهُ:لاَ تَفْعَـــلْ ذلِـــكَ وَاتَّـــقِ اللهَ،وَاسْتَحِ مِنْهُ،اسْتَعَزَّ بِالإِثْمِ وَالخَطِيئَةِ،وَرَفَعَ رَأْسَهُ فِي وَجْهِ الحَقِّ.فَإِنْ يَفْعَلْ هذا المُنَافِقُ ذلِـــكَ فَجَهَنَّمُ حَسْبُهُ،وَفِيهَا الكِفَايَةُ لَهُ،وَهِيَ بِئْسَ المَقَرُّ وَالمِهَادُ لَهُ،وَهِي الجَزَاءُ الأَوْفَـــى عَلَـــى أَفْعَالِـــهِ وَآثَامِه.[٧٤٦]

الكلمة لها معتبرها ولها حساها فى سلوك الشخص،وفى توجيهه إلى الخير أو الشر،سواء أكانت تلك الكلمة مسموعة أو مقروءة،تدخل على الإنسان من العالم الخارجي..أو ملفوظة،تتولد فى عالمه الداخلى،ثم تتصور كائنا مكتملا،يتحرك بها لسانه،وينطق بها فمه.

فالكلمة الواردة على الإنسان،لا تذهب هكذا صوتا ضائعا فى الهواء،بل إنها تتردد أصداؤها فى كيانه،وتثير فيه مشاعر بقدر ما تحمل من طاقات الحسن أو القبح،والحق أو الباطل،ثم ســـرعان ما تتحول تلك المشاعر إلى نزوع يتبعه عمل،ويلتزم به سلوك.

والكلمة الصادرة من الإنسان ليست مجرد صوت منطلق منه،بل هى مـــدركات تحولـــت إلى مشاعر،ومشاعر تصورت فى كلمات،وكلمات تشير إلى أعمال،وتهتف بمنجزات!.

لهذا كان ذلك الاهتمام العظيم من الإسلام،للكلمة،ينطق بها المسلم أو يستمع إليها..وكـــان منهجه التربوى فى هذا أعدل منهج وأحكمه..

فهو من جهة،حرس سمع المسلم من أن يستمع إلى اللغو من القول،أو الزور من الكلام،وأعلى مقام أولئك الذين لا يشهدون الزور وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما،ثم هو من جهة أخرى أقـــام على منطق المسلم حارسا لا يدع لكلمة السوء منطلقا تنطلق منه،بل وأكثر من هذا،فإنه نبّـــه إلى وساوس السوء التي تتحرك فى صدر الإنسان ليميتها قبـــل أن تتخلّـــق منـــها المشـــاعر

---

[٧٤٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١١،بترقيم الشاملة آليا)

والكلمات،فقال تعالى:«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (١٦- ١٨ ق) .

وفى قوله تعالى:«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ» فضح للكلمة المنافقة تنطلق من فم المنافق،منمقة،مزوقة،مموهة ببريق لامع يضلل ويخدع.

فهناك طوائف من الناس تتخذ من الكلمة الخادعة المنافقة طريقا لترويج الباطل،فيضعون على ألسنتهم كلمات معسولة،تفيض رقة وتتناغم حنانا ومودة،ولو ذهبت تفتش فى ثناياها،وتنظر فى أطوائها لوجدتها تنغر قيحا وصديدا،وتفور زفيرا وفحيحا،بما تحمل فى كيانها من حسد وبغضاء.

هكذا كان موقف المنافقين من رسول الله،إذا لقوا الرسول هشّوا له وتخاضعوا بين يديه،وألانوا القول وزينوه،وأشهدوا الله أن علانيتهم مثل سرهم،وأن ما يجرى على ألسنتهم منطلق من صميم قلوبهم..فالمنافق يستر نفاقه بهذا الدهان،ويغطى كذبه بالحلف بالله وبكل ما يحلف به،وفى هذا يقول الله تعالى لنبيه الكريم:«فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ» (٨- ١٠:ن) وقوله تعالى:«وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ» بيان للوجه الآخر من وجهى المنافق،فهو كان يلقى النبىّ بهذا الوجه المدهون بالرياء والنفاق،ثم لا يلبث أن يلقى هذا النقاب عن وجهه حين يزايل مكانه ويولّى ظهره،وهنا يطلق نفسه على سجيتها،فينفث سموم حقده،ويرمى بشرر عداوته،فى كل موقع من مواقع الخير! وقوله تعالى:«وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ» يكشف عن الإمعان فى الضلال،والإغراق فى الخداع والتمويه،من هذا المنافق الذي يعيش فى ضلاله ونفاقه،حتى ليكاد ينسى أنه يلبس ثوب النفاق،ويتزيا بزى الباطل..فإذا قال له قائل:«اتق الله» فى نفسك وفى الناس،واقتصد من هذا الشرّ الذي تزرعه فى كل مكان،وتخفف من هذا الفساد الذي توزعه فى كل أفق- إذا قيل له هذا أو نحوه أنكر على قائله هذا القول،ونظر إليه من عل

نظرة ساخطة هازئة تقول في غير حياء:وماذا من تقوى الله غير هذا؟ ومـــاذا علـــى طريـــق الصالحين والمتقين غير الذي أنا فاعله؟» .

والله سبحانه وتعالى يقول:«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَـــاةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِـــهِ فَحَبِطَـــتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنـــاً» (١٠٣- ١٠٥:الكهـــف) .ذلـــك هـــو تقـــدير المنافق،وتلك هي عاقبة أمره «فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ» .[٧٤٧]

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره،وخصوصا في الأوقات الفاضلة الذي هـــو خـــير ومصـــلحة وبر،أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله،فالكلام إما أن يرفـــع الإنســـان أو يخفضه فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الـــدُّنْيَا} أي:إذا تكلـــم راق كلامـــه للسامع،وإذا نطق،ظننته يتكلم بكلام نافع،ويؤكد ما يقول بأنه {وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ} بأن يخبر أن الله يعلم،أن ما في قلبه موافق لما نطق به،وهو كاذب في ذلك،لأنه يخـــالف قولـــه فعله.

فلو كان صادقا،لتوافق القول والفعل،كحال المؤمن غير المنافق،فلهذا قال: {وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} أي:إذا خاصمته،وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب،وما يترتب على ذلك،ما هو مـــن مقابح الصفات،ليس كأخلاق المؤمنين،الذين جعلـــوا الســـهولة مركبـــهم،والانقياد للحـــق وظيفتهم،والسماحة سجيتهم.

{وَإِذَا تَوَلَّى} هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك {سَعَى فِـــي الأرْضِ لِيُفْسِـــدَ فِيهَـــا} أي:يجتهد على أعمال المعاصي،التي هي إفساد في الأرض {وَيُهْلِكَ} بسبب ذلك {الْحَـــرْثَ وَالنَّسْلَ} فالزروع والثمـــار والمواشـــي،تتلف وتنقص،وتقـــل بركتها،بســـبب العمـــل في المعاصي،{وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ} وإذا كان لا يحب الفساد،فهو يـــبغض العبـــد المفســـد في الأرض،غاية البغض،وإن قال بلسانه قولا حسنا.

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص،ليست دليلا على صـــدق ولا كذب،ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدق لها،المزكي لها وأنه ينبغي اختبـــار أحـــوال

---

[٧٤٧] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢٢٧)

الشهود،والمحق والمبطل من الناس،بسبر أعمالهم،والنظر لقرائن أحوالهم،وأن لا يغتر بتمـــويههم وتزكيتهم أنفسهم.ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله،إذا أمـــر بتقـــوى الله تكـــبر وأنف،و {أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ} فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين.
{فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ} التي هـــي دار العاصـــين والمتكـــبرين،{وَلَبِـــئْسَ الْمِهَـــادُ} أي:المســـتقر والمسكن،عذاب دائم،وهم لا ينقطع،ويأس مستمر،لا يخفف عنـــهم العـــذاب،ولا يرجـــون الثواب،جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم،فعياذا بالله من أحوالهم.[٧٤٨]

دلت الآيات السابقة على أن المقصد من كل العبادات هو تقوى الله بإصلاح القلوب وإنارتها بذكره تعالى،لاستشعارها عظمته وفضله،وعلى أن طلب الدنيا من الوجوه الحســـنة لا ينـــافي التقوى بل يعين عليها،خلافا لما ذهب إليه أهل الأديان السابقة مـــن أن تعـــذيب الأجســـاد وحرمانها من طيبات الدنيا هو أسّ الدين وأصله،وأن من يطلب الدنيا ويجعل لها عناية خاصـــة ليس له في الآخرة من خلاق.

ولما كان محل التقوى هو القلوب لا الألسنة،ودليل ما في القلوب الأعمال لا مجرد الأقوال،ذكر في هذه الآيات أن الناس في دلالة أقوالهم على حقائق أحوالهم صنفان:

منافقون يظهرون غير ما يبطنون،ومخلصون في أعمالهم يبتغون مرضـــاة الله،ولا يريـــدون إلا وجهه.

أي ومن الناس فريق يعجبك قوله وأنت في هذه الحياة الدنيا،لأنك تأخذ بالظواهر،وهو منافق يظهر غير ما يضمر ويقول ما لا يفعل،فهو يعتمد على خلابة اللســـان،في غـــش المعاشـــرين والأقران،ويوهم أنه صادق الإيمان،نصير للحق خاذل للباطل،متّق لله في السر والعلن،مجتنـــب للفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ) أي ويحلف بالله أن ما في قلبه موافق لما يقول ويدعي.

(وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ) أي وهو قوى في الجدل لا يعجزه أن يغشّ الناس بما يظهر من الميل إلـــيهم والسعى في إصلاح شئونهم.

والخلاصة- إن هذا الفريق يركن في خداعه للناس إلى أمور ثلاثة:

---

[٧٤٨] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٣)

(١) حسن القول بحيث يعجب السامع ويملك لبه،بحيث لا يتهمه في صدقه.
(٢) إشهاد الله تعالى على صدقه وحسن قصده.
(٣) قوة العارضة في الجدل عند محاجة المنكر أو المعارض.

ومثل هذا الفريق يوجد في كل أمة وكل عصر وإن اختلفت حاله باختلاف العصور،فحينا ترى الواحد لا يغشّ بزخرف قوله إلا فردا أو أفرادا معدودين وحينا يتسنى له أن يخدع أمة وينكل بها تنكيلا،فترى الجرائد في عصرنا قد تكون سبيلا للغش،كما تكون أحيانا طريقا للنصح وإرشاد الأمة إلى ما فيه خيرها وفلاحها ولا سيما إذا كان الكاتبون فيها ممن تثق بهم الدهماء،ويتقبل الجمهور آراءهم بالتسليم والاطمئنان.

(وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها) أي إن مثل هؤلاء إذا أعرضوا عن مخاطبيهم وذهبوا لشأنهم،فإن سعيهم يكون على ضد ما قالوا،فهم يدّعون الصلاح والإصلاح ثم يسعون في الأرض بالفساد،إذ لا همّ لهم إلا اللذات والحظوظ الدنيئة التي لأجلها يعادون أرباب الفضيلة،ويكونون من ذوى اللدد والخصومة لهم،لما بينهم من التناقض في السجايا والغرائز،بل يعادون أمثالهم من المفسدين،إذ من دأبهم الكيد للناس ومحاولة الإيقاع بهم.

وقوله في الأرض يفيد العموم أي إنهم في أي مكان يحلون فيه يفسدون.

(وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) أي إنه دائب على إفساده مسترسل فيه ولو أدى إلى إهلاك الحرث والنسل،وهكذا شأن المفسدين يؤذون إرضاء لشهواتهم ولو خربت الدنيا بأسرها.

وفي ذلك عبرة للذين يقتلعون الزرع ويقتلون البهائم بالسم وغيره،انتقاما ممن يكرهونهم،فأين منهم هدى الإسلام وهدى القرآن.

ويرى بعضهم أن المراد بالحرث النساء كما في قوله:«نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ» وبالنسل الأولاد،فيكون المراد- إن المفسدين الذين يطمحون بأبصارهم إلى نساء الناس أو يسعون في إفساد نظام البيوت بما يلقونه من الفتن ويدأبون عليه من التفريق- لا تكاد تسلم بيوتهم من الخراب،فهم يؤذون أنفسهم وأهليهم بضروب من الإيذاء قد يعميهم الغرور عنها،أو عن كونها من سعيهم.

(وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ) أي والله لا يرضى الفساد ولا يحبه،فلا يحب المفسدين،وفي الآية إيماء إلى أن تلك الصفات المحمودة في الظاهر لا تكون مرضية عند الله إلا إذا أصلح صاحبها عمله،لأن الله لا ينظر إلى الصور والأقوال،وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال.

(وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ) أي إن ذلك المفسد إذا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أسرع إليه الغضب،وعظم عليه الأمر وأخذته الأنفة وطيش السفه،إذ يخيل إليه أن النصح والإرشاد ذلة تنافي العزة التي تليق بأمثاله.وفي طبع المفسدين النفور ممن يأمرهم بالصلاح،إذ يرون في ذلك تشهيرا بهم وإعلانا لمفاسدهم التي يسترونها بزخرف القول وخلابته،وإن استطاعوا الحبس حبسوا أو ضربوا أو قتلوا.

(فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ) أي إن النار مصيره ويكفيه عذابها جزاء له على كبريائه وحميته حمية الجاهلية،وستكون مهاده ومأواه،وهى بئس المهاد وشره،فلا راحة فيها،ولا اطمئنان لأهلها.

قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه:اتق الله،فوضع خده على الأرض،وقال ابن مسعود:من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد اتق الله،فيقول:عليك نفسك أي أصلح نفسك ولا تصلح غيرك.[٧٤٩]

إن كل كلمة أشبه بخط من خطوط الريشة في رسم الملامح وتحديد السمات ..وسرعان ما ينتفض النموذج المرسوم كائنا حيا،مميز الشخصية.حتى لتكاد تشير بأصبعك إليه،وتفرزه من ملايين الأشخاص،وتقول:هذا هو الذي أراد إليه القرآن! ..إنها عملية خلق أشبه بعملية الخلق التي تخرج كل لحظة من يد البارئ في عالم الأحياء! هذا المخلوق الذي يتحدث،فيصور لك نفسه خلاصة من الخير،ومن الإخلاص،ومن التجرد،ومن الحب،ومن الترفع،ومن الرغبة في إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس ..هذا الذي يعجبك حديثه.تعجبك ذلاقة لسانه،وتعجبك نبرة صوته،ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح ..«وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ» ..زيادة في التأثير والإيحاء،وتوكيدا للتجرد والإخلاص،وإظهارا للتقوى وخشية الله ..

[٧٤٩] - تفسير المراغي (٢/ ١٠٩)

«وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ»! تزدحم نفسه باللدد والخصومة،فلا ظل فيها للود والسماحة،ولا موضع فيها للحب والخير،ولا مكان فيها للتجمل والإيثار.

هذا الذي يتناقض ظاهره وباطنه،ويتنافر مظهره ومخبره ..هذا الذي يتقن الكـــذب والتمويـــه والدهان

حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء،وانكشف المستور،وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغي والحقد والفساد:«وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها،وَيُهْلِكَ الْحَــرْثَ وَالنَّسْـــلَ،وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ».

وإذا انصرف إلى العمل،كانت وجهته الشر والفساد،في قسوة وجفوة ولدد،تتمثل في إهـــلاك كل حي من الحرث الذي هو موضع الزرع والإنبات والإثمار،ومن النسل الذي هـــو امتـــداد الحياة بالإنسال ..وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يعتمل في كيان هذا المخلوق النكد من الحقد والشر والغدر والفساد ..مما كان يستره بذلاقة اللســـان،ونعومة الـــدهان،والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح ..«وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ» ..ولا يحـــب المفســـدين الـــذين ينشئون في الأرض الفساد ..والله لا تخفى عليه حقيقة هذا الصنف من الناس ولا يجوز عليـــه الدهان والطلاء الذي قد يجوز على الناس في الحياة الدنيا،فلا يعجبه من هذا الصنف النكد ما يعجب الناس الذين تخدعهم الظواهر وتخفى عليهم السرائر.

ويمضي السياق يوضح معالم الصورة ببعض اللمسات:«وَإِذا قِيلَ لَهُ:اتَّقِ اللَّـــهَ أَخَذَتْـــهُ الْعِـــزَّةُ بِالْإِثْمِ.فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ» ..

إذا تولى فقصد إلى الإفساد في الأرض وأهلك الحرث والنسل ونشر الخراب والدمار وأخـــرج ما يعتمل في صدره من الحقد والضغن والشر والفساد ..إذا فعل هذا كله ثم قيل له:«اتَّقِ اللَّهَ» ..تذكيرا له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه ..أنكر أن يقال له هذا القول واســـتكبر أن يوجه إلى التقوى وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ وأن يوجه إلى صواب.وأخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولا بالخير ولكن «بِالْإِثْمِ» ..فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة،ورفع رأسه في وجه الحق الذي يذكر به،وأمام الله بلا حياء منه وهو الذي كان يشهد الله على ما في قلبه ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء! إنها لمسة تكمل ملامح الصورة،وتزيد في قسماتها

وتمييزها بذاتها ..وتدع هذا النموذج حيا يتحرك.تقول في غير تردد:هذا هو.هذا هـو الـذي عناه القرآن! وأنت تراه أمامك ماثلا في الأرض الآن وفي كل آن! وفي مواجهة هذا الاعتـزاز بالإثم واللدد في الخصومة والقسوة في الفساد والفجور في الإفساد ..في مواجهة هذا كله يجبهه السياق باللطمة اللائقة بهذه الجبلة النكدة:«فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ،وَلَبِئْسَ الْمِهادُ! » ..

حسبه! ففيها الكفاية! جهنم التي وقودها الناس والحجارة.جهنم التي يكبكب فيها الغـاوون وجنود إبليس أجمعون.جهنم الحطمة التي تطلع على الأفئدة.جهنم التي لا تبقي ولا تذر.جهنم التي تكاد تميز من الغيظ! حسبه جهنم «وَلَبِئْسَ الْمِهادُ! » ويا للسخرية القاصـمة في ذكـر «الْمِهادُ» هنا ..ويا لبؤس من كان مهاده جهنم بعد الاعتزاز والنفخة والكبرياء![٧٥٠]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْـدِي كُـلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ» رواه الطبراني في الكبير والبزار[٧٥١]

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ،قَالَ:إِنِّي لَجَالِسٌ تَحْتَ مِنْبَرِ عُمَرَ،وَهُوَ يَخْطُـبُ النَّاسَ،فَقَـالَ فِـي خُطْبَتِهِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِـيمِ اللِّسَانِ " رواه أحمد[٧٥٢]

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ ،قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ ،وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ ،فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ:سَـمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمُ اللِّسَانِ»[٧٥٣]

وعَنْ مُعَلَّى بْنِ زِيَادٍ،قَالَ:قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،وَهُوَ عَلَـى مِنْبَـرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أَصَابِعِي هَذِهِ:" إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَـى هَـذِهِ الْأُمَّـةِ الْمُنَافِقَ الْعَلِيمَ،قَالُوا:كَيْفَ يَكُونُ مُنَافِقًا عَلِيمًا؟ قَالَ:عَالِمُ اللِّسَانِ،جَاهِلُ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ "[٧٥٤]

[٧٥٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٣٦)

[٧٥١] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ٢٣٧)(٥٩٣) وشعب الإيمان (٣/ ٢٧٢)(١٦٣٩) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٢٨١)(٨٠) ومسند البزار = البحر الزخار (٩/ ١٣)(٣٥١٤) وصفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص:٦٧)(٢٣) صحيح

[٧٥٢] - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٣٩٩)(٣١٠) صحيح

[٧٥٣] - الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٧٠٢)(٩٤١) صحيح

[٧٥٤] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٦٣٢)(٦٨٣) صحيح

وعَنْ أَبِي الْمِقْدَامِ،عَنْ أَبِي يَحْيَى،قَالَ:سُئِلَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ مَنِ الْمُنَافِقُ؟ قَالَ:«الَّذِي يَصِفُ الْإِسْلَامَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ»[٧٥٥]

فالواجب على الولاة أن يكونوا قدوة لسائر الناس،وأن يتصفوا بالعدل والتقوى والورع،وأن يجتنبوا الشبهات ومواطن التهم،فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:سَمِعْتُهُ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:- وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ - «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ،وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ،وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ،فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ،وَعِرْضِهِ،وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ،كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى،يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ،أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى،أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ،أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً،إِذَا صَلَحَتْ،صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ،وَإِذَا فَسَدَتْ،فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ،أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».متفقٌ عليه[٧٥٦]

---

[٧٥٥] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٦٣١)(٦٨٢) والسنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣٧٩)(٨٢٦) حسن

[٧٥٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٢١٩)١٠٧ - (١٥٩٩) وصحيح البخاري (١/ ٢٠)(٥٢)

[ش (وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه) أي مدهما إليهما ليأخذهما إشارة إلى استيقانه بالسمع

(إن الحلال بين والحرام بين) أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام قال جماعة هو ثلث الإسلام وإن الإسلام يدور عليه وعلى حديث الأعمال بالنية وحديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وقال أبو داود السجستاني يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وقيل حديث ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس قال العلماء وسبب عظم موقعه أنه ﷺ نبه فيه على إصلاح المطعم والمشرب والملبس وغيرها وأنه ينبغي أن يكون حلالا وأرشد إلى معرفة الحلال وأنه ينبغي ترك المشتبهات فإنه سبب لحماية دينه وعرضه وحذر من مواقعة الشبهات وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمى ثم بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب فقال ﷺ (ألا وإن في الجسد مضغة الخ) فبين ﷺ أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد وبفساده يفسد باقيهوأما قوله ﷺ (الحلال بين والحرام بين) فمعناه أن الأشياء ثلاثة أقسام حلال بين واضح لا يخفى حله كالخبز والفواكة والزيت والعسل والسمن ولبن مأكول اللحم وبيضة وغير ذلك من المطعومات وكذلك الكلام والنظر والمشي وغير ذلك من التصرفات فيها حلال بين واضح لا شك في حلهوأما الحرام البين فكالخمر والخنزير والميتة والبول والدم المسفوح وكذلك الزنى والكذب والغيبة والنميمة والنظر إلى الأجنبية وأشباه ذلكوأما المشتبهات فمعناها أنها ليست بواضحة الحل ولا الحرمة فلهذا لا يعرفها كثير من الناس ولا يدركون حكمها وأما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة و لم يكن فيه نص ولا إجماع اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي فإذا ألحقه به صار حلالا وقد يكون دليله غير خال من الإحتمال البين فيكون الورع تركه ويكون داخلا في قوله ﷺ فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه (استبرأ لدينه وعرضه) أي حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعي وصان عرضه عن كلام الناس فيه (ألا وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه) معناه أن ملوك العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله فمن دخله أوقع به العقوبة ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفا من الوقوع فيه ولله تعالى أيضا حمى

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا،تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ،وَكُنْ قَنِعًا،تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ،وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ،تَكُنْ مُؤْمِنًا،وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ،تَكُنْ مُسْلِمًا،وَأَقِلَّ الضَّحِكَ،فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ» رواه ابن ماجه[757]

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ،وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ» رواه الطبراني في الأوسط[758]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ الْمُلاَئِيِّ،قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ،وَمِلاَكُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ.[759]

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِتَمْرَةٍ فِي الطَّرِيقِ،قَالَ:«لَوْلاَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا».متفقٌ عليه[760].

وهي محارمه أي المعاصي التي حرمها الله كالقتل والزنى والسرقة والقذف والخمر والكذب والغيبة والنميمة وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك فكل هذا حمى الله تعالى من دخله بارتكابه شيئا من المعاصي استحق العقوبة ومن قاربه يوشك أن يقع فيه فمن احتاط لنفسه لم يقاربه و لم يتعلق بشيء يقربه من المعصية فلا يدخل في شيء من الشبهات(ألا وإن في الجسد مضغة) قال أهل اللغة يقال صلح الشيء وفسد بفتح اللام والشين وضمهما والفتح أفصح وأشهر والمضغة القطعة من اللحم سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها قالوا المراد تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسد مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب]

[757] - سنن ابن ماجه (٢/ ١٤١٠)(٤٢١٧) صحيح

[ش - (تكن أعبد الناس) أي من أعبدهم.(أشكر الناس) فإن من أعظم الشكر الرضا بما تيسر.]

[758] - المعجم الأوسط (٤/ ١٩٧)(٣٩٦٠) حسن لغيره

[759] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٣٣٥)(٢٦٦٣٩) صحيح لغيره

[760] - صحيح البخاري (٣/ ١٢٥)(٢٤٣١) وصحيح مسلم (٢/ ٧٥٢)١٦٤ - (١٠٧١)

(لَأَكَلْتُهَا) تَعْظِيمًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى حُرْمَةِ الصَّدَقَةِ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ- وَعَلَى جَوَازِ أَكْلِ مَا وُجِدَ فِي الطَّرِيقِ مِنَ الطَّعَامِ الْقَلِيلِ الَّذِي لَا يَطْلُبُهُ مَالِكُهُ،وَعَلَى أَنَّ الْأَوْلَى بِالْمُتَّقِي أَنْ يَجْتَنِبَ عَمَّا فِيهِ تَرَدُّدٌ،وَفِي الْإِحْيَاءِ رُوِيَ عَنْهُ - ﷺ- «أَنَّهُ أُرِّقَ لَيْلَةً فَقَالَتْ لَهُ بَعْضُ نِسَائِهِ:أُرِّقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:" أَجَلْ،وَجَدْتُ تَمْرَةً فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ» " وَفِي رِوَايَةٍ " فَأَكَلْتُهَا فَخَشِيتُ "،وَأَمَّا مَا رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَأَى رَجُلًا يُنَادِي عَلَى عَنَبَةٍ الْتَقَطَهَا فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ وَقَالَ:إِنَّ مِنَ الْوَرَعِ مَا يَمْقُتُ اللَّهُ عَلَيْهِ - فَمَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ تَبَيَّنَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَقْصِدُ بِهِ الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ وَإِظْهَارَ الْوَرَعِ هُنَالِكَ وَلِخُرُوجِهِ بِتَصَنُّعِهِ عَمَّا عُرِفَ مِنْ أَحْوَالِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَضَّؤُونَ وَيَمْشُونَ حُفَاةً وَيُصَلُّونَ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى أَنَّ فِي الطَّرِيقِ نَجَاسَةً أَوْ لَا،وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ - ﷺ- بِجُبْنَةٍ وَجُبَّةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَكَلَ وَلَبِسَ،هَذَا وَلَوْ نَظَرَ أَحَدٌ لِلِاحْتِمَالَاتِ الْبَعِيدَةِ لَمْ يَجِدْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَلَالًا،وَلِذَا قَالَ بَعْضُهُمْ:لَا يُتَصَوَّرُ الْحَلَالُ بِيَقِينٍ إِلَّا فِي الْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ الْمُلْتَقِي بِالْيَدِ مِمَّا فِي الْهَوَاءِ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٠١)

وعَنْ عَائشَةَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:" كَانَ لأَبي بَكْرٍ غُلاَمٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ،وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ منْ خَرَاجه،فَجَاءَ يَوْمًا بشَيْءٍ فَأَكَلَ منْهُ أَبُو بَكْرٍ،فَقَالَ لَهُ الغُلاَمُ:أَتَدْري مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَمَا هُوَ؟ قَالَ:كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإِنْسَانٍ في الجَاهليَّة،وَمَا أُحْسنُ الكهَانَةَ،إلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ،فَلَقيَني فَأَعْطَاني بذَلكَ،فَهَذَا الَّذي أَكَلْتَ منْهُ،فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ،فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ في بَطْنه " رواه البخاري[٧٦١]

وعَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا احْتُضرَ أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:«يَا عَائشَةُ انْظُري اللِّقْحَةَ الَّتي كُنَّا نَشْرَبُ منْ لَبَنهَا،وَالْجفْنَةَ الَّتي كُنَّا نَصْطَبحُ فيهَا،وَالْقَطيفَةَ الَّتي كُنَّا نَلْبَسُهَا،فَإنَّا كُنَّا نَنْتَفعُ بذَلكَ حينَ كُنَّا في أَمْر الْمُسْلمينَ،فَإذَا متُّ فَارْدُديه إلَى عُمَرَ،فَلَمَّا مَاتَ أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ» أَرْسَلْتُ به إلَى عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ،فَقَالَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ:رَضيَ اللهُ عَنْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ أَتْعَبْتَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكَ" رواه الطبراني[٧٦٢]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كَانَ فَرَضَ للْمُهَاجرينَ الْأَوَّلينَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ في أَرْبَعَة،وَفَرَضَ لابْنِ عُمَرَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَ مائَة،فَقيلَ لَهُ هُوَ منَ الْمُهَاجرينَ فَلمَ نَقَصْتَهُ منْ أَرْبَعَة آلاَف،فَقَالَ:" إنَّمَا هَاجَرَ به أَبَوَاهُ يَقُولُ:لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بنَفْسه " رواهُ البخاري[٧٦٣]

وعَنْ أَبي مُوسَى،قَالَ :قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ :لَئنْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ تَرَكَا هَذَا الْمَالَ وَهُوَ يَحلُّ لَهُمَا منْهُ شَيْءٌ لَقَدْ غُبنَا وَنَقَصَ رَأْيُهُمَا،وَلَعَمْرُ الله مَا كَانَا بمَغْبُونَيْنِ،وَلاَ نَاقصَي الرَّأْي،وَلَئنْ كَانَا امْرَأَيْنِ يَحْرُمُ عَلَيْهِمَا منْ هَذَا الْمَالِ الَّذي أَصَبْنَا بَعْدَهُمَا لَقَدْ هَلَكْنَا وَايْمُ الله مَا جَاءَ الْوَهَمُ إلاَّ منْ قبَلنَا.[٧٦٤]

---

[٧٦١] - صحيح البخاري (٥/ ٤٣)(٣٨٤٢)

[ش (غلام) عبد.(يخرج له خراج) يأتي له بما يكسبه من الخراج وهو ما كان يقرره السيد على عبده من مال يدفعه من كسبه.(الكهانة) هي الإخبار عما سيكون من غير دليل شرعي]

[٧٦٢] - المعجم الكبير للطبراني (١/ ٦٠)(٣٨) حسن

[٧٦٣] - صحيح البخاري (٥/ ٦٣)(٣٩١٢)

[ش (فرض) عين من مال بيت المال.(في أربعة) مقسطة في أربعة فصول وقيل غير ذلك.(يقول) أي يعني أنه لم يتحمل من العناء مثل من هاجر بنفسه]

[٧٦٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٦/ ١٣٤)(٣١٣٥١) صحيح

وعَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ،أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَالَ:لَئِنْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَحِلُّ لَهُمَا هَذَا الْمَـــالُ الَّذِي أَصَبْنَاهُ بَعْدَهُمَا فَتَرَكَاهُ فَقَدْ غُبِنَا،وَنَقَصَ رَأْيُهُمَا،وَمَا كَانَا مَغْبُونَيْنِ وَلَا نَاقِصِي رَأْيٍ،وَلَـــئِنْ كَانَ يَحْرُمُ عَلَيْهِمَا فَتَرَكَاهُ لَقَدْ هَلَكْنَا،وَمَا كَانَ الْوَهْنُ إِلَّا مِنْ قِبَلِنَا "[٧٦٥]

وقال البيهقي في كتابه المدخل إلى السنن الكبرى:" بَابُ مَا يُسْـــتَحَبُّ لِلْعَـــالِمِ مِـــنْ تَـــوَقِّي الْمُشْتَبِهَاتِ لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِهِ الْجَاهِلُ فَيَقَعَ فِي الْحَرَامِ،عَنْ نَافِعٍ،أَنَّ أَسْلَمَ،مَوْلَى عُمَرَ حَدَّثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ:أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأَى عَلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّـــهِ ثَوْبًـــا مَصْـــبُوغًا فَقَالَ:مَا بَالُ هَذَا الثَّوْبِ الْمَصْبُوغِ عَلَيْكَ؟،فَقَالَ طَلْحَةُ:لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ إِنَّمَا هُوَ مَدَرٌ،فَقَالَ عُمَـــرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنَّكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ أَئِمَّةٌ يَقْتَدِي بِكُمُ النَّاسُ،وَأَنَّ جَاهِلًا لَوْ رَأَى هَذَا الثَّوْبَ لَقَـــالَ طَلْحَةُ كَانَ يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْمَصْبُوغَةَ فَلَا يَلْبَسْ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ مِنْ هَذِهِ الثِّيَابِ الْمَصْبُوغَةِ شَيْئًا وَهُوَ مُحْرِمٌ"

وعَنْ مُوسَى بْنِ أَعْيَنَ،قَالَ:قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:كُنَّا نَضْحَكُ وَنَمْزَحُ،فَلَمَّا صِرْنَا يُقْتَدَى بِنَا خَشِيتُ أَنْ لَا يَسَعَنَا التَّبَسُّمُ"

قَالَ:سَمِعْتُ سُفْيَانَ،يَقُولُ:لَوْ صَلُحَ الْقُرَّاءُ لَصَلُحَ النَّاسُ،قَالَ:سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ:لَـــوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ طَلَبُوا بِهِ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهَابَهُمُ النَّاسُ بِفَضْلِ عِلْمِهِمْ،وَلَكِنْ طَلَبُوا بِهِ الدُّنْيَا فَهَانُوا عَلَى النَّاسِ"

وعن الْفِرْيَابِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ،يَقُولُ:يُعْجِبُنِـــي أَنْ يَكُـــونَ صَـــاحِبُ الْحَـــدِيثِ مَكْفِيًا،لِأَنَّ الْآفَاتِ إِلَيْهِمْ أَسْرَعُ وَأَلْسِنَةَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَسْرَعُ،وَإِذَا احْتَاجَ ذَلَّ،قَالَ سُفْيَانُ:لَوْلَا هَذِهِ الضَّيْعَةُ الَّتِي مَعِي لَتَمَنْدَلَ بِي الْمُلُوكُ"

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،قَالَ:رَأَيْتُ بَيْنَ كَتِفَيِّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رُقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ أَدَمٍ

وعَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،أَنَّهُ قَالَ:قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ:رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّـــابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ،وَقَدْ رَقَعَ بَيْنَ كَتِفَيْهِ بِرِقَاعٍ ثَلَاثٍ لَبَّدَ بَعْضَـــهَا فَـــوْقَ بَعْضٍ "[٧٦٦]

---

[٧٦٥] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٦٠٣)(٩٩٣) صحيح

[٧٦٦] - المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٣٣٦)

وينبغي لولاة الأمر أن يتجنبوا التنعم في الدنيا والترف الذي يضعف الإيمان والأبدان،فلا تصبر على الشدائد ومشقة الجهاد،ولا تنهض بأعباء الحرب،فعَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ به إِلَى الْيَمَنِ قَالَ:" إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ؛فَإِنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ " رواه أحمد والبيهقي[٧٦٧]

وعن أَمَةِ اللَّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ حُسَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُّوا بِالنَّعِيمِ،الَّذِينَ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ،وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ،يَتَشَادَقُونَ بِالْكَلَامِ»[٧٦٨]

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،قَالَ:قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم.[٧٦٩]

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ،قَالَ:كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ وَنَحْنُ بِأَذْرَبِيجَانَ:«يَا عُتْبَةُ بْنَ فَرْقَدٍ،إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ،وَلَا مِنْ كَدِّ أَبِيكَ،وَلَا مِنْ كَدِّ أُمِّكَ،فَأَشْبِعِ الْمُسْلِمِينَ فِي رِحَالِهِمْ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ،وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ،وَزِيَّ أَهْلِ الشِّرْكِ،وَلَبُوسَ الْحَرِيرَ،فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ لَبُوسِ الْحَرِيرِ»،قَالَ:إِلَّا هَكَذَا،وَرَفَعَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِصْبَعَيْهِ الْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةَ وَضَمَّهُمَا،قَالَ زُهَيْرٌ:قَالَ عَاصِمٌ:هَذَا فِي الْكِتَابِ،قَالَ:وَرَفَعَ زُهَيْرٌ إِصْبَعَيْهِ" رواه مسلم[٧٧٠]

---

[٧٦٧] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٤٢٠)(٢٢١٠٥) ومسند الشاميين للطبراني (٢/ ٣٠٧)(١٣٩٥) وشعب الإيمان (٨/ ٢٤٦)(٥٧٦٦)صحيح لغيره

(قَالَ:" إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ "):وَهُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي تَحْصِيلِ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ عَلَى وَجْهِ التَّكَلُّفِ فِي الْبُغْيَةِ بِتَكْثِيرِ النِّعْمَةِ،وَالْحِرْصِ عَلَى النَّهْمَةِ،(" فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ ") أَيِ الْمُخْلَصِينَ (" لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ ") .بَلِ التَّنَعُّمُ مُخْتَصٌّ بِالْكَافِرِينَ وَالْفَاجِرِينَ وَالْغَافِلِينَ وَالْجَاهِلِينَ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر:٣] وَقَالَ:{وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد:١٢] وَقَالَ:{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} [الواقعة:٤٥] .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٩٥)

[٧٦٨] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٦٦)(٤٠٢) والصحيحة(١٨٩١) حسن

[٧٦٩] - مسند البزار = البحر الزخار (١٦/ ٢٤٣)(٩٤١٥) حسن لغيره

[٧٧٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٤٢)١٢ - (٢٠٦٩)

[ش (كتب إلينا عمر) هذا الحديث مما استدركه الدارقطني على البخاري ومسلم وقال هذا الحديث لم يسمعه أبو عثمان من عمر بل أخبر به عن كتاب عمر وهذا الاستدراك باطل فإن الصحيح الذي عليه جماهير المحدثين ومحققو الفقهاء والأصوليين جواز العمل بالكتاب وروايته عن الكاتب سواء قال في الكتاب أذنت لك في رواية هذا عني أو أجزتك رواية عني أو لم يقل شيئا(بأذربيجان) هو إقليم معروف وراء العراق وفي ضبطها وجهان مشهوران أشهرهما وأفصحهما وقول الأكثرين أذربيجان بفتح الهمزة بغير مد(ليس من كدك) الكد التعب والمشقة والشدة والمراد هنا أن هذا المال الذي عندك ليس هو من كسبك ومما تعبت فيه ولحقتك الشدة والمشقة في كده وتحصيله ولا هو من كد أبيك وأمك فورثته منهما بل هو مال

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ،قَالَ:كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ،وَنَحْنُ بِأَذْرَبِيجَانَ:" يَا عُتْبَةَ بْنَ فَرْقَدٍ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ،وَلَا مِنْ كَدِّ أَبِيكَ،وَلَا كَدِّ أُمِّكَ،يَقُولُ:ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،فَأَشْبِعِ الْمُسْلِمِينَ فِي رِحَالِهِمْ،مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ،وَكَتَبَ:أَنْ اتَّزِرُوا،وَارْتَدُّوا،وَانْتَعِلُوا،وَأَلْقُوا السَّرَاوِيلَاتِ،وَأَلْقُوا الْخِفَافَ،وَأَلْقُوا الرُّكُبَ،وَانْزُوا نَزْوًا،وَارْمُوا الْأَغْرَاضَ،وَعَلَيْكُمْ بِالْمَعَدِّيَّةِ،أَوْ قَالَ:الْعَرَبِيَّةَ،وَإِيَّاكُمْ،وَالتَّنَعُّمَ،وَزِيَّ أَهْلِ الشِّرْكِ،وَلَبُوسَ الْحَرِيرِ،فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَانَا،عَنْ لَبُوسِ الْحَرِيرِ،إِلَّا هَكَذَا،وَرَفَعَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِصْبَعَيْهِ الْمُسَبِّحَةَ،وَالَّتِي تَلِيهَا "[771]

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ ،أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ فَرْقَدٍ،بَعَثَ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَهُ ،وَمَعَ غُلَامٍ لِعُتْبَةَ مِنْ أَذْرَبِيجَانَ بِخَبِيصٍ جَيِّدٍ صَنَعَهُ فِي السَّلَالِيِّ عَلَيْهَا اللُّبُودُ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَشَفَ عُمَرُ عَنِ الْخَبِيصِ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" أَيَشْبَعُ الْمُسْلِمُونَ فِي رِحَالِهِمْ مِنْ هَذَا؟ " ،فَقَالَ الرَّسُولُ:اللهُمَّ لَا،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" لَا أُرِيدُ "،وَكَتَبَ إِلَى عُتْبَةَ:" أَمَّا بَعْدُ ،فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ وَلَا مِنْ كَدِّ أَبِيكَ ،وَلَا مِنْ كَدِّ أُمِّكَ ،فَأَشْبِعْ مَنْ قِبَلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي رِحَالِهِمْ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ " ،ثُمَّ قَالَ:" ائْتَزِرُوا وَارْتَدُوا وَانْتَعِلُوا وَأَلْقُوا السَّرَاوِيلَاتِ وَالْخِفَافَ وَارْمُوا الْأَغْرَاضَ وَأَلْقُوا الرُّكَبَ وَانْزُوا نَزْوًا وَعَلَيْكُمْ بِالْمَعَدِّيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَذَرُوا التَّنَعُّمَ وَزِيَّ الْعَجَمِ وَإِيَّاكُمْ وَلَبْسَ الْحَرِيرِ ،فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ:" نَهَانَا عَنْ لِبْسِ الْحَرِيرِ إِلَّا هَكَذَا ،وَوَضَعَ أُصْبُعَهُ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى "[772]

وفي هذا الأثر أن الأمير يتساوى مع المسلمين في النفقة،ولا يتميز عنهم بشيء من ذلك،وأن يوصل أرزاقهم إلى منازلهم،ولا يحوجهم إلى المطالبة بحقهم،وقوله:"إياكم والتنعم،وزي أهل الشرك" وفي هذا نصح لهم أن يعتادوا الصلابة والقوة والتقشف والخشونة في معيشتهم

المسلمين فشاركهم فيه ولا تختص عنهم بشيء منه بل أشبعهم منه وهم في رحالهم أي منازلهم كما تشبع منه في الجنس والقدر والصفة ولا تؤخر أرزاقهم عنهم ولا تحوجهم يطلبونها منك بل أوصلها إليهم وهم في منازلهم بلا طلب (لبوس الحرير) هو ما يلبس منه]

[771] - مستخرج أبي عوانة (٥/ ٢٣٣)(٨٥٢١) صحيح

[772] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٧)(٢٠٤١٢) صحيح

وفي زيادة عند أبي عوانة وغيره:"واخشوشنوا" من الخشونة في المعيشة،قال ابن جرير رحمه الله:" يَأْمُرَهُمْ فِي ذَلِكَ بِالتَّخَشُّنِ فِي عَيْشِهِمْ لِئَلَّا يَتَنَعَّمُوا فَيَرْكَنُوا إِلَى خَفْضِ الْعَيْشِ وَيَمِيلُوا إِلَى الدَّعَةِ فَيَجْبُنُوا،وَيَحْتَمُوا عَنْ أَعْدَائِهِمْ "[٧٧٣]

وينبغي للولاة أن يتجنبوا ما فيه خيلاء من المراكب،واللباس،والبيوت وغيرها،فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا،وَالْبَسُوا مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ،وَلاَ مَخِيلَةٌ.رواه ابن أبي شيبة[٧٧٤]

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ،وَرَكِبَ بِرْذَوْنًا،فَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بِهِ،فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ،فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا تَبَخْتُرًا،فَنَزَلَ عَنْهُ،وَقَالَ:«مَا حَمَلْتُمُونِي إِلَّا عَلَى شَيْطَانٍ مَا نَزَلْتُ عَنْهُ حَتَّى أَنْكَرْتُ نَفْسِي»[٧٧٥]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ،فَلَمَّا كُنَّا بِأَدْنَى الرِّيفِ،وَدَنَوْنَا مِنْهَا نَزَلَ عُمَرُ فَذَهَبَ لِحَاجَتِهِ فَجَاءَ وَقَدْ أَقْلَبَ الرَّحْلِ فِرْوَتِي وَأَلْقَيْتُهَا بَيْنَ شُعْبَتَيِ الرَّحْلِ فَرَكِبَ بَعِيرِي وَرَكِبْتُ بَعِيرَهُ فَاطَّلَعَ أُنَاسٌ فَقَالُوا:أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ قُلْتُ:هَذَا،فَجَعَلُوا يَتَرَاطَنُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَقَالَ:إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يعليهم فِرَوْنَ عَلَيْنَا بِزَّةَ قَوْمٍ غَضِبَ اللَّهُ فِيهَا،فَأَعْيُنُهُمْ تَزْدَرِينَا،ثُمَّ سَارَ حَتَّى لَقِيَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَأُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ.فَقَالَ عَمْرُو:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ حَدِيثِ عَهْدٍ بِكُفْرٍ قَالَ:فَمَهْ؟ قَالَ:تُؤْتَى بِدَابَّةٍ فَتَرْكَبُهَا.قَالَ:مَا شِئْتُمْ،فَأُتِيَ بِبِرْذَوْنٍ فَرَكِبَهُ فَجَعَلَ الْبِرْذَوْنُ يُحَرِّكُهُ وَجَعَلَ عُمَرُ يَضْرِبُهُ وَيَسَائِسٍ اهَهُ وَلَا يَزِيدُهُ إِلَّا مَشْيًا،فَقَالَ لِسَائِسِ الدَّابَّةِ:مَا يَنْقِمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ؟ ثُمَّ نَزَلَ.فَقَالَ:مَا حَمَلْتُمُونِي إِلَّا عَلَى شَيْطَانٍ،وَمَا نَزَلْتُ عَنْهُ حَتَّى أَنْكَرْتُ نَفْسِي،قَرِّبُوا بَعِيرِي،فَرَكِبَهُ ثُمَّ اعْتَزَلَ النَّاسَ.ثُمَّ سَارَ حَتَّى

---

[٧٧٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٢٦٦)

[٧٧٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٢/ ٥١٥)(٢٥٣٧٤) صحيح

كُلُوا،وَاشْرَبُوا):أَيْ مِقْدَارَ حَاجَتِكُمْ (وَتَصَدَّقُوا):أَيْ بِمَا زَادَ عَلَيْكُمْ (وَالْبَسُوا):أَيْ كَذَلِكَ (مَا لَمْ يُخَالِطْهُ):أَيْ مَا لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ (إِسْرَافٌ وَلَا مَخِيلَةٌ):وَهُوَ قَيْدٌ لِلْأَخِيرِ بِقَرِينَةِ نَفْيِ الْمَخِيلَةِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ الْأَوَامِرُ كُلُّهَا مَعَ تَكَلُّفٍ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٧٩٥)

[٧٧٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١/ ١٠٩) صحيح

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْمُتَمَرِّدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْطَانًا،لِمُفَارَقَةِ أَخْلَاقِهِ وَأَفْعَالِهِ أَخْلَاقَ سَائِرِ جِنْسِهِ وَأَفْعَالَهُ،وَبُعْدِهِ عَنِ الْخَيْرِ

لَقِيَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ عَلَى بَعِيرٍ قَد اخْتَطَمَهُ بِحَبْلٍ أَسْوَدَ فَلَمَّا رَآهُ عُمَرُ تَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ:أَخِي،لَعَمْرِي لَمْ تُغَيِّرْكَ الدُّنْيَا بَعْدِي وَدَخَلَا.حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ:حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ الْهَمْدَانِيُّ،قَالَ:أنا ابْنُ وَهْبٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ،عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ فِيهِ:قُلْتُ هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَكَأَنَّمَا ضَرَبْتُ وُجُوهَهُمْ،فَقَالَ:هَلْ تَرَى مَا أَرَى يَا خَالِدُ؟ قُلْتُ:أَرَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،قَالَ:لَمْ يَرَ هَؤُلَاءِ عَلَى صَاحِبِكَ ثِيَابَ قَوْمٍ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.وَقَالَ فِي قِصَّةِ أَبِي عُبَيْدَةَ:فَلَمَّا رَآهُ قَالَ:هَذَا أَخِي مَرْحَبًا،هَذَا رَجُلٌ لَمْ تُغَيِّرْهُ الدُّنْيَا،فَمَا زَالَ يَقُولُ مَرْحَبًا حَتَّى دَخَلَا،فَلَمَّا نَزَلَ جَاءَهُ صَاحِبُ الْأَرْضِ،فَأَعْطَاهُ عُمَرُ قَمِيصَهُ لِيَغْسِلَهُ وَيُرَقِّعَهُ،وَقَطَعَ قَمِيصًا جَدِيدًا آخَرَ فَآتَاهُ بِهِ وَقَدْ أَعَدَّ قَمِيصَهُ فَأَعْطَاهُ الْجَدِيدَ،فَرَدَّهُ إِلَيْهِ وَقَالَ:ائْتِنِي بِقَمِيصِي،فَنَاوَلَهُ إِيَّاهُ"[٧٧٦]

فعمر رضي الله عنه نزل عنه عندما اختال في مشيته،ومثله السيارة الفارهة التي تحدث الفخر والكبر في القلب،مع ما توقع في قلوب بعض الفقراء من سوء الظن بالأمراء ونقص الثقة بهم وما تولد من الأحقاد في قلوب البعض إذا رأوا الأمراء يركبون السيارات الفارهة ويلبسون أغلى الثياب ويأكلون أنواع الطعام،والفقراء لا يجدون إلا القليل من حاجاتهم،فعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الجُهَنِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لِلَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا» رواه الترمذي[٧٧٧]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا،أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " رواه أحمد وغيره[٧٧٨]

---

[٧٧٦] - الزهد لأبي داود (ص:٩٠)(٧٤) صحيح

[٧٧٧] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٥٠)(٢٤٨١) حسن -وَمَعْنَى قَوْلِهِ حُلَلِ الإِيمَانِ:يَعْنِي مَا يُعْطَى أَهْلُ الإِيمَانِ مِنْ حُلَلِ الجَنَّةِ "

[٧٧٨] - مسند أحمد ط الرسالة (٩/ ٤٧٦)(٥٦٦٤) وشعب الإيمان (٨/ ٢٧٤)(٥٨١٦ و٥٨١٧) حسن لغيره

(مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ):أَيْ ثَوْبَ تَكَبُّرٍ وَتَفَاخُرٍ وَتَجَبُّرٍ،أَوْ مَا يَتَّخِذُهُ الْمُتَزَهِّدُ لِيُشْهِرَ نَفْسَهُ بِالزُّهْدِ،أَوْ مَا يَشْعُرُ بِهِ الْمُتَسَيِّدُ مِنْ عَلَامَةِ السِّيَادَةِ كَالثَّوْبِ الْأَخْضَرِ،أَوْ مَا يَلْبَسُهُ الْمُتَفَقِّهَةُ مِنْ لُبْسِ الْفُقَهَاءِ،وَالْحَالُ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ السُّفَهَاءِ.(فِي الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبُ مَذَلَّةٍ):ضِدُّ الْمَعَزَّةِ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ):أَيْ جَزَاءً وِفَاقًا؛فَإِنَّ الْمُعَالَجَةَ بِالْأَضْدَادِ،وَمَفْهُومُهُ أَنَّ مَنِ اخْتَارَ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ وَتَوَاضُعٍ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَعَزَّةٍ فِي الْعُقْبَى،قَالَ الْقَاضِي:الشُّهْرَةُ ظُهُورُ الشَّيْءِ فِي شَنْعَةٍ بِحَيْثُ يُشْهَرُ بِهِ صَاحِبُهُ،وَالْمُرَادُ بِثَوْبِ

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَلَا تَسْمَعُونَ،أَلَا تَسْمَعُونَ،إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ،إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ».رواه أبو داود[٧٧٩]

قال الإمام النووي رحمه الله:" «البَذَاذَةُ» - بالباءِ الموحدة والذالين المعجمتين - وَهِيَ رَثَاثَةُ الهَيْئَةِ وَتَرْكُ فَاخِرِ اللِّبَاسِ.وَأَمَّا «التَّقَحُّلُ» فبالقاف والحاء:قَالَ أهْلُ اللُّغَةِ:الْمُتَقَحِّلُ هُوَ الرَّجُلُ اليَابِسُ الجِلْدِ مِنْ خُشُونَةِ العَيْشِ وَتَرْكِ التَّرَفُّهِ."[٧٨٠]

وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ،قَالَ:قَالَ لِي أَبِي يَا بُنَيَّ «لَوْ رَأَيْتَنَا وَنَحْنُ مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ،وَقَدْ أَصَابَتْنَا السَّمَاءُ،حَسِبْتَ أَنَّ رِيحَنَا رِيحُ الضَّأْنِ» رواه أبو داود[٧٨١]

وَمَعْنَى هَذَا الحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ ثِيَابَهُمُ الصُّوفُ،فَإِذَا أَصَابَهُمُ الْمَطَرُ يَجِيءُ مِنْ ثِيَابِهِمْ رِيحُ الضَّأْنِ»[٧٨٢]

وعَنْ إِسْحَقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،أَنَّهُ قَالَ:قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ:«رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ،وَقَدْ رَقَعَ بَيْنَ كَتِفَيْهِ بِرِقَاعٍ ثَلَاثٍ لَبَّدَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ» رواه مالك[٧٨٣]

شُهْرَةٍ مَا لَا يَحِلُّ لُبْسُهُ،وَإِلَّا لَمَا رَتَّبَ الْوَعِيدَ عَلَيْهِ،أَوْ مَا يُقْصَدُ بِلُبْسِهِ التَّفَاخُرُ وَالتَّكَبُّرُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْإِذْلَالُ بِهِمْ وَكَسْرُ قُلُوبِهِمْ،أَوْ مَا يَتَّخِذُهُ الْمُسَاخِرُ لِيَجْعَلَ بِهِ نَفْسَهُ ضُحْكَةً بَيْنَ النَّاسِ،أَوْ مَا يُرَائِي بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ،فَكُنِّيَ بِالثَّوْبِ عَنِ الْعَمَلِ وَهُوَ شَائِعٌ قَالَ الطِّيبِيُّ:وَالْوَجْهُ الثَّانِي أَظْهَرُ لِقَوْلِهِ:أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ وَفِي النِّهَايَةِ:أَيْ أَيْ أَشْمَلَهُ بِالذُّلِّ كَمَا يَشْمَلُ الثَّوْبُ الْبَدَنَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٧٨٢)

[٧٧٩] - سنن أبي داود (٤/ ٧٥)(٤١٦١) صحيح

(مِنَ الْإِيمَانِ):أَيْ مِنْ كَمَالِ أَهْلِهِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:يُقَالُ رَجُلٌ بَذُّ الْهَيْئَةِ أَيْ رَثُّ اللِّبْسَةِ،وَالْمُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ التَّوَاضُعَ فِي اللِّبَاسِ وَالتَّوَقِّيَ عَنِ الْفَائِقِ فِي الزِّينَةِ مِنْ أَخْلَاقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ،وَالْإِيمَانُ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ.(أَنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ):كَرَّرَهُ لِلتَّأْكِيدِ،فَفِيهِ اخْتِيَارُ الْفَقْرِ وَالْكَسْرِ،فَلُبْسُ الْخَلِقِ مِنَ الثِّيَابِ مِنْ خُلُقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٧٨٢)

[٧٨٠] - رياض الصالحين ت الفحل (ص:١٧٦)

[٧٨١] - سنن أبي داود (٤/ ٤٤)(٤٠٣٣) ومسند أبي يعلى الموصلي (١٣/ ٢٥٠)(٧٢٦٦) ومسند البزار = البحر الزخار (٨/ ١٢٨)(٣١٣٤) صحيح

[٧٨٢] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٥٠)

[٧٨٣] - تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٠٥) وموطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٩١٨)(١٩) صحيح

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ:لَقِيَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَقَد ابْتَعْتُ لَحْمًا بِدِرْهَمٍ فَقَالَ:" مَا هَذَا يَا جَابِرُ؟ " قُلْتُ:قَرِمْتُ أَهْلِي،فَابْتَعْتُ لَهُمْ لَحْمًا بِدِرْهَمٍ،فَجَعَلَ عُمَرُ يُرَدِّدُ قَرِمَ الْأَهْلِ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنَّ الدِّرْهَمَ سَقَطَ مِنِّي وَلَمْ أَلْقَ عُمَرَ " رواه البيهقي[784]،ومعنى "قرم" أي اشتهوا الطعام بشدة.

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَدْرَكَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَمَعَهُ حِمَالُ لَحْمٍ،فَقَالَ:«مَا هَذَا؟» فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،قَرِمْنَا إِلَى اللَّحْمِ،فَاشْتَرَيْتُ بِدِرْهَمٍ لَحْمًا،فَقَالَ عُمَرُ:" أَمَا يُرِيدُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَطْوِيَ بَطْنَهُ عَنْ جَارِهِ،أَوِ ابْنِ عَمِّهِ،أَيْنَ تَذْهَبُ عَنْكُمْ هَذِهِ الْآيَةُ:{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} [الأحقاف:٢٠]؟ "[785]

وقد جاءت الشريعة بالتوسط في النفقة دون إسراف ولا تقتير،كما قال تعالى:{ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } [الفرقان:٦٧]

مِنْ صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ أَيضاً الاعتِدَالُ في الإِنفَاقِ على أَنْفُسِهِمْ،وأَهليهِمْ،فهُمْ لَيْسُوا بِمُبَذِّرِينَ في إنفاقِهِمْ فَيَصْرِفُون فوقَ الحَاجَةِ،ولا بُخَلاءَ على أهليهِمْ فَيُقَصِّرُون في حَقِّهِمْ،فلا يَكْفُونَهُمْ،بلْ هِمْ مُعْتَدِلُونَ في أمورِهِمْ.[786]

وهذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن..إنهم يلزمون الطريق الوسط فى حياتهم،وفي كل شان من شئونهم،فلا إفراط،ولا تفريط،فإن خير الأمور أوساطها..وأكثر ما يتجلّى هذا المبدأ في إنفاق المال،حيث هو عملية مستمرة،يقوم بها الإنسان مرات كل يوم،سواء أكان غنيا أم فقيرا..

---

[784] - شعب الإيمان (٧/ ٤٦٢)(٥٢٨٥) صحيح

[785] - شعب الإيمان (٧/ ٤٦٢)(٥٢٨٤) وموطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٩٣٦) فيه انقطاع

قَالَ:الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:وَهَذَا الْوَعِيدُ مِنَ اللهِ تَعَالَى،وَإِنْ كَانَ لِلْكُفَّارِ،الَّذِينَ الَّذِينَ يُقْدِمُونَ عَلَى الطَّيِّبَاتِ الْمَحْظُورَةِ وَلِذَلِكَ قَالَ:{فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} [الأحقاف:٢٠] فَقَدْ يَحْسُنُ مِثْلُهُ،عَلَى الْمُنْهَمِكِينَ فِي الطَّيِّبَاتِ الْمُبَاحَةِ،لِأَنَّ مَنْ تَعَوَّدَهَا مَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى الدُّنْيَا فَلَمْ يُؤْمَنْ أَنْ يَرْتَكِبَ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِّ،وَكُلَّمَا أَجَابَ نَفْسَهُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهَا دَعَتْهُ إِلَى غَيْرِهَا،فَيَصِيرَ إِلَى أَنْ لَا يُمْكِنَهُ عِصْيَانُ نَفْسِهِ فِي هَوًى قَطُّ،وَيَنْسَدَّ بَابُ الْعِبَادَةِ [ص:٤٦٣] دُونَهُ،فَإِذَا آلَ الْأَمْرُ بِهِ إِلَى هَذَا لَمْ يُبْعَدْ أَنْ يُقَالَ:{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} [الأحقاف:٢٠] فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُعَوَّدَ النَّفْسُ مَا يَمِيلُ بِهَا إِلَى الشَّرَهِ،ثُمَّ يَصْعُبَ تَدَارُكُهَا،وَلْتَرْضَ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ،عَلَى السَّدَادِ،فَإِنَّ ذَلِكَ أَهْوَنُ،مِنْ أَنْ يَضْرِبَ عَلَى الْفَسَادِ،ثُمَّ يَجْتَهِدَ فِي إِعَادَتِهَا إِلَى الصَّلَاحِ" شعب الإيمان (٧/ ٤٦٢)

[786] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٨٠٤،بترقيم الشاملة آليا)

كلّ ينفق حسب ما معه من مال..والإسراف،هو مجاوزة الحدّ في زيادة المطلوب في النفقة والتقتير،هو الإمساك دون الحدّ المطلوب..وقوله تعالى:«وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» أي وكان إنفاقهم وسطا،وقواما،بين الإسراف،والتقتير..[٧٨٧]

وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ويتجه إليها في التربية والتشريع،يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال.

والمسلم – مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة – ليس حرا في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء – كما هو الحال في النظام الرأسمالي،وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان.إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير.فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية.والإسراف والتقتير يحدثان اختلالا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي،وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب.ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق.

والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد،فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان:«وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» ..[٧٨٨]

ويستحب للعبد أن يتوسط في لباسه،وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» رواه الترمذي[٧٨٩]

---

[٧٨٧] – التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٥٧)

[٧٨٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٣١٣)

[٧٨٩] – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٢٤)(٢٨١٩) صحيح

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ يُبْصَرَ وَيَظْهَرُ (أَثَرُ نِعَمِهِ):أَيْ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ تَعَالَى (عَلَى عَبْدِهِ):فَمِنْ شُكْرِهَا إِظْهَارُهَا،وَمِنْ كُفْرَانِهَا كِتْمَانُهَا.قَالَ الْمُظْهِرُ:يَعْنِي إِذَا آتَى اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا فَلْيُظْهِرْهَا مِنْ نَفْسِهِ،بِأَنْ يَلْبَسَ لِبَاسًا يَلِيقُ بِحَالِهِ،لِإِظْهَارِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ،وَلِيَقْصِدَهُ الْمُحْتَاجُونَ لِطَلَبِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ،وَكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ يُظْهِرُوا عِلْمَهُمْ لِيَسْتَفِيدَ النَّاسُ مِنْهُمُ اهـ.

فَإِنْ قُلْتَ:أَلَيْسَ أَنَّهُ حَثَّ عَلَى الْبَذَاذَةِ؟ قُلْتُ:إِنَّمَا حَثَّ عَلَيْهَا لِئَلَّا يَعْدِلَ عَنْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ،وَلَا يَتَكَلَّفُ لِلثِّيَابِ الْمُتَكَلِّفَةِ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ فِي عَادَةِ النَّاسِ،حَتَّى فِي الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ،فَأَمَّا مَنِ اتَّخَذَ ذَلِكَ دَيْدَنًا وَعَادَةً مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْجَدِيدِ وَالنَّظَافَةِ،فَلَا؛لِأَنَّهُ خِسَّةٌ وَدَنَاءَةٌ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٧٨٣)

وعَنْ أَبِي سَعِيد قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَيُبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ " رواه البيهقي في شعب الإيمان[٧٩٠]
وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ،وَيُحِبُّ أَنْ يَرَىَ أَثَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ،الْكِبْرُ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ»[٧٩١]
وعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَآنِي سَيِّئَ الْهَيْئَةِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلْ لَكَ مِنْ شَيْءٍ؟» قَالَ:نَعَمْ،مِنْ كُلِّ الْمَالِ قَدْ آتَانِي اللَّهُ،فَقَالَ:«إِذَا كَانَ لَكَ مَالٌ فَلْيُرَ عَلَيْكَ» [٧٩٢]

وينبغي للأمراء التقلل من الدنيا وترك التوسع فيها،حتى لا تنقص درجاتهم عند الله على قدر ما توسعوا فيها،وعَنْ سَعْدٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:أُتِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا بِطَعَامِهِ،فَقَالَ:«قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَكَانَ خَيْرًا مِنِّي،فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ،وَقُتِلَ حَمْزَةُ - أَوْ رَجُلٌ آخَرُ - خَيْرٌ مِنِّي،فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ،لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عُجِّلَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي» رواهُ البخاري[٧٩٣]
وعن خَبَّابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللَّهِ،فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ،فَمِنَّا مَنْ مَاتَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا،مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ،فَهُوَ يَهْدِبُهَا،قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ،فَلَمْ نَجِدْ مَا نُكَفِّنُهُ إِلَّا بُرْدَةً إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلاَهُ،وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ،«فَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ،وَأَنْ نَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الإِذْخِرِ»متفقٌ عليه[٧٩٤]

---

[٧٩٠] - شعب الإيمان (٨/ ٢٦٣)(٥٧٩٠) ومسند أبي يعلى الموصلي (٢/ ٣٢٠)(١٠٥٥) والمعجم الأوسط (٥/ ٦٠)(٤٦٦٨) صحيح لغيره

[٧٩١] - مسند الشاميين للطبراني (٣/ ٣٣٠)(٢٤٢٠) حسن لغيره

[٧٩٢] - سنن النسائي (٨/ ١٩٦)(٥٢٩٤) صحيح

[٧٩٣] - صحيح البخاري (٢/ ٧٧)(١٢٧٤)

[ش (بردة) كساء صغير مربع وقيل غير ذلك.(عجلت لنا طيباتنا) أعطينا حقنا من الطيبات في الدنيا فلم يبق لنا نصيب في لذائذ الآخرة]

[٧٩٤] - صحيح البخاري (٢/ ٧٧)(١٢٧٦) وصحيح مسلم (٢/ ٦٤٩)٤٤ - (٩٤٠)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْ غَازِيَةٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،تَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ،إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ،وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،تُخْفِقُ وَتُصَابُ،إِلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ» رواهُ مسلمٌ[795]

قال الإمام النووي رحمه الله:" فَالصَّوَابُ الَّذِي لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ أَنَّ الْغُزَاةَ إِذَا سَلِمُوا أَوْ غَنِمُوا يَكُونُ أَجْرُهُمْ أَقَلَّ مِنْ أَجْرِ مَنْ لَمْ يَسْلَمْ أَوْ سَلِمَ وَلَمْ يَغْنَمْ وَأَنَّ الْغَنِيمَةَ هِيَ فِي مُقَابَلَةِ جُزْءٍ مِنْ أَجْرِ غَزْوِهِمْ فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُمْ فَقَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمُ الْمُتَرَتِّبَ عَلَى الْغَزْوِ وَتَكُونُ هَذِهِ الْغَنِيمَةُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَجْرِ وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنِ الصَّحَابَةِ كَقَوْلِهِ مِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا أَيْ يَجْتَنِيهَا فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا هُوَ الصَّوَابُ وَهُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَأْتِ حَدِيثٌ صَرِيحٌ صَحِيحٌ يُخَالِفُ هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمْلُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا "[796]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:«لَا يُصِيبُ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللَّهِ،وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ كَرِيمًا» [797]

فينبغي للإمام أن يحاسب الأمراء على الثراء المفاجئ،وينظر في سبل كسبهم للأموال،حتى لا يستغل بعضهم الولاية لأخذ الرشا أو الهدايا أو جمع الأموال بسبب محاباة الناس لهم في البيع

[ش(نلتمس وجه الله) نطلب ذات الله تعالى ورضوانه لا متاع الدنيا.(فوقع أجرنا) ثبت ثوابنا واستحققناه بوعد الله عز وجل.(أينعت) أدركت ونضجت.(يهدبها) يجتنيها ويقطفها]

[795] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٥)(١٥٤ - (١٩٠٦)

[ش (تخفق) قال أهل اللغة الإخفاق أن يغزوا فلا يغنموا شيئا وكذلك كل طالب حاجة إذا لم تحصل فقد أخفق ومنه أخفق الصائد إذا لم يقع له صيد وأما معنى الحديث فالصواب الذي لا يجوز غيره أن الغزاة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم أو سلم ولم يغنم وأن الغنيمة هي في مقابلة جزء من أجر غزوهم فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثي أجرهم المترتب على الغزو وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجروهذا موافق للأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابة كقوله منا من مات ولم يأكل من أجره شيئا ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها أي يجتنيها

فهذا هو الذي ذكرنا هو الصواب وهو ظاهر الأحاديث ولم يأت حديث صريح صحيح يخالف هذا فتعين حمله على ما ذكرنا،وقد اختار القاضي عياض معنى هذا الذي ذكرناه بعد حكايته في تفسيره أقوالا فاسدة]

[796] - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٥٢)

[797] - الزهد لهناد بن السري (١/ ٣١٣)(٥٥٧) صحيح

والمعاملات،وفي الطبقات الكبرى لابن سعد عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ أَمَرَ عُمَّالَهُ فَكَتَبُوا أَمْوَالَهُمْ.مِنْهُمْ سعد ابن أَبِي وَقَّاص.فَشَاطَرَهُمْ عُمَرُ أَمْوَالَهُمْ فَأَخَذَ نِصْفًا وَأَعْطَاهُمْ نِصْفًا."[798]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ عُمَرَ كَانَ إِذَا اسْتَعْمَلَ عَامِلا كَتَبَ مَالَهُ.[799]"

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله " وَمَا أَخَذَهُ الْعُمَّالُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلِوَلِيِّ الْأَمْرِ الْعَادِلِ اسْتِخْرَاجُهُ مِنْهُمْ؛كَالْهَدَايَا الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بِسَبَبِ الْعَمَلِ..

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ،قَالَ :هَدَايَا الأُمَرَاءِ غُلُولٌ.[800]

وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ،قَالَ:«هَدَايَا الْأُمَرَاءِ غُلُولٌ»[801]

وقال أَبُو حَرِيزٍ،إِنَّ رَجُلًا كَانَ يُهْدِي إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كُلَّ سَنَةٍ فَخِذَ جَزُورٍ ،قَالَ:فَجَاءَ يُخَاصِمُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،اقْضِ بَيْنَنَا قَضَاءً فَصْلًا كَمَا تَفْصِلُ الْفَخِذَ مِنَ الْجَزُورِ ،قَالَ:فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى عُمَّاله:" لَا تَقْبَلُوا الْهَدْيَ ،فَإِنَّهَا رِشْوَةٌ "[802]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ عُرْوَةَ،أَخْبَرَنَا أَبُو حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ،قَالَ:اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسْدٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَةٍ،فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ:هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي،فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ – قَالَ سُفْيَانُ أَيْضًا فَصَعِدَ المِنْبَرَ – فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:" مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ:هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي،فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ،فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ،إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ،أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ،أَوْ شَاةً تَيْعَرُ «،ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ» أَلا هَلْ بَلَّغْتُ " ثَلاَثًا،قَالَ سُفْيَانُ:قَصَّهُ عَلَيْنَا الزُّهْرِيُّ،وَزَادَ هِشَامٌ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ:سَمِعَ أُذُنَايَ،وَأَبْصَرَتْهُ

---

[798] – الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٣٣) من طريق الواقدي

[799] – الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٣٣) من طريق الواقدي

[800] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١١/ ٣٠٠)(٢٢٣٩٠) صحيح موقوف

[801] – مستخرج أبي عوانة (٤/ ٣٩٥)(٧٠٧٣) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٩/ ١٤)(٢٣٦٠١) وصحيح الجامع (٧٠٢١) والمعجم الأوسط (٥/ ١٦٨)(٤٩٦٩)و(٨/ ٢٥)(٧٨٥٢) صحيح لغيره

[802] – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٣٤)(٢٠٤٧٦) فيه انقطاع

عَيْنِي،وَسَلُوا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ سَمِعَهُ مَعِي،وَلَمْ يَقُلِ الزُّهْرِيُّ سَمِعَ أُذُنِي،خُوَارٌ:صَوْتٌ،«وَالجُؤَارُ مِنْ» تَجْأَرُونَ:«كَصَوْتِ البَقَرَةِ»[803]

وَكَذَلِكَ مُحَابَاةُ الْوُلَاةِ فِي الْمُعَامَلَةِ مِنْ الْمُبَايَعَةِ وَالْمُؤَاجَرَةِ وَالْمُضَارَبَةِ وَالْمُسَاقَاةِ وَالْمُزَارَعَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ هُوَ مِنْ نَوْعِ الْهَدِيَّةِ؛وَلِهَذَا شَاطَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ عُمَّالِهِ مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ وَدِينٌ لَا يُتَّهَمُ بِخِيَانَةِ؛وَإِنَّمَا شَاطَرَهُمْ لَمَّا كَانُوا خُصُّوا بِهِ لِأَجْلِ الْوِلَايَةِ مِنْ مُحَابَاةٍ وَغَيْرِهَا وَكَانَ الْأَمْرُ يَقْتَضِي ذَلِكَ؛لِأَنَّهُ كَانَ إمَامَ عَدْلٍ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ.فَلَمَّا تَغَيَّرَ الْإِمَامُ وَالرَّعِيَّةُ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ إنْسَانٍ أَنْ يَفْعَلَ مِنْ الْوَاجِبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَتْرُكُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ وَلَا يُحَرِّمُ عَلَيْهِ مَا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ.وَقَدْ يُبْتَلَى النَّاسُ مِنْ الْوُلَاةِ بِمَنْ يَمْتَنِعُ مِنْ الْهَدِيَّةِ وَنَحْوِهَا؛لِيَتَمَكَّنَ بِذَلِكَ مِنْ اسْتِيفَاءِ الْمَظَالِمِ مِنْهُمْ وَيَتْرُكُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ مِنْ قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ فَيَكُونُ مَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ عِوَضًا عَلَى كَفِّ ظُلْمٍ وَقَضَاءِ حَاجَةٍ مُبَاحَةٍ أَحَبَّ إلَيْهِمْ مِنْ هَذَا؛فَإِنَّ الْأَوَّلَ قَدْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ وَأَخْسَرُ النَّاسِ صَفْقَةً مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ؛وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ كَفُّ الظُّلْمِ عَنْهُمْ بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ الَّتِي لَا تَتِمُّ مَصْلَحَةُ النَّاسِ إلَّا بِهَا:مِنْ تَبْلِيغِ ذِي السُّلْطَانِ حَاجَاتِهِمْ وَتَعْرِيفِهِ بِأُمُورِهِمْ وَدَلَالَتِهِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَصَرْفِهِ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ؛بِأَنْوَاعِ الطُّرُقِ اللَّطِيفَةِ وَغَيْرِ اللَّطِيفَةِ؛كَمَا يَفْعَلُ ذَوُو الْأَغْرَاضِ مِنْ الْكُتَّابِ وَنَحْوِهِمْ فِي أَغْرَاضِهِمْ."[804]

ومن ظهر عليه من الأمراء الترف والخيلاء في الملبس أو المسكن أو المركب أو غيره،ورأى الإمام المصلحة في عزله فله أن يعزله،فإن الولاية تقتضي كمال النصح للمسلمين،وأن يحب الأمير لهم من الخير ما يحب لنفسه،فإذا ظهر عليه الترف والتنعم،والفقراء من حوله لا يجدون بعض حاجاتهم،وهو لا يحسن إليهم،ولا يؤثرهم على نفسه،دلَّ هذا على نقص نصحه للمسلمين،وعَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،كَانَ إِذَا بَعَثَ عُمَّالَهُ شَرَطَ عَلَيْهِمْ:«أَلَّا تَرْكَبُوا بِرْذَوْنًا،وَلَا تَأْكُلُوا نَقِيًّا،وَلَا تَلْبَسُوا رَقِيقًا،وَلَا تُغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ دُونَ حَوَائِجِ النَّاسِ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّتْ بِكُمُ الْعُقُوبَةُ»،قَالَ:ثُمَّ شَيَّعَهُمْ،فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ

---

[803] - صحيح البخاري (9/ 70)(7174)

[ش (تجأرون) من جأر إذا صاح وجأر إلى الله تعالى تضرع إليه بالدعاء وجأر وخار بمعنى واحد إلا أنه بالخاء للبقر وغيرها من الحيوان وبالجيم للبقر وللناس.وأتى بهذه اللفظة لورود لفظة (خوار)في الحديث السابق بلفظ (جؤار) في رواية أخرى]

[804] - مجموع الفتاوى (28/ 280)

قَالَ:«إِنِّي لَمْ أُسَلِّطْكُمْ عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا عَلَى أَعْرَاضِهِمْ،وَلَا عَلَى أَمْوَالِهِمْ،وَلَكِنِّي بَعَثْتُكُمْ لِتُقِيمُوا بِهِمُ الصَّلَاةَ،وَتَقْسِمُوا فَيْئَهُمْ،وَتَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ،فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ،فَارْفَعُوهُ إِلَيَّ،أَلَا فَلَا تَضْرِبُوا الْعَرَبَ فَتُذِلُّوهَا،وَلَا تُجَمِّرُوهَا فَتَفْتِنُوهَا،وَلَا تَعْتَلُّوا عَلَيْهَا فَتَحْرِمُوهَا،جَرِّدُوا الْقُرْآنَ،وَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،انْطَلِقُوا وَأَنَا شَرِيكُكُمْ» رواه عبد الرزاق في مصنفه[٨٠٥]

وعَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُود،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،كَانَ إِذَا بَعَثَ عُمَّالًا اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ:" أَلَا تَرْكَبُوا بِرْذَوْنًا،وَلَا تَأْكُلُوا نَقِيًّا،وَلَا تَلْبَسُوا رَقِيقًا،وَلَا تُغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ دُونَ حَوَائِجِ النَّاسِ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّتْ بِكُمُ الْعُقُوبَةُ،ثُمَّ يُشَيِّعُهُمْ "،فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ قَالَ:" إِنِّي لَمْ أُسَلِّطْكُمْ عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا عَلَى أَبْشَارِهِمْ،وَلَا عَلَى أَعْرَاضِهِمْ،وَلَا عَلَى أَمْوَالِهِمْ،وَلَكِنِّي بَعَثْتُكُمْ لِتُقِيمُوا فِيهِمُ الصَّلَاةَ،وَتَقْتَسِمُوا فِيهِمْ فَيْئَهُمْ،وَتَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ،فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ فَارْفَعُوهُ إِلَيَّ،أَلَا وَلَا تَضْرِبُوا الْعَرَبَ فَتُذِلُّوهَا،وَلَا تَحْمَدُوهَا فَتَفْتِنُوهَا،وَلَا تُقْبِلُوا عَلَيْهَا فَتُحْرَمُوهَا فَيَرُدُّوا الْقُرْآنَ "[٨٠٦]

ففي الأثر نهى الأمراء عن المركب الذي يحدث الخيلاء والتكبر،وعن التنعم والإسراف في الطعام واللباس.

---

[٨٠٥] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٢٤)(٢٠٦٦٢) فيه انقطاع

كَانَ إِذَا بَعَثَ عُمَّالَهُ) بِضَمِّ عَيْنٍ وَتَشْدِيدِ مِيمٍ جَمْعُ عَامِلٍ؛أَيْ حُكَّامَهُ (شَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا تَرْكَبُوا) بِالْخِطَابِ حِكَايَةً لِلَفْظِهِ (بِرْذَوْنًا) بِكَسْرِ مُوَحَّدَةٍ وَسُكُونِ رَاءٍ وَفَتْحِ ذَالٍ مُعْجَمَةٍ؛أَيْ خَيْلًا تُرْكِيًّا فِي الْمُغْرِبِ،الْبِرْذَوْنُ التُّرْكِيُّ مِنَ الْخَيْلِ،وَالْجَمْعُ بَرَاذِينُ،وَخِلَافُهَا الْعِرَابُ وَالْأُنْثَى بِرْذَوْنَةٌ،قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:إِذَا جَعَلَ الْعِلَّةَ لِلنَّهْيِ عَنْ رُكُوبِ الْخُيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرَ؛كَانَ النَّهْيُ عَنِ الْعِرَابِ أَحْرَى وَأَوْلَى،وَقَالَ الرَّاغِبُ:الْخُيَلَاءُ وَالتَّكَبُّرُ عَنْ تَخَيُّلِ فَضِيلَةٍ تَرَاءَتْ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ،وَمِنْهَا تُئُولُ لَفْظُ الْخَيْلِ لِمَا قِيلَ:إِنَّهُ لَا يَرْكَبُ أَحَدٌ فَرَسًا إِلَّا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ نَخْوَةً،(وَلَا تَأْكُلُوا نَقِيًّا وَهُوَ مَا نُخِلَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى،وَلَا تَلْبَسُوا رَقِيقًا،وَلَا تُغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ دُونَ حَوَائِجِ النَّاسِ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّتْ بِكُمُ الْعُقُوبَةُ؛أَيْ فِي الدُّنْيَا،أَوِ الْعُقْبَى،قَالَ الطِّيبِيُّ:فَالنَّهْيُ عَنْ رُكُوبِ الْبِرْذَوْنِ؛نَهْيٌ عَنِ التَّكَبُّرِ،وَعَنْ أَكْلِ النَّقِيِّ وَلُبْسِ الرَّقِيقِ؛نَهْيٌ عَنِ التَّنَعُّمِ وَالسَّرَفِ،وَالنَّهْيُ عَنِ الِاحْتِجَابِ؛نَهْيٌ عَنْ تَقَاعُدِهِمْ عَنْ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ وَالِاشْتِغَالِ عَنْهُمْ بِخُوَيْصَّةِ نَفْسِهِ،(ثُمَّ يُشَيِّعُهُمْ) بِتَشْدِيدِ التَّحْتِيَّةِ الْمَكْسُورَةِ؛وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى (شَرَطَ)،وَالْمُشَايَعَةُ مُسْتَحَبَّةٌ؛لِمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«مَشَى مَعَ الْغُزَاةِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- إِلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ حِينَ وَجَّهَهُمْ،ثُمَّ قَالَ:انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ أَعِنْهُمْ» مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٢٥)

[٨٠٦] - شعب الإيمان (٩/ ٤٩٤)(٧٠٠٩) فيه انقطاع

نصح الإمام والأمراء ومحاسبتهم ومحاكمتهم

بعد أن بايع المسلمون أبا بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة خطب الناس خطبة عظيمة،جمعت أصولا من أصول السياسة الشرعية،قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ،حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِك قَالَ:لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي السَّقِيفَةِ،وَكَانَ الْغَدُ جَلَسَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمِنْبَرِ،وَقَامَ عُمَرُ فَتَكَلَّمَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمْ بِالْأَمْسِ مَقَالَةً مَا كَانَتْ مِمَّا وَجَدْتُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ،وَلَا كَانَتْ عَهْدًا عَهِدَهُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ سَيَدْبُرُ أَمْرَنَا - يَقُولُ:يَكُونُ آخِرَنَا - وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى فِيكُمْ كِتَابَهُ الَّذِي بِهِ هَدَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَإِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ هَدَاكُمُ اللَّهُ لِمَا كَانَ هَدَاهُ لَهُ،وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَمَعَ أَمْرَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ ؛ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ فَقُومُوا فَبَايِعُوهُ.فَبَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ بَيْعَةَ الْعَامَّةِ بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقِيفَةِ،ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي،الصِّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ،وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ،إِنْ شَاءَ اللَّهُ،وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ،إِنْ شَاءَ اللَّهُ،لَا يَدْعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ،وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ،أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ،قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ.[٨٠٧].

فقوله رضي الله عنه:"قد وليت عليكم ولست بخيركم"،فهو رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ،وإنما قال هذا لتواضعه رضي الله عنه،وهذا الذي يجب أن يكون عليه الإمام مع

---

[٨٠٧] - البداية والنهاية ط هجر (٨/ ٨٩) و (٩/ ٤١٣) وسيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٦٦٠) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٢١٠) قال ابن كثير:وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ،فَقَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:وَلِيتُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ.مِنْ بَابِ الْهَضْمِ وَالتَّوَاضُعِ،فَإِنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

رعيته،فيعاملهم بالتواضع واللين من غـير ضـعف،ويتحبب إلـيهم ويرحمهم،وقـد قـال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء:٢١٥]

يَأْمُرُ اللهُ تَعالى رسُولَه محمداً ﷺ،بأنْ يُلِينَ جَانِبَهُ لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبادِ اللهِ المُـؤمنينَ،وأَنْ يَتَرَفَّـقَ بِهِمْ،فَذَلِكَ أَدْعَى لإخْلاصِهِمْ للرّسُولِ،ولِزِيَادَةِ مَحَبَّتِه.[٨٠٨]

هو أمر بما يقضى به العدل،فى التسوية بين عباد الله،فيما يترل عليهم من آيات الله،وفيما يفيضه رسول الله على الناس من بر ورحمة..فالرسول- صلوات الله وسلامه عليه- وإن بدأ بـدعوة أهله إليه،فلأن ذلك الذي يدعوهم إليه هو برّ وضعه الله بين يديه،والأهل والأقربون هـم أولى الناس بهذا البرّ،بعد نفسه،كما في الحديث الشريف:«ابدا بنفسك ثم بمن تعول» ثم إنه إذ كان هذا الخير هو مما لا ينفد أبدا بالعطاء،والإنفاق،بل إنه يزيد على الإنفاق،ويحلو طعمـه كلّما كثرت الأيدى الممدودة إليه- فقد كان على النبيّ أن يسع بهذا الخير الذي بين يديـه النـاس جميعا،قريبهم،وبعيدهم..وأنه إذا بدأ بدعوة أهله إلى هذا الخير،فإن ذلك لا يجعله يقـف عنـد أهله،ولا أن ينتظر حتى يجتمع أهله على هذا الخير،بل إن عليه أن يحتفى بهؤلاء الضيوف الذي سبقوا أهله إلى هذه المائدة التي أعدّها،ودعا الناس إليها..فمن سبق كان أولى الناس بأن يأخذ مكان الصدارة منها،وأن يكون بموضـع لحفـاوة والتكـريم مـن ربّ الدعوة،وصـاحب المائدة..سواء أكانوا من الأقربين،أو الأبعدين..! «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ.أُولئِـكَ الْمُقَرَّبُـونَ» [٨٠٩].

أي بلين جانبك،ولطف خطابك لهم،وتوددك،وتحببك إليهم،وحسن خلقك والإحسان التـام بهم،وقد فعل ﷺ،ذلك كما قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّـا غَلِـيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ} فهـذه أخلاقـه ﷺ،أكمل الأخلاق،التي يحصل بها من المصالح العظيمة،ودفع المضار،ما هو مشاهد،فهل يليـق بمؤمن بالله ورسوله،ويدعي اتباعه والاقتداء بـه،أن يكـون كـلا علـى المسلمين،شـرس الأخلاق،شديد الشكيمة عليهم،غليظ القلب،فظ القول،فظيعه؟ [و] إن رأى منهم معصية،أو

---

[٨٠٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٠٢٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٨٠٩] - التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ١٨٤)

سوء أدب،هجرهم،ومقتهم،وأبغضهم،لا لين عنده،ولا أدب لديه،ولا توفيق،قد حصل من هذه المعاملة،من المفاسد،وتعطيل المصالح ما حصل،ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم،وقد رماه بالنفاق والمداهنة،وقد كمَّل نفسه ورفعها،وأعجب بعمله،فهل هذا إلا من جهله،وتزيين الشيطان وخدعه له،ولهذا قال الله لرسوله:{فَإِنْ عَصَوْكَ} في أمر من الأمور،فلا تتبرأ منهم،ولا تترك معاملتهم،بخفض الجناح،ولين الجانب،بل تبرأ من عملهم،فعظهم عليه وانصحهم،وابذل قدرتك في ردهم عنه،وتوبتهم منه،وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم،أن قوله {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ} للمؤمنين،يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم،ما داموا مؤمنين،فدفع هذا بهذا والله أعلم.[٨١٠]

وقال تعالى:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩] }.

لَقَدْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِكَ مَا يَسْتَحِقُّ المَلاَمَةَ وَالتَّعْنِيفَ،بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ،إِذْ تَخَلَّوْا عَنْكَ حِينَ اشْتِدَادِ الحَرْبِ،وَشَمَّرُوا لِلْهَزِيمَةِ وَالحَرْبِ قَائِمَةٌ،وَمَعَ ذَلِكَ لِنْتَ لَهُمْ،وَعَامَلْتَهُمْ بِالحُسْنَى،لِرَحْمَةٍ أَوْدَعَهَا اللهُ فِي قَلْبِكَ،وَخَصَّكَ بِهَا.وَقَدْ مَدَحَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِحُسْنِ الخُلُقِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ العَزِيزِ.ثُمَّ قَالَ لَوْ كُنْتَ خَشِناً جَافِياً فِي مُعَامَلَتِهِمْ لَتَفَرَّقُوا عَنْكَ،وَلَنَفَرُوا مِنْكَ،وَلَمْ يَسْكُنُوا إِلَيْكَ،وَلَكِنَّ اللهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ،وَأَلانَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأَلُّفاً لِقُلُوبِهِمْ.[٨١١]

«وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» وفى هذا كشف للطبيعة البشرية،وأن الناس إنما يألفون من يتألفهم،ويحسن إليهم،ويلقاهم بالصفح الجميل..وعلى غير هذا من كان حادّ الطبع،شرس الخلق،غليظ القلب،لا يقيل عثرة،ولا يغفر زلة..إنه لن يجد من الناس إلّا المقت والنفور..

وأنه إذا صح لإنسان- وهو غير صحيح- أن يسوّى حسابه مع الناس على هذا الوجه،القائم على الغلظة والشدة،والمنتهى به إلى القطيعة والعزلة- فإنه لا يصح أبدا،ولا يستقيم بحال،لمن

---

[٨١٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٩٩)

[٨١١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

كان بمكان الرياسة والقيادة لأية جماعة من الجماعات،كثر عددهم أو قلّ..فإن الخيط الذي يمسك به كيان الجماعة ويشدّها إليه،هو ما يفيض عليها من قلبه،من رحمة،وحدب،ولين،ولطف،وإلّا تقطعت بينه وبينها الأسباب،ولو كانوا أبناءه وخاصة أهله![812]

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين،تجذب الناس إلى دين الله،وترغبهم فيه،مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص،والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين،وتبغضهم إليه،مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص،فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،فكيف بغيره؟!

أليس من أوجب الواجبات،وأهم المهمات،الاقتداء بأخلاقه الكريمة،ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ،من اللين وحسن الخلق والتأليف،امتثالا لأمر الله،وجذبا لعباد الله لدين الله.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ،ويستغفر لهم في التقصير في حق الله،فيجمع بين العفو والإحسان.[813]

ولو كان فظا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب،ولا تجمعت حوله المشاعر.فالناس في حاجة إلى كنف رحيم،وإلى رعاية فائقة،وإلى بشاشة سمحة،وإلى ود يسعهم،وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ..في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء ..وهكذا كان قلب رسول الله – ﷺ – وهكذا كانت حياته مع الناس.ما غضب لنفسه قط.ولا ضاق صدره بضعفهم البشري.ولا احتجز لنفسه شيئا من أعراض هذه الحياة،بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية.ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم.وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاض عليه – ﷺ – من نفسه الكبيرة الرحيبة.[814]

---

[812] – التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٢٧)

[813] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٤)

[814] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٨٠٦)

____

معاونة الإمام على البر والتقوى:

وقوله رضي الله عنه" فإن أحسنت فأعينوني"،يدل على أن من الواجبات على الرعية في حــق الإمام معاونته على البر والتقوى،وقد قال الله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَــاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢]

والأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية فى القرآن،إذ يوجــب علـــى الناس أن يعين بعضهم بعضا على كل ما ينفع الناس أفرادا وجماعات فى دينهم ودنياهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم.

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد كما تفعله الجماعات اليوم،فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره،ولكن لما نكثوا ذلك العهد صاروا فى حاجة إلى تأليف هذه الجماعات لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامــة هذا الواجب (التعاون على البر والتقوى) .وقلما ترى أحدا الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطا بعهد معك لغرض معين ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالبا.[٨١٥]

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ شِهَابٍ الْعَبْدِيِّ قَالَ:قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَيَّتُهَا الرَّعِيَّةُ إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ حَقًّــا النَّصِيحَةَ بِالْغَيْبِ وَالْمُعَاوَنَةَ عَلَى الْخَيْرِ،وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَأَعَمَّ نَفْعًا مِنْ حِلْــمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ،وَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ».[٨١٦]

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ:إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ حَقًّا النَّصِيحَةَ بِالْغَيْبِ،وَالْمُعَاوَنَةَ عَلَى الْخَيْرِ،إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَلا أَعَمَّ نَفْعًا مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ،إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ جَهْلٍ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَلا أَعَمَّ شَرًّا مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِــهِ أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ،إِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُ بِالْعَافِيَةِ لِمَنْ بَيْنَ ظهرانيه،يؤتى اللَّهُ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ"[٨١٧]

---

[٨١٥] - تفسير المراغي (٦/ ٤٦)

[٨١٦] - الزهد لهناد بن السري (٢/ ٦٠٢) حسن لغيره

الحلم:الأناة وضبط النفس= البغض:عكس الحب وهو الكُرْهُ والمقت

[٨١٧] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢٢٤) حسن لغيره

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«مَنْ يَنْصِفُ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ يُعْطَى الظَّفَرَ فِي أَمْرِهِ،وَالذُّلُّ فِي طَاعَةٍ أَقْرَبُ إِلَى الْبِرِّ مِنَ التَّعَزُّزِ فِي الْمَعْصِيَةِ»[818]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«إِنَّهُ لَا حِلْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ،وَلَا جَهْلَ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ،وَمَنْ يَفْعَلْ بِالْعَفْوِ فِيمَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ تَأْتِهِ الْعَافِيَةُ مِنْ فَوْقِهِ،وَمَنْ يُنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ يُعْطَ الظَّفَرَ فِي أَمْرِهِ،وَالَّذِي فِي الطَّاعَةِ أَقْرَبُ إِلَى الْبِرِّ مِنَ التَّعَزُّزِ فِي الْمَعْصِيَةِ»[819]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ:كَانَ عُمَرُ يَكْتُبُ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ «بِأَنَّ لَكُمْ مَعْشَرَ الْوُلَاةِ حَقًّا فِي الرَّعِيَّةِ وَلَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمَّ نَفْعًا مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ وَإِنَّهُ لَيْسَ جَهْلٌ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمَّ ضَرًّا مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ،وَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبِ الْعَافِيَةَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ يُنْزِلِ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ»[820]

فالواجب على المسلمين أن يعاونوا الإمام على الحكم بشرع الله وإقامة العدل بين الناس،وأداء الأمانات والحقوق إلى أهلها،والأخذ على أيدي المفسدين والجناة،وأما إذا أمرهم بمعاونته على الإثم والعدوان فلا يعاون،بل يجب الإنكار عليه ومحاسبته ومحاكمته،وقد نهى الله تعالى عن التعاون على الإثم والعدوان،فقال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [المائدة:٢]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ:" أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ "،قَالَ:وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟،قَالَ:" أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي،لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي،وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي،فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ،وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ،فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي،وَلَسْتُ مِنْهُمْ،وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي،وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ،وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ،فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ،وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي.يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ،الصَّوْمُ جُنَّةٌ،وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ،وَالصَّلَاةُ قُرْبَانٌ – أَوْ قَالَ:بُرْهَانٌ – يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ،إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ

[818] – اعتلال القلوب للخرائطي (١/ ٣٢)(٤٩) فيه ضعف

[819] – الزهد لهناد بن السري (٢/ ٦٠٢) فيه ضعف

[820] – الزهد لهناد بن السري (٢/ ٦٠٢) فيه انقطاع

النَّارُ،أَوْلَى بِهِ.يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ،النَّاسُ غَادِيَانِ:فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا،وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا " أخرجه أحمد[٨٢١]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،وَأَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَا:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُقَرِّبُونَ شِرَارَ النَّاسِ،وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا،فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَا يَكُونَنَّ عَرِيفًا،وَلَا شُرْطِيًّا،وَلَا جَابِيًا،وَلَا خَازِنًا» رواه ابن حبان[٨٢٢]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا بِبَاطِلٍ لِيَدْحَضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ،وَمَنْ أَكَلَ دِرْهَمًا مِنْ رِبًا فَهُوَ مِثْلُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً،وَمَنْ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ» رواه الطبراني في الأوسط.[٨٢٣]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ أَعَانَ بِبَاطِلٍ لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ،وَمَنْ مَشَى إِلَى سُلْطَانِ اللهِ لِيُذِلَّهُ أَذَلَّهُ اللهُ مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ مِنَ الْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،سُلْطَانُ اللهِ كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ،وَمَنْ تَوَلَّى مِنْ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَوْلَى بِذَلِكَ وَأَعْلَمُ مِنْهُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَجَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ،وَمَنْ تَرَكَ حَوَائِجَ النَّاسِ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يَقْضِيَ حَوَائِجَهُمْ وَيُؤَدِّيَ إِلَيْهِمْ بِحَقِّهِمْ،وَمَنْ أَكَلَ دِرْهَمَ رِبًا فَهُوَ ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً،وَمَنْ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»[٨٢٤]

وعن ابنِ عَبَّاسٍ ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:" مَنِ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ وَأَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ،فَقَدْ خَانَ اللهَ ،وَرَسُولَهُ ،وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ "[٨٢٥]

---

[٨٢١] - المسند الجامع (٤/ ٣٥٠)(٢٩٢٦) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٢/ ٣٣٢)(١٤٤٤١) صحيح

[٨٢٢] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٤٦)(٤٥٨٦) حسن

السَّفَه:الخفّة والطيشُ،وسَفِه رأْيه إذا كان مَضْطربا لا استِقامَةَ له،والسفيه:الجاهلُ =العريف:القيم الذي يتولى مسئولية جماعة من الناس

[٨٢٣] - المعجم الأوسط (٣/ ٢١١)(٢٩٤٤) ومسند الشاميين للطبراني (١/ ٦١)(٦٣) حسن لغيره

[٨٢٤] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ١١٤)(١١٢١٦) وترتيب الأمالي الخميسية للشجري (٢/ ٣١٧)(٢٥٨٦) ضعيف

[٨٢٥] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٠١)(٢٠٣٦٤) حسن

نصح الولاة ومحاسبتهم وتقويمهم:

وقوله رضي الله عنه:"وإن أسأت فقوموني" من التقويم،يقال قومه أي عدله،أي إذا أسأت فعدلوني وردوني إلى الحق،وهذا يدل على أن الأمة يجب عليها أن تقوم الإمام والولاة،وتردهم إلى الحق،وتمنعهم من الظلم،قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَأَمَّا قَوْلُهُ:" فَإِنَ اسْتَقَمْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ زُغْتُ فَقَوِّمُونِي "،فَهَذَا مِنْ كَمَالِ عَدْلِهِ وَتَقْوَاهُ،وَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ إِمَامٍ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ فِي ذَلِكَ،وَوَاجِبٌ عَلَى الرَّعِيَّةِ أَنْ تُعَامِلَ الْأَئِمَّةَ بِذَلِكَ،فَإِنِ اسْتَقَامَ الْإِمَامُ أَعَانُوهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى،وَإِنْ زَاغَ وَأَخْطَأَ بَيَّنُوا لَهُ الصَّوَابَ وَدَلُّوهُ عَلَيْهِ،وَإِنْ تَعَمَّدَ ظُلْمًا مَنَعُوهُ مِنْهُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ،فَإِذَا كَانَ مُنْقَادًا لِلْحَقِّ،كَأَبِي بَكْرٍ،فَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي تَرْكِ ذَلِكَ،وَإِنْ كَانَ لَا يُمْكِنُ دَفْعُ الظُّلْمِ إِلَّا بِمَا هُوَ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنْهُ،لَمْ يَدْفَعُوا الشَّرَّ الْقَلِيلَ بِالشَّرِّ الْكَثِيرِ.

وَأَمَّا قَوْلُ الرَّافِضِيِّ:" وَمِنْ شَأْنِ الْإِمَامِ تَكْمِيلُ الرَّعِيَّةِ،فَكَيْفَ يَطْلُبُ مِنْهُمُ التَّكْمِيلَ؟ "

عَنْهُ أَجْوِبَةٌ:أَحَدُهَا:أَنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ الْإِمَامَ يُكَمِّلُهُمْ وَهُمْ لَا يُكَمِّلُونَهُ أَيْضًا،بَلِ الْإِمَامُ وَالرَّعِيَّةُ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى،لَا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ،بِمَنْزِلَةِ أَمِيرِ الْجَيْشِ وَالْقَافِلَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْحَجِّ،وَالدِّينُ قَدْ عُرِفَ بِالرَّسُولِ،فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَ الْإِمَامِ دِينٌ يَنْفَرِدُ بِهِ،وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي الْجُزْئِيَّاتِ،فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ فِيهَا بَيِّنًا أَمَرَ بِهِ،وَإِنْ كَانَ مُتَبَيِّنًا لِلْإِمَامِ دُونَهُمْ بَيَّنَهُ لَهُمْ،وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،وَإِنْ كَانَ مُشْتَبِهًا عَلَيْهِمُ اشْتَوَرُوا فِيهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ،وَإِنْ تَبَيَّنَ لِأَحَدٍ مِنَ الرَّعِيَّةِ دُونَ الْإِمَامِ بَيَّنَهُ لَهُ،وَإِنِ اخْتَلَفَ الِاجْتِهَادُ،فَالْإِمَامُ هُوَ الْمُتَّبَعُ فِي اجْتِهَادِهِ،إِذْ لَا بُدَّ مِنَ التَّرْجِيحِ،وَالْعَكْسُ مُمْتَنِعٌ."[826]

وعَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عِيسَى قَالَ:أَتَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،مَشْرُبَةَ بَنِي حَارِثَةَ،فَوَجَدَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ،فَقَالَ عُمَرُ:" كَيْفَ تَرَانِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ:أَرَاكَ وَاللَّهِ كَمَا أُحِبُّ،وَكَمَا يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّ لَكَ الْخَيْرَ،أَرَاكَ قَوِيًّا عَلَى جَمْعِ الْمَالِ،عَفِيفًا عَنْهُ،عَادِلًا فِي قَسْمِهِ،وَلَوْ مِلْتَ عَدَلْنَاكَ،كَمَا يُعْدَلُ السَّهْمُ فِي الثِّقَافِ،فَقَالَ عُمَرُ:هَاهْ،فَقَالَ:لَوْ مِلْتَ عَدَلْنَاكَ،كَمَا يُعْدَلُ السَّهْمُ فِي الثِّقَافِ،فَقَالَ عُمَرُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي فِي قَوْمٍ إِذَا مِلْتُ عَدَلُونِي " أخرجه ابن المبارك في الزهد[827]

---

[826] – منهاج السنة النبوية (٨/ ٢٧٢)

[827] – الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ١٧٩)(٥١٢) فيه انقطاع – المشربة:الحجرة المرتفعة

وعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ :دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى جِذْعٍ فِي دَارِهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فَدَنَوْت مِنْهُ،فَقُلْتُ :مَا الَّذِي أَهَمَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَقَالَ :هَكَذَا بِيَدِهِ وَأَشَارَ بِهَا،قَالَ :قُلْتُ :ما الَّذِي يُهِمُّك وَاللهِ لَوْ رَأَيْنَا مِنْك أَمْرًا نُنْكِرُهُ لَقَوَّمْنَاك،قَالَ :آللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ،لَوْ رَأَيْتُمْ مِنِّي أَمْرًا تُنْكِرُونَهُ لَقَوَّمْتُمُوهُ،فَقُلْتُ :آللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ،لَوْ رَأَيْنَا مِنْك أَمْرًا نُنْكِرُهُ لَقَوَّمْنَاك،قَالَ :فَفَرِحَ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا،وَقَالَ :الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِيكُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مَنِ الَّذِي إِذَا رَأَى مِنِّي أَمْرًا يُنْكِرُهُ قَوَّمَنِي.[828]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:«إِنَّهُ سَيَكُونُ أُمَرَاءُ يَدعُونَ مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَ هَذِهِ،فَإِنْ تَرَكْتُمُوهَا جَعَلُوهَا مِثْلَ هَذِهِ،فَإِنْ تَرَكْتُمُوهَا جَاءُوا بِالطَّامَّةِ الْكُبْرَى» أخرجه الطبراني في الكبير[829]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ،قَالَ:«يَجِيءُ قَوْمٌ يَتْرُكُونَ مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَ هَذَا» - يَعْنِي مَفْصِلَ الْأُصْبُعِ - «فَإِنْ تَرَكْتُمُوهُمْ جَاءُوا بِالطَّامَّةِ الْكُبْرَى ،وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَهْلُ كِتَابٍ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ مَا يَتْرُكُونَ السُّنَّةُ ،وَإِنَّ آخِرَ مَا يَتْرُكُونَ الصَّلَاةُ ،وَلَوْلَا أَنَّهُمْ يَسْتَحْيُونَ لَتَرَكُوا الصَّلَاةَ»[830]

وعَنْ عُلَيٍّ،،قَالَ:قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ،عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو:أَبْصِرْ مَا تَقُولُ،قَالَ:أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ،إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا:إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ،وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ،وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ،وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ:وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ" أخرجه مسلم[831]،فوصف خصلة منع الملوك من الظلم بالحسن والجمال.

وتقويم الإمام والأمراء له عدة طرق ووسائل منها:النصيحة والتواصي بالحق والتواصي بالصبر،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وقد قال الله تعالى:{وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)}(سورة العصر)

---

[828] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ١٥١)(٣٥٦٢٩) صحيح

[829] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٩٨)(٩٤٩٧) حسن

[830] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٠٢)(١٢٢) صحيح

[831] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢٢)٣٥ - (٢٨٩٨)

فهؤلاء هم الإنسان الكريم عند الله،الذي يلقاه ربه بالرضا والرضوان..إنهم هم الـــذين آمنـــوا بالله،وعرفوا ما لله سبحانه وتعالى،من كمال وجلال..فاستمسكوا بـــالحق،وهو الإيمان،ومـــا يدعو إليه،وما ينهى عنه..ثم تواصوا به فيمـــا بينهم،فنصـــح بعضـــهم لـــبعض بالاســـتقامة عليه،والتمسك به،وفى هذا ما يقوّى مـــن جبهـــة الحـــق،ويكثّر مـــن أتباعـــه.وفى قولـــه تعالى:«وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ» – إشارة إلى أن طريق الإيمان،والاستقامة على شريعته لـــيس أمـــرا هينا،فإن ذلك إنما يحتاج إلى معاناة وصبر على مغالبة الشهوات،وقهر دواعى الأهواء،ووساوس الشيطان..فطريق الحق طريق محفوف بالمكاره،والصبر هو زاد الذين يسلكون طريقـــه،ويبلغون به غايات الفوز والفلاح..[٨٣٢]

وخلاصة أمرهم- أنهم باعوا الفاني الخسيس،واشتروا البـــاقي النفيس،واســـتبدلوا الباقيـــات الصالحات بالغاديات الرائحات،فيالها من صفقة ما أربحها،ومنقبة جامعة للخير ما أوضحها.

(وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ) أي وأوصى بعضهم بعضا بالأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره،ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره،وهو الخير كله من إيمان بالله عز وجل واتباع لكتبه ورسله فى كـــل عقد وعمل.(وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ) أي وأوصى بعضهم بعضا بالصبر عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية،وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها،وعلى ما يبتلى الله تعالى به عباده من المصايب ويتلقاها بالرضا ظاهرا وباطنا،فلا بد للنجاة من الخسران أن يعرف النـــاس الحق ويلزموه أنفسهم ويمكّنوه من قلوبهم،ثم يحمل بعضهم بعضا على سلوك طريقه،وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات التي لا قرار للنفوس عليها،ولا دليل يهدى إليها.[٨٣٣]

أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمـــة المســـلمة – أو الجماعـــة المسلمة – ذات الكيان الخاص،والرابطة المميزة،والوجهة الموحدة.الجماعة التي تشعر بكيانهـــا كما تشعر بواجبها.والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصـــالح،الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح فتتواصى فيما بينها بما يعينـــها على النهوض بالأمانة الكبرى.فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صـــورة

---

[٨٣٢] – التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٦٦٩)

[٨٣٣] – تفسير المراغي (٣٠/ ٢٣٥)

الأمة – أو الجماعة – المتضامة المتضامنة.الأمة الخيرة.الواعية.القيمـــة في الأرض علـــى الحـــق والعدل والخير ..وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة ..وهكذا يريد الإسلام أمة الإســـلام ..هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير،متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن.

والتواصي بالحق ضرورة.فالنهوض بالحق عسير.والمعوقات عن الحق كثيرة:هوى النفس،ومنطق المصلحة،وتصورات البيئة.وطغيان الطغاة،وظلم الظلمة،وجور الجائرين ..والتواصـــي تـــذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية،والأخوة في العبء والأمانة.فهو مضاعفة لمجمـــوع الاتجاهات الفردية،إذ تتفاعل معا فتتضاعف.تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله ..وهذا الدين – وهو الحـــق – لا يقـــوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة.فالقيام على الإيمان والعمل الصالح،وحراسة الحق والعدل،من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة.ولا بد من الصبر.لا بد من الصبر على جهاد النفس،وجهـــاد الغير.والصبر على الأذى والمشقة.والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر.والصبر علـــى طـــول الطريق وبطء المراحل،وانطماس المعالم،وبعد النهاية! والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة،بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف،ووحدة المتجه،وتساند الجميع،وتزودهم بالحب والعزم والإصـــرار ..إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها،ولا تـــبرز إلا من خلالها ..وإلا فهو الخسران والضياع.[٨٣٤]

وقال تعالى: { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَـــى بِاللَّـــهِ حَسِيبًا} [الأحزاب:٣٩].

فالذين خلوا من قبل،هم أولئك الذين يبلغون رسالات الله كما بلّغهم الله إياها،دون التفـــات إلى أحد،ودون نظر إلى ما يكون من الناس إزاء هذه الرسالات المبلغة إليهم،من استجابة لها أو

---

[٨٣٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٩٣٠)

إعراض عنها..إنهم يبلغون رسالات الله على وجهها،ولا يعملون حسابا لما يلقاهم به السفهاء والجهال من لوم،أو سفه،وإنما همهم كلّه هو حسابهم عند الله،وما يكون لهم من جزاء..[٨٣٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا،وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا،يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا،وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ،وَيَسْخَطُ لَكُمْ قِيلَ،وَقَالَ:وَإِضَاعَةَ الْمَالِ،وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»[٨٣٦]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ:"أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ،وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ،وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي،وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي،وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ،وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا،وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا،وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ،وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ:لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ،فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ " رواه أحمد[٨٣٧]

---

[٨٣٥] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٧٢٥)

[٨٣٦] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٥٨)(٤٤٢) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٨/ ١٨٣)(٣٣٨٨) ومستخرج أبي عوانة (٤/ ١٦٥)(٦٣٨٧) صحيح

[٨٣٧] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٣٢٧)(٢١٤١٥) صحيح

(بِسَبْعٍ) أَيْ:بِسَبْعِ خِلَالٍ (أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ)،أَيْ:وَالْقُرْبِ مِنْ حَالِهِمْ،أَوِ التَّقَرُّبِ مِنْ مَآلِهِمْ (وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي) أَيْ:فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ (وَلَا أَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي)،أَيْ:فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ الدَّنِيَّةِ (وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ)،أَيْ:وَلَّتْ بِأَنْ غَابَتْ أَوْ بَعُدَتْ،وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا،وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ:" «صِلُوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ» ".وَقَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْ:وَإِنْ قُطِعَتْ عَلَى مَا وَرَدَ:«صِلْ مَنْ قَطَعَكَ»،وَأَسْنَدَ الْإِدْبَارَ إِلَى الرَّحِمِ مَجَازًا لِأَنَّهُ لِصَاحِبِهَا (وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ) أَيْ:لَا أَطْلُبَ (أَحَدًا شَيْئًا)،وَمِنْ دُعَاءِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ:اللَّهُمَّ كَمَا صُنْتَ وَجْهِي عَنْ سُجُودِ غَيْرِكَ فَصُنْ وَجْهِي عَنْ مَسْأَلَةِ غَيْرِكَ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَحَدًا عَلَى عُمُومِهِ شَاءَ عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ أَرْبَابِ الْكَمَالِ إِلَهِي كَفَى عِلْمُكَ بِالْحَالِ عَنِ الْمَقَالِ وَكَرَمُكَ عَنِ السُّؤَالِ وَهُوَ الْمَقَامُ الْجَلِيلُ الْمَأْخُوذُ مِنْ حَالِ الْخَلِيلِ حَيْثُ قَالَ لَهُ جِبْرَائِيلُ:أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ:أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا.قَالَ فَسَلْ رَبَّكَ.قَالَ:حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْجَمِيلِ:{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:١٧٣] وَفِي الْحِكَمِ لِابْنِ عَطَاءِ اللَّهِ:رُبَّمَا اسْتَحْيَى الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ اكْتِفَاءً بِمَشِيئَتِهِ فَكَيْفَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ؟ (وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ) أَيْ:أَتَكَلَّمَ بِهِ (وَإِنْ كَانَ مُرًّا)،أَيْ:عَلَى السَّامِعِ أَوْ صَعْبًا عَلَيَّ (وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافَ) أَيْ:ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا (فِي اللَّهِ) أَيْ:فِي حَقِّهِ أَوْ فِي سَبِيلِهِ وَلِأَجْلِهِ (لَوْمَةَ لَائِمٍ)،مَلَامَةَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ (وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)،أَيْ:لِلِاسْتِعَانَةِ عَلَى الطَّاعَةِ وَإِصَابَةِ الْمُصِيبَةِ،وَالِاسْتِعَانَةِ عَلَى دَفْعِ الْمُصِيبَةِ خُصُوصًا الْعُجْبُ وَالْغُرُورُ وَالْمَخِيلَةُ (فَإِنَّهُنَّ) أَيْ:هَذِهِ الْكَلِمَاتُ (مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ) .أَيْ:مِنْ جُمْلَةِ كَنْزٍ مَعْنَوِيٍّ مَوْضُوعٍ تَحْتَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ،أَوْ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ لِأَنَّ الْعَرْشَ سَقْفُهَا،وَأَبْعَدَ مَنْ قَالَ

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيد بْنِ عُبَادَةَ،عَنْ أَبِيه،عَنْ جَدِّه،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ الله ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَة فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَالْمَنْشَط وَالْمَكْرَه،وَعَلَى أَثَرَة عَلَيْنَا،وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ،وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا،لَا نَخَافُ فِي الله لَوْمَةَ لَائِمٍ» مسلم[838]

فَإِنَّهُنَّ أَي:الْخِصَالُ السَّبْعُ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ إِذْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ،بَلْ وَرَدَ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ وَأَخْرَجَهُ السِّتَّةُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،وَأَحْمَدُ وَالْبَزَّارُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،وَالطَّبَرَانِيُّ عَنْ مُعَاذٍ،وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي ذَرٍّ أَيْضًا مَرْفُوعًا:" «قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه؛فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّة» ".وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَاهُ فَقِيلَ:سَمَّى هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَنْزًا؛لِأَنَّهَا كَالْكَنْزِ فِي نَفَاسَتِه وَصِيَانَتِه مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ،أَوْ أَنَّهَا مِنْ ذَخَائِرِ الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ مُحَصِّلَاتِ نَفَائِسِ الْجَنَّةِ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ:الْمَعْنَى أَنَّ قَوْلَهَا يَحْصُلُ ثَوَابًا نَفِيسًا يُدَّخَرُ لِصَاحِبِه فِي الْجَنَّةِ انْتَهَى.وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ الْعَاجِلَةِ:فَمَنْ قَامَ بِهَا وَأَدْرَكَ مَعْنَاهَا وَاسْتَمَرَّ عَلَى مَبْنَاهَا،فَإِنَّهُ ظَفِرَ بِكَنْزٍ عَظِيمٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى كُنُوزٍ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهَا وَمُنْتَهَاهَا،فَقَدْ رَوَى الْبَزَّارُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:«كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُهَا،فَقَالَ:" تَدْرِي مَا تَفْسِيرُهَا؟ " قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.قَالَ:" لَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّه إِلَّا بِعِصْمَةِ اللَّه،وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّه إِلَّا بِعَوْنِ اللَّه» ".قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:هِيَ كَلِمَةُ اسْتِسْلَامٍ وَتَفْوِيضٍ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُ حِيلَةٌ فِي دَفْعِ شَرٍّ وَلَا قُوَّةٌ فِي جَلْبِ خَيْرٍ إِلَّا بِإِرَادَةِ اللَّه تَعَالَى انْتَهَى،فَيَكُونُ صَاحِبُهَا فِي مُلْكٍ جَسِيمٍ وَكَنْزٍ عَظِيمٍ حَالَ كَوْنِه حَاضِرًا بِقَلْبِه مُشَاهِدًا فِعْلَ رَبِّه بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِه،فَصَحَّ مَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ فِي قَوْلِه تَعَالَى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه جَنَّتَانِ} [الرحمن:٤٦] جَنَّةٌ فِي الدُّنْيَا وَجَنَّةٌ فِي الْعُقْبَى،وَقَالَ بَعْضُ الصُّوفِيَّة فِي مَعْنَى قَوْلِ رَابِعَةَ الْعَدَوِيَّة:اسْتِغْفَارُنَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ كَثِيرٍ أَرَادَتْ أَنَّ الِاعْتِذَارَ مِنَ الذَّنْبِ مُشْتَمِلٌ عَلَى ذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَكُونَ كَبِيرَةً مِنْ دَعْوَى الْوُجُودِ الْأَصْلِيِّ،وَدَعْوَى الْفِعْلِ الْحَقِيقِيِّ،وَدَعْوَى الِاقْتِدَارِ الِاسْتِقْلَالِيِّ،وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيمَاءً إِلَى نَفْيِ مَا سِوَى اللَّه لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٩٢)

[838] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤١ - (١٧٠٩)

بَايَعْنَا) أَيْ عَاهَدْنَا نَحْنُ (رَسُولَ اللَّه ﷺعَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ) بِضَمٍّ فَسُكُونٍ فِيهِمَا،وَفِي الْقَامُوسِ:الْعُسْرُ بِالضَّمِّ وَبِالضَّمَّتَيْنِ وَبِالتَّحْرِيكِ ضِدُّ الْيُسْرِ وَهُوَ بِضَمٍّ وَبِضَمَّتَيْنِ الْيَسَارُ،وَبِالتَّحْرِيكِ السَّهْلُ (وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ) بِفَتْحَتَيْنِ فِيهِمَا فَهُمَا مَصْدَرَانِ مِيمِيَّانِ أَوِ اسْمَا زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ،قَالَ الْقَاضِي:أَيْ عَاهَدْنَاهُ بِالْتِزَامِ السَّمْعِ فِي حَالَتَيِ الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَتَارَتَيِ الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ،وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِصِيغَةِ الْمُفَاعَلَةِ لِلْمُبَالَغَةِ أَوْ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّهُ إِلْتَزَمَ لَهُمْ أَيْضًا بِالْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَالشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْحِسَابِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا إِلْتَزَمُوا،وَالْمَنْشَطُ وَالْمَكْرَهُ مَفْعَلَانِ مِنَ النَّشَاطِ وَالْكَرَاهَةِ لِلْمَحَلِّ أَيْ فِيمَا فِيهِ نَشَاطُهُمْ وَكَرَاهَتُهُمْ أَوِ الزَّمَانِ أَيْ فِي زَمَانَيِ انْشِرَاحِ صُدُورِهِمْ وَطِيبِ قُلُوبِهِمْ وَمَا يُضَادُّ ذَلِكَ (وَعَلَى أَثَرَةٍ) بِفَتْحَتَيْنِ اسْمٌ مِنْ " أَثَرَ " بِمَعْنَى اخْتَارَ أَيْ عَلَى اخْتِيَارِ شَخْصٍ عَلَيْنَا بِأَنْ نُؤْثِرَهُ عَلَى أَنْفُسِنَا كَذَا قِيلَ وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَاهُ عَلَى الصَّبْرِ إِيثَارُ الْأُمَرَاءِ أَنْفُسَهُمْ عَلَيْنَا وَحَاصِلُهُ أَنَّ (عَلَى أَثَرَةٍ) لَيْسَتْ بِصِلَةٍ لِلْمُبَالَغَةِ بَلْ مُتَعَلِّقٍ مُقَدَّرٍ أَيْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ نَصْبِرَ عَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَفِي النِّهَايَةِ:الْأَثَرَةُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَالثَّاءِ اسْمٌ مِنَ الْإِيثَارِ أَيْ يَسْتَأْثِرُ عَلَيْكُمْ فَيُفَضِّلُ غَيْرَكُمْ فِي إِعْطَاءِ نَصِيبِه مِنَ الْفَيْءِ،قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:الْأَثَرَةُ الِاسْتِئْثَارُ وَالِاخْتِصَاصُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا أَيِ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اخْتُصَّ الْأُمَرَاءُ بِالدُّنْيَا عَلَيْكُمْ وَلَمْ يُوصِلُوكُمْ حَقَّكُمْ مِمَّا عِنْدَهُمْ (وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ) أَيْ لَا نَطْلُبُ الْإِمَارَةَ وَلَا نَعْزِلُ الْأَمِيرَ مِنَّا وَلَا نُحَارِبُهُ وَالْمُرَادُ بِالْأَهْلِ مَنْ جَعَلَهُ الْأَمِيرُ نَائِبًا عَنْهُ وَهُوَ كَالْبَيَانِ وَالتَّقْرِيرِ لِلسَّابِقِ؛لِأَنَّ مَعْنَى عَدَمِ الْمُنَازَعَةِ هُوَ الصَّبْرُ عَلَى الْأَثَرَةِ (وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا) أَيْ وَعِنْدَ مَنْ كُنَّا (لَا نَخَافُ)

اسْتِئْنَافٌ أَوْ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ نَقُولُ:أَيْ غَيْرَ خَائِفِينَ (فِي اللَّهِ) أَيْ لِأَجْلِهِ أَوْ فِيمَا فِيهِ رِضَاهُ (لَوْمَةَ لَائِمٍ) أَيْ مَلَامَةَ مُلِيمٍ وَأَذِيَّةَ لَئِيمٍ،قَالَ النَّوَوِيُّ:أَيْ نَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ عَلَى الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ،لَا نُدَاهِنُ أَحَدًا وَلَا نَخَافُ وَلَا نَلْتَفِتُ إِلَى لَائِمَةٍ (وَفِي رِوَايَةٍ:وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا) أَيْ تُبْصِرُوا وَتَعْلَمُوا فِي الْأُمَرَاءِ (كُفْرًا بَوَاحًا) بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ بَعْدَهُ وَاوٌ كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسَخِ الْمَوْجُودَةِ عِنْدَنَا لِلْمِشْكَاةِ وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْقَامُوسِ وَالنِّهَايَةِ أَيْ كُفْرًا ظَاهِرًا صَرِيحًا فَقَوْلُهُ:إِلَّا أَنْ تَرَوْا.حِكَايَةُ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَالْقَرَائِنُ السَّابِقَةُ مَعْنًى تَلَفَّظَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺوَقَوْلُهُ (عِنْدَكُمْ) خَبَرٌ مُقَدَّمٌ وَقَوْلُهُ (مِنَ اللَّهِ) مُتَعَلِّقٌ بِالظَّرْفِ أَوْ حَالٌ مِنَ الْمُسْتَتِرِ فِي الظَّرْفِ (مِنْهُ) أَيْ فِي ظُهُورِ الْكُفْرِ (بُرْهَانٌ) أَيْ دَلِيلٌ وَبَيَانٌ مِنْ حَدِيثٍ أَوْ قُرْآنٍ،قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ بُرْهَانٌ حَاصِلٌ عِنْدَكُمْ كَائِنًا مِنَ اللَّهِ،أَيْ مِنْ دِينِ اللَّهِ.اهـــ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ حِينَئِذٍ تَجُوزُ الْمُنَازَعَةُ بَلْ يَجِبُ عَدَمُ الْمُطَاوَعَةِ،قَالَ النَّوَوِيُّ:بَوَاحًا بِالْوَاوِ فِي أَكْثَرِ النُّسَخِ،وَفِي بَعْضِهَا بِالرَّاءِ يُقَالُ:بَاحَ الشَّيْءُ إِذْ ظَهَرَ بَوَاحًا وَالْبَوَاحُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ أَمْرًا بَوَاحًا وَبَرَاحًا بِمَعْنَاهُ مِنَ الْأَرْضِ وَالْبَرَاحِ وَهِيَ الْبَارِزَةُ وَالْمُرَادُ بِالْكُفْرِ هُنَا الْمَعَاصِي،وَالْمَعْنَى لَا تُنَازِعُوا وُلَاةَ الْأُمُورِ فِي وِلَايَتِهِمْ وَلَا تَعْتَرِضُوا عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ تَرَوْا مِنْهُمْ مُنْكَرًا مُحَقَّقًا تَعْلَمُونَهُ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَأَنْكِرُوهُ عَلَيْهِمْ،وَقُومُوا بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ،وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَقِتَالُهُمْ فَمُحَرَّمٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانُوا فَسَقَةً ظَالِمِينَ وَأَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ السُّلْطَانَ لَا يَنْعَزِلُ بِالْفِسْقِ لِتَهَيُّجِ الْفِتَنِ فِي عَزْلِهِ وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ وَتَفْرِيقِ ذَاتِ الْبَيْنِ،فَتَكُونُ الْمَفْسَدَةُ فِي عَزْلِهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي بَقَائِهِ وَلَا تَنْعَقِدُ إِمَامَةُ الْفَاسِقِ ابْتِدَاءً،وَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَنْعَقِدُ لِكَافِرٍ وَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ انْعَزَلَ وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَةَ الصَّلَوَاتِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهَا وَكَذَا الْبِدْعَةُ،قَالَ الْقَاضِي:فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَتَغْيِيرٌ فِي الشَّرْعِ أَوْ بِدْعَةٌ سَقَطَتْ إِطَاعَتُهُ وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ خَلْعُهُ وَنَصْبُ إِمَامٍ عَادِلٍ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَجِبُ فِي الْمُبْتَدِعِ إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ وَإِلَّا فَيُهَاجِرُ الْمُسْلِمُ عَنْ أَرْضِهِ إِلَى غَيْرِهَا وَيَفِرُّ بِدِينِهِ.اهـــ وَفِيهِ أَبْحَاثٌ،أَمَّا أَوَّلًا،فَقَوْلُهُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ مُسْتَدْرَكٌ مُسْتَغْنًى عَنْهُ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِ (كُفْرًا) كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ وَأَمَا ثَانِيًا فَقَوْلُهُ (الْمُرَادُ بِالْكُفْرِ هُنَا الْمَعَاصِي) مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الْكُفْرَ عَلَى بَابِهِ وَالِاسْتِثْنَاءُ عَلَى صَرَافَتِهِ بِخِلَافِ مَا إِذَا أُرِيدَ الْمَعَاصِي فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ الِاسْتِثْنَاءُ الْمُتَّصِلُ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ إِذْ لَا تَجُوزُ مُنَازَعَةُ الْأَمْرِ مِنْ أَهْلِهِ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِ كَمَا فُهِمَ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَبَيَانِهِ،وَأَمَا ثَالِثًا فَقَوْلُهُ (لَا تَنْعَقِدُ إِمَامَةُ الْفَاسِقِ) فَإِنَّهُ يُشْكِلُ بِسَلْطَنَةِ الْمُتَسَلْطِنِينَ الظَّاهِرِ عَلَيْهِمْ حَالُ التَّوْلِيَةِ أَنَّهُمْ مِنَ الْفَاسِقِينَ،وَفِي الْقَوْلِ بِعَدَمِ انْعِقَادِ إِمَامَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ حَرَجٌ عَظِيمٌ فِي الدِّينِ حَيْثُ يَلْزَمُ مِنْهُ عَدَمُ صِحَّةِ الْجُمُعَةِ وَوِلَايَةِ الْقُضَاةِ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقَضَايَا اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ:مُرَادُهُ بِعَدَمِ الِانْعِقَادِ حَالَةُ الِاخْتِيَارِ لَكِنَّ الْمُرَادَ لَا يَدْفَعُ الْإِيرَادَ،وَفِي شَرْحِ الْعَقَائِدِ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ نَصْبَ الْإِمَامِ وَاجِبٌ؛لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ كَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ وَإِقَامَةِ حُدُودِهِمْ وَسَدِّ ثُغُورِهِمْ وَتَجْهِيزِ جُيُوشِهِمْ وَأَخْذِ صَدَقَاتِهِمْ وَقَهْرِ الْمُتَغَلِّبَةِ وَالْمُتَلَصِّصَةِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَإِقَامَةِ الْجُمُعَةِ وَالْأَعْيَادِ وَتَزْوِيجِ الصَّغِيرِ وَالصَّغِيرَةِ اللَّذَيْنِ لَا أَوْلِيَاءَ لَهُمَا وَقِسْمَةِ الْغَنَائِمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَتَوَلَّاهَا آحَادُ الْأُمَّةِ ثُمَّ قَالَ:وَلَا يَنْعَزِلُ الْإِمَامُ بِالْفِسْقِ؛لِأَنَّ الْعِصْمَةَ لَيْسَتْ بِشَرْطٍ لِلْإِمَامَةِ ابْتِدَاءً فَبَقَاءٌ أَوْلَى،وَعَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ الْإِمَامَ يَنْعَزِلُ بِالْفِسْقِ وَكَذَا كُلُّ قَاضٍ وَأَمِيرٍ وَأَصْلُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْفَاسِقَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْوِلَايَةِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ؛لِأَنَّهُ لَا يَنْظُرُ لِنَفْسِهِ فَكَيْفَ يَنْظُرُ لِغَيْرِهِ.وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ:هُوَ مِنْ أَهْلِ الْوِلَايَةِ حَتَّى يَصِحَّ لِلْأَبِ الْفَاسِقِ تَزْوِيجُ ابْنَتِهِ الصَّغِيرَةِ،وَالْمَسْطُورُ فِي كُتُبِ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّ الْقَاضِيَ يَنْعَزِلُ بِالْفِسْقِ بِخِلَافِ الْإِمَامِ،وَالْفَرْقُ أَنَّ فِي انْعِزَالِهِ وَوُجُوبِ نَصْبِ غَيْرِهِ إِثَارَةَ الْفِتْنَةِ لِمَا لَهُ مِنَ الشَّوْكَةِ بِخِلَافِ الْقَاضِي" مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٩٣)

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامت،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّه ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَه،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا،لاَ نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ»[٨٣٩]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ:يَا رَسُولَ الله،ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ،يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ،وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ،قَالَ:" أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً،وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً،وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً،وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً،وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ،وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ،وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ،قَالُوا:يَا رَسُولَ الله،أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ:«أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»رواه مسلم[٨٤٠]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ،أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ» رواه أبو داود والترمذي[٨٤١]

---

[٨٣٩] - صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧١٩٩)

قَوْلُهُ:«وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا» أَيْ:يَسْتَأْثِرُ عَلَيْنَا،فَيُفَضِّلُ غَيْرُكُمْ نَفْسَهُ عَلَيْكُمْ،وَقَوْلُهُ:«بَوَاحًا» أَيْ:جِهَارًا،يُقَالُ:بَاحَ بِالسِّرِّ،وَأَبَاحَهُ:إِذَا جَهَرَ بِهِ،وَقَوْلُهُ:«عِنْدَكُمْ مِن اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» أَيْ:آيَةٌ أَوْ سُنَّةٌ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ"

[٨٤٠] - صحيح مسلم (٢/ ٦٩٧)٥٣ - (١٠٠٦)

[ش (الدثور) جمع دثر وهو المال الكثير (بكل تسبيحة صدقة ٠٠ الخ) قال القاضي يحتمل تسميتها صدقة أن لها أجرا كما للصدقة أجر وإن هذه الطاعات تماثل الصدقات في الأجور وسماها صدقة على طريق المقابلة وتجنيس الكلام وقيل معناه أنها صدقة على نفسه (وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة) فيه إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة في كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولهذا نكره والثواب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منه في التسبيح والتحميد والتهليل لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وقد يتعين ولا يتصور وقوعه نفلا والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل (وفي بضع أحدكم) هو بضم الباء ويطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصح إرادته هنا وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به أو طلب ولد صالح أو إعفاف نفسه أو إعفاف زوجته ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة (أجرا) ضبطناه أجرا بالنصب والرفع وهما ظاهران]

[٨٤١] - سنن أبي داود (٤/ ١٢٤)(٤٣٤٤) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٢٩)(٤٠١١) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٧١)(٢١٧٤) صحيح لغيره

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَى،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّــهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ،فَلَمَّا رَمَى الْجَمْرَةَ الثَّانِيَةَ،سَأَلَهُ،فَسَكَتَ عَنْــهُ،فَلَمَّا رَمَــى جَمْــرَةَ الْعَقَبَةِ،وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ لِيَرْكَبَ،قَالَ:«أَيْنَ السَّائِلُ؟» قَالَ:أَنَا،يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:«كَلِمَــةُ حَقٍّ عِنْدَ ذِي سُلْطَانٍ جَائِرٍ» رواه ابن ماجه[٨٤٢]

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ» رواه الحاكم[٨٤٣]

وعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" مَثَلُ القَائِمِ عَلَــى حُــدُودِ اللَّــهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا،كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ،فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْــفَلَهَا،فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ،فَقَالُوا:لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا،فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا،وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا،وَنَجَوْا جَمِيعًا " رواه البخاري[٨٤٤]

وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالمُــدْهِنِ فِيهَــا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فِي البَحْــرِ فَأَصَــابَ بَعْضُــهُمْ أَعْلَاهَا،وَأَصَــابَ بَعْضُــهُمْ أَسْفَلَهَا،فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ فَيَسْتَقُونَ المَاءَ فَيَصُبُّونَ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا فَقَــالَ الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا:لَا نَدَعُكُمْ تَصْعَدُونَ فَتُؤْذُونَنَا،فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا:فَإِنَّا نَنْقُبُهَا مِنْ أَسْــفَلِهَا فَنَسْتَقِي،فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ فَمَنَعُوهُمْ نَجَوْا جَمِيعًا وَإِنْ تَرَكُوهُمْ غَرِقُوا جَمِيعًا "[٨٤٥]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«الْمُدَاهِنُ فِي حُدُودِ اللَّــهِ،وَالرَّاكِبُ حُدُودَ اللَّهِ،وَالْآمِرُ بِهَا،وَالنَّاهِي عَنْهَا،كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا فِي سَفِينَةٍ مِنْ سُفُنِ الْبَحْرِ،فَأَصَــابَ

---

[٨٤٢] - سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٠)(٤٠١٢) حسن

[٨٤٣] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

[٨٤٤] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٩)(٢٤٩٣)

[ش (القائم على حدود الله) المستقيم مع أوامر الله تعالى ولا يتجاوز ما منع الله تعالى منه والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر.(الواقع فيها) التارك للمعروف المرتكب للمنكر.(استهموا) اقترعوا ليأخذ كل منهم سهما أي نصيبا.(أخذوا على أيديهم) منعوهم من خرق السفينة]

[٨٤٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٧٠)(٢١٧٣) صحيح

أَحَدُهُمْ مُؤَخَّرَ السَّفِينَةِ وَأَبْعَدَهَا مِنَ الْمِرْفَقِ،وَكَانُوا سُفَهَاءَ،وَكَانُوا إِذَا أَتَوْا عَلَى رِجَالِ الْقَوْمِ آذَوْهُمْ،فَقَالُوا:نَحْنُ أَقْرَبُ أَهْلِ السَّفِينَةِ مِنَ الْمِرْفَقِ وَأَبْعَدُهُمْ مِنَ الْمَاءِ،فَتَعَالَوْا نَخْرِقْ دَفَّ السَّفِينَةِ ثُمَّ نَرُدُّهُ إِذَا اسْتَغْنَيْنَا عَنْهُ،فَقَالَ مَنْ نَاوَأَهُ مِنَ السُّفَهَاءِ:افْعَلْ،فَأَهْوَى إِلَى فَأْسٍ لِيَضْرِبَ بِهَا أَرْضَ السَّفِينَةِ،فَأَشْرَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ رُشَيْدٌ فَقَالَ:مَا تَصْنَعُ؟ فَقَالَ:نَحْنُ أَقْرَبُكُمْ مِنَ الْمِرْفَقِ وَأَبْعَدُكُمْ مِنْهُ،أَخْرِقُ دَفَّ السَّفِينَةِ،فَإِذَا اسْتَغْنَيْنَا عَنْهُ سَدَدْنَاهُ،فَقَالَ:لَا تَفْعَلْ،فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ تَهْلِكُ وَنَهْلِكُ». [٨٤٦]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» رواه مسلم[٨٤٧]

---

[٨٤٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٥٣٤)(٢٩٨) صحيح

[٨٤٧] - صحيح مسلم (١/ ٦٩)(٨٠ - (٥٠)

[ش (ثم إنها تخلف) الضمير في إنها هو الذي يسميه النحويون ضمير القصة والشأن ومعنى تخلف تحدث وأما الخلوف فهو جمع خلف وهو الخالف بشر وأما بفتح اللام فهو الخالف بخير هذا هو الأشهر (فنزل بقناة) هكذا هو في بعض الأصول المحققة وهو غير مصروف للعلمية والتأنيث وقناة واد من أودية المدينة عليه مال من أموالها]

أَمَّا السَّلَفُ الصَّالِحُ؛فَإِنَّهُمْ لَمَّا اقْتَدَوْا بِسُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ،وَسِيرَةِ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ - ﷺ- انْخَرَطُوا فِي سِلْكِ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (فَمَنْ جَاهَدَهُمْ):جَزَاءُ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ،أَيْ:إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَمَنْ حَارَبَهُمْ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ (بِيَدِهِ فَهُوَ):بِضَمِّ الْهَاءِ وَتُسَكَّنُ (مُؤْمِنٌ):بِالْهَمْزَةِ وَيُبْدَلُ (وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ)،أَيْ:أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ (بِقَلْبِهِ):بِأَنْ يَغْضَبَ عَلَيْهِمْ وَلَوْ قَدَرَ لَحَارَبَهُمْ بِالْيَدِ أَوْ بِاللِّسَانِ (فَهُوَ مُؤْمِنٌ)،قِيلَ:التَّنْكِيرُ فِي مُؤْمِنٍ لِلتَّنْوِيعِ،فَإِنَّ الْأَوَّلَ دَلَّ عَلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ،وَالثَّالِثَ عَلَى نُقْصَانِهِ،وَالثَّانِي عَلَى الْقَصْدِ فِيهِ (وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ):هِيَ اسْمُ لَيْسَ،وَمِنَ الْإِيمَانِ صِفَتُهُ قُدِّمَتْ فَصَارَتْ حَالًا،وَرَاءَ ذَلِكَ خَبَرُهُ،ثُمَّ ذَهَبَ الْمُظْهِرُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْإِيمَانِ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُشَارَ بِهِ إِلَى الْإِيمَانِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ،فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُنْكِرْ بِالْقَلْبِ رَضِيَ بِالْمُنْكَرِ وَهُوَ كُفْرٌ،فَتَكُونُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُصَدَّرَةُ بِلَيْسَ مَعْطُوفَةً عَلَى الْجُمْلَةِ قَبْلَهَا بِكَمَالِهَا كَذَا قَالَهُ الطِّيبِيُّ.

وَالْأَوَّلُ هُوَ الظَّاهِرُ،أَيْ:وَرَاءَ الْجِهَادِ بِالْقَلْبِ يَعْنِي مَنْ لَمْ يُنْكِرْهُمْ بِالْقَلْبِ بَعْدَ الْعَجْزِ عَنْ جِهَادِهِمْ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ،فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ مِنَ الْإِيمَانِ لِأَنَّ أَدْنَى مَرَاتِبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنْ لَا يَسْتَحْسِنَ الْمَعَاصِيَ وَيُنْكِرَهَا بِقَلْبِهِ،فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ وَدَخَلَ فِيمَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَ اللَّهِ وَاعْتَقَدَ بُطْلَانَ أَحْكَامِهِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٤١)

وعَنْ قَيْسٍ،قَالَ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ:بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّكُمْ تَقْـرَءُونَ هَـذِهِ الْآيَةَ،وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا:{عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَـنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]،قَالَ:عَنْ خَالِدٍ،وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ النَّـاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّـالِمَ فَلَـمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ،أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ» وَقَالَ عَمْرٌو:عَنْ هُشَيْمٍ،وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي،ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا،ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا،إِلَّـا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْـهُ بِعِقَـابٍ» قَـالَ أَبُـو دَاوُدَ:وَرَوَاهُ كَمَـا قَـالَ خَالِـدٌ أَبُـو أُسَامَةَ:وَجَمَاعَةٌ،وَقَالَ شُعْبَةُ فِيهِ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ» رواه أبو داود والترمذي[٨٤٨]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ هَيْبَةُ النَّاسِ،أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَـقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ " فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:" وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُهُ "،وقَالَ أَبُو نَضْرَةَ:" وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُهُ " رواه أحمد وغيره[٨٤٩]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ،إِذَا رَأَى أَمْرًا لِلَّـهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالاً فَلَا يَقُولُ بِهِ،فَيَلْقَى اللهَ وَقَدْ أَضَاعَ ذَلِكَ،فَيَقُولُ:مَا مَنَعَـكَ؟ فَيَقُـولُ:خَشِـيتُ النَّاسَ،فَيَقُولُ:أَنَا كُنْتُ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى " رواه أحمد وغيره[٨٥٠]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ عَرَفَهُ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:فَمَا زَالَ بِنَا الْبَلَاءُ حَتَّى قَصَرْنَا وَإِنَّا لَنَبْلُغُ فِي الشَّرِّ"[٨٥١]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ:إِنَّـكَ ظَالِمٌ،فَقَدْ تُوَدِّعَ مِنْهُمْ» رواه أحمد[٨٥٢]

---

[٨٤٨] - سنن أبي داود (٤/ ١٢٢)(٤٣٣٨) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٦٧)(٢١٦٨) صحيح

[٨٤٩] - مسند أحمد ط الرسالة (١٨/ ٧٠)(١١٤٩٨) والمعجم الأوسط (٥/ ١٤٤)(٤٩٠٦) صحيح

[٨٥٠] - مسند أحمد ط الرسالة (١٨/ ٣٧٣)(١١٨٦٨) والسنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٥٥)(٢٠١٨٤) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٣٨٤) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٢٨)(٤٠٠٨) فيه انقطاع

[٨٥١] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٥١١)(٢٧٨) صحيح

[٨٥٢] - المعجم الأوسط (٨/ ١٨)(٧٨٢٥) ومسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٣٩٤)(٦٧٨٤) والسنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٥٨)(١١٥١٦) وشعب الإيمان (١٠/ ٤٥)(٧١٤٠) والمعجم الأوسط (٨/ ١٨)(٧٨٢٥) عن جابر ومسند البزار = البحر الزخار (٦/ ٣٦٢)(٢٣٧٤) من طريق مُجَاهِدٍ،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،صحيح لغيره

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ،وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ،يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ،وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ» رواه أبو داود[٨٥٣]

وأعله بعضهم بالإنقطاع،والراجح عندي أن أبا الزبير المكي سمع من عبدالله بن عمرو وروى عنه،كما في التهذيب،لأنه عاصره،وليس مدلسا كما رجحنا سابقاً ،وقد صرح بالسماع من عبد الله كما في الضعفاء الكبير للعقيلي (٤/ ٢٩٠) والمعجم الكبير للطبراني جــ ١٤،١٣ (ص:٤٨٢)(١٤٣٥١) عن الحسن بن عمرو،حدثني أبو الزُّبير،قال:سمعتُ عبدَالله بن عَمرو يقول:قال رسولُ الله ﷺ:«إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ:إِنَّكَ ظَالِمٌ،فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ» .

الهيبة:من هابَ الشَّيءَ يَهابُه إذا خَافَهُ وإذا وَقَّرَهُ وعَظَّمَه.= تودع منهم:استوى وجودهم وعدمهم

قَالَ أَحْمَدُ:" وَالْمَعْنَى فِي هَذَا:أَنَّهُمْ إِذَا خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ فَتَرَكُوهُ كَانُوا مِمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ،وَأَعْظَمُ مِنَ الْقَوْلِ،وَالْعَمَلِ أَخْوَفَ،وَكَانُوا إِلَى أَنْ يَدَعُوا جِهَادَ الْمُشْرِكِينَ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ،وَأَمْوَالِهِمْ أَقْرَبَ،وَإِذَا صَارُوا كَذَلِكَ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ،وَاسْتَوَى وُجُودُهُمْ وَعَدَمُهُمْ "شعب الإيمان (١٠/ ٤٧)

[٨٥٣] - سنن أبي داود (٤/ ٢٨٠)(٤٩١٨) حسن

يكف ضيعته:الضيعة:الحرفة،وكفها:جمعها عليه وردها إليه.=يحوطه من ورائه:يحفظه ويصونه من ورائه من حيث لا يعلم،وفيما يغيب عنه من أموره.

«إِنَّ أَحَدَكُمْ مِرْآةُ أَخِيهِ»)،بِكَسْرِ مِيمٍ وَمَدِّ هَمْزٍ أَيْ:آلَةٌ لِإِرَاءَةِ مَحَاسِنِ أَخِيهِ وَمَعَايِبِهِ،لَكِنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ،فَإِنَّ النَّصِيحَةَ فِي الْمَلَأِ فَضِيحَةٌ،وَأَيْضًا هُوَ يَرَى مِنْ أَخِيهِ مَا لَا يَرَاهُ مِنْ نَفْسِهِ كَمَا يُرْسَمُ فِي الْمِرْآةِ مَا هُوَ مُخْتَفٍ عَنْ صَاحِبِهِ فَيَرَاهُ فِيهَا أَيْ:إِنَّمَا يَعْلَمُ الشَّخْصُ عَيْبَ نَفْسِهِ بِإِعْلَامِ أَخِيهِ كَمَا يَعْلَمُ خَلَلَ وَجْهِهِ بِالنَّظَرِ فِي الْمِرْآةِ (فَإِنْ رَأَى) أَيْ:أَحَدُكُمْ (بِهِ) أَيْ:بِأَخِيهِ (أَذًى) أَيْ:عَيْبًا مِمَّا يُؤْذِيهِ أَوْ يُؤْذِي غَيْرَهُ (فَلْيُمِطْ) أَيْ:فَلْيُمِطْهُ كَمَا فِي رِوَايَةِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ مِنَ الْإِمَاطَةِ،وَالْمَعْنَى فَلْيُزِلْ ذَلِكَ الْأَذَى (عَنْهُ) أَيْ:عَنْ أَخِيهِ إِمَّا بِإِعْلَامِهِ حَتَّى يَتْرُكَهُ أَوْ بِالدُّعَاءِ لَهُ حَتَّى يُرْفَعَ عَنْهُ،وَهَذَا وَجْهُ قَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَهْدَى إِلَيَّ بِعُيُوبِ نَفْسِي،وَفِي إِتْيَانِهِ - بِصِيغَةِ الْجَمْعِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ النَّفْسَ مَعْدِنُ الْعُيُوبِ وَمَنْبَعُهَا وَلِذَا قِيلَ:

وُجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ

وَفِي شَرْحِ الطِّيبِيِّ قِيلَ أَيِ:الْمُؤْمِنُ فِي إِرَاءَةِ عَيْبِ أَخِيهِ كَالْمِرْآةِ الْمَجْلُوَّةِ الَّتِي تَحْكِي كُلَّ مَا يُرْسَمُ فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ،وَلَوْ كَانَ أَدْنَى شَيْءٍ،فَالْمُؤْمِنُ إِذَا نَظَرَ إِلَى أَخِيهِ يَسْتَشِفُّ مِنْ وَرَاءِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ تَعْرِيفَاتٍ وَتَلْوِيحَاتٍ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ،فَأَيُّ وَقْتٍ ظَهَرَ مِنْ أَحَدِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجْتَمِعِينَ فِي عَقْدِ الْأُخُوَّةِ عَيْبٌ فَادِحٌ فِي أُخُوَّتِهِ نَافَرُوهُ؛لِأَنَّ ذَلِكَ يَظْهَرُ بِظُهُورِ النَّفْسِ مِنْ تَضْيِيعِ حَقِّ الْوَقْتِ،فَعَلِمُوا مِنْهُ خُرُوجَهُ بِذَلِكَ عَنْ دَائِرَةِ الْجَمْعِيَّةِ فَنَافَرُوهُ؛لِيَعُودَ إِلَى دَائِرَةِ الْجَمْعِيَّةِ،قَالَ رُوَيْمٌ:لَا يَزَالُ الصُّوفِيَّةُ بِخَيْرٍ مَا تَنَافَرُوا،فَإِذَا اصْطَلَحُوا هَلَكُوا،وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى حُسْنِ تَفَقُّدِ بَعْضِهِمْ أَحْوَالَ الْبَعْضِ إِشْفَاقًا مِنْ ظُهُورِ النَّفْسِ،يَقُولُ:إِذَا اصْطَلَحُوا وَرُفِعَ التَّنَافُرُ بَيْنَهُمْ يُخَافُ أَنْ يُخَامِرَ الْبَوَاطِنَ الْمُسَاهَلَةُ وَالْمِرْآةُ،وَمُسَامَحَةُ الْبَعْضِ الْبَعْضَ فِي إِهْمَالِ دَقِيقِ آدَابِهِمْ،وَبِذَلِكَ تَظْهَرُ النُّفُوسُ وَتَتَوَلَّى،وَتَصْدَأُ مِرْآةُ الْقَلْبِ،فَلَا يُرَى فِيهَا الْخَلَلُ وَالْعَيْبُ.قَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ:أَرَأَيْتُمْ لَوْ تَرَخَّصْتُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ مَاذَا كُنْتُمْ فَاعِلِينَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ فَلَمْ يُجِيبُوا.قَالَ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ:لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ قَوَّمْنَاكَ تَقْوِيمَ الْقَدَحِ.قَالَ عُمَرُ:أَنْتُمْ إِذًا أَنْتُمْ كَذَا فِي كِتَابِ الْعَوَارِفِ.(رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَضَعَّفَهُ.وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ وَلِأَبِي دَاوُدَ):وَكَذَا لِلْبُخَارِيِّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ («الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ،وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ،يَكُفُّ عَنْهُ ضَيْعَتَهُ»)،أَيْ:يَمْنَعُ عَنْ أَخِيهِ تَلَفَهُ وَخُسْرَانَهُ،فَهُوَ مَرَّةٌ مِنَ الضَّيَاعِ،وَقِيلَ ضَيْعَةُ الرَّجُلِ مَا يَكُونُ مِنْهُ مَعَاشُهُ أَيْ:يَجْمَعُ عَلَيْهِ مَعِيشَتَهُ.(وَيَحُوطُهُ) أَيْ:يَحْفَظُهُ

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ:«الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ،وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ،مِنْ حَيْثُ لَقِيَهُ يَكُفُّ ضَيْعَتَهُ،وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ»[٨٥٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:«الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ،إِذَا رَأَى فِيهِ عَيْبًا أَصْلَحَهُ» رواه البخاري في الأدب المفرد[٨٥٥].

والإمام والأمراء ينصحون سرا،وينصحون وينكر عليهم علانية،والمرجع في ذلك إلى المصلحة الشرعية،فإذا كان في الإعلان بالإنكار إثارة فتنة ومفسدة أعظم من المنكر،فينبغي في هذه الحالة الإسرار بنصيحة الإمام أو الأمير،وإذا كانت المصلحة بالإنكار علانية كما لو جاهر الإمام أو الأمير بفعل المنكر أمام الناس،ففي هذه الحالة ينكر عليه علانية،وقد جاءت النصوص والآثار بهذا وهذا.

فمن الأدلة على الإسرار بالإنكار والنصح،فعَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ،قَالَ:قَالَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ لِهِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ:أَلَمْ تَسْمَعْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يُبْدِهِ عَلَانِيَةً،وَلَكِنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيَخْلُوا بِهِ،فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ،وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ»،رواه أحمد والحاكم وابن أبي عاصم في كتاب السنة[٨٥٦]

وعن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ،أَنَّ عِيَاضَ بْنَ غَنْمٍ وَقَعَ عَلَى صَاحِبِ دَارِيَّا حِينَ فُتِحَتْ،فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ فَأَغْلَظَ لَهُ الْقَوْلَ،وَمَكَثَ عِيَاضٌ لَيَالِيَ،فَأَتَاهُ هِشَامٌ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ،فَقَالَ:يَا عِيَاضُ أَلَمْ تَسْمَعْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشَدُّهُمْ عَذَابًا لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا»،فَقَالَ عِيَاضٌ:يَا هِشَامُ،إِنَّا قَدْ عَلِمْنَا الَّذِي عَلِمْتَ،وَرَأَيْنَا الَّذِي رَأَيْتَ،وَصَحِبْنَا الَّذِي صَحِبْتَ،أَوَ لَمْ تَسْمَعْ يَا هِشَامُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذْ يَقُولُ:«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ لِذِي سُلْطَانٍ فَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَيَنْصَحْهُ،فَإِنْ قَبِلَهَا،وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ»،وَإِنَّكَ يَا هِشَامُ لَأَنْتَ الْجَرِيءُ إِذْ تَجْتَرِئُ

وَيُحَصِّرُهُ وَيَضُمُّهُ إِلَيْهِ (مِنْ وَرَائِهِ) أَيْ:فِي غَيْبَتِهِ نَفْسًا وَمَالًا وَعِرْضًا بِأَنْ لَا يَسْكُتَ إِذَا اغْتِيبَ عِنْدَهُ وَقَدَرَ عَلَى دَفْعِهِ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٢٢)

[٨٥٤] – الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٣٤٢)(٢٣٧) حسن

[٨٥٥] – الأدب المفرد مخرجا (ص:٩٣)(٢٣٨) حسن

[٨٥٦] – السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٢١)(١٠٩٦) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٤٨)(١٥٣٣٣) صحيح لغيره

عَلَى سُلْطَانِ اللَّهِ،فَمَا خَشِيتَ أَنْ يَقْتُلَكَ سُلْطَانُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَكُونَ قَتِيلَ سُلْطَانِ اللَّهِ تَعَالَى؟[٨٥٧]

وعن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ أَنَّ عِيَاضَ بْنَ غَنْمٍ،وَقَعَ عَلَى صَاحِبِ دَارِيَا حِينَ فُتِحَتْ،فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ،فَأَغْلَظَ لَهُ الْقَوْلَ،وَمَكَثَ هِشَامٌ لَيَالِيَ،فَأَتَاهُ هِشَامٌ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ،فَقَالَ:يَا عِيَاضُ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا» فَقَالَ عِيَاضٌ:يَا هِشَامُ،إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا الَّذِي قَدْ سَمِعْتَ،وَرَأَيْنَا الَّذِي قَدْ رَأَيْتَ،وَصَحِبْنَا الَّذِي صَحِبْتَ " أَوْ لَمْ تَسْمَعْ يَا هِشَامُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يُكَلِّمْهُ بِهَا عَلَانِيَةً،وَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ وَلْيَخْلُ بِهِ،فَإِنْ قَبِلَهَا قَبِلَهَا وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي لَهُ وَالَّذِي عَلَيْهِ»،وَإِنَّكَ يَا هِشَامُ لَأَنْتَ الْجَرِيءُ أَنْ تَجْتَرِئَ عَلَى سُلْطَانِ اللَّهِ،فَهَلَّا خَشِيتَ أَنْ يَقْتُلَكَ سُلْطَانُ اللَّهِ،فَتَكُونَ قَتِيلَ سُلْطَانِ اللَّهِ"[٨٥٨]

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:قِيلَ لَهُ:أَلَا تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ؟ فَقَالَ:أَتَرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟ وَاللهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ،مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْرًا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ،وَلَا أَقُولُ لِأَحَدٍ،يَكُونُ عَلَيَّ أَمِيرًا:إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،فَيُلْقَى فِي النَّارِ،فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ،فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى،فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ،فَيَقُولُونَ:يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ،وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ:بَلَى،قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ،وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ " رواه البخاري ومسلم واللفظ له[٨٥٩].

---

٨٥٧ - الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٢/ ١٥٤)(٨٧٦) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٣٢٩)(٥٢٦٩) والسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٢٨٣)(١٦٦٦٠) حسن

٨٥٨ - مسند الشاميين للطبراني (٣/ ١٠٠)(١٨٧٤) حسن

٨٥٩ - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠)٥١ - (٢٩٨٩) وصحيح البخاري (٤/ ١٢١)(٣٢٦٧)

[ش (أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم) معناه أتظنون أني لا أكلمه إلا وأنتم تسمعون (ما دون أن أفتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من فتحه) يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ كما جرى لقتلة عثمان رضي الله عنه (فتندلق أقتاب بطنه) قال أبو عبيد الأقتاب الأمعاء قال الأصمعي واحدها قتبة وقال غيره قتب وقال ابن عيينة هي ما استدار في البطن وهي الحوايا والأمعاء وهي الأقصاب واحدها قصب والاندلاق خروج الشيء من مكانه]

ومن الأدلة على الإعلان بالإنكار والنصح،ما رواه مسلم عَنْ طَارِق بْنِ شِهَاب قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ.فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[860].

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ،أَنَّهُ صَعِدَ الْمِنْبَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ:إِنَّمَا الْمَالُ مَالُنَا،وَالْفَيْءُ فَيْئُنَا،فَمَنْ شَاءَ أَعْطَيْنَاهُ وَمَنْ شِئْنَا مَنَعْنَاهُ،فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ،فَلَمَّا كَانَ الْجُمُعَةُ الثَّانِيَةُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ،فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ،فَلَمَّا كَانَ الْجُمُعَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ،فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِمَّنْ حَضَرَ الْمَسْجِدَ،فَقَالَ:كَلَّا،إِنَّمَا الْمَالُ مَالُنَا وَالْفَيْءُ فَيْئُنَا،فَمَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ حَاكَمْنَاهُ إِلَى اللهِ بِأَسْيَافِنَا،فَنَزَلَ مُعَاوِيَةُ فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَأَدْخَلَهُ فَقَالَ الْقَوْمُ:هَلَكَ الرَّجُلُ،ثُمَّ دَخَلَ النَّاسُ فَوَجَدُوا الرَّجُلَ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِلنَّاسِ:إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَحْيَانِي أَحْيَاهُ اللهُ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«سَيَكُونُ أَئِمَّةٌ مِنْ بَعْدِي يَقُولُونَ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ،يَتَقَاحَمُونَ فِي النَّارِ كَمَا تَتَقَاحَمُ الْقِرَدَةُ»،وَإِنِّي تَكَلَّمْتُ أَوَّلَ جُمُعَةٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ أَحَدٌ،فَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ،ثُمَّ تَكَلَّمْتُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ أَحَدٌ،فَقُلْتُ فِي نَفْسِي:إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ،ثُمَّ تَكَلَّمْتُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّالِثَةِ فَقَامَ هَذَا الرَّجُلُ فَرَدَّ عَلَيَّ فَأَحْيَانِي أَحْيَاهُ اللهُ" رواه الطبراني[861]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«يَكُونُ أُمَرَاءُ ،فَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ ،يَتَهَافَتُونَ فِي النَّارِ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[862]

وروى الطبراني عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُقْبَةَ،قَالَ:خَطَبَ مُعَاوِيَةُ فَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُنْكِرُهُ النَّاسُ فَرَدُّوا عَلَيْهِ فَسَرَّهُ ذَلِكَ،وَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«يَكُونُ أُمَرَاءُ يَقُولُونَ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ يَتَهَافَتُونَ فِي النَّارِ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[863].

---

[860] - صحيح مسلم (١/ ٦٩)(٧٨ - (٤٩)

[861] - المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٣٩٣)(٩٢٥) حسن

[862] - مسند أبي يعلى الموصلي (١٣/ ٣٦٧)(٧٣٧٧) حسن

[863] - المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٣٤١)(٧٩٠) حسن

وقد جاءت الشريعة بالنهي عن مداهنة الأمراء والسكوت عن منكراهم،والنهي عن مدحهم في وجوههم،فعَنْ مُحَمَّد بْنِ زَيْد بْنِ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ،قَالَ أُنَاسٌ لِابْنِ عُمَرَ:إِنَّـا نَـدْخُلُ عَلَـى سُلْطَانِنَا،فَنَقُولُ لَهُمْ خِلاَفَ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ،قَالَ:«كُنَّا نَعُدُّهَا نِفَاقًـا»[٨٦٤]رواه البخاري

وعن الْأَسْوَدَ بْنِ سَعِيد الْهَمْدَانِيِّ قَالَ:قُلْتُ لِعَبْد اللَّه بْنِ عُمَـرَ:إِنَّـا نَحْضُـرُ الْـأُمَرَاءَ،فَنَتَكَلَّمُ بِالشَّيْءِ،يَعْلَمُ اللَّهَ مِنْ قُلُوبِنَا خِلَافَهُ،فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:«كُنَّا نَعُدُّهَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ»[٨٦٥]

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،قَالَ:أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّه بْنَ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهُ:يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَنِ إِنَّا نَجْلِسُ إِلَـى أَئِمَّتِنَا هَؤُلَاءِ فَيَتَكَلَّمُونَ بِالْكَلَامِ نَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ غَيْرُهُ فَنُصَدِّقُهُمْ فَيَقْضُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَنُقِرُّ بِهِ عَلَيْهِمْ وَنُحْسِنُهُ لَهُمْ فَكَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ قَالَ:يَا ابْنَ أَخِي كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَعُدُّ هَذَا النِّفَـاقَ وَلَا أَدْرِي كَيْفَ هُوَ عِنْدَكُمْ "[٨٦٦]

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ،أَنَّهُ رَأَى النَّاسَ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ:مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا:مِـنْ عِنْد الْأَمِيرِ فَقَالَ:إِنْ رَأَوْا مُنْكَرًا أَنْكَرُوهُ وَإِنْ رَأَوْا مَعْرُوفًا أَوْ أُمِرُوا بِهِ قَالُوا:لَا ،قَالَ:فَمَا يَصْنَعُونَ قَالُوا:يَمْدَحُونَهُ وَيَسُبُّونَهُ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ النِّفَاقَ عَلَـى عَهْـدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا دُونَ هَذَا "[٨٦٧]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:"قوله فنقول لهم أي نثني عليهم.وفي رواية الطيالسـي عَـنْ عَاصِمُ بْنُ مُحَمَّد بْنِ زَيْد بْنِ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ:إِنَّـا لَنَـدْخُلُ عَلَى سَلَاطِينِنَا فَنَتَكَلَّمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِشَيْءٍ،إِذَا خَرَجْنَا قُلْنَا غَيْرَ ذَلِكَ،فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ،«كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا» قَالَ الْعُمَرِيُّ:فَحَدَّثَنِي أَخِي أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ:«كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَـى عَهْـدِ النَّبِـيِّ ﷺ»[٨٦٨]

---

[٨٦٤] - صحيح البخاري (٩/ ٧١)(٧١٧٨)

[ش (فنقول لهم) نثني عليهم.(نفاقا) شبيها بالنفاق لأنه إظهار خلاف ما في الباطن.]

[٨٦٥] - الزهد لوكيع (ص:٥٦٨)(٢٩٩) صحيح

[٨٦٦] - صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص:١٠٣)(٦٠) صحيح

[٨٦٧] - صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص:١٠٧)(٦١) صحيح

[٨٦٨] - مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٤٦١)(٢٠٦٧) صحيح

ووقع عند الفريابي عَنْ أَبِي الشَّعْثَاء،قَالَ:دَخَلَ نَفَرٌ عَلَى عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ مِنْ أَهْـلِ الْعِـرَاقِ فَوَقَعُوا فِي يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَتَنَاوَلُوهُ فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّه:هَذَا قَوْلُكُمْ لَهُمْ عِنْدِي أَتَقُولُونَ هَذَا فِي وُجُوهِهِمْ؟ قَالُوا:لَا بَلْ نَمْدَحُهُمْ وَنُثْنِي عَلَيْهِمْ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:هَذَا النِّفَاقُ عِنْدَنَا"[869]

وفي رواية عروة بن الزبير عند الحارث بن أبي أسامة والبيهقي وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،قَالَ:أَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،فَقُلْتُ لَهُ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَجْلِسُ إِلَى أَئِمَّتِنَا هَؤُلَاءِ ،فَيَتَكَلَّمُونَ بِالْكَلَامِ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ غَيْرُهُ فَنَصْدُقُهُمْ ،وَيَقْضُونَ بِـالْجَوْرِ فَنُقَـوِّيهِمْ وَنُحَسِّنُهُ لَهُمْ ،فَكَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ:" يَا ابْنَ أَخِي كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَعُـدُّ هَـذَا النِّفَاقَ ،فَلَا أَدْرِي كَيْفَ هُوَ عِنْدَكُمْ " لفظ البيهقي[870]

وفي رواية الحارث عَنْ عُرْوَةَ،قَالَ:قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ " إِنَّا لَنَدْخُلُ عَلَى الْإِمَـامِ يَقْضِي بِالْقَضَاءِ نَرَاهُ جَوْرًا فَنَقُولُ:وَفَّقَكَ اللَّهُ وَنَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلِ مِنَّا فَنُثْنِي عَلَيْهِ،فَقَالَ:أَمَّا نَحْـنُ مَعْشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا فَمَا أَدْرِي مَا تَعُدُّونَهُ أَنْتُمْ؟ "[871]

وللخرائطي في المساوئ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ:إِنَّا نَدْهَلُ عَنْ أُمَرَائِنَا فَنَمْـدَحُهُمْ،فَإِذَا خَرَجْنَا قُلْنَا لَهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ،فَقَالَ:«كُنَّا نَعُدُّ هَذَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِفَاقًا»[872].

وفي مسند مسدد عن مجاهد قال:أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ عَلَى ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْه فَقَالَ لَهُ:" كَيْـفَ أَنْتُمْ والضحّاك بْنُ قَيْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه؟ "،قَالَ:نحن وهو،إذ لَقِينَاهُ،قُلْنَا لَهُ مَا يُحِبُّ،وإذا ولينـا عنه،قُلْنَا لَهُ غَيْرَ ذلك.قال:" ذَلِكَ مَا كُنَّا نَعُدُّ وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النِّفَاقِ ".[873]

وفي مسند الإمام أحمد عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ،أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ لَقِيَ نَاسًا خَرَجُوا مِنْ عِنْـدِ مَرْوَانَ فَقَالَ:مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا:خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ الْأَمِيرِ مَرْوَانَ قَالَ:وَكُلُّ حَـقٍّ رَأَيْتُمُـوهُ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ،وَأَعَنْتُمْ عَلَيْهِ،وَكُلُّ مُنْكَرٍ رَأَيْتُمُوهُ أَنْكَرْتُمُوهُ وَرَدَدْتُمُوهُ عَلَيْهِ،قَالُوا:لَا وَاللهِ،بَلْ يَقُولُ:مَا

[869] - صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص:١٠٨)(٦٢) صحيح

[870] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٢٨٧)(١٦٦٧٠) والمعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٣٣١)(١٣٢٦٥) صحيح

[871] - مسند أبي يعلى الموصلي (١٠/ ٤٦)(٥٦٧٩) ومسند الحارث = بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (٢/ ٩٨٤)(١٠٩٥) صحيح

[872] - مساوئ الأخلاق للخرائطي (ص:١٤١)(٢٨٨) صحيح

[873] - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (١٣/ ٤٥٠)(٣٢٢١) حسن

يُنْكَرُ،فَنَقُولُ:قَدْ أَصَبْتَ،أَصْلَحَكَ اللهُ،فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ قُلْنَا قَاتَلَهُ اللهُ،مَا أَظْلَمَهُ وَأَفْجَرَهُ قَالَ عَبْدُ اللهِ:" كُنَّا بِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا لِمَنْ كَانَ هَكَذَا "[874]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا،وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ،وَمَنِ اتَّبَعَ السُّلْطَانَ افْتُتِنَ» رواه أبو داود والترمذي والنسائي[875]،وهذا لمن داهن السلطان وسكت عن باطله،وأما من دخل على السلطان لنصحه ولقول الحق عنده،فقد قام بأفضل الجهاد.

وعَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ،قَالَ:مَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَهُ شَرَفٌ،وَهُوَ جَالِسٌ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ،فَقَالَ عَلْقَمَةُ:يَا فُلَانُ،إِنَّ لَكَ حُرْمَةً،وَإِنَّ لَكَ حَقًّا،وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَدْخُلُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ فَتَكَلَّمُ عِنْدَهُمْ،وَإِنِّي سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ الْمُزَنِيَّ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ،مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ،فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ،وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ،مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ،فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» قَالَ عَلْقَمَةُ:انْظُرْ وَيْحَكَ مَاذَا تَقُولُ،وَمَاذَا تَكَلَّمُ بِهِ،فَرُبَّ كَلَامٌ قَدْ مَنَعَنِي مَا سَمِعْتُهُ مِنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ.رواه ابن ماجة وابن حبان[876]

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي مَدْحِهِ،فَقَالَ:«أَهْلَكْتُمْ – أَوْ قَطَعْتُمْ – ظَهَرَ الرَّجُلِ» متفق عليه.[877]

---

[874] – مسند أحمد ط الرسالة (٩/ ٢٧٣)(٥٣٧٣) صحيح

[875] – السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٤٧٥)(٤٨٠٢) والمسند الجامع (٩/ ٣٣٢)(٦٦٨٦) وسنن أبي داود (٣/ ١١١)(٢٨٥٩) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٢٣)(٢٢٥٦) صحيح

[876] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ٥١٤)(٢٨٠) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣١٢)(٣٩٦٩) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٥٩)(٢٣١٩) صحيح

[ش – (بالكلمة من رضوان الله) أي من الكلمات التي تكون سببا لرضوان الله تعالى.(أن تبلغ) أي تلك الكلمة من رضوان الله.(مابلغت) من الحد والقدر.أي يرى أنه يحصل بها شيء من الرضوان على تقدير القبول عنده تعالى ولا يرى أنه يحصل لها القدر الذي حصل.وبالجملة فالمتكلملا بد له من النظر التام في حسن الكلام وقبحه.]

[877] – صحيح البخاري (٣/ ١٧٧)(٢٦٦٣) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٧)٦٧ – (٣٠٠١)

[ش (يطريه) من الإطراء وهو المبالغة في المدح.(قطعتم ظهر الرجل) أثقلتموه بالإثم لأنه ربما حمله إطراؤهم له على العجب والكبر وسلك سبيل المتكبرين فيقع في الإثم الكبير الذي يقطع الظهر]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ،عَنْ أَبِيهِ:أَنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ خَيْرًا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" وَيْحَكَ،قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - يَقُولُهُ مِرَارًا - إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لاَ مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ:أَحْسِبُ كَذَا وَكَذَا،إِنْ كَانَ يُرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ،وَحَسِيبُهُ اللَّهُ،وَلاَ يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا " متفق عليه[٨٧٨].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّهُ ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ،فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ مَا مِنْ رَجُلٍ،بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،أَفْضَلُ مِنْهُ فِي كَذَا وَكَذَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» مِرَارًا يَقُولُ ذَلِكَ،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ،لَا مَحَالَةَ،فَلْيَقُلْ:أَحْسِبُ فُلَانًا،إِنْ كَانَ يُرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ،وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا "[٨٧٩]

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ،أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ،فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ،وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا،فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ،فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ:مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ،فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ» رواه مسلم[٨٨٠].

---

[٨٧٨] - صحيح البخاري (٨/ ١٨)(٦٠٦١) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٦)٦٥ - (٣٠٠٠)

[ش (مدح رجل رجلا) ذكر مسلم في هذا الباب الأحاديث الواردة في النهي عن المدح وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه قال العلماء وطريق الجمع بينهما أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير والازدياد منه أو الدوام عليه أو الاقتداء به كان مستحبا (قطعت عنق صاحبك) وفي رواية قطعتم ظهر الرجل معناه أهلكتموه وهذه استعارة من قطع العنق الذي هو القتل لاشتراكهما في الهلاك لكن هلاك هذا الممدوح في دينه وقد يكون من جهة الدنيا لما يشتبه عليه من حاله بالإعجاب (ولا أزكى على الله أحدا) أي لا أقطع على عاقبة أحد ولا ضميره لأن ذلك مغيب عني ولكن أحسب وأظن لوجود الظاهر المقتضى لذلك]

[٨٧٩] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٦)٦٦ - (٣٠٠٠)

[٨٨٠] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٧)٦٩ - (٣٠٠٢)

أَي:الْمُبَالِغِينَ فِي الْمَدْحِ مُتَوَجِّهِيْنِ إِلَيْكُمْ طَمَعًا سَوَاءٌ يَكُونُ نَثْرًا أَوْ نَظْمًا (فَاحْثُوا):بِهَمْزَةِ وَصْلٍ وَضَمٍّ مُثَلَّثَة أَي:ارْمُوا (فِي وُجُوهِهِمْ):وَفِي نُسْخَةٍ فِي أَفْوَاهِهِمْ (التُّرَابَ):قِيلَ:يُؤْخَذُ التُّرَابُ وَيُرْمَى بِهِ فِي وَجْهِ الْمَدَّاحِ عَمَلًا بِظَاهِرِ الْحَدِيثِ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ الْأَمْرُ بِدَفْعِ الْمَالِ إِلَيْهِمْ،إِذِ الْمَالُ حَقِيرٌ كَالتُّرَابِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْضِ فِي كُلِّ بَابٍ أَيْ:أَعْطُوهُمْ إِيَّاهُ وَاقْطَعُوا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ لِئَلَّا يَهْجُوكُمْ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ أَعْطُوهُمْ عَطَاءً قَلِيلًا فَشَبَّهَهُ لِقِلَّتِهِ بِالتُّرَابِ،وَقِيلَ:الْمُرَادُ مِنْهُ أَنْ يَخَيِّبَ الْمَادِحَ وَلَا يُعْطِيَهُ شَيْئًا لِمَدْحِهِ،وَالْمُرَادُ زَجْرُ الْمَادِحِ وَالْحَثُّ عَلَى مَنْعِهِ مِنَ الْمَدْحِ؛لِأَنَّهُ يَجْعَلُ الشَّخْصَ مَغْرُورًا وَمُتَكَبِّرًا.قَالَ الْخَطَّابِيُّ:الْمَدَّاحُونَ هُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَدْحَ النَّاسِ عَادَةً،وَجَعَلُوهُ بِضَاعَةً يَسْتَأْكِلُونَ بِهِ الْمَمْدُوحَ،فَأَمَّا مَنْ مَدَحَ الرَّجُلَ عَلَى الْفِعْلِ الْحَسَنِ وَالْأَمْرِ

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْدُو بِدِينِهِ ،ثُمَّ يَرْجِعُ وَمَا مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ.يَلْقَى الرَّجُلَ لَيْسَ يَمْلِكُ لَهُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ،فَيَقُولُ:وَاللَّهِ إِنَّكَ لَذَيْتَ وَذَيْتَ ،وَلَعَلَّهُ أَنْ يَرْجِعَ ،وَلَمْ يَحِلَّ عَنْ حَاجَتِهِ بِشَيْءٍ ،وَقَدْ أَسْخَطَ اللَّهَ عَلَيْهِ.ثُمَّ قَرَأَ:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} [النساء:٤٩] الْآيَةَ "

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ:مَعْنَى تَزْكِيَةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ وَوَصْفِهِمْ إِيَّاهَا بِأَنَّهَا لَا ذُنُوبَ لَهَا وَلَا خَطَايَا ،وَأَنَّهُمْ لِلَّهِ أَبْنَاءٌ وَأَحِبَّاءٌ ،كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَهُ ،لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ أَظْهَرُ مَعَانِيهِ لِإِخْبَارِ اللَّهِ عَنْهُمْ أَنَّهَا إِنَّمَا كَانُوا يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ دُونَ غَيْرِهَا.وَأَمَّا الَّذِينَ قَالُوا:مَعْنَى ذَلِكَ:تَقْدِيمُهُمْ أَطْفَالَهُمْ لِلصَّلَاةِ ،فَتَأْوِيلٌ لَا تُدْرَكُ صِحَّتُهُ إِلَّا بِخَبَرٍ حُجَّةٍ يُوجِبُ الْعِلْمَ.وَأَمَّا قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:{بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٩] فَإِنَّهُ تَكْذِيبٌ مِنَ اللَّهِ الْمُزَكِّينَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ،الْمُبَرِّئِيهَا مِنَ الذُّنُوبِ ،يَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ:مَا الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُ لَا ذُنُوبَ لَكُمْ وَلَا خَطَايَا ،وَإِنَّكُمْ بُرَآءُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ،وَلَكِنَّكُمْ أَهْلُ فِرْيَةٍ وَكَذِبٍ عَلَى اللَّهِ ،وَلَيْسَ الْمُزَكِّي مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ ،وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُزَكِّيهِ اللَّهُ ،وَاللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ،فَيُطَهِّرُهُ وَيُبَرِّئُهُ مِنَ الذُّنُوبِ بِتَوْفِيقِهِ لِاجْتِنَابِ مَا يَكْرَهُهُ مِنْ مَعَاصِيهِ إِلَى مَا يَرْضَاهُ مِنْ طَاعَتِهِ.[ص:١٢٩] وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:{انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [النساء:٥٠] وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بِدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ،وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ طَهَّرَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ رواه ابن جرير وغيره [٨٨١].

ومن الوسائل في تقويم الإمام والأمراء المحاسبة،و قد روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ،قَالَ:اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ،يُدْعَى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ،فَلَمَّا

الْمَحْمُودِ،يَكُونُ مِنْهُ تَرْغِيبًا لَهُ فِي أَمْثَالِهِ،وَتَحْرِيضًا لِلنَّاسِ عَلَى الِاقْتِدَاءِ فِي أَشْبَاهِهِ فَلَيْسَ بِمَدَّاحٍ،وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:قَدِ اسْتَعْمَلَ الْمِقْدَادُ الْحَدِيثَ عَلَى ظَاهِرِهِ فِي تَنَاوُلِ عَيْنِ التُّرَابِ وَحَثْيِهِ فِي وَجْهِ الْمَادِحِ،وَقَدْ يُتَأَوَّلُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ الْخَيْبَةَ وَالْحِرْمَانَ أَيْ:مَنْ تَعَرَّضَ لَكُمْ بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ فَلَا تُعْطُوهُ وَاحْرِمُوهُ،كَنَّى بِالتُّرَابِ عَنِ الْحِرْمَانِ كَقَوْلِهِمْ:مَا فِي يَدِهِ غَيْرُ التُّرَابِ،وَكَقَوْلِهِ ﷺ:" «إِذَا جَاءَكَ يَطْلُبُ ثَمَنَ الْكَلْبِ فَامْلَأْ كَفَّهُ تُرَابًا» "،وَفِي الْجُمْلَةِ الْمَدْحُ وَالثَّنَاءُ عَلَى الرَّجُلِ مَكْرُوهٌ؛لِأَنَّهُ قَلَّمَا يَسْلَمُ الْمَادِحُ عَنْ كَذِبٍ يَقُولُهُ فِي مَدْحِهِ،وَقَلَّمَا يَسْلَمُ الْمَمْدُوحُ مِنْ عُجْبٍ يَدْخُلُهُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٣١)

[٨٨١] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٢٧) صحيح

جَاءَ حَاسَبَهُ،قَالَ:هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ،حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا» ثُمَّ خَطَبَنَا،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى العَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ،فَيَأْتِي فَيَقُولُ:هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي،أَفَلاَ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ،وَاللَّهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ،فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ،أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ،أَوْ شَاةً تَيْعَرُ " ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ،يَقُولُ:«اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» بَصْرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي"[882]

وعن العُتْبِيّ:"بُعث إلى عمر رضي الله عنه بحلل فقسمها فأصاب كل رجل منا ثوب ثم صعد المنبر وعليه حلة والحلة ثوبان فقال:"أيها الناس ألا تستمعون؟ "،فقال سلمان رضي الله عنه:"لا نسمع".فقال عمر:"ولِمَ يا أبا عبد الله؟ "،قال:"إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حلة"،فقال:"لا تعجل يا أبا عبد الله،ثم نادى عبد الله فلم يجبه أحد،فقال:يا عبد الله بن عمر"،فقال:"لبيك يا أمير المؤمنين"،قال:الثوب الذي اتزرت به هو ثوبك؟ " قال:"اللهم نعم".فقال سلمان:"الآن فقل نسمع".[883]

ومن الوسائل في تقويم الأمراء متابعة أعمالهم،والنظر في شكاوى الناس ضدهم،عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ،قَالَ:شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَعَزَلَهُ،وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا،فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ،فَقَالَ:يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّي،قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ:أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ «فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا،أُصَلِّي صَلاَةَ العِشَاءِ،فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ»،قَالَ:ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ،فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الكُوفَةِ،فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ،وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا،حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ،فَقَامَ

---

[882] - صحيح البخاري (9/ 28)(6979) وصحيح مسلم (3/ 1463)27 - (1832)

[ش (فلأعرفن) أي والله لأعرفن.(بصر عيني وسمع أذني) أبصرت عيناي رسول الله ﷺ ناطقا ورافعا يديه وسمعت كلامه.وضبط بصر وسمع بضم الصاد وكسر الميم على أنهما فعلان ماضيان وضبطا بسكون الصاد والميم على أنهما مصدران]

[883] - المعارف لابن قتيبة - موقع الوراق (ص:23،بترقيم الشاملة آليا) ومحض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (2/ 579)

رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ:أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ،وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ،وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ،قَالَ سَعْدٌ:أَمَا وَاللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ:اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا،قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً،فَأَطِلْ عُمْرَهُ،وَأَطِلْ فَقْرَهُ،وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ،وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ:شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ،أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ،قَالَ عَبْدُ المَلِكِ:فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ،قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ،وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ" البخاري[٨٨٤]

وفي رواية لمسلم عَنْ أَبِي عَوْنٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ لِسَعْدٍ قَدْ شَكَوْكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الصَّلَاةِ.فَقَالَ:تُعَلِّمُنِي الْأَعْرَابُ بِالصَّلَاةِ «أَمَّا أَنَا فَأَمُدُّ فِي الْأُولَيَيْنِ وَأَحْذِفُ فِي الْأُخْرَيَيْنِ.وَمَا آلُو مَا اقْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» فَقَالَ:ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ،أَوْ ذَاكَ ظَنِّي بِكَ"[٨٨٥]

وعَنْ عُمَرَ قَالَ:أَيُّمَا عَامِلٍ لِي ظَلَمَ أَحَدًا فَبَلَغَتْنِي مَظْلَمَتُهُ فَلَمْ أُغَيِّرْهَا فَأَنَا ظَلَمْتُهُ.رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى[٨٨٦].

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ:" مَنْ ظَلَمَهُ أَمِيرُهُ فَلَا إِمْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ دُونِي.قَالَ:فَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ فَيَقُولُ:إِمَّا أَنْ تُنْصِفَنِي مِنْ نَفْسِكَ،وَإِلَّا فَلَا إِمْرَةَ لَكَ عَلَيَّ " رواه الخلال في كتاب السنة.[٨٨٧]

ومن الوسائل في تقويم الإمام والأمراء الرجوع إلى القضاء الشرعي لفصل النزاع في سياسات الولاة الداخلية أو الخارجية،أو لرفع الظلم وأداء الحقوق أو غيرها،قال الإمام ابن جرير رحمه

---

[٨٨٤] - صحيح البخاري (١/ ١٥١)(٧٥٥)

[ش(سعدا) هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه.(صلاة رسول الله) أي صلاة مثل صلاته.(ما أخرم عنها) ما أنقص.(فأركد) أسكن وأمكث ومعناه أطول.(أخف) أخفف وأحذف التطويل.(يثنون معروفا) يقولون عنه خيرا.(نشدتنا) سألتنا بالله تعالى.(بالسرية) هي القطعة من الجيش أي لا يخرج بنفسه معها والمراد نفي الشجاعة عنه وقيل معناه لا يسير بالطريق العادلة.(القضية) الحكومة والقضاء.(رياء وسمعة) ليراه الناس ويسمعوه فيشهروا ذلك عنه ليذكر به.(عرضه بالفتن) اجعله عرضة لها.(للجواري) جمع جارية وهي الأنثى الصغيرة.(يغمزهن) يعصر أعضاءهن بأصابعه]

[٨٨٥] - صحيح مسلم (١/ ٣٣٥)١٥٩ - (٤٥٣)

[ش (وما آلو) أي لا أقصر في ذلك ومنه قوله تعالى لا يألونكم خبالا أي لا يقصرون في إفسادكم]

[٨٨٦] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٣٢) من طريق الواقدي

[٨٨٧] - السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١١٧)(٦٤) صحيح

الله عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه " وكان يقتص مِنْ عُمَّاله،وَإِذَا شُكِيَ إِلَيْهِ عَامِلٌ لَهُ جَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ شَكَاهُ،فَإِنْ صَحَّ عَلَيْهِ أَمْرٌ يَجِبُ أَخْذُهُ بِهِ أَخَذَهُ بِهِ وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ،قَالَ:حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ،قَالَ:أَخْبَرَنَا سَعِيدٌ الْجُرَيْرِيُّ،عَنْ أَبِي نَضْرَةَ،عَنْ أَبِي فِرَاسٍ،قَالَ:خَطَبَ عمر ابن الخطاب،فقال:يا ايها النَّاسُ،إِنِّي وَاللَّهِ مَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ عُمَّالا لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ،وَلا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ،وَلَكِنِّي أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ،فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شيء سوى ذلك فليرفعه الى،فو الذى نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،أَرَأَيْتُكَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنْ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ،فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ،إِنَّكَ لَتُقِصَّهُ مِنْهُ! قَالَ:إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ إِذًا لأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ،وَكَيْفَ لا أُقِصُّهُ مِنْهُ وَقَدْ رأيت رسول الله ص يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ! أَلا لا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ،وَلا تَجْمُرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ،وَلا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فتكفروهم،وَلا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ " [888]

ويأتي ذكر بعض الأدلة على هذا عند الحديث عن العدل في الحكم ومساواة الناس أمام القضاء.

والواجب على ولاة الأمور استماع النصيحة وقبولها من عموم المسلمين من الرجال أو النساء،فعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:«لَا تُغَالُوا فِي مُهُورِ النِّسَاءِ»،فَقَالَتِ امْرَأَةٌ:لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ يَا عُمَرُ،إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:«وَإِنْ آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا مِنْ ذَهَبٍ» قَالَ:وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ «فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا»،فَقَالَ عُمَرُ:«إِنَّ امْرَأَةً خَاصَمَتْ عُمَرَ فَخَصَمَتْهُ» [889]

وقد أخرج أبو يعلى عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ:رَكِبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْبَرَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –،ثُمَّ قَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا إِكْثَارُكُمْ فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ،وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – وَأَصْحَابُهُ،وَإِنَّمَا الصَّدُقَاتُ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَرْبَعُمِائَةِ دِرْهَمٍ فَمَا دُونَ ذَلِكَ.فَلَوْ كَانَ الْإِكْثَارُ فِي ذَلِكَ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ أَوْ مَكْرُمَةً لَمْ تَسْبِقُوهُمْ إِلَيْهَا فَلَا أَعْرِفَنَّ مَا زَادَ رَجُلٌ عَلَى أَرْبعمائة دِرْهَمٍ.قَالَ:ثُمَّ نَزَلَ فَاعْتَرَضَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَهَيْتَ النَّاسَ أَنْ يَزِيدُوا النِّسَاءَ فِي صَدُقَاتِهِمْ عَلَى

---

[888] – تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٤) حسن

[889] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ١٨٠)(١٠٤٢٠) حسن

أَرْبَعمائَة دِرْهَمٍ؟ قَالَ:نَعَمْ.قَالَتْ:أَمَا سَمعْتَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في الْقُرْآن؟ فَقَالَ:فَأَنَّى ذَلكَ؟ قَالَتْ:أَمَا سَمعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:{وَآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ قنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا منْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبينًا} [النساء:٢٠]) فَقَالَ:اللَّهُمَّ غُفْرًا،كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ منْ عُمَرَ.قَالَ:ثُمَّ رَجَعَ فَرَكبَ الْمنْبَرَ فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَزيدُوا النِّسَاءَ في صَدُقَاتهنَّ عَلَى أَرْبَعمائَة دِرْهَمٍ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُعْطيَ منْ مَاله مَا أَحَبَّ – قَالَ أَبُو يَعْلَى:قَالَ:وَأَظُنُّهُ قَالَ – فَمَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ فَلْيَفْعَلْ.قال ابن كثير:إسناده جيد قوي[٨٩٠].

وعَنِ الشَّعْبيِّ قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رَضيَ اللهُ عَنْهُ النَّاسَ فَحَمدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْه وَقَالَ:" أَلَا لَا تُغَالُوا في صَدَاق النِّسَاء،فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُني عَنْ أَحَد سَاقَ أَكْثَرَ منْ شَيْءٍ سَاقَهُ رَسُولُ الله ﷺ أَوْ سيقَ إِلَيْه إِلَّا جَعَلْتُ فَضْلَ ذَلكَ في بَيْت الْمَال " ثُمَّ نَزَلَ ،فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ منْ قُرَيْب ،فَقَالَتْ:يَا أَميرَ الْمُؤْمنينَ أَكتَابُ الله تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَوْ قَوْلُكَ؟ قَالَ:" بَلْ كتَابُ الله تَعَالَى ،فَمَا ذَاكَ؟ " قَالَتْ:نَهَيْتَ النَّاسَ آنفًا أَنْ يُغَالُوا في صَدَاق النِّسَاء وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ في كتَابه:{وَآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ قنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا منْهُ شَيْئًا} [النساء:٢٠] ،فَقَالَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ:" كُلُّ أَحَد أَفْقَهُ منْ عُمَرَ " مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ،ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمنْبَرِ فَقَالَ للنَّاسِ:" إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تُغَالُوا في صَدَاق النِّسَاءِ أَلَا فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ في مَاله مَا بَدَا لَهُ "[٨٩١]

وهذا الأمر ينبغي على ولاة الأمر تبيينه للرعية وحضهم عليه،وهو أن للرعية إبداء النصح في سياسة الحكومة الداخلية والخارجية،وعلى الحكومة استماع النصيحة،وقبول الحق ممن أشار به. والنصيحة من أفراد الرعية قد تأتي نصيحة مختصرة،وقد تأتي كتابا موسعا،أو بحثا علميا مفصلا،وينبغي لولاة الأمر تنظيم استقبال المشورة والنصح من الرعية،وترتيبه إداريا بما يحقق المصلحة الشرعية.

وفي تربية الأمة وحضها على مشاورة ومناصحة الولاة في شؤون الدولة تتحقق الكثير من المصالح،ومنها أن هذا مما أوجبته الشريعة الإسلامية من التواصي بالحق والتواصي بالصبر،والنصيحة لأئمة المسلمين.

---

[٨٩٠] – إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٤/ ١٢٤) ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٤/ ٢٨٣) حسن

[٨٩١] – السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٣٨٠)(١٤٣٣٦) حسن لغيره

ومن المصالح تربية المسلمين على المشاورة والمناصحة،وتنويرٌ للقرائح،وإعمالٌ للعقول،وصقل للمواهب،كما تبرز في الأمة القيادات المؤهلة،وأهل الخبرة المؤهلون لقيادة الأمة.

ومنها أن استماع النصيحة من الرعية يذهب الشعور باستبداد ولاة الأمر في سياسة الدولة،فإن الشعور بالاستبداد يضعف طاعة الرعية للأمراء،ويضعف نصرهم لهم وتعاونهم معهم،ويصدهم عن العمل الجاد في بناء الدولة.

ومن المصالح في المشورة والنصيحة الوصول إلى الحق والصواب،وتحري العدل في سياسة الدولة وما يطرأ من نوازل.

ومن المصالح أن في استماع المشورة والنصيحة تطييبًا لنفوس الرعية وتأليفًا لقلوبهم،وزيادة في محبتهم لولاة الأمر،وأما الاستبداد فهو من أعظم أسباب الضغائن والأحقاد بين الرعية والولاة.

ومن المصالح أن يتبين للمسلمين الطريق الشرعي الذي يجب أن يتبعوه ويشاركوا فيه لإصلاح سياسات الحكومة الداخلية والخارجية،وتقويم ولاة الأمور،وأن يتبين لهم سبيل الديمقراطيين من الكافرين والمرتدين الذين يلبسون على الناس ويدعونهم إلى ما يسمونه "بالمشاركة الشعبية" وهي مشاركة شركية،تعني أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله حين يختار بعضهم بعضا حكاما ومشرعين برلمانيين يشرعون لهم ما توحيه إليهم شياطينهم[٨٩٢]،كما قال تبارك وتعالى:{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام:١٢١].

وفى قوله سبحانه:«وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ» تحذير للمؤمنين،مما يراودهم عليه أهل الضلال،ويجادلونهم به فى حلّ هذا وحرمة هذا،فذلك مما ألقى به إليهم الشياطين..أما الحلال وأما الحرام فهما ما بيّنه الله،وليس لأحد أن يحل أو يحرم غير ما أحل الله وحرّم الله.[٨٩٣]

إن المشركين –حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتةَ،وتحليله للمذكاة،وكانوا يستحلون أكل الميتة– قالوا –معاندة لله ورسوله،ومجادلة بغير حجة ولا برهان– أتأكلون ما قتلتم،ولا تأكلون

---

[٨٩٢] – يعني دون الرجوع للكتاب والسنة وأقوال أهل العلم السابقين

[٨٩٣] – التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٣٠٤)

ما قتل الله؟ يعنون بذلك:الميتة.وهذا رأي فاسد،لا يستند على حجة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعا لها لفسدت السماوات والأرض،ومن فيهن.فتبا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه،الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة.ولا يستغرب هذا منهم،فإن هذه الآراء وأشباهها،صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين،الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم،ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.{وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} في شركهم وتحليلهم الحرام،وتحريمهم الحلال {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله،ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين،فلذلك كان طريقكم،طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف،التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم،لا تدل -بمجردها على أنها حق،ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.[894]

أي وإن شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ليوحون إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات،وإن أطعتموهم فيها فجاريتموهم فى هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم،فإن التعبد لغير الله شرك كدعاء غير الله وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره وإن كان لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقرّب المتوسّل إليه زلفى ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية.وأولياء الشياطين لم يجادلوا أحدا من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله عليه ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التي لا يقصد بها العبادة،فمن يأكل هذه الذبائح لا يكون مشركا،وكذلك من يأكل الميتة،بل يكون عاصيا إن لم يكن مضطرا.

قال عكرمة:وإن الشياطين يعنى مردة المجوس،ليوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش زخرف القول ليصل إلى نبى الله وأصحابه ممن أكل الميتة،ذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة:إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام.فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله هذه الآية ثم قال:

---

[894] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٧١)

(وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ) يعنى فى استحلال الميتة (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) قال الزجاج:وفيه دليل علـــى أن كل من أحل شيئا مما حرم الله تعالى،أو حرّم شيئا مما أحل الله تعالى فهو مشـــرك،لأنه أثبـــت مشرّعا سوى الله،وهذا هو الشرك بعينه.وما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزيـــر أفـــتى بعض الحنفية بتحريم أكله لأنه مما أهلّ به لغير الله.وقال بعض الشافعية:هـــم إنمـــا يذبحونـــه استبشارا بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود،ومثل هذا لا يوجب التحريم،وهـــذا هـــو الراجح الذي عليه المعوّل.[٨٩٥]

أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه،إلى قول غيره،فقدمتم عليه غيره ..فهذا هو الشـــرك ..كقوله تعالى:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» ..الآية.وقد روى الترمذي في تفسيرها عَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ - ﷺ - وَفِى عُنُقِى صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ.فَقَالَ «يَـــا عَدِىُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ».وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِى سُورَةِ بَرَاءَةَ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ».[٨٩٦]

أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام.وما حلله فهو الحلال،وما شرعه اتبع،وما حكم به نفـــذ) ..

فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير ..وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح - مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه،ومن حسم التفسير النبـــوي للقـــرآن وصـــرامته ووضوحه كذلك - أن من أطاع بشرا في شريعة من عند نفسه،ولو في جزئية صغيرة،فإنما هو مشرك.وإن كان في الأصل مسلما ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضا ..مهما بقي بعد ذلك يقول:أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه.بينما هو يتلقى من غير الله،ويطيع غير الله.

---

[٨٩٥] - تفسير المراغي (٨/ ١٧)

[٨٩٦] - سنن الترمذى- المكنز [١١/ ٣٥٤] (٣٣٧٨) صحيح لغيره

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم – في ضوء هذه التقريرات الحاسمة – فإننا نــرى الجاهليــة والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلا من عصم الله،فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية و لم يقبل منها شرعا ولا حكما ...إلا في حدود الإكراه ..[897]

وأما رد النصيحة والامتناع عن قبول الحق فهو من صفات أهل الكبر والعلو في الأرض،وقــد أخبر الله تعالى عن فرعون أنه قال:{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَــبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:٢٩]

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابا،وأعتقده نافعا.وإنه لهو الصواب والرشد بــلا شــك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا؟! وإلا فلم كانوا طغاة؟![898]

وقال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْــبُهُ جَهَــنَّمُ وَلَبِــئْسَ الْمِهَــادُ } [البقرة:٢٠٦]

وقوله تعالى:«وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّــهَ أَخَذَتْــهُ الْعِــزَّةُ بِالْــإِثْمِ» يكشــف عــن الإمعــان فى الضلال،والإغراق فى الخداع والتمويه،من هذا المنافق الذي يعيش فى ضلاله ونفاقه،حتى ليكاد ينسى أنه يلبس ثوب النفاق،ويتزيا بزى الباطل..فإذا قال له قائل:«اتق الله» فى نفســك وفى الناس،واقتصد من هذا الشرّ الذي تزرعه فى كل مكان،وتخفف من هذا الفساد الذي توزعــه فى كل أفق– إذا قيل له هذا أو نحوه أنكر على قائله هذا القول،ونظر إليه مــن عــل نظــرة ساخطة هازئة تقول فى غير حياء:وماذا من تقوى الله غير هذا؟ وماذا على طريــق الصــالحين والمتقين غير الذي أنا فاعله؟» .والله سبحانه وتعالى يقول:«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًــا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَــرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (١٠٣– ١٠٥:الكهف) .ذلك هو تقدير المنافق،وتلك هى عاقبة أمره «فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ» .[899]

---

[897] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٦٣٥)

[898] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٧٤)

[899] – التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢٢٩)

أي إن ذلك المفسد إذا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أسرع إليه الغضب،وعظم عليه الأمر وأخذته الأنفة وطيش السفه،إذ يخيل إليه أن النصح والإرشاد ذلة تنافي العزة التي تليق بأمثاله.وفي طبع المفسدين النفور ممن يأمرهم بالصلاح،إذ يرون في ذلك تشهيرا بهم وإعلانا لمفاسدهم التي يستروها بزخرف القول وخلابته،وإن استطاعوا الحبس حبسوا أو ضربوا أو قتلوا.(فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ) أي إن النار مصيره ويكفيه عذابها جزاء له على كبريائه وحميته حمية الجاهلية،وستكون مهاده ومأواه،وهى بئس المهاد وشره،فلا راحة فيها،ولا اطمئنان لأهلها.[900]

إذا تولى فقصد إلى الإفساد في الأرض وأهلك الحرث والنسل ونشر الخراب والدمار وأخرج ما يعتمل في صدره من الحقد والضغن والشر والفساد ..إذا فعل هذا كله ثم قيل له:«اتَّقِ اللَّهَ» ..تذكيرا له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه ..أنكر أن يقال له هذا القول واستكبر أن يوجه إلى التقوى وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ وأن يوجه إلى صواب.وأخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولا بالخير ولكن «بِالْإِثْمِ» ..فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة،ورفع رأسه في وجه الحق الذي يذكر به،وأمام الله بلا حياء منه وهو الذي كان يشهد الله على ما في قلبه ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء! إنها لمسة تكمل ملامح الصورة،وتزيد في قسماتها وتمييزها بذاتها ..وتدع هذا النموذج حيا يتحرك.تقول في غير تردد:هذا هو.هذا هو الذي عناه القرآن! وأنت تراه أمامك ماثلا في الأرض الآن وفي كل آن! وفي مواجهة هذا الاعتزاز بالإثم واللدد في الخصومة والقسوة في الفساد والفجور في الإفساد ..في مواجهة هذا كله يجبهه السياق باللطمة اللائقة بهذه الجبلة النكدة:«فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ،وَلَبِئْسَ الْمِهادُ! » ..

حسبه! ففيها الكفاية! جهنم التي وقودها الناس والحجارة.جهنم التي يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون.جهنم الحطمة التي تطلع على الأفئدة.جهنم التي لا تبقي ولا تذر.جهنم التي تكاد تميز من الغيظ! حسبه جهنم «وَلَبِئْسَ الْمِهادُ! » ويا للسخرية القاصمة في ذكر «الْمِهادُ» هنا ..ويا لبؤس من كان مهاده جهنم بعد الاعتزاز والنفخة والكبرياء![901]

---

[900] - تفسير المراغي (٢/ ١١٢)

[901] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٣٧)

وعَنْ عَبْد الله بْنِ مَسْعُود،عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ:«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ:إِنَّ الرَّجُلَ يُحبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً،قَالَ:«إِنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ،الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ،وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم[902].

وعَنْ عَبْدِ الله،قَالَ:" إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الذَّنْبِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ:اتَّقِ اللهَ،فَيَقُولُ:عَلَيْكَ نَفْسَكَ أَنْتَ تَأْمُرُنِي " رواه الطبراني[903]

وعَنْ عَبْدِ الله،قَالَ:" كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا إِذَا قِيلَ لَهُ:اتَّقِ اللهَ غَضِبَ " رواه الطبراني[904].

الصدق في سياسة الدولة وفي جميع الأقوال والأعمال:

وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه " الصِّدْقُ أَمَانَةٌ،وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ " يدل على أن الصدق في الظاهر والباطن وفي جميع الأقوال والأعمال والسياسات أمانة يجب على الولاة التمسك بها والمحافظة عليها،وأما كذب الولاة في أقوالهم وأعمالهم وسياساتهم فهو خيانة ونفاق،وقد قال الله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنفال:٢٧].

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِه الآيَةِ بِأَنْ لاَ يَخُونُوا اللهَ بِارْتِكَابِ الذُّنُوبِ،وَأَنْ يَخُونُوا رَسُولَهُ بِتَرْكِ سُنَنِه،وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِه،وَأَنْ لاَ يَخُونُوا أَمَانَاتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ التِي ائْتَمَنَ اللهُ العِبَادَ عَلَيهَا:يَعْنِي الفَرَائِضَ،وَهِيَ تَشْمَلُ أَمَانَةَ الإِنْسَانِ نَحْوَ النَّاسِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَهُمْ:كَالمكْيَالِ وَالمِيْزَانِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالحَقِّ وَالصِّدْقِ،وَكِتْمَانِ السِّرِّ..إلخ.فَالأَمَانَةُ وَاحِدَةٌ وَلاَ تَبْعِيضَ فِيهَا،وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَسَاوِىءَ الخِيَانَةِ،وَسُوءَ عَاقِبَتِهَا.[905]

---

[902] - صحيح مسلم (١/ ٩٣)١٤٧ - (٩١)

[ش (بطر الحق) هو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا (غمط الناس) معناه احتقارهم يقال في الفعل منه غمطه يغمطه وغمطه يغمطه]

[903] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ١١٣)(٨٥٨٧) صحيح

[904] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ١١٤)(٨٥٨٨) صحيح

[905] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨٨،بترقيم الشاملة آليا)

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيــه،فإن الأمانــة قــد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال،فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنســان إنه كان ظلوما جهولافمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل،ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل،وصار خائنا لله وللرسول ولأمانته،منقصا لنفسه بكونه اتصفت نفســه بأخس الصفات،وأقبح الشيات،وهي الخيانة مفوتا لها أكمل الصفات وأتمها،وهي الأمانة.[٩٠٦]

أي لا تخونوا الله فتعطّلوا فرائضه أو تتعدوا حدوده وتنتهكوا محارمــه الــتي بينــها لكــم فى كتابه،ولا تخونوا الرسول فترغبوا عن بيانه لكتابه إلى بيانه بــأهوائكم أو آراء مشــايخكم أو آبائكم أو أوامر أمرائكم،أو ترك سنته إلى سنة آبائكم وزعمائكم زعما منكم أنهم أعلم بمــراد الله ورسوله منكم.

(وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ) أي ولا تخونوا أماناتكم فيما بين بعضكم وبعض من المعــاملات الماليــة وغيرها حتى الشئون الأدبية والاجتماعية،فإفشاء السر خيانة محرمة ويكفى فى العلم بكونه سرا قرينة قولية كقول محدثك:هل يسمعنا أحد؟ أو فعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجىء،وآكــد أمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين.كذلك لا تخونوا أماناتكم فيمــا بيــنكم وبين أولى الأمر من شئون سياسية أو حربية فتطلعوا عليها عدوكم وينتفــع بهــا فى الكيــد لكم.والخيانة من صفات المنافقين،والأمانة من صفات المؤمنين،

(وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة وتحريم الله لهــا وســوء عاقبتــها فى الــدنيا والآخرة،وقد يكون المعنى- وأنتم تعلمون أن ما فعلتموه خيانة لظهوره،فإن خفــى علــيكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين ضرورة،أو مما يعلــم ببداهــة العقــل،أو باستفتاء القلب كفعلة أبي لبابة التي كان سببها الحرص على المال والولد،ومن ثم فطن لها قبــل أن يبرح مكانه.[٩٠٧]

إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول.فالقضــية الأولى في هــذا الدين هي قضية:«لا إله إلا الله،محمد رسول الله» ..قضية إفراد الله – ســبحانه – بالألوهيــة

---

[٩٠٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣١٩)

[٩٠٧] - تفسير المراغي (٩/ ١٩٣)

والأخذ في هذا بما بلغه محمد – ﷺ – وحده ..والبشرية في تاريخها كله لم تكن تجحد الله البتة ولكنها إنما كانت تشرك معه آلهة أخرى.أحيانا قليلة في الاعتقاد والعبادة.وأحيانا كثيرة في الحاكمية والسلطان – وهذا هو غالب الشرك ومعظمه – ومن ثم كانت القضية الأولى لهذا الدين ليست هي حمل الناس على الاعتقاد بألوهية الله.ولكن حملهم على إفراده – سبحانه – بالألوهية،وشهادة أن لا إله إلا الله،أي إفراده بالحاكمية في حياتهم الأرضية – كما أنهم مقرّون بحاكميته في نظام الكون – تحقيقا لقول الله تعالى:«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ» ..كذلك كانت هي حملهم على أن الرسول هو وحده المبلغ عن الله ومن ثم الالتزام بكل ما يبلغهم إياه ..

هذه هي قضية هذا الدين – اعتقادا لتقريره في الضمير،وحركة لتقريره في الحياة – ومن هنا كان التخلي عنها خيانة لله والرسول يحذر الله منها العصبة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان فأصبح متعينا عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد.

كذلك يحذرها خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله – ﷺ – على الإسلام.

فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان،وليس مجرد عبارات وأدعيات.إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق.إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته،ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء وتأمين الحق والعدل للناس جميعا وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله ..وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها وخاس بعهده الذي عاهد الله عليه،ونقض بيعته التي بايع بها رسوله.[٩٠٨]

فالواجب على جميع ولاة الأمر في الحكومة الإسلامية الالتزام بالصدق والوضوح في تعاملاتهم،وأن تكون أعمالهم جلية بينة أمام أهل الشورى والقضاء والرعية،فإن الصدق في العمل،والوضوح في التعامل والسياسة من الأمانة الواجبة على ولاة الأمر،وأما الكذب وإخفاء

[٩٠٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٣٣)

الحقائق،ومخالفة الظاهر للباطن،وارتكاب المخالفات والتجاوزات سرا،وإنكارها علنا،وتضليل الأمة وخداعها،أو التستر على من ارتكب فسادا في المال أو الإدارة،كل ذلك من الخيانـــة في المسؤولية والعمل.

فإذا كذب أحد الولاة وجاء بالحجج الملفقة،والأعذار الباطلة،ليخفي حقيقة مـــن الحقـــائق،أو يدافع بها عن مبطل،أو ليستر بها فسادا في المال أو الإدارة والعمل،فقد خان الأمانة التي ائـــتمن عليها،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ،وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ،وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ:شَيْخٌ زَانٍ،وَمَلِكٌ كَذَّابٌ،وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ " رواه مسلم[٩٠٩]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ،أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ» رواه مسلم[٩١٠]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،قَالَ:خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى مُغَيْرِبَانِ الشَّمْسِ،حَفِظَهَا مَنْ حَفِظَهَا،وَنَسِيَهَا مَنْ نَسِيَهَا،فَقَالَ:«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ،وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُـــرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ،أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا،وَاتَّقُوا النِّسَاءَ،أَلَا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى،مِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا،وَيَحْيَا مُؤْمِنًا،وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا،وَمِنْهُمْ مَـــنْ يُولَـــدُ كَافِرًا،وَيَحْيَـــا كَـــافِرًا،وَيَمُوتُ كَافِرًا،وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا،وَيَحْيَا كَافِرًا،وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا،وَمِنْهُمْ مَـــنْ يُولَـــدُ مُؤْمِنًا،وَيَحْيَـــا مُؤْمِنًا،وَيَمُوتُ كَافِرًا،أَلَا إِنَّ خَيْرَ التُّجَّارِ مَنْ كَانَ حَسَنَ الْقَضَاءِ حَسَنَ الطَّلَبِ،أَلَا وَشَرُّ التُّجَّـــارِ مَنْ كَانَ سَيِّئَ الْقَضَاءِ سَيِّئَ الطَّلَبِ،فَإِذَا كَانَ حَسَنَ الْقَضَاءِ سَيِّئَ الطَّلَبِ،أَوْ حَسَنَ الطَّلَبِ سَيِّئَ الْقَضَاءِ فَإِنَّهَا بِهَا،أَلَا وَإِنَّ شَرَّ الرِّجَالِ مَنْ كَانَ سَرِيعَ الْغَضَبِ بَطِيءَ الْفَيْءِ،أَلَا وَخَيْرُ الرِّجَالِ مَنْ كَانَ بَطِيءَ الْغَضَبِ سَرِيعَ الْفَيْءِ،فَإِذَا كَانَ سَرِيعَ الْغَضَبِ سَرِيعَ الْفَيْءِ فَإِنَّهَا بِهَـــا،وَإِذَا كَـــانَ بَطِيءَ الْغَضَبِ بَطِيءَ الْفَيْءِ فَإِنَّهَا بِهَا،أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تَوَقَّدُ فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ،أَلَمْ تَرَ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ،وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ،فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْأَرْضَ الْأَرْضَ،أَلَا إِنَّ لِكُلِّ غَـــادِرٍ لِـــوَاءً بِقَـــدْرِ غَدْرَتِهِ» قَالَ الْحَسَنُ:يُنْصَبُ عِنْدَ اسْتِهِ،ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ثُمَّ قَالَ:«أَلَا وَلَا غَـــادِرَ

---

[٩٠٩] - صحيح مسلم (١/ ١٠٢)١٧٢ - (١٠٧) [ش (وعائل) العائل هو الفقير]

[٩١٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٦١)١٦ - (١٧٣٨)

[ش (من أمير عامة) أي من غدر صاحب الولاية العامة لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثير]

أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ،أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا مَهَابَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ،أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ»[911]

وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«إِنَّهَا سَتَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَظْلِمُونَ،وَيَكْذِبُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ،وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي،وَلَسْتُ مِنْهُ،وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ،وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ،وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي،وَأَنَا مِنْهُ وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ» [912]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا،وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ،وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ،وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " متفقٌ عليه[913] .

---

[911] - مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٦١٥)(٢٢٧٠) حسن

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَإِنَّمَا يُنْصَبُ لِلْغَادِرِ تَشْهِيرًا لَهُ بِالْغَدْرِ وَتَفْضِيحًا عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ وَإِنَّمَا قَالَ:عِنْدَ اسْتِهِ اسْتِخْفَافًا بِذِكْرِهِ وَاسْتِهَانَةً بِأَمْرِهِ،أَوْ لِأَنَّ عَلَمَ الْعِزَّةِ يُنْتَصَبُ تِلْقَاءَ الْوَجْهِ،فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ عَلَمُ الْمَذَلَّةِ فِيمَا هُوَ كَالْمُقَابِلِ لَهُ.وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ:اللِّوَاءُ الرَّايَةُ الْعَظِيمَةُ الَّذِي لَا يُمْسِكُهَا إِلَّا صَاحِبُ جَيْشِ الْحَرْبِ،أَوْ صَاحِبُ دَعْوَةِ الْجَيْشِ وَيَكُونُ النَّاسُ تَبَعًا لَهُ،وَقَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ:الرَّايَةُ بِمَعْنَى اللِّوَاءِ،وَهُوَ الْعَلَمُ الَّذِي يُحْمَلُ فِي الْحَرْبِ،يُعْرَفُ بِهِ صَاحِبُ الْجَيْشِ،وَقَدْ يَحْمِلُهُ أَمِيرُ الْجَيْشِ،وَقَدْ يَدْفَعُهُ إِلَى مُقَدَّمِ الْعَسْكَرِ،وَقَدْ صَرَّحَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ بِتَرَادُفِهِمَا (وَفِي رِوَايَةٍ:«لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غَدْرِهِ»)؛أَيْ طُولًا وَعَرْضًا فِي مُقَابَلَةِ غَدْرِهِ كَمِّيَّةً وَكَيْفِيَّةً (أَلَا) لِلتَّنْبِيهِ (وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ)؛أَيْ مِنْ غَدْرِ أَمِيرِ عَامَّةٍ وَهُوَ مَنْ يَسْتَوْلِي عَلَى الْأُمُورِ بِتَقْدِيمِ الْعَوَامِّ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ وَلَا مَشُورَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ،وَعَظَّمَ قَدْرَهُ لِنَقْضِ الْعَهْدِ الْمَشْرُوعِ،إِذِ الْوِلَايَةُ بِرَأْيِ الْخَوَاصِّ،وَهُوَ قَدْ تَوَلَّى مَا لَا يَسْتَعِدُّهُ،وَمَنَعَهُ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ،فَنَقَضَ بِهَذَا عَهْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَعُهُودَ الْمُسْلِمِينَ؛أَيْضًا؛بِالْخُرُوجِ عَلَى إِمَامِهِمْ،وَالتَّغَلُّبِ عَلَى نُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،قَالَ النَّوَوِيُّ:فِيهِ بَيَانُ غَلِيظِ تَحْرِيمِ الْغَدْرِ لَا سِيَّمَا صَاحِبُ الْوِلَايَةِ الْعَامَّةِ؛لِأَنَّ غَدْرَهُ يَتَعَدَّى ضَرَرُهُ إِلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ.وَالْمَشْهُورُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ وَارِدٌ فِي ذَمِّ الْغَادِرِ،وَغَدْرِهِ لِلْأَمَانَةِ الَّتِي قُلِّدَهَا لِرَعِيَّتِهِ،وَالْتِزَامِ الْقِيَامِ بِهَا وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا،فَمَتَى خَانَهُمْ،أَوْ تَرَكَ الشَّفَقَةَ عَلَيْهِمْ وَالرِّفْقَ بِهِمْ فَقَدْ غَدَرَ بِعَهْدِهِ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ نَهْيُ الرَّعِيَّةِ عَنِ الْغَدْرِ بِالْإِمَامِ؛فَلَا يُشَقُّ عَلَيْهِمُ الْعَصَا،فَلَا يُتَعَرَّضُ لِمَا يُخَافُ حُصُولُ فِتْنَةٍ بِسَبَبِهِ،وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٢٣)

[912] -مسند البزار = البحر الزخار (٧/ ٢٥٣)(٢٨٣٢) والسنة لابن أبي عاصم (٢/ ٣٥٣)(٧٥٩) والمعجم الأوسط (٨/ ٢٣١)(٨٤٩١) والمعجم الكبير للطبراني (٣/ ١٦٧)(٣٠٢٠) حسن

[913] - صحيح البخاري (١/ ١٦)(٣٤) وصحيح مسلم (١/ ٧٨) ١٠٦ - (٥٨)

[ش (أربع من كن فيه) الذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه إن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفرخصلة)

وعَنِ عُمَرَ بْنِ مُجَاشِعٍ.قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:الْقُوَّةُ فِي الْعَمَلِ أَلا تُـؤَخِّرَ عَمَـلَ الْيَـوْمِ لِغَدٍ،وَالأَمَانَةُ أَلا تُخَالِفَ سَرِيرَةٌ عَلانِيَةً،وَاتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،فَإِنَّمَا التَّقْوَى بِالتَّوَقِّي،وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَقِهْ[٩١٤] .

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ :لاَ تُؤَخِّرْ عَمَلَ الْيَوْمِ لِغَدٍ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا فِي غَدٍ.[٩١٥]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى:" أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ أَنْ لَا تُؤَخِّرَ عَمَـلَ الْيَـوْمِ لِغَـدٍ،فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْـتُمْ ذَلِـكَ تَـدَارَكَتْ عَلَـيْكُمُ الْأَعْمَـالُ،فَلَمْ تَـدْرُوا بِأَيِّهَـا تَأْخُذُونَ،فَأَضَعْتُمْ،وَإِنَّ الْأَعْمَالَ مُؤَدَّاةٌ إِلَى الْأَمِيرِ مَا أَدَّى الْأَمِيرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،فَإِذَا رَتَعَ الْأَمِيرُ رَتَعُوا،وَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِمْ،فَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكَنِي أَوْ قَالَ:تُدْرِكَنَا فَإِنَّهَـا ضَـغَائِنُ مَحْمُولَةٌ،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ،وَأَهْوَاءٌ مُتَّبَعَةٌ فَأَقِيمُوا الْحَقَّ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ "[٩١٦]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:" إِنَّ النَّاسَ يُؤَدُّونَ إِلَـى الْإِمَامِ مَا أَدَّى الْإِمَامُ إِلَى اللهِ ،وَإِنَّ الْإِمَامَ إِذَا رَتَعَ رَتَعَتِ الرَّعِيَّةُ ،وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّـاسِ نُفْرَةٌ عَنْ سُلْطَانِهِمْ ،وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يُدْرِكَنِي وَإِيَّاكُمْ ضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ ،وَأَهْوَاءٌ مُتَّبَعَةٌ ،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ ،فَأَقِيمُوا الْحَقَّ ،وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ "[٩١٧]

وعَنْ أَبِي رَوَاحَةَ يَزِيدَ بْنِ أَيْهَمَ قَالَ:" كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى النَّاسِ:اجْعَلُوا النَّاسَ عِنْدَكُمْ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ،قَرِيبُهُمْ كَبَعِيدِهِمْ ،وَبَعِيدُهُمْ كَقَرِيبِهِمْ ،وَإِيَّاكُمْ وَالرِّشَا ،وَالْحُكْمَ بِالْهَوَى ،وَأَنْ تَأْخُذُوا النَّاسَ عِنْدَ الْغَضَبِ ،فَقُومُوا بِالْحَقِّ ،وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ "[٩١٨]

وعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ،قَالَ :كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى :إِنَّ لِلنَّاسِ نُفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِمْ،فَأَعُوذُ بِـاللهِ أَنْ تُدْرِكَنِي وَإِيَّاكُمْ ضَغَائِنَ مَحْمُولَةً ،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ،وَأَهْوَاءَ مُتَّبَعَةً،وَإِنَّهُ سَتُدْعَى الْقَبَائِلُ ،وَذَلِـكَ

صفة.(يدعها) يتركها ويخلص نفسه منها.(غدر) ترك الوفاء بالعهد.(كان منافقا خالصا) معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال (وإذا خاصم فجر) أي مال عن الحق وقال الباطل والكذب قال أهل اللغة وأصل الفجور الميل عن القصد]

[٩١٤] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢١٣) فيه انقطاع

[٩١٥] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ٣٨٠)(٣٦٣٩٦) صحيح

[٩١٦] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(١٠) صحيح لغيره

[٩١٧] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٢٩)(٢٠٤٦١) صحيح لغيره

[٩١٨] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٢٩)(٢٠٤٦٢) فيه انقطاع

نخْوَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ،فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَالسَّيْفَ السَّيْفَ،الْقَتْلَ الْقَتْلَ،يَقُولُونَ :يَا أَهْلَ الإِسْلاَمِ،يَا أَهْلَ الإِسْلاَمِ.[919]

____

العدل في الحكم ومساواة الناس أمام القضاء:

وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه:" وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،وَالْقَوِيُّ مِنْكُمُ الضَّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "[920] وهذا يدل على مساواة الجميع أمام القضاء دون تمييز وتفريق بين ولاة الأمور وسائر الرعية وبين الأقوياء والضعفاء،فلا يملك الإمام أو غيره من الولاة حصانة تمنع من محاكمتهم والحكم عليهم،بل يمثل إمام المسلمين وسائر الأمراء أمام القضاء كغيرهم من الناس،فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ،وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ» " رواه ابن ماجه[921].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ،فَقَالُوا:وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ،أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ،وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا " متفق عليه[922]

---

[919] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢١/ ٥٩)(٣٨٣٣٦) حسن لغيره

[920] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٢١٠)

[921] - سنن ابن ماجه (٢/ ٨٤٩)(٢٥٤٠) حسن

يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِمَا الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ فِي النَّسَبِ أَوِ الْقُوَّةُ أَوِ الضَّعْفُ وَالثَّانِي أَنْسَبُ؛لِأَنَّ الْمَعْنَى أَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي كُلِّ أَحَدٍ (وَلَا تَأْخُذْكُمْ) بِالْجَزْمِ عَطْفٌ عَلَى أَقِيمُوا فَيَكُونُ نَهْيًا تَأْكِيدًا لِلْأَمْرِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالرَّفْعِ فَيَكُونُ خَبَرًا بِمَعْنَى النَّهْيِ (فِي اللَّهِ) أَيْ فِي إِجْرَاءِ حُكْمِهِ وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ (لَوْمَةُ لَائِمٍ) أَيْ مَلَامَةُ أَحَدٍ مِنَ اللَّائِمِينَ الْمُوَافِقِينَ أَوِ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَافِقِينَ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٥٢)

[922] - صحيح البخاري (٤/ ١٧٥)(٣٤٧٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥)٨ - (١٦٨٨)

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيه،عَنْ جَدِّه،قَالَ:قَالَ رَسُــولُ اللَّــهِ ﷺ:«الْمُسْــلِمُونَ تَتَكَافَــأُ دِمَاؤُهُمْ.يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ،وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَرُدُّ مُشِــدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ،وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِه»[٩٢٣]

[ش (أهمهم) أحزنهم وأثار اهتمامهم.(شأن..) حالها وأمرها.(المخزومية) نسبة إلى بني مخزوم واسمها فاطمة بنت الأسود وكانت سرقت حليا يوم فتح مكة.(حب) محبوب.(أتشفع في حد) تتوسل أن لا يقام حد فرضه الله تعالى والحد عقوبة مقدرة من المشرع.(الشريف) الذي له شأن في قومه بسبب مال أو نسب أو عشيرة.(الضعيف) من ليس له عشيرة أو وجاهة في قومه.(وايم الله) لفظ من ألفاظ القسم أصلها وأيمن الله فحذفت النون تخفيفا وقد تقطع الهمزة وقد توصل]

[٩٢٣] - سنن أبي داود (٣/ ٨٠)(٢٧٥١) صحيح

قَالَ الطِّيبِيُّ:وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ جُمْلَةِ مَا قَدْ كَانَ فِي الصَّحِيفَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي قِرَابِ سَيْفِه،(عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:" الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ "):بِالتَّأْنِيثِ وَهَمْزِ آخِرِه أَيْ تَتَسَاوَى (" دِمَاؤُهُمْ):فِي الدِّيَاتِ وَالْقِصَاصِ.فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:يُرِيدُ بِه أَنَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ مُتَسَاوِيَةٌ فِي الْقِصَاصِ،يُقَادُ الشَّرِيفُ مِنْهُمْ بِالْوَضِيعِ،وَالْكَبِيرُ بِالصَّغِيرِ،وَالْعَالِمُ بِالْجَاهِلِ،وَالْمَرْأَةُ بِالرَّجُلِ،وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ شَرِيفًا أَوْ عَالِمًا،وَالْقَاتِلُ وَضِيعًا أَوْ جَاهِلًا،وَلَا يُقْتَلُ بِه غَيْرُ قَاتِلِه عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ،وَكَانُوا لَا يَرْضَوْنَ فِي دَمِ الشَّرِيفِ بِالِاسْتِقَادَةِ مِنْ قَاتِلِه الْوَضِيعِ،حَتَّى يَقْتُلُوا عِدَّةً مِنْ قَبِيلَةِ الْقَاتِلِ.(" وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ "):أَيْ بِأَمَانِهِمْ (" أَدْنَاهُمْ "):فِي الْفَائِقِ:الذِّمَّةُ الْأَمَانُ،وَمِنْهَا سُمِّيَ الْمُعَاهَدُ ذِمِّيًّا؛لِأَنَّهُ أُومِنَ عَلَى مَالِه وَدَمِه لِلْجِزْيَةِ،وَالْمَعْنَى إِذَا أَعْطَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَمَانًا فَلَيْسَ لِلْبَاقِينَ إِخْفَارُهُ أَيْ نَقْضُ عَهْدِه وَأَمَانِه.فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:أَيْ إِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا أَمَّنَ كَافِرًا حَرُمَ عَلَى عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ دَمُهُ،وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمُجِيرُ أَدْنَاهُمْ،مِثْلَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا أَوِ امْرَأَةً أَوْ عَسِيفًا تَابِعًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ،فَلَا يَخْفِرُ ذِمَّتَهُ.وَفِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ:«سَيُجِيرُ عَلَى أُمَّتِي أَدْنَاهُمْ» .رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.(" وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ "):فِي شَرْحِ السُّنَّةِ فِيهِ وَجْهَانِ:أَحَدُهُمَا:أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ قَاصِيَ الدَّارِ عَنْ بِلَادِ الْكُفْرِ إِذَا عَقَدَ لِلْكَافِرِ عَقْدًا فِي الْأَمَانِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ نَقْضُهُ،وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ دَارًا مِنَ الْمَعْقُودِ لَهُ،وَثَانِيهِمَا:إِذَا دَخَلَ الْعَسْكَرُ دَارَ الْحَرْبِ،فَوَجَّهَ الْإِمَامُ سَرِيَّةً مِنْهُمْ،فَمَا غَنِمَتْ مِنْ شَيْءٍ أَخَذَتْ مِنْهُ مَا سَمَّى لَهَا،وَيَرُدُّ عَلَى الْعَسْكَرِ الَّذِينَ خَلْفَهُمْ،لِأَنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْهَدُوا الْغَنِيمَةَ كَانُوا رِدْءًا لِلسَّرَايَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَكَذَا فِي النِّهَايَةِ،وَهُوَ اخْتِيَارُ الْقَاضِي،وَالْأَوَّلُ هُوَ الظَّاهِرُ لِمَا يَلْزَمُ مِنَ الثَّانِي التَّعْمِيَةُ وَالْإِلْغَازُ؛لِأَنَّ مَفْعُولَ يَرُدُّ غَيْرُ مَذْكُورٍ،وَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِخِلَافِ الْأَوَّلِ،لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَرِينَتَيْنِ تَكْرَارٌ؛لِأَنَّ الْمَعْنَى يُجِيرُ بِعَهْدِهِمْ أَدْنَاهُمْ مَنْزِلَةً وَأَبْعَدَهُمْ مَنْزِلًا،وَيَنْصُرُ الْوَجْهَ الثَّانِي الْحَدِيثُ السَّادِسُ مِنَ الْفَصْلِ الثَّانِي فِي بَابِ الدِّيَاتِ وَسَيَجِيءُ بَيَانُهُ.(" وَهُمْ):أَيِ الْمُسْلِمُونَ (يَدٌ "):أَيْ كَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ فِي التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ.(" عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ):قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:أَيِ الْمُسْلِمُونَ لَا يَسَعُهُمُ التَّخَاذُلُ،بَلْ يُعَاوِنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَقَدْ سَبَقَ تَحْقِيقُ هَذَا التَّرْكِيبِ وَبَيَانُ مَجَازِه (" أَلَا "):بِالتَّخْفِيفِ لِلتَّنْبِيهِ (" «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ» "):أَيْ حَرْبِيٍّ بِدَلِيلِ عَطْفِ مَا بَعْدَهُ عَلَيْهِ،فَلَا يُنَافِيهِ مَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ مِنْ أَنَّهُ يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالذِّمِّيِّ،وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ مُطْلَقًا (" وَلَا ذُو عَهْدٍ "):أَيْ لَا يُقْتَلُ (" فِي عَهْدِه "):أَيْ فِي زَمَانِه وَحَالِه.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَيْ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُ ابْتِدَاءً مَا دَامَ فِي الْعَهْدِ.قَالَ الْقَاضِي:أَيْ لَا يُقْتَلُ لِكُفْرِه مَا دَامَ مُعَاهِدًا غَيْرَ نَاقِضٍ.وَقَالَ الْحَنَفِيَّةُ:مَعْنَاهُ لَا يُقْتَلُ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِه بِكَافِرٍ قِصَاصًا،وَلَا شَكَّ أَنَّ الْكَافِرَ الَّذِي لَا يُقْتَلُ بِه الْمُعَاهِدُ هُوَ الْحَرْبِيُّ دُونَ الذِّمِّيِّ،فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَافِرِ الَّذِي لَا يُقْتَلُ بِه الْمُسْلِمُ هُوَ الْحَرْبِيُّ تَسْوِيَةً بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ.

وعَنْ قَيْسِ بْنِ عَبَّادٍ،قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ أَنَا وَالْأَشْتَرُ،فَقُلْنَا:هَلْ عَهِدَ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَهْدًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً؟ قَالَ:لَمْ يَعْهَدْ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ عَهْدًا غَيْرَ مَا عَهِدَهُ إِلَى النَّاسِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِي هَذَا،وَأَخْرَجَ صَحِيفَةً مِنْ جَفْنِ سَيْفِهِ،فِيهَا:«الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،وَلَا عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ،مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا،فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٩٢٤]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ شَيْئًا،أَقْبَلَ رَجُلٌ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ فَطَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعُرْجُونٍ مَعَهُ،فَجُرِحَ بِوَجْهِهِ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَعَالَ فَاسْتَقِدْ»،فَقَالَ:قَدْ عَفَوْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ" رواه أبو داود والنسائي[٩٢٥].

وعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ،رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ:بَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَكَانَ فِيهِ مِزَاحٌ بَيْنَا يُضْحِكُهُمْ فَطَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ فَقَالَ:أَصْبِرْنِي فَقَالَ:«اصْطَبِرْ» قَالَ:إِنَّ عَلَيْكَ

قُلْتُ:ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي.قَالَ:وَهُوَ ضَعِيفٌ؛لِأَنَّهُ إِضْمَارٌ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ،وَلَا دَلِيلَ يَقْتَضِيهِ،وَأَنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ غَيْرُ لَازِمٍ.قُلْتُ:عَدَمُ لُزُومِهِ مُسَلَّمٌ لَكِنَّهُ مُسْتَحْسَنٌ،فَالْمَبْنِيُّ عَلَيْهِ أَحْسَنُ،وَهُوَ الدَّلِيلُ الْمُقْتَضِي لِلْإِضْمَارِ،فَضَعُفَ قَوْلُهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ.قَالَ:ثُمَّ إِنَّهُ يُفْضِي إِلَى أَنْ يُؤَوَّلَ قَوْلُهُ:لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ إِلَى أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِحَرْبِيٍّ،فَيَكُونُ لَغْوًا لَا فَائِدَةَ فِيهِ.قُلْتُ:بَلِ الْفَائِدَةُ فِيهِ أَنَّهُ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِذِمِّيٍّ عِنْدَنَا،فَيَتَعَيَّنُ هَذَا التَّأْوِيلُ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:لَوْلَا أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَصْحَابُ لَكَانَ الْكَلَامُ خَالِيًا عَنِ الْفَائِدَةِ لِحُصُولِ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ الْمُعَاهِدَ لَا يُقْتَلُ فِي عَهْدِهِ.فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:فَائِدَتُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺلَمَّا أَسْقَطَ الْقَوَدَ عَنِ الْمُسْلِمِ إِذَا قَتَلَ الْكَافِرَ أَوْجَبَ ذَلِكَ تَوْهِينَ حُرْمَةِ دِمَاءِ الْكُفَّارِ،فَلَمْ يُؤْمَنْ مِنْ وُقُوعِ شُبْهَةٍ لِبَعْضِ السَّامِعِينَ فِي حُرْمَةِ دِمَائِهِمْ وَإِقْدَامِ الْمُسْرِعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَتْلِهِمْ،فَأَعَادَ الْقَوْلَ فِي حَظْرِ دِمَائِهِمْ دَفْعًا لِلشُّبْهَةِ،وَقَطْعًا لِتَأْوِيلِ الْمُتَأَوِّلِ اهـ. وَلَا يَخْفَى ضَعْفُهُ وَإِنْ قَوَّاهُ الطِّيبِيُّ مِمَّا تَكَلَّفَهُ.قَالَ الْأَشْرَفُ:قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُوسَى:يَحْتَمِلُ هَذَا الْحَدِيثُ وَجْهًا آخَرَ،وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِأَحَدٍ مِنَ الْكُفَّارِ،وَلَا مُعَاهِدٌ بِبَعْضِ الْكُفَّارِ وَهُوَ الْحَرْبِيُّ،وَلَا يُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ يُعْطَفُ عَلَيْهَا سِيمَاءَانِ يَكُونُ أَحَدُهُمَا رَاجِعًا إِلَى جَمِيعِهَا،وَالْآخَرُ إِلَى بَعْضِهَا.قُلْتُ:لَا شَكَّ أَنَّهُ حِينَئِذٍ يُحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ فِي الْكَلَامِ لِيَظْهَرَ بِهِ الْمَرَامُ،وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَائِنَا فِي شَرْحِهِ:قَوْلُهُ:ذُو عَهْدٍ.عَطْفٌ عَلَى مُسْلِمٍ،وَالْمُرَادُ بِهِ:ذُو أَمَانٍ لَا ذُو إِيمَانٍ؛لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ،وَإِلَّا يَصِيرُ مَعْنَاهُ:لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ وَلَا مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ إِلَّا أَنَّ فِيهِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا تَقْدِيرُهُ:لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ بِكَافِرٍ،وَالْمُرَادُ بِالْكَافِرِ الْحَرْبِيُّ دُونَ الذِّمِّيِّ؛لِأَنَّهُ يُقْتَلُ الذِّمِّيُّ بِمِثْلِهِ إِجْمَاعًا.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٢٧٤)

[٩٢٤] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٣٩)(٧١٩) صحيح

[٩٢٥] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٤/ ٣٤٦)(٦٤٣٤) وسنن أبي داود (٤/ ١٨٢)(٤٥٣٦) وسنن النسائي (٨/ ٣٢)(٤٧٧٣) ومسند أحمد ط الرسالة (١٧/ ٣٢٧)(١١٢٢٩) حسن

قَميصًا وَلَيْسَ عَلَيَّ قَميصٌ،«فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَميصِه،فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ»،قَالَ إِنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّه" أخرجه أبو داود[٩٢٦].

وعَنْ أَشْيَاخٍ مِنْ قَوْمِه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَدَلَ صُفُوفَ أَصْحَابِه يَوْمَ بَدْرٍ،وَفِي يَدِه قَدَحٌ يُعَدِّلُ بِه الْقَوْمَ،فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ حَلِيفِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ قَالَ:وَهُوَ مُسْتَنْتِلٌ مِنَ الصَّفِّ،فَطَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْقَدَحِ فِي بَطْنِه،وَقَالَ:" اسْتَوِ يَا سَوَادُ " فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ أَوْجَعْتَنِي وَقَدْ بَعَثَكَ اللهُ بِالْعَدْلِ،فَأَقِدْنِي قَالَ:فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ " اسْتَقِدْ " قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ طَعَنْتَنِي وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ قَالَ:فَكَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَطْنِه،وَقَالَ:" اسْتَقِدْ " قَالَ:فَاعْتَنَقَهُ،وَقَبَّلَ بَطْنَهُ،وَقَالَ:" مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ ؟ " قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،حَضَرَنِي مَا تَرَى،وَلَمْ آمَنِ الْقَتْلَ،فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الْعَهْدِ بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ،فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَهُ بِخَيْرٍ،وَقَالَهُ"[٩٢٧]

وعَنْ أَشْيَاخٍ مِنْ قَوْمِه،ان رسول الله ﷺ عَدَلَ صُفُوفَ أَصْحَابِه يَوْمَ بَدْرٍ،وَفِي يَدِه قَدَحٌ يَعْدِلُ بِهِ الْقَوْمَ،فَمَرَّ بِسُوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ،حَلِيفِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ،وَهُو مستنتل من الصف،فطعن

---

[٩٢٦] - سنن أبي داود (٤/ ٣٥٦)(٥٢٢٤) صحيح

وَالْمَعْنَى:فَضَرَبَهُ - ﷺ- عَلَى طَرِيقِ الْمِزَاحِ (فِي خَاصِرَتِه) أَيْ:شَاكِلَتِه (بِعُودٍ) أَيْ:بِخَشَبٍ مِنْ عَصًا أَوْ غَيْرِهَا (فَقَالَ:أَصْبِرْنِي):بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ أَيْ:أَقْدِرْنِي وَمَكِّنِّي مِنِ اسْتِيفَاءِ الْقِصَاصِ حَتَّى أَطْعَنَ فِي خَاصِرَتِكَ،كَمَا طَعَنْتَ فِي خَاصِرَتِي (قَالَ:أَصْطَبِرُ):بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ،أَيْ:أُمَكِّنُكَ مِنَ الْقِصَاصِ وَاقْتَصَّ مِنْ نَفْسِي،وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ؛بَلْ قِيلَ هِيَ الْأَصَحُّ اصْطَبِرْ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ أَيِ:اسْتَوْفِ الْقِصَاصَ،وَالِاصْطِبَارُ الِاقْتِصَاصُ ذَكَرَهُ شَارِحٌ.وَفِي النِّهَايَةِ قَوْلُهُ:أَصْبِرْنِي أَيْ:أَقْدِرْنِي مِنْ نَفْسِكَ.قَالَ:اسْتَقِدْ،يُقَالُ:أَصْبَرَ فُلَانٌ مَنْ خَصْمِه وَاصْطَبَرَ أَيِ:اقْتَصَّ مِنْهُ،وَأَصْبَرَهُ الْحَاكِمُ أَيْ:أَقَصَّهُ مِنْ خَصْمِه.قَالَ صَاحِبُ الْفَائِقِ:وَأَصْلُهُ الْحَبْسُ حَتَّى يُقْتَلَ،وَأَصْبَرَهُ الْقَاضِي صَبَارًا أَقَصَّهُ أَوِ اصْطَبَرَ،أَيِ:اقْتَصَّ.(قَالَ:إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ):حِكَايَةُ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ وَمِنَ الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ قَمِيصٌ (فَرَفَعَ النَّبِيُّ - ﷺ- عَنْ قَمِيصِه):عَدَّاهُ بِعَنْ لِتَضْمِينِه مَعْنَى كَشَفَ،أَيْ:كَشَفَ عَمَّا سَتَرَهُ قَمِيصُهُ فَرَفَعَهُ عَنْهُ.ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا} [النمل:٤٤] (فَاحْتَضَنَهُ) أَيِ:اعْتَنَقَهُ وَأَخَذَهُ فِي حِضْنِه،وَهُوَ مَا دُونُ الْإِبِطِ إِلَى الْكَشْحِ (وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ) أَيْ:جَنْبَهُ،قَالَ الشَّارِحُ،وَتَبِعَهُ ابْنُ الْمَلَكِ:هُوَ مَا بَيْنَ الْخَاصِرَةِ إِلَى الضِّلْعِ الْأَقْصَرِ مِنْ أَضْلَاعِ الْجَنْبِ.(قَالَ:إِنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّه) أَيْ:مَا أَرَدْتُ بِقَوْلِي أَصْبِرْنِي إِلَّا هَذَا التَّقْبِيلَ،وَمَا قَصَدْتُ حَقِيقَةَ الْقِصَاصِ،أَقُولُ:وَهَذَا لَا مُمَاثَلَةَ،فَإِنَّ هَذَا أَعْلَى وَأَغْلَى مَعَ أَنَّ لَهُ بِطَعْنِه أَيْضًا مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مَا يَنْسَى فِي جَنْبِه جَمِيعَ نَعِيمِ الدُّنْيَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِإِبَاحَةِ الْمِزَاحِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَحْذُورٌ شَرْعًا،وَبِاسْتِمَاعِه أَيْضًا.قُلْتُ:الظَّاهِرُ أَنَّ الْمِزَاحَ بِشَرْطِه مِنْ بَابِ الِاسْتِحْبَابِ؛لِأَنَّهُ مَعْدُودٌ فِي شَمَائِلِه.."مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٦٧)

[٩٢٧] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٤٠٤)(٣٥٥٠) صحيح مرسل

رسول الله ص فِي بَطْنِهِ بِالْقَدَحِ،وَقَالَ:اسْتَوِ يَا سُواد بن غزيه،قال:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْجَعْتَنِي وَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ بالحق،فأقدني قال:فكشف رسول الله ﷺ عَنْ بَطْنِهِ [ثُمَّ قَالَ:اسْتَقِدْ،قَالَ:فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَ بَطْنَهُ،فَقَالَ:مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سُوَادُ؟ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،حَضَرَ مَا تَرَى فَلَمْ آمَنِ الْقَتْلَ.فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْعَهْدِ بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَيْرٍ،وَقَالَ لَهُ خَيْرًا] .[928]

وعَنْ أَبِي فِرَاسٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ،وَإِذْ يُنَبِّئُنَا مِنْ أَخْبَارِكُمْ،أَلَا وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَد انْطَلَقَ وَرُفِعَ الْوَحْيُ،وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ لَكُمْ،أَلَا وَمَنْ يُظْهِرُ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ،وَمَنْ يُظْهِرُ مِنْكُمْ شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ،أَلَا وَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَأَنَا أَحْسَبُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ بِهِ اللَّهَ تَعَالَى وَمَا عِنْدَهُ،وَلَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرِهِ أَنَّ قَوْمًا يَقْرَأُونَهُ يُرِيدُونَ مَا عِنْدَ النَّاسِ،أَلَا فَأَرِيدُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ بِقِرَاءَتِكُمْ وَبِعَمَلِكُمْ،أَلَا وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَبْعَثُ عُمَّالِي لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ وَيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ،وَلَكِنِّي أَبْعَثُهُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَنَكُمْ،وَيَعْدِلُوا بَيْنَكُمْ وَيَقْسِمُوا فِيكُمْ فَيْئَكُمْ،أَلَا مَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيُرَافِعْهُ إِلَيَّ،وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَأُقِصَّهُ مِنْهُ» فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ عَلَى رَعِيَّةٍ،فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ إِنَّكَ لَمُقِصُّهُ مِنْهُ،قَالَ:«وَمَا لِي لَا أُقِصُّهُ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُصُّ مِنْ نَفْسِهِ،أَلَا لَا تَضْرِبُوهُمْ فَتُذِلُّوهُمْ،وَلَا تَمْنَعُوهُمْ حَقَّهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ،وَلَا تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ،وَلَا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ»[929]

وعَنْ أَبِي فِرَاسٍ،قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ:إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ عُمَّالِي لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ،وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ،فَمَنْ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ أُقِصُّهُ مِنْهُ،قَالَ عَمْرُو بْنُ

[928] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٦) صحيح مرسل

[929] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٨٥)(٨٣٥٦) حسن

الْعَاصِ:لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ أَتُقِصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ:إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أُقِصُّهُ،وَقَدْ «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقَصَّ مِنْ نَفْسِهِ» رواه أبو داود[930]

وعند أحمد وعَنْ أَبِي فِرَاسٍ،قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،أَلَا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ،وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ،وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ،أَلَا وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَد انْطَلَقَ،وَقَد انْقَطَعَ الْوَحْيُ،وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ،مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ،وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا،وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ،سَرَائِرُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ،أَلا إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأَنَا أَحْسِبُ أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللهَ وَمَا عِنْدَهُ،فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرَةٍ أَلا إِنَّ رِجَالًا قَدْ قَرَؤُوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ،فَأَرِيدُوا اللهَ بِقِرَاءَتِكُمْ،وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ.أَلا إِنِّي وَاللهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ،وَلا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ،وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ،فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ،فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذاً لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ،فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،أَوَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ،فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ،أَئِنَّكَ لَمُقْتَصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ:إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ،إِذاً لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ،أَنَّى لا أُقِصَّنَّهُ مِنْهُ،وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ؟ أَلا لَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ،وَلا تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ،وَلا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ،وَلا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ .[931].

وعَنْ يَسَارٍ قَالَ:سَمِعْتُ الشَّعْبِيَّ قَالَ:كَانَ بَيْنَ عُمَرَ وَأُبَيٍّ خُصُومَةٌ فَقَالَ أُبَيٌّ لِعُمَرَ:اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ رَجُلًا،فَجَعَلَ بَيْنَهُمَا زَيْدًا فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَتَيْنَاكَ لِتَحْكُمَ بَيْنَنَا،وَفِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكَمُ،فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى صَدْرِ فِرَاشِهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:هَذَا أَوَّلُ جَوْرِكَ،جُرْتَ فِي حُكْمِكَ،أَجْلِسْنِي وَخَصْمِي،فَجَلَسَا فَقَصَّا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَقَالَ زَيْدٌ:الْيَمِينُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،وَلَوْ شِئْتَ أَعْفَيْتَهُ قَالَ:فَأَقْسَمَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى ذَلِكَ،ثُمَّ أَقْسَمَ لَهُ:لَا تُدْرِكُ بَابَ الْقَضَاءِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِي عَلَى أَحَدٍ عِنْدَكَ فَضِيلَةٌ " [932]

---

[930] - سنن أبي داود (٤/ ١٨٣)(٤٥٣٧) حسن

[931] - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٣٨٤)(٢٨٦) حسن

[932] - تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٥٦) والسنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٤٥٠)(١٠٤٦٣) والسنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٤٣)(٢٠٥١٠) فيه انقطاع

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:كَانَتْ لِلْعَبَّاسِ دَارٌ إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ فِي الْمَدِينَةِ،فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:بِعْنِيهَا أَوْ هَبْهَا لِي؛حَتَّى أُدْخِلَهَا فِي الْمَسْجِدِ " فَأَبَى،فَقَالَ:اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،فَجَعَلَا بَيْنَهُمَا أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ،فَقَضَى لِلْعَبَّاسِ عَلَى عُمَرَ،فَقَالَ عُمَرُ:مَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَجْرَأَ عَلَيَّ مِنْكَ،فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ:أَوْ أَنْصَحَ لَكَ مِنِّي،ثُمَّ قَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،أَمَا بَلَغَكَ حَدِيثُ دَاوُدَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَهُ بِبِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ،فَأَدْخَلَ فِيهِ بَيْتَ امْرَأَةٍ بِغَيْرِ إِذْنِهَا،فَلَمَّا بَلَغَ حُجَزَ الرِّجَالِ مَنَعَهُ اللَّهُ بِنَاءَهُ،قَالَ دَاوُدُ:أَيْ رَبِّ،إِنْ مَنَعْتَنِي بِنَاءَهُ،فَاجْعَلْهُ فِي خَلَفِي.فَقَالَ الْعَبَّاسُ:" أَلَيْسَ قَدْ قَضَيْتَ لِي بِهَا وَصَارَتْ لِي؟ " قَالَ:بَلَى،قَالَ:" فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُهَا لِلَّهِ "[٩٣٣]

وعَنْ شُرَيْحٍ،قَالَ:لَمَّا تَوَجَّهَ عَلِيٌّ إِلَى حَرْبِ مُعَاوِيَةَ افْتَقَدَ دِرْعًا لَهُ،فَلَمَّا انْقَضَتِ الْحَرْبُ وَرَجَعَ إِلَى الْكُوفَةِ أَصَابَ الدِّرْعَ فِي يَدِ يَهُودِيٍّ يَبِيعُهَا فِي السُّوقِ،فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ:" يَا يَهُودِيُّ،هَذِهِ الدِّرْعُ دِرْعِي،لَمْ أَبِعْ وَلَمْ أَهَبْ.فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:دِرْعِي وَفِي يَدِي.فَقَالَ عَلِيٌّ:نَصِيرُ إِلَى الْقَاضِي.فَتَقَدَّمَا إِلَى شُرَيْحٍ،فَجَلَسَ عَلِيٌّ جَنْبَ شُرَيْحٍ وَجَلَسَ الْيَهُودِيُّ بَيْنَ يَدَيْهِ،فَقَالَ عَلِيٌّ:" لَوْلَا أَنَّ خَصْمِيَ ذِمِّيٌّ لَاسْتَوَيْتُ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«صَغِّرُوا بِهِمْ كَمَا صَغَّرَ اللَّهُ بِهِمْ».فَقَالَ شُرَيْحٌ:قُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.فَقَالَ:نَعَمْ،إِنَّ هَذِهِ الدِّرْعَ الَّتِي فِي يَدِ الْيَهُودِيِّ دِرْعِي،لَمْ أَبِعْ وَلَمْ أَهَبْ.فَقَالَ شُرَيْحٌ:مَا تَقُولُ يَا يَهُودِيُّ؟ فَقَالَ:دِرْعِي وَفِي يَدِي.فَقَالَ شُرَيْحٌ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَيِّنَةً ،قَالَ:نَعَمْ.قَنْبَرٌ وَالْحَسَنُ يَشْهَدَانِ أَنَّ الدِّرْعَ دِرْعِي.قَالَ:شَهَادَةُ الِابْنِ لَا تَجُوزُ لِلْأَبِ "

فَقَالَ:رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ،قَدَّمَنِي إِلَى قَاضِيهِ،وَقَاضِيهِ قَضَى عَلَيْهِ،أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا الْحَقُّ،أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَأَنَّ الدِّرْعَ دِرْعُكَ،كُنْتَ رَاكِبًا عَلَى جَمَلِكَ الْأَوْرَقِ وَأَنْتَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى صِفِّينَ،فَوَقَعَتْ مِنْكَ لَيْلًا فَأَخَذْتُهَا،وَخَرَجَ يُقَاتِلُ مَعَ عَلِيٍّ الشُّرَاةَ بِالنَّهْرَوَانِ فَقُتِلَ "[٩٣٤]

[٩٣٣] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٢٧٨)(١١٩٣٨) وفضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٩٣٩)(١٨٠٧) حسن

[٩٣٤] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ١٤٠) والسنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٣٠)(٢٠٤٦٥) حسن لغيره

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدَ التَّيْمِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:وَجَدَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِب درْعًا لَــهُ عنْــدَ يَهُــودِيٍّ الْتَقَطَهَا فَعَرَّفَهَا،فَقَالَ:«درْعِي،سَقَطَتْ عَنْ جَمَلٍ لِي أَوْرَقَ»،فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:درْعِي وَفِي يَدِي.ثُمَّ قَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ:بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ.فَأَتَوْا شُرَيْحًا،فَلَمَّا رَأَى عَلِيًّا قَدْ أَقْبَلَ تَحَرَّفَ عَنْ مَوْضِعِهِ وَجَلَسَ عَلَى فِيهِ،ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ:لَوْ كَــانَ خَصْــمِي مِــنَ الْمُسْــلِمِينَ لَسَــاوَيْتُهُ فِــي الْمَجْلِسِ،وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تُسَاوُوهُمْ فِي الْمَجْلِسِ،وَأَلْجِئُوهُمْ إِلَى أَضْيَقِ الطُّرُقِ،فَإِنْ سَبُّوكُمْ فَاضْرِبُوهُمْ،وَإِنْ ضَرَبُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ».ثُمَّ قَالَ شُرَيْحٌ:مَا تَشَــاءُ يَــا أَمِــيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ:«درْعِي سَقَطَتْ عَنْ جَمَلٍ لِي أَوْرَقَ،وَالْتَقَطَهَا هَذَا الْيَهُودِيُّ» فَقَالَ شُرَيْحٌ:مَــا تَقُولُ يَا يَهُودِيُّ؟ قَالَ:درْعِي وَفِي يَدِي.فَقَالَ شُرَيْحٌ:صَدَقْتَ وَاللهِ يَــا أَمِــيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّهَــا لَدرْعُكَ،وَلَكِنْ لَابُدَّ مِنْ شَاهِدَيْنِ،فَدَعَا قَنْبَرًا مَوْلَاهُ،وَالْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَشَهِدَا أَنَّهَا لَدرْعُــهُ،فَقَالَ شُرَيْحٌ:أَمَّا شَهَادَةُ مَوْلَاكَ فَقَدْ أَجَزْنَاهَا،وَأَمَّا شَهَادَةُ ابْنِكَ لَكَ فَلَا نُجِيزُهَا "

فَقَالَ عَلِيٌّ:ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ،أَمَا سَمِعْتَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ:قَالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ:«الْحَسَــنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»؟.قَالَ:اللهُمَّ نَعَمْ.قَالَ:أَفَلَا تُجِيزُ شَهَادَةَ سَيِّدِ شَــبَابِ أَهْــلِ الْجَنَّةِ؟ وَاللهِ لَأُوَجِّهَنَّكَ إِلَى بَانْقِيَا تَقْضِي بَيْنَ أَهْلِهَا أَرْبَعِينَ يَوْمًــا،ثُمَّ قَــالَ لِلْيَهُــودِيِّ:خُــذِ الدِّرْعَ.فَقَالَ الْيَهُودِيُّ:أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ جَــاءَ مَعِــي إِلَــى قَاضِــي الْمُسْلِمِينَ،فَقَضَــى عَلَيْــهِ وَرَضِيَ،صَدَقْتَ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهَا لَدرْعُكَ،سَقَطَتْ عَنْ جَمَلٍ لَكَ،الْتَقَطْتُهَا،وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ،فَوَهَبَهَا لَهُ عَلِيٌّ،وَأَجَــازَهُ بِتِسْــعِمِائَةٍ،وَقُتِلَ مَعَــهُ يَــوْمَ صِفِّينَ.السِّيَاقُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَوْنٍ،وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سُلَيْمَانَ:فَقَالَ عَلِيٌّ:الدِّرْعُ لَكَ،وَهَذَا الْفَــرَسُ لَكَ،وَفَرَضَ لَهُ فِي تِسْعِمِائَةٍ،ثُمَّ لَمْ يَزَلْ مَعَهُ حَتَّى قُتِلَ يَوْمَ صِفِّينَ."[٩٣٥]

وعَنْ مُحَمَّدٍ،أَنَّ الْجَارُودَ،قَدِمَ عَلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ:إِنَّ قُدَامَةَ بْــنَ مَظْعُــونٍ شَــرِبَ الْخَمْرَ،فَقَالَ:«مَنْ شُهُودُكَ؟» قَالَ:أَبُو هُرَيْرَةَ،قَالَ:خَتَنُكَ وَاللَّهِ لَأُوجِعَنَّ مَتْنَهُ بِالسَّوْطِ،قَالَ:وَاللَّهِ إِنَّ هَــــذَا لَظُلْمٌ،يَشْــــرَبُ خَتَنُــــكَ وَيُضْــــرَبُ خَتَنِــــي؟ قَــــالَ:«وَمَــــنْ؟» قَالَ:عَلْقَمَةُ،قَالَ:«هَاتِهِمْ»،فَجَاءُوا،فَقَالَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«مَا تَقُولُ» ؟ قَالَ:أَشْــهَدُ أَنِّي رَأَيْتُهُ يَشْرَبُهَا مَعَ ابْنِ زَبْرَاءَ حَتَّى أَوْلَجَهَا بَطْنَهُ،ثُمَّ قَالَ لِعَلْقَمَةَ:«مَا تَقُولُ» ؟ قَــالَ:أَتَجُــوزُ

[٩٣٥] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ١٣٩) حسن لغيره

شَهَادَةُ الْخَصِيِّ؟ قَالَ:«هَات» قَالَ:أَتَجُوزُ شَهَادَةُ الْخَصِيِّ؟ قَالَ:«هَات» قَالَ:أَتَجُوزُ شَهَادَةُ الْخَصِيِّ؟ قَالَ:«هَات» قَالَ:مَا رَأَيْتُهُ يَشْرَبُهَا وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ يَمُجُّهَا،قَالَ:«مَا مَجَّهَا حَتَّى شَرِبَهَا،حَاشَا فِي إِمَارَتِنَا أَحَدًا غَيْرَهُ»،ثُمَّ أَمَرَ بِضَرْبِهِ ".[936]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،وَغَيْرِهِ:أَنَّ الْجَارُودَ ضَرَبَ قُدَامَةَ بْنَ مَظْعُونٍ الْجُمَحِيَّ بِالْبَحْرَيْنِ فِي الْخَمْرِ الْحَدَّ،وَهُوَ أَمِيرُهُمْ،فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ،فَقَامُوا،فَقَالَ لِلْجَارُودِ:" هِيهِ،اجْتَرَأْتَ عَلَى صِهْرِي وَخَالِ وَلَدِي؟ فَقَالَ الْجَارُودُ:لَا أَجْتَرِئُ عَلَى قُرَشِيٍّ بَعْدَكَ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لَأُوجِعَنَّ خَتَنَكَ يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَالَ الْجَارُودُ:أَيَشْرَبُ خَتَنُكَ وَيُضْرَبُ خَتَنِي؟ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:مَا ذَاكَ بِالْعَدْلِ،ثُمَّ قَالَ:هَاتِ بَيِّنَتَكَ،فَجَاءَ بِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَشَهِدَ،وَجَاءَ بِعَلْقَمَةَ الْخَصِيِّ فَشَهِدَ أَنَّهُ رَآهُ قَاءَهَا،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«مَا قَاءَهَا حَتَّى شَرِبَهَا»،فَأَخَّرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُدَامَةَ بَعْضَ التَّأْخِيرِ لِوَجَعٍ كَانَ بِهِ،ثُمَّ دَعَاهُ فَضَرَبَهُ الْحَدَّ،وَقَالَ:وَاللَّهِ لَا أُكَلِّمُكَ أَبَدًا،فَرَأَى رُؤْيَا فَأَتَاهُ فَكَلَّمَهُ،وَقَالَ:مَا حَابَيْتُ مُذْ وُلِّيتُ رَجُلًا غَيْرَهُ،فَمَا بُورِكَ لِي فِيهِ "[937]

وقال ابن قدامة رحمه الله:" وَيَجْرِي الْقِصَاصُ بَيْنَ الْوُلَاةِ وَالْعُمَّالِ وَبَيْنَ رَعِيَّتِهِمْ؛لِعُمُومِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ؛وَلِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،وَلَا نَعْلَمُ فِي هَذَا خِلَافًا.وَثَبَتَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –،أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ شَكَا إلَيْهِ عَامِلًا أَنَّهُ قَطَعَ يَدَهُ ظُلْمًا:لَئِنْ كُنْت صَادِقًا،لَأُقِيدَنَّكَ مِنْهُ.وَثَبَتَ أَنَّ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – كَانَ يُقِيدُ مِنْ نَفْسِهِ.وَرَوَى أَبُو دَاوُد،قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ،فَقَالَ:إنِّي لَمْ أَبْعَثْ عُمَّالِي لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ،وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ،فَمَنْ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ،فَلْيَرْفَعْهُ إلَيَّ،أَقُصُّهُ مِنْهُ.فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ:لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ،أَتَقُصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ:أَيْ وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،أَقُصُّهُ مِنْهُ،وَقَدْ رَأَيْت رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – أَقَصَّ مِنْ نَفْسِهِ.وَلِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،وَهَذَانِ حُرَّانِ مُسْلِمَانِ،لَيْسَ بَيْنَهُمَا إيلَادٌ،فَيَجْرِي الْقِصَاصُ بَيْنَهُمَا،كَسَائِرِ الرَّعِيَّةِ."[938]

---

[936] – تاريخ المدينة لابن شبة (3/ 844) صحيح لغيره

[937] – تاريخ المدينة لابن شبة (3/ 845) صحيح لغيره

[938] – المغني لابن قدامة (8/ 283)

وفي قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه:"والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله " إشارة إلى الرحمة بالضعفاء وإنصافهم،وحمايتهم وحفظ حقوقهم،فعَنْ مُعَاوِيَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لَا يُقْضَى فِيهَا بِالْحَقِّ وَيَأْخُذُ الضَّعِيفُ حَقَّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ» رواه الطبراني [939]

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ مِنْ شَدِيدِهِمْ لِضَعِيفِهِمْ؟ » رواه ابن حبان [940]

وعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ،أَنَّ مُعَاوِيَةَ،كَتَبَ إِلَى مَسْلَمَةَ بْنَ مَخْلَد أَنْ سَلْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،هَلْ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيِّهَا وَهُوَ غَيْرُ مُضْطَهَدٍ»،فَإِنْ قَالَ:نَعَمْ،فَاحْمِلْهُ إِلَيَّ عَلَى الْبَرِيدِ،فَسَأَلَهُ فَقَالَ:نَعَمْ،فَحَمَلَهُ عَلَى الْبَرِيدِ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ،فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ،وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَتَثَبَّتَ" رواه الطبراني [941]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«اللهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ» رواه النسائي [942]

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – :" اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ حَقَّ الْيَتِيمِ وَحَقَّ الْمَرْأَةِ "[943]

وعَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ،أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَهُمْ،قَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ فَيُزْجِي الضَّعِيفَ،وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُمْ» رواه أبو داود[944]

---

[939] – المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٣٨٥)(٩٠٣) صحيح لغيره

[940] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١١/ ٤٤٥)(٥٠٥٩) صحيح

[941] – المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٣٨٧)(٩٠٨) حسن

[942] – السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٢٥٤)(٩١٠٤) صحيح

[943] – عشرة النساء للإمام للنسائي – الطبعة الثالثة (ص:١٧١)٢٥٣-٧٩٠٨ – صحيح

وفي حاشية السندي على ابن ماجه – (ج ٧ / ص ٨٣) قَوْله (إِنِّي أُحَرِّج) بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَة مِنْ التَّحْرِيج أَوْ الْإِحْرَاج أَيْ أُضَيِّق عَلَى النَّاس فِي تَضْيِيع حَقّهمَا وَأُشَدِّد عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَالْمَقْصُود إِشْهَاده تَعَالَى فِي تَبْلِيغ ذَلِكَ الْحُكْم إِلَيْهِمْ وَفِي الزَّوَائِد الْمَعْنَى أُحَرِّج عَنْ هَذَا الْإِثْم بِمَعْنَى أَنْ يَضِيع حَقّهمَا وَأُحَذِّر مِنْ ذَلِكَ تَحْذِيرًا بَلِيغًا وَأَزْجُر عَنْهُ زَجْرًا أَكِيدًا قَالَهُ النَّوَوِيُّ قَالَ وَإِسْنَاده صَحِيح رِجَاله ثِقَات .

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ الْحَضْرَمِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الدَّرْدَاءِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ،فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ» رواه أبو داود[945].

ترك الجهاد في سبيل الله سبب للذل:

وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه:" لا يَدَعُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَإِنَّهُ لا يَدَعُهُ قَوْمٌ إِلا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ "[946] يدل على أن ترك الجهاد سبب للذل وتسلط الأعداء وزوال دولة الإسلام،فإن الحق لا بد له من قوة تحميه وتدافع عنه،وقد قال الله تعالى:{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٢٥١]

وَلُوْلا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بَأسَ أهْلِ البَغْيِ وَالجَوْرِ وَالآثَامِ،بِأهْلِ الصَّلاَحِ وَالخَيْرِ،لغَلَبَ أَهْلَ الفَسَادِ،وَبَغَوْا عَلَى الصَّالحينَ،وَصَارَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فَفَسَدَتِ الأرْضُ،فَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ أنْ أذنَ لِلْمُصْلحينَ بِقِتَالِ البُغَاةِ المُفْسدينَ.وَاللهُ يَمُنُّ عَلَى عِبَادِهِ وَيَرْحَمُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ،وَلَهُ الحِكْمَةُ وَالحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ أقْوَالِهِ وَأفْعَالِهِ.[947]

ولهذا كان قوام الدين بالكتاب الذي يهدي،وبالجهاد الذي ينصر،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ،وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ،سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» أخرجه أحمد وأبو داود[948]

---

[944] - سنن أبي داود (٣/ ٤٤)(٢٦٣٩) صحيح

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ»)؛أَيْ:يَعْقُبُ أَصْحَابَهُ فِي السَّيْرِ تَوَاضُعًا وَتَعَاوُنًا (فَيُزْجِي):بِضَمِّ الْيَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ وَكَسْرِ الْجِيمِ؛أَيْ:فَيَسُوقُ (الضَّعِيفَ)؛أَيْ:مَرْكَبَهُ لِيُلْحِقَهُ بِالرِّفَاقِ (وَيُرْدِفُ):مِنَ الْإِرْدَافِ؛أَيْ:يُرْكِبُ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ مِنَ الْمُشَاةِ (وَيَدْعُو لَهُمْ)؛أَيْ:لِجَمِيعِهِمْ،أَوْ لِبَاقِيهِمْ،فَالْحَاصِلُ أَنَّهُ فِي كَانَ مَدَدُهُمْ وَعَدَدُهُمْ ."مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥١٨)

[945] - سنن أبي داود (٣/ ٣٢)(٢٥٩٤) صحيح

[946] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٢١٠)

[947] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

[948] - سنن أبي داود (٣/ ٢٧٤)(٣٤٦٢) ومسند البزار = البحر الزخار (١٢/ ٢٠٥)(٥٨٨٧) ومسند الشاميين للطبراني (٣/ ٣٢٨) (٢٤١٧) والكنى والأسماء للدولابي (٢/ ٨٥٠)(١٤٨٩) صحيح

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:لَقَدْ أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ،وَمَا نَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنَّا أَحَقُّ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ،حَتَّى كَانَ هَا هُنَا بِأَخَرَةٍ،فَأَصْبَحَ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ أَحَبَّ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ،وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ،وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَتَرَكُوا الْجِهَادَ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ مِنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ» [٩٤٩]

فالجهاد هو طريق العزة والرفعة،وإذا تركت الأمة الجهاد طمع بها الأعداء وحاربوا دينها،وتداعوا على نهب أراضيها وخيراتها كما هو مشاهد اليوم،فعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»،فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ،وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ،وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:«حُبُّ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» أخرجه أبو داود [٩٥٠].

---

[٩٤٩] - تهذيب الآثار مسند عمر (١/ ١٠٨)(١٨٠) صحيح

[٩٥٠] - سنن أبي داود (٤/ ١١١)(٤٢٩٧) صحيح

" يُوشِكُ الْأُمَمُ) أَيْ:يَقْرُبُ فِرَقُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ (" أَنْ تَدَاعَى ")：حَذَفَ إِحْدَى التَّاءَيْنِ،أَيْ:تَتَدَاعَى (عَلَيْكُمْ):بِأَنْ يَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِمُقَاتَلَتِكُمْ وَكَسْرِ شَوْكَتِكُمْ وَسَلْبِ مَا مَلَكْتُمُوهُ مِنَ الدِّيَارِ وَالْأَمْوَالِ (كَمَا تَدَاعَى) أَيْ:تَتَدَاعَى (الْأَكَلَةُ) بِالْمَدِّ،وَهِيَ الرِّوَايَةُ عَلَى نَعْتِ الْفِئَةِ وَالْجَمَاعَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ،كَذَا رَوَى لَنَا عَنْ كِتَابِ أَبِي دَاوُدَ،وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَفْرَادِهِ،ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.وَلَوْ رُوِيَ الْأَكَلَةُ بِفَتْحَتَيْنِ عَلَى أَنَّهُ جَمْعُ آكِلٍ اسْمِ فَاعِلٍ لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ وَجِيهٌ،وَالْمَعْنَى:كَمَا يَدْعُو أَكَلَةُ الطَّعَامِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا (إِلَى قَصْعَتِهَا) أَيِ:الَّتِي يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا بِلَا مَانِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ،فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا صَفْوًا،كَذَلِكَ يَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ بِلَا تَعَبٍ يَنَالُهُمْ،أَوْ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ،أَوْ بَأْسٍ يَمْنَعُهُمْ.

(فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ):خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ،وَقَوْلُهُ:(نَحْنُ يَوْمَئِذٍ):مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ صِفَةٌ لَهَا،أَيْ:أَذَلِكَ التَّدَاعِي لِأَجْلِ قِلَّةٍ نَحْنُ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ (قَالَ:" بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثْرَةٌ ") أَيْ:عَدَدًا وَقَلِيلٌ مَدَدًا،وَهَذَا مَعْنَى الِاسْتِدْرَاكِ بِقَوْلِهِ:(" وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ ") بِالضَّمِّ مَمْدُودًا.
قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:(" كَغُثَاءِ السَّيْلِ "):قَالَ الطِّيبِيُّ بِالتَّشْدِيدِ أَيْضًا مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ زَبَدٍ وَوَسَخٍ،شَبَّهَهُمْ بِهِ لِقِلَّةِ شَجَاعَتِهِمْ،وَدَنَاءَةِ قَدْرِهِمْ،وَخِفَّةِ أَحْلَامِهِمْ،وَخُلَاصَتُهُ:وَلَكِنَّكُمْ تَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ،ضَعِيفِي الْحَالِ،خَفِيفِي الْبَالِ،مُشَتَّتِي الْآمَالِ،ثُمَّ ذَكَرَ سَبَبَهُ بِعَطْفِ الْبَيَانِ فَقَالَ:(وَلَيَنْزِعَنَّ) أَيْ:لَيُخْرِجَنَّ (اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ) أَيِ:الْخَوْفَ وَالرُّعْبَ (مِنْكُمْ) أَيْ:مِنْ جِهَتِكُمْ (" وَلَيَقْذِفَنَّ ") بِضَمِّ الْيَاءِ أَيْ:وَلَيَرْمِيَنَّ أَيِ:اللَّهُ (" فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ") أَيِ:الضَّعْفَ،وَكَأَنَّهُ أَرَادَ بِالْوَهْنِ مَا يُوجِبُهُ؛وَلِذَلِكَ فَسَّرَهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةِ الْمَوْتِ حَيْثُ قَالَ:(قَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَمَا الْوَهْنُ) ؟ أَيْ مَا سَبَبُهُ وَمَا مُوجِبُهُ؟ قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:سُؤَالٌ عَنْ نَوْعِ الْوَهْنِ،أَوْ كَأَنَّهُ أَرَادَ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ يَكُونُ ذَلِكَ الْوَهْنُ (قَالَ:" حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ ") وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ فَكَأَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ،يَدْعُوهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الدَّنِيَّةِ فِي الدِّينِ مِنَ الْعَدُوِّ الْمُبِينِ،وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَقَدِ ابْتُلِينَا بِذَلِكَ،فَكَأَنَّمَا نَحْنُ الْمَيِّتُونَ بِمَا ذُكِرَ هُنَالِكَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٦٥)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِثَوْبَانَ:«كَيْفَ أَنْتُمْ يَا ثَوْبَانُ إِذَا تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ،كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ؟» قَالَ ثَوْبَانُ:بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا؟ قَالَ:«لَا أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،لَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ» قَالُوا:وَمَا الْوَهَنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«حُبُّكُمُ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيَتُكُمْ لِلْمَوْتِ»[٩٥١]

وعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:اشْحَذْ سَيْفَكَ.قِيلَ:وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ:نُزِعَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمُ الرُّعْبُ،وَقُذِفَ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ.قَالُوا:بِمَ ذَاكَ؟ قَالَ:بِحُبِّكُمُ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيتِكُمُ الْمَوْتَ.طُوبَى لِمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ،وَقَعَدَ فِي بَيْتِهِ،وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ.[٩٥٢]

وفي رواية لأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِثَوْبَانَ:" كَيْفَ أَنْتَ يَا ثَوْبَانُ،إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ؟ " قَالَ ثَوْبَانُ:بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ،أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا؟ قَالَ:" لَا،بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ " قَالُوا:وَمَا الْوَهَنُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:" حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ "[٩٥٣]

وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه يشير إلى أهمية الإعداد والجهاد في نصرة الدين،وحماية دولة الإسلام من الأعداء المتربصين في الداخل والخارج.والواجب على ولاة الأمر تربية الناس تربية إيمانية جهادية،وتحريضهم على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله،وإعداد العدة،وصناعة الأسلحة،وأخذ الحذر،والحيطة من الأعداء،والاستعداد لحربهم،وأن يحذروا من الاسترخاء والركون إلى الدنيا،والتثاقل إلى الأرض،وترك الإعداد والجهاد،والغفلة عما يخططه ويبرمه الأعداء لاستهداف دولة الإسلام وإزالتها.

التحذير من شيوع الفاحشة في المجتمع:

وقول أبي بكر رضي الله عنه " وَلاَ تَشِيْعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلاَّ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلاَءِ "[٩٥٤] فيدعو رضي الله عنه إلى إصلاح الناس وطهارتهم من الفواحش،فإنها ما شاعت في قوم إلا كانت

[٩٥١] - الزهد لابن أبي عاصم (ص:١٣٥)(٢٧٠) صحيح

[٩٥٢] - الزهد لأبي داود (ص:٣١٧)(٣٦٤) حسن

[٩٥٣] - مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ٣٣٢)(٨٧١٣) صحيح لغيره

[٩٥٤] - مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي (ص:٤٣)

سببا للعقوبة والبلاء العام كالإيدز وغيره،عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ،وَلَا ظَهَرَتْ فَاحِشَةٌ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ،وَلَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْرُ» رواه الحاكم،وقال الحافظ ابن حجر عن إسناده:جيد[٩٥٥].

وعَنْ عِكْرِمَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ كَعْبًا،يَقُولُ لِابْنِ عَبَّاسٍ:" ثَلَاثٌ إِذَا رَأَيْتَهُنَّ:السُّيُوفُ قَدْ عُرِّيَتْ،وَالدِّمَاءُ أُهْرِيقَتْ،فَاعْلَمْ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ قَدْ ضُيِّعَ،فَانْتَقَمَ بِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ،وَإِذَا رَأَيْتَ الْقَطْرَ قَدْ حُبِسَ فَاعْلَمْ أَنَّ الزَّكَاةَ قَدْ مُنِعَتْ،مَنَعَ النَّاسُ مَا عِنْدَهُمْ،فَمَنَعَ اللَّهُ مَا عِنْدَهُ،وَإِذَا رَأَيْتَ الْوَبَاءَ قَدْ فَشَا،فَاعْلَمْ أَنَّ الزِّنَا قَدْ فَشَا "[٩٥٦]

وعَنْ مَيْمُونَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَتْ :سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :لاَ تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا،فَإِذَا فَشَا فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا،فَيُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِقَابٍ.رواه أحمد،وقال المنذري:إسناده حسن[٩٥٧].

وعَنْ مَيْمُونَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَتْ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مُتَمَاسِكٌ أَمْرُهَا مَا لَمْ يَظْهَرْ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا،فَإِذَا ظَهَرُوا خَشِيتُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ»[٩٥٨]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الأَرْضِ يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ فَإِنْ عَدَلَ كَانَ لَهُ الأَجْرُ،وَكَانَ يَعْنِي عَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْرُ،وَإِنْ جَارَ،أَوْ حَافَ،أَوْ ظَلَمَ كَانَ عَلَيْهِ الْوِزْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْرُ،وَإِذَا جَارَتِ الْوُلاةُ قَحَطَتِ السَّمَاءُ،وَإِذَا مُنِعَتِ الزَّكَاةُ هَلَكَتِ الْمَوَاشِي،وَإِذَا ظَهَرَ الزِّنَا ظَهَرَ الْفَقْرُ وَالْمَسْكَنَةُ،وَإِذَا خَفَرَتِ الذِّمَّةُ أُدِيلَ لِلْكُفَّارِ،أَوْ كلمة نحوها."[٩٥٩]

---

[٩٥٥] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٣٢٦)(٦٦٩٢) والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (٩/ ٤٥١)(٢٠٣٣) ومسند البزار = البحر الزخار (١٠/ ٣٣٣)(٤٤٦٣) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ١٣٦)(٢٥٧٧) حسن

الفاحشة:القبيح الشنيع من الأقوال والأفعال= القطر:المطر

[٩٥٦] - مساوئ الأخلاق للخرائطي (ص:٢٢٩)(٤٧٦) وشعب الإيمان (٥/ ٢٢)(٣٠٤١) صحيح مقطوع

[٩٥٧] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٨/ ٦٧٢)(٢٦٨٣٠) ٢٧٣٦٧- حسن

[٩٥٨] - المعجم الكبير للطبراني (٢٤/ ٢٣)(٥٥) حسن

[٩٥٩] - مسند البزار = البحر الزخار (١٢/ ١٧)(٥٣٨٣) وسنده واه

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ،فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٩٦٠]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:" نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُشْتَرَى الثَّمَرَةُ حَتَّى تُطْعِمَ،وَقَالَ:إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ،فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ »[٩٦١]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ،وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ،حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا،إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ،وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا،وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ،إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ،وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ،وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ،إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ،وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا،وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ،وَعَهْدَ رَسُولِهِ،إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ،فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ،وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ،وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ،إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ " رواه ابن ماجه[٩٦٢].

طاعة الأمراء بالمعروف:

وقول أبي بكر رضي الله عنه:" أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ "[٩٦٣]،يدل على أصل عظيم من أصول السياسة الشرعية في الإسلام،وهو أن الأمراء يطاعون بالمعروف،ولا يطاعون في معصية الله،وأوامرهم المخالفة لشرع الله يجب إبطالها

---

[٩٦٠] - المعجم الكبير للطبراني (١/ ١٧٨)(٤٦٠) وشعب الإيمان (٧/ ٢٩٦)(٥٠٣٣) وشعب الإيمان (٧/ ٣٧٠) (٥١٤٣) وصحيح الجامع (٦٧٩)صحيح

[٩٦١] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٣)(٢٢٦١) صحيح

[٩٦٢] - سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٢)(٤٠١٩) حسن

[ش - (إذا ابتليتم) على بناء المفعول.والجزاء محذوف.أي فلا خير.أو حل بكم من أنواع العذاب الذي يذكر بعده.(وأعوذ بالله ان تدركوهن) جملة معترضة.(لم تظهر الفاحشة) أي الزنا.(بالسنين) أي بالقحط.(منعوا القطر) أي المطر.(عهد الله) هو ماجرى بينهم وبين أهل الحرب.]

الفاحشة أَيْ:الزِّنَا.=بِالسِّنِينَ:أَيْ:بِالْقَحْطِ.=(عَهْدَ اللَّهِ):هُوَ مَا جَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْحَرْبِ.=وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ:أَيْ:يطلبوا الخير،أَيْ:وما لم يطلبوا الخير والسعادة مما أنزل الله.

[٩٦٣] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٣٦) ومشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي (ص:٤٣) صحيح

وإلغائها،ولا يجوز تنفيذها،وبهذا لن يستطيع الإمام أو غيره من الأمراء أن يلزموا الأمة بطاعتهم في معصية الله إذا تمسكت الأمة بهذا الأصل العظيم،وهو الامتناع عن طاعة الأمراء في معصية الله،ويجب على من أمر بالمعصية من الولاة الرجوع عما أمر به،ورد الشيء المتنازع فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ،وقد قال الله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْأُمَّةَ بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ عَقَّبَ ذَلِكَ بِخِطَابِهِمْ بِالْأَمْرِ بِطَاعَةِ الْحُكَّامِ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ لِأَنَّ الطَّاعَةَ لَهُمْ هِيَ مَظْهَرُ نُفُوذِ الْعَدْلِ الَّذِي يَحْكُمُ بِهِ حُكَّامُهُمْ،فَطَاعَةُ الرَّسُولِ تَشْتَمِلُ عَلَى احترام الْعدْل المشرّع لَهُمْ وَعَلَى تَنْفِيذِهِ،وَطَاعَةُ وُلَاةِ الْأُمُورِ تَنْفِيذٌ لِلْعَدْلِ،وَأَشَارَ بِهَذَا التَّعْقِيبِ إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا هِيَ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ،عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:قَالَ عَلِيٌّ كَلِمَاتٍ أَصَابَهُ فِيهِنَّ حَقٌّ:«عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَنْ يُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ،فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى النَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا وَيُجِيبُوا إِذَا دُعُوا»[٩٦٤].

أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَذَلِكَ بِمَعْنَى طَاعَةِ الشَّرِيعَةِ،فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مُنَزِّلُ الشَّرِيعَةِ وَرَسُولَهُ مُبَلِّغُهَا وَالْحَاكِمُ بِهَا فِي حَضْرَتِهِ.وَإِنَّمَا أُعِيدَ فِعْلُ:وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ مَعَ أَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ يُغْنِي عَنْ إِعَادَتِهِ إِظْهَارًا لِلِاهْتِمَامِ بِتَحْصِيلِ طَاعَةِ الرَّسُولِ لِتَكُونَ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنْ طَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ،وَلِيُنَبِّهَ عَلَى وُجُوبِ طَاعَتِهِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ،وَلَوْ كَانَ أَمْرُهُ غَيْرَ مُقْتَرِنٍ بِقَرَائِنِ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ السَّامِعُ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ الْمَأْمُورَ بِهَا تَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللَّهِ دُونَ مَا يَأْمُرُ بِهِ فِي غَيْرِ التَّشْرِيعِ،فَإِنَّ امْتِثَالَ أَمْرِهِ كُلِّهِ خَيْرٌ،عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى،قَالَ:كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ،فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي،فَقَالَ:" أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ:{اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال:٢٤].ثُمَّ قَالَ لِي:«لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ،قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ».ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي،فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ،قُلْتُ لَهُ:«أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي

[٩٦٤] - الأموال لابن زنجويه (١/ ٧٤)(٣١) والتفسير من سنن سعيد بن منصور - محققا (٤/ ١٢٨٦)(٦٥١) والسنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٠٩)(٥١) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٣٦٦)(٣٣١٩٩) صحيح

القُرْآنِ»،قَالَ:{الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ} [الفاتحة:٢] «هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي،وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»[٩٦٥]

وَلِذَلِكَ كَانُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا مُرَادَ الرَّسُولِ مِنْ أَمْرِهِ رُبَّمَا سَأَلُوهُ:أَهُوَ أَمْرُ تَشْرِيعٍ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالنَّظَرُ،كَمَا قَالَ لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ نَزَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ:أَهَذَا مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَجْتَازَهُ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ:بَلِ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ...»الْحَدِيثَ[٩٦٦].

وَلَمَّا كَلَّمَ بَرِيرَةَ فِي أَنْ تُرَاجِعَ زَوْجَهَا مُغِيثًا بَعْدَ أَنْ عَتَقَتْ،قَالَتْ لَهُ:أَتَأْمُرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ تَشْفَعُ،قَالَ:بَلْ أَشْفَعُ،قَالَتْ:لَا أَبْقَى مَعَهُ .فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ،كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعبَّاسٍ:«يَا عَبَّاسُ،أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ،وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«لَوْ رَاجَعْتِه» قَالَتْ:يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ:«إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ» قَالَتْ:لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ"[٩٦٧]

وَلِهَذَا لَمْ يُعَدْ فِعْلُ (فَرُدُّوهُ) فِي قَوْلِهِ:(وَالرَّسُولِ) لِأَنَّ ذَلِكَ فِي التَّحَاكُمِ بَيْنَهُمْ،وَالتَّحَاكُمُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْأَخْذِ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ،وَلِذَلِكَ لَا نَجِدُ تَكْرِيرًا لِفِعْلِ الطَّاعَةِ فِي نَظَائِرِ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي لَمْ يُعْطَفْ فِيهَا أُولُو الْأَمْرِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ [الْأَنْفَال:٢٠] وَقَوْلِهِ:وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا [الْأَنْفَال:٤٦] وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ [النُّور:٥٢]،إِذْ طَاعَةُ الرَّسُولِ مُسَاوِيَةٌ لِطَاعَةِ اللَّهِ لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الْمُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ فَلَا يُتَلَقَّى أَمْرُ اللَّهِ إِلَّا مِنْهُ،وَهُوَ منفّذ أَمْرِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ،فَطَاعَتُهُ طَاعَةُ تَلَقٍّ وَطَاعَةُ امْتِثَالٍ،لِأَنَّهُ مبلّغ ومنفّذ،بخلَاف أُولي الْأَمر فإنّهم منفّذون لِمَا بَلَّغَهُ الرَّسُولُ فَطَاعَتُهُمْ طَاعَةُ امْتِثَالٍ خَاصَّةً.وَلِذَلِكَ كَانُوا إِذَا أَمَرَهُمْ بِعَمَلٍ فِي غَيْرِ أُمُورِ التَّشْرِيعِ،يَسْأَلُونَهُ أَهَذَا أَمْرٌ أَمْ رَأْيٌ وَإِشَارَةٌ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لِلَّذِينَ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ» .

---

[٩٦٥] - صحيح البخاري (٦/ ١٧)(٤٤٧٤)

[٩٦٦] - دلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ٣٥)

[٩٦٧] - صحيح البخاري (٧/ ٤٨)(٥٢٨٣)

وَقَوْلُهُ:وَأُولِي الْأَمْرِ يَعْنِي ذَوِيهِ وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَمْرِ وَالْمُتَوَلُّونَ لَهُ.وَالْأَمْرُ هُوَ الشَّأْنُ،أَيْ مَا يُهْتَمُّ بِهِ من الْأَحْوَال والشؤون،فَأُولُو الْأَمْرِ مِنَ الْأُمَّةِ وَمِنَ الْقَوْمِ هُمُ الَّذِينَ يُسْنِدُ النَّاسُ إِلَيْهِم تَدْبِير شؤوهم وَيَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ،فَيَصِيرُ الْأَمْرُ كَأَنَّهُ مِنْ خَصَائِصِهِمْ،فَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُمْ:ذَوُو الْأَمْرِ وَأُولُو الْأَمْرِ،وَيُقَالُ فِي ضِدِّ ذَلِكَ:لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ عَلِمْنَا أَنَّ أُولِي الْأَمْرِ فِي نَظَرِ الشَّرِيعَةِ طَائِفَةٌ مُعَيَّنَةٌ،وَهُمْ قُدْوَةُ الْأُمَّةِ وَأُمَنَاؤُهَا،فَعَلِمْنَا أَنَّ تِلْكَ الصِّفَةَ تَثْبُتُ لَهُمْ بِطُرُقٍ شَرْعِيَّةٍ إِذْ أُمُورُ الْإِسْلَامِ لَا تَخْرُجُ عَنِ الدَّائِرَةِ الشَّرْعِيَّةِ،وَطَرِيقُ ثُبُوتِ هَذِهِ الصِّفَةِ لَهُمْ إِمَّا الْوِلَايَةُ الْمُسْنَدَةُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْخَلِيفَةِ وَنَحْوِهِ،أَوْ مِنْ جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سُلْطَانٌ،وَإِمَّا صِفَاتُ الْكَمَالِ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ مَحَلَّ اقْتِدَاءِ الْأُمَّةِ بِهِمْ وَهِيَ الْإِسْلَامُ وَالْعِلْمُ وَالْعَدَالَةُ.فَأَهْلُ الْعِلْمِ الْعُدُولُ:مِنْ أُولِي الْأَمْرِ بِذَاتِهِمْ لِأَنَّ صِفَةَ الْعِلْمِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى وِلَايَةٍ،بَلْ هِيَ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِأَرْبَابِهَا الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بَيْنَ الْأُمَّةِ بِهَا،لِمَا جُرِّبَ مِنْ عِلْمِهِمْ وَإِتْقَانِهِمْ فِي الْفَتْوَى وَالتَّعْلِيمِ.

قَالَ مَالِكٌ:«أُولُو الْأَمْرِ:أَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ» يَعْنِي أَهْلَ الْعِلْمِ بِالْقُرْآنِ وَالِاجْتِهَادِ،فَأُولُو الْأَمْرِ هُنَا هُمْ مَنْ عَدَا الرَّسُولِ مِنَ الْخَلِيفَةِ إِلَى وَالِي الْحِسْبَةِ،وَمِنْ قُوَّادِ الْجُيُوشِ وَمِنْ فُقَهَاءِ الصَّحَابَةِ وَالْمُجْتَهِدِينَ إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ،وَأُولُو الْأَمْرِ هُمُ الَّذِينَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ.

وَإِنَّمَا أَمَرَ بِذَلِكَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ لِأَنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ قِوَامُ نِظَامِ الْأُمَّةِ وَهُوَ تَنَاصُحُ الْأُمَرَاءِ وَالرَّعِيَّةِ وَانْبِثَاثُ الثِّقَةِ بَيْنَهُمْ.

وَلَمَّا كَانَتِ الْحَوَادِثُ لَا تَخْلُو مِنْ حُدُوثِ الْخِلَافِ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ،وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ،أَرْشَدَهُمُ اللَّهُ إِلَى طَرِيقَةِ فَصْلِ الْخِلَافِ بِالرَّدِّ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ.وَمَعْنَى الرَّدِّ إِلَى اللَّهِ الرَّدُّ إِلَى كِتَابِهِ،كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي نَظِيرِهِ وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ [الْمَائِدَة:١٠٤] .

وَمَعْنَى الرَّدِّ إِلَى الرَّسُولِ إِنْهَاءُ الْأُمُورِ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ وَحَضْرَتِهِ،كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي نَظِيرِهِ إِلَى الرَّسُولِ [النِّسَاء:٨٣] فَأَمَّا بَعْدَ وَفَاتِهِ أَوْ فِي غَيْبَتِهِ،فَالرَّدُّ إِلَيْهِ الرُّجُوعُ إِلَى أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ،وَالِاحْتِذَاءُ بِسُنَّتِهِ.

روى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ»[968]

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ،قَالَ:نَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ خَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ،وَكَانَ صَاحِبُ خَيْبَرَ رَجُلًا مَارِدًا مُنْكَرًا،فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،أَلَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا حُمُرَنَا،وَتَأْكُلُوا ثَمَرَنَا،وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا،فَغَضِبَ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - وَقَالَ:" يَا ابْنَ عَوْفٍ ارْكَبْ فَرَسَكَ ثُمَّ نَادِ:أَلَا إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِمُؤْمِنٍ،وَأَنِ اجْتَمِعُوا لِلصَّلَاةِ "،قَالَ:فَاجْتَمَعُوا،ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ،ثُمَّ قَامَ،فَقَالَ:«أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ،قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ،أَلَا وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ وَعَظْتُ،وَأَمَرْتُ،وَنَهَيْتُ،عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ،أَوْ أَكْثَرُ،وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِإِذْنٍ،وَلَا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ،وَلَا أَكْلَ ثِمَارِهِمْ،إِذَا أَعْطَوْكُمُ الَّذِي عَلَيْهِمْ»[969]

---

[968] - سنن أبي داود (٤/ ٢٠٠)((٤٦٠٥) صحيح

(لَا أُلْفِيَنَّ):بِالنُّونِ الْمُؤَكِّدَةِ مِنَ الْإِلْفَاءِ أَيْ لَا أَجِدَنَّ.(أَحَدَكُمْ):وَهُوَ كَقَوْلِكَ لَا أُرِيَنَّكَ هَاهُنَا نَهَى نَفْسَهُ أَنْ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ،وَالْمُرَادُ نَهْيُهُمْ عَنْ تِلْكَ الْحَالَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ (مُتَّكِئًا):حَالٌ أَوْ مَفْعُولٌ ثَانٍ (عَلَى أَرِيكَتِهِ)،أَيْ:سَرِيرِهِ الْمُزَيَّنِ بِالْحُلَلِ وَالْأَثْوَابِ فِي قُبَّةٍ أَوْ بَيْتٍ كَمَا لِلْعَرُوسِ يَعْنِي الَّذِي لَزِمَ الْبَيْتَ وَقَعَدَ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ.قِيلَ:الْمُرَادُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ التَّرَفُّهُ وَالدَّعَةُ كَمَا هُوَ عَادَةُ الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَجَبِّرِ الْقَلِيلِ الِاهْتِمَامِ بِأَمْرِ الدِّينِ (يَأْتِيهِ الْأَمْرُ)،أَيِ:الشَّأْنُ مِنْ شُئُونِ الدِّينِ،وَقِيلَ اللَّامُ زَائِدَةٌ (مِنْ أَمْرِي):بَيَانُ الْأَمْرِ أَوْ مَعْنَاهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِي أَيِ الشَّأْنِ مِنْ شُئُونِي (مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ):بَدَلٌ مِنْ أَمْرِي (أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ):عَطَفَ عَلَيْهِ لِأَنَّ الشَّأْنَ أَعَمُّ مِنَ الْأَمْرِ (فَيَقُولُ):مُرَتَّبٌ عَلَى يَأْتِيهِ،وَالْجُمْلَةُ كَمَا هِيَ حَالٌ أُخْرَى مِنَ الْمَفْعُولِ وَيَكُونُ النَّهْيُ مُنْصَبًّا عَلَى الْمَجْمُوعِ،أَيْ:لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ،وَالْحَالُ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ وَيَأْتِيهِ الْأَمْرُ فَيَقُولُ (لَا أَدْرِي)،أَيْ:لَا أَعْلَمُ غَيْرَ الْقُرْآنِ وَلَا أَتَّبِعُ غَيْرَهُ أَوْ لَا أَدْرِي قَوْلَ الرَّسُولِ (مَا وَجَدْنَا):مَا مَوْصُولَةٌ أَوْ مَوْصُوفَةٌ (فِي كِتَابِ اللَّهِ)،أَيِ:الْقُرْآنِ (اتَّبَعْنَاهُ):يَعْنِي:وَمَا وَجَدْنَاهُ فِي غَيْرِهِ لَا نَتَّبِعُهُ،أَيْ:وَهَذَا أَمْرُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ نَهَى عَنْهُ لَمْ نَجِدْهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَا نَتَّبِعُهُ،وَالْمَعْنَى لَا يَجُوزُ الْإِعْرَاضُ عَنْ حَدِيثِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،لِأَنَّ الْمُعْرِضَ عَنْهُ مُعْرِضٌ عَنِ الْقُرْآنِ.قَالَ تَعَالَى:{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧] وَقَالَ تَعَالَى {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى - إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:٣ - ٤] وَأَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ كَثِيرٍ قَالَ:كَانَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ بِالسُّنَّةِ كَمَا يَنْزِلُ بِالْقُرْآنِ،كَذَا فِي الدُّرِّ،ثُمَّ مَنْ قَالَ بِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ مُجْتَهِدًا يُنَزِّلُ اجْتِهَادَهُ مَنْزِلَةَ الْوَحْيِ لِأَنَّهُ لَا يُخْطِئُ،وَإِذَا أَخْطَأَ يُنَبَّهُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٤٥)

[969] - سنن أبي داود (٣/ ١٧٠)(٣٠٥٠) حسن لغيره

(أَيَحْسَبُ):بِكَسْرِ السِّينِ وَفَتْحِهَا أَيْ أَيَظُنُّ (أَحَدُكُمْ):حَالَ كَوْنِهِ (مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَظُنُّ):قَالَ الْأَشْرَفُ:بَدَلٌ مِنْ يَحْسَبُ بَدَّلَ الْفِعْلَ مِنَ الْفِعْلِ أَيْ لِلْبَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ:وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّكْرَارُ لِلتَّأْكِيدِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا} [آل عمران:١٨٨] إِلَى قَوْلِهِ:{فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ} [آل عمران:١٨٨] .(إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ؟ !)،أَيِ:الْعَظِيمِ الشَّأْنِ الْكَثِيرِ الْبَيَانِ (أَلَا):لِلتَّنْبِيهِ (وَإِنِّي):الْوَاوُ لِلْحَالِ (وَاللَّهِ قَدْ أَمَرْتُ وَوَعَظْتُ وَنَهَيْتُ):فِيهِ ثَلَاثُ تَأْكِيدَاتٍ.قَالَ الطِّيبِيُّ:الْوَاوُ هُنَا بِمَنْزِلَةِ الْوَاوِ فِي " وَإِنَّمَا " فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ لِأَنَّ الْهَمْزَةَ لِلْإِنْكَارِ،أَيْ:هَمْزَةُ أَيَحْسَبُ،وَوَهَمَ ابْنُ حَجَرٍ حَيْثُ قَالَ:فَالْهَمْزَةُ فِي أَيَحْسَبُ لِلْإِنْكَارِ،وَكَذَا فِي أَلَا،وَحَرْفُ التَّنْبِيهِ مُقْحَمٌ....إِلَخْ.مَعَ مُنَاقَضَتِهِ لِقَوْلِهِ السَّابِقِ مِنْ أَنَّ أَلَا لِلتَّنْبِيهِ مُرَكَّبَةٌ مِنْ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ،وَلَا النَّافِيَةُ تُفِيدُ تَحَقُّقَ مَا بَعْدَهَا،وَمِنْ ثَمَّ صُدِّرَتْ بِمَا يُصَدَّرُ بِهِ جَوَابُ الْقَسَمِ وَمِثْلُهَا (أَمَا) اهــ.

وَوَقَعَ فِي (أَمَا) فِيمَا تَقَدَّمَ كَمَا وَقَعَ هُنَا فِي (أَلَا)،نَعَمْ أَصْلُ هَذِهِ الْهَمْزَةِ لِلْإِنْكَارِ لِأَنَّهَا إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّفْيِ أَفَادَتِ التَّحْقِيقَ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ صَاحِبُ الْقَامُوسِ لَكِنَّهَا غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلِانْفِصَالِ فَتَأَمَّلْ،فَإِنَّهُ مَزَلَّةٌ لِلرِّجَالِ،وَالْمَعْنَى أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَصَرَ الْمُحَرَّمَاتِ فِي الْقُرْآنِ،وَالْحَالُ أَنِّي قَدْ حَرَّمْتُ،فَأَقْحَمَ حَرْفَ التَّنْبِيهِ الْمُتَضَمِّنَ لِلْإِنْكَارِ بَيْنَ الْحَالِ وَعَامِلِهَا،كَمَا أُقْحِمَ حَرْفُ الْإِنْكَارِ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} [الزمر:١٩] جَاءَتِ الْهَمْزَةُ مُؤَكِّدَةً مُعَادَةً بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ الْمُتَضَمِّنِ لِلشَّرْطِ وَبَيْنَ الْخَبَرِ،ذَكَرَهُ الزَّجَّاجُ (عَنْ أَشْيَاءَ):مُتَعَلِّقٌ بِالنَّهْيِ فَحَسْبُ وَمُتَعَلِّقُ الْأَمْرِ وَالْمَوْعِظَةِ مَحْذُوفٌ أَيْ بِأَشْيَاءَ (إِنَّهَا)،أَيِ:الْأَشْيَاءَ الْمَأْمُورَةَ وَالْمَنْهِيَّةَ عَلَى لِسَانِي بِالْوَحْيِ الْخَفِيِّ.قَالَ تَعَالَى:{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى - إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:٣ - ٤] (لَمِثْلُ الْقُرْآنِ):فِي الْمِقْدَارِ (أَوْ أَكْثَرُ)،أَيْ:بَلْ أَكْثَرُ،قَالَ الْمُظْهِرُ:أَوْ فِي قَوْلِهِ:أَوْ أَكْثَرُ لَيْسَ لِلشَّكِّ بَلْ إِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَزَالُ يَزْدَادُ عِلْمًا طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ،إِلْهَامًا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ،وَمُكَاشَفَةً لَحْظَةً فَلَحْظَةً فَكُوشِفَ لَهُ أَنَّ مَا أُوتِيَ مِنَ الْأَحْكَامِ غَيْرَ الْقُرْآنِ مِثْلُهُ،ثُمَّ كُوشِفَ لَهُ بِالزِّيَادَةِ مُتَّصِلًا بِهِ ذَكَرَهُ الْأَبْهَرِيُّ،وَفِيهِ تَأَمُّلٌ.وَقَدْ يُسْتَشْكَلُ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل:٨٩] بِنَاءً عَلَى بَقَائِهِ عَلَى عُمُومِهِ أَيْ فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ،يُجَابُ بِأَنَّ نِسْبَةَ هَذَا إِلَيْهِ - ﷺ- إِنَّمَا هُوَ لِكَوْنِهِ الَّذِي اسْتَنْبَطَهُ وَاسْتَخْرَجَهُ مِنَ الْقُرْآنِ،وَلِذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ:كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- فَهُوَ مِمَّا فَهِمَهُ مِنَ الْقُرْآنِ،ثُمَّ أَخْرَجَ مَا يُؤَيِّدُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ - ﷺ- " «إِنِّي لَا أُحِلُّ إِلَّا مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَلَا أُحَرِّمُ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ» ".وَقَالَ:جَمِيعُ مَا تَقُولُهُ الْأَئِمَّةُ شَرْحٌ لِلسُّنَّةِ،وَجَمِيعُ السُّنَّةِ شَرْحٌ لِلْقُرْآنِ.وَقَالَ:مَا نَزَلَ بِأَحَدٍ مِنَ الدِّينِ نَازِلَةٌ إِلَّا وَهِيَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ:إِذَا حَدَّثْتُكُمْ بِحَدِيثٍ أَنْبَأْتُكُمْ بِتَصْدِيقِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.وَعَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ:مَا بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا وَجَدْتُ مِصْدَاقَهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ):مِنَ الْإِحْلَالِ (أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ):بِكَسْرِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا (أَهْلِ الْكِتَابِ):يَعْنِي أَهْلَ الذِّمَّةِ الَّذِينَ قَبِلُوا الْجِزْيَةَ (إِلَّا بِإِذْنٍ):كَذَا فِي أَصْلِ السَّيِّدِ جَمَالِ الدِّينِ وَلَيْسَ فِيهِ غَيْرُهُ،وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ الْمُصَحَّحَةِ " إِلَّا بِإِذْنِهِمْ " أَيْ إِلَّا أَنْ يَأْذَنُوا لَكُمْ بِالطَّوْعِ وَالرَّغْبَةِ كَمَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ (وَلَا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ):يُرِيدُ الضَّرْبَ الْمَعْرُوفَ بِالْخَشَبِ يَعْنِي لَا يَجُوزُ أَنْ تَضْرِبُوا نِسَاءَهُمْ وَتَأْخُذُوا طَعَامًا أَوْ غَيْرَهُ مِنْهُنَّ بِالْقَهْرِ،وَقِيلَ:الضَّرْبُ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ يَعْنِي لَا تَظُنُّوا أَنَّ نِسَاءَهُمْ مُحَلَّلَاتٌ لَكُمْ كَنِسَاءِ أَهْلِ الْحَرْبِ (وَلَا أَكْلَ ثِمَارِهِمْ)،أَيْ:بِالْقَهْرِ مِنْ بَسَاتِينِهِمْ فَضْلًا عَنْ بَقِيَّةِ أَمْوَالِهِمْ (إِذَا أَعْطَوْكُمُ الَّذِي عَلَيْهِمْ)،أَيْ:مِنَ الْجِزْيَةِ،وَالْحَاصِلُ عَدَمُ التَّعَرُّضِ لَهُمْ بِإِيذَائِهِمْ فِي الْمَسْكَنِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ إِذَا أَعْطَوُا الْجِزْيَةَ،وَإِذَا أَبَوْا عَنْهَا انْتَقَضَتْ ذِمَّتُهُمْ وَحَلَّ دَمُهُمْ وَمَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ،وَصَارُوا كَأَهْلِ الْحَرْبِ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ.كَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْمَلَكِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَإِنَّمَا وُضِعَ قَوْلُهُ الَّذِي عَلَيْهِمْ مَوْضِعَ الْجِزْيَةِ لِيُؤْذِنَ بِفَخَامَةِ الْعِلَّةِ،وَبِأَنَّ عَدَمَ التَّعَرُّضِ مُعَلَّلٌ بِأَدَاءِ مَا عَلَيْهِمْ،وَلَوْ صَرَّحَ بِهَا لَمْ يُفَخَّمْ اهــ.وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ أَعَمُّ مِنَ الْجِزْيَةِ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ مَا عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يُحْدِثُوا بِيعَةً وَلَا كَنِيسَةً فِي دَارِنَا وَأَنْ يَتَمَيَّزُوا فِي زِيِّهِمْ وَمَرْكَبِهِمْ وَسُرُجِهِمْ وَسِلَاحِهِمْ فَلَا يَرْكَبُوا خَيْلًا وَلَا يَلْبَسُوا مَا يَخُصُّ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالشَّرَفِ وَيَرْكَبُوا عَلَى سُرُجٍ كَالْإِكَافِ وَغَيْرِهَا مِمَّا هُوَ

وَعَرْضُ الْحَوَادث عَلَى مقْيَاسِ تَصَرُّفَاته والصريح من سنّته.
وَالتَّنَازُعُ:شدَّةُ الاخْتلَاف،وَهُوَ تَفَاعُلٌ منَ النَّزْعِ،أَي الْأَخْذ،قَالَ الْأَعْشَى:
نَازَعْتُهُمْ قُضْبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئًا ...وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ
فَأَطْلَقَ التَّنَازُعَ عَلَى الاخْتلَاف الشَّديد عَلَى طَرِيقِ الاسْتعَارَة،لأَنَّ الاخْتلَافَ الشَّديدَ يُشْبهُ التَّجَاذُبَ بَيْنَ شَخْصَيْنِ،وَغَلَبَ ذَلكَ حَتَّى سَاوَى الْحَقيقَةَ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا [الْأَنْفَال:٤٦] فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى [طه:٦٢] .
وَضَميرُ تَنازَعْتُمْ رَاجعٌ للَّذينَ آمَنُوا فَيَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يُمْكنُ بَيْنَهُمُ التَّنَازُعُ،وَهُمْ مَنْ عَدَا الرَّسُولَ،إِذْ لَا يُنَازِعُهُ الْمُؤْمنُونَ،فَشَمَلَ تَنَازُعَ الْعُمُوم بَعْضهِمْ مَعَ بَعْضٍ،وَشَمَلَ تَنَازُعَ وُلَاة الْأُمُور بَعْضهِمْ مَعَ بَعْضٍ،كَتَنَازُعِ الْوُزَرَاءِ مَعَ الْأَميرِ أَوْ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ،وَشَمَلَ تَنَازُعَ الرَّعيَّة مَعَ وُلَاة أُمُورِهِمْ،وَشَمَلَ تَنَازُعَ الْعُلَمَاءِ بَعْضِهِمْ مَعَ بعض في شؤون علْم الدِّين.وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَا ذُكرَ في سَبَبِ النُّزُول نَجدُ الْمُرَادَ ابْتداءً هُوَ الْخلَافُ بَيْنَ الْأُمَرَاءِ وَالْأُمَّة،وَلذَلكَ نَجدُ الْمُفَسِّرينَ قَدْ فَسَّرُوهُ ببَعْضِ صُوَرٍ منْ هَذه الصُّوَر،فَلَيْسَ مَقْصدُهُمْ قَصْرَ الْآيَة عَلَى مَا فَسَّرُوا به،وَأَحْسَنُ عبارَاتهمْ في هَذَا قَوْلُ الطَّبَريِّ:«يَعْني فَإِن اخْتَلَفْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمنُونَ أَنْتُمْ فيمَا بَيْنَكُمْ أَوْ أَنْتُمْ وَأُولُو أَمْرِكُمْ فيه» .وَعَنْ مُجَاهد:فَإِنْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ رَدُّوهُ إِلَى اللَّه» .
وَلَفْظُ (شَيْءٍ) نَكرَةٌ مُتَوَغِّلَةٌ في الْإِبْهَام فَهُوَ في حَيِّز الشَّرْط يُفيدُ الْعُمُومَ،أَيْ في كُلِّ شَيْءٍ،فَيَصْدُقُ بالتَّنَازُعِ في الْخُصُومَة عَلَى الْحُقُوق،وَيَصْدُقُ بالتَّنَازُعِ في اخْتلَاف الْآرَاءِ عنْدَ الْمُشَاوَرَة أَوْ عنْدَ مُبَاشَرَة عَمَلٍ مَا،كَتَنَازُعِ وُلَاة الْأُمُور في إجْرَاءِ أَحْوَال الْأُمَّة.وَلَقَدْ حَسَّنَ مَوْقعَ كَلمَة (شَيْءٍ) هُنَا تَعْميمُ الْحَوَادث وَأَنْوَاعِ الاخْتلَاف،فَكَانَ منَ الْمَوَاقع الرَّشيقَة في تَقْسيمِ عَبْد الْقَاهر،وَقَدْ تَقَدَّمَ تَحْقيقُ مَوَاقعِ لَفْظ شَيْءٍ عنْدَ قَوْله تَعَالَى:وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْءٍ منَ الْخَوْف وَالْجُوعِ في سُورَة الْبَقَرَة وَالرَّدُّ هُنَا مَجَازٌ في التَّحَاكُمِ إِلَى الْحَاكمِ وَفي تَحْكيمِ ذي الرَّأْيِ عنْدَ اخْتلَاف الْآرَاء.

مُقَرَّرٌ في كُتُب الْفقْه،فَلَا وَجْهَ لتَخْصيص الَّذي عَلَيْهِمْ بالْجزْيَة فَقَطْ كَمَا لَا يَخْفَى غَايَتُهُ أَنَّهُ وَضَعَ " أَعْطَوْا " مَوْضعَ " فَعَلُوا " تَغْليبًا لجَانب الْجزْيَة فَإِنَّهَا مُعْظَمُ مَا عَلَيْهِمْ ."مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٤٩)

وَحَقِيقَتُهُ إِرْجَاعُ الشَّيْءِ إِلَى صَاحِبِهِ مِثْلَ الْعَارِيَةِ وَالْمَغْصُوبِ،ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى التَّخَلِّي عَنِ الِانْتِصَافِ بِتَفْوِيضِ الْحُكْمِ إِلَى الْحَاكِمِ،وَعَنْ عَدَمِ تَصْوِيبِ الرَّأْيِ بِتَفْوِيضِ تَصْوِيبِهِ إِلَى الْغَيْرِ،إِطْلَاقًا عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ،وَغَلَبَ هَذَا الْإِطْلَاقُ فِي الْكَلَامِ حَتَّى سَاوَى الْحَقِيقَةَ.

وَعُمُومُ لَفْظِ شَيْءٍ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ يَقْتَضِي عُمُومَ الْأَمْرِ بِالرَّدِّ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَعُمُومُ أَحْوَالِ التَّنَازُعِ،تَبَعًا لِعُمُومِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَازَعِ فِيهَا،فَمِنْ ذَلِكَ الْخُصُومَاتُ وَالدَّعَاوَى فِي الْحُقُوقِ،وَهُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ الْآيَةِ بادىء بَدْءٍ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ عَقِبَهُ «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ» فَإِنَّ هَذَا كَالْمُقَدِّمَةِ لِذَلِكَ فَأَشْبَهَ سَبَبَ نُزُولٍ،وَلِذَلِكَ كَانَ هُوَ الْمُتَبَادِرُ وَهُوَ لَا يَمْنَعُ مِنْ عُمُومِ الْعَامِّ،وَمِنْ ذَلِكَ التَّنَازُعِ فِي طُرُقِ تَنْفِيذِ الْأَوَامِرِ الْعَامَّةِ،كَمَا يَحْصُلُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْجُيُوشِ وَبَيْنَ بَعْضِ قُوَّادِهِمْ.وَقَدْ قِيلَ:إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي نِزَاعٍ حَدَثَ بَيْنَ أَمِيرِ سَرِيَّةِ الْأَنْصَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ كَمَا سَيَأْتِي،وَمِنْ ذَلِكَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي شُؤونِ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ،وَمَا يَرُومُونَ حَمْلَ النَّاسِ عَلَيْهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ اخْتِلَافُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي طَرِيقُهَا الِاجْتِهَادُ وَالنَّظَرُ فِي أَدِلَّةِ الشَّرِيعَةِ.

فَكُلُّ هَذَا الِاخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ مَأْمُورٌ أَصْحَابُهُ بِرَدِّ أَمْرِهِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ.وَرَدُّ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يُرْجَى مَعَهُ زَوَالُ الِاخْتِلَافِ،وَذَلِكَ بِبَذْلِ الْجُهْدِ وَالْوُسْعِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ الْجَلِيِّ فِي تِلْكَ الْأَحْوَالِ.فَمَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَمَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ فِي تَفْسِيرِ التَّنَازُعِ بِتَنَازُعِ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّمَا هُوَ تَنْبِيهٌ عَلَى الْفَرْدِ الْأَخْفَى مِنْ أَفْرَادِ الْعُمُومِ،وَلَيْسَ تَخْصِيصًا لِلْعُمُومِ.

وَذِكْرُ الرَّدِّ إِلَى اللَّهِ فِي هَذَا مَقْصُودٌ مِنْهُ مُرَاقَبَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي طَلَبِ انْجِلَاءِ الْحَقِّ فِي مَوَاقِعِ النِّزَاعِ،تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى،فَإِنَّ الرَّدَّ إِلَى الرَّسُولِ يَحْصُلُ بِهِ الرَّدُّ إِلَى اللَّهِ،إِذِ الرَّسُولُ هُوَ الْمُنْبِئُ عَنْ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى،فَذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ هُنَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ ذِكْرِهِ فِي قَوْلِهِ:فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ [الْأَنْفَال:٤١] الْآيَةَ.

ثُمَّ الرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ وَحُضُورِهِ ظَاهِرٌ وَهُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ الْآيَةِ،وَأَمَّا الرَّدُّ إِلَيْهِ فِي غَيْبَتِهِ أَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ،فَبِالتَّحَاكُمِ إِلَى الْحُكَّامِ الَّذِينَ أَقَامَهُمُ الرَّسُولُ أَوْ أَمَرَهُمْ بِالتَّعْيِينِ،وَإِلَى الْحُكَّامِ الَّذِينَ نَصَّبَهُمْ وُلَاةُ الْأُمُورِ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالشَّرِيعَةِ مِمَّنْ يُظَنُّ بِهِ الْعِلْمُ بِوُجُوهِ الشَّرِيعَةِ وَتَصَارِيفِهَا،فَإِنَّ تَعْيِينَ صِفَاتِ الْحُكَّامِ وَشُرُوطِهِمْ وَطُرُقِ تَوْلِيَتِهِمْ،فِيمَا وَرَدَ عَنِ الرَّسُولِ مِنْ أَدِلَّةِ صِفَاتِ الْحُكَّامِ،يَقُومُ مَقَامَ تَعْيِينِ أَشْخَاصِهِمْ،وَبِالتَّأَمُّلِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ وَسُنَّتِهِ ثُمَّ الصَّدَرِ عَلَى مَا يتبيّن للمتأمّل مِنْ حَالٍ يَظُنُّهَا هِيَ مُرَادُ الرَّسُولِ لَوْ سُئِلَ عَنْهَا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِ النِّزَاعِ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ وَاسْتِنْبَاطِ أَحْكَامِهَا الْمَسْكُوتِ عَنْهَا مِنَ الرَّسُولِ،أَوِ الْمَجْهُولِ قَوْلُهُ فِيهَا.

وَقَوْلُهُ:إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تَحْرِيضٌ وَتَحْذِيرٌ مَعًا،لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ووازعان يزعان عَنِ مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ،وَالتَّعْرِيضِ بِمَصَالِحِ الْأُمَّةِ لِلتَّلَاشِي،وَعَنِ الْأَخْذِ بِالْحُظُوظِ الْعَاجِلَةِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهَا لَا تُرْضِي اللَّهَ وَتَضُرُّ الْأُمَّةَ،فَلَا جَرَمَ أَنْ يَكُونَ دَأْبُ الْمُسْلِمِ الصَّادِقِ الْإِقْدَامَ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْمَصَالِحِ،وَالتَّأَمُّلَ عِنْدَ الْتِبَاسِ الْأَمْرِ وَالصَّدْرَ بَعْدَ عَرْضِ الْمُشْكِلَاتِ عَلَى أُصُولِ الشَّرِيعَةِ.

وَمَعْنَى إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ مَعَ أَنَّهُمْ خُوطِبُوا بِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا:أَيْ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ حَقًّا،وَتُلَازِمُونَ وَاجِبَاتِ الْمُؤْمِنِ،وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى:ذلِكَ خَيْرٌ فَجِيءَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لِلتَّنْوِيهِ،وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الرَّدِّ الْمَأْخُوذِ مِنْ فَرُدُّوهُ.وَ (خَيْرٌ) اسْمٌ لِمَا فِيهِ نَفْعٌ،وَهُوَ ضِدُّ الشَّرِّ،وَهُوَ اسْمُ تَفْضِيلٍ مَسْلُوبُ الْمُفَاضَلَةِ،وَالْمُرَادُ كَوْنُ الْخَيْرِ وَقُوَّةُ الْحُسْنِ.

وَالتَّأْوِيلُ:مَصْدَرُ أَوَّلَ الشَّيْءَ إِذَا أَرْجَعَهُ،مُشْتَقٌّ مِنْ آلَ يَؤُولُ إِذَا رَجَعَ،وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى أَحْسَنُ رَدًّا وَصَرْفًا.أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:نَزَلَ قَوْلُهُ:أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيءُ فِي سَرِيَّةٍ.

وَأَخْرَجَ فِي «كِتَابِ الْمَغَازِي» عَنْ عَلِيٍّ قَالَ:بَعَثَ النَّبِيءُ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،فَغَضِبَ،فَقَالَ:«أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِيءُ أَنْ تُطِيعُونِي» قَالُوا:«بَلَى» قَالَ:«فَأَجْمِعُوا حَطَبًا» فَجَمَعُوا،قَالَ:«أَوْقِدُوا نَارًا»،فَأَوْقَدُوهَا،فَقَالَ «ادْخُلُوهَا»،فَهَمُّوا،وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا،وَيَقُولُونَ:«فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيءِ مِنَ النَّارِ»،فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ

فَسَكَنَ غَضَبُهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيءَ فَقَالَ:«لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» .فَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ:نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ،يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ نَزَلَتْ حِينَ تَعْيِينِهِ أَمِيرًا عَلَى السَّرِيَّةِ وَأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهَا هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ تَرَدُّدَ أَهْلِ السَّرِيَّةِ فِي الدُّخُولِ فِي النَّارِ،وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ مَا بَلَغَ خَبَرُهُمْ رَسُولَ اللَّهِ،فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنْهَا هُوَ قَوْلُهُ:فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ إِلَخْ،وَيَكُونُ ابْتِدَاؤُهَا بِالْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ لِئَلَّا يَظُنَّ أَنَّ مَا فَعَلَهُ ذَلِكَ الْأَمِيرُ يُبْطِلُ الْأَمر بِالطَّاعَةِ.[٩٧٠]

وعبارة الآية واضحة.وقد تضمنت أمرا للمسلمين بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر منهم.وبردّ كل خلاف ونزاع بينهم في أي شيء إلى الله ورسوله.وقد جعلت الآية هذا دليلا أو شرطا لصحة إيمان المسلمين بالله واليوم الآخر.وقررت أن في ذلك الخير وأحسن الحلول والمخارج والأحكام.

والآية على كل حال جملة تشريعية تامة مثل سابقتها.وهذا ما جعلنا نفردها عن السياق أيضا.وإطلاقها يفيد كما هو المتبادر أن ما احتوته هو تشريع مستمر للمسلمين في كل ظرف ومكان.

والجمهور متفقون على أن طاعة الله تتمثل في طاعة القرآن والتزام ما فيه من

وينطوي في الآية في الوقت نفسه تقرير كون القرآن والسنة هما المرجعان الرئيسيان اللذان يجب الرجوع إليهما في كل نزاع بين المسلمين والوقوف عند ما فيهما من حدود ورسوم.وهذا الواجب يترتب على المسلمين وعلى أولي الأمر منهم.وسواء أكان النزاع فيما بين المسلمين أو فيما بينهم وبين أولي الأمر منهم.

ويتبادر لنا أن جملة فَإِنْ تَنازَعْتُمْ تعني أيضا الاختلاف في الاجتهاد والمواقف جدلا نظريا أو مواقف فعلية.

ويلفت النظر بخاصة إلى نقطة هامة.وهي أمر الآية برد الأمور المتنازع فيها إلى الله ورسوله حصرا.حيث ينطوي في هذا أنه ليس للمسلمين أن يردوا ذلك إلى أولي الأمر الذين أمرت الآية بطاعتهم بالإضافة إلى الله ورسوله.بل يكون كتاب الله وسنة رسوله هما الحكم في ذلك

---

[٩٧٠] - التحرير والتنوير (٥/ ٩٦)

وأنه ليس لأولي الأمر أن يصدروا في ذلك أوامر غير ما ورد في كتاب الله وسنّة رســـوله وأن يحملوا المسلمين على طاعتهم فيما يصدرون.

على أن هناك ما يمكن قوله ففي القرآن والسنّة تشريعات وأوامر ونواه محددة كمـــا فيهمـــا مبادئ وتلقينات وتوجيهات وخطوط عامة.وهذه بخاصة شاملة واسعة بحيث يسوغ القول إن من الممكن على ضوئها حل كل نزاع أو مشكلة أو مسألة ليس فيها تحديد صريح وقطعي في كتاب الله وسنّة رسوله.وهذا من أسرار ترشح الشريعة الإسلامية للخلود والشمول فيما يتبادر لنا.

ومرجعية كتاب الله وسنّة رسوله تصدق على هذه كما تصدق على تلك بطبيعة الحال.

والأمور المحددة القطعية في كتاب الله وسنّة رسوله تظل محكمة لا يجوز فيها اجتهاد ولا تحوير ولا تبديل.أما عدا ذلك فيصح أن يجتهد في حله في نطاق

المبادئ والتلقينات والتوجيهات والخطوط العامة في كتاب الله وسنّة رسوله التي ذكرنا شمولهـــا وسعتها.وفي هذه السورة هذه الآية وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ...[٨٣] التي يمكن على مـــا يتبادر لنا أن يقال على ضوئها إن حل الأمور المتنازع فيها والتي يحتاج حلّها إلى اجتهاد لعدم ورودها محددة وقطعية في كتاب الله وسنّة رسوله يناط بأولي الأمر من المسلمين وأهل الحـــل والعقد والعلم منهم الذين يؤهلهم علمهم وعقلهم وتجربتهم وممارستهم لاستنباط الأحكام من مآخذها.واستلهام تلك المبادئ والتوجيهات والتلقينات والخطوط العامة في كتاب الله وســـنة رسوله.وقد يصح أن نذكر جملة وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ في الآية [١٥٩] من ســـورة آل عمـــران وجملة وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ في الآية [٣٨] من سورة الشورى في هذا السياق.وهذا شـــامل لكل ظرف ومكان وشأن كما هو المتبادر.

وبديهي أن الأمر الذي تتضمنه الآية من جهة والإيمان بالله ورســـوله مـــن جهـــة أخـــرى موجبات لإطاعة الله ورسوله وما يمثلهما من القرآن والسنن بدون قيد وشرط.أما أولو الأمـــر فقد رويت أحاديث عديدة تفيد أن طاعتهم منوطة بما فيه مصلحة المسلمين وما لا يتناقض مع

ما في كتاب الله وسنن رسوله من أوامر ونواه وحدود وأنه لا طاعة لهم في معصية ولا فيما ليس فيه مصلحة للمسلمين ولا فيما يتناقض مع القرآن والسنّة.[٩٧١]

وفى قوله تعالى:«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ما يشير إلى احتمالات النزاع المتوقعة بين أولى الأمر ومن فى ولايتهم،وأن ذلك أمر غير مستبعد،بين الناس والناس.فإذا وقع نزاع فى أمر ما،كان ردّه إلى حكم الله ورسوله أمرا واجبا على المؤمنين،وكان الله سبحانه وتعالى هو وليّهم جميعا،وكانت شريعته لهم،هى الدستور الواجب اتباعه،والاحتكام إليه فيما يقع بينهم من خلاف..فمن كان مؤمنا بالله واليوم الآخر،استقام على شرع الله،ووقف عند حدوده،وخضع لحكمه.وفى قوله تعالى:«ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» إشارة إلى أن الرجوع عند الخلاف إلى ما قضى به كتاب الله وسنة رسوله،هو الطريق المأمون،الذي يسلم المختلفين إلى يد الوفاق والسلام،حيث كان احتكامهم إلى أحكم الحاكمين،الذي يحكم بين عباده بالحق،فلا ميل مع هوى،ولا محاباة لكبير أو عظيم،لأن الخلق خلقه،والناس عبيده،لا تفاضل بينهم عنده إلا بالتقوى![٩٧٢]

وتحكيم القرآن والسنة فيما قد يقع فيه المسلمون من نزاع أو اختلاف في الرأي،كما قال تعالى:وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ [الشورى ٤٢/ ١٠] فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء ٤/ ٥٩] .

الاعتصام والتمسك بالقرآن وبدين الله تعالى وطاعته،والالتفاف الموحد حول أحكام الله حلالها وحرامها،واجتماع المسلمين على وحدة الهدف والغاية من أجل صون الحرمات والبلاد من عدوان المعتدين فإنه لم يتوافر لأمة مقومات تجمع بين شعوبها وأفرادها مثل ما توافر لأمة الإسلام،وهي الآن مع الأسف أبعد الناس عن اجتماع الكلمة ووحدة الصف والغاية والمنهج،وتلك المقومات واضحة في تلاوة آي القرآن وآثار رسول الله.قال قتادة:في هذه الآية علمان بيّنان:

---

[٩٧١] - التفسير الحديث (٨/ ١٥٠)

[٩٧٢] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٢٢)

كتاب الله ونبيّ الله فأما نبي الله فقد مضى،وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمة منه ونعمة،فيه حلاله وحرامه،وطاعته ومعصيته.

ليس الاختلاف مذموما إذا كان في مجال مسائل الاجتهاد واستخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع،وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث،وهم مع ذلك متآلفون،ولا فيما كان أثناء تبادل الآراء فيما يحقق مصلحة الأمة بإخلاص،فليس في الآية دليل على تحريم الاختلاف في الجزئيات والفروع،وتقدير المصالح العامة،وإنما الخلاف المذموم هو في اتباع الأهواء والأغراض المختلفة،وما يؤدي إليه من تقاطع وتدابر وتقاتل.

أوجب الله تعالى علينا التّمسك بكتابه وسنّة نبيّه ﷺ والرّجوع إليهما عند الاختلاف،وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسّنة اعتقادا وعملا،وذلك سبب اتّفاق الكلمة،وانتظام الشّتات الذي يتمّ به مصالح الدّنيا والدّين،والسّلامة من الاختلاف،كما بيّنا.وقرن ذلك بأمره تعالى بتذكّر نعمه وأعظمها الإسلام واتّباع نبيّه محمد عليه الصّلاة والسّلام،فإن به زالت العداوة والفرقة،وكانت المحبّة والألفة.[٩٧٣]

وفي الآية دليل على وجوب اتّباع النّصوص الشّرعية من غير تصرّف وانحراف،ولا تقليد وعمل برأي فاسد غير صحيح،ومن حاد عن منهج السّلف زاغ وضلّ،فكانوا كقوله تعالى:مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الرّوم ٣٠/ ٣٢] .

وطريق رفع الخلاف الرّد إلى القرآن والسّنة،فقال تعالى:فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ [النّساء ٤/ ٥٩] .[٩٧٤]

فالتنازع لا بد من أن يكون في قضية داخلة في نطاق مأمورات الطاعة،ويجب أن يكون لها مردّ ينهي هذا التنازع {فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر} .

والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء،فإن تنازع المحكوم مع الحاكم نذهب إلى العلماء ليبينوا لنا حكم الله في هذه المسألة،إذن فإن أريد ب «أولي الأمر» الحاكم،نقول له:{فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول} أي على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول،والحجة في ذلك هم

---

[٩٧٣] - التفسير المنير للزحيلي (٤/ ٢٩)

[٩٧٤] - التفسير المنير للزحيلي (١٢/ ١٦٦)

العلماء المشتغلون بهذا الأمر،وهم الملاحظون لتنفيذ حكم الله بما يعرفونه عن الــدين.والحــق سبحانه وتعالى حين يطلب منا ذلك،يريد أن ينهي مسألة التنازع،لأن التنازع يجعل حركــات الحياة متضاربة،هذا يقول بكذا وذلك يقول بكذا،فلا بد أن نــرده إلى مــردّ أعلى،والحــق يقول:{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَــهُ الــذين يَسْــتَنْبِطُونَهُ مِــنْهُمْ} [النساء:٨٣] .

إذن فقد يكون المراد بأولى الأمر «العلماء» .نقول إن الآية الأولى عامة وهي التي جاءت بهــا طاعة ولي الأمر ضمن طاعة الله والرسول،والثانية التي تخص الاستنباط يكون المقصود بــأولى الأمر هم العلماء.

وأولوا الأمر في القضية الأولى التي عندما نتنازع معهم في أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفون على تفنيذ أحكام الله،وهذه سلطة تنفيذية،أما سلطة العلماء فهي تشريعية إيمانية.

{فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر} إذن فالذي لا يفعــل ذلــك يجازف بأن يدخل في دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر،ونقول لكل منهم:راجع إيمانك بالله واليوم الآخر – ابتداءً في تلقي الحكم،وإيمانا باليوم الآخر – لتلقــي الجــزاء علــى مخالفــة الحكم،فالحق لم يجعل الدنيا دار الجزاء.

وينبهنا الحق في ختام الآية:{ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَــنُ تَــأْوِيلاً} أي في ذلــك خــير للحكــام وللمحكومين معاً؛لأن الخير هو أن يقدر الإنسان ما ينفعه في الدنيا والآخرة،وكل شهوة مــن الشهوات إن قدَّرت نفعها فلن تنفعك سوى لحظة ثم يأتي منها الشر.

والتأويل هو:أن تُرْجع الأمر إلى حكمه الحقيقي،من «آل» يئول إذا رجع {وَأَحْسَنُ تَــأْوِيلاً} تعني أحسن مَرْجعاً وأحمد مغبة وأجمل عاقبة؛لأنك إن حرصت بما تريد على مصالح دنياك،فما ترجع إليه سيكون فيه شر لك.إذن فالأحسن لك أن تفعل ما يجعلك مــن أهــل الجنــة،أو «وأحسن تأويلا» في الاستنباط،لأن العلماء سيأخذونه من منطلق مفهــوم قــول الله وقــول الرسول،وأنت ستأخذها بهواك،وفهمك عن الله يمنعك من الشطط ومن الخطأ.

فإن كنتم تريدون الخير فلاحظوا الخير في كل أحيانه وأوقاته،ولا ينظر الإنسان إلى الخير ساعة يؤدي له ما في هواه،ولكن لينظر إلى الخير الذي لا يأتي بعده شر.وإذا ما نظرنا تاريخ الكــثير

من الحكام ووجدناهم قد أمنوا على انتقادهم في حياتهم بما فرضوه من القهـــر والبطش،فلمـــا ماتوا ظهرت العيوب،وظهرت الحملات،إن الواجب على من يحكم أن يعتبر بما سمـــع عمـــن حكم قبله.فالذي حكم قبله كمم الأفواه وكسر الأقلام،وبعدما انتهى،طالت الألسنة وكتبت الأقلام،فيجب أن نحسن التأويل وأن ننظر إلى المرجع النهائي،فمن استطاع أن يحمي نفسه في حياته بسطوته وجبروته لا يستطيع أن يحمي تاريخه وسمعته.إنـــه بعـــد أن انتـــهت الســـطوة والجبروت قيل فيه ما قيل،ونحن مازلنا في الدنيا و لم نذهب إلى الآخرة بعد؛فإذا كان هذا هـــو جزاء الخلق.فما شكل جزاء الحق إذن؟!{ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} أي مرجعاً وعاقبة.[975]

وهذا عام في كل ما تنازع فيه المتنازعون من ولاة الأمر وغيرهم،عَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّهُ قَالَ:«عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،إِلَّا أَنْ يُـــؤْمَرَ بِمَعْصِـــيَةٍ،فَإِنْ أُمِـــرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ» متفق عليه[976].

وعَنْ عَلِيٍّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا،فَأَوْقَدَ نَارًا،وَقَالَ:ادْخُلُوهَا،فَـــأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا،وَقَالَ الْآخَرُونَ:إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا مِنْهَا،فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَـــالَ لِلَّـــذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا:«لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَـــةِ»،وَقَـــالَ لِلْـــآخَرِينَ قَوْلًـــا حَسَنًا،وَقَالَ:«لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ،إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» متفق عليه[977].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؛أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ عَلْقَمَةَ بْنَ مُجزِزٍ عَلَى بَعْثٍ أَنَا فِيهِمْ،فَلَمَّـــا انْتَهَى إِلَى رَأْسِ غَزَاتِهِ،أَوْ كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ اسْتَأْذَنَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْجَيْشِ،فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسٍ السَّهْمِي ،فَكُنْت فِيمَنْ غَزَا مَعَهُ.فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ أَوْقَدَ الْقَوْمُ نَارًا لِيَصْطَلُوا،أَوْ لِيَصْنَعُوا عَلَيْهَا صَنِيعًا،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ،وَكَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ :أَلَيْسَ لِي عَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ؟ قَالُوا :بَلَى،قَالَ :فَمَا أَنَا بِآمُرُكُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ صَنَعْتُمُوهُ ؟ قَالُوا :نَعَمْ،قَالَ :فَإِنِّي أَعْـــزِمُ

---

[975] - تفسير الشعراوي (٤/ ٢٣٦٠)

[976] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٨ - (١٨٣٩) وصحيح البخاري (٤/ ٤٩)(٢٩٥٥)

قَالَ الْمُظْهِرُ:يَعْنِي،سَمْعُ كَلَامِ الْحَاكِمِ وَطَاعَتُهُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَوَاءٌ أَمَرَهُ بِمَا يُوَافِقُ طَبْعَهُ أَوْ لَمْ يُوَافِقْهُ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَأْمُرَهُ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنْ أَمَرَهُ بِهَا فَلَا تَجُوزُ طَاعَتُهُ وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ لَهُ مُحَارَبَةُ الْإِمَامِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٩٢)

[977] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٩ - (١٨٤٠) وصحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٥)

عَلَيْكُمْ إِلاَّ تَوَاثَبْتُمْ فِي هَذِهِ النَّارِ ،فَقَامَ نَاسٌ فَتَحَجَّزُوا،فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّهُمْ وَاثِبُونَ،قَالَ :أَمْسِكُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ،فَإِنَّمَا أَمْزَحُ مَعَكُمْ،فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ :مَنْ أَمَرَكُمْ مِـــنْهُمْ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ تُطِيعُوهُ.[٩٧٨]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»[٩٧٩]

---

[٩٧٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٢٤٢)(٣٤٣٩٧) وسنن ابن ماجه (٢/ ٩٥٥)(٢٨٦٣) والمسند الجامع (٦/ ٤٦٠)(٤٦٢٧) صحيح

[٩٧٩] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٧٠)(٣٨١) وشرح السنة للبغوي (١٠/ ٤٤)(٢٤٥٥) عن النواس صحيح

«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ») صِلَةُ طَاعَةٍ،وَقَوْلُهُ:(فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ) خَبَرُ لَا،وَفِيهِ مَعْنَى النَّهْيِ،يَعْنِي لَا يَنْبَغِي وَلَا يَسْتَقِيمُ ذَلِكَ،وَتَخْصِيصُ ذِكْرِ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ مُشْعِرٌ بِعَلِيَّةِ هَذَا الْحُكْمِ،ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ اخْتَلَفُوا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ الْوُلَاةُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ،قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ:مَا أَمَرَ بِهِ الْوُلَاةُ مِنْ ذَلِكَ غَيْرَهُمْ،يَسَعُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ فِيمَا كَانَتْ وِلَايَتُهُ إِلَيْهِمْ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ:لَا يَسَعُ الْمَأْمُورَ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَكُونَ الَّذِي أَمَرَهُ عَدْلًا،وَحَتَّى يَشْهَدَ عَدْلٌ سِوَاهُ،عَلَى أَنَّ عَلَى الْمَأْمُورِ ذَلِكَ،الْكَشَّافُ عَنْ أَبِي حَازِمٍ أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ:أَلَسْتُمْ أُمِرْتُمْ بِطَاعَتِنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩] قَالَ:أَلَيْسَ قَدْ نُزِعَتْ عَنْكُمْ إِذَا خَالَفْتُمُ الْحَقَّ بِقَوْلِهِ:{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء:٥٩] قَالَ الطِّيبِيُّ:- رَحِمَهُ اللَّهُ - يُرِيدُ أَنَّ قَوْلَهُ:وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ عَطْفٌ عَلَى أَطِيعُوا اللَّهَ وَكُرِّرَ الْفِعْلُ لِيَدُلَّ عَلَى اسْتِقْلَالِ طَاعَةِ الرَّسُولِ،وَلَمْ يُؤْتَ بِقَوْلِهِ وَأَطِيعُوا فِي {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩] دَلَالَةً عَلَى عَدَمِ اسْتِقْلَالِهِمْ،وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ:{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء:٥٩] وَكَأَنَّهُ قِيلَ:إِذَا لَمْ يَكُنْ أُولُوا الْأَمْرِ مُسْتَقِلِّينَ،وَشَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ خِلَافَ الْحَقِّ فَرُدُّوهُ إِلَى الْحَقِّ،وَلَا يَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ".مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٨)

وقال البغوي:" اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ الْوُلاةُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ،قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ،وَأَبُو يُوسُفَ:مَا أَمَرَ بِهِ الْوُلاةُ مِنْ ذَلِكَ غَيْرَهُمْ يَسَعُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ،فِيمَا كَانَتْ وِلايَتُهُ إِلَيْهِمْ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ:لَا يَسَعُ الْمَأْمُورُ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَكُونَ الَّذِي يَأْمُرُهُ عَدلا،وَحَتَّى يَشْهَدَ عَدْلٌ سِوَاهُ عَلَى أَنَّ عَلَى الْمَأْمُورِ ذَلِكَ،وَفِي الزِّنَا حَتَّى يَشْهَدَ مَعَهُ ثَلاثَةٌ سِوَاهُ.

وَحُكِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ كَانَ عَلَى الْعِرَاقِ،قَالَ لِعِدَّةٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ،مِنْهُمُ الْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ:إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَكْتُبُ إِلَيَّ فِي أُمُورٍ أَعْمَلُ بِهَا فَمَا تَرَيَان؟ قَالَ الشَّعْبِيُّ:أَنْتَ مَأْمُورٌ،وَالتَّبَعَةُ عَلَى آمِرِكَ.

فَقَالَ لِلْحَسَنِ:مَا تَقُولُ؟ قَالَ:قَدْ قَالَ هَذَا،قَالَ:قُلْ،قَالَ:اتَّقِ اللَّهَ يَا عُمَرُ،فَكَأَنَّكَ بِمَلَكٍ قَدْ أَتَاكَ،فَاسْتَنْزَلَكَ عَنْ سَرِيرِكَ هَذَا،فَأَخْرَجَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضِيقِ قَبْرِكَ،فَإِيَّاكَ أَنْ تَعْرِضَ لِلَّهِ بِالْمَعَاصِي،فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ يَتَغَيَّظُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،وَقِيلَ:إِنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَسُبُّ أَبَا بَكْرٍ،فَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ:قُلْتُ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ،مَنْ هَذَا الَّذِي تَتَغَيَّظُ عَلَيْهِ؟ قَالَ:فَلِمَ تَسْأَلُ عَنْهُ؟ قُلْتُ:لأَضْرِبَ عُنُقَهُ.وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ أَبُو بَكْرٍ لأَبِي بَرْزَةَ:لَوْ قُلْتُ لَكَ ذَلِكَ أَكُنْتَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ:نَعَمْ.فَقَالَ:مَا كَانَ ذَلِكَ لأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.فَهَذَا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا،وَهُوَ أَنَّ

وعَنْ عَبْد اللهِ بْنِ الصَّامت،قَالَ:أَرَادَ زِيَادٌ أَنْ يَبْعَثَ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ عَلَى خُرَاسَانَ،فَأَبَى عَلَيْه،فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ:أَتَرَكْتَ خُرَاسَانَ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا؟ قَالَ:فَقَالَ إِنِّي وَاللهِ مَا يَسُرُّنِي أَنْ أُصَلِّيَ بِحَرِّهَا،وَتُصَلُّونَ بِبَرْدِهَا،إِنِّي أَخَافُ إِذَا كُنْتُ فِي نُحُورِ الْعَدُوِّ،أَنْ يَأْتِيَنِي كِتَابٌ مِنْ زِيَادٍ،فَإِنْ أَنَا مَضَيْتُ هَلَكْتُ،وَإِنْ رَجَعْتُ ضُرِبَتْ عُنُقِي،قَالَ:فَأَرَادَ الْحَكَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ عَلَيْهَا،قَالَ:فَانْقَادَ لِأَمْرِه،قَالَ:فَقَالَ عِمْرَانُ:أَلَا أَحَدٌ يَدْعُو لِي الْحَكَمَ،قَالَ:فَانْطَلَقَ الرَّسُولُ،قَالَ:فَأَقْبَلَ الْحَكَمُ إِلَيْه،قَالَ:فَدَخَلَ عَلَيْه،قَالَ:فَقَالَ عِمْرَانُ لِلْحَكَمِ:أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" لَا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ عِمْرَانُ:لِلَّهِ الْحَمْدُ،أَوِ اللهُ أَكْبَرُ " رواه أحمد[980]

وفي رواية لأحمد عَنِ الْحَسَنِ،أَنَّ زِيَادًا،اسْتَعْمَلَ الْحَكَمَ الْغِفَارِيَّ عَلَى جَيْشٍ،فَأَتَاهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ،فَلَقِيَهُ بَيْنَ النَّاسِ،فَقَالَ:أَتَدْرِي لِمَ جِئْتُكَ؟ فَقَالَ لَهُ:لِمَ؟ قَالَ:هَلْ تَذْكُرُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلرَّجُلِ الَّذِي قَالَ لَهُ أَمِيرُهُ:قَعْ فِي النَّارِ،فَأَدْرَكَ فَاحْتَبَسَ،فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ،فَقَالَ:" لَوْ وَقَعَ فِيهَا لَدَخَلَا النَّارَ جَمِيعًا،لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أُذَكِّرَكَ هَذَا الْحَدِيثَ"[981]

وفي رواية لأحمد عَنْ مُحَمَّدٍ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَنَحْنُ عِنْدَهُ،فَقَالَ:اسْتُعْمِلَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ عَلَى خُرَاسَانَ،فَتَمَنَّاهُ عِمْرَانُ حَتَّى قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ:أَلَا نَدْعُوهُ لَكَ؟ فَقَالَ لَهُ :لَا،ثُمَّ قَامَ عِمْرَانُ فَلَقِيَهُ بَيْنَ النَّاسِ،فَقَالَ عِمْرَانُ:إِنَّكَ قَدْ وُلِّيتَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عَظِيمًا،ثُمَّ أَمَرَهُ وَنَهَاهُ،وَوَعَظَهُ،ثُمَّ قَالَ:هَلْ تَذْكُرُ يَوْمَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ قَالَ الْحَكَمُ:نَعَمْ،قَالَ عِمْرَانُ:اللهُ أَكْبَرُ "[982]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«سَيَلِي أُمُورَكُمْ بَعْدِي،رِجَالٌ يُطْفِئُونَ السُّنَّةَ،وَيَعْمَلُونَ بِالْبِدْعَةِ،وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا» فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ

أَحَدًا لَا يَجِبُ طَاعَتُهُ فِي قَتْلِ مُسْلِمٍ إِلا بَعْدَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ حَقٌّ إِلا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ إِلا بِحَقٍّ،وَلا يَحْكُمُ إِلا بِعَدْلٍ،وَقَدْ يُتَأَوَّلُ هَذَا أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ الْقَتْلُ فِي سَبِّ أَحَدٍ إِلا فِي سَبِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.شرح السنة للبغوي (١٠/ ٤٤)

[980] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٤/ ٢٥٢)(٢٠٦٥٤) صحيح

[981] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٤/ ٢٥٥)(٢٠٦٥٩) صحيح

[982] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٤/ ٢٥٣)(٢٠٦٥٦) صحيح

أَدْرَكْتُهُمْ،كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قَالَ:«تَسْأَلُنِي يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ كَيْفَ تَفْعَلُ؟ لَا طَاعَةَ،لِمَنْ عَصَى اللَّهَ»رواه ابن ماجه[983].

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:تطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبِنَاءِ فِي زَمَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ عُمَرُ:«يَا مَعْشَرَ الْعُرَيْبِ،الْأَرْضَ الْأَرْضَ،إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ،وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ،وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ،فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفِقْهِ،كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ،وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ،كَانَ هَلَاكًا لَهُ وَلَهُمْ» رواه الدارمي[984].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا اسْتَعْمَلَ عَامِلًا كَتَبَ فِي عَهْدِهِ:وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا عَدَلَ فِيكُمْ،فَاسْتَعْمَلَ حُذَيْفَةَ عَلَى الْمَدَائِنِ،وَكَتَبَ فِي عَهْدِهِ:اسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا وَأَعْطُوهُ مَا سَأَلَكُمْ،فَاسْتَقْبَلُوهُ فَإِذَا هُوَ عَلَى حِمَارٍ مُؤْكَفٍ،وَفِي يَدِهِ عِرْقٌ يَأْكُلُهُ،فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ عَهْدَهُ كِتَابَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالُوا لَهُ:مَا حَاجَتُكَ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكْتُبْ إِلَيْنَا بِمِثْلِ مَا كَتَبَ إِلَيْنَا فِيكَ قَالَ:حَاجَتِي أَنْ تُطْعِمُونِي مِنَ الْخُبْزِ مَا دُمْتُ فِيكُمْ،وَتَعْلِفُوا حِمَارِي،وَتَجْمَعُوا خَرَاجَكُمْ،فَلَمَّا انْقَضَى عَمَلُهُ دَخَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ،فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ قُدُومُهُ قَعَدَ لَهُ فِي الطَّرِيقِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ حَالُهُ مِمَّا فَارَقَهُ عَلَيْهِ؟ فَلَمَّا رَآهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ اعْتَنَقَهُ،وَقَالَ:أَنْتَ أَخِي وَأَنَا أَخُوكَ،أَنْتَ أَخِي وَأَنَا أَخُوكَ "[985].

الخلافة والملك

[983] – سنن ابن ماجه (٢/ ٩٥٦)(٢٨٦٥) صحيح

البدعة بدْعَتَان:بدعة هُدًى،وبدعة ضلال،فما كان في خلاف ما أمَر اللّه به ورسوله ﷺ فهو في حَيِّز الذّم والإنكار،وما كان واقعا تحت عُموم ما نَدب اللّه إليه وحَضَّ عليه اللّه أو رسوله فهو في حيز المدح،وما لم يكن له مثال موجود كنَوْع من الجُود والسخاء وفعْل المعروف فهو من الأفعال المحمودة،ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما وَردَ الشرع به.

[984] – سنن الدارمي (١/ ٣١٥)(٢٥٧) وجامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٦٣)(٣٢٦) فيه جهالة

[985] – الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١٤٩)(١٠١٣) والسنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١١٢)(٥٥) ومصنف ابن أبي شيبة – دار القبلة (١٨/ ٢٤٦)(٣٤٤٠٥) فيه انقطاع

الخلافة على منهاج النبوة واجبة على الأمة،ولا يجوز تركها واستبدالها بالملك،فعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ»

وفي رواية عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ:كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:«إِنِّي لَا أَدْرِي مَا بَقَائِي فِيكُمْ،فَاقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي» وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ" رواه أحمد والترمذي واللفظ له[٩٨٦].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي:أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ،فَإِنَّهُمَا حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ ،فَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِمَا فَقَدْ تَمَسَّكَ بِعُرْوَةِ اللَّهِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا "[٩٨٧]

ومن الاقتداء بهما أن تكون الإمامة خلافة على منهاج النبوة وليست ملكا،فعن خَالِدَ بْنِ مَعْدَانَ،قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ،وَحُجْرُ بْنُ حُجْرٍ،قَالَا:أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة:٩٢] فَسَلَّمْنَا،وَقُلْنَا:أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ،فَقَالَ الْعِرْبَاضُ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ،تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ،فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»رواه أبو داود والترمذي[٩٨٨]

---

[٩٨٦] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٦٠٩)(٣٦٦٢و٣٦٦٣) ومسند أحمد (عالم الكتب) (٧/ ٦٩٤)(٢٣٢٤٥) ٢٣٦٣٤- صحيح

[٩٨٧] - مسند الشاميين للطبراني (٢/ ٥٧)(٩١٣) فيه جهالة

[٩٨٨] - سنن أبي داود (٤/ ٢٠٠)(٤٦٠٧) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٤)(٢٦٧٦) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ١٧٨)(٥) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ فِي قَوْلِهِ ﷺ:«فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي» عِنْدَ ذِكْرِهِ الاخْتِلَافَ الَّذِي يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ بَيَانٌ وَاضِحٌ أَنَّ مَنْ وَاظَبَ عَلَى السُّنَنِ،قَالَ بِهَا،وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْآرَاءِ مِنَ الْفِرَقِ النَّاجِيَةِ فِي الْقِيَامَةِ،جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ"

(فَأَوْصِنَا)،أَيْ:إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمُرْنَا بِمَا فِيهِ كَمَالُ صَلَاحِنَا وَإِرْشَادِنَا فِي مَعَاشِنَا وَمَعَادِنَا بَعْدَ وَفَاتِكَ (فَقَالَ:أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ)،أَيْ:بِمَخَافَتِهِ وَالْحَذَرِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ.قَالَ تَعَالَى:{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} [النساء:١٣١]،أَيْ:بِأَقْسَامِهَا الثَّلَاثَةِ وَهِيَ تَقْوَى الشِّرْكِ وَالْمَعْصِيَةِ وَتَقْوَى مَا سِوَى اللَّهِ،وَهَذَا مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ لِأَنَّ التَّقْوَى امْتِثَالُ الْمَأْمُورَاتِ وَاجْتِنَابُ الْمَنْهِيَّاتِ،وَهِيَ زَادُ الْآخِرَةِ تُنْجِيكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ وَتُبَلِّغُكُمْ إِلَى دَارِ السُّرُورِ،وَتُوجِبُ الْوُصُولَ إِلَى عَتَبَةِ الْجَلَالِ وَالْقُدْسِ وَالنُّورِ.

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ...وَلَاقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا

نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ...وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

لْتِزَمَ تَقْوَى اللَّهِ وَقَبِلَ طَاعَةَ مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ،وَلَمْ يُهَيِّجِ الْفِتَنَ أَمِنَ بَعْدِي مِمَّا يَرَى مِنَ الِاخْتِلَافِ الْكَثِيرِ وَتَشَعُّبِ الْآرَاءِ وَوُقُوعِ الْفِتَنِ اهـ.

وَكَتَبَ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ تَحْتَهُ:وَفِيهِ وَمَا زَادَ عَلَيْهِ،وَوَجْهُ نَظَرِهِ ظَاهِرًا مِنْ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا عَدَمُ ظُهُورِ وَجْهِ السَّبَبِيَّةِ،وَثَانِيهِمَا:عَدَمُ وُجُودِ الْأَنْسَبِيَّةِ بَلِ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ،وَالْمَعْنَى الْزَمُوا مَا قُلْتُ لَكُمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي لَا مُخَلِّصَ لَهُ إِلَّا نَصِيحَتِي (فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا)،أَيْ:مِنْ مِلَلٍ كَثِيرَةٍ كُلٌّ يَدَّعِي اعْتِقَادًا غَيْرَ اعْتِقَادِ الْآخَرِ إِشَارَةٌ إِلَى ظُهُورِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ أَوِ اخْتِلَافًا عَلَى الْمُلْكِ وَغَيْرِهِ كَثِيرًا يُؤَدِّي إِلَى الْفِتَنِ وَظُهُورِ الْمَعَاصِي وَوَلَايَةُ الْأَخِسَّاءِ حَتَّى الْعَبِيدِ (فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي) :اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى الْزَمُوا،أَيْ:بِطَرِيقَتِي الثَّابِتَةِ عَنِّي وَاجِبًا أَوْ مَنْدُوبًا (وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ) :فَإِنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا إِلَّا بِسُنَّتِي،فَالْإِضَافَةُ إِلَيْهِمْ إِمَّا لِعَمَلِهِمْ بِهَا أَوْ لِاسْتِنْبَاطِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ إِيَّاهَا (الْمَهْدِيِّينَ)،أَيِ:الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَى الْحَقِّ.قِيلَ:هُمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ:أَبُو بَكْرٍ،وَعُمَرُ،وَعُثْمَانُ،وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ:" «الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً» ".وَقَدِ انْتَهَتْ بِخِلَافَةِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ.

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ:وَوَصْفُ الرَّاشِدِينَ بِالْمَهْدِيِّينَ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُهْتَدِيًا فِي نَفْسِهِ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ هَادِيًا لِغَيْرِهِ لِأَنَّهُ يُوقِعُ الْخَلْقَ فِي الضَّلَالَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يُشْعِرُهُمْ،الصِّدِّيقُ،وَالْفَارُوقُ،وَذُو النُّورَيْنِ،وَأَبُو تُرَابٍ عَلِيٌّ الْمُرْتَضَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ،لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ وَوَاظَبُوا عَلَى اسْتِمْطَارِ الرَّحْمَةِ مِنَ السَّحَابَةِ

النَّبَوِيَّة،وَخَصَّهُمُ اللَّهُ بِالْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ وَالْمَنَاقِبِ السَّنِيَّةِ،وَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَشَاقِّ الْأَسْفَارِ وَمُجَاهَدَةِ الْقِتَالِ مَعَ الْكُفَّارِ،أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَنْصِبِ الْخِلَافَةِ الْعُظْمَى وَالتَّصَدِّي إِلَى الرِّئَاسَةِ الْكُبْرَى لِإِشَاعَةِ أَحْكَامِ الدِّينِ وَإِعْلَاءِ أَعْلَامِ الشَّرْعِ الْمَتِينِ رَفْعًا لِدَرَجَاتِهِمْ وَازْدِيَادًا لِمَثُوبَاتِهِمْ،فَخَلَفَ الصِّدِّيقُ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ سَنَتَيْنِ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَعَشَرَةَ أَيَّامٍ لِحِلْمِهِ وَوَقَارِهِ وَسَلَامَةِ نَفْسِهِ وَلِينِ جَانِبِهِ،وَالنَّاسُ مُتَحَيِّرُونَ،وَالْأَمْرُ غَيْرُ ثَابِتٍ،فَحَمَى بَيْضَةَ الدِّينِ،وَدَفَعَ غَوَائِلَ الْمُرْتَدِّينَ،وَجَمَعَ الْقُرْآنَ،وَفَتَحَ بَعْضَ الْبُلْدَانِ،ثُمَّ اسْتَخْلَفَ الْفَارُوقَ لِأَنَّ الْأَمْرَ مُسْتَقِرٌّ وَالْقَوْمَ مُطِيعٌ وَالْفِتَنَ سَاكِنَةٌ،فَرَفَعَ رَايَاتِ أَنَّ الْأَضْرَاسَ عِشْرُونَ شَامِلَةً لِلضَّوَاحِكِ وَالطَّوَاحِنِ وَالنَّوَاجِذِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْعَضُّ كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ مُلَازَمَةِ السُّنَّةِ وَالتَّمَسُّكِ بِهَا فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا أَخْذًا شَدِيدًا يَأْخُذُهُ بِأَسْنَانِهِ أَوِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ بِالصَّبْرِ عَلَى مُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ كَمَنْ أَصَابَهُ أَلَمٌ لَا يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَهُ فَيَشْتَدُّ بِأَسْنَانِهِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ،قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ:هَذِهِ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ شَبَّهَ حَالَ الْمُتَمَسِّكِ بِالسُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِجَمِيعِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَيْهِ بِحَالِ مَنْ يَتَمَسَّكُ بِشَيْءٍ بِيَدَيْهِ ثُمَّ يَسْتَعِينُ عَلَيْهِ اسْتِظْهَارًا لِلْمُحَافَظَةِ فِي ذَلِكَ لِأَنَّ تَحْصِيلَ السَّعَادَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ بَعْدَ مُجَانَبَةِ كُلِّ صَاحِبٍ يُفْسِدُ الْوَقْتَ،وَكُلِّ سَبَبٍ يَفْتِنُ الْقَلْبَ مَنُوطٌ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ بِأَنْ يَمْتَثِلَ الْأَمْرَ عَلَى مُشَاهَدَةِ الْإِخْلَاصِ،وَيُعَظِّمَ النَّهْيَ عَلَى مُشَاهَدَةِ الْخَوْفِ،بَلْ بِاقْتِفَاءِ آثَارِ الرَّسُولِ - ﷺ - فِي جَمِيعِ مَوَارِدِهِ وَمَصَادِرِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَيَقَظَتِهِ وَمَنَامِهِ،حَتَّى يُلْجِمَ النَّفْسَ بِلِجَامِ الشَّرِيعَةِ،وَيَتَجَلَّى فِي الْقَلْبِ حَقَائِقُ الْحَقِيقَةِ بِتَصْقِيلِهِ مِنْ مَفَاتِحِ الْأَخْلَاقِ وَتَنْوِيرِهِ بِأَنْوَارِ الذِّكْرِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْوِفَاقِ،وَتَعْدِيلِهِ بِإِجْرَاءِ جَمِيعِ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ عَلَى قَانُونِ الْعَدْلِ حَتَّى يُحْدِثَ فِيهِ هَيْئَةً عَادِلَةً مَسْنُونَةً مِنْ آثَارِ الْفَضْلِ،يَسْتَعِدُّ لِقَبُولِ الْمَعَارِفِ وَالْحَقَائِقِ،وَيَصْلُحُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ رُوحُ اللَّهِ الْمَخْصُوصُ بِسُلُوكِ أَحْسَنِ الطَّرَائِقِ،هَذَا وَقِيلَ:تَمَسَّكُوا وَعَضُّوا فِعْلَا مَاضٍ صِفَتَانِ لِلْخُلَفَاءِ (وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ) :عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ:فَعَلَيْكُمْ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّوْكِيدِ،أَيِ:احْذَرُوا عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي أُحْدِثَتْ عَلَى خِلَافِ أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ،وَاتَّقُوا أَحْدَاثَهَا (فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ

بِدْعَةٌ)،أَيْ:فِي الشَّرِيعَةِ (وَكُلَّ بِدْعَةٍ) :بِنَصْبِ كُلَّ،وَقِيلَ:بِرَفْعِهِ (ضَلَالَةٌ) :إِلَّا مَا خُصَّ،وَقَدْ تَقَدَّمَ.[989]

فالتمسك بسنة الخلفاء الراشدين هو طاعة لرسول الله ﷺ الذي أمر بتمسك بسنتهم،وأكد هذا الأمر بقوله:"**عضوا عليها بالنواجذ**"،وطاعة رسول الله ﷺ هي طاعة لله تعالى،كما قال تعالى:{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } [النساء:٨٠][990]

ومن سنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أن إمامتهم كانت خلافة راشدة على منهاج النبوة،و لم تكن ملكا،فدلَّ هذا على أن الخلافة على منهاج النبوة واجبة بالقرآن وبسنة النبي ﷺ وبسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين،وعن عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ الْفِرْيَابِيِّ ،قَالَ:سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ بِمَكَّةَ ،يَقُولُ:" سَلُونِي مَا شِئْتُمْ أُجِبْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ،وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ " ،قَالَ:فَقُلْتُ لَهُ:أَصْلَحَكَ اللهُ مَا تَقُولُ فِي الْمُحْرِمِ يَقْتُلُ زُنْبُورًا؟ ،قَالَ:" نَعَمْ ،بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ،قَالَ اللهُ تَعَالَى {مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧] "

وَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ ،عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ ،عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ ،عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي:أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ "

وَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ ،عَنْ مِسْعَرِ بْنِ كِدَامٍ ،عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ ،عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ ،عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ،«أَنَّهُ أَمَرَ مُحْرِمًا بِقَتْلِ الزُّنْبُورِ» رواه البيهقي [991]

قال ابن رجب رحمه الله:" وَقَوْلُهُ ﷺ:«فَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي،فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي،عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» .هَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ ﷺ

---

[989] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٥١)

[990] - يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ،فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ،لأَنَّهُ الآمِرُ النَّاهِي فِي الحَقِيقَةِ،وَالرَّسُولُ هُوَ المُبْلِغُ عَنْ رَبِّهِ،وَمَنْ عَصَاهُ،فَقَدْ عَصَى اللهَ،أَمَّا الذِينَ يَتَوَلَّوْنَ عَنِ الحَقِّ وَيَرْفُضُونَهُ،فَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا،وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيءٌ لأَنَّكَ لَمْ تُرْسَلْ إلاَّ مُبَشِراً وَنَذِيراً،وَلَمْ تُرْسَلْ مُسَيْطِراً عَلَيْهِم تَحْفَظُ عَلَيْهِم أَفْعَالَهُمْ،فَالأَفْعَالُ وَالطَّاعَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالاخْتِيَارِ بَعْدَ الإِقْنَاعِ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

[991] - السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٣٤٧)(١٠٠٥٥) والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٤٤٥) صحيح

بِمَا وَقَعَ فِي أُمَّتِهِ بَعْدَهُ مِنْ كَثْرَةِ الِاخْتِلَافِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ،وَفِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالِاعْتِقَادَاتِ،وَهَذَا مُوَافِقٌ لِمَا رُوِيَ عَنْهُ مِنَ افْتِرَاقِ أُمَّتِهِ عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،وَأَنَّهَا كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً،وَهِيَ مَنْ كَانَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ،وَكَذَلِكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَمْرٌ عِنْدَ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ بِالتَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهِ وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ،وَالسُّنَّةُ:هِيَ الطَّرِيقَةُ الْمَسْلُوكَةُ،فَيَشْمَلُ ذَلِكَ التَّمَسُّكَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَخُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ،وَهَذِهِ هِيَ السُّنَّةُ الْكَامِلَةُ،وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ قَدِيمًا لَا يُطْلِقُونَ اسْمَ السُّنَّةِ إِلَّا عَلَى مَا يَشْمَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ،وَرُوِيَ مَعْنَى ذَلِكَ عَنِ الْحَسَنِ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ يَخُصُّ اسْمَ السُّنَّةِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالِاعْتِقَادَاتِ،لِأَنَّهَا أَصْلُ الدِّينِ،وَالْمُخَالِفُ فِيهَا عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ،وَفِي ذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأُولِي الْأَمْرِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِأُولِي الْأَمْرِ إلا فِي طَاعَةِ اللَّهِ،كَمَا صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:«إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» "[992].

وقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ:«سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ سُنَنًا،الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَاسْتِكْمَالٌ لِفَرَائِضِ اللَّهِ،وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ،مَنْ عَمِلَ بِهَا مُهْتَدٍ،وَمَنِ اسْتَنْصَرَ بِهَا مَنْصُورٌ،مَنْ خَالَفَهَا اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى» الْآيَةَ [993]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ ،عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ،قَالَ:«سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُلَاةُ الْأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَنًا ،الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَتِهِ ،وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ ،لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا ،وَلَا النَّظَرُ فِي رَأْيِ مَنْ خَالَفَهَا ،فَمَنِ اقْتَدَى بِمَا سَنُّوا اهْتَدَى ،وَمَنِ اسْتَبْصَرَ بِهَا أَبْصَرَ ،وَمَنْ خَالَفَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَوَلَّاهُ وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» [994]

---

[992] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ١٢٠)

[993] - الإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٣٥٢)(٢٣٠) والسنة لأبي بكر بن الخلال (٤/ ١٢٧)(١٣٢٩) فيه انقطاع وله شواهد تقويه

[994] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٠٦)(١٣٤) حسن

وولاة الأمر في هذا الأثر الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم،قال الإمام الشـاطبي رحمـه الله:" وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ:كَانَ يَكْتُبُ فِي كُتُبِهِ:" إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ مَا مَالَتْ إِلَيْهِ الْأَهْوَاءُ وَالزَّيْغُ الْبَعِيدَةُ ".

وَلَمَّا بَايَعَهُ النَّاسُ؛ صَعِدَ عَلَى الْمِنْبَرِ،فَحَمِدَ اللَّهَ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّهُ لَيْسَ بَعْـدَ نَبِيِّكُمْ نَبِيٌّ،وَلَا بَعْدَ كِتَابِكُمْ كِتَابٌ،وَلَا بَعْدَ سُنَّتِكُمْ سُنَّةٌ،وَلَا بَعْدَ أُمَّتِكُمْ أُمَّةٌ،أَلَا وَإِنَّ الْحَلَالَ مَـا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،أَلَا وَإِنَّ الْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ وَلَكِنِّي مُتَّبِعٌ،أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِقَاضٍ وَلَكِنِّي مُنَفِّذٌ،أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِخَازِنٍ وَلَكِنِّي أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ،أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِخَيْرِكُمْ وَلَكِنِّي أَثْقَلُكُمْ حِمْلًا.أَلَا وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ".ثُمَّ نَزَلَ.

وَمِنْ كَلَامِهِ الَّذِي عُنِيَ بِهِ وَيَحْفَظُهُ الْعُلَمَاءُ وَكَانَ يُعْجِبُ مَالِكًا جِدًّا،وَهُوَ أَنْ قَالَ:" سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ سُنَنًا،الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ،وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَةِ اللَّـهِ،وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ،لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا وَلَا النَّظَرُ فِي شَيْءٍ خَالَفَهُ،مَنْ عَمِلَ بِهَا مُهْتَدٍ،وَمَنِ انْتَصَرَ بِهَا مَنْصُورٌ،وَمَنْ خَالَفَهَا اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ،وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى،وَأَصْـلَاهُ جَهَـنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ".

وَبِحَقٍّ مَا كَانَ يُعْجِبُهُمْ؛ فَإِنَّهُ كَلَامٌ مُخْتَصَرٌ،جَمَعَ أُصُولًا حَسَنَةً مِنَ السُّنَّةِ:

مِنْهَا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ:" لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا وَلَا النَّظَرُ فِي شَيْءٍ خَالَفَهَا "،قَطْعٌ لِمَادَّةِ الِابْتِدَاعِ جُمْلَةً.

وَقَوْلُهُ:" مَنْ عَمِلَ بِهَا مُهْتَدٍ إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ مَدْحٌ لِمُتَّبِعِ السُّنَّةِ،وَذَمٌّ لِمَنْ خَالَفَهَا بِالدَّلِيلِ الـدَّالِّ عَلَى ذَلِكَ،وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَـهُ الْهُـدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥].

وَمِنْهَا مَا سَنَّهُ وُلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَهُوَ سُنَّةٌ؛ لَا بِدْعَةَ فِيهِ أَلْبَتَّةَ،وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ نَصٌّ عَلَيْهِ عَلَى الْخُصُوصِ،فَقَدْ جَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ،وَذَلِكَ نَـصُّ حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ فِيهِ:«فَعَلَيْكُمْ بِسُـنَّتِي وَسُـنَّةِ الْخُلَفَـاءِ

الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،تَمَسَّكُوا بِهَا،سُنَّته ﷺ فِي الْجُمْلَةِ وَالتَّفْصِيلِ عَلَى وَجْهٍ يَخْفَى عَلَى غَيْرِهِمْ مِثْلُهُ،لَا زَائِدَ عَلَى ذَلِكَ.

عَلَى أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمَ نَقَلَ عَنْ يَحْيَى بْنِ آدَمَ قَوْلَ السَّلَفِ الصَّالِحِ:" سُنَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "،أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ:" أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ السُّنَّةِ،وَأَنَّهُ لَا يُحْتَاجُ مَعَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى قَوْلِ أَحَدٍ ".

وَمَا قَالَ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ،فَهُوَ مِمَّا يَحْتَمِلُهُ حَدِيثُ الْعِرْبَاضِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَلَا زَائِدَ إِذًا عَلَى مَا ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يُخَافُ أَنْ تَكُونَ مَنْسُوخَةً بِسُنَّةٍ أُخْرَى،فَافْتَقَرَ الْعُلَمَاءُ إِلَى النَّظَرِ فِي عَمَلِ الْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ،لِيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي مَاتَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَاسِخٌ،لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ بِالْأَحْدَثِ فَالْأَحْدَثِ مِنْ أَمْرِهِ.

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى بَنَى مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ فِي احْتِجَاجِهِ بِالْعَمَلِ،وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِ عِنْدَ تَعَارُضِ السُّنَنِ.

وَمِنَ الْأُصُولِ الْمُضَمَّنَةِ فِي أَثَرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ:أَنَّ سُنَّةَ وُلَاةِ الْأَمْرِ وَعَمَلَهُمْ تَفْسِيرٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ،لِقَوْلِهِ:" الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ،وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَةِ اللَّهِ،وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ ".وَهُوَ أَصْلٌ مُقَرَّرٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ،فَقَدْ جَمَعَ كَلَامُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ أُصُولًا حَسَنَةً وَفَوَائِدَ مُهِمَّةً."[995]

وعَنْ سَفِينَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً،ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ أَوْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ» قَالَ سَعِيدٌ قَالَ لِي سَفِينَةُ:«أَمْسِكْ عَلَيْكَ أَبَا بَكْرٍ سَنَتَيْنِ،وَعُمَرُ عَشْرًا،وَعُثْمَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ،وَعَلِيٌّ كَذَا» رواه أبو داود[996]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَإِلَى عَامِ ثَلَاثِينَ سَنَةَ كَانَ إصْلَاحُ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ السَّيِّدِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِنُزُولِهِ عَنْ الْأَمْرِ عَامَ إحْدَى وَأَرْبَعِينَ فِي شَهْرِ جُمَادَى الْأُولَى وَسُمِّيَ " عَامَ الْجَمَاعَةِ " لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَى " مُعَاوِيَةَ " وَهُوَ أَوَّلُ الْمُلُوكِ".[997]

---

[995] - الاعتصام للشاطبي ت الهلالي (١/ ١١٦)

[996] - سنن أبي داود (٤/ ٢١١)(٤٦٤٦) صحيح

[997] - مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩)

وقد أخرج البخاري عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ،قَالَ:كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الحِجَازِ اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ فَخَطَبَ،فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ لِكَيْ يُبَايَعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا،فَقَالَ:خُذُوهُ،فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ فَلَمْ يَقْدِرُوا،فَقَالَ مَرْوَانُ:إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ،{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي} [الأحقاف:١٧]،فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ:«مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عُذْرِي»[٩٩٨]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ:لَمَّا أَرَادَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَسْتَخْلِفَ يَزِيدَ بَعَثَ إِلَى عَامِلِ الْمَدِينَةِ أَنْ أَوْفِدْ إِلَيَّ مَنْ شَاءَ،قَالَ:فَوَفَدَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ حَزْمٍ الْأَنْصَارِيُّ،فَاسْتَأْذَنَ،فَجَاءَ حَاجِبُ مُعَاوِيَةَ يَسْتَأْذِنُ،فَقَالَ:هَذَا عَمْرٌو قَدْ جَاءَ يَسْتَأْذِنُ،فَقَالَ:مَا جَاءَ بِهِمْ إِلَيَّ؟ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،جَاءَ يَطْلُبُ مَعْرُوفَكَ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَلْيَكْتُبْ مَا شَاءَ فَأُعْطِهِ مَا سَأَلَكَ،وَلَا أَرَاهُ،قَالَ:فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْحَاجِبُ،فَقَالَ:مَا حَاجَتُكَ؟ اكْتُبْ مَا شِئْتَ،فَقَالَ:سُبْحَانَ اللَّهِ أَجِيءُ إِلَى بَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،فَأُحْجَبُ عَنْهُ؟ أُحِبُّ أَنْ أَلْقَاهُ،فَأُكَلِّمَهُ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِلْحَاجِبِ:عِدْهُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ فَلْيَجِئْ،قَالَ:فَلَمَّا صَلَّى مُعَاوِيَةُ الْغَدَاةَ أَمَرَ بِسَرِيرٍ،فَجُعِلَ فِي إِيوَانٍ لَهُ،ثُمَّ أَخْرَجَ النَّاسَ عَنْهُ،فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا كُرْسِيٌّ وُضِعَ لِعَمْرٍو،فَجَاءَ عَمْرٌو،فَاسْتَأْذَنَ،فَأُذِنَ لَهُ،فَسَلَّمَ عَلَيْهِ،ثُمَّ جَلَسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ،فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ:حَاجَتَكَ،قَالَ:فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:لَعَمْرِي لَقَدْ أَصْبَحَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَاسِطَ الْحَسَبِ فِي قُرَيْشٍ،غَنِيًّا عَنِ الْمَالِ،غَنِيًّا إِلَّا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ،وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَرْعِ عَبْدًا رَعِيَّةً إِلَّا وَهُوَ سَائِلُهُ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ:كَيْفَ صَنَعَ فِيهَا " وَإِنِّي أُذَكِّرُكَ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَنْ تَسْتَخْلِفُ عَلَيْهَا،قَالَ:فَأَخَذَ مُعَاوِيَةَ رَبْوَةٌ وَنَفَسٌ فِي غَدَاةٍ قَرٍّ حَتَّى عَرِقَ وَجَعَلَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ

---

[٩٩٨] - صحيح البخاري (٦/ ١٣٣)(٤٨٢٧)

[ش (على الحجاز) أميرا على المدينة.(استعمله) جعله عاملا له أي أميرا من قبله.(يذكر يزيد..) يثني عليه ويبين حسن اختيار معاوية رضي الله عنه له.(شيئا) يسيئه ويقدح فيما يدعو إليه وقيل إنه قال له سنة هرقل وقيصر أي اتبعتم طريقتهما في إسناد الملك لأولاد المالكين وخالفتم سنة رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده إذ إنهم لم يفعلوا ذلك.(فلم يقدروا) على إخراجه من بيتها وامتنعوا من دخوله إعظاما لشأنها.(فينا) آل أبي بكر وبنيه رضي الله عنهم.(عذري) أي براءتي مما اتهمني به أهل الإفك وتعني ما نزل بشأنها من آيات في سورة النور من قوله تعالى {إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم}..إلى قوله تعالى {أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم} / النور ١١ - ٢٦ /]

ثَلَاثًا،ثُمَّ أَفَاقَ،فَحَمِدَ اللَّهَ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ ،فَإِنَّكَ امْرُؤٌ نَاصِحٌ،قُلْتَ بِرَأْيِكَ ،بَالِغٌ مَا بَلَغَ،وَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا ابْنِي وَأَبْنَاؤُهُمْ،وَابْنِي أَحَقُّ مِنْ أَبْنَائِهِمْ،حَاجَتَكَ،قَالَ:مَا لِي حَاجَةٌ،قَالَ:ثُمَّ قَالَ لَهُ أَخُوهُ:إِنَّمَا جِئْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نَضْرِبُ أَكْبَادَهَا مِنْ أَجْلِ كَلِمَاتٍ قَالَ:مَا جِئْتُ إِلَّا لِكَلِمَاتٍ،قَالَ:فَأَمَرَ لَهُمْ بِجَوَائِزِهِمْ،قَالَ:وَخَرَجَ لِعَمْرٍو،مِثْلُهُ"[999]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ – وَلَمْ يُجَرَّبْ عَلَيْهِ كَذْبَةٌ قَطُّ – ذَكَرَ عَنْهُ حِكَايَةً ؛ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَتْ بَيْعَةُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ،قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِمَرْوَانَ:جَعَلْتُمُوهَا وَاللَّهِ هِرَقْلِيَّةً وَكِسْرَوِيَّةً.يَعْنِي جَعَلْتُمْ مُلْكَ الْمَلِكِ لِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ وَلَدِهِ.فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ:اسْكُتْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ:{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ} [الأحقاف:١٧] .فَقَالَتْ عَائِشَةُ:وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ،إِلَّا أَنَّهُ أَنْزَلَ عُذْرِي.[1000]

وعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ:أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ امْتَنَعَ مِنْ بَيْعَةِ يَزِيدَ.فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ:كُنْ عَلَى مَا فِي نفسك.

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قال:لَمَّا جَاءَتْ بَيْعَةُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ،قَالَ ابْنُ عُمَرَ:إِنْ كَانَ خَيْرًا رَضِينَا،وَإِنْ كَانَ بلاءً صبرنا.

وعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ قَالَ:فَلَمْ أَرَ كَبَيْعَةِ ابْنِ عُمَرَ يَوْمَئِذٍ،إِنَّهُ قَالَ:اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ خَيِّرَةً فَإِنَّا نَرْضَى،وَإِنْ كَانَتْ بَلِيَّةً فَإِنَّا نصبر.[1001]

فالخلافة هي التي تكون على منهاج النبوة،ويتولى الإمامة فيها أفضل من توفرت فيه شروط الإمامة من المسلمين،وأما الملك في هذه الأمة،فلا ينظر فيه بشروط الإمامة،وإنما يتوارث أبناء العائلة الواحدة الإمامة بينهم،وهذا يترتب عليه في كثير من الأحيان ترك الكثير من الواجبات الشرعية في سياسة الأمة،وارتكاب المحرمات من ظلم الرعية واعتسافها مع غياب الشورى ومحاسبة الولاة ومحاكمتهم،وقد وصف النبي ﷺ الملك بالعاض والجبرية،فعَنْ سَلْمَانَ أَنَّ عُمَرَ

[999] – مسند أبي يعلى الموصلي (١٣/ ١٢١)(٧١٧٤) صحيح

[1000] – البداية والنهاية ط هجر (١١/ ٣٣٠) صحيح

[1001] – تاريخ أبي زرعة الدمشقي (ص:٢٢٩) صحيح

قَالَ لَهُ:أَمَلِكٌ أَنَا أَمْ خَلِيفَةٌ؟ فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ:إِنْ أَنْتَ جَبَيْتَ مِنْ أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ دِرْهَمًا أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ ثُمَّ وَضَعْتَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ فَأَنْتَ مَلِكٌ غَيْرُ خَلِيفَة.فَاسْتَعْبَرَ عُمَرُ.

وعَنْ سُفْيَانَ ابن أَبِي الْعَوْجَاءِ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَخَلِيفَةٌ أَنَا أَمْ مَلِكٌ.فَإِنْ كُنْتُ مَلِكًا فَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ.قَالَ قَائِلٌ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا.قَالَ:مَا هُوَ؟ قَالَ:الْخَلِيفَةُ لا يَأْخُذُ إِلا حَقًّا وَلا يَضَعُهُ إِلا فِي حَقٍّ.فَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ.وَالْمَلِكُ يَعْسِفُ النَّاسَ فَيَأْخُذُ مِنْ هَذَا وَيُعْطِي هَذَا.فَسَكَتَ عُمَرُ.[1002] .

فالولايات من الأمانات التي يجب أن تسند إلى أهلها،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ،جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ:مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ،فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ:سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ.وَقَالَ بَعْضُهُمْ:بَلْ لَمْ يَسْمَعْ،حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ:«أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ:هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»،قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ:«إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» رواهُ البُخاري[1003]

[1002] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٣٣) من طريق الواقدي

[1003] - صحيح البخاري (١/ ٢١)(٥٩)

[ش (فمضى) استمر.(قضى) انتهى منه.(أراه) أظنه قال هذا.قال في الفتح والشك من محمد بن فليح - أحد رجال السند - ورواه الحسن بن سفيان وغيره عن عثمان بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن فليح ولفظه (أين السائل) و لم يشك.(وسد) أسند.(غير أهله) من ليس كفأ له]

" إِذَا ضُيِّعَت "):بِصِيغَة الْمَفْعُول مِنَ التَّضْيِيعِ،وَفِي نُسْخَة مِنَ الْإِضَاعَة (" الْأَمَانَةُ ") أَيْ:حِينَ جُعِلَت الْأَمَانَةُ ضَائِعَةً بِالْخِيَانَة،أَوْ وُضِعَتْ عِنْدَ غَيْرِ أَرْبَاب الدِّيَانَة (" فَانْتَظِر السَّاعَةَ ") أَيْ:فَإِنَّهُ مِنْ أَشْرَاط الْقِيَامَة.(قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا) ؟ هَذَا يُؤَيِّدُ النُّسْخَةَ أَيْ:كَيْفَ تَضْيِيعُ الْأَمَانَة،وَالْأُمَّةُ قَائِمُونَ بِأَمْرِهَا،وَالْعَامَّةُ مُعْتَنُونَ بِقَدْرِهَا (قَالَ:" إِذَا وُسِّدَ "):بِضَمِّ الْوَاو وَتَشْدِيد السِّين،وَقَدْ تُخَفَّفُ عَلَى مَا فِي الْمُقَدِّمَة أَيْ:أُسْنِدَ وَفُوِّضَ (" الْأَمْرُ ") أَيْ:أَمْرُ السُّلْطَة أَو الْإِمَارَة أَو الْقَضَاء أَو الْحُكُومَة (" إِلَى غَيْر أَهْله ") أَيْ:مِمَّنْ لَمْ يُوجَدْ فِيهِ شَرَائِطُ الِاسْتِحْقَاق كَالنِّسَاء وَالصِّبْيَان،وَالْجَهَلَة وَالْفَسَقَة،وَالْبَخِيل وَالْجَبَان،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قُرَشِيًّا وَلَوْ كَانَ مِنْ نَسْلِ سَلَاطِين الزَّمَان،هَذَا فِي الْخَلِيفَة،وَقِسْ عَلَى هَذَا سَائِرَ أُولِي الْأَمْر وَالشَّأْن وَأَرْبَاب الْمَنَاصِب مِنَ التَّدْرِيس وَالْفَتْوَى وَالْإِمَامَة وَالْخَطَابَة،وَأَمْثَال ذَلِكَ مِمَّا يَفْتَخِرُ بِه الْأَقْرَانُ.

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:مَعْنَاهُ أَنْ يَلِيَ الْأَمْرَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ،فَيُلْقَى لَهُ وِسَادَةُ الْمُلْك وَأَرَادَ بِالْأَمْر الْخِلَافَةَ،وَمَا يَنْضَمُّ إِلَيْهَا مِنْ قَضَاء وَإِمَارَة وَنَحْوِهَا،وَالتَّوْسِيدُ:أُخِذَ مِنَ الْوِسَاد،يُقَالُ:وَسَدْتُهُ الشَّيْءَ بِالتَّخْفِيف فَتَوَسَّدَهُ،إِذَا جَعَلَهُ تَحْتَ رَأْسِه،وَلَفْظَةُ " إِلَى " فِيهَا إِشْكَالٌ،إِذْ كَانَ مِنْ حَقِّه أَنْ يُقَالَ:وُسِّدَ الْأَمْرُ لِغَيْر أَهْله،فَلَعَلَّهُ أَتَى بِهَا لِيَدُلَّ عَلَى إِسْنَاد الْأَمْر إِلَيْه اهـ.

فإذا أسند الإمام الولاية لابنه واستبد بالأمر مع وجود من هو أولى وأحق بالولايـة وكـان الإمام قادرا على إسناد الإمامة للأولى و لم يفعل فقد خالف أمر الله بأداء الأمانة إلى أهلها،وقد قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُـوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]،وقال:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْـوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)} [الأنفال:٢٧،٢٨]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِأَنْ لاَ يَخُونُوا اللهَ بِارْتِكَابِ الذُّنُوبِ،وَأَنْ يَخُونُوا رَسُولَهُ بِتَرْكِ سُنَنِهِ،وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ،وَأَنْ لاَ يَخُونُوا أَمَانَاتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ التِـي ائْـتَمَنَ اللهُ العِبَـادَ عَلَيهَا:يَعْنِي الفَرَائِضَ،وَهِيَ تَشْمَلُ أَمَانَةَ الإِنْسَانِ نَحْوَ النَّاسِ فِـي تَعَامُلِـهِ مَعَهُـمْ:كَالمِكْيَـالِ وَالمِيْزَانِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالحَقِّ وَالصِّدْقِ،وَكِتْمَانِ السِّـرِّ..إلخ.فَالأَمَانَـةُ وَاحِـدَةٌ وَلاَ تَبْعِـيضَ فِيهَا،وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ مَسَاوِىءَ الخِيَانَةِ،وَسُوءَ عَاقِبَتِهَا.إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْطَاكُمُ الأَمْوَالَ وَالأَوْلاَدَ لِيَخْتَبِرَ إِيمَانَكُمْ،وَلِيَرَى هَلْ تَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَيْها،وَتُطِيعُونَهُ فِيهَا،أَمْ تَشْـتَغِلُونَ بِهَـا عَنْهُ،وَتَعْتَاضُونَ بِهَا مِنْهُ؟ وَثَوابُ اللهِ وَعَطَاؤُهُ وَجَنَّاتُهُ خَيْرٌ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ،فَـالأَوْلاَدُ قَـدْ

وَفِي الْقَامُوسِ:إِنَّ إِلَى تَأْتِي مُرَادِفَةً لِلَّامِ،نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ} [النمل:٣٣] اهـ.وَيُرِيدُ أَنَّ الْمَعْنَى:وَالْأَمْرُ لَك،لَكِنَّ الْأَظْهَرَ أَنْ يُقَالَ:الْأَمْرُ رَاجِعٌ إِلَيْك،وَالْأَحْسَنُ فِي الْحَدِيثِ أَنْ يُضَمَّنَ مَعْنَى التَّفْوِيضِ وَالْإِسْنَادِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوَّلًا.(" فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ "):لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُرْبِ قِيَامِهَا،وَإِنَّمَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى دُنُوِّ السَّاعَةِ لِإِفْضَائِهِ إِلَى اخْتِلَالِ الْأَمْرِ،وَعَدَمِ تَمَامِ النِّظَامِ،وَوَهَنِ أُمُورِ الدُّنْيَا،وَضَعْفِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:لِأَنَّ تَغَيُّرَ الْوُلَاةِ وَفَسَادَهُمْ مُسْتَلْزِمٌ لِتَغَيُّرِ الرَّعِيَّةِ،وَقَدْ قِيلَ:النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ.قَالَ الْقَاضِي – رَحِمَهُ اللَّهُ:أَخْرَجَ الْجَوَابَيْنِ مُخْرَجَ الاسْتِئْنَافِ لِلتَّأْكِيدِ؛وَلِأَنَّ السُّؤَالَ الْأَوَّلَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ بِجَوَابٍ حَقِيقِيٍّ يُطَابِقُهُ،فَإِنَّ تَأْقِيتَ السَّاعَةِ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ،عَدَلَ عَنِ الْجَوَابِ إِلَى ذِكْرِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَسْئُولِ عَنْهُ دَلَالَةً مِنْ أَمَارَاتِهَا،وَسَلَكَ فِي الْجَوَابِ الثَّانِي مَسْلَكَ الْأَوَّلِ؛لِيَنْتَسِقَ الْكَلَامُ.قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:كَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ يُكْتَفَى عَنْ جَوَابِ السُّؤَالِ الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ:إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ،وَأَنْ يُؤْتَى فِي السُّؤَالِ الثَّانِي بِمَتَى؛لِيُطَابِقَ الْجَوَابَ،فَزَادَ فِي الْأَوَّلِ:" فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ "؛لِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ:" إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ " لَيْسَ إِبَّانَ السَّاعَةِ،بَلْ مِنْ أَمَارَاتِهَا،فَلَا تَكُونُ إِذَا شَرْطِيَّةً،وَتَأْوِيلُ السُّؤَالِ الثَّانِي:مَتَى تَضِيعُ الْأَمَانَةُ؟ وَكَيْفَ حُصُولُ التَّضْيِيعِ؟ فَقَالَ:إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ،فَأَطْنَبَ فِي الْأَوَّلِ لِإِفَادَةِ مَعْنًى زَائِدٍ،وَاخْتَصَرَ فِي الثَّانِي لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ تَفَنُّنًا اهـ.وَفِيهِ أَنَّهُ يُوهِمُ أَنَّ قَوْلَهُ:فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الْجَوَابِ الثَّانِي،وَالْحَالُ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِهِ،بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْجَوَابَيْنِ،وَلَعَلَّهُ سَقَطَ مِنْ أَصْلِ الطِّيبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٤٢٩)

يَكُونُ مِنْهُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ،وَهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ لاَ يُغْنُونَ عَنِ الإِنْسَانِ شَيْئاً يَوْمَ القِيَامَةِ،وَلَدَى اللهِ الثَّوَابُ الجَزِيلُ الذي يُغْنِي الإِنْسَانَ عَنِ المَالِ وَالوَلَدِ.[1004]

فإن الأموال والأولاد من الفتنة التي تصد العبد عن أداء الأمانة إلى أهلها،قال العلامة السعدي رحمه الله:" يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه،فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال،فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولافمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل،ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل،وصار خائنا لله وللرسول ولأمانته،منقصا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات،وأقبح الشيات،وهي الخيانة مفوتا لها أكمل الصفات وأتمها،وهي الأمانة.

ولما كان العبد ممتحنا بأمواله وأولاده،فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته،أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده،وأنها عارية ستؤدى لمن أعطاها،وترد لمن استودعها {وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}فإن كان لكم عقل ورَأْيٌ،فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة،فالعاقل يوازن بين الأشياء،ويؤثر أولاها بالإيثار،وأحقها بالتقديم."[1005]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" فَيَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يُوَلِّيَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ،أَصْلَحَ مَنْ يَجِدُهُ لِذَلِكَ الْعَمَلِ،فعن ابنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:"مَنِ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ وَأَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ،فَقَدْ خَانَ اللهَ،وَرَسُولَهُ،وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ "[1006].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وخانَ رَسُولَهُ وخانَ الْمُؤْمِنِينَ»[1007]

[1004] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨٨،بترقيم الشاملة آليا)

[1005] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣١٩)

[1006] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٠١)(٢٠٣٦٤) حسن

[1007] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٠٤)(٧٠٢٣) حسن لغيره

وَرَوَى بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ عُمَرَ لِابْنِ عُمَرَ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْهُ.وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رضـــي الله عنه:مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَوَلَّى رَجُلًا لِمَوَدَّةٍ أَوْ قَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا،فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُـــولَهُ وَالْمُسْلِمِينَ"[1008] وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَيْهِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ الْبَحْثُ عَنِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْوِلَايَاتِ،مِنْ نُوَّابِـــهِ عَلَى الْأَمْصَارِ،مِنَ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ هُمْ نُوَّابُ ذِي السُّلْطَانِ،وَالْقُضَاةِ،وَمِنْ أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ وَمُقَـــدَّمِي الْعَسَاكِرِ وَالصِّغَارِ وَالْكِبَارِ،وَوُلَاةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالشَّادِّينَ[1009] وَالسُّـــعَاةِ عَلَـــى الْخَرَاجِ وَالصَّدَقَاتِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَمْوَالِ الَّتِي لِلْمُسْلِمِينَ.وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِـــنْ هَؤُلَـــاءِ،أَنْ يَسْـــتَنِيبَ وَيَسْـــتَعْمِلَ أَصْـــلَحَ مَـــنْ يَجِـــدُهُ،وَيَنْتَهِي ذَلِـــكَ إلَـــى أَئِمَّـــةِ الصَّـــلَاةِ وَالْمُؤَذِّنِينَ،وَالْمُقْرِئِينَ،وَالْمُعَلِّمِينَ،وَأَمِيرِ الْحَاجِّ،وَالْبُرُدِ،وَالْعُيُونِ الَّـــذِينَ هُـــمُ الْقُصَّـــادُ،وَخُزَّانِ الْأَمْوَالِ،وَحُرَّاسِ الْحُصُونِ،وَالْحَدَّادِينَ الَّذِينَ هُمْ الْبَوَّابُونَ عَلَـــى الْحُصُـــونِ وَالْمَـــدَائِنِ،وَنُقَبَاءِ الْعَسَاكِرِ الْكِبَـــارِ وَالصِّـــغَارِ،وَعُرَفَاءِ الْقَبَائِـــلِ وَالْأَسْوَاقِ،وَرُؤَسَـــاءِ الْقُـــرَى الَّـــذِينَ هُـــمْ الدَّهَّاقُونَ[1010] .فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ،مِنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ،أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِيمَا تَحْتَ يَدِهِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ،أَصْلَحَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ،وَلَا يُقَدِّمُ الرَّجُلَ لِكَوْنِهِ طَلَبَ الْوِلَايَـــةَ،أَوْ يَسْبِقُ فِي الطَّلَبِ.بَلْ ذَلِكَ سَبَبُ الْمَنْعِ،فعَنْ أَبِي بُرْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:دَخَلْتُ أَنَـــا وَرَجُلَانِ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَتَكَلَّمَا وَعَرَّضْنَا بِالْعَمَلِ،فَقَالَ:«إِنَّ أَخْوَنَكُمْ عِنْدِي مَنْ طَلَبَهُ وَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ»[1011] .

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:جَاءَ أَبُو مُوسَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ رَجُلَانِ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ،وَكِلَاهُمَا يَسْأَلُهُ الْعَمَلَ،قَالَ:«أَنْتَ مَا تَقُولُ يَا أَبَا مُوسَى"أَوْ «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ»،قَالَ:وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا

[1008] - مسند الفاروق لابن كثير (٢/ ٥٣٧) فيه انقطاع

[1009] - شدّ:يطلق في مصر على المنصب الذي يتولاه الشاد أي المفتش (مملوك ١١١:١٠١).تكملة المعاجم العربية (٦/ ٢٧٥)

[1010] - (الدهْقَان) رَئِيس الْقَرْيَة وَرَئِيس الإقليم وَالْقَوِي على التَّصَرُّف مَعَ شدَّة خبْرَة وَمن لَهُ مَال وعقار والتاجر (كُله مَعَ) (ج) دهاقنة ودهاقين"المعجم الوسيط (١/ ٣٠٠)

[1011] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٣٤٨)(٦٩٢٦) صحيح

أَطْلَعَانِي عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّا لَا نَسْتَعْمِلُ عَلَى عَمَلِنَا مَنْ طَلَبَهُ»،وَكَأَنِّمَا أَنْظُرُ إِلَى السِّوَاكِ قَدْ قَلَصَ،وَهُوَ يَسْتَاكُ،«وَلَكِنْ يَا أَبَا مُوسَى اذْهَبْ إِلَى الْيَمَنِ أَمِيرًا»[١٠١٢]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ،لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ،فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا،وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا،وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ،فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا،فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[١٠١٣]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ طَلَبَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ،وُكِلَ إِلَيْهِ،وَمَنْ لَمْ يَطْلُبْهُ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ،أَنْزَلَ اللَّهُ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ[١٠١٤].

فَإِنْ عَدَلَ عَنِ الْأَحَقِّ الْأَصْلَحِ إِلَى غَيْرِهِ،لِأَجْلِ قَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا،أَوْ وَلَاءِ عَتَاقَةٍ أَوْ صَدَاقَةٍ،أَوْ مُوَافَقَةٍ فِي بَلَدٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ طَرِيقَةٍ أَوْ جِنْسٍ،كَالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ،أَوْ لِرِشْوَةٍ يَأْخُذُهَا مِنْهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ،أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ،أَوْ لِضِغْنٍ فِي قَلْبِهِ عَلَى الْأَحَقِّ،أَوْ عَدَاوَةٍ بَيْنَهُمَا،فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ،وَدَخَلَ فِيمَا نُهِيَ عَنْهُ فِي قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)} [الأنفال:٢٧،٢٨] .

فَإِنَّ الرَّجُلَ لِحُبِّهِ لِوَلَدِهِ،أَوْ لِعَتِيقِهِ،قَدْ يُؤْثِرُهُ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ،أَوْ يُعْطِيهِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ،فَيَكُونُ قَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ،كَذَلِكَ قَدْ يُؤْثِرُهُ زِيَادَةً فِي مَالِهِ أَوْ حِفْظِهِ،بِأَخْذِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ،أَوْ مُحَابَاةِ مَنْ يُدَاهِنُهُ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ،فَيَكُونُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،وَخَانَ أَمَانَتَهُ."[١٠١٥]

[١٠١٢] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٣٧٨)(٧٠١٧) صحيح - زيادة

[١٠١٣] - صحيح البخاري (٨/ ١٢٨)(٦٦٢٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٧٣)١٩ - (١٦٥٢)

[ش (لا تسأل الإمارة) لا تطلب أن تكون واليا أو حاكما.(وكلت إليها) تركك الله تعالى لتدبير نفسك.(أعنت عليها) هيأ الله تعالى لك أعوان خير ينصحون لك ويسددون خطاك بتوفيق من الله عز وجل.(حلفت على يمين) أقسمت على شيء والأصل حلفت يمينا ف - (على) مقحمة تأكيدا للمعنى.(فكفر) أخرج الكفارة المشروعة]

[١٠١٤] - سنن أبي داود (٣/ ٣٠٠)(٣٥٧٨) وسنن ابن ماجه (٢/ ٧٧٤)(٢٣٠٩) وسنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٦٠٥)(١٣٢٣) حسن

وقد أعله بعضهم بعبد الأعلى بن عامر الثعلبى وأنه ضعيف

أقول:هو صدوق،لكن روى عن ابن الحنفية صحيفة فأكثر النقد له موجه على روايته عن ابن الحنفية وهذا ليس منها ويكفي أن الثقات شعبة والثورى وغيرهما قد حدثوا عنه - راجع التهذيب ٦/٩٤-٩٥

وقال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة:١٢٤]

وَاذكُرْ يَا مُحَمَّدُ لأَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ اختبَارَ اللهِ لإبراهيمَ بِمَا كَلَّفَهُ بِهِ مِنَ الأَوَامِرِ وَالنَّواهِي،فَقَامَ بها عَلَى الوَجْهِ الأَكْمَلِ،فَجَعَلَهُ اللهُ للنَّاسِ قُدْوَةً وَإِمَاماً.فَدَعَا إِبْرَاهِيمَ النَّاسَ إِلَى تَوحِيدِ اللهِ،وَالبَراءَةِ مِنَ الشِّرْكِ.وَسَأَلَ إِبراهِيمُ رَبَّهُ أَنْ تَكُونَ الإِمَامَةُ فِي ذُرِّيَّتِه،فَأَجَابَهُ اللهُ،جَلَّ شَأْنُهُ،إِلى مَا سَأَلَ،وَلكِنَّهُ قَالَ لَهُ:إِنَّ عَهْدَهُ سُبْحَانَهُ لا يَنَالُ الظَّالِمِينَ،وَلِذلِكَ فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الظَّالِمُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِه أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِهِمْ.[1016]

(قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) أي قال واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم،وقد جرى إبراهيم على سنة الفطرة،فتمنى لذريته الخير في أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم،ولا غرو فالإنسان يرجو أن يكون ابنه أحسن منه في جميع ذلك.(قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) أي قال أجبتك إلى ما طلبت،وسأجعل من ذريتك أئمة للناس،ولكن عهدى بالإمامة لا يناله الظالمون،إذ هم لا يصلحون أن يكونوا قدوة للناس.

وفي ذكر الظلم مانعا من الإمامة تنفير لذرية إبراهيم منه وتبغيض لهم فيه،ليتحاموه وينشئوا أولادهم على كراهته،كيلا يقعوا فيه ويحرموا من هذا المنصب العظيم الذي هو أعلى المناصب وأشرفها،كما هو تنفير من الظالمين وعدم مخالطتهم.

فالإمامة الصالحة لا تكون إلا لذوى النفوس الفاضلة التي تسوق صاحبها إلى خير العمل،وتزعه عن الشرور والآثام،ولا حظّ للظالمين في شىء من هذا.

والخلاصة- إن الإمامة والنبوة لا ينالها من دنّس نفسه ودسّاها بالظلم وقبيح الخلال،وإنما ينالها من شرفت خلاله،وكملت أخلاقه،وصفت نفسه،لأن أهم أعمال الإمام رفع الظلم والفساد حتى ينتظم العمران،وتسود السكينة بين الناس.[1017]

[1015] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:١١)

[1016] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣١،بترقيم الشاملة آليا)

[1017] - تفسير المراغي (١/ ٢٠٩)

قال القرطبي رحمه الله" قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد:" اسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ مَعَ الْقُوَّةِ عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ،وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا يُنَازِعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ،عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقَوْلِ فِيهِ.فَأَمَّا أَهْلُ الْفُسُوقِ وَالْجَوْرِ وَالظُّلْمِ فَلَيْسُوا لَهُ بِأَهْلٍ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:" لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" وَلِهَذَا خَرَجَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَالْحُسَيْنُ ابن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.وَخَرَجَ خِيَارُ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَعُلَمَاؤُهُمْ عَلَى الْحَجَّاجِ،وَأَخْرَجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بَنِي أُمَيَّةَ وَقَامُوا عَلَيْهِمْ،فَكَانَتِ الْحَرَّةُ الَّتِي أَوْقَعَهَا بِهِمْ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ .وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى طَاعَةِ الْإِمَامِ الْجَائِرِ أَوْلَى مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ،لِأَنَّ فِي مُنَازَعَتِهِ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِ اسْتِبْدَالَ الْأَمْنِ بِالْخَوْفِ،وَإِرَاقَةَ الدِّمَاءِ،وَانْطِلَاقَ أَيْدِي السُّفَهَاءِ،وَشَنَّ الْغَارَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.وَالْأَوَّلُ مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ،وَهُوَ مَذْهَبُ الْخَوَارِجِ،فَاعْلَمْهُ.قَالَ ابْنُ خُوَيْزِ مَنْدَادَ:وَكُلُّ مَنْ كَانَ ظَالِمًا لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً وَلَا حَاكِمًا وَلَا مُفْتِيًا،وَلَا إِمَامَ صَلَاةٍ،وَلَا يُقْبَلُ عَنْهُ مَا يَرْوِيهِ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ،وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ فِي الْأَحْكَامِ،غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُعْزَلُ بِفِسْقِهِ حَتَّى يَعْزِلَهُ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ.وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَحْكَامِهِ مُوَافِقًا لِلصَّوَابِ مَاضٍ غَيْرَ مَنْقُوضٍ."[١٠١٨]

قلت :

هناك فرق كبير بين ذلك الوقت وبين وقتنا هذا،ففي جميع دول العالم كان النظام الذي يحكم هو النظام الوراثي،وكان مستقرا وسائدا في أرجاء المعمورة،وعاش الناس في ظله ردحا طويلا من الزمن،بل هناك دول متقدمة ما زال النظام فيها ملكيا أو امبراطوريا وهي من أكثر الدول استقراراً .

فقياس الماضي على الحاضر قياس فاسد وقع في مغبته معظم الذين الكتبوا في النظام السياسي الإسلامي ...وهذه خلاصة أقوال الفقهاء في ولاية العهد .

وِلاَيَةُ الْعَهْدِ (الاسْتِخْلاَفُ) :

[١٠١٨] - تفسير القرطبي (٢/ ١٠٨)

وَهيَ :عَهْدُ الإِمَامِ بالْخلافَة إِلَى مَنْ يَصحُّ إِلَيْه الْعَهْدُ ليَكُونَ إمَامًا بَعْدَهُ .قَال الْمَاوَرْديُّ :انْعقَادُ الإِمَامَة بعَهْد مَنْ قَبْلَهُ ممَّا انْعَقَدَ الإِجْمَاعُ عَلَى جَوَازِه،وَوَقَعَ الاتِّفَاقُ عَلَى صحَّته،لأَمْرَيْنِ عَمل الْمُسْلمُونَ بِهِمَا وَلَمْ يَتَنَاكَرُوهُمَا .

أَحَدُهُمَا :أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَهِدَ بِهَا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَأَثْبَتَ الْمُسْلِمُونَ إِمَامَتَهُ بعَهْده .

وَالثَّاني :أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَهِدَ بِهَا إِلَى أَهْل الشُّورَى،فَقَبِلَتِ الْجَمَاعَةُ دُخُولَهُمْ فِيهَا،وَهُمْ أَعْيَانُ الْعَصْرِ اعْتقَادًا لصحَّة الْعَهْد بِهَا وَخَرَجَ بَاقِي الصَّحَابَة منْهَا،وَقَال عَلِيٌّ لِلْعَبَّاسِ رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْهِمَا حِينَ عَاتَبَهُ عَلَى الدُّخُول فِي الشُّورَى :كَانَ

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَلَدًا وَلاَ وَالدًا جَازَ أَنْ يَنْفَرِدَ بعَقْد الْبَيْعَة لَهُ وَبتَفْوِيضِ الْعَهْد إِلَيْه،وَإِنْ لَمْ يَسْتَشِرْ فيه أَحَدًا منْ أَهْل الاخْتيَار،لَكِن اخْتَلَفُوا هَل يَكُونُ ظُهُورُ الرِّضَا منْهُمْ شَرْطًا في انْعقَاد بَيْعَته أَوْ لاَ ؟ فَذَهَبَ بَعْضُ عُلَمَاءِ أَهْل الْبَصْرَة إِلَى أَنَّ رِضَا أَهْل الاخْتيَار لبَيْعَته شَرْطٌ فِي لُزُومهَا للأُمَّة،لأَنَّهَا حَقٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ،فَلَمْ تَلْزَمْهُمْ إِلاَّ بِرِضَا أَهْل الاخْتيَار منْهُمْ،وَالصَّحيحُ أَنَّ بَيْعَتَهُ مُنْعَقدَةٌ وَأَنَّ الرِّضَا بِهَا غَيْرُ مُعْتَبَرٍ،لأَنَّ بَيْعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ تَتَوَقَّفْ عَلَى رِضَا الصَّحَابَة،وَلأَنَّ الإِمَامَ أَحَقُّ بِهَا فَكَانَ اخْتيَارُهُ فِيهَا أَمْضَى،وَقَوْلُهُ فِيهَا أَنْفَذَ .

وَإِنْ كَانَ وَلِيُّ الْعَهْد وَلَدًا أَوْ وَالدًا فَقَد اخْتُلفَ فِي جَوَازِ انْفرَاده بعَقْد الْبَيْعَة لَهُ عَلَى ثَلاَثَة مَذَاهبَ .

أَحَدُهُمَا :لاَ يَجُوزُ أَنْ يَنْفَرِدَ بعَقْد الْبَيْعَة لوَلَد وَلاَ لوَالد،حَتَّى يُشَاوِرَ فيه أَهْل الاخْتيَار فَيَرَوْنَهُ أَهْلاً لَهَا،فَيَصحُّ منْهُ حينَئذ عَقْدُ الْبَيْعَة لَهُ،لأَنَّ ذَلكَ منْهُ تَزْكيَةٌ لَهُ تَجْرِي مَجْرَى الشَّهَادَة،وَتَقْليدُهُ عَلَى الأُمَّة يَجْرِي مَجْرَى الْحُكْمِ،وَهُوَ لاَ يَجُوزُ أَنْ يَشْهَدَ لِوَالدٍ وَلاَ لِوَلَدٍ،وَلاَ يَحْكُمَ لوَاحِدٍ منْهُمَا للتُّهْمَة الْعَائدَة إِلَيْه بِمَا جُبل منَ الْمَيْل إِلَيْه .

وَالْمَذْهَبُ الثَّاني :يَجُوزُ أَنْ يُفْرَدَ بعَقْدهَا لوَلَد،وَوَالد،لأَنَّهُ أَميرُ الأُمَّة نَافذُ الأَمْر لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ .فَغَلَبَ حُكْمُ الْمَنْصب عَلَى حُكْمِ النَّسَب،وَلَمْ يُجْعَل للتُّهْمَة طَرِيقًا عَلَى أَمَانَته وَلاَ سَبِيلاً إِلَى مُعَارَضَته،وَصَارَ فِيهَا كَعَهْده بِهَا إِلَى غَيْر وَلَده وَوَالده،وَهَل يَكُونُ رِضَا أَهْل الاخْتيَار بَعْدَ صِحَّة الْعَهْد مُعْتَبَرًا فِي لُزُومه للأُمَّة أَوْ لاَ ؟ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ منَ الْوَجْهَيْنِ .

وَالْمَذْهَبُ الثَّالثُ :أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَنْفرِدَ بِعَقْدِ الْبَيْعَةِ لِوَالِدِهِ،وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَنْفرِدَ بِهَا لِوَلَـــدِهِ،لأَنَّ الطَّبْعَ يَبْعَثُ عَلَى مُمَايَلَةِ الْوَلَدِ أَكْثَرَ مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى مُمَايَلَةِ الْوَالِدِ،وَلِذَلِكَ كَانَ كُل مَا يَقْتَنِيهِ فِي الأَغْلَبِ مَذْخُورًا لِوَلَدِهِ دُونَ وَالِدِهِ .

فَأَمَّا عَقْدُهَا لأَخِيهِ وَمَنْ قَارَبَهُ مِنْ عَصَبَتِهِ وَمُنَاسِبِيهِ فَكَعَقْدِهَا لِلْبُعَدَاءِ الأَجَانِبِ فِي جَوَازِ تَفَـــرُّدِهِ بِهَا .

وَقَال ابْنُ خَلْدُونٍ،بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ الْكَلاَمَ فِي الإْمَامَةِ وَمَشْرُوعِيَّتِهَا لِمَا فِيهَا مِـــنَ الْمَصْـــلَحَةِ،وَأَنَّ حَقِيقَتَهَا لِلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الأُمَّةِ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ .

قَال :فَالإْمَامُ هُوَ وَلِيُّهُمْ وَالأَمِينُ عَلَيْهِمْ،يَنْظُرُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ،وَيَتْبَعُ ذَلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْـــدَ مَمَاتِهِ،وَيُقِيمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلاَّهَا،وَيَثِقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ،كَمَـــا وَثِقُوا بِهِ فِيمَا قَبْل،وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَانْعِقَادِهِ،إِذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ،وَأَجَازُوهُ،وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَـــةَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ،وَكَذَلِكَ عَهِدَ عُمَرُ فِي الشُّورَى إِلَى السِّتَّةِ بَقِيَّةِ الْعَشَرَةِ،وَجَعَل لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ،فَفَوَّضَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ،حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى عَبْـــدِ الـــرَّحْمَنِ بْـــنِ عَوْفٍ،فَاجْتَهَدَ وَنَاظَرَ الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِيٍّ،فَآثَرَ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَـــةِ عَلَى ذَلِكَ لِمُوَافَقَتِهِ إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الاقْتِدَاءِ بِالشَّيْخَيْنِ فِي كُل مَا يَعْرِضُ لَهُ دُونَ اجْتِهَادِهِ،فَانْعَقَدَ أَمْرُ عُثْمَانَ لِذَلِكَ،وَأَوْجَبُوا طَاعَتَهُ،وَالْمَلأُ مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلأُولَى وَالثَّانِيَـــةِ،وَلَمْ يُنْكِـــرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ،فَدَل عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ،عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ،وَالإْجْمَاعُ حُجَّةٌ كَمَا عُرِفَ،وَلاَ يُتَّهَمُ الإْمَامُ فِي هَذَا الأَمْرِ وَإِنْ عَهِدَ إِلَى أَبِيهِ أَوِ ابْنِهِ،لأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ،فَأَوْلَى أَنْ لاَ يَحْتَمِل فِيهَا تَبِعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ،خِلاَفًا لِمَنْ قَال بِاتِّهَامِهِ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ،أَوْ لِمَنْ خَصَّصَ التُّهْمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ،فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الظِّنَّةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ،لاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَـــتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِيثَارِ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ فَتَنْتَفِي الظِّنَّةُ فِي ذَلِكَ رَأْسًا " .

هَذَا،وَلِلإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَهَا شُورَى بَيْنَ اثْنَيْنِ فَأَكْثَرَ مِنْ أَهْلِ الإِمَامَةِ،فَيَتَعَيَّنُ مَنْ عَيَّنُوهُ بَعْدَ مَوْتِ الإِمَامِ،لأَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَعَلَ الأَمْرَ شُورَى بَيْنَ سِتَّةٍ،فَاتَّفَقُوا عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَلَمْ يُخَالِفْ مِنَ الصَّحَابَةِ أَحَدٌ،فَكَانَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا .[١٠١٩]

شُرُوطُ صِحَّةِ وِلاَيَةِ الْعَهْدِ :

يَشْتَرِطُ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ لِصِحَّةِ وِلاَيَةِ الْعَهْدِ شُرُوطًا مِنْهَا :

أ - أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَخْلَفُ جَامِعًا لِشُرُوطِ الإِمَامَةِ،فَلاَ يَصِحُّ الاسْتِخْلاَفُ مِنَ الإِمَامِ الْفَاسِقِ أَوِ الْجَاهِلِ .

ب - أَنْ يَقْبَلَ وَلِيُّ الْعَهْدِ فِي حَيَاةِ الإِمَامِ،فَإِنْ تَأَخَّرَ قَبُولُهُ عَنْ حَيَاةِ الإِمَامِ تَكُونُ وَصِيَّةً بِالْخِلاَفَةِ،فَيَجْرِي فِيهَا أَحْكَامُ الْوَصِيَّةِ،وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ قَوْلٌ بِبُطْلاَنِ الْوَصِيَّةِ فِي الاسْتِخْلاَفِ،لأَنَّ الإِمَامَ يَخْرُجُ عَنِ الْوِلاَيَةِ بِالْمَوْتِ .

ج - أَنْ يَكُونَ وَلِيُّ الْعَهْدِ مُسْتَجْمِعًا لِشُرُوطِ الإِمَامَةِ،وَقْتَ عَهْدِ الْوِلاَيَةِ إِلَيْهِ،مَعَ اسْتِدَامَتِهَا إِلَى مَا بَعْدَ مَوْتِ الإِمَامِ،فَلاَ يَصِحُّ - عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ - عَهْدُ الْوِلاَيَةِ إِلَى صَبِيٍّ أَوْ مَجْنُونٍ أَوْ فَاسِقٍ وَإِنْ كَمُلُوا بَعْدَ وَفَاةِ الإِمَامِ،وَتَبْطُلُ بِزَوَالِ أَحَدِ الشُّرُوطِ مِنْ وَلِيِّ الْعَهْدِ فِي حَيَاةِ الإِمَامِ.

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى جَوَازِ الْعَهْدِ إِلَى صَبِيٍّ وَقْتَ الْعَهْدِ،وَيُفَوَّضُ الأَمْرُ إِلَى وَالٍ يَقُومُ بِهِ،حَتَّى يَبْلُغَ وَلِيُّ الْعَهْدِ .وَصَرَّحُوا أَيْضًا بِأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ جُدِّدَتْ بَيْعَتُهُ وَانْعَزَلَ الْوَالِي الْمُفَوَّضُ عَنْهُ بِبُلُوغِهِ[١٠٢٠] .

قال المؤلف رحمه الله :"وتغير الحكم من الخلافة إلى الملك هو من الأمور الغيبية التي أطلع الله تعالى عليها رسوله ﷺ كما في حديث سفينة رضي الله عنه المتقدم،فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ

[١٠١٩] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ٢٢٢) والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٠ ومقدمة ابن خلدون ص ٢١٠،مغني المحتاج ٤ / ١٣١،ونهاية المحتاج ٧ / ٤١١،وأسنى المطالب ٤ / ١٠٩،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٠

[١٠٢٠] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ٢٢٤) ومغني المحتاج ٤ / ١٣١،وأسنى المطالب ٤ / ١٠٩ - ١١٠،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٩ - ١٠ وحاشية ابن عابدين ١ / ٣٦٩

حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ " ثُمَّ سَكَتَ"رواه أحمد[١٠٢١]

وعَنْ ابن عمر أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ:«إِنَّ اللَّهَ بَدَأَ هَذَا الْأَمْرَ حِينَ بَدَأَ بِنُبُوَّةٍ وَرَحْمَةٍ،ثُمَّ يَعُودُ إِلَى خِلَافَةٍ،ثُمَّ يَعُودُ إِلَى سُلْطَانٍ وَرَحْمَةٍ،ثُمَّ يَعُودُ مُلْكًا وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَعُودُ جَبْرِيَّةً تَكَادَمُونَ تَكَادُمَ الْحَمِيرِ،أَيُّهَا النَّاسُ،عَلَيْكُمْ بِالْغَزْوِ وَالْجِهَادِ مَا كَانَ حُلْوًا خَضِرًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مُرًّا عَسِرًا،وَيَكُونُ تَمَامًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ رِمَامًا - أَوْ يَكُونَ حُطَامًا -،فَإِذَا أَشَاطَتِ الْمَغَازِي وَأُكِلَتِ الْغَنَائِمُ وَاسْتُحِلَّ الْحَرَامُ،فَعَلَيْكُمْ بِالرِّبَاطِ فَإِنَّهُ خَيْرُ جِهَادِكُمْ»[١٠٢٢]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ إِمَارَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَتَكَادَمُونَ عَلَيْهِ تَكَادُمَ الْحُمُرِ فَعَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ،وَإِنَّ أَفْضَلَ جِهَادِكُمُ الرِّبَاطُ،وَإِنَّ أَفْضَلَ رِبَاطِكُمْ عَسْقَلَانُ»[١٠٢٣]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ النَّاسَ فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي مِثْلِ مَقَامِي هَذَا:«هَذَا الْأَمْرُ بَدأَ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً،وَسَيَعُودُ سُلْطَانًا وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَرَحْمَةً»[١٠٢٤]

"قلت :هذا يؤكد أن الملك الوراثي كان فيه رحمة أيضاً،وليس فقط في الخلافة الراشدة،وإن كانت الخلافة الراشدة هي الأفضل في نظام الحكم الإسلامي،وذلك لأن النظام الوراثي قد يأتي بغير الأهل وقد يحصل فيه ظلم وعسف ..."

وفي هذا الحديث بشارة بعودة الخلافة على منهاج النبوة بعد الملك،والملك العاض من العض بالنواجذ،كأنه لظلمه وعسفه للرعية يعضهم عضا.

قلت :قد يكون الملك العاض الحرص على الإمارة والملك وليس الظلم بحد ذاته .

[١٠٢١] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٣٥٥)(١٨٤٠٦) صحيح

[١٠٢٢] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٥٢٠)(٨٤٥٩) حسن

[١٠٢٣] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٨٨)(١١١٣٨) صحيح لغيره

[١٠٢٤] - تاريخ أصبهان = أخبار أصبهان (١/ ٢٥١) حسن

وعَنْ أَنَسٍ،قَالَ:«إِنَّهَا نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ ،ثُمَّ مُلْكٌ عَضُوضٌ ،ثُــمَّ جَبْرِيَّــةٌ ،ثُــمَّ طَوَاغِيتُ»[١٠٢٥]

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَحَدُهُمَا:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّــةِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكًا عَضُوضًا» وَقَالَ أَحَدُهُمَا:«عَاضٌّ وَفِيــهِ رَحْمَــةٌ،ثُمَّ جَبَرُوتٌ صَلْعَاءُ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَــا مُتَعَلَّقٌ،تُضْــرَبُ فِيهَــا الرِّقَــابُ،وَتُقْطَعُ فِيهَــا الْأَيْــدِي وَالْأَرْجُلُ،وَتُؤْخَذُ فِيهَا الْأَمْوَالُ»[١٠٢٦]

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَوَّلُ هَــذِهِ الْأُمَّــةِ نُبُــوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ عَضُوضٌ،ثُمَّ تَصِيرُ جَبْرِيَّةً وَعَبَثًا»[١٠٢٧]

وعَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ،قَالَ:خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ،فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَــالَ:أَمَّــا بَعْدُ،«فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ،وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ،يَتَصَــابُّهَا صَاحِبُهَا،وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا،فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ،فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ،فَيَهْوِي فِيهَــا سَــبْعِينَ عَامًا،لَــا يُــدْرِكُ لَهَــا قَعْــرًا،وَوَاللهِ لَتُمْلَأَنَّ،أَفَعَجِبْتُمْ؟ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَــارِيعِ الْجَنَّــةِ مَسِــيرَةُ أَرْبَعِــينَ سَنَةً،وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ،وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،مَــا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ،حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا،فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَــعْدِ بْــنِ مَالِكٍ،فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا،فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْــرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ،وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا،وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا،وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُــوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ،حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا،فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الْــأُمَرَاءَ بَعْــدَنَا» رواه مسلم.[١٠٢٨]

[١٠٢٥] - السنن الواردة في الفتن للداني (٤/ ٨٢٤)(٤١٨) صحيح

[١٠٢٦] - الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٩٨)(٢٣٣) حسن

[١٠٢٧] - الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٩٨)(٢٣٥) حسن

[١٠٢٨] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٨) ١٤ - (٢٩٦٧)

وعن أبي الطُّفَيْلِ،أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا تَسْأَلُونِي؟ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،إِنَّ اللهَ بَعَثَ نَبِيَّهُ ﷺ فَدَعَا النَّاسَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ،وَمِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى،فَاسْتَجَابَ لَهُ مَنْ اسْتَجَابَ،فَحَيِيَ مِنَ الْحَقِّ مَا كَانَ مَيْتًا،وَمَاتَ مِنَ الْبَاطِلِ مَا كَانَ حَيًّا،ثُمَّ ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ فَكَانَتِ الْخِلَافَةُ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ "[1029]

وعن خَلَّادَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ أَبَا الطُّفَيْلِ،حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ،يَقُولُ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،أَلَا تَسْأَلُونِي؟ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،أَفَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ مَيِّتِ الْأَحْيَاءِ؟ فَقَالَ:إِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ فَدَعَا النَّاسَ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى،وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ،فَاسْتَجَابَ لَهُ مَنِ اسْتَجَابَ،فَحَيِيَ بِالْحَقِّ مَنْ كَانَ مَيِّتًا،وَمَاتَ بِالْبَاطِلِ مَنْ كَانَ حَيًّا،ثُمَّ ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ فَكَانَتِ الْخِلَافَةُ عَلَى مَنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَضُوضًا،فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَالْحَقَّ اسْتَكْمَلَ،وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ كَافًّا يَدَهُ وَشُعْبَةً مِنَ الْحَقِّ تَرَكَ،وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ كَافًّا يَدَهُ وَلِسَانَهُ وَشُعْبَتَيْنِ مِنَ الْحَقِّ تَرَكَ،وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ " رواه أبو نعيم في الحلية[1030].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ :إِنَّهَا سَتَكُونُ مُلُوكٌ،ثُمَّ جَبَابِرَةٌ،ثُمَّ الطَّوَاغِيتُ.[1031]

وقد جاء في صحيح البخاري عن جرير رضي الله عنه ما يدل على أن اليهود كانت عندهم أخبار صحيحة في أمر الخلافة والملك في الأمة الإسلامية عَنْ جَرِيرٍ،قَالَ:كُنْتُ بِاليَمَنِ،فَلَقِيتُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ،ذَا كَلاَعٍ،وَذَا عَمْرٍو،فَجَعَلْتُ أُحَدِّثُهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ:ذُو عَمْرٍو:لَئِنْ كَانَ الَّذِي تَذْكُرُ مِنْ أَمْرِ صَاحِبِكَ،لَقَدْ مَرَّ عَلَى أَجَلِهِ مُنْذُ ثَلاَثٍ،وَأَقْبَلاَ مَعِي حَتَّى إِذَا كُنَّا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ،رُفِعَ لَنَا رَكْبٌ مِنْ قِبَلِ المَدِينَةِ فَسَأَلْنَاهُمْ،فَقَالُوا:" قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ

[ش (آذنت) أي أعلمت (بصرم) الصرم الانقطاع والذهاب (حذاء) مسرعة الانقطاع (صبابة) البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء (يتصابها) في القاموس تصاببت الماء شربت صبابته (قعرا) قعر الشيء أسفله (كظيظ) أي ممتلئ (قرحت) أي صار فيها قروح وجراح من خشونة الورق الذي نأكله وحرارته (سعد بن مالك) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه]

[1029] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ٤٢٦)(٢٣٤٣٢) صحيح

[1030] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٧٤) صحيح

[1031] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢١/ ٦٤)(٣٨٣٤٨) صحيح

ﷺ،وَاسْتُخْلفَ أَبُو بَكْرٍ،وَالنَّاسُ صَالحُونَ،فَقَالاَ:أَخْبِرْ صَاحِبَكَ أَنَّا قَدْ جِئْنَا وَلَعَلَّنَا سَنَعُودُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،وَرَجَعَا إِلَى اليَمَنِ،فَأَخْبَرْتُ أَبَا بَكْرٍ بِحَدِيثِهِمْ،قَالَ:أَفَلاَ جِئْتَ بِهِمْ،فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ قَالَ لِي ذُو عَمْرٍو:يَا جَرِيرُ إِنَّ بِكَ عَلَيَّ كَرَامَةً،وَإِنِّي مُخْبِرُكَ خَبَرًا:إِنَّكُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ،لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا كُنْتُمْ إِذَا هَلَكَ أَمِيرٌ تَأَمَّرْتُمْ فِي آخَرَ،فَإِذَا كَانَتْ بِالسَّيْفِ كَانُوا مُلُوكًا،يَغْضَبُونَ غَضَبَ المُلُوكِ وَيَرْضَوْنَ رِضَا المُلُوكِ " [1032]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله" قَوله :"فَلَقيت رَجُلَين من أَهل اليَمَن " في رِوايَة الإسماعِيليّ " كُنت باليَمَنِ،فَأَقبَلت ومَعِي ذُو الكَلاعِ وذُو عَمرو " وهَذه الرِّوايَة أَبيَن،وذَلكَ أَنَّ جَرِيرًا قَضَى حاجَته منَ اليَمَن وأَقبَلَ راجعًا يُريد المَدينَة فَصَحِبَهُ مِن مُلُوك اليَمَن ذُو الكَلاعِ وذُو عَمرو،وكانا عَزَما عَلَى التَّوجُّه إِلَى المَدينَة فَلَمّا بَلَغَهُما وفاة النَّبيّ ﷺ رَجَعا إِلَى اليَمَن ثُمَّ هاجَرا في زَمَن عُمَر.

قَوله :"لَئِن كانَ الَّذي تَذكُر من أَمر صاحبك" أَي حَقًّا،في رِوايَة الإسماعِيليّ " لَئِن كانَ كَما تَذكُر " وقَوله :"لَقَد مَرَّ عَلَى أَجَله " جَواب لِشَرطٍ مُقَدَّر،أَي إِن أَخبَرتني بِهَذا أُخبرك بِهَذا،وهَذا قالَهُ ذُو عَمرو عَن اطِّلاع منَ الكُتُب القَديمَة لأَنَّ اليَمَن كانَ أَقامَ بِها جَماعَة منَ اليَهُود فَدَخَلَ كَثير من أَهل اليَمَن في دينهم وتَعَلَّمُوا منهُم،وذَلكَ بَيِّن في قَوله ﷺ لِمُعاذٍ لَمّا بَعَثَهُ إِلَى اليَمَن إِنَّك سَتَأتي قَومًا أَهل كِتاب.

وقالَ الكَرمانيُّ :يُحتَمَل أَن يَكُون سَمعَ من بَعض القادمينَ منَ المَدينَة سِرًّا،أَو أَنَّهُ كانَ في الجاهليَّة كاهنًا،أَو أَنَّهُ صارَ بَعد إِسلامه مُحدَّثًا أَي بِفَتحِ الدّال،وقَد تَقَدَّمَ تَفسيره وأَنَّهُ المُلهَم.

قُلت :وسِياق الحَديث يَدُلّ عَلَى ما قَرَّرته لأَنَّهُ عَلَّقَ ما ظَهَرَ لَهُ من وفاته عَلَى ما أَخبَرَهُ به جَرير من أَحواله،ولَو كانَ ذَلكَ مُستَفادًا من غَير ما ذَكَرته لَما احتاجَ إِلَى بناء ذَلكَ عَلَى ذَلكَ،لأَنَّ الأَوَّلَين خَبَر مَحض والثّالث وُقُوع شَيء في النَّفس عَن غَير قَصد.

[1032] - صحيح البخاري (٥/ ١٦٦)(٤٣٥٩)

[ش (أمر) شأن وصفة.(صاحبك) أي النبي صلى الله عيه وسلم.(أجله) موته.(صالحون) راضون بمن استخلف عليهم مستقيمون على بيعتهم وأمرهم ثابت ومستقر.(أخبر صاحبك) أي أبا بكر رضي الله عنه.(بعد) أي بعد أن هاجر ذو عمرو في خلافة عمر رضي الله عنه.(كرامة) فضلا.(ما كنتم) ما دمتم تفعلون ذلك.(هلك) مات.(تأمرتم في آخر) تشاورتم فيما بينكم وأقمتم أميرا تختارونه منكم ترضونه وتطيعونه.(بالسيف) أي أصبحت الإمارة بالغلبة والقهر]

وقَد رَوى الطَّبَرانِيُّ مِن طَرِيق زِياد بن عِلاقَة عَن جَرِير فِي هَذِهِ القِصَّة قالَ ." قالَ لِــي حَــبر باليَمَنِ " وهَذا يُؤَيِّد ما قُلته فَللَّه الحَمد.

قَوله :"فَأَخبَرت أَبا بَكر بِحَدِيثِهِم قالَ :أَفَلا جِئت بِهِم " كَأَنَّهُ جَمَعَ بِاعتِبارِ مَن كانَ مَعَهُمــا مِنَ الأَتباع.

قَوله :"فَلَمّا كانَ بَعد إِلَخ" لَعَلَّ ذَلِكَ كانَ لَمّا هاجَرَ ذُو عَمرو فِي خِلافَة عُمَر،وذَكَرَ يَعقُــوب بن شَبَّة بِإِسناد لَهُ أَنَّ ذا الكَلاع كانَ مَعَهُ اثنا عَشَر أَلف بَيت مِن مَوالِيه ؛فَسَأَلَهُ عُمَر بَــيعهم لِيَستَعِينَ بِهِم عَلَى حَرب المُشرِكِينَ فَقالَ ذُو الكَلاعِ :هُم أَحرار فَأَعتَقَهُم فِي ساعَة واحِدَة.

قَوله :"تَآمَرتُم " بِمَدِّ الهَمزَة وتَخفِيف المِيم أَي تَشاوَرتُم،أَو بِالقَصرِ وتَشدِيد المِــيم أَي أَقَمــتُم أَمِيرًا مِنكُم عَن رِضًا مِنكُم أَو عَهد مِنَ الأَوَّل.

قَوله :"فَإِذا كانَت" أَي الإِمارَة." بِالسَّيفِ" أَي بِالقَهرِ والغَلَبَة.قَولــه :"كــانُوا مُلُوكًــا" أَي الخُلَفاء،وهَذا دَلِيل عَلَى ما قَرَّرته أَنَّ ذا عَمرو كانَ لَهُ اطِّلاع عَلَــى الأَخبــار مِــنَ الكُتُــب القَدِيمَة،وإِشارَته بِهَذا الكَلام تُطابِق الحَدِيث الَّذِي أَخرَجَهُ أَحمَد وأَصحاب السُّنَن وصَحَّحَهُ ابن حِبّانَ وغَيره مِن حَدِيث سَفِينَة أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قالَ :"الخِلافَة بَعدِي ثَلاثُونَ سَنَة ثُمَّ تَصِير مُلكًــا عَضُوضًا" قالَ ابن التِّين :ما قالَهُ ذُو عَمرو وذُو الكَلاعِ لا يَكُون إِلاَّ عَن كِتاب أَو كِهانَة،وما قالَهُ ذُو عَمرو لا يَكُون إِلاَّ عَن كِتاب.

قُلت :ولا أَدرِي لِمَ فَرَّقَ بَين المَقالَتَينِ والاحتِمال فِيهِما واحِد،بَل المَقالَة الأَخِــيرَة يُحتَمَــل أَن تَكُون مِن جِهَة التَّجرِبَة."[1033]

سؤال الإمارة

لقد نهى النبي ﷺ عن سؤال الإمارة،عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ،لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ،فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا،وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ

[1033] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨/ ٧٦)

أُعِنْتَ عَلَيْهَا،وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ،فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا،فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ» متفقٌ عليه[١٠٣٤].

ومَعنَى الحَديث أَنَّ مَن طَلَبَ الإِمارَة فَأُعطِيَها تُرِكَت إِعانَته عَلَيها مِن أَجل حِرصه،ويُستَفاد مِنهُ أَنَّ طَلَب ما يَتَعَلَّق بِالحُكمِ مَكرُوه فَيَدخُل فِي الإِمارَة القَضاء والحِسبَة ونَحو ذَلِكَ وأَنَّ مَن حَرَصَ عَلَى ذَلكَ لا يُعان.

ويُعارِضهُ فِي الظّاهِر ما أَخرَجَهُ أَبُو داوُدَ عَن أَبِي هُرَيرَة رَفَعَهُ " مَن طَلَبَ قَضاء الُمسلِمِينَ حَتَّى يَنالهُ ثُمَّ غَلَبَ عَدله جَوره فَلَهُ الجَنَّة،ومَن غَلَبَ جَوره عَدله فَلَهُ النّار"

والجَمع بَينَهُما أَنَّهُ لا يَلزَم مِن كَونه لا يُعان بِسَبَبِ طَلَبه أَن لا يَحصُلَ مِنهُ العَدل إِذا وَلِيَ " أَو يُحمَل الطَّلَب هُنا عَلَى القَصد وهُناكَ عَلَى التَّولِيَة " وقَد تَقَدَّمَ مِن حَدِيث أَبِي مُوسَى " إِنّا لا نُوَلِّي مَن حَرَصَ " ولِذَلِكَ عَبَّرَ فِي مُقابِله بِالإِعانَة،فَإِنَّ مَن لَم يَكُن لَهُ مِنَ الله عَون عَلَى عَمَله لا يَكُون فِيهِ كِفايَة لِذَلِكَ العَمَل فَلا يَنبَغِي أَن يُجاب سُؤاله،ومِن المَعلُوم أَنَّ وِلايَة لا تَخلُو مِنَ المَشَقَّة،فَمَن لَم يَكُن لَهُ مِنَ الله إِعانَة تَورَّطَ فِيما دَخَلَ فِيهِ وخَسِرَ دُنياهُ وعُقباهُ،فَمَن كانَ ذا عَقل لَم يَتَعَرَّض لِلطَّلَبِ أَصلاً،بَل إِذا كانَ كافِيًا وأُعطِيها مِن غَير مَسأَلَة فَقَد وعَدَهُ الصّادِق بِالإِعانَة،ولا يَخفَى ما فِي ذَلِكَ مِنَ الفَضل.

قالَ المُهَلَّب :جاءَ تَفسِير الإِعانَة عَلَيها فِي حَدِيث بِلال بن مِرداس عَن خَيثَمَةَ عَن أَنَس رَفَعَهُ " مَن طَلَبَ القَضاء واستَعانَ عَلَيهِ بِالشُّفَعاءِ وُكِلَ إِلَى نَفسه،ومَن أُكرِهَ عَلَيهِ أَنزَلَ الله عَلَيهِ مَلَكًا يُسَدِّدهُ " أَخرَجَهُ ابن المُنذِر.

[١٠٣٤] - صحيح البخاري (٨/ ١٢٨)(٦٦٢٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٧٣)١٩ - (١٦٥٢)

[ش(لا تسأل الإمارة) لا تطلب أن تكون واليا أو حاكما.(وكلت إليها) تركك الله تعالى لتدبير نفسك.(أعنت عليها) هيأ الله تعالى لك أعوان خير ينصحون لك ويسددون خطاك بتوفيق من الله عز وجل.(حلفت على يمين) أقسمت على شيء والأصل حلفت يمينا ف - (على) مقحمة تأكيدا للمعنى.(فكفر) أخرج الكفارة المشروعة]

لَا تَطْلُبِ (" الْإِمَارَةَ "):بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ أَيِ:الْحُكُومَةَ (" فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا "):أَوْ أُعْطِيتَهَا (" عَنْ مَسْأَلَةٍ ") أَيْ:بَعْدَ سُؤَالِكَ إِيَّاهَا أَوْ إِعْطَاءً صَادِرًا عَنْ مَسْأَلَةٍ (" وُكِلْتَ إِلَيْهَا "):بِضَمِّ وَاوٍ وَكَسْرِ كَافٍ مُخَفَّفَةٍ وَفَتْحِ تَاءٍ أَيْ:خُلِّيتَ إِلَيْهَا وَتُرِكْتَ مَعَهَا مِنْ غَيْرِ إِعَانَةٍ فِيهَا (" وَإِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا "):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ:أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْإِمَارَةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:مَعْنَاهُ أَنَّ الْإِمَارَةَ أَمْرٌ شَاقٌّ لَا يَخْرُجُ عَنْ عُهْدَتِهَا إِلَّا الْأَفْرَادُ مِنْهُ الرِّجَالُ،فَلَا تَسْأَلْهَا مِنْ تَشَرُّفِ نَفْسٍ؛فَإِنَّكَ إِنْ سَأَلْتَهَا تُرِكْتَ مَعَهَا فَلَا يُعِينُكَ اللَّهُ عَلَيْهَا،وَإِنْ أُوتِيتَ عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَيْهَا.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٢٣٨)

قالَ المُهَلَّب :وفِي مَعنَى الإِكراه عَلَيه أَن يُدعَى إِلَيه فَلا يَرَى نَفسه أَهلاً لذَلكَ هَيبَةً لَهُ وخَوفًا منَ الوُقُوع فِي المَحذُور فَإِنَّهُ يُعان عَلَيهِ إِذا دَخَلَ فِيهِ،ويُسَدَّد ؛والأَصل فِيه أَنَّ مَن تَواضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ الله.

وقالَ ابن التِّين :هُو مَحمُول عَلَى الغالب،وإِلاَّ فَقَد قالَ يُوسُف " اجعَلنِي عَلَى خَزائِن الأَرض " وقالَ سُلَيمان " وهب لِي مُلكًا" قالَ :ويَحتَمِل أَن يَكُون فِي غَير الأَنبياء.[١٠٣٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ،وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ،فَنِعْمَ المُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ» رواهُ البخاري[١٠٣٦]

[١٠٣٥] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٢٤)

[١٠٣٦] - صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٨)

[ش (ندامة) لمن لم يعمل فيها بما ينبغي عليه.(فنعم المرضعة) أول الإمارة لأن معها المال والجاه واللذات الحسية والوهمية.(بئست الفاطمة) آخرها لأن معه القتل والعزل والمطالبة بالتبعات يوم القيامة(قوله) أي موقوفا على أبي هريرة رضي الله عنه من قوله]

(عَلَى الْإِمَارَةِ وَسَتَكُونُ) أَيِ الْإِمَارَةُ الْمَقْرُونَةُ بِالْحِرْصِ (نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أَيْ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ الْجَوَابِ فِي الْمُحَاسَبَةِ وَحُصُولِ الْعِتَابِ فِي مُقَابَلَةِ الْحُقُوقِ وَالْمُطَالَبَةِ (فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ) وَفِي نُسَخِ الْمَصَابِيحِ:فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ (وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ) الْمَخْصُوصُ بِالْمَدْحِ وَالذَّمِّ مَحْذُوفٌ فِيهِمَا وَهُوَ الْإِمَارَةُ،قَالَ الْمُظْهِرُ:لَفْظُ نِعْمَ وَبِئْسَ إِذَا كَانَ فَاعِلُهُمَا مُؤَنَّثًا جَازَ إِلْحَاقُ التَّأْنِيثِ وَجَازَ تَرْكُهَا فَلَمْ يُلْحِقْهَا هُنَا فِي نِعْمَ،وَأَلْحَقَهَا فِي بِئْسَتْ،يَعْنِي عَمَلًا بِاللُّغَتَيْنِ وَتَفَنُّنًا فِي الْعِبَارَتَيْنِ وَلَمْ يَعْكِسْ؛لِأَنَّ إِلْحَاقَ الزَّائِدِ أَوْلَى بِالثَّانِي،وَقَالَ الطِّيبِيُّ:إِنَّمَا لَمْ يُلْحِقْهَا بِنِعْمَ لِأَنَّ الْمُرْضِعَةَ مُسْتَعَارَةٌ لِلْإِمَارَةِ؛وَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤَنَّثَةً إِلَّا أَنَّ تَأْنِيثَهُ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ؛وَأَلْحَقَهَا بِبِئْسَ؛نَظَرًا إِلَى كَوْنِ الْإِمَارَةِ حِينَئِذٍ:دَاهِيَةً دَهْيَاءَ،وَفِيهِ أَنَّ مَا يَنَالُهُ أَمِيرٌ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ؛أَبْلَغُ وَأَشَدُّ مِمَّا يَنَالُهُ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالسَّرَّاءِ؛وَأَتَى بِالتَّاءِ فِي الْمُرْضِعِ وَالْفَاطِمِ؛دَلَالَةً عَلَى تَصْوِيرِ تَيْنِكَ الْحَالَتَيْنِ الْمُتَجَدِّدَتَيْنِ فِي الْإِرْضَاعِ وَالْفِطَامِ؛يَعْنِي الْمُرْضِعَ وَالْفَاطِمَ مِنَ الصِّفَاتِ الْغَالِبَةِ لِلنِّسَاءِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى إِتْيَانِ تَاءِ التَّأْنِيثِ الْفَارِقَةِ بَيْنَ وَصْفَيِ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ؛وَلِذَا يُقَالُ طَالِقٌ وَحَائِضٌ،وَإِنَّمَا أَتَى بِهَا هَاهُنَا لِتَذْكِيرِ التَّصْوِيرِ،قَالَ الْقَاضِي:شَبَّهَ الْوِلَايَةَ بِالْمُرْضِعَةِ وَانْقِطَاعَهَا بِالْمَوْتِ،أَوِ الْعَزْلَ بِالْفَاطِمَةِ؛أَيْ نِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ الْوِلَايَةُ؛فَإِنَّهَا تَدِرُّ عَلَيْكَ الْمَنَافِعَ وَاللَّذَّاتِ الْعَاجِلَةَ،وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ الْمُسِيئَةُ فَإِنَّهَا تَقْطَعُ عَنْكَ اللَّذَائِذَ وَالْمَنَافِعَ وَتُبْقِي عَلَيْكَ الْحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ،فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُلِمَّ بِلَذَّاتٍ يَتْبَعُهَا حَسَرَاتٌ اهـــ.وَقِيلَ جَعَلَ الْإِمَارَةَ فِي حَلَاوَةِ أَوَائِلِهَا وَمَرَارَةِ أَوَاخِرِهَا،كَمُرْضِعَةٍ تُحْسِنُ بِالْإِرْضَاعِ وَتُسِيءُ بِالْفِطَامِ،قُلْتُ فِيهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى أَنَّ حَلَاوَةَ الْإِمَارَةِ وَمَرَارَةَ الْوِلَايَةِ الْمُشَبَّهَتَيْنِ بِالرَّضَاعِ وَالْفِطَامِ،إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَطْفَالِ الطَّرِيقَةِ دُونَ الرِّجَالِ الْوَاصِلِينَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْحَقِيقَةِ وَلِذَا قَالَ بَعْضُهُمْ:أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَظِلٌّ زَائِلٌ إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ الْوَاقِفُونَ عَلَى الْبَابِ وَلِلْعِلِّيِّينَ أَرْبَابُ الْأَلْبَابِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٠)

وتكون ندامة إذا لم يعدل الأمير و لم يقم بحقها،فعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ:فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي،ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنَّكَ ضَعِيفٌ،وَإِنَّهَا أَمَانَةُ،وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا،وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا» رواه مسلم[١٠٣٧]

وقال الحافظ ابن حجر:قَوله :"وسَتَكُونُ نَدامَة .يَومَ القِيامَة" ؛أي لِمَن لَم يَعمَل فِيها بِما يَنبَغِي،وزادَ رِوايَة شَبابَة " وحَسرَة " ويُوضِّح ذَلِكَ ما أَخرَجَهُ البَزّار والطَّبَرانِيُّ بِسَنَد صَحِيح عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ وَمَا هِيَ» .قَالَ:فَقُمْتُ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقُلْتُ:وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ،وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ،وَثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،إِلَّا مَنْ عَدَلَ»[١٠٣٨]

وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ وَمَا هِيَ؟ أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ،وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ،وَثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ عَدَلَ»[١٠٣٩]

وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ وَمَا هِيَ؟»،فَقُمْتُ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ:وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟،قَالَ:«أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ،وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ،وَثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ عَدَلَ وَكَيْفَ يَعْدِلُ مَعَ أَقْرِبِيهِ؟»[١٠٤٠]

وفِي الطَّبَرانِيِّ الأَوسَط عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ شَرِيكٌ:لَا أَدْرِي رَفَعَهُ أُمْ لَا قَالَ:«الْإِمَارَةُ أَوَّلُهَا نَدَامَةٌ،وَأَوْسَطُهَا غَرَامَةٌ،وَآخِرُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١٠٤١]

ولَهُ شاهد عَنْ عَنْبَسَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ،قَالَ:قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ،وَهُوَ ابْنُ أَخِي حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ،وَهُوَ افْتَتَحَ إِيلِيَا لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ،وَهُوَ يُرَاجِعُ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَذَكَرَ الْإِمَارَةَ فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الْإِمَارَةَ فَقَالَ:" أَوَّلُ الْإِمَارَةِ مَلَامَةٌ،وَثَانِيهَا

[١٠٣٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧)١٦ - (١٨٢٥)

[ش (إنك ضعيف وإنها أمانة) هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلا لها أو كان أهلا و لم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة]

[١٠٣٨] - الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٣/ ٣)(١٢٨٤) والمعجم الأوسط (٧/ ٢٦)(٦٧٤٧) صحيح

[١٠٣٩] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ٧١)(١٣٢) حسن

[١٠٤٠] - مسند البزار = البحر الزخار (٧/ ١٨٨)(٢٧٥٦) حسن

[١٠٤١] - المعجم الأوسط (٥/ ٣٧٩)(٥٦١٦) صحيح لغيره

نَدَامَةٌ،وَثَالِثُهَا عَذَابٌ مِنَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَعَدَلَ،وَقَالَ:هَكَذَا وَهَكَذَا بِيَدِهِ بِالْمَالِ " ثُمَّ سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ،ثُمَّ قَالَ:«كَيْفَ بِالْعَدْلِ مَعَ ذَوِي الْقُرْبَى؟» أخرجَهُ الطَّبَرانيُّ[١٠٤٢]

وعِندَ الطَّبَرانِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ،أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ:بِئْسَ الشَّيْءُ الْإِمَارَةُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«نِعْمَ الشَّيْءُ الْإِمَارَةُ لِمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَحِلِّهَا،وَبِئْسَ الشَّيْءُ الْإِمَارَةُ لِمَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا فَتَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١٠٤٣]

وهَذا يُقَيِّد ما أُطلِقَ فِي الَّذي قَبلَهُ،ويُقَيِّدهُ أَيضًا ما أَخرجَ مُسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ:فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي،ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنَّكَ ضَعِيفٌ،وَإِنَّهَا أَمَانَةُ،وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا،وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[١٠٤٤]

قالَ النَّوويّ :هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي اجْتِنَابِ الْوِلَايَةِ،لَاسِيَّمَا لِمَنْ كَانَ فِيهِ ضَعْفٌ عَنِ الْقِيَامِ بِوَظَائِفِهَا،وَالْخِزْيُ وَالنَّدَامَةُ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهَا،أَوْ كَانَ أَهْلًا وَلَمْ يَعْدِلْ فَيُخْزِيهِ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَفْضَحُهُ وَيَنْدَمُ عَلَى مَا فَرَّطَ،فَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لَهَا وَعَدَلَ فِيهَا ؛ فَلَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ كَحَدِيثِ («سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ») وَحَدِيثِ («إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ») وَغَيْرِ ذَلِكَ.وَلِكَثْرَةِ الْخَطَرِ فِيهَا حَذَّرَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْهَا،وَلِذَلِكَ امْتَنَعَ مِنْهَا خَلَائِقُ مِنَ السَّلَفِ وَصَبَرُوا عَلَى الْأَذَى حِينَ امْتَنَعُوا.والله أَعلَم[١٠٤٥].

قَوله :"فَنِعمَ الْمُرضِعَة وبِئسَت الفاطِمَة" قالَ الدّاوُديّ :نِعمَ الْمُرضِعَة أَي الدُّنيا،وبِئسَت الفاطِمَة أَي بَعدَ المَوت،لِأَنَّهُ يَصير إِلَى الْمُحاسَبَة عَلَى ذَلِكَ،فَهُو كالَّذِي يُفطَم قَبلَ أَن يَستَغنِي فَيَكُون فِي ذَلِكَ هَلاكه.وقالَ غَيره :نِعمَ الْمُرضِعَة لِما فِيها مِن حُصُول الجاه والمال ونَفاذ الكَلِمَة وتَحصِيل اللَّذّات الحِسِّيَّة والوهمِيَّة حال حُصُولها،وبِئسَت الفاطِمَة عِندَ الانفِصال عَنها بِمَوتٍ أَو غَيره وما يَتَرَتَّب عَلَيها التَّبِعات فِي الآخِرَة."[١٠٤٦]

[١٠٤٢] - المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٢٩٦)(٧١٨٦) فيه ضعف

[١٠٤٣] - المعجم الكبير للطبراني (٥/ ١٢٧)(٤٨٣١) حسن

[١٠٤٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧)١٦ - (١٨٢٥)

[١٠٤٥] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢١٠)

[١٠٤٦] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٢٥)

ونهى ﷺ أن يولى الإمارة من سألها أو حرص عليها،فعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي،فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ،فَقَالَ:«إِنَّا وَاللهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ،وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ» متفق عليه[1047]

فسؤال الإمارة والحرص عليها سبب للمنع من التولية،فإن سؤال الإمارة والحرص عليها من البعض قد يكون القصد منه حب الرئاسة والعلو في الأرض والترفع على الخلق،ومن كانت هذه نيته فلن يعدل في حكمه،فعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ فَتَشَهَّدَ أَحَدُهُمَا،وَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ جِئْنَا تَسْتَعِينُ بِنَا عَلَى بَعْضِ عَمَلِكَ،وَتَشَهَّدَ الْآخَرُ،فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ أَخْوَنَكُمْ عِنْدِي مَنْ يَطْلُبُهُ»،فَلَمْ يَسْتَعِنْ بِهِمَا فِي شَيْءٍ حَتَّى قُبِضَ" رواه أبو داود وأحمد واللفظ له[1048].

وعَنْ عُرْوَةَ قَالَ :قَالَ عُمَرُ :مَا حَرَصَ رَجُلٌ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى الإِمَارَةِ فَعَدَلَ فِيهَا.أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه وغيره[1049].

وقد قال تعالى:{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:٨٣]،أي تلك الدار الآخرة نجعل ما فيها من النعيم للذين لا يريدون العلو في الأرض بالتكبر على الخلق ورد الحق {ولا فسادا} وهو العمل بالمعاصي وأخذ الأموال بغير حق.

تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ – الجَنَّةُ التي عَلِمْتَ مِمَّا تَقدَّمَ وَصْفَهَا – قَدْ جَعَلَها اللهُ خَالِصَةً لِعِبَادِهِ المُؤمِنينَ المُتَواضِعِينَ،الذينَ لاَ يُرِيدُونَ اسْتِكْبَاراً على خَلْقِ اللهِ،وَلاَ تَعَاظُماً عَلَيهِمْ،وَلاَ جَبُّراً،وَلاَ فَسَاداً في

[1047] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٦)١٤ – (١٧٣٣) وصحيح البخاري (٩/ ١٥)(٦٩٢٣)

[ش (حرص) حرص بفتح الراء وكسرها والفتح أفصح وبه جاء القرآن قال الله تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين]

[1048] – السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٤٠٠)(٥٨٩٩) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٢/ ٢٦٦)(١٩٥٠٨) وسنن أبي داود (٤/ ١٢٦)(٤٣٥٤) ومسند البزار = البحر الزخار (٨/ ١٤٣)(٣١٦١ و٣١٦٢) صحيح لغيره

[1049] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٧/ ٣٧٥)(٣٣٢١٥) فيه انقطاع

الأَرضِ.وَالعَاقِبَةُ المَحْمُودَةُ،وهيَ الجَنَّةُ،جَعَلَها اللهُ لِمَنْ مَلأَتْ خَشْيَةُ اللهِ قَلْبَهُ،واتَّقى عَذَابَه بِفعلِ الطَّاعَات،وَتَرْكِ المُحَرَّمَات.[١٠٥٠]

وعَنْ زَاذَانَ قَالَ:رَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يُمْسِكُ الشِّسْعَ بِيَدِهِ يَمُرُّ فِي الْأَسْوَاقِ،فَيُنَاوِلُ الرَّجُلَ الشِّسْعَ،وَيُرْشِدُ الضَّالَّ،وَيُعِينُ الْحَمَّالَ عَلَى الْحَوَازِ وَيَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ:{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص:٨٣]،ثُمَّ يَقُولُ:هَــذِهِ الْآيَةُ أُنْزِلَتْ فِي الْوُلَاةِ وَذِي الْقُدْرَةِ مِنَ النَّاسِ." [١٠٥١]

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر وعن زاذان عن علي أنه كان يمشي في الأسواق وحده،وهو وال،يرشد الضال،ويعين الضعيف،ويمر بالبياع والبقال،فيفتح عليه القرآن،ويقرأ " تلك الــدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً " ويقول:نزلت هذه الآية في أهــل العدل والتواضع من الولاة،وأهل القدرة من سائر الناس.[١٠٥٢]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه الآية:" فَإِنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ:يُرِيدُونَ العلو على الناس،والفساد في الأرض وهو مَعْصِيَةُ اللَّــهِ،وَهَؤُلَاءِ الْمُلُــوكُ وَالرُّؤَسَاءُ الْمُفْسِدُونَ،كَفِرْعَوْنَ وحزبه.وهؤلاء هم شرارُ الْخَلْقِ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:٤].

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ:إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُــونَ ثَوْبُــهُ حَسَــنًا وَنَعْلُــهُ حَسَنَةً،قَالَ:«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ،الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ،وَغَمْطُ النَّاسِ»[١٠٥٣].

[١٠٥٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢١٧،بترقيم الشاملة آليا)

[١٠٥١] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٣٤٥)(٤٩٧) وفضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٦٢١)(١٠٦٤) حسن

[١٠٥٢] - مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٦٤) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٢/ ٤٨٩) حسن

[١٠٥٣] - صحيح مسلم (١/ ٩٣)(١٤٧ - (٩١)

[ش (بطر الحق) هو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا (غمط الناس) معناه احتقارهم يقال في الفعل منه غمطه يغمطه وغمطه يغمطه]

فَبَطَرُ الْحَقِّ دَفْعُهُ وَجَحْدُهُ.وَغَمْطُ النَّاسِ احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ،وَهَذَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ الْعُلُوَّ وَالْفَسَادَ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي:الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْفَسَادَ،بلا علو،كالسراق والمجرمينَ من سَفلة الناس.

والقسم الثالث:يريدون الْعُلُوَّ بِلَا فَسَادٍ،كَالَّذِينَ عِنْدَهُمْ دِينٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلُوَا بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ.وهو أكثر في المتعلقة بنوعٍ من العلم أو نوعٍ من الورع.

وأما الْقِسْمُ الرَّابِعُ:فَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ،الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا،مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ يَكُونُونَ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٣٩].وَقَالَ تَعَالَى:{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد:٣٥].وقال:{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون:٨].

فَكَمْ مِمَّنْ يُرِيدُ الْعُلُوَّ،وَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إلَّا سُفُولًا،وَكَمْ مِمَّنْ جُعِلَ مِنَ الْأَعْلَيْنَ وَهُوَ لَا يُرِيدُ الْعُلُوَّ وَلَا الْفَسَادَ،وَذَلِكَ لِأَنَّ إرَادَةَ الْعُلُوِّ عَلَى الْخَلْقِ ظُلْمٌ؛لِأَنَّ النَّاسَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ.فَإِرَادَةُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَعْلَى وَنَظِيرُهُ تَحْتَهُ ظُلْمٌ.وَمَعَ أَنَّهُ ظُلْمٌ فَالنَّاسُ يُبْغِضُونَ مَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ وَيُعَادُونَهُ؛لِأَنَّ الْعَادِلَ مِنْهُمْ لَا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَقْهُورًا لِنَظِيرِهِ،وَغَيْرُ الْعَادِلِ مِنْهُمْ يُؤْثِرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْقَاهِرَ.

فمريدُ العلوِّ فسد عليه دينُه ودنياه بظلم الناس ومعاداتهم لذلك،فيحتاج لذلك إلى أعوانه يدفعون أعداءه،والأعوان في الحقيقة أعداءٌ له،إنما يعينونهُ لما ينالونه من أهوائهم،فلهذا كان من طلبَ الرياسة إليه أحمقَ جاهلاً،وإنما المطلوب منها ما يدفع به الإنسان عنه الضرر في دينه ودنياه،وهو في الحقيقة دفع علوِّ غيره عنه بالباطل،لا إرادةً منه علوًّا على غيره ....إلا يسمى إلا برياسة[1054] .

[1054] – العبارة غير واضحة

وأما من دخل فيه ديانةً كما يدخل الرجل في الجهاد باذلاً نفسَه وماله،فهذا هو الــذي يعــدُّ اعتقاده....[١٠٥٥]أدفعَ ما فيها من الفتنة في الدين إلا من عصم اللهُ،والمضرةُ في ادلنيا إلا لمن أيَّدهُ الله تعالى .

ولا بد لهم -فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ- مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ،كَمَا قَدَّمْنَاهُ،كَمَا أَنَّ الْجَسَدَ لَا يَصْلُحُ إلَّا بِرَأْسٍ.قَالَ تَعَالَى:{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْــضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [الأنعام:١٦٥].وَقَالَ تَعَالَى:{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَــوْقَ بَعْــضٍ دَرَجَــاتٍ لِيَتَّخِــذَ بَعْضُــهُمْ بَعْضًــا سُــخْرِيًّا} [الزخرف:٣٢].فَلذلك جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ بجعلِ السُّلْطَانِ وَالْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّه تعالى عوناً علــى دينِ الله تعالى.فَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ هُوَ التَّقَرُّبَ إلَى اللَّه وَإِنْفَــاقَ ذَلِــكَ فِــي سَبِيله،كَانَ ذَلِكَ صَلَاحَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.وَإِنْ انْفَرَدَ السُّلْطَانُ عَنِ الدِّينِ،أَوْ الدِّينُ عَــنِ السُّــلْطَانِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي الأموال."[١٠٥٦]

وعَنِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِك،عَنْ أَبِيه،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَــنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الرَّجُلِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ» رواه الترمذي[١٠٥٧]

أي أن الحرص على المال والشرف وهو الجاه أشد إفسادا لدين المرء من الــذئبين الجــائعين أرسلا في غنم،وقَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاط:سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ،يَقُولُ:«مَا رَأَيْتُ الزَّاهِــدَ فِــي شَيْءٍ أَقَلَّ مِنْهُ فِي الرِّيَاسَةِ ،تَرَى الرَّجُلَ يَزْهَدُ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَالِ وَالثِّيَــابِ ،فَــإِذَا نُوزِعَ فِي الرِّيَاسَةِ حَامَى عَلَيْهَا وَعَادَى»[١٠٥٨] .

كيفية اختيار الإمام

[١٠٥٥] - هناك سقط

[١٠٥٦] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:٢٥٥)

[١٠٥٧] - السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٨٦)(١١٧٩٦) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٨/ ٢٤)(٣٢٢٨) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٥/ ٨٥)(١٥٧٩٤) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ١٠٠)(٣٥٥٢١) صحيح

[١٠٥٨] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٩)

يتم اختيار الإمام عن طريقين أولهما:أن يختار أهل الحل والعقد للإمامة العامة أفضل من توفرت فيه الشروط الشرعية للإمامة،والطريق الثاني:أن يستخلف الإمام أفضل من توفرت فيه الشروط للإمامة بعده ويشاور في هذا أهل الحل والعقد،وفي حالة النزاع في أحقية من استخلفه الإمام بعده فيفصل النزاع بشرع الله تعالى لعموم قوله تعالى:{ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩]،قال القاضي أبو يعلى رحمه الله " وَالْإِمَامَةُ تَنْعَقِدُ مِنْ وَجْهَيْنِ.أَحَدُهُمَا:بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الحل والعقد.وَالثَّانِي:بِعَهْدِ الْإِمَامِ مِنْ قَبْلُ.فَأَمَّا انْعِقَادُهَا باختيار أهل الحل والعقد فلا تنعقد إلا بجمهور أهل الحل والعقد.قال أحمد في رواية إسحاق بن إبراهيم:" الإمام الذي يجتمع [قول أهل الحل والعقد] عليه كلهم".يقول:هذا إمام.وظاهر هذا أنها تنعقد بجماعتهم.وروي عنه ما دل على أنها تثبت بالقهر والغلبة،ولا تفتقر إلى العقد.فقال في رواية عبدوس بن مالك العطار " ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً،براً كان أو فاجراً".وقال أيضاً في رواية أبي الحرث – في الإمام يخرج عليه،من يطلب الملك،فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم – " تكون الجمعة مع من غلب".واحتج بأن ابن عمر صلى بأهل المدينة في زمن الحرة.وقال " نحن مع من غلب".

وجه الرواية الأولى:أنه لما اختلف المهاجرون والأنصار،فقالت الأنصار:" منا أميرومنكم أمير" حاجهم عمر وقال لأبي بكر رضي الله عنهما " مد يدك أبايعك " فلم يعتبر الغلبة واعتبر العقد مع وجود الاختلاف.ووجه الثانية:ما ذكره أحمد عن ابن عمر،وقوله " نحن مع من غلب" ولأنها لو كانت تقف على عقد لصح رفعه وفسخه بقولهم وقوله كالبيع وغيره من العقود،ولما ثبت أنه لو عزل نفسه أو عزلوه لم ينعزل دل على أنه لا يفتقر إلى عقد.وإنما اعتبر فيها قول جماعة أهل الحل والعقد أنه الإمام لأنه يجب الرجوع إليه،ولا يسوغ خلافه والعدول عنه كالإجماع.ثم ثبت أن الإجماع يعتبر في انعقاده جميع أهل الحل والعقد،كذلك عقد الإمامة.فإن توقفوا أثموا،عقد لا يتم إلا بعاقد كالقضاة لا يصير قاضياً حتى يولى،ولا يصير قاضياً وإن وجدت صفته،كذلك الإمامة.وإذا جمع أهل الحل والعقد على الاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجود فِيهِمْ شُرُوطُهَا فَقَدَّمُوا لِلْبَيْعَةِ مِنْهُمْ أَكْثَرَهُمْ فَضْلًا،وأكملهم شروطاً.فَإِذَا تَعَيَّنَ

لَهُمْ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ مَنْ أداهم الاجتهاد إلى اختياره وعرضوها عَلَيْهِ،فَإِنْ أَجَابَ إلَيْهَا بَايَعُوهُ عَلَيْهَا،وَانْعَقَدَتْ له الإمامة ببيعتهم،ولزم كَافَّةَ الْأُمَّةِ الدُّخُولُ فِي بَيْعَتِهِ وَالِانْقِيَادُ لِطَاعَتِهِ.وَإِنْ امْتَنَعَ مِنْ الْإِمَامَةِ وَلَمْ يُجِبْ إلَيْهَا لم يجبر عليها وعدل إلى من سواه من مستحقيها فبويع عليها."[1059]

وقال الماوردي :"والإمامة تنعقد من وجهين:

أحدهما:باختيار أهلِ العَقْدِ والحَلِّ.

وَالثَّانِي:بِعَهْدِ الْإِمَامِ مِنْ قَبْلُ.

فَأَمَّا انْعِقَادُهَا بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي عَدَدِ مَنْ تَنْعَقِدُ بِهِ الْإِمَامَةُ مِنْهُمْ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى،فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:لَا تَنْعَقِدُ إلَّا بِجُمْهُورِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ؛لِيَكُونَ الرِّضَاءُ بِهِ عَامًّا وَالتَّسْلِيمُ لِإِمَامَتِهِ إجْمَاعًا،وَهَذَا مَذْهَبٌ مَدْفُوعٌ بِبَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَلَى الْخِلَافَةِ بِاخْتِيَارِ مَنْ حَضَرَهَا وَلَمْ يَنْتَظِرْ بِبَيْعَتِهِ قُدُومَ غَائِبٍ عَنْهَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى:أَقَلُّ مَنْ تَنْعَقِدُ بِهِ مِنْهُمُ الْإِمَامَةُ خَمْسَةٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَى عَقْدِهَا،أَوْ يَعْقِدُهَا أَحَدُهُمْ بِرِضَا الْأَرْبَعَةِ اسْتِدْلَالًا بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا:إنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- انْعَقَدَتْ بِخَمْسَةٍ اجْتَمَعُوا عَلَيْهَا،ثُمَّ تَابَعَهُمْ النَّاسُ فِيهَا،وَهُمْ:عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ،وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ،وَبِشْرُ بْنُ سَعْدٍ،وَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَالثَّانِي:عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- جَعَلَ الشُّورَى فِي سِتَّةٍ لِيُعْقَدَ لِأَحَدِهِمْ بِرِضَا الْخَمْسَةِ،وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ.[1060]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْكَلَامِ يَقُولُونَ:إنَّ الْإِمَامَةَ تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ أَرْبَعَةٍ،كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ اثْنَيْنِ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:تَنْعَقِدُ بِبَيْعَةِ وَاحِدٍ،فَلَيْسَتْ هَذِهِ أَقْوَالَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ .

[1059] – الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص:٢٣)

[1060] – الأحكام السلطانية للماوردي (ص:٢١)

بَلِ الْإِمَامَةُ عِنْدَهُمْ تَثْبُتُ بِمُوَافَقَةِ أَهْلِ الشَّوْكَةِ عَلَيْهَا،وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ إِمَامًا حَتَّى يُوَافِقَهُ أَهْلُ الشَّوْكَةِ عَلَيْهَا الَّذِينَ يَحْصُلُ بِطَاعَتِهِمْ لَهُ مَقْصُودُ الْإِمَامَةِ،فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْإِمَامَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ،فَإِذَا بُويِعَ بَيْعَةً حَصَلَتْ بِهَا الْقُدْرَةُ وَالسُّلْطَانُ صَارَ إِمَامًا.

وَلِهَذَا قَالَ أَئِمَّةُ السَّلَفِ:مَنْ صَارَ لَهُ قُدْرَةٌ وَسُلْطَانٌ يَفْعَلُ بِهِمَا مَقْصُودَ الْوِلَايَةِ،فَهُوَ مِنْ أُولِي الْأَمْرِ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِمْ مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ،فَالْإِمَامَةُ مُلْكٌ وَسُلْطَانٌ،وَالْمُلْكُ لَا يَصِيرُ مُلْكًا بِمُوَافَقَةِ وَاحِدٍ وَلَا اثْنَيْنِ وَلَا أَرْبَعَةٍ،إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُوَافَقَةُ هَؤُلَاءِ تَقْتَضِي مُوَافَقَةَ غَيْرِهِمْ بِحَيْثُ يَصِيرُ مُلْكًا بِذَلِكَ.وَهَكَذَا كُلُّ أَمْرٍ يَفْتَقِرُ إِلَى الْمُعَاوَنَةِ عَلَيْهِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِحُصُولِ مَنْ يُمْكِنُهُمُ التَّعَاوُنُ عَلَيْهِ؛وَلِهَذَا لَمَّا بُويِعَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَصَارَ مَعَهُ شَوْكَةٌ صَارَ إِمَامًا.

وَلَوْ كَانَ جَمَاعَةٌ فِي سَفَرٍ فَالسُّنَّةُ أَنْ يُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ،كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -:" «لَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ يَكُونُونَ فِي سَفَرٍ إِلَّا أَنْ يُؤَمِّرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ» " فَإِذَا أَمَّرَهُ أَهْلُ الْقُدْرَةِ مِنْهُمْ صَارَ أَمِيرًا.فَكَوْنُ الرَّجُلِ أَمِيرًا وَقَاضِيًا وَوَالِيًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي مَبْنَاهَا عَلَى الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ،مَتَى حَصَلَ مَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ حَصَلَتْ وَإِلَّا فَلَا؛إِذِ الْمَقْصُودُ بِهَا عَمَلُ أَعْمَالٍ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِقُدْرَةٍ،فَمَتَى حَصَلَتِ الْقُدْرَةُ الَّتِي بِهَا يُمْكِنُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ كَانَتْ حَاصِلَةً وَإِلَّا فَلَا.

وَهَذَا مِثْلُ كَوْنِ الرَّجُلِ رَاعِيًا لِلْمَاشِيَةِ،مَتَى سُلِّمَتْ إِلَيْهِ بِحَيْثُ يَقْدِرُ أَنْ يَرْعَاهَا،كَانَ رَاعِيًا لَهَا وَإِلَّا فَلَا،فَلَا عَمَلَ إِلَّا بِقُدْرَةٍ عَلَيْهِ،فَمَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْعَمَلِ لَمْ يَكُنْ عَامِلًا.

وَالْقُدْرَةُ عَلَى سِيَاسَةِ النَّاسِ إِمَّا بِطَاعَتِهِمْ لَهُ،وَإِمَّا بِقَهْرِهِ لَهُمْ،فَمَتَى صَارَ قَادِرًا عَلَى سِيَاسَتِهِمْ بِطَاعَتِهِمْ أَوْ بِقَهْرِهِ،فَهُوَ ذُو سُلْطَانٍ مُطَاعٍ،إِذَا أَمَرَ بِطَاعَةِ اللَّهِ.

وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ فِي رِسَالَةِ عُبْدُوسِ بْنِ مَالِكٍ الْعَطَّارِ:" أُصُولُ السُّنَّةِ عِنْدَنَا التَّمَسُّكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - " إِلَى أَنْ قَالَ:" وَمَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ فَأَجْمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَرَضُوا بِهِ،وَمَنْ غَلَبَهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى صَارَ خَلِيفَةً وَسُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَدَفْعُ الصَّدَقَاتِ إِلَيْهِ جَائِزٌ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا ".

وَقَالَ فِي رِوَايَةِ إِسْحَاقَ بْنِ مَنْصُورٍ،وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ - ﷺ - " «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» " مَا مَعْنَاهُ؟ فَقَالَ:تَدْرِي مَا الْإِمَامُ؟ الْإِمَامُ الَّذِي يُجْمِعُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ،كُلُّهُمْ يَقُولُ:هَذَا إِمَامٌ؛فَهَذَا مَعْنَاهُ وَالْكَلَامُ هُنَا فِي مَقَامَيْنِ:أَحَدُهُمَا:فِي كَوْنِ أَبِي

بَكْرٍ كَانَ هُوَ الْمُسْتَحِقَّ لِلْإِمَامَةِ،وَأَنَّ مُبَايَعَتَهُمْ لَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،فَهَذَا ثَابِتٌ بِالنُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ.

وَالثَّانِي:أَنَّهُ مَتَى صَارَ إِمَامًا،فَذَلِكَ بِمُبَايَعَةِ أَهْلِ الْقُدْرَةِ لَهُ.وَكَذَلِكَ عُمَرُ لَمَّا عَهِدَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ،إِنَّمَا صَارَ إِمَامًا لَمَّا بَايَعُوهُ وَأَطَاعُوهُ،وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُنَفِّذُوا عَهْدَ أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ يُبَايِعُوهُ لَمْ يَصِرْ إِمَامًا،سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا أَوْ غَيْرَ جَائِزٍ.

فَالْحِلُّ وَالْحُرْمَةُ مُتَعَلِّقٌ بِالْأَفْعَالِ،وَأَمَّا نَفْسُ الْوِلَايَةِ وَالسُّلْطَانِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقُدْرَةِ الْحَاصِلَةِ،ثُمَّ قَدْ تَحْصُلُ عَلَى وَجْهٍ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،كَسُلْطَانِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ،وَقَدْ تَحْصُلُ عَلَى وَجْهٍ فِيهِ مَعْصِيَةٌ،كَسُلْطَانِ الظَّالِمِينَ.

وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ عُمَرَ وَطَائِفَةً مَعَهُ بَايَعُوهُ،وَامْتَنَعَ سَائِرُ الصَّحَابَةِ عَنِ الْبَيْعَةِ،لَمْ يَصِرْ إِمَامًا بِذَلِكَ،وَإِنَّمَا صَارَ إِمَامًا بِمُبَايَعَةِ جُمْهُورِ الصَّحَابَةِ،الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْقُدْرَةِ وَالشَّوْكَةِ.وَلِهَذَا لَمْ يَضُرَّ تَخَلُّفُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ؛لِأَنَّ ذَلِكَ [لَا]يَقْدَحُ فِي مَقْصُودِ الْوِلَايَةِ،فَإِنَّ الْمَقْصُودَ حُصُولُ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا تَحْصُلُ مَصَالِحُ الْإِمَامَةِ،وَذَلِكَ قَدْ حَصَلَ بِمُوَافَقَةِ الْجُمْهُورِ عَلَى ذَلِكَ.

فَمَنْ قَالَ إِنَّهُ يَصِيرُ إِمَامًا بِمُوَافَقَةِ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ أَرْبَعَةٍ،وَلَيْسُوا هُمْ ذَوِي الْقُدْرَةِ وَالشَّوْكَةِ،فَقَدْ غَلِطَ؛كَمَا أَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ تَخَلُّفَ الْوَاحِدِ أَوِ الِاثْنَيْنِ وَالْعَشَرَةِ يَضُرُّهُ،فَقَدْ غَلِطَ.

وَأَبُو بَكْرٍ بَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ،الَّذِينَ هُمْ بِطَانَةُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –،وَالَّذِينَ بِهِمْ صَارَ لِلْإِسْلَامِ قُوَّةٌ وَعِزَّةٌ،وَبِهِمْ قَهَرَ الْمُشْرِكُونَ،وَبِهِمْ فُتِحَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ،فَجُمْهُورُ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – هُمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ.وَأَمَّا كَوْنُ عُمَرَ أَوْ غَيْرِهِ سَبَقَ إِلَى الْبَيْعَةِ،فَلَا بُدَّ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ مِنْ سَابِقٍ،وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ كَانَ كَارِهًا لِلْبَيْعَةِ،لَمْ يَقْدَحْ ذَلِكَ فِي مَقْصُودِهَا،فَإِنَّ نَفْسَ الِاسْتِحْقَاقِ لَهَا ثَابِتٌ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ أَحَقُّهُمْ بِهَا،وَمَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ لَا يَضُرُّ مَنْ خَالَفَهَا،وَنَفْسُ حُصُولِهَا وَوُجُودِهَا ثَابِتٌ بِحُصُولِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ،بِمُطَاوَعَةِ ذَوِي الشَّوْكَةِ.

فَالدِّينُ الْحَقُّ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْكِتَابِ الْهَادِي وَالسَّيْفِ النَّاصِرِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [سُورَةُ الْحَدِيدِ:٢٥] ."[١٠٦١]

وقال ابن خلدون رحمه الله:"اعلم أن البيعة هي :العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يُسَلِّم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين،لا ينازعه في شيء من ذلك،ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره،وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدًا للعهد،فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري،فسمي بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدي،هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي – ﷺ – ليلة العقبة وعند الشجرة "[١٠٦٢].

ويبايع الإمام على إقامة شرع الله تعالى والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ،ولا يجوز أن يقصد المبايع عرضا من الدنيا:إن أعطي مقصوده رضي،وإن لم يعط سخط ولم يف بالبيعة وغدر بالإمام،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ:رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ،وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَاهُ،إِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ،وَرَجُلٌ يُبَايِعُ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ العَصْرِ،فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا كَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ،فَأَخَذَهَا،وَلَمْ يُعْطَ بِهَا " أخرجه البخاري[١٠٦٣].

ولا تحدد الإمامة الكبرى بمدة،فمن بويع بالإمامة الكبرى يبقى على إمامته للمسلمين حتى الوفاة أو العزل[١٠٦٤]،وسيأتي بيان ما يعزل به الإمام.

[١٠٦١] – منهاج السنة النبوية (١/ ٥٢٦)

[١٠٦٢] – تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٦١) ومقدمة ابن خلدون (ص:١٠٨،بترقيم الشاملة آليا) والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص:٦٦)

[١٠٦٣] – صحيح البخاري (٩/ ٧٩)(٧٢١٢)

[١٠٦٤] – من المتفق عليه بين العلماء أن الإمام ما دام قائما بواجباته الملقاة على عاتقه،مالكا القدرة على الاستمرار في تدبير شؤون رعيته،عادلاً بينهم فإنه لا يجوز عزله ولا الخروج عليه،بل ذلك مما حذر منه الإسلام وتوعد الغادر بعذاب أليم يوم القيامة،كما أن الأخطاء اليسيرة،لا تجوز عزل الإمام،لأن الكمال لله وحده والمعصوم من عصمه الله،وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص:١٥٤)

الحكمة من إناطة اختيار الخليفة لأهل الحل والعقد وليس للجمهور :

ولكن نسأل سؤالًا:وهو لماذا يسند اختيار الرئيس إلى جماعة خاصة، كأهل الحل، والعقد؟

نقول:قد يكون لافتًا نظر الباحثين في نظام الحكم الإسلامي ما قرره فقهاء الإسلام من أن مهمة اختيار الإمام يجب أن توكل إلى جماعة خاصة دون باقي أفراد الأمة، مما يوهم -في ظاهره- عدم الاعتداد بآراء جماهير الأمة، التي ما جُعل الإمام إلا للقيام برعاية مصالحها الدينية، والدنيوية، كان الواجب أن تسند مهمة اختيار الإمام إلى كل بالغ، عاقل، من أفراد الشعب، لا فرق في ذلك بين واحد، وواحد، حتى يكون الاختيار معبرًا تمام التعبير عما ترتضيه الجماهير، وسواء في ذلك أن يكون هذا الاختيار قد تم بطريق مباشر، كالاقتراع العام، أو بطريق غير مباشر، كأن يتم اختيار الإمام بوساطة هيئة خاصة ينتخبها الشعب، يسند إليها القيام بهذه المهمة الخطيرة، فقصر اختيار الإمام على جماعة خاصة مما يلفت نظر الباحثين؛ لأنه في الظاهر مخالف مبدأ إعطاء حق الاختيار لكل مواطن، حتى يكون الاختيار معبرًا عن الإرادة الشعبية تمام التعبير.

صحيحًا أن الإسلام يوجب على الجميع -أي جميع أفراد الأمة- أن يبايعوا الإمام، ويدخلوا في طاعته، بعد انعقاد الإمامة له بعقد أهل الحل والعقد، ولكن ذلك الوجوب إنما قُصد به إغلاق باب التفرق، حتى لا تكون الفتنة والفوضى بين الناس، ولذلك قال العلماء:إنه إذا تمت البيعة من أهل الحل والعقد في ناحية، وجب عليهم أن يخطروا بها سائر أهل الحل والعقد في النواحي الأخرى.

يقول البعض:وإن أقام بعض أهل الحل والعقد إمامًا سقط وجوب نصب الإمام عن الباقين، وصار من أقاموه إمامًا، ويلزمهم إظهار ذلك بالمكاتبة والمراسلة؛ لئلا يتشاغل غيرهم بإمام غيره وقد وقعت الكفاية، ولئلا يؤدي ذلك إلى الفتنة، فعدم مبايعة سائر أفراد الأمة لا يؤثر في انعقاد الإمام؛ لأن العقد يتم بمجرد مبايعة أهل الحل والعقد، ولا يكون العقد صحيحًا إذا لم يبايع الإمام أهل الحل والعقد، فإذا فرض بعد موت الإمام مثلًا أو عزله، أن اجتمع جماعة من غير أهل الحل والعقد، وعقدوا البيعة لواحد من الناس، فإن هذا البيعة لا اعتداد بها، وليست لها الصفة الشرعية التي تجبر باقي أفراد الأمة على الدخول في طاعة من بايعته هذه الجماعة.

وقبل أن نوضح المعنى المثالي الملاحظ في تقرير المبدأ الإسلامي القائل بوجوب أن تسند مهمة اختيار رئيس الدولة إلى جماعة خاصة، تسمَّى عرفًا بجماعة أهل الحل والعقد، يجب أن نقول بادئ ذي بدء:إننا إذا كنا حقًا نبحث عن الطريقة المثلى لاختيار رئيس الدولة، يجب علينا أن نسلم بأمرين:

أولهما:أن اختيار رئيس الدولة يجب ألا يوكل إلَّا إلى من توافرت فيه مقدرة التفرقة بين من يصلح، ومن لا يصلح، لتولي هذا المنصب الخطير، وتوافر هذه المقدرة لا يتحقق إلا بأن تفرض شروط، وصفات خاصة، في من يصح قيامه بهذه المسئولية، شروط وصفات من شأنها أن توجد في القائمين بهذه المهمة الصلاحيةَ الكاملة لها؛ وذلك لأنه لما كان رئيس الدولة لا يُختار إلا ممن توافرت فيه شروط خاصة، تؤهله للقيام بأعباء هذا المنصب، وهي التي بيناها فيما سبق عند الكلام عن الشروط المطلوبة في رئيس الدولة، نقول:كان لزامًا ألا يوكل اختيار الرئيس إلا إلى أشخاص تتوافر فيهم مقدرة التفرقة بين من تحققت فيه هذه الشروط، وبين من لم تتحقق فيه.

وثاني الأمرين الذَين يجب التسليم بهما:هو أنه لا يصح ادعاء أن التنظيمات البرلمانية تمثل الشعب كله تمثيلًا صحيحًا، سواء في ذلك الشعوب التي بلغت مستوًى رفيعًا من العلم، والنضج السياسي، والشعوب التي لم تبلغ بعد هذا المستوى، وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول:أن البرلمان بأجمعه قد لا يمثل سوى أقليَّة ضئيلة من الناخبين، وذلك إذا أسقطنا من حسابنا نوعين من الأصوات، أولهما أصوات الغائبين الذين لم يدلوا بآرائهم في هذه الانتخابات، وهؤلاء الغائبون يمثلون عددًا كبيرًا بالنسبة إلى باقي أفراد الناخبين في كل انتخاب، ويبلغ عددهم في أغلب البلاد نحو نصف عدد الناخبين، وثاني النوعين الذين يجب عدم احتسابهما هو الأصوات الفاشلة، أي الأصوات التي حصل عليها المرشحون الذين لم يكتب لهم النجاح في هذه الانتخابات، ومجموع هذين النوعين يشكل عددًا كبيرًا، قد يكون هو الأغلب بالنسبة إلى باقي الأصوات، كما تفيده الإحصائيات، سواء في ذلك البلاد التي تأخذ بنظام التصويت الإجباري، والبلاد التي لا تأخذ بهذا النظام، وعلى ذلك فالبرلمان قد لا يمثل إلا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى عدد الناخبين، وبالتالي لا يمثل الاتجاهات الحقيقية لمجموع

الأمة، وهذا فضلًا عن أنه من الملاحظ أن يحدث في كثير من البلاد خضوع الأغلبية البرلمانية لسيطرة عدد قليل من الزعماء والساسة، يوجهونها حسب أهوائهم، وميولهم، وقد تكون هذه الميول والأهواء لا تتوافر في أكثر الأحوال مع ميول الجماهير الذين ينوبون عنهم، وإن ادعوا كذبًا أنهم يعبرون عن مصالح جماهير الأمة.

السبب الثاني من أسباب عدم صحة ادعاء أن التنظيمات والبرلمانات تمثل الشعب كله تمثيلًا صحيحًا، فساد الانتخابات في كثير من الأحوال:فإنه مهما قيل عن حرية الانتخابات، وعدم تدخل الإرادة فيها، فإنها في الواقع لا تخلو من استعمال طرق كثيرة فيها غير مشروعة، من الغش، وخداع الجماهير، وإغرائهم بالرشوة، والتغرير بهم، بقصد كسب أصواتهم مما يؤثر في نتيجة الانتخابات تأثيرًا كبيرًا.

السبب الثالث:أننا لو سلمنا جدلًا بأن الانتخابات تتم بطريقة نظيفة خالية مما يشوبها مما ذكرناه آنفًا، وفرضنا أن البرلمان يمثل فعلًا إرادة أغلبية الناخبين، فإننا لا نسلم أن يقال:إن البرلمان يمثل جماهير الأمة طوال الوقت؛ لأن اختلاف النزاعات في الجماهير، واتجاهاتهم المتباينة، قد يجعل من المقبول الادعاء بأن البرلمان يمثلهم في بعض مسائل معينة لمدة قصيرة، وأن الادعاء بأن البرلمان يمثل جماهير الأمة طوال الوقت فإن هذا لا يعدو أن يكون نوعًا من السيادة للنائبين على المنوب عنهم.

وبعد فقد تبين مما ذكرناه أن ادعاء أن التنظيمات البرلمانية تمثل إرادة الجماهير، وتعبر عن الرأي العام، ادعاء غير مُسَلم؛ للأسباب التي ذكرناها، يتبين لنا مما سبق أن تخصيص جماعة معينة في النظام الإسلامي لانتخاب رئيس الدولة هو نوع من المثالية التي ينشدها الإسلام في تشريعاته، يعني كون هناك جهة معينة، أو جماعة معينة، يطلق عليهم أهل الحل والعقد، يقومون باختيار رئيس الدولة، هذا هو الأمر المهم، وهذا أفضل بكثير مما هو موجود في القوانين الوضعية، ونظم الانتخابات الوضعية، التي تبين لنا فشلها فيما قدمنا.

ولكن هل يُنتخب أفراد هذه الجماعة التي تقوم باختيار رئيس الجمهورية، أم يُكتفي باستفاضة أخبارهم، أو أخبار فضلهم، وعلمهم، وتقدمهم بين جماهير الأمة، هـذا مـن الموضـوعات الخلافية بين الفقهاء.[١٠٦٥]

حكم الانتخابات العامة:

من القواعد الأساسية في النظام الديمقراطي اختيار رئيس البلاد،وأعضاء البرلمان عـن طريـق الانتخابات العامة،وهذا المسلك في الاختيار من مسالك وسبل الكافرين التي لا تجوز نسـبتها لدين الإسلام،والأدلة على تحريم الانتخابات العامة ما يلي:

أولا:أن الحاكمية في الإسلام لله تعالى،وليست للشعب أو غيره،و إنما الواجب على الشـعب الانقياد لأمر الله وحكمه،كما قال تعالى:{وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } [الكهف:٢٦]،وقال تعالى:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب:٣٦].

ثانيا:أن إبطال الشروط الشرعية الواجب توفرها في الإمام أو أعضاء الشورى،وإبطال الطريقة الشرعية في الاختيار،واستبدالها بالانتخابات الديمقراطية هو من التحاكم إلى الطاغوت وتبديل حكم الله تعالى،وقد قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيـدُ الشَّـيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠].

ثالثا:أن مقصود الإمامة إقامة شريعة الله تعالى في جميع شؤون الحياة،وإقامة العـدل والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله،ولتحقيق المقصود من الإمامة جاءت الشريعة بالشروط الواجب توفرها بالإمام كالعدالة والعلم والشجاعة وغيرها من الشروط،وعمل أهل الحل والعقد في هذه الحالة هو اختيار أفضل من توفرت فيه شروط الإمامة،فعملهم يشبه عمل القضاة في مجلس القضاء،فيتبعون العدل والحق في الاختيار ولا يتبعون أهواءهم.

وأما الانتخابات العامة فهي قائمة على أهواء الناس وشهواتهم،فأكثر الناس إنما ينتخبون مـن يحقق أهواءهم دون التفات منهم إلى شروط الإمامة،والله تعالى أمرنا باتباع أمره،وأن لا نتبـع

[١٠٦٥] - السياسة الشرعية - جامعة المدينة (ص: ٥٢٦) فما بعدها

أهواء الناس،فقال تعالى:{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [البقرة:١٢٠].

وقال تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة:٤٨].

وقال تعالى:{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)} [الجاثية:١٨،١٩].

وقال تعالى:{ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) } [الروم:٢٩ – ٣٢].

رابعا:أن الله تعالى خلق الجن والإنس لعبادته كما قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)} [الذاريات:٥٦ – ٥٨]،وشروط الإمامة في الشريعة جاءت لتحقيق هذه الغاية،وأما الانتخابات الديمقراطية العامة فتلغي هذه الشروط ويتم الاختيار بحسب أهواء الناس كما تقدم،وفي هذا مضادة لله تعالى في أمره وعبوديته التي خلق الخلق لأجلها.

خامسا:لقد بين الله تعالى أن الأغلبية من الناس لا تتمسك بطاعته،ولا ترغب في شريعته وحكمه،بل تبتغي حكم الجاهلية،كما قال تعالى:{وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) } [المائدة:٤٩،٥٠].

وقال تعالى:{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠].

وقال تعالى:{كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣)} [الأعراف:٢،٣]،وغيرها من الآيات التي تدل على تنكب أكثر الناس عن شرع الله وميلهم عن صراطه المستقيم،فكيف يعلق مصير حكم الله في الأرض بهذه الأكثرية،التي تبتغي حكم الجاهلية وتعرض عن حكم الله تعالى.

سادساً:أن الإسلام لا يسوي في الدنيا ولا في الآخرة بين العالم والجاهل،والمسلم والكافر،والصالح والفاسق،وأما النظام الانتخابي الديمقراطي فيسوي بين جميع هؤلاء في حق التصويت والترشيح في الانتخابات،وقد قال الله تعالى:{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) } [القلم]

وقال تعالى:{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية:٢١].

وقال تعالى:{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) } [السجدة:١٨ - ٢٠]

وقال تعالى:{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) } [ص].

وقال تعالى:{ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام:١٢٢].

وقال تعالى:{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الرعد:١٩]،وغيرها من الآيات.

سابعا:أن مبدأ الانتخابات العامة قد لبس على كثير من الناس مفهوم الشرعية،فأصبح الكثير منهم يرى أن الشرعية تستمد من أغلبية الناس،وليس من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ،وهذا الضلال في مفهوم الشرعية الذي وقع فيه الكثير هو بسبب الشرك بالديمقراطية والتحاكم إليها.

ثامنا:قال الله تعالى:{أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)} [المؤمنون:٧٠،٧١]،فتدل الآيتان على أن أكثرية الناس يكرهون الحق،فكيف تجعل هذه الأكثرية الكارهة للحق هي المرجع في اختيار الإمام،الذي يقيم دولة الإسلام.

وتدلان على أن الأكثرية يتبعون أهواءهم،وهذا هو واقع الانتخابات العامة،فإنها قائمة على أهواء الناس ورغباتهم وشهواتهم.وتدلان على أن الحق لو اتبع أهواء الناس لفسد العالم،وفسدت الدولة الإسلامية وعمها الاضطراب والفوضى.

وتدلان على أن الرجوع إلى أهواء الأكثرية في الانتخابات العامة هو من الإفساد في الأرض،وليس من الإصلاح.

وتدلان على أن الأكثرية معرضة عن القرآن،فكيف يرجى من هذه الأغلبية المعرضة عن كتاب الله أن تعدل بعدل القرآن،وتحكم بحكمه في اختيار الإمام العام،وأن تختار من يقودها بكتاب الله.

تاسعا:قال الله تعالى:{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

بالْمُهْتَدِينَ (١١٧)} [الأنعام:١١٢ - ١١٧]،أخرج ابن جرير عَنْ عِكْرِمَةَ،قَوْلُهُ:{زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام:١١٢] قَالَ:«تَزْيِينُ الْبَاطِلِ بِالْأَلْسِنَةِ»[١٠٦٦]

وقال ابن جرير رحمه الله " قَالَ ابْنُ زَيْد،فِي قَوْلِهِ:{زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام:١١٢] قَالَ:" الزُّخْرُفُ:الْمُزَيَّنُ،حَيْثُ زَيَّنَ لَهُمْ هَذَا الْغُرُورُ،كَمَا زَيَّنَ إِبْلِيسُ لِآدَمَ مَا جَاءَهُ بِهِ وَقَاسَمَهُ إِنَّهُ لَمِنَ النَّاصِحِينَ.وَقَرَأَ:{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ} [فصلت:٢٥]،قَالَ:ذَلِكَ الزُّخْرُفُ وَأَمَّا الْغُرُورُ:فَإِنَّهُ مَا غَرَّ الْإِنْسَانَ فَخَدَعَهُ فَصَدَّهُ عَنِ الصَّوَابِ إِلَى الْخَطَأِ،وَمِنَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ.وَهُوَ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ:غَرَرْتُ فُلَانًا بِكَذَا وَكَذَا،فَأَنَا أَغُرُّهُ غُرُورًا وَغَرًّا"[١٠٦٧]

فهؤلاء الشياطين أعداء الأنبياء يوحي بعضهم إلى بعض الأقوال المزخرفة المزينة:كالديمقراطية والانتخابات والحرية ونحوها،وتذاع هذه الأقوال المزخرفة ويروج لها ويُدعى الناس إليها في وسائل الإعلام وفي الهيئات والمحافل والجامعات والمدارس وغيرها،ويغتر بزخرفها وينخدع ببريقها والضجة التي حولها من لا يؤمن بالآخرة،فيصغي إليها ويرضى بها عقيدة له،ويقترف ما يقترف من الذنوب بسبب هذا الإصغاء والميل إليها واتخاذها سبيلا ومنهجا.

وهذا حال من زاغوا إلى الديمقراطية،فأول أوصافهم أن هؤلاء الديمقراطيين الذين لا يؤمنون بالآخرة قد صغت أفئدتهم ومالت إلى دعاة الديمقراطية وإلى أقوالهم المزخرفة،وأما وصفهم الثاني فهو رضاهم بالديمقراطية عقيدة ومنهجا،والوصف الثالث أنهم يقترفون من الكفر والآثام ما هم مقترفون بسبب إصغائهم للأقوال المزخرفة والرضا بها،كما قال تعالى:{وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام:١١٣].

فهجروا كتاب الله تعالى وأعرضوا عنه،واتبعوا الأقوال المزخرفة المضللة،فلهم نصيب من قوله تعالى:{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)} [الفرقان:٣٠،٣١]،وقوله تعالى:{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى

[١٠٦٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ و٥٠١و٥٠٢) صحيح

[١٠٦٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٥٠٢) صحيح

لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)} [الفرقان:٢٧ - ٢٩]

وَيَنْدَمُ فِي ذَلكَ اليومِ الظَّالِمُونَ الكَافِرُونَ،الذين تَرَكُوا طَرِيقَ الرَّسُولِ،وَكَفُرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِـهِ مِنْ عِنْد الله تَعَالَى مِنَ الحَقِّ المُبِين،وَيَعَضُّونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ نَدَماً عَلَى مَـا فَرَّطُـوا فِـي جَنْـبِ الله،وَيَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا اتَّبَعْنَا طَرِيقَ الرَّسُولِ المُوصِلِ إلى الجَنَّة،وَلَكِنَّ النَّدَمَ لاَ يَنْفَعُهُمْ حِيْنَئذ.

وَيَقُولَ الظَالِمُ فِي ذَلكَ اليَوْمِ مُتَحَسِّراً:يَا خَسَارَهُ وَيَا هَلاَكَهُ،وَيَا لَيْتَهُ لَمْ يَتَّخِذْ فُلانـاً خَلِـيلاً وَصَدِيقاً (وَيَذْكُرُ اسمَ من أَضَلَّهُ وَصَرَفَهُ عَنِ الحَقِّ والهُدَى)،وَيَتَمَّنى لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَمِعْ إِلَيْـهِ،وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِه.لَقَدْ أَضَلَّنِي هَذَا الصَّدِيقُ عَنِ الإِيْمَانِ بالقُرْآنِ بَعْدَ بُلُوغِه إِلَيَّ،وَمَنَّانِي بِالنَّصْـرِ والفَلاَحِ،وَمِنْ عَادَةِ الشَّيْطَانِ أَنْ يُمَنِّي وَيَعِدَ،وَيُمَنِّي كَذِباً وَغُرُوراً،وأَنْ يَخْذُلَ الإِنْسَـانَ يَـوْمَ القِيَامَةِ،وَيَتْرُكَهُ لِمَصِيرِه،وَيَقُولَ لأَوْلِيَائِه:{إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَـأَخْلَفْتُكُمْ.}

(وَقِيلَ بَلْ إِنَّ المَقْصُودَ مِنْ هَذِه الآيَةِ:أَنَّ الشَّـيْطَانَ يُخَـذِّلُ الإِنْسَـانَ عَـنِ الحَقِّ،وَيَصْـرِفُهُ عَنْهُ،وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي البَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْه)[١٠٦٨] .

وقوله:{أَفَغَيْرَ ٱللَّه أَبْتَغِي حَكَماً}،أي قل:أغير الله تبارك وتعالى أبتغي وأطلب حكما أتحـاكم إليه وأنقاد لحكمه،فإن غير الله ليس لهم الحكم والتشريع،بل الواجب على العباد الانقياد لأمـر الله وحكمه.

ثم قال تعالى:{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [الأنعـام:١١٤]،وقـد فصل الله تعالى فيه جميع الأحكام في سائر شؤون الحياة،كما قال تعالى:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل:٨٩]،وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عَنِ ابْنِ مَسْعُود،قَالَ:" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ،وَلَكِنْ عِلْمُنَا يَقْصُرُ عَمَّا بَيَّنَ لَنَا فِي الْقُرْآنِ،ثُمَّ قَرَأَ {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحـل:٨٩]"[١٠٦٩]

[١٠٦٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

[١٠٦٩] - الإبانة الكبرى لابن بطة (٦/ ١٤٩)(٤٢٤) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٣٣٤) حسن

وأخرج ابن أبي شيبة عَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ :مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَقْرَأْ الْقُرْآنَ فَإِنَّ فِيهِ عِلْـــمَ الأَوَّلِـــينَ وَالآخِرِينَ..[1070]

عَنْ مُخَارِقِ بْنِ سُلَيْمٍ:أَنَّ عَبْدَ اللهِ،كَانَ يَقُولُ:" إِذَا حَدَّثْتُكُمْ بِحَدِيثٍ أَتَيْتُكُمْ بِتَصْدِيقِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللهِ،إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا قَالَ:الْحَمْدُ للَّهِ،وَسُبْحَانَ اللهِ،وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَاللهُ أَكْبَرُ،وَتَبَـــارَكَ اللهُ قَبَضَ عَلَيْهِنَّ مَلَكٌ،فَجَعَلَهُنَّ تَحْتَ جَنَاحِهِ،ثُمَّ صَعِدَ بِهِنَّ،فَلَا يَمُرُّ عَلَى جَمْعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا اسْتَغْفَرُوا لِقَائِلِهِنَّ حَتَّى يَجِيءَ بِهِنَّ وَجْهَ الرَّحْمَنِ تَعَالَى "،ثُمَّ قَرَأَ:عَبْدُ اللهِ {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِـــمُ الطَّيِّبُ،وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر:١٠][1071]

ومن الأحكام المفصلة المبينة في شرع الله تعالى الطريقة الشرعية في اختيار الإمام العام وأهـــل الشورى.

ثم بين الله تعالى أن أحكامه كلها عدل،فقال تعالى:{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الأنعام:١١٥]،أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام،وكل ما خالف شرع الله تعالى فهو ظلم،ومن العدل الذي جاءت به الشريعة الإسلامية أن لا يسوى المسلم بالكافر،والصالح بالفاسق في الشهادة أو في اختيار الإمام وغيرها،وأمـــا الـــديمقراطيون الظالمون فيسوون بين الجميع في اختيار الحاكم.

ثم قال:{ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّـــا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:١١٦]،وهذا إبطال للانتخابات العامة،فإن أغلب الناس لـــو أطـــاعهم المؤمن لأضلوه عن سبيل الله،فكيف تجعل هذه الأغلبية الضالة المضلة عن سبيل الله المرجـــع في اختيار أولى الناس بالإمامة العامة.

قلت :(علي) مع تسليمنا بما قال الشيخ رحمه الله،ولكن كل ذلك لا يمنع الاستفادة من طريقة الانتخاب الديموقراطية،ولكن بعد تعديلها،بحيث توضع شروط عامة للمرشحين،وكذلك تهيـــأ البيئة الإسلامية النظيفة ...وعندها لا يمكن الحكم بأن الديموقراطية كلها رجس وكفر،وقـــد

[1070] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٤٦٦)(٣٠٦٤١) صحيح

[1071] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٣٣)(٩١٤٤) حسن

استفاد المسلمون من النظم والقوانين التفصيلية للفرس والروم بعد أن حذفوا منها ما يخـــالف الإسلام،وذلك أثناء الفتوحات الإسلامية ومنها تدوين الدواوبن وغيرها .

والمهم في الأمر إذا كان شرع الله تعالى هو الحاكم،والمرشحون وضعنا لهم الصـــفات الـــتي تؤهلهم لمجلس الشورى،فما المانع من إجراء انتخاب لهم ولاسيما إذا رشح أكثر مـــن العـــدد الذي نريد بكثير،والناس عندما تعي أمر دينها لا يستطيع أحد أن يخدعها أو يغشها ولاســـيما أن هذه الأشياء محرمة شرعاً،فلا يمكن السماح بالديموقراطية بعجرها وبجرها ....فمن يقـــول بالديموقراطية دون قيد أو شرط لا شك أنه على جرف هار ....والله أعلم ."

الرياسة والإمامة عقد كسائر العقود:

لا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن فقهاء الإسلام، ومتكلميه، قد قرروا أن الإمامة عقد كسائر العقود التي تتم بين الطرفين، والأمة هنا هي الطرف الأول، والرئيس أو الإمام هو الطرف الثاني، فالإمامة عقد حقيقي مبني على الرضا، قائم بين الأمة والإمام، يجب بمقتضاه على الطرف الثاني، وهو الإمام أو الرئيس، السير بحكمهم على وفق أحكام شريعة الإسلام، ويجب على الطرف الأول، وهو الأمة، بذل الطاعة والانقياد له فيما لا يخالف أوامر الشرع ونواهيه.

وإذا كان مفكرو الإسلام قد بينوا أن العلاقة بين الحاكم والمحكومين مبنية على عقد بينهم وبينه، فإنهم بذلك يكونون قد سبقوا الفكر الغربي في البحوث القانونية السياسية؛ إذ إن (جان جاك روسو) الذي يعتبر في نظر أوروبا أبًا لديمقراطية الحديثة بكتابه (العقد الاجتماعي) الذي كان بمثابة الإنجيل لدى زعماء الثورة الفرنسية، والذي ضمنه نظريته القائلة:إن الحاكم يتولى سلطاته من الأمة نائبًا عنها، بناءً على تعاقد حرر بنيهما، إذ إن (روسو) هذا قد سبقته النظرية الإسلامية بقرون عديدة، وإذا كان المفكرون الإسلاميون قد سبقوه، وسبقوا غيره، وتكلموا عن العقد بين الحاكم والمحكوم، فإنهم بذلك يكونون هم الرواد في هذا الميدان الفكري الهام، وبخاصة وأن العقد الذي يتكلم عنه (روسو) عقد تخيل حدوثه في العصور الساحقة، ولم يقم من الشواهد التاريخية ما يمكن أن يكون برهانًا حقيقيًّا عليه، بخلاف العقد الذي تكلم عنه

مفكرو الإسلام، فإنه عقد حقيقي ثابت، من يوم أن وُجد نظام الخلافة، وكانت بيعة الأمة صورة لتحقيقه.

ومن ناحية أخرى فإن النظرية الإسلامية ليس فيها أفراد تنازلوا عن شيء من حرياتهم وسلطاتهم، وإنما لدينا أمة مكلفة وكلت عنها بعض أفرادها لرعاية صوالحها، وليس في الوكالة تمليك، ولا مظنة تمليك، والبيعة عقد يقيد الحاكم بدستور خاص، ويحدد له حدود مهمته، فإذا التزم شروط العقد فله حق الطاعة على المحكومين، فإذا جاوز ما عين له وخرج على الشرط انعزل من الوكالة، وخرج من العهدة بنفسه، أو بعزل الشعب الذي ولاه.[١٠٧٢]

حكم إمامة المفضول مع وجود الأفضل

نحب أن نبين في البدء أن الجميع قد اتفقوا على أن الإمامة العظمى إذا عقدت لشخص، ثم ظهر من هو أفضل منه، فلا يعدل عن الإمام إلى الأفضل، والعلة في ذلك ظاهرة؛ إذ إن ظهور الأفضل محتمل في كل آن، فلو جُوِّز العدول إلى الأفضل، لأدى ذلك إلى حال من عدم استقرار الحكم في الدولة، المؤدي إلى الفوضى، التي لا يرضى عنها الشارع الحكيم، وكذلك لا خلاف بين العلماء في جواز تولية المفضول إذا كانت كلمة الأمة قد اتفقت عليه، ولم ترض بغيره بديلًا، أو كان هناك عذر يمنع تولية الأفضل، كغيبته، أو مرضه، أو كان المفضول أطوع في الناس، وأقرب إلى قلوب الشعب.

واختلف العلماء في حال وجود شخصين توافرت في كل منها الشروط المطلوبة في الإمامة العظمى، إلا أن أحدهما أفضل من الآخر، ولم يحظ المفضول باتفاق الأمة على اختياره، ولم يوجد من الأعذار ما يبرر العدول عن الأفضل إلى المفضول، هل يجوز في هذه الحالة عقد الإمامة له، أي للمفضول حينئذ أم لا يجوز ذلك، ويجب عقد الإمامة للأفضل؟

وقبل أن نذكر الآراء في ذلك، وما استندت إليه هذه الآراء، نرى أن نبين بعض الوجوه التي يمكن أن يفاضل بين اثنين على أساس وجودها، أو عدمها.

[١٠٧٢] – السياسة الشرعية – جامعة المدينة (ص: ٥٣٠)

من ذلك مثلًا:أن يشترك أكثر من واحد في الصفات المطلوبة في الإمامة، إلا أن صفة من هذه الصفات المطلوبة كالعلم، أو الشجاعة –مثلًا– تظهر واضحة في أحدهم، ويتفوق على غيره فيها، فهل يجوز حينئذ ترك الأفضل في هذه الصفة، وتولية المفضول، أم لا يجوز ذلك؟ وهذا ما سنوضحه بالنسبة لآراء العلماء.[١٠٧٣]

هناك رأيان في هذا الموضوع

الأول — وجوب تولية الأفضل،والثاني جواز ولاية المفضول مع وجود الفاضل

أدلة القائلين بوجوب تولية الأفضل دون المفضول :

استدلوا على ما ذهبوا إليه بعدة أدلة أهمها :

(١) قَالَ– ﷺ –:"أَيُّمَا رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى عَشَرَةِ أَنْفُسٍ علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فَقَدْ غَشَّ اللَّهَ وَغَشَّ رَسُولَهُ وَغَشَّ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ،وَيُؤْتَى بِالَّذِي ضَرَبَ فَوْقَ الْحَدِّ فَيَقُولُ:عبدي، لم ضَرَبْتَ فَوْقَ مَا أَمَرْتُكَ؟ فَيَقُولُ:غَضِبْتُ لَكَ.فَيَقُولُ:أَكَانَ لِغَضَبِكَ أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِي؟ وَيُؤْتَى بِالَّذِي قَصَّرَ فَيَقُولُ:عَبْدِي،لِمَ قصرت؟ فيقول:رحمته.فيقول:أكانت لِرَحْمَتِكَ أَنْ تَكُونَ أَشَدَّ مِنْ رَحْمَتِي؟ فَيُؤْمَرُ بِهَا جَمِيعًا إِلَى النَّارِ" [١٠٧٤].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وخانَ رَسُولَهُ وخانَ الْمُؤْمِنِينَ»[١٠٧٥]

فهذا في الجماعة الصغيرة فأولى اشتراطه في الجماعة الكبيرة .

(٢) عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:لِيَعْلَمْ مَنْ وَلِيَ هَذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِي أَنْ سَيُرِيدُهُ عَنْهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ.إِنِّي لأُقَاتِلُ النَّاسَ عَنْ نَفْسِي قِتَالا.وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَقْوَى عَلَيْهِ مِنِّي لَكُنْتُ أُقَدَّمُ فَتُضْرَبُ عُنُقِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلِيَه.[١٠٧٦]

(٣) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:إِنِّي لأَتَحَرَّجُ أَنْ أَسْتَعْمِلَ الرَّجُلَ وَأَنَا أَجِدُ أَقْوَى مِنْهُ.[١٠٧٧]

[١٠٧٣] – السياسة الشرعية – جامعة المدينة (ص: ٥١٩) فما بعد والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ٩٩)

[١٠٧٤] –إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٤/ ٢٦١)(٣٥٢٥) والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (١٠/ ١٠٠)(٢١٥٥) وجامع المسانيد والسنن (٢/ ٣٩٠)(٢٢٤٧) فيه ضعف

[١٠٧٥] –المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٠٤)(٧٠٢٣) حسن لغيره

[١٠٧٦] –الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٠٨) فيه انقطاع

وإذا كان هذا في الإمارة ففي الإمامة من باب أولى .
(٤) ومن الأدلة على ذلك أيضًا أن الصحابة قد عقدوا الإمامة للأفضل فالأفضل،فالخلفاء الأربعة مرتبون على حسب الأفضلية،أفضلهم أولهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي،وقد احتج بهذا أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى:أما الرافضة فلا يسلمون بذلك،بل يدعون أن الأفضل هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه"[١٠٧٨] .
(٥) ومن الأدلة أيضًا أن الأفضل من كان أقرب إلى انقياد الجماهير له واجتماع الآراء على متابعته .
(٦) واستدلوا أيضًا على ذلك بأن العقل يقضي بقبح تقديم المفضول على الأفضل في إقامة أحكام الشريعة وحفظ حوزة الملة،وهذا الدليل قد احتجت به الشيعة،وضرب الإيجي لذلك مثالاً فقال :(فإن من ألزم الشافعي – رحمه الله – حضور درس آحاد العلماء والعمل بفتواه عد سفيهًا قاضيًا بغير قضية العقل)[١٠٧٩] .

القائلون بجواز إمامة المفضول :

ذهب أكثر أهل السنة والجماعة وأكثر المعتزلة وأكثر الخوارج ومن الشيعة :زيد بن علي رضي الله عنه،والبترية من الزيدية،إلى جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل،وأن مدار ذلك راجع إلى مصلحة المسلمين فإن كانت المصلحة تقتضي تقديم المفضول قدم،وإن كانت تقتضي تقديم الفاضل قدم،ولأنه رب مفضول في علمه وعمله هو بالزعامة أعرف وبشرائطها أقوم [١٠٨٠] .
وقال ابن حزم:" وَمَا نعلم لمن قَالَ أَن الإِمَام لَا تجوز إِلَّا لأَفْضَل من يُوجد حجَّة أصلا لَا من قُرْآن وَلَا من سنة وَلَا من إِجْمَاع وَلَا من صِحَة عقل وَلَا من قِيَاس وَلَا قَول صَاحب وَمَا كَانَ هَكَذَا فَهُوَ أَحَق قَول بالاطراح وَقد قَالَ أَبُو بكر رَضِي الله عَنهُ يَوْم السَّقِيفَة قد رضيت لكم أحدا هذَيْن الرجلَيْن يَعْنِي أَبَا عُبَيْدَة وَعمر وَأَبُو بكر أفضل مِنْهُمَا بِلَا شكّ فَمَا قَالَ أحد من الْمُسلمين أَنه قَالَ من ذَلِك بِمَا لَا يحل فِي الدّين ودعت الْأَنْصَار إِلَى بيعَة سعد بن عبَادَة وَفِي

[١٠٧٧] –الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٣٢)فيه الواقدي
[١٠٧٨] – أصول الدين للبغدادي (ص ٢٩٣) .
[١٠٧٩] – المواقف للإيجي (ص ٤١٣) .
[١٠٨٠] –المواقف (ص٤١٣) ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٧١/١) .

الْمُسلمين عدد كثير كلهم أفضل مِنْهُ بِلَا شكّ فصح بِمَا ذكرنَا إِجْمَاع جَمِيع الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم على جَوَاز إِمَامَة الْمَفْضُول ثمَّ عبدهم عمر رَضِي الله عَنهُ إِلَى سِتَّة رجال وَلَا بُد أَن لبَعْضهِم على بعض فضلا وَقد أجمع أهل الْإِسْلَام حِينَئِذٍ على أَنه إِن بُويِعَ أحدهم فَهُوَ الإِمَام الْوَاجِبَة طَاعَته وَفِي هَذَا إطباق مِنْهُم على جَوَاز إِمَامَة الْمَفْضُول ثمَّ مَاتَ عَليّ رَضِي الله عَنهُ فَهُوَ فبويع الْحسن ثمَّ سلم الْأَمر إِلَى معوية وَفِي بقايا الصَّحَابَة من هُوَ أفضل مِنْهُمَا بِلَا خلاف مِمَّن أنْفق قبل الْفَتْح وَقَاتل فكلهم أَوَّلهمْ عَن آخِرهم بَايع مُعَاوِيَة وَرَأى إِمَامَته وَهَذَا إِجْمَاع مُتَيَقن بعد إِجْمَاع على جَوَاز إِمَامَة من غَيره أفضل بِيَقِين لَا شكّ فِيهِ إِلَى أَن حدث من لَا وزن لَهُ عِنْد الله تَعَالَى فخرقوا الْإِجْمَاع بآرائهم الْفَاسِدَة بِلَا دَلِيل ونعوذ بِاللَّه من الخذلان"[1081]

وسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:عَنْ الرَّجُلَيْنِ يَكُونَانِ أَمِيرَيْنِ فِي الْغَزْوِ،وَأَحَدُهُمَا قَوِيٌّ فَاجِرٌ وَالْآخَرُ صَالِحٌ ضَعِيفٌ،مَعَ أَيِّهِمَا يَغْزُو؟ فَقَالَ:أَمَّا الْفَاجِرُ الْقَوِيُّ،فَقُوَّتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ،وَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ،وَأَمَّا الصَّالِحُ الضَّعِيفُ فَصَلَاحُهُ لِنَفْسِهِ،وَضَعْفُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَيُغْزِي مَعَ الْقَوِيِّ الْفَاجِرِ.[1082]

أدلتهم على جواز إمامة المفضول:

استدلوا على ما ذهبوا إليه بالأدلة التالية :

(١) فعل النبي – ﷺ – في أمرائه ورؤساء أجناده،فلم يكن يختار أفضلهم فيوليه الإمارة،بل ولى الإمارة أناسًا فيهم من هو أفضل منهم،فاستعمل على أعمال اليمن معاذ بن جبل،وأبا موسى الأشعري،وخالد بن الوليد .وعلى عمان عمرو بن العاص .وعلى نجران أبا سفيان .وعلى مكة عتاب بن أسيد .وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص .وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي،وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .ولا خلاف في أن :أبا بكر،وعمر،وعثمان،وعلي،وطلحة،والزبير،وعبد الرحمن بن عوف،وسعد بن أبي وقاص،وسعيد بن زيد،وعمار بن ياسر،وأبا عبيدة،وابن مسعود،وأبا ذر رضي الله عنهم أجمعين أفضل ممن ذكر .قال ابن حزم :"وَأَيْضًا فإننا وجدنَا النَّاس يتباينون فِي الْفَضَائِل فَيكون الْوَاحِد أزهد وَيكون الْوَاحِد أورع وَيكون الآخر أسوس وَيكون الرَّابِع أَشْجَع وَيكون الْخَامِس أعلم وَقد

[1081] – الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٢٦)

[1082] – السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص: ٢٠) وحسن السلوك الحافظ دولة الملوك (ص:٩٦)

يكونُونَ متقاربين فِي التَّفَاضُل لَا يبين التَّفَاوُت بَينهم فَبَطل معرفَة الْأَفْضَل وَصَحَّ أَن هَذَا القَوْل فَاسد وتكليف مَا لَا يُطَاق وإلزام مَا لَا يُسْتَطَاع وَهَذَا بَاطِل لَا يحل وَالْحَمْد لله رب الْعَالمين ثمَّ قد وجدنَا رَسُول الله ﷺ قد قلد النواحي وَصرف تَنْفِيذ جَمِيع الْأَحْكَام الَّتِي تنفذها الْأَئِمَّة إِلَى قوم كَانَ غَيرهم بِلَا شكّ أفضل مِنْهُم فَاسْتعْمل على أَعمال الْيمن معَاذ بن جبل وَأَبا مُوسَى وخَالِد بن الْوَلِيد وَعلي عمان عَمْرو بن الْعَاصِ وعَلى نَجْرَان أَبَا سُفْيَان وعَلى مَكَّة عتاب ابْن أسيد وعَلى الطَّائِف عُثْمَان بن أبي الْعَاصِ وعَلى الْبَحْرين الْعَلَاء بن الْحَضْرَمِيّ وَلَا خلاف فِي أَن أَبَا بكر وَعَمْرو وَعُثْمَان وَعلي وَطَلْحَة وَالزُّبَيْر بن عمار بن يَاسر وَسعد بن أبي وَقاص وَعبد الرَّحْمَن بن عَوْف وَأَبا عُبَيْدَة وَابْن مَسْعُود وبلال وَأَبا ذَر أفضل مِمَّن ذكرنَا فصح يَقِينا أَن الصِّفَات الَّتِي يسْتَحق بهَا الْإِمَامَة والخلافة لَيْسَ مِنْهَا التَّقَدُّم فِي الْفضل وَأَيْضًا فَإِن الْفَضَائِل كَثِيرَة جدا مِنْهَا الْوَرع والزهد وَالْعلم والشجاعة والسخاء والحلم والعفة وَالصَّبْر والصرامة وَغير ذَلِك وَلَا يُوجد أحد يبين فِي جَمِيعهَا بل يكون بَائِنا فِي بَعْضهَا ومتأخراً فِي بَعْضهَا فَفِي أَيهَا يُرَاعِي الْفضل من لَا يُجِيز إِمَامَة الْمَفْضُول فَإِن اقْتصر على بَعْضهَا كَانَ مُدعيًا بِلَا دَلِيل وَإِن عَم جَمِيعهَا كلف من لَا سَبِيل إِلَى وجوده أبدا فِي أحد بعد رَسُول الله ﷺ فَإِذْ لَا شكّ فِي ذَلِك فقد صَحَّ القَوْل فِي إِمَامَة الْمَفْضُول وَبَطل قَول من قَالَ غير ذَلِك وَبِاللَّه تَعَالَى التَّوْفِيق"[1083]

قال ابن القيم:" وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَدْيَهُ – ﷺ – تَوْلِيَةُ الْأَنْفَعِ لِلْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَفْضَلَ مِنْهُ"[1084]

وعلى هذا سار خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم في توليتهم الأمراء فهم لا يشترطون الأفضل،قال ابن حجر عن عمر رضي الله عنه :(والَّذي يَظهَر من سيرَة عُمَر في أُمَرائه الَّذينَ كانَ يُؤَمِّرهُم فِي البِلاد،أَنَّهُ كانَ لا يُراعِي الأَفضَل فِي الدِّين فَقَط بَل يُضَمّ إِلَيه مَزِيد المَعرِفَة بِالسِّياسَةِ مَعَ اجتِناب ما يُخالِف الشَّرع مِنها،فَلأَجلِ هَذا استَخلَفَ مُعاوِيَة والمُغِيرَة بن شُعبَة

[1083] – الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٢٨)

[1084] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٨٣).

وعَمرو بن العاصِ مَعَ وُجُود مَن هُو أَفضَل مِن كُلّ مِنهُم فِي أَمر الدِّين والعِلم،كَأَبِي الدَّرداء فِي الشّام وابن مَسعُود فِي الكُوفَة.)[١٠٨٥]

فهذا وإن كان في الإمارة الصغرى فإنه يقاس عليه الإمامة الكبرى فلا تشترط الأفضلية،بل قد روي عنه رضي الله عنه قوله "إِنِّي لأَتَحَرَّجُ أَنْ أَسْتَعْمِلَ الرَّجُلَ وَأَنَا أَجِدُ أَقْوَى مِنْهُ.[١٠٨٦]

(٢) قول أبي بكر رضي الله عنه يوم السقيفة :فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كُنْتُ أُقْرِئُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ،فَلَمَّا كَانَ فِي آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّهَا وَنَحْنُ بِمِنًى،أَتَانِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ مَنْزِلِي عِشَاءً فَقَالَ:لَوْ شَهِدْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ،وَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ فُلَانًا يَقُولُ:لَوْ قَدْ مَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ،لَقَدْ بَايَعْتُ فُلَانًا،فَقَالَ عُمَرُ:إِنِّي لَقَائِمٌ الْعَشِيَّةَ فِي النَّاسِ فَمُحَذِّرُهُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْتَصِبُوا الْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ،قَالَ:فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّ الْمَوْسِمَ مَجْمَعُ رِعَاعِ النَّاسِ وَغَوْغَائِهِمْ،وَإِنَّهُمُ الَّذِينَ يَغْلِبُونَ عَلَى مَجْلِسِكَ،وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ قُلْتَ الْيَوْمَ مَقَالَةً أَنْ يُطَيِّرُوا بِهَا كُلُّ مُطَيِّرٍ،وَلَا يَعُوهَا،وَلَا يَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا،وَلَكِنْ أَمْهِلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى تَقْدُمَ الْمَدِينَةَ فَإِنَّهَا دَارُ الْهِجْرَةِ وَالسُّنَّةِ،وَتَخْلُصَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،فَتَقُولَ مَا قُلْتَ مُتَمَكِّنًا،فَيَعُوا مَقَالَتَكَ،وَيَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا.فَقَالَ عُمَرُ:أَمَا وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَأَقُومَنَّ بِهَا فِي أَوَّلِ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ ، قَالَ:فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَاءَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ،هَجَّرْتُ لَمَّا حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ،فَوَجَدْتُ سَعِيدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهْجِيرِ جَالِسًا إِلَى جَنْبِ الْمِنْبَرِ،فَجَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ تَمَسُّ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ،فَلَمَّا زَالَتِ الشَّمْسُ خَرَجَ عَلَيْنَا عُمَرُ،قَالَ:فَقُلْتُ وَهُوَ مُقْبِلٌ:أَمَا وَاللَّهِ لَيَقُولَنَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى هَذَا الْمِنْبَرِ الْيَوْمَ مَقَالَةً لَمْ تُقَلْ قَبْلَهُ،قَالَ:فَغَضِبَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فَقَالَ:وَأَيُّ مَقَالَةٍ يَقُولُ لَمْ يُقَلْ قَبْلَهُ؟ قَالَ فَلَمَّا جَاءَ عُمَرُ الْمِنْبَرَ أَخَذَ الْمُؤَذِّنُ فِي أَذَانِهِ،فَلَمَّا فَرَغَ الْمُؤَذِّنُ مِنْ أَذَانِهِ قَامَ عُمَرُ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا،لَا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي،فَمَنْ وَعَاهَا وَعَقَلَهَا وَحَفِظَهَا،فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ تَنْتَهِي رَاحِلَتُهُ،وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لَا يَعِيَهَا فَإِنِّي لَا أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ ، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا

[١٠٨٥] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٩٨)

[١٠٨٦] - مر تخريجه

بِالْحَقِّ،وَأَنْزَلَ مَعَهُ الْكِتَابَ،فَكَانَ فِيمَا أَنْزَلَ آيَةُ الرَّجْمِ،فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، وَإِنِّي خَائِفٌ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ،فَيَقُولَ قَائِلٌ:وَاللَّهِ مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ ، أَلَا وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ،وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَمْلُ وَالِاعْتِرَافُ،ثُمَّ قَدْ كُنَّا نَقْرَأُ:لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ،ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ،فَقُولُوا:عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ "،ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ:لَوْ قَدْ مَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَايَعْتُ فُلَانًا،فَلَا يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ:إِنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً،وَقَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَقَى شَرَّهَا،وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقُ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَ خَيْرَنَا حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.إِنَّ عَلِيًّا،وَالزُّبَيْرَ،وَمَنْ مَعَهُمَا تَخَلَّفُوا عَنَّا فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ،وَتَخَلَّفَتْ عَنَّا الْأَنْصَارُ بِأَسْرِهَا فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ،وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ،فَقُلْتُ:يَا أَبَا بَكْرٍ انْطَلِقْ [ص:١٣٦٢] بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا مِنَ الْأَنْصَارِ،فَانْطَلَقْنَا نَؤُمُّهُمْ،فَلَقِينَا رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فَقَالَا:أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقُلْنَا:نُرِيدُ إِخْوَانَنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَا:فَارْجِعُوا،فَاقْضُوا أَمْرَكُمْ بَيْنَكُمْ ، فَقُلْتُ:وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ فَأَتَيْنَاهُمْ،فَإِذَا هُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ رَجُلٌ مُزَمَّلٌ،فَقُلْتُ:مَنْ هَذَا؟ قَالُوا:سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ،قُلْتُ:وَشَأْنُهُ؟ قَالُوا:هُوَ وَجِعٌ.قَالَ:فَقَامَ خَطِيبُ الْأَنْصَارِ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَنَحْنُ الْأَنْصَارُ،وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ،وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ قُرَيْشٍ رَهْطٌ مِنَّا،وَقَدْ دَفَّتْ إِلَيْنَا مِنْكُمْ دَافَّةٌ،فَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلِنَا،وَيَحْضُنُونَا مِنَ الْأَمْرِ،وَقَدْ زَوَّرْتُ فِي نَفْسِي مَقَالَةً،وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ بِهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ،وَكُنْتُ أُدَارِي مِنْ أَبِي بَكْرٍ بَعْضَ الْحِدَّةِ،وَكَانَ أَوْقَرَ مِنِّي وَأَحْلَمَ فَلَمَّا أَرَدْتُ الْكَلَامَ قَالَ:عَلَى رِسْلِكَ،فَكَرِهْتُ أَنْ أَعْصِيَهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:وَاللَّهِ مَا تَرَكَ كَلِمَةً كُنْتُ زَوَّرْتُهَا إِلَّا جَاءَ بِهَا أَوْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا فِي بَدِيهَتِهِ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَمَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ،فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ،وَلَمْ تَعْرِفِ الْعَرَبُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ،وَهُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا وَنَسَبًا،وَإِنِّي قَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ،فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ،وَأَخَذَ بِيَدِي،وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ قَالَ:فَوَاللَّهِ مَا كَرِهْتُ مِمَّا قَالَ شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ،كَانَ وَاللَّهِ أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي لَا يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ إِلَى إِثْمٍ أَحَبَّ إِلَيَّ

مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ،فَلَمَّا قَضَى أَبُو بَكْرٍ مَقَالَتَهُ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ،فَقَالَ:أَنَا جُزَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ،وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ،مِنَّا أَمِيرٌ،وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَإِلَّا أَحَلْنَا الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ جَذَعَةً.قَالَ:مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ:فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:إِنَّهُ لَا يَصْلُحُ سَيْفَانِ فِي غِمْدٍ وَاحِدٍ،وَلَكِنْ مِنَّا الْأُمَرَاءُ،وَمِنْكُمُ الْوُزَرَاءُ.قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ:فَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بَيْنَنَا،وَكَثُرَ اللَّغَطُ حَتَّى أَشْفَقْتُ الِاخْتِلَافَ،فَقُلْتُ:يَا أَبَا بَكْرٍ ابْسُطْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ.قَالَ:فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْتُهُ،وَبَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ،وَبَايَعَتْهُ الْأَنْصَارُ قَالَ:وَنَزَوْنَا عَلَى سَعْدٍ،حَتَّى قَالَ قَائِلٌ:قَتَلْتُمْ سَعْدًا قَالَ:قُلْتُ:قَتَلَ اللَّهُ سَعْدًا،وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا فِيمَا حَضَرْنَا مِنْ أَمْرِنَا أَمْرًا كَانَ أَقْوَى مِنْ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ خَشِينَا إِنْ فَارَقْنَا الْقَوْمَ أَنْ يُحْدِثُوا بِبَيْعَةٍ بَعْدَنَا،فَإِمَّا أَنْ نُبَايِعَهُمْ عَلَى مَا لَا نَرْضَى،وَإِمَّا أَنْ نُخَالِفَهُمْ،فَيَكُونَ فَسَادًا،فَلَا يَغُرَّنَّ امْرَأً أَنْ يَقُولَ:إِنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً،فَقَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ وَقَى شَرَّهَا،وَلَيْسَ فِيكُمْ مَنْ تُقْطَعُ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقُ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ،فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ لَا يُبَايَعُ لَهُ وَلَا هُوَ،وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ أَنَّ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ لَقِيَاهُمَا مِنَ الْأَنْصَارِ عُوَيْمِرُ بْنُ سَاعِدَةَ،وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ،وَالَّذِي قَالَ:أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ،وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ."[١٠٨٧]

ومن المعلوم أن أبا بكر أفضل من عمر،وعمر أفضل من أبي عبيدة،فدل على أبا بكر يرى إمامة المفضول مع وجود الأفضل .

(٣) عهد عمر رضي الله عنه إلى الستة،ولابد أن لبعضهم على بعض فضلاً،فدل ذلك على أن عمر قد أجاز أن يعقد لواحد منهم إذا اجتمعوا عليه،ورأوا – مصلحتهم في توليته،وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون الإمام أفضل الناس.[١٠٨٨]

(٤) إجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على إمامة معاوية رضي الله عنه بعد تسليم الحسن رضي الله عنه الأمر إليه،وسمي ذلك العام عام الجماعة،وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل،قال ابن حزم :(فكلهم أَوَّلهمْ عَن آخرهم بَايع مُعَاوِيَة وَرَأى إِمَامَته وَهَذَا إِجْمَاع مُتَيَقن بعد إِجْمَاع على جَوَاز إِمَامَة من غَيره أفضل بِيَقِين لَا

[١٠٨٧] – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧/ ١٣٦٢)(٢٤٣٦) صحيح

[١٠٨٨] – انظر الصواعق المحرقة (ص٩) .

شكّ فِيهِ إِلَى أَن حدث من لَا وزن لَهُ عِنْد الله تَعَالَى فخرقوا الْإِجْمَاع بآرائهم الْفَاسِدَة بِلَا دَلِيل ونعوذ بِاللَّه من الخذلان) .[1089]

(٥) ومن أدلتهم أيضًا أنه لا سبيل إلى معرفة الأفضل إلا بنص أو إجماع وهذه ممتنعة الآن فلا يدري أحد فضل إنسان على غيره ممن بعد الصحابة إلا بالظن والحكم بالظن لا يحل لقوله تعالى ذامًا لقوم {نْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } [الجاثية:٣٢]ونحوها من الآيات .[1090]

(٦) ومن الأدلة أيضًا أنه تكليف بما لا يطاق وإلزام بما لا يستطاع،وهذا باطل لا يحل،وذلك لأن قريشًا مفترقون في البلاد فمعرفة أسمائهم ممتنع فكيف معرفة أحوالهم فكيف معرفة أفضلهم ؟ وأيضًا فالناس متباينون في الفضائل فيكون الواحد أزهد،ويكون الآخر أورع،ويكون الثالث أعلم،وهكذا فكيف يبين التفاوت بينهم ؟ [1091] .

مناقشة الأدلة

وبعد هذا العرض والنظر في أدلة كل من الطرفين نرى رجحان أدلة المجيزين لما يأتي :

أما ما روي عن النبي – ﷺ – أنه قال :« أيما رجلاً استعمل رجلاً ...» إلخ الحديث،وكذلك حديث ابن عباس فهما حديثان ضعيفان لا تقوم بهما حجة .

ويمكن أن تحمل هذه الأحاديث وما شاكلها على من ترك الأفضل غشًا للمسلمين ومحاباة لأحد،أما من ولى المفضول لمصلحة المسلمين فهذا قد نصح لله ولرسوله وقام بما أوجبه الله عليه ...والله أعلم .

أما الحديث الثالث فإن صح فهو حجة لأصحاب الرأي الثاني،لأنه لم يشترط الأفضل بل الأصلح،وكذلك قولي عمر رضي الله عنه فإنه لم ينص على الأفضل بل قال الأقوى،أي :على سياسة الناس والقيام بأعباء هذا المنصب فلا حجة لهم فيها وإنما هما حجة للقائلين بالقول الثاني .

[1089] – الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٢٧)

[1090] – الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٢٨)

[1091] – الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٢٨)

أما استدلالهم بترتيب الخلافة للخلفاء الراشدين على حسب أفضليتهم فهذا صحيح ومسلم به،إلا أنه ليس فيه دلالة على منع تولية المفضول،بل هناك الشواهد من أقوالهم تدل على خلاف ذلك كما مر في ذكر أدلة الآخرين .

أما قولهم إن الأفضل أقرب إلى انقياد الجماهير له فهذا غير مسلم به،إذ ربما يكون المفضول أقدر على القيام بمصالح الإمامة،ونصبه أوقع لانتظام حال الرعية وأوثق في اندفاع الفتنة .

أما كون العقل يقبح تقديم المفضول على الأفضل فغير مسلم به،لأن الهدف من إقامة الخلافة هو تحقيق مقاصدها،فالأقدر على تحقيق هذه المقاصد هو الأولى بالتنصيب سواء كان هو الأفضل أم المفضول .

الرأي الراجح :

فالذي يترجح عندي هو :أن الأقدر على تحقيق أهداف الإمامة هو الأولى بالتنصيب سواء كان فاضلاً أو مفضولاً،لأنه إذا كان صالحًا في نفسه ضعيفًا في تدبير الأمور أثر هذا الضعف على جميع الأمة،أما إذا كان قويًا في سياسته وحسن تدبيره وعنده شيء من التقصير في الطاعة فإن هذا التقصير ترجع مضرته على نفسه دون الأمة،فهو أولى بالتقديم،فعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ:فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي،ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنَّكَ ضَعِيفٌ،وَإِنَّهَا أَمَانَةُ،وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا،وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[١٠٩٢]

هذا أبو ذر،قَالَ أَبُو ذَرٍّ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تُقِلُّ الْغَبْرَاءُ،وَلَا تُظِلُّ الْخَضْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ،وَأَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ شَبِيهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ»،قَالَ:فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ،أَفَنَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،فَاعْرِفُوا لَهُ".[١٠٩٣]

[١٠٩٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧)١٦ - (١٨٢٥)

[ش (إنك ضعيف وإنها أمانة) هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلا لها أو كان أهلا ولم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة]

[١٠٩٣] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٨٤)(٧١٣٥) صحيح

أما إذا اجتمع الفضل والصلاح في شخص واحد فهو الأولى بالتقديم بلا شك،وإنما يصار إلى الثاني لأجل المصلحة العامة وخوف وقوع الفتنة ،وهذا ما حدا بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن لا يولي رجلاً صالحًا بعده،كما قال مالك رحمه الله للعمري :(وَلَقَدْ أَتَى مَالِكًا الْعُمَرِيَّ فَقَالَ لَهُ:يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ،بَايَعَنِي أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ،وَأَنْتَ تَرَى سِيرَةَ أَبِي جَعْفَرٍ،فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ:أَتَدْرِي مَا الَّذِي مَنَعَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنْ يُوَلِّيَ رَجُلًا صَالِحًا؟ فَقَالَ الْعُمَرِيُّ:لَا أَدْرِي،قَالَ مَالِكٌ لَكِنِّي أَنَا أَدْرِي،إِنَّمَا كَانَتِ الْبَيْعَةُ لِيَزِيدَ بَعْدَهُ،فَخَافَ عُمَرُ إِنْ وَلَّى رَجُلًا صَالِحًا أَنْ لَا يَكُونَ لِيَزِيدَ بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ،فَتَقُومُ هَجْمَةٌ فَيَفْسَدُ مَا لَا يُصْلَحُ،فَصَدَرَ رَأْيُ هَذَا الْعُمَرِيِّ عَلَى رَأْيِ مَالِكٍ.)[١٠٩٤]

قال الشاطبي تعليقًا على هذه الرواية :(فَظَاهِرُ هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّهُ إِذَا خِيفَ عِنْدَ خَلْعِ غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ وَإِقَامَةِ الْمُسْتَحِقِّ أَنْ تَقَعَ فِتْنَةٌ وَمَا لَا يَصْلُحُ؛ فَالْمَصْلَحَةُ التَّرْكُ.) .[١٠٩٥]

علمًا بأن الصلاح هذا يختلف من ولاية أخرى،فينبغي أن يجعل في كل ولاية الأصلح لها،فإن الولاية لها ركنان كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وهما :(القوة،والأمانة ...)،أخذًا من الآية الكريمة :؟ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ؟ قال :(وَالْقُوَّةُ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ بِحَسَبِهَا،فَالْقُوَّةُ فِي إمَارَةِ الْحَرْبِ تَرْجِعُ إلَى شَجَاعَةِ الْقَلْبِ،وَإِلَى الْخِبْرَةِ بِالْحُرُوبِ،وَالْمُخَادَعَةِ فِيهَا،فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ ،وَإِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى أَنْوَاعِ الْقِتَالِ:مِنْ رَمْيٍ وَطَعْنٍ وَضَرْبٍ،وَرُكُوبٍ وَكَرٍّ وَفَرٍّ،وَنَحْوِ ذَلِكَ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠]...

وَالْقُوَّةُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ،تَرْجِعُ إلَى الْعَدْلِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ،وَإِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى تَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ.

وَالْأَمَانَةُ تَرْجِعُ إلَى خَشْيَةِ اللَّهِ،وَأَلَّا يَشْتَرِيَ بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا،وَتَرْكِ خَشْيَةِ النَّاسِ،وَهَذِهِ الْخِصَالُ الثَّلَاثُ الَّتِي اتَّخَذَهَا اللَّهُ عَلَى كُلِّ حَكَمٍ عَلَى النَّاسِ،فِي قوله تعالى:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا

[١٠٩٤] – الاعتصام للشاطبي ت الهلالي (٢/ ٦٢٦)

[١٠٩٥] – الاعتصام للشاطبي ت الهلالي (٢/ ٦٢٧)

مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ} [المائدة:٣]،{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤]."[١٠٩٦]

قال :" فَالْوَاجِبُ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ،الْأَصْلَحُ بِحَسَبِهَا.فَإِذَا تَعَيَّنَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ أَمَانَةً،وَالْآخَرُ أَعْظَمُ قُوَّةً،قُدِّمَ أَنْفَعُهُمَا لِتِلْكَ الْوِلَايَةِ:وَأَقَلُّهُمَا ضَرَرًا فِيهَا،فَيُقَدَّمُ فِي إمَارَةِ الْحَرْبِ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الشُّجَاعُ،وَإِنْ كَانَ فِيهِ فُجُورٌ فِيهَا،عَلَى الرَّجُلِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ،وَإِنْ كَانَ أَمِينًا،كَمَا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:عَنْ الرَّجُلَيْنِ يَكُونَانِ أَمِيرَيْنِ فِي الْغَزْوِ،وَأَحَدُهُمَا قَوِيٌّ فَاجِرٌ وَالْآخَرُ صَالِحٌ ضَعِيفٌ،مَعَ أَيِّهِمَا يَغْزُو؟ فَقَالَ:أَمَّا الْفَاجِرُ الْقَوِيُّ،فَقُوَّتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ،وَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ،وَأَمَّا الصَّالِحُ الضَّعِيفُ فَصَلَاحُهُ،لِنَفْسِهِ،وَضَعْفُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَيُغْزِي مَعَ الْقَوِيِّ الْفَاجِرِ".[١٠٩٧]

وقد سبق كلام الماوردي وأبي يعلي في أنه يراعى ما يقتضيه العصر (فَإِنْ كَانَتْ الْحَاجَةُ إلَى فَضْلِ الشَّجَاعَةِ أَدْعَى لِانْتِشَارِ الثُّغُورِ وَظُهُورِ الْبُغَاةِ كَانَ الْأَشْجَعُ أَحَقَّ،وَإِنْ كَانَتِ الْحَاجَةُ إلَى فَضْلِ الْعِلْمِ أَدْعَى لِسُكُونِ الدَّهْمَاءِ وَظُهُورِ أَهْلِ الْبِدَعِ كَانَ الْأَعْلَمُ أَحَقَّ)[١٠٩٨]

وهذا هو مذهب أهل السنة كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية فقال:(وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا،وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا،بِحَسْبِ الْإِمْكَانِ.وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَقُولُونَ:يَنْبَغِي أَنْ يُوَلَّى الْأَصْلَحُ لِلْوِلَايَةِ إِذَا أَمْكَنَ:[إِمَّا] وُجُوبًا عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ،وَإِمَّا اسْتِحْبَابًا عِنْدَ بَعْضِهِمْ،وَأَنَّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْأَصْلَحِ مَعَ قُدْرَتِهِ - لِهَوَاهُ - فَهُوَ ظَالِمٌ،وَمَنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ تَوْلِيَةِ الْأَصْلَحِ مَعَ مَحَبَّتِهِ لِذَلِكَ فَهُوَ مَعْذُورٌ.).[١٠٩٩]

أسباب العدول عن الأفضل إلى المفضول :

أما القاضي عبد الجبار من المعتزلة فقد حدد أسبابًا معينة تقتضي في رأيه جواز العدول عن إمامة الفاضل إلى المفضول إذا وجد أحد هذه الأسباب وهي :

١- أن يكون في الأفضل علة تخرجه من أن يصح كونه إمامًا،نحو أن تكون بعض الشرائط التي يحتاج إليها الإمام مفقودة،كالعلم وكالمعرفة بالسياسة .

[١٠٩٦] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص: ١٨)

[١٠٩٧] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص: ٢٠)

[١٠٩٨] - الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ٢٦) والأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٤)

[١٠٩٩] - منهاج السنة النبوية (١/ ٥٥١)

٢- أن يكون الأفضل من غير قريش فيقدم المفضول من قريش عليه لثبوت السمع الدال على أن الإمامة في قريش .

٣- أن يقترن إلى حال المفضول ما يجعله بالتقديم أحق وإن كان الأول سليم الحال،وذلك بحق شهرة فضله وصلاحه عند الخاص والعام دون الأفضل فيكون بالتقديم أولى،لأن النفوس إليه أسكن،ولأن الفضل المطلوب في الإمامة إنما يراد لما يعود على الكافة من المصلحة .

٤- كذلك القول في من يعرف أن انقياد الناس له أكثر واستقامتهم إليه أتم وشكواهم إليه أعظم،فهو بالتقديم أحق ممن هو أفضل منه إذا لم يكن هذا حاله .

٥- إذا كان في حال العقد عارض يقتضي تقديم المفضول،نحو أن يكون المفضول في البلد الذي مات فيه الإمام ومست الحاجة إلى نصب آخر ،وإن أخر نصب المفضول أدى إلى فتنة أو ما شاكلها،أو أن يكون الفاضل غائبًا أو مريضًا أو نحو ذلك .[١١٠٠]

أما إذا لم يوجد هناك أي سبب يؤدي إلى تقديم المفضول على الفاضل فالأولى تقديم الأفضل لأنه الأصلح قطعًا،وإذا بايع أهل الحل والعقد المفضول و لم لكن هناك أي سبب فالإمامة له منعقدة وطاعته واجبة .

وبهذا ننتهي إلى أن الأفضلة ليست شرطًا في الإمامة،ولا يجب أن يكون أفضل أهل زمانه ...والله أعلم .[١١٠١]

وبعد فإننا نرى بعد استعراض أدلة كل من الفريقين، أنه يجب أن يصار إلى القول بأنه يجب تقديم الأفضل، وإذا كنا نقول بوجوب تقديم الأفضل فإننا نقول:إنه إذا لم يتم ذلك وقدم المفضول فبايعه أهل الحل والعقد، وهم الذين يمثلون الأمة، فإن الإمامة حينئذ منعقدة له، ولا نقول بعدم انعقادها؛ لئلا يؤدي ذلك إلى وقوع الفتن، وإلى وقوع الفساد.[١١٠٢]

وظائف أهل الحل والعقد :

[١١٠٠] - المغني في أبواب التوحيد والعدل ح (٢٠) قسم أول (ص٢٢٧ ، ٢٢٨) (باختصار) .

[١١٠١] - الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ٩٩) فما بعدها

[١١٠٢] - السياسة الشرعية - جامعة المدينة (ص: ٥١٩) فما بعد والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ٩٩)

بعد أن عرفنا أهل الحل والعقد وشروطهم نود أن نستعرض بإيجاز أهم الوظائف المناطة بعاتق هذه الفئة من الناس وهي :

١- اختيار الخليفة وعقد البيعة له :

وهو موضوع الفصل،وقد سبق أن بينا أنهم أول من يأثم عند تأخيرهم لاختيار إمام المسلمين ومبايعتهم له وأنه منوط بهم،يقول الماوردي :(فَإِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ لِلِاخْتِيَارِ تَصَفَّحُوا أَحْوَالَ أَهْلِ الْإِمَامَةِ الْمَوْجُودَةِ فِيهِمْ شُرُوطُهَا،فَقَدَّمُوا لِلْبَيْعَةِ مِنْهُمْ أَكْثَرَهُمْ فَضْلًا وَأَكْمَلَهُمْ شُرُوطًا،وَمَنْ يُسْرِعُ النَّاسُ إلَى طَاعَتِهِ،وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَنْ بَيْعَتِهِ،فَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ مَنْ أَدَّاهُمْ الِاجْتِهَادُ إلَى اخْتِيَارِهِ عَرَضُوهَا عَلَيْهِ،فَإِنْ أَجَابَ إلَيْهَا بَايَعُوهُ عَلَيْهَا،وَانْعَقَدَتْ بِبَيْعَتِهِمْ لَهُ الْإِمَامَةُ١،فَلَزِمَ كَافَّةَ الْأُمَّةِ الدُّخُولُ فِي بَيْعَتِهِ وَالِانْقِيَادُ لِطَاعَتِهِ،وَإِنِ امْتَنَعَ مِنَ الْإِمَامَةِ وَلَمْ يُجِبْ إلَيْهَا لَمْ يُجْبَرْ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا عَقْدُ مُرَاضَاةٍ وَاخْتِيَارٍ لَا يَدْخُلُهُ إكْرَاهٌ وَلَا إجْبَارٌ،وَعُدِلَ عَنْهُ إلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ مُسْتَحِقِّيهَا.).[١١٠٣]

٢- التمييز بين المتقدمين للإمامة :

كما أن من المهام المنوطة بهذه الفئة هو التمييز بين الذين يتقدمون للإمامة وتتوفر فيهم شروطها،فإذا تكافأ في شروطها اثنان قُدِّم أسنهما قال الماوردي :(فَلَوْ تَكَافَأَ فِي شُرُوطِ الْإِمَامَةِ اثْنَانِ قُدِّمَ لَهَا اخْتِيَارًا أَسَنُّهُمَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ زِيَادَةُ السِّنِّ مَعَ كَمَالِ الْبُلُوغِ شَرْطًا،فَإِنْ بُويِعَ أَصْغَرُهُمَا سِنًّا جَازَ،وَلَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَعْلَمَ وَالْآخَرُ أَشْجَعَ رُوعِيَ فِي الِاخْتِيَارِ مَا يُوجِبُهُ حُكْمُ الْوَقْتِ،فَإِنْ كَانَتْ الْحَاجَةُ إلَى فَضْلِ الشَّجَاعَةِ أَدْعَى لِانْتِشَارِ الثُّغُورِ وَظُهُورِ الْبُغَاةِ كَانَ الْأَشْجَعُ أَحَقَّ،وَإِنْ كَانَتِ الْحَاجَةُ إلَى فَضْلِ الْعِلْمِ أَدْعَى لِسُكُونِ الدَّهْمَاءِ وَظُهُورِ أَهْلِ الْبِدَعِ كَانَ الْأَعْلَمُ أَحَقَّ.فَإِنْ وَقَفَ الِاخْتِيَارُ عَلَى وَاحِدٍ مِنِ اثْنَيْنِ فَتَنَازَعَاهَا،فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ:إنَّ التَّنَازُعَ فِيهَا لَا يَكُونُ قَدْحًا مَانِعًا.وَلَيْسَ طَلَبُ الْإِمَامَةِ مَكْرُوهًا،فَقَدْ تَنَازَعَ فِيهَا أَهْلُ

[١١٠٣] – الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ٢٥)

الشُّورَى،فَمَا رُدَّ عَنْهَا طَالِبٌ،وَلَا مُنِعَ مِنْهَا رَاغِبٌ،وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيمَا يُقْطَعُ بِهِ تَنَازُعُهُمَا مَعَ تَكَافُؤِ أَحْوَالِهِمَا،فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:يُقْرَعُ بَيْنَهُمَا وَيُقَدَّمُ مَنْ قَرَعَ مِنْهُمَا.)[١١٠٤]

واختلف الفقهاء فيما يقطع به هذا التنازع على رأيين :

الأول :القرعة،قال أبو يعلى :(وبماذا نقطع تنازعهما مع تكافؤ أحوالهما؟ فقياس قول أحمد رحمه الله:أنه يقرع بينهما فيبايع من قرع منهما،لأنه قال في رواية عبد الله – في مسجد فيه رجلان تداعيا الأذان فيه "يقرع بينهما" واحتج بقول سعد.ولفظ الحديث ما رواه العكبري بإسناده عن ابن شبرمة " أن الناس تشاحوا في الأذان يوم القادسية،فأقرع بينهم سعد")[١١٠٥]

الثاني :الاختيار فيكون أهل الحل والعقد بالخيار في بيعة أيهما شاءوا .

٣- مبايعة الأنفع :

ومن وظائف أهل الحل والعقد أنه عند اجتماع عدد تتوفر فيهم شروط الإمامة فإنه لا يجب عليهم اختيار الأفضل،بل الأولى أن يختاروا الأنفع والأصلح والمناسب للمقام،فإن اجتمع الفضل والمصلحة في شخص واحد كان ذلك هو المطلوب،كما توفر ذلك في الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم،فإن ترتيبهم في الخلافة موافق لترتيبهم في الأفضلية،فأفضلهم،أبو بكر،ثم عمر – باتفاق أهل السنة – ثم عثمان،ثم علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين،وهم كذلك مرتبون على حسب المصلحة والمنفعة،فمن مصلحة المسلمين أن يتولى الأمر بعد رسول الله – ﷺ – أبو بكر لقوة إيمانه وعزيمته على الذود عن الإسلام،وقد كان في عصر ارتدت فيه بعض القبائل على الإسلام ومنعت أخرى الزكاة بحجة وفاة النبي – ﷺ – فكان لا يصلح لمثل هذه المقام إلا أبو بكر رضي الله تعالى عنه،ثم جاء عمر رضي الله تعالى عنه وكان سيفًا مسلولاً على أعداء الإسلام الخارجين،فكان هو المناسب لهذا المقام،ثم من بعده عثمان،ثم علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين .وسيأتي زيادة بيان إن شاء الله عن المفاضلة بينهم .

[١١٠٤] – الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ٢٦)

[١١٠٥] – الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٥)

فالمقصود أن الأولى تولية الأنفع وإن لم يكن الأفضل،وهذا أمر واضح في سيرة الرسول - ﷺ -،وتأميره الأمراء على الجيوش،قال ابن القيم رحمه الله :(والمقصود أن هديه - ﷺ - تولية الأنفع وإن كان غيره أفضل منه)[١١٠٦]

٤- عزل الخليفة :

الذي يقوم بعقد الإمامة للخليفة نيابة عن الأمة هم أهل الحل والعقد،فكذلك إن طرأ،أي :حدث على الإمام المنصوب فالذي يعلن عزله ويستبدله بغيره هم هؤلاء الفئة من الناس،ولا دخل للدهماء في مثل هذه الأمور،فلو طرأ مثلاً على الإمام المنصوب جنون،أو مرض شديد لا يرجى برؤه،أو وقع في أيدي الأعداء ولا يرجى له فكاك،أو ارتد عن الدين - والعياذ بالله - أو نحو ذلك،ففي هذه الحالة تقوم هذه الفئة بإعلان عزله واستبداله بغيره .[١١٠٧]

أحكام عزل الإمام

إذا طرأ على الحاكم الكفر البواح الظاهر الذي دل الكتاب والسنة على أنه من الكفر البواح،فقد خرج عن الإمامة،ويجب في هذه الحالة عزل الحاكم والخروج عليه بالقوة عند وجود القدرة،عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَهُوَ مَرِيضٌ،قُلْنَا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ،حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ،سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،إِلَّا،عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» متفقٌ عليه[١١٠٨]

[١١٠٦] - إعلام الموقعين (١/١٠٧) .

[١١٠٧] - الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص: ٥٦)

[١١٠٨] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥ و٧٠٥٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤١ - (١٧٠٩)

[ش (أصلحك الله) كلمة اعتادوا أن يقولوها عند الطلب أو المراد الدعاء له بإصلاح جسمه ليعافى من مرضه.(أخذ علينا) اشترط علينا.(على السمع والطاعة) لله تعالى ورسوله ﷺ.(منشطنا) حالة نشاطنا.(مكرهنا) في الأشياء التي نكرهها وتشق علينا.(أثرة علينا) استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم أي ولو منعنا حقوقنا.(الأمر) الملك والإمارة.(كفرا) منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فتكون المنازعة بالإنكار عليهم.أو كفرا ظاهرا فينازعون بالقتال والخروج عليهم وخلعهم.(بواحا) ظاهرا وباديا.(برهان) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل]

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:" وَقَدْ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَى وُجُوب طَاعَة السُّلْطَان الْمُتَغَلِّب وَالْجِهَاد مَعَهُ وَأَنَّ طَاعَتَهُ خَيْرٌ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حَقْنِ الدِّمَاءِ وَتَسْكِينِ الدَّهْمَاءِ وَحُجَّتُهُمْ هَذَا الْخَبَرُ وَغَيْرُهُ مِمَّا يُسَاعِدُهُ وَلَمْ يَسْتَثْنُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا وَقَعَ مِنَ السُّلْطَانِ الْكُفْرُ الصَّرِيحُ فَلَا تَجُوزُ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ بَلْ تَجِبُ مُجَاهَدَتُهُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا "[1109]

وقال الإمام النووي رحمه الله:" قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَنْعَقِدُ لِكَافِرٍ وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ انْعَزَلَ قَالَ وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَةَ الصَّلَوَاتِ وَالدُّعَاءَ إِلَيْهَا قَالَ وَكَذَلِكَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمُ الْبِدْعَةُ قَالَ وَقَالَ بَعْضُ الْبَصْرِيِّينَ تَنْعَقِدُ لَهُ وَتُسْتَدَامُ لَهُ لِأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ قَالَ الْقَاضِي فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَتَغْيِيرٌ لِلشَّرْعِ أَوْ بِدْعَةٌ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ الْوِلَايَةِ وَسَقَطَتْ طَاعَتُهُ وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقِيَامُ عَلَيْهِ وَخَلْعُهُ وَنَصْبُ إِمَامٍ عَادِلٍ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ فَإِنْ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ إِلَّا لِطَائِفَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِخَلْعِ الْكَافِرِ وَلَا يَجِبُ فِي الْمُبْتَدِعِ إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ فَإِنْ تَحَقَّقُوا الْعَجْزَ لَمْ يَجِبِ الْقِيَامُ وَلْيُهَاجِرِ الْمُسْلِمُ عَنْ أَرْضِهِ إِلَى غَيْرِهَا وَيَفِرَّ بِدِينِهِ" [1110]

وقال القاري:" أَيْ كُفْرًا ظَاهِرًا صَرِيحًا فَقَوْلُهُ:إِلَّا أَنْ تَرَوْا.حِكَايَةُ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَالْقَرَائِنُ السَّابِقَةُ مَعْنًى تَلَفَّظَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَقَوْلُهُ (عِنْدَكُمْ) خَبَرٌ مُقَدَّمٌ وَقَوْلُهُ (مِنَ اللَّهِ) مُتَعَلِّقٌ بِالظَّرْفِ أَوْ حَالٌ مِنَ الْمُسْتَتِرِ فِي الظَّرْفِ (مِنْهُ) أَيْ فِي ظُهُورِ الْكُفْرِ (بُرْهَانٌ) أَيْ دَلِيلٌ وَبَيَانٌ مِنْ حَدِيثٍ أَوْ قُرْآنٍ،قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ بُرْهَانٌ حَاصِلٌ عِنْدَكُمْ كَائِنًا مِنَ اللَّهِ،أَيْ مِنْ دِينِ اللَّهِ.اهـ

وَالْمَعْنَى أَنَّهُ حِينَئِذٍ تَجُوزُ الْمُنَازَعَةُ بَلْ يَجِبُ عَدَمُ الْمُطَاوَعَةِ،قَالَ النَّوَوِيُّ:بَوَاحًا بِالْوَاوِ فِي أَكْثَرِ النُّسَخِ،وَفِي بَعْضِهَا بِالرَّاءِ يُقَالُ:بَاحَ الشَّيْءُ إِذْ ظَهَرَ بَوَاحًا وَالْبَوَاحُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ أَمْرًا بَوَاحًا وَبَرَاحًا بِمَعْنَاهُ مِنَ الْأَرْضِ وَالْبَرَاحِ وَهِيَ الْبَارِزَةُ وَالْمُرَادُ بِالْكُفْرِ هُنَا الْمَعَاصِي،وَالْمَعْنَى لَا تُنَازِعُوا وُلَاةَ الْأُمُورِ فِي وِلَايَتِهِمْ وَلَا تَعْتَرِضُوا عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ تَرَوْا مِنْهُمْ مُنْكَرًا مُحَقَّقًا تَعْلَمُونَهُ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَأَنْكِرُوهُ عَلَيْهِمْ،وَقُومُوا بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ،وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَقِتَالُهُمْ فَمُحَرَّمٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانُوا فَسَقَةً ظَالِمِينَ وَأَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ السُّلْطَانَ لَا يَنْعَزِلُ بِالْفِسْقِ لِتَهَيُّجِ الْفِتَنِ فِي عَزْلِهِ وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ وَتَفْرِيقِ ذَاتِ

[1109] - فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٧)

[1110] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٩)

الْبَيْنِ،فَتَكُونُ الْمَفْسَدَةُ فِي عَزْلِهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي بَقَائِهِ وَلَا تَنْعَقِدُ إِمَامَةُ الْفَاسِقِ ابْتِـــدَاءً،وَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَنْعَقِدُ لِكَافِرٍ وَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ انْعَزَلَ وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَةَ الصَّلَوَاتِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهَا وَكَذَا الْبِدْعَةُ،قَالَ الْقَاضِي:فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَتَغْيِيرٌ فِي الشَّرْعِ أَوْ بِدْعَةٌ سَقَطَتْ إِطَاعَتُـــهُ وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ خَلْعُهُ وَنَصْبُ إِمَامٍ عَادِلٍ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَجِبُ فِي الْمُبْتَدِعِ إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ وَإِلَّا فَيُهَاجِرُ الْمُسْلِمُ عَنْ أَرْضِهِ إِلَى غَيْرِهَا وَيَفِرُّ بِدِينِهِ.اهـــ وَفِيهِ أَبْحَاثٌ،أَمَّـــا أَوَّلًا،فَقَوْلُهُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ مُسْتَدْرَكٌ مُسْتَغْنًى عَنْهُ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِ (كُفْرًا) كَمَا هُوَ ظَـــاهِرٌ وَأَمَا ثَانِيًا فَقَوْلُهُ (الْمُرَادُ بِالْكُفْرِ هُنَا الْمَعَاصِي) مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الْكُفْرَ عَلَى بَابِهِ وَالِاسْتِثْنَاءُ عَلَى صِرَافَتِهِ بِخِلَافِ مَا إِذَا أُرِيدَ الْمَعَاصِي فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ الِاسْتِثْنَاءُ الْمُتَّصِلُ الَّذِي هُوَ الْأَصْـــلُ إِذْ لَـــا تَجُوزُ مُنَازَعَةُ الْأَمْرِ مِنْ أَهْلِهِ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِ كَمَا فُهِمَ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَبَيَانِهِ،وَأَمَا ثَالِثًا فَقَوْلُـــهُ (لَـــا تَنْعَقِدُ إِمَامَةُ الْفَاسِقِ) فَإِنَّهُ يُشْكِلُ بِسَلْطَنَةِ الْمُتَسَلْطِنِينَ الظَّاهِرِ عَلَيْهِمْ حَالُ التَّوْلِيَـــةِ أَنَّهُـــمْ مِـــنَ الْفَاسِقِينَ،وَفِي الْقَوْلِ بِعَدَمِ انْعِقَادِ إِمَامَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ حَرَجٌ عَظِيمٌ فِي الدِّينِ حَيْثُ يَلْزَمُ مِنْهُ عَدَمُ صِحَّةِ الْجُمُعَةِ وَوِلَايَةِ الْقُضَاةِ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقَضَايَا اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ:مُـــرَادُهُ بِعَدَمِ الِانْعِقَادِ حَالَةُ الِاخْتِيَارِ لَكِنَّ الْمُرَادَ لَا يَدْفَعُ الْإِيرَادَ،وَفِي شَرْحِ الْعَقَائِدِ الْإِجْمَـــاعُ عَلَـــى أَنَّ نَصْبَ الْإِمَامِ وَاجِبٌ ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ كَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ وَإِقَامَةِ حُدُودِهِمْ وَسَدِّ ثُغُورِهِمْ وَتَجْهِيزِ جُيُوشِهِمْ وَأَخْذِ صَدَقَاتِهِمْ وَقَهْرِ الْمُتَغَلِّبَةِ وَالْمُتَلَصِّصَـــةِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَإِقَامَةِ الْجُمُعَةِ وَالْأَعْيَادِ وَتَزْوِيجِ الصَّغِيرِ وَالصَّغِيرَةِ اللَّذَيْنِ لَا أَوْلِيَاءَ لَهُمَا وَقِسْمَةِ الْغَنَائِمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَتَوَلَّاهَا آحَادُ الْأُمَّةِ ثُمَّ قَالَ:وَلَا يَنْعَزِلُ الْإِمَامُ بِالْفِسْقِ ؛ لِأَنَّ الْعِصْمَةَ لَيْسَتْ بِشَرْطٍ لِلْإِمَامَةِ ابْتِدَاءً فَبَقَاءً أَوْلَى،وَعَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ الْإِمَامَ يَنْعَزِلُ بِالْفِسْقِ وَكَـــذَا كُلُّ قَاضٍ وَأَمِيرٍ وَأَصْلُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْفَاسِقَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْوِلَايَةِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْظُـــرُ لِنَفْسِهِ فَكَيْفَ يَنْظُرُ لِغَيْرِهِ.وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ:هُوَ مِنْ أَهْلِ الْوِلَايَةِ حَتَّى يَصِحَّ لِلْأَبِ الْفَاسِقِ تَزْوِيجُ ابْنَتِهِ الصَّغِيرَةِ،وَالْمَسْطُورُ فِي كُتُبِ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّ الْقَاضِيَ يَنْعَزِلُ بِالْفِسْقِ بِخِلَافِ الْإِمَـــامِ،وَالْفَرْقُ أَنَّ فِي انْعِزَالِهِ وَوُجُوبِ نَصْبِ غَيْرِهِ إِثَارَةَ الْفِتْنَةِ لِمَا لَهُ مِنَ الشَّرِكَةِ بِخِلَافِ الْقَاضِي"[١١١١]

[١١١١] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٩٣)

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله وَقَوْلُهُ: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ،النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدَلَ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ،الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ،كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ،مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ،وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ،الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ اليَساق وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَد اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعَ شَتَّى،مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ،فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا،يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [ﷺ]فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} أَيْ:يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ،وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ. {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أَيْ:وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقل عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ،وَآمَنَ بِهِ وَأَيْقَنَ وَعَلِمَ أَنَّهُ تَعَالَى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ،وَأَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا،فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ،الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ."[١١١٢]

والكفر البواح هو البين الواضح كتحكيم شرع الله في البلاد غير أو التحاكم لغير شرع الله كالقوانين أو الهيئات كهيئة الأمم المتحدة ونحوها،أو التشريع وسن القوانين[١١١٣]،أو موالاة الكفار ومظاهرتهم على المسلمين أو ترك الصلاة أو صرف العبادة لغير الله كدعاء الأموات والاستغاثة بهم[١١١٤] أو غيرها من نواقض الإسلام التي إذا فعلها الحاكم فقد ارتكب كفرا بواحا مما يوجب الحكم بردته وخلعه والخروج عليه.

[١١١٢] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

[١١١٣] - المخالفة للإسلام

[١١١٤] - قلت:هذه موضع خلاف والاستغاثة بالأنبياء والصالحين قد أجازها جمهور السلف والخلف فكيف تكون كفرا مخرجاً من الملة ؟؟؟

وَالِاسْتِغَاثَةُ بِالْخَلْقِ - فِيمَا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ - تَكُونُ عَلَى أَرْبَعِ صُوَرٍ:

الصورةُ الأولى:أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ بِالْمُتَوَسَّل بِهِ تَفْرِيجَ الْكُرْبَةِ،وَلاَ يَسْأَل الْمُتَوَسَّلَ بِهِ شَيْئًا

فإذا لم توجد القدرة على خلعه بالقوة فالواجب أن يبين للناس بطلان ولايته على المسلمين وأن لا يطاع،ولا يعاون بما يدعم ويقوي حكومته المتسلطة على المسلمين،وأن يسعى المسلمون في حالة العجز عن قتاله إلى إعداد العدة حتى تحصل القدرة على جهاده وعزله بالقوة،وقد قال تعالى:{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن:١٦]،وقال تعالى:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:٦٠]،وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" كَمَا يَجِبُ عَلَى الْمُعْسِرِ السَّعْيُ فِي وَفَاءِ دَيْنِهِ،وَإِنْ كَانَ فِي الْحَالِ لَا يُطْلَبُ مِنْهُ إلَّا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ،وَكَمَا يَجِبُ الِاسْتِعْدَادُ لِلْجِهَادِ،بِإِعْدَادِ الْقُوَّةِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ فِي وَقْتِ سُقُوطِهِ لِلْعَجْزِ،فَإِنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ بِخِلَافِ الِاسْتِطَاعَةِ فِي الْحَجِّ

كَقَوْلِ الْقَائِلِ:اللَّهُمَّ بِجَاهِ رَسُولِكَ فَرِّجْ كُرْبَتِي .وَهُوَ عَلَى هَذَا سَائِلٌ لِلَّهِ وَحْدَهُ،وَمُسْتَغِيثٌ بِهِ،وَلَيْسَ مُسْتَغِيثًا بِالْمُتَوَسَّلِ بِهِ .وَقَدِ اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ لَيْسَتْ شِرْكًا،لأَنَّهَا اسْتِغَاثَةٌ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،وَلَيْسَتِ اسْتِغَاثَةً بِالْمُتَوَسَّلِ بِهِ ؛وَلَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ حَيْثُ الْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ عَلَى ثَلاَثَةِ أَقْوَالٍ:

الْقَوْلُ الأَْوَّلُ:جَوَازُ التَّوَسُّلِ بِالأَْنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ حَال حَيَاتِهِمْ وَبَعْدَ مَمَاتِهِمْ .

وبه قَال بِهِ مَالِكٌ،وَالسُّبْكِيُّ،وَالْكَرْمَانِيُّ،وَالنَّوَوِيُّ،وَالْقَسْطَلاَّنِيُّ،وَالسَّمْهُودِيُّ،وَابْنُ الْحَاجِّ،وَابْنُ الْجَزَرِيِّ .وقال ابن الحاج في المدخل:"فَالتَّوَسُّلُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ مَحَلُّ حَطِّ أَحْمَالِ الْأَوْزَارِ وَأَثْقَالِ الذُّنُوبِ،وَالْخَطَايَا ؛لِأَنَّ بَرَكَةَ شَفَاعَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعِظَمَهَا عِنْدَ رَبِّهِ لَا يَتَعَاظَمُهَا ذَنْبٌ،إذْ أَنَّهَا أَعْظَمُ مِنَ الْجَمِيعِ فَلْيَسْتَبْشِرْ مَنْ زَارَهُ وَيَلْجَأْ إلَى اللَّهِ تَعَالَى بِشَفَاعَةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ لَمْ يَزُرْهُ اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا مِنْ شَفَاعَتِهِ بِحُرْمَتِهِ عِنْدَك آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .وَمَنْ اعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَهُوَ الْمَحْرُومُ أَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:« ..وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا» (النساء:٦٤)،فَمَنْ جَاءَهُ وَوَقَفَ بِبَابِهِ وَتَوَسَّلَ بِهِ وَجَدَ اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ؛لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُنَزَّهٌ عَنْ خُلْفِ الْمِيعَادِ،وَقَدْ وَعَدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالتَّوْبَةِ لِمَنْ جَاءَهُ وَوَقَفَ بِبَابِهِ وَسَأَلَهُ وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ،فَهَذَا لَا يَشُكُّ فِيهِ وَلَا يَرْتَابُ إلَّا جَاحِدٌ لِلدِّينِ مُعَانِدٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ – ﷺ – نَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنَ الْحِرْمَانِ"

وقال السبكي:" اعلم:أنّه يجوز ويحسن التوسّل،والاستغاثة،والتشفّع بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى ربّه سبحانه وتعالى .وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكلّ ذي دين،المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين،وسير السلف الصالحين،والعلماء والعوامّ من المسلمين.فإنّ التوسّل بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جائز في كلّ حال:..في مدّة حياته في الدنيا،وبعد موته،في مدّة البرزخ،وبعد البعث في عرصات القيامة والجنّة،وهو على ثلاثة أنواع:النوع الأوّل:أن يتوسّل به؛بمعنى أنّ طالب الحاجة يسأل الله تعالى به،أو بجاهه،أو ببركته،فيجوز ذلك في الأحوال الثلاثة،وقد ورد في كلّ منها خبر صحيح .(٢)

انظر:القسطلاني ٨ / ٣٠٤،والمجموع للنووي ٨ / ٢٧٤،والمواهب اللدنية ٨ / ٣٠٣ – ٣٠٥،ووفاء الوفا ٣ / ١٣٧٦،١٣٧٢،١٣٧١،والمدخل لابن الحاج ٢ / ٢٤٩ .جلاء العينين،١ / ٤٣٦ والمدخل،(ج ١ / ص ٣٩٤).وانظر شفاءُ السقامِ في زيارة خَيْرِ الأنام- الباب الثامن- الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٤/ ٢٤)- أَنْوَاعُ الاسْتِغَاثَةِ بِالْخَلْقِ،والخلاصة في أحكام الاستغاثة والتوسل -ط٢ (ص:٢٧) لي

وَنَحْوِهَا فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ تَحْصِيلُهَا؛لِأَنَّ الْوُجُوبَ هُنَاكَ لَا يَتِمُّ إلَّا بِهَا.مَعْرِفَةُ الْأَصْلَحِ وَكَيْفِيَّةُ تَمَامِهَا وَالْمُهِمُّ فِي هَذَا الْبَابِ مَعْرِفَةُ الْأَصْلَحِ،وَذَلِكَ إنَّمَا يَتِمُّ بِمَعْرِفَةِ مَقْصُودِ الْوِلَايَةِ،وَمَعْرِفَةِ طَرِيقِ الْمَقْصُودِ،فَإِذَا عَرَفْت الْمَقَاصِدَ وَالْوَسَائِلَ تَمَّ الْأَمْرُ "[١١١٥]

وأما إذا طرأ على الإمام العام الفسق فلا يجوز الخروج عليه بالقوة،التي قد يترتب عليها من المفاسد والمنكرات والفتن ما هو أعظم من المنكر الذي قصد إزالته،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ،فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» متفق عليه[١١١٦].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ:«تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ،وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ» متفق عليه[١١١٧].

وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:«خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ،وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ،وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ،وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»،قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ:«لَا،مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ،وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ،فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ،وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ» رواه مسلم[١١١٨].

[١١١٥] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:٢٦) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤٥/ ١٤٥)

[١١١٦] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٨) ٥٦ - (١٨٤٩)

[ش (كره من أميره شيئا) رأى منه ما يكره وينكر في شرع الله عز وجل أو ما يسيئه هو ويكرهه.(خرج من السلطان) من طاعته.(شبرا) قدر شبر وهو كناية عن عدم الطاعة بأدنى شيء.(جاهلية) كموت أهل الجاهلية من حيث إنهم لم يعرفوا طاعة الإمام]

[١١١٧] - صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٢)٤٥ - (١٨٤٣)

[ش (ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها) هذا من معجزات النبوة وقد وقع الإخبار متكررا ووجد مخبره متكررا وفيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالما عسوفا فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه والمراد بالأثرة هنا استئثار الأمراء بأموال بيت المال]

[١١١٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٨١)٦٥ - (١٨٥٥)

وعن عَوْفَ بْنَ مَالِك الْأَشْجَعِيَّ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ،وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ،وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ،وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»،قَالُوا:قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ:«لَا،مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ،لَا،مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ،أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ،فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ،فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ،وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»،قَالَ ابْنُ جَابِرٍ:فَقُلْتُ:- يَعْنِي لِرُزَيْقٍ - حِينَ حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ:آللَّهِ،يَا أَبَا الْمِقْدَامِ،لَحَدَّثَكَ بِهَذَا،أَوْ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ مُسْلِمِ بْنِ قَرَظَةَ يَقُولُ:سَمِعْتُ عَوْفًا،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَ:فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ،فَقَالَ:" إِي وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،لَسَمِعْتُهُ مِنْ مُسْلِمِ بْنِ قَرَظَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ".رواه مسلم[١١١٩]

وترك الخروج عليه لا يعني السكوت عن فسقه وما يرتكبه من منكرات،بل الواجب نصحه والإنكار عليه ومحاسبته ومحاكمته،وألا يطاع ولا يعاون في معصية الله تعالى،وقد تقدم الكلام في هذا.

وإذا أمكن عزل الإمام الذي طرأ عليه الفسق دون وقوع قتنة وإراقة دماء ومفسدة أعظم من مفسدة إبقائه ففي هذه الحالة يجب أن يعزل،ويولى على المسلمين أفضل من توفرت فيه الشروط الشرعية،قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:" وَنقل بن التِّينِ عَنِ الدَّاوُدِيِّ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ فِي أُمَرَاءِ الْجَوْرِ أَنَّهُ إِنْ قَدَرَ عَلَى خَلْعِهِ بِغَيْرِ فِتْنَةٍ وَلَا ظُلْمٍ وَجَبَ وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ الصَّبْرُ"[١١٢٠]

ويرجح هذا القول ما يلي:

أولا:أن النصوص الشرعية العامة أوجبت الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب القدرة والاستطاعة،وقد أخبر الله تعالى عن شعيب عليه الصلاة والسلام أنه قال:{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ

[١١١٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٢)٦٦ - (١٨٥٥)

[ش (فجثا على ركبتيه) يقال جثا على ركبتيه يجثو وجثى يجثى جثوا وجثيا فيها وأجثاه غيره وتجاثوا على الركب وهم جثى وجثى أي جلس عليهما]

[١١٢٠] - فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨)

عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود:٨٨]،وقال تعالى:{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن:١٦]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ.فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».رواه مسلم[1121].

وعَنْ قَيْسٍ،قَالَ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ:بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ،وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا:{عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]،قَالَ:عَنْ خَالِدٍ،وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ،أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ» وَقَالَ عَمْرٌو:عَنْ هُشَيْمٍ،وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي،ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا،ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا،إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ» قَالَ أَبُو دَاوُدَ:وَرَوَاهُ كَمَا قَالَ خَالِدٌ أَبُو أُسَامَةَ:وَجَمَاعَةٌ،وَقَالَ شُعْبَةُ فِيهِ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ» رواه أبو داود[1122]

وفسق الحاكم من المنكرات الكبيرة التي تؤدي إلى انتشار الفساد والظلم في الأمة،فإذا وجدت القدرة على إزالة هذا المنكر المتمثل بولاية الفاسق فيجب أن يعزل لعموم الأدلة.

ثانيا:أن في عزل الإمام الفاسق وتعيين الإمام العادل دون حدوث فتنة وإراقة دماء،مصلحة كبيرة لا تأتي الشريعة بإلغائها،وتوجب ترك الحاكم الفاسق إماما عاما للمسلمين،مع ما يترتب على بقائه من المفاسد العظيمة،قال القرطبي رحمه الله:" الْإِمَامُ إِذَا نُصِّبَ ثُمَّ فَسَقَ بَعْدَ انْبِرَامِ الْعَقْدِ فَقَالَ الْجُمْهُورُ:إِنَّهُ تَنْفَسِخُ إِمَامَتُهُ وَيُخْلَعُ بِالْفِسْقِ الظَّاهِرِ الْمَعْلُومِ،لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْإِمَامَ إِنَّمَا يُقَامُ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَاسْتِيفَاءِ الْحُقُوقِ وَحِفْظِ أَمْوَالِ الْأَيْتَامِ وَالْمَجَانِينِ وَالنَّظَرِ فِي أُمُورِهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ،وَمَا فِيهِ مِنَ الْفِسْقِ يُقْعِدُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ وَالنُّهُوضِ

[1121] - صحيح مسلم (١/ ٦٩)(٧٨ - (٤٩)

[1122] - سنن أبي داود (٤/ ١٢٢)(٤٣٣٨) صحيح

بِهَا.فَلَوْ جَوَّزْنَا أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا أَدَّى إِلَى إِبْطَالِ مَا أُقِيمَ لِأَجْلِه،أَلَا تَرَى فِي الِابْتِدَاءِ إِنَّمَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْقَدَ لِلْفَاسِقِ لِأَجْلِ أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى إِبْطَالِ مَا أُقِيمَ لَهُ،وَكَذَلِكَ هَذَا مِثْلُهُ."[١١٢٣]

وسواء قصد القرطبي رحمه الله بكلامه خلع الحاكم الفاسق بالخروج عليه بالقوة والقتال أو قصد خلعه بدون قتال ومفسدة أعظم[١١٢٤]،فليس هذا هو المقصود من نقل كلامه،وإنما محل الشاهد من كلامه والمقصود منه هو قوله:"فلو جوزنا أن يكون فاسقا أدى إلى إبطال ما أقيم لأجله،ألا ترى في الأبتداء إنما لم يجز أن يعقد للفاسق لأجل أنه يؤدي إلى إبطال ما أقيم له وكذلك هذا مثله"،وما قاله حق فإن عزل الحاكم الذي طرأ عليه الفسق هو وفق القياس وجاري مع الأصل الذي منع لأجله الفاسق من تولي الإمامة ابتداءً.

ثالثا:أن من المعلوم في الشريعة الإسلامية أن الولاة والوزراء والقضاة إذا ظهر من أحدهم الفسق والخيانة مع وجود الأولى فإنه يعزل تحقيقا للمصلحة والعدل ودرءاً للفساد والظلم،فإذا كان عزل هؤلاء واجبا فكذلك الإمام العام يعزل لفسقه من باب أولى،فإن المفسدة ببقائه أعظم من مفسدة إبقاء غيره من الولاة الذين ظهر عليهم الفسق.

رابعا:أن الفسق قد يتدرج بالحاكم إلى الاستبداد بالأمر وتعيين الموالين له في قيادة الجيش والولايات حتى لا يقدر أحد على محاسبته ومحاكمته،ثم يرتكب بعد ذلك هو ومن معه أنواعا من الفساد والظلم وربما الكفر،كما قد وقع في بعض الحالات،ولا يستطيع المسلمون بعد ذلك عزله لعدم القدرة،فإذا كان الفسق قد يتدرج بالحاكم إلى الظلم العظيم والكفر فينبغي سد الذريعة الموصلة إلى الكفر وحسم الشر في أوله بعزل الحاكم الفاسق مع القدرة،وتعيين إمام عادل.

خامسا:من القواعد الشرعية " أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " فإذا كان في بقاء الحاكم الفاسق تركا للواجبات وفعلا للمحرمات وقد أمكن عزله دون مفسدة فيجب أن يعزل.

[١١٢٣] - تفسير القرطبي (١/ ٢٧١)

[١١٢٤] - مثل العصيان المدني

سادسا:أن من منع الخروج بالقوة على الحاكم الفاسق قد علل المنع بحصول مفسدة أعظم من المفسدة التي يراد إنكارها،وهذه العلة منتفية مع العزل بالفسق دون حدوث فتنة وإراقة دمـــاء ومفسدة أعظم،والحكم يدور مع علته وجودا وعدما.

ويكون عزل الحاكم الفاسق ممكنا إذا كان ولاء الولاة والوزراء والقضاة والقادة والجنـــود لله تبارك وتعالى ولرسوله وللمؤمنين،كما قال تعالى:{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّـــذِينَ آمَنُـــوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)} [المائدة:٥٥،٥٦]

ففي هذه الحالة لن يستطيع الإمام الذي طرأ عليه الفسق الممانعة والاحتماء بالجند وغيرهم.

وهذا الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين من أعظم الواجبات التي يجب أن يرسخها العلماء والقادة وغيرهم في الأمة،ويأتي في باب سياسات احترازية زيادة تفصيل.



المبحث الحادي عشر

الصلاة

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين،وهي عمود الإسلام،وهي أهم ما يدعى إليه الناس بعد توحيد الله تعالى[1125]،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ:شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَإِقَامِ الصَّلاَةِ،وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ،وَالحَجِّ،وَصَوْمِ رَمَضَانَ " متفق عليه[1126].

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَصْبَحْتُ قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ،فَقُلْتُ:يَا نَبِيَّ اللهِ،أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ،وَيُبْعِدُنِي عَنِ النَّارِ،قَالَ:«لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ،وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ،تُقِيمُ الصَّلَاةَ،وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ،وَتَصُومُ رَمَضَانَ،وَتَحُجُّ الْبَيْتَ» ،ثُمَّ قَالَ:«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ،وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ،وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» ،ثُمَّ تَلَا {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة:١٦] حَتَّى {يَعْمَلُونَ} [السجدة:١٧] ثُمَّ قَالَ:«أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» ،قُلْتُ:بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:«رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ،وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ،وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ» ،ثُمَّ قَالَ:«أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» ،قُلْتُ:بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ،فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ:«كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ ،قَالَ:" ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ،وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ – أَوْ قَالَ:عَلَى مَنَاخِرِهِمْ – إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟ " رواه الترمذي[1127].

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ:رُبَّمَا قَالَ وَكِيعٌ:عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ مُعَاذًا،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ

[1125] – لِلصَّلَاةِ مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الإِْسْلاَمِ .فَهِيَ آكَدُ الْفُرُوضِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَأَفْضَلُهَا،وَأَحَدُ أَرْكَانِ الإِْسْلاَمِ الْخَمْسَةِ .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٧/ ٥١)

[1126] – صحيح البخاري (١/ ١١)(٨) وصحيح مسلم (١/ ٤٥)(٢٠ – ١٦)

[ش (بني الإسلام على خمس) أعمال الإسلام خمس هي له عالدعائم بالنسبة للبناء لا وجود له إلا بها]

[1127] – السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٢١٤)(١١٣٣٠) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١١)(٢٦١٦) صحيح لغيره

اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» [1128] .

وهي أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة،عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ،فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ،وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ» رواه الطبراني في الأوسط[1129].

وأخبر النبي ﷺ أن من ترك الصلاة فقد كفر فعَنْ أَبِي سُفْيَانَ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرًا،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ» رواه مسلم[1130] .

[1128] - صحيح مسلم (١/ ٥٠)(٢٩ - (١٩)

[1129] - المعجم الأوسط (٢/ ٢٤٠)(١٨٥٩) حسن

[1130] -صحيح مسلم (١/ ٨٨)(١٣٤ - (٨٢)

[ش (بين الشرك والكفر ترك الصلاة) معناه إن الذي يمنع من كفره كونه لم يترك الصلاة فإذا تركها لم يبق بينه وبين الشرك حائل بل دخل فيه]

" بَيْنَ الْعَبْدِ ") أَيِ:الْمُسْلِمِ (وَبَيْنَ الْكُفْرِ):أَيْ:مُقَارَبَتِهِ،وَقَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ:أَيِ اتِّصَافُهُ بِهِ،غَيْرُ صَحِيحٍ؛لِمَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ تَارِكَ الصَّلَاةِ يَكُونُ كَافِرًا،وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّهُ تَبَجَّحَ بِهَذَا التَّقْرِيرِ،وَقَالَ:لَوْ فَهِمَ الشُّرَّاحُ مَا قُلْتُهُ لَمَا أَوَّلُوا وَمَا تَمَحَّلُوا (تَرْكُ الصَّلَاةِ):مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:مُتَعَلِّقُ " بَيْنَ " مَحْذُوفٌ،تَقْدِيرُهُ:تَرْكُهَا وَصْلَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.وَقَالَ بَعْضُهُمْ:قَدْ يُقَالُ لِمَا يُوصِلُ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ مِنْ شَخْصٍ أَوْ هَدِيَّةٍ هُوَ بَيْنَهُمَا.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:تَرْكُ الصَّلَاةِ مُبْتَدَأٌ وَالظَّرْفُ الْمُقَدَّمُ خَبَرُهُ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِعْلَ الصَّلَاةِ هُوَ الْحَاجِزُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْكُفْرِ،فَقَالَ الْقَاضِي:يُحْتَمَلُ أَنْ يُئَوَّلَ تَرْكُ الصَّلَاةِ بِالْحَدِّ الْوَاقِعِ بَيْنَهُمَا،فَمَنْ تَرَكَهَا دَخَلَ الْحَدَّ،وَحَامَ حَوْلَ الْكُفْرِ،وَدَنَا مِنْهُ،أَوْ يُقَالُ:الْمَعْنَى أَنَّ تَرْكَ الصَّلَاةِ وَصْلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْكُفْرِ،وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يُوصِلُهُ إِلَيْهِ،قِيلَ:وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ:الْكَلَامُ عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ،إِذْ ظَاهِرُهُ أَنْ يُقَالَ:بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ،أَوْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ،فَوَضَعَ الْعَبْدَ مَوْضِعَ الْمُؤْمِنِ؛لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ أَنْ يَخْشَعَ لِمَوْلَاهُ وَيَشْكُرَ نِعَمَهُ،وَوَضَعَ الْكُفْرَ مَوْضِعَ الْكَافِرِ وَجَعَلَهُ نَفْسَ الْكُفْرِ،فَكَأَنَّهُ قِيلَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ تَرْكُ أَدَاءِ الشُّكْرِ،فَعَلَى هَذَا الْكُفْرُ بِمَعْنَى الْكُفْرَانِ،وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:اخْتُلِفَ فِي تَكْفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ الْفَرْضِ عَمْدًا.قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ.وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ:تَرْكُهَا كُفْرٌ،وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَقِيقٍ:كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ.وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى تَرْكِهَا جُحُودًا أَوْ عَلَى الزَّجْرِ وَالْوَعِيدِ،وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ،وَمَكْحُولٌ،وَمَالِكٌ،وَالشَّافِعِيُّ:تَارِكُ الصَّلَاةِ كَالْمُرْتَدِّ وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الدِّينِ.وَقَالَ:صَاحِبُ الرَّأْيِ لَا يُقْتَلُ،بَلْ يُحْبَسُ حَتَّى يُصَلِّيَ،وَبِهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ.اهـ.

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ».[1131]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ «الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةَ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» رواه أبو داود والنسائي والترمذي وأحمد[1132].

وعَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ،قَالَ:كَانَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعْجِبُهُ أَنْ يَقْعُدَ حَيْثُ تُعْرَضُ الْمَصَاحِفُ فَجَاءَهُ ابْنُ الْحَضَارِمَةِ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ فَقَالَ:أَيُّ دَرَجَاتِ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَلَا دِينَ لَهُ» رواه محمد بن نصر[1133].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:لَمْ يَكُنْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ " رواه الترمذي[1134].

وعن أُمِّ الدَّرْدَاءِ ،أَنَّهَا ،سَمِعَتْ أَبَا الدَّرْدَاءِ ،يَقُولُ:«لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ ،وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ» رواه ابن عبد البر وغيره[1135].

لاَ خلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ جُحُودًا وَاسْتِخْفَافًا كَافِرٌ مُرْتَدٌّ،يُحْبَسُ لِلاسْتِتَابَةِ وَإِلاَّ يُقْتَل .وَقَدْ ذَكَرُوا :أَنَّ تَرْكَ الصَّلاَةِ يَحْصُل بِتَرْكِ صَلاَةٍ وَاحِدَةٍ يَخْرُجُ وَقْتُهَا دُونَ أَدَائِهَا مَعَ الإِْصْرَارِ عَلَى ذَلِكَ .

وَمَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ كَسَلاً وَتَهَاوُنًا مَعَ اعْتِقَادِ وُجُوبِهَا يُدْعَى إِلَيْهَا،فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى تَرْكِهَا فَفِي عُقُوبَتِهِ ثَلاَثَةُ أَقْوَالٍ :

قُلْتُ:وَنِعْمَ الرَّأْيُ رَأْيُ أَبِي حَنِيفَةَ؛إِذِ الْأَقْوَالُ بَاقِيهَا ضَعِيفَةٌ،ثُمَّ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِلًّا لِتَرْكِهَا،أَوْ تَرْكُهَا يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ،فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ بَرِيدُ الْكُفْرِ،أَوْ يُخْشَى عَلَى تَارِكِهَا أَنْ يَمُوتَ كَافِرًا،أَوْ فِعْلُهُ شَابَهَ فِعْلَ الْكَافِرِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٥١٠)

[1131] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٤/ ٣٠٤)(١٤٥٣) صحيح

[1132] - السنن الكبرى للنسائي (١/ ٢٠٨)(٣٢٦) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٤٨)(١١) وسنن ابن ماجه (١/ ٣٤٢)(١٠٧٩) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٣)(٢٦٢١) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٤/ ٣٠٥)(١٤٥٤) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ٢٠)(٢٢٩٣٧) صحيح

[1133] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٨٩٨)(٩٣٥) حسن

[1134] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٩٠٥)(٩٤٨) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٤)(٢٦٢٢) صحيح

[1135] - الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٦٧٩)(٨٨٧) والسنة لأبي بكر بن الخلال (٤/ ١٤٦)(١٣٨٤) وتعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٩٠٣)(٩٤٥) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٩٠٩)(١٥٣٦) حسن

الْقَوْل الأَوَّل :يُحْبَسُ تَارِكُ الصَّلاَةِ كَسَلاً ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لِلاِسْتِتَابَةِ وَإِلاَّ قُتِل حَدًّا لاَ كُفْرًا،وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَوَكِيعٍ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ .

الْقَوْل الثَّانِي :يُحْبَسُ تَارِكُ الصَّلاَةِ كَسَلاً ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لِلاِسْتِتَابَةِ وَإِلاَّ قُتِل كُفْرًا وَرِدَّةً،حُكْمُهُ فِي ذَلِكَ حُكْمُ مَنْ جَحَدَهَا وَأَنْكَرَهَا لِعُمُومِ حَدِيثِ :بَيْنَ الرَّجُل وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ وَهَذَا قَوْل عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَالأَْوْزَاعِيِّ وَابْنِ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَدَ فِي أَصَحِّ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ .

الْقَوْل الثَّالِثُ :يُحْبَسُ تَارِكُ الصَّلاَةِ كَسَلاً وَلاَ يُقْتَل بَل يُضْرَبُ فِي حَبْسِهِ حَتَّى يُصَلِّيَ،وَهُوَ الْمَنْقُول عَنِ الزُّهْرِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالْمُزَنِيِّ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ .وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ :لاَ يَحِل دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ :النَّفْسِ بِالنَّفْسِ،وَالثَّيِّبِ الزَّانِي،وَالْمَارِقِ مِنَ الدِّينِ التَّارِكِ الْجَمَاعَةَ وَتَارِكُ الصَّلاَةِ كَسَلاً لَيْسَ أَحَدَ الثَّلاَثَةِ،فَلاَ يَحِل دَمُهُ بَل يُحْبَسُ لاِمْتِنَاعِهِ مِنْهَا حَتَّى يُؤَدِّيَهَا .[1136]

عمارة المساجد:

يجب على ولاة الأمر أن يقيموا الصلاة،وأن يعلموها الناس،ويأمروهم بإقامتها،وأن يبنوا المساجد التي تقام بها الجمع والجماعات،وقد قال الله تعالى:{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)} [الحج:٤٠،٤١]

وإِنَّ اللهَ قَادِرٌ وَحْدَهُ عَلَى نَصْرِ المُسْلِمينَ دُونَ عَوْنٍ مِنْهَمْ،وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ مِنَ المُؤْمنينَ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُم فِي طَاعَةِ رَبِّهِم،وأَن يَقُومُوا بِواجِبهِم فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفسِهم وَدِينِه.

إِنَّهُمُ الذينَ إِذَا مَكَنَّ اللهُ لَهُمْ فِي الأَرْضِ،وَحَقَّقَ لَهُمُ النَّصْرَ والغَلَبَةَ،وَجَعَلَ لَهُمُ العَاقِبَةَ،عَمِلُوا بِأَمْرِ اللهِ،وَاجْتَنُبوا مَا نَهَاهُم عَنْهُ،فَأَقَامُوا الصَّلاَةَ،وأَدَّوهَا حَقَّ أَدَائِها،وَدَفَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ،وَأَمَرُوا بِالمعْرُوفِ،وَحَثُّوا النَّاسَ عَلَى فِعْلِ الخَيْرِ وَمَا يُرْضِي اللهَ،وَنَهَوْا المُتَجَاوِزِينَ عَلَى حُدُودِ اللهِ عَنْ

[1136] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ٣٠٢) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٧/ ٥٣)

فعْلِ الْمُنْكَرِ.وَعِنْدَ الله حسَابُ النَّاسِ جَميعاً فِي نِهَايَةِ المَطَاف،وَلَهُ عَاقِبَةُ الأُمُــورِ،فَيجْزِي كُـــلَّ وَاحد عَلَى عَمَله.[1137]

وَقَالَ قَتَادَةُ:هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّد ﷺ.وَقَالَ عكْرِمَةُ:هُمْ أَهْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ.وَقَالَ الْحَسَـــنُ وَأَبُو الْعَالِيَة:هُمْ هَذه الْأُمَّةُ إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ.وَقَالَ ابْـــنُ أَبِـــي نَجِـــيحٍ:يَعْنِـــي الْوُلَاةَ.وَقَالَ الضَّحَّاكُ:هُوَ شَرْطٌ شَرَطَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ آتَاهُ الْمُلْكَ،وَهَذَا حَسَـــنٌ.قَـــالَ سَهْلُ بْنُ عَبْد اللَّه:الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ عَلَى السُّلْطَان وَعَلَـــى الْعُلَمَـــاءِ الَّذينَ يَأْتُونَهُ.وَلَيْسَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَأْمُرُوا السُّلْطَانَ،لِأَنَّ ذَلكَ لَازِمٌ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْـــه،وَلَا يَـــأْمُرُوا الْعُلَمَاءَ فَإِنَّ الْحُجَّةَ قَدْ وَجَبَتْ عليهم."[1138]

وعَنْ مُحَمَّد قَالَ:قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ:فينَا نَزَلَتْ:{الَّذينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوف وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ}،فَأُخْرِجْنَا منْ ديَارِنَـــا بِغَيْـــرِ حَقٍّ،إِلَّـــا أَنْ قُلْنَا:"رَبُّنَا اللَّهُ"،ثُمَّ مُكنّا فِي الْأَرْضِ،فَأَقَمْنَا الصَّلَاةَ،وَآتَيْنَا الزَّكَاةَ،وَأَمَرْنَا بِالْمَعْرُوف،وَنَهَيْنَا عَـــنِ الْمُنْكَرِ،وَلِلَّه عَاقبَةُ الْأُمُورِ،فَهِيَ لِي ولأصحابي.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَة:هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّد ﷺ.

وَقَالَ الصَّبَاحُ بْنُ سِوَادَةَ الْكنْديُّ:سَمِعَتْ عُمَرَ بْنَ عَبْد الْعَزِيزِ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ:{الَّـــذينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ} الْآيَةَ،ثُمَّ قَالَ:إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْوَالِي وَحْـــدَهُ،وَلَكنَّهَا عَلَـــى الْـــوَالِي وَالْمُولَى عَلَيْه،أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا لَكَمَ عَلَى الْوَالِي منْ ذَلكم،وَبِمَا للْوَالِي عَلَيْكُمْ منْهُ؟ إِنَّ لَكُمْ عَلَى الْوَالِي منْ ذَلكُمْ أَنْ يُؤَاخذَكُمْ بِحُقُوق اللَّه عَلَيْكُمْ،وَأَنْ يَأْخُذَ لبَعْضكُمْ منْ بَعْضٍ،وَأَنْ يَهْديَكُمْ للَّتي هِيَ أَقْوَمُ مَا اسْتَطَاعَ،وَإِنَّ عَلَيْكُمْ منْ ذَلكَ الطَّاعَةَ غَيْرَ الْمَبْـــزُوزَة وَلَـــا الْمُسْـــتَكْرَهَة،وَلَا الْمُخَالفَ سرُّهَا عَلَانيَتَهَا.

وَقَالَ عَطيَّةُ الْعَوْفيُّ:هَذه الْآيَةُ كَقَوْله:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُـــوا مِـــنْكُمْ وَعَمِلُـــوا الصَّـــالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ [كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ منْ قَبْلِهِمْ] (١) } [النُّور:٥٥] .[1139]

[1137] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥١٨،بترقيم الشاملة آليا)

[1138] – تفسير القرطبي (١٢/ ٧٣)

[1139] – تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٤٣٦)

وقال العلامة السعدي رحمه الله " ذكر علامة من ينصره،وبها يعرف،أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه،و لم يتصف بهذا الوصف،فهو كاذب فقال:{الَّـذِينَ إِنْ مَكَّنَّـاهُمْ فِـي الأَرْضِ} أي:ملكناهم إياها،وجعلناهم المتسلطين عليها،من غير منازع ينازعهم،ولا معارض،{أَقَـامُوا الصَّلاةَ} في أوقاتها،وحدودها،وأركانها،وشروطها،في الجمعة والجماعات.

{وَآتَوا الزَّكَاةَ} التي عليهم خصوصـا،وعلى رعيتـهم عموما،آتوهـا أهلها،الـذين هـم أهلها،{وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ} وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقـلا مـن حقـوق الله،وحقوق الآدميين،{وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} كل منكر شرعا وعقلا معـروف قبحـه،والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به،فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف علـى تعلـم وتعليم،أجبروا الناس على التعلم والتعليم،وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شـرعا،أو غـير مقدر،كأنواع التعزير،قاموا بذلك،وإذا كان يتوقف على جعـل أنـاس متصـدين لـه،لزم ذلك،ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

{وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ} أي:جميع الأمور،ترجع إلى الله،وقد أخبر أن العاقبة للتقوى،فمن سـلطه الله على العباد من الملوك،وقام بأمر الله،كانت له العاقبة الحميدة،والحالة الرشيدة،ومن تسـلط عليهم بالجبروت،وأقام فيهم هوى نفسه،فإنه وإن حصل له ملك موقت،فـإن عاقبتـه غـير حميدة،فولايته مشئومة،وعاقبته مذمومة."[١١٤٠]

وقال تعالى:{ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُـدُوِّ وَالْآصَـالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًـا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْـلِهِ وَاللَّـهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)} [النور]

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مَثَلَ نُورِهِ لِعِبَادِهِ،وَهِدَايَتَهُ إِيَّاهُمْ،أَرَادَ هُنَا بَيَانَ حَالِ مَنْ اهْتَـدَوا بِـذَلِكَ النُّورِ،وَصِفَاتِهِمْ،فَقَالَ:إِنَّ حَالَ هَؤُلاءِ المُهْتَدِينَ فِي الطَّهَارَةِ مِنَ النَّجَاسَاتِ الحِسِّـيَّةِ والمَعْنَوِيَّـةِ (كاللَّغْوِ والرَّفَثِ فِي الحَدِيثِ) كَمَثَلِ القَنْدِيلِ فِي المِصْبَاحِ المُضِيءِ،الدُّرِي المُقَام فِي بَيْتٍ مِـنْ

[١١٤٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٤٠)

بُيُوت اللهِ التِي أُقِيمَتْ لِعبَادَة اللهِ تَعَالَى فِيهَا،وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مُنَزَّهَةٌ،يَقُومُ فِيهَا بِعبَادَتِه تَعَالَى رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ يُنَزِّهُونَ اللهَ تَعَالَى فِيهَا وَيُقَدِّسُونَه فِي أَوائِلِ النَّهَارِ (الغُدُوِّ) وَفِي آخِرِه (الآصَال) .

وَهَؤُلاءِ الرِّجَالُ،الذِينَ يَعْمُرُونَ بُيُوتَ اللهِ،هُمُ رِجَالٌ أَصْحَابُ هِمَمٍ وَعَزَائِمَ لاَ يُلْهِيهِمْ شَيءٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ،وإِقَامِ الصَّلاَةِ:لاَ تِجَارَةٌ،وَلاَ بَيْعٌ،وَلاَ تَشْغَلُهُم الدُّنْيا وَزُخْرُفُهَا،وَزِينَتُها،وَمَلاذُّهَا،وَلاَ بَيْعُها،ولاَ رِبْحُها..عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ لأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الذي عَنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُمْ وأَنْفَعُ مِمَا بِأَيْدِيهِمْ،وَهُمْ يُقَدِّمُونَ طَاعَةَ رَبِّهِمْ وَمَحَبَّتَه عَلَى مُرَادِهِم وَمَحَبَّتِهِمْ،فَلاَ شَيءَ يُلْهِيهِم عَنْ أَنْ يُؤدُّوا الصَّلاَةَ فِي وَقْتِهَا،لأَنَّهُمْ يَخافُونَ يَومَ القِيامَةِ الذي تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأَبْصَارُ مِنْ شِدَّةِ الفَزَعِ،وَعِظَمِ الهَوْلِ.

وَهَؤُلاَءِ هُمُ الذِينُ يَتَقَبَّلُ اللهُ تَعَالَى حَسَنَاتِهِمْ،وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ،فَيُضَاعِفُ لَهُمُ الحَسَنَات (وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِه)،وَهُوَ تَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ،وَبِدُونَ تَحْدِيدٍ فَهُوَ الكَرِيمُ الجَوَادُ.[1141]

والمراد بالبيوت المساجد التي أمر الله تعالى أن ترفع،ورفعها هو بناؤها واحترامها وتطهيرها وتطييبها،وأن تحفظ وتجنب كل ما لا يليق بها كاللهو واللغو والبيع والشراء وإنشاد الضالة أو النجاسات أو البصاق وغيره من الأقذار أو الروائح الكريهة كالبصل ونحوه،فعَنْ قَتَادَةَ:قَوْلُهُ:" {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [النور:٣٦] وَهِيَ هَذِهِ الْمَسَاجِدُ،أَذِنَ اللَّهُ فِي بِنَائِهَا وَرَفْعِهَا،وَأَمَرَ بِعِمَارَتِهَا وَتَطْهِيرِهَا "[1142].

فعن عُبَيْدِ اللهِ الْخَوْلَانِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ،عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ ﷺ:إِنَّكُمْ قَدْ أَكْثَرْتُمْ،وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى - قَالَ بُكَيْرٌ:حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ:يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ - بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ «وَقَالَ ابْنُ عِيسَى فِي رِوَايَتِهِ» مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ " أخرجه البخاري ومسلم[1143].

[1141] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٠٩،بترقيم الشاملة آليا)

[1142] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٨/ ٢٦٠٥)(١٤٦٣٥) صحيح

[1143] - صحيح مسلم (١/ ٣٧٨)٢٤ - (٥٣٣) وصحيح البخاري (١/ ٩٧)(٤٥٠)

[ش (حين بنى مسجد الرسول ﷺ) أي حين زاد فيه فإنه كان مبنيا]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:«أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ وَأَنْ تُنَظَّفَ وَتُطَيَّبَ» أخرجه أبو داود[1144].

وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُب،قَالَ:" أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَّخِذَ الْمَسَاجِدَ فِي دِيَارِنَا،وَأَمَرَنَا أَنْ نُنَظِّفَهَا " رواه أحمد[1145].

وقال البخاري رحمه الله:" وَأَمَرَ عُمَرُ بِبِنَاءِ المَسْجِدِ وَقَالَ:«أَكِنَّ النَّاسَ مِنَ المَطَرِ،وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ»[1146].

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عَنِ ابْنِ عُمَرَ،«أَنَّ عُمَرَ كَانَ يُجَمِّرُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ جُمُعَةٍ»[1147].

وقوله تعالى:{رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النور:٣٧] هذا ثناء من الله تعالى على عباده الذين يعمرون مساجد الله تعالى بالذكر والصلاة،ولا تشغلهم التجارة والبيع عن ذكر الله وإيقام

(مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا):أَيْ مَعْبَدًا،فَيَتَنَاوَلُ مَعْبَدَ الْكَفَرَةِ فَيَكُونُ لِلَّهِ لِإِخْرَاجِ مَا بَنَى مَعْبَدًا لِغَيْرِ اللَّهِ قَالَهُ ابْنُ الْمَلَكِ.وَالْأَظْهَرُ أَنْ يَكُونَ الْمَسْجِدُ عَلَى بَابِهِ وَيَكُونَ لِلَّهِ لِإِخْرَاجِ مَا بُنِيَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ،وَلِذَا قِيلَ:مَنْ كَتَبَ اسْمَهُ عَلَى بِنَائِهِ دَلَّ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى عَدَمِ إِخْلَاصِهِ.قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَهُوَ ظَاهِرٌ مَا لَمْ يَقْصِدْ بِكِتَابَةِ اسْمِهِ نَحْوَ الدُّعَاءِ وَالتَّرَحُّمِ،وَفِيهِ:أَنَّ الدُّعَاءَ وَالتَّرَحُّمَ يَحْصُلُ مُجْمَلًا وَمُبْهَمًا،فَلَا يُحْتَاجُ تَعْيِينٌ إِلَى الِاسْمِ (بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا):وَفِي نُسْخَةٍ زِيَادَةُ:مِثْلَهُ (فِي الْجَنَّةِ):قَالَ الطِّيبِيُّ:التَّنْكِيرُ فِي (مَسْجِدًا) لِلتَّقْلِيلِ،وَفِي (بَيْتًا) لِلتَّكْثِيرِ وَالتَّعْظِيمِ لِيُوَافِقَ مَا وَرَدَ:(مَنْ بَنَى لِلَّهِ وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ) الْحَدِيثَ اهـ.

قُلْتُ:وَلِيَكُونَ إِشَارَةً إِلَى زِيَادَةِ الْمَثُوبَةِ كَمِّيَّةً وَكَيْفِيَّةً؛لِئَلَّا يَرِدَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام:١٦٠] قَالَ صَاحِبُ الرَّوْضَةِ فِي فَتَاوِيهِ:يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بَيْتًا فَضْلُهُ عَلَى بُيُوتِ الْجَنَّةِ كَفَضْلِ الْمَسْجِدِ عَلَى بُيُوتِ الدُّنْيَا،وَأَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ مِثْلَهُ فِي مُسَمَّى الْبَيْتِ،وَأَمَّا الصِّفَةُ فِي السَّعَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ،كَذَا نَقَلَهُ السَّيِّدُ عَنِ الْأَزْهَارِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٥٩١)

[1144] - سنن أبي داود (١/ ١٢٤)(٤٥٥) وسنن الترمذي ت شاكر (٢/ ٤٨٩)(٥٩٤) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٤/ ٥١٣)(١٦٣٤) صحيح

[1145] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٣/ ٣٥٣)(٢٠١٨٤) صحيح لغيره

[1146] - صحيح البخاري (١/ ٩٧) معلقا بصيغة الجزم

[1147] - مسند أبي يعلى الموصلي (١/ ١٧٠)(١٩٠) ومصنف ابن أبي شيبة (٢/ ١٤١)(٧٤٤٥)إِسْنَادُهُ حَسَنٌ لَا بَأْسَ بِهِ تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٦٥)

وفيه عبد الله بن عمر العمري،قال الذهبي فيه:"وَكَانَ:عَالِماً،عَامِلاً،خَيِّراً،حَسَنَ الحَدِيْثِ."سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/ ٣٤٠)

الصلاة،وقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [المنافقون:٩]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ وَبِأَلاَّ يَشْغَلَهُمْ مَا لَهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِهَّمْ،وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ مَنِ التَهَى عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ وَطَاعَتِهِ بِمَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينتِهَا،فَإِنَّهُ مِنَ الخَاسِرِينَ الذِينَ يَخْسَرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ.[1148]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الجمعة:٩].

يَحُثُّ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَلَى تَرْكِ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ،وَعَلَى السَّعْيِ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ إِلَى المَسَاجِدِ،حِينَمَا يُؤَذِّنُ المُؤَذِّنُ لِصَلاَةِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِ الجُمْعَةِ،لِلاسْتِمَاعِ إِلَى مَوَاعِظِ الخُطَبَاءِ،وَلأَداءِ الصَّلاَةِ مَعَ الجَمَاعَةِ.وَذلِكَ السَّعْيُ إِلَى الصَّلاَةِ خَيْرٌ لِلمُؤْمِنِينَ وَأَبْقَى مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ،هَذَا إِنْ كَانَ المُخَاطَبُونَ مِنْ ذَوِي العِلْمِ الصَّحِيحِ بِمَا يَذرُّ وَيَنْفَعُ.[1149]

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ أنه رَأَى نَاسًا مِنْ أَهْلِ السُّوقِ سَمِعُوا الْأَذَانَ،فَتَرَكُوا أَمْتِعَتَهُمْ وَقَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ،فَقَالَ:" هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ} [النور:٣٧] "[1150]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ:أَنَّهُ كَانَ فِي السُّوقِ فَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَأَغْلَقُوا حَوَانِيتَهُمْ وَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:" فِيهِمْ نَزَلَتْ {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [النور:٣٧] "[1151]

وعَنْ مَطَرٍ،فِي قَوْلِ اللَّهِ:{رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [النور:٣٧] قَالَ:«أَمَا إِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يَشْتَرُونَ وَيَبِيعُونَ،وَلَكِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ،وَمِيزَانُهُ فِي يَدِهِ خَفَضَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى الصَّلَاةِ»[1152].

[1148] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٧٥،بترقيم الشاملة آليا)

[1149] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

[1150] – المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٢٢)(٩٠٧٩) وشعب الإيمان (٤/ ٣٦٧)(٢٦٥٨) فيه مبهم

[1151] – تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل – مخرجا (٨/ ٢٦٠٧)(١٤٦٤٧) فيه ضعف

[1152] – تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل – مخرجا (٨/ ٢٦٠٨)(١٤٦٥٣) صحيح

وعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ،قَالَ:" كَانَ يُقَالُ:خَمْسٌ كَانَ عَلَيْهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالتَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ:لُزُومُ الْجَمَاعَةِ،وَاتِّبَاعُ السُّنَّةِ،وَعِمَارَةُ الْمَسَاجِدِ،وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ،وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ " رواه البيهقي في شعب الإيمان وغيره[1153].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَكَانَتْ " مَوَاضِعُ الْأَئِمَّةِ وَمَجَامِعُ الْأُمَّةِ " هِيَ الْمَسَاجِدَ ؛فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَسَّسَ مَسْجِدَهُ الْمُبَارَكَ عَلَى التَّقْوَى :فَفِيهِ الصَّلَاةُ وَالْقِرَاءَةُ وَالذِّكْرُ ؛وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَالْخُطَبُ .وَفِيهِ السِّيَاسَةُ وَعَقْدُ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ وَتَأْمِيرُ الْأُمَرَاءِ وَتَعْرِيفُ الْعُرَفَاءِ .وَفِيهِ يَجْتَمِعُ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَهُ لِمَا أَهَمَّهُمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ .وَكَذَلِكَ عُمَّالُهُ فِي :مِثْلِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَبِلَادِ الْيَمَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَمْصَارِ وَالْقُرَى وَكَذَلِكَ عُمَّالُهُ عَلَى الْبَوَادِي ؛فَإِنَّ لَهُمْ مَجْمَعًا فِيهِ يُصَلُّونَ وَفِيهِ يُسَاسُونَ ."[1154]

ولا تجوز الصلاة عند القبور،أو بناء المساجد فوقها،أو دفن الأموات في المساجد لأن ذلك من وسائل الشرك،والافتتان بأهل القبور،والتدرج إلى عبادتهم[1155]،فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ،أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ،وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ،فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:«إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ،بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا،وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ،فَأُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» رواه البخاري ومسلم[1156].

[1153] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٤٢) وشعب الإيمان (٤/ ٣٧٢)(٢٦٧١) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٧١)(٤٨) صحيح

[1154] -

[1155] - قلت:أصبحت عبادة القبور من قبل المسلمين نادرة جدا ....

[1156] - صحيح البخاري (١/ ٩٣)(٤٢٧) وصحيح مسلم (١/ ٣٧٥)١٦ - (٥٢٨)

[ش (كنيسة) هي معبد النصارى وقيل هي معبد اليهود (رأينها) أي رأتاها مع من معهما من المهاجرات إليها (أولئك) إشارة إلى أهل الحبشة والخطاب للمؤنث التي تلك الكنيسة]

وَالْمَعْنَى أُولَئِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،أَوْ مِنْ جَمَاعَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى (إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ):أَيْ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ (بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا):أَيْ مُتَعَبَّدًا وَسَمُّوهُ كَنِيسَةً (ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ):أَيْ صُوَرُ الصُّلَحَاءِ تَذْكِيرًا بِهِمْ وَتَرْغِيبًا فِي الْعِبَادَةِ لِأَجْلِهِمْ،ثُمَّ جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ،وَقَالَ لَهُمْ:سَلَفُكُمْ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ فَوَقَعُوا فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.(أُولَئِكَ):أَيِ الْبَانُونَ وَالْمُصَوِّرُونَ (شِرَارُ خَلْقِ اللَّهِ):لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا عِبَادَ اللَّهِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٨٥٧)

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ،أَنَّ عَائِشَةَ،وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ،قَالاَ:لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ،فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ،فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ:«لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا"قَالَتْ:«فَلَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ،غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا» أخرجه البخاري ومسلم[1157].

[1157] - صحيح البخاري (1/ 95)(435) وصحيح مسلم (1/ 376)19 - (529)

[ش(نزل) أي نزلت به سكرات الموت.(طفق) جعل وشرع.(يطرح خميصة) يلقي كساء مربعا أسود له أعلام أي خطوط.(اغتم) تسخن وأخذ بنفسه من شدة الحر.(اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) صاروا يصلون إليها (يحذر ما صنعوا) يحذر أمته أن يصنعوا بقبره مثل ما صنعوا]

سَبَبُ لَعْنِهِمْ إِمَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْجُدُونَ لِقُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ تَعْظِيمًا لَهُمْ،وَذَلِكَ هُوَ الشِّرْكُ الْجَلِيُّ،وَإِمَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الصَّلَاةَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي مَدَافِنِ الْأَنْبِيَاءِ،وَالسُّجُودَ عَلَى مَقَابِرِهِمْ،وَالتَّوَجُّهَ إِلَى قُبُورِهِمْ حَالَةَ الصَّلَاةِ؛نَظَرًا مِنْهُمْ بِذَلِكَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَعْظِيمِ الْأَنْبِيَاءِ،وَذَلِكَ هُوَ الشِّرْكُ الْخَفِيُّ لِتَضَمُّنِهِ مَا يَرْجِعُ إِلَى تَعْظِيمِ مَخْلُوقٍ فِيمَا لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،فَنَهَى النَّبِيُّ - ﷺ- أُمَّتَهُ عَنْ ذَلِكَ لِمُشَابَهَةِ ذَلِكَ الْفِعْلِ سُنَّةَ الْيَهُودِ،أَوْ لِتَضَمُّنِهِ الشِّرْكَ الْخَفِيَّ،كَذَا قَالَهُ بَعْضُ الشُّرَّاحِ مِنْ أَئِمَّتِنَا،وَيُؤَيِّدُهُ مَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ:(يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا)،وَقَالَ الْقَاضِي:كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَسْجُدُونَ لِقُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ وَيَجْعَلُونَهَا قِبْلَةً،وَيَتَوَجَّهُونَ فِي الصَّلَاةِ نَحْوَهَا،فَقَدِ اتَّخَذُوهَا أَوْثَانًا،فَلِذَلِكَ لَعَنَهُمْ،وَمَنَعَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ،أَمَّا مَنِ اتَّخَذَ مَسْجِدًا فِي جِوَارِ صَالِحٍ،أَوْ صَلَّى فِي مَقْبَرَةٍ وَقَصَدَ الِاسْتِظْهَارَ بِرُوحِهِ،أَوْ وُصُولَ أَثَرٍ مَا مِنْ أَثَرِ عِبَادَتِهِ إِلَيْهِ،لَا لِلتَّعْظِيمِ لَهُ وَالتَّوَجُّهِ نَحْوَهُ،فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ،أَلَا تَرَى أَنَّ مَرْقَدَ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عِنْدَ الْحَطِيمِ،ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْمَسْجِدَ أَفْضَلُ مَكَانٍ يَتَحَرَّى الْمُصَلِّي لِصَلَاتِهِ،وَالنَّهْيُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَقَابِرِ مُخْتَصٌّ بِالْقُبُورِ الْمَنْبُوشَةِ،لِمَا فِيهَا مِنَ النَّجَاسَةِ،كَذَا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ وَذَكَرَ غَيْرُهُ أَنَّ صُورَةَ قَبْرِ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْحِجْرِ تَحْتَ الْمِيزَابِ،وَأَنَّ فِي الْحَطِيمِ بَيْنَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَزَمْزَمَ قَبْرُ سَبْعِينَ نَبِيًّا،وَفِيهِ أَنَّ صُورَةَ قَبْرِ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَغَيْرِهِ مُنْدَرِسَةٌ فَلَا يَصْلُحُ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:أَشَارَ الشَّارِحُ إِلَى اسْتِشْكَالِ الصَّلَاةِ عِنْدَ قَبْرِ إِسْمَاعِيلَ،بِأَنَّهَا تُكْرَهُ فِي الْمَقْبَرَةِ،وَأَجَابَ:بِأَنَّ مَحَلَّهَا فِي مَقْبَرَةٍ مَنْبُوشَةٍ لِنَجَاسَتِهَا،وَكُلُّهُ غَفْلَةٌ عَنْ قَوْلِهِمْ:يُسْتَثْنَى مَقَابِرُ الْأَنْبِيَاءِ،فَلَا يُكْرَهُ الصَّلَاةُ فِيهَا مُطْلَقًا؛لِأَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ،وَعَلَى التَّنَزُّلِ فَجَوَابُهُ غَيْرُ صَحِيحٍ لِتَصْرِيحِهِمْ بِكَرَاهَةِ الصَّلَاةِ فِي مَقْبَرَةٍ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ،وَإِنْ لَمْ تُنْبَشْ لِأَنَّهُ مُحَاذٍ لِلنَّجَاسَةِ،وَمُحَاذَاتُهَا فِي الصَّلَاةِ مَكْرُوهَةٌ،وَسَوَاءٌ كَانَتْ فَوْقَهُ أَوْ خَلْفَهُ أَوْ تَحْتَ مَا هُوَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ.

وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:اخْتُلِفَ فِي الصَّلَاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ فَكَرِهَهَا جَمَاعَةٌ،وَإِنْ كَانَتِ التُّرْبَةُ طَاهِرَةً وَالْمَكَانُ طَيِّبًا،وَاحْتَجُّوا بِهَذَا الْحَدِيثِ وَالَّذِي بَعْدَهُ،وَقِيلَ:بِجَوَازِهَا فِيهَا،وَتَأْوِيلُ الْحَدِيثِ أَنَّ الْغَالِبَ مِنْ حَالِ الْمَقْبَرَةِ اخْتِلَاطُ تُرْبَتِهَا بِصَدِيدِ الْمَوْتَى وَلُحُومِهَا،وَالنَّهْيُ لِنَجَاسَةِ الْمَكَانِ،فَإِنْ كَانَ الْمَكَانُ طَاهِرًا فَلَا بَأْسَ،وَكَذَلِكَ الْمَزْبَلَةُ وَالْمَجْزَرَةُ وَقَارِعَةُ الطَّرِيقِ،وَفِي الْقَارِعَةِ مَعْنًى آخَرُ،وَهُوَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْمَارَّةِ يَشْغَلُهُ عَنِ الصَّلَاةِ،قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَقَدْ صَحَّ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ بِالْمَقْبَرَةِ،وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا النَّهْيِ هَلْ هُوَ لِلتَّنْزِيهِ أَوْ لِلتَّحْرِيمِ؟ وَمَذْهَبُنَا الْأَوَّلُ،وَمَذْهَبُ أَحْمَدَ التَّحْرِيمُ،بَلْ وَعَدَمُ انْعِقَادِ الصَّلَاةِ؛لِأَنَّ النَّهْيَ عِنْدَهُ فِي الْأَمْكِنَةِ يُفِيدُ التَّحْرِيمَ وَالْبُطْلَانَ كَالْأَزْمِنَةِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (2/ 600)

وكل موضع يصلى فيه فهومسجد ولو لم يشيد عليه بناء،فيدخل في النهي المساجد والمشاهد والقباب التي بنيت على القبور،وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ،قَالَ:حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ،وَهُوَ يَقُولُ:«إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ،فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا،كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا،وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا،أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ،أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ،إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» أخرجه مسلم[١١٥٨].

فالمساجد والمشاهد والقباب والحجر التي بنيت فوق القبور يجب هدمها وإزالتها،لأنها أسست على معصية الله تعالى،قال الإمام ابن القيم رحمه الله:" فَيُهْدَمُ الْمَسْجِدُ إِذَا بُنِيَ عَلَى قَبْرٍ،كَمَا يُنْبَشُ الْمَيِّتُ إِذَا دُفِنَ فِي الْمَسْجِدِ،نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ،فَلَا يَجْتَمِعُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ مَسْجِدٌ وَقَبْرٌ،بَلْ أَيُّهُمَا طَرَأَ عَلَى الْآخَرِ مَنَعَ مِنْهُ،وَكَانَ الْحُكْمُ لِلسَّابِقِ،فَلَوْ وُضِعَا مَعًا لَمْ يَجُزْ،وَلَا يَصِحُّ هَذَا الْوَقْفُ،وَلَا يَجُوزُ،وَلَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ؛ لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ وَلَعْنِهِ مَنِ اتَّخَذَ الْقَبْرَ مَسْجِدًا أَوْ أَوْقَدَ عَلَيْهِ سِرَاجًا،فَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَنَبِيَّهُ،وَغُرْبَتُهُ بَيْنَ النَّاسِ كَمَا تَرَى"[١١٥٩]

وقال الشوكاني :"إنَّ مَحِلَّ الذَّمِّ عَلَى ذَلِكَ أَنْ تُتَّخَذَ الْمَسَاجِدُ عَلَى الْقُبُورِ بَعْدَ الدَّفْنِ،لَا لَوْ بُنِيَ الْمَسْجِدُ أَوَّلًا وَجُعِلَ الْقَبْرُ فِي جَانِبِهِ لِيُدْفَنَ فِيهِ وَاقِفُ الْمَسْجِدِ أَوْ غَيْرُهُ فَلَيْسَ بِدَاخِلٍ فِي ذَلِكَ.قَالَ الْعِرَاقِيُّ:وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا فَرْقَ،وَأَنَّهُ إذَا بُنِيَ الْمَسْجِدُ لِقَصْدِ أَنْ يُدْفَنَ فِي بَعْضِهِ أَحَدٌ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي اللَّعْنَةِ بَلْ يَحْرُمُ الدَّفْنُ فِي الْمَسْجِدِ وَإِنْ شَرَطَ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ لَمْ يَصِحَّ الشَّرْطُ لِمُخَالَفَتِهِ وَقْفَهُ مَسْجِدًا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ انْتَهَى.وَاسْتَنْبَطَ الْبَيْضَاوِيُّ مِنْ عِلَّةِ التَّعْظِيمِ جَوَازَ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ فِي جِوَارِ الصُّلَحَاءِ لِقَصْدِ التَّبَرُّكِ دُونَ التَّعْظِيمِ.وَرُدَّ بِأَنَّ قَصْدَ التَّبَرُّكِ تَعْظِيمٌ."[١١٦٠]

[١١٥٨] - صحيح مسلم (١/ ٣٧٧)٢٣ - (٥٣٢)

[ش (أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل) معنى أبرأ أي أمتنع من هذا وأنكره والخليل هو المنقطع إليه وقيل المختص بشيء دون غيره قيل هو مشتق من الخلة (بفتح الخاء) وهي الحاجة وقيل من الخلة (بضم الخاء) وهي تخلل المودة في القلب]

[١١٥٩] - زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٥٠١)

[١١٦٠] - نيل الأوطار (٢/ ١٥٩) وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ٢٠١)

وقَالَ الشَّافِعِيّ – رَحِمَهُ اللَّه – :وَأَكْرَه أَنْ يُعَظَّم مَخْلُوق حَتَّى يُجْعَل قَبْره مَسْجِدًا مَخَافَة الْفِتْنَة عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ بَعْده مِنْ النَّاس .[١١٦١]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رواه أهل السنن[١١٦٢].

وفي مشكل الآثار :" بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي لَعْنِهِ زَائِـرَاتِ الْقُبُـورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ

فَتَأَمَّلْنَا هَذَا الْحَدِيثَ،فَوَجَدْنَاهُ مُحْتَمِلًا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ إِبَاحَتِهِ زِيَارَةَ الْقُبُورِ،وَوَجَدْنَاهُ مُحْتَمِلًا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ اتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ وَالسُّرُجِ مَعَ ذَلِكَ،وَيَكُونُ الْوُصُولُ إِلَى ذَلِكَ بِالزِّيَارَةِ لِلْقُبُورِ الْمُتَّخَذِ ذَلِكَ عَلَيْهَا،وَتَكُونُ الزِّيَارَةُ لِلْقُبُورِ مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُتَّخَذًا قَبْلَهَا مُبَاحَةً فَنَظَرْنَا فِيمَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي إِبَاحَتِهِ زِيَارَةَ الْقُبُورِ،بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَنْهِيًّا عَنْهَا،فعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ،فَنَزَلَ بِنَا،وَنَحْنُ قَرِيبٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ،فَصَلَّى بِنَا رَكْعَتَيْنِ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا

[١١٦١] – شرح النووي على مسلم (٧/ ٣٨)

[١١٦٢] – السنن الكبرى للنسائي (٢/ ٤٦٩)(٢١٨١) وسنن أبي داود (٣/ ٢١٨)(٣٢٣٦) وسنن الترمذي ت شاكر (٢/ ١٣٦)(٣٢٠) وحسنه وصحيح ابن حبان – مخرجا (٧/ ٤٥٣)(٣١٨٠) ومسند أحمد ط الرسالة (٤/ ٣٦٣)(٢٦٠٣)

حسن لغيره – دون السرج– فهي ضعيفة

فِي شَرْحِ السُّنَّةِ قِيلَ:هَذَا كَانَ قَبْلَ التَّرَخُّصِ،فَلَمَّا رُخِّصَ دَخَلَ فِي الرُّخْصَةِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ،وَقِيلَ:بَلْ نَهْيُ النِّسَاءِ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ بَاقٍ لِقِلَّةِ صَبْرِهِنَّ،وَكَثْرَةِ جَزَعِهِنَّ إِذَا رَأَيْنَ الْقُبُورَ اهـــ،وَمُرَادُهُ بِالتَّرَخُّصِ قَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –:(«كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا لِأَنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ»)،وَيُمْكِنُ حَمْلُ النَّهْيِ عَلَى عَجَائِزَ مُتَطَيِّبَاتٍ،وَمُتَزَيِّنَاتٍ،أَوْ عَلَى شَوَابَّ وَلَوْ فِي ثِيَابِ بِذْلَتِهِنَّ لِوُجُودِ الْفِتْنَةِ فِي خُرُوجِهِنَّ عَلَى قِيَاسِ كَرَاهَةِ خُرُوجِهِنَّ إِلَى الْمَسَاجِدِ،قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ:زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ جَمْعَ زَوَّارَةٍ وَهِيَ لِلْمُبَالَغَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ زَارَ مِنْهُنَّ عَلَى الْعَادَةِ فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْمَلْعُونَاتِ اهـــ.

وَيُسْتَثْنَى زِيَارَةُ قَبْرِهِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَنْ هَذَا الْعُمُومِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ،(وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ):قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:إِنَّمَا حُرِّمَ اتِّخَاذُ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا؛لِأَنَّ فِي الصَّلَاةِ فِيهَا اسْتِنَانًا بِسُنَّةِ الْيَهُودِ اهـــ.وَقَيْدُ " عَلَيْهَا " يُفِيدُ أَنَّ اتِّخَاذَ الْمَسَاجِدِ بِجَنْبِهَا لَا بَأْسَ بِهِ،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –:(«لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ»)،(وَالسُّرُجَ):جَمْعَ سِرَاجٍ،وَالنَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ السُّرُجِ لِمَا فِيهِ مِنْ تَضْيِيعِ الْمَالِ،لِأَنَّهُ لَا نَفْعَ لِأَحَدٍ مِنَ السِّرَاجِ،وَلِأَنَّهَا مِنْ آثَارِ جَهَنَّمَ،وَإِمَّا لِلِاحْتِرَازِ عَنْ تَعْظِيمِ الْقُبُورِ،كَالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ،كَذَا قَالَهُ بَعْضُ عُلَمَائِنَا"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٦١٩)

بِوَجْهِهِ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ،فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ،فَفَدَاهُ بِالْأَبِ وَالْأُمِّ،يَقُولُ:مَا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:" إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي الاسْتِغْفَارِ لِأُمِّي،فَلَمْ يَأْذَنْ لِي،فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ،وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ،فَزُورُوهَا،وَلْتَزِدْكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا،وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ بَعْدَ ثَلَاثٍ،فَكُلُوا وَأَمْسِكُوا مَا شِئْتُمْ،وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ الْأَشْرِبَةِ فِي الْأَوْعِيَةِ،فَاشْرَبُوا فِي أَيِّ وِعَاءٍ شِئْتُمْ،وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا "

وعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،حَدَّثَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ،فَزُورُوهَا،فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً،وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ،أَلَا فَانْتَبِذُوا،وَلَا أُحِلُّ مُسْكِرًا،وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ،فَكُلُوا وَادَّخِرُوا "

فَكَانَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِذْنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ بَعْدَ نَهْيِهِ كَانَ عَنْ زِيَارَتِهَا قَبْلَ ذَلِكَ،فَقَوِيَ فِي قُلُوبِنَا أَنْ يَكُونَ اللَّعْنُ الْمَذْكُورُ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ:إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى مُتَّخِذِي الْمَسَاجِدِ وَالسُّرُجِ عَلَيْهَا لَا عَلَى زَائِرِيهَا خَاصَّةً مِمَّنْ لَيْسَ فِي زِيَارَتِهِ قَصْدٌ لِمَسْجِدٍ اتَّخَذَهُ عَلَيْهَا،وَلَا لِسِرَاجٍ يُوقِدُهُ عَلَيْهَا ،وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَعْنِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لِاتِّخَاذِهِمْ كَانَ مِثْلَ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ ،أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ،أَنَّ عَائِشَةَ،وَابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَا:إِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ،طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ،فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ قَالَ:وَهُوَ كَذَلِكَ،يَقُولُ:" لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ " يُحَذِّرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا "

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَوَقَفْنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى قَصْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالتَّحْذِيرِ مِنَ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ فَوَقَفْنَا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ لِلَّعْنِ الَّذِي فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّمَا كَانَ لِمَنْ هَذِهِ سَبِيلُهُ،وَلَا لِمَنْ سِوَاهُ مِنْ زَائِرِي الْقُبُورِ،لَا لِمِثْلِ ذَلِكَ،وَلَكِنْ لِمَا سِوَاهُ مِمَّا أَبَاحَ زِيَارَتَهَا مِنْ أَجْلِهِ،وَقَصَدْنَا إِلَى حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ هَذَا؛لِأَنَّ فِيهِ أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ وَفَاتِهِ،وَأَنَّهُ لَا نَاسِخَ لَهُ،وَغَنِينَا بِذَلِكَ عَنْ ذِكْرِنَا مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي لَعْنَةِ الْيَهُودِ

وَالنَّصَارَى لِاتِّخَاذِهِمْ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ،مِمَّا قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ هَذَا الْكَلَامِ،وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[١١٦٣]

وفي الموسوعة الفقهية :" يُكْرَهُ إِيقَادُ النَّارِ فِي الْمَسْجِدِ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ،كَالتَّبْخِيرِ وَالاِسْتِصْبَاحِ وَالتَّدْفِئَةِ ؛لأَِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِمَصْلَحَةٍ كَانَ تَشَبُّهًا بِعَبَدَةِ النَّارِ،فَهُوَ حِينَئِذٍ حَرَامٌ .

وَأَمَّا إِيقَادُ النَّارِ،كَالسُّرُجِ وَغَيْرِهَا،عِنْدَ الْقُبُورِ فَلاَ يَجُوزُ،لِلْحَدِيثِ الْمذكور.فَإِذَا كَانَتْ هُنَاكَ مَصْلَحَةٌ ظَاهِرَةٌ تَقْتَضِي الإِضَاءَةَ كَدَفْنِ الْمَيِّتِ لَيْلاً فَهُوَ جَائِزٌ ."[١١٦٤]

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ.اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»رواه الإمام مالك في الموطأ[١١٦٥]

وهو يدل على أن الغلو في قبور الصالحين يجعلها أوثانا تعبد دون الله تبارك وتعالى.

وأما قصد أهل القبور بالعبادة كالصلاة أو السجود أو الدعاء أو الاستغاثة أو غيرها من أنواع العبادة فهو من الشرك الأكبر الذي يخرج صاحبه من الملة[١١٦٦].

[١١٦٣] - شرح مشكل الآثار (١٢/ ١٧٨) فما بعد

[١١٦٤] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ١٢١)

[١١٦٥] - موطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ١٧٢)(٨٥) صحيح لغيره

أَيْ:لَا تَجْعَلْ قَبْرِي مِثْلَ الْوَثَنِ فِي تَعْظِيمِ النَّاسِ،وَعَوْدِهِمْ لِلزِّيَارَةِ بَعْدَ بَدْئِهِمْ،وَاسْتِقْبَالِهِمْ نَحْوَهُ فِي السُّجُودِ،كَمَا نَسْمَعُ وَنُشَاهِدُ الْآنَ فِي بَعْضِ الْمَزَارَاتِ وَالْمَشَاهِدِ (اشْتَدَّ):وَفِيهِ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ لَامَ الشَّيْطَانِ لِلْعَهْدِ،وَالْمُرَادُ مِنْهُ قَرِينُهُ الْمُوَكَّلُ عَلَى إِغْوَائِهِ،وَأَنَّ الْقَائِلَ بِبَرَكَةِ مَا ذُكِرَ مِنَ الذِّكْرِ يُحْفَظُ مِنْهُ فِي الْجُمْلَةِ ذَلِكَ الْوَقْتَ يَعْنِي بَعْضَ الْمَعَاصِي،وَتَعْيِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى،وَبِهِ يَرْتَفِعُ أَصْلُ الْإِشْكَالِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْحَالِ،كَأَنَّهُ قِيلَ:لِمَ تَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ؟ فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ:اشْتَدَّ (غَضَبُ اللَّهِ):تَرَحُّمًا عَلَى أُمَّتِهِ وَتَعَطُّفًا لَهُمْ،قَالَ الطِّيبِيُّ،وَتَبِعَهُ ابْنُ حَجَرٍ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ إِخْبَارٌ عَمَّا وَقَعَ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ تَحْذِيرًا لِلْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ مِنْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلَهُمْ،فَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ عَلَيْهِمْ (عَلَى قَوْمٍ):وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى («اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ») مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٦٢٨)

[١١٦٦] - قلت:ليس كلها متفق عليها فالاستغاثة والتوسل جائز عند جمهور الفقهاء كما ذكرت سابقاً،وكذا الدعاء أيضاً

قال ابن تيمية رحمه الله:

فمما يدخل في هذا:قصد القبور للدعاء عندها أو بها .فإن الدعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلى نوعين:

أحدهما:أن يحصل الدعاء في البقعة بحكم الاتفاق،لا لقصد الدعاء فيها،كمن يدعو الله في طريقه،ويتفق أن يمر بالقبور أو كمن يزورها فيسلِّم عليها،ويسأل الله العافية له وللموتى،كما جاءت به السُّنَّة،فهذا ونحوه لا بأس به .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا،وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا،وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»[١١٦٧]

" لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ") :بِكَسْرِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا (قُبُورًا)،أَيْ:كَالْقُبُورِ الْخَالِيَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ،بَلِ اجْعَلُوا لَهَا نَصِيبًا مِنَ الْعِبَادَةِ النَّافِلَةِ لِحُصُولِ الْبَرَكَةِ النَّازِلَةِ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ لَا تَدْفِنُوا مَوْتَاكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ،وَرَدَّ الْخَطَّابِيُّ بِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُفِنَ فِي بَيْتِهِ الَّذِي كَانَ يَسْكُنُهُ مَرْدُودٌ بِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْخَصَائِصِ لِحَدِيثِ:" «مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا وَدُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ» "،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى:لَا تَجْعَلُوا الْقُبُورَ مَسَاكِنَكُمْ لِئَلَّا تَزُولَ الرِّقَّةُ وَالْمَوْعِظَةُ وَالرَّحْمَةُ،بَلْ زُورُوهَا وَارْجِعُوا إِلَى بُيُوتِكُمْ،أَوْ لِئَلَّا تَحْصُلَ لَكُمُ الْجَذْبَةُ الْكَامِلَةُ وَيَنْقَطِعَ عَنْكُمْ نِظَامُ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ،وَلِذَا قِيلَ:لَوْلَا الْحَمْقَى لَخَرِبَتِ الدُّنْيَا،وَلِهَذَا الْمَعْنَى نُهِيَتِ النِّسَاءُ عَنْ كَثْرَةِ زِيَارَةِ

الثاني:أن يتحرَّى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره،فهذا النوع منهيٌّ عنه إما نهيُ تحريم أو تنزيه وهو إلى التحريم أقرب،والفرقُ بين البابين ظاهرٌ" اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ١٩٥) والخلاصة في أحكام الاستغاثة والتوسل -ط٢ (ص:١٠٠)

والمفهوم من كلام ابن تيمية هو أن المنهي عنه حقيقة هو تحرِّي الدعاء عند القبور أو قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك،أو تستشعر أن الدعاء عند القبر أجوب من غيره،أمَّا أن يدعو الله تعالى في طريقه ويتفق أن يمرَّ بالقبور فيدعو عندها أو أن يزور قبراً فيسلِّم على صاحبه ثم يدعو في مكانه ذلك فلا يلزمه أن يتحوَّل إلى القبلة ولا يقال في حقه:إنه مشركٌ أو مبتدعٌ.

الخلاصة في أحكام الاستغاثة والتوسل -ط٢ (ص:١٠٠)

وقد سُئِلَ الشيخ محمد بن عبد الوهاب- رحمه الله - عن قولهم في الاستسقاء :(لا بأس بالتوسل بالصالحين) وقول أحمد:(يتوسل بالنبي - ﷺ - خاصة) مع قولهم:(إنه لا يستغاثُ بمخلوق) .فقال ابن عبد الوهاب مجيبا:"فالفرق ظاهر جداً وليس الكلام مما نحن فيه،فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين وبعضهم يخصه بالنبي - ﷺ -،وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه،فهذه المسألة من مسائل الفقه وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور:إنه مكروه،فلا ننكر على من فعله ولا إنكار في مسائل الاجتهاد،لكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره يطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإعطاء الرغبات،فأين هذا ممن يدعو الله مخلصاً له الدين لا يدعو مع الله أحداً،ولكن يقول في دعائه:أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين،أو يقصد قبر معروف أو غيره يدعو عنده لكن لا يدعو إلا الله مخلصاً له الدين،فأين هذا مما نحن فيه" ."

من فتاوى الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في مجموع المؤلفات القسم الثالث ص٦٨ التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب.ولقاءات الباب المفتوح - (ج ٢١٤ / ص ٢٢) والخلاصة في أحكام الاستغاثة والتوسل -ط٢ (ص:١٠١)

[١١٦٧] - سنن أبي داود (٢/ ٢١٨)(٢٠٤٢) وشعب الإيمان (٦/ ٥٢)(٣٨٦٥) صحيح

الْقُبُورِ،وَقِيلَ:الْمَعْنَى اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَجْعَلُوهَا قُبُورًا ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا مَاتَ وَصَارَ فِي قَبْرِهِ لَمْ يُصَلِّ،وَقِيلَ:لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ وَطَنًا لِلنَّوْمِ فَقَطْ لَا تُصَلُّونَ فِيهَا،فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ وَالْمَيِّتُ لَا يُصَلِّي،وَقَالَ التُّورِبَشْتِيُّ:وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ فِي بَيْتِهِ جَعَلَ نَفْسَهُ كَالْمَيِّتِ،وَبَيْتَهُ كَالْقَبْرِ،اهـ.

وَقَدْ وَرَدَ مَا يُؤَيِّدُ هَذَا،فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ:" «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ،كَمَثَلِ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» "،فَالْمَعْنَى لَا تَكُونُوا كَالْمَوْتَى الَّذِينَ لَا يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ وَهِيَ الْقُبُورُ،أَوْ لَا تَتْرُكُوا الصَّلَاةَ فِيهَا حَتَّى تَصِيرُوا كَالْمَوْتَى وَتَصِيرَ هِيَ كَالْقُبُورِ،وَبِمَا يُؤَيِّدُ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى:" «اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا» "،وَقَالَ بَعْضُ أَرْبَابِ اللَّطَائِفِ:يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ كَالْقُبُورِ خَالِيَةً عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ لِلزَّائِرِينَ،(" «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا» ") :هُوَ وَاحِدُ الْأَعْيَادِ،أَيْ:لَا تَجْعَلُوا زِيَارَةَ قَبْرِي عِيدًا،أَوْ لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي مَظْهَرَ عِيدٍ،فَإِنَّهُ يَوْمُ لَهْوٍ وَسُرُورٍ،وَحَالُ الزِّيَارَةِ خِلَافُ ذَلِكَ،وَقِيلَ:مُحْتَمَلٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْحَثَّ عَلَى كَثْرَةِ زِيَارَتِهِ،وَلَا يُجْعَلُ كَالْعِيدِ الَّذِي لَا يَأْتِي فِي الْعَامِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:نَهَاهُمْ عَنِ الِاجْتِمَاعِ لَهَا اجْتِمَاعَهُمْ لِلْعِيدِ نُزْهَةً وَزِينَةً،وَكَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى تَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ،فَأَوْرَثَهُمُ الْغَفْلَةَ وَالْقَسْوَةَ،وَمِنْ عَادَةِ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ يُعَظِّمُونَ أَمْوَاتَهُمْ حَتَّى اتَّخَذُوهَا أَصْنَامًا،وَإِلَى هَذَا أَشَارَ لِقَوْلِهِ:" «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» " فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنَ النَّهْيِ كَرَاهَةَ أَنْ يَتَجَاوَزُوا فِي قَبْرِهِ غَايَةَ التَّجَاوُزِ،وَلِهَذَا وَرَدَ:" «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» "،وَقِيلَ:الْعِيدُ اسْمٌ مِنَ الِاعْتِيَادِ يُقَالُ:عَادَهُ وَاعْتَادَهُ وَتَعَوَّدَهُ،أَيْ:صَارَ عَادَةً لَهُ،وَالْعِيدُ مَا اعْتَادَكَ مِنْ هَمٍّ أَوْ غَيْرِهِ،أَيْ:لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي مَحَلَّ اعْتِيَادٍ فَإِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى سُوءِ الْأَدَبِ وَارْتِفَاعِ الْحِشْمَةِ،وَلَا يُظَنُّ أَنَّ دُعَاءَ الْغَائِبِ لَا يَصِلُ إِلَيَّ،وَلِذَا عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ:(«وَصَلُّوا عَلَيَّ،فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي») :قَالَ الطِّيبِيُّ:وَذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ الزَّكِيَّةَ الْقُدُسِيَّةَ إِذَا تَجَرَّدَتْ عَنِ الْعَلَائِقِ الْبَدَنِيَّةِ عَرَجَتْ وَوَصَلَتْ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى،وَلَمْ يَبْقَ

لَهَا حِجَابٌ،فَتَرَى الْكُلَّ كَالْمُشَاهَد بنَفْسهَا،أَوْ بإِخْبَارِ الْمَلك لَهَا،وَفيه سرٌّ يَطَّلعُ عَلَيْه مَنْ تَيَسَّرَ لَهُ اهـــ.فَيَكُونُ نَهْيُهُ عَلَيْه السَّلَامُ لدَفْعِ الْمَشَقَّة عَنْ أُمَّته رَحْمَةً [عَلَيْهِمْ] "[1168]

ومَعْنَى الْحَديث لاَ تُعَطِّلُوا الْبُيُوتَ منَ الصَّلاَة فيهَا وَالدُّعَاء وَالْقرَاءَة فَتَكُونُ بمَنْزلَة الْقُبُور،فَأَمَرَ بتَحَرِّي الْعبَادَة بالْبُيُوت وَنَهَى عَنْ تَحَرِّيهَا عنْدَ الْقُبُور،عَكْسَ مَا يَفْعَلُهُ الْمُشْركُونَ منَ النَّصَارَى وَمَنْ تَشَبَّهَ بهِمْ منْ هَذه الأُمَّة .وَالْعيدُ اسْمُ مَا يَعُودُ منَ الاجْتمَاعِ الْعَامِّ عَلَى وَجْهٍ مُعْتَادٍ عَائـــدًا مَا يَعُودُ السَّنَةَ أَوْ يَعُودُ الأُسْبُوعَ أَوِ الشَّهْرَ وَنَحْوَ ذَلكَ .

قَال في عَوْن الْمَعْبُود :قَال ابْنُ الْقَيِّم :الْعيدُ مَا يُعْتَادُ مَجيؤُهُ وَقَصْدُهُ منْ زَمَنٍ وَمَكَان مَـــأْخُوذ منَ الْمُعَاوَدَة وَالاعْتيَاد،فَإِذَا كَانَ اسْمًا للْمَكَان فَهُوَ الْمَكَانُ الَّـــذي يُقْصَـــدُ فيـــه الاجْتمَـــاعُ وَالانْتيَابُ بالْعبَادَة وَبغَيْرهَا كَمَا أَنَّ الْمَسْجدَ الْحَرَامَ وَمنًى وَمُزْدَلفَةَ وَعَرَفَةَ وَالْمَشَاعرَ جَعَلَهَـــا اللَّهُ تَعَالَى عيدًا للْحُنَفَاء وَمَثَابَةً للنَّاس،كَمَا جَعَل أَيَّامَ الْعيد منْهَا عيدًا .وَكَانَ للْمُشْركينَ أَعْيَـــادٌ زَمَانيَّةٌ وَمَكَانيَّةٌ فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بالإِسْلاَمِ أَبْطَلَهَا وَعَوَّضَ الْحُنَفَاءَ منْهَـــا عيـــدَ الْفطْـــرِ وَعيـــدَ النَّحْر،كَمَا عَوَّضَهُمْ عَنْ أَعْيَاد الْمُشْركينَ الْمَكَانيَّة بكَعْبَة وَمنًى وَمُزْدَلفَةَ وَسَائر الْمَشَاعر .

قَال الْمُنَاويُّ في فَيْضِ الْقَدير :مَعْنَاهُ النَّهْيُ عَنِ الاجْتمَاعِ لزيَارَته اجْتمَاعَهُمْ للْعيـــد،إِمَّا لـــدَفْعِ الْمَشَقَّة أَوْ كَرَاهَةَ أَنْ يَتَجَاوَزُوا حَدَّ التَّعْظيم .وَقيل :الْعيدُ مَا يُعَادُ إِلَيْه أَيْ لاَ تَجْعَلُوا قَبْري عيدًا تَعُودُونَ إِلَيْه مَتَى أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَلُّوا عَلَيَّ،فَظَاهرُهُ مَنْهيٌّ عَنِ الْمُعَـــاوَدَة وَالْمُـــرَادُ الْمَنْـــعُ عَمَّـــا يُوجبُهُ،وَهُوَ ظَنُّهُمْ بأَنَّ دُعَاءَ الْغَائب لاَ يَصل إِلَيْه،وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ :وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُني حَيْثُ كُنْتُمْ (١) أَيْ لاَ تَتَكَلَّفُوا الْمُعَاوَدَةَ إِلَيَّ فَقَد اسْتَغْنَيْتُمْ بالصَّلاَة عَلَيَّ .

قَال الْمُنَاويُّ :وَيُؤْخَذُ منْهُ أَنَّ اجْتمَاعَ الْعَامَّة في بَعْضِ أَضْرحَة الأَوْليَاء فـــي يَـــوْمٍ أَوْ شَـــهْرٍ مَخْصُوصٍ منَ السَّنَة وَيَقُولُونَ :هَذَا يَوْمُ مَوْلد الشَّيْخ،وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَرُبَّمَا يَرْقُصُونَ فيـــه مَنْهيٌّ عَنْهُ شَرْعًا،وَعَلَى وَليِّ الشَّرْعِ رَدْعُهُمْ عَلَى ذَلكَ،وَإِنْكَارُهُ عَلَيْهِمْ وَإِبْطَالُهُ .

وَقَال شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابْنُ تَيْميَّةَ :الْحَديثُ يُشيرُ إِلَى أَنَّ مَا يَنَالُني منْكُمْ منَ الصَّـــلاَة وَالسَّـــلاَمِ يَحْصُل مَعَ قُرْبكُمْ منْ قَبْري وَبُعْدكُمْ عَنْهُ،فَلاَ حَاجَةَ بكُمْ إِلَى اتِّخَاذه عيدًا [1169].

[1168] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٧٤٤)

[1169] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٤/ ٨٦)

أثر الصلاة في بناء المجتمع وبناء الدولة الإسلامية

إن للخشوع والإخلاص وقراءة القرآن والذكر والدعاء الأثر الكبير في شفاء القلب وصلاحه وزيادة إيمانه مما يباعد بينه وبين المنكرات وينهاه عن الاقتراب منها،والصلاة متضمنة لهذه العبادات وغيرها فهي من أعظم ما ينهى العباد عن ارتكاب المحرمات،والمجتمع الذي تقام فيه الصلاة،أبعد عن المنكرات والذنوب من المجتمعات التي لا تحافظ على إقامة الصلاة كما يجب عليها،وقد قال الله تبارك وتعالى:{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [العنكبوت:٤٥

يَأْمُرُ اللهُ تَعالى المُؤمنينَ،وَهُوَ يُوَجِّهُ خطَابَهُ لِرَسُوله ﷺ،بِتلاَوَةِ القُرآن،وإِقَامَةِ الصَّلاة،فَقَالَ تَعَالى:وَأدمْ تِلاَوَةَ القُرآنِ تَقَرُّباً إلى اللهِ تَعَالى بتلاَوته،وتَذكُّراً لمَا فيه منَ الأَسْرَارِ والفَوائد،واعْمَلْ بمَا فيه من الأوامرِ والآداب وَمَحاسنِ الأخْلاَق،وأقمِ الصَّلاةَ،وأدِّهَا عَلَى الوَجه الأكمْلِ بخُشُوعِها وَرُكُوعها وسُجُودهَا،لأَنَّ الصَّلاَةَ إِنْ تَمَّتْ عَلَى الوَجه الأكْمَلِ كَانَتْ لَها فَائِدَتَان:

- أَنها تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ وَتَحْمِلُ المُؤْمِنَ عَلى مُجَانِبَتِها،وَتركِها لِمُنَافَاةِ الصَّلاةِ لفعْلِ الفَاحِشَة والمُنكَرِ والبَغْي.
- وفيها فَائِدَةٌ أَعْظَمُ،أَلا وهي ذكرُ اللهِ لعبَاده الذينَ يذكُرُونَهُ،ويُؤدُّونَ الصّلاةَ بشُرُوطها،ويُسَبِّحُونه ويَحْمَدُونَهُ،واللهُ تَعَالى يَعلَمُ ما تَفْعَلُونَ مِنْ خَيرٍ وشَرٍ،وهوَ مُجَازِيكُمْ به.[1170]

وفي قوله تعالى:«إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ» - إشارة إلى

- وقوله تعالى:«وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» .المراد بالذكر هنا،استحضار عظمة الله،وجلاله في الصلاة،حيث يكون الإنسان في صلاته في حال من الخشوع،والتخاضع بين يدى الله،لما يملأ قلبه من جلال الله وعظمته،وهذا هو الذي يجعل للصلاة ثمرا طيبا مباركا،يذوق الإنسان منه حلاوة الإيمان،ويستروح منه أنسام التقوى،وبذلك يدخل في عباد الله المفلحين المكرمين..كما يقول سبحانه:«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ» (١:المؤمنون) فالصلاة

[1170] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

التي لا يحضرها ذكر الله،ولا يغشاها الخشوع والرهب،ولا تظللها سكينة النفس،وطمأنينة القلب- هى صلاة قليلة الثمر،ضثيلة الأثر..يقول الله سبحانه لموسى عليه السلام:«وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» «١٤:طه» أي لتذكرنى بها..

وإذا كان ذكر الله مطلوبا في كل حال،فى الصلاة وفي غير الصلاة،فإن ذكره سبحانه في الصلاة،أولى وأوجب..إذ كانت الصلاة في ذاتها ذكر الله..فالذكر في مقام الذكر أولى،وأوجب،وأنفع.

هذا،وقد يصغر شأن الصلاة عند من ينظرون إلى كثير من المصلين،فلا يجدون للصلاة أثرا عليهم في سلوكهم،حيث لم تنههم صلاتهم عن فحشاء أو منكر..ففى المصلين من يكذب،وفي المصلين من يشهد الزور،وفي المصلين من يبخس الكيل والميزان،وفي المصلين من يشرب الخمر،وفي المصلين من يزنى،ومن يسرق ...ومن،ومن..

ونعم،فى المصلين،من هم على هذا الوصف الذميم..وليس ذلك لعلة فى الصلاة،وإنما العلة كامنة في المصلّى نفسه،لأنه يصلى بجسمه،ولا يصلى بعقله،وقلبه،وروحه،فلا يذكر الله في صلاته ذكرا يملأ كيانه خشوعا،وجلالا..

ومع هذا،فإن مداومة الصلاة،والحرص على أدائها في أوقاتها،ستصل بالمصلّي يوما وإن طال به الطريق،إلى الثمرة الطيبة التي وعد الله المصلين بها،وهي الانتهاء عن الفحشاء والمنكر..

وفي هذا يقول الرسول الكريم فيمن بلغه عنه أنه يصلى،ولا ينتهى عن الفحشاء والمنكر- يقول صلوات الله وسلامه عليه..«دعوه..فإن صلاته ستنهاه يوما ما» والله يقول الحق،وهو يهدى السبيل"[1171]

أي وأدّ الصلاة على الوجه القيّم مريدا بذلك وجه الله والإنابة إليه مع الخشوع والخضوع له فإنها إن كانت كذلك نهتك عن الفحشاء والمنكر لما تحويه من صنوف العبادات من التكبير والتسبيح،والوقوف بين يدى الله عز وجل،والركوع والسجود بغاية الخضوع والتعظيم،ففى أقوالها وأفعالها ما يومئ إلى ترك الفحشاء والمنكر،فكأنها تقول:كيف تعصى ربا هو أهل لما أتيت به؟ وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه؟ وأنت وقد أتيت بما أتيت به من أقوال

[1171] - التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٤٣٦)

وأفعال تدل على عظمة المعبود وكبريائه،وإخباتك له،وإنابتك إليه،وخضوعك لجبروته وقهره إذا عصيته وفعلت الفحشاء والمنكر تكون كالمناقض نفسه بين قوله وفعله.

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي ولذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ) من خير أو شر وهو يجازيكم كفاء أعمالكم إن خيرا فخير وإن شــــرا فشر كما جرت بذلك سنته فى خلقه،وهو الحكيم الخبير.ولا يخفى ما فى ذلك من وعد ووعيد وحث على مراقبة الله فى السر والعلن «فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى» .[1172]

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر،أن العبد المقيم لها،المتمم لأركانها وشــــروطها وخشوعها،يستنير قلبه،ويتطهر فؤاده،ويزداد إيمانه،وتقوى رغبته في الخير،وتقل أو تعدم رغبته في الشر،فبالضرورة،مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه،تنهى عن الفحشاء والمنكر،فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها.وثَمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر،وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله،بالقلب واللسان والبدن.فإن الله تعالى،إنما خلق الخلق لعبادته،وأفضل عبادة تقــــع منهم الصلاة،وفيها من عبوديات الجوارح كلها،ما ليس في غيرها،ولهذا قال:{وَلَــــذِكْرُ اللَّـــهِ أَكْبَرُ}

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها،أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصــــلاة،كما هو قول جمهور المفسرين،لكن الأول أولى،لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها،ولأنها -كما تقدم- بنفسها من أكبر الذكر.[1173]

فبين الله تعالى أن في الصلاة يتحقق أمران،أولهما:أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر،وثانيهما:ذكر الله تعالى،وهو أعظم من الأول،وقد أخرج ابن جرير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ " {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَـــى عَنِ الْفَحْشَاءِ،وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت:٤٥] يَقُولُ:فِي الصَّلَاةِ مُنْتَهًى وَمُزْدَجَرٌ عَنْ مَعَاصِي اللَّـــهِ ".[1174]

[1172] - تفسير المراغي (٢٠/ ١٤٥)

[1173] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٣٢)

[1174] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٤٠٨) وتفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٩/ ٣٠٦٦)(١٧٣٤٣) حسن

وأمر الله تعالى عباده بالاستعانة على أمر دينهم ودنياهم بالصبر والصلاة،فقال تعالى:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)} [البقرة:٤٥،٤٦]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بالاسْتِعَانَةِ عَلَى أَدَاءِ التَّكَالِيفِ،وَمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ،بالصَّبْرِ عَلَى الفَرَائِضِ،وَضَبْطِ النَّفْسِ عَنِ المَعَاصِي،وَبالصَّلاةِ،لَعَلَّهُمْ يَبْلُغُونَ مَا يُؤمِّلُونَ مِنْ خَيْرِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ.وَيُنَبِّهُهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَنَّ القِيَامَ بِهذِهِ الوَصِيَّةِ التي يَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ الأَخْذَ بِهَا مِنْ صَبْرٍ وَصَلاةٍ...أَمْرٌ شَاقٌ ثَقِيلٌ عَلَى النُّفُوسِ،إِلاَّ النُّفُوسَ المُؤْمِنَةَ الخَاشِعَةَ المُسْتَكِينَةَ لِطَاعَةِ اللهِ،المُتَذَلِّلَةَ مِنْ مَخَافَتِهِ.

وَهؤُلاءِ الخَاشِعُونَ،المُطْمَئِنَّةُ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ،يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّهُمْ سَيُحْشَرُونَ إِلى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَأَنَّهُمْ سَيُعْرَضُونَ عَلَيهِ،وَأَنَّ أُمُورَهُمْ سَتَرْجِعُ إِلى مَشِيئَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيَحْكُمَ فِيهَا بِمَا يَشَاءُ بِعَدْلِهِ.وَإِنَّ إِيمَانَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيَرْجِعُونَ إِلى اللهِ هُوَ الذِي يُسَهِّلُ عَلَيهِمْ طَاعَةَ اللهِ،وَتَرْكَ مُحَرَّمَاتِهِ.[1175]

يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ} [البقرة:٤٥] اسْتَعِينُوا عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِي الَّذِي عَاهَدْتُمُونِي فِي كِتَابِكُمْ،مِنْ طَاعَتِي وَاتِّبَاعِ أَمْرِي،وَتَرْكِ مَا تَهْوَوْنَهُ مِنَ الرِّيَاسَةِ وَحُبِّ الدُّنْيَا إِلَى مَا تَكْرَهُونَهُ مِنَ التَّسْلِيمِ لِأَمْرِي،وَاتِّبَاعِ رَسُولِي مُحَمَّدٍ ﷺ،بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالصَّلَاةِ.وَقَدْ قِيلَ:إِنَّ مَعْنَى الصَّبْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ:الصَّوْمُ،وَالصَّوْمُ بَعْضُ مَعَانِي الصَّبْرِ عِنْدَنَا.بَلْ تَأْوِيلُ ذَلِكَ عِنْدَنَا:أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا كَرِهَتْهُ نُفُوسُهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ،وَتَرْكِ مَعَاصِيهِ وَأَصْلُ الصَّبْرِ:مَنْعُ النَّفْسِ مَحَابَّهَا وَكَفُّهَا عَنْ هَوَاهَا وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلصَّابِرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ:صَابِرٌ،لِكَفِّهِ نَفْسَهُ عَنِ الْجَزَعِ؛وَقِيلَ لِشَهْرِ رَمَضَانَ:شَهْرُ الصَّبْرِ،لِصَبْرِ صَائِمِهِ عَنِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ نَهَارًا،وَصَبْرُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ:حَبْسُهُ لَهُمْ،وَكَفُّهُ إِيَّاهُمْ عَنْهُ،كَمَا يُصْبَرُ الرَّجُلُ الْمُسِيءُ لِلْقَتْلِ فَتَحْبِسُهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْتُلَهُ.وَلِذَلِكَ قِيلَ:قَتَلَ فُلَانٌ فُلَانًا صَبْرًا،يَعْنِي بِهِ حَبَسَهُ عَلَيْهِ حَتَّى قَتَلَهُ،فَالْمَقْتُولُ مَصْبُورٌ،وَالْقَاتِلُ صَابِرٌ.وَأَمَّا الصَّلَاةُ فَقَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَاهَا فِيمَا مَضَى فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ:قَدْ عَلِمْنَا مَعْنَى الْأَمْرِ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ عَلَى الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى

[1175] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

الطَّاعَة،فَمَا مَعْنَى الْأَمْرِ بِالاسْتِعَانَة بِالصَّلَاة عَلَى طَاعَـــة اللَّـــه،وَتَرْك مَعَاصِـــيه،وَالتَّعَرِّيَ عَـــن الرِّيَاسَة،وَتَرْك الدُّنْيَا؟ قِيلَ:إِنَّ الصَّلَاة فِيهَا تِلَاوَةُ كِتَاب اللَّه،الدَّاعِيَة آيَاتُهُ إِلَى رَفْضِ الدُّنْيَا وَهَجْرِ نَعِيمِهَا،الْمُسَلِّيَةُ النُّفُوسَ عَنْ زِينَتِهَا وَغُرُورِهَا،الْمُذَكِّرَةُ الْآخِرَةَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهَا لِأَهْلِهَـــا.فَفِـــي الاعْتِبَارِ بِهَا الْمَعُونَةُ لِأَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ عَلَى الْجَدِّ فِيهَا،كَمَا رُوِيَ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا حَزَبَـــهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاة

وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ رَأَى أَبَا هُرَيْرَةَ مُنْبَطِحًا عَلَى بَطْنِه فَقَـــالَ لَـــهُ:«اشْـــكَنبْ دَرْدَ» ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«قُمْ فَصَلِّ فَإِنَّ فِي الصَّلَاة شِفَاءً» فَأَمَرَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الَّذِينَ وَصَفَ أَمْـــرَهُمْ مِـــنْ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَجْعَلُوا مَفْزَعَهُمْ فِي الْوَفَاءِ بِعَهْد اللَّه الَّذِي عَاهَدُوهُ إِلَى الاسْتِعَانَة بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاة كَمَا أَمَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِذَلِكَ،فَقَالَ لَهُ:{فَاصْبِرْ} [طه:١٣٠] يَا مُحَمَّدُ {عَلَى مَـــا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْـــرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} [طه:١٣٠] فَأَمَرَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي نَوَائِبِه بِالْفَزَعِ إِلَى الصَّبْرِ وَالصَّلَاة

عَنْ أَبِي الْعَالِيَة:" {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ [ص:٦٢١] وَالصَّلَاةِ} [البقرة:٤٥] قَالَ يَقُولُ:اسْـــتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاة عَلَى مَرْضَاة اللَّه،وَاعْلَمُوا أَنَّهُمَا مِنْ طَاعَة اللَّه "

وقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:" فِي قَوْلِه:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة:٤٥] قَالَ:إِنَّهُمَا مَعُونَتَان عَلَى رَحْمَة اللَّه "

قَالَ ابْنُ زَيْد:" فِي قَوْلِه:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّـــبْرِ وَالصَّـــلَاة} [البقـــرة:٤٥] الْآيَـــةُ،قَالَ:قَـــالَ الْمُشْرِكُونَ:وَاللَّه يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ لَتَدْعُونَا إِلَى أَمْرٍ كَبِيرٍ،قَالَ:إِلَى الصَّلَاة وَالْإِيمَان بِاللَّه "[١١٧٦]

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيرا فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة،وأول المشـــقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراما للحق وإيثارا له،واعترافا بالحقيقـــة وخضوعا لها.

فما الاستعانة بالصلاة؟

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب.صلة يستمد منها القلب قوة،وتحس فيها الروح صـــلة وتجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الحياة الدنيا ..وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح

[١١٧٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١/ ٦١٧)

بالوحي والإلهام ..وما يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زادا للطريق،وريّا في الهجير،ومددا حين ينقطع المدد،ورصيدا حين ينفد الرصيد ..واليقين بلقاء الله – واستعمال ظن ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب عامة – واليقين بالرجعة إليه وحده في كل الأمور ..هو مناط الصبر والاحتمال وهو مناط التقوى والحساسية.كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم:قيم الدنيا وقيم الآخرة.ومتى استقام الميزان في هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمنا قليلا،وعرضا هزيلا وبدت الآخرة على حقيقتها،التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها.وكذلك يجد المتدبر للقرآن في التوجيه الذي قصد به بنو إسرائيل أول مرة،توجيها دائما مستمر الإيحاء للجميع ..[١١٧٧]

وعَنْ عُيَيْنَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،" نُعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ قُثَمُ وَهُوَ فِي مَسِيرٍ لَهُ،فَاسْتَرْجَعَ وَأَنَاخَ عَنِ الطَّرِيقِ،وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَطَالَ فِيهِمَا الْجُلُوسَ،ثُمَّ قَامَ فَمَشَى إِلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥] "[١١٧٨].

وعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ»[١١٧٩]

وقَالَ حُذَيْفَةُ:«رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ فِي شَمْلَةٍ يُصَلِّي،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»[١١٨٠]

[١١٧٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٦٨)

[١١٧٨] – الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (١/ ٢٩٤)(٣٩٨) والتفسير من سنن سعيد بن منصور – محققا (٢/ ٦٣٢)(٣٣١) وشعب الإيمان (١٢/ ١٧٣)(٩٢٣٣) صحيح

[١١٧٩] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١/ ٦١٨) وسنن أبي داود (٢/ ٣٥)(١٣١٩) حسن

[١١٨٠] – تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٢٣١)(٢١٢) حسن

كَانَ النَّبِيُّ ﷺإِذَا حَزَبَهُ):بِالْبَاءِ،أَيْ:أَهَمَّهُ،وَيُرْوَى بِالنُّونِ،أَيْ:أَغَمَّهُ (أَمْرٌ)،أَيْ:أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ نَزَلَ بِهِ غَمٌّ،قَالَ فِي تَيْسِيرِ الْوُصُولِ:حَزَبَهُ بِالْبَاءِ وَالنُّونِ،أَيْ نَزَلَ بِهِ،وَأَوْقَعَهُ فِي الْحُزْنِ اهـ.وَهُوَ لَفٌّ وَنَشْرٌ.(صَلَّى)،أَيْ:تَسْهِيلًا لِلْأَمْرِ وَامْتِثَالًا لِلْأَمْرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة:٤٥]،أَيْ:بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَايَا وَالِالْتِجَاءِ إِلَى الصَّلَاةِ،وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [طه:١٣٢] (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ):وَهَذِهِ الصَّلَاةُ يَنْبَغِي أَنْ تُسَمَّى بِصَلَاةِ الْحَاجَاتِ؛لِأَنَّهَا غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ بِكَيْفِيَّةٍ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَلَا مُخْتَصَّةٌ بِوَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٩٠)

وأخرج ابن المبارك في الزهد وغيره عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:قَالَ عُمَرُ:«وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ»[1181]

وقال تبارك وتعالى:{ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)} [المعارج:١٩ – ٢٣]

إنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ سَرِيعَ الانْفِعَالِ والتَّأَثُّرِ،فَهُوَ شَدِيدُ الجَزَعِ،إِذَا مَسَّهُ مَكْرُوهٌ،كَثِيرُ المَنْعِ،إِذَا نَزَلَتْ به نِعْمَةٌ.ثُمَّ فَسَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ والتي بَعْدَهَا مَعْنَى قَوْلِهِ (هَلُوعاً)،فَقَالَ:إنَّ الإِنْسَانَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ والضُّرُّ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الحُزْنُ،وَانْخَلَعَ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ،وَيَئِسَ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيهِ خَيْرٌ بَعْدَهَا أَبَداً.وَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ بَخِلَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ،وَمَنَعَ حَقَّ اللهِ فِيهَا.

وَلاَ يَسْتَثْنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ صِفَاتِ الإِنْسَانِ الذَمِيمَةِ،التي تَتَمَثَّلُ بِالهَلَعِ وَالجَزَعِ وَالمَنْعِ،إِلاَّ المُؤْمِنِينَ الذينَ هَدَاهُمُ اللهُ إِلَى الخَيْرِ،وَهُمْ المُصَلُّونَ.الذينَ يُحَافِظُونَ عَلَى أَدَاءِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا،لاَ يَشْغَلُهُمْ عَنْهَا شَاغِلٌ،وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى فَضْلِ المُدَاوَمَةِ عَلَى العِبَادَةِ.[1182]

فالحكم العام على الإنسان،هو أنه هلوع جزوع،إذا مسه الشر..منوع بخيل،إذا مسّه الخير..ويستثنى من هذا الحكم العام أولئك الذين آمنوا بالله من بنى الإنسان،ثم امتثلوا شريعة هذا الإيمان،فأتوا ما أمرهم الله به،واجتنبوا ما نهاهم عنه..

والصلاة،هى الركن الأول من الأركان التي قام عليها الإيمان،ولهذا كانت أول صفة يتصف بها المؤمنون،لأنها هى الطريق الذي يصلهم بالله.فإذا تركها المؤمن،انقطعت صلته بربه،إلى أن يعود إليها،وفى هذا يقول الله تعالى:(إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) (١٤:طه) فالصلاة هى التي تذكّر بالله،وتصل العبد بربه،وتملأ قلبه خشية منه،وولاء له.[1183]

[1181] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٩٧)(٦١٢) والزهد لوكيع (ص:٤٤٩)(١٩٨) والزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٢٢٢)(٦٣٠)وصحيح البخاري (٨/ ٩٩) معلقا وفتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٠٣) وتاريخ أصبهان = أخبار أصبهان (٢/ ٢٧٦) صحيح لغيره

[1182] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢٧٢،بترقيم الشاملة آليا)

[1183] - التفسير القرآني للقرآن (١٥/ ١١٧٧)

أي إن الإنسان جبل على الهلع،فهو قليل الصبر،شديد الحرص،فإذا افتقر أو مـــرض أخـــذ فى الشكاة والجزع،وإذا صار غنيّا أو سليما معافى منع معروفه وشح بماله،وما ذاك إلا لاشـــتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة،وقد كان من الواجب عليه أن يكون مشغولا بأحوال الآخرة،فـــإذا مرض أو افتقر رضى بما قسم له،علما بأن الله يفعل ما يشاء،ويحكم بما يريد،وإذا وجد المـــال والصحة صرفهما فى طلب السعادة الأخروية،وقد استثنى من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ) أي إن الإنســـان بطبعـــه متصـــف بصـــفات الذم،خليق بالمقت إلا من عصمهم الله ووفقهم،فهداهم إلى الخير وبسر لهـــم أســـبابه،وهم المصلون الذين يحافظون على الصلوات فى أوقاتها،لا يشغلهم عنها شىء من الشواغل.

وفى هذا إيماء إلى فضيلة المداومة على العبادة،[1184] وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ،أَنَّ عَائِشَـــةَ رَضِـــيَ اللَّـــهُ عَنْهَا،حَدَّثَتْهُ قَالَتْ:لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ شَهْرًا أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ،فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ " وَكَانَ يَقُولُ:«خُذُوا مِنَ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ،فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»«وَأَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّتْ،وَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلاَةً دَاوَمَ عَلَيْهَا»[1185]

وصورة الإنسان – عند خواء قلبه من الإيمان – كما يرسمها القرآن صورة عجيبة في صـــدقها ودقتها وتعبيرها الكامل عن الملامح الأصيلة في هذا المخلوق والتي لا يعصمه منها ولا يرفعـــه عنها إلا العنصر الإيماني،الذي يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التي تمسك به من الجزع عنـــد ملاقاة الشر،ومن الشح عند امتلاك الخير.

«إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً:إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً» ..لكأنما كل كلمـــة لمسة من ريشة مبدعة تضع خطا في ملامح هذا الإنسان.حتى إذا اكتملت الآيـــات الـــثلاث القصار المعدودة الكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة.وانتفض من خلالها الإنسان بسماته وملامحه الثابتة.

[1184] – تفسير المراغي (٢٩/ ٧١)

[1185] – صحيح البخاري (٣/ ٣٨)(١٩٧٠)

هلوعا ..جزوعا عند مس الشر،يتألم للذعته،ويجزع لوقعه،ويحسب أنـــه دائـــم لا كاشـــف له.ويظن اللحظة الحاضرة سرمدا مضروبا عليه ويحبس نفسه بأوهامه في قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به.فلا يتصور أن هناك فرجا ولا يتوقع من الله تغييرا.ومن ثم يأكلـــه الجزع،ويمزقه الهلع.ذلك أنه لا يأوي إلى ركن ركين يشد من عزمه،ويعلق به رجـــاءه وأملـــه ..منوعا للخير إذا قدر عليه.يحسب أنه من كده وكسبه فيضـــن بـــه علـــى غيره،ويحتجنـــه لشخصه،ويصبح أسير ما ملك منه،مستعبدا للحرص عليه! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الـــرزق ودوره هو فيه.ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه وهو منقطع عنه خاوي القلب من الشعور بـــه ..فهو هلوع في الحالتين ..هلوع من الشر.هلوع على الخير ..وهي صورة بائسة للإنسان،حين يخلو قلبه من الإيمان.

ومن ثم يبدو الإيمان بالله مسألة ضخمة في حياة الإنسان.لا كلمة تقال باللســـان،ولا شـــعائر تعبدية تقام.إنه حالة نفس ومنهج حياة،وتصور كامل للقيم والأحداث والأحوال.وحين يصبح القلب خاويا من هذا المقوم فإنه يتأرجح ويهتز وتتناوبه الرياح كالريشـــة! ويبيـــت في قلـــق وخوف دائم،سواء أصابه الشر فجزع،أم أصابه الخير فمنع.فأما حين يعمره الإيمان فهو منه في طمأنينة وعافية،لأنه متصل بمصدر الأحداث ومدبر الأحـــوال مطمـــئن إلى قـــدره شـــاعر برحمته،مقدر لابتلائه،متطلع دائما إلى فرجه من الضيق،ويسره من العسر.متجه إليه بالخير،عالم أنه ينفق مما رزقه،وأنه مجزي على ما أنفق في سبيله،معوض عنه في الدنيا والآخرة ..فالإيمـــان كسب في الدنيا يتحقق قبل جزاء الآخرة،يتحقق بالراحة والطمأنينة والثبات والاستقرار طوال رحلة الحياة الدنيا.

وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع،تلك السمة العامة للإنسان،يفصلها السياق هنا ويحددها:«إِلَّا الْمُصَلِّينَ.الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ» ..والصلاة فوق أنهـــا ركـــن الإســـلام وعلامـــة الإيمان،هي وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد.ومظهر العبودية الخالصـــة الـــتي يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة.وصفة الدوام الـــتي يخصصـــها بهـــا هنا:«الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ» ..تعطي صورة الاستقرار والاستطراد،فهي صـــلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل وهي صلة بالله مستمرة غير منقطعة ..وقد كان رسول الله –

ﷺ – إذا عمل شيئا من العبادة أثبته – أي داوم عليه – فعَنْ عَائِشَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ كَانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّي عَلَيْه،وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْه،فَجَعَلَ النَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلُّونَ بِصَلاَتِه حَتَّى كَثُرُوا،فَأَقْبَلَ فَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَـا تُطِيقُونَ،فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا،وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَـى اللَّـهِ مَـا دَامَ وَإِنْ قَـلَّ»[١١٨٦] ..لملاحظة صفة الاطمئنان والاستقرار والثبات على الاتصال بالله،كما ينبغي من الاحترام لهذا الاتصال.فليس هو لعبة توصل أو تقطع،حسب المزاج![١١٨٧]

فولاة الأمر الذين يسعون لإقامة دولة الإسلام وإصلاح الناس وتزكيتهم،يجب أن يعتنوا عناية كبيرة في أمر الصلاة،فإنها من أعظم ما ينهى الناس عن المعاصي ويصلح المجتمعات،وأن يعلموا الناس كيفية الصلاة وما يتعلق بها من أحكام،وأن يجتهدوا في بناء المساجد،وأن يعينوا الأئمـة العدول الذين يؤمون الناس في الجمع والجماعات.

صلاة الجماعة:

صلاة الجماعة واجبة على الرجال البالغين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«إِنَّ أَثْقَـلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ،وَصَلَاةُ الْفَجْرِ،وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا،وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ،فَتُقَامَ،ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ،ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُـزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ،فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُـوتَهُمْ بِالنَّـارِ» أخرجـه البخـاري ومسلم[١١٨٨]

[١١٨٦] – صحيح البخاري (٧/ ١٥٥)(٥٨٦١)

[ش (لا يمل حتى تملوا) لا ينقطع عن قبول أعمالكم وإثابتكم عليها ما دمتم نشيطين في القيام بها فإذا فعلتموها وفيكم سآمة وملل لم يقبلها منكم]

[١١٨٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٠٩)

[١١٨٨] – صحيح البخاري (١/ ١٣١)(٦٤٤) وصحيح مسلم (١/ ٤٥١)٢٥٢ – (٦٥١) واللفظ له

احْتَجَّ بِه مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْجَمَاعَةَ فَرْضُ عَيْنٍ وَأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ سُنَّةً أَوْ فَرْضَ كِفَايَةٍ لَمَا هَمَّ بِتَحْرِيقِهِمْ وَبَوَّبَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ (بَابُ وُجُوبِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ) وَأَجَابَ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَالْقُرْطُبِيُّ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ هَمَّ وَلَمْ يَفْعَلْ قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ:وَهَذَا ضَعِيفٌ جِدًّا؛لِأَنَّهُ لَا يَهُمُّ إِلَّا بِمَا يَجُوزُ لَهُ فِعْلُهُ لَوْ فَعَلَهُ إِنْ سَلَّمَ الْمُجِيبُ بِهَذَا أَنَّ هَذَا فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ:وَإِنَّمَا مَخْرَجُهُ مَخْرَجُ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ لِلْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَخَلَّفُونَ عَنْ الْجَمَاعَةِ وَالْجُمُعَةِ وَقَدْ كَانَ التَّخَلُّفُ عَنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ عَلَامَةً مِنْ

وعَنْ عَبْد الله،أَنَّ النَّبيَّ ﷺ،قَالَ لقَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَة:«لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بالنَّاس،ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَة بُيُوتَهُمْ»[1189]

وفي رواية لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ،فَقَدَ نَاسًا في بَعْضِ الصَّلَوَات،فَقَالَ:«لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاس،ثُمَّ أُخَالفَ إِلَى رجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا،فَآمُرَ بهِمْ فَيُحَرِّقُوا عَلَيْهِمْ،بحُزَمِ الْحَطَبِ بُيُوتَهُمْ،وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجدُ عَظْمًا سَمِينًا لَشَهِدَهَا» يَعْنِي صَلَاةَ الْعشَاء"[1190]

والحديث يدل على أن صلاة الجماعة على الرجال فرض عين،فلو كانت مستحبة وليست واجبة لما هم النبي ﷺ بتعزير المتخلفين،ولو كانت صلاة الجماعة فرض كفاية لاكتفى ﷺ بمن شهدوا الصلاة.

عَلَامَات النِّفَاق عنْدَهُمْ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُود:لَقَدْ رَأَيْتنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إلَّا مُنَافقٌ مَعْلُومُ النِّفَاق وَكَمَا قَالَ - ﷺ-:«بَيْننَا وَبَيْنَ الْمُنَافقينَ شُهُودُ الْعَتَمَة وَالصُّبْح لَا يَسْتَطيعُونَهُمَا» قَالَ الْقَاضي عيَاضٌ؛وَلأَنَّهُ لَمْ يُخبرْهُمْ أَنَّ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ الْجَمَاعَة فَصَلَاتُهُ بَاطلَةٌ غَيْرُ مُجْزئَة وَهُوَ مَوْضعُ الْبَيَان،وَأَجَابَ عَنْهُ ابْنُ دَقيق الْعيد بمَا حَاصلُهُ:أَنَّ الْبَيَانَ لَا يُشْتَرَطُ فيه أَنْ يَكُونَ نَصًّا قَدْ يَكُونُ بالدَّلَالَة،وَذكْرُهُ لَهُمْ بذَلكَ دَلَّ عَلَى وُجُوب الْحُضُور إنْ دَلَّ دَليلٌ عَلَى أَنَّ مَا وَجَبَ في الْعبَادَة كَانَ شَرْطًا فيهَا كَمَا هُوَ الْغَالبُ."طرح التثريب في شرح التقريب (٢/ ٣٠٨)

[1189] - صحيح مسلم (١/ ٤٥٢)٢٥٤ - (٦٥٢)

[1190] - صحيح مسلم (١/ ٤٥١)٢٥١ - (٦٥١) [ش (أخالف إلى رجال) أي أذهب إليهم]

هَذَا ممَّا اسْتَدَلَّ به مَنْ قَالَ الْجَمَاعَةُ فَرْضُ عَيْنٍ وَهُوَ مَذْهَبُ عَطَاءٍ وَالْأَوْزَاعيِّ وَأَحْمَدَ وأبي ثور وبن خُزَيْمَةَ وَدَاوُدَ وَقَالَ الْجُمْهُورُ لَيْسَتْ فَرْضَ عَيْنٍ وَاخْتَلَفُوا هَلْ هيَ سُنَّةٌ أَمْ فَرْضُ كفَايَةٍ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَأَجَابُوا عَنْ هَذَا الْحَديث بأَنَّ هَؤُلَاء الْمُتَخَلِّفينَ كَانُوا مُنَافقينَ وَسيَاقُ الْحَديث يَقْتَضيه فَإِنَّهُ لَا يُظَنُّ بالْمُؤْمنينَ منَ الصَّحَابَة أَنَّهُمْ يُؤْثرُونَ الْعَظْمَ السَّمينَ عَلَى حُضُور الْجَمَاعَة مَعَ رَسُول اللَّه ﷺوفي مَسْجده وَلأَنَّهُ لَمْ يُحَرِّقْ بَلْ هَمَّ به ثُمَّ تَرَكَهُ وَلَوْ كَانَتْ فَرْضَ عَيْنٍ لَمَا تَرَكَهُ قَالَ بَعْضُهُمْ في هَذَا الْحَديث دَليلٌ عَلَى أَنَّ الْعُقُوبَةَ كَانَتْ في أَوَّل الْأَمْر بالْمَال لأَنَّ تَحْريقَ الْبُيُوت عُقُوبَةٌ ماليَّةٌ وَقَالَ غَيْرُهُ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى مَنْع الْعُقُوبَة بالتَّحْريق في غَيْر الْمُتَخَلِّف عَن الصَّلَاة وَالْغَالِّ منَ الْغَنيمَة وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فيهمَا وَالْجُمْهُورُ عَلَى مَنْع تَحْريق مَتَاعهمَا وَمَعْنَى أُخَالفُ إِلَى رجَالٍ أَيْ أَذْهَبُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ في روَايَة أَنَّ هَذه الصَّلَاةَ الَّتي هَمَّ بتَحْريقهمْ للتَّخَلُّف عَنْهَا هيَ الْعشَاءُ وَفي روَايَةٍ أَنَّهَا الْجُمُعَةُ وَفي روَايَةٍ يَتَخَلَّفُونَ عَن الصَّلَاة مُطْلَقًا وَكُلُّهُ صَحيحٌ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ ذَلكَ قَوْلُهُ ﷺلَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا الْحَبْوُ حَبْوُ الصَّبيِّ الصَّغير عَلَى يَدَيْه وَرجْلَيْه مَعْنَاهُ لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فيهمَا منَ الْفَضْل وَالْخَيْر ثُمَّ لَمْ يَسْتَطيعُوا الْإِتْيَانَ إِلَيْهمَا إِلَّا حَبْوًا لَحَبَوْا إِلَيْهمَا وَلَمْ يُفَوِّتُوا جَمَاعَتَهُمَا في الْمَسْجد فَفيه الْحَثُّ الْبَليغُ عَلَى حُضُورهمَا قَوْلُهُ ﷺآمُرَ بالصَّلَاة فَتُقَامُ ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بالنَّاس فيه أَنَّ الْإِمَامَ إذَا عَرَضَ لَهُ شُغْلٌ يَسْتَخْلفُ مَنْ يُصَلِّي بالنَّاس وَإِنَّمَا هَمَّ بإتْيَانهمْ بَعْدَ إقَامَة الصَّلَاة لأَنَّ بذَلكَ الْوَقْت يَتَحَقَّقُ مُخَالَفَتُهُمْ وَتَخَلُّفُهُمْ فَيَتَوَجَّهُ اللَّوْمُ عَلَيْهمْ وَفيه جَوَازُ الانْصرَاف بَعْدَ إقَامَة الصَّلَاة لعُذْرٍ" شرح النووي على مسلم (٥/ ١٥٣)

وعَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيُّ قَالَ:قَالَ لِي أَبُو الدَّرْدَاءِ،أَيْنَ مَسْكَنُكَ؟ فَقُلْتُ:فِي قَرْيَةٍ دُوَيْنَ حِمْصَ،فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ،فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ» قَالَ السَّائِبُ يَعْنِي بِالْجَمَاعَةِ الْجَمَاعَةَ فِي الصَّلَاةِ" رواه أبو داود والنسائي[1191].

وعَنْ عَمْرِو بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ قَالَ:جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كَبِيرٌ ضَرِيرٌ شَاسِعُ الدَّارِ،وَلِي قَائِدٌ لَا يُلَاوِمُنِي فَهَلْ تَجِدُ لِي رُخْصَةً أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِي؟ قَالَ:" أَتَسْمَعُ النِّدَاءَ؟ " قَالَ:نَعَمْ قَالَ:" مَا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً ".رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه[1192]

[1191] - السنن الكبرى للنسائي (١/ ٤٤٥)(٩٢٢) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٣٧٤)(٩٠٠) وسنن أبي داود (١/ ١٥٠)(٥٤٧) حسن

" مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ) أَيْ:رِجَالٍ؛لِأَنَّ جَمَاعَةَ النِّسَاءِ وَإِمَامُهُنَّ مِنْهُنَّ مَكْرُوهَةٌ وَتَقْيِيدُهُ بِالثَّلَاثَةِ الْمُفِيدُ مَا فَوْقَهُمْ بِالْأَوْلَى نَظَرًا إِلَى أَقَلِّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ غَالِبًا،وَلِأَنَّهُ أَقَلُّ الْجَمْعِ،وَأَنَّهُ أَكْمَلُ صُوَرِ الْجَمَاعَةِ وَإِنْ كَانَ يُتَصَوَّرُ بِاثْنَيْنِ.(فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ) أَيْ:بَادِيَةٍ،وَهُوَ بِإِطْلَاقِهِ يُؤَيِّدُ مَذْهَبَنَا أَنَّ الْجَمَاعَةَ سُنَّةٌ لِلْمُسَافِرِينَ،أَيْضًا،لَكِنَّ حَالَ نُزُولِهِمْ لِلْحَرَجِ فِي حَالِ سَيْرِهِمْ،وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ،أَيْ بِشَرْطِ سُكْنَاهُمْ بِهَا وَإِلَّا لَمْ تَلْزَمْهُمُ الْجَمَاعَةُ عِنْدَنَا.(لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ) أَيْ:الْجَمَاعَةُ كَمَا فِي رِوَايَةٍ (إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ) أَيْ:اسْتَوْلَى وَغَلَبَ (عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ):فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ،قَالَ تَعَالَى:{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه:١٤] قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:لِأَنَّ تَرْكَ أَمْرِ الشَّرِيعَةِ بِغَيْرِ عُذْرٍ مُتَابَعَةٌ لِلشَّيْطَانِ،(فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ) أَيْ:الْزَمْهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ بَعِيدٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ وَيَسْتَوْلِي عَلَى مَنْ فَارَقَهَا،قَالَ الطِّيبِيُّ:فَقَوْلُهُ:فَعَلَيْكَ مِنَ الْخِطَابِ الْعَامِّ تَفْخِيمًا لِلْأَمْرِ وَالْفَاءُ مُسَبَّبَةٌ عَنْ قَوْلِهِ:قَدِ اسْتَحْوَذَ،وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ:(فَإِنَّمَا):مُسَبَّبَةٌ عَنِ الْجَمِيعِ يَعْنِي:إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْحَالَةَ فَاعْرِفْ مِثَالَهُ فِي الشَّاهِدِ فَإِنَّمَا (يَأْكُلُ):وَفِي رِوَايَةٍ:يَأْخُذُ (الذِّئْبُ):بِالْهَمْزِ وَالْيَاءِ،وَقَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ،أَيِ:الشَّيْطَانُ لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ كَمَا لَا يَخْفَى (الْقَاصِيَةَ) أَيِ:الشَّاةَ الْبَعِيدَةَ عَنِ الْأَغْنَامِ لِبُعْدِهَا عَنْ رَاعِيهَا،فَإِنَّ عَيْنَ الرَّاعِي تَحْمِي الْغَنَمَ الْمُجْتَمِعَةَ،وَلِذَا قَالَ ﷺ" «يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ» "،أَيْ:نُصْرَتُهُ،وَنَظَرُ عِنَايَتِهِ عَلَيْهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ.(رَوَاهُ أَحْمَدُ،وَأَبُو دَاوُدَ):قَالَ مِيرَكُ:وَسَكَتَ عَلَيْهِ هُوَ وَالْمُنْذِرِيُّ،وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ،وَقَالَ النَّوَوِيُّ:إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ (وَالنَّسَائِيُّ) .

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ،وَأَمَّا إِفْتَاءُ الْغَزَالِيِّ فِيمَنْ يَتَحَقَّقُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَخْشَعُ فِي جَمِيعِ صَلَاتِهِ مُنْفَرِدًا دُونَ مَا إِذَا صَلَّى فِي جَمَاعَةٍ لِتَشَتُّتِ هَمِّهِ بِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْجَمْعُ يَمْنَعُهُ الْخُشُوعَ فِي أَكْثَرِ صَلَاتِهِ فَالِانْفِرَادُ لَهُ أَوْلَى فَرَدُّوهُ،وَإِنْ تَبِعَهُ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ بِأَنَّ الْمُخْتَارَ،بَلِ الصَّوَابُ أَنَّ الْجَمَاعَةَ أَوْلَى كَمَا هُوَ ظَاهِرُ السُّنَّةِ وَبِأَنَّ فِي ذَلِكَ فَتْحُ بَابٍ عَظِيمٍ،وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ فِي بَرَكَةِ الْجَمَاعَةِ مَا يُلِمُّ شَعَثَ التَّفْرِقَةِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٨٣٩)

[1192] - السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٨٢)(٤٩٤٨) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٢٤٣)(١٥٤٩٠) وسنن أبي داود (١/ ١٥١)(٥٥٢) وسنن ابن ماجه (١/ ٢٦٠)(٧٩٢) صحيح لغيره

قال السندي:ظاهر الحديث أن العمى وحده ليس بعذر لمن يسمع الأذان في ترك الحضور،وما جاء في عتبان،فإنما كان العمى مع حلول السيل كما هو معلوم.مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٢٤٥)

وعَنِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ أَنَّه قَالَ:" يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْمَدِينَةَ كَثِيرَةَ الْهَوَامِّ وَالسِّبَاعِ،فَقَالَ:«هَلْ تَسْمَعُ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ،حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ»،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«فَحَيَّ هَلًا» وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ "[1193]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ،فَسَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ،فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ،فَرَخَّصَ لَهُ،فَلَمَّا وَلَّى،دَعَاهُ،فَقَالَ:«هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«فَأَجِبْ»[1194]

وعَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنِّي مَحْجُوبُ الْبَصَرِ وَإِنَّ السُّيُولَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ فَهَلْ لِي مِنْ عُذْرٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ؟» فَقَالَ:نَعَمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَا أَجِدُ لَكَ عُذْرًا،إِذَا سَمِعْتَ النِّدَاءَ»[1195]

[1193] - السنن الكبرى للنسائي (١/ ٤٤٧)(٩٢٦) صحيح لغيره

[1194] - صحيح مسلم (١/ ٤٥٢)٢٥٥ - (٦٥٣)

(قَالَ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺرَجُلٌ أَعْمَى):هُوَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ،وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ،(فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ) أَيْ:عَبْدٌ أَوْ خَادِمٌ (يَقُودُنِي) أَيْ:يُمْسِكُنِي وَيَأْتِي مَعِي (إِلَى الْمَسْجِدِ):لِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ (فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) أَيْ:طَلَبَ مِنْهُ (أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ) أَيْ:فِي تَرْكِ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ (فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ):إِمَّا جَمَاعَةً أَوْ مُنْفَرِدًا (فَرَخَّصَ لَهُ) أَيْ:رَخَّصَ أَوَّلًا (فَلَمَّا وَلَّى) أَيْ:رَجَعَ وَأَدْبَرَ (دَعَاهُ،فَقَالَ:" هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ) أَيِ:الْإِعْلَامَ وَالتَّأْذِينَ (بِالصَّلَاةِ؟) قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:" فَأَجِبْ) أَيْ:فَأْتِ الْجَمَاعَةَ،قَالَ الطِّيبِيُّ:فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ الْجَمَاعَةِ،وَقِيلَ:حَثٌّ وَمُبَالَغَةٌ فِي الْأَفْضَلِ الْأَلْيَقِ بِحَالِهِ،فَإِنَّهُ مِنْ فُضَلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ،رَخَّصَ أَوَّلًا،ثُمَّ رَدَّهُ؛إِمَّا بِوَحْيٍ أَوْ بِتَغْيِيرِ اجْتِهَادٍ اهـ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَطْلَقَ لَهُ الْجَوَابَ،ثُمَّ قَيَّدَهُ بِقَيْدِ عَدَمِ السَّمَاعِ،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَإِنَّمَا لَمْ يُرَخِّصْ لَهُ مَعَ عَدَمِ وُجْدَانِهِ قَائِدًا لِعِلْمِهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَى الْحُضُورِ بِلَا قَائِدٍ؛أَوْ لِلتَّأْكِيدِ فِي الْجَمَاعَةِ،قَالَ:وَاسْتَدَلَّ بِهِ أَبُو ثَوْرٍ عَلَى وُجُوبِ حُضُورِ الْجَمَاعَةِ،وَقَالَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ:هِيَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ وَالْأَصَحُّ أَنَّهُ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ،وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .

قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَمَا رُوِيَ «عَنِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي ضَرِيرٌ شَاسِعُ الدَّارِ أَيْ بَعِيدُهَا،وَلِي قَائِدٌ لَا يُلَائِمُنِي،فَهَلْ تَجِدُ لِي رُخْصَةً أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِي؟ قَالَ:" أَتَسْمَعُ النِّدَاءَ؟ " قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:" مَا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً» .رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ،وَأَحْمَدُ،وَالْحَاكِمُ،وَغَيْرُهُمْ،وَمَعْنَاهُ لَا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً تُحَصِّلُ لَكَ فَضِيلَةَ الْجَمَاعَةِ مِنْ غَيْرِ حُضُورِهَا،لَا الْإِيجَابُ عَلَى الْأَعْمَى،فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَخَّصَ لِعِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ فِي تَرْكِهَا،وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:لَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى فَرْضِيَّةِ الْعَيْنِ لِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ الْجَمَاعَةَ تَسْقُطُ بِالْعُذْرِ،وَلِحَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ:أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَخَّصَ لِعِتْبَانَ حَيْثُ شَكَا بَصَرَهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ اهـ.وَفِيهِ أَنَّهُ مَا ادَّعَى أَحَدٌ أَنَّهَا فَرْضُ عَيْنٍ مَعَ وُجُودِ الْعُذْرِ أَيْضًا فَتَدَبَّرْ،وَيُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا " «مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِلَّا مِنْ عُذْرٍ» "،وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثَانِ،وَإِنْ قِيلَ:إِنَّهُمَا ضَعِيفَانِ " «لَا صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ»،" «وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْجَمَاعَةِ لِغَيْرِ عُذْرٍ لَمْ تُقْبَلْ صَلَاتُهُ» "،وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ أَئِمَّتُنَا بِفَرْضِيَّتِهِ بَلْ بِوُجُوبِهِ؛لِأَنَّ الدَّلِيلَ ظَنِّيٌّ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٨٣٤)

[1195] - السنن المأثورة للشافعي (ص:٢١٢)(١٥٤) صحيح

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ،أَنَّ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يَؤُمُّ قَوْمَهُ وَهُوَ أَعْمَى،وَأَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:إِنَّهَا تَكُونُ الظُّلْمَةُ وَالْمَطَرُ [ص:٤٩٢] وَالسَّيْلُ،وَأَنَا رَجُلٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ،فَصَلِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي بَيْتِي مَكَانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى،قَالَ:فَجَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ؟ » فَأَشَارَ لَهُ إِلَى الْمَكَانِ مِنَ الْبَيْتِ،فَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.[1196]

وفي رواية لأحمد عنه أيضا عَنِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَأَى فِي الْقَوْمِ رِقَّةً،فَقَالَ:" إِنِّي لَأَهُمُّ أَنْ أَجْعَلَ لِلنَّاسِ إِمَامًا،ثُمَّ أَخْرُجُ فَلَا أَقْدِرُ عَلَى إِنْسَانٍ،يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا أَحْرَقْتُهُ عَلَيْهِ "فَقَالَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ نَخْلًا،وَشَجَرًا،وَلَا أَقْدِرُ عَلَى قَائِدٍ كُلَّ سَاعَةٍ،أَيَسَعُنِي أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِي؟ قَالَ:" أَتَسْمَعُ الْإِقَامَةَ؟ " قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:" فَأْتِهَا "[1197]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا،فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ،فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى،وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى،وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ،لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ،وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ

[1196] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٤/ ٤٩١)(١٦١٢) صحيح

قال الطحاوي:" بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي الضَّرِيرِ فِي بَصَرِهِ،هَلْ عَلَيْهِ حُضُورُ الْجَمَاعَاتِ،كَمَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِمَّنْ لَا ضَرَرَ بِبَصَرِهِ،أَمْ لَا؟

وَلِمَا قَامَ بِهَذِهِ الْآثَارِ،أَوْ بِمَا قَامَ مِنْهَا،مَا قَدْ ذَكَرْنَا مِنْ وُجُوبِ حُضُورِ الْجَمَاعَاتِ عَلَى الضَّرِيرِ فِي بَصَرِهِ،كَمَا يَجِبُ عَلَى الصَّحِيحِ فِي بَصَرِهِ،وَكَانَ هَذَا الْبَابُ مِمَّا قَدِ اخْتَلَفَ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ،فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِوُجُوبِ حُضُورِ الْجَمَاعَاتِ عَلَى الضَّرِيرِ كَوُجُوبِهَا عَلَى الصَّحِيحِ،وَجَعَلُوهُ كَمَنْ لَا يُعْرَفُ الطَّرِيقَ،فَلَمْ يُعْذَرْ بِجَهْلِهِ إِيَّاهُ عَنِ التَّخَلُّفِ عَنْ حُضُورِ الْجَمَاعَةِ لِذَلِكَ،وَقَدْ عَذَرَهُ آخَرُونَ فِي تَرْكِ حُضُورِ الْجَمَاعَةِ،وَقَدْ رُوِيَ الْقَوْلَانِ جَمِيعًا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ غَيْرَ أَنَّ الصَّحِيحَ عِنْدَنَا عَنْهُ هُوَ وُجُوبُ حُضُورِهَا عَلَيْهِ،وَإِلَى ذَلِكَ كَانَ يَذْهَبُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ،وَلَا يَحْكِي فِيهِ خِلَافًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،وَقَدْ خَاطَبَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رَسُولَ اللهِ ﷺحِينَ تَلَا عَلَى النَّاسِ:{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء:٩٥] {وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ} [النساء:٩٥]،قَبْلَ إِنْزَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ:{غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [النساء:٩٥]،بِأَنْ قَالَ لَهُ:" لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ " فَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَلَمْ يَقُلْ لَهُ:إِنَّكَ أَعْمَى،وَلَا فَرْضَ فِي ذَلِكَ عَلَى الْأَعْمَى وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا يَسْتَطِيعُهُ الْأَعْمَى مِنَ الْعَمَى يَكُونُ فِيهِ كَالصَّحِيحِ الَّذِي لَا عَمَى بِهِ،وَإِذَا كَانَ الْأَعْمَى فِي حُضُورِ الْجَمَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَا،كَانَ فِي وُجُوبُ الْحَجِّ عَلَيْهِ،إِذَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا،وَوَجَدَ مَا يُبَلِّغُهُ بِهِ مِنْ نَفَقَةٍ،وَمِنْ مُوصِلٍ لَهُ إِلَيْهِ كَغَيْرِ الْأَعْمَى،وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"شرح مشكل الآثار (١٣/ ٨٠-٩١)

[1197] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٢٤٥)(١٥٤٩١) صحيح لغيره

لَضَلَلْتُمْ،وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ،ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ،إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً،وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً،وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً،وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ،وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[1198]

[1198] - صحيح مسلم (١/ ٤٥٣)٢٥٧ - (٦٥٤)

[ش (يهادى بين رجلين) أي يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما]

لَقَدْ رَأَيْتُنَا) أَيْ:مَعْشَرَ الصَّحَابَةِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ اتِّحَادَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ إِنَّمَا يَسُوغُ فِي أَفْعَالِ الْقُلُوبِ،وَأَنَّهَا مِنْ دَاخِلِ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ،وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي الَّذِي هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَبَرِ مَحْذُوفٌ هَاهُنَا وَسَدَّ قَوْلُهُ:(وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ) أَيْ:بِالْجَمَاعَةِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ أَوْ لِوَصْفِ الدَّوَامِ،وَهُوَ حَالٌ مَسَدَّهُ،وَتَبِعَهُ ابْنُ حَجَرٍ،وَلَكِنْ فِي كَوْنِ اتِّحَادِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ هُنَا بَحْثٌ؛إِذِ الْمُرَادُ بِالْفَاعِلِ الْمُتَكَلِّمُ وَحْدَهُ،وَبِالْمَفْعُولِ هُوَ وَغَيْرُهُ.(إِلَّا مُنَافِقٌ):قَالَ الشَّمَنِّيُّ:لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْمُنَافِقِ هَاهُنَا مَنْ يُبْطِنُ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُ الْإِسْلَامَ،وَإِلَّا لَكَانَتِ الْجَمَاعَةُ فَرِيضَةً؛لِأَنَّ مَنْ يُبْطِنُ الْكُفْرَ كَافِرٌ،وَلَكَانَ آخِرُ الْكَلَامِ مُنَاقِضًا لِأَوَّلِهِ اهـ.

وَفِيهِ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ النِّفَاقَ سَبَبُ التَّخَلُّفِ لَا عَكْسُهُ،وَأَنَّ الْجَمَاعَةَ وَاجِبَةٌ عَلَى الصَّحِيحِ لَا فَرِيضَةٌ لِلدَّلِيلِ الظَّنِّيِّ،وَأَنَّ الْمُنَاقَضَةَ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ.(قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ):قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:إِنْ قُلْتَ:كَيْفَ مَعَ عِلْمِ نِفَاقِهِ يُقَرُّ عَلَيْهِ؟ قُلْتُ:لِمَصْلَحَةِ أَنْ لَا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺيَقْتُلُ أَصْحَابَهُ عَلَى أَنَّ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَرُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ النِّفَاقَ فِي أَحَدٍ بِعَيْنِهِ،وَإِنَّمَا كَانُوا يَظُنُّونَهُ،فَالْعِلْمُ بِمَعْنَى الظَّنِّ،قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:يَعْنِي أَنَّ وَصْفَ النِّفَاقِ يَتَسَبَّبُ عَنِ التَّخَلُّفِ لَا إِخْبَارٍ أَنَّ الْوَاقِعَ أَنَّ التَّخَلُّفَ لَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ مُنَافِقٍ،فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَخَلَّفُ كَسَلًا مَعَ صِحَّةِ الْإِسْلَامِ،وَيَقِينِ التَّوْحِيدِ،وَعَدَمِ النِّفَاقِ،وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ إِنَّمَا يُفِيدُ أَنَّ الْوَاقِعَ إِذْ ذَاكَ أَنْ لَا يَقَعَ التَّخَلُّفُ إِلَّا مِنْ مُنَافِقٍ،قَالَ النَّوَوِيُّ:هَذَا دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى صِحَّةِ مَا سَبَقَ تَأْوِيلُهُ فِي الَّذِينَ هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِتَحْرِيقِ بُيُوتِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُنَافِقِينَ.(أَوْ مَرِيضٌ) أَيْ:مَرِيضٌ كَامِلٌ فِي مَرَضِهِ (إِنْ كَانَ):إِنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ (الْمَرِيضُ) أَيْ:خَفِيفُ الْمَرَضِ أَوْ قَوِيُّهُ،لَكِنْ لِحِرْصِهِ عَلَى تَحْصِيلِ الثَّوَابِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ:(لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ) أَيْ:يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِمَا لِشِدَّةِ مَا بِهِ (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا ؛) أَيْ:كَامِلًا (فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ) أَيْ:مَعَ الْجَمَاعَةِ (حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ):مِنَ الْمَسَاجِدِ،وَيُوجَدُ لَهُنَّ إِمَامٌ مُعَيَّنٌ،أَوْ غَيْرُ مُعَيَّنٍ،(وَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سُنَنَ الْهُدَى،وَإِنَّهُنَّ) أَيِ:الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ بِالْجَمَاعَةِ (مِنْ سُنَنِ الْهُدَى):بَلْ هِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ لِلْخَبَرِ الصَّحِيحِ:" «الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ» ".(وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ):يَعْنِي:وَلَوْ جَمَاعَةً (كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ) قَالَ الطِّيبِيُّ:تَحْقِيرٌ لِلْمُتَخَلِّفِ وَتَبْعِيدٌ مِنْ مَظَانِّ الزُّلْفَى (فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ) وَفِي نُسْخَةٍ:سُنَنَ نَبِيِّكُمْ (وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ):قَالَ الطِّيبِيُّ:يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالسُّنَّةِ الْعَزِيمَةُ،قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَتَسْمِيَتُهَا سُنَّةٌ عَلَى مَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ،لَا حُجَّةَ فِيهِ لِلْقَائِلِينَ بِالسُّنِّيَّةِ؛إِذْ لَا تُنَافِي الْوُجُوبَ فِي خُصُوصِ ذَلِكَ الْإِطْلَاقِ؛لِأَنَّ سُنَنَ الْهُدَى أَعَمُّ مِنَ الْوَاجِبِ لُغَةً كَصَلَاةِ الْعِيدِ،وَقَوْلُهُ:لَضَلَلْتُمْ يُعْطِي الْوُجُوبَ ظَاهِرًا،وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ عَنْهُ:لَكَفَرْتُمْ.وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ:" «الْجَفَاءُ كُلُّ الْجَفَاءِ الْكُفْرُ،وَالنِّفَاقُ مَنْ سَمِعَ مُنَادِيَ اللَّهِ يُنَادِي إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يُجِيبُهُ» ".رَوَاهُ أَحْمَدُ،وَالطَّبَرَانِيُّ،فَيُفِيدُ الْوَعِيدُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى تَرْكِ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ،وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُقَالُ لِهَذَا الْوَاجِبِ سُنَّةٌ لِكَوْنِهِ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ أَيِ الْحَدِيثِ،قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يُفِيدُ تَعْلِيقَ الْوُجُوبِ بِسَمَاعِ النِّدَاءِ،وَيَتَوَقَّفُ الْوَعِيدُ فِي حَدِيثِ التَّحْرِيقِ عَلَى كَوْنِهِ لِتَرْكِ الْحُضُورِ دَائِمًا كَمَا هُوَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ " لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ " وَقَوْلِهِ

وعَنْ أَبِي الْأَحْوَص،قَالَ:قَالَ عَبْدُ الله:«لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نفَاقُهُ،أَوْ مَرِيضٌ،إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلَاةِ»،وَقَالَ:«إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى،وَإِنَّ مِنْ سُنَنَ الْهُدَى الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَذَّنُ فِيهِ» رواه مسلم[1199].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:«كُنَّا إِذَا فَقَدْنَا الرَّجُلَ فِي الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ أَسَأْنَا بِهِ الظَّنَّ» رواه الطبراني[1200].

قلت :

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ – فِي الأَصَحِّ – وَأَكْثَرُ الْمَالِكِيَّةِ،وَهُوَ قَوْلٌ لِلشَّافِعِيَّةِ،إِلَى أَنَّ صَلاَةَ الْجَمَاعَةِ فِي الْفَرَائِضِ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِلرِّجَال،وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْوَاجِبِ فِي الْقُوَّةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ .وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهَا وَاجِبَةٌ – حَسَبَ اصْطِلاَحِهِمْ –

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ – فِي الأَصَحِّ عِنْدَهُمْ –،إِلَى أَنَّهَا فَرْضُ كِفَايَةٍ،وَهُوَ قَوْل بَعْضِ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ،كَالْكَرْخِيِّ وَالطَّحَاوِيِّ،وَهُوَ مَا نَقَلَهُ الْمَازِرِيُّ عَنْ بَعْضِ الْمَالِكِيَّةِ .

وَقَدْ فَصَّل بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ فَقَالُوا :إِنَّهَا فَرْضُ كِفَايَةٍ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ أَيْ بِالْبَلَدِ ؛فَيُقَاتَل أَهْلُهَا عَلَيْهَا إِذَا تَرَكُوهَا،وَسُنَّةٌ فِي كُل مَسْجِدٍ وَفَضِيلَةٌ لِلرَّجُل فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ.

الْآخَرِ:يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ لَيْسَتْ بِهِمْ عِلَّةٌ،كَمَا يُعْطِهِ ظَاهِرُ إِسْنَادِهِ بِالْمُضَارِعِ فِي مِثْلِهِ نَحْوَ:بَنُو فُلَان يَأْكُلُونَ الْبُرَّ،أَيْ:عَادَتُهُمْ.(وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ):بِوُضُوءٍ أَوْ غُسْلٍ (فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ):بِضَمِّ الطَّاءِ،أَيْ:يَأْتِي بِوَاجِبَاتِهِ وَمُكَمِّلَاتِهِ.(ثُمَّ يَعْمِدُ):بِكَسْرِ الْمِيمِ،أَيْ يَتَوَجَّهُ وَيَقْصِدُ (إِلَى مَسْجِدٍ) وَفِي نُسْخَةٍ:الْمَسْجِدِ (مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ) أَيْ:مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ (إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ):بِفَتْحِ الْخَاءِ أَوْ ضَمِّهَا (يَخْطُوهَا حَسَنَةً،وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً):وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ:وَرَفَعَهُ،وَهُوَ أَنْسَبُ بِالسَّابِقِ وَاللَّاحِقِ (وَحَطَّ) أَيْ:وَضَعَ وَمَحَا (عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً،وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا) أَيْ:نَحْنُ مُعَاشِرَ الصَّحَابَةِ أَوْ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ (وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا) أَيْ:عَنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ (إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ) أَيْ:ظَاهِرُهُ (وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ) أَيِ:الْمَرِيضُ (يُؤْتَى بِهِ):إِلَى الصَّلَاةِ (يُهَادَى):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ،أَيْ:يَمْشِي وَيَتَمَايَلُ (بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ):مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا مِنْ ضَعْفِهِ وَتَمَايُلِهِ،مِنْ تَهَادَتِ الْمَرْأَةُ فِي مِشْيَتِهَا:إِذَا تَمَايَلَتْ (حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٨٤٢)

[1199] – صحيح مسلم (١/ ٤٥٣)٢٥٦ – (٦٥٤)

[ش (سنن الهدى) روى بضم السين وفتحها وهما بمعنى متقارب أي طرائق الهدى والصواب]

مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٨٤١)

[1200] – المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٢٧١)(١٣٠٨٥) صحيح

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ،وَهُوَ قَوْلٌ لِلْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ إِلَى أَنَّهَا وَاجِبَةٌ وُجُوبَ عَيْنٍ وَلَيْسَتْ شَرْطًا لِصِحَّةِ الصَّلاَةِ،خِلاَفًا لاِبْنِ عَقِيلٍ مِنَ الْحَنَابِلَةِ،الَّذِي ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا شَرْطٌ فِي صِحَّتِهَا قِيَاسًا عَلَى سَائِرِ وَاجِبَاتِ الصَّلاَةِ .[1201]

أمر الناس بالصلاة والإنكار على من تركها:

يجب على ولاة الأمر أن يأمروا الناس بالصلاة،وأن يأمروا الرجال خاصة بأدائها جماعة،وينكروا على من ترك الجماعة،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ الظُّهْرَ،قَالَ:فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:" مَا حَبَسَكَ يَا فُلَانُ عَنِ الصَّلَاةِ؟ " قَالَ:فَذَكَرَ شَيْئًا اعْتَلَّ بِهِ،قَالَ:فَقَامَ يُصَلِّي،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَلَا رَجُلٌ يَتَصَدَّقُ عَلَى هَذَا فَيُصَلِّيَ مَعَهُ " قَالَ:فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَصَلَّى مَعَهُ " رواه أحمد[1202].

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ،قَالَ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا الصُّبْحَ،فَقَالَ:أَشَاهِدٌ فُلَانٌ،قَالُوا:لَا،قَالَ:أَشَاهِدٌ فُلَانٌ،قَالُوا:لَا،قَالَ:«إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ،وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَيْتُمُوهُمَا،وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الرُّكَبِ وَإِنَّ الصَّفَّ الْأَوَّلَ عَلَى مِثْلِ صَفِّ الْمَلَائِكَةِ وَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا فَضِيلَتُهُ لَابْتَدَرْتُمُوهُ،وَإِنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ وَحْدَهُ،وَصَلَاتُهُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ مَعَ الرَّجُلِ،وَمَا كَثُرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» رواه ابن حبان[1203].

[1201] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٧/ ١٦٥)

[1202] - مسند أحمد ط الرسالة (١٨/ ٣٢٧)(١١٨٠٨) صحيح لغيره إلا جملة " مَا حَبَسَكَ يَا فُلَانُ عَنِ الصَّلَاةِ" فهي ضعيفة

[1203] - سنن أبي داود (١/ ١٥٢)(٥٥٤) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٥/ ٤٠٥)(٢٠٥٦) ومعجم ابن الأعرابي (٢/ ٤٨٩)(٩٤٨) والمنتخب من مسند عبد بن حميد ت مصطفى العدوي (١/ ١٨٣)(١٧٣) حسن

إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ) أَيْ:صَلَاةَ الصُّبْحِ وَمُقَابِلَتَهَا بِاعْتِبَارِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ،يَعْنِي الصُّبْحَ وَالْعِشَاءَ،وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَأَشَارَ إِلَى الْعِشَاءِ لِحُضُورِهَا بِالْقُوَّةِ؛لِأَنَّ الصُّبْحَ مُذَكِّرَةٌ بِهَا نَظَرًا إِلَى أَنَّ هَذِهِ مُبْتَدَأُ النَّوْمِ وَتِلْكَ مُنْتَهَاهُ اهـ.وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُرَادَ بِهَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ فَرْضُ الصُّبْحِ مِنَ الرَّكْعَتَيْنِ،أَوْ صَلَاتَيِ الصُّبْحِ مِنَ السُّنَّةِ وَالْفَجْرِ (أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ):لِغَلَبَةِ الْكَسَلِ فِيهِمَا،وَلِقِلَّةِ تَحْصِيلِ الرِّيَاءِ لَهُمَا (وَلَوْ تَعْلَمُونَ):أَنْتُمْ،أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ (مَا فِيهِمَا):مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ الزَّائِدِ؛لِأَنَّ الْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ،وَفِي الْعُدُولِ عَنِ الْغَيْبَةِ نُكْتَةٌ لَا تَخْفَى،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَغْلِيبًا (لَأَتَيْتُمُوهَا وَلَوْ حَبْوًا) أَيْ:زَحْفًا وَمَشْيًا (عَلَى الرُّكَبِ):قَالَ الطِّيبِيُّ:حَبْوًا خَبَرُ كَانَ الْمَحْذُوفَةِ،أَيْ:وَلَوْ كَانَ الْإِتْيَانُ حَبْوًا وَهُوَ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى يَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ أَوْ إِسْتِهِ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ:وَلَوْ أَتَيْتُمُوهُمَا حَبْوًا،أَيْ حَابِينَ تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ مُبَالَغَةً (وَإِنَّ الصَّفَّ الْأَوَّلَ) أَيْ:فِي الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْبُعْدِ مِنَ

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَقَدَ سُلَيْمَانَ بْنَ أَبِي حَثْمَةَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ،وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ غَدَا إِلَى السُّوقِ،وَمَسْكَنُ سُلَيْمَانَ بَيْنَ الْمَسْجِدِ وَالسُّوقِ،فَمَرَّ عَلَى الشِّفَاءِ أُمِّ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ فَقَالَ:لَمْ أَرَ سُلَيْمَانَ فِي الصُّبْحِ فَقَالَتْ:إِنَّهُ بَاتَ يُصَلِّي فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَقَالَ عُمَرُ:" لَأَنْ أَشْهَدَ صَلَاةَ الصُّبْحِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُومَ لَيْلَةً " رواه مالك[١٢٠٤].

الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (عَلَى مِثْلِ صَفِّ الْمَلَائِكَةِ):وَقَالَ الطِّيبِيُّ:شَبَّهَ الصَّفَّ الْأَوَّلَ فِي قُرْبِهِمْ مِنَ الْإِمَامِ بِصَفِّ الْمَلَائِكَةِ فِي قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى،وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ خَبَرُ إِنَّ،وَالْمُتَعَلِّقُ كَائِنٌ أَوْ مُقَاسٌ،(وَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا فَضِيلَتُهُ) أَيْ:الصَّفُّ الْأَوَّلُ (لَابْتَدَرْتُمُوهُ) أَيْ:سَبَقْتُمْ إِلَيْهِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:وَفِي قَوْلِهِ:" وَلَوْ تَعْلَمُونَ " فِيهِمَا مُبَالَغَةٌ مِنْ حَيْثُ عَدَلَ مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْمُضَارِعِ إِشْعَارًا بِالِاسْتِمْرَارِ،ذَكَرَ أَوَّلًا فَضِيلَةَ الْجَمَاعَةِ،ثُمَّ تَنَزَّلَ مِنْهُ إِلَى بَيَانِ فَضِيلَةِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ،ثُمَّ إِلَى بَيَانِ كَثْرَةِ الْجَمَاعَةِ بِقَوْلِهِ:(وَإِنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ):إِلَخْ.لَكِنْ لَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا تَرَقٍّ لَا تَنَزُّلٌ (أَزْكَى) أَيْ:أَكْثَرُ ثَوَابًا (مِنْ صَلَاتِهِ وَحْدَهُ):قَالَ الطِّيبِيُّ:مِنَ الزَّكَاةِ بِمَعْنَى النُّمُوِّ،أَوِ الشَّخْصُ آمِنٌ مِنْ رِجْسِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِهِ مِنَ الزَّكَاةِ بِمَعْنَى الطَّهَارَةِ.(وَصَلَاتُهُ):بِالنَّصْبِ أَوْ بِالرَّفْعِ (مَعَ الرَّجُلَيْنِ أَزْكَى) أَيْ:أَفْضَلُ (مِنْ صَلَاتِهِ مَعَ الرَّجُلِ) أَيِ:الْوَاحِدِ (وَمَا كَثُرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ):قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:" مَا " هَذِهِ مَوْصُولَةٌ،وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَيْهَا وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ،أَيْ:الصَّلَاةُ الَّتِي كَثُرَ الْمُصَلُّونَ فِيهَا فَهُوَ أَحَبُّ،وَتَذْكِيرُ (هُوَ) بِاعْتِبَارِ لَفْظِ مَا،انْتَهَى،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى:وَكُلُّ مَوْضِعٍ مِنَ الْمَسَاجِدِ كَثُرَ فِيهِ الْمُصَلُّونَ،فَذَلِكَ الْمَوْضِعُ أَفْضَلُ،وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا:الصَّلَاةُ فِي الْجَامِعِ أَفْضَلُ،ثُمَّ فِي مَسْجِدِ الْحَيِّ،وَيُؤَيِّدُهُ خَبَرُ ابْنِ مَسْعُودٍ:«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَذِهِ الصَّلَوَاتِ حِينَ يُنَادَى بِهِنَّ» .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٨٣٨)

[١٢٠٤] - شعب الإيمان (٤/ ٣٤٧)(٢٦١٧) وموطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ١٣١)(٧) صحيح

فَقَالَ لَهَا:لَمْ أَرَ سُلَيْمَانَ فِي الصُّبْحِ) أَيْ:فِي صَلَاتِهِ بِالْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ (فَقَالَتْ:إِنَّهُ بَاتَ) أَيْ:سَهِرَ (يُصَلِّي):فِي اللَّيْلِ (فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ) أَيْ:بِالنَّوْمِ آخِرَ اللَّيْلِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:الْأَصْلُ غَلَبَ عَلَيْهِ النَّوْمُ فَأُسْنِدَ إِلَى مَكَانِهِ مَجَازًا.(فَقَالَ عُمَرُ:لَأَنْ أَشْهَدَ) أَيْ:أَحْضُرَ (صَلَاةَ الصُّبْحِ فِي جَمَاعَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَقُومَ لَيْلَةً) أَيْ:مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ بِالنَّوَافِلِ،وَهَذَا ظَاهِرٌ،وَبِهِ يَنْدَفِعُ مَا أَطَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ،وَقَالَ:فِيهِ دَلِيلٌ لِمَا مَرَّ مِنْ أَنَّ جَمَاعَةَ الصُّبْحِ آكَدُ مِنْ جَمَاعَةِ غَيْرِهَا،وَكَانَ عُمَرُ أَخَذَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ مُسْلِمٍ:" «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ،وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ كَأَنَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ» ".ثُمَّ قَالَ:لَكِنْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِلَفْظِ:" «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ نِصْفِ لَيْلَةٍ،وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ» "،وَأَوْقَعَ الْمُعَارَضَةَ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ،مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ رِوَايَةَ التِّرْمِذِيِّ تَفْسِيرٌ،وَبَيَانٌ لِرِوَايَةِ مُسْلِمٍ،أَوِ الْأَوَّلُ لِلْمُبَالَغَةِ فَإِنَّ الْقِيَامَ مِنَ النَّوْمِ أَصْعَبُ مِنْ دَفْعِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٨٤٥)

قَالَ فِي الْفَتْحِ:وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ الْحَدِيثَ وَرَدَ فِي الْمُنَافِقِينَ لِقَوْلِهِ - ﷺ- فِي صَدْرِ الْحَدِيثِ:" أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ " وَلِقَوْلِهِ - ﷺ-:" لَوْ يَعْلَمُونَ...إِلَخْ "؛لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ يَلِيقُ بِهِمْ لَا بِالْمُؤْمِنِينَ،لَكِنَّ الْمُرَادَ:نِفَاقُ الْمَعْصِيَةِ لَا نِفَاقُ الْكُفْرِ.

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي رِوَايَةِ:" لَا يَشْهَدُونَ الْعِشَاءَ فِي الْجَمْعِ " وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أُسَامَةَ:" لَا يَشْهَدُونَ الْجَمَاعَاتِ " وَأَصْرَحُ مِنْ ذَلِكَ مَا فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:«ثُمَّ آتِي قَوْمًا يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ لَيْسَتْ بِهِمْ عِلَّةٌ» فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نِفَاقَهُمْ نِفَاقُ مَعْصِيَةٍ لَا نِفَاقُ كُفْرٍ؛لِأَنَّ الْكَافِرَ لَا يُصَلِّي فِي بَيْتِهِ إِنَّمَا يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ رِيَاءً وَسُمْعَةً،فَإِذَا خَلَا فِي بَيْتِهِ كَانَ كَمَا

وأما تارك الصلاة عمدا فقد تقدم قول النبي ﷺ بكفره،قال الإمام ابن القيم رحمه الله " لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر،وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر،وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة.

ثم اختلفوا في قتله وفي كيفية قتله وفي كفره،فأفتى سفيان بن سعيد الثوري وأبو عمرو الأوزاعي وعبد الله بن المبارك وحماد بن زيد ووكيع بن الجراح ومالك بن أنس ومحمد ابن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأصحابهم بأنه يقتل،ثم اختلفوا في كيفية قتله،فقال جمهورهم يقتل بالسيف ضربا في عنقه..واختلف القائلون بقتله في مسائل:

إحداها أنه هل يستتاب أم لا؟ فالمشهور أنه يستتاب،فإن تاب ترك وإلا قتل.هذا قول الشافعي وأحمد وأحد القولين في مذهب مالك..وهذا القول هو الصحيح،لأن أسوأ أحواله أن يكون كالمرتد،وقد اتفق الصحابة على قبول توبة المرتدين ومانعي الزكاة،وقد قال الله تعالى:{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ } [الأنفال:٣٨] وهذا يعم المرتد وغيره.

المسألة الثانية:أنه لا يقتل حتى يدعى إلى فعلها فيمتنع..فإذا دعي فامتنع لا من عذر حتى يخرج الوقت تحقق تركه وإصراره.

المسألة الثالثة:بماذا يقتل هل بترك صلاة أو صلاتين أو ثلاث صلوات،هذا فيه خلاف بين الناس"[١٢٠٥] ومراده بترك الصلاة في المسألة الثالثة أي بعد دعوته واستتابته.

وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ الْكُفْرِ وَالاسْتِهْزَاءِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:خُرُوجُ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا الْوَعِيدِ لَيْسَ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ إذَا سَمِعُوا النِّدَاءَ جَازَ لَهُمْ التَّخَلُّفُ عَنْ الْجَمَاعَةِ،بَلْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ التَّخَلُّفَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ.وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ الْآتِي:لَقَدْ رَأَيْتَنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْ الْجَمَاعَةِ إلَّا مُنَافِقٌ.وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عُمَيْرِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ:حَدَّثَنِي عُمُومَتِي مِنْ الْأَنْصَارِ قَالُوا:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ-:" مَا شَهِدَهُمَا مُنَافِقٌ " يَعْنِي الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ.

الثَّامِنُ:أَنَّ فَرِيضَةَ الْجَمَاعَةِ كَانَتْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ نُسِخَتْ،حَكَى ذَلِكَ الْقَاضِي عِيَاضٌ.قَالَ الْحَافِظُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَقَوَّى لِثُبُوتِ النَّسْخِ بِالْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ فِي حَقِّهِمْ وَهُوَ التَّحْرِيقُ بِالنَّارِ.قَالَ:وَيَدُلُّ عَلَى النَّسْخِ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي تَفْضِيلِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ عَلَى صَلَاةِ الْفَذِّ كَمَا سَيَأْتِي؛لِأَنَّ الْأَفْضَلِيَّةَ تَقْتَضِي الِاشْتِرَاكَ فِي أَصْلِ الْفَضْلِ وَمِنْ لَازِمِ ذَلِكَ الْجَوَازُ.نيل الأوطار (٣/ ١٤٩)

[١٢٠٥] – الصلاة وأحكام تاركها (ص:٣١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله " وَإِنْ كَانَ التَّارِكُ لِلصَّلَاةِ وَاحِدًا فَقَدْ قِيلَ:إنَّهُ يُعَاقَبُ بِالضَّرْبِ وَالْحَبْسِ حَتَّى يُصَلِّيَ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ قَتْلُهُ إذَا امْتَنَعَ مِنْ الصَّلَاةِ بَعْدَ أَنْ يُسْتَتَابَ فَإِنْ تَابَ وَصَلَّى وَإِلَّا قُتِلَ.وَهَلْ يُقْتَلُ كَافِرًا أَوْ مُسْلِمًا فَاسِقًا؟ فِيهِ قَوْلَانِ.وَأَكْثَرُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ كَافِرًا وَهَذَا كُلُّهُ مَعَ الْإِقْرَارِ بِوُجُوبِهَا أَمَّا إذَا جَحَدَ وُجُوبَهَا فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَكَذَلِكَ مَنْ جَحَدَ سَائِرَ الْوَاجِبَاتِ الْمَذْكُورَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي يَجِبُ الْقِتَالُ عَلَيْهَا."[١٢٠٦].

تعيين أئمة المساجد:

يجب على ولاة الأمر أن يعينوا أئمة المساجد من الصالحين العدول،وأن يقدموا الأولى من بينهم فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ،فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً،فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ،فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً،فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً،فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً،فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا،وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ،وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ» قَالَ الْأَشَجُّ فِي رِوَايَتِهِ:مَكَانَ سِلْمًا سِنًّا،رواه مسلم[١٢٠٧]

[١٢٠٦] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٠٨)

[١٢٠٧] - صحيح مسلم (١/ ٤٦٥)٢٩٠ - (٦٧٣)

[ش (سلما) أي إسلاما (ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه) معناه أن صاحب البيت والمجلس وإمام المجلس أحق من غيره وإن كان ذلك الغير أفقه وأقرأ وأورع وأفضل منه وصاحب المكان أحق فإن شاء تقدم وإن شاء قدم من يريده وإن كان ذلك الذي يقدمه مفضولا بالنسبة إلى باقي الحاضرين لأنه سلطانه فيتصرف فيه كيف يشاء (تكرمته) قال العلماء التكرمة الفراش ونحوه مما يبسط لصاحب المترل ويخص به]

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ:يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ،وَكَذَلِكَ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ،وَأَحْمَدُ،وَإِسْحَاقُ.وَقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ:يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ،وَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ وَفِيهِ قَوْلٌ سِوَاهُ،قَالَهُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ،كَانَ يُقَالُ:يَؤُمُّهُمْ أَفْقَهُهُمْ،فَإِنْ كَانُوا فِي الْفِقْهِ سَوَاءٌ فَأَقْرَؤُهُمْ،فَإِنْ كَانَ فِي الْفِقْهِ وَالْقِرَاءَةِ سَوَاءٌ فَأَسَنُّهُمْ.وَقَالَ مَالِكٌ:يَتَقَدَّمُ الْقَوْمَ أَعْلَمُهُمْ،إِذَا كَانَتْ حَالَتُهُ حَسَنَةٌ؛وَإِنَّ لِلسِّنِّ لَحَقًّا.قُلْتُ لَهُ:فَأَقْرَؤُهُمْ؟ قَالَ:قَدْ يَقْرَأُ مَنْ لَا يُرِيدُ.أَيْ مَنْ لَا يَرْضَى.وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:يَؤُمُّهُمْ أَفْقَهُهُمْ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:نَأْمُرُ الْقَوْمَ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يُقَدِّمُوا أَفْقَهَهُمْ وَأَقْرَأَهُمْ وَأَسَنَّهُمْ،فَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ ذَلِكَ فِي وَاحِدٍ فَإِنْ قَدَّمُوا أَفْقَهَهُمْ إِذَا كَانَ يَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَكْتَفِي فِي الصَّلَاةِ فَحَسَنٌ،وَإِنْ قَدَّمُوا أَقْرَأَهُمْ إِذَا كَانَ يَعْلَمُ مِنَ الْفِقْهِ مَا يَلْزَمُهُ فِي الصَّلَاةِ فَحَسَنٌ.وَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ:يَؤُمُّهُمْ أَفْقَهُهُمْ إِذَا كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْرَؤُهُ كُلَّهُ.قَالَ أَبُو بَكْرٍ:الْقَوْلُ بِظَاهِرِ خَبَرِ ابْنِ مَسْعُودٍ يَجِبُ؛فَيُقَدَّمُ النَّاسُ عَلَى سَبِيلِ مَا

وأما الفاسق أو المبتدع فلا تجوز توليتهما إمامة الصلاة،فإن الإمامة من أعظم الأمانات التي يجب أن تسند لأهلها،قال ابن أبي العز رحمه الله:" مَنْ أَظْهَرَ بِدْعَةً وَفُجُورًا لَا يُرَتَّبُ إِمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ التَّعْزِيرَ حَتَّى يَتُوبَ،فَإِذَا أَمْكَنَ هَجْرُهُ حَتَّى يَتُوبَ كَانَ حَسَنًا،وَإِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا تَرَكَ الصَّلَاةَ خَلْفَهُ وَصَلَّى خَلْفَ غَيْرِهِ أَثَّرَ ذَلِكَ فِي إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ حَتَّى يَتُوبَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يَنْتَهِيَ النَّاسُ عَنْ مِثْلِ ذَنْبِهِ -:فَمِثْلُ هَذَا إِذَا تَرَكَ الصَّلَاةَ خَلْفَهُ كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ،وَلَمْ تَفُتِ الْمَأْمُومَ جُمْعَةٌ وَلَا جَمَاعَةٌ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ تَرْكُ الصَّلَاةِ خَلْفَهُ يُفَوِّتُ الْمَأْمُومَ الْجُمْعَةَ وَالْجَمَاعَةَ،فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصَّلَاةَ خَلْفَهُ إِلَّا مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْإِمَامُ قَدْ رَتَّبَهُ وُلَاةُ الْأُمُورِ،لَيْسَ فِي تَرْكِ الصَّلَاةِ خَلْفَهُ مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ،فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصَّلَاةَ خَلْفَهُ،بَلِ الصَّلَاةُ خَلْفَهُ أَفْضَلُ،فَإِذَا أَمْكَنَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَا يُقَدِّمَ مَظْهَرًا لِلْمُنْكَرِ فِي الْإِمَامَةِ،وَجَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ،لَكِنْ إِذَا وَلَّاهُ غَيْرُهُ،وَلَمْ يُمْكِنْهُ صَرْفُهُ عَنِ الْإِمَامَةِ،أَوْ كَانَ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ صَرْفِهِ عَنِ الْإِمَامَةِ إِلَّا بِشَرٍّ أَعْظَمَ ضَرَرًا مِنْ ضَرَرِ مَا أَظْهَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ -:فَلَا يَجُوزُ دَفْعُ الْفَسَادِ الْقَلِيلِ بِالْفَسَادِ الْكَثِيرِ،وَلَا دَفْعُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ بِحُصُولِ أَعْظَمِهِمَا،فَإِنَّ الشَّرَائِعَ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا،وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا،بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.فَتَفْوِيتُ الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنَ الِاقْتِدَاءِ فِيهِمَا بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ،لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ التَّخَلُّفُ عَنْهَا لَا يَدْفَعُ فُجُورًا،فَيَبْقَى تَعْطِيلُ الْمَصْلَحَةِ الشَّرْعِيَّةِ بِدُونِ دَفْعِ تِلْكَ الْمَفْسَدَةِ.

وَأَمَّا إِذَا أَمْكَنَ فِعْلُ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ خَلْفَ الْبَرِّ،فَهَذَا أَوْلَى مِنْ فِعْلِهَا خَلْفَ الْفَاجِرِ.وَحِينَئِذٍ،فَإِذَا صَلَّى خَلْفَ الْفَاجِرِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ،فَهُوَ مَوْضِعُ اجْتِهَادِ الْعُلَمَاءِ:مِنْهُمْ مَنْ قَالَ.يُعِيدُ،وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:لَا يُعِيدُ."[١٢٠٨]

وقال الماوردي رحمه الله:"يحرم على الإمام نصب فاسق إماما للصلاة".

قَدَّمَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ،لَا يُجَاوِزُ ذَلِكَ،وَلَوْ قُدِّمَ إِمَامٌ غَيْرُ هَذَا الْمِثَالِ،كَانَتِ الصَّلَاةُ مُجْزِيَةً،وَيُكْرَهُ خِلَافُ السُّنَّةِ "الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٤/ ١٤٩)(١٩٣٣)

[١٢٠٨] - شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (٢/ ٥٣٣)

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وخانَ رَسُولَهُ وخانَ الْمُؤْمِنِينَ»[١٢٠٩]

فإذا كان الإمام يفعل شركا أو يدعو إلى الشرك فإن إقراره في هذه الحالة كفر لا يجوز بحال،والصلاة خلفه باطلة،فإن المساجد إنما بنيت ليعبد الله وحده لا شريك له،وقد قال الله تعالى:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا } [الجن:١٨]

المراد بالمساجد- والله أعلم- هو مواطن السجود فى الأرض..فحيث كان مكان فى هذه الأرض،يصلح للسجود،ووضع الجباه عليه،فهو لله سبحانه وتعالى،أي هو ملك لله،الذي خلق السموات والأرض..فالسجود فى ملك الله لغير الله،كفر مبين،وضلال عظيم..إنه عدوان على الله،ومحادّة له..ويجوز أن تكون المساجد،جمع «مسجد» اسم آلة،وهو العضو المشارك فى عملية السجود..ويكون المراد بالمساجد هنا،أعضاء السجود،وهى عظام الكفّين،وأطراف القدمين،وعظما الركبتين،وعظم الجبهة،وهى سبعة عظام،كما يشير إلى ذلك قول الرسول الكريم:«أمرت أن أسجد على سبعة أعظم» ..فهذه الأعضاء- أعضاء السجود،هى لله،وهو سبحانه الذي خلقها،فلا ينبغى أن يسجد بها لغير خالقها..[١٢١٠]

فهناك يكون التوحيد الخالص،ويتوارى كل ظل لكل أحد،ولكل قيمة،ولكل اعتبار.وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله.ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره وقد يكون بالالتجاء إلى سواه وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله.فإن كانت الآية من مقولات الجن فهي توكيد لما سبق من قولهم:«وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً» في موضع خاص،وهو موضع العبادة والسجود.وإن كانت من قول الله ابتداء،فهي توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم،يجيء في موضعه على طريقة القرآن.[١٢١١]

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن:١٨] كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبِيَعَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ،فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يُوَحِّدَ اللَّهَ وَحْدَهُ "

[١٢٠٩] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٠٤)(٧٠٢٣) حسن لغيره

[١٢١٠] - التفسير القرآني للقرآن (١٥/ ١٢٣٣)

[١٢١١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٤٩)

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} [الجن:١٨] قَالَ:قَالَتِ الْجِنُّ لِنَبِيِّ اللَّهِ:كَيْفَ لَنَا نَأْتِي الْمَسْجِدَ،وَنَحْنُ نَاءُونَ عَنْكَ،وَكَيْفَ نَشْهَدُ مَعَكَ الصَّلَاةَ وَنَحْنُ نَاءُونَ عَنْكَ؟ فَنَزَلَتْ:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن:١٨]

وعَنْ قَتَادَةَ {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن:١٨] قَالَ:كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبِيَعَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ،فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَخْلِصَ لَهُ الدَّعْوَةَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ" [١٢١٢]

فإن لكثير من أئمة المساجد من أهل الشرك والبدع والفجور أثرا كبيرا في صد المسلمين عن دينهم وتثبيطهم عن جهاد الكفار المحتلين،بل ومنهم الذين يدعون إلى موالاة الكافرين ومناصرتهم على المسلمين،فمثل هؤلاء تجب محاكمتهم وتنفيذ حكم الله تعالى فيهم،ولا تسند الإمامة إلا لأهل الاستقامة والصلاح والجهاد،الذين يدعون الناس إلى توحيد الله والاستقامة على طاعته،وينهونهم عن الشرك والبدع والمعاصي،ويحرضونهم على الجهاد في سبيل الله والإعداد فعَنْ أَبِي سَهْلَةَ السَّائِبِ بْنِ خَلَّادٍ - قَالَ أَحْمَدُ:مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ - أَنَّ رَجُلًا أَمَّ قَوْمًا،فَبَصَقَ فِي الْقِبْلَةِ،وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَرَغَ:«لَا يُصَلِّي لَكُمْ»،فَأَرَادَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُصَلِّيَ لَهُمْ فَمَنَعُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«نَعَمْ»،وَحَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ:«إِنَّكَ آذَيْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه [١٢١٣]

[١٢١٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣/ ٣٤١) صحيح

[١٢١٣] - سنن أبي داود (١/ ١٣٠)(٤٨١) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٤/ ٥١٥)(١٦٣٦) حسن

[حِينَ فَرَغَ:لَا يُصَلِّي لَكُمْ):بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ،فِي شَرْحِ السُّنَّةِ أَصْلُ الْكَلَامِ لَا تُصَلِّ لَهُمْ،فَعَدَلَ إِلَى النَّفْيِ لِيُؤْذِنَ بِأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ،وَإِنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مُنَافَاةً،وَأَيْضًا فِي الْإِعْرَاضِ عَنْ غَضَبٍ شَدِيدٍ،حَيْثُ لَمْ يَجْعَلْهُ مَحَلًّا لِلْخِطَابِ،وَكَانَ هَذَا النَّهْيُ فِي غَيْبَتِهِ (فَأَرَادَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُصَلِّيَ لَهُمْ؛فَمَنَعُوهُ):فَسَأَلَ عَنْ سَبَبِ الْمَنْعِ (فَأَخْبَرُوهُ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ-،فَذَكَرَ)،أَيِ:الرَّجُلُ (ذَلِكَ)،أَيْ:مَنَعَ الْقَوْمُ إِيَّاهُ عَنِ الْإِمَامَةِ (لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ-):وَقَالَ:ذَكَرُوا أَنَّكَ مَنَعْتَنِي عَنِ الْإِمَامَةِ بِهِمْ،أَكَذَلِكَ هُوَ؟ (فَقَالَ)،أَيْ:رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- (نَعَمْ):أَنَا أَمَرْتُهُمْ بِذَلِكَ (وَحَسِبْتُ)،أَيْ:قَالَ الرَّاوِي وَظَنَنْتُ (أَنَّهُ)،أَيِ:الرَّسُولُ - ﷺ- (قَالَ)،أَيْ:لَهُ زِيَادَةٌ عَلَى نَعَمْ (إِنَّكَ قَدْ آذَيْتَ)،أَيْ:(خَالَفْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ):وَفِيهِ تَشْدِيدٌ عَظِيمٌ،قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} [الأحزاب:٥٧] وَذُكِرَ اللَّهُ تَعَالَى لِلتَّبَرُّكِ،أَوْ لِبَيَانِ أَنَّ إِيذَاءَ

فإذا كان النبي ﷺ عزل عن الإمامة من بصق بجهة القبلة فكيف بمن ارتكب أعظم من هـــذا كالدعوة إلى الشرك وموالاة الكافرين،والدعوة إلى البدع والفسوق،وتخذيل المسلمين وتثبيطهم عن الجهاد الواجب؟.



رَسُولِهِ لِمُخَالَفَةِ نَهْيِهِ - لَاسِيَّمَا بِحَضْرَتِهِ - مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ إِيذَاءِ اللَّهِ تَعَالَى،كَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ،وَهَذَا مِنْهُ مَبْنِيٌّ عَلَى جَعْلِ الْإِيذَاءِ عَلَى حَقِيقَتِهِ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٦٢٥)

المبحث الثاني عشر

الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام،وقد دل على وجوبها الكتاب والسنة والإجماع،فقال تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } [البقرة:٤٣]
{وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ} أي:ظاهرا وباطنا {وَآتُوا الزَّكَاةَ} مستحقيها،{وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} أي:صلوا مع المصلين،فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله،فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة،وبين الإخلاص للمعبود،والإحسان إلى عبيده،وبين العبادات القلبية البدنية والمالية.

وقوله:{وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} أي:صلوا مع المصلين،ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها،وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبّر عن الصلاة بالركوع،والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.[1214]

وقال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة:٥]

إِنَّمَا أُمِرُوا بِمَا يُصْلِحُ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ،وَبِمَا يُحَقِّقُ لَهُمُ السَّعَادَةَ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ:مِنْ إِخْلَاصٍ للهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ،وَتَطْهِيرِ أَعْمَالِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ بِهِ،وَاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَاءِ المُنْحَرِفَةِ عَنِ الشِّرْكِ،وَإِقَامَةِ الصَّلاةِ وَأَدَائِهَا حَقَّ الأَدَاءِ،وَدَفْعِ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ...وَهَذَا هُوَ الدِّينُ الحَقُّ الذِي جَاءَ فِي الكُتُبِ القَيِّمَةِ المُسْتَقِيمَةِ التِي لا عِوَجَ فِيهَا.[1215]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ:شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَإِقَامِ الصَّلاَةِ،وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ،وَالحَجِّ،وَصَوْمِ رَمَضَانَ " متفقٌ عليه[1216]

[1214] -تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥١)

[1215] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠١٢،بترقيم الشاملة آليا)

[1216] - صحيح البخاري (١/ ١١)(٨) وصحيح مسلم (١/ ٤٥)٢١ - (١٦)

وعَنْ أَبِي سُهَيْلٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ،يَقُولُ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ،نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ،وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ،وَاللَّيْلَةِ» فَقَالَ:هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ:«لَا،إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ،وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ»،فَقَالَ:هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ:«لَا،إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ»،وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ،فَقَالَ:هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ:«لَا،إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ»،قَالَ:فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ،وَهُوَ يَقُولُ:وَاللهِ،لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا،وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ» مُتفقٌ عليه[1217]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ مُعَاذًا،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»متفقٌ عليه[1218].

[ش (بني الإسلام على خمس) أعمال الإسلام خمس هي له عالدعائم بالنسبة للبناء لا وجود له إلا بها]

[1217] - صحيح مسلم (١/ ٤٠)٨ - (١١) وصحيح البخاري (١/ ١٨)(٤٦)

[ش (ثائر) هو برفع ثائر صفة لرجل وقيل يجوز نصبه على الحال ومعنى ثائر الرأس قائم شعره منتفشه (نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول) روى نسمع ونفقه بالنون المفتوحة فيهما وروى يسمع ويفقه والأول هو الأشهر الأكثر الأعرف وأما دوي صوته فهو بعده في الهواء ومعناه شدة صوت لا يفهم (أفلح إن صدق) قيل هذا الفلاح راجع إلى قوله لا أنقص خاصة والأظهر أنه عائد إلى المجموع بمعنى أنه إذا لم يزد و لم ينقص كان مفلحا لأنه أتى بما عليه ومن أتى بما عليه فهو مفلح وليس في هذا أنه إذا أتى بزائد لا يكون مفلحا لأن هذا مما يعرف بالضرورة فإنه لإذا أفلح بالواجب فلأن يفلح بالواجب والمندوب أولى]

[1218] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٤)(١٣٩٥) وصحيح مسلم (١/ ٥٠)٢٩ - (١٩)

[ش (وكرائم أموالهم) الكرائم جمع كريمة قال صاحب المطالع هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم أو صوف (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) أي أنها مسموعة لا ترد]

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ قَبُولُ خَبَرِ الْوَاحِدِ وَوُجُوبِ الْعَمَلِ بِهِ وَفِيهِ أَنَّ الْوِتْرَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ لِأَنَّ بَعْثَ مُعَاذٍ إِلَى الْيَمَنِ كَانَ قَبْلَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺبِقَلِيلٍ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْوِتْرِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَفِيهِ أَنَّ السُّنَّةَ أَنَّ الْكُفَّارَ يُدْعَوْنَ إِلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ الْقِتَالِ وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ إِلَّا بِالنُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ كَمَا قَدَّمْنَا بَيَانَهُ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْإِيمَانِ وَفِيهِ أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تَجِبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَفِيهِ بَيَانُ عِظَمِ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَأَنَّ الْإِمَامَ يَنْبَغِي أَنْ يَعِظَ وُلَاتَهُ وَيَأْمُرَهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَيُبَالِغَ فِي نَهْيِهِمْ عَنِ الظُّلْمِ وَيُعَرِّفَهُمْ قُبْحَ عَاقِبَتِهِ وَفِيهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى السَّاعِي أَخْذُ كَرَائِمِ الْمَالِ فِي أَدَاءِ الزَّكَاةِ بَلْ يَأْخُذُ الْوَسَطَ وَيَحْرُمُ عَلَى رَبِّ الْمَالِ

وقد بين الله تعالى أن من صفات الذين وعدهم بالنصر،أهم إذا مكنوا في الأرض أعطوا زكـاة أموالهم وزكاة أموال رعيتهم إلى مستحقيها،فقال تعالى {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)} [الحج:٤٠،٤١].

والزكاة تجب في الذهب والفضة والزروع والثمار والمواشي وعروض التجارة إذا توفرت الشروط،وهي مبسوطة في كتب الفقه،وقد كان النبي ﷺ يبعث السعاة لجباية زكاة الأموال الظاهرة،وهي المواشي والزروع والثمار،وقد قال تعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة:١٠٣]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِ الذِينَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ،صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ البُخْلِ،وَالطَّمَعِ،وَالقَسْوَةِ عَلَى الفُقَرَاءِ،وَتُزَكِّي بِهَا أَنْفُسَهُمْ،وَتَرْفَعُهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الأَبْرَارِ بِفِعْلِ الخَيْرَاتِ حَتَّى يَكُونُوا أَهْلاً لِلسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.ثُمَّ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَدْعُوَ لَهُمْ،وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ)،لأنَّ صَلاَةَ الرَّسُولِ رَحْمَةٌ بِهِمْ،وَرَاحَةٌ لأَنْفُسِهِمْ،وَاللهُ سَمِيعٌ لاعْتِرَافِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ،وَسَمِيعٌ لِدُعَاءِ الرَّسُولِ لَهُمْ،عَلِيمٌ بِإِخْلاَصِهِمْ فِي تَوْبَتِهِمْ،وَنَدَمِهِمْ من هَذِهِ الذُّنُوبِ.[١٢١٩]

إِخْرَاجُ شَرِّ الْمَالِ وَفِيهِ أَنَّ الزَّكَاةَ لَا تُدْفَعُ إِلَى كَافِرٍ وَلَا تُدْفَعُ أَيْضًا إِلَى غَنِيٍّ مِنْ نَصِيبِ الْفُقَرَاءِ وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْخَطَّابِيُّ وَسَائِرُ أَصْحَابِنَا عَلَى أَنَّ الزَّكَاةَ لَا يَجُوزُ نَقْلُهَا عَنْ بَلَدِ الْمَالِ لِقَوْلِهِ ﷺفَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ لَيْسَ بِظَاهِرٍ لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي فُقَرَائِهِمْ مُحْتَمِلٌ لِفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلِفُقَرَاءِ أَهْلِ تِلْكَ الْبَلْدَةِ وَالنَّاحِيَةِ وَهَذَا الِاحْتِمَالُ أَظْهَرُ وَاسْتَدَلَّ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَيْسُوا بِمُخَاطَبِينَ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ والزكاة وتحريم الزنى وَنَحْوِهَا لِكَوْنِهِ ﷺقَالَ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُطِيعُوا لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ ضَعِيفٌ فَإِنَّ الْمُرَادَ أَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ مُطَالَبُونَ بِالصَّلَوَاتِ وَغَيْرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْمُطَالَبَةُ فِي الدُّنْيَا لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُخَاطَبِينَ بِهَا يُزَادُ فِي عَذَابِهِمْ بِسَبَبِهَا فِي الْآخِرَةِ وَلِأَنَّهُ ﷺرَتَّبَ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَبَدَأَ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ أَلَا تَرَاهُ بَدَأَ ﷺبِالصَّلَاةِ قَبْلَ الزَّكَاةِ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّهُ يَصِيرُ مُكَلَّفًا بِالصَّلَاةِ دُونَ الزَّكَاةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْمُخْتَارَ أَنَّ الْكُفَّارَ مُخَاطَبُونَ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَالْمَنْهِيِّ عَنْهُ هَذَا قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ وَالْأَكْثَرِينَ وَقِيلَ لَيْسُوا مُخَاطَبِينَ بِهَا وَقِيلَ مُخَاطَبُونَ بِالْمَنْهِيِّ دُونَ الْمَأْمُورِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ " شرح النووي على مسلم (١/ ١٩٧)

[١٢١٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٣٩،بترقيم الشاملة آليا)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ،قَالَ:«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلاَنٍ»،فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ،فَقَالَ:«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» متفق عليه[1220]

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالُوا:إِنَّ نَاسًا مِنَ الْمُصَدِّقِينَ يَأْتُونَنَا فَيَظْلِمُونَنَا،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَرْضُوا مُصَدِّقِيكُمْ» قَالَ جَرِيرٌ:«مَا صَدَرَ عَنِّي مُصَدِّقٌ،مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،إِلَّا وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ» رواه مسلم[1221]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّهُ قَالَ:أَتَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ،وَذُو أَهْلٍ وَوَلَدٍ،وَحَاضِرَةٍ،فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أُنْفِقُ؟ وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ،فَإِنَّهَا طُهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ،وَتَصِلُ أَقْرِبَاءَكَ،وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ،وَالْجَارِ،وَالْمِسْكِينِ "،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَقْلِلْ لِي،قَالَ:" فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ،وَالْمِسْكِينَ،وَابْنَ السَّبِيلِ،وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا " فَقَالَ:حَسْبِي يَا رَسُولَ اللهِ،إِذَا أَدَّيْتُ الزَّكَاةَ إِلَى رَسُولِكَ،فَقَدْ بَرِئْتُ مِنْهَا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" نَعَمْ،إِذَا أَدَّيْتَهَا إِلَى رَسُولِي،فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا،فَلَكَ أَجْرُهَا،وَإِثْمُهَا عَلَى مَنْ بَدَّلَهَا " رواه أحمد[1222]

[1220] - صحيح البخاري (٢/ ١٢٩)(١٤٩٧) وصحيح مسلم (٢/ ٧٥٦)١٧٦ - (١٠٧٨)

قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:الصَّلَاةُ بِمَعْنَى الدُّعَاءِ،وَالتَّبَرُّكِ،قِيلَ يَجُوزُ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ،قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي مُعْطِي الزَّكَاةِ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ وَأَمَّا الصَّلَاةُ الَّتِي لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- فَإِنَّهَا بِمَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ،فَهِيَ خَاصَّةٌ لَهُ.اهـ،وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الطِّيبِيِّ:قِيلَ:لَفْظُ الصَّلَاةِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى بِهَا لِغَيْرِ النَّبِيِّ - ﷺ- لَكِنْ يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى بِمَعْنَاهُ اهـ،قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:اخْتَلَفُوا فِي الدُّعَاءِ لَهُ وَلِغَيْرِهِ بِلَفْظِ الصَّلَاةِ،فَقِيلَ:يُكْرَهُ وَلَوْ أَنْ أَرَادَ بِهَا مُطْلَقَ الرَّحْمَةِ،وَقِيلَ:يَحْرُمُ،وَقِيلَ:خِلَافُ الْأَوْلَى،وَقِيلَ:يُسَنُّ،وَقِيلَ:يُبَاحُ إِنْ أَرَادَ بِالصَّلَاةِ مُطْلَقَ الرَّحْمَةِ،وَيُكْرَهُ إِنْ أَرَادَ بِهَا مَقْرُونَةً بِالتَّعْظِيمِ.اهـ،وَالْمَانِعُونَ يَجْعَلُونَ هَذَا مِنْ خُصُوصِيَّاتِهِ - ﷺ- ثُمَّ الظَّاهِرُ أَنَّ الْآلَ مُقْحَمٌ،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الرِّوَايَةُ الْآتِيَةُ:اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ،أَوِ الْمُرَادُ بِآلِهِ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ،فَيَعُمُّ الدُّعَاءُ،لِأَنَّهُ إِذَا دَعَا لِآلِهِ لِأَجْلِهِ فَهُوَ يَسْتَحِقُّ الدُّعَاءَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر:٤٦]مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٦٨)

[1221] - صحيح مسلم (٢/ ٦٨٥)٢٩ - (٩٨٩)

[ش (المصدقين) بتخفيف الصاد وهم السعاة العاملون على الصدقات (ارضوا مصدقيكم) معناه ببذل الواجب وملا طفتهم وترك مشاقهم]

[1222] - مسند أحمد ط الرسالة (١٩/ ٣٨٦)(١٢٣٩٤) والأموال لابن زنجويه (٢/ ٧٨٥)(١٣٦٢) فيه انقطاع

قوله:"وحاضرة"،قال السندي:في "القاموس":الحاضرة خلاف البادية،وكأن المراد ذو بيوت ومساكن.="طُهْرة"،أي:تطهير من الذنوب.

وعَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:«قَدِمَ عَلَيْنَا مُصَدِّقُ النَّبِيِّ ﷺ،فَأَخَـذَ الصَّـدَقَةَ مِـنْ أَغْنِيَائِنَا،فَجَعَلَهَا فِي فُقَرَائِنَا،وَكُنْتُ غُلَامًا يَتِيمًا،فَأَعْطَانِي مِنْهَا قَلُوصًا» رواه الترمذي[١٢٢٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِـنَ الْعَرَبِ،قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ،وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،فَمَنْ قَالَ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،فَقَدْ عَصَمَ مِنِّـي مَالَهُ،وَنَفْسَـهُ،إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ "،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ،وَالزَّكَاةِ،فَإِنَّ الزَّكَـاةَ حَقُّ الْمَالِ،وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ،فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:فَوَاللهِ،مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ".مُتفقٌ عليه[١٢٢٤]

[١٢٢٣] - سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٣١)(٦٤٩) وسنن الدارقطني (٣/ ٥٦)(٢٠٦٠) وصحيح ابن خزيمة (٤/ ٦٦)(٢٣٦٢) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٦/ ٥٧٤)(١٠٧٤٧) حسن

[١٢٢٤] - صحيح البخاري (٩/ ١٥)(٦٩٢٤) وصحيح مسلم (١/ ٥١)٣٢ - (٢٠)

[ش (وحسابه على الله) معناه أي فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة (عقالا) قد اختلف العلماء قديما وحديثا فيها فذهب جماعة منهم إلى أن المراد بالعقال زكاة عام وهو معروف في اللغة بذلك وذهب كثير من المحققين إلى أن المراد بالعقال الحبل الذي يعقل به البعير]

(وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ) إِمَّا تَغْلِيظٌ أَوْ لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا وُجُوبَ الزَّكَاةِ،وَإِنْكَارُ وُجُوبِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ،إِذَا كَانَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ كُفْرٌ اتِّفَاقًا؛بَلْ قَالَ جَمَاعَةٌ:إِنَّ إِنْكَارَ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ كُفْرٌ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا أَوِ الْمَعْنَى قَارَبُوا الْكُفْرَ أَوْ شَابَهُوا الْكُفَّارَ،أَوْ أَرَادَ كُفْرَانَ النِّعْمَةِ (مِنَ الْعَرَبِ) قَالَ الطِّيبِيُّ:يُرِيدُ غَطَفَانَ وَفَزَارَةَ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَغَيْرَهُمْ،مَنَعُوا الزَّكَاةَ فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ فَاعْتَرَضَ عُمَرُ بِقَوْلِهِ الْآتِي،وَأَبُو بَكْرٍ جَعَلَهُمْ كُفَّارًا لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا وُجُوبَ الزَّكَاةِ،أَوْ أَتَوْا بِشُبْهَةٍ فِي الْمَنْعِ،فَيَكُونُ تَغْلِيظًا،وَعُمَرُ أَجْرَاهُ عَلَى ظَاهِرِهِ،وَأَنْكَرَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ.اهـــ،وَيَدُلُّ عَلَى الثَّانِي مَا رُوِيَ أَنَّهُمْ قَالُوا:إِنَّمَا كُنَّا نُؤَدِّي زَكَاتَنَا لِمَنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ سَكَنًا لَنَا،وَالْآنَ قَدْ ذَهَبَ بِوَفَاتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَا نُؤَدِّيهَا لِغَيْرِهِ،أَيْ لَمَّا أَنْ عَزَمَ عَلَى قِتَالِهِمْ (قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِى بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ) أَيْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ (وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-:أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) كِنَايَةً عَنِ الْإِسْلَامِ أَوِ الْمُرَادُ بِالنَّاسِ الْمُشْرِكُونَ (فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) يَعْنِي كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ وَهِيَ لَا اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ لِلْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُعْتَدُّ بِتِلْكَ وَحْدَهَا (عَصَمَ) بِفَتْحِ الصَّادِ أَيْ حَفِظَ وَمَنَعَ (مِنِّي) أَيْ مِنْ تَعَرُّضِي أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ) أَيْ بِحَقِّ الْإِسْلَامِ كَمَا فِي رِوَايَةٍ،قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَرِضَ لِمَالِهِ وَنَفْسِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ،إِلَّا بِحَقِّهِ أَيْ بِحَقِّ هَذَا الْقَوْلِ أَوْ بِحَقِّ أَحَدِ الْمَذْكُورِينَ (وَحِسَابُهُ) أَيْ جَزَاؤُهُ وَمُحَاسَبَتُهُ (عَلَى اللَّهِ) بِأَنَّهُ مُخْلِصٌ أَمْ لَا،قَالَ الطِّيبِيُّ:يَعْنِي مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ نَتْرُكُ مُقَاتَلَتَهُ،وَلَا نُفَتِّشُ بَاطِنَهُ،هَلْ هُوَ مُخْلِصٌ أَمْ لَا؟ فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَحِسَابُهُ عَلَيْهِ (فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ) بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ (بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) أَيِ الْمَقْرُونَتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ،أَوِ الْمَوْجُودَتَيْنِ فِي حَدِيثٍ آخَرَ،حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ،وَهَذَا أَظْهَرُ فِي

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:«ادْفَعُوهَا إِلَى مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ،فَمَنْ بَرَّ فَلِنَفْسِهِ،وَمَنْ أَثِمَ فَعَلَيْهَـــا» رواه أبو عبيد في الأموال وغيره[1225]

اسْتِدْلَال أَبِي بَكْرٍ (فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ) أَيْ كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ حَقُّ النَّفْسِ قَالَهُ الطِّيبِيُّ،وَقَالَ غَيْرُهُ:يَعْنِي الْحَقَّ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ " إِلَّا بِحَقِّهِ " أَعَمَّ مِنَ الْمَالِ،وَغَيْرِهِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:كَأَنَّ عُمَرَ حَمَلَ قَوْلَهُ بِحَقِّهِ عَلَى غَيْرِ الزَّكَاةِ،فَلِذَلِكَ صَحَّ اسْتِدْلَالُهُ بِالْحَدِيثِ،فَأَجَابَ أَبُو بَكْرٍ بِأَنَّهُ شَامِلٌ لِلزَّكَاةِ أَيْضًا،أَوْ تَوَهَّمَ عُمَرُ أَنَّ الْقِتَالَ لِلْكُفْرِ،فَأَجَابَ بِأَنَّهُ لِمَنْعِ الزَّكَاةِ لَا لِلْكُفْرِ اهـــ،وَلَا مُسْتَدَلَّ لِلشَّافِعِيَّةِ فِيهِ بِأَنَّ تَارِكَ الصَّلَاةِ يُقْتَلُ فَإِنَّ الْفَرْقَ ظَاهِرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِتَالِ لِقَوْمٍ تَرَكُوا شِعَارَ الْإِسْلَامِ بِتَرْكِ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ،أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِمَامَ مُحَمَّدًا مِنْ أَصْحَابِنَا جَوَّزَ الْقِتَالَ لِقَوْمٍ تَرَكُوا الْأَذَانَ فَضْلًا عَنِ الْأَرْكَانِ،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:ظَاهِرُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} [التوبة:١٠٣] الْآيَةَ يُوجِبُ حَقَّ أَخْذِ الزَّكَاةِ مُطْلَقًا لِلْإِمَامِ،وَعَلَى هَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- وَالْخَلِيفَتَانِ بَعْدَهُ،فَلَمَّا وَلِيَ عُثْمَانُ وَظَهَرَ تَغَيُّرُ النَّاسِ كَرِهَ أَنْ يُفَتِّشَ السُّعَاةُ عَلَى النَّاسِ مَسْتُورَ أَمْوَالِهِمْ فَفَوَّضَ الدَّفْعَ إِلَى الْمُلَّاكِ نِيَابَةً عَنْهُ،وَلَمْ يَخْتَلِفِ الصَّحَابَةُ فِي ذَلِكَ،وَهَذَا لَا يُسْقِطُ طَلَبَ الْإِمَامِ أَصْلًا،وَلِهَذَا لَوْ عَلِمَ أَنَّ أَهْلَ بَلْدَةٍ لَا يُؤَدُّونَ زَكَاتَهُمْ طَالَبَهُمْ بِهَا (وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي) أَيْ بِالْمَنْعَةِ وَالْغَلَبَةِ (عَنَاقًا) بِفَتْحِ الْعَيْنِ أَيِ الْأُنْثَى لَمْ تَبْلُغْ سِتَّةً مِنْ وَلَدِ الْمَعْزِ،وَذَكَرَهَا مُبَالَغَةً،قَالَ النَّوَوِيُّ فِي رِوَايَةٍ:عِقَالًا،وَذَكَرُوا فِيهِ وُجُوهًا:أَصَحُّهَا وَأَقْوَاهَا قَوْلُ صَاحِبِ التَّحْرِيرِ أَنَّهُ وَرَدَ مُبَالَغَةً،لِأَنَّ الْكَلَامَ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّضْيِيقِ وَالتَّشْدِيدِ،فَيَقْتَضِي قِلَّةً وَحَقَارَةً،فَانْدَفَعَ مَا قَالَهُ ابْنُ حَجَرٍ:مِنْ قَوْلِهِ:وَدَلِيلُ وُجُوبِهَا فِي الصِّغَارِ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا،وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ،فَكَانَ إِجْمَاعًا،فَقَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:يَدُلُّ عَلَى نَفْيِهِ مَا فِي أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ «عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ:أَتَانِي مُصَدِّقُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- فَأَتَيْتُهُ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِيَّ،يَعْنِي كِتَابِي أَنْ لَا آخُذَ رَاضِعَ لَبَنٍ» ..الْحَدِيثَ،قَالَ:وَحَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ لَا يُعَارِضُهُ لِأَنَّ أَخْذَ الْعَنَاقِ لَا يَسْتَلْزِمُ الْأَخْذَ مِنَ الصِّغَارِ،لِأَنَّ ظَاهِرَ مَا قَدَّمْنَاهُ فِي حَدِيثِ " فِي صَدَقَةِ الْغَنَمِ " أَنَّ الْعَنَاقَ يُقَالُ عَلَى الْجَزَعَةِ وَالثَّنِيَّةِ،وَلَوْ مَجَازًا،فَارْجِعْ إِلَيْهِ،فَيَجِبُ الْحَمْلُ عَلَيْهِ دَفْعًا لِلتَّعَارُضِ،وَلَوْ سَلِمَ جَازَ أَخْذُهَا بِطَرِيقِ الْقِيمَةِ لَا أَنَّهَا هِيَ نَفْسُ الْوَاجِبِ،وَنَحْنُ نَقُولُ بِهِ،أَوْ هُوَ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ لَا التَّحْقِيقِ،يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى عِقَالًا مَكَانَ عَنَاقًا (كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا) أَيْ عَلَى تَرْكِ مَنْعِهَا أَوْ لِأَجْلِ مَنْعِهَا،وَلَا دَلَالَةَ فِي الْحَدِيثِ أَصْلًا عَلَى مَا قَالَهُ الشَّافِعِيَّةُ أَخْذًا مِنَ الْحَدِيثِ مِنْ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَخْذُ الزَّكَاةِ مِنْ مَانِعِيهَا قَهْرًا عَلَيْهِمْ،لِأَنَّ الْحَدِيثَ إِنَّمَا هُوَ فِي قِتَالِ مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ لِإِنْكَارِهَا أَوْ شُبْهَةٍ فِي وُجُوبِهَا،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ،وَأَمَّا مَنِ انْقَادَ إِلَى أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَنَحْوِهَا فَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ فِي فِعْلِهَا،وَتَرْكِهَا،مَعَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنِ اعْتِبَارِ النِّيَّةِ فِي الْعِبَادَةِ،وَهِيَ غَيْرُ صَحِيحَةٍ فِي الْمَقْهُورِ (قَالَ عُمَرُ:فَوَاللَّهِ مَا هُوَ) أَيِ الشَّأْنُ (إِلَّا رَأَيْتُ) أَيْ عَلِمْتُ (أَنَّ اللَّهَ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ) وَفَتَحَ قَلْبَهُ بِالْإِلْهَامِ غَيْرَةً عَلَى أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ (فَعَرَفْتُ أَنَّهُ) أَيْ رَأْيَ أَبَا بَكْرٍ أَوِ الْقِتَالَ (هُوَ الْحَقُّ) وَهَذَا إِنْصَافٌ مِنْهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَرُجُوعٌ إِلَى الْحَقِّ عِنْدَ ظُهُورِهِ،مَعَ أَنَّهُ مَظْهَرُ نُطْقِ الْحَقِّ،وَمَنْبَعُ عَيْنِ الصِّدْقِ،وَهَذَا يُظْهِرُ كَمَالَ الصِّدِّيقِ،وَالْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَارُوقِ،حَيْثُ سَلَكَ الصِّدِّيقُ طَرِيقَ التَّدْقِيقِ وَسَبِيلَ التَّحْقِيقِ،عَلَى وَفْقِ التَّوْفِيقِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ غَيْرُ مَذْكُورٍ،أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عُلِمَ بِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ مُحِقٌّ،فَهَذَا الضَّمِيرُ يُفَسِّرُهُ مَا بَعْدَهُ نَحْوَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الأنعام:٢٩] "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٧٦)

[1225] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٦٨٠)(١٧٩٧) ومصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٦/ ٤٧٤)(١٠٢٨٨)صحيح

وعَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:سَأَلْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ،وَأَبَا هُرَيْرَةَ،وَأَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ،وَابْنَ عُمَرَ،فَقُلْتُ:«إِنَّ هَذَا السُّلْطَانَ يَصْنَعُ مَا تَرَوْنَ،أَفَأَدْفَعُ زَكَاتِي إِلَيْهِمْ؟» قَالَ:فَقَالُوا كُلُّهُمْ:«ادْفَعْهَا إِلَيْهِمْ» رواه أبو عبيد في الأموال[1226]،وهذا كان في عهد بني أمية.

مَصَارِفُ الزَّكَاة :

فالحكومة الإسلامية تتولى جباية زكاة الأموال الظاهرة،وتعطيها لمستحقيها وهم الأصناف الثمانية الذين ذكرهم الله تعالى في قوله:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٦٠]

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الذِي قَسَّمَهَا،وَبَيَّنَ حُكْمَهَا،وَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِنَفْسِهِ الكَرِيمَةِ،وَلَمْ يَكِلْ قِسْمَتَهَا إِلَى أَحَدٍ غَيْرِه،فَجَزَّأَهَا لِهَؤُلاَءِ المَذْكُورِينَ فِي الآيَةِ.وَهُمْ:

الفُقَرَاءَ – وَهُمْ مَنْ لَهُمْ مَالٌ قَلِيلٌ دُونَ النِّصَابِ أَيْ أَقَلَّ مِنْ ١٢ دِينَاراً.

المَسَاكِينَ – وَهُمُ الَّذِينَ لاَ شَيْءَ لَهُمْ،وَهُمْ لاَ يَجِدُونَ غِنىً يُغْنِيهِمْ،وَلاَ يُفْطَنُ إِلَيْهِمْ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِمْ،وَلاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ شَيْئاً.

العَامِلُونَ عَلَيْهَا – وَهُمْ السُّعَاةُ وَالْجُبَاةُ بِشَرْطِ أَنْ لاَ يَكُونُوا مِنْ أَقْرِبَاءِ الرَّسُولِ ﷺ،لأَنَّ أَقْرِبَاءَ الرَّسُولِ لاَ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ.

المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ – وَهُمْ الَّذِينَ يُعْطَوْنَ تَأَلُّفاً لِقُلُوبِهِمْ،فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَي لِيُسْلِمَ،وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَحْسُنَ إِسْلاَمُهُ،وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَي لِيَجْبِيَ الصَّدَقَاتِ مِمَّنْ يَلِيه.

الرِّقَابِ – هُمُ العَبِيدُ المُكَاتَبُونَ الذِينَ يُرِيدُونَ أَدَاءَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ فَرِيضَةٍ لإِعْتَاقِهِمْ (أَوْ تَعْنِي صَرْفَ جُزْءٍ مِنْ أَمْوَالِ الصَّدَقَاتِ فِي إِعْتَاقِ رِقَابٍ) .

وَالْأَحَادِيثُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْبَابِ اسْتَدَلَّ بِهَا الْجُمْهُورُ عَلَى جَوَازِ دَفْعِ الزَّكَاةِ إلَى سَلَاطِينِ الْجَوْرِ وَإِجْزَائِهَا.وَحَكَى الْمَهْدِيُّ فِي الْبَحْرِ عَنْ الْعِتْرَةِ وَأَحَدُ قَوْلَيْ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ دَفْعُ الزَّكَاةِ إلَى الظَّلَمَةِ وَلَا يُجْزِئُ،وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة:١٢٤]،وَيُجَابُ بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى تَسْلِيمِ صِحَّةِ الِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى مَحَلِّ النِّزَاعِ عُمُومُهَا مُخَصَّصٌ بِالْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْبَابِ.نيل الأوطار (٤/ ١٨٥)

[1226] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٦٧٩)(١٧٩١) والسنن الكبرى للبيهقي (٤/ ١٩٣)(٧٣٨٥) صحيح

الغَارِمُونَ – كَمَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَةً،أَوْ ضَمِنَ دَيْناً فَلَزِمَهُ أَدَاؤُهُ فَأَجْحَفَ بِمَالِهِ،أَوْ غَــرِمَ فِــي أَدَاءِ دَيْنِهِ،أَوْ فِي مَعْصِيةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْهَا،فَهَؤُلاَءِ يُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الصَّدَقَاتِ.

فِي سَبِيلِ اللهِ – هُمُ الغُزَاةُ الُمجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ،أَوْ مَنَ أَرَادَ الحَجَّ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُعْطَوْنَ مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ.

أَبْنَاءِ السَّبِيلِ – هُمُ الُمسَافِرُونَ الُمجْتَازُونَ فِي بَلَدٍ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى سَفَرِهِمْ،وَلاَ يَتَيَسَّرُ لَهُمْ إِحْضَارُ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مِنْ بَلَدِهِمْ،فَيُعْطَوْنَ مِنْ أَمْوَالِ الصَّــدَقَاتِ مَــا يَكْفِــي لِنَفَقَتِهِمْ.[١٢٢٧]

مَصَارِفُ الزَّكَاةِ مَحْصُورَةٌ فِي ثَمَانِيَةِ أَصْنَافٍ .

وَالأَصْنَافُ الثَّمَانِيَةُ قَدْ نَصَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :{ إِنَّمَا الصَّــدَقَاتُ لِلْفُقَــرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّــهِ وَابْــنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }.

وَ " إِنَّمَا " الَّتِي صُدِّرَتْ بِهَا الآيَةُ أَدَاةُ حَصْرٍ،فَلاَ يَجُوزُ صَرْفُ الزَّكَاةِ لأَحَدٍ أَوْ فِي وَجْهٍ غَيْــرِ دَاخِلٍ فِي هَذِهِ الأَصْنَافِ،وَقَدْ أَكَّدَ ذَلِكَ مَا وَرَدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ :أَعْطِنِــي مِــنَ الصَّدَقَةِ،فَقَالَ :إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلاَ غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُــوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةً،فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ .

وَمَنْ كَانَ دَاخِلاً فِي هَذِهِ الأَصْنَافِ فَلاَ يَسْتَحِقُّ مِنَ الزَّكَاةِ إِلاَّ بِأَنْ تَنْطَبِقَ عَلَيْهِ شُرُوطٌ مُعَيَّنَــةٌ تَأْتِي بَعْدَ بَيَانِ الأَصْنَافِ .

بَيَانُ الأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ :

الصِّنْفَانِ الأَوَّلُ وَالثَّانِي :الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ :

الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ هُمْ أَهْلُ الْحَاجَةِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ،وَإِذَا أُطْلِقَ لَفْظُ (الْفُقَــرَاءِ) وَانْفَرَدَ دَخَلَ فِيهِمُ (الْمَسَاكِينُ)،وَكَذَلِكَ عَكْسُهُ،وَإِذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا فِي كَلاَمٍ وَاحِدٍ،كَمَا فِــي آيَةِ مَصَارِفِ الزَّكَاةِ،تَمَيَّزَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَعْنًى .

١٢٢٧ _ أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٩٦،بترقيم الشاملة آليا)

وَقَد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي أَيُّهُمَا أَشَدُّ حَاجَةً،فَذَهَبَ الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ إِلَى أَنَّ الْفَقيرَ أَشَدُّ حَاجَةً منَ الْمسْكين،وَاحْتَجُّوا بأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّمَ ذكْرَهُمْ في الآْيَة،وَذَلكَ يَدُل عَلَى أَنَّهُمْ أَهَمُّ وَبقَوْله تَعَالَى :{ أَمَّا السَّفينَةُ فَكَانَتْ لمَسَاكينَ يَعْمَلُونَ في الْبَحْر } .فَأَثْبَتَ لَهُمْ وَصْفَ الْمَسْكَنَة مَعَ كَوْنهمْ يَمْلكُونَ سَفينَةً وَيُحَصِّلُونَ نَوْلاً،وَاسْتَأْنَسُوا لذَلكَ أَيْضًا بالاشْتقَاق،فَالْفَقيرُ لُغَةً :فَعيلٌ بمَعْنَى مَفْعُول،وَهُوَ مَنْ نُزعَتْ بَعْضُ فقَار صُلْبه،فَانْقَطَعَ ظَهْرُهُ،وَالْمسْكينُ مفْعيلٌ منَ السُّكُون،وَمَنْ كُسرَ صُلْبُهُ أَشَدُّ حَالاً منَ السَّاكن .

وَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ وَالْمَالكيَّةُ إِلَى أَنَّ الْمسْكينَ أَشَدُّ حَاجَةً منَ الْفَقير،وَاحْتَجُّوا بأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَال :{ أَوْ مسْكينًا ذَا مَتْرَبَة } .وَهُوَ الْمَطْرُوحُ عَلَى التُّرَاب لشدَّة جُوعه،وَبأَنَّ أَئمَّةَ اللُّغَة قَالُوا ذَلكَ،منْهُمُ الْفَرَّاءُ وَثَعْلَبٌ وَابْنُ قُتَيْبَةَ،وَبالاشْتقَاق أَيْضًا،فَهُوَ منَ السُّكُون،كَأَنَّهُ عَجَزَ عَن الْحَرَكَة فَلاَ يَبْرَحُ .

وَنَقَل الدُّسُوقيُّ قَوْلاً أَنَّ الْفَقيرَ وَالْمسْكينَ صنْفٌ وَاحدٌ،وَهُوَ مَنْ لاَ يَمْلكُ قُوتَ عَامه،سَوَاءٌ كَانَ لاَ يَمْلكُ شَيْئًا أَوْ يَمْلكُ أَقَل منْ قُوت الْعَام .

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ في حَدِّ كُلٍّ منَ الصِّنْفَيْن :

فَقَال الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ :الْفَقيرُ مَنْ لاَ مَال لَهُ وَلاَ كَسْبَ يَقَعُ مَوْقعًا منْ حَاجَته،كَمَنْ حَاجَتُهُ عَشَرَةٌ فَلاَ يَجدُ شَيْئًا أَصْلاً،أَوْ يَقْدرُ بمَاله وَكَسْبه وَمَا يَأْتيه منْ غَلَّة وَغَيْرهَا عَلَى أَقَل منْ نصْف كفَايَته .فَإِنْ كَانَ يَجدُ النِّصْفَ أَوْ أَكْثَرَ وَلاَ يَجدُ كُل الْعَشَرَة فَمسْكينٌ .

وَقَال الْحَنَفيَّةُ وَالْمَالكيَّةُ :الْمسْكينُ مَنْ لاَ يَجدُ شَيْئًا أَصْلاً فَيَحْتَاجُ للْمَسْأَلَة وَتَحل لَهُ .

وَاخْتَلَفَ قَوْلُهُمْ في الْفَقير :

فَقَال الْحَنَفيَّةُ :الْفَقيرُ مَنْ لَهُ أَدْنَى شَيْءٍ وَهُوَ مَا دُونَ النِّصَاب،فَإِذَا مَلَكَ نصَابًا منْ أَيِّ مَال زَكَويٍّ فَهُوَ غَنيٌّ لاَ يَسْتَحقُّ شَيْئًا منَ الزَّكَاة،فَإِنْ مَلَكَ أَقَل منْ نصَاب فَهُوَ غَيْرُ مُسْتَحقٍّ،وَكَذَا لَوْ مَلَكَ نصَابًا غَيْرَ نَام وَهُوَ مُسْتَغْرقٌ في الْحَاجَة الأْصْليَّة،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرقًا مُنعَ،كَمَنْ عنْدَهُ ثيَابٌ تُسَاوي نصَابًا لاَ يَحْتَاجُهَا،فَإِنَّ الزَّكَاةَ تَكُونُ حَرَامًا عَلَيْه،وَلَوْ بَلَغَتْ قيمَةُ مَا يَمْلكُهُ نُصُبًا فَلاَ يَمْنَعُ ذَلكَ كَوْنَهُ منَ الْمُسْتَحقِّينَ للزَّكَاة إنْ كَانَتْ مُسْتَغْرَقَةً بالْحَاجَة الأْصْليَّة كَمَنْ عنْدَهُ

كُتُبٌ يَحْتَاجُهَا لِلتَّدْرِيسِ،أَوْ آلاَتُ حِرْفَةٍ،أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ .
وَقَال الْمَالِكِيَّةُ :الْفَقِيرُ مَنْ يَمْلِكُ شَيْئًا لاَ يَكْفِيهِ لِقُوتِ عَامِهِ .
إِعْطَاءُ الزَّكَاةِ لِمَنْ لاَ يَمْلِكُ مَالاً وَلَهُ مَوْرِدُ رِزْقٍ :
مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ أَوْ لَهُ مَالٌ لاَ يَكْفِيهِ فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ مِنَ الزَّكَاةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ،إِلاَّ أَنَّ مَنْ لَزِمَتْ نَفَقَتُهُ مَلِيئًا مِنْ نَحْوِ وَالِدٍ لاَ يُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ،وَكَذَا لاَ تُعْطَى الزَّوْجَةُ لاِسْتِغْنَائِهَا بِإِنْفَاقِ زَوْجِهَا عَلَيْهَا .وَمَنْ لَهُ مُرَتَّبٌ يَكْفِيهِ لَمْ يَجُزْ إِعْطَاؤُهُ مِنَ الزَّكَاةِ .وَكَذَا مَنْ كَانَ لَهُ صَنْعَةٌ تَكْفِيهِ وَإِنْ كَانَ لاَ يَمْلِكُ فِي الْحَال مَالاً .
فَإِنْ كَانَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الأَْسْبَابِ يَأْتِيهِ مِنْهُ أَقَل مِنْ كِفَايَتِهِ يَجُوزُ إِعْطَاؤُهُ تَمَامَ الْكِفَايَةِ .
وَنَقَل النَّوَوِيُّ أَنَّ مَنْ لَهُ ضَيْعَةٌ تَغُل بَعْضَ كِفَايَتِهِ أَنَّهُ لاَ يَلْزَمُهُ بَيْعُهَا لِتَحِل لَهُ الزَّكَاةُ،وَكَذَلِكَ آلاَتُ الْمُحْتَرِفِينَ وَكَسْبُ الْعَالِمِ.
وَقَال الْحَنَفِيَّةُ :يَجُوزُ دَفْعُ الزَّكَاةِ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ دَخْلٌ سَنَوِيٌّ أَوْ شَهْرِيٌّ أَوْ يَوْمِيٌّ مِنْ عَقَارٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ،إِنْ لَمْ يَمْلِكْ نِصَابًا زَكَوِيًّا،وَيَجُوزُ دَفْعُهَا إِلَى الْوَلَدِ الَّذِي أَبُوهُ غَنِيٌّ إِنْ كَانَ الْوَلَدُ كَبِيرًا فَقِيرًا،سَوَاءٌ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ؛لأَِنَّهُ لاَ يُعَدُّ غَنِيًّا بِيَسَارِ أَبِيهِ وَإِنْ كَانَتْ نَفَقَتُهُ عَلَيْهِ،أَمَّا الْوَلَدُ الصَّغِيرُ الَّذِي أَبُوهُ غَنِيٌّ فَلاَ تُدْفَعُ إِلَيْهِ الزَّكَاةُ لأَِنَّهُ يُعَدُّ غَنِيًّا بِيَسَارِ أَبِيهِ،وَسَوَاءٌ كَانَ الصَّغِيرُ فِي عِيَال أَبِيهِ أَمْ لاَ .وَكَذَا قَال أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ :يَجُوزُ دَفْعُ الزَّكَاةِ إِلَى رَجُلٍ فَقِيرٍ لَهُ ابْنٌ مُوسِرٌ .وَقَال أَبُو يُوسُفَ :إِنْ كَانَ الأَْبُ فِي عِيَال الاِبْنِ الْمُوسِرِ لاَ يَجُوزُ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَازَ .
قَالُوا :وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ الْفَقِيرَةُ إِنْ كَانَ لَهَا زَوْجٌ غَنِيٌّ يَجُوزُ إِعْطَاؤُهَا مِنَ الزَّكَاةِ،لأَِنَّهَا لاَ تُعَدُّ غَنِيَّةً بِيَسَارِ زَوْجِهَا،وَبِقَدْرِ النَّفَقَةِ لاَ تَصِيرُ مُوسِرَةً،وَاسْتِيجَابُهَا النَّفَقَةَ بِمَنْزِلَةِ الأُْجْرَةِ .
وَمَنْ كَانَ مُسْتَغْنِيًا بِأَنْ تَبَرَّعَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بِأَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهِ،فَالصَّحِيحُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّهُ يَجُوزُ إِعْطَاؤُهُ مِنَ الزَّكَاةِ،وَيَجُوزُ لِلْمُتَبَرِّعِ بِنَفَقَتِهِ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ مِنَ الزَّكَاةِ وَلَوْ كَانَ فِي عِيَالِهِ،لِدُخُولِهِ فِي أَصْنَافِ الزَّكَاةِ،وَعَدَمِ وُجُودِ نَصٍّ أَوْ إِجْمَاعٍ يُخْرِجُهُ مِنَ الْعُمُومِ .

جِنْسُ الْكِفَايَةِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي اسْتِحْقَاقِ الزَّكَاةِ :

الْكِفَايَةُ الْمُعْتَبَرَةُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ هِيَ لِلْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَسْكَنِ وَسَائِرِ مَا لاَ بُدَّ مِنْهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِالْحَال مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ تَقْتِيرٍ،لِلشَّخْصِ نَفْسِهِ وَلِمَنْ هُوَ فِي نَفَقَتِهِ .

وَصَرَّحَ الْمَالِكِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ بِأَنَّ مَال الزَّكَاة إِنْ كَانَ فِيهِ سَعَةٌ يَجُوزُ الإِْعَانَةُ بِهِ لِمَنْ أَرَادَ الزَّوَاجَ.

الْقَدْرُ الَّذِي يُعْطَاهُ الْفَقِيرُ وَالْمِسْكِينُ مِنَ الزَّكَاة :

ذَهَبَ الْجُمْهُورُ (الْمَالِكِيَّةُ وَهُوَ قَوْلٌ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَهُوَ الْمَذْهَبُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ) إِلَى أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ أَهْل الْحَاجَةِ الْمُسْتَحِقَّ لِلزَّكَاة بِالْفَقْرِ أَوِ الْمَسْكَنَةِ يُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ الْكِفَايَةَ أَوْ تَمَامَهَا لَهُ وَلِمَنْ يَعُولُهُ عَامًا كَامِلاً،وَلاَ يُزَادُ عَلَيْهِ،إِنَّمَا حَدَّدُوا الْعَامَ لأَِنَّ الزَّكَاةَ تَتَكَرَّرُ كُل عَامٍ غَالِبًا،وَلأَِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ادَّخَرَ لأَِهْلِهِ قُوتَ سَنَة .وَسَوَاءٌ كَانَ مَا يَكْفِيهِ يُسَاوِي نِصَابًا أَوْ نُصُبًا .وَإِنْ كَانَ يَمْلِكُ أَوْ يَحْصُل لَهُ بَعْضُ الْكِفَايَةِ أُعْطِيَ تَمَامَ الْكِفَايَةِ لِعَامٍ .

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي قَوْلٍ مَنْصُوصٍ وَالْحَنَابِلَةُ فِي رِوَايَةٍ إِلَى أَنَّ الْفَقِيرَ وَالْمِسْكِينَ يُعْطَيَانِ مَا يُخْرِجُهُمَا مِنَ الْفَاقَةِ إِلَى الْغِنَى وَهُوَ مَا تَحْصُل بِهِ الْكِفَايَةُ عَلَى الدَّوَام،لِحَدِيثِ قَبِيصَةَ مَرْفُوعًا إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِل إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ :رَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ،أَوْ قَال :سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ..الْحَدِيثَ .

قَالُوا :فَإِنْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِ الاِحْتِرَافُ أُعْطِيَ مَا يَشْتَرِي بِهِ أَدَوَاتِ حِرْفَتِهِ قَلَّتْ قِيمَتُهَا أَوْ كَثُرَتْ بِحَيْثُ يَحْصُل لَهُ مِنْ رِبْحِهِ مَا يَفِي بِكِفَايَتِهِ غَالِبًا تَقْرِيبًا،وَإِنْ كَانَ تَاجِرًا أُعْطِيَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ،وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْل الضِّيَاعِ يُشْتَرَى لَهُ ضَيْعَةٌ تَكْفِيهِ غَلَّتُهَا عَلَى الدَّوَامِ .قَال بَعْضُهُمْ :يَشْتَرِيهَا لَهُ الإِْمَامُ وَيُلْزِمُهُ بِعَدَمِ إِخْرَاجِهَا عَنْ مِلْكِهِ .

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ مَنْ لاَ يَمْلِكُ نِصَابًا زَكَوِيًّا كَامِلاً يَجُوزُ أَنْ يُدْفَعَ إِلَيْهِ أَقَل مِنْ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ أَوْ تَمَامُهَا .وَيُكْرَهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ،وَقَال زُفَرُ لاَ يَجُوزُ تَمَامُ الْمِائَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرُ .

وَهَذَا عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِيَالٌ وَلاَ دَيْنَ عَلَيْهِ،فَإِنْ كَانَ لَهُ عِيَالٌ فَلِكُلٍّ مِنْهُمْ مِائَتَا دِرْهَمٍ،وَالْمَدِينُ يُعْطَى لِدَيْنِهِ وَلَوْ فَوْقَ الْمِائَتَيْنِ كَمَا يَأْتِي فِي الْغَارِمِينَ .

الصِّنْفُ الثَّالِثُ :الْعَامِلُونَ عَلَى الزَّكَاة :

يَجُوزُ إِعْطَاءُ الْعَامِلِينَ عَلَى الزَّكَاةِ مِنْهَا .وَيُشْتَرَطُ فِي الْعَامِل الَّذِي يُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ شُرُوطٌ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا .

وَلاَ يُشْتَرَطُ فِيمَنْ يَأْخُذُ مِنَ الْعَامِلِينَ مِنَ الزَّكَاة الْفَقْرُ ؛لأَِنَّهُ يَأْخُذُ بِعَمَلِهِ لاَ لِفَقْرِهِ .

وَقَدْ قَال النَّبِيُّ :لاَ تَحِل الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلاَّ لِخَمْسَةٍ ..فَذَكَرَ مِنْهُمُ الْعَامِل عَلَيْهَا.

قَال الْحَنَفِيَّةُ :يَدْفَعُ إِلَى الْعَامِلِ بِقَدْرِ عَمَلِه فَيُعْطِيه مَا يَسَعُهُ وَيَسَعُ أَعْوَانَهُ غَيْرَ مُقَدَّرٍ بِالثَّمَنِ،وَلاَ يُزَادُ عَلَى نِصْفِ الزَّكَاةِ الَّتِي يَجْمَعُهَا وَإِنْ كَانَ عَمَلُهُ أَكْثَرَ .

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ :لِلإِْمَامِ أَنْ يَسْتَأْجِرَ الْعَامِل إِجَارَةً صَحِيحَةً بِأَجْرٍ مَعْلُومٍ،إِمَّا عَلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ،أَوْ عَمَلٍ مَعْلُومٍ .ثُمَّ قَال الشَّافِعِيَّةُ :لاَ يُعْطَى الْعَامِل مِنَ الزَّكَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَنِ الزَّكَاةِ،فَإِنْ زَادَ أَجْرُهُ عَلَى الثَّمَنِ أُتِمَّ لَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَال .وَقِيل مِنْ بَاقِي السِّهَامِ .

وَيَجُوزُ لِلإِْمَامِ أَنْ يُعْطِيَهُ أَجْرَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَال .وَلَهُ أَنْ يَبْعَثَهُ بِغَيْرِ إِجَارَةٍ ثُمَّ يُعْطِيَهُ أَجْرَ الْمِثْل .

وَإِنْ تَوَلَّى الإِْمَامُ،أَوْ وَالِي الإِْقْلِيمِ أَوِ الْقَاضِي مِنْ قِبَل الإِْمَامِ أَوْ نَحْوِهِمْ أَخْذَ الزَّكَاةِ وَقِسْمَتَهَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الزَّكَاةِ شَيْئًا ؛لأَِنَّهُ يَأْخُذُ رِزْقَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَال وَعَمَلُهُ عَامٌّ .

الصِّنْفُ الرَّابِعُ :الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ :

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي صِنْفِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ :فَالْمُعْتَمَدُ عِنْدَ كُلٍّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ أَنَّ سَهْمَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ بَاقٍ لَمْ يَسْقُطْ .

وَفِي قَوْلٍ عِنْدَ كُلٍّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَرِوَايَةٍ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ :أَنَّ سَهْمَهُمُ انْقَطَعَ لِعِزِّ الإِْسْلاَمِ،فَلاَ يُعْطَوْنَ الآْنَ،لَكِنْ إِنِ احْتِيجَ لاِسْتِئْلاَفِهِمْ فِي بَعْضِ الأَْوْقَاتِ أُعْطُوا .

قَال ابْنُ قُدَامَةَ :لَعَل مَعْنَى قَوْل أَحْمَدَ :انْقَطَعَ سَهْمُهُمْ،أَيْ لاَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِمْ فِي الْغَالِبِ،أَوْ أَرَادَ أَنَّ الأَْئِمَّةَ لاَ يُعْطُونَهُمُ الْيَوْمَ شَيْئًا،فَأَمَّا إِنِ احْتِيجَ إِلَى إِعْطَائِهِمْ جَازَ الدَّفْعُ إِلَيْهِمْ،فَلاَ يَجُوزُ الدَّفْعُ إِلَيْهِمْ إِلاَّ مَعَ الْحَاجَةِ .

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ :انْعَقَدَ الإِْجْمَاعُ عَلَى سُقُوطِ سَهْمِهِمْ مِنَ الزَّكَاةِ (١) لِمَا وَرَدَ أَنَّ الأَْقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ جَاءَا يَطْلُبَانِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ أَرْضًا،فَكَتَبَ لَهُمَا بِذَلِكَ،فَمَرَّا عَلَى عُمَرَ،فَرَأَى الْكِتَابَ فَمَزَّقَهُ،وَقَال :هَذَا شَيْءٌ كَانَ رَسُول اللَّهِ ﷺ يُعْطِيكُمُوهُ لِيَتَأَلَّفَكُمْ،وَالآْنَ قَدْ أَعَزَّ اللَّهُ الإِْسْلاَمَ وَأَغْنَى عَنْكُمْ،فَإِنْ ثَبَتُّمْ عَلَى الإِْسْلاَمِ،وَإِلاَّ فَبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ السَّيْفُ،فَرَجَعَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ،فَقَالاَ،مَا نَدْرِي :الْخَلِيفَةُ أَنْتَ أَمْ عُمَرُ ؟ فَقَال :هُوَ إِنْ شَاءَ،وَوَافَقَهُ .وَلَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ذَلِكَ .

ثُمَّ اخْتَلَفُوا :

فَفي قَوْلٍ لِلْمَالكِيَّة :الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ كُفَّارٌ يُعْطَوْنَ تَرْغِيبًا لَهُمْ فِي الإِسْلاَمِ لأَجْلِ أَنْ يُعِينُوا الْمُسْلِمِينَ،فَعَلَيْهِ لاَ تُعْطَى الزَّكَاةُ لِمَنْ أَسْلَمَ فِعْلاً .وَقَال الشَّافِعِيَّةُ :لاَ يُعْطَى مِنْ هَذَا السَّهْمِ لِكَافِرٍ أَصْلاً،لأَنَّ الزَّكَاةَ لاَ تُعْطَى لِكَافِرٍ،لِلْحَدِيثِ :تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ (٢) بَل تُعْطَى لِمَنْ أَسْلَمَ فِعْلاً،وَهُنَاكَ أَقْوَالٌ أُخْرَى لِلشَّافِعِيَّةِ .

وَقَال الْحَنَابِلَةُ :يَجُوزُ الإِعْطَاءُ مِنَ الزَّكَاةِ لِلْمُؤَلَّفِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا .

وَعِنْدَ كُلٍّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ أَقْوَالٌ بِمِثْلِ هَذَا .

قَال ابْنُ قُدَامَةَ :الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ ضَرْبَانِ :كُفَّارٌ وَمُسْلِمُونَ،وَهُمْ جَمِيعًا السَّادَةُ الْمُطَاعُونَ فِي قَوْمِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ .

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَضْرُبٍ :

١ - سَادَةٌ مُطَاعُونَ فِي قَوْمِهِمْ أَسْلَمُوا وَنِيَّتُهُمْ ضَعِيفَةٌ فَيُعْطَوْنَ تَثْبِيتًا لَهُمْ .

٢ - قَوْمٌ لَهُمْ شَرَفٌ وَرِيَاسَةٌ أَسْلَمُوا وَيُعْطَوْنَ لِتَرْغِيبِ نُظَرَائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ لِيُسْلِمُوا .

٣ - صِنْفٌ يُرَادُ بِتَأَلُّفِهِمْ أَنْ يُجَاهِدُوا مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ،وَيَحْمُوا مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

٤ - صِنْفٌ يُرَادُ بِإِعْطَائِهِمْ مِنَ الزَّكَاةِ أَنْ يَجْبُوا الزَّكَاةَ مِمَّنْ لاَ يُعْطِيهَا .

ثُمَّ ذَكَرَ ابْنُ قُدَامَةَ الْكُفَّارَ فَجَعَلَهُمْ ضَرْبَيْنِ :

١ - مَنْ يُرْجَى إِسْلاَمُهُ فَيُعْطَى لِتَمِيل نَفْسُهُ إِلَى الإِسْلاَمِ .

٢ - مَنْ يُخْشَى شَرُّهُ وَيُرْجَى بِعَطِيَّتِهِ كَفُّ شَرِّهِ وَكَفُّ غَيْرِهِ مَعَهُ .

الصِّنْفُ الْخَامِسُ :فِي الرِّقَابِ :

وَهُمْ ثَلاَثَةُ أَضْرُبٍ :الأَوَّل :الْمُكَاتَبُونَ الْمُسْلِمُونَ :فَيَجُوزُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ الصَّرْفُ مِنَ الزَّكَاةِ إِلَيْهِمْ،إِعَانَةً لَهُمْ عَلَى فَكِّ رِقَابِهِمْ وَلَمْ يُجِزْ ذَلِكَ مَالِكٌ،كَمَا لَمْ يُجِزْ صَرْفَ شَيْءٍ مِنَ الزَّكَاةِ فِي إِعْتَاقِ مَنِ انْعَقَدَ لَهُ سَبَبُ حُرِّيَّةٍ بِغَيْرِ الْكِتَابَةِ،كَالتَّدْبِيرِ وَالاسْتِيلاَدِ وَالتَّبْعِيضِ .

فَعَلَى قَوْل الْجُمْهُورِ :إِنَّمَا يُعَانُ الْمُكَاتَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى الأَدَاءِ لِبَعْضِ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ،فَإِنْ كَانَ لاَ يَجِدُ شَيْئًا أَصْلاً دُفِعَ إِلَيْهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْوَفَاءِ .

الثَّاني :إعْتَاقُ الرَّقيقِ الْمُسْلمِ،وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى جَوَازِ الصَّرْفِ منَ الزَّكَاة فِي ذَلِكَ الْمَالكيَّةُ وَأَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ،وَعَلَيْه فَإِنْ كَانَت الزَّكَاةُ بِيَدِ الإِمَامِ أَوِ السَّاعِي جَازَ لَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ رَقَبَةً أَوْ رِقَابًا فَيُعْتقَهُمْ،وَوَلاَؤُهُمْ للْمُسْلمينَ .

الثَّالثُ :أَنْ يَفْتَديَ بالزَّكَاة أَسيرًا مُسْلمًا منْ أَيْدي الْمُشْرِكينَ،وَقَدْ صَرَّحَ الْحَنَابلَةُ وَابْنُ حَبِيبٍ وَابْنُ عَبْد الْحَكَمِ منَ الْمَالكيَّة بجَوَازِ هَذَا النَّوْعِ ؛لأَنَّهُ فَكُّ رَقَبَةٍ منَ الأَسْرِ،فَيَدْخُل فِي الآيَة بَل هُوَ أَوْلَى منْ فَكِّ رَقَبَة مَنْ بأَيْدينَا .وَصَرَّحَ الْمَالكيَّةُ بمَنْعه .

الصِّنْفُ السَّادسُ :الْغَارِمُونَ :

وَالْغَارِمُونَ الْمُسْتَحقُّونَ للزَّكَاة ثَلاَثَةُ أَضْرُبٍ :

الضَّرْبُ الأَوَّل :

مَنْ كَانَ عَلَيْه دَيْنٌ لمَصْلَحَة نَفْسه .وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْه منْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ،وَيُشْتَرَطُ لإِعْطَائه منَ الزَّكَاة مَا يَلي :

١ - أَنْ يَكُونَ مُسْلمًا .

٢ - أَنْ لاَ يَكُونَ منْ آل الْبَيْت،وَعنْدَ الْحَنَابلَة قَوْلٌ :بجَوَازِ إعْطَاء مَدينِ آل الْبَيْت منْهَا .

٣ - وَاشْتَرَطَ الْمَالكيَّةُ أَنْ لاَ يَكُونَ قَد اسْتَدَانَ ليَأْخُذَ منَ الزَّكَاة،كَأَنْ يَكُونَ عنْدَهُ مَا يَكْفيه وَتَوَسَّعَ فِي الإِنْفَاقِ بالدَّيْنِ لأَجْل أَنْ يَأْخُذَ منْهَا،بخلاَف فَقيرٍ اسْتَدَانَ للضَّرُورَة نَاويًا الأَخْذَ منْهَا (٢) .

٤ - وَصَرَّحَ الْمَالكيَّةُ بأَنَّهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الدَّيْنُ ممَّا يُحْبَسُ فيه،فَيَدْخُل فيه دَيْنُ الْوَلَد عَلَى وَالده،وَالدَّيْنُ عَلَى الْمُعْسرِ،وَخَرَجَ دَيْنُ الْكَفَّارَات وَالزَّكَاة .

٥ - أَنْ لاَ يَكُونَ دَيْنُهُ فِي مَعْصيَة،وَهَذَا عنْدَ الْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة،كَأَنْ يَكُونَ بسَبَب خَمْرٍ،أَوْ قمَارٍ،أَوْ زِنًا،لَكنْ إنْ تَابَ يَجُوزُ الدَّفْعُ إِلَيْه،وَقيل :لاَ .وَرَجَّحَ الْمَالكيَّةُ الأَوَّل،وَعَدَّ الشَّافعيَّةُ الإِسْرَافَ فِي النَّفَقَة منْ بَاب الْمَعْصيَة الَّتي تَمْنَعُ الإِعْطَاءَ منَ الزَّكَاة .

٦ - أَنْ يَكُونَ الدَّيْنُ حَالًّا،صَرَّحَ بهَذَا الشَّرْط الشَّافعيَّةُ،قَالُوا :إنْ كَانَ الدَّيْنُ مُؤَجَّلاً فَفي الْمَسْأَلَة ثَلاَثَةُ أَقْوَالٍ ثَالثُهَا :إنْ كَانَ الأَجَل تلْكَ السَّنَةَ أُعْطيَ،وَإلاَّ فَلاَ يُعْطَى منْ صَدَقَات تلْكَ السَّنَة .

٧ - أَنْ لاَ يَكُونَ قَادرًا عَلَى السَّدَاد منْ مَال عنْدَهُ زَكَوِيٍّ أَوْ غَيْرِ زَكَوِيٍّ زَائد عَنْ كفَايَته،فَلَوْ كَانَ لَهُ دَارٌ يَسْكُنُهَا تُسَاوِي مائَةً وَعَلَيْه مائَةٌ،وَتَكْفيه دَارٌ بخَمْسينَ فَلاَ يُعْطَى حَتَّى تُبَاعَ،وَيَدْفَعَ الزَّائدَ في دَيْنه عَلَى مَا صَرَّحَ به الْمَالكيَّةُ،وَلَوْ وَجَدَ مَا يَقْضي به بَعْضَ الدَّيْن أُعْطيَ الْبَقيَّةَ فَقَطْ،وَإِنْ كَانَ قَادرًا عَلَى وَفَاء الدَّيْن بَعْدَ زَمَنٍ بالاكْتسَاب،فَعنْدَ الشَّافعيَّة قَوْلاَن في جَوَاز إعْطَائه منْهَا .

الضَّرْبُ الثَّاني :الْغَارمُ لإصْلاَح ذَات الْبَيْن :

الأَصْل فيه حَديثُ قَبيصَةَ الْمَرْفُوعُ :إنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحل إلاَّ لثَلاَثَة .فَذَكَرَ منْهُمْ وَرَجُلٍ تَحَمَّل حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصيبَهَا ثُمَّ يُمْسكُ فَذَهَبَ الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ إلَى أَنَّ هَذَا النَّوْعَ منَ الْغَارمينَ يُعْطَى منَ الزَّكَاة سَوَاءٌ كَانَ غَنيًّا أَوْ فَقيرًا ؛لأَنَّهُ لَو اُشْتُرطَ الْفَقْرُ فيه لَقَلَّت الرَّغْبَةُ في هَذه الْمَكْرُمَة،وَصُورَتُهَا أَنْ يَكُونَ بَيْنَ قَبيلَتَيْنِ أَوْ حَيَّيْنِ فتْنَةٌ،يَكُونُ فيهَا قَتْل نَفْسٍ أَوْ إتْلاَفُ مَالٍ،فَيَتَحَمَّلُهُ لأَجْل الإصْلاَح بَيْنَهُمْ،فَيُعْطَى منَ الزَّكَاة لتَسْديد حَمَالَته،وَقَيَّدَ الْحَنَابلَةُ الإعْطَاءَ بمَا قَبْل الأَدَاء الْفعْليِّ،مَا لَمْ يَكُنْ أَدَّى الْحَمَالَةَ منْ دَيْنٍ اسْتَدَانَهُ ؛لأَنَّ الْغُرْمَ يَبْقَى .

وَقَال الْحَنَفيَّةُ :لاَ يُعْطَى الْمُتَحَمِّل منَ الزَّكَاة إلاَّ إنْ كَانَ لاَ يَمْلكُ نصَابًا فَاضلاً عَنْ دَيْنه كَغَيْره منَ الْمَدينينَ .

وَلَمْ يُصَرِّح الْمَالكيَّةُ بحُكْمِ هَذَا الضَّرْب فيمَا اطَّلَعْنَا عَلَيْه .

الضَّرْبُ الثَّالثُ :

الْغَارمُ بسَبَب دَيْنِ ضَمَان وَهَذَا الضَّرْبُ ذَكَرَهُ الشَّافعيَّةُ،وَالْمُعْتَبَرُ في ذَلكَ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ منَ الضَّامنِ وَالْمَضْمُون عَنْهُ مُعْسرَيْنِ،فَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا مُوسرًا فَفي إعْطَاء الضَّامنِ منَ الزَّكَاة خلاَفٌ عنْدَهُمْ وَتَفْصيلٌ .

الصِّنْفُ السَّابعُ :في سَبيل اللَّه .

وَهَذَا الصِّنْفُ ثَلاَثَةُ أَضْرُب .

الضَّرْبُ الأَوَّل :الْغُزَاةُ في سَبيل اللَّه تَعَالَى،وَالَّذينَ لَيْسَ لَهُمْ نَصيبٌ في الدِّيوَان،بَل هُمْ مُتَطَوِّعُونَ للْجهَاد .وَهَذَا الضَّرْبُ مُتَّفَقٌ عَلَيْه عنْدَ الْفُقَهَاء منْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ،فَيَجُوزُ إعْطَاؤُهُمْ

مِنَ الزَّكَاة قَدْرَ مَا يَتَجَهَّزُونَ بِهِ لِلْغَزْوِ مِنْ مَرْكَبٍ وَسِلاَحٍ وَنَفَقَةٍ وَسَائِرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْغَازِي لِغَزْوِهِ مُدَّةَ الْغَزْوِ وَإِنْ طَالَتْ .

وَلاَ يُشْتَرَطُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ فِي الْغَازِي أَنْ يَكُونَ فَقِيرًا،بَل يَجُوزُ إِعْطَاءُ الْغَنِيِّ لِذَلِكَ،لأَنَّهُ لاَ يَأْخُذُ لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ،بَل لِحَاجَةِ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ،فَلَمْ يُشْتَرَطْ فِيهِ الْفَقْرُ .

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ :إِنْ كَانَ الْغَازِي غَنِيًّا،وَهُوَ مَنْ يَمْلِكُ خَمْسِينَ دِرْهَمًا أَوْ قِيمَتَهَا مِنَ الذَّهَبِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي صِنْفِ الْفُقَرَاءِ فَلاَ يُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ،وَإِلاَّ فَيُعْطَى،وَإِنْ كَانَ كَاسِبًا ؛لأَنَّ الْكَسْبَ يُقْعِدُهُ عَنِ الْجِهَادِ .

وَعِنْدَ مُحَمَّدٍ الْغَازِي مُنْقَطِعُ الْحَاجِّ لاَ مُنْقَطِعُ الْغُزَاةِ .

وَصَرَّحَ الْمَالِكِيَّةُ بِأَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي الْغَازِي أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْجِهَادُ،لِكَوْنِهِ مُسْلِمًا ذَكَرًا بَالِغًا قَادِرًا،وَأَنَّهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ مِنْ غَيْرِ آل الْبَيْتِ .

وَأَمَّا جُنُودُ الْجَيْشِ الَّذِينَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الدِّيوَانِ فَلاَ يُعْطَوْنَ مِنَ الزَّكَاةِ،وَفِي أَحَدِ قَوْلَيْنِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ :إِنِ امْتَنَعَ إِعْطَاؤُهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَال لِضَعْفِهِ،يَجُوزُ إِعْطَاؤُهُمْ مِنَ الزَّكَاةِ .

الضَّرْبُ الثَّانِي :مَصَالِحُ الْحَرْبِ

وَهَذَا الضَّرْبُ ذَكَرَهُ الْمَالِكِيَّةُ،فَالصَّحِيحُ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ يَجُوزُ الصَّرْفُ مِنَ الزَّكَاةِ فِي مَصَالِحِ الْجِهَادِ الأُخْرَى غَيْرِ إِعْطَاءِ الْغُزَاةِ،نَحْوِ بِنَاءِ أَسْوَارٍ لِلْبَلَدِ لِحِفْظِهَا مِنْ غَزْوِ الْعَدُوِّ،وَنَحْوِ بِنَاءِ الْمَرَاكِبِ الْحَرْبِيَّةِ،وَإِعْطَاءِ جَاسُوسٍ يَتَجَسَّسُ لَنَا عَلَى الْعَدُوِّ،مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا .

وَأَجَازَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ أَنْ يُشْتَرَى مِنَ الزَّكَاةِ السِّلاَحُ وَآلاَتُ الْحَرْبِ وَتُجْعَل وَقْفًا يَسْتَعْمِلُهَا الْغُزَاةُ ثُمَّ يَرُدُّونَهَا،وَلَمْ يُجِزْهُ الْحَنَابِلَةُ .

وَظَاهِرُ صَنِيعِ سَائِرِ الْفُقَهَاءِ – إِذْ قَصَرُوا سَهْمَ سَبِيل اللَّهِ عَلَى الْغُزَاةِ،أَوِ الْغُزَاةِ وَالْحُجَّاجِ،أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الصَّرْفُ مِنْهُ فِي هَذَا الضَّرْبِ،وَوَجْهُهُ أَنَّهُ لاَ تَمْلِيكَ فِيهِ،أَوْ فِيهِ تَمْلِيكٌ لِغَيْرِ أَهْل الزَّكَاةِ،أَوْ كَمَا قَال أَحْمَدُ :لأَنَّهُ لَمْ يُؤْتِ الزَّكَاةَ لأَحَدٍ،وَهُوَ مَأْمُورٌ بِإِيتَائِهَا.

الضَّرْبُ الثَّالِثُ :الْحُجَّاجُ :

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ (الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالثَّوْرِيُّ وَأَبُو ثَوْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ،وَقَال ابْنُ قُدَامَةَ :إِنَّهُ الصَّحِيحُ) إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الصَّرْفُ فِي الْحَجِّ مِنَ الزَّكَاةِ ؛لأَنَّ

سَبِيل اللَّه فِي آيَة مَصَارِف الزَّكَاة مُطْلَقٌ،وَهُوَ عِنْدَ الإِطْلاَق يَنْصَرِفُ إِلَى الْجِهَاد فِي سَبِيل اللَّه تَعَالَى،لأَنَّ الأَكْثَرَ مِمَّا وَرَدَ مِنْ ذِكْرِهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى قُصِدَ بِهِ الْجِهَادُ،فَتُحْمَل الآيَةُ عَلَيْهِ .

الصِّنْفُ الثَّامِنُ :ابْنُ السَّبِيل :

سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمُلاَزَمَته الطَّرِيقَ،إِذْ لَيْسَ هُوَ فِي وَطَنه لِيَأْوِيَ إِلَى سَكَنٍ .وَهَذَا الصِّنْفُ ضَرْبَانِ :

الضَّرْبُ الأَوَّل :الْمُتَغَرِّبُ عَنْ وَطَنِه الَّذِي لَيْسَ بِيَدِه مَا يَرْجِعُ بِه إِلَى بَلَدِه :

وَهَذَا الضَّرْبُ مُتَّفَقٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَصْحَاب الزَّكَاة،فَيُعْطَى مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَــده،إِلاَّ فِــي قَــوْلٍ ضَعِيفٍ عِنْدَ الشَّافِعِيَّة :أَنَّهُ لاَ يُعْطَى ؛لأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْ بَابِ نَقْلِ الزَّكَاةِ مِنْ بَلَدِهَا .وَلاَ يُعْطَى مِنَ الزَّكَاة إِلاَّ بِشُرُوط :

الشَّرْطُ الأَوَّل :أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا،مِنْ غَيْرِ آل الْبَيْت .

الشَّرْطُ الثَّانِي :أَنْ لاَ يَكُونَ بِيَدِه فِي الْحَال مَالٌ يَتَمَكَّنُ بِه مِنَ الْوُصُول إِلَى بَلَدِه وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا فِي بَلَدِه،فَلَوْ كَانَ لَهُ مَالٌ مُؤَجَّلٌ أَوْ عَلَى غَائِب،أَوْ مُعْسِر،أَوْ جَاحِد،لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ الأَخْذَ مِــنَ الزَّكَاة عَلَى مَا صَرَّحَ بِه الْحَنَفِيَّةُ .الشَّرْطُ الثَّالِثُ :أَنْ لاَ يَكُونَ سَــفَرُهُ لِمَعْصِيَة،صَــرَّحَ بِهَــذَا الشَّرْط الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ،فَيَجُوزُ إِعْطَاؤُهُ إِنْ كَانَ سَفَرُهُ لِطَاعَــةٍ وَاجِبَــةٍ كَحَــجِّ الْفَرْض،وَبِرِّ الْوَالِدَيْن،أَوْ مُسْتَحَبَّة كَزِيَارَة الْعُلَمَاء وَالصَّالِحِينَ،أَوْ كَانَ سَفَرُهُ لِمُبَاحٍ كَالْمَعَاشَات وَالتِّجَارَات،فَإِنْ كَانَ سَفَرُهُ لِمَعْصِيَة لَمْ يَجُزْ إِعْطَاؤُهُ مِنْهَا لأَنَّهُ إِعَانَةٌ عَلَيْهَا،مَا لَمْ يَتُبْ،وَإِنْ كَانَ لِلنُّزْهَة فَقَطْ فَفِيه وَجْهَان عِنْدَ الْحَنَابِلَة :أَقْوَاهُمَا :أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ ؛لِعَدَم حَاجَته إِلَى هَذَا السَّفَر .

الشَّرْطُ الرَّابِعُ :وَهُوَ لِلْمَالِكِيَّة خَاصَّةً :أَنْ لاَ يَجِدَ مَنْ يُقْرِضُهُ إِنْ كَانَ بِبَلَدِه غَنِيًّا .

وَلاَ يُعْطَى أَهْل هَذَا الضَّرْب مِنَ الزَّكَاة أَكْثَرَ مِمَّا يَكْفِيه لِلرُّجُوع إِلَى وَطَنه،وَفِي قَوْلٍ لِلْحَنَابِلَــةِ :إِنْ كَانَ قَاصِدًا بَلَدًا آخَرَ يُعْطَى مَا يُوصِلُهُ إِلَيْه ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى بَلَده .

قَال الْمَالِكِيَّةُ :فَإِنْ جَلَسَ بِبَلَد الْغُرْبَة بَعْدَ أَخْذِه مِنَ الزَّكَاة نُزِعَتْ مِنْهُ مَــا لَــمْ يَكُــنْ فَقِــيرًا بِبَلَده،وَإِنْ فَضَل مَعَهُ فَضْلٌ بَعْدَ رُجُوعه إِلَى بَلَده نُزِعَ مِنْهُ عَلَى قَوْلٍ عِنْدَ الْحَنَابِلَة .

ثُمَّ قَدْ قَال الْحَنَفِيَّةُ :مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى السَّدَاد فَالأَوْلَى لَهُ أَنْ يَسْتَقْرِضَ وَلاَ يَأْخُذَ مِنَ الزَّكَاة .

الضَّرْبُ الثَّانِي :مَنْ كَانَ فِي بَلَده وَيُرِيدُ أَنْ يُنْشِئَ سَفَرًا :

فَهَذَا الضَّرْبُ مَنَعَ الْجُمْهُورُ إعْطَاءَهُ،وَأَجَازَ الشَّافِعِيَّةُ إعْطَاءَهُ لِذَلِكَ بِشَرْطِ أَنْ لاَ يَكُونَ مَعَهُ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ فِي سَفَرِهِ،وَأَنْ لاَ يَكُونَ فِي مَعْصِيَةٍ،فَعَلَى هَذَا يَجُوزُ إعْطَاءُ مَنْ يُرِيدُ الْحَجَّ مِنَ الزَّكَاةِ إنْ كَانَ لاَ يَجِدُ فِي الْبَلَدِ الَّذِي يُنْشِئُ مِنْهُ سَفَرَ الْحَجِّ مَا لاَ يَحُجُّ بِهِ .

وَالْحَنَفِيَّةُ لاَ يَرَوْنَ جَوَازَ الإِْعْطَاءِ فِي هَذَا الضَّرْبِ،إلاَّ أَنَّ مَنْ كَانَ بِبَلَدِهِ،وَلَيْسَ لَهُ بِيَدِهِ مَالٌ يُنْفِقُ مِنْهُ وَلَهُ مَالٌ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ،لاَ يَصِلُ إلَيْهِ،رَأَوْا أَنَّهُ مُلْحَقٌ بِابْنِ السَّبِيلِ .[١٢٢٨]



[١٢٢٨] -الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٣/ ٣١٢-٣٢٥)

المبحث الثالث عشر

الشورى

حكم الشورى:

الشورى في الإسلام من قواعد الحكم الواجبة التي يقصد منها إقامة العدل والتحاكم إلى الشريعة الإسلامية في جميع مجالات الحياة،ومنع الاستبداد والظلم والفساد في الأرض..

أهم فوائد الشورى :

إن التعريف الاصطلاحي للشورى:رجوع الحاكم أو القاضي أو آحاد المكلفين في أمر لم يُستَبن حكمه بنص قرآني أو سنة أو ثبوت إجماع إلى من يُرجى منهم معرفته بالدلائل الاجتهادية من العلماء المجتهدين ومن قد ينضم إليهم في ذلك من أولي الدراية والاختصاص .

وهكذا فإن الشورى في الاصطلاح الذي يقضي به الإسلام يمكن أن تتسع لتُعبِّر عن:استخلاص الرأي الجامع من خلال الحوار الجامع،وهذا هو مطلوب الشورى،فإن لم يكن رأي جامع فرأي راجح لدى استصدار القرار،مما ينعقد عليه العمل الجامع لدى التطبيق والتنفيذ .

ومن فوائد الأخذ بالشورى أمور كثيرة منها:

١ - إصابة الحق في الغالب،فإن الآراء إذا عرضت بحرية تامة وأدلى كلٌّ بحجته،وكانت النية صحيحة والهدف هو الوصول إلى الحق،وقدمت المصلحة العامة،وتجرد المتشاورون عن الأهواء والدوافع السيئة مع التوكل على الله تعالى فلا أشك أن النتائج تكون سليمة والعواقب حميدة والتسديد والتوفيق يتنزل من الله تعالى،وهذا واضح فيما وقع في عهد الصحابة رضوان الله عليهم .

٢ - أن العمل بالشورى قربة وطاعة لله عز وجل،ففيه اجتماع الرأي في تحصيل الخير،وتهذيب رأي صاحب الأمر مع الامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى،ومما ورد في شأن ذلك ما قاله:بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن بحزم نصيح أو نصيحة حازم.

٣ ــــ من أعظم فوائد الشورى تلاقح الأفكار،وتكامل الثقة،وتبادل الخبرة والاطلاع على مـــا عند الآخرين،والاستفادة من الخبرات المتنوعة وبعبارة أخرى حصول التكامل بين أفراد المجتمع .

٤ – الشورى تعطي قوة للمجتمع في أكثر من مجال إنساني فعلى سبيل المجـــال النفســـي،فأن الشورى طريق للتخلص من الظواهر المرضية غير الصحية،مثل قلة الإخلاص وضـــعف الأداء الوظيفي،وإهدار الطاقات المفيدة.

يقول الشعبي:الرجال ثلاثة،فرجل ونصف رجل ولاشيء فأما الرجل التام،فالذي له رأي وهو يستشير،وأما نصف الرجل،فالذي ليس له رأي ،وهو يستشير وأما الذي لا شيء،فالذي ليس له رأي،ولا يستشير

٥ – الشورى تشعر المشاركين بالمسؤولية وأنهم مع المسؤول يســـعون إلى تحقيـــق المصـــالح العامة،ودرء المفاسد في عملية تكاملية.

٦ – الشورى تولد الثقة بين الحاكم والمحكوم وتطيب القلوب،وتجعل مـــن رأي الخليفـــة أو الحاكم رأى جميع المسلمين بعد التشاور.

٧ – في الشورى وقاية من الاستبداد وتزود الدولة بالكفاءات والقدرات المتميزة وبها تنحصر عيوب التفرد بالقرار .

٨ – تضيق هوة الخلاف بين الراعي ورعيته الخلاف جائز الوقوع،ولكل واحد قناعتـــه،ولكن مع مناقشة الآراء وتداولها وظهور الحق يرجع بعـــض المخـــالفين عـــن رأيـــه وينصـــاع إلى الحق،وتتقارب وجهات النظر ويعذر بعضهم بعضاً،ويتعاونون على ما اتفقـــوا عليـــه،ويتنازل البعض ويقضي على وساوس الشيطان،وتتآلف القلوب ويتوحد الرأي العام وتضـــعف حـــدة الخصوم والمنافسين.

٩ – الشورى تفجر الطاقات الكامنة في أفراد الأمة،وتشجع ذوي الخبرات وتفسح المجال لكل من لديه خير للأمة أن يدلي برأيه وهو آمن فإن قبل فذاك،وإن رد فقد أدى ما عليه وأعذر ولا تمس كرامته ولا ينال منه .

ولا غنى لولي الأمر عن المشاورة،فإن الله أمر بها نبيه ﷺ وليقتدي به من بعده وليستخرج منهم الرأي فيما لم يترل فيه وحي من أمر الحرب والأمور الجزئية وغير ذلك،فغيره ﷺ أولى بالمشاورة .

وينبني على هذه الشورى،طاعة الأمة للحاكم فيما يصدر عنه من القرارات تهم الصالح العام .

والشورى من قواعد الحكم في الإسلام وصفة من صفات المؤمنين سواء الحاكم أو المحكوم فقد وصف الله المؤمنين بقوله:"وأمرهم شورى بينهم" وبهذا ينقص الأيمان عند الراعي لعدم امتثاله "وشاورهم في الأمر" وعند الرعية كذلك،كما في تركها مجافاة للسنة والطريقة التي سار عليها أفضل الخلق والخلفاء الراشدين وأصحابه الميامين والقادة الفاتحين،وكبار المصلحين والعلماء الراسخين والدعاة المخلصين.

ولعل هذا ما عبر عنه بلغة مختلفة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب،رضي الله عنه،إذا قال:الرأي كالخيط السحيل،والرأيان كالخيطين المبرمين والثلاثة مرار ولا يكاد ينتقض .

وأورد الأمام الماوردي في هذا المعنى قوله: لم يزل أهل العقول يفزعون إلى الشورى في كل مايقع بينهم،ويمدحون فاعله،ويذمون المستبد برايه،والمرتكب لأهوائه،وقد قال فيه أحد الشعراء:

خليلي ليس الرأي في صدر واحد ...أشيرا عليَّ اليوم ما تريان

وقال ابن قتيبة:وقرأت في كتاب للهند أن ملكاً استشار وزراءً له،فقال أحدهم:الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بموارده من الأنهار،وينال بالحزم والرأي مالا يناله بالقوة والجنود،والمستشير وإن كان أفضل رأيا من المشير،فإنه يزداد برأيه رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوءاً .

١٠ - مكافحه نزعات التطرف والعنف:

أن محصلة الاجتهاد الجماعي تقود إلى قرارات معتدلة في الغالب،فالتشدد لا يصدر إلا من أفراد ذوي دوافع ومنازع وعقد تحدوهم وتترع بهم إلى اتخاذ قرارات متطرفة أو متعسفة أو مفارقة لخطة الحكمة والحسنى،ولكن تبادل الآراء الصادرة من أفراد كثر وأصحاب دوافع متباينة يتجه بالقرار إلى الاعتدال والواقعية في إطار ((فن الممكن والمفيد)) هذا إذا لم يصل

بالناس إلى غاية المراد،كما تفسح الشورى مجالا خصبا لمناقشة آراء أهل التطرف والعنف اللذين يتصورون دائماً أن آراءهم هي الآراء النهاية في الموضوع،أي موضوع،ويعزفون بطبعهم عن التعرف على آراء الآخرين،ولكن بجرِّ هؤلاء إلى مجالات الشورى ومشاركة الآخرين لهم في الرأي تتضح لهم القيمة المرجوحة لأفكارهم التي يقدسونها،ولذلك فإن الشورى هي أجدى علاج لحماقات التطرف وشططه فيجب إعطاء ((الكل)) متنفساً لإبداء الفكر والرأي،حتى يختفي التشنج والشعور بالحرمان والكبت والاضطهاد ولذا يحسن البحث عن هذه الطائفة من الناس على الدوام وإعطاؤها حق القول مهما كان معيباً،فإخراج آرائهم إلى الضوء هو المقدمة الأولى لدحضها وهزيمتها،فإنها لا تعيش ولا تنتعش إلا في سراديب الظلام.

١١ - تسديد النظر إلى المشكلة من زوايا متباينة:

إن إخضاع أي مشكلة للتداول الشورى الحر يمكّن أهل الشورى من رؤيتها من زوايا واتجاهات متباينة متقاطعة،وبذلك تنضاف الرؤى الجزئية بعضها إلى بعض،وتتضامُّ وتتكامل قدر الإمكان،وتتشكل في كُلٍّ مرئي للجميع ثم تتنسق وتتوحد محاولات التحليل والتشخيص والإسهامات في اقتراح الحلول ولا يتاح ذلك إلا للجماعة المتوحدة لأن العقل الواحد مهما كان كبيراً نافذاً لا يستطيع أن يُلِمَّ بجميع المعلومات المتعلقة بكل المشاكل التي يتعرض لها،ويفهمها،ويحللها ويشخصها،ويقترح الحلول المجدية في شأنها.

١٢ - تكامل المعرفة النظرية والعملية:

في أحيان كثيرة يأتي امتياز الرأي من تماسِّه بالواقع المعاش،ويتفوق بتلك الميزة على الرأي النظري،وإن كان هذا الأخير صحيحاً في إطاره النظري،وحين يكتمل هذان الجانبان الركينان للعلم:الجانب النظري والجانب العملي،أو جانب فقه الأوراق وفقه الواقع،يأتي القرار أصوب ما يكون،وهنالك من أخبار الشورى في تاريخ الحضارة الإسلامية الكثيرة مما يكشف عن أن تكامل هذين الجانبين كان من أهم عوامل اتخاذ القرار الصحيح منها ـــ على سبيل المثال ـــ ما يرويه القلقشندي عن واقعة غزو المسلمين لصقلية فيقول:ان أحد أمرائها التجأ إلى دولة الأغالبة بتونس،وطلب منهم العون لرفع الحيف الذي لحق به من أمراء آخرين ببلاده،وجمع أمير بني الأغلب المسمى زيادة الله مجلس شوراه من فقهاء القيروان وقضاتها وأعيانها وبحثوا

الأمر ملياً،ومال بعض أهل الفقه بمن فيهم الإمام سحنون إلى عدم مهاجمة صقلية لبعدها ولأن بينها وبين المسلمين هدنة وعهداً،بينما مال آخرون من أهل القضاء وفيهم القاضي أسد بن الفرات لاستقصاء الواقع،كما هو شأن القضاة دائماً،فأمر باستدعاء بعض رسل الصقليين واستنطقهم إن كان لدى حكومة صقلية أسرى من المسلمين فأقروا بذلك،فاتخذت تلك حجة على الصقليين لأن شروط الهدنة نصت على أن تمكن حكومة صقلية أسرى المسلمين من الرجوع إلى بلادهم إن أرادوا،فاتخذ حينها قرار الغزو .

فهذا يدل على الشورى هي التي مهدت إلى القرار الأصوب بجمعها بين الفقهين النظري والعملي على صعيد واحد،وهذا مجرد مثال من أمثلة كثيرة لتفعيل الشورى في فقه الرأي وفقه الواقع معاً في تاريخ حضارتنا الإسلامية التليدة .

١٣ - تجاوز الخطوب التي تشل التفكير الفردي:

وتتجلى فضائل الشورى في وقت الخطوب والكروب التي تلحق بالأمم،وتكاد تعصف بها عصفاً فيقف الناس منها ثلاث مواقف متباينة،فمن الناس من يهزمهم الخوف ويشل قدراتهم على التفكير والتحليل واتخاذ القرار،إي قرار،ومنهم من يثير الخوف مشاعرهم باتجاه التحدي وإثبات الذات والاندفاع الأهوج في المواجهة،فيميلون إلى اتخاذ الحلول القصوى في ذلك الاتجاه،ومنهم من يدعوهم الخوف إلى التراجع والتهادن وربما الاستسلام فيقبلون بالدنية من دينهم ودنياهم معاً.

فهذه أصناف ثلاث من المواقف تجلب خلل الرأي وتقود إلى أسوأ العواقب،ولكن اجتماع الناس بمختلف توجهاتهم على صعيد واحد في أوقات المحن والدواهي يؤدي إلى تعادل المواقف والوصول إلى الرأي الأصوب قدر الإمكان.

هذه من أهم فوائد الشورى التي ذكرها العلماء.[١٢٢٩]

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالشورى فقال تبارك وتعالى:{ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } [آل عمران:١٥٩]

[١٢٢٩] - الشورى فريضة إسلامية (ص:١٣٢،بترقيم الشاملة آليا) فما بعدها والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص:١٤٣)

وهنا يجيء ثالث الأسس فى مكانه الصحيح:«وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» فتعطـــى المشـــورة ثمرتهـــا الطيبة،التي هى خلاصة ما فى القلوب من خير،ومنخول ما فى العقول من رأى..وهنا يتضـــح الأمر المنظور إليه،و لم يبق إلا انعقاد العزم عليه،وإمضائه على الوجه المرسوم..وهذا ما أمر الله به فى قوله تعالى:«فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» الـــذين يعتمـــدون عليه،ويفوضون أمرهم إليه،بعد أن يعطوا هذا الأمر كل ما عندهم من رأى وعزم.[١٢٣٠]

{وشاورهم في الأمر} أي:الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر،فإن في الاستشارة مـــن الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

منها:أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها:أن فيها تسميحا لخواطرهم،وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث،فإن من له الأمـــر على الناس -إذا جمع أهل الرأي:والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث- اطمأنت نفوسهم وأحبوه،وعلموا أنه ليس بمستبد عليهم،وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامـــة للجميع،فبـــذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته،لعلمهم بسعيه في مصالح العموم،بخلاف من ليس كـــذلك،فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة،ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها:أن في الاستشارة تنور الأفكار،بسبب إعمالها فيما وضعت له،فصار في ذلـــك زيـــادة للعقول.

ومنها:ما تنتجه الاستشارة من الرأي:المصيب،فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله،وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب،فليس بملوم،فإذا كان الله يقول لرسوله -ﷺ- وهو أكمـــل النـــاس عقـــلا وأغزرهم علما،وأفضلهم رأيا-:{وشاورهم في الأمر} فكيف بغيره؟!

ثم قال تعالى:{فإذا عزمت} أي:على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه،إن كـــان يحتـــاج إلى استشارة {فتوكل على الله} أي:اعتمد على حول الله وقوته،متبرئا من حولك وقوتـــك،{إن الله يحب المتوكلين} عليه،اللاجئين إليه.[١٢٣١]

[١٢٣٠] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٢٨)

[١٢٣١] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٤)

أي واسلك معهم سبيل المشورة التي اتبعتها فى هذه الواقعة ودم عليها- فـإنهم وإن أخطئـوا الرأى فيها،فإن فى تربيتهم عليها دون الانقياد لرأى الرئيس وإن كان صوابا نفعا فى مستأنف أمرهم ومستقبل حكومتهم ما حافظوا عليها.

فالجماعة أبعد عن الخطإ من الفرد فى أكثر الحالات،وما ينشأ من الخطر على الأمة بتفـويض أمرها إلى واحد مهما حصف رأيه،أشد من الخطر الذي يترتب على رأى الجماعة.

ولما كانت الاستشارة سبيلا للنزاع ولا سيما إذا كثر المستشارون- أمر الله نبيه أن يقرر هـذه السنة عملا،فكان يستشير صحبه بهدوء وسكينة ويصغى إلى كل قول ويرجح رأيا علـى رأى بما يرى فيه من المصلحة والفائدة بقدر المستطاع.

وقد عمل النبي ﷺ بالشّورى فى حياته،فكان يسيشير السواد الأعظم من المسلمين،ويخص بهـا أهل الرأى والمكانة فى الأمور التي يضر إفشاؤها.

فاستشارهم يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة للحرب و لم يـبرم الأمـر حـتى صـرح المهاجرون والأنصار بالموافقة،واستشارهم يوم أحد كما علمت،وهكذا كان يستشـيرهم فى كل مهمّ ما لم ينزل عليه فيه وحي،فإنه إذ ذاك لا بد من نفاذه،و لم يضـع للـنبى ﷺ قواعـد الشورى،لأنها تختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية،وبحسب الزمان والمكان،ولأنـه لـو وضع لها قواعد لاتخذها المسلمون دينا وحاولوا العمل بها فى كل زمان ومكان،ومن ثم قـال الصحابة فى اختيار أبى بكر خليفة رضيه رسول الله ﷺ لديننا،إذ أمره بالإمامة فى الصلاة حين مرضه أفلا نرضاه لدنيانا؟

ولكن الخلفاء فيما بعد لم يتبعوا هذه السنة،ولا سيما زمن الدولة العباسية،إذ كان للأعـاجم سلطان كبير فى ملكهم،ثم جرى على ذلك سائر الملوك من المسلمين فيما بعد،وجاراهم علـى ذلك علماء الدين،حتى ظن كثير من غير المسلمين أن السـلطة فى الإسـلام اسـتبدادية،وأن الشورى اختيارية،ولكن هذا بعيد من الصواب،بعد أن صرح القرآن بالشورى وأمر نبيه بهـا وهو المعصوم عن الهوى وللشورى فوائد جمة منها:

(١) إنها تبين مقادير العقول والأفهام،ومقدار الحب والإخلاص للمصالح العامة.

(٢) إن عقول الناس متفاوتة وأفكارهم مختلفة،فربما ظهر لبعضهم من صالح الآراء ما لا يظهر لغيره وإن كان عظيما.

(٣) إن الآراء فيها تقلّب على وجوهها،ويختار الرأى الصائب من بينها.

(٤) إنه يظهر فيها اجتماع القلوب على إنجاح المسعى الواحد،واتفاق القلوب على ذلك مما يعين على حصول المطلوب،ومن ثم شرعت الاجتماعات فى الصلوات،وكانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة.

وعن الحسن رضي الله عنه:قد علم الله أن ما به إليهم حاجة،ولكن أراد أن يستنّ به من بعده، وعن النبي ﷺ أنه قال «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»

وعن أبى هريرة رضي الله عنه:ما رأيت أحدا أكثر مشاورة من أصحاب النبي ﷺ.

(فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أي فإذا عقدت القلب على فعل شيء وإمضائه بعد المشاورة ومبادلة الرأى فيه،فتوكل على الله،وفوّض الأمر إليه بعد أخذ الاهبة واستكمال العدّة،ومراعاة الأسباب التي جعلها الله وسيلة للوصول إلى المسببات كما ورد فى الحديث «اعقلها وتوكل» .

ولا تتكل على ما أوتيت من حول وقوة،ولا على إحكام الرأى وأخذ العدة،فذلك كله ليس بكاف فى النجاح ما لم تقرن به معونة الله وتوفيقه،لأن الموانع الخارجية والعوائق التي تحول دون الوصول إلى البغية،لا يحيط بها إلا علام الغيوب،فلا بد من الاتكال عليه والاعتماد على حوله وقوته.

وفى الآية إيماء إلى وجوب إمضاء العزيمة متى استكملت شروطها التي من أهمها المشورة.

وسر هذا أن نقض العزائم خور فى النفس،وضعف فى الأخلاق يجعل صاحبه غير موثوق به فى قول ولا فعل،ولا سيما إذا كان رئيس حكومة،أو قائد جيش،ومن ثم لم يصغ النبي ﷺ إلى مشورة من رجع عن رأيه الأول وهو الخروج إلى أحد حين لبس لامته وخرج،إذ رأى أن هذا شروع فى العمل بعد أن أخذت الشورى حقها.

وبذلك علمهم أن لكل عمل ميقاتا محدودا،وأن وقت المشورة متى انتهى جاء طور العمل،وأن الرئيس إذا شرع فى العمل تنفيذا للشورى لا يجوز أن ينقض عزيمته،ويبطل عمله،ولو كان يرى أن أهل الشورى أخطئوا الرأى والتدبير كما حدث فى مسألة أحد كما تقدم.

ولا يزال أهل السياسة والحرب فى البلاد ذات الحضارة والمدنية يجرون على هذه القاعدة ويجعلونها دستورا لأعمال أممهم،ولا ينقضونها على أي حال،حتى قال أحد كبار الساسة الإنجليز:إن السياسة متى قررت شيئا وشرعت فيه وجب إمضاؤه وامتنع نقضه والرجوع عنه وإن كان خطأ.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) عليه الواثقين به،فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم كما تقتضيه المحبة.

وفى الآية إرشاد للمكلفين،وترغيب لهم فى التوكل على الله،والرجوع إليه،والإعراض عن كل ما سواه.

قال الرازي:دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقول بعض الجهال وإلا كان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل،بل التوكل عليه أن يراعى الإنسان الأسباب الظاهرة،ولكن لا يعوّل بقلبه عليها،بل يعول على عصمة الحكمة اه.

فالتوكل الصحيح إنما يكون مع الأخذ بالأسباب،وبدونها يكون دعوى التوكل جهلا بالشرع وفسادا فى العقل،قال تعالى:«فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» وقال:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ» وقال:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ» وقال:«وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى» وقال لنبيه لوط «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» وقال لموسى عليه السلام:«فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا» وقال حكاية عن نبيه يعقوب لابنه يوسف:«لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً» وقال أيضا حاكيا عنه:«يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ،وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ،إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» ففى هذا أمر بالحذر مع التنبيه إلى أنه متوكل على الله،ولا تنافى بينهما ولا غنى للمؤمن عنهما.[١٢٣٢]

[١٢٣٢] - تفسير المراغي (٤/ ١١٣)

وقال الشيخ محمد رشيد رضا :" وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ الْعَامِّ الَّذي هُوَ سِيَاسَةُ الْأُمَّة فِي الْحَرْبِ وَالسِّلْمِ وَالْخَوْف وَالْأَمْنِ وَغَيْرِ ذَلكَ منْ مَصَالحهمُ الدُّنْيَويَّة،أَيْ دُمْ عَلَى الْمُشَاوَرَة وَوَاظبْ عَلَيْهَا،كَمَا فَعَلْتَ قَبْلَ الْحَرْبِ فِي هَذه الْوَقْعَة (غَزْوَة أُحُد) وَإِنْ أَخْطَئُوا الرَّأْيَ فيهَا فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِالْمُشَاوَرَة دُونَ الْعَمَلِ بِرَأْيِ الرَّئِيسِ وَإِنْ كَانَ صَوَابًا،لمَا فِي ذَلكَ منَ النَّفْعِ لَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِ حُكُومَتِهِمْ إِنْ أَقَامُوا هَذَا الرُّكْنَ الْعَظِيمَ (الْمُشَاوَرَة) فَإِنَّ الْجُمْهُورَ أَبْعَدُ عَنِ الْخَطَأ منَ الْفَرْد فِي الْأَكْثَرِ،وَالْخَطَرُ عَلَى الْأُمَّة فِي تَفْوِيضِ أَمْرِهَا إِلَى الرَّجُلِ الْوَاحد أَشَدُّ وَأَكْبَرُ.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ:لَيْسَ منَ السَّهْلِ أَنْ يُشَاوِرَ الْإِنْسَانُ وَلَا أَنْ يُشِيرَ،وَإِذَا كَانَ الْمُسْتَشَارُونَ كثَارًا كَثُرَ النِّزَاعُ وَتَشَعَّبَ الرَّأْيُ،وَلهَذه الصُّعُوبَة وَالْوُعُورَة أَمَرَ اللهُ – تَعَالَى – نَبِيَّهُ أَنْ يُقَرِّرَ سُنَّةَ الْمُشَاوَرَة فِي هَذه الْأُمَّة بِالْعَمَلِ،فَكَانَ – ﷺ – يَسْتَشِيرُ أَصْحَابَهُ بِغَايَة اللُّطْف وَيُصْغِي إِلَى كُلِّ قَوْلٍ وَيَرْجعُ عَنْ رَأْيِه إِلَى رَأْيِهِمْ،وَلَيْسَ عنْدي عَنِ الْأُسْتَاذ فِي هَذه الْمَسْأَلَة غَيْرُ هَذَا.

وَأَقُولُ:الْأَمْرُ الْمُعَرَّفُ هُنَا هُوَ أَمْرُ الْمُسْلمينَ الْمُضَافُ إِلَيْهِمْ فِي الْقَاعدَة الْأُولَى الَّتِي وُضعَتْ لِلْحُكُومَة الْإِسْلَاميَّة فِي سُورَة الشُّورَى الْمَكِّيَّة،وَهِيَ قَوْلُهُ – تَعَالَى – فِي بَيَان مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْه أَهْلُ هَذَا الدِّينِ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ [٤٢:٣٨] فَالْمُرَادُ بِالْأَمْرِ أَمْرُ الْأُمَّة الدُّنْيَوِيُّ الَّذي يَقُومُ بِه الْحُكَّامُ عَادَةً ؛ لَا أَمْرُ الدِّينِ الْمَحْضِ الَّذي مَدَارُهُ عَلَى الْوَحْيِ دُونَ الرَّأْيِ،إِذْ لَوْ كَانَت الْمَسَائِلُ الدِّينِيَّةُ كَالْعَقَائد وَالْعبَادَات وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ممَّا يُقَرَّرُ بِالْمُشَاوَرَة لَكَانَ الدِّينُ منْ وَضْعِ الْبَشَرِ،وَإِنَّمَا هُوَ وَضْعٌ إِلَهِيٌّ لَيْسَ لِأَحَد فيه رَأْيٌ لَا فِي عَهْد النَّبِيِّ – ﷺ – وَلَا بَعْدَهُ.وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الصَّحَابَةَ – عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ – كَانُوا لَا يَعْرِضُونَ رَأْيَهُمْ مَعَ قَوْلِ النَّبِيِّ – ﷺ – فِي مَسَائِلِ الدُّنْيَا إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ قَالَهُ عَنْ رَأْيٍ لَا عَنْ وَحْيٍ كَمَا فَعَلُوا يَوْمَ بَدْرٍ،إِذْ جَاءَ النَّبِيُّ – ﷺ – أَدْنَى مَاءٍ منْ بَدْرٍ فَنَزَلَ عنْدَهُ فَقَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذرِ بْنِ الْجَمُوحِ:" يَا رَسُولَ اللهِ:أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ،أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ:بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ هَذَا بِمَنْزِلٍ،فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ منَ الْقَوْمِ فَنَنْزِلَهُ ثُمَّ نُغَوِّرَ مَا وَرَاءَهُ " إِلَخْ.مَا قَالَ.فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ – ﷺ –:لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ وَعَملَ بِرَأْيِه.

أَقَامَ النَّبِيُّ - ﷺ - هَذَا الرُّكْنَ (الشُّورَى) فِي زَمَنِهِ بِحَسَبِ مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ حَيْثُ قِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَاجْتِمَاعِهِمْ مَعَهُ فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ فِي زَمَنِ وُجُوبِ الْهِجْرَةِ الَّتِي انْتَهَتْ بِفَتْحِ مَكَّةَ،فَكَانَ يَسْتَشِيرُ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِنْهُمْ وَهُمُ الَّذِينَ يَكُونُونَ مَعَهُ،وَيَخُصُّ أَهْلَ الرَّأْيِ وَالْمَكَانَةِ مِنَ الرَّاسِخِينَ بِالْأُمُورِ الَّتِي يَضُرُّ إِفْشَاؤُهَا،فَاسْتَشَارَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ لَمَّا عَلِمَ بِخُرُوجِ قُرَيْشٍ مِنْ مَكَّةَ لِلْحَرْبِ،فَلَمْ يُبْرِمِ الْأَمْرَ حَتَّى صَرَّحَ الْمُهَاجِرُونَ ثُمَّ الْأَنْصَارُ بِالْمُوَافَقَةِ.

وَاسْتَشَارَهُمْ جَمِيعًا يَوْمَ أُحُدٍ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ.وَهَكَذَا كَانَ يَسْتَشِيرُهُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِبَيَانِهِ فَيُنَفِّذُهُ حَتْمًا،وَلَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَامْتَدَّ حُكْمُ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْفَتْحِ إِلَى الْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْمَدِينَةِ.وَكَانَ فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ مِنْ أُولَئِكَ الْمُسْلِمِينَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْمَكَانَةِ وَالرَّأْيِ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّهُ قَدِ احْتِيجَ إِلَى وَضْعِ قَاعِدَةٍ أَوْ نِظَامٍ لِلشُّورَى يُبَيِّنُ فِيهِ طُرُقَ اشْتِرَاكِ أُولَئِكَ الْبُعَدَاءِ عَنْ مَكَانِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا فِيهَا،وَلَكِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لَمْ يَضَعْ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ أَوِ النِّظَامَ لِحِكَمٍ وَأَسْبَابٍ:

مِنْهَا:أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْأُمَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ،وَكَانَتْ تِلْكَ الْمُدَّةُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي عَاشَهَا - ﷺ - بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ مَبْدَأَ دُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا.وَكَانَ - ﷺ - يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ سَيَنْمُو وَيَزِيدُ وَأَنَّ اللهَ سَيَفْتَحُ لِأُمَّتِهِ الْمَمَالِكَ،وَيُخْضِعُ لَهَا الْأُمَمَ وَقَدْ بَشَّرَهَا بِذَلِكَ.فَكُلُّ هَذَا كَانَ مَانِعًا مِنْ وَضْعِ قَاعِدَةٍ لِلشُّورَى تَصْلُحُ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عَامِ الْفَتْحِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ - ﷺ -،وَفِي الْعَصْرِ الَّذِي يَتْلُو عَصْرَهُ إِذْ تُفْتَحُ الْمَمَالِكُ الْوَاسِعَةُ وَتَدْخُلُ الشُّعُوبُ الَّتِي سَبَقَتْ لَهَا الْمَدَنِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ أَوْ فِي سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ،إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْقَوَاعِدُ الْمُوَافِقَةُ لِذَلِكَ الزَّمَنِ صَالِحَةً لِكُلِّ زَمَنٍ وَالْمُنْطَبِقَةُ عَلَى حَالِ الْعَرَبِ فِي سَذَاجَتِهِمْ مُنْطَبِقَةً عَلَى حَالِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَعَلَى حَالِ غَيْرِهِمْ،فَكَانَ الْأَحْكَمَ أَنْ يَتْرُكَ - ﷺ - وَضْعَ قَوَاعِدِ الشُّورَى لِلْأُمَّةِ تَضَعُ مِنْهَا فِي كُلِّ حَالٍ مَا يَلِيقُ بِهَا بِالشُّورَى.

وَمِنْهَا:أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لَوْ وَضَعَ قَوَاعِدَ مُؤَقَّتَةً لِلشُّورَى بِحَسَبِ حَاجَةِ ذَلِكَ الزَّمَنِ لَاتَّخَذَهَا الْمُسْلِمُونَ دِينًا وَحَاوَلُوا الْعَمَلَ بِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ،وَمَا هِيَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ،وَلِذَلِكَ قَالَ الصَّحَابَةُ فِي اخْتِيَارِ أَبِي بَكْرٍ حَاكِمًا:رَضِيَهُ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا؟ فَإِنْ قِيلَ:كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَذْكُرَ فِيهَا أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْأُمَّةِ أَنْ تَتَصَرَّفَ فِيهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ بِالنَّسْخِ وَالتَّغْيِيرِ

وَالتَّبْدِيلِ نَقُولُ:إِنَّ النَّاسَ قَد اتَّخَذُوا كَلَامَهُ – ﷺ – فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا دِينًا مَعَ قَوْلِــهِ:" أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ.وَقَوْلِه:" مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ،وَمَا كَانَ مِــنْ أَمْــرِ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ " رَوَاهُ أَحْمَدُ.وَإِذَا تَأَمَّلَ الْمُنْصِفُ الْمَسْأَلَةَ حَقَّ التَّأَمُّلِ،وَكَانَ مِمَّنْ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ شُعُورِ طَبَقَاتِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ يَتَجَلَّى لَهُ أَنَّهُ يَصْعُبُ عَلَــى أَكْثَرِ النَّاسِ أَنْ يَرْضَوْا بِتَغْيِيرِ شَيْءٍ وَضَعَهُ النَّبِيُّ – ﷺ – لِلْأُمَّــةِ وَإِنْ أَجَــازَ لَهَــا تَغْيِيرَهُ،بَــلْ يَقُولُونَ:إِنَّهُ أَجَازَ ذَلِكَ تَوَاضُعًا مِنْهُ وَتَهْذِيبًا لَنَا حَتَّى لَا يَصْعُبَ عَلَيْنَا الرُّجُوعُ عَنْ آرَائِنَا،وَرَأْيُــهُ هُوَ الرَّأْيُ الْأَعْلَى فِي كُلِّ حَالٍ.

وَقَرِيبٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ تَقْدِيمُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – الْعَمَــلَ بِالْحَــدِيثِ الضَّــعِيفِ وَالْمُرْسَلِ عَلَى الْقِيَاسِ وَتَعْلِيلُهُ بِمَا عَلَّلَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا:أَنَّهُ لَوْ وَضَعَ تِلْكَ الْقَوَاعِدَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ – ﷺ – لَكَانَ غَيْرَ عَامِــلٍ بِالشُّــورَى،وَذَلِكَ مُحَالٌ فِي حَقِّهِ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللهِ،وَلَوْ وَضَعَهَا بِمُشَاوَرَةِ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْــلِمِينَ لَقَرَّرَ فِيهَا رَأْيَ الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ كَمَا فَعَلَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ،وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ رَأْيَ الْأَكْثَرِينَ كَانَ خَطَأً وَمُخَالِفًا لِرَأْيِهِ – ﷺ –،فَهَلْ يَرْضَى – ﷺ – أَنْ يَحْكُمَ أَمْثَالُ أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَمَنْ دُونَهُمْ – كَأَكْثَرِ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْفَتْحِ – فِي أُصُولِ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَقَوَاعِــدِهَا؟ أَلَــيْسَ تَرْكُهَا لِلْأُمَّةِ تُقَرِّرُ فِي كُلِّ زَمَانٍ مَا يُؤَهِّلُهَا لَهُ اسْتِعْدَادُهَا هُوَ الْأَحْكَمَ؟ بَلَى،وَقَدْ تَبَيَّنَ كُنْهُ ذَلِكَ الاسْتِعْدَادِ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنَّهُ كَانَ غَيْرَ كَافٍ لِوَضْعِ قَانُونٍ كَافِلٍ لِقِيَامِ الْمَصْلَحَةِ،وَلِذَلِكَ بَادَرَ عُمَرُ إِلَى مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) خَوْفَ الْخِلَافِ الْمُهْلِكِ لِلْأُمَّةِ ؛ وَصَرَّحَ بَعْدَ ذَلِكَ بِــأَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً وَقَى اللهُ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهَا لَا يَجُوزُ الْعَوْدُ إِلَى مِثْلِهَا،وَكَذَلِكَ اسْتَشَــارَ أَبُو بَكْرٍ كُبَرَاءَ الصَّحَابَةِ فِي الْعَهْدِ إِلَى عُمَرَ،فَلَمَّا عَلِمَ رِضَاهُمْ عَهِدَ إِلَيْهِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِلتَّفَــرُّقِ وَالْخِلَافِ مَجَالٌ كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا.وَلَوْ كَانَ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – يَعْتَقِدُ أَنَّ الْأُمَّةَ مُسْتَعِدَّةٌ لِإِقَامَةِ الشُّورَى عَلَى وَجْهِهَا مَعَ الْأَمْنِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالْخِلَافِ،لَتَرَكَ لَهَا الْأَمْرَ،وَلَمْ يُحَاوِلْ جَمْــعَ كَلِمَةِ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهَا فِي حَيَاتِهِ عَلَى مَنْ يَرَاهُ هُوَ الْأَصْلَحَ حَتَّى يَمُوتَ آمِنًا عَلَيْهَا مِــنْ تَفَــرُّقِ الْكَلِمَةِ.

يَقُولُ قَوْمٌ:إنَّ بَيْعَةَ عُمَرَ كَانَتْ بِالْعَهْدِ لَا بِالشُّورَى الَّتِي هِيَ الْأَسَاسُ لِلْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِنَصِّ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ،وَهَذَا الْعَهْدُ رَأْيُ صَحَابِيٍّ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ نَاسِخًا لِلْقُرْآنِ وَلَا مُخَصِّصًا وَلَا مُقَيِّدًا لَهُ،فَكَيْفَ عَمِلَ بِهِ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ وَاتَّخَذَهُ الْفُقَهَاءُ قَاعِدَةً شَرْعِيَّةً؟ إذَا أَوْرَدَ هَذَا السُّؤَالَ شِيعِيٌّ أَوْ غَيْرُ شِيعِيٍّ مِنَ الْبَاحِثِينَ الْمُسْتَقِلِّينَ عَلَى أَحَدِ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْفِقْهِ يُجِيبُهُ بِنَاءً عَلَى قَوَاعِدِهِ:إنَّهُ رَأْيٌ قَبِلَهُ الصَّحَابَةُ وَأَجْمَعُوا عَلَيْهِ،وَالْإِجْمَاعُ حُجَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ يَجِبُ الْعَمَلُ بِهَا،وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الشِّيعَةَ وَالْمُسْتَقِلِّينَ بِالْعِلْمِ مِنْ غَيْرِهِمْ لَا يُقْنِعُهُمْ هَذَا الْجَوَابُ،فَهُمْ يُنَازِعُونَ فِي حُصُولِ هَذَا الْإِجْمَاعِ وَفِي جَوَازِ مِثْلِهِ مَعَ النَّصِّ وَكَوْنِهِ فِي مَسْأَلَةٍ قَطْعِيَّةٍ لَا تَقُومُ الْمَصْلَحَةُ بِدُونِهَا،وَيَقُولُونَ عَلَى فَرْضِ التَّسْلِيمِ:كَيْفَ أَقْدَمَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْمُخَالِفِ لِلنَّصِّ وَلَمْ يَكُنْ مُجْمَعًا عَلَيْهِ حِينَئِذٍ لِأَنَّكُمْ تَدَّعُونَ أَنَّهُ إنَّمَا أُجْمِعَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ؟

وَالصَّوَابُ أَنَّ بَيْعَةَ عُمَرَ كَانَتْ بِالشُّورَى،وَلَكِنَّ هَذِهِ الشُّورَى حَصَلَتْ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّاهَا بِنَفْسِهِ كَمَا قُلْنَا آنِفًا،وَإِنَّمَا تَعَجَّلَ ذَلِكَ لِخَوْفِهِ عَلَى الْأُمَّةِ فِتْنَةَ التَّفَرُّقِ وَالْخِلَافِ مِنْ بَعْدِهِ،فَشَاوَرَ أَهْلَ الرَّأْيِ وَالْمَكَانَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ فِيمَنْ يَلِي الْأَمْرَ بَعْدَهُ ؛ فَرَأَى الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ يُوَافِقُونَهُ عَلَى أَنَّ أَمْثَلَهُمْ عُمَرُ،وَرَأَى بَعْضَهُمْ يَخَافُ مِنْ شِدَّتِهِ،فَكَانَ يَجْتَهِدُ فِي إزَالَةِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِ:" إنَّهُ يَرَانِي كَثِيرَ اللِّينِ فَيَشْتَدُّ " أَيْ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَجْمُوعِ سِيرَتِهِمَا الِاعْتِدَالُ أَوْ مَا هَذَا مَغْزَاهُ،حَتَّى إنَّهُ تَكَلَّفَ صُعُودَ الْمِنْبَرِ قَبْلَ وَفَاتِهِ وَتَكَلَّمَ فِي الْمَسْأَلَةِ بِمَا أَقْنَعَ الْقَوْمَ،فَعَهِدَ إلَيْهِ فِي الْأَمْرِ فِي حَيَاتِهِ،فَكَانَ ذَلِكَ كَتَوْكِيلٍ لَهُ فِي مَرَضِهِ وَتَرْشِيحٍ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ،وَإِنَّمَا الْعُمْدَةُ فِي جَعْلِهِ أَمِيرًا عَلَى مُبَايَعَةِ الْأُمَّةِ،وَالْمُبَايَعَةُ لَا تَتَوَقَّفُ صِحَّتُهَا عَلَى الشُّورَى،وَلَكِنْ قَدْ يُحْتَاجُ فِيهَا إلَى الشُّورَى لِأَجْلِ جَمْعِ الْكَلِمَةِ عَلَى وَاحِدٍ تَرْضَاهُ الْأُمَّةُ،فَإِذَا أَمْكَنَ ذَلِكَ بِغَيْرِ تَشَاوُرٍ بَيْنَ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ كَأَنْ جَعَلُوا ذَلِكَ بِالِانْتِخَابِ الْمَعْرُوفِ الْآنَ فِي الْحُكُومَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ،وَمَا سَبَقَ لِأَبِي بَكْرٍ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ وَالْإِقْنَاعِ فِي تَوْلِيَةِ عُمَرَ أَغْنَى عَنِ الْمُشَاوَرَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ،فَاتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى مُبَايَعَتِهِ وَصَدَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ اتِّفَاقٌ بَعْدَ شُورَى أَوْ بِسَبَبِ الشُّورَى.

وَأَمَّا جَعْلُ عُمَرَ الشُّورَى فِي نَفَرٍ مُعَيَّنِينَ فَهُوَ اجْتِهَادٌ مِنْهُ فِي إقَامَةِ هَذَا الرُّكْنِ مَعَ اتِّقَاءِ فِتْنَةِ الْخِلَافِ الَّتِي تُخْشَى مِنْ تَكْثِيرِ عَدَدِ الْمُتَشَاوِرِينَ،فَأُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ جَعَلَهَا فِيهِمْ هُمْ أَهْلُ

الرَّأْيِ وَالْمَكَانَةِ فِي الْأُمَّةِ الَّذِينَ تَخْضَعُ لِرَأْيِهِمْ إِذَا اتَّفَقُوا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ إِذَا اخْتَلَفُوا ؛ لِأَنَّ لِكُــلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عُصْبَةٌ يَرَوْنَهُ أَهْلًا لِلْإِمَارَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.وَكَانَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ عُمَرُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هُمْ أُولِي الْأَمْرِ أَوْ خَوَاصَّ أُولِي الْأَمْرِ وَزُعَمَاءَهُمْ،وَهُمُ الْأَحَقُّ بِالشُّورَى كَمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْأَمْرِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ مَعَ قَوْلِهِ – عَزَّ وَجَلَّ –:وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِــنْهُمْ [٤:٨٣] وَمِنَ الْمَشْهُورِ أَنَّ لِلْمُفَسِّرِينَ فِي أُولِي الْــأَمْرِ قَــوْلَيْنِ:أَحَــدُهُمَا أَنَّهُــمُ الْــأُمَرَاءُ الْحَاكِمُونَ،وَثَانِيهِمَا:

أَنَّهُمُ الْعُلَمَاءُ،وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَبِّرُ بِكَلِمَةِ " الْفُقَهَاءِ " وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَ النَّبِــيِّ – ﷺ – أُمَرَاءُ حَاكِمُونَ وَلَا صِنْفٌ يُسَمَّى الْفُقَهَاءُ،وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِــ أُولِي الْأَمْرِ الَّــذِينَ تُــرَدُّ إِلَــيْهِمْ مَسَائِلُ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ:أَهْلُ الرَّأْيِ وَالْمَكَانَةِ فِي الْأُمَّــةِ وَهُــمُ الْعُلَمَاءُ بِمَصَالِحِهَا وَطُرُقِ حِفْظِهَا وَالْمَقْبُولَةُ آرَاؤُهُمْ عِنْدَ عَامَّتِهَا،فَمَا فَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَــرُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – هُوَ مُنْتَهَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْمَلَ فِي إِقَامَةِ الشُّورَى بِحَسَــبِ حَــالِ الْأُمَّــةِ وَاسْتِعْدَادِهَا فِي زَمَنِهِمَا.ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ بَادَرُوا بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ إِلَى مُبَايَعَةِ عَلِيٍّ مِنْ غَيْرِ اهْتِمَامٍ بِالتَّشَاوُرِ ؛ لِأَنَّ الْكَفَاءَةَ الَّتِي يَرَوْنَهَا فِيهَا لَمْ تَكُنْ تَقْبَلُ شَرِكَةً تَدْعُو إِلَى إِجَالَةِ الرَّأْيِ،فَمُبَايَعَــةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ كَانَتْ مِنَ الْأُمَّةِ بِرِضَاهَا،وَكَانُوا يَسْتَشِيرُونَ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالرَّأْيِ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ قَدْ أَحَاطُوا بِعُثْمَانَ وَغَلَبُوا الْأُمَّةَ عَلَى رَأْيِهَا عِنْدَهُ،فَكَانَ مِنْ عَاقِبَةِ ذَلِكَ مَا كَــانَ مِنَ الْفِتَنِ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ فِيهِمْ بِقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ وَالدَّهَاءِ،لَا بِاسْتِشَارَةِ الدَّهْمَاءِ ؛ فَهُــمُ الَّــذِينَ هَدَمُوا قَاعِدَةَ الْحُكْمِ بِالشُّورَى فِي الْإِسْلَامِ بَدَلًا مِنْ إِقَامَتِهِ وَوَضْعِ الْقَوَانِينِ الَّتِي تَحْفَظُهَا،وَتَجْعَلُ اسْتِفَادَةَ الْأُمَّةِ مِنْهَا تَابِعَةً لِتَقَدُّمِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَأَعْمَالِ الْعُمْرَانِ فِيهَا،وَلَوْلَا هَذَا لَكَانَ ذَلِــكَ الْمُلْكُ الَّذِي وَسَّعُوا دَائِرَتَهُ بِالْفُتُوحَاتِ أَثْبَــتَ فِــي نَفْسِــهِ وَلَهُمْ،وَلَكَــانَ شَــأْنُ الْإِسْــلَامِ أَعْظَمَ،وَانْتِشَارُهُ أَكْثَرَ وَأَعَمَّ،عَلَى أَنَّ هَذَا الِاسْتِبْدَادَ مِنْهُمْ قَدْ كَانَ مُعْظَمُهُ مَصْرُوفًا إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى سُلْطَتِهِمْ وَبَقَاءِ الْمُلْكِ فِي أُسْرَتِهِمْ،قَلَّمَا يَتَسَرَّبُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَى الْإِدَارَةِ وَالْقَضَاءِ.وَكَانَــتْ حُرِّيَّةُ انْتِقَادِ الْحُكَّامِ وَالْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ عَلَى كَمَالِهَا حَتَّى تَبَرَّمَ مِنْهَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فَقَــالَ عَلَى الْمِنْبَرِ:مَنْ قَالَ لِي اتَّقِ اللَّهَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ – كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْمُــؤَرِّخِينَ – وَلَكِــنَّهُمْ

كَانُوا يَتَصَرَّفُونَ فِي بَيْتِ الْمَالِ بِأَهْوَائِهِمْ فِي الْغَالِبِ،وَلَمَّا أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى وَارِثِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ قَوْمِهِ،فَلَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ ذَلِكَ.

ثُمَّ رَسَخَت السُّلْطَةُ الشَّخْصِيَّةُ فِي زَمَنِ الْعَبَّاسِيِّينَ لِمَا كَانَ لِلْأَعَاجِمِ مِنَ السُّلْطَانِ فِي مُلْكِهِمْ وَجَرَى سَائِرُ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ وَجَارَاهُمْ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الدِّينِ بَعْدَ مَا كَانَ لِعُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الْإِنْكَارِ الشَّدِيدِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ فِي زَمَنِ بَنِي أُمَيَّةَ وَأَوَائِلِ زَمَنِ الْعَبَّاسِيِّينَ،فَظَنَّ الْبَعِيدُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَكَذَا الْقَرِيبُ مِنْهُمْ أَنَّ السُّلْطَةَ فِي الْإِسْلَامِ اسْتِبْدَادِيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ،وَأَنَّ الشُّورَى مَحْمَدَةٌ اخْتِيَارِيَّةٌ،فَيَاللهِ الْعَجَبَ:أَيُصَرِّحُ كِتَابُ اللهِ بِأَنَّ الْأَمْرَ شُورَى فَيَجْعَلُ ذَلِكَ أَمْرًا ثَابِتًا مُقَرَّرًا،وَيَأْمُرُ نَبِيَّهُ – الْمَعْصُومَ مِنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى فِي سِيَاسَتِهِ وَحُكْمِهِ – بِأَنْ يَسْتَشِيرَ حَتَّى بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا كَانَ مِنْ خَطَأِ مَنْ غَلَبَ رَأْيُهُمْ فِي الشُّورَى يَوْمَ أُحُدٍ،ثُمَّ يَتْرُكُ الْمُسْلِمُونَ الشُّورَى لَا يُطَالِبُونَ بِهَا وَهُمُ الْمُخَاطَبُونَ فِي الْقُرْآنِ بِالْأُمُورِ الْعَامَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِرَارًا كَثِيرَةً؟ هَذَا،وَقَدْ بَلَغَ مُلُوكُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَالاسْتِبْدَادِ مَبْلَغًا صَارُوا فِيهِ عَارًا عَلَى الْإِسْلَامِ بَلْ عَلَى الْبَشَرِ كُلِّهِ،إِلَّا مَنْ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ،وَيَبْذُلُ جُهْدَهُ فِي رَاحَةِ الْعَالَمِ مِنْ شَرِّهِمْ.وَسَنَعُودُ إِلَى مَوْضُوعِ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى أُولِي الْأَمْرِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ إِنْ شَاءَ اللهُ – تَعَالَى –.

قَالَ – تَعَالَى – بَعْدَ أَمْرِ نَبِيِّهِ بِالْمُشَاوَرَةِ:فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ أَيْ فَإِذَا عَزَمْتَ بَعْدَ الْمُشَاوَرَةِ فِي الْأَمْرِ عَلَى إِمْضَاءِ مَا تُرَجِّحُهُ الشُّورَى وَأَعْدَدْتَ لَهُ عُدَّتَهُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فِي إِمْضَائِهِ،وَكُنْ وَاثِقًا بِمَعُونَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ لَكَ فِيهِ،وَلَا تَتَّكِلْ عَلَى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ،بَلِ اعْلَمْ أَنَّ وَرَاءَ مَا أَتَيْتَهُ وَمَا أُوتِيتَهُ قُوَّةً أَعْلَى وَأَكْمَلَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِهَا الثِّقَةُ وَعَلَيْهَا الْمُعَوَّلُ،وَإِلَيْهَا اللُّجْأُ إِذَا تَقَطَّعَت الْأَسْبَابُ وَأُغْلِقَت الْأَبْوَابُ.وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مَعْنَاهُ:إِنَّ الْعَزْمَ عَلَى الْفِعْلِ وَإِنْ كَانَ يَكُونُ بَعْدَ الْفِكْرِ وَإِحْكَامِ الرَّأْيِ وَالْمُشَاوَرَةِ وَأَخْذِ الْأُهْبَةِ،فَذَلِكَ كُلُّهُ لَا يَكْفِي لِلنَّجَاحِ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ ؛ لِأَنَّ الْمَوَانِعَ الْخَارِجِيَّةَ لَهُ وَالْعَوَائِقَ دُونَهُ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا اللهُ – تَعَالَى – ،فَلَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الِاتِّكَالِ عَلَيْهِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ مَعَ الْعَمَلِ فِي الْأَسْبَابِ بِسُنَّتِهِ،أَقُولُ:وَمَنْ أَحَبَّهُ اللهُ عَصَمَهُ مِنَ الْغُرُورِ بِاسْتِعْدَادِهِ،وَالرُّكُونِ إِلَى عُدَّتِهِ وَعَتَادِهِ،وَالْبَطَرِ الَّذِي يَصْرِفُهُ عَنِ النَّظَرِ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى لَا يُقَدِّرَهُ قَدْرَهُ وَلَا يُحْكِمَ فِيهِ أَمْرَهُ،فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ فِي الْأُمُورِ بِعَيْنِ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ وَاسْتِمَاعُهُ لِأَنْبَائِهَا بِأُذُنِ الْغَفْلَةِ وَالِازْدِرَاءِ وَمُبَاشَرَتُهُ لَهَا بِيَدِ التَّهَاوُنِ يُلْقِي السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ،وَيَنْظُرُ بِعَيْنِ الْعِبْرَةِ فَبَصَرُهُ حِينَئِذٍ حَدِيدٌ،وَيَبْطِشُ بِيَدِ الْحَزْمِ فَبَطْشُهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَعْمَلُ لِلْحَقِّ لَا لِلْبَاطِلِ الَّذِي يُزَيِّنُهُ الْهَوَى وَيُدْلِي بِهِ الْغُرُورُ،فَيَكُونُ مِصْدَاقًا لِلْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ:" فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ".

الْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي وُجُوبِ إِمْضَاءِ الْعَزِيمَةِ الْمُسْتَكْمِلَةِ لِشُرُوطِهَا – وَأَهَمُّهَا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ حَرْبِيَّةً كَانَتْ أَوْ سِيَاسِيَّةً أَوْ إِدَارِيَّةً الْمُشَاوَرَةُ – وَذَلِكَ أَنَّ نَقْضَ الْعَزِيمَةِ ضَعْفٌ فِي النَّفْسِ وَزِلْزَالٌ فِي الْأَخْلَاقِ لَا يُوثَقُ بِمَنِ اعْتَادَهُ فِي قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ،فَإِذَا كَانَ نَاقِضَ الْعَزِيمَةِ رَئِيسُ حُكُومَةٍ أَوْ قَائِدُ جَيْشٍ كَانَ ظُهُورُ نَقْضِ الْعَزِيمَةِ مِنْهُ نَاقِضًا لِلثِّقَةِ بِحُكُومَتِهِ وَبِجَيْشِهِ،وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ بَعْدَ الشُّرُوعِ فِي الْعَمَلِ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يُصْغِ النَّبِيُّ – ﷺ – إِلَى قَوْلِ الَّذِينَ أَشَارُوا عَلَيْهِ بِالْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ حِينَ أَرَادُوا الرُّجُوعَ عَنْ رَأْيِهِمْ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونُوا قَدِ اسْتَكْرَهُوهُ عَلَى الْخُرُوجِ – وَكَانَ قَدْ لَبِسَ لَأْمَتَهُ وَخَرَجَ – وَذَلِكَ شُرُوعٌ فِي الْعَمَلِ بَعْدَ أَنْ أَخَذَتِ الشُّورَى حَقَّهَا – كَمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ – فَعَلَّمَهُمْ بِذَلِكَ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ وَقْتًا وَأَنَّ وَقْتَ الْمُشَاوَرَةِ مَتَى انْتَهَى جَاءَ دَوْرُ الْعَمَلِ،وَأَنَّ الرَّئِيسَ إِذَا شَرَعَ فِي الْعَمَلِ تَنْفِيذًا لِلشُّورَى لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَنْقُضَ عَزِيمَتَهُ وَيُبْطِلَ عَمَلَهُ،وَإِنْ كَانَ يَرَى أَنَّ أَهْلَ الشُّورَى أَخْطَئُوا الرَّأْيَ – كَمَا كَانَ يَرَى – ﷺ – فِي مَسْأَلَةِ الْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ كَمَا تَقَدَّمَ – وَيُمْكِنُ إِرْجَاعُ ذَلِكَ إِلَى قَاعِدَةِ ارْتِكَابِ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ،وَأَيُّ ضَرَرٍ أَشُدُّ مِنْ فَسْخِ الْعَزِيمَةِ وَمَا فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْفَشَلِ وَإِبْطَالِ الثِّقَةِ؟

وَإِنَّنَا نَرَى أَهْلَ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ يَجْرُونَ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ،وَمِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي تُوجِبُ الْعِبْرَةَ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأُسْتَاذَ الْإِمَامَ لَمَّا كَانَ فِي لُنْدُرَةَ عَاصِمَةِ انْكِلْتِرَا سَنَةَ ١٣٠١هـ.

ذَاكَرَهُ وُزَرَاءُ الْإِنْكِلِيزِ فِي أُمُورِ مِصْرَ وَالسُّودَانِ الْتِمَاسَ خِدْمَتِهِ لِبِلَادِهِ وَقَدْ سَأَلَهُ يَوْمَئِذٍ رَئِيسُ الْوُزَرَاءِ أَوْ غَيْرُهُ مِنْهُمْ (الشَّكُّ مِنِّي) عَنْ رَأْيِهِ فِي حَمْلَةِ هكس بَاشَا الَّتِي أَرْسَلُوهَا لِمُحَارَبَةِ

مَهْدِيِّ السُّودَانِ الَّذِي ظَهَرَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَبَيَّنَ لَهُ بَعْدَ مُرَاجَعَةٍ طَوِيلَةٍ أَنَّ هَذِهِ الْحَمْلَــةَ لَــا تَنْجَحُ بَلْ يَقْضِي عَلَيْهَا السُّودَانِيُّونَ.ثُمَّ عَادَ الْأُسْتَاذُ مِنْ أُورُبَّا إِلَى بَيْرُوتَ،وَبَعْدَ عَوْدَتِهِ جَــاءَتِ الْأَخْبَارُ بِقَتْلِ هكس بَاشَا وَتَنْكِيلِ السُّودَانِيِّينَ بِحَمْلَتِهِ،فَبَعَثَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بِرِسَالَةٍ " بَرْقِيَّةٍ " إِلَى الْوَزِيرِ الْإِنْكلِيزِيِّ يُذَكِّرُهُ فِيهَا بِرَأْيِهِ وَكَيْفَ صَدَقَ.فَجَاءَهُ الْجَوَابُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِــنَ الْــوَزِيرِ وَمَعْنَاهُ:قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مَا قُلْتَهُ لَنَا مَعْقُولٌ وَجِيهٌ وَلَكِنَّ السِّيَاسَةَ مَتَى قَرَّرَتْ شَيْئًا وَشَــرَعَتْ فِيــهِ وَجَبَ إِمْضَاؤُهُ وَامْتَنَعَ نَقْضُهُ وَالرُّجُوعُ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ خَطَأً."[1233]

حكم الشورى:

هناك اختلاف بين العلماء والباحثين حول الرأي الفقهي المتعلق بحكم الشورى،هل هي واجبة أم مندوب إليها،وأغلب الظن أن الحكم يتأرجح ما بين الوجوب والندب[1234] .

١ ـــ من رأى بوجوب الشورى وفرضيتها،وهم جمهور الفقهاء،منهم الحنفية والمالكية،والقول الصحيح من المذهب الشافعي،وينسب هذا القول أيضاً للنّوويّ وابن عطية وابن خويز منــداد والرازي،وبعض المعاصرين كأمثال محمد عبده،محمد شلتوت و محمد أبو زهرة وعبد الوهــاب خلاف و عبد القادر عودة،نظراً للنصوص الشرعية الواردة في هذا الشــأن،وعلي ولي الأمــر العمل بالشورى وما يصدر عنها من نتائج ورؤى،ويأثم إذا أعرض عنها،وترك العمل بها،بــل يرى ابن عطية ٥٤١هـــ أن:الشورى من قواعد الإسلام وعزائم الأحكام،من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب.[1235]

والأدلة على ذلك قوله تعالى:" وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ " (آل عمران،آية:١٥٩) ولأن الأصوليين يقولون أن صيغة الأمر تشير إلى الوجوب مالم تصرفه قرينة ،[1236] ولا قرينــة صــارفة عــن الوجوب.و ظاهر الأمر يدل على الوجوب،وإنما أمر الله تعالى نبيه بالمشــاورة ليقتــدي بــه المسلمون،فلا غنى لولي الأمر على المشاورة،فإن الله تعالى أمر به نبيه ﷺ.[1237]

[1233] – تفسير المنار (٤/ ١٦٣)

[1234] – تفسير الطبري (٣/ ١٩٢).

[1235] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٢٤٩)

[1236] – الموافقات للشاطبي (٤/ ١١٥)

[1237] – المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم د.عبد الكريم زيدان (٤/ ٣٢٧)

ومن الأحاديث ما يشير إلى وجوب الشورى في حياة المسلمين،ما روي عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ " مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مُشَاوَرَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ " قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ:وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨])[١٢٣٨].

وكان من عادته ﷺ أن يقول:«أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ،فِي قَوْمٍ أَبَنُوا أَهْلِي مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُوءٍ قَطُّ،وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ،وَلَا تَغَيَّبْتُ قَطُّ إِلَّا وَهُوَ مَعِي،وَلَا دَخَلَ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا شَاهِدٌ»[١٢٣٩] ،والشورى في الإسلام نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي،لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه[١٢٤٠] .

أما الخليفة – والحاكم – فهو غالباً ما يشكل رمزاً لهذه الأمة،وسلطاته تعود بالأساس إلى الأمة بعمومها،وسلطانها العام ،– والحاكم– يستمد سلطانه من الأمة لا من ذاته ولعل المصلحة الشرعية التي تعود بالشورى والمشاورة أكثر من تلك التي تؤخذ من الانفراد والتحكم بالرأي،ولاغنى لولي الأمر عن المشاورة،فإن الله أمر بها نبيه ﷺ،فقال تعالى .."وشاورهم في الأمر" وقد قيل:إن أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه،وليقتدي به من بعده وليستخرج بها منهم الرأي فيما يترل فيه وحي من أمر الحروب،والأمور الجزئية،وغير ذلك،فغيره ﷺ ((أولى بالمشورة))[١٢٤١]

فإذا كانت الشورى في حق رسول ((ﷺ)) المعصوم الذي يوحى إليه،فهو شأن سائر أئمة المسلمين من باب أولى.[١٢٤٢]

[١٢٣٨] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١١/ ٢١٦)(٤٨٧٢) مطولا والسنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٧٣)(١٣٣٠٣) صحيح لغيره

[١٢٣٩] – المعجم الكبير للطبراني (٢٣/ ١٠٦)(١٤٩) صحيح

[١٢٤٠] – في ظلال القران (١/ ٥٠١) سيد قطب.

[١٢٤١] – السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٥٧.

[١٢٤٢] – من أصول الفكر السياسي الإسلامي محمد عثمان ص١٥٦.

ثم إن الشورى واجبة بناء على قواعد ودلالات الألفاظ في علم أصول الفقه،ففي قول الله تعالى:"وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ " (آل عمران،أية:١٩٥) ،لفظة ((وشاورهم)) تشير إلى الوجوب،لأن حقيقة الأمر عند الأصوليين تنصرف إلى الوجوب ما لم تصرفها قرينة[١٢٤٣] .

وليس في القرآن أو السنة ما يشير خلاف ذلك،فمن الدلالات القرآنية إلى الأحاديث النبوية ما يشير إلى الوجوب والعمل بها ومنها ما يشير إلى الندب والمدح للعاملين بها،وهذه الأخيرة لا تخالف الأولى في الحكم ،بل تعززها وبالتالي الذي نذهب إليه أن الشورى كحكم شرعي واجبة لاسيما وأنها كنظام إنساني أو آلية حكم واجبة بوجوب موضوعها ابتداءً وانتهاءً.[١٢٤٤]

قلت :وقد رجح المؤلف رحمه الله القول بوجوب الشورى فقال :" والأمر يقتضي الوجوب والأصل أن الأمر الموجه إلى النبي ﷺ يشمل الأمة إلا إذا دل الدليل على أن الحكم خاص به ﷺ،وليس هناك دليل يقتضي التخصيص فيكون الأمر بالشورى من الواجبات المناطة بالأمة،التي لا يجوز للحاكم تعطيلها والغاؤها،قال ابنُ عَطية رحمه الله:" وَالشُّورَى مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ وَعَزَائِمِ الْأَحْكَامِ،مَنْ لَا يَسْتَشِيرُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ فَعَزْلُهُ وَاجِبٌ.هَذَا مَا لَا خِلَافَ فيه."[١٢٤٥]

وقال ابنُ خُوَيْزِ مَنْدَاد:" وَقَالَ ابْنُ خُوَيْزِ مَنْدَادُ:وَاجِبٌ عَلَى الْوُلَاةِ مُشَاوَرَةُ الْعُلَمَاءِ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ،وَفِيمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ،وَوُجُوهِ الْجَيْشِ فيما يتعلق بالحرب،وجوه والناس فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَصَالِحِ،وَوُجُوهِ الْكُتَّابِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْعُمَّالِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الْبِلَادِ وَعِمَارَتِهَا.وَكَانَ يُقَالُ:مَا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ [١٢٤٦] .وَكَانَ يُقَالُ:مَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ."[١٢٤٧] .

فإذا كان النبي ﷺ الذي أغناه الله بالوحي عن الرجوع إلى الناس لمعرفة الحق،قد أمره الله تعالى بالمشاورة فغيره من باب أولى.

[١٢٤٣] – الموافقات (٤/ ١١٥) للشاطبي.

[١٢٤٤] – خصائص التشريع الإسلامي فتحي الدريني ص ـــ٤٧٧ .والشورى فريضة إسلامية (ص:١٣٨،بترقيم الشاملة آليا)

[١٢٤٥] – تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٣٤) وتفسير القرطبي (٤/ ٢٤٩)

[١٢٤٦] – عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا خَابَ مَنِ اسْتَخَارَ،وَلَا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ،وَلَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ»المعجم الأوسط (٦/ ٣٦٥)(٦٦٢٧) ضعيف جدا والصواب وقفه

[١٢٤٧] – تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٠)

وعَنِ الْحَسَنِ – فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} –،قَالَ:قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ مَا بِهِ إِلَيْهِمْ مِنْ حَاجَةٍ،وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَنَّ بِهِ مَنْ (بَعْدَهُ) .أخرجه سعيد بن منصور[1248] .

وعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ،قَوْلَهُ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩] قَالَ:أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يُشَاوِرَ أَصْحَابَهُ فِي الْأُمُورِ،وَهُوَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ،لِأَنَّهُ أَطْيَبُ لِأَنْفُسِهِمْ

وعَنْ قَتَادَةَ:مِثْلَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ:وَأَنَّ الْقَوْمَ إِذَا شَاوَرُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَأَرَادُوا بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ،عَزَمَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَرْشَدِهِ.[1249]

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩] «أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُشَاوِرَ أَصْحَابَهُ فِي الْأُمُورِ،وَهُوَ يَأْتِيهِ وَحْيُ السَّمَاءِ؛لِأَنَّهُ أَطْيَبُ لِأَنْفُسِ الْقَوْمِ،وَإِنَّ الْقَوْمَ إِذَا شَاوَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،وَأَرَادُوا بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عَزَمَ لَهُمْ عَلَى أَرْشَدِهِ»أخرجه ابن جرير[1250] .

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩] «أَيْ لِتُرِيَهُمْ أَنَّكَ تَسْمَعُ مِنْهُمْ وَتَسْتَعِينُ بِهِمْ وَإِنْ كُنْتَ عَنْهُمْ غَنِيًّا،تُؤَلِّفُهُمْ بِذَلِكَ عَلَى دِينِهِمْ»[1251] .

وقال ابن جرير " عَنِ الْحَسَنِ:«مَا شَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ،إِلَّا هُدُوا لِأَرْشَدِ أُمُورِهِمْ» وَقَالَ آخَرُونَ:إِنَّمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِمُشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِمُشَاوَرَتِهِمْ فِيهِ،مَعَ إِغْنَائِهِ بِتَقْوِيمِهِ إِيَّاهُ،وَتَدْبِيرِهِ أَسْبَابَهُ عَنْ آرَائِهِمْ،لِيَتَّبِعَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَعْدِهِ،فِيمَا حَزَّ بِهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ،وَيَسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فِي ذَلِكَ،وَيَحْتَذُوا الْمِثَالَ الَّذِي رَأَوْهُ يَفْعَلُهُ فِي حَيَاتِهِ مِنْ مُشَاوَرَتِهِ فِي أُمُورِهِ مَعَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ بِهَا مِنَ اللَّهِ أَصْحَابَهُ وَتُبَّاعَهُ فِي الْأَمْرِ،يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،فَيَتَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ،ثُمَّ يُصْدِرُوا عَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَلَؤُهُمْ؛لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَشَاوَرُوا فِي أُمُورِ دِينِهِمْ مُتَّبِعِينَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ،لَمْ يُخْلِهِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ لُطْفِهِ،وَتَوْفِيقِهِ لِلصَّوَابِ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقَوْلِ فِيهِ.قَالُوا:وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي مَدَحَ بِهِ أَهْلَ الْإِيمَانِ:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨]

[1248] – التفسير من سنن سعيد بن منصور – محققا (٣/ ١٠٩٨)(٥٣٤) صحيح

[1249] – تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل – مخرجا (٣/ ٨٠٢)(٤٤١٨) صحيح

[1250] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ١٨٨) صحيح

[1251] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ١٨٩) وتفسير ابن أبي حاتم،الأصيل – مخرجا (٣/ ٨٠٢)(٤٤٢٠)صحيح

وقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩] قَالَ:«هِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَاوَرُوا فِيمَا لَمْ يَأْتِهِمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ أَثَرٌ» قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِمُشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ،فِيمَا حَزَّ بِهِ مِنْ أَمْرِ عَدُوِّهِ وَمَكَايِدِ حَرْبِهِ،تَأَلُّفًا مِنْهُ بِذَلِكَ مَنْ لَمْ تَكُنْ بَصِيرَتُهُ بِالْإِسْلَامِ الْبَصِيرَةَ الَّتِي يُؤْمَنُ عَلَيْهِ مَعَهَا فِتْنَةُ الشَّيْطَانِ،وَتَعْرِيفًا مِنْهُ أُمَّتَهُ مَا فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَحْزُبُهُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَمَطْلَبَهَا،لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ النَّوَازِلِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهِمْ،فَيَتَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ،كَمَا كَانُوا يَرَوْنَهُ فِي حَيَاتِهِ ﷺ يَفْعَلُهُ،فَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ،فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يُعَرِّفُهُ مَطَالِبَ وُجُوهِ مَا حَزَبَهُ مِنَ الْأُمُورِ بِوَحْيِهِ أَوْ إِلْهَامِهِ إِيَّاهُ صَوَابَ ذَلِكَ.وَأَمَّا أُمَّتُهُ،فَإِنَّهُمْ إِذَا تَشَاوَرُوا مُسْتَنِّينَ بِفِعْلِهِ فِي ذَلِكَ عَلَى تَصَادُقٍ وَتَآخٍ لِلْحَقِّ وَإِرَادَةِ جَمِيعِهِمْ لِلصَّوَابِ،مِنْ غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى هَوًى،وَلَا حَيْدٍ عَنْ هُدًى؛فَاللَّهُ مُسَدِّدُهُمْ وَمُوَفِّقُهُمْ.وَأَمَّا قَوْلُهُ:{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:١٥٩] فَإِنَّهُ يَعْنِي:فَإِذَا صَحَّ عَزْمُكَ بِتَثْبِيتِنَا إِيَّاكَ وَتَسْدِيدِنَا لَكَ فِيمَا نَابَكَ وَحَزَبَكَ مِنْ أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ،فَامْضِ لِمَا أَمَرْنَاكَ بِهِ عَلَى مَا أَمَرْنَاكَ بِهِ،وَافَقَ ذَلِكَ آرَاءَ أَصْحَابِكَ وَمَا أَشَارُوا بِهِ عَلَيْكَ أَوْ خَالَفَهَا،وَتَوَكَّلْ فِيمَا تَأْتِي مِنْ أُمُورِكَ وَتَدَعُ وَتُحَاوِلُ أَوْ تُزَاوِلُ عَلَى رَبِّكَ،فَثِقْ بِهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ،وَارْضَ بِقَضَائِهِ فِي جَمِيعِهِ دُونَ آرَاءِ سَائِرِ خَلْقِهِ وَمَعُونَتِهِمْ،فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ،وَهُمُ الرَّاضُونَ بِقَضَائِهِ،وَالْمُسْتَسْلِمُونَ لِحُكْمِهِ فِيهِمْ،وَافَقَ ذَلِكَ مِنْهُمْ هَوًى أَوْ خَالَفَهُ

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ:{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩] " فَإِذَا عَزَمْتَ:أَيْ عَلَى أَمْرٍ جَاءَكَ مِنِّي،أَوْ أَمْرٍ مِنْ دِينِكَ فِي جِهَادِ عَدُوِّكَ،لَا يُصْلِحُكَ وَلَا يُصْلِحُهُمْ إِلَّا ذَلِكَ،فَامْضِ عَلَى مَا أُمِرْتَ بِهِ عَلَى خِلَافِ مَنْ خَالَفَكَ،وَمُوَافَقَةِ مَنْ وَافَقَكَ،وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ:أَيِ ارْضَ بِهِ مِنَ الْعِبَادِ،إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ "[١٢٥٢]

الشورى المعلمة والشورى الملزمة:

لا ريب أن هناك تسليماً تاماً بأهمية الشورى ومحوريتها في النظام السياسي الإسلامي،لكن تختلف آراء الفقهاء والمفكرين الإسلاميين حول ما يتبع الرأي الشورى من نتائج أي مدى إعلامية تلك النتائج وإلزاميتها للحاكم أو بمعنى آخر:هل يجوز للحاكم أن يستمع إلى آراء

[١٢٥٢] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ١٩٠)

أعضاء مجلس الشورى ثم يرفض ما أجمعوا عليه أو اتفقوا عليه بالأغلبية البسيطة أو العظمى،أم أنه ملزم بقبول ذلك الرأي ولو اختلف مع رأيه الخاص.[١٢٥٣]

والذي أميل إليه وينسجم مع فطرتي،وموازين عقلي،ومحاكمة قلبي،وأعتقد أن الأدلة الشـــرعية تؤيده هو أن الشورى ملزمة للحاكم،لئن ذلك يمنعه من الاستبداد وفي قصة الشورى خـــلال غزوة الخندق و عرضه ﷺ مصالحة غطفان على ثلث المدينة،واعتراض زعماء الأنصـــار عليـــه وقبول الرسول ﷺ الاعتراض تدلنا هذه الحادثة على إلزامية الشورى للحاكم و تضع تقليـــداً دستورياً هاماً،وهو أن الحاكم ولو كان رسولاً معصوماً يجب عليه ألا يستبد بأمر المسلمين ولا أن يقطع برأي في شأن هام ،ولا أن يعقد معاهدة تلزم المسلمين بأي التـــزام دون مشـــورتهم وأخذ أرائهم،فإن فعل كان للأمة حق إلغاء كل ما استبد به من دونهم،و تمزيق كل معاهدة لم يكن لهم فيها رأي.[١٢٥٤]

فهذا رأي واضح قاطع في تقرير إلزامية الشورى وممن يقولون بإلزامية الشورى الفقيه المعاصر:

– الدكتور توفيق الشاوي،فبعد حديث له عن ظروف نزول آية ((آل عمران:١٥٩)) علـــق على قوله تعالى:" وشاورهم في الأمر" قائلا:ومعنى ذلك أن الشورى واجبة و ملزمة،حتى لـــو كان هناك احتمال في أن يكون رأي الأغلبية خاطئاً أو ضاراً،لأن الضرر الناتج عـــن خطـــأ الأغلبية أخف من الضرر الناتج عن ترك الشورى واستبداد الحكام بالرأي دون الالتزام بـــرأي عامة الناس وجمهورهم ،[١٢٥٥] وهو رأي مستمد عن عبر التاريخ الطويل،حيث تـــرك الأمـــر للحكام و لم يبرهنوا على أنهم أرشد دائماً وأهدى من عامة الناس.[١٢٥٦]

– وقال الدكتور رحيل محمد غرابيه الأخذ بمبدأ إلزامية الشورى بناء على الحيثيات التالية:

١ – تعارفت الأمم والشعوب على مدار الأزمان بالميل نحو الأكثرية واعتبار الغالبية في معظم الأحوال دليل صواب ..وتواطأ الناس قديماً وحديثاً،مسلمين وغير مسلمين،على إقـــرار مبـــدأ

[١٢٥٣] – الشورى ومعاودة إخراج الأمة ومحمد وقيع الله ص ٨٧.

[١٢٥٤] – من توجيهات الإسلام، محمود شلتوت ص (٥٢٢/ ٥٢٣)

[١٢٥٥] – قصه الشورى والاستشارة، توفيق الشاوي ص٥٢

[١٢٥٦] – الشورى ومعاودة اخراج الأمة ص٩٩

رضى الأقلية برأي الأغلبية فيمكن الاستئناس بهذه التجربة العالمية على إقرار هـذا المبـدأ،من منطلق توجه العقل الإنساني العام بمجمله في هذا الاتجاه.

٢ - يقتضي العقل والمنطق أن يكون رأي المجموعة أقوم وأصوب وأقرب إلى الحقيقة من رأي الواحد،مهما عظمت وطالت خبرته.

٣ ـــ الإمام أو الخليفة هو فرد من الأمة،لا يتميز عن آحادها بشيء سوى أنه أثقـل حمـلاً وأعظم مسؤولية،كما روي هذا عن الخليفة عمر بن الخطاب،رضي الله عنه،وهذا يقتضـي أن يكون اجتهاده مثل اجتهاد غيره من المجتهدين،وإذا كان هذا يصح إطلاقه على عمر والخلفـاء الراشدين فهو أكثر صحة وأقوم بالنسبة إلى غيرهم.

٤ ـــ إن إلزام الأمير ـــ الحاكم ـــ بإتباع رأي الأغلبية يعتبر ضمانة علـى عـدم الاسـتبداد بالرأي ومنع التسلط الفردي الذي عانت منه الأمة فترات طويلة.

٥ ـــ إن الالتزام برأي الأغلبية أكثر تحقيقاً لمبدأ سلطة الأمة والذي هو محل اتفاق ولا نـزاع فيه،وإن تفرد الأمير برأيه،وعدم نزوله على رأي أهل الشـورى أنمـا هـو نقـض لسـلطة الأمة،واعتداء على حقها الممنوح لها شرعاً.

٦ ـــ إن الالتزام برأي الأغلبية أكثر انسجاماً مع روح الشريعة وأكثر تحقيقاً لمقاصد النصوص التي جاءت تأمر بالشورى وتحض عليها.

٧ ـــ تقتضي ظروف العصر أن لا يبقى الأمر بالشورى عاماً غائماً،بل لا بد من تحويلـه إلى مبدأ دستوري وقاعدة تشريعية قابلة للتطبيق الإجرائـي الواضـح المحـدد الحاسـم عنـد الاختلاف.[١٢٥٧]

ولا مناص من أن نقرر أن الالتزام بالشورى العاصم البشري الممكن من خيانة الأمانة وإتبـاع الهوى وغفوة وازع الإيمان[١٢٥٨] .

الدكتور أكرم ضياء العمري:

[١٢٥٧] – الحقوق والحريات في الشريعة الإسلامية صـ٣٢٨.

[١٢٥٨] – النظام السياسي للدولة الإسلامية محمد الغواص ٢١١.

وبعد أن ذكر الدكتور أكرم ضياء العمري آيتي سورة الشورى ((٣٨)) وآل عمران ((١٥٩)) استدل على وجوب الشورى بقوله:إن الخبر إذ أريد به الإنشاء الطلبي فهو أقوى من الأمر،وأما الآية الثانية فهي بصيغة الأمر،وليس في القرآن قرينة تصرف الأمر عن الوجوب إلى الندب فلم يبق إلا أن نفتش في السنة و لم أجد – حسب جهدي – في أحداث السيرة النبوية نصاً صحيحاً يدل على صرف الأمر بالشورى عن الوجوب إلى الندب[١٢٥٩] .

وقال الدكتور العمري مؤكداً: لم أقف على مايدل على عدم إلزامية الشورى .فهو قد أكد رأيه بأدلة من أصول الفقه عزز بها رأيه في وجوب الشورى وإلزاميتها في الوقت نفسه[١٢٦٠] .

ولاعتبار تقني أكثر منه شرعي ،فإن علم الشورى علم إداري سياسي قائم في جميع مجالات الحياة،بل ويعتبر الجانب السلوكي في عمل الحاكم أو المسؤول عملية تعليمية،وتدريبية للآخرين،بل هو على حد تعبير أحدهم بالمعلم الكبير[١٢٦١] .

وهذا يتم من خلال تحفيز المرؤوسين والمحكومين بمعرفة احتياجاتهم ورفع روحهم المعنوية،أو جعل القيادة لهم بالمبادأة والقدوة الحسنة،واختيار الأساليب الفعالة،أو بالاتصال بهم،وإعطاء التوجيهات والتعليمات لآرائهم،على أن شخصية الحاكم أو الرئيس،تلزمه أن يجمع مابين الكفاءة والكاريزما وهي بلا شك ضرورية في تفعيل العمل المؤسسي عند الرعية[١٢٦٢] .

فالإسلام ينشئ الأمة ويربيها،ويعدها للقيادة الراشدة ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ،ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً في أخطر الشؤون،لكان وجود محمد ﷺ ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى كافيا لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى ولكن ومع وجود محمد رسول الله ﷺ ومعه الوحي الإلهي، لم يلغ هذا الحق[١٢٦٣] .

[١٢٥٩] – الشورى ومعاودة إخراج الأمة ص ١٠٢.

[١٢٦٠] – المصدر بنفسه ص ١٠٢.

[١٢٦١] – أصول الادارة والتنظيم ، عمر الجوهري ص ١٨.

[١٢٦٢] – الشورى د.سامي الصلاحات ص ١٣٨.

[١٢٦٣] – في ظلال القرآن (١\ ٥٠٢) سيد قطب.

هذا النهج الشورى ،سيشكل بلا شك موظفين متخصصين في عملهم ،يساعدون الحاكم أو – الرئيس – في تقديم الاستشارات والرؤى حول المواضيع المتعلقة بتحقيق مصلحة المجتمع أو الدولة،وهذا مايجعلنا نؤكد على أن الحاكم لا يحكم الناس ،بل المهمة قيادة الناس.[١٢٦٤]

إن القول بإلزامية الشورى هو ما ندين الله به ونرى ضرورته وجدواه ،وبدونه لا يمكن تفعيل الشورى على المستوى الدستوري للأمة ،فالدولة الإسلامية دولة مدنية،تؤمن بالمؤسسات،وترى فصل السلطات،وأن تكون مرجعيتها الإسلام فهي ليست دولة أسرار ثيوقراطية مغلقة يديرها رجال الدين ،وإنما دولة لشعب يسعى بذمته أدناه من مواطنيه،ولذا لا بد أن يتاح للكل أن يسهم في أمر النصح والشورى وأن يلتزم ولاة الأمور بحكم الأغلبية كشورى ملزمة،فهذا الأمر من الأهمية بمكان ،ولا بد من أن يستبين تماما قبل الشروع في أي محاولة جدية لتطبيق الشورى في النظام السياسي الإسلامي.[١٢٦٥]

وقال تعالى:{ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) } [الشورى:]

وَكُلُّ مَا حَصَلْتُمْ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَأَثَاث وَرِيَاشٍ وَنَعْمَة..فَهُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ تَافِهٌ تَتَمَتَّعُونَ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ الفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ،وَمَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ مَتَاعِ هَذِهِ الدُّنْيَا،لأَنَّهُ بَاقٍ دَائِمٌ لاَ يَزُولُ،وَلاَ يَنْضُبُ،وَقَدْ وَعَدَ اللهُ تَعَالَى الذِينَ آمَنُوا بِهِ،وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ،وَهُمْ يَتَوكَّلُونَ عَلَى رَبِهِمْ،وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ...بِأَنَّهُ سَيُعِينُهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي أَدَاءِ الوَاجِبَاتِ.

وَيَصِفُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ الذِينَ أَعَدَّ لَهُم الثَّوَابَ والجَنَّةَ فِي الآيَاتِ التَّالِيات.فَهُم الذِينَ يَبْتَعِدُونَ عَنِ ارْتِكَابِ كَبَائِرِ الإِثْمِ كَالقَتْلِ وَالزِّنَى والسَّرِقَةِ،وَيَبْتَعِدُونَ عَنِ الفَوَاحِشِ مِنْ قَوْلٍ أَو فِعْلٍ،وَإِذَا مَا غَضِبُوا كَظَمُوا غَيْظَهُمْ وَصَفَحُوا وَعَفَوا عَمَنْ أَغْضَبَهُمْ.

[١٢٦٤] – الشورى ، د.سامي الصلاحات ص ١٣٨.

[١٢٦٥] – الشورى ومعاودة إخراج الأمة ص ١٠٨.والشورى فريضة إسلامية (ص:١٤٢،بترقيم الشاملة آليا)

وَهَؤُلاَءِ الْمُؤْمِنُونَ،الذِينَ أَعَدَّ لَهُم اللهُ تَعَالَى الثَّوَابَ والجَنَّةَ فِي الآيَاتِ السَّابِقَاتِ،هُمُ الذِينَ أَجَابُوا رَبَّهُم الكَرِيمَ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيهِ مِنَ الإِيْمَانِ بِهِ،وَتَوْحِيدِهِ وَإِطَاعَةِ أَوَامِرِهِ،وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ،وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ،وَأَدَّوهَا حَقَّ أَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا،وَأَتَمُّوهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَخُشُوعِهَا،وَلاَ يُبْرِمُونَ أَمْراً حَتَّى يَتَشَاوَرُوا فِيهِ،وَيُدْلِي كُلٌّ بِرأْيِهِ لِيَتَبَيَّنَ لَهُمْ الهُدَى والصَّوَابُ فِيهِ.وَلِتَتَبَيَّنَ جَمِيعُ جَوانِبِ المَوْضُوعِ،فَلاَ يَنْتَكِسُ أَمْرُ الُمسْلِمِينَ بِاسْتِبْدَادِ فَرْدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ فِي الرَّأْيِ.وَيُنْفِقُونَ مِمَّا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ فِي سَبِيلِ الخَيْرِ والبِرِّ،فِيمَا فِيهِ نَفْعُ الجَمَاعَةِ.

وَهُمُ الذِينَ إِذَا اعْتَدَى عَلَيْهِمْ مُعْتَدٍ بَاغٍ يَنْتَصِرُونَ مِنْهُ،وَيَنْتَصِفُونَ لأَنْفُسِهِمْ،وَلاَ يَسْتَكِينُونَ وَلاَيَخْضَعُونَ،فَهُمْ كِرَامٌ أَعِزَّةٌ أُبَاةٌ،وَلَيْسُوا بِأَذِلاَّءِ وَلاَ ضُعَفَاءِ،وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى رَدِّ الظُّلْمِ والعُدْوَانِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ،وَلَكِنَّهُمْ إِذَا قَدِرُوا صَفَحُوا وَعَفَوْا.[١٢٦٦]

وفى قوله تعالى:«وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ» – إشارة إلى أن من صفات المؤمنين أن يكونوا على كلمة سواء فيما بينهم من شئون..فتكون طريقهم واحدة،ووجهتهم واحدة،ويدهم واحدة،وموقفهم واحدا،فلا يذهب كل واحد منهم مذهبا،ولا تركب كل جماعة طريقا..فهذا من شأنه أن يوهن قوة الجماعة الإسلامية،ويفتّ فى عضدها،ويوقع الشحناء بين جماعاتها وأفرادها..

هذا،و لم تجىء الدعوة إلى وحدة المجتمع الإسلامى،دعوة قاهرة ملزمة،من غير أن يقوم إلى جانبها الوجود الذاتي للإنسان،والهاتف الشعورى المنبعث من ذاته،إلى هذه الوحدة،بل قام مع هذه الدعوة،بل أمام هذه الدعوة،دعوة إلى الشورى بين الجماعة الإسلامية،فى الأمر الذي يعرض لها،ويتطلب وحدة جماعتها..فهذا الأمر يتلقاه المسلمون جميعا،ويتدارسونه فيما بينهم،ويقلّبون الرأى فيه،وفى هذا العرض للأمر،ما يكشف لهم عن وجه الرأى فيه،وما يأخذون أو يدعون منه..وعندئذ يكون رأيهم قائما على وجهة واحدة،هى الوجهة التي رضيها الجميع،ونسجوا رايتها من تلك الخيوط التي اجتمعت من آرائهم،فكان لكل إنسان مكانه من هذه الراية التي يسير تحت ظلها..وبهذا تكون مسيرة المسلمين تحت هذه الراية،مسيرة ينتظمها

[١٢٦٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٨٧،بترقيم الشاملة آليا)

شعور واحد،ويحكمها رأى واحد،وتحتويها عزيمة واحدة،فيكون منهم بهـذا نسـيج واحـد متلاحم،أشبه بنسيج هذه الراية التي تشكلت من مجتمع آرائهم.

وهذا هو بعض السر فى أن جاء النظم القرآني:«وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ» بدلا من أن يجىء مثلا هكذا:وكانوا أمة واحدة،أو مجتمعا واحدا..ذلك أنه لن تكون الأمة أمة واحـدة،ولن يكـون المجتمع مجتمعا واحدا،إلا إذا توحدت المشاعر،ولن تتوحـد المشـاعر،إلا إذا تلاقـت الآراء وتوحدت،ولن تتلاقى الآراء وتتوحد،إلا مع عرضها،وتنخّلها،وذلك لا يكون إلا بالتشـاور بينهم،وعرض رأى كل ذى رأى،فى صراحة مطلقة،وحرية كاملة..[١٢٦٧]

والمشاورة أمر مطلوب في كل شيء عام أو خاص ما لم يكن سرا لأنها تحقق نفعـا ملحوظـا للتوصل إلى أفضل الآراء وأصوبها،وخصوصا في الحروب والمصالحات وقضايا الأمة العامة،فإنه ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم وكان رسول الله ﷺ أكثر النـاس مشـاورة،قال الله له:وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران ٣/ ١٥٩] إما استعانة بالآراء،وإما مداراة للأولياء،ومـدح الله تعالى الفضلاء بقوله:وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ [الشورى ٤٢/ ٣٨] .

والمشاورة نهج قديم،وبخاصة في الحرب،فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشـمس قبـل إسلامها:قالَتْ:يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ قالت ذلـك لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم،وحزمهم في أمرهم،ومدى طاعتهم لها.وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده،وربما كان في استبدادها مكمن الخطر والضعف والسقوط في النهاية.

وقد نجحت في هذه المشاورة،فسلّموا الأمر إلى نظرها،مع ما أظهروا لها من القـوة والبـأس والشدة:وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ماذا تَأْمُرِينَ ثم وجّهتهم إلى مراعاة قوة الملوك وشدة بأسهم،حماية لهم وحفظا لبلادهم،وأن من عادتهم الإفساد والتخريب،والتدمير والإهلاك،والإذلال والإخراج من البلاد،وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.[١٢٦٨]

[١٢٦٧] - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٦٥) وتفسير المراغي (٢٥/ ٥٢)

[١٢٦٨] - التفسير المنير للزحيلي (١٩/ ٢٩٧)

وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أي يتشاورون فيما بينهم في الأمور الخاصة والعامة،ولا ينفردون بـــرأي في كل أمر من القضايا العامّة،كتولي الحكم (أو الخلافة) وشؤون تدبير الدولـــة والتخطـــيط لمصالحها،وإعلان الحرب،وتولية الولاة والحكام والقضاة وغيرهم.وكان النبي ﷺ أكثر النـــاس مشاورة لأصحابه،وسلك الصحابة طريقه ومنهجه في عظائم الأمور كتولية الخلافة وحـــروب الردة واستنباط الأحكام الشرعية للقضايا والحوادث المستجدة،وشاور عمر رضـــي الله عنـــه الهرمزان حين وفد عليه مسلما،ولما طعن عمر جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر،وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم،فاتفقوا على تقديم عثمان رضي الله عنه للخلافة الثالثة.

وإذا كانت الآية هنا تقرر وصفا ثابتا للمؤمنين،فقـــد أمـــر الله تعـــالى بالشـــورى في آيـــة أخرى،فقال:وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران ٣/ ١٥٩] وقال الحسن البصري رحمه الله:«مـــا تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم» .وقال ابن العربي :الشـــورى ألفـــة للجماعة،ومســـبار للعقول،وسبب إلى الصواب،وما تشاور قوم إلا هدوا،وقد قال حكيم:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ...برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشّورى عليك غضاضة ...فريش الخوافي قوة للقوادم[١٢٦٩]

{وَأَمْرُهُمْ} الديني والدنيوي {شُورَى بَيْنَهُمْ} أي:لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم،وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم وكمـــال عقولهم،أهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيهـــا،اجتمعوا لهـــا وتشاوروا وبحثوا فيها،حتى إذا تبينت لهم المصلحة،انتهزوها وبادروها،وذلك كالرأي في الغزو والجهاد،وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء،أو غيره،وكالبحث في المسائل الدينية عموما،فإها من الأمور المشتركة،والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله،وهو داخل في هذه الآية.[١٢٧٠]

وقال الطاهر بن عاشور :"وَظَاهِرُ الْأَمْرِ أَنَّ الْمُرَادَ الْمُشَاوَرَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يُقْصَدُ مِنْهَا الِاسْتِعَانَةُ بِرَأْيِ الْمُسْتَشَارِينَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَقِبَهُ:فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فضمير الْجَمِيع فِي قَوْلِهِ:

[١٢٦٩] - التفسير المنير للزحيلي (٢٥/ ٨١)

[١٢٧٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٦٠)

وَشاوِرْهُمْ عَائِدٌ عَلَى الْمُسْلمينَ خاصَّةً:أَيْ شَاوِرِ الَّذينَ أَسْلَمُوا منْ بَيْنِ مَنْ لِنْتَ لَهُـــمْ،أَيْ لَـــا يَصُدُّكَ خَطَلُ رَأْيِهِمْ فِيمَا بَدَا مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُد عَنْ أَنْ تَسْتَعِينَ بِرَأْيِهِمْ فِي مَوَاقِعَ أُخْرَى،فَإِنَّمَا كَانَ مَا حَصَلَ فلتة مِنْهُم،وَعشرَة قَدْ أَقَلْتُهُمْ مِنْهَا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ اسْتِشَارَةُ عَبْدِ اللَّه بْنِ أُبَـــيٍّ وَأَصْـــحَابِه،فَالْمُرَادُ الْأَخْـــذُ بِظَـــاهِرِ أَحْـــوَالِهِمْ وَتَأْلِيفِهِمْ،لَعَلَّهُمْ أَنْ يُخْلِصُوا الْإِسْلَامَ أَوْ لَا يَزِيدُوا نِفَاقًا،وَقَطْعًا لِأَعْذَارِهِمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الشُّورَى مَأْمُورٌ بِهَا الرَّسُول ﷺ فِيمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِ (الْأَمْرِ) وَهُوَ مُهِمَّاتُ الْأُمَّة وَمَصَالِحُهَا فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِه،وَذَلِكَ فِي غَيْرِ أَمْرِ التّشريع لأنّ أَمر التَّشْرِيعِ إِنْ كَانَ فِيـــهِ وَحْيٌ فَلَا مَحِيدَ عَنْهُ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ وَحْيٌ وَقُلْنَا بِجَوَازِ الِاجْتِهَادِ لِلنَّبِيءِ ﷺ فِي التَّشْرِيعِ فَلَا تَدْخُلُ فِيهِ الشُّورَى لِأَنَّ شَأْنَ الِاجْتِهَادِ أَنْ يَسْتَنِدَ إِلَى الْأَدِلَّةِ لَا لِلْآرَاءِ،وَالْمُجْتَهِدُ لَا يَسْتَشِيرُ غَيْرَهُ إِلَّا عِنْدَ الْقَضَاءِ بِاجْتِهَادِه.كَمَا فَعَلَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ.

فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُشَاوَرَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا هُنَا هِيَ الْمُشَاوِرَة فِي شؤون الْأُمَّة وَمَصَالِحِهَا،وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهَا هُنَا وَمَدَحَهَا فِي ذِكْرِ الْأَنْصَارِ فِي قَوْلِه تَعَالَى:وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ [الشورى:٣٨]

وَاشْتَرَطَهَا فِي أَمْرِ الْعَائِلَة فَقَالَ:فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِمـــا [الْبَقَرَة:٢٣٣] .فَشَرَعَ بِهَاتِه الْآيَاتِ الْمُشَاوَرَةَ فِي مَرَاتِبِ الْمَصَالِحِ كُلِّهَا:وَهِيَ مَصَالِحُ الْعَائِلَةِ وَمَصَالِحِ الْقَبِيلَة أَوِ الْبَلَد،وَمَصَالِحِ الْأُمَّة.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَدْلُولِ قَوْلِه:وَشاوِرْهُمْ هَلْ هُوَ لِلْوُجُوبِ أَوْ لِلنَّـــدْبِ،وَهَلْ هُـــوَ خَـــاصٌّ بِالرَّسُولِ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السّلام-،أَوْ عَامٌّ لَهُ وَلِوُلَاةِ أُمُورِ الْأُمَّة كُلِّهِمْ.

فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى الْوُجُوبِ وَالْعُمُومِ،قَالَ ابْـــنُ خُـــوَيْزِ مَنْـــدَادُ:وَاجِـــبٌ عَلَـــى الْوُلَـــاةِ الْمُشَاوَرَةُ،فَيُشَاوِرُونَ الْعُلَمَاءَ فِيمَا يُشْكِلُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ،وَيُشَاوِرُونَ وُجُوهَ الْجَيْشِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَرْبِ،وَيُشَاوِرُونَ وُجُوهَ النَّاسِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِهِمْ وَيُشَاوِرُونَ وُجُوهَ الْكُتَّابِ وَالْعُمَّـــالِ وَالْوُزَرَاءِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الْبِلَادِ وَعِمَارَتِهَا.وَأَشَارَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ إِلَى وُجُوبِهَـــا بِأَنَّهَـــا سَـــبَبٌ لِلصَّوَابِ فَقَالَ:وَالشُّورَى مِسْبَارُ الْعَقْلِ وَسَبَبُ الصَّوَابِ.يُشِيرُ إِلَى أَنَّنَـــا مَـــأْمُورُونَ بِتَحَـــرِّي الصَّوَابِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّة،وَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الْوَاجِبُ فَهُوَ وَاجِبٌ.وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ:الشُّورَى مِـــنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ وَعَزَائِمِ الْأَحْكَامِ،وَمَنْ لَا يَسْتَشِيرُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ فَعَزْلُهُ وَاجِبٌ،وَهَذَا مَـــا لَـــا

اخْتِلَاف فِيه.وَاعْتِرَاض عَلَيْه ابْنُ عَرَفَةَ قَوْلَهُ:فَعَزْلُهُ وَاجِبٌ وَلَمْ يَعْتَرِضْ كَوْنَهَا وَاجِبَةً،إِلَّا أَنَّ ابْـــنَ عَطِيَّةَ ذَكَرَ ذَلِكَ جَازِمًا بِه وَابْنُ عَرَفَةَ اعْتَرَضَهُ بِالْقِيَاسِ عَلَى قَوْلِ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ بِعَدَمِ عَزْلِ الْأَمِيرِ إِذَا ظَهَرَ فِسْقُهُ،يَعْنِي وَلَا يَزِيدُ تَرْكُ الشُّورَى عَلَى كَوْنِه تَرْكُ وَاجِبٍ فَهُوَ فِسْقٌ.وَقُلْتُ:مَنْ حَفِظَ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَحْفَظْ،وَإِنَّ الْقِيَاسَ فِيه فَارِقٌ مُعْتَبَرٌ فَإِنَّ الْفِسْقَ مَضَرَّتُهُ قَاصِرَةٌ عَلَى الـــنَّفْسِ وَتَرْكُ التَّشَاوُرِ تَعْرِيضٌ بِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ لِلْخَطَرِ وَالْفَوَات،وَمَحْمَلُ الْـــأَمْرِ عِنْـــدَ الْمَالِكِيَّـــةِ لِلْوُجُوبِ وَالْأَصْلُ عِنْدَهُمْ عَدَمُ الْخُصُوصِيَّةِ فِي التَّشْرِيعِ إِلَّا لِدَلِيلٍ.

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ أَنّ هَذَا الْأَمر لِلاسْتِحْبَاب،وَلِتَقْتَدِيَ بِه الْأُمَّةُ،وَهُوَ عَامٌّ لِلرَّسُـــولِ وَغَيْرِه،تَطْيِيبًـــا لِنُفُوسِ أَصْحَابِه وَرَفْعًا لِأَقْدَارِهِمْ،وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ قَتَادَةَ،وَالرَّبِيعِ،وَابْنِ إِسْحَاقَ.وَرَدَّ هَذَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الرَّازِيُّ الْحَنَفِيُّ الْمَشْهُورُ بِالْجَصَّاصِ بِقَوْلِه:لَوْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْـــدَهُمْ أَنَّهُـــمْ إِذَا اسْتَفْرَغُوا جُهْدَهُمْ فِي اسْتِنْبَاط الصَّوَاب عَمَّا سُئِلُوا عَنْهُ،ثُمَّ لَمْ يَكُنْ مَعْمُولًا بِه،لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَطْيِيبٌ لِنُفُوسِهِمْ وَلَا رَفْعٌ لِأَقْدَارِهِمْ،بَلْ فِيه إِيحَاشُهُمْ فَالْمُشَاوَرَةُ لَمْ تُفِدْ شَـــيْئًا فَهَـــذَا تَأْوِيـــلٌ سَاقِطٌ.وَقَالَ النَّوَوِيُّ،فِي صَدْرِ كِتَاب الصَّلَاة مِنْ «شَرْحِ مُسْلِمٍ» :الصَّحِيحُ عِنْـــدَهُمْ وُجُوبُهَـــا وَهُوَ الْمُخْتَارُ.وَقَالَ الْفَخْرُ:ظَاهِرُ الْأَمْرِ أَنَّهُ لِلْوُجُوب.

وَلَمْ يَنْسِبِ الْعُلَمَاءُ لِلْحَنَفِيَّة قَوْلًا فِي هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا أَنَّ الْجَصَّاصَ قَالَ فِي كِتَابِه أَحْكَام الْقُـــرْآن عِنْدَ قَوْلِه تَعَالَى:وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ:هَذَا يَدُلُّ على جلالة وَقع الْمَشُورَة لِذِكْرِهَا مَعَ الْإِيمَـــانِ وَإِقَامَة الصَّلَاة وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّنَا مَأْمُورُونَ بِهَا.وَمَجْمُوعُ كَلَامَيِ الْجَصَّاصِ يَدُلُّ أَنَّ مَذْهَبَ أَبِـــي حَنِيفَةَ وُجُوبُهَا.

وَمِنَ السَّلَف مَنْ ذَهَبَ إِلَى اخْتِصَاصِ الْوُجُوب بِالنَّبِيء ﷺ قَالَهُ الْحسن وسُفْيَان،قَالَا:وَإِنَّمَا أُمِرَ بِهَا لِيَقْتَدِيَ بِه غَيْرُهُ وَتَشِيعَ فِي أُمَّتِه وَذَلِكَ فِيمَا لَا وَحْيَ فِيه.وَقَد اسْتَشَارَ النَّبِيء ﷺ أَصْحَابَهُ فِي الْخُرُوجِ لِبَدْرٍ،وَفِي الْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ،وَفِي شَأْنِ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ،وَاسْتَشَارَ عُمُومَ الْجَيْشِ فِـــي رَدِّ سَبْيِ هَوَازِنَ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا لَا تَكُونُ فِي الْأَحْكَام الشَّرْعِيَّة لِأَنَّ الْأَحْكَامَ إِنْ كَانَتْ بِوَحْيٍ فَظَاهِرٌ،وَإِنْ كَانَـــت اجْتِهَادِيَّةً،بِنَاءً عَلَى جَوَازِ الاجْتِهَاد لِلنَّبِيء ﷺ فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّة،فَالاجْتِهَادُ إِنَّمَا يَسْتَنِدُ لِلْأَدِلَّة لَا لِلْآرَاءِ وَإِذَا كَانَ الْمُجْتَهِدُ مِنْ أُمَّتِه لَا يَسْتَشِيرُ فِي اجْتِهَادِه،فَكَيْفَ تَجِبُ الِاسْتِشَارَةُ على الـــنَّبِيء

ﷺ مَعَ أَنَّهُ لَو اجْتَهَدَ وَقُلْنَا بجوَازِ الْخطَإِ عَلَيْه فَإِنَّهُ لَا يُقَرُّ عَلَى خَطَإٍ باتِّفَاق الْعُلَمَاءِ.وَلَمْ يَزَلْ منْ سُنَّة خُلَفَاءِ الْعَدْلِ اسْتشَارَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلمينَ،قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي كتَاب الاعْتصَام منْ «صَحيحه» :«وَكَانَت الْأَئمَّةُ بعد النَّبِيء ﷺ يَسْتَشيرُونَ الْأُمَنَاءَ منْ أَهْلِ الْعلْمِ،وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَة عُمَرَ:كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا،وَكَانَ وَقَّافًا عنْدَ كتَاب اللَّه» .

وَأَخْرَجَ الْخَطيبُ عَنْ عَليٍّ قَالَ:«قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه الْأَمْرُ يَنْزلُ بَعْدَكَ لَمْ يترل فيه قُرْآن وَلَـمْ يُسْمَعْ منْكَ فِيهِ شَيْءٌ- قَالَ:اجْمَعُوا لَهُ الْعَابدَ منْ أُمَّتِي وَاجْعَلُوهُ بَيْنَكُمْ شُورَى وَلَا تَقْضُوهُ برَأْيٍ وَاحد»

وَاسْتَشَارَ أَبُو بَكْرٍ فِي قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّة،وَتَشَاوَرَ الصَّحَابَةُ فِي أَمْرِ الْخَليفَة بَعْـدَ وَفَـاة الـنَّبِيء ﷺ،وَجَعَلَ عُمَرُ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الْأَمْرَ شُورَى بَعْدَهُ فِي ستَّة عَيَّنَهُمْ،وَجَعَلَ مُرَاقَبَةَ الشُّـورَى لخَمْسينَ منَ الْأَنْصَارِ،وَكَانَ عُمَرُ يَكْتُبُ لعُمَّاله يَأْمُرُهُمْ بالتَّشَاوُرِ،وَيَتَمَثَّلُ لَهُم فِي كِتَابه بقَـوْلِ الشَّاعرِ (لَمْ أَقِفْ عَلَى اسْمه) :

خَليلَيَّ لَيْسَ الرَّأْيُ فِي صَدْرِ وَاحد ...أَشيرَا عَلَيَّ بالَّذي تَرَيَان

هَذَا وَالشُّورَى ممّا جبل لله عَلَيْه الْإِنْسَانَ فِي فطْرَته السَّليمَة أَيْ فَطَرَهُ عَلَـى مَحَبَّـة الصَّـلَاحِ وَتَطَلُّبِ النَّجَاحِ فِي الْمَسَاعِي،وَلذَلكَ قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَ أَصْلِ الْبَشَرِ بالتَّشَاوُرِ فِي شَـأْنه إِذْ قَالَ للْمَلَائكَة:إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَليفَةً [الْبَقَرَة:٣٠]،إِذْ قَدْ غَنيَ اللَّهُ عَنْ إِعَانَة الْمَخْلُوقَات فِي الرَّأْيِ وَلَكنَّهُ عَرَضَ عَلَى الْمَلَائكَة مُرَادَهُ ليَكُونَ التَّشَاوُرُ سُنَّةً فِي الْبَشَرِ ضَرُورَةَ أَنَّهُ مُقْتَـرِنٌ بتَكْوِينِه،فَإِنَّ مُقَارَنَةَ الشَّيْءِ للشَّيْءِ فِي أَصْلِ التَّكْوِينِ يُوجبُ إِلْفَهُ وَتَعَارُفَهُ،وَلَمَّا كَانَت الشُّورَى مَعْنًى منَ الْمَعَانِي لَا ذَاتَ لَهَا فِي الْوُجُود جَعَلَ اللَّهُ إِلْفَهَا للْبَشَرِ بطَرِيقَة الْمُقَارَنَة فِـي وَقْـت التَّكْوِين.وَلَمْ تَزَلِ الشُّورَى فِي أَطْوَارِ التَّارِيخِ رَائِجَةً فِي الْبَشَرِ فَقَد اسْتَشَارَ فِرْعَوْنُ فِي شَـأْن مُوسَى- عَلَيْه السَّلَامُ- فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُ بقَوْله:فَماذا تَأْمُرُونَ [الْأَعْرَاف:١١٠] .وَاسْتَشَارَتْ بلْقيسُ فِي شَأْن سُلَيْمَانَ- عَلَيْه السَّلَامُ- فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهَا بقَوْله:قالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُـونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قاطعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُون وَإِنَّمَا يُلْهِي النَّاسَ عَنْهَا حُبُّ الاسْتبْدَاد،وَكَرَاهيَةُ سَمَاعِ مَا يُخَالفُ الْهَوَى،وَذَلكَ منَ انْحرَاف الطَّبَائعِ وَلَيْسَ منْ أَصْلِ الْفطْرَة،وَلِـذَلكَ يُهْـرَعُ الْمُسْتَبدُّ إِلَى الشُّورَى عنْدَ الْمَضَائق.قَالَ ابْنُ عَبْد الْبَرِّ فِي بَهْجَة الْمَجَالسِ:الشُّورَى مَحْمُـودَةٌ

عِنْدَ عَامَّة الْعُلَمَاءِ وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَضِيَ الاسْتِبْدَادَ إِلَّا رَجُلٌ مَفْتُونٌ مُخَادِعٌ لِمَنْ يَطْلُبُ عِنْدَهُ فَائِدَةً،أَوْ رَجُلٌ فَاتِكٌ يُحَاوِلُ حِينَ الْغَفْلَةِ،وَكِلَا الرَّجُلَيْنِ فَاسِقٌ.وَمَثَلُ أَوَّلِهِمَا قَوْلُ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ:

وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً ...إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدْ

وَمَثَلُ ثَانِيهِمَا قَوْلُ سَعْد بْنِ نَاشِبٍ:

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ...وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ...وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الشُّورَى قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ:

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ ...بِحَزْمِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَازِمِ

وَلَا تَحْسَبِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً ...مَكَانُ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ

وَهِيَ أَبْيَاتٌ كَثِيرَةٌ مُثْبَتَةٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ.

وَقَوْلُهُ:فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الْعَزْمُ هُوَ تَصْمِيمُ الرَّأْيِ عَلَى الْفِعْلِ وَحُذِفَ مُتَعَلِّقُ (عَزَمْتَ) لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَيْهِ التَّفْرِيعُ عَنْ قَوْلِهِ:وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ،فَالتَّقْدِيرُ:فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى الْأَمْرِ.وَقَدْ ظَهَرَ مِنَ التَّفْرِيعِ أَنَّ الْمُرَادَ:فَإِذَا عَزَمْتَ بَعْدَ الشُّورَى أَيْ تَبَيَّنَ لَكَ وَجْهُ السَّدَادِ فِيمَا يَجِبُ أَنْ تَسْلُكَهُ فَعَزَمْتَ عَلَى تَنْفِيذِهِ سَوَاءٌ كَانَ عَلَى وَفْقِ بَعْضِ آرَاءِ أَهْلِ الشُّورَى أَمْ كَانَ رَأْيًا آخَرَ لَاحَ لِلرَّسُولِ سَدَادُهُ فَقَدْ يَخْرُجُ مِنْ آرَاءِ أَهْلِ الشُّورَى رَأْيٌ،وَفِي الْمَثَلِ:«مَا بَيْنَ الرَّأْيَيْنِ رَأْيٌ» .

وَقَوْلُهُ:فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ التَّوَكُّلُ حَقِيقَتُهُ الاعْتِمَادُ،وَهُوَ هُنَا مَجَازٌ فِي الشُّرُوعِ فِي الْفِعْلِ مَعَ رَجَاءِ السَّدَادِ فِيهِ مِنَ اللَّهِ،وَهُوَ شَأْنُ أَهْلِ الْإِيمَانِ،فَالتَّوَكُّلُ انْفِعَالٌ قَلْبِيٌّ عَقْلِيٌّ يَتَوَجَّهُ بِهِ الْفَاعِلُ إِلَى اللَّهِ رَاجِيًا الْإِعَانَةَ وَمُسْتَعِيذًا مِنَ الْخَيْبَةِ وَالْعَوَائِقِ،وَرُبَّمَا رَافَقَهُ قَوْلٌ لِسَانِيٌّ وَهُوَ الدُّعَاءُ بِذَلِكَ.وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ:فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَابِ إِذَا،وَفَرْعٌ عَنْهُ،وَالتَّقْدِيرُ:فَإِذَا عَزَمْتَ فَبَادِرْ وَلَا تَتَأَخَّرْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ،لِأَنَّ لِلتَّأَخُّرِ آفَاتٍ،وَالتَّرَدُّدُ يُضَيِّعُ الْأَوْقَاتَ،وَلَوْ كَانَ التَّوَكُّلُ هُوَ جَوَابُ إِذَا لَمَا كَانَ لِلشُّورَى فَائِدَةٌ لِأَنَّ الشُّورَى كَمَا عَلِمْتَ لِقَصْدِ اسْتِظْهَارِ أَنْفَعِ الْوَسَائِلِ لِحُصُولِ الْفِعْلِ الْمَرْغُوبِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ وَأَقْرَبِهِ،فَإِنَّ الْقَصْدَ مِنْهَا الْعَمَلُ بِمَا يَتَّضِحُ مِنْهَا،وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ حُصُولَ التَّوَكُّلِ مِنْ أَوَّلِ خُطُورِ الْخَاطِرِ،لَمَا كَانَ لِلْأَمْرِ بِالشُّورَى مِنْ فَائِدَةٍ.وَهَذِهِ الْآيَةُ

أَوْضَحُ آيَةٍ فِي الْإِرْشَادِ إِلَى مَعْنَى التَّوَكُّلِ الَّذِي حَرَّفَ الْقَاصِرُونَ وَمَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مَعْنَاهُ،فَأَفْسَدُوا هَذَا الدِّينَ مِنْ مَبْنَاهُ.

وَقَوْلُهُ:إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَامَةُ صِدْقِ الْإِيمَانِ،وَفِيهِ مُلَاحَظَةُ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ،وَاعْتِقَادُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ،وَعَدَمُ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ وَهَذَا،أَدَبٌ عَظِيمٌ مَعَ الْخَالِقِ يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ فَلِذَلِكَ أحبّه الله.[1271]

فقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين ومدحهم بالأعمال والأقوال والأخلاق التي نالوا بها الأجر الجزيل والنعيم المقيم عند الله،فوصفهم بالإيمان والتوكل على الله في سائر أمورهم فلا يعتمدون على غيره ولا يبتغون النصر والعزة والرزق من سواه،ووصفهم باجتناب كبائر الإثم والفواحش ومدحهم بحسن الخلق والحلم عند الغضب والصفح عن المسيء،ووصفهم بالاستجابة لأمر الله والانقياد لحكمه،والتسليم لشرعه،ووصفهم بإقامة الصلاة من فرائض ونوافل،ومدحهم بأن أمورهم الدينية والدنيوية التي للشورى فيها مجال يتشاورون فيها وينفذونها عن مشورة بينهم،ولا يستبد أحد منهم بالأمر من غير مشاورة،قال الزجاج رحمه الله " المعنى أنهم لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه ".

ووصفهم بالإنفاق مما رزقهم الله ويدخل في هذا الزكاة والنفقات الواجبة في سبيل الله وعلى الأقارب وغيرهم والنفقات المستحبة،ووصفهم بالقوة والانتصار ممن ظلمهم فلا يقبلون أن يظلموا ويستذلوا،فإذا بغي عليهم انتصروا بحق ممن بغى عليهم وقوموه وعاقبوه بما يستحق من العقوبة،قال ابن كثير رحمه الله " أَيْ:فِيهِمْ قُوَّةُ الِانْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ،لَيْسُوا بِعَاجِزِينَ وَلَا أَذِلَّةٍ،بَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى الِانْتِقَامِ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ،وَإِنْ كَانُوا مع هذا إذا قدروا وعفوا"[1272]،وعَن إِبْرَاهِيم فِي قَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} [الشورى:٣٩]،قَالَ:كَانُوا يكْرهُونَ لِلْمُؤْمنِينَ أَن يستذلوا،فيجترئ عَلَيْهِم الْفُسَّاق.[1273]

[1271] - التحرير والتنوير (٤/ ١٤٧)

[1272] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢١١)

[1273] - شرح السنة للبغوي (١٣/ ١٦٥)

وعَنِ السُّدِّيِّ،فِي قَوْلِهِ:{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} [الشورى:٣٩] قَالَ:«يَنْتَصِرُونَ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَدُوا» وَهَذَا الْقَوْلُ الثَّانِي أَوْلَى فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ؛لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْصُصْ مِنْ ذَلِكَ مَعْنًى دُونَ مَعْنًى،بَلْ حَمِدَ كُلَّ مُنْتَصِرٍ بِحَقٍّ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:وَمَا فِي الِانْتِصَارِ مِنَ الْمَدْحِ؟ قِيلَ:إِنَّ فِي إِقَامَةِ الظَّالِمِ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَعُقُوبَتِهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ تَقْوِيمًا لَهُ،وَفِي ذَلِكَ أَعْظَمُ الْمَدْحِ "[١٢٧٤] وهذه الصفات والأخلاق التي مدحهم الله بها تتضمن جميع صفات الخير والصلاح،فمن قام بها فقد قام بسائر شعائر الإسلام،فإن هذه الأوصاف كالقواعد والأصول العامة التي تتضمن جميع الأعمال الصالحة والسياسات الشرعية.

وقد ذكر الله تعالى الشورى بين ركني الصلاة والزكاة في قوله تبارك وتعالى:{وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [الشورى:٣٨]فكما أن المؤمنين يحافظون على الصلاة ويؤدون الزكاة فكذلك من وصفهم وخلقهم الدائم الذي لا ينفكون عنه أنهم يتشاورون في أمورهم.

كما أن في الشورى تتحقق المصالح الشرعية ويقام العدل،وتدفع المفاسد والمظالم والاستبداد بالحكم،فإذا كانت هذه الواجبات من تحقيق المصالح،ودفع المفاسد والمظالم،لا تتحقق بتمامها إلا بشورى،فهذا يقتضي أن تكون الشورى واجبة فإن "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

الفوائد والمصالح المترتبة على الشورى

أولا:أن الشورى عبادة لله تعالى والقائمون بها مطيعون لله تعالى ومستجيبون لأمره بالعمل بها.

ثانيا:أن الشورى يحصل بها سداد رأي والتوصل إلى الحق والصواب،والبعد عن الخطأ فهي من الحزم وهو كما قال ابن عطية:"جودة النظر في الأمر وتنقيحه،والحذر من الخطأ فيه"[١٢٧٥]،ثم إذا اختار الإمام ما ترجح عنده من الآراء بعد المشورة فعليه أن يعزم على فعله متوكلا على الله

[١٢٧٤] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٠/ ٥٢٤)

[١٢٧٥] - تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٢)

تعالى،كما قال الله تعالى:{ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:١٥٩] والعزم هو أن يقصد إمضاء الأمر،وقال الإمام ابن جرير رحمه الله عن بعض أهل العلم " فَيَتَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ،ثُمَّ يُصْدِرُوا عَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَلَؤُهُمْ؛لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَشَاوَرُوا فِي أُمُورِ دِينِهِمْ مُتَّبِعِينَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ،لَمْ يُخْلِهِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ لُطْفِهِ،وَتَوْفِيقِهِ لِلصَّوَابِ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقَوْلِ فِيهِ.قَالُوا:وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي مَدَحَ بِهِ أَهْلَ الْإِيمَانِ:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨]"[١٢٧٦]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله " وَلِهَذَا كَانَ مِنْ سَدَادِ الرَّأْيِ وَإِصَابَتِهِ أَنْ يَكُونَ شُورَى بَيْنَ أَهْلِهِ،وَلَا يَنْفَرِدُ بِهِ وَاحِدٌ،وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَوْنِ أَمْرِهِمْ شُورَى بَيْنَهُمْ،وَكَانَتْ النَّازِلَةُ إذَا نَزَلَتْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَيْسَ عِنْدَهُ فِيهَا نَصٌّ عَنْ اللَّهِ وَلَا عَنْ رَسُولِهِ جَمَعَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ثُمَّ جَعَلَهَا شُورَى بَيْنَهُمْ."[١٢٧٧]

وأخرج ابن أبي حاتم عَنِ الْحَسَنِ،فِي قَوْلِهِ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩] قَالَ:وَاللَّهِ مَا تُشَاوَرَ قَطُّ إِلَّا عَزَمَ اللَّهُ لَهُمْ بِالرُّشْدِ وَالَّذِي يَنْفَعُ "[١٢٧٨]

وإذا شاور الإمام واجتهد في الواقعة فأخطأ في اجتهاده،فهو خطأ غير متعمد لا يلام عليه الإمام،ولا الذين أشاروا عليه به إذا اتقوا الله ما استطاعوا،قال القرطبي رحمه الله:" قَالَ الْعُلَمَاءُ:وَصِفَةُ المستشار إن كان في الأحكام أن يَكُونَ عَالِمًا دَيِّنًا،وَقَلَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي عَاقِلٍ.قَالَ الْحَسَنُ:مَا كَمُلَ دِينُ امْرِئٍ مَا لَمْ يَكْمُلْ عَقْلُهُ.فَإِذَا اسْتُشِيرَ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَاجْتَهَدَ فِي الصَّلَاحِ وَبَذَلَ جَهْدَهُ فَوَقَعَتِ الْإِشَارَةُ خَطَأً فَلَا غَرَامَةَ عَلَيْهِ،قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ."[١٢٧٩]

ثالثا:أن في الشورى يحقق العدل ويمنع الاستبداد والتفرد بالرأي وعسف الرعية وظلمها.

رابعا:أن في الشورى يحاسب الأمراء على أفعالهم،ويقومون عند أخطائهم،ويحاكمون إلى شرع الله تعالى عند التنازع والاختلاف معهم،وقد يعزلون إذا اقتضت المصلحة الشرعية عزلهم.

[١٢٧٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ١٩٠)

[١٢٧٧] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٦٦)

[١٢٧٨] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ٨٠١)(٤٤١٤) صحيح

[١٢٧٩] - تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٠)

خامسا:أن في الشورى تطييبًا للنفوس وتواضعًا للرعية وإشعارهم بالتكريم والاحترام،وزيادة في تآلف القلوب والتواد،وأما الاستبداد بالرأي فإنه يولد الضغائن والأحقاد والتفرق،قال الإمام ابن كثير رحمه الله " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي الْأَمْرِ إِذَا حَدَث،تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ؛لِيَكُونُوا فِيمَا يَفْعَلُونَهُ أَنْشَطَ لَهُمْ "[1280].

وأخرج ابن جرير عَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩] «أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُشَاوِرَ أَصْحَابَهُ فِي الْأُمُورِ،وَهُوَ يَأْتِيهِ وَحْيِ السَّمَاءِ؛لِأَنَّهُ أَطْيَبُ لِأَنْفُسِ الْقَوْمِ،وَإِنَّ الْقَوْمَ إِذَا شَاوَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،وَأَرَادُوا بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عَزَمَ لَهُمْ عَلَى أَرْشَدِه»[1281].

سادسا:أن الاستبداد يضعف طاعة المأمورين لأميرهم،ويضعف أعمالهم في بناء الدولة،فلا يعملون بجد واجتهاد ونشاط في تقويتها ونصرتها،وأما إذا كان الأمر شورى بينهم وشعروا من أميرهم الحرص على العمل بالعدل والحق،والنصح لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين،وأنه لا يستبد برأيه ولا يتكبر عليهم،فسوف يجتهدون في طاعة أميرهم بالمعروف ويبذلون وسعهم في تقوية الدولة وإنجاز أعمالها وإتقانها على أكمل الوجوه.وقد تقدم كلام الإمام ابن كثير في الفائدة الخامسة.

سابعا:أن في الشورى تنويرا للقرائح وإعمالا للعقول عند التشاور وتبادل الآراء،وتنبيه الإمام إلى الفوائد والمصالح التي قد يغفل عنها،ودراسة الأمور والنوازل التي يتم التشاور فيها من كل جوانبها،ووضع الحلول المناسبة لها،قال الإمام الشافعي رحمه الله:"إنما يؤمر الحاكم بالمشاورة لكون المشير ينبهه على ما يغفل عنه،ويدله على ما لا يستحضره من الدليل،لا ليقلد المشير في ما يقوله "،وعَنِ الشَّعْبِيِّ ،قَالَ:" الرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ:فَرَجُلٌ ،وَنِصْفُ رَجُلٍ ،وَلَا شَيْءَ،فَأَمَّا الرَّجُلُ التَّامُّ:فَالَّذِي لَهُ رَأْيٌ ،وَهُوَ يَسْتَشِيرُ ،وَأَمَّا نِصْفُ رَجُلٍ ،فَالَّذِي لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ ،وَهُوَ يَسْتَشِيرُ ،وَأَمَّا الَّذِي لَا شَيْءَ ،فَالَّذِي لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ ،وَلَا يَسْتَشِيرُ " .[1282]

[1280] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ١٤٩)

[1281] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ١٨٨) صحيح

[1282] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٨٨)(٢٠٣٠٧) صحيح

وعَنْ بَعْضِ مَشَايِخِهِمْ،أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ،قَالَ:" الرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ:فَرَجُلٌ تَامٌّ،وَنِصْفُ رَجُلٍ،وَلَا شَيْءَ،فَإِنَّمَا الرَّجُلُ التَّامُّ فَالَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ لَهُ دِينَهُ وَعَقْلَهُ،فَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا لَمْ يُمْضِهِ حَتَّى يَسْتَشِيرَ أَهْلَ الرَّأْيِ الْأَلْبَابَ،فَإِنْ وَافَقُوهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَمْضَى رَأْيَهُ فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُصِيبًا مُوَفَّقًا،وَالنِّصْفُ الرَّجُلِ الَّذِي يُكَمِّلُ اللَّهُ لَهُ دِينَهُ وَعَقْلَهُ،فَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا لَمْ يَسْتَشِرْ فِيهِ أَحَدًا،وَقَالَ:أَيُّ النَّاسِ كُنْتُ أُطِيعُهُ وَأَتْرُكُ رَأْيِي لِرَأْيِهِ،فَمُصِيبٌ وَمُخْطِئٌ،وَالَّذِي لَا شَيْءَ الَّذِي لَا دِينَ وَلَا عَقْلَ لَهُ وَلَا يَسْتَشِيرُ فِي الْأَمْرِ فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُخْطِئًا.قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ:إِذَا أَرَدْتُهُ حَتَّى أَسْتَشِيرَ بَعْضَ خَدَمِي،وَمَا أُبَالِي يَعْرِضُ النَّاسُ عَلَيَّ عُقُولَهَمْ وَأَسْمَعُ "[١٢٨٣]

ثامنا:أن في الشورى صقلا للمواهب وتربية على القيادة ومواجهة الأمور والمشاكل وعلاجها وحلها،وبهذا يكثر في الأمة المؤهلون للقيادة الذين صقلتهم التجارب،وخبروا الأمور وتمرسوها.

الشورى فى الإسلام..منهجا وتطبيقا[١٢٨٤]

إن الشورى شريعة من شرائع الرسالة الإسلامية،حيث ينعقد بها الإجماع،الذي هو أصل من أصول التشريع الأربعة،المعتمدة فى الإسلام،وهى الكتاب،والسنة،والقياس،والإجماع..حيث لا يكون الإجماع على أمر إلا بعد تمحيصه وتقليب وجوه الرأى فيه،وتقديم الحجج والأدلة بين يدى كل رأى،حتى ينتهى الأمر الذي يجمع عليه بالتقاء آراء ذوى الرأى فيه من المسلمين،وهم الذين أطلق عليهم أهل الحل والعقد..

وليس المراد بأهل الحلّ والعقد طبقة خاصة من الناس،أو طائفة معينة من طوائفهم،بل هم فى كيان المجتمع الإسلامى كله،فى كل زمان ومكان،لا يختص بهم موطن،ولا يحصرهم زمن..فحيث كان المسلمون فهم جميعا المجتمع الإسلامى،وفيهم أهل الحل والعقد..أي أصحاب الرأى والنظر..فكل ذى رأى ونظر،هو من أهل الحل والعقد،وله أن يأخذ مكانه فى الأمر الذي يعرض للمسلمين،وأن يدلى برأيه،وبحجته التي تدعم هذا الرأى،كما أن له أن ينظر

[١٢٨٣] - الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٣٩٥)(٢٨٣) فيه جهالة

[١٢٨٤] - من زياداتي

فى رأى غيره،وأن يقول رأيه فيه،معدّلا أو مجرّحا..كل ذلك بالحجة القائمة على الحق والعدل،لا الهوى وحبّ الغلب..

والرأى الذي ينتهى إليه المسلمون،أو أولو الحل والعقد فيهم،هو ملزم لجماعتهم،لا يجوز لأحد منهم الخروج عليه..وليس فى هذا الإلزام جور على ذاتية الفرد،أو عدوان على حقه فى النظر فى الأمور،ووزنها بميزان إدراكه وتقديره،بل إن هذا الإلزام هو حماية للشخص من أن يتّبع هواه،أو أن يذهب مذهبا غير مأمون العاقبة،لو أنه أخذ برأيه،وترك رأى الجماعة،إذ كان رأيها هو الرأى الذي تلاقت عنده الآراء،ونخلته العقول..

وإذا كان الإجماع هو الوجه البارز من وجوه الشورى،فإن للشورى وجوها أخرى..إذ ليس كل أمر يعرض للجماعة الإسلامية،ينتهى بالتشاور فيه،إلى إجماع فى الرأى،على نحو الإجماع المعروف فى الشريعة..بل قد يقع الخلاف فى الرأى على أمر من الأمور،ثم يرجح جانب فيه على جانب،فيؤخذ بالجانب الراجح،ويترك الجانب المرجوح..!

على أن الذي يعنينا هنا ليس هو صور الشورى،وأشكالها،وإنما الذي يعنينا،وله المقام الأول،هو مبدأ الشورى ذاتها،من حيث اعتبارها حقيقة من حقائق الإسلام،وحكما من أحكامه العاملة التي يأخذ المسلم نفسه بها،ويقيم حياته عليها..ففى قوله تعالى:«وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ» خبر يراد به الأمر،من حيث اقترن بركنين من أركان الدين،وتوسطهما،وهما إقامة الصلاة،وإيتاء الزكاة،المأمور بهما شرعا..فكان حكم الشورى حكمهما،من حيث الوجوب والإلزام..

وفى مجىء الشورى بعد إقامة الصلاة،وقبل إيتاء الزكاة،إشارة إلى أمور:

أولا:أن الصلاة أقوال وأفعال،والشورى كذلك أقوال تعقبها أفعال..

أما الزكاة فهى أفعال خالصة..فناسب أن تقترن الشورى بالصلاة لمشاكلتها فى صورها،وأن تتقدم من أجل هذا على الزكاة.

وثانيا:أن الصلاة يؤديها المؤمن منفردا،أو فى جماعة..وهو فى حال انفراده يؤديها على الصورة التي يراها،من حيث الطول والقصر فى أفعالها،قياما،وركوعا،وسجودا..أما فى حال أدائها فى جماعة،فإنه ليس له هذا الخيار،بعد أن يأخذ مكانه فى الجماعة،وينتظم فى عقدها،فهو والجماعة من وراء الإمام،الذي يجب أن يلزموا متابعته فى كل حركاته وسكناته..

والشورى،صورة مقاربة للصلاة من هذا الوجه الذي صورناها به..

فإذا كان الإنسان خاليا مع رأيه إزاء أمر من الأمور العارضة له،كان له أن يتصرف فى هـذا الأمر على الوجه الذي يراه بعقله،ويؤديه إليه اجتهاده..أما إذا دخل مع جماعة المسلمين فى أمر عام،وأخذ مكانه بينهم وانتظم رأيه مع آرائهم على طريق سواء، لم يكن له أن يخرج عن هـذا الرأى الذي انتظمت وراءه آراؤهم،والذي يتمثل لهم حينئذ فى صورة الإمام الذي يأتمون بـه فى الصلاة..فكما لا يخرج المأموم فى الصلاة عن متابعة الإمام،ولا يجوز له أن يستجيب لإرادته فى أن يطيل أو يقصّر،فى قيام،أو ركوع،أو سجود- كذلك لا يجوز أن يخرج المؤمن عن الرأى الذي اجتمع عليه المسلمون بعد تشاورهم فيه،وإن كان على خلاف ما يرى.فـالرأى الـذي أجمع عليه المسلمون هنا هو من رأى الإسلام،والسبيل التي يسلكها المسلمون- متابعـة لهـذا الرأى- هى سبيل الله..والله سبحانه وتعالى يقول:«وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَـهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً» (١١٥:النساء) .

وثالثا:أن الصلاة فريضة عامة،تجب على كل مسلم ومسلمة وجوب عين،- وكذلك التشاور بين المسلمين،أمر ملزم لهم جميعا،وحقّ يؤديه كل مسلم ومسلمة للجماعة الإسلامية،وإنه ليس لأحد أن يحول بين المسلم وبين أخذ مكانه بين الجماعة الإسلامية وإبداء الرأى الذي يـراه،فى أي أمر يعرض لهم،كما أنه ليس لأحد أن يحول بين المسلم وبين أن يأخذ مكانـه فى صـلاة الجماعة بين الصفوف المنتظمة فى الصلاة..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَأَمْـرُهُمْ شُـورى بَيْنَهُمْ» ..ففى تنكير الشورى دليل على إطلاقها وعمومها..وأنها ليست شورى علـى صـفة خاصة معروفة بأهلها..فكل مسلم ومسلمة أهل للشورى،كما هو أهل للصلاة فى جماعة..

ورابعا:أن الصلاة يجب أن يسبقها من المسـلم قبـل الـدخول فيهـا إعـداد لها،وذلـك بالتطهر،والوضوء..وكذلك الشورى،يجب أن تسبقها طهارة النفس من الهوى،وخلوها مـن الدخل..وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف «الدين النصيحة» قيل لمن يا رسول الله؟:قال:«لله ولرسوله،ولأئمة المسلمين وعامتهم» ..

ولن تكون النصيحة نصيحة إلا إذا جاءت من قلب سليم،وعن نية خالصة من الغش والنفاق..

وخامسا:أن للصلاة وقتا،فإذا جاء وقتها أذّن المؤذن بها،ودعا المسلمين إليها..وكذلك للشورى وقتها..فإذا حزب المسلمين أمر،تنادوا به،واجتمعوا له،وتشاوروا فيه..

ذلك هو بعض السر فى قرن المشورة بإقامة الصلاة..ووراء ذلك أسرار وأسرار لا تنتهى..

أما وصلها بالزكاة من طرفها الآخر،فإنه يشير كذلك إلى أمور..منها:

أولا:أن القرآن الكريم لم يعبّر فى هذا المقام عن الزكاة بلفظ الزكاة،بل جاء بها فى هذا النظم الكريم:«وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» فجعلها إنفاقا من رزق،وهذا الرزق من الله سبحانه وتعالى..وكذلك «الشورى» هى إنفاق من رزق،هو مما وهب الله من عقل،ومما رزق أهل العقل من علم ومعرفة..وهذا يعنى أن إبداء الرأى من ذوى الرأى،أمر واجب عليهم،وهو الزكاة المطلوبة منهم فى هذا المقام،لما آتاهم الله من فضله،من علم،وحكمة،وحسن تدبير..

فمن رأى فى أمر من أمور المسلمين خللا،وكان عنده من الرأى والتدبير حا يصلح به هذا الخلل ثم أمسك رأيه،وحبس نصحه،كان آثما..شأنه فى هذا شأن من كان ذا مال وسعة،ثم لم ينفق من ماله فى سبيل الله،وفى سدّ حاجات ذوى الحاجة من المؤمنين..

وثانيا: لم يقيد النص القرآنى هنا الإنفاق بالشيء الذي ينفق منه،من مال أو نحوه،بل جعله،إنفاقا مطلقا،يشمل كل ما يرزقه الله الإنسان من خير..فسمّاه سبحانه رزقا،ليشمل المال وغير المال،من رأى،وعلم،وفنّ..

خلا يستبد المؤمن وحده،برزق رزقه الله إياه،وفيه فضل وسعة لغيره من المسلمين..

وثالثا:كذلك لم يقيد النص القرآنى ما ينفق من هذا الرزق بحدّ محدود،كالزكاة،بل جعله إنفاقا مطلقا..لأنه فى مقام «الشورى» لا يكون الإنفاق بقدر محدود مما يملك الإنسان من علم،ومما عنده من معرفة،بل إنه مطلوب منه فى تلك الحال أن ينفق كل ما لديه،وأن يبذل كل ما عنده،غير ممسك بشيء من رأيه،أو محتجز شيئا من جهده،واجتهاده..ونقرأ الآية الكريمة:

«وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ،وَأَقامُوا الصَّلاةَ،وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ،وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» .

وننظر مرة أخرى فى قوله تعالى:«وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ» وفى مقام هذا المقطع من الآية،بين ما سبقها،وما جاء بعدها من كلمات الله،فنرى كيف احتفاء الإسلام بالشورى،وكيف أنه أفسح لها مكانا بين فريضتين من فرائضه،هما الصلاة والزكاة،اللتان آخى بينهما فى كل موضع جاء

فيه ذكرهما فى القرآن الكريم..كما يقول سبحانه:«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُــونَ الصَّــلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» (٣:البقرة) ويقول جلّ شأنه:«وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُــوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» (٤٣:البقرة) ويقول سبحانه:«وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ» (٥٥:مــريم) ويقول عزّ من قائل:«وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا» (٣١:مريم) ..

ويقول تبارك اسمه:«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْــوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ» (١- ٤:المؤمنون) ..

والفصل بين الصلاة والزكاة بقوله تعالى:«وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» - ليس فصلا،لأن الإعراض عن اللغو هنا،هو من تمام الصلاة التي يحفها الخشوع والخشية..أما الفصل بين الصلاة والزكاة بالشورى،فهو لما للشورى من مترلة فى ذاتها،وأنها جديرة بأن تكون فى هذا المقام،وأن تتوسط أعظم فريضتين من فرائض الإسلام،وأهم ركنين من أركانه،بعد الإيمان بالله.

والسؤال هنا:لماذا كانت الشورى بهذه المترلة من الإسلام؟ ولمــاذا تلتفــت إليهــا الشــريعة الإسلامية بهذا القدر،وتنوّه بها إلى هذا الحدّ؟

ولقد أشرنا من قبل إلى ما للشورى من آثار فى بناء المجتمع،وفى حياطة هذا البناء،وفى دفــع العوارض التي تعرض له،وتهدّد وجوده..

ونريد هنا أن ننظر إلى المجتمع الإسلامى،الذي يقوم أمره على الشورى،وما للشورى من آثــار مادية،ونفسية،وروحية،وعقلية.فى حياطته،ودعم بنائه.

فالمسلمون مطالبون..ديانة..كما هم مطالبون سياسة وتدبيرا..أن يقيموا أمرهم كلــه علــى الشورى..وهذا من شأنه أن يجعلهم دائما فى تواصل وفى تواص بالنصح،ومشاركة فى الســراء والضرّاء،حيث يجد المرء أنه مطالب بأن يكشف لأخيه عن المشكلات التي تعرض له،فيجد من صاحبه الرأى والنصيحة يبذلها له فى إخلاص،بل ويســعى معــه فى دفــع الضــرّ عنــه،ما استطاع،حسبة لله،وأداء لحق وجب عليه..

فإذا كان الأمر العارض من البلايا العامة،التي تمسّ المجتمع،أو طائفة مــن المجتمع،تنــادى لهــا المسلمون جميعا،وتداعوا عليها بالرأى،والعمل معا،وحمل كلّ منهم همها،وشارك فيها بكل ما

وسعه من جهد..هذا ما يقضى به الدّين،إلى جانب ما تقضى به ضرورات أخرى كثيرة..
وآثار هذه المشاركة كثيرة عميقة..

فأولا:أنها توحّد مشاعر المجتمع الإسلامى وتشدّ المسلمين بعضهم إلى بعض..وتجعل منهم جسدا واحدا،فلا يشعر أحدهم أنه بمنجاة من الخطر الذي يهدّد أي عضو من أعضاء الجماعة..وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم فى قوله تعالى:«مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو،تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر» ..

وثانيا:فى عرض مشكلات المجتمع على الجماعة،وطلب الرأى والنصيحة من أفرادها- تربية للفرد على أداء وظيفته الاجتماعية معها،وإفساح مكان له فيها..وهذا من شأنه أن يهيىء للفرد فرصا طيبة،يبرز فيها وجوده،ويربّى فيها ملكاته،وينمى قواه المدركة،حتى يكون أهلا لأن يأخذ مكانه منها،وهذا بدوره،داعية قوية تدعوه إلى طلب العلم والمعرفة،وإلى لقاء الجماعة بما حصل من علم،وما وعى من معرفة..

وثالثا:فى عرض الآراء،وفى تقليب وجوهها،تصحيح لكثير من الآراء الخاطئة،وبالتالى تصحيح للمشاعر التي تتوالد عن هذه الآراء،والتي لو شارك المرء الجماعة فى عمل من الأعمال،وهو بهذه الآراء،وتلك المشاعر،لكان آلة متحركة بغير وعى،عاملة بغير شعور،إن لم يكن جسدا غريبا،يعوق مسيرة الجماعة،ويقلل من جهدها..ولهذا كانت دعوة الله سبحانه إلى النبىّ الكريم،بأن يقيم أمره فى المسلمين على الشورى،فيقول سبحانه:

«فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ..فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» (١٥٩:آل عمران) ..والرسول صلوات الله وسلامه عليه- بما أراه ربه- فى غنى عن المشورة،وعن أخذ الرأى من أحد،فإنه- صلوات الله وسلامه عليه- كما وصفه الحق جلّ وعلا:«وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى» (٣:النجم) ..ولكن هكذا أقام الله سبحانه أن النبىّ مع الجماعة الإسلامية على المشورة،حتى تصحح الآراء الخاطئة على ضوء المشورة،وحتى يشترك الجميع مع النبىّ فى إقامة الرأى،وفى حمل تبعة العمل،وتحمل المسئولية فيما ينجم عنه..وقد رأينا النبىّ صلوات الله وسلامه عليه- بين يدى غزوة «بدر» يدعو الناس إليه قائلا:«أيها الناس..أشيروا علىّ» ..وذلك أنه صلوات الله وسلامه عليه،حين خرج

بالمسلمين من المدينة للقاء عير أبي سفيان، لم يكن مخرجه لحرب قريش..فلما أفلتت العير،جاءت قريش لتستنقذ العير أولا،ثم لتحارب النبي ثانيا..
فلما خلصت لها العير اتجهت إلى الحرب..فكان هذا موقفا جديدا بالنسبة للنبى والمسلمين،و لم ير صلوات الله وسلامه عليه أن يلزم المسلمين رأيا فيه،فطلب رأيهم فى الحرب ولقاء قريش،أو العودة إلى المدينة..فكان الرأى الذي أجمع عليه المسلمون،هو الحرب،ولقاء العدوّ..وقد كانت الحرب،وكان النصر! هذه هى بعض ملامح الشورى،فى الإسلام.وهى..كما ترى..وثيقة من أروع الوثائق،ودستور من أقوم الدساتير فى بناء المجتمع.وفى وصل مشاعر أفراده بعضها ببعض،وفى صبّ آراء أفراده فى مجرى واحد يفيض بالخير والبركة عليهم جميعا..[1285]

صفات أهل الشورى

وأهل الشورى هم الذين اتصفوا بصفات معينة جعلتهم أهلا للمشاورة والنظر فيما يحقق المصالح الشرعية في أمور الدولة الإسلامية والرعية:

وأول صفات أهل الشورى العلم:

فإن القرارات التي تصدر من أهل الشورى لا تخرج عن نصوص الشرع وأصوله العامة وتحقيق مقاصده،وهذا يقتضي أن يكون أعضاء الشورى من أهل العلم الشرعي حتى تساس أمور الدولة وتنفذ أعمالها بما يوافق شرع الله ويحقق مقاصده،وقد قال الله تعالى:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل:٤٣]
أي:الكتب السابقة {إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ} نبأ الأولين،وشككتم هل بعث الله رجالا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها،فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالا يوحي إليهم من أهل القرى،وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم،وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث،وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم،وأن بذلك يخرج الجاهل

[1285] - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٦٧- ٧٥)

من التبعة،فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتتريله،وأهم مأمورون بتزكية أنفسهم،والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم،فإنهم أهل الذكر على الحقيقة،وأولى من غيرهم بهذا الاسم،ولهذا قال تعالى:{وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ} أي:القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة،{لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ} وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه،{وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.[١٢٨٦]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ،وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ،حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا،فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ،فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» متفق عليه[١٢٨٧]

وعَنْ عَلِيٍّ قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنْ نَزَلَ بِنَا أَمْرٌ لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ:أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ،فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:«تُشَاوِرُونَ الْفُقَهَاءَ وَالْعَابِدِينَ،وَلَا تُمْضُوا فِيهِ رَأْيَ خَاصَّةٍ» رواه الطبراني في الأوسط[١٢٨٨]

[١٢٨٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٤١)

[١٢٨٧] - صحيح البخاري (١/ ٣١)(١٠٠) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٨)١٣ - (٢٦٧٣)

[ش (انتزاعا) محوا من صدور العلماء.(بقبض العلماء) بموتهم.(رؤوسا) جمع رأس وفي رواية (رؤوساء) جمع رئيس والمعنى واحد.(الفريري) هو أحد من سمع الصحيح عن البخاري ورواه عنه]

" إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ ":الْمُرَادُ بِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا (انْتِزَاعًا):مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ عَلَى مَعْنَى يَقْبِضُ نَحْوَ:رَجَعَ الْقَهْقَرَى،وَقَوْلُهُ (يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ):صِفَةٌ مُبَيِّنَةٌ لِلنَّوْعِ كَذَا قَالَهُ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:انْتِزَاعًا مَفْعُولٌ لِلْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَهُ،وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ يَعْنِي لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ مِنَ الْعِبَادِ بِأَنْ يَرْفَعَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ (وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ) أَيْ:يَرْفَعُهُ (بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ) أَيْ:بِمَوْتِهِمْ وَرَفْعِ أَرْوَاحِهِمْ (حَتَّى):هِيَ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الْجُمْلَةِ وَهِيَ هُنَا الشَّرْطُ وَالْجَزَاءُ يَعْنِي (إِذَا لَمْ يُبْقِ):أَيِ:اللَّهُ (عَالِمًا):بِقَبْضِ رُوحِهِ مِنَ الْإِبْقَاءِ،وَفِي نُسْخَةٍ:حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالْقَافِ،وَعَالِمٌ بِالرَّفْعِ وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ:حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا (اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا) أَيْ خَلِيفَةً وَقَاضِيًا وَمُفْتِيًا وَإِمَامًا وَشَيْخًا " (جُهَّالًا):جَمْعُ جَاهِلٍ أَيْ جَهَلَةً بِمَا يُنَاسِبُ مَنْصِبَهُ.قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ:ضَبَطْنَاهُ فِي الْبُخَارِيِّ رُءُوسًا بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَالتَّنْوِينِ جَمْعُ رَأْسٍ،وَضَبَطُوهُ فِي مُسْلِمٍ هُنَا بِوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا هَذَا وَالثَّانِي رُؤَسَاءُ جَمْعُ رَئِيسٍ،وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ وَالْأَوَّلُ أَشْهَرُ (فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا) أَيْ:أَجَابُوا وَحَكَمُوا (بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا) أَيْ:صَارُوا ضَالِّينَ (وَأَضَلُّوا) أَيْ مُضِلِّينَ لِغَيْرِهِمْ فَيَعُمُّ الْجَهْلُ الْعَالَمَ" مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٩٠)

[١٢٨٨] - المعجم الأوسط (٢/ ١٧٢)(١٦١٨) حسن

وعَنِ ابْنِ شِهَاب،حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّه بْنُ عَبْد اللَّه بْنِ عُتْبَةَ،أَنَّ عَبْدَ اللَّه بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَدمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ،فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخيه الحُرِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ حصْنٍ،وَكَانَ منَ النَّفَرِ الَّذينَ يُدْنيهِمْ عُمَرُ،وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَته،كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا،فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أَخيه:يَا ابْنَ أَخي،هَلْ لَكَ وَجْهٌ عنْدَ هَذَا الأَميرِ فَتَسْتَأْذنَ لي عَلَيْه؟ قَالَ:سَأَسْتَأْذنُ لَكَ عَلَيْه،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَاسْتَأْذَنَ لعُيَيْنَةَ،فَلَمَّا دَخَلَ،قَالَ:يَا ابْنَ الخَطَّاب،وَاللَّه مَا تُعْطينَا الجَزْلَ،وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بالعَدْل،فَغَضبَ عُمَرُ،حَتَّى هَمَّ بأَنْ يَقَعَ به،فَقَالَ الحُرُّ:يَا أَميرَ المُؤْمنينَ،إنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لنَبيِّه ﷺ:{خُذ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْف وَأَعْرضْ عَنِ الجَاهلينَ} [الأعراف:١٩٩]،وَإنَّ هَذَا منَ الجَاهلينَ،«فَوَاللَّه مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حينَ تَلاَهَا عَلَيْه،وَكَانَ وَقَّافًا عنْدَ كتَاب اللَّه» رواه البخاري[١٢٨٩]،والقراء هم العلماء العباد.

وعَنْ مَيْمُون بْنِ مهْرَانَ،قَالَ:" كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ إذَا وَرَدَ عَلَيْه خَصْمٌ نَظَرَ في كتَاب الله ،فَإنْ وَجَدَ فيه مَا يَقْضي به قَضَى به بَيْنَهُمْ ،فَإنْ لَمْ يَجدْ في الْكتَاب ،نَظَرَ:هَلْ كَانَتْ منَ النَّبيِّ ﷺ فيه سُنَّةٌ؟ فَإنْ عَلمَهَا قَضَى بهَا ،وَإنْ لَمْ يَعْلَمْ خَرَجَ فَسَأَلَ الْمُسْلمينَ فَقَالَ:" أَتَاني كَذَا وَكَذَا ،فَنَظَرْتُ في كتَاب الله ،وَفي سُنَّة رَسُول الله ﷺ ،فَلَمْ أَجدْ في ذَلكَ شَيْئًا ،فَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ نَبيَّ الله ﷺ قَضَى في ذَلكَ بقَضَاءٍ؟ " ،فَرُبَّمَا قَامَ إلَيْه الرَّهْطُ فَقَالُوا:" نَعَمْ ،قَضَى فيه بكَذَا وَكَذَا " ،فَيَأْخُذُ بقَضَاء رَسُول الله ﷺ ".قَالَ جَعْفَرٌ وَحَدَّثَني غَيْرُ مَيْمُون أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ عنْدَ ذَلكَ:" الْحَمْدُ للَّه الَّذي جَعَلَ فينَا مَنْ يَحْفَظُ عَنْ نَبيِّنَا ﷺ "،وَإنْ أَعْيَاهُ ذَلكَ دَعَا رُءُوسَ الْمُسْلمينَ وَعَلَمَاءَهُمْ ،فَاسْتَشَارَهُمْ ،فَإذَا اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى الْأَمْرِ قَضَى به "،قَالَ جَعْفَرٌ:وَحَدَّثَني مَيْمُونٌ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رَضيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلكَ ،فَإنْ أَعْيَا أَنْ يَجدَ في الْقُرْآن وَالسُّنَّة ،نَظَرَ:هَلْ كَانَ لأَبي بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ فيه قَضَاءٌ؟ فَإنْ وَجَدَ أَبَا بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ قَضَى فيه بقَضَاءٍ قَضَى به ،وَإلَّا دَعَا رُءُوسَ الْمُسْلمينَ وَعُلَمَاءَهُمْ ،فَاسْتَشَارَهُمْ ،فَإذَا اجْتَمَعُوا عَلَى الْأَمْرِ قَضَى بَيْنَهُمْ "[١٢٩٠]

[١٢٨٩] - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٦)

[١٢٩٠] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٩٦)(٢٠٣٤١) وسنن الدارمي (١/ ٢٦٢)(١٦٣) صحيح مرسل

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِيهِ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ كَانَ إِذَا نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ يُرِيدُ فِيهِ مُشَاوَرَةَ أَهْلِ الرأي وأهل الفقه ودعا رِجَالا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ دَعَا عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَمُعَاذَ بْنَ جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت.وَكُلُّ هَؤُلاءِ كَانَ يُفْتِي فِي خلافَةِ أَبِي بَكْرٍ.وَإِنَّمَا تَصِيرُ فَتْوَى النَّاسِ إِلَى هَؤُلاءِ.فَمَضَى أَبُو بَكْرٍ عَلَى ذَلِكَ.ثُمَّ وَلِيَ عُمَرُ فَكَانَ يَدْعُو هَؤُلاءِ النَّفْرَ.وَكَانَتِ الْفَتْوَى تَصِيرُ وَهُوَ خَلِيفَةٌ إِلَى عُثْمَانَ وَأُبَيٍّ وَزَيْدٍ."[1291]

و(قَالَ الشَّافِعِيُّ) :قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩] (أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ) قَالَ (أَخْبَرَنَا الشَّافِعِيُّ) قَالَ أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ:قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ «مَا رَأَيْت أَحَدًا أَكْثَرَ مُشَاوَرَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -» وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨] (قَالَ الشَّافِعِيُّ) :قَالَ الْحَسَنُ إنْ كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - لَغَنِيًّا عَنْ مُشَاوَرَتِهِمْ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْتَنَّ بِذَلِكَ الْحُكَّامُ بَعْدَهُ إذَا نَزَلَ بِالْحَاكِمِ الْأَمْرُ يَحْتَمِلُ وُجُوهًا،أَوْ مُشْكِلٌ انْبَغَى لَهُ أَنْ يُشَاوِرَ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُشَاوِرَ جَاهِلًا لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِمُشَاوَرَتِهِ وَلَا عَالِمًا غَيْرَ أَمِينٍ فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَضَلَّ مَنْ يُشَاوِرُهُ وَلَكِنَّهُ يُشَاوِرُ مَنْ جَمَعَ الْعِلْمَ،وَالْأَمَانَةَ وَفِي الْمُشَاوَرَةِ رِضَا الْخَصْمِ،وَالْحُجَّةُ عَلَيْهِ.[1292]

وقال الإمام البخاري رحمه الله:" "وَكَانَتِ الأَئِمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي الأُمُورِ المُبَاحَةِ لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا،فَإِذَا وَضَحَ الكِتَابُ أَوِ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ،اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ وَرَأَى أَبُو بَكْرٍ قِتَالَ مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ،فَقَالَ عُمَرُ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَإِذَا قَالُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «ثُمَّ تَابَعَهُ بَعْدُ عُمَرُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَشُورَةٍ إِذْ كَانَ عِنْدَهُ حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَأَرَادُوا تَبْدِيلَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ»

[1291] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٢/ ٢٦٧) من طريق الواقدي،وفيه انقطاع

[1292] - الأم للشافعي (٧/ ١٠٠)

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةِ عُمَرَ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا،وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[1293].

الثانية:التقوى والأمانة:

فمن صفات أهل الشورى التقوى والأمانة والجهاد في سبيل الله،وأن يكونوا من أهل الخبرة والتجربة،الذين يبذلون النصيحة لله تعالى،ويقولون بالحق لا يخافون في الله لومة لائم،ولا يتحزبون لأحد من الناس أو لعصبية جاهلية ولا يبتغون على ما يقولون عرضا من الدنيا،ولا يتبعون أهواءهم ويقدموها على شرع الله تعالى،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ» رواه أبو داود وغيره[1294]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي الْهَيْثَمِ:«هَلْ لَكَ خَادِمٌ؟» قَالَ:لَا،قَالَ:«فَإِذَا أَتَانَا سَبْيٌ فَأْتِنَا» فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَأْسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ،فَأَتَاهُ أَبُو الْهَيْثَمِ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اخْتَرْ مِنْهُمَا»،قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،اخْتَرْ لِي،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ،خُذْ هَذَا،فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي،وَاسْتَوْصِ بِهِ خَيْرًا»،فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ:مَا أَنْتَ بِبَالِغٍ مَا قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا أَنْ تُعْتِقَهُ،قَالَ:فَهُوَ عَتِيقٌ"[1295]

[1293] - صحيح البخاري (٩/ ١١٣)

[1294] - سنن أبي داود (٤/ ٣٣٣)(٥١٢٨) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٢٣٣)(٣٧٤٥و٣٧٤٦) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٢٥)(٢٨٢٢ و٢٨٢٣) صحيح مشهور

قال الطحاوي:" لقد تَأَمَّلْنَا هَذَا الْحَدِيثَ لِنَقِفَ عَلَى الْمُرَادِ بِمَا فِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ،فَوَجَدْنَا الرَّجُلَ فِي اسْتِشَارَتِهِ أَخَاهُ مُلْتَمِسًا فَضْلَ رَأْيِ أَخِيهِ عَلَى رَأْيِهِ لِيَكُونَ بِمُضِيِّ أَمْرِهِ عَلَى الَّذِي اسْتَشَارَهُ بِهِ أَخَاهُ فِيهِ عَلَى الْفَضْلِ الَّذِي قَدَّرَهُ مَعَهُ فِي رَأْيِهِ عَلَى مَا مَعَهُ،فَيَكُونُ بِذَلِكَ مُقَلِّدًا لَهُ مَا يَفْعَلُهُ مِمَّا يُشَاوِرُهُ فِيهِ،مُمَثِّلًا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَيْهِ،فَإِذَا كَانَ الَّذِي أَشَارَ بِهِ فِيهِ صَوَابًا،كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَلَى ذَلِكَ مَا يَكُونُ لِمِثْلِهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ،وَإِنْ أَشَارَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ بِخِلَافِ الصَّوَابِ،وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ،كَانَ بِذَلِكَ مُدْخِلًا لَهُ فِيمَا يَفْعَلُهُ مِمَّا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ،وَمِثْلُ ذَلِكَ أَيْضًا مَا قَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى.ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:" مَنِ اسْتَشَارَ أَخَاهُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ فَقَدْ خَانَهُ ".

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ مَنِ اسْتَشَارَ أَخَاهُ،فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِخِلَافِ الرُّشْدِ فَقَدْ خَانَهُ،وَتَحْتَ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ إِذَا أَشَارَ عَلَيْهِ بِالرُّشْدِ كَانَ مِنْهُ ضِدُّ الْخِيَانَةِ وَهِيَ الْمُنَاصَحَةُ،وَكَانَ مَنْ كَانَ فِيهِ الْخِيَانَةُ مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ عَلَيْهَا،وَمَنْ كَانَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ مُسْتَحِقًّا لِلثَّوَابِ عَلَيْهَا،فَبَانَ بِمَا ذَكَرْنَا مَا الْمُرَادُ بِالْأَمَانَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي بَدَأْنَا بِذِكْرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ،وَاللهُ الْمَحْمُودُ عَلَى ذَلِكَ،وَإِيَّاهُ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ."شرح مشكل الآثار (١١/ ٧٦)

[1295] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٩٩)(٢٥٦) صحيح

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:خرَجَ النَّبيُّ ﷺ فِي سَاعَةٍ لَا يَخْرُجُ فِيهَا وَلَا يَلْقَاهُ فِيهَا أَحَدٌ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ،فَقَالَ:«مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»؟ فقَالَ:خَرَجْتُ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ وَالتَّسْلِيمَ عَلَيْهِ،فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ عُمَرُ،فَقَالَ:«مَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَرُ»؟ قَالَ:الجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَأَنَا قَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ ذَلِكَ،فَانْطَلَقُوا إِلَى مَنْزِلِ أَبِي الهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الأَنْصَارِيِّ» وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ النَّخْلِ وَالشَّاءِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَدَمٌ فَلَمْ يَجِدُوهُ،فَقَالُوا لِامْرَأَتِهِ:أَيْنَ صَاحِبُكِ؟ فَقَالَتْ:انْطَلَقَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا المَاءَ،فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ جَاءَ أَبُو الهَيْثَمِ بِقِرْبَةٍ يَزْعَبُهَا فَوَضَعَهَا ثُمَّ جَاءَ يَلْتَزِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُفَدِّيهِ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ،ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى حَدِيقَتِهِ فَبَسَطَ لَهُمْ بِسَاطًا،ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى نَخْلَةٍ فَجَاءَ بِقِنْوٍ فَوَضَعَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَفَلَا تَنَقَّيْتَ لَنَا مِنْ رُطَبِهِ»؟ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَخْتَارُوا،أَوْ قَالَ:تَخَيَّرُوا مِنْ رُطَبِهِ وَبُسْرِهِ،فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا مِنْ ذَلِكَ المَاءِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ،ظِلٌّ بَارِدٌ،وَرُطَبٌ طَيِّبٌ،وَمَاءٌ بَارِدٌ»،فَانْطَلَقَ أَبُو الهَيْثَمِ لِيَصْنَعَ لَهُمْ طَعَامًا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«لَا تَذْبَحَنَّ ذَاتَ دَرٍّ»،قَالَ:فَذَبَحَ لَهُمْ عَنَاقًا أَوْ جَدْيًا فَأَتَاهُمْ بِهَا فَأَكَلُوا،فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلْ لَكَ خَادِمٌ»؟ قَالَ:لَا،قَالَ:«فَإِذَا أَتَانَا سَبْيٌ فَأْتِنَا» فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَأْسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ فَأَتَاهُ أَبُو الهَيْثَمِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اخْتَرْ مِنْهُمَا»،فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ اخْتَرْ لِي،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ المُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ،خُذْ هَذَا فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي وَاسْتَوْصِ بِهِ مَعْرُوفًا»،فَانْطَلَقَ أَبُو الهَيْثَمِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَأَخْبَرَهَا بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ:مَا أَنْتَ بِبَالِغٍ مَا قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا أَنْ تَعْتِقَهُ،قَالَ:فَهُوَ عَتِيقٌ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ،وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا،وَمَنْ يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ»[١٢٩٦]

[١٢٩٦] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٨٤)(٢٣٦٩) صحيح

عَلَى مَنِ اسْتُشِيرَ أَنْ يَصْدُقَ فِي مَشُورَتِهِ لِقَوْل النَّبِيِّ ﷺ:الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ،وَلِقَوْلِهِ:الدِّينُ النَّصِيحَةُ .وَسَوَاءٌ اسْتُشِيرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ أَمْ فِي أَمْرِ غَيْرِهِ،فَيَذْكُرُ الْمَحَاسِنَ وَالْمَسَاوِئَ كَمَا يَذْكُرُ الْعُيُوبَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْعُيُوبَ الْعُرْفِيَّةَ .وَلاَ يَكُونُ ذِكْرُ الْمَسَاوِئِ مِنَ الْغِيبَةِ الْمُحَرَّمَةِ إِنْ قَصَدَ بِذِكْرِهَا النَّصِيحَةَ .وَهَذَا الْحُكْمُ شَامِلٌ فِي كُل مَا أُرِيدَ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ،كَالنِّكَاحِ،وَالسَّفَرِ،وَالشَّرِكَةِ،وَالْمُجَاوَرَةِ،وَإِيدَاعِ الأَمَانَةِ،وَالرِّوَايَةِ عَنْهُ،وَالْقِرَاءَةِ عَلَيْهِ.الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٦/ ٢٨٣)

وَيَنْبَغِي عَلَى الْمُسْتَشَارِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى مَا فِيهِ رُشْدُ الْمُسْتَشِيرِ وَخَيْرُهُ،فَإِنْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ صَوَابٍ فَقَدْ غَشَّهُ فِي مَشُورَتِهِ،وَخَانَهُ بِكِتْمَانِ مَصْلَحَتِهِ،وَذَلِكَ لِمَا جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ،فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ،وَمَنِ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ،فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ،فَقَدْ خَانَهُ،وَمَنْ أَفْتَى بِفُتْيَا غَيْرِ ثَبْتٍ،فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ "[١٢٩٧]

أَيِ الَّذِي طُلِبَ مِنْهُ الْمَشُورَةُ وَالرَّأْيُ فِيمَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ أَمِينٌ فِيمَا يُسْأَل مِنَ الأُْمُورِ،فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يَخُونَ الْمُسْتَشِيرَ بِكِتْمَانِ مَصْلَحَتِهِ .[١٢٩٨]

فالمستشار مؤتمن في الاستشارة،فلا يحابي أحدا،أو يتبع أهواء الناس،بل يؤدي النصيحة والمشورة التي توافق شرع الله تعالى.

وأما إذا اتبع المستشار هواه في المشورة،ونصر باطلا فقد خان في المشورة،فعَنْ أَبِي عُثْمَانَ الطُّنْبُذِيِّ،رَضِيعِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:" مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ بَيْتًا فِي جَهَنَّمَ وَمَنْ أَفْتَى بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ " رواه أبو داود[١٢٩٩]

ولهذا يجب اقتصار الشورى على الأتقياء الأمناء المجاهدين ولا يجوز إدخال من لا يتقي الله ولا يؤتمن في المشورة أو في غيرها،وقد قَالَ سُفْيَانُ:«عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ فِي مَعِيشَتِكَ ،وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَشَبَّهَ بِالْجَبَابِرَةِ ،وَعَلَيْكَ بِمَا لَا يُقْرِفُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ وَالْمَرْكَبِ ،وَلْيَكُنْ أَهْلُ

[١٢٩٧] - مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ١٧)(٨٢٦٦) فيه ضعف

[١٢٩٨] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣١/ ٢٢٧)

[١٢٩٩] - سنن أبي داود (٣/ ٣٢١)(٣٦٥٧) وجامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٦٠)(١٦٢٥و١٨٩١) والجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٥/ ٨٩٨،بترقيم الشاملة آليا) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٢١٥)(٤٣٦) حسن

قَالَ الطِّيبِيُّ:إِذَا عُدِّيَ " أَشَارَ " بـ " عَلَى " كَانَ بِمَعْنَى الْمَشُورَةِ،أَيِ:اسْتَشَارَهُ وَسَأَلَهُ كَيْفَ أَفْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ اهـ.وَفِي الْقَامُوسِ:أَشَارَ عَلَيْهِ بِكَذَا أَمَرَهُ،وَاسْتَشَارَ:طَلَبَهُ الْمَشُورَةَ،فَالظَّاهِرُ مَا قَالَهُ بَعْضُ الشُّرَّاحِ مِنْ أَنَّ الْمَعْنَى:مَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ وَهُوَ مُسْتَشِيرٌ،وَأَمَرَ الْمُسْتَشِيرَ بِأَمْرٍ (يَعْلَمُ):وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ مَا يَشْمَلُ الظَّنَّ (أَنَّ الرُّشْدَ) أَيِ:الْمَصْلَحَةَ (فِي غَيْرِهِ) أَيْ غَيْرِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ (فَقَدْ خَانَهُ) أَيْ:خَانَ الْمُسْتَشَارُ الْمُسْتَشِيرَ إِذْ وَرَدَ:أَنَّ " «الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ» " وَ " «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ".مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣١٨)

مَشُورَتِكَ أَهْلَ التَّقْوَى ،وَأَهْلَ الْأَمَانَةِ ،وَمَنْ يَخْشَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ»[1300] وتقدم في صفة العلم حديث علي رضي الله عنه وقول الإمام الشافعي رحمه الله،وقول الإمام البخاري رحمه الله.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ لِي أَبِي:" أَيْ بُنَيَّ،إِنِّي أَرَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُوكَ وَيُقَرِّبُكَ وَيَسْتَشِيرُكَ مَعَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَاحْفَظْ عَنِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ:اتَّقِ اللهَ لَا يُجَرِّبَنَّ عَلَيْكَ كِذْبَةً،وَلَا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا،وَلَا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا ".قَالَ عَامِرٌ:فَقُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ:كُلٌّ وَاحِدَةٍ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ،قَالَ:كُلٌّ وَاحِدَةٍ خَيْرٌ مِنْ عَشَرَةِ آلَافٍ " رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية[1301] .

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:لَا تَعْتَرِضُ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ،وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ،وَاحْتَفِظْ مِنْ خَلِيلِكَ إِلَّا الْأَمِينَ فَإِنَّ الْأَمِينَ مِنَ الْقَوْمِ لَا يُعَادِلُهُ شَيْءٌ،وَلَا تُصَاحِبِ الْفُجْرَ فَيُعَلِّمُكَ مِنْ فُجُورِهِ،وَلَا تُفْشِ إِلَيْهِ سِرَّكَ،وَاسْتَشِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ.أخرجه ابن أبي شيبة[1302]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ:" وَضَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِلنَّاسِ ثَمَانِي عَشْرَةَ كَلِمَةً حِكَمًا كُلَّهَا،قَالَ:- مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ.- وَضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَجِيئَكَ مَا يَغْلِبُكَ.- وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ مُسْلِمٍ شَرًّا،وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا - وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ - وَمَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهْمَةِ،فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِهِ.- وَعَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الصِّدْقِ تَعِشْ فِي أَكْنَافِهِمْ،فَإِنَّهُمْ زِينَةٌ فِي الرَّخَاءِ،وَعُدَّةٌ فِي الْبَلَاءِ - وَلَا تَهَاوَنُوا بِالْحَلِفِ بِاللَّهِ فَيُهِنْكُمُ اللَّهُ.- وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا يَكُنْ،فَإِنَّ [فِيمَا كَانَ شُغُلًا عَمَّا لَمْ يَكُنْ] .- وَلَا تعرض فِيمَا لَا يَعْنِيك - وَعَلَيْك بالصديق،وَإِنْ قَتَلَكَ الصِّدْقُ - وَلَا تَطْلُبْ حَاجَتَكَ مِمَّنْ لَا يُحِبُّ نَجَاحَهَا.- وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ.- وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ،[وَلَا أَمِينَ إِلَا مَنْ خَشِيَ اللَّهَ] .- وَلَا تَصْحَبِ الْفُجَّارَ،فَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِمْ.- وَذِلَّ عِنْدَ

[1300] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٣) صحيح

[1301] - المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢٦٥)(١٠٦١٩) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣١٨) وفضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٩٥٧)(١٨٦٢ و١٩٠٥) حسن

[1302] - الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٤٠٠)(٢٨٩) والزهد لأبي داود (ص:١٠٩)(٩٧) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٥٥) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٢٩) وشعب الإيمان (٧/ ٥٩)(٤٦٤١) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ١٢٤)(٢٦٠٤١) صحيح لغيره

الطَّاعَةِ.- وَاسْتَصْغِرْ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ.- وَتَخَشَّعْ عِنْدَ الْقُبُورِ.- وَاسْتَشِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر:٢٨] [١٣٠٣]

فقوله رضي الله عنه:"ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه" فيه حث على دفع السيئة بطاعة الله والعدل والإحسان،وقد قال الله تعالى:{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا } [المائدة:٢]

وقوله تعالى:«وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا» هو تذكير للمسلمين..وهم فى تلك الحال التي راضوا فيها أنفسهم على التزام حدود الله والوفاء بمواثيقه- تذكير لهم بالاستقامة على هذا الطريق القويم الذي ساروا عليه،وهو أن يلتزموا العدل مع من كان إليهم عدوان منهم..فالتزام العدل هو ميثاق أخذه الله على المؤمنين،يلتزمونه مع أوليائهم وأعدائهم جميعا..

وقوله تعالى «وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ» أي ولا يحملنكم على ارتكاب الجرم،وهو الظلم..والشنآن:البغض والعداوة..

والمعنى:ولا يدعوكم ما بينكم وبين غيركم من عداوة وبغضاء،إذ صدوكم عن المسجد الحرام،وحالوا بينكم وبينه- لا يدعوكم هذا إلى أن تركبوا ما ركبوا من ظلم وعدوان،بل خذوهم بالعدل،وخذوا حقكم منهم دون ظلم أو بغى! وقوله تعالى:«اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى» أي العدل هو الذي ينبغى أن يكون سبيلكم مع هذا الذي حملكم بفعله على بغضكم له،لأنكم بهذا إنما تقيمون ميزان الحق،وتحفظون ميثاق الله معكم،وذلك هو الذي يدخلكم مداخل التقوى،ويقيمكم مقام المتقين. [١٣٠٤]

أي:لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم،حيث صدوكم عن المسجد،على الاعتداء عليهم،طلبا للاشتفاء منهم،فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله،ويسلك طريق العدل،ولو

[١٣٠٣] - المخلصيات (٤/ ٨٣)(٣٠٣٩- (٤٠) والبلدانيات للسخاوي (ص:٢٥١) وكتاب الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين أو الأربعين الطائية (ص:١٥١) ومشيخة ابن البخاري (١/ ٦٣١) حسن

[١٣٠٤] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١٠٢٧)

جُني عليه أو ظلم واعتدي عليه،فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه،أو يخون من خانه.[1305]

وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ وَعَدَاوَتُهُمْ عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى أَنَّهُ لَا يُبَاحُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْتَدُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ إِنْ صَدُّوهُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،أَيْ عَنِ النُّسُكِ فِيهِ وَزِيَارَتِهِ،وَلَوْ لِلتِّجَارَةِ،وَاسْتُشْكِلَ بِأَنَّ هَذَا قَدْ نَزَلَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ،وَلَمْ يَكُنْ يُتَوَقَّعُ صَدٌّ مِنْ أَحَدٍ،وَبِأَنَّهُ مُعَارِضٌ لِقَوْلِهِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ (٢:١٩١) وَأُجِيبَ بِأَنَّ الشَّرْطَ عَلَى مَعْنَى الْمَاضِي بِتَقْدِيرِ الْكَوْنِ،أَيْ:إِنْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ وُرُودَ هَذَا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ،لَا إِشْكَالَ فِيهِ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ قَدْ تُبْنَى عَلَى الْفَرْضِ،وَلِأَنَّ هَذَا الصَّدَّ قَدْ يَقَعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ أُمَرَاءِ مَكَّةَ فِي عَصْرِنَا مِنْ مَنْعِ بَعْضِ الْعَرَبِ كَأَهْلِ نَجْدٍ مِنَ الْحَجِّ لِأَسْبَابٍ دُنْيَوِيَّةٍ ؛ كَأَخْذِ بَعْضِ أُمَرَاءِ نَجْدٍ الزَّكَاةَ مِنْ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الَّذِينَ يَعُدُّهُمْ أُمَرَاءُ مَكَّةَ تَابِعِينَ لَهُمْ.وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةً عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:فَاصْطَادُوا دَاخِلَةً فِي حَيِّزِ شَرْطِهِ،وَيَكُونُ الْمَعْنَى:إِنَّ الصَّيْدَ الَّذِي كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ حَالَ كَوْنِكُمْ حُرُمًا يَحِلُّ لَكُمْ إِذَا حَلَلْتُمْ،وَأَمَّا الِاعْتِدَاءُ عَلَى مَنْ تُبْغِضُونَهُمْ فَلَا يُبَاحُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ حِلٌّ،كَمَا أَنَّهُ لَا يُبَاحُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ،وَإِنْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ قَبْلُ،وَهَذَا لَا يَمْنَعُ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى الِاعْتِدَاءِ بِالْمِثْلِ ؛ لِأَنَّهُ نُهِيَ عَنِ اسْتِئْنَافِ الِاعْتِدَاءِ عَلَى سَبِيلِ الِانْتِقَامِ،فَإِنَّ مَنْ يَحْمِلُهُ الْبُغْضُ وَالْعَدَاوَةُ عَلَى الِاعْتِدَاءِ عَلَى مَنْ يُبْغِضُهُ يَكُونُ مُنْتَصِرًا لِنَفْسِهِ لَا لِلْحَقِّ،وَحِينَئِذٍ لَا يُرَاعِي الْمُمَاثَلَةَ وَلَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الْعَدْلِ،وَلَمْ أَرَ مَنْ نَبَّهَ عَلَى هَذَا وَلَا مَنْ حَرَّرَ هَذَا الْمَبْحَثَ،وَلَكِنْ أَجَازَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ تَوْجِيهِ النَّهْيِ إِلَى الْمُسَبِّبِ وَإِرَادَةِ السَّبَبِ،كَقَوْلِهِ:لَا أَرَيَنَّكَ هَهُنَا.فَالْمُرَادُ النَّهْيُ عَنِ الْبُغْضِ وَالْعَدَاوَةِ،وَجَعْلِهَا حَاكِمَةً عَلَى النَّفْسِ،حَامِلَةً لَهَا عَلَى الِاعْتِدَاءِ وَالْبَغْيِ،وَلَا يَنْفِي هَذَا أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الِاعْتِدَاءِ – كَالصَّدِّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ – جَزَاءٌ خَاصٌّ يُعْرَفُ بِدَلِيلِهِ.[1306]

[1305] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢١٩) وتفسير المراغي (٦/ ٤٥)

[1306] – تفسير المنار (٦/ ١٠٦)

إنها قمة في ضبط النفس وفي سماحة القلب ..ولكنها هي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمــة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهديها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء.
إنها تبعة القيادة والقوامة والشهادة على الناس ..التبعة التي لا بد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجا من السلوك الــذي يحققــه الإســلام،ومن التسامي الذي يصنعه الإسلام.وبهذا يؤدون للإسلام شهادة طيبة تجذب الناس إليه وتحببهم فيه.
وهو تكليف ضخم ولكنه - في صورته هذه - لا يعنت النفس البشرية،ولا يحملــها فــوق طاقتها.فهو يعترف لها بأن من حقها أن تغضب،ومن حقها أن تكره.ولكن ليس من حقها أن تعتدي في فورة الغضب ودفعة الشنآن ..ثم يجعل تعاون الأمة المؤمنة في البر والتقوى لا في الإثم والعدوان ويخوفها عقاب الله،ويأمرها بتقواه،لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضبط،وعلى التسامي والتسامح،تقوى لله،وطلبا لرضاه.
ولقد استطاعت التربية الإسلامية،بالمنهج الرباني،أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهــذه المشاعر القوية،والاعتياد لهذا السلوك الكريم ..وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوي وعــن هذا الاتجاه ..كان المنهج العربي المسلوك والمبدأ العربي المشهور:«انْصُــرْ أَخَــاكَ ظَالِمًــا،أَوْ مَظْلُومًا»[١٣٠٧] ..كانت حمية الجاهلية،ونعرة العصبية.كان التعاون على الإثم والعدوان أقــرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى وكان الحلف على النصرة،في الباطل قبل الحق.وندر أن قام في الجاهلية حلف للحق.وذلك طبيعي في بيئة لا ترتبط بــالله ولا تســتمد تقاليــدها ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله ..يمثل ذلك كله ذلك المبدأ الجاهلي المشهور:«انصر أخــاك ظالما أو مظلوما» ..وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلي في صورة أخرى،وهو يقول:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت،وإن ترشد غزية أرشد!

ثم جاء الإسلام ..جاء المنهج الرباني للتربية ..جاء ليقول للذين آمنوا:«وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَــنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا.وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى،وَلا تَعاوَنُوا عَلَــى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ.وَاتَّقُوا اللَّهَ،إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» ..

[١٣٠٧] - عَنْ أَنَسٍ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا».قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا،فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا قَالَ «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ».صحيح البخارى- المكنز [٩/ ١٠٠] (٢٤٤٤)

جاء ليربط القلوب بالله وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله.جاء ليخـــرج العـــرب – ويخرج البشرية كلها – من حمية الجاهليـــة،ونعرة العصبية،وضـــغط المشـــاعر والانفعـــالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء ..

وولد «الإنسان» من جديد في الجزيرة العربية ..ولد الإنسان الذي يتخلق بأخلاق الله ..وكان هذا هو المولد الجديد للعرب كما كان هو المولد الجديد للإنسان في سائر الأرض ..ولم يكن قبل الإسلام في الجزيرة إلا الجاهلية المتعصبة العمياء:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما».كذلك لم يكن في الأرض كلها إلا هذه الجاهلية المتعصبة العمياء!

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية،وأفق الإسلام هي المسافة بين قول الجاهلية المأثور:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما».وقول الله العظيم:«وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا.وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى،وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْـإِثْمِ وَالْعُـدْوانِ».وشـتان شتان![1308]

وقال تعالى:{ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَـهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّـا ذُو حَـظٍّ عَظِـيمٍ (٣٥)} [فصلت:٣٤،٣٥]

وَلاَ تَتَسَاوَى الحَسَنَةُ التي يَرْضَى اللهُ بهَا،وَيُثِبُ عَلَيْها،مَعَ السَّيِّئةِ التي يَكْرَهُهَـا اللهُ وَيُعَاقِـبُ عَلَيْهَا،فَادْفَعْ سَفَاهَةَ السُّفَهَاءِ،وَجَهَالَةَ الجُهَلاَءِ بالطَّرِيقَة الحُسْـنَى،فَقَابِلْ إِسَـاءَتَهُمْ بالإِحْسَـانِ إِلَيهِمْ،وَقَابِلِ الذَّنْبَ بالعَفْوِ،فَإِذَا صَبَرْتَ عَلَى سُوءِ أَخْلاَقِهِمْ،وَقَابَلْتَ سَفَاهَتَهُمْ برَحَابَـةِ صَـدْرٍ اسْتَحْيَوْا منْ ذَميمِ أَخْلاَقِهِمْ،وَتَرَكُوا قَبِيحَ أَفْعَالِهِمْ.وَانْقَلَبُوا منَ العَدَاوَةِ إِلَى المَحَبَّةِ.

وَلاَ يَقْبَلُ هَذهِ الوَصِيّةَ وَيَعْمَلُ بهَا إِلاَّ مَنْ صَـبَرَ عَلَـى ذَلـكَ،لأَنَّ الصَّـبْرَ يَشُـقُّ عَلَـى النُّفُوسِ،وَيَصْعُبُ احْتِمَالُهُ فِي مَجْرَى العَادَةِ،وَلاَ يَتَقَبَّلُهَا إِلاَّ ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ منَ السَّـعَادَةِ فِـي الدُّنْيَا والآخِرَةِ.[1309]

[1308] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٢١٧)

[1309] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٣١،بترقيم الشاملة آليا)

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ،قَالَ :لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ،قَالَ :فَقُلْتُ :يَا رَسُولَ اللهِ،مَا نَجَاةُ الْمُؤْمِنِ ؟ قَالَ :يَا عُقْبَةُ،احْرُسْ لِسَانَكَ،وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ،وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ،قَالَ :ثُمَّ لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَابْتَدَأَنِي فَأَخَذَ بِيَدِي،فَقَالَ :يَا عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،أَلاَ أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلاَثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ ؟ قَالَ :قُلْتُ :بَلَى،جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ .قَالَ :فَأَقْرَأَنِي {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}،وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}،وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} ثُمَّ قَالَ :يَا عُقْبَةُ،لاَ تَنْسَاهُنَّ،وَلاَ تَبِتِ لَيْلَةً حَتَّى تَقْرَأَهُنَّ قَالَ :فَمَا نَسِيتُهُنَّ قَطُّ مُنْذُ قَالَ :لاَ تَنْسَاهُنَّ،وَمَا بِتُّ لَيْلَةً قَطُّ حَتَّى أَقْرَأَهُنَّ.قَالَ عُقْبَةُ :ثُمَّ لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ :يَا رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الأَعْمَالِ .فَقَالَ :يَا عُقْبَةُ،صِلْ مَنْ قَطَعَكَ،وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ،وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.[1310]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ،قَالَ:كُنْتُ أَمْشِي ذَاتَ يَوْمٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ،صِلْ مَنْ قَطَعَكَ،وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ " ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ:" أَمْسِكْ لِسَانَكَ،وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ،وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ " قَالَ:وَكَانَ عُرْوَةُ بْنُ مُجَاهِدٍ يَقُولُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ:" أَلَا فَرُبَّ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِسَانَهُ،وَلَا يَبْكِي عَلَى خَطِيئَتِهِ،وَلَا يَسَعُهُ بَيْتُهُ "[1311] .

وقوله رضي الله عنه:"وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك منه ما يغلبك " أي ينبغي للمسلم أن يحسن الظن بأخيه،وقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } [الحجرات:١٢]

يَنْهى اللهُ تَعَالى عِبَادَهُ الُمؤْمنينَ عَنِ الظَّنِّ السَّيِّءِ بإخوانهِمْ الُمؤْمنينَ،لأنَّ ظَنَّ الُمؤْمنِ السَّوْءَ إثمٌ،لأنَّ اللهَ نَهَى عَنْ فِعْلِه،فَإذا فَعَلَهُ فَهُوَ آثِمٌ.ثُمَّ نَهَى اللهُ تَعَالى الُمؤْمنينَ عَنْ أن يَتَجَسَّسَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،كَمَا نَهَاهُمْ عَنْ أنْ يَتَتَبَّعَ بَعْضُهُم عَوْرَاتِ بَعْضٍ،وَعَنْ أنْ يَبْحَثَ الوَاحِدُ مِنْهُمْ عَنْ سَرَائِرِ

[1310] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٨٩٦)(١٧٣٣٤) ١٧٤٦٧- حسن لغيره

[1311] - الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٩٣) وشعب الإيمان (١٠/ ٣٣٥)(٧٥٨٥ وشعب الإيمان (١٠/ ٤١٧)(٧٧٢٣ - ٧٧٢٥) حسن لغيره

أخيه،وَهُوَ يَبْتَغِي بذَلِكَ فَضْحَهُ،وَكَشْفَ عُيُوبه.ثُمَّ نَهَاهم عَنْ أنْ يَغْتَابَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً،وَعَنْ أنْ يَذْكُرَ أحَدُهُمْ أخَاهُ بما يَكْرَهُ فِي دِينِه وَدُنْيَاهُ وَخَلْقِه وَخُلُقِه وأهلِه وَمَالِه وَزَوْجِه وَوَلدِه..(كَما عَرَّفَ رَسُولُ الله الاغتِيَابَ) .

وَشَبَّه تَعَالى اغْتِيَابَ المُؤْمِنِ لأخِيهِ المؤمِنِ بأكْلِه لَحمَهُ بَعْدَ موته،وَقَالَ للمُؤمنينَ إنَّهم إذا كَانَ أَحَدُهُمْ يَكْرَهُ أكْلَ لَحْمِ أخِيهِ بَعْدَ مَوتِه،وَإذا كَانَتْ نَفْسُهُ تَعَافُ ذَلِكَ فَعَلَيهِمْ أنْ يَكْرَهُوا أنْ يَغْتَابُوهُ في حَيَاته.

وَلِلْغِيبَةِ ثَلاثَةُ وُجُوه:

الغِيبَةُ – وَهيَ أنْ يَقُولَ الإنسَانُ في أخيه مَا هُوَ فيه مِمَّا يَكْرَهُهُ.

الإفْكُ – أنْ يَقُولَ فيه مَا بَلَغَهُ عَنْهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ.

البُهْتَانُ – أنْ يَقُولُ فيه مَا لَيسَ فيه مِمّا يَكْرَهُهُ.

ثُمَ حَثَّ اللهُ تَعَالى المُؤْمنينَ عَلى تَقْوى الله،وَعَلَى تَرْكِ الغِيبَةِ،وَمُرَاقَبته تَعَالى في السِّرِّ والعَلَنِ،فإذا تَابُوا وانتَهَوا واستَغْفَروا رَبَّهم عَمّا فَرَطَ مِنْهُم،اسْتَجَابَ لَهُم رَبُّهُمْ،فَتَابَ عَلَيهِمْ،لأنَّه تَعَالى كَثيرُ التَّوْبِ عَلَى عِبَادِه،كَثيرُ الرَّحمةِ بِهِمْ.[١٣١٢]

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء،مصونة حقوقهم،وحرياهم،واعتبارهم.حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه.ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم! فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص! وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا،وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلا،وحققه في واقع الحياة،بعد أن حققه في واقع الضمير؟

ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون:«وَلا تَجَسَّسُوا» ..

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات،والاطلاع على السوءات.

[١٣١٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية،لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوآقم.وتمشيا مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب.ولكـــن الأمر أبعد من هذا أثرا.فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيســـية في نظامـــه الاجتمـــاعي،وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية.

إن للناس حرياقم وحرماقم وكراماقم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصـــور،ولا أن تمس بحال من الأحوال.ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكـــريم يعـــيش النـــاس آمـــنين علـــى أنفسهم،آمنين على بيوقم،آمنين على أسرارهم،آمنين على عوراقم.ولا يوجد مبرر – مهمـــا يكن – لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات.

حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإســـلامي ذريعـــة للتجســـس علـــى الناس.فالناس على ظواهرهم،وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم.وليس لأحد أن يأخذهم إلا بمـــا يظهر منهم من مخالفات وجرائم.

وليس لأحد أن يظن أو يتوقع،أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما،فيتجسس عليهم ليضبطهم! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشـــافها،مع الضـــمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة.

بعد ذلك يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب،يبدعه القرآن إبداعا:«وَلا يَغْتَـــبْ بَعْضُـــكُمْ بَعْضاً.أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً؟ فَكَرِهْتُمُوهُ» ..لا يغتـــب بعضـــكم بعضـــا.ثم يعرض مشهدا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية.مشهد الأخ يأكـــل لحـــم أخيه ..ميتا ..! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز،وأنهم إذن كرهـــوا الاغتياب! ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شـــعور التقوى،والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة:«وَاتَّقُوا اللَّـــهَ إِنَّ اللَّـــهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» ..ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامـــة الناس،وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب.ويتشدد فيه رســـول الله – ﷺ – متمشـــيا مـــع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض.[١٣١٣]

[١٣١٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤١٨٨)

وقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢)} [النور:١١،١٢]

إِنَّ الذينَ جَاؤوا بحَديث الإِفْك،وَهُوَ الكَذبُ والبُهْتَانُ وَالافْتراءُ،هُمْ جَمَاعَةٌ منْكُم (عُصْبَةٌ) فَلا تَحْسَبوا أَنَّ في ذَلكَ شَرّاً لَكُمْ وَفتْنَةً،بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ في الدُّنيا والآخرَة،فَهُوَ لسَانُ صدْق في الدُّنيَا،وَرَفْعَةُ مَنَازلَ في الآخرَة،وَإظْهَارُ شَرَف لَكُمْ باعْتنَاء الله تَعَالَى بعَائشَةَ أُمِّ المُؤْمنينَ،إذْ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَهَا في القُرْآن.وَلكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ في هَذَا الأَمْرِ وَخَاضَ فيه،وَرَمَى أَمَّ المُؤْمنينَ بشَيءٍ منَ الفاحشَة،جَزَاءُ مَا اجْتَرَحَ منَ الإِثْم،بقَدَر مَا خَاضَ فيه.فَمنْهُمْ مَنْ تَكَلَّمَ،وَمنْهُمْ مَنْ سَمعَ وَضحكَ سُرُوراً بمَا سَمعَ،وَمنْهُم مَنْ كَانَ ذَنْبُهُ أَقَلَّ،وَبَعْضُهم مَنْ كَانَ ذَنْبُهُ أَكْبَرَ.والذي تَوَلَّى مُعْظَمَ الإِثْم منْهُمْ (كبْرَهُ) – وَهُوَ عَذَابٌ عَظيمٌ عَلَى ذَلكَ الإفْكُ – أَقْبَحُ الكَذب وأَفْحَشُهُ.

ويُؤَدِّبُ اللهُ تَعَالَى في هَذه الآيَة المُؤْمنينَ في قصَّة عَائشَةَ رضْوَانُ الله عَلَيْهَا،حَينَ أَفاضَ بَعْضُهُمْ في ذَلكَ الإفك،فَقَالَ تَعَالَى:هَلاَّ إذْ سَمعْتُمْ هَذَا القَوْلَ الذي رُميَتْ به أَمُّ المُؤْمنينَ،فَقسْتُمْ ذَلكَ الكَلاَمَ عَلَى أَنْفُسكُم،فَإذَا كَانَ لاَ يَليقُ بكُمْ،فَأُمُّ المُؤْمنينَ أَوْلَى بالبَرَاءَة منْهُ،بالأَحْرَى وَالأَوْلَى.

وَقَالَ تَعَالَى:هَلاَّ ظَنَّ المُؤْمنُونَ الخَيْرَ،فَأُمُّ المُؤْمنينَ أَهْلُهُ وَأَوْلَى به،وَهَلاَّ قَالُوا بأَلْسنَتهمْ هَذَا كَذبٌ ظَّاهرٌ عَلَى أُمِّ المُؤْمنينَ،فَإنَّ الذي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ فيه مَا يُريبُ،وَذَلكَ أَنَّ عَائشَةَ جَاءَتْ رَاكبَةً جَهْرَةً عَلَى رَاحلَة صفْوَان بن المُعَطِّل السلمي،في وَقْت الظَهيرَة،والجَيْشُ بكَامله يُشَاهدُ ذَلكَ،وَرَسُولُ الله مَعَهُمْ،فَإنَّ ذَلكَ يَنْفي كُلَّ شُبْهَةٍ وَشَكٍّ،وَلَوْ كَانَ في الأَمْرِ مَا يُرْتَابُ منْهُ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا جَهْرَةً.[١٣١٤]

وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ:«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ،فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَديث،وَلاَ تَحَسَّسُوا،وَلاَ تَجَسَّسُوا،وَلاَ تَحَاسَدُوا،وَلاَ تَدَابَرُوا،وَلاَ تَبَاغَضُوا،وَكُونُوا عبَادَ اللَّه إِخْوَانًا» متفق عليه[١٣١٥].

[١٣١٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٨٤،بترقيم الشاملة آليا)

[١٣١٥] – صحيح البخاري (٨/ ١٩)(٦٠٦٤) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٨٥)٢٨ – (٢٥٦٣)

[ش (إياكم والظن) المراد النهي عن ظن السوء قال الخطابي هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس فإن ذلك لا يملك ومراد الخطابي أن المحرم في الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه دون ما يعرض في القلب ولا يستقر فإن هذا لا

إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ) أَيِ:احْذَرُوا اتِّبَاعَ الظَّنِّ فِي أَمْرِ الدِّينِ الَّذِي مَبْنَاهُ عَلَى الْيَقِينِ قَالَ تَعَالَى:{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس:٣٦] قَالَ الْقَاضِيَ:التَّحْذِيرُ عَنِ الظَّنِّ فِيمَا يَجِبُ فِيهِ الْقَطْعُ أَوِ التَّحَدُّثُ بِهِ عِنْدَ الاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ أَوْ عَمَّا يُظَنُّ كَذِبُهُ اهـ.أَوِ اجْتَنِبُوا الظَّنَّ فِي التَّحْدِيثِ وَالْإِخْبَارِ،وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ:(فَإِنَّ الظَّنَّ) :فِي مَوْضِعِ الظَّاهِرِ زِيَادَةُ تَمْكِينٍ فِي ذِهْنِ السَّامِعِ حَثًّا عَلَى الاجْتِنَابِ (أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) :وَيُقَوِّيهِ حَدِيثُ:" «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» " وَقِيلَ أَيْ أَكْذَبُ حَدِيثِ النَّفْسِ؛لِأَنَّهُ يَكُونُ بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ أَوِ اتَّقُوا سُوءَ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ قَالَ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ} [الحجرات:١٢] وَهُوَ مَا يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ دُونَ مَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ أَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ - وَهُوَ أَنْ يَظُنَّ وَيَتَكَلَّمَ - إِثْمٌ،فَلَا تَجَسَّسُوا،وَهُوَ الْمُلَائِمُ لِقَوْلِهِ:(وَلَا تَحَسَّسُوا،وَلَا تَجَسَّسُوا) :بِحَاءٍ مُهْمَلَةٍ فِي الْأَوَّلِ وَبِالْجِيمِ فِي الثَّانِي فَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَيْ لَا تَطْلُبُوا التَّطَلُّعَ عَلَى خَيْرِ أَحَدٍ وَلَا عَلَى شَرِّهِ،وَكِلَاهُمَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ لِأَنَّهُ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَى خَيْرِ أَحَدٍ رُبَّمَا يَحْصُلُ لَكَ حَسَدٌ بِأَنْ لَا يَكُونَ ذَلِكَ الْخَيْرُ فِيكَ،وَلَوِ اطَّلَعْتَ عَلَى شَرِّهِ تَعِيبُهُ وَتَفْضَحُهُ،وَقَدْ وَرَدَ:طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ.وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:التَّحَسُّسُ بِالْحَاءِ الاسْتِمَاعُ لِحَدِيثِ الْقَوْمِ عَنْ بَوَاطِنِ الْأُمُورِ،وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي الشَّرِّ.وَقِيلَ بِالْجِيمِ التَّفْتِيشُ عَنْ بَوَاطِنِ الْأُمُورِ.وَقِيلَ:هُمَا بِمَعْنًى وَهُوَ طَلَبُ مَعْرِفَةِ الْأَخْبَارِ الْغَائِبَةِ وَالْأَحْوَالِ.

قُلْتُ:هَذَا أَقْرَبُ الْأَقْوَالِ،لَكِنَّ الْأَنْسَبَ أَنْ يُقَيَّدَ بِالْأَخْبَارِ الَّتِي تَقْضِي إِلَى سُوءِ الظَّنِّ،كَمَا يُفِيدُهُ الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ،وَقَدْ قُرِئَ فِيهَا بِالْحَرْفَيْنِ،لَكِنَّ الْحَاءَ شَاذٌّ.

قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ:أَيْ لَا تَبْحَثُوا عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ.تَفَعُّلٌ مِنَ الْجَسِّ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الطَّلَبِ كَالتَّلَمُّسِ،وَقُرِئَ بِالْحَاءِ مِنَ الْحِسِّ الَّذِي هُوَ أَثَرُ الْجَسِّ وَغَايَتُهُ،وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلْحَوَاسِّ الْجَوَاسُّ اهـ.وَقِيلَ بِالْجِيمِ التَّفْتِيشُ عَنْ بَوَاطِنِ الْأُمُورِ بِتَلَطُّفٍ وَمِنْهُ الْجَاسُوسُ،وَبِالْحَاءِ تَطْلُبُ الشَّيْءَ بِالْحَاسَّةِ كَاسْتِرَاقِ السَّمْعِ،وَإِبْصَارِ الشَّيْءِ خُفْيَةً.وَقِيلَ:الْأَوَّلُ التَّفَحُّصُ عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ

يكلف به (ولا تحسسوا ولا تجسسوا) قال العلماء التحسس الاستماع لحديث القوم والتجسس البحث عن العورات وقيل هو التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر والجاسوس صاحب سر الشر والناموس صاحب سر الخير (ولا تنافسوا) المنافسة والتنافس معناهما الرغبة في الشيء وفي الانفراد به ونافسته منافسة إذا رغبت فيما رغب فيه وقيل معنى الحديث التباري في الرغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظها]

وَبَوَاطِنِ أُمُورِهِمْ بِنَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ،وَالثَّانِي بِنَفْسِهِ،وَقِيلَ الْأَوَّلُ مَخْصُوصٌ بِالشَّرِّ وَالثَّانِي أَعَمُّ.(وَلَا تَنَاجَشُوا) :مِنَ النَّجْشِ بِالْجِيمِ وَالْمُعْجَمَةِ.قِيلَ الْمُرَادُ بِهِ طَلَبُ التَّرَفُّعِ وَالْعُلُوِّ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِسَابِقِهِ وَلَاحِقِهِ.وَقِيلَ:أَنْ يُغْرِيَ بَعْضٌ بَعْضًا عَلَى الشَّرِّ وَالْخُصُومَةِ،وَهُوَ مِنْ نَتَائِجِ التَّجَسُّسِ.وَقِيلَ:هُوَ الزِّيَادَةُ فِي الثَّمَنِ بِغَيْرِ رَغْبَةٍ فِي السِّلْعَةِ،بَلْ لِيَخْدَعَ الْمُشْتَرِي بِالتَّرْغِيبِ مِنَ النَّجْشِ رَفْعِ الثَّمَنِ،وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ،وَقِيلَ:مِنَ النَّجْشِ مَعْنَى التَّنْفِيرِ أَيْ لَا يُنَفِّرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِأَنْ يُسْمِعَهُ كَلَامًا أَوْ يَعْمَلَ شَيْئًا يَكُونُ سَبَبَ نُفْرَتِهِ (وَلَا تَحَاسَدُوا) أَيْ:لَا يَتَمَنَّى بَعْضُكُمْ زَوَالَ نِعْمَةِ بَعْضٍ سَوَاءٌ أَرَادَهَا لِنَفْسِهِ أَوْ لَا.قَالَ تَعَالَى:{وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء:٣٢] إِلَى أَنْ قَالَ:" {وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء:٣٢] " أَيْ مِثْلَ تِلْكَ النِّعْمَةِ أَوْ أَمْثَلَ مِنْهَا،وَهَذَا الْحَسَدُ الْمَحْمُودُ الْمُسَمَّى بِالْغِبْطَةِ،كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ " «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ» " الْحَدِيثَ.(وَلَا تَبَاغَضُوا) أَيْ:لَا تَخْتَلِفُوا فِي الْأَهْوَاءِ وَالْمَذَاهِبِ ؛ لِأَنَّ الْبِدْعَةَ فِي الدِّينِ وَالضَّلَالُ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ يُوجِبُ الْبُغْضَ كَذَا قِيلَ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ التَّبَاغُضِ تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بِالتَّحَابُبِ مُطْلَقًا إِلَّا مَا يَخْتَلُّ بِهِ الدِّينُ،فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ حِينَئِذٍ التَّحَابُبُ،وَيَجُوزُ التَّبَاغُضُ لِأَنَّ غَرَضَ الشَّارِعِ اجْتِمَاعُ كَلِمَةِ الْأُمَّةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران:١٠٣] وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّحَابُبَ سَبَبُ الِاجْتِمَاعِ وَالتَّبَاغُضُ مُوجِبُ الِافْتِرَاقِ،فَالْمَعْنَى لَا يُبْغِضْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ:أَيْ لَا تَشْتَغِلُوا بِأَسْبَابِ الْعَدَاوَةِ إِذِ الْعَدَاوَةُ وَالْمَحَبَّةُ مِمَّا لَا اخْتِيَارَ فِيهِ،فَإِنَّ الْبُغْضَ مِنْ نِفَارِ النَّفْسِ عَمَّا مَا يُرْغَبُ عَنْهُ،وَأَوَّلُهُ الْكَرَاهَةُ،وَأَوْسَطُهُ النُّفْرَةُ،وَآخِرُهُ الْعَدَاوَةُ،كَمَا أَنَّ الْحُبَّ مِنِ انْجِذَابِ النَّفْسِ إِلَى مَا يَرْغَبُ فِيهِ،وَمَبْدَؤُهُ الْمَيْلُ،ثُمَّ الْإِرَادَةُ،ثُمَّ الْمَوَدَّةُ وَهُمَا مِنْ غَرَائِزِ الطَّبْعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.وَقِيلَ:لَا تُوقِعُوا الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،فَيَكُونُ نَهْيًا عَنِ النَّمِيمَةِ لِمَا فِيهِ مِنْ تَأْسِيسِ الْفَسَادِ،وَهَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِمَصْلَحَةٍ،فَإِذَا دَعَتْ كَمَا لَوْ أُخْبِرَ أَنَّ إِنْسَانًا يُرِيدُ الْفَتْكَ بِهِ،أَوْ بِأَهْلِهِ أَوْ بِمَالِهِ،فَلَا مَنْعَ،بَلْ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا.(وَلَا تَدَابَرُوا) :بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِيهِ،وَفِيمَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْخَمْسَةِ،وَيَجُوزُ تَشْدِيدُ التَّاءِ وَصْلًا كَمَا قَرَأَ بِهِ الْبَزِّيُّ رَاوِي ابْنِ كَثِيرٍ مِنْ نَحْوِ:لَا تَيَمَّمُوا أَيْ:لَا تُقَاطِعُوا،وَلَا تُوَلُّوا ظُهُورَكُمْ عَنْ إِخْوَانِكُمْ،وَلَا تُعْرِضُوا عَنْهُمْ مَأْخُوذٌ

مِنَ الدُّبُرِ،لِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْمُتَقَاطِعَيْنِ يُوَلِّي دُبُرَهُ صَاحِبَهُ وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تَغْتَابُوا.(وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) :خَبَرٌ آخَرُ أَوْ بَدَلٌ،أَوْ هُوَ الْخَبَرُ وَعِبَادُ اللَّهِ مَنْصُوبٌ عَلَى الِاخْتِصَاصِ بِالنِّدَاءِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:وَهَذَا الْوَجْهُ أَوْقَعُ.قُلْتُ:بَلْ وُقُوعُهُ خَبَرًا وَاقِعًا تَحْتَ الْأَمْرِ أَوْجَهُ،لِكَوْنِ هَذَا الْوَجْهِ مُشْعِرًا بِالْعِلِّيَةِ مِنْ حَيْثُ الْعُبُودِيَّةِ،وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ فِي رِوَايَةٍ ضُبِطَ عِبَادٌ بِالنَّصْبِ وَلِلَّهِ بِاللَّامِ الْأَجَلِّيَّةِ،وَالْمَعْنَى أَنْتُمْ مُسْتَوُونَ فِي كَوْنِكُمْ عُبَيْدَ اللَّهِ وَمِلَّتُكُمْ وَاحِدَةٌ،وَالتَّحَاسُدُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّقَاطُعُ مُنَافِيَةٌ لِحَالِكُمْ،فَالْوَاجِبُ أَنْ تُعَامِلُوا مُعَامَلَةَ الْأُخُوَّةِ وَالْمُعَاشَرَةِ فِي الْمَوَدَّةِ وَالْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالنَّصِيحَةِ بِكُلِّ حَسَنَةٍ.قِيلَ:الْأَخُ النَّسَبِيُّ يُجْمَعُ عَلَى الْإِخْوَةِ.قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} [النساء:١١] وَالْمَجَازِيُّ عَلَى الْأَخَوَانِ قَالَ تَعَالَى:{إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر:٤٧] .فَقَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات:١٠] لِلْمُبَالَغَةِ وَالْمَفْهُومُ مِنَ الْقَامُوسِ عَدَمُ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(وَفِي رِوَايَةٍ:وَلَا تَنَافَسُوا) :ظَاهِرُهُ أَنَّ مَحَلَّهُ بَعْدَ الْكُلِّ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا عَنْ إِحْدَى صِيَغِ النَّهْيِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ لَا تَحَاسَدُوا وَهُوَ الْأَظْهَرُ،وَلِذَا قَالَ الشُّرَّاحُ:التَّنَافُسُ وَالتَّحَاسُدُ فِي الْمَعْنَى وَاحِدٌ،وَإِنِ اخْتَلَفَا فِي الْأَصْلِ.قُلْتُ:لَكِنَّ التَّنَافُسَ يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ الَّتِي قَدْ تُفْضِي إِلَى الْمُنَازَعَةِ،فَالْمَعْنَى لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَازَعُوا فِي الْأُمُورِ الْخَسِيسَةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ،بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَنَافُسُكُمْ فِي الْأَشْيَاءِ النَّفْسِيَّةِ الْمَرْضِيَّةِ الْأُخْرَوِيَّةِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين:٢٦] وَمَا أَنْفَسَ نَفْسُ الشَّاطِبِيِّ حَيْثُ يَذْكُرُ مَضْمُونَ هَذَا الْكَلَامِ الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ:

عَلَيْكَ بِهَا مَا عِشْتَ فِيهَا مُنَافِسًا ...وَبِعْ نَفْسَكَ الدُّنْيَا بِأَنْفَاسِهَا الْعُلَى.[١٣١٦]

وقوله رضي الله عنه " وَلا تَظُنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا مَحْمَلا." أي ينبغي حمل أقوال المسلم على أحسن المحامل،وألا يظن فيها شرا .

وقوله رضي الله عنه " وَمَنْ عَرَضَ نَفْسَهُ لِلتُّهْمَةِ فَلا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ." وفيه تحذير المسلم من أن يعرض نفسه للتهمة،وأن يتقصد مواطن التهم حتى لا يساء به الظن.

[١٣١٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٤٧)

وإذا فعل فعلا جائزا وخشي أن ينكره من لا يعرف حقيقة الحال فعليه أن يبين لـــه حقيقـــة الأمر.

وعَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ،قَالَتْ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا،فَحَدَّثْتُهُ ثُـــمَّ قُمْـــتُ فَانْقَلَبْتُ،فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي،وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ،فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الأَنْصَارِ،فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ» فَقَالاَ سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:" إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ،وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْـــذِفَ فِـــي قُلُوبِكُمَا سُوءًا،أَوْ قَالَ:شَيْئًا " متفقٌ عليه[١٣١٧]

لَمْ يَنْسُبْهُمَا النَّبِيّ ﷺ إِلَى أَنَّهُمَا يَظُنَّان بِهِ سُوءًا لِمَا تَقَرَّرَ عِنْده مِنْ صِدْق إِيمَانهمَا،وَلَكِنْ خَشِيَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُوَسْوِسَ لَهُمَا الشَّيْطَان ذَلِكَ ،لِأَنَّهُمَا غَيْرُ مَعْصُومَيْنِ ،فَقَدْ يُفْضِي بِهِمَا ذَلِـــكَ إِلَـــى الْهَلَاك ،فَبَادَرَ إِلَى إِعْلَامهمَا حَسْمًا لِلْمَادَّة ،وَتَعْلِيمًا لِمَنْ بَعْدَهُمَا إِذَا وَقَعَ لَهُ مِثْل ذَلِكَ كَمَا قَالَهُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى،فَقَدْ رَوَى الْحَاكِم أَنَّ الشَّافِعِيّ كَانَ فِي مَجْلِس ابْن عُيَيْنَةَ فَسَأَلَهُ عَنْ هَذَا الْحَدِيث ،فَقَالَ الشَّافِعِيُّ:إِنَّمَا قَالَ لَهُمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمَا الْكُفْرَ إِنْ ظَنَّا بِهِ التُّهْمَـــة ،فَبَادَرَ إِلَى إِعْلَامهمَا نَصِيحَةً لَهُمَا قَبْل أَنْ يَقْذِفَ الشَّيْطَانُ فِي نُفُوسهمَا شَيْئًا يَهْلِكَان بِهِ ،وَفِي الْحَدِيث مِنْ الْفَوَائِد جَوَاز اشْتِغَال الْمُعْتَكِف بِالْأُمُورِ الْمُبَاحَة مِنْ تَشْيِيع زَائِره وَالْقِيَـــام مَعَـــهُ وَالْحَدِيث مَعَ غَيْره،وَإِبَاحَة خَلْوَة الْمُعْتَكِف بِالزَّوْجَة،وَزِيَارَة الْمَرْأَة لِلْمُعْتَكِف،وَبَيَان شَفَقَته ﷺ عَلَى أُمَّته وَإِرْشَادهمْ إِلَى مَا يَدْفَع عَنْهُمْ الْإِثْم ،وَفِيهِ التَّحَرُّز مِنْ التَّعَرُّض لِسُوءِ الظَّنّ وَالِاحْتِفَاظ مِنْ كَيْد الشَّيْطَان وَالِاعْتِذَار،قَالَ ابْن دَقِيق الْعِيد:وَهَذَا مُتَأَكِّد فِي حَقّ الْعُلَمَاء وَمَنْ يُقْتَدَى بِـــهِ ،فَلَا يَجُوز لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلًا يُوجِب سُوء الظَّنّ بِهِمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ فِيهِ مَخْلَص ،لِـــأَنَّ ذَلِـــكَ سَبَبٌ إِلَى إِبْطَال الِانْتِفَاع بِعِلْمِهِمْ،وَمِنْ ثَمَّ قَالَ بَعْض الْعُلَمَاء:يَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يُبَيِّن لِلْمَحْكُومِ عَلَيْهِ وَجْه الْحُكْم إِذَا كَانَ خَافِيًا نَفْيًا لِلتُّهْمَةِ ،وَفِيهِ جَوَازُ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ لَيْلًا.[١٣١٨]

[١٣١٧] - صحيح البخاري (٤/ ١٢٤)(٣٢٨١) وصحيح مسلم (٤/ ١٧١٢)٢٤ - (٢١٧٥)

[ش (ليقلبني) أي ليردني إلى منزلي (على رسلكما) هو بكسر الراء وفتحها لغتان والكسر أفصح وأشهر أي على هينتكما في المشي فما هنا شيء تكرهانه]

[١٣١٨] - فتح الباري لابن حجر - (ج ٦ / ص ٣٢٦)

وقال الإمام النووي في شرح هذا الحديث:" وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ التَّحَرُّزِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِسُوءِ ظَنِّ النَّاسِ فِي الْإِنْسَانِ وَطَلَبِ السَّلَامَةِ وَالاعْتِذَارِ بِالْأَعْذَارِ الصحيحة وأنه متى فعل ماقد ينكر ظاهره مماهو حَقٌّ وَقَدْ يَخْفَى أَنْ يُبَيِّنَ حَالَهُ لِيَدْفَعَ ظَنَّ السُّوءِ وَفِيهِ الاسْتِعْدَادُ لِلتَّحَفُّظِ مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ فَيَتَأَهَّبُ الْإِنْسَانُ لِلاحْتِرَازِ مِنْ وَسَاوِسِهِ وَشَرِّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ قَوْلُهُ ﷺ"[1319]

وقوله رضي الله عنه:" وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ " أي من كتم سره كانت له الخيرة في أمر سره،ولا يحصل له ذلك إذا أفشاه،لأن الخيرة ليست في يده وحده بعد أن أفشاه لغيره.الله أعلم.

وقوله رضي الله عنه:" وَعَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الصِّدْقِ تَعِشْ فِي أَكْنَافِهِمْ،فَإِنَّهُمْ زِينَةٌ فِي الرَّخَاءِ،وَعُدَّةٌ فِي الْبَلَاءِ،وفي رواية :وَعَلَيْكَ بِصَالِحِ الْإِخْوَانِ،أَكْثِرِ اكْتِسَابَهُمْ فَإِنَّهُمْ زَيْنٌ فِي الرَّخَاءِ،وَعِدَّةٌ عِنْدَ الْبَلَاءِ" وفيه الترغيب في صحبة إخوان الصدق الذين هم زينة في وقت الرخاء،ومن أفضل ما يعد عند البلاء،فإنهم لا يخذلون صاحبهم عند الشدائد،بل يساعدونه وينصرونه.

وقوله رضي الله عنه " وَعَلَيْكَ بِالصِّدْقِ وَإِنْ قَتَلَكَ." وفيه الحث على الصدق،وإن أفضى إلى القتل.

وقوله رضي الله عنه " ولا تعرَّضْ فيما لا يعنيكَ " فإن من حسن إسلام المرء أن يترك مالا يعنيه في دينه،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» رواه الترمذي وغيره[1320].

[1319] - شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٥٦)

[1320] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٥٨)(٢٣١٧) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣١٥)(٣٩٧٦) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٤٦٦)(٢٢٩) صحيح

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْأَجَلُّ الْعَارِفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ:«تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» مِنْ أَوْصَافِ النَّاسِ،وَأَقْوَالِهِمْ،فَلَا يَكَادُ يَذْكُرُهُمْ،وَلَا يَنْظُرُ إِلَى عُيُوبِهِمْ،وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِمْ فِي أَخْلَاقِهِمْ؛لِأَنَّهُ قَدْ أَسْلَمَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،فَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يُطَالِبُهُمْ بِصِدْقِهِمْ فِي أَفْعَالِهِمْ،وَصِحَّةِ أَعْمَالِهِمْ،وَيُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ،وَيُشْفِقُ عَلَيْهِمْ،وَيَنْصَحُ لَهُمْ،وَيَقْبَلُ مِنْهُمْ ظَوَاهِرَهُمْ،وَيُوَكِّلُ سَرَايِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِمَّا يَعْنِيهِ،فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ،وَيَدِهِ،فَهُوَ الْمُسْلِمُ،وَالْإِسْلَامُ لَهُ صِفَةٌ،وَالْحُسْنُ لِإِسْلَامِهِ صِفَةٌ،فَهُوَ لَمَّا حَسُنَ إِسْلَامُهُ فِي إِسْلَامِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى اللَّهِ تَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ مِنَ الْبَحْثِ عَنْ سَرَائِرِهِمْ،وَمُطَالَبَةِ الصِّدْقِ إِذَا صَلُحَتْ ظَوَاهِرُهُمْ،وَالْإِعْرَاضِ عَنْ مُخْتَلَفِ أَحْوَالِهِمْ إِلَّا فِيمَا يَلْزَمُهُ فَرْضُ أَمْرٍ

أَيْ:مِنْ جُمْلَةِ مَحَاسِنِ إِسْلَامِ الشَّخْصِ وَكَمَالِ إِيمَانِه (تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)،أَيْ:مَا لَا يُهِمُّهُ وَلَا يَلِيقُ بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَنَظَرًا وَفِكْرًا،فَحُسْنُ الْإِسْلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ كَمَالِه،وَهُوَ أَنْ تَسْتَقِيمَ نَفْسُهُ فِي الْإِذْعَانِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ،وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَحْكَامِهِ عَلَى وَفْقِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فِيهِ،وَهُوَ عَلَامَةُ شَرْحِ الصَّدْرِ بِنُورِ الرَّبِّ،وَنُزُولِ السَّكِينَةِ عَلَى الْقَلْبِ،وَحَقِيقَةُ مَا لَا يَعْنِيهِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ضَرُورَةِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ،وَلَا يَنْفَعُهُ فِي مَرْضَاةِ مَوْلَاهُ بِأَنْ يَكُونَ عَيْشُهُ بِدُونِهِ مُمْكِنًا،وَهُوَ فِي اسْتِقَامَةِ حَالِهِ بِغَيْرِهِ مُتَمَكِّنًا،وَذَلِكَ يَشْمَلُ الْأَفْعَالَ الزَّائِدَةَ وَالْأَقْوَالَ الْفَاضِلَةَ،فَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِالْأُمُورِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا صَلَاحُهُ فِي نَفْسِهِ فِي أَمْرِ زَادِهِ بِإِصْلَاحِ طَرَفَيْ مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ،وَبِالسَّعْيِ فِي الْكَمَالَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْفَضَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ وَسِيلَةٌ إِلَى نَيْلِ السَّعَادَاتِ الْأَبَدِيَّةِ،وَالْفَوْزِ بِالنِّعَمِ السَّرْمَدِيَّةِ،وَلَعَلَّ الْحَدِيثَ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون:٣]

بِمَعْرُوفٍ،أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ فِي رِقَّةٍ بِهِمْ،وَشَفَقَةٍ عَلَيْهِمْ،وَإِرَادَةِ الصَّلَاحِ لَهُمْ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ حُسْنَ تَسْلِيمِهِ،وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} [التوبة:١١١] الْآيَةَ،فَقَدِ اشْتَرَى اللَّهُ مِنْهُمْ نُفُوسَهُمْ،فَعَلَيْهِمْ تَسْلِيمُ الْمَبِيعِ،وَقَدْ بَاعَ الْبَائِعُ الشَّيْءَ،وَيَلْتَوِي فِي تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ،حَتَّى يَنْتَزِعَهُ الْمُشْتَرِي مِنْهُ بِحَقِّ الْبَايِعِ،فَأَمَّا مَنْ حَسُنَ تَسْلِيمُهُ سَلَّمَ الْمَبِيعَ أَوْفَرَ مَا كَانَ،وَأَتَمَّهُ فِي سَعَةٍ مِنْ صَدْرِهِ،وَطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ،خَاصَّةً إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ اسْتَحَقَّ مِنَ الثَّمَنِ أَضْعَافَ أَضْعَافِ الْقِيمَةِ،فَمَتَى حَسُنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ حَسُنَ تَسْلِيمُ نَفْسِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، غَيْرَ مُلْتَوٍ وَلَا مُتَرَبِّصٍ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ:{أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ،وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [البقرة:١٣٢]،وَمِنْ حُسْنِ تَسْلِيمِهِ أَنْ لَا يَعْتَرِضَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْكَامِهِ عَلَيْهِ،وَقَضَايَاهُ فِيمَا شَاءَ،وَسَرَيَانُ الِاعْتِرَاضِ مِنْهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَسَخُّطِ قَضَائِهِ،وَالتَّأَبِّي لِمَعْقُولِ أَحْكَامِهِ هُوَ الَّذِي لَا يَعْنِيهِ؛لِأَنَّ الْمُشْتَرِيَ إِذَا أَحْدَثَ فِيمَا اشْتَرَاهُ مِنْ هَدْمِ بِنَاءٍ فِيهِ،أَوْ تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنْهُ،أَوْ نَقْضٍ فِيهِ،أَوْ إِبْرَامٍ،فَاعْتَرَضَ الْبَائِعُ فِيهِ مِمَّا لَا يَعْنِيهِ مِنْ قَوْلِهِ لِمَ فَعَلْتَ،وَأَلَا صَنَعْتَ كَذَا،وَلَوْ فَعَلْتَ كَذَا،وَلَيْتَكَ صَنَعْتَ كُلَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْنِيهِ ، فَحَصَلَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ:«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»،عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ الرِّضَا بِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى،وَالتَّلَقِّي بِالْبِشْرِ،وَالسُّرُورِ،ثُمَّ الْقَضَاءُ،وَالصَّبْرُ تَحْتَ أَثْقَالِ مَا يَكْرَهُهُ،وَالِاسْتِسْلَامُ،وَالِانْقِيَادُ بِذُلِّ الْعُبُودِيَّةِ لِلْمَلِكِ الْقَهَّارِ،فِيمَا يُجْرِيهِ مِنْ أَحْكَامِهِ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ أَرْضِهِ،وَسَمَائِهِ،وَفِي نَفْسِ الْعَبْدِ مِمَّا يُؤْلِمُهُ وَيَلَذُّهُ،أَوْ يَسُرُّهُ،وَيُحْزِنُهُ.قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:وَايْمُ اللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا الْفَنَاءُ،وَالْفَقْرُ،وَمَا أُبَالِي بِأَيِّهِمَا ابْتُلِيتُ،وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ:ابْتُدِيتُ ، فَهَذَا مِنْ حُسْنِ الْإِسْلَامِ أَنْ لَا يَعْتَرِضَ عَلَى اللَّهِ،وَلَا يَخْتَارَ تَسْلِيمًا لِنَفْسِهِ إِلَيْهِ،وَتَفْوِيضًا لِأَمْرِهِ إِلَيْهِ،كَمَا نَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ فِيمَا جَاءَ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ لِرَجُلٍ:" إِذَا آوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ،فَقُلِ:اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ،وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ،وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ،وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ،رَغْبَةً،وَرَهْبَةً مِنْكَ،وَإِلَيْكَ،لَا مَلْجَأَ وَمَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ،آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ،وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ،فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ "بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص:١٤١)

قَالَ الْغَزَالِيُّ:وَحَدُّ مَا لَا يَعْنِيكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِكُلِّ مَا لَوْ سَكَتَّ عَنْهُ لَمْ تَأْثَمْ وَلَمْ تَتَضَرَّرْ فِي حَالٍ وَلَا مَآلٍ،وَمِثَالُهُ:أَنْ تَجْلِسَ مَعَ قَوْمٍ فَتَحْكِيَ مَعَهُمْ أَسْفَارَكَ وَمَا رَأَيْتَ فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَنْهَارٍ،وَمَا وَقَعَ لَكَ مِنَ الْوَقَائِعِ،وَمَا اسْتَحْسَنْتَهُ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالثِّيَابِ،وَمَا تَعَجَّبْتَ مِنْهُ مِنْ مَشَايِخِ الْبِلَادِ وَوَقَائِعِهِمْ،فَهَذِهِ أُمُورٌ لَوْ سَكَتَّ عَنْهَا لَمْ تَأْثَمْ وَلَمْ تَتَضَرَّرْ،وَإِذَا بَالَغْتَ فِي الِاجْتِهَادِ حَتَّى لَمْ يَمْتَزِجْ بِحِكَايَتِكَ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانُ،وَلَا تَزْكِيَةُ نَفْسٍ مِنْ حَيْثُ التَّفَاخُرُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَحْوَالِ الْعَظِيمَةِ،وَلَا اغْتِيَابٌ لِشَخْصٍ،وَلَا مَذَمَّةٌ لِشَيْءٍ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى،فَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مُضَيِّعٌ زَمَانَكَ،وَمُحَاسَبٌ عَلَى عَمَلِ لِسَانِكَ إِذْ تَسْتَبْدِلُ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؛ لِأَنَّكَ لَوْ صَرَفْتَ زَمَانَ الْكَلَامِ فِي الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ رُبَّمَا يَنْفَتِحُ لَكَ مِنْ نَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَعْظُمُ جَدْوَاهُ،وَلَوْ سَبَّحْتَ اللَّهَ بُنِيَ لَكَ بِهِمَا قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ،وَمَنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ كَنْزًا مِنَ الْكُنُوزِ فَأَخَذَ بَدَلَهُ بَدْرَةً لَا يَنْتَفِعُ بِهَا كَانَ خَاسِرًا خُسْرَانًا مُبِينًا،وَهَذَا عَلَى فَرْضِ السَّلَامَةِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي كَلَامِ الْمَعْصِيَةِ،وَأَنَّى تَسْلَمُ مِنَ الْآفَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا؟ وَذُكِرَ أَنَّ بَعْضَ الْعَارِفِينَ مَرَّ عَلَى غُرْفَةٍ بُنِيَتْ فَقَالَ:مُذْ كَمْ بُنِيَتْ هَذِهِ؟ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَالَ:يَا نَفْسِيَ الْمَغْرُورَةُ تَسْأَلِينَ عَمَّا لَا يَعْنِيكِ وَعَاقَبَهَا بِصَوْمِ سَنَةٍ.اهـ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ:«لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا»،عَلَى مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ مُعَاذٍ مَرْفُوعًا.«فَطُوبَى لِمَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ» .قَالَ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر:١٨ - ١٩] قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ،وَمَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ،وَقِيلَ:مَا تَكَلَّمَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ بِكَلَامِ الدُّنْيَا عِشْرِينَ سَنَةً،وَكَانَ إِذَا أَصْبَحَ وَضَعَ قِرْطَاسًا نَقِيًّا وَقَلَمًا،فَكُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ كَتَبَهُ ثُمَّ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ،هَذَا وَعَنْ بَعْضِهِمْ " مِنْ " فِي قَوْلِهِ:مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَبْعِيضِيَّةٌ،وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بَيَانِيَّةً.اهـ.

وَبَيَانُهُ:أَنَّ تَرْكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ هُوَ حُسْنُ إِسْلَامِ الْمَرْءِ وَكَمَالُهُ فِيهِ،وَتَقَدَّمَ الْخَبَرُ لِكَوْنِ التَّرْكِيبِ مِنْ بَابِ:عَلَى التَّمْرَةِ مِثْلُهَا زُبْدًا.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَعَلَى أَنْ تَكُونَ تَبْعِيضِيَّةً إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ - ﷺ:"

«الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» ".الْحَديثَ،بَعْدَ الْإِيمَان وَالْإِسْلَام،وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ التَّحْليَةَ مَسْبُوقَةٌ بالتَّخْليَة،فَالتَّرْكُ بَعْضٌ منَ الْإِحْسَان،فَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى الانْسلَاخِ عَمَّا يَشْغَلُهُ عَنِ اللَّه،فَإِذَا أَخَذَ السَّالكُ في السُّلُوك تَجَرَّدَ بحَسْب أَحْوَاله وَمَقَامَاته شَيْئًا فَشَيْئًا،ممَّا لَا يَعْنيه إِلَى أَنْ يَتَجَرَّدَ عَنْ جَميعِ أَوْصَافه،وَيَتَوَجَّهُ بكُلِّيَّته إِلَى اللَّه سُبْحَانَهُ،وَإِلَيْه يُلْمحُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّه وَهُوَ مُحْسنٌ} [البقرة:١١٢]،وَقَوْلُ إِبْرَاهيمَ عَلَيْه السَّلَامُ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ:{أَسْلَمْتُ لرَبِّ الْعَالَمينَ} [البقرة:١٣١] قَالَ النَّوَويُّ:هَذَا أَحَدُ الْأَحَاديث الَّتي عَلَيْهَا مَدَارُ الْإِسْلَامِ.قَالَ أَبُو دَاوُدَ:وَهيَ أَرْبَعَةٌ،الْأَوَّلُ حَديثُ نُعْمَانَ بْنِ بَشيرٍ:" «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ» "،الثَّاني:" «منْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنيه» ".الثَّالثُ:" «لَا يَكُونُ الْمُؤْمنُ مُؤْمنًا حَتَّى يُحبَّ لأَخيه مَا يُحبُّ لنَفْسه» ".الرَّابعُ:" «الْأَعْمَالُ بالنِّيَّات» " وَقيلَ بَدَلَ الثَّالث:" «ازْهَدْ في الدُّنْيَا يُحبَّكَ اللَّهُ،وَازْهَدْ فيمَا في أَيْدي النَّاسِ يُحبَّكَ النَّاسُ» ".وَأَنْشَدَ الْإِمَامُ الشَّافعيُّ – رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ – في مَعْنَاهُ:

عُمْدَةُ الْخَيْرِ عنْدَنَا كَلمَاتٌ أَرْبَعُ ...قَالَهُنَّ خَيْرُ الْبَرِيَّة

اتَّقِ الشُّبُهَاتِ وَازْهَدْ وَدَعْ ...مَا لَيْسَ يَعْنيكَ وَاعْمَلَنْ بنيَّة

قُلْتُ:مَدَارُ الْأَرْبَعَة السُّنِّيَّة عَلَى تَصْحيحِ النِّيَّة،فَإِنَّهُ إِذَا عَملَ بالنِّيَّة الْمُرْتَبطَة بحُسْنِ الطَّوِيَّة يُورِثُ لَهُ اتِّقَاءَ الشُّبُهَات أَكْلًا،وَتَرْكَ مَا لَا يَعْنيه قَوْلًا وَفعْلًا،وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الزُّهْدُ في الدُّنْيَا وَالزُّهْدُ فيمَا في أَيْدي النَّاسِ بالْأَوْلَى،فَيُحبُّ الْمُؤْمنينَ وَيُحبُّونَهُ للَّه تَعَالَى،«فَنيَّةُ الْمُؤْمنِ خَيْرٌ منْ عَمَله»،كَمَا وَرَدَ في الْحَديث،وَقَدْ جَعَلْتُ في شَرْحه رِسَالَةً تُعَيِّنُ مَبَانيَهُ وَتُبَيِّنُ مَعَانيَهُ.[١٣٢١]

وقوله رضي الله عنه " ولا تسألْ عمَّا لم يكنْ،فإنَّ في ما كانَ شغلٌ عمَّا لم يكنْ." [١٣٢٢]وفيه النهي عن السؤال عن الحوادث قبل وقوعها والانشغال عن ذلك بما هو كائن وواقع.

وعن يَزيدَ الْمنْقَريِّ قَالَ:" جَاءَ رَجُلٌ يَوْمًا إِلَى ابْنِ عُمَرَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَا أَدْري مَا هُوَ،فَقَالَ لَهُ:ابْنُ عُمَرَ:لَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ،فَإِنِّي سَمعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْه يَلْعَنُ مَنْ سَأَلَ عَمَّا لَمْ يَكُنْ"[١٣٢٣]

[١٣٢١] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٤٠)

[١٣٢٢] – المخلصيات (٤/ ٨٤)

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،قَالَ:«سَلْ عَمَّا كَانَ،وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ وَلَا يَكُونُ»[1324]

وقوله رضي الله عنه " وَلا تَطْلُبْ حَاجَتَكَ إِلَى مِنْ لا يُحِبُّ نَجَاحَهَا لَكَ."[1325] فالحاجة لا تطلب إلا من الناصح الذي يحب نجاحها،وكذلك الأعمال والولايات لا تسند إلا لناصح أمين الذي يحب نجاحها وإنجازها.

وقوله رضي الله عنه:" وَلا تَهَاوَنُوا بِالْحَلِف بَاللَّه فَيُهِيْنُكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ."[1326] وفيه النهي عن الحلف الكاذب.فعَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ مُتَعَمِّدًا فِيهَا إِثْمًا يَقْتَطِعُ مَالًا بِغَيْرِ حَقٍّ،فَإِنَّهُ يَلْقَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»[1327]

وقوله رضي الله عنه " وَلَا تَصْحَبِ الْفُجَّارَ،فَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِمْ."[1328]وفيه النهي عن مصاحبة الفجار حتى لا يتعلم من يصاحبهم من فجورهم،فعَنْ أَبِي مُوسَى،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ،وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ،كَحَامِلِ الْمِسْكِ،وَنَافِخِ الْكِيرِ،فَحَامِلُ الْمِسْكِ:إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ،وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ،وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً،وَنَافِخُ الْكِيرِ:إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ،وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً " متفق عليه[1329]

[1323] - سنن الدارمي (١/ ٢٤٢)(١٢٣) حسن

[1324] - الإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٤١٠)(٣٢١) صحيح

[1325] - كتاب الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين أو الأربعين الطائية (ص:١٥١)

[1326] - كتاب الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين أو الأربعين الطائية (ص:١٥١)

[1327] - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٤٣٩) صحيح

[1328] - مشيخة ابن البخاري (١/ ٦٣٢) والمخلصيات (٤/ ٨٤)والبلدانيات للسخاوي (ص:٢٥١) وكتاب الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين أو الأربعين الطائية (ص:١٥١)

[1329] - صحيح البخاري (٣/ ٦٣)(٢١٠١) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٦)١٤٦ - (٢٦٢٨)

مَثَلُ الْجَلِيسِ) أَيِ:الْمُجَالِسِ (الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ):بِفَتْحِ السِّينِ وَبِضَمٍّ أَيْ:وَالْجَلِيسُ الصَّالِحُ (كَحَامِلِ الْمِسْكِ):نَاظِرًا إِلَى الْأَوَّلِ (وَنَافِخِ الْكِيرِ) بِكَسْرِ الْكَافِ زِقٌّ يَنْفُخُ فِيهِ الْحَدَادُ،وَأَمَّا الْمَبْنِيُّ مِنَ الطِّينِ فَكُورُ كَذَا فِي الْقَامُوسِ (فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ):مِنَ الْإِحْذَاءِ أَيْ يُعْطِيَكَ مَجَّانًا (وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ)،أَيْ:تَشْتَرِيَ (وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً) وَهَذَا بَيَانُ أَقَلِّ الْمَنْفَعَةِ («وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ»):مِنَ الْإِحْرَاقِ أَيْ:يَكُونُ سَبَبًا لِلْإِحْرَاقِ،أَوِ التَّقْدِيرِ يُحْرِقَ بِنَارِهِ ثِيَابَكَ،وَلَعَلَّهُ وَقَعَ اخْتِصَارًا حَيْثُ لَمْ يَقُلْ:إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ أَعْضَاءَكَ أَوْ ثِيَابَكَ («وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً») .أَيْ:دُخَّانُهُ،وَهَذَا أَقَلُّ الْمَضَرَّةِ،وَالْمَعْنَى فَعَلَيْكَ بِمَحَبَّةِ الْأَوَّلِ وَمُصَاحَبَتِهِ،وَإِيَّاكَ وَمَوَدَّةَ الثَّانِي وَمُرَافَقَتَهُ.قِيلَ:فِيهِ إِرْشَادٌ إِلَى الرَّغْبَةِ فِي صُحْبَةِ الصُّلَحَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَمُجَالَسَتِهِمْ؛فَإِنَّهَا تَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَإِلَى الاجْتِنَابِ عَنْ صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ وَالْفُسَّاقِ؛فَإِنَّهَا تَضُرُّ دِينًا وَدُنْيَا.قِيلَ:مُصَاحَبَةُ الْأَخْيَارِ تُورِثُ الْخَيْرَ وَمُصَاحَبَةُ الْأَشْرَارِ تُورِثُ الشَّرَّ كَالرِّيحِ إِذَا هَبَّتْ عَلَى الطِّيبِ عَبِقَتْ طِيبًا،وَإِنْ مَرَّتْ

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعَطَّارِ،إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْهُ،أَصَابَكَ رِيحُهُ،وَمَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ الْقَيْنِ،إِنْ لَمْ يُحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ،عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ».[1330]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْعَطَّارِ إِنْ جَالَسْتَهُ نَفَعَكَ،وَإِنْ مَاشَيْتَهُ نَفَعَكَ،وَإِنْ شَارَكْتَهُ نَفَعَكَ»[1331]

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ،حَدَّثَنِي حُمَيْدٌ،قَالَ:صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَحَدَّثَنِي بِأَحَادِيثَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا:«إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِثْلُ النَّخْلَةِ إِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ صَاحَبْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ شَارَكْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ جَالَسْتَهُ نَفَعَكَ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمُؤْمِنِ مَنَافِعُ،وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ النَّخْلَةِ مَنَافِعُ»[1332]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ،فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» رواه أبو داود والترمذي[1333].

يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ مُجَالَسَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ،وَالصَّالِحِينَ وَمُلَازَمَةُ مَجَالِسِهِمْ،وَالصَّبْرُ مَعَهُمْ،وَمُصَاحَبَتُهُمْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف:٢٨] .

عَلَى التَّبْنِ حَمَلَتْ نَتْنًا.وَقِيلَ:إِذَا جَالَسْتَ الْحَمْقَى عُلِّقَ بِكَ مِنْ حَمَاقَتِهِمْ مَا لَا يَعْلَقُ لَكَ مِنَ الْعَقْلِ إِذَا جَالَسْتَ الْعُقَلَاءَ؛لِأَنَّ الْفَسَادَ أَسْرَعُ إِلَى النَّاسِ وَأَشَدُّ اقْتِحَامَ مَا فِي الطَّبَائِعِ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ الصُّحْبَةَ تُؤَثِّرُ،وَلِذَا قَالَ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:١١٩]،وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ:كُونُوا مَعَ اللَّهِ،فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا أَنَّ تَكُونُوا مَعَ اللَّهِ،فَكُونُوا مَعَ مَنْ يَكُونُ مَعَ اللَّهِ،وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَتَفْصِيلُ الْخُلْطَةِ وَالْعُزْلَةِ فِي الْأَحْيَاءِ بِطَرِيقِ الِاسْتِقْصَاءِ."مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٣٦)

[1330] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٣٤١)(٥٧٩) صحيح

[1331] - المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٤١٨)(١٣٥٤١) حسن لغيره

[1332] - أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني (ص:٤٠٥)(٣٥٣) صحيح

[1333] - سنن أبي داود (٤/ ٢٥٩)(٤٨٣٣) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٨٩)(٢٣٧٨) وذم قرناء السوء لابن عساكر (ص:٤٧) صحيح لغيره

وعَنْ سَعْد،قَالَ:" كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ،فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا.قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ،وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ،وَبِلَالٌ،وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا،فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ "[١٣٣٤]

قَال ابْنُ عَلاَّنَ الصِّدِّيقِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ :مُجَالَسَةُ أَهْل الْخَيْرِ وَهُمْ حِزْبُ اللَّهِ الْمُنْقَطِعُونَ إِلَيْهِ اللاَّئِذُونَ بِهِ الْحَائِزُونَ لِشَرَفِ الْعِلْمِ وَالْعَمَل بِهِ مَعَ الإْخْلاَصِ فِيهِ مُسْتَحَبَّةٌ،لأِنَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ،وَلأِنَّهُمْ هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ،قَال :وَأَقَل ثَمَرَاتِ مُجَالَسَتِهِمْ حِفْظُ نَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ عَنِ الْمُخَالَفَةِ لِمَوْلاَهُ عَزَّ وَجَل..فَجَلِيسُ الأْخْيَارِ إِمَّا أَنْ يُعْطَى بِمُجَالَسَتِهِمْ مِنَ الْفُيُوضِ الإْلَهِيَّةِ أَنْوَاعَ الْهِبَاتِ حِبَاءً وَعَطَاءً،وَإِمَّا أَنْ يَكْتَسِبَ مِنَ الْمَجَالِسِ خَيْرًا وَأَدَبًا يَكْتَسِبُهَا عَنْهُ وَيَأْخُذُهَا مِنْهُ ؛وَإِمَّا أَنْ يَكْتَسِبَ حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمُخَالَلَتِهِ،وَمُخَالَطَتِهِ،وَأَمَّا جَلِيسُ السُّوءِ فَإِمَّا أَنْ يَحْتَرِقَ بِشُؤْمِ مَعَاصِيهِ كَمَا قَال اللَّهُ تَعَالَى :{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال:٢٥]وَإِمَّا أَنْ يُدَنِّسَ ثَنَاءَهُ بِمُصَاحَبَتِهِ [١٣٣٥] ..

وقوله رضي الله عنه " وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ " [١٣٣٦]وفيه الأمر باعتزال الأعداء،فإن الواجب على المسلم اعتزال الكفر وأهله وبغضهم وعداوتهم والبراءة منهم،وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال:{ { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم:٤٨].

وَسَأَجْتَنِبُكُمْ وَأَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَمِنْ آلِهَتِكُمُ التي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ،وَسَأَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ رَاجِيّاً أَنْ يُكْرِمَنِي رَبِّي بِسَبَبِ هَذِهِ العِبَادَةِ،وَهَذَا الدُّعَاءِ،وَأَلاَّ يَجْعَلَنِي شَقِيّاً،كَمَا شَقِيتُمْ أَنْتُمْ بِعِبَادَةِ تِلْكَ الأَصْنَامِ.[١٣٣٧]

[١٣٣٤] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٨)٤٦ - (٢٤١٣)

[١٣٣٥] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٦/ ١٢٨)

[١٣٣٦] - الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٤٠٠) والزهد لأبي داود (ص:١٠٩)(٩٧) والزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٤٩١)(١٣٩٩) وتاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٧١)

[١٣٣٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٩٨،بترقيم الشاملة آليا)

{وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي:أنتم وأصنامكم {وَأَدْعُو رَبِّي} وهذا شامل لدعاء العبادة،ودعاء المسألة {عَسَى أن لا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} أي:عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي،وقبول أعمالي،.وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم،فاتبعوا أهواءهم،فلم تنجع فيهم المواعظ،فأصروا في طغيانهم يعمهون،أن يشتغل بإصلاح نفسه،ويرجو القبول من ربه،ويعتزل الشر وأهله.[١٣٣٨]

وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لـك إلى الإيمـان تؤذيـك فسـأعتز لـك أنـت وقومك،وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة.وأدعو ربي وحده،راجيا - بسبب دعائي لله - ألا يجعلني شقيا.

فالذي يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشـقاوة ..وذلـك مـن الأدب والتحـرج الـذي يستشعره.فهو لا يرى لنفسه فضلا،ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة![١٣٣٩]

وقوله رضي الله عنه:" وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ،وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ خَشِيَ اللهَ عَزَّ وَجَـلَّ "[١٣٤٠] وفي رواية :وَاحْتَفِظْ مِنْ خَلِيلِكَ إِلَّا الْأَمِينَ؛فَإِنَّ الْأَمِينَ مِنَ الْقَوْمِ لَا يُعَادِلُهُ شَيْءٌ[١٣٤١]وفي رواية :" وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ مِنَ الْأَقْوَامِ،وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ خَشِيَ اللَّهَ"[١٣٤٢]

وفيه تحذير من مصادقة غير الأمين الذي لا يخشى الله تعالى.

وقوله رضي الله عنه " وَتَخَشَّعْ عِنْدَ الْقُبُورِ"[١٣٤٣] والتخشع خضوع القلب وخشيته لله تعالى لما يحصل للقلب عند زيارة القبور من تذكر الآخرة،فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ قَـالَ:قَـالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ،فَقَـدْ أُذِنَ لِمُحَمَّـدٍ فِـي زِيَـارَةِ قَبْـرِ أُمِّهِ،فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ» رواه الترمذي[١٣٤٤].

[١٣٣٨] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٩٥)

[١٣٣٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٠١٢)

[١٣٤٠] - المخلصيات (٤/ ٨٤)وشعب الإيمان (١٠/ ٥٦٠)

[١٣٤١] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٥٥)

[١٣٤٢] - تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٧٠) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ١٤٨)

[١٣٤٣] - الزهد لأبي داود (ص:٩٩) والبلدانيات للسخاوي (ص:٢٥١) وكتاب الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين أو الأربعين الطائية (ص:١٥٢) ومشيخة ابن البخاري (١/ ٦٣٢)

[١٣٤٤] - سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٣٦١)(١٠٥٤) صحيح

وقوله رضي الله عنه:" وَذِلٌّ عِنْدَ الطَّاعَةِ "[1345] وهو ما يجب أن يتصف به العبد من الخشوع والذل لله في عبادته.

وقوله رضي الله عنه:" واستعصم عند المعصية "[1346]" وَاسْتَغْفِرْ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ،وَاسْتَعْصِ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ،وَاستَصْعِبْ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ"[1347] استعصم أي امتنع عند المعصية،كما أخبر الله تعالى عن امرأة العزيز أنها قالت:{وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } [يوسف:32] أي تأبى عليها وامتنع عن الاستجابة لما تدعوه إليه.

وقوله رضي الله عنه " وَاسْتَشِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ،فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}فاطر 28 "[1348] وفيه الأمر باستشارة الأتقياء الذين يخشون الله تبارك وتعالى.

ولا يجوز إدخال القاعدين عن الجهاد أو المنافقين في أهل الشورى،فإن أهل النفاق أعداء للإسلام وأهله،وليسوا من أهل النصح والشفقة على المسلمين،وقد قال الله تعالى عنهم:{ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المنافقون:4]

وَإِذَا رَأَيْتَ هَؤُلاَءِ الْمُنَافِقِينَ تُعْجِبُكَ صُوَرُهُمْ،وَإِذَا تَكَلَّمُوا تُعْجِبُكَ أَقْوَالُهُمْ لأَنَّهُمْ ذَوُو صُوَرٍ مُتَنَاسِقَةٍ،وَذَوُو لَسَنٍ وَفَصَاحَةٍ،وَلَكِنَّهُمْ فِي الحَقِيقَةِ أَشْبَاحٌ بِلاَ أَرْوَاحٍ،وَقُلُوبُهُمْ فَارِغَةٌ مِنَ الإِيْمَانِ

وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ:لَا يَرَوْنَ بِزِيَارَةِ القُبُورِ بَأْسًا،وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ المُبَارَكِ،وَالشَّافِعِيِّ،وَأَحْمَدَ،وَإِسْحَاقَ "

"وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ فِيهَا مَشْرُوعِيَّةُ زِيَارَةِ الْقُبُورِ وَنَسْخُ النَّهْيِ عَنْ الزِّيَارَةِ وَقَدْ حَكَى الْحَازِمِيُّ وَالْعَبْدَرِيُّ وَالنَّوَوِيُّ اتِّفَاقَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ زِيَارَةَ الْقُبُورِ لِلرِّجَالِ جَائِزَةٌ "نيل الأوطار (4/ 133)

[1345] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (1/ 121) والمخلصيات (4/ 84) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 21) وشعب الإيمان (13/ 253) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (19/ 378)

[1346] - الترغيب والترهيب لقوام السنة (2/ 297) والجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:400)

جامع الأحاديث (29/ 16)

[1347] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (19/ 424)

[1348] - الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:400) والزهد لأبي داود (ص:109) والزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (1/ 491) وتاريخ المدينة لابن شبة (2/ 771) والبلدانيات للسخاوي (ص:251)

فَكَأَنَّهُمْ خُشُبٌ جَوْفَاءُ قَدْ نَخَرَ السُّوسُ دَاخِلَهَا،وَهُمْ فِي غَايَةِ الهَلَعِ وَالجَزَعِ،يَحْسَبُونَ كُلَّ صَوْتٍ يَقَعُ أَنَّ البَلاَءَ قَدْ جَاءَهُمْ،وَأَنَّ أَمْرَهُمْ قَد افْتَضَحَ،وَأَنَّهُمْ هَالِكُونَ لاَ مَحَالَةَ.

وَهَؤُلاَءِ هُمُ الأَعْدَاءُ الحَقِيقِيُّونَ لِلإِسْلاَمِ وَالمُسْلِمِينَ فَلاَ تَأْمَنْهُمْ عَلَى سِرٍّ،لأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُتَحَرِّقَةٌ حَسَداً وَبُغْضاً،لَعَنَهُمُ اللهُ وَطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِه،فَمَا أَقْبَحَ حَالَهُمْ،وَمَا أَشَدَّ غَفْلَتَهُمْ،فَكَيْفَ يُصْرفُونَ عَنِ الحَقِّ إِلَى البَاطِلِ،وَعَنِ الإِيْمَانِ إِلَى الكُفْرِ؟[1349]

وقال تبارك وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)} [آل عمران:١١٨ - ١٢٠]

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الكُفَّارِ وَاليَهُودِ وَالمُنَافِقِينَ بِطَانَةً وَخَوَاصَّ لَهُمْ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ،يُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سِرِّهِمْ،وَمَا يُضْمِرُونَ لأعْدَائِهِمْ.لأنَّ هَؤُلاءِ لاَ يَأْلُونَ جُهْداً،ولاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْ عَمَلٍ فِيهِ إِيْذَاءٌ وَإِضْرَارٌ بِالمُؤْمِنِينَ،فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ وُقُوعَ المُؤْمِنِينَ فِي الضِّيقِ وَالمَشَقَّةِ.وَلَقَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ وَالعَدَاوَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بِمَا يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ كَلِمَاتِ الحِقْدِ،وَصُدُورُهُمْ تُخْفِي حِقْداً أَكْبَرَ،وَبُغْضاً أَعْظَمَ لِلإِسْلاَمِ وَأَهْلِه،وَهُوَ أَمْرٌ لاَ يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ،وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى الدَّلاَلاَتِ الوَاضِحَةَ التِي يُعْرَفُ بِهَا الوَلِيُّ مِنَ العَدُوِّ.

إِنَّكُمْ تُحِبُّونَ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ الذِينَ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَكُمْ،وَلاَ يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِكُمْ،وَتَمَنِّي عَنَتِكُمْ.وَيُظْهِرُونَ لَكُمُ العَدَاوَةَ وَالغِشَّ،وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ رَيْبَ المَنُونِ،فَكَيْفَ تُوادُّونَهُمْ وَتُواصِلُونَهُمْ،وَهُمْ لاَ يُحِبُّونَكُمْ لا ظَاهِراً وَلاَ بَاطِناً،وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ الذِي أنْزِلَ عَلَيْكُمْ،وَبِالكُتُبِ التِي أُنْزِلَتْ قَبْلَهُ،وَلَيْسَ لَدَيْكُمْ شَيءٌ مِنَ الشَّكِّ فِي شَيءٍ مِنْهَا،وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِكُمْ،وَعِنْدَهُمْ مِنْ كِتَابِ الله شَكٌّ وَحَيرَةٌ،فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِبُغْضِهِمْ مِنْهُمْ لَكُمْ،فَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا:آمَنَّا إِرْضَاءً لَكُمْ،وَحَذَراً مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْكُمْ.وَإِذَا فَارَقُوكُمْ،وَاخْتَلَوا بِأَنْفُسِهِمْ،عَضُّوا

[1349] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٧٠،بترقيم الشاملة آليا)

عَلَيْكُمْ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِمْ مِنْ غَيْظِهِمْ مِنْكُمْ،فَقُلْ لَهُمْ:مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فَلَنْ يَضُرَّنَا ذَلِكَ شَيئاً،وَاللهُ مُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ،وَاللهُ هُوَ الذِي يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ مِنَ البَغْضَاءِ وَالحَسَدِ وَالغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَلِشدَّةِ عَدَاوَةِ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُمْ مَا يُصِيبُ المُؤْمِنِينَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ - نَصْرٌ أَوْ رِبْحٌ أَوْ خَصْبٌ - كَمَا يَسُرُّهُمْ مَا يَنْزِلُ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ بَلاَءٍ وَسُوْءٍ وَهَزِيْمَةٍ.وَيَنْصَحُ اللهُ المؤْمنِينَ بِالتَّحَلِّي بالصَّبْرِ والتَّقْوى،وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ لِلنَّجَاةِ مِنْ كَيْدِهِمْ وَأَذَاهُمْ،لأَنَّهُ مُحِيطٌ بما يَعْمَلُونَ،وَكُلُّ شَيءٍ بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِه.[١٣٥٠]

إنها صورة كاملة السمات،ناطقة بدخائل النفوس،وشواهد الملامح،تسجل المشاعر الباطنة،والانفعالات الظاهرة،والحركة الذاهبة الآئبة.وتسجل بذلك كله نموذجا بشريا مكرورا في كل زمان وفي كل مكان.

ونستعرضها اليوم وغدا فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء.يتظاهرون للمسلمين - في ساعة قوة المسلمين وغلبتهم - بالمودة.فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة.وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة،وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال،ولا يقصرون في إعنات المسلمين ونثر الشوك في طريقهم،والكيد لهم والدس،ما وأتتهم الفرصة في ليل أو نهار.وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب،كانت تنطبق ابتداء على أهل الكتاب المجاورين للمسلمين في المدينة وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين،وللشر المبيت،وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعا في أعداء الله هؤلاء،وما يزال يفضي إليهم بالمودة،وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ويتخذ منهم بطانة وأصحابا وأصدقاء،لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار ..فجاء هذا التنوير،وهذا التحذير،يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر،ويوعيها لكيد أعدائها الطبيعيين،الذين لا يخلصون لها أبدا،ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبة.ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصورا على

[١٣٥٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١١،بترقيم الشاملة آليا)

فترة تاريخية معينة،فهو حقيقة دائمة،تواجه واقعا دائما ..كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود ..

والمسلمون في غفلة عن أمر رهم:ألا يتخذوا بطانة من دونهم.بطانة من ناس هـم دونهـم في الحقيقة والمنهج والوسيلة.وألا يجعلوهم موضع الثقة والسر والاستشارة ..المسلمون في غفلة عن أمر رهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرجعا في كل أمر،وكل شأن،وكل وضع،وكل نظام،وكل تصور،وكل منهج،وكل طريق! والمسلمون في غفلة من تحذير الله لهم،يوادون من حاد الله ورسوله ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم.

والله سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كما يقول للجماعة المسلمة في أي جيل:«وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ» ..

والله سبحانه يقول:«ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ،وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ،وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا:آمَنَّا،وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ» ..

والله سبحانه يقول:«إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ،وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها» ..

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة،ولكننا لا نفيق ..ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر.ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التي لا يذهب بها ود يبذله المسلمون،ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين ..ومع ذلك نعود،فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق! ..وتبلغ بنا المحاملة،أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا فنتحاشى ذكرها،وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام،وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله.ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي.ومن هنا نلقى العنت الذي يوده أعداؤنا لنا،ونلقى الخبال الذي يدسونه في صفوفنا ..وها هو ذا كتاب الله يعلمنا - كما علم الجماعة المسلمة الأولى - كيف نتقي كيدهم،وندفع أذاهم،وننجو من الشر الذي تكنه صدورهم،ويفلت على ألسنتهم منه شواظ:«وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً.إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..

فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوهم إن كانوا أقوياء وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع.الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع أو كسبا لودهم المدخول ..ثم هو التقوى:الخوف من الله وحده.ومراقبته وحده ..هو تقوى الله التي تربط القلوب بالله،فلا تلتقي مع أحد إلا في منهجه،ولا تعتصم بحبل إلا حبله ..وحين يتصل القلب بالله فإنه سيحقر كل قوة غير قوته وستشد هذه الرابطة من عزيمته،فلا يستسلم من قريب،ولا يواد من حاد الله ورسوله،طلبا للنجاة أو كسبا للعزة! هذا هو الطريق:الصبر والتقوى ..التماسك والاعتصام بحبل الله.وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة الله وحدها،وحققوا منهج الله في حياهم كلها ..إلا عزوا وانتصروا،ووقاهم الله كيد أعدائهم،وكانت كلمتهم هي العليا.وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة أعدائهم الطبيعيين،الذين يحاربون عقيدهم ومنهجهم سرا وجهرا،واستمعوا إلى مشورهم،واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء وأعوانا وخبراء ومستشارين ..إلا كتب الله عليهم الهزيمة،ومكن لأعدائهم فيهم،وأذل رقاهم،وأذاقهم وبال أمرهم ..والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة وأن سنة الله نافذة.فمن عمي عن سنة الله المشهودة في الأرض،فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والانكسار والهوان ..بهذا ينتهي هذا الدرس وينتهي كذلك المقطع الأول في السورة.وقد وصل السياق إلى ذروة المعركة وقمة المفاصلة الكاملة الشاملة.[١٣٥١]

وقال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:٤٧]

يُبيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِه الآيَة أَسْبَابَ كَرَاهيَته لخُرُوجِ هَؤُلاَءِ المُنَافقينَ إِلَى الجِهَاد مَعَ رَسُوله ﷺ،فَيَقُولُ:لَوْ أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ المُسْلمينَ لَزَادُوهُمُ اضْطِرَاباً وَضَعْفاً (خَبَالاً) لأَنَّهُمْ جُبَنَاءُ مَخْذُولُونَ،وَلأَخَذُوا بِالسَّعْيِ بَيْنَكُمْ فِي الدَّسِّ وَالنَّمِيمَةِ وَإِثَارَةِ الْفِتْنَة،وَيُوجَدُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ مَنْ

[١٣٥١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٢٥)

يَتَأَثَّرُ بِهِمْ،وَيَسْتَمِعُ إِلَى قَوْلِهِمْ،مِنْ ضِعَافِ الإِيمَانِ،وَضِعَافِ العَزَائِمِ،فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى وُقُوعِ الشَّرِّ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ.وَاللهُ يَعْلَمُ الظَّالِمِينَ،وَمَا يُبَيِّتُونَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ لَوْ خَرَجُوا مَعَهُمْ إِلَى الغَزَاةِ.[1352]

والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف،والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابا وفوضى.ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل.وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين.ولكن الله الذي يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين،كفى المؤمنين الفتنة،فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين:

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» ..والظالمون هنا معناهم «المشركون» فقد ضمهم كذلك إلى زمرة المشركين! وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم،وسوء طويتهم،فلقد وقفوا في وجه الرسول - ﷺ - وبذلوا ما في طوقهم،حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفي القلب ما فيه:«لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ».

وكان ذلك عند مقدم الرسول - ﷺ - إلى المدينة،قبل أن يظهره الله على أعدائه.ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون،وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين.[1353]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)} [الأحزاب:١ - ٣]

قال ابن كثير رحمه الله:" هَذَا تَنْبِيهٌ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى،فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَأْمُرُ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ بِهَذَا،فَلأن يَأْتَمِرَ مِنْ دُونِه بِذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى.وَقَدْ قَالَ طَلْقِ بْنُ حَبِيبٍ:التَّقْوَى:أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ،عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ،تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ،وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ،عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ،مَخَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ.

[1352] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٨٣،بترقيم الشاملة آليا)

[1353] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٧٥)

وَقَوْلُهُ: {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} أَيْ:لَا تَسْمَعْ مِنْهُمْ وَلَا تَسْتَشِرْهُمْ،{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} أَيْ:فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوَامِرَهُ وَتُطِيعَهُ،فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ،حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِه.وَلِهَذَا قَالَ: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} أَيْ:مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ،{إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} أَيْ:فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} أَيْ:فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَحْوَالِكَ،{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا}أَيْ:وَكَفَى بِهِ وَكِيلًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ."[١٣٥٤]

يا أيها الذي منَّ الله عليه بالنبوة،واختصه بوحيه،وفضله على سائر الخلق،اشكر نعمة ربك عليك،باستعمال تقواه،التي أنت أولى بها من غيرك،والتي يجب عليك منها،أعظم من سواك،فامتثل أوامره ونواهيه،وبلغ رسالاته،وأدِّ إلى عباده وحيه،وابذل النصيحة للخلق.

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد،ولا يردك عنه راد،فلا تطع كل كافر،قد أظهر العداوة لله ورسوله،ولا منافق،قد استبطن التكذيب والكفر،وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة،فلا تطعهم في بعض الأمور،التي تنقض التقوى،وتناقضها،ولا تتبع أهواءهم،فيضلوك عن الصواب.{وَ} لكن {اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} فإنه هو الهدى والرحمة،وَارْجُ بذلك ثواب ربك،فإنه بما تعملون خبير،يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم،من الخير والشر.فإن وقع في قلبك،أنك إن لم تطعهم في أهوائهم المضلة،حصل عليك منهم ضرر،أو حصل نقص في هداية الخلق،فادفع ذلك عن نفسك،واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره،وهو التوكل على الله،بأن تعتمد على ربك،اعتماد من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا،ولا موتًا ولا حياة،ولا نشورًا،في سلامتك من شرهم،وفي إقامة الدين،الذي أمرت به،وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي:حال كان.{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا} توكل إليه الأمور،فيقوم بها،وبما هو أصلح للعبد،وذلك لعلمه بمصالح عبده،من حيث لا يعلم العبد،وقدرته على إيصالها إليه،من حيث لا يقدر عليها العبد،وأنه أرحم بعبده من نفسه،ومن والديه،وأرأف به من كل أحد،خصوصًا خواص عبيده،الذين لم يزل يربيهم ببره،ويُدرُّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة،خصوصًا وقد أمره بإلقاء أموره إليه،ووعده،فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر،وصعب يسهل،وخطوب تهون،وكروب تزول،وأحوال وحوائج تقضى،وبركات

[١٣٥٤] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٣٧٥)

تنزل،ونقم تدفع،وشرور ترفع.وهناك ترى العبد الضعيف،الذي فوض أمره لسـيده،قد قـام بأمور لا تقوم بها أمة من الناس،وقد سهل الله [عليه] ما كان يصعب على فحـول الرجـال وبالله المستعان.[١٣٥٥]

إن الإسلام ليس مجموعة إرشادات ومواعظ،ولا مجموعة آداب وأخلاق،ولا مجموعة شـرائع وقوانين،ولا مجموعة أوضاع وتقاليد ..إنه يشتمل على هذا كله.ولكن هذا كله لـيس هـو الإسلام ..إنما الإسلام الاستسلام.الاستسلام لمشيئة الله وقدره والاستعداد ابتداء لطاعة أمـره ونهيه ولاتباع المنهج الذي يقرره دون التلفت إلى أي توجيه آخر وإلى أي اتجاه.ودون اعتمـاد كذلك على سواه.وهو الشعور ابتداء بأن البشر في هذه الأرض خاضعون للنـاموس الإلهـي الواحد الذي يصرّفهم ويصرّف الأرض،كما يصرّف الكواكب والأفلاك ويدبر أمر الوجـود كله ما خفي منه وما ظهر،وما غاب منه وما حضر،وما تدركه منه العقول وما يقصـر عنـه إدراك البشر.وهو اليقين بأنهم ليس لهم من الأمر شيء إلا اتباع ما يأمرهم به الله والانتهاء عما ينهاهم عنه والأخذ بالأسباب التي يسرها لهم،وارتقاب النتائج التي يقدرها الله ..هـذه هـي القاعدة.ثم تقوم عليها الشرائع والقوانين،والتقاليد والأوضاع،والآداب والأخـلاق.بوصـفها الترجمة العملية لمقتضيات العقيدة المستكنة في الضمير والآثار الواقعيـة لاستسـلام الـنفس لله،والسير على منهجه في الحياة ..إن الإسلام عقيدة.تنبثق منها شريعة.يقوم على هذه الشريعة نظام.وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هي الإسلام ..

ومن ثم كان التوجيه الأول في السورة التي تتولى تنظيم الحياة الاجتماعية للمسلمين بتشريعات وأوضاع جديدة،هو التوجيه إلى تقوى الله.وكان القول موجها إلى النبي – ﷺ – القائم علـى تلك التشريعات والتنظيمات ..«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّـهَ» ..فتقـوى الله والشـعور برقابتـه واستشعار جلاله هي القاعدة الأولى،وهي الحارس القائم في أعماق الضمير علـى التشـريع والتنفيذ.وهي التي يناط بها كل تكليف في الإسلام وكل توجيه.

وكان التوجيه الثاني هو النـهي عـن طاعـة الكـافرين والمنافقين،واتبـاع تـوجيههم أو اقتراحهم،والاستماع إلى رأيهم أو تحريضهم:«وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ» ..وتقديم هـذا

[١٣٥٥] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٥٧)

النهي على الأمر باتباع وحي الله يوحي بأن ضغط الكافرين والمنافقين في المدينة وما حولها كان في ذلك الوقت عنيفا،فاقتضى هذا النهي عن اتباع آرائهم وتوجيهاتهم،والخضوع لدفعهم وضغطهم.ثم يبقى ذلك النهي قائما في كل بيئة وكل زمان،يحذر المؤمنين أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين إطلاقا،وفي أمر العقيدة وأمر التشريع وأمر التنظيم الاجتماعي بصفة خاصة.ليبقى منهجهم خالصا لله،غير مشوب بتوجيه من سواه.ولا ينخدع أحد بما يكون عند الكافرين والمنافقين من ظاهر العلم والتجربة والخبرة - كما يسوغ بعض المسلمين لأنفسهم في فترات الضعف والانحراف - فإن الله هو العليم الحكيم وهو الذي اختار للمؤمنين منهجهم وفق علمه وحكمته:«إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً» ..وما عند البشر إلا قشور،وإلا قليل!

والتوجيه الثالث المباشر:«وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ».فهذه هي الجهة التي تجيء منها التوجيهات،وهذا هو المصدر الحقيق بالاتباع.والنص يتضمن لمسات موحية تكمن في صياغة التعبير:«وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ».فالوحي «إِلَيْكَ» بهذا التخصيص.والمصدر «مِنْ رَبِّكَ» بهذه الإضافة.فالاتباع هنا متعين بحكم هذه الموحيات الحساسة،فوق ما هو متعين بالأمر الصادر من صاحب الأمر المطاع ..والتعقيب:«إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً» ..فهو الذي يوحي عن خبرة بكم وبما تعملون وهو الذي يعلم حقيقة ما تعملون،ودوافعكم إلى العمل من نوازع الضمير.

والتوجيه الأخير:«وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ،وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا» ..فلا يهمنك أكانوا معك أم كانوا عليك ولا تحفل كيدهم ومكرهم وألق بأمرك كله إلى الله،يصرفه بعلمه وحكمته وخبرته ..ورد الأمر إلى الله في النهاية والتوكل عليه وحده،هو القاعدة الثابتة المطمئنة التي يفيء إليها القلب فيعرف عندها حدوده،وينتهي إليها ويدع ما وراءها لصاحب الأمر والتدبير،في ثقة وفي طمأنينة وفي يقين.

وهذه العناصر الثلاثة:تقوى الله.واتباع وحيه.والتوكل عليه - مع مخالفة الكافرين والمنافقين - هي العناصر التي تزود الداعية بالرصيد وتقيم الدعوة على منهجها الواضح الخالص.من الله،وإلى الله،وعلى الله.«وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا».[١٣٥٦]

[١٣٥٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٧٩)

و لم يكن النبي ﷺ يولي أو يشاور أهل النفاق أو مرضى القلوب القاعدين عن الجهاد.
كما لا يجوز إدخال أهل البدع في أهل الشورى،فإن في توليتهم وتصديرهم نشـــرا لبدعتـــهم وهدما للسنة.وعن عَبْدُ الصَّمَد ،قَالَ:سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ:«مَنْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَاوَرَهُ فَدَلَّهُ عَلَى مُبْتَدِعٍ فَقَدْ غَشَّ الْإِسْلَامَ ،وَاحْذَرُوا الدُّخُولَ عَلَى صَاحِبِ الْبِدَعِ؛فَإِنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْحَقِّ»
وقَالَ:وَسَمِعْتُ الْفُضَيْلَ يَقُولُ:«لَا تَجْلِسْ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ؛فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ»
وقَالَ:وَسَمِعْتُ الْفُضَيْلَ يَقُولُ:«لَا تَجْلِسْ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ أَحْبَطَ اللَّهُ عَمَلَهُ ،وَأَخْـــرَجَ نُـــورَ الْإِسْلَامِ مِنْ قَلْبِهِ ،وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا طَيَّبَ لَهُ مَطْعَمَهُ»
وقَالَ:وَسَمِعْتُ الْفُضَيْلَ يَقُولُ:«صَاحِبُ الْبِدْعَةِ لَا تَأْمَنْهُ عَلَى دِينِكَ ،وَلَا تُشَاوِرْهُ فِي أَمْرِكَ ،وَلَا تَجْلِسْ إِلَيْهِ ،فَمَنْ جَلَسَ إِلَى صَاحِبِ بِدْعَةٍ وَرَّثَهُ اللَّهُ الْعَمَى»[١٣٥٧]
وقال ابن بطة" ولا تشاور أحداً من أهل البدع في دينك،ولا ترافقه في سفرك،وإن أمكنك أن لا تقربه في جوارك.ومن السنة مجانبة كـــل مـــن اعتقـــد شـــيئاً ممـــا ذكرنـــاه (أي:مـــن البدع)،وهجرانه،والمقت له،وهجران من والاه،ونصره،وذب عنه،وصاحبه،وإن كان الفاعـــل لذلك يظهر السنّة "[١٣٥٨]

الصفة الثالثة:الذكورة:

الولايات العامة مختصة بالرجال دون النساء،فالمرأة ليست من أهل الحل والعقـــد،وليس لهـــا البروز في محافل الرجال والاختلاط بهم،وقد جاءت الشريعة بحفظ المرأة وصيانتها من الفاحشة وما يقرب إليه:كالنظر إلى الأجنبية والاختلاط والخلوة بغير محـــرم وســـفر المـــرأة وحـــدها وخروجها متبرجة.
والله تعالى لم يسوِّ المرأة بالرجل في الخلق والتكوين والقدرة،ولهذا جعل الله تعالى للرجل مـــن الأعمال ما يناسب خلقه وتكوينه وقدرته كالجهاد والولايات العامـــة،وجعل للمـــرأة مـــن الأعمال والمسؤوليات ما يناسب خلقها،وتكوينها النفسي،كرعاية بيتها،وتربية أبنائها،وطاعـــة

[١٣٥٧] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٥)(٢٦١ -٢٦٤) صحيح

[١٣٥٨] - [الشرح والإبانة (ص ٢٨٢)] أبو عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري

زوجها،وبهذا تستقيم الحياة ويحصل التوازن بين بناء الدولة وإصلاحها،وبين بناء الأسرة الصالحة وتربيتها،وقد قال الله تبارك وتعالى:{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ } [النساء:٣٤]

مِنْ شَأْنِ الرَّجُلِ أنْ يَقُومَ عَلَى المَرْأَةِ بِالحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ،وَلِذَلِكَ فَرَضَ اللهُ تَعَالَى الجِهَادَ عَلَى الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ وَالجِهَادُ مِن أخَصِّ شُؤُونِ الحِمَايَةِ.وَقَدْ فَضَّلَ اللهُ الرِّجَالَ عَلَى النِّسَاءِ فِي الخِلْقَةِ،وَأعْطَاهُمْ مَا لَمْ يُعْطَ النِّسَاءُ مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ،كَمَا فَضّلَهُمْ بِالقُدْرَةِ عَلَى الإِنْفَاقِ عَلَى النِّسَاءِ مِنْ أَمْوالِهِمْ،فَإِنَّ فِي المُهُورِ تَعْوِيضاً لِلْنِّسَاءِ،وَمُكَافَأَةً لَهُنَّ عَلَى الدُّخُولِ تَحْتَ رِئَاسَةِ الرَّجُلِ،وَقَبُولِ القِيَامَةِ عَلَيْهِنَّ.وَالقِيَامَةُ تَعْنِي الإِرْشَادَ وَالمُرَاقَبَةَ فِي تَنْفِيذِ مَا تُرْشِدُ إلَيْهِ النِّسَاءُ،وَمُلاَحَظَةَ أَعْمَالِهِنَّ،وَمِنْ ذَلِكَ حِفْظُ المَنْزِلِ،وَعَدَمِ مُفَارَقَتِهِ إلاَّ بِإِذْنٍ،وَالانْصِرَافَ إلى وَظِيفَتِهِنَّ الفِطْرِيَّةِ مِنْ حَمْلٍ وَرَضَاعٍ وَتَرْبِيَّة.[١٣٥٩]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" يَقُولُ تَعَالَى:{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ} أَيِ:الرَّجُلُ قَيِّم عَلَى الْمَرْأَةِ،أَيْ هُوَ رَئِيسُهَا وَكَبِيرُهَا وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا وَمُؤَدِّبُهَا إِذَا اعوجَّت {بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} أَيْ:لِأَنَّ الرِّجَالَ أَفْضَلُ مِنَ النِّسَاءِ،وَالرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ؛ولهذا كَانَتِ النُّبُوَّةُ مُخْتَصَّةٌ بِالرِّجَالِ وَكَذَلِكَ الْمُلْكُ الْأَعْظَمُ؛لِقَوْلِهِ ﷺ:"لَنْ يُفلح قومٌ وَلَّوا أمْرَهُم امْرَأَةً" رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ،عَنْ أَبِيهِ[١٣٦٠] وَكَذَا مَنْصِبُ الْقَضَاءِ وَغَيْرُ ذَلِكَ. {وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} أَيْ:مِنَ الْمُهُورِ وَالنَّفَقَاتِ وَالْكُلَفِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ لهنَّ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ،فَالرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهِ،وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَيْهَا وَالْإِفْضَالُ،فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ قَيِّما عَلَيْهَا،كَمَا قَالَ] اللَّهُ [تَعَالَى:{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} الآية [البقرة:٢٢٨] [١٣٦١]".

وقال تبارك وتعالى:{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}،أي مترلة ورفعة وفضل في الخلق والخلق والقوامة والطاعة،ولهذا الفضل اختصت النبوة بالرجال،وكذلك الإمامة الكبرى وسائر

[١٣٥٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢٧،بترقيم الشاملة آليا)

[١٣٦٠] - صحيح البخاري (٦/ ٨)(٤٤٢٥)

[١٣٦١] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٢٩٢)

الولايات العامة،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ،وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ،وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ،وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ،أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» متفقٌ عليه[١٣٦٢]،وبوب البخاري على هذا الحديث في صحيحه فقال:بَابٌ:المَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا "[١٣٦٣]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:لَبِثْتُ سَنَةً وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ،عَنِ المَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَجَعَلْتُ أَهَابُهُ،فَنَزَلَ يَوْمًا مَنْزِلًا فَدَخَلَ الأَرَاكَ،فَلَمَّا خَرَجَ سَأَلْتُهُ فَقَالَ:عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ،ثُمَّ قَالَ:كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ لاَ نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا،فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ،رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا،مِنْ غَيْرِ أَنْ نُدْخِلَهُنَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِنَا،وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ امْرَأَتِي كَلاَمٌ،فَأَغْلَظَتْ لِي،فَقُلْتُ لَهَا:وَإِنَّكِ لَهُنَاكِ؟ قَالَتْ:تَقُولُ هَذَا لِي وَابْنَتُكَ تُؤْذِي النَّبِيَّ ﷺ،فَأَتَيْتُ حَفْصَةَ فَقُلْتُ لَهَا:إِنِّي أُحَذِّرُكِ أَنْ تَعْصِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ،وَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهَا فِي أَذَاهُ،فَأَتَيْتُ

[١٣٦٢] - صحيح البخاري (٣/ ١٢٠)(٢٤٠٩) وصحيح البخاري (٣/ ١٥٠)(٢٥٥٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٥٩)٢٠ - (١٨٢٩)

(«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ») .فِي النِّهَايَةِ الرَّعِيَّةُ كُلُّ مَنْ شَمِلَهُ حِفْظُ الرَّاعِي وَنَظَرُهُ («فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ») يُقَالُ:رَعَى الْأَمِيرُ الْقَوْمَ رِعَايَةً فَهُوَ رَاعٍ؛أَيْ قَامَ بِإِصْلَاحِ مَا يَتَوَلَّاهُ،وَهُمْ رَعِيَّةٌ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ،وَدَخَلَتِ التَّاءُ لِغَلَبَةِ الِاسْمِيَّةِ («وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ،وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ»)؛أَيْ وَلَدِ زَوْجِهَا (وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ) عَنْ حَقِّ زَوْجِهَا وَأَوْلَادِهِ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ:الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ،وَغَلَبَ الْعُقَلَاءُ فِيهِ عَلَى غَيْرِهِمْ («وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ») فِي شَرْحِ السُّنَّةِ مَعْنَى الرَّاعِي هُنَا؛الْحَافِظُ الْمُؤْتَمَنُ عَلَى مَا يَلِيهِ،أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ - ﷺ- بِالنَّصِيحَةِ فِيمَا يَلُونَهُمْ،وَحَذَّرَهُمُ الْخِيَانَةَ فِيهِ بِإِخْبَارِهِ أَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهُ،فَالرِّعَايَةُ حِفْظُ الشَّيْءِ وَحُسْنُ التَّعَهُّدِ،فَقَدِ اسْتَوَى هَؤُلَاءِ فِي الِاسْمِ وَلَكِنَّ مَعَانِيَهُمْ مُخْتَلِفَةٌ،أَمَّا رِعَايَةُ الْإِمَامِ وِلَايَةُ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ:فَالْحِيَاطَةُ مِنْ وَرَائِهِمْ،وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ فِيهِمْ.وَرِعَايَةُ الرَّجُلِ أَهْلَهُ:فَالْقِيَامُ عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ فِي النَّفَقَةِ،وَحُسْنُ الْعِشْرَةِ.وَرِعَايَةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا:فَحُسْنُ التَّدْبِيرِ فِي أَمْرِ بَيْتِهِ وَالتَّعَهُّدُ بِخِدْمَةِ أَضْيَافِهِ.وَرِعَايَةُ الْخَادِمِ:فَحِفْظُ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَالِ سَيِّدِهِ وَالْقِيَامُ بِشُغْلِهِ (أَلَا) لِلتَّنْبِيهِ ثَانِيًا لِلتَّأْكِيدِ (فَكُلُّكُمْ) قَالَ الطِّيبِيُّ:الْفَاءُ جَوَابُ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ يَعْنِي تَقْدِيرَهُ؛فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ عَلَى مَا فَصَّلْنَاهُ فَكُلُّكُمْ (رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) كَمَا أَجْمَلْنَاهُ،فَالْجُمْلَةُ فَذْلَكَةٌ لِلْكَلَامِ،وَخُلَاصَةٌ لِلْمَرَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة:١٩٦] بَعْدَ ذِكْرِ الثَّلَاثِ وَالسَّبْعَةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ وَالْفَذْلَكَةُ هِيَ الَّتِي يَأْتِي بِهَا الْمُحَاسِبُ بَعْدَ التَّفْصِيلِ،وَيَقُولُ فَذَلِكَ كَذَا ضَبْطًا لِلْحِسَابِ،وَتَوَقِّيًا عَنِ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ،فِيمَا فَصَّلَهُ فِي الْكِتَابِ اهـ.وَالظَّاهِرُ أَنَّ فَاءَ الْفَذْلَكَةِ،تَكُونُ تَعْرِيضِيَّةً - وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٢)

[١٣٦٣] - صحيح البخاري (٧/ ٣١)

أُمَّ سَلَمَةَ فَقُلْتُ لَهَا،فَقَالَتْ:أَعْجَبُ مِنْكَ يَا عُمَرُ،قَدْ دَخَلْتَ فِي أُمُورِنَا،فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَزْوَاجِه؟ فَرَدَّدَتْ،وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غَابَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَهِدْتُهُ أَتَيْتُهُ بِمَا يَكُونُ،وَإِذَا غِبْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَهِدَ أَتَانِي بِمَا يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ مَنْ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَد اسْتَقَامَ لَهُ،فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَلِكُ غَسَّانَ بِالشَّأْمِ،كُنَّا نَخَافُ أَنْ يَأْتِيَنَا،فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِالأَنْصَارِيِّ وَهُوَ يَقُولُ:إِنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ،قُلْتُ لَهُ:وَمَا هُوَ،أَجَاءَ الغَسَّانِيُّ؟ قَالَ:أَعْظَمُ مِنْ ذَاكَ،طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ،فَجِئْتُ فَإِذَا البُكَاءُ مِنْ حُجَرِهِنَّ كُلِّهَا،وَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ قَدْ صَعِدَ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ،وَعَلَى بَابِ المَشْرُبَةِ وَصِيفٌ،فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ:اسْتَأْذِنْ لِي،فَأَذِنَ لِي،فَدَخَلْتُ،«فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ،وَتَحْتَ رَأْسِهِ مِرْفَقَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ،وَإِذَا أُهُبٌ مُعَلَّقَةٌ وَقَرَظٌ» فَذَكَرْتُ الَّذِي قُلْتُ لِحَفْصَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ،وَالَّذِي رَدَّتْ عَلَيَّ أُمُّ سَلَمَةَ،«فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَلَبِثَ تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ثُمَّ نَزَلَ» رواه البخاري[١٣٦٤].

فأعداء الإسلام من الكفار والمنافقين يعلمون أن انحراف المرأة من أعظم الوسائل لتدمير الأسرة،وضياع الأبناء،وإفساد المجتمع،وتمزيقه وإضعافه،ووقوع المرأة فريسة لأصحاب الشهوات،ولهذا يسعون لإخراجها من بيتها وتجريدها من حيائها وعفتها وحجابها،وتأمل هذا في حرص الصليبيين الأمريكان على تجريد المرأة من حيائها،ونزع حجابها في جزيرة العرب وأفغانستان وغيرها من بلاد المسلمين،فهؤلاء المفسدون المجرمون يعلمون بتأثير هذه الخطوة الشيطانية على المجتمع،وما تؤدي إليه من إضعافه،وانحطاطه في الرذيلة،وإبعاده عن دينه وحيائه،إلا من حفظ اللهُ تعالى من عباده فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ خُلُقًا،وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ» رواه ابن ماجه[١٣٦٥]

[١٣٦٤] - صحيح البخاري (٧/ ١٥٢)(٥٨٤٣)

[ش (ذكرهن الله) أنزل القرآن يوصي بهن ويحث على عشرتهن بالمعروف.(من أمورنا) شؤوننا التي يتولاها الرجال عادة.(فأغلظت لي) قست معي بالكلام.(وإنك لهناك) إنك في هذا المقام ولك جرأة أن تغلظي علي.(تقدمت إليها في أذاه) تكلمت معها قبل الدخول على غيرها في شأن أذى النبي ﷺ أو آذيتها في شخصها وآلمتها في بدنها بالضرب ونحوه قبل أن أبحث في شأن أذى النبي ﷺ(فرددت) من الترديد وفي رواية (فردت) من الرد.(من حول..) من الملوك والحكام وغيرهم.(استقام له) أسلم له أو خضع لأمره(وصيف) خادم وهو غلام دون البلوغ.(مرفقة) وسادة]

[١٣٦٥] - المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٣٢٠)(١٠٧٨٠) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٩٩)(٤١٨٢) والزهد لوكيع (ص:٦٧٢)(٣٨٣) ومسند عمر بن عبد العزيز للباغندي (ص:١٧٧)(٩٢) صحيح لغيره

فالحياء هو سجية دين الإسلام وهو طبيعته وخلقه،وبه قوامه وقوته،وهو الخلق الذي جمل بـــه أهله وزينهم،وهو الخلق الذي به تتمم مكارم الأخلاق التي بعث النبي ﷺ لإتمامها[١٣٦٦]،فهـــو خلق يمنع من التقصير في حق صاحب الحق،وهو الحصن الذي يحول دون القبائح والرذائل،فإذا أزيل هذا الحصن — وهو ما يسعى الأعداء إليه — انهمك الناس في كل قبيح وخســـيس،فعَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ،حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُـــوَّةِ الأُولَى:إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ " رواهُ البُخَارِيُّ[١٣٦٧]

(إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا) أَيْ:مُخْتَصًّا بِهِ أَوْ غَالِبًا فِيهِ (وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ) أَيْ:فِيمَا شُرِعَ فِيهِ الْحَيَاءُ بِخِلَافِ مَا لَمْ يُشْرَعْ فِيهِ كَتَعَلُّمِ الْعِلْمِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَالْحُكْمِ بِالْحَقِّ،وَالْقِيَامِ بِهِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَاتِ عَلَى وَجْهِهَا،كَذَا ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ،وَفِيهِ أَنَّ ارْتِكَابَ الْمَذْكُورَاتِ لَا يَخْلُو عَنِ الْحَيَاءِ عَنِ الْحَقِّ،وَعَدَمِ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْخَلْقِ عَلَى مَا سَبَقَ تَحْقِيقُهُ وَحُقِّقَ طَرِيقُهُ،فَالْحُكْمُ عَلَى عُمُومِهِ مِنِ اسْتِعْمَالِ الْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ بِأَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ فِعْلِ الْآثَامِ،وَمِنْ تَرْكِ شُعْبَةٍ مِنْ شُعَبِ الْإِسْلَامِ،بَلْ وَلَا عِبْرَةَ بِالْحَيَاءِ مِنَ الْأَنَامِ لَا فِعْلًا وَلَا تَرْكًا عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ.وَفِي النِّهَايَةِ:الْخُلُقُ الدِّينُ وَالطَّبْعُ وَالسَّجِيَّةُ.قُلْتُ:الْمُرَادُ هُنَا السَّجِيَّةُ أَيْ:بِمَعْنَى الْخَصْلَةِ أَيْ:لِكُلِّ دِينٍ سَجِيَّةٌ شُرِعَتْ فِيهِ،وَحَضَّ أَهْلُ ذَلِكَ الدِّينِ عَلَيْهَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَالْمَعْنَى أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ دِينٍ سَجِيَّةٌ سِوَى الْحَيَاءِ،وَالْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ دِينِنَا الْحَيَاءُ لِأَنَّهُ مُتَمِّمٌ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ،وَإِنَّمَا بُعِثَ - ﷺ- لِإِتْمَامِهَا،وَقَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ:" «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ الْحَيَاءِ» ".الْحَدِيثَ.قُلْتُ:الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ دِينٍ سَجِيَّةٌ سِوَى الْحَيَاءِ،فَإِنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بِالْغَلَبَةِ لَنَا مَعَ اشْتِرَاكِنَا بِجَمِيعِ الْمِلَلِ فِي سَائِرِ السَّجِيَّاتِ،لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»،بَلِ الْأَظْهَرُ أَنَّ الْأَخْلَاقَ كُلَّهَا كَانَتْ نَاقِصَةً فِيمَنْ قَبْلَنَا،وَإِنَّمَا كَمُلَتْ فِي دِينِنَا بِبَرَكَةِ نَبِيِّنَا - ﷺ- وَلِذَا قَالَ تَعَالَى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران:١١٠] الْآيَةَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٨٢)

[١٣٦٦] - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»مسند البزار = البحر الزخار (١٥/ ٣٦٤)(٨٩٤٩) ومسند الشهاب القضاعي (٢/ ١٩٢)(١١٦٥) صحيح لغيره

[١٣٦٧] - صحيح البخاري (٨/ ٢٩)(٦١٢٠)

(مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ):(مِنْ) تَبْعِيضِيَّةٌ،وَالْمَعْنَى أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَخْبَارِ أَصْحَابِ النُّبُوَّةِ (الْأُولَى) أَيِ:السَّابِقَةِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ أَضَافَهُ إِلَيْهِمْ إِعْلَامًا بِأَنَّهُ مِنْ نَتَائِجِ الْوَحْيِ (إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ):بِسُكُونِ الْحَاءِ وَكَسْرِ الْيَاءِ وَحَذْفِ الثَّانِيَةِ لِلْجَزْمِ (فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) أَيِ:الرَّادِعُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي هُوَ الْحَيَاءُ،فَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَدَرَ كُلُّ مَا لَا يَنْبَغِي فَالْأَمْرُ بِمَعْنَى الْخَبَرِ أَوِ الْأَمْرُ لِلتَّهْدِيدِ وَأَنْشَدَ:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي ...وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ ...وَفِي الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

قَالَ الطِّيبِيُّ:مَنْ فِي مِمَّا ابْتِدَائِيَّةٌ،وَهُوَ خَبَرُ إِنَّ وَاسْمُهُ قَوْلُهُ:إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ عَلَى تَأْوِيلِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ حَاصِلٌ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ،وَالرَّاجِعُ إِلَى مَا مَحْذُوفٌ وَالنَّاسُ فَاعِلُ أَدْرَكَ،وَعَلَيْهِ كَلَامُ الشَّيْخِ التُّورِبِشْتِيِّ حَيْثُ قَالَ:الْمَعْنَى أَنَّ مِمَّا بَقِيَ بَيْنَ النَّاسِ وَأَدْرَكُوهُ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَاعِلَ أَدْرَكَ الضَّمِيرُ الرَّاجِعُ إِلَى " مَا " وَالنَّاسُ مَفْعُولُهُ،وَعَلَيْهِ كَلَامُ الْقَاضِي أَيْ مِمَّا بَلَغَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّ الْحَيَاءَ هُوَ الْمَانِعُ مِنِ اقْتِرَافِ الْقَبَائِحِ وَالِاشْتِغَالِ بِمَنْهِيَّاتِ الشَّرْعِ وَمُسْتَحَبَّاتِ

وعَنْ أَبِي السَّوَّارِ العَدَوِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ» فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ:" مَكْتُوبٌ فِي الحِكْمَةِ:إِنَّ مِنَ الحَيَاءِ وَقَارًا،وَإِنَّ مِنَ الحَيَاءِ سَكِينَةً " فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ:«أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صَحِيفَتِكَ» متفق عليه[١٣٦٨]

الْعَقْلِ،وَقَوْلُهُ:إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ اسْمُ إِنَّ عَلَى الْحِكَايَةِ قَالَ الْخَطَّابِيُّ،قَوْلُهُ:مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى مَعْنَاهُ اتِّفَاقُ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى اسْتِحْسَانِ الْحَيَاءِ فَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ نَدَبَ إِلَيْهِ،وَبَعَثَ عَلَيْهِ،وَلَمْ يُنْسَخْ فِيمَا نُسِخَ مِنْ شَرَائِعِهِمْ،وَلَمْ يُبَدَّلْ فِيمَا بُدِّلَ مِنْهَا،وَذَلِكَ أَنَّهُ أَمْرٌ قَدْ عُلِمَ صَوَابُهُ وَبَانَ فَضْلُهُ،وَاتَّفَقَتِ الْعُقُولُ عَلَى حُسْنِهِ،وَمَا كَانَ هَذَا صِفَةً لَهُ لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِ النَّسْخُ وَالتَّبْدِيلُ،وَقَيَّدَ النُّبُوَّةَ بِالْأُولَى لِلْإِرْشَادِ إِلَى اتِّفَاقِ كَلِمَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ.

وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ قَوْلُهُ:فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ فِيهِ أَقَاوِيلُ.أَحَدُهَا:أَنَّ مَعْنَاهُ الْخَبَرُ،وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ لَفْظَ الْأَمْرِ كَأَنَّهُ يَقُولُ:إِذَا لَمْ يَمْنَعْكَ الْحَيَاءُ فَعَلْتَ مَا شِئْتَ بِمَا تَدْعُوكَ إِلَيْهِ نَفْسُكَ مِنَ الْقَبِيحِ،وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ أَبُو عُبَيْدٍ.وَثَانِيهَا:أَنَّ مَعْنَاهُ الْوَعِيدُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} [فصلت:٤٠] أَيِ:اصْنَعْ مَا شِئْتَ،فَإِنَّ اللَّهَ يُجَازِيكَ،وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَبُو الْعَبَّاسِ.وَثَالِثُهَا:مَعْنَاهُ يَنْبَغِي أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَهُ،فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَافْعَلْهُ،وَإِنْ كَانَ مِمَّا يُسْتَحْيَ مِنْهُ فَدَعْهُ،وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الْمَرْوَزِيُّ،وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثَ جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ بِإِسْنَادِهِ،ثُمَّ قَالَ جَرِيرٌ:مَعْنَاهُ أَنْ يُرِيدَ الرَّجُلُ أَنْ يَعْمَلَ الْخَيْرَ فَيَدَعَهُ حَيَاءً مِنَ النَّاسِ كَأَنَّهُ يَخَافُ مَذْهَبَ الرِّيَاءِ يَقُولُ:فَلَا يَمْنَعْكَ الْحَيَاءُ مِنْ مُضِيٍّ مَا أَرَدْتَ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَهُوَ شَبِيهٌ بِالْحَدِيثِ الْآخَرِ إِذَا جَاءَكَ الشَّيْطَانُ وَأَنْتَ تُصَلِّي،فَقَالَ:إِنَّكَ مُرَاءٍ فَزِدْهَا طُولًا قُلْتُ:وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ تَرْكُ الْعَمَلِ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ،وَالْعَمَلُ لِأَجْلِهِمْ شِرْكٌ،وَالْإِخْلَاصُ أَنْ يُخَلِّصَكَ اللَّهُ مِنْهُمَا.وَاخْتَارَ النَّوَوِيُّ أَنَّ صِيغَةَ الْأَمْرِ لِلْإِبَاحَةِ أَيْ:إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا،فَإِنْ كَانَ بِحَيْثُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ،وَمِنَ النَّاسِ فِي فِعْلِهِ فَافْعَلْهُ،وَإِلَّا فَلَا.وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ أَنَّكَ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ مِنْ صُنْعِ أَمْرٍ فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ ارْتِكَابِهِ،ثُمَّ قَالَ:وَعَلَى هَذَا مَدَارُ الْإِسْلَامِ وَتَوْجِيهُهُ أَنَّ أَفْعَالَ الْإِنْسَانِ إِمَّا أَنْ يُسْتَحَى مِنْهَا أَمْ لَا.فَالْأَوَّلُ يَشْمَلُ الْحَرَامَ وَالْمَكْرُوهَ،وَتَرْكُهُمَا هُوَ الْمَشْرُوعُ.وَالثَّانِي:يَشْمَلُ الْوَاجِبَ وَالْمَنْدُوبَ وَالْمُبَاحَ،وَفِعْلُهَا مَشْرُوعٌ فِي الْأَوَّلَيْنِ جَائِزٌ فِي الثَّالِثِ،فَعَلَى هَذَا يَتَضَمَّنُ الْحَدِيثُ الْأَحْكَامَ الْخَمْسَةَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ:التَّحْقِيقُ أَنَّ الْحَيَاءَ يَنْشَأُ عَنْ عِلْمِ الْقَلْبِ بِأَنَّ اللَّهَ رَقِيبٌ عَلَيْهِ فَيُحَافِظُ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ،وَيَسْتَقْبِحُ مَا صَدَرَ مِنْ هَفَوَاتِهِ،وَيَتَحَمَّلُ أَنْوَاعَ الْبَلَاءِ فِي نَظَرِهِ نَشِيطًا وَلَا يَشْتَكِي إِلَى غَيْرِهِ،فَإِذَا تَرَقَّى عَنْ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ بِلَا رَيْبٍ،اسْتَحْيَا مِنْ قُرْبِهِ فَوْقَ مَا يَسْتَحْيِي مِنْ رُؤْيَتِهِ،فَيَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى مَحَبَّتِهِ وَالْخَلْوَةِ مَعَهُ مُسْتَوْحِشًا مِنَ الْأَغْيَارِ مُسْتَلِذًّا بِرُوحِ أُنْسِ الْمَلِكِ الْغَفَّارِ،حَتَّى تَطْلُعَ عَلَيْهِ طَوَالِعُ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ،وَتَلْمَعَ فِي سَرْدِ بَوَارِقِ أَسْرَارِ التَّفْرِيدِ،فَيَسْتَحْيِي مِنْ شُهُودِ مَشْهُودِهِ،فَانِيًا عَنِ الْخَلْقِ بَاقِيًا مَعَ الْحَقِّ.قَالَ الْعَارِفُ السُّهْرَوَرْدِيُّ:الْحَيَاءُ إِطْرَاقُ الرُّوحِ إِجْلَالًا لِعِظَمِ الْجَلَالِ،وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ حَيَاءُ إِسْرَافِيلَ،كَمَا وَرَدَ:إِنَّهُ يَسْتَتِرُ بِجَنَاحِهِ حَيَاءً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَحَيَاءُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا قَالَ:إِنِّي لَأَغْتَسِلُ فِي الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ.فَأَنْطَوِي حَيَاءً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.قُلْتُ:رَوَى ابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا:" «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَحْيَا أُمَّتِي عُثْمَانُ» " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٧٢)

[١٣٦٨] - صحيح البخاري (٨/ ٢٩)(٦١١٧) وصحيح مسلم (١/ ٦٤)(٦٠ - (٣٧)

[ش (بشير) العدوي البصري تابعي جليل رحمه الله تعالى.(الحكمة) أي في كتب الحكمة وهي التي تبحث في أحوال وحقائق الموجودات ولعلها ما يسمى الآن بعلم الفلسفة والأخلاق.(وقارا) حلما ورزانة.(سكينة) هدوءا وطمأنينة]

وعَنْ إِسْحَاقَ وَهُوَ ابْنُ سُوَيْد،أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ حَدَّثَ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فِي رَهْطٍ،وَفِينَا بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ،فَحَدَّثَنَا عِمْرَانُ،يَوْمَئِذٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ» قَالَ:أَوْ قَالَ:«الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ» فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ:إِنَّا لَنَجِدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ – أَوِ الْحِكْمَةِ – أَنَّ مِنْهُ سَكِينَةً وَوَقَارًا لِلَّهِ،وَمِنْهُ ضَعْفٌ،قَالَ:فَغَضِبَ عِمْرَانُ حَتَّى احْمَرَّتَا عَيْنَاهُ،وَقَالَ:أَلَا أَرَى أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَتُعَارِضُ فِيهِ،قَالَ:فَأَعَادَ عِمْرَانُ الْحَدِيثَ،قَالَ:فَأَعَادَ بُشَيْرٌ،فَغَضِبَ عِمْرَانُ،قَالَ:فَمَا زِلْنَا نَقُولُ فِيهِ إِنَّهُ مِنَّا يَا أَبَا نُجَيْدٍ،إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ"[١٣٦٩]

أَيْ:لَا يُغْرِي الْإِنْسَانَ إِلَّا بِخَيْرٍ.وَالْحَيَاءُ تَغَيُّرٌ وَانْكِسَارٌ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ خَوْفِ مَا يُعَابُ بِهِ وَيُذَمُّ،ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ.وَقَالَ النَّوَوِيُّ:قَدْ يُشْكِلُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ حَيْثُ إِنَّ صَاحِبَ الْحَيَاءِ قَدْ يَسْتَحِي أَنْ يُوَاجِهَ بِالْحَقِّ مَنْ يُجِلُّهُ وَيُعَظِّمُهُ،فَيَتْرُكُ أَمْرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَقَدْ يَحْمِلُهُ الْحَيَاءُ عَلَى الْإِخْلَالِ بِبَعْضِ الْحُقُوقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْعَادَةِ،وَالْجَوَابُ مَا أَجَابَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمُ:الشَّيْخُ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ أَنَّ هَذَا الْمَانِعَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ لَيْسَ حَيَاءً حَقِيقَةً،بَلْ هُوَ عَجْزٌ وَخَوَرٌ،وَتَسْمِيَتُهُ حَيَاءً،بِحَسَبِ اللُّغَةِ،وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ الْحَيَاءِ فِي اصْطِلَاحِ أَهْلِ الشَّرْعِ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبِيحِ،وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ عَنِ السَّيِّدِ الْجَلِيلِ أَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ.قَالَ:الْحَيَاءُ رُؤْيَةُ الْآلَاءِ،وَرُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الْحَيَاءَ.قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ:إِنَّمَا جُعِلَ الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ؛لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَخَلُّقًا وَاكْتِسَابًا كَسَائِرِ أَعْمَالِ الْبِرِّ،وَقَدْ يَكُونُ غَرِيزَةً،وَلَكِنَّ اسْتِعْمَالَهُ عَلَى قَانُونِ الشَّرْعِ يَحْتَاجُ إِلَى اكْتِسَابٍ وَنِيَّةٍ وَعِلْمٍ،وَهَذَا الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ ﷺ:(«الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ») .قَالَ الطِّيبِيُّ:وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ التَّعْرِيفُ فِيهِ عَلَى الْعَهْدِ،وَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ ﷺ:" «الِاسْتِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى» " الْحَدِيثَ اهــ.وَهُوَ مَعْنًى حَسَنٌ وَقَيْدٌ مُسْتَحْسَنٌ يَزُولُ بِهِ الْإِشْكَالُ السَّابِقُ،وَبَيَانُهُ أَنَّ الْحَيَاءَ مِنَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي خَيْرٌ كُلُّهُ،وَهُوَ الَّذِي لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ،وَهُوَ الَّذِي لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْإِيمَانِ،وَأَمَّا الْحَيَاءُ مِنَ الْخُلُقِ فَالْغَالِبُ فِيهِ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مَحْمُودًا،فَالْحَصْرُ ادِّعَائِيٌّ أَوْ كُلُّهُ مَحْمُودٌ إِلَّا إِذَا عَارَضَهُ تَرْكُ الْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ،فَيَتْرُكُ جَانِبَهُ مِنْ أَدَاءِ الْحُقُوقِ وَيُرَاعِي جَانِبَ الْمَخْلُوقِ،فَحِينَئِذٍ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ الْحَيَاءُ أَنْ لَا يُسَمَّى حَيَاءً فَالْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(وَفِي رِوَايَةٍ) أَيْ:لَهُمَا عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرٌ لَكِنْ فِي الْجَامِعِ أَسْنَدَهَا إِلَى مُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ (الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ):قِيلَ عَامٌّ أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ أَيِ:الْحَيَاءُ عَنْ فِعْلِ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٧٢)

[١٣٦٩] – صحيح مسلم (١/ ٦٤)٦٠ – (٣٧)

[ش (حتى احمرتا عيناه) كذا هو في الأصول وهو صحيح جار على لغة أكلوني البراغيث ومثله وأسروا النجوى الذين ظلموا ومثله يتعاقبون فيكم ملائكة (إنه منا إنه لا بأس به) معناه ليس هو ممن يتهم بنفاق أو زندقة أو بدعة أو غيرها مما يخالف به أهل الاستقامة]

وقد بين النبي ﷺ أن الحياء من الإيمان،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً،فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ،وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» متفق عليه[١٣٧٠]

[١٣٧٠] – صحيح مسلم (١/ ٦٣)٥٨ – (٣٥) وصحيح البخاري (١/ ١١)(٩)

[ش (إماطة الأذى) أي تنحيته وإبعاده والمراد بالأذى كل ما يؤذى من حجر أو مدر أو شوك أو غيره]

(الْإِيمَانُ)] أَيْ:ثَمَرَاتُهُ،وَفُرُوعُهُ فَأُطْلِقَ الْإِيمَانُ – وَهُوَ التَّصْدِيقُ وَالْإِقْرَارُ – عَلَيْهَا مَجَازًا؛لِأَنَّهَا مِنْ حُقُوقِه وَلَوَازِمِه [(بِضْعٌ وَسَبْعُونَ)]،وَفِي رِوَايَةٍ:بِضْعَةٌ،وَالْبَاءُ مَكْسُورَةٌ فِيهِمَا وَقَدْ تُفْتَحُ،وَهِيَ الْقِطْعَةُ،ثُمَّ اسْتُعْمِلَا فِي الْعَدَدِ لِمَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ وَالْعَشَرَةِ.وَفِي " الْقَامُوسِ ":هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ أَوْ إِلَى الْخَمْسِ،أَوْ مَا بَيْنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْأَرْبَعَةِ،أَوْ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى تِسْعٍ،أَوْ هُوَ سَبْعٌ اهـــ.وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ،وَالَّذِي فِي الْأَصْلِ هُوَ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ،جَرَى عَلَيْهَا أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ،وَرِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ بِضْعٌ وَسِتُّونَ،وَرَجَّحْتُ بِأَنَّهَا الْمُتَيَقَّنُ،وَصَوَّبَ الْقَاضِي عِيَاضٌ الْأُولَى بِأَنَّهَا الَّتِي فِي سَائِرِ الْأَحَادِيثِ،وَرَجَّحَهَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمُ النَّوَوِيُّ بِأَنَّ فِيهَا زِيَادَةُ ثِقَاتٍ،وَاعْتَرَضَهُ الْكِرْمَانِيُّ بِأَنَّ زِيَادَةَ الثِّقَةِ أَنْ يُزَادَ لَفْظٌ فِي الرِّوَايَةِ،وَإِنَّمَا هَذَا مِنِ اخْتِلَافِ الرِّوَايَتَيْنِ مَعَ عَدَمِ تَنَافٍ بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى؛إِذْ ذِكْرُ الْأَقَلِّ لَا يَنْفِي الْأَكْثَرَ،وَأَنَّهُ – ﷺ- أَخْبَرَ أَوَّلًا بِالسِّتِّينَ،ثُمَّ أُعْلِمَ بِزِيَادَةٍ فَأَخْبَرَ بِهَا،وَيُجَابُ بِأَنَّ هَذَا مُتَضَمِّنٌ لِلزِّيَادَةِ كَمَا اعْتَرَفَ بِهِ الْكِرْمَانِيُّ،فَصَحَّ مَا قَالَهُ النَّوَوِيُّ،وَالْأَظْهَرُ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ التَّكْثِيرُ لَا التَّحْدِيدُ،وَيُحْمَلُ الِاخْتِلَافُ عَلَى تَعَدُّدِ الْقَضِيَّةِ،وَلَوْ مِنْ جِهَةِ رَاوٍ وَاحِدٍ،وَقَوْلُهُ:[(شُعْبَةً)] هِيَ فِي الْأَصْلِ غُصْنُ الشَّجَرِ وَفَرْعُ كُلِّ أَصْلٍ،وَأُرِيدَ بِهَا هُنَا الْخَصْلَةُ الْحَمِيدَةُ أَيِ:الْإِيمَانُ ذُو خِصَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ،وَفِي رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ:بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا،وَفِي أُخْرَى:أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ بَابًا،أَيْ نَوْعًا مِنْ خِصَالِ الْكَمَالِ،وَفِي أُخْرَى:ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ شَرِيعَةً،مَنْ وَافَى اللَّهَ بِشَرِيعَةٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ،وَرَوَى ابْنُ شَاهِينَ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ خُلُقٍ،مَنْ أَتَى بِخُلُقٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ،وَفُسِّرَتْ بِنَحْوِ الْحَيَاءِ،وَالرَّحْمَةِ،وَالسَّخَاءِ،وَالتَّسَامُحِ،وَغَيْرِهَا مِنْ أَخْلَاقِهِ تَعَالَى الْمَذْكُورَةِ فِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى،وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا.[(فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)] أَيْ:هَذَا الذِّكْرُ فَوُضِعَ الْقَوْلُ مَوْضِعَهُ،وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَرَدَ بِلَفْظِ:أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،لَا مَوْضِعَ الشَّهَادَةِ؛لِأَنَّهَا مِنْ أَصْلِهِ لَا مِنْ شُعَبِهِ،وَالتَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ خَارِجٌ عَنْهَا بِالْإِجْمَاعِ،كَذَا قِيلَ،وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى جَعْلِ الْإِقْرَارِ شَطْرَ الْإِيمَانِ،وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ شَرْطٌ فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْقَوْلِ الشَّهَادَةَ لِإِنْبَائِهِ عَنِ التَّوْحِيدِ الْمُتَعَيَّنِ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ الَّذِي لَا يَصِحُّ غَيْرُهُ إِلَّا بَعْدَ صِحَّتِهِ،فَهُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ سَائِرُ الشُّعَبِ،أَوْ لِتَضَمُّنِهِ شَرْعًا مَعْنَى التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ التَّصْدِيقُ وَالْتِزَامُهُ عُرْفًا سَائِرَ الْعِبَادَاتِ عَلَى التَّحْقِيقِ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ أَفْضَلُهَا مِنْ وَجْهٍ،وَهُوَ أَنَّهُ يُوجِبُ عِصْمَةَ الدَّمِ وَالْمَالِ لَا أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ،وَإِلَّا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ،وَلَيْسَ كَذَلِكَ،وَيَجُوزُ أَنْ يُقْصَدَ الزِّيَادَةُ الْمُطْلَقَةُ لَا عَلَى مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ أَيِ:الْمَشْهُورُ مِنْ بَيْنِهَا بِالْفَضْلِ فِي الْأَدْيَانِ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.[(وَأَدْنَاهَا)] أَيْ:أَقْرَبُهَا مَنْزِلَةً وَأَدْوَنُهَا مِقْدَارًا وَمَرْتَبَةً،بِمَعْنَى أَقْرَبُهَا تَنَاوُلًا وَأَسْهَلُهَا تَوَاصُلًا،مِنَ الدُّنُوِّ بِمَعْنَى الْقُرْبِ،فَهُوَ ضِدُّ:فُلَانٌ بَعِيدُ الْمَنْزِلَةِ،أَيْ:رَفِيعُهَا،وَمِنْ ثَمَّ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مَكَانَ أَفْضَلِهَا بِلَفْظِ:فَأَرْفَعُهَا،وَفِي رِوَايَةٍ:فَأَقْصَاهَا،أَوْ مِنَ الدَّنَاءَةِ أَيْ أَقَلُّهَا فَائِدَةً؛لِأَنَّهَا دَفْعُ أَدْنَى ضَرَرٍ [(إِمَاطَةُ الْأَذَى)] أَيْ:إِزَالَتُهُ،وَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمُؤْذِي،أَوْ مُبَالَغَةٌ،أَوِ اسْمٌ لِمَا يُؤْذِي بِهِ كَشَوْكَةٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ قَذَرٍ.قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْأَبْرَارِ:هُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْذُونَ الذَّرَّ،وَلَا يَرْضَوْنَ الضُّرَّ،وَفِي رِوَايَةٍ:إِمَاطَةُ الْعَظْمِ أَيْ:مَثَلًا [(عَنِ الطَّرِيقِ)]:وَفِي طَرِيقِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ أُرِيدَ بِالْأَذَى النَّفْسُ الَّتِي هِيَ مَنْبَعُ الْأَذَى لِصَاحِبِهَا وَغَيْرِهِ،فَالشُّعْبَةُ الْأُولَى مِنَ الْعِبَادَاتِ الْقَوْلِيَّةِ،وَالثَّانِيَةُ مِنَ الطَّاعَةِ الْفِعْلِيَّةِ،أَوِ الْأُولَى فِعْلِيَّةٌ وَالثَّانِيَةُ تَرْكِيَّةٌ،أَوِ الْأُولَى مِنَ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الْحَقِّ وَالثَّانِيَةُ مِنَ الْمُجَامَلَةِ مَعَ الْخَلْقِ،أَوِ الْأُولَى مِنَ التَّعْظِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ

وَالثَّانِيَةُ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ،أَوِ الْأُولَى مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ وَالثَّانِيَةُ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّ الْعِبَادِ،فَمَنْ قَامَ بِهِمَا صِدْقًا كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ حَقًّا [(وَالْحَيَاءُ)]:بِالْمَدِّ [(شُعْبَةٌ)] أَيْ:عَظِيمَةٌ [(مِنَ الْإِيمَانِ)] أَيْ:مِنْ شُعَبِهِ،وَالْمُرَادُ بِهِ الْحَيَاءُ الْإِيمَانِيُّ،وَهُوَ خُلُقٌ يَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الْفِعْلِ الْقَبِيحِ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ؛كَالْحَيَاءِ مِنْ كَشْفِ الْعَوْرَةِ وَالْجِمَاعِ بَيْنَ النَّاسِ،لَا النَّفْسَانِيُّ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ فِي النُّفُوسِ،وَهُوَ تَغَيُّرٌ وَانْكِسَارٌ يَعْتَرِي الْمَرْءَ مِنْ خَوْفِ مَا يُلَامُ وَيُعَابُ عَلَيْهِ،وَإِنَّمَا أُفْرِدَ مِنْ سَائِرِ الشُّعَبِ؛لِأَنَّهُ الدَّاعِي إِلَى الْكُلِّ؛فَإِنَّ الْحَيِيَّ يَخَافُ فَضِيحَةَ الدُّنْيَا وَفَظَاعَةَ الْعُقْبَى فَيَنْزَجِرُ عَنِ الْمَنَاهِي وَيَرْتَدِعُ عَنِ الْمَلَاهِي،وَلِذَا قِيلَ:حَقِيقَةُ الْحَيَاءِ أَنَّ مَوْلَاكَ لَا يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ،وَهَذَا مَقَامُ الْإِحْسَانِ الْمُسَمَّى بِالْمُشَاهَدَةِ النَّاشِئُ عَنْ حَالِ الْمُحَاسَبَةِ،وَالْمُرَاقَبَةِ،فَهَذَا الْحَدِيثُ الْجَلِيلُ مُجْمَلُ حَدِيثِ جِبْرِيلَ،فَأَفْضَلُهَا مُشِيرٌ إِلَى الْإِيمَانِ،وَأَدْنَاهَا مُشْعِرٌ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَالْحَيَاءُ مُوصِلٌ إِلَى الْإِحْسَانِ،وَمِنْ ثَمَّ قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - («اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» قَالُوا:إِنَّا لَنَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،قَالَ:(لَيْسَ ذَلِكَ،وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ يُحْفَظَ الرَّأْسُ وَمَا حَوَى،وَالْبَطْنُ وَمَا وَعَى،وَيُذْكَرُ الْمَوْتُ،وَالْبِلَى،وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الْأُولَى،فَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَى مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ») .رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ،وَصَحَّ:الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ.قَالَ ابْنُ حِبَّانَ:تَتَبَّعْتُ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مُدَّةً وَعَدَدْتُ الطَّاعَاتِ فَإِذَا هِيَ تَزِيدُ عَلَى الْبِضْعِ وَالسَّبْعِينَ شَيْئًا كَثِيرًا،فَرَجَعْتُ إِلَى السُّنَّةِ فَعَدَدْتُ كُلَّ طَاعَةٍ عَدَّهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- مِنَ الْإِيمَانِ فَإِذَا هِيَ تَنْقُصُ فَضَمَمْتُ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِذَا هِيَ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ،فَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْمُرَادُ.قَالَ السُّيُوطِيُّ:قَدْ تَكَلَّفَ جَمَاعَةٌ عَدَّهَا بِطَرِيقِ الِاجْتِهَادِ - يَعْنِي الْبَيْضَاوِيَّ وَالْكِرْمَانِيَّ وَغَيْرَهُمَا - وَأَقْرَبُهُمْ عَدًّا ابْنُ حِبَّانَ حَيْثُ ذَكَرَ كُلَّ خَصْلَةٍ سُمِّيَتْ فِي الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ إِيمَانًا،وَقَدْ تَبِعَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ وَتَبِعْنَاهُمَا،وَذَلِكَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ،وَصِفَاتِهِ،وَحُدُوثِ مَا دُونَهُ،وَبِمَلَائِكَتِهِ،وَكُتُبِهِ،وَرُسُلِهِ،وَالْقَدَرِ،وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَمَحَبَّةُ اللَّهِ،وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ،وَالْبُغْضُ فِيهِ،وَمَحَبَّةُ النَّبِيِّ - ﷺ- وَاعْتِقَادُ تَعْظِيمِهِ،وَفِيهِ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ،وَاتِّبَاعُ سُنَّتِهِ،وَالْإِخْلَاصُ فِيهِ،وَتَرْكُ الرِّيَاءِ،وَالنِّفَاقِ،وَالتَّوْبَةُ،وَالْخَوْفُ،وَالرَّجَاءُ،وَالشُّكْرُ،وَالْوَفَاءُ،وَالصَّبْرُ،وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ،وَالْحَيَاءُ،وَالتَّوَكُّلُ،وَالرَّحْمَةُ،وَالتَّوَاضُعُ،وَفِيهِ تَوْقِيرُ الْكَبِيرِ،وَرَحْمَةُ الصَّغِيرِ،وَتَرْكُ الْكِبْرِ،وَالْعُجْبِ،وَتَرْكُ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ،وَتَرْكُ الْغَضَبِ،وَالنُّطْقُ بِالتَّوْحِيدِ،وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ،وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمُهُ،وَالدُّعَاءُ،وَالذِّكْرُ،وَفِيهِ الِاسْتِغْفَارُ،وَاجْتِنَابُ اللَّغْوِ،وَالتَّطَهُّرُ حِسًّا وَحُكْمًا،وَفِيهِ اجْتِنَابُ النَّجَاسَاتِ،وَسَتْرُ الْعَوْرَةِ،وَالصَّلَاةُ فَرْضًا وَنَفْلًا،وَالزَّكَاةُ كَذَلِكَ،وَفَكُّ الرِّقَابِ،وَالْجُودُ،وَفِيهِ الْإِطْعَامُ،وَالضِّيَافَةُ،وَالصِّيَامُ فَرْضًا وَنَفْلًا،وَالِاعْتِكَافُ،وَالْتِمَاسُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ،وَالْحَجُّ،وَالْعُمْرَةُ،وَالطَّوَافُ،وَالْفِرَارُ بِالدِّينِ،وَفِيهِ الْهِجْرَةُ،وَالْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ،وَالتَّحَرِّي فِي الْإِيمَانِ،وَأَدَاءُ الْكَفَّارَاتِ،وَالتَّعَفُّفُ بِالنِّكَاحِ،وَأَدَاءُ حُقُوقِ الْعِيَالِ،وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ،وَتَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ،وَصِلَةُ الرَّحِمِ،وَطَاعَةُ السَّادَةِ،وَالرِّفْقُ بِالْعَبِيدِ،وَالْقِيَامُ بِالْإِمْرَةِ مَعَ الْعَدْلِ،وَمُتَابَعَةُ الْجَمَاعَةِ،وَطَاعَةُ أُولِي الْأَمْرِ،وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ،وَفِيهِ قِتَالُ الْخَوَارِجِ وَالْبُغَاةِ،وَالْمُعَاوَنَةُ عَلَى الْبِرِّ،وَفِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ،وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ،وَالْجِهَادُ،وَفِيهِ الْمُرَابَطَةُ،وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ،وَمِنْهَا الْخُمُسُ،وَالْقَرْضُ مَعَ وَفَائِهِ،وَإِكْرَامُ الْجَارِ،وَحُسْنُ الْمُعَامَلَةِ،وَفِيهِ جَمْعُ الْمَالِ مِنْ حِلِّهِ،وَإِنْفَاقُ الْمَالِ فِي حَقِّهِ،وَفِيهِ تَرْكُ التَّبْذِيرِ وَالسَّرَفِ،وَرَدُّ السَّلَامِ،وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ،وَكَفُّ الضَّرَرِ عَنِ النَّاسِ،وَاجْتِنَابُ اللَّهْوِ،وَإِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ اهـــ.

مَا ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي كِتَابِهِ " النُّقَايَةِ "،وَأَدِلَّتُهَا مَذْكُورَةٌ فِي شَرْحِهَا " إِتْمَامِ الدِّرَايَةِ "،وَتَجِيءُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مُتَفَرِّقَةً،وَلَكِنْ ذَكَرْتُهَا لَكَ مُجْمَلَةً لِتَتَأَمَّلَ فِيهَا مُفَصَّلَةً،فَمَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ مُتَّصِفَةً بِهَا فَاشْكُرِ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ،وَمَا رَأَيْتَ عَلَى خِلَافِهَا فَاطْلُبْ مِنَ اللَّهِ التَّوْفِيقَ عَلَى تَحْصِيلِ مَا هُنَالِكَ؛لِأَنَّ مَنْ وُجِدَتْ فِيهِ هَذِهِ الشُّعَبُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ كَامِلٌ،وَمَنْ نَقَصَ مِنْهُ بَعْضُهَا فَهُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصٌ،وَأَغْرَبَ النَّوَوِيُّ حَيْثُ قَالَ:الْحَدِيثُ نَصٌّ فِي إِطْلَاقِ اسْمِ الْإِيمَانِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْأَعْمَالِ.وَتَعَقَّبَهُ ابْنُ حَجَرٍ وَقَالَ:تَمَسَّكَ بِهِ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْإِيمَانَ فِعْلُ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالتَّصْدِيقِ وَالْعَمَلِ،وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوا؛لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ،وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الحَيَاءِ،يَقُولُ:إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي،حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ:قَدْ أَضَرَّ بِكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«دَعْهُ،فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ» متفقٌ عليه[١٣٧١]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" كُلَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَخْلَاقُ فِي صَاحِبِهَا أَكْمَلَ كَانَتْ حَيَاتُهُ أَقْوَى وَأَتَمَّ،وَلِهَذَا كَانَ خُلُقُ الْحَيَاءِ مُشْتَقًّا مِنَ الْحَيَاةِ اسْمًا وَحَقِيقَةً،فَأَكْمَلُ النَّاسِ حَيَاةً:أَكْمَلُهُمْ حَيَاءً،وَنُقْصَانُ حَيَاءِ الْمَرْءِ مِنْ نُقْصَانِ حَيَاتِهِ،فَإِنَّ الرُّوحَ إِذَا مَاتَتْ لَمْ تُحِسَّ بِمَا يُؤْلِمُهَا مِنَ الْقَبَائِحِ،فَلَا تَسْتَحِي مِنْهَا،فَإِذَا كَانَتْ صَحِيحَةَ الْحَيَاةِ أَحَسَّتْ بِذَلِكَ،فَاسْتَحْيَتْ مِنْهُ،وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ،وَالصِّفَاتِ الْمَمْدُوحَةِ تَابِعَةٌ لِقُوَّةِ الْحَيَاةِ،وَضِدِّهَا مِنْ نُقْصَانِ الْحَيَاةِ،وَلِهَذَا كَانَتْ حَيَاةُ الشُّجَاعِ أَكْمَلَ مِنْ حَيَاةِ الْجَبَانِ،وَحَيَاةُ السَّخِيِّ أَكْمَلَ مِنْ حَيَاةِ الْبَخِيلِ،وَحَيَاةُ الْفَطِنِ الذَّكِيِّ أَكْمَلَ مِنْ حَيَاةِ الْفَدْمِ الْبَلِيدِ،وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَكْمَلَ النَّاسِ حَيَاةً حَتَّى إِنَّ قُوَّةَ حَيَاتِهِمْ تَمْنَعُ الْأَرْضَ أَنْ تُبْلِيَ أَجْسَامَهُمْ كَانُوا أَكْمَلَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْأَخْلَاقِ،ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ."[١٣٧٢]

شُعَبِ الْإِيمَانِ لَا فِي ذَاتِهِ،إِذِ التَّقْدِيرُ:شُعَبُ الْإِيمَانِ؛حَتَّى يَصِحَّ الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِسَبْعِينَ شُعْبَةً،إِذْ يَرْجِعُ حَاصِلُهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى أَنَّ شُعَبَ الْإِيمَانِ كَذَا،وَشُعَبُ الشَّيْءِ غَيْرُهُ اهـ.

وَفِي الْحَدِيثِ تَشْبِيهُ الْإِيمَانِ بِشَجَرَةٍ ذَاتِ أَغْصَانٍ وَشُعَبٍ،كَمَا أَنَّ فِي الْقُرْآنِ تَشْبِيهَ الْكَلِمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بِشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ،أَيْ:أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي الْقَلْبِ،وَفَرْعُهَا أَيْ:شُعَبُهَا مَرْفُوعَةٌ فِي السَّمَاءِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٦٩)

[١٣٧١] - صحيح البخاري (١/ ١٤)(٢٤) وصحيح البخاري (٨/ ٢٩)(٦١١٨) وصحيح مسلم (١/ ٦٣)٥٩ - (٣٦)

وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ) أَيْ:يَنْصَحُهُ (فِي الْحَيَاءِ):بِأَنْ لَا يُكْثِرَ مِنْهُ،فَإِنَّ الْحَيَاءَ يَمْنَعُ الرِّزْقَ وَيَمْنَعُ الْعِلْمَ عَلَى مَا رُوِيَ.قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ يُنْذِرُهُ.قَالَ الرَّاغِبُ:الْوَعْظُ زَجْرٌ مُقْتَرِنٌ بِتَخْوِيفِهِ،وَقَالَ الْخَلِيلُ:هُوَ التَّذْكِيرُ بِالْخَيْرِ فِيمَا يَرِقُّ لَهُ الْقَلْبُ اهـ كَلَامُهُ.وَالْوَعْظُ هُنَا بِمَعْنَى الْعِتَابِ لِمَا جَاءَ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- بِرَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ،وَيَقُولُ:إِنَّهُ لَيَسْتَحْيِي يَعْنِي كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ أَضَرَّ بِكَ.(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:دَعْهُ) أَيِ:اتْرُكْهُ عَلَى حَالِهِ مِنْ كَثْرَةِ الْحَيَاءِ (فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ) أَيْ:بَعْضِهِ أَوْ مِنْ شُعَبِهِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:يَعِظُهُ فِي الْحَيَاءِ أَيْ:يَنْهَاهُ عَنْهُ وَيُقَبِّحُ لَهُ فِعْلَهُ وَيَزْجُرُهُ عَنْ كَثْرَتِهِ،فَنَهَاهُ النَّبِيُّ - ﷺ- عَنْ ذَلِكَ.أَيْ:دَعْهُ عَلَى فِعْلِ الْحَيَاءِ،وَكُفَّ عَنْ نَهْيِهِ،وَوَقَعَتْ لَفْظَةُ (دَعْهُ) فِي الْبُخَارِيِّ وَلَمْ تَقَعْ فِي مُسْلِمٍ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٧١)

[١٣٧٢] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٢٤٩)

فالحياء هو جمال أهل الإسلام وزينتهم،فعَنْ أَنَسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ،وَمَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ» رواه الترمذي وغيره[١٣٧٣]

فمفهوم الجمال الحقيقي في الإسلام،هو جمال الاستقامة،ومكارم الأخلاق،ومحاسن الآداب،كما قال تعالى:{ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر:٨٥]

أَمَرَهُ بِالصَّفْحِ عَنْ إِسَاءَاتِ الُمشْرِكِينَ وَأَذَاهُمْ لَهُ،وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ.[١٣٧٤]

وهو الصفح الذي لا أذية فيه بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان،وذنبه بالغفران،لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب،فإن كل ما هو آت فهو قريب،وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا.

وهو:أن المأمور به هو الصفح الجميل أي:الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية،دون الصفح الذي ليس بجميل،وهو الصفح في غير محله،فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة،كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة،وهذا هو المعنى.[١٣٧٥]

وقال تعالى:{فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا } [المعارج:٥]

فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ،وَعَلَى اسْتِعْجَالِهِم العَذَابَ اسْتِبْعَاداً لِوُقُوعِه،وَاحْتَمِلْ أَذاهُمْ لَكَ بِلاَ جَزَعٍ وَلاَ شَكْوَى،لأَنَّ وُقُوعَ العَذَابِ بِهِمْ أَمْرٌ مُحَقَّقٌ،وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ.[١٣٧٦]

أي:اصبر على دعوتك لقومك صبرا جميلا لا تضجر فيه ولا ملل،بل استمر على أمر الله،وادع عباده إلى توحيده،ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم،وعدم رغبتهم،فإن في الصبر على ذلك خيرا كثيرا.[١٣٧٧]

[١٣٧٣] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٤٩)(١٩٧٤) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٠/ ١١٨)(١٢٦٨٩) صحيح

مَا كَانَ الْفُحْشُ) أَيِ:الْقَبِيحُ مِنَ الْكَلَامِ (فِي شَيْءٍ) أَيْ:فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ (إِلَّا شَانَهُ)،أَيْ:عَيَّبَهُ الْفُحْشُ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفُحْشِ الْعُنْفُ لِمَا فِي رِوَايَةِ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ وَالضِّيَاءِ عَنْ أَنَسٍ أَيْضًا:مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ.(«وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ») .أَيْ زَيَّنَهُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ:فِي شَيْءٍ فِيهِ مُبَالَغَةٌ أَيْ:لَوْ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ الْفُحْشُ أَوِ الْحَيَاءُ فِي جَمَادٍ لَزَانَهُ أَوْ شَانَهُ،فَكَيْفَ بِالْإِنْسَانِ.اهـــ.وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِشَيْءٍ شَيْئًا يُتَصَوَّرُ فِيهِ الْفُحْشُ وَالْحَيَاءُ،فَكَأَنَّهُ قَالَ:مَا كَانَ فِي أَحَدٍ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٤٧)

[١٣٧٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨٨٨،بترقيم الشاملة آليا)

[١٣٧٥] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٣٤)

[١٣٧٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

[١٣٧٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٨٦)

والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة،وتكررت لكل رسول،ولكل مؤمن يتبــع الرسول.وهي ضرورية لثقل العبء ومشــقة الطريــق،ولحفظ هــذه النفــوس متماســكة راضية،موصولة بالهدف البعيد،متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد ..والصبر الجميل هــو الصــبر المطمئن،الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد.صــبر الواثــق مــن العاقبة،الراضي بقدر الله،الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء،الموصول بالله المحتسب كــل شــيء عنده مما يقع به.

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة.فهي دعوة الله،وهي دعوة إلى الله.ليس لــه هو منها شيء.وليس له وراءها من غاية.فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله،وكل ما يقــع في شأنها هو من أمر الله.فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقا مع هذه الحقيقة،ومع الشعور بهــا في أعماق الضمير.

والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون،وصــاحب الوعــد الــذي يســتعجلون بــه ويكذبون،يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله.ولكــن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير فيستعجلون.وإذا طال عليهم الأمد يستريبون.وقــد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم،وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في اســتعجال الوعــد ووقوع الموعود ..عندئذ يجيء مثل هذا التثبيت وهذا التوجيه من الله الخبير:«فَاصْــبِرْ صَــبْراً جَمِيلًا» ..[1378]

وقال تعالى:{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل:١٠]

وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُهُ مُشْرِكُو قَوْمِكَ مِنْ كُفْرٍ بِاللهِ،وَتَكْذِيبٍ لَكَ وَلِرِسَالَتِكَ،واهْجُرْهُمْ هَجْــراً جَمِيلاً،لاَ عِتَابَ فِيهِ،وَلاَ تَفْكِيرَ فِي انْتِقَامٍ.[1379]

اصبر على سفاهتهم تلك وقولهم إنك مجنون،وإنك شاعر،أو كاهن،أو مفتــر متقــوّل علــى الله..اصبر على كل هذا،فذلك هو من آثار هذا القول الثقيل الذي ألقيناه عليك،وتلك هــي

[1378] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٠٦)

[1379] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٣٦٣،بترقيم الشاملة آليا)

المهمة الثقيلة التي انتدبناك لحملها..وإنه لا يعنيك على حمل هذا العبء الثقيل إلا توكلك على الله،واعتصامك بالصبر:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» (١٥٣:البقرة) .وقوله تعالى:«وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا» ..أي واهجر المشركين إذا انقطع بينك وبينهم ما ترجو لهم من خير- اهجرهم هجرا جميلا..أي كن رفيقا بهم،متوددا إليهم،ولا يحملنّك ما يرمونك به من سفاهة وجهل،على بغضتهم،والدعاء عليهم..بل ارفق بهم،والتمس العذر لهم،فهذا هو شأن العالم مع الجاهل،والطبيب مع المريض..فإذا انتهى بك الأمر معهم إلى القطيعة،فليكن ذلك بحكمة وبرفق من جهتك،كأن تقول:سلام عليكم..لى عملى ولكم عملكم..

إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا..إلى غير ذلك مما علمك الله،من الدعوة إليه،بالحكمة والموعظة الحسنة،والمجادلة بالتي هى أحسن.[١٣٨٠]

«وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ» ..مما يغيظ ويحنق،«وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا» ..لا عتاب معه ولا غضب،ولا هجر فيه ولا مشادة.وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة - وبخاصة في أوائلها ..كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر،ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير.

والهجر الجميل مع التطاول والتكذيب،يحتاج إلى الصبر بعد الذكر.والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله،مرة ومرة ومرة ولعباده المؤمنين برسله.وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده،والصبر جنته وسلاحه،والصبر ملجؤه وملاذه.فهي جهاد ..جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها ..وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم.ومع النفوس عامة وهي تتفصى من تكاليف هذه الدعوة،وتتفلت،وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها.والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله،والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريبا! اصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ..[١٣٨١]

[١٣٨٠] - التفسير القرآني للقرآن (١٥/ ١٢٥٩)

[١٣٨١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٦٣)

ومن الجمال المحمود أن يحب الرجل أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا،فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ:إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً،قَالَ:«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ،الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ،وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم[١٣٨٢]

ومن الجمال المحمود أن تتجمل المرأة لزوجها وأن يتجمل الزوج لزوجته،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ ،كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي الْمَرْأَةُ ،لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنْطِفَ حَقِّي عَلَيْهَا ،لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}..[١٣٨٣]

وأما تبرج المرأة وإبداؤها زينتها لغير محارمها فلا يسمى جمالا،بل هو شين وغواية،وإشاعة للفتنة،وإفساد في الأرض،ونزع لجلباب الحياء والعفة والطهارة،وتسربل بسربال الوقاحة وزي الجاهلية،وقد قال تعالى:{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب:٣٣]

[١٣٨٢] - صحيح مسلم (١/ ٩٣)١٤٧ - (٩١)

[ش (بطر الحق) هو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا (غمط الناس) معناه احتقارهم يقال في الفعل منه غمطه يغمطه وغمطه يغمطه]

(يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنًا) أَيْ:مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرَاعِيَ نَظَرَ الْخَلْقِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَالسُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ،وَعَلَامَةُ صِدْقِهِ أَنْ يُحِبَّ ذَلِكَ أَيْضًا فِي الْخَلَاءِ،ثُمَّ النَّعْلُ مَا وُقِيَتْ بِهِ الْقَدَمُ،وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ جَمَاعِيَّةٌ.ذَكَرَهَا ابْنُ الْحَاجِبِ فِي رِسَالَتِهِ فِيمَا يَجِبُ تَأْنِيثُهُ،وَفِي الْمَشَارِقِ:وَنَعْلُهُ حَسَنَةٌ فَالتَّذْكِيرُ هُنَا بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهَا،هُوَ مَا وُقِيَتْ بِهِ الْقَدَمُ،كَذَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ،وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ التَّقْدِيرُ:وَنَعْلُهُ ذَاتُ حُسْنٍ،أَوْ عَدَلَ عَنْ فَعْلَاءَ أَيْ فَعَلَ لِلْمُشَاكَلَةِ مَعَ قَابِلِيَّةِ اللَّفْظِ أَنْ يُقْرَأَ كَذَلِكَ،وَلَعَلَّ سَبَبَ السُّؤَالِ مَا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى الرَّجُلُ الْعَادَةَ فِي الْمُتَكَبِّرِينَ لِبْسَ الثِّيَابِ الْفَاخِرَةِ،وَنَحْوَ ذَلِكَ سَأَلَ مَا سَأَلَ.(قَالَ) أَيْ:مُجِيبًا لَهُ (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ) أَيْ:فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَفِعَالِهِ وَكُلِّ جَمَالٍ صُورِيٍّ أَوْ جَمِيلٍ مَعْنَوِيٍّ،فَهُوَ أَثَرُ جَمَالِهِ،فَلَا جَمَالَ وَلَا جَلَالَ وَلَا كَمَالَ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ (يُحِبُّ الْجَمَالَ) أَيْ:ظُهُورَهُ فِي مَخْلُوقَاتِهِ،وَلِذَلِكَ أَظْهَرَهُمْ وَجَعَلَهُمْ مَظَاهِرَهُ،وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ:" «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» " (الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ):بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ وَالْمُهْمَلَةِ أَيِ:الْكِبْرُ الْمَذْمُومُ بُطْلَانُ جَمَالِ الْحَقِّ (وَغَمْصُ النَّاسِ) أَيِ:اسْتِحْقَارُ الْخَلْقِ،وَأَصْلُ الْبَطَرِ شِدَّةُ الْفَرَحِ وَالنَّشَاطِ،وَالْمُرَادُ هُنَا قِيلَ سَوَاءٌ احْتِمَالُ الْغِنَى،وَقِيلَ الطُّغْيَانُ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَالْمَعْنَيَانِ مُتَقَارِبَانِ.وَفِي النِّهَايَةِ:بَطَرُ الْحَقِّ هُوَ أَنْ يَجْعَلَ مَا يَجْعَلُهُ اللَّهُ حَقًّا مِنْ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ بَاطِلًا،وَقِيلَ:هُوَ أَنْ يَتَجَبَّرَ عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَرَاهُ حَقًّا.وَقِيلَ:هُوَ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَقْبَلُهُ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:وَتَفْسِيرُهُ عَلَى الْبَاطِلِ أَشْبَهُ لِمَا وَرَدَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ،إِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ سَفَهِ الْحَقِّ،وَغَمْصِ النَّاسِ أَيْ:رَأَى الْحَقَّ سَفَهًا.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٨٩)

[١٣٨٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢١٠)(١٩٦٠٨) صحيح

وَالزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ فَلاَ تَخْرُجْنَ لِغيرِ حَاجَةٍ.وَلاَ تُبدِينَّ زِينَتَكُنَّ وَمَحَاسِنَكُنَّ لِلرِّجَالِ،كَمَا كَانَــتْ تَفْعَلُ نِسَاءُ الجَاهلِيَّة، [١٣٨٤]

والله سبحانه الخالق العليم بخلقه وطبيعة تكوينهم هو الذي يقول هذا الكلام لأمهات المؤمنين الطاهرات.كي يراعينه في خطاب أهل زمانهن خير الأزمنة على الإطلاق! «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» ..

من وقر.يقر.أي ثقل واستقر.وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا.إنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن،وهو المقر وما عداه اســتثناء طارئــا لا يثقلن فيه ولا يستقررن.إنما هي الحاجة تقضى،وبقدرها.

والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى.غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة،ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة.

«ولكي يهيئ الإسلام للبيت جوه ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتــها،أوجب علــى الرجــل النفقة،وجعلها فريضة،كي يتاح للأم من الجهد،ومن الوقت،ومن هدوء البال،ما تشــرف بــه على هذه الفراخ الزغب،وما تهيئ به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها.فالأم المكدودة بالعمل للكسب،المرهقة بمقتضيات العمل،المقيدة بمواعيده،المستغرقة الطاقة فيه ..لا يمكــن أن تهــب للبيت جوه وعطره،ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها.وبيــوت الموظفــات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات وما يشيع فيها ذلك الأرج الــذي يشــيع في البيت.فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تخلقها امــرأة،وأرج البيــت لا يفــوح إلا أن تطلقــه زوجة،وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاه أم.والمرأة أو الزوجة أو الأم الــتي تقضــي وقتــها وجهدها وطاقتها الروحية في العمل لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال.«وإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة.أما أن يتطوع بهــا النــاس وهــم قادرون على اجتنابها،فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضــمائر والعقــول،في عصــور الانتكاس والشرور والضلال"

[١٣٨٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٤٧،بترقيم الشاملة آليا)

فأما خروج المرأة لغير العمل.خروجها للاختلاط ومزاولة الملاهـي.والتسكع في النـوادي والمجتمعات.فذلك هو الارتكاس في الحمأة الذي يرد البشر إلى مراتع الحيوان!

ولقد كان النساء على عهد رسول الله – ﷺ – يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعا من هذا.ولكنه كان زمان فيه عفة،وفيه تقوى،وكانت المرأة تخرج إلى الصلاة متلفعة لا يعرفها أحد،ولا يبرز من مفاتنها شيء.ومع هذا فقد كرهت عائشة لهن أن يخرجن بعد وفاة رسول الله – ﷺ –! فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ كُنَّ يُصَلِّينَ الصُّبْحَ مَعَ النَّبِىِّ – ﷺ – ثُمَّ يَرْجِعْنَ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ لاَ يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ.[1385]

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:كُنَّ نِسَاءُ النَّبِىِّ – ﷺ – يُصَلِّينَ مَعَ النَّبِىِّ – ﷺ – الْفَجْرَ ثُمَّ يَرْجِعْنَ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ قَبْلَ أَنْ يُعْرَفْنَ.[1386]

وفي الصحيح عَنْ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – قَالَتْ لَوْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ.قُلْتُ لِعَمْرَةَ أَوَ مُنِعْنَ قَالَتْ نَعَمْ "[1387]

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ – ﷺ – أَنَّهَا قَالَتْ لَوْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ الْمَسَاجِدَ كَمَا مُنِعَهُ نِسَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ.قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ فَقُلْتُ لِعَمْرَةَ أَوَمُنِعَ نِسَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ الْمَسَاجِدَ قَالَتْ نَعَمْ.[1388]

فماذا أحدث النساء في حياة عائشة – رضي الله عنها –؟ وماذا كان يمكن أن يحدثن حتى ترى أن رسول الله – ﷺ – كان مانعهن من الصلاة؟! ماذا بالقياس إلى مـا نـراه في هـذه الأيام؟!

«وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى» ..ذلك حين الاضطرار إلى الخروج،بعد الأمر بـالقرار في البيوت.ولقد كانت المرأة في الجاهلية تتبرج.ولكن جميع الصور التي تروى عن تبرج الجاهليـة

[1385] – صحيح مسلم- المكتز [٤/ ٢٦٢] (١٤٨٩) -المروط:جمع المرط وهو الكساء من صوف وغيره

[1386] – سنن الدارمى- المكتز [٣/ ٤٦٢] (١٢٦٣) صحيح

[1387] – صحيح البخارى- المكتز [٣/ ٤٥٧] (٨٦٩)

[1388] – موطأ مالك- المكتز [٢/ ١١٥] (٤٧٢) صحيح

الأولى تبدو ساذجة أو محتشمة حين تقاس إلى تبرج أيامنا هذه في جاهليتنا الحاضـــرة! قـــال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال،فذلك تبرج الجاهلية.[1389]

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا،قَوْمٌ مَعَهُـــمْ سِـــيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ،وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ،رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ،لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ،وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا،وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» رواه مسلم[1390].

[1389] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٦٢٩)

[1390] – صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٠)١٢٥ – (٢١٢٨)

[ش (صنفان الخ) هذا الحديث من معجزات النبوة فقد وقع هذان الصنفان وهما موجودان وفيه ذم هذين الصنفين(كاسيات عاريات) قيل معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارا لجمالها ونحوه وقيل معناه تلبس ثوبا رقيقا يصف لون بدنها(مميلات) قيل يعلمن غيرهن الميل وقيل مميلات لأكتافهن(مائلات) أي يمشين متبخترات وقيل مائلات يمشين المشية المائلة وهي مشية البغايا ومميلات يمشين غيرهن تلك المشية(البخت) قال في اللسان البخت والبختية دخيل في العربية أعجمي معرب وهي الإبل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج (والفالج البعير ذو السنامين وهو الذي بين البختي والعربي سمي بذلك لأن سنامه نصفان) الواحد بختي جمل بختي وناقة بختية ومعنى رؤسهن كأسنمة البخت أي يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها]

صِنْفَانِ):هُوَ مُبْتَدَأٌ (مِنْ أَهْلِ النَّارِ):صِفَةٌ (لَمْ أَرَهُمَا):خَبَرٌ،وَفِي رِوَايَةٍ:لَمْ أَرَهُمَا بَعْدُ،الْمُرَادُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَرَهُمَا فِي عَصْرِهِ لِطَهَارَةِ ذَلِكَ الْعَصْرِ بَلْ حَدَثَا بَعْدَهُ قَالَ النَّوَوِيُّ:هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ،وَفِيهِ ذَمُّ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ (قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ):جَمْعُ سَوْطٍ فَأُبْدِلَتِ الْوَاوُ يَاءً لِتَحَرُّكِهَا وَانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا (كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ):أَيْ:بِغَيْرِ حَقٍّ (وَنِسَاءٌ):هُوَ وَقَوْمٌ بَيَانٌ أَوْ بَدَلٌ لِقَوْلِهِ:صِنْفَانِ وَمَا بَعْدَهَا صِفَاتٌ لَهُمَا (كَاسِيَاتٌ):أَيْ:فِي نِعْمَةِ اللَّهِ (عَارِيَاتٌ):مِنْ شُكْرِهَا،وَقِيلَ:يَسْتُرْنَ بَعْضَ بَدَنِهِنَّ وَيَكْشِفْنَ بَعْضَهُ إِظْهَارًا لِجَمَالِهِنَّ وَإِبْرَازًا لِكَمَالِهِنَّ،وَقِيلَ:يَلْبَسْنَ ثَوْبًا رَقِيقًا يَصِفُ بَدَنَهُنَّ وَإِنْ كُنَّ كَاسِيَاتٍ لِلثِّيَابِ عَارِيَاتٍ فِي الْحَقِيقَةِ،أَوْ كَاسِيَاتٍ بِالْحُلَى وَالْحُلِيِّ،عَارِيَاتٍ مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَى وَمِنْهُ حَدِيثُ:(«رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْعُقْبَى») قَالَ الطِّيبِيُّ:أَثْبَتَ لَهُنَّ الْكُسْوَةَ ثُمَّ نَفَاهَا؛لِأَنَّ حَقِيقَةَ الِاكْتِسَاءِ سَتْرُ الْعَوْرَةِ،فَإِذَا لَمْ يَتَحَقَّقِ السَّتْرُ فَكَأَنَّهُ لَا اكْتِسَاءَ،وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِمَكْرُمَةٍ ...فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا

رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ ...فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

(مُمِيلَاتٌ):أَيْ:قُلُوبَ الرِّجَالِ إِلَيْهِنَّ،أَوِ الْمَقَانِعَ عَنْ رُءُوسِهِنَّ لِيَظْهَرَ وُجُوهُهُنَّ،وَقِيلَ:مُمِيلَاتٌ بِأَكْتَافِهِنَّ،وَقِيلَ:يُمِلْنَ غَيْرَهُنَّ إِلَى فِعْلِهِنَّ الْمَذْمُومِ (مَائِلَاتٌ):أَيْ:إِلَى الرِّجَالِ بِقُلُوبِهِنَّ أَوْ بِقَوَالِبِهِنَّ،أَوْ مُتَبَخْتِرَاتٌ فِي مَشْيِهِنَّ،أَوْ زَائِغَاتٌ عَنِ الْعَفَافِ،أَوْ مَائِلَاتٌ إِلَى الْفُجُورِ وَالْهَوَى،وَقِيلَ:مَائِلَاتٌ يَمْتَشِطْنَ مِشْطَةَ الْمَيْلَاءِ،وَقِيلَ:مِشْطَةَ الْبَغَايَا مُمِيلَاتٌ يُمَشِّطْنَ غَيْرَهُنَّ بِتِلْكَ الْمِشْطَةِ.(رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ):بِضَمٍّ مُوَحَّدَةٍ وَسُكُونِ مُعْجَمَةٍ.فِي النِّهَايَةِ:الْبُخْتِيُّ مِنَ الْجِمَالِ،وَالْأُنْثَى بُخْتِيَّةٌ جَمْعُ بُخْتٍ وَبَخَاتِيٍّ جِمَالٌ طِوَالُ الْأَعْنَاقِ،وَاللَّفْظَةُ مُعْرَبَةٌ أَيْ:يُعَظِّمْنَهَا وَيُكَبِّرْنَهَا بِلَفِّ عِصَابَةٍ وَنَحْوِهَا،وَقِيلَ:يَطْمَحْنَ إِلَى الرِّجَالِ لَا

فمن توفرت فيه الشروط المتقدمة وهي العلم والتقوى والذكورة،أدخل في أهل الشورى ويقدم الأمثل،فالأمثل وفي حال الخلاف في استحقاق أحد الناس الدخول في أهل الشورى،أو الخلاف في كونه أولى من غيره فيفصل التراع بالقضاء الشرعي لقول الله تعالى:{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩] وشيء نكرة في سياق الشرط،فتقتضي العموم،فكل ما تنازع فيه المتنازعون فيرد إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

قلت :

هذه المسألة موضع خلاف والصواب جواز كون المرأة المسلمة عضوا في مجلس الشورى

فلا مانع من أخذ رأي المرأة ومشاورتها في الأمور العامة كما فعل النبي ﷺ في قصة مشاورته لأم سلمة رضي الله عنها في الحديبية،وذهب البعض من العلماء إلى القول بجواز عضوية المرأة لمجلس الشورى،وفي ذلك يقول الدكتور محمود الخالدي:إنه كما كان مجلس الشورى وكيلاً عن الناس في الرأي والمرأة يجوز لها شرعاً أن تبدي رأيها للخليفة،لذلك يجوز للمرأة أن تكون عضواً في مجلس الشورى والدليل على ذلك ما يلي:

أولاً: لم يرد في الشرع أي دليل على تحريم انتخاب المرأة عضواً في مجلس الشورى،فدل على أنه مباح،أما ما ورد في السنة في قوله صلى الله عليه وآله وسلم «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[١٣٩١] فإنه لا علاقة له بمجلس الشورى لأن الحديث وارد في الحكم ومجلس الشورى ليس من قبيل الحكم،فلا يكون دليلاً على ذلك.

يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ،وَلَا يُنَكِّسْنَ رُءُوسَهُنَّ (الْمَائِلَةُ):صِفَةٌ لِلْأَسْنِمَةِ،وَهِيَ جَمْعُ السَّنَامِ،وَالْمَائِلَةُ مِنَ الْمَيْلِ؛لِأَنَّ أَعْلَى السَّنَامِ يَمِيلُ لِكَثْرَةِ شَحْمِهِ،وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ نِسَاءِ مِصْرَ (لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ):صِفَةٌ لِلنِّسَاءِ،وَلَمْ يَذْكُرْ لِلرِّجَالِ مِثْلَهَا اخْتِصَارًا وَإِيجَازًا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ (وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا،وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ):جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ (مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا):أَيْ:مِائَةِ عَامٍ مَثَلًا قَالَ الْقَاضِي:مَعْنَاهُ أَنَّهُنَّ لَا يَدْخُلْنَهَا وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا حِينَ مَا يَدْخُلُهَا وَيَجِدُ رِيحَهَا الْعَفَائِفُ الْمُتَوَرِّعَاتُ،لَا أَنَّهُنَّ لَا يَدْخُلْنَ أَبَدًا لِقَوْلِهِ ﷺفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ:(«وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ») ثَلَاثًا.أَقُولُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَحْمُولًا عَلَى الِاسْتِحْلَالِ،أَوِ الْمُرَادُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالتَّغْلِيظُ،وَيُمْكِنُ أَنَّهُنَّ لَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنْ دَخَلْنَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ." مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠٢)

[١٣٩١] - صحيح البخاري (٦/ ٨)(٤٤٢٥)

ثانياً:في السنة الثالثة عشر للبعثة أي السنة التي هاجر فيها النبي ﷺ قدم عليه خمسة وسبعون مسلماً من المدينة منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان وبايعوه جميعاً بيعة العقبة الثانية وهي بيعة حرب وقتال وبيعة سياسة،قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:فَحَدَّثَنِي مَعْبَدُ بْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَخُو بَنِي سَلَمَةَ أَنَّ أَخَاهُ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ الْأَنْصَارِ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَاهُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ،وَكَانَ كَعْبٌ مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ وَبَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:فَخَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ فَقِهْنَا وَصَلَّيْنَا وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا ،فَلَمَّا وَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا وَاللهِ مَا أَدْرِي أَتُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لَا ،فَقُلْنَا مَا هُوَ؟ قَالَ:تُصَلُّونَ إِلَى الْكَعْبَةِ قَالَ:قُلْنَا:مَا أَمَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ نُصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ ،وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ ،قَالَ:إِنِّي لَمُصَلٍّ إِلَيْهَا ،قَالَ:قُلْنَا:لَا تَفْعَلْ ،قَالَ:فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ نُصَلِّي إِلَى الشَّامِ وَيُصَلِّي إِلَى الْكَعْبَةِ ،حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ وَقَدْ عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ وَأَبَى إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَيْهِ ،قَالَ:فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ:يَا أَخِي أَنْطَلِقُ إِلَى [ص:٢٣٥] رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى أَسْأَلَهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا فَإِنِّي وَاللهِ لَقَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ خِلَافِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ ،فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ لَمْ نَرَهْ قَبْلَ ذَلِكَ ،فَلَقِينَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ:هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟ قَالَ:قُلْنَا:لَا ،قَالَ:فَهَلْ تَعْرِفُونَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟ قَالَ:قُلْنَا نَعَمْ،وَكُنَّا نَعْرِفُ الْعَبَّاسَ ،كَانَ لَا يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا ،قَالَ:فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَالِسٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ ،فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟ " قَالَ:نَعَمْ هَذَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ،قَالَ:فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ:" الشَّاعِرُ؟ " يُرِيدُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:نَعَمْ قَالَ:فَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي قَدْ خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا وَقَدْ هَدَانِي اللهُ تَعَالَى إِلَى الْإِسْلَامِ فَرَأَيْتُ أَلَّا أَضَعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ بِظَهْرٍ فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا ،وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ:" قَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا " قَالَ:فَرَجَعَ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ

وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ كَمَا قَالُوهُ وَنَحْـنُ أَعْلَـمُ بِـهِ مِنْهُمْ.ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ وَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ [ص:٢٣٦] أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ،فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ وَكَانَتْ لَيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْـرِيقِ وَمَعَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا ،وَكُنَّا يَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا:يَا أَبَا جَابِرٍ إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْـرَافِنَا وَإِنَّـا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا ثُمَّ دَعَوْنَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبَرْنَاهُ بِمِيعَادِنَـا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْعَقَبَةَ ،قَالَ:فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا مِنْ رِجَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا إِذِ اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنْهُمُ امْرَأَتَانِ نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى بَنِي عَامِرِ بْنِ النَّجَّارِ وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنُ نَابِي إِحْدَى بَنِـي سَـلَمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ قَالَ:فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَنَا لَيْلَتَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْـنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيـهِ فَيُوثِقُ لَهُ ،فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فَقَالَ:يَـا مَعْشَـرَ الْخَـزْرَجِ قَالَ:وَكَانَتِ الْعَرَبُ يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا إِنَّ مُحَمَّـدًا ﷺ مِنَّا حَيْثُ عَلِمْتُمْ ،وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى رَأْيِنَا وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَـةٍ مِـنْ بَلَدِهِ ،قَالَ:قُلْنَا:مَا قُلْتَ ،فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَعَى إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ ،ثُمَّ قَالَ ﷺ:" أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ " قَالَ:فَأَخَذَ الْبَـرَاءُ بْـنُ مَعْرُورٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ:نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَـا يَـا رَسُولَ اللَّهِ فَبَايِعْنَا ،فَنَحْنُ وَاللَّهِ [ص:٢٣٧] أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ،فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْـدِ الْأَشْـهَلِ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ حِبَالًا ،وَإِنَّا قَاطِعُوهَا ،فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِـكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ قَالَ:فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ:" بَلِ الدَّمُ بِالـدَّمِ وَالْهَدْمُ بِالْهَدْمِ ،أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ،دَمِي مَعَ دِمَائِكُمْ ،وَهَدْمِي مَعَ هَدْمِكُمْ ،أُحَـارِبُ مَـنْ

حَارَبْتُمْ ،وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ " وَقَدْ قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:" أَخْرِجُوا إِلَيَّ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ " فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا تِسْعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ "[1392]

وهذا أمر فيه توجيه للجميع بأن ينتخبوا من الجميع و لم يخصص الرجال و لم يستثن النساء،لا فيمن يُنتخب ولا فيمن يَنتخب،والمطلق يجري على إطلاقه ما لم يرد دليل للتخصيص والتقييد فيدل على أن الرسول ﷺ أمر المرأتين أن تنتخبا النقباء،وجعل للمرأتين حق انتخابهما من المسلمين نقيبتين.

ثالثاً:لما فرغ رسول الله ﷺ من صلح الحديبية ولقي مقاومة عنيفة من المسلمين لشروطها أمرهم أن ينحروا ويحلقوا فرفض المسلمون جميعاً ذلك،فدخل على زوجته أم سلمة رضي الله عنها،وأخبرها بما صنعه المسلمون فأشارت عليه أن يخرج وينحر ويحلق فأخذ برأيها وفعل كما قالت له،فهبَّ المسلمون ينحرون ويحلقون حتى كادوا يتذابحون لسرعتهم في التقيد بفعل رسول الله ﷺ،" قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لِأَصْحَابه:«قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلقُوا»،قَالَ:فَوَاللَّه مَا قَامَ منْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلكَ ثَلاَثَ مَرَّات،فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ منْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ،فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقيَ منَ النَّاس،فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ:يَا نَبيَّ اللَّه،أَتُحبُّ ذَلكَ،اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا منْهُمْ كَلمَةً،حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ،وَتَدْعُوَ حَالقَكَ فَيَحْلقَكَ،فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا منْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلكَ نَحَرَ بُدْنَهُ،وَدَعَا حَالقَهُ فَحَلَقَهُ،فَلَمَّا رَأَوْا ذَلكَ قَامُوا،فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا"[1393]

وهذا يدل على حق المرأة في الشورى وأن رسول الله ﷺ كان يشاور النساء ويأخذ برأيهن فيجوز للمرأة أن تكون عضواً في مجلس الشورى لتعطي رأيها كما فعلت أم سلمة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ[1394].

وورد في الشورى في الإسلام الإصدار المقدم له من الدكتور/ صالح بن عبدالله بن حميد امام وخطيب المسجد الحرام رئيس مجلس الشورى السعودي عرضاً مفصلاً عن شروط عضوية

[1392] - أخبار مكة للفاكهي (٤/ ٢٣٧)(٢٥٤٢) صحيح

[1393] - صحيح البخاري (٣/ ١٩٦)(٢٧٣١)

[1394] - نظام الشورى في الإسلام مصدر سابق ١٣٧ - ١٤٠.

مجلس الشورى السعودي،وبعد ذلك وتحت عنوان عضوية المرأة ،هناك أمراً في غاية الأهمية كثيراً ما تطرح حوله الأسئلة ويثار في مناسبات عدة ولا سيما عند الحديث عن قضايا المرأة في المملكة العربية السعودية هذا الأمر لم يرد له ذكر في شروط العضوية ألا وهو:(عضوية المرأة في مجلس الشورى).

ففي ديننا الحنيف ليس هناك ما يمنع من اسهام المرأة في شؤون المجتمع،إذا ما كانت وفق الضوابط الشرعية التي تحافظ عليها.وقد أسهمت المرأة السعودية بجهد وافر في العملية التنموية للبلاد،من خلال ما تحمل من مؤهلات عالية،وتخصصات متنوعة.

ومجلس الشورى كثيراً ما يستعين بالنساء ويستشيرهن في الأمور التي تخصهن،وليس هناك ما يمنع حضورهن للمجلس سواءً لتقديم استشارة أو لحضور جلسة من جلسات المجلس.[١٣٩٥]

إن اعتبار تكافؤ الفرص لجميع المواطنين على السواء ميزة ينبغي أن يحافظ عليها الكافة فهي لا تختلف مع أحكام الشريعة في شيء ولكن شرط العلم والأمانة أُغفِل في بعض التشريعات وربما عولج موضوعه عن طريق اختيار هيئة استشارية من بين كبار العلماء في مختلف التخصصات لأنها ضرورة لا بد منها،فإشراك الأمة في مزاولة السلطة والتفكير بقضاياها العامة وتوسيع دائرة المسؤولية بقصد تجنب الخطأ في اتخاذ القرارات لا يتأتى إلا عن طريق استشارة أهل الاختصاص،ومما لا شك فيه أن محاربة اعتقال الإرادة الإنسانية التي تمارسها الأنظمة الدكتاتورية وتحقيق ذاتية الأمة يقتضي إشراك الناس كافة ووضعهم في دائرة المسؤولية لأن الرسول ﷺ يقول:(إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ)[١٣٩٦]،فالشورى هي يسيرة المنال عظيمة الفائدة ويتحقق بها النفع العظيم للأمة ولهذا جاءت بصورة مختلفة في العهد النبوي،فالخير ممارستها في أي صورة من الصور التي لا تختلف مع منهج الله وشرعه،كما سنزيد الأمر بياناً عند الحديث عن نتائج الشورى والكيفية التي كانت تمارس بها،والذي يهمنا هنا هو القول بأن الدعوة لمشاركة الكافة لا يعني عدم التركيز على ذوي الإختصاص ولا يجيز تهميشهم لأن الله سبحانه يقول:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل:٤٣].

[١٣٩٥] – الشورى في الإسلام رؤية نيابية تجربة المملكة العربية السعودية ، ص١٢، مصدر سابق.

[١٣٩٦] – سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٠٣)(٣٩٥٠) صحيح لغيره

ولا تكاد النظم القانونية في مختلف البلدان تختلف على وجوب إشراك الأمة في معظم شـؤوها وعلى إعطاء الإنسان كافة حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مختلف المجالات كما هو مصرح بذلك في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي اعتمدته الجمعيـة العامـة للأمـم المتحدة في ١٠/ ١٢/١٩٩٤م المادة (٢١) من الإعلان العالمي تقول:لكـل فـرد الحـق في الاشتراك في إدارة الشئون العامة لبلاده إما مباشرة أو بواسطة ممـثلين يختـارون اختيـاراً حراً،وكذلك ما نص عليه العهد الدولي الخاص بالحقوق السياسية والمدنية بالمادة (٢٥) الـتي جاء فيها أن لكل مواطن أن يشارك في سير الحياة في بلاده مباشرة أو عن طريق ممثل لـه وأن ينتخب ويُنتخب وأن جميع الأفراد متساوون أمام القانون بدون تمييز.[١٣٩٧]

إن اختيار ممثلي الأمة في مجلس الشورى أو المجلس النيابي أو الاستشاري لا بد من توافر شروط يضعها العلماء للدولة،ويصدرون النظام والقانون المستجمع للشروط على ضوء مـا ذكـره العلماء،وأن كل طريق يمكن به تبيين من يحوز ثقة جمهور الأمة ويرجى منه ضبط شؤوها فهو جائز شرعاً إذ الأصل في الأشياء الإباحة سواءً كان ذلك عن طريق الانتخاب وهو الأمثل أو عن طريق إصدار قرار بالتعيين من قبل ولي الأمر.[١٣٩٨]

ويرى فريق من العلماء أن من صفات المستشارين أن يكونوا شـيوخاً كبـاراً في السـن ولا يستشار الأحداث من الشباب،والصحيح أن لكل من الشيوخ والشباب مزايا فالشـيوخ قـد حنكتهم التجارب وعركتهم الأيام وصقلتهم الأحداث والسنون وشهدوا من الأحداث مـا يسعف عقولهم باقتناص الآراء الصائبة،وقد كانت العرب تقول المشائخ أشجار الوقار ومنـابع الأخبار لا يطيش بهم فهم ولا يسقط بهم وهم.وقال بعض العلماء الآراء هـي قيـاس أمـور مستقبلة على أمور ماضية ولها أمثال وأشباه،ومادة الرأي التجارب مباشرة أو سماعاً فلكثـرة التجارب ندب إلى استشارة المشائخ،أما الشباب فإنهم إذا تمتعوا بأمزجة صـحيحة وقـرائح سليمة وعلوم غزيرة فربما فاقوا في إدراك الصواب الكهول والشيوخ،وكان يقال عليكم بآراء الأحداث ومشاورة الشباب فإن لهم أذهاناً تغل الفواصل وتحطم الذوابل،وكان مجلس عمر بن

[١٣٩٧] – الشورى في الشريعة الإسلامية (ص:٢٠١) فما بعد

[١٣٩٨] – الشورى في الشريعة الإسلامية (ص:٢٠٦)

الخطاب رضي الله عنه يغص بالقراء والعلماء شيوخاً كانوا أو شباناً وربما استشارهم،وكان يقول:لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأي فإن الرأي ليس على حداثة السن ولا على قدمه ولكن على أمر يضعه الله حيث يشاء.[١٣٩٩]

تطبيق الشورى

إذا تبين للإمام من أدلة الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس الجلي حكم حادثة بعينها فلا مجال للشورى في هذه الحالة،وقد قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩] قَالَ:«هِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَاوَرُوا فِيمَا لَمْ يَأْتِهِمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ أَثَرٌ» أخرجه الإمام ابن جرير الطبري[١٤٠٠]

فلا تجوز الشورى على مخالفة حكم الله تعالى:وقد قال الله تبارك وتعالى:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب:٣٦]

لَيْسَ لِمُؤمِنٍ وَلا لِمُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ قَضَاءً،أَنْ يَتَخَيَّروا مِنْ أَمْرِهِمْ غيرَ مَا قَضَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ لَهُمْ،وَلاَ أَنْ يُخَالِفُوا أَمْرَ اللهِ وَأَمرَ رَسُولِهِ وَقَضَاءَهُما.وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَا بِهِ،وَنَهَيَا عَنْهُ،فَقَدْ جَارَ عَنِ السَّبِيلِ القَوِيمِ،وَسَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الهُدَى وَالرَّشَادِ.[١٤٠١]

لا ينبغي ولا يليق،ممن اتصف بالإيمان،إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله،والهرب من سخط الله ورسوله،وامتثال أمرهما،واجتناب نهيهما،فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة {إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} من الأمور،وحتّما به وألزما به {أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} أي:الخيار،هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة،أن الرسول أولى به من نفسه،فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله.{وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا} أي:بَيِّنًا،لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله،إلى غيرها،من الطرق الموصلة للعذاب

[١٣٩٩] - (انظر الشورى بين الأصالة والمعاصرة - مصدر سابق ص ٣٩ - ٤١ بتصرف.) و الشورى في الشريعة الإسلامية (ص:٢٠١)

[١٤٠٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ١٩٠) صحيح

[١٤٠١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٥٠،بترقيم الشاملة آليا)

الأليم،فذكر أولا السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله،وهو الإيمان،ثم ذكر المانع من ذلك،وهو التخويف بالضلال،الدال على العقوبة والنكال.[١٤٠٢]

فهذا المقوّم من مقومات العقيدة هو الذي استقر في قلوب تلك الجماعة الأولى من المسلمين استقرارا حقيقيا واستيقنته أنفسهم،وتكيفت به مشاعرهم ..هذا المقوم يتلخص في أنه ليس لهم في أنفسهم شيء وليس لهم من أمرهم شيء.إنما هم وما ملكت أيديهم لله.يصرفهم كيف يشاء،ويختار لهم ما يريد.وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذي يسير وفق الناموس العام.وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام ويقسم لهم دورهم في رواية الوجود الكبيرة ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم.وليس لهم أن يختاروا الدور الذي يقومون به،لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة وليس لهم أن يختاروا الحركة التي يحبونها لأن ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذي خصص لهم! وهم ليسوا أصحاب الرواية ولا المسرح وإن هم إلا أجراء،لهم أجرهم على العمل،وليس لهم ولا عليهم في النتيجة! عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة لله.أسلموها بكل ما فيها فلم يعد لهم منها شيء.وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله واستقامت حركاتهم مع دورته العامة وساروا في فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم في أفلاكها،لا تحاول أن تخرج عنها،ولا أن تسرع أو تبطئ في دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله.

وعندئذ رضيت نفوسهم بكل ما يأتي به قدر الله،لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذي يصرف كل شيء،وكل أحد،وكل حادث،وكل حالة.واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة.وشيئا فشيئا لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله حين يصيبهم،ولا بالجزع الذي يعالج بالتجمل أو بالألم الذي يعالج بالصبر.إنما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمر مألوف في حسه،معروف في ضميره،ولا يثير مفاجأة ولا رجفة ولا غرابة!

ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمرا هم يريدون قضاءه،ولم يعودوا يستبطئون الأحداث لأن لهم أربا يستعجلون تحقيقه،ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم

[١٤٠٢] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٦٥) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ١١٢)

وتمكينها! إنما ساروا في طريقهم مع قدر الله،ينتهي بهم إلى حيث ينتهي،وهم راضون مستروحون،يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال في غير عجلة ولا ضيق،وفي غير من ولا غرور،وفي غير حسرة ولا أسف.وهم على يقين أنهم يفعلون ما قدر الله لهم أن يفعلوه وأن ما يريده الله هو الذي يكون،وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم.

إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم،وتصرف حركاتهم وهم مطمئنون لليد التي تقودهم،شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين،سائرون معها في بساطة ويسر ولين.

وهم – مع هذا – يعملون ما يقدرون عليه،ويبذلون ما يملكون كله،ولا يضيعون وقتا ولا جهدا،ولا يتركون حيلة ولا وسيلة.ثم لا يتكلفون ما لا يطيقون،ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص،ومن ضعف وقوة ولا يدعون ما لا يجدونه في أنفسهم من مشاعر وطاقات،ولا يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا،ولا أن بقولوا غير ما يفعلون.

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله،والعمل الجاهد بكل ما في الطاقة،والوقوف المطمئن عندما يستطيعون ..هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بها الجبال!

واستقرار ذلك المقوم الأول في أعماق الضمائر هو الذي كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة،وفي حياة المجتمع الإنساني إذ ذاك.وهو الذي جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك،وخطوات الزمان،ولا تحتك بها أو تصطدم،فتتعوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام.وهو الذي بارك تلك الجهود،فإذا هي تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان.

ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود،وفق قدر الله المصرف لهذا الوجود ..كان هذا التحول في تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التي لا يقدر عليها بشر إنما تتم بإرادة الله المباشرة التي أنشأت الأرض والسماوات،والكواكب والأفلاك ونسقت بين خطاها ودوراتها ذلك التنسيق الإلهي الخاص.

وإلى هذه الحقيقة تشير هذه الآيات الكثيرة في القرآن ..حيث يقول الله تبارك وتعالى:«إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» ..أو يقول:«لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ

يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» ..أو يقول:«إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ» ..فذلك هو الهدى بحقيقته الكبيرة ومعناه الواسع.هدى الإنسان إلى مكانه في هيكل هذا الوجود وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود.

ولن يؤتي الجهد كامل ثماره إلا حين يستقيم القلب على هدى الله بمعناه وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود ويطمئن الضمير إلى قدر الله الشامل الذي لا يكون في الوجود أمر إلا وفـــق مقتضاه.

ومن هذا البيان ينجلي أن هذا النص القرآني:«وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـــةٍ إِذا قَضَـــى اللَّـــهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» ..أشمل وأوسع وأبعد مدى مـــن أي حـــادث خاص يكون قد نزل فيه.وأنه يقرر كلية أساسية،أو الكلية الأساسية،في منهج الإسلام![١٤٠٣]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّـــهَ سَـــمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات:١]

يُؤَدِّبُ اللهُ تَعَالى فِي هذهِ الآيَةِ عِبَادَهُ المُؤْمنينَ،وَيُعَلِّمُهُمْ أصُولَ مُخَاطَبَةِ الرَّسُـــولِ ﷺ والتَّعَامُـــلِ مَعَهُ،وَتَوْفيَته حَقَّهُ منَ التَّوقيرِ والاحْترَامِ.فَيَقُولُ تَعَالى للْمُؤمنين:لا تُسْرعُوا فِي القَضَاءِ فِي أمْرٍ قَبْلَ أن يَقْضِيَ لَكُم فِيهِ اللهُ وَرَسُولُهُ،وَكُونُوا تَبَعاً لِقَضَائِهِما وَأمْرِهِما،وَلاَ تَتَكَلَّمُوا فِي أمْرٍ قَبْلَ أنْ يَأتِيَ الرَّسولُ عَلَى الكَلاَمِ فِيهِ،وَلا تَفْعَلُوا فِعْلاً قَبْلَ أنْ يَفْعَلَهُ الرَّسُولُ،واتَّقُوا اللهَ يَا أَيُّها المُؤْمِنُونَ،فَإِنَّهُ سَمِيعٌ لما تَقُولُونَ،عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ.[١٤٠٤]

هذا متضمن للأدب،مع الله تعالى،ومع رسول الله ﷺ،والتعظـــيم له،واحترامه،وإكرامـــه،فأمر [الله] عباده المؤمنين،بما يقتضيه الإيمان،بالله وبرسوله،من امتثال أوامر الله،واجتناب نواهيه،وأن يكونوا ماشين،خلف أوامر الله،متبعين لسنة رسول الله ﷺ،في جميع أمورهم،و [أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله،ولا يقولوا،حتى يقول،ولا يأمروا،حتى يأمر،فـــإن هذا،حقيقـــة الأدب الواجب،مع الله ورســـوله،وهو عنـــوان ســـعادة العبـــد وفلاحه،وبفواته،تفوتـــه الســـعادة الأبدية،والنعيم السرمدي،وفي هذا،النهي [الشديد] عن تقديم قول غـــير الرســـول ﷺ،علـــى قوله،فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ،وجب اتباعها،وتقديمها على غيرها،كائنا ما كان .

[١٤٠٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٦٣٧)

[١٤٠٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٩٢،بترقيم الشاملة آليا)

ثم أمر الله بتقواه عمومًا،وهي كما قال طلق بن حبيب:أن تعمل بطاعة الله،على نور من الله،ترجو ثواب الله،وأن تترك معصية الله،على نور من الله،تخشى عقاب الله.
وقوله:{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} أي:لجميع الأصوات في جميع الأوقات،في خفي المواضع والجهات،{عَلِيمٌ} بالظواهر والبواطن،والسوابق واللواحق،والواجبات والمستحيلات والممكنات .[١٤٠٥]

فهو أدب نفسي مع الله ورسوله.وهو منهج في التلقي والتنفيذ.وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته ..وهو منبثق من تقوى الله،وراجع إليها.هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم ..وكل ذلك في آية واحدة قصيرة،تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة.

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله – ﷺ – أن يدلي به وما عاد أحد منهم يقضي برأيه في أمر أو حكم،إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول ..
روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه فعَنْ مُعَاذ:أَنَّ رَسُولَ الله – ﷺ – حينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ،فَقَالَ:كَيْفَ تَصْنَعُ إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟ قَالَ:أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ الله.قَالَ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ الله؟ قَالَ:فَبِسُنَّة رَسُول الله – ﷺ –.قَالَ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّة رَسُول الله – ﷺ –؟ قَالَ:أَجْتَهِدُ رَأْيِي[١٤٠٦]،لاَ آلُو.قَالَ:فَضَرَبَ رَسُولُ الله – ﷺ – صَدْرِي،ثُمَّ قَالَ:الْحَمْدُ للَّه الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ الله لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ.[١٤٠٧]

[١٤٠٥] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٩٩)

[١٤٠٦] – أجتهد رأيي:الاجتهاد:بذل الوسع في طلب الأمر،والمراد به ها هنا:رد القضية التي تعرض للحاكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة،ولم يرد الرأي يعرض له من قبل نفسه من غير أصل كتاب ولا سنة،وفي هذا الحديث إثبات القياس على منكريه،وإيجاب الحكم به ..جامع الأصول في أحاديث الرسول [١٠/ ١٧٧]

[١٤٠٧] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٧/ ٣٤٧] (٢٢٠٠٧) ٢٢٣٥٧ وتفسير ابن كثير – دار طيبة [١/ ٧] وجود إسناده والمسند الجامع [١٥/ ٣٤٥] (١١٥٣٣) وهو صحيح لغيره

قال الخطيب في "الفقيه والمتفقه" ١/ ١٨٩ – ١٩٠:الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٤٧٢):"وَهَذَا إِسْنَادٌ مُتَّصِلٌ ، وَرِجَالُهُ مَعْرُوفُونَ بِالثِّقَة ، عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ قَدْ تَقَبَّلُوهُ وَاحْتَجُّوا بِه ، فَوَقَفْنَا بِذَلِكَ عَلَى صِحَّتِه عِنْدَهُمْ كَمَا وَقَفْنَا عَلَى صِحَّة قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ ، وَقَوْلِهِ فِي الْبَحْرِ:هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ، وَقَوْلِه:إِذَا اخْتَلَفَ الْمُتَبَايِعَانِ فِي الثَّمَنِ

وحتى لكأن رسول الله – ﷺ – يسألهم عن اليوم الذي هم فيه،والمكان الذي هم فيه،وهم يعلمونه حق العلم،فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم:الله ورسوله أعلم.حشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله! عَنْ أَبى بَكْرَةَ،وَرَجُلٌ أَفْضَلُ فِى نَفْسِى مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ،وَرَجُلٌ – أَفْضَلُ فِي نَفْسِي مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ –،حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ،قَالَ:«أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»،قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،قَالَ:«أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»،قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،فَقَالَ «أَلَيْسَ ذُو الحَجَّةِ؟»،قُلْنَا:بَلَى،قَالَ «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،قَالَ «أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الحَرَامِ؟» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ،كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا،فِي شَهْرِكُمْ هَذَا،فِي بَلَدِكُمْ هَذَا،إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ،أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟»،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:«اللَّهُمَّ اشْهَدْ،فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ،فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ،فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا،يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» [١٤٠٨]

وَالسِّلْعَةُ قَائِمَةٌ تَحَالَفَا وَتَرَادَّا الْبَيْعَ ، وَقَوْلِهِ:الدِّيَةُ عَلَى الْعَاقِلَةِ ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ لَا تَثْبُتُ مِنْ جِهَةِ الْإِسْنَادِ ، لَكِنْ لَمَّا تَلَقَّتْهَا الْكَافَّةُ عَنِ الْكَافَّةِ غَنَوْا بِصِحَّتِهَا عِنْدَهُمْ عَنْ طَلَبِ الْإِسْنَادِ لَهَا ، فَكَذَلِكَ حَدِيثُ مُعَاذٍ ، لَمَّا احْتَجُّوا بِهِ جَمِيعًا غَنَوْا عَنْ طَلَبِ الْإِسْنَادِ لَهُ فَإِنْ قَالَ:هَذَا مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ لَا يَصِحُّ الِاحْتِجَاجُ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَالْجَوَابُ:أَنَّ هَذَا أَشْهَرُ وَأَثْبَتُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ:لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ ، فَإِذَا احْتَجَّ الْمُخَالِفُ بِذَلِكَ فِي صِحَّةِ الْإِجْمَاعِ ، كَانَ هَذَا أَوْلَى وَجَوَابٌ آخَرُ ، وَهُوَ:أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ جَائِزٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، لِأَنَّهُ إِذَا جَازَ تَثْبِيتُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ مِثْلَ:تَحْلِيلٍ ، وَتَحْرِيمٍ ، وَإِيجَابٍ ، وَإِسْقَاطٍ ، وَتَصْحِيحٍ ، وَإِبْطَالٍ ، وَإِقَامَةِ حَدٍّ بِضَرْبٍ ، وَقَطْعٍ ، وَقَتْلٍ ، وَاسْتِبَاحَةِ فَرْجٍ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَكَانَ الْقِيَاسُ أَوْلَى ، لِأَنَّ الْقِيَاسَ طَرِيقٌ لِهَذِهِ الْأَحْكَامِ ، وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ دُونَ الطَّرِيقِ وَهَذَا وَاضِحٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ.

وقال ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٥٤):فَهَذَا حَدِيثٌ وَإِنْ كَانَ عَنْ غَيْرِ مُسَمَّيْنَ فَهُمْ أَصْحَابُ مُعَاذٍ فَلَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ؛لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى شُهْرَةِ الْحَدِيثِ وَأَنَّ الَّذِي حَدَّثَ بِهِ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذٍ لَا وَاحِدٍ مِنْهُمْ،وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الشُّهْرَةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَوْ سُمِّيَ،كَيْفَ وَشُهْرَةُ أَصْحَابِ مُعَاذٍ بِالْعِلْمِ وَالدِّينِ وَالْفَضْلِ وَالصِّدْقِ بِالْمَحَلِّ الَّذِي لَا يَخْفَى؟ وَلَا يُعْرَفُ فِي أَصْحَابِهِ مُتَّهَمٌ وَلَا كَذَّابٌ وَلَا مَجْرُوحٌ،بَلْ أَصْحَابُهُ مِنْ أَفَاضِلِ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَارِهِمْ،لَا يَشُكُّ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالنَّقْلِ فِي ذَلِكَ،كَيْفَ وَشُعْبَةُ حَامِلُ لِوَاءِ هَذَا الْحَدِيثِ؟ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ:إِذَا رَأَيْتَ شُعْبَةَ فِي إِسْنَادِ حَدِيثٍ فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِهِ."

[١٤٠٨] – صحيح البخاري (٢/ ١٧٦)(١٧٤١)

فهذه صورة من الأدب،ومن التحرج،ومن التقوى،التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء،وذلك التوجيه،وتلك الإشارة إلى التقوى،تقوى الله السميع العليم.[١٤٠٩]

وأخرج ابن جرير وغيره عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلَهُ: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات:١] يَقُولُ:«لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»[١٤١٠]

وقال ابن حزم رحمه الله " ونحن لا ننكر المشورة في غير الدين كما أننا ننكر بل نكفر من يشاور أيصلي الخمس أم لا أيصوم رمضان أم لا ونقطع أن مسلما لا يخالفنا في هذا "[١٤١١]

فإذا عرضت للإمام مسألة أو نزلت نازلة لا يعرف الحكم الشرعي فيها فعليه أن يعرض المسألة على أهل الشورى،فإذا بين له بعضهم نصا شرعيا في المسألة أخذ به،وإذا لم يبينوا له نصا شرعيا استعرض أقوال أهل الشورى وأخذ أشبهها بالكتاب والسنة،الذي يعتقد أنه هو الحق والصواب وبه تتحقق المصلحة الشرعية،فإن تصرفات الأمير مناطة بالمصلحة الشرعية وبتنفيذ أحكام الله تعالى،ولا يتصرف في سياسات الدولة الداخلية والخارجية بما تشتهيه النفس،والقاعدة الشرعية أن " التصرف على الرعية منوط بالمصلحة "[١٤١٢]

[ش (أليس ذو الحجة) ذو مرفوع على أنه اسم ليس وخبرها محذوف والتقدير أليس ذو الحجة هذا الشهر.(كفارا) تفعلون ما يفعل الكفار في ضرب رقاب المسلمين أو يكفر بعضكم بعضا فيستبيح قتله]

[١٤٠٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٧٣)

[١٤١٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢١/ ٣٣٥) حسن

[١٤١١] - الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٦/ ٣٢)

[١٤١٢] - يَجبُ عَلَيْهِمُ التَّصَرُّفُ بمَا فيه الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ للْمُسْلمينَ،كُلٌّ فِي مَجَاله وَبحَسَب سُلْطَته .وَفِي ذَلكَ الْقَاعدَةُ الشَّرْعيَّةُ " التَّصَرُّفُ عَلَى الرَّعيَّة مَنُوطٌ بالْمَصْلَحَة " وَبالتَّفْصيل مَا يَلي:

(١) حفْظُ الدِّين عَلَى أُصُوله الْمُسْتَقرَّة وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْه سَلَفُ الأُمَّة،فَإِنْ زَاغَ ذُو شُبْهَة عَنْهُ أَوْضَحَ لَهُ الْحُجَّةَ،وَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابَ،وَأَخَذَهُ بمَا يَلْزَمُهُ منَ الْحُقُوق وَالْحُدُود،ليَكُونَ الدِّينُ مَحْرُوسًا منَ الْخَلَل،وَالأُمَّةُ مَمْنُوعَةً منَ الزَّلَل .

(٢) تَنْفيذُ الأَحْكَام بَيْنَ الْمُتَشَاجرينَ وَقَطْعُ الْخصَام بَيْنَهُمْ،حَتَّى تَظْهَرَ النَّصَفَةُ،فَلاَ يَتَعَدَّى ظَالمٌ وَلاَ يَضْعُفُ مَظْلُومٌ .

(٣) حمَايَةُ الدَّوْلَة وَالذَّبُّ عَن الْحَوْزَة،ليَتَصَرَّفَ النَّاسُ في الْمَعَايش،وَيَنْتَشرُوا في الأَسْفَار آمنينَ .

(٤) إقَامَةُ الْحُدُود،لتُصَانَ مَحَارمُ اللَّه تَعَالَى عَن الانْتهَاك،وَتُحْفَظَ حُقُوقُ عبَاده منْ إتْلاَف وَاسْتهْلاَك .

(٥) تَحْصينُ الثُّغُور بالْعُدَّة الْمَانعَة وَالْقُوَّة الدَّافعَة،حَتَّى لاَ يَظْفَرَ الأَعْدَاءُ بثُغْرَة يَنْتَهكُونَ بهَا مَحْرَمًا،وَيَسْفكُونَ فيهَا دَمًا لمُسْلمٍ أَوْ مُعَاهَد .

(٦) جهَادُ مَنْ عَانَدَ الإسْلاَمَ بَعْدَ الدَّعْوَة حَتَّى يُسْلمَ،أَوْ يَدْخُل في الذِّمَّة .

(٧) قتَال أَهْل الْبَغْي وَالْمُحَاربينَ وَقُطَّاع الطَّريق،وَتَوْقيعُ الْمُعَاهَدَات وَعُقُود الذِّمَّة وَالْهُدْنَة وَالْجزْيَة .

" إن نفاذ تصرف الراعي على الرعية،ولزومه عليهم شاؤوا أو أبوا معلق ومتوقف على وجود الثمرة والمنفعة في ضمن تصرفه،دينية كانت أو دنيوية،فإن تضمن منفعة ما وجب عليهم تنفيذه،وإلا ردّ،لأن الراعي ناظر،وتصرفه حينئذٍ متردد بين الضرر والعبث وكلاهما ليس من النظر في شيء.

والمراد من الراعي:كل من ولي أمراً من أمور العامة،عاماً كان كالسلطان

الأعظم،أو خاصاً كمن دونه من العمال،فإن نفاذ تصرفات كل منهم على العامة مترتب على وجود المنفعة في ضمنها،لأنه مأمور من قبل الشارع – – ﷺ – أن يحوطهم بالنصح،ومتوعد من قبله على ترك ذلك بأعظم وعيد.

وهذه القاعدة ترسم حدود الإدارات العامة والسياسة الشرعية في سلطان الولاة وتصرفاتهم على الرعية،فتفيد أن أعمال الولاة النافذة على الرعية يجب أن تبنى على المصلحة للجماعة وخيرها،لأن الولاة من الخليفة فمن دونه ليسوا عمالاً لأنفسهم،وإنما هم وكلاء عن الأمة في القيام بأصلح التدابير لإقامة العدل،ودفع الظلم،وصيانة الحقوق والأخلاق،وضبط الأمن،ونشر

---

(٨) تَعْيِينُ الْوُزَرَاءِ،وَوِلاَيَتُهُمْ عَامَّةٌ فِي الأَعْمَال الْعَامَّةِ لأَنَّهُمْ يُسْتَنَابُونَ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصٍ .

(٩) تَعْيِينُ الأُمَرَاءِ (الْمُحَافِظِينَ) لِلأَقَالِيمِ،وَوِلاَيَتُهُمْ عَامَّةٌ فِي أَعْمَالٍ خَاصَّةٍ،لأَنَّ النَّظَرَ فِيمَا خُصُّوا بِهِ مِنَ الأَعْمَال عَامٌّ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ .

(١٠) تَعْيِينُ الْقُضَاةِ وَأُمَرَاءِ الْحَجِّ،وَرُؤَسَاءِ الْجَيْشِ،وَوِلاَيَتُهُمْ خَاصَّةٌ فِي الأَعْمَال الْعَامَّةِ،لأَنَّ كُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَقْصُورٌ عَلَى نَظَرٍ خَاصٍّ فِي جَمِيعِ الأَعْمَال .وَكَذَا تَعْيِينُ الأَئِمَّةِ لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ،وَلِكُل وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاَءِ شُرُوطٌ تَنْعَقِدُ بِهَا وِلاَيَتُهُ .

(١١) تَقْدِيرُ الْعَطَاءِ وَمَا يُسْتَحَقُّ مِنْ بَيْتِ الْمَال (الْمِيزَانِيَّةُ الْعَامَّةُ) مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ تَقْصِيرٍ فِيهِ .(١) وَالتَّفْصِيل مَوْطِنُهُ مُصْطَلَحُ (الإِمَامَةُ الْكُبْرَى) .

(١٢) اسْتِكْفَاءُ الأُمَنَاءِ،وَتَقْلِيدُ النُّصَحَاءِ فِيمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ مِنَ الأَعْمَال،وَيَكِلُهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الأَمْوَال،لِتَكُونَ الأَعْمَال مَضْبُوطَةً وَالأَمْوَال مَحْفُوظَةً .

(١٣) أَنْ يُبَاشِرَ بِنَفْسِهِ أَوْ بِأَعْوَانِهِ الْمَوْثُوقِ بِهِمْ مُشَارَفَةَ الأُمُورِ،وَتَصَفُّحَ الأَحْوَال لِيَنْهَضَ بِسِيَاسَةِ الأُمَّةِ .

(١٤) مُشَاوَرَةُ ذَوِي الرَّأْيِ:وَتُعْتَبَرُ الْمُشَاوَرَةُ مَبْدَأً مِنْ أَهَمِّ الْمَبَادِئِ الإِسْلاَمِيَّةِ،وَقَاعِدَةً مِنْ أَهَمِّ الْقَوَاعِدِ الأَسَاسِيَّةِ فِي الْوِلاَيَاتِ الْعَامَّةِ .وَقَدْ جَاءَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الشُّورَى صَرِيحَةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي آيَتَيْنِ مِنْهُ الأُولَى:قَوْله تَعَالَى:{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ } .وَالثَّانِيَةُ:قَوْله تَعَالَى:{ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ١٩١)

العلم،وتطهير المجتمع من الفساد،وتحقيق كل خير للأمة بأفضل الوسائل،مما يعبر عنه بالمصلحة العامة،فكل عمل أو تصرف من الولاة على خلاف هذه المصلحة مما يقصد بــه اســتثمار أو استبداد،أو يؤدي إلى ضرر أو فساد،هو غير جائز."[١٤١٣]

وقد دل على هذه القاعدة ما جاء عَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْــنَ يَسَــارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ،قَالَ مَعْقِلٌ:إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،لَــوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ،إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ عَبْــدٍ يَسْــتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً،يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ،إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» متفقٌ عليه[١٤١٤]

وعَنِ الحَسَنِ،أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ،عَادَ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ،فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ عَبْدٍ اسْــتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً،فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ،إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[١٤١٥]

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنِ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً،ثُمَّ لَــمْ يَحُطْهَــا بِنُصْحِهِ لَمْ يُرَحْ رِيحَ الْجَنَّةِ،وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ»[١٤١٦]

[١٤١٣] - القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة (١/ ٤٩٣)

[١٤١٤] صحيح مسلم (١/ ١٢٥)٢٢٧ - (١٤٢) وصحيح البخاري (٩/ ٦٤)(٧١٥٠)

[ش (عاد عبيد الله) أي زاره في مرض موته وكان عبيد الله إذ ذاك أمير البصرة لمعاوية (يسترعيه الله رعية) يعني يفوض إليه رعاية رعية وهي بمعنى المرعية وقوله يموت خبر ما وغش الراعي الرعية تضييعه ما يجب عليه في حقهم] —

(وَهُوَ غَاشٌّ) بِتَشْدِيدِ الشِّينِ الْمُعْجَمَةِ؛أَيْ خَائِنٌ لَهُمْ،أَوْ ظَالِمٌ لَهُمْ،لَا يُعْطِي حُقُوقَهُمْ،وَيَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ،(إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)؛أَيْ دُخُولَهَا مَعَ النَّاجِينَ،أَوْ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ،أَوْ زَجْرٌ وَكَيْدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ،أَوْ تَخْوِيفٌ بِسُوءِ الْخَاتِمَةِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ؛وَفِي قَوْلِهِ:فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ قَبْلَ حَالَةِ الْمَوْتِ بَاقِيَةٌ،وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى عَرْضِ التَّوْبَةِ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ نَاصِحًا فِي الرَّعِيَّةِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ:وَهُوَ غَاشٌّ حَالٌ قُيِّدَ لِلْفِعْلِ،وَمَقْصُودٌ لِلذِّكْرِ؛لِأَنَّ الْمُعْتَبَرَ مِنَ الْفِعْلِ الْحَالُ؛هُوَ الْحَالُ يَعْنِي؛أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا وَلَّاهُ وَاسْتَرْعَاهُ عَلَى عِبَادِهِ لِيُدِيمَ النَّصِيحَةَ لَهُمْ،لَا لِيَغُشَّهُمْ فَيَمُوتُ عَلَيْهِ،فَلَمَّا قَلَبَ الْقَضِيَّةَ اسْتَحَقَّ أَنْ يُحْرَمَ الْجَنَّةَ،وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ:الْمَعْنَى مَنْ قَلَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَرْعَاهُ عَلَيْهِمْ،وَنَصَبَهُ لِمَصْلَحَتِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،فَإِذَا خَانَ فِيمَا اؤْتُمِنَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَنْصَحْ فِيمَا قُلِّدَهُ؛إِمَّا بِتَضْيِيعِ حَقِّهِمْ وَمَا يَلْزَمُهُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ،أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ غَشَّهُمْ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٣)

[١٤١٥] - صحيح البخاري (٩/ ٦٤)(٧١٥٠)

[ش (يسترعيه رعية) يستحفظه عليها.(لم يحطها) لم يتعهد أمرها ويحفظها(لم يجد رائحة الجنة) لم يشم رائحتها وهو كناية عن عدم دخولها إن استحل ذلك أو تأخر دخوله إن اعتقد حرمة فعله]

[١٤١٦] - مسند الروياني (٢/ ٣٣٠)(١٣٠٢) صحيح

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«مَا مِنْ رَجُلٍ يَسْتَرْعِي رَعِيَّةً يَمُـــوتُ حِينَ يَمُوتُ،وَهُوَ غَاشٌّ لِلرَّعِيَّةِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[1417]

وفي رواية لمســـلم عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ زِيَادٍ عَادَ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ،فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ:إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلَا أَنِّي فِي الْمَوْتِ لَـــمْ أُحَـــدِّثْكَ بِهِ،سَـــمِعْتُ رَسُـــولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ،وَيَنْصَحُ،إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»[1418]
وغيره من الأدلة.

قال الإمام البخاري رحمه الله " "وَكَانَت الأَئِمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي الأُمُورِ المُبَاحَةِ لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا،فَإِذَا وَضَحَ الكِتَابُ أَوِ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَـــى غَيْرِهِ،اقْتِـــدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ وَرَأَى أَبُو بَكْرٍ قِتَالَ مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ،فَقَالَ عُمَرُ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَإِذَا قَالُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَـــا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «ثُمَّ تَابَعَهُ بَعْدُ عُمَرُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَشُورَةٍ إِذْ كَانَ عِنْدَهُ حُكْـــمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَأَرَادُوا تَبْدِيلَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ» وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةِ عُمَرَ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُـــبَّانًا،وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[1419]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله " وَإِذَا اسْتَشَارَهُمْ،فَإِنْ بَيَّنَ لَهُ بَعْضُهُمْ مَا يجبُ اتباعه من كتاب الله أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ أَوْ إجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ،فَعَلَيْهِ اتباعُ ذلك،ولا طاعة لأحد فِي خلَـــاف ذَلِكَ،وَإِنْ كَانَ عَظِيمًا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْـــتُمْ تُؤْمِنُـــونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩].

[1417] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٣٨٧)(٧٠٤٥) صحيح

[1418] - صحيح مسلم (١/ ١٢٦)(١٤٢)

[1419] - صحيح البخاري (٩/ ١١٣)

وَإِنْ كَانَ أَمْرًا قَدْ تَنَازَعَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ،فَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَخْرِجَ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمْ رَأْيَهُ وَوَجْهَ رَأْيِهِ،فَأَيُّ الْآرَاءِ كَانَ أَشْبَهُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عَمِلَ بِهِ.كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]."[١٤٢٠]

وقال القرطبي رحمه الله " وَالشُّورَى مَبْنِيَّةٌ عَلَى اخْتِلَافِ الْآرَاءِ،وَالْمُسْتَشِيرُ يَنْظُرُ فِي ذَلِكَ الْخِلَافِ،وَيَنْظُرُ أَقْرَبَهَا قَوْلًا إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنْ أَمْكَنَهُ،فَإِذَا أَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا شَاءَ مِنْهُ عَزَمَ عَلَيْهِ وَأَنْفَذَهُ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ،إِذْ هَذِهِ غَايَةُ الِاجْتِهَادِ الْمَطْلُوبِ،وَبِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ."[١٤٢١].

وإذا خالف بعض أهل الشورى الإمام و لم يوافقوه على القول الذي اختاره وارتضاه،ورأوا أنه مخالف للصواب،وأن المصلحة الشرعية لا تتحقق به ففي هذه الحالة يفصل النزاع بالقضاء الشرعي،ولايطاع الأمير في اختياره حتى يفصل القضاء فيه،ويثبت مشروعيته وصحته،وإذا حكم القضاء بمخالفة اختيار الأمير لشرع الله ولقواعده وأصوله العامة،وبين أصوب أقوال أهل الشورى،ففي هذه الحالة يجب على الإمام أن يعمل بالقول الصحيح من أقوال أهل الشورى،الذي أقره وأكد صحته القضاء الشرعي،وقد قال تعالى:{ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩]،قال الإمام ابن جرير رحمه الله " يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:فَإِنِ اخْتَلَفْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ أَنْتُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ أَوْ أَنْتُمْ وَوُلَاةُ أَمْرِكُمْ فَاشْتَجَرْتُمْ فِيهِ {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ} [النساء:٥٩] يَعْنِي بِذَلِكَ:فَارْتَادُوا مَعْرِفَةَ حُكْمِ الَّذِي اشْتَجَرْتُمْ أَنْتُمْ بَيْنَكُمْ أَوْ أَنْتُمْ وَأُولُو أَمْرِكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ،يَعْنِي بِذَلِكَ:مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ،فَاتَّبِعُوا مَا وَجَدْتُمْ.وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَالرَّسُولِ} [آل عمران:٣٢] فَإِنَّهُ يَقُولُ:فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ سَبِيلًا ،فَارْتَادُوا مَعْرِفَةَ ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ إِنْ كَانَ حَيًّا ،وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا فَمِنْ سُنَّتِهِ:{إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء:٥٩] يَقُولُ:" افْعَلُوا ذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ بِاللَّهِ

[١٤٢٠] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:٢٤٦)

[١٤٢١] - تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٢)

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.يَعْنِي:بِالْمَعَادِ الَّذِي فِيهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ،فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ فَلَكُمْ مِنَ اللَّهِ الْجَزِيلُ مِنَ الثَّوَابِ ،وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ فَلَكُمُ الْأَلِيمُ مِنَ الْعِقَابِ."[١٤٢٢]

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله:" وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ،عَزَّ وَجَلَّ،بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ (٧) فِيهِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يَرُدَّ التَّنَازُعَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشُّورَى:١٠] فَمَا حَكَمَ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ وَشَهِدَا لَهُ بِالصِّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ،وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:{إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} أَيْ:ردوا الخصومات والجهالات إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،فَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَجَالِ النِّزَاعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَا يَرْجِعْ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ،فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.وَقَوْلُهُ:{ذَلِكَ خَيْرٌ} أَيِ:التَّحَاكُمُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.وَالرُّجُوعُ فِي فَصْلِ النِّزَاعِ إِلَيْهِمَا خَيْرٌ {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا} أَيْ:وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلًا كَمَا قَالَهُ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ.وَقَالَ مُجَاهِدٌ:وَأَحْسَنُ جَزَاءً.وهو قريب."[١٤٢٣]

وعَنْ مُجَاهِدٍ ،قَالَ:{أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩] قَالَ:«أَهْلُ الْعِلْمِ وَأَهْلُ الْفِقْهِ» ،{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء:٥٩] قَالَ:«كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ ،وَلَا تَرُدُّوا إِلَى أُولِي الْأَمْرِ شَيْئًا»[١٤٢٤]

وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:" أُولِي الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ،{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء:٥٩] قَالَ:«إِلَى كِتَابِ اللَّهِ»،{وَالرَّسُولِ} [النساء:٥٩] قَالَ:«إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»،ثُمَّ قَرَأَ:" {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء:٨٣] "[١٤٢٥]

وقال المروزي رحمه الله:" يَعْنِي:إِنِ اخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ يَعْنِي - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هُمْ وَأُمَرَاؤُهُمُ الَّذِينَ أُمِرُوا بِطَاعَتِهِمْ { «فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» } [النساء:٥٩] يَعْنِي - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِلَى مَا

[١٤٢٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٨٤)

[١٤٢٣] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٤٥)

[١٤٢٤] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٨١)(٧٧) حسن

[١٤٢٥] - التفسير من سنن سعيد بن منصور - مخرجا (٤/ ١٢٩٠)(٦٥٦) حسن

قَالَ اللَّهُ وَالرَّسُولُ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ نَصًّا فِيهِمَا،وَلَا فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا رُدَّ قِيَاسًا عَلَى أَحَدِهِمَا.وسَمِعْتُ إِسْحَاقَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ { «وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» } [النساء:٥٩] :قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ عَلَى أُولِي الْعِلْمِ،وَعَلَى أُمَرَاءِ السَّرَايَا؛لِأَنَّ الْآيَةَ الْوَاحِدَةَ يُفَسِّرُهَا الْعُلَمَاءُ عَلَى أَوْجُهٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِاخْتِلَافٍ"[١٤٢٦].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله " ومن بَديع الجَواب قَول بَعض التّابِعينَ لِبَعضِ الأُمَراء مِن بَني أُمَيَّة لَمّا قالَ لَهُ :أَلَيسَ الله أَمَرَكُم أَن تُطيعُونا فِي قَولُه :"وأُولِي الأَمر مِنكُم " فَقالَ لَهُ :أَلَيسَ قَد نُزِعَت عَنكُم،يَعنِي الطّاعَة،إِذا خالَفتُم الحَقّ بِقَولِهِ :"فَإِن تَنازَعتُم فِي شَيء فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرَّسُول إِن كُنتُم تُؤمِنُونَ بِالله".[١٤٢٧]

فهذا هو الطريق الشرعي عند التنازع،وأما ما ذكره بعض أهل العلم من أن الإمام إذا خالفه أغلب أهل الشورى فيقدم رأي الأغلبية منعا لاستبداد الحكام وظلمهم،فهو قول لا أصل له،وإنما يمنع ظلم الحكام واستبدادهم بالطرق الشرعية الكافية عند تنفيذها أن تضبط أعمال الجميع بما يوافق شرع الله تعالى.

كما أن القول بأن الإمام يختار من الأقوال ما يراه أشبه بالكتاب والسنة،وتقتضيه الأصول والقواعد الشرعية العامة ولو خالفه الأغلبية هو الذي يتوافق مع كون الإمام من الأتقياء العلماء المجتهدين الذي توفرت فيه شروط الإمامة،ومن قال يؤخذ بقول الأغلبية فلعله بناه على ما يشاهده من جور الحكام وظلمهم،ولو قلنا بهذا القول مع وجود الإمام العادل المجتهد فقد عطلنا طاعته بالمعروف وفي هذا مخالفة لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ ولسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

قلت :" المسألة إذا كانت اجتهادية فقول الجمهور هو الأقوى بيقين،ويد الله مع الجماعة،ومع السواد الأعظم،وقواعد الشريعة لا تمنع من مثل هذا القول،بل هو الأوفق للشريعة وروحها،وليس كل مسألة يتضح فيها شرع الله تعالى بشكل جليٍّ،كما أن ردَّه لهذا القول فيه مغالطة كبيرة،فطالما قد اخترنا أعضاء مجلس السورى من خيرة أهل العلم والخبرة

[١٤٢٦] - السنة للمروزي (ص:٧)

[١٤٢٧] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١١١)

والكفابة،فالكل عند الاستباط يرجع لشرع الله بداهة حسب ما وصل إليه علمه،فكيف نقول عنه :لا أصل له ؟!! "

كما أن كلامه عن طاعة الإمام حتى لو خالف رأي الأكثرية قول فيه نظر كبير،وعند ذلك لا فائدة من الشورى أصلاً،ومن الصعب جدا أن يتفق أعضاء مجلس الشورى على قول واحد في المسائل التي لا نص واضح وصريح فيها،وعمر رضي الله عنه عندما اختلف مع الصحابة حول تقسيم سواد العراق لم يستطع أن يأخذ الأقلية والأكثرية كانت بخلاف رأيه وهو المسدد الملهم والذي لا يدانيه إمام في الأرض بعده،حتى عرضت المسألة على مجلس آخر وهو ما نسميه مجلس الترجيح،ولما درس المجلس رأي الجميع تبين لديه أن رأي عمر رضي الله ومن معه هو الأقرب لروح الشريعة ونصوصها العامة فأخذ به ورجحه "

قال ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية:" وَقَدْ دَلَّتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ أَنَّ وَلِيَ الْأَمْرِ،وَإِمَامَ الصَّلَاةِ،وَالْحَاكِمَ،وَأَمِيرَ الْحَرْبِ،وَعَامِلَ الصَّدَقَةِ – يُطَاعُ فِي مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ،وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَ أَتْبَاعَهُ فِي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ،بَلْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ،وَتَرْكُ رَأْيِهِمْ لِرَأْيِهِ،فَإِنَّ مَصْلَحَةَ الْجَمَاعَةِ وَالِائْتِلَافِ،وَمَفْسَدَةَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ،أَعْظَمُ مِنْ أَمْرِ الْمَسَائِلِ الْجُزْئِيَّةِ.وَلِهَذَا لَمْ يَجُزْ لِلْحُكَّامِ أَنْ يَنْقُضَ بَعْضُهُمْ حُكْمَ بَعْضٍ."[١٤٢٨]

" قلت :هذا الكلام باطل ومناف للقرآن والسنة وينسف الشورى من جذورها،وما فائدة مجلس الشورى إذا ؟ وهل هو مجلس لتبرير الاستبداد ؟،ثم أين هو الحاكم الذي بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق بعد الخلفاء الراشدين ؟ والمسألة عبارة عن تصور وهمي لا وجود له على الأرض "

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" الْإِمَامُ وَالرَّعِيَّةُ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى،لَا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ،بِمَنْزِلَةِ أَمِيرِ الْجَيْشِ وَالْقَافِلَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْحَجِّ،وَالدِّينُ قَدْ عُرِفَ بِالرَّسُولِ،فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَ الْإِمَامِ دِينٌ يَنْفَرِدُ بِهِ،وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي الْجُزْئِيَّاتِ،فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ فِيهَا بَيِّنًا أَمَرَ بِهِ،وَإِنْ كَانَ مُتَبَيِّنًا لِلْإِمَامِ دُونَهُمْ بَيَّنَهُ لَهُمْ،وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،وَإِنْ كَانَ مُشْتَبِهًا عَلَيْهِمْ

[١٤٢٨] – شرح الطحاوية – ط الأوقاف السعودية (ص:٣٦٨)

اشْتَوَرُوا فِيه حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ،وَإِنْ تَبَيَّنَ لِأَحَد مِنَ الرَّعِيَّة دُونَ الْإِمَـامِ بَيَّنَـهُ لَـهُ،وَإِن اخْتَلَـفَ الِاجْتِهَادُ،فَالْإِمَامُ هُوَ الْمُتَّبَعُ فِي اجْتِهَاده،إِذْ لَا بُدَّ مِنَ التَّرْجِيحِ،وَالْعَكْسُ مُمْتَنِعٌ."[١٤٢٩]

كما أن الرجوع إلى شرع الله تعالى عند النزاع ولو كان من خالف الإمام رجلا واحدا هـو الطريق المتيقن للوصول إلى الحق،وأما الأغلبية فقد تجتمع على خلاف الحق في قضـية معينـة لاسيما في البلاد التي يقل فيها العلم الشرعي ولا يتوفر فيها الكثير من العلماء.

"قلت :هذا الكلام أشبه بالدور تماما،فالإمام يجب عليه الرجوع لمجلس الشـورى في المسـائل المجتهد فيها والأخذ برأي الأكثرية،وإن حصل خلاف بين الإمام والذي معه الأقلية وبين رأي الأكثرية فلا بد من الرجوع لمجلس أعلى يفصل في النزاع وما يرجح يلزم به الإمام،وإلا كانت الشورى لا قيمة لها،بل لتبرير الاستبداد والخطأ "

قلت :وفي كتاب الخلافة :"وَكَانَ الصَّحَابَة على هَذَا يراجعون النَّبِي [ﷺ] فِيمَا يَقُوله بِرَأْيِه فِي الْمصَالح الْعَامَّة كالحرب وَالسّلم ويبدون آراءهم،وَكَانَ يرجع عَن رَأْيه إِلَى رَأْي الْوَاحِد مِنْهُم إِذا تبين لَهُ أَنه الصَّوَاب،كَمَا رَجَعَ إِلَى رَأْي الْحباب بن الْمُنْذر يَوْم بدر،وَإِلَى رَأْي الْجُمْهُـور بعد الشورى،وَإِن لم يظْهر لَهُ أَنه أصوب كَمَا فعل يَوْم أحد."[١٤٣٠]

"والذي يستفاد من الشورى في غزوة بدر هو الأمور التالية:

أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاور الحضور جميعاً خاصة الأنصار لأنهم خرجـوا مـع الرسول من ديارهم في تلك الغزوة ولم يكن بين النبي وبين الأنصار عهداً على الخروج للقتال معه،وقد جاء في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يخشـى أن تكـون الأنصار لا ترى وجوب نصرته عليها إلا مما داهمه من العدو بالمدينة فقط،ويضاف إلى ذلك أن استطلاع رأي الجمهور ووحدة كلمتهم ومعرفة آرائهم والأخذ برأي الأكثرية ضرورة لا بد منها."[١٤٣١]

[١٤٢٩] - منهاج السنة النبوية (٨/ ٢٧٣)

[١٤٣٠] -الخلافة (ص:١٣٤)

[١٤٣١] - الشورى في الشريعة الإسلامية (ص:١٤٩)

"وقد انتصر لهذا القول بعض الكتاب المعاصرين،فرأوا أن نتيجة الشورى ملزمة لولي الأمر إذا أيدها أكثر أهل الشورى ومن هؤلاء عبد القادر عودة،رحمه الله،ولعل أقوى ما استدلوا به،استجابة الرسول ﷺ لأصحابه الذين أشاروا عليه بقتال المشركين خارج المدينة في غزوة أحد،وكان رأيه ﷺ أن يبقى في المدينة للدفاع عنها،إذا هاجمه المشركون فيها.

ويأتي احتجاجهم بهذه الوقعة من وجهين:

الوجه الأول:أن أكثر الصحابة،رضي الله عنهم،كانوا يرون الخروج إلى أحد،والأقل كانوا يرون البقاء في المدينة،وعلى رأس هذا الأقل رسول الله ﷺ.

الوجه الثاني:أن الرسول ﷺ،تنازل عن رأيه لرأي الأكثر فخرج،وهو مبني على ثبوت الوجه الأول.

قال عبد القادر عودة رحمه الله:"ولقد سن رسول الله ﷺ هذه السنة وعمل بها في حياته،واتبعها أصحابه بعد وفاته:عمل الرسول ﷺ بهذه السنة،لما علم باستعداد قريش لغزوة أحد،وأنهم أقبلوا إلى المدينة ونزلوا قريباً من جبل أحد،فجمع عليه السلام أصحابه،واستشارهم أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة؟

وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة،وأن يتحصنوا بها،فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة،والنساء من فوق البيوت،ووافقه على هذا الرأي عبد الله ابن أبي وبعض الصحابة،ولكن جماعة الصحابة أشاروا بالخروج وألحوا عليه في ذلك.

فكان رسول الله ﷺ،أول من وضع رأي الأكثرية موضع التنفيذ،إذ نهض من المجلس،فدخل بيته ولبس لأمته،وخرج عليهم ليقود الأقلية والأكثرية،إلى لقاء العدو خارج المدينة،وقد سارع الرسول ﷺ بتنفيذ رأى الأغلبية،بالرغم من مخالفة رأيه الخاص الذي أظهرت الحوادث،فيما بعد،أنه كان الرأي الأحق بالاتباع".[١٤٣٢]

" الأخذ برأي الأكثرية عند ترجيح المواقف:كما في يوم أحد،وان خالف رأيهم القيادة وعليه إذا كانت الشورى في الأمور التشريعية فالحجة لقوة الدليل،وإذا كانت الشورى في الأمور الفنية فالحجة لأهل الخبرة والاختصاص،أما في طلب الرأي الذي يرشد إلى القيام بعمل من

[١٤٣٢] – الشورى بين الديمقراطية والديكتاتورية (ص:٦٦) و[التشريع الجنائي الإسلامي (٣٨/١)].

الأعمال الكبيرة،كانتخاب رئيس،أو والٍ،أو إقرار مشروع فيرجح رأي الأكثرية لأن الكثـــرة يحصل بها الترجيح وهكذا تقدم لنا السيرة النبوية معالم أساسيه لفقه الشورى كأمر رباني،وسنة نبوية،وقيمة أخلاقية،وحكمه بالغة في سياسة الأمة وإدارة أمور الدولة وهى ملزمة للحـــاكم ومفتوحة للمشاركة ولأهل الخبرة الفنية وأهل الاختصاص مكانة خاصة في الشـــورى وتمتـــد قيمه الشورى إلى سائر ضروب النشاط الإنساني وكان رسول الله ﷺ يلزم الشـــورى ابتـــداءً وانتهاءً"[١٤٣٣]

" والحقيقة أن العمل بمبدء الشورى كمرجعية للحكم والسياســـة،يتطلب أن تكـــون ملزمـــة وممارستها يكون قولاً وعملاً حتى تكون صفة لازمة امتثالاً لقوله تعالى (وَأَمْـــرُهُمْ شُـــورَى بَيْنَهُمْ) ،وقوله تعالى (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) ،والمتبين من استعراض كيفية الشورى التي تمت في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين أن الشورى أتت بصور مختلفـــة،وأنها لا تكـــون إلا في الأمور الاجتهادية،وأن من صورها ما يستشار فيه الكافة ويصلح الاستفتاء فيه ومنـــها مـــا لا يصلح إلا لجماعة متخصصين من العلماء وذلك في مسائل التشريع مما لا نص فيه ونحو ذلـــك من الأمور الهامة وهذا لا بد من الرجوع فيه إلى أهل الاختصاص،وإذا تباينت وجهات نظرهم لا بد من ترجيح رأي الأكثرية وهذا هو المنهاج النبوي كما عرفنا ذلك من نماذج الشـــورى التي نقلناها من الهدي النبوي وسير الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم،أما الآيات التي يستدل بها من لا يقول بإلزامية الشورى فهي تتحدث عن الكفار أو عن المشركين أو عن غير المؤمنين في الغالب أو عن رعاع الناس ممن يجهل حكم الله وأمره ونهيه ممن ليسوا محـــل استشـــارة ولا يمكن أن يكونوا أهل اختصاص وأغلبية في المجالس التشريعية،...

وقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن مبدأ الأكثرية مبدأ غير إسلامي؛غير أن هذا قد رد عليه في موضوع الشورى،من ذلك ما ذكره الدكتور عبد الحميد الأنصاري حيث يقول بأن هـــذا المبدأ معروف في التفكير السياسي الإسلامي منذ قرون بعيدة،فالإمام الغزالي في كتاب الـــرد على الباطنية يقول أنهم لو اختلفوا في مبدإ الأمور وجب الترجيح بالكثرة،ولأن الكثرة أقـــوى

[١٤٣٣] - الشورى فريضة إسلامية (ص:٣٨،بترقيم الشاملة آليا)

مسلك من مسالك الترجيح"[١٤٣٤]،وينقل عن ابن تيمية قوله في مبايعة أبي بكر رضي الله عنه قوله:وإنما صار إماماً بمبايعة جمهور الصحابة"[١٤٣٥] ،وعن الماوردي قوله في الأحكام السلطانية:وإذا اختلف أهل المسجد في اختيار إمام عمل على قول الأكثرين.[١٤٣٦]

و لم يثبت في السنة أن النبي ﷺ شاور أصحابه وأعرض عن رأي الغالبية،فقد سبق من الأمثلة على ذلك،ففي بدر حيث شاورهم للخروج للعير ابتداءً وشاورهم عندما خرجت قريش لتدافع عن عيرها وشاورهم في الأسرى وفي كل ذلك نزل على حكم الأغلبية،وفي أحد شاورهم في الخروج ونزل على حكم الغالبية وهو كاره،وفي الخندق شاورهم بمصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة ونزل على حكم السعدين في عدم المصالحة،وفي الحديبية عندما استشارهم في قتال من تحالفوا مع قريش وأخذ برأيهم في عدم القتال،وفي حصار الطائف عندما لم يرض المسلمون بالرجوع أمهلهم حتى طلبوا بأنفسهم الرجوع،وقد وردت أحاديث في شأن الأكثرية تحث على الالتزام برأي الجماعة أو بالسواد الأعظم أو بالأكثرية،ويفهم منها أن الجماعة أقرب إلى الحق والصواب من الفرد فمنها:

عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:وَقَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالْجَابِيَةِ،فَقَالَ:رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا،إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ فِينَا كَمَقَامِي فِيكُمْ ثُمَّ،قَالَ:«احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ثَلَاثًا «ثُمَّ يَكْثُرُ الْهَرْجُ،وَيَظْهَرُ الْكَذِبُ،وَيَشْهَدُ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ،وَيَحْلِفُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ،مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَعَلَيْهِ بِالْجَمَاعَةِ،فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ،وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ،أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا،مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»"[١٤٣٧]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:قَامَ فِينَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ عَلَى بَابِ الْجَابِيَةِ،فَقَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ فِينَا كَقِيَامِي فِيكُمْ فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ «أَكْرِمُوا أَصْحَابِي،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لِيَحْلِفَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَحْلَفَ،وَيَشْهَدَ قَبْلَ أَنْ

[١٤٣٤] - انظر الإمام الغزالي في كتاب الرد على الباطنية ص ٦٣ - طبعة دار الفكر- بيروت.

[١٤٣٥] - منهاج السنة النبوية ج ١،ص ١٤١.

[١٤٣٦] - الأحكام السلطانية ص ٩٨.

[١٤٣٧] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ١٩٩)(٣٩٠) صحيح لغيره

يُسْتَشْهَدَ،فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنَالَ بُحْبُحَةَ الْجَنَّة فَعَلَيْه بالْجَمَاعَة،فَإِنَّ يَدَ الله فَوْقَ الْجَمَاعَة،لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَة،فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالثُهُمَا أَلَا إِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحد،وَهُوَ منَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ،أَلَا مَنْ سَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ وَسَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ فَذَلكَ الْمُؤْمنُ»[1438]

وعَنْ جَابر بْنِ سَمُرَةَ قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ النَّاسَ بالْجَابيَة فَقَالَ:إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ فـي مثْـل مَقَامي هَذَا ثُمَّ قَالَ:«أَحْسنُوا إِلَى أَصْحَابي،ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ يَفْشُو الْكَذبُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلفُ عَلَى الْيَمينِ قَبْلَ أَنْ يُسْتَحْلَفَ عَلَيْهَا،وَيَشْهَدُ عَلَى الشَّهَادَة قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدَ عَلَيْهَا،فَمَنْ أَرَادَ منْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّة فَلْيَلْزَم الْجَمَاعَةَ،فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحد،وَهُوَ منَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ،أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَة،فَإِنَّ ثَالثَهُمَا الشَّيْطَانُ،أَلَا وَمَنْ كَانَ منْكُمْ تَسُوءُهُ سَيِّئَتُهُ،وَتَسُرُّهُ حَسَنَتُهُ فَهُوَ مُؤْمنٌ»[1439]

وعَنْ عَبْد الله بْنِ عُمَرَ قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ بالْجَابيَة فَقَالَ:إِنِّي قُمْتُ فيكُمْ كَمَقَام رَسُول الله ﷺ فينَا فَقَالَ:«أُوصيكُمْ بأَصْحَابي،ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ يَفْشُو الْكَذبُ حَتَّى يَحْلفَ الرَّجُلُ،وَلَا يُسْتَحْلَفُ،وَحَتَّى يَشْهَدَ وَلَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بالْجَمَاعَة،وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ،فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحد وَهُوَ منَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ،لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَة ثَلَاثَ مرَارٍ إِلَّا كَانَ ثَالثَهُمَا شَيْطَانٌ،مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّة فَلْيَلْزَم الْجَمَاعَةَ،مَنْ سَرَّتَهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلكَ الْمُؤْمنُ»[1440]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:" إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتي – أَوْ قَالَ:أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ – عَلَى ضَلَالَةٍ،وَيَدُ اللَّه مَعَ الجَمَاعَة،وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ "[1441]

والأخذ بالأكثرية معمول به عند علماء ومؤرخي المسلمين الأوائل،فالخبر الواحد بأمر لا يفيد العلم بل الظن بعكس خبر الجماعة المتواترة فإنه يفيد العلم فيكون الأمر في الاجتهاد الفقهـي

[1438] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٢٨٥)(٩١٧٩) صحيح

[1439] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٢٨٤)(٩١٧٥) صحيح

[1440] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٢٨٦)(٩١٨١) صحيح

[1441] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٦٦)(٢١٦٧) صحيح لغيره

يد الله على الجماعة:أراد بيد الله:سكينته وأمنه ورحمته،أي:إن الجماعة بعيدة من الأذى والخوف واضطراب الحال،ومثله قوله يد الله على الفسطاط يعني المصر،فإن الأذى مع الفرقة،والفساد مع الاختلاف،والخوف مع الانفراد.=شذ:الشذوذ:الانفراد والتوحد.جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (٩/ ١٩٦)

والإجماع كذلك وينعقد الإجماع برأي الأكثرية كما أن كثرة الرواة ترجح صدق الرواية وكذلك،كثرة المجتهدين في جانب واحد ترجح صحة رأيهم كذلك.

فالإجماعات التي نقلت عن عهد الصحابة إنما هي اتفاق الأكثر،وأخيراً يقولون:إن الكثرة ليست مناط الصواب أو حتى دليلاً قاطعاً أو راجحاً عليه،إذ أن صواب الرأي أو خطأه يستمدان من ذات الرأي لا من كثرة أو قلة القائلين،ويستدل أصحاب هذا الرأي بآيات من القرآن تذهب حسب زعمهم إلى أن الكثرة جاهلة وأنها مذمومة فمنها قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الأعراف:١٨٧]ومنها قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [هود:١٧]ومنها قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } [البقرة:٢٤٣] ومنها:{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [يوسف:١٠٣] ومنها:{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [يونس:٣٦] ومنها قوله تعالى:{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:١١٦]ومنها قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } [الأنعام:١١١] ومنها قوله تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ } [ص:٢٤]ومنها قوله تعالى:{ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [المائدة:١٠٠].

وقد ناقش الاستدلال بهذه الآيات الدكتور عبدالحميد الأنصاري وقال :إن قوله تعالى:(وَلَكِنَّ أكثر النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) وردت في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم منها الآية (٢١) من سورة يوسف وهي قوله تعالى:{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [يوسف:٢١]فالسياق يعدد نعم الله على يوسف عليه السلام وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس يتجاهلون هذه الحقيقة ولا يقدر نعمة الله عليه بسبب انصرافهم إلى شؤون الدنيا،وواضح أنه لا علاقة للآية بموضوعنا (أي موضوع الشورى) أما الآية (٤٠) من سورة يوسف فقد ورد فيها {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [يوسف:٤٠]وواضح أن الآية في شأن غير

المسلمين،وقوله تعالى:({وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم:٧،٦] ،فالآية في شأن أمور الدين والآخرة وكذلك في قوله تعالى {إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [غافر:٥٩]وقوله تعالى {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } [البقرة:٢٤٣] ونصها {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [البقرة:٢٤٣] وواضح أنها عامة وغالبا المقصود بها الكفار والفجار،والآية الأخرى ونصها ({وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } [يوسف:٣٨] وواضح أن الآية في فضل الشكر على الهداية وقوله تعالى { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [يوسف:١٠٣] وهي الآية (١٠٣) من سورة يوسف والآيات بعدها {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) } [يوسف:١٠٤ - ١٠٦] وواضح أن الآيات في شأن الإيمان بالله مع المشركين،أما قوله تعالى { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا } [يونس:٣٦] فهي جزء من الآية (٣٦) من سورة يونس ونصها {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [يونس:٣٦]وقبلها الآيات {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)} [يونس:٣٤،٣٥]فالآيات إذاً في شأن الكفار وكذلك الآية (وَإِن تُطِعْ أَكثر مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) الآية (١١٦) سورة الأنعام فهي من شأن أهل الكتاب والكفار بدليل السياق قبلها والآية التي بعدها (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)،أما الآية (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) فهي جزء من الآية (١١١) من سورة الأنعام وهي (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ

لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) والآية في غنى عن الشرح،أما الآية (إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) فهي جزء من الآية (٢٤) من سورة ص ونصها (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) فشأن المؤمنين ألا يبغي بعضهم على بعض،ولا أدري ما علاقة هذه الآية بموضوعنا –أي موضوع الشورى– ،والآية (قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) وهي جزء من الآية (١٠٠) من سورة المائدة وبقيتها (فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فهو تحذير لأهل العقل أن يغتروا بكثرة الباطل وانتشاره،فالشيء إذا كان خبيثاً في أصله فكثرته وانتشاره لا تجعله طيباً بل يبقى على خبثه،وهل نحن ادعينا أن كثرة أي شيء مطلقاً يدل على صحته وطيبته أم دعوانا منحصرة في أكثرية المؤمنين على مسألة خلافية.

فالآيات لا علاقة لها بموضوعنا لا من قريب ولا من بعيد فبعض الآيات في شأن الكفار وبعضها متعلقة بشأن العقيدة والدين والآخرة،فلا علاقة للآيات بمسألة ذم الكثرة في مسألة الانتخابات وشؤون السياسة والحكم،إذاً فاستدلال البعض بالآيات السابق شرحها لإثبات أن الكثرة جاهلة وأنها مذمومة غير صحيح،وكما قال الأستاذ عبدالقادر عودة في الإسلام وأوضاعنا السياسية (وربما صح عقلاً أن يأتي رأي الأكثرين خطأ ورأي الأقلين صواباً ولكن هذا نادر والنادر لا حكم له،والمفروض شرعاً أن رأي الأكثرين هو الصواب ما دام كلهم يبدي رأيه مجرداً لله،وأساس ذلك ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا رَأَيْتُمُ الِاخْتِلَافَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ فَإِنَّهُ لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ»[1442]

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ أُمَّتِي لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ضَلَالَةٍ،فَإِذَا رَأَيْتُمُ الِاخْتِلَافَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ»[1443]

وعَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَأَلْتُ رَبِّي أَرْبَعًا فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً،سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُجْمِعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ كَمَا

[1442] – الكنى والأسماء للدولابي (٢/ ٥١٥)(٩٣٧) صحيح لغيره

[1443] – مسند الشاميين للطبراني (٣/ ١٩٦)(٢٠٦٩) صحيح لغيره

أَهْلَكَ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا وَلَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا»[1444]

فالله يسدد دائماً خطى الجماعة ويوجهها إلى الرأي السديد،من هذا يتضح أن الشورى ملزمة وأن هذا ما عنته الآية الكريمة (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) وليس العكس كما صوروه أو هو دال على الأخذ برأي الأكثرية فقد روي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ العَزْمِ؟ قَالَ "مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ ثُمَّ اتِّبَاعُهُمْ"[1445]،فكأن الآية تقول دم على استشارة أصحابك ودم على أخذ رأيهم ولا تكونن هذه النتيجة الخاطئة (هزيمة المؤمنين في أحد) مانعة لك من الأخذ بالشورى ورأي الغالبية مستقبلاً،ونحن لو فرضنا جدلاً أنه ليس في الشريعة الإسلامية ما يقرر بأن الأخذ بحكم الأكثرية واجب فإنه ليس هناك أيضاً ما يحرم ذلك في الشريعة،لذا نرى أنه من باب المصالح المرسلة أن نأخذ بمبدإ الأغلبية،وبيان ذلك أنه في إلزام الحاكم برأي الأغلبية منافع عظيمة للأمة،إذ أنه يحول بين الحاكم وبين الاستبداد،ويجعل للرأي مكانة ومنزلة ولجمهور الشورى منزلتهم ومكانتهم ويعصم من الآراء الفردية المرتجلة التي قد تدمر الأمة بأسرها،فإن وجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضي التزام رأي الأكثرية،والواقع أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأي الأكثرية وأما أن يستمع ولي الأمر لآراء جميع أهل الشورى ثم يختار ما يراه هو بنفسه بحرية تامة فإن الشورى تفقد معناها وقيمتها،وإذا قيل:إن الشورى للاستنارة وظهور الرأي والصواب واحترام أهل الرأي والعلم وتطييب النفوس وتأليف القلوب،فإننا نجيب بأن هذه المعاني هي من نتائج الشورى الملزمة،أما الشورى غير الملزمة فلا تحقق هذه المعاني وذلك كما يقول الجصاص (وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْمُشَاوَرَةِ عَلَى جِهَةِ تَطْيِيبِ نُفُوسِهِمْ وَرَفْعِ أَقْدَارِهِمْ وَلِتَقْتَدِيَ الْأُمَّةُ بِهِ فِي مِثْلِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ إذَا اسْتَفْرَغُوا مَجْهُودَهُمْ فِي اسْتِنْبَاطِ مَا شُووِرُوا فِيهِ وَصَوَابِ الرَّأْيِ فِيمَا سُئِلُوا عَنْهُ،ثُمَّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَعْمُولًا عَلَيْهِ وَلَا مُتَلَقًّى مِنْهُ بِالْقَبُولِ بِوَجْهٍ،لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَطْيِيبُ نُفُوسِهِمْ وَلَا رَفْعٌ لِأَقْدَارِهِمْ بَلْ فِيهِ إيحَاشُهُمْ

[1444] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٢٨٠)(٢١٧١) ومسند أحمد ط الرسالة (٤٥/ ٢٠٠)(٢٧٢٢٤) صحيح لغيره

[1445] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ١٥٠)

فِي إعْلَامِهِمْ بِأَنَّ آرَاءَهُمْ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ وَلَا مَعْمُولٌ عَلَيْهَا.فَهَذَا تَأْوِيلٌ سَاقِطٌ لَا مَعْنَى لَهُ،فَكَيْفَ يَسُوغُ تَأْوِيلُ مَنْ تَأَوَّلَهُ لِتَقْتَدِي بِهِ الْأُمَّةُ مَعَ عِلْمِ الْأُمَّةِ عِنْدَ هَذَا الْقَائِلِ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَشُورَةَ لَمْ تُفِدْ شَيْئًا وَلَمْ يُعْمَلْ فِيهَا بِشَيْءٍ أَشَارُوا بِهِ فَإِنْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ الِاقْتِدَاءُ بِهِ فِيهَا فَوَاجِبٌ عَلَى الْأُمَّةِ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ تَشَاوُرُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ وَأَنْ لَا تُنْتِجَ الْمَشُورَةُ رَأْيًا صَحِيحًا وَلَا قَوْلًا مَعْمُولًا؛ لِأَنَّ مُشَاوَرَتَهُمْ عِنْدَ الْقَائِلِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ كَانَتْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ،فَإِنْ كَانَتْ مَشُورَةُ الْأُمَّةِ فِيمَا بَيْنَهَا تُنْتِجُ رَأْيًا صَرِيحًا وَقَوْلًا مَعْمُولًا عَلَيْهِ فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ اقْتِدَاءٌ بِالصَّحَابَةِ عِنْدَ مُشَاوَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إيَّاهُمْ،وَإِذْ قَدْ بَطَلَ هَذَا فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِمُشَاوَرَتِهِ إيَّاهُمْ فَائِدَةٌ تُسْتَفَادُ بِهَا وَأَنْ يَكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَعَهُمْ طَرِيقٌ مِنْ الِارْتِئَاءِ وَالِاجْتِهَادِ)[1446] ،وأما القول بأن الفائدة هي في ظهور الرأي الصواب والمظنون في الخليفة أن يأخذ به،فيرد بأن ما أدرانا أن الخليفة غير الملتزم بالأكثرية إذا أخذ بغير الأكثرية أنه قد أخذ بالصواب،والسؤال هنا من الذي يقرر أن هذا صواب أم خطأ؟ وهل الخليفة الفرد أم الجماعة؟ كما أن مبدأ المساواة الذي أكده الإسلام يجعل الخليفة واحداً من قادة المسلمين لا يختلف في ميزان الحق عنهم ما دامت صفات العلم والإخلاص والتقوى متساوية وما دام الناس في مثل هذه الحالات لا يستطيعون الجزم بأن هذا أفضل عند الله من ذاك،ولو كان الأمير غير ملزم برأي الأغلبية لكان هذا مدعاة لإلغاء رأي الأمة وإتلافاً لإجماعها وهي (أي الأمة) معصومة من الخطأ كما تقرر في الأصول،والأمير غير معصوم من الخطأ فكيف يحكم غير المعصوم على المعصوم،وإذا كان الرسول ﷺ وهو المعصوم قد سمح للصحابة رضي الله عنهم بإبداء آرائهم المخالفة لرأيه وأخذ برأيهم وترك رأيه لهم امتثالاً للأمر بالمشورة والالتزام بها،ومع ذلك لم يأت القرآن بتخطئته إذا أخذ بالأغلبية ،[1447] بل أكد دوام المشاورة ودوام الالتزام فكيف يطلب منا ألا نخالف رأياً لإمام أو حاكم وهو غير معصوم،فلكي نسلم بوجهة النظر هذه لا بد من افتراض العصمة في الأئمة والحكام وأنهم دائماً على صواب،ولكن مبدأ العصمة لغير الأنبياء والرسل غير مسلم به ابتداءً لدينا،أما القول

[1446] – أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٥٢)

[1447] – المقصود بأخذ الرسول ﷺ برأي الأغلبية في الخروج لملاقاة المشركين في غزوة أحد وقد نزل قول الحق بعد ذلك (وشاورهم في الأمر).

بأن الحكم في الإسلام للصفوة وأن العامة لا شأن لها بأمور الحكم وأن الشورى الإسلامية تبحث عن الحكمة والرشد عند أهل الذكر بدليل قوله تعالى (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ) وقوله تعالى (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً) فذلك مردود عليه بأنه لا شأن لتلك الآيات بالعامة فالسؤال لأهل الذكر فيما يخصهم لا يتعارض مع استشارة العامة في الأمور التي تخصهم،وأما أن العامة جاهلة فكيف تستشار؟ والرد أولاً أن هذه الكثرة لا بد أن تتعلم وهذه مسؤولية المتعلمين ووسائل الإعلام وثانياً أن العامة عندها العلم الضروري بأمور معيشتها فهي تفرق بين الخير والشر وتعرف ما فيه صلاحها،فاشتراك الشعب في أمور الحكم وتجاربه في الخطأ والصواب هو خير وسيلة لتعليم أي شعب جاهل كما هو المدعى[١٤٤٨]

وقد نص عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الأخذ برأي الأكثرية إذا اختلف الستة الذين جعل الشورى بينهم بعد وفاته وإن تساووا فُضِّل الجانب الذي يوافق رأيه رأي عبدالرحمن بن عوف،وكان ذلك إشارة من عمر رضي الله عنه أن عبد الرحمن بن عوف أمير القوم في هذه الشورى كما روى ابن سعد عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لأَصْحَابِ الشُّورَى:تَشَاوَرُوا فِي أَمْرِكُمْ فَإِنْ كَانَ اثْنَانِ وَاثْنَانِ فَارْجِعُوا فِي الشُّورَى.وَإِنْ كَانَ أَرْبَعَةٌ وَاثْنَانِ فَخُذُوا صِنْفَ الأَكْثَرِ.

وفي رواية عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ قَالَ:وَإِنِ اجْتَمَعَ رَأْيُ ثَلاثَةٍ وَثَلاثَةٍ فَاتَّبِعُوا صِنْفَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا.[١٤٤٩]

قال المؤلف رحمه الله :"والحاكم إذا كان ظالما مستبدا فلن يشاور أحدا،وإذا شاور فلن يرجع لشرع الله تعالى عند الاختلاف،ومن باب أولى أن لا يلتزم بقول الأغلبية،وأما إذا كان الحاكم عادلا يشاور أهل العلم والصلاح فلا وجه لإلزامه بالأغلبية،وهو يقبل الحق ويرجع إلى شرع الله في كل صغير وكبير،سواء خالفه رجل واحد من أهل الشورى أو أغلبيتهم.

[١٤٤٨] - انظر إلزام الشورى ومبدأ الأكثرية في الإسلام للدكتور عبدالحميد الأنصاري ص ٣٢ - ٣٨ بتصرف يسير.و الشورى في الشريعة الإسلامية (ص:٢٣١)

[١٤٤٩] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٤٥) من طريق الواقدي والشورى في الشريعة الإسلامية (ص:٢٣٧)

"قلت :هذا الكلام غير سائغ فهل صلاحه يجعله معصوماً،بل يجب أن يلتزم برأي الأكثرية لأنه الأقرب للصواب،بل هو الذي يدلُّ على صلاحه،وأما عدم أخذه برأي الأكثرية ما هو إلا نسف للشورى من جذورها،والانتهاء إلى الاستبداد،وهو نفس المنطق الفرعوني كما قال تعالى لقومه :{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩] "

وأما إذا لم يبتَّ الأمير في موضوع الاجتهاد برأيه[١٤٥٠] مما للرأي والنظر في تقدير المصلحة فيه مجال ورأى الترجيح بالأغلبية فله ذلك،قال الحافظ ابن حجر رحمه الله عند شرح حديث رجوع عمر رضي الله عنه عن دخول الشام بسبب الطاعون وفِيهِ التَّرجِيح بِالأَكثَرِ عَدَدًا والأَكثَر تَجرِبَة لِرُجُوعِ عُمَر لِقَولِ مَشيَخَة قُرَيش مَعَ ما انضَمَّ إِلَيهِم مِمَّن وافَقَ رَأيهم مِنَ المُهاجِرِينَ والأَنصار،فَإِنَّ مَجمُوع ذَلِكَ أَكثَر مِن عَدَد مَن خالَفَهُ مِن كُلّ مِنَ المُهاجِرِينَ والأَنصار،ووازَنَ ما عِند الَّذِينَ خالَفُوا ذَلِكَ مِن مَزِيد فِي العِلم والدِّين ما عِند المَشيَخَة مِنَ السِّنّ والتَّجارِب،فَلَمّا تَعادَلُوا مِن هَذِهِ الحَيثِيَّة رُجِّحَ بِالكَثرَةِ ووافَقَ اجتِهاده النَّصّ،فَلِذَلِكَ حَمِدَ الله تَعالَى عَلَى تَوفِيقه لِذَلِكَ.وفِيهِ تَفَقُّد الإِمام أَحوال رَعِيَّته لِما فِيهِ مِن إِزالَة ظُلم المَظلُوم وكَشف كُربَة المَكرُوب ورَدع أَهل الفَساد وإِظهار الشَّرائِع والشَّعائِر وتَنزِيل النّاس مَنازِلهم."[١٤٥١]

قلت :هذه الرواية حجة على من قال بعدم الأخذ برأي الغالبية،فعمر رضي الله عنه كان مسددا وملهما ومحدثاً،فلماذا لم يأخذ برأيه وينتهي الأمر حتى يصح الاستدلال بهذه القصة ؟

[١٤٥٠] - قلت:هذا الافتراض بالحاكم أنه مجتهد يستطيع استنباط الأحكام الشرعية بنفسه هو قول غير واقعي أصلاً،والذين بلغوا درجة الاجتهاد المطلق قلة قليلة بكل التاريخ الإسلامي،فكيف نفترض أمرا عديم الوقوع ونرتب عليه أحكاماً شرعية خطيرة،وهو أنه إمام مجتهد ولا يجوز له أن يقلد أحداً غير ما أداه إليه اجتهاده ؟ فهذا افتراض غير صحيح،وغير موجود هذا الخليفة الوهمي،ومن ثم يجب إغلاق الكلام في هذا الموضوع الوهمي غير الموجود أصلاً،والرجوع لرأي الأمة هو الأساس في هذا الموضوع أولا وأخيراً ..

وإذا فتحنا هذا الباب فكل حاكم سوف يزعم أنه مجتهد مطلق وقد بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق،وسوف يشهد له كل علماء البلاط كما شهدوا لفرعون من قبل،وسد ذرائع الفساد المترتب على هذا الخلل الكبير مقدم على جلب المصالح الموهومة،وسوف يغلق على الحاكم الاستبداد بالرأي والحكم نهائياً ....

[١٤٥١] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٠/ ١٩٠)

بل القصة تدلُّ على وجوب الرجوع لرأي الأمة ولرأي الأكثرين وليس إلى رأيـــه،فأين هـــذا الحاكم الذي سوف يشبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صفاته وفي اجتهاده ؟؟!!!
بل القول بعدم إلزامية الشورى وبعدم إلزام الحاكم برأي الأكثرية هو تبرير للاستبداد والدفاع عنه،وهو مناف للإسلام بيقين ."

مجالات الشورى

تشرع الشورى في القضاء وفي الفتوى في جميع شؤون الحياة للتوصل إلى الحكم الشرعي إذا لم يتبين للإمام الحكم مـــن الكتـــاب أو الســـنة أو الإجمـــاع أو القيـــاس الجلـــي المســـتوفي للشروط،وكذلك يتشاور الإمام مع أهل الشورى في أمور الحرب والسلم والهدنة،وفي الأموال العامة وصرفها،وفي تولية الأمراء والقضاة وغيرهم،وفي النوازل الطارئـــة،وفي تنظـــيم الدولـــة وإدارتها،وتشرع الشورى في مراقبة أعمال الإمام والولاة والقضاة وغيرهم ومحاسبتهم،وكذلك في تعيين الإمام العام،قال العلامة السعدي رحمه الله في قوله تعالى {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْـــنَهُمْ} " {وَأَمْرُهُمْ} الديني والدنيوي {شُورَى بَيْنَهُمْ} أي:لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم،وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم وكمـــال عقولهم،أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيهـــا،اجتمعوا لهـــا وتشاوروا وبحثوا فيها،حتى إذا تبينت لهم المصلحة،انتهزوها وبادروها،وذلك كالرأي في الغزو والجهاد،وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء،أو غيره،وكالبحث في المسائل الدينية عموما،فإنها من الأمور المشتركة،والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله،وهو داخل في هذه الآية."[١٤٥٢]
ومن الأدلة والأمثلة على الشورى في الجهاد والسلم والهدنة أن النبي ﷺ شاور الصحابة في يوم بدر،فعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ،قَالَ:فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ،فَأَعْرَضَ عَنْهُ،ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ،فَأَعْرَضَ عَنْهُ،فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ،فَقَالَ:إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُـــولَ الله؟ وَالَّـــذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا،وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَـــى بَـــرْكِ

[١٤٥٢] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٦٠)

الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا،قَالَ:فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ،فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا،وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ،وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ،فَأَخَذُوهُ،فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ،وَأَصْحَابِهِ،فَيَقُولُ:مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ،وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ،وَعُتْبَةُ،وَشَيْبَةُ،وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ،فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ،فَقَالَ:نَعَمْ،أَنَا أُخْبِرُكُمْ،هَذَا أَبُو سُفْيَانَ،فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ،فَقَالَ مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ،وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ،وَعُتْبَةُ،وَشَيْبَةُ،وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ،فِي النَّاسِ،فَإِذَا قَالَ هَذَا أَيْضًا ضَرَبُوهُ،وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ انْصَرَفَ،قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ،وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ»،قَالَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ»،قَالَ:وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ «هَاهُنَا،هَاهُنَا»،قَالَ:فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أخرجه مسلم.[1453]

وشاورهم في أسرى بدر فعن ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ :حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،قَالَ :لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ،نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ،وَهُمْ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَنَيِّفٌ،وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ،فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ،ثُمَّ قَالَ :اللَّهُمَّ أَيْنَ مَا وَعَدْتَنِي،اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ أَبَدًا،قَالَ :فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ،قَالَ :فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،ثُمَّ قَالَ :يَا نَبِيَّ اللهِ،كَفَاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ :{إِذْ

[1453] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٣)٨٣ - (١٧٧٩)

[ش (شاور) قال العلماء إنما قصد ﷺ اختيار الأنصار لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدو وإنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده فلما عرض الخروج لعير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم يوافقون على ذلك فأجابوه أحسن جواب بالموافقة التامة في هذه المرة وغيرها(إن نخيضها البحر لأخضناها) يعني الخيل أي لو أمرتنا بإدخال خيولنا في البحر وتمشيتنا إياها فيه لفعلنا(أن نضرب أكبادها) كناية عن ركضها فإن الفارس إذا أراد ركض مركوبه يحرك رجليه من جانبيه ضاربا على موضع كبده(برك الغماد) أما برك فهو بفتح الباء وإسكان الراء هذا هو المعروف المشهور في كتب الحديث وروايات المحدثين وكذا نقله القاضي عن رواية المحدثين وأما الغماد فبغين معجمة مكسورة ومضمومة لغتان مشهورتان لكن الكسر أفصح وهو المشهور في روايات المحدثين والضم هو المشهور في كتب اللغة وهو موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل وقيل بلدتان وقال القاضي وغيره هو موضع بأقاصي هجر(روايا قريش) أي إبلهم التي كانوا يستقون عليها فهي الإبل الحوامل للماء واحدها راوية(انصرف) أي سلم من صلاته(لتضربوه وتتركوه) هكذا وقع في النسخ لتضربوه وتتركوه بغير نون وهي لغة سبق بيانها مرات أعني حذف النون بغير ناصب ولا جازم(فما ماط أحدهم) أي تباعد]

تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} فَلَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ وَالْتَقَوْا،هَزَمَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ،فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلا،وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلا،فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ،وَعُمَرَ،وَعَلِيًّا،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :يَا نَبِيَّ اللهِ،هَؤُلَاءِ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ وَالإِخْوَانِ،فَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمَ الْفِدْيَةَ،فَيَكُونُ مَا أَخَذْنَا مِنْهُمْ قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ،وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَيَكُونُوا لَنَا عَضُدًا.فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ قُلْتُ :وَاللهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ،وَلَكِنْ أَرَى أَنْ تُمَكِّنَنِي مِنْ فُلَانٍ،قَرِيبًا لِعُمَرَ،فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ،وَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ،وَتُمَكِّنَ حَمْزَةَ مِنْ أَخِيهِ فُلَانٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ،حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ،هَؤُلَاءِ صَنَادِيدُهُمْ،وَأَئِمَّتُهُمْ،وَقَادَتُهُمْ.فَهَوِيَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ،وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ،فَأَخَذَ مِنْهُمَ الْفِدَاءَ."[١٤٥٤]

وكذلك شاورهم في موطن القتال في غزوة بدر،وكذلك شاورهم يوم الأحزاب بمصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة،فأشار عليه سعد بن معاذ رضي الله عنه وسعد بن عبادة رضي الله عنه ألا يعطيهم شيئا،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:جَاءَ الْحَارِثُ الْغَطَفَانِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ شَاطِرْنِي ثَمَرَ الْمَدِينَةِ،وَإِلَّا مَلَأْتُهَا عَلَيْكَ خَيْلًا وَرِجَالًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:حَتَّى أَسْتَأْذِنَ السُّعُودَ،فَدَعَا سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ،وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ،وَأَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ،فَقَالَ:هَا قَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ مُوْسَى وَاحِدَةٍ ،وَهَذَا الْحَارِثُ الْغَطَفَانِيُّ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ ثَمَرَةَ الْمَدِينَةِ،فَادْفَعُوهَا إِلَيْهِ إِلَى يَوْمٍ مَا،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ،إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرٌ مِنْ أَمْرِكَ أَوْ هَوًى مِنْ هَوَاكَ فَأَمْرُنَا لِأَمْرِكَ تَبَعٌ،وَهَوَانَا لِهَوَاكَ تَبَعٌ،وَإِلَّا فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ عَلَى سَوَاءٍ،مَا كَانُوا يَنَالُونَ ثَمَرَةً،وَلَا جَسْرَةً إِلَّا شِرَاءً أَوْ قِرَاءً،فَكَيْفَ وَقَدْ أَعَزَّ اللَّهُ بِكَ وَبِالْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:هَا يَا حَارِثُ قَدْ تَسْمَعُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ غَدَرْتَ،فَأَنْشَدَ حَسَّانُ يَقُولُ:

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ ...مِنْكُمْ فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَغْدِرْ

وَأَمَانَةُ الْمَرْءِ حَيْثُ لَقِيتَهَا ...مِثْلُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لَا يُجْبَرْ

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ ...وَاللُّؤْمُ يُنْبِتُ فِي أُصُولِ السِّخْبَرْ

[١٤٥٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٣١٥)(٣٧٨٣٩) صحيح وهو في مسلم

قَالُوا:يَا مُحَمَّدُ اكْفُفْ عَنَّا لِسَانَهُ،فَوَاللَّهِ لَوْ مُزِجَ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَهُ.قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ:الْإِسْتَخْبَرُ حَشِيشٌ يَنْبُتُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ.[1455]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:جَاءَ الْحَارِثُ الْغَطَفَانِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،شَاطِرْنَا تَمْرَ الْمَدِينَةِ،قَالَ:«حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ»،فَبَعَثَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ،وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ،وَسَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ،وَسَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ،وَسَعْدِ بْنِ مَسْعُودٍ،رَحِمَهُمُ اللهُ،فَقَالَ:«إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ،وَإِنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمْرَ الْمَدِينَةِ،فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا،حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،أَوَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ،فَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللهِ،أَوْ عَنْ رَأْيِكَ،أَوْ هَوَاكَ،فَرَأْيُنَا تَبَعٌ لِهَوَاكَ ورَأْيِكَ،فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ الْإِبْقَاءَ عَلَيْنَا،فَوَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ مَا يَنَالُونَ مِنَّا تَمْرَةً إِلَّا بِشِرًى،أَوْ قِرًى،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«هُوَ ذَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ»،قَالُوا:غَدَرْتَ يَا مُحَمَّدُ،فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَحِمَهُ اللهُ:

يَا حَارِ مَنْ يَغْدُرْ بِذِمَّةِ جَارِهِ ...أَبَدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَغْدُرُ

وَأَمَانَةُ الْمَرْءِ حَيْثُ لَقِيتَهَا ...كَسْرُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لَا يُجْبَرُ

إِنْ تَغْدُرُوا فَالْغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ ...وَاللُّؤْمُ يَنْبُتُ فِي أُصُولِ السَّخْبَرِ.[1456]

وكذلك تشاور الصحابة رضي الله عنهم في قتال مانعي الزكاة،فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:كَتَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ» فَعَلَيْكَ بِهِ" رواه الطبراني[1457].

وعَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:" لِوَفْدِ بُزَاخَةَ:تَتْبَعُونَ أَذْنَابَ الإِبِلِ،حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ " رواه البخاري[1458]

[1455] - معجم ابن الأعرابي (٢/ ٨٢٩)(١٧٠٨) والكنى والأسماء للدولابي (٢/ ٧٨٦)(١٣٦٨) حسن

[1456] - المعجم الكبير للطبراني (٦/ ٢٨)(٥٤٠٩) حسن

[1457] - المعجم الكبير للطبراني (١/ ٦٣)(٤٦) حسن

[1458] - صحيح البخاري (٩/ ٨١)(٧٢٢١)

[ش (بزاخة) موضع بالبحرين أو ماء لبني أسد وغطفان وهذا الموضع كان فيه حرب للمسلمين أيام أبي بكر رضي الله عنه وهؤلاء كانوا قد ارتدوا ثم تابوا وأرسلوا وفدهم إلى الصديق يعتذرون إليه فأحب أن لا يقضي فيهم حتى يشاور أصحابه في أمرهم فقال لهم ما قال.(تتبعون أذناب الإبل) تبقون مع إبلكم في الصحاري ترعونها.(يري) بعد التشاور.(أمرا يعذرونكم به) رأيا وحكما يكون سببا لقبولكم والعفو عنكم]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:قَدِمَ وَفْدُ بُزَاخَةَ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ،فَخَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ الْحَرْبِ الْمُجْلِيَةِ وَالسِّلْمِ الْمُخْزِيَةِ،فَقَالُوا لَهُ:هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا،فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟ فَقَالَ:أَنْ تُنْزَعَ مِنْكُمُ الْحَلْقَةُ وَالْكُرَاعُ،وَتُتْرَكُونَ أَقْوَامًا تَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ،وَنَغْنَمُ مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ،وَتَرُدُّونَ إِلَيْنَا مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا،وَتَدُونَ قَتْلَانَا،وَيَكُونُ قَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ،فَقَامَ عُمَرُ،فَقَالَ:إِنَّكَ رَأَيْتَ رَأْيًا وَسَنُشِيرُ عَلَيْكَ،أَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنْ تَنْزِعَ مِنْهُمُ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَا مَا ذَكَرْتَ أَنْ يُتْرَكُوا أَقْوَامًا يَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ،حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَهُمْ عَلَيْهِ،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنْ نَغْنَمَ مَا أَصَبْنَا مِنْهُمْ،وَيَرُدُّوا إِلَيْنَا مَا أَصَابُوا مِنَّا،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنْ يَدُوا قَتْلَانَا وَيَكُونَ قَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ،فَإِنَّ قَتْلَانَا قُتِلُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ،أُجُورُهُمْ عَلَى اللَّهِ،لَيْسَتْ لَهُمْ دِيَاتٌ " قَالَ:فَتَابَعَ الْقَوْمُ قَوْلَ عُمَرَ "[١٤٥٩]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:قَدِمَ وَفْدُ بُزَاخَةَ،مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ،عَلَى أَبِي بَكْرٍ،يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ،فَخَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ الْحَرْبِ الْمُجْلِيَةِ وَالسِّلْمِ الْمُخْزِيَةِ فَقَالُوا لَهُ:هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا،فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟ فَقَالَ:أَنْ تُنْزَعَ مِنْكُمُ الْحَلْقَةُ وَالْكُرَاعُ وَتَتْرُكُوا أَقْوَامًا تَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ،حَتَّى يُرِي اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ،وَنَغْنَمُ مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ،وَتَرُدُّوا إِلَيْنَا مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا،وَتَدُوا قَتْلَانَا،وَتَكُونُ قَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ،فَقَامَ عُمَرُ،فَقَالَ:إِنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ رَأْيًا وَسَنُشِيرُ عَلَيْكَ:أَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنْ تَنْزِعَ مِنْهُمُ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنْ يُتْرَكُوا أَقْوَامًا يَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِي اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَهُمْ بِهِ،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنْ نَغْنَمَ مَا أَصَبْنَا مِنْهُمْ وَيَرُدُّوا إِلَيْنَا مَا أَصَابُوا مِنَّا،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنْ يَدُوا قَتْلَانَا وَتَكُونَ قَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ،فَإِنَّ قَتْلَانَا قُتِلُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ،أُجُورُهُمْ عَلَى اللَّهِ،لَيْسَتْ لَهُمْ دِيَاتٌ،قَالَ:فَتَابَعَ الْقَوْمُ عُمَرَ"[١٤٦٠]

[١٤٥٩] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٦٠)(٧٤٢) والأموال للقاسم بن سلام (ص:٢٥٤)(٥١٠) والسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٥٨١)(١٧٦٣٢) ومصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٤٣٧)(٣٢٧٣١) صحيح

[١٤٦٠] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٢٥٦)(٥١٠) صحيح

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:أَفَلَا تَرَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَقْبَلْ إِسْلَامَهُمْ وَصُلْحَهُمْ إِلَّا بِنَزْعِ الْحَلْقَةِ وَالْكُرَاعِ مِنْهُمْ،لِمَا أَعْلَمْتُكَ؟ ثُمَّ تَابَعَهُ عُمَرُ عَلَى هَذَا،وَالْقَوْمُ مَعَهُ وَلَا نَرَاهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ إِلَّا اتِّبَاعًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي دُومَةِ الْجَنْدَلِ وَأَشْبَاهِهَا مِنَ الْقُرَى الَّتِي لَمْ تَدْخُلْ

وفي هذا الأثر أن الإمام إذا قضى بأمر يعرض ما قضى به على أهل الشورى،وفيه أن أهل الشورى قد يوافقون الإمام على بعض قوله ويخالفونه في بعض.

ومن الشورى في الأموال ما أخرجه أحمد وعَنْ حَارِثَةَ،قَالَ:جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ إِلَى عُمَرَ،فَقَالُوا:إِنَّا قَدْ أَصَبْنَا أَمْوَالًا وَخَيْلًا وَرَقِيقًا نُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَنَا فِيهَا زَكَاةٌ وَطَهُورٌ،قَالَ:مَا فَعَلَهُ صَاحِبَايَ قَبْلِي فَأَفْعَلَهُ.وَاسْتَشَارَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ،وَفِيهِمْ عَلِيٌّ،فَقَالَ عَلِيٌّ:هُوَ حَسَنٌ،إِنْ لَمْ يَكُنْ جِزْيَةً رَاتِبَةً يُؤْخَذُونَ بِهَا مِنْ بَعْدِكَ[1461]..

وعَنْ حَارِثَةَ بْنِ مَضْرِبٍ ،أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ أَتَوْا عُمَرَ ،فَقَالُوا:إِنَّا قَدْ أَصَبْنَا أَمْوَالًا وَخَيْلًا وَرَقِيقًا وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَنَا فِيهِ زَكَاةٌ وَطَهُورٌ ،فَقَالَ:«مَا فَعَلَهُ صَاحِبَايَ فَأَفْعَلُهُ» ،قَالَ إِسْحَاقُ:«مَا فَعَلَهُ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَأَفْعَلُهُ» ،فَاسْتَشَارَ النَّاسَ فَكَانَ فِيمَنِ اسْتَشَارَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،فَقَالَ:«حَسَنٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ جِزْيَةٌ يُؤْخَذُ بِهَا مَنْ بَعْدَكَ».قَالَ إِسْحَاقُ:إِنْ لَمْ يَكُنْ مَرْتَبَةً لِمَنْ بَعْدَكَ فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ فَرَسٍ دِينَارًا.[1462]

وعَنْ سِمَاكٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عِيَاضًا الْأَشْعَرِيَّ،قَالَ:شَهِدْتُ الْيَرْمُوكَ،وَعَلَيْنَا خَمْسَةُ أُمَرَاءَ:أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ،وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ،وَابْنُ حَسَنَةَ،وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،وَعِيَاضٌ – وَلَيْسَ عِيَاضٌ هَذَا بِالَّذِي حَدَّثَ سِمَاكًا – قَالَ:وَقَالَ عُمَرُ:إِذَا كَانَ قِتَالٌ فَعَلَيْكُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ.قَالَ:فَكَتَبْنَا إِلَيْهِ إِنَّهُ قَدْ جَاشَ إِلَيْنَا الْمَوْتُ،وَاسْتَمْدَدْنَاهُ،فَكَتَبَ إِلَيْنَا:إِنَّهُ قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي،وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا وَأَحْضَرُ جُنْدًا:اللهُ عَزَّ وَجَلَّ،فَاسْتَنْصِرُوهُ،فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ نُصِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي أَقَلَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ،فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ،وَلا تُرَاجِعُونِي.قَالَ:فَقَاتَلْنَاهُمْ فَهَزَمْنَاهُمْ،وَقَتَلْنَاهُمْ أَرْبَعَ فَرَاسِخَ،قَالَ:وَأَصَبْنَا أَمْوَالًا،فَتَشَاوَرُوا،فَأَشَارَ عَلَيْنَا عِيَاضٌ أَنْ نُعْطِيَ عَنْ كُلِّ رَأْسٍ عَشْرَةً.قَالَ:وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:مَنْ يُرَاهِنِّي؟ فَقَالَ شَابٌّ:أَنَا إِنْ لَمْ

فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كَرْهًا،بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ عَلَى بَعْضِ بِلَادِهِمْ،وَلَوْ كَانَ إِسْلَامُهُمْ رَغْبَةً غَيْرَ رَهْبَةٍ لَسَلِمَتْ لَهُمْ أَمْوَالُهُمْ؛لِأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ،وَلَوْ لَمْ يَجْنَحُوا إِلَى السَّلْمِ حَتَّى يَظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ الظُّهُورَ كُلَّهُ،وَيَصِيرُوا أُسَارَى فِي أَيْدِيهِمْ،مَا تَرَكَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا وَلَكَانَتْ غَنَائِمَ لِلْمُسْلِمِينَ،وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا بَيْنَ الْحَالَيْنِ قَدْ نَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَنَالَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ،فَلِهَذَا وَقَعَ الصُّلْحُ

[1461] – مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٢٤٤)(٨٢) صحيح

[1462] – سنن الدارقطني (٣/ ٥٨)(٢٠٦٤) صحيح

تَغْضَبْ.قَالَ:فَسَبَقَهُ،فَرَأَيْتُ عَقِيصَتَيْ أَبِي عُبَيْدَةَ تَنْقُزَانِ وَهُوَ خَلْفَهُ عَلَى فَرَسٍ عَرَبِيٍّ.رواه أحمد وابن حبان،وصحح ابن كثير إسناده[١٤٦٣].

وعَنْ عِيَاضٍ الْأَشْعَرِيِّ،قَالَ:«شَهِدْتُ الْيَرْمُوكَ،وَعَلَيْهَا خَمْسَةُ أُمَرَاءَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ،وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ،وَشُرَحْبِيلُ ابْنُ حَسَنَةَ،وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،وَعِيَاضٌ،- وَلَيْسَ عِيَاضٌ صَاحِبَ الْحَدِيثِ الَّذِي يُحَدِّثُ سِمَاكٌ عَنْهُ -،قَالَ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ قِتَالٌ فَعَلَيْكُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ قَالَ:» فَكَتَبْنَا إِلَيْهِ،أَنْ قَدْ جَاشَ إِلَيْنَا الْمَوْتُ،وَاسْتَمْدَدْنَاهُ،فَكَتَبَ إِلَيْنَا أَنَّهُ قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي،وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا وَأَحْصَنُ جُنْدًا اللَّهُ فَاسْتَنْصِرُوهُ،فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ نُصِرَ بِأَقَلَّ مِنْ عَدَدِكُمْ،فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي،فَقَاتِلُوهُمْ وَلَا تُرَاجِعُونِي،قَالَ:فَقَاتَلْنَاهُمْ فَهَزَمْنَاهُمْ،وَقَتَلْنَاهُمْ أَرْبَعَ فَرَاسِخَ وَأَصَبْنَا أَمْوَالًا فَتَشَاوَرُوا فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ عِيَاضٌ عَنْ كُلِّ رَأْسٍ عَشْرَةٌ،وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:مَنْ يُرَاهِنُنِي؟،فَقَالَ شَابٌّ:أَنَا إِنْ لَمْ تَغْضَبْ،قَالَ:«فَسَبَقَهُ،فَرَأَيْتُ عَقِيصَتَيْ أَبِي عُبَيْدَةَ تَنْقُزَانِ،وَهُوَ خَلْفَهُ عَلَى فَرَسٍ عَرَبِيٍّ»[١٤٦٤]

وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:اسْتَشَارَهُمْ عُمَرُ فِي الْعَطَاءِ بِمَنْ يَبْدَأُ فَقَالُوا:ابْدَأْ بِنَفْسِكَ.قَالَ فَبَدَأَ بِالأَقَارِبِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَبْلَ قَوْمِهِ.[١٤٦٥]

وعَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّبٍ،عَنْ عُمَرَ،أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقْسِمَ السَّوَادَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،فَأَمَرَ أَنْ يُحْصُوا فَوُجِدَ الرَّجُلُ يُصِيبُهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْفَلَّاحِينَ فَشَاوَرَ فِي ذَلِكَ،فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:دَعْهُمْ يَكُونُوا مَادَّةً لِلْمُسْلِمِينَ،فَتَرَكَهُمْ وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ،فَوَضَعَ عَلَيْهِمْ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ،وَأَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ،وَاثْنَيْ عَشَرَ"[١٤٦٦]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَيْسٍ أَوْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الْهَمْدَانِيِّ - شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ - قَالَ:قَدِمَ عُمَرُ الْجَابِيَةَ،فَأَرَادَ قَسْمَ الْأَرْضِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ:وَاللَّهِ إِذَنْ لَيَكُونَنَّ مَا تَكْرَهُ،إِنَّكَ إِنْ قَسَمْتَهَا صَارَ الرِّيعُ الْعَظِيمُ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ،ثُمَّ يَبِيدُونَ،فَيَصِيرُ ذَلِكَ إِلَى الرَّجُلِ الْوَاحِدِ أَوِ

[١٤٦٣] - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٤٢٢)(٣٤٤) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٣١٥)(٣٤٥٢٥) صحيح

[١٤٦٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٨٣)(٤٧٦٦) صحيح

[١٤٦٥] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٢٩) صحيح مرسل

[١٤٦٦] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٧٤)(١٥١) صحيح

الْمَرْأَة،ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ يَسُدُّونَ مِنَ الْإِسْلَامِ مَسَدًّا،وَهُمْ لَا يَجِدُونَ شَيْئًا،فَانْظُرْ أَمْرًا يَسَعُ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ"

وعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ أَبِي قَيْسٍ أَوِ ابْنِ قَيْسٍ:أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ،يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي قَسْمِ الْأَرْضِ،ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامَ مُعَاذٍ إِيَّاهُ،قَالَ:فَصَارَ عُمَرُ إِلَى قَوْلِ مُعَاذ.[١٤٦٧]

وعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ:قَالَ عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ:«وَكَتَبَ أَهْلُ مَنْبِجَ وَمَنْ وَرَاءَ بَحْرِ عَدَنَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلُوا بِتِجَارَتِهِمْ أَرْضَ الْعَرَبِ،وَلَهُمُ الْعُشُورُ مِنْهَا،فَشَاوَرَ عُمَرُ فِي ذَلِكَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ،وَأَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ،فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَخَذَ مِنْهُمُ الْعُشُورَ»[١٤٦٨].

[١٤٦٧] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٧٥)(١٥٢) صحيح

قَالَ أَبُو عُبَيْد:فَقَدْ تَوَاتَرَت الْآثَارُ فِي افْتِتَاحِ الْأَرَضِينَ عَنْوَةً بِهَذَيْنِ الْحُكْمَيْنِ:أَمَّا الْأَوَّلُ مِنْهُمَا فَحُكْمُ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِي خَيْبَرَ،وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَهَا غَنِيمَةً،فَخَمَّسَهَا،وَقَسَّمَهَا،وَبِهَذَا الرَّأْيِ أَشَارَ بَلَالٌ عَلَى عُمَرَ فِي بِلَادِ الشَّامِ،وَأَشَارَ بِهِ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ عَلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فِي أَرْضِ مِصْرَ،وَبِهَذَا كَانَ يَأْخُذُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ،كَذَلِكَ يُرْوَى عَنْهُ.وَأَمَّا الْحُكْمُ الْآخَرُ فَحُكْمُ عُمَرَ فِي السَّوَادِ وَغَيْرِهِ،وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَهُ فَيْئًا مَوْقُوفًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا تَنَاسَلُوا،وَلَمْ يُخَمِّسْهُ،وَهُوَ الرَّأْيُ الَّذِي أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ،وَبِهَذَا كَانَ يَأْخُذُ سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ،وَهُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ قَوْلِهِ،إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:الْخِيَارُ فِي أَرْضِ الْعَنْوَةِ إِلَى الْإِمَامِ،إِنْ شَاءَ جَعَلَهَا غَنِيمَةً فَخَمَّسَ وَقَسَّمَ،وَإِنْ شَاءَ جَعَلَهَا فَيْئًا عَامًّا لِلْمُسْلِمِينَ،وَلَمْ يُخَمِّسْ وَلَمْ يُقَسِّمْ.قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَكِلَا الْحُكْمَيْنِ فِيهِ قُدْوَةٌ وَمُتَّبَعٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ،إِلَّا أَنَّ الَّذِيَ أَخْتَارُهُ مِنْ ذَلِكَ:يَكُونُ النَّظَرُ فِيهِ إِلَى الْإِمَامِ،كَمَا قَالَ سُفْيَانُ،وَذَلِكَ أَنَّ الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا دَاخِلَانِ فِيهِ،وَلَيْسَ فِعْلُ النَّبِيِّ ﷺ بِرَادٍّ لِفِعْلِ عُمَرَ،وَلَكِنَّهُ ﷺ اتَّبَعَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَعَمِلَ بِهَا،وَاتَّبَعَ عُمَرُ آيَةً أُخْرَى فَعَمِلَ بِهَا وَهُمَا آيَتَانِ مُحْكَمَتَانِ فِيمَا يَنَالُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَمْوَالِ الْمُشْرِكِينَ،فَيَصِيرُ غَنِيمَةً أَوْ فَيْئًا،قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [الأنفال:٤١] فَهَذِهِ آيَةُ الْغَنِيمَةِ،وَهِيَ لِأَهْلِهَا دُونَ النَّاسِ،وَبِهَا عَمِلَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ،وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} فَهَذِهِ آيَةُ الْفَيْءِ وَبِهَا عَمِلَ عُمَرُ،وَإِيَّاهَا تَأَوَّلَ حِينَ ذَكَرَ الْأَمْوَالَ وَأَصْنَافَهَا،فَقَالَ:فَاسْتَوْعَبَتْ هَذِهِ الْآيَةُ النَّاسَ وَإِلَى هَذِهِ الْآيَةِ ذَهَبَ عَلِيٌّ وَمُعَاذٌ،حِينَ أَشَارَا عَلَيْهِ بِمَا أَشَارَا فِيمَا نَرَى،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ:إِنَّ عُمَرَ إِنَّمَا فَعَلَ بِرِضًى مِنَ الَّذِينَ افْتَتَحُوا الْأَرْضَ،وَاسْتِطَابَةً لِأَنْفُسِهِمْ،لَمَّا كَانَ عُمَرُ كَلَّمَ بِهِ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّه فِي أَرْضِ السَّوَادِ،وَقَدْ عَلِمْنَا مَا كَانَ مِنْ كَلَامِهِ إِيَّاهُ"

[١٤٦٨] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ٩٧)(١٠١١٨) صحيح مرسل

ومن الأمثلة العظيمة في الشورى في الأموال أن أهل الشورى يحددون للإمام مقدار نفقته من بيت المال،فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:لَمَّا اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ،قَالَ:«لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنَّ حِرْفَتِي لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ عَنْ مَئُونَةِ أَهْلِي،وَشُغِلْتُ بِأَمْرِ المُسْلِمِينَ،فَسَيَأْكُلُ آلُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذَا المَالِ،وَيَحْتَرِفُ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ» رواه البخاري[١٤٦٩]

[١٤٦٩] - صحيح البخاري (٣/ ٥٧)(٢٠٧٠)

[ش (حرفتي) عملي الذي كنت أكتسب منه.(من هذا المال) من بيت مال المسلمين.(يحترف للمسلمين فيه) يتاجر لهم به حتى يعود عليهم من ربحه بقدر ما أكل وأكثر]

(قَالَ):أَيِ اعْتِذَارًا عَنْ إِنْفَاقِهِ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ (لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي):قِيلَ:أَرَادَ بِهِمْ قُرَيْشًا،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ (أَنَّ حِرْفَتِي):وَهِيَ مَا كَانَ يَشْتَغِلُ بِهِ مِنَ التِّجَارَةِ قَبْلَ الْخِلَافَةِ فِي النِّهَايَةِ:الْحِرْفَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَجِهَةُ الْكَسْبِ (لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ):بِكَسْرِ الْجِيمِ وَيُفْتَحُ،فَفِي الْقَامُوسِ:الْعَجْزُ الضَّعْفُ وَالْفِعْلُ كَضَرَبَ وَسَمِعَ (عَنْ مَئُونَةِ أَهْلِي):بِفَتْحِ مِيمٍ وَضَمِّ هَمْزَةٍ وَسُكُونِ وَاوٍ،؛ أَيْ نَفَقَةِ عِيَالِي وَقَدِ اشْتَغَلْتُ (بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ):وَفِي نُسْخَةٍ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ؛أَيْ بِإِصْلَاحِ أُمُورِهِمْ،فَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّفَرُّغِ لِلتِّجَارَةِ (فَسَيَأْكُلُ):أَيْ يَنْتَفِعُ (آلُ أَبِي بَكْرٍ):أَيْ تَبَعًا لَهُ،وَالْمُرَادُ أَهْلُهُ وَعِيَالُهُ وَفِيهِ الْتِفَاتٌ (مِنْ هَذَا الْمَالِ) إِشَارَةٌ إِلَى الْحَاضِرِ فِي الذِّهْنِ،وَهُوَ مَالُ بَيْتِ الْمَالِ لِلْمُسْلِمِينَ (وَيَحْتَرِفُ):أَيْ أَبُو بَكْرٍ (لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ):أَيْ فِي مُقَابَلَةِ مَا أَكَلَ مِنَ الْمَالِ عِوَضًا لَهُ،فَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِ:فَسَيَأْكُلُ وَأَرَادَ بِالِاحْتِرَافِ فِيهِ التَّصَرُّفَ فِيهِ،وَالسَّعْيَ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ،وَنِظَامِ أَحْوَالِهِمْ وَجِيءَ بِالْحِرْفَةِ مُشَاكَلَةً لِوُقُوعِهِ فِي صُحْبَةِ قَوْلِهِ:إِنَّ حِرْفَتِي.قَالَ الشُّمُنِّيُّ:وَفِيهِ أَنَّ لِلْحَاكِمِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يَكْفِيهِ،وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ تَاجِرًا فِي الْبَزِّ،وَعُمَرُ فِي الطَّعَامِ،وَعُثْمَانُ فِي التَّمْرِ وَالْبُرِّ،وَعَبَّاسٌ فِي الْعِطْرِ انْتَهَى.وَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ التِّجَارَةِ الْبَزُّ،وَهُوَ الثِّيَابُ،ثُمَّ الْعِطْرُ.وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ:«لَوِ اتَّجَرَ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَاتَّجَرُوا فِي الْبَزِّ،وَلَوِ اتَّجَرَ أَهْلُ النَّارِ لَاتَّجَرُوا فِي الصُّوفِ» .رَوَاهُ أَبُو مَنْصُورٍ فِي مُسْنَدِ الْفِرْدَوْسِ،وَقَالَ الْمُظْهِرُ:اللَّامُ فِي (لَقَدْ عَلِمَ) قَسِيمَةٌ أَقْسَمَ أَنَّهُ كَانَ مُشْتَهِرًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنَّهُ كَانَ كَسُوبًا وَمُحَصِّلًا لِمَئُونَةِ أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ بِحِرْفَةِ التِّجَارَةِ،وَلَمْ يَكُنْ عَاجِزًا عَنْ ذَلِكَ،وَهَذَا تَمْهِيدٌ مِنْهُ وَاعْتِذَارٌ مِنْهُ فِي قَدْرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ،وَمِنْ ثَمَّ أَتَى بِالْفَاءِ فِي قَوْلِهِ فَسَيَأْكُلُ؛لِأَنَّهَا فَاءُ النَّتِيجَةِ،وَ (آلُ أَبِي بَكْرٍ) أَهْلُهُ وَعِيَالُهُ وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ نَفْسُهُ،وَفِي نَسَقِ الْكَلَامِ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِآلِ أَبِي بَكْرٍ نَفْسَهُ،وَهُوَ قَوْلُهُ:وَيَحْتَرِفُ لِلْمُسْلِمِينَ؛أَيْ يَكْتَسِبُ بِالتَّصَرُّفِ فِي أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ يَدُلُّ عَلَى مَا يَتَنَاوَلُ ذَلِكَ.قَالَ الطِّيبِيُّ:أَرَادَ بِنَسَقِ الْكَلَامِ أَنْ يَحْتَرِفَ مُسْنَدًا إِلَى ضَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ،وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى (فَسَيَأْكُلُ)،فَإِذَا أُسْنِدَ إِلَى الْأَهْلِ تَنَافَرَ وَانْخَرَمَ النَّظْمُ.وَقَالَ الْقَاضِي:آلُ أَبِي بَكْرٍ أَهْلُهُ،عَدَلَ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ،وَقِيلَ:نَفْسُهُ،وَالْآلُ مُقْحَمٌ لِقَوْلِهِ:وَيَحْتَرِفُ لَيْسَ بِشَيْءٍ بَلِ الْمَعْنَى إِنِّي كُنْتُ أَكْسِبُ لَهُمْ فَيَأْكُلُونَهُ،وَالْآنَ أَكْسِبُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالتَّصَرُّفِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَنُظُمِ أَحْوَالِهِمْ،فَسَيَأْكُلُونَ مِنْ مَالِهِمُ الْمُعَدِّ لِمَصَالِحِهِمْ وَهُوَ مَالُ بَيْتِ الْمَالِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:لَا بُدَّ فِي الِانْتِقَالِ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ عَلَى مَا سَمَّاهُ الْتِفَافًا مِنْ فَائِدَةٍ،فَقَوْلُهُ:آلُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ بَابِ التَّجْرِيدِ،جَرَّدَ مِنْ نَفْسِهِ شَخْصًا مُتَّصِفًا بِصِفَةِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ كَوْنِهِ كَسُوبًا مُحَصِّلًا لِمَئُونَةِ الْأَهْلِ بِالتِّجَارَةِ،ثُمَّ تَكَفَّلَ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ مِنْ تَوَلِّي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ،وَامْتَنَعَ مِنَ الِاكْتِسَابِ لِمَئُونَةِ أَهْلِهِ وَغَيْرِهِ،وَهُوَ هُوَ،وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِالْعِلِّيَّةِ وَإِنَّ مَنِ اتَّصَفَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَأْكُلَ هُوَ وَأَهْلُهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:فَرَضَ رَضِيَ اللَّهُ

وأخرج ابن سعد في طبقاته عن عَطَاءَ بْنِ السَّائِبِ قَالَ:لَمَّا اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ أَصْبَحَ غَادِيًا إِلَى السُّوقِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ أَثْوَابٌ يَتَّجِرُ بِهَا فَلَقِيَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَقَالا لَهُ:أَيْنَ تُرِيدُ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ:السُّوقَ.قَالا:تَصْنَعُ مَاذَا وَقَدْ وُلِّيتَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ:فَمِنْ أَيْنَ أُطْعِمُ عِيَالِي؟ قَالا لَهُ:انْطَلِقْ حَتَّى نَفْرِضَ لَكَ شَيْئًا.فَانْطَلَقَ مَعَهُمَا فَفَرَضُوا لَهُ كُلَّ يَوْمٍ شَطْرَ شَاةٍ وماكسوه فِي الرَّأْسِ وَالْبَطْنِ.فَقَالَ عُمَرُ:إِلَيَّ الْقَضَاءُ.وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:وَإِلَيَّ الْفَيْءُ.قَالَ عُمَرُ:فَلَقَدْ كَانَ يَأْتِي عَلَيَّ الشَّهْرُ مَا يَخْتَصِمُ إِلَيَّ فِيهِ اثْنَانِ.[١٤٧٠]

وعَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلالٍ قَالَ:لَمَّا وَلِيَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ:افْرِضُوا لِخَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ مَا يُغْنِيهِ.قَالُوا:نَعَمْ.بُرْدَاهُ إِذَا أَخْلَقَهُمَا وَضَعَهُمَا وَأَخَذَ مِثْلَهُمَا وَظَهْرُهُ إِذَا سَافَرَ وَنَفَقَتُهُ عَلَى أَهْلِهِ كَمَا كَانَ يُنْفِقُ قَبْلَ أَنْ يُسْتَخْلَفَ.قَالَ أَبُو بَكْرٍ:رَضِيتُ.[١٤٧١]

وعَنْ أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ:مَكَثَ عُمَرُ زَمَانًا لا يَأْكُلُ مِنَ الْمَالِ شَيْئًا حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ خَصَاصَةٌ.وَأَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَاسْتَشَارَهُمْ فَقَالَ:قَدْ شَغَلْتُ نَفْسِي فِي هَذَا الأَمْرِ.فَمَا يَصْلُحُ لِي [مِنْهُ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ:كُلْ وَأَطْعِمْ.قَالَ وَقَالَ ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ.وَقَالَ لِعَلِيٍّ:مَا تَقُولُ أَنْتَ فِي ذَلِكَ؟ قَالَ:غَدَاءٌ وَعَشَاءٌ.قَالَ فَأَخَذَ عُمَرُ بِذَلِكَ] .

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ أَنَّ عُمَرَ اسْتَشَارَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ:وَاللَّهِ لأُطَوِّقَنَّكُمْ مِنْ ذَلِكَ طَوْقَ الْحَمَامَةِ.مَا يَصْلُحُ لِي مِنْ هَذَا الْمَالِ؟ [فَقَالَ عَلِيٌّ:غَدَاءٌ وَعَشَاءٌ.قَالَ:صَدَقْتَ.] [١٤٧٢]

ومن الشورى في النوازل ما رواه البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ:أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ،حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ،أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ

عَنْهُ لِنَفْسِهِ مُدَّيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَإِدَامًا زَيْتًا،أَوْ نَحْوَهُ،وَإِزَارًا وَرِدَاءً فِي الصَّيْفِ،وَفَرْوَةً،أَوْ جُبَّةً فِي الشِّتَاءِ،وَظَهْرًا مُعِينًا لِحَاجَتِهِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ.قَالَ الْمُظْهِرُ:وَفِيهِ بَيَانٌ أَنَّ لِلْعَامِلِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ عَرَضِ الْمَالِ يَعْمَلُ فِيهِ قَدْرَ مَا يَسْتَحِقُّهُ لِعِمَالَتِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ إِمَامٌ يَقْطَعُ لَهُ أُجْرَةً مَعْلُومَةً.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٣٤)

[١٤٧٠] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ١٣٧) صحيح مرسل

[١٤٧١] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ١٣٧) صحيح مرسل

[١٤٧٢] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٣٣) من طريق الواقدي

وَأَصْحَابُهُ،فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ.قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَقَالَ عُمَرُ:ادْعُ لِي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ،فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ،وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ،فَاخْتَلَفُوا،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ،وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ،فَقَالَ:ارْتَفِعُوا عَنِّي،ثُمَّ قَالَ:ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ،فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ،فَسَلَكُوا سَبِيلَ المُهَاجِرِينَ،وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ،فَقَالَ:ارْتَفِعُوا عَنِّي،ثُمَّ قَالَ:ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ،فَدَعَوْتُهُمْ،فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ،فَقَالُوا:نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ،فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ:إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ.قَالَ أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ:أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ:لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ،أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ،إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ،وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ،أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ،وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ:فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ – وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ – فَقَالَ:إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ،وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ» قَالَ:فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ.[١٤٧٣]

واستشارة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه هنا جاءت للمهاجرين والأنصار ولمهاجري الفتح وهي استشارة لوجهاء الناس وخيارهم وأهل الرأي فيهم ويستفاد منها عدة فوائد منها:

الفائدة الأولى:حرص ولي الأمر على مصالح المسلمين العامة وعدم إقدامه على اتخاذ قرار لم يتبين له فيه وجه الصواب لما في ذلك من المخاطرة بالمسلمين.

[١٤٧٣] - صحيح البخاري (٧/ ١٣٠)(٥٧٢٩)

[ش (بسرغ) قرية في طريق الشام مما يلي الحجاز.(الأجناد) أي الجند(الوباء) المرض العام وهو الطاعون.(بقية الناس) أي بقية الصحابة وسماهم الناس تعظيما لهم.(ارتفعوا عني) قوموا واذهبوا عني.(فسلكوا سبيل المهاجرين) مشوا على طريقتهم فيما قالوه.(مشيخة قريش) شيوخهم أي كبارهم في السن.(مهاجرة الفتح) الذين هاجروا إلى المدينة عام الفتح(مصبح على ظهر) مسافر في الصباح.(لو غيرك) ممن ليس في منزلتك(قالها) قال هذه المقالة أي لأدبته.أو لم أتعجب منه.(هبطت) نزلت(عدوتان) طرفان والعدوة طرف الوادي المرتفع منه.(خصبة) ذات عشب كثير.(جدبة) قليلة العشب والمرعى.(به) بوجود الطاعون.(فحمد الله) على موافقة اجتهاده واجتهاد كثير من الصحابة لحديث رسول الله ﷺ]

الفائدة الثانية:هي مشاورة كل من حضره من أهل الحل والعقد أو من أهل الشورى لما في ذلك من تمحيص الآراء والوصول إلى رأي مفيد عن طريق قدح عقول كثيرة.

الفائدة الثالثة:جواز اجتماع ولي الأمر برعيته على فئات متجانسة كما فعل عمر رضي الله عنه هنا حيث قسمهم إلى ثلاث فئات فئة الأنصار وفئة المهاجرين وفئة مشيخة قريش من مهاجرة الفتح،لأنه كلما كان العدد المتشاور أقل كان النقاش أوسع لسعة الوقت.

الفائدة الرابعة:الاستئناس برأي كبار السن ذوي الرأي والتجربة.

الفائدة الخامسة:الاستئناس بالرأي الموحد كما استأنس عمر رضي الله عنه برأي مشيخة الفتح لعدم اختلافهم.

الفائدة السادسة:فتح الباب لمن أراد أن يستفسر لإزالة الشبهة عنده ولو كان ولي الأمر قد انتهى بالأخذ بأحد الآراء لأن إزالة الشبهة من قلوب الرعية تأليفاً لقلوبهم واطمئناناً يجعلهم يشاركون إخوانهم في الرأي،كما أنه ينبغي أن يكون عند ولي الأمر القدرة على إيراد الحجج المقنعة،ولكن ذلك لا يبيح للرعية أو بعضهم أن يقفوا موقف المعارضين لما تم التوصل إليه من الشورى بعد عزم ولي الأمر على إنفاذه لقوله تعالى:(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) أما أبو عبيدة فإنه لم يقف معارضاً وإنما مستفسراً.

الفائدة السابعة:أن الله يوفق ولي الأمر ورعيته للصواب إذا أخلصوا في مشاورتهم وقصدوا المصلحة العامة.

الفائدة الثامنة:أن أهل الشورى مهما كثروا فإنه قد يغيب عنهم الدليل على المسألة من الكتاب أو السنة ولو كانوا علماء مجتهدين مع وجوده عند من غاب عن مجلسهم كما دل على ذلك تلك المناقشات الطويلة،ولو كان عند أحدهم دليل لذكره،ولما كان هناك حاجة لمناقشته حتى جاء عبدالرحمن بن عوف فذكر الدليل فحمد الله عمر رضي الله عنه على موافقته.[١٤٧٤]

[١٤٧٤] – انظر فقه الشورى – دراسة تأصيلية نقدية – تأليف الدكتور علي بن سعيد الغامدي – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – نقلاً عن الدكتور عبدالله قادري في كتابه الشورى ص ٦٤،٦٥.

وعَنْ عَبْد اللَّهِ بن دينار الأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيه قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَسْتَشِيرُ فِي خِلافَته إِذَا حَزَبَهُ الأَمْرُ أَهْلَ الشُّورَى وَمِنَ الأَنْصَارِ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِت.[١٤٧٥]

ومن الشورى في الأمور الإدارية والتنظيم ما رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى عَنْ جُبَيْرِ بْنِ الْحُوَيْرِث بْنِ نُقَيْد أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب اسْتَشَارَ الْمُسْلمينَ فِي تَدْوِينِ الدِّيوَانَ فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالب: تُقَسِّمُ كُلَّ سَنَة مَا اجْتَمَعَ إِلَيْكَ مِنْ مَالٍ وَلا تُمْسِكُ مِنْهُ شَيْئًا. وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: أَرَى مَالا كَثِيرًا يَسَعُ النَّاسَ وَإِنْ لَمْ يُحْصَوْا حَتَّى تَعْرِفَ مَنْ أَخَذَ مِمَّنْ لَمْ يَأْخُذْ. خَشِيتُ أَنْ يَنْتَشِرَ الأَمْرُ. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَة: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ جِئْتُ الشَّامَ فَرَأَيْتُ مُلُوكَهَا قَدْ دَوَّنُوا دِيوَانًا وَجَنَّدُوا جُنُودًا فَدَوِّنْ دِيوَانًا وَجَنِّدْ جُنُودًا. فَأَخَذَ بِقَوْلِه فَدَعَا عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالبٍ وَمَخْرَمَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ وَكَانُوا مِنْ نُسَّابِ قُرَيْشٍ فَقَالَ: اكْتُبُوا النَّاسَ عَلَى مَنَازِلِهِمْ. فَكَتَبُوا فَبَدَءُوا بِبَنِي هَاشِمٍ ثُمَّ أَتْبَعُوهُمْ أَبَا بَكْرٍ وَقَوْمَهُ. ثُمَّ عُمَرَ وَقَوْمَهُ عَلَى الْخِلافَة. فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْه عُمَرُ قَالَ: وَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّهُ هَكَذَا وَلَكِنِ ابْدَءُوا بِقَرَابَةِ النَّبِيِّ - ﷺ - الأَقْرَبُ فَالأَقْرَبُ حَتَّى تَضَعُوا عُمَرَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ.[١٤٧٦]

والديوان هو الدفتر الذي يكتب فيه أهل العطاء والجيش، وليس في أخذ عمر رضي الله عنه كتابة الديوان من غير المسلمين اتباعا لهم في شيء من شرعهم، وإنما هو من الأمور الإدارية العامة التي يستفاد منها في الإحصاء والضبط، وهو يشبه اليوم استخدام الحاسوب في الأمور الإدارية وإن كان من صنع الكفار.[١٤٧٧]

[١٤٧٥] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٢/ ٢٦٧) وفيه متهم

[١٤٧٦] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٢٤) من طريق الواقدي

[١٤٧٧] - قلت: ما المانع أن يأخذ المسلمون ما وجدوه من خير عند غيرهم ولا يوجد نص يمنعه ؟؟

وقد جاء عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُمَا وَجَدَ الْمُؤْمِنُ ضَالَّتَهُ فَلْيَجْمَعْهَا إِلَيْهِ» سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٩٥)(٤١٦٩) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥١)(٢٦٨٧) ومسند الشهاب القضاعي (١/ ١١٨)(١٤٦) ومشيخة قاضي المارستان (٢/ ٧٤٦)(٢٣٤) صحيح مرسل وصح وقفه وهو حسن لغيره

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا، فَذَكَرَتْ عَذَابَ القَبْرِ، فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكِ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنْ عَذَابِ القَبْرِ، فَقَالَ: «نَعَمْ، عَذَابُ القَبْرِ» قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ بَعْدُ صَلَّى صَلاَةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ زَادَ غُنْدَرٌ: «عَذَابُ القَبْرِ حَقٌّ» صحيح البخاري (٢/ ٩٨)(١٣٧٢)

ومن الشورى في القضاء والفتوى ما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ،قَالَ:" كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ خَصْمٌ نَظَرَ فِي كِتَابِ اللهِ ،فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ مَا يَقْضِي بِهِ قَضَى بِهِ بَيْنَهُمْ ،فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِي الْكِتَابِ ،نَظَرَ:هَلْ كَانَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ سُنَّةٌ؟ فَإِنْ عَلِمَهَا قَضَى بِهَا ،وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ خَرَجَ فَسَأَلَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ:" أَتَانِي كَذَا وَكَذَا ،فَنَظَرْتُ فِي كِتَابِ اللهِ ،وَفِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ،فَلَمْ أَجِدْ فِي ذَلِكَ شَيْئًا ،فَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَضَى فِي ذَلِكَ بِقَضَاءٍ؟ " ،فَرُبَّمَا قَامَ إِلَيْهِ الرَّهْطُ فَقَالُوا:" نَعَمْ ،قَضَى فِيهِ بِكَذَا وَكَذَا " ،فَيَأْخُذُ بِقَضَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ".قَالَ جَعْفَرٌ وَحَدَّثَنِي غَيْرُ مَيْمُونٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ:" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِينَا مَنْ يَحْفَظُ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ "،وَإِنْ أَعْيَاهُ ذَلِكَ دَعَا رُءُوسَ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَمَاءَهُمْ ،فَاسْتَشَارَهُمْ ،فَإِذَا اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى الْأَمْرِ قَضَى بِهِ "،قَالَ جَعْفَرٌ:وَحَدَّثَنِي مَيْمُونٌ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ،فَإِنْ أَعْيَا أَنْ يَجِدَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ،نَظَرَ:هَلْ كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيهِ قَضَاءٌ؟ فَإِنْ وَجَدَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ قَضَى فِيهِ بِقَضَاءٍ قَضَى بِهِ ،وَإِلَّا دَعَا رُءُوسَ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاءَهُمْ ،فَاسْتَشَارَهُمْ ،فَإِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى الْأَمْرِ قَضَى بَيْنَهُمْ "[1478]

وروى الإمام مالك في الموطأ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ رَجُلَيْنِ اسْتَبَّا فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ:وَاللَّهِ مَا أَبِي بِزَانٍ.وَلَا أُمِّي بِزَانِيَةٍ.فَاسْتَشَارَ فِي ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ قَائِلٌ:مَدَحَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ.وَقَالَ آخَرُونَ قَدْ كَانَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ مَدْحٌ غَيْرُ هَذَا نَرَى أَنْ تَجْلِدَهُ الْحَدَّ «فَجَلَدَهُ عُمَرُ الْحَدَّ ثَمَانِينَ» قَالَ مَالِكٌ:«لَا حَدَّ عِنْدَنَا إِلَّا فِي نَفْيٍ أَوْ قَذْفٍ أَوْ تَعْرِيضٍ يُرَى أَنَّ قَائِلَهُ إِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ نَفْيًا أَوْ قَذْفًا فَعَلَى مَنْ قَالَ ذَلِكَ الْحَدُّ تَامًّا».قَالَ

وعَنْ عَائِشَةَ:" أَنْ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا،وَعِنْدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ:أَشَعَرْتِ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟،فَارْتَاعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَقَالَ:" إِنَّمَا تُفْتَنُ يَهُودُ "،قَالَتْ عَائِشَةُ:فَلَبِثْنَا لَيَالِيَ،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَمَا شَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟ " قَالَتْ:ثُمَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَسْتَعِيذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ " شرح مشكل الآثار (١٣/ ١٩٧)(٥٢٠٢) صحيح

قَالَ الطِّيبِيُّ:فَعَلَى هَذَا فِيهِ تَوَاضُعٌ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،وَإِرْشَادٌ لِلْخَلْقِ إِلَى قَبُولِ الْحَقِّ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ كَانَ،فَإِنَّ الْحِكْمَةَ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ،وَفِيهِ:أَنَّهُ يَبْعُدُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْتَمِدُ فِي الْمَسْأَلَةِ الِاعْتِقَادِيَّةِ عَلَى قَوْلِ الْيَهُودِيَّةِ،بَلْ إِنَّهُ اعْتَمَدَ عَلَى الْوَحْيِ كَمَا تَقَدَّمَ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٠٧)

[1478] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٩٦)(٢٠٣٤١) صحيح مرسل

مَالِكٌ:«الْأَمْرُ عِنْدَنَا أَنَّهُ إِذَا نَفَى رَجُلٌ رَجُلًا مِنْ أَبِيهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِنْ كَانَتْ أُمُّ الَّذِي نُفِيَ مَمْلُوكَةً فَإِنَّ عَلَيْهِ الْحَدَّ»[1479] .

وعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّهُ اسْتَشَارَهُمْ فِي إِمْلَاصِ المَرْأَةِ،فَقَالَ الْمُغِيرَةُ:«قَضَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْغُرَّةِ،عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ»فَشَهِدَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ:أَنَّهُ شَهِدَ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بِهِ" متفق عليه.[1480]

وعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ،أَنَّهُ قَالَ:جَاءَتِ الْجَدَّةُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا؟ فَقَالَ:مَا لَكِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ،وَمَا عَلِمْتُ لَكِ فِي سُنَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا،فَارْجِعِي حَتَّى أَسْأَلَ النَّاسَ،فَسَأَلَ النَّاسَ،فَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ،«حَضَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَاهَا السُّدُسَ»،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:هَلْ مَعَكَ غَيْرُكَ؟ فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ،فَقَالَ:مِثْلَ مَا قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ،فَأَنْفَذَهُ لَهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ جَاءَتِ الْجَدَّةُ الْأُخْرَى إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا،فَقَالَ:«مَا لَكِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ،وَمَا كَانَ الْقَضَاءُ الَّذِي قُضِيَ بِهِ إِلَّا لِغَيْرِكِ،وَمَا أَنَا بِزَائِدٍ فِي الْفَرَائِضِ،وَلَكِنْ هُوَ ذَلِكَ السُّدُسُ،فَإِنِ اجْتَمَعْتُمَا فِيهِ فَهُوَ بَيْنَكُمَا،وَأَيَّتُكُمَا خَلَتْ بِهِ فَهُوَ لَهَا» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه[1481] .

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،قَالَ:" كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى شُرَيْحٍ:" إِذَا أَتَاكَ أَمْرٌ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى فَاقْضِ بِهِ ،وَلَا يَلْفِتَنَّكَ الرِّجَالُ عَنْهُ ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللهِ وَكَانَ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاقْضِ بِهِ ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللهِ ،وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ فَاقْضِ بِمَا قَضَى بِهِ أَئِمَّةُ الْهُدَى ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللهِ ،وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ،وَلَا فِيمَا قَضَى بِهِ أَئِمَّةُ الْهُدَى ،فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ ،إِنْ شِئْتَ تَجْتَهِدُ رَأْيَكَ ،وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُؤَامِرَنِي ،وَلَا أَرَى مُؤَامَرَتَكَ إِيَّايَ إِلَّا أَسْلَمَ لَكَ

[1479] - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٨٢٩) صحيح مرسل

[1480] - صحيح البخاري (٩/ ١١)(٦٩٠٥ و٦٩٠٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١١)٣٩ - (١٦٨٩)

[ش (إملاص المرأة) أن يضرب بطنها فتلقي جنينها وهو في اللغة انزلاق الولد قبل الولادة.(بالغرة) فسرت بالعبد أو الأمة وقيل هي من العبيد ما بلغت قيمته نصف عشر دية الحر.(أمة) امرأة

[1481] - سنن أبي داود (٣/ ١٢١)(٢٨٩٤) وسنن ابن ماجه (٢/ ٩٠٩)(٢٧٢٤) وموطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٥١٣)(٤) صحيح مرسل

".قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ:" فَأَخْبَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ مَوْضِعِ الْمُؤَامَرَةِ ،وَهِيَ الْمُشَاوَرَةُ ،فَرُبَّمَا يَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْأُصُولِ مَا لَمْ يَبْلُغْ شُرَيْحًا ،فَيُخْبِرُهُ بِهِ ،وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ"[1482].

وعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ :إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرْ كَيْفَ صَنَعَ فِيهِ عُمَرُ فَإِنَّهُ كَانَ لاَ يَصْنَعُ شَيْئًا حَتَّى يَسْأَلَ وَيُشَاوِرَ.[1483]

وقال ابن عبد البر في التمهيد بعد حديث ابن عباس في الطاعون الذي نزل في الشام:" "وَفِيهِ أَنَّ الْقَاضِيَ وَالْإِمَامَ وَالْحَاكِمَ لَا يُنَفِّذُ قَضَاءً وَلَا يَفْصِلُهُ إِلَّا عَنْ مَشُورَةِ مَنْ بِحَضْرَتِهِ وَيَصِلُ إِلَيْهِ وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ عُلَمَاءِ مَوْضِعِهِ وَهَذَا مَشْهُورٌ مِنْ مَذْهَبِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ عَهِدَ عُمَرُ إِلَى الْقُضَاةِ أَنْ لَا يَصْرِمُوا الْقَضَاءَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ وَعَنْ مَلًا وَتَشَاوُرٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ من علم عالم أن يجتزىء بِهِ حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ عِلْمِهِ وَعِلْمِ غَيْرِهِ "[1484].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" وَلِهَذَا كَانَ مِنْ سَدَادِ الرَّأْيِ وَإِصَابَتِهِ أَنْ يَكُونَ شُورَى بَيْنَ أَهْلِهِ،وَلَا يَنْفَرِدُ بِهِ وَاحِدٌ،وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَوْنِ أَمْرِهِمْ شُورَى بَيْنَهُمْ،وَكَانَتْ النَّازِلَةُ إذَا نَزَلَتْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَيْسَ عِنْدَهُ فِيهَا نَصٌّ عَنْ اللَّهِ وَلَا عَنْ رَسُولِهِ جَمَعَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ثُمَّ جَعَلَهَا شُورَى بَيْنَهُمْ.

وعَنْ الْمُسَيِّبِ بْنِ رَافِعٍ قَالَ:كَانَ إذَا جَاءَهُ الشَّيْءُ مِنْ الْقَضَاءِ لَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ سَمَّى صَوَافِيَ الْأَمْرِ إلَيْهِمْ فَجَمَعَ لَهُ أَهْلَ الْعِلْمِ؛فَإِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُهُمْ الْحَقُّ.رواه البخاري

وعَنْ شُرَيْحٍ الْقَاضِي قَالَ:قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ أَقْضِ بِمَا اسْتَبَانَ لَك مِنْ قَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -؛فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ كُلَّ أَقْضِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَاقْضِ بِمَا اسْتَبَانَ لَك مِنْ أَئِمَّةِ الْمُهْتَدِينَ،فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ كُلَّ مَا قَضَتْ بِهِ أَئِمَّةُ الْمُهْتَدِينَ فَاجْتَهِدْ رَأْيَك،وَاسْتَشِرْ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ.[1485]

وقال ابن القيم في المفتي:" [وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُشَاوِرَ مَنْ يَثِقُ بِهِ]:إنْ كَانَ عِنْدَهُ مَنْ يَثِقُ بِعِلْمِهِ وَدِينِهِ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُشَاوِرَهُ،وَلَا يَسْتَقِلَّ بِالْجَوَابِ،ذَهَابًا بِنَفْسِهِ وَارْتِفَاعًا بِهَا،أَنْ يَسْتَعِينَ عَلَى الْفَتَاوَى

[1482] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٨٩)(٢٠٣١٣) و(٢٠٣٤٢) صحيح

[1483] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٣٩٩)(٢٦٧٩٩) صحيح

[1484] - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٨/ ٣٦٩)

[1485] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٦٦)

بِغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ،وَهَذَا مِنْ الْجَهْلِ،فَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ أَمْرَهُمْ شُــورَى بَيْنَهُمْ،وَقَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ – ﷺ –:«وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» وَقَدْ كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ تَنْزِلُ بِعُمَــرَ بْــنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –،فَيَسْتَشِيرُ لَهَا مَــنْ حَضَــرَ مِــنْ الصَّــحَابَةِ،وَرُبَّمَا جَمَعَهُــمْ وَشَاوَرَهُمْ،حَتَّى كَانَ يُشَاوِرُ ابْنَ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – وَهُــوَ إذْ ذَاكَ أَحْــدَثُ الْقَــوْمِ سِنًّا،وَكَانَ يُشَاوِرُ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهَ وَجْهَهُ وَعُثْمَانَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَعَبْدَ الــرَّحْمَنِ بْــنَ عَــوْفٍ وَغَيْرَهُمْ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – أَجْمَعِينَ،وَلَــا سِــيَّمَا إذَا قَصَــدَ بِــذَلِكَ تَمْــرِينَ أَصْــحَابِهِ وَتَعْلِيمَهُمْ،وَشَحْذَ أَذْهَانِهِمْ.[١٤٨٦]".

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،قَالَ:سَأَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ قَاضِي الْكُوفَةِ وَقَالَ:" الْقَاضِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ:عَفِيفٌ ،حَلِيمٌ ،عَالِمٌ بِمَا كَانَ قَبْلَهُ ،يَسْتَشِــيرُ ذَوِي الْأَلْبَابِ ،لَا يُبَالِي بِمَلَامَةِ النَّاسِ "[١٤٨٧]

وقال ابن قدامة رحمه الله:" وَقَدْ شَاوَرَ النَّبِيُّ – ﷺ – أَصْحَابَهُ فِي أُسَارَى بَدْرٍ،وَفِي مُصَــالَحَةِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ،وَفِي لِقَاءِ الْكُفَّارِ يَوْمَ بَدْرٍ.وَرُوِيَ:مَا كَانَ أَحَدٌ أَكْثَرَ مُشَاوَرَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –.وَشَاوَرَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ فِي مِيرَاثِ الْجَدَّةِ،وَعُمَرُ فِي دِيَــةِ الْجَنِينِ،وَشَــاوَرَ الصَّحَابَةَ فِي حَدِّ الْخَمْرِ.

وَرُوِيَ:أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَكُونُ عِنْدَهُ جَمَاعَــةٌ مِــنْ أَصْــحَابِ رَسُــولِ اللَّــهِ – ﷺ – مِــنْهُمْ عُثْمَانُ،وَعَلِيٌّ،وَطَلْحَةُ،وَالزُّبَيْرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ،إذَا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ شَــاوَرَهُمْ فِيــهِ.وَلَــا مُخَالِفَ فِي اسْتِحْبَابِ ذَلِكَ،قَالَ أَحْمَدُ:لَمَّا وَلِي سَعْدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ قَضَاءَ الْمَدِينَةِ،كَانَ يَجْلِــسُ بَيْنَ الْقَاسِمِ وَسَالِمٍ يُشَاوِرُهُمَا،وَوَلِيَ مُحَارِبُ بْنُ دِثَارٍ قَضَاءَ الْكُوفَةِ،فَكَانَ يَجْلِسُ بَيْنَ الْحَكَــمِ وَحَمَّادٍ يُشَاوِرُهُمَا،مَا أَحْسَنَ هَذَا لَوْ كَانَ الْحُكَّامُ يَفْعَلُونَهُ،يُشَاوِرُونَ وَيَنْتَظِرُونَ.وَلِأَنَّهُ قَدْ يَنْتَبِــهُ بِالْمُشَاوَرَةِ،وَيَتَذَكَّرُ مَا نَسِيَهُ بِالْمُذَاكَرَةِ،وَلِأَنَّ الْإِحَاطَةَ بِجَمِيعِ الْعُلُومِ مُتَعَذِّرَةٌ.وَقَدْ يَنْتَبِهُ لِإِصَــابَةِ الْحَقِّ وَمَعْرِفَةِ الْحَادِثَةِ مَنْ هُوَ دُونَ الْقَاضِي،فَكَيْفَ بِمَنْ يُسَاوِيهِ أَوْ يَزِيدُ عَلَيْهِ،فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –،جَاءَتْهُ الْجَدَّتَانِ،فَوَرَّثَ أُمَّ الْأُمِّ،وَأَسْقَطَ أُمَّ الْأَبِ،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ

[١٤٨٦] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٩٧)

[١٤٨٧] – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٨٨)(٢٠٣٠٨) صحيح

الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ،لَقَدْ أَسْقَطْتَ الَّتِي لَوْ مَاتَتْ وَرِثَهَا،وَوَرَّثْت الَّتِي لَوْ مَاتَتْ لَمْ يَرِثْهَا.فَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ،فَأَشْرَكَ بَيْنَهُمَا.[1488].

ومن الشورى في تعيين القضاة ما جاء عَن أَبي اليقظان عامر بن حفص العجيفي:أن عُمَر بْن عبد العزيز كتب إِلى عدي بْن أرطاه:أَن اجْمَعْ نَاسا ممَّن قبلك فشاورهم فِي إِيَاس بْن مُعَاوِيَة وَالقَاسم بْن ربيعَة الجوشني واستقص أَحدهمَا فَجمع عدي نَاسا فَحلف الْقَاسم أَن إياسا أعلم بِالْقضَاءِ وَأصْلح لَهُ مني فولاه عدي[1489]

ومن الشورى في تعيين الإمام،ما رواه أحمد عَنْ عَلِيٍّ قَالَ:قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَنْ يُؤَمَّرُ بَعْدَكَ؟ قَالَ:«إِنْ تُؤَمِّرُوا أَبَا بَكْرٍ تَجِدُوهُ أَمِينًا زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا،رَاغِبًا فِي الْآخِرَةِ،وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عُمَرَ تَجِدُوهُ قَوِيًّا أَمِينًا لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ،وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عَلِيًّا وَلَا أَرَاكُمْ فَاعِلِينَ تَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا يَأْخُذُ بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ»[1490] .

[1488] - المغني لابن قدامة (١٠/ ٤٦)

[1489] - تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٢٣/ ٣٤٨) وتاريخ خليفة بن خياط (ص:٣٢٤)

[1490] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٢٣١)(٢٨٤) حسن

(قَالَ:" إِنْ تُؤَمِّرُوا أَبَا بَكْرٍ تَجِدُوهُ أَمِينًا ")،أَيْ:دينًا لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْأَمَانَةِ وَعَلَى وَجْهِ الْعَدَالَةِ (" زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا رَاغِبًا فِي الْآخِرَةِ ")،فِيهِ إِشْعَارٌ إِلَى أَنَّ الْخَلِيفَةَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لِيَتِمَّ الْإِخْلَاصُ الْمُوجِبُ لِلْخَلَاصِ،وَفِي رِوَايَةٍ تَجِدُوهُ مُسْلِمًا أَمِينًا.وَفِي رِوَايَةٍ:تَجِدُوهُ قَوِيًّا فِي أَمْرِ اللَّهِ ضَعِيفًا فِي نَفْسِهِ،(" وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عُمَرَ تَجِدُوهُ قَوِيًّا ")،أَيْ:قَادِرًا عَلَى حَمْلِ ثِقَلِ أَعْبَاءِ الْإِمَارَةِ (" أَمِينًا ")،أَيْ:لَا تَجِيءُ مِنْهُ الْخِيَانَةُ (" لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ")،أَيْ لَا يُرَاعِي أَحَدًا فِي أَمْرِ الدِّينِ،وَالْمَعْنَى أَنَّهُ صُلْبٌ فِي الدِّينِ إِذَا شَرَعَ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ لَا يَخَافُ إِنْكَارَ مُنْكِرٍ،وَمَضَى فِيهِ كَالْمِسْمَارِ الْمُحْمَى لَا يَزَعُهُ قَوْلُ قَائِلٍ،وَلَا اعْتِرَاضُ مُعْتَرِضٍ،وَلَا لَوْمَةُ لَائِمٍ يَشُقُّ عَلَيْهِ جِدُّهُ،وَاللَّوْمَةُ الْمَرَّةُ مِنَ اللَّوْمِ،وَفِيهَا وَفِي التَّنْكِيرِ مُبَالَغَتَانِ كَأَنَّهُ قِيلَ:لَا يَخَافُ شَيْئًا قَطُّ مِنْ قَوْمٍ مِنْ لَوْمِ أَحَدٍ مِنَ اللُّوَّامِ،وَفِي رِوَايَةٍ تَجِدُوهُ قَوِيًّا فِي أَمْرِ اللَّهِ قَوِيًّا فِي نَفْسِهِ.(" وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عَلِيًّا وَلَا أُرَاكُمْ "):بِضَمِّ الْهَمْزَةِ أَيْ وَالْحَالُ أَنِّي لَا أَظُنُّكُمْ (" فَاعِلِينَ ")،أَيِ:التَّأْمِيرَ لَهُ بِلَا خِلَافٍ حَالَ خِلَافَتِهِ (" تَجِدُوهُ هَادِيًا ")،أَيْ:مُرْشِدًا مُكَمِّلًا (" مَهْدِيًّا ")،بِفَتْحِ مِيمٍ وَتَشْدِيدِ تَحْتِيَّةٍ أَيْ مُهْتَدِيًا كَامِلًا (" لَأَخَذَ بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ ") .قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:يَعْنِي:الْأَمْرُ مُفَوَّضٌ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ لِأَنَّكُمْ أُمَنَاءُ مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ فِي الِاجْتِهَادِ،وَلَا تَجْتَمِعُونَ إِلَّا عَلَى الْحَقِّ الصِّرْفِ،وَهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ كَالْحَلْقَةِ الْمُفَرَّغَةِ لَا يَدْرِي أَيُّهُمْ أَفْضَلُ فِيمَا يُدْلَى إِلَيْهِ مِمَّا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْإِمَارَةَ.قِيلَ:وَفِي تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ إِيمَاءٌ إِلَى تَقَدُّمِهِ،وَلَمْ يَذْكُرْ عُثْمَانَ صَرِيحًا لَكِنَّ فِي قَوْلِهِ:(وَلَا أُرَاكُمْ) إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ الْمُتَقَدِّمُ عَلَى عَلِيٍّ ثُمَّ أَبْعَدَ مَنْ قَالَ قَوْلُهُ:وَلَا أُرَاكُمْ فَاعِلِينَ مُتَعَلِّقٌ بِإِمَارَةِ عُمَرَ وَعَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - نَعَمْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ الْمَعْنَى لَا أُرَاكُمْ فَاعِلِينَ تَأْمِيرَ عَلِيٍّ مُقَدَّمًا عَلَى كُلِّهِمْ لِمَا عُلِمَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ أَنَّ عُمْرَ عَلِيٍّ أَطْوَلُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ،فَلَوْ قُدِّمَ لَفَاتَهُمُ الْخِلَافَةُ مَعَ أَنَّهُ كَتَبَ لَهُمُ الْخِلَافَةَ أَيْضًا،فَيَتَعَيَّنُ أَنَّكُمْ غَيْرُ فَاعِلِينَ،فَالظَّنُّ بِمَعْنَى الْيَقِينِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَهُوَ الْمُوَفِّقُ وَالْمُعِينُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٩٦٠)

وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،لَو اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْنَا؟ قَالَ:«إِنْ أَسْتَخْلِفْ عَلَيْكُمْ خَلِيفَةً فَتَعْصُوهُ يَنْزِلْ بِكُمُ الْعَذَابُ» قَالُوا:لَو اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْنَا أَبَا بَكْرٍ،قَالَ:«إِنْ أَسْتَخْلِفْهُ عَلَيْكُمْ تَجِدُوهُ قَوِيًّا فِي أَمْرِ اللَّهِ ضَعِيفًا فِي جَسَدِهِ» قَالُوا:لَو اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْنَا عُمَرَ،قَالَ:«إِنْ أَسْتَخْلِفْهُ عَلَيْكُمْ تَجِدُوهُ قَوِيًّا أَمِينًا لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ» قَالُوا:لَو اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْنَا عَلِيًّا،قَالَ:«إِنَّكُمْ لَا تَفْعَلُوا،وَإِنْ تَفْعَلُوا تَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا يَسْلُكُ بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ»[١٤٩١]

فقوله ﷺ:"**إن تؤمروا**" يدل على أن أهل الشورى هم الذين يختارون الإمام ويؤمرونه.

وقول عمر رضي الله عنه:" فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ،فَلاَ يُتَابَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ " رواه البخاري[١٤٩٢]

وفي معنى قوله "تغرة أن يقتلا" قال الحافظ ابن حجر:" والمَعنَى أَنَّ مَن فَعَلَ ذَلِكَ فَقَد غَرَّرَ بِنَفسِهِ وبِصاحِبِهِ وعَرَّضَهُما لِلقَتلِ."[١٤٩٣]

وعَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ،فَذَكَرَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ،وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ قَالَ:إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي ثَلَاثَ نَقَرَاتٍ،وَإِنِّي لَا أُرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجَلِي،وَإِنَّ أَقْوَامًا يَأْمُرُونَنِي أَنْ أَسْتَخْلِفَ،وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعَ دِينَهُ،وَلَا خِلَافَتَهُ،وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ،فَإِنْ عَجِلَ بِي أَمْرٌ،فَالْخِلَافَةُ شُورَى بَيْنَ هَؤُلَاءِ السِّتَّةِ،الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ،وَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَقْوَامًا يَطْعَنُونَ فِي هَذَا الْأَمْرِ،أَنَا ضَرَبْتُهُمْ بِيَدِي هَذِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ

[١٤٩١] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٧٤)(٤٤٣٥) ضعيف

[١٤٩٢] - صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠)

التغرة:مصدر غررته إذا لقيته في الغرر،وهي من التغرير،كالتعلة من التعليل،وفي الكلام مضاف محذوف،تقديره:خوف تغرة أن يقتلا،أي:خوف إيقاعهما في القتل،وانتصاب الخوف على أنه مفعول له،فحذف المضاف الذي هو الخوف،وأقام المضاف إليه - الذي هو «تغرة» - مقامه ويجوز أن يكون قوله:«أن يقتلا» بدلا من تغرة ويكون المضاف أيضا محذوفا،كالأول،ومن أضاف تغرة،إلى:أن يقتلا،فمعناه خوف تغرته قتلهما،على طريقة قوله تعالى:{بل مكر الليل والنهار} [سبأ:الآية ٣٣].

ومعنى الحديث:أن البيعة حقها أن تقع صادرة عن المشورة والاتفاق،فإذا استبد رجلان دون الجماعة بمبايعة أحدهما الآخر:فذاك تظاهر منهما بشق العصا،واطراح الجماعة،فإن عقد لأحد فلا يكون المعقود له واحدا منهما،وليكونا معزولين من الطائفة التي تتفق على تمييز الإمام منها،لأنه إن عقد لواحد منهما - وهما قد ارتكبا تلك الفعلة الشنيعة التي أحقدت الجماعة،من التهاون بهم والاستغناء عن رأيهم - لم يؤمن أن يقتلا.جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (٤/ ١٠٠)

[١٤٩٣] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٢/ ١٥٠)

فَعَلُوا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللهِ،الْكَفَرَةُ الضُّلَّالُ،ثُمَّ إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ،مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ،وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ،حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي،فَقَالَ:«يَا عُمَرُ أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟» وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ،يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ،ثُمَّ قَالَ:اللهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ،وَإِنِّي إِنَّمَا بَعَثْتُهُمْ عَلَيْهِمْ لِيَعْدِلُوا عَلَيْهِمْ،وَلِيُعَلِّمُوا النَّاسَ دِينَهُمْ،وَسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ،وَيَقْسِمُوا فِيهِمْ فَيْئَهُمْ،وَيَرْفَعُوا إِلَيَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ،ثُمَّ إِنَّكُمْ،أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ لَا أَرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ،هَذَا الْبَصَلَ وَالثُّومَ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ فِي الْمَسْجِدِ،أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى الْبَقِيعِ،فَمَنْ أَكَلَهُمَا فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا" [١٤٩٤]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ،قَالَ:رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَبْلَ أَنْ يُصَابَ بِأَيَّامٍ بِالْمَدِينَةِ،وَقَفَ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ،وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ،قَالَ:" كَيْفَ فَعَلْتُمَا،أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَمَّلْتُمَا الأَرْضَ مَا لاَ تُطِيقُ؟ قَالاَ:حَمَّلْنَاهَا أَمْرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ،مَا فِيهَا كَبِيرُ فَضْلٍ،قَالَ:انْظُرَا أَنْ تَكُونَا حَمَّلْتُمَا الأَرْضَ مَا لاَ تُطِيقُ،قَالَ:قَالاَ:لاَ،فَقَالَ عُمَرُ:لَئِنْ سَلَّمَنِي اللَّهُ،لَأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ العِرَاقِ لاَ يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا،قَالَ:فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا رَابِعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ،قَالَ:إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ،إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ،وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ،قَالَ:اسْتَوُوا،حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ،وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ،أَوِ النَّحْلَ،أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ،فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ،فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:قَتَلَنِي - أَوْ أَكَلَنِي - الكَلْبُ،حِينَ طَعَنَهُ،فَطَارَ العِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ،لاَ يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلاَ شِمَالًا إِلَّا طَعَنَهُ،حَتَّى طَعَنَ

[١٤٩٤] - صحيح مسلم (١/ ٣٩٦)٧٨ - (٥٦٧)

[ش (وإن أقواما يأمرونني) معناه إن أستخلف فحسن لأنه استخلف من هو خير مني يعني أبا بكر وإن تركت الاستحلاف فحسن فإن النبي ﷺ لم يستخلف (فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة) معنى شورى يتشاورون فيه ويتفقون على واحد من هؤلاء الستة عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ولم يدخل سعيد بن زيد معهم وإن كان من العشرة لأنه من أقاربه فتورع عن إدخاله كما تورع عن إدخال ابنه عبد الله رضي الله عنهم (ألا تكفيك آية الصيف) معناه الآية التي نزلت في الصيف وهي قوله تعالى يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إلى آخرها (فمن أكلهما فليمتهما طبخا) معناه من أراد أكلهما فليمت رائحتهما بالطبخ وإماتة كل شيء كسر قوته وحدته]

ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلًا،مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُسًا،فَلَمَّا ظَنَّ العِلْجُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ نَحَرَ نَفْسَهُ،وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَدَّمَهُ،فَمَنْ يَلِي عُمَرَ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى،وَأَمَّا نَوَاحِي المَسْجِدِ فَإِنَّهُمْ لاَ يَدْرُونَ،غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ،وَهُمْ يَقُولُونَ:سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ،فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلاَةً خَفِيفَةً،فَلَمَّا انْصَرَفُوا قَالَ:يَا ابْنَ عَبَّاسٍ،انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي،فَجَالَ سَاعَةً ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ:غُلاَمُ الْمُغِيرَةِ،قَالَ:الصَّنَعُ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:قَاتَلَهُ اللَّهُ،لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفًا،الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مِيتَتِي بِيَدِ رَجُلٍ يَدَّعِي الإِسْلاَمَ،قَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَأَبُوكَ تُحِبَّانِ أَنْ تَكْثُرَ العُلُوجُ بِالْمَدِينَةِ،- وَكَانَ العَبَّاسُ أَكْثَرَهُمْ رَقِيقًا - فَقَالَ:إِنْ شِئْتَ فَعَلْتُ،أَيْ:إِنْ شِئْتَ قَتَلْنَا؟ قَالَ:كَذَبْتَ بَعْدَ مَا تَكَلَّمُوا بِلِسَانِكُمْ،وَصَلَّوْا قِبْلَتَكُمْ،وَحَجُّوا حَجَّكُمْ.فَاحْتُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ،وَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ،فَقَائِلٌ يَقُولُ:لاَ بَأْسَ،وَقَائِلٌ يَقُولُ:أَخَافُ عَلَيْهِ،فَأُتِيَ بِنَبِيذٍ فَشَرِبَهُ،فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ،ثُمَّ أُتِيَ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ فَخَرَجَ مِنْ جُرْحِهِ،فَعَلِمُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ،فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ،وَجَاءَ النَّاسُ،فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيْهِ،وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ،فَقَالَ:أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللَّهِ لَكَ،مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَقَدَمٍ فِي الإِسْلاَمِ مَا قَدْ عَلِمْتَ،ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ،ثُمَّ شَهَادَةٌ،قَالَ:وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِي،فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الأَرْضَ،قَالَ:رُدُّوا عَلَيَّ الغُلاَمَ،قَالَ:يَا ابْنَ أَخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ،فَإِنَّهُ أَبْقَى لِثَوْبِكَ،وَأَتْقَى لِرَبِّكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ،انْظُرْ مَا عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ،فَحَسَبُوهُ فَوَجَدُوهُ سِتَّةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا أَوْ نَحْوَهُ،قَالَ:إِنْ وَفَى لَهُ،مَالُ آلِ عُمَرَ فَأَدِّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ،وَإِلَّا فَسَلْ فِي بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ،فَإِنْ لَمْ تَفِ أَمْوَالُهُمْ فَسَلْ فِي قُرَيْشٍ،وَلاَ تَعْدُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ،فَأَدِّ عَنِّي هَذَا المَالَ انْطَلِقْ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ،فَقُلْ:يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلاَمَ،وَلاَ تَقُلْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ،فَإِنِّي لَسْتُ اليَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا،وَقُلْ:يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ،فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ،ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا،فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي،فَقَالَ :يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ السَّلاَمَ،وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ،فَقَالَتْ:كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي،وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ اليَوْمَ عَلَى نَفْسِي،فَلَمَّا أَقْبَلَ،قِيلَ:هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ،قَدْ جَاءَ،قَالَ:ارْفَعُونِي،فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ،فَقَالَ:مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ:الَّذِي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَذِنَتْ،قَالَ:الحَمْدُ لِلَّهِ،مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ،فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي،ثُمَّ سَلِّمْ،فَقُلْ:يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ،فَإِنْ أَذِنَتْ لِي

فَأَدْخلُوني،وَإِنْ رَدَّتْني رُدُّوني إِلَى مَقَابرِ الْمُسْلمينَ،وَجَاءَتْ أُمُّ الْمُؤْمنينَ حَفْصَةُ وَالنِّسَاءُ تَسيرُ مَعَهَا،فَلَمَّا رَأَيْنَاهَا قُمْنَا،فَوَلَجَتْ عَلَيْه،فَبَكَتْ عنْدَهُ سَاعَةً،وَاسْتَأْذَنَ الرِّجَالُ،فَوَلَجَتْ دَاخلًا لَهُمْ،فَسَمعْنَا بُكَاءَهَا منَ الدَّاخلِ،فَقَالُوا:أَوْصِ يَا أَميرَ الْمُؤْمنينَ اسْتَخْلفْ،قَالَ:مَا أَجدُ أَحَدًا أَحَقَّ بهَذَا الأَمْرِ منْ هَؤُلاَءِ النَّفَرِ،أَوِ الرَّهْط،الَّذينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ،فَسَمَّى عَليًّا،وَعُثْمَانَ،وَالزُّبَيْرَ،وَطَلْحَةَ،وَسَعْدًا،وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ،وَقَالَ:يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ اللَّه بْنُ عُمَرَ،وَلَيْسَ لَهُ منَ الأَمْرِ شَيْءٌ – كَهَيْئَة التَّعْزِيَة لَهُ – فَإِنْ أَصَابَت الإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ،وَإِلَّا فَلْيَسْتَعنْ به أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ،فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ،وَلاَ خيَانَة،وَقَالَ:أُوصي الخَليفَةَ منْ بَعْدي،بالْمُهَاجرينَ الأَوَّلينَ،أَنْ يَعْرفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ،وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ،وَأُوصيه بالأَنْصَارِ خَيْرًا،{الَّذينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ منْ قَبْلهمْ} ،أَنْ يُقْبَلَ منْ مُحْسنهمْ،وَأَنْ يُعْفَى عَنْ مُسيئهمْ،وَأُوصيه بأَهْلِ الأَمْصَارِ خَيْرًا،فَإِنَّهُمْ ردْءُ الإِسْلاَمِ،وَجُبَاةُ المَالِ،وَغَيْظُ العَدُوِّ،وَأَنْ لاَ يُؤْخَذَ منْهُمْ إِلَّا فَضْلُهُمْ عَنْ رضَاهُمْ.وَأُوصيه بالأَعْرَابِ خَيْرًا،فَإِنَّهُمْ أَصْلُ العَرَبِ،وَمَادَّةُ الإِسْلاَمِ،أَنْ يُؤْخَذَ منْ حَوَاشي أَمْوَالهمْ،وَيُرَدَّ عَلَى فُقَرَائهمْ،وَأُوصيه بذمَّة اللَّه،وَذمَّة رَسُوله ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بعَهْدهمْ،وَأَنْ يُقَاتَلَ منْ وَرَائهمْ،وَلاَ يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ،فَلَمَّا قُبضَ خَرَجْنَا به،فَانْطَلَقْنَا نَمْشي،فَسَلَّمَ عَبْدُ اللَّه بْنُ عُمَرَ،قَالَ:يَسْتَأْذنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب،قَالَتْ:أَدْخلُوهُ،فَأُدْخلَ،فَوُضعَ هُنَالكَ مَعَ صَاحبَيْه،فَلَمَّا فُرغَ منْ دَفْنه اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ الرَّهْطُ،فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:اجْعَلُوا أَمْرَكُمْ إِلَى ثَلاَثَة منْكُمْ،فَقَالَ الزُّبَيْرُ:قَدْ جَعَلْتُ أَمْري إِلَى عَليٍّ،فَقَالَ طَلْحَةُ:قَدْ جَعَلْتُ أَمْري إِلَى عُثْمَانَ،وَقَالَ سَعْدٌ:قَدْ جَعَلْتُ أَمْري إِلَى عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْف،فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:أَيُّكُمَا تَبَرَّأَ منْ هَذَا الأَمْرِ،فَنَجْعَلُهُ إِلَيْه وَاللَّهُ عَلَيْه وَالإِسْلاَمُ،لَيَنْظُرَنَّ أَفْضَلَهُمْ في نَفْسه؟ فَأُسْكتَ الشَّيْخَان،فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:أَفَتَجْعَلُونَهُ إِلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ أَنْ لاَ آلُ عَنْ أَفْضَلكُمْ قَالاَ:نَعَمْ،فَأَخَذَ بيَد أَحَدهمَا فَقَالَ:لَكَ قَرَابَةٌ منْ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَالقَدَمُ في الإِسْلاَمِ مَا قَدْ عَلمْتَ،فَاللَّهُ عَلَيْكَ لَئنْ أَمَّرْتُكَ لَتَعْدلَنَّ،وَلَئنْ أَمَّرْتُ عُثْمَانَ لَتَسْمَعَنَّ،وَلَتُطيعَنَّ،ثُمَّ خَلاَ بالْآخَرِ فَقَالَ لَهُ مثْلَ ذَلكَ،فَلَمَّا أَخَذَ الميثَاقَ قَالَ:ارْفَعْ يَدَكَ يَا عُثْمَانُ فَبَايَعَهُ،فَبَايَعَ لَهُ عَليٌّ،وَوَلَجَ أَهْلُ الدَّارِ فَبَايَعُوهُ " رواه البخاري[١٤٩٥] .

[١٤٩٥] – صحيح البخاري (٥/ ١٥)(٣٧٠٠)

وقد تقدم في فصل نصيحة الإمام والأمراء ومحاسبتهم ومحاكمتهم بعض الأمثلة على مناصحة أهل الشورى ومحاسبتهم للإمام والأمراء.

قلت :وهذه الفوائد جليلة وجميلة ولا تخلو الشورى في كل الأحوال من فوائد جمة وهي تدل على ضرورة استحضار العلماء في مجالس الشورى للأمراء والرؤساء والمجالس النيابية والبرلمانية،وقد درج على ذلك الخلفاء الراشدون كما حدث في شورى الصحابة في تعيين الخليفة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في سقيفة بني ساعدة وشورى عمر رضي الله عنه حينما جعل الأمر شورى في ستة من بعده واستشارته في دخول مصر بعد فتح بلاد الشام واستشارة علي رضي الله عنه أصحابه في مسألة التحكيم وقد لاح النصر وتبين أنها خدعة فلما أشاروا عليه وغلبوه رضخ لأمرهم،وقد قيل أن أهل الشورى كان فيهم ضعف وتناقض

[ش (كيف فعلتما) في أرض سواد العراق.(أتخافان) هل تخافان.(حملتما الأرض) فرضتما على أهلها وكان قد بعثهما ليضربا الخراج والجزية على أهلها.(ما فيها كبير فضل) ليس فيها زيادة كثيرة.(أرامل) جمع أرملة وهي من مات زوجها.(غداة..) صبيحة طعنه.(الكلب) أراد به المجوسي الذي طعنه.(العلج) هو الرجل من كفار العجم.(برنسا) كساء يجعله الرجل في رأسه.(يليه) يقرب منه ويأتي في الصف خلفه.(الصنع) الصانع وكان نجارا وقيل نحاتا للأحجار.(رقيقا) مملوكا.(كذبت) أخطأت في قولك.(بنبيذ) نقيع التمر والزبيب قبل أن يشتد ويصبح مسكرا.(جوفه) أي من جرحه مكان الطعنة تحت السرة.(قدم) فضل وفي رواية (قدم) أي سبق في الإسلام.(كفاف) هو الذي يكون بقدر الحاجة ولا يفضل عنه شيء.(ابن أخي) يا ابن أخي في الإسلام.فرضي الله عنك ولله درك يا صاحب رسول الله ﷺ فإنك لم يشغلك ما أنت فيه من سكرات الموت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للمسلمين.(أنقى لثوبك) أي أطهر وفي رواية الكشميهني وأبقى أي فإنه لطوله يبلى بوقت قصير.(أتقى لربك) فإنه أبعد عن الخيلاء عندما يكون قصيرا وأبعد أيضا عن التلوث بالنجاسات.(قضيت) خرجت روحي ومت.(فولجت) دخلت.(داخلا لهم) مدخلا لأهلها.(ليس له من الأمر شيء) أي لا يكون هو الخليفة.(كهيئة التعزية له) قيل هذا من كلام الراوي وليس من كلام عمر رضي الله عنه.(أصابت الإمرة سعدا) اختير هو للإمارة والمراد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.(فهو ذاك) أي فهو أهل لها وجدير بها وقد صادفت محلها.(الأمصار) البلدان الإسلامية التي فتحت جمع مصر.(ردء الإسلام) عونه الذي يدفع عنه ويمده بالقوة.(جباة المال) هم الذين يجمعون الأموال منهم ويقدمونها للدولة الإسلامية.(غيظ العدو) يغيظون الأعداء بكثرتهم وشوكتهم.(فضلهم) ما فضل عن حاجتهم.(مادة الإسلام) أي الذين يعينون المسلمين ويكثرون جيوشهم ويتقوى بزكاة أموالهم وكل ما أعنت به قوما في حرب أو غيره فهو مادة لهم.(حواشي أموالهم) الوسط التي ليست خيرها وليست أسوأها.(من ورائهم) يدافع عنهم.(تبرأ من هذا الأمر) أعلن أنه لا يرغب أن يكون هو الخليفة.(فنجعله إليه) نكل أمر اختيار الخليفة إليه.(والله عليه والإسلام) الله رقيب عليه يحاسبه على فعله والإسلام حاكم عليه بأحكامه.(لينظرن أفضلهم في نفسه) ليفكر في نفسه وليختر الذي يراه الأفضل من غيره.(الشيخان) علي وعثمان رضي الله عنهما.(لا آلو) لا أقصر في اختيار أفضلكم.(أحدهما) هو علي رضي الله تعالى عنه.(خلا بالآخر) انفرد به وهو عثمان رضي الله عنه.(الميثاق) العهد والظاهر أنه أخذ العهد من الجميع.(ولج أهل الدار) دخل أهل المدينة بعد مبايعة أهل الشورى]

في تلك الحادثة أما هو فهو أهل للشورى وما كان يقطع بأمر حتى يستشير وقد أثر عنه أنـــه قال:الاستشارة عين الْهِدَايَة وَقد خاطر من اسْتغنى بِرَأْيه،وأما عثمان فإنه لما استأذنه عبدالله بن أبي السرح في التوغل في أرض افريقيا وطلب منه النجدة استشار عثمان الصـــحابة فأشـــاروا به[١٤٩٦].

وهذا كله يكشف بجلاء أن الشورى الإسلامية لم تتخذ نمطاً واحداً في شكل محدد،فمنها مـــا يمكن طرحه للناس كافة في استفتاء عام،ومنها ما يمكن بحثه بين مجموعة مـــن أهـــل الـــرأي والخبرة،ومنها ما لا يمكن أن يكون محل بحث إلا في نطاق محدود فبـــأي صـــورة طرحـــت الشورى وتحقق الغاية منها فإن الإسلام يقره ويرتضيه.

ومن هنا يمكن القول أن أساليب الشورى ووسائلها تتغير بحسب ما تقتضيه مصـــلحة الأمـــة ويوافق متطلبات العصر ولا يختلف مع شرع الله في شيء،وإن قيام مجالس للشورى لا يصادر حق ولي الأمر في إصدار القرار بعد المشاورة وبيان الصواب وإنما يحد من التسلط أو الوقـــوع في الخطأ،وليس بمهم تسميات هذه المجالس سواء سميت مجالس شورى أو مجالس نواب أو غير ذلك.[١٤٩٧]

الأسلوب الأمثل لاختيار أعضاء مجلس الشورى[١٤٩٨]

أما أسلوب الاختيار الأمثل فإن فقهاء السياسة والعلماء يختلفون في العصر الحاضر فمنهم مـــن ذهب إلى أن الطريق الأمثل هو الانتخاب مباشرة من الشعب بشرط أن تضع الدولة الإسلامية نظاماً لإجراء هذا الانتخاب وضمان سلامته على أن يتضمن هذا النظام أو القـــانون تعـــيين الشروط على ضوء ما ذكره الفقهاء وحجة أصحاب هذا الاتجاه يتمثل في أمرين:

الأول:أن اختيار ممثل الأمة بطريق الانتخاب يجد مستنده في القرآن الكريم وذلـــك في آيـــتي الشورى وهما قوله تعالى:(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) وقوله (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) وانتخاب ممثـــل

[١٤٩٦] – انظر ابن خلدون – المجلد الثاني ج١ – ص١٢٨.

[١٤٩٧] – الشورى في الشريعة الإسلامية (ص:٢١٢)

[١٤٩٨] – من زياداتي أيضا

الأمة منهم أهم الأمور التي تجري فيها الشورى،وإجراء الشورى فيها يكون باستشارة أفـــراد الأمة فيمن يكونون ممثلين عنها،والوسيلة لمعرفة رأي أفراد الأمة هو الانتخـــاب ويقولـــون أن سند ذلك كما هو موجود في كتاب الله العزيز فإن القارئ يجد سنده في السيرة النبوية وذلك في قوله ﷺ لأهل بيعة العقبة: أَخْرِجُوا إِلَى مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا،يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ ".فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا،تِسْعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ وَثَلَاثَةً مِـــنَ الْـــأَوْسِ.[1499]،وَقَـــالَ ابْـــنُ إِسْحَاقَ:فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلنُّقَبَاءِ:أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلَاءُ كَكَفَالَةِ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ،وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي.قَالُوا:نَعَمْ.[1500]

الأمر الثاني:قالوا أن كل طريق يمكن به تبين من يحوز ثقة جمهور الأمة هو جـــائزٌ شـــرعاً إذ الأصل في الأشياء الإباحة،ولا شك أن طريق الانتخاب في هذا الزمان هو الوسيلة الوحيـــدة التي يمكن أن تظهر رأي الأمة فيمن يمثلها بشرط أن لا يستعمل فيها التزوير والغش والخـــداع وما إلى ذلك مما يحرمه الشرع[1501].

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الانتخاب ليس بمحظور شرعاً ولا يتعارض مع أهداف النظـــام الإسلامي وما تقتضيه المصلحة ولكن بشرط أن يجري الانتخاب بحرية تامة بعيداً عن الهـــوى والتزييف أو التزوير.[1502]

وقد قال الإمام أبو الأعلى المودودي أنه يجوز أن تستخدم اليوم على حسب أحوالنا وحاجاتنا كل طريق مباح يمكن به تبين من يحوز ثقة جمهور الأمة،ولا شك أن طرق الانتخاب في هـــذا

[1499] – السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٠١) وسيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٤٤٦) صحيح

[1500] – السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٩٨) وسيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٤٤٣) صحيح مرسل

[1501] – نقل هذا الرأي هاني سليمان الطعيمات عن الأستاذ راشد الغنوشي عن خالد محمد خالد في كتابه الدولة في الإسلام،ومحمد أسد في كتابه منهاج الإسلام في الحكم،والمودودي في كتابه تدوين الدستور الإسلامي – راجع كتابه الحريات في الدولة الإسلامية ص ١٢٤،١٢٥ – كما ذهب إلى هذا الرأي الدكتور عبدالكريم زيدان في مجموعة بحوث فقهية ص ٩٨ – والدكتور منير البياتي في كتابه النظام السياسي الإسلامي ص ١٧٧.وراجع أيضاً الدكتور هاني سعيد الطعيمات في حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص ١٢٨،١٢٧.

[1502] – انظر الدكتور عبدالكريم زيدان في كتابه أصول الدعوة – الناشر مؤسسة الرسالة مكتبة القدس الطبعة الثانية ١٤٠٧ – ١٩٨٩.ص٢٥٥.والشورى والديمقراطية – دراسة تحليلية وتأصيلية لجوهر النظام البرلماني مقارنة بالشريعة الإسلامية ص ١٤٦ للدكتور داود الباز – الناشر دار الفكر الجامعي ص ١٤٦.

الزمان هي أيضاً من الطرق المباحة التي يجوز لنا استخدامها بشرط أن لا يستعمل فيهـــا مـــا يستعمل من الحيل والوسائل المرذولة.[١٥٠٣]

وقد نقل الدكتور الباز عن الإمام حسن البناء قوله :لقد رتب النظام الحديث طريق الوصـــول إلى أهل العقد والحل بما وضع الفقهاء الدستوريون من نظم الانتخاب وطرائقه المختلفة ما دام يؤدي إلى اختيار أهل الحل والعقد.[١٥٠٤]

قلت:وهذه المسألة من المسائل التي يحدد وسائلها العلماء وتتخذ الدولـــة بـــذلك نظامـــاً أو قانوناً،وإذا كان أصحاب هذا الاتجاه قد أوجدوا سنداً من الكتاب والســـنة فإنـــه لا يعـــني الاختلاف في الوسيلة التي توصل الأمة إلى الشورى وجواز تغيرها إذ ليست الأدلة تدل بصفة قاطعة على طريق معينة كما سبق وأن بينا ذلك ولكنه بلا شك طريق مثالي إذا تجرد من الحيل ووسائل الغش المرذولة الذي أشار إليها الإمام أبو الأعلى المودودي.

أما أصحاب الاتجاه الثاني فإنهم يرون أن الانتخاب ليس الطريق الأمثل في اختيار أعضاء مجلس الشورى وأن الاعتماد على الجمهور والشعب أو على الاستفتاءات العامة وسيلة قـــد يســـاء استعمالها من الحاكمين لأخذ المبادرة وجعل المفكرين والعلماء وأربـــاب الإختصـــاص وأولي النهي رقماً مهملاً أو رقماً يتساوى مع عامة الناس ممن ليس لهـــم رأي ســـديد ولا معرفـــة صحيحة أو خبرة أو دراية.نقل ذلك الأستاذ محمد المبارك في تقديمه لكتاب نظـــام الحكـــم في الإسلام وقال أنا لا أقول بإهمال الجمهور ففي نصوص الشريعة واتجاهات السلف ما يجعل لهم موقفاً ومكاناً كحق النقد والمجاهرة بالحق أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمبايعة العامة للإمام،لكن أستاذنا الكبير يميل إلى إعطاء القيمة الكبرى لجمهور الشعب حتى في التشريع وهي مسألة اختصاصية.[١٥٠٥]

ويقرب من هذا القول ما ذكره الدكتور أحمد العوضي في كتابه الحقوق السياسية حيث فرق بين نوعين من الشورى الأولى الشورى غير الملزمة ويقصد بها أخذ آراء أهـــل الإختصـــاص

[١٥٠٣] - انظر أبو الأعلى المودودي في تدوين الدستور الإسلامي ص ٤٨.

[١٥٠٤] - انظر تفصيل أوسع في الشورى والديمقراطية للدكتور الباز ص ١٤٨ وما بعدها.

[١٥٠٥] - انظر حقوق الإنسان وحرياته نقلاً عن مقدمة نظام الحكم في الإسلام ص ١٣ بتصرف،وقد نقل هذا القول الدكتور سعيد أبو جيب في كتابه دراسة في مناهج الإسلام السياسي ص ٣٦٢.

والتقيد بأصولها وأطلق على مجلسها اسم مجلس الشورى والثاني الشورى الملزمة ويقصد بها أخذ رأي الأمة أو أهل الحل والعقد والتقيد برأي الأكثرية فيهم،وأطلق على مجلسها اسم مجلس الحل والعقد،وعن طريق العضوية في مجلس الشورى قال:لذلك فإن لطريقة الانتخاب عيوباً تجعلها غير مفضلة عقلاً فضلاً عن عدم وجود ما يستدل به شرعاً على مشروعيتها،فإن الأمة لا تدرك حاجة الخليفة من المستشارين حتى تزوده بهم،وإن أدركت ذلك إلا أن الخليفة قد لا يألف من انتُخِب مستشاراً له،لذلك فإن الأمثل أن يُترَك للخليفة حق اختيار أعضاء مجلس الشورى وفق الشروط الدستورية وقد يكون منها استفاضة أخبار فضلهم واشتهارهم بالعلم والخبرة والرأي السديد في اختصاصهم سواءً كان في الأحكام الشرعية أم في غيرها من التخصصات والعلوم في الاقتصاد والعلوم والسياسة وغير ذلك.[١٥٠٦]

وهناك اتجاه ثالث ذكره الدكتور عبدالله الكيلاني في كتابه القيود الواردة على سلطة الدولة في الإسلام وضمانتها يرى فيه أصحاب هذا الرأي أن طريقة اختيار أعضاء مجالس الشورى تتنوع بتنوع الوظائف التي يمارسها المجلس في الأنظمة البرلمانية الحديثة والتي يمكن حصرها في ثلاث وظائف:

الأولى وظيفة سياسية وتتمثل باختيار الحاكم ومنح الثقة للسلطة التنفيذية أو حجبها عنها مع ممارسة الرقابة عليها أثناء عملها.

الثانية وظيفة مالية وتتمثل بالموافقة على الموازنة السنوية للدولة.

الثالثة وظيفة تشريعية وتتمثل في سن القوانين.

فبالنظر إلى الوظيفة الأولى والثانية فإن أصحاب هذا الرأي يرون أنه يتعين اختيار أعضاء المجلس بطريقة الإنتخاب الشعبي،لأن الأمة هي صاحبة الحق في اختيار الحاكم ومراقبة أعماله فيكون لها الحق في اختيار من ينوب عنها في هذه المهمة،والانتخاب هو الأسلوب العلمي الأمثل لهذا الاختيار،ولأن إقرار الموازنة العامة للدولة قد يرتب التزامات مالية معينة على أفراد الأمة الذي يقتضي استئمارها في ذلك أو استئمار ممثليها،ولا يخفى أن وسائل التمثيل مختلفة من عصر إلى عصر،وفي العصر الحديث تعد الانتخابات أحد أصدق سبل التمثيل.

[١٥٠٦] - انظر الحقوق السياسية للرعية.رسالة دكتوراه للدكتور أحمد العوضي ص ١٧٦،١٧٧.

وبالنظر إلى الوظيفة الثالثة للمجلس فإن الانتخاب وتحصيل الأصوات لا يعد أسلوباً مناسباً لتأهيل الشخص المنتخب لممارسة الدور التشريعي بسن القوانين ذلك أن مهمة التشريع المتمثلة بسن القوانين تحتاج إلى كفاءات علمية قد لا تكون كثرة الأصوات الانتخابية معبرة لعدم التلازم،ومن هنا كان لا بد من سد هذه الثغرة إما بإعطاء الحاكم حق تعيين ذوي الكفاءات والتخصصات الذين يحتاج إليهم المجلس لممارسة الدور التشريعي إذا أخطأهم الانتخاب الحر،على أن يكون عددهم والسلطة الممنوحة لهم تتناسب والغاية من منحهم عضوية المجلس حتى لا يكون وجودهم مفرغاً من غايته،وإما باشتراط شروط عملية دقيقة في المرشحين بحيث لا يصل إلى المجلس إلا كفؤ قادر،وعلى الاختيار الأول يتم الدمج في مجلس واحد بين الأعضاء المنتخبين بطريق الانتخاب المباشر وبين الأعضاء المعينين وذلك حتى يؤدي المجلس دوره بتسديد خط الدولة في التشريع والتنظيم وإمدادها بالرأي القوي المدروس من أهل الاختصاص والبصر بشؤون الدين والدنيا توصلاً إلى تحقيق المصلحة العامة[١٥٠٧].

وهذه الاتجاهات الثلاثة على ما رأينا لا نراها تبتعد عن منهاج الشريعة الإسلامية،فوجود مجالس نيابية تعنى بالشورى في التشريع وسن القوانين وبمنح الثقة للسلطة التنفيذية أو حجبها عنها والموافقة على الموازنة السنوية وعلى المعاهدات والاتفاقات هي ضرورة لا بد منها وكذلك في تقديرنا وجود مستشارين لرئيس الدولة يتشاور معهم في المهام الموكلة إليه ومنها اختيار كبار موظفي الدولة وتحديد المعايير التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى الوظائف الهامة فذلك من الضرورة بمكان،فممارسة الأمة للشورى بهذه الكيفية أو بأي كيفية تؤدي إلى قيام الدولة بواجبها وأداء السلطة العامة لوظيفتها على النحو الذي يحبه الله ويرضاه هي فريضة إلهية وضرورة شرعية أرشد إليها القرآن والسنة النبوية وحرص على ممارستها أولو الفضل من الخلفاء الراشدين ومحبوا العدل من التابعين وتابعيهم إلى يومنا هذا،ولا غرابة إن وجد تقارب بين الفكر الإسلامي والفكر الديمقراطي لأن جوهر الفكر هو الأخذ بآراء الناس مجتمعين فيما يصلح شؤونهم،غير أن الفكر الإسلامي يتميز باتباعه لمنهج الله وتمسكه بالعدل،بينما الفكر الديمقراطي لا يتطابق مع الفكر الإسلامي في جزئيات كثيرة،لأن الشورى الإسلامية لم تأت

[١٥٠٧] – انظر القيود الواردة على سلطة الدولة في الإسلام وضماناتها للدكتور عبدالله الكيلاني ص٨٣ – ٨٨ الطبعة الأولى.

استجابة لضغط جماهيري ولا هي منحة من الحاكم وإنما هي بأمر الله وإرشاده وتوجيهه الذي عالج شؤون البشرية بما يسدد حاجاتها ويصلح شؤونها على أساس من العدل،وهي تقوم على أساس جعل السيادة لتشريع الله عز وجل وللأمة ممارسة السلطة على أساس من العدل بينما الأنظمة الديمقراطية المعاصرة تقوم على جعل السيادة والسلطة معاً للأمة،ولذلك فإنها ترى أنه لا علاقة للدين بتنظيم سلوك الإنسان،ووجد مبدؤ سياسة فصل الدين عن الدولة والإرادة الشارعة في الديمقراطية الوضعية لا تحكمها إلا إرادة الأمة ممثلة بنوابها،وقد سبق بيان ذلك ولهذا نرى أن الشورى الإسلامية هي الشورى المترهة عن الهوى والعصبية والجهل والاستبداد،فإذا ما ظهر سلوك لا يقره الشرع ولا يرضى به الحق وجب تغييره،قال تعالى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران:١٠٤]

وبأي أسلوب تمت الشورى وتحقق بها إصلاح شؤون الأمة ويتفق مع منهج الله الذي جاءت به شريعته الإسلامية لا تمنعه ولا تختلف معه،ففي عدم تحديد أسلوب معين يلزم الأمة التقيد به حكمة عظيمة وفيه إفساح للإنسان كي يبدع ويجتهد ويبتكر الأسلوب الذي يناسب كل عصر وفي ذلك يقول الدكتور عبد الله بن أحمد قادري:يبدو واضحاً من الأحداث التي ذكرت في دراسة ما سلكه الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في أسلوب الشورى وطرق إجرائها – وهي في أحداث قليلة من كثير – أن الشارع الحكيم لم يضع أسلوباً معيناً يلزم المسلمين باتباعه في كل أمر يحدث لهم يحتاجون فيه إلى المشورة،بل ترك الباب مفتوحاً للمسلمين ليتخذوا لكل حدث ما يناسبه من الأسلوب الذي تجري به الشورى،فالأحداث مختلفة منها ما يحتاج إلى رأي شخصٍ واحدٍ ومنها ما لا يكفي فيه إلا شخصان أو أكثر،ومنها ما لا يكفي فيه إلا أهل الحل والعقد بأجمعهم،ومنها ما يقع في ظروف تتعين فيها السرعة والبت في الأمر ويصعب تأجيل ذلك حتى يجتمع أهل الحل والعقد كلهم فيكتفي بالحاضرين،ومنها ما لا ينبغي أن يطلع عليه إلا العدد القليل لأنه خطر يقتضي السرية وعدم النشر،ومنها ما يحتاج فيه إلى ذوي خبرة معينة،وقد يقتضي الأمر استقصاء أراء أهل الحل والعقد في اجتماع واحد،وقد يقتضي الأمر تقسيمهم إلى مجموعات بحيث يؤخذ رأي كل مجموعة على حده،وقد يقتضي

أخذ رأي زعماء أهل الحل والعقد فقط،وهكذا تختلف موضوعات الشورى وزمانها ومكانها وأهلها،ولكل مقام مقال ولكل أمر رجال،وقد تحدث في بعض العصور وسائل يكون استعمالها أجدى وأنفع في أسلوب الشورى،وقد حدث في هذا العصر مثلاً سبل جديدة لسرعة المواصلات والاتصالات كما حدثت أنظمة إدارية دقيقة لا يصعب معها مشاورة أهل الحل والعقد كلهم في جميع بلاد المسلمين في الغالب سواءً كان ذلك عن طريق الاجتماعات العامة كالمساجد وقاعات الاجتماعات والمؤتمرات أو عن طريق التقسيمات الإدارية للبلدان،كالمقاطعات والمدن والحارات أو عن طريق المراكز الحكومية كالوزارات والمؤسسات،أو عن طريق التجمعات العمالية كالمصانع ونحوها،أو عن طريق أجهزة الاتصالات المباشرة السمعية والبصرية،كالهاتف والمذياع والتلفاز كل ذلك أصبح ميسراً لا صعوبة فيه ولقد كان حدث اختيار الخليفة يحتاج إلى استشارة أهل الحل والعقد في المدينة وخارجها من البلدان،ولكن ذلك يصعب في ذلك الزمان لصعوبة المواصلات والاتصالات،فاكتفى في ذلك بأهل الحل والعقد الحاضرين في المدينة وما جاورها لأن ذلك هو المستطاع في ذلك الوقت،لذلك حدد الشارع الهدف من الشورى،وهو الوصول إلى الحق والتعاون على تحقيقه بالوسائل الممكنة،كما حدد صفات أهل الشورى وعلاقتهم بولي الأمر،وترك الوسيلة إلى اتخاذ الشورى بدون تحديد معين بل اتخذ وسائل مختلفة لذلك تدل على سعة الأمر في ذلك ليتخذ المسلمون أنفع الوسائل وأنجحها لكل حدث وفي كل زمان ومكان.[١٥٠٨]

وقال الشهيد عبد القادر عودة رحمهُ الله بعد أن ذكر الآيتين الواردتين في الشورى وهما قوله تعالى:(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)،وقوله تعالى:(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) ،وظاهر من النصين المقررين لمبدء الشورى أنهما عامَّان مرنان إلى آخر حدود العموم والمرونة بحيث لا يمكن أن يحتاج الأمر إلى تعديلهما أو تبديلهما في المستقبل،وفي

[١٥٠٨] – انظر الشورى للدكتور عبدالله أحمد قادري ص (٢٢٠).

هذا بيان لما قلناه من أن الشريعة تتميز بصفة الدوام وأنها لا تقبل التبـــديل والتعديل،ولهـــذه الاعتبارات اكتفت الشريعة بتقديم الشورى كمبدأ عام وتركت لأولياء الأمور في الجماعـــات أن يضعوا معظم القواعد لتنفيذه لأن هذه القواعد تختلف تبعاً لاختلاف الأمكنة والجماعـــات والأوقات،فلأولياء الأمور مثلاً أن يعرفوا رأي الشعب عن طريق رؤساء الأسر والعشـــائر أو عن طريق ممثلي الطوائف أو بأخذ رأي الأفراد الذين تتوفر فيهم صفات معينة إمـــا بطريـــق التصويت المباشر وإما بطريق التصويت غير المباشر،ولأولياء الأمور أن يسلكوا أي سبيل آخر يرون أنه أفضل من غيره من تعرف رأي الجماعة بشرط أن لا يكون في ذلك كله ضـــرر ولا ضرار بمصالح الأفراد أو الجماعة أو النظام العام.[١٥٠٩]

أما الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد فإنه يقول:ولقد دعا الإسلام إلى الشورى،وحث علـــى الأخذ به،وطبقها رسول الله ﷺ بصور مختلفة،وطبقها خلفاؤه الراشدون من بعده،لكنه لم يضع لها صورة محددة،ولا إطاراً محدداً،بل لم يضع لها نظاماً تفصيليا ملزماً،غير أنه ترك ذلك ليجتهد فيه المسلمون تبعاً لاختلاف الظروف والأحوال،وتعدد الوسائل وتنوع الأساليب.[١٥١٠]

وبذلك يعرف أن الشورى نظاماً متطوراً يتماشى ومصالح الأمة ومتطلبات كل عصر باعتبـــار أن عدم تحديد آليةٍ معينة للشورى تطبق به يعد من المميزات التي تتفق مع منهج الإســـلام في التشريع من تقرير الكليات وإرساء الأصـــول العامـــة،والنص علـــى المبـــادئ والأحكـــام الأساسية،تاركاً التفصيلات الفرعية والجزئية لمقتضيات الزمان والمكان،بحيث تتخـــذ الشـــكل الملائم لتحقيق المصلحة تبعاً للظروف،بما يوافق الشريعة الإسلامية،وبالتالي فقد تركت نظـــم الشورى وإجراءاتها دون تحديد،رحمةً بالناس،وتوسعةً عليهم،وتمكيناً لهم من اختيار ما ترجحه العقول وتدركه الأذهان بضوابط وآليات متجددة.[١٥١١]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٥٠٩] – انظر التشريع الجنائي الإسلامي ج ١ ص ٣٧.

[١٥١٠] – مقدمة للشورى في المملكة لفضيلة الدكتور صالح بن حميد ، ص١ ، مصدر سابق.

[١٥١١] – الشورى في الإسلام ، ص٢ ، مصدر سابق.والشورى في الشريعة الإسلامية (ص:٢١٨)

المبحث الرابع عشر

تعيين الأمراء والوزراء والكتاب

يتولى الإمام تعيين الأمراء والوزراء وكبار المسؤولين،ويشاور في تعيينهم حتى يتبين له أولى الناس بالتعيين في كل وزارة أو إمارة،فإن الولايات من الأمانات التي يجب أن تسند إلى أهلها،كما قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:٥٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ،جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ:مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ،فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ:سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ.وَقَالَ بَعْضُهُمْ:بَلْ لَمْ يَسْمَعْ،حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ:«أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ:هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»،قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ:«إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» رواهُ البُخاري.[١٥١٢]

[١٥١٢] - صحيح البخاري (١/ ٢١)(٥٩)

[ش (فمضى) استمر.(قضى) انتهى منه.(أراه) أظنه قال هذا.قال في الفتح والشك من محمد بن فليح - أحد رجال السند - ورواه الحسن بن سفيان وغيره عن عثمان بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن فليح ولفظه (أين السائل) و لم يشك.(وسد) أسند.(غير أهله) من ليس كفأ له]

(" الْأَمَانَةُ ") أَيْ:حِينَ جُعِلَت الْأَمَانَةُ ضَائِعَةً بِالْخِيَانَةِ،أَوْ وُضِعَتْ عِنْدَ غَيْرِ أَرْبَابِ الدِّيَانَةِ (" فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ") أَيْ:فَإِنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِ الْقِيَامَةِ.(قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا) ؟ هَذَا يُؤَيِّدُ النُّسْخَةَ أَيْ:كَيْفَ تَضْيِيعُ الْأَمَانَةِ،وَالْأُمَّةُ قَائِمُونَ بِأَمْرِهَا،وَالْعَامَّةُ مُعْتَنُونَ بِقَدْرِهَا (قَالَ:" إِذَا وُسِّدَ "):بِضَمِّ الْوَاوِ وَتَشْدِيدِ السِّينِ،وَقَدْ تُخَفَّفُ عَلَى مَا فِي الْمُقَدِّمَةِ أَيْ:أُسْنِدَ وَفُوِّضَ (" الْأَمْرُ ") أَيْ:أَمْرُ السُّلْطَةِ أَوِ الْإِمَارَةِ أَوِ الْقَضَاءِ أَوِ الْحُكُومَةِ (" إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ") أَيْ:مِمَّنْ لَمْ يُوجَدْ فِيهِ شَرَائِطُ الِاسْتِحْقَاقِ كَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ،وَالْجَهَلَةِ وَالْفَسَقَةِ،وَالْبَخِيلِ وَالْجَبَانِ،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قُرَشِيًّا وَلَوْ كَانَ مِنْ نَسْلِ سَلَاطِينِ الزَّمَانِ،هَذَا فِي الْخَلِيفَةِ،وَقِسْ عَلَى هَذَا سَائِرَ أُولِي الْأَمْرِ وَالشَّأْنِ وَأَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ مِنَ التَّدْرِيسِ وَالْفَتْوَى وَالْإِمَامَةِ وَالْخَطَابَةِ،وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْتَخِرُ بِهِ الْأَقْرَانُ.

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:مَعْنَاهُ أَنْ يَلِيَ الْأَمْرَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ،فَيُلْقَى لَهُ وِسَادَةُ الْمُلْكِ وَأَرَادَ بِالْأَمْرِ الْخِلَافَةَ،وَمَا يَنْضَمُّ إِلَيْهَا مِنْ قَضَاءٍ وَإِمَارَةٍ وَنَحْوِهَا،وَالتَّوْسِيدُ:أُخِذَ مِنَ الْوِسَادِ،يُقَالُ:وَسَدْتُهُ الشَّيْءَ بِالتَّخْفِيفِ فَتَوَسَّدَهُ،إِذَا جَعَلَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ،وَلَفْظَةُ " إِلَى " فِيهَا إِشْكَالٌ،إِذْ كَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُقَالَ:وُسِّدَ الْأَمْرُ لِغَيْرِ أَهْلِهِ،فَلَعَلَّهُ أَتَى بِهَا لِيَدُلَّ عَلَى إِسْنَادِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ اهـ.

وَفِي الْقَامُوسِ:إِنَّ إِلَى تَأْتِي مُرَادِفَةً لِلَّامِ،نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ} [النمل:٣٣] اهـ.وَيُرِيدُ أَنَّ الْمَعْنَى:وَالْأَمْرُ لَكِ،لَكِنَّ الْأَظْهَرَ أَنْ يُقَالَ:الْأَمْرُ رَاجِعٌ إِلَيْكِ،وَالْأَحْسَنُ فِي الْحَدِيثِ أَنْ يُضَمَّنَ مَعْنَى التَّفْوِيضِ وَالْإِسْنَادِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوَّلًا.(" فَانْتَظِرِ

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ،وَالْبُخْلُ،وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ،وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ،وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ،وَتَظْهَرَ التَّحُوتُ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوُعُولُ وَالتَّحُوتُ؟ قَالَ:«الْوُعُولُ:وجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ،وَالتَّحُوتُ:الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ».[1513]

وعن أبي هُرَيْرَةَ،قال:«إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ:أَنْ يَظْهَرَ الشُّحُّ،وَالْفُحْشُ،وَيُؤْتَمَنُ الْخَائِنُ،وَيُخَوَّنُ الْأَمِينُ،وَيَظْهَرُ ثِيَابٌ يَلْبَسُهَا نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ،ويَعْلُو التُّحوتُ الْوُعُولَ» .أَكَذَاكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ سَمِعْتَهُ مِنْ حِبِّي؟ قَالَ:نَعَمْ،وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.قُلْنَا:وَمَا التُّحُوتُ؟ قَالَ:فُسُولُ الرِّجَالِ،وَأَهْلُ الْبُيُوتِ الْغَامِضَةِ،يُرْفَعُونَ فَوْقَ صَالِحِيهِمْ.وَالْوُعُولُ:أَهْلُ الْبُيُوتِ الصَّالِحَةِ "[1514]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ،يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ،وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ،وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ،وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ،وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»،قِيلَ:وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ:«الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ» رواه ابن ماجه[1515]

السَّاعَةَ "):لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُرْبِ قِيَامِهَا،وَإِنَّمَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى دُنُوِّ السَّاعَةِ لِإِفْضَائِهِ إِلَى اخْتِلَالِ الْأَمْرِ،وَعَدَمِ تَمَامِ النِّظَامِ،وَوَهَنِ أُمُورِ الدُّنْيَا،وَضَعْفِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:لِأَنَّ تَغَيُّرَ الْوُلَاةِ وَفَسَادَهُمْ مُسْتَلْزِمٌ لِتَغَيُّرِ الرَّعِيَّةِ،وَقَدْ قِيلَ:النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ.قَالَ الْقَاضِي – رَحِمَهُ اللَّهُ:أَخْرَجَ الْجَوَابَيْنِ مُخْرَجَ الِاسْتِئْنَافِ لِلتَّأْكِيدِ؛وَلِأَنَّ السُّؤَالَ الْأَوَّلَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ بِجَوَابٍ حَقِيقِيٍّ يُطَابِقُهُ،فَإِنَّ تَأْقِيتَ السَّاعَةِ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ،عَدَلَ عَنِ الْجَوَابِ إِلَى ذِكْرِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَسْئُولِ عَنْهُ دَلَالَةً مِنْ أَمَارَاتِهَا،وَسَلَكَ فِي الْجَوَابِ الثَّانِي مَسْلَكَ الْأَوَّلِ؛لِيَتَّسِقَ الْكَلَامُ.

قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:كَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ يُكْتَفَى عَنْ جَوَابِ السُّؤَالِ الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ:إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ،وَأَنْ يُؤْتَى فِي السُّؤَالِ الثَّانِي بِمَتَى؛لِيُطَابِقَ الْجَوَابَ،فَزَادَ فِي الْأَوَّلِ:" فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ "؛لِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ:" إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ " لَيْسَ إِبَّانَ السَّاعَةِ،بَلْ مِنْ أَمَارَاتِهَا،فَلَا تَكُونُ إِذَا شَرْطِيَّةً،وَتَأْوِيلُ السُّؤَالِ الثَّانِي:مَتَى تَضِيعُ الْأَمَانَةُ؟ وَكَيْفَ حُصُولُ التَّضْيِيعِ؟ فَقَالَ:إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ،فَأَطْنَبَ فِي الْأَوَّلِ لِإِفَادَةِ مَعْنًى زَائِدٍ،وَاخْتَصَرَ فِي الثَّانِي لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ تَفَنُّنًا اهـ.وَفِيهِ أَنَّهُ يُوهِمُ أَنَّ قَوْلَهُ:فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الْجَوَابِ الثَّانِي،وَالْحَالُ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِهِ،بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْجَوَابَيْنِ،وَلَعَلَّهُ سَقَطَ مِنْ أَصْلِ الطِّيبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٤٢٩)

[1513] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٥/ ٢٥٨)(٦٨٤٤) صحيح

[1514] – المعجم الأوسط (١/ ٢٢٨)(٧٤٨) صحيح

[1515] – سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٩)(٤٠٣٦) صحيح

[ش – (سنوات خداعات) الخداع المكر والحيلة.وإضافة الخداعات إلى السنوات مجازية.والمراد أهل السنوات.وقال في النهاية سنون خداعة أي تكثر فيها لأمطار ويقل الريع فذلك خداعها.لأنها تطمعهم في الخصب بالمطر ثم تخلف.وقيل الخداعة القليلة

وعند أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ،يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ،وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ،وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ،وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ،وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ " قِيلَ:وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:" السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ "[1516]

وعند أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ أَمَامَ الدَّجَّالِ سِنِينَ خَدَّاعَةً،يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ،وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ،وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ،وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ،وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ ".قِيلَ:وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ:" الْفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ "[1517]

والرويبضة هو تصغير رابضة وهو الذي ربض وقعد عن مكارم الأخلاق والأمور العالية،فأولى الناس في كل عمل أفضلهم أمانة واستقامة وعلما وخبرة في العمل والاختصاص،وقد قال تعالى:{ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [القصص:٢٦]،وقال تعالى:{ {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف:٥٥] أي خازن حافظ للأمانة وعليم في تدبير عمله الذي يتولاه وتصريف أموره،وقال تعالى:{وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)} [طه:٢٩ - ٣٥]

المطر من خدع الريق إذا جف.(الرويبضة) تضغير رابضة.وهو العاجز الذي ربض عن مغالي الأمور وقعد عن طلبها.وتاؤه للمبالغة.(في أمر العامة) متعلق به ينطق.]

[1516] - مسند أحمد ط الرسالة (١٣/ ٢٩١)(٧٩١٢) صحيح لغيره

[1517] - مسند أحمد ط الرسالة (٢١/ ٢٥)(١٣٢٩٨) صحيح لغيره

قال الطحاوي:"بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي الرُّوَيْبِضَةِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي وَصْفِهِ السِّنِينَ الَّتِي أَمَامَ الدَّجَّالِ مَنْ هُوَ مِنَ النَّاسِ؟

فَلَمْ يَكُنْ فِيمَا رَوَيْنَاهُ مِنْ هَذِهِ الْآثَارِ مِنْ ذِكْرِ الرُّوَيْبِضَةِ مَا يُوجِبُ اخْتِلَافًا فِيهِ مَنْ هُوَ مِنَ النَّاسِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَصْفُهُ إِيَّاهُ بِالْفِسْقِ الَّذِي يَمْنَعُ مِثْلَهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ يَنْطَلِقُ لَهُ فِي الدَّهْرِ الْمَذْمُومِ الْكَلَامُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ كَمَا يَكُونُ فِيهِ تَصْدِيقُ الْكَاذِبِ وَتَكْذِيبُ الصَّادِقِ وَائْتِمَانُ الْخَائِنِ وَيَكُونُ وَصْفُهُ إِيَّاهُ بِأَنَّهُ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لِعَلَنِهِ بِفِسْقِهِ وَلِأَنَّهُ مِمَّنْ لَا حَاجَةَ بِالنَّاسِ إِلَيْهِ فَيَكُونُ بِذَلِكَ خَامِلًا لَا يُؤْبَهُ لَهُ فَاتَّفَقَ بِحَمْدِ اللهِ الْمَعْنَيَانِ اللَّذَانِ رَوَيْنَا فِي تَفْسِيرِ الرُّوَيْبِضَةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي هَذَا الْبَابِ وَلَمْ يَخْتَلِفَا.وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"شرح مشكل الآثار (١/ ٤٠٤)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ،وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ،إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ:بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ،وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ،فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى " رواه البخاري[1518] .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:" مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ:بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ،وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ،فَالْمَعْصُومُ مَنْ عُصِمَ بِاللهِ "[1519]

[1518] - صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧١٩٨)

مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ)؛أَيْ نَبِيًّا (وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ)؛أَيْ إِمَامًا بَعْدَهُ،أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ (إِلَّا كَانَتْ لَهُ)؛أَيْ لِكُلٍّ مِنْهُمَا (بِطَانَتَانِ) بِكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ؛أَيْ وَزِيرَانِ وَمُشِيرَانِ،مُشَبَّهَانِ بِالْبِطَانَةِ لِمُلَازَمَتِهِ بِحَيْثُ لَا يَنْفَكَّانِ عَنْ صُحْبَتِهِ،(بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ)؛أَيْ بِالْخَيْرِ (وَتَحُضُّهُ) بِتَشْدِيدِ الضَّادِ؛أَيْ تَحُثُّهُ عَلَيْهِ وَتُرَغِّبُهُ إِلَيْهِ وَتُحَسِّنُهُ لَدَيْهِ (وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ)؛أَيْ بِالْمُنْكَرِ (وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ)؛أَيْ تُحَرِّضُهُ عَلَيْهِ،وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَا يَخْلُو نَبِيٌّ،أَوْ مَنْ يَخْلُفُ مَكَانَهُ مِنْ شَخْصَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ،أَوْ جَمَاعَتَيْنِ مُتَضَادَّتَيْنِ فِي الرَّأْيِ؛كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ فِي جُلَسَاءِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ،(وَالْمَعْصُومُ)؛أَيْ مِنَ النَّبِيِّ وَالْخَلِيفَةِ (مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ)؛أَيْ مِنْ صَاحِبِ الشَّرِّ وَقَبُولِ كَلَامِهِ،وَالتَّوْفِيقِ بِمُتَابَعَةِ الْخَيْرِ وَقَضَاءِ مَرَامِهِ،وَالْمَعْصُومُ مِنَ الْبِطَانَتَيْنِ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّرِّ وَوَفَّقَهُ لِلْخَيْرِ.هَذَا وَفِي النِّهَايَةِ بِطَانَةُ الرَّجُلِ صَاحِبُ سِرِّهِ وَدَاخِلَةُ أَمْرِهِ،الَّذِي يُشَاوِرُهُ فِي أَحْوَالِهِ،الْكَشَّافُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران:١١٨] بِطَانَةُ الرَّجُلِ؛ذُو وَلِيجَتِهِ وَخَصِيصُهُ،وَصَفِيُّهُ الَّذِي يُفْضِي إِلَيْهِ بِحَوَائِجِهِ ثِقَةً بِهِ،شُبِّهَ بِبِطَانَةِ الثَّوْبِ،كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ شِعَارِيٌّ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:فَإِنْ قُلْتَ:الْبِطَانَةُ فِي الْحَدِيثِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى،قَدْ تُتَصَوَّرُ فِي بَعْضِ الْخُلَفَاءِ،وَلَكِنَّهَا مُنَافِيَةٌ بِحَالِ الْأَنْبِيَاءِ،وَكَيْفَ لَا وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَامَّةَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ،قُلْتُ:الْوَجْهُ مَا رَوَى الْأَشْرَفُ عَنْ بَعْضِهِمْ؛أَنَّ الْمُرَادَ بِأَحَدِهِمَا الْمَلَكُ،وَبِالثَّانِي الشَّيْطَانُ،وَيُرِيدُهُ قَوْلُهُ:وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ،فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» ".أَقُولُ:وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ مَا فِي التِّرْمِذِيِّ مِنْ «حَدِيثِ أَبِي الْهَيْثَمِ،وَضِيَافَتِهِ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – فِي حَائِطٍ لَهُ مِنْ ذَبْحِ الْغَنَمِ وَإِحْضَارِ الرُّطَبِ وَالْمَاءِ الْعَذْبِ إِلَى أَنْ قَالَ – ﷺ-:" هَلْ لَكَ خَادِمٌ " قَالَ لَا " قَالَ:فَإِذَا أَتَانَا سَبْيٌ فَأْتِنَا " فَأُتِيَ النَّبِيُّ – ﷺ- بِرَأْسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ،فَأَتَاهُ أَبُو الْهَيْثَمِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" اخْتَرْ مِنْهُمَا " فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ اخْتَرْ لِي فَقَالَ – ﷺ-:" إِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ فَخُذْ هَذَا فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي وَاسْتَوْصِ بِهِ مَعْرُوفًا " فَانْطَلَقَ بِهِ أَبُو الْهَيْثَمِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَأَخْبَرَهَا بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ-،فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ:مَا أَنْتَ بِبَالِغٍ مَا قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ – ﷺ-؛إِلَّا أَنْ تُعْتِقَهُ،قَالَ:فَهُوَ عَتِيقٌ،فَقَالَ – ﷺ-:" إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا وَمَنْ يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ» ".مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٥)

[1519] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٠)(٧٧٧٧) صحيح

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:تَأَمَّلْنَا هَذِهِ الْآثَارَ لِنَقِفَ عَلَى مَا أُرِيدَ بِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَكَانَ قَوْلُهُ ﷺ:" مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ " عَلَى مَا ذُكِرَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ تَيْنِكَ الْبِطَانَتَيْنِ بِمَا ذَكَرَهُمَا بِهِ فِيهِمَا مِنْ حَمْدٍ وَغَيْرِهِ.فَوَجَدْنَا الْأَنْبِيَاءَ

وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ،أَنَّهُ قَالَ:سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:" مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ،وَلا كَانَ بَعْدَهُ خَلِيفَةٌ إِلا لَهُ بِطَانَتَانِ:بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ،وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالا،فَمَنْ وُقِيَ بِطَانَةَ السُّوءِ،فَقَدْ وُقِيَ ". [١٥٢٠]

صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى مَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِتْيَانِهِمْ إِيَّاهُمْ ، وَخِلْطَتِهِمْ بِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا بِذَلِكَ بَطَائِنَ لَهُمْ ، وَتَسْتَعْمِلُ الْأَنْبِيَاءُ فِي ذَلِكَ فِي أُمُورِهِمْ مَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ مِنْهَا ، فَيَحْمَدُونَ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقِفُونَ عَلَى مَنْ يَجِبُ حَمْدُهُ بِظَاهِرِهِ ، فَيُقَرِّبُونَهُ مِنْهُمْ ، وَيَعُدُّونَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ ، وَيُبَاعِدُونَ مِنْهُمْ مَنْ يَقِفُونَ مِنْهُ عَلَى مَا لَا يَحْمَدُونَهُ مِنْهُمْ ، وَيَعُدُّونَهُ مِنْ أَعْدَائِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُبْطِنُ مِمَّنْ يُعَرِّفُونَهُ مِنْ حَمْدٍ وَمِنْ ذَمٍّ ، ثُمَّ يُوقِفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْبِيَاءَهُ عَلَى مَا يُوقِفُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَاطِنِهِمْ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّنَا ﷺ:{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ...} [التوبة:١٠١] الْآيَةَ.فَهَذِهِ الْبِطَانَةُ الْمَذْمُومَةُ الَّتِي لَا تَأْلُو مَنْ هِيَ مَعَهُ خَبَالًا.وَالْبِطَانَةُ الْأُخْرَى هِيَ الَّتِي يُوقِفُهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى ضِدِّهَا ، وَعَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ لِنَبِيِّهَا ، كَمَا أَوْقَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَا أَوْقَفَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ تَعْزِيرِهِمْ إِيَّاهُ ، وَنُصْرَتِهِمْ لَهُ ، وَاتِّبَاعِهِمْ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُتَّبَعَ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف:١٥٧] وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِفَاتِهِمْ:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح:٢٩] ثُمَّ وَصَفَهُمْ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ بِمَا وَصَفَهُمْ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ الَّتِي أُنْزِلَ ذَلِكَ فِيهَا.فَهَاتَانِ الْبِطَانَتَانِ هُمَا الْبِطَانَتَانِ اللَّتَانِ كَانَتَا مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَكَذَلِكَ الْبَطَائِنُ اللَّاتِي كُنَّ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ قَبْلَهُ.ثُمَّ تَأَمَّلْنَا قَوْلَهُ ﷺ:" وَهُوَ مِنَ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِ مِنْهُمَا " فَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَنَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِمَّنْ ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآثَارِ ، لَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ؛لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ مَعْصُومُونَ ، لَا يَكُونُونَ مَعَ مَنْ لَا تُحْمَدُ خَلَائِقُهُ وَلَا مَذَاهِبُهُ.فَقَالَ قَائِلٌ:وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرْتَ وَإِنَّمَا فِي هَذِهِ الْآثَارِ رُجُوعُ الْكَلَامِ عَلَى مَنْ ذُكِرَ فِيهَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَمِمَّنْ سِوَاهُمْ؟

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِهِ:أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ كَلَامٌ عَرَبِيٌّ ، خُوطِبَ بِهِ قَوْمٌ عَرَبٌ يَعْقِلُونَ مَا أَرَادَ بِهِ مُخَاطِبُهُمْ ، وَالْعَرَبُ قَدْ تُخَاطِبُ بِمِثْلِ هَذَا عَلَى جَمَاعَةٍ ثُمَّ تَرُدُّهُ إِلَى بَعْضِهِمْ دُونَ بَقِيَّتِهِمْ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [الأنعام:١٣٠] فَكَانَ الْخِطَابُ فِي ذَلِكَ بِذِكْرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَمَعْقُولٌ أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْإِنْسِ لَا مِنَ الْجِنِّ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ:" بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا " وَقَرَأَ آيَةَ الْمُمْتَحِنَةِ وَفِيهَا الشِّرْكُ ، وَالسَّرِقَةُ ، وَالزِّنَا ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ} [الممتحنة:١٢] وَسَنَذْكُرُ ذَلِكَ الْحَدِيثَ فِيمَا بَعْدُ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.وَفِيهِ:" فَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ " وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مَنْ عُوقِبَ بِالشِّرْكِ فَلَيْسَ ذَلِكَ لَهُ كَفَّارَةً.وَعَقَلْنَا بِذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ:" فَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا " إِنَّمَا هُوَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بَعْضِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي فِي الْآيَةِ لَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي فِيهَا.فَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺفِي الْآثَارِ الَّتِي رَوَيْنَاهَا:" وَهُوَ مِنَ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا " يَرْجِعُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، لَا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمُ ، الَّذِينَ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ.فَبَانَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ جَمِيعُ مَا فِي هَذِهِ الْآثَارِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُشْكِلَاتِ فِيهَا بِحَمْدِ اللهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَإِيَّاهُ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"شرح مشكل الآثار (٥/ ٣٥٩)

[١٥٢٠] - شرح السنة للبغوي (١٠/ ٧٥)(٢٤٨٥) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ

وعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَمَّتِي،تَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ وَلِي مِنْكُمْ عَمَلًا،فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ،وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ» رواه أبو داود[١٥٢١].

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ،قَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْمُرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فِي الأَمْرِ مِنْ أَمْرِ المُسْلِمِينَ وَأَنَا مَعَهُمَا» رواه الترمذي[١٥٢٢].

وعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ،أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ،يَقُولُ:وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ،يَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ وَأَنَا فِيهِمْ،فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَجُلٌ آخِذٌ مَنْكِبِي،فَإِذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ،وَقَالَ:مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ،وَايْمُ اللَّهِ إِنْ

وَالْبِطَانَةُ:الأَوْلِيَاءُ وَالأَصْفِيَاءُ،قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ} [آل عمران:١١٨] أَيْ:أَصْفِيَاءَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ دِينِكُمْ،لِأَنَّهُمْ يَغُشُّونَكُمْ،وَلا يَنْصَحُونَكُمْ،وَهِيَ مَصْدَرٌ وُضِعَ مَوْضِعَ الاسْمِ،يُسَمَّى بِهَا الْوَاحِدُ وَالاثْنَانِ وَالْجَمِيعُ،وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ.

قَوْلُهُ:«لَا تَأْلُوهُ خَبَالا»،أَيْ:لَا تُقَصِّرُ فِي إِفْسَادِ أَمْرِهِ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا} [آل عمران:١١٨]،وَالْخَبَالُ وَالْخَبَلُ:الْفَسَادُ،وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الأَفْعَالِ،وَالأَبْدَانِ،وَالْعُقُولِ،وَبِهِ يُسَمَّى الْجِنُّ:الْخَبَلُ،يُقَالُ:خَبَلَهُ الْجِنُّ.

[١٥٢١] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩١)(٧٧٧٩) وسنن أبي داود (٣/ ١٣١)(٢٩٣٢) صحيح

إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ)؛أَيْ بِمَنْ يَكُونُ أَمِيرًا (خَيْرًا) فِي الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى (جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ)؛أَيْ قَدَّرَ لَهُ وَزِيرًا صَادِقًا مُصْلِحًا،قَالَ فِي النِّهَايَةِ:الْوَزِيرُ الَّذِي يُؤَازِرُ الْأَمِيرَ،فَيَحْمِلُ عَنْهُ مَا حَمَلَهُ مِنَ الْأَثْقَالِ،يَعْنِي أَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْوِزْرِ،وَهُوَ الْحِمْلُ وَالثِّقَلُ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد:٤]؛أَيِ انْقَضَى أَمْرُهَا وَخَفَّتْ أَثْقَالُهَا،فَلَمْ يَبْقَ قِتَالٌ،لَكِنَّ أَكْثَرَ مَا يُطْلَقُ فِي الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ عَلَى الذَّنْبِ وَالْإِثْمِ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ} [الأنعام:٣١] فَيُمْكِنُ أَنَّ الْوَزِيرَ سُمِّيَ وَزِيرًا؛لِأَنَّهُ يَتَحَمَّلُ وِزْرَ الْأَمِيرِ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ،(إِنْ نَسِيَ)؛أَيِ الْأَمِيرُ حُكْمَ اللَّهِ (ذَكَّرَهُ) بِالتَّشْدِيدِ؛أَيْ أَخْبَرَ الْأَمِيرَ بِهِ (وَإِنْ ذَكَرَ) بِالتَّخْفِيفِ؛أَيْ وَإِنْ تَذَكَّرَهُ الْأَمِيرُ بِنَفْسِهِ (أَعَانَهُ)؛أَيْ حَرَّضَهُ الْوَزِيرُ وَحَرَّضَهُ عَلَيْهِ (وَإِذَا أَرَادَ بِهِ)؛أَيِ اللَّهُ تَعَالَى بِالْأَمِيرِ (غَيْرَ ذَلِكَ)؛أَيْ شَرًّا (جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ) بِفَتْحِ السِّينِ وَضَمَّةٍ (إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ)؛بَلْ يَصْرِفُهُ عَنْهُ،قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:أَصْلُ وَزِيرِ صِدْقٍ وَزِيرٌ صَادِقٌ،ثُمَّ وَزِيرُ صِدْقٍ عَلَى الْوَصْفِ بِهِ ذَهَابًا إِلَى أَنَّهُ نَفْسُ الصِّدْقِ وَمُجَسَّمٌ عَنْهُ؛يَعْنِي مُبَالَغَةً،ثُمَّ أُضِيفَ إِلَيْهِ لِمَزِيدِ الِاخْتِصَاصِ بِهِ،وَلَمْ يُرِدِ الصِّدْقُ الِاخْتِصَاصَ بِالْقَوْلِ فَقَطْ بِالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ،وَقَالَ الرَّاغِبُ:يُعَبَّرُ عَنْ كُلِّ فِعْلٍ فَاضِلٍ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَبِالصِّدْقِ،وَيُضَافُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْفِعْلُ الَّذِي يُوصَفُ بِهِ،نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى:{فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ} [القمر:٥٥] وَ (قَدَمَ صِدْقٍ)،وَعَلَى عَكْسِ ذَلِكَ وَزِيرُ سُوءٍ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤١٣)

[١٥٢٢] - سنن الترمذي ت شاكر (١/ ٣١٥)(١٦٩) صحيح

«وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،وَالتَّابِعِينَ،وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي السَّمَرِ بَعْدَ صَلَاةِ العِشَاءِ الآخِرَةِ،فَكَرِهَ قَوْمٌ مِنْهُمُ السَّمَرَ بَعْدَ صَلَاةِ العِشَاءِ،وَرَخَّصَ بَعْضُهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَعْنَى العِلْمِ،وَمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الحَوَائِجِ،وَأَكْثَرُ الحَدِيثِ عَلَى الرُّخْصَةِ»

كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ،وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ،وَعُمَرُ،وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ،وَعُمَرُ،وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ،وَعُمَرُ» متفق عليه[١٥٢٣]

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله " فِي فَضَائِل الصَّحابَة لأَسَد بن مُوسَى والمَعرِفَة لِيَعقُوب بن سُفيان بسَنَد لا بَأس بِهِ عَن عَبد الرَّحمَن بن غَنم،بِفَتحِ المُعجَمَة وسُكُون النُّون،وهُو مُختَلَف فِي صُحبَته أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قالَ لأَبِي بَكر وعُمَر " لَو أَنَّكُما تَتَّفِقانِ عَلَى أَمر واحِد ما عَصَيتُكُما فِي

[١٥٢٣] - صحيح البخاري (٥/ ١١)(٣٦٨٥) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٥٨)١٤ - (٢٣٨٩)

[ش (فتكنفه) أحاطوا به من جميع النواحي.(فلم يراعني) يخوفني ويفاجئني.(وايم الله) يمين الله تعالى.(لأظن) لأرجو ذلك وأتوقعه.(وحسبت إني..) كان في حسابي هذا لأجل سماعي..]

(وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:إِنِّي لَوَاقِفٌ فِي قَوْمٍ فَدَعَوُا اللَّهَ) أَيِ:الْقَوْمُ،وَفِي رِوَايَةٍ:يَدْعُونَ اللَّهَ.(لِعُمَرَ وَقَدْ وُضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ)،جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ مِنْ عُمَرَ،وَالْمَعْنَى أَنَّهُ وَضْعُ عُمَرَ يَوْمَ مَاتَ عَلَى سَرِيرِهِ لِلْغُسْلِ وَحَضَرَهُ جَمْعٌ مِنْ أَصْحَابِهِ (إِذَا رَجُلٌ مِنْ خَلْفِي قَدْ وَضَعَ مِرْفَقَهُ):بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْفَاءِ وَيَجُوزُ عَكْسُهُ (عَلَى مَنْكِبِي):بِفَتْحِ مِيمٍ وَكَسْرِ كَافٍ (يَقُولُ) أَيْ:مُخَاطِبًا لِعُمَرَ (يَرْحَمُكَ اللَّهُ)،وَفِي رِوَايَةٍ:رَحِمَكَ اللَّهُ (إِنِّي لَأَرْجُو):وَفِي نُسْخَةٍ:إِنِّي كُنْتُ لَأَرْجُو (أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ)،أَيِ النَّبِيِّ - ﷺ- وَأَبِي بَكْرٍ فِي الْقَبْرِ أَوْ فِي الْجَنَّةِ.ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ:(لِأَنِّي):تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ:أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ أَيْ:أَرْجُو أَنْ يَجْعَلَكَ مَعَهُمَا فِي عَالَمِ الْقُدُسِ لِأَنِّي (كَثِيرًا مَا كُنْتُ):بِزِيَادَةِ (مَا) لِإِفَادَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْكَثْرَةِ عَكْسَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} [ص:٢٤] قَالَ الطِّيبِيُّ:كَذَا فِي " صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ "،وَمَا فِيهِ إِبْهَامِيَّةٌ مُؤَكِّدَةٌ وَلَيْسَ فِي جَامِعِ الْأُصُولِ لَفْظَةُ (مَا) فَقَوْلُهُ:كُنْتُ خَبَرُ إِنَّ،وَكَثِيرًا ظَرْفٌ وَعَامِلُهُ كَانَ قُدِّمَ عَلَيْهِ وَنَحْوُهُ:- {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [الأعراف:١٠] وَفِي أَكْثَرِ نُسَخِ " الْمَصَابِيحِ " وَقَعَ هَكَذَا لِأَنِّي كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُ بِزِيَادَةِ (مِنْ) وَلَيْسَ لَهُ مَحْمَلٌ صَحِيحٌ إِلَّا أَنْ يُتَعَسَّفَ،وَقَالَ:إِنِّي أَجِدُ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُ أَسْمَعُ.أَقُولُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ (مَا) مَوْصُولَةً بِمَعْنَى (مَنْ) وَالْمَعْنَى لِأَنِّي فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مِمَّنْ كُنْتُ (أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- يَقُولُ:(كُنْتُ) أَيْ:فِي مَكَانِ كَذَا (وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ،وَفَعَلْتُ) أَيِ:الشَّيْءَ الْفُلَانِيَّ مِنْ أُمُورِ الْعِبَادَةِ أَوْ مِنْ رُسُومِ الْعَادَةِ،(وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ،وَانْطَلَقْتُ) أَيْ:ذَهَبْتُ أَيْ إِلَى مَكَانِ كَذَا،(وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ،وَدَخَلْتُ) أَيِ:الْمَسْجِدَ وَنَحْوَهُ (وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ،وَخَرَجْتُ) أَيْ:مِنْ نَحْوِ الْبَيْتِ (وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ):قِيلَ:دَلَّ عَلَى جَوَازِ الْعَطْفِ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ الْمُتَّصِلِ بِلَا تَأْكِيدٍ وَفَصْلٍ،وَهُوَ مِمَّا لَا يُجِيزُهُ النَّحْوِيُّونَ فِي النَّثْرِ إِلَّا عَلَى ضَعْفٍ،وَالصَّحِيحُ جَوَازُهُ نَظْمًا وَنَثْرًا كَمَا قَالَهُ الْمَالِكِيُّ،وَنَظِيرُهُ قَوْلُ عُمَرَ:كُنْتُ وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ،وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى:{مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا} [الأنعام:١٤٨] فَإِنَّ كَلِمَةَ لَا بَعْدَ الْعَاطِفِ وَمَعَ ذَلِكَ هِيَ زَائِدَةٌ اهـ.وَفِي رِوَايَةٍ:زَادَ هُنَا:فَإِنِّي كُنْتُ لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَهُ اللَّهُ مَعَهُمَا.(قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَالْتَفَتُّ) أَيْ:إِلَى وَرَائِي (فَإِذَا) أَيْ:ذَلِكَ الرَّجُلُ (عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -) .وَفِي نُسْخَةٍ:عَنْهُمْ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٩١١)

مَشُورَةٍ أَبَدًا[1524].،ورواه أحمد عَنِ ابْنِ غَنْمٍ الْأَشْعَرِيِّ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ " لَوِ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا "[1525].

وفي صحيح مسلم عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ،أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ،لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ،وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ،فَقَالَ:مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي،فَقَالَ:ابْنَ أَبْزَى،قَالَ:وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ:مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا،قَالَ:فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ:إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ،قَالَ عُمَرُ:أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ:«إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا،وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».[1526]

وعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ قَالَ:اسْتَعْمَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ نَافِعًا الْخُزَاعِيَّ عَلَى مَكَّةَ،قَالَ:فَلَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ،فَقَالَ:مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ قَالَ:اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمُ ابْنَ أَبْزَى قَالَ:وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ:رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا،قَالَ عُمَرُ:وَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ:نَعَمْ،إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ،قَالَ عُمَرُ:أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[1527]

وعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:جَاءَ العَاقِبُ وَالسَّيِّدُ،صَاحِبَا نَجْرَانَ،إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلاَعِنَاهُ،قَالَ:فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ:لاَ تَفْعَلْ،فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلاَعَنَّا لاَ نُفْلِحُ نَحْنُ،وَلاَ عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا،قَالاَ:إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا،وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا،وَلاَ تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا.فَقَالَ

[1524] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٣٤١)

[1525] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٥١٨)(١٧٩٩٤) حسن

[1526] - صحيح مسلم (١/ ٥٥٩)٢٦٩ - (٨١٧)

إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ)،أَيْ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَتَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ،وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنُ الْبَالِغُ فِي الشَّرَفِ وَظُهُورِ الْبُرْهَانِ مَبْلَغًا لَمْ يَبْلُغْهُ غَيْرُهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمَةِ (أَقْوَامًا)،أَيْ دَرَجَةَ جَمَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِأَنْ يُحْيِيَهُمْ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي الدُّنْيَا وَيَجْعَلَهُمْ مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْعُقْبَى (وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)،أَيِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ مِنْ مَرَاتِبِ الْكَامِلِينَ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ،قَالَ - تَعَالَى - {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا} [البقرة:٢٦] فَهُوَ مَاءٌ لِلْمَحْبُوبِينَ دِمَاءٌ لِلْمَحْجُوبِينَ،وَقَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء:٨٢] قَالَ الطِّيبِيُّ:فَمَنْ قَرَأَهُ وَعَمِلَ بِهِ مُخْلِصًا رَفَعَهُ اللَّهُ،وَمَنْ قَرَأَهُ مُرَائِيًا غَيْرَ عَامِلٍ بِهِ وَضَعَهُ اللَّهُ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٤٥٧)

[1527] - مستخرج أبي عوانة (٢/ ٤٤٤)(٣٧٦٢) صحيح

«لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»،فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:«قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ» فَلَمَّا قَامَ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ» رواه البخاري[١٥٢٨]

وعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا أَمِينًا فَقَالَ:«لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ أَمِينٍ»،قَالَ فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ قَالَ فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ"[١٥٢٩]

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ،قَالَ:وَأَرَادَا أَنْ يُلَاعِنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ:لَا تُلَاعِنْهُ،فَوَاللهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَعَنَّا،- قَالَ خَلَفٌ:فَلَاعَنَّا - لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبُنَا أَبَدًا،قَالَ:فَأَتَيَاهُ،فَقَالَا:لَا نُلَاعِنُكَ،وَلَكِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَ،فَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" لَأَبْعَثَنَّ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ،حَقَّ أَمِينٍ "،قَالَ:فَاسْتَشْرَفَ لَهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ،قَالَ:فَقَالَ:" قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ "،قَالَ:فَلَمَّا قَفَّا،قَالَ:" هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ "[١٥٣٠]

وعَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ،وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ» أخرجه البخاري[١٥٣١]

[١٥٢٨] - صحيح البخاري (٥/ ١٧١)(٤٣٨٠)

[ش (العاقب) صاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح.(السيد) رئيسهم واسمه الأيهم.(صاحبا نجران) من أكابر النصارى فيها.(يلاعناه) يباهلاه بأن يدعو كل فريق بالعذاب على المبطل.(ما سألتنا) الذي طلبته منا من الجزية]

[١٥٢٩] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٢)٥٥ - (٢٤٢٠)

[ش (فاستشرف) أي تطلعوا إلى الولاية ورغبوا فيها حرصا على أن يكون هو الأمين الموعود في الحديث لا حرصا على الولاية من حيث هي]

[١٥٣٠] - مسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٤٥)(٣٩٣٠) صحيح

[١٥٣١] - صحيح البخاري (٥/ ١٧٢)(٤٣٨٢)

" لِكُلِّ أُمَّة "):وَفِي رِوَايَة:إِنَّ لِكُلِّ أُمَّة (أَمِينٌ)،أَيْ:ثِقَةٌ وَمُعْتَمَدٌ وَمَرْضِيٌّ (" وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّة "):وَفِي رِوَايَة:وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّة (" أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ") .بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَإِنَّمَا خَصَّهُ بِالْأَمَانَةِ وَإِنْ كَانَتْ مُشْتَرَكَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ لِغَلَبَتِهَا فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ،وَقِيلَ لِكَوْنِهَا غَالِبَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ صِفَاتِهِ،وَأَخْرَجَ أَبُو حُذَيْفَةَ فِي فُتُوحِ الشَّامِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا تُوُفِّيَ وَخَالِدٌ عَلَى الشَّامِ وَالِيًا،وَاسْتُخْلِفَ عُمَرُ كَتَبَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بِالْوِلَايَةِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَعَزَلَ خَالِدًا،فَكَتَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ الْكِتَابَ مِنْ خَالِدٍ وَغَيْرِهِ حَتَّى انْقَضَتِ الْحَرْبُ،وَكَتَبَ خَالِدٌ الْأَمَانَ لِأَهْلِ دِمَشْقَ وَأَبُو عُبَيْدَةَ الْأَمِيرُ،وَهُمْ لَا يَدْرُونَ.ثُمَّ لَمَّا عَلِمَ خَالِدٌ بِذَلِكَ بَعْدَ مُضِيِّ نَحْوٍ مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً دَخَلَ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ وَقَالَ:يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ جَاءَكَ كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوِلَايَةِ فَلَمْ تُعْلِمْنِي وَتُصَلِّي خَلْفِي وَالسُّلْطَانُ سُلْطَانُكَ،فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ:وَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ مَا كُنْتُ لِأُعْلِمَكَ حَتَّى تَعْلَمَهُ مِنْ غَيْرِي،وَمَا كُنْتُ لِأَكْسِرَ عَلَيْكَ حَرْبَكَ حَتَّى يَنْقَضِيَ ذَلِكَ كُلُّهُ،وَقَدْ كُنْتُ أُعْلِمُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا سُلْطَانُ الدُّنْيَا أُرِيدُ،وَلَا لِلدُّنْيَا أَعْمَلُ،وَإِنَّ مَا تَرَى سَيَصِيرُ إِلَى

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ:«أَرْحَمُ أُمَّتي بِأُمَّتي أَبُو بَكْرٍ،وَأَشَدُّهُمْ في أَمْرِ الله عُمَرُ،وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ،وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ،وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ،وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ،أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَةٍ أَمِينًا،أَلَا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»رواه أحمد والترمذي وغيرهما.[١٥٣٢]

زَوَالٍ وَانْقِطَاعٍ،وَإِنَّمَا نَحْنُ أَخَوَانِ وَقُوَّامٌ بِأَمْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمَا يَضُرُّ الرَّجُلَ أَنْ يَلِيَ عَلَيْهِ أَخُوهُ فِي دِينِهِ وَلَا دُنْيَاهُ،بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ الْوَالِيَ يَكَادُ أَنْ يَكُونَ أَدْنَاهُمَا إِلَى الْفِتْنَةِ وَأَوْقَعَهُمَا فِي الْحِطَّةِ لِمَا تَعَرَّضَ مِنَ الْهَلَكَةِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ،فَدَفَعَ أَبُو عُبَيْدَةَ عِنْدَ ذَلِكَ الْكِتَابَ إِلَى خَالِدٍ،وَتُوُفِّيَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِالْأُرْدُنِّ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ كُورَةٌ بِأَعْلَى الشَّامِ سَنَةَ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ،وَهُوَ ابْنُ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ مَرْفُوعًا:«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَمِينًا وَأَمِينِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» وَعَنْ حُذَيْفَةَ:«جَاءَ السَّيِّدُ وَالْعَاقِبُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ- فَقَالَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،ابْعَثْ مَعَنَا أَمِينَكَ،فَقَالَ:" سَأَبْعَثُ مَعَكُمْ أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ " فَتَشَرَّفَتْ لَهَا النَّاسُ فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ» .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٩٥١)

[١٥٣٢] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٣٤٥)(٨١٨٥) وسنن ابن ماجه (١/ ٥٥)(١٥٤) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٦٦٤)(٣٧٩٠) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٧٤)(٧١٣١) ومسند أحمد (عالم الكتب) (٤/ ٧١٦)(١٣٩٩٠) ١٤٠٣٥صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:«هَذِهِ أَلْفَاظٌ أُطْلِقَتْ بِحَذْفِ الْـ - مِنْ - مِنْهَا يُرِيدُ بِقَوْلِهِ ﷺ:» أَرْحَمُ أُمَّتِي «أَيْ مِنْ أَرْحَمِ أُمَّتِي وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ:» وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ «يُرِيدُ مِنْ أَشَدِّهِمْ وَمِنْ أَصْدَقِهِمْ حَيَاءً،وَمِنْ أَقْرَئِهِمْ لِكِتَابِ اللَّهِ،وَمِنْ أَفْرَضِهِمْ،وَمِنْ أَعْلَمِهِمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ يُرِيدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ جَمَاعَةٍ فِيهِمْ تِلْكَ الْفَضِيلَةُ وَهَذَا كَقَوْلِهِ ﷺلِلْأَنْصَارِ:«أَ أَنْتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ يُرِيدُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ مِنْ جَمَاعَةٍ أُحِبُّهُمْ وَهُمْ فِيهِمْ »

" أَرْحَمُ أُمَّتِي ")،أَيْ:أَكْثَرُهُمْ رَحْمَةً (" بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ،وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ)،أَيْ:أَقْوَاهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ كَمَا فِي رِوَايَةٍ (" عُمَرُ،وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ،وَأَفْرَضُهُمْ ")،أَيْ:أَكْثَرُهُمْ عِلْمًا بِالْفَرَائِضِ (زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ)،أَيِ:الْأَنْصَارِيُّ كَاتِبُ النَّبِيِّ،وَكَانَ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ - ﷺ- لَهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً،وَكَانَ أَحَدَ فُقَهَاءِ الصَّحَابَةِ الْأَجِلَّةِ الْقَائِمَ بِالْفَرَائِضِ،وَهُوَ أَحَدُ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَكَتَبَهُ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ،وَنَقَلَهُ مِنَ الْمُصْحَفِ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ،رَوَى عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ،مَاتَ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَلَهُ سِتٌّ وَخَمْسُونَ سَنَةً.(" وَأَقْرَؤُهُمْ ")،أَيْ:أَعْلَمُهُمْ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ (" أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ")،أَيِ:الْأَنْصَارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ،كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ - ﷺ- الْوَحْيَ،وَهُوَ أَحَدُ السِّتَّةِ الَّذِينَ حَفِظُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- وَكَنَّاهُ أَبَا الْمُنْذِرِ،وَعُمَرُ أَبَا الطُّفَيْلِ،وَسَمَّاهُ النَّبِيُّ سَيِّدَ الْأَنْصَارِ،وَعُمَرُ سَيِّدَ الْمُؤْمِنِينَ،مَاتَ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ رَوَى عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ.(" وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ "):وَفِي نُسْخَةٍ بِالْحَرَامِ وَالْحَلَالِ (" مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ")،يُكَنَّى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ الْخَزْرَجِيَّ،وَهُوَ أَحَدُ السَّبْعِينَ الَّذِينَ شَهِدُوا الْعَقَبَةَ مِنَ الْأَنْصَارِ،وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ،وَبَعَثَهُ - ﷺ- إِلَى الْيَمَنِ قَاضِيًا وَمُعَلِّمًا،رَوَى عَنْهُ عُمَرُ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَخَلْقٌ سِوَاهُمْ،وَأَسْلَمَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ،وَاسْتَعْمَلَهُ عُمَرُ عَلَى الشَّامِ بَعْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،فَمَاتَ فِي عَامِهِ ذَاكَ فِي طَاعُونِ عَمْوَاسٍ سَنَةَ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ،وَلَهُ ثَمَانٍ وَثَلَاثُونَ سَنَةً،وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.(" وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ")،أَيْ:مُبَالِغٌ فِي الْأَمَانَةِ (" وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ") .وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ زُهْدِهِ مَا ذَكَرَهُ فِي الرِّيَاضِ عَنْ

عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنَ الشَّامِ تَلَقَّاهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ وَعُظَمَاءُ الْأَرْضِ،فَقَالَ عُمَرُ:أَيْنَ أَخِي؟ قَالُوا:مَنْ؟ قَالَ:أَبُو عُبَيْدَةَ.قَالُوا:يَأْتِيكَ الْآنَ،فَلَمَّا أَتَاهُ نَزَلَ فَاعْتَنَقَهُ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ،فَلَمْ يَرَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا سَيْفَهُ وَتُرْسَهُ وَرَحْلَهُ،فَقَالَ عُمَرُ:أَلَا اتَّخَذْتَ مَا اتَّخَذَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا يُبَلِّغُنِي الْمَقِيلَ.أَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّفْوَةِ وَالْفَضَائِلِيُّ،وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ:وَيَأْتِيكَ الْآنَ:فَجَاءَ عَلَى نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ بِحَبْلٍ،وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ عُمَرَ قَالَ لَهُ:اذْهَبْ بِنَا إِلَى مَنْزِلِكَ.قَالَ:فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا قَالَ:أَيْنَ مَتَاعُكَ مَا أَرَى إِلَّا لِبْدًا وَصَحْفَةً وَسَيْفًا وَأَنْتَ أَمِيرٌ؟ أَعِنْدَكَ طَعَامٌ؟ فَقَامَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى جَوْبَةٍ فَأَخَذَ مِنْهَا كِسْرَاتٍ،فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ:غَرَّتْنَا الدُّنْيَا كُلَّنَا غَيْرَكَ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ.(رَوَاهُ أَحْمَدُ،وَالتِّرْمِذِيُّ،وَقَالَ:هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) .

(وَرُوِيَ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيِ:الْحَدِيثُ (عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ مُرْسَلًا)،أَيْ:بِحَذْفِ الصَّحَابِيِّ (وَفِيهِ)،أَيْ:فِي هَذَا الْمَرْوِيِّ (" وَأَقْضَاهُمْ عَلِيٌّ ") .أَيْ:أَعْلَمُهُمْ بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ قَالَهُ شَارِحٌ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَاهُ أَعْلَمُ بِأَحْكَامِ الْخُصُومَةِ الْمُحْتَاجَةِ إِلَى الْقَضَاءِ.قَالَ النَّوَوِيُّ فِي فَتَاوِيهِ قَوْلُهُ:أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ،لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ أَقْضَى مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ،لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ كَوْنُهُمَا مِنَ الْمُخَاطَبِينَ،وَإِنْ ثَبَتَ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ وَاحِدٍ أَقْضَى مِنْ جَمَاعَةٍ كَوْنُهُ أَقْضَى مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ،يَعْنِي لِاحْتِمَالِ التَّسَاوِي مَعَ بَعْضِهِمْ،وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ وَاحِدٍ أَقْضَى أَنْ يَكُونَ أَعْلَمَ مِنْ غَيْرِهِ،وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ أَعْلَمَ كَوْنُهُ أَفْضَلَ يَعْنِي لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ أَكْثَرَ فَضِيلَةً كَوْنُهُ أَكْثَرَ مَثُوبَةً،كَذَا فِي الْأَزْهَارِ،وَفِيهِ بَحْثٌ لِأَنَّ الْمَدَارَ عِنْدَنَا عَلَى الظَّاهِرِ،إِذْ لَا نَطَّلِعُ نَحْنُ عَلَى السَّرَائِرِ،وَقَدْ قَالَ – ﷺ –:«فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» وَأَمَّا حَدِيثُ:«مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ» فَقَدْ ذَكَرَهُ الْغَزَالِيُّ بِلَفْظِ:«مَا فَضَلَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا بِكَثْرَةِ صَوْمٍ»،وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ:لَمْ أَجِدْهُ مَرْفُوعًا،وَهُوَ عِنْدَ الْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ قَوْلِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ،نَعَمْ لَوْ لُوحِظَ اعْتِبَارُ الْأَسْبَقِيَّةِ فِي أَكْثَرِيَّةِ الثَّوَابِ الْأُخْرَوِيَّةِ مَعَ الْمُشَارَكَةِ فِي سَائِرِ الْأَبْوَابِ لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ وَجِيهٌ إِلَى صَوْبِ الصَّوَابِ،فَقَدْ قَالُوا:الْمُعْتَبَرُ فِي السَّبْقِ هُوَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ،وَإِنْ شَارَكَهُ عَلِيٌّ وَخَدِيجَةُ وَزَيْدٌ،إِذْ إِيمَانُ الصَّغِيرِ وَالْمَرْأَةِ وَالْمَوْلَى لَا سِيَّمَا وَهُمْ مِنَ الْأَتْبَاعِ لَيْسَ لَهُ شَأْنٌ عِنْدَ الْأَعْدَاءِ،وَلِهَذَا قَوِيَ الْإِيمَانُ بِحَمْزَةَ وَعَزَّ بِإِسْلَامِ عُمَرَ،كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:{فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} [يس:١٤] وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْأَحَادِيثَ مُتَعَارِضَةٌ وَالْأَدِلَّةَ مُتَنَاقِضَةٌ،فَالْعِبْرَةُ بِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ،وَبِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَئِمَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ،وَمَعَ هَذَا فَالْمَسْأَلَةُ ظَنِّيَّةٌ لَا يَقِينِيَّةٌ خِلَافًا لِمَنْ خَالَفَ،وَقَدْ صَرَّحَ شَيْخُ الشُّيُوخِ شِهَابُ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيُّ حَيْثُ قَالَ فِي عَلَمِ الْهُدَى:فَإِنْ قَبِلْتَ النُّصْحَ فَأَمْسِكْ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي أَمْرِهِمْ،وَاجْعَلْ مَحَبَّتَكَ لِلْكُلِّ عَلَى السَّوَاءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُرَجِّحَ مَحَبَّةَ أَحَدِهِمْ عَلَى الْآخَرِ،وَأَمْسِكْ عَنِ التَّفْضِيلِ وَالْغُلُوِّ،وَإِنْ خَامَرَ بَاطِنَكَ فَضْلُ أَحَدِهِمْ عَلَى الْآخَرِ فَاجْعَلْ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ أَسْرَارِكَ،فَلَا يَلْزَمُكَ إِظْهَارُهُ،وَلَا يَلْزَمُكَ أَنْ تُحِبَّ أَحَدَهُمْ أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِ،أَوْ تَعْتَقِدَ فَضْلَهُ أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِ،بَلْ يَلْزَمُكَ مَحَبَّةُ الْجَمِيعِ وَالِاعْتِرَافُ بِفَضْلِ الْجَمِيعِ،وَيَكْفِيكَ فِي الْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ أَنْ تَعْتَقِدَ صِحَّةَ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ،ثُمَّ تَعْلَمَ أَنَّ عَلِيًّا وَمُعَاوِيَةَ كَانَا عَلَى الْقِتَالِ وَالْخِصَامِ،وَكَانَ الطَّائِفَتَانِ يَسُبُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَمَا حَكَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِكُفْرِ الْآخَرِينَ،إِنَّمَا كَانَتْ ذُنُوبًا لَهُمْ فَلَا تُكَفِّرْ أَحَدًا بِمَا تَرَى مِنْهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالسَّبِّ،وَاعْتَقِدْ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا اجْتَهَدَ فِي الْخِلَافَةِ وَأَصَابَ فِي الِاجْتِهَادِ،وَكَانَ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِلَافَةِ إِذْ ذَاكَ،وَأَنَّ مُعَاوِيَةَ اجْتَهَدَ فِي ذَلِكَ وَأَخْطَأَ فِي الِاجْتِهَادِ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِقًّا لَهَا مَعَ عَلِيٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْفَعُنَا بِمَحَبَّتِهِمْ وَيَحْشُرُنَا فِي زُمْرَتِهِمْ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٩٥٤)

وعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«الْعَامِلُ عَلَى الصَّدَقَةِ بِالْحَقِّ كَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِه» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه[١٠٣٣].

وعَنْ أَبِي مُوسَى،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" الخَازِنُ المُسْلِمُ الأَمِينُ،الَّذِي يُنْفِذُ - وَرُبَّمَا قَالَ:يُعْطِي - مَا أُمِرَ بِهِ كَامِلًا مُوَفَّرًا طَيِّبًا بِهِ نَفْسُهُ،فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ المُتَصَدِّقَيْنِ " أخرجه البخاري ومسلم[١٠٣٤].

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَيُّمَا رَاعٍ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً،فَغَشَّهَا،فَهُوَ فِي النَّارِ " رواه أحمد[١٠٣٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ»[١٠٣٦].

[١٠٣٣] - سنن أبي داود (٣/ ١٣٢)(٢٩٣٦) وسنن ابن ماجه (١/ ٥٧٨)(١٨٠٩) وسنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٢٨)(٦٤٥) وصحيح ابن خزيمة (٤/ ٥١)(٢٣٣٤) صحيح

الْعَامِلُ عَلَى الصَّدَقَةِ بِالْحَقِّ) مُتَعَلِّقٌ بِالْعَامِلِ أَيْ عَمَلًا بِالصِّدْقِ وَالصَّوَابِ،أَوْ بِالْإِخْلَاصِ وَالِاحْتِسَابِ (كَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ فِي تَحْصِيلِ بَيْتِ الْمَالِ،وَاسْتِحْقَاقِ الثَّوَابِ فِي تَمْشِيَةِ أَمْرِ الدَّارَيْنِ (حَتَّى يَرْجِعَ) أَيِ الْعَامِلُ (إِلَى بَيْتِهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٧٣)

[١٠٣٤] - صحيح البخاري (٢/ ١١٤)(١٤٣٨) وصحيح مسلم (٢/ ٧١٠)٧٩ - (١٠٢٣)

[ش(كاملا موفرا) تاما لا ينقص منه شيئا وأن يعطيه لمن أمر بدفعه إليه.(طيب به نفسه) راض بذلك غير حاسد لمن أعطاه إياه.(أحد المتصدقين) له مثل أجر المتصدق]

«الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الْأَمِينُ الَّذِي يُعْطِي مَا أُمِرَ بِهِ») أَيْ مِنَ الصَّدَقَةِ وَنَحْوِهَا " كَامِلًا " حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ أَوْ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ " مُوَفَّرًا " بِفَتْحِ الْفَاءِ الْمُشَدَّدَةِ أَيْ تَامًّا،فَهُوَ تَأْكِيدٌ،وَبِكَسْرِهَا حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ أَيْ مُكَمِّلًا عَطَاءَهُ " طَيِّبَةً " أَيْ رَاضِيَةً غَيْرَ شَحِيحَةٍ " بِهِ " أَيْ بِالْعَطَاءِ " نَفْسُهُ فَيَدْفَعُهُ " عَطْفٌ عَلَى يُعْطِي " إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ " فِيهِ شُرُوطٌ أَرْبَعَةٌ:شَرْطُ الْإِذْنِ لِقَوْلِهِ مَا أُمِرَ بِهِ،وَعَدَمُ نُقْصَانِ مَا أُمِرَ بِهِ،لِقَوْلِهِ كَامِلًا مُوَفَّرًا،وَطِيبُ النَّفْسِ بِالتَّصَدُّقِ إِذْ بَعْضُ الْخُزَّانِ وَالْخُدَّامِ لَا يَرْضَوْنَ بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ التَّصَدُّقِ،وَإِعْطَاءُ مَنْ أُمِرَ لَهُ بِهِ إِلَى مِسْكِينٍ آخَرَ،فَالْخَازِنُ مُبْتَدَأٌ،وَمَا بَعْدَهُ صِفَاتٌ لَهُ،وَخَبَرُهُ " أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ " بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ أَيِ الْمَالِكُ وَالْخَازِنُ،وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ،وَقَدْ صَحَّ رِوَايَةُ الْجَمْعِ أَيْضًا كَمَا فِي رِيَاضِ الصَّالِحِينَ،وَقَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:ضُبِطَ فِي جَمِيعِ رِوَايَاتِ الصَّحِيحَيْنِ بِفَتْحِ الْقَافِ عَلَى التَّثْنِيَةِ،قَالَ الْقُرْطُبِيُّ:وَيَجُوزُ الْكَسْرُ عَلَى الْجَمْعِ أَيْ هُوَ مُتَصَدِّقٌ مِنَ الْمُتَصَدِّقِينَ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٥٧)

[١٠٣٥] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٣/ ٤٠٩)(٢٠٢٨٩) صحيح

[١٠٣٦] - تسمية ما انتهى إلينا من الرواه عن سعيد بن منصور لأبي نعيم (ص:٣٩)(٤) والآداب للبيهقي (ص:٣١٦)(٧٨١) والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ٤٧)(١١٤٠) وتاريخ أصبهان = أخبار أصبهان (١/ ٤٢٠) ومسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ١٣٦)(٨٤١٢) صحيح

وعَنْ سَعْد بْنِ عُبَادَةَ،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهُ:" قُمْ عَلَى صَدَقَة بَني فُلَان،وَانْظُرْ لَا تَأْتي يَوْمَ الْقيَامَة ببَكْرٍ تَحْملُهُ عَلَى عَاتقكَ،أَوْ عَلَى كَاهلكَ لَهُ رُغَاءٌ يَوْمَ الْقيَامَة " قَالَ:يَا رَسُولَ الله،اصْرِفْهَا عَنِّي فَصَرَفَهَا عَنْهُ " رواه أحمد[١٥٣٧].

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبيه،عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ:«مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا،فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلكَ فَهُوَ غُلُولٌ» رواه أبو داود[١٥٣٨].

وعَنْ عَديِّ بْنِ عَميرَةَ الْكنْديِّ،قَالَ:سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:«مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ منْكُمْ عَلَى عَمَلٍ،فَكَتَمَنَا مخْيَطًا،فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتي به يَوْمَ الْقيَامَة»،قَالَ:فَقَامَ إِلَيْه رَجُلٌ أَسْوَدُ منَ الْأَنْصَار كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْه،فَقَالَ:يَا رَسُولَ الله،اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ،قَالَ:«وَمَا لَكَ؟» قَالَ:سَمعْتُكَ تَقُولُ:كَذَا وَكَذَا،قَالَ:«وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ،مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ منْكُمْ عَلَى عَمَلٍ،فَلْيَجئْ بقَليله وَكَثيره،فَمَا أُوتيَ منْهُ أَخَذَ،وَمَا نُهيَ عَنْهُ انْتَهَى» رواه مسلم[١٥٣٩]

وعَنْ أَبي أُمَامَةَ،عَنِ النَّبيِّ ﷺ:قَالَ:«مَا منْ رَجُلٍ يَلي أَمْرَ عَشْرَة،فَمَا فَوْقَ ذَلكَ إِلَّا أُتيَ يَوْمَ الْقيَامَة يَدُهُ مَغْلُولَةٌ إِلَى عُنُقه،فَكَّهُ برُّهُ،أَوْ أَوْثَقَهُ إِثْمُهُ،أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ،وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ،وَآخرُهَا خزْيٌ يَوْمَ الْقيَامَة» رواه أحمد[١٥٤٠].

[١٥٣٧] - صحيح ابن حبان - محققا (٨/ ٦٤)(٣٢٧٠) والمعجم الكبير للطبراني (٦/ ١٧)(٥٣٦٣) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ١٢٧)(٢٢٤٦١) صحيح لغيره

[١٥٣٨] - سنن أبي داود (٣/ ١٣٤)(٢٩٤٣) صحيح

أَيْ جَعَلْنَاهُ عَاملًا (عَلَى عَمَلٍ):أَيْ منْ أَعْمَال الْوِلَايَة وَالْإِمَارَة (فَرَزَقْنَاهُ):أَيْ فَأَعْطَيْنَاهُ (رزْقًا):أَيْ مقْدَارًا مُعَيَّنًا (فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلكَ):جَزَاءُ الشَّرْط،وَ (مَا) مَوْصُولَةٌ،وَالْعَائدُ مَحْذُوفٌ،وَقَوْلُهُ (فَهُوَ غُلُولٌ) خَبَرُهُ جيءَ بالْفَاء لتَضَمُّنه مَعْنَى الشَّرْط،وَيَجُوزَ أَنْ تَكُونَ مَوْصُوفَةً،وَالْغُلُولُ بضَمَّتَيْنِ:الْخيَانَةُ في الْغَنيمَة وَفي مَال الْفَيْء"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٣٥)

[١٥٣٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٥)٣٠ - (١٨٣٣) [ش (مخيطا) هو الإبرة]

مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ منْكُمْ) أَيْ جَعَلْنَاهُ عَاملًا (عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا) أَيْ أَخْفَى عَلَيْنَا (مخْيَطًا) بكَسْر الْميم وَسُكُون الْخَاء أَيْ إِبْرَةً (فَمَا فَوْقَهُ) أَيْ فَشَيْئًا يَكُونُ فَوْقَهُ في الصِّغَر أَو الْكبَر،قَالَ الطِّيبيُّ:الْفَاءُ في قَوْله " فَمَا فَوْقَهُ " للتَّعْقيب عَلَى التَّوَالي،وَمَا فَوْقَهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ به الْأَعْلَى أَو الْأَدْنَى كَمَا في قَوْله - تَعَالَى - {بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [البقرة:٢٦] وَذُكرَ هَذَا الْحَديثُ في بَاب الزَّكَاة اسْتطْرَادًا للْحَديث السَّابق في ذكْر الْعَمَل وَالْخيَانَة (كَانَ) أَيْ ذَلكَ الْكتْمَانُ (غُلُولًا) بضَمِّ الْمُعْجَمَة أَيْ خيَانَةً في الْغَنيمَة (يَأْتي به) أَيْ بمَا غَلَّ (يَوْمَ الْقيَامَة) تَفْضيحًا لَهُ،قَالَ - تَعَالَى - {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْت بمَا غَلَّ يَوْمَ الْقيَامَة} [آل عمران:١٦١]مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٧١)

[١٥٤٠] - المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٧٣)(٧٧٢٤) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٦٣٥)(٢٢٣٠٠) صحيح لغيره

وقال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه " بَابُ يُسْتَحَبُّ لِلْكَاتِبِ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا عَاقِلًا،ثم أورد ما جاء عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِت،قَالَ:بَعَثَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ لِمَقْتَلِ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:" إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ:إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِقُرَّاءِ القُرْآنِ،وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِقُرَّاءِ القُرْآنِ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا،فَيَذْهَبَ قُرْآنٌ كَثِيرٌ،وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ القُرْآنِ "،قُلْتُ:«كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟»،فَقَالَ عُمَرُ:هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ،فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِي ذَلِكَ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ عُمَرَ،وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ،قَالَ زَيْدٌ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ:«وَإِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ،لاَ نَتَّهِمُكَ قَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ،فَاجْمَعْهُ»،قَالَ زَيْدٌ:فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ بِأَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا كَلَّفَنِي مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ [ص:٧٥]،قُلْتُ:كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ:«هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ»،فَلَمْ يَزَلْ يَحُثُّ مُرَاجَعَتِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ،وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَيَا،فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ،أَجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ وَالرِّقَاعِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ،فَوَجَدْتُ فِي آخِرِ سُورَةِ

إِلَّا أَتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)؛أَيْ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ،أَوْ مَلَائِكَتُهُ حَالَ كَوْنِهِ (مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَفِي نُسْخَةٍ:إِلَّا أَتَى اللَّهَ وَهُوَ ظَاهِرٌ مُوَافِقٌ لِمَا فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ)؛أَيْ مُنْضَمَّةٌ إِلَيْهَا،قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ (يَدُهُ) يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا ب (مَغْلُولًا)،(وَإِلَى عُنُقِهِ) حَالٌ،وَعَلَى هَذَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا ب (مَغْلُولًا)،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً وَ (إِلَى عُنُقِهِ) خَبَرُهُ،وَالْجُمْلَةُ إِمَّا مُسْتَأْنَفَةٌ،أَوْ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ،وَحِينَئِذٍ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؛إِمَّا ظَرْفٌ لَ (أَتَاهُ) وَهُوَ الْأَوْجَهُ،أَوْ لِ (مَغْلُولًا)،وَإِذَا كَانَتْ مُسْتَأْنَفَةً كَانَتْ بَيَانًا لِ (مَغْلُولًا)،وَالْجُمْلَتَانِ مُسْتَأْنَفَتَانِ مَبْنِيَّتَانِ لِلْمَجْمُوعِ،كَأَنَّ سَائِلًا سَأَلَ أَوَّلًا عَنْ كَيْفِيَّةِ هَيْئَةِ الْمَغْلُولِ؟ فَأُجِيبَ:يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ،ثُمَّ سَأَلَ ثَانِيًا:فِيمَا يَجْرِي عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُجِيبَ:(فَكَّهُ بِرُّهُ) بِكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ؛أَيْ خَلَّصَهُ عَدْلُهُ وَإِحْسَانُهُ (أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ)؛أَيْ أَهْلَكَهُ ظُلْمُهُ وَعِصْيَانُهُ (أَوَّلُهَا)؛أَيِ ابْتِدَاءُ الْإِمَارَةِ (مَلَامَةٌ)؛أَيْ عِنْدَ أَهْلِ السَّلَامَةِ (وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ)؛أَيْ لِلنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (وَآخِرُهَا)؛أَيْ نَتِيجَتُهَا (خِزْيٌ)؛أَيْ فَضِيحَةٌ تَامَّةٌ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فَإِنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ،وَبِهَذَا يَرْتَفِعُ سُؤَالٌ وَجَوَابٌ؛أَوْرَدَهُمَا الطِّيبِيُّ حَيْثُ قَالَ:فَإِنْ قُلْتَ آخِرُ الشَّيْءِ مُنْقَضَاهُ،فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَتَخَلَّلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا هُوَ أَخِرُهُ غَيْرُهُمَا،وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِمَارَةَ تَنْقَضِي فِي الدُّنْيَا،فَكَيْفَ يَكُونُ الْخِزْيُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِرَهُ؟ قُلْتُ:تُعْتَبَرُ صِفَةُ الْإِمَارَةِ مُسْتَمِرَّةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ،ثُمَّ قَالَ:قَوْلُهُ:أَوَّلُهُمَا مَلَامَةٌ؛إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ يَتَصَدَّى لِلْوِلَايَةِ الْغَالِبَ غَيْرُ مُجَرِّبٍ لِلْأُمُورِ،يَنْظُرُ إِلَى مَلَاذِهَا ظَاهِرًا فَيَحْرِصُ فِي طَلَبِهَا،وَيَلُومُهُ أَصْدِقَاؤُهُ،ثُمَّ إِذَا بَاشَرَهَا يَلْحَقُهُ تِبَاعَتُهَا وَمَا تَئُولُ إِلَيْهِ مِنْ وَخَامَةِ عَاقِبَتِهَا؛نَدَمٌ وَفِي الْآخِرَةِ خِزْيٌ وَنَكَالٌ.وَهَذَا عَلَى رَأْيِ مَا قَالَ:إِنَّ الْجُمَلَ الْمُتَنَاسِقَةَ؛إِذَا أُتِيَ بِقَيْدٍ بَعْدَهَا بِالْأَخِيرِ،وَأَمَّا مَنْ قَالَ:إِنَّهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهَا تَكُونُ الْمَلَامَةُ وَالنَّدَامَةُ وَالْخِزْيُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ قَوْلُهُ:أَتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ،فَإِنَّ إِتْيَانَهُ مَغْلُولًا يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ هُوَ الذُّلُّ وَالْهَوَانُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤١٧)

التَّوْبَة:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة:١٢٨].إِلَى آخِرِهَا مَعَ خُزَيْمَةَ،أَوْ أَبِي خُزَيْمَةَ،فَأَلْحَقْتُهَا فِي سُورَتِهَا،وَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَيَاتَهُ،حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ،حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ،ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ،قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ:" اللِّخَافُ:يَعْنِي الخَزَفَ "[١٥٤١]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَكْتَبَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَرْقَمَ فَكَانَ يَكْتُبُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَرْقَمَ ،وَكَانَ يُجِيبُ عَنْهُ الْمُلُوكَ ،فَبَلَغَ مِنْ أَمَانَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ فَيَكْتُبَ،ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَكْتُبَ وَيَخْتِمَ وَلَا يَقْرَأَه – لِأَمَانَتِهِ عِنْدَهُ – ثُمَّ اسْتَكْتَبَ أَيْضًا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَكَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ ،وَيَكْتُبُ إِلَى الْمُلُوكِ أَيْضًا ،وَكَانَ إِذَا غَابَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَرْقَمَ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَاحْتَاجَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى بَعْضِ أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ وَالْمُلُوكِ ،أَوْ يَكْتُبَ لِإِنْسَانٍ كِتَابًا يُقْطِعَهُ،أَمَرَ جَعْفَرًا أَنْ يَكْتُبَ،وَقَدْ كَتَبَ لَهُ عُمَرُ وَعُثْمَانُ وَكَانَ زَيْدٌ وَالْمُغِيرَةُ وَمُعَاوِيَةُ وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ قَدْ سُمِيَّ مِنَ الْعَرَبِ "[١٥٤٢]

وإذا قدم الإمام غير المستحق للولاية مع الوجود الأولى فقد خان في أداء الأمانة،وفي هذه الحالة لا يقر على فعله،ويحاسب ويحاكم أمام القضاء الشرعي الذي يفصل النزاع في أي الناس أولى بالولاية،لقول الله تبارك وتعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩].

ولا تجوز تولية الكفار والمنافقين في الولايات العامة كالإمارة والوزارة ونحوها،وقد قال الله تبارك وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

[١٥٤١] - صحيح البخاري (٩/ ٧٤)(٧١٩١)

[ش (يحث مراجعتي) يراجعني بصورة متواصلة مظهرا حرصه على ذلك العمل ويحرضني على الإسراع به.(محمد بن عبيد الله) هو شيخ البخاري الذي روى عنه هذا الحديث.(اللخاف) جمع لخفة وهي حجر أبيض عريض رقيق وقد فسر بالخزف قال في المصباح المنير الخزف الطين المعمول آنية قبل أن يطبخ وهو الصلصال فإذا شوي فهو الفخار.وفي المعجم الوسيط هو الفخار نفسه.]

[١٥٤٢] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٥)(٢٠٤٠٥) صحيح

(١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)} [آل عمران:١١٨ - ١٢٠]

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ عَنِ اتِّخَاذِ الكُفَّارِ وَاليَهُودِ وَالمُنَافقينَ بطَانَةً وَخَوَاصَّ لَهُمْ مِنْ دُونِ المُؤْمنينَ،يُطْلعُونَهُمْ عَلَى سرِّهِمْ،وَمَا يُضْمِرُونَ لأعْدَائِهِمْ.لأنَّ هَؤُلاءِ لاَ يَأْلُونَ جُهْداً،وَلاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْ عَمَلٍ فيه إِيْذَاءٌ وَإِضْرَارٌ بالمُؤْمنينَ،في دينهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ وُقُوعَ المُؤْمنينَ في الضِّيقِ وَالمَشَقَّة.وَلَقَدْ بَدَت البَغْضَاءُ وَالعَدَاوَةُ في أَفْوَاههِمْ بمَا يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ كَلِمَاتِ الحقْد،وَصُدُورُهُمْ تُخْفِي حقْداً أَكْبَرَ،وَبُغْضاً أَعْظَمَ للإسْلاَمِ وَأَهْله،وَهُوَ أمْرٌ لاَ يَخْفَى عَلَى عَاقلٍ،وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى الدَّلاَلاَت الوَاضحَةَ التي يُعْرَفُ بِهَا الوَلِيُّ منَ العَدُوِّ.

إنَّكُمْ تُحِبُّونَ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ الذينَ هُمْ أشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَكُمْ،وَلاَ يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِكُمْ،وَتَمَنِّي عَنَتكُمْ.وَيُظْهِرُونَ لَكُمُ العَدَاوَةَ وَالغشَّ،وَيَتَرَبَّصُونَ بكُمْ رَيْبَ المَنُونِ،فَكَيْفَ تُوادُّونَهُمْ وَتُواصلُونَهُمْ،وَهُمْ لاَ يُحبُّونَكُمْ لا ظَاهراً وَلاَ بَاطناً،وَتُؤْمنُونَ بالكتَاب الذي أنْزلَ عَلَيْكُمْ،وَبالكُتُب التي أُنْزلَتْ قَبْلَهُ،وَلَيْسَ لَدَيْكُمْ شَيءٌ منَ الشَّكِّ في شَيءٍ منْهَا،وَهُمْ لاَ يُؤْمنُونَ بكتَابكُمْ،وَعنْدَهُمْ منْ كتَاب الله شَكٌّ وَحَيرَةٌ،فَأَنْتُمْ أَحَقُّ ببُغْضهِمْ منْهُمْ لَكُمْ،فَإذَا لَقُوكُمْ قَالُوا:آمَنَّا إرْضَاءً لَكُمْ،وَحَذَراً منْهُمْ عَلَى أنْفُسهِمْ منْكُمْ.وَإذَا فَارَقُوكُمْ،وَاخْتَلَوا بأَنْفُسهِمْ،عَضُّوا عَلَيْكُمْ أَطْرَافَ أصَابعهِمْ منْ غَيْظهِمْ منْكُمْ،فَقُلْ لَهُمْ:مُوتُوا بغَيْظكُمْ فَلَنْ يَضُرَّنَا ذَلكَ شَيئاً،وَاللهُ مُتمُّ نعْمَتَهُ عَلَى المُؤْمنينَ،وَاللهُ هُوَ الذي يَعْلَمُ مَا في الصُّدُورِ منَ البَغْضَاءِ وَالحَسَد وَالغلِّ للْمُؤْمنينَ.

وَلشدَّة عَدَاوَة هَؤُلاءِ الكُفَّارِ وَالمُنَافقينَ للْمُؤْمنينَ يَسُوؤُهُمْ مَا يُصيبُ المُؤْمنينَ منْ خَيْرٍ منْ رَبِّهِمْ - نَصْرٌ أَوْ رِبْحٌ أَوْ خَصْبٌ - كَمَا يَسُرُّهُمْ مَا يَنْزلُ بالمُؤْمنينَ منْ بَلاَءٍ وَسُوْءٍ وَهَزيْمَة.وَيَنْصَحُ اللهُ المؤْمنينَ بالتَّحَلِّي بالصَّبْر والتَّقْوى،وَالتَّوَكُّلِ عَلَى الله للنَّجاة منْ كَيْدهِمْ وَأَذَاهُمْ،لأَنَّهُ مُحيطٌ بما يَعْمَلُونَ،وَكُلُّ شَيءٍ بمَشيئَته وَقَدَره.[١٥٤٣]

[١٥٤٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١١،بترقيم الشاملة آليا)

وعَنْ أَبِي الدِّهْقَانَةِ،قَالَ:قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ:إِنَّ هَهُنَا غُلَامًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ،لَمْ يُرَ قَطُّ أَحْفَظُ مِنْهُ،وَلَا أَكْتَبُ مِنْهُ،فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ تَتَّخِذَهُ كَاتِبًا بَيْنَ يَدَيْكَ،إِذَا كَانَتْ لَكَ الْحَاجَةُ شَهِدَكَ،قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ:«قَد اتَّخَذْتُ إِذَنْ بِطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» رواه ابن أبي شيبة[١٥٤٤]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ} [آل عمران:١١٨] يَقُولُ:لَا تَسْتَشِيرُوا الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِكُمْ"[١٥٤٥]

وعَنِ الْأَزْهَرِ بْنِ رَاشِدٍ ،قَالَ:كَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ،فَإِذَا حَدَّثَهُمْ بِحَدِيثٍ لَا يَدْرُونَ مَا هُوَ،أَتَوُا الْحَسَنَ فَفَسَّرَ لَهُمْ،فَحَدَّثَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا "،فَأَتَوَا الْحَسَنَ،فَقَالُوا:إِنَّ أَنَسًا حَدَّثَنَا الْيَوْمَ بِحَدِيثٍ،لَا نَدْرِي مَا هُوَ؟ قَالَ:وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ فَذَكَرُوهُ،قَالَ:نَعَمْ،أَمَّا قَوْلُهُ:" لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا،فَإِنَّهُ يَقُولُ:لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ مُحَمَّدًا،وَأَمَّا قَوْلُهُ:" لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ " فَإِنَّهُ يَقُولُ:لَا تَسْتَشِيرُوا الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِكُمْ،وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران:١١٨] "[١٥٤٦]

وقال ابن جرير رحمه الله:" وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} [آل عمران:١١٨] فَإِنَّهُ يَعْنِي:وَدُّوا عَنَتَكُمْ،يَقُولُ:يَتَمَنَّوْنَ لَكُمُ الْعَنَتَ وَالشَّرَّ فِي دِينِكُمْ وَمَا يَسُوءُكُمْ وَلَا يَسُرُّكُمْ.ذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يُخَالِطُونَ حُلَفَاءَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ مِنْهُمْ،وَيُصَافُونَهُمُ الْمَوَدَّةَ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ،فَنَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَأَنْ يَسْتَنْصِحُوهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:" كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُوَاصِلُونَ رِجَالًا مِنَ الْيَهُودِ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْجِوَارِ وَالْحِلْفِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ،فَنَهَاهُمْ عَنْ مُبَاطَنَتِهِمْ تَخَوُّفَ الْفِتْنَةِ

[١٥٤٤] - مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٢٥٩)(٢٥٨٧٢) فيه جهالة

[١٥٤٥] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ٧٤٣)(٤٠٣٦) صحيح

[١٥٤٦] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٦)(٢٠٤٠٨) صحيح

عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ} [آل عمران:١١٨] إِلَى قَوْلِهِ: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [آل عمران:١١٩]

وعَنْ مُجَاهِد،فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران:١١٨] «فِي الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ،نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَوَلَّوْهُمْ»

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} [آل عمران:١١٨] «نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَدْخِلُوا الْمُنَافِقِينَ أَوْ يُؤَاخُوهُمْ،أَيْ يَتَوَلَّوْهُمْ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» وعَنِ الرَّبِيعِ،قَوْلُهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران:١١٨] يَقُولُ:«لَا تَسْتَدْخِلُوا الْمُنَافِقِينَ،تَتَوَلَّوْهُمْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ»"[١٥٤٧]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا - أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ - حَتَّى يَدَعَهَا:إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ،وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ "[١٥٤٨]

[١٥٤٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٧٠٩)

[١٥٤٨] - صحيح البخاري (٣/ ١٣١)(٢٤٥٩)

(أَرْبَعٌ) أَيْ خِصَالٌ أَرْبَعٌ،أَوْ أَرْبَعٌ مِنَ الْخِصَالِ،فَسَاغَ الِابْتِدَاءُ بِهِ (مَنْ كُنَّ فِيهِ) قِيلَ بِتَأْوِيلِ اعْتِقَادِ اسْتِحْلَالِهِنَّ (كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا) وَيُمْكِنُ أَلَّا يَجْتَمِعْنَ فِي مُؤْمِنٍ خُصُوصًا عَلَى وَجْهِ الِاعْتِيَادِ،وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ:(وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ) أَيْ مِنْ تِلْكَ الْخِصَالِ الْأَرْبَعِ (كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا) أَيْ يَتْرُكَهَا (إِذَا اؤْتُمِنَ) بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَيْ وُضِعَ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ (خَانَ) أَيْ بِالتَّصَرُّفِ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ (وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ) أَيْ عَمْدًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ (وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ) أَيْ يَنْقُضُ الْعَهْدَ ابْتِدَاءً،وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:إِذَا حَالَفَ تَرَكَ الْوَفْدَ (وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) أَيْ شَتَمَ وَرَمَى بِالْأَشْيَاءِ الْقَبِيحَةِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:مَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ وَاسْتَمَرَّتْ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ مُنَافِقًا،وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ الْمَفْتُونُ بِهَا فَإِنَّهُ لَا يُصِرُّ عَلَيْهَا،وَإِنْ وُجِدَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهَا عَدِمَ الْأُخْرَى،قِيلَ:وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ كَالْمُنَافِقِ بِحَذْفِ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ مِثْلَ " زَيْدٌ أَسَدٌ "،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُخْتَصًّا بِأَهْلِ زَمَانِهِ،فَإِنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَرَفَ بِنُورِ الْوَحْيِ بَوَاطِنَ أَحْوَالِهِمْ،وَمَيَّزَ بَيْنَ مَنْ آمَنَ بِهِ صِدْقًا وَمَنْ أَذْعَنَ لَهُ نِفَاقًا،وَأَرَادَ اطِّلَاعَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِمْ لِيَحْذَرُوا مِنْهُمْ،وَلَمْ يُصَرِّحْ بِأَسْمَائِهِمْ؛لِعِلْمِهِ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ يَتُوبُ،فَلَمْ يَفْضَحْهُمْ بَيْنَ النَّاسِ؛وَلِأَنَّ تَرْكَ التَّصْرِيحِ أَوْقَعُ فِي النَّصِيحَةِ،وَأَدَلُّ عَلَى الشَّفَقَةِ،وَأَجْلَبُ إِلَى الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ،وَأَبْعَدُ عَنِ النُّفُورِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالِالْتِحَاقِ بِالْمُخَالِفِينَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٢٨)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ:إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ "متفقٌ عليه[1549]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،وَأَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَا:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُقَرِّبُونَ شِرَارَ النَّاسِ،وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا،فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَا يَكُونَنَّ عَرِيفًا،وَلَا شُرْطِيًّا،وَلَا جَابِيًا،وَلَا خَازِنًا» رواه ابن حبان في صحيحه[1550]

وفي سنن البيهقي الكبرى عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عِيَاضًا الْأَشْعَرِيَّ،أَنَّ أَبَا مُوسَى،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَفَدَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ،وَمَعَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ ،فَأَعْجَبَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا رَأَى مِنْ حِفْظِهِ ،فَقَالَ:" قُلْ لِكَاتِبِكَ يَقْرَأُ لَنَا كِتَابًا " ،قَالَ:إِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ ،لَا يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ ،فَانْتَهَرَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،وَهَمَّ بِهِ ،وَقَالَ:" لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ ،وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ ،وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ "

وفي رواية عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى فِي أَدِيمٍ وَاحِدٍ ،وَكَانَ لِأَبِي مُوسَى كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ ،يَرْفَعُ إِلَيْهِ ذَلِكَ ،فَعَجِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،وَقَالَ:" إِنَّ هَذَا لَحَافِظٌ " وَقَالَ:" إِنَّ لَنَا كِتَابًا فِي الْمَسْجِدِ ،وَكَانَ جَاءَ مِنَ الشَّامِ فَادْعُهُ فَلْيَقْرَأْ " ،قَالَ:أَبُو مُوسَى:إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" أَجُنُبٌ هُوَ؟ " ،قَالَ:لَا ،بَلْ نَصْرَانِيٌّ قَالَ:فَانْتَهَرَنِي ،وَضَرَبَ فَخِذِي ،وَقَالَ:" أَخْرِجْهُ " ،وَقَرَأَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١] " قَالَ أَبُو مُوسَى:وَاللهِ مَا تَوَلَّيْتُهُ ،إِنَّمَا كَانَ يَكْتُبُ قَالَ:أَمَا وَجَدْتَ [ص:٢١٧] فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ يَكْتُبُ لَكَ؟ لَا تُدْنِهِمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ ،وَلَا تَأْمَنْهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ ،وَلَا تُعِزَّهُمْ بَعْدَ إِذْ أَذَلَّهُمُ اللهُ ،فَأَخْرِجْهُ "[1551]

وعَنْ أَبِي هِلَالٍ الطَّائِيِّ،عَنْ أُسَّقَ،قَالَ:كُنْتُ مَمْلُوكًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَأَنَا نَصْرَانِيٌّ،فَكَانَ يَعْرِضُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَيَقُولُ:" إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَى أَمَانَتِي فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِي أَنْ

[1549] - صحيح البخاري (٨/ ٢٥)(٦٠٩٥) وصحيح مسلم (١/ ٧٨)(١٠٧ - (٥٩)

[1550] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٤٦)(٤٥٨٦) حسن

[1551] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٦)(٢٠٤٠٩) صحيح

أَسْتَعِينَ بِكَ عَلَى أَمَانَةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَسْتَ عَلَى دِينِهِمْ فَأَبَيْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ:لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ،فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَعْتَقَنِي وَأَنَا نَصْرَانِيٌّ وَقَالَ:اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ " رواه ابن سعد[١٥٥٢].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ،فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ» رواه أبو داود[١٥٥٣]

وبوب عليه النووي رحمه الله في رياض الصالحين " باب النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسَيِّد ونحوه "[١٥٥٤]،فإذا كان توقير المنافق بكلمة سيد يسخط الله تعالى،فكيف إذا ساد بالفعل وأصبح وزيرا أو أميرا على المسلمين،فلا شك أن هذا أكبر ضررا على المسلمين،وأعظم جرما من مجرد القول.

[١٥٥٢] - الطبقات الكبرى ط دار صادر (٦/ ١٥٩) حسن

[١٥٥٣] - سنن أبي داود (٤/ ٢٩٥)(٤٩٧٧) صحيح

«لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ»):مَفْهُومُهُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لِلْمُؤْمِنِ:سَيِّدٌ،وَهُوَ لَا يُنَافِي مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ مَرْفُوعًا " «السَّيِّدُ اللَّهُ» "؛لِأَنَّ فِي الْحَقِيقَةِ لَا سِيَادَةَ إِلَّا لَهُ وَمَا سِوَاهُ مَمْلُوكُهُ.(فَإِنَّهُ) أَيِ:الشَّأْنَ أَوِ الْمُنَافِقَ (إِنْ يَكُ سَيِّدًا) أَيْ:سَيِّدَ قَوْمٍ أَوْ صَاحِبَ عَبِيدٍ وَإِمَاءٍ وَأَمْوَالٍ (أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ) أَيْ:أَغْضَبْتُمُوهُ؛لِأَنَّهُ يَكُونُ تَعْظِيمًا لَهُ،وَهُوَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّعْظِيمَ،فَكَيْفَ إِنْ لَمْ يَكُنْ سَيِّدًا بِأَحَدٍ مِنَ الْمَعَانِي،فَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَكُونُ كَذِبًا وَنِفَاقًا وِفَاقًا.وَفِي النِّهَايَةِ:فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ سَيِّدَكُمْ وَهُوَ مُنَافِقٌ،فَحَالُكُمْ دُونَ حَالِهِ وَاللَّهُ لَا يَرْضَى لَكُمْ ذَلِكَ.

قَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ:إِنْ يَكُ سَيِّدًا لَكُمْ فَتَجِبُ عَلَيْكُمْ طَاعَتُهُ،فَإِذَا أَطَعْتُمُوهُ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ،أَوْ لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ،فَإِنَّكُمْ إِنْ قُلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ،فَوَضَعَ الْكَوْنَ مَوْضِعَ الْقَوْلِ تَحْقِيقًا لَهُ.قَالَ:وَفِيهِ أَنَّ قَوْلَ النَّاسِ لِغَيْرِ الْمِلَّةِ كَالْحُكَمَاءِ وَالْأَطِبَّاءِ مَوْلَانَا دَاخِلٌ فِي هَذَا النَّهْيِ وَالْوَعِيدِ،بَلْ هُوَ أَشَدُّ؛لِوُرُودِ قَوْلِهِ تَعَالَى:مَوْلَانَا فِي التَّنْزِيلِ دُونَ السَّيِّدِ.قُلْتُ:إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ تَعْظِيمُهُ،فَلَا شَكَّ فِي عَدَمِ جَوَازِهِ،وَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ أَحَدُ مَعَانِي الْمَوْلَى مِمَّا سَبَقَ فَلَا يَبْعُدُ جَوَازُهُ،لَا سِيَّمَا عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ،وَالْمَخْلَصُ أَنْ يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ التَّوْرِيَةِ،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي تَجْوِيزِ إِطْلَاقِ الْمَوْلَى عَلَى غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ {فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} [الأحزاب:٥]،أَيْ:فِي الْمُسْلِمِينَ وَمَوَالِيكُمْ فِي غَيْرِهِمْ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمَوْلَى وَالسَّيِّدَ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ،وَجَوَازُ إِطْلَاقِهِ وَعَدَمِهِ عَلَى غَيْرِهِ لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنَ الشَّارِعِ،وَلَمْ يَرِدْ نَهْيٌ عَنْ إِطْلَاقِ الْمَوْلَى عَلَى غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ،فَيَجُوزُ عَلَى أَصْلِ الْإِبَاحَةِ وَهُوَ الْمُتَعَارَفُ فِيمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،«وَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ» "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٠٩)

[١٥٥٤] - رياض الصالحين ط الرسالة (ص:٤٨٠)

وعَنْ عُرْوَةَ ،عَنْ أَبِيهِ ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ وَقَّرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ»[1555]

وقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } [الأعراف:١٥٢]

إِنَّ الذينَ اسْتَمَرُوا عَلَى عِبَادَةِ العِجْلِ،كَالسَّامِرِيِّ وَأَشْيَاعِه،سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ عَظِيمٌ مِنْ رَبِّهِمْ في الدَّارِ الآخِرَةِ،وَمَهَانَةٌ شَدِيدَةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا،وَمِثْلُ ذلكَ الجَزَاءِ الشَّدِيدِ يَجْزِي بِهِ اللهُ كُلَّ مَنِ اخْتَلَقَ الكَذِبَ عَلَيْهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ.[1556]

وقد أخرج عبد الرزاق عَنْ أَيُّوبَ ،قَالَ:" كَانَ أَبُو قِلَابَةَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ:{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف:١٥٢] ،قَالَ يَقُولُ أَبُو قِلَابَةَ:«فَهَذَا جَزَاءُ كُلِّ مُفْتَرٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنْ يُذِلَّهُ اللَّهُ»[1557]

وأخرج ابن أبي حاتم عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ:فِي قَوْلِهِ:" {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف:١٥٢] قَالَ:كُلُّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ ذَلِيلٌ "[1558]

[1555] – البدع لابن وضاح (٢/ ٩٧)(١١٩) والشريعة للآجري (٥/ ٢٥٤٢)(٢٠٣٩) والمعجم الأوسط (٧/ ٣٥)(٦٧٧٢) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢١٨) وشعب الإيمان (١٢/ ٥٧)(٩٠١٨) حسن لغيره

(مَنْ وَقَّرَ) بِالتَّشْدِيدِ أَيْ:عَظَّمَ أَوْ نَصَرَ (صَاحِبَ بِدْعَةٍ):سَوَاءٌ كَانَ دَاعِيًا لَهَا أَمْ لَا.قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:كَأَنْ قَامَ وَصَدَّرَهُ فِي مَجْلِسٍ أَوْ خَدَمَهُ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ يُلْجِئُهُ إِلَى ذَلِكَ (فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ) أَيْ:إِسْلَامِهِ أَوْ كَمَالِ إِسْلَامِهِ أَوْ عَلَى هَدْمِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ،أَوِ الْمُرَادُ بِالْإِسْلَامِ السُّنَّةُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّغْلِيظِ،فَإِذَا كَانَ حَالُ الْمُوَقِّرِ كَذَا،فَمَا حَالُ الْمُبْتَدِعِ؟ وَفِيهِ أَنَّ مَنْ وَقَّرَ صَاحِبَ سُنَّةٍ كَانَ الْحُكْمُ بِخِلَافِهِ،وَكَذَا مَنْ أَهَانَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ يُخَالِفُ حُكْمَهُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٧١)

[1556] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٠٧،بترقيم الشاملة آليا)

[1557] – تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل – مخرجا (٥/ ١٥٧١)وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٠/ ٤٦٤) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٦١)(٢٨٨) صحيح

[1558] – تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل – مخرجا (٥/ ١٥٧١) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٠/ ٤٦٥) صحيح

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي إِسْـرَائِيلَ،قَالَ:سَـمِعْتُ سُـفْيَانَ بْـنَ عُيَيْنَةَ،يَقُولُ:" لَا تَجِدُ مُبْتَدِعًا إِلَّا وَجَدْتَهُ ذَلِيلًا أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَـلَّ:{إِنَّ الَّـذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الأعراف:١٥٢] "[١٥٥٩]

وقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ:" لَيْسَ فِي الْأَرْضِ صَاحِبُ بِدْعَةٍ إِلَّا وَهُوَ يَجِدُ ذِلَّةً تَغْشَاهُ ،قَالَ:وَهِيَ فِي كِتَابِ اللهِ ،قَالُوا:وَأَيْنَ هِيَ مِنْ كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ:أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَهُ تَعَالَى {إِنَّ الَّـذِينَ اتَّخَـذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الأعراف:١٥٢] قَالُوا:يَا أَبَا مُحَمَّـدٍ ،هَذِهِ لِأَصْحَابِ الْعِجْلِ خَاصَّةً قَالَ:كَلَّا اتْلُوا مَـا بَعْـدَهَا {وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُفْتَـرِينَ} [الأعراف:١٥٢] فَهِيَ لِكُلِّ مُفْتَرٍ،وَمُبْتَدِعٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "[١٥٦٠]

فلا تجوز تولية أهل البدع والضلال وأهل الفسوق والفجور أمراء على النـاس أو قضـاة أو غيرها من الولايات العامة،فإن في تولية هؤلاء تمكينـا لهـم مـن نشـر بدعتهم،وإضـلال المسلمين،وصدهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



[١٥٥٩] - شعب الإيمان (١٢/ ٧٩)(٩٠٧٧) صحيح

[١٥٦٠] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٨٠) وتفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٥/ ١٥٧١) صحيح

المبحث الخامس عشر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين،وإذا لم يقوموا به جميعا أثم الجميع،وفي المنكر المعين يأثم من علم به و لم ينكره مع قدرته على إنكاره وقد قال الله تعالى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران:١٠٤]

لِتَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَاعَةٌ مُتَخَصِّصَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تَعْرِفُ أَسْرَارَ الأَحْكَامِ،وَحِكْمَةَ التَّشْرِيعِ وَفِقْهَهُ،تَتَوَلَّى القِيَامَ بِالدَّعْوَةِ إلى الدِّين،وَتَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ،وتُحَارِبُ الْمُنْكَرَ،وَتَنْهَى عَنْهُ،وَمِنْ وَاجِبِ كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُحَارِبَ الْمُنْكَرَ مَا اسْتَطَاعَ إلى ذَلِكَ،وَهَؤُلاءِ هُمُ الفَائِزُونَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.[١٥٦١]

إن علماء أهل الكتاب هم الذين أفسدوا على الناس دينهم،فغيروا،وبدلوا،وحرفوا..وهذه خيانة لله،وخيانة للعلم،إذ كان العلماء هم ورثة الأنبياء،وهم المؤتمنون على دعوة السماء،بعد الرسل،يعلّمون الجاهلين،ويهدون الضالين،ويقيمون المنحرفين،فإذا تحول العلماء أنفسهم إلى أدوات هدم وتدمير فى المجتمع،كانت المصيبة قاصمة مهلكة! من أجل هذا،كانت دعوة الله سبحانه وتعالى إلى الأمة الإسلامية،أن تندّب منها أمة،أي جماعة،يتولون قيادة الناس،وهدايتهم إلى سبل الرشاد..

فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..وبهذا يقومون فى المجتمع مقام الأطباء،الذين يرصدن الآفات والأمراض التي تعرض للناس،فيعملون على دفعها،والقضاء عليها..ويمكن أن يكون قوله تعالى:«وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» دعوة للأمة الإسلامية كلها أن تكون على تلك الصفة..أمة تدعو إلى الخير،وتأمر

[١٥٦١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

بالمعروف،وتنهى عن المنكر.ويكون معنى «من» فى «منكم» للبيــان لا للتبعيض،وهــذا مــا يناسب قول الله تعالى بعد هذه الآية:«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّــاسِ تَــأْمُرُونَ بِــالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.»

(١١٠:آل عمران) وسواء أكان الأمر موجها إلى الأمة الإسلامية كلها،أو إلى جماعة العلمــاء المتخيّرة فيها،فإنّ معطيات هذا الأمر واحدة،حيث تكون الأمة كلها منقادة للقيادة الرشــيدة فيها،وهى جماعة العلماء العاملين بعلمهم،الداعين إلى الخير،الآمرين بالمعروف،والنــاهين عــن المنكر،وبهذا تصبح الأمة كلها على هذا الطريق المستقيم.[١٥٦٢]

وليكن منكم أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله {أمــة} أي:جماعــة {يدعون إلى الخير} وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من ســخطه {ويــأمرون بالمعروف} وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه {وينهون عن المنكر} وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه،وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى ســبيله وإرشاد الخلق إلى دينه،ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين،والوعاظ الذين يــدعون أهــل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام،ويدعون المنحرفين إلى الاســتقامة،والمجاهدون في ســبيل الله،والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكــاة والصــوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام،وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومــنعهم من الغش والمعاملات الباطلة،وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليــه الآيــة الكريمة في قوله {ولتكن منكم أمة} إلخ أي:لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهــم في هــذه الأشياء المذكورة،ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به،كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام،وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها،وبناء المــدارس للإرشاد والعلم،ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في النــاس بــالقول والفعــل والمال،وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه،وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمــر

[١٥٦٢] – التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٥٤٢)

بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين،ولهذا قال تعـالى عنـهم:{وأولئـك هـم المفلحون} الفائزون بالمطلوب،الناجون من المرهوب[١٥٦٣]

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير،وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مـدلول النص القرآني ذاته.

فهناك «دعوة» إلى الخير.ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعروف.وهناك «نهي» عن المنكـر.وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان،فإن «الأمر والنهي» لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ..

هذا هو تصور الإسلام للمسألة ..إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى ..سلطة تقوم على الـدعوة إلى الخير والنهي عن الشر ..سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبـل الأخـوة في الله ..سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر ..وتحقيق هـذا المنهج يقتضي «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج.ويقتضي سلطة «تـأمر» بالمعروف «وتنهى» عن المنكر ..فتطاع ..والله يقول:«وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِـإِذْنِ اللَّهِ» ..فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان.فهذا شطر.أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي،على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية،وصيانة تقاليـد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكـل ذي مصلحة،وضـمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره،زاعما أن هـذا هـو الخـير والمعروف والصواب! والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عـن المنكـر - مـن ثم - تكليف ليس بالهين ولا باليسير،إذا نظرنـا إلى طبيعتـه،وإلى اصـطدامه بشـهوات النـاس ونزواتهم،ومصالح بعضهم ومنافعهم،وغرور بعضهم وكبريائهم.

وفيهم الجبار الغاشم.وفيهم الحاكم المتسلط.وفيهم الهابط الذي يكره الصعود.وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد.وفيهم المنحل الذي يكره الجد.وفيهم الظالم الذي يكره العـدل.وفـيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة ..

[١٥٦٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٤٢)

وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف،ويعرفون المنكر.ولا تفلح الأمة،ولا تفلح البشـــرية،إلا أن يسود الخير،وإلا أن يكون المعروف معروفا،والمنكر منكرا ..وهذا ما يقتضي ســـلطة للخـــير وللمعروف تأمر وتنهى ..وتطاع ..

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين:الإيمان بالله والأخوة في الله.لتقوم علـــى هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة،وكلتاهما ضـــرورة مـــن ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة،وكلفها به هذا التكليف.وجعل القيام به شريطة الفلاح.فقال عن الذين ينهضون به:«وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ..

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته.فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية.هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير.المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل.والمنكر فيه هو الشر والرذيلـــة والباطـــل والظلم ..عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر.والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة.والحق فيـــه أقوى من الباطل.والعدل فيه أنفع من الظلم ..فاعل الخير فيه يجد على الخير أعوانـــا.وصـــانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلانا ..ومن هنا قيمة هذا التجمع ..

إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد،لأن كل ما حولـــه وكـــل مـــن حولـــه يعاونه.والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة،لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه.

والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشـــياء والأشـــخاص ..يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافا جوهريا أصيلا.فلا بد إذن مـــن وســـط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة.لا بد له من وسط غير الوسط الجـــاهلي،ومن بيئة غير البيئة الجاهلية.

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له فيحيا فيه هذا التصور،ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية،وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخلـــه تـــؤخر هـــذا النمـــو أو تقاومه.وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بـــالمعروف والنـــهي عـــن المنكر.وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجد من يـــدافعها دون منـــهج الله في الحياة.

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة.الإيمان بالله كـي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص،وترجع إلى ميزان واحد تقوّم به كل ما يعرض لها في الحياة،وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله،وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض ..والأخوة في الله.كـي يقـوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة،وتتضاعف بهمـا مشـاعر الإيثار.الإيثار المنطلق في يسر،المندفع في حرارة،المطمئن الواثق المرتاح.

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى – في المدينة – على هاتين الركيزتين ..علـى الإيمـان بالله:ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله – سبحانه – وتمثّـل صـفاته في الضـمائر وتقـواه ومراقبته،واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال.وعلى الحب.الحب الفياض الرائق،والود.الود العذب الجميل،والتكافل.التكافل الجاد العميق ..وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغا،لولا أنه وقع،لعد من أحلام الحالمين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة،ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة! وهي قصة وقعت في هـذه الأرض.ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان! [١٥٦٤]

وعَنْ طَارِق بْنِ شهَاب قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَة يَوْمَ الْعيد قَبْلَ الصَّلَاة مَـرْوَانُ.فَقَـامَ إِلَيْـه رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَة،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالكَ،فَقَالَ أَبُو سَعيد:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَـا عَلَيْه سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى منْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّـرْهُ بِيَـده،فَإِنْ لَـمْ يَسْـتَطِعْ فَبِلسَانه،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبه،وَذَلكَ أَضْعَفُ الْإِيمَان».رواه مسلم[١٥٦٥]

قَالَ:مَنْ رَأَى) أَيْ:عَلمَ (منْكُمْ مُنْكَرًا) أَيْ:في غَيْره منَ الْمُؤْمنينَ،وَالْخطَابُ للصَّحَابَة أَصَـالَةً وَلغَيْرهمْ منَ الْأُمَّة تَبَعًا،وَفي الْإِتْيَان بِمنِ التَّبْعيضيَّة إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ منْ فُرُوضِ الْكفَايَة،وَإِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يُبَاشرُهُ إِلَّا مَنْ يَعْرفُ مَرَاتبَ الْإِحْسَان وَتَفَاوُت الْمُنْكَرَات،وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُتَّفَق عَلَيْه وَالْمُخْتَلَف فيه منْهَا،وَهَذَا الْمَعْنَى مُقْتَبَسٌ منْ قَوْله تَعَالَى:{وَلْتَكُنْ منْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئكَ هُـمُ الْمُفْلحُـونَ} [آل عمـران:١٠٤] وَخُلَاصَـةُ

[١٥٦٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧١٥)

[١٥٦٥] – صحيح مسلم (١/ ٦٩)(٧٨ – (٤٩)

الْكَلَامِ:مَنْ أَبْصَرَ مَا أَنْكَرَهُ الشَّرْعُ (فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده) أَيْ:بِأَنْ يَمْنَعَهُ بِالْفعْلِ بِأَنْ يَكْسرَ الْآلَات وَيُرِيقَ الْخَمْرَ وَيَرُدَّ الْمَغْصُوبَ إِلَى مَالكه،(فَإِنْ لَمْ يَسْتَطعْ) أَي:التَّغْيِيرَ بِالْيَد وَإِزَالَتَهُ بِالْفعْلِ،لكَوْن فَاعله أَقْوَى منْهُ (فَبِلسَانِه) أَيْ:فَلْيُغَيِّرْهُ بِالْقَوْلِ وَتلَاوَة مَا أَنْزَلَ اللَّهُ منَ الْوَعيد عَلَيْــه،وَذكْرِ الْــوَعْظ وَالتَّخْوِيف وَالنَّصيحَة (فَإِنْ لَمْ يَسْتَطعْ) أَي:التَّغْيِيرَ بِاللِّسَان أَيْضًا (فَبِقَلْبِه) :بِأَنْ لَا يَرْضَــى بِــه وَيُنْكرَ فِي بَاطنه عَلَى مُتَعَاطيه،فَيَكُونُ تَغْيِيرًا مَعْنَوِيًّا إِذْ لَيْسَ فِي وُسْعه إِلَّا هَــذَا الْقَــدْرِ مــنَ التَّغْيِيرِ،وَقيلَ:التَّقْديرُ فَلْيُنْكرْهُ بِقَلْبِه لأَنَّ التَّغْيِيرَ لَــا يُتَصَــوَّرُ بِالْقَلْــب،فَيَكُونُ التَّرْكيــبُ مــنْ بَاب:عَلَفْتُهَا تبْنًا وَمَاءً بَارِدًا.وَمنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَالَّذينَ تَبَوَّءُوا الــدَّارَ وَالْإِيمَــانَ} [الحشــر:٩] (وَذَلكَ) أَي:الْإِنْكَارُ بِالْقَلْب وَهُوَ الْكَرَاهيَةُ (أَضْعَفُ الْإِيمَان) أَيْ:شُعَبِه أَوْ خصَال أَهْله،وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَقَلُّهَا ثَمَرَةً،فَمَنْ غَيَّرَ الْمَرَاتبَ مَعَ الْقُدْرَة كَانَ عَاصيًا،وَمَنْ تَرَكَهَا بلَا قُدْرَة أَوْ يَرَى الْمَفْسَدَةَ أَكْثَرَ وَيُكَرِّرُ مُنْكرًا لقَلْبِه،فَهُوَ منَ الْمُؤْمنينَ.وَقيلَ:مَعْنَاهُ وَذَلكَ أَضْعَفُ زَمَنِ الْإِيمَان،إِذْ لَوْ كَــانَ إِيمَانُ أَهْلِ زَمَانه قَوِيًّا لَقَدَرَ عَلَى الْإِنْكَارِ الْقَوْليِّ أَوِ الْفعْليِّ،وَلَمَا احْتَاجَ إِلَى الاقْتصَارِ عَلَى الْإِنْكَارِ الْقَلْبِيِّ،أَوْ ذَلكَ الشَّخْصُ الْمُنْكرُ بِالْقَلْب فَقَطْ أَضْعَفُ أَهْلِ الْإِيمَان،فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ قَوِيًّا صُلْبًا فــي الدِّين لَمَا اكْتَفَى بِه،وَيُؤَيِّدُهُ الْحَديثُ الْمَشْهُورُ:" «أَفْضَلُ الْجهَاد كَلمَةُ حَــقٍّ عنْــدَ سُــلْطَان جَائرٍ» " وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائمٍ} [المائدة:٥٤] هَــذَا وَقَــدْ قَــالَ بَعْــضُ عُلَمَائنَا:الْأَمْرُ الْأَوَّلُ للْأُمَرَاء،وَالثَّاني للْعُلَمَاء،وَالثَّالثُ لعَامَّة الْمُؤْمنينَ.وَقيلَ:الْمَعْنَى إِنْكَارُ الْمَعْصيَة بِالْقَلْب أَضْعَفُ مَرَاتب الْإِيمَان،لأَنَّهُ إِذَا رَأَى مُنْكَرًا مَعْلُومًا منَ الدِّين بِالضَّرُورَة فَلَمْ يُنْكرْهُ وَلَــمْ يَكْرَهْهُ،وَرَضيَ بِه وَاسْتَحْسَنَهُ كَانَ كَافرًا،وَلَعَلَّ الْإِطْلَاقَ الدَّالَّ عَلَى الْعُمُــوم لإِفَــادَة التَّهْديــد وَالْوَعيد الشَّديد.

قَالَ ابْنُ الْمَلَك - رَحمَهُ اللَّهُ - فَإِنْ قُلْتَ:هَذَا الْحَديثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ،كَمَا ذَهَبَ إِلَيْه الشَّافعيُّ - رَحمَهُ اللَّهُ - فَمَا تَأْوِيلُهُ عنْدَ الْحَنَفيَّة؟ قُلْنَا:مَعْنَاهُ أَضْعَفُ ثَمَرَات الْإِيمَــان وَالْإِنْكَار بِالْقَلْب منْهَا.فَإِنْ قُلْتَ:لَوْ كَانَ كَذَلكَ لَزمَ أَنْ لَا يَخْرُجَ منَ الْإِيمَــان لانْتفَائــه،وَلَيْسَ كَذَلكَ لمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَات،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلكَ منَ الْإِيمَان حَبَّةُ خَرْدَل.قُلْتُ:أَرَادَ بِــه أَنَّ الثَّمَرَات الْقَوِيَّةَ وَالضَّعيفَةَ إِذَا انْتَفَتْ كَانَ الْإِيمَانُ كَالْمَعْدُوم اهـ.وَفيه أَنَّهُ حينَئذ يَرْجعُ الْحَديثُ دَليلًا للْخَصْم،فَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ:التَّقْديرُ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلكَ منْ كَمَال الْإِيمَان أَوْ منَ الْإِيمَان الْكَاملِ

حَبَّةُ خَرْدَلٍ،لَا يُقَالُ هَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى تَحَقُّقِ الْكَمَالِ وَالنُّقْصَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِيمَانِ،فَإِنَّا نَقُولُ:الْخِلَافُ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَهُوَ التَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ،هَلْ هُوَ قَابِلٌ لِلزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ أَمْ لَا؟ بَلِ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ أَيْضًا عَلَى أَنَّ النِّزَاعَ لَفْظِيٌّ،فَإِنَّ نَفْسَ الْإِيمَانِ وَجَوْهَرَهُ لَا يَتَجَزَّأُ،أَوْ إِنَّمَا كَمَالُهُ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَيْهِ وُجُودُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَيْثُ مَدَحَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ عَطَفَ الْأَعْمَالَ عَلَى الْإِيمَانِ،وَقَالَ:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة:٢٧٧] وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعَطْفِ التَّغَايُرُ،وَأَمَّا كَوْنُ الْأَعْمَالِ جُزْءَ الْإِيمَانِ حَقِيقَةً،فَإِنَّمَا هُوَ مَذْهَبُ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ،وَأَمَّا الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ،فَإِمَّا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا،وَإِمَّا بِالنَّظَرِ إِلَى تَعَدُّدِ الْمُؤْمَنِ بِهِ،وَهَذَا بَحْثٌ طَوِيلُ الذَّيْلِ مَحَلُّهُ كُتُبُ الْعَقَائِدِ وَمَبَاحِثُ الْكَلَامِ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْمَرَامِ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمُنْكَرُ حَرَامًا وَجَبَ الزَّجْرُ عَنْهُ،وَإِذَا كَانَ مَكْرُوهًا نُدِبَ،وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ أَيْضًا تَبَعٌ لِمَا يُؤْمَرُ بِهِ،فَإِنْ وَجَبَ فَوَاجِبٌ،وَإِنْ نُدِبَ فَمَنْدُوبٌ،وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ فِي الْحَدِيثِ لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ شَامِلٌ لَهُ،إِذِ النَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ،وَضِدُّ الْمَنْهِيِّ إِمَّا وَاجِبٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ مُبَاحٌ وَالْكُلُّ مَعْرُوفٌ،وَشَرْطُهُمَا أَنْ لَا يُؤَدِّيَ إِلَى الْفِتْنَةِ،كَمَا عُلِمَ مِنَ الْحَدِيثِ،وَأَنْ يُظَنَّ قَبُولُهُ،فَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ فَيُسْتَحْسَنُ إِظْهَارُ شِعَارِ الْإِسْلَامِ،وَلَفْظُ مَنْ لِعُمُومِهِ شَمِلَ كُلَّ أَحَدٍ رَجُلًا أَوِ امْرَأَةً،عَبْدًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ صَبِيًّا مُمَيِّزًا إِذَا كَانَ،وَإِنْ كَانَ يُسْتَقْبَحُ ذَلِكَ فِي الْفَاسِقِ قَالَ تَعَالَى:{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة:٤٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:{لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف:٢] وَأَنْشَدَ:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ...طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ مَرِيضُ

قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ قَوْلَهُ:" فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ " هُوَ أَمْرُ إِيجَابٍ،وَقَدْ تَطَابَقَ عَلَى وُجُوبِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ،وَهِيَ أَيْضًا مِنَ النَّصِيحَةِ الَّتِي هِيَ الدِّيْنُ،وَلَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا بَعْضُ الرَّوَافِضِ،وَلَا يُعْتَدُّ بِخِلَافِهِمْ.قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْمَعَالِي:لَا نَكْتَرِثُ بِخِلَافِهِمْ،وَوُجُوبُهُ بِالشَّرْعِ لَا بِالْعَقْلِ خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ،فَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ وَفَعَلَهُ وَلَمْ يَمْتَثِلِ الْمُخَاطَبُ،فَلَا عَتْبَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ،وَمَا عَلَيْهِ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ،وَمَنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ وَتَرَكَهُ بِلَا عُذْرٍ أَثِمَ،وَقَدْ يَتَعَيَّنُ كَمَا إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا

هُوَ،أَوْ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ،وَكَمَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ غُلَامَهُ عَلَى مُنْكَرٍ.قَالُوا:وَلَا يَسْقُطُ عَنِ الْمُكَلَّفِ لِظَنِّهِ أَنْ لَا يُفِيدَ،بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ،فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ،وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ،وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْآمِرِ وَالنَّاهِي أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْحَالِ مُمْتَثِلًا مَا يَأْمُرُ بِهِ مُجْتَنِبًا مَا يَنْهَى عَنْهُ،بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ مُطْلَقًا،لِأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ شَيْئَانِ أَنْ يَأْمُرَ نَفْسَهُ وَيَنْهَاهَا وَيَأْمُرَ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ،فَإِذَا أَخَلَّ بِأَحَدِهِمَا كَيْفَ يُبَاحُ لَهُ الْإِخْلَالُ بِالْآخَرِ؟ قَالُوا:وَلَا يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِأَصْحَابِ الْوِلَايَاتِ،بَلْ هُوَ ثَابِتٌ عَلَى آحَادِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ كَانُوا يَأْمُرُونَ الْوُلَاةَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ،مَعَ تَقْرِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ وَتَرْكِ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى التَّشَاغُلِ بِهِ،ثُمَّ إِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ وَيَنْهَى مَنْ كَانَ عَالِمًا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ،وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الشَّيْءِ فَإِنْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَالزِّنَا وَالْخَمْرِ وَنَحْوِهَا،فَكُلُّ الْمُسْلِمِينَ عَالِمٌ بِهَا،وَإِنْ كَانَ مِنْ دَقَائِقِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ،وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالِاجْتِهَادِ لَمْ يَكُنْ لِلْعَوَامِّ مُدْخَلٌ فِيهِ،لِأَنَّ إِنْكَارَهُ عَلَى ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ،ثُمَّ الْعُلَمَاءُ إِنَّمَا يُنْكِرُونَ مَا أُجْمِعَ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ،وَأَمَّا الْمُخْتَلَفُ فِيهِ فَلَا إِنْكَارَ فِيهِ،لِأَنَّ عَلَى أَحَدِ الْمَذْهَبَيْنِ كُلُّ مُجْتَهِدٍ نَصِيبٌ،وَيَنْبَغِي لِلْآمِرِ وَالنَّاهِي أَنْ يَرْفُقَ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ،فَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ:مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ نَصَحَهُ وَزَانَهُ،وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ فَضَحَهُ وَشَانَهُ.قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ:إِنَّ هَذَا الْبَابَ بَابٌ عَظِيمٌ فِي الدِّينِ بِهِ قِوَامُ الْأَمْرِ وَمِلَاكُهُ،فَإِذَا فَسَدَ عَمَّ الْعِقَابُ الصَّالِحَ وَالظَّالِمَ.قَالَ تَعَالَى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال:٢٥][١٥٦٦]

فمن رأى منكرا فيغيره باليد عند الاستطاعة،وإذا لم يستطع فبلسانه،فإن لم يستطع فبقلبه،والإنكار بالقلب لا يسقط بحال.

وإذا كان إنكار المنكر يتطلب القدرة،فلا شك أن السلطان أقدر من سائر الرعية،فيجب عليه وعلى جميع الأمراء والوزراء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر من غيرهم،كما يجب على الحكومة الإسلامية تأسيس ولاية الحسبة،وتعين المحتسبين الذين يقومون بأمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر[١٥٦٧].

[١٥٦٦] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٠٨)

[١٥٦٧] – انظر كتاب الحسبة لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيقي

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات على الدولة الإسلامية،التي مكّن الله لها في الأرض،وقد قال الله تعالى:{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)} [الحج:٤٠،٤١]

قوله تعالى:«وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» هو وعد منه سبحانه وتعالى بالنصر للمؤمنين،الذين نصروا الله،وجاهدوا فى سبيله..إنهم نصروا الله إذ نصروا دينه،فكان حقّا على الله أن ينصرهم،كما يقول سبحانه:كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ»(٤٧:الروم) .

وقوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» هو توكيد،بعد توكيد لهذا الوعد الذي وعده الله المؤمنين بالنصر،إذا هم نصروا الله،ودافعوا عن دين الله..وليس وعد الله فى حاجة إلى توكيد،عند المؤمنين بالله،ولكنه مبالغة فى تطمين القلوب،وتثبيت الأقدام،فى تلك الساعات التي تزيغ فيها الأبصار،وتضطرب النفوس،حين تلتقى جماعة المؤمنين،فى أعدادها القليلة،بحشود المشركين،فى جحافلها الجرارة! قوله تعالى:«الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» .يمكن أن يكون الاسم الموصول:«الَّذِينَ» بدلا من الاسم الموصول فى قوله تعالى:«وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» كما يمكن أن يكون بدلا من الاسم الموصول «الَّذِينَ» فى قوله تعالى:«الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ» ..

وعلى أيّ فإن الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق،هم الذين وعدوا بالنصر فى قوله تعالى:«وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» ..فالذين أخرجوا من ديارهم بغير حق،وهم المهاجرون- هم الذين وعدوا بالنصر،لأنهم نصروا الله،فخرجوا من ديارهم وأموالهم،مهاجرين بدينهم الذي هو كل حظهم من هذه الدنيا،والذي باعوا من أجله أنفسهم وأموالهم وديارهم وأوطانهم..

وقوله تعالى:«الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ» - هو عرض للصورة الكريمة التي سيكون عليها هؤلاء المؤمنون الذين أخرجوا

من ديارهم بغير حق،وذلك حين ينصرهم الله،ويمكّن لهم فى الأرض،وتكون لهم القوة والغلب..

إنهم– مع ما ملكت أيديهم من قوة،وما مكّن الله سبحانه وتعالى لهم فى الأرض من سلطان– لن يكونوا على شاكلة هؤلاء الضالّين الذين كانت إلى أيديهم القوة والسلطان،فتسلطوا على عباد الله،ورهقوهم،وأخذوهم بالبأساء والضراء،وأخرجوهم من ديارهم بغير حق..

إن هؤلاء المؤمنين،حين يمكّن الله لهم فى الأرض،سيكونون مصابيح هدى،وينابيع رحمة،للإنسانية كلها،بما يقيمون فيها من موازين الحق،والعدل،وما يغرسون فى آفاقها من مغارس الخير والإحسان..إنهم يقيمون الصلاة،ليستمدوا منها أمداد الهدى من الله..ويؤتون الزكاة،فيكشفون بها الضرّ عن عباد الله..ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..فيصلحون بهذا من سلوك الناس،ويقيمون لهم طرقهم مستقيمة،فلا تتصادم منازعهم،ولا تفسد مشاربهم..

وقد صدق الله وعده،ومكن سبحانه وتعالى للمؤمنين فى الأرض،فكانوا أعلام هدى،وآيات رحمة،وموازين عدل وإحسان بين الناس..وكانوا كما وصفهم سبحانه بقوله:«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» (١١٠:آل عمران) .

قوله تعالى:«وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» ..إشارة إلى نفاد قدرة الله،وأنها بالغة الغاية التي قدّرها الله لها فى هذا المقام،وهى نصر المؤمنين،وإعزازهم،وخذلان المشركين والضالين،وخزيهم..

فعاقبة الأمور،هى ثمراتها الطيبة،إذ كانت الأمور كلها تجرى بأمر الله،وتتحرك بمشيئته..فإذا بلغت غايتها كانت خيرا،وكانت كمالا،وحسنا..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (١٢٨:الأعراف) وقوله سبحانه:«وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى» (١٣٢:طه) .[١٥٦٨]

فجميع الولايات من خلافة أو إمارة أو وزارة أو غيرها المقصود منها القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ليكون الدين كله لله تعالى،ويعم الصلاح بين الناس ويزال الكفر والفساد من المجتمع.

وقد قال الله تبارك وتعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:١١٠]

[١٥٦٨] – التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٤٦)

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ فِي الوُجُودِ،لأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ إِيمَاناً صَادِقاً بِاللهِ،وَيَظْهَرُ أَثَـرُهُ فِي نُفُوسِهِمْ،فَيَنْزِعُهُمْ عَنِ الشَّرِّ،وَيَصْرِفُهُمْ إِلَى الخَيْرِ،فَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَمَا حَرَّمَ اللهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالبَغْيِ.[١٥٦٩]

مما يكبت الضّالين من أهل الكتاب- وخاصّة اليهود- أن يروا نعمة من نعم الله تلبس أهل الإسلام،وخاصة إذا كانت تلك النعمة بين أطواء آية من آيات الله،المترلة على رسول الله،لأهم يعلمون أن ذلك حق لا ريب فيه،وأن تلك النعمة إن لم تكن قد أتت فهي آتية لا ريب فيها،وهذا مما يضاعف حسرهم،ويملأ قلوبهم غيظا وكمدا..

وإذ تلقّى المسلمون قوله تعالى:«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» بالتهليل والتكبير،وبالثناء المستطاب على الله أنّ منّ عليهم هذا الفضل،فرفع قدرهم بين الأمم،وأعلى شأهم فى العالمين- فإن أهل الكتاب- وخاصة اليهود- قد صعقوا لهذه الآية،ودارت رءوسهم بها،وزلزلت أقدامهم منها،وأيقنوا أهم لن يلحقوا بالمسلمين،ولن يقوموا لهم أبد الدهر! وفى قوله تعالى:«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» وفى التعبير بلفظ الماضي «كنتم» ما يشير إلى أن هذا الحكم الذي حكم به الله على هذه الأمة،بأها خير أمة أخرجت للناس- ليس محدودا بزمن من أزماها،ولا مخصوصا بحال من أحوالها..وإنما هو حكم عام مطلق،يشمل الأمة الإسلامية كلها،فى كل أزماها،وفى جميع أحوالها،من عهد النبوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..إنه حكم للأمة الإسلامية فى ماضيها وحاضرها،ومستقبلها.وإن تلقته فى أول وجودها،وفى ساعة مولدها..«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» ! هذا هو حكم الله فيما أحاط به علمه،وفيما قدّره لكل أمة من أجل،ومن رزق!.

وفى قوله تعالى:«أُخْرِجَتْ» تنويه آخر بشأن هذه الأمة،وأها هى المولود الكامل،الذي تمخضت عنه الإنسانية كلها..ولن تلد مثله أبد الدهر!.

وفى قوله سبحانه:«أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» تنويه ثالث بتلك الأمة،فإها لم تخرج من الناس،ولكنها «أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» وكأها هذا من معدن غير معدن الناس،ومن عالم غير عالم الناس،جاءهم

[١٥٦٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

هكذا من عالم الغيب،وأخرجت لهم من حيث لا يتوقعون..من صحراء مجدبة قفر،ومن مجتمع أمّى غارق فى الجهالة!،فقادت ركب الإنسانية،وحررتها من قيود العبودية والظلم.

هذا هو مكاننا– أمة الإسلام– الذي ندبنا الله له،وأحلّنا فيه،وأقامنا عليه..

وإنه لن يزحزحنا عن هذا المقام زمان،ولن يحتله مكاننا أحد..وإننا– أمة الإسلام– على أي حال كنّا،وفى أسوأ وجود لنا– خير أمة أخرجت للناس!.

وإن ميزاننا مهما خفّ فى هذه الحياة فهو أثقل من ميزان أية أمة،وإن بدا فى ظاهرها أنها أقوى قوة،أو أكثر مالا،وأعزّ نفرا!.

ذلك ما ينبغى أن نؤمن به إيمانا راسخا كإيماننا بالله..وإلا كنا مكذبين بآياته،منكرين،أو منتكرين لكتابه! إننا– أمة الإسلام– أشبه بالذهب،بين المعادن الأخرى..قيمته دائما فيه،حتى ولو علا بريقه التراب،وغبّر وجهه دخان الزمن..إنه الذهب على أي حال.

فليكن ذلك شعورنا بأنفسنا،وإيماننا بمكانتنا فى هذه الحياة..ثم ليكن منّا ما يقابل هذا الشعور،وذلك الإيمان،من جدّ،ومن تحصيل لكل معانى الإنسانية الكريمة،ومثلها الرفيعة،فذلك هو الذي يحقق كل معانى الخيرية فينا،ويعرض للناس وللحياة أكمل الكمال منّا..

ومع هذا،فإنه لن ينزع عنا هذا الفضل الذي فضل الله به على هذه الأمة ما يلمّ بنا من ضعف أو يعرض لنا من فتور،أو يقع فى محيطنا من انحراف..فتلك كلها عوارض لا تمسّ الصميم منا،ولا تنقض حكم الله لنا..فنحن– على أية حال نكون عليها– «خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» .

ولسنا بهذا ندعى ما يدّعيه اليهود لأنفسهم من أنهم «شعب الله المختار» .

فنحن شىء،واليهود شىء.نحن تلقّينا كرامة الله وفضله..واليهود رموا بغضب الله ولعنته!!

ذلك أن الله سبحانه،أفاض على اليهود من أفضاله،ومنحهم من نعمه ما لم يمنحه أحدا من العالمين..امتحانا وابتلاء.فلما مكروا بآيات الله،وعصوا رسله،وقتلوا من قتلوا من أنبيائه،وأعنتوا من أعنتوا منهم– أخذهم الله بالبأساء والضرّاء،وساق إليهم نقمه،وشملهم بسخطه،وصبّ عليهم لعنته– وفى هذا يقول الله تعالى فيهم:«فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» (١٣:المائدة) .

أما نحن– أمة الإسلام– فقد فضل علينا بهذا الفضل،وجعله حكما قائما فينا أبدا:«كُنْتُمْ خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» ولن ينقض أبدا هذا الحكم الذي حملته كلمات الله.

وقوله تعالى:«تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» بيـان للصـفات الـتي استحق بها المسلمون أن يكونوا «خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» فمن رسالة هذه الأمة ألا تحتجـز الخير لنفسها،ولا تستأثر به حين يقع ليدها،بل تجعل منه نصيبا تبرّ به الإنسانية كلها،وتشـرك الناس جميعا معها،فيه.

ذلك شأنها فى كل خير تصيبه..فإذا أصاب المسلم مالا،جعل فيه للفقراء والمساكين نصيبا،وآتى منه ذوى القربى واليتامى،وأنفق منه فى سبيل الله،وفى إعلاء كلمة الحقّ..وإذا أصاب هدى من الله،وعرف طريقا إلى الحق،لم يجد لذلك مساغا إلا إذا وجّه الناس إليه،ودلّهم عليه،ولو احتمل فى سبيل ذلك الضرّ والأذى،وعرض نفسه للتلف والهلاك،شأن الطبيب الذي يرى وباء يفتك بالناس،ويذروهم كما تذرو الرياح الهشيم..إنه– والحال كذلك– ينسـى نفسـه،ويدخل فى معركة مع هذا الوباء،غير حاسب حسابا لما قد يقع له من سوء،ولو كان فى ذلـك ذهـاب نفسه! هكذا هو موقف الأمة الإسلامية من الخير الذي ساقه الله إليهـا،على يـد الرسـول الكريم،مما تلقّى من بركات السماء،ورحماتها.«تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» كمـا جاءكم رسول الله يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر..وفى هذا يقول الله تعالى «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياته» .

وفى قوله تعالى:«تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» قدّم الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله،الذي هو مقدّم على كل عمـل طيب،حيـث لا يطيـب العمل،ولا يقبل،إلا مع الإيمان..فكيف يؤخر الإيمان هنا،عن الأمر بـالمعروف والنـهى عـن المنكر؟

والجواب عن هذا من وجهين:

أولا:أن الله سبحانه وتعالى إذ وصف هذه الأمة هذا الوصف الكريم،وحكم لها هـذا الحكـم القاطع اللازم،لم يصفها هذا الوصف و لم يعطها هذا الحكم إلا وهى على الإيمان،مجتمعة هـى عليه ومشتملا هو عليها..فهى ليست مطلق أمة،وإنما هى أمة مسلمة،تلك الأمة التي كانـت

استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،إذ يقولان كما حكاه القرآن عنهما:«رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» (١٣٨:البقرة) .

ثانيا:ذكر الإيمان بالله هنا لم تكن داعيته وصف هذه الأمة بأنها مؤمنة بالله- إذ كان إيمانها بالله،معروفا مقدرا من قبل،وإنما داعية ذكره فى القرآن أنه إيمان على صفة غير ما عليه إيمان المؤمنين من أهل الكتاب!.

والإيمان بالله الذي عليه الأمة الإسلامية،هو إيمان برىء من كل شائبة من شوائب الشرك،وخلص من كل نزغة من نزغات الشك..إنه إيمان مصفّى،يرى فيه المؤمن وجه الحق واضحا مشرقا،إذ لا يتكلف له المؤمن جهدا فى الوصول إليه،ولا تنقطع أنفاسه فى الدوران حوله،لأنه قريب،قريب،يراه العامة والفلاسفة على السواء..إنه:«لا إله إلا الله وحده لا شريك له،له الملك،وله الحمد،يحيى ويميت،وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ذلكم الله ربّ العالمين،وهو ما يقوم به وعليه إيمان المسلمين..بلا فلسفه،ولا كهنة،ولا أحبار،ولا رهبان..إيمان يطمئن إليه قلب الرّاعى بين غنمه،والزارع وراء محراثه،كما يطمئن إليه قلب العالم فى معمله،والفيلسوف فى محراب فلسفته! إيمان بديهة..لا تكدّ ذهنا،ولا تشتت خاطرا،ولا تزعج وجدانا.

وليس كذلك إيمان المؤمنين من أهل الكتاب..إنه إيمان مرهق معقّد،مركّب على قضايا من المقولات الفلسفية والمنطقية،المبنية على معطيات مما وراء الطبيعة،التي تدور بها رءوس العامة،وتضطرب لها عقول العلماء..فإذا آمن مؤمنهم بالله كان بينه وبين الله حجب كثيفة من هذه المقولات،التي لا يستطيع أن يرى الله من خلالها إلّا محاطا بضباب كثير من الشك والارتياب!! فإيمان المسلمين بالله،إيمان..وإيمان أهل الكتاب بالله إيمان..وبين الإيمانين بعد بعيد،وبون شاسع..ومن هنا كان ذكر إيمان المسلمين فى هذا المقام تنويها بهذا الإيمان،وعزلا له عن إيمان المؤمنين من أهل الكتاب،ذلك الإيمان المشوب غير الخالص من العلل والآفات،ولهذا جاء قوله تعالى:

«وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ» جاء بعد «قوله تعالى:وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» داعيا أهل الكتاب أن يؤمنوا إيمانا مصححا مجددا،كإيمان المسلمين..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ» .

وقد كشف القرآن الكريم عن حقيقة الإيمان الذي عليه أهل الكتاب..فقال تعالى:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ» (١٣:البقرة) أي أنهم إذا دعوا إلى الإيمان بالله إيمانا بعيدا عن المماحكات والسفسطات،وعن الألغاز والطلاسم،التي تعمّى على الناس السبيل إلى الطريق المستقيم- إذا دعوا أن آمنوا كما آمن الناس،إيمانا سمحا سهلا واضحا- أبوا وقالوا أنؤمن كما آمن السفهاء من الجهلة والعامّة؟

وقالوا فى أنفسهم:كيف يهتدى أحد إلى الله من هذا الطريق القريب؟

إنّ الله بعبد بعيد،متستر فى حجب جلاله وبهائه،فلا تناله الأبصار،ولا تدركه العقول،وإنه لا بد- والأمر كذلك- من دراسات وفلسفات،وبحوث مضنية مرهقة،حتى يمسك الدارسون،والفلاسفة والباحثون بأذيال هذه الحقيقة الكبرى! هكذا زيّن لهم سوء عملهم فرأوه حسنا.

وقال تعالى أيضا مشيرا إلى أهل الكتاب وإلى إيمانهم:«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» (٨:البقرة) إنه إيمان مشوب بالشك،ومختلط بالضلال..فلا يعدّ،ولا يحسب فى الإيمان الصحيح بحال أبدا.

وفى قوله تعالى:«مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ» إشارة إلى أن قلّة قليلة من هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب قام إيمانهم على التسليم،ولم يقم على الوساوس والهواجس،والضرب فى متاهات لا يهتدى السالك فيها إلى سواء السبيل أبدا..أما الكثرة الكثيرة من أهل الكتاب فهم كما قال الله:«وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ» أي هم مؤمنون ولكنهم فى الوقت نفسه «فاسقون» أي خارجون على الإيمان.[١٥٧٠]

وأخرج ابن جرير عَنْ مُجَاهِد،فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران:١١٠] يَقُولُ:" عَلَى هَذَا الشَّرْطِ أَنْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ،وَتَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ،وَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ،يَقُولُ:لِمَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ " كَقَوْلِهِ:{وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الدخان:٣٢][١٥٧١]

[١٥٧٠] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٥٤٦)

[١٥٧١] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٦٧٣) صحيح

فبالإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نالت الأمة الإسلامية خيريتها على سائر الأمم.
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل أهل الإصلاح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين،وبه تنال الأجور العظيمة والفوز والفلاح،وقد قال الله تبارك وتعالى:{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف:١٥٧].
إِنَّهُمْ الذينَ يَتَّبِعُونَ مُحَمَّداً النَّبِيِّ الأُمِّيَّ،الذي لاَ يَكْتُبُ وَلاَ يَقْرَأُ،وَقَدْ جَاءَ وَصْفُهُ وَالبشَارَةُ به في التَّورَاة وَالإِنْجيلِ،وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ بِفِعْلِ الخَيْرَاتِ،وَبالأَمْر بالَمعْرُوف،وَيَنْهَاهُمْ عَنْ فِعْلِ الُمنْكَرِ،وَيُحلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَات مِنَ الرِّزْق،وَيَضَعُ عَنْهُمُ التَّكَاليفَ الشَّاقَّةَ،كَاشْتِرَاط قَتْلِ النَّفْسِ فِي صِحَّة التَّوْبَة،وَالقصَاصِ فِي القَتْلِ العَمْد أَو الخَطَإ،منْ غَيْرَ شَرْعٍ للدِّيَة،وَقَطْعِ الأَعْضَاءِ الخَاطئَة،وَقَطْعِ مَوْضع النَّجَاسَة منَ الثَّوْبِ،وَتَحْرِيم السَّبْت...فَقَدْ جَاءَ مُحَمَّدٌ بمَا هُوَ يُسْرٌ وسَمَاحَةٌ.
[وَقَالَ رَسُولُ اللهُ ﷺ يُوصِي أَميرينِ أَرْسَلَهُمَا فِي بَعْثَين إلى اليَمَنِ:" بَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا،وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلفَا "] .
وَوَسَّعَ اللهُ عَلَى مُحَمَّد ﷺ أُمُورَهَا،وَسَهَّلَهَا لَهَا،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْه " فَالذينَ آمَنُوا بالرَّسُولِ النَّبيِّ الأُميِّ،حينَ بُعثَ،منْ قَومِ مُوسَى وَعيسَى،وَمنْ كُلِّ أُمَّة،وَعَزَّرُوهُ بأَنْ مَنَعُوهُ وَحَمَوْهُ مِنْ كُلِّ مَنْ يُعَاديه،مَعَ التَّعْظيمِ وَالإجْلاَل،وَنَصَرُوهُ باللِّسَان وَاليَد،وَاتَّبَعُوا النُّورَ الأَعْظَمَ الذي أُنْزِلَ مَعَ رِسَالَته،وَهُوَ القُرآنُ..فَأُولَئكَ هُمُ الُمفْلحُونَ،الفَائزُونَ بالرَّحْمَة وَالرِّضْوَان.[١٥٧٢]
وقال تعالى:{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٧١].

[١٥٧٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١١٢،بترقيم الشاملة آليا)

الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَيْنَهُمْ أُخُوَّةٌ،وَمَوَدَّةٌ،وَتَعَاوُنٌ،وَتَرَاحُمٌ،وَيَتَّصِفُونَ بِالصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ التِي يَأْمُرُهُمْ بِهَا دِينُهُمْ:فَيَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاضَدُونَ وَيَفْعَلُونَ الخَيْرَ،وَيَأْمُرُونَ بِهِ،وَيَنْتَهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ،وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤَدُّونَهَا حَقَّ أَدَائِهَا،وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا،وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَ،وَيَتْرُكُونَ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ.وَالْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الطَّيِّبَةِ الْكَرِيمَةِ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ،وَاللهُ عَزِيزُ الجَانِبِ،يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ،وَهُوَ حَكِيمٌ فِي قِسْمَتِهِ الصِّفَاتِ بَيْنَ خَلْقِهِ،فَجَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ يَخْتَصُّونَ بِالصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ،وَالْمُنَافِقِينَ يَخْتَصُّونَ بِالصِّفَاتِ الذَمِيمَةِ الْمُنْكَرَةِ.[١٥٧٣]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل النجاة من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة،وقد قال الله عز وجل:{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) } [هود:١١٦،١١٧]

لَقَدْ كَانَ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ التِي أَهْلَكَهَا اللهُ بِظُلْمِهَا،جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أُولُو عَقْلٍ،وَرَأْيٍ،وَصَلاَحٍ،يَنْهَوْنَ الْمُفْسِدِينَ عَنِ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَيَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ لِكَيْلاَ يَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابُ اللهِ،لأَنَّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ أَنْ لاَ يُهْلِكَ قَوْماً إِلاَّ إِذَا عَمَّ الفَسَادُ وَالظُّلْمُ أَكْثَرَهُمْ.وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَؤُلاَءِ الأَقْوَامِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ قِلَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ الذِينَ لاَ يُؤْخَذُ بِرَأْيِهِمْ،وَلاَ تُسْمَعُ كَلِمَتُهُمْ،وَلا يُقْبَلُ أَمْرُهُمْ وَنَهْيُهُمْ.أَمَّا الأَكْثَرُونَ فَكَانُوا مِنَ الظَّالِمِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُعَانِدِينَ،فَأَصَرُّوا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ،وَاتَّبَعُوا حَيَاةَ التَّرَفِ وَالفَسَادِ،فَحَالَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الانْتِفَاعِ بِدَعْوَةِ الحَقِّ،فَبَطَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا،وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ،وَقَدْ أَغْرَقُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الجَرَائِمِ التِي وَلَّدَهَا النَّعِيمُ وَالتَّرَفُ،وَاسْتَسْلَمُوا لَهَا،وَلِذَلِكَ رَجَّحُوا مَا أَتَوا بِهِ عَلى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَطَاعَةِ اللهِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ،وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ.

لَيْسَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى،وَلاَ مِنْ عَدْلِهِ فِي خَلْقِهِ،أَنْ يُهْلِكَ القُرَى بِشِرْكِ أَهْلِهَا،مَا دَامُوا مُصْلِحِينَ فِي أَعْمَالِهِمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ،وَالعُمْرَانِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ،فَلاَ يَبْخَسُونَ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ،وَلاَ يَبْطِشُونَ بِالنَّاسِ،وَلاَ يُذِلُّونَ لِمُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ كَقَوْمِ فِرْعَوْنَ،وَلاَ يَرْتَكِبُونَ الفَوَاحِشَ وَلاَ يَقْطَعُونَ السَّبِيلَ،وَلاَ

[١٥٧٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٠٧،بترقيم الشاملة آليا)

يَأْتُونَ فِي نَادِيهِمُ الْمُنْكَرَ،بَلْ لاَ بُدَّ لَهُمْ،لِيَحِقَّ عَلَيْهِمُ العَذَابَ وَالهَلاَكَ،مِنْ أَنْ يَجْمَعُوا إِلى الشِّرْكِ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَالإِسَاءَةِ فِي الأَعْمَالِ وَالأَحْكَامِ،وَأَنْ يَفْعَلُوا الظُّلْمَ الْمُدَمِّرَ لِلْعُمْرَانِ.

فَالأُمَّةُ التِي يَقَعُ فِيهَا الفَسَادُ بِتَعْبِيدِ النَّاسِ لِغَيْرِ اللهِ بِصُورةٍ مِنْ صُوَرِهِ فَيَكُونُ فِيهَا مَنْ يَنْهَضُ لِدَفْعِهِ هِيَ أُمَمٌ نَاجِيَةٌ لاَ يَأْخُذُهَا اللهُ بِالعَذَابِ وَالتَّدْمِيرِ.أَمَّا الأُمَمُ التِي لاَ يَجِدُ فِيهَا الظَّالِمُونَ مَنْ يَرْدَعُهُم وَيَنْهَاهُم عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ فَإِنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعَالَى تُحِقُّ عَلَيْهَا إِمَّا بِهَلاَكِ الاسْتِئْصَالِ،وَإِمَّا بِهَلاَكِ الانْحِلاَلِ وَالاخْتِلاَلِ؟[1574]

أي فهلا كان من القرون التي مضت بقية من الصالحين تنهى عن المعاصي والفساد في الأرض،وقد وجد من هؤلاء قليل من المصلحين الناهين عن المنكر،الذين أنجاهم الله تعالى عند حلول عذابه بأهل الفساد

وقوله تعالى:{وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ} أي استمر الظالمون في ترفهم،وفسقهم،وإجرامهم،و لم يصغوا لنصيحة الناصحين حتى فاجأهم العذاب،وقوله تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} أي وما كان ربك يا محمد بمهلك القرى التي ذكر الله تعالى أمرها بظلم منه،وهم مصلحون مستمسكون بطاعة الله، لم يرتكبوا من المنكرات والمعاصي ما يستحقون عليها العقوبة والهلاك،ولكنه تبارك وتعالى أهلك أهل هذه القرى لكفرهم،وظلمهم،وارتكابهم المنكرات والموبقات.

وقال تعالى:{وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) } [الأعراف:١٦٤ - ١٦٦].

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أنَّ أَهْلَ هَذِهِ القَرْيَةِ صَارُوا ثَلاثَ فِرَقٍ:

- فِرْقَةٍ ارْتَكَبَتِ الْمُحَرَّمَ،وَاحْتَالَتْ فِي صَيْدِ السَّمكِ.
- فِرْقَةٍ نَهَتِ الْمُتَجَاوِزِينَ عَنْ فِعْلِهِمْ هَذا وَاعْتَزَلَتْهُمْ.

[1574] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٥٩٠،بترقيم الشاملة آليا)

– فِرْقَة سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ شَيْئاً وَلَمْ تَنْهَ،ولَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْفِرْقَةِ الْمُنْكِرَةِ:لِمَ تَنْهَوْنَ قَوْماً تَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ مُهْلِكُهُمْ لاسْتِحقَاقِهِمْ عُقُوبَتَهُ وَسَخَطَهُ؟ فَلاَ فَائِدَةَ مِنْ نَهْيِكُمْ إِيَّاهُمْ.فَرَدَّتْ عَلَيهِمْ الفِرْقَةُ النَّاهِيَةُ قَائِلَةً:إنَّ اللهَ أمَرَنَا بِأنْ نَأمُرَ بِالمَعْرُوفِ،وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ،وَنَحْنُ نُذَكِّرُهُمْ لِنَقُومَ بِأمْرِ اللهِ أوَّلاً (مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ)،ثُمَّ إنَّنا نَرْجُو أنْ يَنْتَهِيَ هَؤُلاءِ الْمُتَجَاوِزُونَ حُدُودَ اللهِ عَنْ غَيِّهِمْ،وَيَعُودُوا إلى الصَّوابِ،لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ الاعْتِدَاءَ الذي اقْتَرَفُوهُ.

فَلَمْ يَهْتَمَّ هَؤُلاءِ بِأمْرِ اللهِ،وَلاَ بِتَذْكِيرِ إخْوانِهِمْ،فَجَاءَ أَمْرُ اللهِ فَأخَذَهُمْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ (بَئِيسٍ) بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ،وَنَجّى اللهُ تَعَالَى الذينَ قَامُوا مِنْهُمْ بِأمْرِهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

فَلَمّا اسْتَمَرُّوا فِي عُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ،قَالَ اللهُ لَهُمْ:كُونُوا قِرَدَةً ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ،فَكَانُوا.[1575]

وقال تبارك وتعالى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال:٢٥]

يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وُقُوعِ البَلاَءِ وَالفِتَنِ بَيْنَهُمْ إذَا لَمْ يَقُومُوا بِوَاجِبِهِمْ نَحْوَ دِينِهِم وَجَمَاعَتِهِمْ فِي الجِهَادِ،وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَفِي الضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ،وَفِي النُّصْحِ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ،وَفِي إطَاعَةِ أُوْلِي الأَمْرِ.وَيُنَبِّهُهُمْ تَعَالَى إِلَى أَنَّ العِقَابَ الذِي يُنْزِلُهُ اللهُ بِالأُمَمِ الْمُقَصِّرَةِ بِالقِيَامِ بِوَاجِبَاتِهَا لاَ يُصِيبُ السَّيِّىءَ وَحْدَهُ،وَإنَّمَا يَعُمُّ بِهِ الْمُسِيءَ وَغَيْرَهُ،وَيُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ لِلأُمَمِ التِي تُخَالِفُ سُنَنَهُ وَهُدَى دِينِهِ،وَتُقَصِّرُ فِي دَرْءِ الفِتَنِ،وَفِي التَّعَاوُنِ عَلَى دَفْعِهَا،وَالقَضَاءِ عَلَيْهَا.[1576]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:" {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال:٢٥] قَالَ:أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَيَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ " أخرجه ابن جرير وغيره[1577]

[1575] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١١٩،بترقيم الشاملة آليا)

[1576] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨٦،بترقيم الشاملة آليا)

[1577] – تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل – مخرجا (٥/ ١٦٨٢) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ١١٥) حسن

فالسكوت عن المنكرات من أسباب العقوبات العامة،فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَـــانِ،عَنِ النَّبِـــيِّ ﷺ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» رواه الترمذي[1578]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا رَأَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ نَهَاهُ عَنْهُ تَعْزِيرًا ،فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ يَمْنَعُهُ مَا رَأَى مِنْــهُ أَنْ يَكُــونَ أَكِيلَــهُ وَخَلِيطَهُ وَشَرِيكَهُ - وَفِي حَدِيثِ هَارُونَ وَشَرِيبَهُ ثُمَّ اتَّفَقَا فِي الْمَتْنِ - فَلَمَّا رَأَى اللَّــهُ ذَلِــكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِــكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَــأْمُرُنَّ بِــالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الْمُسِيءِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا أَوْ لَيَضْــرِبَنَّ اللَّــهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[1579]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَــلَ الــنَّقْصُ عَلَــى بَنِــي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِــلُّ لَــكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ [ص:١٢٢] عَلَــى لِسَــانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِــالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[1580]

[1578] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٦٨)(٢١٦٩) حسن

أَيْ:لَيُسْرِعَنَّ (اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ عِنْدِهِ،ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ) أَيْ:لَتَسْأَلُنَّهُ (وَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ):وَالْمَعْنَى:وَاللَّهِ إِنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ وَاقِعٌ إِمَّا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مِنْكُمْ،وَإِمَّا إِنْزَالُ الْعَذَابِ مِنْ رَبِّكُمْ،ثُمَّ عَدَمُ اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي دَفْعِهِ عَنْكُمْ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢١١)

[1579] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١١٨١)(٦٦٦١) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٨٨) حسن

[1580] - سنن أبي داود (٤/ ١٢٢)(٤٣٣٦) حسن

وعَنْ عَبْد الله قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«وَالَّذي نَفْسِي بيَده،لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوف،وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَد الظَّالِم،وَلَيَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْض،وَلَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[1581]

وعَنْ قَيْس،قَالَ:قَالَ أَبُو بَكْر:بَعْدَ أَنْ حَمدَ اللَّهَ،وَأَثْنَى عَلَيْه:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذه الْآيَةَ،وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضعهَا:{عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]،قَالَ:عَنْ خَالد،وَإِنَّا سَمعْنَا النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْه،أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بعقَاب» وَقَالَ عَمْرٌو:عَنْ هُشَيْم،وَإِنِّي سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«مَا منْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فيهِمْ بِالْمَعَاصِي،ثُمَّ يَقْدرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا،ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا،إِلَّا يُوشكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ منْهُ بعقَابٍ» رواه أبو داود والترمذي[1582].

[1581] - المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ١٤٦)(١٠٢٦٧) حسن

[1582] - سنن أبي داود (٤/ ١٢٢)(٤٣٣٨) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٦٧)(٢١٦٨) ومسند أحمد ط الرسالة (١/ ٢٠٨)(٣٠) صحيح

أَي:الْزَمُوا حفْظَ أَنْفُسكُمْ عَنِ الْمَعَاصي،فَإِذَا حَفظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لَمْ يَضُرَّكُمْ إِذَا عَجَزْتُمْ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،ضَلَالُ مَنْ ضَلَّ بِارْتكَاب الْمَنَاهي إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اجْتنَابهَا (فَإِنِّي):قَالَ الطِّيبِيُّ:الْفَاءُ فَصيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَحْذُوف كَأَنَّهُ قَالَ:إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذه الْآيَةَ وَتَجْرُونَ عَلَى عُمُومهَا،وَتَمْتَنعُونَ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَيْسَ كَذَلكَ،فَإِنِّي (سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه - ﷺ- يَقُولُ:إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ) أَيْ:مَعَ الْقُدْرَة عَلَى إِنْكَاره (يُوشكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بعقَابه):قَالَ الطِّيبِيُّ رَحمَهُ اللَّهُ:وَإِنَّمَا قُلْتُ لَيْسَ كَذَلكَ لأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ في أَقْوَامٍ أُمرُوا بِالْمَعْرُوف وَنُهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ،فَأَبَوُا الْقَبُولَ كُلَّ الْإِبَاء،فَذَهَبَتْ أَنْفُسُ الْمُؤْمنينَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ،فَقيلَ لَهُ:عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَمَا كُلِّفْتُمْ منْ إِصْلَاحهَا،وَالْمَشْيَ بهَا في طُرُق الْهُدَى،لَا يَضُرُّكُمُ الضَّلَالُ في دينكُمْ إِذَا كُنْتُمْ مُهْتَدينَ،وَيَشْهَدُ لذَلكَ مَا قَبْلَ هَذه الْآيَة.{وَإِذَا قيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُول} [النساء:٦١] وَهَذَا تَخْصيصٌ بحَسَب الْأَشْخَاص،وَأَمَّا بحَسَب الزَّمَان فَيَدُلُّ عَلَيْه الْحَديثُ الْآتي لأَبي ثَعْلَبَةَ،فَإِنَّ الْعَامَّ قَدْ يَخُصُّ مَرَّةً أُخْرَى اهـ.

لَا يَخْفَى أَنَّهُ غَيْرُ صَحيحِ الْمَبْنَى وَصَريحُ الْمَعْنَى منْ وَجْهَيْن.أَمَّا أَوَّلًا فَقَوْلُهُ:نَزَلَت الْآيَةُ في قَوْمٍ أُمرُوا بِالْمَعْرُوف فَأَبَوْا كُلَّ الْإِبَاء،فَلَا يُعْرَفُ لَهُ أَصْلٌ أَصْلًا،بَلْ وَلَا يُتَصَوَّرُ لَهُ وُجُودٌ أَبَدًا،لأَنَّ منَ الْمَعْلُوم أَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوف إِلَّا الْمُؤْمنُونَ،وَلَا يُمكنُ أَنَّهُمْ يَأْبَوْنَ كُلَّ الْإِبَاء،وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ قَوْمًا ارْتَدُّوا بسَبَب هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى يَصحَّ قَوْلُهُ:فَذَهَبَتْ أَنْفُسُ الْمُؤْمنينَ حَسْرَةً عَلَيْهِمُ إِلَخْ.وَأَمَّا ثَانيًا فَقَوْلُهُ:وَيَشْهَدُ لذَلكَ مَا قَبْلَ هَذه الْآيَة.لَا تَعَلُّقَ لَهُ ببَاب الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مُطْلَقًا،بَلِ الْمَطْلُوبُ منْهُمْ أَنْ يُؤْمنُوا بمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَى الرَّسُول،وَيَتْرُكُوا تَقْليدَ آبَائهمْ في ضَلَالَتهمْ وَإِبَائهمْ،فَأَصَرُّوا عَلَى بُطْلَانهمْ،وَقَالُوا:حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْه آبَاءَنَا فَقَالَ تَعَالَى:{أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة:١٧٠] نَعَمْ وَرَدَ مَا يُنَاسبُ بَيْنَ اقْترَان الْآيَتَيْن عَلَى مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبي حَاتم:أَنَّهُ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذه الْآيَةُ؛لأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُسْلمُ وَيَكْفُرُ أَبُوهُ،وَيُسْلمُ الرَّجُلُ وَيَكْفُرُ أَخُوهُ،فَلَمَّا دَخَلَ قُلُوبَهُمْ حَلَاوَةُ الْإِيمَان دَعَوْا آبَاءَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ فَقَالُوا:حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْه آبَاءَنَا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ هَذِهِ الْآيَةَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]،قَالَ:إِنَّ النَّاسَ يَضَعُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى

أَنْفُسَكُمْ} [المائدة:١٠٥] الْآيَةَ.وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْبَيْضَاوِيِّ،وَالْآيَةُ نَزَلَتْ لَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَتَحَسَّرُونَ عَلَى الْكَفَرَةِ وَيَتَمَنَّوْنَ إِيمَانَهُمْ،وَفِي تَفْسِيرِ الْمُعِينِ الصَّفْوِيِّ:فِي هَذِهِ الْآيَةِ رُخْصَةٌ فِي تَرْكِ الْحِسْبَةِ إِذَا عُلِمَ عَدَمُ قَبُولِهَا،أَوْ فِيهَا مَفْسَدَةٌ،أَوْ إِضْرَارٌ لَهُ مِنْهَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ السَّلَفِ عَلَى ذَلِكَ،وَالْأَحَادِيثُ تَدُلُّ عَلَيْهِ،أَوْ مَعْنَى إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِذَا ائْتَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَمَرْتُمْ بِهِ،وَانْتَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنْهُ،كَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ،عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ.وَرُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ،فَإِنَّ الِاهْتِدَاءَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِإِتْيَانِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ،وَمِنْهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ،أَوِ الْمُرَادُ الْمَنْعُ عَنْ إِهْلَاكِ النَّفْسِ أَسَفًا عَلَى مَا عَلَيْهِ الْكَفَرَةُ وَالْفَسَقَةُ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر:٨] وَقَالَ النَّوَوِيُّ،وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة:١٠٥] الْآيَةَ.فَلَيْسَتْ مُخَالِفَةً لِوُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،لِأَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ فَلَا يَضُرُّكُمْ تَقْصِيرُ غَيْرِكُمْ مِثْلَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام:١٦٤] فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمِمَّا كُلِّفَ بِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا فَعَلَهُ،وَلَمْ يَمْتَثِلِ الْمُخَاطَبُ فَلَا عَتْبَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ.(رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ:إِذَا رَأَوْا) أَيِ:النَّاسُ (الظَّالِمَ) أَيِ:الْفَاسِقَ (فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ) أَيْ:لَمْ يَمْنَعُوهُ عَنْ ظُلْمِهِ (أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ) أَيْ:بِنَوْعٍ مِنَ الْعَذَابِ،فَإِنَّ أَشَدَّ الْحِجَابِ (وَفِي أُخْرَى لَهُ) أَيْ:لِأَبِي دَاوُدَ (مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ،وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ هُوَ النَّائِبُ،أَوِ التَّقْدِيرُ يَعْمَلُ أَحَدٌ فَمَا بَيْنَهُمْ (بِالْمَعَاصِي،ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا،ثُمَّ لَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ ".وَفِي أُخْرَى لَهُ:" مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ):هُمْ صِفَةُ قَوْمٍ أَيْ:إِذَا كَانَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ الْمَعَاصِيَ أَكْثَرَ مِنَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَهَا،فَلَمْ يَمْنَعُوهُمْ عَنْهَا عَمَّهُمُ الْعَذَابُ.

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:يُرَادُ بَعْدَهُ،ثُمَّ لَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ وَهُمْ صِفَةُ قَوْمٍ.قُلْتُ:هَذِهِ التَّقَادِيرُ مُسْتَفَادَةٌ مِمَّا قَبْلَهُ،وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِلَافَ الرِّوَايَةِ فِي صَدْرِ الْحَدِيثِ،وَقَالَ الْبَغَوِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – وَفِي رِوَايَةٍ:«لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،أَوْ لَيَسْتَعْمِلَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ،فَلَيَسُومُنَّكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ،ثُمَّ لَيَدْعُنَّ اللَّهَ خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» .قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:خَافَ الصِّدِّيقُ أَنْ يَتَأَوَّلَ النَّاسُ الْآيَةَ غَيْرَ تَأَوُّلِهَا،فَيَدْعُوهُمْ إِلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ،فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ،وَأَنَّ الَّذِي أُذِنَ فِي الْإِمْسَاكِ عَنْ تَغْيِيرِهِ مِنَ الْمُنْكَرِ هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ الْمُعَاهَدُونَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَتَدَيَّنُونَ بِهِ وَقَدْ صُولِحُوا عَلَيْهِ،فَأَمَّا الْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ وَالرَّيْبُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ.وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،يَعْنِي عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَخُذُوا مِنْهُمُ الْجِزْيَةَ وَاتْرُكُوهُمْ.وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ مَا قُبِلَ مِنْكُمْ،فَإِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ.ثُمَّ قَالَ:إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْهُ أَيْ:قَدْ مَضَى تَأْوِيلُهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلْنَ،وَمِنْهُ أَيْ:وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– وَمِنْهُ أَيْ:وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ،وَمِنْهُ أَيْ:وَيَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ،وَمِنْهُ أَيْ:يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَهُوَ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ،فَمَا دَامَتْ قُلُوبُكُمْ وَأَهْوَاؤُكُمْ وَاحِدَةً،وَلَمْ تُلْبَسُوا شِيَعًا،وَلَمْ يَذُقْ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَأْمُرُوا وَانْهَوْا،فَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْقُلُوبُ وَالْأَهْوَاءُ وَأُلْبِسْتُمْ شِيَعًا،وَذَاقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَامْرُؤٌ وَنَفْسَهُ،فَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ اهــ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢١٢)

غَيْرِ مَوْضعهَا،أَلَا وَإِنِّي سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوَا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْه أَوْ قَالَ:الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بعقَابه».[1583]

وعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشيرٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ:" مَثَلُ القَائمِ عَلَى حُدُود اللَّه وَالوَاقعِ فيهَا،كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفينَةٍ،فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا،فَكَانَ الَّذينَ فِي أَسْفَلهَا إِذَا اسْتَقَوْا منَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ،فَقَالُوا:لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا،فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَميعًا،وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْديهِمْ نَجَوْا،وَنَجَوْا جَميعًا ".رواهُ البخاري[1584].

وعن النعمان بن بَشيرٍ،قال:قال رسولُ الله ﷺ:«مَثَلُ الْقَائمِ عَلَى حُدُود الله وَالْمُدَاهنِ فيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفينَةٍ فِي الْبَحْرِ،فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا،فَكَانَ الَّذي فِي أَسْفَلهَا [يَخْرُجُونَ] وَيَسْتَقُونَ الْمَاءَ،وَيَصُبُّونَ عَلَى الَّذي فِي أَعْلاَهَا؛فَيُؤْذُونَهُمْ؛فَمَنَعُوهُمْ؛فَقَالُوا:لا نَدَعُكُمْ تَمُرُّونَ عَلَيْنَا فَتُؤْذُونَنَا .فَقَالَ الَّذينَ فِي أَسْفَلهَا:أَمَّا إِذْ مَنَعْتُمُونَا فَنَنْقُبُ السَّفينَةَ منْ أَسْفَلهَا وَنَسْتَقي.فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْديهِمْ فَمَنَعُوهُمْ نَجَوْا جَميعًا،وَإِنْ تَرَكُوهُمْ هَلَكُوا جَميعًا» .

وعن النعمان بن بَشيرٍ،قال:سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ:«مُدْهنٌ فِي حُدُود الله،وَالرَّاكبُ حُدُودَ الله،والآمرُ بهَا والنَّاهي عَنْهَا؛كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفينَةٍ منْ سُفُنِ الْبَحْرِ،فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ مُؤَخَّرَ السَّفينَة وَأَبْعَدَهَا منَ الْمرْفَق،وَكَانُوا سُفَهَاءَ،فَكَانُوا إِذَا أَتَوْا عَلَى رحَالِ الْقَوْمِ آذَوْهُمْ،فَقَالُوا:نَحْنُ أَقْرَبُ أَهْلِ السَّفينَة منَ الْمرْفَق وَأَبْعَدُهَا منَ السَّمَاء،فَبَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمرْفَق أَنْ نَخْرقَ السَّفينَةَ،ثُمَّ نَسُدُّهُ إِذَا اسْتَغْنَيْنَا عَنْهُ.فَقَالَ ضُرَبَاؤُهُ منَ السُّفَهَاء:فَافْعَلْ.فَأَهْوَى إِلَى فَأْسٍ فَضَرَبَ بهَا عُرْضَ السَّفينَة،فَأَشْرَفَ عَلَيْه رَجُلٌ وَنَشَدَهُ قَالَ:مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ:نَحْنُ أَقْرَبُكُمْ منَ

[1583] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٥٣٩)(٣٠٤) صحيح

[1584] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٩)(٢٤٩٣)

[ش (القائم على حدود الله) المستقيم مع أوامر الله تعالى ولا يتجاوز ما منع الله تعالى منه والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر.(الواقع فيها) التارك للمعروف المرتكب للمنكر.(استهموا) اقترعوا ليأخذ كل منهم سهما أي نصيبا.(أخذوا على أيديهم) منعوهم من خرق السفينة]

الْمِرْفَقِ وَأَبْعَدُكُمْ مِنْهُ؛أَخْرِقُ دَفَّ هَذِهِ السَّفِينَةِ،فَإِذَا اسْتَغْنَيْنَا عَنْهُ سَدَدْنَاه.قال:لا تَفْعَلْ؛فَإِنَّكَ إِذَنْ تَهْلِكُ وَنَهْلِكُ» .[1585]

وعن الشَّعْبِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،يَقُولُ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" مَثَلُ المُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ،وَالوَاقِعِ فِيهَا،مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً،فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاَهَا،فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا،فَتَأَذَّوْا بِهِ،فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ،فَأَتَوْهُ فَقَالُوا:مَا لَكَ،قَالَ:تَأَذَّيْتُمْ بِي وَلاَ بُدَّ لِي مِنَ المَاءِ،فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ،وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ "[1586]

وعَنْ سَيْفِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ قَالَ:سَمِعْتُ عَدِيَّ بْنَ عَدِيٍّ الْكِنْدِيَّ يَقُولُ:حَدَّثَنِي مَوْلًى لَنَا،أَنَّهُ سَمِعَ جَدِّي يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ،فَلَا يُنْكِرُونَهُ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ» " رواه أحمد [1587]

وعَنِ الْعُرْسِ بْنِ عُمَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى تَعْمَلَ الْخَاصَّةُ بِعَمَلٍ تَقْدِرُ الْعَامَّةُ،أَنْ تُغَيِّرَهُ وَلَا تُغَيِّرُهُ فَذَاكَ حِينَ يَأْذَنُ اللهُ فِي هَلَاكِ الْعَامَّةِ والخاصة»[1588]

[1585] - المعجم الكبير للطبراني من جـ ٢١ (٢١/ ٤٧)(٣١)و(٣٤) صحيح

[1586] - صحيح البخاري (٣/ ١٨١)(٢٦٨٦)

[ش (المدهن) المرائي المضيع للحقوق والذي لا يغير المنكر من الإدهان وهو المحاباة في غير حق.(ينقر) من النقر وهو الحفر في الخشب أو غيره]

[1587] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٤٧٦)(١٣٥٢) والكنى والأسماء للدولابي (١/ ١٣٠) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٢٥٨)(١٧٧٢٠) صحيح لغيره

[1588] - المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ١٣٨)(٣٤٣) صحيح لغيره

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ) أَيِ:الْأَكْثَرَ مِنَ النَّاسِ (بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ) أَيْ:بِعِصْيَانِ الْأَقَلِّ مِنْهُمْ (حَتَّى يَرَوْا) أَيِ:الْأَكْثَرُونَ (الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ) أَيْ:فِيمَا بَيْنَهُمْ ظَاهِرًا فَاشِيًا (وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ):جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ مُعْتَرِضَةٌ احْتِرَازًا عَنْ حَالِ عَجْزِ الْأَكْثَرِ أَيْضًا كَمَا فِي زَمَانِنَا،(فَلَا يُنْكِرُوا):عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ:يَرَوُا الْمُنْكَرَ (فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ) أَيْ:مَا ذُكِرَ مِنْ سُكُوتِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ قُدْرَةِ الْأَكْثَرِ (عَذَّبَ اللَّهُ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ):كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال:٢٥] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢١٩)

وقال الْأَوْزَاعِيُّ :سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ:«إِنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا أُخْفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا،وَإِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ» رواه ابن المبارك في الزهد[1589].

كما أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من موانع تحقق النصر،كما قال تعالى:{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)} [الحج:٤٠،٤١].

كما أن ترك إنكار المنكرات من أسباب اللعن،كما قال تبارك وتعالى:{ {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)} [المائدة:٧٨ - ٨١]

لَعَنَ اللهُ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الزَّبُورِ وَالإِنْجِيلِ،فَقَدْ لَعَنَ دَاوُدُ،عَلَيْهِ السَّلاَمُ،مَنْ اعْتَدَى مِنْهُمْ فِي السَّبْتِ،أَوْ لَعَنَ العَاصِينَ المُعْتَدِينَ مِنْهُمْ عَامَّةً،وَكَذَلِكَ لَعَنَهُمْ عِيسَى بِن مَرْيَمَ،وَسَبَبُ ذَلِكَ اللَّعْنِ هُوَ تَمَادِيهِمْ فِي العِصْيَانِ،وَتَمَرُّدُهُمْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ،وَتَمَادِيهِمْ فِي الظُّلْمِ وَالفَسَادِ (بِمَا كَانُوا يَعْتَدُونَ) .فَقَدْ كَانُوا لاَ يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَداً عَنِ مُنْكَرٍ يَقْتَرِفُهُ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ القُبْحِ وَالضَّرَرِ.وَالنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ هُوَ حِفَاظُ الدِّينِ،وَسِيَاجُ الفَضَائِلِ وَالآدَابِ،فَإِذَا تَجَرَّأَ المُسْتَهْتِرُونَ عَلى إِظْهَارِ فِسْقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ،وَرَآهُمُ الغَوْغَاءَ مِنَ النَّاسِ قَلَّدُوهُمْ فِيهِ،وَزَالَ قُبْحُهُ مِنْ نُفُوسِهِمْ،وَصَارَ عَادَةً لَهُمْ،وَزَالَ سُلْطَانُ الدِّينِ مِنْ قُلُوبِهِمْ،وَتُرِكَتْ أَحْكَامُهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ،وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إلى فَشْوِ المُنْكَرَاتِ فِيهِمْ.وَيُقَبِّحُ اللهُ تَعَالَى سُوءَ فِعْلِهِمْ،وَيَذُمُّهُمْ عَلَى اقْتِرَافِ المُنْكَرَاتِ،وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهَا وَسُكُوتِ الآخَرِينَ عَنْهَا،وَرِضَاهُمْ بِهَا.

وَتَرَى يَا مُحَمَّدُ كَثِيراً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ،يَتَوَلَّوْنَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْرِكِي العَرَبِ وَيُحَالِفُونَهُمْ عَلَيْكَ،وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى قِتَالِكَ،وَأَنْتَ تُؤْمِنُ بِاللهِ،وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ،وَتَشْهَدُ لَهُمْ

[1589] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٤٧٥)(١٣٥٠) وشرح السنة للبغوي (١٤/ ٣٥٠) صحيح

بِصِدْقِ الرِّسَالَةِ،وَأُولَئِكَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِكِتَابٍ وَلاَ رَسُولٍ،وَلاَ يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ،وَلَولا اتِّبَاعُ الهَوَى،وَتَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ،مَا فَعَلُوا ذَلِكَ،فَبِئْسَ مَا قَدَّمُوهُ لأَنْفُسِهِمْ فِي آخِرَتِهِمْ مِنَ الأَعْمَالِ التِي اسْتَوْجَبَتْ سَخَطَ اللهِ،وَعَظِيمَ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ،وَسَيُجْزَوْنَ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الجَزَاءِ،وَسَيُحِيطَ بِهُمُ العَذَابُ،وَلا يَجِدُونَ عَنْهُ مَصْرِفاً،وَيَخْلُدُونَ فِي النَّارِ أَبَداً.[1590]

صفات وأخلاق الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر

لا بد للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر سواء كان من رجال الحسبة أو غيرهم أن يتحلى بالصبر،وأن يتحمل الأذى الذي يصيبه إذا أمر الناس بالمعروف،ونهاهم عن المنكر،وقد أخبر الله تعالى عن لقمان أنه قال لابنه:{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان:١٧]

قَالَ لُقمَانُ لابنه،يَا بُنَيَّ أَدِّ الصَّلاَة فِي أَوْقَاتِها،وَأَتْمِمْهَا بِرُكُوعِها وَسُجُودِها وَخُشُوعِها،لأَنَّ الصَّلاةَ تُذَكِّرُ العَبْدَ بِرَبِّهِ،وَتَحْمِلُهُ عَلَى فِعْلِ المَعْرُوفِ،والانْتِهَاءِ عَنْ فِعْلِ المُنْكَرِ،وإذا فَعَلَ الإنسَانُ ذلكَ تَصْفُو نَفْسُهُ وَتَسْمُو،وَيَسْهُلُ عَلَيها احْتِمَالُ الصِّعَابِ فِي اللهِ،ثُمَّ حَثَّ لُقْمَانُ ابْنَهُ عَلَى احتِمَالِ أَذَى النَّاسِ إذا قَابَلُوه بالسُّوءِ والأَذَى عَلَى حَثِّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى فِعْلِ الخَيرِ،والانْتِهَاءِ عَنْ فِعْلِ المُنْكَرِ،ثُمَّ قَالَ لَهُ:إِنَّ هذا الذي أَوْصَاهُ بِهِ هُوَ مِنَ الأمُورِ التِي يَنْبَغِي الحِرْصُ عَليها،والتَّمَسُّكُ بِهَا (مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) .[1591]

وينبغي أن يكون حليما لا يغضب لنفسه وينتقم لها،بل يكون غضبه وانتقامه لله تبارك وتعالى فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّهَا قَالَتْ:«مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا،مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا،فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ،وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ،إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ،فَيَنْتَقِمَ بِهَا لِلَّهِ» متفقٌ عليه[1592] .

[1590] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٤٨،بترقيم الشاملة آليا)

[1591] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

[1592] - صحيح البخاري (٨/ ٣٠)(٦١٢٦)

كما لا بد أن يتصف بالرفق في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر،فعَنْ عَائِشَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«يَا عَائِشَةُ» إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ،وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ،وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ " رواه مسلم[١٥٩٣]

الرِّفْقُ:بِالْكَسْرِ ضِدُّ الْعُنْفِ وَهُوَ الْمُدَارَاةُ مَعَ الرُّفَقَاءِ وَلِينُ الْجَانِبِ وَاللُّطْفُ فِي أَخْذِ الْأَمْرِ بِأَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَيْسَرِهَا،وَأَمَّا الْحَيَاءُ فَقَالَ الْحُكَمَاءُ:هُوَ تَغَيُّرٌ وَانْكِسَارٌ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ خَوْفِ مَا يُلَامُ بِهِ.وَقَالَ الْجُنَيْدُ:حَالَةٌ تَتَوَلَّدُ مِنْ رُؤْيَةِ الْآلَاءِ وَالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ النَّعْمَاءِ.وَقَالَ ذُو النُّونِ:الْحَيَاءُ وُجُودُ الْهَيْبَةِ فِي الْقَلْبِ مَعَ وَحْشَةِ مَا سَبَقَ مِنْكَ إِلَى رَبِّكَ.وَقَالَ الدَّقَّاقُ:هُوَ تَرْكُ الدَّعْوَى بَيْنَ يَدَيِ الْمَوْلَى،وَأَمَّا حُسْنُ الْخُلُقِ فَقَالُوا:هُوَ الْإِنْصَافُ فِي الْمُعَامَلَةِ وَبَذْلُ الْإِحْسَانِ وَالْعَدْلُ فِي الْأَحْكَامِ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ هُوَ الِاتِّبَاعُ بِمَا أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ - ﷺ - مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ

مَا خُيِّرَ) أَيْ:مَا جُعِلَ مُخَيَّرًا (رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ) أَيِ:اخْتَارَ كَمَا فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ (أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ) أَيِ:الْأَمْرُ الْأَيْسَرُ (إِثْمًا) أَيْ:ذَا إِثْمٍ.وَفِي رِوَايَةِ.التِّرْمِذِيِّ مَا لَمْ يَكُنْ مَأْثَمًا أَيْ إِثْمًا أَوْ مَوْضِعَ إِثْمٍ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ،أَوِ اسْمُ مَكَانٍ،وَإِلَى هُنَا انْتَهَتْ رِوَايَةُ التِّرْمِذِيِّ.(فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ)،أَيْ:وَكَانَ حِينَئِذٍ يَأْخُذُ أَرْشَدَهُمَا وَلَوْ أَعْسَرَهُمَا وَأَشَدَّهُمَا.قَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ:أُبْهِمَ فَاعِلُ خَيْرٍ لِيَكُونَ أَعَمَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ قِبَلِ الْمَخْلُوقِينَ،أَوْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى،لَكِنَّ التَّخْيِيرَ يُبَيِّنُ مَا فِيهِ إِثْمٌ وَيُبَيِّنُ مَا لَا إِثْمَ فِيهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ مُشْكِلٌ،لِأَنَّ التَّخْيِيرَ بِمَا يَكُونُ بَيْنَ جَائِزٍ إِلَّا إِذَا حَمَلْنَا عَلَى مَا يُفْضِي إِلَى الْإِثْمِ،فَذَلِكَ مُمْكِنٌ بِأَنْ يُخَيَّرَ بَيْنَ أَنْ يُفْتَحَ عَلَيْهِ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ مَا يَخْشَى مِنَ الِاشْتِغَالِ بِهِ أَنْ لَا يَتَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ،وَبَيْنَ أَنْ لَا يُؤْتِيَهُ لَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا الْكَفَافَ،وَإِنْ كَانَ السَّعَةُ أَسْهَلَ فَالْإِثْمُ عَلَى هَذَا أَمْرٌ نِسْبِيٌّ لَا مَا يُرَادُ بِهِ الْخَطِيئَةُ لِثُبُوتِ الْعِصْمَةِ.(وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ) أَيْ:مَا غَاضَبَ أَحَدًا لِنَفْسِهِ) أَيْ:لِأَجْلِ حَظِّهَا (فِي شَيْءٍ) أَيْ:يَتَخَلَّقُ بِنَفْسِهِ)،أَيْ أَبَدًا (إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ يُرْتَكَبُ (فَيَنْتَقِمُ):بِالرَّفْعِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ أَيْ:فَيُعَاقِبُ حِينَئِذٍ (اللَّهُ) أَيْ:لَا لِغَرَضٍ آخَرَ (بِهِمْ) .أَيْ بِسَبَبِ تِلْكَ الْحُرْمَةِ ثُمَّ انْتِهَاكُ الْحُرْمَةِ تَنَاوُلُهَا بِمَا لَا يَحِلُّ.يُقَالُ:فُلَانٌ انْتَهَكَ مَحَارِمَ اللَّهِ أَيْ:فَعَلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِعْلَهُ عَلَيْهِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ أَيْ:مَا عَاقَبَ أَحَدًا لِخَاصَّةِ نَفْسِهِ بِجِنَايَةٍ جَنَى عَلَيْهِ،بَلْ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا فَعَلَ شَيْئًا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} [النور:٢] .قَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ:الْمَعْنَى مَا انْتَقَمَ لِحَاجَةِ نَفْسِهِ،فَلَا يُرَدُّ أَمْرُهُ - ﷺ- بِقَتْلِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَطَلٍ وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَنْتَهِكُونَ حُرُمَاتِ اللَّهِ.وَقِيلَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ السَّبِّ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الْكُفْرِ،وَقِيلَ:يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِالْمَالِ،وَأَمَّا الْعِرْضُ فَقَدِ اقْتَصَّ مِمَّنْ نَالَ مِنْهُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧١٥)

[١٥٩٣] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠٣)٧٧ - (٢٥٩٣)

[ش (ويعطي على الرفق) أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره وقال القاضي معناه يتأتى به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره (العنف) بضم العين وفتحها وكسرها حكاهن القاضي وغيره الضم أفصح وأشهر وهو ضد الرفق]

وَآدَاب الطَّرِيقَة،وَأَحْوَال الْحَقِيقَة،وَلذَا «لَمَّا سُئِلَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنْ خُلُقه عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْوَارد في حَقِّه " {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤] " فَقَالَتْ:كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ» تَعْني أَنَّ كُلَّ مَا فيه منْ خَصْلَة مَحْمُودَة كَانَ يَتَّصفُ بهَا وَكُلُّ فعْلَة مَذْمُومَة فيه يَجْتَنبُ عَنْهَا،ثُمَّ الاتِّبَاعُ بقَدْرِ الْمَحَبَّة وَتَوْفيقُ الْمُتَابَعَة بأَخْذ كُلٍّ سَهْمه وَنَصيبه وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلكَ الشَّاطبيُّ - رَحمَهُ اللَّهُ - في وَصْفه للْقُرَّاء:

أُولُو الْبرِّ وَالْإِحْسَان وَالصَّبْر وَالتُّقَى ...حُلَاهُمْ بهَا جَاءَ الْقُرْآنُ مُفَصَّلًا.

إنَّ اللَّهَ رَفيقٌ) أَيْ:لَطيفٌ بعبَاده،يُريدُ بهمُ الْيُسْرَ وَلَا يُريدُ بهمُ الْعُسْرَ،فَيُسَامحُهُمْ وَلَا يُكَلِّفُ فَوْقَ وُسْعهمْ،أَوْ يُحبُّ أَنْ يَرْفُقَ الْعبَادُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا بَيَّنَهُ بقَوْله:(يُحبُّ الرِّفْقَ) أَيْ:يَرْضَى به وَيُثْني عَلَيْه (وَيُعْطي عَلَى الرِّفْق) أَي:الْمَثُوبَات وَالْمَآربَ أَوْ منَ الْأَغْرَاض وَالْمَطَالب (مَا لَا يُعْطي عَلَى الْعُنْف) :بالضَّمِّ في الْقَامُوس هيَ مُثَلَّثَةُ الْعَيْن ضدُّ الرِّفْق (وَمَا لَا يُعْطي عَلَى مَا سوَاهُ) أَيْ:سُوء الرِّفْق،وَهُوَ الْعُنْفُ،فَفي الْكَلَام زيَادَةُ مُبَالَغَة وَتَأْكيدٌ للْحُكْم،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ التَّقْديرَ مَا سوَى الرِّفْق منَ الْخصَال الْحَسَنَة.قَالَ الْقَاضي:وَالظَّاهرُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إطْلَاقُ الرَّفيق عَلَى اللَّه تَعَالَى اسْمًا لأَنَّهُ لَمْ يَتَوَاتَرْ وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ أَيْضًا عَلَى قَصْد الاسْميَّة،وَإِنَّمَا أُخْبرَ عَنْهُ تَمْهيدًا للْحُكْم الَّذي بَعْدَهُ،فَكَأَنَّهُ قَالَ:هُوَ الَّذي يَرْفُقُ عبَادَهَ في أُمُورهمْ فَيُعْطيهمْ بالرِّفْق مَا لَا يُعْطيهمْ عَلَى مَا سوَاهُ،وَإِنَّمَا ذَكَرَ قَوْلَهُ وَمَا لَا يُعْطي عَلَى مَا سوَاهُ بَعْدَ قَوْله:مَا لَا يُعْطي عَلَى الْعُنْف،ليَدُلَّ عَلَى أَنَّ الرِّفْقَ أَنْجَحُ الْأَسْبَاب كُلِّهَا وَأَنْفَعُهَا بأَسْرهَا.قَالَ الطِّيبيُّ:وَفي مَعْنَاهُ قَوْلُ الشَّاعر:

يَا طَالبَ الرِّزْق الْهَنيِّ بقُوَّة ...هَيْهَاتَ أَنْتَ ببَاطلٍ مَشْغُوفُ

أَكَلَ الْعُقَابُ بقُوَّة جيفَ الْفَلَا ...وَرَعَى الذُّبَابُ الشَّهْدَ وَهُوَ ضَعيفُ

وَالْمَعْنَى يَنْبَغي للْمَرْء أَنْ لَا يَحْرصَ في رزْقه،بَلْ يَكلُ أَمْرَهُ إلَى اللَّه تَعَالَى الَّذي تَوَلَّى الْقسْمَةَ في خَلْقه،فَالنِّسْرُ يَأْكُلُ الْجيفَةَ بعُنْفه،وَالنَّحْلُ يَرْعَى الْعَسَلَ برفْقه.قَالَ التُّوربشْتيُّ:فَإِنْ قيلَ:فَمَا مَعْنَى قَوْله عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:أَنْتَ رَفيقٌ وَاللَّهُ الطَّبيبُ؟ قُلْنَا:الطَّبيبُ الْحَاذقُ بالشَّيْء الْمَوْصُوفُ،وَلَمْ يَردْ بهَذَا الْقَوْل نَفْيَ هَذَا الاسْمَ عَمَّنْ يَتَعَاطَى ذَلكَ،وَإِنَّمَا حَوَّلَ الْمَعْنَى منَ الطَّبيعَة إلَى الشَّريعَة،وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الَّذي يَرْجُونَ منَ الطَّبيب فَاللَّهُ فَاعلُهُ،وَالْمَنَّانُ به عَلَى عبَاده وَهَذَا كَقَوْله:فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ:وَلَيْسَ الطَّبيبُ بمَوْجُود في أَسْمَاء اللَّه تَعَالَى،وَلَا الرَّفيقُ،فَلَا

يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِي الدُّعَاءِ يَا طَبِيبُ وَلَا يَا رَفِيقُ اهــ.وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُقَــالَ:هُــوَ الطَّبِيبُ وَهُوَ رَفِيقٌ عَلَى مِنْوَالِ مَا وَرَدَ،وَأَمَّا قَوْلُهُ - ﷺ - فِي آخِرِ كَلَامِهِ عِنْدَ خُرُوجِــهِ مِــنَ الدُّنْيَا:الرَّفِيقُ الْأَعْلَى،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ اللَّهُ،وَأَنْ يُرَادَ لَهُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى،فَمَعَ الِاحْتِمَالِ لَا يَصِــحُّ الِاسْتِدْلَالُ.وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ،قَالَ الْمَازِرِيُّ:لَا يُوصَفُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا بِمَا سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ أَوْ سَمَّاهُ بِهِ رَسُولُهُ - ﷺ - أَوْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَيْهِ،وَأَمَّا مَا لَــمْ يَــرِدْ بِــهِ إِذْنٌ فِــي إِطْلَاقِهِ،وَلَا وَرَدَ مَنْعٌ فَفِيهِ خِلَافٌ،مِنْهُمْ مَنْ قَالَ يَبْقَى عَلَى مَا كَانَ قَبْــلُ،وَوُرُودُ الشَّــرْعِ فَلَــا يُوصَفُ بِهِ،وَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ،وَبَيْنَ الْأُصُولِيِّينَ خِلَافٌ فِي تَسْمِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى.بِمَا ثَبَتَ بِخَبَرِ الْآحَادِ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:يَجُوزُ لِأَنَّ الْخَبَرَ الْوَاحِدَ عَنْهُ يَقْتَضِي الْعَمَلَ بِهِ،وَبَعْضُهُمْ لَا يُجَــوِّزُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْعِلْمِيَّاتِ فَلَا يَثْبُتُ بِالْأَقْيِسَةِ،وَإِنْ كَانَتْ يُعْمَلُ بِهَا فِي الْمَسَــائِلِ الْفِقْهِيَّــةِ الْعَمَلِيَّةِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:وَالصَّحِيحُ جَوَازُ تَسْمِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَفِيقًا وَغَيْرُهُ بِمَا يَثْبُتُ بِخَبَــرِ الْوَاحِــدِ [١٥٩٤]"

وعَنْ عَائِشَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ،وَلَا يُنْــزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» رواه مسلم[١٥٩٥]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى النَّبِــيِّ ﷺ،فَقَــالُوا:السَّــامُ عَلَيْكَ،فَقُلْتُ:بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ،فقَالَ:«يَا عَائِشَةُ،إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِــي الأَمْــرِ كُلِّهِ» قُلْتُ:أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ:" قُلْتُ:وَعَلَيْكُمْ " متفقٌ عليه[١٥٩٦]

[١٥٩٤] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٧٠)

[١٥٩٥] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠٤)٧٨ - (٢٥٩٤)

[١٥٩٦] - صحيح البخاري (٩/ ١٦)(٦٩٢٧) وصحيح مسلم (٤/ ١٧٠٦)١٠ - (٢١٦٥)

قَالَتْ:اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ) أَيْ:قَوْمٌ (مِنَ الْيَهُودِ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ- فَقَالُوا:السَّامُ عَلَيْكُمْ) أَيْ:وَقَالَ وَعَلَيْكُمْ لِمَا سَيَأْتِي (فَقُلْتُ:،بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ) أَيْ:مَفْهُومُ مَا تُرِيدُونَ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ وَتُحَرِّفُونَهُ لِفَسَادِ الْمَعْنَى (وَاللَّعْنَةُ) أَيْ:زِيَادَةٌ عَنْ ذَلِكَ (فَقَالَ:يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ)،أَيْ:رَحِيمٌ (يُحِبُّ الرِّفْقَ) أَيْ:لِيِّنُ الْجَانِبِ،وَأَصْلُ الرِّفْقِ ضِدُّ الْعُنْفِ (فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ) أَيْ:مَهْمَا أَمْكَنَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ،وَإِلَّا فَقَدَ قَالَ تَعَالَى:{وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التحريم:٩]،(قُلْتُ:أَوَلَمْ تَسْمَعْ) أَيْ:أَلَمْ يَنْكَشِفْ لَكَ وَلَمْ تَسْمَعْ (مَا قَالُوا) أَيْ:حِينَ السَّلَامِ عَلَيْكَ حَيْثُ أَبْدَلُوا السَّلَامَ بِالسَّامِ.(قَالَ:قَدْ قُلْتُ:وَعَلَيْكُمْ) أَيْ:فِقْهًا لِهَذَا الْمَعْنَى،وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْوَاوَ لِاسْتِئْنَافِ الْمَبْنِيِّ (وَفِي رِوَايَةٍ) أَيْ:عَنْهَا،وَإِلَّا فَفِي رِوَايَاتٍ أُخَرَ أَيْضًا وَرَدَّ (عَلَيْكُمْ وَلَمْ يَذْكُرِ الْوَاوَ) أَيْ:بِدُونِ الْوَاوِ،وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ - ﷺ- عَمِلَ بِمُقْتَضَى الْعَدْلِ فَقَالَ:عَلَيْكُمْ أَوْ وَعَلَيْكُمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى:٤٠]،وَأَمَّا عَائِشَةُ - رَضِيَ

وعَنْ جَرِيرٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ،يُحْرَمِ الْخَيْرَ» رواه مسلم[1597].

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي المَسْجِدِ،فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ،فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:«دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ،أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ،فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ،وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» رواه البخاري[1598].

اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا - فَقَدْ زَادَتْ فِي الْمَعْنَى،وَتَعَدَّتْ عَنِ الْمَبْنِيِّ،وَتَرَكَتْ طَرِيقَ اللُّطْفِ،وَاخْتَارَتْ سَبِيلَ الْعُنْفِ،وَلِذَا أَرْشَدَهَا - ﷺ- إِلَى الرِّفْقِ الْمَبْنِيِّ عَلَيْهِ بَابُ الْمُدَارَاةِ وَتَرْكُ الْمُعَادَاةِ وَالْمُعَانَاةِ كَمَا قِيلَ:وَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ.لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُدَارَاةِ وَالْمُدَاهَنَةِ مِمَّا خَفِيَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ،فَسَنُبَيِّنُهُ فِي مَحَلِّهِ اللَّائِقِ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ،ثُمَّ فِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِي التَّنْزِيلِ:" {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [المجادلة:٨] " (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .

(وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ) أَيْ:عَنْهَا («قَالَتْ:إِنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ - ﷺ- فَقَالُوا:السَّامُ عَلَيْكَ.قَالَ:وَعَلَيْكُمْ،قَالَتْ عَائِشَةُ:السَّامُ عَلَيْكُمْ،وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ،وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ»):الظَّاهِرُ أَنَّ الْقِصَّةَ مُتَّحِدَةٌ،وَأَنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى ذِكْرِ اللَّعْنَةِ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ إِمَّا مِنَ الرَّاوِي وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِمَا فِي الْحَدِيثِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْأُخَرِ،أَوْ هُوَ مِنْ بَابِ الِاكْتِفَاءِ حَيْثُ مُؤَدَّاهُمَا وَاحِدٌ.(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- مَهْلًا):مَصْدَرٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ أَيِ:ارْفُقِي رِفْقًا (يَا عَائِشَةُ) .يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُتَمِّمَاتِ السَّابِقِ،وَأَنْ يَكُونَ مِنْ مُقَدِّمَاتِ اللَّاحِقِ،وَهُوَ قَوْلُهُ:(عَلَيْكِ):بِكَسْرِ الْكَافِ (بِالرِّفْقِ):بِكَسْرِ الرَّاءِ،أَيْ:بِلِينِ الْجَانِبِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْهَلِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ (وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ):بِضَمٍّ أَوَّلِهِ،وَهُوَ ضِدُّ الرِّفْقِ (وَالْفُحْشَ):بِضَمٍّ أَوَّلِهِ،وَهُوَ فِي الْأَصْلِ كُلُّ مَا يَشْتَدُّ قُبْحُهُ مِنَ الذُّنُوبِ،وَالْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا التَّعَدِّي بِزِيَادَةِ الْقُبْحِ فِي الْقَوْلِ وَالْجَوَابِ (قَالَتْ:أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ:أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ،رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ،فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ،وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ) أَيْ:إِذَا أَرَادُوا بِالسَّامِ الْأَمْرَ الْمَكْرُوهَ الْمُعَبَّرَ عَنْهُ بِالسَّامِ الَّذِي مَعْنَاهُ الْمَوْتُ (فِيَّ) أَيْ:فِي حَقِّي.

(وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ.قَالَ:«لَا تَكُونِي فَاحِشَةً») أَيْ:قَائِلَةً لِلْفُحْشِ وَمُتَكَلِّمَةً بِكَلَامٍ قَبِيحٍ («فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ»):وَقَدْ مَرَّ مَعْنَاهُ (وَالتَّفَحُّشَ) أَيِ:التَّكَلُّفَ فِي التَّلَفُّظِ بِالْفُحْشِ وَالتَّعَمُّدِ فِيهِ،وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ - ﷺ- لَهَا لِقَوْلِهَا " وَاللَّعْنَةُ " أَوْ " لَعَنَكُمُ اللَّهُ "،وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ صَرِيحَةٌ عَلَى جَوَازِ نَقْلِ الْحَدِيثِ بِالْمَعْنَى،إِذْ لَا خِلَافَ أَنَّهُ مَعَ كَوْنِ الْقَضِيَّةِ وَاحِدَةً مُخْتَلِفُ الْمَبْنَى.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٤١)

[1597] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠٣)٧٤ - (٢٥٩٢)

مَنْ يُحْرَمْ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ مَجْزُومًا.وَقِيلَ مَرْفُوعًا (الرِّفْقَ):بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ أَيْ:مَنْ يَصِرْ مَحْرُومًا مِنْهُ (يُحْرَمِ الْخَيْرَ) أَيْ:كُلَّهُ كَمَا فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ،فَفِيهِ فَضْلُ الرِّفْقِ وَالْحَثُّ عَلَى التَّخَلُّقِ بِهِ وَذَمِّ الْعُنْفِ،وَأَنَّ الرِّفْقَ سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٧١)

[1598] - صحيح البخاري (١/ ٥٤)(٢٢٠)

[ش (أعرابي) هو الأقرع بن حابس وقيل غيره والأعرابي هو من زل من البادية من العرب.(هريقوا) صبوا.(سجلا) الدلو المتلئة ماء.(ذنوبا) الدلو الكبير المتلىء ماء.(لم تبعثوا معسرين) من شأنكم عدم التعسير لما جاء به شرعكم من اليسر ورفع الخحرج والتضييق]

(فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ،فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ):أَيْ:بِأَلْسِنَتِهِمْ سَبًّا وَشَتْمًا.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ:وَقَعُوا فِيهِ يُؤْذُونَهُ.وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَخَذُوهُ لِلضَّرْبِ،وَالْأَظْهَرُ زَجَرُوهُ وَمَنَعُوهُ مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ وَإِيذَاءٍ،كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآتِي،(فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:دَعُوهُ):أَيْ:اتْرُكُوهُ؛فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ؛لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ عَدَمَ جَوَازِ الْبَوْلِ فِي الْمَسْجِدِ؛لِقُرْبِهِ بِالْإِسْلَامِ،وَبُعْدِهِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،وَقِيلَ:لِئَلَّا يَتَعَدَّدَ مَكَانُ النَّجَاسَةِ،وَقِيلَ:لِئَلَّا يَتَضَرَّرَ بِانْحِبَاسِ الْبَوْلِ،(وَهَرِيقُوا):وَفِي نُسْخَةٍ:أَهْرِيقُوا بِسُكُونِ الْهَاءِ بَعْدَ هَمْزَةٍ،وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا فِي الْمَصَابِيحِ،عَلَى مَا نَقَلَهُ ابْنُ الْمَلَكِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:أَمْرٌ مِنْ أَهْرَاقَ يُهْرِيقُ - بِسُكُونِ الْهَاءِ - إِهْرَاقًا نَحْوَ اسْطَاعَ اسْطَاعًا،وَأَصْلُهُ أَرَاقَ،فَأُبْدِلَتِ الْهَمْزَةُ هَاءً،ثُمَّ جُعِلَ عِوَضًا عَنْ ذَهَابِ حَرَكَةِ الْعَيْنِ،فَصَارَتْ كَأَنَّهَا مِنْ نَفْسِ الْكَلِمَةِ،ثُمَّ أُدْخِلَ عَلَيْهَا الْهَمْزَةُ أَيْ:صُبُّوا " عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا " بِفَتْحِ السِّينِ أَيْ:دَلْوًا (مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنُوبًا):بِفَتْحِ الذَّالِ،وَهُوَ الدَّلْوُ أَيْضًا.قَالَ الطِّيبِيُّ:الظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الرَّاوِي،وَقَالَ مِيرَكُ:شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَيَكُونُ لِلتَّخْيِيرِ؛لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ فَرْقٍ،وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ اهـ.

وَمَالَ ابْنُ الْمَلَكِ إِلَى الثَّانِي،وَقَالَ:يَعْنِي خَيَّرَهُمْ بَيْنَ أَنْ يُهَرِيقُوا فِيهِ سَجْلًا غَيْرَ مَلْأَى،أَوْ ذَنُوبًا مَلْأَى.قَالَ الطِّيبِيُّ:السَّجْلُ الدَّلْوُ فِيهِ الْمَاءُ،قَلَّ أَوْ كَثُرَ،وَهُوَ مُذَكَّرٌ،وَالذَّنُوبُ يُؤَنَّثُ،وَهُوَ مَا مُلِئَ مَاءً،فَقَوْلُهُ (مِنْ مَاءٍ):أَيْ:فِي الْمَوْضِعَيْنِ زِيَادَةٌ وَرَدَتْ تَأْكِيدًا اهـ؛لِأَنَّ السَّجْلَ وَالذَّنُوبَ لَا يُسْتَعْمَلَانِ إِلَّا فِي الدَّلْوِ الَّتِي فِيهَا الْمَاءُ،وَقِيلَ:مِنْ لِلتَّبْيِينِ؛لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَاءٍ وَغَيْرِهِ،وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يُجَوِّزُ التَّطْهِيرَ بِغَيْرِ الْمَاءِ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَقَدْ صَرَّحَ الْغَزَالِيُّ فِي الْمَنْخُولِ بِأَنَّ اسْتِدْلَالَ الشَّافِعِيَّةِ بِهَذَا الْخَبَرِ غَيْرُ صَحِيحٍ؛لِأَنَّ الْغَرَضَ قَطْعًا مِنْ تَخْصِيصِ الْمَاءِ مَا اخْتَصَّ بِهِ الْمَاءُ مِنْ عُمُومِ الْمَوْجُودِ،وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْحَدِيثِ الِابْتِدَارُ إِلَى تَطْهِيرِ الْمَسْجِدِ لَا بَيَانُ مَا تُزَالُ بِهِ النَّجَاسَةُ.

قَالَ الْمُظْهِرُ:فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَاءَ إِذَا وَرَدَ عَلَى النَّجَاسَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمُكَاثَرَةِ وَالْمُغَالَبَةِ طَهَّرَهَا،وَعَلَى أَنَّ غُسَالَاتِ النَّجَاسَةِ طَاهِرَةٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا تَغَيُّرٌ،وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُطَهِّرَةً،وَلَوْلَاهُ لَكَانَ الْمَاءُ الْمَصْبُوبُ عَلَى الْبَوْلِ أَكْثَرَ تَنْجِيسًا لِلْمَسْجِدِ مِنَ الْبَوْلِ نَفْسِهِ،قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ لَا يَطْهُرُ حَتَّى يُحْفَرَ ذَلِكَ التُّرَابُ،فَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَجَفَّتْ أَوْ ذَهَبَ أَثَرُهَا طَهُرَتْ عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ حَفْرٍ وَلَا صَبِّ مَاءٍ اهـ.

قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:قَوْلُ صَاحِبِ الْهِدَايَةِ:فَجَفَّتْ بِالشَّمْسِ اتِّفَاقِيٌّ،إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْجَفَافِ بِالشَّمْسِ أَوِ الرِّيحِ،وَالْمُرَادُ مِنَ الْأَثَرِ الذَّاهِبِ اللَّوْنُ أَوِ الرِّيحُ اهـ.

وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ إِذَا أَصَابَتْهَا نَجَاسَةٌ لَا تَطْهُرُ بِالْجَفَافِ،وَلَا يَجِبُ حَفْرُ الْأَرْضِ وَلَا نَقْلُ التُّرَابِ إِذَا صُبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ نَقَلَهُ الطِّيبِيُّ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:لَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَطْهُرُ بِالْجَفَافِ،وَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:كُنْتُ عَزَبًا أَبِيتُ فِي الْمَسْجِدِ،وَكَانَتِ الْكِلَابُ تَبُولُ وَتُقْبِلُ وَتُدْبِرُ فِي الْمَسْجِدِ،فَلَمْ يَكُونُوا يَرُشُّونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ،فَلَوْلَا اعْتِبَارُهَا أَنَّهَا تَطْهُرُ بِالْجَفَافِ كَانَ ذَلِكَ تَبْقِيَةً لَهَا بِوَصْفِ النَّجَاسَةِ،مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ يَقُومُونَ عَلَيْهَا فِي الصَّلَاةِ أَلْبَتَّةَ،إِذْ لَا بُدَّ مِنْهُ مَعَ صِغَرِ الْمَسْجِدِ وَعَدَمِ مَنْ يَتَخَلَّفُ فِي بَيْتِهِ،وَكَوْنُ ذَلِكَ يَكُونُ فِي بُقَعٍ كَثِيرَةٍ حَيْثُ تُقْبِلُ وَتُدْبِرُ وَتَبُولُ،فَإِنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ فِي الِاسْتِعْمَالِ يُفِيدُ تَكْرَارَ الْكَائِنِ مِنْهَا،أَوْ لِأَنَّ تَبْقِيَتَهَا نَجِسَةٌ يُنَافِي الْأَمْرَ بِتَطْهِيرِهِ،فَوَجَبَ كَوْنُهَا تَطْهُرُ بِالْجَفَافِ بِخِلَافِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِهْرَاقِ ذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ؛لِأَنَّهُ كَانَ نَهَارًا،وَقَدْ لَا يَجِفُّ قَبْلَ وَقْتِ الصَّلَاةِ،فَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا بِالْمَاءِ بِخِلَافِ مُدَّةِ اللَّيْلِ؛أَوْ لِأَنَّ الْوَقْتَ كَانَ إِذْ ذَاكَ قَدْ آنَ أُرِيدَ إِذْ ذَاكَ أَكْمَلُ الطَّهَارَتَيْنِ الْمُتَيَسَّرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ،هَذَا إِذَا قُصِدَ تَطْهِيرُ الْأَرْضِ صُبَّ الْمَاءُ عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،وَجُفِّفَتْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِخِرْقَةٍ طَاهِرَةٍ،وَكَذَا لَوْ صُبَّ عَلَيْهَا مَاءٌ بِكَثْرَةٍ،وَلَمْ يَظْهَرْ لَوْنُ النَّجَاسَةِ وَلَا رِيحُهَا،فَإِنَّهَا تَطْهُرُ اهـ كَلَامُهُ.

كما يجب أن يكون على علم وبينة فيما يأمر به الناس من المعروف،وينهاهم عنه من المنكر،فلا يتكلم بما لا يعلم أو بمجرد الظن.

كما يجب على الولاة وغيرهم أن يأمروا الناس بالمعروف ويفعلوه،وينهاهم عن المنكر ولا يقعوا فيه،ولا يكونوا من الذين يأمرون الناس بالتقوى وينسون أنفسهم،وقد قال تعالى:{أَتَـأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:٤٤]

يَنْعِى اللهُ تَعَالَى عَلَى اليَهُودِ – وَهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ – أَنْ يَأْمُرُوا النَّاسَ بِالخَيْرِ وَالبرِّ وَطَاعَةِ اللهِ،فِي حَالِ أَنَّهُمْ يَنْسَوْنَ وَعْظَ أَنْفُسِهِمْ،وَحَمْلَهَا عَلَى طَاعَةِ اللهِ،فَلاَ يَأْتَمِرُونَ بِمَا يَأْمُرُونَ بِهِ غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ،مَعَ أَنَّهُمْ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ المُنْزَلَ إِلَيْهِمْ،وَيَعْلَمُونَ مَا فِيهِ مِنْ عَقَابٍ يَحِلُّ بِمَنْ يُقَصِّرُ فِي القِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللهُ.وَلكِنَّ الأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ مِنْهُمْ لاَ يَذْكُرُونَ مِنَ الحَقِّ إِلاَّ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ،وَلا يَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الأَحْكَامِ إِذَا عَارَضَ شَهَوَاتِهِمْ.[١٥٩٩]

وقال تبارك وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْـدَ اللَّـهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) } [الصف]

وَذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ أَجْوِبَةً عَجِيبَةً بِعِبَارَةٍ غَرِيبَةٍ لَا بَأْسَ بِذِكْرِهَا قَالَ:فَجَوَابُهُ أَنَّ فِي الْمَسْجِدِ يَحْتَمِلُ تَعَلُّقُهُ بِتَبَوَّلَ،وَبِمَا بَعْدَهُ فَقَطْ،فَلَمْ يَكُنْ صَرِيحًا فِي مَذْهَبِ الْخَصْمِ،وَبِتَسْلِيمِ أَنَّهُ عَائِدٌ لِلْجَمِيعِ كَمَا هُوَ الْقَاعِدَةُ،فَيُحْتَمَلُ أَنَّ عَدَمَ الرَّشِّ إِنَّمَا هُوَ لِخَفَاءِ مَحَلِّ بَوْلِهَا،وَعَلَى التَّنَزُّلِ كَانَ هَذَا مِنْ قَبْلُ الْأَمْرِ بِقَتْلِهَا،وَعَلَى التَّنَزُّلِ فَعَدَمُ الرَّشِّ لَا يَسْتَلْزِمُ الطَّهَارَةَ،بَلِ الْعَفْوُ،فَلَا دَلِيلَ فِيهِ لِلْقَائِلِ بِالطَّهَارَةِ.

وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ فِي شَرْحِ الْمَشَارِقِ:اسْتَدَلَّ بِهِ الشَّافِعِيُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ النَّجِسَةَ تَطْهُرُ بِصَبِّ الْمَاءِ عَلَيْهَا بِحَيْثُ يَغْمُرُهَا.قُلْتُ:يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الصَّبُّ تَسْكِينَ رَائِحَةِ تِلْكَ الْحَالَةِ لَا لِلتَّطْهِيرِ،بَلِ التَّطْهِيرُ يَحْصُلُ بِالْيُبْسِ لِخَبَرِ:زَكَاةُ الْأَرْضِ يُبْسُهَا،أَوْ يُقَالُ:رُوِيَ أَنَّ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مَنْفَذًا،فَحِينَئِذٍ كَانَ الْمَاءُ جَارِيًا عَلَيْهِ اهـــ.

لَكِنْ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ:حَدِيثُ " زَكَاةُ الْأَرْضِ يُبْسُهَا " لَا أَصْلَ لَهُ،إِنَّمَا هُوَ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ.أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَهْذِيبِ الْآثَارِ،وَقَالَ السُّيُوطِيُّ:وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمُصَنَّفِ عَنْهُ،وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ،وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَوْلُهُمَا اهـــ.

وَالْمُرَادُ بِأَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ أَبُو الصَّادِقِ (فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ):لَمَّا كَانُوا مُقْتَدِينَ بِالْمَبْعُوثِ وُصِفُوا بِالْبَعْثِ.(مُيَسِّرِينَ):حَالٌ أَيْ:مُسَهِّلِينَ عَلَى النَّاسِ (وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ):عَطْفٌ عَلَى السَّابِقِ عَلَى طَرِيقِ الطَّرْدِ وَالْعَكْسِ مُبَالَغَةً فِي الْيُسْرِ،قَالَهُ الطِّيبِيُّ،أَيْ:فَعَلَيْكُمْ بِالتَّيْسِيرِ أَيُّهَا الْأُمَّةُ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٤٦٠)

[١٥٩٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١،بترقيم الشاملة آليا)

يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَن يَعِدُ وَعْداً،أَوْ يَقُولُ قَوْلاً لاَ يَفِي بِهِ،فَيَقُولُ تَعَالَى:لأَيِّ شَيءٍ تَقُولُونَ لَوَدِدْنَا أَنْ نَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنْ أَفْعَالِ الخَيْرِ،حَتَّى إِذَا طُلِبَ مِنْكُمْ فِعْلُ ذَلِكَ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَفْعَلُوهُ؟ ..

وَأَكَّدَ اللهُ تَعَالَى إِنْكَارَهُ هَذَا عَلَى هَؤُلاَءِ القَائِلِينَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ،فَقَالَ لَهُمْ:إِنَّهُ يَكْرَهُ كُرْهاً شَدِيداً أَنْ تَقُولُوا شَيْئاً لاَ تَفْعَلُونَهُ لأَنَّ الوَفَاءَ بِالعَهْدِ وَالوَعْدِ يُنَمِّي الثِّقَةَ بَينَ أَفْرَادِ الجَمَاعَةِ،كَمَا أَنَّ فُشُوَّ الخُلْفِ بِالوَعْدِ يُضْعِفُهَا.[1600]

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ،قَالَ قِيلَ لِأُسَامَةَ لَوْ أَتَيْتَ فُلاَنًا فَكَلَّمْتَهُ،قَالَ:إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لاَ أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ،إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ،وَلاَ أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ،بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالُوا:وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ:قَالَ:سَمِعْتُهُ يَقُولُ:" يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ،فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ،فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ،فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ:أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ:كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ،وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ " متفق عليه[1601]

[1600] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٤٣،بترقيم الشاملة آليا)

[1601] - صحيح البخاري (٤/ ١٢١)(٣٢٦٧) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠)٥١ - (٢٩٨٩)

[ش (لأسامة) بن زيد رضي الله عنهما.(فلانا) هو عثمان ابن عفان رضي الله عنه.(فكلمته) في إطفاء الفتنة التي تقع بين الناس وقيل في شأن أخيه لأمه الوليد بن عتبة.(لترون) لتظنون.(فتندلق) تخرج وتنصب بسرعة.(أقتابه) جمع قتب وهي الأمعاء والأحشاء.(برحاه) حجر الطاحون التي يديرها]

يُجَاءُ) أَيْ:يُؤْتَى (بِالرَّجُلِ) أَيِ:الْمُقَصِّرُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ،فَتَنْدَلِقُ) أَيْ:تَخْرُجُ سَرِيعًا (أَقْتَابُهُ) أَيْ:أَمْعَاؤُهُ (فَيَطْحَنُ):بِصِيغَةِ الْفَاعِلِ عَلَى الصَّحِيحِ أَيْ:يَدُورُ (فِيهَا) أَيْ:فِي أَقْتَابِهِ وَأَقْصَابِهِ (كَطَحْنِ الْحِمَارِ بِرَحَاهُ) أَيْ:كَدَوَرَانِهِ حَوْلَ رَحَاهُ.قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَوْلُهُ:فَيَطْحَنُ فِيهَا هُوَ عَلَى بِنَاءِ الْفَاعِلِ،وَالضَّمِيرُ لِلرَّجُلِ.وَفِي فِيهَا لِلْأَمْعَاءِ،وَفِي بَعْضِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ هُوَ عَلَى بِنَاءِ الْمَفْعُولِ وَهُوَ خَطَأٌ لِمَا وَرَدَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى:فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ.قَالَ الْمُظْهِرُ أَيْ:يَدُورُ وَيَتَرَدَّدُ فِي أَقْتَابِهِ،يَعْنِي يَدُورُ حَوْلَ أَقْتَابِهِ وَيَضْرِبُهَا بِرِجْلِهِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى:فَيَدُورُ فِي النَّارِ وَمَا حَوْلَهَا،كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ أَيْ:فِي رَحَاهُ.(فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ) أَيْ:مِنَ الْفَسَقَةِ (فَيَقُولُونَ أَيْ فُلَانُ):كِنَايَةٌ عَنِ اسْمِهِ وَوَصْفِهِ بِالْعِلْمِ أَوِ الْمَشْيَخَةِ (مَا شَأْنُكَ؟) أَيْ:حَالُكَ الْغَرِيبُ وَمَآلُكَ الْعَجِيبُ (أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ:كُنْتُ آمُرُكُمْ):بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ (بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ) أَيْ:لَا أَفْعَلُهُ (وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢١١)

وعَنْ جُنْدُب بْنِ عَبْد اللَّه الْأَزْديِّ،صَاحِب النَّبيِّ ﷺ قَالَ:انْطَلَقْتُ أَنَا وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَة حَتَّى أَتَيْنَا مَكَانًا يُقَالُ لَهُ بَيْتُ الْمسْكين وَهُوَ منَ الْبَصْرَة مثْلُ الثَّويَّة منَ الْكُوفَة قَالَ:هَلْ كُنْتَ تُدَارسُ أَحَدًا الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ:نَعَمْ قَالَ:إِذَا أَتَيْتَ الْبَصْرَةَ فَأْتني بهِمْ وَلَا تَأْتني بهِمْ إِلَّا شَمْطًا فَأَتَيْتُهُ بصَالح بْنِ مَسْرُوحٍ وَبأَبِي بلَال،وَبنَجْدَةَ،وَنَافعِ بْنِ الْأَزْرَق وَهُمْ في نَفْسي منْ أَفَاضلِ أَهْلِ الْبَصْرَة فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ جُنْدُبٌ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«أَوَّلُ مَا يُنْتنُ منَ الْإِنْسَان بَطْنُهُ وَلَا يَجْعَلَنَّ أَحَدُكُمْ في بَطْنه إِلَّا طَيِّبًا» قَالَ:وَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«مَثَلُ الْعَالم الَّذي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضيءُ للنَّاس وَيَحْرقُ نَفْسَهُ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لَا يَحُولَنَّ بَيْنَ أَحَدكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّة وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَبْوَابهَا ملْءُ كَفٍّ منْ دَم مُسْلم هرَاقَهُ ظُلْمًا» فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ فَذَكَرُوا الْأَمْرَ بالْمَعْرُوف وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ سَاكتٌ يَسْمَعُ منْهُمْ ثُمَّ قَالَ:«لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ قَوْمًا قَطُّ أَحَقَّ بالنَّجَاة إِنْ كَانُوا صَادقينَ» رواه الطبراني في الكبير[1602] .

تقديم الأهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والواجب البدء بالأهم فالأهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،فأولا يبدأ بتعليم الناس الإيمان وتوحيد الله تعالى،وتطهير النفوس والبلاد من الشرك كدعاء الأموات،والاستغاثة بهم[1603]،أو الذبح لهم،أو تحاكم إلى قوانين وضعية أو عادات جاهلية أو غيرها من أنواع الشرك،فإن التوحيد هو أصل دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،كما قال تعالى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [النحل:٣٦]

[1602] - الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٤/ ٢٩٣)(٢٣١٤) والمعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٦٥)(١٦٨١ و١٦٨٥) صحيح لغيره

[1603] - قلت:هذان مختلف فيهما والصواب أنهما ليس من الشرك الأكبر إلا بشروط كثيرة كاعتقاد الداعي أن المدعو من البشر ينفع أو يضر بذاته ودون إذن من الله تعالى،ومن النادر جدا أن يعتقد مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلك .

لقَدْ بَعَثَ اللهُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ،لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوت)،وَعَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ،وَعَنِ الشِّرْكِ بِاللهِ،فَمِنَ النَّاسِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ،وَاتَّبَعَ الرُّسُلَ فَاهْتَدَى،وَمِنْهُمْ مَنَ ضَلَّ وَاسْتَكْبَرَ وَعَتَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ.فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ،لِهؤُلاَءِ المُشْرِكِينَ :سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ نِهَايَةُ المُكَذِبِينَ،وَكَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَهْلَكَهُمْ،وَجَعَلَ عَاقِبَتَهُمْ أَسْوَأَ عَاقِبَةٍ،وَلِذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ لاَ بُرْهَانَ لَهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ إِنَّ اللهَ رَضِيَ لَهُمُ الكُفْرَ.[١٦٠٤]

هو بيان لهذا البلاغ المبين الذي بلّغه رسل الله إلى أقوامهم..ففى كل أمة بعث الله سبحانه وتعالى رسولا يدعوهم إلى عبادة الله،وإلى اجتناب الطاغوت،وترك ما هم فيه من ضلال..«فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ» ..أي فمن هؤلاء الأقوام الذين جاءهم رسل الله،من هداه الله وشرح صدره للإيمان،فاهتدى إلى الحق،وآمن بالله،ومنهم من حقت عليه الضلالة،أي وجب أن يكون من الضالين،إذ لم يرد الله سبحانه وتعالى أن يهديه،وأن يشرح صدره للإيمان..وتلك هى مشيئة الله فى خلقه،مشيئة غالبة قاهرة..ولكن لا حجّة لأحد على الله فيها..

وعلى الإنسان أن يسعى إلى الخير جهده،وأن يقيم وجهه على هدى الله..

فإن اهتدى،حمد الله وشكر له،وإن ضلّ وغوى،فليبك نفسه،ويؤثّم موقفه،ويسأل الله العافية من هذا البلاء الذي هو فيه..![١٦٠٥]

فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك،ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات.وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه،على ألسنة الرسل الذين كلفوا التبليغ وحده فقاموا به وأدوه:«وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» فهذا أمره وهذه إرادته لعباده.والله – تعالى – لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقة من القدرة عليه،أو دفعهم قسرا إلى مخالفته.وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

[١٦٠٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٣٨،بترقيم الشاملة آليا)

[١٦٠٥] – التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٢٩٥)

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال،وأن يدع مشـــيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين،بعد ما بـــث في الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت آنـــاء الليل وأطراف النهار ..ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كلـــه ألا يـــدعهم لهـــذا العقـــل وحده،فوضع لهذا العقل ميزانا ثابتا في شرائعه التي جاءت بها رسله،يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر،ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذي لا تعصـــف بـــه الأهواء.و لم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان،ولكن مبلغين ليس علـــيهم إلا البلاغ،يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل مـــا عـــداه مـــن وثنيـــة وهـــوى وشـــهوة وسلطان:«وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّـــهَ وَاجْتَنِبُـــوا الطَّـــاغُوتَ» ..ففريـــق استجاب:«فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ» وفريق شرد في طريق الضلال «وَمِنْهُمْ مَـــنْ حَقَّـــتْ عَلَيْـــهِ الضَّلالَةُ» ..

وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله،وكلاهما لم يقسره الله قسرا على هدى أو ضلال،إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه،بعد ما زودتـــه بمعالم الطريق في نفسه وفي الآفاق.[١٦٠٦]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِـــينَ بَعَثَـــهُ إِلَـــى الْيَمَنِ:«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ،فَإِذَا جِئْتَهُمْ،فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْـــوَالِهِمْ وَاتَّـــقِ دَعْـــوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» متفقٌ عليه[١٦٠٧] .

[١٦٠٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨٣٠)

[١٦٠٧] -صحيح البخاري (٢/ ١٢٨)(١٤٩٦) وصحيح مسلم (١/ ٥٠)٢٩ - (١٩)

[ش (اتق دعوة المظلوم) تجنب الظلم لئلا يدعو عليك مظلوم.(حجاب) حاجز يحول دون وصولها واستجابتها]

[ش (وكرائم أموالهم) الكرائم جمع كريمة قال صاحب المطالع هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم أو صوف (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) أي أنها مسموعة لا ترد]

وأخرج البخاري عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَك،قَالَ:إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ،فَقَالَ:أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ:وَيْحَكَ،وَمَا يَضُرُّكَ؟ " قَالَ:يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ،أَرِينِي مُصْحَفَكِ؟ قَالَتْ:لِمَ؟ قَالَ:لَعَلِّي أُوَلِّفُ القُرْآنَ عَلَيْهِ،فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ،قَالَتْ:وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ " إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ،فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ،حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ،وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ:لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ،لَقَالُوا:لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا،وَلَوْ نَزَلَ:لاَ تَزْنُوا،لَقَالُوا:لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا،لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ:{بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر:٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ "،قَالَ:فَأَخْرَجَتْ لَهُ المُصْحَفَ،فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ ".[١٦٠٨]

وعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَوْفٍ الشَّيْبَانِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ،يَقُولُ:«لَقَدْ لَبِثْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرٍ،وَأَحَدُنَا لَيُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ تَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَنَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا،وَأَمْرَهَا وَزَاجِرَهَا،وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا كَمَا يَتَعَلَّمُ أَحَدُكُمُ السُّورَةَ،وَلَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ يَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ،مَا يَعْرِفُ حَلَالَهُ وَلَا حَرَامَهُ،وَلَا أَمْرَهُ وَلَا زَاجِرَهُ،وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ»[١٦٠٩] .

وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ،«فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ،ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا» رواه ابن ماجة[١٦١٠] .

[١٦٠٨] - صحيح البخاري (٦/ ١٨٥)(٤٩٩٣)

[ش (عند عائشة) أي في مجلسها وهي من وراء حجاب.(عراقي) رجل من أهل العراق.(أي الكفن خير) أقرب إلى السنة ويحتمل أن يكون السؤال عن كم لفافة يكون ويحتمل أن يكون عن لونه أو جنسه.(ويحك) كلمة ترحم.(وما يضرك) أي كم الكفن أو نوعه بعد موتك وسقوط التكليف عنك.(أؤلف القرآن عليه) أنسخه وأكتبه على نهج مصحفك.(غير مؤلف) غير مجموع ولا مرتب.(سورة من المفصل) المراد إما سورة اقرأ وفيها إشارة إلى الجنة والنار في قوله تعالى {سندع الزبانية} / العلق ١٨ /.والزبانية الملائكة المكلفون بالنار وإما سورة المدثر وفيها تصريح بهما بقوله تعالى {وما أدراك ما سقر} / ٢٧ /.وسقر اسم لجهنم وقوله تعالى {في جنات يتسائلون}.والمفصل من القرآن يبدأ من سورة ق وقيل غير ذلك.وسمي بالمفصل لقصر سوره وقرب انفصال بعضهن من بعض.(ثاب الناس) رجعوا واجتمعوا عليه وكثروا.(نزل الحلال والحرام) أي آيات التشريع التي فيها بيان الحلال والحرام.(فأملت عليه أي السور) قرأت عليه ليكتب السور والآيات حسب نزولها والله أعلم]

[١٦٠٩] - الإيمان لابن منده (١/ ٣٦٩)(٢٠٧) صحيح

[١٦١٠] - سنن ابن ماجه (١/ ٢٣)(٦١) صحيح [ش (حزاورة) جمع الحزور وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم] .

ولا يعني دعوة الناس إلى التوحيد ترك إنكار المنكرات التي لا تصل إلى الشرك الأكبر،بل المقصود أن تكون الدعوة إلى التوحيد هي الأساس والقاعدة،التي يتفرع منها إنكار بقية المنكرات،وهذا بين في سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،الذين كانوا يدعون إلى التوحيد،وينكرون الشرك،وينهون أيضا عن المعاصي المتفشية بين الناس.

البدائل الصالحة

ولا بد للحكومة الإسلامية أن تسعى لإيجاد البدائل الصالحة النافعة التي تساعد في إبعاد الكثير من الناس عن المنكرات التي ألفوها،واعتادوا عليها،فإن النفوس الضعيفة إذا لم تشغل بما فيه نفعها،وإلا انشغلت بما فيها ضررها،ومن الأمثلة على ذلك أن الكثير من المسلمين اعتادوا متابعة وسائل إعلام الدول الكافرة،ووسائل الإعلام التي تبثها حكومات لادينية (علمانية)،وقد اجتهد القائمون على هذه الوسائل،في تزيين باطلهم،واستخدام أساليب الإنتاج التي تجذب وتستميل المشاهدين إليها،وعندما تقوم الحكومة الإسلامية بمنع هذه الوسائل من بث سمومها،والترويج لكفرها وفسادها،فإن الحكومة الإسلامية ينبغي لها أن توفر البديل الصالح من وسائل الإعلام النافعة المتنوعة التي على درجة كبيرة من حسن الأداء،والخطاب الإسلامي،وجودة الإنتاج،وغزارة المادة الإسلامية وقوتها،ومتابعة الأحداث المحلية والعالمية من خلال رؤية إسلامية.

ومن الأمثلة على إيجاد البديل الصالح النافع أن انتشار الفاحشة بين بعض أفراد المجتمع يحتم على ولاة الأمور في الحكومة الإسلامية مع إنكارهم للفاحشة،ومعاقبتهم مرتكبيها،أن يساعدوا على إيجاد البديل الصالح بالتشجيع على الزواج،ومساعدة المحتاج في تكاليفه كالمهر ونحوه،عَنْ عَلْقَمَةَ،قَالَ:كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ،فَلَقِيَهُ عُثْمَانُ بِمِنًى،فَقَالَ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَخَلَوَا،فَقَالَ عُثْمَانُ:هَلْ لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي أَنْ نُزَوِّجَكَ بِكْرًا،تُذَكِّرُكَ مَا كُنْتَ تَعْهَدُ؟ فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ اللَّهِ أَنْ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى هَذَا أَشَارَ إِلَيَّ،فَقَالَ:يَا عَلْقَمَةُ،فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ

يَقُولُ:أَمَا لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ،لَقَدْ قَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ:«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ،وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» رواه البخاري ومسلم[1611].

فإيجاد البديل الصالح النافع وتأليف قلوب الناس بشيء من مباحات الدنيا،والإحسان إليهم بجميع أنواع الإحسان،والعناية بحاجاتهم،وإصلاح أحوالهم،وسبل عيشهم،كل ذلك يساعد على تسكينهم وسرعة استجابتهم وتركهم للمنكرات التي ألفوها واعتادوا عليها،عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ،أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ،قَالَ لَهُ:يَا أَبَةِ،مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَمْضِيَ لِمَا تُرِيدُ مِنَ الْعَدْلِ فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ أُبَالِي وَلَوْ غَلَتْ بِي وَبِكَ الْقُدُورُ فِي ذَلِكَ قَالَ:«يَا بُنَيَّ إِنَّمَا أَنَا أُرَوِّضُ النَّاسَ

[1611] - صحيح البخاري (7/ 3)(5065) وصحيح مسلم (2/ 1018)1 - (1400)

[ش (بكرا) امرأة لم يسبق لها أن تزوجت.(تذكركم ما كنت تعهد) من نفسك من حيوية ونشاط]

يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ») بِفَتْحِ الشِّينِ وَتَخْفِيفِ الْمُوَحَّدَةِ جَمْعُ شَابٍّ،وَهُوَ مَنْ بَلَغَ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ ثَلَاثِينَ،وَالْمَعْشَرُ هُمُ الطَّائِفَةُ الَّذِينَ يَشْمَلُهُمْ وَصْفٌ كَالشَّبَابِ وَالشَّيْخُوخَةِ وَالْبُنُوَّةِ («مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ») بِالْمَدِّ وَالْهَاءِ،وَهِيَ اللُّغَةُ الْفَصِيحَةُ الشَّهِيرَةُ الصَّحِيحَةُ،وَالثَّانِيَةُ بِلَا مَدٍّ،وَالثَّالِثُ بِالْمَدِّ بِلَا هَاءٍ،وَالرَّابِعَةُ بِهَاءَيْنِ بِلَا مَدٍّ،وَهِيَ الْبَاهَةُ.وَمَعْنَاهَا الْجِمَاعُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْبَاهِ الْمُنْزِلِ،ثُمَّ قِيلَ لِعَقْدِ النِّكَاحِ بَاهٌ،لِأَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بَوَّأَهَا مَنْزِلًا،وَفِيهِ حَذْفٌ مُضَافٌ أَيْ:مُؤْنَةُ الْبَاءَةِ مِنَ الْمَهْرِ وَالنَّفَقَةِ،قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:" وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ،لِأَنَّ قَوْلَهُ - ﷺ -:" وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ " عَطْفٌ عَلَى " مَنِ اسْتَطَاعَ " وَلَوْ حَمَلَ الْبَاءَةَ عَلَى الْجِمَاعِ لَمْ يَسْتَقِمْ قَوْلُهُ:قَالَ الصَّوْمُ لَهُ وِجَاءٌ؛لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ لِلْعَاجِزِ هَذَا،وَإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ إِذَا قِيلَ:أَيُّهَا الْقَادِرُ الْمُتَمَكِّنُ مِنَ الشَّهْوَةِ إِنْ حَصَلَتْ لَكَ مُؤَنُ النِّكَاحِ تَزَوَّجْ وَإِلَّا فَصُمْ،وَلِهَذَا السِّرِّ خَصَّ النِّدَاءَ بِالشُّبَّانِ (فَلْيَتَزَوَّجْ) قِيلَ:الْأَمْرُ فِيهِ لِلْوُجُوبِ،لِأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى حَالَةِ التَّوَقَانِ بِإِشَارَةِ قَوْلِهِ:" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ " فَإِنَّهُمْ ذُو التَّوَقَانِ عَلَى الْجِبِلَّةِ السَّلِيمَةِ (فَإِنَّهُ) أَيِ:التَّزَوُّجَ (أَغَضُّ لِلْبَصَرِ) أَيْ:أَخْفَضُ وَأَدْفَعُ لِعَيْنِ الْمُتَزَوِّجِ عَنِ الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ غَضَّ طَرْفَهُ أَيْ:خَفَضَهُ وَكَفَّهُ (وَأَحْصَنُ) أَيْ:أَحْفَظُ (لِلْفَرْجِ) أَيْ:عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ) أَيْ:مُؤَنُ الْبَاءَةِ («فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ») قِيلَ:هُوَ مِنْ إِغْرَاءِ الْغَائِبِ،وَبِتَقَدُّمِ قَوْلِهِ:" «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ» " صَارَ كَالْحَاضِرِ،وَقِيلَ:الْبَاءُ زَائِدَةٌ أَيْ:فَعَلَيْهِ الصَّوْمُ،فَالْحَدِيثُ بِمَعْنَى الْخَبَرِ لَا الْأَمْرِ،وَقِيلَ:مِنْ إِغْرَاءِ الْمُخَاطَبِ أَيْ أَشِيرُوا عَلَيْهِ بِالصَّوْمِ،(فَإِنَّهُ) أَيِ:الصَّوْمُ (لَهُ) أَيْ:لِمَنْ قَدَرَ عَلَى الْجِمَاعِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى التَّزَوُّجِ لِفَقْرِهِ (وِجَاءٌ) بِالْكَسْرِ بِالْمَدِّ أَيْ:كَسْرٌ لِشَهْوَتِهِ،وَهُوَ فِي الْأَصْلِ رَضُّ الْخُصْيَتَيْنِ وَدَقُّهُمَا لِتَضْعُفَ الْفُحُولَةُ،فَالْمَعْنَى أَنَّ الصَّوْمَ يَقْطَعُ الشَّهْوَةَ وَيَدْفَعُ شَرَّ الْمَنِيِّ كَالْوِجَاءِ.قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَقُولَ:فَعَلَيْهِ بِالْجُوعِ،وَقِلَّةِ مَا يَزِيدُ فِي الشَّهْوَةِ وَطُغْيَانِ الْمَاءِ مِنَ الطَّعَامِ،فَعَدَلَ إِلَى الصَّوْمِ إِذْ مَا جَاءَ بِمَعْنًى عِبَادَةٍ هِيَ بِرَأْسِهَا مَطْلُوبَةٌ،وَلِيُؤْذَنَ بِأَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْ نَفْسِ الصَّوْمِ الْجُوعُ وَكَسْرُ الشَّهْوَةِ،وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ يَمْتَلِئُ مِعًى اه.وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الصَّوْمُ فِيهِ هَذَا السِّرُّ وَالنَّفْعُ لِهَذَا الْمَرَضِ،وَلَوْ أَكَلَ وَشَرِبَ كَثِيرًا إِذَا كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ صَحِيحَةٌ،وَلِأَنَّ الْجُوعَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَالشِّبَعَ فِي بَعْضِهَا لَيْسَ كَالشِّبَعِ الْمُسْتَمِرِّ فِي تَقْوِيَةِ الْجِمَاعِ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (5/ 2041)

رِيَاضَةَ الصَّعْبِ إِنِّى لَا أُرِيدُ أَنْ أُحْيِيَ الْأَمْرَ مِنَ الْعَدْلِ فَأُؤَخِّرَهُ حَتَّى أَخْرُجَ مَعَهُ طَمَعًا مِنْ طَمَـــعِ الدُّنْيَا فَيَنْفِرُوا مِنْ هَذِه وَيَسْكُنُوا لِهَذِه»[١٦١٢].

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عِكْرِمَةَ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ:«مَا طَاوَعَنِي النَّاسُ عَلَى مَـــا أَرَدْتُ مِنَ الْحَقِّ حَتَّى بَسَطْتُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا»[١٦١٣].

[١٦١٢] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٢٤٣)(١٧٢٩) حسن

[١٦١٣] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٩٠)

المبحث السادس عشر

الاقتصاد والمال

تهدف السياسة الشرعية إلى إصلاح أحوال الناس في أمور دينهم،وتحكيم شرع الله في جميع شؤون حياتهم،لتحقيق الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها،كما قال تعالى:{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:٥٦].

ومتى ما فرط العبد بعبودية الله فلن ينفعه ما نعم به من متاع الدنيا الزائل عَنْ زَيْدَ بْنَ ثَابت،أنه خَرَجَ مِنْ عِنْد مَرْوَانَ نَحْوًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ،فَقُلْنَا:مَا بَعَثَ إِلَيْه السَّاعَةَ إِلَّا لِشَيْءٍ سَأَلَهُ عَنْهُ.فَقُمْتُ إِلَيْه فَسَأَلْتُهُ،فَقَالَ:أَجَلْ،سَأَلَنَا عَنْ أَشْيَاءَ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:"نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا،فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ،فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْه لَيْسَ بِفَقِيه،وَرُبَّ حَامِلِ فِقْه إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ "" ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا:إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّه،وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ،وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ،فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ "وَقَالَ:"مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ،جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ،وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِه،وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ،وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا،فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْه ضَيْعَتَهُ،وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه،وَلَمْ يَأْتِه مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ " وَسَأَلَنَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى،وَهِيَ الظُّهْرُ" رواه أحمد[١٦١٤].

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ،وَعَنْ غَيْرِ،وَاحِد أَنَّ فُلَانًا مَرَّ بِه أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:أَوْصُونِي،فَجَعَلُوا يُوصُونَهُ وَكَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فِي آخِرِ الْقَوْمِ فَمَرَّ بِالرَّجُلِ فَقَالَ:أَوْصِنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ،قَالَ:" إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ أَوْصُوكَ وَلَمْ يَأْلُوا،وَإِنِّي سَأَجْمَعُ لَكَ أَمْرَكَ بِكَلِمَاتٍ،فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ عَنْ نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِكَ مِنَ الْآخِرَةِ أَفْقَرُ فَابْدَأْ بِنَصِيبِكَ مِنَ الْآخِرَةِ،فَإِنَّهُ يَسْمُو بِكَ عَلَى نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا فَتَنْتَظِمُهُ انْتِظَامًا ثُمَّ يَزُولُ مَعَكَ أَيْنَمَا كُنْتَ " رواه ابن أبي شيبة وغيره[١٦١٥].

[١٦١٤] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٢١٥٩٠) صحيح

[١٦١٥] - شعب الإيمان (١٣/ ١٨٢)(١٠١٤٧) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ٢١٦)(٣٥٨٤٠) والمعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٣٥)(٤٩) وجامع معمر بن راشد (١١/ ١٩٢)(٢٠٣٠٠) صحيح لغيره

وعَنِ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ؛قَالَ:قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيّ:يَا ابْنَ آدَمَ لَا غِنَى بِكَ عَنْ نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا،وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِكَ مِنَ الْآخِرَةِ أَفْقَرُ،وَالَّذِي نَفْسُ الْحَسَنِ بِيَدِهِ؛مَا أَصْبَحَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ مُؤْمِنٌ إِلَّا وَقَدْ أَصْبَحَ مَهْمُومًا حَزِينًا،وَلَيْسَ لِمُؤْمِنٍ رَاحَةٌ دُونَ اللهِ،النَّاسُ مَا دَامُوا فِي عَافِيَةٍ مَسْرُورِينَ،فَإِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ؛صَارُوا إِلَى حَقَائِقِهِمْ؛فَصَارَ الْمُؤْمِنُ إِلَى إِيمَانِهِ وَالْمُنَافِقُ إِلَى نِفَاقِهِ،فَسَارِعُوا إِلَى رَبِّكُمْ؛فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ،وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ.[١٦١٦]

ومع إصلاح أحوال الناس في أمور دينهم،يجب على الحكومة الإسلامية إصلاح أحوال الناس في شؤون دنياهم ومعاشهم،وقد قال تعالى:{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [الأعراف:٣٢]

يَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئاً مِنَ المَآكِلِ،وَالمَلاَبِسِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ،مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللهِ،فَيَقُولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ:قُلْ يَا مُحَمَّدُ،لِهؤلاَءِ المُشْرِكِينَ:مَنْ حَرَّمَ مَا خَلَقَ اللهُ لِعِبَادِهِ مِنْ أَسْبَابِ الزِّيْنَةِ،وَمِنْ طَيِّبَاتِ الرِّزْقِ؟ فَهذِهِ الطَّيِّبَاتُ وَالزِّينَةُ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا،وَإِنْ شَرَكَهُمْ فِيها الكُفَّارُ فِي الدُّنْيا،وَهِيَ خَالِصَةٌ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ،لاَ يَشْرَكُهُمُ الكُفَّارُ فِي شَيءٍ مِنْها.وَهكَذَا يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى آيَاتِهِ وَيَشْرَحُهَا لِمَنْ يَعْقِلُونَ مِنَ النَّاسِ،لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ مَالِكُ المُلْكِ وَبِيَدِهِ التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ.[١٦١٧]

هو إغراء بالتنعم بنعم الله،والتجمل بها،وأخذ حاجة النفس منها..ثم هو إنكار على من يأخذون على أنفسهم أو على الناس الطريق إلى نعم الله،ويزهدونهم فيها،أو يحرمونهم منها..فلمن إذن هذه النعم؟

والله سبحانه وتعالى يقول:«إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» ..ويقول سبحانه هنا فى هذه الآية:«هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» أي

[١٦١٦] - المجالسة وجواهر العلم (٥/ ١٠٩)(١٩١٧) صحيح

[١٦١٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٨٧،بترقيم الشاملة آليا)

زينة الله هذه التي أخرج لعباده،وهذه الطيبات مـــن الرزق،هـــى للـــذين آمنـــوا فى الحيـــاة الدنيا،ينعمون بها،ويرون فضل الله عليهم فيها،فيزداد حمدهم له،ويقوى إيمانهم به..

ثم إن هذه النعم سينعمون بها يوم القيامة،تأتيهم من غير أن يبذلوا لها جهدا،خالصة من كـــل شائبة مما كان يشوبها فى الدنيا..فلا تزهد فيها نفس من شبع،ولا تملّها عين من نظر..«كُلَّمـــا رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً» .وتخصيص المؤمنين بالذكر هنا:«قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» إشارة إلى أن المـــؤمنين هم الذين يتعرفون على الطيبات من الرزق وينعمون بها،أما غير المؤمنين فلا يفرّقون بين طيب وخبيث،إذ لا دين لهم يحجزهم عن الخبيث،ويحول بينهم وبينه،فالطيب والخبيث على ســـواء عندهم.[1618]

إخراج الله للزينة خلق موادها وتعليم طرق صنعها بما أودع فى فطرهم من حبـــها والميـــل إلى الافتنان فى استعمالها،إذ خلقهم مستعدين لإظهار آياته فى جميع ما خلق فى هذا العالم الـــذي يعيشون فيه،بما أودع فى غرائزها من الميل إلى البحث فى كشف المجهول والاطلاع على خفايا الأمور،فهم لا يدعون شيئا عرفوه بحواسهم أو عقولهم حتى يبحثوه من طرق شتى وأوجـــه لا نهاية لها،ولن تنتهى بحوثهم مادام الإنسان على ظهر البسيطة.

وغريزة حب الزينة وحب التمتع بالطيبات كانت من أهم الأسباب فى اتساع أعمال الفلاحة والزراعة ورقىّ ضروب الصناعة،واتساع وســـائل العمران،ومعرفـــة ســـنن الله وآياتـــه فى الأكوان،وهما لا يذمّان إلا بالإسراف فيهما والغفلة عن شكر المنعم بهما.

والخلاصة- إن الدين لم يحرمهما إلا إذا كانا عائقين عن الكمال الروحي والكمال الخلقي،وإنه لم يجعل تركهما قربة إلى الله كما جرى على ذلك الوثنيون من البراهمة وغيرهم وقلّـــدهم فى ذلك بعض المسلمين وصاروا يبثون فى الأمم الإسلامية تعاليم تقضى بأن روح الـــدين ومـــخ العبادة فى التقشف وحرمان النفس من التمتع بلذات الحياة،وقد بين الله وجه الصواب فى ذلك بقوله لرسوله:(قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ) أي قل أيها الرســـول

[1618] - التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٣٩١)

لأمتك:إن الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويشاركهم فيها غيرهم تبعـا لهم وإن لم يستحقها مثلهم،وهى خالصة لهم يوم القيامة.

وقصارى ذلك- إن الدين يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة جميعا كما يـدل علـى ذلـك قوله:«وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» وقولـه:«وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً» .

ذاك أن المؤمن يزداد علما وإيمانا بربه وشكرا له كلما عرف شيئا من سننه وآياته فى نفسه أو فى غيرها من الكائنات،ومن أهم أركان الشكر استعمال النعمة فيما وهبها المنعم لأجله مـن شكر الجوارح كشكر اللسان بالثناء عليه وشكر سائر الأعضاء كذلك ففى حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي والحاكم «الطاعم الشاكر بمترلة الصائم الصابر» والسر فى هذا أن الأكل والشرب من الطيبات بدون إسراف هما قوام الحياة والصحة،وهما الدعامتان اللتـان يتوقـف عليهما القيام بجميع الأعمال الدينية والدنيوية من عقلية وبدنية،ولهما التأثير العظيم فى جـودة النسل الذي به يكثر سواد الأمة.

والملابس الجيدة النظيفة لها فوائد:

(١) حفظ الصحة.

(٢) كرامة من يتجمل بها فى نفوس الناس.

(٣) إظهار نعمة الله على لابسها،والمؤمن يثاب بنيته على كل ما هو محمود من هذه الأمـور بالشكر عليها.

عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:«أَلَـكَ مَـالٌ؟» قَـالَ:نَعَمْ،مِـنْ كُـلِّ الْمَالِ،قَـالَ:«مِـنْ أَيِّ الْمَـالِ؟» قَـالَ:قَـدْ آتَـانِي اللَّـهُ مِـنَ الْإِبِلِ،وَالْغَنَمِ،وَالْخَيْلِ،وَالرَّقِيقِ،قَالَ:«فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا،فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ»[١٦١٩] .

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَـرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[١٦٢٠] .

[١٦١٩] - سنن النسائي (٨/ ١٨١)(٥٢٢٤) صحيح

[١٦٢٠] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٢٤)(٢٨١٩) صحيح

وقد كانت العرب تحرم زينة اللباس فى الطواف تعبدا،وتحرّم الادّهان ونحوه حال الإحرام بالحج كذلك،وتحرم من الأنعام والحرث ما ذكر فى سورة الأنعام،وحرم أهل الكتاب كثيرا من الطيبات.

فجاء الدين الإسلامي الجامع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة والمطهّر للنفوس والمهذب للأخلاق،فأنكر هذا التحكم المخالف لسنن الفطرة وبين أن هذا التحريم لم يكن إلا من وساوس الشيطان و لم يوح به الله إلى أنبيائه ورسله المصطفين الأخيار.

(كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أي إن هذا التفصيل لحكم الزينة والطيبات الذي ضل فيه كثير من الأمم والأفراد ما بين إفراط وتفريط- لا يعقله إلا الذين يعلمون سنن الاجتماع وطبائع البشر ومصالحهم،ونحن قد فصلناه على لسان هذا النبي الأمى الذي لم يكن يعرف شيئا من تاريخ البشر فى أطوار بداوتهم وأطوار حضارتهم قبل أن نتزلها عليه،فكان ذلك آية دالة على نبوته،إذ ما كان لمثله أن يعلمها إلا بالوحى من عندنا،ولولا الكتاب الكريم لما خرجت العرب من ظلمات الوثنية والجهالة إلى ذلك النور الذي صلحت به وأصلحت أمما كثيرة بالدين والفنون والآداب وما أحيت من علوم الأوائل.

ولكن وا أسفا قد أضحى المسلمون من أجهل الشعوب بسنن الله فى الأكوان وبالعلوم والمعارف اللازمة لتقدم الحضارة والمدنية،وأصبحوا فى مؤخرة الأمم وصاروا مضرب الأمثال فى التأخر والخمول والكسل،وبذا استكانوا وذلوا وصاروا أفقر الأمم وأضعفهم وأقلهم خدمة لدينهم،وخالفوا ما رسمه لهم ذلك الدين من أن لهم زينة الدنيا وطيباتها وسعادتها وملكها،وأن عليهم أن يشكروا الله على ما يؤتيهم من ذلك،وأن عليهم أن يقوموا بما يرضيه من اتباع الحق والعدل وكل ما تقتضيه خلافتهم فى الأرض.

ولقد بلغ الجهل بكثير منهم أن ظن و (بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) أن دين الإسلام هو سبب ضعف المسلمين وجهلهم وذهاب ملكهم،ولكن كتاب الله وسنة رسوله وتاريخ هذه الأمة شاهد صدق على فساد هذه القضية وتزييف تلك الدعوى،فليس لها من دعائم تستند إليها،وتقف بها على رجليها.[1621]

[1621] - تفسير المراغي (٨/ ١٣٥)

وقال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:٧٧]

واسْتَعْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللهُ مِنَ المَالِ الجَزِيلِ،والنِّعمَةِ الطَّائلَةِ،في طَاعَةِ رَبِّكَ،والتَّقَرُّبِ إليه،ولا تَنْسَ حَظَّكَ (نَصِيبَكَ) مِنَ الدُّنيا،ممَّا أَبَاحَهُ اللهُ فيها لعبادِه،مِنَ المَآكِلِ والمَشَارِبِ والمَلاَبِسِ وغَيرِها..فإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيكَ حَقّاً،ولِنَفسِكَ عَليكَ حَقّاً،..فَآتِ كُلَّ ذي حقٍّ حَقَّهُ.وأَحْسِنْ إلى خَلْقِ اللهِ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ولا يَكنْ هَمُّكَ الإِفسَادَ في الأَرضِ،والإِساءَةَ إلى خَلْقِ اللهِ،إنّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ.[١٦٢٢]

هذا مما وصّى به أهل الصلاح والتقوى من قوم موسى،«قارون»،هذا الذي استبد به العجب بماله،واستغواه الغى،بما ضمت عليه يده من سلطان بهذا المال..فهم يدعونه إلى أن يسلك بهذا المال،الطريق الذي تحمد عواقبه،وتتم به تلك النعمة.

وقد نصحوا له ألا يستبد به الفرح بما ملك،وفي ذلك إيقاظ له من سكرة هذا المال،حتى إذا صحا،دعوه إلى ما ينبغى أن يسوس به ماله هذا،فيطلب به رضا الله،ويقدم منه ما ينفعه في الآخرة،ويأخذ منه ما يصلح به شئون دنياه،فيجمع بذلك خير الدنيا والآخرة جميعا..وأن يحسن وينفق في وجوه الخير،مثل ما أحسن الله إليه،فيلقى إحسان الله بالإحسان إلى عباد لله،فذلك هو زكاة هذه النعمة،وألا يتخذ من هذا المال أداة للفساد والإفساد فى الأرض،والإضرار بالناس،وهضم مالهم من حقوق..إن الله لا يحب المفسدين..[١٦٢٣]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله" وَقَوْلُهُ: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} أَيِ:اسْتَعْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ الْجَزِيلِ وَالنِّعْمَةِ الطَّائِلَةِ،فِي طَاعَةِ رَبِّكَ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ،الَّتِي يَحْصُلُ لَكَ بِهَا الثَّوَابُ في الدار الآخرة.{وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} أَيْ:مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَنَاكِحِ،فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حقًّا،ولنفسك عليك حقًّا،ولأهلك عليك حَقًّا،وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا،فَآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

[١٦٢٢] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢١١،بترقيم الشاملة آليا)

[١٦٢٣] – التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٣٨٥)

{وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} أَيْ:أَحْسِنْ إِلَى خَلْقِهِ كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْكَ {وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ} أَيْ:لَا تكنْ همَّتُكَ بِمَا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ الْأَرْضَ،وَتُسِيءَ إِلَى خَلْقِ اللَّـهِ {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[1624] .

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها،فتنمو الحياة وتتجدد،وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض.ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة،فلا ينحرفون عن طريقها،ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها.والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم،وتقبل لعطاياه،وانتفاع بها.فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان،ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة،التي لا حرمان فيها،ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.

«وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» ..فهذا المال هبة من الله وإحسان.فليقابل بالإحسان فيه.إحسان التقبل وإحسان التصرف،والإحسان به إلى الخلق،وإحسان الشعور بالنعمة،وإحسان الشكران.

«وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ» ..الفساد بالبغي والظلم.والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة.

والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء.والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال.«إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» ..كما أنه لا يحب الفرحين.

كذلك قال له قومه:فكان رده جملة واحدة،تحمل شتى معاني الفساد والإفساد:«قالَ:إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي»! إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله.فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه،وتتحكمون في ملكيتي الخاصة،وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص،واستحققته بعلمي الخاص؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها،ويفتنه المال ويعميه الثراء.

[1624] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٢٥٣)

وهو نموذج مكرر في البشرية.فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه.ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك،غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح،غير حاسب لله حسابا،ولا ناظر إلى غضبه ورضاه!

والإسلام يعترف بالملكية الفردية،ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه.ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف في الملكية الفردية - كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها - وهو منهج متوازن متعادل،لا يحرم الفرد ثمرة جهده،ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف ولا في إمساكه حتى التقتير ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال،ورقابتها على طرق تحصيله،وطرق تنميته.وطرق إنفاقه والاستمتاع به.وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه،ولم يشعر بنعمة ربه،ولم يخضع لمنهجه القويم.وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم وفي بطر ذميم.[١٦٢٥]

وقد جعل الله تعالى بالأموال قيام أحوال الناس في أمور دينهم ودنياهم،فقال تعالى:{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا } [النساء:٥]

هَذَا خِطَابٌ لِمَجْمُوعِ الأُمَّةِ،وَالنَّهْيُ فِيهِ شَامِلٌ لِكُلِّ مَالٍ يُعْطَى لأيِّ سَفِيهٍ،فَاللهُ تَعَالَى يَأْمُرُ النَّاسَ بِإِعْطَاءِ كُلِّ يَتِيمٍ مَالَهُ إذَا بَلَغَ،وَكُلِّ امْرَأَةٍ صَدَاقَهَا،إلاَّ إذَا كَانَ أَحَدُهُمَا سَفِيهاً لاَ يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ فِي مَالِهِ فَعَلَى المَسْؤُولِينَ عَنِ المَالِ أنْ لاَ يُعْطُوهُ مِنْهُ لِئَلاَّ يُبَذِّرَهُ،وَأنْ يَحْفَظُوهُ لَهُ حَتَّى يَرْشُدَ.وَقَدْ جَعَلَ اللهُ الأَمْوَالَ لِلنَّاسِ لِتَقُومَ بِهَا مَعَاشَاتُهُمْ وَتِجَارَتُهُمْ،وَتَثْبُتَ بِهَا مَنَافِعُهُمْ وَمَرَافِقُهُمْ.فَمَرَافِقُهُمْ وَمَصَالِحُهُمُ العَّامَّةُ لاَ تَزَالُ ثَابِتَةً قَائِمَةً مَا دَامَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي أَيْدِي الرَّاشِدِينَ المُقْتَصِدِينَ مِنْهُمْ،الَّذِينَ يُحْسِنُونَ تَثْمِيرَهَا.وَنَبَّهَ اللهُ تَعَالَى الأَوْلِيَاءَ الذِينَ يَتَوَلَّوْنَ أَمْوَالَ السُّفَهَاءِ وَتَثْمِيرَهَا،بِأَنَّ عَلَيهِمْ أنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ،وَيُقَدِّمُوا لَهُمْ كِفَايَتَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالثِّيَابِ وَنَحْوَ ذَلِكَ،مِنْ نِتَاجِ الأَمْوَالِ وَأَرْبَاحِهَا،لاَ مِنْ طُلْبِ المَالِ حَتَّى لاَ يَأْكُلَهُ الإِنْفَاقُ.وَعَلَى الوَلِيِّ أنْ

[١٦٢٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٤٦١)

يَنْصَحَ اليَتِيمَ الصَّغِيرَ،أوِ السَّفِيهَ،وَأنْ يُبَيِّنَ لَهُ مَا فِيهِ خَيْرُهُ وَمَصْلَحَتُهُ،وَأنْ يَحُثَّــهُ عَلَــى تَــرْكِ الإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ،وَأنْ يُعَامِلهُ بِالرِّفْقِ وَالإِحْسَانِ وَالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ.[١٦٢٦]

السفهاء:جمع "سفيه" وهو:من لا يحسن التصــرف في المال،إمــا لعــدم عقلــه كــالمجنون والمعتوه،ونحوهما،وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد.فنهى الله الأولياء أن يؤتــوا هــؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها،لأن الله جعل الأمــوال قيامــا لعبــاده في مصــالح دينــهم ودنياهم،وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها،فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها،بل يــرزقهم منها ويكسوهم،ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية،وأن يقولوا لهــم قولا معروفا،بأن يعدوهم -إذا طلبوها- أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم،ونحو ذلــك،ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء،إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم،من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم،إذا كان لهم مال،لقوله:{وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ} .وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛لأن الله جعله مؤتمنــا على مالهم فلزم قبول قول الأمين.[١٦٢٧]

هذا خطاب لمجموع الأمة،والنهى شامل لكل مال يعطى لأىّ سفيه،أي أعطوا كل يتيم ماله إذا بلغ،وكل امرأة صداقها إلا إذا كان أحدهما سفيها لا يحسن التصرف فى ماله فامنعوه منه لئلا يضيعه،واحفظوه له حتى يرشد.

وإنما قال أموالكم و لم يقل أموالهم مع أن الخطاب للأولياء والمال مــال الســفهاء الــذين فى ولايتهم،لينبهنا إلى أنه إذا ضاع هذا المال وجب على الــولي أن ينفــق عليــه مــن مــال نفسه،فإضاعته مفضية إلى إضاعة شيء من مال الولي فكأن ماله عــين مالــه،وإلى أن الأمــة متكافلة فى المصالح،فمصلحة كل فرد فيها كأنها مصلحة للآخرين.

[١٦٢٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٨،بترقيم الشاملة آليا)

[١٦٢٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٦٤)

ومعنى جعل الأموال قياما للناس،أن بها تقوم وتثبت منافعهم ومرافقهم،فمنافعهم الخاصة،ومصالحهم العامة لا تزال قائمة ثابتة مادامت أموالهم فى أيدى الراشدين المقتصدين منهم الذين يحسنون تثميرها وتوفيرها،ولا يتجاوزون حدود المصلحة فى الإنفاق،وفى هذا حث عظيم على الاقتصاد بذكر فوائده،وتنفير من الإسراف والتبذير ببيان مغبته،فإن الأموال إذا وقعت فى أيدى السفهاء المسرفين فات ما كان من تلك المنافع قائما،ومن ثم وصف الله المؤمنين بقوله:«وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» .وقد ورد فى السنة النبوية حثّ كثير على الاقتصاد،من ذلك ماروواه أحمد عن ابن مسعود:«ما عال من اقتصد» .وماروواه الطبراني والبيهقي عن ابن عمر:

«الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة،والتودد إلى الناس نصف العقل،وحسن العقل نصف العلم» وإن من أشد العجب أن يكون حال المسلمين اليوم ما نرى من الإسراف والتبذير،وكتابهم يهديهم إلى ما للاقتصاد من فوائد،وما للتبذير من مضار،إلى ما للمال فى هذا الزمن من المنزلة التي لا يقدر قدرها حتى صارت جميع المرافق موقوفة على المال،وأصبحت الأمم الجاهلة بطرق الاقتصاد وليس فى أيديها المال مستذلة مستعبدة للأمم الغنية ذات البراعة فى الكسب والإحسان فى الاقتصاد وجمع المال.

ولا سبب لهذا إلا أنا نبذنا هدى القرآن وراء ظهورنا،وأخذنا بآراء الجاهلين الذين لبسوا على الناس ونفثوا سمومهم وبالغوا فى التزهيد والحث على إنفاق ما تصل إليه الأيدى،مع أن السلف الصالح كانوا من أشد الناس محافظة على ما فى أيديهم،وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الكسب الحلال،وليت هذا التزهيد أتى بالغرض المسوق لأجله من الترغيب فى الآخرة والعمل لها،لكنهم زهدوهم فى الدنيا وقطعوهم عن الآخرة فخسروهما معا،وما ذاك إلا لجهلهم بهدى الإسلام وهو السعى للدنيا والعمل للآخرة كما ورد فى الأثر «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» .

(وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ) الرزق يعم وجوه الإنفاق جميعها كالأكل والمبيت والزواج والكسوة،وإنما خص الكسوة بالذكر،لأن الناس يتساهلون فيها أحيانا،وقال (فيها) و لم يقل منها إشارة إلى أن الأموال تتخذ مكانا للرزق بالتجارة فيها فتكون النفقات من الأرباح لا من

صلب المال حتى لا يأكلها الإنفاق،أي أيها الأولياء الذين عهد إليكم حفظ أمــوال الســفهاء وتثميرها حتى كأنها أموالكم،عليكم أن تنفقوا عليهم فتقدموا لهم كفايتهم من الطعام والثياب ونحو ذلك.

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً) أي فليقل كل ولى للمولى عليه إذا كان صغيرا:المال مالك وما أنا إلا حازن له وإذا كبرت رد إليك وإذا كان سفيها وعظــه ونصــحه،ورغبه فى تــرك التبــذير والإسراف،وعرفه أن عاقبة ذلك الفقر والاحتياج إلى الخلق إلى نحو ذلك،كما يعلمه كل مــا يوصله إلى الرشد،وبذا قد تحسن حاله،فربما كان السفه عارضا لا فطريا،فبالنصح والإرشــاد والتأديب يزول ذلك العارض ويصبح رشيدا.

وأين هذا مما يفعله الأولياء والأوصياء من أكل أموال السفهاء ومدهم فى غيهم وسفههم حتى يحولوا بينهم وبين أسباب الرشد،وما مقصدهم من ذلك إلا بقاء الأموال تحت أيديهم يتمتعون بها،ويتصرفون فيها بحسب أهوائهم وشهواتهم.[١٦٢٨]

هذا نهى يتوازن مع الأمر السابق فى قوله تعالى:«وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ» ..ولكلّ مــن الأمــر والنهى موضعه،وكلاهما يحقق مصلحة عامة،ويؤدى حقّا،ويبطل باطلا.

وقد أشرنا من قبل إلى ما يحققه قوله تعالى:«وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ» .

وهنا ينهى الله سبحانه وتعالى عن أن ندع أموال السفهاء فى أيدى السفهاء،إذ كــان ذلــك مدعاة لإفسادهم أولا،وتضييع مصالحهم ثانيا،ورسم مثل سيئة للعبث بالمال وإهــدار المنــافع المنوطة به فى المجتمع،ثالثا.

لذلك ألزم الله سبحانه وتعالى المجتمع أن يتصدّى لهذه الظــاهرة،وأن يقــف لهــا فى يقظــة وحزم،فلا يدع لأيدى السفهاء ما فى أيديهم من أموال يفسدونها،ويفسدون بها فى الأرض..

وفى قوله تعالى:«أَمْوالِكُمْ» بإسناد المال إلى غير أهله،وهم أولو الأمر فى المجتمع- فى هــذا مــا يعطى المال وصفا غير الوصف الذي يكون له وهو فى حوزة الأيدى التي تعبث به،وتســتخف بشأنه.

فالمال- فى حقيقته- أداة من أدوات النفع،الخاص،والعام معا..

[١٦٢٨] - تفسير المراغي (٤/ ١٨٦)

هو قوة فى يد صاحبه،يدفع به عن نفسه قسوة الحاجة،ولذعــة الحرمان،ومطيــة يمتطيهــا إلى غايات كثيرة،يجنى منها الخير لنفسه،ولأهله.

ثم هو- أي المال- حركة عاملة فى المجتمع،تصبّ فيها جهود أصحاب المــال،وتتلاقى علــى طريقها وجوههم التي يقصدون إليها فى تثمير المال وتنميته! وفى صيانة هذه القوة من عوامــل الوهن والضعف،وفى تنظيم هذه الحركة وإقامتها على طريــق مســتقيم- فى هــذا صــيانة للفرد،وحياطة له مــن أن تضــطرب حياتــه وتتعثــر خطواتــه،وفى هــذا أيضا،صــيانة للمجتمع،وحياطة لمواطن القوة منه،والحياة فيه.

فالمال فى يد من لا يحسن التصرف فيه،ولا يرعى قدره وحرمته،هو فى تلك الحال فى يد غــير أمينة عليه،وغير مستأهلة له..ومن حق المجتمع أن يترع هذا الحق منه،ويضعه فى يد أمينة،تحافظ عليه وترعاه لحساب السفيه حتى يرشد،أو يموت،فيكون لورثته من بعده.

وفى قوله تعالى:«الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً» إشارة إلى ما للمال من شــأن فى الإســلام،وإلى النظرة التي ينظر بها إليه،وأنه قوام الحياة،وملاك عمرانها،ومبعث سلامة المجتمع وقوته! فالــذين يتحدثون باسم الإسلام،مهوّنين من شأن المال،أو مستصــغرين خطــره،أو مســتخفّين بــه وبأهله،إنما يفترون على الإسلام،وينطقون عنه زورا وبهتانا.

وقوله تعالى:«وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» هو دعوة إلى من بيده مــال السفيه،أن يرزقه منه،ويقضى مطالبه،من سكن وطعام وكسوة،وغير ذلك مما يضمن له حيــاة مستقرة،فى حدود ما يتسع له ما له،إذ أصبح ولا مال بين يديه..فالعدل يقضى بأنه إذا حــرم التصرف فيما يملك،ألا يحرم الانتفاع مما يملك! وفى قوله تعالى:«وَارْزُقُوهُمْ فِيها» ما يشير إلى أن يكون الإنفاق عليهم من صميم مالهم،لا من حواشيه،بمعنى أن ينفق عليهم بالقــدر الــذي يسمح به ما لهم ويتسع له..

فكلمة «فيها» ظرف يحتوى المال كله،ويشتمل عليه..ومن هذا المال كله يكون الإنفاق علــى السفيه..ولهذا عدل القرآن عن التعبير بكلمة «منها» بدل «فيها» التي جــاء عليهــا الــنظم القرآنى..إذ أن «من» تفيد التبعيض بخلاف «فى» التي تفيد الإحاطة والشمول.

وقوله تعالى:«وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» أدب سماوىّ،يوصى به الله سبحانه الأوصــياء الــذين يقومون على أموال السفهاء،أن يلطفوا بهم،ويوادّوهم،ويلقوهم بالكلمة الطيبــة،التي تطيــب خواطرهم،وتنزع من صدورهم مرارة الألم الذي وجدوه فى انتزاع ما فى أيديهم من مال..

فالذى أخذ به هؤلاء السفهاء من انتزاع أموالهم من أيديهم،هو عدوان عليهم،اقتضته المصلحة بهم،وبالمجتمع..وإنه لكى يطبّ الإسلام لهذا الداء،وحتى لا يعالج الداء بالــداء،دعا إلى هــذا الأدب الرفيع العالي،الذي تطيب به نفوس هؤلاء المرضى،وتسلّ به السخائم من قلوبهم،وذلك طب سماوى تتم به تلك العملية الجراحية فى مشاعر الإنسان ووجدانه.دون ألم![١٦٢٩]

إن هذا المال،ولو أنه مال اليتامى،إلا أنه – قبل هذا – مال الجماعة،أعطاها الله إياه لتقوم بــه وهي متكافلة في الانتفاع بهذا المال على أحسن الوجوه.فالجماعة هي المالكة ابتــداء للمــال العام،واليتامى أو مورثوهم إنما يملكون هذا المال لاستثماره – بإذن من الجماعــة – ويظلــون ينتفعون به وينفعون الجماعة معهم،ما داموا قادرين على تكثيره وتثميره راشدين في تصــريفه وتدبيره – والملكية الفردية بحقوقها وقيودها قائمة في هذا الإطار – أما السفهاء من اليتــامى ذوي المال،الذين لا يحسنون تدبير المال وتثميره،فلا يسلم لهم،ولا يحق لهم التصرف فيه والقيام عليه – وإن بقيت لهم ملكيتهم الفردية فيه لا تنزع منهم – إنما يعود التصرف في مال الجماعة إلى من يحسن التصرف فيه من الجماعة.مع مراعاة درجــة القرابــة لليتيم،تحقيقــا للتكافــل العائلي،الذي هو قاعدة التكافل العام بين الأسرة الكبرى! وللسفيه حق الرزق والكســوة في ماله مع حسن معاملته:«وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً،وَارْزُقُوهُمْ فِيهــا وَاكْسُوهُمْ،وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» ..

ويتبين السفه والرشد – بعد البلوغ – وأمر السفه والرشد لا يخفى عادة،ولا يحتاج إلى تحديد مفهومه بالنصوص.فالبيئة تعرف الراشد من السفيه وتأنس رشد هذا وسفه ذاك،وتصــرفات كل منهما لا تخفى على الجماعة فالاختبار يكون لمعرفة البلوغ،الــذي يعــبر عنــه الــنص بكلمة:«النكاح» وهو الوظيفة التي يؤهل لها البلوغ:«وَابْتَلُوا الْيَتامى،حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ،فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ،وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا.وَمَنْ كانَ غَنِيًّا

[١٦٢٩] – التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٧٠٠)

فَلْيَسْتَعْفِفْ،وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ.فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ،وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً» ..

ويبدو من خلال النص الدقة في الإجراءات التي يتسلم بها اليتامى أموالهم عند الرشد.كذلك يبدو التشديد في وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى إليهم،بمجرد تبين الرشد - بعد البلوغ - وتسليمها لهم كاملة سالمة،والمحافظة عليها في أثناء القيام عليها،وعدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها! مع الاستعفاف عن أكل شيء منها مقابل القيام عليها - إذا كان الولي غنيا - والأكل منها في أضيق الحدود - إذا كان الولي محتاجا - ومع وجوب الإشهاد في محضر التسليم ..وختام الآية:التذكير بشهادة الله وحسابه:«وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً» ..

كل هذا التشديد،وكل هذا البيان المفصل،وكل هذا التذكير والتحذير ..يشي بما كان سائدا في البيئة من الجور على أموال اليتامى الضعاف في المجتمع،وبما كان يحتاج إليه تغيير هذا العرف السائد من تشديد وتوكيد،ومن بيان وتفصيل،لا يدع مجالا للتلاعب عن أي طريق ..

وهكذا كان المنهج الرباني ينسخ معالم الجاهلية في النفوس والمجتمعات،ويثبت معالم الإسلام ويمحو سمات الجاهلية في وجه المجتمع،ويثبت ملامح الإسلام.وهكذا كان يصوغ المجتمع الجديد ومشاعره وتقاليده،وشرائعه وقوانينه،في ظلال تقوى الله ورقابته،ويجعلها الضمان الأخير لتنفيذ التشريع.ولا ضمان لأي تشريع في الأرض بغير هذه التقوى وبدون هذه الرقابة:«وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً» ..[١٦٣٠]

وقد أخرج ابن جرير عَنِ السُّدِّيِّ:{أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا} [النساء:٥] " فَإِنَّ الْمَالَ هُوَ قِيَامُ النَّاسِ قِوَامُ مَعَايِشِهِمْ،يَقُولُ:كُنْتَ أَنْتَ قَيِّمَ أَهْلِكَ،فَلَا تُعْطِ امْرَأَتَكَ وَوَلَدَكَ مَالَكَ،فَيَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يَقُومُونَ عَلَيْكَ "[١٦٣١]

[١٦٣٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٩١١)

[١٦٣١] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ٣٩٨) صحيح

فبالأموال تقوى دولة الإسلام،ويجاهد في سبيل الله،وتعد العدة،وتنتج الصناعات العسكرية وغيرها،وتقسم الأجور والعطاءات والمساعدات على الناس،وبها تبنى المساجد والمستشفيات والمدارس وغيرها من المصالح.

ومع صلاح النية في طلب الربح والكسب،فإن السعي في طلب الرزق يكون من العبادات التي يؤجر عليها العبد إذا قصد في سعيه النفقة على من تجب عليه نفقتهم،أو قصد نصرة دين الله تعالى بماله،والجهاد في سبيل الله،وإطعام الفقراء والمساكين،أو غيرها من وجوه البر والصدقات،وقد قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)} [الصف:١٠ - ١٣]

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ،وَالمُصَدِّقُونَ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وَآيَاتِهِ،أَلاَ تُرِيدُونَ أَنْ أَدُلَّكُمْ عَلَى صَفْقَةٍ رَابِحَةٍ،وَتِجَارَةٍ نَافِعَةٍ،تَفُوزُونَ فِيهَا بِالرِّبْحِ العَظِيمِ،وَتُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الأَلِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟

وَهذِهِ الصَّفْقَةُ هِيَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَتُصَدِّقُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ،وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ القُرْآنِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ رَفْعِ كَلِمَةِ اللهِ،وَعِزَّةِ دِينِهِ،بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ،كَانَ ذَلِكَ خَيْراً لَكُمْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ فِي الدُّنْيَا:مِنَ النَّفْسِ وَالمَالِ وَالزَّوْجِ وَالوَلَدِ،هَذَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ المُجَاهِدِينَ فِي الآخِرَةِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ سَتَرَ اللهُ ذُنُوبكُمْ وَمَحَاهَا،وَأَدْخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الأَنْهَارُ فِي جَنَبَاتِهَا،وَأَسْكَنَكُمْ مَسَاكِنَ طَيبةً تَقَرُّ بِهَا العُيُونَ،وَهَذا هُوَ مُنْتَهَى ما تَصْبُوا إليه النُّفُوسُ،وَهُوَ الفَوْزُ الذي لاَ فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْهُ.وَلَكُمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ المُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى،مَعَ الفَوْزِ فِي الآخِرَةِ،الذي وَعَدَكُمُ اللهُ بِهِ،نِعْمَةٌ أُخْرَى تُحِبُّونَها،وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللهِ،وَفَتْحٌ قَرِيبٌ،تَجْنُونَ مَغَانِمَهُ،وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ المُؤْمِنِينَ بِهَذَا الجَزَاءِ.[١٦٣٢]

[١٦٣٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٥١،بترقيم الشاملة آليا)

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَبُوكًا فَمَرَّ بِنَا شَابٌّ نَشِيطٌ يَسُوقُ غُنَيْمَةً لَهُ فَقُلْنَا:لَوْ كَانَ شَبَابُ هَذَا وَنَشَاطُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْهَا فَانْتَهَى قَوْلُنَا حَتَّى بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ:" مَا قُلْتُمْ؟ " قُلْنَا:كَذَا وَكَذَا قَالَ:" أَمَا إِنَّهُ إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى عِيَالٍ يَكْفِيهِمْ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "[١٦٣٣]

وعَنْ أَبِي الْمُخَارِقِ،قَالَ:خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَطَلَقَتْ نَاقَتُهُ فَأَقَامَ عَلَيْهَا سَبْعًا،فَمَرَّ بِنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ،فَقَالُوا:مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ رَجُلًا أَجْلَدَ وَلَا أَقْوَى لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَسَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى صِبْيَةٍ لَهُ صِغَارٍ لِيُغْنِيَهُمْ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَالِدَيْهِ لِيُغْنِيَهُمَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيُغْنِيَهَا وَيُكَافِئَ النَّاسَ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَإِنْ كَانَ يَسْعَى سُمْعَةً وَرِيَاءً فَهُوَ لِلشَّيْطَانِ»[١٦٣٤]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْبٍ،عَنْ عَمِّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ أَثَرُ غُسْلٍ،وَهُوَ طَيِّبُ النَّفْسِ،فَظَنَنَّا أَنَّهُ أَلَمَّ بِأَهْلِهِ،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،نَرَاكَ طَيِّبَ النَّفْسِ؟ قَالَ:«أَجَلْ،وَالْحَمْدُ لِلَّهِ»،ثُمَّ ذُكِرَ الْغِنَى،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِالْغِنَى لِمَنِ اتَّقَى،وَالصِّحَّةُ لِمَنِ اتَّقَى خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى،وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النِّعَمِ»[١٦٣٥]

[١٦٣٣] - السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٧٨٧)(١٥٧٤١) صحيح

[١٦٣٤] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٧٨)(٢٦١٨) صحيح لغيره

[١٦٣٥] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١١٣)(٣٠١) صحيح

قَالَ:كُنَّا فِي مَجْلِسٍ فَطَلَعَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -) أَيْ:فَظَهَرَ كَطَلْعَةِ الشَّمْسِ (" وَعَلَى رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ ") أَيْ:مِنَ الْغُسْلِ (فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَاكَ طَيِّبَ النَّفْسِ) .أَيْ:ظَاهِرَ الْبِشْرِ وَالسُّرُورِ وَمُنْشَرِحَ الْخَاطِرِ عَلَى مَا يَتَلَأْلَأُ مِنْكَ مِنَ النُّورِ.(قَالَ:" أَجَلْ ") .بِفَتْحَتَيْنِ وَسُكُونِ اللَّامِ الْمُخَفَّفَةِ أَيْ:نَعَمْ (قَالَ) أَيِ:الرَّجُلُ الرَّاوِي (ثُمَّ خَاضَ الْقَوْمُ) أَيْ:شَرَعُوا وَبَالَغُوا (فِي ذِكْرِ الْغِنَى) أَيْ:فِي سُؤَالِهِ أَوْ ذَمِّ حَالِهِ وَسُوءِ مَآلِهِ.(«فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:" لَا بَأْسَ بِالْغِنَى لِمَنِ اتَّقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ» ") .أَشَارَ بِقَوْلِهِ:لَا بَأْسَ أَنَّ الْفَقْرَ أَفْضَلُ لِمَنِ اتَّقَى اللَّهَ (" وَالصِّحَّةُ ") أَيْ:صِحَّةُ الْبَدَنِ،وَلَوْ مَعَ الْفَقْرِ لِمَنِ اتَّقَى (" خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى ")،أَيْ:مُطْلَقًا،أَوِ الْمَعْنَى وَصِحَّةُ الْحَالِ لِمَنِ اتَّقَى الْمَالَ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى الْمُوجِبِ لِلْحِسَابِ وَالْعِقَابِ فِي الْمَآلِ،(" وَطِيبُ النَّفْسِ ") أَيِ:انْشِرَاحُ الصَّدْرِ الْمُقْتَضِي لِلشُّكْرِ،وَالصَّبْرُ الْمُسْتَوِي عِنْدَهُ الْغِنَى وَالْفَقْرُ (مِنَ النَّعِيمِ) أَيْ:مِنْ جُمْلَةِ النَّعِيمِ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِجَنَّةِ نَعِيمٍ عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ الْعَارِفِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن:٤٦] جَنَّةٌ فِي الدُّنْيَا وَجَنَّةٌ فِي الْعُقْبَى.وَقِيلَ:مِنَ النَّعِيمِ الْمَسْئُولِ عِنْدَ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ

فلا بأس بالغنى لمن اتقى الله تعالى،لأن العبد التقي يتقي الله تعالى في كسبه للمال وفي إنفاقه
وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:جَاءَ الفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالُوا:ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلاَ،وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ،وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا،وَيَعْتَمِرُونَ،وَيُجَاهِدُونَ،وَيَتَصَدَّقُونَ،قَالَ:«أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ،وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ»،فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا،فَقَالَ بَعْضُنَا:نُسَبِّحُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ،وَنَحْمَدُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ،وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ،فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ،فَقَالَ:تَقُولُ:«سُبْحَانَ اللَّهِ،وَالحَمْدُ لِلَّهِ،وَاللَّهُ أَكْبَرُ،حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ»[١٦٣٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالُوا:ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ،يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ،وَلَهُمْ فُضُولُ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ،قَالَ:«أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ،وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ،وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ بِمِثْلِ أَعْمَالِكُمْ؟ تُسَبِّحُونَ،وَتُحَمِّدُونَ،وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ».[١٦٣٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – وَهَذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ – أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالُوا:ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى،وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ،فَقَالَ:«وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا:يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ،وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ،وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ

النَّعِيمِ} [التكاثر:٨] وَهُوَ لَا يُنَافِي مَا ذَكَرْنَاهُ فَإِنَّهُ الْفَرْدُ الْأَكْمَلُ مِنْ جِنْسِ النَّعِيمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لِغَيْرِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أَنَّهُ النَّعِيمُ،فَإِنَّ مَا عَدَاهُ قَدْ يُعَدُّ كَوْنُهُ مِنَ الْمَاءِ الْحَمِيمِ،أَوْ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣١١)

[١٦٣٦] – صحيح البخاري (١/ ١٦٨)(٨٤٣)

[ش (الدثور) جمع دثر وهو المال الكثير.(بالدرجات العلا) المراتب العليا في الجنة.(النعيم) ما يتنعم به.(المقيم) الدائم.(فضل من أموال) أموال زائدة عن حاجتهم.(أحدثكم بأمر إن أخذتم) في نسخة (أحدثكم بما إن أخذتم به).(ظهرانيه) من أنتم بينهم.(منهن كلهن) من كل جملة منهن]

[١٦٣٧] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٥/ ٣٥٧)(٢٠١٤) صحيح

مِـــنْكُمْ إِلَّـــا مَـــنْ صَـــنَعَ مِثْـــلَ مَـــا صَـــنَعْتُمْ» قَـــالُوا:بَلَى،يَـــا رَسُـــولُ اللهِ قَالَ:«تُسَبِّحُونَ،وَتُكَبِّرُونَ،وَتَحْمَدُونَ،دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً» قَالَ أَبُو صَالِحٍ:فَرَجَـــعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالُوا:سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْـــلُ الْـــأَمْوَالِ بِمَـــا فَعَلْنَـــا،فَفَعَلُوا مِثْلَهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» وَزَادَ غَيْرُ قُتَيْبَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنِ اللَّيْثِ،عَنِ ابْنِ عَجْلَانَ،قَالَ سُمَيٌّ:فَحَدَّثْتُ بَعْضَ أَهْلِي هَذَا الْحَدِيثَ،فَقَالَ:وَهِمْتَ،إِنَّمَا قَـــالَ «تُسَبِّحُ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ،وَتَحْمَدُ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ،وَتُكَبِّرُ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» فَرَجَعْتُ إِلَى أَبِـــي صَالِحٍ فَقُلْتُ لَهُ ذَلِكَ،فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ:اللهُ أَكْبَرُ،وَسُبْحَانَ اللهِ،وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،اللهُ أَكْبَرُ،وَسُـــبْحَانَ اللهِ،وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،حَتَّى تَبْلُغَ مِنْ جَمِيعِهِنَّ ثَلَاثَةً وَثَلَاثِينَ.[١٦٣٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْـــرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ،وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا،أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ» رواه الترمذي[١٦٣٩]

[١٦٣٨] - صحيح مسلم (١/ ٤١٦)(١٤٢ - (٥٩٥)

[ش (الدثور) واحدها دثر وهو المال الكثير (بالدرجات العلى) جمع العليا تأنيث الأعلى ككبرى وكبر قيل الباء للتعدية أي أذهبوها وأزالوها وقيل للمصاحبة فيكون المعنى استصحبوها معهم ولم يتركوا لنا شيئا (والنعيم المقيم) أي الدائم وهو نعيم الآخرة وعيش الجنة (يصلون كما نصلي) ما كافة تصحح دخول الجار على الفعل وتفيد تشبيه الجملة بالجملة كقولك يكتب زيد كما يكتب عمرو أو مصدرية كما في قوله تعالى بما رحبت أي صلاتهم مثل صلاتنا وصومهم مثل صومنا (دبر) هو بضم الدال هذا هو المشهور في اللغة وقال أبو عمر المطرزي في كتابه اليواقيت دبر كل شيء بفتح الدال آخر أوقاته من الصلاة وغيرها وقال هذا هو المعروف في اللغة وأما الجارحة فبالضم]

[١٦٣٩] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٦٠٩)(٣٦٦١) صحيح

(مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ) أَيْ:عَطَاءٌ وَإِنْعَامٌ (إِلَّا وَقَدْ كَافَأْنَاهُ)،بِهَمْزَةٍ سَاكِنَةٍ بَعْدَ الْفَاءِ وَيَجُوزُ إِبْدَالُهَا أَلِفًا،فَفِي الْقَامُوسِ:كَافَأَهُ مُكَافَأَةً جَازَاهُ ذَكَرَهُ فِي الْمَهْمُوزِ،وَكَفَاهُ مُؤْنَتَهُ كِفَايَةً ذَكَرَهُ فِي الْمُعْتَلِّ،وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْمُنَاسِبَ لِلْمَقَامِ هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ،وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ الْمُصَحَّحَةِ بِالْيَاءِ،وَلَا يَظْهَرُ لَهُ وَجْهٌ،وَالْمَعْنَى جَازَيْنَاهُ مِثْلًا بِمِثْلٍ أَوْ أَكْثَرَ.(مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ)،أَيْ مَا عَدَاهُ أَيْ إِلَّا إِيَّاهُ (فَإِنَّهُ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا):قِيلَ:أَرَادَ بِالْيَدِ النِّعْمَةَ وَقَدْ بَذَلَهَا كُلَّهَا إِيَّاهُ - ﷺ -،وَهِيَ الْمَالُ وَالنَّفْسُ وَالْأَهْلُ وَالْوَلَدُ ذَكَرَهُ شَارِحٌ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِتَرْكِ الْيَدِ إِعْتَاقُ بِلَالٍ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ:{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى - الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى - وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى - إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى - وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل:١٧ - ٢١] وَفُسِّرَ بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ وَإِلَيْهِ يَنْظُرُ قَوْلُهُ:(يُكَافِيهِ اللَّهُ) أَيْ:يُجَازِيهِ (بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)،أَيْ:جَزَاءً كَامِلًا،وَاقْتَصَرَ صَاحِبُ (الرِّيَاضِ) عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ مِنَ الْحَدِيثِ،وَقَالَ:رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ:حَسَنٌ غَرِيبٌ.(وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي):مَا مَصْدَرِيَّةٌ وَمِثْلُ مُقَدَّرٌ أَيْ مِثْلُ مَا نَفَعَنِي (مَالُ أَبِي بَكْرٍ،وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا) أَيْ:مِنْ أُمَّتِي (خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا):لِلتَّنْبِيهِ (وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ:مَا أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ"[١٦٤٠]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ،مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ " فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ،وَقَالَ:هَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟[١٦٤١].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ:رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا،فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ،وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً،فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا "متفقٌ عليه[١٦٤٢].

وعن شَدَّادَ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ،وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ،وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ،وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ،وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» رواه مسلم[١٦٤٣].

اللَّهِ):يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فَعِيلًا بِمَعْنَى فَاعِلٍ أَوْ مَفْعُولٍ،وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ فَتَدَبَّرْ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٨٨٧)

[١٦٤٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ٢٧٣)(٦٨٥٨) صحيح

[١٦٤١] - مسند أحمد ط الرسالة (١٢/ ٤١٤)(٧٤٤٦) صحيح

[١٦٤٢] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٨)(١٤٠٩) وصحيح مسلم (١/ ٥٥٩)٢٦٨ - (٨١٦)

(لَا حَسَدَ):وَهُوَ تَمَنِّي زَوَالِ نِعْمَةِ أَحَدٍ وَانْتِقَالُهَا إِلَيْهِ كَذَا قِيلَ،وَالْحَقُّ أَنَّهُ أَعَمُّ وَهُوَ مَذْمُومٌ إِذَا عَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ تَصْمِيمٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ،وَلِذَا قَالَ تَعَالَى:{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفلق:٥] وَاسْتَثْنَوْا مِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَتِ النِّعْمَةُ لِكَافِرٍ أَوْ فَاسِقٍ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ،وَالْمُرَادُ هُنَا الْغِبْطَةُ وَهِيَ تَمَنِّي حُصُولِ مِثْلِهَا لَهُ،وَأُطْلِقَ الْحَسَدُ عَلَيْهَا مَجَازًا.

وَقَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ لَا رُخْصَةَ فِيهِ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَعْنَاهُ لَوْ جَازَ الْحَسَدُ لَمَا جَازَ إِلَّا فِيمَا ذُكِرَ،وَأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنَ الْحَدِيثِ إِبَاحَةُ نَوْعٍ مِنَ الْحَسَدِ لِتَضَمُّنِهِ الْمَنْفَعَةَ فِي الدِّينِ فَغَيْرُ صَحِيحٍ (إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ) أَيْ:فِي نَفِيسَيْنِ أَوْ خَصْلَتَيْنِ،وَرُوِيَ بِالتَّذْكِيرِ أَيْ فِي شَأْنِ اثْنَيْنِ (رَجُلٍ):رُوِيَ مَجْرُورًا عَلَى الْبَدَلِ وَهُوَ أَوْثَقُ الرِّوَايَاتِ،وَرُوِيَ مَرْفُوعًا مُبْتَدَأً.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:رُوِيَ:لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ فَيَكُونُ " رَجُلٍ " بَدَلًا مِنْهُ،وَرُوِيَ فِي اثْنَتَيْنِ أَيْ خَصْلَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ،فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ لِيَسْتَقِيمَ الْمَعْنَى،فَإِذَا رُوِيَ فِي اثْنَيْنِ يُقَدَّرُ فِي شَأْنِ اثْنَيْنِ،وَإِذَا رُوِيَ اثْنَتَيْنِ،يُقَدَّرُ خَصْلَةُ رَجُلٍ (آتَاهُ اللَّهُ):بِالْمَدِّ أَيْ أَعْطَاهُ (مَالًا) أَيْ:مَالًا كَثِيرًا أَوْ نَوْعًا مِنَ الْمَالِ،وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَلَالًا " (فَسَلَّطَهُ) " أَيْ:وَكَّلَهُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُ (عَلَى هَلَكَتِهِ) ":بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ:إِنْفَاقِهِ وَإِهْلَاكِهِ،وَعَبَّرَ بِذَلِكَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُبْقِي مِنْهُ شَيْئًا وَكَمَّلَهُ بِقَوْلِهِ:(فِي الْحَقِّ):لِيُزِيلَ الْإِسْرَافَ الْمَذْمُومَ وَالرِّيَاءَ الْمَلُومَ،وَلَا سَرَفَ فِي الْخَيْرِ كَمَا لَا خَيْرَ فِي السَّرَفِ (وَرَجُلٍ):بِالْوَجْهَيْنِ لِلْعَطْفِ (آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ):وَهِيَ إِصَابَةُ الْحَقِّ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ أَوْ عِلْمِ أَحْكَامِ الدِّينِ.قَالَ الْكِرْمَانِيُّ:عَرَّفَ الْحِكْمَةَ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا مَعْرِفَةُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ،وَأَرَادَ التَّعْرِيفَ بِلَامِ الْعَهْدِ (فَهُوَ يَقْضِي) أَيْ:يَعْمَلُ وَيَحْكُمُ (بِهَا) " أَيْ:بِالْحِكْمَةِ الَّتِي أُوتِيهَا (وَيُعَلِّمُهَا) .أَيْ غَيْرَهُ " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٨٤)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ،فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ:اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ،فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ،فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ،فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ،فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ،فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ،فَقَالَ لَهُ:يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ:فُلَانٌ – لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ – فَقَالَ لَهُ:يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ:اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ،لِاسْمِكَ،فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ:أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا،فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا،فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ،وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا،وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ " رواه مسلم[١٦٤٤].

[١٦٤٣] – صحيح مسلم (٢/ ٧١٨)٩٧ – (١٠٣٦)

[ش (أن تبذل الفضل خير لك) معناه إن بذلت الفاضل عن حاجتك وحاجة عيالك فهو خير لك لبقاء ثوابه وإن أمسكته فهو شر لك (ولا تلام على كفاف) معناه أن قدر الحاجة لا لوم على صاحبه]

[١٦٤٤] – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٨)٤٥ – (٢٩٨٤)

[ش (اسق حديقة فلان) الحديقة القطعة من النخيل وتطلق على الأرض ذات الشجر (فتنحى ذلك السحاب) معنى تنحى قصد يقال تنحيت الشيء وانتحيته ونحوته إذا قصدته ومنه سمي علم النحو لأنه قصد كلام العرب (حرة) الحرة أرض بها حجارة سود كثيرة (شرجة) وجمعها شراج وهي مسايل الماء في الحرار (بمسحاته) قال في القاموس سحا الطين يسحيه ويسحوه ويسحاه سحوا قشره وجرفه والمسحاة ما سحي به]

(رَجُلٌ بِفَلَاةٍ) أَيْ:بِصَحْرَاءَ وَاسِعَةٍ («مِنَ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ:اسْقِ») بِقَطْعِ هَمْزٍ وَوَصْلِهِ (حَدِيقَةَ فُلَانٍ) وَهِيَ بُسْتَانٌ يَدُورُ عَلَيْهِ حَائِطٌ،وَفُلَانٌ كِنَايَةٌ مِنْهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – عَنِ اسْمِ صَاحِبِ الْحَدِيقَةِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ صَرِيحًا (فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ) أَيْ:تَبَعَّدَ عَنْ مَقْصِدِهِ (فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ) وَهِيَ أَرْضٌ ذَاتُ حِجَارَةٍ سُودٍ (فَإِذَا شَرْجَةٌ) بِسُكُونِ الرَّاءِ مَسِيلُ الْمَاءِ إِلَى السَّهْلِ مِنَ الْأَرْضِ (مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ) بِكَسْرِ الشِّينِ أَيِ:الْوَاقِعَةِ فِي تِلْكَ الْحَرَّةِ (قَدِ اسْتَوْعَبَتْ) أَيْ:بِالْأَخْذِ (ذَلِكَ الْمَاءَ) أَيِ:النَّازِلَ مِنَ السَّحَابِ الْوَاقِعَ فِي الْحَرَّةِ (كُلَّهُ) تَأْكِيدٌ (فَتَتَبَّعَ) أَيْ:ذَلِكَ الرَّجُلُ (الْمَاءَ) أَيْ:أَثَرَهُ («فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ») أَيْ:مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ مِنْ حَدِيقَتِهِ (بِمِسْحَاتِهِ) بِكَسْرِ الْمِيمِ وَهِيَ الْمِجْرَفَةُ مِنَ الْحَدِيدِ أَوْ غَيْرِهِ (فَقَالَ) أَيِ:الرَّجُلُ (لَهُ) أَيْ:لِصَاحِبِ الْحَدِيقَةِ (يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟) أَيِ:الْمَخْصُوصُ (قَالَ:فُلَانٌ؛الِاسْمُ) بِالرَّفْعِ وَقِيلَ بِالنَّصْبِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ صَرَّحَ بِاسْمِهِ لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– كَنَّى عَنْهُ بِفُلَانٍ ثُمَّ فَسَّرَ بِقَوْلِهِ:الِاسْمُ (الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ) وَلَعَلَّ الْعُدُولَ عَنِ التَّصْرِيحِ إِلَى الْكِنَايَةِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ الْأَسْمَاءِ الْمُبْهَمَةِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ لَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ (فَقَالَ لَهُ) أَيْ لِلرَّجُلِ («يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ وَيَقُولُ») أَيْ:ذَلِكَ الصَّوْتُ يَعْنِي صَاحِبَهُ لِلسَّحَابِ،وَفِي نُسْخَةٍ يَقُولُ («اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ») قَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ:قُلْتُ أَنَا فُلَانٌ لِاسْمِكَ الْمَخْصُوصِ وَبَدَلِهِ،فَإِنَّ الْهَاتِفَ صَرَّحَ بِالِاسْمِ،وَالْكِنَايَةُ مِنَ السَّامِعِ (فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟) أَيْ:فِي حَدِيقَتِكَ مِنَ الْخَيْرِ حَتَّى تَسْتَحِقَّ هَذِهِ الْكَرَامَةَ (قَالَ:أَمَّا) بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ (إِذْ قُلْتَ) وَفِي نُسْخَةٍ إِذَا قُلْتَ («هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا») أَيْ:مِنْ

وعَنْ سَعِيدٍ الطَّائِيِّ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ،أَنَّهُ قَالَ:حَدَّثَنِي أَبُو كَبْشَةَ الأَنَّمَارِيُّ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ» قَالَ:«مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ،وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا،وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا» «وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ» قَالَ:" إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ،عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ،وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ،وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا،فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ،وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ:لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ،وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا،فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ،وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ،وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا،فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ،وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ:لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " [١٦٤٥]

وعَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ قَالَ:ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَثَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ:" رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَمَالًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا،فَهُوَ يَقُولُ:لَوْ آتَانِي اللهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَعَمِلْتُ فِيهِ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ،وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي غَيْرِ الْحَقِّ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبًّا وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمًا وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ يَقُولُ:لَوْ آتَانِي اللهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ "[١٦٤٦]

وعَنْ عَلِيٍّ،،قَالَ:سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ،يَقُولُ:بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ:" خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ،ثُمَّ ائْتِنِي " فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ،فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ،فَقَالَ:" إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ،وَأَزْعبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً ".قَالَ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ،وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ زَعْبَةً فِي الْإِسْلَامِ،وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.فَقَالَ:" يَا عَمْرُو،نِعْمًا بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ " "رواه أحمد[١٦٤٧].

زَرْعِ الْحَدِيقَةِ وَثَمَرِهَا («فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ») بِضَمَّتَيْنِ وَسُكُونِ الثَّانِي («وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا») أَيْ:وَأَصْرِفُ فِي الْحَدِيقَةِ لِلزِّرَاعَةِ وَالْعِمَارَةِ (ثُلُثَهُ)"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٢٧)

[١٦٤٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٦٢)(٢٣٢٥) صحيح

[١٦٤٦] - المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٣٤٤)(٨٦٢) صحيح

[١٦٤٧] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٢٩٨) (١٧٧٦٣) صحيح

وعَنْ هِلاَلِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ،حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يُحَدِّثُ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى المِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ،فَقَالَ:«إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي،مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا» فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَوَيَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ،فَقِيلَ لَهُ:مَا شَأْنُكَ؟ تُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ وَلاَ يُكَلِّمُكَ؟ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ؟ قَالَ:فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ،فَقَالَ:«أَيْنَ السَّائِلُ؟» وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ،فَقَالَ:«إِنَّهُ لاَ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ،وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ،إِلَّا آكِلَةَ الخَضْرَاءِ،أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ،فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ،وَرَتَعَتْ،وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ،فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ وَاليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ - أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ،كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ،وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» رواه البخاري ومسلم[١٦٤٨].

" إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ) أَيْ:مِنْ جُمْلَةِ مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الصَّحَابَةُ أَوْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ (مِنْ بَعْدِي) أَيْ:بَعْدَ وَفَاتِي وَفَقْدِ حَيَاتِي (مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا) :بِفَتْحِ الزَّايِ:وَسُكُونِ الْهَاءِ وَبِفَتْحٍ،فَفِي الْقَامُوسِ:الزَّهْرَةُ وَيُحَرَّكُ النَّبَاتُ أَوْ نَوْرُهُ أَوِ الْأَصْفَرُ مِنْهُ،وَالْمُرَادُ حُسْنُهَا وَبَهْجَتُهَا،فَقَوْلُهُ:(وَزِينَتُهَا) :عَطْفُ تَفْسِيرٍ،وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالزَّهْرَةِ إِشَارَةً إِلَى حُدُوثِهَا حُلْوَةً خَضِرَةً وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا،وَالْمَعْنَى أَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنَّ كَثْرَةَ أَمْوَالِكُمْ عِنْدَ فَتْحِ بِلَادِكُمْ تَمْنَعُكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،وَتَشْغَلُكُمْ عَنِ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ،وَتُحَدِثُ فِيكُمُ الْأَخْلَاقَ الدَّنِيَّةَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالْعُجْبِ وَالْغُرُورِ وَمَحَبَّةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ،وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنْ لَوَازِمِ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ،وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْمَوْتِ،وَمَا بَعْدَهُ حَتَّى الْأَحْوَالِ الْأُخْرَوِيَّةِ («فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ» ؟) :بِفَتْحِ الْوَاوِ،وَالِاسْتِفْهَامُ لِلِاسْتِرْشَادِ،وَالْمَعْنَى أَيُفْتَحُ عَلَيْنَا وَيَأْتِي الْخَيْرُ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْمَالِ وَالْحَلَالِ،وَتَوْسِيعِ الرِّزْقِ مَصْحُوبًا بِالشَّرِّ الْمُتَرَتِّبِ عَلَيْهِ تَرْكُ الْخَيْرِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ مِمَّا يُخَافُ عَلَيْنَا.وَقِيلَ:الْبَاءُ صِلَةُ يَأْتِي وَهِيَ لِلتَّعْدِيَةِ أَيْ:هَلْ يَسْتَجْلِبُ الْخَيْرُ الشَّرَّ،وَتَوْضِيحُهُ

[١٦٤٨] - صحيح البخاري (٢/ ١٢١)(١٤٦٥) وصحيح مسلم (٢/ ٧٢٨)١٢٣ - (١٠٥٢)

[ش (ينزل عليه) الوحي.(الرحضاء) العرق الكثير.(حمده) أثنى عليه.(الربيع) النهر الصغير.(يلم) يقرب من القتل.(آكلة الخضراء) التي تأكل الخضر وتقتصد في الأكل.(فثلطت) ألقت روثها رقيقا مائعا.(رتعت) توسعت في المرعى.(خضرة حلوة) مثل الفاكهة الخضرة الحلوة من حيث جمال المظهر وطيب المذاق المرغبان فيها فكذلك المال مرغوب فيه]

أَنَّ حُصُولَ الْغَنِيمَةِ لَنَا خَيْرٌ،وَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ الْخَيْرُ سَبَبًا لِلشَّــرِّ؟ (فَسَــكَتَ) أَيْ:مُتَأَمِّلًــا أَوْ مُسْتَغْرِقًا أَوْ مُنْتَظِرًا لِلْوَحْيِ سُكُوتًا مُمْتَدًّا،(حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنَزَّلُ) :بِصِيغَةِ الْمَجْهُــولِ أَيْ:نَــزَلَ الْوَحْيُ (عَلَيْهِ) أَيْ:بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ وَإِلَّا فَهُوَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُــوحَى إِمَّــا وَحْيًا جَلِيًّا أَوْ خَفِيًّا.

(قَالَ) أَيِ:الرَّاوِي (فَمَسَحَ عَنْهُ) أَيْ:عَنْ وَجْهِهِ الشَّرِيفِ (الرُّحَضَاءَ) :بِضَمِّ الرَّاءِ وَفَتْحِ الْحَــاءِ الْمُهْمَلَةِ وَبِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ وَبِالْمَدِّ،عَرَقُ الْحُمَّى عَلَيْهِ مَا فِي الْمُقَدِّمَةِ،وَالْمُرَادُ هُنَا عَرَقٌ يَظْهَــرُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ،فَالتَّرْكِيبُ مِنْ بَابِ التَّشْــبِيهِ الْبَلِيــغِ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ مَسَحَ عَنْهُ عَرَقًا كَعَرَقِ أَثَرِ الْحُمَّى تَرْحَضُ الْجَسَدَ أَيْ:تَغْسِلُهُ مِنْ كَثْرَتِهِ.(وَقَــالَ:" أَيْنَ السَّائِلُ؟ " وَكَأَنَّهُ) أَيِ:النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (حَمِــدَهُ) أَيْ:حَمِــدَ السَّــائِلَ وَاسْتَحْسَنَهُ فِي سُؤَالِهِ لِكَوْنِهِ سُؤَالَ اسْتِرْشَادٍ لِنَفْعِ الْعِبَادِ وَالْعُبَّادِ (فَقَالَ:" إِنَّهُ) أَيِ:الشَّــأْنُ (لَــا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ) أَيْ:حَقِيقَةً لِتَنَافِيهِمَا،لَكِنْ قَدْ يَكُونُ الْخَيْرُ سَبَبًا لِلشَّرِّ،فَضَرَبَ لِــذَلِكَ مَثَلًــا بِقَوْلِهِ الْمُنَاسِبِ لِتَعْبِيرِ الْخَيْرِ بِالزَّهْرَةِ حَيْثُ قَالَ:(وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ) أَيْ:بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَخَلْقِ أَسْبَابِهِ وَآلَتِهِ (مَا يَقْتُلُ) أَيْ:نَبَاتًا أَوْ شَيْئًا يُهْلِكُ الدَّوَابَّ (حَبَطًا) :بِفَتْحَتَيْنِ أَيِ:انْتِفَــاخَ بَطْنٍ مِنَ الِامْتِلَاءِ وَهُوَ تَمْيِيزٌ،وَالْمُرَادُ أَنَّهُ قَدْ يَقْتُلُ حَقِيقَــةً (أَوْ يُلِــمُّ) :بِضَــمِّ يَــاءٍ وَتَشْــدِيدِ مِيمٍ،أَيْ:يَكَادُ أَنْ يَقْتُلَ وَيَقْرُبُ أَنْ يُهْلِكَ،فَأَوْ لِلتَّنْوِيعِ،وَالْمَعْنَى أَنَّ الرَّبِيعَ يُنْبِتُ خِيَــارَ الْعُشْــبِ فَتَسْتَكْثِرُ مِنْهُ الْمَاشِيَةُ لِاسْتِطَابَتِهَا إِيَّاهُ حَتَّى تُنْفَخَ بُطُونُهَا عِنْدَ مُجَاوَزَتِهَا حَدَّ الِاعْتِــدَالِ،فَتَنْفَتِقَ أَمْعَاؤُهَا مِنْ ذَلِكَ فَتَمُوتَ أَوْ تَقْرُبَ الْمَوْتَ،وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّبِيعَ يُنْبِتُ أَضْرَابَ الْعُشْبِ فَهِيَ كُلُّهَا خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا،وَإِنَّمَا يَأْتِي الشَّرُّ مِنْ قِبَلِ إِفْرَاطِ الْأَكْلِ،فَكَذَلِكَ الْمُفْرِطُ فِي جَمْعِ الْمَــالِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ،أَوْ مِنَ الْحَلَالِ الْمُشْغِلِ عَنْ حَالِهِ يُكْثِرُ فِي التَّنَعُّمِ بِمَالِهِ مِــنْ غَيْــرِ تَأَمُّــلٍ فِــي مَآلِهِ،فَيَقْسُو قَلْبُهُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَكْلِ،فَيُورِثُ الْأَخْلَاقَ الدَّنِيَّةَ فَيَتَكَبَّرُ وَيَتَجَبَّرُ وَيُقِرُّ النَّــاسَ،وَيَمْنَعُ ذَا الْحَقِّ مِنْهَا،فَحَيْثُ آلَ مَآلُ الْمَالِ لِهَلَاكِهِ فِي الدُّنْيَا وَلِعَذَابِهِ فِي الْعُقْبَى يَصِيرُ سَبَبَ الْوَبَالِ وَشِدَّةَ النَّكَالِ وَسُوءَ الْحَالِ.(إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ) :بِفَتْحِ الْخَاءِ وَكَسْرِ الضَّادِ الْمُعْجَمَتَيْنِ وَهُــوَ الطَّــرِيُّ الْغَضُّ مِنَ النَّبَاتِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِضَمٍّ فَفَتْحٍ عَلَى أَنَّهُ جَمْعُ خُضْرَةٍ،وَرُوِيَ بِزِيَادَةِ الْهَــاءِ،وَالْمَعْنَى يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ كُلَّ آكِلِهِ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ وَالْبَيَانِ الْمَسْطُورِ لِقَوْلِهِ:(أَكَلَــتْ)

أَي:الْمَاشِيَةُ الْآكِلَةُ الْمُفرِطَةُ أَكْلَهَا (حَتَّى امْتَدَّتْ) أَي:امْتَلَأَتْ وَشَبِعَتْ (خَاصِرَتَاهَا) أَيْ:جَنْبَاهَا،وَعَبَّرَ عَنِ الشِّبَعِ بِامْتِدَادِهِمَا لِأَنَّهُمَا يَمْتَدَّانِ عِنْدَ امْتِلَاءِ الْبَطْنِ (اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ) أَيْ:ذَاتَهَا وَقُرْصَهَا،وَالْمَعْنَى أَنَّهَا بَرَكَتْ مُسْتَقْبِلَةً إِلَيْهَا تَسْتَمْرِئُ بِذَلِكَ مَا أَكَلَتْ.وَقَالَ شَارِحٌ أَيْ:تَرَكَتِ الْأَكْلَ وَلَمْ تَأْكُلْ مَا فَوْقَ طَاقَةِ كِرْشِهَا حَتَّى تَقْتُلَهَا كَثْرَةُ الْأَكْلِ،وَتَوَجَّهَتْ إِلَى مَسْقَطِ ضَوْئِهَا وَاسْتَرَاحَتْ فِيهِ.(فَثَلَطَتْ) أَيْ:أَلْقَتْ رَوْثَهَا رَقِيقًا سَهْلًا (وَبَالَتْ) أَيْ:فَزَالَ عَنْهَا الْحَبَطُ (ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ) أَيْ:ثُمَّ إِذَا حَصَلَ لَهَا خِفَّةٌ وَاحْتَاجَتْ إِلَى الْأَكْلِ عَادَتْ فَأَكَلَتْ،كَذَلِكَ مَنْ أَخْرَجَ مَا فِي الْمَالِ حَتَّى الْحُقُوقِ،وَعَالَجَ نَفْسَهُ بِالِاحْتِمَاءِ عَنْ مَسَاوِئِ الْأَغْنِيَاءِ،وَعَرَفَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ كَلَامَ الْحُكَمَاءِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ،فَيَكُونُ الْمَالُ حِينَئِذٍ خَيْرًا لَهُ،لِأَنَّهُ مَعُونَةٌ لَهُ فِي تَحْصِيلِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ،لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْخَطَرُ فِيهِ كَثِيرًا بِحَيْثُ يَضُرُّ السَّالِكِينَ بِحَسَبِ الْأَغْلَبِ اخْتَارَ اللَّهُ لِأَكْثَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ طَرِيقَ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ.وَذَهَبَ الصُّوفِيَّةُ أَجْمَعُهُمْ،وَالْعُلَمَاءُ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَنَّ الْفَقِيرَ الصَّابِرَ أَفْضَلُ مِنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ،وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ هَذَا مُجْمَلُ الْكَلَامِ وَمَرَامُ الْمَقَامِ.

وَأَمَّا تَفْصِيلُهُ لُغَةً وَحَلًّا مِنْ جِهَةِ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى،فَفِي النِّهَايَةِ:الْحَبَطُ بِالتَّحْرِيكِ الْهَلَاكُ،يُقَالُ:حَبِطَتِ الدَّابَّةُ تُحْبَطُ حَبَطًا بِالتَّحْرِيكِ إِذَا أَصَابَتْ مَرْعًى طَيِّبًا،فَأَفْرَطَتْ فِي الْأَكْلِ حَتَّى تَنْتَفِخَ فَتَمُوتَ،وَذَلِكَ أَنَّ الرَّبِيعَ يُنْبِتُ أَحْرَارَ الْعُشْبِ فَتَسْتَكْثِرُ مِنْهُ الْمَاشِيَةُ،وَيُلِمُّ أَيْ:يَقْرُبُ وَيَدْنُو مِنَ الْهَلَاكِ،وَالْخَضِرُ بِكَسْرِ الضَّادِ نَوْعٌ مِنَ الْبُقُولِ لَيْسَ مِنْ أَحْرَارِهَا وَجَيِّدِهَا وَإِنَّمَا تَرْعَاهَا الْمَوَاشِي إِذَا لَمْ تَجِدْ غَيْرَهَا فَلَا تُكْثِرُ مِنْ أَكْلِهَا وَلَا تَسْتَمْرِئُهَا.

قَالَ الْقَاضِي:آكِلَةَ نُصِبَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولُ يَقْتُلُ وَالِاسْتِثْنَاءُ مُفَرَّغٌ،وَالْأَصْلُ أَنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ آكِلَهُ إِلَّا آكِلَ الْخَضِرِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ،وَإِنَّمَا صَحَّ الِاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ مِنَ الْمُثْبَتِ لِقَصْدِ التَّعْمِيمِ فِيهِ،وَنَظِيرُهُ قَرَأْتُ إِلَّا يَوْمَ كَذَا.قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:وَعَلَيْهِ ظَاهِرُ كَلَامِ الْمُظْهِرِ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ لِوُقُوعِهِ فِي الْكَلَامِ الْمُثْبَتِ،وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ عِنْدَ الْكَشَّافِ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ فِيهِ لِأَنَّ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا بَعْضُ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ لِدَلَالَةِ مِنَ التَّبْعِيضِيَّةِ عَلَيْهِ وَالتَّقْسِيمِ فِي قَوْلِهِ:إِلَّا آكِلَ الْخَضِرِ غَيْرَ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا،يَشْهَدُ لَهُ مَا فِي شَرْحِ السُّنَّةِ.قَالَ الْأَزْهَرِيُّ:وَفِيهِ مَثَلَانِ،ضُرِبَ أَحَدُهُمَا لِلْمُفْرِطِ فِي جَمْعِ الدُّنْيَا وَمَنْعِهَا مِنْ حَقِّهَا،وَضُرِبَ الْآخَرُ لِلْمُقْتَصِدِ فِي

أَخْذهَا وَالانْتفَاع بهَا،وَأَمَّا قَوْلُهُ:وَأَنَّ ممَّا يُنْبتُ الرَّبيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا فَهُوَ مَثَلٌ للْمُفْـرط الَّـذي يَأْخُذُهَا بغَيْر حَقٍّ،وَذَلكَ أَنَّ الرَّبيعَ يُنْبتُ أَحْرَارَ الْعُشْب فَتَسْتَكْثرُ منْهَا الْمَاشـيَةُ،حَتَّى يَنْـتَفخَ بُطُونُهَا لمَا قَدْ جَاوَزَتْ حَدَّ الاحْتمَال فَتَنْفَتقُ أَمْعَاؤُهَا فَتَهْلكُ،كَذَلكَ الَّذي يَجْمَعُ الدُّنْيَا مـنْ غَيْر حلِّهَا،وَيَمْنَعُ ذَا الْحَقِّ حَقَّهُ يَهْلَكُ في الْآخرَة بدُخُول النَّار،وَأَمَّا مَثَلُ الْمُقْتَصد فَقَوْلُهُ عَلَيْـه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" إلَّا آكلَةَ الْخَضر " وَذَلكَ أَنَّ الْخَضرَ لَيْسَتْ منْ أَحْرَار الْبُقُول الَّتـي يُنْبتُهَـا الرَّبيعُ فَتَسْتَكْثرُ منْهَا الْمَاشيَةُ،وَلَكنَّهَا منْ كَلَأ الصَّيْفيِّ الَّتي تَرْعَاهَا الْمَوَاشي بَعْدَ هَشيم الْبُقُـول شَيْئًا فَشَيْئًا منْ غَيْر اسْتكْثَار،فَضَرَبَ مَثَلًا لمَنْ يَقْتَصدُ في أَخْذ الدُّنْيَا،وَلَا يَحْملُهُ الْحرْصُ عَلَـى أَخْذهَا فَهُوَ يَنْجُو منْ وَبَالهَا.قَالَ الْأَشْرَفُ في قَوْله:حَتَّى امْتَدَّتْ خَاصرَتَاهَا اسْـتَقْبَلَتْ عَـيْنَ الشَّمْس،إنَّ الْمُقْتَصدَ الْمَحْمُودَ الْعَاقبَة وَإنْ جَاوَزَ حَدَّ الاقْتصَاد في بَعْض الْأَحْيَان،وَقَرُبَ مـنَ السَّرَف الْمَذْمُوم لغَلَبَة الشَّهْوَة الْمَرْكُوزَة في الْإنْسَان،وَهُوَ الْمَعْنيُّ بقَوْله:أَكَلَتْ حَتَّى امْتَـدَّتْ خَاصرَتُهَا،لَكنَّهُ يَرْجعُ عَنْ قَريب عَنْ ذَلكَ الْحَدِّ الْمَذْمُوم،وَلَا يَلْبَثُ عَلَيْه،بَلْ يَلْتَجئُ إلَى الدَّلَائل النَّيِّرَة وَالْبَرَاهين الْوَاضحَة الدَّافعَة للْحـرْص الْمُهْلـك الْقَامعَـة لَـهُ،وَهُوَ الْمَـدْلُولُ عَلَيْـه بقَوْله:اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْس وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ،فَحَذَفَ مَا حَذَفَ منَ الْمَرَّة الثَّانيَة لدَلَالَة مَا قَبْلَهَا عَلَيْه،وَفيه إرْشَادٌ إلَى أَنَّ الْمَحْمُودَ الْعَاقبَة وَإنْ تَكَرَّرَ منْهُ الْخُرُوجُ عَنْ حَدِّ الاقْتصَاد وَالْقُرْب منْ حَدِّ الْإسْرَاف مَرَّةً بَعْدَ أُولَى،وَثَانيَةً بَعْدَ أُخْرَى لغَلَبَة الشَّهْوَة عَلَيْه وَقُوَّتهَا فيه،لَكنَّهُ يُمْكـنُ أَنْ يَبْعُدَ بمَشيئَة اللَّه تَعَالَى عَن الْحَدِّ الْمَذْمُوم الَّذي هُوَ الْإسْرَافُ،وَيَقْرُبُ منَ الاقْتصَاد الَّذي هُـوَ الْحَدُّ الْمَحْمُودُ.

قَالَ الطِّيبيُّ رَحمَهُ اللَّهُ:فَعَلَى هَذَا الاسْتثْنَاءُ مُتَّصلٌ لَكنْ يَجبُ التَّأْويلُ في الْمُسْتَثْنَى منْهُ،وَالْمَعْنَى أَنَّ منْ جُمْلَة مَا يُنْبتُ الرَّبيعُ شَيْئًا يَقْتُلُ آكلَهُ إلَّا الْخَضرَ منْهُ إذَا اقْتَصَدَ فيه آكلُهُ وَتَحَرَّى دَفْعَ مَا يُؤَدِّيه إلَى الْهَلَاك.(وَإنَّ هَذَا الْمَالَ) أَي:الْمَحْسُوسَ في الْبَال (خَضرَةٌ) :بفَتْح فَكَسْر (حُلْـوَةٌ) :بضَمِّ الْحَاء أَيْ:حَسَنَةُ الْمَنْظَر لزيَادَة الْمَذَاق وَالتَّأْنيث باعْتبَار أَنَّ هَذَا الْمَالَ عبَارَةٌ عَن الـدُّنْيَا وَزينَتهَا،إذ التَّقْديرُ أَنَّ زَهْرَةَ هَذَا الْمَال خَضرَةٌ حُلْوَةٌ،قَالَ التُّوربشْتيُّ رَحمَهُ اللَّهُ:كَذَلكَ نَرْويـه منْ كتَاب الْبُخَاريِّ عَلَى التَّأْنيث،وَقَدْ رُويَ أَيْضًا خَضرٌ حُلْوٌ،وَالْوَجْهُ فيه أَنْ يُقَالَ:إنَّمَا أُنِّـثَ عَلَى مَعْنَى تَأْنيث الْمُشَبَّه به أَيْ:إنَّ هَذَا الْمَالَ شَيْءٌ كَالْخَضرة،وَقيلَ مَعْنَاهُ كَالْبَقْلَة الْخَضرَة،أَوْ

يَكُونُ عَلَى مَعْنَى فَائِدَةِ الْمَالِ أَيْ:أَنَّ الْحَيَاةَ بِهِ أَوِ الْمَعِيشَةَ خَضِرَةٌ.قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ عَنِ الْمَالِ بِالدُّنْيَا،لِأَنَّهُ أَعْظَمُ زِينَتَيِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف:٤٦] فَيُوَافِقُ حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ:" «الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ» .." عَلَى مَا مَرَّ فِي الْبَابِ السَّابِقِ اهـ.

وَالْمَعْنَى أَنَّ هَذَا الْمَالَ مُشَبَّهٌ بِالْمَرْعَى الْمُشْتَهَاةِ لِلْأَنْعَامِ (فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ) أَيْ:بِقَدْرِ احْتِيَاجِهِ مِنْ طَرِيقِ حِلِّهِ (وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ) أَيْ:فِي مَحَلِّهِ الْوَاجِبِ أَوْ نَدَبَهُ (فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ) أَيْ:مَا يُعَانُ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَيُدْفَعُ بِهِ ضَرُورَاتُ الْمُؤْنَةِ،إِذِ الْمُرَادُ بِالْمَعُونَةِ الْوَصْفُ مُبَالَغَةً أَيْ:فَنِعْمَ الْمُعِينُ عَلَى الدِّينِ.(هُوَ) أَيِ:الْمَالُ،وَنَظِيرُ مَا وَرَدَ:نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ،(وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ) أَيْ:مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَيْهِ وَجَمَعَهُ مِنْ حَرَامٍ وَلَمْ يَصْرِفْهُ فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ (كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ) :فَيَقَعُ فِي الدَّاءِ الْعُضَالِ وَالْوَرْطَةِ الْمُهْلِكَةِ لِغَلَبَةِ الْحِرْصِ كَالَّذِي بِهِ جُوعُ الْبَقَرِ،وَكَالْمَرِيضِ الَّذِي لَهُ الاسْتِسْقَاءُ حَيْثُ مَا يُرْوَى،وَكُلَّمَا يَشْرَبُ يَزِيدُ عَطَشًا وَانْتِفَاخًا (وَيَكُونُ) أَيِ:الْمَالُ (شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أَيْ:حُجَّةً عَلَيْهِ يَوْمَ يَشْهَدُ عَلَى حِرْصِهِ وَإِسْرَافِهِ،وَأَنَّهُ أَنْفَقَهُ فِيمَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى،وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ لِعِبَادِ اللَّهِ.قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:مِثَالُ الْمَالِ مِثَالُ الْحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا تِرْيَاقٌ نَاقِعٌ وَسُمٌّ نَافِعٌ،فَإِنْ أَصَابَهَا الْمُعَزِّمُ الَّذِي يَعُودُ وَجْهُ الاحْتِرَازِ عَنْ شَرِّهَا وَطَرِيقِ اسْتِخْرَاجِ تِرْيَاقِهَا كَانَتْ نِعْمَةً،وَإِنْ أَصَابَهَا السَّوَادِيُّ الْغَبِيُّ فَهِيَ عَلَيْهِ بَلَاءٌ مُهْلِكٌ،وَتَوْضِيحُهُ مَا قَالَهُ الْخَوَاجَةُ عُبَيْدُ اللَّهِ النَّقْشَبَنْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:أَنَّ الدُّنْيَا كَالْحَيَّةِ،فَكُلٌّ مَنْ يَعْرِفُ رُقْيَتَهَا يَجُوزُ لَهُ أَخْذُهَا،وَإِلَّا فَلَا.فَقِيلَ وَمَا رُقْيَتُهَا؟ فَقَالَ:أَنْ يَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ يَأْخُذُهَا وَفِي أَيْنَ يَصْرِفُهَا.[١٦٤٩]

وعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ،قَالَ:مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ،فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ:لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ؟،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ

[١٦٤٩] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٣٠)

فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ» رواه الطبراني[1650].

ولا ينافي الزهد في الدنيا السعي في الكسب الحلال والتوسع في التجارة والقيام بالمشاريع التجارية الكبيرة إذا ما نوى العبد في تجارته نصرة دين الله والجهاد بالمال في سبيل الله،والإحسان إلى الناس،وإطعام المساكين،والنفقة على من يعول من غير إسراف أو مخيلة،وأما التكاثر المذموم من الدنيا فهو ما ألهى صاحبه عن طاعة الله،وأدى به إلى الغفلة والركون إلى الدنيا،كما قال تعالى:{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) } [التكاثر:١ - ٨].

شَغَلَكُمُ التَّفَاخُرُ بِكَثْرَةِ الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَالأَنْصَارِ والأَشْيَاعِ عَنْ طَلَبِ الآخِرَةِ،وَالعَمَلِ لَهَا.وَمَا زَالَ هَذَا حَالُكُمْ حَتَّى هَلَكْتُمْ،وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ.كَفُّوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّبَاهِي،وَالتَّفَاخُرِ،وَفِعْلِ المُنْكَرَاتِ،وَتَرْكِ طَاعَةِ اللهِ،فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.ثُمَّ أَكَّدَ اللهُ تَعَالَى زَجْرَهُ لِهَؤُلاَءِ عَمَّا هُمْ فِيهِ،وَهَدَّدَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ ذَلِكَ.فَكُفُّوا عَمّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَغْرِيرٍ بِالنَّفْسِ،فَإِنَّكُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ أَمْرِكُمْ،وَعَاقِبَتَهُ لَشَغَلَكُمْ ذَلِكَ عَنِ التَّكَاثُرِ بِالأَوْلاَدِ وَالأَمْوَالِ،وَلَصَرَفَكُمْ إِلَى الاهْتِمَامِ بِصَالِحِ الأَعْمَالِ.فَإِذَا اسْتَمَرَّ بِكُمُ الحَالُ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَتَكُونُنَّ فِي الآخِرَةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ،وَتَرَوُنَّهَا بِأَعْيُنِكُمْ،فَاسْتَحْضِرُوا صُورَةَ عَذَابِهَا فِي أَذْهَانِكُمْ لِتَعِظَكُمْ،وَتُنَبِّهَكُمْ إِلَى عَمَلِ مَا فِيهِ خَيْرٌ لَكُمْ.وَلَتَرَوُنَّهَا رُؤْيَةً هِيَ اليَقِينُ بِعَينِهِ،لاَ شَكَّ فِيهِ،وَلاَ شُبْهَةَ وَلاَ لبسَ.وَهَذَا النَّعِيمُ الذي تَتَفَاخَرُونَ بِهِ،وَتَعُدُّونَهُ سَبَباً مِنْ أَسْبَابِ التَّبَاهِي،سَتُسْأَلُونَ عَنْهُ مَاذَا صَنَعْتُمْ بِهِ؟ وَهَلْ أَدَّيْتُمْ حَقَّ اللهِ فِيهِ؟ فَإِذَا كُنْتُمْ لَمْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ،كَانَ هَذَا النَّعِيمُ لَكُمْ غَايَةَ الشَّقَاءِ فِي الآخِرَةِ.[1651]

[1650] -المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ١٢٩)(٢٨٢) صحيح

[1651] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٤٦،بترقيم الشاملة آليا)

وقد جاءت الشريعة الإسلامية مستوفية لجميع أنواع المعاملات وأحكام الأموال كالصرف والتجارة والزراعة وغيرها،وقد بين الله تعالى أحكام المعاملات وفصلها ليكون المسلم على بصيرة من أمره فيما يحل ويحرم من المعاملات.

فالأصل في المعاملات الحل إلا إذا اشتمل العقد على نوع من الظلم كالربا أو الغرر والجهالة أو الخداع والغش أو غيرها من أنواع الظلم في المعاملات،وهذا الأصل يدلُّ على يسر الشريعة وسعتها لكل ما يستجدُّ ويطرأ من المعاملات بين الناس.

والواحب على الحكومة الإسلامية أن تتفقه في أحكام المعاملات والاقتصاد والتجارة والزراعة والصناعة وغيرها،حتى تكون على بينة من أمرها فيما يحل ويحرم،كما يجب عليها أن تأمر الناس بذلك في معاملاتهم،وقد قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ:«لَا يَبِعْ فِي سُوقِنَا إِلَّا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ» رواه الترمذي[1652].

وأما التعامل بالأموال بحسب أطماع الناس،وأهوائهم،وجشعهم،وظلمهم دون الرجوع إلى حكم الله ورسوله ﷺ،فهو وصف الكافرين في القديم والحاضر،كما قال تعالى عن قوم شعيب:{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود:٨٧].

قَالُوا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالسُّخْرِيَةِ:يَا شُعَيْبُ هَلْ صَلاَتُكَ وَإِيمَانُكَ برَبِّكَ يَأْمُرَانِكَ بِأَنْ تَدْعُوَنَا إِلَى تَرْكِ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا منْ أَصْنَامٍ وَأَوْثَانٍ،أَوْ أَنْ تَمْنَعَنَا عَنِ التَّصَرُّفِ فِي أَمْوَالِنَا بِمَا يُنَاسِبُ مَصْلَحَتَنَا منَ الحَذْقِ وَالخَدِيعَةِ،وَبِالشَّكْلِ الذِي نُرِيدُ؟ إِنَّ هَذا غَايَةُ السَّفَهِ.أَهَذا أَنْتَ الحَلِيمُ المُكْتَمِلُ العَقْلِ (الرَّشِيدُ) ؟[1653]

وبهذا المنطق السفيه،يردّ القوم على تلك الدعوة الكريمة التي يدعوهم إليها نبى كريم،بلسان عفّ،وبأسلوب يفيض رقّة وحنانا ومودة..«يا شُعَيْبُ» !؟ هكذا فى جفاء وغلظة،ينادونه باسمه مجردا،دون أن يضيفوه إليهم بنسب،كأن يقولوا:يا أخانا،أو يا أبانا،أو يا ابننا..أو نحو هذا..ثم يتبعون هذا قولهم فى استهزاء وسخرية:«أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ

[1652] - سنن الترمذي ت شاكر (٢/ ٣٥٧)(٤٨٧) حسن

[1653] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٥٦١،بترقيم الشاملة آليا)

نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا» ؟ وهم يريدون بالصلاة،الدّين الذي يدين به،إذ كانت صلاته الـــتي يرونها منه،هى المظهر العملي لهذا الدين.!

يعنون بهذا أن الدين الذي يدين به ويدعوهم إليه– هو الذي حمل شعيبا على أن يـــدعوهم إلى ترك ما كان يعبد آباؤهم من آلهة،وإلى ترك التصرف فى أموالهم،والتسلط عليها حســـب مـــا يشاءون؟ أفهذا دين يدين به العقلاء؟ وأي دين هذا الذي يخرج الناس عن عبادة ما كان يعبد آباؤهم؟ وأي دين هذا الذي يدخل على الإنسان فيما بينه وبين ما فى يديه من مال،فلا يدعه يتصرف فيه كما يشاء..ويشترى بالأسلوب الذي يرضاه،ويبيع بالوجه الذي يعجبه؟

فما للدين ولهذا؟ فليزن المرء بالميزان الذي يحقق له الربح،وليكل بالمكيال الذي يضاعف مـــن ربحه! فذلك حقّنا فى أموالنا! ولا ندرى كيف ساغ لشعيب هذا الدين الذي يذهب به هـــذا المذهب المجانب للصواب،والمجافى للعقل،وهو– فيما نعلم– الحليم الرشيد؟ أفهذا يكـــون مـــن حليم رشيد؟ هكذا كان منطق القوم مع تلك الدعوة الكريمة،ومع هذا النبي الكريم..يسخرون منه،ويسفّهونه،ويستحمقونه،وهم– على ما كانوا يعهدون منه– الحليم الرشيد..«إِنَّكَ لَأَنْـــتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» .

والحليم:من الحلم،وهو العقل..وهو ضد السفاهة،والجهل..

كما يقول الشاعر:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ...وتخالنا جنّا إذا ما نجهل

والرشيد،ذو الرشد،وهو الكامل العقل..وكذلك كان شعيب عليه الســـلام،غاية فى كمـــال العقل.وسلامة الإدراك.[١٦٥٤]

أي أصلاتك التي هى من نتاج الوسوسة وفعل المجانين تأمرك بأن نترك ما سار عليـــه آباؤنـــا جيلا إثر جيل من عبادة الأوثان والأصنام،وإنما جعلوه مأمورا مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله وغيرها من الشرائع،لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه بل بوحي مـــن ربه ويبلغهم أنه مأمور بذلك،وإسناد الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات لأنه كان كثير

[١٦٥٤] – التفسير القرآني للقرآن (٦/ ١١٨٧)

الصلاة معروفا بذلك حتى إنهم كانوا إذا رأوه يصلّى تغامزوا وتضاحكوا،فكانت هى من بين الشعائر ضحكة لهم.

(أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا) أي أو أن نترك فعلنا ما نشاء فى أموالنا من التطفيف وغيره من التنمية والاستغلال والتصرف فى الكسب بما نستطيع من الحذق والاحتيال والخديعة،فما ذاك إلا حجر على حريتنا وتحكّم فى إرادتنا وذكائنا.

والخلاصة- إنهم ردوا عليه الناحيتين الدينية والدنيوية بما رأوا من شبه مزيّفة،وحجج آفنة.

ثم أتبعوا ذلك بما يدل على السخرية والهزء به فقالوا:(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) أي أنت ذو الجهالة والسفاهة فى الرأى،والغواية فى الفعل بهوس الصلاة،لكنهم عكسوا القضية تهكما واستهزاء كما يقال للبخيل:لو رآك حاتم لاقتدى بك فى سخائك.[١٦٥٥]

فهم لا يدركون – أولا يريدون أن يدركوا – أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة،ومن صور العبودية والدينونة.وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله،ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم،كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل.فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة.

إن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى! وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها – بما فيها أولئك الذين يقولون:إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون – فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر.والشريعة والتعامل.فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره،ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله،ووفق أمر غيره ..وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله ..

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم – وذلك بغض النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف – فلقد قامت أزمة في «الكنيست» مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها – من غير اليهود – أطعمة غير

[١٦٥٥] – تفسير المراغي (١٢/ ٧٢)

شرعية.وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحـــده – مهمـــا تعرضـــت للخسارة – فأين من يدعون أنفسهم «مسلمين! » من هذا الاستمساك بالدين؟!!

إن بيننا اليوم – ممن يقولون:إنهم مسلمون! – من يســـتنكر وجـــود صـــلة بـــين العقيـــدة والأخلاق،وبخاصة أخلاق المعاملات المادية.وحاصلون على الشهادات العليا مـــن جامعاتنـــا وجامعات العالم.يتساءلون أولا في استنكار:وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ مـــا للإســـلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله «المتحضرون»؟! ..فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين:«أصلاتك تأمرك أن نتـــرك مـــا يعبد آباؤنا؟ » ..

وهم يتساءلون ثانيا.بل ينكرون بشدة وعنف.أن يتدخل الـــدين في الاقتصـــاد،وأن تتصـــل المعاملات بالاعتقاد،أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد ..فما للدين والمعاملات الربويـــة؟ ومـــا للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده.وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريـــات الاقتصادية الغربية – النظرية الأخلاقية مثلا – ويعدونها تخليطا من أيام زمان! فلا يذهبن بنـــا الترفع كثيرا على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى.ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة،ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة،وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله،والسلوك الشخصي في الحياة،والمعاملات المادية في السوق ..تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!!!

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب،ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض.فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد.والشرك ألوان.منه هذا اللون الذي نعيش به الآن.وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كـــل زمان وفي كل مكان! ويسخر أهل مدين من شعيب – كما يتوقح بالسخرية اليوم ناس علـــى دعاة التوحيد الحق – فيقولون:«إنك لأنت الحلـــيم الرشـــيد! » ..وهـــم يعنـــون عكـــس معناها.فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير،وأن يفصلوا بـــين العبـــادة

والتعامل في السوق! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!![1656]

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) } [البقرة]

بَعْدَ أنْ ذَكَر اللهُ تَعَالَى الإنفَاقَ فِي سَبيلِ اللهِ،وَالتَّصَدُّقَ عَلَى عِبَادِه،وإخْرَاجَ الزَّكَاة،شَرَعَ فِي عَرْضِ حَالِ أكلِي الرِّبا،وَأمْوالِ النَّاسِ بالبَاطِلِ،وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَات،فَأخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ،يَوْمَ البَعْث وَالنُّشُور،فَقَالَ عَنْهُم:إنَّهُم لاَ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إلاّ قِياماً مُنْكراً،كَمَا يَقُومُ المَصْرُوعُ حَالَ صَرَعِه وَأكْلُهُمُ الرِّبَا هَذا قائمٌ عَلى اسْتِحلاَلِهِمْ لَهُ،وَجَعْلِهِ كَالبَيْعِ،فَيَقُولُونَ:كَمَا يَجُوزُ أنْ يَبيعَ الإنْسَانُ سلعَتَهُ التي ثَمَنُهَا عَشَرَةُ دَراهِمَ عَلَى أنْ يَرُدَّهَا عَلَيه عِشْرِينَ دِرْهَماً بَعْدَ سَنَة،فَالسَّبَبُ فِي رَأيِهِمْ وَاحِدٌ فِي كُلٍّ مِنَ الزِّيَادَتَيْن،وَهُوَ الأجَلُ.

هَذه هِيَ حُجَّةُ آكلِي الرِّبا وَهُمْ وَاهِمُونَ فِيمَا قَالُوهُ،وَقِيَاسُهُمْ فَاسِدٌ،لأنَّ البَيْعَ فِيه مَا يَقْتَضِي حِلَّهُ لأنَّهُ يُلاحَظُ فِيه انْتِفاعُ المُشْتَرِي بالشَّيْءِ انْتفاعاً حَقِيقيّاً.

أمَّا الرِّبا فَهُوَ إعْطَاءُ الدَّراهِمِ وَالْمِثْلِيَّاتِ وَأخْذُها مُضَاعَفَةً فِي وَقْتٍ آخَرَ.فَمَا يُؤخَذُ مِنَ المَدِينِ زِيَادَةً فِي رَأسِ المَالِ لاَ مُقَابِلَ لَهُ مِنْ عَيْنٍ وَلاَ عَمَل.فَمَنْ بَلَغَهُ نَهْيُ اللهِ عَنِ الرِّبا،فَانْتَهى عَنِ الرِّبا فَلَهُ مَا سَلَفَ مِمَّا أكَلَهُ مِنَ الرِّبا قَبْلَ التَّحْرِيم،وَمَا سَبَقَ لَهُ أنْ أخَذَهُ أيَّامَ الجَاهلِيَّة،وَأمْرُه مَرْدُودٌ إلى الله.وَمَنْ عَادَ إلى الرِّبا،بَعْدَ أنْ بَلَغَهُ النَّهْيُ عَنْهُ،فَقَدِ اسْتَوْجَبَ العُقُوبَةَ مِنَ الله،وَالخُلُودَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

[1656] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٥٥٩)

الذي يَتخبَّطُهُ الشَّيْطَانُ – أي المَصْرُوعُ.وكَانَتِ العَرَبُ تَعْتَقدُ أنَّ الشَيْطَانَ يَخْبِطُ الإنْسَانَ فَيَصْرَعُهُ.

جَاءَهُ مَوْعظَةٌ مِنْ رَبِّه – بَلَغَهُ أمْرُ نَهْيِ اللهِ عَنْ أكْلِ الرِّبا.

المَسِّ – الجُنُونِ وَالخَبَلِ.

مَرَاحِلُ تَحْرِيمِ الرِّبا فِي القُرْآن:

كَمَا مَرَّ تَحْرِيمُ الخَمْرِ فِي مَرَاحِلَ،كَذَلكَ مَرَّ تَحْرِيمُ الرِّبا فِي أرْبَعِ مَرَاحِلَ مُتَدَرِّجَة:

١- فِي المَرْحَلَة الأولى – قَالَ الله تَعَالَى فِي الآية المَكِّيَّة {وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عندَ الله} أيْ إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي هَذه الآية إنَّ الرِّبا لاَ ثَوَابَ فيه عنْدَ الله.

٢- وَفِي المَرْحَلَة الثَّانيَة – أَلْقَىَ اللهُ تَعَالَى عَلَى المُسْلمينَ دَرْساً وَعِبْرَةً مِنْ سيرَةِ اليَهُود الذينَ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِمْ أَكْلَ الرِّبَا فأَكَلُوهُ،فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بمَعْصِيَتهمْ.

فَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً.} كَمَا جَاءَ بَعْدَهَا {وَأَخْذهمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً.} وَهَذه العبْرَةُ لاَ يَكُونُ لَهَا أثَرٌ إلاَّ إذَا كَانَ مِنْ وَرَائِهَا نَوْعٌ مِنْ تَحْرِيمِ الرِّبا عَلَى المُسْلمينَ.ولَمْ يَكُنْ فِي هَذا المَوْضِعِ نَهْيٌ صَرِيحٌ عَنِ الرِّبا،وَلكنَّهُ أُلْمِحَ إلَيه.

٣- المَرْحَلَةُ الثَّالثَةُ – وَلَمْ يَجيءِ النَّهْيُ الصَّرِيحُ إلاَّ فِي المَرْحَلَة الثَّالثَة،وَلَمْ يَكُنْ إلاَّ نَهْياً جزْئِياً عَنِ الرِّبا الفَاحِشِ الذي يَتزَايَدُ حَتَّى يَصيرَ أضْعَافاً مُضَاعَفَةً.{يَآ أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الربا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً.} –

المَرْحَلَةُ الرَابعَةُ – وَفِي المَرْحَلَة الرَابعَة وَالأخيرَة خُتمَ التَّشْريعُ القُرْآنيُّ كُلُّهُ بالنَّهي الحَاسمِ عَنْ كُلِ مَا يَزيدُ عَلَى رَأسِ مَالِ الدَّيْنِ.{ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إن كُنتُمْ مُّؤْمنينَ،فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بحَرْبٍ مِّنَ الله وَرَسُوله وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالكُمْ لاَ تَظْلمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ.} وَجَاءَ فِي الحَديث:" إيَّاكَ وَالذُّنوبَ التي لاَ تُغْفَرُ:الغُلُولُ فَمَنْ غَلَّ شَيْئاً أَتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ والرِّبا،فَمَنْ أَكَلَ الرِّبا بُعثَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُجْنُوناً يُتَخَبَّطُ ".

وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُحِبُّ الذينَ يُصِرُّونَ عَلَى ارتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ وَعَلَى تَحْلِيلِها،وَلاَ يُحِبُّ الذِينَ لاَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِه.

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ أنَّهُ يَمْحَقُ الرِّبا،وَيُذْهِبُ مِنْ يَدِ آكِلِه بَرَكَةَ مَالِه،وَيُهْلِكُ المَالَ الذي دَخَلَ فِيه الرِّبا،فَلاَ يَنْتَفِعُ بِه أحَدٌ مِنْ بَعْدِه،وَأنَّهُ يُضَاعِفُ ثَوَابَ الصَّدَقَات،وَيَزِيدُ المَالَ الذي أُخْرِجَتْ مِنْهُ،وَيُعَاقِبُ آكِلَ الرِّبا يَوْمَ القِيَامَةِ.وَاللهُ لا يُحِبُّ الكَفُورَ المُتَمَادِي فِي كُفْرِ مَا أنْعَمَ اللهُ بِه عَلَيه مِنْ مَالٍ،لأنَّهُ لا يُنْفِقُ مِنْهُ فِي سَبِيلِه،وَلاَ يُحِبُّ الذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى تَحْلِيلِ المُحَرَّمَاتِ،وَلاَ الذِينَ يَسْتَمِرُّونَ عَلَى ارْتِكَابِها.

يَمْدَحُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ المُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ،المُقِيمِينَ الصَّلاَةَ،وَعَامِلِي الصَّالِحَاتِ وَالمُزَكِّينَ،وَيُخْبِرُ عَنْهُمْ أنَّهُ يَحْفَظُ لَهُمْ أجْرَهُمْ،وَأنَّهُمْ لاَ خَوْفَ عَلَيهِمْ،وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ فِي الدُّنيا.يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ،المُصَدِّقِينَ بِمَا أمَرَهُمْ بِه،بِالتَّقْوى،فَيَقُولُ لَهُمْ:اتَّقُوا اللهَ وَاتْرُكُوا مَا لَكُمْ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الرِّبا (أيْ مَا يَزِيدُ عَلَى رُؤُوسِ أمْوالِكُمْ) إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقّاً بِمَا شَرَعَ اللهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ البَيْعِ،وَتَحْرِيمِ الرِّبا،وَغَيْرَ ذَلِكَ.وَأنْذَرَ اللهُ تَعَالَى الذِينَ لاَ يَمْتَثِلُونَ لأمْرِه مِنْ تَرْكِ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا عِنْدَ النَّاسِ،بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِه لِخُرُوجِهِمْ عَنِ الشَّرْعِ،وَعَدَمِ خَضُوعِهِمْ لَهُ،فَإنْ تَابُوا فَلَهُمْ رُؤُوسُ أمْوَالِهِمْ بِدُونِ زِيَادَةٍ،لاَ يَظْلِمُونَ بِأخْذِ زِيادَةٍ،وَلاَ يُظْلَمُونَ بِوَضْعِ شَيءٍ مِنْ رَأسِ المَالِ.[١٦٥٧]

فبتقوى الله تعالى في جميع شؤون الحياة ومنها الاقتصادية تنال سعادة الدنيا والآخرة،والرزق الطيب والحياة الطيبة،كما قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) } [المائدة].

وَلَوْ أنَّ هَؤُلاَءِ اليَهُودَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِه ﷺ،وَاتَّقَوْا مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنَ المَحَارِمِ وَالمَآثِمِ،لَكَفَّرَ اللهُ عَنْهُمُ السَّيِّئَاتِ التِي اقْتَرَفُوهَا،وَلَغَفَرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ،وَلأدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ فِي الآخِرَةِ.وَلَوْ أنَّهُمْ

[١٦٥٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٨٢،بترقيم الشاملة آليا)

عَملُوا بِمَا فِي الكِتَابِ الذي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ،كَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ،دُونَ تَحْرِيفٍ وَلا تَبْدِيلٍ،لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إلى اتِّبَاعِ الحَقِّ،وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ،لأَنَّ كُلاً مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ بَشَّرَ بِنَبِيٍّ يَكُونُ مِنْ أَوْلاَدِ إِسْمَاعِيلَ.وَلَوْ أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا الحَقَّ،وَآمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ الذِي بَشَّرَ بِهِ كِتَابُهُمْ،لَوَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ،وَلأَغْدَقَت السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَطَرَها وَبَرَكَاتِهَا،وَلأَخْرَجَتْ لَهُمْ خَيْرَاتِهَا.وَلَكِنَّ قِلَّةً مِنْهُمْ مُؤْمِنَةٌ مُلْتَزِمَةٌ بِأَحْكَامِ مَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ،وَأَكْثَرُهُمْ طُغَاةٌ مُجَاوِزُونَ لأَوَامِرِ اللهِ،وَسَاءَ عَمَلُهُمْ.[1658]

إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي،ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية.ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل،وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم والعقل البشري،والموازين البشرية،والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج،بإزاء هذا الأمر الخطير ..إن الله – سبحانه – يقول لأهل الكتاب – ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب – إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم – وهذا جزاء الآخرة.وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم – كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل – لصلحت حياتهم الدنيا،ونمت وفاضت عليهم الأرزاق،ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق،ووفرة النتاج وحسن التوزيع،وصلاح أمر الحياة ..ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله – إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها «وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ».

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا،لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده – وإن كان هو المقدّم وهو الأدوم – ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا،ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة ..وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية ..يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله:«لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» ..

[1658] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٣٥،بترقيم الشاملة آليا)

وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا.إنما هو طريق واحد،تصلح به الدنيا والآخرة،فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة ..هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا ..

وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب،ولكنه كذلك – وتبعا لذلك – منهج حياة إنسانية واقعية،يقام،وتقام عليه الحياة ..وإقامته – مع الإيمان والتقوى – هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية،وفيض الرزق،ووفرة النتاج،وحسن التوزيع،حتى يأكل الناس جميعا – في ظل هذا المنهج – من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا،ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا ..وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية.

لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم.بحيث أصبح الفرد العادي – وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة – لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقين.ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع ..لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا ..

حقيقة:إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله،وعن منهجه للحياة،اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة،وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع،والكسب في مضمار المنافع الدنيوية،أن يتخلوا عن طريق الآخرة وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف،الذي يحض عليه الدين.كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة،والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع،والكسب في مضمار المنافع،لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق،ولا مرضية لله سبحانه ..ولكن ..تراها ضربة لازب! ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس؟ ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة؟

كلا ..إنها ليست ضربة لازب! فالعداء بين الدنيا والآخرة والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة،ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل ..بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا.إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارئ!

إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا.وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي ..هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية ..ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضيه للناس ..فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة،وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة.والخلافة عمل وإنتاج،ووفرة ونماء،وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم،كما يقول الله في كتابه الكريم.

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله،بإذن الله،وفق شرط الله ..

ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر،وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها – بل الخامات والموارد الكونية كذلك – هو الوفاء بوظيفة الخلافة.ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة – وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف – طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها الله له ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه،كما يصور التعبير القرآني الجميل!

ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض،ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له،عاصيا لله،ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها،وهو يقول للملائكة:«إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».وهو يقول كذلك للناس:«وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ»،ومعطلا لرزق الله الموهوب للعباد ..وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر

الدنيا! والمنهج الإسلامي – بهذا – يجمع بين العمــل للــدنيا والعمــل للآخــرة في توافــق وتناسق.فلا يفوّت على الإنسان دنياه لينال آخرته،ولا يفوت عليه آخرته لينال دنيــاه.فهمــا ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي.

هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة،وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقــوم في الأرض على منهج الله ..فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف ..إذ أن طريق الفــرد وطريــق الجماعة – في المنهج الإسلامي – لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان ..فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج وأن يبتغي في العمل والإنتــاج وجه الله،فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون،ولا يأكل من سحت،ولا يحتجز دون أخيــه المحتاج في الجماعة شيئا يملكه – مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع – والمنهج يسجل للفرد عملــه – في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبار ات – عبادة لله يجزيه عليها بالبركــة في الــدنيا وبالجنــة في الآخرة ..

ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطا أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ليســتوثق بهــذا الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة،وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان،وفي العمر كله بحج بيت الله.وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة ..

ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي.إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة.وهي قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج،الذي ينظم أمر الحياة كلها،ويتولى شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقــاتهم وفي خلافاتهم.ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل،والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حــين تقف في الطريق ..وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شئون العمــل والإنتــاج والتوزيع والحكم والقضاء،والجهاد لإقرار منهج الله في الأرض،وتقرير سلطانه في حياة النــاس ..إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج،المعين على أداء شطره الآخر ..وهكــذا

يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله في الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض.كما يعـد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين ..

إن التصور الإسلامي،وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه،لا يقدم الحياة الآخرة بـديلا مـن الحياة الدنيا – ولا العكس – إنما يقدمهما معا في طريق واحد،وبجهـد واحـد.ولكنـهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة – دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله،أو مأخوذة من تصـوراته الذاتيـة التي لم تضبط بهذا المنهج – ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل.

والتصور الإسلامي – وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه – لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى،بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية ..وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه بينما يدع للناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا – كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان! – فالعمل والإنتـاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي – والمنـهج الإسـلامي – فريضة الخلافة في الأرض.والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى،تمثل الارتباطـات والضـوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس ..وهذه وتلك معا هي مـؤهلات الفـردوس الأرضي والفردوس الأخروي معا والطريق هو الطريق،ولا فصام بين الدين والحيـاة الواقعيـة المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم.والتي منـها يقـوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة،ولا يجمعـوا بينـهما في تصور أو في واقع ..لأنهما لا تجتمعان ..!

إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس،وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة،وبين العبادة الروحية والإبداع المادي،وبين النجاح في الحياة الدنيا،والنجاح في الحيـاة الأخرى ..إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكـام القـدر الحتمية! إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج الله،وتتخـذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها،معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه ..وهـي ضـريبة

يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا،فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى ..

إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر،من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه،إذا هم آثروا اطراح الدين كله،على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة،والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي! ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم،يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب،ولا تطيق الفراغ والخواء.وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية،أو فلسفية،أو فنية ..على الإطلاق ..لأنها جوعة النزعة إلى إله ..

وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر،إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في الله،وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته،وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله،وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني،والسلوك الديني،مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود.

وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء،سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية،أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية ..وتتصور – أو يصور لها أعداء البشرية – أن الدين لله،وأن الحياة للناس! وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق،والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل! وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة ..ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء ..لأنها لا تهتدي إلى منهج الله الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة،بل ينسق ..ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة،في فترة موقوتة،إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي،ولا تقيم منهج الله في حياتها،وهي موفورة الخيرات،كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء ...

إنه رخاء موقوت،حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت.وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني ..والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى:

تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم،مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء،وحافلا بالأحقاد،وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة ..وهو بلاء على رغم الرخاء! ..

وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعا من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر،لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع ..وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام! وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره – إن عاجلا أو آجلا – إلى تدمير الحياة المادية ذاتها.

فالعمل والإنتاج والتوزيع،كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق.والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان! وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم – وبخاصة أشدها رخاء ماديا – مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال.ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج،وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء! وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار! وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة في هذا العالم المضطرب الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة ..وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ..ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء! وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار – وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي – وليس هذا إلا مثلا للآخرين،في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني وافتراق الدنيا والآخرة،وافتراق الدين والحياة أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله،واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس!

وإننا نؤكد على أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس،وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب – ولكل جماعة من الناس – أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في

الدنيا،وأن تكفر عنهم سيئاهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة وأن يجتمع لهـــم الفـــردوس الأرضي – بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة – وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان ..ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمـــان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية ..فهذا يتضمن في ثنايـــاه العمـــل والإنتـــاج والترقية والتطوير للحياة ..فضلا على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ويرفع كل قيم الحياة ويقوّم كل موازين الحياة ..

فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي،وكل شيء فيه يجيء تبعا له،ومنبثقا منه ومعتمدا عليه ..ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق.

وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحيـــاة ..كـــل أولئك ثمرته للإنسان،وللحياة الإنسانية.فالله – سبحانه – غني عن العالمين ..وإذا شدد المنـــهج الإسلامي في هذه الأسس،وجعلها مناط العمل والنشاط ورد كل عمل وكل نشاط لا يقـــوم عليها،وعده باطلا لا يقبل،وحابطا لا يعيش،وذاهبا مع الريح ..فليس هـــذا لأن الله ســـبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادهم له وتحقيق منهجه للحياة ..ولكن لأنه – سبحانه – يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج ..في الحديث القدسي:عَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلَا تَظَالَمُوا،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ،فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ،يَا عِبَـــادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ،إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ،فَاسْـــتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ،يَـــا عِبَـــادِي كُلُّكُـــمْ عَارٍ،إِلَّـــا مَـــنْ كَسَوْتُهُ،فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ،يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَأَنَـــا أَغْفِـــرُ الـــذُّنُوبَ جَمِيعًا،فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ،يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَـــرِّي فَتَضُـــرُّونِي وَلَـــنْ تَبْلُغُـــوا نَفْعِي،فَتَنْفَعُونِي،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ،مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِـــنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ،مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَـــادِي لَـــوْ أَنَّ أَوَّلَكُـــمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَـــانٍ مَسْـــأَلَتَهُ،مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ،يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَـــالُكُمْ

أُحْصِيهَا لَكُمْ،ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا،فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا،فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ،فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[1659]

وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله ..فهي كلها لحسابنا نحن ..لحساب هذه البشرية ..في الدنيا والآخرة جميعا ..وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا ..

ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول:إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب.

فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل.وما أنزل إليهم من ربهم – وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة – فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن ..أولى بالشرط الذين يقولون:إنهم مسلمون ..فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص:الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل،والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم ..وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد ..وقد انتهى إليه كل دين قبله و لم يعد هناك دين يقبله الله غيره ..أو يقبل من أحد غيره.

فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم ..وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم،وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا ..إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع

[1659] – صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)٥٥ – (٢٥٧٧)

[ش (إلا كما ينقص المخيط) قال العلماء هذا تقريب إلى الإفهام ومعناه لا ينقص شيئا أصلا كما قال في الحديث الآخر لا يغيضها نفقة أي لا ينقصها نفقة لأن ما عند الله لا يدخله نقص وإنما يدخل النقص المحدود الفاني وعطاء الله تعالى من رحمته وكرمه وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص فضرب المثل بالمخيط في البحر لأنه غاية ما يضرب به المثل في القلة والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه فإن البحر من أعظم المرئيات عيانا وأكبرها والإبرة من أصغر الموجودات مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء]

والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي – أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح – وشرط الله قائم والطريق إليه معروف ..لو كانوا يعقلون ..[1660]

وقال تعالى:{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:97]

مَنْ عَمِلَ الأَعْمَال الصَّالِحَة،وَقَامَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ،وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِاللهِ،مُصَدِّقٌ كُتُبَهُ وَرُسُلَهُ،فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعِدُهُ بِأَنْ يُحْيِيَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً،تَصْحَبُهَا القَنَاعَةُ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ،وَالرِّضَا بِمَا قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ،إِذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ رِزْقٍ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ بِتَدْبِيرِ اللهِ تَعَالَى وَقِسْمَتِه،وَاللهُ مُحْسِنٌ كَرِيمٌ،لاَ يَفْعَلُ إِلاَّ مَا فِيهِ المَصْلَحَةُ،وَفِي الآخِرَةِ يَجْزِيهِ اللهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى،وَيُثِيبُهُ أَحْسَنَ الثَّوَابِ،جَزَاءَ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ،وَمَا تَحَلَّى بِهِ مِنْ إِيمَانٍ.[1661]

هو حكم عام بالجزاء الحسن على العمل الصالح مطلقا،بعد الحكم الخاص بالجزاء الحسن على الوفاء بالعهد،والصبر على احتمال تبعات الوفاء به..

فالأعمال الحسنة جميعها مقبولة عند الله،سواء ما كان منها من قول أو عمل،وسواء أكانت صادرة من ذكر أو أنثى من عباد الله..فالناس جميعا على اختلاف أجناسهم،وتباين صورهم وأشكالهم،سواء عند الله،يخضعون لقانون سماوى عام،لا محاباة فيه،ولا تفرقة بين إنسان وإنسان..إلا بالعمل..وقد خصّ الذكر والأنثى بالذّكر هنا،لأنهما يمثلان جانبى الإنسانية كلها،إذ كانا مصدر المجتمعات الإنسانية كلها..كما يقول الله تعالى:«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى» (13:الحجرات) ..ومن جهة أخرى،فإنه إذا كان الاختلاف النوعىّ بين الذكر والأنثى أمام القانون السّماوى على منزلة سواء- كانت التسوية بين الناس جميعا أمام هذا القانون أحق وأولى..

وقوله تعالى:«وَهُوَ مُؤْمِنٌ» جملة حالية،وهذه الحالة قيد واقع على الشرط الذي لا يتحقق جوابه إلا وهو مقترن بهذا القيد..فالإيمان شرط لازم لقبول العمل الطيب،والجزاء عليه..وكل عمل لا يسبقه إيمان بالله،هو عمل ضالّ،مردود على صاحبه..لأنه قدّمه غير ناظر إلى الله

[1660] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 - ت- علي بن نايف الشحود (ص:1326)

[1661] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:1998،بترقيم الشاملة آليا)

سبحانه وتعالى،ولا محتسب له أجرا عنده،إذ كان غير معترف بوجوده..فالعمل الصالح الــذي لا يزكيه الإيمان بالله،أشبه بالميتة التي لم تدركها زكاة بالذبح،ويذكر اسم الله عليها..

وقوله تعالى:«فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً» ..المراد بالحياة،هى الحياة الدّنيا،وطيب هذه الحياة يجىء من نفحات الإيمان بالله،تلك النفحات التي تثلج الصدر بالطمأنينة،والرضا،وتدفىء النفس بالرجاء والأمل،بتلك القوة التي لا حدود لها،والتي منها مصادر الأمور،وإليها مصائرها..وذلك كلّه من عاجل الثواب الجزيل الذي أعدّه الله لعباده المؤمنين،كما يقول تبارك وتعالى:«مَنْ كانَ يُرِيــدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ..» (١٣٤:النساء) – فى قوله تعالى:«وَلَنَجْــزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» اختلف النظم هنا بعودة الضمير جمعا علــى أداة الشــرط «من» بعد عودته عليها مفردا فى قوله تعالى:«فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً»،وذلك ليتحقق أولا لكــل من جنسى الذكر والأنثى هذا الحكم،فإذا تقرر ذلك،وعرف كل منهما أنــه مجــزىّ عــن عمله،بلا تفرقة من حيث النوع– عاد الضمير إلى من يشملهم الجنسين ممن يعملون الأعمــال الصالحة..من الناس جميعا.[١٦٦٢]

أي من عمل صالح الأعمال،وأدى فرائض الله التي أوجبها عليه،وهو مصدّق بثوابه الذي وعد به أهل طاعته،وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم،فلنحيينه حياة طيبة،تصحبها القناعة بما قسم الله له،والرضا بما قدّره وقضاه،إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره،والله محسن كريم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة،ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال،فلا يقيم لها فى نفسه وزنا،فلا يعظم فرحه بوجدانها،ولا غمه بفقدانها.

ثم هو بعد ذلك يجزى فى الآخرة أحسن الجزاء،ويثاب أجمل الثواب،جزاء ما قدّم مــن عمــل صالح،وتحلى به من إيمان صادق.

أما من أعرض عن ذكر الله،فلم يؤمن و لم يعمل صالحا،فهو فى عناء ونكد،إذ يكــون شــديد الحرص والطمع فى الحصول على لذات الدنيا،فإن أصابته محنة أو بلاء استعظم أمره،وعظمــت أحزانه،وكثر غمه وكدره،وإذا فاته شيء من خيراتها عبس وبسر،وامتلأ قلبه أسى وحسرة،لأنه يظن أن السعادة كل السعادة فى الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها.فإذا هــو لم

[١٦٦٢] – التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٥٨)

ينل منه ما يريد،فقد حرم كل ما يحلم به،ويقدره من وافر السعادة وعظيم الخير،والإنسان بطبعه جزوع هلوع منوع { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)} [المعارج:١٩ - ٢٣].[١٦٦٣]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،{فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل:٩٧] قَالَ:الْقُنُوعُ قَالَ:وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو وَيَقُولُ:«اللَّهُمَّ قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي،وَبَارِكْ لِي فِيهِ،وَاخْلُفْ عَلَيَّ كُلَّ غَائِبَةٍ لِي بِخَيْرٍ»[١٦٦٤]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ :كَانَ مِنْ دُعَاءِ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي لاَ يَدَعُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ أَنْ يَقُولَ :اللَّهُمَّ قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ وَاخْلُفْ عَلَيَّ كُلَّ غَائِبَةٍ لِي بِخَيْرٍ.[١٦٦٥]

وعن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ،:إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِهِ».[١٦٦٦]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ،وَرُزِقَ كَفَافًا،وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[١٦٦٧]

إن الجنسين:الذكر والأنثى.متساويان في قاعدة العمل والجزاء،وفي صلتهما بالله،وفي جزائهما عند الله.ومع أن لفظ «من» حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل:«مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى» لزيادة تقرير هذه الحقيقة.وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى،وضيق المجتمع بها،واستياء من يبشر بمولدها،وتواريه من القوم حزنا وغما وخجلا وعارا! وأن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها.قاعدة الإيمان بالله «وَهُوَ

[١٦٦٣] - تفسير المراغي (١٤/ ١٣٨)

[١٦٦٤] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٨٨)(٣٣٦٠) حسن

[١٦٦٥] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٣٢٠)(٣٠٢٤٩) حسن

[١٦٦٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٤٨٠)(٧٠٥) صحيح

[١٦٦٧] - صحيح مسلم (٢/ ٧٣٠)١٢٥ - (١٠٥٤)

[ش (كفافا) قال في النهاية الكفاف هو الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه وهو نصب على الحال]

" قَدْ أَفْلَحَ) أَيْ:فَازَ وَظَفِرَ بِالْمَقْصُودِ (مَنْ أَسْلَمَ) أَيِ:انْقَادَ لِرَبِّهِ الْمَعْبُودِ (وَرُزِقَ) أَيْ:مِنَ الْحَلَالِ (كَفَافًا) أَيْ:مَا كَفَاهُ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ وَكَفَّهُ عَمَّا سِوَاهُ (وَقَنَّعَهُ اللَّهُ) أَيْ:جَعَلَهُ قَانِعًا (بِمَا آتَاهُ) أَيْ:بِمَا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ،بَلْ جَعَلَهُ شَاكِرًا لِمَا أَعْطَاهُ رَاضِيًا بِكُلِّ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٣٤)

مُؤْمِنٌ» فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء،وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته،إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

والعقيدة هي المحور الذي تشد إليه الخيوط جميعا،وإلا فهي أنكاث.فالعقيدة هي الـتي تجعـل للعمل الصالح باعثا وغاية.فتجعل الخير أصيلا ثابتا يستند إلى أصل كبير.لا عارضا مزعزعا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل.

وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.لا يهم أن تكون ناعمة رغـدة ثرية بالمال.فقد تكون به،وقد لا يكون معها.وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية:فيها الاتصال بالله والثقـة بـه والاطمئنـان إلى رعايتـه وسـتره ورضاه.وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة،وسكن البيوت ومودات القلوب.وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة ..وليس المال إلا عنصرا واحدا يكفي منـه القليل،حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله.وأن الحياة الطيبـة في الـدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة.

وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا،ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات.فما أكرمه من جزاء!.[١٦٦٨]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«خَمْسٌ بِخَمْسٍ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا خَمْسٌ بِخَمْسٍ؟ قَالَ:«مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ،وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَـا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ،وَلَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ،وَلَا طَفَّفُوا الْمِكْيَالَ إِلَّا مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ،وَلَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْـرُ» رواه الطـبراني في الكبير.[١٦٦٩]

العدل في الأموال

[١٦٦٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨٥٩)

[١٦٦٩] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٤٥)(١٠٩٩٢) وصحيح الجامع (٣٢٤٠) والصحيحة (١٠٧) حسن لغيره

أمر الله تعالى الولاة بالعدل في القسم بين الناس،فقال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:٥٨]،فإن الأموال والحقوق من الأمانات التي يجب أن تؤدى إلى أهلها بعدل وإنصاف ولا يُحابي فيها أحد لقرابة أو صداقة،فإن الأمير خازن مؤتمن فيجب أن يؤدي الحقوق إلى أهلها،كما أمره الله تعالى،ولا يتصرف فيها بما تشتهيه النفس وتهواه،وقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عَنْ أَبِي مَكِينٍ،قَالَ:سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ،يَقُولُ:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء:٥٨] قَالَ:نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي وُلَاةِ الْأَمْرِ"[١٦٧٠].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عَنْ شَهْرٍ ،قَالَ:نَزَلَتْ فِي الْأُمَرَاءِ خَاصَّةً {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء:٥٨] "[١٦٧١]

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ،قَوْلُهُ:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:٥٨] قَالَ:" يَعْنِي:السُّلْطَانُ يُعْطُونَ النَّاسَ "[١٦٧٢].

وقال الطبري:" وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي قَوْلُ مَنْ قَالَ:هُوَ خِطَابٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى وُلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى مَنْ وُلُّوا فِي فَيْئِهِمْ وَحُقُوقِهِمْ ،وَمَا ائْتُمِنُوا عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ بِالْعَدْلِ بَيْنَهُمْ فِي الْقَضِيَّةِ.وَالْقَسْمِ بَيْنَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ ،يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا وَعَظَ بِهِ الرَّعِيَّةَ فِي:{أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩] فَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِمْ ،وَأَوْصَى الرَّاعِي بِالرَّعِيَّةِ ،وَأَوْصَى الرَّعِيَّةَ بِالطَّاعَةِ.كَمَا:قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩] قَالَ:" قَالَ أَبِي:هُمُ السَّلَاطِينُ.وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ:{تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ} [آل عمران:٢٦] أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَمَرَ فَقَالَ:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:٥٨] وَالْأَمَانَاتُ:هِيَ الْفَيْءُ الَّذِي

[١٦٧٠] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ٩٨٦)(٥٥٢٣) صحيح

[١٦٧١] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٦٩) وتفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ٩٨٦)(٥٥٢١) صحيح

[١٦٧٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٧٠) وتفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ٩٨٥)(٥٥١٤) حسن

اسْتَأْمَنَهُمْ عَلَى جَمْعِهِ وَقَسْمِهِ ،وَالصَّدَقَاتُ الَّتِي اسْتَأْمَنَهُمْ عَلَى جَمْعِهَا وَقَسْمِهَا.{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء:٥٨] الْآيَةُ كُلُّهَا فَأَمَرَ بِهَذَا الْوُلَاةَ ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا نَحْنُ ،فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩] " وَأَمَّا الَّذِي قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ فَإِنَّهُ جَائِزٌ أَنْ تَكُونَ نَزَلَتْ فِيهِ ،وَأُرِيدَ بِهِ كُلُّ مُؤْتَمَنٍ عَلَى أَمَانَةٍ فَدَخَلَ فِيهِ وُلَاةُ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَكُلُّ مُؤْتَمَنٍ عَلَى أَمَانَةٍ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا ،وَلِذَلِكَ قَالَ مَنْ قَالَ:عُنِيَ بِهِ قَضَاءُ الدَّيْنِ وَرَدُّ حُقُوقِ النَّاسِ ،كَالَّذِي:،جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ،قَوْلُهُ:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:٥٨] فَإِنَّهُ لَمْ يُرَخِّصْ لِمُوسِرٍ وَلَا مُعْسِرٍ أَنْ يُمْسِكَهَا "

وعَنْ قَتَادَةَ ،قَوْلُهُ:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:٥٨] عَنِ الْحَسَنِ:أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ:«أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ،وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا ،إِذْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْنَا:إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ يَا مَعْشَرَ وُلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ تُؤَدُّوا مَا ائْتَمَنَتْكُمْ عَلَيْهِ رَعِيَّتُكُمْ مِنْ فَيْئِهِمْ وَحُقُوقِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَصَدَقَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ عَلَى مَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ ،بِأَدَاءِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَى مَنْ هُوَ لَهُ بَعْدَ أَنْ تَصِيرَ فِي أَيْدِيكُمْ ،لَا تَظْلِمُوهَا أَهْلَهَا وَلَا تَسْتَأْثِرُوا بِشَيْءٍ مِنْهَا وَلَا تَضَعُوا شَيْئًا مِنْهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ،وَلَا تَأْخُذُوهَا إِلَّا مِمَّنْ أَذِنَ اللَّهُ لَكُمْ بِأَخْذِهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ فِي أَيْدِيكُمْ؛وَيَأْمُرُكُمْ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ رَعِيَّتِكُمْ أَنْ تَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ،وَذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ وَبَيَّنَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ،لَا تَعْدُوا ذَلِكَ فَتَجُورُوا عَلَيْهِمْ"[١٦٧٣]

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلِمَاتٍ أَصَابَ فِيهِنَّ الْحَقَّ،قَالَ:«يَحِقُّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَنْ يُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ،وَيُطِيعُوا وَيُجِيبُوهُ إِذَا دَعَا»[١٦٧٤]

[١٦٧٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٧١)

[١٦٧٤] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ٩٨٦)(٥٥٢٠) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٦٩) والأموال لابن زنجويه (١/ ٧٤)(٣١) والأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(١١) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٣٦٦)(٣٣١٩٩) والتفسير من سنن سعيد بن منصور - محققا (٤/ ١٢٨٦)(٦٥١) صحيح

فالإمام والأمراء يتساوون مع الرعية في الحق والنصيب من الأموال العامة،ولا يتميزون عن الرعية بزيادة النفقات والعطاءات،فعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ،أَنَّهُ جَلَسَ مَعَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَأَبِي الدَّرْدَاءِ،وَالْحَارِثِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْكِنْدِيِّ فَتَذَاكَرُوا حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِعُبَادَةَ :يَا عُبَادَةُ كَلِمَاتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ كَذَا فِي شَأْنِ الأَخْمَاسِ ؟ فَقَالَ :عُبَادَةُ :إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى بِهِمْ فِي غَزْوَتِهِ إِلَى بَعِيرٍ مِنَ الْمُقَسَّمِ،فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَتَنَاوَلَ وَبَرَةً بَيْنَ أُنْمُلَتَيْهِ فَقَالَ :إِنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ،وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلاَّ نَصِيبِي مَعَكُمْ إِلاَّ الْخُمُسُ،وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ،فَأَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ وَأَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرَ،لاَ تَغُلُّوا ؛فَإِنَّ الْغُلُولَ نَارٌ وَعَارٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ،وَجَاهِدُوا النَّاسَ فِي اللهِ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ،وَلاَ تُبَالُوا فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ،وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللهِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ،وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ؛فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ عَظِيمٌ يُنَجِّي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ.رواه أحمد[١٦٧٥].

وجاء في سنن أبي داود عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ،قَالَ:ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،يَوْمًا الْفَيْءَ،فَقَالَ:«مَا أَنَا بِأَحَقَّ،بِهَذَا الْفَيْءِ مِنْكُمْ،وَمَا أَحَدٌ مِنَّا بِأَحَقَّ بِهِ مِنْ أَحَدٍ،إِلَّا أَنَّا عَلَى مَنَازِلِنَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَقَسْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَالرَّجُلُ وَقِدَمُهُ،وَالرَّجُلُ وَبَلَاؤُهُ،وَالرَّجُلُ وَعِيَالُهُ،وَالرَّجُلُ وَحَاجَتُهُ»[١٦٧٦]

وعَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ،قَالَ:كَانَ عُمَرُ يَحْلِفُ عَلَى أَيْمَانٍ ثَلاثٍ،يَقُولُ:وَاللهِ مَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَذَا الْمَالِ مِنْ أَحَدٍ،وَمَا أَنَا بِأَحَقَّ بِهِ مِنْ أَحَدٍ،وَاللهِ مَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ فِي هَذَا الْمَالِ نَصِيبٌ إِلَّا عَبْدًا مَمْلُوكًا،وَلَكِنَّا عَلَى مَنَازِلِنَا مِنْ كِتَابِ اللهِ،وَقَسْمِنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَالرَّجُلُ وَبَلاؤُهُ فِي الْإِسْلامِ،وَالرَّجُلُ وَقَدَمُهُ فِي الْإِسْلامِ،وَالرَّجُلُ وَغَنَاؤُهُ فِي الْإِسْلامِ،وَالرَّجُلُ وَحَاجَتُهُ،وَوَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ،لَيَأْتِيَنَّ الرَّاعِيَ بِجَبَلِ صَنْعَاءَ حَظُّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَهُوَ يَرْعَى مَكَانَهُ"[١٦٧٧] .

[١٦٧٥] - الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٣/ ٤٣٣)(١٨٦٦) ومسند أحمد (عالم الكتب) (٧/ ٥٦٧)(٢٢٧٧٦) ٢٣١٥٧- حسن لغيره

[١٦٧٦] - سنن أبي داود (٣/ ١٣٦)(٢٩٥٠) والأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٦٦)(٩٣٧) حسن

[١٦٧٧] - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٣٨٩)(٢٩٢) حسن

فقوله رضي الله عنه:"والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا بأحق به من أحـــد "،يـــدل على أن الإمام والأمراء والرعية يتساوون في العطاء،ولا يخص الولاة بالتفضيل في العطـــاءات على غيرهم.

والفيء هو ما أخذ من مال الكفـــار بغـــير قتـــال:كالمـــال الـــذي تركـــوه خوفـــا مـــن المسلمين:وكالجزية،والخراج،وعشر تجارة الحربي إذا دخل بلاد المسلمين بأمان للتجارة،ونصف عشر تجارة الذمي إذا اتجر في غير بلده،فعَنْ أَنَسِ بْنِ سِيرِينَ،قَالَ:بَعَثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْعُشُورِ فَقُلْتُ:تَبْعَثُنِي عَلَى الْعُشُورِ مِنْ بَيْنِ غِلْمَتِكَ؟ فَقَالَ:أَلَا تَرْضَى أَنْ أَجْعَلَكَ عَلَى مَا جَعَلَنِي عَلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،أَمَرَنِي أَنْ آخُذَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رُبْـــعَ الْعُشْـــرِ ،وَمِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ نِصْفَ الْعُشْرِ ،وَمِمَّنْ لَا ذِمَّةَ لَهُ الْعُشْرَ" السنن الكبرى للبيهقي[١٦٧٨]

ومن الفيء المال الذي لا وارث له،وقد قال تعالى:{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْـــوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّـــا أُوتُـــوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِـــي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) } [الحشر]

وعَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ،قَالَ:قَرَأَ عُمَرُ:« {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ} [التوبة:٦٠] حَتَّى بَلَغَ {عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٦٠] ثُمَّ قَالَ:هَذِهِ لِهَؤُلَاءِ ثُمَّ قَرَأَ:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَـــيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال:٤١] حَتَّى بَلَغَ {وَابْنِ السَّبِيلِ} [البقرة:١٧٧]،ثُـــمَّ قَـــالَ:هَـــذِهِ لِهَؤُلَاءِ،ثُمَّ قَرَأَ:{مَا أَفَاءَ} [الحشر:٧] اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى حَتَّى بَلَغَ {وَالَّذِينَ جَاءُوا

[١٦٧٨] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٥٣)(١٨٧٦٣) صحيح

مِنْ بَعْدِهِمْ} ثُمَّ قَالَ:هَذِهِ اسْتَوْعَبَتِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً،فَلَئِنْ عِشْتُ لَيَأْتِيَنَّ الرَّاعِي وَهُوَ بِسَرْوِ حِمْيَرَ نَصِيبُهُ مِنْهَا،لَمْ يَعْرَقْ فِيهَا جَبِينُهُ»[١٦٧٩]

[١٦٧٩] - جامع معمر بن راشد (١١/ ١٠١)(٢٠٠٤٠) وشرح السنة للبغوي (١١/ ١٣٨)(٢٧٤٠) صحيح
(قَالَ:قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة:٦٠] حَتَّى بَلَغَ (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يَعْنِي:{وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٦٠] (فَقَالَ:هَذِهِ) أَيِ الْآيَةُ (لِهَؤُلَاءِ) أَيْ:لِأَهْلِ الزَّكَاةِ وَهُمْ مَصَارِفُهَا،ثُمَّ قَرَأَ {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} [الأنفال:٤١] حَتَّى بَلَغَ (وَابْنِ السَّبِيلِ):يَعْنِي {وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [الحشر:٧] (ثُمَّ قَالَ:هَذِهِ لِهَؤُلَاءِ) أَيْ:لِأَهْلِ الْخُمُسِ {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [الحشر:٧] " حَتَّى بَلَغَ (لِلْفُقَرَاءِ):كَانَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ يَقْرَأُ مِنْ قَوْلِهِ:{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ} [الحشر:٦] الْآيَةَ فَإِنَّهَا نَصٌّ فِي الْفَيْءِ الَّذِي لَا يُقْسَمُ،وَأَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ فَتَمَامُهَا {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [الحشر:٧]،وَهِيَ ظَاهِرَةٌ فِي التَّخْمِيسِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهَا أَنَّهُ لِلَّهِ حَقِيقَةً وَلِلرَّسُولِ خَاصَّةً يُصْرَفُ فِي الْمَذْكُورِينَ،ثُمَّ أُبْدِلَ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ:(لِلْفُقَرَاءِ) الْآيَاتِ {وَالَّذِينَ جَاءُوا} [الحشر:١٠]:كَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَقُولَ:(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالَّذِينَ جَاءُوا) فَطَوَى الْأَنْصَارَ فِيمَا بَيْنَهُمَا وَفِي نُسْخَةٍ،ثُمَّ قَرَأَ {وَالَّذِينَ جَاءُوا} [الحشر:١٠] فَالتَّقْدِيرُ حَتَّى بَلَغَ " لِلْفُقَرَاءِ " الْآيَتَيْنِ،ثُمَّ قَرَأَ {وَالَّذِينَ جَاءُوا} [الحشر:١٠]،(مِنْ بَعْدِهِمْ) أَيْ:بَعْدِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا أَيْ:فِي الْإِسْلَامِ الَّذِينَ سَبَقُونَا فِي الْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا أَيْ:حِقْدًا وَعَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيْ:لَهُمْ وَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ إِشَارَةً إِلَى الْعِلَّةِ لِتَسْرِيَ فِي غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحْتِرَازًا عَنِ الْمُرْتَدِّينَ،وَلَا خَفَاءَ فِي أَنَّ الْخَوَارِجَ وَالرَّوَافِضَ مَحْرُومُونَ عَنِ الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ،فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ حَظٌّ فِي الْفَيْءِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
(ثُمَّ قَالَ) أَيْ:عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (هَذِهِ) أَيِ:الْآيَاتُ (اسْتَوْعَبَتِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً):يَعْنِي بِخِلَافِ الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ حَيْثُ خُصَّتْ إِحْدَاهُمَا بِأَهْلِ الزَّكَاةِ وَالْأُخْرَى بِأَهْلِ الْخُمُسِ،وَقِيلَ:الْإِشَارَةُ إِلَى أَمْوَالِ الْفَيْءِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِمَا الْآيَةُ الْمَذْكُورَةُ مِنْ قَوْلِهِ {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ} [الحشر:٧] أَيْ:هِيَ مُعَدَّةٌ لِمَصَالِحِهِمْ وَنَوَائِبِهِمْ،وَكَانَ رَأْيُ عُمَرَ أَنَّ الْفَيْءَ لَا يُخَمَّسُ كَمَا تُخَمَّسُ الْغَنِيمَةُ،بَلْ تَكُونُ بِجُمْلَتِهِ مُعَدَّةً لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَمَجْعُولَةً لِنَوَائِبِهِمْ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ وَتَفَاوُتِ طَبَقَاتِهِمْ.وَإِلَيْهِ ذَهَبَ عَامَّةُ أَهْلِ الْفَتْوَى،غَيْرَ الشَّافِعِيِّ فَإِنَّهُ كَانَ يَرَى أَنْ يُخَمَّسَ الْفَيْءُ وَيُصْرَفَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسٍ إِلَى الْمُقَاتِلَةِ وَالْمَصَالِحِ.وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ ذَهَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ مَنْسُوخٌ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ،وَأَنَّ جُلَّةَ الْفَيْءِ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ يَصْرِفُهَا الْإِمَامُ عَلَى مَا يَرَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَامَّةُ أَهْلِ الْفَتْوَى وَاخْتَلَفُوا فِي التَّفْضِيلِ عَلَى السَّابِقَةِ وَالنَّسَبِ،فَذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ النَّاسِ،وَلَمْ يُفَضِّلْ بِالسَّابِقَةِ حَتَّى قَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَتَجْعَلُ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَهَاجَرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ كَمَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ كُرْهًا؟ فَقَالَ:إِنَّمَا عَمِلُوا لِلَّهِ وَإِنَّمَا أُجُورُهُمْ عَلَى اللَّهِ،وَإِنَّمَا الدُّنْيَا بَلَاغٌ،وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُفَضِّلُ بِالسَّابِقَةِ وَالنَّسَبِ،فَكَانَ يُفَضِّلُ عَائِشَةَ عَلَى حَفْصَةَ وَيَقُولُ:إِنَّهَا كَانَتْ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺمِنْكِ وَأَبُوهَا كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺمِنْ أَبِيكِ.وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ:فَرَضَ عُمَرُ لِأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَكْثَرَ مِمَّا فَرَضَ لِي،فَقُلْتُ:إِنَّمَا هِجْرَتِي وَهِجْرَتُهُ وَاحِدَةٌ.قَالَ إِنَّ أَبَاهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺمِنْ أَبِيكَ،وَإِنَّهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺمِنْكَ وَإِنَّمَا هَاجَرَ بِكَ أَبُوكَ.وَمَالَ الشَّافِعِيُّ إِلَى التَّسْوِيَةِ وَشَبَّهَهُ بِالْمِيرَاثِ يُسَوَّى فِيهِ بَيْنَ الْوَلَدِ الْبَارِّ وَالْعَاقِّ،وَسَهْمُ الْغَنِيمَةِ يُسَوَّى فِيهِ بَيْنَ الشُّجَاعِ الَّذِي حَصَلَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ،وَبَيْنَ الْجَبَانِ إِذَا شَهِدَا جَمِيعًا الْوَاقِعَةَ (فَلَئِنْ

وهو يدل على اشتراك جميع المسلمين في الفيء،فعَنْ زَيْد بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْه -:«مَا أَحَدٌ منَ الْمُسْلمينَ إِلَّا لَهُ فِي هَذَا الْمَالِ حَقٌّ،أُعْطِيَهُ أَوْ مُنِعَهُ» أخرجه أبو عبيد في الأموال[١٦٨٠].

وقَالَ سَلَّامٌ أَبُو الْمُنْذرِ :حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلك بْنُ أَيُّوبَ النُّمَيْرِيُّ،وَدَفَعَ إِلَيَّ صَحيفَةً زَعَمَ أَنَّهَا رِسَالَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْد الْعَزِيزِ،كَتَبَ بهَا إِلَى رَجُلٍ منْ قُرَيْشٍ:" أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّد هُدًى وَبَصَائِرَ لقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ،فَشَرَعَ الْهُدَى،وَنَهَجَ السَّبِيلَ،وَصَرَفَ الْقَوْلَ،وَبَيَّنَ مَا يُؤْتَى ممَّا يُنَالُ به رِضْوَانُهُ وَيُنْتَهَى به عَنْ مَعْصِيَته،وَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ،فَجَعَلَهُ ضَيِّقًا مَرْغُوبًا عَنْهُ مَسْخُوطًا عَلَى أَهْله،وَجَعَلَ مَا أَحَلَّ منَ الْغَنَائم وَبَسَطَ لَهُمْ منْهَا وَلَمْ يَحْظُرْهُ عَلَيْهِمْ كَمَا ابْتَلَى به أَهْلَ النُّبُوَّة وَالْكتَاب منْ قَبْلهِمْ،فَكَانَ منْ ذَلكَ مَا نَفَّلَ نَبِيَّ اللَّه ﷺ خَاصَّةً ممَّا غَنمَهُ منْ أَمْوَال قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ،إِذْ يَقُولُ حُمَيْدٌ هُوَ:{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُوله منْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْه منْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} [الحشر:٦] حَتَّى بَلَغَ {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ} [البقرة:٢٨٤]،فَكَانَتْ تلْكَ الْأَمْوَالُ خَالصَةً لرَسُول اللَّه ﷺ لَمْ يَجبْ لأَحَد فيهَا خُمُسٌ وَلَا مَغْنَمٌ،إِذْ تَوَلَّى رَسُولُ اللَّه أَمْرَهَا عَلَى مَا يُلْهِمُهُ اللَّهُ منْ ذَلكَ وَيَأْذَنُ لَهُ به،لَمْ يَضْرِبْهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ،ولَمْ يَحُزْهَا لنَفْسه وَلَا أَقْرِبَائه،وَلَكنَّهُ آثَرَ بأَوْسَعهَا وَأَعْمَرِهَا وَأَكْثَرِهَا نُزُلًا أَهْلَ الْعَدَمِ منَ الْمُهَاجِرِينَ {الَّذينَ أُخْرِجُوا منْ ديَارِهِمْ وَأَمْوَالهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا منَ اللَّه وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الحشر:٨]،وَقَسَمَ طَوَائفَ منْهَا فِي أَهْلِ الْحَاجَة منَ الْأَنْصَارِ،وَاحْتَبَسَ منْهَا فَرِيقًا لنَوَائبه وَحَقِّه وَمَا يَعْرُوهُ غَيْرَ مُعْتَقدٍ

عشْتُ) أَيْ:حَيِيتُ إِلَى فَتْحِ بلَاد الْكُفْر وَكَثْرَة الْفَيْءِ لَأُوصلَنَّ جَميعَ الْمُحْتَاجينَ إِلَى مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْه (فَلَيَأْتيَنَّ الرَّاعِيَ) بالنَّصْب عَلَى الْمَفْعُوليَّة (وَهُوَ بسَرْوِ حمْيَرَ) بفَتْحِ السِّين وَسُكُون الرَّاءِ الْمُهْمَلَتَيْنِ اسْمُ مَوْضِعٍ بنَاحيَة الْيَمَنِ وَحمْيَرُ بكَسْر الْمُهْمَلَة وَسُكُونِ الْميمِ وَفَتْحِ التَّحْتيَّة،وَهُوَ أَبُو قَبيلَة منَ الْيَمَنِ أُضيفَتْ إِلَيْهِمْ؛لأَنَّهُ مَحَلَّتُهُمْ،وَقيلَ:سَرْوُ حمْيَرَ مَوْضعٌ منْ بلَاد الْيَمَنِ وَأَصْلُ السَّرْوِ مَا ارْتَفَعَ منْ مُنْحَدَرٍ،أَوْ مَا انْحَدَرَ منْ مُرْتَفعٍ،وَإِنَّمَا ذَكَرَ سَرْوَ حمْيَرَ لمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدينَة منَ الْمَسَافَة الشَّاقَّة وَذَاكَ الرَّاعِي مُبَالَغَةً فِي الْأَمْرِ الَّذي أَرَادَهُ منْ مَعْنَى التَّعْميمِ فِي إِيصَال الْقَسْمِ إِلَى الطَّالب وَغَيْرِه وَالْقَرِيب وَالْبَعيد وَالْفَقير وَالْحَقير وَذَلكَ لأَنَّ الرَّاعِيَ يَشْغَلُهُ عَنْ طَلَب حَقِّه،أَوْ لحَقَارَته يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يُعْطَى لَهُ شَيْءٌ،بَلْ قَلَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَهُ حَقًّا فِي ذَلكَ،ثُمَّ الْجُمْلَةُ حَالٌ منَ الْمَفْعُول مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَاعله وَهُوَ قَوْلُهُ (نَصيبُهُ) أَيْ:حصَّتُهُ،أَوِ الْمقْدَارُ الْمُقَدَّرُ لَهُ (منْهَا) أَيْ:منْ أَمْوَال الْفَيْءِ (لَمْ يَعْرَقْ فيهَا) أَيْ:حَالَ كَوْنه لَمْ يَتْعَبْ فِي تَحْصيلهَا وَأَخْذهَا (جَبِينُهُ.) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٦٣٨)

[١٦٨٠] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٧٩)(٧٦١) حسن

لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا مُسْتَأْثِرٍ بِهِ وَلَا بِمَوْتِهِ أَنْ يُؤْثِرَ بِهِ أَحَدًا،ثُمَّ جَعَلَهُ صَدَقَةً لَـا تُـرَاثَ لِأَحَـدٍ فِيهِ،زَهَادَةً فِي الدُّنْيَا وَمَحْقَرَةً لَهَا،وَإِيثَارًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ،فَهَذَا لَمْ يُوجَـفْ عَلَيْـهِ بِخَيْـلٍ وَلَـا رِكَابٍ.وَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي فِي تَفْسِيرِهَا اخْتِلَافٌ فِي قَوْلِ الْفُقَهَاءِ قَوْلُ اللَّهِ:{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى} [الحشر:٧] إِلَى قَوْلِهِ:{وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]،ثُمَّ أَخْبَرَ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ ذَلِكَ،فَوَصَفَهُمْ وَسَمَّاهُمْ لِيَكُونَ ذَلِكَ فِيهِمْ وَفِيمَنْ بَعْدَهُمْ،لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لَهُمْ وَفِيهِمْ،فَأَمَّا قَوْلُهُ:{فَلِلَّهِ} [الحشر:٧] فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَمَا فِيهَا وَلَهُ ذَلِكَ كُلُّهُ،وَلَكِنَّهُ يَقُولُ لِلَّهِ فِي سُبُلِهِ الَّتِـي أَمَـرَ بِهَـا.وَأَمَّـا قَوْلُهُ:{وَلِلرَّسُولِ} [الحشر:٧]،فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْمَغْنَمِ فِيهِ إِلَّا كَحَظِّ الرَّجُـلِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَلَكِنَّهُ يَقُولُ:لِرَسُولِ اللَّهِ قَسْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ الْحُكْمُ فِيهِ.وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَلِذِي الْقُرْبَى} [الحشر:٧]،فَقَدْ ظَنَّ نَاسٌ أَنَّ لِذِي الْقُرْبَى سَهْمًا مَفْرُوضًا يُبَيِّنُهُ اللَّهُ كَمَا بَـيَّنَ سِـهَامَ الْمَوَارِيثِ مِنَ النِّصْفِ وَالرُّبُعِ وَالثُّمُنِ وَالسُّدُسِ،وَلِمَا خَصَّ حَظَّهُمْ مِنْ ذَلِكَ غِنًى وَلَا فَقْرٌ وَلَـا صَلَاحٌ وَلَا جَهْلٌ وَلَا قِلَّةُ عَدَدٍ وَلَا كَثْرَةٌ،وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَيَّنَ لَهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِمَّـا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ وَالسَّبْيِ وَالْعَرَضِ وَالصَّامِتِ،وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ سَهْمٌ مَفْـرُوضٌ حَتَّى قَبَضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ،غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ قَسَمَ لَهُمْ وَلِنِسَائِهِ يَوْمَ خَيْبَرَ قَسْمًا لَمْ يَعُمَّهُمْ عَامَّتَهُمْ،وَلَمْ يَخُصَّ بِهِ قَرِيبًا دُونَ مَنْ هُوَ أَحْوَجُ مِنْهُ،وَلَقَدْ كَانَ يَوْمَئِذٍ مِمَّنْ أَعْطَى مَنْ هُوَ أَبْعَدُ قَرَابَةً لَمَّا شَكَوْا إِلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ،لِمَنْ كَانَ مِنْهُمْ وَمِنْ قَوْمِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ،وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مَفْرُوضًا لَمْ يَقْطَعْهُ عَـنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،وَبَعْدَمَا وَسَّعَ رُكْنَهُ،وَلَا أَبُو حَسَنٍ،يَعْنِي عَلِيًّا،حِينَ مَلَكَ مَـا مَلَكَ،وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِيهِ قَائِلٌ،فَهَلَّا أُعْلِمْتُمْ مِنْ ذَلِكَ أَمْرًا يُعْمَلُ بِهِ فِيهِمْ وَيُعْرَفُ لَهُمْ بَعْدُ؟ وَلَـوْ كَانَ ذَلِكَ مَفْرُوضًا لَمْ يَقُلِ اللَّهُ:{كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر:٧]،وَلَكِنَّـهُ يَقُولُ:لِذِي الْقُرْبَى بِحَقِّهِمْ،وَقَرَابَتِهِمْ فِي الْحَاجَةِ،وَالْحَقِّ النَّازِلِ اللَّازِمِ،وَكَحَقِّ الْمِسْـكِينِ فِـي مَسْكَنِهِ،فَإِذَا اسْتَغْنَى فَلَا حَقَّ لَهُ،وَكَحَقِّ ابْنِ السَّبِيلِ فِي سَفَرِهِ وَضَرُورَتِهِ،فَإِذَا أَصَابَ غِنًى فَلَـا حَقَّ لَهُ وَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى ذَوِي الْحَاجَةِ،لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ وَصَالِحُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ لِيَقْطَعُوا سَـهْمًا فَرَضَهُ اللَّهُ وَجَنَّبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقُرْبَى نَبِيِّهِ ﷺ،لَا يُؤْتُونَهُمْ إِيَّاهُ،وَلَا يَقُومُونَ بِحَقِّ اللَّـهِ لَهُـمْ فِيهِ،كَمَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوَا الزَّكَاةَ وَأَحْكَامَ الْقُرْآنِ،فَقَدْ أَمْضَوْا عَطَايَا فِي أَفْنَـاءِ النَّـاسِ وَإِنَّ

بَعْضَهُمْ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الْخُمُسُ،فَإِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْمَغْنَمِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ وَسَّعَ لِنَبِيِّهِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى ذَوِي الْقَرَابَةِ فِي مَوَاضِعَ قَدْ سَمَّى لَهُ بِغَيْرِ سَهْمٍ مَفْرُوضٍ،فَقَدْ أَفَاءَ اللَّهُ سَبْيًا فَأَخْدَمَ فِيهِ نَاسًا وَتَرَكَ ابْنَتَهُ،وَكَلَهَا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّسْبِيحِ،فَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا حَقًّا وَقَرَابَةً،وَلَوْ قَسَمَ هَذَا الْخُمُسَ وَالْمَغْنَمَ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ،لَكَانَ ذَلِكَ حَيْفًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَاعْتِرَافًا لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ،وَلَا يُقْبَلُ قَسَمُ ذَلِكَ فِيمَنْ يَدَّعِي فِيهِ الْوَلَايَةَ وَالْقَرَابَةَ وَالنَّسَبَ،وَلَا دَخَلَتْ فِيهِ سُهْمَانُ الْعَصَبِيَّةِ وَالنِّسَاءِ وَأُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ،وَلَدَى مَنْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُوَافِقٍ لِكِتَابِ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ:{قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} [سبأ:٤٧] ،وَقَالَ:{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص:٨٦] ،وَمَعَ قَوْلِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لِأُمَمِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ،وَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَدَعَ سَهْمًا فَرَضَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَلِأَقْرِبَائِهِ لِآخِرِ النَّاسِ،وَلَا لَخُلُوفٍ بَعْدَهُ،فَقَدْ سُئِلَ نِسَاءَ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ،فَتَحَلَّلَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ سَبَايَاهُمْ،فَقَدْ كَانُوا فَيْئًا،فَفَكَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَطْلَقَهُمْ،لِمَا وَلُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ،بِغَيْرِ سَهْمٍ مَفْرُوضٍ،وَقَالَ يَوْمَئِذٍ،وَهُوَ يَسْأَلُ مِنْ أَنْعَامِهِمْ،وَتَعَلَّقَ رِدَاؤُهُ بِشَجَرَةٍ:«رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي،فَلَوْ كَانَ لَكُمْ مِثْلُ عَدَدِ سَمُرِهَا نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ،وَمَا أَنَا بِأَحَقُّ بِهَذَا الْفَيْءِ مِنْكُمْ بِهَذِهِ الْوَبَرَةِ آخِذُهَا مِنْ كَاهِلِ الْبَعِيرِ»،فَفِي هَذَا بَيَانٌ عَنْ مَوَاضِعِ الْفَيْءِ وَوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ.فَأَمَّا الصَّدَقَاتُ،فَإِنَّهُ جَعَلَهَا زَكَاةً وَطَهُورًا لِعِبَادِهِ،لِيَعْلَمَ بِذَلِكَ صَبْرَهُمْ وَإِيمَانَهُمْ بِمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ،فَنَادَى بِهِ إِلَى نَبِيِّهِ فَقَالَ:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة:١٠٣]،وَلَمْ يَقُلْ:خُذْهَا لِنَفْسِكَ وَلِقُرْبَاكَ،مَعَ أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِنَبِيٍّ وَلَا أَهْلِ بَيْتِهِ،وَلَا حَقَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ.قَالَ:فَقَالَ اللَّهُ:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا} [التوبة:٦٠] إِلَى قَوْلِهِ:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٦٠]،فَهَذِهِ مَوَاضِعُ الصَّدَقَاتِ،حَيَوَانِهَا وَثِمَارِهَا وَصَامِتِهَا.ثُمَّ فَرَضَ اللَّهُ وَسَنَّ نَبِيُّهُ ﷺ وَكَتَبَ فِيهَا إِلَى الْآفَاقِ،وَجَمَعَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الصَّلَاةِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَقَدْ قَالَ مُرْتَدُّو الْعَرَبِ:نُقِيمُ الصَّلَاةَ وَلَا نُؤْتِي الزَّكَاةَ:لَا أُفَرِّقُ بَيْنَ مَا جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُ،وَلَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا طَيِّبَةً بِذَلِكَ نَفْسِي.وَمَا لِأَحَدٍ أَنْ يَتَخَيَّرَ وَأَنْ يَتَحَكَّمَ فِيمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ،مَعَ أَنَّهُ قَدْ تَأَلَّفَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ رُؤَسَاءَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْعَرَبِ فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ فِي ذَلِكَ مَا قَالَ،فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«اللَّهُ يُفْرِغُ بَعْضَهُ فِي حَوْضِ بَعْضٍ،وَيَسُدُّ بَعْضَهُ مَكَانَ بَعْضٍ» .وَمَا

سُهْمَانُ الصَّدَقَة إِلَّا فِي مَوَاضِعِ الْحَاجَة فِيمَنْ سَمَّى اللَّهُ وَوَصَفَ،لَوْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُونَهُ إِلَّا مِنْ صِنْف وَاحِد،لَمْ يَكُنْ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ،وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُعْطِيَ أَحَدًا لِشَرَفِه وَلَا لِغَنَاء وَلَا لِدِلَّة،وَأَوْلَى النَّاسُ بِهَا مِمَّنْ قُبِضَتْ عَنْهُ الصَّدَقَةُ يَعْلَمُهُ مَنْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ.وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّه"[١٦٨١]

والفيء يصرف في مصالح المسلمين وحاجاتهم،ويقدم الأهم فالأهم:كسد الثغور،والنفقة على المجاهدين المرابطين،وبناء المساجد،وإصلاح الطرق،وبناء القناطر،وغيرها من المصالح.

ومن مصارف الفيء:إجراء الطعام للرعية،فعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِم،قَالَ:جَاءَ بِلَالٌ إِلَى عُمَرَ حِينَ قَدِمَ الشَّامَ وَعِنْدَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَاد فَقَالَ:يَا عُمَرُ،يَا عُمَرُ،فَقَالَ عُمَرُ:«هَذَا عُمَرُ» فَقَالَ:«إِنَّكَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ اللَّه،وَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّه أَحَدٌ،فَانْظُرْ مَنْ بَيْنَ يَدَيْكَ،وَمَنْ عَنْ يَمِينِكَ،وَمَنْ عَنْ شِمَالِكَ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَاءُوكَ،وَاللَّه إِنْ يَأْكُلُونَ إِلَّا لُحُومَ الطَّيْرِ»،فَقَالَ عُمَرُ:«صَدَقْتَ،لَا أَقُومُ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا حَتَّى تَكَلَّفُوا لِي لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمُدَّيْ بُرٍّ وَحَظِّهِمَا مِنَ الْخَلِّ وَالزَّيْتِ»،فَقَالُوا:نَكْفُلُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،هُوَ عَلَيْنَا،قَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَأَوْسَعَ:قَالَ:«فَنَعَمْ إِذًا» رواه أبو عبيد في الأموال[١٦٨٢].

وعَنْ أَبِي الزَّاهِرِيَّة،أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاء،قَالَ:«رُبَّ سُنَّة رَاشِدَة مَهْدِيَّة قَدْ سَنَّهَا عُمَرُ فِي أُمَّة رَسُولِ اللَّه ﷺ،مِنْهَا الْمُدْيَان وَالْقِسْطَان» قَالَ أَبُو عُبَيْد:إِنَّمَا نَرَى عُمَرَ أَجْرَى الطَّعَامَ عَلَى الْمَمَالِيك،وَهُمْ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي بَيْتِ الْمَال؛لِأَنَّ سَادَتَهُمْ قَدْ كَانُوا جَادُوا لَهُ بِإِعْطَاءِ الزَّكَاة عَنْهُمْ،فَعَوَّضَهُمْ ذَلِكَ الطَّعَامَ مِنْ أُعْطِيَاتِهِمْ،مَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِمْ وَقَدْ فَسَّرَ ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّب"[١٦٨٣]

وعَنْ عَبْدِ الْخَالِقِ بْنِ سَلَمَةَ الشَّيْبَانِيِّ،قَالَ:سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ عَنِ الصَّدَقَة،فَقَالَ:«كَانَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّه ﷺ صَاعَ تَمْرٍ،أَوْ نِصْفَ صَاعِ حِنْطَة عَنْ كُلِّ رَأْسٍ»،فَلَمَّا قَامَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ كَلَّمَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ،فَقَالُوا:إِنَّا نَرَى أَنْ نُؤَدِّيَ عَنْ أَرِقَّائِنَا عَشَرَةً عَشَرَةً كُلَّ

[١٦٨١] - تاريخ المدينة لابن شبة (١/ ٢١٢)

[١٦٨٢] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣١٣)(٦١١) صحيح

[١٦٨٣] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣١٥)(٦١٥) صحيح

سَنَة إِنْ رَأَيْتَ ذَلكَ.فَقَالَ:«نَعَمْ،مَا رَأَيْتُمْ،وَأَنَا أَرَى أَنْ أَرْزُقَهُمْ جَرِيبَيْنِ كُلَّ شَهْرٍ» .فَكَانَ الَّذي يُعْطيهِمْ أَميرُ الْمُؤْمنينَ أَفْضَلَ منَ الَّذي يَأْخُذُ منْهُمْ قَالَ أَبو عُبَيْد:يَعْني صَدَقَةَ الْفطْرِ عَنِ الرَّقيق."[١٦٨٤]

وعَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّب ،قَالَ:حَجَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا ،فَأَتَاهُ أَشْرَافٌ منْ أَشْرَاف أَهْلِ الشَّام،فَقَالُوا:يَا أَميرَ الْمُؤْمنينَ ،إِنَّا قَدْ أَصَبْنَا دَوَابَّ وَأَمْوَالًا ،فَخُذْ منْ أَمْوَالنَا صَدَقَةً تُطَهِّرُنَا بهَا ،وَتَكُونُ لَنَا زَكَاةً.فَقَالَ:هَذَا شَيْءٌ لَمْ يَفْعَلْهُ اللَّذَان كَانَا قَبْلي ،وَلَكنِ انْتَظرُوا حَتَّى أَسْأَلَ الْمُسْلمينَ ،فَسَأَلَ أَصْحَابَ رَسُول الله ﷺ ،فيهِمْ عَليُّ بْنُ أَبي طَالب رَضيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالُوا:حَسَنٌ ،وَعَليٌّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ سَاكتٌ لَمْ يَتَكَلَّمْ مَعَهُمْ.فَقَالَ:مَا لَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ لَا تَتَكَلَّمُ قَالَ:قَدْ أَشَارُوا عَلَيْكَ ،وَلَا بَأْسَ بمَا قَالُوا ،إِنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرًا وَاجبًا وَلَا جزْيَةً رَاتبَةً يُؤْخَذُونَ بهَا.قَالَ:«فَأَخَذَ منْ كُلِّ عَبْد عَشَرَةً ،وَمنْ كُلِّ فَرَسٍ عَشْرَةً ،وَمنْ كُلِّ هَجينٍ ثَمَانيَةً ،وَمنْ كُلِّ برْذَوْنٍ أَوْ بَغْلٍ ،خَمْسَةَ دَرَاهمَ في السَّنَة ،وَرَزَقَهُمْ كُلَّ شَهْرٍ ،وَللْفَرَسِ عَشَرَةَ دَرَاهمَ ،وَالْهَجينِ ثَمَانيَةً ،وَالْبَغْلِ خَمْسَةً خَمْسَةً ،وَالْمَمْلُوكُ جَرِيبَيْنِ كُلَّ شَهْرٍ»[١٦٨٥]

[١٦٨٤] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٥٦٤)(١٣٦٦) صحيح

قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْكُوفيِّينَ يَرَى في الْخَيْلِ صَدَقَةً إِذَا كَانَتْ سَائمَةً يَنْبَغي منْهَا النَّسْلُ،فَقَالَ:إِنْ شَاءَ أَدَّى عَنْ كُلِّ فَرَسٍ دينَارًا،وَإِنْ شَاءَ قَوَّمَهَا ثُمَّ زَكَّاهَا.قَالَ:وَإِنْ كَانَتْ للتِّجَارَة فَهيَ كَسَائرِ أَمْوَال التُّجَّارِ يُزَكِّيهَا.

قَالَ أَبُو عُبَيْد:أَمَّا قَوْلُهُ في التِّجَارَة،فَعَلَى مَا قَالَ،وَأَمَّا إِيجَابه الصَّدَقَةَ في السَّائمَة،فَلَيْسَ هَذَا عَلَى اتِّبَاعِ السُّنَّة،وَلَا عَلَى طَرِيقِ النَّظَرِ؛لأَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَدْ عَفَا عَنْ صَدَقَتهَا،وَلَمْ يَسْتَثْنِ سَائمَةً وَلَا غَيْرَهَا،وَبه عَملَت الْأَئمَّةُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَهُ،فَهَذه السُّنَّةُ.وَأَمَّا في النَّظَرِ،فَكَانَ لَزِمَهُ إِذَا رَأَى فيهَا صَدَقَةً أَنْ يَجْعَلَهَا كَالْمَاشيَة تَشْبيهًا؛لأَنَّهَا سَائمَةٌ مثْلُهَا،وَلَمْ يَصرْ إِلَى وَاحد منَ الْأَمْرَيْنِ،عَلَى أَنَّ تَسْميَةَ سَائمَتهَا قَدْ جَاءَتْ عَنْ غَيْرِ وَاحد منَ التَّابعينَ بإِسْقَاط الزَّكَاة منْهَا"

[١٦٨٥] - شرح معاني الآثار (٢/ ٢٨)(٣٠٤٥) صحيح

فَدَلَّ هَذَا الْحَديثُ عَلَى أَنَّ مَا أَخَذَ منْهُمْ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ منْ أَجله ، مَا كَانَ أَخَذَ منْهُمْ في ذَلكَ ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ زَكَاةً وَلَكنَّهَا صَدَقَةٌ غَيْرَ زَكَاة.وَقَدْ قَالَ لَهُمْ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ إِنَّ هَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ اللَّذَان كَانَا قَبْلي ، يَعْني رَسُولَ الله ﷺوَأَبَا بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ.فَدَلَّ ذَلكَ عَلَى أَنَّ رَسُولَ الله ﷺوَأَبَا بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ لَمْ يَأْخُذَا ، ممَّا كَانَ بحَضْرَتهمَا ، منَ الْخَيْل صَدَقَةً ، وَلَمْ يُنْكرْ عَلَى عُمَرَ مَا قَالَ منْ ذَلكَ ، أَحَدٌ منْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ.وَدَلَّ قَوْلُ عَليٍّ لعُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا:قَدْ أَشَارُوا عَلَيْكَ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ جزْيَةً رَاتبَةً ، وَخَرَاجًا وَاجبًا ".وَقَبُولُ عُمَرَ ذَلكَ منْهُ ، أَنَّ عُمَرَ إِنَّمَا كَانَ أَخَذَ منْهُمْ بسُؤَالهمْ إِيَّاهُ أَنْ يَأْخُذَ منْهُمْ ، فَيَصْرفَهُ في الصَّدَقَات ، وَأَنَّ لَهُمْ مَنْعَ ذَلكَ منْهُ ، مَتَى أَحَبُّوا ، ثُمَّ سَلَكَ عُمَرُ بالْعَبيد أَيْضًا في ذَلكَ ، مَسْلَكَ الْخَيْل ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلكَ بدَليلٍ عَلَى أَنَّ الْعَبيدَ الَّذينَ لغَيْرِ التِّجَارَة ، يَجبُ فيهِمْ صَدَقَةٌ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلكَ عَلَى التَّبَرُّعِ منْ مَوَاليهِمْ بإِعْطَاء ذَلكَ

وعَنْ قَيْسِ بْنِ رَافِعٍ،أَنَّهُ سَمِعَ سُفْيَانَ بْنَ وَهْبٍ،يَقُولُ:قَالَ عُمَرُ وَأَخَذَ الْمُـــدْيَ بِيَدٍ،وَالْقِسْــطَ بِيَدٍ،فَقَالَ:إِنِّي قَدْ فَرَضْتُ لِكُلِّ نَفْسٍ مَسْلَمَةٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ مُدْيَ حِنْطَةٍ وَقِسْطَيْ خَلٍّ ،وَقِسْــطَيْ زَيْتٍ،فَقَالَ رَجُلٌ:وَالْعَبِيدُ؟ فَقَالَ عُمَرُ:نَعَمْ،وَالْعَبِيدُ"[١٦٨٦] .

وعَنْ سُفْيَانَ بْنِ وَهْبٍ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ:دَعَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَطَاءَ بْنَ الْجُعَيْدِ – وَكَانَ يَقُـــومُ عَلَى أَرْزَاقِ الرُّومِ – فَقَالَ لَهُ:«كَيْفَ كُنْتُمْ تَرْزُقُونَ مُقَاتِلَتَكُمْ؟» قَالَ:كُنَّا نَرْزُقُهُمْ مُــدْيَيْنِ مِـــنَ قَمْحٍ،وَقِسْطَيْنِ مِنْ زَيْتٍ،وَقِسْطَيْنِ مِنْ خَلٍّ،كُلَّ شَهْرٍ،قَالَ:«فَاذْهَبْ،فَاطْحَنْ مُدْيَيْنِ مِنْ قَمْحٍ ثُمَّ اخْبِزْهُمَا فَائْتِنِي بِهِمَا،ثُمَّ ائْتِنِي بِقِسْطَيْنِ مِنْ زَيْتٍ وَقِسْطَيْنِ مِنْ خَلٍّ» فَفَعَلَ،فَدَعَا عُمَرُ بِثَلَـــاثِ قِصَاعٍ فَقَسَّمَ الْخُبْزَ بَيْنَهُمْ،ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَفُتَّ،وَصُبَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ مَا يُصْلِحُهُ،ثُمَّ قَسَـــمَ الزَّيْـــتَ وَالْخَلَّ بَيْنَهُمْ،ثُمَّ أَقْعَدَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا،عَلَى كُلِّ قَصْعَةٍ عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ،فَقَالَ لِلْقَوْمِ:كَيْفَ؟ فَقَالُوا:لَقَدْ وَجَدَ مِنَّا،قَالَ:لَقَد اسْتَقَامَ هَذَا كُلَّ يَوْمٍ،هَلْ مِنْ شَيْءٍ مَعَ هَذَا،فَإِنَّ النَّاسَ لَـــا يَصْـــبِرُونَ عَلَـــى هَذَا،هَلْ مِنْ عَسَلٍ؟ قَالَ:ثُمَّ قَالَ:إِنَّ الْعَسَلَ – أَظُنُّهُ قَـــالَ:- لَـــا يُشْـــبِعُ النَّـــاسَ،أَوْ كَلِمَـــةً نَحْوَهَا،وَلَكِنْ هَلْ لَنَا فِي شَيْءٍ يُطْبَخُ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ حَتَّى يَعُودَ مِثْلَ الْعَسَلِ فَيُؤْكَلُ بِهِ الْخُبْزُ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:ثُمَّ أَتَى مِنْهُ فَقَعَدَ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ،ثُمَّ قَالَ:بِأُصْبُعِهِ فِيهِ،فَكَانَ جَهْدَهُ أَنْ عَلَقَـــهُ،فَأَمَرَ بِشَيْءٍ مِنْهُ،فَخِيضَ لَهُ ثُمَّ شَرِبَهُ،فَقَالَ:مَا أَرَى هَذَا إِلَّا طَيِّبًا،مَا أَرَى بِهَذَا بَأْسًـــا،ثُمَّ دَعَـــا عُمَـــرُ بِالْمُدْيِ فَأَخَذَهُ بِيَدٍ،وَأَخَذَ الْقِسْطَ بِيَدٍ ،ثُمَّ قَالَ:«اللَّهُمَّ مَـــنْ نَقَـــصَ الْمُسْـــلِمِينَ مِـــنْ هَـــذَا فَانْقُصْهُ»[١٦٨٧]

وعن يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ،أَنَّ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ مَرْوَانَ،قَالَ لِكُرَيْبِ بْنِ أَبْرَهَةَ بْنِ الصَّبَّاحِ:يَا كُرَيْبُ أَشَهِدْتَ خُطْبَةَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِالْجَابِيَةِ؟ قَالَ:حَضَرْتُهَا وَأَنَا غُلَامٌ،فِي إِزَارٍ،أَسْمَعُ خُطْبَتَهُ وَلَـــا أَدْرِي مَا يَقُولُ،وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ دَلَلْتُكَ عَلَى رَجُلٍ حَضَرَهَا وَهُوَ رَجُلٌ،قَالَ:مَنْ؟ قَالَ:سُفْيَانُ بْنُ وَهْبٍ الْخَوْلَانِيُّ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَأَتَاهُ فَقَالَ:هَلْ حَضَرْتَ خُطْبَةَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَـــوْمَ الْجَابِيَةِ؟ قَالَ:نَعَمْ،حَضَرْتُهَا وَفَهِمْتُهَا وَعَقَلْتُهَا قَـــالَ:فَمَـــا قَـــالَ؟ قَـــالَ:أُحِـــبُّ أَنْ يَعْفِيَنِـــي

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺأَنَّهُ قَالَ:«عَفَوْتُ لَكُمْ عَنْ صَدَقَةِ الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ»

[١٦٨٦] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣١٤)(٦١٣) حسن

[١٦٨٧] – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٤٥)(٨٩٥) صحيح

الْأَمِيرُ،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَكَأَنَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا يَكْرَهُهُ الْأَمِيرُ،فَإِنَّ الْأَمِيرَ يَعْزِمُ عَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرَهُ،قَالَ:فَإِنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجَابِيَةِ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ:" أَمَّا بَعْدُ ،أَيُّهَا النَّاسُ،فَإِنَّ هَذَا الْفَيْءَ فَيْءٌ أَفَاءَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ،لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ أَحَقَّ مِنْ أَحَدٍ،الرَّفِيعُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْوَضِيعِ،إِلَّا مَا كَانَ مِنْ هَذَيْنِ الْحَيَّيْنِ مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامٍ ،فَإِنِّي غَيْرُ قَاسِمٍ لَهُمَا شَيْئًا،فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ لَخْمٍ يُدْعَى أَبَا حُدَيْرَدَ ،وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:يُدْعَى أَبَا حُدَيْرٍ،فَقَالَ:أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ فِي الْعَدْلِ وَالسَّوِيَّةِ،فَقَالَ:إِنَّمَا يُرِيدُ ابْنُ الْخَطَّابِ بِذَلِكَ الْعَدْلَ وَالسَّوِيَّةَ،وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنْ لَوَ كَانَتِ الْهِجْرَةُ بِصَنْعَاءَ مَا هَاجَرَ إِلَيْهَا مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ إِلَّا قَلِيلٌ،فَلَا أَجْعَلُ مَنْ تَكَلَّفَ فِي السَّفَرِ وَابْتَاعَ الظَّهْرَ بِمَنْزِلَةِ قَوْمٍ إِنَّمَا قَاتَلُوا فِي دِيَارِهِمْ،فَقَالَ:أَبُو حُدَيْرٍ:فَإِنَّ اللَّهَ سَاقَ الْهِجْرَةَ إِلَيْنَا حَتَّى أَدْخَلَهَا عَلَيْنَا فِي دِيَارِنَا،فَنَصَرْنَاهَا فَصَدَقْنَاهَا،فَذَلِكَ الَّذِي يُذْهِبُ حَظَّنَا فِي الْإِسْلَامِ فَقَالَ:لَا وَاللَّهِ،لَأَقْسِمَنَّ لَكُمْ،لَا وَاللَّهِ،لَأَقْسِمَنَّ لَكُمْ،لَا وَاللَّهِ،لَأَقْسِمَنَّ لَكُمْ،يُرَدِّدُهَا وَيَحْلِفُ،فَقَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ،فَأَصَابَ كُلَّ رَجُلٍ نِصْفُ دِينَارٍ،فَإِذَا كَانَتْ مَعَ الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ أَعْطَاهَا دِينَارًا،وَإِذَا كَانَ وَحْدَهُ أَعْطَاهُ نِصْفَ دِينَارٍ "[1688]

والعطاء من الفيء يكون للرجل ومن تلزمه نفقتهم من زوجة أو غيرها،وقد روى أبو داود عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ،«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَاهُ الْفَيْءُ قَسَمَهُ فِي يَوْمِهِ،فَأَعْطَى الْآهِلَ حَظَّيْنِ،وَأَعْطَى الْعَزَبَ حَظًّا» فَدُعِينَا وَكُنْتُ أُدْعَى قَبْلَ عَمَّارٍ،فَدُعِيتُ فَأَعْطَانِي حَظَّيْنِ،وَكَانَ لِي أَهْلٌ ثُمَّ دُعِيَ بَعْدِي عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ،فَأَعْطَى لَهُ حَظًّا وَاحِدًا"[1689].

وقد كان عمر رضي الله عنه يفضل البعض على غيرهم في العطاء لأسباب دينية مع اشتراك جميع المسلمين في العطاء،وهذه الأسباب تقدمت في قوله رضي الله عنه " فَالرَّجُلُ وَبَلاؤُهُ فِي

[1688] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٧٤)(٩٤٨) صحيح

[1689] - سنن أبي داود (٣/ ١٣٧)(٢٩٥٣) صحيح

(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺكَانَ إِذَا أَتَاهُ الْفَيْءُ قَسَمَهُ فِي يَوْمِهِ) أَيْ:بَعْدَ مَا فَضُلَ عَنْ نَفَقَتِهِ وَضَرُورِيَّاتِهِ (فَأَعْطَى الْآهِلَ):بِالْمَدِّ وَكَسْرِ الْهَاءِ أَيِ:الْمُتَأَهِّلَ الَّذِي لَهُ زَوْجَةٌ.قَالَ الطِّيبِيُّ:اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَهَلَ يَأْهِلُ بِكَسْرِ الْهَاءِ وَضَمِّهَا أُهُولًا إِذَا تَزَوَّجَ اهـ.وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِي مَعْنَاهُ مَنْ لَهُ أَحَدٌ مِمَّنْ يَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَتُهُ (حَظَّيْنِ) أَيْ:نَصِيبَيْنِ (وَأَعْطَى الْأَعْزَبَ) أَيِ:الَّذِي لَا زَوْجَةَ لَهُ (حَظًّا،فَدُعِيتُ فَأَعْطَانِي حَظَّيْنِ،وَكَانَ لِي أَهْلٌ،ثُمَّ دُعِيَ بَعْدِي عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَأُعْطِيَ حَظًّا وَاحِدًا" مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٦٣٦)

الإِسْلامِ،وَالرَّجُلُ وَقَدَمُهُ فِي الإِسْلامِ،وَالرَّجُلُ وَغَنَاؤُهُ فِي الإِسْلامِ،وَالرَّجُلُ وَحَاجَتُهُ "،فذكر أربعة أسباب للتفضيل أولها:بلاء الرجل وجهاده للأعداء ودفعه العدوان عن المسلمين،والثاني:أن يكون من السابقين الأولين الذين حصل المال بسببهم،والثالث:الذي يغني عن المسلمين في مصالحهم كالقضاة والمعلمين وغيرهم،والرابع:الفقراء فيقدمون على الأغنياء لاسيما إذا ضاق المال و لم يكف للجميع،فإن تقديم الأغنياء على الفقراء مخالف لقول الله تعالى:{ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } [الحشر:٧]

وَجَعَلْنَا مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى لِهَذِهِ الْأَصْنَافِ،كَيْلَا يَكُونَ ذَلِكَ الْفَيْءُ دُولَةً يَتَدَاوَلُهُ الْأَغْنِيَاءُ مِنْكُمْ بَيْنَهُمْ،يَصْرِفُهُ هَذَا مَرَّةً فِي حَاجَاتِ نَفْسِهِ،وَهَذَا مَرَّةً فِي أَبْوَابِ الْبِرِّ وَسُبُلِ الْخَيْرِ،فَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ حَيْثُ شَاءُوا،وَلَكِنَّنَا سَنَنَّا فِيهِ سُنَّةً لَا تُغَيَّرُ وَلَا تُبَدَّلُ.[١٦٩٠]

وقوله تعالى:«كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ» هو تعليل لحكم التصرف فى الفيء،وأنه إنما جرى عليه هذا الحكم حتى ينال الفقراء والمساكين حظهم منه،وحتى لا ينتقل من يد الذين يملكون إلى يد الذين يملكون،فيصبح دولة بينهم،أي متداولا بين الأغنياء،على حين يظل الفقراء على فقرهم،ويقيم المحرومون على حرمانهم!! قوله تعالى:«وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» هو إلفات للمؤمنين إلى ما ينبغى لهم من ولاء وطاعة للرسول،وتقبّل ورضىّ،بكل ما يقضى به النبىّ فى المؤمنين،وخاصة وهم فى مواجهة هذه الفتنة المطلة عليهم من المال الذي وضعه الله فى يد الرسول..فهناك كثير من الأعين ترنو إلى هذا المال،وكثير من القلوب تتلفت إليه،وإنه لن يعصم المسلم- من هذه الفتنة،إلا الإيمان الوثيق،والرضا المطلق،بكل ما يقضى به الرسول:«وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»..فهذا هو حقّ الرسول على المؤمنين:الامتثال والطاعة من غير مراجعة،ولا توقف،أو ريبة..وقوله تعالى:«وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» ..وعيد لمن تحدثه نفسه من المؤمنين بالخروج عن أمر الرسول،أو الضّيق به،فإن ذلك معناه الكفر،والانسلاخ من الإيمان..وليس للكافرين إلا النار،هى حسبهم،وبئس المصير..[١٦٩١]

[١٦٩٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٥٢٠)

[١٦٩١] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٨٥٨)

ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفيء وتوزيعه،إلا أنهما تتجاوزان هـذا الحـادث الواقع إلى آماد كثيرة في أسس النظام الاجتماعي الإسلامي.
والقاعدة الأولى،قاعدة التنظيم الاقتصادي،تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصـادية في الإسلام.فالملكية الفردية معترف بها في هذه النظرية.ولكنها محددة بهذه القاعـدة.قاعـدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء،ممنوعا من التداول بين الفقراء.فكل وضع ينتهي إلى أن يكـون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعي كله.وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجـب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقي عليه إن وجد.
ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة.ففرض الزكاة.وجعل حصـيلتها في العام اثنين ونصفا في المائة من أصل رؤوس الأموال النقدية،وعشرة أو خمسة في المائة من جميع الحاصلات.وما يعادل ذلك في الأنعام.وجعل الحصيلة في الركاز وهو كنوز الأرض مثلـها في المال النقدي.وهي نسب كبيرة.
ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء بينما جعل الفيء كله للفقراء.وجعـل نظامه المختار في إيجار الأرض هو المزارعة – أي المشاركة في المحصول الناتج بـين صـاحب الأرض وزارعها.وجعل للإمام الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء.وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال.
وحرم الاحتكار.وحظر الربا.وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء.
وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التي تعد قيدا أصيلا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى .
ومن ثم فالنظام الإسلامي نظام يبيح الملكية الفردية،ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي،كمـا أن النظام الرأسمالي ليس منقولا عنه،فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقا بدون ربا وبدون احتكار،إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير.نشأ وحده.وسار وحده،وبقي حتى اليوم وحده.نظامـا فريدا متوازن الجوانب،متعادل الحقوق والواجبات،متناسقا تناسق الكون كله.مذ كان صدوره عن خالق الكون.والكون متناسق موزون! فأما القاعدة الثانية – قاعدة تلقي الشـريعة مـن

مصدر واحد:«وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» ..فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية.فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول - ﷺ - قرآنا أو سنة.والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول.فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان،لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان ..وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية،بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات،بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء،وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان.فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول - ﷺ - والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها - والإمام نائب عن الأمة في هذا - وفي هذا تنحصر حقوق الأمة.فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع.

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء به الرسول.وهذا لا ينقض تلك النظرية،إنما هو فرع عنها.فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص.وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لا نص فيه.وتنحصر سلطة الأمة - والإمام النائب عنها - في هذه الحدود.وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية.وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله.وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله.كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون،فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح! وتربط الآية هاتين القاعدتين في قلوب المؤمنين بمصدرهما الأول ..وهو الله ..فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله:«وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» ..وهذا هو الضمان الأكبر الذي لا احتيال عليه،ولا هروب منه.فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر،خبير بالأعمال،وإليه المرجع والمآب.وعلموا أنه شديد العقاب.وعلموا أنهم مكلفون ألا يكون المال دولة بينهم،وأن يأخذوا ما آتاهم الرسول عن رضى وطاعة،وأن ينتهوا عما نهاهم عنه في غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب ..

ولقد كان توزيع ذلك الفيء- فيء بني النضير - على المهاجرين وحدهم عدا رجلين من الأنصار إجراء خاصا بهذا الفيء،تحقيقا لقاعدة:«كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ» ..فأما

الحكم العام،فهو أن يكون للفقراء عامة.من المهاجرين ومن الأنصار وممن يأتي بعـــدهم مـــن الأجيال.وهذا ما تضمنته الآيات التالية في السياق.[١٦٩٢]

فالتفضيل بالأسباب الأربعة هو المشهور عن عمر رضي الله عنه،وقد ثبت في السنة التفضـــيل بسبب معين كتنفيل بعض الجيش لنفعهم وغنائهم،وأما أبوبكر الصديق رضي الله عنـــه فقـــد كان يسوي بين الناس إذا استوت حاجتهم،وقد روى أبـــو عبيـــد عَـــنْ يَزِيـــدَ بْـــنِ أَبِـــي حَبِيبٍ،وَغَيْرِهِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كُلِّمَ فِي أَنْ يُفَضِّلَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْقَسْمِ،فَقَالَ:فَضَائِلُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ،فَأَمَّا هَذَا الْمَعَاشُ فَالتَّسْوِيَةُ فِيهِ خَيْرٌ"[١٦٩٣]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:وَلِيَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ بالسَّـــوِيَّةِ،فَقِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ لَوْ فَضَّلْتَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ،فَقَالَ:" أَشْتَرِي مِنْهُمْ شِرًى،فَأَمَّا هَذَا الْمَعَاشُ فَالْأُسْوَةُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْأَثَرَةِ "[١٦٩٤]

وروى أبو عبيد عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ «قَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ قَسْمًا وَاحِدًا،فَكَانَ ذَلِكَ نِصْفَ دِينَارٍ لِكُلِّ إِنْسَانٍ» "[١٦٩٥]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ،يَقُولُ:لَئِنْ عِشْتُ إِلَى هَذَا الْعَامِ الْمُقْبِلِ لَأُلْحِقَنَّ آخِرَ النَّاسِ بِأَوَّلِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا بَيَانًا وَاحِدًا ".قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:بَيَانًا وَاحِدًا:شَيْئًا وَاحِدًا قَـــالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَقَدْ كَانَ رَأْيُ عُمَرَ الْأَوَّلُ التَّفْضِيلُ عَلَى السَّوَابِقِ وَالْغَنَاءِ عَـــنِ الْإِسْـــلَامِ،وَهَذَا هُـــوَ الْمَشْهُورُ مِنْ رَأْيِهِ،وَكَانَ رَأْيُ أَبِي بَكْرٍ التَّسْوِيَةَ،ثُمَّ قَدْ جَاءَ عَنْ عُمَرَ شَيْءٌ شَبِيهٌ بِالرُّجُوعِ إِلَـــى رَأْيِ أَبِي بَكْرٍ،وَكَذَلِكَ يُرْوَى عَنْ عَلِيٍّ التَّسْوِيَةُ أَيْضًا وَلِكِلَا الْوَجْهَيْنِ مَذْهَبٌ.

قَدْ كَانَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِيمَا يُحْكَى عَنْهُ يُفَسِّرُهُ،يَقُولُ:ذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ فِي التَّسْـــوِيَةِ إِلَـــى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا هُمْ بَنُو الْإِسْلَامِ،كَإِخْوَةٍ وَرِثُوا آبَاءَهُمْ،فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الْمِيرَاثِ تَتَسَـــاوَى فِيـــهِ سِهَامُهُمْ،وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَعْلَى مِنْ بَعْضٍ فِي الْفَضَائِلِ،وَدَرَجَاتِ الدِّينِ وَالْخَيْرِ،قَالَ:وَذَهَـــبَ عُمَرُ إِلَى أَنَّهُمْ لَمَّا اخْتَلَفُوا فِي السَّوَابِقِ حَتَّى فَضَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،وَتَبَايَنُوا فِيهَا،كَانُوا كَـــإِخْوَةِ

[١٦٩٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٠٢)

[١٦٩٣] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٣٥)(٦٤٩) حسن لغيره

[١٦٩٤] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٦٧)(١٢٩٨٧) حسن

[١٦٩٥] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٣٥)(٦٤٨) حسن لغيره

الْعَلَّاتِ،غَيْرَ مُتَسَاوِينَ فِي النَّسَبِ وَرِثُوا أَخَاهُمْ،أَوْ رَجُلًا مِنْ عَصَبَتِهِمْ،فَأَوْلَاهُمْ بِمِيرَاثِهِ أَمَسُّهُمْ بِهِ رَحِمًا وَأَقْعَدُهُمْ إِلَيْهِ فِي النَّسَبِ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:يَعْنِي بِقَوْلِهِ:أَمَسُّهُمْ بِهِ رَحِمًا وَأَقْعَدُهُمْ إِلَيْهِ فِي النَّسَبِ:أَنَّ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ يَحُوزُ الْمِيرَاثَ،دُونَ أَخِيهِ لِأَبِيهِ،وَإِنْ كَانَ الْآخَرُ أَخَاهُ،وَيَعْنِي بِالْأَقْعَدِ فِي النَّسَبِ:مِثْلُ الِابْنِ وَابْنُ الِابْنِ،وَالْأَخِ وَابْنِ الْأَخِ،يَقُولُ:أَفَلَسْتَ تَرَى أَنَّ الْأَقْعَدَ يَرِثُ دُونَ الْأَطْرَافِ،وَإِنْ كَانَتِ الْقَرَابَةُ تَجْمَعُهُمْ؟ يَقُولُ:فَكَذَلِكَ هُمْ فِي مِيرَاثِ الْإِسْلَامِ،أَوْلَاهُمْ بِالتَّفْضِيلِ فِيهِ أَنْصَرُهُمْ لَهُ وَأَقْوَمُهُمْ بِهِ،وَأَذَبُّهُمْ عَنْهُ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:بَلَغَنِي عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ كَلَامٌ هَذَا مَعْنَاهُ،وَإِنِ اخْتَلَفَ اللَّفْظُ فِيمَا تَأَوَّلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَلَيْسَ يُوجَدُ عِنْدِي فِي هَذَا تَأْوِيلٌ أَحْسَنُ مِنْهُ" [١٦٩٦]

وكل ما دخل في بيت المال من مكاسب وأرباح الصادرات الحكومية،وما تستخرجه الحكومة من معادن ونفط وغيرها من وجوه الكسب والتجارات الحكومية فإن أرباحها تصرف في مصالح المسلمين العامة.

وأخرج مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي عُثْمَانَ،قَالَ:كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ وَنَحْنُ بِأَذْرَبِيجَانَ:«يَا عُتْبَةُ بْنَ فَرْقَدٍ،إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ،وَلَا مِنْ كَدِّ أَبِيكَ،وَلَا مِنْ كَدِّ أُمِّكَ،فَأَشْبِعِ الْمُسْلِمِينَ فِي رِحَالِهِمْ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ،وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ،وَزِيَّ أَهْلِ الشِّرْكِ،وَلَبُوسَ الْحَرِيرِ،فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ لَبُوسِ الْحَرِيرِ»،قَالَ:إِلَّا هَكَذَا،وَرَفَعَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِصْبَعَيْهِ الْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةَ وَضَمَّهُمَا،قَالَ زُهَيْرٌ:قَالَ عَاصِمٌ:هَذَا فِي الْكِتَابِ،قَالَ:وَرَفَعَ زُهَيْرٌ إِصْبَعَيْهِ" [١٦٩٧]

[١٦٩٦] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٣٦)(٦٥١) صحيح

[١٦٩٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٤٢)١٢ - (٢٠٦٩)

[ش (كتب إلينا عمر) هذا الحديث مما استدركه الدارقطني على البخاري ومسلم وقال هذا الحديث لم يسمعه أبو عثمان من عمر بل أخبر به عن كتاب عمر وهذا الاستدراك باطل فإن الصحيح الذي عليه جماهير المحدثين ومحققو الفقهاء والأصوليين جواز العمل بالكتاب وروايته عن الكاتب سواء قال في الكتاب أذنت لك في رواية هذا عني أو أجزتك رواية عني أو لم يقل شيئا(بأذربيجان) هو إقليم معروف وراء العراق وفي ضبطها وجهان مشهوران أشهرهما وأفصحهما وقول الأكثرين أذربيجان بفتح الهمزة بغير مد(ليس من كدك) الكد التعب والمشقة والشدة والمراد هنا أن هذا المال الذي عندك ليس هو من كسبك ومما تعبت فيه ولحقتك الشدة والمشقة في كده وتحصيله ولا هو من كد أبيك وأمك فورثته منهما بل هو مال المسلمين فشاركهم فيه ولا تختص عنهم بشيء منه بل أشبعهم منه وهم في رحالهم أي منازلهم كما تشبع منه في الجنس

قال الإمام النووي رحمه الله " وَأَمَّا قَوْلُهُ (لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ) فَالْكَدُّ التَّعَبُ وَالْمَشَقَّةُ وَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّ هَذَا الْمَالَ الَّذِي عِنْدَكَ لَيْسَ هُوَ مِنْ كَسْبِكَ وَمِمَّا تَعِبْتَ فِيهِ وَلَحِقَتْكَ الشِّدَّةُ وَالْمَشَقَّةُ فِي كَدِّهِ وَتَحْصِيلِهِ ولاهو مِنْ كَدِّ أَبِيكَ وَأُمِّكَ فَوَرِثْتَهُ مِنْهُمَا بَلْ هو مال المسلمين فشاركهم فيه ولاتختص عَنْهُمْ بِشَيْءٍ بَلْ أَشْبِعْهُمْ مِنْهُ وَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ أَيْ مَنَازِلِهِمْ كَمَا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي الجنس والقدر والصفة ولاتؤخر أرزاقهم عنهم ولاتحوجهم يَطْلُبُونَهَا مِنْكَ بَلْ أَوْصِلْهَا إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ بِلَا طَلَبٍ وَأَمَّا قَوْلُهُ (وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ وزى العجم) فهوبكسر الزَّايِ وَلَبُوسُ الْحَرِيرِ هُوَ بِفَتْحِ اللَّامِ وَضَمِّ الْبَاءِ مَا يَلْبَسُ مِنْهُ وَمَقْصُودُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ حَثُّهُمْ عَلَى خُشُونَةِ الْعَيْشِ وصلابتهم فِي ذَلِكَ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ"[١٦٩٨]

ورع الإمام والأمراء والمراقبة والمحاسبة في المال العام

الناس تبع لأئمتهم،فإذا صلحوا وتورعوا عن أكل المال العام بغير حق،فإن الكثير من الناس سوف يقتدون بهم ويتعلمون من ورعهم،ويكفون عن أخذ المال بغير حق،عَنِ الْحَسَنِ،قَالَ :قَالَ عُمَرُ :الرَّعِيَّةُ مُؤَدِّيَةٌ إِلَى الإِمَامِ مَا أَدَّى الإِمَامُ إِلَى اللهِ،فَإِذَا رَتَعَ رَتَعُوا.أخرجه ابن أبي شيبة[١٦٩٩] .

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه أنزل نفسه من مال المسلمين مترلة ولي اليتيم إذا استغنى استعفف،وإذا احتاج اقترض من مال المسلمين،وإذا أيسر رد القرض،والرد هو أحد القولين في قوله تعالى:{وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا **وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } [النساء:٦]

والقدر والصفة ولا تؤخر أرزاقهم عنهم ولا تحوجهم يطلبونها منك بل أوصلها إليهم وهم في منازلهم بلا طلب (لبوس الحرير) هو ما يلبس منه]

[١٦٩٨] - شرح النووي على مسلم (١٤/ ٤٦)

[١٦٩٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ١٤٠)(٣٥٥٩٠) صحيح مرسل

وعَنْ شَقِيقٍ،قَالَ:" كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ:أَنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ،فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا كَانَ مَهْنَأً أَنْ يُبَارَكَ لَهُ فِيهَا،وَأَنَّ مَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا كَانَ كَالْآكِلِ لَا يَشْبَعُ،قَالَ:وَسَمِعْتُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يَذْكُرُونَ أَنَّهُ قَالَ:إِنِّي أَنْزَلْتُ مَالَ اللَّهِ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ مَالِ الْيَتِيمِ؛مَنِ اسْتَغْنَى فَلْيَسْتَعْفِفْ،وَمَنِ افْتَقَرَ فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ "[1700]

وعَنِ الْيَرْفَا قَالَ:قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:«إِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَنْزِلَةِ وَلِيِّ الْيَتِيمِ،إِنِ احْتَجْتُ أَخَذْتُ مِنْهُ،فَإِذَا أَيْسَرْتُ رَدَدْتُهُ،وَإِنِ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ،وَإِنِّي وَلِيتُ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ أَمْرًا عَظِيمًا،فَإِذَا أَنْتَ سَمِعْتَنِي حَلَفْتُ عَنْ يَمِينٍ فَلَمْ أُمْضِهَا،فَأَطْعِمْ عَنِّي عَشَرَةَ مَسَاكِينَ خَمْسَةَ آصَعَ بُرٍّ بَيْنَ كُلِّ مِسْكِينَيْنِ صَاعٌ»[1701]

وعَنِ اللَّاحِقِ بْنِ حُمَيْدٍ قَالَ:لَمَّا بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ ،وَعَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ ،وَعُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ إِلَى الْكُوفَةِ،بَعَثَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ عَلَى الصَّلَاةِ وَعَلَى الْجُيُوشِ ،وَبَعَثَ ابْنَ مَسْعُودٍ عَلَى الْقَضَاءِ وَعَلَى بَيْتِ الْمَالِ ،وَبَعَثَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ عَلَى مِسَاحَةِ الْأَرْضِ،جَعَلَ بَيْنَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ شَاةً،شَطْرُهَا وَسَوَاقِطُهَا لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ،وَالنِّصْفُ بَيْنَ هَذَيْنِ.قَالَ سَعِيدٌ:وَلَا أَحْفَظُ الطَّعَامَ،قَالَ:" نَزَلْتُكُمْ وَإِيَّايَ مِنْ هَذَا الْمَالِ بِمَنْزِلَةِ وَالِي مَالِ الْيَتِيمِ،مَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ،وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ،وَمَا أَرَى قَرْيَةً يُؤْخَذُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ شَاةٌ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ سَرِيعًا فِي خَرَابِهَا "[1702]

وعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ:أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،بَعَثَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ،وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ،وَعُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ،إِلَى الْكُوفَةِ،فَجَعَلَ عَمَّارًا عَلَى الصَّلَاةِ وَالْقِتَالِ،وَجَعَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ عَلَى

[1700] - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:٣٧٨)(٨٦٦) وتاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٠١) صحيح

[1701] - التفسير من سنن سعيد بن منصور - مخرجا (٤/ ١٥٣٨)(٧٨٨) والسنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٧)(١١٠٠١) صحيح

هو يَرْفَا - فتح التحتانية،وسكون الراء،بعدها فاء مشبعة،بغير همز،وقد تهمز فيقال:يَرْفَأ -،حاجب عمر،كان من موالي عمر،أدرك الجاهلية،ولا تعرف له صحبة،وقد حَجّ مع عمر في خلافة أبي بكر،وله ذكر في قصة منازعة العباس وعلي في صدقه رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - التي أخرجها البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٩٧ رقم ٣٠٩٤) في أول كتاب فرض الخمُس،ومسلم في "صحيحه" (٣ / ١٣٧٧ رقم ٤٩) في الجهاد،باب حكم الفيء،وفيها:أن عمر أتاه حاجبه يَرْفَأ.انظر "الإصابة" (٦ / ٦٩٦ - ٦٩٧ رقم ٩٣٩٤)،و"فتح الباري" (٦ / ٢٠٥) .

[1702] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٧٦)(١٣٠١٢) صحيح مرسل

الْقَضَاءِ،وَعَلَى بَيْتِ الْمَالِ،وَجَعَلَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ عَلَى مِسَاحَةِ الْأَرْضِ،وَجَعَلَ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ شَاةً،نِصْفُهَا وَسَوَاقِطُهَا لِعَمَّارٍ،وَرُبُعُهَا لِابْنِ مَسْعُودٍ،وَرُبُعُهَا لِعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ،ثُمَّ قَالَ:«مَا أَرَى قَرْيَةً يُؤْخَذُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ شَاةٌ إِلَّا سَيُسْرِعُ ذَلِكَ فِيهَا»،ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:" إِنِّي أَنْزَلْتُكُمْ وَنَفْسِي مِنْ هَذَا الْمَالِ كَوَالِي الْيَتِيمِ {مَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء:٦]،قَالَ فَقَسَّمَ عُثْمَانُ عَلَى كُلِّ رَأْسٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا كُلَّ عَامٍ،وَلَمْ يَضْرِبْ عَلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا،وَمَسَحَ سَوَادَ الْكُوفَةِ مِنْ أَرْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ،فَجَعَلَ عَلَى الْجَرِيبِ مِنَ النَّخْلِ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ،وَعَلَى الْجَرِيبِ مِنَ الْعِنَبِ ثَمَانِيَةَ دَرَاهِمَ،وَعَلَى الْجَرِيبِ مِنَ الْقَصَبِ سِتَّةَ دَرَاهِمَ،وَعَلَى الْجَرِيبِ مِنَ الْبُرِّ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ،وَعَلَى الْجَرِيبِ مِنَ الشَّعِيرِ دِرْهَمَيْنِ،وَأَخَذَ مِنْ تُجَّارِ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنْ كُلِّ عِشْرِينَ دِرْهَمًا دِرْهَمًا فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ فَرَضِيَ بِهِ "[١٧٠٣]

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ :قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ :لَئِنْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ تَرَكَا هَذَا الْمَالَ وَهُوَ يَحِلُّ لَهُمَا مِنْهُ شَيْءٌ لَقَدْ غُبِنَا وَنَقَصَ رَأْيُهُمَا،وَلَعَمْرُ اللهِ مَا كَانَا بِمَغْبُونَيْنِ،وَلاَ نَاقِصِي الرَّأْيِ،وَلَئِنْ كَانَا امْرَأَيْنِ يَحْرُمُ عَلَيْهِمَا مِنْ هَذَا الْمَالِ الَّذِي أَصَبْنَا بَعْدَهُمَا لَقَدْ هَلَكْنَا،وَايْمُ اللهِ مَا جَاءَ الْوَهَمُ إلاَّ مِنْ قِبَلِنَا.[١٧٠٤].

وعَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ،أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَالَ:لَئِنْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَحِلُّ لَهُمَا هَذَا الْمَالُ الَّذِي أَصَبْنَاهُ بَعْدَهُمَا فَتَرَكَاهُ فَقَدْ غُبِنَا،وَنَقَصَ رَأْيُهُمَا،وَمَا كَانَا مَغْبُونَيْنِ وَلَا نَاقِصِي رَأْيٍ،وَلَئِنْ كَانَ يَحْرُمُ عَلَيْهِمَا فَتَرَكَاهُ لَقَدْ هَلَكْنَا،وَمَا كَانَ الْوَهْنُ إِلَّا مِنْ قِبَلِنَا "[١٧٠٥]

ومن الأمثلة على ورع الإمام ما رواه الطبراني في الكبير عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا احْتُضِرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:«يَا عَائِشَةُ انْظُرِي اللِّقْحَةَ الَّتِي كُنَّا نَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا،وَالْجِفْنَةَ الَّتِي كُنَّا نَصْطَبِحُ فِيهَا،وَالْقَطِيفَةَ الَّتِي كُنَّا نَلْبَسُهَا،فَإِنَّا كُنَّا نَنْتَفِعُ بِذَلِكَ حِينَ كُنَّا فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِذَا مِتُّ فَارْدُدِيهِ إِلَى عُمَرَ،فَلَمَّا مَاتَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَى

[١٧٠٣] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ١٠٠)(١٠١٢٨) صحيح مرسل

[١٧٠٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٦/ ١٣٤)(٣١٣٥١) صحيح

[١٧٠٥] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٦٠٣)(٩٩٣) صحيح

عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:رَضِيَ اللهُ عَنْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ أَتْعَبْتَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكَ"[١٧٠٦].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ حُضِرَ:" انْظُرِي كُلَّ شَيْءٍ زَادَ فِي مَالِي مُنْذُ دَخَلْتُ فِي هَذِهِ الْإِمَارَةِ فَرُدِّيهِ إِلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِي " ،قَالَتْ:فَلَمَّا مَاتَ نَظَرْنَا فَمَا وَجَدْنَا زَادَ فِي مَالِهِ إِلَّا نَاضِحًا كَانَ يَسْقِي بُسْتَانًا لَهُ،وَغُلَامًا نُوبِيًّا كَانَ يَحْمِلُ صَبِيًّا لَهُ ،قَالَتْ:فَأَرْسَلْتُ بِهِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَتْ:فَأُخْبِرْتُ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَكَى وَقَالَ:" رَحِمَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ تَعَبًا شَدِيدًا " رواه البيهقي في السنن الكبرى[١٧٠٧].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لِعَائِشَةَ وَهِيَ تُمَرِّضُهُ:«أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أُوَفِّرَ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ،عَلَى أَنِّي قَدْ أَصَبْتُ مِنَ اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ،فَانْظُرِي مَا كَانَ عِنْدَنَا فَأَبْلِغِيهِ عُمَرَ» قَالَ:وَمَا كَانَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ،مَا كَانَ إِلَّا خَادِمًا وَلِقْحَةً وَمَحْلَبًا فَلَمَّا رَجَعُوا مِنْ جَنَازَتِهِ أَمَرَتْ بِهِ عَائِشَةُ إِلَى عُمَرَ،فَقَالَ:رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ،لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ "[١٧٠٨]

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَفْصٍ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ:لِعَائِشَةَ – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا – عِنْدَ مَوْتِهِ :«أَمَا إِنَّا مُنْذُ وُلِّينَا الْمُسْلِمِينَ لَمْ نَأْكُلْ لَهُمْ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا،وَلَكِنَّا أَكَلْنَا مِنْ جَرِيشِ طَعَامِهِمْ،وَلَبِسْنَا مِنْ خَشِنِ ثِيَابِهِمْ عَلَى ظُهُورِنَا،فَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ،إِلَّا هَذَا الْعَبْدَ الْحَبَشِيَّ،وَهَذَا الْبَعِيرُ النَّاضِحُ وَحَدَّدَ أَوْ جَدَّدَ وَهَذِهِ الْقَطِيفَةَ،فَإِذَا مُتُّ فَابْعَثِي بِهِنَّ إِلَى عُمَرَ،وَأَبْرِئِي مِنْهُنَّ» فَفَعَلْتُ فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ إِلَى عُمَرَ بَكَى حَتَّى سَالَتْ دُمُوعُهُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ:رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ،يَا غُلَامُ ارْفَعْهُنَّ،فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:سُبْحَانَ اللَّهِ،أَتَسْلُبُ عِيَالَ أَبِي بَكْرٍ عَبْدًا حَبَشِيًّا وَبَعِيرًا نَاضِحًا وَجَرْدًا أَوْ جَدْلَ قَطِيفَةٍ ثَمَنَ خَمْسَةِ دَرَاهِمَ؟ قَالَ فَمَا تَأْمُرُ؟ فَقَالَ:تَرُدُّهُنَّ عَلَى عِيَالِهِ،قَالَ:لَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ،أَوْ كَمَا

[١٧٠٦] - المعجم الكبير للطبراني (١/ ٦٠)(٣٨) حسن

[١٧٠٧] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٧٤)(١٣٠٠٨) صحيح

[١٧٠٨] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٤٠)(٦٦٠) صحيح

حَلَفَ،لَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي وِلَايَتِي أَبَدًا،يَخْرُجُ أَبُو بَكْرٍ مِنْهُنَّ عِنْدَ الْمَوْتِ وَأَرُدُّهُنَّ أَنَا عَلَى عِيَالِهِ؟ الْمَوْتُ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ"[1709]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ:انْظُرُوا مَا زَادَ فِي مَالِي مُنْذُ دَخَلْتُ فِي الْخِلَافَةِ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِي،فَإِنِّي قَدْ كُنْتُ أَسْتَحِلُّهُ،وَقَدْ كُنْتُ أَصَبْتُ مِنَ الْوَدَكِ نَحْوًا مِمَّا كُنْتَ أَصَبْتَ مِنَ التِّجَارَةِ " قَالَتْ عَائِشَةُ:«فَلَمَّا مَاتَ نَظَرْنَا،فَإِذَا عَبْدٌ نُوبِيٌّ يَحْمِلُ صِبْيَانَهُ،وَنَاضِحٌ كَانَ يَسْنِي عَلَيْهِ» قَالَتْ:«فَبَعَثْنَا بِهِمَا إِلَى عُمَرَ» قَالَتْ:" فَأَخْبَرَنِي جَدِّي،أَنَّ عُمَرَ بَكَى وَقَالَ:رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ،لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ تَعَبًا شَدِيدًا "[1710]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كَانَ فَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ فِي أَرْبَعَةٍ،وَفَرَضَ لِابْنِ عُمَرَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَ مِائَةٍ،فَقِيلَ لَهُ هُوَ مِنَ المُهَاجِرِينَ فَلِمَ نَقَصْتَهُ مِنْ أَرْبَعَةِ آلاَفٍ،فَقَالَ:" إِنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أَبَوَاهُ يَقُولُ:لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ " رواهُ البخاري[1711].

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ ثَعْلَبَةُ بْنُ أَبِي مَالِكٍ:إِنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَسَمَ مُرُوطًا بَيْنَ نِسَاءٍ مِنْ نِسَاءِ المَدِينَةِ،فَبَقِيَ مِرْطٌ جَيِّدٌ،فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ عِنْدَهُ:يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ،أَعْطِ هَذَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي عِنْدَكَ،يُرِيدُونَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عَلِيٍّ،فَقَالَ عُمَرُ:«أُمُّ سَلِيطٍ أَحَقُّ،وَأُمُّ سَلِيطٍ مِنْ نِسَاءِ الأَنْصَارِ،مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ»،قَالَ عُمَرُ:«فَإِنَّهَا كَانَتْ تَزْفِرُ لَنَا القِرَبَ يَوْمَ أُحُدٍ»،قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:" تَزْفِرُ:تَخِيطُ " رواه البخاري[1712].

[1709] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٩٧)(٩٨٨) فيه انقطاع

[1710] - مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٤٦٦)(٢٢١٨٠) صحيح

[1711] - صحيح البخاري (٥/ ٦٣)(٣٩١٢)

[ش (فرض) عين من مال بيت المال.(في أربعة) مقسطة في أربعة فصول وقيل غير ذلك.(يقول) أي يعني أنه لم يتحمل من العناء مثل من هاجر بنفسه]

[1712] - صحيح البخاري (٤/ ٣٣)(٢٨٨١)

[ش (مروطا) جمع مرط وهو كساء من صوف أو حرير.(تزفر) تحمل وقيل تخرز وتخيط]

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:فضل أم سليط تلك الصحابية الجليلة التي ساهمت في الجهاد بخدمة المسلمين يوم أحد،وحمل الماء على ظهرها لتسقي المجاهدين،فسجل لها التاريخ ذلك وشهد لها عمر رضي الله عنه بهذه المنقبة العظيمة،التي فضّلها بها على آل بيت رسول الله – ﷺ –.ثانياً:توجيه النصح وتقديم المشورة إلى إمام المسلمين،لاسيما ممن

وعَنِ الأَحْنَف بْنِ قَيْس،قَالَ :كُنَّا جُلُوسًا بِبَابِ عُمَرَ فَخَرَجَتْ جَارِيَةٌ فَقُلْنَا :سُرِّيَّةُ عُمَرَ،فَقَالَتْ :إِنَّهَا لَيْسَتْ سُرِّيَّةً لِعُمَرَ ،إِنِّي لاَ أَحِلُّ لِعُمَرَ ،إِنِّي مِنْ مَالِ اللهِ فَتَذَاكَرْنَا بَيْنَنَا مَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ مَالِ اللهِ،قَالَ :فَرَقَى ذَلِكَ إِلَيْهِ ،فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا،فَقَالَ :مَا كُنْتُمْ تُذَاكِرُونَ فَقُلْنَا :خَرَجَتْ عَلَيْنَا جَارِيَةٌ ،فَقُلْنَا :سُرِّيَّةُ عُمَرَ،فَقَالَتْ :إِنَّهَا لَيسْت سُرِّيَّةِ عُمَرَ ،إِنَّهَا لاَ تَحِلُّ لِعُمَرَ ،إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللهِ ،فَتَذَاكَرْنَا مَا بَيْنَنَا مَا يَحِلُّ لَكَ مِنْ مَالِ اللهِ ؟ فَقَالَ :أَنَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَسْتَحِلُّ مِنْ مَالِ اللهِ :حُلَّةُ الشِّتَاءِ وَالْقَيْظِ ،وَمَا أَحُجُّ عَلَيْهِ،وَمَا أَعْتَمِرُ مِنَ الظَّهْرِ ،وَقُوتُ أَهْلِي كَرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ ،لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ،وَلاَ بِأَفْقَرِهِمْ ،أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُصِيبُنِي مَا أَصَابَهُمْ.

وفي رواية عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُمْ كَانُوا جُلُوسًا بِبَابِ عُمَرَ ،فَخَرَجَتْ عَلَيْهِمْ جَارِيَةٌ،فَقَالَ لَهَا بَعْضُ الْقَوْمِ :أيطأك أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،قَالَتْ :إِنِّي لاَ أَحِلُّ لَهُ ،،يَعْنِي أَنَّهَا مِنَ الْخُمُسِ ،فَخَرَجَ عُمَرُ،فَقَالَ :تَدْرُونَ مَا أَسْتَحِلُّ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ ظَهْرًا أَحُجُّ عَلَيْهِ وَأَعْتَمِرُ ،وَحُلَّتَيْنِ :حُلَّةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ،وَقُوتُ آلِ عُمَرَ قُوتُ أَهْلِ بَيْتِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ لَيْسُوا بِأَرْفَعِهِمْ،وَلاَ بِأَخَسِّهِمْ.رواه ابن أبي شيبة[1713].

وعَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ،قَالَ:كُنَّا جُلُوسًا بِبَابِ عُمَرَ،فَخَرَجَتْ جَارِيَةٌ،فَقُلْنَا:هَذِهِ سَرِيَّةُ عُمَرَ،فَقَالَتْ:إِنَّهَا لَيْسَتْ بِسَرِيَّةِ عُمَرَ،إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِعُمَرَ،إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللَّهِ،قَالَ:فَتَذَاكَرْنَا بَيْنَنَا مَا يَحِلُّ مِنْ مَالِ اللَّهِ،قَالَ:فَرَقِيَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا،فَقَالَ:مَا كُنْتُمْ تَذَاكَرُونَ؟ فَقُلْنَا خَرَجَتْ عَلَيْنَا جَارِيَةٌ،فَقُلْنَا:هَذِهِ سَرِيَّةُ عُمَرَ،فَقَالَتْ:إِنَّهَا لَيْسَتْ بِسَرِيَّةِ عُمَرَ،إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِعُمَرَ،إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللَّهِ،فَتَذَاكَرْنَا بَيْنَنَا مَا يَحِلُّ لَكَ مِنْ مَالِ اللَّهِ،فَقَالَ:أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَسْتَحِلُّ مِنْ مَالِ اللَّهِ؟ حُلَّتَيْنِ:حُلَّةُ الشِّتَاءِ وَالْقَيْظِ،وَمَا أَحُجُّ عَلَيْهِ وَأَعْتَمِرُ مِنَ الظُّهْرِ،وَقُوتُ أَهْلِي كَرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ،لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ وَلَا بِأَفْقَرِهِمْ،ثُمَّ أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،يُصِيبُنِي مَا يُصِيبُهُمْ "[1714]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:كَانَ عُمَرُ يَقُوتُ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَيَكْتَسِي الْحُلَّةَ فِي الصَّيْفِ.وَلَرُبَّمَا خُرِقَ الإِزَارُ حَتَّى يُرَقِّعَهُ فَمَا يُبَدَّلَ مَكَانَهُ حَتَّى يَأْتِيَ الإِبَّانُ.وَمَا مِنْ عَامٍ يَكْثُرُ فِيهِ الْمَالُ إِلا كُسْوَتُهُ

حوله من الوزراء والكتاب ونحوهم.والمطابقة:في قوله:" أم سليط أحق بها منها ".منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٣٤٢)

[1713] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٩١)(٣٣٥٨٣و٣٣٥٨٤) صحيح

[1714] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٤١)(٦٦٣) صحيح

فِيمَا أَرَى أَدْنَى مِنَ الْعَامِ الْمَاضِي.فَكَلَّمَتْهُ فِي ذَلِكَ حَفْصَةُ فَقَالَ:إِنَّمَا أَكْتَسِي مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا يُبَلِّغُنِي.

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ:كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسْتَنْفِقُ كُلَّ يَوْمٍ دِرْهَمَيْنِ لَهُ وَلِعِيَالِهِ.وَإِنَّهُ أَنْفَقَ فِي حَجَّتِهِ ثَمَانِينَ وَمِائَةَ دِرْهَمٍ.

وعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:أَنْفَقَ عُمَرُ ثَمَانِينَ وَمِائَةَ دِرْهَمٍ فَقَالَ:قَدْ أَسْرَفْنَا فِي هَذَا الْمَالِ.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ أَنْفَقَ فِي حَجَّتِهِ سِتَّةَ عَشَرَ دِينَارًا فَقَالَ:يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ أَسْرَفْنَا فِي هَذَا الْمَالِ.

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:لَمَّا وَلِي عُمَرُ أَكَلَ هُوَ وَأَهْلُهُ مِنَ الْمَالِ وَاحْتَرَفَ فِي مَالِ نَفْسِهِ.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:أَهْدَى أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ لامْرَأَةِ عُمَرَ عَاتِكَةُ بِنْتُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ طُنْفُسَةً أَرَاهَا تَكُونُ ذِرَاعًا وَشِبْرًا فَدَخَلَ عَلَيْهَا عُمَرُ فَرَآهَا فَقَالَ:أَنَّى لَكِ هَذِهِ؟

فَقَالَتْ:أَهْدَاهَا لِي أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ.فأخذها عمر فضرب بها رأسها حتى نغض رَأْسَهَا ثُمَّ قَالَ:عَلَيَّ بِأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ وَأَتْعِبُوهُ.قَالَ فَأُتِيَ بِهِ قَدْ أُتْعِبَ وَهُوَ يَقُولُ:لا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.فَقَالَ عُمَرُ:مَا يَحْمِلُكَ عَلَى أَنْ تَهْدِيَ لِنِسَائِي؟ ثُمَّ أَخَذَهَا عُمَرُ فَضَرَبَ بِهَا فَوْقَ رَأْسِهِ وَقَالَ:خُذْهَا فَلا حَاجَةَ لَنَا فِيهَا.

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قَالَ لِي عُمَرُ:يَا أَسْلَمُ أَمْسِكْ عَلَى الْبَابِ وَلا تَأْخُذَنَّ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا.قَالَ فَرَأَى عَلَيَّ يَوْمًا ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ:مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ قُلْتُ:كَسَانِيهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ.فَقَالَ:أَمَّا عُبَيْدُ اللَّهِ فَخُذْهُ مِنْهُ وَأَمَّا غَيْرُهُ فَلا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ شَيْئًا.قال أَسْلَمُ:فَجَاءَ الزُّبَيْرُ وَأَنَا عَلَى الْبَابِ فَسَأَلَنِي أَنْ يَدْخُلَ فَقُلْتُ:أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَشْغُولٌ سَاعَةً.فَرَفَعَ يَدَهُ فَضَرَبَ خَلْفَ أُذُنَيَّ ضَرْبَةً صَيَّحَتْنِي.قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ:مَا لَكَ؟ فَقُلْتُ:ضَرَبَنِي الزُّبَيْرُ.وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَهُ.قَالَ فَجَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ:الزُّبَيْرُ وَاللَّهِ أَرَى.ثُمَّ قَالَ:أَدْخِلْهُ.فَأَدْخَلْتُهُ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ عُمَرُ:لِمَ ضَرَبْتَ هَذَا الْغُلامَ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ:زَعَمَ أَنَّهُ سَيَمْنَعُنَا مِنَ الدُّخُولِ عَلَيْكَ.فَقَالَ عُمَرُ:هَلْ رَدَّكَ عَنْ بَابِي قَطُّ؟ قَالَ:لا.قَالَ عُمَرُ:فَإِنْ قَالَ لَكَ اصْبِرْ سَاعَةً فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَشْغُولٌ لَمْ تَعْذِرْنِي.إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنَّمَا يَدْمَى السَّبُعُ لِلسِّبَاعِ فَتَأْكُلُهُ.[١٧١٥]

[١٧١٥] – الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٣٤) من طريق الواقدي

ومن الأمثلة على المحاسبة والعدل في المال العام أن يتولى أهل الشورى فـرض المـال لخليفـة المسلمين،وقد تقدم هذا في باب الشورى .

نفقات الحكومة

الواجب على ولاة أمر المسلمين أن يحفظوا أموال المسلمين العامة من الضياع،وأن لا يخونـوا أماناتهم بالتعدي عليها،أو التفريط في حفظها،وقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُـوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنفال:٢٧]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِأَنْ لاَ يَخُونُوا اللهَ بِارْتِكَابِ الذُّنُوبِ،وَأَنْ يَخُونُوا رَسُولَهُ بِتَرْكِ سُنَنِهِ،وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ،وَأَنْ لاَ يَخُونُوا أَمَانَاتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ التِـي ائْـتَمَنَ اللهُ العِبَـادَ عَلَيهَا:يَعْنِي الفَرَائِضَ،وَهِيَ تَشْمَلُ أَمَانَةَ الإِنْسَانِ نَحْوَ النَّاسِ فِـي تَعَامُلِـهِ مَعَهُـمْ:كَالمِكْيَـالِ وَالمِيْزَانِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالحَقِّ وَالصِّدْقِ،وَكِتْمَانِ السِّـرِّ..إلخ.فَالأَمَانَـةُ وَاحِـدَةٌ وَلاَ تَبْعِـيضَ فِيهَا،وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ مَسَاوِىءَ الخِيَانَةِ،وَسُوءَ عَاقِبَتِهَا.[١٧١٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" آيَـةُ المُنَـافِقِ ثَـلاَثٌ:إِذَا حَـدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ،وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ " متفقٌ عليه[١٧١٧] .

[١٧١٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨٨،بترقيم الشاملة آليا)

[١٧١٧] - صحيح البخاري (٣/ ١٨٠)(٢٦٨٢) وصحيح مسلم (١/ ٧٨)(١٠٧ - (٥٩)

اعلم أولاً أن النفاق نوعان:نفاق اعتقادي يخرج صاحبه عن الإيمان وهو إظهار الإسلام وإخفاء الكفر ونفاق عملي:وهو التشبه بالمنافقين في أخلاقهم،وهذا لا يخرج صاحبه عن الإيمان،إلاّ أنه كبيرة.

وقد تحدث النبي - ﷺ - في هذا الحديث عن النفاق العملي وبين لنا العلامات المميزة له فقال:" آية المنافق ثلاث " أي من علامات النفاق العملي التي تدل على أن صاحبها يشبه المنافقين في أعمالهم وأخلاقهم أن توجد في المرء هذه الخصال الثلاث أو بعضها:الخصلة الأولى:" إذا حدث كذب " أي أن يشتهر ذلك الإنسان بالكذب في الحديث عامداً متعمداً،فلا يخبرك بشيء إلا تعمد إخفاء الحقيقة والإخبار بخلاف الواقع الذي يعتقده تضليلاً وتمويهاً وخداعاً.الخصلة الثانية:" إذا وعد أخلف " أي أن يشتهر بخلف الوعد عمداً،بحيث إذا وعد بشيء تعمد الخلف،وعزم عليه في نفسه مسبقاً،وصمم من أول الأمر على عدم الوفاء به.الخصلة الثالثة:" إذا ائتمن خان " أي أن يشتهر بالخيانة بين الناس،فلا يثق به أحد،لأنه إذا أودع سراً أفشاه،وإذا أودع مالاً تصرف فيه خلاف الوجه الشرعي المطلوب منه،وإذا استشير لم ينصح في مشورته،وإذا عهد إليه بعمل لم يؤده.

وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" إِنَّ اللَّهَ حَــرَّمَ عَلَــيْكُمْ:عُقُــوقَ الأُمَّهَــاتِ،وَوَأْدَ البَنَاتِ،وَمَنَعَ وَهَاتِ،وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ،وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ،وَإِضَــاعَةَ المَــالِ " رواه البخــاري ومسلم[1718]

ويستفاد منه ما يأتي:أولاً:أن الكذب نفاق عملي وخصله من خصال المنافقين،وكبيرة من الكبائر،وهو في الأصل الإخبار بخلاف الواقع،إلا أنه لا يكون كبيرة إلا إذا خالف ما يعتقده صاحبه،أما إذا تحدث بما يعتقده ثم ظهر الواقع خلافه فلا إثم عليه لأنه لا تكليف إلا بعلم.ثانياً:أن خلف الوعد من النفاق،وكبيرة من الكبائر،بشرطين:الأول:أن يكون وعد خير،فإن كان وعد شر.فإن خُلْفَه واجب أو مستحب،وليس من النفاق في شيء،بل هو برٌّ وطاعة.والثاني:أن يكون قد عزم على الخلف مسبقاً،أما إذا نوى الوفاء وحال دونه عذر شرعي فلا شيء عليه.ثالثاً:أن الخيانة من الكبائر ومن أخلاق المنافقين سواء كانت في سر أو وديعة أو وظيفة،وسواء كانت في حق من حقوق الله،أو من حقوق العباد.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ١١٩)

[1718] - صحيح البخاري (٣/ ١٢٠)(٢٤٠٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٤١)١٢ - (٥٩٣)

[ش (عقوق الأمهات) أصل العقوق القطع أطلق على الإساءة للأم وعدم الإحسان إليها لما في ذلك من قطع حقوقها وخص الأمهات بالذكر وإن كان يستوي في ذلك الآباء والأمهات لأن الجرأة عليهن أكثر في الغالب.(وأد البنات) دفنهن وهن أحياء.(ومنع وهات) منع الواجبات من الحقوق وأخذ ما لا يحل لكم من الأموال أو طلب ما ليس لكم فيه حق]

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ») أَيْ:مُخَالَفَتَهُمْ مِنَ الْعَقِّ،وَهُوَ الْقَطْعُ وَالشَّقُّ الْمُرَادُ صُدُورُ مَا يَتَأَذَّى بِهِ أَحَدُ الْوَالِدَيْنِ مِنْ وَلَدِهِ عُرْفًا بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ،وَخَصَّ الْأُمَّهَاتِ بِالذِّكْرِ لِلِاهْتِمَامِ بِشَأْنِهِنَّ وَضَعْفِهِنَّ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَبِيلِ الِاكْتِفَاءِ بِذِكْرِ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ مِنَ الْآخَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل:٨١] أَيْ:وَالْبَرْدَ.وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ:لَمْ يَخُصَّ الْأُمَّهَاتِ بِالْعُقُوقِ،فَإِنَّ عُقُوقَ الْآبَاءِ مُحَرَّمٌ أَيْضًا،وَلَكِنْ نَبَّهَ بِأَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ،فَإِنَّ بِرَّ الْأُمِّ مُقَدَّمٌ عَلَى بِرِّ الْأَبِ إِلَّا أَنَّ لِعُقُوقِ الْأُمَّهَاتِ مَزِيَّةً فِي الْقُبْحِ،وَحَقُّ الْأَبِ مُقَدَّمٌ فِي الطَّاعَةِ وَحُسْنِ الْمُتَابَعَةِ لِرَأْيِهِ وَالنُّفُوذِ لِأَمْرِهِ،وَقَبُولِ الْأَدَبِ مِنْهُ.(وَوَأْدَ الْبَنَاتِ):بِسُكُونِ الْهَمْزِ وَيُبْدَلُ،أَيْ:دَفْنَهُنَّ حَيَّاتٍ قِيلَ:قَدَّمَ حُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ؛لِأَنَّهُنَّ الْأُصُولُ وَعَقَّبَهُ بِوَأْدِ الْبَنَاتِ؛لِأَنَّهُنَّ الْفُرُوعُ،فَكَانَ ذَلِكَ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ قَطْعُ النَّسْلِ الَّذِي هُوَ مُوجِبٌ لِخَرَابِ الْعَالَمِ.(وَمَنَعَ):بِسُكُونِ النُّونِ وَيُفْتَحُ وَبِفَتْحِ الْعَيْنِ عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ أَوْ مَاضٍ،وَفِي رِوَايَةِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ:(وَمَنْعًا) بِالتَّنْوِينِ (وَهَاتِ):بِكَسْرِ التَّاءِ هُوَ اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَعْطِ،وَعَبَّرَ بِهِمَا عَنِ الْبُخْلِ وَالسُّؤَالِ أَيْ:كَرِهَ أَنْ يَمْنَعَ الرَّجُلُ مَا عِنْدَهُ وَيَسْأَلَ مَا عِنْدَ غَيْرِهِ،قِيلَ:وَلَمْ يُنَوَّنْ عَلَى رِوَايَةِ الْمَصْدَرِ؛لِأَنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِ مَحْذُوفٌ مِنْهُ مُرَادًا،أَيْ:كَرِهَ مَنْعَ مَا عِنْدَهُ وَقَوْلَ هَاتِ.وَفِي النِّهَايَةِ أَيْ:حَرُمَ عَلَيْكُمْ مَنْعُ مَا عَلَيْكُمْ عَطَاؤُهُ وَطَلَبُ مَا لَيْسَ لَكُمْ أَخْذُهُ.اهــ.وَقِيلَ:نَهَى عَنْ مَنْعِ الْوَاجِبِ مِنْ أَمْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ مِنَ الْحُقُوقِ اللَّازِمَةِ فِيهَا،وَنَهَى عَنِ اسْتِدْعَاءِ مَا لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحُقُوقِ،وَتَكْلِيفُهُ إِيَّاهُمْ بِالْقِيَامِ بِمَا لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ،فَكَأَنَّهُ يُنْصِفُ وَلَا يَنْتَصِفُ،وَهَذَا مِنْ أَسْمَجِ الْخِلَالِ (وَكَرِهَ):بِكَسْرِ الرَّاءِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِتَشْدِيدِهَا مَعَ فَتْحِهَا،فِي الْقَامُوسِ:كَرِهَهُ كَسَمِعَهُ وَكَرَّهَهُ إِلَيْهِ تَكْرِيهًا صَيَّرَهُ كَرِيهًا (لَكُمْ) أَيْ:لِأَجَلِكُمْ (قِيلَ وَقَالَ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ وَالْمَعْلُومِ لِلْمَاضِي.فِي الْفَائِقِ:نَهَى عَنْ فُضُولِ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ الْمُجَالِسُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ قِيلَ كَذَا وَقَالَ كَذَا،وَبِنَاؤُهُمَا عَلَى كَوْنِهِمَا فِعْلَيْنِ مَحْكِيَّيْنِ مُتَضَمِّنَيْنِ لِلضَّمِيرِ،وَالْإِعْرَابُ عَلَى إِجْرَائِهِمَا مَجْرَى الْأَسْمَاءِ خَالِيَيْنِ مِنَ الضَّمِيرِ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ:إِنَّمَا الدُّنْيَا قَالَ وَقِيلَ،وَإِدْخَالُ حَرْفِ التَّعْرِيفِ عَلَيْهِمَا لِذَلِكَ فِي قَوْلِهِمْ:يَعْرِفُ الْقَالَ مِنَ الْقِيلِ،وَفِي النِّهَايَةِ:وَهَذَا النَّهْيُ إِنَّمَا يَصِحُّ فِي قَوْلٍ لَا يَصِحُّ وَلَا يُعْلَمُ حَقِيقَتُهُ،فَأَمَّا مَنْ حَكَى مَا يَصِحُّ وَيُعْرَفُ حَقِيقَتُهُ،وَأَسْنَدَهُ إِلَى ثِقَةٍ

وإضاعة المال تكون في صرفه في غير مصارفه الشرعية أو بإهمال أموال المسلمين والتقصـــير في حفظها حتى تضيع أو تفسد،أو التهاون في حفظ القليل منها،وقد أخرج ابـــن أبي شـــيبة في مصنفه عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ :كُنْتُ أَمْشِي مَعَ عُمَرَ بْـــنِ الْخَطَّـــابِ فَـــرَأَى تَمْـــرَةً مَطْرُوحَةً،فَقَالَ :خُذْهَا،قُلْتُ :وَمَا أَصْنَعُ بِتَمْرَةٍ،قَالَ :تَمْرَةٌ وَتَمْرَةٌ حَتَّى تَجْتَمِعَ،فَأَخَـــذْتُهَا فَمَـــرَّ بِمِرْبَدِ تَمْرٍ،فَقَالَ :أَلْقِهَا فِيهِ[1719]..

صَادِقٍ،فَلَا وَجْهَ لِلنَّهْيِ عَنْهُ،وَلَا ذَمَّ؛وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فِيهِ تَجُوُّزُ عَرَبِيَّةٍ،وَذَلِكَ أَنَّهُ يَجْعَلُ كُلًّا مِنَ الْقِيلِ وَالْقَالِ مَصْدَرًا كَأَنَّهُ نَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَوْلٍ.يُقَالُ:قُلْتُ قَوْلًا وَقَالًا وَقِيلًا،وَهَذَا التَّأْوِيلُ عَلَى أَنَّهُمَا اسْمَانِ،وَقِيلَ:أَرَادَ النَّهْيَ عَنْ كَثْرَةِ الْكَلَامِ مُبْتَدِئًا وَمُجِيبًا.وَقِيلَ:هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ بِعُمُومِهِ حُرْمَةَ النَّمِيمَةِ وَالْغِيبَةِ،فَإِنَّ تَبْلِيغَ الْكَلَامِ مِنْ أَقْبَحِ الْخِصَالِ،وَالْإِصْغَاءَ إِلَيْهَا مِنْ أَفْحَشِ الْفِعَالِ.وَقَالَ شَارِحٌ:قَوْلُهُ:" قِيلَ وَقَالَ " إِمَّا مَصْدَرَانِ أُتِيَ بِهِمَا لِلتَّأْكِيدِ وَحَذْفِ التَّنْوِينِ لِإِرَادَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ الْمَحْذُوفِ،أَيْ:كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ،أَوْ مَاضِيَانِ،وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى تَرْكِ الْخَوْضِ فِي أَخْبَارِ النَّاسِ وَتَتَبُّعِ أَحْوَالِهِمْ وَحِكَايَةِ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.وَقَالَ السُّيُوطِيُّ:الْمُرَادُ بِهَا كَثْرَةُ الْكَلَامِ؛لِأَنَّهَا تَؤُولُ إِلَى الْخَطَأِ فِي الْمُرَامِ،وَقِيلَ حِكَايَةُ أَقَاوِيلِ النَّاسِ،وَالْبَحْثُ عَنْهَا لِيُخْبِرَ بِهَا وَيَقُولَ:قَالَ فُلَانٌ كَذَا وَقِيلَ لَهُ كَذَا،وَالنَّهْيُ إِمَّا لِلزَّجْرِ عَنِ الِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ،أَوْ لِشَيْءٍ مَخْصُوصٍ،وَهُوَ أَنْ يَكْرَهَهُ الْمَحْكِيُّ عَنْهُ،ثُمَّ هُمَا فِعْلَانِ ذُكِرَا عَلَى الْحِكَايَةِ،وَقِيلَ:اسْمَانِ مَصْدَرَانِ بِمَعْنَى الْقَوْلِ،وَلِلْكُشْمِيهَنِيِّ (قِيلٌ وَقَالٌ) بِالتَّنْوِينِ.(وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ):بِالْهَمْزِ وَيُبْدَلُ وَفِيهِ وُجُوهٌ،أَحَدُهَا:مَا فِي الْفَائِقِ:السُّؤَالُ عَنْ أُمُورِ النَّاسِ وَكَثْرَةُ الْبَحْثِ عَنْهَا.وَثَانِيهَا:مَسْأَلَةُ النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:وَلَا أَرَى حَمْلَهُ عَلَى هَذَا،فَإِنَّ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ،وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ حَدَّ الْكَثْرَةِ.وَثَالِثُهَا:كَثْرَةُ السُّؤَالِ فِي الْعِلْمِ لِلِامْتِحَانِ وَإِظْهَارِ الْمِرَاءِ،وَقِيلَ بِلَا حَاجَةٍ أَوْ مُطْلَقًا،فَإِنَّهُ قَدْ يُفْضِي بِهِ إِلَى مَا لَا يَعْنِيهِ.وَرَابِعُهَا:كَثْرَةُ سُؤَالِ النَّبِيِّ - ﷺ- قَالَ تَعَالَى:{لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [المائدة:١٠١]،(وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) فِي الْفَائِقِ:هُوَ إِنْفَاقُهُ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالسَّرَفِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ،قِيلَ:وَالتَّقْسِيمُ الْحَاصِرُ فِيهِ الْحَاوِي بِجَمِيعِ أَقْسَامِهِ أَنْ تَقُولَ:إِنَّ الَّذِي يُصْرَفُ إِلَيْهِ الْمَالُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا كَالنَّفَقَةِ وَالزَّكَاةِ وَنَحْوِهِمَا،فَهَذَا لَا ضَيَاعَ فِيهِ،وَهَكَذَا إِنْ كَانَ مَنْدُوبًا إِلَيْهِ،وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُبَاحًا وَلَا إِشْكَالَ إِلَّا فِي هَذَا الْقِسْمِ،إِذْ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمُورِ يَعُدُّهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الْمُبَاحَاتِ،وَعِنْدَ التَّحْقِيقِ لَيْسَ كَذَلِكَ كَتَشْيِيدِ الْأَبْنِيَةِ وَتَزْيِينِهَا وَالْإِسْرَافِ فِي النَّفَقَةِ،وَالتَّوَسُّعِ فِي لُبْسِ الثِّيَابِ النَّاعِمَةِ وَالْأَطْعِمَةِ الشَّهِيَّةِ اللَّذِيذَةِ،وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ وَغِلَظَ الطَّبْعِ يَتَوَلَّدُ مِنْ لُبْسِ الرِّقَاقِ،وَأَكْلِ الرُّقَاقِ،وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الِارْتِفَاقِ،وَيَدْخُلُ فِيهِ تَمْوِيهُ الْأَوَانِي وَالسُّقُوفِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ،وَسُوءُ الْقِيَامِ عَلَى مَا يَمْلِكُهُ مِنَ الرَّقِيقِ وَالدَّوَابِّ،حَتَّى تَضِيعَ وَتَهْلَكَ،وَقِسْمَةُ مَا لَا يَنْتَفِعُ الشَّرِيكُ بِهِ كَاللُّؤْلُؤَةِ وَالسَّيْفِ يُكْسَرَانِ،وَكَذَا احْتِمَالُ الْغَبْنِ الْفَاحِشِ فِي الْبِيَاعَاتِ،وَإِيتَاءُ الْمَالِ صَاحِبَهُ وَهُوَ سَفِيهٌ حَقِيقٌ بِالْحَجْرِ،وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي مَعْرِفَةِ حُسْنِ الْخُلُقِ الَّذِي هُوَ مَنْبَعُ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَالْخِلَالِ الْجَمِيلَةِ.قُلْتُ:وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ،وَبَدَائِعِ الْحِكَمِ،وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ السَّجْعِ حَيْثُ لَا تَكَلُّفَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٨١)

[1719] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ١٥٠)(٣٥٦٢٥) صحيح

وعَنِ ابْنِ أَبِي عَيَّاشٍ وَاسْمُهُ نُعْمَانُ عَنْ خَوْلَةَ الأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ،فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ» رواه البخاري[١٧٢٠]

ومعنى يتخوضون أي يتصرفون في أموال المسلمين في غير مصارفها الشرعية.

والمصارف الشرعية كالإنفاق لإقامة شرع الله تعالى في الأرض،ودعوة الناس وتعليمهم،وقسم العطاءات،والأجور على المسلمين،وتنفيذ المشاريع العامة النافعة،كالمدارس والمستشفيات وإصلاح الطرق وغيرها من المشاريع النافعة والمرافق والخدمات ومصالح المسلمين العامة،فعَنِ أَبِي مُوسَى،قَالَ:«إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ أُعَلِّمُكُمْ كِتَابَ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ وَسُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ،وَأُنَظِّفُ لَكُمْ طُرُقَكُمْ»[١٧٢١]

والذي يجب على ولاة الأمر في الإنفاق أن يتخذوا سياسة إنفاق عادلة بعيدا عن الإسراف والتقتير،فيسلكوا ما بين ذلك،وهو الاقتصاد في النفقة.

والإسراف هو مجاوزة الحلال إلى حرام،أو الزيادة على ما ينبغي في الأمور المباحة،وقد قال تعالى {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف:٣١]

يَرُدُّ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ،الذِينَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ وَهُمْ عُرَاةٌ،وَكَانَ الذِينَ يَطُوفُونَ مِنْهُمْ يُحَرِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم الدَّسَمَ مَا أَقَامُوا بِالْمَوْسِمِ،فَأَمَرَهُمُ اللهُ بِسَتْرِ عَوْرَاتِهِمْ حِينَ

[١٧٢٠] - صحيح البخاري (٤/ ٨٥)(٣١١٨)

(يَتَخَوَّضُونَ):قَالَ الرَّاغِبُ:الْخَوْضُ هُوَ الشُّرُوعُ فِي الْمَاءِ،وَالْمُرُورُ فِيهِ،وَيُسْتَعَارُ فِي الْأُمُورِ،وَأَكْثَرُ مَا وَرَدَ فِيمَا يُذَمُّ الشُّرُوعُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام:٩١] اهـ.وَفِى التَّفَعُّلِ مُبَالَغَةٌ،وَالْمَعْنَى يَشْرَعُونَ وَيَدْخُلُونَ وَيَتَصَرَّفُونَ.(فِي مَالِ اللَّهِ):أَيْ مَا فِي بَيْتِ الْمَالِ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْخَرَاجِ وَالْجِزْيَةِ وَالْغَنِيمَةِ وَغَيْرِهَا،(بِغَيْرِ حَقٍّ):أَيْ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنَ الْإِمَامِ،فَيَأْخُذُونَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ أُجْرَةِ عَمَلِهِمْ وَقَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ (فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ):خَبَرُ (إِنَّ) وَأَدْخَلَ الْفَاءَ؛لِأَنَّ اسْمَهَا نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٣٣)

[١٧٢١] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٥٧) والأدب لابن أبي شيبة (ص:٢٨٩)(٢٧٥) وسنن الدارمي (١/ ٤٦٣)(٥٧٩) حسن لغيره

الطَّوَاف بالبَيْت،وَبالتَّجَمُّلِ عِنْدَ الصَّلاَة،ثُمَّ أَبَاحَ لَهُم الأَكْلَ وَالشُّرْبَ مِـــنَ الطَّيِّبَـــات بـــدُون إِسْرَاف (أَيْ بِدُون تَجَاوُزِ الحَدِّ المَعْقُول)،لأنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ فِي كُلِّ تَصَرُّف.[1722]

هو دعوة إلى أن يأخذ الناس حظّهم من طيبات الحياة،وأن يذوقوا من نعم الله التي وضعها بين أيديهم،ولكن فى غير إسراف،بل فى قصد واعتدال،فإن الإسراف يفسد النعمة،ويفقدها طعمها الطيّب،حين يمتلىء الإنسان منها،ويلحّ على جسده بها..إنها لا تلبث- حينئذ- أن تتحول إلى شيء تزهد فيه النفس،بل وتعافه.وهذا هو بعض الحكمة من النهى عن الإسراف.

وقوله تعالى:«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ؟» هو إغراء بالتنعم بنعم الله،والتجمل بها،وأخذ حاجة النفس منها..ثم هو إنكار على من يأخذون على أنفســـهم أو على الناس الطريق إلى نعم الله،ويزهدونهم فيها،أو يحرمونهم منها..فلمن إذن هذه النعم؟

والله سبحانه وتعالى يقول:«إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَـــنُ عَمَلًـــا» ..ويقول سبحانه هنا فى هذه الآية:«هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» أي زينة الله هذه التي أخرج لعباده،وهذه الطيبات مـــن الرزق،هـــى للـــذين آمنـــوا فى الحيـــاة الدنيا،ينعمون بها،ويرون فضل الله عليهم فيها،فيزداد حمدهم له،ويقوى إيمانهم به..

ثم إن هذه النعم سينعمون بها يوم القيامة،تأتيهم من غير أن يبذلوا لها جهدا،خالصة من كـــل شائبة مما كان يشوبها فى الدنيا..فلا تزهد فيها نفس من شبع،ولا تملّها عين من نظر..«كُلَّمـــا رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً» .وتخصيص المؤمنين بالذكر هنا:«قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» إشارة إلى أن المـــؤمنين هم الذين يتعرفون على الطيبات من الرزق وينعمون بها،أما غير المؤمنين فلا يفرّقون بين طيب وخبيث،إذ لا دين لهم يحجزهم عن الخبيث،ويحول بينهم وبينه،فالطيب والخبيث على ســـواء عندهم.[1723]

أي خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات،وكلوا واشربوا مـــن الطيبـــات،ولا تســـرفوا فيها،بل عليكم بالاعتدال فى جميع ذلك،لأن الله الخالق لهذه النعم لا يحب المسرفين فيها،بـــل

[1722] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٨٦،بترقيم الشاملة آليا)

[1723] - التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٣٩١)

يعاقبهم على هذا الإسراف بمقدار ما ينشأ عنه من المضارّ والمفاسد،لأنهم قد خـالفوا سـنن الفطرة وجنوا على أنفسهم فى أبدانهم وأموالهم،وجنوا على أسرهم وأوطانهم،إذ هم أعضاء فى جسم الأسرة والأمة.

والإسراف:تجاوز الحد فى كل شىء،والحدود منها:

(١) طبيعى كالجوع والشّبع والظمأ والرّىّ،فمن أكل إذا أحس بالجوع أو كف عن الأكل إذا شعر بالشبع وإن كان يستلذ الاستزادة،أو شرب إذا شعر بالظمأ واكتفى بما يزيله و لم يزد على ذلك لم يكن مسرفا فى أكله وشربه،وكان طعامه وشرابه نافعين له.

(٢) اقتصادى وهو أن تكون النفقة على نسبة معينة من دخل الإنسان بحيـث لا تسـتغرق كسبه.

(٣) شرعى فإن الشارع حرم من الطعام الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله،وحـرم من الشراب الخمر،وحرم من اللباس الحرير الخالص،أو الغالب على الرجال دون النساء،وحرم الأكل والشرب فى أوانى الذهب والفضة وعدّه من السرف المنهىّ عنه،فهذه الأشياء لا يبـاح استعمالها إلا لضرورة تقدر بقدرها.

والمعول عليه فى الإنفاق فى كل طبقة عرف المعتدلين فيها،فمن تجاوز طاقته مباراة لمن هم أغنى منه وأقدر كان مسرفا،وكم جرّ الإسراف إلى خراب بيوت عامرة ولا سيما فى المهور وتجهيز العرائس وحفل العرس والمأتم و (الزار) .

ثلاثة تشقى بها الدار ...العرس والمأتم والزار

وهذا السرف كبير الضرر عظيم الخطر على الأمم أكثر من ضرره على الأفراد ولا سـيما فى البلاد التي تأتى إليها أنواع الزينة من البلاد الأجنبية عنها،إذ تذهب الثروة إلى غير أهلـها،وربما ذهبت إلى من يستعين بها على استذلالهم والعدوان عليهم والخلاصة- إن الطعام والشراب من ضرورات الحياة الحيوانية،ولكن ضل فى ذلك فريقان:

(ا) فريق البخلاء والغلاة فى الدين تركوا الأكل والشرب من الطيبات المستلذة،إما بخلا وشحا أو تحرجا وتأثما،إما دائما أو فى أوقات مخصوصة من السنة (ب) فريق المترفين الذين أسرفوا فى

اللذات البدنية وجعلوها جلّ همهم،فهم يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام،وليس لهم غاية يقفون عندها،أو نهاية ينتهون إليها.[١٧٢٤]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:" أَحَلَّ اللهُ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا وَلَا مَخِيلَةً "[١٧٢٥]

وقال تعالى:{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩)} [الإسراء] }

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى بِرَّ الوَالِدَيْنِ،عَطَفَ عَلَى ذِكْرِ الإِحْسَانِ إِلَى الأَقَارِبِ،وَإِلى صِلَةِ الأَرْحَامِ،وَالتَّصَدُّقِ عَلَى الفُقَرَاءِ،وَالمَسَاكِينِ،وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ العَابِرِينَ،الَّذِينَ انْقَطَعَتْ نَفَقَتُهُمْ.

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالإِنْفَاقِ نَهَى عَنِ الإِسْرَافِ فِيهِ،وَحَثَّ عَلَى الاعْتِدَالِ (وَلاَ تُبْذِّرْ تَبْذِيراً) .

وَالمُبَذِّرُونَ هُمْ قُرَنَاءَ الشَّيَاطِينَ فِي السَّفَهِ وَالتَّبْذِيرِ وَتَرْكِ طَاعَةِ اللهِ،وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ،وَكَانَ الشَّيْطَانُ كَفُوراً بِنِعْمَةِ رَبِّهِ،جَحُوداً بِهَا،لأَنَّهُ أَنْكَرَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِطَاعَتِهِ.

فَإِذَا سَأَلَكَ أَقَارِبُكَ،وَمَنْ أَمَرَكَ اللهُ بِإِعْطَائِهِمْ،وَلَيْسَ لَدَيْكَ شَيءٌ تُعْطِيهِم إِيَّاهُ،وَأَعْرَضْتَ عَنْهُمْ لِضِيقِ اليَدِ،وَفُقْدَانِ مَا تُنْفِقُ عَلَيْهِمْ،فَعِدْهُمْ وَعْداً لَيِّناً جَمِيلاً،تَطِيبُ بِهِ قُلُوبُهُمْ،وَقُلْ لَهُمْ إِذَا جَاءَكَ رِزْقٌ فَسَتَصِلُهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ.

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىعِبَادَهُ بِالاقْتِصَادِ فِي العَيْشِ،وَيَنْهَى عَنِ السَّرَفِ،فَيَقُولُ:لاَ تَكُنْ أَيُّهَا الإِنْسَانُ بَخِيلاً مَنُوعاً لاَ تُعْطِي أَحَداً شَيْئاً،وَلاَ تُسْرِفْ فِي الإِنْفَاقِ فَتُعْطِي فَوْقَ طَاقَتِكَ،فَإِذَا بَخِلْتَ قَعَدْتَ مَلُوماً يَلُومُكَ النَّاسُ عَلَى البُخْلِ وَيَذمُّونَكَ،وَإِذَا بَسَطْتَ يَدَكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ افْتَقَرْتَ وَقَعَدْتَ بِلاَ شَيءٍ تُنْفِقُهُ،فَتَكُونُ كَالحَسِيرِ الكَلِيلِ.[١٧٢٦]

[١٧٢٤] - تفسير المراغي (٨/ ١٣٣)

[١٧٢٥] - شعب الإيمان (٨/ ٥٠٦)(٦١٥٢) صحيح

[١٧٢٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٥٦،بترقيم الشاملة آليا)

هو دعوة إلى الإحسان إلى جماعات لهم حقوق على الإنسان،بعد حقّ الوالدين،وهؤلاء هم:ذوو القربى:أي الأقارب..غير الأبوين..كالإخوة،والأخوات،والأعمام والعمّات،وغيرهم ممن تربطهم بالإنسان رابطة القرابة والنسب..

والمساكين:وهم وإن لم يكونوا ذوى قرابة قريبة من الإنسان،فإنهم ذوو قرابة له فى الإنسانية،وهم بعض المجتمع الذي هو منه..

وأبناء السبيل:وهم الذين يقطعهم السفر عن أهلهم،ومالهم..فهم فى عزلة ووحشة،وهم لذلك،فى حاجة إلى من يؤنسهم ويذهب بوحشتهم.

وفى قوله تعالى:«وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ» إشارة إلى أن ما يبذله الإنسان لهؤلاء الجماعات هو حقّ لهم عنده! فإذا أداه لهم،فإنما يؤدى دينا عليه..ثم هو مع أداء هذا الدين مثاب عند الله،يضاعف له الأجر،ويجزل له المثوبة..

وقد أطلق الحق،فلم يحدّد،و لم يبيّن،ليشمل كل ما هو مطلوب،حسب الحال الداعية له.

- وفى قوله تعالى:«وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً» ما يشير إلى أمرين:

أولهما:الإغراء بالبذل والإنفاق..وهذا على خلاف منطوق النظم «وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً» ..فإن النهى عن التبذير هنا،يشير إلى أن الدعوة إلى الإنفاق قد وجدت أو من شأنها أن تجد قلوبا رحيمة،وأيديا سخيّة،تنفق وتنفق،حتى تجاوز حدّ الاعتدال إلى الإسراف،والتبذير..فجاء قوله تعالى:

«وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً» ليمسك المسرفين فى البذل والعطاء على طريق الاعتدال.!

وهذا الإغراء إنما هو لما يغلب على النفوس من شحّ وبخل..

وثانيهما:النهى عن التبذير حقيقة..وذلك أن بعضا من الناس،قد يشتد بهم الحرص على مرضاة الله،والمبالغة فى تنفيذ أمره،فيجاوزون حدّ الاعتدال،ويجورون على أنفسهم،سواء فى العبادة،أم فى غير العبادة من القربات والطاعات..فإلى هؤلاء يكون النهى عن التبذير طلبا موجّها إليهم.. حتى يلتزموا الطريق الوسط،كما يقول سبحانه،فى مدح المنفقين:«وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» (٦٧:الفرقان) .

قوله تعالى:«إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً» ..هو تنفير من التبذير،والإسراف..فى أي وجه من الوجوه،حتى فى مجال الخير والإحسان..وكفى بالتبذير نكرا أن يكون وجهه دائما مصروفا فى وجوه الشرّ،وقلّ أن يظهر له وجه فى باب الإحسان..ومن هنا كان مكروها على أي حال،إذ كان الغالب عليه هذا المتّجه المنكر..

قوله تعالى:«وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً» .

الضمير فى «عنهم» يعود إلى المذكورين فى قوله تعالى:«وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ» ..والإعراض عنهم،هو الإمساك عن إعطاء الحق الذي هو لهم.

والرحمة المرجوّة من الله:هى الرزق المنتظر من فضله سبحانه وتعالى..

ومعنى الآية:إنك أيها الإنسان،إن أمسكت لضيق ذات يدك عن أن تؤدّى حق ذى القربى والمسكين وابن السبيل،منتظرا رزقا وسعة فى الرزق من الله..فلا يمنعنّك هذا من أن تحسن إليهم بالكلمة الطيبة «فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً» ..أي طيبا ليّنا،فيه مسرّة لهم،وجبر لخاطرهم،وتيسير لمعسورهم،وفى الحديث:«الكلمة الطيبة صدقة» ..

قوله تعالى:«وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» .هو تحذير من الشحّ والبخل،وقد صوّر بهذه الصورة التي يبدو فيها البخيل الشحيح،وقد غلّت يده إلى عنقه،فلا ينتفع بها فى أي وجه من وجوه النفع،كما أنه لم يكن يوجهها بخير إلى أحد..فهى يد معطلة،فكان شدّها إلى عنقه إعلانا عن صفتها التي أصبحت عليها..

وكما أن الشحّ مذموم،فكذلك السّرف مذموم..كلاهما خروج عن حدّ الاعتدال،الذي هو ميزان العدل،والحكمة! والبخيل والمبذر،كلاهما ينتهى أمره إلى الندم والحسرة..البخيل إذ لم ينتفع بما بين يديه من نعم الله..والمبذر،إذ ضيّع هذه النعم،ولم يبق على شىء منها..[1727]

والقرآن يجعل لذي القربى والمسكين وابن السبيل حقا في الأعناق يوفى بالإنفاق.فليس هو تفضلا من أحد على أحد إنما هو الحق الذي فرضه الله،ووصله بعبادته وتوحيده.الحق الذي يؤديه المكلف فيبرىء ذمته،ويصل المودة بينه وبين من يعطيه،وإن هو إلا مؤد ما عليه لله.

[1727] - التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٤٧٤)

وينهى القرآن عن التبذير.والتبذير – كما يفسره ابن مسعود وابن عباس – الإنفاق في غـــير حق.وقال مجاهد:لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرا،ولو أنفق مدّا في غير حق كان مبذرا.

فليست هي الكثرة والقلة في الإنفاق.إنما هو موضع الإنفاق.ومن ثم كان المبـــذرون إخـــوان الشياطين،لأنهم ينفقون في الباطل،وينفقون في الشر،وينفقون في المعصية.فهم رفقاء الشـــياطين وصحابهم «وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً» لا يؤدي حق النعمة،كذلك إخوانـــه المبـــذرون لا يؤدون حق النعمة،وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق،غير متجاوزين ولا مبذرين.

فإذا لم يجد إنسان ما يؤدي به حق ذوي القربى والمســـاكين وابـــن الســـبيل واســـتحيا أن يواجههم،وتوجه إلى الله يرجو أن يرزقه ويرزقهم،فليعدهم إلى ميسرة،وليقل لهم قولا لينا،فلا يضيق بهم صدره،ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق في سكوته،ففي القول الميسور عـــوض وأمل وتجمل.

وبمناسبة التبذير والنهي عنه يأمر بالتوسط في الإنفاق كافة:«وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» ..

والتوازن هو القاعدة الكبرى في النهج الإسلامي،والغلو كالتفريط يخل بالتوازن.والتعبير هنـــا يجري على طريقة التصوير فيرسم البخل يدا مغلولة إلى العنق،ويرسم الإسراف يدا مبســـوطة كل البسط لا تمسك شيئا،ويرسم نهاية البخل ونهايـــة الإســـراف قعـــدة كقعـــدة الملـــوم المحسور.والحسير في اللغة الدابة تعجز عن السير فتقف ضعفا وعجزا.فكذلك البخيل يحســـره بخله فيقف.وكذلك المسرف ينتهي به سرفه إلى وقفة الحسير.ملوما في الحالتين علـــى البخـــل وعلى السرف،وخير الأمور الوسط.[١٧٢٨]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ الْجَزَّارِ،قَالَ:جَاءَ أَبُو الْعُبَيْدَيْنِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ وَكَانَ رَجُلًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ،فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُعَرِّفُ لَهُ فَقَالَ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَنْ نَسْأَلُ إِذَا لَمْ نَسْأَلْكَ؟ قَالَ:«فَمَا حَاجَتُكَ؟» قَالَ:مَا

[١٧٢٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٩٠٠)

الْأَوَّاهُ؟ قَالَ:«الرَّحِيمُ» .قَالَ:فَمَا الْمَاعُونُ؟ قَالَ:«مَا يَتَعَاوَنُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ» .قَالَ:فَمَا التَّبْذِيرُ؟ قَالَ:«إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ» .قَالَ:فَمَا الْأُمَّةُ؟ قَالَ:«الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ» [١٧٢٩]

وأخرج ابن جرير عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَتَحَدَّثُ أَنَّ التَّبْذِيرَ:النَّفَقَةُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ" [١٧٣٠]

وعَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ قَالَ:سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ عَنِ الْمُبَذِّرِينَ،قَالَ:الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي غَيْرِ حَقٍّ" [١٧٣١]

وعَنْ يُوسُفَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ يُحَدِّثُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْمَسْجِدِ،فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْخَمِيسِ انْتَابَهُ أَهْلُ الرَّسَاتِيقِ وَالْقُرَى،فَجَاءَ رَجُلٌ أَعْمَى فَقَالَ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،" مَا الْأَوَّاهُ؟ قَالَ:الرَّحِيمُ،قَالَ:فَمَا التَّبْذِيرُ؟ قَالَ:«مَا أُنْفِقَ فِي غَيْرِ حَقٍّ»،قَالَ:فَمَا الْمَاعُونُ؟ قَالَ:«مَا يَتَعَاوَنُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ،يَعْنِي الْعَوَارِي» [١٧٣٢]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،فِي قَوْلِهِ:{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الإسراء:٢٧] قَالَ:" هُمُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ الْمَالَ فِي غَيْرِ حَقِّهِ " [١٧٣٣]

وأخرج ابن جرير عَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ {وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} [الإسراء:٢٦] قَالَ:التَّبْذِيرُ:النَّفَقَةُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ،وَفِي غَيْرِ الْحَقِّ وَفِي الْفَسَادِ" [١٧٣٤]

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله " وَأَمَّا قَوْلُهُ {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الإسراء:٢٧] فَإِنَّهُ يَعْنِي:إِنَّ الْمُفَرِّقِينَ أَمْوَالَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ الْمُنْفِقِيهَا فِي غَيْرِ طَاعَتِهِ أَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ،وَكَذَلِكَ تَقُولُ الْعَرَبُ لِكُلِّ مُلَازِمٍ سُنَّةَ قَوْمٍ وَتَابِعٍ أَثَرَهُمْ:هُوَ أَخُوهُمْ.{وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء:٢٧] يَقُولُ:وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِنِعْمَةِ رَبِّهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ جَحُودًا لَا يَشْكُرُهُ عَلَيْهِ،وَلَكِنَّهُ يُكَفِّرُهَا بِتَرْكِ طَاعَةِ اللَّهِ،وَرُكُوبِهِ مَعْصِيَتَهُ،فَكَذَلِكَ إِخْوَانُهُ مِنْ بَنِي آدَمَ

[١٧٢٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٥٦٦) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٩٣)(٣٣٧٥) صحيح

[١٧٣٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٥٦٧) صحيح

[١٧٣١] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٥٩)(٤٤٤) صحيح

[١٧٣٢] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٠٦)(٩٠٠٥) صحيح لغيره

[١٧٣٣] - شعب الإيمان (٨/ ٤٩١)(٦١٢٧) صحيح

[١٧٣٤] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٥٦٨) صحيح

الْمُبَذِّرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ،لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ،وَلَكِنَّهُمْ يُخَالِفُونَ أَمْرَهُ وَيَعْصُونَهُ،وَيَسْتَنُّونَ فِيمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي خَوَّلَهُمُوهَا عَزَّ وَجَلَّ سُنَّتَهُ مِنْ تَرْكِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا،وَتَلَقِّيهَا بِالْكُفْرَانِ.[١٧٣٥]

وقال تعالى:{ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } [الفرقان:٦٧]

ومنْ صفات عباد الرَّحمنِ أيضاً الاعتدَالُ في الإنفَاقِ على أنْفُسِهِمْ،وأَهليهِمْ،فهُمْ لَيْسُوا بمُبَذِّرينَ في إنفاقِهِمْ فيَصْرِفُون فوقَ الحَاجَةِ،ولا بُخَلاءَ على أهليهِمْ فَيُقَصِّرُون في حقِّهِمْ،فلا يَكْفُونَهُمْ،بلْ هِمْ مُعْتَدِلُونَ في أمورِهِمْ.[١٧٣٦]

وهذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن..إنهم يلزمون الطريق الوسط فى حياتهم،وفي كل شان من شئونهم،فلا إفراط،ولا تفريط،فإن خير الأمور أوساطها..وأكثر ما يتجلّى هذا المبدأ في إنفاق المال،حيث هو عملية مستمرة،يقوم بها الإنسان مرات كل يوم،سواء أكان غنيا أم فقيرا..

كلّ ينفق حسب ما معه من مال..والإسراف،هو مجاوزة الحدّ في زيادة المطلوب في النفقة والتقتير،هو الإمساك دون الحدّ المطلوب..وقوله تعالى:«وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» أي وكان إنفاقهم وسطا،وقواما،بين الإسراف،والتقتير..[١٧٣٧]

وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ويتجه إليها في التربية والتشريع،يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال.

والمسلم - مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة - ليس حرا في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء - كما هو الحال في النظام الرأسمالي،وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان.إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير.فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية.والإسراف والتقتير يحدثان اختلالا في المحيط الاجتماعي

[١٧٣٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ٥٦٨)

[١٧٣٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٨٠٤،بترقيم الشاملة آليا)

[١٧٣٧] - التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٥٧)

والمجال الاقتصادي،وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب.ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق.والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد،فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان:«وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» ..[1738]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا،وَالْبَسُوا مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ،وَلاَ مَخِيلَةٌ.[1739]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ،فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[1740]

ومن إضاعة المال والإسراف أن تصرف أموال المسلمين في المحرمات:كطباعة الكتب والمجلات التي تحتوي على المنكرات،أو صناعة الخمور أو غيرها من المعاصي،ومن إضاعة المال أيضا أن يبذل إلى غير المستحقين من الولاة أوغيرهم من بعض أفراد الرعية،ومنه أيضا تشييد الملاعب الضخمة والمباني الفاخرة بطرا وفخرا وعبثا،لا لفائدة ولا لمنفعة،وإنما لقصد التفاخر وإظهار البراعة في البناء والعبث،وقد أخبر الله تعالى عن هود عليه الصلاة والسلام أنه أنكر على قومه تشييدهم المباني عبثا:{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} [الشعراء:١٢٨]

كانَ قومُ عادٍ جبَّارينَ في غَايةِ القُوةِ وشدَّةِ البَطْشِ،وَكَانَتْ لَهُمْ وَفْرَةٌ في الأموالِ والزُّرُوعِ والمِيَاهِ والأَبْنَاءِ،وَمَعَ ذلكَ كانُوا يَعْبُدُونَ غيرَ اللهِ مَعَهُ،فَبَعَثَ اللهُ إليهِمْ هُوداً،وهُو رَجُلٌ منهُم،رَسُولاً ونَذيراً فَدَعَاهُمْ إلى اللهِ،وَحَذَّرهُمْ نقَمَهُ وَعَذَابَهُ،فَقَالَ لَهُمْ:أَتَبْنُونَ في كُلِّ مُرْتَفَعٍ منَ الأَرضِ (رِيْعٍ) بنَاءٍ ضَخْماً مُحْكَماً للعَبَثِ والتَّفَاخُرِ والدَّلاَلَةِ على الغِنَى والقُوَّةِ؟ لِذلِكَ أنْكَرَ علَيْهِمْ نَبيُّهُم الاشْتِغَالَ فيما لا يُجْدي في الدُّنيا والآخِرَةِ.[1741]

فهذا هو بعض ما يشغلهم في دنياهم..الافتنان في بناء مجالس ألهو والسّمر،والإبداع في تصويرها ونقشها،وجلب كلّ غريب نفيس إليها..حتى لتبدو كأنها آية في الحسن والجمال..ومن شأن الآيات أن تثير العقل،وتغذّى الوجدان،وتعلو بالنفس عن مدارج الأرض

[1738] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٣١٣)

[1739] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٢/ ٥١٥)(٢٥٣٧٤) وسنن ابن ماجه (٢/ ١١٩٢)(٣٦٠٥) صحيح

[1740] - الآداب للبيهقي (ص:٢٠٠)(٤٨٨) صحيح

[1741] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٩٤٢،بترقيم الشاملة آليا)

إلى معارج السماء! ولكن تلك الآيات،التي يبدعها القوم،هي آيات لاهية عابثة،تعلو بحيوانية الإنسان على آدميته،وتنتصر لجسده على روحه![١٧٤٢]

والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه علامة.وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة.ومن ثم سماه عبثا.ولو كان لهداية المارة،ومعرفة الاتجاه ما قال لهم:«تعبثون» ..فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد،وتنفق البراعة،وينفق المال فيما هو ضروري ونافع،لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة.ويبدو كذلك من قوله:«وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» أن عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يذكر حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور،وتشييد العلامات على المرتفعات وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت،ووقايتهم من مؤثرات الجور ومن غارات الأعداء.[١٧٤٣]

وعن عَوْنَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ،أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ،" لَمَّا رَأَى مَا أَحْدَثَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْغَوْطَةِ مِنَ الْبُنْيَانِ وَنَصْبِ الشَّجَرِ،قَامَ فِي مَسْجِدِهِمْ فَنَادَى:يَا أَهْلَ دِمَشْقَ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟،تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ،وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ،وَتَأْمَلُونَ مَا لَا تُدْرِكُونَ،قَدْ كَانَتْ قَبْلَكُمْ قُرُونٌ يَجْمَعُونَ فَيُوعُونَ وَيَبْنُونَ فَيُوثِقُونَ وَيَأَمِّلُونَ فَيُطِيلُونَ فَأَصْبَحَ أَمَلُهُمْ غُرُورًا وَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ قُبُورًا،أَلَا إِنَّ عَادًا مَلَكَتْ بَيْنَ عَدْنَ وَعُمَانَ خَيْلًا وَرِكَابًا،مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مِيرَاثَ عَادٍ بِدِرْهَمَيْنِ؟ "[١٧٤٤]

وقَامَ أَبُو الدَّرْدَاءِ عَلَى دَرَجِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَقَالَ:«يَا أَهْلَ دِمَشْقَ،أَلَا تَسْمَعُونَ مِنْ أَخٍ لَكُمْ نَاصِحٍ؟ إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَجْمَعُونَ كَثِيرًا،وَيَبْنُونَ شَدِيدًا،وَيَأْمَلُونَ بَعِيدًا،فَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا،وَبُنْيَانُهُمْ قُبُورًا،وَعَمَلُهُمْ غُرُورًا»[١٧٤٥]

وعَنْ أَوْسِ بْنِ يَزِيدَ اللَّخْمِيُّ،أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ،فَنَظَرَ إِلَى الْغُوطَةِ قَدْ سَقَتْ أَنْهَارُهَا،وَغُرِسَتْ شَجَرًا،وَبُنِيَتْ قُصُورًا،فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ،فَقَالَ:" يَا أَهْلَ دِمَشْقَ ".فَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ

[١٧٤٢] - التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ١٤٥)

[١٧٤٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٣٤٨)

[١٧٤٤] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٩/ ٢٧٩٩)(١٥٨٤٠) صحيح

[١٧٤٥] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٢٩١)(٨٤٧) صحيح

قَالَ:" أَلَا تَسْتَحْيُونَ – ثَلَاثَ مَرَّات – تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلونَ،وَتُؤَمِّلُونَ مَا لَا تُدْرِكُونَ،وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ،أَلَا إِنَّهُ قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ قُرُونٌ يَجْمَعُونَ فَيُوعُونَ،وَيُؤَمِّلُونَ فَيُطِيلُون،وَيَبْنُونَ فَيُوثِقُونَ،فَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا،وَأَصْبَحَ أَمَلُهُمْ غُرُورًا،وَأَصْبَحَتْ مَنَازِلُهُمْ قُبُورًا،أَلَا إِنَّ عَادًا مَلَكَتْ مَا بَيْنَ عَدَنَ وَعَمَّانَ نَعْمَاءَ وَأَمْوَالًا،فَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مَالَ عَاد بِدِرْهَمَيْنِ "[١٧٤٦]

وأخبر تعالى عن صالح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه:{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ } [الشعراء:١٤٩]

وتَنْحِتُون بُيُوتاً فِي الجِبَالِ أَشَراً وبَطَراً وعَبَثاً (فَارِهِينَ)،مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إلى سُكْنَاهَا.[١٧٤٧]

أي وتتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشرا وبطرا من غير حاجة إلى سكناها مع الجدّ والاهتمام فى بنائها،فاتقوا الله وأقبلوا على ما يعود عليكم نفعه فى الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم،وتسبيحه بكرة وأصيلا.[١٧٤٨]

،قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" وَقَوْلُهُ:{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ،وَغَيْرُ وَاحِدٍ:يَعْنِي:حَاذِقِينَ.وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ:شَرِهِينَ أَشِرِينَ .وَهُوَ اخْتِيَارُ مُجَاهِدٍ وَجَمَاعَةٍ.وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا؛فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ تِلْكَ الْبُيُوتَ الْمَنْحُوتَةَ فِي الْجِبَالِ أَشَرًا وَبَطَرًا وَعَبَثًا،مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى سُكْنَاهَا،وَكَانُوا حَاذِقِينَ مُتْقِنِينَ لِنَحْتِهَا وَنَقْشِهَا،كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ مِنْ حَالِهِمْ لِمَنْ رَأَى مَنَازِلَهُمْ؛وَلِهَذَا قَالَ:{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أَيْ:أَقْبِلُوا عَلَى عَمَلٍ مَا يَعُودُ نفعه عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ لِتُوَحِّدُوهُ وَتَعْبُدُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا."[١٧٤٩]

إنهم ليعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح.ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه ولا يتدبرون منشأة ومأتاه،ولا يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذا النعيم.فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته،ويخافوا زواله.

[١٧٤٦] - شعب الإيمان (١٣/ ٢٣٧)(١٠٢٥٥) صحيح

[١٧٤٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٩٦٣،بترقيم الشاملة آليا)

[١٧٤٨] - تفسير المراغي (١٩/ ٩١)

[١٧٤٩] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ١٥٦)

وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية،وتنبه فيها الحرص والخوف:«أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ؟ » أتظنون أنكم متروكون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة ..وسائر ما يتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم ..أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فـــوت،ولا يزعجكم سلب،ولا يفزعكم تغيير؟ أتتركون في هذا كلـــه مـــن جنـــات وعيـــون،وزروع متنوعات،ونخل جيدة الطلع،سهلة الهضم حتى كأن جناها مهضـــوم لا يحتـــاج إلى جهـــد في البطون! وتتركون في البيوت تنحتونها في الصخور بمهارة وبراعة،وفي أناقة وفراهة؟[١٧٥٠]

ـــــــــــــــــــــــــ

النفقات

من مقاصد الشريعة الإسلامية الرحمة بالخلق وإطعام الفقراء وتوفير حاجاتهم وتحقيق كفايـــاتهم بما يخرجهم من فقرهم،ومن مقاصد الشريعة ألا يكون المـــال متـــداولا بـــين الأغنيـــاء دون الفقراء،كما قال تعالى في أموال الفيء:{كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر:٧].
أَيْ:جَعَلْنَا هَذِهِ الْمَصَارِفَ لِمَالِ الْفَيْءِ لِئَلَّا يَبْقَى مَأْكَلَةً يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَـــا الْأَغْنِيَـــاءُ وَيَتَصَـــرَّفُونَ فِيهَا،بِمَحْضِ الشَّهَوَاتِ وَالْآرَاءِ،وَلَا يَصْرِفُونَ مِنْهُ شَيْئًا إِلَى الْفُقَرَاءِ.[١٧٥١]
وقوله تعالى:«كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ» هو تعليل لحكم التصرف فى الفيء،وأنـــه إنما جرى عليه هذا الحكم حتى ينال الفقراء والمساكين حظهم منه،وحتى لا ينتقل من يد الذين يملكون إلى يد الذين يملكون،فيصبح دولة بينهم،أي متداولا بين الأغنياء،على حين يظل الفقراء على فقرهم،ويقيم المحرومون على حرمانهم!![١٧٥٢]
فقد جاءت الشريعة الإسلامية بنظام متكامل في النفقات لسد حاجات المحتاجين ورفع معانـــاة الفقراء وإزالة فقرهم وحاجتهم،وهو نظام تتجلى فيه الأخلاق العظيمة:كالعدل والرحمة والمحبة

[١٧٥٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٣٥٠)
[١٧٥١] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٦٧)
[١٧٥٢] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٨٥٨)

والبر والصلة،والتعاون على البر والتقوى،والكرم،والأخوة الإيمانية،ومحبة المسلم لأخيه ما يحب لنفسه من الخير.

فقد جاءت الشريعة بوجوب النفقة بقدر الكفاية على الرجل لأبنائه ووالديه وزوجته ومملوكه،فقال اللَّه تعالى:{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [البقرة:٢٣٣]

يُرشدُ اللهُ تَعَالَى الوَالِدَاتِ إلى أنَّ كَمَالَ مُدَّةِ الرَّضَاعَةِ للطفْلِ هِيَ سَنَتَان.وَعَلَى وَالِدِ الطِّفْلِ نَفَقَةُ الوَالِدَاتِ المُطَلَّقَات،وَكِسْوَتُهُنَّ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أَمْثَالِهِنَّ،مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلا إِقْتَارٍ،بِحَسَبِ قُدْرَةِ الزَّوْجِ وَيَسَارِهِ.وَيُنَبِّهُ اللهُ الوَالِدَاتِ والآباءَ إلى ضَرُورَةِ عَدَمِ التَّصَرُّفِ تَحْتَ شُعُورِ الرَّغْبَةِ فِي الإِضْرارِ،فَلَيْسَ لِلزَّوْجَةِ أَنْ تَتْرُكَ رَضَاعَةَ ابْنِها إلى مُدَّتِهَا (سَنَتَيْنِ) لِلإِضْرَارِ بالزَّوْجِ.وَلَيْسَ لِلْزَّوْجِ أَنْ يَنْتَزِعَ الوَلَدَ مِنْ أَمِّهْ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ مُدَّةَ رَضَاعَتِهِ لِلإِضْرَارِ بِهَا وَإِيذَائِها.وَعَلَى وَارِثِ الطِّفْلِ – إِنْ كَانَ وَالِدُهُ قَدْ مَاتَ،أَوْ كَانَ فَقِيراً،أَوْ عَاجِزاً عَنِ الكَسْبِ – أَنْ يَقُومَ بالإِنْفَاقِ عَلَى الطِّفْلِ وَأُمِّهِ،وَعَلَيهِ عَدَمُ الإِضْرَارِ بِهَا.أَمَّا إذا أَرَادَ أَبَوا الطِّفْلِ فِطَامَهُ،قَبْلَ مُضِيِّ الحَوْلَيْنِ،وَرَأيَا فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُ،وَتَشَاوَرا فِي ذَلِكَ،وَاتَّفَقَا عَلَيهِ،فَلاَ جُنَاحَ عَلَيهِما،وَلاَ حَرَجَ وَلاَ بَأْسَ فِي ذَلِكَ.

وَإِذا اتَّفَقَ الوَالِدَانِ عَلَى أَنْ يَسْتَلِمَ الوَالِدُ الوَلَدَ مِنْهَا،إِمَّا لِعُذْرٍ مِنْهَا،أَوْ لِعُذْرٍ مِنْهُ جُنَاحَ عَلَيْهِ فِي عَرْضِهِ عَلَيْها،وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهَا فِي قَبُولِهَا مِنْهُ،إِذا دَفَعَ إِليها أَجْرَتَها عَنِ المُدَّةِ المَاضِيَةِ بالمَعْرُوفِ،وَقَامَ بِدَفْعِ الوَلَدِ إلى مُرْضِعَةٍ أُخْرَى.وَيَحُثُّ اللهُ المُؤْمِنينَ عَلَى التَّقْوى فِي جَمِيعِ الأَحْوالِ،وَعَلَى تَرْكِ التَّصَرُّفِ بِرغبَةِ المضَارَّةِ وَالإِيذَاءِ،وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَهُ،وَلاَ يَخْفَى عَلَيهِ مِنْهُ شَيءٌ،وَأَنَّهُ سَيُحَاسِبُهُمْ عَلَيهِ.[١٧٥٣]

[١٧٥٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٠،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: { لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } [الطلاق:٧].

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:لِيُنْفِقْ الَّذِي بَانَتْ مِنْهُ امْرَأَتُهُ إِذَا كَانَ ذَا سَعَةٍ مِنَ الْمَالِ،وَغِنًى مِنْ سَعَةِ مَالِهِ وَغِنَاهُ عَلَى امْرَأَتِهِ الْبَائِنَةِ فِي أَجْرِ رَضَاعِ وَلَدِهِ مِنْهَا،وَعَلَى وَلَدِهِ الصَّغِيرِ {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ} [الطلاق:٧] يَقُولُ:وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلَمْ يُوَسَّعْ عَلَيْهِ،فَلْيُنْفِقْ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَلَى قَدْرِ مَالِهِ،وَمَا أَعْطَى مِنْهُ.[١٧٥٤]

عَلَى الوَالِدِ أَنْ يُنْفِقَ عَلَى الأُمِّ المُرْضِعِ التِي طَلَّقَهَا بِقَدْرِ سَعَتِهِ وَغِنَاهِ.وَمَنْ كَانَ رِزْقُهُ بِمِقْدَارِ القُوتِ فَحَسبُ فَلْيُنْفِقْ عَلَى مِقْدَارِ ذَلِكَ،لاَ يُكَلِّفُ اللهُ أَحَداً،مِنَ النَّفقَةِ عَلَى مَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُمْ،إِلاَّ بِمِقْدَارِ مَا آتَاهُ،اللهُ مِنَ الرِّزْقِ.وَسَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ الشِّدَّةِ رَخَاءً،وَبَعْدَ الضِّيقِ فَرَجاً،فَالدُّنْيَا لاَ تَدُومُ عَلَى حَالٍ.[١٧٥٥]

هو أمر بالنفقة الواجبة على الوالد لزوجه وولده،وأنها إنما تكون فى حدود طاقته،فى حال يسره،أو عسره،غير منظور فى هذه النفقة إلى حال الأم،فى يسر أو عسر..

وقوله تعالى:«وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ» أي ومن ضيّق عليه فى رزقه،فإنه لا يعفى من النفقة على طفله،وإنما عليه أن ينفق مما هو متاح له،وإن كان قليلا..فإنه هو المسئول عن أمر هذا الطفل،ولن يرفع عنه عبء هذه المسئولية بحال أبدا..فكما هو عامل بكل وسعه على الإنفاق على نفسه وحفظ حياته من التلف،كذلك يجب أن يعمل بما فى وسعه على الإنفاق على هذا الوليد الذي هو بعض منه..

وقوله تعالى:«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها» - هو رفع الحرج،ودفع للمشقة التي قد يحمل عليها الأب فى سبيل الإبقاء على ولده،وأنه إذا كان المطلوب من الأب شرعا وطبعا أن ينفق على ولده،فإن ذلك إنما يكون فى حدود الطاقة،وعلى قدر الإمكان..«لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها،وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» ..فالولد نعمة،لا ينبغى أن تكون نقمة يشقى بها أيّ من الأب أو الأم..

[١٧٥٤] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣/ ٦٨)

[١٧٥٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١٠٢،بترقيم الشاملة آليا)

وقوله تعالى:«سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً..» هو وعد من الله سبحانه للمضـيّق علـيهم فى الرزق،بأن هذا الضيق إلى سعة،وإن هذا العسر إلى يسر،فليتحمل الأب هذا الضيق،وألا يضيق به،ثم ألا يحمله الضيق على أن يلتوى فى سلوكه إزاء الإنفاق على ولده الرضيع،أو يتحلل من هذا الواجب المفروض عليه..[1756]

فهو اليسر والتعاون والعدل.لا يجور هو،ولا تتعنت هي.فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عـن سعة.سواء في السكن أو في نفقة المعيشة أو في أجر الرضاعة.ومن ضيق عليه في الـرزق،فليس عليه من حرج،فالله لا يطالب أحدا أن ينفق إلا في حدود ما آتاه.فهو المعطي،ولا يملك أحـد أن يحصل على غير ما أعطاه الله.فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هذا المصدر،وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة:«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها» ..

ثم لمسة الإرضاء،وإفساح الرجاء،للاثنين على السواء:«سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً» ..

فالأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق،واليسر بعد العسر.فأولى لهما إذن أن يعقدا بـه الأمـر كله،وأن يتجها إليه بالأمر كله،وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه.وهو المانح المانع.القـابض الباسط.وبيده الضيق والفرج،والعسر واليسر،والشدة والرخاء.[1757]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ» رواه أبو داود وغيره[1758]

وعَنْ خَيْثَمَةَ،قَالَ:كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،إِذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ فَدَخَلَ،فَقَالَ:أَعْطَيْـتَ الرَّقِيقَ قُوتَهُمْ؟ قَالَ:لَا،قَالَ:فَانْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَفَى بِـالْمَرْءِ إِثْمًـا أَنْ يَحْبِسَ،عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ»[1759]

[1756] – التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ١٠١٣)

[1757] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٥٠١)

[1758] – سنن أبي داود (٢/ ١٣٢)(١٦٩٢) وصحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٥١)(٤٢٤٠) صحيح

[1759] – صحيح مسلم (٢/ ٦٩٢)٤٠ – (٩٩٦)

(جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ):بِفَتْحِ الْقَافِ وَالرَّاءِ أَيْ وَكِيلٌ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ.فِي النِّهَايَةِ:هُوَ الْخَازِنُ وَالْوَكِيلُ الْحَافِظُ لِمَا تَحْتَ يَدِهِ وَالْقَائِمُ بِأُمُورِ الرَّجُلِ بِلُغَةِ الْفُرْسِ (فَقَالَ):أَيْ عَبْدُ اللَّهِ (لَهُ:أَعْطَيْتَ الرَّقِيقَ):أَيِ الْمَمَالِيكَ (قُوتَهُمْ) ؟ بِحَذْفِ حَرْفِ الِاسْتِفْهَامِ (قَالَ:لَا.قَالَ:فَانْطَلِقْ):أَيِ اذْهَبْ (فَأَعْطِهِمْ؛فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– قَالَ:كَفَى بِالرَّجُلِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ "):أَيْ:يَمْنَعَ (عَمَّنْ يَمْلِكُ):وَفِي مَعْنَاهُ مَا يَمْلِكُ (قُوتَهُ):مَفْعُولُ يَحْبِسُ (وَفِي رِوَايَةٍ:كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ):بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ وَتَخْفِيفِهَا مِنَ التَّضْيِيعِ

وعَنْ عَائشَةَ،قَالَتْ:دَخَلَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ امْرَأَةُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ،لَا يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ،فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ» متفق عليه[١٧٦٠].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ،وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ،وَالتَّعَفُّفَ،وَالمَسْأَلَةَ:" اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى،فَاليَدُ العُلْيَا:هِيَ المُنْفِقَةُ،وَالسُّفْلَى:هِيَ السَّائِلَةُ "[١٧٦١]

أَوِ الْإِضَاعَةِ (مَنْ يَقُوتُ):أَيْ قُوتَ مَنْ يَلْزَمُهُ قُوتُهُ مِنْ أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ وَعَبِيدِهِ،مِنْ قَاتَهُ يَقُوتُهُ إِذَا أَعْطَاهُ قُوتَهُ،وَيُقَالُ:أَقَاتَهُ يُقِيتُهُ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا} [النساء:٨٥] .قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَتَصَدَّقُ بِمَا لَا يَفْضُلُ عَنْ قُوتِ الْأَهْلِ يَلْتَمِسُ بِهِ الثَّوَابَ؛لِأَنَّهُ يَنْقَلِبُ إِثْمًا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ تَضْيِيعُ أَمْرِ مَنْ يَقُوتُهُ وَهُوَ الْبَارِي تَعَالَى الَّذِي يَقُوتُ الْخَلَائِقَ" مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢١٩٣)

[١٧٦٠] - صحيح البخاري (٣/ ٧٩)(٢٢١١) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٨)٧ - (١٧١٤)

[ش (إن أبا سفيان رجل شحيح) في هذا الحديث فوائد منها وجوب نفقة الزوجة ومنها وجوب نفقة الأولاد الفقراء الصغار ومنها أن النفقة مقدرة بالكفاية(جناح) إثم.(سرا) أي دون علمه وإذنه.(بالمعروف) حسب عادة الناس في نفقة أمثالك وأمثال أولادك]

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَهَؤُلَاءِ الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ،وَكَذَلِكَ الْوَالِدَانِ إِذَا كَانَا ذَوَيْ خَلَّةٍ وَفَاقَةٍ،فَعَلَى وَلَدِهِمَا الْمُوسِرِ أَنْ يَعُولَهُمَا،كَعَوْلِهِ وَلَدَهُ وَأَهْلَهُ،بِسُنَّةٍ ثَابِتَةٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"الأموال للقاسم بن سلام (ص:٦٠٩)(١٥٣٨)

[١٧٦١] - صحيح البخاري (٢/ ١١٢)(١٤٢٩) وصحيح مسلم (٢/ ٧١٧)٩٤ - (١٠٣٣)

(وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ)،أَيْ يَحُضُّ عَلَيْهَا الْأَغْنِيَاءَ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ اسْمِيَّةٌ أَيْضًا،وَلِلْقَعْنَبِيِّ وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ بِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ الْحَالِيَّةِ،(وَ) يَذْكُرُ (التَّعَفُّفَ) بِفَاءَيْنِ (عَنِ الْمَسْأَلَةِ)،أَيْ يَحُضُّ الْفَقِيرَ عَلَى التَّعَفُّفِ عَنْهَا،أَوْ يَحُضُّهُ عَلَى التَّعَفُّفِ،وَيَذُمُّ الْمَسْأَلَةَ،(«الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»)،قَالَ الْبَاجِيُّ:أَيْ أَكْثَرُ ثَوَابًا،سُمِّيَتْ يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا؛لِأَنَّهُ أَرْفَعُ دَرَجَةً وَمَحَلًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ)،اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَنْفَقَ،هَكَذَا رَوَاهُ مَالِكٌ،قَالَ أَبُو دَاوُدَ:وَكَذَا قَالَ الْأَكْثَرُ عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ نَافِعٍ،وَقَالَ وَاحِدٌ عَنْهُ:الْمُتَعَفِّفَةُ،وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الْوَارِثِ عَنْ أَيُّوبَ،قَالَ الْحَافِظُ الْوَاحِدُ الْقَائِلُ " الْمُتَعَفِّفَةُ " بِعَيْنٍ وَفَاءَيْنِ هُوَ مُسَدَّدٌ فِي مُسْنَدِهِ،وَأَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ مِنْ طَرِيقِهِ،وَتَابَعَهُ أَبُو الرَّبِيعِ الزَّهْرَانِيُّ عِنْدَ أَبِي يُوسُفَ الْقَاضِي فِي كِتَابِ الزَّكَاةِ،وَأَمَّا رِوَايَةُ عَبْدِ الْوَارِثِ،فَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهَا مَوْصُولَةً،وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْمُسْتَخْرَجِ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ عَنْ حَمَّادٍ بِلَفْظِ:وَالْيَدُ الْعُلْيَا يَدُ الْمُعْطِي،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ رَوَاهُ عَنْ نَافِعٍ بِلَفْظِ:الْمُتَعَفِّفَةُ فَقَدْ صَحَّفَ،انْتَهَى.

وَرَجَّحَ الْخَطَّابِيُّ الثَّانِيَةَ بِأَنَّ السِّيَاقَ فِي ذِكْرِ الْمَسْأَلَةِ وَالتَّعَفُّفِ عَنْهَا،قَالَ الطِّيبِيُّ:وَتَجْوِيزُ تَرْجِيحِهِ أَنَّ قَوْلَهُ وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ...إِلَخْ،كَلَامٌ مُجْمَلٌ فِي مَعْنَى الْعِفَّةِ عَنِ السُّؤَالِ،وَقَوْلُهُ:الْيَدُ الْعُلْيَا بَيَانٌ لَهُ،وَهُوَ أَيْضًا مُبْهَمٌ،فَيَنْبَغِي تَفْسِيرُهُ بِالْعِفَّةِ لِيُنَاسِبَ الْمُجْمَلَ،وَتَفْسِيرُهُ بِالْمُنْفِقَةِ لَا يُنَاسِبُ الْمُجْمَلَ،لَكِنْ إِنَّمَا يَتِمُّ هَذَا لَوِ اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ:الْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ،وَلَمْ يُعَقِّبْهُ

بِقَوْله:(وَ) الْيَدُ (السُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ) لِدَلَالَتِهَا عَلَى عُلُوِّ الْمُنْفِقَة،وَسَفَالَة السَّائِلَة،وَرَذَالَتهَا،وَهِيَ مَا يُسْتَنْكَفُ مِنْهَا،فَظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ رِوَايَةَ الْمُنْفِقَة أَرْجَحُ نَقْلًا وَدرَايَةً،انْتَهَى.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:التَّحْقِيقُ أَنَّ السُّفْلَى يَدُ السَّائِلِ،وَأَمَّا يَدُ الْآخذ فَلَا؛لِأَنَّ يَدَ اللَّه هِيَ الْمُعْطِيَةُ،وَهِيَ الْآخذَةُ،وَكِلْتَاهُمَا يَمِينٌ وَفيه نَظَرٌ؛لِأَنَّ الْبَحْثَ إِنَّمَا هُوَ فِي أَيْدِي الْآدَمِيِّينَ،أَمَّا يَدُ اللَّه فَبِاعْتِبَارِ كَوْنه مَالكَ كُلِّ شَيْءٍ نُسبَتْ يَدُهُ إِلَى الْإِعْطَاء،وَبِاعْتِبَارِ قَبُوله للصَّدَقَة وَرِضَاهُ بِهَا،نُسبَتْ إِلَى الْأَخْذ،وَيَدُهُ الْعُلْيَا عَلَى كُلِّ حَال،وَأَمَّا يَدُ الْآدَمِيِّ فَأَرْبَعَةٌ:يَدُ الْمُعْطِي وَقَدْ تَظَافَرَت الْأَخْبَارُ بِأَنَّهَا عُلْيَا،وَيَدُ السَّائِلِ وَقَدْ تَظَافَرَت الْأَحَاديثُ بِأَنَّهَا السُّفْلَى،سَوَاءٌ أَخَذَتْ أَمْ لَا،وَهَذَا مُوَافِقٌ بِكَيْفِيَّة الْإِعْطَاء وَالْأَخْذ غَالبًا.

ثَالثُهَا:يَدُ الْمُتَعَفِّف عَنِ الْأَخْذ وَلَوْ بَعْدَ مَدِّ يَد الْمُعْطِي مَثَلًا،وَهَذه تُوصَفُ بِأَنَّهَا عُلْيَا عُلُوًّا اعْتِبَارِيًّا،رَابِعُهَا:يَدُ الْآخذ بِلَا سُؤَال،وَاخْتُلفَ فِيهَا فَذَهَبَ جَمْعٌ إِلَى أَنَّهَا سُفْلَى نَظَرًا إِلَى الْمَحْسُوس،وَأَمَّا الْمَعْنَوِيُّ فَلَا يَطَّرِدُ فَقَدْ تَكُونُ عُلْيَا فِي بَعْضِ الصُّوَر،وَعَلَيْه يُحْمَلُ كَلَامُ مَنْ أَطْلَقَ أَنَّهَا عُلْيَا.

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ:الْعُلْيَا الْمُعْطِيَةُ،وَالسُّفْلَى الْمَانعَةُ،وَلَمْ يُوَافَقْ عَلَيْه،وَأَطْلَقَ آخَرُونَ منَ الْمُتَصَوِّفَة أَنَّ الْيَدَ الْآخذَةَ أَفْضَلُ منَ الْمُعْطِيَة مُطْلَقًا،قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ:وَمَا أَرَى هَؤُلَاء إِلَّا قَوْمًا اسْتَطَابُوا السُّؤَالَ،فَهُمْ يَحْتَجُّونَ للدَّنَاءَة،وَلَوْ جَازَ هَذَا لَكَانَ الْمَوْلَى منْ فَوْقُ هُوَ الَّذي كَانَ رَقِيقًا فَأُعْتقَ،وَالْمَوْلَى منْ أَسْفَلَ هُوَ السَّيِّدُ الَّذي أَعْتَقَ،وَفِي مَطْلَع الْفَوَائِد للْعَلَّامَة جَمَال الدِّين بْن نُبَاتَةَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيث مَعْنًى آخَرَ أَنَّ الْيَدَ هُنَا النِّعْمَةُ،فَكَانَ الْمَعْنَى:الْعَطِيَّةُ الْجَزِيلَةُ خَيْرٌ منَ الْعَطِيَّة الْقَلِيلَة،فَهَذَا حَثٌّ عَلَى مَكَارِم الْأَخْلَاق بِأَوْجَزِ لَفْظ،وَيَشْهَدُ لَهُ أَحَدُ التَّأْوِيلَيْن فِي قَوْله:مَا أَبْقَتْ غنًى،أَيْ مَا حَصَلَ به للسَّائِلِ غنًى عَنْ سُؤَاله،كَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِأَلْف،فَلَوْ أَعْطَاهَا لمائَة إِنْسَان لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِم الْغنَى،بخلَاف مَا لَوْ أَعْطَاهَا لرَجُلٍ وَاحد قَالَ:وَهُوَ أَوْلَى منْ حَمْلِ الْيَد عَلَى الْجَارِحَة؛لِأَنَّ ذَلكَ لَا يَسْتَمرُّ،إِذْ قَدْ يَأْخُذُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ عنْدَ اللَّه ممَّنْ يُعْطي.

قُلْتُ:التَّفَاضُلُ هُنَا يَرْجعُ إِلَى الْإِعْطَاء وَالْأَخْذ،وَلَا يَلْزَمُ منْهُ أَنْ يَكُونَ الْمُعْطي أَفْضَلَ منَ الْآخذ عَلَى الْإِطْلَاق.

قَالَ ابْنُ عَبْد الْبَرِّ:فِي الْحَديث إِبَاحَةُ الْكَلَام للْخَطيب بَلْ كُلُّ مَا يَصْلُحُ منْ مَوْعظَة وَعلْمٍ وَقُرْبَة،وَالْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاق فِي وُجُوه الطَّاعَة،وَتَفْضيلُ الْغنَى مَعَ الْقيَام بحُقُوقه عَلَى الْفَقْر؛لِأَنَّ الْعَطَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ منَ الْغنَى،وَفيه كَرَاهَةُ السُّؤَال،وَالتَّنْفيرُ عَنْهُ وَمَحَلُّهُ إِذَا لَمْ تَدْعُ إِلَيْه ضَرُورَةٌ منْ خَوْف هَلَاك وَنَحْوه.وَقَدْ رَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَاد فيه مَقَالٌ عَن ابْن عُمَرَ مَرْفُوعًا:" «مَا الْمُعْطي منْ سعَة بِالْأَفْضَلِ منَ الْآخذ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا» "،انْتَهَى.شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٦٧٢)

وفي المرقاة:"قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمنْبَر وَهُوَ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُ (يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ) أَيْ فَضْلَهَا وَالْحَثَّ عَلَيْهَا أَوْ حُكْمَ أَخْذهَا أَوْ سُؤَالهَا (وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَة) قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ الْكَفُّ عَنِ الْحَرَام وَعَنِ السُّؤَال عَنِ النَّاس " الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ منَ الْيَد السُّفْلَى وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفقَةُ " أَي الْمُعْطيَةُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:هَكَذَا وَقَعَ فِي صَحيح مُسْلمٍ وَالْبُخَارِيِّ،وَكَذَا ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَكْثَر الرِّوَايَات،وَفي رِوَايَة لَهُ،وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:الْمُتَعَفِّفَةُ منَ الْعفَّة،وَرَجَّحَ هَذه الرِّوَايَةَ بِأَنَّ الْكَلَامَ فِي التَّعَفُّف وَالسُّؤَال،وَالْمَعْنَى صَحيحٌ عَلَى الرِّوَايَتَيْن فَإِنَّ الْمُنْفقَةَ أَعْلَى منَ الْآخذَة وَالْمُتَعَفِّفَةَ أَعْلَى منَ السَّائلَة،قيلَ:الْإِنْفَاقُ يَدُلُّ عَلَى التَّعَفُّف مَعَ زِيَادَة وَيُنَاسبُ التَّحْريضَ عَلَى الصَّدَقَة،فَرِوَايَةُ الشَّيْخَيْن أَوْلَى وَأَصَحُّ رِوَايَةً وَدرَايَةً اهـ.وَالتَّفْسيرُ يَحْتَملُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا،وَيُؤَيِّدُ الثَّانيَ قَوْلُ ابْن حَجَر،وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ هَذَا التَّفْسيرَ عَنْ أَكْثَر الرُّوَاة فَقَالَ الْخَطَّابِيُّ:الْأَرْجَحُ مَا فِي أَبِي دَاوُدَ عَن ابْن عُمَرَ أَنَّ الْعُلْيَا هِيَ الْمُتَعَفِّفَةُ وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائلَةُ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي ذكْر الْمَسْأَلَة وَالتَّعَفُّف عَنْهَا،وَأَغْرَبَ ابْنُ حَجَر فِي قَوْله:مَرْدُودٌ،بَل الرَّاجحُ الَّذي عَلَيْه الْجُمْهُورُ هُوَ الرِّوَايَةُ الْأُولَى كَمَا قَالَهُ النَّوَوِيُّ لِأَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا حَيْثُ يُمْكنُ جَمْعُهُمَا باعْتبَار الْحَالَتَيْن لِأَصْحَابهمَا مَعَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ التَّرْجيحَ لرِوَايَة الْمُتَعَفِّفَة عَلَى الْمُنْفقَة فِي هَذَا الْمَقَام لنظَام الْمَرَام لَا لمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْه أَحْكَامُ أَئمَّة الْأَنَام " وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائلَةُ " قَالَ الشَّيْخُ:أَبُو النَّجيب السُّهْرَوَرْديُّ فِي آدَاب الْمُريدينَ:وَأَجْمَعُوا أَي الصُّوفيَّةُ عَلَى أَنَّ الْفَقْرَ أَفْضَلُ منَ الْغنَى إِذَا

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،وَسَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ،أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَعْطَانِي،ثُمَّ سَأَلْتُهُ،فَأَعْطَانِي،ثُمَّ سَأَلْتُهُ،فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ:«يَا حَكِيمُ،إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ،فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ،وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ،كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ،اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»،قَالَ حَكِيمٌ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا،فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى العَطَاءِ،فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ،ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا،فَقَالَ عُمَرُ:إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ،أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ،فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ" رواه البخاري[١٧٦٢].

كَانَ مَقْرُونًا بِالرِّضَا،فَإِنِ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ-:" «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» "،وَقَالَ:الْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُعْطِيَةُ وَالْيَدُ السُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ قِيلَ لَهُ:الْيَدُ الْعُلْيَا تَنَالُهَا الْفَضِيلَةُ بِإِخْرَاجِ مَا فِيهَا،وَالْيَدُ السُّفْلَى تَنَالُهَا الْمَنْقَصَةُ بِحُصُولِ الشَّيْءِ فِيهَا اهـ وَتَوْضِيحُهُ أَنَّ الْغَنِيَّ بِإِعْطَاءِ بَعْضِ الْمَالِ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - بِاخْتِيَارِ الْفَقْرِ،وَالْفَقِيرَ بِأَخْذِ بَعْضِ الْمَالِ مَالَ إِلَى الْغِنَى فَتَنْقُصُ حَالُهُ وَيُخْشَى مَآلُهُ،وَفِي هَذَا مُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ وَدَلَالَةٌ جَسِيمَةٌ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ الْفَقِيرِ الصَّابِرِ عَلَى الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ حَالُ السَّائِلِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَكَيْفَ حَالُ الْمُتَعَفِّفِ وَالْآخِذِ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّائِلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا،وَأَمَّا إِذَا وَجَبَ عَلَيْهِ السُّؤَالُ وَغَلَبَ عَلَيْهِ الْحَالُ فَانْقَلَبَ الْمِثَالُ،وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ أَعْنِي خَوَاجَةَ عُبَيْدَ اللَّهِ السَّمَرْقَنْدِيَّ - قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ - لَمَّا سُئِلَ:الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَفْضَلُ أَمِ الْغَنِيُّ الشَّاكِرُ؟ فَقَالَ:بَلِ الْفَقِيرُ الشَّاكِرُ،وَهُوَ إِمَّا أَرَادَ الْمُبَالَغَةَ أَوِ الشِّكَايَةَ الضَّرُورِيَّةَ أَوِ الْإِشَارَةَ إِلَى قَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف:٨٦] وَاللَّهُ أَعْلَمُ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣١٠)

[١٧٦٢] - صحيح البخاري (٢/ ١٢٣)(١٤٧٢)وصحيح مسلم (٢/ ٧١٧)٩٦ - (١٠٣٥)

[ش (خضرة حلوة) كالفاكهة الخضرة في المنظر الحلوة في المذاق ولذلك ترغبه النفوس وتميل إليه وتحرص عليه.(بسخاوة نفس) بغير إلحاح في السؤال ولا طمع ولا حرص ولا إكراه أو إحراج للمعطي.(بورك له فيه) كثر ونما وكان رزقا حلالا يشعر بلذته.(بإشراف نفس) بإلحاح في السؤال وتطلع لما في أيدي غيره وشدة حرصه على تحصيله مع إكراه المعطي وإحراجه.(كالذي يأكل ولا يشبع) لا يقنع بما يأتيه وأصبح كمن أصيب بمرض الجوع الكاذب الذي كلما ازداد أكلا ازداد جوعا فكلما جمع من المال شيئا ازداد رغبة في غيره وازداد شحا وبخلا بما في يده وحرصا عليه.(لا أرزأ) لاأنقص ماله بالطلب والمعنى لا آخذ.(الفيء) ما أخذ من الكفار من غير قتال]

دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:الترغيب في التعفف عن السؤال،لما فيه من إراقة ماء الوجه،وإهدار كرامة الإنسان،فلا يجوز إلّا لحاجة ماسّة على قدر الكفاية عند العجز عن السعي،قال - ﷺ -:" لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سَوِي ".ثانياً:أن الأخلاق الكريمة يمكن اكتسابها والوصول إليها عن طريق التعود عليها كما قال - ﷺ -:" ومن يستعف يعفه الله " منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٤٣)

وعَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَعْطَاهُمْ،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَأَعْطَاهُمْ،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ،فَقَالَ:«مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ،وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ،وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ،وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1763]

وكذلك تجب نفقة القريب المعسر المحتاج على قريبه الوارث الموسر،لقوله تعالى:{وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} [البقرة:٢٣٣].

[1763] - صحيح البخاري (٢/ ١٢٢)(١٤٦٩)

[ش(فلن أدخره عنكم) لن أحبسه وأمنعكم منه.(يستعفف) يظهر العفة ويكف عن السؤال]

(مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -) أَيْ شَيْئًا (فَأَعْطَاهُمْ) أَيْ إِيَّاهُ (ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ) بِكَسْرِ الْفَاءِ وَالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ أَيْ فَنِيَ (مَا عِنْدَهُ فَقَالَ:" مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ ") أَيْ مَالٍ،وَ " مِنْ " بَيَانٌ لِـ " مَا "،وَمَا خَبَرِيَّةٌ مُتَضَمِّنَةٌ لِلشَّرْطِ أَيْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ مَوْجُودٌ عِنْدِي أُعْطِيكُمْ " فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ " وَلَمْ أَمْنَعْهُ مِنْكُمْ " وَمَنْ يَسْتَعِفَّ " وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ بِالْفَكِّ أَيْ:مَنْ يَطْلُبْ مِنْ نَفْسِهِ الْعِفَّةَ عَنِ السُّؤَالِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:أَوْ يَطْلُبِ الْعِفَّةَ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - فَلَيْسَ السِّينُ لِمُجَرَّدِ التَّأْكِيدِ كَمَا اخْتَارَهُ ابْنُ حَجَرٍ " يُعِفَّهُ اللَّهُ " أَيْ يَجْعَلْهُ عَفِيفًا مِنَ الْإِعْفَافِ وَهُوَ إِعْطَاءُ الْعِفَّةِ وَهِيَ الْحِفْظُ عَنِ الْمَنَاهِي،يَعْنِي مَنْ قَنَعَ بِأَدْنَى قُوتٍ وَتَرَكَ السُّؤَالَ تَسْهُلُ عَلَيْهِ الْقَنَاعَةُ وَهِيَ كَنْزٌ لَا يَفْنَى " وَمَنْ يَسْتَغْنِ " أَيْ يُظْهِرْ الْغِنَى بِالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالتَّعَفُّفِ عَنِ السُّؤَالِ حَتَّى يَحْسَبَهُ الْجَاهِلُ غَنِيًّا مِنَ التَّعَفُّفِ " يُغْنِهِ اللَّهُ " أَيْ يَجْعَلْهُ غَنِيًّا أَيْ بِالْقَلْبِ،فَفِي الْحَدِيثِ:«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» " وَمَنْ يَتَصَبَّرْ " أَيْ يَطْلُبْ تَوْفِيقَ الصَّبْرِ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّهُ قَالَ - تَعَالَى - {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل:١٢٧] أَوْ يَأْمُرْ نَفْسَهُ بِالصَّبْرِ وَيَتَكَلَّفْ فِي التَّحَمُّلِ عَنْ مَشَاقِّهِ،وَهُوَ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ،لِأَنَّ الصَّبْرَ يَشْتَمِلُ عَلَى صَبْرِ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْبَلِيَّةِ،أَوْ مَنْ يَتَصَبَّرْ عَنِ السُّؤَالِ وَالتَّطَلُّعِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ بِأَنْ يَتَجَرَّعَ مَرَارَةَ ذَلِكَ،وَلَا يَشْكُوَ حَالَهُ لِغَيْرِ رَبِّهِ (يُصَبِّرْهُ اللَّهُ) بِالتَّشْدِيدِ أَيْ:يُسَهِّلْ عَلَيْهِ الصَّبْرَ فَتَكُونُ الْجُمَلُ مُؤَكِّدَاتٍ وَيَزِيدُ إِرَادَةَ مَعْنَى الْعُمُومِ قَوْلُهُ (وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً) أَيْ:مُعْطًى أَوْ شَيْئًا (هُوَ خَيْرٌ) أَيْ:أَفْضَلُ لِاحْتِيَاجِ السَّائِلِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْمَقَامَاتِ (وَأَوْسَعُ) أَيْ:أَشْرَحُ لِلصَّدْرِ (مِنَ الصَّبْرِ) وَذَلِكَ لِأَنَّ مَقَامَ الصَّبْرِ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ بِمَا لِأَنَّهُ جَامِعٌ لِمَكَارِمِ الصِّفَاتِ وَالْحَالَاتِ،وَلِذَا قُدِّمَ عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة:٤٥] وَمَعْنَى كَوْنِهِ أَوْسَعَ أَنَّهُ تَتَّسِعُ بِهِ الْمَعَارِفُ وَالْمَشَاهِدُ وَالْأَعْمَالُ وَالْمَقَاصِدُ،فَإِنْ قِيلَ:الرِّضَا أَفْضَلُ مِنْهُ،كَمَا صَرَّحُوا بِهِ،أُجِيبُ:بِأَنَّهُ غَايَتُهُ الَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهِ إِلَّا مَعَهَا فَلَيْسَ أَجْنَبِيًّا عَنْهُ،كَمَا يُرْشِدُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا} [ص:٤٤] إِذِ الْمُرَادُ بِهِ فِي حَقِّهِ،وَنَحْوُهُ مَا يَكُونُ مَعَهُ رِضًا،وَإِلَّا فَهُوَ مَقَامٌ نَاقِصٌ جِدًّا،وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ - تَعَالَى - {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف:٣٥] وَ {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور:٤٨] وَ {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل:١٢٧] قَالَ الطِّيبِيُّ:فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ (خَيْرٌ) أَيْ:هُوَ خَيْرٌ،كَمَا فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ،وَفِي رِوَايَةٍ (خَيْرًا) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةُ عَطَاءٍ،وَقَالَ مِيرَكُ:كَذَا فِي جَمِيعِ نُسَخِ الْمِشْكَاةِ الْحَاضِرَةِ،وَوَقَعَ فِي نُسَخِ مُسْلِمٍ:" مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرٌ " بِلَا لَفْظِ هُوَ وَهُوَ مُقَدَّرٌ،وَفِي رِوَايَةٍ " خَيْرًا " بِالنَّصْبِ كَمَا يُفْهَمُ مِنْ شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلْإِمَامِ النَّوَوِيِّ،فَفِي قَوْلِ صَاحِبِ الْمِشْكَاةِ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣١١)

كما يجب على الحكومة الإسلامية أن تسد حاجات الفقراء من موارد بيت المال العـام،ومن المال الخاص كالزكاة فيعطون من الزكاة بقدر كفايتهم حتى يحصل لهم الغنى الذي يخـرجهم من حالة الفقر والمسكنة،فيعطى الفقير ما يحتاج إليه من المسكن والملبس والطعام،وكـذلك إذا احتاج الزواج فيزوج،وقد بين الله تعالى مصارف الزكاة في قوله:{إِنَّمَا الصَّـدَقَاتُ لِلْفُقَـرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَابْـنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٦٠].

إنما تعطى الزكوات الواجبة للمحتاجين الذين لا يملكون شيئًا،وللمساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم،وللسعاة الذين يجمعونها،وللذين تؤلِّفون قلوبهم بها ممن يُرْجَى إسـلامه أو قوة إيمانه أو نفعه للمسلمين،أو تدفعون بها شرَّ أحد عن المسلمين،وتعطى في عتق رقـاب الأرقاء والمكاتبين،وتعطى للغارمين لإصلاح ذات البين،ولمن أثقلَتْهم الديون في غير فسـاد ولا تبذير فأعسروا،وللغزاة في سبيل الله،وللمسافر الذي انقطعت به النفقة،هذه القسـمة فريضـة فرضها الله وقدَّرها.والله عليم بمصالح عباده،حكيم في تدبيره وشرعه.[١٧٦٤]

وفي المال حق واجب غير الزكاة كإعطاء السائل إذا صدق لقول الله تعالى:{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَـا تَنْهَرْ } [الضحى:١٠]

قال ابن جرير رحمه الله " وَأَمَّا مَنْ سَأَلَكَ مِنْ ذِي حَاجَةٍ فَلَا تَنْهَرْهُ،وَلَكِنْ أَطْعِمْهُ وَاقْـضِ لَـهُ حَاجَتَهُ"[١٧٦٥].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ} أَيْ:فَلَا تَكُنْ جَبَّارًا،وَلَا مُتَكَبِّرًا،وَلَا فَحَّاشا،وَلَا فَظًّـا عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.[١٧٦٦]

هو تعقيب على هذا الإحسان الذي أفاضه الله وما سيفيضه على نبيه،وأن مـن حـق هـذا الإحسان أن يقابل بالحمد والشكران لله رب العالمين..وقد صرف الله سبحانه وتعـالى هـذا الحمد،وذلك الشكران إلى الضعفاء،والمحتاجين من عباده،فيكون حمـده وشكره،بالإحسـان

١٧٦٤ - التفسير الميسر (١/ ١٩٦)

١٧٦٥ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٤/ ٤٩٠)

١٧٦٦ - تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٢٧)

إليهم،والرعاية لهم..فلا نهر لليتيم،ولا كسر لخاطره،ولا ترك لمرارة اليتم تنعقد فى فمــه..وإن أولى الناس برعاية اليتيم،وجبر خاطره،من عرف اليتم،ثم كفله الله..وإنه لا نهــر أي لا زجــر للسائل،وهو من يقف موقف من يسأل،عما هو محتاج إليه،من طعام يسد به جوعه،أو علــم يغذى به عقله،أو هدى يعرف به طريق الخلاص لروحــه..فــإن الســائل ضــعيف أمــام المسئول،ومن حقه على القوى أن يتلطف معه،ويرفق به..إنه أشبه بالضالّ الــذي لا يعــرف الطريق،والمسئول هو موضع أمله،ومعقد رجائه،فى أن يخرجه من هذا الضلال،وأن يقيمه على الطريق المستقيم..وأولى الناس بهذا من عرف الحيرة،ونشد وجــه الهداية،فأصــابها وقــدرها قدرها..[١٧٦٧]

أي:لا يصدر منك إلى السائل كلام يقتضي رده عن مطلوبه،بنهر وشراسة خلق،بل أعطه مــا تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان] .

وهذا يدخل فيه السائل للمال،والسائل للعلم،ولهذا كان المعلم مأمورًا بحســن الخلــق مــع المتعلم،ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه،فإن في ذلك معونة له على مقصده،وإكرامًا لمن كــان يسعى في نفع العباد والبلاد.[١٧٦٨]

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله،وإلى إغناء الســائل مع الرفق به والكرامة،كانت - كما ذكرنا مرارا - من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحــدة المتكالبة،التي لا ترعى حق ضعيف،غير قادر على حماية حقه بسيفه! حيث رفع الإسلام هــذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل،والتحرج والتقوى،والوقوف عند حدود الله،الــذي يحــرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قــوة ولا سيفا يذودون به عن هذه الحقوق.[١٧٦٩]

وكــذلك تجــب إعــارة المــاعون للمحتــاج لقولــه تعــالى:{وَيَمْنَعُــونَ الْمَــاعُونَ } [الماعون:٧]،والماعون كالدلو والإناء والفأس ونحوه.

[١٧٦٧] - التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٦٠٢)

[١٧٦٨] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٢٨)

[١٧٦٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٨٧٩)

ومن الحق الواجب في المال إطعام الجائع وكسوة العاري،وكذا إذا نزلت بالمسلمين نازلة:كالمجاعة فيجب أن يؤخذ من الأغنياء ما يكفي للفقراء،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«طَعَامُ الِاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ،وَطَعَامُ الثَّلاَثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ» متفقٌ عليه[١٧٧٠].

وفي رواية لمسلمٍ عن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ،وَطَعَامُ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ،وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ»[١٧٧١]

[١٧٧٠] - صحيح البخاري (٧/ ٧١)(٥٣٩٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٣٠)١٧٨ - (٢٠٥٨)

طَعَامُ الِاثْنَيْنِ):أَيْ مَا يُشْبِعُهُمَا (كَافِي الثَّلَاثَةِ):أَيْ يَكْفِيهِمْ عَلَى وَجْهِ الْقَنَاعَةِ وَيُقَوِّيهِمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَيُزِيلُ الضَّعْفَ عَنْهُمْ،لَا أَنَّهُ يُشْبِعُهُمْ،فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ؛وَلِذَا وَرَدَ:" «أَكْثَرُكُمْ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُكُمْ جُوعًا فِي الْآخِرَةِ» ".وَالْغَرَضُ مِنْهُ أَنَّ الرَّجُلَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْنَعَ بِدُونِ الشِّبَعِ،يَصْرِفُ الزَّائِدَ إِلَى مُحْتَاجٍ آخَرَ.(وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْأَرْبَعَةِ):قَالَ السُّيُوطِيُّ:أَيْ شِبَعُ الْأَقَلِّ قُوتٌ بِالْأَكْثَرِ،وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّقَنُّعِ بِالْكِفَايَةِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٦٩٩)

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:أنه يستحب الاجتماع على الطعام لا فيه من بركة عظيمة تجعل من القليل كثيراً فينمو الطعام ويزداد حسّاً ومعنى،وتتضاعف قواه الغذائية ويكفي القليل منه الكثير.ثانياً:قال النووي:فيه الحث على المواساة في الطعام فإنه وإن كان قليلاً تحصل منه الكفاية وتقع فيه بركة تعم الحاضرين.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ١٤٦)

[١٧٧١] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٣٠)١٧٩ - (٢٠٥٩)

قَالَ الْمُهَلَّبُ:الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْحَضُّ عَلَى الْمُكَارَمَةِ،وَالتَّقَنُّعِ بِالْكِفَايَةِ،يَعْنِي:وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْحَصْرَ فِي مِقْدَارِ الْكِفَايَةِ،وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْمُوَاسَاةُ،وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلِاثْنَيْنِ إِدْخَالُ ثَالِثٍ لِطَعَامِهِمَا،وَرَابِعٍ أَيْضًا بِحَسَبِ مَنْ يَحْضُرُ.وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ،وَأَوَّلُهُ:" «كُلُوا جَمِيعًا،وَلَا تَفَرَّقُوا فَإِنَّ طَعَامَ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ» "،الْحَدِيثَ،فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الْكِفَايَةَ تَنْشَأُ عَنْ بَرَكَةِ الِاجْتِمَاعِ،وَأَنَّ الْجَمْعَ كُلَّمَا كَثُرَ زَادَتِ الْبَرَكَةُ.وَقِيلَ مَعْنَاهُ:أَنَّ اللَّهَ يَضَعُ مِنْ بَرَكَتِهِ فِيهِ مَا وَضَعَ لِنَبِيِّهِ فَيَزِيدُ حَتَّى يَكْفِيَهُمْ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:وَهَذَا إِذَا صَحَّتْ نِيَّتُهُمْ،وَانْطَلَقَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِهِ،فَإِنْ قَالُوا:لَا يَكْفِينَا قِيلَ لَهُمْ:الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ.

وَقَالَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ فِي الْأَمَالِي:إِنْ أُرِيدَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْوَاقِعِ فَمُشْكِلٌ؛لِأَنَّ طَعَامَ الِاثْنَيْنِ لَا يَكْفِي إِلَّا اثْنَيْنِ،وَإِنْ كَانَ لَهُ مَعْنًى آخَرُ فَمَا هُوَ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا أَنَّهُ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ،أَيْ أَطْعِمُوا طَعَامَ الِاثْنَيْنِ الثَّلَاثَ،وَالثَّانِي أَنَّهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ يَقُوتُ الثَّلَاثَ،وَأَخْبَرَنَا بِذَلِكَ لِئَلَّا نَجْزَعَ،وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ لِأَنَّ الثَّانِيَ مَعْلُومٌ،انْتَهَى.

وَرَوَى الْعَسْكَرِيُّ فِي الْمَوَاعِظِ عَنْ عُمَرَ مَرْفُوعًا:" «كُلُوا وَلَا تَفَرَّقُوا،فَإِنَّ طَعَامَ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ،وَطَعَامَ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الثَّلَاثَةَ،وَالْأَرْبَعَةَ كُلُوا جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا،فَإِنَّ الْبَرَكَةَ فِي الْجَمَاعَةِ» "،فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ الشَّرْطَ الِاجْتِمَاعُ عَلَى الْأَكْلِ،وَأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ طَعَامُ الِاثْنَيْنِ إِذَا كَانَا مُفْتَرِقَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ إِذَا أَكَلُوا مُجْتَمِعِينَ.قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ:يُؤْخَذُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ اسْتِحْبَابُ الِاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ،وَأَنْ لَا يَأْكُلَ الْمَرْءُ وَحْدَهُ،انْتَهَى.

وَفِيهِ أَيْضًا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُوَاسَاةَ إِذَا حَصَلَتْ حَصَلَ مَعَهَا الْبَرَكَةُ،فَتَعُمُّ الْحَاضِرِينَ،وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَسْتَحْقِرَ مَا عِنْدَهُ،فَيَمْتَنِعَ مِنْ تَقْدِيمِهِ،فَإِنَّ الْقَلِيلَ قَدْ يَحْصُلُ بِهِ الِاكْتِفَاءُ بِمَعْنَى حُصُولِ قِيَامِ الْبِنْيَةِ لَا حَقِيقَةَ الشِّبَعِ،وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ عَامَ

وعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ،قَالَ:فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ"رواه مسلم[١٧٧٢].

الرَّمَادَةِ:لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُنْزِلَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ مِثْلَ عَدَدِهِمْ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَهْلِكُ عَلَى مَلْءِ بَطْنِهِ،وَأُخِذَ مِنْهُ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي الْمَسْغَبَةِ يُفَرِّقُ الْفُقَرَاءَ عَلَى أَهْلِ السَّعَةِ بِقَدْرِ لَا يَضُرُّ بِهِمْ.شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٤٧٣)

قَالَ النَّوَوِيُّ:فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْمُوَاسَاةِ فِي الطَّعَامِ،فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا حَصَلَتْ مِنْهُ الْكِفَايَةُ الْمَقْصُودَةُ،وَوَقَعَتْ فِيهِ بَرَكَةٌ تَعُمُّ الْحَاضِرِينَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٦٩٩)

[١٧٧٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٤)١٨ - (١٧٢٨)

[ش (فجعل يصرف بصره) فهكذا وقع في بعض النسخ وفي بعضها يصرف فقط بحذف بصره وفي بعضها يضرب ومعنى قوله فجعل يصرف بصره أي متعرضا لشيء يدفع به حاجته(من كان معه فضل ظهر) أي زيادة ما يركب على ظهره من الدواب وخصه اللغويون بالإبل وهو التعين(فليعد به) قال في المقاييس عاد فلان بمعروفه وذلك إذا أحسن ثم زاد]

(بَيْنَمَا نَحْنُ):أَيْ:مُعَاشِرُ الصَّحَابَةِ (فِي سَفَرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- إِذْ جَاءَ رَجُلٌ):وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ:إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ (عَلَى رَاحِلَةٍ):أَيْ:ضَعِيفَةٍ (فَجَعَلَ):أَيْ:شَرَعَ وَطَفِقَ (يَضْرِبُ):أَيِ:الرَّاحِلَةَ (يَمِينًا وَشِمَالًا):أَيْ:بِيَمِينِهِ وَشِمَالِهِ،أَوْ يَمِينَهَا وَشِمَالَهَا لِعَجْزِهَا عَنِ السَّيْرِ،وَقِيلَ:يَضْرِبُ عَيْنَيْهِ إِلَى يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ؛أَيْ:يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمَا طَالِبًا لِمَا يَقْضِي لَهُ حَاجَتَهُ.(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-:مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ):أَيْ:زِيَادَةُ مَرْكُوبٍ عَنْ نَفْسِهِ (فَلْيَعُدْ بِهِ):أَيْ:فَلْيَرْفُقْ بِهِ (عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ):وَيَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ؛مِنْ عَادَ عَلَيْنَا بِمَعْرُوفٍ؛أَيْ:رَفَقَ بِنَا،كَذَا فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ (وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ):أَيْ:مِنْهُ وَمِنْ دَابَّتِهِ (فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ):أَيْ:مِقْدَارَ كِفَايَتِهِ،وَلَعَلَّهُ - ﷺ- اطَّلَعَ عَلَى أَنَّهُ تَعْبَانُ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ؛أَيْضًا،أَوْ ذَكَرَهُ تَتْمِيمًا وَقَصْدًا إِلَى الْخَيْرِ تَعْمِيمًا.قَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ:طَفِقَ يَمْشِي يَمِينًا وَشِمَالًا؛أَيْ:يَسْقُطُ مِنَ التَّعَبِ إِذْ كَانَتْ رَاحِلَتُهُ ضَعِيفَةً لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَرْكَبَهَا فَمَشَى رَاجِلًا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ رَاحِلَتُهُ قَوِيَّةً إِلَّا أَنَّهُ قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا زَادَهُ وَأَقْمِشَتَهُ،وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَرْكَبَهَا مِنْ ثِقَلِ حِمْلِهَا،فَطَلَبَ لَهُ - ﷺ- مِنَ الْجَيْشِ فَضْلَ ظَهْرٍ؛أَيْ:دَابَّةً زَائِدَةً عَلَى حَاجَةِ صَاحِبِهَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:فِي تَوْجِيهِهِ إِشْكَالٌ؛لِأَنَّ عَلَى رَاحِلَتِهِ صِفَةَ رَجُلٍ؛أَيْ:رَاكِبٍ عَلَيْهَا،وَقَوْلُهُ:" فَجَعَلَ " عَطْفٌ عَلَى " جَاءَ " بِحَرْفِ التَّعْقِيبِ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُتَمَحَّلَ وَيُقَالَ:إِنَّهُ عَطْفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ؛أَيْ:فَنَزَلَ فَجَعَلَ يَمْشِي.أَقُولُ:الْأَظْهَرُ أَنْ يُقَالَ التَّقْدِيرُ حَامِلٌ مَتَاعَهُ عَلَى رَاحِلَتِهِ،أَوْ عَلَى بِمَعْنَى (مَعَ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [البقرة:١٧٧] قَالَ الطِّيبِيُّ:الْأَوْجَهُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ " يَضْرِبُ " مَجَازٌ عَنْ " يَلْتَفِتُ " لَا عَنْ " يَمْشِي "،وَهَذَا أَيْضًا يُسْقِطُ الِاحْتِمَالَ الثَّانِيَ الَّذِي يَأْبَاهُ الْمَقَامُ،وَيَشْهَدُ لَهُ مَا رُوِيَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ،قَالَ النَّوَوِيُّ:جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ فَجَعَلَ يَضْرِبُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،هَكَذَا فِي بَعْضِ النُّسَخِ،وَفِي بَعْضِهَا يَصْرِفُ يَمِينًا وَشِمَالًا،وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ بَصَرِهِ،وَفِي بَعْضِهَا يَضْرِبُ بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ،وَالْمَعْنَى يَصْرِفُ بَصَرَهُ مُتَعَرِّضًا بِشَيْءٍ يَدْفَعُ بِهِ حَاجَتَهُ،وَفِيهِ حَثٌّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الرُّفْقَةِ وَالْأَصْحَابِ،وَالِاعْتِنَاءُ بِمَصَالِحِهِمْ وَالسَّعْيُ فِي قَضَاءِ حَاجَةِ الْمُحْتَاجِ بِتَعَرُّضِهِ لِلْعَطَاءِ،وَتَعْرِيضِهِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ،وَإِنْ كَانَ لَهُ رَاحِلَةٌ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ،أَوْ كَانَ مُوسِرًا فِي وَطَنِهِ،فَيُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ فِي هَذَا الْحَالِ،وَاللَّهُ

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ،أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ،فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»متفقٌ عليه[1773] .

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عَامَ الرَّمَادَةِ - وَكَانَتْ سَنَةً شَدِيدَةً مُلِمَّةً،بَعْدَمَا اجْتَهَدَ عُمَرُ فِي إِمْدَادِ الْأَعْرَابِ بِالْإِبِلِ وَالْقَمْحِ وَالزَّيْتِ مِنَ الْأَرْيَافِ كُلِّهَا،حَتَّى بَلَحَتِ الْأَرْيَافُ كُلُّهَا مِمَّا جَهَدَهَا ذَلِكَ - فَقَامَ عُمَرُ يَدْعُو فَقَالَ:اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَهُمْ عَلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ،فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ،فَقَالَ حِينَ نَزَلَ بِهِ الْغَيْثُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ،فَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُفْرِجْهَا مَا تَرَكْتُ بِأَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ سَعَةٌ إِلَّا أَدْخَلْتُ مَعَهُمْ أَعْدَادَهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ،فَلَمْ يَكُنِ اثْنَانِ يَهْلِكَانِ مِنَ الطَّعَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ وَاحِدًا" رواه البخاري في الأدب المفرد[1774] .

أَعْلَمُ.(قَالَ):أَيْ:أَبُو سَعِيدٍ (فَذَكَرَ):أَيِ:النَّبِيُّ - ﷺ- (مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ):كَالثَّوْبِ وَالنِّعَالِ وَالْقِرْبَةِ وَالْمَاءِ وَالْخَيْمَةِ وَالنُّقُودِ وَنَحْوِهَا.(حَتَّى رَأَيْنَا):أَيْ:ظَنَنَّا (أَنَّهُ):أَيِ:الشَّأْنَ (لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٠١٣)

[1773] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٨)(٢٤٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٤)١٦٧ - (٢٥٠٠)

[ش (أرملوا) من الإرمال وهو فناء الزاد وقلة الطعام أصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل من القلة.(في إناء واحد) أي اقتسموه بمكيال واحد حتى لا يتميز بعضهم عن بعض.(بالسوية) متساوين.(فهم مني وأنا منهم) طريقتي وطريقتهم واحدة في التعاون على البر والتقوى وطاعة الله عز وجل ولذلك لا أتخلى عنهم]

فقه الحديث:استدل البخاري بهذا الحديث على جواز الشركة في النهد أو في الطعام،والنهد كما قلنا أن ينثر الرفقة زادهم على سفرة فيأكلوا جميعاً،أو يجمعوه ويقتسموه بينهم قسمة متساوية،كما في هذا الحديث أو غير متساوية.

قال العيني:وذلك جائز في جنس واحد أو في الأجناس.وإن تفاوتوا في الأكل،وليس هذا من الربا في شيء وإنما هو من باب الإباحة.وقال في " فيض الباري ":ليست هذه من باب المعاوضات التي تجري فيها المماكسة أو تدخل تحت الحكم،وإنما هي من باب التسامح،وقد جرى بها التعامل من لدن عهد النبوة.وأما الشركة في الطعام وكل ما يملك فقد قال الحافظ:والجمهور على صحة الشركة في كل ما يتملك -يعني من طعام وغيره- والأصح عند الشافعية اختصاصها بالمثلي،وعند المالكية تكره الشركة في الطعام.هذا ومما يستفاد من الحديث استحباب خلط الطعام والمشاركة فيه حضراً وسفراً،لأن النبي - ﷺ - أثنى على الأشعريين ومدحهم بعملهم هذا،لما يترتب عليه من حلول البركة في الطعام،وكفايته للعدد الكثير من الناس،وانتفاع الأبدان به،وغير ذلك من المؤانسة والمباسطة أثناء تناوله،ولهذا كان هذا العمل من سنته - ﷺ -.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٧٨)

[1774] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٩٨)(٥٦٢) صحيح

قال الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله:قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَفُرِضَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ بَلَدٍ أَنْ يَقُومُوا بِفُقَرَائِهِمْ،وَيُجْبِرُهُمْ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ،إنْ لَمْ تَقُمْ الزَّكَوَاتُ بِهِمْ،وَلَا فِي سَائِرِ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَيُقَامُ لَهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ مِنْ الْقُوتِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ،وَمِنْ اللِّبَاسِ لِلشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ بِمِثْلِ ذَلِكَ،وَبِمَسْكَنٍ يَكُنُّهُمْ مِنْ الْمَطَرِ،وَالصَّيْفِ وَالشَّمْسِ،وَعُيُونِ الْمَارَّةِ.

وَبُرْهَانُ ذَلِكَ:قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [الإسراء:٢٦] .وَقَالَ تَعَالَى:{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء:٣٦] .فَأَوْجَبَ تَعَالَى حَقَّ الْمَسَاكِينِ،وَابْنِ السَّبِيلِ،وَمَا مَلَكَتْ الْيَمِينُ مَعَ حَقِّ ذِي الْقُرْبَى وَافْتَرَضَ الْإِحْسَانَ إلَى الْأَبَوَيْنِ،وَذِي الْقُرْبَى،وَالْمَسَاكِينِ،وَالْجَارِ،وَمَا مَلَكَتْ الْيَمِينُ،وَالْإِحْسَانُ يَقْتَضِي كُلَّ مَا ذَكَرْنَا،وَمَنْعُهُ إسَاءَةٌ بِلَا شَكٍّ؟ وَقَالَ تَعَالَى:{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [المدثر:٤٢] {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [المدثر:٤٣] {وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} [المدثر:٤٤] .فَقَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى إطْعَامَ الْمِسْكِينِ بِوُجُوبِ الصَّلَاةِ.وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ فِي غَايَةِ الصِّحَّةِ أَنَّهُ قَالَ:«مَنْ لَا يَرْحَمْ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ اللَّهُ» .

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَمَنْ كَانَ عَلَى فَضْلَةٍ وَرَأَى الْمُسْلِمَ أَخَاهُ جَائِعًا عُرْيَانَ ضَائِعًا فَلَمْ يُغِثْهُ –:فَمَا رَحِمَهُ بِلَا شَكٍّ.وَهَذَا خَبَرٌ رَوَاهُ نَافِعُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ،وَقَيْسُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ،وَأَبِي ظَبْيَانَ وَزَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،وَكُلُّهُمْ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –.رَوَى أَيْضًا مَعْنَاهُ الزُّهْرِيُّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –.

وقال أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ :إنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ حَدَّثَهُ «أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةَ كَانُوا نَاسًا فُقَرَاءَ،وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ،وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ» أَوْ كَمَا قَالَ فَهَذَا هُوَ نَفْسُ قَوْلِنَا.

وعَنْ الزُّهْرِيِّ أَنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ» .قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:مَنْ تَرَكَهُ يَجُوعُ وَيَعْرَى – وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إطْعَامِهِ وَكِسْوَتِهِ – فَقَدْ أَسْلَمَهُ.

وعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ – قَالَ:«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِه عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِه عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ،حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ» .قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:وَهَذَا إجْمَاعُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – يُخْبِرُ بِذَلِكَ أَبُو سَعِيدٍ،وَبِكُلِّ مَا فِي هَذَا الْخَبَرِ نَقُولُ.وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ –:«أَطْعِمُوا الْجَائِعَ وَفُكُّوا الْعَانِيَ» .

وَالنُّصُوصُ مِنْ الْقُرْآنِ،وَالْأَحَادِيث الصِّحَاحِ فِي هَذَا تَكْثُرُ جِدًّا.

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْت لَأَخَذْت فُضُولَ أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ فَقَسَّمْتُهَا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ هَذَا إسْنَادٌ فِي غَايَةِ الصِّحَّةِ وَالْجَلَالَةِ.وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ:إنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَكْفِي فُقَرَاءَهُمْ،فَإِنْ جَاعُوا أَوْ عَرُوا وَجَهَدُوا فَمَنَعَ الْأَغْنِيَاءُ،وَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُحَاسِبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهِ؟ وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:فِي مَالِكَ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ.وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ،وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ،وَابْنِ عُمَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا كُلُّهُمْ لِمَنْ سَأَلَهُمْ:إنْ كُنْت تَسْأَلُ فِي دَمٍ مُوجِعٍ،أَوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ فَقَدْ وَجَبَ حَقُّكَ.وَصَحَّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَثَلَاثِمِائَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – أَنَّ زَادَهُمْ فَنِيَ فَأَمَرَهُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ فَجَمَعُوا أَزْوَادَهُمْ فِي مِزْوَدَيْنِ،وَجَعَلَ يَقُوتُهُمْ إيَّاهَا عَلَى السَّوَاءِ؟ فَهَذَا إجْمَاعٌ مَقْطُوعٌ بِهِ مِنْ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –،لَا مُخَالِفَ لَهُمْ مِنْهُمْ.

وَصَحَّ عَنْ الشَّعْبِيِّ،وَمُجَاهِدٍ،وَطَاوُسٍ،وَغَيْرِهِمْ،كُلُّهُمْ يَقُولُ:فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:وَمَا نَعْلَمُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ خِلَافَ هَذَا،إلَّا عَنْ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ،فَإِنَّهُ قَالَ:نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ حَقٍّ فِي الْمَالِ.قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:وَمَا رِوَايَةُ الضَّحَّاكِ حُجَّةٌ فَكَيْفَ رَأْيُهُ.وَالْعَجَبُ أَنَّ الْمُحْتَجَّ بِهَذَا أَوَّلُ مُخَالِفٍ لَهُ فَيَرَى فِي الْمَالِ حُقُوقًا سِوَى الزَّكَاةِ،مِنْهَا النَّفَقَاتُ عَلَى الْأَبَوَيْنِ الْمُحْتَاجَيْنِ،وَعَلَى الزَّوْجَةِ،وَعَلَى الرَّقِيقِ،وَعَلَى الْحَيَوَانِ،وَالدُّيُونِ،وَالْأُرُوشِ،فَظَهَرَ تَنَاقُضُهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ:فَقَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:مَنْ أَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ فَلَيْسَ عَلَيْهِ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَتَصَدَّقَ.وَمِنْ طَرِيقِ الْحَكَمِ عَنْ مِقْسَمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِه تَعَالَى:{وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ

حَصَاده} [الأنعام:١٤١] نَسَخَتْهَا:الْعُشْرُ،وَنصْفُ الْعُشْرِ.فَإِنَّ رِوَايَةَ مقْسَمٍ سَاقِطَةٌ لِضَعْفِه ؛وَلَيْسَ فِيهَا وَلَوْ صَحَّتْ خِلَافٌ لِقَوْلِنَا؟ وَأَمَّا رِوَايَةُ عِكْرِمَةَ فَإِنَّمَا هِيَ أَنْ لَا يَتَصَدَّقَ تَطَوُّعًا؛وَهَذَا صَحِيحٌ؟ وَأَمَّا الْقِيَامُ بِالْمَجْهُود فَفَرْضٌ وَدَيْنٌ،وَلَيْسَ صَدَقَةَ تَطَوُّعٍ.

وَيَقُولُونَ:مَنْ عَطِشَ فَخَافَ الْمَوْتَ فَفُرِضَ عَلَيْه أَنْ يَأْخُذَ الْمَاءَ حَيْثُ وَجَدَهُ وَأَنْ يُقَاتِلَ عَلَيْه.قَالَ أَبُو مُحَمَّد:فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ مَا أَبَاحُوا لَهُ منْ الْقِتَالِ عَلَى مَا يَدْفَعُ بِه عَنْ نَفْسِه الْمَوْتَ منْ الْعَطَشِ،وَبَيْنَ مَا مَنَعُوهُ منْ الْقِتَالِ عَنْ نَفْسِه فِيمَا يَدْفَعُ بِه عَنْهَا الْمَوْتَ منْ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ.وَهَذَا خِلَافٌ لِلْإِجْمَاعِ،وَلِلْقُرْآنِ،وَلِلسُّنَنِ،وَلِلْقِيَاسِ.قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ اُضْطُرَّ أَنْ يَأْكُلَ مَيْتَةً،أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ وَهُوَ يَجِدُ طَعَامًا فِيهِ فَضْلٌ عَنْ صَاحِبِه،لِمُسْلِمٍ أَوْ لِذِمِّيٍّ؛لِأَنَّ فَرْضًا عَلَى صَاحِبِ الطَّعَامِ إطْعَامُ الْجَائِعِ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إلَى الْمَيْتَة وَلَا إلَى لَحْمِ الْخِنْزِيرِ - وَبِاَللَّه تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

وَلَهُ أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ ذَلِكَ،فَإِنْ قُتِلَ فَعَلَى قَاتِله الْقَوَدُ،وَإِنْ قَتَلَ الْمَانِعَ فَإِلَى لَعْنَة اللَّه؛لِأَنَّهُ مَنَعَ حَقًّا،وَهُوَ طَائِفَةٌ بَاغِيَةٌ،قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّه} [الحجرات:٩] وَمَانِعُ الْحَقِّ بَاغٍ عَلَى أَخِيه الَّذِي لَهُ الْحَقُّ؛وَبِهَذَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَانِعَ الزَّكَاة - وَبِاَللَّه تَعَالَى التَّوْفِيقُ."[١٧٧٥]

وعلى الدولة أن تهيء للناس الوظائف والأعمال،وأن تصرف للموظفين والعمال أجورهم وأرزاقهم،فعَنِ الزُّهْرِيِّ،أَخْبَرَنِي السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ،ابْنُ أُخْتِ نَمِرٍ،أَنَّ حُوَيْطِبَ بْنَ عَبْدِ العُزَّى،أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ السَّعْدِيِّ،أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى عُمَرَ فِي خِلاَفَتِهِ،فَقَالَ لَهُ عُمَرُ:أَلَمْ أُحَدَّثْ أَنَّكَ تَلِيَ مِنْ أَعْمَالِ النَّاسِ أَعْمَالًا،فَإِذَا أُعْطِيتَ العُمَالَةَ كَرِهْتَهَا،فَقُلْتُ:بَلَى،فَقَالَ عُمَرُ:فَمَا تُرِيدُ إِلَى ذَلِكَ،قُلْتُ:إِنَّ لِي أَفْرَاسًا وَأَعْبُدًا وَأَنَا بِخَيْرٍ،وَأُرِيدُ أَنْ تَكُونَ عُمَالَتِي صَدَقَةً عَلَى المُسْلِمِينَ،قَالَ عُمَرُ:لاَ تَفْعَلْ،فَإِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الَّذِي أَرَدْتَ،فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِينِي العَطَاءَ،فَأَقُولُ:أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي،حَتَّى أَعْطَانِي مَرَّةً مَالًا،فَقُلْتُ:أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«خُذْهُ،فَتَمَوَّلْهُ،وَتَصَدَّقْ بِهِ،فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ،وَإِلَّا فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»

[١٧٧٥] - المحلى بالآثار (٤/ ٢٨١)

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:حَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ يَقُولُ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِينِي العَطَاءَ،فَأَقُولُ أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي،حَتَّى أَعْطَانِي مَرَّةً مَالًا،فَقُلْتُ:أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«خُذْهُ،فَتَمَوَّلْهُ،وَتَصَدَّقْ بِهِ،فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ،وَمَالاَ فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ» رواه البخاري[١٧٧٦]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله " قالَ الطَّبَرِيُّ :فِي حَديث عُمَر الدَّليل الواضِح عَلَى أَنَّ لِمَن شُغِلَ بِشَيء من أَعمال الُمسلِمينَ أَخذ الرِّزق عَلَى عَمَله ذَلِكَ كالوُلاة والقُضاة وجُباة الفَيء وعُمّال الصَّدَقَة وشَبَههم،لإِعطاء رَسُول الله ﷺ عُمَر العُمالَة عَلَى عَمَله،وذَكَرَ ابن الُمنذِر أَنَّ زَيد بن ثابِت كانَ يَأخُذ الأَجر عَلَى القَضاء،واحتَجَّ أَبُو عُبَيد فِي جَواز ذَلِكَ بِما فَرَضَ الله لِلعامِلينَ عَلَى الصَّدَقَة وجَعَلَ لَهُم مِنها حَقًّا لِقيامِهِم وسَعيهم فِيها.وحَكَى الطَّبَرِيُّ عَن العُلَماء هَل الأَمر فِي قَوله فِي هَذا الحَديث " خُذهُ وتَمَوَّلهُ " لِلوُجُوبِ أَو لِلنَّدبِ،ثالِثها إِن كانَت العَطِيَّة مِنَ السُّلطان فَهِيَ حَرام أَو مَكرُوهَة أَو مُباحَة،وإِن كانَت مِن غَيره فَمُستَحَبَّة .قالَ النَّوَوِيّ :والصَّحِيح أَنَّهُ إِن غَلَبَ الحَرام حَرُمَت.

وكَذا إِن كانَ مَعَ عَدَم الاستِحقاق وإِن لَم يَغلِب الحَرام وكانَ الآخِذ مُستَحِقًّا فَيُباح،وقِيلَ يُندَب فِي عَطِيَّة السُّلطان دُون غَيره والله أَعلَم.

وقالَ ابن الُمنذِر :وحَديث ابن السَّعدِيّ حُجَّة فِي جَواز أَرزاق القُضاة مِن وُجُوهها.وقالَ ابن بَطّال :فِي الحَديث أَنَّ أَخذ ما جاءَ مِنَ المال عَن غَير سُؤال أَفضَل مِن تَركه لأَنَّهُ يَقَع فِي إِضاعَة المال،وقَد ثَبَتَ النَّهي عَن ذَلِكَ.

وتَعَقَّبَهُ ابن الُمنِير بِأَنَّهُ لَيسَ مِنَ الإِضاعَة فِي شَيء لأَنَّ الإِضاعَة التَّبذِير بِغَيرِ وجه صَحِيح،وأَمّا التَّرك تَوفِيرًا عَلَى الُمعطَى تَترِيهًا عَن الدُّنيا وتَحَرُّجًا أَن لا يَكُون قائِمًا بِالوَظِيفَة عَلَى وجهها فَلَيسَ مِنَ الإِضاعَة.ثُمَّ قالَ :والوَجه فِي تَعلِيل الأَفضَلِيَّة أَنَّ الآخِذ أَعوَن فِي العَمَل وأَلزَم لِلنَّصِيحَة مِنَ التّارِك،لأَنَّهُ إِن لَم يَأخُذ كانَ عِند نَفسه مُتَطَوِّعًا بِالعَمَلِ فَقَد لا يَجِدّ جِدَّه مَن

[١٧٧٦] - صحيح البخاري (٩/ ٦٧)(٧١٦٣)

[ش (تلي..) تتولى القيام بشيء من الأعمال لهم كالقضاء ونحوه(ما تريد) ما هو قصدك من فعل هذا]

أَخَذَ رُكُونًا إِلَى أَنَّهُ غَير مُلتَزِم بِخِلافِ الَّذي يَأخُذ فَإِنَّهُ يَكُون مُستَشعِرًا بِأَنَّ العَمَل واجِب عَلَيه فَيَجِدّ جِدَّه فيها.

وقالَ ابن التِّين :وفِي هَذا الحَدِيث كَراهَة أَخذ الرِّزق عَلَى القَضاء مَعَ الاستغناء وأَنَّ المال طَيِّبًا.

كَذا قالَ :قالَ وفِيهِ جَواز الصَّدَقَة بِما لَم يُقبَض إِذا كانَ لِلمُتَصَدِّقِ واجِبًا،ولَكِنَّ قَولُه :"خُذهُ فَتَمَوَّلهُ وتَصَدَّق بِهِ " يَدُلّ عَلَى أَنَّ التَّصَدُّق بِهِ إِنَّما يَكُون بَعد القَبض،لأَنَّ المال إِذا مَلَكَهُ الإِنسان وتَصَدَّقَ بِهِ طَيِّبَة بِهِ نَفسه كانَ أَفضَل مِن تَصَدُّقه بِهِ قَبل قَبضه،لأَنَّ الَّذي يَحصُل بِيَدِه هُو أَحرَص عَلَيهِ مِمّا لَم يَدخُل فِي يَده،فَإِن استَوت عِند أَحَد الحالان فَمَرتَبَته أَعلَى،ولِذَلِكَ أَمَرَهُ بِأَخذِهِ وبَيَّنَ لَهُ جَواز تَمَوُّله إِن أَحَبَّ أَو التَّصَدُّق بِهِ .قالَ :وذَهَبَ بَعض الصُّوفِيَّة إِلَى أَنَّ المال إِذا جاءَ بِغَيرِ سُؤال فَلَم يَقبَلهُ فَإِنَّ الرّادّ لَهُ يُعاقَب بِحِرمانِ العَطاء.

وقالَ القُرطُبِيّ فِي "المُفهِم " فِيهِ ذَمّ التَّطَلُّع إِلَى ما فِي أَيدِي الأَغنِياء والتَّشَوُّف إِلَى فُضُوله وأَخذه مِنهُم،وهِيَ حالَة مَذمُومَة تَدُلّ عَلَى شِدَّة الرَّغبَة فِي الدُّنيا والرُّكُون إِلَى التَّوسُّع فِيها،فَنَهَى الشّارِع عَن الأَخذ عَلَى هَذِهِ الصُّورَة المَذمُومَة قَمعًا لِلنَّفسِ ومُخالَفَة لَها فِي هَواها انتَهَى."[١٧٧٧]

عَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ الْمُسْتَوْرِدَ بْنَ شَدَّادٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ،فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا،أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ،أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا،أَوْ لَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً،وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ " رواه أحمد[١٧٧٨]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:كُنْتَ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الْمُسْتَوْرِدُ بْنُ شَدَّادٍ وَعَمْرُو بْنُ غَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ،فَسَمِعْتُ الْمُسْتَوْرِدَ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا،فَلَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ،أَوْ خَادِمٌ،فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا،أَوْ مَسْكَنٌ فَلْيَتَّخِذْ مَسْكَنًا،أَوْ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً،وَمَنْ أَصَابَ سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٍ أَوْ سَارِقٌ»[١٧٧٩]

والحديث يدل على أن رزق العامل ينبغي أن يكون بقدر الكفاية.

[١٧٧٧] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٥٤)

[١٧٧٨] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٥٤٣)(١٨٠١٥) صحيح لغيره

[١٧٧٩] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٩٣)(٩٧٨) صحيح لغيره

كما يجب على الحكومة إعطاء الموظفين والعمال أجورهم دون تأخير أو مماطلة أو نقص،وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود } [المائدة:١]

يَا أيُّها الذِينَ آمَنُوا التَزمُوا الوَفَاءَ بِجَمِيعِ العُهُودِ التِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ،وَالعُهُودِ المَشْرُوعَةِ بَيْـنَكُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ.فَاللهُ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي هَذِهِ الآيَةِ المُؤْمِنِينَ بالوَفَاءِ بِمَا عَقَدُوهُ،وَارْتَبَطُوا بِهِ مِنْ قَـوْلٍ أَوْ فِعْلٍ كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى،مَا لَمْ يَكُنْ يُحَرِّمُ حَلاَلاً،أَوْ يُحَلِّلُ حَرَاماً:كَالعَقْدِ عَلَى الرِّبا،أَوْ أَكلِ مَالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ (كَالرَّشْوَةِ وَالقِمَارِ)[١٧٨٠]

وهذا أمر يقتضي وجوب الوفاء بالعقود،ومنها العقود التي بين الناس في المعاملات كالإجارة وغيرها،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" قَالَ اللَّهُ:ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْـمُهُمْ يَـوْمَ القِيَامَةِ:رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ،وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ،وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ "[١٧٨١]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ،قَبْلَ أَنْ يَجِـفَّ عَرَقُـهُ» رواه ابن ماجه وغيره[١٧٨٢]

[١٧٨٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٧٠،بترقيم الشاملة آليا)

[١٧٨١] - صحيح البخاري (٣/ ٨٢)(٢٢٢٧)

[ش (أعطى بي) عاهد باسمي وحلف.(غدر) نقض العهد ولم يف به أو لم يبر بقسمه.(باع حرا) وهو يعلم أنه حر.(فاستوفى منه) العمل الذي استأجره من أجله]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:ثَلَاثَةٌ) أَيْ رِجَالٌ أَوْ أَشْخَاصٌ (أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) قَالَ الْقَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ -:الْخَصْمُ مَصْدَرُ خَصَمْتُهُ أَخْصِمُهُ:نَعْتٌ فِي لِلْمُبَالَغَةِ كَالْعَدْلِ،زَادَ ابْنُ مَاجَهْ:وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ أَيْ:غَلَبْتُهُ فِي الْخُصُومَةِ (رَجُلٌ أَعْطَى بِي) أَيْ عَهِدَ بِاسْمِي وَحَلَفَ بِي أَوْ أَعْطَى الْأَمَانَ بِاسْمِي أَوْ بِمَا شَرَعْتُهُ مِنْ دِينِي (ثُمَّ غَدَرَ) أَيْ:نَقَضَهُ قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:وَهُوَ قَرِينٌ لِخُصُوصِيَّةِ الْإِعْطَاءِ بِالْعَهْدِ فَقَوْلُهُ بِي حَالٌ أَيْ:مَوْثِقًا بِي لِأَنَّ الْعَهْدَ مِمَّا يُوثَقُ بِهِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ قَالَ تَعَالَى:{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} [البقرة:٢٧]،(وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ) زِيدَ هَذَا الْقَيْدُ لِمَزِيدِ التَّوْبِيخِ (وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ) أَيْ:مَا أَرَادَ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ أَتَى بِهِ تَهَجِينًا لِلْأَمْرِ وَزِيَادَةً لِلتَّقْرِيعِ (وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ) وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَهْ وَلَمْ يُوَفِّهِ أَيْ لَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ وَافِيًا (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٩١)

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:تحريم بيع الحر وكونه من الكبائر،لأن هذا الوعيد لا يترتب إلاّ على كبيرة.ثانياً:أن من الكبائر الجرأة على الأيمان الباطلة،ونقض العهود،وأكل أجرة الأجير،لأنه استخدمه بغير عوض،وأكل حقه بالباطل،وهو من أقبح المظالم وأشدها.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٢٩٤)

[١٧٨٢] - سنن ابن ماجه (٢/ ٨١٧)(٢٤٤٣) والمعجم الصغير للطبراني (١/ ٤٣)(٣٤) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٤٢) ومسند الشهاب القضاعي (١/ ٤٣٣)(٧٤٤) صحيح لغيره

وفي الحديث الحث على إعطاء الأجرة والتعجيل في ذلك.

كما يجب العدل في العطاء بين المسلمين والتسوية بينهم في القسم،وألا يقدم أحد على أحـــد لأجل قرابة ونحوها،وإن ضاق المال عن الجميع فيقدم أصحاب الحاجات على الأغنياء،والعطاء هو ما يعطى للمسلمين في كل عام مرة واحدة أو مرتين،وأما الرزق فهو المال الذي يعطى في كل شهر لمن يقوم بمصالح المسلمين.

كما يجب على الدولة أن تسدَّ حاجات العاجزين على العمل والكسب كالأطفال وغيرهـــم حتى تحصل لهم الكفاية،فَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،إِنْ عَلَـــى الْأَرْضِ مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ،فَأَيُّكُمْ مَا تَرَكَ دَيْنًا،أَوْ ضَيَاعًا فَأَنَا مَوْلَـــاهُ،وَأَيُّكُمْ تَـــرَكَ مَالًا،فَإِلَى الْعَصَبَةِ مَنْ كَانَ»[١٧٨٣]

وقضاء دين الميت يتولاه الإمام إذا لم يترك الميت وفاءً،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ،وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَإِلَيْنَا» رواه البخاري ومسلم[١٧٨٤].

وَالْأَمْرُ بِإِعْطَائِهِ قَبْلَ جَفَافِ عَرَقِهِ إِنَّمَا هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ وُجُوبِ الْمُبَادَرَةِ عَقِبَ فَرَاغِ الْعَمَلِ،إِذَا طَلَبَ،وَإِنْ لَمْ يَعْرَقْ،أَوْ عَرِقَ وَجَفَّ .وَذَلِكَ لِأَنَّ أَجْرَهُ عِمَالَةُ جَسَدِهِ،وَقَدْ عَجَّلَ مَنْفَعَتَهُ،فَإِذَا عَجَّلَهَا اسْتَحَقَّ التَّعْجِيل .وَمِنْ شَأْنِ الْبَاعَةِ:إِذَا سَلَّمُوا قَبَضُوا الثَّمَنَ عِنْدَ التَّسْلِيمِ،فَهُوَ أَحَقُّ وَأَوْلَى،إِذْ كَانَ ثَمَنَ مُهْجَتِهِ،لاَ ثَمَنَ سِلْعَتِهِ،فَيَحْرُمُ مَطْلُهُ وَالتَّسْوِيفُ بِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٢/ ٢٢٣)

[١٧٨٣] – صحيح مسلم (٣/ ١٢٣٧)١٥ – (١٦١٩)

[ش (إن على الأرض من مؤمن) أي ما على الأرض مؤمن فإن نافية ومن زائدة لتوكيد العموم

(فأيكم ما ترك دينا أو ضياعا) ما هذه زائدة والضياع وكذا الضيعة في الرواية الثانية مصدر وصف به أي أولادا أو عيالا ذوي ضياع يعني لا شيء لهم(فأنا مولاه) أي وليه وناصره]

[١٧٨٤] – صحيح البخاري (٣/ ١١٨)(٢٣٩٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٣٨)١٧ – (١٦١٩)

[ش (كلا) عيالا لا نفقة لهم أو دينا لا وفاء له.(فإلينا) يرجع أمره والقيام به]

«أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ») أَيْ:فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ،وَشَفَقَتِي عَلَيْهِمْ أَكْثَرُ مِنْ شَفَقَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَأَكُونُ أَوْلَى بِقَضَاءِ دُيُونِهِمْ («فَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ وَلَمْ يَتْرُكْ وَفَاءً فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ») أَيْ:بَعْدَ قَضَاءِ دُيُونِهِ وَوَصِيَّتِهِ وَمِنْهُ أَخْذُ التَّرِكَةِ،فِي الْفَائِقِ:التَّرِكَةُ اسْمٌ لِلْمَتْرُوكِ كَمَا أَنَّ الطَّلِبَةَ اسْمٌ لِلْمَطْلُوبِ وَمِنْهُ تَرِكَةُ الْمَيِّتِ (وَفِي رِوَايَةٍ:«مَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا») بِفَتْحِ الضَّادِ وَيُكْسَرُ أَيْ:عِيَالًا («فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ») أَيْ:وَلِيُّهُ وَكَافِلُ أَمْرِهِ قَالَ الْقَاضِيَ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:ضَيَاعًا بِالْفَتْحِ يُرِيدُ بِهِ الْعِيَالَ الْعَالَةَ مَصْدَرٌ أُطْلِقَ مَقَامَ اسْمِ الْفَاعِلِ لِلْمُبَالَغَةِ كَالْعَدْلِ وَالصَّوْمِ وَرُوِيَ بِالْكَسْرِ عَلَى أَنَّهُ جَمْعُ ضَائِعٍ كَجِيَاعٍ فِي جَمْعِ جَائِعٍ.فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:الضَّيَاعُ اسْمُ مَا هُوَ فِي مَعْرَضِ أَنْ يَضِيعَ إِنْ لَمْ يُتَعَهَّدْ كَالذُّرِّيَّةِ الصِّغَارِ وَالزَّمْنَى الَّذِينَ لَا يَقُومُونَ بِأَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَمَنْ يَدْخُلُ فِي مَعْنَاهُمْ (وَفِي رِوَايَةٍ:«مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا») بِفَتْحِ

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ الْكِنْدِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ،وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَإِلَى اللَّهِ» – وَرُبَّمَا قَالَ:قَالَ «فَإِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:الْكَلُّ عِنْدَنَا:كُلُّ عَيِّلٍ،وَالذُّرِّيَّةُ مِنْهُمْ،فَجَعَلَ ﷺ لِلذُّرِّيَّةِ فِي الْمَالِ حَقًّا ضَمِنَهُ لَهُمْ"[1785]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ المُتَوَفَّى،عَلَيْهِ الدَّيْنُ،فَيَسْأَلُ:«هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ فَضْلًا؟»،فَإِنْ حُدِّثَ أَنَّهُ تَرَكَ لِدَيْنِهِ وَفَاءً صَلَّى،وَإِلَّا قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ:«صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»،فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الفُتُوحَ،قَالَ:«أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ،فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا،فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ،وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ»[1786]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى السُّوقِ،فَلَحِقَتْ عُمَرَ امْرَأَةٌ شَابَّةٌ،فَقَالَتْ:يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ،هَلَكَ زَوْجِي وَتَرَكَ صِبْيَةً صِغَارًا،وَاللَّهِ

الْكَافِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ أَيْ:ثِقَلًا قَالَ تَعَالَى {وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ} [النحل:٧٦] وَهُوَ يَشْمَلُ الدَّيْنَ وَالْعِيَالَ (فَإِلَيْنَا) أَيْ:مَرْجِعُهُ وَمَأْوَاهُ أَوْ فَلْيَأْتِ إِلَيْنَا أَيْ:أَنَا أَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ وَأَنْصُرُهُمْ فَوْقَ مَا كَانَ مِنْهُمْ لَوْ عَاشُوا،فَإِنْ تَرَكُوا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ فَأَذُبُّ الْمُسْتَأْكِلَةَ مِنَ الظَّلَمَةِ أَنْ يَحُومُوا حَوْلَهُ فَيَخْلُصُ لِوَرَثَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَتْرُكُوا وَتَرَكُوا ضَيَاعًا وَكَلًّا مِنَ الْأَوْلَادِ فَأَنَا كَافِلُهُمْ وَإِلَيْنَا مَلْجَأُهُمْ،وَإِنْ تَرَكُوا دَيْنًا فَعَلَيَّ أَدَاؤُهُ،وَلِهَذَا وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ – عَزَّ مِنْ قَائِلٍ -:{بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة:١٢٨] وَقَوْلِهِ {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب:٦] وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تُفَسَّرَ الْآيَةُ أَيْضًا،وَلِأَنَّ قَوْلَهُ " {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب:٦] " إِنَّمَا يَتَلَاءَمُ إِذَا قُلْنَا:إِنَّهُ – ﷺ- كَالْأَبِ الْمُشْفِقِ بَلْ هُوَ أَرْأَفُ وَأَرْحَمُهُمْ بِهِمْ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢٠٢١)

[1785] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٠٢)(٥٨١) صحيح

[1786] – صحيح البخاري (٣/ ٩٨)(٢٢٩٨)

يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْمُتَوَفَّى):أَيْ:بِالْمَيِّتِ (عَلَيْهِ الدَّيْنُ):جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ (فَسَأَلَ):أَيِ:النَّبِيُّ – ﷺ- (هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ قَضَاءً):أَيْ:مَا يُقْضَى بِهِ دَيْنُهُ (فَإِنْ حُدِّثَ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ:أُخْبِرَ (أَنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً صَلَّى):أَيْ عَلَيْهِ كَمَا فِي نُسْخَةٍ (وَإِلَّا):يَحْتَمِلُ احْتِمَالَانِ (قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ:صَلُّوا):أَيْ:أَنْتُمْ (عَلَى صَاحِبِكُمْ،فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ):أَيِ:الْفُتُوحَاتِ الْمَالِيَّةَ (قَامَ):أَيْ:خَطِيبًا (فَقَالَ:أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ):وَالْحَدِيثُ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب:٦]،أَيْ:أَوْلَى فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَلِذَا أُطْلِقَ وَلَمْ يُقَيَّدْ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ،وَحُكْمُهُ أَنْفَذَ عَلَيْهِمْ مِنْ حُكْمِهَا،وَحَقُّهُ آثَرَ لَدَيْهِمْ مِنْ حُقُوقِهَا،وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَمَ مِنْ شَفَقَتِهِمْ عَلَيْهَا.وَكَذَلِكَ شَفَقَتُهُ – ﷺ- عَلَيْهِمْ أَحَقُّ وَأَحْرَى مِنْ شَفَقَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْغَنِيمَةُ يَكُونُ هُوَ أَوْلَى بِقَضَاءِ دَيْنِهِمْ (فَمَنْ تُوُفِّيَ):مُسَبَّبٌ عَمَّا قَبْلَهُ،أَيْ:فَمَنْ مَاتَ (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا):أَيْ وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ (فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ):أَيْ قَضَاءُ دَيْنِهِ («وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَهُوَ لِوَرَثَتِهِ»):أَيْ بَعْدَ قَضَاءِ دَيْنِهِ.قِيلَ:كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْضِي مِنْ مَالِ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ الظَّاهِرُ وَقِيلَ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ،فَقِيلَ كَانَ هَذَا الْقَضَاءُ وَاجِبًا عَلَيْهِ،وَقِيلَ كَانَ تَبَرُّعًا وَالْقَوْلَانِ مُتَفَرِّعَانِ عَلَى الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٥٨)

مَا يُنْضِجُونَ كُرَاعًا،وَلاَ لَهُمْ زَرْعٌ وَلاَ ضَرْعٌ،وَخَشِيتُ أَنْ تَأْكُلَهُمُ الضَّبُعُ،وَأَنَا بِنْتُ خُفَافِ بْنِ إِيْمَاءَ الغِفَارِيِّ،«وَقَدْ شَهِدَ أَبِي الحُدَيْبِيَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ».فَوَقَفَ مَعَهَا عُمَرُ وَلَمْ يَمْضِ،ثُمَّ قَالَ:مَرْحَبًا بِنَسَبٍ قَرِيبٍ،ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى بَعِيرٍ ظَهِيرٍ كَانَ مَرْبُوطًا فِي الدَّارِ،فَحَمَلَ عَلَيْهِ غِرَارَتَيْنِ مَلَأَهُمَا طَعَامًا،وَحَمَلَ بَيْنَهُمَا نَفَقَةً وَثِيَابًا،ثُمَّ نَاوَلَهَا بِخِطَامِهِ،ثُمَّ قَالَ:اقْتَادِيهِ،فَلَنْ يَفْنَى حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِخَيْرٍ،فَقَالَ رَجُلٌ:يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ،أَكْثَرْتَ لَهَا؟ قَالَ عُمَرُ:ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ،وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى أَبَا هَذِهِ وَأَخَاهَا،قَدْ حَاصَرَا حِصْنًا زَمَانًا فَافْتَتَحَاهُ،ثُمَّ أَصْبَحْنَا نَسْتَفِيءُ سُهْمَانَهُمَا فِيهِ" رواه البخاري[1787]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:عُرِضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ:وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ:لَا يَفْرِضُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْحُلُمَ إِلَّا مِائَةَ دِرْهَمٍ ،وَكَانَ لَا يَفْرِضُ لِمَوْلُودٍ حَتَّى يُفْطَمَ،فَبَيْنَا هُوَ يَطُوفُ ذَاتَ لَيْلَةٍ بِالْمُصَلَّى بَكَى صَبِيٌّ،فَقَالَ لِأُمِّهِ:أَرْضِعِيهِ،فَقَالَتْ:إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَفْرِضُ لِمَوْلُودٍ حَتَّى يُفْطَمَ وَإِنِّي قَدْ فَطَمْتُهُ،فَقَالَ عُمَرُ:«إِنْ كِدْتُ لَأَقْتُلُهُ أَرْضِعِيهِ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَوْفَ يَفْرِضُ لَهُ،ثُمَّ فَرَضَ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْمَوْلُودِ حِينَ يُولَدُ» رواه الطبراني[1788].

وعن ابْنِ عُمَرَ قَالَ:قَدِمَتْ رُفْقَةٌ مِنَ التُّجَّارِ فَنَزَلُوا الْمُصَلَّى فَقَالَ عُمَرُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ:هَلْ لَكَ أَنْ نَحْرُسَهُمُ اللَّيْلَةَ مِنَ السَّرَقِ؟ فَبَاتَا يَحْرُسَانِهِمْ وَيُصَلِّيَانِ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمَا.فَسَمِعَ عُمَرُ بُكَاءَ صَبِيٍّ فَتَوَجَّهَ نَحْوَهُ فَقَالَ لِأُمِّهِ:اتَّقِي اللَّهَ وَاحْسِنِي إِلَى صَبِيِّكِ.ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَانِهِ.فَسَمِعَ بُكَاءَهُ فَعَادَ إِلَى أُمِّهِ فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَانِهِ.فَلَمَّا كَانَ فِي آخِرِ

[1787] - صحيح البخاري (٥/ ١٢٤)(٤١٦٠)

[ش (هلك) مات.(لا ينضجون كراعا) ليس عندهم كراع حتى ينضجوه والكراع ما دون الكعب من الدواب.(زرع) أرض يزرعونها.(ضرع) كناية عن المواشي.(الضبع) السنة الشديدة المجدبة.(نسب قريب) أي انتسب إلى شخص معروف.(ظهير) قوي الظهر معد للحاجة.(غرارتين) تثنية غرارة وهي وعاء يتخذ للتبن وغيره.(بخطامه) الحبل الذي يقاد به البعير.(ثكلتك أمك) كلمة تقولها العرب للإنكار على المخاطب ولا يريدون حقيقة معناها الذي هو الدعاء بالموت أي فقدتك أمك.(حصنا) قيل أحد حصون خيبر.(نستفيء) نطلب الفيء وهو ما يأخذه المسلمون من يد الكفار بدون قتال.(سهمانهما) جمع سهم وهو النصيب أي هما فتحاه ونحن الآن ننتفع بثمرة جهدهما]

[1788] - المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٢٥٩)(١٣٠٤٢) ومصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٣١١)(٩٧١٧) ومعجم ابن الأعرابي (٢/ ٦٠٥)(١١٩٦) صحيح

اللَّيْلِ سَمِعَ بُكَاءَهُ فَأَتَى أُمَّهُ فَقَالَ:وَيْحَك.إِنِّي لأَرَاكِ أُمَّ سُوءٍ.مَا لِي أَرَى ابْنَكِ لا يَقِرُّ مُنْذُ اللَّيْلَة؟ قَالَتْ:يَا عَبْدَ اللَّهِ قَدْ أَبْرَمْتَنِي مُنْذُ اللَّيْلَة.إِنِّي أُرِيغُهُ عَنِ الْفِطَامِ فأبى.قَالَ:وَلِمَ؟ قَالَتْ:لأَنَّ عُمَرَ لا يَفْرِضُ إِلا لِلْفُطُم.قَالَ:وَكَمْ لَهُ؟ قَالَتْ:كَذَا وَكَذَا شَهْرًا.قَالَ:وَيْحَكِ لا تُعْجِلِيهُ! فَصَلَّى الْفَجْرَ وَمَا يَسْتَبِينُ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ مِنْ غَلَبَةِ الْبُكَاءِ.فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ:يَا بُؤْسًا لِعُمَرَ كَمْ قَتَلَ مِنْ أَوْلادِ الْمُسْلِمِينَ! ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى:أَلا لا تُعْجِلُوا صِبْيَانَكُمْ عَنِ الْفِطَامِ فَإِنَّا نَفْرِضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الإِسْلامِ.وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى الآفَاقِ:إِنَّا نَفْرِضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الإِسْلامِ.[١٧٨٩]

وعَنْ بِشْرِ بْنِ غَالِبٍ،قَالَ:سُئِلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ:مَتَى يَجِبُ سَهْمُ الْمَوْلُودِ؟ قَالَ:إِذَا اسْتَهَلَّ،قِيلَ:فَعَلَى مَنْ فِدَاءُ الْأَسِيرِ؟ قَالَ:عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُقَاتِلُ عَنْهَا"[١٧٩٠]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:كَانَ عُمَرُ لَا يَفْرِضُ لِلْمَوْلُودِ حَتَّى يُفْطَمَ،قَالَ:ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى:لَا تَعْجَلُوا أَوْلَادَكُمْ عَنِ الْفِطَامِ؛فَإِنَّا نَفْرِضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ،قَالَ:وَكَتَبَ بِذَلِكَ فِي الْآفَاقِ بِالْفَرْضِ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ"[١٧٩١]

وعن هِلَالٍ الْمَدِينِيِّ،عَنْ جَدَّتِي أَنَّهَا كَانَتْ تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،فَفَقَدَهَا يَوْمًا،فَقَالَ لِأَهْلِه:«مَا لِي لَا أَرَى فُلَانَةَ؟» فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَدَتِ اللَّيْلَةَ غُلَامًا،فَقَالَتْ:فَأَرْسَلَ إِلَيَّ بِخَمْسِينَ دِرْهَمًا وَشَقِيقَةٍ سَنْبَلَانِيَّةٍ،ثُمَّ قَالَ:«هَذَا عَطَاءُ ابْنِكِ،وَهَذِهِ كِسْوَتُهُ،فَإِذَا مَرَّتْ بِهِ سَنَةٌ رَفَعْنَاهُ إِلَى مِائَةٍ»[١٧٩٢]

وقال أَبُو إِسْحَاقَ،إِنَّ جَدَّهُ الْخِيَارَ أَتَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَقَالَ:كَمْ مَعَكَ مِنْ عِيَالِكَ يَا شَيْخُ؟ قَالَ:إِنَّ مَعِيَ كَذَا،قَالَ:أَمَّا أَنْتَ يَا شَيْخُ،فَقَدْ فَرَضْنَا لَكَ فِي خَمْسَ عَشْرَةَ – قَالَ زُهَيْرٌ:يَعْنِي أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ – وَلِعِيَالِكَ مِائَةً مِائَةً "[١٧٩٣]

وعَنْ تَمِيمِ بْنِ مَسِيحٍ،قَالَ:«أَتَيْتُ عَلِيًّا بِمَنْبُوذٍ فَأَثْبَتَّهُ فِي مِائَةٍ» [١٧٩٤]

[١٧٨٩] – الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٢٢٨) ضعيف

[١٧٩٠] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٠٢)(٥٨٢) ضعيف

[١٧٩١] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٠٢)(٥٨٣) ضعيف

[١٧٩٢] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٠٣)(٥٨٤) والطبقات الكبرى ط العلمية (٥/ ٤٧٠)حسن

[١٧٩٣] – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٢٧)(٨٥٥) والطبقات الكبرى ط العلمية (٦/ ٣١١)صحيح

[١٧٩٤] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٠٤)(٥٨٧) فيه ضعف

وعن مَرْوَانَ بْنِ شُجَاعٍ الْجَزَرِيِّ،قَالَ:أَثْبَتَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَنَا فَطِيمٌ فِي عَشَرَةِ دَنَانِيرَ" [1795]

وعَنْ عِيَاضٍ الْأَشْعَرِيِّ ،أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ " كَانَ يَرْزُقُ الْعَبِيدَ وَالْإِمَاءَ وَالْخَيْلَ "[1796]

وعَنْ وُهَيْبٍ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ كَانَ فِي إِمَارَةِ عُثْمَانَ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ،قَالَ :فَدَخَلَ عُثْمَان وَأَبْصَرَ وُهَيْبًا يُعِينُهُمْ،قَالَ :مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ :مَمْلُوكٌ لِي،فَقَالَ :أَرَاهُ يُعِينُهُمْ ،افْرِضْ لَهُ أَلْفَيْنِ،قَالَ :فَفرَضَ لَهُ أَلْفًا. [1797]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَفْرِضُ لِلصَّبِيِّ إِذَا اسْتَهَلَّ. [1798]

وعَنْ بِشْرِ بْنِ غَالِبٍ قَالَ:سَأَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ الْمَوْلُودِ ،فَقَالَ:" إِذَا اسْتَهَلَّ وَجَبَ عَطَاؤُهُ وَرِزْقُهُ "[1799]

وعَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ ،أَنَّ أَبَاهَا انْطَلَقَ بِهَا إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَفَرَضَ لَهَا فِي الْعَطَاءِ وَهِيَ صَغِيرَةٌ،وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" مَا الصَّبِيُّ الَّذِي أَكَلَ الطَّعَامَ،وَعَضَّ عَلَى الْكَسْرَةِ،بِأَحَقَّ بِهَذَا الْعَطَاءِ مِنَ الْمَوْلُودِ الَّذِي يَمُصُّ الثَّدْيَ " وَهَذِهِ الْآثَارُ مَعَ سَائِرِ مَا رُوِيَ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَحْمُولَةٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُفْرَضُ لِلرَّجُلِ قَدْرَ كِفَايَتِهِ وَكِفَايَةِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَعَبْدِهِ وَدَابَّتِهِ،وَاللهُ أَعْلَمُ"[1800].

وقَالَتْ أُمُّ الْأَعْلَى ابْنَةُ الْأَعْلَمِ الْبَرْجَمِيَّةُ:حَمَلَنَا أَبِي أَنَا وَأُخْتِي،إِلَى عَلِيٍّ فَأَلْحَقَنَا فِي مائة،قَالَتْ:وَقَالَ:«لَيْسَ الصَّبِيُّ الَّذِي يَعَضُّ عَلَى الْكِسْرَةِ وَيَأْكُلُ الطَّعَامَ بِأَحَقَّ بِالْعَطَاءِ مِنَ الْمَوْلُودِ الَّذِي يَمُصُّ الثَّدْيَ»[1801]

ومن الواجبات أن تقوم الحكومة ببناء المساجد وإنشاء المشاريع النافعة والمرافق والخدمات العامة كالمدارس والمستشفيات وإصلاح الطرق وغيرها.

[1795] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٠٤)(٥٨٨) صحيح

[1796] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٦٤)(١٢٩٧٤) صحيح

[1797] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٨١)(٣٣٥٥٥) فيه جهالة

[1798] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٨٢)(٣٣٥٥٩) صحيح

[1799] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٦٤)(١٢٩٧٦) فيه جهالة

[1800] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٦٤)(١٢٩٧٧) حسن

[1801] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٢٧)(٨٥٨) حسن

التجارة

لقد حثت ورغبت الشريعة الإسلامية بالتجارة وطلب الرزق،فقال تعالى:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } [الملك:١٥]

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الذي سَخَّرَ الأَرْضَ للْعبَاد،وَجَعَلَهَا مُذَلَّلَةً سَاكنَةً،وَأَرْسَاهَا بالجبَال لكَيْلاَ تَضْطَرِب وَتَميدَ بمَنْ عَلَيهَا منَ الخَلاَئق،وَأَخْرَجَ منْهَا الميَاهَ،وَسَلَكَهَا فِي الأَرْضِ جَدَاوِلَ وَأَنْهَاراً،ليَنْتَفعَ بهَا الخَلْقُ في الشُّرْب،وَفي رَيِّ زُرُوعِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ،وَجَعَلَ فِي الأَرْضِ سُبُلاً،فَسَافِرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ في أَرْجَائهَا حَيْثُ شئْتُمْ،وَتَرَدَّدُوا في أَرْجَائهَا وَأَقَاليمهَا طَلَباً للرِّزْق وَالتِّجَارَة،وَكُلُوا ممَّا أَخْرَجَهُ لَكُمْ منْهَا منَ الرِّزْق،وَإِلَى الله مَرْجعُ الأَمْر،وَإليه يَصيرُ الخَلْقُ يَوْمَ القيَامَة ليُحَاسبَهُمْ عَلَى أَعْمَالهمْ جَميعاً.

والمَخْلُوقَاتُ تَسْعَى في الرِّزْق وَفْقَ الأَسْبَاب اللاَزمَة لَهُ وَلَكنَّ سَعْيَهَا وَحْدَهُ لاَ يَكْفِي،وَلاَ يُجْدي عَلَيْهَا نفعاً إلاَّ أَنْ يُيَسِّرَهُ اللهُ لَهَا،فَالسَّعْيُ في السَّبَب لاَ يُنَافي التَّوَكُّلَ.[1802]

وقال تعالى:{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الجمعة:١٠]

فَإِذَا أَدَّيْتُمُ الصَّلاَةَ فَتَفَرَّقُوا لمُبَاشَرَة مَصَالحكُمْ الدُّنْيَويَّة،وَاسْأَلُوا اللهَ الرِّزْقَ الحَلاَلَ،واذْكُرُوا اللهَ كَثيراً أَثْنَاءَ بَيْعكُمْ وَشرَائكُمْ،وَلاَ تَتْركُوا الدُّنْيَا تَشْغَلُكُمْ عَمَّا يَنْفَعُكُمْ في الآخرَة،لَعَلَّكُمْ إذَا فَعَلْتُمْ ذَلكَ تُفْلحُونَ،وَتَفُوزُونَ برضَا الله،وَحُسْنِ ثَوَابه.[1803]

هو دعوة إلى العمل،وإلى السعى إليه،كما سعى المؤمنون إلى الصلاة..

فالسعى إلى العمل،أداء لحقّ النفس،وحقّ الأهل والولد،كما أن السعى إلى الصلاة أداء لحق الله سبحانه وتعالى،وكلا الحقّين واجب الأداء،فمن قصّر فى أحدهما،حوسب عليه حساب المقصّرين.وفى قوله تعالى:«فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» دعوة إلى أن يملأ

[1802] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

[1803] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٦٥،بترقيم الشاملة آليا)

المسلمون وجوه الأرض،سعيا وعملا،وأن يأخذوا بكلّ ما يمكّن لهم منها،ويقيم لهم فيها المقام الكريم،وألا يقصروا جهدهم على جانب منها،أو فى ميدان من ميادينها،بل ينبغى أن يكون لهم فى كل ميدان مجال،وفى كل موقع عمل..

وفى الدعوة إلى الانتشار فى الأرض بعد الاجتماع بين يدى الله فى الصلاة- فى هذا جمع بين العبادة والعمل،وبين ذكر الله والسعى فى الأرض..فقد جاءت الدعوة من الله سبحانه لصلاة الجمعة،موجهة إلى من هم مشغولون بالعمل،ساعون لطلب الرزق،وإن كانت الدعوة عامة إلى كل من تجب عليه صلاة الجمعة..ثم جاء الأمر إلى هؤلاء الذين حضروا الصلاة- أن ينتشروا فى الأرض،ويبتغوا من فضل الله،بعد أن تزودوا بهذا الزاد الطيب من ذكر الله،وبذلك يستقيم لهم الطريق،وتفتح لهم أبواب الرزق الطيب المبارك.

وفى قوله تعالى:«وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» - إشارة إلى هؤلاء المنطلقين للعمل،الساعين إلى الابتغاء من فضل الله،أن يذكروا الله دائما،وأن يستحضروا جلاله وعظمته،فى كل حال،لا فى وقت الصلاة..ففى ذلك فلاح أي فلاح،حيث يجد الذاكر لله سبحانه وتعالى،حارسا يحرسه من وساوس الشيطان،وأهواء النفس،فلا يتعثر،ولا ينحرف،ولا يزلّ.[1804]

فإذا أدى المسلم الصلاة فليسعَ في الكسب وطلب الرزق مع مداومته على ذكر الله في جميع أحواله وتصرفاته في طلب الرزق وغيره.

وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي.التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض،من عمل وكد ونشاط وكسب.وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر.وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى.وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش،والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة.ولكنه - مع هذا - لا بد من فترة للذكر الخالص،والانقطاع الكامل،والتجرد الممحض.كما توحي هاتان الآيتان.

[1804] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩٥٢)

كَانَ عَرَّاكُ بْنُ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ:اللَّهُمَّ،أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ،وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ،وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ [1805].

وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جدا،في بساطة تامة،فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك! [1806]

وقال تعالى:{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل:١٤]

يَلْفِتُ اللهُ تَعَالَى نَظَرَ عِبَادِهِ إِلَى البَحْرِ المُتَلاَطِمِ الأَمْوَاجِ،وَمَا فِيهِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ يَأْكُلُ مِنْهَا الإِنْسَانُ لَحْماً طَرِيّاً،وَمَا جَعَلَ فِيهِ مِنْ مَنَافِعَ لِلْبَشَرِ،إِذْ يَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ اللآلِىءَ وَالمَرْجَانَ وَغَيْرَهَا،وَيَجْعَلُونَ مِنْهَا الحُلِيَّ،وَإِذْ يُسَيِّرُونَ فِيهِ السُّفُنَ وَالمَرَاكِبَ،تَشُقُّ أَمْوَاجَهُ (تَمْخُرُ فِيهِ)،لِيَنْتَقِلُوا بِوَاسِطَتِهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ لِلتِّجَارَةِ وَنَقْلِ البَضَائِعِ وَتَأْمِينِ الرِّزْقِ،وَقَدْ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى صُنْعِ السُّفُنِ،وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَنَعَ سَفِينَةً هُوَ نُوحٌ،عَلَيْهِ السَّلاَمُ.وَيُذَكِّرُ اللهُ النَّاسَ بِجميعِ هذه النِّعَمِ التي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَهَا،وَيُقَدِّرُونَهَا،فَيَشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَيْهَا،وَيَعْرِفُوا عَظِيمَ قُدْرَتِهِ عَلَى الخَلْقِ وَالبَعْثِ وَالحَشْرِ وَالحِسَابِ.[1807]

وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } [الفرقان:٢٠]

يَرُدُّ اللهُ تَعالى عَلَى هَؤُلاءِ،وَهُوَ يُخاطِبُ رَسُولَه ﷺ قَائِلاً:إِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُرْسِلِ الرُّسُلَ قَبْلَ مُحَمَّد إِلاَّ مِنَ البَشَرِ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَتزَوَّجُونَ،وَيَتَكَسَّبُونَ بالعَمَلِ،وَلَيسَ في ذَلِكَ غَرَابَةٌ،وَلا مُنَافَاةٌ لِحَالِ النُّبُوَّة.وَجَعَل اللهُ للأَنْبِيَاءِ مِنْ حَسْنِ القَوْلِ،وَمِمّا أَجْرَاهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الآيَاتِ،دَلاَئِلَ وَحُجَجاً عَلَى صِحَّة دَعْوَتِهِمْ،وَصِدْق ما جَاؤُوا به أَقْوَامَهُم،وَجَعَلَ اللهُ بَعْضَ النَّاسِ ابْتِلاءً لِبَعْضٍ،وَالمُفْسِدُونَ يُحَاوِلُونَ سَدَّ الطَّرِيقِ إِلى الهِدَايةِ وَالحَقِّ،بِشَتَّى الأَسَالِيبِ،فَهَلْ تَصْبِرُونَ يَا أَيُّها

[1805] - تفسير ابن أبي حاتم - محققا (١٠/ ٣٣٥٦)(١٨٨٩٧) صحيح

[1806] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٦٢)

[1807] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩١٦،بترقيم الشاملة آليا)

الْمُؤْمِنُونَ عَلَى هذا الابتلاء،وَتَتَمسَّكُونَ بدِينكُمْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بنَصرِهِ؟ فَإنّ اللهَ تَعَالَى بَصِيرٌ مُطَّلِعٌ عَلى أَحْوَالِ العِبَادِ،وَسَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِهِ.[١٨٠٨]

وقال تعالى:{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا } [الفرقان:٧]

وَقَالَ هَؤُلاَءِ الكُفَّارُ،إمْعاناً فِي عِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ:إنَّ هَذَا الرَّسُولَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ مِثْلَمَا نَأْكُلُ،وَيَشْرَبُ كَمَا نَشْرَبُ،وَيَتَجَوَّلُ فِي الأَسْوَاقِ طَلَباً لِلتَّكَسُّبِ والتجارَةِ،فَكَيْفَ يُرِيدُنَا أَنْ نَصَدِّقَهُ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ وَهَلاَّ أَنْزلَ اللهُ مَلَكاً مِنْ عِنْدِهِ،فَيَكُونَ شَاهِداً لَهُ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يَدَّعِيهِ؟[١٨٠٩]

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يشتغلون بالتجارة والزراعة فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:يَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الحَدِيثَ،وَاللَّهُ المَوْعِدُ،وَيَقُولُونَ:مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لاَ يُحَدِّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ؟ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ المُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ،وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ،وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا،أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي،فَأَحْضُرُ حِينَ يَغِيبُونَ،وَأَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ،وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا:«لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ،ثُمَّ يَجْمَعَهُ إِلَى صَدْرِهِ فَيَنْسَى مِنْ مَقَالَتِي شَيْئًا أَبَدًا» فَبَسَطْتُ نَمِرَةً لَيْسَ عَلَيَّ ثَوْبٌ غَيْرُهَا،حَتَّى قَضَى النَّبِيُّ ﷺ مَقَالَتَهُ،ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي،فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ،مَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَتِهِ تِلْكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا،وَاللَّهِ لَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ،مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى} [البقرة:١٥٩] إِلَى قَوْلِهِ {الرَّحِيمُ} [البقرة:١٦٠][١٨١٠].

[١٨٠٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٥٧،بترقيم الشاملة آليا)

[١٨٠٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٤٤،بترقيم الشاملة آليا)

[١٨١٠] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٩)(٢٣٥٠) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٠)(٢٤٩٣)

[ش (والله الموعد) عند الله تعالى اللقاء يوم القيامة وهو يحاسبني إن كذبت ويحاسب من ظن بي السوء].

(قَالَ:إِنَّكُمْ) أَيْ:مَعْشَرَ التَّابِعِينَ،وَقِيلَ الْخِطَابُ مَعَ الصَّحَابَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ (تَقُولُونَ:أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ)،أَيِ الرِّوَايَةَ (عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ- وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ) أَيْ:مَوْعِدُنَا،فَيَظْهَرُ عِنْدَهُ صِدْقُ الصَّادِقِ وَكَذِبُ الْكَاذِبِ،لِأَنَّ الْأَسْرَارَ تَنْكَشِفُ هُنَالِكَ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ لِقَاءُ اللَّهِ الْمَوْعِدُ،وَيَعْنِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،فَهُوَ يُحَاسِبُنِي عَلَى مَا أَزِيدُ وَأَنْقُصُ،لَا سِيَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- وَقَدْ قَالَ:(«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ») .(وَإِنَّ إِخْوَتِي) أَيْ:إِخْوَانِي وَأَصْحَابِي (مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ):بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالْغَيْنِ وَأَمَّا

وعَنْ عُبَيْد بْنِ عُمَيْرٍ،قَالَ:اسْتَأْذَنَ أَبُو مُوسَى عَلَى عُمَرَ فَكَأَنَّهُ وَجَدَهُ مَشْغُولًا فَرَجَعَ،فَقَالَ عُمَرُ:أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْد اللَّه بْنِ قَيْسٍ،ائْذَنُوا لَهُ،فَدُعِيَ لَهُ،فَقَالَ:مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ:«إِنَّا كُنَّا نُؤْمَرُ بِهَذَا»،قَالَ:فَأْتني عَلَى هَذَا بِبَيِّنَة أَوْ لَأَفْعَلَنَّ بكَ،فَانْطَلَقَ إِلَى مَجْلسٍ منَ الأَنْصَارِ،فَقَالُوا:لاَ يَشْهَدُ إِلَّا أَصَاغرُنَا،فَقَامَ أَبُو سَعيد الخُدْرِيُّ فَقَالَ:«قَدْ كُنَّا نُؤْمَرُ بِهَذَا»،فَقَالَ عُمَرُ خَفيَ عَلَيَّ هَذَا منْ أَمْرِ النَّبيِّ ﷺ،أَلْهَاني الصَّفْقُ بالأَسْوَاق" رواه البخاري ومسلم[1811] .

وعَنْ عَبْد الله أَخي أُمِّ سَلَمَةَ،قَالَ:سَمعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ،تَقُولُ:«لَقَدْ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ تَاجرًا إِلَى بُصْرَى،لَمْ يَمْنَعْ أَبَا بَكْرٍ منَ الظَّنِّ برَسُول الله ﷺ شُحُّهُ عَلَى نَصيبِه منَ الشُّخُوصِ لِلتِّجَارَةِ،وَذَلكَ كَانَ لإِعْجَابِهِمْ كَسْبَ التِّجَارَةِ وَحُبِّهِمْ لِلتِّجَارَةِ،وَلَمْ يَمْنَعْ رَسُولُ الله

الضَّمُّ وَالْكَسْرُ فَلُغَةٌ قَليلَةٌ أَوْ رَديئَةٌ أَيْ:يَمْنَعُهُمْ (الصَّفقُ):بفَتْحٍ فَكَسْرٍ أَيْ:ضَرْبُ الْيَد عَلَى الْيَد عنْدَ الْبَيْعِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ كنَايَةٌ عَنِ الْعُقُود في الْبَيْعِ وَالشِّرَاء (وَإِنَّ إِخْوَتي منَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَمْوَالهِمْ) أَيِ:الْمَوَاضعُ الَّتي فيهَا نَخيلُهُمْ،وَالْحَاصلُ أَنَّ الْمُهَاجرينَ كَانُوا أَصْحَابَ تجَارَات وَالْأَنْصَارَ أَصْحَابُ زرَاعَات.(وَكُنْتُ امْرَأً مسْكينًا) أَيْ:عَاجزًا عَنْ مَال التِّجَارَة وَأَسْبَاب الزِّرَاعَة (أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّه – ﷺ–) أَيْ:صُحْبَتَهُ وَخدْمَتَهُ حَامدًا (عَلَى مَلْءِ بَطْني):قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ حَالٌ أَيْ أَلْزَمُهُ – ﷺ– قَانعًا بمَا يَمْلَأُ بَطْني،فَعَدَّاهُ بعَلَى مُبَالَغَةً،وَفي مَعْنَاهُ قَوْلُ الشَّاعرِ:

فَإِنْ مَلَكْتَ كَفَافَ قُوت فَكُنْ به ...قَنيعًا فَإِنَّ الْمُتَّقيَ اللَّهَ قَانعُ

(وَقَالَ النَّبيُّ – ﷺ– يَوْمًا:لَنْ يَبْسُطَ) أَيْ:لَنْ يَفْرشَ (أَحَدٌ منْكُمْ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضيَ) أَيْ:أُفْرِغَ (مَقَالَتي هَذه):كَأَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى دُعَاء دَعَاهُ حينَئذ ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ،وَقيلَ:كَانَتْ مَقَالَتُهُ دُعَاءَهُ للصَّحَابَة بالْحفْظ وَالْفَهْم،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بهَا الْكَلَامُ الَّذي كَانَ شَرَعَ فيه (ثُمَّ يَجْمَعَهُ):بالنَّصْب وَالرَّفْعِ أَيْ:يَضُمُّ ثَوْبَهُ (إِلَى صَدْرِه فَيَنْسَى منْ مَقَالَتي) أَيْ:منْ أَحَاديثي (شَيْئًا أَبَدًا):قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ جَوَابُ النَّفْيِ عَلَى تَقْدير أَنْ،فَيَكُونُ عَدَمُ النِّسْيَان مُسَبَّبًا عَنِ الْمَذْكُورَات كُلِّهَا،وَأُوثرَتْ (لَنْ) النَّافيَةُ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ النِّسْيَانَ بَعْدَ ذَلكَ كَالْمُحَال،وَقَوْلُهُ:منْ مَقَالَتي شَيْئًا إِشَارَةٌ إِلَى جنْسِ الْمَقَالَات كُلِّهَا.(فَبَسَطْتُ نَمرَةً):بفَتْح النُّون وَكَسْر الْميمِ قَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ:شَمْلَةً مُخَطَّطَةً مَنْ مَآزرِ الْأَعْرَاب،وَجَمْعُهَا نمَارٌ كَأَنَّهَا أُخذَتْ منْ لَوْن النَّمرِ لمَا فيهَا منَ السَّوَاد وَالْبَيَاض،(حَتَّى قَضَى – ﷺ– مَقَالَتَهُ) أَيْ:تلْكَ (ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْري،فَوَالَّذي بَعَثَهُ بالْحَقِّ مَا نَسيتُ منْ مَقَالَته) أَيْ:منْ جنْسِ مَقَالَته ذَلكَ فَإِنَّ الْمَصْدَرَ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ،أَوْ ذُكرَ باعْتبَار مَعْنَاهَا،وَهُوَ الْقَوْلُ وَالْكَلَامُ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:إِشَارَةٌ إِلَى الْجنْسِ،الْمَقَالَةُ باعْتبَارِ الْمَذْكُورِ (إِلَى يَوْمي هَذَا) .وَهُوَ وَقْتُ روَايَة هَذَا الْحَديث (مُتَّفَقٌ عَلَيْه) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧٩٩)

[1811] – صحيح البخاري (٩/ ١٠٨)(٧٣٥٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٩٥)٣٦ – (٢١٥٣)

[ش (ألهاني عنه الصفق بالأسواق) أي التجارة والمعاملة في الأسواق]

ﷺ أَبَا بَكْرٍ مِنَ الشُّخُوصِ فِي تِجَارَتِهِ لِحُبِّهِ صُحْبَتَهُ وَظَنِّهِ بِـأَبِي بَكْرٍ،فَقَـدْ كَـانَ بِصُـحْبَتِهِ مُعْجَبًا،لِاسْتِحْسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلتِّجَارَةِ،وَإِعْجَابِهِ بِهَا»[1812]

والتجارة في الإسلام لها أحكامها وأخلاقها وآدابها،وليست كالتجارة في الدول الكافرة الـتي تقوم على الظلم والربا والجشع والاحتكار،وقد قال تعالى {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِـينَ (١) الَّـذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) } [المطففين:١ - ٦]

الْمُطَفِّفُونَ هُم الذِينَ يَبْخَسُونَ المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ،إِمَّا بِالزِّيَادَةِ إِذَا اقْتَضَوا مِنَ النَّاسِ،وَإِمَّا بِالنُّقْصَـانِ إِذَا قَضَوْهُمْ،وَسُمِّيَ عَمَلُهُمْ تَطْفِيفاً لأَنَّ مَا يَبْخسُونَهُ النَّاسَ شَيءٌ حَقِيرٌ طَفِيفٌ.

وَيَتَهَدَّدُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ بِالهَلاَكِ وَالخِزْيِ،مَنْ يُطَفِّفُ فِي المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ.

وَفَسَّرَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ،وَالتِي تَلِيهَا،المَعْنَى المَقْصُودَ بِالمُطَفِّفِينَ فَقَالَ:هُمُ الذِينَ إِذَا كَـانَ المَالُ لِلنَّاسِ،وَأَرَادُوا أَنْ يَكِيلُوا مِنْهُ لأَنْفُسِهِمْ زَادُوا فِي المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ،وَاسْـتَوْفُوا أَكْثَـرَ مِـنْ حَقِّهِمْ.

وَإِذَا كَانَ المَالُ لَهُمْ وَأَرَادُوا أَنْ يَكِيلُوا مِنْهُ لِلنَّاسِ أَوْ يَزِنُوا لَهُمْ،أَنْقَصُوا مِنْهُ،وَأَعْطَوْهُمْ أَقَلَّ مِـنْ حَقِّهِمْ.

أَيَظُنُّ هَؤُلاَءِ أَنَّهُمْ لَنْ يُبْعَثُوا يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُحَاسَبُوا أَمَامَ اللهِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ؟ فَهَذِهِ الأَفْعَالُ المُنْكَـرَةُ لاَ تَصْدُرُ عَمَّنْ يَعْتَقِدُ بِوُجُودِ اللهِ،وَأَنَّ اللهَ سَيَجْمَعُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ.

أَيْ أَلاَ يَعْتَقِدُ هَؤُلاَءِ أَنَّهُمْ سَيُبْعَثُونَ فِي يَوْمٍ عَظِيمِ الهَوْلِ- هُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ - لِيُحَاسَـبُوا عَلَـى أَعْمَالِهِمْ؟ ..

وَفِي هَذَا اليَوْمِ يَخْرُجُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ،وَيَقُومُونَ بَيْنَ يَدِي رَبِّهِـمْ حُفَـاةً عُـرَاةً لِلْعَـرْضِ وَالحِسَابِ،وَهُوَ يَوْمٌ شَدِيدُ الهَوْلِ عَلَى الكَافِرِينَ لِمَا يَرَوْنَهُ وَيَنْتَظِرُونَهُ مِنْ عَذَابٍ.[1813]

التطفيف:الخروج عن سواء السبيل فى الكيل والميزان،زيادة أو نقصا..

[1812] - المعجم الكبير للطبراني (٢٣/ ٣٠٠)(٦٧٤) والمعجم الأوسط (٦/ ٢٧٠)(٦٣٨٧) حسن

[1813] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

وقد بين الله ذلك فى قوله تعالى:«الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ.وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» ..فهؤلاء هم المطففون،قد توعدهم الله سبحانه وتعالى بالويل والعذاب الشديد فى الآخرة،لأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل،فيأخذون أكثر مما لهم إذا كالوا أو وزنوا،أو يأخذونه كاملا وافيا «يستوفون» على حين يعطون أقل مما عليهم إذا كالوا لغيرهم أو وزنوا لهم «يخسرون» ..إنهم اؤتمنوا فخانوا الأمانة،ووضع فى أيديهم ميزان الحق،فعبثوا به،واستخفوا بحرمته..فيستوفون حقهم كاملا إذا أخذوا،ويعطونه مبخوسا ناقصا إذا أعطوا!!
وفى قوله تعالى:«اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ» وفى تعدية الفعل بحرف الجر «على» - إشارة إلى أن هذا الذي يكيلونه هو شىء لهم على غيرهم..أمّا تعدية الفعلين «كالوهم ووزنوهم» بدون حرف الجر «إلى» - فهو إشارة إلى أنهم فى تلك الحال هم الذين يكيلون ويزنون،فكأنه قيل:وإذا أعطوهم مكيلا أو موزونا يخسرون..
قيل إن أهل المدينة،كانوا قبل الإسلام أخبث الناس كيلا،فلما جاء الإسلام،وكشف لهم عن شناعة هذا العمل،وما يجر على مقترفيه من نقمة الله وعذابه- أصبحوا أعدل الناس كيلا ووزنا إلى اليوم..والقول بأن هذه السورة هى آخر ما نزل بمكة،أولى من القول بأنها نزلت فى المدينة..ذلك أن نزولها بالمدينة،وفى أول مقدم الرسول إليها،فيه مواجهة بالخزي والفضيحة،والتشنيع،على هؤلاء القوم الكرام،الذي استجابوا لدين الله،ورصدوا أنفسهم وأموالهم لنصرته،وفتحوا مدينتهم ودورهم لإيواء المسلمين الفارّين بدينهم من مشركى قريش..وإن الذي يتفق وأدب الإسلام وحكمته لعلاج هذا الأمر المنكر،الذي قيل إنه كان فاشيا فى أهل المدينة- الذي يتفق مع أدب الإسلام وحكمته أن يعلن رأيه فى هذا الأمر،وحكمه على فاعليه،بعيدا عن موقع المواجهة،وأن يرمى به فى وجه المشركين قبل أن تنتقل الدعوة من ديارهم،حتى إذا بلغت سورة المطففين أسماع أهل المدينة،انخلعوا من هذا المنكر،واستقبلوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه،وقد طهرت مدينتهم من هذا الخبث.
والخيانة فى الكيل والميزان،ليست كما يبدو فى ظاهرها،أمرا عارضا هينا،لا يمسّ إلا جانبا من حواشى حياة الجماعة،ولا يؤثر تأثيرا ذا بال فى نظام حياتها..وكلّا،فإن هذا الداء،إذا تفشّى فى مجتمع من المجتمعات،أفسد نظامه كله،وامتد ظله الأسود الكئيب على حياة المجتمع،مادياتها

ومعنوياتها جميعا..وحسب أي جماعة ضياعا وهلاكا،أن تفقد الثقة فى معاملاتها،وأن يكون الاتهام نقدا متبادلا بين أفرادها،أخذا،وإعطاء..

ونتصور هنا جماعة قد شاع فى معاملاتها النقد الزائف،واختلط بالنقد الصحيح..فهل يجتمع لهذه الجماعة شمل،أو يستتب فيها نظام،أو تغشاها سكينة واطمئنان؟ ..

إن حياة الناس قائمة على التبادل،والأخذ والعطاء،فإذا لم يقم ذلك بينهم على ثقة متبادلة بينهم كما يتبادلون كل شيء،انحلّ عقد نظامهم،وتقطعت عرا أوثق رابطة تربط بين الناس والناس،وتجمع بعضهم إلى بعض وهى الثقة.

وفى القرآن الكريم،إشارة صريحة إلى خطورة التبادل،القائم بين الناس- أخذا وعطاء،والذي إذا لم يقم على أساس متين من العدل والإحسان،أتى على كل صالحة فى حياة الناس..وهذا ما نراه فى دعوة نبى الله شعيب- عليه السلام- ورسالته فى قومه..

إنها رسالة،تعالج هذا الداء الذي استشرى فى القوم وتطبّ له قبل أي داء آخر،بعد داء الكفر..فإنه لا يقوم بناء،ولا يستنبت خير،إلا إذا اقتلع هذا الداء،وطهرت منه الأرض التي يراد استصلاحها،وغرص البذور الطيبة فيها..

يقول الله سبحانه وتعالى على لسان شعيب إلى قومه:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ..إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ..وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» (٨٤:هود) ويقول سبحانه على لسانه أيضا «أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (١٨١-١٨٣ الشعراء) .

إنها قضية حق وعدل..فإذا افتقد الحق مكانه فى قوم،وإذا اختلت موازين العدل فى أيديهم،فليأذنوا بتصدع بنيانهم،وانهيار عمرانهم،وبوار سعيهم،وسوء مصيرهم..

وقوله تعالى:«أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ» ..

هو استفهام إنكارى،لهذا الأمر المنكر الذي يأتيه المطففون فى الكيل والميزان..إن هؤلاء المطففين لا يظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم،فيه حساب،وجزاء..ولو كانوا يظنون هذا ما اجترءوا على أكل حقوق الناس بالباطل،ولحجزهم عن ذلك حاجز الخوف من الله،ومن لقائه

بهذا المنكر الشنيع..وفى التعبير بفعل الظن،بدلا من فعل الاعتقاد فى البعث،إشارة إلى أن مجـــرد الظن بأن هناك بعثا،وحسابا،وعقابا- يكفى فى العدول عن هذا المنكر،وتجنبـــه،توقّيا للشـــر المستطير،الذي ينجم عنه..فكيف بمن يعتقد البعث،ويؤمن به؟ إنه أشد توقيا للبعث،ومحـــاذرة منه،وإعدادا له..[١٨١٤]

ودلت الآية الكريمة،على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له،يجب عليه أن يعطيهم كـــل ما لهم من الأموال والمعاملات،بل يدخل في [عموم هذا] الحجـــج والمقالات،فإنـــه كمـــا أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد [منهما] يحرص على ماله من الحجج،فيجـــب عليـــه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج[التي لا يعلمها]،وأن ينظر في أدلة خصمه كمـــا ينظـــر في أدلته هو،وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان مـــن تعصـــبه واعتسافه،وتواضـــعه مـــن كبره،وعقله من سفهه،نسأل الله التوفيق لكل خير.ثم توعد تعالى المطففين،وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه،فقال:{أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّـــاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم بـــاليوم الآخـــر،وإلا فلـــو آمنـــوا به،وعرفوا أنهم يقومون بين يدى الله،يحاسبهم على القليل والكثير،لأقلعوا عن ذلـــك وتـــابوا منه.[١٨١٥]

فهم الذين يتقاضون بضاعتهم وافية إذا كانوا شراة.ويعطونها للناس ناقصة إذا كـــانوا بـــائعين ..ثم تعجب الآيات الثلاثة التالية من أمر المطففين،الذين يتصرفون كأنه ليس هناك حســـاب على ما يكسبون في الحياة الدنيا وكأن ليس هناك موقف جامع بين يدي الله في يوم عظيم يتم فيه الحساب والجزاء أمام العالمين:«أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟ يَوْمَ يَقُومُ النَّـــاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ؟ » ..والتصدي لشأن المطففين بهذا الأسلوب في سورة مكيـــة أمـــر يلفـــت النظر.فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقيـــدة الكليـــة:كتقريـــر وحدانيـــة الله،وانطلاق مشيئته،وهيمنته على الكون والناس ...وكحقيقة الوحي والنبـــوة ..وكحقيقـــة الآخرة والحساب والجزاء.مع العناية بتكوين الحاسة الأخلاقية في عمومها،وربطهـــا بأصـــول

[١٨١٤] - التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٤٨٧)

[١٨١٥] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩١٥)

العقيدة.أما التصدي لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق – كمسألة التطفيف في الكيل والميزان – والمعاملات بصفة عامة،فأمر جاء متأخرا في السورة المدنية عند التصدي لتنظيم حياة المجتمع في ظل الدولة الإسلامية،وفق المنهج الإسلامي،الشامل للحياة ..ومن ثم فإن التصدي لهذا الأمر بذاته في هذه السورة المكية أمر يستحق الانتباه.وهو يشي بعدة دلالات متنوعة،تكمن وراء هذه الآيات القصار ..

إنه يدل أولا على أن الإسلام كان يواجه في البيئة المكية حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء،الذين كانوا في الوقت ذاته هم أصحاب التجارات الواسعة،التي تكاد تكون احتكارا.فقد كانت هنالك أموال ضخمة في أيدي هؤلاء الكبراء يتجرون بها عن طريق القوافل في رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام.كما افتتحوا أسواقا موسمية كسوق عكاظ في موسم الحج،يقومون فيها بالصفقات ويتناشدون فيها الأشعار! والنصوص القرآنية هنا تشي بأن المطففين الذين يتهددهم الله بالويل،ويعلن عليهم هذه الحرب،كانوا طبقة الكبراء ذوي النفوذ،الذي يملكون إكراه الناس على ما يريدون.فهم يكتالون «عَلَى النَّاسِ» ..لا من الناس ..فكأن لهم سلطانا على الناس بسبب من الأسباب،يجعلهم يستوفون المكيال والميزان منهم استيفاء وقسرا.وليس المقصود هو أنهم يستوفون حقا.وإلا فليس في هذا ما يستحق إعلان الحرب عليهم.إنما المفهوم أنهم يحصلون بالقسر على أكثر من حقهم،ويستوفون ما يريدون إجبارا.فإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان ما يجعلهم ينقصون حق الناس،دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفة ولا استيفاء حق ..ويستوي أن يكون هذا بسلطان الرياسة والجاه القبلي.أو بسلطان المال وحاجة الناس لما في أيديهم منه واحتكارهم للتجارة حتى يضطر الناس إلى قبول هذا الجور منهم كما يقع حتى الآن في الأسواق ..فقد كانت هناك حالة من التطفيف صارخة استحقت هذه اللفتة المبكرة.

كما أن هذه اللفتة المبكرة في البيئة المكية تشي بطبيعة هذا الدين وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العلمية وإقامتها على الأساس الأخلاقي العميق الأصيل في طبيعة هذا المنهج الإلهي القويم.فقد كره هذه الحالة الصارخة من الظلم والانحراف الأخلاقي في التعامل.وهو لم يتسلم بعد زمام الحياة الاجتماعية،لينظمها وفق شريعته بقوة القانون وسلطان الدولة.وأرسل هذه

الصيحة المدوية بالحرب والويل على المطففين.وهم يومئذ سادة مكة،أصحاب السلطان المهيمن – لا على أرواح الناس ومشاعرهم عن طريق العقيدة الوثنية فحسب،بل كذلك على اقتصادياتهم وشؤون معاشهم.ورفع صوته عاليا في وجه الغبن والبخس الواقع على الناس وهم جمهرة الشعب المستغلين لكبرائه المتجرين بأرزاقه،المرابين المحتكرين،المسيطرين في الوقت ذاته على الجماهير بأوهام الدين! فكان الإسلام بهذه الصيحة المنبعثة من ذاته ومن منهجه السماوي موقظا للجماهير المستغلة.

و لم يكن قط مخدرا لها حتى وهو محاصر في مكة،بسطوة المتجبرين،المسيطرين على المجتمع بالمال والجاه والدين! ومن ثم ندرك طرفا من الأسباب الحقيقة التي جعلت كبراء قريش يقفون في وجه الدعوة الإسلامية هذه الوقفة العنيدة.فهم كانوا يدركون – ولا ريب – أن هذا الأمر الجديد الذي جاءهم به محمد – ﷺ – ليس مجرد عقيدة تكمن في الضمير،ولا تتطلب منهم إلا شهادة منطوقة،بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.وصلاة يقيمونها لله بلا أصنام ولا أوثان ..كلا.لقد كانوا يدركون أن هذه العقيدة تعني منهجا يحطم كل أساس الجاهلية التي تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم ومراكزهم.وأن طبيعة هذا المنهج لا تقبل مثنوية ولا تلتئم مع عنصر أرضي غير منبثق من عنصرها السماوي وأنها تهدد كل المقومات الأرضية الهابطة التي تقوم عليها الجاهلية ..ومن ثم شنوا عليها تلك الحرب التي لم تضع أوزارها لا قبل الهجرة ولا بعدها.الحرب التي تمثل الدفاع عن أوضاعهم كلها في وجه الأوضاع الإسلامية.لا عن مجرد الاعتقاد والتصور المجردين ..

والذين يحاربون سيطرة المنهج الإسلامي على حياة البشر في كل جيل وفي كل أرض يدركون هذه الحقيقة.يدركونها جيدا.ويعلمون أن أوضاعهم الباطلة،ومصالحهم المغتصبة،وكيانهم الزائف ..وسلوكهم المنحرف ..هذه كلها هي التي يهددها المنهج الإسلامي القويم الكريم! والطغاة البغاة الظلمة المطففون – في أية صورة من صور التطفيف في المال أو في سائر الحقوق والواجبات – هم الذين يشفقون أكثر من غيرهم من سيطرة ذلك المنهج العادل النظيف! الذي لا يقبل المساومة،ولا المداهنة،ولا أنصاف الحلول؟

ولقد أدرك ذلك الذين بايعوا رسول الله – ﷺ – من نقباء الأوس والخزرج بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة:عَنْ قَتَادَةَ،يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ قَالَ:قَدْ كَانَتْ لِلَّهِ أَنْصَارٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ تُجَاهِدُ عَلَى كِتَابِهِ وَحَقِّهِ.وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ بَايَعَهُ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ،ذُكِرَ لَنَا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ:هَلْ تَدْرُونَ عَلَامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَ عَلَى مُحَارَبَةِ الْعَرَبِ كُلِّهَا أَوْ يُسْلِمُوا.وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ،قَالَ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ،وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ".قَالُوا:فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ،فَمَا لَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ:" لَكُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا،وَالْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ ".فَفَعَلُوا،فَفَعَلَ اللَّهُ ".[١٨١٦]

وعَنْ مَعْمَرٍ،قَالَ:تَلَا قَتَادَةُ كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ:قَدْ كَانَ ذَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ،جَاءَهُ سَبْعُونَ رَجُلًا،فَبَايَعُوهُ عِنْدَ الْعَقَبَةِ،فَنَصَرُوهُ وَآوَوْهُ حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ؛قَالُوا:وَلَمْ يُسَمَّ حَيٌّ مِنَ السَّمَاءِ اسْمًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ[١٨١٧]

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ،أَنَّ الْقَوْمَ،لَمَّا اجْتَمَعُوا لِبَيْعَةِ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – قَامَ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ الْأَنْصَارِيُّ،ثُمَّ أَحَدُ بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ،فَقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ،هَلْ تَدْرُونَ عَلَامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَ عَلَى حَرْبِ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ،وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نَهَكَتْ أَمْوَالَكُمْ مُصِيبَةٌ،وَأَشْرَافُكُمْ قَتْلَى أَسْلَمْتُمُوهُ،فَمِنَ الْآنَ فَهُوَ وَاللهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نُهْكَةِ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ فَخُذُوهُ،فَهُوَ وَاللهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،قَالُوا:فَإِنَّا وَاللهِ نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ،فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ نَحْنُ وَفَّيْنَا؟ قَالَ:" الْجَنَّةُ "،قَالُوا:ابْسُطْ يَدَكَ فَبَسَطَ يَدَهُ،فَبَايَعُوهُ ".[١٨١٨]

[١٨١٦] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٣١٥٣٢) صحيح مرسل

[١٨١٧] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٣١٥٣٣) صحيح مرسل

[١٨١٨] – معرفة الصحابة لأبي نعيم [٤/ ٢١٢٤] (٥٣٣٢) صحيح

فقد أدرك هؤلاء – كما أدرك كبراء قريش من قبل – طبيعة هذا الدين.وأنــه قــائم كحــد السيف للعدل والنصفة وإقامة حياة الناس على ذلك،لا يقبل من طاغية طغيانا،ولا مــن بــاغ بغيا،ولا من متكبر كبرا.ولا يقبل للناس الغبن والخسف والاستغلال.ومن ثم يحاربه كل طــاغ باغ متكبر مستغل ويقف لدعوته ولدعاته بالمرصاد.

«أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ؟ » ..

وإن أمرهم لعجيب.فإن مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم.يوم يقوم الناس متجردين لرب العالمين،ليس لهم مولى يومئذ سواه،وليس بهم إلا التطلع لما يجريه عليهم من قضاء،وقد علمــوا أن ليس لهم من دونه ولي ولا نصير ..إن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كــان يكفــي ليصدهم عن التطفيف،وأكل أموال الناس بالباطل،واستخدام السلطان في ظلم الناس وبخسهم حقهم في التعامل ..ولكنهم ماضون في التطفيف كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون! وهــو أمــر عجيب،وشأن غريب![1819]

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَــارَةً عَــنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } [النساء:٢٩].

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى النَّاسَ عَنْ أنْ يَأكُلَ بَعْضَهُمْ مَالَ بَعْضٍ بِالبَاطِلِ،أيْ أنْ يَأخُــذَهُ بِطَرِيــقٍ غَيْــرِ شَرْعِيٍّ:كَالقِمَارِ وَالرِّبَا وَالحِيَلِ وَغَيْرِها..وَإنْ ظَهَرَتْ فِي قَالِبِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ،ممّا يَعْلَمُ اللهُ أنَّ مُتَعَاطِيهَا إنَّمَا يُرِيدُ الحِيلَةَ لأكْلِ الرِّبا.فَاللهُ تَعَالَى يُحَرِّمُ عَلى النَّاسَ تَعَاطِي الأَسْبَابِ المُحَرَّمَةِ فِي اكْتِسَابِ الأَمْوَالِ،وَاسْتَثْنَى مِنَ التَّحْرِيمِ المُتَاجَرَةَ المَشْرُوعَةِ التِي تَتِمُّ عَنْ تَــرَاضٍ بَــينَ البَــائِعِ وَالمُشْتَرِي،فَسَمَحَ اللهُ لِلمُؤْمِنِينَ بِتَعَاطِيهَا،وَالتَّسَبُّبِ فِي كَسْبِ الأَمْوَالِ بِهَا.وَيَنْهَــى اللهُ تَعَــالَى المُؤْمِنِينَ عَنْ قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ بِارْتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ،وَأَكْلِ الأَمْوَالِ بِالبَاطِلِ،فَإِنَّ اللهَ كَانَ رَحِيماً بِهِمْ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ،وَنَهَاهُمْ عَنْهُ،لأنَّ فِيهِ صَلاَحَهُمْ.[1820]

هذه دعوة من الله إلى عباده،ومطلوب من مطلوباته إليهم،بل قل إرادة يريدها الله منهم..وتلك الإرادة،هي ألا يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل!.

[1819] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٧٨١)

[1820] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢٢،بترقيم الشاملة آليا)

وإذ كان «المال» هو مبتغى الناس،ورغيبتهم،فيه يتنافســون،وله يعملــون ويكــدحون،ومن أجله،وفى سبيله تتصادم رغباتهم،ويقع الشرّ والعدوان بينهم،فيبغى بعضهم على بعض،ويغمط بعضهم حقّ بعض،فى صور وأشكال مختلفة..مــن الســرقة والاغتصــاب،والاحتيال،والغش والخداع،والاحتكار،إلى غير ذلك مما هو واقع فى معترك الحياة بين النــاس- إذ كــان ذلــك كذلك فقد كثرت وصايا الإسلام إلى الناس فى «المال» وفى رسم الحدود التي تمســك بــه فى دائرة النفع العام والخاص،ليؤدى وظيفته كنعمة من أجلّ النعم التي أنعم الله بها على عباده..

و لم تقف نظرة الإسلام إلى المال عند أفق واحد..بل امتدت نظرته إليه فشملت جميع الآفــاق التي يكون للمال مكان فيها..فى كسب المال وفى إنفاقه..فى يد من يملك ومن لا يملــك..فى الميراث والورثة..فى ملك اليتامى والسفهاء،وفى يد الأولياء والأوصياء عليهم..إلى غير ذلك من الوجوه التي يرى فيها المال واقعا فى يد فرد أو جماعة.

وفى قوله تعالى:«لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ» إشارة إلى أن المال مائدة ممدودة مــن الله سبحانه لعباده،يأكلون منها،وأن لكل إنسان حظّه من هذا المال،وأن من وقع إلى يده قدر منه على حين خلت أيدى الجماعة التي حوله،أو قصرت عن أن تنال شيئا منه،كان واجبا عليه أن يعطى مما فى يده لمن حوله،إذ من غير المستساغ أن يأكل والناس المشتركون معه على المائدة،لا يأكلون..وفى كلمة «أموالكم» المضافة إلى المؤمنين جميعا،وكلمة «بينكم» - الظرف المكــانىّ الجامع لهم جميعا- فى هذا ما يشير إلى وحدة الملكية للمال،ووحدة الاجتماع فى المكــان..وفى هذا وذاك ما يجعل الوحدة الشعورية بالتكافل بين هذه الجماعة،أمرا واجبا،إن لم تقــض بــه شريعة السماء،و لم يدع إليه دين الله،قضت به المروءة،ودعت إليه!.

وهذا هو البرّ الذي دعا إليه القرآن..فقال تعالى:«لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّــا تُحِبُّــونَ» (٩٢:آل عمران) ..وقال سبحانه:«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ» (١٧٧:البقرة) ومن تدبير القــرآن الكريم فى هذا،أنه لم يجعل هذه المائدة المشاعة بين الناس قائمة على قانون مادىّ قهــرى،إذ لا سبيل إلى قانون يحمى بنصوصه ومواده،العدوان والبغي،وتسلط الأقوياء علــى الضــعفاء،وإلا

كان عليه أن يقيم وازعا من سلطانه على رأس كـــل إنســـان..يمســـك بيده،ويـــدفع بغيـــه وعدوانه،وذلك أمر محال،وإنما جعل الإسلام ذلك إلى مشاعر الجماعة ووجدانها،بما أيقظ فيها من نوازع الخير،ودوافع الإحسان،وبما غذّاها به من فضله وإحسانه،وبما وعدها مـــن حســـن المثوبة،وعظيم الجزاء،فى الدنيا،وفى الآخرة جميعا..«وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْـــرُ الرَّازِقِينَ» .

وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْـــهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» (٣٩:الروم) ..

فتلك المشاعر الحيّة،وهذه الوجدانات المتفتحة لرحمة الله،الراغبة فى حسن الجـــزاء عنـــده،هى الحارس الذي لا يغفل،وهى الوازع الذي يقوم حجازا بين ظلم الناس للناس،وبغى الناس على الناس.

وقوله تعالى:«إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ» هو استثناء متصل،وليس استثناء منفصـــلا كما ذهب إلى ذلك الزمخشري،وأكثر المفسّرين..

فالتجارة:هى من تلك المائدة الممدودة بين الناس «أموالكم»،بل هى الوجه الواضح من هـــذه المائدة،إذ كانت أكثر الأموال دائرة فى فلك التجارة،متداولة بين أيدى الناس عن طريقها..

وفى عمليات التجارة،ربح وخسارة.

وفى جانب الربح قد يحصل كثير من الناس على أموال طائلة..!

وهذه الأموال التي ربحها الرابحون هى خسارة قد خسرها آخرون! والصورة فى جانب الـــرّبح تبدو وكأنها أكل لأموال الناس بالباطل،ذلك الأكل الذي ورد صدر الآية الكريمة بالنهى عنه! فهل هذا المال- مال الربح فى التجارة أيا كان من الكثرة- هل هو داخل فى هذا المال المنـــهي عن أكله بالباطل؟ وهل يتناوله الحكم الواقع عليه؟

هذا ما استثناه الله تعالى فى قوله:«إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ» .فهذا المال ليس مـــن الباطل فى شىء..هو مال حلال،إذ جاء عن عمليات بيع وشراء،لا قهر فيها،ولا تـــدليس أو غشّ،بين البائعين والمشترين.[١٨٢١]

[١٨٢١] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٧٦٩)

الباطل من البطل والبطلان وهو الضياع والخسار،وفي الشرع أخذ المال بدون عوض حقيقـــى يعتد به،ولا رضا ممن يؤخذ منه،أو إنفاقه في غير وجه حقيقى نافع،فيدخل في ذلك النصـــب والغش والخداع والربا والغبن وإنفاق المال في الوجوه المحرمة والإسراف بوضع المال فيمـــا لا يرضى به العقلاء.

قوله «بَيْنَكُمْ» رمز إلى أن المال المحرم يكون عادة موضع التنازع في التعامـــل بـــين الآكـــل فالمأكول منه كل منهما يريد جذبه إليه،والمراد بالأكل الأخذ على أي وجه،وعبر عنه الأكـــل لأنه أكثر أوجه استعمال المال وأقواها،وأضاف الأموال إلى الجميع و لم يقل لا يأكل بعضـــكم مال بعض،تنبيها إلى تكافل الأمة في الحقوق والمصالح كأن مال كل واحد منها هو مال الأمـــة جميعها،فإذا استباح أحدهم أن يأكل مال الآخر بالباطل كان كأنه أباح لغيره أن يأكل مالـــه فالحياة قصاص،وإرشادا إلى أن صاحب المال يجب عليه بذل شيء منه للمحتاج وعدم البخـــل عليه به،إذ هو كأنما أعطاه شيئا من ماله.

وبهذا قد وضع الإسلام قواعد عادلة للأموال لدى من يعتنق مبادئه وهى:

١) أن مال الفرد مال الأمة مع احترام الحيازة والملكية وحفظ حقوقها،فهو يوجب علـــى ذى المال الكثير حقوقا معينة للمصالح العامة،وعلى ذى المال القليل حقوقا أخرى للبائســـين وذوى الحاجات من سائر أصناف البشر،ويحث على البر والإحسان والصدقات فى جمييع الأوقات.

وبهذا لا يوجد فى بلاد الإسلام مضطر إلى القوت أو عريان،ســـواء أكـــان مســـلما أم غـــير مسلم،لأن الإسلام فرض على المسلمين إزالة ضرورة المضطر،كما فرض فى أمـــوالهم حقوقـــا للفقراء والمساكين.

وكل فرد يقيم فى بلادهم يرى أن مال الأمة هو ماله،فإذا اضطر إليه يجده مـــذخورا لـــه،كما جعل المال المفروض فى أموال الأغنياء تحت سيطرة الجماعة الحاكمة من الأمة حتى لا يمنعه من فى قلبه مرض،وحثهم على البذل ورغبهم فيـــه،وذمهم علـــى البخـــل ووكـــل ذلـــك إلى أنفسهم،لتقوى لديهم ملكة السخاء والمروءة والرحمة.

٢) أنه لم يبح للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدى أربابه إلا بإذهم،حتى لا تنتشر البطالة والكسل بين أفراد الأمة،وتوجد الفوضى فى الأموال،والضعف والتـــوانى فى الأعمال،ويــــدبّ الفساد فى الأخلاق والآداب.

ولو أقام المسلمون معالم دينهم،وعملوا بشرائعه،لضربوا للناس الأمثال واستبان لهم أنــــه خـــير شريعة أخرجت للناس،ولأقاموا مدنية صحيحة فى هذا العصر يتأسى بها كل من يريد ســـعادة الجماعات،ولا يجعلها تئنّ تحت أثقال العوز والحاجة،كما هو حادث الآن من التنــــافر العــــام والنظر الشزر من العمال إلى أصحاب رءوس الأموال:(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِـــنْكُمْ) أي لا تكونوا من ذوى الأطماع الذين يأكلون أموال الناس بغير مقابل لهـــا مـــن عـــين أو منفعة،ولكن كلوها بالتجارة التي قوام الحل فيها التراضي،وذلك هو اللائق بأهل المروءة والدين إذا أرادوا أن يكونوا من أرباب الثراء.

وفى الآية إيماء إلى وجوه شتى من الفوائد:

١) أن مدار حل التجارة على تراضى المتبايعين،فالغشّ والكذب والتدليس فيها من المحرمات.

٢) أن جميع ما فى الدنيا من التجارة وما فى معناها من قبيـــل الباطـــل الـــذي لا بقـــاء لـــه ولإثبات،فلا ينبغى أن يشغل العاقل عن الاستعداد للآخرة التي هى خير وأبقى.

٣) الإشارة إلى أن معظم أنواع التجارة يدخل فيها الأكل بالباطل،فإن تحديد قيمـــة الشـــيء وجعل ثمنه على قدره بالقسطاس المستقيم يكاد يكون مستحيلا،ومن ثم يجرى التسامح فيها إذا كان أحد العوضين أكبر من الآخر،أو إذا كان ســـبب الزيـــادة براعـــة التـــاجر فى تـــزيين سلعته،وترويجها بزخرف القول من غير غش ولا خداع،فكثيرا ما يشترى الإنسان الشيء وهو يعلم أنه يمكنه شراؤه من موضع آخر بثمن أقلّ،وما نشأ هذا إلا من خلابة التاجر وكياسته فى تجارته،فيكون هذا من باطل التجارة الحاصلة بالتراضي فيكون حلالا.

والحكمة فى إباحة ذلك،الترغيب فى التجارة،لشدة حاجة الناس إليها،والتنبيه إلى استعمال مـــا أوتوا من الذكاء والفطنة فى اختيار الأشياء،والتدقيق فى المعاملة،حفظا للأموال حتى لا يذهب شيء منها بالباطل،أي بدون منفعة تقابلها.

فإذا ما وجد فى التجارة الربح الكثير بلا غش ولا تغرير،بل بتراض من الطرفين لم يكن فى هذا حرج،ولولا ذلك ما رغب أحد فى التجارة،ولا اشتغل بها أحد من أهل الدين،على شدة حاجة العمران إليها،وعدم الاستغناء عنها.[١٨٢٢]

النداء للذين آمنوا،والنهي لهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ».مما يوحي بأنها عملية تطهير لبقايا رواسب الحياة الجاهلية في المجتمع الإسلامي واستجاشة ضمائر المسلمين بهذا النداء:«يا أيها الذين آمنوا» ..واستحياء مقتضيات الإيمان.مقتضيات هذه الصفة التي يناديهم الله بها،لينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل.

وأكل الأموال بالباطل يشمل كل طريقة لتداول الأموال بينهم لم يأذن بها الله،أو نهى عنها،ومنها الغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها،وجميع أنواع البيوع المحرمة - والربا في مقدمتها - ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا النص قد نزل بعد تحريم الربا أو قبله فإن كان قد نزل قبله،فقد كان تمهيدا للنهي عنه.فالربا أشد الوسائل أكلا للأموال بالباطل.وإن كان قد نزل بعده،فهو يشمله فيما يشمل من ألوان أكل أموال الناس بالباطل.

واستثنى العمليات التجارية التي تتم عن تراض بين البائع والشاري:«إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ» ..وهو استثناء منقطع ..تأويله:ولكن إذا كانت تجارة عن تراض منكم فليست داخلة في النص السابق ..ولكن مجيئها هكذا في السياق القرآني،يوحي بنوع من الملابسة بينها وبين صور التعامل الأخرى،التي توصف بأنها أكل لأموال الناس بالباطل ..وندرك هذه الملابسة إذا استصحبنا ما ورد في آيات النهي عن الربا - في سورة البقرة - من قول المرابين في وجه تحريم الربا:«إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا» ..ورد الله عليهم في الآية نفسها:«وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا» ..فقد كان المرابون يغالطون،وهم يدافعون عن نظامهم الاقتصادي الملعون.فيقولون:إن البيع - وهو التجارة - تنشأ عنها زيادة في الأموال وربح.فهو - من ثم - مثل الربا.فلا معنى لإحلال البيع وتحريم الربا! والفرق بعيد بين طبيعة العمليات التجارية والعمليات الربوية أولا،وبين الخدمات التي تؤديها التجارة للصناعة وللجماهير والبلاء الذي

[١٨٢٢] - تفسير المراغي (٥/ ١٦)

يصبه الربا على التجارة وعلى الجماهير.فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة والمستهلك تقوم بترويج البضاعة وتسويقها ومن ثم تحسينها وتيسير الحصول عليها معا.وهي خدمة للطرفين،وانتفاع عن طريق هذه الخدمة.انتفاع يعتمد كذلك على المهارة والجهد ويتعرض في الوقت ذاته للربح والخسارة ..

والربا على الضد من هذا كله.يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التي تضاف إلى أصل التكاليف ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التي يفرضها على الصناعة.وهو في الوقت ذاته – كما تجلى ذلك في النظام الرأسمالي عندما بلغ أوجه – يوجه الصناعة والاستثمار كله وجهة لا مراعاة فيها لصالح الصناعة ولا لصالح الجماهير المستهلكة وإنما الهدف الأول فيها زيادة الربح للوفاء بفوائد القروض الصناعية.ولو استهلكت الجماهير مواد الترف و لم تجد الضروريات! ولو كان الاستثمار في أحط المشروعات المثيرة للغرائز،المحطمة للكيان الإنساني ..وفوق كل شيء ..هذا الربح الدائم لرأس المال وعدم مشاركته في نوبات الخسارة – كالتجارة – وقلة اعتماده على الجهد البشري،الذي يبذل حقيقة في التجارة ..إلى آخر قائمة الاتهام السوداء التي تحيط بعنق النظام الربوي وتقتضي الحكم عليه بالإعدام كما حكم عليه الإسلام!

فهذه الملابسة بين الربا والتجارة،هي التي لعلها جعلت هذا الاستدراك – «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ» يجيء عقب النهي عن أكل الأموال بالباطل.وإن كان استثناء منقطعا كما يقول النحويون! «وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ.إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً» ..

تعقيب يجيء بعد النهي عن أكل الأموال بالباطل فيوحي بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة إنها عملية قتل ..يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها،حين نهاهم عنها! وإنها لكذلك.فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة:بالربا.والغش.والقمار.والاحتكار.

والتدليس.والاختلاس.والاحتيال.والرشوة.والسرقة.وبيع ما ليس يباع:كالعرض.والذمة. والضمير.والخلق.والدين! – مما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء – ما تروج هذه الوسائل في جماعة،إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها،وتتردى في هاوية الدمار! والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة،المردية للنفوس وهذا طرف من إرادة التخفيف

عنهم ومن تدارك ضعفهم الإنساني،الذي يرديهم حين يتخلون عن توجيه الله،إلى توجيه الذين يريدون لهم أن يتبعوا الشهوات! ويلي ذلك التهديد بعذاب الآخرة،تهديد الذين يأكلون الأموال بينهم بالباطل،معتدين ظالمين،تهديدهم بعذاب الآخرة بعد تحذيرهم من مقتلة الحياة الدنيا ودمارها.الآكل فيهم والمأكول فالجماعة كلها متضامنة في التبعة ومتى تركت الأوضاع المعتدية الظالمة،التي تؤكل فيها الأموال بالباطل تروج فيها فقد حقت عليها كلمة الله في الدنيا والآخرة:«وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً،فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً،وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً».

وهكذا يأخذ المنهج الإسلامي على النفس أقطارها - في الدنيا والآخرة - وهو يشرع لها ويوجهها ويقيم من النفس حارسا حذرا يقظا على تلبية التوجيه،وتنفيذ التشريع ويقيم من الجماعة بعضها على بعض رقيبا لأنها كلها مسؤولة وكلها نصيبها المقتلة والدمار في الدنيا،وكلها تحاسب في الآخرة على إهمالها وترك الأوضاع الباطلة تعيش فيها ..«وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» فما يمنع منه مانع،ولا يحول دونه حائل،ولا يتخلف،متى وجدت أسبابه،عن الوقوع![1823]

وقال تعالى:{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة:١٨٨]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأَلاَّ يَأْكُلَ بَعْضُهُمْ مَالَ بَعْضٍ بِالبَاطِلِ،وَبِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ:كَالسَّرِقَةِ،وَالغِشِّ،وَالتَّعَدِّي عَلَى النَّاسِ،وَالكَسْبِ عَنْ طَرِيقٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ..وَبِأَلاَّ يُلْقُوا بِأَمْوَالِهِمْ رَشْوَةً إلى الحُكَّامِ لِيَحْصُلُوا عَلَى أَحْكَامٍ لِمَصْلَحَتِهِمْ،وَهُمْ يَعْلَمُونَ يَقِيناً أَنَّهُمْ لاَ حَقَّ لَهُمْ،وَأَنَّهُمْ آثِمُونَ آكِلُوا حَرَامٍ.

وَحُكْمُ الحَاكِمِ لاَ يُحِلُّ حَراماً،وَلا يُحَرِّمُ حَلاَلاً،وَإِنَّمَا هُوَ مُلْزِمٌ فِي الظَّاهِرِ.أَمَّا مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ،وَأَنَّهُ يَأْكُلُ مَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ فَإِنَّهُ يَأْكُلُ حَرَاماً،وَإِنْ قَضَى بِهِ حَاكِمٌ.وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ فَلْيَحْمِلْها أَوْ لِيَذَرْهَا - كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ-.[1824]

[1823] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٩٧١)

[1824] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٥،بترقيم الشاملة آليا)

وهذه صورة من صور العدوان على المال،بما يجرى بين الناس من تسلط،أو نهب،أو سرقة،أو غش،أو احتيال،إلى غير ذلك مما لا بد للحاكم فيه.

وهناك صورة أخرى للعدوان،وهى أن يستعان بالحاكم على هذا العدوان بأن يستمال إلى أحد الخصمين بالرشوة،وفى هذا يقول الله تعالى:«وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ» أي تلقوا بها إلى الحكام «لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» والحكام هنا هم من يكون إليهم أمر الفصل فيما يقع بين الناس من خصومات،وبيدهم ردّ المظالم،ودفع العدوان.[١٨٢٥]

أي:ولا تأخذوا أموالكم أي:أموال غيركم،أضافها إليهم،لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه،ويحترم ماله كما يحترم ماله؛ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة.

ولما كان أكلها نوعين:نوعا بحق،ونوعا بباطل،وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل،قيده تعالى بذلك،ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية،أو نحو ذلك،ويدخل فيه أيضا،أخذها على وجه المعاوضة،بمعاوضة محرمة،كعقود الربا،والقمار كلها،فإنها من أكل المال بالباطل،لأنه ليس في مقابلة عوض مباح،ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة،ونحوها،ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم،وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه،ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى،ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات،والأوقاف،والوصايا،لمن ليس له حق منها،أو فوق حقه.

فكل هذا ونحوه،من أكل المال بالباطل،فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه،حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع،وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة،غلبت حجة المحق،وحكم له الحاكم بذلك،فإن حكم الحاكم،لا يبيح محرما،ولا يحلل حراما،إنما يحكم على نحو مما يسمع،وإلا فحقائق الأمور باقية،فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة،ولا شبهة،ولا استراحة.فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة،وحكم له بذلك،فإنه لا يحل له،ويكون آكلا لمال غيره،بالباطل والإثم،وهو عالم بذلك.فيكون أبلغ في عقوبته،وأشد في نكاله.

[١٨٢٥] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢٠٨)

وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: {وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} .[١٨٢٦]

أي لا يأكل بعضكم مال بعض،وسماه ماله إشعارا بوحدة الأمة وتكافلها،وتنبيها إلى أن احترام مال غيرك احترام وحفظ لمالك،كما أن التعدي على مال غيرك جناية على الأمة التي هو أحد أعضائها،ولا بد أن يصيبه سهم من كل جناية تقع عليها،إذ هو باستحلال مال غيره يجرّئ غيره على استحلال أكل ماله إذا كان في طاقته.والباطل كلمة معروفة المعنى عند الناس بوجوهها الكثيرة ويدخل فيها:

(١) الربا لأنه أكل لأموال الناس بدون مقابل من صاحب المال المعطى.

(٢) الأموال التي تلقى إلى الحكام رشوة لهم.

(٣) الصدقة على القادر على الكسب الذي يكفيه.

(٤) أخذ القادر على الكسب صدقة،فلا يحلّ لمسلم أن يقبل صدقة وهو غير مضطر إليها.

(٥) باعة التمائم والعزائم وختمات القرآن والعدد المعلوم من سورة يس لقضاء الحاجات أو رحمة الأموات.

(٦) التعدي على الناس بغصب المنفعة،بأن يسخر بعضهم بعضا في عمل لا يعطيه عليه أجرا،أو ينقصه من الأجر المسمى أو أجر المثل.(٧) ضروب الغشّ والاحتيال كما يقع من السماسرة من التلبيس والتدليس،فيزينون للناس السلع الرديئة والبضائع المزجاة،ويورطونهم في شرائها،ويوهمونهم ما لا حقيقة له،بحيث لو عرفوا الخفايا ما باعوا وما اشتروا.

(٨) الأجر على عبادة من العبادات كالصلاة والصوم،لأن العبادة إنما تكون بالنية وإرادة وجه الله تعالى ابتغاء لمرضاته وامتثالا لأمره،فمتى شاب هذا حظ من حظوظ الدنيا خرج العمل عن كونه عبادة،إذ لا يقبل الله من الأعمال إلا ما أريد به رضاه فحسب،ودافع الأجر عليها خاسر لماله،وآخذه خاسر لمآله.

[١٨٢٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٨)

ومن علّم العلم والدين بالأجر،فهو كسائر الصناع والأجراء لا ثواب له على أصل العمل،بل على إتقانه والإخلاص فيه،ولا يجوز أخذ الأجر على جواب السائل عن فتوى دينية تعرض له،إذ الإجابة فريضة على أهل الذكر العارفين،وكتمان العلم محرم عليهم.

والخلاصة- أنه ينبغى للإنسان أن يطلب الكسب من الطرق المشروعة التي لا تضر أحدا.

(وَتُدْلُوا بها إِلَى الْحُكَّامِ) أي ولا تلقوا بأموالكم إلى الحكام رشوة لهم.

(لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي لتأخذوا بعضا من أموال غيركم بوساطة يمين فاجرة،أو شهادة زور،أو نحو ذلك مما تثبتون به أنكم على حقّ فيما تدّعون،وأنتم تعلمون أنكم على الباطل مرتكبون المعصية،فإن الاستعانة بالحكام على أكل الأموال بالباطل حرام،إذ الحكم لا يغير الحق في نفسه،ولا يحله للمحكوم له،وحكم القاضي إنما ينفذ ظاهرا فقط،فهو لا يحلل الحرام،فإذا حكم القاضي بصحة عقد بأن فلانا عقد على فلانة بشهادة زور لا يحلّ له أن يدخل بها بغير عقد اكتفاء بحكم القاضي وهو يعلم أنه بغير حقّ،وهكذا الحال في الأموال والعقود المالية.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ،وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ،وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ،وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ،فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ،فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[١٨٢٧]

[١٨٢٧] - صحيح البخاري (٩/ ٢٥)(٦٩٦٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٧)٤ - (١٧١٣)

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ):أَيْ:تَرْفَعُونَ الْمُخَاصَمَةَ إِلَيَّ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:وَبِهَا ابْتَدَأَ فِي الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ:«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ السَّهْوَ وَالنِّسْيَانَ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ مِنَ الْإِنْسَانِ،وَأَنَّ الْوَضْعَ الْبَشَرِيَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُدْرِكَ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا ظَوَاهِرَهَا،فَإِنَّهُ خَلَقَ خَلْقًا لَا يَسْلَمُ مِنْ قَضَايَا تَحْجُبُهُ عَنْ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ،وَمِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَسْمَعَ الشَّيْءَ فَيَسْبِقُ إِلَى وَهْمِهِ أَنَّهُ صِدْقٌ وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ،يَعْنِي أَنِّي إِنْ تَرَكْتُ عَلَى مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَضَايَا الْبَشَرِيَّةِ،وَلَمْ أُؤَيَّدْ بِالْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ طَرَأَ عَلَيَّ مِنْهَا مَا يَطْرَأُ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ،فَإِنْ قِيلَ:أَوَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ - ﷺ- مَصُونًا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ،وَمَعْصُومًا عَلَى سَائِرِ أَحْوَالِهِ؟ قُلْنَا:إِنَّ الْعِصْمَةَ تَتَحَقَّقُ فِيمَا يُعَدُّ عَلَيْهِ ذَنْبًا وَيَقْصِدُهُ قَصْدًا،وَأَمَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَلَيْسَ بِدَاخِلٍ فِي جُمْلَتِهِ،فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكَلِّفْهُ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ إِلَّا مَا كَلَّفَ غَيْرَهُ،وَهُوَ الِاجْتِهَادُ فِي الْإِصَابَةِ،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي تَرْوِيهِ أُمُّ سَلَمَةَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ،وَهُوَ فِي حِسَانِ هَذَا الْبَابِ:" «أَنَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِرَأْيِي فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيَّ» ") (وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ):قَالَ الطِّيبِيُّ:زِيدَ لَفْظَةُ (أَنْ) فِي خَبَرِ لَعَلَّ تَشْبِيهًا لَهُ بِعَسَى،وَقَوْلُهُ:(أَلْحَنَ) أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مِنْ لَحِنَ كَفَرِحَ إِذَا فَطِنَ بِمَا لَا يَفْطِنُ بِهِ غَيْرُهُ؛أَيْ:أَفْصَحَ وَأَفْطَنَ (بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ):فَيُزَيِّنُ كَلَامَهُ بِحَيْثُ أَظُنُّهُ صَادِقًا فِي دَعْوَاهُ (فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ):قَالَ الرَّاغِبُ:اللَّحْنُ صَرْفُ الْكَلَامِ عَنْ سُنَنِهِ الْجَارِي عَلَيْهِ إِمَّا بِإِزَالَةِ الْعَرَبِ،أَوِ التَّصْحِيفِ وَهُوَ مَذْمُومٌ،وَذَلِكَ أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا،وَإِمَّا بِإِزَالَتِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،قَالَتْ:جَاءَ رَجُلَان إِلَى النَّبيِّ ﷺ يَخْتَصِمَان فِي مَوَارِيثَ وَأَشْيَاءَ قَدْ دَرَسَتْ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمَا برَأْيِي مَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيَّ،فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحُجَّة أَرَاهَا،فَاقْتَطَعَ بهَا قطْعَةً ظُلْمًا،فَإِنَّمَا يَقْتَطِعُ بهَا قطْعَةً مِنَ النَّارِ إسْطَامًا يَأْتِي بِهِ فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقيَامَةِ». قَالَتْ:بَكَى الرَّجُلَان،وَقَالَ كُلُّ وَاحِد منْهُمَا:يَا رَسُولَ اللَّه،حَقِّي هَذَا الَّذي أَطْلُبُ لِصَاحِبِي.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا،وَلَكِنِ اذْهَبَا فَتَوَخَّيَا ثُمَّ اسْتَهِمَا،ثُمَّ لِيُحْلِلْ كُلُّ وَاحِدٍ منْكُمَا صَاحِبَهُ»[١٨٢٨]

وَصَرْفه بمَعْنَاهُ إِلَى تَعْرِيضٍ وَفَحْوَى،وَهُوَ مَحْمُودٌ منْ حَيْثُ الْبَلَاغَة،وَإِيَّاهُ قَصَدَ الشَّارِعُ بقَوْله:وَخَيْرُ الْأَحَاديث مَا كَانَ لَحْنًا،وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [محمد:٣٠] وَمنْهُ قيلَ للَّفْظ لَمَّا يَقْتَضي فَحْوَى الْكَلَام:لَحْنٌ،وَمنْهُ الْحَديثُ." أَلْحَنَ بحُجَّته "؛أَيْ:أَلْسَنَ وَأَفْصَحَ وَأَبْيَنَ كَلَامًا،وَأَقْدَرَ عَلَى الْحُجَّة (فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بشَيْءٍ منْ حَقِّ أَخيه):أَيْ:منَ الْمَال وَغَيْره (فَلَا يَأْخُذَنَّهُ):أَيْ:إِذَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ بخلَافه (فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ):أَيْ:أُعَيِّنُ لَهُ بنَاءً عَلَى ظَاهِرِ الْأَمْرِ (قطْعَةً منَ النَّار):وَفيه دَليلٌ عَلَى جَوَازِ الْخَطَأ في الْأَحْكَام الْجُزْئيَّة،وَإِنْ لَمْ يَجُزْ في الْقَوَاعد الشَّرْعيَّة.

قَالَ النَّوَويُّ:فيه تَنْبيهٌ عَلَى الْحَالَة الْبَشَريَّة،وَأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُ منَ الْغَيْب وَبَوَاطنِ الْأُمُور شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُطْلعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ منْ ذَلكَ،فَإِنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْه في أُمُور الْأَحْكَام مَا يَجُوزُ عَلَى غَيْره،وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاس بالظَّاهر،وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائرَ،فَيَحْكُمُ بالْبَيِّنَة،أَو الْيَمين مَعَ إِمْكَان خلَاف الظَّاهر،وَهَذَا نَحْوَ قَوْله - ﷺ-:" «أُمرْتُ أَنْ أُقَاتلَ النَّاسَ») إِلَى قَوْله:" وَحسَابُهُمْ عَلَى اللَّه ".وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَأَطْلَعَ - ﷺ- عَلَى بَاطنِ أَمْرِ الْخَصْمَيْن،فَحَكَمَ بيَقين نَفْسه منْ غَيْر حَاجَة إِلَى شَهَادَة،أَوْ يَمين،وَلَكنْ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّتَهُ باتِّبَاعه وَالْاقْتدَاء بأَقْوَاله وَأَفْعَاله وَأَحْكَامه،أَجْرَى عَلَيْه حُكْمَهُمْ منْ عَدَم الْإِطْلَاعِ عَلَى بَاطنِ الْأُمُور،ليَكُونَ للْأُمَّة أُسْوَةٌ به في ذَلكَ وَتَطْييبًا لنُفُوسهمْ منَ الانْقيَاد للْأَحْكَام الظَّاهرَة منْ غَيْر نَظَرٍ إِلَى الْبَاطن.

فَإِنْ قيلَ:هَذَا الْحَديثُ ظَاهرُهُ أَنَّهُ يَقَعَ منْهُ - ﷺ- حُكْمٌ في الظَّاهر مُخَالفٌ للْبَاطن،وَقَد اتَّفَقَ الْأُصُوليُّونَ عَلَى أَنَّهُ - ﷺ-؛لَا يُقرُّ عَلَى خَطَأ في الْأَحْكَام فَالْجَوَابُ:أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْحَديث وَقَاعدَة الْأُصُول؛لأَنَّ مُرَادَهُمْ فيمَا حَكَمَ فيه باجْتهَاده،فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فيه خَطَأٌ فيه خلَافٌ،وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى جَوَازه؟ وَأَمَّا الَّذي في الْحَديث فَلَيْسَ منَ الاجْتهَاد في شَيْءٍ؛لأَنَّهُ حَكَمَ بالْبَيِّنَة،أَو الْيَمين،فَلَوْ وَقَعَ منْهُ مَا يُخَالفُ الْبَاطنَ لَا يُسَمَّى الْحُكْمُ خَطَأً،بَل الْحُكْمُ صَحيحٌ بنَاءً عَلَى مَا اسْتَقَرَّ به التَّكْليفُ،وَهُوَ وُجُوبُ الْعَمَل بشَاهدَيْن مَثَلًا،فَإِنْ كَانَا شَاهدَيْ زُور،أَوْ نَحْوَ ذَلكَ،فَالتَّقْصيرُ منْهُمَا.وَأَمَّا الْحَاكمُ،فَلَا حيلَةَ لَهُ في ذَلكَ وَلَا عَتْبَ عَلَيْه بسَبَبه،بخلَاف مَا إِذَا أَخْطَأَ في الاجْتهَاد،وَفيه دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْحَاكمَ لَمْ يُحلَّ حَرَامًا،فَإِذَا شَهدَ شَاهدُ زُورٍ لإِنْسَان بمَال،فَحَكَمَ به الْحَاكمُ لَمْ يَحلَّ للْمَحْكُوم لَهُ ذَلكَ الْمَالُ،وَلَوْ شَهدَ عَلَيْه بقَتْلٍ لَمْ يَحلَّ للْوَليِّ قَتْلُهُ مَعَ علْمه بكَذبهمَا،وَإِنْ شَهدَا عَلَى أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ لَمْ يَحلَّ لمَنْ عَلمَ كَذبَهُمَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا.قَالَ الطِّيبيُّ:وَإِلَيْه الْإِشَارَةُ بقَوْله:فَمَنْ قَضَيْتُ إِلَخْ يَعْني إِنْ قَضَيْتُ لَهُ بظَاهرٍ يُخَالفُ الْبَاطنَ فَهُوَ حَرَامٌ،فَلَا يَأْخُذَنَّ مَا قَضَيْتُ لَهُ؛لأَنَّهُ أَخَذَ مَا يَئُولُ به إِلَى قطْعَة منَ النَّار،فَوَضَعَ الْمُسَبَّبَ وَهُوَ قطْعَةٌ منَ النَّار مَوْضعَ السَّبَب،وَهُوَ مَا حَكَمَ به لَهُ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْه) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٤١)

[١٨٢٨] - مسند أبي يعلى الموصلي (١٢/ ٣٢٤)(٦٨٩٧) حسن

وقوله ألحن بحجته:أي أقدر عليها من صاحبه،والتوخي قصد الحق،والاستهام:الاقتراع أي اقصدا الحق فيما تصنعان من القسمة،وليأخذ كل منكما ما تخرجه القرعة من القسمة.

وفي الآية والحديث عبرة لو كلاء الدعاوى (المحامين) فلا ينبغى لمن يؤمن منهم بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة في دعوى يعتقد أن صاحبها مبطل،ويعتمد في ذلك على خلابته في القول ولحنه في الخطاب.

والناظر إلى ما عليه المسلمون اليوم من غرامهم بالتقاضي والخصام والإدلاء إلى الحكام لمحض الإيذاء والانتقام وإن أضرّ بنفسه،يعلم بعدهم عن فهم دينهم وهدى كتابهم،ومن ثم ساءت حالهم فنفدت ثرواتهم،وخربت بيوتهم،وفرّقت جماعاتهم،ولو تأدبوا بأدب الكتاب الذي إليه ينتسبون لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم ويمنع تقاطعهم وعقوقهم،ولحلّ فيهم التراحم محل التزاحم،وقد بلغ من أمرهم أن ظنوا أنهم عن هدى الدين أغنياء،وعموا عما أصابهم لأجل هذا من الأرزاء.[1829]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ،وَإِذَا اشْتَرَى،وَإِذَا اقْتَضَى» رواه البخاريُّ[1830].

وعَنْ أَبِي سَعِيد،عَنْ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ،وَالصِّدِّيقِينَ،وَالشُّهَدَاءِ» رواه الترمذي[1831].

[1829] - تفسير المراغي (٢/ ٨١)

[1830] - صحيح البخاري (٣/ ٥٧)(٢٠٧٦)

" رَحِمَ اللَّهُ!):دُعَاءٌ أَوْ خَبَرٌ (رَجُلًا) أَيْ شَخْصًا (سَمْحًا):بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ أَيْ سَهْلًا وَجَوَادًا،يَتَجَاوَزُ عَنْ بَعْضِ حَقِّهِ (إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى،وَإِذَا اقْتَضَى):أَيْ إِذَا طَلَبَ دَيْنًا لَهُ عَلَى غَرِيمٍ يَطْلُبُهُ بِالرِّفْقِ وَاللُّطْفِ لَا بِالْخُرْقِ وَالْعُنْفِ " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٠٧)

فقه الحديث:دل هذا الحديث على أن حسن المعاملة والتسامح في البيع والشراء واقتضاء الديون سبب في نجاح الإنسان في تجارته وأعماله،وفوزه بكل ما يصبو إليه من مال وصحة وولد،لأنّ النبي - ﷺ - دعا له بالرحمة،ودعوته مستجابة،فهو ولا شك مشمول برحمة الله ونعمته وعنايته.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٢٥٨)

[1831] - سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٥٠٧)(١٢٠٩) وسنن الدارمي (٣/ ١٦٥٣)(٢٥٨١) والمعجم الأوسط (٧/ ٢٤٣)(٧٣٩٤) عن ابن عمر حسن لغيره

" التَّاجِرُ ") أَي:الْمُشْتَغِلُ بِنَحْوِ بَيْعٍ وَتِجَارَةٍ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ كَانَ،وَقَدْ مَرَّ أَنَّ أَفْضَلَ أَنْوَاعِ التِّجَارَةِ الْبُرُّ ثُمَّ الْعِطْرُ (" الصَّدُوقُ "):أَيْ كَثِيرُ الصِّدْقِ قَوْلًا وَفِعْلًا (" الْأَمِينُ "):أَيِ الْمَوْصُوفُ بِالْأَمَانَةِ الْمَحْفُوظُ مِنَ الْخِيَانَةِ،وَالصِّيغَتَانِ لِلْمُبَالَغَةِ،فَمَنِ اتَّصَفَ

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الحَارِثِ،قَالَ:سَمِعْتُ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا،فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا،وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» رواه البخاري ومسلم[1832] .

وعَنْ مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:«لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ» رواه مسلم[1833] .

بِهِمَا اتَّصَفَ بِسَائِرِ صِفَاتِ الْكَمَالِ،فَيَسْتَحِقُّ أَنْ يُحْشَرَ أَوْ يَكُونَ فِي الْجَنَّةِ.(مَعَ النَّبِيِّينَ):أَيْ لِإِطَاعَتِهِمْ (وَالصِّدِّيقِينَ "):لِمُوَافَقَتِهِمْ فِي صِفَتِهِمْ (" وَالشُّهَدَاءِ ") لِشَهَادَتِهِمْ عَلَى صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٠٩)

[1832] - صحيح البخاري (٣/ ٦٤)(٢١١٠) وصحيح مسلم (٣/ ١١٦٤)٤٧ - (١٥٣٢)

أي أن لكل منهما الحق في أن يختار ما يريد من إمضاء البيع أو فسخه ما داما لم يتفرقا،فإذا تفردا وجب البيع،وانتهى الخيار،كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه - ﷺ - قال:" فإن فارقه فلا خيار له "،" فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما "،أي فإن صدق البائع وبين العيب الذي في سلعته،وصدق المشتري وبين العيب الذي في الثمن حلت البركة في ذلك البيع فكان مربحاً،وكثر نفعه لهما،" وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما "،أي رفعت البركة من ذلك البيع،فكان خسارة لهما.

فقه الحديث:دل هذا الحديث دلالة صريحة على ثبوت الخيار للمتبايعين في إمضاء البيع وفسخه حتى يتفرقا،واختلف أهل العلم في التفرق الذي يسقط الخيار،ويوجب البيع،فذهب الشافعي وأحمد وغيرهم إلى أنه التفرق بالأبدان،وأثبتوا خيار المجلس،وقال مالك وأبو حنيفة:هو التفرق بالأقوال عند انتهاء العقد،ووقوع الإِيجاب والقبول،فإذا قال البائع:بعت والمشتري اشتريت لزم البيع،واستدل مالك على ذلك بقوله - ﷺ -:" ولا يحل له أن يفارقه خشية أن يستقيله " فلو كان خيار المجلس مشروعاً لم يحتج للاستقالة،لأن من حقه الخيار ما دام في المجلس.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٢٥٩)

[1833] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٢٨)١٣٠ - (١٦٠٥)

هُنَاكَ ثَلاَثُ اتِّجَاهَاتٍ:

الأَوَّل:مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ أَنَّهُ لاَ احْتِكَارَ إِلاَّ فِي الْقُوتِ خَاصَّةً .الاِتِّجَاهُ الثَّانِي:أَنَّ الاحْتِكَارَ يَجْرِي فِي كُل مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ،وَيَتَضَرَّرُونَ مِنْ حَبْسِهِ،مِنْ قُوتٍ وَإِدَامٍ وَلِبَاسٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمَالِكِيَّةُ وَأَبُو يُوسُفَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ .

الاِتِّجَاهُ الثَّالِثُ:أَنَّهُ لاَ احْتِكَارَ إِلاَّ فِي الْقُوتِ وَالثِّيَابِ خَاصَّةً .وَهَذَا قَوْلٌ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ .

وَاسْتَدَل الْجُمْهُورُ - أَصْحَابُ الاتِّجَاهِ الأَوَّل - بِأَنَّ الأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الْبَابِ بَعْضُهَا عَامٌّ،كَالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّهُ قَال:قَال رَسُول اللَّهِ ﷺ:مَنِ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ،وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى رَوَاهَا مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ لاَ يَحْتَكِرُ إِلاَّ خَاطِئٌ،وَحَدِيثُ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَال:قَال رَسُول اللَّهِ ﷺ:مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغَلِّيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَاطِئٌ .وَزَادَ الْحَاكِمُ:وَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ .فَهَذِهِ نُصُوصٌ عَامَّةٌ فِي كُل مُحْتَكِرٍ .

وَقَدْ وَرَدَتْ نُصُوصٌ أُخْرَى خَاصَّةٌ،مِنْهَا حَدِيثُ ابْنِ مَاجَهْ بِسَنَدِهِ:مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالإِفْلاَسِ .وَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْبَزَّارُ وَأَبُو يَعْلَى بِلَفْظِ:مَنِ احْتَكَرَ الطَّعَامَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ .وَزَادَ الْحَاكِمُ .وَأَيُّمَا أَهْل عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ .

قال الشوكاني :"وَلَا شَكَّ أَنَّ أَحَادِيثَ الْبَابِ تَنْتَهِضُ بِمَجْمُوعِهَا لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ الِاحْتِكَارِ وَلَوْ فُرِضَ عَدَمُ ثُبُوتِ شَيْءٍ مِنْهَا فِي الصَّحِيحِ،فَكَيْفَ وَحَدِيثُ مَعْمَرٍ الْمَذْكُورُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَالتَّصْرِيحُ بِأَنَّ الْمُحْتَكِرَ خَاطِئٌ كَافٍ فِي إفَادَةِ عَدَمِ الْجَوَازِ،لِأَنَّ الْخَاطِئَ:الْمُذْنِبُ الْعَاصِي وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ خَطِئَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَهَمْزِ اللَّامِ خِطْأً بِفَتْحِ الْعَيْنِ،وَكَسْرِ الْفَاءِ وَسُكُونِ الْعَيْنِ إذَا أَثِمَ فِي فِعْلِهِ،قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ،وَقَالَ:سَمِعْتُ الْأَزْهَرِيَّ يَقُولُ:خَطِئَ إذَا تَعَمَّدَ،وَأَخْطَأَ إذَا لَمْ يَتَعَمَّدْ قَوْلُهُ:(بِعُظْمٍ) بِضَمِّ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ الظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ:أَيْ:بِمَكَانٍ عَظِيمٍ مِنْ النَّارِ قَوْلُهُ:(حُكْرَةً) بِضَمِّ الْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْكَافِ وَهِيَ حَبْسُ السِّلَعِ عَنْ الْبَيْعِ وَظَاهِرُ أَحَادِيثِ الْبَابِ أَنَّ الِاحْتِكَارَ مُحَرَّمٌ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ قُوتِ الْآدَمِيِّ وَالدَّوَابِّ وَبَيْنَ غَيْرِهِ.

وَالتَّصْرِيحُ بِلَفْظِ:" الطَّعَامِ " فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ لَا يَصْلُحُ لِتَقْيِيدِ بَقِيَّةِ الرِّوَايَاتِ الْمُطْلَقَةِ،بَلْ هُوَ مِنْ التَّنْصِيصِ عَلَى فَرْدٍ مِنْ الْأَفْرَادِ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا الْمُطْلَقُ،وَذَلِكَ لِأَنَّ نَفْيَ الْحُكْمِ عَنْ غَيْرِ الطَّعَامِ إنَّمَا هُوَ لِمَفْهُومِ اللَّقَبِ وَهُوَ غَيْرُ مَعْمُولٍ بِهِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ،وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لِلتَّقْيِيدِ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ وَذَهَبَتْ الشَّافِعِيَّةُ إلَى أَنَّ الْمُحَرَّمَ إنَّمَا هُوَ احْتِكَارُ الْأَقْوَاتِ خَاصَّةً لَا غَيْرِهَا وَلَا مِقْدَارِ الْكِفَايَةِ مِنْهَا،وَإِلَى ذَلِكَ ذَهَبَتْ الْهَادَوِيَّةُ قَالَ ابْنُ رِسْلَانَ فِي شَرْحِ السُّنَنِ:وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ مَا يَدَّخِرُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ قُوتٍ وَمَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ مِنْ سَمْنٍ وَعَسَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ جَائِزٌ لَا بَأْسَ بِهِ انْتَهَى وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ يُعْطِي كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ زَوْجَاتِهِ مِائَةَ وَسْقٍ مِنْ خَيْبَرَ» قَالَ ابْنُ رِسْلَانَ فِي شَرْحِ السُّنَنِ:وَقَدْ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَدَّخِرُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ مِنْ تَمْرٍ وَغَيْرِهِ» قَالَ أَبُو دَاوُد:قِيلَ لِسَعِيدٍ يَعْنِي:ابْنَ الْمُسَيِّبِ فَإِنَّكَ تَحْتَكِرُ قَالَ وَمَعْمَرٌ كَانَ يَحْتَكِرُ.

وَكَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَآخَرُونَ:إنَّمَا كَانَا يَحْتَكِرَانِ الزَّيْتَ،وَحَمَلَا الْحَدِيثَ عَلَى احْتِكَارِ الْقُوتِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إلَيْهِ،وَكَذَلِكَ حَمَلَهُ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَآخَرُونَ وَيَدُلُّ عَلَى

وَإِذَا اجْتَمَعَتْ نُصُوصٌ عَامَّةٌ وَأُخْرَى خَاصَّةٌ فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ حُمِل الْعَامُّ عَلَى الْخَاصِّ وَالْمُطْلَقُ عَلَى الْمُقَيَّدِ،وَاسْتَدَل الْمَالِكِيَّةُ وَأَبُو يُوسُفَ بِالأَحَادِيثِ الْعَامَّةِ،وَقَالُوا:إِنَّ مَا وَرَدَ مِنَ النُّصُوصِ الْخَاصَّةِ فَهِيَ مِنْ قَبِيل اللَّقَبِ،وَاللَّقَبُ لاَ مَفْهُومَ لَهُ .وَأَمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ الثَّانِي فَإِنَّهُ حَمَل الثِّيَابَ عَلَى الْقُوتِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مِنَ الْحَاجَاتِ الضَّرُورِيَّةِ.الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ٩٢)

اعْتبَارِ الْحَاجَةِ وَقَصْدِ إغْلَاءِ السِّعْرِ عَلَى الْمُسْلمينَ قَوْلُهُ فِي حَديث مَعْقِلٍ «مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ منْ أَسْعَارِ الْمُسْلمينَ ليُغْليَهُ عَلَيْهِمْ»،وَقَوْلُهُ فِي حَديث أَبِي هُرَيْرَةَ:«يُرِيدُ أَنْ يُغْليَ بهَا عَلَى الْمُسْلمينَ» قَالَ أَبُو دَاوُد:سَأَلْتُ أَحْمَدَ مَا الْحُكْرَةُ؟ قَالَ:مَا فيه عَيْشُ النَّاسِ:أَيْ:حَيَاتُهُمْ وَقُوتُهُمْ،وَقَالَ الْأَثْرَمُ:سَمعْتُ أَبَا عَبْد اللَّه يَعْني:أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يُسْأَلُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ الاحْتكَارُ؟ فَقَالَ:إذَا كَانَ منْ قُوت النَّاسِ فَهُوَ الَّذي يُكْرَهُ وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ وَقَالَ الْأَوْزَاعيُّ:الْمُحْتكرُ مَنْ يَعْتَرِضُ السُّوقَ أَيْ:يَنْصبُ نَفْسَهُ للتَّرَدُّد إلَى الْأَسْوَاق ليَشْتَرِيَ منْهَا الطَّعَامَ الَّذي يَحْتَاجُونَ إلَيْه ليَحْتَكرَهُ قَالَ السُّبْكيُّ:الَّذي يَنْبَغي أَنْ يُقَالَ فِي ذَلكَ أَنَّهُ إنْ مَنَعَ غَيْرَهُ منْ الشِّرَاءِ وَحَصَلَ به ضيقٌ حُرِّمَ وَإِنْ كَانَتْ الْأَسْعَارُ رَخيصَةً وَكَانَ الْقَدْرُ الَّذي يَشْتَرِيه لَا حَاجَةَ بالنَّاسِ إلَيْه فَلَيْسَ لمَنْعه منْ شرَائه وَادِّخَاره إلَى وَقْت حَاجَة النَّاسِ إلَيْه مَعْنًى قَالَ الْقَاضي حُسَيْنٌ وَالرُّويَانيُّ:وَرُبَّمَا يَكُونُ هَذَا حَسَنَةً؛لأَنَّهُ يَنْفَعُ به النَّاسَ وَقَطَعَ الْمَحَامليُّ فِي الْمُقْنعِ باسْتحْبَابه قَالَ أَصْحَابُ الشَّافعيِّ:الْأَوْلَى بَيْعُ الْفَاضلِ عَنْ الْكفَايَة قَالَ السُّبْكيُّ:أَمَّا إمْسَاكُهُ حَالَةَ اسْتغْنَاءِ أَهْلِ الْبَلَد عَنْهُ رَغْبَةً فِي أَنْ يَبِيعَهُ إلَيْهِمْ وَقْتَ حَاجَتهِمْ إلَيْه فَيَنْبَغي أَنْ لَا يُكْرَهَ بَلْ يُسْتَحَبُّ وَالْحَاصلُ أَنَّ الْعلَّةَ إذَا كَانَتْ هيَ الْإِضْرَارَ بالْمُسْلمينَ لَمْ يَحْرُمْ الاحْتكَارُ إلَّا عَلَى وَجْهٍ يَضُرُّ بهِمْ.

وَيَسْتَوِي فِي ذَلكَ الْقُوتُ وَغَيْرُهُ؛لأَنَّهُمْ يَتَضَرَّرُونَ بالْجَميعِ قَالَ الْغَزَاليُّ فِي الْإِحْيَاءِ:مَا لَيْسَ بقُوتٍ وَلَا مُعينٍ عَلَيْه فَلَا يَتَعَدَّى النَّهْيُ إلَيْه،وَإِنْ كَانَ مَطْعُومًا وَمَا يُعينُ عَلَى الْقُوت كَاللَّحْمِ وَالْفَوَاكه وَمَا يَسُدُّ مَسَدَ شَيْءٍ منْ الْقُوت فِي بَعْضِ الْأَحْوَال وَإِنْ كَانَ لَا يُمْكنُ الْمُدَاوَمَةُ عَلَيْه فَهُوَ فِي مَحَلِّ النَّظَرِ فَمنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ طَرَدَ التَّحْرِيمَ فِي السَّمْنِ وَالْعَسَلِ وَالشَّيْرَجِ وَالْجُبْنِ وَالزَّيْت وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ وَقَالَ السُّبْكيُّ:إذَا كَانَ فِي وَقْت قَحْط كَانَ فِي ادِّخَارِ الْعَسَلِ وَالسَّمْنِ وَالشَّيْرَجِ وَأَمْثَالهَا إضْرَارٌ،فَيَنْبَغي أَنْ يُقْضَى بتَحْرِيمه،وَإِذَا لَمْ يَكُنْ إضْرَارٌ فَلَا يَخْلُو احْتكَارُ الْأَقْوَات عَنْ كَرَاهَة.وَقَالَ الْقَاضي حُسَيْنٌ:إذَا كَانَ النَّاسُ يَحْتَاجُونَ الثِّيَابَ وَنَحْوَهَا لشدَّة الْبَرْد أَوْ لسَتْرِ الْعَوْرَة فَيُكْرَهُ لمَنْ عنْدَهُ ذَلكَ إمْسَاكُهُ.قَالَ السُّبْكيُّ:إنْ أَرَادَ كَرَاهَةَ تَحْرِيمٍ فَظَاهرٌ.

وَإِنْ أَرَادَ كَرَاهَةَ تَنْزِيه فَبَعيدٌ.وَحَكَى أَبُو دَاوُد عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ:لَيْسَ فِي التَّمْرَة حُكْرَةٌ.وَحُكيَ أَيْضًا عَنْ سُفْيَانَ أَنَّهُ سُئلَ عَنْ كَبْسِ الْقَتِّ فَقَالَ:كَانُوا يَكْرَهُونَ الْحُكْرَةَ وَالْكَبْسُ بفَتْحِ الْكَاف

وَإِسْكَانِ الْمُوَحَّدَةِ،وَالْقَتُّ بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ التَّاءِ الْفَوْقِيَّةِ وَهُوَ الْيَابِسُ مِنْ الْقَضْبِ قَالَ الطِّيبِيُّ:إِنَّ التَّقْيِيدَ بِالْأَرْبَعِينَ الْيَوْمَ غَيْرُ مُرَادٍ بِهِ التَّحْدِيدَ اهـ،وَلَمْ أَجِدْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى الْعَمَلِ بِهَذَا الْعَدَدِ"[١٨٣٤]

وعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ إِلَيْنَا،وَكُنَّا تُجَّارًا وَكَانَ يَقُولُ:«يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ» رواه الطبراني في الكبير[١٨٣٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا،فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ:«مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:«أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ،مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»رواه مسلم[١٨٣٦].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا،وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ،فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا،إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون:٥١] وَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة:١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ،يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ،يَا رَبِّ،يَا رَبِّ،وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ،وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ،وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ،وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ،فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ " رواه مسلم[١٨٣٧].

[١٨٣٤] - نيل الأوطار (٥/ ٢٦١)

[١٨٣٥] - المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٥٦)(١٣٢) حسن

[١٨٣٦] - صحيح مسلم (١/ ٩٩)(١٠٢)

مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ) بِضَمِّ الصَّادِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ مَا جُمِعَ مِنَ الطَّعَامِ بِلَا كَيْلٍ وَوَزْنٍ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ وَالْمُرَادُ بِالطَّعَامِ جِنْسُ الْحُبُوبِ الْمَأْكُولِ (فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا) أَيْ فِي الصُّبْرَةِ (فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ) أَيْ أَدْرَكَتْ (بَلَلًا) بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ وَاللَّامِ (فَقَالَ مَا هَذَا) أَيِ الْبَلَلُ الْمُنْبِئُ غَالِبًا عَلَى الْغِشِّ مِنْ غَيْرِهِ (يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ) أَيْ بَائِعَهُ (قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ) أَيِ الْمَطَرُ لِأَنَّهَا مَكَانُهُ وَهُوَ نَازِلٌ مِنْهَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ...رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

(يَا رَسُولَ اللَّهِ) اعْتِرَافٌ بِالْإِيمَانِ وَإِقْرَارٌ بِالْإِذْعَانِ (قَالَ أَفَلَا جَعَلْتَهُ) قَالَ أَسَتَرْتَ عَيْنَهُ أَفَلَا جَعَلْتَ الْبَلَلَ (فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ) فِيهِ إِيذَانٌ بِأَنَّ لِلْمُحْتَسِبِ أَنْ يَمْتَحِنَ بَضَائِعَ السُّوقَةِ لِيَعْرِفَ الْمُشْتَمِلَ مِنْهَا عَلَى الْغِشِّ مِنْ غَيْرِهِ.(مَنْ غَشَّ) أَيْ خَانَ وَهُوَ ضِدُّ النُّصْحِ (فَلَيْسَ مِنِّي) أَيْ لَيْسَ هُوَ عَلَى سُنَّتِي وَطَرِيقَتِي.قَالَ الطِّيبِيُّ:مِنِ اتِّصَالِيَّةٌ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} [التوبة:٦٧] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٣٥)

[١٨٣٧] - صحيح مسلم (٢/ ٧٠٣)٦٥ - (١٠١٥)

" إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ) :أَيْ:مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ،وَمُتَّصِفٌ بِالْكَمَالَاتِ مِنَ النُّعُوتِ (لَا يَقْبَلُ) :أَيْ:مِنَ الصَّدَقَاتِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ (إِلَّا طَيِّبًا) :أَيْ:مُنَزَّهًا عَنِ الْعُيُوبِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَغْرَاضِ الْفَاسِدَةِ فِي النِّيَّةِ.قَالَ الْقَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ:الطَّيِّبُ ضِدُّ الْخَبِيثِ،فَإِذَا وُصِفَ بِهِ - تَعَالَى - أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ،مُقَدَّسٌ عَنِ الْآفَاتِ،وَإِذَا وُصِفَ بِهِ الْعَبْدُ مُطْلَقًا أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ الْمُتَعَرِّي عَنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ،وَقَبَائِحِ الْأَعْمَالِ،وَالْمُتَحَلِّي بِأَضْدَادِ ذَلِكَ،وَإِذَا وُصِفَ بِهِ الْأَمْوَالُ أُرِيدَ بِهِ كَوْنُهُ حَلَالًا مِنْ خِيَارِ الْأَمْوَالِ،وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ - تَعَالَى - مُنَزَّهٌ عَنِ الْعُيُوبِ،فَلَا يُقْبَلُ،وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَقَرَّبَ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا يُنَاسِبُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى،وَهُوَ خِيَارُ أَمْوَالِكُمُ الْحَلَالِ كَمَا قَالَ - تَعَالَى:{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران:٩٢] (وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ) :" مَا " مَوْصُولَةٌ،وَالْمُرَادُ بِهِ أَكْلُ الْحَلَالِ وَتَحْسِينُ الْأَمْوَالِ (فَقَالَ) :ابْتِدَاءٌ بِمَا خَتَمَ بِهِ رِعَايَةً لِتَقَدُّمِ الْمُرْسَلِينَ وَتَقَدُّمُهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وُجُودًا وَرُتْبَةً {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [المؤمنون:٥١] :آخِرُهُ {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون:٥١] وَهَذَا النِّدَاءُ خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ لَا عَلَى أَنَّهُمْ خُوطِبُوا بِذَلِكَ دُفْعَةً وَاحِدَةً ؛ لِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا فِي أَزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ،بَلْ عَلَى أَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ خُوطِبَ بِهِ فِي زَمَانِهِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا النِّدَاءُ يَوْمَ الْمِيثَاقِ لِخُصُوصِ الْأَنْبِيَاءِ،أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ - تَعَالَى - لَيْسَ عِنْدَهُ صَبَاحٌ وَلَا مَسَاءٌ،وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ إِبَاحَةَ الطَّيِّبَاتِ شَرْعٌ قَدِيمٌ،وَاعْتِرَاضٌ عَلَى الرَّهْبَانِيَّةِ فِي رَفْضِهِمُ اللَّذَّاتِ،وَإِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ أَكْلَ الطَّيِّبَاتِ مُوَرِّثٌ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ،وَهُوَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى -.(وَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا} [البقرة:١٧٢] :الْأَمْرُ لِلْإِبَاحَةِ أَوْ لِلْوُجُوبِ،كَمَا لَوْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ أَوْ لِلنَّدْبِ كَمُوَافَقَةِ الضَّيْفِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ {مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة:١٧٢] :أَيْ:حَلَالَاتِهِ أَوْ مُسْتَلَذَّاتِهِ وَتَتِمَّتُهُ:{وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة:١٧٢] وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا لِعَبِيدِهِ،كَمَا قَالَ:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة:٢٩] وَأَنَّهُ خَلَقَ عَبِيدَهُ لِمَعْرِفَةٍ وَطَاعَةٍ

[ش (إن الله طيب) قال القاضي الطيب في صفة الله تعالى بمعنى المنزه عن النقائص وهو بمعنى القدوس وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث (ثم ذكر الرجل) هذه الجملة من كلام الراوي والضمير فيه للنبي ﷺ والرجل بالرفع مبتدأ مذكور على وجه الحكاية من لفظ رسول الله ﷺ ويجوز أن ينصب على أنه مفعول ذكر (وغذي) بضم الغين وتخفيف الذال]

كَمَا قَالَ - تَعَالَى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ - مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} [الذاريات:٥٦ - ٥٧] (ثُمَّ ذَكَرَ ":أَيِ:الرَّسُولُ - ﷺ - (الرَّجُلَ) :بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ خَبَرُهُ،وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ لِلْمَفْعُولِيَّةِ (يُطِيلُ السَّفَرَ) :أَيْ:زَمَانَهُ وَيُكْثِرُ مُبَاشَرَتَهُ فِي الْعِبَادَاتِ،كَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْجِهَادِ وَتَعَلُّمِ الْعِلْمِ وَسَائِرِ وُجُوهِ الْخَيْرَاتِ.(أَشْعَثَ،أَغْبَرَ) :حَالَانِ مُتَدَاخِلَانِ،أَوْ مُتَرَادِفَانِ،وَكَذَا قَوْلُهُ:(يَمُدُّ يَدَيْهِ) :أَيْ مَادًّا يَدَيْهِ رَافِعًا بِهِمَا (إِلَى السَّمَاءِ) :لِأَنَّهَا قِبْلَةُ الدُّعَاءِ قَائِلًا مُكَرِّرًا (يَا رَبِّ! يَا رَبِّ!) :فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الدُّعَاءَ بِلَفْظِ الرَّبِّ مُؤَثِّرٌ فِي الْإِجَابَةِ لِإِيذَانِهِ بِالِاعْتِرَافِ بِأَنَّ وَجُودَهُ فَائِضٌ عَنْ تَرْبِيَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَجُودِهِ وَامْتِنَانِهِ،وَلِذَا قَالَ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ:مَنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ فَقَالَ خَمْسَ مَرَّاتٍ:رَبَّنَا نَجَّاهُ اللَّهُ مِمَّا يَخَافُ،وَأَعْطَاهُ مَا أَرَادَ لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - حَكَى عَنْهُمْ فِي آلِ عِمْرَانَ:أَنَّهُمْ قَالُوا خَمْسًا (] فَاسْتَجَابَ [لَهُمْ رَبُّهُمْ) (وَمَطْعَمُهُ) :مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ،أَوِ اسْمُ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ،طَعَامُهُ (حَرَامٌ) :وَالْجُمْلَةُ حَالٌ أَيْضًا،وَكَذَا قَوْلُهُ (وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ،وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ،وَغُذِّيَ) :بِضَمِّ الْغَيْنِ وَكَسْرِ الذَّالِ الْمُعْجَمَةِ الْمُخَفَّفَةِ،كَذَا ضَبَطَهُ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ،وَفِي نُسَخِ الْمَصَابِيحِ:وَقَعَتْ مُقَيَّدَةً بِالتَّشْدِيدِ،كَذَا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَهُوَ كَذَلِكَ فِي بَعْضِ نُسَخِ الْمِشْكَاةِ وَالْمَعْنَى رُبِّيَ (بِالْحَرَامِ) :أَيْ:مِنْ صِغَرِهِ إِلَى كِبَرِهِ.

قَالَ الْأَشْرَفُ:ذُكِرَ قَوْلُهُ:" وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ " بَعْدَ قَوْلِهِ " وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ " إِمَّا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِمَّنْ كَوْنُ الْمَطْعَمُ حَرَامًا التَّغْذِيَةُ بِهِ،وَإِمَّا تَنْبِيهًا بِهِ عَلَى اسْتِوَاءِ حَالَيْهِ،أَعْنِي كَوْنَهُ مُنْفِقًا فِي حَالِ كِبَرِهِ وَمُنْفَقًا عَلَيْهِ فِي حَالِ صِغَرِهِ فِي وُصُولِ الْحَرَامِ إِلَى بَاطِنِهِ،فَأَشَارَ بِقَوْلِهِ:" مَطْعَمُهُ حَرَامٌ " إِلَى حَالِ كِبَرِهِ وَبِقَوْلِهِ:" وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ " إِلَى حَالِ صِغَرِهِ،وَهَذَا دَالٌّ عَلَى أَنْ لَا تَرْتِيبَ فِي الْوَاوِ،وَذَهَبَ الْمُظْهِرُ إِلَى الْوَجْهِ الثَّانِي،وَرَجَّحَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْوَجْهَ الْأَوَّلَ،وَلَا مَنْعَ مِنَ الْجَمْعِ فَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ عَدَمَ إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ إِنَّمَا هُوَ لِكَوْنِهِ مُصِرًّا عَلَى تَلَبُّسِ الْحَرَامِ وَاللَّهُ - تَعَالَى - أَعْلَمُ بِالْمَرَامِ.قَالَ الْأَشْرَفُ:" يُطِيلُ " مَحَلُّهُ نَصْبُ صِفَةٍ لِلرَّجُلِ،لِأَنَّ جِنْسَ الْمَعْرِفَةِ بِمَنْزِلَةِ النَّكِرَةِ كَقَوْلِهِ:(

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي

) قُلْتُ:وَكَقَوْلِهِ - تَعَالَى:{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة:٥] قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:قَوْلُهُ:ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ - يُرِيدُ الرَّاوِي - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَقَّبَ كَلَامَهُ بِذِكْرِ الرَّجُلِ الْمَوْصُوفِ اسْتِبْعَادًا،أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَقْبَلُ دُعَاءَ آكِلِ الْحَرَامِ لِبُعْضِهِ الْحَرَامَ،وَبُعْدِ مُنَاسَبَتِهِ عَنْ جَنَابِهِ الْأَقْدَسِ،فَأَوْقَعَ فِعْلَهُ عَلَى الرَّجُلِ وَنَصَبَهُ،وَلَوْ حَكَى لَفْظَ الرَّسُولِ - ﷺ - رَفَعَ الرَّجُلَ بِالِابْتِدَاءِ وَالْخَبَرُ يُطِيلُ،وَقَوْلُهُ:أَشْعَثَ وَأَغْبَرَ حَالَانِ مُرَادِفَتَانِ مِنْ فَاعِلِ يَمُدُّ أَيْ يَمُدُّ يَدَيْهِ قَائِلًا:يَا رَبِّ،وَقَوْلُهُ:وَمَطْعَمُهُ،وَمَشْرَبُهُ،وَمَلْبَسُهُ،وَغُذِّيَ،حَالٌ مِنْ فَاعِلِ قَائِلًا،وَكُلُّ هَذِهِ الْحَالَاتِ دَالَّةٌ عَلَى غَايَةِ اسْتِحْقَاقِ الدَّاعِي لِلْإِجَابَةِ،وَدَلَّتْ تِلْكَ الْخَيْبَةُ عَلَى أَنَّ الصَّارِفَ قَوِيٌّ وَالْحَاجِزَ مَانِعٌ شَدِيدٌ.اهـ.

وَفِي قَوْلِهِ:وَكُلُّ هَذِهِ الْحَالَاتِ تَوَسُّعٌ لِخُرُوجِ مَطْعَمِهِ الْخَ.فَإِنَّهَا حَالَاتٌ دَالَّةٌ عَلَى اسْتِحْقَاقِ الدَّاعِي عَدَمَ الْإِجَابَةِ كَمَا قَالَ:(فَأَنَّى) :أَيْ:فَكَيْفَ أَوْ فَمِنْ أَيْنَ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلِاسْتِبْعَادِ مِنْ أَنْ (يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟) :أَيْ:لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَوْ لِأَجْلِ مَا ذُكِرَ مِنْ حَالِ الرَّجُلِ.قَالَ الْأَشْرَفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ:وَفِيهِ إِيذَانٌ بِأَنَّ حِلَّ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ إِجَابَةُ الدُّعَاءِ،وَلِذَا قِيلَ:إِنَّ لِلدُّعَاءِ جَنَاحَيْنِ أَكْلَ الْحَلَالِ وَصِدْقَ الْمَقَالِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَعَالَى:أَرَادَ بِالرَّجُلِ الْحَاجَّ الَّذِي أَثَّرَ فِيهِ السَّفَرُ،وَأَخَذَ مِنْهُ الْجَهْدُ،وَأَصَابَهُ الشَّعَثُ،وَعَلَاهُ الْغَبَرَةُ فَطَفِقَ يَدْعُو اللَّهَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ،وَعِنْدَهُ أَنَّهُمَا مِنْ مَظَانِّ الْإِجَابَةِ،فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُ،وَلَا يُعْبَأُ بِبُؤْسِهِ وَشَقَائِهِ لِأَنَّهُ مُلْتَبِسٌ بِالْحَرَامِ صَارِفُ النَّفَقَةِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا.قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:فَإِذَا كَانَ حَالُ الْحَاجِّ الَّذِي هُوَ سَبِيلُ اللَّهِ هَذَا فَمَا بَالُ غَيْرِهِ،وَفِي مَعْنَاهُ أَمْرُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِقَوْلِهِ - ﷺ:«طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ،مُغَبَّرَةٍ قَدَمَاهُ» ".اهـ

وَاعْلَمْ أَنَّ طِيبَ الْمَطْعَمِ لَهُ خَاصِّيَّةٌ عَظِيمَةٌ،وَتَأْكِيدُ اسْتِعْدَادِهِ لِقَبُولِ أَنْوَارِ الْمَعْرِفَةِ،وَذَلِكَ لِأَنَّ بِنَاءَ الْأَمْرِ بَعْدَ حِفْظِ السُّنَّةِ وَمُجَانَبَةِ كُلِّ صَاحِبٍ يُفْسِدُ الْوَقْتَ،وَكُلِّ سَبَبٍ يَفْتِنُ الْقَلْبَ عَلَى صَوْنِ الْيَدِ عَنِ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ،وَأَقَلُّهُ أَنْ يَحْتَرِزَ مِمَّا حَرَّمَهُ فَتْوَى الْعُلَمَاءِ،وَهُوَ وَرَعُ الْعَامَّةِ،ثُمَّ يَمْتَنِعَ عَمَّا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ احْتِمَالُ التَّحْرِيمِ،وَإِنْ أَفْتَى الْمُفْتِي بِحِلِّهِ،وَهُوَ وَرَعُ الصَّالِحِينَ،ثُمَّ تَرْكَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا فِيهِ بَأْسٌ،وَهُوَ وَرَعُ الْمُتَّقِينَ،ثُمَّ الْحَذَرُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يُرَادُ بِتَنَاوُلِهِ الْقُوَّةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ،أَوْ يَتَطَرَّقُ إِلَى بَعْضِ أَسْبَابِهِ مَعْصِيَةٌ أَوْ كَرَاهَةٌ،وَهُوَ وَرَعُ الصِّدِّيقِينَ.هَذَا وَاعْلَمْ أَنَّ فِي

هَذَا الزَّمَانِ لَا يُوجَدُ الْحَلَالُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ،فَلْيَكْتَفِ السَّالِكُ مِنْ غَيْرِهِ بِمَا يَحْفَظُ رَوْعًا لِئَلَّا يَمُوتَ جُوعًا قَالَ بَعْضُ الظُّرَفَاءِ:

يَقُولُ لِيَ الْجَهُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...دَعِ الْمَالَ الْحَرَامَ وَكُنْ قَنُوعًا

فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ مَالًا حَلَالًا ...وَلَمْ آكُلْ حَرَامًا مِتُّ جُوعًا

لَكِنْ يَجِبُ أَنْ يُرَاعَى دَرَجَاتُ الْحَرَمِ وَالشُّبْهَةِ فَمَهْمَا وَجَدَ مَا يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى الْحَلَالِ لَا يَتَنَاوَلُ مِمَّا يَكُونُ أَبْعَدَ مِنْهُ،حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ:الْمُضْطَرُّ إِذَا وَجَدَ غَنَمًا مَيْتًا فَلَا يَأْكُلُ مِنَ الْحِمَارِ الْمَيِّتِ،وَإِذَا وَجَدَ الْحِمَارَ فَلَا يَتَنَاوَلُ مِنَ الْكَلْبِ،وَإِذَا وَجَدَ الْكَلْبَ لَا يَقْرَبُ مِنَ الْخِنْزِيرِ،وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَاوِيَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ كَسُفَهَاءِ الْفُقَهَاءِ حَيْثُ يَقُولُونَ:الْحَلَالُ مَا حَلَّ بِنَا،وَالْحَرَامُ مَا حَرُمَ مِنَّا.[١٨٣٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ،لاَ يُبَالِي المَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ،أَمِنَ الحَلاَلِ أَمْ مِنَ الحَرَامِ» رواه البخاري[١٨٣٩].

[١٨٣٨] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٨٨٩)

[١٨٣٩] - صحيح البخاري (٣/ ٥٥)(٢٠٥٩)

" يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ " أَيْ:فِيهِ (مَا أَخَذَ مِنْهُ) أَيْ:مِنْ أَهْلِ الزَّمَانِ (أَمِنَ الْحَلَالِ):أَيْ:هُوَ (أَمْ مِنَ الْحَرَامِ):فَضَمِيرُ مِنْهُ رَاجِعٌ إِلَى الزَّمَانِ بِتَقْدِيرِ الْمُضَافِ،وَمَا أُرِيدَ بِهِ الْمَالُ،وَإِنَّمَا أُبْهِمَ لِيَشْتَمِلَ أَنْوَاعَ الْمَأْخُوذِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْهِبَةِ وَغَيْرِهِمَا.قِيلَ:الضَّمِيرُ فِي " مِنْهُ " ضَمِيرُ شَيْءٍ غَيْرِ مَذْكُورٍ هُنَا،وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَالُ،وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْحَدِيثُ بِرِوَايَةٍ أُخْرَى،وَفِيهَا لَفْظُ:الْمَالِ،يَعْنِي لَا يُبَالِي بِمَا أَخَذَهُ مِنَ الْمَالِ،وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْمَالِ أَحَلَالٌ هُوَ أَمْ حَرَامٌ؟ لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُمَا.ذَكَرَهُ مِيرَكُ.

وَقَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ " مَا " مَوْصُولَةً أَوْ مَوْصُوفَةً،وَالضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ رَاجِعٌ إِلَيْهَا،وَمِنْ زَائِدَةٌ عَلَى مَذْهَبِ الْأَخْفَشِ،وَمَا مَنْصُوبٌ عَلَى نَزْعِ الْخَافِضِ أَيْ:لَا يُبَالِي.بِمَا أَخَذَ مِنَ الْمَالِ وَأَمْ مُتَّصِلَةٌ وَمُتَعَلِّقٌ مِنْ مَحْذُوفٍ،وَالْهَمْزَةُ قَدْ سُلِبَ عَنْهَا مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ،وَجُرِّدَتْ لِمَعْنَى الِاسْتِوَاءِ فَقَوْلُهُ:مِنَ الْحَلَالِ أَخَذَ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ فِي مَوْضِعِ الِابْتِدَاءِ،وَلَا يُبَالِي خَبَرٌ مُقَدَّمٌ يَعْنِي الْأَخْذَ مِنَ الْحَلَالِ.وَمِنَ الْحَرَامِ مُسْتَوٍ عِنْدَهُ،(وَلَا يُبَالِي بِأَيِّهِمَا أَخَذَ)،وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى:{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ} [البقرة:٦] أَيْ:سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٨٩١)

معنى الحديث:أن الناس تتغير بهم الأحوال،وتتبدل الأزمان،ويأتي عليهم زمان يضعف فيه الدين،وتفسد الضمائر والذمم،ويتكالب الناس فيه على جمع المال من حلال أو حرام،فالغاية تبرر الوسيلة عندهم،والحلال ما حل في أيديهم كما قال - ﷺ - " لا يبالي المرء ما أخذ منه " أي لا تهمه الوسيلة التي اكتسب بها المال،والطريق الذي أخذه منه " أمن الحلال " أي سواء كان من،كسب حلال كالبيع المبرور وعمل اليد " أم من الحرام " كالاختلاس والربا والقمار والرشوة،لأن المصلحة المادية هي الهدف الوحيد،والغاية الرئيسية لكل معاملاته.

وعن طَاوُسَ،أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،يَقُولُ:بَلَغَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَنَّ فُلاَنًا بَاعَ خَمْرًا،فَقَالَ:قَاتَلَ اللَّهُ فُلاَنًا،أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«قَاتَلَ اللَّهُ اليَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ،فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا»[1840]

وعَنْ بَرَكَةَ أَبِي الْوَلِيدِ،أَخْبَرَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَاعِدًا فِي الْمَسْجِدِ مُسْتَقْبِلًا الْحُجَرَ،قَالَ:فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ،فَضَحِكَ،ثُمَّ قَالَ:" لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ،حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا،وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا،وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكْلَ شَيْءٍ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ " رواه أحمد[1841].

وعَنِ ابْنِ عُرْيَانَ الْمُجَاشِعِيِّ،قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ،يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا،وَإِنَّ اللهَ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَ ثَمَنَهُ»

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:فَقَدْ أَجْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا،وَأَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَ ثَمَنَهُ،وَقَدَ حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكَلَ السَّمْنَ الَّذِي سَقَطَتْ فِيهِ الْفَأْرَةُ،وَمَا حَرَّمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:التحذير الشديد من اكتساب المال من الطرق غير المشروعة،لأنّ النبي - ﷺ - إنما ذكر ذلك في موضع الذم والإنكار على من يصنع هذا.ثانياً:إخباره - ﷺ - ببعض الأمور في المستقبل،وهذا من معجزاته - ﷺ -.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٢٥٦)

[1840] - صحيح البخاري (٣/ ٨٢)(٢٢٢٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٠٧)٧٢ - (١٥٨٢)

[ش (فلانا) هو سمرة رضي الله عنه.(باع خمرا) أي بعدما تخللت.(فجملوها) أذابوها]

وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى إبْطَالِ الْحِيَلِ وَالْوَسَائِلِ إلَى الْمُحَرَّمِ،وَأَنَّ كُلَّ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ فَبَيْعُهُ حَرَامٌ لِتَحْرِيمِ ثَمَنِهِ،فَلَا يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْكُلِّيَّةِ إلَّا مَا خَصَّهُ دَلِيلٌ،وَالتَّنْصِيصُ عَلَى تَحْرِيمِ بَيْعِ الْمَيْتَةِ فِي حَدِيثِ الْبَابِ مُخَصِّصٌ لِعُمُومِ مَفْهُومِ قَوْلِهِ - ﷺ- «إنَّمَا حَرُمَ مِنْ الْمَيْتَةِ أَكْلُهَا» وَقَدْ تَقَدَّمَ،وَقَوْلُهُ:" لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ " زَادَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد:ثَلَاثًا.نيل الأوطار (٥/ ١٦٩)

فالحاصل أنه إذا كان الغالب في الانتفاع بالمبيع هو المنفعة المحرمة فلا يجوز بيعه وكانت هذه الغلبة توجب حصول الظن للبائع بأن المشتري ما أراد بشرائه لتلك العين إلا تلك المنفعة المحرمة وأما إذا لم تكن ثم غلبة فالأمر كما قدمنا ومن هذا بيع العنب والتمر إلي من يغلب على الظن أنه يتخذه خمرا وبيع آلات الملاهي إلي من يلهو بها فإن ذلك غير جائز لأن تلك المنفعة حرام وكل حرام يحرم بيعه والمنفعة هى المقصودة لا مجرد العين من غير نظر إلي وجه من وجوه الانتفاع بها فما كان للمصنف أن يقول ولو إلي مستعمله فإن البيع إليه مع العلم والظن بأنه يستعمله في معصية لا يجوز لما تقدم بل يحرم مثلا بيع الحمار الأهلي إذا علم البائع أو ظن أن المشتري اشتراه ليأكله لأن هذا البيع وسيلة إلي الحرام وذريعة إلي ما لا يحل ووسائل الحرام حرام"السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص:٤٨٦)

[1841] - مسند أحمد ط الرسالة (٤/ ٩٥)(٢٢٢١) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٣١٢)(٤٩٣٨) صحيح

كَتَحْرِيمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَلَيْس يَجُوزُ أَنْ يَخُصَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا بِحَجَّةٍ.فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَقَدْ وَجَدْنَا أَشْيَاءَ يَجُوزُ بَيْعُهَا وَيَحِلُّ أَثْمَانُهَا وَلَا يَحِلُّ أَكْلُهَا،وَذَلِكَ كَالرَّقِيقِ وَلُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ.قِيلَ:ذَلِكَ مُسْتَثْنًى مِنْ جُمْلَةِ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ،وَلَا نَعْلَمُ أَهْلَ الْعِلْمِ اخْتَلَفُوا فِي إِبَاحَةِ بَيْعِ الْحُمُرِ،مَا نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ أَكْلُ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ وَهُوَ حَرَامٌ،وَكَذَلِكَ لَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى تَحْرِيمِ لُحُومِ بَنِي آدَمَ وَجَبَ تَحْرِيمُهُ وَلَمَّا أَبَاحُوا بَيْعَ الرَّقِيقِ وَالْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا،وَلَو اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَكَانَ حُكْمُهُ فِي التَّحْرِيمِ حُكْمَ مَا أَجْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَوْلِه:«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا يُحَرِّمُ ثَمَنَهُ» فعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:" لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ أَتَاهُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ الْأَوْدَاكَ مِنَ الْمَيْتَةِ وَغَيْرِهَا وَإِنَّمَا هِيَ لِلسُّفُنِ وَلِلْأَدَاةِ،فَقَالَ:" قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا ثَمَنَهَا،قَالَ:فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ "[١٨٤٢]

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ عَبْد اللهِ بْنِ قَارِبٍ الثَّقَفِيِّ،عَنْ أَبِيه :أَنَّهُ اشْتَرَى مِنْ رَجُلٍ جَارِيَةً بِأَرْبَعَةِ آلاَفٍ قَدْ كَانَتْ أَسْقَطَتْ مِنْ مَوْلَاهَا سِقْطًا،فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ فَأَتَاهُ فَعَلَاهُ بِالدِّرَّةِ ضَرْبًا،وَقَالَ :بَعْدَ مَا اخْتَلَطَتْ لُحُومُكُمْ بِلُحُومِهِنَّ وَدِمَاؤُكُمْ بِدِمَائِهِنَّ بِعْتُمُوهُنَّ،لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ،حُرِّمَتْ عَلَيْهِمَ الشُّحُومَ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثمانَها."[١٨٤٣]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:" لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً:عَاصِرَهَا،وَمُعْتَصِرَهَا،وَشَارِبَهَا،وَحَامِلَهَا،وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ،وَسَاقِيَهَا،وَبَائِعَهَا،وَآكِلَ ثَمَنِهَا،وَالمُشْتَرِي لَهَا،وَالمُشْتَرَاةُ لَهُ " رواه الترمذي وابن ماجه[١٨٤٤].

[١٨٤٢] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٢/ ٢٩٢)(٨٨٥) صحيح

[١٨٤٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ١٨٤)(٢١٨٩٥) حسن

[١٨٤٤] - سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٥٨١)(١٢٩٥) وسنن ابن ماجه (٢/ ١١٢٢)(٣٣٨١) صحيح
لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- فِي الْخَمْرِ):ظَرْفِيَّةٌ مَجَازِيَّةٌ أَوْ تَعْلِيلِيَّةٌ؛أَيْ فِي شَأْنِهَا أَوْ لِأَجْلِهَا (عَشَرَةً):أَيْ عَشَرَةَ أَشْخَاصٍ (عَاصِرَهَا)،بِالنَّصْبِ بَدَلًا مِنَ الْمَفْعُولِ بِه،وَهُوَ مَنْ يَعْصِرُهَا بِنَفْسِه لِنَفْسِه،أَوْ لِغَيْرِه (وَمُعْتَصِرَهَا) أَيْ مَنْ يَطْلُبُ عَصْرَهَا لِنَفْسِه أَوْ غَيْرِه (وَشَارِبَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ) أَيْ:مَنْ يَطْلُبُ أَنْ يَحْمِلَهَا أَحَدٌ إِلَيْهِ،وَأَصْلُهُ الْمَحْمُولَةُ هِيَ،وَحَذْفُهُ إِعْلَامٌ بِجَوَازِ حَذْفِه عِنْدَ عَدَمِ الِالْتِبَاسِ (وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا)،بِالْهَمْزَةِ؛أَيْ:عَاقِدَهَا وَلَوْ كَانَ وَكِيلًا أَوْ دَلَّالًا (وَآكِلَ ثَمَنِهَا وَالْمُشْتَرِيَ):أَيْ لِلشُّرْبِ وَالتِّجَارَةِ بِالْوَكَالَةِ وَغَيْرِهَا (لَهَا) أَيْ لِلْخَمْرِ،وَاللَّامُ - لِلتَّعْدِيَةِ أَوْ زَائِدَةٌ فِي الْمَفْعُولِ لِلتَّقْوِيَةِ (وَالْمُشْتَرَى لَهُ) بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ؛أَيِ:الَّذِي اشْتُرِيَ لَهُ بِالْوَكَالَةِ،وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ:وَالْمُشْتَرَاةَ لَهُ،لَكِنَّ حَذْفَ التَّاءِ مِنَ الْمُشْتَرَى لَهُ لُغَةٌ عَلَى مَا فِي

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" مَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ:عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ،وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ،وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ،وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ " رواه البيهقي وغيره[١٨٤٥]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ،عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ مَالِهِ مِمَّا اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ،وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ،وَعَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:وَكَذَلِكَ كَانَ الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ تَعَالَى يَعُدُّونَ مِنَ اللَّهِ وَخَوْفًا لَهُ مِنْ ذَلِكَ.[١٨٤٦].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا تَزُولُ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ:عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ،وَعَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ،وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ،وَفِيمَا أَنْفَقَهُ "[١٨٤٧]

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ،وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ،وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ،وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»[١٨٤٨]

كما رغبت الشريعة في البكور في طلب الرزق،عَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»،قَالَ:وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً،أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ،وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلًا تَاجِرًا،وَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَأَصَابَ مَالًا" وفي

التَّسْهِيلِ وَغَيْرِهِ وَعَلَيْهِ:إِنَارَةُ الْعَقْلِ مَكْسُوفٌ بِطَوْعِ هَوًى،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَذْكِيرُ الْخَمْرِ بِاعْتِبَارِ مُرَادِفِهَا؛وَهُوَ الْعَقَارُ أَوِ الرَّاحُ أَوِ الْمُدَامُ،أَوْ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهَا وَهُوَ الْمَشْرُوبُ،وَقِيلَ:تَذْكِيرُ الْخَمْرِ لُغَةٌ،وَالْعَجَبُ مِنَ الشُّرَّاحِ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَعَرَّضُوا بِوَجْهِ مَا مَعَ أَنَّهُ هَكَذَا مَضْبُوطٌ فِي النُّسَخِ الْمُصَحَّحَةِ وَالْأُصُولِ الْمُعْتَمَدَةِ قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:لَعَنَ مَنْ سَعَى فِيهَا سَعْيًا مَا عَلَى مَا عَدَّدَ مِنَ الْعَاصِرِ وَالْمُعْتَصِرِ وَمَا أَرْدَفَهُمَا،وَإِنَّمَا أَطْنَبَ فِيهِ لِيَسْتَوْعِبَ مَنْ زَاوَلَهَا مُزَاوَلَةً مَا بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ،وَمَنْ بَاعَ الْعِنَبَ مِنَ الْعَاصِرِ وَمَا أَخَذَ ثَمَنَهُ فَهُوَ أَحَقُّ بِاللَّعْنِ،وَهَؤُلَاءِ لَمَّا حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الْخَمْرُ وَبَاعُوا مَا هُوَ أَصْلٌ لَهَا مِمَّنْ عَلِمُوا أَنَّهُ يَتَّخِذُهَا خَمْرًا،لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونُوا مِمَّنْ قِيلَ فِيهِمْ:«قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ،حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا وَبَاعُوهَا» " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٠٢)

[١٨٤٥] – شعب الإيمان (٣/ ٢٨٠)(١٦٤٨) وسنن الدارمي (١/ ٤٥٣)(٥٥٦) صحيح لغيره

[١٨٤٦] – تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٨٤٠)(٨٤٧) صحيح لغيره

[١٨٤٧] – معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤/ ٢١٠٥)(٥٢٩٢) صحيح لغيره

[١٨٤٨] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦١٢)(٢٤١٧) صحيح

رواية مثله وزاد..فَكَانَ يَبْعَثُ غِلْمَانَهُ مِــنْ أَوَّلِ النَّهَــارِ،فَكَثُرَ مَالُــهُ،وَأَثْرَى".رواه أبــو داود والترمذيُّ[1849].

وتفاصيل أحكام التجارة وسائر المعاملات كالشركة والمضاربة والحوالة وغيرهــا في كتــب الفقه[1850]،وأما هذا الكتاب فيقتصر على الأحكام العامة التي يحتاج إلى معرفتها عموم الأمراء والوزراء والمجاهدين وغيرهم.

‐‐‐‐‐‐‐‐‐‐‐‐‐‐

الحث على العمل وتهيئة المجالات للوظائف والأعمال

لقد جاءت الشريعة الإسلامية بالحث على العمل والأكل من كسب اليــد،وطلب الــرزق الحلال،فعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَــهُ،فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ،فَيَبِيعَهَا،فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ» رواه البخاري[1851].

[1849] - سنن أبي داود (٣/ ٣٥)(٢٦٠٦) وسنن ابن ماجه (٢/ ٧٥٢)(٢٢٣٦) وسنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٥٠٩)(١٢١٢) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٦٢)(٤٧٥٤ و٤٧٥٥) والسنن الكبرى للنسائي (٨/ ١٢٠)(٨٧٨٢) صحيح لغيره

اللَّهُمَّ بَارِكْ)؛أَيْ:أَكْثِرِ الْخَيْرَ (لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)؛أَيْ:صَبَاحِهَا وَأَوَّلِ نَهَارِهَا،وَالْإِضَافَةُ لِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ،وَهُوَ يَشْمَلُ طَلَبَ الْعِلْمِ وَالْكَسْبِ وَالسَّفَرِ وَغَيْرِهَا.(وَكَانَ)؛أَيِ:النَّبِيُّ - ﷺ- (إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً،أَوْ جَيْشًا):أَوْ لِلتَّنْوِيعِ،وَقَدْ سَبَقَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا (بَعَثَهُمْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ)؛أَيْ:مُطَابَقَةً لِدُعَائِهِ (وَكَانَ صَخْرٌ تَاجِرًا):فِيهِ تَجْرِيدٌ،أَوِ الْتِفَاتٌ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الرَّاوِي عَنْهُ (فَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ)؛أَيْ:مَالَهُ (أَوَّلَ النَّهَارِ،فَأَثْرَى)؛أَيْ:صَارَ ذَا ثَرْوَةٍ؛أَيْ:مَالٍ كَثِيرٍ (وَكَثُرَ مَالُهُ):عَطْفُ تَفْسِيرٍ لِقَوْلِهِ:أَثْرَى.قَالَ الْمُظْهِرُ:الْمُسَافَرَةُ سُنَّةٌ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ،وَكَانَ صَخْرٌ هَذَا يُرَاعِي هَذِهِ السُّنَّةَ،وَكَانَ تَاجِرًا يَبْعَثُ مَالَهُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى السَّفَرِ لِلتِّجَارَةِ فَكَثُرَ مَالُهُ بِبَرَكَةِ مُرَاعَاةِ السُّنَّةِ؛لِأَنَّ دُعَاءَهُ - ﷺ- مَقْبُولٌ لَا مَحَالَةَ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥١٧)

[1850] - ولاسيما الموسوعة الفقهية فهي أوفى مرجع معاصر في هذا الموضوع

[1851] - صحيح البخاري (٢/ ١٢٣)(١٤٧١)

[ش (فيكف الله بها وجهه) يمنعه الله تعالى ويحميه بسببها من أن يريق ماء وجهه ويذل نفسه بالسؤال]

" لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ") أَيْ فَيَجْمَعَ حَطَبًا ثُمَّ يَرْبُطَ بِهِ " لِيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ " قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:الْحُزْمَةُ بِضَمِّ الْحَاءِ،قَدْرُ مَا يُحْمَلُ بَيْنَ الْعَضُدَيْنِ وَالصَّدْرِ وَيُسْتَعْمَلُ فِيمَا يُحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ مِنَ الْحَطَبِ " فَيَبِيعَهَا " قِيلَ:مَنْصُوبٌ عَلَى تَقْدِيرِ " أَنْ "،أَيْ فَأَنْ يَبِيعَ تِلْكَ الْحُزْمَةَ وَثَمَنَهَا " فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ " أَيْ يَمْنَعَ عَنْ إِرَاقَةِ مَاءِ وَجْهِهِ بِالسُّؤَالِ " خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ " أَيْ يَسْتَوِي الْأَمْرَانِ فِي أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٠٩)

وعَنْ أَبِي عُبَيْدٍ،مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ،خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا،فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ» متفقٌ عليه[1852].

وعَنِ المِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ،خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ،وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ،كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»رواه البخاري[1853].

وعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ،قَالَ:قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ:" عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ " رواه البزار[1854].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" خَيْرُ الْكَسْبِ،كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ "[1855]

[1852] - صحيح البخاري (٣/ ٥٧)(٢٠٧٤) وصحيح مسلم (٢/ ٧٢١)١٠٧ - (١٠٤٢)

[1853] - صحيح البخاري (٣/ ٥٧)(٢٠٧٢)

[ش (قط) في أي زمن مضى.(أن يأكل من عمل يده) من كسبه ونتيجة صنع يده]

قَال السَّرَخْسِيُّ:الْمَكَاسِبُ أَرْبَعَةٌ:الإِجَارَةُ وَالتِّجَارَةُ وَالزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَكُل ذَلِكَ فِي الإِبَاحَةِ سَوَاءٌ .وَصَرَّحَ الْحَنَفِيَّةُ بِأَنَّ أَفْضَل أَنْوَاعِ الْكَسْبِ الْجِهَادُ ؛لأَنَّ فِيهِ الْجَمْعَ بَيْنَ حُصُول الْكَسْبِ وَإِعْزَازِ الدِّينِ وَقَهْرِ عَدُوِّ اللَّهِ.ثُمَّ اخْتَلَفَ مَشَايِخُ الْحَنَفِيَّةِ فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ التِّجَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ:فَذَهَبَ الأَكْثَرُونَ إِلَى أَنَّ الزِّرَاعَةَ أَفْضَل مِنَ التِّجَارَةِ لأَنَّهَا أَعَمُّ نَفْعًا،فَبِعَمَل الزِّرَاعَةِ يَحْصُل مَا يُقِيمُ بِهِ الْمَرْءُ صُلْبَهُ،وَيَتَقَوَّى عَلَى الطَّاعَةِ،وَبِالتِّجَارَةِ لاَ يَحْصُل ذَلِكَ وَلَكِنْ يَنْمُو الْمَال وَقَال بَعْضُهُمْ:التِّجَارَةُ أَفْضَل مِنَ الزِّرَاعَةِ .وَتَأْتِي الصِّنَاعَةُ بَعْدَ الْجِهَادِ وَالزِّرَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ .

وَقَال الْمَاوَرْدِيُّ:أُصُول الْمَكَاسِبِ:الزِّرَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ وَالصَّنْعَةُ،وَأَيُّهَا أَطْيَبُ ؟ فِيهِ ثَلاَثَةُ مَذَاهِبَ لِلنَّاسِ:أَشْبَهُهَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ:أَنَّ التِّجَارَةَ أَطْيَبُ،قَال الْمَاوَرْدِيُّ:وَالأَشْبَهُ عِنْدِي:أَنَّ الزِّرَاعَةَ أَطْيَبُ ؛لأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى التَّوَكُّل .

قَال النَّوَوِيُّ:قَال النَّبِيُّ ﷺ:مَا أَكَل أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُل مِنْ عَمَل يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ يَأْكُل مِنْ عَمَل يَدِهِ،فَهَذَا صَرِيحٌ فِي تَرْجِيحِ الزِّرَاعَةِ وَالصَّنْعَةِ ؛لِكَوْنِهِمَا مِنْ عَمَل يَدِهِ،لَكِنَّ الزِّرَاعَةَ أَفْضَلُهُمَا لِعُمُومِ النَّفْعِ بِهَا لِلآْدَمِيِّ وَغَيْرِهِ وَعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا .الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٤/ ٢٣٨)

[1854] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ٥٠٢)(١٧٢٦٥) ومسند البزار = البحر الزخار (٩/ ١٨٣)(٣٧٣١) ومسند البزار = البحر الزخار (٩/ ٢٥٩)(٣٧٩٨) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ٦٣٥)(٢٣٥٤١) والسنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٤٣٣)(١٠٣٩٨) والمعجم الأوسط (٢/ ٣٣٢)(٢١٤٠) صحيح لغيره

قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْكَسْبِ):أَيْ أَنْوَاعِهِ (أَطْيَبُ) ؟ أَيْ أَحَلُّ وَأَفْضَلُ (قَالَ:" عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ)،أَيْ مِنْ زِرَاعَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ (وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ):بِالْجَرِّ صِفَةُ بَيْعٍ وَ (كُلُّ) عَطْفٌ عَلَى (عَمَلِ)،وَالْمُرَادُ بِالْمَبْرُورِ أَنْ يَكُونَ سَالِمًا مِنْ غِشٍّ وَخِيَانَةٍ،أَوْ مَقْبُولًا فِي الشَّرْعِ بِأَنْ لَا يَكُونَ فَاسِدًا وَلَا خَبِيثًا أَيْ رَدِيًّا،أَوْ مَقْبُولًا عِنْدَ اللَّهِ بِأَنْ يَكُونَ مُثَابًا بِهِ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٠٤)

وعَنْ سَالِمٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ "[1856]

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ» قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ:«فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ:«فَيُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ» قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ:«فَيَأْمُرُ بِالخَيْرِ» أَوْ قَالَ:«بِالْمَعْرُوفِ» قَالَ:فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ:«فَيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ» متفقٌ عليه[1857]

[1855] - مسند أحمد ط الرسالة (14/ 136)(8412)

[1856] - شعب الإيمان (2/ 441)(1181) والمعجم الأوسط (8/ 380)(8934) ومسند الشهاب القضاعي (2/ 148)(1072) فيه ضعف

[1857] - صحيح البخاري (8/ 11)(6022) وصحيح مسلم (2/ 699)55 - (1008)

[ش (ذا الحاجة) صاحب الحاجة.(الملهوف) المظلوم المستغيث والمكروب المستعين]

" عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ") أَيْ:يَجِبُ عَلَيْهِ " صَدَقَةٌ " أَيْ:شُكْرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَيْهِ " قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَجِدْ " أَيْ:مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ " قَالَ:فَلْيَعْمَلْ بِيَدَيْهِ " أَيْ:فَلْيَكْتَسِبْ مَالًا يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ " فَيَنْفَعَ نَفْسَهُ " وَيَدْفَعَ ضَرَرَهُ عَنِ النَّاسِ " وَيَتَصَدَّقَ " أَيْ:إِنْ فَضَلَ عَنْ نَفْسِهِ " «قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ» " شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي أَيْ:فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْعَمَلِ " قَالَ:«فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ» " صِفَةُ ذَا أَيِ:الْمُتَحَيِّرَ فِي أَمْرِهِ الْحَزِينَ أَوِ الضَّعِيفَ أَوِ الْمَظْلُومَ الْمُسْتَغِيثَ،ثُمَّ إِنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْإِعَانَةُ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالْمَالِ أَوْ بِالْجَاهِ أَوْ بِالدَّلَالَةِ أَوِ النَّصِيحَةِ أَوِ الدُّعَاءِ " «قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ؟ قَالَ:فَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ» " وَهُوَ يَشْمَلُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْإِفَادَةَ الْعِلْمِيَّةَ وَالنَّصِيحَةَ الْعَمَلِيَّةَ " «قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ:فَيُمْسِكُ» " أَيْ:نَفْسَهُ أَوِ النَّاسَ " عَنِ الشَّرِّ " بِالِاعْتِزَالِ وَغَيْرِهِ " فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ " أَيْ:فَإِنَّ الْإِمْسَاكَ عَنِ الشَّرِّ لَهُ تَصَدُّقٌ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ لِأَنَّهُ إِذَا أَمْسَكَ عَنِ الشَّرِّ كَانَ لَهُ أَجْرٌ كَالتَّصَدُّقِ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (4/ 1337)

أي:أن الصدقة بغير الزكاة المفروضة حق مطلوب من كل مسلم؟ أن يؤديه ندباً واستحباباً،فيستحب لكل مسلم أن يتصدق مهما كانت ظروفه وأحواله،فلما سمع الصحابة ذلك ظنوا أن الصدقة المطلوبة من كل مسلم هي " الصدقة بالمال " " فقالوا:فمن لم يجد؟ "،أي:فمن كان فقيراً لا يملك مالاً يتصدق منه ماذا يصنع،فبين لهم النبي - ﷺ - أنه ليس المقصود من الصدقة صدقة المال فقط،وإنما هي شيء آخر أعم وأشمل،وهو " صنع المعروف " سواء كان بالمال أو بالبدن واللسان،كما وضح ذلك النبي - ﷺ - في بقية الحديث حيث " قال:يعمل بيده،لينفع نفسه ويتصدق " أي إن لم يجد مالاً حاضراً يتصدق منه.فعليه أن يسعى لتحصيله وكسبه بالعمل في أي مهنة شريفة يحصل منها على المال الحلال،فينفق على نفسه ويتصدق على غيره،" قالوا:فإن لم يجد،قال يعين ذا الحاجة الملهوف " أي قالوا:فإن لم يقدر على العمل،أو لم يجد مهنة يكسب منها المال فيتصدق منه،قال:يعين ذوي الحاجات من عاجز أو مظلوم،بقوله أو فعله قدر استطاعته،فإنّ هذا العمل البدني وهذه الخدمة البدنية التي يقدمها لمن استغاث به تحتسب له صدقة " قالوا:فإن لم يجد " القدرة على مساعدة غيره ببدنه أو لسانه " قال:فليعمل بالمعروف "،أي فليأت بنوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام وقراءة قرآن " وليمسك عن الشر " أي يتجنب المحرمات من غيبة ونميمة وكذب،" فإنها في صدقة " أي فإن فعل الخير والكف عن الشر له ثواب الصدقة.

فقوله ﷺ "**يعْمَل بِيَدِيهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَه وَيَتَصدَّقُ**" فيه الحث على العمل لينفق المسلم على نفسه ويتصدق.

وينبغي للدولة أن تهيئ الوظائف والأعمال للناس،وأن تعالج مشكلة البطالة،وعَنِ الْمُسَيَّبِ بْنِ رَافِعٍ،قَالَ :قَالَ عَبْدُ اللهِ :إِنِّي لأَمْقُتُ الرَّجُلَ أَنْ أَرَاهُ فَارِغًا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا،وَلاَ عَمَلِ الآخِرَةِ.رواه ابن أبي شيبة[١٨٥٨].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ:الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ " رواه البخاري[١٨٥٩].

فقه الحديث:دل الحديث على ما يأتي:أولاً:أن الصدقة مطلوبة من كل مسلم غنياً أو فقيراً،فإن كان غنياً فالصدقة بالنسبة إليه هي صدقة المال،وإن كان فقيراً فإنّ عليه أيضاً صدقة مندوبة مستحبة وهي فعل الخير وصنع المعروف،سواء كان بالبدن أو باللسان.ثانياً:أن كل معروف صدقة فإغاثة الملهوف صدقة،والكلمة الطيبة صدقة،وقراءة القرآن صدقة،ونوافل العبادات البدنية كلها صدقة.ثالثاً:أن الإمساك عن الشر واجتناب المحرمات صدقة لقوله - ﷺ -:"وليمسك عن الشر فإنها له صدقة ".منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٢٧)

[١٨٥٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ١٧٢)(٣٥٧٠٤) والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٠٢)(٨٥٣٨) صحيح لغيره

[١٨٥٩] - صحيح البخاري (٨/ ٨٨)(٦٤١٢)

[ش (نعمتان) تثنية نعمة وهي الحالة الحسنة وقيل هي المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى غيره.(مغبون) من الغبن وهو النقص وقيل الغبن وهو ضعف الرأي.(الصحة) في الأبدان.(الفراغ) عدم ما يشغله من الأمور الدنيوية]

معنى الحديث:يقول - ﷺ -:" نعمتان " عظيمتان جليلتان " مغبون فيهما كثير من الناس " أي لا يعرف قدرهما ولا ينتفع بهما كثير من الناس في حياته الدنيوية والأخروية،وهما:" الصحة " أي صحة البدن والنفس وقوتهما " والفراغ " أي خلو الإنسان من مشاغل العيش وهموم الحياة وتوفر الأمن والاطمئنان النفسي،فهما نعمتان عظيمتان،لا يقدرهما كثير من الناس حق قدرهما،ولا ينتهزون فرصة وجودهما في الأعمال النافعة،بل يدعونها تمر دون فائدة،حتى إذا مرت وفاتت الفرصة،وتبدلت الصحة مرضاً،والقوة ضعفاً،والفراغ شغلاً،تنبهوا من غفلتهم،وشعروا بالندم،وأدركوا أنهم قد خسروا نعمة صحتهم وفراغهم،فغُبنوا،وحزنوا أشد الحزن على ما فرطوا فيه فكان مثلهم في ذلك كمثل التاجر الذي يبيع سلعته بخسارة،حتى إذا شعر بأنه قد نقص رأس ماله حزن وندم على ما وقع له بسبب غفلته.وتفريطه.

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:الترغيب في انتهاز الفرص المواتية من صحة وفراغ،ومال،ومركز،وجاه،والاستفادة منها فيما يرضي الله تعالى لأن الفرصة قلما تعود إلى صاحبها مرة أخرى،فالعاقل من ينتهزها،ويغتنمها في طاعة الله،وقد جاء في الحديث عن النبي - ﷺ - أنه قال:" لم يتحسر أهل الجنة إلاّ على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها ".ثانياً:قال السيوطي:في معنى قوله - ﷺ -:" نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس " معناه أن الإنسان لا يتفرغ للطاعة إلاّ إذا كان مكفياً صحيح البدن،فقد يكون مستغنياً،ولا يكون صحيحاً،وقد يكون صحيحاً ولا

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله " صَحَّ عَن أَحمَد مَعَ ما اُشتُهِرَ مِن زُهده وورَعه أَنَّهُ قالَ لِمَن سَأَلَهُ عَن ذَلكَ :الزَم السُّوق.

وقالَ لآخَرَ :استَغنِ عَن النّاس،فَلَم أَرَ مِثل الغِنَى عَنهُم.

وقالَ :يَنبَغِي لِلنّاسِ كُلّهم أَن يَتوكَّلُوا عَلَى الله وأَن يُعَوِّدُوا أَنفُسهم التَّكَسُّب،ومَن قالَ بِتَركِ التَّكَسُّب فَهُو أَحمَق يُرِيد تَعطِيل الدُّنيا .نَقَلَهُ عَنهُ أَبُو بَكر المَروزِيُّ.

وقالَ :أُجرَة التَّعلِيم والتَّعَلُّم أَحَبّ إِلَيَّ مِنَ الجُلُوس لانتِظارِ ما فِي أَيدِي النّاس.

وقالَ أَيضًا :مَن جَلَسَ ولَم يَحتَرِف دَعَتهُ نَفسه إِلَى ما فِي أَيدِي النّاس ."[1860].

وعَنْ أَبِيه،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ:" اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ:شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ،وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ،وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ،وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ،وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"[1861]

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله:" وَفِي قَوْلِهِ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ،حَلٌّ لِمُشْكِلَةِ الْفَرَاغِ الَّتِي شَغَلَت الْعَالَمَ حَيْثُ لَمْ تَتْرُكْ لِلْمُسْلِمِ فَرَاغًا فِي وَقْتِهِ ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا فِي عَمَلٍ لِلدُّنْيَا،وَإِمَّا فِي عَمَلٍ لِلْآخِرَةِ.[1862].

وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ الْمَكَاسِبَ غَيْرَ الْمُحَرَّمَةِ كُلُّهَا فِي الإِبَاحَةِ سَوَاءٌ .وَلَكِنَّ هَذِهِ الإِبَاحَةَ تَكْتَنِفُهَا الْكَرَاهَةُ إِذَا اخْتَارَ الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ حِرْفَةً دَنِيئَةً إِنْ وَسِعَهُ احْتِرَافُ مَا هُوَ أَصْلَحُ

يكون مستغنياً،فلا يكون متفرغاً للعلم والعمل لشغله بالكسب،فمن حصل له الأمران:" الصحة والفراغ " وكسل عن الطاعات فهو المغبون الخاسر.في تجارته.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٢٨٨)

[1860] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١١/ ٢٧٦)

[1861] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٣٤١)(٧٨٤٦) صحيح

(" اغْتَنِمْ "):مِنَ الِاغْتِنَامِ،هُوَ أَخْذُ الْغَنِيمَةِ (" خَمْسًا ") أَيْ:مِنَ الْأَحْوَالِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْحَالِ (" قَبْلَ خَمْسٍ ") أَيْ:مِنَ الْعَوَارِضِ الْمُتَوَقَّعَةِ فِي الِاسْتِقْبَالِ (" شَبَابَكَ ") أَيْ:زَمَانَ قُوَّتِكَ عَلَى الْعِبَادَةِ (قَبْلَ هَرَمِكَ):بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ:قَبْلَ كِبَرِكَ وَضَعْفِكَ عَنِ الطَّاعَةِ (وَصِحَّتَكَ) أَيْ:وَلَوْ فِي هَرَمِكَ (قَبْلَ سَقَمِكَ) بِفَتْحَتَيْنِ وَبِضَمٍّ فَسُكُونٍ أَيْ:مَرَضِكَ وَ (" غِنَاكَ ") أَيْ:قُدْرَتَكَ عَلَى الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ وَالْخَيْرَاتِ وَالْمَبَرَّاتِ الْأُخْرَوِيَّةِ فِي مُطْلَقِ الْأَحْوَالِ،وَمِنْ أَعَمِّ الْأَمْوَالِ (" قَبْلَ فَقْرِكَ ") أَيْ:فَقْدِكَ إِيَّاهُ بِالْحَيَاةِ أَوِ الْمَمَاتِ،فَإِنَّ الْمَالَ فِي ضِدِّهِ الزَّوَالُ (" وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ "):سَبَقَ بَيَانُ مَبْنَاهُ وَمَعْنَاهُ (" وَحَيَاتَكَ "):وَلَوْ فِي الْكِبَرِ الْمَقْرُونِ بِالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ الْمُمْكِنِ فِيهِ الْإِتْيَانُ بِذِكْرِ اللَّهِ (" قَبْلَ مَوْتِكَ ") أَيْ:وَقْتِ إِتْيَانِ أَجَلِكَ وَانْقِطَاعِ عَمَلِكَ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٣٩)

[1862] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٥٧٩)

مِنْهَا.وَمَعَ هَذَا فَقَدْ قَال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :مَكْسَبَةٌ فِيهَا بَعْضُ الدَّنَاءَةِ خَيْرٌ مِـــنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ[١٨٦٣] .

وَقَال ابْنُ عَقِيلٍ :يُكْرَهُ تَعَلُّمُ الصَّنَائِعِ الرَّدِيئَةِ مَعَ إِمْكَانِ مَا هُوَ أَصْلَحُ مِنْهَا.وَنَصَّ الشَّافِعِيَّةُ عَلَـــى زَوَال هَذِهِ الْكَرَاهَةِ إِذَا كَانَتِ الْحِرْفَةُ الدَّنِيئَةُ هِيَ حِرْفَةُ أَبِيهِ .وَنَصَّ ابْنُ مُفْلِحٍ الْحَنْبَلِـــيُّ عَلَـــى زَوَال هَذِهِ الْكَرَاهَةِ إِذَا احْتَرَفَ الْمَرْءُ حِرْفَةً دَنِيئَةً لِلْقِيَامِ بِفَرْضِ الْكِفَايَةِ .

وَقَال بَعْضُ الْمُتَشَدِّدِينَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ :مَا يَرْجِعُ إِلَى الدَّنَاءَةِ مِنَ الْمَكَاسِبِ فِي عُرْفِ النَّـــاسِ لاَ يَسَعُ الإِقْدَامُ عَلَيْهِ إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ»،قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،وَكَيْفَ يَذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ:«أَنْ يَتَعَرَّضَ مِـــنَ الْبَلَـــاءِ لِمَـــا لَـــا يُطِيقُ»[١٨٦٤] .

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا " خَالَفَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ،فَرَوَاهُ عَنْ مَعْمَرٍ،عَنْ أَبِي حَازِمٍ،عَنْ طَلْحَةَ بْـــنِ كَرِيـــزٍ الْخُزَاعِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا "[١٨٦٥]

وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ الأَوَّل.[١٨٦٦]

وعن أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ قَالَ:قَالَ لِي أَبُو قِلَابَةَ:«يَا أَيُّوبُ،الْزَمْ سَوْقَكَ فَإِنَّ فِيهَا غِنًى عَنِ النَّـــاسِ وَصَلَاحًا فِي الدِّينِ»[١٨٦٧]

وقَالَ أَيُّوبُ:" لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَهْلِي يَحْتَاجُونَ إِلَى حُزْمَةٍ أَوْ دُسْتَجَةٍ مِنْ بَقْلٍ مَا جَلَسْتُ مَعَكُـــمْ " قَالَ:وقَالَ أَبُو قِلَابَةَ:" الْزَمْ سَوْقَكَ فَإِنَّ الْغِنَى مِنَ الْعَافِيَةِ "[١٨٦٨]

وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ سَمِعْتُ الْحَسَنَ بْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ قَالَ لِي ابْنُ الْمُبَـــارَكِ:مَـــا حِرْفَتُـــكَ؟ قُلْتُ:أَنَا بُورَانِيٌّ،قَالَ:مَا بُورَانِيٌّ ؟ قُلْتُ:لِي غِلْمَانٌ يَصْنَعُونَ الْبَوَارِيَّ،قَالَ:لَوْ لَمْ تَكُنْ لِلصِّنَاعَةِ مَا

[١٨٦٣] - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨/ ٣٢٩و٣٣٠) فيه انقطاع

[١٨٦٤] - المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٤٠٨)(١٣٥٠٧) صحيح

[١٨٦٥] - شعب الإيمان (١٠/ ٣٧٢)(٧٦٤٧) صحيح

[١٨٦٦] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ٧٣)

[١٨٦٧] - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٢٢)(١٣٢٠) وشعب الإيمان (٢/ ٤٥١)(١٢٠٢) صحيح

[١٨٦٨] - شعب الإيمان (٢/ ٤٥٣)(١٢٠٥) صحيح

صَحِبْتَنِي وَقَالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ:قَالَ لِي أَبُو قِلَابَةَ :يَا أَيُّوبُ الْزَمْ سُوقَكَ فَإِنَّ الْغِنَى مِنَ العافية"[1869]

وفي قول عمر رضي الله عنه:"مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس." أي أن العبد ينبغي له أن يتكسب ويعمل ولو كان في عمله مشقة وامتهان لنفسه،فإن هذا خير من مسألة الناس،وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن مسألة الناس،فعَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ،وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ»[1870]

[1869] - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨/ ٣٣٠) صحيح

[1870] - صحيح مسلم (٢/ ٧٢٠)١٠٣ - (١٠٤٠) وصحيح البخاري (٢/ ١٢٣)(١٤٧٤)

[ش (مزعة لحم) أي قطعة قال القاضي قيل معناه يأتي يوم القيامة ذليلا لا وجه له عند الله وقيل هو على ظاهره فيحشر ووجهه عظم لا لحم فيه عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه]

" مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ ") أَيْ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ بِلِسَانِ الْقَالِ أَوْ بَيَانِ الْحَالِ " حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ " بِضَمِّ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا مَعَ سُكُونِ الزَّايِ بَعْدَهَا عَيْنٌ مُهْمَلَةٌ وَحُكِيَ فَتْحُ الْمِيمِ أَيْضًا وَالضَّمُّ هُوَ الْمَحْفُوظُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ أَيْ قِطْعَةٌ يَسِيرَةٌ مِنَ اللَّحْمِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا جَاهَ لَهُ وَلَا قَدْرَ،مِنْ قَوْلِهِمْ لِفُلَانٍ وَجْهٌ فِي النَّاسِ أَيْ قَدْرٌ وَمَنْزِلَةٌ أَوْ يَأْتِي فِيهِ وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِهِ لَحْمٌ أَصْلًا إِمَّا عُقُوبَةً لَهُ وَإِمَّا إِعْلَامًا بِعَمَلِهِ اهـ وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ عَلَامَةً لَهُ يَعْرِفُهُ النَّاسُ بِتِلْكَ الْعَلَامَةِ أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا فَيَكُونُ تَفْضِيحًا لِحَالِهِ وَتَشْهِيرًا لِمَا لَهُ وَإِذْلَالًا لَهُ كَمَا أَذَلَّ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا وَأَرَاقَ مَاءَ وَجْهِهِ بِالسُّؤَالِ،وَمِنْ دُعَاءِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ:اللَّهُمَّ كَمَا صُنْتَ وَجْهِي عَنْ سُجُودِ غَيْرِكَ فَصُنْ وَجْهِي عَنْ مَسْأَلَةِ غَيْرِكَ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٠٩)

أي ما يزال الرجل المتسول يكثر من التسول ويلحّ في سؤال الناس عن غير عوز وفاقة،وإنما يسأل تكثراً ويذل نفسه ويمتهن كرامته التي أوجب الله عليه صيانتها.

فيغضب الله عليه فيذله ويهينه يوم القيامة كما أذل نفسه في الدنيا،ويفضحه على رؤوس الأشهاد،فيسلخ له وجهه كله،حتى يأتي أمام الناس وليس في وجهه قطعة لحم جزاءً وفاقاً لما فعله في الدنيا من إراقة ماء الوجه،" وقال:إنّ الشمس تدنو يوم القيامة " أي تقترب من رؤوس العباد،ويشتد حرها،فيعرقون " حتى يبلغ العرق نصف الأذُن " فإذا وقع ذلك كان أذاها لمن لا لحم في وجهه أشد وألمها أقوى وأعظم،كما أفاده القسطلاني،" فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد " أي ذهبوا إلى الأنبياء السابقين من آدم إلى نوح إلى عيسى يلتمسون منهم الشفاعة لفصل القضاء،فلم يشفعوا لهم،فذهبوا إلى سيدنا محمد - ﷺ -،فشفّعه الله في خلقه.

فقه الحديث:دل الحديث على تحريم السؤال على الغني تكثراً،لأن هذا الوعيد لا يترتب إلاّ على معصية،وقد توعد الله المتسول تكثراً بسلخ وجهه يوم القيامة،كما أراق ماء وجهه في الدنيا،والجزاء من جنس العمل،لأن السؤال مذلة،والله لا يرضى للمسلم أن يعرّض نفسه لهذه المهانة إلاّ لضرورة.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٤٨)

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ،وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ،وَالتَّعَفُّفَ،وَالَمسْأَلَةَ:" اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى،فَاليَدُ العُلْيَا:هِيَ الُمنْفِقَةُ،وَالسُّفْلَى:هِيَ السَّائِلَةُ " متفقٌ عليه[١٨٧١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا،فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ» رواه مسلم[١٨٧٢].

[١٨٧١] - صحيح البخاري (٢/ ١١٢)(١٤٢٩) وصحيح مسلم (٢/ ٧١٧)٩٤ - (١٠٣٣)

قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُ (يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ) أَيْ فَضْلَهَا وَالْحَثَّ عَلَيْهَا أَوْ حُكْمَ أَخْذهَا أَوْ سُؤَالِهَا (وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَة) قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ الْكَفُّ عَنِ الْحَرَامِ وَعَنِ السُّؤَالِ عَنِ النَّاسِ " الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ منَ الْيَد السُّفْلَى وَالْيَدُ الْعُلْيَا هيَ الْمُنْفقَةُ " أَي الْمُعْطيَةُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:هَكَذَا وَقَعَ في صَحيحِ مُسْلمٍ وَالْبُخَارِيِّ،وَكَذَا ذَكَرَهُ أَبو دَاوُدَ في أَكْثَرِ الرِّوَايَات،وَفي رِوَايَةٍ لَهُ،وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:الْمُتَعَفِّفَةُ منَ الْعفَّة،وَرَجَّحَ هَذه الرِّوَايَةَ بِأَنَّ الْكَلَامَ في التَّعَفُّف وَالسُّؤَال،وَالْمَعْنَى صَحيحٌ عَلَى الرِّوَايَتَيْنِ فَإِنَّ الْمُنْفقَةَ أَعْلَى منَ الْآخذَة وَالْمُتَعَفِّفَةَ أَعْلَى منَ السَّائلَة،قيلَ:الْإِنْفَاقُ يَدُلُّ عَلَى التَّعَفُّف مَعَ زِيَادَة وَيُنَاسبُ التَّحْرِيضَ عَلَى الصَّدَقَة،فَرِوَايَةُ الشَّيْخَيْنِ أَوْلَى وَأَصَحُّ رِوَايَةً وَدرَايَةً اهـ.وَالتَّفْسيرُ يَحْتَملُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا،وَيُؤَيِّدُ الثَّانيَ قَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ،وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ هَذَا التَّفْسيرَ عَنْ أَكْثَرِ الرُّوَاة فَقَالَ الْخَطَّابِيُّ:الْأَرْجَحُ مَا في أَبي دَاوُدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ الْعُلْيَا هيَ الْمُتَعَفِّفَةُ وَالسُّفْلَى هيَ السَّائلَةُ لأَنَّ السِّيَاقَ في ذكْرِ الْمَسْأَلَة وَالتَّعَفُّف عَنْهَا،وَأَغْرَبَ ابْنُ حَجَرٍ في قَوْله:مَرْدُودٌ،بَلِ الرَّاجحُ الَّذي عَلَيْه الْجُمْهُورُ هُوَ الرِّوَايَةُ الْأُولَى كَمَا قَالَهُ النَّوَوِيُّ لأَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا حَيْثُ يُمْكنُ جَمْعُهُمَا باعْتبَارِ الْحَالَتَيْنِ لأَصْحَابِهِمَا مَعَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ التَّرْجيحَ لرِوَايَة الْمُتَعَفِّفَة عَلَى الْمُنْفقَة في هَذَا الْمَقَامِ لنظَامِ الْمَرَامِ لَا لمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْه أَحْكَامُ أَئمَّة الْأَنَام " وَالسُّفْلَى هيَ السَّائلَةُ " قَالَ الشَّيْخُ:أَبُو النَّجيبِ السُّهْرَوَرْديُّ في آدَابِ الْمُرِيدينَ:وَأَجْمَعُوا أَي الصُّوفيَّةُ عَلَى أَنَّ الْفَقْرَ أَفْضَلُ منَ الْغنَى إِذَا كَانَ مَقْرُونًا بالرِّضَا،فَإِنِ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بقَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ-:" «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ منَ الْيَد السُّفْلَى» "،وَقَالَ:الْيَدُ الْعُلْيَا هيَ الْمُعْطيَةُ وَالْيَدُ السُّفْلَى هيَ السَّائلَةُ قيلَ لَهُ:الْيَدُ الْعُلْيَا تَنَالُهَا الْفَضيلَةُ بإخْرَاجِ مَا فيهَا،وَالْيَدُ السُّفْلَى تَنَالُهَا الْمَنْقَصَةُ بحُصُولِ الشَّيْءِ فيهَا اهـ وَتَوْضيحُهُ أَنَّ الْغَنِيَّ بإعْطَاءِ بَعْضِ الْمَالِ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّه - تَعَالَى - باخْتيَارِ الْفَقْرِ،وَالْفَقيرَ بأَخْذ بَعْضِ الْمَالِ مَالَ إِلَى الْغنَى فَتَنْقُصُ حَالُهُ وَيُخْشَى مَآلُهُ،وَفي هَذَا مُبَالَغَةٌ عَظيمَةٌ وَدَلَالَةٌ جَسيمَةٌ عَلَى أَفْضَليَّة الْفَقيرِ الصَّابرِ عَلَى الْغَنِيِّ الشَّاكرِ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ حَالُ السَّائلِ بهَذه الْمَثَابَة فَكَيْفَ حَالُ الْمُتَعَفِّف وَالْآخذ عنْدَ الْحَاجَة وَالْفَاقَة،وَالظَّاهرُ أَنَّ الْمُرَادَ بالسَّائلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا،وَأَمَّا إِذَا وَجَبَ عَلَيْه السُّؤَالُ وَغَلَبَ عَلَيْه الْحَالُ فَانْقَلَبَ الْمثَالُ،وَلهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعَارفينَ أَعْني خَوَاجَة عُبَيْدَ اللَّه السَّمَرْقَنْديَّ - قَدَّسَ اللَّهُ سرَّهُ - لَمَّا سُئلَ:الْفَقيرُ الصَّابرُ أَفْضَلُ أَم الْغَنِيُّ الشَّاكرُ؟ فَقَالَ:بَل الْفَقيرُ الشَّاكرُ،وَهُوَ إِمَّا أَرَادَ الْمُبَالَغَةَ أَوِ الشِّكَايَةَ الضَّرُوريَّةَ أَوِ الْإِشَارَةَ إِلَى قَوْله - تَعَالَى - حكَايَةً {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْني إِلَى اللَّه} [يوسف:٨٦] وَاللَّهُ أَعْلَمُ (مُتَّفَقٌ عَلَيْه) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣١٠)

[١٨٧٢] - صحيح مسلم (٢/ ٧٢٠)١٠٥ - (١٠٤١)

" مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ ") أَيْ شَيْئًا منْ أَمْوَالهمْ،يُقَالُ سَأَلْتُهُ الشَّيْءَ وَعَن الشَّيْءِ قَالَهُ الطِّيبِيُّ فَنَصْبُهُ لنَزْعِ الْخَافضِ أَوْ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ به،وَقيلَ:بَدَلُ اشْتمَالٍ " تَكَثُّرًا " مَفْعُولٌ لَهُ أَيْ ليَكْثُرَ مَالُهُ لَا للاحْتيَاجِ " فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا " أَيْ قطْعَةً منْ نَارِ جَهَنَّمَ،يَعْني مَا أَخَذَ سَبَبٌ للْعقَابِ بالنَّارِ،وَجَعَلَهُ جَمْرًا للْمُبَالَغَة فَهَذَا كَقَوْله {إِنَّ الَّذينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا

ولا تدفع الزكاة إلى غني أو قوي مكتسب،فعَنْ عُبَيْد اللَّه بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ،قَالَ:أَخْبَرَنِي رَجُلَان:أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ،وَهُوَ يُقَسِّمُ الصَّدَقَةَ،فَسَأَلَاهُ مِنْهَا،فَرَفَعَ فِينَا الْبَصَرَ وَخَفَضَهُ،فَرَآنَا جَلْدَيْنِ،فَقَالَ:«إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا،وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ،وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ» رواه أحمد.[1873]

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَتَأَمَّلْنَا هَذَا الْحَدِيثَ فِي إِسْنَادِهِ،فَوَجَدْنَا فِيهِ عَنْ رَجُلَيْنِ مِنْ قَوْمِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَدِيٍّ لَمْ يُسَمِّهِمَا،فَيُعْلَمُ بِذَلِكَ أَنَّهُمَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَجِبُ قَبُولُ مَا رَوَيَا،وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ لَا يَكُونَا مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانَا مِنَ الْأَعْرَابِ مِمَّنِ اعْتَرَضَهُ فِي الصَّدَقَةِ،وَلَكِنَّا تَأَمَّلْنَاهُ مَعَ ذَلِكَ لِنَقِفَ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِجَوَابِهِ الَّذِي أَجَابَ بِهِ ذَيْنِكَ الرَّجُلَيْنِ،فَوَجَدْنَا قَوْلَهُ:" لَا حَقَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ " يَعْنِي الصَّدَقَةَ،أَيْ أَنِّي لَا عِلْمَ لِي بِحَقِيقَةِ أُمُورِكُمَا مِنْ غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ،وَأَنْتُمَا

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [النساء:١٠] أَيْ مَا يُوجِبُ نَارًا فِي الْعُقْبَى وَعَارًا فِي الدُّنْيَا،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْرًا حَقِيقَةً يُعَذَّبُ بِهِ كَمَا ثَبَتَ لِمَانِعِي الزَّكَاةِ " فَلْيَسْتَقِلَّ " أَيْ مِنَ السُّؤَالِ أَوِ الْجَمْرِ " أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ " أَيْ لِيَطْلُبْ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا وَهَذَا تَوْبِيخٌ لَهُ أَوْ تَهْدِيدٌ،وَالْمَعْنَى سَوَاءٌ اسْتَكْثَرَ مِنْهُ أَوِ اسْتَقَلَّ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٠٩)

[1873] - سنن أبي داود (٢/ ١١٨)(١٦٣٣) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٤٨٦)(١٧٩٧٢) صحيح

(قَالَ:أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ – ﷺ– وَهُوَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ) بِفَتْحِ الْوَاوِ أَشْهَرُ فِي السَّمَاعِ (وَهُوَ يُقَسِّمُ الصَّدَقَةَ فَسَأَلَاهُ مِنْهَا) أَيْ فَطَالَبَاهُ أَنْ يُعْطِيَهُمَا شَيْئًا مِنَ الصَّدَقَةِ (فَرَفَعَ فِينَا النَّظَرَ) أَيِ الْبَصَرَ كَمَا فِي رِوَايَةٍ (وَخَفَضَهُ فَرَآنَا جَلْدَيْنِ) بِسُكُونِ اللَّامِ وَكَسْرِهَا أَيْ قَوِيَّيْنِ (فَقَالَ:" إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا ") أَيْ مِنْهَا وَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى أَمَانَتِكُمَا لَكِنْ تَكُونَانِ فِي خَطَرِ الْأَخْذِ بِغَيْرِ حَقٍّ إِنْ كُنْتُمَا قَوِيَّيْنِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَالُكُمَا أَوْ غَنِيَّيْنِ (وَلَا حَظَّ) أَيْ لَا نَصِيبَ (فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ) قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ أُعْطِيكُمَا لِأَنَّ فِي الصَّدَقَةِ ذُلًّا وَهَوَانًا فَإِنْ رَضِيتُمَا بِذَلِكَ أَعْطَيْتُكُمَا أَوْ لَا أُعْطِيكُمَا لِأَنَّهَا حَرَامٌ عَلَى الْقَوِيِّ الْمُكْتَسِبِ،فَإِنْ رَضِيتُمَا بِأَكْلِ الْحَرَامِ أُعْطِيكُمَا،قَالَ تَوْبِيخًا،وَقَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:الْحَدِيثُ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ حُرْمَةُ سُؤَالِهِمَا لِقَوْلِهِ:" وَإِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا " فَلَوْ كَانَ الْأَخْذُ مُحَرَّمًا غَيْرَ مُسْقِطٍ عَنْ صَاحِبِ الْمَالِ لَمْ يَفْعَلْهُ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٠٥)

قُلْنَا:هَذَا الْخَبَرُ وَكُلُّ مَا جَاءَ بِهَذَا اللَّفْظِ فَإِنَّمَا هُوَ عَلَى " الصَّدَقَةِ الْمَفْرُوضَةِ " الَّتِي حُرِّمَتْ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ إِلَّا مَنْ خَصَّهُ النَّصُّ مِنْهُمْ:مِنْ {وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [التوبة:٦٠] فَقَطْ.بُرْهَانُ ذَلِكَ – مَا رُوِّينَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – فَذَكَرَ حَدِيثًا فِيهِ «قَالَ رَجُلٌ:لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ،فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ،فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ:اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ،فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ،فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ،فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ،فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ،وَعَلَى زَانِيَةٍ،وَعَلَى غَنِيٍّ،فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ:أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ تُقُبِّلَتْ» – وَذَكَرَ الْخَبَرَ.فَهَذَا بَيَانٌ فِي جَوَازِ الصَّدَقَةِ عَلَى الْغَنِيِّ،وَالصَّالِحِ،وَالطَّالِحِ.المحلى بالآثار (٨/ ١٢٥)

بِذَلِكَ أَعْلَمُ مِنِّي،فَاعْمَلَا فِيهَا مَا يُوجِبُهُ مَا قَدْ سَمِعْتُمَاهُ مِنِّي فِيهَا أَنَّهُ لَا حَقَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ.ثُمَّ تَأَمَّلْنَا قَوْلَهُ:" وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ "،فَوَجَدْنَا الصَّدَقَةَ قَدْ تَحِلُّ لِلْفَقِيرِ الْقَوِيِّ ،وَكَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ:" وَلَا حَقَّ فِيهَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ " يُرِيدُ ﷺ الْحَقَّ الَّذِي هُوَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْحُقُوقِ بِالصَّدَقَةِ الَّتِي يُسْتَحَقُّ بِهَا،وَلَيْسَ هُوَ الْقُوَّةَ وَلَا الْجَلَدَ الَّذِي يُسْتَغْنَى بِهِ عَنْهَا،كَمَا تُغَلِّظُ الْعَرَبُ الشَّيْءَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ،فَتَقُولُ:فُلَانٌ عَالِمٌ حَقًّا،إِذَا كَانَ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْعِلْمِ،وَلَا تَقُولُهُ لِمَنْ هُوَ فِي دُونِ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ وَإِنْ كَانَ عَالِمًا.وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا قَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا قَالَهُ فِي أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالُوا:ابْعَثْ لَنَا رَجُلًا أَمِينًا.فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ أَمِينٍ ".فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ،فَدَعَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ".

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْعَاقِبَ وَالسَّيِّدَ صَاحِبَيْ نَجْرَانَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَأَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَهُمَا ،فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ:لَا تُلَاعِنْهُ ،فَوَاللهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعَنَّاهُ لَا نُفْلِحُ وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا ،وَلَكِنْ نُعْطِيهِ مَا سَأَلَ.قَالُوا:نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَ،فَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا،وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا.فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:" لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمَا رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ أَمِينٍ ".فَاسْتَشْرَفَ لَهَا أَصْحَابُهُ،فَقَالَ:" قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ".فَلَمَّا قَامَ،قَالَ:" هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ".فَكَانَ قَوْلُهُ ﷺ فِيهِ:" حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ أَمِينٍ " إِثْبَاتَهُ لِأَبِي عُبَيْدَةَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْأَمَانَةِ،وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ هُوَ دُونَهُ فِيهَا،وَلَيْسَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِهَا،فَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ:" وَلَا حَقَّ فِيهَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ "،هُوَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى،وَعَلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الاسْتِحْقَاقِ لَهَا،وَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْتَحِقِّينَ لَهَا مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ فِي اسْتِحْقَاقِهَا.وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ "[١٨٧٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ،وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[١٨٧٥]

[١٨٧٤] - شرح مشكل الآثار (٦/ ٣١٦) بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي قَوْلِهِ فِي الصَّدَقَةِ:" لَا حَقَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ "

[١٨٧٥] - سنن النسائي (٥/ ٩٩)(٢٥٩٧) صحيح

الْمِرَّةُ:الْقُوَّةُ،وَأَصْلُهَا مِنْ شِدَّةِ فَتْلِ الْحَبْلِ،يُقَالُ:أَمْرَرْتُ الْحَبْلَ:إِذَا أَحْكَمْتَ فَتْلَهُ.

قال الطبري :"فَأخْبر – ﷺ َ – اللّذين سألاه أَنه لَا حَظّ فِي الصَّدَقَة لقوي مكتسب.وَفِي قَوْله:لَا حَظّ فِيهَا لقوي مكتسب:الدّلَالَة الْبَيِّنَة على أَن غير المكتسب لَهُ فِيهَا الْحَظ.

فَإِن قَالَ قَائِل:فَإِن الْقوي الْقَادِر على الْكسْب مكتسب،وَلَيْسَ تَركه الْكسْب بمبيح لَهُ مَا حرم عَلَيْه من الصَّدَقَة،قيل:أَرَأَيْت إِن طلب الْكسْب فَلم يصبهُ،أَيكُون مكتسبا فِي حَال تعذر الْكسْب عَلَيْه؟

فَإِن قَالَ:نعم؛لِأَن صفته أَنه مكتسب بقدرته على الْكسْب إِذا وجده} قيل:فقد يجب على هَذَا القَوْل أَن يكون الْغَنِيّ الَّذِي هُوَ فِي سفر مُنْقَطع بِه،وَله فِي بَلَده المَال الْعَظِيم الَّذِي يسْتَحق بِبَعْضه اسْم غَنِي،غير جَائِز لَهُ أَخذ الصَّدَقَة،وحراما عَلَيْه أَخذهَا،وَإِن هلك جوعا،فَإِن قَالَ:ذَلِك كَذَلِك} خَالف فِي ذَلِك مَا عَلَيْه الْأمة،وَفَارق الْأَخْبَار الْوَارِدَة عَن رَسُول الله – ﷺ َ – .

وَإِن قَالَ:حَلَال لَهُ الصَّدَقَة؛لِأَن غناهُ غير كَائِن مَعَه فِي سَفَره} قيل:فَكَذَلِك المكتسب المتعذر عَلَيْه الْكسْب:حَلَال لَهُ الصَّدَقَة،إِذا تعذر عَلَيْه الْكسْب،وَإِن كَانَ من صفته أَنه قَادر على الْكسْب،إِذا وجده!

فَمن ذَلِك قَول النَّبِي – ﷺ َ –:" لَا تحل الصَّدَقَة لَغَنِيّ،وَلَا لذِي مرّة سوي ".يَعْنِي – ﷺ َ – بقوله:" وَلَا لذِي مرّة سوي ":وَلَا لذِي بَرَاءَة من العاهات المزمنة،الْقوي على الْكسْب،وكل صَحِيح الْجِسْم بريئه من العاهات والآفات فالعرب تَدعُوهُ:ذَا مرّة سوي.وَمِنْه قَول الله – تَعَالَى

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْقَوِيِّ الْقَادِرِ عَلَى الْكَسْبِ،هَلْ تَحلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ أَمْ لَا؟ فَذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَنَّهُ لَا تَحلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ،وَهُوَ قَوْلُ الشَّافعيِّ،وَإِسْحَاقَ.

وَقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ:تَحلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ إِذَا لَمْ يَمْلُكْ مائَتَيْ درْهَم.وَاخْتَلَفُوا فيمَنْ أُعْطيَ منَ الزَّكَاة عَلَى أَنَّهُ فَقيرٌ،فَبَانَ غَنيًّا،رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ أَجَازَهُ،وَهُوَ قَوْلُ أَبي حَنيفَةَ،وَمُحَمَّد بْنِ الْحَسَنِ،وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ،وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ،وَأَبِي يُوسُفَ،وَأَظْهَرُ قَوْلَيِ الشَّافعيِّ.أَمَّا إِذَا بَانَ عَبْدًا أَوْ كَافرًا،فَلا يُجْزِئُهُ عنْدَ أَكْثَرِهِمْ.شرح السنة للبغوي (٦/ ٨٢)

«لَا تَحلُّ الصَّدَقَةُ لغَنيٍّ» ") في الْمُحيط الْغنَى عَلَى ثَلَاثَة أَنْوَاعٍ:غنًى يُوجبُ الزَّكَاةَ وَهُوَ ملْكُ نصَاب حَوْلًى تَامٍّ،وَغنًى يُحَرِّمُ الصَّدَقَةَ وَيُوجبُ صَدَقَةَ الْفطْرِ وَالْأُضْحيَةَ وَهُوَ ملْكُ مَا يَبْلُغُ قيمَةَ نصَاب منَ الْأَمْوَال الْفَاضلَة عَنْ حَاجَته الْأَصْليَّة،وَغنًى يُحَرِّمُ السُّؤَالَ دُونَ الصَّدَقَة وَهُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ قُوتُ يَوْمه وَمَا يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ (وَلَذي مرَّة) بكَسْر الْميم وَتَشْديد الرَّاء:الْقُوَّةُ؛أَيْ وَلَا لقَويٍّ عَلَى الْكَسْب (سَوِيٍّ) أَيْ صَحيحِ الْبَدَن تَامِّ الْخلْقَة فيه نَفْيُ كَمَال الْحلِّ لَا نَفْسُ الْحلِّ أَوْ لَا تَحلُّ لَهُ بالسُّؤَال.قَالَ ابْنُ الْمَلَك:أَيْ لَا تَحلُّ الزَّكَاةُ لمَنْ أَعْضَاؤُهُ صَحيحَةٌ وَهُوَ قَويٌّ يَقْدرُ عَلَى الاكْتسَاب بقَدْر مَا يَكْفيه وَعيَالَهُ وَبه قَالَ الشَّافعيُّ،قَالَ الطِّيبيُّ:وَقيلَ الْمَعْنَى وَلَا لذي عَقْلٍ وَشدَّة وَهُوَ كنَايَةٌ عَن الْقَادر عَلَى الْكَسْب وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافعيِّ وَالْحَنَفيَّة عَلَى أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نصَابٌ حَلَّتْ لَهُ الصَّدَقَةُ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٠٥)

ذكره -:{علمه شَدِيد القوى،ذُو مرّة فَاسْتَوَى} :ففسر قَوْله:{ذُو مرّة} بعض الْمُفَسّرين بِمَعْنى ذِي قُوَّة،وَبَعْضهمْ بِمَعْنى ذِي منظر حسن.وَالصَّحِيح من معنى ذَلِك - عِنْدِي - مَا يثبت.وَأما قَوْله - ﷺ - :" إِلَّا لذِي فقر مدقع ":فَإِنَّهُ يَعْنِي بقوله:" مدقع ":مفض إِلَى الدقعاء لاصق بهَا.والدقع:الْغُبَار اللين،يُقَال للرجل إِذا وصف بِسوء الْحَال،وشظف الْمَعيشَة.قد أدقع فلَان فَهُوَ يدقع إدقاعا،وَهُوَ رجل مدقع.[١٨٧٦]

الزراعة

الزراعة من فروض الكفاية على المسلمين،وقد جاءت الشريعة الإسلامية بالترغيب فيها فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا،أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا،فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ،إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ» رواه البخاري ومسلم[١٨٧٧].

وعَنْ جَابِرٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ مُبَشِّرٍ الْأَنْصَارِيَّةِ فِي نَخْلٍ لَهَا،فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ؟ أَمُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟» فَقَالَتْ:بَلْ مُسْلِمٌ،فَقَالَ:«لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا،وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا،فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ،وَلَا دَابَّةٌ،وَلَا شَيْءٌ،إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً» رواه مسلم[١٨٧٨].

[١٨٧٦] - تهذيب الآثار - الجزء المفقود (ص:٤١٨)

[١٨٧٧] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٣)(٢٣٢٠) وصحيح مسلم (٣/ ١١٨٩)١٢ - (١٥٥٣)

[ش(يغرس) الغرس للشجر والزرع لغيره.(بهيمة) كل ذات قوائم أربع من دواب البحر والبر وكل حيوان لا يميز فهو بهيمة]

أنه لا أحد من المسلمين يغرس أي نوع من النخيل والأشجار المثمرة أو يزرع شيئاً من الحبوب الغذائية فيأكل منه أي مخلوق من الكائنات الحية،إنسان أو بهيمة أو طير إلاّ كان له أجر الصدقة وثوابها،وفي حديث جابر:" وما سرق منه فهو له صدقة،وما أكل السبع فهو له صدقة،وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزأه أحد إلاّ كان له صدقة،أخرجه الشيخان والترمذي.والمطابقة:في قوله:" إِلَّا كان له به صدقة ".

فقه الحديث:دل هذا الحديث على فضل الزراعة والفلاحة،وما يناله المزارع عند الله من الأجر والمثوبة عن كل ما أكل من ثماره وحاصلاته الزراعية لأن الزراعة هي قوام الحياة للبشرية جمعاء.قال العيني:واستدل به بعضهم على أن الزراعة أفضل المكاسب،واختلف في أفضل المكاسب،فقال النووي:أفضلها الزراعة،وقيل أفضلها الكسب باليد وهي الصنعة،وقيل أفضلها التجارة وأكثر الأحاديث تدل على أفضلية الكسب باليد،منها حديث أبي بردة قال:سئل رسول الله - ﷺ - أي الكسب أطيب؟ قال:" عمل الرجل بيده،وكل بيع مبرور " أخرجه الحاكم في " المستدرك " وصححه والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف حاجة الناس وظروفهم.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٢٦)

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً،وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ،وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ،وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ،وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ» رواه مسلم[١٨٧٩].

وعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا فَيَأْكُلَ مِنْهُ سَبُعٌ وطيرٌ وَشَيْءٌ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ»[١٨٨٠]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا،وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ،وَلَا طَائِرٌ،وَلَا شَيْءٌ،إِلَّا كَانَ لَهُ أَجْرٌ» رواه الطبراني في الأوسط[١٨٨١].

وعَنْ خَلَّادِ بْنِ السَّائِبِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :مَنْ زَرَعَ زَرْعًا فَأَكَلَ مِنْهُ الطَّيْرُ أَوِ الْعَافِيَةُ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ.رواه أحمد[١٨٨٢].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،أَنَّ رَجُلًا،مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرْسًا بِدِمَشْقَ فَقَالَ لَهُ:أَتَفْعَلُ هَذَا وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ:لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" مَنْ غَرَسَ غَرْسًا لَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ آدَمِيٌّ،وَلَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةً " رواه أحمد[١٨٨٣].

[١٨٧٨] - صحيح مسلم (٣/ ١١٨٨)(٨ - (١٥٥٢)

[ش (أم مبشر الأنصارية) هكذا هو في أكثر النسخ دخل على أم مبشر وفي بعضها دخل على أم معبد وأم مبشر ويقال فيها أيضا أم بشير فحصل أنها يقال لها أم مبشر وأم معبد وأم بشير وهي إمرأة زيد بن حارثة أسلمت وبايعت]

[١٨٧٩] - صحيح مسلم (٣/ ١١٨٨)(٧ - (١٥٥٢) [ش (ولا يرزؤه) أي لا ينقصه ويأخذ منه]

[١٨٨٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٨/ ١٥٤)(٣٣٦٩) صحيح

[١٨٨١] - المعجم الأوسط (٩/ ١٤)(٨٩٨٧) صحيح لغيره

[١٨٨٢] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٦٦٢)(١٦٥٥٨) ١٦٦٧٤- صحيح لغيره

[١٨٨٣] - مسند أحمد ط الرسالة (٤٥/ ٤٩٨)(٢٧٥٠٦) صحيح لغيره

أي يثاب عليه ثواب الصدقة وإن لم يكن باختياره ولم يعلم به وهذا الحديث كما ترى مدح لعمارة الأرض ويوافقه قوله تعالى {واستعمركم فيها} وقوله {أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها} وورد في أخبار وآيات أخر ذم عمارتها كخبر:الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وفي الحقيقة لا تعارض ولا تخالف فإن ما جاء في ذم الدنيا وعمارتها فباعتبار من رضيها حقا لنفسه وجعلها قاضية مراده كما قال تعالى {ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها} وما جاء في مدحها فباعتبار تناولها واتفاق ما يحصل من الغلات على ما يحمد ولذلك قال علي كرم الله وجهه:الدنيا دار تجارة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها"فيض القدير (٦/ ١٨٤)

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً،فَلَهُ فِيهَا أَجْرٌ،وَمَا أَكَلَتِ الْعَافِيَةُ،فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»[١٨٨٤]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ،وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ»[١٨٨٥].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ،فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»[١٨٨٦]

[١٨٨٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٦١٣)(٥٢٠٢) صحيح

«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً») أَيْ:زَرَعَ أَرْضًا يَابِسَةً " فَلَهُ فِيهَا " أَيْ:فِي نَفْسِ إِحْيَائِهَا " أَجْرٌ،وَمَا أَكَلَتِ الْعَافِيَةُ " وَهِيَ كُلُّ طَالِبِ رِزْقٍ مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ بَهِيمَةٍ أَوْ طَائِرٍ مِنْ عَفَوْتُهُ أَيْ:أَتَيْتُهُ أَطْلُبُ مَعْرُوفَهُ،وَعَافِيَةُ الْمَاءِ وَارِدَتُهُ،وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ:الْعَوَافِي أَيْ:طَوَالِبُ الرِّزْقِ (مِنْهُ) أَيْ:مِنْ حَاصِلِ الْأَرْضِ وَرِيعِهَا أَوْ مِنَ الْمَأْكُولِ أَوْ مِنَ النَّبَاتِ (فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ) أَيْ:إِذَا كَانَ لَهُ رَاضِيًا وَشَاكِرًا أَوْ مُحْتَمِلًا صَابِرًا "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٤٣)

[١٨٨٥] - سنن أبي داود (٣/ ١٧٨)(٣٠٧٣) صحيح

«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً» ") أَيْ:غَيْرَ مَمْلُوكَةٍ لِمُسْلِمٍ،وَلَمْ يَتَعَلَّقْ لِمَصْلَحَةِ بَلَدَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ بِأَنْ يَكُونَ مَرْكَضَ دَوَابِّهِمْ مَثَلًا (" فَهِيَ لَهُ ")،أَيْ:صَارَتْ تِلْكَ الْأَرْضُ مَمْلُوكَةً لَهُ،لَكِنَّ إِذْنَ الْإِمَامِ شَرْطٌ لَهُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -،وَخَالَفَهُ صَاحِبَاهُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ مُحْتَجِّينَ بِإِطْلَاقِ الْحَدِيثِ،وَفِيهِ أَنَّ قَوْلَهُ - ﷺ -:" «لَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُ إِمَامِهِ» " يَدُلُّ عَلَى اشْتِرَاطِ الْإِذْنِ فَيُحْمَلُ الْمُطْلَقُ عَلَيْهِ؛لِأَنَّهُمَا فِي حَادِثَةٍ وَاحِدَةٍ،كَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْمَلَكِ،قَالَ الْقَاضِي:" الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ الْخَرَابُ الَّذِي لَا عِمَارَةَ فِيهِ،وَإِحْيَاؤُهَا عِمَارَتُهَا،شُبِّهَتْ عِمَارَةُ الْأَرْضِ بِحَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَتَعَطُّلُهَا وَخُلُوُّهَا عَنِ الْعِمَارَةِ بِفَقْدِ الْحَيَاةِ وَزَوَالِهَا عَنْهَا " (" وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ") بِكَسْرِ الْعَيْنِ (" ظَالِمٍ ") بِالتَّنْوِينِ فِيهِمَا صِفَةٌ وَمَوْصُوفُ (" حَقٌّ ") قِيلَ:مَعْنَاهُ مَنْ غَرَسَ أَوْ زَرَعَ فِي أَرْضٍ أَحْيَاهَا غَيْرُهُ لَمْ يَسْتَحِقِّ الْأَرْضَ،وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَغْرُوسُ سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ الظَّالِمُ أَيْ:لِأَنَّ الظُّلْمَ حَصَلَ بِهِ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ،وَيُرْوَى بِالْإِضَافَةِ،فَالْمُرَادُ بِهِ الْغَارِسُ سَمَّاهُ ظَالِمًا؛لِأَنَّهُ تَصَرَّفَ فِي مِلْكِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ،وَهَذَا الْمَعْنَى أَوْفَقُ لِلْحُكْمِ السَّابِقِ،وَقِيلَ:" مَعْنَاهُ مَنْ غَرَسَ أَوْ زَرَعَ فِي أَرْضِ غَيْرِهِ بِلَا إِذْنِهِ فَلَيْسَ لِغَرْسِهِ وَزَرْعِهِ حَقُّ إِبْقَاءٍ،بَلْ لِمَالِكِهَا قَلْعُهُمَا بِلَا ضَمَانٍ،ذَكَرَهُ ابْنُ الْمَلَكِ تَبَعًا لِلطِّيبِيِّ،وَقَالَ السُّيُوطِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مُخْتَصَرِ النِّهَايَةِ:" الرِّوَايَةُ فِي لِعِرْقٍ بِالتَّنْوِينِ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ أَيْ:لِذِي عِرْقٍ ظَالِمٍ،فَجَعَلَ الْعِرْقَ نَفْسَهُ ظَالِمًا،وَالْوَصْفُ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ أَحَدُ عُرُوقِ الشَّجَرَةِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٧٣)

وعَنْ يَحْيَى بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ،وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ» قَالَ:قَالَ عُرْوَةُ:وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي الَّذِي حَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ أَنَّ رَجُلًا غَرَسَ فِي أَرْضِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي بَيَاضَةَ نَخْلًا،فَاخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَضَى لِلرَّجُلِ بِأَرْضِهِ،وَقَضَى عَلَى الْآخَرِ:أَنْ يَنْزِعَ نَخْلَهُ،قَالَ:فَلَقَدْ رَأَيْتُهَا يُضْرَبُ فِي أُصُولِهَا بِالْفُئُوسِ،وَإِنَّهَا لَنَخْلٌ عُمٌّ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَهَذَا الْحَدِيثُ مُفَسِّرٌ لِلْعِرْقِ الظَّالِمِ،وَإِنَّمَا صَارَ ظَالِمًا لِأَنَّهُ غَرَسَ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا مِلْكٌ لِغَيْرِهِ فَصَارَ بِهَذَا الْفِعْلِ ظَالِمًا غَاصِبًا،فَكَانَ حُكْمُهُ أَنْ يَقْلَعَ مَا غَرَسَ"الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٦٤)(٧٠٧)

وعن حَنَشَ بْنِ الْحَارِث،عَنْ أَبِيه قَالَ:كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا تُنْتَجُ فَرَسُهُ فَيَنْحَرُهَا فَيَقُولُ:أَنَا أَعِيشُ حَتَّى أَرْكَبَ هَذَا؟ فَجَاءَنَا كِتَابُ عُمَرَ:أَنْ أَصْلِحُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ،فَإِنَّ فِي الْأَمْرِ تَنَفُّسًا"[١٨٨٧]

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ:مَرَّ أَبُو دَاوُدَ الْبَدْرِيُّ – مِنْ بَنِي مَازِنٍ – عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يَغْرِسُ وَدِيَّةً،فَاسْتَحْيَى مِنْ أَبِي دَاوُدَ،فَقَالَ أَبُو دَاوُدَ:يَا ابْنَ أَخِي،إِنْ سَمِعْتَ بِالدَّجَّالِ قَدْ خَرَجَ وَأَنْتَ عَلَى وَدِيَّةٍ تَغْرِسُهَا،فَلَا تَعْجَلْ عَنْ إِثْبَاتِهَا،فَإِنَّ لِلنَّاسِ مُدَّةً بَعْدَ "[١٨٨٨]

وعَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ قَالَ:قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ:إِنْ سَمِعْتَ بِالدَّجَّالِ قَدْ خَرَجَ،وَأَنْتَ عَلَى وَدِيَّةٍ تَغْرِسُهَا،فَلَا تَعْجَلْ أَنْ تُصْلِحَهَا،فَإِنَّ لِلنَّاسِ بَعْدَ ذَلِكَ عَيْشًا"[١٨٨٩]

[١٨٨٦] – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٦٨)(٤٧٩) ومسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٥٤٥)(٢١٨١) ومسند البزار = البحر الزخار (١٤/ ١٧)(٧٤٠٨) صحيح

(إن قامت الساعة) أي القيامة سميت به لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لطولها فهو تلميح كما يقال في الأسود كافورا ولأنها عند الله تعالى على طولها كساعة من الساعات عند الخلائق (وفي يد أحدكم) أيها الآدميون (فسيلة) أي نخلة صغيرة إذ الفسيل صغار النخل وهي الودي (فإن استطاع أن لا يقوم) من محله أي الذي هو جالس فيه (حتى يغرسها فليغرسها) نديا قد خفي معنى هذا الحديث على أئمة أعلام منهم ابن بزيزة فقال:الله أعلم ما الحكمة في ذلك انتهى.قال الهيثمي:ولعله أراد بقيام الساعة أمارتها فإنه قد ورد إذا سمع أحدكم بالدجال وفي يده فسيلة فليغرسها فإن للناس عيشا بعد والحاصل أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها فكما غرس لك غيرك فانتفعت به فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع وإن لم يبق من الدنيا إلا صبابة وذلك بهذا القصد لا ينافي الزهد والتقلل من الدنيا وفي الكشاف كان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمروا الأعمار الطوال مع ما فيهم من عسف الرعايا فسأل بعض أنبيائهم ربه عن سبب تعميرهم فأوحى الله إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي وأخذ معاوية في إحياء أرض وغرس نخل في آخر عمره فقيل له فيه فقال:ما غرسته طمعا في إدراكه بل حملني عليه قول الأسدي:

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به...ولا يكون له في الأرض آثار

ومن أمثالهم أمارة إدبار الأمارة كثرة الوباء وقلة العمارة وحكي أن كسرى خرج يوما يتصيد فوجد شيخا كبيرا يغرس شجر الزيتون فوقف عليه وقال له:يا هذا أنت شيخ هرم والزيتون لا يثمر إلا بعد ثلاثين سنة فلم تغرسه فقال:أيها الملك زرع لنا من قبلنا فأكلنا فنحن نزرع لمن بعدنا فيأكل فقال له كسرى:زه وكانت عادة ملوك الفرس إذا قال الملك منهم هذه اللفظة أعطى ألف دينار فأعطاها الرجل فقال له:أيها الملك شجر الزيتون لا يثمر إلا في نحو ثلاثين سنة وهذه الزيتونة قد أثمرت في وقت غراسها فقال كسرى:زه فأعطى ألف دينار فقال له أيها الملك شجر الزيتون لا يثمر إلا في العام مرة وهذه قد أثمرت في وقت واحد مرتين فقال له زه فأعطى ألف دينار أخرى وساق جواده مسرعا وقال:إن أطلنا الوقوف عنده نفد ما في خزائننا"فيض القدير (٣/ ٣٠)

[١٨٨٧] – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٦٨)(٤٧٨) صحيح

[١٨٨٨] – أخبار مكة للأزرقي (٢/ ١٥٩) صحيح

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو أنه قَالَ لابْنِ أَخٍ لَهُ خَرَجَ مِنَ الْوَهْطِ:أَيَعْمَلُ عُمَّالُكَ؟ قَالَ:لَا أَدْرِي،قَالَ:أَمَا لَوْ كُنْتَ ثَقَفِيًّا لَعَلِمْتَ مَا يَعْمَلُ عُمَّالُكَ،ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ:إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا عَمِلَ مَعَ عُمَّالِهِ فِي دَارِهِ - وَقَالَ أَبُو عَاصِمٍ مَرَّةً:فِي مَالِهِ - كَانَ عَامِلًا مِنْ عُمَّالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[1890]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ،قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي،وَهُوَ فِي حَائِطٍ لَهُ بِالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ:الْوَهْطُ،وَهُوَ مُخَاصِرٌ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ يُزَنُّ ذَلِكَ الْفَتَى بِشُرْبِ الْخَمْرِ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ شَرْبَةً لَمْ تُقْبَلْ لَهُ تَوْبَةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا،فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ،فَإِنْ عَادَ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا،فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ،فَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1891]

وعلى الحكومة الإسلامية أن تعتني بالمشاريع والمنتجات الزراعية،وأن تستغل الأراضي الشاسعة والمياه المتوفرة في تنفيذ مشاريع زراعية عامة تكفي حاجة البلاد،ويصدر ما يفيض منها إلى خارجها[1892]،وقد جاء في تعبير يوسف عليه الصلاة والسلام لرؤيا الملك التي تحققت في الواقع ما يدل على أهمية وضع الخطط الزراعية العامة - للحاضر والمستقبل - التي تحقق المصلحة العامة والمنفعة للناس،كما قال تعالى:{قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا

[1889] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٦٩)(٤٨٠) حسن

[1890] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٦٠)(٤٤٨) صحيح

(الوهط البستان وهي أرض عظيمة كانت لعمرو بن العاص بالطائف على ثلاثة أميال من (وج) يبدو أنه خلفها لأولاده

[1891] - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ١٠٣)(٥١٦٠) صحيح

وقد روى ابن عساكر في " تاريخه " بسند صحيح عن عمرو بن دينار قال:دخل عمرو بن العاص في حائط له بالطائف يقال له:(الوهط) (فيه) ألف ألف خشبة،اشترى كل خشبة بدرهم! يعني يقيم بها الأعناب.تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٦/ ١٨٢)

هذه بعض ما أثمرته تلك الأحاديث في جملتها من السلف الصالح رضي الله عنهم.

وقد ترجم البخاري في " صحيحه " للحديثين الأولين بقوله:" باب فضل الزرع إذا أكل منه ".

قال ابن المنير:" أشار البخاري إلى إباحة الزرع،وأن من نهى عنه كما ورد عن عمر فمحله ما إذا شغل الحرث عن الحرب ونحوه من الأمور المطلوبة،وعلى ذلك يحمل حديث أبي أمامة المذكور في الباب الذي بعده ".سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٤٠)

[1892] - يجب أن يصدر أولا لبلاد المسلمين التي تحتاج إليه فإن زاد جاز تصديره لغيره المسلمين بشرط عدم الحرابة

قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) } [يوسف].

قَالَ يُوسُفُ مُفَسِّراً الحُلْمَ:إِنَّهُمْ سَتَأْتِيهِمْ سَبْعُ سِنِينَ مِنَ الخَصْبِ وَالمَطَرِ مُتَوَالِيَاتٍ،فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتْرُكُوا الغَلَّةَ فِي سَنَابِلِهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ أَحْفَظَ،وَأَبْعَدَ عَنْ إِسْرَاعِ الفَسَادِ إِلَيْهَا،إِلاَّ القَلِيلَ مِمَّا يَأْكُلُونَهُ.(فَقَدْ أَوْصَاهُمْ بِالاقْتِصَادِ وَالتَّوْفِيرِ،وَالأَكْلِ دُونَ إِسْرَافٍ لِيَبْقَى لَهُمْ وَفْرٌ كَافٍ لِسِنِيِّ الجَدْبِ التَّالِيَةِ) .ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ هذه السِّنِينَ،مِنَ الخَصْبِ وَالخَيْرِ،سَبْعُ سِنِينَ فِي الجَدْبِ وَالشِّدَّةِ،يَزْرَعُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْصُدُونَ غَلَّةً،فَتَسْتَهْلِكُ هَذِهِ السِّنُونَ السَّبْعُ الشِّدَادُ مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِيِّ الخَصْبِ،إِلاَّ القَلِيلَ الذي أَحْصَنُوهُ،وَاحْتَاطُوا لَهُ.

وَبَعْدَ هَذِهِ السِّنِينَ السَّبْعِ الشِّدَادِ يَأْتِي عَامُ خَصْبٍ وَخَيْرٍ،فَتُمْطِرُ السَّمَاءُ،وَتُغِلُّ الأَرْضُ،وَيَعْصِرُ النَّاسُ مَا كَانُوا يَعْصِرُونَهُ عَلَى عَادَتِهِمْ مِنْ سُكَّرٍ وَعِنَبٍ وَزَيْتٍ.[١٨٩٣]

بهذا التأويل كشف يوسف عن مضمون رؤيا الملك ومحتواها،وأنها تنبيء عن الأحداث المقبلة التي ستجرى على مصر خلال أربعة عشر عاما آتية! فالأعوام السبعة المقبلة،هى أعوام خصب وزرع وثمر..

والأعوام السبعة التي بعدها،أعوام جدب وقحط،لا تنبت زرعا،ولا تطلع ثمرا..

و لم يكتف يوسف بتأويل الرؤيا،بل أعطى التدبير الحكيم الذي ينبغى أن يقوم إلى جانب مدلولها..وبهذا كشف للناس عن موهبة سياسية نادرة،وأطلعهم منه على بصيرة نافذة،فى الإمساك بدفّة السفينة فى متلاطم الأمواج،ليبلغ بها مرفأ الأمان والسلامة.

فكان أن نصح لهم بأن يجدّوا الجدّ كله خلال السنوات السبع المقبلة،فى زرع كل ما استطاعوا زرعه من الحبّ،الذي هو عماد الغذاء للناس..ثم أن يمسكوا هذا الذي يجيئهم مما زرعوا،دون أن يأخذوا شيئا منه،إلا قليلا مما يأكلون..ثم أن يدعوا هذا الذي احتفظوا به فى سنابله حتى لا يناله السّوس،أو يمسّه العطب! ومن هذا الذي ادخروه فى سنوات الرخاء والخصب،يكون غذاؤهم فى سنوات الشدة والجدب! ذلك هو التدبير أحكم التدبير،لملاقاة هذه السنوات السبع العجاف التي ستطلع على الناس،بعد سبع سنين من الخصب والرخاء..

[١٨٩٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٦٤٤،بترقيم الشاملة آليا)

- وفى قوله:«إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ» دعوة إلى التزام القصد والاعتدال خلال سنوات الخصب،وأن على الناس فيها أن يأخذوا القليل مما يحتاجون إليه،وأن يعيشوا فى حال أشبه بحال الحرب..وبذلك يمكن أن يواجهوا هذه المحنة المقبلة عليهم،وأن يخرجوا منها سالمين،وإلا فإنهم إن نسوا فى خصبهم أيام الجدب المقبلة عليهم،هلكوا جميعا..إنهم مقدمون على حرب قاسية مع الجدب والقحط،فإذا لم يستعدوا لهذه الحرب هلكوا بيد الجوع والحرمان.

- وفى قوله:«ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» إجابة على سؤال يتردد فى خواطر الناس..وهو:ماذا سيكون عليه الحال بعد هذه السّنوات المجدبة؟ وهل يجىء بعدها الخصب الذي اعتادوه،أم أنها ستكون سنة تجمع بين الخصب والجدب؟ فكان هذا الذي بشّرهم به،وأراهم منه طريق النجاة،فسيحا،رحيبا:«عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» ..

إنه عام فيه خير كثير،يذهب بكل ما عانى الناس من بلاء وشدة خلال هذه السنوات الأربع عشرة! وفى هذا ما يشدّ عزمات الناس،ويمسك بهم على طريق الصبر والاحتمال،حيث تتوارد عليهم الحياة فى شدتها ولينها،وضرّائها وسرائها..[١٨٩٤]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:«عَامَلَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ بِشَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ» متفق عليه[١٨٩٥]

[١٨٩٤] - التفسير القرآني للقرآن (٦/ ١٢٨٢)

[١٨٩٥] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٥)(٢٣٢٩) وصحيح مسلم (٣/ ١١٨٦)١ - (١٥٥١)

معنى الحديث:أن النبي - ﷺ - لما فتح خيبر أقرَّ اليهود على البقاء في البساتين والحقول الزراعية،واتفق معهم على المشاركة في إنتاجها،مقابل أن يقوموا بمؤونتها وخدمتها وسقيها،ويكون لهم نصف ما يخرج منها من الثمر وهذا هو المساقاة.ونصف ما يخرج منها من الحبوب - وهذا هو المزارعة،وفي رواية سعيد بن المسيب أن النبي - ﷺ - لما فتح خيبر قال لهم:" أقركم فيها على ما أقركم الله عز وجل،على أن الثمر بيننا وبينكم " فكان رسول الله - ﷺ - يبعث عبد الله بن رواحة فيخرص بينه وبينهم،ثم يقول:إن شئتم فلكم وإن شئتم فلي،فكانوا يأخذونه " أخرجه مالك في " الموطأ " وعن جابر رضي الله عنه قال:خرص ابن رواحة أربعين ألف وسق،ولما خيرهم أخذوا الثمرة وأدّوا عشرين ألف وسق.قال ابن عمر رضي الله عنهما:" وكان يعطي أزواجه مائة وسق،ثمانون وسق تمراً وعشرون وسق شعير " والوسق ستون صاعاً.

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:مشروعية المساقاة،لأنّ النبي - ﷺ - عامل يهود خيبر بشطر ما يخرج من الثمر،وهذا هو عين المساقاة،وهو مذهب الجمهور.قال ابن قدامة:وهذا -الأمر- عمل به الخلفاء الراشدون في مدة خلافتهم،واشتهر ذلك فلم ينكره منكر،فكان إجماعاً،وقال أبو حنيفة:لا تجوز المساقاة،لأنها إجارة بثمرة مجهولة،والحديث حجة عليه ولا اجتهاد مع النص.ثانياً:استدل البخاري بهذا الحديث على مشروعية المزارعة مطلقاً،سواء كانت الأرض

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ،أَنَّ عُمَرَ أَجْلَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَرَ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ الْيَهُودَ مِنْهَا وَكَانَتِ الْأَرْضُ حِينَ ظَهَرَ عَلَيْهَا لِلَّهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ ،فَأَرَادَ إِخْرَاجَ الْيَهُودِ مِنْهَا فَسَأَلَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقِرَّهُمْ بِهَا عَلَى أَنْ يَكْفُوهُ عَمَلَهَا وَلَهُمْ نِصْفُ الثَّمَرِ ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«نُقِرُّكُمْ بِهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا» فَقَرُّوا بِهَا حَتَّى أَجْلَاهُمْ عُمَرُ إِلَى تَيْمَاءَ وَأَرِيحَاءَ"[1896]

المزروعة بين النخيل والأشجار،أو كانت أرضاً بيضاء يعني:سواء كانت تبعاً للمساقاة،أو كانت وحدها،لأن النبي – ﷺ – عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من زرع أو ثمر كما في حديث الباب،وهو مذهب الإمام أحمد وأبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة،قال البخاري:قال أبو جعفر:ما بالمدينة أهل بيت إلاّ ويزرعون على الثلث والربع،وزارع علي،وسعد،وابن مسعود،وعمر بن عبد العزيز،والقاسم،وعروة،وابن سيرين،وممن رأى ذلك سعيد بن المسيب،وطاووس،والزهري،وابن أبي ليلى.اهـ.وقال مالك وأبو حنيفة والشافعي:لا تجوز المزارعة في الأرض البيضاء واستدلوا بحديث ابن عمر أنه قال:" ما كنا نرى بالمزارعة بأساً حتى سمعنا رافع بن خديج يقول:نهى رسول الله – ﷺ – عنها "،وبحديث رافع بن خديج عن النبي – ﷺ – أنه قال:" من كانت له أرض فليزرعها،أو فليزرعها أخاه ولا يكرها بثلث ولا ربع ولا بطعام مسمّى ".أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة.وأجاب القائلون بجواز المزارعة بأجوبة:منها كما قال ابن قدامة:أن أحاديث رافع مضطربة جداً،مختلفة اختلافاً كثيراً يوجب ترك العمل بها لو انفردت،فكيف تقدم على مثل حديثنا،أي على حديث الباب.قال الإمام أحمد:حديث رافع ألوان،وقال أيضاً:حديث،رافع ضروب،وقال ابن المنذر:قد جاءت الأخبار عن رافع بعلل تدل على أن النهي كان لذلك.ثالثاً:أن المساقاة والمزارعة لا تجوز إلاّ على نسبة معينة مما تنتجه الأرض من الثمر أو الزرع،لأن هذه هي صيغة المساقاة والمزارعة التي عامل بها النبي – ﷺ – أهل خيبر،حيث عاملهم على النصف مما يخرج منها.وهي نفس المعاملة التي تمّت بين المهاجرين والأنصار،أما المساقاة أو المزارعة على جهة محددة من الأرض بأن يكون إنتاج هذه الجهة للمالك وإنتاج الجهة الأخرى للفلاح والعامل فهذا لا يجوز،لما فيه من مضرة للمالك وحده أو للعامل وحده إذا أصيبت إحدى الجهتين بآفة سماوية،وقد جاء النهي عن ذلك في الحديث الصريح عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال:" كنا نكري الأرض بالناحية منها مسَمًّى لسيد الأرض فمما يصاب ذلك وتسلم الأرض فنهينا " منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٣٣)

[1896] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ٣٥٩)(١٩٣٦٦) صحيح

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حُكْمِ الْمُزَارَعَةِ إِلَى اتِّجَاهَيْنِ:

فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ ،وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ،وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى جَوَازِ عَقْدِ الْمُزَارَعَةِ،وَمَشْرُوعِيَّتِهَا،وَمِمَّنْ رَأَى ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ،وَطَاوُوسٌ،وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الأَسْوَدِ،وَمُوسَى بْنُ طَلْحَةَ،وَالزُّهْرِيُّ،وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى وَابْنُهُ،وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلٍ .وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَالْحَسَنِ،وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ،وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ،وَالأَوْزَاعِيِّ وَابْنِ الْمُنْذِرِ وَإِسْحَاقَ،وَآخَرِينَ .

وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ وَالْمَعْقُولِ .

فَمِنَ السُّنَّةِ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَامَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ بِشَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ .

أَمَا الإِجْمَاعُ فَقَدْ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ قَوْلاً وَعَمَلاً عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْمُزَارَعَةِ،وَلَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،«أَنَّهُ دَفَعَ إِلَى يَهُودِ خَيْبَرَ نَخْلَ خَيْبَرَ وَأَرْضَهَا،عَلَى أَنْ يَعْتَمِلُوهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ،وَلِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَطْرُ ثَمَرِهَا»[1897]

فَالْمُزَارَعَةُ شَرِيعَةٌ مُتَوَارَثَةٌ،لِتَعَامُلِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ .

وَأَمَّا الْمَعْقُول،فَقَالُوا:إِنَّ الْمُزَارَعَةَ عَقْدُ شَرِكَةٍ بِمَالٍ مِنْ أَحَدِ الشَّرِيكَيْنِ وَهُوَ الأَرْضُ،وَعَمَلٌ مِنَ الآْخَرِ وَهُوَ الزِّرَاعَةُ،فَيَجُوزُ بِالْقِيَاسِ عَلَى الْمُضَارَبَةِ،وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا دَفْعُ الْحَاجَةِ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا،فَإِنَّ صَاحِبَ الْمَال قَدْ لاَ يَهْتَدِي إِلَى الْعَمَل،وَالْمُهْتَدِي إِلَيْهِ قَدْ لاَ يَجِدُ الْمَال،فَمَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَى انْعِقَادِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَهُمَا .

وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرُ إِلَى عَدَمِ جَوَازِ الْمُزَارَعَةِ مُطْلَقًا،وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ وَالْمَعْقُول .أَمَا السُّنَّةُ فَمِنْهَا مَا وَرَدَ أَنَّ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال:كُنَّا نُخَابِرُ عَلَى عَهْدِ رَسُول اللَّهِ ﷺ،فَذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ عُمُومَتِهِ أَتَاهُ فَقَال:نَهَى رَسُول اللَّهِ ﷺعَنْ أَمْرٍ كَانَ لَنَا نَافِعًا،وَطَوَاعِيَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْفَعُ لَنَا وَأَنْفَعُ،قَال:قُلْنَا:وَمَا ذَلِكَ ؟ قَال:قَال رَسُول اللَّهِ ﷺ:مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ فَلْيُزْرِعْهَا أَخَاهُ،وَلاَ يُكَارِيهَا بِثُلُثٍ وَلاَ بِرُبُعٍ وَلاَ بِطَعَامٍ مُسَمًّى .

وَأَمَّا الْمَعْقُول فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

الأَوَّل:أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺنَهَى عَنْ قَفِيزِ الطَّحَّانِ وَالاِسْتِئْجَارُ بِبَعْضِ الْخَارِجِ – الْمُزَارَعَةُ – فِي مَعْنَاهُ،وَالْمَنْهِيُّ عَنْهُ غَيْرُ مَشْرُوعٍ فَيَكُونُ الاِسْتِئْجَارُ لِبَعْضِ الْخَارِجِ غَيْرَ مَشْرُوعٍ كَذَلِكَ .

الثَّانِي:أَنَّ الاِسْتِئْجَارَ بِبَعْضِ الْخَارِجِ مِنَ النِّصْفِ وَالثُّلُثِ وَالرُّبُعِ وَنَحْوِهِ اسْتِئْجَارٌ بِبَدَلٍ مَجْهُولٍ أَوْ مَعْدُومٍ،وَأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ .

وَذَهَبَ مَالِكٌ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ إِعْطَاءُ الأَرْضِ مُزَارَعَةً إِلاَّ أَنْ تَكُونَ أَرْضًا وَشَجَرًا،فَيَكُونُ مِقْدَارُ الْبَيَاضِ مِنَ الأَرْضِ ثُلُثَ مِقْدَارِ الْجَمِيعِ،وَيَكُونُ السَّوَادُ مِقْدَارَ الثُّلُثَيْنِ مِنَ الْجَمِيعِ،فَيَجُوزُ حِينَئِذٍ أَنْ تُعْطَى بِالثُّلُثِ وَالرُّبُعِ،وَالنِّصْفِ عَلَى مَا يُعْطَى بِهِ ذَلِكَ السَّوَادِ .

يَقُول ابْنُ رُشْدٍ،وَأَمَّا مَالِكٌ فَقَال:إِذَا كَانَتِ الأَرْضُ تَبَعًا لِلثَّمَرِ،وَكَانَ الثَّمَرُ أَكْثَرَ ذَلِكَ،فَلاَ بَأْسَ بِدُخُولِهَا فِي الْمُسَاقَاةِ،اشْتَرَطَ جُزْءًا خَارِجًا مِنْهَا أَوْ لَمْ يَشْتَرِطْهُ،وَحَدَّ ذَلِكَ الْجُزْءَ بِأَنْ يَكُونَ الثُّلُثَ فَمَا دُونَهُ،أَعْنِي أَنْ يَكُونَ مِقْدَارُ كِرَاءِ الأَرْضِ الثُّلُثَ مِنَ الثَّمَرِ فَمَا دُونَهُ،وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَشْتَرِطَ رَبُّ الأَرْضِ أَنْ يَزْرَعَ الْبَيَاضَ لِنَفْسِهِ،لأَنَّهَا زِيَادَةٌ ازْدَادَهَا عَلَيْهِ .

وَأَجَازَهَا الشَّافِعِيَّةُ فِي الأَرْضِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ النَّخِيل أَوِ الْعِنَبِ إِذَا كَانَ بَيَاضُ الأَرْضِ أَقَل،فَإِنْ كَانَ أَكْثَرَ فَالأَصَحُّ جَوَازُهَا أَيْضًا،وَقِيل:لاَ تَجُوزُ،وَلَكِنَّهُمْ مَنَعُوهَا مُطْلَقًا فِي الأَرْضِ الْبَيْضَاءِ،كَمَا قَال أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرُ وَمَالِكٌ .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ٥٠)

[1897] – صحيح مسلم (٣/ ١١٨٧)٥ – (١٥٥١)

[ش (على أن يعتملوها من أموالهم) بيان لوظيفة عامل المساقاة وهو أن عليه كل ما يحتاج إليه في إصلاح الثمر واستزادته مما يتكرر كل سنة كالسقي وتنقية الأنهار وإصلاح منابت الشجر وتلقيحه وتنحية الحشيش والقضبان عنه وحفظ الثمرة وجذاذها ونحو ذلك وأما ما يقصد به حفظ الأصل ولا يتكرر كل سنة كبناء الحيطان وحفر الأنهار فعلى المالك]

دَفَعَ إِلَى يَهُودِ خَيْبَرَ) مَوْضِعٍ قُرِيبَ الْمَدِينَةِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ (نَخِيلَ خَيْبَرَ وَأَرْضَهَا) أَيْ:بَعْدَ مَا مَلَكَهَا قَهْرًا حَيْثُ فُتِحَتْ خَيْبَرُ عَنْوَةً فَصَارَ أَهْلُهَا عَبِيدًا لَهُ،وَأَرَادَ إِخْرَاجَ أَهْلِهَا الْيَهُودِ مِنْهَا،وَالْتَمَسُوا مِنْهُ – ﷺ- أَنْ يُقِرَّهُمْ (عَلَى أَنْ يَعْتَمِلُوهَا) أَيْ:يَسْعَوْا فِيهَا بِمَا فِيهِ عِمَارَةُ أَرْضِهَا وَإِصْلَاحِهَا،وَيَسْتَعْمِلُوا آلَاتِ الْعَمَلِ كُلَّهَا مِنَ الْفَأْسِ وَالْمِنْجَلِ وَغَيْرِهَا (مِنْ أَمْوَالِهِمْ) نِسْبَةٌ مَجَازِيَّةٌ (وَلِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ- شَطْرُ ثَمَرِهَا) أَيْ:نِصْفُهُ وَكَانَ الْمُرَادُ مِنَ الثَّمَرِ مَا يَعُمُّ الزَّرْعَ؛وَلِذَا اكْتَفَى بِهِ أَوْ تَرَكَ مَا يُقَابِلُهُ لِلْمُقَايَسَةِ

فَقَالَ – ﷺ-:(نُقِرُّكُمْ عَلَى ذَلِكَ مَا أَقَرَّكُمُ اللَّهُ عَلَيْه " فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ زَمَنَ النَّبِيِّ – ﷺ- وَخِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ وَصَدْرًا مِنْ خِلَافَة عُمَرَ إِلَى أَنْ أَجْلَاهُمْ عُمَرُ إِلَى أَرِيحَاءَ وَأَذْرِعَات الشَّام (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .
(وَفِي رِوَايَة الْبُخَارِيِّ:أَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ- أَعْطَى خَيْبَرَ الْيَهُودَ أَنْ يَعْمَلُوهَا) أَيْ:عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهَا (وَيَزْرَعُوهَا) تَخْصِيصٌ بَعْدَ تَعْمِيم (وَلَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا) أَيْ:مِنَ التَّمْرِ وَالزَّرْعِ،وَقِيلَ:هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَوْ بَيَّنَ حِصَّةَ الْعَمَلِ وَسَكَتَ عَنْ حِصَّة نَفْسِه جَازَ وَلَوْ عَكَسَ،قِيلَ:يَجُوزُ قِيَاسًا عَلَى الْعَكْسِ،قَالَ الْقَاضِي:" لَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنَعَ مِنَ الْمُسَاقَاة مُطْلَقًا غَيْرَ أَبِي حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ –،وَالدَّلِيْلُ عَلَى جَوَازِهَا فِي الْجُمْلَة أَنَّهُ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّه – ﷺ-،وَشَاعَ عَنْهُ حَتَّى تَوَاتَرَ أَنَّهُ سَاقَى أَهْلَ خَيْبَرَ بِنَخِيلِهَا عَلَى الشَّطْرِ،كَمَا دَلَّ عَلَيْه الْحَدِيثُ.وَتَأْوِيلُهُ بِأَنَّهُ – ﷺ- إِنَّمَا اسْتَعْمَلَهُمْ فِي ذَلِكَ بَدَلَ الْجِزْيَة،وَأَنَّ الشَّطْرَ الَّذِي دَفَعَ إِلَيْهِمْ كَانَ مِنْحَةً مِنْهُ – ﷺ- وَمَعُونَةً لَهُمْ عَلَى مَا كَلَّفَهُمْ بِه مِنَ الْعَمَلِ،بَعِيدٌ كَمَا تَرَى،أَقُولُ:التَّأْوِيلُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعِيدًا حَيْثُ يُرَى،وَإِنَّمَا يُلْجَأُ إِلَيْه جَمْعًا بَيْنَ الْأَحَادِيث الْمُخْتَلفَة عَلَى مَا يُرْوَى،قَالَ:وَأَمَّا الْمُزَارَعَةُ وَهِيَ أَنْ تُسَلِّمَ الْأَرْضَ لِيَزْرَعَهَا بِبَذْرِ الْمَالِك عَلَى أَنْ يَكُونَ الرُّبُعُ بَيْنَهُمَا مُسَاهَمَةً فَهِيَ عِنْدَنَا جَائِزَةٌ تَبَعًا لِلْمُسَاقَاة إِذَا كَانَ الْبَيَاضُ خِلَالَ النَّخْلِ،بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَوْ يَعْسُرُ إِفْرَازُهَا بِالْعَمَلِ كَمَا فِي خَيْبَرَ لِهَذَا الْحَدِيث،وَلَا يَجُوزُ إِفْرَادُهَا؛لِمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:مَا كُنَّا نَرَى بِالْمُزَارَعَة بَأْسًا حَتَّى سَمِعْتُ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ يَقُولُ:" إِنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ- نَهَى عَنْهَا "،وَمَنَعَ مِنْهَا مَالِكٌ،وَأَبُو حَنِيفَةَ – رَحِمَهُمَا اللَّهُ – مُطْلَقًا،وَذَهَبَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصَّحَابَة،كَعُمَرَ،وَعَلِيٍّ،وَابْنِ عَبَّاسٍ،وَابْنِ مَسْعُود،وَسَعْد بْنِ مَالِك،وَمِنَ التَّابِعِينَ:كَابْنِ الْمُسَيَّبِ،وَالْقَاسِم بْنِ مُحَمَّد،وَمُحَمَّد بْنِ سِيرِينَ،وَطَاوُسٍ وَغَيْرِهِمْ،كَالزُّهْرِيِّ،وَعُمَرَ بْنِ عَبْد الْعَزِيز،وَابْنِ أَبِي لَيْلَى،وَأَحْمَدَ،وَإِسْحَاقَ،وَأَبِي يُوسُفَ،وَمُحَمَّد بْنِ الْحَسَنِ – رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى – إِلَى جَوَازِهَا مُطْلَقًا؛لِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيث،وَيُؤَيِّدُهُ الْقِيَاسُ عَلَى الْمُسَاقَاة وَالْمُضَارَبَة اه.وَالْفَتْوَى عَلَى قَوْلِهِمَا قَالَ النَّوَوِيُّ:" فِي الْأَحَادِيث جَوَازُ الْمُسَاقَاة وَعَلَيْه جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاء مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاء،وَتَأَوَّلَ الْأَحَادِيثَ بِأَنَّ خَيْبَرَ فُتِحَتْ عَنْوَةً فَمَا أَخَذَهُ فَهُوَ لَهُ،وَاحْتَجَّ الْجُمْهُورُ بِقَوْلِه:" عَلَى أَنْ يَعْتَمِلُوهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ "،وَبِقَوْلِه:" «أُقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمُ اللَّهُ عَلَيْه» " وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَبِيدًا،وَفِي كَوْنِه صَرِيحًا نَظَرٌ صَحِيحٌ.قَالَ:وَقَد اخْتَلَفُوا فِي خَيْبَرَ هَلْ فُتِحَتْ عَنْوَةً أَوْ صُلْحًا،أَوْ بِجَلَاء أَهْلِهَا عَنْهَا بِغَيْرِ قِتَال،أَوْ بَعْضُهَا صُلْحًا وَبَعْضُهَا عَنْوَةً وَبَعْضُهَا بِجَلَاء أَهْلِهَا؟ وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَال اه فَيُحْتَاجُ إِلَى إِثْبَات أَنَّ ذَلِكَ لِبَعْضِ الَّذِي وَقَعَ فِيه الْمُزَارَعَةُ غَيْرَ مَا أَخَذُوا عَنْوَةً،لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –،وَإِلَّا فَالْحَدِيثُ مَعَ وُجُود الِاحْتِمَال لَا يَصْلُحُ لِلِاسْتِدْلَال.قَالَ:وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمُوَافِقُوهُ إِلَى جَوَاز الْمُزَارَعَة إِذَا كَانَتْ لِلْمُسَاقَاة،وَلَا تَجُوزُ إِذَا كَانَتْ مُنْفَرِدَةً كَمَا جَرَى فِي خَيْبَرَ.وَقَالَ مَالِكٌ:" لَا تَجُوزُ الْمُزَارَعَةُ مُنْفَرِدَةً وَلَا تَبَعًا إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْأَرْض بَيْنَ الشَّجَر،وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرُ – رَحِمَهُمَا اللَّهُ – إِلَى أَنَّ الْمُزَارَعَةَ وَالْمُسَاقَاةَ فَاسِدَتَان مُطْلَقًا،وَذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى جَوَاز الْمُسَاقَاة وَالْمُزَارَعَة مُجْتَمِعَتَيْنِ وَمُنْفَرِدَتَيْنِ قَالَ:وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ الْمُخْتَارُ لِحَدِيث خَيْبَرَ،وَلَا يُقْبَلُ دَعْوَى كَوْن الْمُزَارَعَة فِي خَيْبَرَ إِنَّمَا جَاءَتْ تَبَعًا لِلْمُسَاقَاة،بَلْ جَاءَتْ مُسْتَقِلَّةً وَلِأَنَّ الْمَعْنَى الْمُجَوِّزَ لِلْمُسَاقَاة مَوْجُودٌ فِي الْمُزَارَعَة،وَقِيَاسًا عَلَى الْقِرَاض،فَإِنَّهُ جَائِزٌ بِالْإِجْمَاعِ وَهُوَ كَالْمُزَارَعَة فِي كُلِّ شَيْءٍ؛وَلِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَار وَالْأَعْصَار مُسْتَمِرُّونَ عَلَى الْعَمَل بِالْمُزَارَعَة،وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ الثَّابِتَةُ فِي النَّهْيِ عَنِ الْمُخَابَرَة فَأُجِيبَ عَنْهَا:بِأَنَّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا إِذَا اشْتَرَطَ لِكُلٍّ وَاحِد قِطْعَةً مُعَيَّنَةً مِنَ الْأَرْض،وَقَدْ صَنَّفَ ابْنُ خُزَيْمَةَ كِتَابًا فِي جَوَاز الْمُزَارَعَة وَاسْتَقْصَى فِيه وَأَجَادَ وَأَجَابَ عَنْ أَحَادِيث النَّهْيِ اهـ كَلَامُهُمْ،وَالظَّاهِرُ مِنْ كَلَام مُحْيِي السُّنَّة فِي شَرْحِ السُّنَّة:أَنَّهُ مَائِلٌ إِلَى جَوَازِ الْمُزَارَعَة مُطْلَقًا كَذَا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٨٥)

وتفاصيل الأحكام المتعلقة بالزراعة في كتاب الزكاة وفي باب الربا وباب المساقاة وباب المزارعة وباب بيع الأصول الثمار وباب إحياء الموات وغيرها من الأبواب[1898].

الصناعة والأعمال المهنية

من فروض الكفاية على الأمة الإسلامية الصناعة بشقيها العسكري وغير العسكري،وقد أرشد القرآن في سورة الحديد إلى أثر الحديد في الصناعات العسكرية وغير العسكرية،فقال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد:٢٥]

لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالحُجَجِ الدَّالَّةِ عَلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنَ اللهِ إِلَى أَقْوَامِهِمْ،وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الكُتُبَ وَالشَّرَائِعَ،فِيهَا الهِدَايَةُ لِلنَّاسِ،وَفِيهَا صَلاَحُ أُمُورِهِمْ،وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَتَعَامَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالعَدْلِ،وَبِأَلاَّ يَظْلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَداً.وَلَمَّا كَانَ لاَ بُدَّ لإِقَامَةِ العَدْلِ مِنْ سُلْطَةٍ وَقُوَّةٍ وَسِلاَحٍ،لِذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الحَدِيدَ تُصْنَعُ مِنْهُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ والدُّرُوعُ وَعُدَدُ الحُرُوبِ،التِي تَرْدَعُ مَنْ يَتَجَاوَزُ الحُدُودَ،وَيَأْبَى إِقَامَةَ العَدْلِ،بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.كَمَا جَعَلَ اللهُ فِي الحَدِيدِ مَنَافِعَ لِلنَّاسِ،يَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ،وَمَعَايِشِهِمْ،كَأَدَوَاتِ العَمَلِ وَالحَرْثِ...وَالسِّلاَحِ والسُّفُنِ...وَإِنَّمَا فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ مَنْ يَنْوِي اسْتِعْمَالَ السِّلاَحِ فِي نَصْرِ دِينِ اللهِ،وَمَنْ يَنْوِي اسْتِعْمَالَهُ فِي الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَاللهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى الخَلْقِ،وَإِنَّمَا شَرَعَ الجِهَادَ لِيَبْلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.[1899]

فقوله تعالى {فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} أي آلات الحرب والصناعات العسكرية بجميع أنواعها التي تصنع من الحديد،وقوله تعالى {وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} وهي سائر الصناعات النافعة للناس من أواني وسيارات وآلات حرث وغيرها،وذكر الله تعالى عن داود عليه الصلاة والسلام أنه كان يصنع

[1898] - انظر الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٧/ ٤٩) مُزَارَعَةٌ

[1899] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٧٨،بترقيم الشاملة آليا)

الدروع،فقال تعالى:{ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } [الأنبياء:٨٠]،أي علمه صنعة الدروع التي يتحصن بها في القتال

ولَقَدْ أَوحَى اللهُ تعالى إلى سليمان بالقَوْلِ الفَصْلِ في هذا النِّزَاعِ،ويقولُ تَعالى إنَّه آتَى كُلاًّ مِنْ دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ وعِلْماً،وإنَّه سَخَّرَ الجبالَ والطَّيرَ يُسَبِّحْنَ مَعَ دَاودَ،وذَلِكَ لِطيبِ صَوْته بتلاوة الزَّبُورِ،فكَانَ إذا تَرَنَّمَ به رَدَّدَتْ تَسْبِيحَهُ الجِبَالُ والطَّيرُ تَأويباً،وكانَ الله فاعِلاً ذلكَ بِقُدْرَتِه التي لا يُعْجِزُها شيءٌ[١٩٠٠].

قال القرطبي رحمه الله:" هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي اتِّخَاذِ الصَّنَائِعِ وَالْأَسْبَابِ،وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ،لَا قَوْلُ الْجَهَلَةِ الْأَغْبِيَاءِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا شُرِعَ لِلضُّعَفَاءِ،فَالسَّبَبُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَمَنْ طَعَنَ فِي ذَلِكَ فَقَدْ طَعَنَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،وَنَسَبَ مَنْ ذَكَرْنَا إِلَى الضَّعْفِ وَعَدَمِ الْمِنَّةِ.وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ يَصْنَعُ الدُّرُوعَ،وَكَانَ أَيْضًا يَصْنَعُ الْخُوصَ،وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ،وَكَانَ آدَمُ حَرَّاثًا،وَنُوحٌ نَجَّارًا وَلُقْمَانُ خَيَّاطًا،وَطَالُوتُ دَبَّاغًا.وَقِيلَ:سَقَّاءً،فَالصَّنْعَةُ يَكُفُّ بِهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ،وَيَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ الضَّرَرَ وَالْبَأْسَ."[١٩٠١]

وتأمل كيف قرن الله تعالى بين الأمر بصناعة الدروع والأمر بعمل الصالحات،فقال تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)} [سبأ:١٠،١١]،فالصنعة إذا أخلص العبد فيها نيته لله تعالى فهي من الأعمال الصالحة،وليس الأمر كما يدعيه المجرمون المفترون من أن التقدم الصناعي لا يمكن الوصول إليه إلا بترك الاستقامة والتقوى،وهم يريدون بهذه الفرية أن يصوروا للمسلمين أن التقدم الصناعي والإسلام نقيضان لا يجتمعان،وأن يفتنوا المسلمين عن دينهم،ويبعدوهم عن مصدر عزهم وقوتهم وطريق حضارتهم،لتسهل السيطرة عليهم بعد ذلك وتطويعهم لأهدافهم ومخططاتهم.

[١٩٠٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٨٢،بترقيم الشاملة آليا)

[١٩٠١] - تفسير القرطبي (١١/ ٣٢١)

وفي الآية إرشاد إلى أهمية صناعة الدروع،حيث علم الله تعالى نبيه داود عليه الصلاة والسلام صنعتها وكيفية إحكامها،فالسابغات هي الدروع التوامّ الكوامل،وقد أرشد الله تعالى إلى كيفية إحكام صنعتها في قوله تعالى:{ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ }،والسرد هو نسج الدروع،والمعنى أن يجعل المسمار بقدر فلا يجعله رقيقا فيقلق في الحلقة ولا غليظا فيقصمها.

وفي الآية الإرشاد إلى إحكام صناعة السلاح ونحوها من الصناعات النافعة وإتقانها،كما قال تعالى:{ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ } فهو إرشاد إلى أن تكون أجزاء الصنعة بمقادير متناسبة.

وفي الآية تعليم الله تعالى نبيه داود عليه الصلاة والسلام صناعة الدروع وكيفية إحكامها،وهو يدلُّ على أن تعلم الصناعات النافعة وتعلم كيفية إحكامها وإتقانها من العلوم النافعة التي ينبغي للأمة أن تتعلمها وتحرص على دراستها.

وفي الآية الإرشاد إلى التصنيع العسكري،واتخاذ أسباب القوة،والاستعداد لجهاد الأعداء ودفعهم.

وفي الآية الإرشاد إلى اتخاذ الأسباب التي يحصل بها التحصن والتحرز والوقاية من شرور الأعداء وأخطار أسلحتهم وضررها.

وفي الآية الإشارة إلى الأعمال اليدوية،وقد كان داود عليه الصلاة والسلام يأكل من عمل يده،وهو أفضل الكسب،فعَنِ المِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ،خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ،وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ،كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»رواه البخاري[١٩٠٢].

[١٩٠٢] - صحيح البخاري (٣/ ٥٧)(٢٠٧٢)

[ش (قط) في أي زمن مضى.(أن يأكل من عمل يده) من كسبه ونتيجة صنع يده]

(ما أكل أحد) زاد الإسماعيلي من بني آدم (طعاما قط خيرا) بالنصب صفة لمصدر محذوف أي أكلا خيرا كذا في المصابيح وفي رواية خير بالرفع أي هو خير (من أن يأكل من عمل يده) فيكون أكله من طعام ليس من كسب يده منفي التفضيل على أكله من كسب يده ويحتمل كونه صفة لطعاما فيحتاج لتأويل أيضا إذ الطعام في هذا التركيب مفضل على نفس أكل الإنسان من عمل يده بحسب الظاهر وليس مرادا فيقال في تأويله الحرف المصدري وصلته بمعنى مصدر من أراد المفعول أي من مأكوله من عمل يده وقوله يده بالإفراد وفي رواية بالتثنية ووجه الخير ما فيه من إيصال النفع إلى الكاسب وغيره والسلامة عن البطالة المؤدية إلى الفضول وكسر النفس به والتعفف عن ذل السؤال وفيه تحريض على الكسب الحلال وهو متضمن لفوائد كثيرة منها إيصال النفع لآخذ الأجرة إن كان العمل لغيره وإيصال النفع إلى الناس بتهيئة أسبابهم من نحو زرع وغرس

وفي الآية الإشارة إلى أهمية الحديد في الصناعات العسكرية وغيرها،وقد تقدم قول الله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} [الحديد:٢٥].

وقال الرحيباني رحمه الله في كتاب مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى " (وَفَرْضُ الْكِفَايَةِ:مَا قُصِدَ حُصُولُهُ مِنْ غَيْرِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ إلَّا وَاحِدٌ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ) كَرَدِّ السَّلَامِ،وَالصَّلَاةِ عَلَى جِنَازَةِ الْمُسْلِمِينَ (فَمِنْ ذَلِكَ دَفْعُ ضَرَرِ الْمُسْلِمِينَ،كَسَتْرِ الْعَارِي،وَإِشْبَاعِ الْجَائِعِ) وَفَكِّ الْأَسْرَى (عَلَى الْقَادِرِينَ) عَلَيْهِ (إنْ عَجَزَ بَيْتُ الْمَالِ عَنْ ذَلِكَ،أَوْ تَعَذَّرَ أَخْذُهُ مِنْهُ) لِمَنْعٍ أَوْ نَحْوِهِ.(وَ) مِنْ ذَلِكَ (الصَّنَائِعُ الْمُبَاحَةُ الْمُحْتَاجُ إلَيْهَا لِمَصَالِحِ النَّاسِ غَالِبًا الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ،الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ،كَالزَّرْعِ وَالْغَرْسِ وَنَحْوِهَا) ؛لِأَنَّ أَمْرَ الْمَعَادِ وَالْمَعَاشِ لَا يَنْتَظِمُ إلَّا بِذَلِكَ فَإِذَا قَامَ بِذَلِكَ أَهْلُهُ بِنِيَّةِ التَّقَرُّبِ كَانَ طَاعَةً وَإِلَّا،فَلَا.(وَ) مِنْ ذَلِكَ (إقَامَةُ الدَّعْوَى) إلَى دِينِ الْإِسْلَامِ (وَدَفْعُ الشُّبَهِ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ) لِمَنْ عَانَدَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥] ."[1903] .

قَال غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرُهُمْ كَالْغَزَالِيِّ،وَابْنِ الْجَوْزِيِّ،وَغَيْرِهِمْ :إنَّ هَذِهِ الصِّنَاعَاتِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،فَإِنَّهُ لاَ تَتِمُّ مَصْلَحَةُ النَّاسِ إلاَّ بِهَا .

وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ أَنَّ احْتِرَافَ بَعْضِ الْحِرَفِ يُصْبِحُ فَرْضَ كِفَايَةٍ إذَا احْتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا،فَإِنِ اسْتَغْنَوْا عَنْهَا بِمَا يَجْلِبُونَهُ أَوْ يُجْلَبُ إِلَيْهِمْ فَقَدْ سَقَطَ وُجُوبُ احْتِرَافِهَا.فَإِذَا امْتَنَعَ الْمُحْتَرِفُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِهَذَا الْفَرْضِ أَجْبَرَهُمُ الإِمَامُ عَلَيْهِ بِعِوَضِ الْمِثْل .قَال ابْنُ تَيْمِيَّةَ :إنَّ هَذِهِ الأَعْمَال الَّتِي هِيَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ مَتَى لَمْ يَقُمْ بِهَا إلاَّ إنْسَانٌ بِعَيْنِهِ صَارَتْ فَرْضَ عَيْنٍ

وخياطة وغير ذلك ومنها أن يشتغل الكاسب به فيسلم عن البطالة واللهو ومنها كسر النفس به فيقل طغيانها ومرحها ومنها التعفف عن ذل السؤال والاحتياج إلى الغير وشرط المكتسب أن لا يعتقد الرزق من الكسب بل من الرزاق ذي القوة ثم أكد ذلك وحرض عليه وزاده تقريرا بقوله (وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) في الدروع من الحديد ويبيعه لقوته وخص داود لكون اقتصاره في أكله على عمل يده لم يكن لحاجة لأنه كان خليفة في الأرض بل أراد الأفضل وفيه أن الكسب لا ينافي التوكل وأن ذكر الشيء بدليله أوقع في النفس وجواز الإجارة إذ عمل اليد أعم من كونه لغيره أو نفسه" فيض القدير (٥/ ٤٢٥)

[1903] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٢٩) والإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٢) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٣/ ٣٣) وكشف المخدرات والرياض الزاهرات لشرح أخصر المختصرات (١/ ٢١٤) ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٢/ ٤٩٨)

عَلَيْه،إنْ كَانَ غَيْرُهُ عَاجزًا عَنْهَا،فَإذَا كَانَ النَّاسُ مُحْتَاجينَ إلَى فلاَحَة قَــوْمٍ أَوْ نسَــاجَتهمْ أَوْ بنَائهمْ صَارَ هَذَا الْعَمَل وَاجبًا يُجْبرُهُمْ وَليُّ الأَمْر عَلَيْه إذَا امْتَنَعُوا عَنْهُ بعوَض الْمثْل،وَلاَ يُمَكّنُهُمْ منْ مُطَالَبَة النَّاس بزيَادَة عَنْ عوَض الْمثْل .

وَلَمَّا كَانَ إقَامَةُ الصّنَاعَات فَرْضَ كفَايَة كَانَ تَوْفيرُ الْمُحْتَرفينَ الَّــذينَ يَعْمَلُــونَ فــي هَــذه الصّنَاعَات فَرْضًا،لأَنَّ مَا لاَ يَتمُّ الْوَاجبُ إلاَّ به فَهُوَ وَاجبٌ،وَهُوَ مَا ذَهَبَ إلَيْــه الشَّــافعيَّةُ،قَال الْقَلْيُوبيُّ في حَاشيَته مَا مُفَادُهُ :يَجبُ أَنْ يُسَلّمَ الْوَليُّ الصَّــغيرَ لــذي حرْفَــة يَــتَعَلَّمُ منْــهُ الْحرْفَةَ.وَرَغْمَ أَنَّ الْحَنَفيَّةَ وَالْمَالكيَّةَ وَالْحَنَابلَةَ لَمْ يَنُصُّوا عَلَى وُجُوب دَفْع الْوَليّ الصَّغيرَ إلَى مَنْ يُعَلّمُهُ الْحرْفَةَ إلاَّ أَنَّ كَلاَمَهُمْ يَقْتَضي ذَلكَ .[١٩٠٤]

[١٩٠٤] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ٧٢)

إن الإنسان في هذه الحياة مجبول على التحرك والعمل بدوافع وغايات متعددة،فإن قصد إرضاء الله وابتغاء وجهه فيما يقوم به من الأعمال المباحة فإنه يؤجر على ذلك إن شاء الله،وسواء كانت هذه الأعمال من العبادات أو الأمور الأخرى فإن النية الصالحة تحول المباحات إلى عبادات،فمثلا تناول الطعام بنية التقوي على أداء العبادات البدنية يكون عبادة،وأيضا فإن تعلم الهندسة والطب والبرمجة من فروض الكفايات،وقد نص الإمام النووي في المجموع على أن تعلم العلوم الدنيوية من فروض الكفايات.قال ابن القيم في الطرق الحكمية:ومن ذلك أن يحتاج الناس إلى صناعة طائفة كالفلاحة والنساجة والبناء وغير ذلك،فلولي الأمر أن يلزمهم بذلك بأجرة مثلهم فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بذلك،ولهذا قالت طائفة من أصحاب أحمد والشافعي أن تعلم هذه الصناعات فرض على الكفاية لحاجة الناس إليها.

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه يجب –على الكفاية– أن يتوفر في بلاد المسلمين أصول الحرف جميعها،احتيج إليها أو لا،قال ابن تيمية:قال غير واحد من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم كالغزالي،وابن الجوزي،وغيرهم:إن هذه الصناعات فرض على الكفاية،فإنه لا يتم مصلحة الناس إلا بها.انتهى.

وقد اختار ابن تيمية وغيره –وهو الراجح– أن احتراف بعض الحرف يصبح فرض كفاية إذا احتاج المسلمون إليها،فإن استغنوا عنها بما يجلبونه أو يجلب إليهم فقد سقط وجوب احترافها،فإذا امتنع المحترفون عن القيام بهذا الفرض أجبرهم الإمام عليه بعوض المثل.قال ابن تيمية:إن هذه الأعمال التي هي فرض على الكفاية متى لم يقم بها إلا الإنسان بعينه صارت فرض عين عليه،إن كان غيره عاجزاً عنها،فإذا كان الناس محتاجين إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم صار هذا العمل واجباً يجبرهم ولي الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل،ولا يمكنهم من مطالبة الناس بزيادة عن عوض المثل.انتهى.

ولما كان إقامة الصناعات فرض كفاية كان توفير المحترفين الذين يعملون في هذه الصناعات فرضاً،لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب،وهو ما ذهب إليه الشافعية،قال القليوبي في حاشيته ما مفاده:يجب أن يُسلم الوليُّ الصغيرَ لذي حرفة يتعلم منه الحرفة.انتهى.

ورغم أن الحنفية والمالكية والحنابلة لم ينصوا على وجوب دفع الولي الصغير إلى من يعلمه الحرفة إلا أن كلامهم يقتضي ذلك،وهذا يعني أن الذي يطلب منك أن تعلمه حرفتك يختلف حكمه باختلاف حاله،فإذا كان سيتعلمها دون حاجة

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" " وَمِنْ ذَلِكَ:أَنْ يَحْتَاجَ النَّاسُ إلَى صِنَاعَةِ طَائِفَةٍ – كَالْفِلَاحَةِ وَالنِّسَاجَةِ وَالْبِنَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ – فَلِوَلِيِّ الْأَمْرِ:أَنْ يُلْزِمَهُمْ بِذَلِكَ بِأُجْرَةِ مِثْلِهِمْ،فَإِنَّهُ لَا تَتِمُّ مَصْلَحَةُ النَّاسِ إلَّا بِذَلِكَ؛وَلِهَذَا قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ:إنَّ تَعَلُّمَ هَذِهِ الصِّنَاعَاتِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،لِحَاجَةِ النَّاسِ إلَيْهَا،وَكَذَلِكَ تَجْهِيزُ الْمَوْتَى وَدَفْنُهُمْ،وَكَذَلِكَ أَنْوَاعُ الْوِلَايَاتِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ الَّتِي لَا تَقُومُ مَصْلَحَةُ الْأُمَّةِ إلَّا بِهَا."

وَالْمَقْصُودُ:أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ مَتَى لَمْ يَقُمْ بِهَا إلَّا شَخْصٌ وَاحِدٌ صَارَتْ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَيْهِ،فَإِذَا كَانَ النَّاسُ مُحْتَاجِينَ إلَى فِلَاحَةِ قَوْمٍ،أَوْ نِسَاجَتِهِمْ،أَوْ بِنَائِهِمْ،صَارَتْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ مُسْتَحَقَّةً عَلَيْهِمْ،يَجْبُرُهُمْ وَلِيُّ الْأَمْرِ عَلَيْهَا بِعِوَضِ الْمِثْلِ،وَلَا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ مُطَالَبَةِ النَّاسِ بِزِيَادَةٍ عَنْ عِوَضِ الْمِثْلِ،وَلَا يُمَكِّنُ النَّاسَ مِنْ ظُلْمِهِمْ،بِأَنْ يُعْطُوهُمْ دُونَ حَقِّهِمْ،كَمَا إذَا احْتَاجَ الْجُنْدُ الْمُرْصَدُونَ لِلْجِهَادِ إلَى فِلَاحَةِ أَرْضِهِمْ وَأَلْزَمَ مَنْ صِنَاعَتُهُ الْفِلَاحَةُ أَنْ يَقُومَ بِهَا:أَلْزَمَ الْجُنْدَ بِأَلَّا يَظْلِمُوا الْفَلَّاحَ،كَمَا يُلْزِمُ الْفَلَّاحَ بِأَنْ يُفْلِحَ.

وَلَوْ اعْتَمَدَ الْجُنْدُ وَالْأُمَرَاءُ مَعَ الْفَلَّاحِينَ:مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَجَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ،وَفَعَلَهُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ،لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ،وَلَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،وَكَانَ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ الْمُغَلِّ أَضْعَافَ مَا يُحَصِّلُونَهُ بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ،وَلَكِنْ يَأْبَى جَهْلُهُمْ وَظُلْمُهُمْ إلَّا أَنْ يَرْتَكِبُوا الظُّلْمَ وَالْإِثْمَ،فَيُمْنَعُوا الْبَرَكَةَ وَسَعَةَ الرِّزْقِ،فَيَجْتَمِعُ لَهُمْ عُقُوبَةُ الْآخِرَةِ،وَنَزْعُ الْبَرَكَةِ فِي الدُّنْيَا."[١٩٠٥].

المسلمين إليها بحيث وجد غيره ممن يؤدى به فرض الكفاية،فلا يجب عليك في هذه الحالة تعليمه،أما إذا كان المسلمون في حاجة إلى تعلمه هذه الصنعة و لم يوجد غيرك يعلمها له أو وجد لكنه امتنع عن تعليمه،وجب عليك أن تستجيب لطلبه،فإن وجد أحد غيرك يعلمه سقط عنك الوجوب،ولا عبرة في كل الأحوال برغبتك في الانفراد بالصنعة،لأن الضرر العام يفتدى بالضرر الخاص " انظر الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ٧٢) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة – (ج ٨ / ص ٢٠٠٨) رقم الفتوى ٥٢٤٨٦ نعلم الهندسة والطب والبرمجة من فروض الكفايات وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة – (ج ١٠ / ص ١٧٠٧) رقم الفتوى ٧١٩٣٦ عدم البوح بأسرار المهنة للآخرين تاريخ الفتوى:٠٨ رجب ١٤٢٥والفقه الإسلامي وأدلته – (ج ٨ / ص ٣٨٢) والحسبة لابن تيمية ت الشحود (ص:٢٥٥)

[١٩٠٥] – الطرق الحكمية (ص:٢٠٨) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١١/ ٣٠٦)

والواجب على الحكومة الإسلامية ألا تركن إلى الدعة والراحة والبطالة،وتكتفي بما يصنع وينتج غيرها،بل عليها الاجتهاد في التصنيع والإنتاج المحلي في جميع المجالات:كالصناعات العسكرية وغير العسكرية وفي المجال التقني وغيرها من المجالات.

ومن الأعمال التي ينبغي للحكومة أن تشجع عليها الناس وتحفزهم على احترافها وإتقانها الأعمال المهنية والحرف اليدوية كالسباكة والنجارة والحدادة والخياطة والحياكة وغيرها،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا» رواه مسلم[١٩٠٦].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ،فَإِنَّ لِي غُلاَمًا نَجَّارًا قَالَ:«إِنْ شِئْتِ»،قَالَ:فَعَمِلَتْ لَهُ المِنْبَرَ،فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ،فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا،حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ،فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا،فَضَمَّهَا إِلَيْهِ،فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ،حَتَّى اسْتَقَرَّتْ،قَالَ:«بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ»[١٩٠٧]

وعن أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَيُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى جِذْعٍ فِي الْمَسْجِدِ فَيَخْطُبُ النَّاسَ،فَجَاءَهُ رُومِيٌّ،فَقَالَ:أَلَا أَصْنَعُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ وَكَأَنَّكَ قَائِمٌ؟ فَصَنَعَ لَهُ مِنْبَرًا لَهُ دَرَجَتَانِ،وَيَقْعُدُ عَلَى الثَّالِثَةِ،فَلَمَّا قَعَدَ نَبِيُّ اللَّهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْبَرِ،خَارَ الْجِذْعُ كَخُوَارِ الثَّوْرِ حَتَّى ارْتَجَّ الْمَسْجِدُ حُزْنًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَنَزَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

[١٩٠٦] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٤٧)١٦٩ - (٢٣٧٩)

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَلَمَّا كَانَ نَجَّارًا ﷺلَيْسَ مِنْ ذَوِي الْأَمْوَالِ،عَقَلْنَا بِذَلِكَ أَنَّ الَّذِي سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرِثَهُ عَنْهُ مَنْ يَهَبُ لَهُ غَيْرَ الْأَمْوَالِ وَهِيَ النُّبُوَّةُ كَمَثَلِ الَّذِي سَأَلَهُ أَنْ يَرِثَهُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﷺوَكَذَلِكَ سَائِرُ أَنْبِيَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ "شرح مشكل الآثار (٣/ ١٠)(٩٨١)

قَالَ:كَانَ زَكَرِيَّا "):بِالْقَصْرِ وَيُرْوَى مَدُّهُ (نَجَّارًا) أَيْ:يَنْجُرُ الْخَشَبَةَ وَيَنْحِتُهَا وَيَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ،وَفِيهِ وَفِيمَا قَبْلَهُ مِنْ حَدِيثِ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْكَسْبَ مِنْ سُنَّةِ الْأَنْبِيَاءِ،وَهُوَ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ بِتَرْكِ مُرَاعَاةِ الْأَسْبَابِ فِي الْأَشْيَاءِ،كَمَا فَعَلَهُ بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْفِيَاءِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى خِلَافٍ فِي كَوْنِ أَيِّهِمَا أَفْضَلَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ،وَتَحْقِيقُهُ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٦٥٦)

قال القرطبي:بل الحرف والصنائع غير الدينية زيادة في فضل أهل الفضل لحصول مزيد التواضع والاستغناء عن الغير وكسب الحلال الخالي عن المنة قال:وقد كان كثير من الأنبياء يزاولون الأعمال فآدم الزراعة ونوح التجارة وداود الحدادة وموسى الكتابة كان يكتب التوراة بيده وكل منهم قد رعى الغنم"فيض القدير (٤/ ٥٤٥)

[١٩٠٧] - صحيح البخاري (٣/ ٦١)(٢٠٩٥) ش (تئن) تصوت.(على ما كانت) على فراق ما كانت تسمع]

مِنَ الْمِنْبَرِ،فَالْتَزَمَهُ وَهُوَ يَخُورُ ،فَلَمَّا الْتَزَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،سَكَنَ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ،لَمَا زَالَ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حُزْنًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»،فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدُفِنَ"[١٩٠٨]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ،فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَوْ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ:" إِنْ شِئْتُمْ " فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا،فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ذَهَبَ إِلَى الْمِنْبَرِ،فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ،فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَضَمَّهَا إِلَيْهِ،كَانَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يَسْكُتُ،كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا "[١٩٠٩]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:«تَعَلَّمُوا الْمِهَنَ،فَإِنِ احْتَاجَ الرَّجُلُ إِلَى مِهْنَتِهِ،انْتَفعَ بِهَا» قَالَ:وَحَدَّثَنَا أَشْيَاخُنَا أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ كَانَ يَقُولُ:«لِيَرْقَعْ أَحَدُكُمْ ثَوْبَهُ،وَلْيُصْلِحْهُ،فَإِنَّهُ لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا خَلَقَ لَهُ»[١٩١٠]

فإن الأيدي العاملة من الأسباب الرئيسة في بناء اقتصاد الدولة وتقويته،واطراد التنمية الاقتصادية في البلاد،والاستغناء عن الآخرين.

اكتشاف ثروات الأرض واستغلال خيراتها

لقد من الله تعالى على عباده بتسخير الأرض وتذليلها لهم ليستفيدوا من خيراتها،ويكتشفوا ثرواتها وينتفعوا بها،والحكومة الإسلامية والمسلمون عموما ينبغي لهم أن يسعوا ويجتهدوا في استغلال ثروات ومنافع البر والبحر والكشف عنها،والتنقيب في باطن الأرض عن النفط والمعادن وغيرها،حتى يحققوا الاكتفاء الذاتي،ويستغنوا عن استيراد البضائع والمنتجات الأجنبية،وعن تنقيب الشركات الأجنبية وإخراجها لثروات الأمة كالنفط وغيره.

[١٩٠٨] - سنن الدارمي (١/ ١٨٤)(٤٢) صحيح

[١٩٠٩] - شرح مشكل الآثار (١٠/ ٣٨٦)(٤١٩٣) صحيح

[١٩١٠] - الجهاد لابن المبارك (ص:١٥٩)(٢٠٩) فيه ضعف

فالقوة الاقتصادية للدولة هي من أعظم الأسباب في زيادة قوة الدولة السياسية والعسكرية والإعلامية،حتى تقوم الأمة بواجب حمل الرسالة وتبليغها للعالم،وتجاهد في سبيل الله وتعدُّ العدة اللازمة،وتحقق الاكتفاء الذاتي وتصدر إلى خارج البلاد،ولاتمكن الأعداء من جعل بلاد المسلمين سوقا لبضائعهم،ومرتعا لشركاتهم التي تجني الأرباح الطائلة،وقد قال تعالى:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } [الملك:١٥]،وقال تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحج:٦٥]،وقال تعالى:{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } [لقمان:٢٠]

وقال تعالى:{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) } [إبراهيم]،وقال تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحج:٦٥]،فقد ذلل الله تعالى لعباده ما في الأرض من حيوانات ونباتات ومعادن وغيرها لينتفعوا بها،وقال تعالى:{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل:١٤]،وقال تعالى:{اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) } [الجاثية:١٣،١٢]،والابتغاء من فضله هو بالتجارة ونقل البضائع وغير ذلك من المنافع كما قال تعالى:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }

[البقرة:١٦٤]،ويدل قوله تعالى:{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الجاثية:١٣]،على أن الله تعالى سخر ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم،وما في الأرض من حيوان ونبات وجمادات للانتفاع بها والاستفادة منها في وجوه المصلح والمنافع،وقال تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٩]،قال الإمام ابن جرير رحمه الله:" فَأَخْبَرَهُمْ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنَّهُ خَلَقَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا،لِأَنَّ الْأَرْضَ وَجَمِيعَ مَا فِيهَا لِبَنِي آدَمَ مَنَافِعُ.أَمَّا فِي الدِّينِ فَدَلِيلٌ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ رَبِّهِمْ،وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَمَعَاشٌ وَبَلَاغٌ لَهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَأَدَاءِ فَرَائِضِهِ؛فَلِذَلِكَ قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة:٢٩]"[١٩١١].

وقال تعالى:{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [الأعراف:١٠]

يَمْتَنُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ الأَرْضَ قَراراً يَعِيشُونَ وَيَسْتَقِرُّونَ عَلَيها،وَجَعَلَ فِيهَا جِبَالاً رَاسِياتٍ تَسَهِّلُ اسْتِقْرارَ النَّاسِ عَلَيهَا،فَلا تَمِيدُ بِهِمْ،وَجَعَلَ فِيها أَنْهَاراً،وَأَبَاحَ لِلنَّاسِ التَّمَتُّعَ بِمَنَافِعِها،وَسَخَّرَ الرِّيَاحَ لإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا،وَجَعَلَ لِلنَّاسِ مَا يَتَسَبَّبُونَ بِهِ وَيَتَكَسَّبُونَ (مَعَايِشَ)،وَلَكِنَّ النَّاسَ،مَعَ جَمِيعِ هذِهِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ،قَلِيلٌ مِنْهُمُ الشَّكُورُ،وَاللهُ تَعَالَى سَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى كُفْرَانِهِمْ بِالنِّعَمِ حِسَاباً عَسِيراً.[١٩١٢]

ولقد جعلنا لكم فيها أوطانا تتبوءوها وتستقرون فيها وجعلنا لكم فيها معايش تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب نعمة مني عليكم،وإحسانا مني إليكم،وأنشأنا لكم فيها ضروبا شتى من المنافع التي تعيشون بها عيشة راضية:من نبات وأنعام وطير وسمك ومياه عذبة وأشربة مختلفة الطعوم والروائح،ووسائل مختلفة للتنقل والارتحال من جهة إلى أخرى تتقدم بتقدم العلم والاختراع من طيارات وسيارات وقطر ريّة وسفن بحرية،وسبل متعددة لمداواة المرضى بالعقاقير المختلفة على يد نطس الأطباء إلى نحو ذلك.وكل ذلك يقتضى منكم الشكر الكثير

[١٩١١] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١/ ٤٥٣)

[١٩١٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٦٥،بترقيم الشاملة آليا)

ولكن الشكر من العباد قليل كما قال:«وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ» ومن ثم عقّب هذا بقوله:(قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ) أي وأنتم قليلو الشكر على هذه النعم التي أنعمت بها عليكم،لا كثيروه كثرة تناسب كثرة الانتفاع بها فقد عبدتم سواى،واتخذتم الأولياء والشفعاء من دونى.وشكر النعمة يكون بمعرفة المنعم بها ثم حمده والثناء عليه بما هو له أهل،ثم التصرف فيها بما يحبه ويرضاه،وتحقيق الأغراض التي أسداها لأجلها.

فهذه النعم المعيشية ما خلقت إلا لحفظ الحياة الجسمانية للأفراد والجماعات،والاستعانة بذلك على حفظ الحياة الروحية التي بها تزكو الأنفس،وتستعد للحياة الأخرى الأبدية التي فيها النعيم المقيم والسعادة المستقرة إلى غير نهاية.[١٩١٣]

والمعايش جمع معيشة،وهي تعم ما يعيش به الإنسان من المأكول،وأسباب المكاسب من صنائع وتجارة وحرف وغيرها من أنواع المكاسب.

" إن خالق الأرض وخالق الناس،هو الذي مكن لهذا الجنس البشري في الأرض.هو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس وتقوته وتعوله،بما فيها من أسباب الرزق والمعايش ..

هو الذي جعلها مقرا صالحا لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر،ودورتها حول الشمس،وميلها على محورها،وسرعة دورتها ..إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس عليها.

وهو الذي أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته،وبنمو هذه الحياة ورقيها معا ..وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض،قادرا على تطويعها واستخدامها بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته ..

ولولا تمكين الله للإنسان في الأرض بهذا وذلك،ما استطاع هذا المخلوق الضعيف القوة أن «يقهر الطبيعة» كما يعبر أهل الجاهلية قديما وحديثا! ولا كان بقوته الذاتية قادرا على مواجهة القوى الكونية الهائلة الساحقة! إن التصورات الجاهلية الإغريقية والرومانية هي التي تطبع

[١٩١٣] - تفسير المراغي (٨/ ١٠٨)

تصورات الجاهلية الحديثة ..هي التي تصور الكون عدوا للإنسان وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته وتصور الإنسان في معركة مع هذه القوى - بجهده وحده - وتصور كل تعرف إلى النواميس الكونية،وكل تسخير لها «قهرا للطبيعة» في المعركة بينها وبين الجنس الإنساني! إنها تصورات سخيفة،فوق أنها تصورات خبيثة! لو كانت النواميس الكونية مضادة للإنسان،عدوة له،تتربص به،وتعاكس اتجاهه،وليس وراءها إرادة مدبرة - كما يزعمون - ما نشأ هذا الإنسان أصلا! وإلا فكيف كان ينشأ؟ كيف ينشأ في كون معاد بلا إرادة وراءه؟ ولما استطاع المضي في الحياة على فرض أنه وجد! وإلا فكيف يمضي والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه؟ وهي - بزعمهم - التي تصرف نفسها ولا سلطان وراء سلطانها؟

إن التصور الإسلامي وحده هو الذي يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها بأصل شامل متناسق ..إن الله هو الذي خلق الكون،وهو الذي خلق الإنسان.وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان،وأودع الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعريف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته ..وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

و لم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة! وفي ظل هذا التصور يعيش «الإنسان» في كون مأنوس صديق وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة ..يعيش مطمئن القلب،مستروح النفس،ثابت الخطو،ينهض بالخلافة عن الله في الأرض في اطمئنان الواثق بأنه معان على الخلافة ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته وتيسر له قدرا جديدا من الرقي والراحة والمتاع.

إن هذا التصور لا يكفه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعريف إلى نواميسه ..على العكس،هو يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة ..إنه يتحرك في مواجهة كون صديق لا يبخل عليه بأسراره،ولا يمنع عنه مدده وعونه ..وليس في مواجهة كون عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه وآماله! إن مأساة «الوجودية» الكبرى هي هذا التصور النكد الخبيث ..تصور الوجود الكوني - بل الوجود الجماعي للبشرية ذاتها - معاكسا في طبيعته للوجود الفردي الإنساني،متجها بثقله الساحق إلى سحق هذا الوجود الإنساني! إنه تصور بائس لا بد

أن ينشئ حالة من الانزواء والانكماش والعدمية! أو ينشئ حالة مـــن الاســـتهتار والتمـــرد والفردية! وفي كلتا الحالتين لا يكون إلا القلق المضني! والبؤس النفسي والعقلي،والشـــرود في التيه:تيه التمرد،أو تيه العدم ..وهما سواء ..

وهي ليست مأساة «الوجودية» وحدها من مذاهب الفكر الأوربي.إنها مأساة الفكـــر الأوربي كله - بكل مذاهبه واتجاهاته - بل مأساة الجاهلية كلها في جميع أزمانها وبيئاتها.المأساة الـــتي يضع الإسلام حدا لها بعقيدته الشاملة.التي تنشئ في الإدراك البشري تصورا صـــحيحا لهـــذا الوجود،وما وراءه من قوة مدبرة.

إن «الإنسان» هو ابن هذه الأرض وهو ابن هذا الكون.لقد أنشأه الله من هذه الأرض،ومكنه فيها،وجعل له فيها أرزاقا ومعايش،ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها وجعـــل نواميســـها موافقة لوجود هذا الإنسان،تساعده - حين يتعرف إليها على بصيرة - وتيسر حياته ..

ولكن الناس قليلا ما يشكرون ..ذلك أنهم في جاهليتهم لا يعلمون ..وحتى الذين يعلمـــون لا يملكون أن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر،وأنى لهم الوفاء؟ لولا أن الله يقبل منهم مـــا يطيقون:وهؤلاء وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبار ين قوله تعالى:«قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ»."[١٩١٤]



[١٩١٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٧١٣)

المبحث السابع عشر

الإدارة

إن الإتقان في الأعمال الإدارية،وتسهيل الإجراءات،وسرعة العمل والإنجاز،وحسن التخطـيط والتنظيم،كل ذلك من الإحسان في الأعمال التي جاءت الشريعة بالأمر به فعَـنْ شَـدَّاد بْـنِ أَوْسٍ،قَالَ:ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ،وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ،وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ،فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَـهُ» رواه مسلم[1915]

[1915] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٤٨)٥٧ - (١٩٥٥)

[ش (القتلة) بكسر القاف وهي الهيئة والحالة(وليحد) يقال أحد السكين وحددها واستحدها بمعنى شحذها(فليرح ذبيحته) بإحداد السكين وتعجيل إمرارها وغير ذلك ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها]

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ) أَيْ:تَكَاثَرَ خَيْرُهُ وَبِرُّهُ (وَتَعَالَى) أَيْ:تَعَظَّمُ شَأْنُهُ وَبُرْهَانُهُ (كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ):إِلَى كُلِّ شَيْءٍ،أَوْ عَلَى بِمَعْنَى فِي أَيْ:أَمَرَكُمْ بِالْإِحْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ} [القصص:١٥] وَقَدْ قَالَ شَارِحٌ أَيْ:كَتَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ اهـ.وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْعُمُومُ الشَّامِلُ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ حَيًّا وَمَيِّتًا،وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ ﷺرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ وَأَنَّهُ بُعِثَ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَنَّ لِأُمَّتِهِ نَصِيبًا وَحَظًّا مِنْ هَذَا الْوَصْفِ بِمُتَابَعَتِهِ،وَلِذَا أَتَى بِالِاسْمِ الْجَامِعِ،وَلَمْ يَقُلْ أَنَّهُ الرَّحْمَنَ مَعَ أَنَّهُ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ رَحْمَتِهِ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ:أَوْجَبَ مُبَالَغَةً؛لِأَنَّ الْإِحْسَانَ هُنَا مُسْتَحَبٌّ وَضَمَّنَ الْإِحْسَانَ مَعْنَى التَّفْضِيلِ وَعَدَّاهُ بِعَلَى،وَالْمُرَادُ بِالتَّفَضُّلِ إِرَاحَةُ الذَّبِيحَةِ بِتَحْدِيدِ الشَّفْرَةِ وَتَعْجِيلِ إِمْرَارِهَا وَغَيْرِهِ.وَقَالَ الشُّمُنِّيُّ:عَلَى هُنَا بِمَعْنَى اللَّامِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْإِحْسَانِ،أَوْ بِكَتَبَ،وَلَا بُدَّ مِنْ عَلَى أُخْرَى مَحْذُوفَةٍ.بِمَعْنَى الِاسْتِعْلَاءِ الْمَجَازِيِّ مُتَعَلِّقَةٌ بِكَتَبَ،وَالتَّقْدِيرُ كَتَبَ عَلَى النَّاسِ الْإِحْسَانَ لِكُلِّ شَيْءٍ،(فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ):بِكَسْرِ الْقَافِ الْحَالَةُ الَّتِي عَلَيْهَا الْقَاتِلُ فِي قَتْلِهِ كَالْجِلْسَةِ وَالرِّكْبَةِ،وَالْمُرَادُ بِهَا الْمُسْتَحَقَّةُ قِصَاصًا،أَوْ حَدًّا،وَالْإِحْسَانُ فِيهَا اخْتِيَارُ أَسْهَلِ الطُّرُقِ وَأَظُنُّهَا أَقَلَّهَا إِيلَامًا (وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ):قَالَ النَّوَوِيُّ:يُرْوَى بِفَتْحِ الذَّالِ وَبِغَيْرِ هَاءٍ فِي أَكْثَرِ النُّسَخِ وَفِي بَعْضِهَا بِكَسْرِ الذَّالِ وَبِالْهَاءِ كَالْقِتْلَةِ (وَلْيُحِدَّ):بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِ الْمُشَدَّدَةِ وَيَجُوزُ كَسْرُهَا (أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ):بِفَتْحِ الشِّينِ أَيْ:سِكِّينَتَهُ وَيُسْتَحَبُّ أَنْ لَا يُحِدَّ بِحَضْرَةِ الذَّبِيحَةِ وَلَا يَذْبَحَ وَاحِدَةً بِحَضْرَةِ الْأُخْرَى وَلَا يَجُرَّهَا إِلَى مَذْبَحِهَا (وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ):بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ أَيْ:لِيَتْرُكْهَا حَتَّى تَسْتَرِيحَ وَتَبْرُدَ مِنْ قَوْلِهِمْ:أَرَاحَ الرَّجُلُ إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ بَعْدَ الْإِعْيَاءِ،وَالِاسْمُ الرَّاحَةُ،وَهَذَانِ الْفِعْلَانِ كَالْبَيَانِ لِلْإِحْسَانِ فِي الذَّبْحِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:الْحَدِيثُ عَامٌّ فِي كُلِّ قَتْلٍ مِنَ الذَّبَائِحِ وَالْقَتْلِ قِصَاصًا أَوْ حَدًّا وَنَحْوِ ذَلِكَ وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْجَوَامِعِ اهـ.

أي أن الله كتب الإحسان في كل شيء من أعمال العباد ومنها الولايات والوظائف وسياسات الحكومة الإسلامية،وذكر قتل الذبيحة في الحديث على سبيل المثال،أو للحاجة إلى بيان إحسان الذبح في ذلك الوقت.

فالحديث يدل على أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تتصف بالإحسان والإتقان في سياستها وتنظيم شؤونها وإدارة أعمالها.

فالإسلام جاء بالإحسان والاستقامة على طاعة الله والتحاكم إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في جميع الأقوال والأعمال،وتقوى الله في السر والعلن،وطاعة ولاة الأمر بالمعروف،وهذه هي الاستقامة الحقيقية والتنظيم الرشيد للحياة على طاعة الله في جميع الأحوال والتقلبات.

" كذلك العمل،إن لم يبلغ به العامل درجة تبلغ حدّ الكمال،للقدرة المتاحة له،وللوسائل التي بين يديه، لم يكن ليتوازن أبدا مع درجة الجهاد فى سبيل الله،ولا مع منزلة التفقه فى دين الله،و لم يكن للعامل أن ينتظم فى سلك المجاهدين،والمتفقهين..إن العامل الذي يستأهل أن يكون مجاهدا فى سبيل الله حقّا،هو من فقه فى عمله،وعرف أسرار صنعته..وبغير هذا لن يجىء منه الإحسان فى عمله،والإتقان لصنعته..

فعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ ""[1916]

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا:وَكُرِهَ السَّلْخُ قَبْلَ أَنْ تَبْرُدَ وَكُلُّ تَعْذِيب بِلَا فَائِدَة لِهَذَا الْحَدِيث،وَلِمَا أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَك وَقَالَ:صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:«أَنَّ رَجُلًا أَضْجَعَ شَاةً يُرِيدُ أَنْ يَذْبَحَهَا وَهُوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ؟ هَلَّا حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا؟» .قَالُوا:وَكُرِهَ النَّخْعُ بِنُون فَمُعْجَمَة فَمُهْمَلَة،وَهُوَ أَنْ يَبْلُغَ السِّكِّينُ النُّخَاعَ وَهُوَ عِرْقٌ أَبْيَضُ فِي جَوْف عَظْمِ الرَّقَبَة،لِمَا أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺنَهَى عَنِ الذَّبِيحَة أَنْ تُفْرَسَ» .وَفِي غَرِيبِ الْحَدِيث:الْفَرْسُ أَنْ تُذْبَحَ الشَّاةُ فَتُنْخَعَ،وَقِيلَ مَعْنَى النَّخْعِ أَنْ يَمُدَّ رَأْسَهُ حَتَّى يَظْهَرَ مَذْبَحُهُ،وَقِيلَ أَنْ يَكْسِرَ عُنُقَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْكُنَ الِاضْطِرَابُ،وَكُلُّ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ لِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ تَعْذِيبِ الْحَيَوَانِ بِلَا فَائِدَةٍ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٦٤٩)

[1916] -شعب الإيمان (٧/ ٢٣٣)(٤٩٣٠) صحيح

(إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم) أيها المؤمنون (عملا أن يتقنه) أي يحكمه كما جاء مصرحا به في رواية العسكري فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعدد مثلا أن يعمل بما علمه الله عمل إتقان وإحسان بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع ولا على مقدار الأجرة بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة كما ذكر أن صانعا عمل عملا تجاوز فيه ودفعه لصاحبه فلم ينم ليلته كراهة أن يظهر من عمله عملا غير متقن فشرع في عمل

وعَنْ عَطَاءِ قَالَ:لَمَّا دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ،رَأَى النَّبِيُّ ﷺ فِي الْقَبْرِ جُحْرًا فَقَالَ:«سُدُّوا الْجُحْرَ؛فَإِنَّهُ أَطْيَبُ لِلنَّفْسِ،إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[1917]

ومن الأمثلة على ذلك الجهاد في سبيل الله،فإن الله تعالى أمر بالجهاد،وبالثبات والصبر عند القتال،وبالمصابرة والرباط،وحرم القعود عن الجهاد الواجب،وحرم الفرار من الزحف،والتنازع الذي يؤدي إلى الفشل،وأمر بالإعداد وأخذ الحذر،وطاعة الأمراء بالمعروف،وأرشدهم إلى رص الصف وإلى الترتيب والانضباط،وبين أن من صفات المؤمنين أنهم إذا كانوا على أمر جامع كالجهاد أو المشاورة أو نحوها، لم يذهبوا لبعض شأنهم حتى يستئذنوا،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) } [الأنفال].

يَحُثُّ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الأَعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الحَرْبِ،وَيَأْمُرُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ،لِتَقْوَى قُلُوبُهُمْ،وَتَثْبُتَ نُفُوسُهُمْ،وَهَذَانِ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الفَوْزِ وَالنَّصْرِ عَلَى الأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيا،وَمِنْ أَسْبَابِ الفَوْزِ بِالفَلاَحِ وَبِرِضْوَانِ اللهِ فِي الآخِرَةِ.

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى فِي الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الأَعْدَاءِ الْمُشْرِكِينَ،وَبِالإِخْلاَصِ لَهُ،وَبِبَذْلِ الجُهْدِ فِي القِتَالِ،وَبِذِكْرِ اللهِ كَثِيراً لِتَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ وَتَهْدَأَ،وَيُزَايِلَهَا الخَوْفُ وَالتَّرَدُّدُ وَالقَلَقُ،كَمَا أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِ اللهِ،وَالتِزَامِ أَوَامِرِهِ،إِنْجَاحاً لِلْخُطَّةِ العَامَّةِ لِلْجَيْشِ فِي الْمَعْرَكَةِ.ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِأَلاَّ يَتَنَازَعُوا،وَلاَ يَخْتَلِفُوا،لأَنَّ فِي التَّنَازُعِ وَالاخْتِلاَفِ الفَشَلَ وَالخُذْلاَنَ وَضَيَاعَ مَا حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَعْرَكَةِ {وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} .ثُمَّ يُكَرِّرُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالتِزَامِ الصَّبْرِ،لأَنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.[1918]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [آل عمران:٢٠٠]

بدله حتى أتقن ما تعطيه الصنعة ثم غدا به لصاحبه فأخذ الأول وأعطاه الثاني فشكره فقال:لم أعمل لأجلك بل قضاء لحق الصنعة كراهة أن يظهر من عملي عمل غير متقن فمتى قصر الصانع في العمل لنقص الأجرة فقد كفر ما علمه الله وربما سلب الإتقان"فيض القدير (٢/ ٢٨٦)

[1917] - تاريخ المدينة لابن شبة (١/ ٩٨) صحيح مرسل

[1918] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٦،بترقيم الشاملة آليا)

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُسْلِمينَ أنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الذي ارْتَضَاهُ اللهُ لَهُمْ،وَهُوَ الإِسْلاَمُ،فَلاَ يَدَعُونَهُ لِشدَّة ولاَ لِرَخَاءٍ،حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ.وَالْمُرَابَطَة هِيَ المَرَابَطَةِ فِي الثُّغُورِ لِلْغَزْوِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.[1919] .

بهذه الآية الكريمة تختم سورة «آل عمران» التي كان أبرز ألوانها هذا اللـــون المصـــبوغ بـــدم المجاهدين فى سبيل الله،فى أولى معارك الإسلام،وعلى امتداد الطريق الذي ساروا فيـــه،من أول يومهم معه،إلى يوم أحد!!

فالمسلمون كانوا إلى يوم أحد فى مواجهة عواصف عاتية،تهبّ عليهم من كـــل جهـــة،وتطلع عليهم من كل أفق.

كانوا فى مكة قلّة مستضعفين،أخذتهم قريش بالبأساء والضرّاء،ففرّوا بدينهم وانخلعـــوا عـــن ديارهم وأهليهم فى غربة موحشة،لا يؤنسهم فيها غير دينهم،ولا يملأ عليهم حياتهم إلا آيـــات الله يرتلونها،ويسعدون بما تفيض عليهم من رحمة ورضـــوان..وكـــانوا فى المدينـــة أعـــدادا قليلة،تتربص بهم قريش،وتعدّ العدة للقضاء عليهم،على حين يمكر بهم اليهود ويؤلّبون النـــاس على حربهم.

ثم إذا كان يوم بدر استروح المسلمون ريح النّصر،وتنفسوا أنفاس الرضا..فلما جاءت موقعـــة أحد ألقت على المسلمين هموما ثقالا،وأطمعت فيهم أعداءهم،فأظهروا لهم ما كانوا يخفون من عداوة،وما كانوا يبيتون من عدوان..

وقد رأينا كيف كانت رحمة الله بالمسلمين ومواساته لهم،فيما نزل من آيات،بعد أحداث أحد.

والصبر هو زاد المؤمنين وعتادهم فى مسيرتهم إلى الله،وبلوغ مرضاته..

وبغير الصبر،وتوطين النفس على ما تكره،لا يستقيم خطو الإنسان أبدا علـــى طريـــق الحـــق والخير،إذ كان ذلك الطريق دائما،موحشا،تعترض سالكه الحواجز والمزالق والعثـــرات! لهـــذا كانت تلك الآية الكريمة دعوة خالصة للصبر،تغرى المسلمين به،وتحرضهم عليـــه،وتفتح لهـــم طريق النجاح والفلاح بيده! «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» .

[1919] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٣،بترقيم الشاملة آليا)

فالصبر،والمصابرة،والمرابطة،وتقوى الله،هنّ اللائي يمكّنّ للمؤمن من أن يضع قدميه على طريق النجاح والفلاح،وأن يقطع هذا الطريق إلى غايته،فيظفر برضا الله،ويفوز برضوانه.
والصبر،هو القوة التي يلقى بها المرء المكاره والشدائد،فيحتملها فى إصرار وعزم،وفى غير وهن أو ضعف..فذلك هو الصبر الذي يدعو إليه الإسلام،ويزكّيه،كما تدعو إليه رسالات السماء،وحكمة الحكماء..وفى هذا يقول لقمان لابنه فيما يقول القرآن الكريم عنه:«وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» .(١٧:لقمان) والمصابرة،هى التجربة الحيّة للصبر،والمحكّ الذي يظهر به معدن الصبر عند الصابرين..فليس الصبر درجة واحدة..بل هو- شأنه شأن كل فضيله- درجات متفاوتة،تختلف حظوظ الناس منه،كلّ حسب وثاقة إيمانه،وقوة عزيمته.
وفى المصابرة مغالبة ومصاولة،بين الإنسان وبين الشدائد والمحن،التي يريد قهرها والغلب عليها،سواء كانت تلك الشدائد والمحن ممّا يعتمل فى نفسه من أهواء ونزعات،أو مما تسوق إليه الحياة من بلاء وامتحان! والمرابطة هى الثمرة المباركة من ثمار الصبر والمصابرة..فإذا صبر الإنسان على المكروه،ثم صابر هذا المكروه على ثقله وامتداد الزمن به،فلم يضعف و لم يضجر،أسلمه ذلك إلى «المرابطة» التي يذلّ فيها المكروه ويصبح شيئا مألوفا..وهكذا تتحول المكاره مع الصبر والمصابرة إلى أشياء أقرب إلى نفس الإنسان،وأشكل بطبيعته،وهكذا يصبح معتادا لها،مرتبطا بها..وبهذا يحصل على الثمرة الكبرى،وهى التقوى،التي لا تكون إلا بقهر شهوات النفس وأهوائها،وذلك هو الفلاح المبين والفوز العظيم.[١٩٢٠]
والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة.إنه طريق طويل شاق،حافل بالعقبات والأشواك،مفروش بالدماء والأشلاء،وبالإيذاء والابتلاء ..الصبر على أشياء كثيرة:الصبر على شهوات النفس ورغائبها،وأطماعها ومطامحها،وضعفها ونقصها،وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم،وانحراف طباعهم،وأثرتهم،وغرورهم،والتوائهم،واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل،ووقاحة الطغيان،وانتفاش الشر،وغلبة الشهوة،وتصعير الغرور والخيلاء!

[١٩٢٠] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٧٨)

والصبر على قلة الناصر،وضعف المعين،وطول الطريق،ووساوس الشيطان في ساعات الكـــرب والضيق!

والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله،وما تثيره في النفس مـــن انفعـــالات متنوعـــة.مـــن الألم والغيظ،والحنق،والضيق،وضعف الثقة أحيانا في الخير،وقلة الرجاء أحيانا في الفطـــرة البشـــرية والملل والسأم واليأس أحيانا والقنوط!

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة،واستقبال الرخاء في تواضع وشكر،وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام،وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء!

والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله،واستسلام لقدره،ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع ..

والصبر على هذا كله – وعلى مثله – مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل ..لا تصوره حقيقة الكلمات.

فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة.إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي.فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء.كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب الله إليهم أن يزاولوه ..

والمصابرة ..وهي مفاعلة من الصبر ..مصابرة هذه المشاعر كلها،ومصـــابرة الأعـــداء الـــذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين ..مصابرتها ومصابرتهم،فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة.

بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى:أعدائهم من كوامن الصدور،وأعدائهم من شرار النـــاس سواء.

فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم،يدعون فيه إلى مقابلـــة الصـــبر بالصـــبر،والدفع بالدفع،والجهد بالجهد،والإصرار بالإصرار ..ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونـــوا أثبـــت وأصبر من الأعداء.وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق،فما أجدر الحق أن يكـــون أشد إصرارا وأعظم صبرا على المضي في الطريق! والمرابطة ..الإقامة في مواقـــع الجهـــاد،وفي

الثغور المعرضة لهجوم الأعداء ..وقد كانت الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبدا،ولا تستسلم للرقاد! فما هادنها أعداؤها قط،منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة،والتعرض بها للناس.وما يهادنها أعداؤها قط في أي زمان أو في أي مكان وما تستغني عن المرابطة للجهاد،حيثما كانت إلى آخر الزمان! إن هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي.منهج يتحكم في ضمائرهم،كما يتحكم في أموالهم،كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم.منهج خير عادل مستقيم.ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخير العادل المستقيم والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة والطغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة ..ومن ثم ينهد لهذه الدعوة أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان.ينهد لحربها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال.وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الطغيان والاستكبار.وينهد لحربها المستهترون المنحلون،لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحلال والشهوات ..ولا بد من مجاهدتهم جميعا.ولا بد من الصبر والمصابرة.ولا بد من المرابطة والحراسة.كي لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين،الدائمين في كل أرض وفي كل جيل ..

هذه طبيعة هذه الدعوة،وهذا طريقها ..إنها لا تريد أن تعتدي ولكن تريد أن تقيم في الأرض منهجها القويم ونظامها السليم ..وهي واجدة أبدا من يكره ذلك المنهج وهذا النظام.ومن يقف في طريقها بالقوة والكيد.ومن يتربص بها الدوائر.ومن يحاربها باليد والقلب واللسان ..ولا بد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها،ولا بد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام!!

والتقوى ..التقوى تصاحب هذا كله.فهي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل ويحرسه أن يضعف ويحرسه أن يعتدي ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك.

ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ،إلا من يعاني مشاق هذا الطريق ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات ..إنه الإيقاع الأخير في السورة التي حوت ذلك الحشد من الإيقاعات.وهو جماعها كلها،وجماع التكاليف التي تفرضها هذه

الدعوة في عمومها ..ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح في هذا المضمار:«لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».وصدق الله العظيم ..[1921]

وقال تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠]

الجيش هو عدة الوطن وسلاحه ودرعه وسياجه،وجه الأمة التي تقابل به العدو،ويدها التي تبطش بها،وقلبها النابض وعينها الساهرة،ولذا كانت عناية القرآن به كما ترى في كثير من الآيات،ورعاية النبي ﷺ له وإعطاؤه القسط الوافر المناسب لزمنه أمر ظاهر واضح.

والإعداد والتكوين أمر شاق على النفوس عسير على الناس إلا المؤمنين بالله المتوكلين عليه أصحاب النفوس العزيزة والهمم العالية.والآية الكريمة على اختصارها جمعت أنواع الإعداد للجيوش التي تتلاءم مع كل عصر وزمن مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ.

فالإعداد الأدبى،والمادي،والإدارى،والفنى،والمالى،مع الحث على ذلك كله بالثواب الجزيل والعطاء الكثير كل ذلك في الآية الشريفة،ولقد فرض القرآن علينا الإعداد بأنواعه وَأَعِدُّوا،وأن نبذل فيه أكثر جهودنا وأن نقدم النفس والنفيس ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

و لم تغفل الآية الإعداد في وقت السلم حتى يكون الجيش على أتم استعداد في كل وقت (كلما سمعوا هيعة طاروا إليها) فأمرنا بإعداد الخيل المرابطة في الثغور لمقابلة العدو ليلا ونهارا.

ولقد ذكرت الآية سبب الإعداد وهو إرهاب العدو الظاهر والعدو الخفى ما نعلمه،وما لا نعلمه.

و لم يكن هناك إعداد ونصر إلا بالمال،ولا سبيل إليه إلا بالإنفاق المطلق كل على قدر طاقته وإيمانه مع حقنا على التسابق فيه والعمل على إحراز ثوابه الكبير المعد لنا يوم القيامة.

ولا يمكن أن تقوم أمة بهذا الإعداد الكامل ثم تظلم من جيرانها أبدا،وأنتم لا تظلمون كذلك في الآخرة وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ،وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ [سورة البقرة آية ٢٧٣] .والخيل في العصر القديم كانت عنوان

[1921] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٧٠)

الرهبة للأعداء،ولا تزال لها مكانتها في العصر الحديث لهذا ذكرت،وإن كانت الآية تدعو لإعداد المستطاع المناسب من كل قوة صالحة.[١٩٢٢]

وفيها الحث على الاستعداد الدائم لمواجهة الأعداء،بجميع أوجه الإعداد المادي والمعنوي والفني والمالي،بما يناسب كل عصر وزمان،لأن الجيش المقاتل درع البلاد وسياج الوطن،به يدفع العدوان،وتدحر قوى البغي والشر والتسلط،ولا يعقل أن نواجه الأعداء إلا بنفس المستوى الحربي والسلاح المتطور الذي تعتمد عليه الجيوش المحاربة،وبالقوى المماثلة المناظرة عند الآخرين،لذا وردت كلمة قوة نكرة في قوله تعالى:ما استطعتم من قوة وهي تشمل مختلف أنواع القوى البرية والبحرية والجوية،من حيوان وسلاح وألبسة وآلات ونفقات وتقنيات متطورة،ولما كانت الخيول في الماضي هي أصل الحروب وأقوى القوى وحصون الفرسان،خصها الله بالذكر تشريفا لها،وإذا تغيرت الوسائل الحربية،تغير الواجب لإرهاب عدو الله وعدو المؤمنين الظاهر والعدو الخفي الذي نعلمه أو لا نعلمه وإنما يعلمه الله،فالإرهاب سبب الإعداد،وطريق تحصين البلاد وتوفير الأمن والسلامة.

والإنفاق الضروري للتسليح لأن تحقيق النصر والإعداد الملائم لا يكون إلا بالمال،والإنفاق السخي هو سبيل توفير الأموال،وفيه ثواب عظيم عند الله تعالى في الدنيا والآخرة،سواء كان المال قليلا أو كثيرا في سبيل الله،فقد يجازي الله بعض المؤمنين المنفقين في الدنيا مجازاة مضافة إلى مجازاة الآخرة.وإذا توافر المال الضروري لكل إعداد ومعركة،أمنت البلاد وأهلها،ولم يقعوا في ظلم الجوار وتسلط الأعداء،وكان للمنفقين في سبيل الله والجهاد الدرجة العليا في الآخرة،قال الله تعالى:وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون [البقرة:٢/ ٢٧٢] .[١٩٢٣]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا } [النساء:٧١] يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الحَذَرِ مِنَ الأَعْدَاءِ،وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّعَرُّفَ عَلَى أَحْوَالِ هَؤُلاءِ الأَعْدَاءِ،وَمَعْرِفَةِ أَرْضِهِمْ،وَعَدَدِهِمْ،وَسِلاَحِهِمْ،وَأَحْلاَفِهِمْ،وَثَرْوَتِهِمْ،كَمَا يَسْتَلْزِمُ التَّأَهُّبَ

[١٩٢٢] - التفسير الواضح (١/ ٨٤٠)

[١٩٢٣] - التفسير الوسيط للزحيلي (١/ ٨١٧)

لَهُمْ،وَإِعْدَادَ الرِّجَالِ لِلْحَرْبِ وَتَدْرِيبَهُمْ وَتَسْلِيحَهُمْ،وَجَمْعَ السِّلاَحِ وَالْمُؤَنِ وَوَسَائِلِ النَّقْلِ وَالرُّكُوبِ،وَالاسْتِعْدَادَ لِلنَّفِيرِ لِلْقِتَالِ،حِينَمَا يَدْعُو دَاعِيَ الجِهَادِ،وَالخُرُوجَ جَمَاعَاتٍ مُتَلاَحِقَةً (ثُبَاتٍ)،أَوْ خُرُوجَ المُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ جَمِيعاً،حَسْبَ حَالِ العَدُوِّ،وَخَطَرِهِ وَقُوَّتِهِ،وَالخَطَرِ الذِي يَتَهَدَّدُ الأُمَّةَ.[1924]

وقال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [الصف:٤]

قَالَ المُؤْمِنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ لَعَمِلْنَاهُ،فَدَلَّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ إِلَى أَحَبِّ الأَعْمَالِ إِليهِ،فَبَيَّنَ لَهُمْ:أَنَّهُ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ كَلِمَتِهِ أَنْ يَقِفُوا أَثْنَاءَ القِتَالِ صَفّاً،لاَ فُرْجَةَ بَيْنَهُمْ،وَكَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَشْدُودٌ مَرْصُوصٌ،مُتَلاَحِمُ الأَجْزَاءِ،لأَنَّ هَذَا التَّرَاصَّ أَثْنَاءَ القِتَالِ يُقَوِّي مَعْنَوِيّاتِ الجُنْدِ،وَلاَ يَتْرُكُ لِلْعَدُوِّ فُرْجَةً بَيْنَ صُفُوفِهِمْ يَنْفُذُ مِنْهَا.[1925]

وقال تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النور:٦٢].

يُؤَدِّبُ اللهُ النَّاسَ،فَكَمَا أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ،كَذَلِكَ أَمَرَهُمْ اللهُ تَعَالَى بِأَلاَّ يَتَفَرَّقُوا عَنِ النَّبِيِّ إِلاَّ بعدَ اسْتِئْذَانِهِ ومُشَاوَرَتِهِ،وللرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَأْذَنَ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ.

وَرَوَى ابنُ إِسْحَاقَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:لَمّا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ وَالأَحْزَابُ عَلَى حَرْبِ المُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ،أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِحَفْرِ خَنْدَقِ المَدِينَةِ،وَأَخَذَ يَعْمَلُ بِنَفْسِهِ تَرْغِيباً لِلمُسْلِمِينَ فِي الأَجْرِ،فَعَمِلَ المُسْلِمُونَ،وَأَبْطَأَ رِجَالٌ مِنَ المُنَافِقِينَ،وَأَخَذُوا يَقُومُونَ بِالضَّعِيفِ مِنَ العَمَلِ وَيَتَسَلَّلُونَ بِغَيْرِ إِذْنِ الرَّسُولِ ﷺ.وَكَانَ المُسْلِمُونَ يَسْتَأْذِنُونَ الرَّسُولَ لِبَعْضِ حَاجَتِهِم،فَإِذَا قَضَى أَحَدُهُمْ حَاجَتَهُ رَجَعَ إِلى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلٍ،رَغْبَةً فِي الخَيْرِ والأَجْرِ،واحْتِسَاباً لَهُ،وَيَقُولُ تَعَالَى إِنَّ هَؤُلاءِ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً.[1926]

[1924] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

[1925] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٤٥،بترقيم الشاملة آليا)

[1926] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٣٥،بترقيم الشاملة آليا) وانظر:دلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ٤٠٩) و سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٢١٦)

وعَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ،عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«الْغَزْوُ غَزْوَان فَأَمَّا مَنِ ابْتَغَى وَجْهَ الله،وَأَطَاعَ الْإِمَامَ،وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ،وَيَاسَرَ الشَّرِيكَ،وَاجْتَنَبَ الْفَسَادَ فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبْهَهُ أَجْرٌ كُلُّهُ،وَأَمَّا مَنْ غَزَا رِيَاءً وَسُمْعَةً،وَعَصَى الْإِمَامَ،وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ،فَإِنَّهُ لَا يَرْجِعُ بِالْكَفَافِ» رواه أبو داود[١٩٢٧].

الْغَزْوُ:أَيْ:جِنْسُهُ لَا الْغَزْوُ الْمَعْهُودُ (غَزْوَان) :أَيْ:نَوْعَان،أَوْ قِسْمَان.قَالَ الْقَاضِي:أَيْ:غَزْوٌ عَلَى مَا يَنْبَغِي وَغَزْوٌ لَا عَلَى مَا يَنْبَغِي،فَاقْتَصَرَ الْكَلَامُ وَاسْتَغْنَى بِذِكْرِ الْغُزَاة،وَعَدِّ أَصْنَافِهَا وَشَرْحِ حَالِهِمْ،وَبَيَانِ أَحْكَامِهِمْ عَنْ ذِكْرِ الْقِسْمَيْنِ،وَشَرْحِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَصَّلًا حَيْثُ قَالَ:(فَأَمَّا مَنِ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّه) :أَيْ:طَلَبَ رِضَا مَوْلَاهُ.وَفِي رِوَايَةٍ:فَأَمَّا مَنْ غَزَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّـهِ تَعَالَى (وَأَطَاعَ الْإِمَامَ) :أَيْ:فِي غَزْوَةٍ فَأَتَى بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا أَمَرَهُ (وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ) :أَي:الْمُخْتَارَةَ مِنْ مَالِهِ وَقَتْلِ نَفْسِهِ،وَالتَّاءُ لِلنَّقْلِ مِنَ الْوَصْفِيَّةِ إِلَى الِاسْمِيَّةِ (وَيَاسَرَ الشَّرِيكَ) :مِنَ الْمُيَاسَرَةِ بِمَعْنَى الْمُسَاهَلَة ؛ أَيْ:سَاهَلَ الرَّفِيقَ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ،وَاسْتَعْمَلَ الْيُسْرَ مَعَهُ نَفْعًا بِالْمَعُونَةِ وَكِفَايَةً بِالْمُؤْنَة (وَاجْتَنَبَ الْفَسَادَ) :أَي:التَّجَاوُزَ عَنِ الْمَشْرُوعِ قَتْلًا وَضَرْبًا وَتَخْرِيبًا وَنَهْبًا عَلَى قَصْدِ الْفَسَادِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة:٦٠] ؛ أَيْ:لَا تُفْسِدُوا فِيهَا حَالَ كَوْنِكُمْ قَاصِدِينَ الْفَسَادَ،بَلْ مُرِيدِينَ صَلَاحَ الْبِلَادِ وَالْعِبَاد (فَإِنَّ نَوْمَهُ) :أَيْ:حِينَئِذٍ (وَنَبَهَهُ) :بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَة وَفِي نُسْخَة صَحِيحَة بِسُكُونِهَا ؛ أَيْ:يَقَظَتَهُ،وَفِي مَعْنَاهَا غَفْلَتَهُ،وَذِكْرَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ وَحَرَكَتَهُ وَسُكُونَهُ (أَجْرٌ) :أَيْ:ذُو أَجْرٍ وَثَوَابٍ (كُلُّهُ) :بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ،وَالْجُمْلَةُ خَبَرُ إِنَّ ؛ أَيْ:كُلُّ مَا ذُكِرَ أَجْرٌ مُبَالَغَةً،كَرَجُلٍ عَدْلٍ،أَوْ مُقْتَضٍ لِلْأَجْرِ جَالِبٌ لِلثَّوَابِ،وَفِي نُسْخَة بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ تَأْكِيدٌ لِاسْمِ إِنَّ أُتِيَ بِهِ بَعْدَ الْخَبَرِ،وَفِي جَوَازِهِ مَحَلُّ نَظَرٍ.قَالَ الطِّيبِيُّ:لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ تَأْكِيدًا لِلْأَجْرِ عَلَى مَا لَا يَخْفَى ؛ أَيْ:لِمُضِيِّ الْخَبَرِ الَّذِي هُوَ مَحَطُّ الْحُكْمِ،فَإِنَّ فَائِدَةَ التَّأْكِيد إِنَّمَا تَظْهَرُ قَبْلَ إِيقَاعِ الْخَبَرِ عَلَيْهِ،فَالْوَجْهُ أَنْ يُقَالَ التَّقْدِيرُ أَعْنِي كُلَّهُ فَيَكُونُ جُمْلَةً مُؤَكِّدَةً قَالَ:وَالْمَعْنَى كُلٌّ مِنْ ذَلِكَ أَجْرٌ،وَهَذَا التَّرْكِيبُ مُشْعِرٌ بِاهْتِمَامِ حَمْلِ الْأَجْرِ عَلَى النَّوْمِ وَالنَّبَهِ مُبَالَغَةً فِي بَيَانِ كَوْنِهِمَا شَيْئَيْنِ مُسْتَقِلَّيْنِ غَايَةَ الِاسْتِقْلَال (وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخْرًا) :أَيْ:مُفَاخَرَةً،أَوْ لِلْفَخْرِ،فَفِي النِّهَايَةِ الْفَخْرُ ادِّعَاءُ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالشَّرَفِ،وَمِنْهُ:" «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» " ؛ أَيْ:لَا أَقُولُ تَبَجُّحًا،وَلَكِنْ شُكْرًا لِلَّهِ وَتَحَدُّثًا

١٩٢٧ _

بنِعْمَتِهِ (وَرِيَاءً وَسُمْعَةً) :أَيْ:لِيَرَاهُ النَّاسُ وَيَسْمَعُوا صِيتَهُ فِي جَلَادَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ (وَعَصَى الْإِمَامَ) :أَيْ:فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ (وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ) :أَيْ:قَصَدَ الْفَسَادَ فِيهَا بِإِهْلَاكِ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.(فَإِنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ بِالْكَفَافِ) :بِفَتْحِ الْكَافِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِكَسْرِهَا فَفِي الْقَامُوسِ:كَفَافُ الشَّيْءِ كَسَحَابٍ مُثَلَّثَةٌ،وَمِنَ الرِّزْقِ مَا كَفَّ عَنِ النَّاسِ،وَكَفَافُ الشَّيْءِ بِالْكَسْرِ خِيَارُهُ.وَفِي النِّهَايَةِ:الْكَفَافُ الَّذِي لَا يَفْضُلُ عَنِ الشَّيْءِ وَيَكُونُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.قَالَ الْقَاضِي:أَيْ:لَمْ يَرْجِعْ بِالثَّوَابِ مَأْخُوذٌ مِنْ كَفَافِ الشَّيْءِ وَهُوَ خِيَارُهُ،أَوْ مِنَ الرِّزْقِ ؛ أَيْ لَمْ يَرْجِعْ بِخَيْرٍ،أَوْ بِثَوَابٍ يُغْنِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَوْلُهُ:الْأَوَّلُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْكِفَافَ بِالْكَسْرِ،وَالثَّانِي إِلَى أَنَّهُ بِالْفَتْحِ وَقَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ:لَمْ يَعُدْ مِنَ الْغَزْوِ رَأْسًا بِرَأْسٍ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ وَلَا عَلَيْهِ وِزْرٌ،بَلْ وِزْرُهُ أَكْثَرُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَغْزُ لِلَّهِ وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ،يُقَالُ:دَعْنِي كَفَافًا ؛ أَيْ:تَكُفَّ عَنِّي وَأَكُفَّ عَنْكَ اه.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى كَسْرِ الْكَافِ،وَأَرَادَ بِهِ الْمَصْدَرَ مِنْ بَابِ الْمُفَاعَلَةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:الْوَجْهُ مَا قَالَهُ الْقَاضِي ؛ لِأَنَّ الْكَفَافَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَوَابٌ أَيْضًا وَإِثْمٌ،وَيَزِيدُ إِثْمُهُ عَلَى ثَوَابِهِ،كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:وَدِدْتُ أَنِّي سَلِمْتُ مِنَ الْخِلَافَةِ كَفَافًا لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَ،وَالْمُرَائِي الْمُفْسِدُ لَيْسَ لَهُ ثَوَابٌ الْبَتَّةَ.قَالَ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ فِي الْمُرَائِي الَّذِي لَا يَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ،بَلْ يَعْمَلُ فَخْرًا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً:تَبْطُلُ عِبَادَتُهُ ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ وَهَذَا لَيْسَ يَقْصِدُ الْعِبَادَةَ،ثُمَّ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى إِحْبَاطِ عِبَادَتِهِ حَتَّى يُقَالَ:صَارَ كَمَا كَانَ قَبْلَ الْعِبَادَةِ،بَلْ يَعْصِي بِذَلِكَ وَيَأْثَمُ اه.

وَلَا يَخْفَى أَنَّ كَلَامَ الْإِمَامِ قَيَّدَ الْمُرَائِيَ بِالَّذِي لَا يَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ،وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى ذَلِكَ،فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ جَمَعَ فِي الْعِبَادَةِ بَيْنَ النِّيَّتَيْنِ،وَقَدْ صَرَّحَ الْإِمَامُ فِي مِنْهَاجِ الْعَابِدِينَ أَنَّ الرِّيَاءَ ضَرْبَانِ:رِيَاءٌ مَحْضٌ وَرِيَاءُ تَخْلِيطٍ،فَالْمَحْضُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ نَفْعَ الدُّنْيَا لَا غَيْرَ،وَالتَّخْلِيطُ أَنْ يُرِيدَهُمَا جَمِيعًا،فَهَذَا أَحَدُهُمَا،وَأَمَّا تَأْثِيرُهُمَا فَإِنَّ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ أَنْ يَجْعَلَ الْفِعْلَ قُرْبَةً،وَإِخْلَاصَ طَلَبِ الْأَجْرِ أَنْ يَجْعَلَهُ مَقْبُولًا وَافِرَ الْأَجْرِ إِلَى أَنْ قَالَ:وَالْمُخْتَارُ أَنَّ مِنْ تَأْثِيرِ الرِّيَاءِ رَفْعَ الْقَبُولِ وَالنُّقْصَانَ فِي الثَّوَابِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَقَالَ فِي عَيْنِ الْعِلْمِ:إِلَّا فُحْشٌ فِي الرِّيَاءِ أَنْ لَا يُرِيدَ الثَّوَابَ أَصْلًا،وَهُوَ فِي غَايَةِ الْمَقْتِ،ثُمَّ مَا فِيهِ إِرَادَتَانِ،وَالرِّيَاءُ غَالِبٌ فَهُوَ

بِقُرْبِه،ثُمَّ مَا اسْتَوَيَا فِيهِ،فَالْمَرْجُوُّ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ وَلَا عَلَيْهِ،ثُمَّ مَا تَرَجَّحَ فِيهِ قَصْدُ الثَّوَابِ،فَالْمَظْنُونُ أَنَّ الرَّاجِحَ فِيهِ النُّقْصَانُ لَا الْبُطْلَانُ،أَوِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ بِحَسَبِ الْقَصْدَيْنِ،وَالْأَصْلُ أَنَّ الْقُرْبَ مِنْهُ تَعَالَى بِالْمَيْلِ إِلَيْهِ وَالْبُعْدَ عَنْهُ الذُّهُولُ،وَمَا وَرَدَ أَنَا أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ وَنَحْوُهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْأَوَّلِ،وَهُوَ أَنْ لَا يُرِيدَ الثَّوَابَ أَصْلًا،وَفِي الْإِحْيَاءِ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا تَسَاوَيَا،أَوْ تَرَجَّحَ الرِّيَاءُ.قَالَ الْأَشْرَفُ:وَلَا بُدَّ فِي قَوْلِهِ:فَأَمَّا مَنِ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ،وَفِي قَوْلِهِ:وَأَمَّا مَنْ غَزَا مِنْ إِضْمَارِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ:فَأَمَّا غَزْوُ مَنِ ابْتَغَى،وَأَمَّا غَزْوُ مَنْ غَزَا فَإِنَّهُمَا قِسْمَانِ لِمَوْرِدِ الْقِسْمَةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَلَا يَسْتَتِبُّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ إِجْرَاءُ الْخَبَرِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ،فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَدَّرَ الْغَزْوُ غَزْوَانِ:غَزْوُ مَنِ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ،وَغَزْوُ مَنْ لَمْ يَبْتَغِ،وَأَمَّا مَنِ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ،فَحُكْمُهُ كَذَا،وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخْرًا فَحُكْمُهُ كَذَا،فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْجَمْعِ مَعَ التَّفْرِيقِ وَالتَّقْسِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ - فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا} [هود:١٠٥ - ١٠٦] الْآيَتَيْنِ فَحُذِفَ التَّفْرِيقُ لِدَلَالَةِ التَّقْسِيمِ عَلَيْهِ،وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْقَاضِي،فَاقْتَصَرَ الْكَلَامُ وَاسْتَغْنَى بِذِكْرِ الْغُزَاةِ عَنْ ذِكْرِ الْقِسْمَيْنِ.[١٩٢٨]

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبِنَاءِ فِي زَمَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ عُمَرُ:«يَا مَعْشَرَ الْعُرَيْبِ،الْأَرْضَ الْأَرْضَ،إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ،وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ،وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ،فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفِقْهِ،كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ،وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ،كَانَ هَلَاكًا لَهُ وَلَهُمْ» رواه الدارمي.[١٩٢٩]

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بقواعد عامة لضبط الأعمال،وحسن إدارها،وتنظيمها،ومن هذه القواعد:

أولا:الإتقان في العمل وسرعة الإنجاز وحسن التخطيط والتنظيم:

فإن الله تعالى يحب إذا عمل العامل عملا أن يتقنه وينصح فيه،فعَنْ عَائِشَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ» رواه أبو يعلى[١٩٣٠]

[١٩٢٨] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٨٨)

[١٩٢٩] - سنن الدارمي (١/ ٣١٥)(٢٥٧) فيه ضعف

[١٩٣٠] - مسند أبي يعلى الموصلي (٧/ ٣٤٩)(٤٣٨٦) صحيح لغيره

وعَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ الْجَرْمِيِّ،عَنْ أَبِيهِ:" أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى جَنَازَةٍ شَهِدَهَا النَّبِيُّ ﷺ ،قَالَ:وَأَنَا غُلَامٌ أَعْقِلُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" يُحِبُّ اللهُ الْعَامِلَ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ " رواه الطبراني[1931]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" خَيْرُ الْكَسْبِ،كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ " رواه أحمد.[1932]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ»[1933]

ومع اتساع مجالات الحياة وكثرة شؤونها،تزداد الحاجة إلى حسن التخطيط،وسرعة الاجراءات والإنجاز للأعمال بعيدًا عن التسيب،والإهمال،والارتجال،والفوضى الإدارية،والخمول والكسل،والاحتجاب عن الناس،وتعطيل حاجاتهم،فعن أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ،وَالجُبْنِ وَالهَرَمِ،وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ،وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ»[1934]

[1931] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/ ٢٣٩٧)(٥٨٦٧) والصحيحة (١١١٣) وصحيح الجامع (٨٠٣٧)والمعجم الكبير للطبراني (١٩/ ١٩٩)(٤٤٨) صحيح لغيره

فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصورة والآلات والعدد مثلا أن يعمل بما علمه عمل إتقان وإحسان بقصد نفع خلق الله واحتمل أن المراد يحب من العامل بالطاعة أن يحسنها بإخلاص واستيفاء للشروط والأركان والآداب"فيض القدير (٦/ ٤٥٩)

[1932] - مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ١٣٦)(٨٤١٢) حسن

[1933] - تاريخ أصبهان = أخبار أصبهان (١/ ٤٢٠) صحيح لغيره

في عمله بأن عمل عمل إتقان وإحسان متجنبا للغش وافيا بحق الصنعة غير ملتفت إلى مقدار الأجر وبذلك يحصل الخير والبركة وبنقيضه الشر والوبال وفيه أن عمل اليد بالاحتراف أفضل من التجارة والزراعة وقد مر أنه الذي عليه النووي"فيض القدير (٣/ ٤٧٦)

[1934] - صحيح البخاري (٤/ ٢٣)(٢٨٢٣) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٩)٥٠ - (٢٧٠٦)

[ش (العجز) عدم القدرة على الخير وقيل هو ترك ما يجب فعله والتسويف به وكلاهما تستحب الإعاذة منه (والجبن والبخل) أما استعاذته ﷺ من الجبن والبخل فلما فيهما من التقصير عن أداء الواجبات والقيام بحقوق الله تعالى وإزالته المنكر والإغلاظ على العصاة ولأنه بشجاعة النفس وقوتها المعتدلة تتم العبادات ويقوم بنصر المظلوم والجهاد وبالسلامة من البخل يقوم بحقوق المال وينبعث للإنفاق والجود ولمكارم الأخلاق ويمتنع من الطمع فيما ليس له][ش (الهرم) كبر السن الذي يؤدي إلى ضعف القوى والأعضاء.(فتنة المحيا والممات) الاشتغال بزخرف الدنيا عن الآخرة وفتنة الممات سوء الخاتمة عند الموت]

وعن ابنِ عباسٍ قالَ:كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَمشي مشياً يُعرفُ فيه أنَّه ليسَ بعاجزٍ ولا كَســلان ﷺ .[1935]

وعن أَبِي مَرْيَمَ الْأَزْدِيِّ،أَخْبَرَهُ قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَ:مَا أَنْعَمَنَا بِكَ أَبَا فُلَــانٍ – وَهِــيَ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ – فَقُلْتُ:حَدِيثًا سَمِعْتُهُ أُخْبِرُكَ بِهِ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ،وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ،احْتَجَبَ اللَّـهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ،وَفَقْرِهِ» قَــالَ:فَجَعَــلَ رَجُلًــا عَلَــى حَــوَائِجِ النَّــاسِ".رواه أبــو داودَ،والترمذي[1936]

[1935] – المخلصيات (٣/ ٣٠١)(٢٥٦٤– (٥٩) والصحيحة (٢١٤٠) وصحيح الجامع (٥٠١٦) حسن لغيره

يعرف فيه) أي به (أنه ليس بعاجز ولا كسلان) فكان إذا مشى فكأنما الأرض تطوى له كما في حديث الترمذي ومع سرعة مشيه كان على غاية من الهون والتأني وعدم العجلة فكان يمشي على هينته ويقطع ما يقطع بالجهد بغير جهد ولهذا قال أبو هريرة إنا كنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث"فيض القدير (٥/ ٢٤٨)

[1936] – سنن أبي داود (٣/ ١٣٥)(٢٩٤٨) وسنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٦١١)(١٣٣٢) صحيح

أَيِ امْتَنَعَ مِنَ الْخُرُوجِ،أَوْ مِنَ الْإِمْضَاءِ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ (وَخَلَّتِهِمْ)؛بِفَتْحِ خَاءٍ مُعْجَمَةٍ فَلَامٍ مُشَدَّدَةٍ؛أَيْ وَعَرْضِ شِكَايَتِهِمْ عَلَيْهِ (وَفَقْرِهِمْ)؛أَيْ وَمَسْكَنَتِهِمْ وَمُسَائِلَتِهِمْ لَدَيْهِ؛يَعْنِي احْتِقَارًا بِهِمْ وَعَدَمَ مُبَالَاةٍ بِشَأْنِهِمْ (" «احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ»)؛أَيْ أَبْعَدَهُ وَمَنَعَهُ عَمَّا يَبْتَغِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ،أَوِ الدُّنْيَوِيَّةِ،فَلَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى حَاجَةٍ مِنْ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ،وَيُؤَيِّدُهُ مَارَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ:عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا " «مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يَنْظُرَ فِي حَوَائِجِهِمْ» " قَالَ الْقَاضِي:الْمُرَادُ بِاحْتِجَابِ الْوَالِي؛أَنْ يَمْنَعَ أَرْبَابَ الْحَوَائِجِ وَالْمُهِمَّاتِ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِ فَيَعْرِضُوهَا لَهُ؛وَيَعْسُرَ عَلَيْهِمْ إِنْهَاؤُهَا،وَاحْتِجَابُ اللَّهِ تَعَالَى؛أَنْ لَا يُجِيبَ دَعْوَتَهُ وَيُخَيِّبَ أَمَالَهُ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَاجَةِ وَالْخَلَّةِ وَالْفَقْرِ أَنَّ الْحَاجَةَ مَا يُهْتَمُّ بِهِ الْإِنْسَانُ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ حَدَّ الضَّرُورَةِ،بِحَيْثُ لَوْ لَمْ يَحْصُلْ لَاخْتَلَّ بِهِ أَمْرُهُ،وَالْخَلَّةُ مَا كَانَ كَذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْخَلَلِ،وَلَكِنْ رُبَّمَا لَمْ يَبْلُغْ حَدَّ الِاضْطِرَارِ،بِحَيْثُ لَوْ لَمْ يُوجَدْ لَامْتَنَعَ التَّعَيُّشُ،وَالْفَقْرُ هُوَ الْإِضْطِرَارُ إِلَى مَا لَا يُمْكِنُ التَّعَيُّشُ دُونَهُ،مَأْخُوذٌ مِنَ الْفَقَارِ كَأَنَّهُ كَسَرَ فَقَارَهُ،وَلِذَلِكَ فُسِّرَ الْفَقِيرُ بِالَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ أَصْلًا،وَاسْتَعَاذَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– مِنَ الْفَقْرِ اهـــ.وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ؛وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا لِلتَّأْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ،وَقَالَ الْمُظْهِرُ:يَعْنِي مَنِ احْتَجَبَ دُونَ حَاجَةِ النَّاسِ وَخَلَّتِهِمْ فَعَلَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا فَعَلَ بِالْمُسْلِمِينَ،قَالَ الطِّيبِيُّ:وَلَعَلَّ هَذَا الْوَجْهَ أَعْنِي التَّقْيِيدَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ أَرْجَحُ؛لِأَنَّ التَّرَقِّيَ فِي قَوْلِهِ:حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ،فِي شَأْنِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ،يُؤْذِنُ بِسَدِّ بَابِ فَوْزِهِمْ بِمَطَالِبِهِمْ وَنَجَاحِ حَوَائِجِهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَيْسَ إِلَّا فِي الْعُقْبَى وَنَحْوِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥] تَغْلِيظًا عَلَيْهِمْ وَتَشْدِيدًا،وَلَمَّا كَانَ جَزَاءُ الْمُقْسِطِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَكُونُوا عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ؛كَانَ جَزَاءُ الْقَاسِطِينَ الْبُعْدَ وَالْاحْتِجَابَ عَنْهُمْ وَالْإِقْنَاطَ عَنْ مَبَاغِيهِمْ،وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الَّذِي يَلِيهِ؛أَفْقَرَ مَا يَكُونُ (فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ)؛أَيْ عَلَى تَبْلِيغِهَا،أَوْ عَلَى قَضَائِهَا " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٢٣)

وعَنْ مُعَاذ قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ شَيْئًا فَاحْتَجَبَ عَنْ أُولِي الضَّعَفَةِ وَالْحَاجَةِ احْتَجَبَ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " رواه أحمد[1937] .

وعَنْ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ،قَالَ:بَلَغَ عُمَرَ أَنَّ سَعْدًا لَمَّا بَنَى الْقَصْرَ،قَالَ:انْقَطَعَ الصُّوَيْتُ،فَبَعَثَ إِلَيْهِ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ،فَلَمَّا قَدِمَ أَخْرَجَ زَنْدَهُ،وَأَوْرَى نَارَهُ،وَابْتَاعَ حَطَبًا بِدِرْهَمٍ،وَقِيلَ لِسَعْدٍ:إِنَّ رَجُلًا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا.فَقَالَ:ذَاكَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ.فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَحَلَفَ بِاللهِ مَا قَالَهُ،فَقَالَ:نُؤَدِّي عَنْكَ الَّذِي تَقُولُهُ،وَنَفْعَلُ مَا أُمِرْنَا بِهِ.فَأَحْرَقَ الْبَابَ،ثُمَّ أَقْبَلَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَوِّدَهُ فَأَبَى،فَخَرَجَ فَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ،فَهَجَّرَ إِلَيْهِ،فَسَارَ ذَهَابَهُ وَرُجُوعَهُ تِسْعَ عَشْرَةَ،فَقَالَ:لَوْلَا حُسْنُ الظَّنِّ بِكَ لَرَأَيْنَا أَنَّكَ لَمْ تُؤَدِّ عَنَّا.قَالَ:بَلَى،أَرْسَلَ يَقْرَأُ السَّلَامَ،وَيَعْتَذِرُ،وَيَحْلِفُ بِاللهِ مَا قَالَهُ.قَالَ:فَهَلْ زَوَّدَكَ شَيْئًا؟ قَالَ:لَا،قَالَ :فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تُزَوِّدَنِي أَنْتَ؟ قَالَ:إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ آمُرَ لَكَ فَيَكُونَ لَكَ الْبَارِدُ،وَيَكُونَ لِي الْحَارُّ،وَحَوْلِي أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَدْ قَتَلَهُمُ الْجُوعُ،وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:" لَا يَشْبَعُ الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ ".رواه أحمد[1938] .

وعَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،كَانَ إِذَا بَعَثَ عُمَّالَهُ شَرَطَ عَلَيْهِمْ:«أَلَّا تَرْكَبُوا بِرْذَوْنًا،وَلَا تَأْكُلُوا نَقِيًّا،وَلَا تَلْبَسُوا رَقِيقًا،وَلَا تُغلقُوا أَبْوَابَكُمْ دُونَ حَوَائِجِ النَّاسِ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّتْ بِكُمُ الْعُقُوبَةُ»،قَالَ:ثُمَّ شَيَّعَهُمْ،فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ قَالَ:«إِنِّي لَمْ أُسَلِّطْكُمْ عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا عَلَى أَعْرَاضِهِمْ،وَلَا عَلَى أَمْوَالِهِمْ،وَلَكِنِّي بَعَثْتُكُمْ لِتُقِيمُوا بِهِمُ الصَّلَاةَ،وَتَقْسِمُوا فَيْئَهُمْ،وَتَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ،فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ،فَارْفَعُوهُ إِلَيَّ،أَلَا فَلَا تَضْرِبُوا الْعَرَبَ فَتُذِلُّوهَا،وَلَا تُجَمِّرُوهَا فَتَفْتِنُوهَا،وَلَا تَعْتَلُّوا عَلَيْهَا فَتَحْرِمُوهَا،جَرِّدُوا الْقُرْآنَ،وَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،انْطَلِقُوا وَأَنَا شَرِيكُكُمْ» رواه عبد الرزاق في مصنفه[1939] .

وعَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،كَانَ إِذَا بَعَثَ عُمَّالًا اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ:" أَلَا تَرْكَبُوا بِرْذَوْنًا،وَلَا تَأْكُلُوا نَقِيًّا،وَلَا تَلْبَسُوا رَقِيقًا،وَلَا تُغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ دُونَ حَوَائِجِ النَّاسِ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّتْ بِكُمُ الْعُقُوبَةُ،ثُمَّ يُشَيِّعُهُمْ "،فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ قَالَ:" إِنِّي لَمْ أُسَلِّطْكُمْ

[1937] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٣٩٤)(٢٢٠٧٦) صحيح لغيره

[1938] - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٤٤٨)(٣٩٠) فيه انقطاع

[1939] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٢٤)(٢٠٦٦٢) صحيح مرسل

عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا عَلَى أَبْشَارِهِمْ،وَلَا عَلَى أَعْرَاضِهِمْ،وَلَا عَلَى أَمْــوَالِهِمْ،وَلَكِنِّي بَعَثْــتُكُمْ لِتُقِيمُوا فِيهِمُ الصَّلَاةَ،وَتَقْتَسِمُوا فِيهِمْ فَيْئَهُمْ،وَتَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ،فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ شَــيْءٌ فَارْفَعُوهُ إِلَيَّ،أَلَا وَلَا تَضْرِبُوا الْعَرَبَ فَتُذِلُّوهَا،وَلَا تَحْمَدُوهَا فَتَفْتِنُوهَا،وَلَا تُقْبِلُوا عَلَيْهَا فَتُحْرَمُوهَــا فَيَرُدُّوا الْقُرْآنَ "[1940]

وعَنِ عُمَرَ بْنِ مُجَاشِعٍ.قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:الْقُوَّةُ فِي الْعَمَلِ أَلا تُــؤَخِّرَ عَمَــلَ الْيَــوْمِ لِغَدٍ،وَالأَمَانَةُ أَلا تُخَالِفَ سَرِيرَةٌ عَلانِيَةً،وَاتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،فَإِنَّمَا التَّقْوَى بِالتَّوَقِّي،وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَقِهْ.[1941]

وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ أَلَّــا تُؤَخِّرُوا عَمَلَ الْيَوْمِ لِغَدٍ؛فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ تَدَارَكَتْ عَلَيْكُمْ حَتَّى لَا تَدْرُوا بِأَيِّهَا تَأْخُذُونَ مَا أَضَعْتُمْ،أَلَا وَإِنَّ الْعَمْيَاءَ أَوِ الْعَضْبَاءَ وَالرَّدِيَّةَ إِلَى الْأَمِيرِ مَا أَدَّى الْأَمِيرُ إِلَى اللَّهِ،فَإِذَا رَتَــعَ الْــأَمِيرُ رَتَعُوا،وَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِمْ،وَلَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يُدْرِكَنِي بِأَيِّهَا ضَغَائِنُ مَحْمُولَــةٌ،وَأَهْوَاءٌ مُتَّبَعَةٌ،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ،فَأَقِيمُوا الْحَقَّ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ "[1942]

وعَنِ الضَّحَّاكِ،قَالَ :كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي مُوسَى :أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَــلِ أَنْ لاَ تُؤَخِّرُوا عَمَلَ الْيَوْمِ لِغَدٍ فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ تَدَارَكَتْ عَلَيْكُمُ الأَعْمَالُ فَلَمْ تَــدْرُوا أَيُّهَــا

[1940] - شعب الإيمان (٩/ ٤٩٤)(٧٠٠٩) صحيح مرسل

كَانَ إِذَا بَعَثَ عُمَّالَهُ) بِضَمٍّ عَيْنٍ وَتَشْدِيدِ مِيمٍ جَمْعُ عَامِلٍ؛أَيْ حُكَّامَهُ (شَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا تَرْكَبُوا) بِالْخِطَابِ حِكَايَةً لِلَفْظِهِ (بِرْذَوْنًا) بِكَسْرٍ مُوَحَّدَةٍ وَسُكُونِ رَاءٍ وَفَتْحِ ذَالٍ مُعْجَمَةٍ؛أَيْ خَيْلًا تُرْكِيًّا فِي الْمُغْرِبِ،الْبِرْذَوْنُ التُّرْكِيُّ مِنَ الْخَيْلِ،وَالْجَمْعُ بَرَاذِينُ،وَخِلَافُهَا الْعِرَابُ وَالْأُنْثَى بِرْذَوْنَةٌ،قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:إِذَا جَعَلَ الْعِلَّةَ لِلنَّهْيِ عَنْ رُكُوبِ الْخُيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرَ؛كَانَ النَّهْيُ عَنِ الْعِرَابِ أَحْرَى وَأَوْلَى،وَقَالَ الرَّاغِبُ:الْخُيَلَاءُ وَالتَّكَبُّرُ عَنْ تَخَيُّلِ فَضِيلَةٍ تَرَاءَتْ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ،وَمِنْهَا تَئُولُ لَفْظُ الْخَيْلِ لِمَا قِيلَ:إِنَّهُ لَا يَرْكَبُ أَحَدٌ فَرَسًا إِلَّا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ نَخْوَةً،(وَلَا تَأْكُلُوا نَقِيًّا وَهُوَ مَا نُخِلَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى،وَلَا تَلْبَسُوا رَقِيقًا،وَلَا تُغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ دُونَ حَوَائِجِ النَّاسِ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّتْ بِكُمُ الْعُقُوبَةُ؛أَيْ فِي الدُّنْيَا،أَوِ الْعُقْبَى،قَالَ الطِّيبِيُّ:فَالنَّهْيُ عَنْ رُكُوبِ الْبِرْذَوْنِ؛نَهْيٌ عَنِ التَّكَبُّرِ،وَعَنْ أَكْلِ النَّقِيِّ وَلُبْسِ الرَّقِيقِ؛نَهْيٌ عَنِ التَّنَعُّمِ وَالسَّرَفِ،وَالنَّهْيُ عَنِ الِاحْتِجَابِ؛نَهْيٌ عَنْ تَقَاعُدِهِمْ عَنْ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ وَالِاشْتِغَالِ عَنْهُمْ بِخُوَيْصَّةِ نَفْسِهِ،(ثُمَّ يُشَيِّعُهُمْ) بِتَشْدِيدِ التَّحْتِيَّةِ الْمَكْسُورَةِ؛وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى (شَرَطَ)،وَالْمُشَايَعَةُ مُسْتَحَبَّةٌ؛لِمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«مَشَى مَعَ الْغُزَاةِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- إِلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ حِينَ وَجَّهَهُمْ،ثُمَّ قَالَ:انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ أَعِنْهُمْ» .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٢٥)

[1941] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢١٣) فيه الواقدي

[1942] - تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٧٠) صحيح مرسل

تَأْخُذُونَ فَأَضَعْتُمْ،فَإِذَا خُيِّرْتُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ فَاخْتَارُوا أَمْرَ الآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا،فَإِنَّ الدُّنْيَا تَفْنَى،وَإِنَّ الآخِرَةَ تَبْقَى،كُونُوا مِنَ اللهِ عَلَى وَجَلٍ وَتَعَلَّمُوا كِتَابَ اللهِ فَإِنَّهُ يَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَرَبِيعُ الْقُلُوبِ.رواه ابن أبي شيبة.[١٩٤٣]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:" إِنَّ النَّاسَ يُؤَدُّونَ إِلَى الْإِمَامِ مَا أَدَّى الْإِمَامُ إِلَى اللهِ ،وَإِنَّ الْإِمَامَ إِذَا رَتَعَ رَتَعَتِ الرَّعِيَّةُ ،وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ نُفْرَةٌ عَنْ سُلْطَانِهِمْ ،وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يُدْرِكَنِي وَإِيَّاكُمْ ضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ ،وَأَهْوَاءٌ مُتَّبَعَةٌ ،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ ،فَأَقِيمُوا الْحَقَّ ،وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ "[١٩٤٤]

وعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ:أَنَّ عُمَرَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى:«أَنْ لَا تُؤَخِّرَ عَمَلَ الْيَوْمِ لِغَدٍ فَتَدَارَكَ عَلَيْكَ الْأَعْمَالُ فَتَضِيعَ،فَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِمْ،أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يُدْرِكَنِي وَإِيَّاكُمْ ضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ،وَأَهْوَاءٌ مُتَّبَعَةٌ»[١٩٤٥]

إن سياسة الحكومة للرعية،وتلبية ضرورات الناس وحاجاقم تقتضي أن تدار أعمال الحكومة،وتساس بنشاط،وجدية،وضبط،ونظام،وطاعة للمسؤلين بالمعروف،ومن الطاعة بالمعروف أن يعمل الموظفون بالأوامر والتعليمات التي تسير الأعمال الإدارية.

ثانيا:الأمانة في الأعمال:

لا يكون الرجل أهلا للعمل والوظيفة حتى يجمع بين الأمانة والعلم بالاختصاص،وقد أخبر الله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال:{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (} [يوسف:٥٥]

اجعلني واليًا على خزائن «مصر»،فإني خازن أمين،ذو علم وبصيرة بما أتولاه.[١٩٤٦]

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ:{إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف:٥٥] إِنِّي حَافِظٌ لِمَا اسْتَوْدَعْتَنِي،عَالِمٌ بِمَا وَلَّيْتَنِي قَالَ:قَدْ فَعَلْتَ"[١٩٤٧]

[١٩٤٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ٣٩٢)(٣٦٤٤٣) ضعيف

[١٩٤٤] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٢٩)(٢٠٤٦١) صحيح مرسل

[١٩٤٥] - الزهد لابن أبي الدنيا (ص:١٦٥)(٣٥٩) صحيح مرسل

[١٩٤٦] - التفسير الميسر (١/ ٢٤٢)

وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ،قَوْلُ مَنْ قَالَ:مَعْنَى ذَلِكَ:إِنِّي حَافِظٌ لِمَا اسْتَوْدَعْتَنِي،عَالِمٌ بِمَا أَوْلَيْتَنِي،لِأَنَّ ذَلِكَ عَقِيبَ قَوْلِه:{اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ} [يوسف:٥٥] وَمَسْأَلَتُهُ الْمَلِكَ اسْتِكْفَاءَهُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ،فَكَانَ إِعْلَامُهُ بِأَنَّ عِنْدَهُ خِبْرَةً فِي ذَلِكَ،وَكِفَايَتَهُ إِيَّاهُ،أَشْبَهَ مِنْ إِعْلَامِهِ حِفْظَهُ الْحِسَابَ وَمَعْرِفَتَهُ بِالْأَلْسُنِ"[١٩٤٨]

فإذا كان العامل أمينا ولكن لاعلم له في العمل الذي أسند إليه،فلن ينجز العمل المناط به،وإذا كان عالما بعمله،و لم يكن تقيا أمينا فقد يخون في عمله ولن ينصح فيه،عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ،لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً» رواه البخاري ومسلم[١٩٤٩]

[١٩٤٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٣/ ٢١٩)

[١٩٤٨] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٣/ ٢١٩)

[١٩٤٩] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٤)(٦٤٩٨) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٧٣)٢٣٢ - (٢٥٤٧)

[ش (راحلة) الجمل النجيب الذي يصلح لسير الأسفار ولحمل الأثقال.ومعنى الحديث يأتي زمان يكون الناس فيه كثيرين ولكن المرضي منهم والذي يلتزم شرع الله عز وجل قليل شأن الإبل الكثيرة التي تبلغ المائة ولا تكاد توجد منها واحدة تصلح للركوب والانتفاع بها.أو المراد أن الناس دائما شأنهم هكذا الصالح فيهم قليل]

قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - جَلَّ جَلَالُهُ:اللَّامُ فِيهِمَا لِلْجِنْسِ،قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:الرِّوَايَةُ فِيهِ عَلَى الثَّبْتِ كَإِبِلٍ مِائَةٍ بِغَيْرِ أَلِفٍ وَلَامٍ فِيهِمَا (" لَا تَكَادُ ") أَيْ:لَا تَقْرُبُ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ خِطَابًا عَامًّا (" تَجِدُ فِيهَا ") أَيْ:فِي مِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ (" رَاحِلَةً ") أَيْ:نَاقَةً شَابَّةً،قَوِيَّةً،مُرْتَاضَةً،تَصْلُحُ لِلرُّكُوبِ،فَكَذَلِكَ لَا تَجِدُ فِي مِائَةٍ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصْلُحُ لِلصُّحْبَةِ،وَحَمْلِ الْمَوَدَّةِ وَرُكُوبِ الْمَحَبَّةِ،فَيُعَاوِنُ صَاحِبَهُ وَيَلِينُ لَهُ جَانِبُهُ،وَهَذَا زُبْدَةُ كَلَامِ الشَّارِحِ الْأَوَّلِ،وَمَنْ تَابَعَهُ مِنْ شُرَّاحِ الْمَصَابِيحِ.وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ:مَعْنَاهُ أَنَّ النَّاسَ فِي أَحْكَامِ الدِّينِ سَوَاءٌ لَا فَضْلَ فِيهَا لِشَرِيفٍ عَلَى مَشْرُوفٍ،وَلَا لِرَفِيعٍ مِنْهُمْ عَلَى وَضِيعٍ،كَإِبِلِ الْمِائَةِ لَا يَكُونُ فِيهَا رَاحِلَةٌ،قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً صِفَةُ الْإِبِلِ،وَالتَّشْبِيهُ مُرَكَّبٌ تَمْثِيلِيٌّ،وَعَلَى الثَّانِي هُوَ وَجْهُ الشَّبَهِ،وَبَيَانٌ لِمُنَاسَبَةِ النَّاسِ لِلْإِبِلِ،قُلْتُ:وَلَا يَخْفَى ظُهُورُ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ،فَتَدَبَّرْ وَتَأَمَّلْ،وَخُلَاصَتُهُ:أَنَّ الْمَرْضِيَّ الْمُنْتَخَبَ مِنَ النَّاسِ الصَّالِحَ لِلصُّحْبَةِ سَهْلُ الِانْقِيَادِ عَسِرٌ وُجُودُهُ،كَالنَّجِيبَةِ الصَّالِحَةِ لِلرُّكُوبِ الَّتِي لَا تُوجَدُ فِي الْإِبِلِ الْكَثِيرَةِ الْقَوِيَّةِ عَلَى الْأَحْمَالِ وَالْأَسْفَارِ،فَذَكَرَ الْمِائَةَ لِلتَّكْثِيرِ لَا لِلتَّحْدِيدِ،فَإِنَّ وُجُودَ الْعَالِمِ الْعَامِلِ الْمُخْلِصِ مِنْ قَبِيلِ الْكِيمْيَاءِ،أَوْ مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الْعَنْقَاءِ،وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الْعُرَفَاءِ:

أَتَمَنَّى عَلَى الزَّمَانِ مُحَالًا ...أَنْ تَرَى مُلْتَقَايَ طَلْعَةَ حُرِّ

وَقَالَ الْآخَرُ:

وَإِذَا صَفَا لَكَ مِنْ زَمَانِكَ وَاحِدٌ ...فَهُوَ الْمُرَادُ وَأَيْنَ ذَاكَ الْوَاحِدُ

وَكَانَ يَقُولُ بَعْضُ أَرْبَابِ الْحَالِ:هَذَا زَمَانُ قَحْطِ الرِّجَالِ،وَرُوِيَ أَنَّ سَهْلًا التُّسْتَرِيَّ خَرَجَ مِنْ مَسْجِدٍ وَرَأَى خَلْقًا كَثِيرًا فِي دَاخِلِهِ وَخَارِجِهِ،فَقَالَ:أَهْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَثِيرٌ،وَالْمُخْلِصُونَ مِنْهُمْ قَلِيلٌ،وَقَدْ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهُ

والراحلة التي يجعل عليها الرحل وتركب،والمعنى ندرة الكامل في صفاته بين الناس الذي يحمل أثقال الناس ويؤدي الأمانة،وقد ذكر البخاري هذا الحديث في باب:رفع الأمانة[1950]،وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله " اجْتِمَاعُ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ،وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ:اللَّهُمَّ أَشْكُو إلَيْك جَلَدَ الْفَاجِرِ،وَعَجْزَ الثِّقَةِ [1951]،فَالْوَاجِبُ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ،الْأَصْلَحُ بِحَسَبِهَا.فَإِذَا تَعَيَّنَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ أَمَانَةً،وَالْآخَرُ أَعْظَمُ قُوَّةً،قُدِّمَ أَنْفَعُهُمَا لِتِلْكَ الْوِلَايَةِ:وَأَقَلُّهُمَا ضَرَرًا فِيهَا،فَيُقَدَّمُ فِي إمَارَةِ الْحَرْبِ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الشُّجَاعُ،وَإِنْ كَانَ فِيهِ فُجُورٌ فِيهَا،عَلَى الرَّجُلِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ،وَإِنْ كَانَ أَمِينًا،كَمَا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:عَنْ الرَّجُلَيْنِ يَكُونَانِ أَمِيرَيْنِ فِي الْغَزْوِ،وَأَحَدُهُمَا قَوِيٌّ فَاجِرٌ وَالْآخَرُ صَالِحٌ ضَعِيفٌ،مَعَ أَيِّهِمَا يَغْزُو؟ فَقَالَ:أَمَّا الْفَاجِرُ الْقَوِيُّ،فَقُوَّتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ،وَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ،وَأَمَّا الصَّالِحُ الضَّعِيفُ فَصَلَاحُهُ،لِنَفْسِهِ،وَضَعْفُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَيُغْزِي مَعَ الْقَوِيِّ الْفَاجِرِ ."[1952].

والخيانة في العمل لها صور كثيرة،ومنها أن يأخذ القاضي أو العامل رشوة أو هدية على عمله،وقد قال تعالى:{أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ}،أي الحرام وهو الرشوة،وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ كُفْرٌ،وَهِيَ بين الناس سُحْتٌ.رواه الطبراني[1953]

وعَنْ مَسْرُوقٍ،قَالَ :الْقَاضِي إذَا أَخَذَ هَدِيَّةً،فَقَدْ أَكَلَ السُّحْتَ،وَإِذَا أَخَذَ الرِّشْوَةَ بَلَغَتْ بِهِ الْكُفْرَ.رواه ابن أبي شيبة في مصنفه[1954]

تَعَالَى:{وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣]،وَمِنْهَا:{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} [ص:٢٤]،وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ:{ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ - وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [الواقعة:١٣ - ١٤]مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٦٠)

[1950] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٤)

[1951] - محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٥٢٢)

[1952] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:٢٠) وحسن السلوك الحافظ دولة الملوك (ص:٩٦)

[1953] - التفسير من سنن سعيد بن منصور - محققا (٤/ ١٤٦٦)(٧٤٠) والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٢٦)(٩١٠٠) صحيح

[1954] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ٢٩٩)(٢٢٣٨٤) صحيح

أَيْ:مُعْطِي الرِّشْوَةِ وَآخِذَهَا،وَهِيَ الْوُصْلَةُ إِلَى الْحَاجَةِ بِالْمُصَانَعَةِ،وَأَصْلُهُ مِنَ الرِّشَاءِ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْمَاءِ،قِيلَ:الرِّشْوَةُ مَا يُعْطَى لِإِبْطَالِ حَقٍّ،أَوْ لِإِحْقَاقِ بَاطِلٍ،أَمَّا إِذَا أَعْطَى لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى حَقٍّ،أَوْ لِيَدْفَعَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ظُلْمًا فَلَا بَأْسَ بِهِ،وَكَذَا الْآخِذُ إِذَا أَخَذَ لِيَسْعَى فِي إِصَابَةِ صَاحِبِ الْحَقِّ فَلَا بَأْسَ بِهِ،لَكِنَّ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ الْقُضَاةِ وَالْوُلَاةِ؛لِأَنَّ السَّعْيَ فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:«لَعَنَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ الرَّاشِـي وَالْمُرْتَشِـي» رواه أبـوداود والترمذي[1955] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:«لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ فِي الحُكْمِ» رواه الترمذي[1956] .

وفي مشكل الآثار :"بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ لَعْنِهِ الرَّائِشَ،أَوِ الرَّاشِـيَ مَعَ لَعْنِهِ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ:" لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّاشِيَ،وَالْمُرْتَشِيَ،وَالرَّائِشَ "

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ،وَالْمُرْتَشِيَ،وَالرَّائِشَ،وَهُوَ الَّذِي يَمْشِـي بَيْنَهُمَا "

فَسَأَلَ سَائِلٌ عَنِ الرَّائِشِ،وَالرَّاشِي الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْحَدِيث مَا هُوَ؟ فَكَانَ جَوَابَنَا لَـهُ فِـي ذَلِكَ:أَنَّهُ الَّذِي يَسْعَى فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ حَتَّى يَتِمَّ بِهِ،كَذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِاللُّغَـةِ فِـي ذَلِـكَ يَقُولُونَ:إِنَّ ذَلِكَ أَخْذٌ مِنَ الرِّيشِ الَّذِي تُتَّخَذُ مِنْهُ السِّهَامُ،وَيُجْعَلُ فِيهَا،وَهِيَ الَّتِي لَا تَقُومُ السِّهَامُ إِلَّا بِهِ،فَجَعَلَ مِثْلَهُ الْمُسَبِّبَ الَّذِي لَا يَقُومُ إِلَّا بِالَّذِي كَانَ مِنْهُ فِيهِ حَتَّى الْتَأَمَ بِهِ.فَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي لَعْنِهِ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ مِمَّا لَا ذِكْرَ لِغَيْرِهِمَا مَعَهُمَا فِيهِ فَعَنْ عَبْـدِ اللهِ بْـنِ عَمْرٍو،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي " ،وَكَانَ مَا فِي هَذَا الْحَدِيث مِـنْ جَمْعِ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي بِاللَّعْنِ فِيهِ مَا قَدْ دَلَّ أَنَّهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ،وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَانَ مِنْـهُ فِيهِ مَا لَا يَحِلُّ لَهُ،فَكَانَ مِنَ الرَّاشِي مَا لَا يَحِلُّ أَنْ يَرْشِيَ فِيهِ،وَكَانَ مِنَ الْمُرْتَشِي مَا لَا يَحِلُّ أَنْ يَرْتَشِيَ مِنْهُ،وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَحَادِيثَ سِوَى هَذَا الْحَـدِيث،فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ:أَخْبَرَتْنِي أُمِّي أُمُّ سَلَمَةَ،مِنْ قَلَقٍ فِيهَا:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ الرَّاشِيَ،وَالْمُرْتَشِيَ فِي الْحُكْمِ " فَدَلَّ ذَلِكَ:أَنَّ جَمْعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ بِاللَّعْنِ فِي هَذَا الْحَـدِيث لَـا يَسْـتَوِي

إِلَى مُسْتَحَقِّهِ،وَدَفْعِ الظَّالِمِ عَنِ الْمَظْلُومِ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ،فَلَا يَجُوزُ لَهُمُ الْأَخْذُ عَلَيْهِ،كَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْمَلَك،وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ كَلَامِ الْخَطَّابِيِّ إِلَّا قَوْلَهُ:وَكَذَا الْآخِذُ،وَهُوَ بِظَاهِرِهِ يُنَافِيهِ الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ مِنَ الْفَصْلِ الثَّالِثِ الْآتِي.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:وَرُوِيَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ أُخِذَ فِي شَيْءٍ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ فَأَعْطَى دِينَارَيْنِ حَتَّى خُلِّيَ سَبِيلُهُ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٣٧)

[1955] - سنن أبي داود (٣/ ٣٠٠)(٣٥٨٠) وسنن ابن ماجه (٢/ ٧٧٥)(٢٣١٣) وسنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٦١٤)(١٣٣٦) صحيح

[1956] - سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٦١٤)(١٣٣٦) صحيح

أُمُورُهُمَا فِيهِ،وَمِمَّا رُوِيَ مِمَّا جُمِعَا فِيهِ مِمَّا لَمْ يُعْلَمْ مَا هُوَ،إِلَّا أَنَّهُ مَعْقُولٌ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمَا عَلَى مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمَا،فعَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ:" لَعْنُ الْآكِلِ،وَالْمُطْعِمِ،سَوَاءٌ فِي الرِّشْوَةِ " وَلَمْ يَدْخُلْ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا – وَاللهُ أَعْلَمُ – مَنْ مُنِعَ حَقًّا فَرَشَا لِيَصِلَ إِلَى حَقِّهِ،فَذَلِكَ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي الذَّمِّ؛لِأَنَّهُ طَلَبَ الْوُصُولَ إِلَى حَقِّهِ،وَآخِذُ الرِّشْوَةِ مِنْهُ الَّتِي لَوْلَا أَخْذُهُ إِيَّاهَا لَمَا وَصَلَ إِلَى حَقِّهِ لِمَنْعِهِ إِيَّاهُ دَاخِلٌ فِي اللَّعْنِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ،وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا قَدْ رُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى،فعَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:" مَا وَجَدْنَا فِي أَيَّامِ زِيَادٍ أَوِ ابْنِ زِيَادٍ شَيْئًا هُوَ أَنْفَعَ مِنَ الرِّشَى ،أَيْ:أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ اسْتِدْفَاعًا لِلشَّرِّ عَنْهُمْ " وَمِمَّا قَدْ رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا مِنَ الْقَصْدِ بِالْمَعْنَى لِلرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي:أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِيمَا هُوَ حَرَامٌ عَلَى الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي جَمِيعًا،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:" لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ فِي الْحُكْمِ " وَاللهُ الْمُوَفِّقُ[1957]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِي فِي النَّارِ»[1958]

وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ،قَالَ:اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ،يُدْعَى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ،فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ،قَالَ:هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ،حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا» ثُمَّ خَطَبَنَا،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى العَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ،فَيَأْتِي فَيَقُولُ:هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي،أَفَلاَ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ،وَاللَّهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ،فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ،أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ،أَوْ شَاةً تَيْعَرُ " ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ،يَقُولُ:«اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» بَصْرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي" متفقٌ عليه[1959]

[1957] - شرح مشكل الآثار (١٤/ ٣٣٢)

[1958] - الدعاء للطبراني (ص:٥٧٩)(٢٠٩٤) صحيح

[1959] - صحيح البخاري (٩/ ٢٨)(٦٩٧٩) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٣)٢٦ - (١٨٣٢)

[ش (فلأعرفن) أي والله لأعرفن.(بصر عيني وسمع أذني) أبصرت عيناي رسول الله ﷺ ناطقا ورافعا يديه وسمعت كلامه.وضبط بصر وسمع بضم الصاد وكسر الميم على أنهما فعلان ماضيان وضبطا بسكون الصاد والميم على أنهما مصدران]

(يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّة) بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُون التَّاءِ،فَوْقَهَا نُقْطَتَان،وَقَدْ تُفْتَحُ نسْبَةً إِلَى بَنِي لُتَب،قَبِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ،وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّه،قَالَ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:هُوَ بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُون التَّاءِ،وَمِنْهُمْ مَنْ فَتَحَهَا،قَالُوا:وَهُوَ خَطَأٌ،وَالصَّوَابُ بِإِسْكَانِهَا،وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْجَامعِ:بِضَمِّ اللَّامِ وَفَتْحِ التَّاءِ وَالْمَعْنَى جَعَلَهُ عَاملًا (عَلَى الصَّدَقَة) وَسَاعِيًا فِي أَخْذهَا (فَلَمَّا قَدمَ) أَيِ الْمَدِينَةَ بَعْدَ رُجُوعِه منَ الْعَمَلِ (قَالَ:هَذَا) إِشَارَةٌ لِبَعْضِ مَا مَعَهُ منَ الْمَالِ (لَكُمْ وَهَذَا) إِشَارَةٌ لِبَعْضٍ آخَرَ (أُهْدِيَ لِي فَخَطَبَ النَّبِيُّ – ﷺ–) أَيِ النَّاسَ لِيُعَلِّمَهُمْ وَلِيُحَذِّرَهُمْ منْ فعْله (فَحَمدَ اللَّهَ) أَيْ شَكَرَهُ شُكْرًا جَزِيلًا (وَأَثْنَى عَلَيْه) أَيْ ثَنَاءً جَمِيلًا (ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ) أَيْ بَعْدَ الْحَمْد وَالثَّنَاءِ (فَإِنِّي أَسْتَعْملُ رِجَالًا منْكُمْ) أَيْ أَجْعَلُهُمْ عُمَّالًا (عَلَى أُمُورٍ ممَّا وَلَّانِي اللَّهُ) أَيْ جَعَلَ حَاكمًا فيه (فَيَأْتِي أَحَدُهُمْ) أَيْ منَ الْعُمَّالِ وَرُوعِيَ فِيهِ الْإِجْمَالُ وَلَمْ يُبَيِّنْ عَيْنَهُ سِتْرًا وَتَكَرُّمًا عَلَيْه (فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذه) أُنِّثَ لِتَأْنِيث الْخَبَرِ وَهِيَ (هَدِيَّةٌ أُهْديَتْ لِي) أَيْ أُعْطِيَتْ لِي،أَوْ أُرْسلَتْ إِلَيَّ هَدِيَّةً (فَهَلَّا جَلَسَ) أَيْ لِمَ لَمْ يَجْلسْ (فِي بَيْت أَبِيه أَوْ بَيْت أُمِّه) أَوْ لِلتَّنْوِيعِ أَوْ لِلشَّكِّ،وَهَذَا تَغْيِيرٌ لِشَأْنه،وَتَحْقِيرٌ لَهُ فِي حَدِّ ذَاته،يَعْنِي أَنَّهُ عَرَضَ لَهُ التَّعْظِيمُ منْ حَيْثُ عَمَله (فَيَنْظُرَ) بِالنَّصْب عَلَى جَوَاب قَوْله فَهَلَّا يَجْلسُ أَيْ فَيَرَى أَوْ يَنْتَظرُ (أَيُهْدَى لَهُ) أَيْ شَيْءٌ فِي بَيْته الْأَصْلِيِّ (أَمْ لَا) لِعَدَمِ الْبَاعث الْعَرَضِيِّ،قَالَ ابْنُ الْمَلَك:يَعْنِي لَا يَجُوزُ لِلْعَاملِ أَنْ يَقْبَلَ هَدِيَّةً لِأَنَّهُ لَا يُعْطِه أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا لِطَمَعِ أَنْ يَتْرُكَ بَعْضَ زَكَاته،وَهَذَا غَيْرُ جَائِز اهـــ.وَيُمْكنُ أَنَّهُ يُعْطَى لِغَيْر هَذَا الْغَرَض أَيْضًا،لَكنْ حَيْثُ إِنَّهُ يُعْطَى منْ حَيْثُ الْعَمَلِ،وَلَهُ أُجْرَةُ الْعَمَلِ منْ هَذَا الْمَالِ،فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ منْ جهَتَيْن،فَهُوَ أَحَدُ الشُّرَكَاءِ،وَمَا أُعْطِي لَهُ يَكُونُ دَاخلًا منْ جُمْلَة الْمَالِ (وَالَّذِي نَفْسِي) أَيْ ذَاتِي أَوْ رُوحِي (بِيَده) أَيْ بِقَبْضَة تَصَرُّفه (لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ) أَيْ خُفْيَةً أَوْ عَلَانيَةً (منْهُ) أَيْ مَال الصَّدَقَة (شَيْئًا) أَيْ أَصَالَةً أَوْ تَبَعًا (إِلَّا جَاءَ به يَوْمَ الْقيَامَة) أَيْ صَارَ سَبَبًا لِمَجيئه (يَحْملُهُ) حَالٌ أَو اسْتئْنَافُ بَيَان (عَلَى رَقَبَته) أَيْ تَشْهِيرًا أَو افْتضَاحًا،قِيلَ فِي الْآيَة {وَهُمْ يَحْملُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ} [الأنعام:٣١] وَأُجِيبُ بِأَنَّ الظُّهُورَ يَشْمَلُ مَا هُوَ قَرِيبٌ منْهَا،أَوْ ذَاكَ فِي أَوْزَار الْكُفَّار،وَهَذَا فِي أَوْزَار الْفُجَّار،لِمَزِيد قُبْحِهَا بِاعْتبَارِ أَنَّ فِيهَا حَقَّ اللَّه،وَحَقَّ عبَاده (إِنْ كَانَ) أَيِ الْمَأْخُوذُ (بَعِيرًا لَهُ) أَيْ لِلْبَعِير (رُغَاءٌ) بِضَمِّ الرَّاء صَوْتٌ لِلْبَعِير،قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ فَلَهُ رُغَاءٌ فَحَذَفَ الْفَاءَ منَ الْجُمْلَة الاسْميَّة،وَهُوَ سَائغٌ لَكنَّهُ غَيْرُ شَائعٍ.اهـــ (أَوْ بَقَرًا لَهُ خُوَارٌ) بِضَمِّ الْمُعْجَمَة صَوْتُ الْبَقَرِ (أَوْ شَاةً) بِالنَّصْب (تَيْعَرُ) بِفَتْحِ التَّاءِ وَسُكُون الْيَاءِ وَكَسْرِ الْعَيْنِ،وَفَتْحهَا أَيْ تَصِيحُ لِيَعْلَمَ أَهْلُ الْعَرَصَات فَيَكُونُ أَشْهَرَ فِي فَضِيحَته وَأَكْثَرَ فِي سَلَامَته (ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْه) أَيْ وَبَالَغَ فِي رَفْعهِمَا (حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبطَيْه) أَيْ بَيَاضَهُمَا،وَالْعُفْرَةُ بِالضَّمِّ بَيَاضٌ لَيْسَ بِخَالص،وَلَكنْ كَلَوْن الْعُفَر بِالتَّحْرِيك،أَي التُّرَاب،أَرَادَ مَنْبَتَ الشَّعْرِ منَ الْإِبطَيْن لِمُخَالَطَة بَيَاضِ الْجلْد سَوَادَ الشَّعْرِ،وَلَا يَخْفَى أَنَّ ذَلكَ إِنَّمَا يَكُونُ عنْدَ نَتْف الشَّعْر،أَوْ حَلْقه،أَوْ بِاعْتبَارِ مَا يُرَى منَ الْبُعْد (ثُمَّ قَالَ:اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ) أَي الْوَعِيدَ أَوْ مَا أَمَرْتَنِي به (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ) كَرَّرَ ذَلكَ تَأْكِيدًا لِلْحُجَّة عَلَيْهِمْ،وَالظَّاهرُ أَنَّ الاسْتفْهَامَ لِلتَّقْرِير،وَقِيلَ هَلْ بِمَعْنَى قَدْ (مُتَّفَقٌ عَلَيْه،قَالَ الْخَطَّابِيُّ:وَفِي قَوْله:هَلَّا جَلَسَ فِي بَيْت أُمِّه أَوْ أَبِيه) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَهُوَ إِمَّا كَذَا فِي رِوَايَته،وَإِمَّا نُقلَ بِالْمَعْنَى،وَلَكنْ مُقْتَضَى الْمَقَامِ تَقْدِيمُ الْأَب فَإِنَّهُ مُشْعرٌ بِزِيَادَة الْإِكْرَامِ،فَيَكُونُ قَوْلُهُ فِي الْحَديث،أَوْ " بَيْت أُمِّه " مَحْمُولًا عَلَى التَّنَزُّلِ أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ لَيْسَ لَهُ أَبٌ مَعْرُوفٌ،فَفِيه تَهْجِينٌ لِحَاله (فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى إِلَيْه) وَهَذَا أَيْضًا تَفْسِيرٌ لَهُ،أَوْ نَقْلٌ مَعْنَوِيٌّ أَوْ رِوَايَةٌ (أَمْ لَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ يُتَذَرَّعُ) بِالذَّال الْمُعْجَمَة عَلَى بِنَاءِ الْمَفْعُول أَيْ يُتَوَسَّلُ (به إِلَى مَحْظُور فَهُوَ مَحْظُورٌ) أَيْ مَمْنُوعٌ وَمُحَرَّمٌ،وَيَدْخُلُ فِي ذَلكَ الْقَرْضُ يَجُرُّ الْمَنْفَعَةَ،وَالدَّارُ الْمَرْهُونَةُ يَسْكُنُهَا الْمُرْتَهنُ بِلَا كرَاءٍ،وَالدَّابَّةُ الْمَرْهُونَةُ يَرْكَبُهَا أَوْ يَرْتَفقُ بِهَا منْ غَيْرِ عِوَضٍ (وَكُلُّ دَخِيلٍ) بِالرَّفْعِ وَقِيلَ بِالنَّصْب أَيْ كُلُّ عَقْد يَدْخُلُ (فِي الْعُقُود) وَيُضَمُّ إِلَى بَعْضهَا (يَنْظُرُ) أَيْ فِيه (هَلْ يَكُونُ حُكْمُهُ عنْدَ الانْفرَاد كَحُكْمه عنْدَ الاقْترَان أَمْ لَا) فَعَلَى الْأَوَّلِ يَصحُّ،وَعَلَى الثَّانِي لَا يَصحُّ كَمَا إِذَا بَاعَ منْ أَحَد مَتَاعًا يُسَاوِي عَشَرَةً بِمائَة لِيُقْرضَهُ أَلْفًا مَثَلًا يَدْفَعُ رِبْحَهُ إِلَى ذَلكَ الثَّمَن،وَمَنْ رَهَنَ دَارًا بِمَبْلَغ كَثِير وَأَجَّرَهُ بِشَيْءٍ قَلِيلٍ فَقَد ارْتَكَبَ مَحْظُورًا،قَالَ الطِّيبِيُّ:وَلَمَّا عَلمَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ– أَنَّ بَعْضَ أُمَّته يَرْتَكبُونَ هَذَا الْمَحْظُورَ بَالَغَ حَيْثُ قَالَ:" اللَّهُمَّ هَلْ

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«الْهَدِيَّةُ إِلَى الْإِمَامِ غُلُولٌ» رواه الطبراني [١٩٦٠]

ومثل الهدية للأمراء محاباتهم في المعاملات كالبيع والشراء،قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَمَا أَخَذَ وُلَاةُ الْأَمْوَالِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلِوَلِيِّ الْأَمْرِ الْعَادِلِ اسْتِخْرَاجُهُ مِنْهُمْ،كَالْهَدَايَا الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بِسَبَبِ الْعَمَلِ....وَكَذَلِكَ مُحَابَاةُ الْوُلَاةِ فِي الْمُعَامَلَةِ مِنَ الْمُبَايَعَةِ،وَالْمُؤَاجَرَةِ وَالْمُضَارَبَةِ،وَالْمُسَاقَاةِ وَالْمُزَارَعَةِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْهَدَايَةِ:وَلِهَذَا شَاطَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مِنْ عُمَّالِهِ مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ وَدِينٌ،لَا يُتَّهَمُ بِخِيَانَةٍ،وَإِنَّمَا شَاطَرَهُمْ لَمَّا كَانُوا خُصُّوا بِهِ لِأَجْلِ الْوِلَايَةِ مِنْ مُحَابَاةٍ وَغَيْرِهَا،وَكَانَ الْأَمْرُ يَقْتَضِي ذَلِكَ؛لِأَنَّهُ كَانَ إِمَامَ عَدْلٍ،يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ،فَلَمَّا تَغَيَّرَ الْإِمَامُ وَالرَّعِيَّةُ،كَانَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ الْوَاجِبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ،وَيَتْرُكَ مَا حَرُمَ عَلَيْهِ،وَلَا يُحَرِّمُ عَلَيْهِ مَا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ.وَقَدْ يُبْتَلَى النَّاسُ مِنَ الْوُلَاةِ بِمَنْ يَمْتَنِعُ مِنَ الْهَدَايَةِ وَنَحْوِهَا؛لِيَتَمَكَّنَ بِذَلِكَ مِنِ اسْتِيفَاءِ الْمَظَالِمِ مِنْهُمْ،وَيَتْرُكَ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ مِنْ قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ فَيَكُونَ مَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ عِوَضًا،عَلَى كَفِّ ظُلْمٍ وَقَضَاءِ حَاجَةٍ

بَلَّغْتُ " مَرَّتَيْنِ (هَكَذَا) أَيْ نَقَلَهُ الْبَغَوِيُّ عَنْهُ (فِي شَرْحِ السُّنَّةِ) وَعَلَيْهِ الْإِمَامُ مَالِكٌ،وَفُرِّعَ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ فِي الْمُوَطَّأِ أَمْثِلَةٌ:مِنْهَا أَنَّ الرَّجُلَ يُعْطِي صَاحِبَهُ الذَّهَبَ الْجَيِّدَ وَيَجْعَلُ مَعَهُ رَدِيئًا،وَيَأْخُذُ مِنْهُ ذَهَبًا مُتَوَسِّطًا مِثْلًا بِمِثْلٍ،فَقَالَ:هَذَا لَا يَصْلُحُ لِأَنَّهُ أَخَذَ فَضْلَ جَيِّدِهِ مِنَ الرَّدِيءِ وَلَوْلَاهُ لَمْ يُبَايِعْهُ.اهـ وَمَا قَالَهُ فِي الْكُلِّيَّةِ الْأُولَى فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِنَا،وَمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ لِأَنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُقَرَّرَةِ أَنَّ لِلْوَسَائِلِ حُكْمُ الْمَقَاصِدِ،فَوَسِيلَةُ الطَّاعَةِ طَاعَةٌ،وَوَسِيلَةُ الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ،وَأَمَّا مَا قَالَهُ مِنَ الْكُلِّيَّةِ الثَّانِيَةِ فَإِنَّمَا يَلِيقُ بِمَذْهَبِ مَنْ مَنَعَ الْحِيَلَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَى الْخُرُوجِ عَنِ الرِّبَا،أَوْ غَيْرِهِ كَمَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمْ،مِمَّنْ يَرَى إِبَاحَةَ الْحِيَلِ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الدَّخِيلِ؛لِأَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ- عَلَّمَ عَامِلَهُ عَلَى خَيْبَرَ،وَقَدْ قَالَ لَهُ:إِنَّهُ يُشْتَرَى صَاعُ تَمْرٍ جَيِّدٍ بِصَاعَيْ رَدِيءٍ حِيلَةٌ تُخْرِجُهُ عَنِ الرِّبَا،وَهِيَ أَنْ يَبِيعَ الرَّدِيءَ بِدَرَاهِمَ وَيَشْتَرِيَ بِهَا الْجَيِّدَ،فَافْهَمْ أَنَّ كُلَّ عَقْدٍ تَوَسَّطَ فِي مُعَامَلَةٍ أَخْرَجَهَا عَنِ الْمُعَامَلَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الرِّبَا جَائِزٌ،هَذَا وَقَدْ حَكَى الْغَزَالِيُّ أَنَّ مَنْ أَعْطَى غَيْرَهُ شَيْئًا وَلَيْسَ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَيَاءَ مِنَ النَّاسِ كَأَنْ سُئِلَ بِحَضْرَتِهِمْ شَيْئًا فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَلَوْ كَانَ وَحْدَهُ لَمْ يُعْطِهِ،الْإِجْمَاعُ عَلَى حُرْمَةِ أَخْذِهِ مِثْلَ هَذَا،لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ مِلْكِهِ لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ مُكْرَهٌ بِسَبَبِ الْحَيَاءِ،فَهُوَ كَالْمُكْرَهِ بِالسَّيْفِ،وَقَالَ غَيْرُهُ:مَنْ أَعْطَى غَيْرَهُ شَيْئًا مُدَارَاةً عَنْ عِرْضِهِ حُكْمُهُ كَذَلِكَ،وَكَذَا مَنْ أَعْطَى حَاكِمًا أَوْ سَاعِيًا أَوْ أَسِيرًا شَيْئًا عَلِمَ الْمُعْطَى مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَا يَحْكُمُ لَهُ بِالْحَقِّ أَوْ لَا يَأْخُذُ مِنْهُ الْحَقَّ إِلَّا إِنْ أَخَذَ شَيْئًا فَفِي كُلِّ هَذِهِ الصُّوَرِ وَمَا أَشْبَهَهَا لَا يَمْلِكُ الْآخِذُ لِقَوْلِهِ - ﷺ- «هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ»،وَلِضَعْفِ دَلَالَةِ الْإِعْطَاءِ عَلَى الْمِلْكِ أَثَّرَ الْقَصْدُ الْمُخْرِجُ لَهُ عَنْ مُقْتَضَاهُ بِخِلَافِ الْعَقْدِ فَإِنَّهُ دَالٌّ قَوِيٌّ عَلَى الْمِلْكِ،فَلَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ قَصْدٌ قَارَنَهُ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ هَاهُنَا صَالِحٌ،وَهُوَ التَّخَلُّصُ عَنِ الرِّبَا،وَفِي تِلْكَ الصُّوَرِ فَاسِدٌ،وَهُوَ أَخْذُ مَالِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ حَقٍّ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٦٩)

[١٩٦٠] - المعجم الأوسط (٧/ ٧٧)(٦٩٠٢) والمعجم الكبير للطبراني (١١/ ١٩٩)(١١٤٨٦) وصحيح الجامع (٧٠٥٤) صحيح

مُبَاحَة،أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ هَذَا،فَإِنَّ الْأَوَّلَ قَدْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِه،وَأَخْسَرُ النَّاسِ صَفْقَةً،مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِه،وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ كَفُّ الظُّلْمِ عَنْهُمْ بِحَسَبِ الْقُدْرَة،وَقَضَاءُ حَوَائِجِهِمْ الَّتِي لَا تَتِمُّ مَصْلَحَةُ النَّاسِ إِلَّا بِهَا،مِنْ تَبْلِيغِ ذِي السُّلْطَانِ حَاجَاتِهِمْ،وَتَعْرِيفِهِ بِأُمُورِهِمْ،وَدَلَالَتِهِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ،وَصَرْفِهِ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ،بِأَنْوَاعِ الطُّرُقِ اللَّطِيفَةِ وَغَيْرِ اللَّطِيفَةِ،كَمَا يَفْعَلُ ذَوُو الْأَغْرَاضِ مِنَ الْكُتَّابِ وَنَحْوِهِمْ فِي أَغْرَاضِهِمْ..فَأَمَّا إِذَا كَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ يَسْتَخْرِجُ مِنَ الْعُمَّالِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَخْتَصَّ بِهِ هُوَ وَذَوُوه،فَلَا يَنْبَغِي إِعَانَةُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا،إِذْ كُلٌّ مِنْهُمَا ظَالِمٌ،كَلِصٍّ سَرَقَ مِنْ لِصٍّ،وَكَالطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَرِئَاسَة."[١٩٦١]

ومن الخيانة في العمل استغلال الوظيفة لسرقة المال العام،أو صرفه في غير مصارفه الشرعية،فعَنْ خَوْلَةَ الأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ،فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ» رواه البخاري[١٩٦٢].

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ،فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ،فَهُوَ غُلُولٌ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْوَدُ،كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ،قَالَ:وَمَا ذَلِكَ؟ قَالَ:سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ،أَلَا مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ،فَمَا أُعْطِيَ مِنْهُ أَخَذَ،وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى»[١٩٦٣]

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ،فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا،فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»،قَالَ:فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ،قَالَ:«وَمَا لَكَ؟» قَالَ:سَمِعْتُكَ

[١٩٦١] – السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:٥٨)

[١٩٦٢] – صحيح البخاري (٤/ ٨٥)(٣١١٨)

(يَتَخَوَّضُونَ):قَالَ الرَّاغِبُ:الْخَوْضُ هُوَ الشُّرُوعُ فِي الْمَاءِ،وَالْمُرُورُ فِيهِ،وَيُسْتَعَارُ فِي الْأُمُورِ،وَأَكْثَرُ مَا وَرَدَ فِيمَا يُذَمُّ الشُّرُوعُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام:٩١] اهـ.وَفِي التَّفَعُّلِ مُبَالَغَةٌ،وَالْمَعْنَى يَشْرَعُونَ وَيَدْخُلُونَ وَيَتَصَرَّفُونَ.(فِي مَالِ اللَّهِ):أَيْ مَا فِي بَيْتِ الْمَالِ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْخَرَاجِ وَالْجِزْيَةِ وَالْغَنِيمَةِ وَغَيْرِهَا،(بِغَيْرِ حَقٍّ):أَيْ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنَ الْإِمَامِ،فَيَأْخُذُونَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ أُجْرَةِ عَمَلِهِمْ وَقَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ (فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ):خَبَرُ (إِنَّ) وَأَدْخَلَ الْفَاءَ؛لِأَنَّ اسْمَهَا نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٣٣)

[١٩٦٣] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٣٩)(٦٥٧) صحيح

تَقُولُ:كَذَا وَكَذَا،قَالَ:«وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ،مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ،فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ،فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ،وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى» رواه مسلم[١٩٦٤].

ومن الخيانة في العمل أن توسد الأعمال إلى غير أهلها لأجل قرابة أو صداقة أو غيرها،وقد قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]

الأمانة كلمة عامة جامعة تشمل أمانة العبد مع ربه،بمعنى أن الله عاهده على الامتثال للأوامر واجتناب النواهي.وأمانته مع الناس بأن يرد ودائعهم ويحفظ حقوقهم،وغيبتهم،وسرهم،ولا يغشهم،ويطيع الله فيهم،وإن كان حاكما فالشعب أمانة في عنقه واجب عليه أن يحكم فيهم بما أنزل الله،وأن يتقى الله فيهم بامتثال أمره والاهتداء بسنة المصطفى فلا يسند أمرا لغير أهله ولا يضيع حقا،ولا يغش مسلما،ولا يقبل رشوة،ولا يأكل أموال الناس بالباطل،ولا يدخر وسعا في السهر على المصلحة،والإرعاء على الخلق،وأن يعامل غيره بما يجب أن يعامله به لو كان محكوما.وإن كان عالما فالواجب عليه أن يرشد الناس إلى الخير،ويهديهم إلى طريق الحق ويوقفهم على أسرار الشرع حتى يتمسكوا بأهداف الدين وإلا اعتبر مقصرا في واجبه إن لم يكن خائنا للأمانة.وأمانته مع نفسه بأداء ما طلب منه.

ألست معى أن الأساس الأول للحكومة الإسلامية هو (الأمانة) بل هي الدعامة لإقامة مجتمع طاهر ونظيف وأمة رشيدة؟

الأساس الثاني (العدل) نعم العدل أساس الملك وأصل من أصول الدين الإسلامى لأنه شريعة ودولة ودين ودنيا،فالعدل واجب على الحكام والولاة حتى تصل الحقوق لأربابها كاملة غير

[١٩٦٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٥)٣٠ - (١٨٣٣)

مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ) أَيْ جَعَلْنَاهُ عَامِلًا (عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا) أَيْ أَخْفَى عَلَيْنَا (مِخْيَطًا) بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْخَاءِ أَيْ إِبْرَةً (فَمَا فَوْقَهُ) أَيْ فَشَيْئًا يَكُونُ فَوْقَهُ فِي الصِّغَرِ أَوِ الْكِبَرِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ " فَمَا فَوْقَهُ " لِلتَّعْقِيبِ عَلَى التَّوَالِي،وَمَا فَوْقَهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الْأَعْلَى أَوِ الْأَدْنَى كَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - {بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [البقرة:٢٦] وَذُكِرَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي بَابِ الزَّكَاةِ اسْتِطْرَادًا لِلْحَدِيثِ السَّابِقِ فِي ذِكْرِ الْعَمَلِ وَالْخِيَانَةِ (كَانَ) أَيْ ذَلِكَ الْكِتْمَانُ (غُلُولًا) بِضَمِّ الْمُعْجَمَةِ أَيْ خِيَانَةً فِي الْغَنِيمَةِ (يَأْتِي بِهِ) أَيْ بِمَا غَلَّ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) تَفْضِيحًا لَهُ،قَالَ - تَعَالَى - {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران:١٦١] (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٧١)

منقوصة،ولذا أمر الله به في كثير من الآيات اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى.[سورة المائدة آية ٨] كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ [سورة النساء آية ١٣٥] .

وإذا كان هذا إرشاد الله ووعظه فنعم شيئا يعظكم به أيها المسلمون،إن الله كان سميعا لكل مظلوم وصاحب حق وأمانة،وبصيرا بكل خائن أو مقصر في واجبه أو متسبب في ضياع الحق بأى شكل ولون.وعلى الشعب بالنسبة للحكام والقادة السمع والطاعة ما داموا قد أدوا الأمانة على خير وجه وحكموا بالعدل بين الناس[1965]

ورد الأمانات لا يقتصر على هذه الحالة،لأن الأمر بذلك عام لكل مسلم في كل أمانة في ذمته،سواء أكانت عامة للأمة،أم خاصة لشخص معين،والأمانة ورعايتها مطلوبة في كل شيء،في النفس،ومال الآخرين،ورد الودائع،وترك الغش في المعاملات،والجهاد والنصيحة،وعدم إفشاء أسرار الناس وعيوبهم،والأمانة في الدين بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.والأمانة في النفس:بألا يفعل الإنسان إلا ما ينفعه في الدين والدنيا والآخرة،وألا يقدم على عمل يضره في آخرته أو دنياه،ويتوقى أسباب المرض،ويعمل بالقواعد الصحية،ولا يعرض نفسه للهلاك،لقوله تعالى:ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة [البقرة:٢/ ١٩٥]

كما أن أداء الأمانات واجب،العدل في القضاء والحكم بين الناس واجب أيضا،حتى يتحقق التناصف،ويأخذ الضعيف أو المظلوم حقه،ولا يبغي القوي على الضعيف،ويسود الأمن والاستقرار والنظام،ونعم الشيء الذي يعظ الله به من أداء الأمانات والحكم بالعدل،والله سميع لكل شيء،بصير بالمرئيات،ويحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم،والتعقيب على أداء الأمانات والعدل بالسمع والبصر أمر حسن،يدفع الإنسان المأمور لفعل ما أمر به.[1966]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[1967]

[1965] - التفسير الواضح (١/ ٣٨٩)

[1966] - التفسير الوسيط للزحيلي (١/ ٣٣٥)

[1967] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٤)(٦٤٩٦)

(" الْأَمَانَةُ ") أَيْ:حِينَ جُعِلَت الْأَمَانَةُ ضَائِعَةً بِالْخِيَانَةِ،أَوْ وُضِعَتْ عِنْدَ غَيْرِ أَرْبَابِ الدِّيَانَةِ (" فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ") أَيْ:فَإِنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِ الْقِيَامَةِ.(قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا) ؟ هَذَا يُؤَيِّدُ النُّسْخَةَ أَيْ:كَيْفَ تَضْيِيعُ الْأَمَانَةِ،وَالْأُمَّةُ قَائِمُونَ بِأَمْرِهَا،وَالْعَامَّةُ مُعْتَنُونَ بِقَدْرِهَا

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ،جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ:مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ،فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ:سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ.وَقَالَ بَعْضُهُمْ:بَــلْ لَمْ يَسْمَعْ،حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ:«أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ:هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»،قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ:«إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَــى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» رواهُ البُخاري[١٩٦٨].

(قَالَ:" إِذَا وُسِّدَ "):بِضَمِّ الْوَاوِ وَتَشْدِيدِ السِّينِ،وَقَدْ تُخَفَّفُ عَلَى مَا فِي الْمُقَدِّمَةِ أَيْ:أُسْنِدَ وَفُوِّضَ (" الْأَمْرُ ") أَيْ:أَمْرُ السُّلْطَةِ أَوِ الْإِمَارَةِ أَوِ الْقَضَاءِ أَوِ الْحُكُومَةِ (" إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ") أَيْ:مِمَّنْ لَمْ يُوجَدْ فِيهِ شَرَائِطُ الِاسْتِحْقَاقِ كَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ،وَالْجَهَلَةِ وَالْفَسَقَةِ،وَالْبَخِيلِ وَالْجَبَانِ،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قُرَشِيًّا وَلَوْ كَانَ مِنْ نَسْلِ سَلَاطِينِ الزَّمَانِ،هَذَا فِي الْخَلِيفَةِ،وَقِسْ عَلَى هَذَا سَائِرَ أُولِي الْأَمْرِ وَالشَّأْنِ وَأَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ مِنَ التَّدْرِيسِ وَالْفَتْوَى وَالْإِمَامَةِ وَالْخَطَابَةِ،وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْتَخِرُ بِهِ الْأَقْرَانُ.

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:مَعْنَاهُ أَنْ يَلِيَ الْأَمْرَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ،فَيُلْقَى لَهُ وِسَادَةُ الْمُلْكِ وَأَرَادَ بِالْأَمْرِ الْخِلَافَةَ،وَمَا يَنْضَمُّ إِلَيْهَا مِنْ قَضَاءٍ وَإِمَارَةٍ وَنَحْوِهَا،وَالتَّوْسِيدُ:أُخِذَ مِنَ الْوِسَادِ،يُقَالُ:وَسَدْتُهُ الشَّيْءَ بِالتَّخْفِيفِ فَتَوَسَّدَهُ،إِذَا جَعَلَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ،وَلَفْظَةُ " إِلَى " فِيهَا إِشْكَالٌ،إِذْ كَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُقَالَ:وُسِّدَ الْأَمْرُ لِغَيْرِ أَهْلِهِ،فَلَعَلَّهُ أَتَى بِهَا لِيَدُلَّ عَلَى إِسْنَادِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ اهــ.

وَفِي الْقَامُوسِ:إِنَّ إِلَى تَأْتِي مُرَادِفَةً لِلَّامِ،نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ} [النمل:٣٣] اهــ.وَيُرِيدُ أَنَّ الْمَعْنَى:وَالْأَمْرُ لَكِ،لَكِنَّ الْأَظْهَرَ أَنْ يُقَالَ:الْأَمْرُ رَاجِعٌ إِلَيْكِ،وَالْأَحْسَنُ فِي الْحَدِيثِ أَنْ يُضَمَّنَ مَعْنَى التَّفْوِيضِ وَالْإِسْنَادِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوَّلًا.(" فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ "):لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُرْبِ قِيَامِهَا،وَإِنَّمَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى دُنُوِّ السَّاعَةِ لِإِفْضَائِهِ إِلَى اخْتِلَالِ الْأَمْرِ،وَعَدَمِ تَمَامِ النِّظَامِ،وَوَهَنِ أُمُورِ الدُّنْيَا،وَضَعْفِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:لِأَنَّ تَغَيُّرَ الْوُلَاةِ وَفَسَادَهُمْ مُسْتَلْزِمٌ لِتَغَيُّرِ الرَّعِيَّةِ،وَقَدْ قِيلَ:النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ.قَالَ الْقَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ:أَخْرَجَ الْجَوَابَيْنِ مُخْرَجَ الِاسْتِئْنَافِ لِلتَّأْكِيدِ،وَلِأَنَّ السُّؤَالَ الْأَوَّلَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ بِجَوَابٍ حَقِيقِيٍّ يُطَابِقُهُ،فَإِنَّ تَأْقِيتَ السَّاعَةِ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ،عَدَلَ عَنِ الْجَوَابِ إِلَى ذِكْرِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَسْئُولِ عَنْهُ دَلَالَةً مِنْ أَمَارَاتِهَا،وَسَلَكَ فِي الْجَوَابِ الثَّانِي مَسْلَكَ الْأَوَّلِ؛لِيَنْتَسِقَ الْكَلَامُ.

قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:كَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ يُكْتَفَى عَنْ جَوَابِ السُّؤَالِ الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ:إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ،وَأَنْ يُؤْتَى فِي السُّؤَالِ الثَّانِي بِمَتَى؛لِيُطَابِقَ الْجَوَابَ،فَزَادَ فِي الْأَوَّلِ:" فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ "؛لِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ:" إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ " لَيْسَ إِبَّانَ السَّاعَةِ،بَلْ مِنْ أَمَارَاتِهَا،فَلَا تَكُونُ إِذَا شَرْطِيَّةً،وَتَأْوِيلُ السُّؤَالِ الثَّانِي:مَتَى تَضِيعُ الْأَمَانَةُ؟ وَكَيْفَ حُصُولُ التَّضْيِيعِ؟ فَقَالَ:إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ،فَأَطْنَبَ فِي الْأَوَّلِ لِإِفَادَةِ مَعْنًى زَائِدٍ،وَاخْتَصَرَ فِي الثَّانِي لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ تَفَنُّنًا اهــ.وَفِيهِ أَنَّهُ يُوهِمُ أَنَّ قَوْلَهُ:فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الْجَوَابِ الثَّانِي،وَالْحَالُ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِهِ،بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْجَوَابَيْنِ،وَلَعَلَّهُ سَقَطَ مِنْ أَصْلِ الطِّيبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٤٢٩)

[١٩٦٨] - صحيح البخاري (١/ ٢١)(٥٩)

[ش (فمضى) استمر.(قضى) انتهى منه.(أراه) أظنه قال هذا.قال في الفتح والشك من محمد بن فليح - أحد رجال السند - ورواه الحسن بن سفيان وغيره عن عثمان بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن فليح ولفظه (أين السائل) و لم يشك.(وسد) أسند.(غير أهله) من ليس كفأ له]

وعَنْ عَيَّاشٍ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ لَمَّا وَلِيَ خُرَاسَانَ قَالَ:دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ حَامِلٍ لِخِصَالِ الْخَيْرِ،فَدُلَّ عَلَى أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،فَلَمَّا جَاءَهُ رَآهُ رَجُلًا فَائِقًا،فَلَمَّا كَلَّمَهُ رَأَى مَخْبَرَتَهُ أَفْضَلَ مِنْ مَرْآتِهِ،قَالَ:وَإِنِّي وَلَّيْتُكَ كَذَا وَكَذَا مِنْ عَمَلِي،فَاسْتَعْفَاهُ،فَأَبَى أَنْ يُعْفِيَهُ،فَقَالَ:أَيُّهَا الْأَمِيرُ،أَلَا أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ حَدَّثَنِيهِ أَبِي أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ:هَاتِهِ،قَالَ:إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ تَوَلَّى عَمَلًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ بِأَهْلٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»،وَأَنَا أَشْهَدُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنِّي لَسْتُ بِأَهْلٍ لِمَا دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ،فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ:مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ حَرَّصْتَنِي عَلَى نَفْسِكَ،وَرَغَّبْتَنَا فِيكَ،فَاخْرُجْ إِلَى عَهْدِكَ فَإِنِّي غَيْرُ

أي إذا ارتفعَت الأمانة،وصار الناس لا يشعرون بالمسؤولية نحو أي حق يتعلق بذمتهم،سواء كان هذا الحق مالاً أو عملاً أو سراً فقد أوشكت تلك الأمة أن تنتهي،ويقضى عليها،فانتظر ساعة نهايتها وزوالها،فإنها قد دنت،أو أوشكت الدنيا على الزوال إذا ارتفعت الأمانة منها." قال:كيف إضاعتها " أي ما هي الأسباب المؤدية إلى إضاعتها وما علامة ذلك " قال:إذا وسدَ الأمر إلى في أهله فانتظر الساعة " أي إذا أسندت الأمور الهامة التي ترتبط بها مصالح المسلمين من إمارة وقضاء وحسبة وشرطة إلى غير أصحاب الكفاءات الشرعية والإدارية والعلمية والفنية وسلمت لغير ذوي الاختصاص فقد ضاعت الأمانة وأوشكت الساعة أن تقوم،لأن الولاية أمانة ومسؤولية لا يمكن أن يؤديها إلاّ من كان عالماً بها ناصحاً فيها،مقدراً لمسؤوليته نحوها،فإذا وليها غير أهلها من الجهلة أو الخونة لم يقوموا بأدائها،فتضيع مصالح الناس،وتنتشر الفوضى،ويعم الظلم،وتتفشى العداوة والبغضاء،فينهار كيان المجتمع،ويؤدي ذلك إلى القضاء على الأمة،وعند ذلك انتظر الساعة،إما ساعة تلك الأمة خاصة إذا كان ضياع الأمانة في نطاقها،أو ساعة العالم كله إذا ارتفعت الأمانة من الدنيا كلها،فإنه - ﷺ - لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ويستفاد من الحديث ما يأتي:أولاً:وجوب العناية بالسائل وطالب العلم،والاهتمام به،وإجابته على سؤاله،كما فعل النبي - ﷺ - حيث قال،" أين السائل " فسأل عنه،واهتم به،وتوجه إليه،وهذا هو واجب العالم،فإن كان السؤال مما يمكن الإجابة عليه أجابه،وإلا أقنعه بكل لطف عن عدم إمكانية الإجابة عن سؤاله،فإن النبي - ﷺ - قد أمر العلماء أن يرحّبوا بطلاب العلم،لأنهم وصية رسول الله - ﷺ - كما جاء في الحديث عن النبي - ﷺ -.

ثانياً:من الأدب أن لا تسأل العالم ما دام مشغولاً بالحديث مع غيرك،فإذا سئل العالم أثناء حديثه مع الغير أخر الإجابة حتى ينتهي من حديثه لئلا تضيع الفائدة،هذا مع الرفق بالسائل إذا أخطأ في سؤاله،لأن الأعرابي قد أخطأ في سؤاله عن الساعة ولكنه - ﷺ - لم يؤاخذه أو يعاتبه على سؤاله هذا،بل أجابه بما يمكن الإجابة عليه،وهو بيان العلامات الدالة عليها،أو الدالة على الساعة الخاصة.ولم يعاتبه أيضاً على سؤاله أثناء حديثه،وإنما اكتفى بتأخير إجابته.ثالثاً:أنه لا حياء في السؤال عن العلم،والإلحاح فيه وتكراره،لزيادة العلم،لأن السائل كرر السؤال بقوله:وكيف إضاعتها.

رابعاً:أن الولايات كلها من قضاء أو إمارة أو شرطة أو غيرها أمانة ومسؤولية يجب إسنادها إلى مستحقيها من ذوي الدين والأمانة والاختصاص،وإلا فسدت البلاد والعباد،وكان ذلك إيذاناً بانهيار الأمة،والقضاء عليها.خامساً:قال الحافظ:فيه إشارة إلى أن العلم سؤال وجواب،ومن ثَمَّ قيل:السؤال نصف العلم.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ١٥٦)

مُعْفِيكَ،فَخَرَجَ ثُمَّ أَقَامَ فِيهِ مَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَ،فَاسْتَأْذَنَهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ،فَقَالَ:أَيُّهَا الْأَمِيرُ،أَلَا أُحَدِّثُكَ بِشَيْءٍ حَدَّثَنِيهِ أَبِي أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ:هَاتِهِ،قَالَ:«مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ،وَمَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْهُ هُجْرًا»،وَقَالَ:أَنَا أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا مَا أَعْفَيْتَنِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ مِنْ عَمَلِكَ،فَأَعْفَاهُ " [١٩٦٩]

ومن الخيانة في العمل،والتعاون على الإثم والعدوان،قبول الشفاعة السيئة التي يترتب عليها تعطيل الحدود أو تقديم الرجل على من هو أولى منه في الوظيفة،أو في إنجاز الإجراءات وإنهاء المعاملات،أو تمكينه من اغتصاب حقوق الآخرين،أو غيرها من المظالم،وقد قال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [المائدة:٢].

وتعاونوا على البر وهو ما تطمئن إليه القلوب وتسكن من كل خير وطلب الشرع الشريف على سبيل الأمر والنهى،ولا تتعاونوا على الإثم وهو ما حاك في الصدر وخفت أن يطلع عليه غيرك من كل ذنب ومعصية لله،ولا تتعاونوا على العدوان على حق الغير،وهذا من جوامع الكلم الشامل لكل معروف ومنكر وكل خير وشر.

فالقرآن يأمرنا بالتعاون على كل ما ينفع الأمة في دينها ودنياها،ولا شك أن هذا مبدأ اجتماعي خير،فالأمم وقد تكاثرت أفرادها وتشعبت اتجاهاتها،وتعددت مصالحها،أصبح لا يؤثر فيها مجهود الفرد مهما كان قويا،بل لا بد من تعاون غيره وتسانده معه،ومن ثم كانت الجمعيات الدينية والتكتل للخير،من أقوى دعائم النجاح والفلاح في هذا العصر.

وقد كان المسلمون في العصر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى تكتل وارتباط لأن الكل مرتبط بعهد الله وميثاقه،أما نحن اليوم ففي أشد الحاجة إلى توحيد الاتجاهات حتى تأتى الدعوة إلى الله بثمرها الطيب،واتقوا الله أيها الناس إن الله شديد العقاب فاحذروه.وإياكم ومخالفة أمره. [١٩٧٠]

[١٩٦٩] - مسند الروياني (١/ ٣٢٦)(٤٩٥) حسن

[١٩٧٠] - التفسير الواضح (١/ ٤٧٦)

وقال تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا } [النساء:٨٥].

مَنْ سَعَى فِي أَمْرٍ،فَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ خَيْرٌ،كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الخَيْرِ،وَمَنْ أَيَّدَكَ وَنَاصَرَكَ فِي القِتَالِ،وَجَعَلَ نَفْسَهُ شَفِيعاً وَسَنَداً لَكَ،كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ نَتَائِجِ الظَّفَرِ فِي الدُّنْيَا،وَالثَّوَابَ فِي الآخِرَةِ.وَمَنْ سَعَى فِي أَمْرٍ فَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ سُوءٌ وَإِثْمٌ وَمَضَرَّةٌ،كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ،وَمَنِ انْضَمَّ إلى أَعْدَائِكَ فَقَاتَلَ مَعَهُمْ،أَوْ خَذَلَ المُسْلِمِينَ فِي قِتَالِهِمْ،كَانَ لَهْ نَصِيبٌ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ،بِمَا يَنَالُهُ مِنَ الخِذْلاَنِ فِي الدُّنْيَا،وَالعِقَابِ فِي الآخِرَةِ،وَهَذِهِ هِيَ الشَّفَاعَةُ السَّيِّئَةُ لأَنَّهَا إِعَانَةٌ عَلَى السُوءِ.وَاللهُ حَفِيظٌ وَشَاهِدٌ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ،وَقَادِرٌ عَلَى فِعْلِ كُلِّ شَيْءٍ يُرِيدُهُ.[١٩٧١]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ،فَقَالُوا:وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ،أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ،وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "متفقٌ عليه[١٩٧٢].

[١٩٧١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٨،بترقيم الشاملة آليا)

[١٩٧٢] - صحيح البخاري (٤/ ١٧٥)(٣٤٧٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥)٨ - (١٦٨٨)

[ش (أهمهم) أحزنهم وأثار اهتمامهم.(شأن..) حالها وأمرها.(المخزومية) نسبة إلى بني مخزوم واسمها فاطمة بنت الأسود وكانت سرقت حليا يوم فتح مكة.(حب) محبوب.(أتشفع في حد) تتوسل أن لا يقام حد فرضه الله تعالى والحد عقوبة مقدرة من المشرع.(الشريف) الذي له شأن في قومه بسبب مال أو نسب أو عشيرة.(الضعيف) من ليس له عشيرة أو وجاهة في قومه.(وايم الله) لفظ من ألفاظ القسم أصلها وأيمن الله فحذفت النون تخفيفا وقد تقطع الهمزة وقد توصل]

(الَّتِي سَرَقَتْ) أَيْ وَكَانَتْ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجْحَدُهُ أَيْضًا وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺبِقَطْعِ يَدِهَا (فَقَالُوا) أَيْ قَوْمُهَا (مَنْ يُكَلِّمُ) أَيْ بِالشَّفَاعَةِ (فِيهَا) أَيْ فِي شَأْنِهَا (رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ الْحُدُودَ تَنْدَرِئُ بِالشَّفَاعَةِ كَمَا أَنَّهَا تَنْدَرِئُ بِالشُّبْهَةِ (فَقَالُوا) وَفِي نُسْخَةٍ فَقَالُوا أَيْ بَعْضٌ مِنْهُمْ (وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) بِكَسْرِ الْحَاءِ أَيْ مَحْبُوبُهُ وَهُوَ بِالرَّفْعِ عَطْفُ بَيَانٍ أَوْ بَدَلٌ مِنْ أُسَامَةَ قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ وَمَنْ عَطْفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ أَيْ لَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ مِنَّا أَحَدٌ لِمَهَابَتِهِ وَلَمَا لَا يَأْخُذُهُ فِي دِينِ اللَّهِ رَأْفَةٌ وَمَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ.اه وَالْأَظْهَرُ أَنَّ (مَنْ) اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ يُعْطِي مَعْنَى النَّفْيِ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ فَالْمَعْنَى:لَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى {فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف:٣٥] قَالَ النَّوَوِيُّ:مَعْنَى يَجْتَرِئُ يَتَجَاسَرُ عَلَيْهِ بِطَرِيقِ الْإِدْلَالِ وَهَذِهِ مَنْقَبَةٌ ظَاهِرَةٌ لِأُسَامَةَ (فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ) أَيْ فَكَلَّمُوا أُسَامَةَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ كُلَّ شَفَاعَةٍ

وعَنْ يَحْيَى بْنِ رَاشِد،قَالَ:جَلَسْنَا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فَخَرَجَ إِلَيْنَا فَجَلَسَ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ،وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ،لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهُ،وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ» رواه أبو داود[١٩٧٣].

حَسَنَة مَقْبُولَةً وَذُهُولًا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا} [النساء:٨٥] (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ) الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ (ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ) أَيْ بَالَغَ فِي خُطْبَتِهِ أَوْ أَظْهَرَ خُطْبَتَهُ وَهُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ الشَّارِحِ أَيْ خَطَبَ (ثُمَّ قَالَ) أَيْ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَتِهِ أَوْ بَعْدَ فَرَاغِ حَمْدِهِ وَثَنَاءِ رَبِّهِ (إِنَّمَا أَهْلَكَ) بِصِيغَةِ الْفَاعِلِ وَفِي نُسْخَةٍ عَلَى بِنَاءِ الْمَفْعُولِ (الَّذِينَ قَبْلَكُمْ) يَحْتَمِلُ كُلَّهُمْ أَوْ بَعْضَهُمْ (أَنَّهُمْ كَانُوا) أَيْ كَوْنُهُمْ إِذَا سَرَقَ إِلَخْ أَوْ مَا أَهْلَكَهُمْ إِلَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا وَالْحَصْرُ ادِّعَائِيٌّ إِذْ كَانَتْ فِيهِمْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا (إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ) أَيِ الْقَوِيُّ (تَرَكُوهُ) أَيْ بِلَا إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ (وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ) أَيِ الْقَطْعَ أَوْ غَيْرَهُ (وَايْمُ اللَّهِ) بِهَمْزَةِ وَصْلٍ وَسُكُونِ يَاءٍ وَضَمِّ مِيمٍ وَبِكَسْرٍ وَبِفَتْحِ هَمْزَةٍ وَيُكْسَرُ فَفِي الْقَامُوسِ:وَايْمُنُ اللَّهِ وَايْمُ اللَّهِ بِكَسْرِ أَوَّلِهِمَا وَايْمُ اللَّهِ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَالْمِيمِ وَهُوَ اسْمٌ وُضِعَ لِلْقَسَمِ وَالتَّقْدِيرُ ايْمُنُ اللَّهِ قَسَمِي،وَفِي النِّهَايَةِ:وَايْمُ اللَّهِ مِنْ أَلْفَاظِ الْقَسَمِ وَفِي هَمْزِهَا الْفَتْحُ وَالْكَسْرُ وَالْقَطْعُ وَالْوَصْلُ وَفِي شَرْحِ الْجَزَرِيَّةِ لِابْنِ الْمُصَنِّفِ:الْأَصْلُ فِيهَا الْكَسْرُ؛لِأَنَّهَا هَمْزَةُ وَصْلٍ لِسُقُوطِهَا،وَإِنَّمَا فُتِحَتْ فِي هَذَا الِاسْمِ؛لِأَنَّهُ نَابَ مَنَابَ حَرْفِ الْقَسَمِ،وَهُوَ الْوَاوُ فَفُتِحَتْ لِفَتْحِهَا وَهُوَ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ مُفْرَدٌ وَعِنْدَ سِيبَوَيْهِ مِنَ الْيُمْنِ بِمَعْنَى الْبَرَكَةِ فَكَأَنَّهُ قَالَ:بَرَكَةُ اللَّهِ قَسَمِي وَذَهَبَ الْكُوفِيُّونَ إِلَى أَنَّهُ جَمْعُ يَمِينٍ وَهَمْزَتُهُ هَمْزَةُ قَطْعٍ وَإِنَّمَا سَقَطَتْ فِي الْوَصْلِ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ وَفِي الْمَشَارِقِ لِعِيَاضٍ وَايْمُ اللَّهِ بِقَطْعِ الْأَلِفِ وَوَصْلِهَا أَصْلُهُ ايْمُنُ فَلَمَّا كَثُرَ فِي كَلَامِهِمْ حَذَفُوا النُّونَ فَقَالُوا:ايْمُ اللَّهِ وَقَالُوا:امُ اللَّهِ وَمُ اللَّهِ.اهـ وَفِيهِ لُغَاتٌ كَثِيرَةٌ ذُكِرَتْ فِي الْقَامُوسِ (لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا) إِنَّمَا ضَرَبَ الْمَثَلَ بِفَاطِمَةَ؛لِأَنَّهَا أَعَزُّ أَهْلِهِ ﷺ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٦٦)

[١٩٧٣] - سنن أبي داود (٣/ ٣٠٥)(٣٥٩٧) صحيح

مَنْ حَالَتْ) مِنَ الْحَيْلُولَةِ أَيْ حَجَبَتْ (شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ) أَيْ عِنْدَهُ وَالْمَعْنَى مَنْ مَنَعَ بِشَفَاعَتِهِ حَدًّا (مِنْ حُدُودِ اللَّهِ) قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ قُدَّامَ حَدٍّ فَيَحْجِزُ عَنِ الْحَدِّ بَعْدَ وُجُوبِهِ عَلَيْهِ بِأَنْ بَلَغَ الْإِمَامَ (فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ) أَيْ خَالَفَ أَمْرَهُ؛لِأَنَّ أَمْرَهُ إِقَامَةُ الْحُدُودِ قَالَ الطِّيبِيُّ:وَإِنَّمَا قَالَ:فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ؛لِأَنَّ حُدُودَ اللَّهِ حِمَاهُ وَمَنِ اسْتَبَاحَ حِمَى اللَّهِ تَعَدَّى طَوْرَهُ وَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ تَعَالَى فِيمَا حَمَا فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ (وَمَنْ خَاصَمَ) أَيْ جَادَلَ أَحَدًا (فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ) أَيْ يَعْلَمُ أَنَّهُ بَاطِلٌ أَوْ يَعْلَمُ نَفْسَهُ أَنَّهُ عَلَى بَاطِلٍ أَوْ يَعْلَمُ أَنَّ خَصْمَهُ عَلَى حَقٍّ أَوْ يَعْلَمُ الْبَاطِلَ أَيْ ضِدَّهُ الَّذِي هُوَ الْحَقُّ وَيُصِرُّ عَلَيْهِ (لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَنْزِعَ) أَيْ يَتْرُكَ وَيَنْتَهِيَ عَنْ مُخَاصَمَتِهِ يُقَالُ:نَزَعَ عَنِ الْأَمْرِ نُزُوعًا إِذَا انْتَهَى عَنْهُ (وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ) أَيْ مِنَ الْمَسَاوِئِ (أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ) بِسُكُونِ الدَّالِ الْمُهْمَلَةِ وَيُفْتَحُ وَالْخَبَالُ بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:الرَّدْغَةُ بِسُكُونِ الدَّالِ وَفَتْحِهَا وَأَهْلُ الْحَدِيثِ يَرْوُونَهُ بِالسُّكُونِ لَا غَيْرُ،وَفِي النِّهَايَةِ جَاءَ تَفْسِيرُهَا فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ وَالرَّدْغَةُ بِسُكُونِ الدَّالِ وَفَتْحِهَا طِينٌ وَوَحْلٌ كَثِيرٌ وَالْخَبَالُ فِي الْأَصْلِ الْفَسَادُ وَيَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَبْدَانِ وَالْعُقُولِ اهـ.قِيلَ:سُمِّيَ بِهِ الصَّدِيدُ؛لِأَنَّهُ مِنَ الْمَوَادِّ الْفَاسِدَةِ وَقِيلَ:الْخَبَالُ مَوْضِعٌ فِي جَهَنَّمَ مِثْلُ الْحِيَاضِ يَجْتَمِعُ فِيهِ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ وَعُصَارَتُهُمْ (حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ) أَيْ مِنْ عُهْدَتِهِ بِاسْتِيفَاءِ عُقُوبَتِهِ أَوْ بِاسْتِدْرَاكِ شَفَاعَتِهِ أَوْ بِاسْتِيفَاءِ مَغْفِرَتِهِ قَالَ الْقَاضِي:وَخُرُوجُهُ مِمَّا قَالَ أَنْ يَتُوبَ عَنْهُ وَيَسْتَحِلَّ مِنَ

ثالثا:منع الاختلاط بين النساء والرجال:

يجب على ولاة الأمر منع الاختلاط بين الرجال والنساء في الدوائر الحكومية وغيرها،فإن الاختلاط من أعظم الأسباب في فشو الفاحشة،والانحطاط الأخلاقي والتفكك الأسري في المجتمع،وقد قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا} [الأحزاب:٥٣]

يَا أَيُّها المُؤمِنُونَ لاَ تَدخُلُوا بُيوتَ النَّبيِّ ﷺ إلاَّ أَنْ تُدْعَوْا إلى طعام تَطْعَمُونَهُ غَيْرَ مُنْتَظِرِينَ إدْرَاكَ نُضْجِه،(أي إذا دُعِيتُم إلى طَعَامٍ في بَيْت رَسُولِ الله فَلا تَدْخُلُوا إلا إذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الطَّعَامَ قَدْ تَمَّ نُضْجُهُ وإعْدَادُهُ) وَلكِنْ إذا دَعَاكُمُ النَّبيُّ إلى الدُّخُول فادخُلوا،فَإِذَا أَكَلْتُمُ الطَّعَامَ فَانصَرِفُوا،وَلا تَمْكُثُوا فيه لتَبَادُل الحَديث،فَذَلكَ اللُبْثُ،بَعْدَ تَنَاوُل الطَّعَام،كَانَ يُؤْذِي النَّبيَّ،وَيُثْقلُ عليه وَعَلى أَهْله،وَلكنَّهُ كَانَ يَسْتَحْيِي مِنْ أَنْ يَقُولَ لَكُمْ ذَلكَ،وَأَنْ يَدْعُوَكُمْ إلى الانْصِرَاف،وَاللهُ الذي يُريدُ أَنْ يُحْسِنَ تَربيتَكم وَتَأديبكُمْ،يُريدُ أَنْ يَقُولَ لَكُمُ الحَقَّ لتَعمَلُوا به،فَإذا طَعِمْتُم في بَيت النَّبيِّ ﷺ فَاخرُجُوا،وَلاَ تَقْعُدُوا لِلْحَديث.وَإذا طَلَبْتُم منْ أَزواجِ النَّبيِّ وَنساءِ المُؤمنينَ شَيئاً تَتَمَتَّعُونَ به،منْ مَاعُون،وَغيره،فَاطْلُبُوهُ منْ وَرَاءِ ستْرٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ.وَذلكَ الدُّخُولُ بَعْدَ الاسْتئذَان،وَعَدَمُ البَقَاءِ بَعْدَ الطَّعَامِ للاسْتِئنَاسِ بِالحَدِيثِ،وَسُؤالُ نِسَاءِ النَّبيِّ المَتَاعَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ..كُلُّ ذَلكَ أَطْهَرُ

الْمَقُولِ فِيهِ،وَقَالَ الْأَشْرَفُ:وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ مَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِثْمِ مَا قَالَ،فَإِذَا خَرَجَ مِنْ إِثْمِهِ أَيْ إِذَا اسْتَوْفَى عُقُوبَةَ إِثْمِهِ لَمْ يُسْكِنْهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ بَلْ يُنْجِيهِ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ،وَيَتْرُكُهُ قَالَ الطِّيبِيُّ:حَتَّى عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْقَاضِي غَايَةُ فِعْلِ الْمُغْتَابِ فَيَكُونُ فِي الدُّنْيَا فَيَجِبُ التَّأْوِيلُ فِي قَوْلِهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ بِسُخْطِهِ وَغَضَبِهِ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ فِي إِسْكَانِهِ رَدْغَةَ الْخَبَالِ وَيُؤَيِّدُهُ الْقَرِينَةُ السَّابِقَةُ وَاللَّاحِقَةُ؛لِأَنَّ النَّزْعَ فِي الْقَرِينَةِ الْأُولَى مُفَسَّرٌ بِتَرْكِ الْخُصُومَةِ الْبَاطِلَةِ وَعَلَى هَذَا فِي الثَّالِثَةِ وَالْحَيْلُولَةُ بِالشَّفَاعَةِ أَعْظَمُهَا؛لِأَنَّهُ مُضَادَّةُ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهَا النَّزْعَ قُلْتُ:لِأَنَّ الْحَيْلُولَةَ لَيْسَتْ مُسْتَمِرَّةً فِي الْعَادَةِ بِخِلَافِ الْبَقِيَّةِ وَيُؤَيِّدُهُ تَقْيِيدُهُ بِحَدٍّ قَالَ:ثُمَّ الِاغْتِيَابُ بِوَضْعِ الْمُسَبَّبِ مَوْضِعَ السَّبَبِ تَصْوِيرٌ لِتَهْجِينِ أَمْرِ الْمُغْتَابِ وَكَأَنَّهُ فِيهَا الْآنَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ اه وَفِيهِ أَنَّ الْغَيْبَةَ أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ وَهُوَ فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَهُوَ بُهْتَانٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ لَا يَكُونُ مُغْتَابًا بَلْ يَكُونُ آتِيًا بِالْبُهْتَانِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٦٧)

لِقُلُوبِ الرِّجَالِ وَقُلُوبِ النِّسَاءِ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ،وَأَبْعَدُ عَنْ الرِّيبِ والشُّكُوكِ،وَلاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤمنينَ أَنْ يَفْعَلُوا فَعْلاً فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ يُؤْذِيهِ وَيُزْعِجُهُ،وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُؤْذُوهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِالتَّزَوُّجِ بِنِسَائِهِ.فَإِيذَاءُ النَّبِيِّ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ لاَ يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إِلاَّ اللهُ تَعَالَى.[١٩٧٤]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ؟ قَالَ:«الحَمْوُ المَوْتُ» متفقٌ عليه[١٩٧٥].

[١٩٧٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

[١٩٧٥] - صحيح البخاري (٧/ ٣٧)(٥٢٣٢) وصحيح مسلم (٤/ ١٧١١)٢٠ - (٢١٧٢)

[ش (إياكم والدخول على النساء) احذروا من الدخول على النساء غير المحارم ومنع الدخول يستلزم منع الخلوة من باب أولى.(أفرأيت الحمو) أخبرني عن دخول الحمو على المرأة والمراد بالحمو أقارب الزوج من غير المحارم كالأخ والعم والخال وأبنائهم.(الحمو الموت) لقاؤه الهلاك لأن دخوله أخطر من دخول الأجنبي وأقرب إلى وقوع الجريمة لأن الناس يتساهلون بخلطة الرجل بزوجة أخيه والخلوة بها فيدخل بدون نكير فيكون الشر منه أكثر والفتنة به أمكن]

إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ) أَيْ عِنْدَ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى طَرِيقِ التَّخْلِيَةِ أَوْ عَلَى وَجْهِ التَّكَشُّفِ (قَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ الْحَمْوَ) بِفَتْحِ الْحَاءِ وَسُكُونِ الْمِيمِ بَعْدَهَا وَاوٌ وَهَمْزٌ قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:" أَيْ أَخْبِرْنِي عَنْ دُخُولِ الْحَمْوِ عَلَيْهِنَّ وَهُوَ بِفَتْحِ الْحَاءِ وَكَسْرِهَا وَسُكُونِ الْمِيمِ وَاحِدُ الْإِحْمَاءِ وَهُمْ أَقَارِبُ الزَّوْجِ غَيْرِ آبَائِهِ وَأَبْنَائِهِ قَالَ الْقَاضِيَ:الْحَمْوُ قَرِيبُ الزَّوْجِ كَابْنِهِ وَأَخِيهِ وَفِيهِ لُغَاتٌ حَمَا كَعَصَا،وَحَمْوٌ عَلَى الْأَصْلِ،وَحَمُوْ بِضَمِّ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْوَاوِ،وَحَمٌ كَأَبٍ وَحَمْ بِالْهَمْزِ وَسُكُونِ الْمِيمِ وَالْجَمْعُ أَحْمَاءُ (قَالَ الْحَمْوُ الْمَوْتُ) أَيْ دُخُولُهُ كَالْمَوْتِ مُهْلِكٌ يَعْنِي الْفَتَاةَ مِنْهُ أَكْثَرَ لِمُسَاهَلَةِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ وَهَذَا عَلَى حَدِّ الْأَسَدِ الْمَوْتُ وَالسُّلْطَانِ النَّارُ أَيْ قُرْبِهِمَا كَالْمَوْتِ وَالنَّارِ أَيْ فَالْحَذَرُ عَنْهُ كَمَا يُحْذَرُ عَنِ الْمَوْتِ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:مَعْنَاهُ فَلْيَمُتْ وَلَا يَفْعَلْ ذَلِكَ أَوْ مَعْنَاهُ خَلْوَةُ الرَّجُلِ مَعَ الْحَمُومَةِ يُؤَدِّي إِلَى زِنَاهَا عَلَى وَجْهِ الْإِحْصَانِ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى الرَّجْمِ،وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:وَهَذِهِ الْوُجُوهُ إِنَّمَا تَصِحُّ إِذَا فُسِّرَ الْحَمْوُّ بِأَخِ الزَّوْجِ وَمَنْ أَشْبَهَهُ مِنْ أَقَارِبِهِ كَعَمِّهِ وَابْنِ أَخِيهِ وَمَنْ فَسَّرَهُ بِأَبِي الزَّوْجِ حَمَلَهُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فَإِنَّ رُؤْيَتَهُ وَهُوَ مَحْرَمٌ إِذَا كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ أَوْ أَوَّلَ الدُّخُولِ بِالْخَلْوَةِ.وَقِيلَ:لَمَّا ذَكَرَ السَّائِلُ لَفْظًا مُجْمَلًا مُحْتَمِلًا لِلْمَحْرَمِ وَغَيْرِهِ رَدَّ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ بِتَعْمِيَةٍ رَدَّ الْمُغْضَبِ الْمُنْكِرِ عَلَيْهِ.قُلْتُ:أَوْ وَقَعَ الْحُكْمُ تَغْلِيبًا أَوْ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ مُسْتَثْنًى شَرْعًا مَعْلُومٌ عِنْدَهُمْ قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:وَالْمُرَادُ بِالْحَمْوِ هُنَا أَقَارِبُ الزَّوْجِ غَيْرِ أَبْنَائِهِ لِأَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الْأَقَارِبِ كَثِيرٌ وَالْفِتْنَةَ مِنْهُمْ أَوْقَعُ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهَا وَالْخَلْوَةِ بِهَا مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ عَلَيْهِمْ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ وَعَادَةُ النَّاسِ هُوَ الْمَوْتُ وَفِي الْعَائِقِ مَعْنَاهُ أَيْ حَمَاهَا الْغَايَةُ فِي الشَّرِّ الْمُسَاهَلَةُ فِيهِ وَتَخَلِّي الْأَخِ بِامْرَأَةِ أَخِيهِ فَهَذَا وَالْفَسَادُ فَشُبِّهَ بِالْمَوْتِ لِأَنَّهُ قُصَارَى كُلِّ بَلَاءٍ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءً عَلَيْهَا أَيْ كَانَ الْمَوْتُ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ الْحَمِ الدَّاخِلِ عَلَيْهَا إِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ،قُلْتْ:وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ قَوْلُ الْعَامَّةِ الْحَمَا حِمًى،قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:فَإِنْ قُلْتَ أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الْإِخْبَارِ وَالدُّعَاءِ؟ قُلْتُ:فِي الْإِخْبَارِ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ وَوَجْهُهُ مُضْمَرٌ أَيِ الْحَمْوُ كَالْمَوْتِ فِي الشَّرِّ وَالضَّرَرِ وَفِي الدُّعَاءِ ادِّعَاءٌ أَنَّ الْحَمْوَ نَوْعَانِ مُتَعَارَفٌ وَهُوَ الْقَرِيبُ وَغَيْرُ مُتَعَارَفٍ وَهُوَ الْمَوْتُ فَطَلَبَ لَهَا غَيْرَ الْمُتَعَارَفِ لَمَّا اسْتَفْتَى الرَّجُلُ عَنِ الْمُتَعَارَفِ مُبَالَغَةً وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ:رَدُّ الْمُغْضَبِ الْمُنْكِرِ عَلَيْهِ أَوْ مَعْنَاهُ خَلْوَةِ الْمَرْأَةِ مَعَ الْحَمْوُ قَدْ تُؤَدِّي إِلَى زِنَاهَا عَلَى وَجْهِ الْإِحْصَانِ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى الرَّجْمِ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢٠٥١)

وعَنْ حَمْزَةَ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ:«اسْتَأْخِرْنَ،فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ» فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ" رواه أبو داود[١٩٧٦] .

وعَنْ عَلِيٍّ،قَالَ:" أَمَا تَغَارُونَ أَنْ تَخْرُجَ نِسَاؤُكُمْ؟ " وَقَالَ هَنَّادٌ فِي حَدِيثِهِ:" أَلَا تَسْتَحْيُونَ أَوْ تَغَارُونَ؟ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ نِسَاءَكُمْ يَخْرُجْنَ فِي الْأَسْوَاقِ يُزَاحِمْنَ الْعُلُوجَ " رواه أحمد[١٩٧٧] .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله " وَمِنْ ذَلِكَ:أَنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَمْنَعَ اخْتِلَاطَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ فِي الْأَسْوَاقِ،وَالْفُرَجِ،وَمَجَامِعِ الرِّجَالِ.قَالَ مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَرَضِيَ عَنْهُ:أَرَى لِلْإِمَامِ أَنْ يَتَقَدَّمَ إلَى الصُّيَّاغِ فِي قُعُودِ النِّسَاءِ إلَيْهِمْ،وَأَرَى أَلَا يَتْرُكَ الْمَرْأَةَ الشَّابَّةَ تَجْلِسُ إلَى الصُّيَّاغِ فَأَمَّا الْمَرْأَةُ الْمُتَجَالَّةُ وَالْخَادِمُ الدُّونُ،الَّتِي لَا تُتَّهَمُ عَلَى الْقُعُودِ،وَلَا يُتَّهَمُ مَنْ تَقْعُدُ عِنْدَهُ:فَإِنِّي لَا أَرَى بِذَلِكَ بَأْسًا،انْتَهَى.

فَالْإِمَامُ مَسْئُولٌ عَنْ ذَلِكَ،وَالْفِتْنَةُ بِهِ عَظِيمَةٌ،قَالَ - ﷺ -:«مَا تَرَكْت بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ» .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ «بَاعِدُوا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ» وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ:أَنَّهُ قَالَ لِلنِّسَاءِ:«لَكُنَّ حَافَّاتُ الطَّرِيقِ» .

[١٩٧٦] - سنن أبي داود (٤/ ٣٦٩)(٥٢٧٢) حسن

(فَاخْتَلَطَ):قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ مُسَبَّبٌ عَنْ مَحْذُوفٍ هُوَ الْمَقُولُ أَيْ يَقُولُ:كَيْتَ وَكَيْتَ فَاخْتَلَطَ (الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ،فَقَالَ لِلنِّسَاءِ):فَالْفَاءُ فِي " فَاخْتَلَطَ " مُسَبَّبٌ عَنْ مَقُولِ يَقُولُ،وَفِي " فَقَالَ " عَنِ اخْتَلَطَ اهـ.وَقَوْلُهُ:(اسْتَأْخِرْنَ):مِنْ بَابِ الِاسْتِفْعَالِ بِمَعْنَى التَّفَعُّلِ،فَالْمَعْنَى تَأَخَّرْنَ عَنْ وَسَطِ الطَّرِيقِ.وَأَبْعِدْنَ عَنْ حَاقِّهَا إِلَى حَافَتِهَا،كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:(فَإِنَّهُ) أَيِ:الشَّأْنَ (لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ):بِضَمِّ الْقَافِ الْأُولَى أَيْ:تَذْهَبْنَ فِي حَاقِّ الطَّرِيقِ،وَالْحَاقُّ بِتَشْدِيدِ الْقَافِ الْوَسَطُ.(عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ) .جَمْعُ حَافَةٍ بِتَخْفِيفِ الْفَاءِ أَيْ:بِأَطْرَافِهَا وَجَوَانِبِهَا.وَفِي النِّهَايَةِ:الْحَافَةُ النَّاحِيَةُ وَعَيْنُهَا وَاوٌ بِدَلِيلِ تَصْغِيرِهَا عَلَى حُوَيْفَةٍ (فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ) أَيْ:بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرِ (تَلْصَقُ):بِفَتْحِ الصَّادِ،أَيْ:تَلْزَقُ (بِالْجِدَارِ):وَتُبَالِغُ فِي لُصُوقِهَا (حَتَّى إِنَّ):بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ (ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ):أَيْ أَحْيَانًا (بِالْجِدَارِ) .رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٨٣)

[١٩٧٧] - مسند أحمد ط الرسالة (٢/ ٣٤٣)(١١١٨) حسن

وَيَجبُ عَلَيْه مَنْعُ النِّسَاءِ منْ الْخُرُوجِ مُتَزَيِّنَات مُتَجَمِّلَات،وَمَنْعُهُنَّ منْ الثِّيَاب الَّتي يَكُنَّ بهَا كَاسيَات عَاريَّات،كَالثِّيَاب الْوَاسعَة وَالرِّقَاق،وَمَنْعُهُنَّ منْ حَديث الرِّجَال،في الطُّرُقَات،وَمَنْعُ الرِّجَال منْ ذَلكَ.وَإنْ رَأَى وَليُّ الْأَمْر أَنْ يُفْسدَ عَلَى الْمَرْأَة – إذَا تَجَمَّلَتْ وَتَزَيَّنَتْ وَخَرَجَتْ – ثيَابَهَا بحبْرٍ وَنَحْوه،فَقَدْ رَخَّصَ في ذَلكَ بَعْضُ الْفُقَهَاء وَأَصَابَ،وَهَذَا منْ أَدْنَى عُقُوبَتهنَّ الْمَاليَّة.

وَلَهُ أَنْ يَحْبسَ الْمَرْأَةَ إذَا أَكْثَرَتْ الْخُرُوجَ منْ مَنْزِلهَا،وَلَا سيَّمَا إذَا خَرَجَتْ مُتَجَمِّلَةً،بَلْ إقْرَارُ النِّسَاءِ عَلَى ذَلكَ إعَانَةٌ لَهُنَّ عَلَى الْإثْم وَالْمَعْصيَة،وَاَللَّهُ سَائلٌ وَليَّ الْأَمْر عَنْ ذَلكَ.

وَقَدْ مَنَعَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب – رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ – النِّسَاءَ منْ الْمَشْيِ في طَريق الرِّجَال،وَالاخْتلَاط بهمْ في الطَّريق.فَعَلَى وَليِّ الْأَمْر أَنْ يَقْتَديَ به في ذَلكَ.

وَقَالَ الْخَلَّالُ في جَامعه ":أَخْبَرَني مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْكَحَّالُ:أَنَّهُ قَالَ لأَبي عَبْد اللَّه:أَرَى الرَّجُلَ السُّوءَ مَعَ الْمَرْأَة؟ قَالَ:صحْ به،وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبيُّ – ﷺ –:«أَنَّ الْمَرْأَةَ إذَا تَطَيَّبَتْ وَخَرَجَتْ منْ بَيْتهَا فَهيَ زَانيَةٌ» .

وَ " يَمْنَعُ الْمَرْأَةَ إذَا أَصَابَتْ بَخُورًا أَنْ تَشْهَدَ عشَاءَ الْآخرَة في الْمَسْجد ".فَقَدْ قَالَ النَّبيُّ – ﷺ –:«الْمَرْأَةُ إذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ» .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكينَ النِّسَاءِ منْ اخْتلَاطهنَّ بالرِّجَال:أَصْلُ كُلِّ بَليَّة وَشَرٍّ،وَهُوَ منْ أَعْظَم أَسْبَاب نُزُول الْعُقُوبَات الْعَامَّة،كَمَا أَنَّهُ منْ أَسْبَاب فَسَاد أُمُور الْعَامَّة وَالْخَاصَّة،وَاخْتلَاطُ الرِّجَال بالنِّسَاءِ سَبَبٌ لكَثْرَة الْفَوَاحش وَالزِّنَا،وَهُوَ منْ أَسْبَاب الْمَوْت الْعَامِّ،وَالطَّوَاعين الْمُتَّصلَة.وَلَمَّا اخْتَلَطَ الْبَغَايَا بعَسْكَر مُوسَى،وَفَشَتْ فيهمْ الْفَاحشَةُ:أَرْسَلَ اللَّهُ إلَيْهمْ الطَّاعُونَ،فَمَاتَ في يَوْمٍ وَاحد سَبْعُونَ أَلْفًا،وَالْقصَّةُ مَشْهُورَةٌ في كُتُب التَّفَاسير.

فَمنْ أَعْظَم أَسْبَاب الْمَوْت الْعَامِّ:كَثْرَةُ الزِّنَا،بسَبَب تَمْكين النِّسَاء منْ اخْتلَاطهنَّ بالرِّجَال،وَالْمَشْيِ بَيْنَهُمْ مُتَبَرِّجَات مُتَجَمِّلَات،وَلَوْ عَلمَ أَوْليَاءُ الْأَمْر مَا في ذَلكَ منْ فَسَاد الدُّنْيَا وَالرَّعيَّة – قَبْلَ الدِّين – لَكَانُوا أَشَدَّ شَيْءٍ مَنْعًا لذَلكَ.[١٩٧٨]

[١٩٧٨] – الطرق الحكمية (ص:٢٣٧)

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ،فَقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ،وَأَعُوذُ بِاللَّه أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ،حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا،إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ،وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا،وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ،إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ،وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ،وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ،إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ،وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا،وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ،وَعَهْدَ رَسُولِهِ،إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ،فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ،وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ،وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ،إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ " رواه ابن ماجه[١٩٧٩]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله " وَقد كَانَ من سنة النَّبِي ﷺ وَسنة خلفائه التَّمْيِيز بَين الرِّجَال وَالنِّسَاء والمتأهلين والعزاب فَكَانَ الْمَنْدُوب فِي الصَّلَاة أَن يكون الرِّجَال فِي مقدم الْمَسْجِد وَالنِّسَاء فِي مؤخره فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا،وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا» [١٩٨٠]

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:رَأَيْتُ الرِّجَالَ عَاقِدِي أُزُرِهِمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَمْثَالَ الصِّبْيَانِ،مِنْ ضِيقِ الْأُزُرِ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الصَّلَاةِ،فَقَالَ قَائِلٌ:" يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ،لَا تَرْفَعْنَ رُءُوسَكُنَّ حَتَّى يَرْفَعَ الرِّجَالُ "[١٩٨١]

وعَنْ أَسْمَاءَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ،مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،فَلَا تَرْفَعْ رَأْسَهَا حَتَّى يَرْفَعَ الرِّجَالُ رُءُوسَهُمْ " قَالَتْ:" وَذَلِكَ أَنَّ أُزُرَهُمْ كَانَتْ قَصِيرَةً،مَخَافَةَ أَنْ تَنْكَشِفَ عَوْرَاتُهُمْ إِذَا سَجَدُوا "[١٩٨٢]

[١٩٧٩] - سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٢)(٤٠١٩) حسن

[ش – (إذا ابتليتم) على بناء المفعول.والجزاء محذوف.أي فلا خير.أو حل بكم من أنواع العذاب الذي يذكر بعده.(وأعوذ بالله ان تدركوهن) جملة معترضة.(لم تظهر الفاحشة) أي الزنا.(بالسنين) أي بالقحط.(منعوا القطر) أي المطر.(عهد الله) هو ماجرى بينهم وبين أهل الحرب.]

[١٩٨٠] - مستخرج أبي عوانة (١/ ٣٧٨)(١٣٦٩) صحيح

[١٩٨١] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٣٣٤)(١٥٥٦٢) صحيح

[١٩٨٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٤٤/ ٥١٤)(٢٦٩٥٠) صحيح لغيره

وَكَانَ إذا سلم لبث هنيهة هُوَ وَالرِّجَال لينصرف النِّسَاء أولا لِئَلَّا يخْتَلط الرِّجَال وَالنِّسَـــاء،فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَخْبَرَتْنِي هِنْدُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْفِرَاسِيَّةُ،أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهَا «أَنَّ النِّسَاءَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّ إِذَا سَلَّمْنَ مِنَ الصَّلَاةِ قُمْنَ وَثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ صَلَّى مَعَهُ مِنَ الرِّجَالِ مَا شَاءَ اللَّهُ،فَإِذَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَامَ الرِّجَالُ».[١٩٨٣]

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،قَالَتْ:كُنَّ النِّسَاءُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «إِذَا سَلَّمَ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ قُمْنَ وَثَبَـــتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ صَلَّى خَلْفَهُ مِنَ الرِّجَالِ،فَإِذَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَامَ الرِّجَالُ».[١٩٨٤]

وَكَذَلِكَ يَوْم الْعِيد كَانَ النِّسَاء يصلين فِي نَاحيَة فَكَانَ إِذا قضى الصَّلَاة خطـــب الرِّجَـــال ثمَّ ذهب فَخَطب النِّسَاء فوعظهن وحثهن على الصَّدَقَة كَمَا ثَبت ذَلِك فِي الصَّحِيح،فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:" بَدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ فِي الْعِيدَيْنِ بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ "،قَالَ:" ثُمَّ خَطَبَ الرِّجَالَ وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى قَوْسٍ "،قَالَ:" ثُمَّ أَتَى النِّسَـــاءَ فَخَطَبَهُنَّ،وَحَـــثَّهُنَّ عَلَـــى الصَّدَقَةِ "،قَالَ:" فَجَعَلْنَ يَطْرَحْنَ الْقِرَطَةَ،وَالْخَوَاتِيمَ،وَالْحُلِيَّ إِلَى بِلَالٍ،قَالَ:وَلَـــمْ يُصَـــلِّ قَبْـــلَ الصَّلَاةِ،وَلَا بَعْدَهَا "[١٩٨٥]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْعِيدِ،فَبَـــدَأَ بِالصَّـــلَاةِ قَبْـــلَ الْخُطْبَةِ،بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ،ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى بِلَالٍ،فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ،وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ،وَوَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ،ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ،فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ،فَقَالَ:«تَصَـــدَّقْنَ،فَإِنَّ أَكْثَـــرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ»،فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْخَـــدَّيْنِ،فَقَالَتْ:لِـــمَ؟ يَـــا رَسُـــولَ اللهِ قَالَ:«لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ،وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ»،قَالَ:فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ،يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ[١٩٨٦]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْبَابَ لِلنِّسَاءِ»،قَالَ نَافِعٌ:فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ ابْنُ عُمَرَ،حَتَّى مَاتَ"[١٩٨٧]

[١٩٨٣] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٥/ ٦١٢)(٢٢٣٣) صحيح

[١٩٨٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٥/ ٦١٣)(٢٢٣٤) صحيح

[١٩٨٥] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٢/ ٢٦٨)(١٤٣٦٩) صحيح

[١٩٨٦] - صحيح مسلم (٢/ ٦٠٣)٤ - (٨٨٥)

[١٩٨٧] - سنن أبي داود (١/ ١٢٦)(٤٦٢) صحيح

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيْسَ لِلنِّسَاءِ وَسَطُ الطَّرِيقِ»[1988]

وَفِي عَنْ حَمْزَةَ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ:«اسْتَأْخِرْنَ،فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ» فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ"[1989]

وعَنْ عَلِيٍّ،قَالَ عَلِيُّ بْنُ حَكِيمٍ فِي حَدِيثِهِ:"أَمَا تَغَارُونَ أَنْ تَخْرُجَ نِسَاؤُكُمْ؟ "وفي رواية " أَلَا تَسْتَحْيُونَ أَوْ تَغَارُونَ؟ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ نِسَاءَكُمْ يَخْرُجْنَ فِي الْأَسْوَاقِ يُزَاحِمْنَ الْعُلُوجَ " رواه أحمد[1990].

يَعْنِي فِي السُّوق،وَكَذَلِكَ لما قدم الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَة كَانَ العزاب يترلون دَارا مَعْرُوفَة لَهُم متميزة عَن دور المتأهلين فَلَا يترل العزب بَين المتأهلين وَهَذَا كُله لِأَن اخْتِلَاط أحد المصنفين بِالْآخرِ سَبَب الْفِتْنَة فالرجال إِذا اختلطوا بالنسَاء كَانَ بِمَنْزِلَة اخْتِلَاط النَّار والحطب وَكَذَلِكَ العزب بَين الآهلين فِيهِ فتْنَة لعدم مَا يمنعهُ فَإِن الْفِتْنَة تكون لوُجُود الْمُقْتَضى وَعدم الْمَانِع" [1991]

رابعا:مراقبة العمال والموظفين ومتابعة أعمالهم ومحاسبتهم:

على الحكومة أن تراقب أعمال الموظفين،وتتابع تنفيذهم للأوامر،فعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،قَالَ:«أَرَأَيْتُمْ إِنِ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خَيْرَ مَنْ أَعْلَمُ،وَأَمَرْتُهُ بِالْعَدْلِ،أَقَضَيْتُ مَا

[1988] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٤١٥)(٥٦٠١) صحيح - قَالَ الشَّيْخُ:«قَوْلُهُ ﷺ:» لَيْسَ لِلنِّسَاءِ وَسَطُ الطَّرِيقِ «لَفْظَةُ إِخْبَارٍ مُرَادُهَا الزَّجْرُ عَنْ شَيْءٍ مُضْمَرٍ فِيهِ،وَهُوَ مُمَاسَّةُ النِّسَاءِ الرِّجَالَ فِي الْمَشْيِ،إِذْ وَسَطُ الطَّرِيقِ الْغَالِبُ عَلَى الرِّجَالِ سُلُوكُهُ،وَالْوَاجِبُ عَلَى النِّسَاءِ أَنْ يَتَخَلَّلْنَ الْجَوَانِبَ حَذَرَ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْ مُمَاسَّتِهِمْ إِيَّاهُنَّ»

[1989] - سنن أبي داود (٤/ ٣٦٩)(٥٢٧٢) حسن

(وَهُوَ خَارِجٌ) أَيِ النَّبِيُّ ﷺ(أَنْ تَحْقُقْنَ) بِسُكُونِ الْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَضَمِّ الْقَافِ الْأُولَى،قَالَ فِي النِّهَايَةِ هُوَ أَنْ يَرْكَبْنَ حُقَّهَا وَهُوَ وَسَطُهَا يُقَالُ سَقَطَ عَلَى حَاقِّ الْقَفَا وَحُقِّهِ انْتَهَى،وَقَالَ الطِّيبِيُّ أَيِ ابْعُدْنَ عَنِ الطَّرِيقِ وَفَاءُ فَاخْتَلَطَ مُسَبَّبٌ عَنْ مَحْذُوفٍ أَيْ يَقُولُ كَيْتَ وَكَيْتَ فَاخْتَلَطُوا فَقَالَ لِلنِّسَاءِ انْتَهَى وَالْمَعْنَى أَنْ لَيْسَ لَهُنَّ أَنْ يَذْهَبْنَ فِي وَسَطِ الطَّرِيقِ (بِحَافَّاتِ) جَمْعُ حَافَّةٍ وَهِيَ النَّاحِيَةُ (ثَوْبَهَا) أَيِ الْمَرْأَةِ (مِنْ لُصُوقِهَا) أَيِ الْمَرْأَةِ (بِهِ) بِالْجِدَارِ" عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٤/ ١٢٧)

[1990] - مسند أحمد ط الرسالة (٢/ ٣٤٣)(١١١٨) حسن

[1991] - الاستقامة (١/ ٣٥٩)

عَلَيَّ؟»،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:«لَا،حَتَّى أَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ،أَعَمِلَ مَا أَمَرْتُهُ أَمْ لَا» رواه عبد الرزاق في مصنفه[1992]

وتحاسب على التقصير والإهمال في العمل والفوضى الإدارية،وعدم الانضباط بالأنظمة والأوامر،وتحاسب على استغلال الوظيفة لاختلاس المال العام،أو أخذ الرشا،أو الهدايا بسبب العمل،أو محاباة الناس لهم في المعاملات كالبيع وغيره بسبب عملهم،أو تقديم غير المستحقين في الوظائف والأعمال،أو غيرها من المخالفات.

ويمكن تخصيص هيئة قضائية شرعية في قضاء المظالم للقضايا المتعلقة بالإدارة والعمل،وتتفرع منها عدة محاكم للفصل في جميع القضايا المتعلقة باختصاصها،وتتلقى دعاوى الناس والموظفين الذين يدعون حقا لهم أو يطالبون برفع ظلم قد وقع عليهم،أو غيرها من الدعاوى التي هي من اختصاص الهيئة.

خامسا:التطوير والإصلاح الإداري:

ينبغي على ولاة الأمر السعي الدائم لتحسين الأعمال الإدارية وتطويرها وإصلاحها بما يحقق أهداف الحكومة الإسلامية وسياساتها،وينظم أعمالها،فإن كل ما يحقق المصالح الشرعية ويقوي دعائم الدولة الإسلامية فهو من الواجبات،والقاعدة الشرعية،" أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب "[1993]

ومن القواعد الشرعية أن " تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة[1994] ".

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[1992] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٢٦)(٢٠٦٦٥) صحيح مرسل

[1993] - أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله (ص:٤٢) وأنوار البروق في أنواع الفروق (٢/ ١٨٦) والعدة في أصول الفقه (٢/ ٤١٩) والقواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه (١٨/ ٣،بترقيم الشاملة آليا) وتلقيح الافهام العلية بشرح القواعد الفقهية (٣/ ١٩)

[1994] - الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص:١٠٤) والأشباه والنظائر للسيوطي (ص:١٢١) والقواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة (١/ ٤٩٣) والمنثور في القواعد (١/ ٣٠٧) والوجيز في إيضاح قواعد الفقة الكلية (ص:٣٤٧) وشرح القواعد الفقهية (ص:٣٠٩)

المبحث الثامن عشر

التعليم والتربية

إن أول ما يجب أن يدعى إليه الناس هو توحيد الله تعالى،وأن يجتهد الولاة بتعليم الناس:كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ،وتزكيتهم وتربيتهم،كما قال تعالى:{مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون } [الأنبياء:٢٥]

فالتَّوْحيدُ قَاعدَةُ العَقيدَةِ مُنْذُ أَنْ بَعَثَ اللهُ الرُّسُلَ إلى النَّاسِ،لا تَبْـديلَ فيهـا،وَلاَ تَحْويـلَ،فَلاَ انْفصَالَ بينَ الأُلُوهيَّةِ والرُّبُوبيَّة،ولا مَجَالَ للشِّرْك في الأُلُوهيَّة ولا في العبَادَة.وكُلُ نَبيٍّ بَعَثَهُ اللهُ كانَ يَدْعُو إلى عبَادَة الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،والفِطْرَةُ شَاهدَةٌ بذَلكَ،والمُشْركُونَ لَهم بُرْهَـانَ لَهُمْ عَلَى مَا يَدَّعُونَ.[1995]

وقال تعالى:{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران:١٦٤]

منْ فَضْلِ الله عَلَى المُؤْمنينَ أنْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً منْ جنْسهِمْ،وَمنْ أَهْلِ بَلَدهمْ وَلُغَـتهِمْ (مَـنْ أَنْفُسِهِمْ)،ليَتَمَكَّنُوا منْ مُخَاطَبَته وَمُجَالَسَته،وَالانْتفَاعِ بصُحْبَته وَسُؤَاله عَمَّا سَيَتَشْكلُ عَلَيْهِمْ في أمُورِ دينهمْ،وَيَتْلُو عَلَيهم القُرآنَ (آيات الله) وَيَأمُرُهُمْ بالمَعْرُوف،وَيَنْهَاهُمْ عَـنِ المُنكَرِ،لتَزْكُـوَ أَنْفُسُهُم،وَتَطْهُرَ منْ أرْجَاسِ الجَاهليَّة،وَيُعَلِّمُهُمُ القُرآنَ (الكتَابَ) وَالسُّنَّةَ (الحكْمَةَ) فَقَدْ كَـانُوا قَبْلَ هَذا الرَّسُولِ في غَيٍّ وَجَهَالَة (ضَلاَلٍ) ظَاهرَيْنِ لكُلِّ أحَد.[1996]

وقال تعالى:{هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة:٢].

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولاً في العَرَبِ الأُمِّيِّينَ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ،وَهُوَ أُميٌّ منْهُمْ.لاَ يَقْـرَأُ وَلاَ يَكْتُبُ،وَقَدْ بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمْ آيات القُرآنِ التي أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَـالَى،ليُطهرَهُمْ مِـنْ خَبَائث العَقَائد وَليعَلِّمَهُم الشَّرَائعَ والأَحْكَامَ،وَحكْمَتَهَا وَأَسْرَارَهَا،وَقَدْ كَانَ هَؤُلاَءِ الأُمِّيونَ،قَبْلَ

[1995] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٥٥،بترقيم الشاملة آليا)

[1996] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٧،بترقيم الشاملة آليا)

إِرْسَالِ النَّبِيِّ إِلِيهِمْ،فِي ضَلاَلٍ بَيِّنٍ عَنْ جَادَّةِ الهُدَى،إِذْ إِنَّ العَرَبَ كَانُوا قَبْلاً عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ،ثُمَّ ابْتَعَدُوا عَنِ التَّوْحِيدِ،وَتَسَرَّبَت الضَّلاَلاَتُ إِلَى عَقِيدَتِهِمْ،فَأَصْبَحُوا مُشْرِكِينَ.[١٩٩٧]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ،قَالَ:كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ،فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ - أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ - فَقُلْنَا:لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ،فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ،فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ،وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ،فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ،فَقُلْتُ :أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ،وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ،وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ،وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ،وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ،قَالَ:«فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ،وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»،وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا،فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» ثُمَّ قَالَ:حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ،إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ،شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ،لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ،وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ،حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ،ووَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ،وَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ،وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ،وَتَصُومَ رَمَضَانَ،وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»،قَالَ:صَدَقْتَ،قَالَ:فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ،وَيُصَدِّقُهُ،قَالَ:فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ،قَالَ:«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ،وَمَلَائِكَتِهِ،وَكُتُبِهِ،وَرُسُلِهِ،وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»،قَالَ:صَدَقْتَ،قَالَ:فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ،قَالَ:«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ،فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»،قَالَ:فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ،قَالَ:«مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ:فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا،قَالَ:«أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا،وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»،قَالَ:ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا،ثُمَّ قَالَ لِي:«يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» رواه مسلم[١٩٩٨].

[١٩٩٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٥٧،بترقيم الشاملة آليا)

[١٩٩٨] - صحيح مسلم (١/ ٣٧)١ - (٨)

وفي صحيح مسلم عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ،فَذَكَرَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ،وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ قَالَ:إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي ثَلَاثَ نَقَرَاتٍ،وَإِنِّي لَا أُرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجَلِي،وَإِنَّ أَقْوَامًا يَأْمُرُونَنِي أَنَّ أَسْتَخْلِفَ،وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعَ دِينَهُ،وَلَا خِلَافَتَهُ،وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ،فَإِنْ عَجِلَ بِي أَمْرٌ،فَالْخِلَافَةُ شُورَى بَيْنَ هَؤُلَاءِ السِّتَّةِ،الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ،وَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَقْوَامًا يَطْعُنُونَ فِي هَذَا الْأَمْرِ،أَنَا ضَرَبْتُهُمْ بِيَدِي هَذِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللهِ،الْكَفَرَةُ الضُّلَّالُ،ثُمَّ إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ،مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ،وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ،حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي،فَقَالَ:«يَا عُمَرُ أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟» وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ،يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ،ثُمَّ قَالَ:اللهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ،وَإِنِّي إِنَّمَا بَعَثْتُهُمْ عَلَيْهِمْ لِيَعْدِلُوا عَلَيْهِمْ،وَلِيُعَلِّمُوا النَّاسَ دِينَهُمْ،وَسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ،وَيَقْسِمُوا فِيهِمْ فَيْئَهُمْ،وَيَرْفَعُوا إِلَيَّ مَا أَشْكَلَ

[ش (أول من قال بالقدر) معناه أول من قال بنفي القدر فابتدع وخالف الصواب الذي عليه أصل الحق ويقال القدر والقدر لغتان مشهورتان واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى (فوفق لنا) معناه جعل وفقا لنا وهو من الموافقة التي هي كالالتحام يقال أتانا لتيفاق الهلال وميفاقه أي حين أهل لا قبله ولا بعده وهي لفظة تدل على صدق الاجتماع والالتئام (فاكتنفته أنا وصاحبي) يعني صرنا في ناحيتيه وكنفا الطائر جناحاه (ويتقفرون العلم) ومعناه يطلبونه ويتبعونه وقيل معناه يجمعونه (وذكر من شأنهم) هذا الكلام من كلام بعض الرواة الذين دون يحيى بن يعمر يعني وذكر ابن يعمر من حال هؤلاء ووصفهم بالفضيلة في العلم والاجتهاد في تحصيله والاعتناء به (وإن الأمر أنف) أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه (ووضع كفيه على فخديه) معناه أن الرجل الداخل وضع كفيه على فخدي نفسه وجلس على هيئة المتعلم (فعجبنا له يسأله ويصدقه) سبب تعجبهم أن هذا خلاف عادة السائل الجاهل إنما هذا كلام خبير بالمسئول عنه و لم يكن في ذلك الوقت من يعلم ذلك غير النبي ﷺ (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه الخ) قال القاضي عياض رحمه الله هذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه (أمارتها) الأمارة والأمار بإثبات الهاء وحذفها هي العلامة (ربتها) في الرواية الأخرى ربها على التذكير وفي الأخرى بعلها وقال يعني السراري ومعنى ربها وربتها سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها (العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) أما العالة فهم الفقراء والعائل الفقير والعيلة الفقر وعال الرجل يعيل عيلة أي افتقر والرعاء ويقال فيهم رعاة ومعناه أن أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهون في البنيان (فلبث مليا) هكذا ضبطناه من غير تاء وفي كثير من الأصول المحققة لبثت بزيادة ياء المتكلم وكلاهما صحيح (مليا) أي وقتا طويلا]

عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ،ثُمَّ إِنَّكُمْ،أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ لَا أَرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ،هَذَا الْبَصَلَ وَالثُّومَ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ فِي الْمَسْجِدِ،أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى الْبَقِيعِ،فَمَنْ أَكَلَهُمَا فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا"[1999]

ويجب على الحكومة أن تعد المعلمين والدعاة الذين يقومون بواجب التبليغ والتعليم والتربية،فقد كان النبي ﷺ يبعث أصحابه رضي الله عنهم لدعوة الناس وتعليمهم فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ:رُبَّمَا قَالَ وَكِيعٌ:عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ مُعَاذًا،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[2000]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيْفِيٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا مَعْبَدٍ،مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ:لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ:«إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ،فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى،فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ،فَإِذَا صَلَّوْا،فَأَخْبِرْهُمْ

[1999] - صحيح مسلم (1/ 396)78 - (567)

[ش (وإن أقواما يأمرونني) معناه إن أستخلف فحسن لأنه استخلف من هو خير مني يعني أبا بكر وإن تركت الاستحلاف فحسن فإن النبي ﷺ لم يستخلف (فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة) معنى شورى يتشاورون فيه ويتفقون على واحد من هؤلاء الستة عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ولم يدخل سعيد بن زيد معهم وإن كان من العشرة لأنه من أقاربه فتورع عن إدخاله كما تورع عن إدخال ابنه عبد الله رضي الله عنهم (ألا تكفيك آية الصيف) معناه الآية التي نزلت في الصيف وهي قوله تعالى يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إلى آخرها (فمن أكلهما فليمتهما طبخا) معناه من أراد أكلهما فليمت رائحتهما بالطبخ وإماتة كل شيء كسر قوته وحدته]

[2000] - صحيح مسلم (1/ 50)29 - (19)

[ش (وكرائم أموالهم) الكرائم جمع كريمة قال صاحب المطالع هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم أو صوف (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) أي أنها مسموعة لا ترد]

أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ،تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ،فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ،وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»[2001]

وعَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ،قَالَ:أَتَانَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ،باليَمَنِ مُعَلِّمًا وَأَمِيرًا،" فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَجُلٍ:تُوُفِّيَ وَتَرَكَ ابْنَتَهُ وَأُخْتَهُ،فَأَعْطَى الابْنَةَ النِّصْفَ وَالأُخْتَ النِّصْفَ " رواه البخاري[2002].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،قَالَ:نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ،فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ،فَيَسْأَلَهُ،وَنَحْنُ نَسْمَعُ،فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ،قَالَ:«صَدَقَ»،قَالَ:فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ:«اللهُ»،قَالَ:فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ:«اللهُ»،قَالَ:فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ،وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ:«اللهُ»،قَالَ:فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ،وَخَلَقَ الْأَرْضَ،وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ،آللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا،وَلَيْلَتِنَا،قَالَ:«صَدَقَ»،قَالَ:فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ،آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا،قَالَ:«صَدَقَ»،قَالَ:فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ،آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا،قَالَ:«صَدَقَ»،قَالَ:فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ،آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا،قَالَ:«صَدَقَ»،قَالَ:ثُمَّ وَلَّى،قَالَ:وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ،لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ،وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ» رواه مسلم[2003]

[2001] - صحيح البخاري (9/ 114)(7371 و7372) وصحيح مسلم (1/ 51)31 - (19)

[2002] - صحيح البخاري (8/ 151)(6734)

[2003] - صحيح مسلم (1/ 41)10 - (12)

[ش (العاقل) لكونه أعرف بكيفية السؤال وآدابه والمهم منه وحسن المراجعة فإن هذه أسباب عظم الانتفاع بالجواب ولأن أهل البادية هم الأعراب ويغلب فيهم الجهل والجفاء والبادية والبدو بمعنى وهو ما عدا الحاضرة والعمران والنسبة إليها بدوي والبداوة الإقامة بالبادية وهي بكسر الباء عند جمهور أهل اللغة (زعم رسولك) قوله زعم وتزعم مع تصديق رسول الله ﷺ إياه دليل على أن زعم ليس مخصوصا بالكذب والقول المشكل فيه بل يكون أيضا في القول المحقق والصدق الذي لا شك فيه (فمن خلق السماء الخ) هذه جملة تدل على أنواع من العلم قال صاحب التحرير هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه فإن سأل أولا عن صانع المخلوقات من هو؟ ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولا للتأكيد وتقرير الأمر لا لافتقاره إليها كما أقسم الله تعالى على أشياء كثيرة]

وعَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ،يَقُولُ:بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسْجِدِ،دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ،فَأَنَاخَهُ فِي المَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ،ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ،فَقُلْنَا:هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ المُتَّكِئُ.فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ:يَا ابْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:«قَدْ أَجَبْتُكَ».فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ:إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ،فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ:«سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» فَقَالَ:أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ،آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ:«اللَّهُمَّ نَعَمْ».قَالَ:أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ،آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ:«اللَّهُمَّ نَعَمْ».قَالَ:أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ،آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ:«اللَّهُمَّ نَعَمْ».قَالَ:أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ،آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اللَّهُمَّ نَعَمْ».فَقَالَ الرَّجُلُ:آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ،وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي،وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ"[٢٠٠٤]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالُوا:أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ،فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ،يُقَالُ لَهُمْ:الْقُرَّاءُ،فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ،وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ،وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ،وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ،وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ،فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ،فَعَرَضُوا لَهُمْ،فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ،فَقَالُوا:اللهُمَّ،بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ،وَرَضِيتَ عَنَّا،قَالَ:وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا،خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ،فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ،فَقَالَ حَرَامٌ:فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:" إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا،وَإِنَّهُمْ قَالُوا:اللهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ،وَرَضِيتَ عَنَّا "[٢٠٠٥].

[٢٠٠٤] - صحيح البخاري (١/ ٢٣)(٦٣)

[ش (فأناخه في المسجد) أبركه في رحبة المسجد.(عقله) ثنى ركبته وشد حبلا على ساقه مع ذراعه.(متكىء) مستو على وطاء وهو ما يجلس عليه.(بين ظهرانيهم) بينهم وربما أدار بعضهم له ظهره وهذا دليل تواضعه ﷺ.(ابن عبد المطلب) يا بن عبد المطلب.(قد أجبتك) سمعتك.(تجد) تغضب.(أنشدك) أسألك.(هذا الشهر) أي رمضان.(الصدقة) أي الزكاة.(رسول) مرسل.(أخو بني سعد) واحد منهم]

[٢٠٠٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١١)١٤٧ - (٦٧٧)

وعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ،وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَجَعَلاَ يُقْرِئَانِنَا القُرْآنَ،ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ،وَبِلاَلٌ،وَسَعْدٌ ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ ثُمَّ " جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ،فَرَحَهُمْ بِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الوَلاَئِدَ وَالصِّبْيَانَ،يَقُولُونَ:هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَاءَ فَمَا جَاءَ،حَتَّى قَرَأْتُ:{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} [الأعلى:١] فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا " رواه البخاري.[٢٠٠٦]

وقد جاء في القرآن والسنة بيان فضل تعلم القرآن وتعليمه،والتفقه في الدين،فقال تعالى:{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [المجادلة:١١]

هو إشارة إلى هذه المشاعر اليقظى،وتلك الأحاسيس المرهفة،التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن،فإنه بقدر ما يكون عليه المؤمن من هذه المشاعر وتلك الأحاسيس،بقدر ما تكون مترلته فى الإنسانية..

والإيمان من شأنه أن يربىّ هذه المشاعر،وينمّى هذه الأحاسيس،وبمقياس الإيمان،تقاس هذه المشاعر وتلك الأحاسيس..

والعلم،شأنه فى هذا شأن الإيمان،فى رفع إنسانية الإنسان،وإعلاء مترلته..فالإيمان،هو فى حقيقته علم،والعلم فى حقيقته إيمان..وإن إيمانا لا يقوم على علم،هو إيمان هزيل باهت،لا يؤثر أثرا،ولا يطلع زهرا ولا ثمرا..

وإن علما لا يفتح للعقل والقلب طريقا إلى الإيمان،ولا تنقدح منه شرارات مضيئة،تضىء للإنسان طريقه إلى الله،هو نار تحرق،أو دخان يعمى العيون،ويزكم الأنوف،ويخنق الصدور..

وقد جمعت الآية الكريمة بين الإيمان والعلم،وجعلت كلّا منهما صفة لموصوف،كما يقول سبحانه:«يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ،وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» و لم يجىء النظم هكذا:يرفع الله الذي آمنوا منكم وأوتوا العلم» ..وذلك أن من الناس من يبدأ الطريق بالعلم،ثم يقوده هذا العلم إلى الإيمان..ومنهم من يبدأ الطريق بالإيمان ثم،يقوده الإيمان إلى العلم.

[ش (لأهل الصفة) أصحاب الصفة هم الفقراء الغرباء الذين كانوا يأوون إلى مسجد النبي ﷺ وكانت لهم في آخره صفة وهو مكان منقطع من المسجد مظلل عليه يبيتون فيه قاله إبراهيم الحربي والقاضي وأصله من صفة البيت وهو شيء كالظلة قدامه]

[٢٠٠٦] - صحيح البخاري (٦/ ١٦٨)(٤٩٤١) [ش (الولائد) جمع وليدة وهي الصبية والأمة]

فالمؤمن حقّ الإيمان..عالم..والعالم حقّ العلم..مؤمن..[2007]

أي يرفع الله منازل المؤمنين في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيها،ويرفع أيضا بصفة خاصة منازل العلماء درجات عالية في الكرامة في الدنيا،والثواب في الآخرة،فمن جمع الإيمان والعلم،رفعه الله بإيمانه درجات،ثم رفعه بعلمه درجات،ومن جملة ذلك رفعه في المجالس،والله خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه،مطّلع على أحوال ونوايا جميع عباده،ومجازيهم على أعمالهم جميعا،خيرا أو شرا.[2008]

وَقَالَ الْقَاضِي:لَا شُبْهَةَ أَنَّ علم العالم يقتضي لطاعته من المترلة مالا يحصل للمؤمن،ولذلك فإنه يقتدي بالعلم فِي كُلِّ أَفْعَالِهِ،وَلَا يُقْتَدَى بِغَيْرِ الْعَالِمِ،لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ كَيْفِيَّةِ الاحْتِرَازِ عَنِ الْحَرَامِ والشبهات،ومحاسبة النفس مالا يَعْرِفُهُ الْغَيْرُ،وَيَعْلَمُ مِنْ كَيْفِيَّةِ الْخُشُوعِ وَالتَّذَلُّلِ في العبادة مالا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ،وَيَعْلَمُ مِنْ كَيْفِيَّةِ التَّوْبَةِ وَأَوْقَاتِهَا وصفاتها مالا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ،وَيَتَحَفَّظُ فِيمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْحُقُوقِ مالا يَتَحَفَّظُ مِنْهُ غَيْرُهُ،وَفِي الْوُجُوهِ كَثْرَةٌ،لَكِنَّهُ كما تَعْظُمُ مَنْزِلَةُ أَفْعَالِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي دَرَجَةِ الثَّوَابِ،فَكَذَلِكَ يَعْظُمُ عِقَابُهُ فِيمَا يَأْتِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ،لِمَكَانِ عِلْمِهِ حَتَّى لَا يَمْتَنِعَ فِي كَثِيرٍ مِنْ صَغَائِرِ غَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ كَبِيرًا منه.[2009]

قَوْلُهُ تَعَالَى:(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ) أَيْ فِي الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا،فَيَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَالْعَالِمَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ.وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ:مَدَحَ اللَّهُ الْعُلَمَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُؤْتَوُا الْعِلْمَ (دَرَجاتٍ) أَيْ دَرَجَاتٍ فِي دِينِهِمْ إِذَا فَعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ.وَقِيلَ:كَانَ أَهْلُ الْغِنَى يَكْرَهُونَ أَنْ يُزَاحِمَهُمْ مَنْ يَلْبَسُ الصُّوفَ فَيَسْتَبِقُونَ إِلَى مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ فَالْخِطَابُ لَهُمْ.وَرَأَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَجُلًا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَقْبِضُ ثَوْبَهُ نُفُورًا مِنْ بَعْضِ الْفُقَرَاءِ أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيْهِ فَقَالَ:(يَا فُلَانُ خَشِيتُ أَنْ يَتَعَدَّى غِنَاكَ إِلَيْهِ أَوْ فَقْرُهُ إِلَيْكَ) وَبَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الرِّفْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ لَا بِالسَّبْقِ إِلَى صُدُورِ الْمَجَالِسِ.وَقِيلَ:أَرَادَ بِالَّذِينَ أُوتُوا

[2007] - التفسير القرآني للقرآن (14/ 833)

[2008] - التفسير المنير للزحيلي (28/ 41)

[2009] - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (29/ 494)

الْعِلْمَ الَّذِينَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ.وَقَالَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى عَنْ مَالِكٍ:(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ) الصَّحَابَةُ (وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) يَرْفَعُ الله بها العالم والطالب للحق.

قُلْتُ:وَالْعُمُومُ أَوْقَعُ فِي الْمَسْأَلَةِ وَأَوْلَى بِمَعْنَى الْآيَةِ،فَيَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ بِإِيمَانِهِ أَوَّلًا ثُمَّ بِعِلْمِهِ ثَانِيًا.وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ:إِنَّ لَنَا أَبْنَاءً مِثْلَهُ،فَقَالَ:إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ،فَسَأَلَ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ،{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ} [النصر:١]،فَقَالَ:«أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ» قَالَ:مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ"[٢٠١٠].

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ،فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ،وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ،وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ،كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا،فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ:يَا ابْنَ أَخِي،هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَتَسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ؟ قَالَ:سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَاسْتَأْذَنَ لِعُيَيْنَةَ،فَلَمَّا دَخَلَ،قَالَ:يَا ابْنَ الخَطَّابِ،وَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ،وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ،فَغَضِبَ عُمَرُ،حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَقَعَ بِهِ،فَقَالَ الحُرُّ:يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ،إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ:{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ} [الأعراف:١٩٩]،وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ،«فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ،وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ»[٢٠١١].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ،أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ،لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ،وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ،فَقَالَ:مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي،فَقَالَ:ابْنَ أَبْزَى،قَالَ:وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ:مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا،قَالَ:فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ:إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَإِنَّهُ

[٢٠١٠] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠٤)(٣٦٢٧)

[ش (يدني) يقرب.(مثله) أي في العمر والمراد هو شاب ونحن شيوخ فلم تقدمه علينا.(من حيث تعلم) من أجل ما تعلمه من أنه عالم.(الآية) أي السورة التي أولها هذه الآية.(أجل رسول الله) أي مجيء النصر والفتح ودخول الناس في الدين كل ذلك علامة قرب وفاته ﷺ.(أعلمه إياه) أخبره به]

[٢٠١١] - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٦)

عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ،قَالَ عُمَرُ:أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ:«إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا،وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».[2012]

وعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»،قَالَ:وَأَقْرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي إِمْرَةِ عُثْمَانَ،حَتَّى كَانَ الحَجَّاجُ قَالَ:وَذَاكَ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هَـــذَا" رواه البخاري[2013].

[2012] - صحيح مسلم (1/ 559)269 - (817) وتفسير القرطبي (17/ 299)

[2013] - صحيح البخاري (6/ 192)(5027)

[ش (وذاك) إشارة إلى الحديث الذي رواه عثمان رضي الله عنه في فضل تعلم القرآن وتعليمه.(مقعدي هذا) لأعلم الناس القرآن حتى أحصل على تلك الفضيلة]

خَيْرُكُمْ)،أَيْ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ أَوْ يَا أَيُّهَا الْأُمَّةُ،أَيْ أَفْضَلُكُمْ كَمَا فِي رِوَايَةٍ (مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ)،أَيْ حَقَّ تَعَلُّمِهِ (وَعَلَّمَهُ)،أَيْ تَعْلِيمَهُ وَلَا يُتَمَكَّنُ مِنْ هَذَا إِلَّا بِالْإِحَاطَةِ بِالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا مَعَ زَوَائِدِ الْعَوَارِفِ الْقُرْآنِيَّةِ وَفَوَائِدِ الْمَعَارِفِ الْفَوْقَانِيَّةِ،وَمِثْلُ هَذَا الشَّخْصِ يُعَدُّ كَامِلًا لِنَفْسِهِ مُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ فَهُوَ أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ مُطْلَقًا،وَلِذَا وَرَدَ عَنْ عِيسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ يُدْعَى فِي الْمَلَكُوتِ عَظِيمًا،وَالْفَرْدُ الْأَكْمَلُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ هُوَ النَّبِيُّ - ﷺ- ثُمَّ الْأَشْبَهُ فَالْأَشْبَهُ وَأَدْنَاهُ فَقِيهُ الْكِتَابِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ خَيْرُ النَّاسِ بِاعْتِبَارِ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ،وَقَالَ مِيرَكُ،رَحِمَهُ اللَّهُ:أَيْ مِنْ خَيْرِكُمْ لِوُرُودِ ذَلِكَ الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ أَيْضًا،قُلْتُ:كُلُّ مَا وَرَدَ دَاخِلٌ فِي الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ،كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفِرَا،وَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْعَمَلَ خَارِجٌ عَنْهُمَا لِأَنَّ الْعِلْمَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُورِثًا لِلْعَمَلِ فَلَيْسَ عِلْمًا فِي الشَّرِيعَةِ،إِذْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ مَعَ أَنَّهُ قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ:إِلَى مَتَى الْعِلْمُ فَأَيْنَ الْعَمَلُ؟ قَالَ:عِلْمُنَا عَمَلٌ،ثُمَّ الْخِطَابُ عَامٌّ لَا يَخْتَصُّ بِالصَّحَابَةِ كَذَا قِيلَ،وَلَوْ خُصَّ بِهِمْ فَغَيْرُهُمْ بِالطَّرِيقِ الْأَوْلَى وَالْقُرْآنُ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّهِ وَبَعْضِهِ،وَيُصْبِحُ إِرَادَةَ الْمَعْنَى الثَّانِي هُنَا بِاعْتِبَارِ أَنَّ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ التَّعَلُّمُ وَالتَّعْلِيمُ وَلَوْ فِي آيَةٍ كَانَ خَيْرًا مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ،وَوَجْهُ خَيْرِيَّتِهِ يُعْلَمُ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ " «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدْ أَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ» " وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ " «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ» " وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ خَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامَ اللَّهِ فَكَذَلِكَ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ مَنْ يَتَعَلَّمِ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُ،لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ تَقْيِيدِ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ بِالْإِخْلَاصِ،قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الْفَتَاوَى:تَعَلُّمُ قَدْرِ الْوَاجِبِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْفِقْهِ سَوَاءٌ فِي الْفَضْلِ،وَأَمَّا الزِّيَادَةُ عَلَى الْوَاجِبِ فَالْفِقْهُ أَفْضَلُ اهـــ وَفِيمَا قَالَهُ نَظَرٌ ظَاهِرٌ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ إِسَاءَةِ الْإِطْلَاقِ لِأَنَّ تَعَلُّمَ قَدْرِ الْوَاجِبِ مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمٌ يَقِينِيٌّ وَمِنَ الْفِقْهِ ظَنِّيٌّ،فَكَيْفَ يَكُونَانِ فِي الْفَضْلِ سَوَاءٌ وَالْفِقْهُ إِنَّمَا يَكُونُ أَفْضَلَ لِكَوْنِهِ مَعْنَى الْقُرْآنِ فَلَا يُقَابَلُ بِهِ،نَعَمْ لَا شَكَّ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَعْنَى الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ مَعْرِفَةِ لَفْظِهِ وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْقَدْرِ الْوَاجِبِ مِنَ الْقُرْآنِ تَعَلُّمُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ مَثَلًا فَإِنَّهُ رُكْنٌ عَلَى مَذْهَبِهِ وَبِالْفِقْهِ مَعْرِفَةُ كَوْنِ الرُّكُوعِ رُكْنًا مَثَلًا فَلَا يَسْتَوِيَانِ أَيْضًا مِنْ وُجُوهٍ.وَاللَّهُ أَعْلَمُ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (4/ 1452)

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:بيان فضل حامل القرآن ومعلمه،وأنه خير المؤمنين،لأنه أعظمهم نفعاً وإفادة،ولذلك شبهه بالسفرة،لأن السفرة من الملائكة يحملون الوحي إلى الأنبياء،وهو يحمل كلام الله إلى الناس،ولأنه من أكثر

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ،خَطِيبًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ،وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي،وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ،لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ» متفقٌ عليه[٢٠١٤].

الناس أجراً حيث إن له بكل حرف يقرأه حسنة.ثانياً:أن أشرف العلوم علوم القرآن وقد قيل:شرف العلم بشرف متعلقه،وليس هناك أشرف ولا أفضل من كلام الله تعالى.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٨٣)

[٢٠١٤] - صحيح البخاري (١/ ٢٥)(٧١) وصحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)(١٧٥ - (١٠٣٧)

[ش(يفقهه) يجعله فقيها والفقه الفهم.(أنا قاسم) أقسم بينكم ما أمرت بتبليغه من الوحي ولا أخص به أحدا دون أحد.(والله يعطي) كل واحد منكم فهما على قدر ما تعلقت به إرادته سبحانه.(قائمة على أمر الله) حافظة لدين الله الحق وهو الإسلام وعاملة به.(حتى يأتي أمر الله) يوم القيامة]

(وَعَنْ مُعَاوِيَةَ):رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ الْقُرَشِيُّ الْأُمَوِيُّ،أُمُّهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ،كَانَ هُوَ وَأَبُوهُ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ،ثُمَّ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ،وَهُوَ أَحَدُ الَّذِينَ كَتَبُوا لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- وَقِيلَ:لَمْ يَكْتُبْ لَهُ مِنَ الْوَحْيِ شَيْئًا إِنَّمَا كَتَبَ لَهُ كُتُبَهُ،رَوَى عَنْهُ ابْنُ عَبَّاسٍ،وَأَبُو سَعِيدٍ،تَوَلَّى الشَّامَ بَعْدَ أَخِيهِ يَزِيدَ فِي زَمَنِ عُمَرَ،وَلَمْ يَزَلْ بِهَا مُتَوَلِّيًا حَاكِمًا إِلَى أَنْ مَاتَ،وَذَلِكَ أَرْبَعُونَ سَنَةً.مِنْهَا فِي أَيَّامِ عُمَرَ أَرْبَعُ سِنِينَ أَوْ نَحْوَهَا.وَمُدَّةُ خِلَافَةِ عُثْمَانَ،وَخِلَافَةِ عَلِيٍّ وَابْنِهِ الْحَسَنِ،وَذَلِكَ تَمَامُ عِشْرِينَ سَنَةً،ثُمَّ اسْتُوثِقَ لَهُ الْأَمْرُ بِتَسْلِيمِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَيْهِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ،وَدَامَ لَهُ عِشْرِينَ سَنَةً،وَمَاتَ فِي رَجَبٍ بِدِمَشْقَ،وَلَهُ ثَمَانٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً.وَكَانَ أَصَابَتْهُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ لَقْوَةٌ،وَكَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ:لَيْتَنِي كُنْتُ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ بِذِي طُوًى،وَلَمْ أَرَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْئًا،وَكَانَ عِنْدَهُ إِزَارُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- وَرِدَاؤُهُ وَقَمِيصُهُ وَشَيْءٌ مِنْ شَعَرِهِ وَأَظْفَارِهِ فَقَالَ:كَفِّنُونِي فِي قَمِيصِهِ،وَأَدْرِجُونِي فِي رِدَائِهِ،وَأَزِّرُونِي بِإِزَارِهِ،وَاحْشُوا مَنْخَرَيَّ وَشِدْقَيَّ وَمَوَاضِعَ السُّجُودِ مِنْ شَعَرِهِ وَأَظْفَارِهِ،وَخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ.(قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا):تَنْكِيرُهُ لِلتَّفْخِيمِ أَيْ خَيْرًا كَثِيرًا " (يُفَقِّهْهُ):بِتَشْدِيدِ الْقَافِ أَيْ:يَجْعَلْهُ عَالِمًا (فِي الدِّينِ) أَيْ:أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ،وَلَا يُخَصُّ بِالْفِقْهِ الْمُصْطَلَحِ الْمُخْتَصِّ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ كَمَا ظُنَّ،فَقَدْ رَوَى الدَّارِمِيُّ عَنْ عِمْرَانَ قَالَ:قُلْتُ لِلْحَسَنِ يَوْمًا فِي شَيْءٍ قَالَهُ،يَا أَبَا سَعِيدٍ! هَكَذَا يَقُولُ الْفُقَهَاءُ.قَالَ:وَيْحَكَ هَلْ رَأَيْتَ فَقِيهًا قَطُّ إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا،الرَّاغِبُ فِي الْآخِرَةِ،الْبَصِيرُ بِأَمْرِ دِينِهِ،الْمُدَاوِمُ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ،وَفِي رِوَايَةٍ:إِنَّمَا الْفَقِيهُ مَنِ انْفَقَأَتْ عَيْنَا قَلْبِهِ فَنَظَرَ إِلَى رَبِّهِ اهـ.

وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي رِوَايَةٍ:«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ،وَيُلْهِمْهُ رُشْدَهُ»،رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ.(وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ) أَيْ لِلْعِلْمِ (وَاللَّهُ يُعْطِي) .أَيِ:الْفَهْمَ فِي الْعِلْمِ بِمَبْنَاهُ،وَالتَّفَكُّرَ فِي مَعْنَاهُ،وَالْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:الْوَاوُ فِي وَإِنَّمَا لِلْحَالِ مِنْ فَاعِلِ (يُفَقِّهْ) أَوْ مَفْعُولِهِ أَيْ:أَنَا أُقَسِّمُ الْعِلْمَ بَيْنَكُمْ،فَأُلْقِي إِلَيْكُمْ جَمِيعًا مَا يَلِيقُ بِكُلٍّ أَحَدٍ،وَاللَّهُ يُوَفِّقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْكُمْ لِفَهْمِهِ.قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَمِنْ ثَمَّ تَفَاوَتَتْ أَفْهَامُ الصَّحَابَةِ مَعَ اسْتِوَاءِ تَبْلِيغِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،بَلْ فَاقَ بَعْضُ مَنْ جَاءَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ بَعْضَهُمْ فِي الْفَهْمِ وَالِاسْتِنْبَاطِ كَمَا أَشَارَ لِذَلِكَ الْخَبَرُ الْآتِي:«رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ،وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» .وَقِيلَ:مَعْنَاهُ أَنَا أُقَسِّمُ الْمَالَ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يُعْطِيهِ،فَلَا يَكُونُ فِي قُلُوبِكُمْ سُخْطٌ وَتَنَكُّرٌ عَنِ التَّفَاضُلِ فِي الْقِسْمَةِ،فَإِنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَعْنَى أَنَا أُقَسِّمُ الْعِلْمَ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يُعْطِي الْعِلْمَ كَذَا قَالَهُ بَعْضُ الشُّرَّاحِ،وَالْأَظْهَرُ أَنْ لَا مَنْعَ مِنَ الْجَمْعِ،وَإِنْ كَانَ الْمَقَامُ يَقْتَضِي الْعِلْمَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.قِيلَ:وَلَمْ يَقُلْ مُعْطٍ لِأَنَّ إِعْطَاءَهُ مُتَجَدِّدٌ سَاعَةً فَسَاعَةً (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٨٣)

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ "[٢٠١٥]

وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا فَلَهُ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ،لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ» رواه ابن ماجه[٢٠١٦].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ:اقْرَأْ،وَارْتَقِ،وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا،فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا " رواه أبو داود[٢٠١٧].

ويستفاد منه ما يأتي:أولاً:أن العلم الشرعي أشرف العلوم إطلاقاً،لعلاقته بالله.ثانياً:أن الفقه في الدين موهبة ربانية يختلف الناس فيها وكذلك كل الملكات الإنسانية.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ١٧٣)

[٢٠١٥] - شعب الإيمان (٣/ ١٩٥)(١٥٤٥) صحيح لغيره

(طَلَبُ الْعِلْمِ) أَيِ:الشَّرْعِيِّ (فَرِيضَةٌ) أَيْ:مَفْرُوضٌ فَرْضَ عَيْنٍ (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ):أَوْ كِفَايَةٍ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ أَيْ وَمُسْلِمَةٍ كَمَا فِي رِوَايَةٍ.

قَالَ الشُّرَّاحُ:الْمُرَادُ بِالْعِلْمِ مَا لَا مَنْدُوحَةَ لِلْعَبْدِ مِنْ تَعَلُّمِهِ كَمَعْرِفَةِ الصَّانِعِ وَالْعِلْمِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَنُبُوَّةِ رَسُولِهِ وَكَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ،فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ فَرْضُ عَيْنٍ،وَأَمَّا بُلُوغُ رُتْبَةِ الِاجْتِهَادِ وَالْفُتْيَا فَفَرْضُ كِفَايَةٍ.قَالَ السَّيِّدُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يَعُمَّ الْعِلْمَ وَيُحْمَلَ الْكَلَامُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ اهـ.وَفِيهِ تَأَمُّلٌ.

قَالَ الْأَبْهَرِيُّ:وَاخْتُلِفَ فِي الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ فَرْضٌ وَتَحَزَّبُوا فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ فِرْقَةً،فَكَانَ فَرِيقٌ نَزَّلَ الْوُجُوبَ عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي بِصَدَدِهِ اهـ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعَارِفُ الرَّبَّانِيُّ السَّهْرَوَرْدِيُّ:اخْتُلِفَ فِي هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ فَرِيضَةٌ.قِيلَ:هُوَ عِلْمُ الْإِخْلَاصِ وَمَعْرِفَةُ آفَاتِ النَّفْسِ وَمَا يُفْسِدُ الْأَعْمَالَ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ مَأْمُورٌ بِهِ،فَصَارَ عِلْمُهُ فَرْضًا آخَرَ،وَقِيلَ:مَعْرِفَةُ الْخَوَاطِرِ وَتَفْصِيلُهَا فَرِيضَةٌ لِأَنَّ الْخَوَاطِرَ هِيَ مَنْشَأُ الْفِعْلِ،وَبِذَلِكَ يُعْلَمُ الْفَرْقُ بَيْنَ لَمَّةِ الشَّيْطَانِ وَلَمَّةِ الْمَلَكِ،وَقِيلَ:هُوَ طَلَبُ عِلْمِ الْحَلَالِ حَيْثُ كَانَ أَكْلُ الْحَلَالِ وَاجِبًا،وَقِيلَ:عِلْمُ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالنِّكَاحِ إِذَا أَرَادَ الدُّخُولَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا،وَقِيَامُ عِلْمِ الْفَرَائِضِ الْخَمْسِ،وَقِيلَ:هُوَ طَلَبُ عِلْمِ التَّوْحِيدِ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالنَّقْلِ،وَقِيلَ:هُوَ طَلَبُ عِلْمِ الْبَاطِنِ وَهُوَ مَا يَزْدَادُ بِهِ الْعَبْدُ يَقِينًا،وَهُوَ الَّذِي يُكْتَسَبُ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ وَالزُّهَّادِ الْمُقَرَّبِينَ،فَهُمْ وُرَّاثُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ اهـ.

فَإِنْ قِيلَ:مَا الْفَرْضُ قَبْلَ الْفَرْضِ؟ فَقُلِ:الْعِلْمُ قَبْلَ الْعَمَلِ،وَإِنْ قِيلَ:مَا الْفَرْضُ فِي الْفَرْضِ؟ فَقُلِ:الْإِخْلَاصُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ،وَإِنْ قِيلَ:مَا الْفَرْضُ بَعْدَ الْعَمَلِ؟ فَقُلِ:الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣٠١)

[٢٠١٦] - سنن ابن ماجه (١/ ٨٨)(٢٤٠) حسن

(من علم) بفتح اللام المشددة بضبط المصنف (علما فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل) لأن العامل إنما يتلقى كيف تصحيح عمله من العالم فله الأجر على حسب الانتفاع بعلمه"فيض القدير (٦/ ١٨٢)

[٢٠١٧] - سنن أبي داود (٢/ ٧٣)(١٤٦٤) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٢٤٢)(٣٧٨٠) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٣/ ٤٣)(٧٦٦) صحيح

(يُقَالُ)،أَيْ عِنْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَتَوَجُّهِ الْعَامِلِينَ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ عَلَى حَسَبِ مَكَاسِبِهِمْ (لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ)،أَيْ مَنْ يُلَازِمُهُ بِالتِّلَاوَةِ وَالْعَمَلِ لَا مَنْ يَقْرَؤُهُ وَهُوَ يَلْعَنُهُ (اقْرَأْ وَارْتَقِ)،أَيْ إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ أَوْ مَرَاتِبِ الْقُرْبِ (وَرَتِّلْ)،أَيْ لَا تَسْتَعْجِلْ فِي قِرَاءَتِكَ فِي

الْجَنَّة الَّتي هيَ لمُجَرَّد التَّلَذُّذ وَالشُّهُود الْأَكْبَر كَعبَادَة الْمَلَائكَة (كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ)،أَيْ قرَاءَتُكَ،وَفيه إشَارَةٌ إلَى أَنَّ الْجَزَاءَ عَلَى وَفْق الْأَعْمَال كَمِّيَّةً وَكَيْفيَّةً (في الدُّنْيَا) منْ تَجْويد الْحُرُوف وَمَعْرِفَة الْوُقُوف النَّاشئ عَنْ عُلُوم الْقُرْآن وَمَعَارف الْفُرْقَان (فَإنَّ مَنْزلَكَ عنْدَ آخر آيَة تَقْرَؤُهَا) وَقَدْ وَرَدَ في الْحَديث أَنَّ دَرَجَات الْجَنَّة عَلَى عَدَد آيَات الْقُرْآن،وَجَاءَ في حَديث «مَنْ كَانَ منْ أَهْل الْقُرْآن فَلَيْسَ فَوْقَهُ دَرَجَةٌ» فَالْقُرَّاءُ يَتَصَاعَدُونَ بقَدْرهَا،قَالَ الدَّانيُّ:وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ عَدَدَ آي الْقُرْآن ستَّةُ آلَاف آيَة ثُمَّ اخْتَلَفُوا فيمَا زَادَ،فَقيلَ:وَمائَتَا آيَة وَأَرْبَعُ آيَات،وَقيلَ:وَأَرْبَعَ عَشَرَةَ،وَقيلَ:وَتسْعَ عَشَرَةَ،وَقيلَ:وَخَمْسٌ وَعشْرُونَ،وَقيلَ:وَستٌّ وَثَلَاثُونَ،وَفي حَديث عنْدَ الدَّيْلَميِّ في سَنَده كَذَّابٌ:" «دَرَجُ الْجَنَّة عَلَى قَدْر آي الْقُرْآن،بكُلِّ آيَة دَرَجَةٌ،فَتلْكَ ستَّةُ آلَاف آيَة وَمائَتَا آيَة وَستَّ عَشَرَةَ آيَة،بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْن مقْدَارُ مَا بَيْنَ السَّمَاء وَالْأَرْض» " قَالَ الطِّيبيُّ:وَقيلَ:الْمُرَادُ أَنَّ التَّرَقِّيَ يَكُونُ دَائمًا،فَكَمَا أَنَّ قرَاءَتَهُ في حَال الاخْتتَام اسْتَدْعَتْ الافْتتَاحَ الَّذي لَا انْقطَاعَ لَهُ كَذَلكَ هَذه الْقرَاءَةُ وَالتَّرَقِّي في الْمَنَازل الَّتي لَا تَتَنَاهَى،وَهَذه الْقرَاءَةُ لَهُمْ كَالتَّسْبيح للْمَلَائكَة لَا تَشْغَلُهُمْ منْ مُسْتَلَذَّاتهمْ بَلْ هيَ أَعْظَمُ مُسْتَلَذَّاتهمْ،وَقَالَ ابْنُ حَجَر:وَيُؤْخَذُ منَ الْحَديث أَنَّهُ لَا يَنَالُ هَذَا الثَّوَابَ الْأَعْظَمَ إلَّا مَنْ حَفظَ الْقُرْآنَ وَأَتْقَنَ أَدَاءَهُ وَقرَاءَتَهُ كَمَا يَنْبَغي لَهُ،فَإنْ قُلْتَ:مَا الدَّليلُ عَلَى أَنَّ الصَّاحبَ هُوَ الْحَافظُ دُونَ الْمُلَازم للْقرَاءَة في الْمُصْحَف،قُلْتُ:الْأَصْلُ فيمَا في الْجَنَّة أَنَّهُ يَحْكي مَا في الدُّنْيَا،وَقَوْلُهُ في الدُّنْيَا صَريحٌ في ذَلكَ عَلَى أَنَّ الْمُلَازمَ لَهُ نَظَرًا لَا يُقَالُ لَهُ صَاحبُ الْقُرْآن عَلَى الْإطْلَاق وَإنَّمَا يُقَالُ ذَلكَ لمَنْ لَا يُفَارقُ الْقُرْآنَ في حَالَة منَ الْحَالَات،وَأَيْضًا فَفي روَايَة عنْدَ أَحْمَدَ:" «يُقَالُ لصَاحب الْقُرْآن إذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ اقْرَأْ وَاصْعَدْ فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بكُلِّ آيَة دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ شَيْئًا مَعَهُ» " فَقَوْلُهُ مَعَهُ صَريحٌ في أَنَّهُ حَافظُهُ،وَفي حَديث عنْدَ الرَّامَهُرْمُزيِّ:فَإذَا قَامَ صَاحبُ الْقُرْآن بقرَاءَته آنَاءَ اللَّيْل وَآنَاءَ النَّهَار ذَكَرَهُ وَإنْ لَمْ يَقُمْ به نَسيَهُ،وَرَوَى الْبُخَاريُّ وَغَيْرُهُ («مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَظْهرَهُ أَتَاهُ مَلَكٌ يُعَلِّمُهُ في قَبْره وَيَلْقَى اللَّهَ وَقَد اسْتَظْهَرَهُ») وَفي حَديث الطَّبَرَانيِّ وَالْبَيْهَقيِّ («وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَتَفَلَّتُ منْهُ وَلَا يَدَعُهُ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْن،وَمَنْ كَانَ حَريصًا عَلَيْه وَلَا يَسْتَطيعُهُ وَلَا يَدَعُهُ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقيَامَة مَعَ أَشْرَاف أَهْله») وَأَخْرَجَ الْحَاكمُ وَغَيْرُهُ («مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَد اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْه غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إلَيْه،لَا يَنْبَغي لصَاحب الْقُرْآن أَنْ يَجْهَلَ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ وَفي جَوْفه كَلَامُ اللَّه») .

وَقَالَ الطِّيبيُّ:وَالْمَنْزلَةُ الَّتي في الْحَديث هيَ مَا يَنَالُهُ الْعَبْدُ منَ الْكَرَامَة عَلَى حَسَب مَنْزلَته في الْحفْظ وَالتِّلَاوَة لَا غَيْرَ،وَذَلكَ لمَا عَرَفْنَا منْ أَصْل الدِّين أَنَّ الْعَاملَ بكتَاب اللَّه الْمُتَدَبِّرَ لَهُ أَفْضَلُ منَ الْحَافظ وَالتَّالي لَهُ إذَا لَمْ يَنَلْ شَأْنَهُ في الْعَمَل وَالتَّدَبُّر،وَقَدْ كَانَ في الصَّحَابَة مَنْ هُوَ أَحْفَظُ منَ الصِّدِّيق وَأَكْثَرُ تلَاوَةً منْهُ وَكَانَ هُوَ أَفْضَلَهُمْ عَلَى الْإطْلَاق لسَبْقه عَلَيْهمْ في الْعلْم باللَّه وَبكتَابه وَتَدَبُّره لَهُ وَعَمَله به،وَإنْ ذَهَبْنَا إلَى الثَّاني وَهُوَ أَحَقُّ الْوَجْهَيْن وَأَتَمُّهُمَا فَالْمُرَادُ منَ الدَّرَجَات الَّتي يَسْتَحقُّهَا بالْآيَات سَائرُهَا وَحينَئذ تُقَدَّرُ التِّلَاوَةُ في الْقيَامَة عَلَى قَدْر الْعَمَل فَلَا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَتْلُوَ آيَةً إلَّا وَقَدْ أَقَامَ مَا يَجبُ عَلَيْه فيهَا،وَاسْتكْمَالُ ذَلكَ إنَّمَا يَكُونُ للنَّبيِّ - ﷺ- ثُمَّ للْأُمَّة بَعْدَهُ عَلَى مَرَاتبهمْ وَمَنَازلهمْ في الدِّين وَمَعْرفَة الْيَقين،فَكُلٌّ منْهُمْ يَقْرَأُ عَلَى مقْدَار مُلَازَمَته إيَّاهُ تَدَبُّرًا وَعَمَلًا اهـــ وَهُوَ في غَايَة منَ الْحُسْن وَالْبَهَاء وَنهَايَة الظُّهُور وَالْجَلَاء وَلَا عبْرَةَ بطَعْن ابْن حَجْر فيه وَتَضْعيف كَلَامه وَحَمْله عَلَى التَّكْلفَة وَالْمُنَافَاة لظَاهر الْحَديث فَإنَّ التَّحْقيقَ كَمَا يُسْتَفَادُ منْ حَديث:أَنَّ مَنْ عَملَ بالْقُرْآن فَكَأَنَّهُ يَقْرَؤُهُ دَائمًا وَإنْ لَمْ يَقْرَأْهُ،وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بالْقُرْآن فَكَأَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْهُ وَإنْ قَرَأَهُ دَائمًا،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - {كتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ ليَدَّبَّرُوا آيَاته وَليَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَاب} [ص:٢٩] فَمُجَرَّدُ التِّلَاوَة وَالْحفْظ لَا يُعْتَبَرُ اعْتبَارًا يَتَرَتَّبُ عَلَيْه الْمَرَاتبُ الْعَليَّةُ في الْجَنَّة الْعَاليَة "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٤٦٩)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا،نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ،يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا،سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ،وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا،سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ،يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ،وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ،إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ،وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ،وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ،وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ،لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» رواه مسلم[٢٠١٨].

[٢٠١٨] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤)٣٨ - (٢٦٩٩)

(مَنْ نَفَّسَ):بِالتَّشْدِيدِ أَيْ:فَرَّجَ.قَالَ الطِّيبِيُّ:كَأَنَّهُ فَتَحَ مَدَاخِلَ الْأَنْفَاسِ فَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ:أَنْتَ فِي نَفَسٍ أَيْ سَعَةٍ كَأَنَّ مَنْ كَانَ فِي كُرْبَةٍ سُدَّ عَنْهُ مَدَاخِلُ الْأَنْفَاسِ،فَإِذَا فُرِّجَ عَنْهُ فُتِحَتْ بِمَعْنَى مَنْ أَزَالَ وَأَذْهَبَ (عَنْ مُؤْمِنٍ):أَيَّ مُؤْمِنٍ وَلَوْ كَانَ فَاسِقًا مُرَاعَاةً لِإِيمَانِهِ (كُرْبَةً) أَيْ:أَيَّ حَزَنٍ وَعَنَاءٍ وَشِدَّةٍ وَلَوْ حَقِيرَةً (مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا):الْفَانِيَةِ الْمُنْقَضِيَةِ،وَمِنْ:تَبْعِيضِيَّةٌ أَوِ ابْتِدَائِيَّةٌ (نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً) أَيْ:عَظِيمَةً (مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ):أَيِ:الْبَاقِيَةِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِيَةِ فَلَا يَرِدُ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ:{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام:١٦٠]،فَإِنَّهُ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَمِّيَّةِ أَوِ الْكَيْفِيَّةِ،وَلَمَّا كَانَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالَ اللَّهِ وَتَنْفِيسُ الْكُرَبِ إِحْسَانٌ فَجَزَاهُ اللَّهُ جَزَاءً وِفَاقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠] (وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ) أَيْ:سَهَّلَ عَلَى فَقِيرٍ،وَهُوَ يَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ،أَيْ:مَنْ كَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَى فَقِيرٍ فَسَهَّلَ عَلَيْهِ بِإِمْهَالٍ أَوْ بِتَرْكِ بَعْضِهِ أَوْ كُلِّهِ (يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ):بَدَّلَ تَيْسِيرَهُ عَلَى عَبْدِهِ مُجَازَاةً بِجِنْسِهِ (فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) أَيْ:فِي الدَّارَيْنِ أَوْ فِي أُمُورِهَا.قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ:لَا يَخْفَى أَنَّ الْمُعْسِرَ وَصَاحِبَ الْكُرْبَةِ هُوَ الْمُرِيدُ فِي وَادِي الْغُرْبَةِ الْمُحْتَاجُ إِلَى قَطْعِ الْعَقَبَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْمُنَازِلِ الظُّلْمَانِيَّةِ وَالنُّورَانِيَّةِ،كَمَا اشْتُهِرَ عَنِ الْكَتَّانِيِّ:إِنَّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْحَقِّ أَلْفَ مَقَامٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ وَيَتَلَقَّاهُ الْوَسَاوِسُ وَالْهَوَاجِسُ،فَعَلَى شَيْخِهِ أَنْ يُنَفِّسَ كُرْبَةَ الْوَسَاوِسِ عَنْهُ بِأَمْرِهِ بِتَرْكِ الْمُبَالَاةِ بِهَا وَالتَّأَمُّلِ فِي الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْأَدِلَّةِ النَّقْلِيَّةِ إِنِ اسْتَأْهَلَهُ،وَاسْتِدَامَةِ الذِّكْرِ وَالِابْتِهَالِ إِلَى الْمَوْلَى،وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ سَوَاءَ الطَّرِيقِ وَيُذِيقُهُ حَلَاوَةَ التَّحْقِيقِ حَتَّى يَسْطَعَ فِي قَلْبِهِ أَنْوَارُ الْقُلُوبِ وَيَطْلُعَ فِي سِرِّهِ شُمُوسُ الْوُصُولِ إِلَى الْمَحْبُوبِ.(وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا) أَيْ:فِي قَبِيحٍ يَفْعَلُهُ فَلَا يَفْضَحُهُ أَوْ كَسَاهُ ثَوْبًا (سَتَرَهُ اللَّهُ) أَيْ:عُيُوبَهُ أَوْ عَوْرَتَهُ (فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ):كَمَا تَقَدَّمَ.وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ أَيْ سَتَرَ بَدَنَهُ بِالْإِلْبَاسِ،أَوْ عُيُوبَهُ بِعَدَمِ الْغَيْبَةِ لَهُ وَالذَّبِّ عَنْ مَعَايِبِهِ،وَهَذَا عَلَى مَنْ لَيْسَ مَعْرُوفًا بِالْفَسَادِ،وَأَمَّا الْمَعْرُوفُ بِهِ فَيُسْتَحَبُّ أَنْ تُرْفَعَ قِصَّتُهُ إِلَى الْوَالِي وَلَوْ رَآهُ فِي مَعْصِيَةٍ فَيُنْكِرُهَا بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ،وَإِنْ عَجَزَ يَرْفَعُهَا إِلَى الْحَاكِمِ إِذَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ.قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ:وَفِيهِ إِشَارَةٌ لِمَنْ وَقَفَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَقَامَاتِ أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَكَرَامَاتِ ذَوِي الْإِيقَانِ أَنْ يَحْفَظَ سِرَّهُ وَيَكْتُمَ عَنْ غَيْرِهِ أَمْرَهُ،فَإِنَّ كَشْفَ الْأَسْرَارِ عَلَى الْأَغْيَارِ يَسُدُّ بَابَ الْعِنَايَةِ وَيُوجِبُ الْحِرْمَانَ وَالْغَوَايَةَ.

مَنْ أَطْلَعُوهُ عَلَى سِرٍّ فَبَاحَ بِهِ لَمْ يَأْمَنُوهُ عَلَى الْأَسْرَارِ مَا عَاشَا (وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ):الْوَاوُ لِلِاسْتِئْنَافِ،وَهُوَ تَذْيِيلٌ لِلْكَلَامِ السَّابِقِ (مَا كَانَ) أَيْ:مَا دَامَ (الْعَبْدُ):مَشْغُولًا (فِي عَوْنِ أَخِيهِ):أَيِ:الْمُسْلِمِ كَمَا فِي نُسْخَةٍ.أَيْ:فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِ،وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى فَضِيلَةِ عَوْنِ الْأَخِ عَلَى أُمُورِهِ وَالْمُكَافَأَةِ عَلَيْهَا بِجِنْسِهَا مِنَ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ،سَوَاءٌ كَانَ بِقَلْبِهِ أَوْ بَدَنِهِ أَوْ بِهِمَا لِدَفْعِ الْمَضَارِّ أَوْ جَلْبِ

الْمَسَارِّ إِذِ الْكُلُّ عَوْنٌ،وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْحَثِّ عَلَى الشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ أَتْبَعَهُ بِمَا يُنْبِئُ عَنِ التَّعْظِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ،لِأَنَّ الْعِلْمَ وَسِيلَةٌ إِلَى الْعَمَلِ فَقَالَ:(وَمَنْ سَلَكَ) أَيْ:دَخَلَ أَوْ مَشَى (طَرِيقًا) أَيْ:قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا.قِيلَ:التَّنْوِينُ لِلتَّعْمِيمِ؛إِذِ النَّكِرَةُ فِي الْإِثْبَاتِ قَدْ تُفِيدُ الْعُمُومَ أَيْ:بِسَبَبِ أَيِّ سَبَبٍ كَانَ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالتَّصْنِيفِ وَمُفَارَقَةِ الْوَطَنِ وَالْإِنْفَاقِ فِيهِ (يَلْتَمِسُ فِيهِ):حَالٌ أَوْ صِفَةٌ (عِلْمًا):نَكِرَةٌ لِيَشْمَلَ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ عُلُومِ الدِّينِ قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً،إِذَا كَانَ بِنِيَّةِ الْقُرْبَةِ وَالنَّفْعِ وَالِانْتِفَاعِ،وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ،وَقَدْ ذَهَبَ مُوسَى إِلَى الْخَضِرِ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ لَهُ:{هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} [الكهف:٦٦] وَرَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.كَذَا نَقَلَهُ ابْنُ الْمَلَكِ (سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ) أَيْ:بِذَلِكَ السُّلُوكِ أَوِ الطَّرِيقِ أَوِ الِالْتِمَاسِ أَوِ الْعِلْمِ (طَرِيقًا) أَيْ:مُوَصِّلًا وَمُنْهِيًا (إِلَى الْجَنَّةِ) .مَعَ قَطْعِ الْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةِ دُونَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ) أَيْ:جَمْعٌ (فِي بَيْتٍ) أَيْ:مَجْمَعٍ (مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ):بِكَسْرِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا،وَاحْتُرِزَ بِهِ عَنْ مَسَاجِدِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،فَإِنَّهُ " يُكْرَهُ الدُّخُولُ فِيهَا وَالْعُدُولُ عَنِ الْمَسَاجِدِ إِلَى بُيُوتِ اللَّهِ لِيَشْمَلَ كُلَّ مَا يُبْنَى تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ وَالرُّبُطِ،(يَتْلُونَ):حَالٌ مِنْ قَوْمٍ لِتَخْصِيصِهِ (كِتَابَ اللَّهِ):أَيِ:الْقُرْآنَ،وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالتِّلَاوَةِ مُجَرَّدَ إِجْرَاءِ الْأَلْفَاظِ عَلَى اللِّسَانِ،بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُقَدِّرَ الْعَبْدُ أَنَّهُ يَقْرَأُ عَلَى اللَّهِ وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ نَاظِرٌ إِلَيْهِ،بَلْ يَشْهَدُ بِقَلْبِهِ كَأَنَّ رَبَّهُ يُخَاطِبُهُ بَلْ يَسْتَغْرِقُ بِمُشَاهَدَةِ الْمُتَكَلِّمِ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَى غَيْرِهِ سَامِعًا مِنْهُ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ،وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالَةٍ لَحِقَتْهُ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ،فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ:مَا زِلْتُ أُرَدِّدُ الْآيَةَ عَلَى قَلْبِي حَتَّى سَمِعْتُهَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِ بِهَا،فَلَمْ يَثْبُتْ جِسْمِي لِمُعَايَنَةِ قُدْرَتِهِ،ثُمَّ يَتَفَكَّرُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَيَقْتَبِسُ مَعْرِفَةَ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِهْلَاكِ الْأَعْدَاءِ وَيَقْتَبِسُ مَعْرِفَةَ الْعِزَّةِ وَالِاسْتِغْنَاءِ وَالْقَهْرِ وَالْإِفْنَاءِ،وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَحِبَّاءِ،وَيَقْتَبِسُ مَعْرِفَةَ اللُّطْفِ وَالْفَضْلِ وَالنَّعْمَاءِ،وَفِي الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّكْلِيفِ وَالْإِرْشَادِ،وَيَقْتَبِسُ مَعْرِفَةَ اللُّطْفِ وَالْحِكَمِ وَيَعْمَلُ بِمُقْتَضَاهُ (وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ):وَالتَّدَارُسُ قِرَاءَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَصْحِيحًا لِأَلْفَاظِهِ أَوْ كَشْفًا لِمَعَانِيهِ كَذَا قَالَهُ ابْنُ الْمَلَكِ.وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالتَّدَارُسِ الْمُدَارَسَةَ الْمُتَعَارَفَةَ بِأَنْ يَقْرَأَ بَعْضُهُمْ عُشْرًا مَثَلًا وَبَعْضُهُمْ عُشْرًا آخَرَ،وَهَكَذَا فَيَكُونُ أَخَصَّ مِنَ التِّلَاوَةِ أَوْ مُقَابِلًا لَهَا،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ شَامِلٌ لِجَمِيعِ مَا يُنَاطُ بِالْقُرْآنِ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ (إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ):يَجُوزُ فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ كَسْرُ الْهَاءِ وَضَمُّ الْمِيمِ وَهُوَ الْأَكْثَرُ،وَضَمُّهُمَا وَكَسْرُهُمَا.وَالسَّكِينَةُ:هِيَ الْوَقَارُ وَالْخَشْيَةُ يَعْنِي الشَّيْءَ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ سُكُونُ الْقَلْبِ وَالطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ وَنُزُولُ الْأَنْوَارِ.قِيلَ:وَالْمُرَادُ هُنَا صَفَاءُ الْقَلْبِ بِنُورِهِ وَذَهَابُ الظُّلْمَةِ النَّفْسَانِيَّةِ وَحُصُولُ الذَّوْقِ وَالشَّوْقِ،وَقِيلَ:السَّكِينَةُ مَلَكٌ يُسَكِّنُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَيُؤَمِّنُهُ وَيَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ،وَذَكَرَ الطِّيبِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ:السَّكِينَةُ مَغْنَمٌ وَتَرْكُهَا مَغْرَمٌ (وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ) أَيْ:أَتَتْهُمْ وَعَلَتْهُمْ وَغَطَّتْهُمْ (وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ) أَيْ:مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ أَحْدَقُوا وَأَحَاطُوا بِهِمْ،أَوْ طَافُوا بِهِمْ وَدَارُوا حَوْلَهُمْ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ وَدِرَاسَتَهُمْ وَيَحْفَظُونَهُمْ مِنَ الْآفَاتِ وَيَزُورُونَهُمْ وَيُصَافِحُونَهُمْ وَيُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَائِهِمْ،قِيلَ:وَبِلِسَانِ الْإِشَارَةِ بُيُوتُ اللَّهِ عِبَارَةٌ عَمَّا يُذْكَرُ فِيهِ الْحَقُّ مِنَ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالسِّرِّ وَالْخَفِيِّ،فَذِكْرُ بَيْتِ النَّفْسِ الطَّاعَاتُ،وَذِكْرُ بَيْتِ الْقَلْبِ التَّوْحِيدُ وَالْمَعْرِفَةُ،وَذِكْرُ بَيْتِ الرُّوحِ الشَّوْقُ وَالْمَحَبَّةُ،وَذِكْرُ بَيْتِ السِّرِّ الْمُرَاقَبَةُ وَالشُّهُودُ،وَذِكْرُ بَيْتِ الْخَفِيِّ بَذْلُ الْوُجُودِ وَتَرْكُ الْمَوْجُودِ.وَقَوْلُهُ:إِلَّا نَزَلَتْ إِلَخْ – إِشَارَةٌ إِلَى ثَمَرَاتِ التِّلَاوَةِ وَهِيَ الْأُنْسُ وَالْحُضُورُ مَعَ اللَّهِ وَتَمَثُّلُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْوَاحِ الْمُقَدَّسَةِ فِي صُوَرٍ لَطِيفَةٍ،وَالصُّعُودُ مِنْ حَضِيضِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى ذُرْوَةِ الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى،بَلِ الْفَرَحُ بِالْبَقَاءِ وَالدُّخُولِ تَحْتَ الْفَنَاءِ وَالْقُرْبِ مِنَ اللَّاهُوتِ وَالتَّبَرُّؤِ مِنَ النَّاسُوتِ،وَهَذَا مَقَامٌ يَضِيقُ عَنْ إِعْلَانِهِ نِطَاقُ النُّطْقِ وَلَا يَسَعُ إِظْهَارُهُ فِي ظُهُورِ الْحُرُوفِ وَإِنَّ قَمِيصًا خِيطَ مِنْ نَسْجِ تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ حَرْفًا مِنْ مَعَانِيهِ قَاصِرٌ.قَالَ الشَّيْخُ أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ:إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوَالِيَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ فَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ ذِكْرِهِ،فَإِنِ اسْتَلَذَّ بِالذِّكْرِ فَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الْقُرْبِ،ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَى مَجَالِسِ الْأُنْسِ،ثُمَّ أَجْلَسَهُ عَلَى كُرْسِيِّ التَّوْحِيدِ،ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُ الْحِجَابَ وَأَدْخَلَهُ دَارَ الْفَرْدَانِيَّةِ،وَكَشَفَ لَهُ

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً،وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ،وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا،فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه البخاري[2019].

حِجَابَ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ،فَإِذَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ بَقِيَ بِلَا هُوَ،فَحِينَئِذٍ صَارَ الْعَبْدُ زَمَنًا فَانِيًا فِي حِفْظِ سُبْحَانَهُ وَبَرِئَ مِنْ دَعَاوَى نَفْسِهِ (وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ):أَيِ الْمَلَأَ الْأَعْلَى وَالطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ،وَذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُبَاهَاةِ بِهِمْ،يَقُولُ:انْظُرُوا إِلَى عَبِيدِي يَذْكُرُونِي وَيَقْرَءُونَ كِتَابِي (وَمَنْ بَطَّأَ):بِتَشْدِيدِ الطَّاءِ مِنَ التَّبْطِئَةِ ضِدُّ التَّعَجُّلِ كَالْإِبْطَاءِ،وَالْبُطْءُ نَقِيضُ السُّرْعَةِ وَالْبَاءُ فِي (بِهِ):لِلتَّعْدِيَةِ أَيْ:مَنْ أَخَّرَهُ وَجَعَلَهُ بَطِيئًا عَنْ بُلُوغِ دَرَجَةِ السَّعَادَةِ (عَمَلُهُ):السَّيِّئُ فِي الْآخِرَةِ أَوْ تَفْرِيطُهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا (لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ) .مِنَ الْإِسْرَاعِ أَيْ:لَمْ يُقَدِّمْهُ نَسَبُهُ،يَعْنِي:لَمْ يُجْبِرْ نَقِيصَتَهُ لِكَوْنِهِ نَسِيبًا فِي قَوْمِهِ،إِذْ لَا يَحْصُلُ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّسَبِ بَلْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات:١٣] وَشَاهِدُ ذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ لَا أَنْسَابَ لَهُمْ يُتَفَاخَرُ بِهَا،بَلْ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مَوَالٍ،وَمَعَ ذَلِكَ هُمْ سَادَاتُ الْأُمَّةِ وَيَنَابِيعُ الرَّحْمَةِ وَذَوُو الْأَنْسَابِ الْعَلِيَّةِ الَّذِينَ لَيْسُوا كَذَلِكَ فِي مَوَاطِنِ جَهْلِهِمْ نَسْيًا مَنْسِيًّا،وَلِذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الدِّينِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ» " وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ،يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ائْتُونِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْمَالِكُمْ لَا بِأَنْسَابِكُمْ فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» " وَمَا نُقِلَ عَنْ أَبِي يَزِيدَ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ أَنَّ مُرِيدًا لَهُ تَتَبَّعَ خُطَاهُ مِنْ خَلْفِهِ،فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ قَائِلًا:وَاللَّهِ وَاللَّهِ لَوْ سَلَخْتَ جِلْدَ أَبِي يَزِيدَ وَلَبِسْتَهُ لَمْ تَنَلْ مِثْقَالَ خَرْدَلٍ مِنْ مَقَامَاتِهِ مَا لَمْ تَعْمَلْ عَمَلَهُ وَأَنْشَدَ:

مَا بَالُ نَفْسِكَ أَنْ تَرْضَى تُدَنِّسُهَا ...وَثَوْبُ جِسْمِكَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ...إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ" مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٨٦)

[2019] - صحيح البخاري (٤/ ١٧٠)(٣٤٦١)

(بَلِّغُوا عَنِّي):أَيِ:انْقُلُوا إِلَى النَّاسِ،وَأَفِيدُوهُمْ مَا أَمْكَنَكُمْ،أَوْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِمَّا سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي،وَمَا أَخَذْتُمُوهُ عَنِّي مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ،أَوْ تَقْرِيرٍ بِوَاسِطَةٍ أَوْ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ (وَلَوْ آيَةً) أَيْ:وَلَوْ كَانَ الْمُبَلَّغُ آيَةً وَهِيَ فِي اللُّغَةِ الْعَلَامَةُ الظَّاهِرَةُ.قَالَ زَيْنُ الْعَرَبِ:وَإِنَّمَا قَالَ " آيَةً " لِأَنَّهَا أَقَلُّ مَا يُفِيدُ فِي بَابِ التَّبْلِيغِ،وَلَمْ يَقُلْ حَدِيثًا لِأَنَّ ذَلِكَ يُفْهَمُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى لِأَنَّ الْآيَاتِ إِذَا كَانَتْ وَاجِبَةَ التَّبْلِيغِ مَعَ انْتِشَارِهَا،وَكَثْرَةِ حَمَلَتِهَا لِتَوَاتُرِهَا،وَتَكَفُّلِ اللَّهِ تَعَالَى بِحِفْظِهَا وَصَوْنِهَا عَنِ الضَّيَاعِ وَالتَّحْرِيفِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر:٩] فَالْحَدِيثُ مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ فِيهِ مِمَّا ذُكِرَ أَوْلَى بِالتَّبْلِيغِ،وَأَمَّا لِشِدَّةِ اهْتِمَامِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِنَقْلِ الْآيَاتِ لِبَقَائِهَا مِنْ سَائِرِ الْمُعْجِزَاتِ،وَلِمَسَاسِ الْحَاجَةِ إِلَى ضَبْطِهَا وَنَقْلِهَا إِذْ لَا بُدَّ مِنْ تَوَاتُرِ أَلْفَاظِهَا،وَالْآيَةُ مَا وُزِّعَتِ السُّورَةُ عَلَيْهَا اهـــ.

وَالثَّانِي:أَظْهَرُ كَمَا لَا يَخْفَى،وَقَالَ الْمُظْهِرُ:الْمُرَادُ بِالْآيَةِ الْكَلَامُ الْمُفِيدُ،نَحْوَ:مَنْ صَمَتَ نَجَا،وَالدِّينُ النَّصِيحَةُ،أَيْ:بَلِّغُوا عَنِّي أَحَادِيثِي،وَلَوْ كَانَتْ قَلِيلَةً.فَإِنْ قِيلَ:فَلِمَ قَالَ وَلَوْ آيَةً وَلَمْ يَقُلْ وَلَوْ حَدِيثًا مَعَ أَنَّهُ الْمُرَادُ؟ قُلْنَا:لِوَجْهَيْنِ،أَحَدُهُمَا:أَنَّهُ أَيْضًا دَاخِلٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُبَلِّغُهُمْ،وَثَانِيهِمَا:أَنَّ طِبَاعَ الْمُسْلِمِينَ مَائِلَةٌ إِلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَعَلُّمِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَنَشْرِهِ،وَلِأَنَّهُ قَدْ تَكَفَّلَ اللَّهُ بِحِفْظِهِ اهـــ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ الْكَلَامُ الْمُفِيدُ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ،وَإِنَّمَا اخْتِيرَ لَفْظُ الْآيَةِ لِشَرَفِهَا،أَوِ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْحُكْمُ الْمُوحَى إِلَيْهِ - ﷺ- وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْمَتْلُوَّةِ وَغَيْرِهَا بِحُكْمِ عُمُومِ الْوَحْيِ الْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ،أَوْ لِأَنَّ كُلَّ مَا صَدَرَ عَنْ صَدْرِهِ فَهُوَ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى رِسَالَتِهِ،فَإِنَّ ظُهُورَ مِثْلِ هَذِهِ الْعُلُومِ مِنَ الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَفِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ،مِنْهَا:التَّحْرِيضُ

عَلَى نَشْرِ الْعِلْمِ،وَمِنْهَا:جَوَازُ تَبْلِيغِ بَعْضِ الْحَدِيثِ كَمَا هُوَ عَادَةُ صَاحِبِ الْمَصَابِيحِ وَالْمَشَارِقِ وَلَا بَأْسَ بِهِ،إِذِ الْمَقْصُودُ تَبْلِيغُ لَفْظِ الْحَدِيثِ مُفِيدًا سَوَاءٌ كَانَ تَامًّا أَمْ لَا.(وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ) .الْحَرَجُ:الضِّيقُ وَالْإِثْمُ وَهَذَا لَيْسَ عَلَى مَعْنَى إِبَاحَةِ الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ،بَلْ دَفْعٌ لِتَوَهُّمِ الْحَرَجِ فِي التَّحْدِيثِ عَنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ صِحَّتُهُ وَإِسْنَادُهُ لِبُعْدِ الزَّمَانِ كَذَا فِي شَرْحِ السُّنَّةِ،وَتَبِعَهُ زَيْنُ الْعَرَبِ،وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُظْهِرُ وَهُوَ مُقَيَّدٌ بِمَا إِذَا لَمْ نَرَ كَذِبَ مَا قَالُوهُ عِلْمًا أَوْ ظَنًّا.قَالَ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ:وَوَجْهُ التَّوْفِيقِ بَيْنَ النَّهْيِ عَنِ الِاشْتِغَالِ بِمَا جَاءَ عَنْهُمْ،وَبَيْنَ التَّرْخِيصِ الْمَفْهُومِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّحَدُّثِ هَاهُنَا التَّحَدُّثُ بِقِصَصٍ مِنَ الْآيَاتِ الْعَجِيبَةِ،كَحِكَايَةِ عِوَجِ بْنِ عُنُقٍ،وَقَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْفُسَهُمْ فِي تَوْبَتِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ،وَتَفْصِيلِ الْقِصَصِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ،وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّهْيِ هُنَاكَ النَّهْيُ عَنْ نَقْلِ أَحْكَامِ كُتُبِهِمْ لِأَنَّ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ وَالْأَدْيَانِ مَنْسُوخَةٌ بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا – ﷺ.اهـ.لَكِنْ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ:وَمَا رُوِيَ عَنْ عِوَجٍ أَنَّهُ رَفَعَ جَبَلًا قَدْرَ عَسْكَرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُمْ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةِ أَلْفٍ لِيَضَعَهُ عَلَيْهِمْ،فَنَقَرَهُ هُدْهُدٌ بِمِنْقَارِهِ وَثَقَبَهُ وَوَقَعَ فِي عُنُقِهِ،فَكَذِبٌ لَا أَصْلَ لَهُ كَذَا نَقَلَهُ الْأَبْهَرِيُّ،وَرَوَى الْفَقِيهُ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ بِإِسْنَادِهِ فِي تَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ– أَنَّهُ قَالَ:" «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ فِيهِمْ أَعَاجِيبُ» " ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ أَيْ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– فَقَالَ:«خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَقْبَرَةٍ فَقَالُوا:لَوْ صَلَّيْنَا ثُمَّ دَعَوْنَا رَبَّنَا حَتَّى يُخْرِجَ اللَّهُ لَنَا بَعْضَ الْمَوْتَى فَيُخْبِرَنَا عَنِ الْمَوْتِ فَفَعَلُوا ذَلِكَ،ثُمَّ دَعَوْا رَبَّهُمْ،فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذَا رَجُلٌ قَدْ أَطْلَعَ رَأْسَهُ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ أَسْوَدُ خَلَا شَيْبًا أَيْ بَيَاضُ رَأْسِهِ يُخَالِطُ سَوَادَهُ وَقَالَ:يَا هَؤُلَاءِ مَا أَرَدْتُمْ،فَوَاللَّهِ لَقَدْ مُتُّ مُنْذُ تِسْعِينَ سَنَةً،فَمَا ذَهَبَتْ مَرَارَةُ الْمَوْتِ مِنِّي حَتَّى كَأَنَّهُ الْآنَ،فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُعِيدَنِي كَمَا كُنْتُ،وَكَانَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ» .(وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ)،قَالَ الْكِرْمَانِيُّ:مَعْنَى كَذَبَ عَلَيْهِ نَسَبَ الْكَلَامَ كَاذِبًا إِلَيْهِ سَوَاءٌ كَانَ عَلَيْهِ أَوْ لَهُ اهـ.

وَبِهَذَا يَنْدَفِعُ زَعْمُ مَنْ جَوَّزَ وَضْعَ الْأَحَادِيثِ لِلتَّحْرِيضِ عَلَى الْعِبَادَةِ،كَمَا وَقَعَ لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ الْجَهَلَةِ فِي وَضْعِ أَحَادِيثَ فِي فَضَائِلِ السُّوَرِ،وَفِي الصَّلَاةِ اللَّيْلِيَّةِ وَالنَّهَارِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ تَعْدِيَتَهُ بِ " عَلَيَّ " لِتَضْمِينِ مَعْنَى الِافْتِرَاءِ (مُتَعَمِّدًا):نُصِبَ عَلَى الْحَالِ وَلَيْسَ حَالًا مُؤَكِّدَةً،لِأَنَّ الْكَذِبَ قَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ،وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى عَدَمِ دُخُولِ النَّارِ فِيهِ (فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ):يُقَالُ:تَبَوَّأَ الدَّارَ إِذَا اتَّخَذَهَا مَسْكَنًا وَهُوَ أَمْرٌ مَعْنَاهُ الْخَبَرُ يَعْنِي:فَإِنَّ اللَّهَ يُبَوِّئُهُ وَتَعْبِيرُهُ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ لِلْإِهَانَةِ،وَلِذَا قِيلَ:الْأَمْرُ فِيهِ لِلتَّهَكُّمِ وَالتَّهْدِيدِ،إِذْ هُوَ أَبْلَغُ فِي التَّغْلِيظِ وَالتَّشْدِيدِ مِنْ أَنْ يُقَالَ:كَانَ مَقْعَدُهُ فِي النَّارِ،وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ذَلِكَ كَبِيرَةً،بَلْ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجُوَيْنِيُّ:إِنَّهُ كَفَرَ يَعْنِي لِأَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الِاسْتِخْفَافُ بِالشَّرِيعَةِ،وَيُؤْخَذُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ قَرَأَ حَدِيثَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَلْحَنُ فِيهِ،سَوَاءٌ كَانَ فِي أَدَائِهِ أَوْ إِعْرَابِهِ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ،لِأَنَّهُ بِلَحْنِهِ كَاذِبٌ عَلَيْهِ،وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ نَقَلَ حَدِيثًا وَعَلِمَ كَذِبَهُ يَكُونُ مُسْتَحِقًّا لِلنَّارِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ،لَا مَنْ نَقَلَ عَنْ رَاوٍ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،أَوْ رَأَى فِي كِتَابٍ وَلَمْ يَعْلَمْ كَذِبَهُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:فِيهِ إِيجَابُ التَّحَرُّزِ عَنِ الْكَذِبِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– بِأَنْ لَا يُحَدِّثَ عَنْهُ إِلَّا بِمَا يَصِحُّ بِنَقْلِ الْإِسْنَادِ.قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَمَا أَوْهَمَهُ كَلَامُ شَارِحٍ مِنْ حُرْمَةِ التَّحْدِيثِ بِالضَّعِيفِ مُطْلَقًا مَرْدُودٌ اهـ.وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُرَادَ الطِّيبِيِّ بِقَوْلِهِ " إِلَّا بِمَا يَصِحُّ " – الصِّحَّةُ اللُّغَوِيَّةُ الَّتِي بِمَعْنَى الثُّبُوتِ لَا الِاصْطِلَاحِيَّةُ وَإِلَّا لَأَوْهَمَ حُرْمَةَ التَّحْدِيثِ بِالْحَسَنِ أَيْضًا وَلَا يَحْسُنُ ذَلِكَ،وَلَا يُظَنُّ بِهِ هَذَا،إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَكْثَرَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى الْفُرُوعِ حِسَانٌ،وَمِنَ الْمُقَرَّرِ أَنَّ الْحَدِيثَ الضَّعِيفَ يُعْمَلُ بِهِ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ،فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُ كَلَامِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ،وَكَلَامُهُ أَيْضًا مُشْعِرٌ بِذَلِكَ إِذْ لَمْ يَقُلْ بِنَقْلِ الْإِسْنَادِ الصَّحِيحِ،وَلَكِنَّهُ مُوهِمٌ أَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ ذِكْرِ الْإِسْنَادِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ،لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ لَا يُحَدِّثُ عَنْهُ إِلَّا بِمَا ثَبَتَ عَنْهُ،وَذَلِكَ الثُّبُوتُ إِنَّمَا يَكُونُ بِنَقْلِ الْإِسْنَادِ،وَفَائِدَتُهُ أَنَّهُ لَوْ رَوَى عَنْهُ مَا يَكُونُ مَعْنَاهُ صَحِيحًا لَكِنْ لَيْسَ لَهُ إِسْنَادٌ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحَدِّثَ بِهِ عَنْهُ،وَاللَّامُ فِي الْإِسْنَادِ لِلْعَهْدِ،أَيِ:الْإِسْنَادِ الْمُعْتَبَرِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ،وَإِلَّا فَقَدْ يَكُونُ لِلْحَدِيثِ الْمَوْضُوعِ إِسْنَادٌ أَيْضًا.قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:الْإِسْنَادُ مِنَ الدِّينِ وَلَوْلَا الْإِسْنَادُ

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ،قَالَ:«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى،كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَـــنْ تَبِعَهُ،لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا،وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ،كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَـــامِ مَـــنْ تَبِعَهُ،لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» رواهُ مسلمٌ[٢٠٢٠] .

لَقَالَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ.قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَلِكَوْنِ الْإِسْنَادِ يُعْلَمُ بِهِ الْمَوْضُوعُ مَنْ غَيْرِهِ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ.قِيلَ:" بَلِّغُوا عَنِّي " يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا:اتِّصَالُ السَّنَدِ بِنَقْلِ الثِّقَةِ عَنْ مَثَلِهِ إِلَى مُنْتَهَاهُ لِأَنَّ التَّبْلِيغَ مِنَ الْبُلُوغِ وَهُوَ إِنْهَاءُ الشَّيْءِ إِلَى غَايَتِهِ.وَالثَّانِي:أَدَاءُ اللَّفْظِ كَمَا سُمِعَ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ،وَالْمَطْلُوبُ فِي الْحَدِيثِ كِلَا الْوَجْهَيْنِ لِوُقُوعِ بَلِّغُوا مُقَابِلًا لِقَوْلِهِ:«حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٨٠)

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:وجوب تبليغ كلٍّ ما تَحَمَّله العالم من كلام رسول الله – ﷺ – على قدر ما عنده،كثيراً كان أو قليلاً،ولو آية واحدة،أو حديثاً واحداً،لقوله – ﷺ –:" بلغوا عني ولو آية ".ثانياً:أنه لا مانع من رواية الأخبار،وأخذها عن بني إسرائيل من اليهود والنصارى،للموعظة والاعتبار.فيما لم نتأكد من أنه كذب وباطل لمخالفته للقرآن أو الحديث،أما الإسرائيليات التي نقطع بكذبها فإنه لا يجوز لنا روايتها إلاّ لتكذيبها وبيان بطلانها،قال الشافعي:من المعلوم أن النبي – ﷺ – لا يجيز التحدث بالكذب،فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه وهو نظير قوله:" إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ".والحاصل أن الأخبار الإسرائيلية ثلاثة أنواع:الأول:ما وافق القرآن والسنة موافقة صريحة،فهذا مما ينبغي روايته وتبليغه لأنه حق وصدق لا شك فيه.الثاني:ما لم يرد في ذلك في الكتاب أو السنة ولا يعارضهما،فهذا يحتمل الصدق والكذب كسائر الأخبار العادية،ويجوز روايته للموعظة والاعتبار،شريطة أن لا يؤخذ على أنه قضية مسلمة،أو يستدل به على حكم شرعي،أو يقدَّم على حقيقة من الحقائق العلمية الثابتة.الثالث:ما عارض الكتاب أو السنة،فهو كذب محض،لا تجوز روايته إلاّ لتفنيده وتكذيبه،وذلك لما فيه من تكذيب لله ورسوله.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٢١٣)

[٢٠٢٠] – صحيح مسلم (٤/ ٢٠٦٠)١٦ – (٢٦٧٤)

(مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى):قَالَ الطِّيبِيُّ:الْهُدَى إِمَّا الدَّلَالَةُ الْمُوصِلَةُ أَوْ مُطْلَقُ الدَّلَالَةِ،وَالْمُرَادُ هُنَا مَا يُهْدَى بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَهُوَ بِحَسَبِ التَّنْكِيرِ شَائِعٌ فِي جِنْسِ مَا يُقَالُ هُدًى أَعْظَمُهُ هُدَى مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا،وَأَدْنَاهُ هُدَى مَنْ دَعَا إِلَى إِمَاطَةِ الْأَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ لَهُ،أَيْ:لِلدَّاعِي (مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ):فَعَمِلَ بِدَلَالَتِهِ أَوِ امْتَثَلَ أَمْرَهُ (لَا يَنْقُصُ):بِضَمِّ الْقَافِ (ذَلِكَ):إِشَارَةٌ إِلَى مَصْدَرِ كَانَ،كَذَا قِيلَ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى الْأَجْرِ (مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا) .

قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:هُوَ مَفْعُولٌ بِهِ أَوْ تَمْيِيزٌ بِنَاءً عَلَى أَنَّ النَّقْصَ يَأْتِي لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا اهـــ.وَالظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ شَيْئًا مَفْعُولٌ بِهِ أَيْ شَيْئًا مِنْ أُجُورِهِمْ أَوْ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ أَيْ شَيْئًا مِنَ النَّقْصِ (وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ)،أَيْ:مَنْ أَرْشَدَ غَيْرَهُ إِلَى فِعْلِ إِثْمٍ وَإِنْ قَلَّ أَوْ أَمَرَهُ بِهِ أَوْ أَعَانَهُ عَلَيْهِ (كَانَ عَلَيْهِ):وَفِي نُسْخَةٍ [لَهُ]:فَاللَّامُ لِلِاخْتِصَاصِ أَوْ لِلْمُشَاكَلَةِ مِنَ الْإِثْمِ (مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ،لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا) .

قَالَ الْقَاضِي:أَفْعَالُ الْعِبَادِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُوجِبَةً لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ إِلَّا أَنَّ عَادَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ جَرَتْ بِرَبْطِهَا بِهَا ارْتِبَاطَ الْمُسَبَّبَاتِ بِالْأَسْبَابِ،وَفِعْلُ الْعَبْدِ مَا لَهُ تَأْثِيرٌ فِي صُدُورِهِ بِوَجْهٍ،فَكَمَا يَتَرَتَّبُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عَلَى مَا يُبَاشِرُهُ يَتَرَتَّبُ أَيْضًا عَلَى مَا هُوَ مُسَبَّبٌ عَنْ فِعْلِهِ كَالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَالْبَحْثِ عَلَيْهِ،وَلَمَّا كَانَتِ الْجِهَةُ الَّتِي اسْتَوْجَبَ بِهَا الْمُسَبِّبُ الْأَجْرَ غَيْرَ الْجِهَةِ الَّتِي اسْتَوْجَبَ بِهَا الْمُبَاشِرُ لَمْ يَنْقُصْ أَجْرُهُ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا اهـــ.

وعن عَبْد اللَّه بْنِ ضَمْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُــولُ:«أَلَــا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ» رواهُ الترمذيُّ[٢٠٢١].

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ لَهُ – ﷺ – مِنْ مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ بِحَسَبِ تَضَاعُفِ أَعْمَالِ أُمَّتِهِ بِمَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحَدُّ.وَكَذَا السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،وَكَذَا بَقِيَّةُ السَّلَفِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخَلَفِ،وَكَذَا الْعُلَمَاءُ الْمُجْتَهِدُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَتْبَاعِهِمْ،وَبِهِ يُعْرَفُ فَضْلُ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَى الْمُتَأَخِّرِينَ – فِي كُلِّ طَبَقَةٍ وَحِينٍ.قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:تَنْبِيهٌ:لَوْ تَابَ الدَّاعِي لِلْإِثْمِ وَبَقِيَ الْعَمَلُ بِهِ فَهَلْ يَنْقَطِعُ إِثْمُ دَلَالَتِهِ بِتَوْبَتِهِ لِأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا أَوْ لَا لِأَنَّ شَرْطَهَا رَدُّ الظُّلَامَةِ وَالْإِقْلَاعِ وَمَا دَامَ الْعَمَلُ بِدَلَالَتِهِ مَوْجُودًا فَالْفِعْلُ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ،فَكَأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ وَلَمْ يُقْلِعْ؟ كُلٌّ مُحْتَمَلٌ،وَلَمْ أَرَ فِي ذَلِكَ نَقْلًا وَالْمُنْقَدِحُ الْآنَ الثَّانِي اهــ.وَالْأَظْهَرُ الْأَوَّلُ وَإِلَّا فَيَلْزَمُ أَنْ نَقُولَ بِعَدَمِ صِحَّةِ تَوْبَتِهِ،وَهَذَا لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ،ثُمَّ رَدُّ الْمَظَالِمِ مُقَيَّدٌ بِالْمُمْكِنِ،وَإِقْلَاعُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ حَتْمًا،وَأَيْضًا اسْتِمْرَارُ ثَوَابِ الِاتِّبَاعِ مَبْنِيٌّ عَلَى اسْتِدَامَةِ رِضَا الْمَتْبُوعِ بِهِ،فَإِذَا تَابَ وَنَدِمَ انْقَطَعَ،كَمَا أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى الْهُدَى إِنْ وَقَعَ فِي الرَّدَى – نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ – انْقَطَعَ ثَوَابُ الْمُتَابَعَةِ لَهُ،وَأَيْضًا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ دُعَاةً إِلَى الضَّلَالَةِ،وَقُبِلَ مِنْهُمُ الْإِسْلَامُ لِمَا أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ،فَالتَّوْبَةُ كَذَلِكَ بَلْ أَقْوَى،فَإِنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٤٢)

[٢٠٢١] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٦١)(٢٣٢٢) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٧٧)(٤١١٢) وسنن الدارمي (١/ ٣٥٠)(٣٣١) صحيح لغيره

(" إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ") أَيْ:مَبْعُودَةٌ مِنَ اللَّهِ لِكَوْنِهَا مُبْعَدَةً عَنِ اللَّهِ (" مَلْعُونٌ مَا فِيهَا ") أَيْ:مِمَّا يَشْغَلُ عَنِ اللَّهِ (" إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ ") بِالرَّفْعِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ.(" وَمَا وَالَاهُ ") أَيْ:أَحَبَّهُ اللَّهُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَأَفْعَالِ الْقُرَبِ،أَوْ مَعْنَاهُ مَا وَالَى ذِكْرَ اللَّهِ أَيْ:قَارَبَهُ مَنْ ذَكَرَ خَيْرًا وَتَابَعَهُ مِنِ اتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ،لِأَنَّ ذِكْرَهُ يُوجِبُ ذَلِكَ.قَالَ الْمُظْهِرُ أَيْ:مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْمُوَالَاةُ الْمَحَبَّةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ،وَقَدْ تَكُونُ مِنْ وَاحِدٍ،وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا يَعْنِي مَلْعُونٌ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ،وَمَا أَحَبَّهُ اللَّهُ مِمَّا يَجْرِي وَالدُّنْيَا وَمَا سِوَاهُ مَلْعُونٌ.وَقَالَ الْأَشْرَفُ:هُوَ مِنَ الْمُوَالَاةِ وَهِيَ الْمُتَابَعَةُ،وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِمَا يُوَالِي ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى طَاعَتَهُ وَاتِّبَاعَ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابَ نَهْيِهِ.(" وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ "):أَوْ بِمَعْنَى الْوَاوِ أَوْ لِلتَّنْوِيعِ،فَيَكُونُ الْوَاوَانِ بِمَعْنَى " أَوْ " قَالَ الْأَشْرَفُ قَوْلُهُ:وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ فِي أَكْثَرِ النُّسَخِ مَرْفُوعٌ،وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ،فَإِنَّهُ مَنْصُوبٌ مُسْتَثْنًى مِنَ الْمُوجَبِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:هُوَ فِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ هَكَذَا وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ وَبِالرَّفْعِ،وَكَذَا فِي جَامِعِ الْأُصُولِ إِلَّا أَنَّ بَدَلَ أَوْ فِيهِ الْوَاوُ،وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ:أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا بِالنَّصْبِ مَعَ أَوْ مُكَرَّرًا،وَالنَّصْبُ فِي الْقَرَائِنِ الثَّلَاثِ هُوَ الظَّاهِرُ وَالرَّفْعُ فِيهَا عَلَى التَّأْوِيلِ،كَأَنَّهُ قِيلَ:الدُّنْيَا مَذْمُومَةٌ لَا يُحْمَدُ فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَعَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ.قَالَ فِي مُخْتَصَرِ الْإِحْيَاءِ:الدُّنْيَا أَدْنَى الْمَنْزِلَتَيْنِ،وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ دُنْيَا وَهِيَ مَعْبَرَةٌ إِلَى الْآخِرَةِ،وَالْمَهْدُ هُوَ الْمِيلُ الْأَوَّلُ،وَاللَّحْدُ هُوَ الْمِيلُ الثَّانِي وَبَيْنَهُمَا مَسَافَةٌ هِيَ الْقَنْطَرَةُ،وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ أَعْيَانٍ مَوْجُودَةٍ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا حَظٌّ،وَلَهُ فِي إِصْلَاحِهَا شُغْلٌ،وَيَعْنِي بِالْأَعْيَانِ الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَالْمَعَادِنِ،وَيَعْنِي بِالْحَظِّ حُبَّهَا فَيَنْدَرِجُ فِيهَا جَمِيعُ الْمُهْلِكَاتِ الْبَاطِنَةِ كَالرِّيَاءِ وَالْحِقْدِ وَغَيْرِهِمَا.وَنَعْنِي بِقَوْلِنَا فِي إِصْلَاحِهَا شُغْلٌ أَنَّهُ يُصْلِحُهَا بِحَظٍّ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ دُنْيَوِيٌّ أَوْ أُخْرَوِيٌّ،فَيَنْدَرِجُ فِيهِ الْحِرَفُ الصِّنَاعَاتُ،وَإِذَا عَرَفْتَ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا فَدُنْيَاكَ مَا لَكَ فِيهِ لَذَّةٌ فِي الْعَاجِلِ،وَهِيَ مَذْمُومَةٌ،فَلَيْسَتْ وَسَائِلُ الْعِبَادَاتِ مِنَ الدُّنْيَا كَأَكْلِ الْخُبْزِ مَثَلًا لِلتَّقَوِّي عَلَيْهَا،وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ لِقَوْلِهِ:الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ،وَقَوْلُهُ ﷺ:" «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ وَمَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ مِنْهَا» " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا أَدَّى إِلَى ذِكْــرِ اللَّهِ،وَالْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ وَسَائِرُ النَّاسِ هَمَجٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ "[2022]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَــبِيلِ اللَّــهِ حَتَّى يَرْجِعَ» رواهُ الترمذيُّ[2023].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا عَالِمٌ وَالْآخَرُ عَابِدٌ،فَقَالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ:«فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ

اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا:إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ:جُزْءٌ لِلْمُؤْمِنِ،وَجُزْءٌ لِلْمُنَافِقِ،وَجُزْءٌ لِلْكَافِرِ،فَالْمُؤْمِنُ يَتَزَوَّدُ،وَالْمُنَافِقُ يَتَزَيَّنُ،وَالْكَافِرُ يَتَمَتَّعُ.قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:وَكَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ يُكْتَفَى بِقَوْلِهِ:وَمَا وَالَاهُ لِاحْتِوَائِهِ عَلَى جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ وَالْفَاضِلَاتِ وَمُسْتَحْسَنَاتِ الشَّرْعِ،ثُمَّ بَيَّنَهُ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ بِقَوْلِهِ:وَالْعِلْمَ تَخْصِيصًا بَعْدَ التَّعْمِيمِ دَلَالَةً عَلَى فَضْلِهِ،فَعَدَلَ إِلَى قَوْلِهِ:وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِمَا صَرِيحًا بِخِلَافِ ذَلِكَ التَّرْكِيبِ،فَإِنَّ دَلَالَتَهُ عَلَيْهِ بِالِالْتِزَامِ،وَلِيُؤْذِنَ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ سِوَى الْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ هَمَجٌ،وَلِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى بِالْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ الْجَامِعُونَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ،فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْجُهَلَاءَ وَالْعَالِمَ الَّذِي لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ،وَمَنْ تَعَلَّمَ عِلْمَ الْفُضُولِ وَمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ.وَفِي الْحَدِيثِ:أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ رَأْسُ كُلِّ عِبَادَةٍ وَرَأْسُ كُلِّ سَعَادَةٍ،بَلْ هُوَ كَالْحَيَاةِ لِلْأَبْدَانِ وَالرُّوحِ لِلْإِنْسَانِ،وَهَلْ لِلْإِنْسَانِ عَنِ الْحَيَاةِ غِنًى،وَهَلْ لَهُ عَنِ الرُّوحِ مَعْدَلٌ،وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ بِهِ بَقَاءُ الدُّنْيَا وَقِيَامُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ قَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ اللَّهُ اللَّهُ» " فَالْحَدِيثُ إِذًا مِنْ بَدَائِعِ الْحِكَمِ،وَجَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي خُصَّ بِهَا هَذَا النَّبِيُّ الْمُكَرَّمُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،لِأَنَّهُ دَلَّ بِالْمَنْطُوقِ عَلَى جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ،وَبِالْمَفْهُومِ عَلَى رَذَائِلِهَا.(رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٤٠)

[2022] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١١٣)(٧٣٢) صحيح

[2023] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٩)(٢٦٤٧) والمعجم الصغير للطبراني (١/ ٢٣٤)(٣٨٠) والمدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٢٦٤)(٣٧١) والأحاديث المختارة = المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (٦/ ١٢٤)(٢١١٩)

مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣٠٢) حسن

(مَنْ خَرَجَ) أَيْ:مِنْ بَيْتِهِ أَوْ بَلَدِهِ (فِي طَلَبِ الْعِلْمِ):أَيِ الشَّرْعِيِّ فَرْضِ عَيْنٍ أَوْ كِفَايَةٍ (فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ:فِي الْجِهَادِ لِمَا أَنَّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ إِحْيَاءِ الدِّينِ وَإِذْلَالِ الشَّيْطَانِ وَإِتْعَابِ النَّفْسِ كَمَا فِي الْجِهَادِ (حَتَّى يَرْجِعَ) أَيْ:إِلَى بَيْتِهِ،وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ بَعْدَ الرُّجُوعِ لَهُ دَرَجَةٌ أَعْلَى لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ وَارِثُ الْأَنْبِيَاءِ فِي تَكْمِيلِ النَّاقِصِينَ.قَالَ تَعَالَى:{فَلَوْلَا نَفَرَ} [التوبة:١٢٢] أَيْ خَرَجَ {مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} [التوبة:١٢٢] أَيْ:بَعْضُهُمْ {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة:١٢٢]

وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ» [2024]

وعَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ،قَالَ:قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ المَدِينَةِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ،وَهُوَ بِدِمَشْقَ فَقَالَ:مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي؟ فَقَالَ:حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ:لَا،قَالَ:أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ:لَا،قَالَ:مَا جِئْتُ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الحَدِيثِ؟ قَالَ:فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ،وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ،وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ،وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ،كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ،إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ،إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ،فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» [2025]

[2024] - المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٣٣)(٧٩١١) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٠)(٢٦٨٥) صحيح لغيره

قَالَ:(ذُكِرَ):عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَيْ:وُصِفَ (لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺرَجُلَانِ) أَيْ:بِوَصْفِ الْكَمَالِ وَهُوَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَمْثِيلًا وَأَنْ يَكُونَا مَوْجُودَيْنِ فِي الْخَارِجِ قَبْلَ زَمَانِهِ أَوْ فِي أَوَانِهِ (أَحَدُهُمَا عَابِدٌ) أَيْ:كَامِلٌ فِي الْعِبَادَةِ (وَالْآخَرُ عَالِمٌ) أَيْ:كَامِلٌ بِالْعِلْمِ (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-):لَا يَسْتَوِيَانِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا كَامِلًا فِي مَقَامِهِ (فَضْلُ الْعَالِمِ) بِالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ مَعَ الْقِيَامِ بِفَرَائِضِ الْعُبُودِيَّةِ (عَلَى الْعَابِدِ) أَيْ:عَلَى الْمُتَجَرِّدِ لِلْعِبَادَةِ بَعْدَ تَحْصِيلِ قَدْرِ الْفَرْضِ مِنَ الْعُلُومِ (كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ):وَفِيهِ مُبَالَغَةٌ لَا تَخْفَى فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ:كَفَضْلِي عَلَى أَعْلَاكُمْ لَكَفَى فَضْلًا وَشَرَفًا،فَيَكُونُ نَظِيرَ قَوْلِهِ - ﷺ-:" وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ " مَعَ إِفَادَةِ التَّوَاضُعِ فِي الثَّانِي،وَالظَّاهِرُ أَنَّ اللَّامَ فِيهِمَا لِلْجِنْسِ فَالْحُكْمُ عَامٌّ،وَيُحْتَمَلُ الْعَهْدُ فَغَيْرُهُمَا يُؤْخَذُ بِالْمُقَايَسَةِ.(ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-:(إِنَّ اللَّهَ):اسْتِئْنَافٌ فِيهِ تَعْلِيلٌ (وَمَلَائِكَتَهُ) أَيْ:حَمَلَةَ الْعَرْشِ (وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ):تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ (وَالْأَرْضِ) أَيْ:أَهْلَ الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ (حَتَّى النَّمْلَةَ):بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّ حَتَّى عَاطِفَةٌ،وَبِالْجَرِّ عَلَى أَنَّهَا جَارَّةٌ،وَبِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهَا ابْتِدَائِيَّةٌ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ (فِي جُحْرِهَا):بِضَمِّ الْجِيمِ وَسُكُونِ الْحَاءِ،أَيْ:ثُقْبِهَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَصَلَاتُهُ بِحُصُولِ الْبَرَكَةِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ (وَحَتَّى الْحُوتَ):كَمَا تَقَدَّمَ،وَهُمَا غَايَتَانِ مُسْتَوْعِبَتَانِ لِدَوَابِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ،وَخُصَّتِ النَّمْلَةُ مِنْ دَوَابِّ الْبَرِّ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ الْحَيَوَانَاتِ ادِّخَارًا لِلْقُوتِ فِي جُحْرِهَا فَهِيَ أَحْوَجُ إِلَى بَرَكَتِهِمْ مِنْ غَيْرِهَا،وَتَقَدَّمَ وَجْهُ تَخْصِيصِ الْحُوتِ مِنْ دَوَابِّ الْبَحْرِ،وَقِيلَ:وَجْهُ تَخْصِيصِهِمَا بِالذِّكْرِ الْإِشَارَةُ إِلَى جِنْسِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ،وَقِيلَ:إِلَى الْجِنْسِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ الْقَتْلُ وَغَيْرِهِ (لَيُصَلُّونَ):فِيهِ تَغْلِيبٌ لِلْعُقَلَاءِ عَلَى غَيْرِهِمْ،أَيْ:يَدْعُونَ بِالْخَيْرِ (عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ):قِيلَ:أَرَادَ بِالْخَيْرِ هُنَا عِلْمَ الدِّينِ وَمَا بِهِ نَجَاةُ الرَّجُلِ،وَلَمْ يُطْلِقِ الْمُعَلِّمَ لِيُعْلَمَ أَنَّ اسْتِحْقَاقَ الدُّعَاءِ لِأَجْلِ تَعْلِيمِ عِلْمٍ مُوصِلٍ إِلَى الْخَيْرِ اهـ.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى وَجْهِ الْأَفْضَلِيَّةِ بِأَنَّ نَفْعَ الْعِلْمِ مُتَعَدٍّ وَنَفْعَ الْعِبَادَةِ قَاصِرٌ،مَعَ أَنَّ الْعِلْمَ فِي نَفْسِهِ فَرْضٌ،وَزِيَادَةَ الْعِبَادَةِ نَافِلَةٌ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٩٨)

[2025] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٨)(٢٦٨٢) صحيح لغيره

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ،قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ،فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ:إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي،أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ،قَالَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ،وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ،وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ،وَمَنْ فِي الْأَرْضِ،وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ،وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ،كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ،وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ،وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا،وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ،فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» رواهُ أبو داود[٢٠٢٦].

(قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ) :بِكَسْرِ الدَّالِ وَفَتْحِ الْمِيمِ وَيُكْسَرُ أَيِ:الشَّامِ (فَجَاءَهُ) أَيْ:أَبَا الدَّرْدَاءِ (رَجُلٌ) أَيْ:مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ (فَقَالَ:يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ!) :يُقْرَأُ بِالْهَمْزَةِ بَعْدَ حَرْفِ النِّدَاءِ وَلَا يُكْتَبُ رَسْمًا (إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ - ﷺ -) :قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:كَرِهَ الشَّافِعِيُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَرَسُولِ غَيْرِهِ،وَلَا يَرِدُ عَلَيْهِ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْآيَةَ.لِأَنَّ خِطَابَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ تَشْرِيفٌ لَهُ بِأَيِّ لَفْظٍ كَانَ،وَلَهُ تَعَالَى أَنْ يُخَاطِبَ عَبِيدَهُ بِمَا شَاءَ وَمِنْ ثَمَّ أُخِذَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور:٦٣] أَنَّهُ يَحْرُمُ نِدَاؤُهُ بِاسْمِهِ كَ " يَا مُحَمَّدُ "،أَوْ بِكُنْيَتِهِ كَ " يَا أَبَا الْقَاسِمِ ".قَالَ:وَإِنَّمَا يُنَادَى بِنَحْوِ:يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ اهـ.وَفِيهِ:أَنَّ الْقَرِينَةَ الْمَانِعَةَ مِنْ إِرَادَةِ الْإِشْرَاكِ قَائِمَةٌ،فَإِنَّهُ لَا يُفْهَمُ بَلْ لَا يُتَوَهَّمُ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ غَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَنَحْوِهِ لَا سِيَّمَا إِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ - ﷺ - (لِحَدِيثٍ) أَيْ:لِأَجْلِ تَحْصِيلِ حَدِيثٍ (بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ) أَيْ:ذَلِكَ الْحَدِيثَ (عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -)،وَهُوَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَمِعَهُ إِجْمَالًا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَمِعَ الْحَدِيثَ،لَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ لِإِفَادَةِ الْعِلْمِ وَزِيَادَةِ يَقِينِهِ أَوْ لِعُلُوِّ الْإِسْنَادِ فَإِنَّهُ مِنَ الدِّينِ (مَا جِئْتُ) :إِلَى الشَّامِ (لِحَاجَةٍ) :أُخْرَى،غَيْرَ أَنْ أُسْمِعَكَ الْحَدِيثَ،ثُمَّ تَحْدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ بِمَا حَدَّثَهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَطْلُوبَ الرَّجُلِ بِعَيْنِهِ أَوْ يَكُونَ بَيَانًا أَنَّ سَعْيَهُ مَشْكُورٌ عِنْدَ اللَّهِ،وَلَمْ يَذْكُرْ هُنَا مَا هُوَ مَطْلُوبُهُ،وَالْأَوَّلُ أَغْرَبُ،وَالثَّانِي أَقْرَبُ (قَالَ) أَيْ:أَبُو الدَّرْدَاءِ (فَإِنِّي) أَيْ:إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنِّي (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ:(مَنْ سَلَكَ)

[٢٠٢٦] - سنن أبي داود (٣/ ٣١٧)(٣٦٤١) صحيح

أَيْ:دَخَلَ أَوْ مَشَى،(طَرِيقًا) أَيْ:قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا (يَطْلُبُ فِيهِ) أَيْ:فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ أَوْ فِي ذَلِكَ الْمَسْلَكِ أَوْ فِي سُلُوكِهِ (عِلْمًا) :قَالَ الطِّيبِيُّ:وَإِنَّمَا أَطْلَقَ الطَّرِيقَ وَالْعِلْمَ لِيَشْمَلَا فِي جِنْسِهِمَا أَيَّ طَرِيقٍ كَانَ مِنْ مُفَارَقَةِ الْأَوْطَانِ وَالضَّرْبِ فِي الْبُلْدَانِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ كَمَا سَبَقَ،وَأَيَّ عِلْمٍ كَانَ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا رَفِيعًا أَوْ غَيْرَ رَفِيعٍ.وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ عَنِ الثَّوْرِيِّ:مَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ،قِيلَ لَهُ:لَيْسَ لَهُمْ نِيَّةٌ.قَالَ:طَلَبُهُمْ لَهُ نِيَّةٌ،أَيْ:سَبَبُهَا،وَلِذَا قَالَ بَعْضُهُمْ:طَلَبْنَا الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ فَأَبَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ،وَعَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ اهـ.لِأَنَّهُ إِمَّا فَرْضُ عَيْنٍ أَوْ فَرْضُ كِفَايَةٍ،وَهُمَا أَفْضَلُ مِنَ النَّافِلَةِ.وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ:الْعِلْمُ الْحِكْمَةُ وَهُوَ نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَيْسَ بِكَثْرَةِ الْمَسَائِلِ اهـ.وَلَعَلَّهُ يُشِيرُ إِلَى مَعْنَى الْآيَةِ:{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ} [البقرة:٢٦٩] " سَلَكَ اللَّهُ بِهِ ":الضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ عَائِدٌ إِلَى " مَنْ " وَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ،أَيْ:جَعَلَهُ سَالِكًا وَوَفَّقَهُ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ،وَقِيلَ:عَائِدٌ إِلَى الْعِلْمِ وَالْبَاءُ لِلسَّبَبِيَّةِ،وَسَلَكَ بِمَعْنَى سَهَّلَ،وَالْعَائِدُ إِلَى " مَنْ " مَحْذُوفٌ،وَالْمَعْنَى سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِسَبَبِ الْعِلْمِ (طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ) :فَعَلَى الْأَوَّلِ سَلَكَ مِنَ السُّلُوكِ،وَعَلَى الثَّانِي مِنَ السَّلْكِ،وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} [الجن:١٧] قِيلَ:عَذَابًا مَفْعُولٌ ثَانٍ،وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ نِسْبَةُ سَلَكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى طَرِيقِ الْمُشَاكَلَةِ كَذَا قَالَهُ الطِّيبِيُّ،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ طُرُقَ الْجَنَّةِ كَثِيرَةٌ،وَكُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِهَا،وَطُرُقُ الْعِلْمِ أَقْرَبُ الطُّرُقِ إِلَيْهَا وَأَعْظَمُ اهـ.

قُلْتُ:وَالْأَظْهَرُ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ طَرِيقٌ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا يُسْتَفَادُ مِنْ تَنْكِيرِهِمَا،وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ طُرُقَ الْجَنَّةِ مَحْصُورَةٌ فِي طُرُقِ الْعِلْمِ،فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا يُتَصَوَّرُ بِدُونِ الْعِلْمِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ،فَقَوْلُ الصُّوفِيَّةِ الطُّرُقُ إِلَى اللَّهِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِ الْمَخْلُوقَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمَعْرِفَةِ وَهِيَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِلْمِ،وَلِأَنَّ طَرِيقَ غَيْرِ الْعِلْمِ هُوَ طَرِيقُ الْجَهْلِ وَمَا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِيًّا جَاهِلًا وَلَو اتَّخَذَهُ لَعَلَّمَهُ.(وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ) :اللَّامُ لِلْجِنْسِ أَوْ لِلْعَهْدِ أَيْ:مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ.قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كُلَّهُمْ وَهُوَ أَنْسَبُ بِالْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ فِي قَوْلِهِ:(لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا) :حَالٌ أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ عَلَى مَعْنَى إِرَادَةِ رِضًا لِيَكُونَ فِعْلًا لِفَاعِلِ الْفِعْلِ الْمُعَلَّلِ (لِطَالِبِ الْعِلْمِ) :اللَّامُ مُتَعَلِّقٌ بِرِضًا،وَقِيلَ:التَّقْدِيرُ لِأَجْلِ الرِّضَا الْوَاصِلِ مِنْهَا إِلَيْهِ أَوْ لِأَجْلِ إِرْضَائِهَا الطَّالِبَ الْعِلْمَ بِمَا يَصْنَعُ مِنْ

حِيَازَةِ الْوِرَاثَةِ الْعُظْمَى وَسُلُوكِ السَّنِّ الْأَسْنَى.قَالَ زَيْنُ الْعَرَبِ وَغَيْرُهُ:قِيلَ:مَعْنَاهُ أَنَّهَا تَتَوَاضَعُ لِطَالِبِهِ تَوْقِيرًا لِعِلْمِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [الإسراء:٢٤] أَيْ:تَوَاضَعْ لَهُمَا،أَوِ الْمُرَادُ الْكَفُّ عَنِ الطَّيَرَانِ وَالنُّزُولُ لِلذِّكْرِ كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ:" وَحَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ " أَوْ مَعْنَاهُ الْمَعُونَةُ وَتَيْسِيرُ الْمُؤْنَةِ بِالسَّعْيِ فِي طَلَبِهِ أَوِ الْمُرَادُ تَلْيِينُ الْجَانِبِ وَالِانْقِيَادُ وَالْفَيْءُ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ وَالِانْعِطَافِ،أَوِ الْمُرَادُ حَقِيقَتُهُ وَإِنْ لَمْ تُشَاهَدْ،وَهِيَ فَرْشُ الْجَنَاحِ وَبَسْطُهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ لِتَحْمِلَهُ عَلَيْهَا وَتُبَلِّغَهُ مَقْعَدَهُ مِنَ الْبِلَادِ،نَقَلَهُ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ.وَنَقَلَ ابْنُ الْقَيِّمِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ قَالَ:كُنَّا عِنْدَ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ بِالْبَصْرَةِ فَحَدَّثَنَا هَذَا الْحَدِيثَ،وَفِي الْمَجْلِسِ شَخْصٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ فَجَعَلَ يَسْتَهْزِئُ بِالْحَدِيثِ فَقَالَ:وَاللَّهِ لَأَطْرُقَنَّ غَدًا نَعْلِي وَأَطَأُ بِهَا أَجْنِحَةَ الْمَلَائِكَةِ فَفَعَلَ وَمَشَى فِي النَّعْلَيْنِ فَجَفَّتْ رِجْلَاهُ وَوَقَعَتْ فِيهِمَا الْأَكَلَةُ.وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ:سَمِعْتُ ابْنَ يَحْيَى السَّاجِيَّ يَقُولُ:كُنَّا نَمْشِي فِي أَزِقَّةِ الْبَصْرَةِ إِلَى بَابِ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ فَأَسْرَعْنَا الْمَشْيَ،وَكَانَ مَعَنَا رَجُلٌ مَاجِنٌ مُتَّهَمٌ فِي دِينِهِ فَقَالَ:ارْفَعُوا أَرْجُلَكُمْ عَنْ أَجْنِحَةِ الْمَلَائِكَةِ لَا تَكْسِرُوهَا كَالْمُسْتَهْزِئِ بِالْحَدِيثِ،فَمَا زَالَ عَنْ مَوْضِعِهِ حَتَّى جَفَّتْ رِجْلَاهُ وَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ اهـ.

وَالْحَفَاءُ:رِقَّةُ الْقَدَمِ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ،وَفِي رِوَايَةٍ فِي السُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ «عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ قَالَ:قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ.قَالَ:" مَرْحَبًا بِطَالِبِ الْعِلْمِ إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا فَيَرْكَبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ» .نَقَلَهُ الشَّيْخُ ابْنُ الْقَيِّمِ،وَقَالَ الْحَاكِمُ:إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ (وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ)،قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ مَجَازٌ مِنْ إِرَادَةِ اسْتِقَامَةِ حَالِ الْمُسْتَغْفَرِ لَهُ اهـ.

وَالْحَقِيقَةُ أَوْلَى (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ) :لِأَنَّهُمْ عُرِفُوا بِتَعْرِيفِ الْعُلَمَاءِ وَعَظُمُوا بِقَوْلِهِمْ (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) :قِيلَ:فِيهِ تَغْلِيبٌ،وَالْمُرَادُ مَا فِي الْأَرْضِ لِأَنَّ بَقَاءَهُمْ وَصَلَاحَهُمْ مَرْبُوطٌ بِرَأْيِ الْعُلَمَاءِ وَفَتْوَاهُمْ وَلِذَلِكَ قِيلَ:مَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ حَيِّهَا وَمَيِّتِهَا إِلَّا وَلَهُ مَصْلَحَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْعِلْمِ (وَالْحِيتَانُ) :جَمْعُ الْحُوتِ (فِي جَوْفِ الْمَاءِ) :خُصَّ لِدَفْعِ إِيهَامِ أَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَا يَشْمَلُ مَنْ فِي الْبَحْرِ أَوْ تَعْمِيمًا بَعْدَ تَعْمِيمٍ بِأَنْ يُرَادَ بِالْحِيتَانِ جَمِيعُ دَوَابِّ الْمَاءِ وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ عَوَالِمِ الْبَرِّ لِمَا جَاءَ:أَنَّ عَوَالِمَ الْبَرِّ أَرْبَعُمِائَةِ عَالَمٍ،وَعَوَالِمُ الْبَحْرِ سِتُّمِائَةِ عَالَمٍ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَخُصَّ

بِالذِّكْرِ بَعْدَ دُخُولِهَا فِي الْجُمْلَةِ الْمَذْكُورَةِ إِذْ هِيَ فِي الْمَاءِ اهـ.وَبَيْنَ كَلَامَيْهِ تَنَاقُضٌ،نَعَمْ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ سُؤَالًا وَجَوَابًا ثُمَّ قَالَ:وَإِنْ سَلِمَ أَنَّ قَوْلَهُ:مَنْ فِي الْأَرْضِ يَشْمَلُهَا فَذَكَرَهَا لِلْإِيمَاءِ إِلَى أَنَّ الْعِلْمَ مَاءٌ،وَلِذَلِكَ اسْتَغْفَرَ لِلْعَالِمِ لِأَنَّ السَّبَبَ لِبَقَائِهِ مُخْتَصٌّ بِهِ قَالَ تَعَالَى:{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد:١٧] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:الْمَاءُ الْعِلْمُ وَالْأَوْدِيَةُ الْقُلُوبُ اهـ كَلَامُهُ،وَفِيهِ مَا فِيهِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:تَخْصِيصُ الْحِيتَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ إِنْزَالَ الْمَطَرِ بِبَرَكَتِهِمْ حَتَّى إِنَّ الْحِيتَانَ تَعِيشُ بِسَبَبِهِمْ اهـ.وَفِي الْحَدِيثِ:بِهِمْ تُمْطَرُونَ وَبِهِمْ تُرْزَقُونَ (وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ) :أَيِ:الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْعِلْمُ،وَهُوَ الَّذِي يَقُومُ بِنَشْرِ الْعِلْمِ بَعْدَ أَدَائِهِ مَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ مِنَ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ الْمُؤَكَّدَةِ (عَلَى الْعَابِدِ) أَيِ:الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْعِبَادَةُ،وَهُوَ الَّذِي يَصْرِفُ أَوْقَاتَهُ بِالنَّوَافِلِ مَعَ كَوْنِهِ عَالِمًا بِمَا تَصِحُّ بِهِ الْعِبَادَةُ (كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) أَيْ:لَيْلَةَ الرَّابِعَ عَشَرَ،وَبِهِ أَوَّلُ " طه " عَلَى حِسَابِ الْجُمَلِ،وَأُرِيدَ بِهِ النَّبِيُّ - ﷺ - يَعْنِي الْمُشَبَّهَ بِهِ فِي نِهَايَةِ النُّورِ وَغَايَةِ الظُّهُورِ،فَيَكُونُ فِيهِ تَلْمِيحٌ إِلَى قَوْلِهِ:" كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ " كَمَا فِي قَوْلِهِ (عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ) :إِيمَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ:" «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ» " فَإِنَّ نُورَ الْمُؤْمِنِ - وَلَوْ كَانَ عَابِدًا - ضَعِيفٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا،وَإِنَّمَا حَمَلْنَا الْكَلَامَ عَلَى مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ أَحَدُ الْوَصْفَيْنِ لَا عَلَى عَالِمٍ فَقَطْ وَعَابِدٍ فَقَطْ،لِأَنَّ هَذَيْنِ لَا فَضْلَ لَهُمَا بَلْ إِنَّهُمَا مُعَذَّبَانِ فِي النَّارِ لِتَوَقُّفِ صِحَّةِ الْعَمَلِ عَلَى الْعِلْمِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ عَلَى الْعَمَلِ،بَلْ وَرَدَ:«وَيْلٌ لِلْجَاهِلِ مَرَّةً وَوَيْلٌ لِلْعَالِمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ»،وَوَرَدَ:«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ» ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ ضَالًّا مُضِلًّا.وَقَالَ الْقَاضِي:شَبَّهَ الْعَالِمَ بِالْقَمَرِ،وَالْعَابِدَ بِالْكَوْكَبِ،لِأَنَّ كَمَالَ الْعِبَادَةِ وَنُورَهَا لَا يَتَعَدَّى مِنَ الْعَابِدِ،وَنُورَ الْعَابِدِ يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ فَيَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ الْمُتَلَقِّي عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - كَالْقَمَرِ يَتَلَقَّى نُورَهُ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ مِنْ خَالِقِهَا عَزَّ وَجَلَّ («وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ») :وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ:وَرَثَةُ الرُّسُلِ لِيَشْمَلَ الْكُلَّ قَالَهُ ابْنُ الْمَلَكِ:يَعْنِي:فَإِنَّ الْبَعْضَ وَرَثَةُ الرُّسُلِ كَأَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ،وَالْبَاقُونَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ (وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا) :بِالتَّشْدِيدِ (دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا) أَيْ:شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا وَخُصَّا لِأَنَّهُمَا أَغْلَبُ أَنْوَاعِهَا،وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى زَوَالِ الدُّنْيَا،وَأَنَّهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا مِنْهَا إِلَّا بِقَدْرِ ضَرُورَتِهِمْ،فَلَمْ يُوَرِّثُوا شَيْئًا مِنْهَا،لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ شَيْئًا مِنْهَا يُوَرَّثُ عَنْهُمْ،عَلَى أَنَّ جَمَاعَةً قَالُوا:إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ مُبَالَغَةً

فِي تَنَزُّهِهِمْ عَنْهَا،وَلِذَا قِيلَ:الصُّوفِيُّ لَا يَمْلِكُ وَلَا يُمَلِّكُ،وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى كَمَالِ تَوَكُّلِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَإِشْعَارٌ بِأَنَّ طَالِبَ الدُّنْيَا لَيْسَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْوَرَثَةِ،وَلِذَا قَالَ الْغَزَالِيُّ:أَقَلُّ الْعِلْمِ بَلْ أَقَلُّ الْإِيمَانِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ،وَأَنَّ الْعُقْبَى بَاقِيَةٌ.وَنَتِيجَةُ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الْفَانِي وَيُقْبِلَ عَلَى الْبَاقِي.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:خَصُّوا الدِّرْهَمَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ نَفْيَ الدِّينَارِ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَهُ،وَفِيهِ أَنَّهُ لَا تَخْصِيصَ هُنَا،وَالْعَطْفُ يَدُلُّ عَلَى الْمُغَايَرَةِ،وَإِنَّمَا زِيدَتْ لَا لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ وَإِرَادَةِ الْمُبَالَغَةِ ثُمَّ قَالَ:وَلَا يَرِدُ الاعْتِرَاضُ بِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ لَهُ صَفَايَا بَنِي النَّضِيرِ وَفَدَكَ وَخَيْبَرَ إِلَى أَنْ مَاتَ وَخَلَّفَهَا،وَكَانَ لِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَغْنَامٌ كَثِيرَةٌ،وَكَانَ أَيُّوبُ وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَوِي نِعْمَةٍ كَثِيرَةٍ،لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ مَا وَرِثَتْ أَوْلَادُهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بَلْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ مُعَدًّا لِنَوَائِبِ الْمُسْلِمِينَ اهـ.

وَيُذْكَرُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ مَرَّ يَوْمًا فِي السُّوقِ بِقَوْمٍ مُشْتَغِلِينَ بِتِجَارَاتِهِمْ فَقَالَ:أَنْتُمْ هَاهُنَا،وَمِيرَاثُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – يُقَسَّمُ فِي الْمَسْجِدِ؟ فَقَامُوا سِرَاعًا إِلَيْهِ فَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ إِلَّا الْقُرْآنَ وَالذِّكْرَ وَمَجَالِسَ الْعِلْمِ فَقَالُوا:أَيْنَ مَا قُلْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقَالَ:هَذَا مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ – ﷺ – يُقَسَّمُ بَيْنَ وَرَثَتِهِ وَلَيْسَ بِمَوَارِيثِهِ دُنْيَاكُمْ (وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ) :لِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَنَشْرِ الْأَحْكَامِ،أَوْ بِأَحْوَالِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى تَبَايُنِ أَجْنَاسِهِ وَاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ (فَمَنْ أَخَذَهُ) :أَيِ:الْعِلْمَ (أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ) أَيْ:أَخَذَ حَظًّا وَافِرًا يَعْنِي نَصِيبًا تَامًّا أَيْ:لَا حَظَّ أَوْفَرُ مِنْهُ،وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ،أَوِ الْمُرَادُ أَخْذُهُ مُتَلَبِّسًا بِحَظٍّ وَافِرٍ مِنْ مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ " أَخَذَ " بِمَعْنَى الْأَمْرِ أَيْ:فَمَنْ أَرَادَ أَخْذَهُ فَلْيَأْخُذْ بِحَظٍّ وَافِرٍ وَلَا يَقْتَنِعْ بِقَلِيلٍ.هَذَا زُبْدَةُ كَلَامِ الشَّرْحِ هُنَا.[2027]

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ:رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا،فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ،وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً،فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا " مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[2028].

[2027] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٩٥)

[2028] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٨)(١٤٠٩) وصحيح مسلم (١/ ٥٥٩)٢٦٨ - (٨١٦)

والواجب على ولاة الأمر والآباء تربية الأطفال والشباب تربية شاملة،بتعليمهم وأمرهم بتوحيد الله تعالى،والصلاة،والزكاة،وصوم رمضان،والحج،وبر الوالدين،وحسن الخلق مع الناس،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في ذلك،والجهاد في سبيل الله،وتقوى الله في السر والعلن،والتأدب بالآداب الشرعية[٢٠٢٩].

ومن الأمثلة على التربية الشاملة المتكاملة للأبناء وصية لقمان لابنه،التي ذكرها الله تعالى في كتابه فقال تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا

(لَا حَسَدَ):وَهُوَ تَمَنِّي زَوَالِ نِعْمَةِ أَحَدٍ وَانْتِقَالُهَا إِلَيْهِ كَذَا قِيلَ،وَالْحَقُّ أَنَّهُ أَعَمُّ وَهُوَ مَذْمُومٌ إِذَا عَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ تَصْمِيمٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ،وَلِذَا قَالَ تَعَالَى:{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفلق:٥] وَاسْتَثْنَوْا مِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَتِ النِّعْمَةُ لِكَافِرٍ أَوْ فَاسِقٍ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ،وَالْمُرَادُ هُنَا الْغِبْطَةُ وَهِيَ تَمَنِّي حُصُولِ مِثْلِهَا لَهُ،وَأُطْلِقَ الْحَسَدُ عَلَيْهَا مَجَازًا.

وَقَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ لَا رُخْصَةَ فِيهِ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَعْنَاهُ لَوْ جَازَ الْحَسَدُ لَمَا جَازَ إِلَّا فِيمَا ذُكِرَ،وَأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنَ الْحَدِيثِ إِبَاحَةُ نَوْعٍ مِنَ الْحَسَدِ لِتَضَمُّنِهِ الْمَنْفَعَةَ فِي الدِّينِ فَغَيْرُ صَحِيحٍ (إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ) أَيْ:فِي نَفِيسَيْنِ أَوْ خَصْلَتَيْنِ،وَرُوِيَ بِالتَّذْكِيرِ أَيْ فِي شَأْنِ اثْنَيْنِ (رَجُلٍ):رُوِيَ مَجْرُورًا عَلَى الْبَدَلِ وَهُوَ أَوْثَقُ الرِّوَايَاتِ،وَرُوِيَ مَرْفُوعًا مُبْتَدَأً.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:رُوِيَ:لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ فَيَكُونُ " رَجُلٍ " بَدَلًا مِنْهُ،وَرُوِيَ فِي اثْنَتَيْنِ أَيْ خَصْلَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ،فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ لِيَسْتَقِيمَ الْمَعْنَى،فَإِذَا رُوِيَ فِي اثْنَيْنِ يُقَدَّرُ فِي شَأْنِ اثْنَتَيْنِ،وَإِذَا رُوِيَ اثْنَتَيْنِ،يُقَدَّرُ خَصْلَةُ رَجُلٍ (آتَاهُ اللَّهُ):بِالْمَدِّ أَيْ أَعْطَاهُ (مَالًا) أَيْ:مَالًا كَثِيرًا أَوْ نَوْعًا مِنَ الْمَالِ،وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَلَالًا " (فَسَلَّطَهُ) " أَيْ:وَكَّلَهُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُ (عَلَى هَلَكَتِهِ) ":بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ:إِنْفَاقِهِ وَإِهْلَاكِهِ،وَعَبَّرَ بِذَلِكَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُبْقِي مِنْهُ شَيْئًا وَكَمَّلَهُ بِقَوْلِهِ:(فِي الْحَقِّ):لِيُزِيلَ الْإِسْرَافَ الْمَذْمُومَ وَالرِّيَاءَ الْمَلُومَ،وَلَا سَرَفَ فِي الْخَيْرِ كَمَا لَا خَيْرَ فِي السَّرَفِ (وَرَجُلٍ):بِالْوَجْهَيْنِ لِلْعَطْفِ (آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ):وَهِيَ إِصَابَةُ الْحَقِّ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ أَوْ عِلْمِ أَحْكَامِ الدِّينِ.قَالَ الْكِرْمَانِيُّ:عَرَّفَ الْحِكْمَةَ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا مَعْرِفَةُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ،وَأَرَادَ التَّعْرِيفَ بِلَامِ الْعَهْدِ (فَهُوَ يَقْضِي) أَيْ:يَعْمَلُ وَيَحْكُمُ (بِهَا) " أَيْ:بِالْحِكْمَةِ الَّتِي أُوتِيهَا (وَيُعَلِّمُهَا) .أَيْ غَيْرَهُ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٨٤)

ويستفاد منه:أن من الحسد ما هو مشروع،وليس بحرام،وهو الغبطة.

ومعناها:أن يرى المرء نعْمة عند غيره فيتمنى مثلها،فإن كانت الغبطة في أمر دنيوي من صحة أو قوة أو مركز أو ولد فهي مباحة،وإن كانت في أمر ديني كالعلم النافع أو المال الصالح فهي مستحبة شرعاً.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ١٧٦)

٢٠٢٩ - انظر كتابي " المنهاج النبوي في تربية الأطفال "

تُطعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) } [لقمان:١٢ - ١٩]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ عِبارَةٌ عَنْ تَوْفِيقِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ،فَكُلُّ مَنْ أُوتِيَ تَوْفِيقَ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ فَقَدْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ،وَإِنْ أَرَدْنَا تَحْدِيدَهَا بِمَا يَدْخُلُ فِيهِ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى،فنقول حصول العلم عَلَى وَفْقِ الْمَعْلُومِ،وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّ مَنْ تَعَلَّمَ شَيْئًا وَلَا يَعْلَمُ مَصَالِحَهُ وَمَفَاسِدَهُ لَا يُسَمَّى حَكِيمًا وَإِنَّمَا يَكُونُ مَبْخُوتًا،أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ يُلْقِي نَفْسَهُ مِنْ مَكَانٍ عَالٍ وَوَقَعَ عَلَى مَوْضِعٍ فَانْخَسَفَ بِهِ وَظَهَرَ لَهُ كَنْزٌ وَسَلِمَ لَا يُقَالُ إِنَّهُ حَكِيمٌ،وَإِنْ ظَهَرَ لِفِعْلِهِ مَصْلَحَةٌ وَخُلُوٌّ عَنْ مَفْسَدَةٍ،لِعَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ أَوَّلًا،وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْإِلْقَاءَ فِيهِ إِهْلَاكُ النَّفْسِ وَيُلْقِي نَفْسَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ وَتَنْكَسِرُ أَعْضَاؤُهُ لَا يُقَالُ إِنَّهُ حَكِيمٌ وَإِنْ عَلِمَ مَا يَكُونُ فِي فِعْلِهِ،ثُمَّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا قَوْلُهُ تَعَالَى:أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ فَإِنَّ أَنْ فِي مِثْلِ هَذَا تُسَمَّى الْمُفَسِّرَةَ فَفَسَّرَ اللَّهُ إِيتَاءَ الْحِكْمَةِ بِقَوْلِهِ:أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ،لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ مَا يُقَالُ إِنَّ الْعَمَلَ مُوَافِقٌ لِلْعِلْمِ،لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَهَمُّ مِنَ الْآخَرِ،فَإِنِ اشْتَغَلَ بِالْأَهَمِّ كَانَ عَمَلُهُ مُوَافِقًا لِعِلْمِهِ وَكَانَ حِكْمَةً،وَإِنْ أَهْمَلَ الْأَهَمَّ كَانَ مُخَالِفًا لِلْعِلْمِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي شَيْءٍ،لَكِنَّ شُكْرَ اللَّهِ أَهَمُّ الْأَشْيَاءِ فَالْحِكْمَةُ أَوَّلُ مَا تَقْتَضِي،ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ بِالشُّكْرِ لَا يَنْتَفِعُ إِلَّا الشَّاكِرُ بِقَوْلِهِ:وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَبَيَّنَ أَنَّ بِالْكُفْرَانِ لَا يَتَضَرَّرُ غَيْرُ الْكَافِرِ بِقَوْلِهِ:وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أَيِ اللَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى شُكْرٍ حَتَّى يَتَضَرَّرَ بِكُفْرَانِ الْكَافِرِ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَحْمُودٌ سَوَاءٌ شَكَرَهُ النَّاسُ أَوْ لَمْ يَشْكُرُوهُ،وَفِي الْآيَةِ مَسَائِلُ وَلَطَائِفُ الْأُولَى:فَسَّرَ اللَّهُ إِيتَاءَ الْحِكْمَةِ بِالْأَمْرِ بِالشُّكْرِ،لَكِنَّ الْكَافِرَ وَالْجَاهِلَ مَأْمُورَانِ بِالشُّكْرِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَدْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ وَالْجَوَابُ:أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ أَمْرُ تَكْوِينٍ مَعْنَاهُ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ بِأَنْ جَعَلْنَاهُ مِنَ الشَّاكِرِينَ،وَفِي الْكَافِرِ الْأَمْرُ بِالشُّكْرِ أَمْرُ تَكْلِيفٍ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:قَالَ فِي الشُّكْرِ وَمَنْ يَشْكُرْ بِصِيغَةِ الْمُسْتَقْبَلِ،وَفِي الْكُفْرَانِ:وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ،وَإِنْ كَانَ الشَّرْطُ يَجْعَلُ الْمَاضِيَ وَالْمُسْتَقْبَلَ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ،كَقَوْلِ الْقَائِلِ:مَنْ دَخَلَ دَارِي فَهُوَ حُرٌّ،وَمَنْ يَدْخُلْ دَارِي فَهُوَ حُرٌّ،فَنَقُولُ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنًى وَإِرْشَادٌ إِلَى أَمْرٍ،وَهُوَ أَنَّ الشُّكْرَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي كُلِّ وَقْتٍ لِتَكَرُّرِ النِّعْمَةِ،فَمَنْ شَكَرَ يَنْبَغِي أَنْ يُكَرِّرَ،وَالْكُفْرُ يَنْبَغِي أَنْ يَنْقَطِعَ فَمَنْ كَفَرَ يَنْبَغِي أَنْ يَتْرُكَ الْكُفْرَانَ،وَلِأَنَّ الشُّكْرَ مِنَ الشَّاكِرِ لَا يَقَعُ بِكَمَالِهِ،بَلْ أَبَدًا يَكُونُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْعَدَمِ يُرِيدُ الشَّاكِرُ إِدْخَالَهُ فِي الْوُجُودِ،كَمَا قَالَ:رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ [النَّمْلِ:١٩] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى:وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوها [النمل:١٨] فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِصِيغَةِ الْمُسْتَقْبَلِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ بِكَمَالِهِ لَمْ يُوجَدْ وَأَمَّا الْكُفْرَانُ فَكُلُّ جُزْءٍ يَقَعُ مِنْهُ تَامٌّ،فَقَالَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ:قَالَ تَعَالَى هُنَا:وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ بِتَقْدِيمِ الشُّكْرِ عَلَى الْكُفْرَانِ،وَقَالَ فِي سُورَةِ الرُّومِ:مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ [الروم:٤٤] فَنَقُولُ هُنَاكَ كَانَ الذِّكْرُ لِلتَّرْهِيبِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ قَبْلُ:فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ [الرُّومِ:٤٣] وَهَاهُنَا الذِّكْرُ لِلتَّرْغِيبِ،لِأَنَّ وَعْظَ الْأَبِ لِلِابْنِ يَكُونُ بِطَرِيقِ اللُّطْفِ وَالْوَعْدِ،وَقَوْلُهُ:وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً يُحَقِّقُ مَا ذَكَرْنَا أَوَّلًا،لِأَنَّ الْمَذْكُورَ فِي سُورَةِ الرُّومِ لَمَّا كَانَ بَعْدَ الْيَوْمِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ تَكُونُ الْأَعْمَالُ قَدْ سَبَقَتْ فَقَالَ بِلَفْظِ الْمَاضِي وَمَنْ عَمِلَ وَهَاهُنَا لَمَّا كَانَ الْمَذْكُورُ فِي الِابْتِدَاءِ قَالَ وَمَنْ يَشْكُرْ بِلَفْظِ الْمُسْتَقْبَلِ وَقَوْلُهُ:وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ حَمْدِ الْحَامِدِينَ،حَمِيدٌ فِي ذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ حَمْدِهِمْ،وَإِنَّمَا الْحَامِدُ تَرْتَفِعُ مَرْتَبَتُهُ بِكَوْنِهِ حامدا لله تعالى.ثم قال تعالى:وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) عَطْفٌ عَلَى مَعْنَى مَا سَبَقَ وَتَقْدِيرُهُ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ حِينَ جَعَلْنَاهُ شَاكِرًا فِي نَفْسِهِ وَحِينَ جَعَلْنَاهُ وَاعِظًا لِغَيْرِهِ وَهَذَا لِأَنَّ عُلُوَّ مَرْتَبَةِ الْإِنْسَانِ بِأَنْ يَكُونَ كَامِلًا فِي نَفْسِهِ وَمُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ فَقَوْلُهُ:أَنِ اشْكُرْ إِشَارَةٌ إِلَى الْكَمَالِ وَقَوْلُهُ:وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ إِشَارَةٌ إِلَى التَّكْمِيلِ،وَفِي هَذَا لَطِيفَةٌ وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ لُقْمَانَ وَشَكَرَ سَعْيَهُ حَيْثُ أَرْشَدَ ابْنَهُ لِيُعْلَمَ مِنْهُ فَضِيلَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي أَرْشَدَ الْأَجَانِبَ وَالْأَقَارِبَ فَإِنَّ إِرْشَادَ الْوَلَدِ أَمْرٌ مُعْتَادٌ،وَأَمَّا تَحَمُّلُ الْمَشَقَّةِ فِي تَعْلِيمِ الْأَبَاعِدِ فَلَا،ثُمَّ إِنَّهُ

فِي الْوَعْظِ بَدَأَ بِالْأَهَمِّ وَهُوَ الْمَنْعُ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَقَالَ:إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ أَمَّا أَنَّهُ ظُلْمٌ فَلِأَنَّهُ وَضْعٌ لِلنَّفْسِ الشَّرِيفِ الْمُكَرَّمُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ [الْإِسْرَاءِ:٧٠] فِي عِبَادَةِ الْخَسِيسِ أَوْ لِأَنَّهُ وَضْعُ الْعِبَادَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَهِيَ غَيْرُ وَجْهِ اللَّهِ وَسَبِيلِهِ،وَأَمَّا أَنَّهُ عَظِيمٌ فَلِأَنَّهُ وُضِعَ فِي مَوْضِعٍ لَيْسَ مَوْضِعَهُ،وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعَهُ،وَهَذَا لِأَنَّ مَنْ يَأْخُذُ مَالَ زَيْدٍ وَيُعْطِي عَمْرًا يَكُونُ ظُلْمًا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ وَضَعَ مَالَ زَيْدٍ فِي يَدِ عَمْرٍو،وَلَكِنْ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِلْكَ عَمْرٍو أَوْ يَصِيرَ مِلْكَهُ بِبَيْعٍ سَابِقٍ أَوْ بِتَمْلِيكٍ لَاحِقٍ،وَأَمَّا الْإِشْرَاكُ فَوَضْعُ الْمَعْبُودِيَّةِ فِي غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ معبودا أصلا.ثم قال تعالى:ووَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)

لَمَّا مَنَعَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَالْخِدْمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْهَا فِي الصُّورَةِ بَيَّنَ أَنَّهَا غَيْرُ مُمْتَنِعَةٍ،بَلْ هِيَ وَاجِبَةٌ/ لِغَيْرِ اللَّهِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ مِثْلُ خِدْمَةِ الْأَبَوَيْنِ،ثُمَّ بَيَّنَ السَّبَبَ فَقَالَ:حَمَلَتْهُ أُمُّهُ يَعْنِي لِلَّهِ عَلَى الْعَبِيدِ نِعْمَةُ الْإِيجَادِ ابْتِدَاءً بِالْخَلْقِ وَنِعْمَةُ الْإِبْقَاءِ بِالرِّزْقِ وَجَعَلَ بِفَضْلِهِ لِلْأُمِّ مَا لَهُ صُورَةُ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا حَقِيقَةٌ فَإِنَّ الْحَمْلَ بِهِ يَظْهَرُ الْوُجُودُ،وَبِالرَّضَاعِ يَحْصُلُ التَّرْبِيَةُ وَالْبَقَاءُ فَقَالَ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ أَيْ صَارَتْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ سَبَبَ وُجُودِهِ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَيْ صَارَتْ بِقُدْرَتِهِ أَيْضًا سَبَبَ بَقَائِهِ،فَإِذَا كَانَ مِنْهَا مَا لَهُ صُورَةُ الْوُجُودِ وَالْبَقَاءِ وَجَبَ عَلَيْهِ مَا لَهُ شِبْهُ الْعِبَادَةِ مِنَ الْخِدْمَةِ،فَإِنَّ الْخِدْمَةَ لَهَا صُورَةُ الْعِبَادَةِ،فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ وَصَّى اللَّهُ بِالْوَالِدَيْنِ وَذَكَرَ السَّبَبَ فِي حَقِّ الْأُمِّ فَنَقُولُ خَصَّ الْأُمَّ بِالذِّكْرِ وَفِي الْأَبِ مَا وُجِدَ فِي الْأُمِّ فَإِنَّ الْأَبَ حَمَلَهُ فِي صُلْبِهِ سِنِينَ وَرَبَّاهُ بِكَسْبِهِ سِنِينَ فَهُوَ أَبْلَغُ وَقَوْلُهُ:أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ لَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ جَعَلَ مِنَ الْوَالِدَيْنِ صُورَةَ مَا مِنَّ اللَّهُ،فَإِنَّ الْوُجُودَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ اللَّهِ وَفِي الصُّورَةِ يَظْهَرُ مِنَ الْوَالِدَيْنِ جَعَلَ الشُّكْرَ بَيْنَهُمَا فَقَالَ:أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ ثُمَّ بَيَّنَ الْفَرْقَ وَقَالَ:

إِلَيَّ الْمَصِيرُ يَعْنِي نِعْمَتُهُمَا مُخْتَصَّةٌ بِالدُّنْيَا وَنِعْمَتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،فَإِنَّ إِلَيَّ الْمَصِيرَ أَوْ نَقُولُ لَمَّا أَمَرَ بِالشُّكْرِ لِنَفْسِهِ وَلِلْوَالِدَيْنِ قَالَ الْجَزَاءُ عَلَيَّ وَقْتَ الْمَصِيرِ إِلي.ثم قال تعالى:وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَعْنِي أَنَّ خِدْمَتَهُمَا وَاجِبَةٌ وَطَاعَتَهُمَا لَازِمَةٌ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا تَرْكُ طَاعَةِ اللَّهِ،أَمَّا إِذَا أَفْضَى إِلَيْهِ فَلَا تُطِعْهُمَا،وَقَدْ ذَكَرْنَا

تفسير الآية في العنكبوت،وقال هاهنا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ،يَعْنِي صَاحِبْهُمَا بِجِسْمِكَ فَإِنَّ حَقَّهُمَا عَلَى جِسْمِكَ،وَاتَّبِعْ سَبِيلَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَقْلِكَ،فَإِنَّهُ مُرَبِّي عَقْلِكَ،كما أن الوالد مربي جسمك.ثم قال تعالى:يَا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماوات أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) لَمَّا قَالَ:فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَقَعَ لِابْنِهِ أَنَّ مَا يفعل في خفية يخفى فقال:يا بُنَيَّ إِنَّها أَيِ الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ إِنْ كَانَتْ فِي الصِّغَرِ مِثْلَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ وَتَكُونُ مَعَ ذَلِكَ الصِّغَرِ فِي مَوْضِعٍ حَرِيزٍ كَالصَّخْرَةِ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ،وَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:قَوْلُهُ:فَتَكُنْ بِالْفَاءِ لِإِفَادَةِ الِاجْتِمَاعِ يَعْنِي إِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً وَمَعَ صِغَرِهَا تَكُونُ خَفِيَّةً فِي مَوْضِعٍ حَرِيزٍ كَالصَّخْرَةِ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ لِأَنَّ الْفَاءَ لِلِاتِّصَالِ بِالتَّعْقِيبِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:لَوْ قِيلَ الصَّخْرَةُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تكون في السموات أَوْ فِي الْأَرْضِ فَمَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِهَا؟

وَلِأَنَّ الْقَائِلَ لَوْ قَالَ هَذَا رَجُلٌ أَوِ امْرَأَةٌ أَوِ ابْنُ عَمْرٍو لَا يَصِحُّ هَذَا الْكَلَامُ لِكَوْنِ ابْنِ عَمْرٍو دَاخِلًا فِي أَحَدِ الْقِسْمَيْنِ فَكَيْفَ يُفْهَمُ هَذَا،فَنَقُولُ الْجَوَابَ عَنْهُ مِنْ أَوْجُهٍ أَحَدُهَا:مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّخْرَةِ صَخْرَةٌ عَلَيْهَا الثَّوْرُ وَهِيَ لَا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَالثَّانِي:مَا قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ وَهُوَ أَنَّ فِيهِ إِضْمَارًا تَقْدِيرُهُ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي موضع آخر في السموات أَوْ فِي الْأَرْضِ وَالثَّالِثُ:أَنْ نَقُولَ تَقْدِيمُ الْخَاصِّ وَتَأْخِيرُ الْعَامِّ فِي مِثْلِ هَذَا التَّقْسِيمِ جَائِزٌ وَتَقْدِيمُ الْعَامِّ وَتَأْخِيرُ الْخَاصِّ غَيْرُ جَائِزٍ،أَمَّا الثَّانِي فَلَمَّا بَيَّنْتُمْ أَنَّ مَنْ قَالَ هَذَا فِي دَارِ زَيْدٍ أَوْ فِي غَيْرِهَا أَوْ فِي دَارِ عَمْرٍو لَا يَصِحُّ لِكَوْنِ دَارِ عَمْرٍو دَاخِلَةً فِي قَوْلِهِ أَوْ فِي غَيْرِهَا،وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَلِأَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ هَذَا فِي دَارِ زَيْدٍ أَوْ فِي دَارِ عَمْرٍو أَوْ فِي غَيْرِهَا صَحِيحٌ غَيْرُ قَبِيحٍ فَكَذَلِكَ هاهنا قَدَّمَ الْأَخَصَّ أَوْ نَقُولُ خَفَاءُ الشَّيْءِ يَكُونُ بِطُرُقٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ الصِّغَرِ وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا،وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ فِي ظُلْمَةٍ،وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ،فَإِنِ انْتَفَتِ الْأُمُورُ بِأَسْرِهَا بِأَنْ يَكُونَ كَبِيرًا قَرِيبًا فِي ضَوْءٍ مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ فَلَا يَخْفَى فِي الْعَادَةِ،فَأَثْبَتَ اللَّهُ الرُّؤْيَةَ وَالْعِلْمَ مَعَ انْتِفَاءِ الشَّرَائِطِ فَقَوْلُهُ:إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ إِشَارَةٌ إِلَى الصِّغَرِ وَقَوْلُهُ:فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ إِشَارَةٌ إِلَى الْحِجَابِ وَقَوْلُهُ:أَوْ فِي السَّماوات إشارة إلى العبد فَإِنَّهَا أَبْعَدُ الْأَبْعَادِ

وَقَوْلُهُ:أَوْ فِي الْأَرْضِ إِشَارَةٌ إِلَى الظُّلُمَاتِ فَإِنَّ جَوْفَ الْأَرْضِ أَظْلَمُ الْأَمَاكِنِ وَقَوْلُهُ:يَأْتِ بِهَا اللَّهُ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ يَعْلَمُهَا اللَّهُ لِأَنَّ مَنْ يَظْهَرُ لَهُ الشَّيْءُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِهِ لِغَيْرِهِ يَكُونُ حَالُهُ فِي الْعِلْمِ دُونَ حَالِ مَنْ يَظْهَرُ لَهُ الشَّيْءَ وَيُظْهِرُهُ لِغَيْرِهِ فَقَوْلُهُ:يَأْتِ بِهَا اللَّهُ أَيْ يُظْهِرُهَا اللَّهُ لِلْإِشْهَادِ وَقَوْلُهُ:إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ أَيْ نَافِذُ الْقُدْرَةِ خَبِيرٌ أي عالم ببواطن الأمور.ثم قال تعالى:يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى مَا أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) لَمَّا مَنَعَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَخَوَّفَهُ بِعِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ أَمَرَهُ بِمَا يَلْزَمُهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَهِيَ الْعِبَادَةُ لِوَجْهِ اللَّهِ مُخْلِصًا،وَبِهَذَا يَعْلَمُ أَنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ فِي سَائِرِ الْمِلَلِ غَيْرَ أَنَّ هَيْئَتَهَا اخْتَلَفَتْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَيْ إِذَا كَمُلْتَ أَنْتَ فِي نَفْسِكَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ فَكَمِّلْ/ غَيْرَكَ،فَإِنَّ شُغْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَوَرَثَتِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ هُوَ أَنْ يَكْمُلُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَيُكَمِّلُوا غَيْرَهُمْ،فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ كَيْفَ قَدَّمَ فِي وَصِيَّتِهِ لِابْنِهِ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَقَبْلُ قَدَّمَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنَّهُ أَوَّلَ ما قال يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ ثم قال:يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ فَنَقُولُ هُوَ كَانَ يَعْلَمُ مِنَ ابْنِهِ أَنَّهُ مُعْتَرِفٌ بِوُجُودِ اللَّهِ فَمَا أَمَرَهُ بِهَذَا الْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا الْمَعْرُوفِ،فَإِنَّ الْمُشْرِكَ بِاللَّهِ لَا يَكُونُ نَافِيًا لِلَّهِ فِي الِاعْتِقَادِ وَإِنْ كَانَ يَلْزَمُهُ نَفْيُهُ بِالدَّلِيلِ فَكَانَ كُلُّ مَعْرُوفٍ فِي مُقَابَلَتِهِ مُنْكَرٌ وَالْمَعْرُوفُ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ اعْتِقَادُ وُجُودِهِ وَالْمُنْكَرُ اعْتِقَادُ وُجُودِ غَيْرِهِ مَعَهُ،فَلَمْ يَأْمُرْهُ بِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ لِحُصُولِهِ وَنَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لِأَنَّهُ وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ ابْنَهُ كَانَ مُشْرِكًا فَوَعَظَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَعِظُهُ حَتَّى أَسْلَمَ،وأما هاهنا فأمره أَمْرًا مُطْلَقًا وَالْمَعْرُوفُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُنْكَرِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:وَاصْبِرْ عَلى مَا أَصابَكَ يَعْنِي أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ،وَقَوْلُهُ:إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أَيْ مِنَ الْأُمُورِ الْوَاجِبَةِ الْمَعْزُومَةِ أَيِ الْمَقْطُوعَةِ وَيَكُونُ الْمَصْدَرُ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ،كَمَا تَقُولُ أَكْلِي فِي النَّهَارِ رَغِيفُ خُبْزٍ أَيْ مَأْكُولِي.ثم قال تعالى:وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨)

لما أمره أَمَرَهُ بِأَنْ يَكُونَ كَامِلًا فِي نَفْسِهِ مُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ وَكَانَ يَخْشَى بَعْدَهُمَا مِنْ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا:التَّكَبُّرُ عَلَى الْغَيْرِ بِسَبَبِ كَوْنِهِ مُكَمِّلًا لَهُ وَالثَّانِي:التَّبَخْتُرُ فِي النَّفْسِ بِسَبَبِ كَوْنِهِ كَامِلًا

فِي نَفْسِهِ فَقَالَ:وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ تَكَبُّرًا وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً تَبَخْتُرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ يَعْنِي مَنْ يَكُونُ بِهِ خُيَلَاءُ وَهُوَ الَّذِي يَرَى النَّاسُ عَظَمَةَ نَفْسِهِ وَهُوَ التَّكَبُّرُ فَخُورٍ يَعْنِي مَنْ يَكُونُ مُفْتَخِرًا بِنَفْسِهِ وَهُوَ الَّذِي يَرَى عَظَمَةً لِنَفْسِهِ فِي عَيْنِهِ،وَفِي الْآيَةِ لَطِيفَةٌ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّمَ الْكَمَالَ عَلَى التَّكْمِيلِ حَيْثُ قَالَ أَقِمِ الصَّلَاةَ ثُمَّ قَالَ:وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَفِي النَّهْيِ قَدَّمَ مَا يُورِثُهُ التَّكْمِيلُ عَلَى مَا يُورِثُهُ الْكَمَالُ حَيْثُ قَالَ:وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ ثُمَّ قَالَ:وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً لِأَنَّ فِي طَرَفِ الْإِثْبَاتِ مَنْ لَا يَكُونُ كَامِلًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيرَ مُكَمِّلًا فَقَدَّمَ الْكَمَالَ،وَفِي طَرَفِ النَّفْيِ مَنْ يَكُونُ مُتَكَبِّرًا عَلَى غَيْرِهِ مُتَبَخْتِرًا لِأَنَّهُ لَا يَتَكَبَّرُ عَلَى الْغَيْرِ إِلَّا عِنْدَ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ،وَأَمَّا مَنْ يَكُونُ مُتَبَخْتِرًا فِي نَفْسِهِ لَا يَتَكَبَّرُ،وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَتَوَاضَعُ لِلنَّاسِ فَقَدَّمَ نَفْيَ التَّكَبُّرِ ثُمَّ نَفْيَ التَّبَخْتُرِ،لِأَنَّهُ لَوْ قَدْ نَفَى التَّبَخْتُرَ لَلَزِمَ مِنْهُ نَفْيُ التَّكَبُّرِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى النَّهْيِ عَنْهُ وَمِثَالُهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لَا تُفْطِرْ وَلَا تَأْكُلْ،لِأَنَّ مَنْ لَا يُفْطِرُ لَا يَأْكُلُ،وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لَا تَأْكُلْ/ وَلَا تُفْطِرْ،لِأَنَّ مَنْ لَا يَأْكُلُ قَدْ يُفْطِرُ بِغَيْرِ الْأَكْلِ،وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ يَكُونُ لِلتَّفْسِيرِ فَيَقُولُ لَا تُفْطِرْ وَلَا تَأْكُلْ أَيْ لَا تُفْطِرْ بِأَنْ تَأْكُلَ وَلَا يَكُونُ نَهْيَيْنِ بَلْ واحدا.ثم قال تعالى:وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

لَمَّا قَالَ:وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً وَعَدَمُ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ بِضِدِّهِ وَهُوَ الَّذِي يُخَالِفُ غَايَةَ الِاخْتِلَافِ،وَهُوَ مَشْيُ الْمُتَمَاوِتِ الَّذِي يَرَى مِنْ نَفْسِهِ الضَّعْفَ تَزَهُّدًا فَقَالَ:وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ أَيْ كُنْ وَسَطًا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْمَذْمُومَيْنِ،وَفِي الْآيَةِ مسائل:

الْأُولَى:هَلْ لِلْأَمْرِ بِالْغَضِّ مِنَ الصَّوْتِ مُنَاسَبَةٌ مَعَ الْأَمْرِ بِالْقَصْدِ فِي الْمَشْيِ؟ فَنَقُولُ:نَعَمْ سَوَاءٌ عَلِمْنَاهَا نَحْنُ أَوْ لَمْ نَعْلَمْهَا وَفِي كَلَامِ اللَّهِ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يَحْصُرُهُ حَدٌّ وَلَا يُصِيبُهُ عَدٌّ،وَلَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ وَالَّذِي يَظْهَرُ وُجُوهٌ الْأَوَّلُ:هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا كَانَ شَرِيفًا تَكُونُ مَطَالِبُهُ شَرِيفَةً فَيَكُونُ فَوَاتُهَا خَطَرًا فَأَقْدَرَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى تَحْصِيلِهَا بِالْمَشْيِ،فَإِنْ عَجَزَ عَنْ إِدْرَاكِ مَقْصُودِهِ يُنَادِي مَطْلُوبَهُ فَيَقِفُ لَهُ أَوْ يَأْتِيهِ مَشْيًا إِلَيْهِ فَإِنْ عَجَزَ عَنْ إِبْلَاغِ كَلَامِهِ إِلَيْهِ،وَبَعْضُ الْحَيَوَانَاتِ يُشَارِكُ الْإِنْسَانَ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ بِالصَّوْتِ كَمَا أَنَّ الْغَنَمَ تَطْلُبُ السَّخْلَةَ وَالْبَقَرَةَ الْعِجْلَ وَالنَّاقَةَ الْفَصِيلَ بِالثُّغَاءِ وَالْخُوَارِ وَالرُّغَاءِ وَلَكِنْ لَا تَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهَا،وَالْإِنْسَانُ يُمَيِّزُ الْبَعْضَ عَنِ

الْبَعْضِ فَإِذَا كَانَ الْمَشْيُ وَالصَّوْتُ مُفْضِيَيْنِ إِلَى مَقْصُودٍ وَاحِدٍ لَمَّا أَرْشَدَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا أَرْشَدَهُ إِلَى الْآخَرِ الثاني:هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ عَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ يُشَارِكُهُ فِيهِ الْحَيَوَانَاتُ فَإِنَّهُ حَرَكَةٌ وَسُكُونٌ،وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَلَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ وَعَزْمٌ بِالْقَلْبِ وَهُوَ لَا اطِّلَاعَ عليه إلا الله،وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ:إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ [لقمان:١٦] أَيْ أَصْلِحْ ضَمِيرَكَ فَإِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ،بَقِيَ الْأَمْرَانِ فَقَالَ:وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِشَارَةً إِلَى التَّوَسُّطِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الثَّالِثُ:هُوَ أَنَّ لُقْمَانَ أَرَادَ إِرْشَادَ ابْنِهِ إِلَى السَّدَادِ فِي الْأَوْصَافِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْأَوْصَافِ الَّتِي هِيَ لِلْمَلَكِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنْهُ،وَالْأَوْصَافِ الَّتِي لِلْحَيَوَانِ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرْتَبَةً مِنْهُ.فَقَوْلُهُ:وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَكَارِمِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْإِنْسَانِ فَإِنَّ الْمَلَكَ لَا يَأْمُرُ مَلَكًا آخَرَ بِشَيْءٍ وَلَا يَنْهَاهُ عَنْ شَيْءٍ.

وَقَوْلُهُ:وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً الَّذِي هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ التَّكَبُّرِ وَالتَّبَخْتُرِ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَكَارِمِ الَّتِي هِيَ صِفَةُ الْمَلَائِكَةِ فَإِنَّ عَدَمَ التَّكَبُّرِ وَالتَّبَخْتُرِ صِفَتُهُمْ.وَقَوْلُهُ:وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إشارة إِلَى الْمَكَارِمِ الَّتِي هِيَ صِفَةُ الْحَيَوَانِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ وَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:لِمَ ذَكَرَ الْمَانِعَ مَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ وَلَمْ يُذْكَرِ الْمَانِعَ مِنْ سُرْعَةِ الْمَشْيِ،نَقُولُ أَمَّا عَلَى قَوْلِنَا إِنَّ الْمَشْيَ وَالصَّوْتَ كِلَاهُمَا مُوَصِّلَانِ إِلَى شَخْصٍ مَطْلُوبٍ إِنْ أَدْرَكَهُ بِالْمَشْيِ إِلَيْهِ فَذَاكَ،وَإِلَّا فَيُوقِفُهُ بِالنِّدَاءِ،فَنَقُولُ رَفْعُ الصَّوْتِ يُؤْذِي السَّامِعَ وَيَقْرَعُ الصِّمَاخَ بِقُوَّةٍ،وَرُبَّمَا يَخْرُقُ الْغِشَاءَ الَّذِي دَاخِلَ الْأُذُنِ وَأَمَّا السُّرْعَةُ فِي الْمَشْيِ فَلَا تُؤْذِي أَوْ إِنْ كَانَتْ تُؤْذِي فَلَا تُؤْذِي غَيْرَ مَنْ فِي طَرِيقِهِ وَالصَّوْتُ يَبْلُغُ مَنْ عَلَى الْيَمِينِ وَالْيَسَارِ،وَلِأَنَّ الْمَشْيَ يُؤْذِي آلَةَ الْمَشْيِ وَالصَّوْتَ يُؤْذِي آلَةَ السَّمْعِ وَآلَةُ السَّمْعِ عَلَى بَابِ الْقَلْبِ،فَإِنَّ الْكَلَامَ يَنْتَقِلُ مِنَ السَّمْعِ إِلَى الْقَلْبِ وَلَا كَذَلِكَ الْمَشْيُ،وَأَمَّا عَلَى قَوْلِنَا الْإِشَارَةُ بِالشَّيْءِ وَالصَّوْتِ إِلَى الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ فَلِأَنَّ الْقَوْلَ قَبِيحُهُ أَقْبَحُ مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ وَحَسَنُهُ أَحْسَنُ لِأَنَّ اللِّسَانَ تُرْجُمَانُ الْقَلْبِ وَالاعْتِبَارُ يُصَحِّحُ الدَّعْوَى.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:كَيْفَ يُفْهَمُ كَوْنُهُ أَنْكَرَ مَعَ أَنَّ مَسَّ الْمِنْشَارِ بِالْمِبْرَدِ وَحَتَّ النُّحَاسِ بِالْحَدِيدِ أَشَدُّ تَنْفِيرًا؟

نَقُولُ الْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا:أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ أَنْكَرَ أَصْوَاتِ الْحَيَوَانَاتِ صَوْتُ الْحَمِيرِ فَلَا يَرُدُّ مَا ذَكَرْتُمْ وَمَا ذَكَرْتُمْ فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ لِمَصْلَحَةٍ وَعِمَارَةٍ فَلَا يُنْكَرُ،بِخِلَافِ صَوْتِ الْحَمِيرِ وَهَذَا وَهُوَ الْجَوَابُ الثَّانِي.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ:أَنْكَرُ هُوَ أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ فَمِنْ أَيِّ بَابٍ هُوَ؟ نَقُولُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ أَطْوَعَ لَهُ مِنْ بَنَانِهِ،بِمَعْنَى أَشَدِّهَا طَاعَةً فَإِنَّ أَفْعَلَ لَا يَجِيءُ فِي مَفْعَلٍ وَلَا فِي مَفْعُولٍ وَلَا فِي بَابِ الْعُيُوبِ إِلَّا مَا شَذَّ،كَقَوْلِهِمْ أَطْوَعُ مِنْ كَذَا لِلتَّفْضِيلِ عَلَى الْمُطِيعِ،وَأَشْغَلُ مِنْ ذَاتِ النِّحْيَيْنِ لِلتَّفْضِيلِ عَلَى الْمَشْغُولِ،وَأَحْمَقُ مِنْ فُلَانٍ مِنْ بَابِ الْعُيُوبِ،وَعَلَى هَذَا فَهُوَ فِي بَابِ أَفْعَلَ كَأَشْغَلَ فِي بَابِ مَفْعُولٍ فَيَكُونُ لِلتَّفْضِيلِ عَلَى الْمُنْكَرِ،أَوْ نَقُولُ هُوَ مِنْ بَابِ أَشْغَلَ مَأْخُوذًا مِنْ نَكِرَ الشَّيْءَ فَهُوَ مُنْكَرٌ،وَهَذَا أَنْكَرُ مِنْهُ،وَعَلَى هَذَا فَلَهُ مَعْنًى لَطِيفٌ،وَهُوَ أَنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ قَدْ يُفْهَمُ مِنْ صَوْتِهِ بِأَنَّهُ يَصِيحُ مِنْ ثِقَلٍ أَوْ تَعَبٍ كَالْبَعِيرِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ،وَالْحِمَارُ لَوْ مَاتَ تَحْتَ الْحِمْلِ لَا يَصِيحُ وَلَوْ قُتِلَ لَا يَصِيحُ،وَفِي بَعْضِ أَوْقَاتِ عَدَمِ الْحَاجَةِ يَصِيحُ وَيَنْهَقُ فَصَوْتُهُ مَنْكُورٌ،وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ هُوَ مِنْ نَكِيرٍ كَأَجْدَرَ مِنْ جَدِيرٍ.[2030]

– وقوله تعالى:«أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» ..أن هنا تفسيرية،والجملة بعدها مفسرة للحكمة التي آناها الله لقمان،وهى أن يكون عبدا شكورا لله..فشكر الله هو رأس الحكمة،إذ لا يكون الشكر إلا عن إيمان وثيق بالله،وعن رضا مطلق بكل شىء يصيب الإنسان،ولهذا كان شكر الله من أعظم الصفات التي يخلصها لله سبحانه وتعالى،على المرضىّ عنهم من عباده،كما يقول سبحانه فى إبراهيم:«إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (١٢٠- ١٢١:النحل) .

كما كان الشكر دعوة من دعوات الله إلى رسله وأنبيائه،كما يقول سبحانه،لداود:«اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً ...وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ» (١٣:سبأ) .

فالشكر،ثمرة الإيمان،ومن حرم الشكر،فقد خلا قلبه من الإيمان..

ولهذا قرن القرآن الكريم الشكر بالإيمان،وجعلهما على كفتى ميزان،سواء بسواء..فقال تعالى:«وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» (١٧٢:البقرة) .

[2030] – تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٥/ ١١٨)

وقال سبحانه:«وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ» (١٥٢:البقرة) ..وهذا ما جاء عليه قوله تعالى في هذه الآية:«وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» ..أي أن عائد الشكر،إنما يعود إلى الشاكر نفسه،ليس لله منه شيء،فإن الله غنى عن العالمين،لا ينفعه شكر من يشكر،ولا يضره كفر من يكفر،كما يقول سبحانه:«إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» (٧:الزمر) .

قوله تعالى:«وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»

هو معطوف على قوله تعالى:«أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» ..فإن قوله تعالى:

«أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» يفهم منه أنه شكر لله،بما آتاه الله من حكمة،فكان بهذه الحكمة من المؤمنين بالله،الشاكرين له،وهو إذ كان حكيما إذ آمن بالله وشكر له،فإنه كان حكيما كذلك إذ نفع بهذه الحكمة أقرب الناس إليه،وآثرهم عنده،وهو ابنه،فدعا ابنه إلى الإيمان بالله،وإلى إخلاء قلبه من الشرك،حتى يلحق بأبيه،ويكون من الشاكرين لله،ثم حذّره مغبة الشرك،وما يقع على الإنسان منه من ظلم عظيم،إذ يصيبه في مقاتله،ويورده موارد الهالكين..

قوله تعالى:«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» .

جاءت هاتان الآيتان معترضتين وصية لقمان لابنه،وذلك لتكتمل بها الحكمة،التي كان من أولى ثمراتها وأطيبها،شكر الخالق المنعم،ثم تكون الثمرة الثانية،وهى شكر الوالدين،وذلك ببرهما،والإحسان إليهما إذ كان لهما على الولد فضل الولادة،والتربية،والرعاية،ومن حق كل ذى فضل أن يشكر ويحمد ممن أحسن إليه..وفي المأثور:«لا يشكر الله من لا يشكر الناس» .. ووصاة الله للإنسان بوالديه،هى أمر،وعزيمة،وتكليف،إذ كثيرا ما ينكر الإنسان هذا الحق الذي لوالديه عليه،كما أن كثيرا من الناس يكفر بالله،ويجحد إحسان الله إليه،وفضله عليه..

- وفي قوله تعالى:«حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ» إشارة إلى أخفى لون في الصورة التي نبت منها الولد،ونشأ في حجر والديه،وإلفات للولد إلى هذا الخيط الواهي من

الحياة التي كانت له،والتي أمسكت به الأم،نطفة ثم علقة..ثم ما زالت تمسك بهذا الخيط في حرص وحذر،وتفرز له من عصارة حياتها ما يزيده على الأيام قوة ونماء،حتى تفتق عنه رحمها وليدا،طفلا،ثم ما زالت به تحمله بين يديها،وتضمه إلى صدرها،وترضعه من لبنها،حتى يفطم،ويرفع فمه عن هذا الينبوع الذي يمتص منه رحيق الحياة،ليستقبل بعد هذا ما يمده به والداه من طعام،حتى يشب ويكبر،ويستطيع أن يسعى سعيه في الحياة!.

إنها رحلة استمرت نحو عامين،قطعها هذا الإنسان دائرا في فلك أمه،بين حمل ورضاعة.

والوهن:الضعف..ووهنا على وهن:أي ضعفا على ضعف..وهو حال من الفاعل والمفعول معا في قوله تعالى:«حَمَلَتْهُ أُمُّهُ» ..فالضعف الذي تبدأ به حياة الجنين،تتلقاه الأم،فيصيبها منه ضعف،هو ضعف معاناة الحمل..

فيجتمع ضعف الجنين،مع ضعف الأم الوارد عليها منه..

والفصال:الفطام،حيث يفصل الطفل عن جسد أمه،الذي يظل ملصقا به نحو عامين،فى بطنها،وعلى صدرها،وبين ذراعيها..

– وفي قوله تعالى:«أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ» تفسير للفعل «وَوَصَّيْنَا» ..إذ الوصاة تحمل دعوة إلى هدى وخير،ومضمون الوصاة هنا هو الشكر لله وللوالدين..وقدم شكر الله على شكر الوالدين،لأن الله سبحانه هو الخالق وحده،وإذا كان للوالدين شيء هنا فهو لله أيضا،فما هما إلا من خلق الله،وما هما إلا أداة من الأدوات العاملة بقدرة الله وبأمره..ومع هذا،فإن ذلك عمل من عملهما،يجزيهما الله عليه،وهو حق لله جعله الله لهما على أبنائهما،فضلا منه– سبحانه– وإحسانا.

وقوله تعالى:«إِلَيَّ الْمَصِيرُ» – إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى،له كلّ شيء في هذا الإنسان الذي ولد لهذين الأبوين،وأن هذه المشاركة التي تبدو للوالدين في إيجاد الولد،ليست إلا مشاركة ظاهرية،إن أعطت الوالدين حقّ الإحسان إليهما،والبرّ بهما،فلن تعطيهما حقّ العبادة،على نحو ما كان عليه معتقد أولئك الضالين،الذين يعبدون أصولهم من آباء وأجداد!

ومن جهة أخرى،فإن قوله تعالى:«إِلَيَّ الْمَصِيرُ» تنبيه إلى هذا الحق الذي للوالدين على

الولد،وأنه إذا قصّر في أدائه لهما،فإنه سيحاسب عليه يوم الحساب،يوم يقـــوم النـــاس لـــرب العالمين،ويعرضون عليه..لا تخفى منهم خافية.

– وفي قوله تعالى:«وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِـــهِ عِلْـــمٌ فَـــلا تُطِعْهُمـــا وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» – إشارة إلى موقف آخر،مختلف عن الموقف الأول،الذي يكون فيه الابن مؤديا حق والديه،قائما ببرّهما والإحسان إليهما..وفي هذا الموقف يكون الأبوان على غير الطريق المستقيم،على حين يكون ابنهما على طريق الهدى والإيمـــان..إنهمـــا مشـــركان بالله،وهو مؤمن..وقد رأيا في إيمان ابنهما بالله خروجا على طاعتهما،واستخفافا بدينهما لذى يدينان به،وخروجا على تقاليدهما الموروثة عن الآباء والأجداد..

وهنا يقع الصدام،ويكثر الشد والجذب..فالأبوان يؤرّقهما هذا الذي استحدثه ابنـــهما مـــن دين،والابن على يقين من أمره،وعلى بصيرة من دينه،وإنه لا ســـبيل إلى أن يجمعـــه وإياهمـــا طريق،إلا أن يؤمنا بالله،وهيهات..!

والابن المؤمن هنا،بين حقين يتنازعانه..حـــق الله،وهـــو الإيمـــان بـــه،وحق الوالـــدين،وهو طاعتهما،والامتثال لما يدعوانه إليه من شرك وضلال.وإنـــه لا خيـــار..فـــإن حـــق الله أولى وألزم..إنه يجبّ كل حق،ويعلو على كل واجب..ولكن مع هذا،فإنه يبقى– مع الاحتفاظ بحق الله،والوفاء به– اللطف،والرفق،والمحاسن..فإن ذلك لا يجور على حق الله ولا يؤثر في الإيمـــان الذي عمر به القلب:«وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مـــا لَـــيْسَ لَـــكَ بِـــهِ عِلْـــمٌ فَـــلا تُطِعْهُما..وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» ..فهذا هو أعدل موقف يأخذه الإنسان هنا،فيحتفظ فيه بحق الله،ولا يجحد بعض ما لأبويه من حقوق.

روى عن سعد بن أبى وقاص– رضى الله عنه– أنه كان يقول «كنت رجلا بـــرّا بأمى،فلمـــا أسلمت قالت يا سعد:وما هذا الذي أراك قد أحدثت؟

لتدعنّ دينك هذا،أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت،فتغيّربى،فيقال:يا قاتل أمه!! قلت لا تفعلى يا أمّه،فإنى لا أدع دينى هـــذا لشـــىء..فمكثـــت يومـــا وليلـــة لا تأكل،فأصـــبحت قـــد جهدت،فمكثت يوما وليلة لا تأكل،فأصبحت قد اشتد جهدها..فلما رأيت ذلك قلـــت:يـــا أمه،تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس،فخرجت نفسا نفسا،ما تركت دينى هذا لشىء..

فإن شئت فكلى،وإن شئت لا تأكلى،فلما رأت ذلك أكلت» ! – وقوله تعالى:«وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ» توكيد لما جاء في قوله تعالى:«فَلا تُطِعْهُما» ومعطوف عليه.

وسبيل من أناب إلى الله،هو سبيل المؤمنين،كما يقول سبحانه:«وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً» (١١٥:النساء) .

وقوله تعالى:«ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» قطع لهذا الجدل،وذلك الخلاف حول الإيمان والشرك،فيما يدور بين الابن وأبويه،وإحالة لهذا الخلاف إلى الله سبحانه وتعالى،ليحكم فيه،ويجزى كلّا بما عمل.

قوله تعالى:«يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ،أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» .المثقال:ما يوزن به..وحبة الخردل:بذرة نبات الخردل..عادت الآيات،لتصل ما انقطع من عظة لقمان لابنه..وقد حذرته الآية السابقة من أعظم خطر يتهدد الإنسان،ويقضى عليه،وهو الشرك بالله.

وفي هذه الآية،يكشف لقمان لابنه عن علم الله،وبسطة سلطانه،حتى يعبده عن علم به،ومعرفة بما ينبغى له من كمال وجلال.فالله سبحانه،الذي يستحق أن يعبد،وأن يفرد بالعبادة،هو المالك لهذا الوجود،العالم بكل صغيرة وكبيرة فيه.حتى الحبة من الخردل،وهى من الصغر بحيث لا تكاد تمسك بها الأصابع..هذه الحبة،إن تكن في أي مكان فى هذا الوجود..إن تكن في صخرة،أىّ صخرة من صخور الأرض،أو تكن في السموات التي لا حدود لها،أو تكن في الأرض،على أي عمق منها،وفي أي مكان فيها– هذه الحبة الضالة الغارقة في بحر هذا الوجود،يأتى بها الله،ويخرجها من هذه الأعماق السحيقة في أحشاء الكون..«إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ» ينفذ نور لطفه إلى كل شىء،«خبير» متمكن من كل شىء،ويعلم كل شىء علما كاشفا..

قوله تعالى:«يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» .وبعد أن كشف لقمان لابنه عن قدرة الله،وعلمه،وحكمته،دعاه إلى عبادته،حتى إذا عبده كانت عبادته عن علم ومعرفة بمن يعبد..وذلك مما يعطى العبادة مفهوما

صحيحا،فيخشع لها القلب،وتسكن بها الجوارح،وتنتعش بها المشاعر..أما العبادة التي لا تقوم على علم،فهى كالزرع الذي لا يقوم على سوق،أو جذور.

والصلاة،هى رأس العبادات في كل شريعة،وهى عمود الدين،فى كل دين..ولهذا كان مقامها هنا هو المقام الأول:«يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ..» ..

ثم جاء بعد ذلك،ما تعطيه الصلاة من ثمر،وهو إصلاح كيان الإنسان،وتنقيته من الشوائب والأدران،فيصبح رسولا كريما من رسل الهدى والخير فى الناس،حيث ائتمر بالمعروف،وانتهى عن المنكر،وهذا ما يدعوه إلى أن يكون داعيا بالمعروف،ناهيا عن المنكر،إن لم يكن بلسانه،فيعمله،وبما يجد الناس فيه،من الأسوة الطيبة والقدوة الصالحة!! فمن ائتمر بالمعروف وانتهى عن المنكر،كان أشبه بالمرآة الصقيلة يرى الناس عليها وجه الخير والإحسان،فيتمثلونه ويتخذونه قدوة لهم.

وقوله تعالى:«وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ» ..إلفات إلى هذا الزاد الطيب الذي يتزود به الإنسان في الحياة،ويستعين به على الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر،وذلك الزاد،هو الصبر..فإنه إذا قل حظ الإنسان من الصبر،فلن يجد العزم الذي يمضى به التكاليف ويقضى به الحقوق.

ولهذا كانت دعوة الإسلام إلى الصبر دعوة مؤكدة،حيث يستدعى الصبر عند كل عظيمة،ويهتف به عند كل أمر ذى شأن..ففى ميدان القتال..لا عدّة للمؤمن أعظم ولا أقوى من الصبر..«وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»..(٤٦:الأنفال) ..«بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» (١٢٥:آل عمران) «وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ» ..إنه لا عاصم للإنسان من الخسران،إلا أن يعتصم بالإيمان،والصبر..والصبر،مع أنه مطلوب في كل حال،فإن الحاجة إليه أشد،والطلب له أقوى وألزم،حين يواجه المرء ما يكره من عواقب الأمور..فهنا يكون الإنسان أمام امتحان قاس لإيمانه بربه وتوكله عليه،وتفويض أمره كله إليه..

فإن لم يجد من الصبر ما يمسك عليه إيمانه،ويقيم وجهه على الرضا والتسليم لله،استبدّ به الجزع،وقتله الهمّ،ووقعت بينه وبين ربه غيوم من التهم والظنون..وهذه أول مزالق الشرك والكفر بالله..

– وفي قوله:«إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» – الإشارة «ذلك» إلى الصبر..أي إن ذلك الذي تدعى إليه،وهو الصبر،هو من عزم الأمور،أي من جدّها،وصميمها،ولبابها..وأنه مما ينبغي أن يحصّله الإنسان،ويربّى نفسه عليه،ويروضها على احتمال أعبائه..إنه لن يرتفع الإنسان عن مستوى هذا التراب،إلا إذا حلّق بهذين الجناحين:الإيمان،والصبر..

قوله تعالى:«وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً..إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ» .

الصّعر:ميل الخدّ كبرا وتعاليا..والمرح:الخفّة عن تيه،وعجب..وإنه من كمال الإنسان أن يجمّل ظاهره،كما يجمل باطنه..إذ كان الظاهر هو بعض ما يقرزه الباطن،وينضح به..

وليس صعر الخد،والتبختر في المشي،إلا من مشاعر التعالي،والعجب،وذلك مما يعزل الإنسان عن الناس ويعزل الناس عنه،ولا يكون من هذا إلا الجفاء،ثم العداوة والبغضاء..

– وفي قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ» – إشارة إلى أن صاحب الكبر،والتيه،كما يلقى الكراهية،والنفور من الناس،فإنه يلقى البغض من الله،والبعد عن مواقع رضاه..لأن الكبر مفتاح كل رذيلة،وباب كل شر وضلال..وما أوتى المشركون الذين تحدّوا رسالة الإسلام،وعموا عن مواقع الهدى منها– إلا من كبرهم،وعجبهم بأنفسهم،وبما زينت لهم أهواؤهم..

قوله تعالى:«وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ..إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» هو من بعض ما يجيء من التيه والكبر من شر..حيث يخرج الإنسان في مشيه عما اعتاد الناس في مشيهم،فيصرع أو يبطىء لغير داعية،إلا أن يرى الناس أنه على غير شاكلتهم..كذلك رفع الصوت،وإطلاقه على مداه،من غير سبب،هو استخفاف بالجماعة،وخروج على مألوفها،وإلفات لهم بهذا الصوت المدوى،إلى مصدره!.

والقصد في المشي،هو الأخذ بالوسط منه،فلا إسراع ولا إبطاء،ما دام الإنسان على حـــال لا تقتضى هذا أو ذاك،ولا تستدعيه.

– وفي قوله تعالى:«وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ» إشارة إلى كسر حدة الصوت حياء من النـــاس أن يأتى هذا المنكر– وهو رفع الصوت– أمامهم،تماما،كما يغض الإنسان بصـــره عـــن الأمـــور المنكرة،حياء من الله،وحياء من الناس! – وفي قوله تعالى:«إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» تنفير من رفع الصوت والخروج به على حدود الحديث المدار بين الجماعة– ولكأن هذا الذي يطلق صوته على مداه في مجلس من المجالس،هو حمـــار،أطلق صـــوته،فقطع علـــى الجماعـــة حديثها..فليكن مثل هذا الحمار إن شاء!.[٢٠٣١]

قال العلامة السعدي رحمه الله:" وهذه الوصايا،التي وصى بها لقمـــان لابنـــه،تجمع أمهـــات الحكم،وتستلزم ما لم يذكر منها،وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها،إن كانت أمـــرا،وإلى تركها إن كانت نهيا.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة،أنها العلم بالأحكام،وحِكَمِهـــا ومناســـباتها،فأمره بأصل الدين،وهو التوحيد،ونهاه عن الشرك،وبيَّن له الموجب لتركه،وأمره ببر الوالدين،وبين له السبب الموجب لبرهما،وأمره بشكره وشكرهما،ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما،ما لم يأمرا بمعصية،ومع ذلك فلا يعقهما،بل يحسن إليهما،وإن كان لا يطيعهما إذا جاهـــداه علـــى الشرك.وأمره بمراقبة الله،وخوَّفه القدوم عليه،وأنه لا يغادر صـــغيرة ولا كـــبيرة مـــن الخـــير والشر،إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر،وأمره بالتواضع،ونهاه عن البطر والأشر،والمرح،وأمره بالسكون في الحركـــات والأصوات،ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف،والنهي عن المنكر،وإقامة الصلاة،وبالصبر اللذين يســـهل بهمـــا كـــل أمر،كما قال تعالى فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا،أن يكون مخصوصـــا بالحكمة،مشـــهورا

[٢٠٣١] – التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٥٦٥)

بها.ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عباده،أن قص عليهم من حكمته،ما يكون لهم به أسوة حسنة."[2032]

وقال الزحيلي :" وفيه ما يلي :

١- إن الشرك بالله أو اتخاذ عبد من عباده أو صنم من الأصنام شريكا في العبادة مع الله ظلم عظيم،بل هو أعظم الظلم،لما فيه من الافتئات على الخالق الرازق،وسخف هذا الاعتقاد،وخلوة من أي فائدة للمشرك.وقد حققت وصية لقمان لابنه هدفها،فقد ورد في التفسير أن ابنه كان مشركا،فوعظه وكرر الوعظ عليه حتى أسلم.

٢- برّ الوالدين وطاعتهما في معروف غير معصية فرض واجب على الإنسان،مقابلة للمعروف بمثله،ووفاء للإحسان،وتقدير الفضل،واحترام نظام الأسرة.وأمر الله بالإحسان إلى الوالدين عام في الوالدين المسلمين والكافرين،وأن طاعة الوالدين على أي دين كانا واجبة.غير أن طاعة الأبوين غير مطلوبة،بل هي حرام في ارتكاب معصية كبيرة كالإشراك بالله،وترك فريضة عينية فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق،وتلزم طاعتهما في المباحات،وتندب الطاعة في ترك المندوبات ومنها الجهاد الكفائي،وإجابة الأم في الصلاة النافلة إذا شقّ عليها الانتظار أو خيف هلاكها.

وتختصّ الأم بزيادة البرّ والطاعة لمعاناتها في سبيل تربية أولادها،وبما أنها كما ذكرت الآية تعرضت لمراتب ثلاث من المشاق:الحمل،والرضاع،والوضع،جعل لها ثلاثة أرباع المبرّة،وللأب الربع،

٣- الشكر لله على نعمة الإيمان وغيرها من النعم الكثيرة التي لا تعدّ ولا تحصى،وللوالدين على نعمة التربية،قال سفيان بن عيينة:من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى،ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

٤- آية وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً دليل على جواز صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين،وإلانة القول والدعوة إلى الإسلام برفق.ودلّ قوله تعالى:وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا

[2032] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٤٩)

مَعْرُوفاً على أن الولد لا يستحق القصاص على أحد والديه،وأنه لا يحدّ له إذا قذفه،ولا يحبس له بدين عليه،وأن على الولد نفقة والديه عند الحاجة.

٥- قوله تعالى:وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ المراد به العموم،كما هو ظاهر اسم الموصول،فهو وصية لجميع العالم،والمأمور الإنسان،وهي سبيل الأنبياء والمؤمنين الصالحين.وأناب معناه:مال ورجع إلى الشيء،والمراد هنا:تاب من الشرك،ورجع إلى الإسلام،واتبع النبي ﷺ،ورجع إلى الله بالتوحيد والإخلاص بالطاعة،لا سبيل الوالدين اللذين يأمران بالشرك.وهذا الأمر باتباع السبيل دليل على صحة إجماع المسلمين،وأنه حجة لأمر الله تعالى إيانا باتباعهم،وهو مثل قوله تعالى:وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ [النساء ٤/ ١١٥] .

٦- قوله سبحانه:ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ..توعد من الله عزّ وجلّ ببعث من في القبور،والرجوع إليه للجزاء والاعلام بصغير الأعمال وكبيرها.

٧- قوله تعالى:يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ..قصد به إعلام قدرة الله تعالى،وتخويف منه ورجاء،فمهما تكن الحسنة أو الخطيئة أو الطاعات والمعاصي مثقال حبة خردل يأت بها الله،لأن الحسّ لا يدرك ثقلا للخردلة،إذ لا ترجّح ميزانا.

وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما،وأحصى كل شيء عددا سبحانه لا شريك له.

٨- في الآية تعظيم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وهذا يشمل جميع الطاعات والفضائل،والحضّ على تغيير المنكر والصبر،وإن نال الإنسان ضرر،وفيه إشعار بأن المغيّر يؤذى أحيانا.

كما أن الصبر مندوب إليه عند التعرض لشدائد الدنيا كالأمراض وغيرها،وعلى الإنسان ألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عزّ وجلّ،فإن من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره.

وإن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور،أي مما عزمه الله وأمر به،وجعله من الأمور الواجبة.

٩- دلّ قوله تعالى:وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ على تحريم التكبر،ومعنى الآية:ولا تمل خدك للناس تكبرا عليهم،وإعجابا بالنفس،واحتقارا لهم،وأقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا،وإذا حدّثك أصغر الناس،فاصغ إليه حتى يكمل حديثه،كما كان يفعل النبي ﷺ.

١٠- يحرم على الإنسان أن يمشي في الأرض متبخترا متكبرا،بل يحرم التكبر في كل الحالات.

١١- يندب للإنسان القصد أي التوسط في المشي،وهو ما بين الإسراع والبطء،فلا تدبّ دبيب المتماوتين،ولا تثب وثب الشيطان.

١٢- كما يندب إليه عدم التكلف في رفع الصوت،والتكلم حسب الحاجة والمعتاد،فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي،والمراد بذلك كله التواضع.

وقد شبّه رفع الصوت الزائد عن الحاجة بصوت الحمير،والحمار ونهاقه مثل في الذمّ البليغ والشتيمة.

وفي الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة بقبح أصوات الحمير،لأنها عالية.

والآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا بهم،أو بترك الصياح جملة،وقد نهى الله عنه،لأنه من أخلاق الجاهلية وعاداتها،فقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك.وتلك إشارة إلى التوسط في جميع الأفعال والأقوال.

والخلاصة:جمعت وصية لقمان بين فضائل الدين والآخرة ومكارم الأخلاق في الدنيا،واشتملت تسعة أوامر،وثلاثة نواه،وسبع علل أو أسباب:

أما الأوامر:فهي الأمر ببرّ الوالدين،والشكر لله وللوالدين،ومصاحبة الوالدين في الدنيا بالمعروف،واتباع سبيل الأنبياء والصالحين،وإقامة الصلاة،والأمر بالمعروف،والنهي عن المنكر،والاعتدال في المشي،وإخفاض الصوت.[٢٠٣٣]

لقد قرر القرآن أنه رجل آتاه الله الحكمة.الحكمة التي مضمونها ومقتضاها الشكر لله:«وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» ..وهذا توجيه قرآني ضمني إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم المختار الذي يعرض قصته وقوله.وإلى جوار هذا التوجيه الضمني توجيه آخر،فشكر الله إنما هو رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو،والله غني عنه.فالله محمود بذاته ولو لم

[٢٠٣٣] - التفسير المنير للزحيلي (٢١/ ١٥٢)

يحمده أحد من خلقه:«وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ.وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» ..وإذن فأحمق الحمقى هو من يخالف عن الحكمة ولا يدخر لنفسه مثل ذلك الرصيد.

ثم تجيء قضية التوحيد في صورة موعظة من لقمان الحكيم لابنه:«وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ - وَهُوَ يَعِظُهُ -:يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ.إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» ..

وإنها لعظة غير متهمة فما يريد الوالد لولده إلا الخير وما يكون الوالد لولده إلا ناصحا.وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ظلم عظيم.ويؤكد هذه الحقيقة مرتين.مرة بتقديم النهي وفصل علته.ومرة بإنّ واللام ..وهذه هي الحقيقة التي يعرضها محمد - ﷺ - على قومه،فيجادلونه فيها ويشكون في غرضه من وراء عرضها ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم! فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة،بعيدة من كل ظنة؟ ألا إنها الحقيقة القديمة التي تجري على لسان كل من آتاه الله الحكمة من الناس يراد بها الخير المحض،ولا يراد بها سواه ..وهذا هو المؤثر النفسي المقصود.

وفي ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد في أسلوب رقيق ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة.ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على تلك العلاقة الوثيقة:«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ،حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ،وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ،أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ،إِلَيَّ الْمَصِيرُ.وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما،وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً،وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ.ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ..

وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم،وفي وصايا رسول الله - ﷺ - ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا.ومعظمها في حالة الوأد - وهي حالة خاصة في ظروف خاصة - ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه.فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة،كما يريدها الله وإن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال،في غير تأفف ولا شكوى بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان! فالفطرة

وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة! فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصـية المكـررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولّى الذاهب في أدبار الحياة،بعد ما سكب عصارة عمـره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه،ولو وقف عمره عليهما.وهذه الصورة الموحية:«حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلـى وَهْـنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ» ترسم ظلال هذا البذل النبيل.والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفـر وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق ..وفي ظلال تلك الصورة الحانية يوجـه إلى شكر الله المنعم الأول،وشكر الوالدين المنعمين التاليين ويرتب الواجبات،فيجيء شكر الله أولا ويتلوه شكر الوالدين ..«أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ» ..ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة:«إِلَيَّ الْمَصِيرُ» حيث ينفع رصيد الشكر المذخور.

ولكن رابطة الوالدين بالوليد – على كل هذا الانعطاف وكل هذه الكرامة – إنما تـأتي في ترتيبها بعد وشيجة العقيدة.فبقية الوصية للإنسان في علاقته بوالديه:«وَإِنْ جاهَداكَ عَلـى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما» ..فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة،وتعلو وشـيجة العقيدة على كل وشيجة.فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومـن اقنـاع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته – وكل ما عدا الله لا ألوهية له فتعلم! – فهو مـأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول في الطاعة.

ولكن الاختلاف في العقيدة،والأمر بعدم الطاعة في خلافها،لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة:«وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» فهي رحلة قصيرة على الأرض لا تؤثر في الحقيقة الأصيلة:«وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ» من المؤمنين «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ» بعـد رحلـة الأرض المحدودة «فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ولكل جزاء ما عمل من كفران أو شكران،ومن شرك أو توحيد.

أما مدلولها فهو عام في كل حال مماثلة،وهو يرتب الوشائج والروابط كما يرتب الواجبـات والتكاليف.فتجيء الرابطة في الله هي الوشيجة الأولى،ويجيء التكليف بحق الله هو الواجـب الأول.والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة ويؤكدها في كل مناسبة وفي صور شتى لتسـتقر في وجدان المؤمن واضحة حاسمة لا شبهة فيها ولا غموض.

وبعد هذا الاستطراد المعترض في سياق وصية لقمان لابنه،تجيء الفقرة التالية في الوصية،لتقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل.ولكن هذه الحقيقة لا تعرض هكذا مجردة،إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح،وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان،وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف:«يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ،فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ،أَوْ فِي السَّماواتِ،أَوْ فِي الْأَرْضِ،يَأْتِ بِهَا اللَّهُ.إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» ..

وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله،وعن قدرة الله سبحانه،وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور.وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء،العميقة الإيقاع ..حبة من خردل.صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة.«فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ» ..صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها.«أَوْ فِي السَّماواتِ» ..في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة.«أَوْ فِي الْأَرْضِ» ضائعة في ثراها وحصاها لا تبين.«يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» ..فعلمه يلاحقها،وقدرته لا تفلتها.«إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» ..تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف.ويظل الخيال يلاحق تلك الحبة من الخردل في مكامنها تلك العميقة الوسيعة ويتملى علم الله الذي يتابعها.حتى يخشع القلب وينيب،إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب.وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب.بهذا الأسلوب العجيب.

ويمضي السياق في حكاية قول لقمان لابنه وهو يعظه.فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها في الضمير.بعد الإيمان بالله لا شريك له واليقين بالآخرة لا ريب فيها والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل ..فأما الخطوة التالية فهي التوجه إلى الله بالصلاة،والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله،والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التي لا بد أن تكون:«يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ.إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» ..

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم ..توحيد لله،وشعور برقابته،وتطلع إلى ما عنده،وثقة في عدله،وخشية من عقابه.ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم،وأمرهم بالمعروف،ونهيهم عن المنكر.والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر،بالزاد الأصيل.زاد العبادة لله والتوجه إليه

بالصلاة.ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله،من التواء النفوس وعنادها،وانحراف القلــوب وإعراضها.ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي.ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء ..«إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» ..وعزم الأمور:قطع الطريق على التردد فيها بعــد العزم والتصميم.

ويستطرد لقمان في وصيته التي يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله.فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير.ومن باب أولى يكون التعــالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل:«وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ،وَلا تَمْشِ فِــي الْــأَرْضِ مَرَحاً.إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ.وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ،وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ.إِنَّ أَنْكَــرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» ..

والصعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها.والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر.حركة الكبر والازورار،وإمالة الخد للناس في تعــال واســتكبار! والمشــي في الأرض مرحا هو المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس.وهي حركة كريهــة يمقتــها الله ويمقتها الخلق.وهي تعبير عن شعور مريض بالذات،يتنفس في مشية الخيلاء! «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ».

ومع النهي عن مشية المرح،بيان للمشية المعتدلة القاصدة:«وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» ..والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف.وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال.ومن القصــد كذلك.لأن المشية القاصدة إلى هدف،لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر،إنما تمضي لقصــدها في بساطة وانطلاق.

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته.وما يزعــق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب،أو شاك في قيمة قوله،أو قيمة شخصه يحاول إخفــاء هــذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق! والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفــرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله:«إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» ..فيرتســم مشــهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية،مع النفور والبشاعة.ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع،ثم يحاول ..شيئا من صوت هذا الحمير ..!

وهكذا تنتهي الجولة الثانية،بعد ما عالجت القضية الأولى،بهذا التنويع في العرض،والتجديد في الأسلوب.[2034]

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم:٦]

يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا باللهِ وَمَلاَئِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه،اعْمَلُوا بطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى،وَاتَّقُوا مَعْصِيَتَهُ،وَأمُرُوا أَهْلَكُمْ بالذِّكْرِ والتَّقْوَى،وَعَلِّمُوهُمْ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيهِمْ،وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ،وَأمُرُوهُمْ بطَاعَةِ اللهِ لِتُنقذُوهُمْ وَأَنْفُسَكُمْ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ،التي يَكُونُ وَقُودُهَا النَّاسُ مِنَ الكَفَرَةِ،وَالحِجَارَةُ،وَتَقُومُ عَلَيهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ،أَشِدَّاءُ عَلَيهِمْ،لاَ يُخَالِفُونَ رَبَّهُمْ فِي أَمْرٍ بِهِ،وَيُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ.[2035]

وعَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [التحريم:٦] قَالَ:مُرُوهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ،وَانْهُوهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ "[2036]

وعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [التحريم:٦] .قَالَ:«عَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمُ الْخَيْرَ»[2037]

وعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [التحريم:٦] قَالَ:«عَلِّمُوهُمْ ،أَدِّبُوهُمْ»[2038]

[2034] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٤٢)

[2035] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١١٣،بترقيم الشاملة آليا)

[2036] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣/ ١٠٥) صحيح

[2037] - المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٢٦٥)(٣٧٢) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٥٣٥)(٣٨٢٦) ومصنف عبد الرزاق الصنعاني (٣/ ٤٩)(٤٧٤١) صحيح

[2038] - أدب النفوس للآجري (ص:٢٦١)(١٢) فيه جهالة

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَلَا تَرَوْنَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى مَوْلَاكُمُ الْكَرِيمِ ، يَحُثُّكُمْ عَلَى تَأْدِيبِ نُفُوسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ؟ ، فَاعْقِلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [التحريم:٦] قَالَ:«عَلِّمُوهُمْ ، أَدِّبُوهُمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَلَا تَرَوْنَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى مَوْلَاكُمُ الْكَرِيمِ ، يَحُثُّكُمْ عَلَى تَأْدِيبِ نُفُوسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ؟ ، فَاعْقِلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَلْزِمُوا أَنْفُسَكُمْ عِلْمَ ذَلِكَ.ثُمَّ اعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّهُ يَلْزَمُكُمْ عِلْمُ حَالَيْنِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا:عِلْمُ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ ، وَقُبْحِ مَا تَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ، مِمَّا تَهْوَاهُ وَتَلَذُّهُ ، مُضْمِرَةً لِذَلِكَ ، وَقَائِلَةً وَفَاعِلَةً ، فَوَاجِبٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَزْجُرُوهَا عَنْهُ ، حَتَّى لَا تُبَلِّغُوهَا ذَلِكَ.وَالْحَالُ الثَّانِي:عِلْمُ كَيْفَ السِّيَاسَةُ لَهَا؟ ، وَكَيْفَ تُرَاضُ؟ ، وَكَيْفَ تُؤَدَّبُ؟ ، فَهَذَانِ الْحَالَانِ لَا بُدَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ عَاقِلٍ أَنْ يَطْلُبَ عِلْمَهُ

وعَنْ مُجَاهِد،فِي قَوْلِ اللَّهِ:{قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [التحريم:٦] قَالَ:اتَّقُوا اللَّهَ،وَأَوْصُوا أَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ"[٢٠٣٩]

وعَنْ قَتَادَةَ،{قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التحريم:٦] قَالَ:قَالَ:يَقِيهِمْ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ،وَيَنْهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ،وَأَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَأْمُرَهُمْ بِهِ وَيُسَاعِدَهُمْ عَلَيْهِ،فَإِذَا رَأَيْتَ لِلَّهِ مَعْصِيَةً رَدَعْتَهُمْ عَنْهَا،وَزَجَرْتَهُمْ عَنْهَا"[٢٠٤٠]

حَتَّى يَعْرِفَ نَفْسَهُ ، وَيَعْرِفَ كَيْفَ يُؤَدِّبُهَا.قُلْتُ:فَأَمَّا مَعْرِفَةُ النَّفْسِ ، وَقَبِيحُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرِي لَهُ ، وَأَنَا أَزِيدُكَ فِي فَضْحَتِهَا:هِيَ جَامِعَةٌ لِكُلِّ بَلَاءٍ.وَخِزَانَةُ إِبْلِيسَ ، وَإِلَيْهَا يَأْوِي ، وَيَطْمَئِنُّ.تُظْهِرُ لَكَ الزُّهْدَ وَهِيَ رَاغِبَةٌ.وَتُظْهِرُ لَكَ الْخَوْفُ ، وَهِيَ آمِنَةٌ.تَفْرَحُ بِحُسْنِ ثَنَاءٍ مِنْ جَهْلِهَا بِبَاطِلٍ ، فَتَحْمَدُهُ ، وَتُدِينُهُ.وَيَثْقُلُ عَلَيْهَا الصِّدْقُ مَنْ ذَمَّهَا بِحَقٍّ ، نُصْحًا مِنْهُ لَهَا ، فَتُبْغِضُهُ وَتُقْصِيهِ.وَأَنَا أُمَثِّلُ لَكَ مِثَالًا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَمْرُهَا إِنَّ شَاءَ اللَّهُ:اعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ مِثْلُهَا كَمَثَلِ الْمُهْرِ الْحَسَنِ مِنَ الْخَيْلِ ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ النَّاظِرُ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُ وَبَهَاؤُهُ ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ بِهِ:لَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا حَتَّى يُرَاضَ رِيَاضَةً حَسَنَةً ، وَيُؤَدَّبَ أَدَبًا حَسَنًا ، فَحِينَئِذٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، فَيَصْلُحُ لِلطَّلَبِ وَالْهَرَبِ ، وَيَحْمَدُ رَاكِبُهُ عَوَاقِبَ تَأْدِيبِهِ وَرِيَاضَتِهِ.فَإِنْ لَمْ يُؤَدَّبْ لَمْ يُنْتَفَعْ بِحُسْنِهِ وَلَا بِبَهَائِهِ ، وَلَا يَحْمَدُ رَاكِبُهُ عَوَاقِبَهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ.فَإِنْ قِيلَ صَاحِبُ هَذَا الْمُهْرِ قَوْلَ أَهْلِ النَّصِيحَةِ وَالْبَصِيرَةِ بِهِ ، عَلِمَ أَنَّ هَذَا قَوْلٌ صَحِيحٌ فَدَفَعَهُ إِلَى رَائِضٍ فَرَاضَهُ.ثُمَّ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ الرَّائِضُ إِلَّا عَالِمًا بِالرِّيَاضَةِ ، مَعَهُ صَبْرٌ عَلَى مَا مَعَهُ مِنْ عِلْمِ الرِّيَاضَةِ ، فَإِنْ كَانَ مَعَهُ بِالرِّيَاضَةِ وَنَصَحَهُ انْتَفَعَ بِهِ صَاحِبُهُ ، فَإِنْ كَانَ الرَّائِضُ لَا مَعْرِفَةَ مَعَهُ بِالرِّيَاضَةِ ، وَلَا عِلْمَ بِأَدَبِ الْخَيْلِ ، أَفْسَدَ هَذَا الْمُهْرَ وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ ، وَلَمْ يَحْمَدْ رَاكِبُهُ عَوَاقِبَهُ ، وَإِنْ كَانَ الرَّائِضُ مَعَهُ مَعْرِفَةُ الرِّيَاضَةِ وَالْأَدَبِ لِلْخَيْلِ إِلَّا أَنَّهُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَشَقَّةِ الرِّيَاضَةِ ، وَأَحَبَّ التَّرْفِيهَ لِنَفْسِهِ ، وَتَوَانَى عَمَّا وَجَبَ عَلَيْهِ ، مِنَ النَّصِيحَةِ فِي الرِّيَاضَةِ ، أَفْسَدَ هَذَا الْمُهْرَ ، وَأَسَاءَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَصْلُحْ لِلطَّلَبِ ، وَلَا لِلْهَرَبِ ، وَكَانَ لَهُ مَنْظَرٌ بِلَا مَخْبَرٌ ، فَإِنْ كَانَ مَالِكُهُ هُوَ الرَّائِضُ لَهُ ، نَدِمَ عَلَى تَوَانِيهِ يَوْمَ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ ، حِينَ نَظَرَ إِلَى غَيْرِهِ فِي وَقْتِ الطَّلَبِ ، قَدْ طَلَبَ فَأَدْرَكَ ، وَفِي وَقْتِ الْهَرَبِ قَدْ هَرَبَ فَسَلِمَ ، وَطَلَبَ فَهُوَ لَمْ يُدْرِكْ ، وَهَرَبَ فَلَمْ يُسْلِمْ ، كُلُّ ذَلِكَ بِتَوَانِيهِ ، وَقِلَّةِ صَبْرِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ مِنْهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُهَا وَيُبَخِّهَا ، فَيَقُولُ:لِمَ فَرَّطْتِ؟ لِمَ قَصَّرْتِ؟ ، لَقَدْ عَادَ عَلَيَّ مِنْ قِلَّةِ صَبْرَى كُلُّ مَا أَكْرَهُ.وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.اعْقِلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ عِلْمَ هَذَا الْمَثَلِ ، وَتَفَقَّهُوا بِهِ ، تُفْلِحُوا وَتَنْجَحُوا ، وَقَدْ قُلْتُ فِي هَذَا الْمَثَلِ أَبْيَاتًا تُشْبِهُ هَذَا الْمَثَلَ:

أَرَى النَّفْسَ تَهْوَى مَا تُرِيدُ ...وَفِي مُتَابَعَتِي لَهَا عَطَبٌ شَدِيدْ

تَقُولُ وَقَدْ أَلَحَّتْ فِي هَوَاهَا ...مُرَادِي كُلُّ مَا أَهْوَى أُرِيدْ

فَأَمْنَحُهَا نُصْحِي لِكَيْ تَنْزَجِرَ ...فَتَأْبَى وَرَبِّي عَلَى ذِي شَهِيدْ

فَإِنْ أَنَا تَابَعْتُهَا نَدِمْتُ ...وَخِفْتُ الْعُقُوبَةَ يَوْمَ الْوَعِيدْ

فَإِنْ كُنْتَ لِلنَّفْسِ يَا ذَا مُحِبًّا ...فَقَيِّدْ ، وَلَوْ بِقَيْدِ الْحَدِيدْ

وَرُضْهَا رِيَاضَةَ مُهْرٍ يُرَاضُ ...بِالسَّوْطِ ، وَالسَّوْطُ سَوْطُ حَدِيدْ

يَمْنَعُهُ الرَّائِضُ مَا يَشْتَهِي ...يُرِيدُ بِالْمَنْعِ صَلَاحًا وَفَهْمًا يُرِيدْ

يَحْمَدُهُ الرَّاكِبُ يَوْمَ اللِّقَى ...وَالْخَيْلُ فِي الْحَرْبِ وَجَهْدٌ جَهِيدْ

[٢٠٣٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣/ ١٠٤) صحيح

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة.فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله،وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك.إنها نار.فظيعة متسعرة:«وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ» ..الناس فيها كالحجارة سواء.في مهانة الحجارة.وفي رخص الحجارة،وفي قذف الحجارة.دون اعتبار ولا عناية.وما أفظعها نارا هذه التي توقد بالحجارة! وما أشده عذابا هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة! وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب:«عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ».تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون ..«لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» ..فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم،ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم ..وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة.وعلى المؤمن أن يقي نفسه وأن يقي أهله من هذه النار.وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار.[٢٠٤١]

وقال تعالى:{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [طه:١٣٢]

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِإِقَامَةِ الصَّلاَةِ فِي أَوْقَاتِهَا،لِتُنْقِذَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ،وَاصْبِرْ أَنْتَ عَلَيْهَا وَأَدِّهَا كَامِلَةً حَقَّ أَدَائِهَا،فَالوَعْظُ بِالفِعْلِ أَشَدُّ أَثَراً مِنْهُ بِالقَوْلِ.وَإِذَا أَقَمْتَ الصَّلاَةَ أَتَاكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَحْتَسِبْ،وَلَمْ تُكَلَّفُ أَنْتَ رِزْقَ نَفْسِكَ.وَكَانَ الأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ إِذَا نَزَلَ بِهِمْ أَمْرٌ فَزِعُوا إِلَى الصَّلاَةِ.[٢٠٤٢]

هو دعوة للنبي الكريم أن يدعو أهله من زوج وولد،وكلّ مؤمن ومؤمنة،إذ كانوا جميعا أهله،وهو القيّم عليهم،والمدبّر لأمرهم- أن يدعوهم جميعا للصلاة،إذ هى الصورة المثلى الكاملة لذكر الله،وحمده وشكره..

[٢٠٤٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣/ ١٠٤) صحيح

[٢٠٤١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٥٢٠)

[٢٠٤٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٤١،بترقيم الشاملة آليا)

- وقوله تعالى:«وَاصْطَبِرْ عَلَيْها» أمر بالمداومة عليها،وإن كان فى تلك المداومة شىء من العناء..فذلك تكليف،وللتكاليف أعباؤها وأثقالها،وإلا ما استحقّ القائمون بها حمدا،ولا استوجبوا أجرا..

- وفى قوله تعالى:«لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً» - إشارة إلى أن الصّلاة التي يؤديها النبىّ ومن معه من المؤمنين لله- ليست سدّا لحاجة الله سبحانه وتعالى إليها،فالله سبحانه فى غنى عن العالمين..وكلّ ما يتقدم به المؤمنون والمتقون إلى الله من طاعات وقربات عائد إليهم،حيث تطهر به قلوبهم،وتزكو به نفوسهم،وفى هذا يقول الله تعالى:«ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» (٥٧- ٥٨:الذاريات) ويقول سبحانه فى هدى الأضاحى:«لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ» (٣٧:الحج) .

- وفى قوله تعالى:«نَحْنُ نَرْزُقُكَ» مقابلة لقوله تعالى:«لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً» أي بل نحن نرزقك،ونتفضّل عليك ابتداء وانتهاء..

- وقوله تعالى:«وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى» - إشارة إلى أن ما يؤديه النبىّ والمؤمنون لله سبحانه وتعالى من عبادات،وقربات،هو مما يدّخر لهم،ويبقى..كما يقول سبحانه:«وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا» (٤٦:الكهف) .وفى إسناد العاقبة إلى التقوى،لا إلى الأعمال الصالحة،إشارة إلى أن الأعمال الصالحة هى وسائل إلى غاية،والغاية هى التقوى..التي هى ثمرة الأعمال الصالحة..[٢٠٤٣]

أي:حث أهلك على الصلاة،وأزعجهم إليها من فرض ونفل.والأمر بالشيء،أمر بجميع ما لا يتم إلا به،فيكون أمرا بتعليمهم،ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

{وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} أي:على الصلاة بإقامتها،بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها،فإن ذلك مشق على النفس،ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك،والصبر معها دائما،فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به،كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم،وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع،ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق،وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه،فقال:{نَحْنُ نَرْزُقُكَ} أي:رزقك علينا قد تكفلنا به،كما تكفلنا بأرزاق الخلائق

[٢٠٤٣] - التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٨٤١)

كلهم،فكيف بمن قام بأمرنا،واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره،فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية،وهو:التقوى،ولهذا قال:{وَالْعَاقِبَةُ} في الدنيا والآخرة {لِلتَّقْوَى} التي هي فعل المأمور وترك المنهي،فمن قام بها،كان له العاقبة،كما قال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[٢٠٤٤]

«وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ» ..فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله،فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة.وما أروح الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله.

«وَاصْطَبِرْ عَلَيْها» ..على إقامتها كاملة وعلى تحقيق آثارها.إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وهذه هي آثارها الصحيحة.وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك.وإلا فما هي صلاة مقامة.إنما هي حركات وكلمات.

هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هي تكاليفك والله لا ينال منها شيئا.فالله غني عنك وعن عبادة العباد:«لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ» إنما هي العبادة تستجيش وجدان التقوى «وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى».فالإنسان هو الرابح بالعبادة في دنياه وأخراه.يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح.ويعبد فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى.والله غني عن العالمين.[٢٠٤٥]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ،حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ،أَيْقَظَ أَهْلَهُ لِلصَّلَاةِ.يَقُولُ لَهُمُ:" الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا،لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا،نَحْنُ نَرْزُقُكَ،وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه:١٣٢] "[٢٠٤٦].

[٢٠٤٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥١٧)

[٢٠٤٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٦١)

[٢٠٤٦] - موطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ١١٩)(٥) صحيح

(كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ)،أَيْ مِنْ عَدَدِ الرَّكَعَاتِ،أَوْ مِنَ اسْتِيفَاءِ الْأَوْقَاتِ (حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ،أَيْقَظَ أَهْلَهُ لِلصَّلَاةِ):لِيَنْتَفِعُوا بِمَا انْتَفَعَ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ (يَقُولُ لَهُمْ:الصَّلَاةَ):مَنْصُوبَةٌ بِتَقْدِيرِ أَقِيمُوا أَوْ صَلُّوا،وَيَجُوزُ الرَّفْعُ بِمَعْنَى:حَضَرَتِ

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا،فَقَالَ:«يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ،احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ،إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ،وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ،وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ،وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ،رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» رواهُ التِّرمذيُّ[٢٠٤٧].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:" يَا غُلَامُ أَوْ يَا بُنَيَّ أَوَ لَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟ " قُلْتُ:بَلَى،قَالَ:" احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ،احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ،تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ

الصَّلَاةُ،ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ} [طه:١٣٢]:وَهِيَ بِعُمُومِهَا تَشْمَلُ صَلَاةَ اللَّيْلِ {وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [طه:١٣٢]،أَيْ:بَالِغْ فِي الصَّبْرِ عَلَى تَحَمُّلِ مَشَقَّاتِهَا وَمَشَاقِّ أَمْرِ أَهْلِكَ بِهَا،فَأَقْبِلْ أَنْتَ مَعَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى،وَاسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى غِنَى فَقْرِكُمُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ،وَلَا تَهْتَمَّ بِأَمْرِ الرِّزْقِ،وَفَرِّغْ قَلْبَكَ لِأَمْرِ الْآخِرَةِ؛لِأَنَّا لِعَظَمَتِنَا وَقُدْرَتِنَا عَلَى رِزْقِ الْعِبَادِ.{لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا} [طه:١٣٢]،أَيْ:تَحْصِيلَ رِزْقٍ لَكَ وَلَا لِغَيْرِكَ {نَحْنُ نَرْزُقُكَ} [طه:١٣٢]:كَمَا نُرْزَقُ غَيْرَكَ (وَالْعَاقِبَةُ)،أَيِ الْمَحْمُودَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى (لِلتَّقْوَى)،أَيْ:لِأَرْبَابِ التُّقَى مِنْ أُولِي النُّهَى الْجَامِعِينَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْإِخْلَاصِ،الْوَاصِلِينَ إِلَى مَقَامِ الِاخْتِصَاصِ.(رَوَاهُ مَالِكٌ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٣٢)

[٢٠٤٧] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٧)(٢٥١٦) صحيح

فهل تعتقد أن إنساناً تغلب على نفسه كل هذه المعاني عقيدة وشعوراً ووجداناً فتملأها صلابة وقوة يمكن أن تجد الأمراض النفسية إلى نفسه سبيلاً،كلا،وقد اعترف بذلك المنصفون من علماء النفس الحديث.وممن نادى بذلك (وليم جيمس) العالم الأمريكي فقال:إن أعظم علاج للقلق ولا شك هو الإيمان،وقال:الرجل المتدين حقاً عصيٌّ على القلق،محتفظ أبداً باتزانه،مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف.وقال كارل يونج المحلل النفساني:" إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً "وأشار المؤرخ أرنولد توينبي إلى أن الأزمة التي يعاني منها الأوربيون في العصر الحديث إنما ترجع في أساسها إلى الفقر الروحي ومن هذا يتضح لنا أن من أهم وسائل الطب النفسي وقايةً وعلاجاً هو تقوية الإيمان والعقيدة واليقين.أما العلاج النفسي الثاني في نظر الإسلام فهو في الأذكار والأدعية المأثورة،والرقى الصحيحة المشروعة بالآيات القرآنية والأذكار والأدعية النبوية،وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله – ﷺ – كان يقول عند الكرب:" لا إله إلا الله العظيم الحليم،لا إله إلا لله رب العرش الكريم،لا إله إلاّ الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم " فهذا ذكر نبوي مأثور لعلاج الإنسان من أزمته النفسية،وكشف همومه القلبية التي يعانيها،ثم هو بالاضافة إلى ذلك دعاء مستجاب لقضاء الحاجة التي تهم ذلك الإنسان،وتحقيقها له إن كانت خيراً،أو تعويضه بأحسن منها.وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي – ﷺ –:" من كثرت همومه وغمومه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلاّ بالله " ولكن هذه الأدعية والأذكار لا تعمل عملها في علاج النفس وشفائها إلاّ إذا اقترنت بالعلم بمعناها،واليقين بجدواها ولا شك أن هناك بعض الأعمال كالميكروبات الضارة وهي المعاصي والذنوب،فمن أراد سلامة نفسه من الأمراض النفسية فليجنبها المعاصي والذنوب،ولهذا قال بعض السلف:من أراد عافية القلب فليترك الآثام.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٢٠٩)

فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ،إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ،وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ،قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ،فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ،وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ،وَاعْمَلْ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ،وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ،وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ،وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "[٢٠٤٨]

(وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمًا) أَيْ:رَدِيفَهُ،وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِكَمَالِ حِفْظِهِ وَإِحْسَانِهِ وَاسْتِحْضَارِ لَفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ،فَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ جُمْلَةِ أَحَادِيثِهِ الَّتِي سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -،وَإِلَّا فَأَكْثَرُ مَرْوِيَّاتِهِ بِالْوَاسِطَةِ،لَكِنَّهَا مُعْتَبَرَةٌ لِكَوْنِهَا مِنْ مَرَاسِيلِ الصَّحَابَةِ،وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ صِغَرِهِ فِي زَمَانِهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.قَالَ الْمُؤَلِّفُ:وُلِدَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ،وَتُوُفِّيَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً،وَقِيلَ خَمْسَ عَشْرَةَ،وَقِيلَ عَشْرٍ،لَكِنْ صَارَ حَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَعَالِمَهَا ؛ لِأَنَّهُ قَدْ دَعَا لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْحِكْمَةِ وَالْفِقْهِ وَالتَّأْوِيلِ،وَرَأَى جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَرَّتَيْنِ،وَكُفَّ بَصَرُهُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ،وَمَاتَ بِالطَّائِفِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ فِي أَيَّامِ ابْنِ الزُّبَيْرِ،وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ سَنَةً،وَرَوَى عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ.قِيلَ:الْمَعْنَى أَمْشِي خَلْفَهُ،لَا أَنَّهُ رَاكِبٌ رَدِيفَهُ وَهُوَ مَرْدُودٌ لِمَا فِي وَسِيطِ الْوَاحِدِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ أَهْدَى كِسْرَى إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَغْلَةً،فَرَكِبَهَا بِحَبْلٍ مِنْ شَعْرٍ،ثُمَّ أَرْدَفَنِي خَلْفَهُ وَسَارَ بِي مِيلًا ثُمَّ الْتَفَتَ (فَقَالَ:" يَا غُلَامُ ") :بِالرَّفْعِ،كَذَا فِي الْأُصُولِ الْمُعْتَمَدَةِ وَالنُّسَخِ الْمُتَعَدِّدَةِ،وَالظَّاهِرُ كَسْرُ الْمِيمِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ يَا غُلَامِيَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَسُكُونِهَا بَعْدَ حَذْفِهَا تَخْفِيفًا اكْتَفَى بِكَسْرَةِ مَا قَبْلَهَا،لَكِنْ قَدْ يُضَمُّ،وَذَلِكَ فِي الِاسْمِ الْغَالِبِ عَلَيْهِ الْإِضَافَةُ إِلَى الْيَاءِ لِلْعِلْمِ بِالْمُرَادِ،وَمِنْهُ الْقِرَاءَةُ الشَّاذَّةُ:رَبُّ احْكُمْ بِضَمِّ الْبَاءِ عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ وُقُوعَ ضَمِّهَا لِمُشَاكَلَةِ ضَمِّ الْكَافِ كَمَا حُقِّقَ فِي " وَأَنِ احْكُمْ " حَيْثُ قُرِئَ بِالْوَجْهَيْنِ مِنَ السَّبْعَةِ،ثُمَّ فِي يَا غُلَامُ لُغَةٌ أُخْرَى،وَهِيَ قَلْبُ الْيَاءِ أَلِفًا،وَقَدْ جَاءَ شَاذًّا يَا غُلَامَ بِالْفَتْحِ اكْتِفَاءً بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلِفِ،ثُمَّ الْأَظْهَرُ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَفَ عَلَيْهِ

[٢٠٤٨] - شعب الإيمان (٢/ ٣٥٠)(١٠٤٣) صحيح

بالسُّكُونِ،وَلَمْ يُظْهِرْ عَلَيْهِ إِعْرَابًا عَلَى مَا هُوَ الْمُتَعَارَفُ فِي مِثْلِهِ،هَذَا وَالْمُرَادُ بِالْغُلَامِ هُنَا الْوَلَدُ الصَّغِيرُ لَا الْمَمْلُوكُ،فَفِي الْقَامُوسِ:الْغُلَامُ الطَّارُّ الشَّارِبِ،وَالْكَهْلُ ضِدُّهُ،أَوْ مِنْ حِينِ يُولَدُ إِلَى حِينِ يَشِبُّ،وَالْمَقْصُودُ مِنَ النِّدَاءِ اسْتِحْضَارُهُ لَدَيْهِ وَتَوَجُّهُهُ إِلَى مَا يُلْقَى إِلَيْهِ،وَزَادَ فِي الْأَرْبَعِينَ:إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ أَيْ:فُصُولًا مُفِيدَةً فِي دَفْعِ اللَّأْوَاءِ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَالْآلَاءِ،(" احْفَظِ اللَّهَ ") أَيْ:أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ (" يَحْفَظْكَ ") أَيْ:يَحْفَظْكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآفَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ،وَفِي الْعُقْبَى مِنْ أَنْوَاعِ الْعِقَابِ وَالدَّرَكَاتِ جَزَاءً وِفَاقًا،فَإِنَّ مَنْ كَانَ لِلَّهِ كَانَ اللَّهُ لَهُ (" احْفَظِ اللَّهَ ") أَيْ:حَقَّهُ مِنْ دَوَامِ ذِكْرِهِ وَتَمَامِ فِكْرِهِ وَقِيَامِ شُكْرِهِ.(" تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ") :بِضَمِّ التَّاءِ أَيْ:أَمَامَكَ،وَالْمَعْنَى أَنَّكَ تَجِدْهُ حِينَئِذٍ كَأَنَّهُ حَاضِرٌ تِلْقَاءَكَ وَقُدَّامَكَ وَتُشَاهِدُهُ فِي مَقَامِ إِحْسَانِكَ وَإِيقَانِكَ وَكَمَالِ إِيمَانِكَ،كَأَنَّكَ تَرَاهُ بِحَيْثُ تُغْنَى بِالْكُلِّيَّةِ عَنْ نَظَرِكَ مَا سِوَاهُ،فَالْأَوَّلُ حَالُ الْمُرَاقَبَةِ،وَالثَّانِي مَقَامُ الْمُشَاهَدَةِ،وَقِيلَ:الْمَعْنَى إِذَا حَفِظْتَ طَاعَةَ اللَّهِ وَجَدْتَهُ يَحْفَظُكَ وَيَنْصُرُكَ فِي مُهِمَّاتِكَ أَيْنَمَا تَوَجَّهْتَ،وَيُسَهِّلُ لَكَ الْأُمُورَ الَّتِي قَصَدْتَ،وَقِيلَ:الْمَعْنَى تَجِدُ عِنَايَتَهُ وَرَأْفَتَهُ قَرِيبًا مِنْكَ يُرَاعِيكَ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ،وَيُنْقِذُكَ مِنْ جَمِيعِ الْمَضَرَّاتِ،وَيُسْعِدُكَ بِأَنْوَاعِ التُّحَفِ وَالْكَرَامَاتِ،فَهُوَ تَلْمِيحٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق:١٦] وَقَدْ أَشَارَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ إِلَى أَنَّهُ لَا ذَرَّةَ مِنْ ذَرَّاتِ الْعَالَمِ إِلَّا وَنُورُ الْأَنْوَارِ مُحِيطٌ بِهَا قَاهِرٌ عَلَيْهَا قَرِيبٌ مِنْ وُجُودِهِ إِلَيْهَا لَا بِمُجَرَّدِ الْعِلْمِ فَقَطْ،وَلَا بِمَعْنَى الْإِيجَادِ فَقَطْ،بَلْ بِمَعْنًى آخَرَ لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ رَمَزَتْ إِلَيْهِ حَذَارَ الرَّقِيبِ وَكِتْمَانَ سِرِّ الْحَبِيبِ.

إِذَا مَا تَلَاشَتْ فِي نُورِهِ ...يَقُولُ لِيَ ادْعُ فَإِنِّي قَرِيبُ

قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:أَيْ رَاعِ حَقَّ اللَّهِ وَتَحَرَّ رِضَاهُ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ أَيْ:مُقَابِلَكَ وَحِذَاءَكَ،وَالتَّاءُ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ كَمَا فِي تُقَاةٍ وَتُخَمَةٍ أَيِ:احْفَظْ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَحْفَظَكَ اللَّهُ مِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (" وَإِذَا سَأَلْتَ ") أَيْ:أَرَدْتَ السُّؤَالَ (" فَاسْأَلِ اللَّهَ ") :بِإِثْبَاتِ الْهَمْزِ وَيَجُوزُ نَقْلُهُ أَيْ:فَاسْأَلِ اللَّهَ وَحْدَهُ،فَإِنَّ خَزَائِنَ الْعَطَايَا عِنْدَهُ وَمَفَاتِيحَ الْمَوَاهِبِ وَالْمَزَايَا بِيَدِهِ،وَكُلُّ نِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَوْ أُخْرَوِيَّةٍ،فَإِنَّهَا تَصِلُ إِلَى الْعَبْدِ أَوْ تَنْدَفِعُ عَنْهُ بِرَحْمَتِهِ مِنْ غَيْرِ شَائِبَةِ عَرَضٍ وَلَا ضَمِيمَةِ عِلَّةٍ ؛ لِأَنَّهُ الْجَوَّادُ الْمُطْلَقُ وَالْغَنِيُّ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ،فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُرْجَى إِلَّا رَحْمَتُهُ،وَلَا يُخْشَى إِلَّا نِقْمَتُهُ،وَيُلْتَجَأَ فِي عَظَائِمِ الْمَهَامِّ إِلَيْهِ،وَيُعْتَمَدَ فِي جُمْهُورِ الْأُمُورِ عَلَيْهِ،وَلَا

يُسْأَلَ غَيْرُهُ ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَدَفْعِ الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ،فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا،وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا،وَلَا يُتْرَكُ السُّؤَالُ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِبَيَانِ الْمَقَالِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ،فَفِي الْحَدِيثِ:«مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»،إِذِ السُّؤَالُ إِظْهَارُ شَعَائِرِ الِانْكِسَارِ،وَالْإِقْرَارُ بِسِمَتِ الْعَجْزِ وَالِافْتِقَارِ وَالْإِفْلَاسِ عَنْ ذُرْوَةِ الْقُوَّةِ وَالطَّاقَةِ إِلَى حَضِيضِ الِاسْتِكَانَةِ وَالْفَاقَةِ،وَنِعْمَ مَا قِيلَ:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ...وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

(" وَإِذَا اسْتَعَنْتَ ") أَيْ:أَرَدْتَ الِاسْتِعَانَةَ فِي الطَّاعَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (" فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ") :فَإِنَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.(" وَاعْلَمْ ") :زِيَادَةُ حَثٍّ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وَالتَّقَرُّبِ بِالِاسْتِفَادَةِ لَدَيْهِ (" أَنَّ الْأُمَّةَ ") أَيْ:جَمِيعَ الْخَلْقِ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَسَائِرِ الْأُمَّةِ (" لَوِ اجْتَمَعَتْ ") أَيِ:اتَّفَقَتْ فَرْضًا وَتَقْدِيرًا (" عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ") أَيْ:فِي أَمْرِ دِينِكَ أَوْ (لَمْ يَنْفَعُوكَ) أَيْ:لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ (إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ) أَيْ:قَدَّرَهُ،وَأَثْبَتَهُ فِي الذِّكْرِ وَفَرَغَ مِنْهُ،وَقَدْ أَذِنَهُمْ فِي ذَلِكَ (" وَلَوِ اجْتَمَعُوا ") :وَقَعَ فِي الْأَرْبَعِينَ هُنَا بِلَفْظِ:وَإِنِ اجْتَمَعُوا،فَقَالَ بَعْضُ الشُّرَّاحِ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ:إِنَّ لَفْظَةَ لَوْ فِيمَا سَبَقَ بِمَعْنَى إِنْ إِذِ الْمَعْنَى عَلَى الِاسْتِقْبَالِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ} [النساء:٩] فَنُكْتَةُ الْعُدُولِ هُوَ أَنَّ اجْتِمَاعَهُمْ عَلَى الْإِمْدَادِ مِنَ الْمُسْتَحِيلَاتِ بِخِلَافِ الِاتِّفَاقِ عَلَى الْإِيذَاءِ فَإِنَّهُ مُمْكِنٌ،وَلِذَا قِيلَ:

الظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

انْتَهَى كَلَامُهُ.وَهُوَ غَفْلَةٌ مِنْهُ عَنِ الْحُكْمِ الْمُقَرَّرِ فِي الِاعْتِقَادِ أَنَّ اجْتِمَاعَهُمْ عَلَى إِيصَالِ النَّفْعِ وَالضَّرِّ بِدُونِ الْمَشِيئَةِ مِنَ الْمُحَالِ،فَإِنْ ثَبَتَتِ الرِّوَايَةُ بِالِاخْتِلَافِ،فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّفَنُّنِ،وَاخْتِيَارُ لَوْ فِي الْقَرِينَةِ الْأُولَى أَوْلَى ؛ لِأَنَّهَا أَدَلُّ عَلَى الْفَرِيضَةِ الْمُحَالِيَةِ،وَوُقُوعُ أَنْ فِي الثَّانِيَةِ عَلَى أَصْلِهَا مَعَ اسْتِفَادَةِ الْحُكْمِ مِنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا (" عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ") أَيْ:مِنْ سَلْبِ نَفْعٍ أَوْ جَلْبِ ضُرٍّ (" لَمْ يَضُرُّوكَ ") أَيْ:لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَضُرُّوكَ (" إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ") وَخُلَاصَةُ الْمَعْنَى أَنَّكَ وَحِّدِ اللَّهَ فِي الْمَطْلَبِ وَالْمَهْرَبِ،فَهُوَ الضَّارُّ النَّافِعُ وَالْمُعْطِي الْمَانِعُ،وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ:«وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَقْطَعَنَّ مَنْ يُؤَمِّلُ غَيْرِي،وَأُلْبِسَنَّهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ عِنْدَ

النَّاسِ،وَلَأُجَنِّبَنَّهُ مِنْ قُرْبِي،وَلَأُبْعِدَنَّهُ مِنْ وَصْلِي،وَلَأَجْعَلَنَّهُ مُتَفَكِّرًا حَيْرَانَ يُؤَمِّلُ غَيْرِي فِي الشَّدَائِد،وَالشَّدَائِدُ بِيَدِي وَأَنَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ،وَيَطْرُقُ بِالْفِكْرِ أَبْوَابَ غَيْرِي،وَبِيَدِي مَفَاتِيحُ الْأَبْوَابِ،وَهِيَ مُغْلَقَةٌ وَبَابِي مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَانِي»،هَذَا وَأَوْرَدَ اللَّامَ فِي جَانِبِ النَّفْعِ ؛ لِأَنَّهُ لِلْمِلْك،وَحَقِيقَتُهُ الِاخْتِصَاصُ النَّافِعُ.وَقَوْلُهُ:" {وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} [الإسراء:٧] " مَجَازٌ فِي صُورَةِ الضَّرِّ عَلَى مَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ.(" رُفِعَت الْأَقْلَامُ ") أَيْ:مِنْ كِتَابَةِ الْأَحْكَامِ (" وَجَفَّت الصُّحُفُ ") أَيْ:نَشِفَتْ مَا دُوِّنَ فِيهَا مِنْ أَقْضِيَةِ الْمَخْلُوقِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،فَلَا يُوضَعُ عَلَيْهَا قَلَمٌ بَعْدُ بِتَدْوِينِ شَيْءٍ وَتَغْيِيرِ أَمْرٍ،وَخُلَاصَتُهُ أَنَّهُ كُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا كُتِبَ مِنَ التَّقْدِيرَات،وَلَا يُكْتَبُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُ شَيْءٌ آخَرُ،فَعَبَّرَ عَنْ سَبْقِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ بِرَفْعِ الْقَلَمِ،وَجَفَافِ الصَّحِيفَةِ تَشْبِيهًا بِفَرَاغِ الْكَاتِبِ فِي الشَّاهِدِ مِنْ كِتَابَتِهِ،وَقَدْ سَبَقَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ حَدِيثُ:«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ:اكْتُبْ.قَالَ:وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ:اكْتُبِ الْقَدَرَ،فَكَتَبَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ،وَحَدِيثُ جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ أَيْ:مَا عَلِمَهُ اللَّهُ وَحَكَمَ بِهِ فِي الْأَزَلِ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ»،وَجَفَافُ الْقَلَمِ عِبَارَةٌ عَنْهُ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ،لَا يُقَالُ:هَذَا يُنَافِي قَوْلَهُ تَعَالَى:{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرعد:٣٩] لِأَنَّا نَقُولُ:الْمَحْوُ وَالْإِثْبَاتُ أَيْضًا مِمَّا جَفَّت الصُّحُفُ ؛ لِأَنَّ الْقَضَاءَ قِسْمَانِ:مُبْرَمٌ وَمُعَلَّقٌ،وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ،وَأَمَّا بِالْإِضَافَةِ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ فَلَا تَبْدِيلَ وَلَا تَغْيِيرَ،وَلِهَذَا قَالَ:{وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد:٣٩] وَقِيلَ:عِنْدَ اللَّهِ كِتَابَانِ اللَّوْحُ،وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ،وَالَّذِي يَكْتُبُهُ الْمَلَكُ عَلَى الْخَلْقِ وَهُوَ مَحَلُّ الْمَحْوِ وَالْإِثْبَاتِ،فَهَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْحَدِيثِ (رَوَاهُ أَحْمَدُ،وَالتِّرْمِذِيُّ) :وَقَالَ:هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ كَمَا قَالَهُ النَّوَوِيُّ،ثُمَّ قَالَ:وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذِيِّ:احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ،تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ - بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ أَيْ:تَحَبَّبْ إِلَيْهِ بِحِفْظِ أَحْكَامِهِ،ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ؛ لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ سَبَبُ الْمَحَبَّةِ - يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ - بِتَخْفِيفِ الرَّاءِ أَيْ:يُجَازِكَ فِيهَا - وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ - أَيْ:جَاوَزَ عَنْكَ النِّعْمَةَ وَالرَّخَاءَ وَالشِّدَّةَ وَالْبَلَاءَ،وَأَصْلُ الْخَطَأِ الْعُدُولُ عَنِ الْجِهَةِ - لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ - أَيْ:مُحَالٌ أَنْ يُصِيبَكَ،وَفِيهِ مُبَالَغَةٌ مِنْ وُجُوهٍ مِنْ حَيْثُ دُخُولِ اللَّامِ الْمُؤَكِّدَةِ لِلنَّفْيِ عَلَى الْخَبَرِ وَتَسْلِيطِ النَّفْيِ عَلَى الْكَيْنُونَةِ وَسِرَايَتِهِ فِي الْخَبَرِ - وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ - فِيهِ الْحَثُّ عَلَى التَّوَكُّلِ وَالرِّضَا وَنَفْيِ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ عَنْهُ،إِذْ مَا مِنْ

حَادِثَةٍ مِنْ سَعَادَةٍ وَشَقَاوَةٍ وَعُسْرٍ وَيُسْرٍ،وَخَيْرٍ وَشَرٍّ،وَنَفْعٍ وَضَرٍّ،وَأَجَلٍ وَرِزْقٍ إِلَّا وَيَتَعَلَّقُ بِقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ عَامٍ جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بِمَا يَكُونُ،فَسِيَّانِ التَّحَرُّكُ وَالسُّكُونُ،فَيَجِبُ الشُّكْرُ فِي حَالِ السَّرَّاءِ،وَالصَّبْرُ فِي حَالِ الضَّرَّاءِ قَائِلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [النساء:٧٨]- وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ - أَيْ:عَلَى الْأَعْدَاءِ - مَعَ الصَّبْرِ - أَيْ:عَلَى الْمِحَنِ وَالْبَلَاءِ -،وَأَنَّ الْفَرَجَ وَهُوَ الْخُرُوجُ مِنَ الْغَمِّ مَعَ الْكَرْبِ،أَيِ الْغَمِّ الَّذِي يَأْخُذُ بِنَفَسِ النَّفْسِ،وَلِذَا وَرَدَ:

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح:٦] قَالَ شَارِحٌ:وَقَدْ وَقَعَتِ الْآيَةُ فِي الْقُرْآنِ مُكَرَّرَةً لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ عُسْرٌ إِلَّا مَعَهُ يُسْرَانِ،وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْمَشْهُورَةِ أَنَّ النَّكِرَةَ الْمُعَادَةَ غَيْرُ الْأُولَى،وَالْمَعْرِفَةَ الْمُعَادَةَ عَيْنُ الْأُولَى،لَكِنَّهَا غَالِبِيَّةٌ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ} [آل عمران:٢٦] لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ اللَّامَ الْأُولَى لِلِاسْتِغْرَاقِ،وَالثَّانِيَةَ لِلْجِنْسِ الَّذِي يَحْصُلُ بِوُجُودِهِ فَرْدٌ مِنْهُ،ثُمَّ قِيلَ مَعَ بِمَعْنَى بَعْدَ،وَهَذَا بَعِيدٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْمَعْنَى،وَإِرَادَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْمَبْنَى حَيْثُ قَصَدَ مُعَاقَبَةَ أَحَدِهِمَا لِلْآخَرِ وَاتِّصَالَهُ بِهِ حَتَّى جَعَلَهُ كَالْمُقَارِنِ لِزِيَادَةٍ فِي التَّسْلِيَةِ وَالتَّنْفِيسِ،عَلَى أَنَّ الْمِحَنَ لَا تَخْلُو عَنِ الْمِنَحِ،بَلْ إِنَّهَا عَيْنُهَا {وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [البقرة:٤٩]،{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت:٣٥] هَذَا وَقَدْ قَالَ الْقُطْبُ الرَّبَّانِيُّ وَالْغَوْثُ الصَّمَدَانِيُّ السَّيِّدُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيُّ - قُدِّسَ سِرُّهُ - فِي فُتُوحَاتِ الْغَيْبِ:يَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنَّ يَجْعَلَ هَذَا الْحَدِيثَ مِرْآةَ قَلْبِهِ وَشِعَارَهُ وَدِثَارَهُ وَحَدِيثَهُ،فَيَعْمَلَ بِهِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ حَتَّى يَسْلَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَيَجِدَ الْعِزَّةَ فِيهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى،رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ تُجَاهَكَ فِي رِوَايَةِ رَزِينٍ:«تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»،وَفِي آخِرِهِ:«فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا فِي الْيَقِينِ فَافْعَلْ،فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا،وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ،وَالْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ،وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا،وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» .وَالْحَدِيثُ بِطُولِهِ قَدْ جَاءَ مِثْلُهُ أَوْ نَحْوُهُ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.فِي النِّهَايَةِ:مَعْنَى تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ أَيِ:اجْعَلْ تَعَرُّفَكَ بِطَاعَتِكَ وَالْعَمَلِ فِيمَا أَوْلَاكَ مِنْ نِعْمَتِهِ،فَإِنَّهُ يُجَازِيكَ عِنْدَ الشِّدَّةِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ،وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ:«لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» أَنَّ التَّعْرِيفَ فِي الْعُسْرِ الثَّانِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لِلْعَهْدِ،وَالتَّنْكِيرَ فِي " يُسْرًا " لِلنَّوْعِ،فَيَكُونُ الْعُسْرُ وَاحِدًا وَالْيُسْرُ اثْنَيْنِ،فَالْعُسْرُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَتَاعِبِ الدُّنْيَا وَمَشَاقِّهَا،وَالْيُسْرُ فِي الدُّنْيَا الْفَتْحُ وَالنُّصْرَةُ عَلَى الْأَعْدَاءِ،وَفِي الْعُقْبَى الْفَوْزُ بِالْحُسْنَى وَلِقَاءُ الْأَحِبَّاءِ.[٢٠٤٩]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ،وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا،وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[٢٠٥٠].

وعَنْ أَبِي قِلاَبَةَ،حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ الحُوَيْرِثِ،قَالَ:أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ،فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَفِيقًا،فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا - أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا - سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ،قَالَ:«ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ،فَأَقِيمُوا فِيهِمْ،وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ،- وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لاَ أَحْفَظُهَا،- وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي،فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ،وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ» متفق عليه[٢٠٥١]

[٢٠٤٩] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٢٣)

[٢٠٥٠] - سنن أبي داود (١/ ١٣٣)(٤٩٥) صحيح

" مُرُوا "):أَمْرٌ مِنَ الْأَمْرِ حُذِفَتْ هَمْزَتُهُ لِلتَّخْفِيفِ،ثُمَّ اسْتُغْنِيَ عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ تَخْفِيفًا،ثُمَّ حُرِّكَتْ فَاؤُهُ؛لِتَعَذُّرِ النُّطْقِ بِالسَّاكِنِ (أَوْلَادَكُمْ):يَشْمَلُ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ (بِالصَّلَاةِ) وَرُبَّمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الشُّرُوطِ (وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ):لِيَعْتَادُوا وَيَسْتَأْنِسُوا بِهَا،وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ (وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا):أَيْ:عَلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ (وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ):لِأَنَّهُمْ بَلَغُوا،أَوْ قَارَبُوا الْبُلُوغَ (وَفَرِّقُوا):أَمْرٌ مِنَ التَّفْرِيقِ (بَيْنَهُمْ):أَيْ:بَيْنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ عَلَى مَا هُوَ الظَّاهِرُ،وَيُؤَيِّدُهُ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ،وَيَجُوزُ لِلرَّجُلَيْنِ أَوِ الْمَرْأَتَيْنِ أَنْ يَنَامَا فِي مَضْجَعٍ وَاحِدٍ؛بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ عَوْرَتُهُمَا مَسْتُورَةً بِحَيْثُ يَأْمَنَانِ الْتِمَاسَ الْمُحَرَّمِ.وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:بِهَذَا الْحَدِيثِ أَخَذَ أَئِمَّتُنَا فَقَالُوا:يَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ فَلَا يَجُوزُ حِينَئِذٍ تَمْكِينُ ابْنَيْنِ مِنَ الِاجْتِمَاعِ فِي مَضْجَعٍ وَاحِدٍ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ:فَلَا يَجُوزُ إِلَخْ،مِنْ كَلَامِهِ،وَهُوَ غَيْرُ مَفْهُومٍ مِنْ كَلَامِ أَئِمَّتِهِ فَتَأَمَّلْ.(فِي الْمَضَاجِعِ):أَيِ:الْمَرَاقِدِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:لِأَنَّ بُلُوغَ الْعَشْرِ مَظِنَّةُ الشَّهْوَةِ،وَإِنْ كُنَّ أَخَوَاتٍ،وَإِنَّمَا جَمَعَ الْأَمْرَيْنِ فِي الصَّلَاةِ وَالْفَرْقِ بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ فِي الطُّفُولِيَّةِ تَأْدِيبًا وَمُحَافَظَةً لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَصْلُ الْعِبَادَاتِ،وَتَعْلِيمًا لَهُمُ الْمُعَاشَرَةَ بَيْنَ الْخَلْقِ،وَأَنْ لَا يَقِفُوا مَوَاقِفَ التُّهَمِ فَيَجْتَنِبُوا مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّهَا"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٥١٢)

[٢٠٥١] - صحيح البخاري (٩/ ٨٦)(٧٢٤٦) وصحيح مسلم (١/ ٤٦٥)٢٩٢ - (٦٧٤)

وكان رحيماً رفيقاً " أي لين الجانب لطيف المعاملة " فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال:ارجعوا فكونوا فيهم،وعلموهم وصلوا فإذا حضرت الصلاة،فيؤذن لكم أحدكم " يعني أي واحد منكم صغيراً كان أو كبيراً ما دامت تتوفر فيه شروط الأذان " وليؤمكم أكبركم " سناً ولم يذكر الفقه والعلم،لما في رواية أبي داود " وكنا يومئذ متقاربين في العلم ".الحديث:أخرجه الستة.

وعَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْف،أَنَّهُ قَالَ:بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ،نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي،فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا،تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا،فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا،فَقَالَ:يَا عَمِّ،هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قَالَ:قُلْتُ:نَعَمْ،وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ:أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا،قَالَ:فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ،فَغَمَزَنِي الْآخَرُ،فَقَالَ:مِثْلَهَا،قَالَ:فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَزُولُ فِي النَّاسِ،فَقُلْتُ:أَلَا تَرَيَانِ؟ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ،قَالَ:فَابْتَدَرَاهُ فَضَرَبَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا حَتَّى قَتَلَاهُ،ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَأَخْبَرَاهُ،فَقَالَ:«أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟» فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا:أَنَا قَتَلْتُ،فَقَالَ:«هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟» قَالَا:لَا،فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ،فَقَالَ:«كِلَاكُمَا قَتَلَهُ»،وَقَضَى بِسَلَبِهِ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ،وَالرَّجُلَانِ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ،وَمُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ" رواه البخاري ومسلم[٢٠٥٢].

ويستفاد منه ما يأتي:أولاً:مشروعية الأذان في السفر،لأنه – ﷺ – أمرهم بالأذان مطلقاً في الحضر أو السفر،فدل ذلك على استحباب الأذان في السفر،وهو قول أكثر أهل العلم،سواء كانوا جماعة أو كان شخصاً واحداً،وعلى كل من كان في فلاة سواء كان في سفر أو غيره،وسواء كان فرداً أو جماعة.ثانياً:الاكتفاء بمؤذن واحد.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢/ ١١٧)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:قَوْلُهُ ﷺ:«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» لَفْظَةُ أَمْرٍ تَشْتَمِلُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ كَانَ يَسْتَعْمِلُهُ ﷺفِي صَلَاتِهِ،فَمَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ خَصَّهُ الْإِجْمَاعُ أَوِ الْخَبَرُ بِالنَّقْلِ فَهُوَ لَا حَرَجَ عَلَى تَارِكِهِ فِي صَلَاتِهِ وَمَا لَمْ يَخُصَّهُ الْإِجْمَاعُ أَوِ الْخَبَرُ بِالنَّقْلِ فَهُوَ أَمْرٌ حَتْمٌ عَلَى الْمُخَاطَبِينَ كَافَّةً لَا يَجُوزُ تَرْكُهُ بِحَالٍ"صحيح ابن حبان – مخرجا (٥/ ٥٠٤)

(«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي») أَيْ:فِي مُرَاعَاةِ الشُّرُوطِ وَالْأَرْكَانِ أَوْ فِيمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهُمَا (وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ) أَيْ:وَقْتُهَا " (فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ،ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ) – بِسُكُونِ اللَّامِ وَتُكْسَرُ – (أَكْبَرُكُمْ) عِلْمًا أَوْ سِنًّا،وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ عِلْمُ الصَّلَاةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ،وَبِالسِّنِّ:السِّنُّ الَّذِي يَكُونُ فِي الْإِسْلَامِ الْغَالِبِ عَلَيْهِ تَعَلُّمُ الْأَحْكَامِ،وَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى تَفْضِيلِ الْإِمَامَةِ خِلَافًا لِمَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ مِنَ الْمُنَازَعَةِ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) قَالَ السَّيِّدُ:لَمْ يَذْكُرْ مُسْلِمٌ:" «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» "،فَقَوْلُ الْمُصَنِّفِ:مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ،مَحَلُّ بَحْثٍ.قُلْتُ:يُحْمَلُ عَلَى الْغَالِبِ أَوْ مَحَلِّ الشَّاهِدِ،وَالْأَمْرُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ الْحُكْمُ،وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْخِلَافُ مِنَ الْوُجُوبِ وَالنَّدْبِ،– وَاللَّهُ أَعْلَمُ –.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٥٧٥)

[٢٠٥٢] – صحيح البخاري (٤/ ٩١)(٣١٤١) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٧٢)٤٢ – (١٧٥٢)

[ش (أضلع منهما) هكذا هو في جميع النسخ أضلع بالضاد المعجمة وبالعين وكذا حكاه القاضي عن جميع نسخ صحيح مسلم وهو الأصوب ومعنى أضلع أقوى(سوادي سواده) أي شخصي شخصه(حتى يموت الأعجل منا) أي لا أفارقه حتى يموت أحدنا وهو الأقرب أجلا(لم أنشب) أي لم ألبث أي لم يمض زمن كثير على سؤالهما إلا وأنا رأيته(يزول) هكذا هو في جميع نسخ بلادنا وكذا رواه القاضي عن جماهير شيوخهم ومعناه يتحرك وينزعج ولا يستقر على حاله ولا في مكان والزوال

وعن وَهْبَ بْنِ كَيْسَانَ،أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ،يَقُولُ:كُنْتُ غُلاَمًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّــه ﷺ،وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ،فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَــا غُلاَمُ،سَــمِّ اللَّــهَ،وَكُلْ بِيَمِينِكَ،وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ" متفقٌ عليه[٢٠٥٣] .

القلق(كلاكما قتله) تطييبا لقلب الآخر من حيث أن له مشاركة في قتله وإلا فالقتل الشرعي الذي يتعلق به استحقاق السلب وهو الإثخان وإخراجه عن كونه ممتنعا إنما وجد من معاذ بن عمرو بن الجموح فلهذا قضى له بالسلب]

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ:إِنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ جَمِيعَ السَّلَبِ إِذَا انْفَرَدَ الْقَاتِلُ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِ،فَأَمَّا إِذَا اشْتَرَكَا فِي قَتْلِه،فَالْخِيَارُ فيه إِلَى الْإِمَامِ يَجْعَلُ السَّلَبَ لِأَيِّهِمَا شَاءَ،وَقَائِلٌ هَذَا قَائِلٌ بِالْخَبَرَيْنِ جَمِيعًا فِي مَوْضعه قَالَ أَبُو بَكْرٍ:هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَهُ قَائِلٌ إِنْ صَحَّ خَبَرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ هَذَا،فَإِنَّ فِي قَلْبِي مِنْ صِحَّتِه شَيْئًا،وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ،فَالنَّظَرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّلَبَ بَيْنَهُمَا إِذَا كَانَا قَاتِلَيْه،وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ حِينَ قَتَلَ أَبَا جَهْلٍ بَعْدَ أَنْ ضَرَبَهُ الْأَنْصَارِيَّانِ،وَأَزْمَنَاهُ دَلِيلٌ عَلَى مَا قَالَ الشَّافِعِيُّ:إِنَّ السَّلَبَ لِلَّذِي أَزْمَنَهُ دُونَ الْقَاتِلِ بَعْدُ،لِأَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ أَجَارَ عَلَيْه بَعْدَ أَنْ أَزْمَنَهُ الْأَنْصَارِيَّانِ،وَاللهُ أَعْلَمُ،فَلَمْ يَجْعَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺمِنْهُ شَيْئًا "الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٢٤)(٦٥١١)

[٢٠٥٣] - صحيح البخاري (٧/ ٦٨)(٥٣٧٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٥٩٩)١٠٨ - (٢٠٢٢)

[ش (غلاما) أي صبيا دون البلوغ.(حجر) تربيته وتحت رعايته.(تطيش في الصحفة) أحركها في جوانب القصعة لألتقط الطعام.(سم الله) قل بسم الله الرحمن الرحيم عند بدء الأكل.(يليك) من الجانب الذي يقرب منك من الطعام.(تلك طعمتي) صفة أكلي وطريقتي فيه]

(قَالَ:كُنْتُ غُلَامًا):أَيْ صَبِيًّا (فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ-) بِفَتْحِ الْحَاءِ وَيُكْسَرُ أَيْ فِي حِضْنِه يُرَبِّينِي تَرْبِيَةَ الْأَوْلَادِ (وَكَانَتْ يَدِي):أَيْ أَحْيَانًا عَلَى مُقْتَضَى عَادَةِ الصِّغَارِ (تَطِيشُ):أَيْ تَدُورُ (إِلَى الصَّحْفَةِ) .أَيْ حَوَالَيْهَا مِنْ:طَاشَ السَّهْمُ إِذَا عَدَلَ عَنِ الْهَدَفِ،وَقِيلَ:أَيْ تَخِفُّ وَتَتَنَاوَلُ فِي الْقَصْعَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،قِيلَ:الصَّحْفَةُ مَا يُشْبِعُ مِنْهَا خَمْسَةٌ،وَالْقَصْعَةُ مَا يُشْبِعُ مِنْهَا عَشَرَةٌ.(فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- سَمِّ اللَّهَ:أَيْ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ أَوِ اذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ (وَكُلْ بِيَمِينِكَ،وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) .أَيْ مِمَّا يَقْرُبُكَ لَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،ذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْأَوَامِرَ الثَّلَاثَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لِلنَّدْبِ،وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْأَكْلِ بِالْيَمِينِ لِلْوُجُوبِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:" فِي اسْتِحْبَابِ التَّسْمِيَةِ فِي ابْتِدَاءِ الطَّعَامِ،وَأَنْ يَجْهَرَ بِهَا لِيُسْمِعَ غَيْرَهُ ".قُلْتُ:لَا دَلَالَةَ فِي الْحَدِيثِ عَلَى الْجَهْرِ،وَلَعَلَّهُ يُؤْخَذُ مِنْ مَحَلٍّ آخَرَ.قَالَ:وَالتَّسْمِيَةُ فِي شُرْبِ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ وَالْمَرَقِ وَالدَّوَاءِ وَسَائِرِ الْمَشْرُوبَاتِ كَالتَّسْمِيَةِ عَلَى الطَّعَامِ،وَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمِّيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْآكِلِينَ،فَإِنْ سَمَّى وَاحِدٌ مِنْهُمْ حَصَلَ أَصْلُ السُّنَّةِ.قُلْتُ:هُوَ خِلَافُ مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّهُ سُنَّةٌ فِي حَقِّ كُلِّ وَاحِدٍ،قَالَ:وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ الْأَكْلِ مِمَّا يَلِيهِ؛لِأَنَّ أَكْلَهُ مِنْ مَوْضِعِ يَدِ صَاحِبِهِ سُوءُ عِشْرَةٍ وَتَرْكُ مَوَدَّةٍ لِنُفُورِهِ لَا سِيَّمَا فِي الْأَمْرَاقِ وَأَشْبَاهِهَا.قُلْتُ:وَفِيهِ أَنَّ أَكْلَ مَا يَلِيهِ سُنَّةٌ،وَلَوْ كَانَ وَحْدَهُ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ الشَّافِعِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ.قَالَ:فَإِنْ كَانَ تَمْرًا فَقَدْ نَقَلُوا إِبَاحَةَ اخْتِلَافِ الْأَيْدِي فِي الطَّبَقِ،وَالَّذِي يَنْبَغِي تَعْمِيمُ النَّهْيِ حَمْلًا عَلَى عُمُومِهِ حَتَّى يَثْبُتَ دَلِيلٌ مُخَصِّصٌ.قُلْتُ:سَيَأْتِي حَدِيثُ التِّرْمِذِيِّ فِي أَوَاخِرِ الْفَصْلِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّهُ - ﷺ- «قَالَ فِي أَكْثَرِ التَّمْرِ:" يَا عِكْرَاشُ كُلْ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ؛فَإِنَّهُ مِنْ غَيْرِ لَوْنٍ وَاحِدٍ» ".(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .وَفِي الشَّمَائِلِ لِلتِّرْمِذِيِّ «عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ،أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- وَعِنْدَهُ طَعَامٌ فَقَالَ:" ادْنُ يَا بُنَيَّ فَسَمِّ اللَّهَ تَعَالَى وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» " فَتَأَمَّلْ،وَفِي الْحَدِيثَيْنِ إِيمَاءٌ لِلِاحْتِيَاجِ إِلَى التَّطْبِيقِ،وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٦٩٢)

وعَنْ مُحَمَّد وَهُوَ ابْنُ زِيَاد،سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَة،فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كِخْ كِخْ،ارْمِ بِهَا،أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»[2054]

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:أَخَذَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَة،فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«كِخْ كِخْ» لِيَطْرَحَهَا،ثُمَّ قَالَ:«أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»[2055]

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:أن من آداب الأكل ومستحباته التسمية في بداية الطعام طرداً للشيطان وأصرَحُ مَا وَرَدَ في صفة التسمية ما أخرجه أبو داود والترمذي من طريق أم كلثوم عن عائشة مرفوعاً " إذا أهل أحدكم طعاماً فليقل:بسم الله،فإن نسي فليقل:بسم الله أوله وآخره " قال العلماء:ويستحب أن يجهر بالتسمية ليُسمع غيره وينبهه عليها،والتسمية في شرب الماء واللبن والعسل والمرق والدواء وسائر المشروبات كالتسمية على الطعام،وسواء في استحباب التسمية الجنب والحائض وغيرهما.ثانياً:دل الحديث على استحباب الأكل باليمين لقوله - ﷺ -:" وكل بيمينك " وقد اختلف أهل العلم في مقتضى هذا الأمر.وهل الأكل باليمين واجب أو مستحب؟ فذهب بعضهم إلى أنه واجب كما أفاده العيني لظاهر الأمر،ولورود الوعيد في الأكل بالشمال ففي " صحيح مسلم " عن سلمة بن الأكوع أن النبي - ﷺ - رأى رجلاً يأكل بشماله،فقال:" كل بيمينك " قال:لا أستطيع،قال:" لا استطعت ما منعه إلاّ الكبر،قال:فما رفعها إلى فيه ".وروى أحمد بسند حسن عن عائشة مرفوعاً:" من أكل بشماله أكل معه الشيطان " والذي عليه أكثر أهل العلم استحباب الأكل والشرب باليمين،وكراهية ذلك بالشمال،وكذلك كل أخذ وعطاء،قال القرطبي:هذا الأمر على جهة الندب،لأنه من باب تشريف اليمين على الشمال،لأنها أقوى،وهي مشتقة من اليمن،وقد شرّف الله أصحاب الجنة إذ نسبهم إلى اليمين.والأصل فيما كان من هذا الباب الترغيب والندب.ثالثاً:استدل به بعض أهل العلم على تحريم الأكل بالشمال،لأنّ النبي - ﷺ - أمر عمر بن أبي سلمة بالأكل باليمين،والأمر بالشيء نهي عن ضده،واستدلوا أيضاً على تحريم الأكل باليد اليسرى بقوله - ﷺ -:" فإن الشيطان يأكل بشماله،ويشرب بشماله " أخرجه مسلم،قال الصنعاني:الحديث دليل على تحريم الأكل والشرب بالشمال،فإنه علله بأنه فعل الشيطان وخلقه،والمسلم مأمور بتجنب طريق أهل الفسوق فضلاً عن الشيطان.رابعاً:قال النووي:وفيه استحباب الأكل مما يليه،لأن أكله من موضع يد صاحبه سوء عشرة،وترك مروءة وهذا في السوائل،فإن كان تمراً وأجناساً فقد نقلوا إباحة اختلاف الأيد في الطبق ونحوه،والذي ينبغي تعميم النهي.قال القسطلاني:وقد نص أئمتنا - أي الشافعية على كراهة الأكل مما يلي غيره ومن الوسط والأعلى إلا الفاكهة ونحوها،مما ينتقل به.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ١٤٢)

[2054] - صحيح مسلم (٢/ ٧٥١)١٦١ - (١٠٦٩)

[ش (كخ كخ) قال القاضي يقال كخ كخ بفتح الكاف وتسكين الخاء ويجوز كسرها مع التنوين وهي كلمة يزجر بها الصبيان عن المستقذرات فيقال له كخ أي اتركه وارم به (أما علمت أنا لا نأكل الصدقة) هذه اللفظة تقال في الشيء الواضح التحريم ونحوه وإن لم يكن المخاطب عالما به وتقديره عجب كيف خفي عليك هذا مع ظهور تحريمه؟ وهذا أبلغ في الزجر عنه من قوله لا تفعله)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤْتَى بِالتَّمْرِ عِنْدَ صِرَامِ النَّخْلِ،فَيَجِيءُ هَذَا بِتَمْرِهِ،وَهَذَا مِنْ تَمْرِهِ حَتَّى يَصِيرَ عِنْدَهُ كَوْمًا مِنْ تَمْرٍ،فَجَعَلَ الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَلْعَبَانِ بِذَلِكَ التَّمْرِ،فَأَخَذَ أَحَدُهُمَا تَمْرَةً،فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ،فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَأَخْرَجَهَا مِنْ فِيهِ،فَقَالَ:«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ لاَ يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ»[٢٠٥٦]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ،أَنَّهُ قَالَ:أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ،قَالَ:فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لِأَلْعَبَ،فَقَالَتْ أُمِّي:يَا عَبْدَ اللهِ تَعَالَ أُعْطِكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟ "

[٢٠٥٥] - صحيح البخاري (٢/ ١٢٨)(١٤٩١)

[ش (كخ) كلمة تقال عند زجر الصبي عن تناول شيء ما.(ليطرحها) ليلقيها من فمه.(أما شعرت) أي كيف خفي عليك]

[٢٠٥٦] - صحيح البخاري (٢/ ١٢٧)(١٤٨٥)

[ش(صرام النخل) قطع التمر عنه.(كوما) ما اجتمع كالصبرة.(لا يأكلون الصدقة) لا يحل لهم أكلها]

وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ.وَاخْتُلِفَ مَا الْمُرَادُ بِالْآلِ هُنَا،فَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ:إنَّهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.وَاسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ- أَشْرَكَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ فِي سَهْمِ ذَوِي الْقُرْبَى وَلَمْ يُعْطِ أَحَدًا مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ غَيْرَهُمْ،وَتِلْكَ الْعَطِيَّةُ عِوَضٌ عُوِّضُوهُ بَدَلًا عَمَّا حُرِمُوهُ مِنْ الصَّدَقَةِ،كَمَا أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ «جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ:مَشَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إلَى النَّبِيِّ - ﷺ- فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مِنْ خُمْسِ خَيْبَرَ وَتَرَكْتَنَا وَنَحْنُ وَهُمْ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-:إنَّمَا بَنُو الْمُطَّلِبِ وَبَنُو هَاشِمٍ شَيْءٌ وَاحِدٌ» وَأُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إنَّمَا أَعْطَاهُمْ ذَلِكَ لِمُوَالَاتِهِمْ لَا عِوَضًا عَنْ الصَّدَقَةِ.وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَالْهَادَوِيَّةُ.:هُمْ بَنُو هَاشِمٍ فَقَطْ

وَعَنْ أَحْمَدَ فِي بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رِوَايَتَانِ.وَعَنْ الْمَالِكِيَّةِ فِيمَا بَيْنَ هَاشِمٍ وَغَالِبِ بْنِ فِهْرٍ قَوْلَانِ:فَعَنْ أَصْبَغَ مِنْهُمْ هُمْ بَنُو قُصَيٍّ،وَعَنْ غَيْرِهِ بَنُو غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ كَذَا فِي الْفَتْحِ.وَالْمُرَادُ بِبَنِي هَاشِمٍ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ الْعَبَّاسِ وَآلُ الْحَارِثِ،وَلَمْ يَدْخُلْ فِي ذَلِكَ آلُ أَبِي لَهَبٍ لِمَا قِيلَ:مِنْ أَنَّهُ لَمْ يُسْلِمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِهِ - ﷺ-،وَيَرُدُّهُ مَا فِي جَامِعِ الْأُصُولِ أَنَّهُ أَسْلَمَ عُتْبَةُ،وَمُعَتِّبٌ ابْنَا أَبِي لَهَبٍ عَامَ الْفَتْحِ وَسُرَّ - ﷺ- بِإِسْلَامِهِمَا وَدَعَا لَهُمَا،وَشَهِدَا مَعَهُ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ،وَلَهُمَا عَقِبٌ عِنْدَ أَهْلِ النَّسَبِ.قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ:لَا نَعْلَمُ خِلَافًا فِي أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ لَا تَحِلُّ لَهُمْ الصَّدَقَةُ الْمَفْرُوضَةُ،وَكَذَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ،حُكِيَ ذَلِكَ عَنْهُ فِي الْبَحْرِ،وَكَذَا حَكَى الْإِجْمَاعَ ابْنُ رَسْلَانَ.وَقَدْ نَقَلَ الطَّبَرِيُّ الْجَوَازَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ،وَقِيلَ:عَنْهُ:تَجُوزُ لَهُمْ إذَا حُرِمُوا سَهْمَ ذَوِي الْقُرْبَى،حَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ وَنَقَلَهُ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ عَنْ الْأَبْهَرِيِّ مِنْهُمْ.قَالَ فِي الْفَتْحِ:وَهُوَ وَجْهٌ لِبَعْضِ الشَّافِعِيَّةِ.وَحَكَى فِيهِ أَيْضًا عَنْ أَبِي يُوسُفَ أَنَّهَا تَحِلُّ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لَا مِنْ غَيْرِهِمْ،وَحَكَاهُ فِي الْبَحْرِ عَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَالْمُرْتَضَى وَأَبِي الْعَبَّاسِ وَالْإِمَامِيَّةِ.وَحَكَاهُ فِي الشِّفَاءِ عَنْ ابْنَيْ الْهَادِي وَالْقَاسِمِ الْعَيَّانِيِّ.قَالَ الْحَافِظُ:وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ فِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ مَشْهُورَةٍ:الْجَوَازُ،الْمَنْعُ،وَجَوَازُ التَّطَوُّعِ دُونَ الْفَرْضِ،عَكْسُهُ.وَالْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى التَّحْرِيمِ عَلَى الْعُمُومِ تَرُدُّ عَلَى الْجَمِيعِ.وَقَدْ قِيلَ:إنَّهَا مُتَوَاتِرَةٌ تَوَاتُرًا مَعْنَوِيًّا،وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى:٢٣]،وَقَوْلُهُ:{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الفرقان:٥٧]،وَلَوْ أَحَلَّهَا لِآلِهِ أَوْشَكَ أَنْ يَطْعَنُوا فِيهِ،وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة:١٠٣] نيل الأوطار (٤/ ٢٠٤)

قَالَتْ:أُعْطِيهِ تَمْرًا،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَــةٌ " رواه أحمد[2057].

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَالِمٌ،عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّــهِ ﷺ يَقُولُ:«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا،وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَــيِّدِهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»،قَالَ:وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ:«وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ»[2058].

وعَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ،أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ» رواه النسائي وابن حبان[2059].

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ فَالْأَمِيرُ رَاعٍ ومَسْــئُولٌ عَــنْ رَعِيَّتِهِ،وَالرَّجُلُ رَاعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ زَوْجَتِهِ،وَعَنْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ،وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ لِحَــقِّ زَوْجِهَــا ومَسْئُولَةٌ عَنْ بَيْتِهَا وَوَلَدِهَا،وَالْمَمْلُوكُ رَاعٍ لِحَقِّ مَوْلَاهُ ومَسْئُولٌ عَنْ مَالِهِ،فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ،فَأَعِدُّوا لِتِلْكَ الْمَسَائِلِ جَوَابًا» فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا جَوَابُهَا؟ قَالَ:«أَعْمَــالُ الْبِــرِّ» رواه الطبراني في الصغير والأوسط[2060].

[2057] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٤٧٠)(١٥٧٠٢) حسن لغيره

[2058] - صحيح البخاري (٤/ ٥)(٢٧٥١)

[2059] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٢٦٧)(٩١٢٩) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٣٤٤)(٤٤٩٢) ومستخرج أبي عوانة (٤/ ٣٨٤)(٧٠٣٦) صحيح

(إن الله تعالى سائل) إشارة إلى تحقق وقوع ذلك (كل راع عما استرعاه) أي أدخله تحت رعايته (أحفظ ذلك أم ضيعه) بهمزة الاستفهام (حتى يسأل الرجل عن أهل بيته) أحفظهم أم ضيعهم فيعامل من قام بحق ما استرعاه عليه بفضله ويعامل من أهمله بعدله وما يعفو الله أكثر قال الطيبي:فيه أن الراعي ليس مطلوبا لذاته وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه فعليه أن لا يتصرف إلا بمأذون الشارع فيه وهو تمثيل ليس ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه وزاد في رواية فأعدوا للمسألة جوابا قالوا:وما جوابها قال:أعمال البر خرجه ابن عدي والطبراني قال ابن حجر:بسند حسن واستدل به على أن المكلف يؤاخذ بالتقصير في أمر من في حكمه وفيه بيان كذب الحديث الذي افتراه بعض المتعصبين لبني أمية ففي آداب القضاء للكرابيسي عن الشافعي رضي الله عنه بسنده دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك فسأله عن حديث إن الله إذا استرعى عبدا للخلافة كتب له الحسنات و لم يكتب عليه السيئات فقال له كذب ثم تلا {يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض} إلى {بما نسوا يوم الحساب} فقال الوليد:إن الناس ليغروننا"فيض القدير (٢/ ٢٣٧)

[2060] - المعجم الأوسط (٤/ ٤٨)(٣٥٧٦) والمعجم الصغير للطبراني (١/ ٢٧٣)(٤٥٠) حسن

وعن عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ بُخْتٍ،حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ:أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ رَاعٍ،وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ حَدَّثَنِيهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:«كُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء:٨٧][٢٠٦١]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ،أَنَّ وَهْبَ بْنَ كَيْسَانَ،أَخْبَرَهُ،وَقَدْ كَانَ وَهْبٌ أَدْرَكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ:أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ،رَأَى رَاعِيًا وَغَنَمًا لَهُ فِي مَكَانٍ قَبِيحٍ،وَقَدْ رَأَى مَكَانَهُ هُوَ أَمْثَلُ مِنْهُ،فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ:وَيْحَكَ يَا رَاعِي،حَوِّلْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" كُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ "[٢٠٦٢]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ،فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ:لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟» قَالَ:لَا،قَالَ:«اتَّقُوا اللهَ،وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ»،فَرَجَعَ أَبِي،فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ"[٢٠٦٣]

وعَنْ عَامِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ:أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً،فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ:لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً،فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟»،قَالَ:لاَ،قَالَ:«فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ»،قَالَ:فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ"[٢٠٦٤]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:سَأَلَتْ أُمِّي أَبِي بَعْضَ المَوْهِبَةِ لِي مِنْ مَالِهِ،ثُمَّ بَدَا لَهُ فَوَهَبَهَا لِي،فَقَالَتْ:لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ النَّبِيَّ ﷺ،فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَنَا غُلاَمٌ،فَأَتَى بِيَ النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:إِنَّ أُمَّهُ بِنْتَ رَوَاحَةَ سَأَلَتْنِي بَعْضَ المَوْهِبَةِ لِهَذَا،قَالَ:«أَلَكَ وَلَدٌ

[٢٠٦١] - فوائد تمام (١/ ١٢٠)(٢٧٢) ومعجم ابن المقرئ (ص:٣٨١)(١٢٤٥) حسن

[٢٠٦٢] - شعب الإيمان (١٣/ ٤١١)(١٠٥٥٢) صحيح لغيره

[٢٠٦٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٤٢)١٣ - (١٦٢٣)

[٢٠٦٤] - صحيح البخاري (٣/ ١٥٨)(٢٥٨٧)

سِوَاهُ؟»،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:فَأُرَاهُ،قَالَ:«لاَ تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ» وَقَالَ أَبُو حَرِيزٍ عَــنِ الشَّــعْبِيِّ،«لاَ أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ»[٢٠٦٥]

[٢٠٦٥] - صحيح البخاري (٣/ ١٧١)(٢٦٥٠)

[ش (الموهبة) الهبة.(جور) هو الظلم والميل عن الحق]

(وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ):بِضَمِّ النُّونِ قَالَ الْمُؤَلِّفُ:هُوَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ وُلِدَ لِلْأَنْصَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ،قِيلَ:مَاتَ النَّبِيُّ - ﷺ- وَلَهُ ثَمَانِ سِنِينَ وَسَبْعَةُ أَشْهُرٍ وَلِأَبَوَيْهِ صُحْبَةٌ (أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- فَقَالَ:إِنِّي نَحَلْتُ):بِفَتْحِ النُّونِ وَالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ أَيْ:وَهَبْتُ وَأَعْطَيْتُ (ابْنِي هَذَا غُلَامًا) أَيْ:عَبْدًا قَالَ فِي النِّهَايَةِ:النَّحْلُ الْعَطِيَّةُ وَالْهِبَةُ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ (فَقَالَ:آكُلَّ وَلَدِكَ):بِنَصْبِ كُلَّ (نَحَلْتَ مِثْلَهُ) أَيْ:مِثْلَ هَذَا الْوَلَدِ دَلَّ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ فِي الْعَطِيَّةِ (قَالَ:لَا،قَالَ:فَأَرْجِعْهُ) أَيِ:الْغُلَامَ أَوْ رُدَّهُ إِلَيْكَ،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَيِ اسْتَرِدَّ الْغُلَامَ وَهَذَا لِلْإِرْشَادِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْأَوْلَى (وَفِي رِوَايَةٍ) أَيْ:لَهُمَا أَوْ لِأَحَدِهِمَا (أَنَّهُ قَالَ:أَيَسُرُّكَ) أَيْ:أَيُعْجِبُكَ وَيَجْعَلُكَ مَسْرُورًا (أَنْ يَكُونُوا) أَيْ:أَوْلَادُكَ جَمِيعًا (إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً) أَيْ:مُسْتَوِينَ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ وَفِي تَرْكِ الْعُقُوقِ عَلَيْكَ وَفِي الْأَدَبِ وَالْحُرْمَةِ وَالتَّعْظِيمِ لَدَيْكَ،(قَالَ:بَلَى،قَالَ:فَلَا) أَيْ:فَلَا تُعْطِ أَيِ:الْغُلَامَ لَهُ وَحْدَهُ أَوْ فَلَا تُعْطِ بَعْضَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ (إِذًا):بِالتَّنْوِينِ أَيْ:إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ ذَلِكَ (وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ) أَيِ:النُّعْمَانُ (أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ):بِفَتْحِ أَوَّلِهِمَا وَهِيَ أُمُّهُ (لَا أَرْضَى) أَيْ:بِهَذِهِ الْعَطِيَّةِ لِوَلَدِي (حَتَّى يَشْهَدَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-) أَيْ:تَجْعَلَهُ شَاهِدًا عَلَى الْقَضِيَّةِ (فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ-) أَيْ:فَجَاءَهُ أَبِي («قَالَ:إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا») أَيْ:بَاقِي أَوْلَادِكَ مِثْلَ هَذَا الْإِعْطَاءِ وَهُوَ بِحَذْفِ الِاسْتِفْهَامِ مَعَ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُقْرَأَ بِهَمْزَةٍ مَمْدُودَةٍ (قَالَ:لَا،قَالَ:فَاتَّقُوا اللَّهَ) أَيْ:حَقَّ تَقْوَاهُ أَيْ:مَا اسْتَطَعْتُمْ (وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ):وَفِي خِطَابِ الْعَامِ إِشَارَةٌ إِلَى عُمُومِ الْحُكْمِ (قَالَ):فَانْصَرَفَ أَبِي مِنْ عِنْدِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - (فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ) أَيْ:إِلَى نَفْسِهِ أَوْ فَرَجَعَ فِي هِبَتِهِ،وَقَوْلُهُ:فَرَدَّ تَفْسِيرٌ لَهُ وَفِيهِ جَوَازُ رُجُوعِ الْوَالِدِ فِي هِبَةِ وَلَدِهِ (وَفِي رِوَايَةٍ:أَنَّهُ) أَيِ:النَّبِيَّ - ﷺ- (قَالَ:«لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ») أَيْ:ظُلْمٍ أَوْ مَيْلٍ فَمَنْ لَا يُجَوِّزُ التَّفْضِيلَ بَيْنَ الْأَوْلَادِ يُفَسِّرُهُ بِالْأَوَّلِ وَمَنْ يُجَوِّزُهُ عَلَى الْكَرَاهَةِ يُفَسِّرُهُ بِالثَّانِي،قَالَ النَّوَوِيُّ:" فِيهِ اسْتِحْبَابُ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْأَوْلَادِ فِي الْهِبَةِ فَلَا يُفَضِّلُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَوَاءٌ كَانُوا ذُكُورًا أَوْ إِنَاثًا،قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا:يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ،وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ لِظَاهِرِ الْحَدِيثِ فَلَوْ وَهَبَ بَعْضَهُمْ دُونَ بَعْضٍ فَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ،وَمَالِكٍ،وَأَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّهُ مَكْرُوهٌ وَلَيْسَ بِحَرَامٍ وَالْهِبَةُ صَحِيحَةٌ،وَقَالَ أَحْمَدُ وَالثَّوْرِيُّ وَإِسْحَاقُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - وَغَيْرُهُمْ:هُوَ حَرَامٌ،وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ:«لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ»،وَبِقَوْلِهِ:وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ،وَاحْتَجَّ الْأَوَّلُونَ بِمَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ:فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي،وَلَوْ كَانَ حَرَامًا وَبَاطِلًا لَمَا قَالَ هَذَا،وَبِقَوْلِهِ:فَأَرْجِعْهُ،وَلَوْ لَمْ يَكُنْ نَافِذًا لَمَا احْتَاجَ إِلَى الرُّجُوعِ،فَإِنْ قِيلَ:قَالَهُ تَهْدِيدًا،قُلْنَا:الْأَصْلُ خِلَافُهُ،وَيَحْمِلُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ صِيغَةَ أَفْعِلْ عَلَى الْوُجُوبِ أَوِ النَّدْبِ وَإِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ فَعَلَى الْإِبَاحَةِ،وَأَمَّا مَعْنَى الْجَوْرِ فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ حَرَامٌ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَيْلُ عَنِ الِاسْتِوَاءِ وَكُلُّ مَا خَرَجَ عَنِ الِاعْتِدَالِ فَهُوَ جَوْرٌ،سَوَاءٌ كَانَ حَرَامًا أَوْ مَكْرُوهًا.وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:فِي الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْأَوْلَادِ فِي النِّحَلِ،وَفِي غَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْبِرِّ حَتَّى فِي الْقُبْلَةِ،وَلَوْ فَعَلَ خِلَافَ ذَلِكَ نَفَذَ.وَقَدْ فَضَّلَ أَبُو بَكْرٍ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بِأَحَدٍ وَعِشْرِينَ وَسْقًا نَحَلَهَا إِيَّاهَا دُونَ سَائِرِ أَوْلَادِهِ،وَفَضَّلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَاصِمًا فِي عَطَائِهِ،وَفَضَّلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَلَدَ أُمِّ كُلْثُومٍ،قَالَ الْقَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ -:وَقَرَّرَ ذَلِكَ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ فَيَكُونُ إِجْمَاعًا (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢٠٠٨)

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،حَدَّثَنِي النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ،أَنَّ أُمَّهُ بِنْتَ رَوَاحَةَ،سَأَلَتْ أَبَاهُ بَعْضَ الْمَوْهِبَةِ مِنْ مَالِهِ لِابْنِهَا،فَالْتَوَى بِهَا سَنَةً ثُمَّ بَدَا لَهُ،فَقَالَتْ:لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مَا وَهَبْتَ لِابْنِي،فَأَخَذَ أَبِي بِيَدِي وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ،فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ أُمَّ هَذَا بِنْتَ رَوَاحَةَ أَعْجَبَهَا أَنْ أُشْهِدَكَ عَلَى الَّذِي وَهَبْتُ لِابْنِهَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَا بَشِيرُ أَلَكَ وَلَدٌ سِوَى هَذَا؟» قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ:«أَكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا؟» قَالَ:لَا،قَالَ:«فَلَا تُشْهِدْنِي إِذًا،فَإِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ»[٢٠٦٦]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي،فَقَالَ:«أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ؟» قَالَ:لَا،قَالَ:«فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي»،ثُمَّ قَالَ:«أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟» قَالَ:بَلَى،قَالَ:«فَلَا إِذًا»[٢٠٦٧]

وعَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ الْمُهَلَّبِ،قَالَ:سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ» رواه أبو داود[٢٠٦٨] .

قال ابن قدامة:فإن خص بعضهم لمعنى يقتضي تخصيصه مثل اختصاصه بحاجة،أو زمانة أو عمى أو كثرة عائلة أو اشتغاله بالعلم أو نحوه من الفضائل،أو صرف عطيته عن بعض ولده لفسقه أو بدعته أو لكونه يستعين بما يأخذه على معصية الله،أو ينفقه فيها،فقد روي عن أحمد ما يدل على جواز ذلك،لقوله في تخصيص بعضهم بالوقوف لا بأس به إذا كان لحاجة،وأكرهه إذا كان على سبيل الأثرة،والعطية في معناه.قال ابن قدامة:ويحتمل ظاهر لفظه المنع من التفضيل والتخصيص على كل حال،لكون النبي – ﷺ – لم يستفصل بشيراً في عطيته والأوّل أولى إن شاء الله لحديث أبي بكر،ولأن بعضهم اختص بمعنى يقتضي العطية،فجاز أن يختص بها،وحديث بشير قضية في عين لا عموم لها،وترك النبي – ﷺ – الاستفصال يجوز أن يكون لعلمه بالحال .اهـ.ثانياً:مشروعية الإِشهاد في الهبة لاثباتها وتوثيقها وتأكيدها قال العيني:وفيه أن الإِشهاد في الهبة مشروع وليس بواجب ولا تتوقف عليه صحة الهبة شرعاً،لأنه ليس ركناً من أركانها،والإِشهاد وإن لم يصرح به في حديث الباب،فقد صرح به في الروايات الأخرى،وكلها حول قصة واحدة"منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١٤)

[٢٠٦٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٤٣)١٤ - (١٦٢٣)

[ش (الموهوبة) هكذا هو في معظم النسخ وفي بعضها بعض الموهبة وكلاهما صحيح وتقدير الأول بعض الأشياء الموهوبة(فالتوى بها سنة) أي مطلها(ثم بدا له) أي ظهر له في أمرها ما لم يظهر أولا والبداء وزان سلام اسم منه(جور) الجور هو الميل عن الاستواء والاعتدال وكل ما خرج عن الاعتدال فهو جور سواء كان حراما أم مكروها]

[٢٠٦٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٤٣)١٧ - (١٦٢٣)

[٢٠٦٨] - سنن أبي داود (٣/ ٢٩٣)(٣٥٤٤) صحيح

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:طَلَبَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ،إِلَى بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،أَنْ يَنْحِلَنِيَ،نَحْلًا مِنْ مَالِهِ،وَإِنَّهُ أَبَى عَلَيْهَا،ثُمَّ بَدَا لَهُ بَعْدَ حَوْلٍ،أَوْ حَوْلَيْنِ،أَنْ يَنْحَلَنِيهِ،فَقَالَ لَهَا:الَّذِي سَأَلْتِ لِابْنِي كُنْتُ مَنَعْتُكِ،وَقَدْ بَدَا لِي،أَنْ أَنْحَلَهُ إِيَّاهُ،قَالَتْ:لَا وَاللَّهِ،لَا أَرْضَى،حَتَّى تَأْخُذَ بِيَدِهِ،فَتَنْطَلِقَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَتُشْهِدَهُ،قَالَ:فَأَخَذَ بِيَدِي،فَانْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلْ لَكَ مَعَهُ وَلَدٌ غَيْرُهُ؟ »،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«فَهَلْ آتَيْتَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي آتَيْتَ هَذَا؟ »،قَالَ:لَا،قَالَ:«فَإِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى هَذَا،هَذَا جَوْرٌ أَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي،اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ،فِي النَّحْلِ كَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَعْدِلُوا بَيْنَكُمْ فِي الْبِرِّ،وَاللُّطْفِ»[٢٠٦٩]

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ رَجُلًا كَانَ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَجَاءَ بُنَيٌّ لَهُ،" فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي حَجْرِهِ،ثُمَّ جَاءَتْ بُنَيَّةٌ لَهُ،فَأَخَذَهَا وَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" فَمَا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا " رواه البيهقي في شعب الإيمان[٢٠٧٠].

وعَنْ أَنَسٍ،قَالَ:لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ أَشْبَهَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ،وَقَالَ:كَانَ رَجُلٌ جَالِسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَجَاءَهُ ابْنٌ لَهُ،فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ،ثُمَّ أَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ،وَجَاءَتِ ابْنَتٌ لَهُ،فَأَخَذَهَا،فَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلَّا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا»[٢٠٧١]

وعن أَنَسٍ قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا،وَعِنْدَهُ رَجُلٌ،فَجَاءَ ابْنُ الرَّجُلِ فَأَقْعَدَهُ الرَّجُلُ فِي حِجْرِهِ،وَجَاءَتِ ابْنَتُهُ فَأَقْعَدَهَا إِلَى لِزْقِهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:أَلَا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا"[٢٠٧٢]

[٢٠٦٩] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٥٠٣)(٥١٠٤) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«قَوْلُهُ ﷺ» أَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي «،أَرَادَ بِهِ الْإِعْلَامَ،بِنَفْيِ جَوَازِ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ،الْمَأْمُورِ بِهِ لَوْ فَعَلَهُ،فَزَجَرَ عَنِ الشَّيْءِ،بِلَفْظِ الْأَمْرِ بِضِدِّهِ،كَمَا قَالَ لِعَائِشَةَ:اشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلَاءَ،فَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ»

أي سووا بينهم في العطايا والمواهب.والنحل بضم النون وسكون المهملة:العطية بغير عوض مصدر نحلته من العطية أنحله كما في الصحاح والاسم النحلة بتثليث النون (كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر) لكم بالكسر الإحسان (واللطف) بضم فسكون الرفق بكم.فإن انتظام المعاش والمعاد إنما يدور مع العدل والتفاضل بينهم يجر إلى الشحناء والتباغض ومحبة بعضهم له وبغض بعضهم إياه وينشأ عن ذلك العقوق ومنع الحقوق" فيض القدير (١/ ٥٥٧)

[٢٠٧٠] - شعب الإيمان (١١/ ١٥٤)(٨٣٢٧) حسن

[٢٠٧١] - حديث أبي الفضل الزهري (ص:٥٥٣)(٥٩٤) وشرح معاني الآثار (٤/ ٨٩)(٥٨٤٧) وشعب الإيمان (١٣/ ٣٨٣)(١٠٥١٠) صحيح

[٢٠٧٢] - معجم ابن الأعرابي (٣/ ٨٨٥)(١٨٤٤) صحيح

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفَضِّلَ الذَّكَرَ عَلَيْهَا فِي التَّرْبِيَةِ وَالْعِنَايَةِ "الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ٧٥)

أهمية الكتابة والقراءة في الإسلام:

كما أن للكتابة والقراءة مكانة في الإسلام،فقد اعتنى المسلمون بكتابة القرآن والسنة وسائر العلوم الشرعية:كالكتابة في العقيدة والفقه وأصول الفقه وغيرها،كما أن الكتابة والقراءة مرتبطة بتعلم العلوم الدنيوية النافعة،التي هي من فروض الكفاية:كالطب والصناعة وغيرها،لاسيما في زماننا هذا الذي توسعت فيه هذه العلوم وارتبط تحصيلها بالكتابة والقراءة،وقد قال تعالى:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)} [العلق:١ - ٥]

اقْرَأَ يَا مُحَمَّدُ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مُفْتَتِحاً قِرَاءَتكَ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي لَهُ وَحْدَهُ القُدْرَةُ عَلَى الخَلْقِ.

وَرَبُّكَ هُوَ الذي خَلَقَ الإِنْسَانَ،السَّوِيَّ القَوِيَّ،مِنْ نُطْفَةٍ تَنْطَلِقُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ فَتَسْتَقِرُّ فِي رَحِمِ الأُنْثَى،فَتَتَطَوَّرُ بَعْدَ أَيَّامٍ،وَتُصْبِحُ عَلَقَةً (كَمَا جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى)،ثُمَّ يَسْتَمِرُّ التَّطَوُّرُ فِي خَلْقِ الإِنْسَانِ حَتَّى يَتَكَامَلَ وَيُولَدَ طِفْلاً.

وَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ مِنَ القِرَاءَةِ (اقْرَأْ)،وَرَبُّكَ الأَكْثَرُ كَرَماً وَجُوداً لِكُلِّ مَنْ يَرْتَجِي مِنْهُ الإِعْطَاءَ،فَهُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يُيَسِّرَ عَلَيْكَ نِعْمَةَ القِرَاءَةِ.

وَهُوَ تَعَالَى الذي عَلَّم الإِنْسَانَ أَنْ يَكْتُبَ بِالقَلَمِ،وَجَعَلَ الكِتَابَةَ بِالقَلَمِ وَسِيلَةً لإِدْرَاكِ الإِنْسَانِ العُلُومَ،وَالمَعَارِفَ،حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ،وَبِفَضْلِ القَلَمِ حُفِظَتِ العُلُومُ،وَانْتَقَلَتْ فِي الأَرْضِ مِنْ صِقْعٍ إِلَى صِقْعٍ.وَقَدْ عَلَّمَ اللهُ تَعَالَى الإِنْسَانَ جَمِيعَ مَا هُوَ مُتَمَتِّعٌ بِهِ مِنَ العُلُومِ،وَكَانَ فِي بَدءِ أَمْرِهِ لاَ يَعْلَمُ شَيْئاً.[٢٠٧٣]

هذه هى الآيات الخمس الأولى،التي استفتح بها كتاب الله الذي نزل على النبيّ..

والنبيّ- صلوات الله وسلامه عليه- أمّى،لا يقرأ،وأمره بالقراءة،إنما هو قراءة من هذا الكتاب السماوي،الذي يقرأ منه جبريل،فيقرىء النبيّ منه..فهى قراءة متابعة لقارىء السماء،جبريل،من كتاب الله.

وقوله الملك لنبى:«اقرأ» هو دعوة إلى قراءة من كتاب،والنبي صلوات الله وسلامه عليه،لا يقرأ،ثم إنه ليس هناك كتاب يقرؤه لو كان قارئا..ولهذا كان ردّ النبي:«ما أنا بقاري» ! ..وقد

[٢٠٧٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٨٤،بترقيم الشاملة آليا)

تكرر هذا الموقف بين جبريل،وبين النبي ثلاث مرات:«اقرأ» ..«ما أنا بقاري!» أي لا أعرف القراءة..

وفى هذا تنويه بشأن القراءة.وأنها السبيل إلى المعرفة والعلم..

ثم إن الأمية،وإن كانت حائلة بين المرء وبين أن يقرأ فى كتاب،فإنها لا تحول بينه وبين العلم والمعرفة،فهناك كتاب الوجود،الذي يقرأ الإنسان آياته بالنظر المتأمل فيه،والبصيرة النافذة إلى أسراره،وعجائبه..ثم هناك التلقي عن أهل العلم،ممن يقرءون ويدرسون..فليكن الإنسان قارئا أبدا،على أي حال من أحواله،قارئا بنفسه،أو قارئا متابعا لغيره.

أما أمية النبي الكريم،فهى أمية مباركة،قد فتحت عليه خزائن علم الله،إذ بعث الله سبحانه وتعالى إليه رسولا من عنده يقرأ عليه كتاب الله،ويملأ قلبه هدى ونورا منه..

ولهذا كان النبي قارئا،فقرأ حين أقرأه جبريل:«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ» .

وقوله تعالى:«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» أي اقرأ بأمر ربك،أي أن جبريل يقول:هذا الأمر الذي آمرك به ليس بأمرى،وإنما هو بأمر ربك،الذي يدعوك إلى أن تقرأ ما أقرئك إياه،من كتاب ربك..وهذا مثل قوله تعالى:«وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ» (٢٧:الكهف) .وقوله تعالى:«فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»(١٨:القيامة) .

وقوله تعالى:«الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ» - هو بيان لقدرة الله سبحانه وتعالى،وأنه هو الخالق وحده لا شريك له،وأنه هو الذي بقدرته خلق الإنسان،هذا الخلق السوىّ «من علق» أي من دم لزج،متجمد.

فالذى خلق الإنسان من هذا العلق،وسوّاه على هذا الخلق،لا يقف به عند هذا الحد،بل هو سبحانه،بالغ به منازل الكمال،بما يفتح له من أبواب العلم والمعرفة..

وقوله تعالى:«اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ» أي خذ ما أعطاك ربك من علم،وما دعاك إليه من معرفة،فإن ربك كريم واسع العطاء،لا ينفد عطاؤه.

فقوله تعالى:«وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ» - جملة خبرية،تقع موقع الحال من فاعل «اقرأ» وهو النبي ﷺ،أي اقرأ مستيقنا أن ربك هو الأكرم..أي ذو الفضل العظيم،والكرم الذي لا حدود له..

وفى تعريف طرفى الجملة الخبرية،ما يفيد القصر،أي قصر صفة الكرم على الله وحده..

وقوله تعالى:«الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ،عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ» ..أي ومن كرمه سبحانه أنه جعل من القلم الذي هو قطعة جامدة من الحطب،أو الخشب،أداة للعلم والمعرفة،ففتح به على الإنسان أبواب العلوم والمعارف،وجعل من ثماره هذه الكتب التي حفظت ثمار العقول،فكانت ميراثا للعلماء،يرثها الخلف عن السلف،وينميها ويثمرها العلماء جيلا بعد جيل..وبهذا تعلم الإنسان ما لم يكن يعلم،وبعلمه هذا المستفاد من سلفه،فتح أبوابا جديدة من العلم يتلقاها عنه من بعده،ويفعل فعله،بما يفتح من أبواب جديدة للعلم..وهكذا تتسع معارف الإنسان،ويزداد علمه على مدى الأجيال..وهذا يعنى أن الإنسانية متطورة،وسائرة نحو الأمام،بما تتوارث أجيالها من ثمار العقول،التي يتركها السلف للخلف،جيلا بعد جيل..وهكذا يذهب الناس،كأجساد،وتبقى غراس عقولهم،وثمار أفكارهم.[٢٠٧٤]

وعَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ:الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ قَالَ:الْقَلَمُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَظِيمَةٌ،لَوْلا الْقَلَمُ لَمْ يَقُمْ دِينٌ،وَلَمْ يَصْلُحْ عَيْشٌ وَفِي قَوْلِهِ:عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ قَالَ الْخَطُّ"[٢٠٧٥] .

وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ:أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ،فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ،ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ،وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ،وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ،ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا،حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ،فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ:اقْرَأْ،قَالَ:«مَا أَنَا بِقَارِئٍ»،قَالَ:" فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي،فَقَالَ:اقْرَأْ،قُلْتُ:مَا أَنَا بِقَارِئٍ،فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي،فَقَالَ:اقْرَأْ،فَقُلْتُ:مَا أَنَا بِقَارِئٍ،فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي،فَقَالَ:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ.اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ} [العلق:٢] " فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ،فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،فَقَالَ:«زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ،فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ:«لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ

[٢٠٧٤] – التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٦٢٣)

[٢٠٧٥] – تفسير ابن أبي حاتم – محققا (١٠/ ٣٤٥٠)(١٩٤١٦)

خَدِيجَةُ:كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا،إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ،وَتَحْمِلُ الكَلَّ،وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ،وَتَقْرِي الضَّيْفَ،وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ،فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ،وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ،فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ،وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ،فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ:يَا ابْنَ عَمِّ،اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ،فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ:يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى،فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ:هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى،يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا،لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»،قَالَ:نَعَمْ،لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ،وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ،وَفَتَرَ الوَحْيُ" [٢٠٧٦]

ويستفاد من الحديث ما يأتي:

أولاً:إيمان ورقة بن نوفل،وقد ذكر السهيلي أنه قال للنبي - ﷺ -:أشهد أنك نبي مرسل،وأنك الذي بشر بك عيسى،وستأمر بالجهاد،وإن يدركني ذلك أجاهد معك.وقال النبي - ﷺ - فيه:" لقد رأيت القس في الجنة،وعليه ثياب الحرير،لأنّه آمن بي وصدقني " أخرجه البزار.وذكره ابن مندة في الصحابة والبلقيني في أول من أسلم.

[٢٠٧٦] - صحيح البخاري (١/ ٧)(٣) وصحيح مسلم (١/ ١٣٩)٥٢ - (١٦٠)

[ش(الصالحة) الصادقة وهي التي يجري في اليقظة ما يوافقها.(فلق الصبح) ضياؤه ونوره ويقال هذا في الشيء الواضح البين.(الخلاء) الانفراد.(بغار حراء) الغار هو النقب في الجبل وحراء اسم لجبل معروف في مكة.(يترع) يرجع.(ما أنا بقارىء) لا أعرف القراءة ولا أحسنها.(فغطني) ضمني وعصرني حتى حبس نفسي ومثله غتني.(الجهد) غاية وسعي.(أرسلني) أطلقني.(علق) جمع علقة وهي المني بعد أن يتحول إلى دم غليظ متجمد والآيات المذكورة أول ما نزل من القرآن الكريم وهي أوائل سورة العلق.(يرجف فؤاده) يخفق قلبه ويتحرك بشدة.(زملوني) لفوني وغطوني.(الروع) الفزع.(ما يخزيك) لا يذلك ولا يضيعك.(لتصل الرحم) تكرم القرابة وتواسيهم.(تحمل الكل) تقو بشأن من لا يستقل بأمره ليتم وغيره وتتوسع بمن فيه ثقل وغلاظة.(تكسب المعودم) تتبرع بالمال لمن عدمه وتعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك.(تقري الضيف) تهيء له القرى وهو ما يقدم للضيف من طعام وشراب.(نوائب الحق) النوائب جمع نائبة وهي ما يترل بالإنسان من المهمات وأضيفت إلى الحق لأنها تكون في الحق والباطل.(تنصر) ترك عبادة الأوثان واعتنق النصرانية.(الناموس) هو صاحب السر والمراد جبريل عليه السلام سمي بذلك لاختصاصه بالوحي.(فيها) في حين ظهور نبوتك.(جذع) شاب والجذع في الأصل الصغير من البهائم ثم استعير للشاب من الإنسان.(يومك) يوم إخراجك أو يوم ظهور نبوتك وانتشار دينك.(مؤزرا) قويا من الأزر وهو القوة.(ينشب) يلبث.(فتر الوحي) تأخر عن الترول مدة من الزمن]

ثانياً:أن رؤيا النبي – ﷺ – والأنبياء جميعاً وحي إلهي،لقول عائشة رضي الله عنها " أوَّل ما بُدِىءَ به رسول الله – ﷺ – من الوحي الرؤيا إلخ.
ثالثاً:أن أوّل ما نزل من الوحي القرآني (اقرأ باسم ربك) .
رابعاً:أن الخائف لا ينبغي أن يُسْألَ حتى يهدأ،حتى قال مالك:المذعور لا يلزمه بيع ولا إقرار ولا غيره،ولذلك فإن خديجة لم تسأل النبي – ﷺ – حتى ذهب عنه الخوف.
خامساً:أن مكارم الأخلاق سبب للسَّلامة من المكاره لقول خديجة – رضي الله عنها– " والله ما يجزيك الله أبداً،إنك لتصل الرحم " الخ وقد صدقت في قولها،وبرت في قسمها.
سادساً:جواز مدح الإنسان في وجهه بصدق إذا لم يُخْشَ عليه الغرور والإعجاب بنفسه،لأن السيدة خديجة رضي الله عنها قد مدحت النبي – ﷺ – بخصال الخير الموجودة فيه.
سابعاً:محاولة التخفيف عمن أصابه الفزع،والتسرية عنه،وتطمين قلبه وتهدئة نفسه.
ثامناً:في الحديث دلالة على فضل السيدة خديجة ورجاحة عقلها،وحسن تصرفها في المواقف الصعبة.
تاسعاً:دل الحديث على وجود الرؤيا الصادقة التي لا بد أن يظهر لها وجود في الواقع،ويقع تفسيرها في اليقظة على حسب تعبيرها،ومنها رؤيا الأنبياء التي هي أعظم أنواع الرؤيا،وأعلاها شأناً،وأشرفها مقاماً،وأصدقها وقوعاً.لأنّها وحي إلهيٌ كما قالت عائشة رضي الله عنها:"أول ما بدىء به رسول الله – ﷺ – من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم،فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح.
وإذا كانت الرؤيا الصادقة موجودة كما يدل عليه نص الحديث،فكذلك الرؤيا الكاذبة موجودة أيضاً كما يدل عليه مفهوم الحديث،فالرؤيا أنواع مختلفة:
منها الأحلام الشيطانية:التي يصورها الشيطان للإنسان في أثناء نومه أشكالاً مختلفة من الأشباح المخيفة،التي تؤذي النائم،وتثير في نفسه الآلام والمخاوف،وتسبب له القلق النفسي،فقد يرى أسداً يفترسه،أو عدواً يقتله،وما هي إلاّ مجرد خيالات لا تمت إلى الواقع بصلة،وقد نبهنا النبي – ﷺ – إلى هذا النوع من الرؤي الشيطانية،وأرشدنا إلى علاجه،وكيف نتخلص منه ونتغلب عليه،حيث قال – ﷺ –:" الحلم من الشيطان فإذا رأى أحدكم الشيء

يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثاً وليتعوَّذ من شرها.فإنها لا تضره " وإنّما أمـــر الـــنبي – ﷺ – بالتعوذ منها مع أنها خيال،لا حقيقة له ليتخلص مـــن تأثيرهـــا النفســـي،وما تحدثـــه مـــن وساوس،وأوهام وآلام نفسية،قد تؤدي بصاحبها إذا استســـلم لهـــا إلى الجنـــون،أو المـــوت المحقق،لأن الوهم وحش كاسر يقتل صاحبه،ويفتك به.فالتعوذ من هذه الرؤي يقضـــي علـــى آثارها النفسية،ويخلص المرء من شرها،كما روي عن أبي سلمة رضي الله عنه أنه قـــال:لقـــد كنت أرى الرؤيا فتمرضني،حتى سمعت أبا قتادة رضي الله عنه يقول:وأنا كنت لأرى الرؤيـــا فتمرضني حتى سمعت النبي – ﷺ – يقول:" الحُلُمُ من الشيطانِ ".الخ فما كنت أباليها،أي فما عادت تخيفني لقناعتي نفسياً بعدم تأثيرها سيما بعد الاستعاذة منها.

ومنها الأحلام النفسية:التي قد تنشأ عن مؤثرات خارجية،كأن يرى النائم ناراً تحرقه بســـبب سقوط أشعة الشمس على عينيه.أو يسمع دقات الساعة فيرى مطارق حديدية تهـــوي علـــى جسمه،وقد تنشأ عن موثرات عضوية فيرى معسور الهضم عدُواً،يخنقـــه،وربما نشـــأت عـــن رغبات مكبوتة في العقل الباطن،يريد أن ينفِّس عنها بهذه الأحلام،ولم يعرف فرويد وغيره من علماء النفس التحليليين غيرَ هذا النوع من الرؤيا فحصروا الرؤيا كلها فيه،فليســـت الرؤيـــا عندهم إلاّ تحقيقاً لرغبات نفسية لم يقدر لها أن تتحقق في الحياة العادية فينفس الإنسان عنـــها أثناء نومه،ويحاول تحقيقها ولو في النوم.وأنكروا وجود الأنواع الأخرى مـــن الرؤيا،لقصـــور علمهم،وضيق أفقهم،فذلك هو مبلغهم من العلم،والإسلام يقرّ هذا النوع من الرؤيا ويضـــيف إليه أنواعاً كما قال – ﷺ – " الرؤيا ثلاث،رؤيا صالحة بشرى من الله،ورؤيـــا تحـــزين مـــن الشيطان،ورؤيا يحدث بها المرء نفسه " وعلماء النفس لا يعرفون إلا الأخير،وينطبق عليهم قوله تعالى:(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) فهم لا يتحدثون إلّا عن هذه الأحلام النفسية،ويحصرون فيه كل الرؤى،في حين أن الرؤيا أنواع مختلفة،منها ما عرفه علماء النفس وتحدثوا عنه.

ومنها أيضاً الرؤيا الصادقة:التي يظهر تفسيرها في حياة الانسان،فيقع في اليقظة ما رآه في النوم على حسب التعبير الصحيح الذي تعبر به،وقد أثبت الإسلام وجودها،وتحدث عنـــها علمـــاء المسلمين،وهي كما يقولون:إلهام يلقيه الله تعالى في قلب العبد أثناء نومـــه،أو يلقيـــه الموكـــل بالرؤيا،أو ما تراه الروح عند عروجها إلى السماء أثناء النوم.فالأرواح –كما قال الإمام علـــي

رضي الله عنه- " يُعْرَج بها في منامها،فما رأت وهي في السماء فهو الحق " وقـال الأسـتاذ سعيد حَوَّى " هذا النوعِ من الرؤيا مهم جداً لأنه يكون مبشراً أو منذراً أو مخبراً أو محـذراً "،والرؤيا الصادقة تشمل الرؤيا الصالحة وغيرها،فإن كانت رؤيا حسنة تسَرُّ لها النفس فهـي رؤيا صادقة وصالحة،وإن كانت سيئة تكرهها النفس فهي صادقة غـير صـالحة،وذلك لأنّ الرؤيا السيئة ليست كلها من الشيطان،بل هي على نوعين:ما يكـون منـها حقـاً بحسـب التعبير،فهو رؤيا صادقة،ولو كانت سيئة،وما يكون باطلاً لا يعلم له معنى من طريق التعبير فهو رؤيا شيطانية كاذبة،كما أفاده ابن أبي جمرة.وقد روِي عن الـنبي - ﷺ - أنـه،أتاه رجـل فقال:إنه رأى في المنام كأن رأسه قطع،والرأس يتدحرج،وهو يجري خلفه فزجره النبي - ﷺ - وقال له:هذه من الشيطان،أأحَدٌ يقطع رأسه ويبقى حياً ؟! ومن أعظم الرؤيا الصـادقة رؤيـا الأنبياء والفرق بينها وبين رؤيا الآخرين أنها قطعية،ووحي من الله تعالى لا شـك فيه،ولهـذا كانت حجة شرعية تبنى عليها الأحكام الفقهيّة،بخلاف رؤيا غيرهم،فإنّها تحتمـل الصـدق والكذب ولا يعتمد عليها في حكم شرعي.

عاشراً:جواز ذكر العاهة الموجودة في الشخص لفائدة،كقول السيدة عائشة رضي الله عنـها:" وكان شيخاً أعْمى ".

الحادي عشر:أنه ينبغي للمستشار أن يوضِّح رأيه،ويدعمه بالأدلة المقنعة،كما فعل ورقة عندما قال له النبي - ﷺ -:" أو مخرجيّ هم؟ " لم يكتف بقوله " نعم " وإنّما دعّم قوله بالتجربـة التاريخية فقال: لم يأت رجل بمثل ما أتيت به إلاّ عُودي،أي إنَّ تلك سنة الله في أنبيائه جميعـاً وقد قال قوم شعيب لنبيّهم:(لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) ولهذا قيل:لا كرامة لنبيٍّ في وطنه.[٢٠٧٧]

وإنها لنقلة بعيدة جدا بين المنشأ والمصير.ولكن الله قادر.ولكن الله كريم.ومن ثم كانت هـذه النقلة التي تدير الرؤوس! وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم ..تعليم الرب للإنسـان «بِالْقَلَمِ» ...لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا في حياة الإنسان ..و لم

[٢٠٧٧] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ٤٢)

تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية.ولكن الله – سبحانه – كان يعلم قيمة القلم،فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية.في أول سورة من سور القرآن الكريم ..هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتبا بالقلم،وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يقول هذا القرآن.

لولا أنه الوحي،ولولا أنها الرسالة! ثم تبرز مصدر التعليم ..إن مصدره هو الله.منه يستمد الإنسان كل ما علم،وكل ما يعلم.وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود،ومن أسرار هذه الحياة،ومن أسرار نفسه.فهو من هناك.من ذلك المصدر الواحد،الذي ليس هناك سواه.

وبهذا المقطع الواحد الذي نزل في اللحظة الأولى من اتصال الرسول – ﷺ – بالملأ الأعلى،بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة ..كل أمر.كل حركة.كل خطوة.كل عمل.باسم الله.وعلى اسم الله.باسم الله تبدأ.وباسم الله تسير.وإلى الله تتجه،وإليه تصير.

والله هو الذي خلق.وهو الذي علم.فمنه البدء والنشأة،ومنه التعليم والمعرفة ..والإنسان يتعلم ما يتعلم،ويعلم ما يعلم ..فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علم ..«عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ» ..وهذه الحقيقة القرآنية الأولى،التي تلقاها قلب رسول الله – ﷺ – في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره،وتصرف لسانه،وتصرف عمله واتجاهه،بعد ذلك طوال حياته.بوصفها قاعدة الإيمان الأولى.[٢٠٧٨]

وقال القرطبي رحمه الله:" قَوْلُهُ تَعَالَى:الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ يَعْنِي الْخَطَّ وَالْكِتَابَةَ،أَيْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ الْخَطَّ بِالْقَلَمِ.وَرَوَى سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ:الْقَلَمُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَظِيمَةٌ،لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَقُمْ دِينٌ،وَلَمْ يَصْلُحْ عَيْشٌ.فَدَلَّ عَلَى كَمَالِ كَرَمِهِ سُبْحَانَهُ،بِأَنَّهُ عَلَّمَ عِبَادَهُ مَا لَمْ يَعْلَمُوا،وَنَقَلَهُمْ مِنْ ظُلْمَةِ الْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ،وَنَبَّهَ عَلَى فَضْلِ عِلْمِ الْكِتَابَةِ،لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ،الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا هُوَ.وَمَا دُوِّنَتِ الْعُلُومُ،وَلَا قُيِّدَتِ الْحِكَمُ،وَلَا ضُبِطَتْ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ وَمَقَالَاتُهُمْ،وَلَا

[٢٠٧٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٨٩٢)

كُتُبُ اللَّه الْمَنْزَلَةُ إِلَّا بِالْكِتَابَة،وَلَوْلَا هيَ مَا اسْتَقَامَتْ أُمُورُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.وَسُمِّيَ قَلَمًا لِأَنَّهُ يُقْلَمُ،أَيْ يُقْطَعُ،وَمِنْهُ تَقْليمُ الظُّفْرِ."[2079]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:" كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ،فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ " قَالَ:فَجَاءَ غُلَامٌ يَوْمًا يَبْكِي إِلَى أَبِيهِ،فَقَالَ:مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ:ضَرَبَنِي مُعَلِّمِي قَالَ:الْخَبِيثُ،يَطْلُبُ بِذَحْلِ بَدْرٍ وَاللهِ لَا تَأْتِيه أَبَدًا" رواه أحمد[2080].

وعَنْ خَارِجَةَ يَعْنِي ابْنَ زَيْد بْنِ ثَابِت،قَالَ:قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابت:أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ،وَقَالَ:«إِنِّي وَاللَّه مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي» فَتَعَلَّمْتُهُ،فَلَمْ يَمُرَّ بِي إِلَّا نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى حَذَقْتُهُ،فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ وَأَقْرَأُ لَهُ،إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ" رواه أبو داود[2081].

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَتَأَمَّلْنَا هَذَا الْحَديثَ فَوَجَدْنَا مَا كَانَ يَرِدُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ كُتُبِ يَهُودَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ إِنَّمَا كَانَ يَقْرَؤُهُ لَهُ الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَحْضُرُونَهُ ،وَهُمْ غَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى كِتْمَانِهِ بَعْضَ مَا فِيهِ ،وَغَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى تَحْرِيفِ مَا فِيهِ إِلَى مَا يُرِيدُونَ ،وَكَانَ مَا يَنْفُذُ مِنْ كُتُبِهِ إِلَى الْيَهُودِ جَوَابًا لِكُتُبِهِمْ لَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ فَتَحْتَاجُ الْيَهُودُ الْوَارِدَةُ عَلَيْهِمْ إِلَى مَنْ يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ لِيَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ؛إِذْ كَانُوا لَا يُحْسِنُونَ الْعَرَبِيَّةَ ،فَلَعَلَّهُ أَنْ يُحَرِّفَ مَا فِي كُتُبِهِ إِلَيْهِمْ إِلَى مَا يُرِيدُ ،لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ ،وَفِي قُلُوبِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مَا فِيهَا ،فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ زَيْدًا أَنْ يَتَعَلَّمَ لَهُ السُّرْيَانِيَّةَ لِيَقْرَأَ كُتُبَهُمْ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْهِ قِرَاءَةً ،فَيَأْمَنَ بِهَا كِتْمَانَ مَا فِيهَا ،وَيَأْمَنَ بِهَا تَحْرِيفَ مَا فِيهَا ،وَيَكُونَ كِتَابُهُ ﷺ إِذَا وَرَدَ عَلَى الْيَهُودِ وَرَدَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ يَقْرَؤُهُ عَامَّتُهُمْ ،يَأْمَنُ فِيهِ مِنْ كِتْمَانِ بَعْضِ مَا فِيهِ ،وَمِنْ تَحْرِيفِ مَا فِيهِ إِلَى غَيْرِ مَا كَتَبَ بِهِ ،فَهَذَا وَجْهُ هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَنَا ،وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[2082]

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ،فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا:أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي

[2079] - تفسير القرطبي (٢٠/ ١٢٠)

[2080] - مسند أحمد ط الرسالة (٤/ ٩٢)(٢٢١٦) حسن لغيره

[2081] - سنن أبي داود (٣/ ٣١٨)(٣٦٤٥) صحيح - حذقته:حذقت الشيء أحذقه:إذا علمته وأتقنته.

[2082] - شرح مشكل الآثار (٥/ ٢٨١)

الْغَضَبِ،وَالرِّضَا،فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ،فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ،فَقَالَ:«اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ» رواه أبو داود[٢٠٨٣].

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،قَالَ:عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْكِتَابَ،وَالْقُرْآنَ فَأَهْدَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَوْسًا فَقُلْتُ:لَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،لَآتِيَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَأَسْأَلَنَّهُ فَأَتَيْتُهُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،رَجُلٌ أَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا مِمَّنْ كُنْتُ أُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ،وَلَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَالَ:«إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تُطَوَّقَ طَوْقًا مِنْ نَارٍ فَاقْبَلْهَا» رواه أبو داود[٢٠٨٤].

[٢٠٨٣] - سنن أبي داود (٣/ ٣١٨)(٣٦٤٦) صحيح

قال الشيخ:يشبه أن يكون النهي متقدماً وآخر الأمرين الإباحة،وقد قيل أنه إنما نهى أن يكتب الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة لئلا يختلط به ويشتبه على القارىء فأما أن يكون نفس الكتاب محظوراً وتقييد العلم بالخط منهياً عنه فلا.وقد أمر رسول الله ﷺ أمته بالتبليغ وقال ليبلغ الشاهد الغائب فإذا لم يقيدوا ما يسمعونه منه تعذر التبليغ ولم يؤمن ذهاب العلم وأن يسقط أكثر الحديث فلا يبلغ آخر القرون من الأمة،وللنسيان من طبع أكثر البشر والحفظ غير مأمون عليه الغلط،وقد قال ﷺ لرجل شكى إليه سوء الحفظ استعن بيمينك،وقال اكتبوها لأبي شاه خطبة خطبها فاستكتبها وقد كتب رسول الله ﷺ كتباً في الصدقات والمعاقل والديات أو كتبت عنه فعمل بها الأمة وتناقلتها الرواة ولم ينكرها أحد من علماء السلف والخلف فدل ذلك على جواز كتابة الحديث والعلم والله أعلم.معالم السنن (٤/ ١٨٤)

[٢٠٨٤] - سنن أبي داود (٣/ ٢٦٤)(٣٤١٦) صحيح

قال الشيخ اختلف الناس في معنى هذا الحديث وتأويله فذهب قوم من العلماء إلى ظاهره فرأوا أن أخذ الأجرة والعوض على تعليم القرآن غير مباح،وإليه ذهب الزهري وأبو حنيفة وإسحاق بن راهويه.

وقالت طائفة لا بأس به ما لم يشترط وهو قول الحسن البصري وابن سيرين والشعبي وأباح ذلك آخرون وهو مذهب عطاء ومالك والشافعي وأبي ثور واحتجوا بحديث سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال للرجل الذي خطب المرأة فلم يجد لها مهراً زوجتكها على ما معك من القرآن،وقد ذكره أبو داود في موضعه من هذا الكتاب،وتأولوا حديث عبادة على أنه أمر كان تبرع به ونوى الاحتساب فيه ولم يكن قصده وقت التعليم إلى طلب عوض ونفع فحذره النبي ﷺ إبطال أجره وتوعده عليه،وكان سبيل عبادة في هذا سبيل من رد ضالة الرجل أو استخرج له متاعاً قد عرف تبرعاً وحسبة فليس له أن يأخذ عليه عوضاً ولو أنه طلب لذلك أجرة قبل أن يفعله حسبة كان ذلك جائزاً.

وأهل الصفة قوم فقراء كانوا يعيشون بصدقة الناس فأخذ الرجل المال منهم مكروه ودفعه إليهم مستحب.

وقال بعض العلماء أخذ الأجرة على تعليم القرآن له حالات فإذا كان في المسلمين غيره ممن يقوم به حل له أخذ الأجرة عليه لأن فرض ذلك لا يتعين عليه.وإذا كان في حال أو موضع لا يقوم به غيره لم يحل له أخذ الأجرة وعلى هذا تأول اختلاف الأخبار فيه.معالم السنن (٣/ ٩٩)

وعن زِيَادَ بْنِ جَارِيَةَ،أنه أَخْبَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَتَبَ إِلَى أُمَـرَاءِ الشَّـامِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا الْغَرَضَ وَيَمْشُوا بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ حُفَاةً وَعَلِّمُوا صُبْيَانَكُمُ الْكِتَابَةَ وَالسِّبَاحَةَ فَبَيْنَا هُمْ يَرْمُونَ مَرَّ صَبِيٌّ فَأَصَابَهُ أَحَدُهُمْ فَقَتَلَهُ فَكَتَبَ فِي ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ فَكَتَبَ أَنِ اعْلَمْ هَلْ كَانَ بَيْنَهُمْ مِـنْ ذَحْلٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَكَتَبَ عَامِلُ حِمْصَ أَنِّي كَتَبْتُ فَلَمْ أَجِدْهُمْ كَانُوا يَتَبَادَلُونَ،وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ وَارِثٌ يُعْلَمُ،وَلَا ذُو قَرَابَةٍ إِلَّا خَالٌ فَكَتَبَ عُمَرُ «أَنَّ دِيَتَهُ لِخَالِهِ إِنَّمَا الْخَـالُ وَالِـدٌ وَتَرَكَ مَوَالِيَهُ الَّذِينَ أَعْتَقُوهُ»رواه عبد الرزاق[2085].

وعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ،أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ يَقُولُ:«قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ»[2086].

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِبَنِيهِ:«قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ»[2087]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قَيِّـدُوا الْعِلْـمَ» قُلْـتُ:وَمَـا تَقْيِيـدُهُ؟ قَالَ:«الْكِتَابُ»[2088]

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ»[2089]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:«خَيْرُ مَا قُيِّدَ بِهِ الْعِلْمُ الْكِتَابُ»[2090]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِأَحَادِيثِ الْبَابِ مَنْ قَالَ:إنَّهَا لَا تَحِلُّ الْأُجْرَةُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَصْحَابُهُ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالْهَادَوِيَّةُ،وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ وَالضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ وَالزُّهْرِيُّ وَإِسْحَاقُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَقِيقٍ.وَظَاهِرُهُ عَدَمُ الْفَرْقِ بَيْنَ أَخْذِهَا عَلَى تَعْلِيمِ مَنْ كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا

وَقَالَتْ الْهَادَوِيَّةُ:إنَّمَا يَحْرُمُ أَخْذُهَا عَلَى تَعْلِيمِ الْكَبِيرِ لِأَجْلِ وُجُوبِ تَعْلِيمِهِ الْقَدْرَ الْوَاجِبَ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ.وَلَا يَحْرُمُ عَلَى تَعْلِيمِ الصَّغِيرِ لِعَدَمِ الْوُجُوبِ عَلَيْهِ وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إلَى أَنَّهَا تَحِلُّ الْأُجْرَةُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَأَجَابُوا عَنْ أَحَادِيثِ الْبَابِ بِأَجْوِبَةٍ:مِنْهَا أَنَّ حَدِيثَا أُبَيٍّ وَعُبَادَةَ قَضِيَّتَانِ فِي عَيْنٍ،فَيُحْتَمَلُ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ- عَلِمَ أَنَّهُمَا فَعَلَا ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ فَكَرِهَ أَخْذَ الْعِوَضِ عَنْهُ

وَأَمَّا مَنْ عَلَّمَ الْقُرْآنَ عَلَى أَنَّهُ لِلَّهِ وَأَنْ يَأْخُذَ مِنْ الْمُتَعَلِّمِ مَا دَفَعَهُ إلَيْهِ بِغَيْرِ سُؤَالٍ وَلَا اسْتِشْرَافِ نَفْسٍ فَلَا بَأْسَ بِهِ وَأَمَّا حَدِيثُ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فَلَيْسَ فِيهِ إلَّا تَحْرِيمُ السُّؤَالِ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ غَيْرُ اتِّخَاذِ الْأَجْرِ عَلَى تَعْلِيمِهِ"نيل الأوطار (٥/ ٣٤٤)

[2085] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٩/ ١٩)(١٦١٩٨) فيه ضعف

[2086] - المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٤١٦)(٧٥٨) صحيح

[2087] - المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٤١٧)(٧٦١) والمعجم الكبير للطبراني (١/ ٢٤٦)(٧٠٠) صحيح

[2088] - المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٤١٧)(٧٦٣) حسن لغيره

[2089] - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣١٠)(٣٩٨) والمدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٤١٦)(٧٦٠) وتقييد العلم للخطيب البغدادي (ص:٩٢) صحيح لغيره

وعَنْ عَنْبَسَةَ قَالَ:رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ يُسَلِّمُ عَلَى الصِّبْيَانِ فِي الْكُتَّابِ" رواه البخاري في الأدب المفرد[2091].

وقال البغوي :"وَذَهَبَ الأَكْثَرُونَ إِلَى إِبَاحَةِ الْكِتْبَةِ،لِمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ،فَقَالَ أَبُو شَاه:اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اكْتُبُوا لأَبِي شَاه».

وَالنَّهْيُ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مُتَقَدِّمًا،ثُمَّ أَبَاحَهُ،وَأَذِنَ فِيهِ.وَقَدْ قِيلَ:إِنَّمَا نُهِيَ عَنْ كِتْبَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فِي صَحِيفَةٍ وَاحِدَةٍ،لِئَلا يَخْتَلِطَ غَيْرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ،فَيَشْتَبِهَ عَلَى الْقَارِئِ،فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ نَفْسُ الْكِتَابِ مَحْظُورًا،فَلا،يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«بَلِّغُوا عَنِّي».

وَفِي الأَمْرِ بِالتَّبْلِيغِ إِبَاحَةُ الْكِتْبَةِ،وَالتَّقْيِيدُ،لأَنَّ النِّسْيَانَ مِنْ طَبْعِ أَكْثَرِ الْبَشَرِ،وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ لَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْغَلَطُ،فَتَرْكُ التَّقْيِيدِ يُؤَدِّي إِلَى سُقُوطِ أَكْثَرِ الْحَدِيثِ،وَتَعَذُّرِ التَّبْلِيغِ،وَحِرْمَانِ آخِرِ الأُمَّةِ عَنْ مُعْظَمِ الْعِلْمِ.رُوِيَ عَنْ عُمَرَ،أَنَّهُ قَالَ:«قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ» وَمِثْلُهُ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو،وَأَنَسٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ وَكَانَ يُحَدِّثُنِي بِالْحَدِيثِ،فَأَكْتُبُهُ فِي وَاسِطَةِ الرَّحْلِ حَتَّى أُصْبِحَ،فَأَكْتُبَهُ.

وَقَالَ مَعْمَرٌ،عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ،قَال سَمِعْتُ أَنَا وَابْنُ شِهَابٍ،وَنَحْنُ نَطْلُبُ الْعِلْمَ،فَاجْتَمَعْنَا عَلَى أَنْ نَكْتُبَ السُّنَنَ،فَكَتَبْنَا كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،ثُمَّ قَالَ:نَكْتُبُ أَيْضًا مَا جَاءَ عَنْ أَصْحَابِهِ،فَقُلْتُ:لَا لَيْسَ بِسُنَّةٍ،فَقَالَ:بَلْ هِيَ سُنَّةٌ،قَالَ:فَكَتَبَ وَلَمْ أَكْتُبْ،فَأَنْجَحَ وَضَيَّعْتُ.

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ:كَانَ يُقَالُ:مَنْ لَمْ يَكْتُبْ عِلْمَهُ لَا يُعَدُّ عِلْمُهُ عِلْمًا.

وَقَالَ أَبُو هِلالٍ:قَالُوا لِقَتَادَةَ:نَكْتُبُ مَا نَسْمَعُ مِنْكَ؟ قَالَ:وَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَكْتُبَ،وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَنَّهُ يُكْتَبُ،قَالَ:{عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ} [طه:٥٢] وَقَالَ أَبُو الْمَلِيحِ:تَعِيبُونَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ} [طه:٥٢].

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ:«انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَاكْتُبْهُ،فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ،وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ».

[2090] - تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص:٩٢) صحيح

[2091] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٣٥٩)(١٠٤٤) صحيح

وَسُئِلَ عَبْدُ اللَّه بْنُ الْمُبَارَكِ عَنِ الرَّجُلِ يُشْهَدُ عَلَى شَهَادَةٍ فَيَنْسَاهَا،فَيَجِدُهَا مَكْتُوبَةً عِنْدَهُ،أَيَشْهَدُ بِهَا؟ فَقَالَ:وَهَلْ عَلِمْنَا إِلا هَكَذَا."[٢٠٩٢]

كما أن في الكتابة مصالح كثيرة للناس في معاملاتهم وتوثيق حقوقهم،كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٨٢]

يُرْشِدُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ إذا تَعَامَلُوا بِمُعَامَلات مُؤَجَّلَة فَإِنَّ عَلَيهِمْ أنْ يَكْتُبُوهَا،لِيَكُونَ ذَلِكَ أحْفَظَ لِمِقْدارِهَا وَمِيقَاتِهَا،وَأضْبَطَ لِلشَّهَادَةِ فِيها،وَلْيَكْتُبْ بَيْنَهُمْ كَاتِبٌ بِالقِسْطِ وَالحَقِّ (بِالعدْلِ)،وَلاَ يَجُرْ فِي كِتَابَتِه عَلَى أحد،وَلاَ يَعْرِفُ الكِتَابَةَ أنْ لاَ يَمْتَنِعَ عَنِ الكِتَابَة إذا مَا سُئِلَ الكِتَابَةَ لِلنَّاسِ،وَلاَ ضَرَرَ عَلَيه فِي ذَلِكَ،فَكَمَا عَلَّمَهُ اللهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَى غَيْرِه مِمَّنْ لاَ يُحْسِنُ الكِتَابَةَ.

وَجَاءَ فِي الحَدِيث:" مَنْ كَتَمَ عِلْماً يَعْلَمُهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ "

وَلْيُمْلِلِ الذي عَليه الدَّيْنُ عَلَى الكَاتِبِ مُقِرّاً بِمَا فِي ذِمَّته مِنَ الدَّيْنِ،لِيَكُونَ إمْلاَلُهُ حُجَّةً عَليه تَحْفَظُهَا الكِتَابَةُ،وَلْيَتَّقِ اللهَ فِي ذَلِكَ،وَلاَ يَكْتُمْ مِنْهُ شَيْئاً وَلاَ يُنْقِصْ (لاَ يَبْخَسْ) .أَمَّا إذا كَانَ المَدِينُ سَفِيهاً مَحْجُوراً عَلَيه لِتَبْذِيرِه،أوْ كَانَ ضَعِيفاً أيْ صَغِيراً أوْ مَجْنُوناً،أوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يُقَرِّرَ وَيُمْلِيَ عَلَى الكَاتِبِ لِعِيٍّ أوْ لِجَهْلٍ...فَلْيَتَوَلَّ ذَلِكَ وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ.

[٢٠٩٢] - شرح السنة للبغوي (١/ ٢٩٤)

وَاسْتَشْهِدُوا شَاهِدَينِ زِيَادَةً فِي الاسْتِيثَاقِ:رَجُلَينِ أوْ رَجُلاً وامْرَأتينِ منَ الشُّهُودِ العُدُولِ الذينَ تَرْضَوْنَ شَهَادَتَهُمْ.وَإذَت دُعِيَ الشُّهُودُ لأَدَاءِ الشَّهَادَة فَعَلَيْهِمِ ألاَّ يَمْتَنِعُوا.وَيَحُثُّ اللهُ المُــؤْمنينَ عَلَى عَدَمِ إهْمَالِ الكِتَابَةِ فِي الدَّين،صَغيراً كَانَ أوْ كَبيراً،لأنَّ ذَلكَ أعْدَلُ عِنْــدَ اللهِ (أَقْسَــطُ) وَأَثْبَتُ للشَّهَادَة،فَإنَّ الشَّاهدَ حِينَ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السَّنَد ثُمَّ يَرَاهُ فَيَذْكُرُ الشَّهَادَةَ،وَهُوَ أقرَبُ إلى عَدَمِ الرِّيبَةِ إذْ تَرْجِعُونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إلى الكِتَابَةِ وَمَا جَاءَ فِيهَا.

أَمَّا إذا كَانَ البَيْعُ بالحَاضِرِ يَداً بِيَد (تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا) فَلاَ بأسَ فِي تَرْكِ الكِتَابَــةِ،لانْتِفَاءِ المَحْذُورِ فِي تَرْكِهَا.وَلاَ يَجُوزُ أنْ يَلْحَقَ ضَرَرٌ بَالكَاتِبِ أوْ بالشَّاهِدِ لِمَا يَقُومَان بِه.وَمَنْ يُخَالِفْ أمْرَ اللهِ فِيمَا أَمَرَ بِه مِنْ عَدَمِ إيذَاءِ الكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ فَإنَّ ذَلكَ فِسْقٌ وَخُــرُوجٌ عَــنْ شَــرْعِ اللهِ.وَاتَّقُوا اللهَ وَرَاقِبُوهُ،واللهُ يُعَلِّمُكُمْ وَاجِبَاتِكُمْ،وَيُرْشِــدُكُمْ إلى خَيْــرِكُمْ،وَاللهُ عِلــيمٌ بِكُــلِّ شَيءٍ.[2093]

كما ينبغي أن يعتنى بتعليم الطلاب اللغة العربية،فإن تعلمها هو السبيل لتعلم القــرآن الكــريم وسنة رسول الله ﷺ وتدبرهما والتفقه فيهما،قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل،والخلق،والدين تأثيرا قويا بينا،ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين،ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق.

وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين،ومعرفتها فرض واجب،فإن فهــم الكتــاب والســنة فرض،ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية،وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثم منها ما هو واجب على الأعيان،ومنها ما هو واجب على الكفاية،وهذا معنى ما رواه أبــو بكر بن أبي شيبة عَنْ عُمَر بْنِ زَيْد قَالَ :كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى :أَمَّا بَعْدُ فَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ ،وَتَفَقَّهُوا فِي الْعَرَبِيَّة ،وَأَعْرِبُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ ،وَتَمَعْدَدُوا فَإِنَّكُمْ مَعْدِيُّونَ.[2094]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ :كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى :أَمَّا بَعْدُ فَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ وَتَفَقَّهُــوا فِــي الْعَرَبِيَّةِ.[2095]

[2093] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٩٠،بترقيم الشاملة آليا)

[2094] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٤٣٣)(٣٠٥٣٤) وفيه انقطاع

[2095] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ١٦٥)(٢٦١٦٤) فيه انقطاع

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ،قَالَ :تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ كَمَا تَعَلَّمُونَ حِفْظَ الْقُرْآنِ.[2096]
وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:" تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ "[2097]
وعَنْ أَبِي رَجَاءٍ،قَالَ :سَأَلْت مُحَمَّدًا عَنْ نَقْطِ الْمَصَاحِفِ فَقَالَ :أَخَافُ أَنْ تَزِيدُوا فِي الْحُرُوفِ،أَوْ تُنْقِصُوا مِنْهَا،وَسَأَلْت الْحَسَنَ فَقَالَ :أَمَا بَلَغَك مَا كَتَبَ بِهِ عُمَرُ أَنْ تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ وَحُسْنَ الْعِبَادَةِ وَتَفَقَّهوا فِي الدِّينِ.[2098]

وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية وفقه الشريعة،يجمع ما يحتاج إليه؛لأن الدين فيه أقوال وأعمال،ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله،وفقه السنة هو فقه أعماله."[2099]

عَنْ أَبِي رَجَاءٍ مُحَمَّدِ بْنِ سَيْفٍ،قَالَ:سَأَلْتُ الْحَسَنَ عَنْ مُصْحَفٍ يُنْقَطُ بِالْعَرَبِيَّةِ؟ قَالَ:" لَا بَأْسَ بِهِ،أَوَمَا بَلَغَكَ عَنْ كِتَابِ عُمَرَ أَنَّهُ كَتَبَ:«تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ،وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ،وَأَحْسِنُوا عِبَارَةَ الرُّؤْيَا؟» قَالَ أَبُو رَجَاءٍ:وَسَأَلْتُ ابْنَ سِيرِينَ عَنْ ذَلِكَ،فَقَالَ:«إِنِّي أَخْشَى أَنْ تَزِيدُوا فِي الْحُرُوفِ» .[2100]

كما يجب على الحكومة الإسلامية أن تعد الطلاب إعدادا جهاديا عسكريا،وأن تربيهم على حب الجهاد في سبيل الله والاستشهاد،وقد قال تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠].

[2096] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٤٣٣)(٣٠٥٣٥) صحيح

[2097] - السنن الكبرى للبيهقي (٢/ ٢٨)(٢٢٧٤) صحيح

[2098] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٤٣٤)(٣٠٥٤٢) صحيح

[2099] - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٥٢٧)

[2100] - التفسير من سنن سعيد بن منصور - مخرجا (٢/ ٣١٤)(٨٩) وشعب الإيمان (٤/ ٢١٩) والمصاحف لابن أبي داود (ص:٣٢٨) صحيح

قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" وَلِأَنَّ النُّقْطَةَ لَيْسَتْ بِمَقْرُوءَةٍ فَيُتَوَهَّمُ لِأَجْلِهَا مَا لَيْسَ بِقُرْآنٍ قُرْآنًا وَإِنَّمَا هِيَ دِلَالَاتٌ عَلَى هَيْئَةِ الْمَقْرُوءِ فَلَا يَضُرُّ إِثْبَاتُهَا لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا،وَاللهُ أَعْلَمُ " قَالَ الْبَيْهَقِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" مَنْ كَتَبَ مُصْحَفًا فَيَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْهِجَاءِ الَّتِي كَتَبُوا بِهَا تِلْكَ الْمَصَاحِفَ وَلَا يُخَالِفَهُمْ فِيهَا وَلَا يُغَيِّرَ مِمَّا كَتَبُوهُ شَيْئًا فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ عِلْمًا،وَأَصْدَقَ قَلْبًا وَلِسَانًا،وَأَعْظَمَ أَمَانَةً مِنَّا فَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَظُنَّ بِأَنْفُسِنَا اسْتِدْرَاكًا عَلَيْهِمْ وَلَا تَسَقُّطًا لَهُمْ "

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – فِي كِتَابِ مَرَاقِي الزُّلْفَى لَهُ:" إنَّ الصَّبِيَّ أَمَانَةٌ عِنْدَ وَالِدَيْهِ،وَقَلْبُهُ الطَّاهِرُ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ سَاذَجَةٌ خَالِيَةٌ عَنْ كُلِ نَقْشٍ وَصُورَةٍ،وَهُوَ قَابِلٌ لِكُلِ نَقْشٍ،وَقَابِلٌ لِكُلِ مَا يُمَالُ بِهِ إلَيْهِ،فَإِنْ عُوِّدَ الْخَيْرَ وَعُلِّمَهُ نَشَأَ عَلَيْهِ وَسَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،يُشَارِكُهُ فِي ثَوَابِهِ أَبَوَاهُ وَكُلُ مُعَلِّمٍ لَهُ وَمُؤَدِّبٍ،وَإِنْ عُوِّدَ الشَّرَّ وَأُهْمِلَ شَقِيَ وَهَلَكَ،وَكَانَ الْوِزْرُ فِي رَقَبَةِ الْقَيِّمِ بِهِ وَالْوَلِيِّ عَلَيْهِ .وَمَهْمَا كَانَ الأَبُ يَصُونُ وَلَدَهُ مِنْ نَارِ الدُّنْيَا فَيَنْبَغِي أَنْ يَصُونَهُ مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ،وَهُوَ أَوْلَى،وَصِيَانَتُهُ بِأَنْ يُؤَدِّبَهُ وَيَهْدِيَهُ وَيُعَلِّمَهُ مَحَاسِنَ الأَخْلاَقِ،وَيَحْفَظَهُ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوءِ،وَلاَ يُعَوِّدَهُ التَّنَعُّمَ،وَلاَ يُحَبِّبَ إلَيْهِ الزِّينَةَ وَأَسْبَابَ الرَّفَاهِيَةِ فَيُضَيِّعُ عُمْرَهُ فِي طَلَبِهَا إذَا كَبِرَ وَيَهْلَكُ هَلاَكَ الأَبَدِ ."[2101]

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعَلِّمَهُ أَيْضًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ :السِّبَاحَةِ وَالرَّمْيِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَنْفَعُهُ فِي كُلِ زَمَانٍ بِحَسَبِهِ .فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،أَنْ عَلِّمُوا،غِلْمَانَكُمُ الْعَوْمَ،وَمُقَاتِلَتَكُمُ الرَّمْيَ،قَالَ:فَكَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِي الْأَعْرَاضِ،قَالَ:فَجَاءَ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَ غُلَامًا فِي حِجْرِ خَالٍ لَهُ لَا يُعْلَمُ لَهُ أَصْلٌ،قَالَ:فَكَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِلَى مَنْ أَدْفَعُ عَقْلَهُ،فَكَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ:«اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلِيُّ مَنْ لَا مَوْلَى لَهُ،وَالْخَالُ وَارِثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ»[2102]

تعليم الفتيات وتربيتهن:

وينبغي على الحكومة الإسلامية أن تعتني بتعليم الفتيات وتربيتهن تربية إيمانية راشدة،وأن تهيئ لهن المناهج التي تتوافق مع الواجبات والمسؤليات الشرعية التي أنيطت بهن،وقد قال تعالى:{ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ

[2101] – المدخل لابن الحاج ٤ / ٣١١ .المدخل لابن الحاج (٤/ ٢٩٥) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٣/ ١٢)

[2102] – المنتقى لابن الجارود (ص:٢٤٢)(٩٦٤) ومسند أحمد ط الرسالة (١/ ٤٠٩)(٣٢٣) حسن

وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) } [الأحزاب:٣٢ - ٣٥]

يَا نِسَاءَ النَبيِّ لاَ يُشْبِهُكُنَّ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ،وَلاَ تَلْحَقُ وَاحِدةٌ مِنْهُنَّ بِكُنَّ فِي الفَضِيلَةِ وَالمَنْزِلَةِ،فَإِنِ اتَّقَيْتُنَّ اللهَ كَمَا أَمَرَكُنَّ فَلا تُخَاطِبْنَ الرِّجَالَ بِرِقَّةٍ تُطْمِعُ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَفَسَادٌ،وَرِيبَةٌ وفِسْقٌ،وَقُلْنَ قَوْلاً بَعِيداً عَنِ الرِّيبَةِ،لاَ يَتْرُكُ لأَحَدٍ مَطْمَعاً فِيكُنَّ.

وَالزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ فَلاَ تَخْرُجْنَ لِغيرِ حَاجَةٍ.وَلاَ تُبدِينَّ زِينَتَكُنَّ وَمَحَاسِنَكُنَّ للرِّجَالِ،كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ نِسَاءُ الجَاهِلِيَّةِ،وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ عَلَى الوَجهِ الأَكْمَلِ،وأَدِّينَ الزَّكَاةَ عَنْ أَموالِكُنَّ كَمَا أَمَرَ اللهُ،فَاللهُ تَعالى يُرِيدُ أَنْ يُطَهِّرَ أَهلَ بَيْتِ رَسُولِهِ تَطهيراً لا تُخَالِطُهُ شُبْهَةٌ مِنْ دَنَسِ الفِسْقِ والفُجُورِ،وأَنْ يُذْهِبَ عَنْهُم السُّوءَ والفَحْشَاءَ.

وَاذْكُرنَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكُنَّ بأَنْ جَعَلَ بُيُوتَكُنَّ تُتْلَى فِيهَا آيَاتُ اللهِ،وَمَا يَنْزِلُ عَلَى الرَّسُولِ مِنْ أحكامِ الدِّينِ،واشْكُرْنَ رَبَّكُنَّ عَلَى جَميلِ فَضْلِهِ عَلَيْكُنَّ،فَإِنَّهُ كَانَ ذَا لُطْفٍ بِكُنَّ إِذْ جَعَلَكُنَّ فِي البُيُوتِ التِي تُتْلَى فِيها آياتُ اللهِ وَيُعْمَلُ فِيها بِسُنَّةِ رَسُولِهِ.وَكَان اللهُ خَبيراً بِكُنَّ إذ اخْتَارَكُنَّ أَزْوَاجاً لِرَسُولِهِ ﷺ.

وَفِي هذه الآيةِ يَذْكُرُ اللهُ تَعَالى الصِّفَاتِ التِي يَسْتَحِقُّ بِها عِبادَهُ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ،وَأَنْ يَمْحُو عَنْهُمْ زَلاَّتِهِمْ،وَيُثِيبَهُمْ بالنّعِيمِ المُقِيمِ،وَهَذِهِ الأَوْصَافُ هِيَ:

- إِسْلاَمُ الظَّاهِرِ بالانْقِيَادِ لأَحْكَامِ الدِّينِ بالقَوْلِ وَالعَمَلِ.
- إِسْلاَمُ البَاطِ (الإِيمَانُ) بالتَّصْدِيقِ التَّامِ والإِذْعَانِ لِمَا فَرَضَ الدِّينُ مِنْ أَحْكَامٍ.
- القُنُوتُ وَهُوَ دَوَامُ العَمَلِ فِي هُدُوءٍ وَطُمَأْنِينَةٍ.
- الصِّدْقُ فِي الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ وَهُوَ عَلاَمَةٌ عَلَى الإِيمانِ كَمَا أَنَّ الكَذِبَ عَلاَمَةٌ عَلَى النِّفَاقِ.
- الصَّبْرُ عَلَى المَكَارِهِ وَتَحَمُّلِ المَشَاقِّ فِي أَدَاءِ العِبَادَاتِ وَتَرْكِ الشَّهَوَاتِ.

- الخُشُوعُ والتَّواضُعُ لله تَعَالى بالقَلْبِ والجَوَارِحِ،ابْتِغَاءَ ثَوَابِ اللهِ،وَخَوْفَ عِقَابِهِ.
- التَّصَدُّقُ بالمَالِ والإِحْسَانُ إلى المُحْتَاجِينَ الذينَ لاَ كَسْبَ لَهُمْ.
- الصَّوْمُ فإِنَّهُ مُعِينٌ عَلَى كَسْرِ حِدَّةِ الشَّهْوَةِ.[2103]

وقال تعالى :{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الممتحنة:12] }

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ النِّسَاءُ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ باللهِ شَيئاً،مِنْ صَنَمٍ أَوْ حَجَرٍ،وَلاَ يَسْرِقْنَ مِنْ مَالِ النَّاسِ شَيئاً،وَلاَ يَزْنِينَ،وَلاَ يَئِدْنَ بَنَاتِهِنَّ،كَمَا يَفْعَلْنَ فِي الجَاهِلِيَّةِ،وَلاَ يُلْصِقْنَ أولاَدَ الأَجَانِب بأزواجِهِنَّ (بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَه) وَيدَّعِين بأَنَّهُنَّ حَمَلْنَ بِهِمُ فِي بُطونِهِنّ (بين أيديهن) وولدَهُم من أرحَامهن (بين أرجُلِهِنَّ) وَلاَ يُخَالِفْنَكَ فِيمَا أَمَرْتَهُنَّ به،أو فِيمَا تَنْهَاهُنَّ عَنْهُ مِنْ مَعْرُوفٍ،كَالامْتِنَاعِ عَنِ النَّوْحِ وَشَقِّ الجُيُوبِ،وَعَلَى أَلاَّ تَخْلُو المَرأَةُ بغَيْرِ ذي رَحِمٍ مُحْرَمٍ،فَبَايِعْهُنَّ عَلَى ذَلِكَ،وَالتَزِمْ لَهُنَّ بالوَفَاءِ بالثَّوَابِ إِنْ هُنَّ وَفَيْنَ فِيمَا بَايَعْنَكَ عَلَيه،وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ عَمَّا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِنَّ،إنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ.[2104]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ مَرْوَانَ،وَالمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُخْبِرَانِ،عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:لَمَّا كَاتَبَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو يَوْمَئِذٍ كَانَ فِيمَا اشْتَرَطَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا،وَخَلَّيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ،فَكَرِهَ المُؤْمِنُونَ ذَلِكَ وَامْتَعَضُوا مِنْهُ وَأَبَى سُهَيْلٌ إِلَّا ذَلِكَ،«فَكَاتَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ،فَرَدَّ يَوْمَئِذٍ أَبَا جَنْدَلٍ إِلَى أَبِيهِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو،وَلَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ المُدَّةِ،وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا»،وَجَاءَتِ المُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ،وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ،وَهِيَ عَاتِقٌ،فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ،فَلَمْ يُرْجِعْهَا إِلَيْهِمْ،لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ:{إِذَا جَاءَكُمُ المُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ،فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ} [الممتحنة:10] إِلَى قَوْلِهِ:{وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ}

[2103] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:3446،بترقيم الشاملة آليا)

[2104] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:5040،بترقيم الشاملة آليا)

[الممتحنة:١٠]،قَالَ عُرْوَةُ:فَأَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِهَذِهِ الآيَةِ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} [الممتحنة:١٠] إِلَى {غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:١٧٣]،قَالَ عُرْوَةُ:قَالَتْ عَائِشَةُ:فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ،قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قَدْ بَايَعْتُكِ» كَلاَمًا يُكَلِّمُهَا بِهِ،وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ،وَمَا بَايَعَهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ" رواه البخاري[٢١٠٥]

[٢١٠٥] - صحيح البخاري (٣/ ١٨٨)(٢٧١١)

[ش (امتعضوا) شق عليهم وغضبوا منه.(عاتق) الأنثى الشابة أو ما أدركت أي بلغت.(يمتحنهن) يختبرهن بالحلف أنهن خرجن مهاجرات إلى الله ورسوله وبالعلامات الدالة على صدقهن.(بهذه الآية) الممتحنة ١٠ - ١٢.(بهذا الشرط) المذكور في قوله تعالى {يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف}./ الممتحنة ١٢ /.(ببهتان) أي لا يأتين بولد ليس من أزواجهن فينسبنه إليهم]

قَالَتْ فِي بَيْعَةِ النِّسَاءِ) أَيْ:فِي سَبَبِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺكَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ) أَيِ:الْمُؤْمِنَاتِ كُلَّهُنَّ،أَوِ الْوَارِدَاتِ مِنْ مَكَّةَ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَهُوَ الظَّاهِرُ لِقَوْلِهِ:يَمْتَحِنُهُنَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ،فَإِنَّهُ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} [الممتحنة:١٠] الْآيَةَ.قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ،خَرَجَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺيَوْمَئِذٍ وَهِيَ عَاتِقٌ،فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺأَنْ يُرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ،فَلَمْ يُرْجِعْهَا إِلَيْهِمْ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ:{إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ} [الممتحنة:١٠] إِلَى قَوْلِهِ:{وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [الممتحنة:١٠] قَالَ عُرْوَةُ:فَأَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَكَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ:{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ} [الممتحنة:١٢] أَيْ:إِلَى آخِرِ الْآيَةِ وَهِيَ:{عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة:١٢] (فَمَنْ أَقَرَّتْ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ) أَيْ:قَبِلَتْهُ بِمَجْمُوعِهِ وَقَرَّرَتْهُ وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ (قَالَ لَهَا:(قَدْ بَايَعْتُكِ) بِكَسْرِ الْكَافِ (كَلَامًا):نُصِبَ عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ قَالَ مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ (يُكَلِّمُهَا بِهِ)،اسْتِئْنَافٌ،أَوْ صِفَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ التَّجَوُّزِ أَيْ:يُكَلِّمُ النَّبِيُّ ﷺالْمَرْأَةَ الْمُقِرَّةَ بِذَلِكَ الْكَلَامِ وَيَعْقِدُهَا بِهِ،وَقِيلَ كَلَامًا نَصَبَهُ عَلَى الْحَالِ مِنْ مَفْعُولِ قَالَ:وَالْحَاصِلُ لِأَنَّهَا تُرِيدُ أَنَّ مُبَايَعَتَهُ ﷺالنِّسَاءَ كَانَتْ بِالْكَلَامِ لَهُنَّ لَا بِوَضْعِ الْيَدِ فِي أَيْدِيهِنَّ وَلِذَا قَالَتْ:(وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ) .احْتِرَازٌ مِنْ إِحْدَى نِسَائِهِ وَمَحَارِمِهِ فِي غَيْرِ حَالِ الْمُبَايَعَةِ.وَزَادَ الْبَغَوِيُّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْهَا مَا بَايَعَهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمُعْتَمِرًا حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْحُدَيْبِيَةِ صَالَحَهُ مُشْرِكُو مَكَّةَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَتَاهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَنْ أَتَى أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:لَنْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ،وَكَتَبُوا عَلَيْهِ كِتَابًا،وَخَتَمُوا عَلَيْهِ فَجَاءَتْ سُبَيْعَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةُ مُسْلِمَةً بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْكِتَابِ،فَأَقْبَلَ زَوْجُهَا مُسَافِرٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ،وَقَالَ مُقَاتِلٌ:هُوَ صَيْفِيُّ بْنُ الْوَاهِبِ فِي طَلَبِهَا،وَكَانَ كَافِرًا فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ ارْدُدْ عَلَيَّ امْرَأَتِي فَإِنَّكَ قَدْ شَرَطْتَ أَنْ تَرُدَّ عَلَيْنَا مَنْ أَتَاكَ مِنَّا،وَهَذِهِ طِينَةُ الْكِتَابِ لَمْ تَجِفَّ بَعْدُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ} [الممتحنة:١٠] أَيْ:مِنْ دَارِ السَّلَامِ (فَامْتَحِنُوهُنَّ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:امْتِحَانُهَا أَنْ تُسْتَحْلَفَ مَا خَرَجَتْ لِبُغْضِ زَوْجِهَا،وَلَا عِشْقًا لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا رَغْبَةً بِأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ،وَلَا لِحَدَثٍ أَحْدَثَتْ وَلَا الْتِمَاسَ الدُّنْيَا،وَلَا خَرَجَتْ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَرَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ،فَاسْتَحْلَفَهَا رَسُولُ

وعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ،أَنَّهَا قَالَتْ:أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ يُبَايِعْنَهُ،فَقُلْنَ:نُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا،وَلَا نَسْرِقَ،وَلَا نَزْنِيَ،وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا،وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا،وَلَا نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ»،قَالَتْ:فَقُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا،هَلُمَّ نُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ،إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ،أَوْ مِثْلُ قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ»[٢١٠٦]

وعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ التَّيْمِيَّةِ،قَالَتْ:بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَقُلْنَا لَهُ:جِئْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعْكَ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا،وَلَا نَسْرِقَ،وَلَا نَزْنِيَ،وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا،وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا،وَلَا نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ» فَقُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا.فَقُلْنَا:بَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.فَقَالَ:«اذْهَبْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ،إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ» .وَمَا صَافَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَّا أَحَدًا.[٢١٠٧]

وعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ التَّيْمِيَّةِ،قَالَتْ:أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِنُبَايِعَهُ،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،جِئْنَا لِنُبَايِعَكَ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا،وَلَا نَسْرِقَ،وَلَا نَزْنِيَ،وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا،وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا،وَلَا نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ.قَالَتْ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ " قَالَتْ:قُلْنَا:اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا،بَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ.قَالَ:" اذْهَبْنَ،فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ،إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ،كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ " قَالَتْ:" وَلَمْ يُصَافِحْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَّا امْرَأَةً " رواه أحمد[٢١٠٨]

اللَّهِ ﷺعَلَى ذَلِكَ،فَحَلَفَتْ فَلَمْ يَرُدَّهَا،وَأَعْطَى زَوْجَهَا مَهْرَهَا وَمَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا،فَتَزَوَّجَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَذَا فِي الْمَعَالِمِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٦٢٢)

[٢١٠٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤١٧)(٤٥٥٣) صحيح

[٢١٠٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٥٩٩) صحيح

[٢١٠٨] - مسند أحمد ط الرسالة (٤٤/ ٥٥٧)(٢٧٠٠٧) صحيح

(قَالَتْ:بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺفِي نِسْوَةٍ) أَيْ:مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ النِّسَاءِ،وَمَا قَيَّدْنَا الْمُبَايَعَةَ بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ (فَقَالَ لَنَا:فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ):مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ أَيْ:أُبَايِعُكُنَّ فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ كَأَنَّهُ ﷺأَشْفَقَ عَلَيْهِنَّ حَيْثُ قَيَّدَ الْمُبَايَعَةَ فِي التَّكَالِيفِ بِالِاسْتِطَاعَةِ.ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ.(قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنَّا بِأَنْفُسِنَا):ذِكْرُ اللَّهِ لِلتَّزْيِينِ،أَوْ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ رَحْمَةَ رَسُولِهِ أَثَرٌ مِنْ أَثَرِ رَحْمَتِهِ،أَوْ إِيمَاءٌ

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:جَاءَتْ أُمَيْمَةُ بِنْتُ رُقَيْقَةَ،إِلَى رَسُولِ الله ﷺ تُبَايِعُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ،فَقَالَ:" أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللهِ شَيْئًا،وَلَا تَسْرِقِي وَلَا تَزْنِي،وَلَا تَقْتُلِي وَلَدَكِ،وَلَا تَأْتِي بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ يَدَيْكِ وَرِجْلَيْكِ،وَلَا تَنُوحِي،وَلَا تَبَرَّجِي تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى " رواه أحمد[2109].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«كُلُّكُمْ رَاعٍ» وَزَادَ اللَّيْثُ،قَالَ يُونُسُ:كَتَبَ رُزَيْقُ بْنُ حُكَيْمٍ إِلَى ابْنِ شِهَابٍ،وَأَنَا مَعَهُ يَوْمَئِذٍ بِوَادِي القُرَى:هَلْ تَرَى أَنْ أُجَمِّعَ وَرُزَيْقٌ عَامِلٌ عَلَى أَرْضٍ يَعْمَلُهَا،وَفِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ السُّودَانِ وَغَيْرِهِمْ؟ - وَرُزَيْقٌ يَوْمَئِذٍ عَلَى أَيْلَةَ - فَكَتَبَ ابْنُ شِهَابٍ،وَأَنَا أَسْمَعُ:يَأْمُرُهُ أَنْ يُجَمِّعَ،يُخْبِرُهُ أَنَّ سَالِمًا حَدَّثَهُ:أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«كُلُّكُمْ رَاعٍ،وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا،وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» قَالَ:- وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[2110].

إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن:١٦] قَالَ الطِّيبِيُّ:(بِنَا) مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ أَرْحَمُ وَبِأَنْفُسِنَا تَأْكِيدٌ لَهُ اهـ.وَالْأَظْهَرُ أَنَّ بِأَنْفُسِنَا مُتَعَلِّقٌ بِالرَّحْمَةِ الْمُقَدَّرَةِ؛إِذِ التَّقْدِيرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ رَحْمَتِنَا بِأَنْفُسِنَا.(قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايِعْنَا) أَيْ:بِالْفِعْلِ كَمَا بَايَعْتَنَا بِالْقَوْلِ قِيَاسًا عَلَى مُبَايَعَةِ الرِّجَالِ حَيْثُ كَانَتْ بِاللِّسَانِ وَالْيَدِ جَمِيعًا وَلِذَا قَالَ الرَّاوِي (تَعْنِي) أَيْ:تُرِيدُ أُمَيْمَةُ بِقَوْلِهَا بَايِعْنَا (صَافِحْنَا) أَيْ:ضَعْ يَدَكَ فِي يَدِ كُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنَّا (قَالَ:إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ):مُجْمَلُ الْكَلَامِ؛لِأَنَّهَا طَلَبَتِ الْمُصَافَحَةَ بِالْيَدِ،فَأَجَابَ بِأَنَّ الْقَوْلَ كَافٍ،وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْمُصَافَحَةِ،وَلَا إِلَى تَخْصِيصِ كُلِّ امْرَأَةٍ بِالْمُبَايَعَةِ الْقَوْلِيَّةِ،وَفِي قَوْلِهِ مِائَةِ امْرَأَةٍ مُبَالَغَةٌ لَا تَخْفَى،وَهَذَا خُلَاصَةُ كَلَامِ الطِّيبِيِّ حَيْثُ أَطَالَ وَقَالَ.فَإِنْ قُلْتَ:كَيْفَ يُطَابِقُ قَوْلُهُ:إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ جَوَابًا عَنْ قَوْلِهَا صَافِحْنَا؛لِأَنَّهَا طَلَبَتِ الْمُصَافَحَةَ بِالْيَدِ،وَأَجَابَهَا بِالْقَوْلِ وَطَلَبَتِ الْمُصَافَحَةَ لِسَائِرِهِنَّ فَقَالَ:قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ.قُلْتُ:قَوْلُهُ إِنَّمَا قَوْلِي رَدٌّ لِقَوْلِهَا صَافِحْنَا بِوَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا:أَنَّ الْمُبَايَعَةَ مَقْصُورَةٌ عَلَى الْقَوْلِ دُونَ الْفِعْلِ وَثَانِيهِمَا أَنَّ قَوْلِي لَكَ هَذَا بِمَحْضَرٍ مِنَ النِّسَاءِ كَقَوْلِي لِسَائِرِهِنَّ.وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٦٢٦)

[2109] - مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٤٣٧)(٦٨٥٠) صحيح

[2110] - صحيح البخاري (٢/ ٥)(٨٩٣)

[ش (بوادي القرى) مدينة من مدن الحجاز.(أجمع) أصلي بمن معي الجمعة.(يعملها) يزرعها.(على أيلة) أمير عليها وهي قلعة كانت وقد خربت.(الإمام) الحاكم الأعلى أو من ينوب منابه.(راع) يقوم بتدبير من تحت يده وسياستهم في الدنيا.(مسؤول عن رعيته) مطالب ومحاسب عن قيامه بشؤون من تحت رعايته وفي كنفه في الدنيا ويوم القيامة.(أهله) زوجته وأولاده ومن تحت رعايته وتجب عليه نفقتهم]

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ،أَنَّ الشِّفَاءَ بِنْتَ عَبْد اللهِ،قَالَتْ:دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا قَاعِدَةٌ عِنْدَ حَفْصَةَ،قَالَ:«أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِهَا الْكِتَابَةَ؟»[2111]

والنملة قروح تخرج في الجنب وغيره.

قَال الشَّيْخُ مَجْدُ الدِّينِ بْنُ تَيْمِيَّةَ فِي الْمُنْتَقَى :وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَعَلُّمِ النِّسَاءِ الْكِتَابَةَ .

وَقَدْ سَرَدَ ابْنُ مُفْلِحٍ فِي الْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ الأَحَادِيثَ الَّتِي يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهَا النَّهْيُ عَنْ تَعْلِيمِ النِّسَاءِ الْكِتَابَةَ،إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ ضَعَّفَ هَذِهِ الأَحَادِيثَ،أَوْ أَعَلَّهَا بِالْوَضْعِ .[2112]

التعليم وارتباطه بالتنمية الاقتصادية والصناعة والإنتاج:

إن العلوم الدنيوية النافعة:كالطب والزراعة والصناعة وغيرها هي من فروض الكفاية،والقاعدة الشرعية " أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " وللوسائل أحكام المقاصد،فيجب توفير وسائل التعليم،بإعداد المدرسين،وإنشاء المدارس،والجامعات،ومراكز البحوث والدراسات،وغيرها من الوسائل التي تساعد على تعلم هذه العلوم.

وقد تقدم أن السياسة الواجبة على الولاة هي إصلاح أمور الناس في أمر دينهم،الذي به سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة،وإصلاح أمر دنياهم،وهذا الإصلاح في أمر الدين والدنيا يقتضي تعلم هذه العلوم الدنيوية النافعة،لكي تكتفي الحكومة بطاقاتها،وقدراتها،وخبرائها،وإنتاجها فلا تحتاج إلى الدول الأخرى،وتبني دولة قوية زاخرة بالإبداع والتقدم العلمي والصناعي والتقني.

وينبغي ألا يقتصر التعليم في جميع مراحله أو أكثرها على الدراسة النظرية فقط،بل لا بد من تنمية المهارات،والقدرات العلمية،والصناعية،والمهنية،للطلاب بتدريبهم على الأعمال المهنية،والصناعية،وتعليمهم التقنيات الحديثة كالحاسوب وغيره،كما ينبغي استخدام الوسائل والمناهج العلمية العملية النافعة كالمنهج التجريبي لتنمية قدرات الطلاب على الإبداع والاختراع في مجال الصناعة والطب وغيرها.

[2111] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٧٥)(٧٥٠١) صحيح

[2112] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٣/ ١٣) والآداب الشرعية لابن مفلح ٣ / ٣٠٩،٣١٠

كما أن على الحكومة الإسلامية أن تشجع على دراسة هذه العلوم والتخصص فيها والمثـــابرة والاجتهاد في تحصيلها،مع تذكير المتخصصين بإخلاص النية لله تعالى في دراستهم،وأن الواجب على كل مسلم أن يقدم عليها بنية صالحة،وأن يحتسب قيامه بفرض من فروض الكفاية.



المبحث التاسع عشر

دعوة الناس ورحمتهم والرفق بهم

على ولاة الأمر أن يتخلقوا بالرفق والرحمة لعامة الرعية،فإن الرفق في دعوة الناس وتعليمهم وفي سياستهم،وتجنب العسف والعنف في معاملتهم ودعوتهم من الواجبات،التي جاءت النصوص الشرعية بالأمر بها والترغيب فيها،قال تعالى:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } [آل عمران:١٥٩]

عَنْ قَتَادَةَ،فِي قَوْلِهِ:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} [آل عمران:١٥٩] يَقُولُ:«فَبِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩] فَإِنَّهُ يَعْنِي بِالْفَظِّ الْجَافِيَ،وَبِالْغَلِيظِ الْقَلْبِ الْقَاسِيَ الْقَلْبِ غَيْرَ ذِي رَحْمَةٍ وَلَا رَأْفَةٍ،وَكَذَلِكَ صِفَتُهُ ﷺ،كَمَا وَصَفَهُ اللَّهُ:{بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}،فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ:فَبِرَحْمَةِ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ وَرَأْفَتِهِ بِكَ،وَبِمَنْ آمَنَ بِكَ مِنْ أَصْحَابِكَ،لِنْتَ لَهُمْ لِتُبَّاعِكَ وَأَصْحَابِكَ فَسَهُلَتْ لَهُمْ خَلَائِقُكَ،وَحَسُنَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُكَ،حَتَّى احْتَمَلْتَ أَذَى مَنْ نَالَكَ مِنْهُمْ أَذَاهُ،وَعَفَوْتَ عَنْ ذِي الْجُرْمِ مِنْهُمْ جُرْمَهُ،وَأَغْضَيْتَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ لَوْ جَفَوْتَ بِهِ وَأَغْلَظْتَ عَلَيْهِ لَتَرَكَكَ فَفَارَقَكَ،وَلَمْ يَتْبَعْكَ،وَلَا مَا بُعِثْتَ بِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ،وَلَكِنَّ اللَّهَ رَحِمَهُمْ وَرَحِمَكَ مَعَهُمْ،فَبِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ

وعَنْ قَتَادَةَ:{وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا [ص:١٨٧] غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩] " إِي وَاللَّهِ،لَطَهَّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْفَظَاظَةِ وَالْغِلْظَةِ،وَجَعَلَهُ قَرِيبًا رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفًا.وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَعْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ:«لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخُوبٍ فِي الْأَسْوَاقِ،وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا،وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»

عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ،فِي قَوْلِهِ:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩] قَالَ:«ذَكَرَ لِينَهُ لَهُمْ،وَصَبْرَهُ عَلَيْهِمْ لِضَعْفِهِمْ،وَقِلَّةِ صَبْرِهِمْ عَلَى

الْغِلْظَةِ لَوْ كَانَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ مَا خَالَفُوا فِيهِ مِمَّا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ نَبِيِّهِمْ» وَأَمَّا قَوْلُهُ: {لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩] فَإِنَّهُ يَعْنِي:لَتَفَرَّقُوا عَنْكَ"[٢١١٣]
وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:هَذَا خُلُقُ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعَثَهُ اللَّهُ بِه[٢١١٤].

وقال الجصاص :"قَوْله تَعَالَى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ اسْتِعْمَالِ اللِّينِ وَالرِّفْقِ وَتَرْكِ الْفَظَاظَةِ وَالْغِلْظَةِ فِي الدُّعَاءِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥] لِمُوسَى وَهَارُونَ: {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه:٤٤]"[٢١١٥].

وقال العلامة السعدي رحمه الله:" أي:برحمة الله لك ولأصحابك،منَّ الله عليك أن ألنت (١) لهم جانبك،وخفضت لهم جناحك،وترققت عليهم،وحسنت لهم خلقك،فاجتمعوا عليك وأحبوك،وامتثلوا أمرك. {ولو كنت فظا} أي:سيئ الخلق {غليظ القلب} أي:قاسيه، {لانفضوا من حولك} لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ.فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين،تجذب الناس إلى دين الله،وترغبهم فيه،مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص،والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين،وتبغضهم إليه،مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص،فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،فكيف بغيره؟!

أليس من أوجب الواجبات،وأهم المهمات،الاقتداء بأخلاقه الكريمة،ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ،من اللين وحسن الخلق والتأليف،امتثالا لأمر الله،وجذبا لعباد الله لدين الله."[٢١١٦].

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ،قَالَ:لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قُلْتُ:أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ:" أَجَلْ،وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب:٤٥]،وَحِرْزًا

[٢١١٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ١٨٦) صحيح
[٢١١٤] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ١٤٨)
[٢١١٥] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٥١)
[٢١١٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٤)

لِلْأُمِّيِّينَ،أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي،سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ،وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ،وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ،وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ،وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ،بِأَنْ يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا،وَآذَانًا صُمًّا،وَقُلُوبًا غُلْفًا "،تَابَعَهُ عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ،عَنْ هِلاَلٍ،وَقَالَ سَعِيدٌ:عَنْ هِلاَلٍ،عَنْ عَطَاءٍ،عَنْ ابْنِ سَلاَمٍ غُلْفٌ:كُلُّ شَيْءٍ فِي غِلاَفٍ،سَيْفٌ أَغْلَفُ،وَقَوْسٌ غَلْفَاءُ،وَرَجُلٌ أَغْلَفُ:إِذَا لَمْ يَكُنْ مَخْتُونًا" رواه البخاري[٢١١٧].

(وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ) :هُوَ مِنْ أَجِلَّاءِ التَّابِعِينَ (قَالَ:لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قُلْتُ) :اسْتِئْنَافُ بَيَانٍ (أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ) أَيْ:عَنْ نَعْتِهِ (فِي التَّوْرَاةِ،قَالَ:أَجَلْ) :بِفَتْحَتَيْنِ وَسُكُونِ اللَّامِ الْمُخَفَّفَةِ قَالَ الطِّيبِيُّ:هُوَ حَرْفٌ يُصَدَّقُ بِهَا الْخَبَرُ خَاصَّةً،يُقَالُ لِمَنْ قَالَ:قَامَ زَيْدٌ أَجَلْ،وَزَعَمَ بَعْضٌ جَوَازُ وُقُوعِهِ بَعْدَ الِاسْتِفْهَامِ،وَفِي الْحَدِيثِ جَاءَ جَوَابًا لِلْأَمْرِ عَلَى تَأْوِيلِ قَرَأْتُ التَّوْرَاةَ،هَلْ وَجَدَ صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِيهَا،فَأَخْبِرْنِي.قَالَ:أَجَلْ أَيْ:نَعَمْ أُخْبِرُكَ.(وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي (التَّوْرَاةِ)،بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ) أَيْ:بِالْمَعْنَى كَقَوْلِهِ:{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا} [الأحزاب:٤٥] :حَالٌ مُقَدَّرَةٌ مِنَ الْكَافِ أَوْ مِنَ الْفَاعِلِ أَوْ مُقَدَّرًا أَوْ مُقَدِّرِينَ شَهَادَتَكَ عَلَى مَنْ بُعِثْتَ إِلَيْهِمْ،وَعَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ أَيْ:مَقْبُولًا قَوْلُكَ عِنْدَ اللَّهِ وَعَلَيْهِمْ،كَمَا يُقْبَلُ قَوْلُ الشَّاهِدِ الْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ،أَوْ شَاهِدًا لِأَفْعَالِ أُمَّتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،أَوْ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ فِي تَبْلِيغِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء:٤١] أَوْ مُزَكِّيًا لِأُمَّتِكَ فِي شَهَادَتِهِمْ عَلَى الْأُمَمِ بِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَيْهِمْ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة:١٤٣] وَقَدْ تَقَدَّمَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ،أَوْ مَعْنَاهُ شَاهِدًا لِقُدْرَتِنَا وَإِرَادَتِنَا فِي الْخَلْقِ،كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ وَمُبَشِّرًا أَيْ:لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَثُوبَةِ وَنَذِيرًا:(" أَيْ:مُنْذِرًا وَمُخَوِّفًا لِلْكَافِرِينَ بِالْعُقُوبَةِ وَحِرْزًا:بِكَسْرِ الْحَاءِ وَسُكُونِ الرَّاءِ لِلْأُمِّيِّينَ،قَالَ الْقَاضِي أَيْ:حِصْنًا

[٢١١٧] – صحيح البخاري (٣/ ٦٦)(٢١٢٥)

[ش (أجل) حرف جواب مثل نعم.(شاهدا) لأمتك بتصديقهم وعلى الكافرين بتكذيبهم.(مبشرا) للمؤمنين.(نذيرا) للكافرين / الأحزاب ٤٥ /.(حرزا للأميين) حصنا للعرب.(المتوكل) المعتمد على الله تعالى.(بفظ) سيء الخلق.(غليظ) شديد في القول.(سخاب) يرفع صوته على الناس.(يقيم الملة العوجاء) ينفي الشرك ويثبت التوحيد.(عميا) لا تبصر الحق.(صما) لا تسمع دعوة الخير.(غلفا) غطتها ظلمة الشرك]

وَمَوْئِلًا لِلْعَرَبِ،يَتَحَصَّنُونَ بِهِ مِنْ غَوَائِلِ الشَّيْطَانِ أَوْ عَنْ سَطْوَةِ الْعَجَمِ وَتَغَلُّبِهِمْ،وَإِنَّمَا سُمُّوا أُمِّيِّينَ لِأَنَّ أَغْلَبَهُمْ لَا يَقْرَءُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ اه.

أَوْ لِأَنَّهُمْ يُنْسَبُونَ إِلَى أُمِّ الْقُرَى،وَهِيَ مَكَّةُ،أَوْ لِكَوْنِ نَبِيِّهِمْ أُمِّيًّا،وَلَعَلَّ هَذَا الْوَجْهَ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَوْجَهُ لِيَشْمَلَ جَمِيعَ الْأُمَّةِ،وَلَا يَبْقَى مُتَمَسَّكٌ لِلْيَهُودِ عَلَى مَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً،فَإِنَّهُ بِذِكْرِهِ لَا يَنْفِي مَا عَدَاهُ،لَا سِيَّمَا وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [سبأ:٢٨] وَلِهَذَا قَالَ - ﷺ:«لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي» قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْحِرْزِ حِفْظَ قَوْمِهِ مِنْ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ،أَوِ الْحِفْظَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا دَامَ فِيهِمْ.قَالَ تَعَالَى:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} [الأنفال:٣٣] (أَنْتَ عَبْدِي) أَيِ:الْخَاصُّ كَمَا وَصَفَهُ بِالْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ:{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى} [التوبة:٣٣] فَالْإِضَافَةُ لِلْعَهْدِ كَمَا قَالَ:أَكْرَمَ زَيْدٌ عَبْدَهُ إِذَا كَانَ لَهُ عَبِيدٌ مُتَعَدِّدَةٌ،مَعَ أَنَّهُ إِذَا أُطْلِقَ اسْمُ الْجِنْسِ،فَالْمُرَادُ بِهِ الْفَرْدُ الْأَكْمَلُ فَتَأَمَّلْ.(سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ)،أَيْ:خَصَصْتُكَ بِهَذَا الْوَصْفِ لِكَمَالِ تَوَكُّلِكَ عَلَيَّ وَتَفْوِيضِكَ إِلَيَّ وَتَسْلِيمِكَ لَدَيَّ عَمَلًا بِمَا فِي الْقُرْآنِ،وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ،وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ،وَكَذَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:{لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ} [طه:١٣٢]،{وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه:١٣١]،{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:٢] دَلَالَةٌ عَلَيْهِ وَإِشَارَةٌ إِلَيْهِ (لَيْسَ بِفَظٍّ) :الْتِفَاتٌ فِيهِ تَضَمُّنٌ لِلْفَنَنِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ آيَةً أُخْرَى فِي التَّوْرَاةِ لِبَيَانِ صِفَتِهِ،وَأَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمُتَوَكِّلِ أَوْ مِنَ الْكَافِ فِي سَمَّيْتُكَ،فَعَلَى هَذَا فِيهِ الْتِفَاتٌ اه.

وَالْمَعْنَى لَيْسَ بِسَيِّئِ الْخُلُقِ أَوِ الْقَوْلِ،(وَلَا غَلِيظٍ) أَيْ:ضَخْمٍ كَرِيهِ الْخُلُقِ،أَوْ سَيِّئَ الْفِعْلِ،أَوْ غَلِيظِ الْقَلْبِ،وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ} [آل عمران:١٥٩] أَيْ:شَدِيدَهُ وَقَاسِيَهُ،فَيُنَاسِبُ حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ الْفَظُّ مَعْنَاهُ بَذَاذَةُ اللِّسَانِ،فَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى طَهَارَةِ عُضْوَيْهِ الْكَرِيمَيْنِ مِنْ دَنَسِ الطَّبْعِ وَوَسَخِ هَوَى النَّفْسِ الذَّمِيمَيْنِ،وَقَدْ قَالَ الْكَلْبِيُّ:فَظًّا فِي الْقَوْلِ،غَلِيظًا فِي الْفِعْلِ (وَلَا سَخَّابٍ) :بِتَشْدِيدِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ أَيْ:صَيَّاحٍ (فِي الْأَسْوَاقِ) .قَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ:هُوَ لَيِّنُ الْجَانِبِ شَرِيفُ النَّفْسِ،لَا يَرْفَعُ الصَّوْتَ عَلَى النَّاسِ لِسُوءِ خُلُقِهِ،وَلَا يُكْثِرُ الصِّيَاحَ عَلَيْهِمْ فِي السُّوقِ لِدَنَاءَتِهِ،بَلْ يُلِينُ جَانِبَهُ لَهُمْ وَيَرْفُقُ بِهِمْ.قُلْتُ:فَهُوَ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ

تَعَالَى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} [آل عمران:١٥٩] أَوْ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [النور:٣٧] (وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ) :لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى:٤٠] وَلِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون:٩٦] الْآيَةَ.وَإِطْلَاقُ السَّيِّئَةِ عَلَى جَزَائِهَا إِمَّا لِلْمُشَاكَلَةِ وَالْمُقَابَلَةِ،أَوْ لِكَوْنِهِ فِي صُورَةِ السَّيِّئَةِ،أَوْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى دَفْعِهَا بِالْحَسَنَةِ كَأَنَّهَا سَيِّئَةٌ،وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ:حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ.(وَلَكِنْ يَعْفُو) أَيْ:عَنِ الْمُسِيءِ (وَيَغْفِرُ) أَيْ:يَسْتُرُ،أَوْ يَدْعُو لَهُ بِالْمَغْفِرَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ} [المائدة:١٣]،وَقَوْلُهُ: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [آل عمران:١٥٩] وَهَذَا أَقْرَبُ مَرَاتِبِ مُعَامَلَتِهِ مَعَ الْمُسِيئِينَ،وَقَدْ كَانَ يُقَابِلُهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٣٤] (وَلَنْ يَقْبِضَهُ) :بِالْيَاءِ التَّحْتِيَّةِ فِي الْأُصُولِ الْمُعْتَمَدَةِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالنُّونِ،وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ مَا فِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ:وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ بِزِيَادَةِ لَفْظِ الْجَلَالَةِ،وَكَذَا الْحُكْمُ فِي الْأَفْعَالِ الْآتِيَةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ وَكَذَا الْتِفَاتٌ فِي قَوْلِهِ:وَلَنْ يَقْبِضَهُ يَاءُ الْمُثَنَّاةِ مِنْ تَحْتٍ عَلَى رِوَايَةِ الْمِشْكَاةِ،وَيُعَضِّدُهُ مَا فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ (حَتَّى يُقِيمَ بِهِ) أَيْ:بِوَاسِطَتِهِ (الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ) :كَمَا فِي التَّنْزِيلِ ذَمًّا لِلْكُفَّارِ،وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا.وَقَالَ فِي مَدْحِ دِينِ الْإِسْلَامِ. {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ - وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى:٣٦ - ٥٢] قَالَ الْقَاضِي:يُرِيدُ بِهِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهَا قَدِ اعْوَجَّتْ فِي أَيَّامِ الْفَتْرَةِ فَزِيدَتْ وَنُقِصَتْ وَغُيِّرَتْ وَبُدِّلَتْ،وَمَا زَالَتْ حَتَّى قَامَ الرَّسُولُ - ﷺ - فَأَقَامَهَا أَقَامَهَا اللَّهُ وَأَدَامَهَا.(بِأَنْ يَقُولُوا:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) :مُتَعَلِّقٌ.

بِقَوْلِهِ يُقِيمَ،وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ إِقَامَةَ التَّوْحِيدِ فِي إِدَامَةِ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ التَّفْرِيدِ،وَقَالَ شَارِحٌ لِلْمَصَابِيحِ:قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:(وَلَنْ نَقْبِضَهُ) أَيْ:رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى نُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ أَيْ:نَجْعَلُهَا مُسْتَقِيمَةً،وَيُرِيدُ بِهَا مَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَتَدَيَّنُ بِهَا،وَتَزْعُمُ أَنَّهَا مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ،وَإِنَّمَا وَصَفَهَا بِالْعَوْجَاءِ وَسَمَّاهَا مِلَّةً عَلَى الِاتِّسَاعِ كَمَا يُقَالُ:الْكُفْرُ مِلَّةٌ.(وَيُفْتَحُ) :بِالْيَاءِ وَالنُّونِ عَلَى مَا سَبَقَ وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ:يُقِيمَ وَفِي نُسْخَةِ السَّيِّدِ بِالرَّفْعِ عَلَى الْقَطْعِ أَيْ:وَهُوَ يَفْتَحُ أَوْ نَحْنُ (بِهَا) أَيْ:بِوَاسِطَةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِهِ أَيْ:بِهَذَا النَّبِيِّ أَوْ بِهَذَا الْقَوْلِ

(أَعْيُنًا) :بِالنَّصْبِ عَلَى مَا فِي جَمِيعِ نُسَخِ الْمِشْكَاةِ (عُمْيًا) :بِضَمِّ أَوَّلِهِ جَمْـعُ أَعْمَـى.قَـالَ الطِّيبِيُّ:هَذَا رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ،وَالدَّارِمِيِّ،وَكِتَابِ الْحُمَيْدِيِّ،وَجَامِعِ الْأُصُولِ،وَفِي الْمَصَابِيحِ:يُفْتَحُ بِهَا أَعْيُنٌ عَمْيَاءَ عَلَى بِنَاءِ الْمَفْعُولِ،وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ رِوَايَةً وَدِرَايَةً:أَقُولُ:وَلَعَلَّ وَجْهَ أَصَحِّيَّةِ الدِّرَايَةِ هُوَ أَنَّ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ بِصِيغَةِ الْفَاعِلِ بِلَا خِلَافٍ عَلَـى اخْتِلَـافٍ أَنَّـهُ بِالْيَـاءِ أَوِ النُّـونِ،ثُمَّ قَوْلُهُ:(وَآذَانًا) :إِلَخْ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ،وَهُوَ بِمَدِّ الْهَمْزِ جَمْعُ الْأُذُنِ (صُمًّا) :جَمْعُ أَصَمَّ (وَقُلُوبًـا غُلْفًا) .بِضَمٍّ أَوَّلِهِ جَمْعُ أَغْلَفَ،وَهُوَ الَّذِي لَا يَفْهَمُ كَأَنَّ قَلْبَهُ فِي غِلَافٍ،وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ لِأَنَّهَا آلَاتٌ لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ.قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْكُفَّارِ:{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة:٧] وَقَالَ:{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [البقـرة:١٨] وَلَعَلَّهُ لَمْ يَذْكُرِ اللِّسَانَ فِي مَعْرِضِ هَذَا الْبَيَانِ،لِأَنَّهُ تُرْجُمَانُ الْجَنَانِ،وَإِنَاءٌ يَتَرَشَّحُ بِمَا فِيـهِ مِـنَ الْأَعْيَانِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:فَإِنْ قُلْتَ:قَوْلُهُ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ الْمَذْكُورَاتُ كُلُّهَا مُثْبَتَةٌ فِي الْقُرْآنِ.قُلْتُ:أَجَلْ أَمَّا قَوْلُهُ:" {يَاأَيُّهَـا النَّبِـيُّ إِنَّـا أَرْسَـلْنَاكَ} [الأحزاب:٤٥] " فَفِي الْأَحْزَابِ،وَقَوْلُهُ:حِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ،فَفِي الْجُمُعَةِ:{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} [الجمعـة:٢] وَقَوْلُـهُ:سَـمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ إِلَى قَوْلِهِ:وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِـيظَ الْقَلْـبِ} [آل عمران:١٥٩] " إِلَى قَوْلِهِ:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩] وَقَوْلُهُ:وَلَا سَـخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [الحجـر:٩٨] أَيْ:دُمْ عَلَى التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ،وَاجْعَلْ نَفْسَكَ مِنَ الَّذِينَ لَهُمْ مُسَاهَمَةٌ وَنَصِيبٌ وَافِرٌ فِي السُّـجُودِ،فَلَا تُخِلَّ بِهَا وَلَا تُشْغَلَ بِغَيْرِهَا،وَمِنْ ثَمَّ قَالَ - ﷺ:«مَا أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ مِنَ التَّـاجِرِينَ،وَلَكِنْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ» فَقَوْلُهُ:وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر:١٨] إِذْ هُوَ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ نَفْيُ سَخَّابٍ وَحْدَهُ وَنَفْيُهُمَـا مَعًـا،وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا.قُلْتُ:وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ:فِي الْأَسْوَاقِ قَيْدًا مُعْتَبَرًا فِي النَّفْيِ احْتِرَازًا مِـنْ رَفْـعِ صَوْتِهِ فِي الْقِرَاءَةِ وَالْخُطْبَةِ فِي الْمَسَاجِدِ قَالَ:وَقَوْلُهُ:وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّـيِّئَةِ السَّـيِّئَةَ فِـي قَوْلِـهِ تَعَالَى:{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [فصلت:٣٤] وَقَوْلُهُ:حَتَّى يُقِيمَ

بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [الأنبياء:١٠٨] أَيْ:مَا يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ التَّوْحِيدَ وَأَنْفِيَ الشِّرْكَ.

فَإِنْ قُلْتَ:كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِهِ:وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا،وَبَيْنَ قَوْلِهِ: {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ} [النمل:٨١] ؟ قُلْتُ:دَلَّ إِيلَاءُ الْفَاعِلِ الْمَعْنَوِيِّ حَرْفَ النَّفْيِ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْفَاعِلِ،وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى نَزَّلَهُ بِحِرْصِهِ عَلَى إِيمَانِ الْقَوْمِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَدَّعِي اسْتِقْلَالَهُ بِالْهِدَايَةِ فَقَالَ لَهُ:أَنْتَ لَسْتَ بِمُسْتَقِلٍّ فِيهِ،بَلْ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَيْسِيرِهِ اه.

وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ قَدْ يَنْسُبُ الْهِدَايَةَ إِلَيْهِ – ﷺ – نَظَرًا إِلَى كَوْنِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ،وَمِنْهُ وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي} [الشورى:٥٢] وَتُنْفَى عَنْهُ أُخْرَى نَظَرًا إِلَى أَنَّ حَقِيقَةَ الْهِدَايَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص:٥٦] .

فَيَكُونُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ} [الأنفال:١٧] أَيْ:مَا رَمَيْتَ خَلْقًا وَحَقِيقَةً إِذْ رَمَيْتَ كَسْبًا وَصُورَةً {وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال:١٧] حَيْثُ جَعَلَكَ قَادِرًا عَلَى الرَّمْيِ وَفَاعِلًا لَهُ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ نَفْيَ الْهِدَايَةِ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ هِدَايَتَهُ وَإِثْبَاتَهَا لَهُ فِيمَنْ أَرَادَهُ لِهَذَا،فَلَا مُنَافَاةَ،لِأَنَّهُ ﷺ مَظْهَرُ هِدَايَتِهِ،كَمَا أَنَّ إِبْلِيسَ مَظْهَرُ ضَلَالَتِهِ،وَإِلَّا فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَمَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ.[٢١١٨]

وقال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء:٢١٥]

يَأْمُرُ اللهُ تَعالى رسُولَه محمداً ﷺ،بأنْ يُلِينَ جَانِبَهُ لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبادِ اللهِ المُـؤمنينَ،وأَنْ يَتَرَفَّـقَ بِهِمْ،فَذَلِكَ أَدْعَى لإخْلاصِهِمْ للرّسُولِ،ولزِيَادَةِ مَحَبّتِه.[٢١١٩]

{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} بلين جانبك،ولطف خطابك لهم،وتوددك،وتحببك إليهم،وحسن خلقك والإحسان التام بهم،وقد فعل ﷺ،ذلك كما قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} فهذه أخلاقه ﷺ،أكمل الأخلاق،التي يحصل بها من المصالح العظيمة،ودفع المضار،ما هو مشاهد،فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله،ويدعي اتباعه

[٢١١٨] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٦٧٨)

[٢١١٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٠٢٩،بترقيم الشاملة آليا)

والاقتداء به،أن يكون كلا على المسلمين،شرس الأخلاق،شديد الشكيمة عليهم،غليظ القلب،فظ القول،فظيعه؟ [و] إن رأى منهم معصية،أو سوء أدب،هجرهم،ومقتهم،وأبغضهم،لا لين عنده،ولا أدب لديه،ولا توفيق،قد حصل من هذه المعاملة،من المفاسد،وتعطيل المصالح ما حصل،ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم،وقد رماه بالنفاق والمداهنة،وقد كمَّل نفسه ورفعها،وأعجب بعمله،فهل هذا إلا من جهله،وتزيين الشيطان وخدعه له،ولهذا قال الله لرسوله:{فَإِنْ عَصَوْكَ} في أمر من الأمور،فلا تتبرأ منهم،ولا تترك معاملتهم،بخفض الجناح،ولين الجانب،بل تبرأ من عملهم،فعظهم عليه وانصحهم،وابذل قدرتك في ردهم عنه،وتوبتهم منه،وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم،أن قوله {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ} للمؤمنين،يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم،ما داموا مؤمنين،فدفع هذا بهذا والله أعلم.[2120]

فهو اللين والتواضع والرفق في صورة حسية مجسمة.صورة خفض الجناح،كما يخفض الطائر جناحيه حين يهم بالهبوط.وكذلك كان رسول الله – ﷺ – مع المؤمنين طوال حياته.فقد كان خلقه القرآن.وكان هو الترجمة الحية الكاملة للقرآن الكريم.[2121]

هو أمر بما يقضى به العدل،فى التسوية بين عباد الله،فيما يترل عليهم من آيات الله،وفيما يفيضه رسول الله على الناس من بر ورحمة..

فالرسول– صلوات الله وسلامه عليه– وإن بدأ بدعوة أهله إليه،فلأن ذلك الذي يدعوهم إليه هو برّ وضعه الله بين يديه،والأهل والأقربون هم أولى الناس بهذا البرّ،بعد نفسه،كما في الحديث الشريف:«ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا،فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِكَ،فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ،فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا» [2122]ثم إنه إذ كان هذا الخير هو مما لا ينفد أبدا بالعطاء،والإنفاق،بل إنه يزيد على الإنفاق،ويحلو طعمه كلّما كثرت الأيدى الممدودة إليه– فقد كان على النبيّ أن يسع بهذا الخير الذي بين يديه الناس

[2120] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٩٩)

[2121] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٣٦١)

[2122] – صحيح مسلم (٢/ ٦٩٢)٤١ – (٩٩٧)

جميعا،قريبهم،وبعيدهم..وأنه إذا بدأ بدعوة أهله إلى هذا الخير،فإن ذلك لا يجعله يقف عند أهله،ولا أن ينتظر حتى يجتمع أهله على هذا الخير،بل إن عليه أن يحتفى بهؤلاء الضيوف الذي سبقوا أهله إلى هذه المائدة التي أعدّها،ودعا الناس إليها..

فمن سبق كان أولى الناس بأن يأخذ مكان الصدارة منها،وأن يكون بموضع لحفاوة والتكريم من ربّ الدعوة،وصاحب المائدة..سواء أكانوا من الأقربين،أو الأبعدين..! «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ.أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» .[2123]

وقال تعالى {} لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) } [التوبة:١٢٨،١٢٩]

يَمْتَنُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى المُؤْمِنِينَ بِأَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً مِنْ جِنْسِهِمْ وَلُغَتِهِمْ وَقَوْمِهِمْ (مِنْ أَنْفُسِهِمْ)،يَعِزُّ عَلَيْهِ وَيَصْعُبُ الشَّيْءُ الذي يَشُقُّ عَلَيْهِمْ،وَيَزِيدُهُمْ عَنَتاً،وَشَرِيعَتُهُ كُلُّهَا يُسْرٌ وَسَمَاحَةٌ وَكَمَالٌ،عَلَى مَنْ أَرَادَها يُسْراً وَسَمَاحَةً،وَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَصَلاحِ حَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ،وَهُوَ شَدِيدُ الرَأْفَةِ وَالرَحْمَةِ بِالمُؤْمِنِينَ.

فَإِنْ أَعْرَضُوا عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ العَظِيمَةِ المُطَهَّرَةِ،وَأَعْرَضُوا عَنِ الإِيمَانِ بِكَ،وَالاهْتِدَاءِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ،فَلاَ تَحْزَنْ لِذَلِكَ،وَقُلْ:يَكْفِينِي اللهُ،لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ،وَهُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيءٍ وَخَالِقُهُ،لأَنَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ،وَجَمِيعُ الخَلْقِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ تَحْتَ العَرْشِ،مَقْهُورُونَ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى،وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ،وَقَدَرُهُ نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيءٍ،وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.[2124]

وفى قوله تعالى:«لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» – إلفات للعرب إلى هذه النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليهم،وهو أنه– سبحانه– قد تخير رسوله إليهم منهم،وجعل مطلع الخير الذي يحمله،فيهم أولا..وهذا من شأنه أن يجعل منهم القوة التي تظاهر هذا الرسول،وتقف إلى

[2123] – التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ١٨٤)

[2124] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

جواره،وتستظل برايته لا أن يكونوا حربا عليه،وعداوة متربصة به..إنه منهم،وليس غريبا عليهم..إنه يعرفهم وهم يعرفونه،ويعرفون مولده فيهم،ونسبه القريب منهم..

فكيف يلقونه بالعداوة؟ ثم كيف يحاربونه ويكيدون له،وهو الذي يحمل إليهم الخير الخالص،ويسوق إليهم الهدى والنور؟ إنهم بهذا يظلمون أنفسهم،إذ يحرمونها هذه النعمة،التي ساقها الله إليهم،على تلك اليد الكريمة التي تخيرها الله منهم،وإنهم ليخرجون على سنن العروبة وأخلاق العرب،فى الانتصار لمن كان منهم،والتعصب له،والاستجابة لدعوة الداعي حين يدعوهم..حتى لقد كان شعارهم،بل دينهم الذي يدينون به:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما»،وحتى ليقول شاعرهم عنهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ...فى النائبات على ما قال برهانا

فكيف لا يستجيبون للرسول الكريم،وهو منهم،وقد جاءهم بالبرهان المبين والحجة الساطعة الدامغة؟

وفى قوله تعالى:«عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ..حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» إلفات للعرب أيضا إلى ما يحمل الرسول الكريم من مشاعر الحب لقومه،والحدب عليهم،بما لم يعرف إلا فى الآباء للأبناء،وحدبهم عليهم،حتى لقد حمل ذلك الحبّ وهذا الحدب النبيّ الكريم،على أن يبيت مؤرّقا مسهدا موجعا،لخلاف قومه عليه،وتفلّتهم من بين يديه،وهو يدعوهم إلى النجاة،وهم يلقون بأنفسهم فى مهاوى الهالكين،وحتى لقد نبه الله سبحانه النبيّ الكريم إلى أن ينظر لنفسه،وأن يتخفف من هذه الحسرات التي تملأ قلبه،وتملك مشاعره،فيقول له سبحانه:«لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (٣:الشعراء) ثم يقول له:«فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» (٨:فاطر) .

ومعنى قوله تعالى:«عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ» أي شاقّ عليه،ومؤلم له إعناتكم له،وخلافكم عليه..

ومنه قوله تعالى:«وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ» أي غلبنى وقهرنى..فالعزة- فى أصلها- الشدة والصلابة،وفى المثل:«من عزّ بزّ» أي من غلب وقهر كان له أن يبزّ الناس،ويستولى على ما فى أيديهم..

فـــالنبى ﷺ قـــد اشـــتد عليـــه وآلمـــه،إعنات قومـــه لـــه،وخلافهم عليـــه..والإعنـــات والعنت:البلاء،والمشقة،التي تضيق بها النفس،ولا تحتملها..ومنه قوله تعالى:«ذلِكَ لِمَنْ خَشِـــيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ» (٢٥:النساء) .

وفى قوله تعالى:«بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» إشارة إلى أن عطف النبي ورحمته بالنـــاس وحدبـــه عليهم،ليس لقومه وحدهم،وإنما هو نفس رحيمة كريمة تتّسع للناس للمؤمنين جميعا،من كـــل جنس،ومن كل لون..فهو رءوف رحيم بكل مؤمن،حريص على هداية كل نفس واستنقاذها من الضلال،والضياع! وفى وصف النبي الكريم بهاتين الصفتين الكـــريمتين مـــن صـــفات الله سبحانه:«رَؤُفٌ رَحِيمٌ» تكريم للرسول الكريم،ورفع لقدره عند ربه.

قوله تعالى:«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» - هو عزاء للنبى الكريم فيما لقى ويلقى من قومه،من كيد،وما يكابد من شقاقهم وخلافهم.وهو فيصل الأمر فيما بينه وبينهم..إنه يدعوهم إلى الله،ويبسط إليهم يده بالخير..وهذا هو المطلوب منه «ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ» فإن أجابوا،فقد أخذوا بحظهم مـــن هـــذا الخـــير المســـوق إليهم،وإن تولوا وأبوا،فالله غنى عنهم،ورسوله لائذ بجنـــاب لا يضام،ومســـتند إلى حمـــى لا ينال..إنه جناب الله،وحمى الله..وذلك حسبه،وكفايته..«حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»[٢١٢٥] .

و لم يقل:جاءكم رسول منكم.ولكن قال:«من أنفسكم» وهـــي أشـــد حساســـية وأعمـــق صلة،وأدل على نوع الوشيجة التي تربطهم به.فهو بضعة من أنفسهم،تتصل بهم صلة الـــنفس بالنفس،وهي أعمق وأحس.

«عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ» ..يشق عليه عنتكم ومشقتكم.

«حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» ..لا يلقي بكم في المهالك،ولا يدفع بكم إلى المهاوي فإذا هـــو كلفكـــم الجهاد،وركوب الصعاب،فما ذلك من هوان بكم عليه،ولا بقسوة في قلبه وغلظـــة،إنما هـــي الرحمة في صورة من صورها.الرحمة بكم من الـــذل والهوان،والرحمـــة بكـــم مـــن الـــذنب

[٢١٢٥] - التفسير القرآني للقرآن (٦/ ٩٢٥)

والخطيئة،والحرص عليكم أن يكون لكم شرف حمل الدعوة،وحظ رضوان الله،والجنة التي وعد المتقون.

ثم ينتقل الخطاب إلى الرسول - ﷺ - يعرفه طريقه حين يتولى عنه من يتولى،ويصله بالقوة التي تحميه وتكفيه:«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ:حَسْبِيَ اللَّهُ،لا إِلهَ إِلَّا هُوَ،عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ،وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».فإليه تنتهي القوة والملك والعظمة والجاه،وهو حسب من لاذ به وحسب من والاه.إنه ختام سورة القتال والجهاد:الارتكان إلى الله وحده،والاعتماد على الله وحده،واستمداد القوة من الله وحده ..«وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» ..[٢١٢٦]

وقال تعالى:{ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)} [طه:٤٣،٤٤]

اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ فَإِنَّهُ عَتَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ،وَتَمَرَّدَ وَتَجَبَّرَ عَلَى اللهِ وَعَصَاهُ.وَادْعُوَاهُ بِرِفْقٍ وَلِينٍ وَحُسْنَى إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ،وَتَرْكِ العُتُوِّ،وَالتَّجَبُّرِ وَالاسْتِعْلاَءِ عَلَى خَلْقِ اللهِ،لَعَلَّ الكَلاَمَ الرَّقِيقَ اللَّيِّنَ يُؤَثِّرُ فِي نَفْسِهِ فَيَرْجِعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلاَلِ،وَيَتَذَكَّرُ آيَاتِ اللهِ وَيَخْشَى لِقَاءَهُ وَعَذَابَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ،فَيَرْتَدِعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الغَيِّ وَالضَّلاَلِ.[٢١٢٧]

{فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا} أي:سهلا لطيفا،برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف،ولا غلظة في المقال،أو فظاظة في الأفعال،{لَعَلَّهُ} بسبب القول اللين {يَتَذَكَّرُ} ما ينفعه فيأتيه،{أَوْ يَخْشَى} ما يضره فيتركه،فإن القول اللين داع لذلك،والقول الغليظ منفر عن صاحبه،وقد فسر القول اللين في قوله:{فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل فإنه أتى بـ " هل " الدالة على العرض والمشاورة التي لا يشمئز منها أحد ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس التي أصلها التطهر من الشرك الذي يقبله كل عقل سليم و لم يقل " أزكيك " بل قال " تزكى " أنت بنفسك ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها فقال {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}

[٢١٢٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٣٧٧)

[٢١٢٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٣٩٢،بترقيم الشاملة آليا)

فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب علم أنه لا ينجع فيه تذكير فأخــذه الله أخذ عزيز مقتدر[٢١٢٨]

اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتي وقد شهد منها آية العصا وآية اليد – ولا تنيا في ذكــري فهو عدتكما وسلاحكما وسندكما الذي تأويان منه إلى ركن شديد ..اذهبا إلى فرعون.وقد حفظتك من شره من قبل.وأنت طفل وقد قذفت في التابوت،فقذف التابوت في اليم،فألقــاه اليم بالساحل،فلم تضرك هذه الخشونة،ولم تؤذك هذه المخاوف.فالآن أنت معد مهيأ،ومعــك أخوك.فلا عليك وقد نجوت مما هو أشد،في ظروف أسوأ وأعنف.

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا «فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً» فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة.ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبــة الطغيان.

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته،راجيين أن يتذكر ويخشى.فالداعية الذي ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة،ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار.

وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون.ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه.والله يحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم.وهو عالم بأنه سيكون.فعلمــه تعــالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضي في درجة سواء.[٢١٢٩]

وقال تعالى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل:١٢٥]

ادْعُ يَا مُحَمَّدُ قَوْمَكَ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِ اللهِ،طَرِيقِ الحَقِّ الذي شَرَعَهُ اللهُ لِلنَّاسِ،وَاسْــتَعْمِلْ فِــي دَعْوَتِكَ مَعْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ الوَسِيلَةَ النَاجِعَةَ مَعَهُ،وَالطَّرِيقَةَ المُنَاسِبَةَ،وَجَادِلْ أَهْلَ الكِتَابِ بِالحُجَّةِ وَالقَوْلِ اللَّيِّنِ،وَالعِبَارَةِ الحَسَنَةِ التي لاَ تَشُوبُهَا قَسْوَةٌ وَلاَ عُنْفٌ،لِيَسْتَمِرَّ بَيْنَكَ وَبَيْــنَهُمُ الحِــوَارُ وَالجَدَلُ وَالنِّقَاشُ،فَتَسْتَطِيعَ إِقْنَاعَهُمْ بِصِحَّةِ دَعْوَتِكَ،وَحَمْلِهِمْ عَلَى اتِّبَاعِكَ،وَاتْرُكْ بَعْــدَ ذَلِــكَ

[٢١٢٨] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٠٦)

[٢١٢٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٣٦)

أَمْرَهُمْ للهِ،فَهُوَ الَّذي يَعْلَمُ مَنْ ضَلَّ فَلاَ يُفيدُ مَعَهُ جَدَلٌ وَلاَ دَعْوَةٌ،وَهُوَ الذي يَعْلَمُ مَنْ صَفَتْ نَفْسُهُ،وَسَلِمَ تَفْكيرُهُ،فَاهْتَدَى وَآمَنَ بِمَا جِئْتَ بِه مِنْ عِنْدِ اللهِ.[2130]

ومن الدعوة بالحكمة مراعاة مقتضى الحال،ومخاطبة كل قوم بما يعرفون،وأخذهم بالرفق والتلطّف،واختيار الوقت المناسب للموعظة التي يراد وعظهم بها،حتى تتقبلها النفوس،وتنتفع بما فيها من خير..إن الرسول طبيب يحمل الدواء إلى العقول،والقلوب،والأرواح..

ومن هنا كانت مهمته عسيرة شاقة،يحتاج معها إلى بصيرة نافذة،تتدسس إلى خفايا النفس الإنسانية،وتضع يدها على موطن الداء.ثم تختار من الدواء ما يشفى العلة،ويذهب بالداء..وقوله تعالى:«وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» هو بيان لمرحلة من مراحل الدعوة،وهى المرحلة التالية،للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة..فالرسول مطالب بأن يعرض دعوته فى أسلوب من الحكمة والموعظة الحسنة،فإذا تقبّل المدعوّون دعوة الرسول فى هذا الأسلوب،من غير عناد أو جدال،فذاك،وإن كان من المدعوين عناد وجدال،فلا يلقى النبيّ المعاندين المجادلين،معاندا مجادلا،فذلك من شأنه أن يعمّى على الحق،وأن يسدّ المنافذ الموصلة إليه،وإنما على الرسول أن يلقى جدال المجادلين بالحسنى،وأن يصرفهم عن هذا الجدل العقيم،إلى ما هو أجدى وأنفع لهم..[2131]

أي:ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح {بِالْحِكْمَةِ} أي:كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم،وبالأقرب إلى الأذهان والفهم،وبما يكون قبوله أتم،وبالرفق واللين،فإن انقاد بالحكمة،وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة،وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها،والنواهي من المضار وتعدادها،وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به.

[2130] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

[2131] – التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٩٨)

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل،فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق.أو كان داعيه إلى الباطل،فيجادل بالتي هي أحسن،وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها،فإنه أقرب إلى حصول المقصود،وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها،ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله:{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} علم السبب الذي أداه إلى الضلال،وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها.

{وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.[٢١٣٢]

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله.لا لشخص الداعي ولا لقومه.فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله،لا فضل له يتحدث به،لا على الدعوة ولا على من يهتدون به،وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة،والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم،والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها.والطريقة التي يخاطبهم بها،والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها.فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق،وتتعمق المشاعر بلطف،لا بالزجر والتأنيب في غير موجب.

ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية.فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة،ويؤلف القلوب النافرة،ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل بالتي هي أحسن.بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح.حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل،ولكن الإقناع والوصول إلى الحق.فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها،وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق،حتى لا تشعر بالهزيمة.وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس،فتعتبر التنازل عن

٢١٣٢ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٥٢)

الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها.والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة.ويشعر المجادل أن ذاته مصونة،وقيمته كريمة،وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها،والاهتداء إليها.في سبيل الله،لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر! ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين.فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله.

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة.فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير،فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازا لكرامة الحق،ودفعا لغلبة الباطل،على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع،فالإسلام دين العدل والاعتدال،ودين السلم والمسالمة،إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي «وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ».وليس ذلك بعيدا عن دستور الدعوة فهو جزء منه.فالدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها،فلا تهون في نفوس الناس.والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد،ولا يثق أنها دعوة الله.فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها،والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة لله والعزة لله جميعا.ثم إنهم أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس،وقيادة البشرية إلى الطريق القويم،فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقبون فلا يعاقبون،ويعتدى عليهم فلا يردون؟![٢١٣٣]

وقال تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) } [البلد:١٧ - ١٨]

اشْتَرَطَ اللهُ تَعَالَى لإِثَابَةِ الإِنْسَانِ عَلَى اقْتِحَامِ العَقَبَةِ بِفِعْلِ الخَيْرَاتِ،التي دَلَّ اللهُ العِبَادَ عَلَيْهَا،أَنْ يَجْمَعَ الفَاعِلُ ثَلاَثَ صِفَاتٍ:

- أَنْ يَكُونَ مِنَ الصَّابِرِينَ عَلَى الأَذَى وَالمَكَارِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

- أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَرْحَمُونَ عِبَادَ اللهِ،وَيُوَاسُونَهُمْ،وَيُسَاعِدُونَهُمْ عِنْدَ الحَاجَةِ.

وَهَؤُلاَءِ الذِينَ فَكُّوا الرَّقَبَةَ،وَأَطْعَمُوا المِسْكِينَ فِي الجُوعِ وَالشِّدَّةِ،وَكَانُوا مُؤْمِنِينَ صَابِرِينَ رُحَمَاءَ..هُمْ أَصْحَابُ اليَمِينِ الذِينَ يُفُوزُونَ بِحُسْنِ الجَزَاءِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى،وَيَدخُلُونَ جَنَّتَهُ،وَهُمْ

[٢١٣٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨٧١)

الذين عَنَاهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِه فِي سُورَةِ الوَاقِعَة:{وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ}[٢١٣٤]

وقوله تعالى:«ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» ..إشـــارة إلى أن هذه الأعمال المبرورة،لا يترلها منازل القبول من الله إلا الإيمان بالله.فإذا فعلها المرء غير مـــؤمن بالله،وغير راغب فى ثوابه،طامع فى حسن المثوبة منه- لم يكن لها عند الله وزن..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً» (٢٣:الفرقـــان) وقولـــه سبحانه:«أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَـــةِ وَزْناً» (١٠٥:الكهف) .

وقوله تعالى:«وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» - إشارة إلى أن الإيمان- مجرد الإيمان- لا يمكّن المرء من اقتحام هذه العقبة،وإن كان يدعو إلى اقتحامها،ويشدّ البصر نحوها..إذ لا بـــد من أن يقوم مع الإيمان،دعوة موجّهة إلى الصبر،وإلى الرحمة،وأن يتزود المرء بزاد عتيد منها.

والتواصي بالصبر والمرحمة،هو إلحاح المرء على نفسه بالدعوة إليهما،والتمسك بهما،فإذا جزع فى مواجهة مال يخرج من يده،حمل نفسه على الصبر على ما تكره،واستدعى مـــن مشـــاعره دواعى الحنان والرحمة..فذلك مما يعينه على مغالبة أهوائه،وقهر شحّه وبخله..ثم لا يقف المـــرء عند هذا،بل ينبغى أن يكون هو داعية إلى الصبر وإلى الرحمة،يبشر بهما فى الناس،ويدعو إليهما فى كل مجتمع،فذلك من شأنه أن يترك آثاره فيه،إلى جانب ما يتركه من إشاعة هذا المعـــروف بين الناس..

قوله تعالى:«أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ» ..أي أن هؤلاء الذين آمنوا،وتواصوا بالصبر،وتواصـــوا بالمرحمة،وتخطوا هذه العقبة،ففكوا الرقاب،وأطعموا الجياع من الأيتام والمســـاكين- هـــؤلاء «أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ» أي أصحاب اليمين،والفوز،والفلاح،وأنهم من أهل اليمين،الـــذين وعدهم الله جنات النعيم..[٢١٣٥]

[٢١٣٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩١٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢١٣٥] - التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٥٧٩)

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} أي:آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به،وعملوا الصالحات بجوارحهم.من كل قول وفعل واجب أو مستحب.{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} على طاعة الله وعن معصيته،وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضًا على الانقياد لذلك،والإتيان به كاملا منشرحًا به الصدر،مطمئنة به النفس.{وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} للخلق،من إعطاء محتاجهم،وتعليم جاهلهم،والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه،ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية،وأن يحب لهم ما يحب لنفسه،ويكره لهم ما يكره لنفسه،أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف،الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده،وتركوا ما نهوا عنه،وهذا عنوان السعادة وعلامتها.[٢١٣٦]

«ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ،وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» ..و «ثُمَّ» هنا ليست للتراخي الزمني،إنما هي للتراخي المعنوي باعتبار هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقا والأعلى أفقا.وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان.فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام.وهو الذي يجعل للعمل الصالح وزنا في ميزان الله.لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد.فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب،أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة.

وكأنما قال:فك رقبة.أو إطعام في يوم ذي مسغبة،يتيما ذا مقربة،أو مسكينا ذا متربة ..وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.فثم هنا لإفادة معنى الفضل والعلو.

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة،ولاقتحام العقبة بصفة خاصة.والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته.درجة تماسك الجماعة المؤمنة،وتواصيها على معنى الصبر،وتعاونها على تكاليف الإيمان.فهي أعضاء متجاوبة الحس.تشعر جميعا شعورا واحدا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه،فيوصي بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ويقوي بعضها بعضا فلا تنهزم.وهذا أمر غير الصبر الفردي.وإن يكن قائما على الصبر الفردي.وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة.وهو

[٢١٣٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٢٥)

ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت،ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة.

وكذلك التواصي بالمرحمة.فهو أمر زائد على المرحمة.إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به،والتحاض عليه،واتخاذه واجبا جماعيا فرديا في الوقت ذاته،يتعارف عليه الجميع،ويتعاون عليه الجميع.

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه.وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله – ﷺ – لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين.فهو دين جماعة،ومنهج أمة،مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحا كاملا .

وأولئك الذين يقتحمون العقبة – كما وصفها القرآن وحددها – «أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ» ..وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أخرى.أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة ..وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني.[٢١٣٧]

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ،لَا يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّ وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لاَ يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ»[٢١٣٨]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَضَعُ اللَّهُ الرَّحْمَةَ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ»،قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا رَحِيمٌ قَالَ:«لَيْسَ الَّذِي يَرْحَمُ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ خَاصَّةً،وَلَكِنِ الَّذِي يَرْحَمُ الْمُسْلِمِينَ»[٢١٣٩]

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا تَحَابُّوا عَلَيْهِ؟» قَالُوا:بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.قَالَ:«أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ تَحَابُّوا،وَالَّذِي

[٢١٣٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٨٦٣)

[٢١٣٨] – صحيح البخاري (٩/ ١١٥)(٧٣٧٦)

أَيْ:مَنْ لَا يَتَعَطَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَرْأَفُ بِهِمْ،وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ إِخْبَارٌ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءً،وَالْمَعْنَى:أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنَ الْفَائِزِينَ بِالرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ،وَالسَّابِقِينَ إِلَى دَارِ الرَّحْمَةِ،وَإِلَّا فَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.قَالَ الطِّيبِيُّ:الرَّحْمَةُ الثَّانِيَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ،وَالْأَوْلَى عَلَى الْمَجَازِ؛لِأَنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ الْخَلْقِ التَّعَطُّفُ وَالرِّقَّةُ،وَهُوَ لَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ،وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ الرِّضَا عَمَّنْ رَحِمَهُ؛لِأَنَّ مَنْ رَقَّ لَهُ الْقَلْبُ فَقَدْ رَضِيَ عَنْهُ،أَوِ الْإِنْعَامُ وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ؛لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا عَطَفَ عَلَى رَعِيَّتِهِ رَقَّ لَهُمْ وَأَصَابَهُمْ بِمَعْرُوفِهِ وَإِنْعَامِهِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٩٩)

[٢١٣٩] – مكارم الأخلاق للطبراني (ص:٣٢٦)(٤٠) صحيح

نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحَمُوا» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا رَحِيمٌ.قَالَ:«إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ»[٢١٤٠]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْكُمْ إِلَّا رَحِيمٌ " قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،كُلُّنَا رَحِيمٌ.قَالَ:" لَيْسَ رَحْمَةُ أَحَدِكُمْ نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ حَتَّى يَرْحَمَ النَّاسَ "[٢١٤١]

وقال وعَنْ جَرِيرٍ قَالَ:أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ:أُبَايِعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ.فَقَبَضَ يَدَهُ،وَقَالَ:" النُّصْحُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْحَمِ النَّاسَ لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ "[٢١٤٢]

وعَنْ جَرِيرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ لَا يَرْحَمْ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَا يَرْحَمُهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» " رواه الطبراني[٢١٤٣]

وعَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ قَالَ:سَمِعْتُ جَرِيرًا يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ،وَمَنْ لَا يَغْفِرْ لَا يُغْفَرْ لَهُ "[٢١٤٤]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ،ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ،الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ،فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ»[٢١٤٥].

[٢١٤٠] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٨٥)(٧٣١٠) صحيح

[٢١٤١] - شعب الإيمان (١٣/ ٤٠٨)(١٠٥٤٨) حسن لغيره

[٢١٤٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٣١/ ٥٠٠)(١٩١٦١) صحيح لغيره

[٢١٤٣] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٥٥)(٢٤٩٧) صحيح

[٢١٤٤] - مسند أحمد ط الرسالة (٣١/ ٥٦٥)(١٩٢٤٤) صحيح

[٢١٤٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٢٣)(١٩٢٤) صحيح

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ»):لِأَنَّهُمْ مَظَاهِرُهُ،وَمُتَخَلِّقُونَ بِأَخْلَاقِهِ (ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ):قَالَ الطِّيبِيُّ:أَتَى بِصِيغَةِ الْعُمُومِ؛لِيَشْمَلَ جَمِيعَ أَصْنَافِ الْخَلْقِ فَيَرْحَمَ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ وَالنَّاطِقَ وَالْبُهْمَ وَالْوُحُوشَ وَالطَّيْرَ اهـ.وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ إِيرَادَ (مَنْ) لِتَغْلِيبِ ذَوِي الْعُقُولِ لِشَرَفِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ لِلْمُشَاكَلَةِ الْمُقَابَلَةِ بِقَوْلِهِ:(يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ):وَهُوَ مَجْزُومٌ عَلَى جَوَابِ الْأَمْرِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالرَّفْعِ أَيْ:مَنْ مُلْكِهِ الْوَاسِعِ وَقُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ فِي السَّمَاءِ،أَوْ مَنْ أَمْرُهُ نَافِذٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،فَهُوَ مِنْ بَابِ الِاكْتِفَاءِ،وَخَصَّ السَّمَاءَ بِالذِّكْرِ تَشْرِيفًا أَوْ لِأَنَّ الْأَرْضَ تُفْهَمُ بِالْأَوْلَى،أَوْ لِأَنَّ السَّمَاءَ مُحِيطَةٌ بِهَا وَهِيَ كَحَلَقَةٍ بِجَنْبِهَا فِي وَسَطِهَا فَلَا تُذْكَرُ مَعَهَا؛لِحَقَارَتِهَا،وَقِيلَ:الْمُرَادُ مَنْ سَكَنَ فِيهَا وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ،فَإِنَّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَيَقُولُونَ:{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا} [غافر:٧] الْآيَةَ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى مِنْبَرِهِ:" ارْحَمُوا تُرْحَمُوا،وَاغْفِرُوا يُغْفَرُ لَكُمْ،وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ - يَعْنِي الْآذَانَ - وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ "[2146].

وعن بُكَيْرَ بْنِ وَهْبِ الْجَزَرِيِّ،قَالَ:قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ:أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا مَا أُحَدِّثُهُ كُلَّ أَحَدٍ:إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى بَابٍ وَنَحْنُ فِيهِ،فَقَالَ:«الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ،إِنَّ لَهُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا،وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ،مَا إِنِ اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا،وَإِنْ عَاهَدُوا وَفَوْا،وَإِنْ حَكَمُوا عَدَلُوا،فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ،وَالْمَلَائِكَةِ،وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» رواه أحمد[2147]

وعن سَحَّامَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَصَمِّ قَالَ:سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيمًا،وَكَانَ لَا يَأْتِيهِ أَحَدٌ إِلَّا وَعَدَهُ،وَأَنْجَزَ لَهُ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ،وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ،وَجَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَأَخَذَ بِثَوْبِهِ فَقَالَ:إِنَّمَا بَقِيَ مِنْ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ،وَأَخَافُ أَنْسَاهَا،فَقَامَ مَعَهُ حَتَّى فَرَغَ مِنْ حَاجَتِهِ،ثُمَّ أَقْبَلَ فَصَلَّى" رواه البخاري في الأدب المفرد[2148].

وعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ،سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ:«أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَالنَّبِيُّ ﷺ يُنَاجِي رَجُلًا فَلَمْ يَزَلْ يُنَاجِيهِ حَتَّى نَامَ أَصْحَابُهُ ثُمَّ جَاءَ فَصَلَّى بِهِمْ»[2149]

قَالَ الْمُظْهِرُ:اخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ:مَنْ فِي السَّمَاءِ،فَقِيلَ:هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَيِ:ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ شَفَقَةً يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ تَفَضُّلًا،وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ مُلْكُهُ وَقُدْرَتُهُ،وَإِنَّمَا نُسِبَ إِلَى السَّمَاءِ؛لِأَنَّهَا أَوْسَعُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْأَرْضِ،أَوْ لِعُلُوِّهَا وَارْتِفَاعِهَا،أَوْ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ الدُّعَاءِ وَمَكَانُ الْأَرْوَاحِ الْقُدْسِيَّةِ الطَّاهِرَةِ،وَقِيلَ:الْمُرَادُ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ أَيْ:يَحْفَظْكُمُ الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْمُؤْذِيَاتِ،بِأَمْرِ اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُوا لَكُمُ الرَّحْمَةَ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ.قُلْتُ:الْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْمُدَارُ عَلَيْهِ كَمَا أَشَارَ صَدْرُ الْحَدِيثِ إِلَيْهِ،وَلِأَنَّ رَحْمَةَ الْمَلَائِكَةِ فَرْعُ رَحْمَتِهِ تَعَالَى.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١١٣)

[2146] - شعب الإيمان (٩/ ٣٨٩)(٦٨٤٤) ومسند الشاميين للطبراني (٢/ ١٣٣)(١٠٥٥) صحيح

قوله:«القمع» كضلع،هو الإناء الذي يوضع في رؤوس الظرف لتملأ بالمائعات،شبه أسماع الذين يسمعون القول ولا يعونه ويحفظونه ولا يعملون به بالأقماع التي لا تعي شيئا مما يفرغ فيها فكأنه يمر عليها طريقا كما يمر الشراب في الأقماع.

[2147] - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٤٠٥)(٥٩٠٩) ومسند أحمد ط الرسالة (١٩/ ٣١٨)(١٢٣٠٧) صحيح لغيره

[2148] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٠٥)(٢٧٨) حسن

[2149] - صحيح مسلم (١/ ٢٨٤)١٢٤ - (٣٧٦)

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ،أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا،فَقَالَ الْعَامِلُ:إِنَّ لِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الْوَلَدِ،مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ،فَزَعَمَ عُمَرُ،أَوْ قَالَ عُمَرُ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَرْحَمُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا أَبَرَّهُمْ" أخرجه البخاري في الأدب المفرد [2150]

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ،قَالَ:اسْتَعْمَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ عَلَى عَمَلٍ فَجَاءَ يَأْخُذُ عَهْدَهُ،قَالَ:فَأَتَى عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِبَعْضِ وَلَدِهِ فَقَبَّلَهُ،قَالَ:أَتُقَبِّلُ هَذَا؟ مَا قَبَّلْتُ وَلَدًا قَطُّ.فَقَالَ عُمَرُ:" فَأَنْتَ بِالنَّاسِ أَقَلُّ رَحْمَةً،هَاتِ عَهْدَنَا،لَا تَعْمَلْ لِي عَمَلًا أَبَدًا "[2151]

وعَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ،قَالَ:كَانَ الْوَفْدُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَهُمْ عَنْ أَمِيرِهِمْ،فَيَقُولُونَ خَيْرًا،فَيَقُولُ:هَلْ يَعُودُ مَرْضَاكُمْ؟ فَيَقُولُونَ:نَعَمْ،فَيَقُولُ:هَلْ يَعُودُ الْعَبْدَ؟ فَيَقُولُونَ:نَعَمْ،فَيَقُولُ:كَيْفَ صَنِيعُهُ بِالضَّعِيفِ؟ هَلْ يَجْلِسُ عَلَى بَابِهِ؟
فَإِنْ قَالُوا لِخِصْلَةٍ مِنْهَا:لا،عَزَلَهُ"[2152]

وليس المقصود برحمة الولاة للرعية رحمة القلب المجردة،بل المراد الرحمة القلبية وما يتبعها من إصلاحهم والشفقة عليهم،وتفقد أحوالهم وحاجاتهم،ومحبة الخير لهم،والتواضع لهم والصبر على أذاهم،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ،فَقَالَ:" امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ،وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ " رواه أحمد[2153]

[2150] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٤٨)(٩٩) حسن

[2151] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٧٢)(١٧٩٠٦) حسن

[2152] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢٢٦) صحيح

[2153] - مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ٥٥٨)(٩٠١٨) واعتلال القلوب للخرائطي (١/ ٣٣)(٥٢) حسن لغيره

(أَنَّ رَجُلًا شَكَا):يَنْبَغِي أَنْ يَكْتُبَ بِالْأَلِفِ كَدَعَا وَعَفَا،وَيَجُوزُ كِتَابَتُهَا بِالْيَاءِ أَيْضًا؛لِأَنَّ (شَكَيْتُ) لُغَةٌ فِي شَكَوْتُ (إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ- قَسْوَةَ قَلْبِهِ) أَيْ:قَسَاوَتَهُ وَشِدَّتَهُ وَقِلَّةَ رِقَّتِهِ وَعَدَمَ أُلْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ («قَالَ:امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ»):لِتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ فَيَغْتَنِمَ الْحَيَاةَ،فَإِنَّ الْقَسْوَةَ مَنْشَؤُهَا الْغَفْلَةُ.(«وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ»):لِتَرَى آثَارَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ حَيْثُ أَغْنَاكَ،وَأَحْوَجَ إِلَيْكَ سِوَاكَ فَيَرِقَّ قَلْبُكَ وَيَزُولَ قَسْوَتُهُ،وَلَعَلَّ وَجْهَ تَخْصِيصِهِمَا بِالذِّكْرِ أَنَّ الرَّحْمَةَ عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مُوجِبَةٌ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ الْمُتَخَلِّقِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ،فَيُنْزِلُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ،وَيَرْفَعُ عَنْهُ الْقَسْوَةَ،وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنِ ارْتِكَابِ أَسْبَابِ تَحْصِيلِ الْأَخْلَاقِ بِالْمُعَالَجَةِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ بِالْعَمَلِيَّةِ،أَوْ بِالْمَعْجُونِ الْمُرَكَّزِ مِنْهُمَا عَلَى مَا بَيَّنَهُ فِي الْإِحْيَاءِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ تَلْمِيحًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد:١٤]،وَمُرَاعَاتُهُمَا مِنِ اقْتِحَامِ الْعَقَبَةِ الشَّاقَّةِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مُعَانَاةِ الْمَشَقَّةِ وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ،فَمَنِ اقْتَحَمَ تِلْكَ الْعَقَبَةَ يَرِقُّ قَلْبُهُ وَتَسْمَحُ نَفْسُهُ فِي تَعَاطِي كُلِّ

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:" أَنَّ رَجُلًا،شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ قَالَ:«إِنْ سَرَّكَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ،فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ،وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ»[2154]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْتِي ضُعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَيَزُورُهُمْ وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ" رواه الحاكم[2155]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:سَأَلَهَا رَجُلٌ:هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ:نَعَمْ،كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَخْصِفُ نَعْلَهُ،وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ،وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ»[2156]

وعَنْ عَائِشَةَ،أَنَّهَا سُئِلَتْ:مَا كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ:«مَا كَانَ إِلَّا بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ،كَانَ يَفْلِي ثَوْبَهُ،وَيَحْلِبُ شَاتَهُ،وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»[2157]

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ،قَالَ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ،فَكَلَّمَهُ،فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ،فَقَالَ لَهُ:«هَوِّنْ عَلَيْكَ،فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ،إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ» رواه ابن ماجه[2158]

خَيْرٍ،وَفِيهِ أَنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بِدَاءٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ يَكُونُ تَدَارُكُهُ بِمَا يُضَادُّهُ مِنَ الدَّوَاءِ فَالتَّكَبُّرُ يُدَاوَى بِالتَّوَاضُعِ،وَالْبُخْلُ بِالسَّمَاحَةِ،وَقَاسِي الْقَلْبِ بِالتَّعَطُّفِ وَالرِّقَّةِ.(رَوَاهُ أَحْمَدُ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٣٠)

[2154] – اعتلال القلوب للخرائطي (١/ ٣٣)(٥٢) حسن لغيره

[2155] – شعب الإيمان (١١/ ٤٤٦)(٨٨٠٩) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٥٠٦)(٣٧٣٥) صحيح

[2156] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٤/ ٣٥٢)(٦٤٤٠) ومسند أحمد ط الرسالة (٤٢/ ٢٠٩)(٢٥٣٤١)صحيح

[2157] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٢/ ٤٨٩)(٥٦٧٥) صحيح

يَخْصِفُ):بِكَسْرِ الصَّادِ أَيْ:يَخْرُزُ وَيُرَقِّعُ،وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ أَيْ:يُطْبِقُ طَاقَةً عَلَى طَاقَةٍ،وَأَصْلُ الْخَصْفِ الضَّمُّ وَالْجَمْعُ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} [الأعراف:٢٢] أَيْ يُطْبِقَانِ وَرَقَةً وَرَقَةً عَلَى بَدَنِهِمَا.(وَيَخِيطُ):بِكَسْرِ الْخَاءِ ثَوْبَهُ،(وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ)،تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ.وَفِي الْجَامِعِ بِرِوَايَةِ أَحْمَدَ،عَنْ عَائِشَةَ:كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ،وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ،وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ.(وَقَالَتْ:كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ،يَفْلِي ثَوْبَهُ)،بِكَسْرِ اللَّامِ أَيْ:يَنْظُرُ فِي الثَّوْبِ هَلْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقَمْلِ؟ وَهُوَ لَا يُنَافِي مَا رُوِيَ:مِنْ أَنَّ الْقَمْلَ لَمْ يَكُنْ يُؤْذِيهِ.وَقَالَ شَارِحٌ أَيْ:يَلْتَقِطُ الْقَمْلَ (وَيَحْلِبُ شَاتَهُ)،بِضَمِّ اللَّامِ وَيُكْسَرُ وَهُوَ تَعْمِيمٌ وَتَتْمِيمٌ.قَالَ الطِّيبِيُّ،قَوْلُهَا:كَانَ بَشَرًا تَمْهِيدًا لِمَا بَعْدَهُ،لِأَنَّهُ لَمَّا رَأَتْ مِنِ اعْتِقَادِ الْكُفَّارِ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ- لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَفْعَلُ غَيْرُهُ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ وَجَعَلُوهُ كَالْمُلُوكِ؟ فَإِنَّهُمْ يَتَرَفَّعُونَ عَنِ الْأَفْعَالِ الْعَادِيَّةِ الدَّنِيَّةِ تَكَبُّرًا،كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ:{مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ} [الفرقان:٧] فَقَالَتْ:إِنَّهُ – ﷺ- كَانَ خَلْقًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى،وَوَاحِدًا مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ،شَرَّفَهُ اللَّهُ بِالنُّبُوَّةِ،وَكَرَّمَهُ بِالرِّسَالَةِ،وَكَانَ يَعِيشُ مَعَ الْخَلْقِ بِالْخُلُقِ،وَمَعَ الْحَقِّ بِالصِّدْقِ،فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا،وَيُعِينُهُمْ فِي أَفْعَالِهِمْ تَوَاضُعًا وَإِرْشَادًا لَهُمْ إِلَى التَّوَاضُعِ،وَرَفْعِ التَّرَفُّعِ،وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْخَلْقِ،كَمَا أَمَرَ.قَالَ تَعَالَى:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [الكهف:١١٠] .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧١٧)

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ،وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ،خَيْـــرٌ مِـــنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ،وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[٢١٥٩]

[٢١٥٨] - سنن ابن ماجه (٢/ ١١٠١)(٣٣١٢) صحيح

[ش - (ترعد) أرعد الرجل أخذته الرعدة.والرعدة الاضطراب.وأرعدت أيضا فرائصه عنه الفزع.(الفرائص) واحدها فريصة.لحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد من الدابة(القديد) هو اللحم المملح المجفف في الشمس.فعيل بمعنى مفعول.]

[٢١٥٩] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٤٠)(٣٨٨) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٨)(٤٠٣٢)صحيح

(المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) ومن ثم عدوا من أعظم أنواع الصبر الصبر على مخالطة الناس وتحمل أذاهم واعلم أن الله لم يسلطهم عليك إلا لذنب صدر منك فاستغفر الله من ذنبك واعلم أن ذلك عقوبة منه تعالى وكن فيما بينهم سميعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بمحاسنهم صموتا عن مساوئهم لكن احذر مخالطة متفقهة الزمان ذكره الغزالي وقال الذهبي في الزهد:مخالطة الناس إذا كانت شرعية فهي من العبادة وغاية ما في العزلة التعبد فمن خالطهم بحيث اشتغل بهم عن الله وعن السنن الشرعية فذا بطال فليفر منهم واستدل به البعض على أن حج التطوع أفضل من صدقة النفل لأن الحج يحتاج لمخالطة الناس قال حجة الإسلام:وللناس خلاف طويل في العزلة والمخالطة أيهما أفضل مع أن كلا منهما لا ينفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إليها وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار الغزلة وميل الشافعي وأحمد إلى مقابله وساتدل كل لمذهبه بما يطول والإنصاف أن الترجيح يختلف باختلاف الناس فقد تكون العزلة لشخص أفضل والمخالطة لآخر أفضل فالقلب المستعد للإقبال على الله المنتهى لاستغراقه في شهود الحضرة:العزلة له أولى والعالم بدقائق الحلال والحرم مخالطته للناس ليعلمهم وينصحهم في دينهم أولى وهكذا ألا ترى إلى تولية النبي ﷺ لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما من امرائه وقوله لأبي ذر إني أراك رجلا ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تتأمر على اثنين الحديث" فيض القدير (٦/ ٢٥٥)

هذا وقد اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الأَْفْضَل لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَخْتَلِطَ بِالنَّاسِ،وَيَحْضُرَ جَمَاعَاتِهِمْ وَمَشَاهِدَ الْخَيْرِ وَمَجَالِسَ الْعِلْمِ،وَأَنْ يَعُودَ مَرِيضَهُمْ،وَيَحْضُرَ جَنَائِزَهُمْ،وَيُوَاسِيَ مُحْتَاجَهُمْ،وَيُرْشِدَ جَاهِلَهُمْ،وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ،وَيَدْعُوَ لِلْخَيْرِ،وَيَنْشُرَ الْحَقَّ وَالْفَضِيلَةَ،وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيل اللَّهِ لإِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللَّهِ،وَإِعْزَازِ دِينِهِ مَعَ قَمْعِ نَفْسِهِ عَنْ إِيذَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ .
قَال النَّوَوِيُّ:إِنَّ الاخْتِلاَطَ بِالنَّاسِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ هُوَ الْمُخْتَارُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُول اللَّهِ ﷺوَسَائِرُ الأَْنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ،وَكَذَلِكَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ،وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ،وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْيَارِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى } وَقَوْلِهِ تَعَالَى:{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } وَقَوْلِهِ تَعَالَى:{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } .
هَذَا إِذَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ فِتْنَةٌ عَامَّةٌ أَوْ فَسَادٌ سَائِدٌ لاَ يَسْتَطِيعُ إِصْلاَحَهُ،أَوْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ وُقُوعُهُ فِي الْحَرَامِ بِسَبَبِ الْمُخَالَطَةِ فَيُسْتَحَبُّ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْعُزْلَةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً }...الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٣/ ١٧٤)

وعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ:قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ:يَزْعُمُ قَوْمُكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ رَمَلَ بِالْبَيْتِ؛فَإِنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ،قَالَ:صَدَقُوا وَكَذَبُوا،قُلْتُ:مَا صَدَقُوا،وَمَا كَذَبُوا؟ قَالَ:صَدَقُوا إِنَّهُ قَدْ رَمَلَ،وَكَذَبُوا لَيْسَتْ بِسُنَّةٍ،إِنَّ قُرَيْشًا قَالَتْ:دَعُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى يَمُوتُوا مَوْتَ النَّغَفِ،فَلَمَّا صَالَحُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَجِيئُوا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَيُقِيمُوا بِمَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ،وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ قِبَلِ قُعَيْقِعَانَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:«ارْمُلُوا بِالْبَيْتِ»،وَلَيْسَتْ بِسُنَّةٍ،قُلْتُ:يَزْعُمُ قَوْمُكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ عَلَى بَعِيرٍ،وَأَنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ،قَالَ:صَدَقُوا وَكَذَبُوا،قَالَ:قُلْتُ:مَا صَدَقُوا،وَمَا كَذَبُوا؟ قَالَ:صَدَقُوا،قَدْ طَافَ عَلَى بَعِيرٍ،وَكَذَبُوا لَيْسَتْ بِسُنَّةٍ؛إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ لَا يَدْفَعُ عَنْهُ النَّاسَ وَلَا يُضْرَبُوا عَنْهُ،فَطَافَ عَلَى بَعِيرٍ لِيَسْمَعُوا كَلَامَهُ وَيَرَوْا مَكَانَهُ،وَلَا تَنَالُهُ أَيْدِيهِمْ،قُلْتُ:يَزْعُمُ قَوْمُكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ،وَأَنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ،قَالَ:صَدَقُوا،إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ اعْتَرَضَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى،فَسَابَقَهُ فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ،فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ،فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ،وَعَرَضَ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى،فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ،ثُمَّ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَعَلَى إِسْمَاعِيلَ قَمِيصٌ أَبْيَضُ،فَقَالَ لَهُ:يَا أَبَهْ،إِنَّهُ لَيْسَ قَمِيصٌ فَكَفِّنِّي فِيهِ،وَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،فَإِذَا هُوَ بِكَبْشٍ أَعْيَنَ أَبْيَضَ أَقْرَنَ،فَذَبَحَهُ،ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْجَمْرَةِ الْقُصْوَى،فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ،فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ،ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ إِلَى مِنًى فَقَالَ:هَذَا الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ،ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ إِلَى عَرَفَةَ،فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:هَلْ تَدْرِي لِمَ سُمِّيَتْ عَرَفَةَ؟ قُلْتُ:لِمَ سُمِّيَتْ عَرَفَةَ؟ قَالَ:إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ:هَلْ عَرَفْتَ؟ قَالَ:نَعَمْ،ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:هَلْ تَدْرِي كَيْفَ كَانَتِ التَّلْبِيَةُ؟ قُلْتُ:وَكَيْفَ كَانَتِ التَّلْبِيَةُ؟ قَالَ:إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمَّا أَنْ أُمِرَ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ خَفَضَتْ لَهُ الْجِبَالُ رُءُوسَهَا،رُفِعَتْ لَهُ الْقُرَى فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ "رواه الطبراني [٢١٦٠]

[٢١٦٠] - تهذيب الآثار مسند ابن عباس (١/ ٦٠)(٦٣) والسنن الكبرى للبيهقي (٥/ ١٦٣)(٩٣٧٩) والمعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢٦٨)(١٠٦٢٨) صحيح

وعَنْ أَنَس:«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَزُورُ الْأَنْصَارَ،وَيُسَلِّمُ عَلَى صِبْيَانِهِمْ،وَيَمْسَحُ رُءُوسَهُمْ».رواه ابن حبان[2161]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،قَالَ:«كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ»،فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً،حَتَّى «نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ»،ثُمَّ قَالَ:يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ،«فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ،ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ» متفقٌ عليه[2162].

الإحسان إلى الناس وتأليف القلوب

[2161] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٠٥)(٤٥٩) صحيح

فيه رد على منع الحسن التسليم على الصبيان (ويمسح رؤوسهم) أي كان له اعتناء بفعل ذلك معهم أكثر منه مع غيرهم وإلا فهو كان يفعل ذلك مع غيرهم أيضا وكان يتعهد أصحابه جميعا ويزورهم قال ابن حجر:هذا مشعر بوقوع ذلك منه غير مرة أي فالاستدلال به على مشروعية السلام على الصبيان أولى من استدلال البعض بحديث مر على صبيان فسلم عليهم فإنها واقعة حال قال ابن بطال:وفي السلام على الصبيان تدريبهم على آداب الشريعة وطرح الأكابر رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب نعم لا يشرع السلام على الصبي الوضيء سيما إن راهق"فيض القدير (٥/ ٢١٦)

[2162] - صحيح البخاري (٧/ ١٤٦)(٥٨٠٩) وصحيح مسلم (٢/ ٧٣٠)(١٢٨ - (١٠٥٧)

(قَالَ:كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- وَعَلَيْهِ بُرْدٌ) أَيْ:ثَوْبٌ مُخَطَّطٌ عَلَى مَا فِي النِّهَايَةِ (نَجْرَانِيٌّ):بِفَتْحِ نُونٍ وَسُكُونِ جِيمٍ مَنْسُوبٌ إِلَى نَجْرَانَ بَلَدٍ بِالْيَمَنِ ذَكَرَهُ شَارِحٌ،وَفِي النِّهَايَةِ:هُوَ مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْيَمَنِ،(غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ)،أَيِ الطَّرْفِ (فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ)،أَيْ لَحِقَهُ (مِنْ وَرَائِهِ فَجَبَذَهُ) أَيْ:فَجَذَبَ الْأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ - ﷺ- بِرِدَائِهِ (جَبْذَةً شَدِيدَةً)،وَالْجَبْذُ:لُغَةٌ فِي الْجَذْبِ،وَقِيلَ:هُوَ مَقْلُوبٌ مِنْهُ (وَرَجَعَ نَبِيُّ اللَّهِ - ﷺ- فِي نَحْرِ الْأَعْرَابِيِّ) أَيْ:فِي صَدْرِهِ وَمُقَابِلِهِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبِهِ.قَالَ الطِّيبِيُّ أَيِ:اسْتَقْبَلَ - ﷺ- نَحْرَهُ اسْتِقْبَالًا تَامًّا،وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ:وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعًا،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ وَلَمْ يَتَأَثَّرْ مِنْ سُوءِ أَدَبِهِ.(حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ):وَهُوَ مَوْضِعُ أَدَاءٍ مِنَ الْمَنْكِبِ (قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا) أَيْ:فِي صَفْحَتِهِ.(حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبِهِ)،قُلْتُ:وَصَدَقَ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ:{الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ} [التوبة:٩٧] .(ثُمَّ قَالَ:يَا مُحَمَّدُ) ! وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ،فَلِذَلِكَ فَعَلَ مَا فَعَلَهُ،ثُمَّ خَاطَبَهُ بِاسْمِهِ قَائِلًا عَلَى وَجْهِ الْعُنْفِ مُقَابِلًا لِبَحْرِ اللُّطْفِ (مُرْ لِي) أَيْ:مُرْ وُكَلَاءَكَ بِأَنْ يُعْطُوا لِي أَوْ مُرْ بِالْعَطَاءِ لِأَجْلِي (مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ)،أَيْ مِنْ غَيْرِ صَنِيعٍ لَكَ فِي إِعْطَائِكَ،كَمَا صَرَّحَ فِي رِوَايَةٍ حَيْثُ قَالَ:لَا مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ.قِيلَ:الْمُرَادُ بِهِ مَالُ الزَّكَاةِ،فَإِنَّهُ كَانَ يُصْرَفُ بَعْضُهُ إِلَى الْمُؤَلَّفَةِ،(فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ)،أَيْ فَنَظَرَ إِلَيْهِ تَعَجُّبًا (ثُمَّ ضَحِكَ)،أَيْ تَلَطُّفًا (ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ) .وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ احْتِمَالِ الْوَالِي مِنْ أَذَى قَوْمِهِ،وَفِيهِ دَفْعُ الْمَالِ حِفْظًا عَلَى عِرْضِ الرِّجَالِ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧١١)

ومما يجب على ولاة الأمر الإحسان إلى الخلق،وتأليف قلوبهم،والعناية بتحقيق حاجاتهم،فإن هذا مما يقربهم من الخير ويسهل قبولهم للحق،ويزيد به التفافهم حول ولاة الأمر ومحبتهم لهم،وقد قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل:٩٠]

وقال تعالى:{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٦٠].

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ،قَالَ:سَمِعْتُ الحَسَنَ،يَقُولُ:حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِمَالٍ - أَوْ سَبْيٍ - فَقَسَمَهُ،فَأَعْطَى رِجَالًا وَتَرَكَ رِجَالًا،فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا،فَحَمِدَ اللَّهَ،ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ،وَأَدَعُ الرَّجُلَ،وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي،وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ،وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ،فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ» فَوَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ" رواه البخاري[٢١٦٣].

[٢١٦٣] - صحيح البخاري (٢/ ١٠)(٩٢٣)

[ش (سبي) ما يؤخذ من العدو من النساء والأطفال.(عتبوا) سخطوا في أنفسهم.(الجزع) الضعف عن الصبر وتحمل ما يترل به مكروه.(الهلع) أشد الفزع والخوف.(أكل) أترك.(الغنى) النفسي والتعفف.(الخير) الإيمان الحامل على الصبر والرضى.(أن لي بكلمة) بدل كلمة.(حمر النعم) الإبل الحمراء وكانت أعجب الأموال وأحبها إلى العرب]

يحدثنا عمرو بن تغلب رضي الله عنه:" أن النبي - ﷺ - أتي بمال أو بسبي " وهو ما يؤخذ من العدو من الأسرى عبيداً أو إماءً " فقسمه،فأعطى رجالاً،وترك رجالاً " أي:فأعطى بعض الناس تأليفاً لقلوبهم،وترك البعض الآخر ثقة بهم،لما منحهم الله من قوة الإيمان واليقين،" فبلغه أن الذين لم يعطهم عتبوا " أي لاموا عليه فيما بينهم،" فحمد الله ثم أثنى عليه،ثم قال:أما بعد " أي ثم قال قبل الشروع في الموضوع الذي أراد الحديث عنه:" أما بعد " وهي كلمة يؤتى بها للفصل بين المقدمة والوضوع،ولذلك تسمى " فصل الخطاب " فأقول:" والله إني لأُعطي الرجل،وأدع الرجل،والذي أدع أحبّ إلي " أي:والذي أتركه أحبُّ إلى نفسي ممن أعطيه،" ولكني أُعطي أقواماً لما أرى في قلوبم من الجزع والهلع " أي:من شدة الألم والضجر الذي يصيب نفوسهم لو لم يعطوا من الغنيمة،فأعطيهم تأليفاً لقلوبهم،وتطييباً لنفوسهم،" وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى " أي:وأترك أقواماً فلا أعطيهم لأني أَكِلُهُمْ إلى ما وضع الله في قلوبهم من القناعة وغنى النفس،" والخير " أي وقوة الإيمان واليقين " فيهم عمرو بن تغلب،فوالله ما أحب أنّ لي بكلمة رسول الله - ﷺ - حمر النعم " أي:فقال عمرو:أقْسم بالله

وعَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:" مَا سُـئِلَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ عَلَـى الْإِسْـلَامِ شَـيْئًا إِلَّـا أَعْطَاهُ،قَالَ:فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ،فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ،فَقَالَ:يَا قَـوْمِ أَسْـلِمُوا،فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ "[٢١٦٤]

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ،فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ،فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَـالَ:«أَيْ قَـوْمِ أَسْلِمُوا،فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ» فَقَالَ أَنَسٌ:«إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَـا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا،فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»رواه مسلم[٢١٦٥] .

وعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَسْمًا،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَعْطِ فُلَانًا فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَوْ مُسْلِمٌ» أَقُولُهَا ثَلَاثًا،وَيُرَدِّدُهَا عَلَيَّ ثَلَاثًا «أَوْ مُسْلِمٌ»،ثُمَّ قَالَ:«إِنِّـي لَأُعْطِي الرَّجُلَ،وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ،مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»" رواه البخاري ومسلم[٢١٦٦] .

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ نَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ،حِينَ أَفَـاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَا أَفَاءَ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ،فَطَفِقَ النَّبِـيُّ ﷺ يُعْطِـي رِجَالًـا المِائَـةَ مِـنَ

لا أرضى بهذا الثناء الذي كرّمني به النبي – ﷺ – بديلاً ولو أعطيت أنفس أموال العرب التي هي الجمال الحمر.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢/ ٢٥٣)

[٢١٦٤] – صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٦)٥٧ – (٢٣١٢) [ش (فأعطاه غنما بين جبلين) أي كثيرة كأنها تملأ ما بين جبلين]

[٢١٦٥] – صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٦)٥٨ – (٢٣١٢)

[٢١٦٦] – صحيح مسلم (١/ ١٣٢)٢٣٦ – (١٥٠) وصحيح البخاري (١/ ١٤)(٢٧)

[ش (يكبه الله) يقال أكب الرجل وكبه الله وهذا بناء غريب فإن العادة أن يكون الفعل اللازم بغير همزة فيعدى بالهمزة وهنا عكسه والضمير في يكبه يعود على المعطي أي أتألف قلبه بالإعطاء مخافة من كفره إذا لم يعط]

"(إني لأعطي رجالا) مفعوله الثاني محذوف أي الشيء (وأدع) أي والحال أني أترك (من هو أحب إلي منهم) أي أولى بالإعطاء منه (لا أعطيه شيئا) من الفيء ونحوه (مخافة) مفعول لقوله أعطي أي لأجل مخافة (أن يكبوا) بضم أوله وفتح الكاف (في النار) أي يقلبوا منكوسين فيها والكب الإلقاء على الوجه فقوله (على وجوههم) تأكيد يعني أعطي بعضا لعلمي بضعف إيمانه حتى لو لم أعطه لأعرض عن الحق وسقط في النار على وجهه وأترك بعضا في القسمة لعلمي بكمال إيمانه ورضاه بفعلي فمن المؤلفة الذين لم يصل نور الإيمان لقلوبهم وإنما كانوا عبيد الدرهم والدينار وكان يعطيهم الأقرع بن حابس وعيينة وابن مرداس وأبو سفيان ويزيد ابنه وفي شرح الأحكام لعبد الحق أن أخاه معاوية منهم حكاه المقدسي وغيره من علماء الآثار كذا قال وفيه حل الإعطاء لمن لم يتمكن الإسلام من قلبه وأن للإمام تمييز البعض لمصلحة وأنه يقدم الأهم فالأهم وفيه جواز الشفاعة إلى ولاة الأمور ومراجعة المشفوع إليه إذا لم يؤد إلى مفسدة والأمر بالتثبت وأن المشفوع إليه لا يعاب إذا رد الشفاعة إذا كانت خلاف المصلحة وأنه ينبغي أن يعتذر للشافع ويبين له عذره في ردها وأنه لا يقطع بالجنة لأحد على التعيين إلا من ثبت فيه نص كالعشرون وأن الإقرار باللسان لا ينفع إلا إذا اقترن به اعتقاد بالقلب" فيض القدير (٣/ ١٤)

الإبلِ،فَقَالُوا:يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا،وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ،قَالَ أَنَسٌ:فَحُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَقَالَتِهِمْ،فَأَرْسَلَ إِلَى الأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ،وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ،فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:«مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ»،فَقَالَ فُقَهَاءُ الأَنْصَارِ:أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا،وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا:يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا،وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ،أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ،وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ،فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا،فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:«سَتَجِدُونَ أُثْرَةً شَدِيدَةً،فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ فَإِنِّي عَلَى الحَوْضِ» قَالَ أَنَسٌ:«فَلَمْ يَصْبِرُوا» أخرجه البخاري ومسلم[٢١٦٧]

وعند أحمد وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ :لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ،وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ،حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ :لَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْمَهُ،فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ،فَقَالَ :يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ،قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ،وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ،وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ شَيْءٌ،قَالَ :فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ :يَا رَسُولَ اللهِ،مَا أَنَا إِلاَّ امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي،وَمَا أَنَا ؟ قَالَ :فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ،قَالَ :فَخَرَجَ سَعْدٌ،فَجَمَعَ الأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ،قَالَ :فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ،فَتَرَكَهُمْ،فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ،فَرَدَّهُمْ،فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ :قَد اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ،قَالَ :فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ،ثُمَّ قَالَ :يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ،أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا :بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ،قَالَ :أَلاَ تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ قَالُوا :وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ،وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ .قَالَ :أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ،أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ،وَمَخْذُولاً

[٢١٦٧] - صحيح البخاري (٥/ ١٥٨)(٤٣٣١) وصحيح مسلم (٢/ ٧٣٣)١٢٣ - (١٠٥٩)

فَنَصَرْنَاكَ،وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ،وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ،أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا،تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا،وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلاَمِكُمْ ؟ أَفَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ،وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الأَنْصَارِ،وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا،وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ،اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ،وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ،وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ قَالَ :فَبَكَى الْقَوْمُ،حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ،وَقَالُوا :رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قِسْمًا وَحَظًّا،ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا.[٢١٦٨]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:«غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ الْفَتْحِ،فَتْحِ مَكَّةَ،ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ،فَنَصَرَ اللهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ وَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً» قَالَ ابْنُ شِهَابٍ:حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ:«وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي،وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ،فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» رواه مسلم[٢١٦٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَكَذَلِكَ إذَا أَمَرَ غَيْرَهُ يُحْسِنُ أَوْ أَحَبَّ مُوَافَقَتَهُ عَلَى ذَلِكَ؛أَوْ نَهَى غَيْرَهُ عَنْ شَيْءٍ؛فَيَحْتَاجُ أَنْ يُحْسِنَ إلَى ذَلِكَ الْغَيْرِ إحْسَانًا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُهُ؛مِنْ حُصُولِ الْمَحْبُوبِ وَانْدِفَاعِ الْمَكْرُوهِ؛فَإِنَّ النُّفُوسَ لَا تَصْبِرُ عَلَى الْمُرِّ إلَّا بِنَوْعِ مِنْ الْحُلْوِ؛لَا يُمْكِنُ غَيْرُ ذَلِكَ؛وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ؛حَتَّى جَعَلَ لِلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ نَصِيبًا فِي الصَّدَقَاتِ.وَقَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} .وَقَالَ تَعَالَى:{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} فَلَا بُدَّ أَنْ يَصْبِرَ وَأَنْ يَرْحَمَ وَهَذَا هُوَ الشَّجَاعَةُ وَالْكَرَمُ.وَلِهَذَا يُقْرِنُ اللَّهُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ تَارَةً؛وَهِيَ الْإِحْسَانُ إلَى الْخَلْقِ وَبَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الصَّبْرِ تَارَةً.وَلَا بُدَّ مِنْ الثَّلَاثَةِ:الصَّلَاةِ؛وَالزَّكَاةِ؛وَالصَّبْرِ.لَا تَقُومُ مَصْلَحَةُ الْمُؤْمِنِينَ إلَّا بِذَلِكَ؛فِي صَلَاحِ نُفُوسِهِمْ وَإِصْلَاحِ غَيْرِهِمْ؛لَا سِيَّمَا كُلَّمَا قَوِيَتْ الْفِتْنَةُ وَالْمِحْنَةُ؛فَالْحَاجَةُ إلَى ذَلِكَ تَكُونُ أَشَدَّ؛فَالْحَاجَةُ إلَى السَّمَاحَةِ وَالصَّبْرِ عَامَّةً لِجَمِيعِ بَنِي آدَمَ لَا تَقُومُ مَصْلَحَةُ دِينِهِمْ وَلَا دُنْيَاهُمْ إلَّا

[٢١٦٨] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٤/ ١٩٢)(١١٧٣٠) ١١٧٥٣- صحيح

[٢١٦٩] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٦)٥٩ - (٢٣١٣)

بِهِ.وَلِهَذَا جَمِيعُهُمْ يَتَمَادَحُونَ بِالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ حَتَّى إنَّ ذَلِكَ عَامَّةُ مَا يَمْدَحُ بِهِ الشُّعَرَاءُ فِي شِعْرِهِمْ.وَكَذَلِكَ يَتَذَامُّونَ بِالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ.وَالْقَضَايَا الَّتِي يَتَّفِقُ عَلَيْهَا بَنُو آدَمَ لَا تَكُونُ إلَّا حَقًّا؛كَاتِّفَاقِهِمْ عَلَى مَدْحِ الصِّدْقِ وَالْعَدْلِ؛وَذَمِّ الْكَذِبِ وَالظُّلْمِ."[2170]

التيسير

الشريعة الإسلامية مبناها على التيسير فهي ميسرة في أصلها،وعند الطارئ كالمرض والسفر ونحوه حيث جاءت بالتيسير والتخفيف في حق المريض والمسافر ونحوهما،وقد قال تعالى:{ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة:١٨٥]

"يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ:يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِتَرْخِيصِهِ لَكُمْ فِي حَالِ مَرَضِكُمْ وَسَفَرِكُمْ فِي الْإِفْطَارِ،وَقَضَاءِ عِدَّةِ أَيَّامٍ أُخَرَ مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي أَفْطَرْتُمُوهَا بَعْدُ إِقَامَتِكُمْ وَبَعْدَ بُرْئِكُمْ مِنْ مَرَضِكُمُ التَّخْفِيفَ عَلَيْكُمْ،وَالتَّسْهِيلَ عَلَيْكُمْ لِعِلْمِهِ بِمَشَقَّةِ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ.{وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:١٨٥] يَقُولُ:وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الشِّدَّةَ،وَالْمَشَقَّةَ عَلَيْكُمْ،فَيُكَلِّفُكُمْ صَوْمَ الشَّهْرِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ،مَعَ عِلْمِهِ شِدَّةَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ وَثِقَلَ حَمْلِهِ عَلَيْكُمْ لَوْ حَمَّلَكُمْ صَوْمَهُ"[2171]

أي:يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير،ويسهلها أشد تسهيل،ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله.وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله،سهَّله تسهيلا آخر،إما بإسقاطه،أو تخفيفه بأنواع التخفيفات.

وهذه جملة لا يمكن تفصيلها،لأن تفاصيلها،جميع الشرعيات،ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.[2172]

وهذه هي القاعدة الكبرى في تكاليف هذه العقيدة كلها.فهي ميسرة لا عسر فيها.وهي توحي للقلب الذي يتذوقها،بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها وتطبع نفس المسلم بطابع خاص

[2170] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٥٣)

[2171] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٢١٨)

[2172] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٦)

من السماحة التي لا تكلف فيها ولا تعقيد.سماحة تؤدى معها كل التكاليف وكل الفـرائض وكل نشاط الحياة الجادة وكأنما هي مسيل الماء الجاري،ونمو الشجرة الصاعدة في طمأنينة وثقة ورضاء.مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر بعباده المؤمنين.[٢١٧٣]

وقال تعالى:{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج:٧٨].

يَأْمُرُ اللهُ المُؤْمنِينَ بالجِهَاد وأَخْلَصَهُ:بالأَمْوَالِ والأَنْفْسِ والأَلْسنَة،فَقَدْ اصْطَفَى اللهُ المُؤْمنِينَ مِنْ هَذه الأُمَّة،واخْتَارَهُمْ عَلَى مَنْ سَوامهُم،وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ مَا لاَ يُطِيقُونَ،وَلَمْ يُضَيِّق اللهُ عَلَيْهِم فِي شَيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينِهِم،بَلْ وَسَّع عَلَيهم،فِي شَيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينِهم،بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِم،كَمَا وَسَّعَ فِي مِلّة إِبْراهِيمَ عَلَيْهِم فِي شَيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينِهم،بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِم،كَمَا وَسَّعَ فِي مِلَّة إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامَ (وَنَصَبَ مِلَّة) عَلَى تَقْدِيرِ الزَمُوا مِلَّة إِبْرَاهِيمَ)،وَقَدْ سَمَّاهُم اللهُ تَعَالَى بالمُسْلمين فِي شَرْعِ إِبْرَاهِيمَ وَفِي الكُتُبِ المُتَقَدِّمَة،وَفِي هَذَا القُرْآنِ (مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا) .وَقَدْ جَعَلَ اللهُ المُسْلمِينَ أُمَّةً وَسَطاً عُدُولاً لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمِ القِيَامَة،لأَنَّ النَّاسَ جَميعاً يَعْتَرِفُونَ بِفَضْلِ المُسْلمِينَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ،فَلِهَذَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَيْهِم،فِي أَنَّ الرُّسُلَ أَبْلَغَتْهُم رِسَالَةَ أَبْلَغَتْهُم رِسَالَةَ رَبِّهِمْ،والرَّسُولُ يَشْهَدُ عَلَى هَذِه الأُمَّة أَنَّهُ أَبْلَغَهَا مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيه،فَلْيُقَابِلِ المُسْلمُونَ هَذه النِعْمَةَ العَظِيمَةَ بالقِيَامِ بشُكْرِ الله عَلَيهَا،وَأَداءِ حَقِّ الله فِيمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِم،ومِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ إِقَامَةُ الصَّلاَة وأداؤها حَقَّ أَدَائِها،وَدفْعُ الزَّكَاة،والاعْتِصَامُ باللهِ،وَالاسْتعَانَةُ بِهِ،والاتِّكَالُ عَلَيْهِ،فَهُوَ مَوْلاَهُمْ وَحَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ،وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّاصِرِ عَلَى الأَعْداء.[٢١٧٤]

هو تعليل للأمر بالجهاد،وداعية إلى امتثال هذا الأمر،لأنه صادر من الله الـذي «اجـتبى» أي اختار هذه الأمة..واصطفاها من بين الأمم لحمل رسالة الإسلام،آخر الرسالات،وأكملها،فهم

[٢١٧٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٩٢)

[٢١٧٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

لهذا مطالبون بأن يكونوا رسلا يحملون دعوة الإسلام،وجنودا يدافعون عنها،ويبذلون النفس والمال فى سبيلها..إنها أمانة،هم أهل لحملها،إذ قد اجتباهم الله لها،وخصّهم بها..

ثم إن هذه الرسالة- رسالة الإسلام- مع ما فيها من دعوة إلى بذل النفس والمال،بالجهاد فى سبيل الله- فإنها رسالة قائمة على الرحمة والعدل،ليس فيها حرج ومشقة على أهلها،إذ أن من أسسها العامة أنه «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها» ..وأن كل إنسان يحمل من تكاليفها وأوامرها قدر ما يستطيع،وفى هذا القدر تحقيق لأدنى المطلوب..

ففى باب الجهاد مثلا،يبدأ الجهاد بمجاهدة النفس،وكفها عن المحرمات،وردّها عن الأهواء والشهوات،وهذا وإن كان الجهاد الأكبر،كما سماه رسول الله ﷺ،فإنه قريب من كل إنسان..إنه أقرب شىء إليه،لا يتكلّف له مالا،ولا يبذل له نفسا..ومع هذا فهو درجات..يبدأ بالكف عن الكبائر،وينتهى بالانتهاء عن اللّمم والصغائر..

ومن الجهاد مثلا..الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..فهو مجاهدة بالقلب وباللسان،لا بالنفس ولا بالمال..

وفى باب الجهاد كذلك،رفع الله الحرج عن الضعفاء والمرضى،وأصحاب العاهات،ونحوهم،وأعفاهم من الجهاد بأنفسهم..«لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى،وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٩١:التوبة) ..وقل مثل هذا فى جميع أوامر الشريعة وأحكامها..إنها شريعة قائمة على اليسر ورفع الحرج،وفى هذا يقول الله تعالى:«فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» (١٦:التغابن) أي فى حدود ما تحتمل أنفسكم،وما تتسع له طاقاتكم..

وفى الحديث الشريف:«إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» ..وفى الحديث أيضا:«إن هذا الدين ذلول لا يركب إلا ذلولا» أي إن هذا الدين سمح سهل،لا ينتفع به إلا إذا أخذ سمحا سهلا،تتقبله النفوس،وتنشرح له الصدور..شأنه فى هذا شأن الطعام،لا يفيد منه الجسم،إلا إذا طابت له النفس،واشتهته،واستساغت طعمه،واستطابت مضغه وبلعه..

وفى الحديث أيضا:«لا تبغّض إلى نفسك عبادة الله» وذلك بالقسوة عليها،وبحملها على ما هو شاق،وبين يديها القريب الميسور! وفى الحديث:«ما خيّر الرسول صلوات الله وسلامه عليه بين أمرين،إلا اختار أيسرهما» ..[٢١٧٥]

ولما كان قوله:{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق،أو تكليف ما يشق،احترز منه بقوله:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} أي:مشقة وعسر،بل يسره غاية التيسير،وسهله بغاية السهولة،فأولا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس،لا يثقلها ولا يؤودها،ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف،خفف ما أمر به،إما بإسقاطه،أو إسقاط بعضه.ويؤخذ من هذه الآية،قاعدة شرعية وهي أن " المشقة تجلب التيسير " و " الضرورات تبيح المحظورات " فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية،شيء كثير معروف في كتب الأحكام.[٢١٧٦]

أي وما جعل عليكم فى الدين الذي تعبدكم به ضيقا لا مخرج لكم منه،بل وسّع عليكم وجعل لكم من كل ذنب مخلصا،فرخص لكم فى المضايق فالصلاة وهى أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب فى الحضر أربعا وفى السفر تقصر إلى اثنتين،ويصليها المريض جالسا،فإن لم يستطع فعلى جنبه،وأباح الفطر حين السفر وحين الإرضاع والحمل والشغل فى شاقّ الأعمال،ولم يوجب علينا الجمعة فى المساجد حين السفر أو الخوف من عدو أو سبع أو مطر إلى نحو أولئك،كما فتح لكم باب التوبة وشرع لكم الكفارات فى حقوقه ودفع الدية بدل القصاص إذا رضى الولي.ونحو الآية قوله سبحانه:«فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» وقوله:«يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» وقوله:«رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا» .[٢١٧٧]

[٢١٧٥] - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١١٠٥)

[٢١٧٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٤٧)

[٢١٧٧] - تفسير المراغي (١٧/ ١٤٨)

وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته.ملحــوظ فيــه تلبيته تلك الفطرة.وإطلاق هذه الطاقة،والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء.فــلا تبقــى حبيســة كالبخار المكتوم.ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم![٢١٧٨]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا،وَبَشِّــرُوا،وَلاَ تُنَفِّــرُوا» متفــقٌ عليه[٢١٧٩]

وعَنْ أَبِي التَّيَّاحِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ النَّبِــيُّ ﷺ:«يَسِّــرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا،وَسَكِّنُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا»[٢١٨٠]

[٢١٧٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٦٩)

[٢١٧٩] - صحيح البخاري (١/ ٢٥)(٦٩) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٩)٨ - (١٧٣٤)

[ش (بشروا) من البشارة وهي الإخبار بالخير.(ولا تنفروا) بذكر التخويف وأنواع الوعيد]

[٢١٨٠] - صحيح البخاري (٨/ ٣٠)(٦١٢٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٩)٨ - (١٧٣٤)

[ش (يسروا) أمر بالتيسير وهو الأخذ بما هو أسهل لينشط الناس في العمل.(سكنوا) من التسكين ضد التحريك والمراد إدخال الطمأنينة والهدوء على النفس]

قَالَ الشَّيْخُ:مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ:«يَسِّرُوا» إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَيِ:اصْرِفُوا وُجُوهَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ،وَرُدُّوهُمْ فِي طَلَبِ الْحَوَائِجِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،وَرُدُّوهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى،فَإِنَّ الْيُسْرَ كُلَّهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:١٨٥]،وَقَالَ {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} [المائدة:٦] .«وَلَا تُعَسِّرُوا» أَيْ:لَا تَرُدُّوهُمْ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ فِي طَلَبِ الْحَوَائِجِ مِنْهُمْ،وَقَضَائِهَا مِنْ عِنْدِهِمْ،فَإِنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى مِثْلِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِمْ فِيهِ،فَكَأَنَّهُمْ يَتَجَاذَبُونَ شَيْئًا بَيْنَهُمْ كُلٌّ يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ،فَيَعْسَرُ عَلَيْكُمُ الْوُصُولُ إِلَى مَا يَتَجَاذَبُونَهُ بَيْنَكُمْ.وَقَوْلُهُ:«سَكِّنُوا» تَصْدِيقًا لِمَا قُلْنَا بِأَنَّ السُّكُونَ هُوَ الطُّمَأْنِينَةُ،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد:٢٨]،فَلَا يَزَالُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فِي اضْطِرَابٍ فِي نَيْلِ مَا يَرْجُوهُ،وَكَذَلِكَ مَا يُرِيدُهُ حَتَّى يَرُدَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،فَهُنَاكَ يَسْكُنُ اضْطِرَابُهُ ضَرُورَةً وَاخْتِيَارًا.وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:«لَا تُنَفِّرُوا» أَيْ:لَا تُفَرِّقُوهُمْ فِي دَلَالَتِهِمْ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ،وَرَدِّهِمْ إِلَى مَنْ سِوَاهُ،فَيَتَفَرَّقُ بِهِمُ الْمَذَاهِبُ،وَيَخْتَلِفُ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ وَالطُّرُقُ فِي طَلَبِ مَا يُرِيدُونَهُ فَالتَّنَافُرُ فُرْقَةٌ،وَالسُّكُونُ جَمْعٌ،فَكَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ:يَسِّرُوا،أَيْ:رُدُّوهُمْ إِلَى الْيُسْرِ [ص:٤٣]،وَلَا تُعَسِّرُوا،أَيْ:لَا تَرُدُّوهُمْ إِلَى الْعُسْرِ،وَسَكِّنُوا:أَيِ اجْمَعُوهُمْ،وَلَا تُنَفِّرُوا أَيْ:لَا تُفَرِّقُوهُمْ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ،وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ»،هَذَا فِيمَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ،فَمَا ظَنُّكَ فِيمَنْ أَرَادَ بِهِمَا.يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ مَا جاء عَنْ عَائِشَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ،إِلَّا اخْتَارَ الَّذِي هُوَ أَيْسَرُ " يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ:اخْتَارَ الَّذِي هُوَ لِلَّهِ تَعَالَى،وَأَنَّهُ إِذَا اخْتَارَ مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَدِ اخْتَارَ الْيُسْرَ؛لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ الْيُسْرَ"بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص:٤٢)

فالواجب على الولاة التيسير على الناس وتسكينهم وتجنب ما ينفرهم ويبعدهم عن الحق.فعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ:«يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا،وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا،وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا» أخرجه البخاري ومسلم[2181].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ،وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ،فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا،وَأَبْشِرُوا،وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ» رواه البخاري[2182]

[2181] - صحيح البخاري (٤/ ٦٥)(٣٠٣٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٩)٧ - (١٧٣٣)

[ش (يسرا) خذا بما فيه من التيسير.(ولا تعسرا) من التعسير وهو التشديد.(بشرا) من التبشير وهو إدخال السرور.(ولا تنفرا) من التنفير أي لا تذكرا شيئا يهربون منه.(تطاوعا) تحابا وليطع كل منكما الآخر]

(يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَتَطَاوَعَا)؛أَيِ اتَّفِقَا فِي الْحُكْمِ،(وَلَا تَخْتَلِفَا)؛أَيْ فِي الْأَمْرِ،وَهَذَا بِحَسَبِ الظَّاهِرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحَدَهُمَا تَحْتَ أَمْرِ الْآخَرِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:يَعْنِي كُونَا مُتَّفِقَيْنِ فِي أَحْكَامِكُمَا،وَلَا تَخْتَلِفَا فَإِنَّ اخْتِلَافَكُمَا يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَافِ أَتْبَاعِكُمَا وَحِينَئِذٍ تَقَعُ الْعَدَاوَةُ وَالْمُحَارَبَةُ بَيْنَهُمْ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .

قَالَ الطِّيبِيُّ:الْأَحَادِيثُ الثَّلَاثَةُ مُتَعَاضِدَةٌ عَلَى مَعْنَى عَدَمِ الْحَرَجِ وَالتَّضْيِيقِ فِي أُمُورِ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج:٧٨] مَفْعُولٌ أَوَّلٌ،وَ (فِي الدِّينِ) ثَانٍ،وَزِيدَتْ (مِنْ) لِلِاسْتِغْرَاقِ،وَالتَّنْكِيرُ فِي (حَرَجٍ) لِلشُّيُوعِ،وَ (عَلَيْكُمْ) مُتَعَلِّقٌ بِهِ قُدِّمَ لِلِاخْتِصَاصِ،كَأَنَّهُ قِيلَ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ دِينَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ خَاصَّةً،وَرَفَعَ الْحَرَجَ عَنْكُمْ أَيًّا كَانَ،فَظَهَرَ مِنْ هَذَا تَرْجِيحُ فِعْلِ الْأَوَّلِينَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ عَلَى رَأْيِ الْمُتَكَلِّفِينَ فِيمَا نَقَلَهُ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ فِي الرَّوْضَةِ مِنَ الشَّرْحِ الْكَبِيرِ؛مِنْ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ لِلْمُجْتَهِدِ مَذْهَبٌ مُدَوَّنٌ،وَإِذَا دُوِّنَتِ الْمَذَاهِبُ فَهَلْ يَجُوزُ لِلْمُقَلِّدِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَذْهَبٍ إِلَى مَذْهَبٍ؟ إِنْ قُلْنَا:يَلْزَمُهُ الِاجْتِهَادُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ،وَغَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّ الثَّانِيَ أَعْلَمُ؛يَنْبَغِي أَنْ يَجُوزَ بَلْ يَجِبَ،وَإِنْ خَيَّرْنَاهُ فَيَنْبَغِي أَنْ يَجُوزَ أَيْضًا،كَمَا لَوْ قَلَّدَ فِي الْقِبْلَةِ هَذَا أَيَّامًا وَهَذَا أَيَّامًا،وَلَوْ قَلَّدَ مُجْتَهِدًا فِي مَسَائِلَ وَآخَرَ فِي مَسَائِلَ أُخْرَى،وَاسْتَوَى الْمُجْتَهِدَانِ عِنْدَهُ خَيَّرْنَاهُ،لَكِنِ الْأُصُولِيُّونَ مَنَعُوا مِنْهُ،وَحَكَى الْحَانِطِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ:فِيمَا إِذَا اخْتَارَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ مَا هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْسُقَ بِهِ،وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ لَا يَفْسُقُ بِهِ،وَيُعَضِّدُ هَذَا التَّرْجِيحَ قَوْلُ الْإِمَامِ مَالِكٍ:حِينَ أَرَادَ الرَّشِيدُ الشُّخُوصَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْعِرَاقِ؛وَقَالَ لَهُ:يَنْبَغِي أَنْ تَخْرُجَ مَعِي فَإِنِّي عَزَمْتُ أَنْ أَحْمِلَ النَّاسَ عَلَى الْمُوَطَّأِ كَمَا حَمَلَ عُثْمَانُ النَّاسَ عَلَى الْقُرْآنِ؛فَقَالَ:أَمَّا حَمْلُ النَّاسِ عَلَى الْمُوَطَّأِ فَلَيْسَ لَكَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ؛لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- افْتَرَقُوا بَعْدَهُ فِي الْأَمْصَارِ،فَحَدَّثُوا فَعِنْدَ كُلِّ أَهْلِ مِصْرٍ عِلْمٌ،..."مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٢٢)

[2182] - صحيح البخاري (١/ ١٦)(٣٩)

[ش (يسر) ذو يسر.(يشاد الدين) يكلف نفسه من العبادة فوق طاقته والمشادة المغالبة.(إلا غلبه) رده إلى اليسر والاعتدال.(فسددوا) الزموا السداد وهو التوسط في الأعمال.(قاربوا) اقتربوا من فعل الأكمل إن لم تسطيعوه.(واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة) استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة كأول النهار وبعد الزوال وآخر الليل]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَنْ يُنَجِّيَ أَحَـــدًا مِـــنْكُمْ عَمَلُـــهُ» قَالُوا:وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«وَلاَ أَنَا،إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ،سَدِّدُوا وَقَارِبُوا،وَاغْدُوا وَرُوحُوا،وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ،وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»[2183]

" إِنَّ الدِّينَ "):وَهُوَ مَا وَضَعَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ (" يُسْرٌ ")،أَيْ:مَبْنِيٌّ عَلَى الْيُسْرِ،وَقِيلَ:(يُسْرٌ) مَصْدَرٌ وُضِعَ مَوْضِعَ الْمَفْعُولِ مُبَالَغَةً ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ،وَقَالَ تَعَالَى:{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:١٨٥] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج:٧٨] وَقَالَ ﷺ:" «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ» ".وَأَمَّا حَدِيثُ:«عَلَيْكُمْ بِدِينِ الْعَجَائِزِ»،فَلَا أَصْلَ لَهُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ السَّخَاوِيُّ،(" وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ ")،أَيْ:وَلَنْ يُقَاوِمَهُ أَحَدٌ بِشِدَّةٍ،وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ شَدَّدَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَعَمَّقَ فِي أَمْرِ الدِّينِ بِمَا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ،فَلَرُبَّمَا يَغْلِبُهُ مَا تَحَمَّلَهُ مِنَ الْكُلْفَةِ،فَيَضْعُفُ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّ مَا كُلِّفَ بِهِ،وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ:(" إِلَّا غَلَبَهُ ")،أَيْ:إِلَّا غَلَبَ الدِّينُ عَلَيْهِ.وَالْمُشَادَّةُ:التَّشَدُّدُ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ مُبَالَغَةً فِي تَعْظِيمِهِ وَالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يُشَادُّهُ،أَيْ:لَنْ يُبَالِغَ فِي تَشْدِيدِ الدِّينِ الْمَيْسُورِ أَحَدٌ يَسْتَقِرُّ عَلَى وَصْفٍ مِنَ الْأَوْصَافِ إِلَّا عَلَى وَصْفِ كَوْنِهِ قَدْ غَلَبَهُ ذَلِكَ الدِّينُ حَيْثُ كُثْرِهِ مَعَ يُسْرِهِ،وَقَصَدَ أَنْ يَغْلِبَ عَلَيْهِ بِالزِّيَادَةِ فِيهِ عَلَى مَا شُرِعَ لَهُ تَهَوُّرًا،وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعَهَا مَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ مَآلَ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَفْتُرَ وَيَعْجِزَ عَنْهَا وَيَعُودَ مَلُومًا مُقَصِّرًا،وَمِنْ ثَمَّ كَانَ أَشَدُّ إِنْكَارِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى قَوْمٍ أَرَادُوا التَّشْدِيدَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَمَا مَرَّ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو لَمَّا كَبِرَ وَضَعُفَ عَمَّا كَانَ أَوْصَاهُ بِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ أَعْمَالٍ ذَكَرَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُعْتَدِلَهَا،فَأَبَى إِلَّا مُشِقَّهَا:يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.(" فَسَدِّدُوا ")،أَيِ:الْزَمُوا طَرِيقَ الِاقْتِصَارِ،وَاطْلُبُوا سَبِيلَ السَّدَادِ مِنَ الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ،(" وَقَارِبُوا ")،أَيِ:الْأَمْرَ بِالسُّهُولَةِ وَلَا تُبَاعِدُوهُ بِالْكُلْفَةِ وَالصُّعُوبَةِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:الْفَاءُ جَوَابُ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ،يَعْنِي:إِذَا بَيَّنْتُ لَكُمْ مَا فِي الْمُشَادَّةِ مِنَ الْوَهَنِ فَسَدِّدُوا،أَيِ:اطْلُبُوا السَّدَادَ وَهُوَ الْقَصْدُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا مَيْلَ فِيهِ،(وَقَارِبُوا) تَأْكِيدٌ لِلتَّسْدِيدِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى،يُقَالُ:قَارَبَ فُلَانٌ فِي أُمُورِهِ:إِذَا اقْتَصَدَ (" وَأَبْشِرُوا ")،أَيْ:بِالْجَنَّةِ وَالسَّلَامَةِ وَبِكُلِّ نِعْمَةٍ وَكَرَامَةٍ،فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْجَزِيلَ عَلَى عَمَلِ الْقَلِيلِ،قَالَ الْكِرْمَانِيُّ:بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ،وَجَاءَ فِي لُغَةٍ:ابْشُرُوا بِضَمِّ الشِّينِ مِنَ الْبِشْرِ بِمَعْنَى الْإِبْشَارِ.(" وَاسْتَعِينُوا "):عَلَى أَمْرِ الْعِبَادَاتِ مِنْ بَيْنِ الْأَوْقَاتِ (" بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ "):بِالْفَتْحِ وَسُكُونِ الثَّانِيَةِ فِيهِمَا،وَبِضَمِّ الْكَلِمَةِ الْأُولَى،أَيْ:بِالسَّيْرِ فِي السُّلُوكِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ،وَهُمَا زَمَانُ الرَّاحَاتِ وَالْغَفَلَاتِ،(" وَشَيْءٍ "):وَبِشَيْءٍ وَلَوْ قَلِيلٍ (" مِنَ الدُّلْجَةِ "):بِضَمِّ الدَّالِّ وَتُفْتَحُ مَعَ سُكُونِ اللَّامِ:آخِرُ اللَّيْلِ،وَهُوَ أَفْضَلُ السَّاعَاتِ وَأَكْمَلُ الْحَالَاتِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:الْغُدْوَةُ بِالضَّمِّ:مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْغَدْوَةِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ،وَبِالْفَتْحِ الْمَرَّةُ مِنَ الْغُدُوِّ،وَهُوَ سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ نَقِيضُ الرَّوَاحِ،وَالدُّلْجَةُ بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ اسْمٌ مِنِ ادَّلَجَ بِالتَّشْدِيدِ:إِذَا سَارَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ اسْتُعِيرَتْ هَذِهِ الْأَوْقَاتُ لِلصَّلَاةِ فِيهَا.اهـــ.

وَقِيلَ:الدُّلْجَةُ مِنَ الْإِدْلَاجِ بِسُكُونِهِ،وَهُوَ سَيْرُ أَوَّلِ اللَّيْلِ،فَالْمُرَادُ بِهِ إِحْيَاءُ مَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ،وَهُوَ صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ،أَوِ الْمَعْنَى:اسْتَعِينُوا بِالطَّاعَةِ عَلَى تَحْصِيلِ الْجَنَّةِ،وَالْمَثُوبَةِ فِي الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ،وَالِاسْتِرَاحَةِ فِي غَيْرِهَا حَتَّى لَا تَكْسَلُوا وَلَا تَتْعَبُوا وَلَا تَمَلُّوا وَلَا تَخْلُوا،وَقِيلَ:اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ،وَاسْتِنْجَاحِ مَقَاصِدِكُمْ بِالصَّلَاةِ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ.(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٣٤)

[2183] - صحيح البخاري (٨/ ٩٨)(٦٤٦٣)

[ش(اغدوا) من الغدو وهو السير أول النهار.(روحوا) من الرواح وهو السير في النصف الثاني من النهار.(الدلجة) السير آخر الليل.(القصد) الزموا الوسط المعتدل في الأمور.(تبلغوا) مقصدكم وبغيتكم]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ:أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ:«الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»[٢١٨٤]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:أَخْبَرَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ:أَيُّ الدِّينِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»[٢١٨٥].

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ،قَالَ:أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ الْمُسْلِمَةُ لَا الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ»[٢١٨٦]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّهَا قَالَتْ:«مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا،مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا،فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ،وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ،إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ،فَيَنْتَقِمَ بِهَا لِلَّهِ»[٢١٨٧]

[٢١٨٤] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٠٨)(٢٨٧) صحيح لغيره

[٢١٨٥] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٢٣٥)(١٦٧٤) صحيح لغيره

[٢١٨٦] - المسند للشاشي (٣/ ٣٦٦)(١٤٨٥) حسن

[٢١٨٧] - صحيح البخاري (٨/ ٣٠)(٦١٢٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٨١٣)٧٧ - (٢٣٢٧)

مَا خُيِّرَ) أَيْ:مَا جُعِلَ مُخَيَّرًا (رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ) أَيِ:اخْتَارَ كَمَا فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ (أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ) أَيِ:الْأَمْرُ الْأَيْسَرُ (إِثْمًا) أَيْ:ذَا إِثْمٍ.وَفِي رِوَايَةِ.التِّرْمِذِيِّ مَا لَمْ يَكُنْ مَأْثَمًا أَيْ إِثْمًا أَوْ مَوْضِعَ إِثْمٍ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ،أَوِ اسْمُ مَكَانٍ،وَإِلَى هُنَا انْتَهَتْ رِوَايَةُ التِّرْمِذِيِّ.(فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ)،أَيْ:وَكَانَ حِينَئِذٍ يَأْخُذُ أَرْشَدَهُمَا وَلَوْ أَعْسَرَهُمَا وَأَشَدَّهُمَا.قَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ:أُبْهِمَ فَاعِلُ خُيِّرَ لِيَكُونَ أَعَمَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ قِبَلِ الْمَخْلُوقِينَ،أَوْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى،لَكِنَّ التَّخْيِيرَ يُبَيِّنُ مَا فِيهِ إِثْمٌ وَيُبَيِّنُ مَا لَا إِثْمَ فِيهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ مُشْكِلٌ،لِأَنَّ التَّخْيِيرَ بِمَا يَكُونُ بَيْنَ جَائِزٍ إِلَّا إِذَا حَمَلْنَا عَلَى مَا يُفْضِي إِلَى الْإِثْمِ،فَذَلِكَ مُمْكِنٌ بِأَنْ يُخَيَّرَ بَيْنَ أَنْ يُفْتَحَ عَلَيْهِ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ مَا يَخْشَى مِنَ الاشْتِغَالِ بِهِ أَنْ لَا يَتَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ،وَبَيْنَ أَنْ لَا يُؤْتِيَهُ لَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا الْكَفَافَ،وَإِنْ كَانَ السَّعَةُ أَسْهَلَ فَالْإِثْمُ عَلَى هَذَا أَمْرٌ نِسْبِيٌّ لَا مَا يُرَادُ بِهِ الْخَطِيئَةُ لِثُبُوتِ الْعِصْمَةِ.(وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ) أَيْ:مَا غَاضَبَ أَحَدًا لِنَفْسِهِ) أَيْ:لِأَجْلِ حَظِّهَا (فِي شَيْءٍ) أَيْ:يَتَخَلَّقُ بِنَفْسِهِ)،أَيْ أَبَدًا (إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ يُرْتَكَبُ (فَيَنْتَقِمُ):بِالرَّفْعِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ أَيْ:فَيُعَاقِبُ حِينَئِذٍ (اللَّهُ) أَيْ:لَا لِغَرَضٍ آخَرَ (بِهِمْ) .أَيْ بِسَبَبِ تِلْكَ الْحُرْمَةِ ثُمَّ انْتِهَاكُ الْحُرْمَةِ تَنَاوُلُهَا بِمَا لَا يَحِلُّ.يُقَالُ:فُلَانٌ انْتَهَكَ مَحَارِمَ اللَّهِ أَيْ:فَعَلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِعْلَهُ عَلَيْهِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ أَيْ:مَا عَاقَبَ أَحَدًا لِخَاصَّةِ نَفْسِهِ بِجِنَايَةٍ جَنَى عَلَيْهِ،بَلْ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا فَعَلَ شَيْئًا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} [النور:٢] .قَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ:الْمَعْنَى مَا انْتَقَمَ لِحَاجَةِ نَفْسِهِ،فَلَا يُرَدُّ أَمْرُهُ - ﷺ- بِقَتْلِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَطَلٍ وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَنْتَهِكُونَ حُرُمَاتِ اللَّهِ.وَقِيلَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ السَّبِّ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الْكُفْرِ،وَقِيلَ:يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِالْمَالِ،وَأَمَّا الْعِرْضُ فَقَدِ اقْتَصَّ مِمَّنْ نَالَ مِنْهُ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧١٥)

وهذا الحديث أصل عظيم في السياسة الشرعية يجب على ولاة الأمر العمل به في سياسة الدولة،وهو اختيار الأيسر الذي لا يشق على الناس ولا ينفرهم ما لم يكن إثما،فإن كان إثما فالتيسير اجتنابه والبعد عنه وصيانة الرعية وتطهيرها من الوقوع فيه،فليس من التيسير الذي جاءت به الشريعة أن يلتمس رضا الناس بسخط الله تعالى،فعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ،وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ،وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» رواه ابن حبان[٢١٨٨].

وعَنْ رَجُلٍ،مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ قَالَ:كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ،وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ،فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ:سَلَامٌ عَلَيْكَ.أَمَّا بَعْدُ:فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنِ التَمَسَ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ،وَمَنِ التَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ،وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ» [٢١٨٩]

[٢١٨٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٥١٠)(٢٧٦) صحيح

[٢١٨٩] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦١٠)(٢٤١٤) حسن لغيره

(وَعَنْ مُعَاوِيَةَ) أَيِ:ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ صَحَابِيَّانِ مَشْهُورَانِ (أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عَائِشَةَ) أَيْ:أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ (أَنِ اكْتُبِي):أَنْ مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ مُفَسِّرَةٌ لِمَا فِي الْكِتَابَةِ مِنْ مَعْنَى الْقَوْلِ (إِلَيَّ) أَيْ:مُرْسَلًا أَوْ مَوْصُولًا حَالٌ أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ:(كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ) أَيْ:فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ مِنْ كُلِّ بَابٍ (وَلَا تُكْثِرِي) أَيْ:بِالْإِطْنَابِ،بَلْ أَوْجِزِي بِكَلَامٍ جَامِعٍ يَكُونُ فَصْلَ الْخِطَابِ،لِأَنَّهَا مِنْ أَصْلِ بَيْتِ مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْحِكَمِ وَبَدَائِعَ الْكَلِمِ.(فَكَتَبَتْ:سَلَامٌ عَلَيْكَ):وَاقْتَصَرَتْ عَلَى غَنِيمَةِ السَّلَامَةِ خَوْفَ السَّآمَةِ (أَمَّا بَعْدُ) أَيْ:بَعْدَ السَّلَامِ أَوْ مَا بَعْدَ مَا سَبَقَ مِنَ الْكَلَامِ (فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- يَقُولُ:مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ) أَيْ:مَنْ طَلَبَ رِضَاهُ فِي شَيْءٍ يَسْخَطُ النَّاسُ عَلَيْهِ بِسَبَبِهِ (كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ) أَيْ:وَمُؤْنَةَ شَرِّهِمْ مِنَ الظُّلْمِ عَلَيْهِ وَالْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ (وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ):بِتَخْفِيفِ الْكَافِ أَيْ:خَلَّاهُ وَتَرَكَ نَصْرَهُ وَدَفْعَهُ (إِلَى النَّاسِ):وَهَذَا وَصِيَّةٌ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ.قَالَ الْمُظْهِرُ يَعْنِي إِذَا عَرَضَ لَهُ أَمْرٌ فِي فِعْلِهِ رِضَا اللَّهِ وَغَضَبُ النَّاسِ أَوْ عَكْسُهُ،فَإِنْ فَعَلَ الْأَوَّلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَدَفَعَ عَنْهُ شَرَّ النَّاسِ،وَإِنْ فَعَلَ الثَّانِي وَكَلَهُ إِلَى النَّاسِ يَعْنِي سَلَّطَ النَّاسَ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْذُوهُ وَيَظْلِمُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ شَرَّهُمْ.وَفِي النِّهَايَةِ:وَكَلْتُ أَمْرِي إِلَى فُلَانٍ أَيْ:أَلْجَأْتُهُ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدْتُ فِيهِ عَلَيْهِ.(وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ):فَالْأَوَّلُ بِمَنْزِلَةِ سَلَامِ الْمُلَاقَاةِ،وَالثَّانِي فِي مَرْتَبَةِ الْمُوَادَعَةِ أَوْ كَأَنَّهَا قَالَتْ:السَّلَامُ عَلَيْكَ أَوَّلًا وَآخِرًا أَوْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَفِي تَكْرَارِ السَّلَامِ إِشَارَةٌ خَفِيَّةٌ إِلَى تَأْكِيدِ طَلَبِ السَّلَامَةِ وَتَرْكِ مَا يُؤَدِّي إِلَى الْمَلَامَةِ".مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٠٤)

ومن التيسير الذي جاءت به الشريعة الإسلامية التيسير والرفق في تعليم الناس ودعــوتهم،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلَــا تُعَسِّــرُوا،وَإِذَا غَضِــبَ أَحَــدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»[2190]

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ :أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَالنَّاسُ بِبَابِهِ جُلُوسٌ،فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ،فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،ثُمَّ أُذِنَ لأَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ فَدَخَلاَ وَالنَّبِــيُّ ﷺ جَالِسٌ،وَحَوْلَــهُ نِسَاؤُهُ وَهُوَ سَاكِتٌ،فَقَالَ عُمَرُ :لأُكَلِّمَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَلَّهُ يَضْحَكُ،فَقَالَ عُمَرُ :يَا رَسُولَ اللهِ،لَــوْ رَأَيْتَ بِنْتَ زَيْدٍ،امْرَأَةَ عُمَرَ،سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ آنِفًا،فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا،فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّــى بَــدَا نَاجِذُهُ،قَالَ :هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ،فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ لِيَضْرِبَهَا،وَقَامَ عُمَــرُ إِلَى حَفْصَةَ كِلاَهُمَا يَقُولاَنِ :تَسْأَلاَنِ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ،فَنَهَاهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقُلْنَ نِسَاؤُهُ :وَاللَّهِ لاَ نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذَا الْمَجْلِسِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ،قَالَ :وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخِيَارَ،فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ،فَقَالَ :إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا،مَا أُحِــبُّ أَنْ تَعْجَلِــي فِيــهِ،حَتَّى تَسْــتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ،قَالَتْ :مَا هُوَ ؟ قَالَ :فَتَلاَ عَلَيْهَا :{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ} الآيَةَ قَالَــتْ عَائِشَــةُ :أَفِيكَ أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،وَأَسْأَلُكَ أَنْ لاَ تَذْكُرَ لاِمْرَأَةٍ مِــنْ نِسَــائِكَ مَــا اخْتَرْتُ،فَقَالَ :إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا،وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا،لاَ تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَمَّــا اخْتَرْتِ إِلاَّ أَخْبَرْتُهَا.رواه أحمد[2191]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًــا بِبَابِهِ،لَمْ يُؤْذَنْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ،قَالَ:فَأُذِنَ لأَبِي بَكْرٍ،فَدَخَلَ،ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ،فَاسْتَأْذَنَ فَــأُذِنَ لَهُ،فَوَجَــدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ،وَاجِمًا سَاكِتًا،قَالَ:فَقَالَ:لأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:يَــا رَسُولَ اللهِ،لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ،سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ،فَقُمْتُ إِلَيْهَا،فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا،فَضَحِكَ رَسُــولُ

[2190] - الأدب المفرد مخرجا (ص:95)(245) صحيح

(علموا) الناس ما يلزمهم من أمر دينهم (ويسروا ولا تعسروا) الواو للحال أي علموهم وحالتكم في التعليم اليسر لا العسر بأن تسلكوا بهم سبيل الرفق في التعليم (وبشروا ولا تنفروا) أي لا تشددوا عليهم ولا تلقوهم بما يكرهون لئلا ينفروا من قبول الدين واتباع الهدى (وإذا غضب أحدكم فليسكت) فإن السكوت يسكن الغضب وحركة الجوارح تثيره"فيض القدير (4/ 328)

[2191] - مسند أحمد (عالم الكتب) (5/ 99)(14515) 14569- صحيح

اللهِ ﷺ،وَقَالَ:«هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى،يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ»،فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا،فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا،كِلَاهُمَا يَقُولُ:تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ،فَقُلْنَ:وَاللهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ،ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا - أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ - ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ} [الأحزاب:٢٨] حَتَّى بَلَغَ {لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب:٢٩]،قَالَ:فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ،فَقَالَ:«يَا عَائِشَةُ،إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ»،قَالَتْ:وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ،قَالَتْ:أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ،أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ،وَالدَّارَ الْآخِرَةَ،وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ،قَالَ:«لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا،إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا،وَلَا مُتَعَنِّتًا،وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»[٢١٩٢]

[٢١٩٢] - صحيح مسلم (٢/ ١١٠٤)٢٩ - (١٤٧٨)

[ش (واجما) قال أهل اللغة هو الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام (فوجأت عنقها) أي طعنت والعنق الرقبة وهو مذكر والحجاز تؤنث والنون مضمومة للاتباع في لغة الحجاز وساكنة في لغة تميم قاله في المصباح (معنتا ولا متعنتا) أي مشددا على الناس وملزما إياهم ما يصعب عليهم ولا متعنتا أي طالبا زلتهم وأصل العنت المشقة]

(وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ:دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ):أَيْ:أَرَادَ الدُّخُولَ (يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ):حَالٌ أَوِ اسْتِئْنَافُ بَيَانٍ (فَوَجَدَ):أَيْ:أَبُو بَكْرٍ (النَّاسَ):أَيْ:عُمُومَهُمْ (جُلُوسًا):أَيْ:جَالِسِينَ أَوْ ذَوِي جُلُوسٍ (بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ،قَالَ):أَيْ:جَابِرٌ (فَأُذِنَ):بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَيُفْتَحُ (لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ):أَيْ:عُمَرُ (النَّبِيَّ - ﷺ- جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ):لَعَلَّ هَذَا قَبْلَ نُزُولِ الْحِجَابِ (وَاجِمًا):أَيْ:حَزِينًا مُهْتَمًّا (سَاكِتًا):فِي النِّهَايَةِ:الْوَاجِمُ مَنْ أَسْكَتَهُ الْهَمُّ وَعَلَتْهُ الْكَآبَةُ.(فَقَالَ):أَيْ:عُمَرُ فِي نَفْسِهِ وَفِي نُسْخَةٍ (قُلْتُ لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ - ﷺ-) بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الْحَاءِ وَفِي رِوَايَةٍ يُضْحِكُ النَّبِيَّ - ﷺ- وَهُوَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِضْحَاكِ،وَالنِّسْبَةُ مَجَازِيَّةٌ وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الضَّحِكِ،فَالتَّقْدِيرُ يَضْحَكُ بِهِ النَّبِيُّ - ﷺ-،وَالْمُرَادُ حُصُولُ السُّرُورِ وَالِانْشِرَاحِ،وَرَفْعُ الْكُدُورَةِ بِالْمِزَاحِ،قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ:قَوْلُهُ " يُضْحِكُ " فِي نُسْخَةٍ " أُضْحِكُ " فِيهِ نَدْبٌ مِثْلُ هَذَا،وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى صَاحِبَهُ حَزِينًا أَنْ يُحَدِّثَهُ حَتَّى يَضْحَكَ أَوْ يَشْغَلَهُ وَيُطَيِّبَ نَفْسَهُ.اهـ.وَفِي آدَابِ الْمُرِيدِينَ لِلسَّهْرَوَرْدِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -،«عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ- يُسِرُّ الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذَا رَآهُ مَغْمُومًا بِالْمُدَاعَبَةِ» .(فَقَالَ):أَيْ:عُمَرُ (يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ):أَيْ:لَوْ عَلِمْتَ (بِنْتَ خَارِجَةَ):يَعْنِي بِهَا زَوْجَتَهُ وَلَوْ لِلتَّمَنِّي (سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ):أَيِ:الزِّيَادَةَ عَلَى الْعَادَةِ أَوْ فَوْقَ الْحَاجَةِ (فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ):بِالْهَمْزِ أَيْ ضَرَبْتُ (عُنُقَهَا):بِكَفِّي،فِي الْمُغْرِبِ:الْوَجْأُ الضَّرْبُ بِالْيَدِ يُقَالُ وَجَأَ فِي عُنُقِهِ مِنْ بَابِ مَنَعَ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:الْوَجْأُ الضَّرْبُ،وَالْعَرَبُ تَحْتَرِزُ عَنْ لَفْظِ الضَّرْبِ؛فَلِذَلِكَ عُدِلَ إِلَى الْوَجَأِ،وَفِي الْقَامُوسِ:وَجَأَهُ بِالْيَدِ وَالسِّكِّينِ كَوَضَعَهُ ضَرَبَهُ،اهـ.وَجَاءَ الْوَجْأُ بِمَعْنَى الدَّقِّ عَلَى مَا فِي النِّهَايَةِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺوَقَالَ:هُنَّ):أَيْ:نِسَائِي (حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ):أَيْ:زِيَادَتَهَا عَنْ عَادَتِهَا (فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَجَأُ):أَيْ:يَدُقُّ (عُنُقَهَا وَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا كِلَاهُمَا يَقُولُ):خِطَابًا لِبِنْتِهِ (تَسْأَلِينَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- مَا لَيْسَ عِنْدَهُ فَقُلْنَ):أَيْ:عِنْدَهُنَّ أَوْ مَا عِنْدِي أَنَّ التَّثْنِيَةَ أَقَلُّ الْجَمْعِ (وَاللَّهِ لَا

نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّه – ﷺ):أَيْ:بَعْدَ هَذَا (شَيْئًا):أَيْ:منَ الْأَشْيَاء (أَبَدًا):تَأْكيدُ " أَلَّا نَسْأَلَ " (لَيْسَ عنْدَهُ):أَيْ:ذَلكَ الشَّيْءُ (ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تسْعًا وَعشْرينَ):بنَاءً عَلَى يَمينه السَّابق،وَالصَّحيحُ الثَّاني وَلَعَلَّهُ لَمْ يَبْلُغْهُ فَتَرَدَّدَ فيه ثُمَّ نَزَلَتْ هَذه الْآيَةُ {يَاأَيُّهَا النَّبيُّ قُلْ لأَزْوَاجكَ} [الأحزاب:٢٨] حَتَّى بَلَغَ {للْمُحْسنَات منْكُنَّ أَجْرًا عَظيمًا} [الأحزاب:٢٩]:وَهُوَ {إِنْ كُنْتُنَّ تُردْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَميلًا – وَإِنْ كُنْتُنَّ تُردْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ} [الأحزاب:٢٨ – ٢٩] إِلَخْ (قَالَ):أَيْ:جَابرٌ (فَبَدَأَ):أَيْ:في التَّخْيير (بعَائشَةَ – رَضيَ اللَّهُ عَنْهَا):فَإِنَّهَا أَعْقَلُهُنَّ وَأَفْضَلُهُنَّ (فَقَالَ:يَا عَائشَةُ إِنِّي أُريدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْك أَمْرًا أُحبُّ أَنْ لَا تَعْجَلي فيه):أَيْ:في جَوَابه منْ تلْقَاء نَفْسك (حَتَّى تَسْتَشيري أَبَوَيْك):خَوْفًا عَلَيْهَا منْ صغَر سنِّهَا الْمُقْتَضي إرَادَةَ زينَة الدُّنْيَا أَنْ لَا تَخْتَارَ الْآخرَةَ،وَفي روَايَة عَنْهَا " وَقَدْ علمَ أَنَّ أَبَويَّ لَمْ يَكُونَا ليَأْمُرَاني بفرَاقه " قَالَ النَّوَويُّ – رَحمَهُ اللَّهُ –:إِنَّمَا قَالَ " لَا تَعْجَلي " شَفَقَةً عَلَيْهَا وَعَلَى أَبَوَيْهَا،وَنَصيحَةً لَهُمْ في بَقَائهَا عنْدَهُ،فَإِنَّهُ خَافَ أَنْ يَحْملَهَا صغَرُ سنِّهَا وَقلَّةُ تَجَاربهَا عَلَى اخْتيَار الْفرَاق،فَتَتَضَرَّرَ هيَ وَأَبَوَاهَا وَبَاقي النِّسْوَة بالاقْتدَاء بهَا.(قَالَتْ:وَمَا هُوَ):أَيْ:ذَلكَ الْأَمْرُ (يَا رَسُولَ اللَّه،فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ):أَي:الْمَذْكُورَةَ (قَالَتْ:أَفيكَ):أَيْ:في فرَاقكَ أَوْ في وصَالكَ أَوْ في حَقِّكَ (يَا رَسُولَ اللَّه اسْتَشيرُ أَبَويَّ):لأَنَّ الاسْتشَارَةَ فَرْعُ التَّرَدُّد في الْقَضيَّة الْمُخْتَارَة (بَلْ):أَيْ:لَا أَسْتَشيرُ أَحَدًا (أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخرَةَ):وَفي الْكَلَام إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ إرَادَةَ زينَة الْحَيَاة الدُّنْيَا وَطَلَبَ الدَّار الْآخرَة لَا يَجْتَمعَان عَلَى وَجْه الْكَمَال،وَلذَا قَالَ – ﷺ:" «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بآخرَته وَمَنْ أَحَبَّ آخرَتَهُ أَضَرَّ بدُنْيَاهُ فَآثرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى» ".(وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبرَ امْرَأَةً منْ نسَائكَ بالَّذي قُلْتُ):أَمَا أَنَّهَا أَرَادَت اخْتيَارَهُنَّ الدُّنْيَا ليَخْلُصَ لَهَا الْوصَالُ في الدُّنْيَا وَالْكَمَالُ في الْعُقْبَى (قَالَ لَا تَسْأَلُني امْرَأَةٌ منْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا):لأُعينَهَا به عَلَى اخْتيَار الْمُخْتَار تَقْليدًا أَوْ تَحْقيقًا (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْني مُعَنِّتًا):بالتَّشْديد أَيْ مُوقعًا أَحَدًا في أَمْر شَديد وَالْعَنَتُ الْمَشَقَّةُ وَالْإِثْمُ أَيْضًا (وَلَا مُتَعَنِّتًا):أَيْ:طَالبًا لزَلَّة أَحَد (وَلَكنْ بَعَثَني مُعَلِّمًا):أَيْ:للْخَيْر (مُيَسِّرًا):أَيْ:مُسَهِّلًا للْأَمْر وَفي نُسْخَة مُبَشِّرًا أَيْ لمَنْ آمَنَ بالْجَنَّة وَالنَّعيم وَلمَن اخْتَارَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخرَةَ بالْأَجْر الْعَامِّ،قَالَ:قَتَادَةُ فَلَمَّا اخْتَرْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ شَكَرَهُنَّ عَلَى ذَلكَ وَقَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ فَقَالَ:{لَا يَحلُّ لَكَ النِّسَاءُ منْ بَعْدُ} [الأحزاب:٥٢] كَذَا ذَكَرَهُ الْبَغَويُّ (رَوَاهُ مُسْلمٌ):قَالَ النَّوَويُّ:فيه جَوَازُ احْتجَاب الْإِمَام وَالْقَاضي وَنَحْوهمَا في بَعْض الْأَوْقَات لحَاجَاتهمُ الْمُهمَّة وَالْغَالبُ منْ عَادَة النَّبيِّ – ﷺ – أَنْ لَا يَتَّخذَ حَاجبًا،فَاتِّخَاذُهُ في ذَلكَ الْيَوْم ضَرُورَةٌ،وَفيه وُجُوبُ الاسْتئْذَان عَلَى الْإِنْسَان في مَنْزله،وَفيه أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْخَليل وَغَيْره في احْتيَاج الاسْتئْذَان،وَفيه تَأْديبُ الرَّجُل وَلَدَهُ وَإِنْ كَبرَ فَاسْتَقَلَّ،وَفيه مَا كَانَ عَلَيْه – ﷺ – منَ التَّقَلُّل منَ الدُّنْيَا وَالزَّهَادَة فيهَا،وَفيه جَوَازُ سَكَن الْغُرْفَة لذَات الزَّوْج،وَاتِّخَاذُ الْخزَانَة،وَفيه مَا كَانُوا عَلَيْه منْ حرْصهمْ عَلَى طَلَب الْعلْم،وَفيه أَنَّ للزَّوْج تَخْييرَ زَوْجَته وَاعْتزَالَهُ عَنْهَا في بَيْت آخَرَ،وَفيه دَلَالَةٌ لمَذْهَب مَالك وَالشَّافعيِّ وَأَبي حَنيفَةَ وَأَحْمَدَ وَجَمَاهير الْعُلَمَاء أَنَّ مَنْ خَيَّرَ زَوْجَتَهُ وَاخْتَارَتْهُ لَمْ يَكُنْ ذَلكَ طَلَاقًا وَلَا يَقَعُ به فُرْقَةٌ،وَرَوَى عَنْ عَليٍّ وَزَيْد بْن ثَابت وَالْحَسَن وَاللَّيْث أَنَّهُ يَقَعُ الطَّلَاقُ بنَفْس التَّخَيُّر طَلْقَةً بَائنَةً سَوَاءٌ اخْتَارَتْ زَوْجَهَا أَمْ لَا،وَلَعَلَّ الْقَائلينَ به لَمْ يَبْلُغْهُمْ هَذَا الْحَديثُ اهـ.وَسَيَأْتي بهَذه الْمَسْأَلَة زيَادَةُ بَيَانٍ وَبُرْهَانٍ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢١٢٢)

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ،أَخْبَرَهُ:أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ،فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«دَعُوهُ،وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ،أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ،فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» رواه البخاري[٢١٩٣] .

[٢١٩٣] - صحيح البخاري (٨/ ٣٠)(٦١٢٨) [ش (فثار..) هاجوا عليه.(ليقعوا به) ليؤذوه بالضرب ونحوه.(سجلا) دلوا فيه ماء]

(وَعَنْهُ):أَيْ:عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (قَالَ:قَامَ أَعْرَابِيٌّ) وَهُوَ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ،(فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ،فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ):أَيْ:بِأَلْسِنَتِهِمْ سَبًّا وَشَتْمًا.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ:وَقَعُوا فِيهِ يُؤْذُونَهُ.وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَخَذُوهُ لِلضَّرْبِ،وَالْأَظْهَرُ زَجَرُوهُ وَمَنَعُوهُ مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ وَإِيذَاءٍ،كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآتِي،(فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ:دَعُوهُ):أَيْ:اتْرُكُوهُ؛فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ؛لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ عَدَمَ جَوَازِ الْبَوْلِ فِي الْمَسْجِدِ؛لِقُرْبِهِ بِالْإِسْلَامِ،وَبُعْدِهِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،وَقِيلَ:لِئَلَّا يَتَعَدَّدَ مَكَانُ النَّجَاسَةِ،وَقِيلَ:لِئَلَّا يَتَضَرَّرَ بِانْحِبَاسِ الْبَوْلِ،(وَهَرِيقُوا):وَفِي نُسْخَةٍ:أَهْرِيقُوا بِسُكُونِ الْهَاءِ بَعْدَ هَمْزَةٍ،وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا فِي الْمَصَابِيحِ،عَلَى مَا نَقَلَهُ ابْنُ الْمَلَكِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:أَمْرٌ مِنْ أَهْرَاقَ يُهْرِيقُ - بِسُكُونِ الْهَاءِ - إِهْرَاقًا نَحْوَ اسْطَاعًا،وَأَصْلُهُ أَرَاقَ،فَأُبْدِلَتِ الْهَمْزَةُ هَاءً،ثُمَّ جُعِلَ عِوَضًا عَنْ ذَهَابِ حَرَكَةِ الْعَيْنِ،فَصَارَتْ كَأَنَّهَا مِنْ نَفْسِ الْكَلِمَةِ،ثُمَّ أُدْخِلَ عَلَيْهَا الْهَمْزَةُ أَيْ:صُبُّوا " عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا " بِفَتْحِ السِّينِ أَيْ:دَلْوًا (مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنُوبًا):بِفَتْحِ الذَّالِ،وَهُوَ الدَّلْوُ أَيْضًا.قَالَ الطِّيبِيُّ:الظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الرَّاوِي،وَقَالَ مِيرَكُ:شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَيَكُونُ لِلتَّخْيِيرِ؛لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ فَرْقٍ،وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ اهـ.

وَمَالَ ابْنُ الْمَلَكِ إِلَى الثَّانِي،وَقَالَ:يَعْنِي خَيَّرَهُمْ بَيْنَ أَنْ يُهَرِيقُوا فِيهِ سَجْلًا غَيْرَ مَلْأَى،أَوْ ذَنُوبًا مَلْأَى.قَالَ الطِّيبِيُّ:السَّجْلُ الدَّلْوُ فِيهِ الْمَاءُ،قَلَّ أَوْ كَثُرَ،وَهُوَ مُذَكَّرٌ،وَالذَّنُوبُ يُؤَنَّثُ،وَهُوَ مَا مُلِئَ مَاءً،فَقَوْلُهُ (مِنْ مَاءٍ):أَيْ:فِي الْمَوْضِعَيْنِ زِيَادَةٌ وَرَدَتْ تَأْكِيدًا اهـ؛لِأَنَّ السَّجْلَ وَالذَّنُوبَ لَا يُسْتَعْمَلَانِ إِلَّا فِي الدَّلْوِ الَّتِي فِيهَا الْمَاءُ،وَقِيلَ:مِنْ لِلتَّبْيِينِ؛لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَاءٍ وَغَيْرِهِ،وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يُجَوِّزُ التَّطْهِيرَ بِغَيْرِ الْمَاءِ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَقَدْ صَرَّحَ الْغَزَالِيُّ فِي الْمَنْخُولِ بِأَنَّ اسْتِدْلَالَ الشَّافِعِيَّةِ بِهَذَا الْخَبَرِ غَيْرُ صَحِيحٍ؛لِأَنَّ الْغَرَضَ قَطْعًا مِنْ تَخْصِيصِ الْمَاءِ مَا اخْتَصَّ بِهِ الْمَاءُ مِنْ عُمُومِ الْمَوْجُودِ،وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْحَدِيثِ الِابْتِدَارُ إِلَى تَطْهِيرِ الْمَسْجِدِ لَا بَيَانُ مَا تُزَالُ بِهِ النَّجَاسَةُ.

قَالَ الْمُظْهِرُ:فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَاءَ إِذَا وَرَدَ عَلَى النَّجَاسَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمُكَاثَرَةِ وَالْمُغَالَبَةِ طَهَّرَهَا،وَعَلَى أَنَّ غُسَالَاتِ النَّجَاسَةِ طَاهِرَةٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا تَغَيُّرٌ،وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُطَهِّرَةً،وَلَوْلَاهُ لَكَانَ الْمَاءُ الْمَصْبُوبُ عَلَى الْبَوْلِ أَكْثَرَ تَنْجِيسًا لِلْمَسْجِدِ مِنَ الْبَوْلِ نَفْسِهِ،قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ لَا يَطْهُرُ حَتَّى يُحْفَرَ ذَلِكَ التُّرَابُ،فَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَجَفَّتْ أَوْ ذَهَبَ أَثَرُهَا طَهُرَتْ عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ حَفْرٍ وَلَا صَبِّ مَاءٍ اهـ.

قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:قَوْلُ صَاحِبِ الْهِدَايَةِ:فَجَفَّتْ بِالشَّمْسِ اتِّفَاقِيٌّ،إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْجَفَافِ بِالشَّمْسِ أَوِ الرِّيحِ،وَالْمُرَادُ مِنَ الْأَثَرِ الذَّاهِبِ اللَّوْنُ أَوِ الرِّيحُ اهـ.

وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ إِذَا أَصَابَتْهَا نَجَاسَةٌ لَا تَطْهُرُ بِالْجَفَافِ،وَلَا يَجِبُ حَفْرُ الْأَرْضِ وَلَا نَقْلُ التُّرَابِ إِذَا صُبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ نَقَلَهُ الطِّيبِيُّ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:لَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَطْهُرُ بِالْجَفَافِ،وَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:كُنْتُ عَزَبًا أَبِيتُ فِي الْمَسْجِدِ،وَكَانَتِ الْكِلَابُ تَبُولُ وَتُقْبِلُ وَتُدْبِرُ فِي الْمَسْجِدِ،فَلَمْ يَكُونُوا يَرُشُّونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ،فَلَوْلَا اعْتِبَارُهَا أَنَّهَا تَطْهُرُ بِالْجَفَافِ كَانَ ذَلِكَ تَبْقِيَةً لَهَا بِوَصْفِ النَّجَاسَةِ،مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ يَقُومُونَ عَلَيْهَا فِي الصَّلَاةِ أَلْبَتَّةَ،إِذْ لَا بُدَّ مِنْهُ مَعَ صِغَرِ الْمَسْجِدِ وَعَدَمِ مَنْ يَتَخَلَّفُ فِي بَيْتِهِ،وَكَوْنُ ذَلِكَ يَكُونُ فِي بُقَعٍ كَثِيرَةٍ حَيْثُ تُقْبِلُ وَتُدْبِرُ وَتَبُولُ،فَإِنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ فِي

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ،قَالَ:بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ،فَقُلْتُ:يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ،فَقُلْتُ:وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ،مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ،فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ،فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ،فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي،مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ،فَوَاللهِ،مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي،قَالَ:«إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ،إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ،وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ،وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ،قَالَ:«فَلَا تَأْتِهِمْ» قَالَ:وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ،قَالَ:" ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ،فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ – قَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ:فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ – " قَالَ قُلْتُ:وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ،قَالَ:«كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ،فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ» قَالَ:وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ،فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا،وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ،آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ،لَكِنِّي صَكَكْتُهَا

الاسْتِعْمَال يُفِيدُ تكْرَارَ الْكَائِنِ مِنْهَا،أَوْ لِأَنَّ تَبْقِيَتَهَا نَجِسَةٌ يُنَافِي الْأَمْرَ بِتَطْهِيرِهِ،فَوَجَبَ كَوْنُهَا تَطْهُرُ بِالْجَفَافِ بِخِلَافِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِهْرَاقِ ذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ؛لِأَنَّهُ كَانَ نَهَارًا،وَقَدْ لَا يَجِفُّ قَبْلَ وَقْتِ الصَّلَاةِ،فَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا بِالْمَاءِ بِخِلَافِ مُدَّةِ اللَّيْلِ؛أَوْ لِأَنَّ الْوَقْتَ كَانَ إِذْ ذَاكَ قَدْ آنَ أُرِيدَ إِذْ ذَاكَ أَكْمَلُ الطَّهَارَتَيْنِ الْمُتَيَسَّرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ،هَذَا إِذَا قُصِدَ تَطْهِيرُ الْأَرْضِ صُبَّ الْمَاءُ عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،وَجُفِّفَتْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِخِرْقَةٍ طَاهِرَةٍ،وَكَذَا لَوْ صُبَّ عَلَيْهَا مَاءٌ بِكَثْرَةٍ،وَلَمْ يَظْهَرْ لَوْنُ النَّجَاسَةِ وَلَا رِيحُهَا،فَإِنَّهَا تَطْهُرُ اهـ كَلَامُهُ.

وَذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ أَجْوِبَةً عَجِيبَةً بِعِبَارَةٍ غَرِيبَةٍ لَا بَأْسَ بِذِكْرِهَا قَالَ:فَجَوَابُهُ أَنَّ فِي الْمَسْجِدِ يَحْتَمِلُ تَعَلُّقُهُ بِتَبَوَّلَ،وَبِمَا بَعْدَهُ فَقَطْ،فَلَمْ يَكُنْ صَرِيحًا فِي مَذْهَبِ الْخَصْمِ،وَبِتَسْلِيمِ أَنَّهُ عَائِدٌ لِلْجَمِيعِ كَمَا هُوَ الْقَاعِدَةُ،فَيُحْتَمَلُ أَنَّ عَدَمَ الرَّشِّ إِنَّمَا هُوَ لِخَفَاءِ مَحَلِّ بَوْلِهَا،وَعَلَى التَّنَزُّلِ كَانَ هَذَا مِنْ قَبْلُ الْأَمْرِ بِقَتْلِهَا،وَعَلَى التَّنَزُّلِ فَعَدَمُ الرَّشِّ لَا يَسْتَلْزِمُ الطَّهَارَةَ،بَلِ الْعَفْوُ،فَلَا دَلِيلَ فِيهِ لِلْقَائِلِ بِالطَّهَارَةِ.

وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ فِي شَرْحِ الْمَشَارِقِ:اسْتَدَلَّ بِهِ الشَّافِعِيُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ النَّجِسَةَ تَطْهُرُ بِصَبِّ الْمَاءِ عَلَيْهَا بِحَيْثُ يَغْمُرُهَا.قُلْتُ:يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الصَّبُّ تَسْكِينَ رَائِحَةِ تِلْكَ الْحَالَةِ لَا لِلتَّطْهِيرِ،بَلِ التَّطْهِيرُ يَحْصُلُ بِالْيُبْسِ لِخَبَرِ:زَكَاةُ الْأَرْضِ يُبْسُهَا،أَوْ يُقَالُ:رُوِيَ أَنَّ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مَنْفَذًا،فَحِينَئِذٍ كَانَ الْمَاءُ جَارِيًا عَلَيْهِ اهـ.

لَكِنْ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ:حَدِيثُ " زَكَاةُ الْأَرْضِ يُبْسُهَا " لَا أَصْلَ لَهُ،إِنَّمَا هُوَ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ.أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَهْذِيبِ الْآثَارِ،وَقَالَ السُّيُوطِيُّ:وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمُصَنَّفِ عَنْهُ،وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ،وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَوْلُهُمَا اهـ.

وَالْمُرَادُ بِأَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ أَبُو الصَّادِقِ (فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ):لَمَّا كَانُوا مُقْتَدِينَ بِالْمَبْعُوثِ وُصِفُوا بِالْبَعْثِ.(مُيَسِّرِينَ):حَالٌ أَيْ:مُسَهِّلِينَ عَلَى النَّاسِ (وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ):عَطْفٌ عَلَى السَّابِقِ عَلَى طَرِيقِ الطَّرْدِ وَالْعَكْسِ مُبَالَغَةً فِي الْيُسْرِ،قَالَهُ الطِّيبِيُّ،أَيْ:فَعَلَيْكُمْ بِالتَّيْسِيرِ أَيُّهَا الْأُمَّةُ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٤٦٠)

صَكَّةً،فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ:«ائْتِنِي بِهَا» فَأَتَيْتُهُ بِهَا،فَقَالَ لَهَا:«أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ:فِي السَّمَاءِ،قَالَ:«مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ:أَنْتَ رَسُولُ اللهِ،قَالَ:«أَعْتِقْهَا،فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» رواه مسلم[٢١٩٤].

(عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ) :هُوَ مِنْ أَبِي سُلَيْمٍ،كَانَ يَسْكُنُ فِيهِمْ وَنَزَلَ الْمَدِينَةَ،وَعِدَادُهُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ،ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ،وَفِي الْمَفَاتِيحِ قِيلَ:" لَا يَرْوِي غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ "،(قَالَ:بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ عَطَسَ) :بِفَتْحِ الطَّاءِ عَلَى مَا فِي النُّسَخِ الْمُصَحَّحَةِ الْمُوَافِقَةِ لِمَا فِي الْقَامُوسِ وَغَيْرِهِ وَضَبَطَهُ السُّيُوطِيُّ بِكَسْرِهَا فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى أَبِي دَاوُدَ،وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ:إِذَا عَطَسَ (رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ،فَقُلْتُ)،أَيْ:وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ (يَرْحَمُكَ اللَّهُ) :ظَاهِرُهُ أَنَّهُ فِي جَوَابِ قَوْلِهِ:الْحَمْدُ لِلَّهِ،قَالَ النَّوَوِيُّ:إِذَا قَالَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ بَطَلَتْ صَلَاتُهُ لِأَنَّهُ خَاطَبَهُ،وَلَوْ قَالَ:يَرْحَمُهُ اللَّهُ فَلَا،وَقَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:لَوْ قَالَ لِنَفْسِهِ يَرْحَمُكَ اللَّهُ لَا تَفْسُدُ كَقَوْلِهِ:يَرْحَمُنِي اللَّهُ،وَعَنْ أَبِي يُوسُفَ لَا تَفْسُدُ فِي قَوْلِهِ لِغَيْرِهِ ذَلِكَ لِأَنَّهُ دُعَاءٌ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ،وَلَهُمَا هَذَا الْحَدِيثُ اهـ.

وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ الْآتِي يَرُدُّ عَلَى أَبِي يُوسُفَ أَيْضًا (فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ) :أَيْ أَسْرَعُوا فِي الِالْتِفَاتِ إِلَيَّ وَنُفُوذِ الْبَصَرِ فِيَّ،اسْتُعِيرَتْ مِنْ رَمْيِ السَّهْمِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:وَالْمَعْنَى أَشَارُوا إِلَيَّ بِأَعْيُنِهِمْ مِنْ غَيْرِ كَلَامٍ،وَنَظَرُوا إِلَيَّ نَظَرَ زَجْرٍ كَيْلَا أَتَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ (فَقُلْتُ:وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ) :بِكَسْرِ الْمِيمِ،وَالثُّكْلُ بِضَمٍّ وَسُكُونٍ وَبِفَتْحِهِمَا فِقْدَانُ الْمَرْأَةِ وَلَدَهَا،وَالْمَعْنَى وَافَقْدَهَا لِي فَإِنِّي

[٢١٩٤] - صحيح مسلم (١/ ٣٨١)٣٣ - (٥٣٧)

[ش (فرماني القوم بأبصارهم) أي نظروا إلى حديدا كما يرمى بالسهم زجرا بالبصر من غير كلام (واثكل أمياه) بضم الثاء وإسكان الكاف وبفتحهما جميعا لغتان كالبخل والبخل حكاهما الجوهري وغيره وهو فقدان المرأة ولدها وامرأة ثكلى وثاكل وثكلته أمه وأثكله الله تعالى أمه أي وافقد أمي إياي فإني هلكت فـ وا كلمة تختص في النداء بالندبة وثكل أمياه مندوب ولكونه مضافا منصوب وهو مضاف إلى أم المكسورة الميم لإضافة إلى ياء المتكلم الملحق بآخره الألف والهاء وهذه الألف تلحق المندوب لأجل مد الصوت به إظهارا لشدة الحزن والهاء التي بعدها هي هاء السكت ولا تكونان إلا في الآخر (ما شأنكم) أي ما حالكم وأمركم (رأيتهم) أي علمتهم (يصمتونني) أي يسكتونني غضبت وتغيرت (كهرني) قالوا القهر والكهر والنهر متقاربة أي ما قهرني ولا نهرني (بجاهلية) قال العلماء الجاهلية ما قبل ورود الشرع سموا جاهلية لكثرة جهالاتهم وفحشهم (ذاك شيء يجدونه في صدورهم) قال العلماء معناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة ولا عتب عليكم في ذلك لكن لا تمتنعوا بسببه من التصرف في أموركم (يخط) إشارة إلى علم الرمل (قبل أحد والجوانية) الجوانية بقرب أحد موضع في شمال المدينة (آسف كما يأسفون) أي أغضب كما يغضبون والأسف الحزن والغضب (صككتها صكة) أي ضربتها بيدي مبسوطة]

هَلَكْتُ (مَا شَأْنُكُمْ) :بِالْهَمْزَةِ وَيُبْدَلُ،أَيْ:مَا حَالُكُمْ وَأَمْرُكُمْ (تَنْظُرُونَ إِلَيَّ) :نَظَــرَ الْغَضَــبِ (فَجَعَلُوا)،أَيْ:شَرَعُوا (يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ)،أَيْ:زِيَادَةً فِي الْإِنْكَارِ عَلَيَّ (عَلَى أَفْخَاذِهِمْ) :وَفِيــهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ الْقَلِيلَ لَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ،(فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ)،أَيْ:عَلِمْتُهُمْ (يُصَمِّتُونَنِي) :بِتَشْــدِيدِ الْمِيمِ،أَيْ:يُسَكِّتُونِي غَضِبْتُ وَتَغَيَّرْتُ،قَالَهُ الطِّيبِيُّ،أَوْ يَأْمُرُونِي بِالصَّمْتِ عَجِبْتُ لِجَهْلِي بِقُبْحِ مَا ارْتَكَبْتُ وَمُبَالَغَتِهِمْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيَّ (لَكِنِّي سَكَتُّ)،أَيْ:سَكَتُّ وَلَمْ أَعْمَلْ بِمُقْتَضَى الْغَضَــبِ قَالَهُ الطِّيبِيُّ،أَوْ سَكَتُّ امْتِثَالًا لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنِّي،وَلَمْ أَعْمَلْ بِمُقْتَضَى غَضَــبِي،وَلَمْ أَسْــأَلْ عَــنِ السَّبَبِ،(فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) :جَوَابُهُ قَالَ:" إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ " وَقَوْلُهُ:فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي إِلَى قَوْلِهِ قَالَ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ لَمَّا وَجَوَابِهِ،وَالْفَاءُ فِيهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَــابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} [السجدة:٢٣] فَإِنَّهُ عَطَفَ " وَجَعَلْنَاهُ " عَلَى " آتَيْنَا "،وَأَوْقَعَهَا مُعْتَرِضَةً بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ كَذَا قَالَهُ الطِّيبِيُّ،وَتَبِعَهُ ابْــنُ حَجَرٍ وَقَالَ:وَاعْتُرِضَ بَيْنَهُمَا بِمَا فِيهِ غَايَةُ الِالْتِئَامِ وَالْمُنَاسَبَةُ لَهُمَا،وَفِي كَوْنِ الْآيَةِ نَظِيرًا لِلْحَدِيثِ نَظَرٌ ظَاهِرٌ،وَقَالَ مِيرَكُ:الْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ جَوَابُ قَوْلِهِ:فَلَمَّا صَلَّى مَحْذُوفٌ وَهُوَ مَا يَــدُلُّ عَلَيْــهِ جُمْلَةُ (- فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًــا مِنْــهُ)،أَي:اشْــتَغَلَ بِتَعْلِيمِي بِالرِّفْقِ وَحَسَنِ الْكَلَامِ.تَمَّ كَلَامُهُ،وَضَمِيرُهُ هُوَ يَعُودُ إِلَى رَسُولِ اللَّــهِ ﷺ،أَيْ:مُفَــدًّى بِهِمَا،وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ الْهُمَامِ:" فَلَمَّا صَلَّى دَعَانِي (" فَوَاللَّــهِ مَــا كَهَرَنِــي)،أَيْ:مَــا قَهَرَنِــي وَزَجَرَنِي،قَالَ الطِّيبِيُّ:الْكَهْرُ وَالْقَهْرُ وَالنَّهْرُ أَخَوَاتٌ،وَفِي النِّهَايَةِ يُقَالُ:كَهَرَهُ إِذَا زَبَرَهُ وَاسْــتَقْبَلَهُ بِوَجْهٍ عَبُوسٍ (وَلَا ضَرَبَنِي،وَلَا شَتَمَنِي) :أَرَادَ نَفْيَ أَنْوَاعِ الزَّجْرِ وَالْعُنْفِ وَإِثْبَاتَ كَمَالِ الْإِحْسَانِ وَاللُّطْفِ،(قَالَ) :جَوَابُ لَمَّا عَلَى مَا قَالَهُ الطِّيبِيُّ وَاسْتِئْنَافٌ مُبَيِّنٌ لِحُسْنِ التَّعْلِيمِ عَلَــى مُخْتَــارِ غَيْرِهِ (" إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ ") :إِشَارَةٌ إِلَى جِنْسِ الصَّلَاةِ (" لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ") .

قَالَ الْقَاضِي:أَضَافَ الْكَلَامَ إِلَى النَّاسِ لِيَخْرُجَ مِنْهُ الدُّعَاءُ وَالتَّسْبِيحُ وَالذِّكْرُ،فَإِنَّهُ لَا يُــرَادُ بِهَــا خِطَابُ النَّاسِ وَإِفْهَامُهُمْ،قَالَ النَّوَوِيُّ:وَفِيهِ أَنَّ مَنْ حَلَفَ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ فَسَبَّحَ أَوْ كَبَّــرَ أَوْ قَــرَأَ الْقُرْآنَ - لَا يَحْنَثُ،وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ،لَا يَجُوزُ تَشْمِيتُ الْعَاطِسِ فِي الصَّلَاةِ،فَمَنْ فَعَلَ بَطَلَــتْ صَلَاتُهُ،وَفِيهِ أَنَّ كَلَامَ الْجَاهِلِ بِالْحُكْمِ لَا يُبْطِلُهَا إِذْ لَمْ يَأْمُرْهُ بِإِعَادَةِ الصَّلَاةِ،وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَــاءِ

مِنَ التَّابِعِينَ،وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ،وَزَادَ الْأَوْزَاعِيُّ وَقَالَ:إِذَا تَكَلَّمَ عَامِدًا بِشَيْءٍ مِنْ مَصْلَحَةِ الصَّلَاةِ مِثْلَ:إِنْ قَامَ الْإِمَامُ فِي مَحَلِّ الْقُعُودِ فَقَالَ:اقْعُدْ،أَوْ جَهَرَ فِي مَوْضِعِ السِّرِّ فَأَخْبَرَهُ لَمْ تَبْطُلْ صَلَاتُهُ اهـ.

وَإِطْلَاقُ الْحَدِيثِ دَلِيلٌ لَنَا فِي أَنَّ الْكَلَامَ مُطْلَقًا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ كَمَا ذَكَرَهُ فِي الْهِدَايَةِ،قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَقَدْ أَجَابُوا بِأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ دَلِيلًا عَلَى الْبُطْلَانِ،بَلْ عَلَى أَنَّهُ مَحْظُورٌ وَالْحَظْرُ لَا يَسْتَلْزِمُ الْإِبْطَالَ،وَلِذَا لَمْ يَأْمُرْهُ بِالْإِعَادَةِ وَإِنَّمَا عَلَّمَهُ أَحْكَامَ الصَّلَاةِ،قُلْنَا:إِنْ صَحَّ فَإِنَّمَا بَيَّنَ الْحَظْرَ حَالَةَ الْعَمْدِ وَالِاتِّفَاقُ عَلَى أَنَّهُ حَظْرٌ يَرْتَفِعُ إِلَى الْإِفْسَادِ،وَمَا كَانَ مُفْسِدًا حَالَةَ الْعَمْدِ كَانَ كَذَلِكَ حَالَةَ السَّهْوِ لِعَدَمِ الْمُزِيلِ شَرْعًا كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ،وَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:" «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ» "،فَالْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ رُفِعَ الْإِثْمُ فَلَا يُرَادُ غَيْرُهُ،وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:أَجْمَعُوا عَلَى بُطْلَانِهَا بِالْكَلَامِ الْعَمْدِ لِغَيْرِ مَصْلَحَةِ الصَّلَاةِ،وَاعْتُرِضَ الْإِجْمَاعُ بِأَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ:مَنْ قَالَ وَقَدْ مُطِرُوا فِي الصَّلَاةِ:يَا هَذَا خَفِّفْ فَقَدْ مُطِرْنَا،لَا تَبْطُلُ صَلَاتُهُ،وَيُرَدُّ بِأَنَّ التَّخْفِيفَ حِينَئِذٍ مِنْ مَصْلَحَةِ الصَّلَاةِ خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِهَا،وَجَاءَ فِي خَبَرِ مُسْلِمٍ،«عَنْ زَيْدِ بْنِ الْأَرْقَمِ الْأَنْصَارِيِّ:كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ يُكَلِّمُ أَحَدُنَا صَاحِبَهُ حَتَّى نَزَلَتْ {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة:٢٣٨] فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ وَنُهِينَا عَنِ الْكَلَامِ»،وَبِهِ يُعْلَمُ أَنَّ نَسْخَ الْكَلَامِ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فِي أَوَاخِرِ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ إِنَّمَا نَزَلَتْ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ زَيْدًا كَانَ فِي أَوَائِلِ الْهِجْرَةِ صَبِيًّا،وَبِهَذَا يَتَّضِحُ رَدُّ قَوْلِ مَنْ قَالَ:إِنَّ تَحْرِيمَ الْكَلَامِ كَانَ بِمَكَّةَ (" إِنَّمَا هِيَ ")،أَيِ:الصَّلَاةُ (" التَّسْبِيحُ،وَالتَّكْبِيرُ،وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ ") :قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:اسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ عَلَى أَنَّ تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ جُزْءٌ مِنَ الصَّلَاةِ،قُلْنَا:" إِنَّمَا هِيَ ذَاتُ التَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ " اهـ.

وَاسْتَدَلَّ أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى كَوْنِ التَّحْرِيمَةِ شَرْطًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى:١٥] فَإِنَّ الْعَطْفَ يُفِيدُ التَّغَايُرَ،(أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) :شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي،أَيْ:مِثْلَ مَا قَالَهُ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالدُّعَاءِ،قَالَهُ الطِّيبِيُّ وَغَيْرُهُ،(قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ)،أَيْ:جَدِيدُهُ (بِجَاهِلِيَّةٍ) :مُتَعَلِّقٌ بِعَهْدٍ،وَمَا قَبْلَ وُرُودِ الشَّرْعِ يُسَمَّى جَاهِلِيَّةً لِكَثْرَةِ جَهَالَتِهِمْ،يَعْنِي انْتَقَلْتُ عَنِ الْكُفْرِ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَلَمْ أَعْرِفْ بَعْدُ أَحْكَامَ الدِّينِ (وَقَدْ جَاءَنَا اللَّهُ)،أَيْ:مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ (بِالْإِسْلَامِ) :قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:هَذَا لَا يَتَعَلَّقُ بِمَا قَبْلَهُ،بَلْ شُرُوعٌ فِي ابْتِدَاءِ

سُؤَالٍ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اهـ،وَالْأَظْهَرُ تَعَلُّقُهُ بِمَا قَبْلَهُ اعْتِذَارًا عَمَّا وَقَعَ لَهُ مِنَ الْخَطَأِ،وَابْتِدَاءُ السُّؤَالِ قَوْلُهُ:(وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ) :بِضَمِّ الْكَافِ جَمْعُ كَاهِنٍ،وَهُوَ مَنْ يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الضَّمَائِرِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:الْفَرْقُ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ:أَنَّ الْكَاهِنَ يَتَعَاطَى الْأَخْبَارَ عَنِ الْكَوَائِنِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ،وَالْعَرَّافَ يَتَعَاطَى مَعْرِفَةَ الشَّيْءِ الْمَسْرُوقِ وَمَكَانَ الضَّالَّةِ وَنَحْوَهُمَا،وَمِنَ الْكَهَنَةِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ جِنِّيًّا يُلْقِي إِلَيْهِ الْأَخْبَارَ،وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي إِدْرَاكَ الْغَيْبِ بِفَهْمٍ أُعْطِيَهُ وَأَمَارَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَيْهِ،(قَالَ:" فَلَا تَأْتِهِمْ ") :قَالَ ﷺ:" «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» "،رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ كَمَا فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ لِلسُّيُوطِيِّ،(قُلْتُ:وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ) :فِي النِّهَايَةِ:الطِّيَرَةُ بِكَسْرِ الطَّاءِ وَفَتْحِ الْيَاءِ وَقَدْ تُسَكَّنُ،هِيَ التَّشَاؤُمُ بِالشَّيْءِ وَهِيَ مَصْدَرُ تَطَيَّرَ طِيَرَةً،كَمَا تَقُولُ:تَخَيَّرَ خِيَرَةً وَلَمْ يَجِئْ مِنَ الْمَصَادِرِ غَيْرُهُمَا هَكَذَا قِيلَ،وَأَصْلُ التَّطَيُّرِ التَّفَاؤُلُ بِالطَّيْرِ،وَاسْتُعْمِلَ لِكُلِّ مَا يُتَفَاءَلُ بِهِ وَيُتَشَاءَمُ،وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَطَيَّرُونَ بِالصَّيْدِ كَالطَّيْرِ وَالظَّبْيِ،فَيَتَيَمَّنُونَ بِالسَّوَانِحِ وَيَتَشَاءَمُونَ بِالْبَوَارِحِ،وَالْبَوَارِحُ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ مِنَ الصَّيْدِ مَا مَرَّ مِنْ مَيَامِنِكَ إِلَى مَيَاسِرِكَ وَالسَّوَانِحُ ضِدُّهَا،وَكَانَ ذَلِكَ يَصُدُّهُمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ وَيَمْنَعُهُمْ عَنِ السَّيْرِ إِلَى مَطَالِبِهِمْ فَنَفَاهُ الشَّرْعُ وَأَبْطَلَهُ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ،وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لَهُ حَيْثُ قَالَ:" «اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ،وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ،وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ،» " «اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ» (" قَالَ:" ذَاكَ ")،أَيِ:التَّطَيُّرُ (بِشَيْءٍ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ ") :يَعْنِي:هَذَا وَهْمٌ يَنْشَأُ مِنْ نُفُوسِهِمْ لَيْسَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي اجْتِلَابِ نَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ،وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يُسَوِّلُهُ الشَّيْطَانُ وَيُزَيِّنُهُ حَتَّى يَعْمَلُوا بِقَضِيَّتِهِ لِيَجُرَّهُمْ بِذَلِكَ إِلَى اعْتِقَادِ مُؤَثِّرٍ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى،وَهُوَ كُفْرٌ صُرَاحٌ بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ،(" فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ ")،أَيْ:لَا يَمْنَعُهُمُ التَّطَيُّرُ مِنْ مَقَاصِدِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ مَا يَتَوَهَّمُونَهُ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ لَا يَمْنَعَنَّهُمْ عَمَّا يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَقَاصِدِ،أَوْ مِنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ مَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْوَهْمِ،فَالنَّهْيُ وَارِدٌ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ ظَاهِرًا وَهُمْ مَنْهِيُّونَ فِي الْحَقِيقَةِ عَنْ مُزَاوَلَةِ مَا يُوقِعُهُمْ مِنَ الْوَهْمِ فِي [الصَّدْرِ]،(قَالَ)،أَيْ:مُعَاوِيَةُ («قُلْتُ:وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ،قَالَ:كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ» ")،أَيْ:فَيُعْرَفُ بِالْفِرَاسَةِ بِتَوَسُّطِ تِلْكَ الْخُطُوطِ،قِيلَ:هُوَ إِدْرِيسُ أَوْ دَانْيَالُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،(" فَمَنْ وَافَقَ ") :ضَمِيرُ الْفَاعِلِ

رَاجِعٌ إِلَى " مِنْ "،أَيْ:فَمَنْ وَافَقَ فِيمَا يَخُطُّهُ (" خَطَّهُ ") :بِالنَّصْبِ عَلَى الْأَصَحِّ،وَنَقَلَ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ عَنِ الْبَيْضَاوِيِّ أَنَّ الْمَشْهُورَ خَطَّهُ بِالنَّصْبِ،فَيَكُونُ الْفَاعِلُ مُضْمَرًا وَرُوِيَ مَرْفُوعًا،فَيَكُونُ الْمَفْعُولُ مَحْذُوفًا اهـ.

أَيْ:مَنْ وَافَقَ خَطُّهُ خَطَّهُ أَيْ خَطَّ ذَلِكَ النَّبِيِّ فِي الصُّورَةِ وَالْحَالَةِ،وَهِيَ قُوَّةُ الْخَاطِّ فِي الْفِرَاسَةِ وَكَمَالُهُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ الْمُوجِبَةِ لَهَا،وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:أَيْ فِي الصُّورَةِ وَقُوَّةِ الْفِرَاسَةِ الَّتِي هِيَ نُورٌ فِي الْقَلْبِ يُلْقِيهِ اللَّهُ فِيهِ حَتَّى يَنْكَشِفَ بَعْضُ الْمُغَيَّبَاتِ عِيَانًا،وَإِنَّمَا نَشَأَ ذَلِكَ عَنِ التَّحَلِّي بِكَمَالِ مَرْتَبَتَيِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ،كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ " «إِنَّ فِي أُمَّتِي مُلْهَمُونَ» " وَقَوْلُهُ:" «مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» "،(" فَذَاكَ ")،أَيْ:فَذَاكَ مُصِيبٌ أَوْ يُصِيبُ أَوْ يَعْرِفُ الْحَالَ بِالْفِرَاسَةِ كَذَاكَ النَّبِيِّ،وَهُوَ كَالتَّعْلِيقِ بِالْمُحَالِ،قَالَ الْخَطَّابُ:إِنَّمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:مَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ " عَلَى سَبِيلِ الزَّجْرِ،وَمَعْنَاهُ لَا يُوَافِقُ خَطُّ أَحَدٍ خَطَّ ذَلِكَ النَّبِيِّ ؛ لِأَنَّ خَطَّهُ كَانَ مُعْجِزَةً،قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا صَادَفُوا خَطَّ ذَلِكَ النَّبِيِّ حَتَّى يُعْرَفَ الْمُوَافَقَةُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِأَنَّ خَطَّهُ كَانَ عَلَمًا لِنُبُوَّتِهِ،وَقَدِ انْقَضَتْ وَالشَّيْءُ إِذَا عُلِّقَ بِأَمْرٍ مُمْتَنِعٍ فَهُوَ مُمْتَنِعٌ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَلَمْ يُصَرِّحْ بِالنَّهْيِ عَنِ الِاشْتِغَالِ بِالْخَطِّ لِنِسْبَتِهِ لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ لِئَلَّا يَتَطَرَّقَ الْوَهْمُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِمْ،وَإِنْ كَانَتْ فُرُوعُ الْأَحْكَامِ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ،وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الْمُحَرِّمُونَ لِعِلْمِ الرَّمْلِ - وَهُمْ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ -:لَا يُسْتَدَلُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى إِبَاحَتِهِ لِأَنَّهُ عَلَّقَ الْإِذْنَ فِيهِ عَلَى مُوَافَقَةِ خَطِّ ذَلِكَ النَّبِيِّ،وَمُوَافَقَتُهُ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ،إِذْ لَا تُعْلَمُ إِلَّا مِنْ تَوَاتُرٍ أَوْ نَصٍّ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،أَوْ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّ الْأَشْكَالَ الَّتِي لِأَهْلِ عِلْمِ الرَّمْلِ كَانَتْ لِذَلِكَ النَّبِيِّ،وَلَمْ يُوجَدْ ذَلِكَ فَاتَّضَحَ تَحْرِيمُهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:الْخَطُّ مَا يَخُطُّهُ الْحَازِي،وَهُوَ عِلْمٌ قَدْ تَرَكَهُ النَّاسُ يَعْنِي لِعَدَمِ فَائِدَتِهِ يَأْتِي صَاحِبُ الْحَاجَةِ الْحَازِيَ فَيُعْطِيهِ حُلْوَانًا أَوْ شَيْئًا مِنَ الْأُجْرَةِ،وَبَيْنَ يَدَيِ الْحَازِي غُلَامٌ مَعَهُ مِيلٌ،فَيَأْتِي إِلَى أَرْضٍ رَخْوَةٍ أَوْ خَشَبٍ فَيَخُطُّ خُطُوطًا بِالْعَجَلَةِ كَيْلَا يَلْحَقَهَا الْعَدَدُ،ثُمَّ يَمْحُو مِنْهَا خَطَّيْنِ خَطَّيْنِ عَلَى مُهْلَةٍ،فَإِنْ بَقِيَ خَطَّانِ فَهُوَ عَلَامَةُ النَّجْحِ،وَإِنْ بَقِيَ وَاحِدٌ فَهُوَ عَلَامَةُ الْخَيْبَةِ،قَالَ صَاحِبُ النِّهَايَةِ،الْمُشَارُ إِلَيْهِ عِلْمٌ مَعْرُوفٌ،وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَصَانِيفُ كَثِيرَةٌ،وَهُوَ مَعْمُولٌ

بِهِ إِلَى الْآنِ،وَلَهُمْ فِيهِ أَوْضَاعٌ وَعَلَامَاتٌ وَاصْطِلَاحَاتٌ وَأَسْهَامٌ وَأَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ،وَيَسْتَخْرِجُونَ بِهِ الضَّمِيرَ وَغَيْرَهُ،وَكَثِيرًا مَا يُصِيبُونَ فِيهِ أَيْ بِحَسَبِ الاتِّفَاقِ كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مَا يُخْطِئُونَ فِيهِ،بَلِ الْخَطَأُ أَكْثَرُ ؛ لِأَنَّ كَذِبَهُمْ أَظْهَرُ،قَالَ مِيرَكُ:وَالْحَازِي بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَالزَّايِ الَّذِي يَحْزُرُ الْأَشْيَاءَ وَيُقَدِّرُهَا بِظَنِّهِ،وَيُقَالُ لِلْمُنَجِّمِ:الْحَازِي لِأَنَّهُ يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ وَأَحْكَامِهَا بِظَنِّهِ وَتَقْدِيرِهِ،وَالْحَازِي أَيْضًا الْكَاهِنُ،(رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢١٩٥])

فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ جَارِيَةً) :أَيْ:أَمَةً (كَانَتْ لِي) :أَيْ:مَمْلُوكَةً (تَرْعَى غَنَمًا لِي) :أَيْ:لَا لِغَيْرِي (فَجِئْتُهَا وَقَدْ فَقَدَتْ) :بِصِيغَةِ الْمَعْلُومِ الْمُتَكَلِّمِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ الْغَائِبَةِ (شَاةً) :بِالنَّصْبِ عَلَى الْأَوَّلِ،وَبِالرَّفْعِ عَلَى الثَّانِي،وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ (مِنَ الْغَنَمِ:أَيْ:مِنْ قَطِيعِهِ،وَمِنْ تَبْعِيضِيَّةٌ (فَسَأَلْتُهَا) :أَيِ:الْجَارِيَةَ (عَنْهَا) :أَيْ:عَنِ الشَّاةِ (قَالَتْ:أَكَلَهَا الذِّئْبُ) :بِالْهَمْزِ وَيُبْدَلُ أَوِ الْيَاءِ لُغَةٌ (فَأَسِفْتُ) :بِكَسْرِ السِّينِ (عَلَيْهَا) :أَيْ:غَضِبْتُ عَلَى الْجَارِيَةِ أَوْ حَزِنْتُ عَلَى الشَّاةِ (وَكُنْتُ مِنْ بَنِي آدَمَ) :عُذْرٌ لِغَضَبِهِ وَحُزْنِهِ السَّابِقِ وَلَطْمِهِ اللَّاحِقِ (فَلَطَمْتُ) :أَيْ:ضَرَبْتُ بِبَطْنِ الْكَفِّ (وَجْهَهَا) :فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَجْبُولٌ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ (وَعَلَيَّ رَقَبَةٌ) :أَيْ:إِعْتَاقُ رَقَبَةٍ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ غَيْرِ هَذَا السَّبَبِ (أَفَأُعْتِقُهَا) :أَيْ:عَنْهُ أَوْ عَنْهُمَا،لِمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ –:" «مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ أَوْ لَطَمَهُ فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ» ":كَمَا سَيَجِيءُ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ بَابِ النَّفَقَاتِ (قَالَ لَهَا) :أَيْ:لِلْجَارِيَةِ (رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – (أَيْنَ اللَّهُ؟) :وَفِي رِوَايَةٍ:(أَيْنَ رَبُّكِ؟) :أَيْ:أَيْنَ مَكَانُ حُكْمِهِ وَأَمْرِهِ وَظُهُورِ مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ (قَالَتْ:فِي السَّمَاءِ) .قَالَ الْقَاضِي:هُوَ عَلَى مَعْنَى الَّذِي جَاءَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ لَمْ يُرِدْ بِهِ السُّؤَالَ عَنِ الْمَكَانِ،فَإِنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْهُ كَمَا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ الزَّمَانِ،بَلْ مُرَادُهُ – ﷺ – مِنْ سُؤَالِهِ إِيَّاهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا مُوَحِّدَةٌ أَوْ مُشْرِكَةٌ؟ لِأَنَّ كُفَّارَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ،وَكَانَ لِكُلِّ قَوْمٍ مِنْهُمْ صَنَمٌ مَخْصُوصٌ يَكُونُ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَعْبُدُونَهُ وَيُعَظِّمُونَهُ،وَلَعَلَّ سُفَهَاءَهُمْ وَجَهَلَتَهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ مَعْبُودًا غَيْرَهُ،فَأَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ مِنْهَا مَا تَعْبُدُ،فَلَمَّا قَالَتْ:فِي السَّمَاءِ،وَفِي رِوَايَةٍ:أَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ فَهِمَ أَنَّهَا مُوَحِّدَةٌ يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْيَ الْآلِهَةِ الْأَرْضِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَصْنَامُ،لَا إِثْبَاتَ السَّمَاءِ مَكَانًا لَهُ،تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا،وَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ مَأْمُورًا بِأَنْ يُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى

[٢١٩٥] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٧٧٥)

قَدْرِ عُقُولِهِمْ وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى الْحَقِّ عَلَى حَسَبِ فَهْمِهِمْ،وَوَجَدَهَا تَعْتَقِدُ أَنَّ الْمُسْتَحِقَّ لِلْعُبُودِيَّةِ إِلَهٌ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ لَا الْآلِهَةُ الَّتِي يَعْبُدُهَا الْمُشْرِكُونَ قَنِعَ مِنْهَا بِذَلِكَ،وَلَمْ يُكَلِّفْهَا اعْتِقَادَ مَا هُوَ صَرْفُ التَّوْحِيدِ حَقِيقَةُ التَّنْزِيهِ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ أَنَّ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَرَحْمَتَهُ وَوَحْيَهُ جَاءَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك:١٦] قِيلَ:وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْجَارِيَةَ كَانَتْ خَرْسَاءَ،وَلِهَذَا جَوَّزَ الشَّافِعِيُّ الْأَخْرَسَ فِي الْعِتْقِ فَقَوْلُهُ:(قَالَتْ فِي السَّمَاءِ) :بِمَعْنَى أَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا فِي رِوَايَةٍ قَالَ شَارِحُ الْوِقَايَةِ:وَجَازَ الْأَصَمُّ أَيْ:مَنْ يَكُونُ فِي أُذُنِهِ وَقْرٌ،أَمَّا مَنْ لَمْ يَسْمَعْ أَصْلًا فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَجُوزَ ؛ لِأَنَّهُ فَائِتُ جِنْسِ الْمَنْفَعَةِ.(قَالَ:مَنْ أَنَا؟) :قَالَتْ:أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ.قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:(أَعْتِقْهَا) :أَمْرُ إِجَازَةٍ ".[٢١٩٦]

أَنْوَاعُ الْيُسْرِ فِي الشَّرِيعَةِ :

يُسْرُ الشَّرِيعَةِ عَلَى ثَلاَثَةِ أَنْوَاعٍ :

النَّوْعُ الْأَوَّل :تَيْسِيرُ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ :

اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ حَمَلَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ – أَوَّل مَا حَمَلَهَا – قَوْمٌ أُمِّيُّونَ،لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِكُتُبِ الأَقْدَمِينَ وَلاَ بِعُلُومِهِمْ،مِنَ الْعُلُومِ الْكَوْنِيَّةِ،وَالْمَنْطِقِ،وَالرِّيَاضِيَّاتِ،وَغَيْرِهَا،وَلاَ مِنَ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ،بَل كَانُوا بَاقِينَ قَرِيبًا مِنَ الْفِطْرَةِ .وَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولاً أُمِّيًّا لَمْ يَكْتُبْ كِتَابًا،وَلَمْ يَخُطَّهُ بِيَمِينِهِ،وَلاَ عَرَفَ أَنْ يَقْرَأَ شَيْئًا مِمَّا كَتَبَهُ الْكَاتِبُونَ .قَال اللَّهُ تَعَالَى :{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْل لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ } وَقَال :{ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَل أَرَادَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْمُبَارَكَةُ خَاتِمَةَ الشَّرَائِعِ،فَهِيَ لِمَنْ عَاصَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَلِمَنْ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَهِيَ عَامَّةٌ لِلْبَشَرِ جَمِيعًا،لَيْسَتْ لِلْعَرَبِ وَحْدَهُمْ،بَل لَهُمْ وَلِمَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الأُمَمِ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا،وَفِيهِمِ الْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ،وَالْعَالِمُ وَالْجَاهِل،وَالْقَارِئُ وَالأُمِّيُّ،وَالذَّكِيُّ وَالْبَلِيدُ .فَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الشَّرِيعَةُ الْعَامَّةُ الْخَاتِمَةُ مَيْسُورًا فَهْمُهَا وَتَعَقُّلُهَا

[٢١٩٦] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢١٥٦)

وَالْعِلْمُ بِهَا لِتَسَعَ الْجَمِيعَ ؛إِذْ لَوْ كَانَ الْعِلْمُ بِهَا عَسِيرًا،أَوْ مُتَوَقِّفًا عَلَى وَسَائِلِ عِلْمِيَّةٍ تَدُقُّ عَلَى الْأَفْهَامِ لَكَانَ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَى جُمْهُورِ الْمُكَلَّفِينَ بِهَا أَخْذُهَا وَمَعْرِفَتُهَا أَوَّلاً،وَالامْتِثَالُ لِأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا ثَانِيًا .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَلِي :

أ – تَيْسِيرُ الْقُرْآنِ :

جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ الْقُرْآنَ مُيَسَّرَ التِّلاَوَةِ وَالْفَهْمِ عَلَى الْجُمْهُورِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ } وَقَالَ :{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } .وَمِنْ تَيْسِيرِهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ مُرَاعَاةً لِحَالِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ الْقُدْرَةُ عَلَى النُّطْقِ .

وَيَرْجِعُ تَيْسِيرُ الْقُرْآنِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ :

الْأَوَّلُ :أَنَّهُ مُيَسَّرٌ لِلتِّلاَوَةِ لِسَلاَسَتِهِ وَخُلُوِّهِ مِنَ التَّعْقِيدِ اللَّفْظِيِّ .

الثَّانِي :أَنَّهُ مُيَسَّرٌ لِلْحِفْظِ،فَيُمْكِنُ حِفْظُهُ وَيَسْهُلُ .قَالَ الرَّازِيُّ :وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى يُحْفَظُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَيْرَ الْقُرْآنِ .

الثَّالِثُ :سُهُولَةُ الاتِّعَاظِ بِهِ لِشِدَّةِ تَأْثِيرِهِ فِي الْقُلُوبِ ؛وَلاشْتِمَالِهِ عَلَى الْقَصَصِ وَالْحِكَمِ وَالْأَمْثَالِ،وَتَصْرِيفُ آيَاتِهِ عَلَى أَوْجُهٍ مُخْتَلِفَةٍ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا }.

الرَّابِعُ :أَنَّهُ جَعَلَهُ بِحَيْثُ يَعْلَقُ بِالْقُلُوبِ،وَيُسْتَلَذُّ سَمَاعُهُ،وَلاَ يُسْأَمُ مِنْ سَمَاعِهِ وَفَهْمِهِ،وَلاَ يَقُولُ سَامِعُهُ :قَدْ عَلِمْتُ وَفَهِمْتُ فَلاَ أَسْمَعُهُ،بَلْ كُلَ سَاعَةٍ يَجِدُ مِنْهُ لَذَّةً وَعِلْمًا .

وَهَذَا التَّيْسِيرُ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى إِنَّمَا هُوَ فِي الْغَالِبِ،وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى جُمْهُورِ النَّاسِ .وَفِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَسْرَارِ،وَالْمَوَاعِظِ،وَالْعِبَرِ،مَا يَدُقُّ عَنْ فَهْمِ الْجُمْهُورِ،وَيَتَنَاوَلُ بَعْضَ الْخَوَاصِّ مِنْهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِحَسَبِ مَا يُيَسِّرُهُ اللَّهُ لَهُمْ وَيُلْهِمُهُمْ إِيَّاهُ،يَفْتَحُ عَلَى هَذَا بِشَيْءٍ لَمْ يَفْتَحْ بِهِ عَلَى الْآخَرِ،وَإِذَا عُرِضَ عَلَى الْآخَرِ أَقَرَّهُ .

ب – التَّيْسِيرُ فِي عِلْمِ الْأَحْكَامِ الاعْتِقَادِيَّةِ :

التَّكَاليفُ الاعْتقَاديَّةُ في الإِسْلاَمِ مُيَسَّرٌ تَعَقُّلُهَا وَفَهْمُهَا،يَشْتَرِكُ في فَهْمهَا الْجُمْهُورُ،مَنْ كَانَ مِنْهُمْ ثَاقبَ الْفَهْمِ وَمَنْ كَانَ بَليدًا،وَلَوْ كَانَتْ ممَّا لاَ يُدْرِكُهُ إلاَّ الْخَوَاصُّ لَمَا كَانَت الشَّرِيعَةُ عَامَّةً ؛وَلذَلكَ كَانَت الْمَعَاني الْمَطْلُوبُ علْمُهَا وَاعْتقَادُهَا سَهْلَةَ الْمَأْخَذ .فَعَرَّفَت الشَّرِيعَةُ الأُمُورَ الإِلَهيَّةَ بمَا يَسَعُ الْجُمْهُورَ فَهْمُهُ،وَحَضَّتْ عَلَى النَّظَرِ فِي الْمَخْلُوقَات،وَالسَّيْرِ فِي الأَرْضِ،وَالاعْتبَارِ بآثَارِ الأُمَمِ السَّالفَة،وَأَحَالَتْ فيمَا يَقَعُ فيه الاشْتبَاهُ منَ الأُمُورِ الإِلَهيَّةِ إلَى قَاعدَة عَامَّة :{ لَيْسَ كَمثْله شَيْءٌ } ،وَسَكَتَتْ عَنْ أَشْيَاءَ لاَ تَهْتَدي الْعُقُول إِلَيْهَا .
وَممَّا يَدُل عَلَى ذَلكَ أَيْضًا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يَبْلُغْنَا عَنْهُمْ منَ الْخَوْضِ في هَذه الأُمُورِ مَا يَكُونُ أَصْلاً للْبَاحثِينَ،وَالْمُتَكَلِّفينَ،كَمَا
لَمْ يَأْت ذَلكَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ وَكَذَلكَ التَّابعُونَ الْمُقْتَدَى بهِمْ لَمْ يَكُونُوا إلاَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْه الصَّحَابَةُ .وَثَبَتَ النَّهْيُ عَنْ كَثْرَة السُّؤَال،وَعَنْ تَكَلُّف مَا لاَ يَعْني،عَامًّا فِي الاعْتقَاديَّات وَالْعَمَليَّات .
ج – التَّيْسيرُ في علْمِ الأَحْكَامِ الْعَمَليَّة :
رَاعَى الشَّارِعُ الْحَكيمُ أُمِّيَّةَ الْمَدْعُوِّينَ وَتَنَوُّعَ أَحْوَالهِمْ في الْفَهْمِ،فَجَعَل الأَحْكَامَ الْعَمَليَّةَ ممَّا يَسْهُل تَعَقُّلُهَا وَتَعَلُّمُهَا وَفَهْمُهَا،فَمنْ ذَلكَ أَنَّهُ كَلَّفَهُمْ بجَلاَئل الأَعْمَال الْعبَاديَّة،وَقَرَّبَ الْمَنَاطَ فيهَا بحَيْثُ يُدْرِكُهَا الْجُمْهُورُ،وَجَعَلَهُ ظَاهرًا مُنْضَبطًا،كَتَعْرِيف أَوْقَات الصَّلاَة بالظِّلاَل وَطُلُوعِ الْفَجْرِ،وَزَوَال الشَّمْسِ،وَغُرُوبهَا،وَغُرُوب الشَّفَق،وَكَذَلكَ في الصِّيَامِ في قَوْله تَعَالَى :{ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ منَ الْخَيْط الأَسْوَد منَ الْفَجْرِ } .وَلَمْ يُطَالبْنَا بجَعْل ذَلكَ مُرْتَبطًا بحسَاب مَسيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ في الْمَنَازِل ؛لمَا في ذَلكَ منَ الدِّقَّة وَالْخَفَاء .
وَلاَ يَعْني ذَلكَ خُلُوُّ الشَّرِيعَة ممَّا يَسْتَقل الْخَاصَّةُ بإِدْرَاكه،وَهيَ الأُمُورُ الاجْتهَاديَّةُ،الَّتي تَخْفَى عَلَى الْجُمْهُورِ،غَيْرَ أَنَّ عَامَّةَ الأَحْكَامِ الَّتي يَحْتَاجُهَا الْمُكَلَّفُ،وَتَقُومُ مَقَامَ الأُسُس منَ الدِّينِ،ظَاهرَةٌ لاَ تَخْفَى عَلَى الْجُمْهُورِ،وَمَا سوَى ذَلكَ يَحْتَاجُ في تَطَلُّبه إلَى بَذْل جَهْد،إلاَّ أَنَّهُ يَتَيَسَّرُ لأَهْل الْعلْمِ الْوُصُول إلَيْه باتِّبَاعِ مَا بَيَّنَتْهُ الشَّرِيعَةُ منْ طُرُق الاجْتهَاد .
النَّوْعُ الثَّاني :يُسْرُ الأَحْكَامِ الشَّرْعيَّة الْعَمَليَّة :
يُسْرُ الأَحْكَامِ الشَّرْعيَّةِ الْعَمَليَّة يَتَشَعَّبُ فيه النَّظَرُ شُعْبَتَيْنِ :

١ – الْيُسْرُ الأَصْلِيُّ،وَهُوَ الْيُسْرُ فِي مَا شُرِعَ مِنَ الأَحْكَامِ مِنْ أَصْلِه مُيَسَّرًا لاَ عَنَتَ فِيه .
٢ – الْيُسْرُ التَّخْفِيفِيُّ،وَهُوَ مَا وُضِعَ فِي الأَصْلِ مُيَسَّرًا،غَيْرَ أَنَّهُ طَرَأَ فِيه الثِّقَل بِسَبَبِ ظُرُوفٍ اسْتِثْنَائِيَّة،وَأَحْوَالٍ تَخُصُّ بَعْضَ الْمُكَلَّفِينَ،فَيُخَفِّفُ الشَّرْعُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحُكْمِ الأَصْلِيِّ .
الشُّعْبَةُ الأُولَى :الْيُسْرُ الأَصْلِيُّ :
التَّيْسِيرُ الأَصْلِيُّ صِفَةٌ عَامَّةٌ لِلشَّرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ فِي أَحْكَامِهَا الأَصْلِيَّةِ الَّتِي تَلْزَمُ الْمُكَلَّفِينَ .قَال الشَّاطِبِيُّ :إِنَّ الشَّارِعَ لَمْ يَقْصِدْ إِلَى التَّكْلِيفِ بِالشَّاقِّ وَالإِعْنَاتِ فِيه،وَيُسْتَدَل لِذَلِكَ بِأُمُورٍ،مِنْهَا :

أ – النُّصُوصُ الَّتِي تُبَيِّنُ ذَلِكَ صَرَاحَةً،مِنْهَا مَا تَقَدَّمَ،وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى :{ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِل عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِه } وَمِنْهَا مَا امْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِه فِي سِيَاقِ بَيَانِ بَعْضِ الأَحْكَامِ الْفَرْعِيَّةِ مِنْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا،كَقَوْلِه تَعَالَى :{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } وَقَوْلُهُ جَل وَعَلاَ :{ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا } وَقَوْلُهُ :{ وَلاَ تَقْرَبُوا مَال الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْل وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا }.
وَمِنَ الْيُسْرِ الأَصْلِيِّ إِعْفَاءُ الصَّغِيرِ،وَالْمَجْنُونِ،مِنْ سَرَيَانِ الأَحْكَامِ التَّكْلِيفِيَّةِ عَلَيْهِمَا،وَإِعْفَاءِ النِّسَاءِ مِنْ وُجُوبِ صَلاَةِ الْجُمُعَةِ،وَمِنْ تَأَكُّدِ صَلاَةِ الْجَمَاعَةِ أَوْ وُجُوبِهَا عَلَى الْخِلاَفِ فِي ذَلِكَ .وَهَذَا مَعْنَى كَثِيرٍ مِنَ الاشْتِرَاطَاتِ الَّتِي تُشْتَرَطُ لِوُجُوبِ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعِبَادَاتِ،وَالْحُدُودِ،وَبَعْضِ حُقُوقِ الْعِبَادِ كَحَقِّ الْقِصَاصِ،وَحَقِّ حَدِّ الْقَذْفِ،فَقَدِ اشْتُرِطَ فِيهَا جَمِيعًا الْبُلُوغُ وَالْعَقْل،وَاشْتُرِطَ فِي حَدِّ الزِّنَى أَرْبَعَةُ شُهُودٍ تَقْلِيلاً لِحَالاَتِ وُجُوبِ الْحَدِّ،تَخْفِيفًا وَتَيْسِيرًا،وَاشْتُرِطَ لِلرَّجْمِ لِشِدَّتِه الإِحْصَانُ تَخْفِيفًا عَنْ غَيْرِ الْمُحْصَنِ،وَاسْتُثْنِيَ الْوَلِيُّ الْفَقِيرُ مِنْ عَدَمِ جَوَازِ الأَكْل مِنْ مَال الْيَتِيمِ ؛تَخْفِيفًا عَنْهُ،فَقَدْ أُذِنَ لَهُ أَنْ يَأْكُل بِالْمَعْرُوفِ .
– ب – وَمِنْهَا مَا عُهِدَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَنَّهُ يَسْتَثْنِي مِنْ نُصُوصِ التَّكْلِيفِ الصُّوَرَ الَّتِي فِيهَا عُسْرٌ فَيُيَسِّرُهَا،وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذِنَ لِلْوَلِيِّ فِي مُخَالَطَةِ الْيَتِيمِ فِي النَّفَقَةِ بَعْدَ أَنْ نَهَى عَنْ أَكْل

أَمْوَالِهِمْ وَأَمَرَ بِإِصْلاَحِهَا فَقَال :{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُل إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ } ثُمَّ قَال تَعَالَى :{ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ } أَذِنَ فِي الْمُخَالَطَةِ،لأَنَّ فِي عَزْل نَفَقَةِ الْيَتِيمِ وَحْدَهُ عُسْرًا عَلَى الْوَلِيِّ .وَالْمُخَالَطَةُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَال الْيَتِيمِ بِقَدْرِ مَا يَرَى أَنَّهُ كَافِيهِ،بِالتَّحَرِّي،فَيَجْعَلُهَا مَعَ نَفَقَةِ أَهْلِهِ،مَعَ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ يَأْكُل أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ فَلاَ يَكُونُ ذَلِكَ إِصْلاَحًا .ثُمَّ قَال تَعَالَى :{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ } أَيْ بِإِيجَابِ عَزْل نَفَقَةِ الْيَتِيمِ وَحْدَهَا لِيَأْمَنَ الْوَلِيُّ مِنْ أَكْلِهِ أَوْ أَهْلِهِ شَيْئًا مِنْهَا.وَدَلَّتِ الآيَةُ عَلَى أَنَّ الْمَشَقَّةَ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ لَيْسَتْ مُرَادَةً لِلَّهِ تَعَالَى .

– ج – وَمِنْهَا مَا عُلِمَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَفَادَى مَا يَكُونُ سَبَبًا لِتَكَالِيفَ قَدْ تَشُقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَكَانَ يَتَجَنَّبُ أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا يَكُونُ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى أَصْحَابِهِ إِذَا اقْتَدَوْا بِهِ فِيهِ،كَمَا قَال تَعَالَى :{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }

فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَحُثُّ أَصْحَابَهُ عَلَى تَرْكِ السُّؤَال لِئَلاَّ تُفْرَضَ عَلَيْهِمْ فَرَائِضُ بِسَبَبِ سُؤَالِهِمْ .فَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْحَجِّ .أَفِي كُل عَامٍ هُوَ ؟ فَقَال :لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ،وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ،ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ"

وَقَال :لَوْلاَ أَنْ أَشُقّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُل صَلاَةٍ .

– د – وَمِنْهَا الإِجْمَاعُ عَلَى عَدَمِ قَصْدِ الْمَشَقَّةِ وَالْعَنَتِ فِي التَّكْلِيفِ،وَأَنَّهَا وُضِعَتْ عَلَى قَصْدِ الرِّفْقِ وَالتَّيْسِيرِ،وَعَلَى هَذَا لَمْ يَزَل أَهْل الْعِلْمِ وَالْفُتْيَا فِي الأُمَّةِ عَلَى طَلَبِ الْيُسْرِ عَلَى النَّاسِ .

دَرَجَاتُ الْمَشَاقِّ،وَالتَّكْلِيفُ بِهَا :

لَيْسَ مَعْنَى يُسْرِ الشَّرِيعَةِ خُلُوُّ جَمِيعِ التَّكَالِيفِ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ مِنْ جِنْسِ الْمَشَقَّةِ أَصْلاً،بَل إِنَّ التَّكْلِيفَ،مَا سُمِّيَ بِهَذَا إِلاَّ لأَنَّهُ طَلَبُ مَا فِيهِ كُلْفَةٌ وَمَشَقَّةٌ،فَلاَ يَخْلُو شَيْءٌ مِنَ التَّكَالِيفِ عَنِ الْمَشَقَّةِ،وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَشَقَّةَ عَلَى دَرَجَاتٍ :

الدَّرَجَةُ الأُولَى :

– الْمَشَقَّةُ الَّتِي لاَ يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى حَمْلِهَا أَصْلاً،فَهَذَا النَّوْعُ لَمْ يَرِدْ التَّكْلِيفُ بِهِ فِي الشَّرْعِ أَصْلاً ؛إِذْ لاَ قُدْرَةَ لِلْمُكَلَّفِ عَلَيْهِ فِي الْعَادَةِ،فَلاَ يَقَعُ التَّكْلِيفُ بِهِ شَرْعًا،وَإِنْ جَازَ عَقْلاً،وَقِيل يَمْتَنِعُ التَّكْلِيفُ بِهِ شَرْعًا وَعَقْلاً .فَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ مِثْل تَكْلِيفِ الإِنْسَانِ بِحَمْل جَبَلٍ،وَلاَ

كَتَكْلِيف مَقْطُوعِ الرِّجْلَيْنِ الْقِيَامَ أَوِ الْمَشْيَ .وَهَذَا التَّكْلِيفُ كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَــرِدْ فِــي الشَّــرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّة،لَمْ يُوجَدْ فِي الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ أَيْضًــا،بِخِلاَفِ الأَنْــوَاعِ الآتِيَــةِ .وَيُعَبِّــرُ الأُصُولِيُّونَ عَنْ هَذَا بِمَنْعِ التَّكْلِيفِ بِمَا لاَ يُطَاقُ .

الدَّرَجَة الثَّانِيَة :

أَنْ يَكُونَ الْفِعْل مَقْدُورًا عَلَيْهِ،لَكِنْ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ،كَمَشَقَّةِ الْخَوْفِ عَلَى النُّفُوسِ وَالأَعْضَاءِ وَمَنَافِعِ الأَطْرَافِ وَنَحْوِ ذَلِكَ (١) .

فَالتَّكْلِيفُ بِهَذَا النَّوْعِ غَيْرُ وَاقِعٍ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ،وَإِنْ كَانَ وَاقِعًا فِيمَا قَبْلَهَا مِنَ الشَّــرَائِعِ .وَدَلِيل ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى فِي بَيَانِ الْمِنَّة عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِإِرْسَال مُحَمَّد ﷺ { الَّذِينَ يَتَّبِعُــونَ الرَّسُول النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيل يَــأْمُرُهُمْ بِــالْمَعْرُوف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِل لَهُمُ الطَّيِّبَات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمِ الْخَبَائِــثَ وَيَضَــعُ عَــنْهُمْ إِصْــرَهُمْ وَالأَغْلاَل الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } وَالإِصْرُ الْعَهْدُ الثَّقِيل،وَالتَّكَالِيفُ الثَّقِيلَةُ الَّتِي تَخْرُجُ مَشَقَّتُهَا عَنِ الْمُعْتَاد .أَيْ مَا عُهِدَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَهْد ثَقِيلٍ .

وَفِي خَاتِمَة سُورَة الْبَقَرَة { لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِل عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ } فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَال :قَــال اللَّــهُ تَعَالَى :قَدْ فَعَلْتُ أَيْ :أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ دُعَاءَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَمَوْضِعُ الدَّلاَلَة مِنْهَا قَوْله تَعَالَى :{ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِل عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلنَا } وَمِنْ تِلْكَ التَّكَالِيف الثَّقِيلَة الَّتِي شَدَّدَ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل :أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَتَــوْا بِخَطِيئَــةٍ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّعَامِ بَعْضُ مَا كَانَ حَلاَلاً لَهُمْ قَال تَعَالَى :{ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَــا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ }.

الدَّرَجَة الثَّالِثَة :

الْمَشَقَّةُ الَّتِي تُطَاقُ وَيُمْكِنُ احْتِمَالُهَا لَكِنْ فِيهَا شِدَّةٌ بِحَيْثُ تُشَــوِّشُ عَلَــى النُّفُــوسِ فِــي تَصَرُّفِهَا،وَتُقْلِقُهَا فِي الْقِيَامِ بِمَا فِيهِ تِلْكَ الْمَشَقَّةُ .

وَيَكُونُ الإِنْسَانُ مَعَهَا فِي ضِيقٍ وَحَرَجٍ،فَلاَ يَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ لِخُرُوجِ الْمَشَقَّةِ عَنِ الْمُعْتَادِ فِي الأَعْمَالِ الْعَادِيَّة .
وَهَذَا النَّوْعُ قَدْ يَكُونُ فِي الأَصْلِ مِنَ الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ ؛لأَنَّهُ إِذَا فُعِلَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ لِلإِنْسَانِ الضِّيقُ وَالْحَرَجُ،وَلَكِنْ إِذَا تَكَرَّرَ وَدَامَ جَاءَ الْحَرَجُ بِسَبَبِ الدَّوَامِ عَلَيْهِ .قَالَ الشَّاطِبِيُّ :وَيُوجَدُ هَذَا فِي النَّوَافِلِ وَحْدَهَا إِذَا تَحَمَّلَ الإِنْسَانُ مِنْهَا فَوْقَ مَا يَحْتَمِلُهُ عَلَى وَجْهٍ مَا،إِلاَّ أَنَّهُ فِي الدَّوَامِ يُتْعِبُهُ حَتَّى يَحْصُلَ لِلنَّفْسِ بِسَبَبِهِ مَا يَحْصُلُ لَهَا بِالْعَمَلِ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي غَيْرِهِ قَالَ :وَهَذَا هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي شُرِعَ لَهُ الرِّفْقُ وَالأَخْذُ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا لاَ يُحَصِّلُ مَلَلاً،حَسْبَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَهْيِهِ عَنِ الْوِصَالِ،وَعَنِ التَّنَطُّعِ وَالتَّكَلُّفِ.
وَقَالَ :خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يَمَلَّ حَتَّى تَمَلُّوا .
الدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ :
الْمَشَقَّةُ الَّتِي فِي الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ،وَلَيْسَ فِيهِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي تَعَبِ النَّفْسِ خُرُوجٌ عَنِ الْمُعْتَادِ فِي الأَعْمَالِ الْعَادِيَّةِ،وَلَكِنْ نَفْسُ التَّكْلِيفِ بِهِ زِيَادَةٌ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَاتُ قَبْلَ التَّكْلِيفِ .فَفِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى النَّفْسِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ ؛وَلِذَلِكَ أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظُ " التَّكْلِيفِ " وَهُوَ فِي اللُّغَةِ يَقْتَضِي مَعْنَى الْمَشَقَّةِ ؛لأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ " كَلَّفْتُهُ تَكْلِيفًا " إِذَا حَمَّلْتُهُ أَمْرًا يَشُقُّ عَلَيْهِ وَأَمَرْتُهُ بِهِ،وَتَقُولُ :" تَكَلَّفْتُ الشَّيْءَ " إِذَا تَحَمَّلْتُهُ عَلَى مَشَقَّةٍ .فَمِثْلُ هَذَا يُسَمَّى مَشَقَّةً مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ؛لأَنَّهُ دُخُولٌ فِي أَعْمَالٍ زَائِدَةٍ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .وَأَقَلُّ مَا فِيهِ فِي الأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ إِخْرَاجُ الْمُكَلَّفِ عَمَّا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ،وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى فِيهِ مَشَقَّةٌ مَا .
وَلَكِنِ الشَّرِيعَةُ جَاءَتْ لإِخْرَاجِ الْمُكَلَّفِ مِنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ حَتَّى يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ اخْتِيَارًا كَمَا هُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ اضْطِرَارًا .
وَهَذَا النَّوْعُ لاَزِمٌ لِكُلِّ تَكْلِيفٍ ؛إِذْ لاَ تَخْلُو مِنْهُ التَّكَالِيفُ الشَّرْعِيَّةُ .وَالْمَشَقَّةُ الَّتِي فِيهِ – وَإِنْ سُمِّيَتْ مَشَقَّةً مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ – إِلاَّ أَنَّهَا لاَ تُسَمَّى فِي الْعَادَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ مَشَقَّةً،كَمَا لاَ يُسَمَّى فِي الْعَادَةِ مَشَقَّةً طَلَبُ الْمَعَاشِ بِالْحِرَفِ وَسَائِرِ الصَّنَائِعِ،بَلْ أَهْلُ الْعُقُولِ،وَأَصْحَابُ الْعَادَاتِ يَعُدُّونَ الْمُنْقَطِعَ عَنْهُ كَسْلاَنَ،وَيَذُمُّونَهُ بِذَلِكَ،فَكَذَلِكَ الْمُعْتَادُ فِي التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الدَّرَجَةَ الْأُولَى لاَ تَكْلِيفَ بِهَا أَصْلاً،فَالشَّرِيعَةُ لاَ تُكَلِّفُ الْعِبَادَ بِمَا لَيْسَ مَقْدُورًا لَهُمْ أَصْلاً،وَكَذَلِكَ الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ،فَالْمَشَقَّاتُ الْفَادِحَةُ كَقَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ،أَوْ قَطْعِ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ لاَ تَكْلِيفَ بِهَا فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ،وَإِنْ حَصَلَ التَّكْلِيفُ بِهَا فِيمَا قَبْلَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ .

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ فَهِيَ مَوْضِعُ النَّظَرِ،وَتَفْصِيلُ ابْنِ عَبْدِ السَّلاَمِ يَقْتَضِي أَنَّهُ يَجُوزُ التَّكْلِيفُ بِأَدْنَاهَا،أَوْ أَوْسَطِهَا دُونَ أَعْلاَهَا،وَإِنَّهُ إِنْ حَصَلَ التَّكْلِيفُ بِمَا مَشَقَّتُهُ مُعْتَادَةٌ،فَحَصَلَ فِيهِ خُرُوجٌ عَنِ الْمُعْتَادِ،جَاءَ فِيهِ التَّخْفِيفُ،كَمَا يَأْتِي .

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ،مِنَ الْمَشَقَّاتِ الْمُعْتَادَةِ فِي الْأَعْمَالِ فَلاَ تَمْنَعُ التَّكْلِيفَ،غَيْرَ أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنَ النَّظَرِ فِي بَيَانِ مَعْنَى الاعْتِيَادِ فِيهِ ؛إِذْ قَدْ يَكُونُ فِي التَّكْلِيفِ شِدَّةٌ،وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَاقِعٌ فِي حَيِّزِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ ....[٢١٩٧]

تحريم العسف والإضرار بالرعية

يحرم على الولاة الإضرار بالرعية،وإيصال المشقة إليهم،ومعاملتهم بالعنف والعسف،وقد قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [الأحزاب:٥٨]

والذَينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمنِينَ وَالْمُؤْمنَات،بِأَنْ يَنْسبُوا إِليهِمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلُوهَا عَلَى سَبيلِ العَيْبِ والتَّنَقُّصِ،فِإنَّهُمْ يَكُونُونَ قَد اجْتَرحُوا كَذباً فَظِيعاً،وَذَنباً عَظِيماً وَاضِحاً،فَالذينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمنِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ،وَالذينَ يُؤْذُونَ الرَّسُولَ يُؤْذُونَ اللهَ.[٢١٩٨]

وعن الْحَسَنِ،أَنَّ عَائِذَ بْنَ عَمْرٍو،وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ،فَقَالَ:أَيْ بُنَيَّ،إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ،فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ

[٢١٩٧] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٤/ ٢١٤)

[٢١٩٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٧٢،بترقيم الشاملة آليا)

مِنْهُمْ»،فَقَالَ لَهُ:اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ،فَقَالَ:«وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ،وَفِي غَيْرِهِمْ» [2199]

والرعاء جمع راع،والحطمة الذي يسوس الرعية بالعنف والعسف ولا يرفق بهم ولا يرحمهم.

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ،قَالَ:أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ،فَقَالَتْ:مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ:رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ،فَقَالَتْ:كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَ:مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا،إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ،وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ،وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ،فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ،فَقَالَتْ:أَمَا إِنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا:«اللهُمَّ،مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ،فَاشْقُقْ عَلَيْهِ،وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ،فَارْفُقْ بِهِ» رواه مسلم. [2200]

[2199] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦١)٢٣ - (١٨٣٠)

[ش (إن شر الرعاء الحطمة) قال في النهاية الحطمة هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار يلقى بعضها على بعض ويعسفها ضربه مثلا لوالي السوء ويقال أيضا حطم بلا هاء(نخالة) يعني لست من فضلائهم وعلمائهم وأهل المراتب منهم بل من سقطهم والنخالة هنا استعارة من نخالة الدقيق وهي قشوره والنخالة والحثالة والحفالة بمعنى واحد(وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم) هذا من جزل الكلام وفصيحه وصدقه الذي ينقاد له كل مسلم فإن الصحابة رضي الله عنهم كلهم هم صفوة الناس وسادات الأمة وأفضل ممن بعدهم وفيمن بعدهم كانت النخالة]

(إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ) بِالْكَسْرِ وَالْمَدِّ جَمْعُ رَاعٍ كَتُجَّارٍ وَتَاجِرٍ،كَذَا فِي النِّهَايَةِ (الْحُطَمَةُ) بِضَمٍّ فَفَتْحٍ مُبَالَغَةُ الْحَاطِمِ مِنَ الْحَطْمِ،وَهُوَ الْكَسْرُ،وَهُوَ " مَنْ يَظْلِمُ الرَّعِيَّةَ وَلَا يَرْحَمُهُمْ فِي الْبَلِيَّةِ،وَقِيلَ:الْأَكُولُ الْحَرِيصُ الَّذِي يَأْكُلُ مَا يَرَى وَيَقْضِمُهُ،وَمِنْهُ الْحُطَمَةُ لِلنَّارِ الْمُوقَدَةِ فَإِنَّ مَنْ هَذَا دَأْبُهُ يَكُونُ دَنِيئًا فِي النَّفْسِ ظَالِمًا بِالطَّبْعِ،شَدِيدَ الطَّمَعِ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ.هَذَا خُلَاصَةُ كَلَامِ الْقَاضِي،وَفِي الْفَائِقِ:الْحُطَمَةُ هُوَ الَّذِي يُعَنِّفُ الْإِبِلَ فِي السُّوقِ وَالْإِيرَادِ وَالْإِصْدَارِ،فَيُحَطِّمُهَا ضَرَبَهُ مَثَلًا لِوَالِي السُّوءِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:لَمَّا اسْتَعَارَ لِلْوَالِي وَالسُّلْطَانِ لَفْظَ الرَّاعِي،أَتْبَعَهُ بِمَا يُلَائِمُ الْمُسْتَعَارَ مِنْهُ مِنْ صِفَةِ الْحَطْمِ،فَالْحُطَمَةُ تَرْشِيحٌ لِاسْتِعَارَةِ الرَّاعِي لَهُمْ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٣)

[2200] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٨)١٩ - (١٨٢٨) [ش (ما نقمنا منه شيئا) أي ما كرهنا وهو بفتح القاف وكسرها]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ)؛بِفَتْحِ الْوَاوِ وَكَسْرِ اللَّامِ الْمُخَفَّفَةِ،وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ،بِضَمٍّ أَوَّلِهِ وَتَشْدِيدِ الْمَكْسُورَةِ بَعْدَهُ؛أَيْ مَنْ جُعِلَ وَالِيًا (مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا)؛أَيْ مِنَ الْأُمُورِ،أَوْ نَوْعًا مِنَ الْوِلَايَةِ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ:" مِنْ " بَيَانُ " شَيْئًا " كَانَتْ صِفَةً قُدِّمَتْ وَصَارَتْ حَالًا،(فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ) بِضَمِّ الْقَافِ،(عَلَيْهِ)؛أَيْ جَزَاءً وِفَاقًا («وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ») بِفَتْحِ الْفَاءِ فِي الْمَاضِي وَضَمِّهَا فِي الْغَابِرِ،قَالَ النَّوَوِيُّ:هَذَا مِنْ أَبْلَغِ الزَّوَاجِرِ عَنِ الْمَشَقَّةِ عَلَى النَّاسِ،وَأَعْظَمِ الْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ بِهِمْ،وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ الطِّيبِيُّ:وَهُوَ مِنْ أَبْلَغِ مَا أَظْهَرَهُ - ﷺ- مِنَ الرَّأْفَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْمَرْحَمَةِ عَلَى الْأُمَّةِ فَنَقُولُ بِلِسَانِ الْحَالِ:اللَّهُمَّ هَذَا أَوَانُ أَنْ تَرْحَمَ عَلَى أُمَّةِ حَبِيبِكَ الْكَرِيمِ وَتُنْجِيَهُمْ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٤)

العرفاء

العرفاء جمع عريف وهو القيم على طائفة من الناس كالقبيلة أو غيرها،فيتعرف على أحوالهم،ويتفقد أمورهم،ويستطلع حاجاهم ومطالبهم ليبلغها للأمير،قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في العرفاء:" بالْمُهمَلَة والفاء جَمع عَرِيف بِوزنِ عَظِيم،وهُو القائم بِأَمرِ طائفَة مِنَ النّاس مِن عَرَفت بِالضَّمِّ وبِالفَتحِ عَلَى القَوم أَعرُف بِالضَّمِّ فَأَنا عارِف وعَرِيف،أَي وُلِّيت أَمر سِياسَتهم وحِفظ أُمُورهم،وسُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَونِهِ يَتَعَرَّف أُمُورهم حَتَّى يُعَرِّف بِها مَن فَوقَهُ عِند الاحتِياج .وقِيلَ العَرِيف دُونَ المَنكِب وهُو دُونَ الأَمِير."[2201]

وقد قال الله تعالى {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [المائدة:١٢]

يَقُولُ تَعَالَى:إِنَّهُ أَخَذَ العُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيَعْمَلُنَّ بِأَحْكَامِ التَّورَاةِ التِي تَحْوي شَرِيعَتَهُمْ.وَأَمَرَ مُوسَى عَلَيهِ السَّلاَمُ،بِأنْ يَخْتَارَ مِنْ كُلِّ سِبْطٍ،مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الاثْنَي عَشَرَ،نَقِيباً يَكُونُ كَفِيلاً عَلَى جَمَاعَتِهِ،بِالوَفَاءِ بِتَنْفِيذِ مَا أُمِرُوا بِهِ،فَاخْتَارَ مُوسَى النُّقَبَاءَ،وَأَخَذَ المِيثَاقَ وَتَكَفَّلَ لَهُ النُّقَبَاءُ بِالوَفَاءِ بِمَا الْتَزَمُوا بِهِ.فَسَارَ بِهِمْ مُوسَى إلى الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ التِي وَعَدَهُمُ اللهُ السُّكْنَى فِيهَا،وَكَانَ فِيها الكَنْعَانِيُّونَ،فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا بَعَثَ مُوسَى النُّقَبَاءَ يَتَحَسَّسُونَ الأَخْبَارَ،فَرَأَوا أجْسَامَ الكَنْعَانِيِّينَ قَوِّيَةً،فَهَابُوهُمْ،وَرَجَعُوا يُحَدِّثُونَ قَوْمَهُمْ بِمَا رَأَوا،وَكَانَ مُوسَى قَدْ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ،فَنَكَثُوا المِيثَاقَ،وَلَمْ يَلْتَزِمْ بِهِ إلاَّ نَقِيبَانِ.وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيهِ السَّلاَمُ:إِنَّكُمْ بِحِفْظِي وَرِعَايَتِي،وَإِنِّي نَاصِرُكُمْ وَمُعِينُكُمْ مَا دُمْتُمْ مُحَافِظِينَ عَلَى المِيثَاقِ،وَإِنِي مَشْرِفٌ عَلَيكُمْ،وَمُبْصِرٌ لأَفْعَالِكُمْ،سَمِيعٌ عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ،وَقَادِرٌ عَلَى مُجَازَاتِكُمْ،فَإِذا أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ،وَأَدَّيْتُمُوهَا حَقَّ أَدَائِها،وَدَفَعْتُمْ زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ،وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي جَمِيعاً،وَصَدَّقْتُمُوهُمْ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الوَحْيِ،وَنَصَرْتُمُوهُمْ وَآزَرْتُمُوهُمْ عَلَى الحَقِّ

[2201] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٦٩)

(عَزَّرْتُمُوهُمْ)،وَأَنْفَقْتُم الأَمْوَالَ فِي سَبِيلِ الله،وَابْتِغَاءَ مَرْضَاته (أَقْرَضْتُمُ اللهُ) ...إذَا فَعَلْتُمْ كُلَّ ذَلكَ لأكَفِّرنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتكُمْ،وَأمْحُونَّ ذُنُوبَكُمْ،وَأسْتُرُهَا عَلَيكُمْ،وَلا أؤاخِذُكُمْ عَلَيها وَلأدْخلَنَّكُمْ فِي رَحْمَتِي،وَأسْكنُكُمْ جَنَّتِي التِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.وَمَنْ خَالَفَ هَذا المِيثَاقَ بَعْدَ عَقْده وَتَوْكيده،فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الوَاضِحَ،وَعَدَلَ عَنِ الهُدَى إلَى الضَّلال.[2202]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا} يَعْنِي:عُرَفاء عَلَى قَبَائِلِهِمْ بِالْمُبَايَعَةِ وَالسَّمْعِ،وَالطَّاعَةِ للَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ هَذَا كَانَ لَمَّا تَوَجَّهَ مُوسَى،عَلَيْهِ السَّلَامُ،لِقِتَالِ الْجَبَابِرَةِ،فَأُمِرَ بِأَنْ يُقِيمَ النُّقَبَاءَ،مِنْ كُلِّ سِبْطٍ نَقِيبٌ ..وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا عُرَفَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ لَيْلَتَئِذٍ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ بِذَلِكَ،وَهُمُ الَّذِينَ وُلُّوا الْمُبَايَعَةَ وَالْمُعَاقَدَةَ عَنْ قَوْمِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.فعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ:كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ يُقْرِئُنَا الْقُرْآنَ،فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،هَلْ سَأَلْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:كَمْ يَمْلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنْ خَلِيفَةٍ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ مُنْذُ قَدِمتُ الْعِرَاقَ قَبْلَكَ،ثُمَّ قَالَ:نَعَمْ وَلَقَدْ سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:"اثْنَا عَشَرَ كَعِدَّةِ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ"."[2203]

وقال العلامة السعدي رحمه الله:" أي:رئيسا وعريفا على من تحته،ليكون ناظرا عليهم،حاثا لهم على القيام بما أُمرُوا به،مطالبا يدعوهم.{وَقَالَ اللَّهُ} للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا:{إِنِّي مَعَكُمْ} أي:بالعون والنصر،فإن المعونة بقدر المؤنة."[2204]

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله:" يَعْنِي بِذَلِكَ:وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ كَفِيلًا ،كَفَلُوا عَلَيْهِمْ بِالْوَفَاءِ لِلَّهِ بِمَا وَاثَقُوهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعُهُودِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ ،وَفِيمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ.وَالنَّقِيبُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ،كَالْعَرِيفِ عَلَى الْقَوْمِ ،غَيْرَ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرِيفِ ،يُقَالُ مِنْهُ:نَقَبَ فُلَانٌ عَلَى بَنِي فُلَانٍ فَهُوَ يَنْقُبُ نَقْبًا ،فَإِذَا أُرِيدَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَقِيبًا فَصَارَ نَقِيبًا"[2205]

[2202] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٨٢،بترقيم الشاملة آليا)

[2203] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ٦٤)

[2204] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٢٥)

[2205] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٢٣٥)

وفي البخاري :"بَابُ العُرَفَاءِ لِلنَّاسِ،فعَنْ عَمِّهِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ،قَالَ ابْنُ شِهَابٍ:حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ،وَالمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،أَخْبَرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ حِينَ أَذِنَ لَهُمُ المُسْلِمُونَ فِي عِتْقِ سَبْيِ هَوَازِنَ:«إِنِّي لاَ أَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ،فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ»،فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ،فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا" [٢٢٠٦]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَدَّ سِتَّةَ آلَافٍ مِنْ سَبْيِ هَوَازِنَ،مِنَ النِّسَاءِ،وَالصِّبْيَانِ،وَالرِّجَالِ إِلَى هَوَازِنَ حِينَ أَسْلَمُوا وَخَيَّرَ نِسَاءً كُنَّ عِنْدَ رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ:مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ،وَقَدْ كَانَا اسْتَيْسَرَا الْمَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُمَا،فَخَيَّرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاخْتَارَتَا قَوْمَهُمَا،قَالَ:وَزَعَمَ عُرْوَةُ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَالْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ،فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَعِي مَنْ تَرَوْنَ،وَأَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ،فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ:إِمَّا السَّبْيَ،وَإِمَّا الْمَالَ وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ ".قَالَ:وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً،حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ،فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،قَالُوا:فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا،فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ،فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ جَاءُوا تَائِبِينَ،وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ،فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ،وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ» فَقَالَ النَّاسُ:قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ،فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ النَّاسُ،فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ،ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا ذَلِكَ وَأَذِنُوا فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنَا عَنْ سَبْيِ هَوَازِنَ"[٢٢٠٧]

[٢٢٠٦] - صحيح البخاري (٩/ ٧١)(٧١٧٦)

[٢٢٠٧] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٥٦)(٣١٤) صحيح

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،ذَكَرَ عُرْوَةُ أَنَّ مَرْوَانَ،وَالمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،أَخْبَرَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ،فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ،فَقَالَ:" إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ،وَأَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ،فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ:إِمَّا المَالَ وَإِمَّا السَّبْيَ،وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ "،وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ،فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،قَالُوا:فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا،فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّاسِ،فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ،وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ،فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ،وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ»،فَقَالَ النَّاسُ:طَيَّبْنَا لَكَ ذَلِكَ،قَالَ:«إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ،فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ النَّاسُ،فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ،ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَأَخْبَرُوهُ:أَنَّهُمْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا،فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنَا عَنْ سَبْيِ هَوَازِنَ،وَقَالَ أَنَسٌ:قَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ:فَادَيْتُ نَفْسِي،وَفَادَيْتُ عَقِيلًا"[٢٢٠٨]

[٢٢٠٨] - صحيح البخاري (٣/ ١٤٨)(٢٥٣٩)

(وَعَنْ مَرْوَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ الْمُؤَلِّفُ فِي فَصْلِ الصَّحَابَةِ هُوَ ابْنُ الْحَكَمِ الْقُرَشِيُّ الْأُمَوِيُّ يُكْنَى أَبَا عَبْدِ الْمَلِكِ جَدُّ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وُلِدَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- قِيلَ سَنَةَ اثْنَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ وَقِيلَ عَامَ الْخَنْدَقِ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ فَلَمْ يَرَ النَّبِيَّ - ﷺ-؛لِأَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ- أَمَرَ أَبَاهُ إِلَى الطَّائِفِ فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى وَلِيَ عُثْمَانُ فَرَدَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمَهَا وَابْنُهُ مَعَهُ مَاتَ بِدِمَشْقَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ رَوَى عَنْ نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَعَنْهُ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (وَالْمِسْوَرِ) بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ السِّينِ الْمُهْمَلَةِ وَفَتْحِ الْوَاوِ (ابْنِ مَخْرَمَةَ) بِفَتْحِ الْمِيمِ وَالرَّاءِ وَخَاءٍ مُعْجَمَةٍ بَيْنَهُمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ هُوَ زُهْرِيٌّ قُرَشِيٌّ ابْنُ أُخْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وُلِدَ بِمَكَّةَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِسَنَتَيْنِ وَقُبِضَ النَّبِيُّ - ﷺ- وَلَهُ ثَمَانُ سِنِينَ وَجَمَعَ مِنْهُ وَحَفِظَ عَنْهُ وَكَانَ فَقِيهًا مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ لَمْ يَزَلْ بِالْمَدِينَةِ إِلَى أَنْ قُتِلَ عُثْمَانُ فَانْتَقَلَ إِلَى مَكَّةَ فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى مَاتَ مُعَاوِيَةُ وَكَرِهَ بَيْعَةَ يَزِيدَ فَتَمَّ مُقِيمًا بِمَكَّةَ إِلَى أَنْ بَعَثَ يَزِيدُ عَسْكَرَهُ وَحَاصَرَ مَكَّةَ وَبِهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَأَصَابَ الْمِسْوَرَ حَجَرٌ مِنْ حِجَارَةِ الْمَنْجَنِيقِ وَهُوَ يُصَلِّي فِي الْحِجْرِ فَقَتَلَهُ.وَذَلِكَ فِي مُسْتَهَلِّ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ رَوَى عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- قَامَ) كَذَا فِي كِتَابِ الْحُمَيْدِيِّ وَجَامِعِ الْأُصُولِ وَشَرْحِ السُّنَّةِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ فَالْمَعْنَى قَامَ وَاعِظًا وَفِي بَعْضِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ قَالَ (حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ) قَبِيلَةٌ مَشْهُورَةٌ (مُسْلِمِينَ)؛أَيْ بَعْدَ أَنْ أَغَارُوا مَالَهُمْ وَأَسَرُوا ذُرِّيَّتَهُمْ وَقَسَمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ (فَسَأَلُوهُ)؛أَيْ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ - ﷺ- (أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ) قِيلَ كَانَ السَّبْيُ سَبْعَةَ آلَافٍ (فَقَالَ اخْتَارُوا) أَمْرٌ مِنَ الِاخْتِيَارِ وَالْفَاءُ جَزَاءُ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ؛أَيْ إِذَا جِئْتُمْ مُسْلِمِينَ فَاخْتَارُوا (إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا السَّبْيَ وَإِمَّا الْمَالَ) قَالَ الطِّيبِيُّ جَعَلَ الْمَالَ طَائِفَةً إِمَّا عَلَى الْمَجَازِ،أَوْ عَلَى التَّغْلِيبِ قُلْتُ،أَوْ عَلَى الْمُشَاكَلَةِ لَكِنْ فِي الْقَامُوسِ الطَّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ الْقِطْعَةُ مِنْهُ،أَوِ الْوَاحِدُ فَصَاعِدًا،أَوْ إِلَى الْأَلْفِ وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ الطَّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ قِطْعَةٌ مِنْهُ فَلَا مَجَازَ وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ الرَّاغِبِ الطَّوَّافُ الْمَشْيُ حَوْلَ الشَّيْءِ وَمِنْهُ الطَّائِفُ لِمَنْ يَدُورُ حَوْلَ الْبَيْتِ وَمِنْهُ اسْتُعِيرَ الطَّائِفُ لِلْخَيَالِ وَالْحَادِثَةِ وَغَيْرِهَا وَالطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ جَمَاعَةٌ

والحديث يدل على مشروعية اتخاذ العرفاء،فعَنْ جَابِرٍ قَالَ :لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ الْخِلَافَةَ فَرَضَ الْفَرَائِضَ،وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ،وَعَرَّفَ الْعُرَفَاءَ،قَالَ جَابِرٌ :فَعَرَّفَنِي عَلَى أَصْحَابِي."[٢٢٠٩]

وفي إقامة العرفاء فوائد ومصالح شرعية،منها معاونة الإمام في سياسة الرعية وتفقد شؤوها،ومنها إبلاغ الأمير بحاجات الناس وشكاياهم لتلبية حاجاهم ورفع الظلم عنهم،ومنها ضبط الجيش وترتيب البعوث والجند والعطاءات وغيرها،ومنها اجتماع الكلمة وتعزيز العلاقة وزيادة الصلة بين الحكومة الإسلامية والقبائل وغيرها،وهذا من أعظم الأمور التي يجب على الحكومة الإسلامية أن تعتني بها،فإن من أقوى أسلحة الأعداء،ومما يحفزهم على العدوان ويسهل غزوهم لبلاد المسلمين،التفرق والتباغض والتنافر بين الرعية والولاة.

والواجب أن يتصف العريف بالتقوى والأمانة كسائر المسؤولين وقد أخرج ابن سعد في الطبقات وعَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ مُحَارِبٍ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ إِلَى عَدِيٍّ:إِنَّ الْعُرَفَاءَ مِنْ عَشَائِرِهِمْ بِمَكَانٍ

مِنْهُمْ وَمِنَ الشَّيْءِ الْقِطْعَةُ مِنْهُ (قَالُوا فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا) فَإِنَّهُ أَعَزُّ مِنَ الْمَالِ مَعَ أَنَّ فِي سَبْيِهِمُ الْعَارَ وَمِنْ أَمْثَالِهِمُ النَّارَ وَلَا الْعَارَ (فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-)؛أَيْ خَطِيبًا وَاعِظًا وَلَعَلَّ إِعَادَتَهُ لِطُولِ الْفَصْلِ (فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ)؛أَيْ بِمَا يَلِيقُ لِجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ (ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ)؛أَيْ بَعْدَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ وَالْحَمْدِ الْجَزِيلِ (فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ)؛أَيْ فِي الدِّينِ،أَوْ فِي النَّسَبِ (جَاءُوا تَائِبِينَ)؛أَيْ مِنَ الشِّرْكِ رَاجِعِينَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ مُسْلِمِينَ مُنْقَادِينَ (وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ) مِنَ الرَّأْيِ (أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ)؛أَيْ جَمِيعَهُ إِلَيْهِمْ (فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ)؛أَيِ السَّبْيَ يَعْنِي رَدَّهُ قَالَ مِيرَكُ نَاقِلًا عَنِ الشَّيْخِ هُوَ بِفَتْحِ الطَّاءِ الْمُهْمَلَةِ وَتَشْدِيدِ التَّحْتَانِيَّةِ الْمَكْسُورَةِ؛أَيْ يُعْطِيَهُ عَنْ طِيبِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ (فَلْيَفْعَلْ) وَقَالَ الطِّيبِيُّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى مَا رَأَى النَّبِيُّ - ﷺ- مِنَ الرَّأْيِ وَهُوَ رَدُّ السَّبْيِ وَالْمَعْنَى مَنْ يُطَيِّبُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّدَّ اهـ.وَظَاهِرُهُ أَنْ يَطِيبَ بِالتَّخْفِيفِ (وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ)؛أَيْ نَصِيبِهِ وَأَرَادَ أَنْ يَدُومَ عَلَى حَظِّهِ لِأَجْلِهِ فَيَتَرَقَّبَ (حَتَّى نُعْطِيَهُ؛إِيَّاهُ)؛أَيْ عِوَضَهُ (مِنْ أَوَّلِ مَا يَفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا) مِنَ الْإِفَاءَةِ (فَلْيَفْعَلْ) وَالْفَيْءُ مَا أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ بِغَيْرِ الْحَرْبِ كَالْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ (فَقَالَ النَّاسُ)؛أَيْ بَعْضُهُمْ مِمَّا بَيْنَهُمْ،أَوْ كُلُّهُمْ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ (قَدْ طَيَّبْنَا) بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ وَسُكُونِ الْبَاءِ (ذَلِكَ)؛أَيِ الرَّدَّ (يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-:إِنَّا لَا نَدْرِي):أَيْ بِطَرِيقِ الِاسْتِغْرَاقِ (مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ)؛أَيْ رَضِيَ ذَلِكَ الرَّدَّ (مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ)؛أَيْ لَمْ يَرْضَ،أَوْ مَنْ أَذِنَ لَنَا مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ قَالَ الْمُظْهِرُ وَإِنَّمَا اسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- الصَّحَابَةَ فِي رَدِّ سَبْيِهِمْ؛لِأَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ صَارَ مِلْكًا لِلْمُجَاهِدِينَ وَلَا يَجُوزُ رَدُّ مَا مَلَكُوا إِلَّا بِإِذْنِهِمْ (فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ عُرَفَاؤُكُمْ)؛أَيْ رُؤَسَاؤُكُمْ وَنُقَبَاؤُكُمْ (أَمْرَكُمْ)؛أَيْ تَفْصِيلَهُ قَالَ الطِّيبِيُّ:الظَّاهِرُ أَنَّ حَتَّى هَاهُنَا غَيْرُ حَتَّى السَّابِقَةِ؛لِأَنَّ الْأُولَى مَا بَعْدَهَا الْمُسْتَقْبَلُ وَهِيَ بِمَعْنَى كَيْ وَهَذِهِ مَا بَعْدَهَا فِي مَعْنَى الْحَالِ فَيَكُونُ مَرْفُوعًا كَقَوْلِهِمْ شَرِبَتِ الْإِبِلُ حَتَّى يَجِيءَ الْبَعِيرُ (فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ،ثُمَّ رَجَعُوا)؛أَيْ عُرَفَاؤُهُمْ (إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ)؛أَيِ النَّاسَ كُلَّهُمْ (قَدْ طَيَّبُوا)؛أَيْ ذَلِكَ الرَّدَّ (وَأَذِنُوا)؛أَيْ بِالرَّدِّ إِلَيْهِمْ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٥٤)

[٢٢٠٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٥٩١)(٢٧٢٥٨) صحيح

فَانْظُرْ عُرَفَاءَ الْجُنْدِ فَمَنْ رَضِيتَ أَمَانَتَهُ لَنَا وَلِقَوْمِهِ فَأَثْبِتْهُ وَمَنْ لَمْ تَرْضَهُ فَاسْتَبْدِلْ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ.وَأَبْلَغُ فِي الأَمَانَةِ وَالْوَرَعِ[2210].

وقد جاء الوعيد في حق من يقصر من العرفاء في عمله أو يرتكب ما نهي عنه،فعن جَعْوَنَةَ،أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" لَا بُدَّ مِنَ الْعَرِيفِ،وَالْعَرِيفُ فِي النَّارِ " رواه أبو نعيم في المعرفة[2211]

وعَنْ حَبِيبِ بْنِ حَيْدَةَ قَالَ :لأَنْ أُقْطَعَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ عَرِيفًا عَلَى عَشْرَةٍ سَنَةً.[2212]

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سَلُولَ،أَنَّهُ دَعَاهُ قَوْمُهُ لِيُعَرِّفُوهُ،وَاخْتَارُوهُ لِذَلِكَ،فَأَبَى وَامْتَنَعَ،فَذَهَبَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو فَشَاوَرَهُ وَاسْتَأْمَرَهُ فَقَالَ :لاَ تَعْرِفَنَّ عَلَيْهِمْ فَجَاؤوا بِالْغَدْوَى فَلَمْ يَزَالُوا حَتَّى أَلْزَمُوهَا إِيَّاهُ،فَذَهَبَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو فَأَخْبَرَهُ،أَنَّهُ قَدْ أُكْرِهَ فَقَالَ :أَوَّلُهَا شُفْعَةٌ وَأَوْسَطُهَا خِيَانَةٌ وَآخِرُهَا عَذَابُ النَّارِ.[2213]،وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،وَأَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَا:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُقَرِّبُونَ شِرَارَ النَّاسِ،وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا،فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَا يَكُونَنَّ عَرِيفًا،وَلَا شُرْطِيًّا،وَلَا جَابِيًا،وَلَا خَازِنًا» رواه ابن حبان[2214]

وهو في النهي عن معاونة الظلمة من خلال العمل في العرافة أو الشرطة أو غيرها.

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[2210] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٥/ ٣٠٩) فيه جهالة

[2211] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٦٤٢)(١٧١٦) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٥٨٨)(٢٧٢٤٩)ومسند أبي يعلى الموصلي (٣/ ٥٧)(١٤٨١) حسن لغيره

(لا بد) للناس (من العريف) أي من يلي أمر سياستهم وحفظ شأنهم وتعرف أمورهم ليعرفها من فوقه عند الحاجة [ص:٣٨٣] لأن الإمام لا يمكنه مباشرة جميع الأمور بنفسه فيحتاج إليه (والعريف في النار) زاد أبو يعلى في روايته يؤتى بالعريف يوم القيامة فيقال ضع سوطك وادخل النار وذلك لأن الغالب على العرفاء الاستطالة ومجاوزة الحد وترك الإنصاف المفضي إلى التورط في المعاصي وقول الطيبي:قوله العرفاء في النار ظاهر أقيم مقام المضمر يشعر بأن العرافة على خطر ومن باشرها غير آمن من الوقوع في المحذور المفضي إلى العذاب فهو كقوله سبحانه {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما} الآية فينبغي للعاقل كونه على حذر منها لئلا يتورط فيما يؤديه إلى النار قال ابن حجر:ويؤيد هذا التأويل ما في حديث آخر حيث توعد الأمر بما توعد به العرفاء فدل على أن المراد الإشارة إلى أن كل من يدخل في ذلك لا يسلم وأن الكل على خطر قال في الفردوس:العريف الذي يتعرف أمور القوم ويجسس أحوالهم"فيض القدير (٦/ ٣٨٢)

[2212] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٥٨٩)(٢٧٢٥١) صحيح

[2213] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٥٨٩)(٢٧٢٥٢) فيه جهالة

[2214] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٤٦)(٤٥٨٦) حسن

المبحث العشرون

الإعلام

مهمة الإعلام في الإسلام أن يحقق واجب الدعوة،وإبلاغ الرسالة للناس جميعا،وتربية المسلمين تربية صالحة،وتوجيههم وإرشادهم،وإصلاح الأسرة،وتزكية المجتمع،وتطهيره من الشرك والفواحش ومساوئ الأخلاق،وتبيين ما يخططه الأعداء وما يبرمونه من كيد وعدوان على الإسلام والمسلمين،وقد قال تعالى:{ { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران:١١٠].

الغزو الفكري

من أخطر أنواع الغزو التي تستهدف المسلمين في هذا الوقت الغزو الفكري والثقافي الذي تغلغل في المجتمعات الإسلامية من خلال مناهج التعليم،ووسائل الإعلام وغيرها،حيث شن اليهود والنصارى وأعوانهم حربا إعلامية عالمية على الإسلام والمسلمين بهدف صرف المسلمين عن دينهم وصبغهم بعقائد الكفار،وجر المسلمين إلى التشبه بهم في طريقة حياتهم وعيشهم،ليسهل على الأعداء بعد ذلك أن يسيطروا على بلاد المسلمين وينهبوا خيراتهم،وقد قال تعالى:{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [التوبة:٣٢]

يُرِيدُ الكُفَّارُ مِنَ الُمشْرِكِينَ،وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ،أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ،وَهُوَ دِينُ الإِسْلاَمِ الذي شَرَعَهُ لِهِدَايَةِ عِبَادِهِ،وَأَنْ يُخْفُوا مَابَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ بِهِ،مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ،فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ،أَوْ نُورَ القَمَرِ،بِنَفْخَةٍ مِنْ فَمِهِ.وَبِمَا أَنَّ هَذَا لاَ سَبِيلَ إِلَيْهِ،كَذَلِكَ لاَ سَبِيلَ إِلَى إِخْفَاءِ نُورِ النُّبُوَّةِ،وَلاَ بُدَّ لِمَا أَرْسَلَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ مِنْ أَنْ يَتِمَّ وَيَظْهَرَ،وَاللهُ يَأْبَى إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ،وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ذَلِكَ.[٢٢١٥]

[٢٢١٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٨،بترقيم الشاملة آليا)

ونور الله:دينه الذي أرسل به الرسل،وأنزل به الكتب،وسماه الله نورا،لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة،فإنه علم بالحق،وعمل بالحق،وما عداه فإنه بضده،فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين،يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم،التي ليس عليها دليل أصلا.{وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ} لأنه النور الباهر،الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه،والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده،وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء،ولهذا قال:{وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله،فإن سعيهم لا يضر الحق شيئا.[٢٢١٦]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْمُتَّخِذُونَ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ أَرْبَابًا {أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} يَعْنِي:أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ بِتَكْذِيبِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ الَّذِي ابْتَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ وَصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ أَنْ يُبْطِلُوهُ،وَهُوَ النُّورُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِخَلْقِهِ ضِيَاءً.{وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ} [التوبة:٣٢] يَعْلُو دِينُهُ وَتَظْهَرُ كَلِمَتُهُ،وَيُتِمُّ الْحَقَّ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ،وَلَوْ كَرِهَ إِتْمَامَ اللَّهِ إِيَّاهُ الْكَافِرُونَ،يَعْنِي:جَاحِدِيهِ الْمُكَذِّبِينَ بِهِ.[٢٢١٧]

إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها

أولا:في تقريرات الله – سبحانه – عنها،باعتبار أن هذه هي الحقيقة النهائية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وباعتبار أن هذه التقريرات – بسبب كونها ربانية – لا تتعرض لمثل ما تتعرض له الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء ..

وثانيا:في المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات الله سبحانه!

إن الله سبحانه يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين في عدة مواضع من كتابه الكريم ..وهو تارة يتحدث عنهم – سبحانه – وحدهم،وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين باعتبار أن هنالك وحدة هدف – تجاه الإسلام والمسلمين – تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين.

[٢٢١٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٥)

[٢٢١٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٤٢١)

وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركي لمواجهة الإسلام والمسلمين ..والنصوص التي تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق ..وهذه نماذج منها ..

«ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» ...(البقرة:١٠٥).

«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ،مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» ...(البقرة:١٠٩).

«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ...(البقرة:١٢٠).

«وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ» ...(آل عمران:٦٩).

«وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ:آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ،وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» ...(آل عمران:٧٢ - ٧٣).

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ» ...(آل عمران:١٠٠) ...

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ ...» ...(النساء:٤٤ - ٤٥).

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ،وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» ...(النساء:٥١).

وفي هذه النماذج وحدها ما يكفي لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين ...فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.وهم يحددون موقفهم النهائي من المسلمين بالإصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى،ولا يرضون عنهم ولا يسالمونهم إلا أن يتحقق هذا الهدف،فيترك المسلمون عقيدتهم نهائيا.وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين! ...إلخ.

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها الله - سبحانه - في قوله تعالى:

«وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ...(البقرة:٢١٧).
«وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً» ...(النساء:١٠٢).
«إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» ...(الممتحنة:٢).
«وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» ...(التوبة:٨).
«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» ...(التوبة:١٠).

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين،وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين،هي بعينها - وتكاد تكون بألفاظها - هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك ..مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين.

وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد في صيغ نهائية،تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة،لا على وصف حالة مؤقتة،كقوله تعالى في شأن المشركين:«وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ..

وقوله تعالى في شأن أهل الكتاب:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..

إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى أي تأويل للنصوص،أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة! فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخي لهذه العلاقات،متمثلة في مواقف أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - من الإسلام وأهله،على مدار التاريخ،تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة،ولم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة.

إننا إذا استثنينا حالات فردية - أو حالات جماعات قليلة - من التي تحدث القرآن عنها وحواها الواقع التاريخي بدت فيها الموادة للإسلام والمسلمين والاقتناع بصدق رسول الله - ﷺ - وصدق هذا الدين.ثم الدخول فيه والانضمام لجماعة المسلمين ..وهي الحالات التي أشرنا

إليها فيما تقدم ..فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة،إلا تاريخا من العداء العنيد،والكيد الناصب،والحرب الدائبة،التي لم تفتر على مدار التاريخ ..

فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة! وليست هذه الظلال مجالا لعرض هذا التاريخ الطويل.ولكننا سنشير فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ ..

لقد استقبل اليهود رسول الله – ﷺ – ودينه في المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوي رسولا يعرفون صدقه،ودينا يعرفون أنه الحق ..

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن يلقونها في الصف المسلم في المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود ..شككوا في رسالة رسول الله – ﷺ – وهم يعرفونه واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشبهات التي ينشرونها في الجو وبالتهم والأكاذيب.وما فعلوه في حادث تحويل القبلة،وما فعلوه في حادث الإفك،وما فعلوه في كل مناسبة،ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم ..وفي مثل هذه الأفاعيل كان يتنزل القرآن الكريم.وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والأحزاب والتوبة وغيرها تضمنت من هذا الكثير:«وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ – وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا – فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ،فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ.بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ – بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ – فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ،وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ» ...(البقرة:٨٩ – ٩٠).

«وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» ...(البقرة:١٠١).

«سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ:ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها.قُلْ:لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ...(البقرة:١٤٢).

«يا أَهْلَ الْكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بآيات اللَّه وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.يا أَهْلَ الْكتاب لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ » ...(آل عمران:٧٠ – ٧١).

«وَقالَتْ طائفَةٌ منْ أَهْلِ الْكتاب:آمنُوا بالَّذي أُنْزِلَ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجعُونَ» ...(آل عمران:٧٢).

«وَإِنَّ منْهُمْ لَفَريقاً يَلْوُونَ أَلْسنَتَهُمْ بالْكتاب لتَحْسَبُوهُ منَ الْكتاب وَما هُوَ منَ الْكتاب،وَيَقُولُونَ هُوَ منْ عنْد اللَّه،وَما هُوَ منْ عنْد اللَّه وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّه الْكَذبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».(آل عمران:٧٨).

«قُلْ:يا أَهْلَ الْكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بآيات اللَّه وَاللَّهُ شَهيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ؟ قُلْ يا أَهْلَ الْكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّه مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بغافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» ...(آل عمران:٩٨ – ٩٩).

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكتَاب أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كتَابًا منَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ منْ ذَلكَ فَقَالُوا أَرنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعقَةُ بظُلْمهمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعجْلَ منْ بَعْد مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:١٥٣]

{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفئُوا نُورَ اللَّه بأَفْوَاههمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرهَ الْكَافرُونَ} [التوبة:٣٢].

كذلك شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة وتحرشهم بالمسلمين،مما أدى إلى وقائع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وخيبر.كما شهد تأليب اليهود للمشركين في الأحزاب،مما هو معروف مشهور.

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ ..كانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير ..

وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي – رضي الله عنه – ومعاوية ..وقادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير ..وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية ..

فأما في التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي وهم حماة كل وضع من الأوضاع التي تتولى هذه المحاولة في كل أرجاء العالم الإسلامي! ذلك شأن اليهود،فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب،فهو لا يقل إصرارا على العداوة والحرب من شأن اليهود! لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون ..ولكن ما إن ظهر الإسلام في الجزيرة وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هي بأيديها وسمته «المسيحية» وهو ركام من الوثنيات القديمة،والأضاليل الكنسية،متلبسا ببقايا من كلمات المسيح – عليه السلام – وتاريخه ..حتى رأينا الرومان والفرس ينسون ما بينهم من نزاعات تاريخية قديمة وعداوات وثارات عميقة،ليواجهوا هذا الدين الجديد.

ولقد أخذ الروم يتجمعون في الشمال هم وعمالهم من الغساسنة لينقضوا على هذا الدين.وذلك بعد أن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله – ﷺ – إلى عامل بصرى من قبل الروم – وكان المسلمون يؤمنون الرسل ولكن النصارى غدروا برسول النبي – ﷺ – وقتلوه – مما جعل رسول الله – ﷺ – يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة:زيد بن حارثة،وجعفر بن أبي طالب،وعبد الله بن رواحة في غزوة «مؤتة» فوجدوا تجمعا للروم تقول الروايات عنه:إنه مائة ألف من الروم ومعه من عملائهم في الشام من القبائل العربية النصرانية مائة ألف أخرى وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل.وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ثم كانت غزوة تبوك التي يدور عليها معظم هذه السورة (وسيجيء تفصيل القول فيها في موضعه إن شاء الله تعالى).ثم كان جيش أسامة بن زيد الذي أعده رسول الله – ﷺ – قبيل وفاته ثم أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر – رضي الله عنه – إلى أطراف الشام لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التي تستهدف القضاء على هذا الدين! ثم اشتعل مرجل الحقد الصليبي منذ موقعة اليرموك الظافرة،التي أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير المستعمرات الإمبراطورية الرومانية في الشام ومصر وشمال إفريقية وجزر البحر الأبيض.ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة في الأندلس في النهاية.

إن «الحروب الصليبية» المعروفة بهذا الاسم في التاريخ، لم تكن هي وحدها التي شنتها الكنيسة على الإسلام ..لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير ..لقد بدأت في الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد ..

منذ أن نسي الرومان عداواتهم مع الفرس وأخذ النصارى يعينون الفرس ضد الإسلام في جنوب الجزيرة.

ثم بعد ذلك في «مؤتة».ثم فيما تلا موقعة اليرموك الظافرة ..ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس عندما زحفت الصليبية على القاعدة الإسلامية في أوربة،وارتكبت من الوحشية في تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظيرا من قبل ..وكذلك تجلت في الحروب الصليبية في الشرق بمثل هذه البشاعة التي لا تتحرج ولا تتذمم ولا تراعي في المسلمين إلّا ولا ذمة.

ومما جاء في كتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون – وهو فرنسي مسيحي –:

«كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين،ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه،بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم.ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب،مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل،الذي رحم نصارى القدس،فلم يمسهم بأذى،والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد،أثناء مرضهما» .

كذلك كتب كاتب مسيحي آخر (اسمه يورجا) يقول:«ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع،فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها.وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون،ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء! أما صلاح الدين،فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين،ووفى لهم بجميع عهوده،وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم،حتى أن الملك العادل،شقيق السلطان،أطلق ألف رقيق من الأسرى،ومنّ على جميع الأرمن،وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة،وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن».

ولا يتسع المجال في الظلال لاستعراض ذلك الخط الطويل للحروب الصليبية – على مدار التاريخ – ولكن يكفي أن نقول:إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب

الصليبية.ويكفي أن نذكر ماذا حدث في زنجبار حديثا.حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم،فقتل منهم اثنا عشر ألفا وألقي الأربعة الآلاف الباقون في البحر منفيين من الجزيرة! ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص،حيث منع الطعام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا جوعا وعطشا،فوق ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد!

ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في اريترية وفي قلب الحبشة،وما تزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي،ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال! ويكفي أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية في السودان الجنوبي! ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي صدر سنة ١٩٤٤ يقول فيه.

«لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة.ولكننا بعد اختبار،لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ..لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودي،والخطر الأصفر،وبالخطر البلشفي.إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه.إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا،وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا.أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها.ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام،وفي قوته على التوسع والإخضاع،وفي حيويته ..إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي ».

ولا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك في استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التي أعلنتها الصليبية على الإسلام وما تزال ..وقد تحدثنا من قبل مرارا في أجزاء الظلال السابقة – بمناسبة النصوص القرآنية الكثيرة – عن طبيعة هذه المعركة،الطويلة،ومسائلها وأشكالها.فحسبنا هذه الإشارات السريعة هنا بالإحالة على بعض المراجع الأخرى القريبة

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع – بالإضافة إلى ما قلناه من قبل عن طبيعة الإعلان الإسلامي العام بتحرير الإنسان،وتحفز الجاهلية في الأرض كلها لسحق الحركة التي تحمل هذا الإعلان العام وتنطلق به في الأرض كلها – أن هذه الأحكام الأخيرة الواردة في هذه السورة،هي المقتضى الطبيعي لهذه الحقائق كلها مجتمعة وأنها ليست أحكاما محددة بزمان،ولا مقيدة بحالة.وإن كان هذا في الوقت ذاته لا ينسخ الأحكام المرحلية السابقة النسخ الشرعي الذي يمنع العمل بها في الظروف والملابسات التي تشابه الظروف والملابسات التي تنزلت

فيها.فهناك دائما طبيعة المنهج الإسلامي الحركية،التي تواجـه الواقـع البشـري مواجهـة واقعية،بوسائل متجددة،في المراحل المتعددة.

وحقيقة أن هذه الأحكام النهائية الواردة في هذه السورة كانت تواجه حالة بعينها في الجزيرة وكانت تمهيدا تشريعيا للحركة المتمثلة في غزوة تبوك،لمواجهة تجمع الروم على أطراف الجزيرة مع عمالهم للانقضاض على الإسلام وأهله – وهي الغزوة التي يقوم عليها محـور السـورة – ولكن وضع أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله لم يكن وليد مرحلة تاريخية معينة.إنما كان وليـد حقيقة دائمة مستقرة كما أن حربهم للإسلام والمسلمين لم تكن وليدة فترة تاريخية معينة.فهي ما تزال معلنة ولن تزال ..إلا أن يرتد المسلمون عن دينهم تماما! ..

وهي معلنة بضراوة وإصرار وعناد،بشتى الوسائل على مدار التاريخ! ومن ثم فهذه الأحكـام الواردة في هذه السورة أحكام أصيلة وشاملة وغير موقوتة بزمان ولا مقيدة بمكان ..ولكـن العمل بالأحكام إنما يتم في اطار المنهج الحركي الإسلامي،الذي يجب أن يتم الفقه بـه،قبل أن يتحدث المتحدثون عن الأحكام في ذاتها.

وقبل أن يحمل واقع ذراري المسلمين – الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان – وضـعفهم وانكسارهم على دين الله القوي المتين! إن الأحكام الفقهية في الإسلام كانت – وستظل دائما – وليدة الحركة وفق المنهج الإسلامي.والنصوص لا يمكن فهمها إلا باستصحاب هذه الحقيقة ..وفرق بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب في فراغ والنصوص في صـورتها الحركيـة وفق المنهج الإسلامي.ولا بد من هذا القيد:«الحركة وفق المنهج الإسلامي» فليسـت هـي الحركة المطلقة خارج المنهج بحيث نعتبر «الواقع البشري» هو الأصل أيا كانت الحركة الـتي أنشأته،ولكن «الواقع البشري» يصبح عنصرا أساسيا في فقه الأحكام إذا كان قد أنشأه المنهج الإسلامي ذاته.

وفي ظل هذه القاعدة تسهل رؤية تلك الأحكام النهائية في العلاقات بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم وهي تتحرك الحركة الحية في مجالها الواقعي وفق ذلك المنهج الحركي الواقعي الإيجـابي الشامل.[٢٢١٨]

[٢٢١٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٠٥)

إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق،وعبادة أربــاب مــن دون الله.وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر – وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر – إنمــا هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ويريدون إطفاء نور الله في الأرض المتمثل في هــذا الدين،وفي الدعوة التي تنطلق به في الأرض،وفي المنهج الذي يصوغ على وفقه حياة البشر ..

«يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ» ..فهم محاربون لنور الله.سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهلــه،والوقوف سدا في وجهه – كما كان هو الواقع الذي تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

وهذا التقرير – وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك – هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله المتمثل في دينه الحق الذي يهدي الناس بنور الله.

«وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» ..وهو الوعد الحق من الله،الدال على ســنته التي لا تتبدل،في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون ..

وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة واللأواء في الطريق وعلى الكيد والحرب من الكافرين (والمراد بهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم) ..كما أنه يتضمن في ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان! ويزيد الســياق هذا الوعيد وذلك الوعد توكيدا:«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَــى الدِّينِ كُلِّهِ،وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» ..

وفي هذا النص يتبين أن المراد بدين الحق الذي سبق في قوله تعالى:«قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّــذِينَ أُوتُــوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ» ..هو هذا الدين الذي أرسل الله به رسوله الأخير.وأن الذين لا يدينون بهذا الدين هم الذين يشملهم الأمر بالقتال ..

وهذا صحيح على أي وجه أوّلنا الآية.فالمقصود إجمالا بدين الحق هو الدينونة لله وحــده في الاعتقاد والشعائر والشرائع – وهذه هي قاعدة دين الله كله،وهو الدين الممثل أخيرا فيما جاء به محمد – ﷺ – فأيما شخص أو قوم لم يدينوا لله وحده في الاعتقــاد والشــعائر والشــرائع

مجتمعة انطبق عليهم أنهم لا يدينون دين الحق،ودخلوا في مدلول آية القتال ..مع مراعاة طبيعة المنهج الحركي للإسلام،ومراحله المتعددة،ووسائله المتجددة كما قلنا مرارا.
«هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه،وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» ..
وهذا توكيد لوعد الله الأول:«وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» ..ولكن في صورة أكثر تحديدا.فنور الله الذي قرر سبحانه أن يتمه،هو دين الحق الذي أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله.

ودين الحق – كما أسلفنا – هو الدينونة لله وحده في الاعتقاد والعبادة والتشريع مجتمعة.وهو متمثل في كل دين سماوي جاء به رسول من قبل ..ولا يدخل فيه طبعا تلك الديانات المحرفة المشوهة المشوبة بالوثنيات في الاعتقاد التي عليها اليهود والنصارى اليوم.كما لا تدخل فيه الأنظمة والأوضاع التي ترفع لافتة الدين،وهي تقيم في الأرض أربابا يعبدها الناس من دون الله،في صورة الاتباع للشرائع التي لم ينزلها الله.

والله سبحانه يقول:إنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ..ويجب أن نفهم «الدين» بمدلوله الواسع الذي بيناه،لندرك أبعاد هذا الوعد الإلهي ومداه ..

إن «الدين» هو «الدينونة» ..فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس له بالطاعة والاتباع والولاء ..

والله سبحانه يعلن قضاءه بظهور دين الحق الذي أرسل به رسوله على «الدين» كله بهذا المدلول الشامل العام! إن الدينونة ستكون لله وحده.والظهور سيكون للمنهج الذي تتمثل فيه الدينونة لله وحده.

ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول الله – ﷺ – وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان.وكان دين الحق أظهر وأغلب وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونة لله تخاف وترجف! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى،المنوعة الأساليب،التي أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء ..

ولكن هذه ليست نهاية المطاف ..إن وعد الله قائم،ينتظر العصبة المسلمة،التي تحمل الراية وتمضي،مبتدئة من نقطة البدء،التي بدأت منها خطوات رسول الله - ﷺ - وهو يحمل دين الحق ويتحرك بنور الله ..[٢٢١٩]

والآية عامة في المشركين وأهل الكتاب،وقد أخرج ابن جرير عَنِ السُّدِّيِّ:" {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} يَقُولُ:يُرِيدُونَ:أَنْ يُطْفِئُوا الْإِسْلَامَ بِكَلَامِهِمْ "[٢٢٢٠]

وقال تعالى:{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء:٢٧]

وَاللهُ يُرِيدُ بِمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ الأَحْكَامِ أنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ مَا فِيهِ مَصَالِحُكُمْ وَمَنَافِعكُمْ،وَأَنْ تَهْتَدُوا وَتَعْمَلُوا صَالِحاً،وَتَتَّبِعُوا شَرْعَهُ لِيَتُوبَ عَلَيْكُمْ،وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِئَاتِكُمْ،وَيُرِيدُ أَتْبَاعُ الشَّيْطَانِ الضَّالُونَ أنْ تَمِيلُوا عَنِ الحَقِّ إلى البَاطِلِ مَيْلاً عَظِيماً.[٢٢٢١]

قال ابن كثير رحمه الله:" أَيْ:يُرِيد أَتْبَاعُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالزُّنَاةِ {أَنْ تَمِيلُوا} يَعْنِي:عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ {مَيْلا عَظِيمًا.يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ} أَيْ:فِي شَرَائِعِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَا يُقَدِّرُهُ لَكُمْ،وَلِهَذَا أَبَاحَ [نِكَاحَ] الْإِمَاءِ بِشُرُوطِهِ،كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ:{خُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا} فَنَاسَبَهُ التَّخْفِيفُ؛لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ وَضَعْفِ عَزْمِهِ وَهِمَّتِهِ."[٢٢٢٢]

وقوله:{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} أي:توبة تلم شعثكم،وتجمع متفرقكم،وتقرب بعيدكم. {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ} أي:يميلون معها حيث مالت ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم،ويعبدون أهواءهم،من أصناف الكفرة والعاصين،المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم،فهؤلاء يريدون {أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا} أي:[أن] تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين.يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان،وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره،إلى مَنْ الشقاوةُ كلها في اتباعه.فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم،وأن هؤلاء

[٢٢١٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٥٢)

[٢٢٢٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٤٢٢)

[٢٢٢١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٢٢] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٢٦٧)

المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء،فاختاروا لأنفسكم أوْلى الداعيين،وتخيّروا أحسن الطريقتين.{يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ} أي:بسهولة ما أمركم به و [ما] نهاكم عنه،ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم،كالميتة والدم ونحوهما للمضطر،وكتزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة.وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل،وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه،ضعف البنية،وضعف الإرادة،وضعف العزيمة،وضعف الإيمان،وضعف الصبر،فناسب ذلك أن يخفف الله عنه،ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.[٢٢٢٣]

يَعْنِي بِذَلِكَ تَعَالَى ذِكْرُهُ:وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُرَاجِعَ بِكُمْ طَاعَتَهُ ،وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ ،لِيَعْفُوَ لَكُمْ عَمَّا سَلَفَ مِنْ آثَامِكُمْ ،وَيَتَجَاوَزَ لَكُمْ عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ مِنِ اسْتِحْلَالِكُمْ مَا هُوَ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ نِكَاحِ حَلَائِلِ آبَائِكُمْ وَابْنَائِكُمْ ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كُنْتُمْ تَسْتَحِلُّونَهُ وَتَأْتُونَهُ ،مِمَّا كَانَ غَيْرَ جَائِزٍ لَكُمْ إِتْيَانُهُ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ} [النساء:٢٧] يَقُولُ:" يُرِيدُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ فِيهَا ،أَنْ تَمِيلُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ،فَتَجُورُوا عَنْهُ بِإِتْيَانِكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَرُكُوبِكُمْ مَعَاصِيهِ {مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء:٢٧] جَوْرًا وَعُدُولًا عَنْهُ شَدِيدًا[٢٢٢٤]

والمعنى:يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم،وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين،لتقتفوا آثارهم وتسيروا سيرهم،فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان كما قال «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً» فهى متفقة فى مراعاة المصالح العامة للبشر،فروح الديانات جميعا توحيد الله وعبادته والخضوع له على صور مختلفة،ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التي تقوم بها وتهذيب الأخلاق لتبعد عن سيىء الأفعال والأقوال.

(وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ) أي ويريد أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين راجعين عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة التي كان فيها انحراف عن سنن الفطرة،إذ كنتم تنكحون ما نكح

[٢٢٢٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٧٥)

[٢٢٢٤] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ٦٢١)

آباؤكم،وتقطعون أرحامكم،ولا تلتفتون إلى المعاني السامية التي فى الزوجية،من تقوية روابط النسب وتجديد قرابة الصهر،والسعادة التي تثلج قلوب الزوجين،والمودة والرحمة اللتين تعمر بهما نفوسهما.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فبعلمه المحيط بما فى الأكوان شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم،وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم،وبما فيه الأذى والضرر لكم وبها يتقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) أي إنه تعالى بما كلفكم به من تلك الشرائع يريد أن يطهرّكم ويزكى نفوسكم فيتوب عليكم.

(وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً) متبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورن مع شهوات أنفسهم وينهمكون فيها،فكانها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها،فلا يبالون بما قطعوا من وشائج الأرحام،ولا بما أزالوا من أواصر القرابة،فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة،أما اللذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره،لا اتباع شهواتهم،ولا الجري وراء لذاتهم.

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) فأباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء قاله مجاهد وطاوس،وقيل بل خفف عنكم التكاليف كلها،ولم يجعل عليكم فى الدين من حرج،فشريعتكم هى الحنيفية السمحة كما ورد فى الحديث.

(وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً) يستميله الهوى والشهوات،ويستشيطه الخوف والحزن،ولا يقدر على مقاومة الميل إلى النساء،ولا يقوى على الضيق عليه فى الاستمتاع بهن.وقد رحم الله عباده فلم يحرّم عليهم منهن إلا ما فى إباحته مفسدة عظيمة وضرر كبير،ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين،ولا يزال الرجال هم المعتدين فهم يفسدون النساء ويغرونهن بالأموال ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خدرها،وإنه لغرّ جاهل،أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته كما احتال هو على امرأة سواه؟ فقلما يفسق رجل إلا يكون قدوة لأهل بيته فى الفسق والفجور،وقد بلغ الفسق فى هذا الزمن حدّا صار الناس يظنونه من الكياسة،وزالت غيرتهم،وأسلسوا القياد لنسائهم كما يسلسن لقيادتهن،فوهت

الروابط الزوجية،ونخر السوس فى سعادة البيوت،ووجدت الرذيلة لها مرتعا خصيبا فى أجـــواء الأسر،حتى أصبح الرجل لا يثق بنسله،وكثرت الأمراض والعلل بشتى مظاهرها.[٢٢٢٥]

وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته،وحقيقـــة مـــا يريده بهم الذين يتبعون الشهوات،ويحيدون عن منهج الله – وكل من يحيد عن منهج الله إنمـــا يتبع الشهوات – فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام،وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع،وشهوة تطاع،وانحراف وفسوق وضلال.فماذا يريد الله بالناس،حين يبين لهم منهجه،ويشرع لهم سننه؟ إنه يريد أن يتوب عليهم.يريد أن يهديهم.

يريد أن يجنبهم المزالق.يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة.

وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات،ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله،ولم يشرعها لعباده؟

إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الراشد،والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم.

وفي هذا الميدان الخاص الذي تواجهه الآيات السابقة:ميدان تنظيم الأسرة وتطهـــير المجتمـــع وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة،التي يحب الله أن يلتقي عليها الرجال والنساء وتحريم ما عداها من الصور،وتبشيعها وتقبيحها في القلوب والعيون ..في هذا الميدان الخاص ما الذي يريده الله وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات؟

فأما ما يريده الله فقد بينته الآيات السابقة في السورة.وفيها إرادة التنظيم،وإرادة التطهير،وإرادة التيسير،وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال.

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال:ديني،أو أخلاقي،أو اجتماعي ..يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حـــاجز ولا كـــابح،من أي لـــون كان.السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب،ولا يسكن معه عصب،ولا يطمئن معه بيـــت،ولا يسلم معه عرض،ولا تقوم معه أسرة.يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم،ينزو فيهـــا الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلـــق الوســـيلة! كـــل هـــذا الدمار،وكل هذا الفساد،وكل هذا الشر باسم الحرية،وهي – في هذا الوضع – ليست ســـوى

[٢٢٢٥] – تفسير المراغي (٥/ ١٤)

اسم آخر للشهوة والنزوة! وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه،وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات.وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي،الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف.وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي،الذي لا عاصم منه،إلا منهج الله،حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله.

واللمسة الأخيرة في التعقيب تتولى بيان رحمة الله بضعف الإنسان،فيما يشرعه له من منهج وأحكام.

والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه،ومراعاة اليسر فيما يشرع له،ونفي الحرج والمشقة والضرر والضرار.

«يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ،وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً» ..

فأما في هذا المجال الذي تستهدفه الآيات السابقة،وما فيها من تشريعات وأحكام وتوجيهات،فإرادة التخفيف واضحة تتمثل في الاعتراف بدوافع الفطرة،وتنظيم الاستجابة لها وتصريف طاقتها في المجال الطيب المأمون المثمر،وفي الجو الطاهر النظيف الرفيع دون أن يكلف الله عباده عنتا في كبتها حتى المشقة والفتنة ودون أن يطلقهم كذلك ينحدرون في الاستجابة لها بغير حد ولا قيد.

وأما في المجال العام الذي يمثله المنهج الإلهي لحياة البشر كلها فإرادة التخفيف تبدو كذلك واضحة بمراعاة فطرة الإنسان،وطاقته،وحاجاته الحقيقية وإطلاق كل طاقاته البانية.ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال! وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله – وبخاصة في علاقات الجنسين – شاق مجهد.والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح! وهذا وهم كبير ...فإطلاق الشهوات من كل قيد وتحري اللذة – واللذة وحدها – في كل تصرف وإقصاء «الواجب» الذي لا مكان له إذا كانت اللذة وحدها هي الحكم الأول والأخير وقصر الغاية من التقاء الجنسين في عالم الإنسان على ما يطلب من مثل هذا الالتقاء في عالم البهائم والتجرد في علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقي،ومن كل التزام اجتماعي ..إن هذه كلها

تبدو يسرا وراحة وانطلاقا.ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة.وعقابيلها في حياة المجتمع - بل في حياة كل فرد - عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة ..

والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي «تحررت! » من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة،يكفي لإلقاء الرعب في القلوب.لو كانت هنالك قلوب! لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات القديمة.حطم الحضارة الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية.وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة في انهيارات فرنسا التي سبقت في هذه الفوضى وبدأت هذه الآثار تظهر في أمريكا والسويد وانجلترا،وغيرها من دول الحضارة الحديثة.

وقد ظهرت آثار هذه الفوضى في فرنسا مبكرة،مما جعلها تركع على أقدامها في كل حرب خاضتها منذ سنة ١٨٧٠ إلى اليوم،وهي في طريقها إلى الانهيار التام،كما تدل جميع الشواهد.وهذه بعض الأمارات التي أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالمية الأولى:

«إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم:اضمحلال قواهم الجسدية،وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما.فإن الهياج الدائم قد أو هن أعصابهم وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم.فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي،على فترة كل بضع سنين.لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام ..وهذا مقياس أمين،يدلنا كدلالة مقياس الحرارة - في الصحة والتدقيق - على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية .ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال:الأمراض السرية الفتاكة.يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل،وتبعث بهم إلى المستشفيات،في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولى،لكونهم مصابين بمرض الزهري،خمسة وسبعين ألفا.وابتلي بهذا المرض وحده ٢٤٢ جنديا في آن واحد في ثكنة متوسطة.وتصور - بالله - حال هذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه - بجانب - في

المضيق الحرج بين الحياة والموت،فكانت أحوج ما تكون إلى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين لسلامتها وبقائها.وكان كل فرنك من ثروتها مما يضن به ويوفر وكانت الحال تدعو إلى بذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وسائر الأدوات والوسائل في سبيل الدفاع.

وكان – بجانب آخر – أبناؤها الشباب الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع،من جراء انغماسهم في اللذات وما كفى أمتهم ذلك خسرانا،بل ضيعوا جانبا من ثروة الأمة ووسائلها في علاجهم،في تلك الأوضاع الحرجة.

«يقول طبيب فرنسي نطاسي يدعى الدكتور ليريه:إنه يموت في فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهري،وما يتبعه من الأمراض الكثيرة في كل سنة.وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى «الدق».

وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التي فيها عدا هذا أمراض كثيرة أخرى» .

والأمة الفرنسية يتناقص تعدادها بشكل خطير:ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسي،وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد،لا تدع مجالا لتكوين الأسرة،ولا لاستقرارها ولا لاحتمال تبعة الأطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسي العابر.ومن ثم يقل الزواج،ويقل التناسل،وتتدحرج فرنسا منحدرة إلى الهاوية.

«سبعة أو ثمانية في الألف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم.ولك أن تقدر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لا تتزوج من أهاليها.ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج،قل فيهم من ينوون به التحصن والتزام المعيشة البرة الصالحة بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض.حتى إنه كثيرا ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحللوا به الولد النغل الذي قد ولدته أمه قبل النكاح! ويتخذوه ولدا شرعيا! فقد كتب «بول بيورو»:من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقا قبل أن يعقد بينهما النكاح،أن الرجل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبل النكاح ولدا شرعيا له.

وجاءت امرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين! فصرحت:إنني كنت قد آذنت بعلي عن النكاح بأني لا أقصد بالزواج إلا استحلال الأولاد الذين ولدتهم نتيجة اتصالي به قبل النكاح.وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة،فما كان في نيتي عند ذاك،ولا هو في نيتي الآن.ولذلك اعتزلت

زوجي في أصيل اليوم الذي تم فيه زواجنا،و لم ألتق به إلى هذا اليوم،لأني كنت لا أنوي قط أن أعاشره معاشرة زوجية.

«قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيورد:إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغي في بيتهم أيضا.ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحرارا طلقاء.ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة،فيتزوجون بامرأة بعينها،حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته،ولذة المخادنة الحرة خارج البيت» .وهكذا تدهورت فرنسا.وهكذا هزمت في كل حرب خاضتها،وهكذا تتوارى عن مسرح الحضارة ثم عن مسرح الوجود يوما بعد يوم.حتى تحق سنة الله التي لا تتخلف وإن بدت بطيئة الدوران في بعض الأحيان! بالقياس إلى تعجل الإنسان! أما في الدول التي لا تزال تبدو فتية،أو لم تظهر فيها آثار الدمار واضحة بعد،فهذه نماذج مما يجري فيها:

يقول صحفي ممن زاروا السويد حديثا ..بعد أن يتحدث عن «حرية الحب في السويد،وعن الرخاء المادي،والضمانات الاجتماعية في مجتمعها الاشتراكي النموذجي:

«إذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هذا المستوي الاقتصادي الممتاز وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهذا الاتجاه الاشتراكي الناجح وأن نؤمن المواطن ضد كل ما يستطيع أي عقل أن يتصوره من أنواع العقبات في الحياة ..إذا وصلنا إلى هذا الحلم البهيج الذي نسعى بكل قوانا وإمكانياتنا إلى تحقيقه في مصر ..فهل نرضى نتائجه الأخرى؟ هل نقبل الجانب الأسود من هذا المجتمع المثالي؟ هل نقبل «حرية الحب» وآثارها الخطيرة على كيان الأسرة؟

«دعونا نتحدث بالأرقام ...» «مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة،وتكوين أسرة،فإن الخط البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض! ..مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ثم تكفل لطفلها الحياة المجانية حتى يتخرج في الجامعة،فإن الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق! «يقابل هذا انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين.وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين.مع ملاحظة أن عشرين في المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدا.

«لقد بدأ عهد التصنيع.وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عـام ١٨٧٠.كانـت نسـبة الأمهات – غير المتزوجات – في ذلك العام ٧ في المائة،وارتفعت هذه النسبة في عـام ١٩٢٠ إلى ١٦ في المائة.والاحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها.ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة.

«وقد أجرت المعاهد العلمية عدة استفسارات عن «الحب الحر» في السـويد،فتبين منـها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج في سن الثامنة عشـرة.والفتـاة في سـن الخامسـة عشرة.وأن ٩٥ في المائة من الشبان في سن ٢١ سنة لهـم علاقـات جنسـية! «وإذا أردنـا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب،فإننا نقول:إن ٧ في المائة من هذه العلاقات الجنسية مـع خطيبات،و٣٥ في المائة منها مع حبيبات! و٥٨ في المائة منها مع صديقات عـابرات! «وإذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين.وجدنا أن ٣ في المائـة مـن هذه العلاقات مع أزواج.و٢٧ في المائة منها مع خطيب! و٦٤ في المائة منها مع صديق عابر! «وتقول الأبحاث العلمية:إن ٨٠ في المائة من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و٢٠ في المائة بقين بلا زواج! «وأدت حريـة الحـب بطبيعـة الحـال إلى الـزواج المتأخر،وإلى الخطبة الطويلة الأجل.مع زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين كما قلت.«والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة ..إن أهل السويد يدافعون عـن «حريـة الحـب» بقولهم:إن المجتمع السويدي ينظر نظرة احتقار إلى الخيانة بعد الزواج،كأي مجتمع متمدن آخر! وهذا صحيح لا ننكره! ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن الاتجاه إلى انقراض النسل.ثم الزيادة المروعة في نسبة الطلاق.

«إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم.إن طلاقا واحدا يحدث بين كل ست أو سبع زيجات،طبقا للإحصاءات التي أعدها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد.والنسبة بـدأت صغيرة،وهي مستمرة في الزيادة ..في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقا بين كل ١٠٠ ألـف من السكان – ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ في عام ١٩٥٢،ثم ارتفع إلى ١١٤ في عام ١٩٥٤.

«وسبب ذلك أن ٣٠ في المائة من الزيجات تتم اضطرارا تحت ضغط الظروف،بعد أن تحمـل الفتاة.

والزواج بحكم «الضرورة» لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج العادي.ويشجع على الطلاق أن القانون السويدي لا يضع أية عقبة أمام الطلاق إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق.فالأمر سهل جدا،وإذا طلب أحدهما الطلاق.فإن أي سبب بسيط يقدمه،يمكن أن يتم به الطلاق!

«وإذا كانت حرية الحب مكفولة في السويد ..فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد ..إنها حرية عدم الإيمان بالله! لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق.وهذه الظاهرة تسود الترويج والدنمرك أيضا.المدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها في عقول النشء والشباب.

«والجيل الجديد ينحرف ..وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا.إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف،وإلى الإدمان على المخدرات والخمور ..وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفا.أي ما يوازي ١٠ في المائة من مجموع أطفال العائلات كلها.

وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف ..إن من يقبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥ و١٧ يوازي ثلاثة أمثال عدد المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاما.وعادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيىء إلى أسوأ ..ويتبع ذلك حقيقة رهيبة.

«إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية! ويقول أطباء السويد:

إن ٥٠ في المائة من مرضاهم يعانون من اضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية.ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية،ويزيد من دواعي تفكك الأسرة.ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ...» والحال في أمريكا لا تقل عن هذه الحال.ونذر السوء تتوالى.والأمة الأمريكية في عنفوانها لا تتلفت للنذر.ولكن عوامل التدمير تعمل في كيانها،على الرغم من هذا الرواء الظاهري وتعمل بسرعة،مما يشي بسرعة الدمار الداخلي على الرغم من كل الظواهر الخارجية!!! لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا

وبريطانيا العسكرية لأعدائهم،لا لأنهم في حاجة إلى المال.ولكن لأن بهم شذوذا جنسيا،ناشئا من آثار الفوضى الجنسية السائدة في المجتمع.

وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكي يده على عصابة ضخمة ذات فروع في مدن شتى.مؤلفة من المحامين والأطباء – أي من قمة الطبقة المثقفة – مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بإيجاد الزوج أو الزوجة في حالة تلبس بالزنا،وذلك لأن بعض الولايات لا تزال تشترط هذا الشرط لقبول توقيع الطلاق! ومن ثم يستطيع الطرف الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هذه العصابة متلبسا،وهي التي أوقعته في حبائلها! كذلك من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين! وذلك في مجتمع لا يدري فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته في الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق! ولا تدري الزوجة إن كان زوجها الذي خرج في الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية! مجتمع تعيش البيوت فيه في مثل هذا القلق الذي لا يدع عصبا يستريح!!! وأخيرا يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ستة من كل سبعة من شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقي الذي يعيشون فيه.

وقد كتبت إحدى المجلات الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول:

«عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم.وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض،أولها:

الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحة ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة.

والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب،بل تلقنهم دروسا عملية في بابه.والثالث انحطاط المستوي الخلقي في عامة النساء،الذي يظهر في ملابسهن،بل في عريهن،وفي إكثارهن من التدخين،واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام ..هذه المفاسد الثلاث فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام.ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر.فإن نحن لم نحد من طغيانها،فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان،ومن تبعهم من سائر الأمم،الذين قد أوردهم هذا الاتباع

للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء،مع ما كانوا فيه من خمر ونساء،أو مشاغل رقص ولهو وغناء» .

والذي حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثة،بل استسلمت لها تماما وهـي تمضي في الطريق الذي سار فيه الرومان! ويكتب صحفي آخر عن موجة انحراف الشـباب في أمريكا وبريطانيا وفرنسا،ليهون من انحلال شبابنا!

يقول:«انتشرت موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا.وأعلن حاكم ولاية نيويورك،أنه سوف يجعل علاج هذا الانحراف على رأس برنامج الإصلاح الذي يقوم بـه في الولاية:

«وعمد الحاكم إلى إنشاء المزارع و «الإصلاحيات» التهذيبيـة والأنديـة الرياضـية ..إلخ» «ولكنه أعلن أن علاج الإدمان على المخدرات – التي انتشرت بصفة خاصـة بـين طلبـة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين! – لا يدخل في برنامجه،وأنـه يتـرك أمـره للسلطات الصحية! «وأما في انجلترا فقد كثرت في العامين الأخيرين جرائم الاعتـداء علـى النساء وعلى الفتيات الصغيرات في طرق الريف.وفي معظم الحالات كان المعتـدي أو المجـرم غلاما مراهقا.وفي بعضها كان المجرم يعمد إلى خنق الفتاة أو الطفلة،وتركها جثة هامـدة،حتى لا تفشي سره،أو تتعرف عليه،إذا عرضه عليها رجال البوليس.

«ومنذ شهرين اثنين كان شيخ عجوز في طريقه إلى القرية،عندما أبصر على جانب الطريق – وتحت شجرة – غلاما يضاجع فتاة ..

«واقترب الشيخ منهما،ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه،وقال له:إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه في الطريق العام! «ونهض الفتى،وركل الشيخ بكل قوته في بطنه ...ووقع الشيخ.

«وهنا ركله الفتى في رأسه بحذائه ...واستمر يركله بقسوة حتى تهشم الرأس! «وكان الغـلام في الخامسة عشرة،والفتاة في الثالثة عشرة من عمرها! » وقد قررت لجنـة الأربعـة عشـر الأمريكية التي تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن ٩٠ في المائة من الشعب الأمريكي مصـابون بالأمراض السرية الفتاكة (وذلك قبل وجود المركبات الحديثـة مـن مضـادات الحيويـات كالبنسلين والاستربيتومايسين!) وكتب القاضي لندسي بمدينة «دنفر» أنه من كـل حـالتي

زواج تعرض قضية طلاق! وكتب الطبيب العالم العالمي ألكسيس كاريل في كتابه:«الإنسان ذلك المجهول»:

«بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية.إلخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال.فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوى العقلية ...ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في جميع المستشفيات الأخرى.وكالجنون،فإن الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية آخذ في الازدياد.وهي أكثر العناصر نشاطا في جلب التعاسة للأفراد،وتحطيم الأسر ..إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية،التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن! » ..

هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة،في جاهليتها الحديثة،من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ولا يريدون أن يفيئوا إلى منهج الله للحياة.المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف على الإنسان الضعيف وصيانته من نزواته،وحمايته من شهواته،وهدايته إلى الطريق الآمن،والوصول به إلى التوبة والصلاح والطهارة:«وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً.يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً».[2226]

عَنْ مُجَاهِد ،فِي قَوْلِهِ:{وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ} [النساء:٢٧] قَالَ:" الزِّنَا.{أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء:٢٧] قَالَ:«يُرِيدُونَ أَنْ تَزْنُوا» {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء:٢٧] «أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ تَزْنُونَ كَمَا يَزْنُونَ»

وعَنْ مُجَاهِد:{وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ} [النساء:٢٧] قَالَ:" الزِّنَا.{أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء:٢٧] قَالَ:" يَزْنِي أَهْلُ الْإِسْلَامِ كَمَا يَزْنُونَ.قَالَ:هِيَ كَهَيْئَةِ {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم:٩] "[2227]

[2226] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٩٦٢)

[2227] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ٦٢٢)

فصاحب الباطل يود لو شاركه غيره في باطله،كما قال تعالى عن اليهود والنصارى:{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [البقرة:١٢٠]

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْجُو أَنْ يُبَادِرَ أَهْلُ الكِتَابِ إِلَى الإِيْمَانِ بِهِ قَبْلَ غَيْرِهِمْ،لِذلِكَ كَبُرَ عَلَيهِ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَّتِهِ،وَإِلحَافُهُمْ فِي مُجَاحَدَتِهِ،فَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى فِي هذه الآيَةِ أَنْ يُيْئِسَهُ مِنَ الطَّمَعِ فِي إِسْلاَمِهِمْ،إِذْ عَلَّقَ رِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ أَنُ يَكُونَ،فقَالَ لَهُ:إِنَّ اليَهُودَ وَالنَّصارَى لَنْ يَرْضَوْا عَنْكَ أبداً مَا لَمْ تَتْبَعُ مِلَّتَهُمْ وَشَرِيعَتَهُمْ،لذلكَ عَلَيكَ تَرْكُ طَلَبِ مَرْضَاتِهِمْ،وَالاتِّجَاهُ إلى طَلَبِ مَرْضَاةِ اللهِ فِي دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إلى مَا بَعَثَكَ اللهُ بِهِ مِنَ الحَقِّ.وَقُلْ لَهُمْ:إِنَّ الدِّينَ الذي جِئْتُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَالذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ (هُدَى اللهُ) هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحِ.وَيَتَوَعَّدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ الذينَ يَتَّبِعُونَ طَرَائِقَ اليَهُودِ والنَّصَارَى وَيَقْبلُونَ مَا أَضَافُوهُ إلى دِينِهِمْ مِنْ عِنْدِ أنفُسِهِمْ،بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ وَغَايَاتِهِمْ،وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّهُمْ لَنْ يَكُونَ لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ،لأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنَ الحَقِّ بَعْدَ مَا عَلِمُوهُ مِنَ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ،(وَالخِطَابُ هُنَا لِلرَّسُولِ وَالتحذيرُ لأُمَّتِهِ،لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَعْصُومٌ) .[٢٢٢٨]

وَلَيْسَت الْيَهُودُ يَا مُحَمَّدُ وَلَا النَّصَارَى بِرَاضِيَةٍ عَنْكَ أَبَدًا،فَدَعْ طَلَبَ مَا يُرْضِيهِمْ وَيُوَافِقُهُمْ،وَأَقْبِلْ عَلَى طَلَبِ رِضَا اللَّهِ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.فَإِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ لَهُوَ السَّبِيلُ إِلَى الِاجْتِمَاعِ فِيهِ مَعَكَ عَلَى الْأُلْفَةِ وَالدِّينِ الْقَيِّمِ.وَلَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى إِرْضَائِهِمْ بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِمْ؛لِأَنَّ الْيَهُودِيَّةَ ضِدَّ النَّصْرَانِيَّةِ،وَالنَّصْرَانِيَّةُ ضِدُّ الْيَهُودِيَّةِ،وَلَا تَجْتَمِعُ النَّصْرَانِيَّةُ وَالْيَهُودِيَّةُ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ،وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَا تَجْتَمِعُ عَلَى الرِّضَا بِكَ،إِلَّا أَنْ تَكُونَ يَهُودِيًّا نَصْرَانِيًّا،وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ مِنْكَ أَبَدًا،لِأَنَّكَ شَخْصٌ وَاحِدٌ،وَلَنْ يَجْتَمِعَ فِيكَ دِينَانِ مُتَضَادَّانِ فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ.وَإِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِيكَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ سَبِيلٌ،لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَى إِرْضَاءِ الْفَرِيقَيْنِ سَبِيلٌ.وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ،فَأَلْزَمْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي لِجَمْعِ الْخَلْقِ إِلَى الْأُلْفَةِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ،وَأَمَّا الْمِلَّةُ فَإِنَّهَا الدِّينُ وَجَمْعُهَا الْمِلَلُ.ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا:{لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا

[٢٢٢٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٧،بترقيم الشاملة آليا)

مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة:١١١] :{إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى} [البقرة:١٢٠] يَعْنِي أَنَّ بَيَانَ اللَّهِ هُوَ الْبَيَانُ الْمُقْنِعُ وَالْقَضَاءُ الْفَاصِلُ بَيْنَنَا،فَهَلُمُّوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَبَيَانِهِ الَّذِي بَيَّنَ فِيهِ لِعِبَادِهِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ،وَهُوَ التَّوْرَاةُ الَّتِي تُقِرُّونَ جَمِيعًا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،يَتَّضِحُ لَكُمْ فِيهَا الْمُحِقُّ مِنَّا مِنَ الْمُبْطِلِ،وَأَيُّنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ،وَأَيُّنَا أَهْلُ النَّارِ،وَأَيُّنَا عَلَى الصَّوَابِ،وَأَيُّنَا عَلَى الْخَطَأِ.وَإِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى هُدَى اللَّهِ وَبَيَانِهِ،لِأَنَّ فِيهِ تَكْذِيبَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا قَالُوا مِنْ أَنَّ الْجَنَّةَ لَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى،وَبَيَانُ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ،وَأَنَّ الْمُكَذِّبَ بِهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ دُونَ الْمُصَدِّقِ بِهِ

يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ:{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ} [البقرة:١٢٠] يَا مُحَمَّدُ هَوَى هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،فِيمَا يُرْضِيهِمْ عَنْكَ مِنْ تَهَوُّدٍ وَتَنَصُّرٍ،فَصِرْتَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى إِرْضَائِهِمْ،وَوَافَقْتَ فِيهِ مَحَبَّتَهُمْ مِنْ بَعْدِ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بِضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ،وَمِنْ بَعْدِ الَّذِي اقْتَصَصْتُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَئِهِمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ،{مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ} [البقرة:١٢٠] .يَعْنِي بِذَلِكَ:لَيْسَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أَمْرَكَ،وَقَيِّمٍ يَقُومُ بِهِ،وَلَا نَصِيرٍ يَنْصُرُكَ مِنَ اللَّهِ،فَيَدْفَعُ عَنْكَ مَا يَنْزِلُ بِكَ مِنْ عُقُوبَتِهِ،وَيَمْنَعُكَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ أَحَلَّ بِكَ ذَلِكَ رَبُّكَ.وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْوَلِيِّ وَالنَّصِيرِ فِيمَا مَضَى قَبْلُ.وَقَدْ قِيلَ:إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛لِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى دَعَتْهُ إِلَى أَدْيَانِهَا،وَقَالَ كُلُّ حِزْبٍ مِنْهُمْ:إِنَّ الْهُدَى هُوَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ دُونَ مَا عَلَيْهِ غَيْرُنَا مِنْ سَائِرِ الْمِلَلِ.فَوَعَظَهُ اللَّهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ،وَعَلَّمَهُ الْحُجَّةَ الْفَاصِلَةَ بَيْنَهُمْ فِيمَا ادَّعَى كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ"[٢٢٢٩]

الطريقة المشروعة للعباد تسمي ملة،لأن الأنبياء أملّوها وكتبوها لأمتهم،وتسمى دينا،لأن العباد انقادوا لمن سنها،وتسمى شريعة لأنها مورد للمتعطشين إلى ثواب الله ورحمته.

وقد كان النبي ﷺ يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به،ومن ثم كبر عليه إعراضهم عن إجابة دعوته،وإلحافهم في مجاحدته،مع موافقتهم له فى أصل دينهم،من توحيد الله وتقويم ما اعوجّ من الفطرة الإنسانية،بما طرأ عليها من التقاليد الفاسدة بالمعارف الدينية الصالحة إلى أقصى حد مستطاع.

[٢٢٢٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢/ ٤٨٤)

وفي الآية تيئيس له عليه السلام من طمعه في إسلامهم،إذ علق رصاهم عنه بما هو مستحيل أن يكون،وهو اتباع ملتهم والدخول في دينهم،لأنهم اتخذوا الدين جنسية لا يرضون عن أحد إلا إذا دخل في حظيرتها،وانضوى تحت لوائها.وكلامهم هذا يتضمن أن ملتهم هى الهدى لا ما سواها،ومن ثم ردّ الله عليهم بقوله آمرا نبيّه.

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى) أي إن الهدى هو ما أنزله الله على أنبيائه،لا ما أضافه إليه اليهود والنصارى بالهوى والتشهي،ففرقوا دينهم وكانوا شيعا،كلّ شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء.

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) أي ولئن اتبعت ما أضافوه إلى- دينهم وجعلوه أصلا من أصول شريعتهم بعد ما حصل لك من اليقين والطمأنينة بالوحى الإلهى الذي نزل عليك،ومنه علمت أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل،وأنهم نسوا حظا مما ذكروا به.

(ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) أي فالله لا ينصرك ولا يساعدك على ذلك،إذ أن اتباع الهوى لا يكون طريقا موصلا إلى الهدى،وإذا لم ينصرك الله ويتولّ شئونك فمن ذا الذي ينصرك من بعده؟

وهذا الإنذار الشديد والوعيد والتهديد وإن كان موجها إلى النبي ﷺ الذي عصمه الله من الزيغ والزلل وأيده بالكرامة،هو في الحقيقة خطاب للناس كافة فى شخص النبي ﷺ،وقد جرى العرف في خطاب الملوك أن يقال للملك:إذا فعلت كذا كانت العاقبة كذا،ويراد إذا فعلته دولتك أو أمتك.والكلام هنا جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده أن يصدع بالحق،وينتصر له ولا يبالى بمن خالفه مهما قوى حزبه واشتدّ أمره،فمن عرف الحقّ وعرف أن الله ولىّ أمره وناصره لا يخاف في تأييده لوم اللائمين،ولا إنكار المعاندين.[٢٢٣٠]

وسيظل اليهود والنصارى يحاربونك،ويكيدون لك،ولا يسالمونك ولا يرضون عنك،إلا أن تحيد عن هذا الأمر،وإلا أن تترك هذا الحق،وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين،تتخلى عنه إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذي سبق بيانه منذ قليل:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ

[٢٢٣٠] - تفسير المراغي (١/ ٢٠٣)

وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..فتلك هي العلة الأصيلة.ليس الذي ينقصهم هـــو البرهـــان وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق،وأن الذي جاءك من ربك الحق.ولو قدمت إليهم ما قدمت،ولو توددت إليهم ما توددت ..لن يرضيهم من هذا كله شـــيء،إلا أن تتبـــع ملتهم وتترك ما معك من الحق.

إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان ..إنها هي العقيدة.هـــذه حقيقـــة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة ..إنهـــا معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصـــمان فيما بينهما وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها،ولكنها تلتقي دائما في المعركـــة ضـــد الإسلام والمسلمين!

إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها.ولكن المعسكرين العـــريقين في العـــداوة للإســـلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى،ويرفعان عليها أعلاما شتى،في خبث ومكر وتورية.إنهـــم قـــد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة.ومـــن ثم اســـتدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة ..لم يعلنوها حربا باسم العقيدة – علـــى حقيقتـــها – خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها.إنما أعلنوها باســـم الأرض،والاقتصاد،والسياســـة،والمراكز العسكرية ..وما إليها.وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قـــد صـــارت حكاية قديمة لا معنى لها!

ولا يجوز رفع رايتها،وخوض المعركة باسمها.فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كي يـــأمنوا جيشان العقيدة وحماستها ..بينما هم في قرارة نفوسهم:الصهيونية العالمية والصليبية العالميـــة – بإضافة الشيوعية العالمية – جميعا يخوضون المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصـــخرة العاتية التي نطحوها طويلا،فأدمتهم جميعا!!!

إنها معركة العقيدة.إنها ليست معركة الأرض.ولا الغلة.ولا المراكز العسكرية.ولا هذه الرايات المزيفة كلها.إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين.ليخـــدعونا عـــن حقيقـــة المعركـــة وطبيعتها،فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا.ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه –

ﷺ - ولأمته،وهو - سبحانه - أصدق القائلين:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه.وما سواه فمرفوض ومردود! ولكن الأمر الحازم،والتوجيه الصادق:«قُلْ:إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى» ..

على سبيل القصر والحصر.هدى الله هو الهدى.وما عداه ليس بهدى.فلا براح منه،ولا فكاك عنه،ولا محاولة فيه،ولا ترضية على حسابه،ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير،ومن شاء فليؤمن،ومن شاء فليكفر.وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم،أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق.

«وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ» ..بهذا التهديد المفزع،وبهذا القطع الجازم،وبهذا الوعيد الرعيب ..ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم! إنها الأهواء ..إن أنت ملت عن الهدى ..هدى الله الذي لا هدى سواه ..وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل.[٢٢٣١]

وهذه الحقيقة التي يقررها الله سبحانه في مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين،هي التي يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب،وكثيرون ممن يسمون أنفسهم «مسلمين» ..باسم تعاون «المتدينين» في وجه المادية والإلحاد كما يقولون! أهل الكتاب يريدون اليوم تمييع هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها،لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامي - أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح - وتخدير الوعي الذي كان قد بثه فيهم الإسلام بمنهجه الرباني القويم.ذلك أنه حين كان هذا الوعي سليما لم يستطع الاستعمار الصليبي أن يقف للمد الإسلامي،فضلا على أن يستعمر الوطن الإسلامي ..ولم يكن بد لهؤلاء - بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة،وفي حرب التبشير السافرة كذلك - أن يسلكوا طريق الخداع والتخدير،فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين،أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت! وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعا! ثم تنور العالم و «تقدم» فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة ..وإنما

[٢٢٣١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٥)

الصراع اليوم على المادة! على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب! وإذن فما يجوز للمسلمين – أو ورثة المسلمين – أن يفكروا في الدين ولا في صراع الدين! وحين يطمئن أهل الكتاب – وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين – إلى استنامة هؤلاء لهذا التخدير وحين تتميع القضية في ضمائرهم فإن المستعمرين يأمنون غضبة المسلمين لله وللعقيدة ..الغضبة التي لم يقفوا لها يوما ..ويصبح الأمر سهلا بعد التنويم والتخدير ..ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها.بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والخامات ويغلبون في معركة «المادة» بعد ما يغلبون في معركة «العقيدة» ..فهما قريب من قريب ..وعملاء أهل الكتاب في الوطن الإسلامي،ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو في خفية،يقولون القول نفسه ..لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود ..وهؤلاء يقولون عن «الحروب الصليبية» ذاتها:إنها لم تكن «صليبية»!!! ويقولون عن «المسلمين» الذين خاضوها تحت راية العقيدة:إنهم لم يكونوا «مسلمين» وإنما هم كانوا «قوميين»! وفريق ثالث مستغفل مخدوع يناديه أحفاد «الصليبيين» في الغرب المستعمر:أن تعالوا إلينا.تعالوا نجتمع في ولاء لندفع عن «الدين» غائلة «الملحدين»! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخدوع ناسيا أن أحفاد الصليبيين هؤلاء وقفوا في كل مرة مع الملحدين صفا واحدا،حينما كانت المواجهة للمسلمين! على مدار القرون! وما يزالون! وأنهم لا يعنيهم حرب المادية الالحادية قدر ما تعنيهم حرب الإسلام.ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإلحادية المادية عرض طارئ وعدو موقوت وأن الإسلام أصل ثابت وعدو مقيم! وإنما هذه الدعوة المموهة لتمييع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامي وللانتفاع بجهد المستغفلين المخدوعين – في الوقت ذاته – ليكونوا وقود المعركة مع الملحدين لأنهم أعداء الاستعمار السياسيون! وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين ..حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعي الذي يربيه عليه المنهج الرباني القويم ..

إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق،فيحسبون أهل الكتاب جادين إذ يدعونهم للتضامن والولاء في دفع الإلحاد عن «الدين» إنما ينسون واقع التاريخ في أربعة عشر قرنا – لا استثناء فيها – كما ينسون تعليم ربهم لهم في هذا الأمر بالذات،وهو تعليم لا مواربة فيه،ولا مجال للحيدة عنه،وفي النفس ثقة بالله ويقين بجدية ما يقول! إن هؤلاء يجتزئون فيما

يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية،والأحاديث النبوية،التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب وأن يتسامحوا معهم في المعيشة والسلوك.ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم والتقريرات الواعية عن بواعثهم،والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية،وخطة التنظيم،التي تحرم التناصر والموالاة،لأن التناصر والموالاة لا يكونان عند المسلم إلا في شأن الدين وإقامة منهجه ونظامه في الحياة الواقعية،وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقي عليها المسلم مع أهل الكتاب في شأن دينه - مهما يكن هناك من تلاق في أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها - إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين،ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين ..كما يقول رب العالمين ..

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين يجزئونه ويمزقونه،فيأخذون منه ما يشاءون - مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها - ويدعون منه ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب! ونحن نؤثر أن نسمع كلام الله،في هذه القضية،على أن نسمع كلام المخدوعين أو الخادعين! وكلام الله - سبحانه - في هذه القضية حاسم واضح صريح مبين ..

ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى - بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل - أن بقية السبب:«وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ» فهذا الفسق هو شطر الباعث! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم ..وهي قاعدة نفسية واقعية تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة ..إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم ..إن وجوده يشعره دائما بفسقه وانحرافه.إنه يتمثل له شاهدا قائما على فسقه هو وانحرافه ..ومن ثم يكرهه وينقم عليه.يكره استقامته وينقم منه التزام هو ويسعى جاهدا لجره إلى طريقه أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده! إنها قاعدة مطردة،تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة،إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة.إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة ..والحرب المشبوبة دائما على الخيرين في مجتمع الأشرار،وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين،وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين ..هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب ..

ولقد علم الله – سبحانه – أن الخير لا بد أن يلقى النقمة من الشر،وأن الحق لا بد أن يواجـــه العداء من الباطل،وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفساق،وأن الالتزام لا بد أن يجـــر حقـــد المنحرفين.

وعلم الله – سبحانه – أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفســـها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف.وأنها معركة لا خيـــار فيهـــا،ولا يملك الحق ألا يخوضها في وجه الباطل.لأن الباطل سيهاجمه،ولا يملك الخـــير أن يتجنبـــها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه ..وغفلة – أي غفلة – أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف وأنهم يملكون تجنب المعركة وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة! وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة من أن يستسلموا للوهم والخديعة ..وهم يومئذ مأكولون مأكولون!

ثم نمضي مع السياق القرآني في توجيه الله – ســـبحانه – لرســـوله – ﷺ – لمواجهـــة أهـــل الكتاب،بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث في النقمة على المسلمين ..فإذا هو يجبههم بتاريخ لهم قديم،وشأن لهم مع ربهم،وعقاب أليم:«قُلْ:هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَـــةً عِنْـــدَ اللَّهِ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ،وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ،وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ.أُولئِـــكَ شَـــرٌّ مَكاناً،وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ! » وهنا تطالعنا سحنة يهود،وتاريخ يهود! إنهم هـــم الـــذين لعنهم الله وغضب عليهم،وجعل منهم القردة والخنازير.إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت ..

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة في مواضع شتى من القرآن الكريم وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير ..فأما قضية عبادتهم للطاغوت،فتحتاج إلى بيان هنا،لأنهـــا لفتـــة ذات دلالة خاصة في سياق هذه السورة ..

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله،وكل حكم لا يقـــوم علـــى شـــريعة الله،وكل عدوان يتجاوز الحق ..والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هـــو أشـــنع العدوان وأشده طغيانا،وأدخله في معنى الطاغوت لفظا ومعنى ..

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله.فسماهم الله عبادا لهم وسماهم مشركين ..وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق.فهـــم عبـــدوا

الطاغوت ..أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها ..وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع،ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة.وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله .

والله – سبحانه – يوجه رسوله – ﷺ – لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ،وبذلك الجزاء الذي استحقوه من الله على هذا التاريخ ..كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة ..يوجهه ليقول لهم:إن هذا شر عاقبة:«قُلْ:هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ» ..

أي شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين،وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم.وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه،وحكمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل:«أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً،وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ» ..[٢٢٣٢]

وقال تعالى:{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:١٠٩]

يُحَذِّرُ الله تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنينَ مِنْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ،وَهُمُ الْيَهُودُ هُنا،يَكْرَهُونَ المُسْلمينَ،وَيُبْطِنُونَ لَهُم العَدَاوَةَ،وَهُمْ يَعْمَلُونَ جَاهدينَ عَلَى رَدِّ المُسْلمينَ عَنْ دينِهِمْ،وَعَلَى إِعَادَتِهِمْ إِلَى الكُفْرِ،وَذلِكَ بِسَبَبِ حَسَدِهِمْ لِلْمُسْلمينَ،وَخَوْفِهِمْ مِنْ أَنْ يَنْتَقِلَ السُّلْطَانُ إِلَى المُسْلمينَ،بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدُوا مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ صَادِقٌ فِي رِسَالَتِه،وَأَنَّ مَا أُنزِلَ إِليهِ هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِ الله.ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ المُؤْمنينَ بِأنْ يُعْفُوا عَنْ هؤلاءِ الكُفَّارِ الحُسَّادِ،وَبِأَنْ يَصْفَحُوا عَنْهُمْ،وَبِأَنْ يَحْتَمِلُوا أَذَاهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله بالنَّصْرِ أَوِ الفَتْحِ،وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ.

(هذا المَقْطَعُ مِنَ الآية:{فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ} مَنْسُوخٌ بآيَةِ السَّيْفِ،{فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى {قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.}[٢٢٣٣]

[٢٢٣٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٢٠)

[٢٢٣٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٦،بترقيم الشاملة آليا)

أي تمنى كثير من اليهود والنصارى أن يصرفوكم عـــن توحيـــد الله والإيمـــان بمحمـــد ﷺ ويرجعوكم كفارا كما كنتم،حسدا لكم.

وفي هذا إشارة إلى أن النصح الذي يشيرون به منشؤه الحسد وخبث النفوس وســـوء الطويّـــة والجمود على الباطل- لا الغيرة على الحق وصرف الهمة في الدفاع عنه.(مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُـــمُ الْحَقُّ) أي من بعد أن ظهر لهم بساطع الأدلة أن محمدا على الحق بما جاء به من الآيات الـــتي تنطبق على ما يحفظونه من بشارات كتبهم بنبي يأتي آخر الزمان.(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) أي فعاملوهم بأحاسن الأخلاق من العفو عن مذنبهم بترك عقابه،والصـــفح عنـــه بترك لومه وتعنيفه حتى يأتى نصر الله لكم بمعونته وتأييده.وقد يكون المعنى- حتى يأتى أمر الله ونصره،وقد تحقق ذلك بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير من المدينة بعد أن غدروا ونقضـــوا العهد بموالاة المشركين بعد أن عفا عنهم وصفح مرات كثيرات.وفي أمره تعالى لهـــم بـــالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة،لأن الصفح لا يكون إلا من القادر،فكأنه يقول لهم:لا تغرّنّكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم،فأنتم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق،وأهل الحق مؤيدون بعناية الله،ولهم العزة ما ثبتوا عليه.

ثم أكد الوعد السابق بالنصرة بقوله:(إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي فالله هو القادر على أن يهبكم من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى،ويثبتكم بما أنتم عليه من الحق فتتغلبوا على من يناوئكم ويظهر لكم العدوان اغترارا بكثرته،واعتزازا بقوته:(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّـــهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) .[٢٢٣٤]

وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس ..الرغبة في سلب الخير الذي يهتـــدي إليـــه الآخـــرون ..لماذا؟

لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم.ولكنها لأنها تعلم! «حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مـــا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» ..

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهـــود تجـــاه الإســـلام والمسلمين،ومازالت تفيض،وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال.وهـــو

[٢٢٣٤] - تفسير المراغي (١/ ١٩٠)

الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه،ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهـود اليهـود لزعزعة العقيدة في نفوسهم وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه،والذي أنقذهم الله منه بالإيمان،وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها يهـود! وهنـا – في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة،وتنكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم – هنا يـدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد،والشر بالشر،ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره،وقتما يريد:«فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ.إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..وامضوا في طريقكم التي اختارهـا الله لكم،واعبـدوا ربكـم وادخـروا عنـده حسناتكم:«وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ،وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ.إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ..

وهكذا ..يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصـدر الخطـر،ومكمن الدسيسة ويعبىء مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم ..ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله ينتظرون أمره،ويعلقون تصرفهم بإذنـه ..وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة،لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة.ويـدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة ..[٢٢٣٥]

لقد كانت التجربة تلو التجربة قد كشفت عن القانون الحتمي الذي يحكم العلاقـات بـين المجتمع المسلم الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامـة والحاكميـة والتشـريع والمجتمعات الجاهلية التي تجعل هذا كله لغير الله،أو تجعل فيه شركاء لله ..هذا القانون الحتمـي هو قانون الصراع الذي يعبر عنه قول الله سبحانه:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّـاسَ بَعْضَـهُمْ بِـبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً» ..(الحـج:٤٠) والـذي يقول عنه سبحانه كذلك:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّـاسَ بَعْضَـهُمْ بِـبَعْضٍ لَفَسَـدَتِ الْـأَرْضُ» ..(البقرة:٢٥١)

وقد ظهرت آثار هذا القانون الحتمي في ظاهرتين بارزتين:

[٢٢٣٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٧)

إحداهما:انطلاق الإسلام خطوة بعد خطوة،وغزوة بعد غزوة،ومرحلة بعد مرحلة لنشر منهج الله في الأرض حوله وإبلاغ كلمة الله إلى أرض بعد أرض وإلى قبيلة بعد قبيلة – في طريقه إلى إبلاغها إلى الناس كافة وإزالة الحواجز المادية التي تحول دون هذا الإعلان العام والبلـــوغ إلى كل بني الإنسان – حتى فتحت مكة،وخضدت شوكة قريش العقبة الكبرى في طريق الزحف الإسلامي،واستسلمت هوازن وثقيف في الطائف أقوى القبائل بعد قـــريش في طريـــق هـــذا الزحف.وأصبحت للإسلام قوته التي ترهب عدوه وتسمح بالقيام بالخطوة النهائية الحاسمـــة في الجزيرة – تمهيدا لما وراءها من أرض الله حسبما تتهيأ الظروف الملائمة لكل خطوة تالية،حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

وثانيتهما:نقض العهود التي كانت المعسكرات الجاهلية تعقدها مع المســـلمين – في ظـــروف مختلفة – عهدا بعد عهد بمجرد أن تتاح لها فرصة نقضها،وعند أول بادرة تشير إلى أن المعسكر الإسلامي في ضائقة تهدد وجوده أو على الأقل تجعل هذا النقض مأمون العاقبة على ناقضيه من المشركين – ومن أهل الكتاب من قبلهم – فما كانت هذه العهود – إلا نادرا – عن رغبـــة حقيقية في مسالمة الإسلام ومهادنة المسلمين إنما كانت عن اضطرار واقعي إلى حين!

فما تطيق المعسكرات الجاهلية طويلا أن ترى الإسلام ما يزال قائما حيالها مناقضا في أصـــل وجوده لأصل وجودها مخالفا لها مخالفة جذرية أصيلة في الصغيرة والكبيرة من مناهجها،يهـــدد بقاءها بما في طبيعته من الحق والحيوية والحركة والانطلاق لتحطيم الطاغوت كله،ورد النـــاس جميعا إلى عبادة الله وحده.

وهذه الظاهرة الأخيرة والقاعدة الأصيلة التي تقوم عليها هي التي يقررها الله سبحانه في قولـــه عن المشركين:«وَلا يَزالُـــونَ يُقـــاتِلُونَكُمْ حَتَّـــى يَـــرُدُّوكُمْ عَـــنْ دِيـــنِكُمْ إِنِ اسْـــتَطاعُوا» ...(البقرة:٢١٧)

والتي يقول فيها عن أهل الكتاب:«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْـــدِ إِيمـــانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» ..(البقرة:١٠٩)

ويقول فيها كذلك:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..(البقرة:١٢٠)

فيعلن – سبحانه – بهذه النصوص القطعية عن وحدة الهدف بين جميع معسكرات الجاهلية تجاه الإسلام والمسلمين وعن قوة الإصرار على هذا الهدف وامتدادها عبر الزمان،وعدم توقيتها بظرف أو زمان! وبدون إدراك ذلك القانون الحتمي في طبيعة العلاقات بين التجمع الإسلامي والتجمعات الجاهلية،وتفسير الظواهر التي تنشأ عنه – على مدار التاريخ – بالرجوع إليه،لا يمكن فهم طبيعة الجهاد في الإسلام ولا طبيعة تلك الصراعات الطويلة بين المعسكرات الجاهلية والمعسكر الإسلامي.ولا يمكن فهم بواعث المجاهدين الأوائل،ولا أسرار الفتوحات الإسلامية ولا أسرار الحروب الوثنية والصليبية التي لم تفتر قط طوال أربعة عشر قرنا والتي ما تزال مشبوبة على ذراري المسلمين – وإن كانوا لسوء حظهم تخلوا عن حقيقة الإسلام و لم يبق لهم منه إلا العنوان – في المعسكرات الشيوعية والوثنية والصليبية كلها:في روسيا والصين ويوغسلافيا وألبانيا.وفي الهند وكشمير.وفي الحبشة وزنجبار وقبرص وكينيا وجنوب افريقية والولايات المتحدة ..

وذلك فوق عمليات السحق الوحشية البشعة لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان في العالم الإسلامي – أو الذي كان إسلاميا بتعبير أدق – وتعاون الشيوعية والوثنية والصليبية مع الأوضاع التي تتولى سحق هذه الطلائع،ومد يد الصداقة إليها،وإمدادها بالمعونات التي تبلغ حد الكفالة،وإقامة ستار من الصمت حولها وهي تسحق هذه الطلائع الكريمة! إن شيئا من هذا كله لا يصبح مفهوما بدون إدراك ذلك القانون الحتمي والظواهر التي يتجلى فيها ..

وقد تجلى ذلك القانون – كما أسلفنا – قبيل نزول سورة التوبة وبعد فتح مكة في هاتين الظاهرتين اللتين أسلفنا الحديث عنهما.وظهر بوضوح أنه لا بد من اتخاذ تلك الخطوة الحاسمة في الجزيرة سواء تجاه المشركين – وهو ما نواجهه في هذا المقطع من السورة – أو تجاه أهل الكتاب،وهو ما سنواجهه في المقطع التالي مباشرة والذي بعده ..

ولكن وضوح ذلك كله للقيادة المسلمة – حينذاك – لم يكن معناه وضوحه – بنفس الدرجة – لكل الجماعات والطوائف في المجتمع المسلم.وبخاصة لحديثي العهد بالإيمان والمؤلفة قلوبهم،فضلا على ضعاف القلوب والمنافقين! كان في المجتمع المسلم – ولعل بعض هؤلاء من كرام المسلمين وخيارهم – من يتحرج من إنهاء العهود مع المشركين جميعا – بعد أربعة أشهر

للناكثين ومن لهم عهود غير موقتة ومن لم يحاربوا المسلمين ولو من غير عهد ومن لهم عهـــود أقل من أربعة وبعد انقضاء الأجل لمن لهم عهود موقوتة و لم ينقصوا المسلمين شيئا و لم يظاهروا عليهم أحدا - ولئن كانوا يستسيغون نبذ عهود الناكثين والذين تخاف منهم الخيانة،كما سبق في الحكم المرحلي الذي تضمنته سورة الأنفال:«وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلـــى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ» ..(الأنفال:٥٨) فإن إنهاء عهود غيرهم بعد أربعة أشـــهر أو بعد الأجل المقدر،ربما بدا لهم مخالفا لما عهدوه وألفوه من معاهدة المعاهدين وموادعة الموادعين وترك المهادنين ..ولكن الله - سبحانه - كان يريد أمرا أكبر من المألوف وخطـــوة وراء مـــا انتهت إليه الأمور! وكان في المجتمع المسلم كذلك - ولعل بعض هؤلاء من كرام المســـلمين وخيارهم كذلك - من يرى أنه لم تعد هناك ضرورة لقتال المشركين عامة،ومتابعتهم حـــتى يفيئوا إلى الإسلام بعد ما ظهر الإسلام في الجزيرة وغلب و لم تبق إلا جيوب متناثرة هنا وهناك لا خوف منها على الإسلام اليوم.ومن المتوقع أن تفيء رويدا رويدا - في ظل الســـلم - إلى الإسلام ..ولا يخلو هذا الفريق من التحرج من قتال الأقرباء والأصدقاء ومن تـــربطهم بهـــم علاقات اجتماعية واقتصادية متنوعة،متى كان هناك أمل في دخولهم في الإسلام بغـــير هـــذا الإجراء العنيف ..ولكن الله سبحانه كان يريد أن تقـــوم آصـــرة التجمـــع علـــى العقيـــدة وحدها،وأن تخلص الجزيرة للإسلام،وأن تصبح كلها قاعدة أمينة له وهو يعلم أن الروم يبيتون للإسلام على مشارف الشام كما سيجيء! وكان في المجتمع المسلم - ولعل بعض هؤلاء كان من كرام المسلمين وخيارهم أيضا! - من يخشى الكساد الذي يتوقعه من تعطـــل الصـــلات التجارية والاقتصادية في أنحاء الجزيرة بسبب إعلان القتال العام على المشركين كافة فيها وتأثير ذلك في موسم الحج،وبخاصة بعد إعلان ألا يحج بعد العام مشرك،وألا يعمر المشركون مساجد الله.

وبخاصة حين يضيف إلى هذا الاعتبار عدم ضرورة هذه الخطوة وإمكان الوصول إليها بالطرق السلمية البطيئة! ..[٢٢٣٦]

[٢٢٣٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢١٦٣)

وقال تعالى عن المنافقين:{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) } [النساء]

فَمَا لَكُمْ أَصْبَحْتُمْ فِئَتَينِ فِي المُنَافِقِينَ،وَاخْتَلَفْتُمْ فِي كُفْرِهِمْ،مَعَ تَظَاهُرِ الأَدِلَّةِ عَلَيهِ،فَلَيْسَ لَكُمْ أنْ تَخْتَلِفُوا فِي شَأْنِهِمْ،وَكَيْفَ تَفْتَرِقُونَ فِي شَأْنِهِمْ وَقَدْ صَرَفَهُمُ اللهُ عَنِ الحَقِّ الذِي أَنْتُمْ عَلَيهِ،بِمَا كَسَبُوا مِنْ أَعْمَالِ الشِّرْكِ،وَاجْتَرَحُوا مِنَ المَعَاصِي،وَقَدْ أَرْكَسَهُمُ اللهُ،وَجَعَلَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ نَاكِسِي الرُّؤُوسِ،بِسَبَبِ إيغَالِهِمْ فِي الضَّلالِ،وَبُعْدِهُمْ عَنِ الحَقِّ؟ وَأَنْتُمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَيْسَ بِاسْتِطَاعَتِكُمْ أنْ تُبَدِّلُوا سُنَنَ اللهِ،لأنَّ مَنْ قَضَتْ سُنَنُ اللهِ فِي خَلْقِهِ أنْ يَكُونَ ضَالاً عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ،فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ بِسُلُوكِهَا إلى الحَقِّ.

وَسَبِيلُ الفِطْرَةِ أنْ يَعرِضَ الإِنْسَانُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ عَلَى سُنَنِ العَقْلِ،وَيَتْبَعَ مَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ الحَقُّ الذِي فِيهِ مَنْفَعَتُهُ فِي الدِّينِ وَالدُّنيا.وَأَكْثَرُ مَا يَصُدُّ الإِنْسَانَ عَنْ سَبِيلِ الفِطْرَةِ هُوَ التَّقْلِيدُ وَالغُرُورُ وَظَنُّ الإِنَسانِ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أكْمَلُ مِمَّا هُوَ فِيهِ،وَبِهَذَا يَقْطَعُ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَ العَقْلِ وَالنَّظَرِ فِي النَّفْعِ وَالضَّرَرِ،وَالحَقِّ وَالبَاطِلِ.

وَهَؤُلاءِ لاَ يَقْنَعُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ وَالغِوَايَةِ،بَلْ يَطْمَعُونَ فِي أنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ،وَهُمْ يَوَدُّونَ لَكُمُ الضَّلاَلَةَ لِتَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا،وَمَا ذَلِكَ إلاَّ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ،فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ وَنُصَرَاءَ وَأَصدقاءَ،حَتَّى يُؤْمِنُوا وَيُهَاجِرُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ،لِيُثْبِتُوا صِدْقَ إِيمَانِهِمْ،فَإِنْ رَفَضُوا الهِجْرَةَ (تَولَّوا) وَلَزِمُوا مَوَاضِعَهُمْ،وَأَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ،وَلاَ تُوَالُوهُمْ،وَلاَ تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ عَلَى عَدُوّ لَكُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ.[٢٢٣٧]

(فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ) أي فما لكم صرتم فى المنافقين فئتين واختلفتم فى كفرهم مع تظاهر الأدلة عليه،فليس لكم أن تختلفوا فى شأهم،بل عليكم أن تقطعوا بثبوته.وهؤلاء فريق من المشركين كانوا يظهرون المودة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون فيما يظهرون

[٢٢٣٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٨١،بترقيم الشاملة آليا)

فضلهم،مع أمثالهم من المشركين،لكنهم يحتاطون ويظهرون الولاء للمسـلمين إذا رأوا منـهم القوة،فإذا ما ظهر لهم منهم ضعف انقلبوا عليهم وأظهروا لهم العداوة.
وكان المؤمنون فى أمرهم فرقتين،فرقة ترى أنهم يعدّون من الأولياء ويستعان بهم علـى سـائر المشركين المجاهرين لهم بالعداوة،وفرقة ترى أن يعاملوا كما يعامل غيرهم من المشركين المعلنين العداوة.
(وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا) أي كيف تفترقون فى شأنهم والله قد صرفهم عن الحق الذي أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك واجترحوا من المعاصي،حتى إنهم لا ينظرون إلـيكم نظـرة المودة والإخاء،بل نظرة العداوة والبغضاء،ويتربصون بكم الدوائر.وقد جعلهم الله مركسـين كأنهم قد نكسوا على رءوسهم وصاروا يمشون على وجوههم كما قال تعالى «أَفَمَنْ يَمْشِـي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ؟» لأنهم قد فسـدت فطـرتهم وأحاطت بهم خطيئاتهم،فأوغلوا فى الضلال،وبعدوا عن الحق،حتى لم يعد يجول فى أذهانهم إلا الثبات على ما هم فيه ومقاومة ما عداه.وقد نسبه الله تعالى إليه لأنه ما كان سببا إلا بسنته فى تأثير الأعمال الاختيارية فى نفوس العالمين.
(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟) أي إنه ليس فى استطاعتكم أن تبدلوا سنن الله فى نفـوس الناس فتريدوا أن تحصلوا على مقاصد وغايات ضد ما انطبع فيها من الأخلاق والصفات،بتأثير ما كسبته طوال عمرها من الأعمال.
(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) أي ومن تقضى سننه فى خلقه أن يكون ضالا عن طريـق الحق فلن تجد له سبيلا يصل بسلوكها إليه،فإن للحق سبيلا واحـدة هـى صـراط الفطـرة المستقيم،وللباطل سبلا كثيرة عن يمين سبيل الحق وعن شمالها،كل من سلك منها سبيلا بعـد عن سبيل الحق بقدر إيغاله فى السبيل التي سلكها كما قال تعالى «وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْـتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» وقد أوضح النبي ﷺ معنى الآيـة بـالخطوط الحسية،فخط فى الأرض خطا وجعله مثالا لسبيل الله،وخط على جانبيـه خطوطـا لسـبل الشيطان،وهذه الخطوط المستقيمة لا تلتقى مع الخط الأول بحال.

وسبيل الفطرة تقتضى أن يعرض الإنسان جميع أعماله على سنن العقل ويتّبع ما يظهر له أنـه الحق الذي فيه منفعته عاجلا وآجلا،وفيه كماله الإنساني.وأكثر ما يصده عن هـذه السـبيل التقليد والغرور وظنه أنه ليس هناك ما هو أكمل مما هو فيه،وبهذا يقطع على نفسـه طريـق العقل والنظر فى النفع والضر والحق والباطل.وشبهته فى ترك صراط الفطرة أن عقله قاصر عن التمييز بين الحق والباطل والخير والشر،فعليه أن يتبع ما وجد عليه الآباء والأجداد من زعمـاء عصره ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

ثم ذكر سبحانه ما يجول فى صدور أولئك المنافقين من أمانىّ فقال:(وَدُّوا لَوْ تَكْفُـرُونَ كَمـا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً) أي إن هؤلاء لا يقنعون بما هم عليه من الضلال والغواية،بل يطمعـون أن تكونوا أمثالهم وتحذوا حذوهم حتى يقضى على الإسلام الذي أنتم عليه،وهذا منتهى مـا يكون من الغلوّ والتمادي فى الكفر،حيث لا يكتفون بضلالهم بل يرجون إضلال غيرهم.

ثم حذر المؤمنين من غوائل نفاقهم فقال:(فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أي وإذا كانت هذه حالهم فلا تتخذوا منهم أنصارا يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنـوا ويهاجروا ويشاركوكم فى سائر شئونكم،فإن الصادقين فى إيمانهم لا يدعون النبي ﷺ ومن معه عرضة للخطر،ولا يتركون الهجرة إلا إذا عجزوا عنها،وإذا فتركهم لها علامة علـى نفـاقهم الذي اختلفتم فيه.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً) أي فـإن أعرضوا عن الهجرة فى سبيل الله ولزموا مواضعهم فى خارج المدينة فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم أينما وجدتموهم فى الحلّ أو فى الحرم،ولا تتخذوا منهم وليا يتولى شيئا مـن مهـامّ أموركم ولا نصيرا ينصركم على أعدائكم.[٢٢٣٨]

المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات:المنافقون المظهرون إسـلامهم،ولم يهـاجروا مـع كفرهم،وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه،فبعضـهم تحـرج عـن قتالهم،وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان،وبعضهم علم أحـوالهم بقـرائن أفعـالهم فحكم بكفرهم.فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا،بل أمـرهم

[٢٢٣٨] - تفسير المراغي (٥/ ١١٤)

واضح غير مشكل،إنهم منافقون قد تكرر كفرهم،وودوا مع ذلــك كفــركم وأن تكونــوا مثلهم.فإذا تحققتم ذلك منهم {فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ} وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم لأن النهي عن الشيء أمر بضده،وهذا الأمر موقت بهجــرتهم فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين،كما كان النبي ﷺ يجري أحكــام الإســلام لكل مَنْ كان معه وهاجر إليه،وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها {فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} أي:في أي وقــت وأي محل كان،وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم،كما هــو قــول جمهور العلماء،والمنازعون يقولون:هذه نصوص مطلقة،محمولة على تقييد التحريم في الأشــهر الحرم.[2239]

إننا نجد في النصوص استنكارا لانقسام المؤمنين فئتين في أمر المنافقين وتعجبا من اتخاذهم هــذا الموقف وشدة وحسما في التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته،وفي التعامــل مــع أولئــك المنافقين كذلك.

وكل ذلك يشي بخطر التميع في الصف المسلم حينذاك – وفي كل موقف مماثل – التميــع في النظرة إلى النفاق والمنافقين لأن فيها تميعا كذلك في الشعور بحقيقة هذا الدين.ذلك أن قــول جماعة من المؤمنين:«سبحان الله! – أو كما قالوا – أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا و لم يتركوا ديارهم،نستحل دماءهم وأموالهم؟ » ..وتصورهم للأمر على هذا النحو،من أنه كلام مثل ما يتكلم المسلمون! مع أن شواهد الحال كلها وقول هؤلاء المنافقين:«إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس» ..وشهادة الفئة الأخرى من المؤمنين وقولهم:«يظاهرون عدوكم» ..تصورهم للأمر على هذا النحو فيه تمييع كبير لحقيقة الإيمان،في ظروف تستدعي الوضوح الكامل،والحسم القاطع.فإن كلمة تقال باللسان مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين،لا تكون إلا نفاقا.ولا موضع هنا للتسامح أو للإغضاء.لأنــه تمييع للتصور ذاته ..

[2239] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٢)

وهذا هو الخطر الذي يواجهه النص القرآني بالعجب والاستنكار والتشديد البين.

و لم يكن الحال كذلك في الإغضاء عن منافقي المدينة.فقد كان التصور واضحا ..هؤلاء منافقون ..ولكن هناك خطة مقررة للتعامل معهم.هي أخذهم بظاهرهم والإغضاء إلى حين.

وهذا أمر آخر غير أن ينافح جماعة من المسلمين عن المنافقين.لأهم قالوا كلاما كالذي يقوله المسلمون.

وأدّوا بألسنتهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.بينما هم يظاهرون أعداء المسلمين! من أجل هذا التميع في فهم فئة من المسلمين،ومن أجل ذلك الاختلاف في شأن المنافقين في الصف المسلم،

كان هذا الاستنكار الشديد في مطلع الآية ..ثم تبعه الإيضاح الإلهي لحقيقة موقف هؤلاء المنافقين:

«وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا» ..ما لكم فئتين في شأن المنافقين.والله أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم؟ وهي شهادة من الله حاسمة في أمرهم.بأهم واقعون في السوء.بما أضمروا وبما عملوا من سوء.

ثم استنكار آخر:«أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ » ..ولعله كان في قول الفريق ..المتسامح!! ..ما يشير إلى إعطائهم فرصة ليهتدوا،ويتركوا اللجلجة! فاستنكر الله هذا في شأن قوم استحقوا أن يوقعهم الله في شر أعمالهم وسوء مكاسبهم.

«وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا» ..فإنما يضل الله الضالين.أي يمد لهم في الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم ونيتهم إلى الضلالة.وعندئذ تغلق في وجوههم سبل الهداية.بما بعدوا عنها،وسلكوا غير طريقها ونبذوا العون والهدى،وتنكروا لمعالم الطريق! ثم يخطو السياق خطوة أخرى في كشف موقف المنافقين ..إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب و لم يستحقوا أن يوقعهم الله في الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب ..إنما هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين:«وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً» ..

إنهم قد كفروا ..على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون،ونطقوا بالشهادتين نطقا يكذبه العمل في مظاهرة أعداء المسلمين ..وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد.فالذي

يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين.ولا بد له من عمل وسعي،ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر.ليكونوا كلهم سواء.

هذا هو الإيضاح الأول لحقيقة موقف أولئك المنافقين ..وهو يحمل البيان الذي يرفع التميع في تصور الإيمان ويقيمه على أساس واضح من القول والعمل متطابقين.وإلا فلا عبرة بكلمات اللسان،وحولها هذه القرائن التي تشهد بالكذب والنفاق:والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية مفزعة لهم،وهو يقول لهم:«وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً» ..

فقد كانوا حديثي عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعد مرارة الكفر.وبالنقلة الضخمة التي يجدونها في أنفسهم،بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم في الجاهلية ..ثم في الإسلام.وكان الفرق واضحا بارزا في مشاعرهم وفي واقعهم،تكفي الإشارة إليه لاستثارة عداوتهم كلها لمن يريد أن يردهم إلى ذلك السفح الهابط – سفح الجاهلية – الذي التقطهم منه الإسلام فسار بهم صعدا في المرتقى الصاعد،نحو القمة السامقة.

ومن ثم يتكىء المنهج القرآني على هذه الحقيقة فيوجه إليهم الأمر في لحظة التوفز والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذي يتهددهم من قبل هؤلاء:«فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ،وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

ونحس من النهي عن اتخاذ أولياء منهم ..أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة – وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضا – وكان المنهج القرآني يعالج هذه الرواسب ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطاتها.كما يقرر قواعد تصورها في الوقت ذاته.

كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة،أو روابط الدم والقرابة.أو روابط الحياة في أرض واحدة أو مدينة واحدة،أو روابط المصالح الاقتصادية في التجارة وغير التجارة ..إنما تقوم الأمة على العقيدة وعلى النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة.

ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام،وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب ..ودار الحرب هي يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول ..لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون

بكلمة الإسلام وينضموا إلى المجتمع المسلم – أي إلى الأمة المسلمة – حيث تكون هجرتهم لله وفي سبيل الله.من أجل عقيدتهم،لا من أجل أي هدف آخر ولإقامة المجتمع المسلم الذي يعيش بالمنهج الإسلامي لا لأي غرض آخر ..بهذه النصاعة.

وبهذا الحسم.وبهذا التحديد الذي لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى،أو مصالح أخرى،أو أهداف أخرى ..فإن هم فعلوا.فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم ..في دار الحرب ..وهاجروا إلى دار الإسلام،ليعيشوا بالنظام الإسلامي،المنبثق من العقيدة الإسلامية،القائم على الشريعة الإسلامية ..إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء في المجتمع المسلم،مواطنون في الأمة المسلمة.وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة،فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال:«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ (أي أسرى) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ،وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

وهذا الحكم – كما قلنا – هو الذي يرجح عندنا،أنهم لم يكونوا هم منافقي المدينة.إذ قد اتبعت مع منافقي المدينة سياسة أخرى.

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له فلا يكرههم أبدا على اعتناق عقيدته.ولهم – حتى وهم يعيشون في ظل نظامه ودولته – أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام.في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين.فقد ورد في القرآن من استنكار مثل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا يدع مجالا للشك في أن الإسلام لا يدع غير المعتنقين له ممن يعيشون في ظله يطعنون فيه ويموهون حقائقه ويلبسون الحق بالباطل كما تقول بعض الآراء المائعة في زماننا هذا!

وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته.وأنه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم وأنه يمتعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام.

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهارا نهارا في العقيدة ..ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال.لا يتسامح مع من يقولون:إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله.ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية،كالحاكمية والتشريع للناس فيصم أهل الكتاب بأنهم مشركون،لأنهم اتخذوا أحبارهم

ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ..لا لأنهم عبدوهم.ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال،وحرموا عليهم الحرام فاتبعوهم! ولا يتسامح هذا التسامح في وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون.لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله،وأن محمدا رسول الله.ثم بقوا في دار الكفر،يناصرون أعداء المسلمين!

ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحا.إنما هو تميع.والإسلام عقيدة التسامح.ولكنه ليس عقيدة «التميع».إنه تصور جاد.ونظام جاد.والجد لا ينافي التسامح.ولكنه ينافي التميع.وفي هذه اللفتات واللمسات من المنهج القرآني للجماعة المسلمة الأولى،بيان،وبلاغ ..[٢٢٤٠]

والواجب على ولاة الأمر أن يتصدوا للغزو الفكري،وأن يطهروا البلاد من آثاره في التعليم،ووسائل الاعلام وغيرها،وأن يبينوا للمسلمين مخططات الأعداء وأساليب كيدهم،لكي تكون جلية واضحة للمسلمين حتى يحذروها،وقد قال تعالى:{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:٥٥]

وَبِمِثْلِ ذَلِكَ البَيَانِ الوَاضِحِ نُوَضِّحُ الدَلائِلَ الْمُتَنَوِّعَةَ لِيَظْهَرَ طَرِيقُ الحَقِّ الذِي يَسْلُكُهُ الْمُؤْمِنُونَ،وَيُبَيِنَ طَرِيقَ الضَّلالِ الذي يَسْلُكُهُ الكَافِرُونَ.[٢٢٤١]

«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ» ..بمثل هذا المنهج،وبمثل هذه الطريقة،وبمثل هذا البيان والتفصيل ..نفصل الآيات،التي لا تدع في هذا الحق ريبة ولا تدع في هذا الأمر غموضا ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق فالحق واضح،والأمر بين،بمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك النموذج ..

على أن كل ما سبق في السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ومن بيان للحقائق وتقرير للوقائع،يعتبر داخلا في مدلول قوله تعالى:«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ» ..

أما ختام هذه الآية القصيرة:«وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ..

فهو شأن عجيب! ..إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة! إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب.إنما يعنى

[٢٢٤٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٨٦)

[٢٢٤١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٨٤٥،بترقيم الشاملة آليا)

كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضـــا ..إن اســـتبانة ســـبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين.وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريـــق! إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله – سبحانه – ليتعامل مع النفوس البشرية ..ذلـــك أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطـــل والشر والتأكد من أن هذا باطل ممحض وشر خالص وأن ذلك حق ممحض وخـــير خـــالص ..كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحـــق ولكـــن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل ..

وأنه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جعل لكـــل نـــبي عـــدوا منـــهم «وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» ..ليستقر في نفس النبي ونفوس المـــؤمنين،أن الذين يعادوهم إنما هم المجرمون عن ثقة،وفي وضوح،وعن يقين.

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح.واســـتبانة ســـبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات.ذلك أن أي غبش أو شـــبهة في موقـــف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المـــؤمنين وفي ســـبيلهم.فهمـــا صـــفحتان متقابلتان،وطريقان مفترقتان ..ولا بد من وضوح الألوان والخطوط ..

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين.يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ووضع العنوان المميز للمؤمنين.والعنوان المميز للمجرمين،في عالم الواقع لا في عالم النظريات.فيعرف أصحاب الدعوة الإســـلامية والحركـــة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون.بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنـــهجهم وعلامتهم،وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم.بحيث لا يختلط الســـبيلان ولا يتشـــابه العنوانان،ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين ..وهذا التحديد كان قائما،وهذا الوضوح كان كاملا،يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربيـــة.فكانـــت ســـبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول – ﷺ – ومن معه.وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين ..ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يـــتترل وكان الله – سبحانه – يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في الســـورة –

ومنها ذلك النموذج الأخير – لتستبين سبيل المجرمين! وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدّلتها وأفسدتها التحريفات البشرية ..حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة،وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك ..لا يجدي معها التلبيس! ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا ..إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين،في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام،يسيطر عليها دين الله،وتحكم بشريعته ..ثم إذا هذه الأرض،وإذا هذه الأقوام،تهجر الإسلام حقيقة،وتعلنه اسما.

وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا.وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ..وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه.وأن الله – وحده – هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله.وأن الله – وحده – هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ..وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فإنه لم يشهد و لم يدخل في الإسلام بعد.كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه.وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فهي أرض لم تدن بدين الله،و لم تدخل في الإسلام بعد ..

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين.وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام ..ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول ..

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام! أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله،ومدلول الإسلام في جانب وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر ..

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين،وطريق المشركين المجرمين واختلاط الشارات والعناوين والتباس الأسماء والصفات والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق! ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة.فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا

وتلبيسا وتخليطا.حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! ..تهمة تكفير «المسلمين»!!!

ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم،لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله! هذه هي المشقة الكبرى ..وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ..ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة.وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومة لائم،ولا صيحة صائح:انظروا! إنهم يكفرون المسلمين! إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن والكفر بيّن ..الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو،فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين ..المجرمين ..

«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ،وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ..أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة،ولا يعوّقها غبش،ولا يميعها لبس.فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم «المسلمون» وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم «المجرمون» ..كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان.وأنهم وقومهم على مفرق الطريق،وأنهم على ملة وقومهم على ملة.وأنهم في دين وقومهم في دين:«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ....وصدق الله العظيم ..[٢٢٤٢]

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ» رواه أبو داود[٢٢٤٣].

[٢٢٤٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٥٣٦)

[٢٢٤٣] – سنن أبي داود (٣/ ١٠)(٢٥٠٤) صحيح وانظر كتابي " موسوعة الغزو الفكري والثقافي "

«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ»):أَيْ:قَاتِلُوهُمْ،وَهُوَ بِظَاهِرِهِ يَشْمَلُ الْحَرَمَ وَالْأَشْهُرَ الْحُرُمَ وَالْبَدْءَ بِالْقِتَالِ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَقِتَالُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا وَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ،أَوْ لَمْ يُسْلِمُوا وَلَمْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَاجِبٌ وَإِنْ لَمْ يَبْدَؤُونَا؛لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ

جودة الإنتاج الإعلامي:

ينبغي أن يكون الإعلام في الدولة الإسلامية بأنواعه المرئية،والمسموعة،والمقروءة،متميزا بجودة إنتاج البرامج وإتقان أساليب العرض،وحسن البيان،والخطاب الإعلامي،فإن كل ما يحبب الناس بالخير،ويرغبهم في متابعة وسائل الإعلام النافعة والأخذ بنصائحها وتوجيهاتها،فهو من الأمور المحمودة التي لا ينبغي تركها.

طهارة الإعلام:

وسائل الإعلام في الدولة الإسلامية هي من وسائل إصلاح المجتمع،وتزكيته،فلا يجوز أن يشوبها شيء من المحرمات كالتمكين لأعداء الإسلام من الكفار والمنافقين من بعض وسائل الإعلام لنشر كفرهم وفسادهم،وقد قال تعالى:{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ

الْمُوجِبَةَ لَهُ لَمْ تُقَيِّدِ الْوُجُوبَ بِبَدْئِهِمْ خِلَافًا لِمَا نُقِلَ عَنِ الثَّوْرِيِّ.وَالزَّمَانُ الْخَاصُّ كَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَغَيْرِهَا سَوَاءٌ خِلَافًا لِعَطَاءٍ،وَلَقَد اسْتُبْعِدَ مَا عَنِ الثَّوْرِيِّ.وَتَمَسُّكُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ نَسْخُهُ وَصَرِيحُ قَوْلِهِ - ﷺ- فِي الصَّحِيحَيْنِ:" «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» " الْحَدِيثَ.تُوجِبُ ابْتِدَاءَهُمْ بِأَدْنَى تَأَمُّلٍ،وَحَاصَرَ - ﷺ- الطَّائِفَ لِعَشْرٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى آخِرِ الْمُحَرَّمِ،أَوْ إِلَى شَهْرٍ،وَقَد اسْتُدِلَّ عَلَى نَسْخِ الْحُرْمَةِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَهُوَ بِنَاءٌ عَلَى التَّحَرُّزِ بِلَفْظِ:حَيْثُ فِي الزَّمَانِ،وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَثِيرٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ.وَقَوْلُهُ:(بِأَمْوَالِكُمْ):أَيْ:بِالتَّجْهِيزِ (وَأَنْفُسِكُمْ):أَيْ:بِالْمُبَاشَرَةِ (وَأَلْسِنَتِكُمْ):أَيْ:بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،وَقَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ:جَاهِدُوهُمْ بِهَا؛أَيْ:بِأَنْ تَذُمُّوهُمْ وَتَعِيبُوهُمْ وَتَسُبُّوا أَصْنَامَهُمْ وَدِينَهُمُ الْبَاطِلَ،وَبِأَنْ تُخَوِّفُوهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَخْذِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ،فَإِنْ قُلْتَ:هَذَا يُخَالِفُ قَوْلَهُ تَعَالَى:{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام:١٠٨] قُلْتُ:كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ آلِهَتَهُمْ فَنُهُوا،لِئَلَّا يَكُونَ سَبُّهُمْ سَبَبًا لِسَبِّ اللَّهِ تَعَالَى،وَالنَّهْيُ مُنْصَبٌّ عَلَى الْفِعْلِ الْمُعَلَّلِ،فَإِذَا لَمْ يُؤَدِّ السَّبُّ إِلَى سَبِّ اللَّهِ تَعَالَى جَازَ اه.

وَفِيهِ أَنَّهُ سَبَبٌ غَالِبِيٌّ،وَعَدَمُ كَوْنِهِ سَبَبًا أَمْرٌ مَوْهُومٌ فَيَتَعَيَّنَ النَّهْيُ،لَا سِيَّمَا مَبْنَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى أُمُورِ الْغَالِبِيَّةِ،مَعَ أَنَّ حَالَةَ الِاسْتِوَاءِ،بَلْ وَقْتُ الِاحْتِمَالِ يُرَجِّحُ النَّهْيَ،نَعَمْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ وَارِدًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الِابْتِدَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَبًا لِسَبِّهِمْ،أَمَّا إِذَا كَانَ الِابْتِدَاءُ مِنْهُمْ فَلَيْسَ كَذَا؛لِأَنَّ هَذَا الْخَوْفَ فِي الَّذِينَ غَلَبَ الْجَهْلُ وَالسَّفَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ،أَمَّا أَكْثَرُهُمْ فَيُعَظِّمُونَ اللَّهَ! وَيَقُولُونَ:{هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان:١٨ - ٢٥] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٥)

اللَّه مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [البقرة:١٢٠] وقال تعالى:{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [التوبة:٦٧].

إنَّ أَهْلَ النفَاقِ رِجَالاً وَنسَاءاً،يَتَشَابَهُونَ فِي صِفَاتِهِمْ وَأَخْلاَقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ،يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِفعْلِ الْمُنْكَرِ،كَالكَذِبِ وَالخِيَانَة،وَإِخْلافِ الوَعْدِ،وَنَقْضِ العَهْدِ..وَيَنْهَوْنَ عَنْ فِعْلِ الخَيْرِ وَالمَعْرُوفِ:كَالجِهَادِ،وَبَذْلِ المَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَيَضِنُّونَ بالإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ البِرِّ وَالطَّاعَاتِ وَالإِحْسَانِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ..وَقَدْ نَسُوا أَنْ يَتَقَرَّبُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى بِفعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ،وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ،وَاتَّبَعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ،فَجَازَاهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ بِحِرْمَانِهِمْ مِنْ لُطْفِهِ وَتَوْفِيقِهِ فِي الدُّنْيَا،وَمِنَ الثَّوَابِ فِي الآخِرَةِ.وَالْمُنَافِقُونَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ فُسُوقاً،وَخُرُوجاً عَنْ طَاعَةِ اللهِ،وَانْسِلاَخاً مِنَ الفَضَائِلِ الفِطْرِيَّةِ السَّلِيمَةِ.[2244]

وكذلك لا يجوز تمكين أهل البدع والأهواء من نشر بدعهم وشبههم في وسائل الإعلام أو من خلال التأليف والكتابة،وقد عزر عمر رضي الله عنه صبيغ بن عسل على سؤاله عن متشابه القرآن،فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ:أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يُقَالُ لَهُ:صَبِيغُ بْنُ عَسَلٍ،قَدِمَ الْمَدِينَةَ،وَكَانَتْ عِنْدَهُ كُتُبٌ،فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ،فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ،فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ جَلَسَ،فَقَالَ لَهُ عُمَرُ:مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ:أَنَا عَبْدُ اللَّهِ صَبِيغٌ فَقَالَ عُمَرُ:وَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ عُمَرُ،ثُمَّ أَهْوَى إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِتِلْكَ الْعَرَاجِينِ،فَمَا زَالَ يَضْرِبُهُ حَتَّى شَجَّهُ،فَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ،فَقَالَ:حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَقَدْ وَاللَّهِ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ فِي رَأْسِي"[2245].

[2244] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

[2245] - الشَّرِيعَةُ لِلْآجُرِّيِّ (١٥٠) صحيح مرسل

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ:فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا اسْتَحَقَّ الضَّرْبَ،وَالتَّنْكِيلَ بِهِ وَالْهِجْرَةَ قِيلَ لَهُ:لَمْ يَكُنْ ضَرْبُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ بِسَبَبِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ،وَلَكِنْ لَمَّا تَأَدَّى إِلَى عُمَرَ مَا كَانَ يَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرَاهُ عَلِمَ أَنَّهُ مَفْتُونٌ،قَدْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ،وَعَلِمَ أَنَّ اشْتِغَالَهُ بِطَلَبِ عِلْمِ الْوَاجِبَاتِ مِنْ عِلْمِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ أَوْلَى بِهِ ، وَتَطَلُّبُ عِلْمِ سُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَوْلَى بِهِ،فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلَى مَا لَا يَنْفَعُهُ،سَأَلَ عُمَرُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْهُ،حَتَّى يُنَكِّلَ بِهِ،وحَتَّى:يُحَذِّرُ غَيْرَهُ؛لِأَنَّهُ رَاعٍ يَجِبُ عَلَيْهِ تَفَقُّدُ رَعِيَّتِهِ فِي هَذَا وَفِي غَيْرِهِ،فَأَمْكَنَهُ اللَّهُ

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" وَالْمَقْصُودُ:أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْكَذِبِ وَالْبِدْعَةِ يَجِبُ إتْلَافُهَا وَإِعْدَامُهَا،وَهِيَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ إتْلَافِ آلَاتِ اللَّهْوِ وَالْمَعَازِفِ،وَإِتْلَافِ آنِيَةِ الْخَمْرِ،فَإِنَّ ضَرَرَهَا أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِ هَذِهِ،وَلَا ضَمَانَ فِيهَا،كَمَا لَا ضَمَانَ فِي كَسْرِ أَوَانِي الْخَمْرِ وَشَقِّ زِقَاقِهَا."[٢٢٤٦]

ومن المحرمات في وسائل الإعلام،إظهار المعازف،وإخراج النساء،فإن هذا من أعظم أسباب الفتنة،وشيوع الفاحشة.

فالواجب على الحكومة الإسلامية أن تطهر وسائل الإعلام من سائر المحرمات،التي تقدم ذكرها وغيرها.

المصطلحات الإعلامية:

يجب على القائمين على وسائل الإعلام في الدولة الإسلامية تجنب إطلاق مصطلحات الكفار وأتباعهم،التي يرددونها في وسائل إعلامهم،لما تتضمن من معاني فاسدة توافق عقيدهم،وسياساهم،وقد نهى الله تعالى عن قول كلمة "راعنا" حين استغلها اليهود ليضمنوا لفظها معنى سيئاً،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)} [البقرة:١٠٤،١٠٥]

كَانَ الأَنْصَارُ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ حِينَمَا يَتْلُو عَلَيهِمِ الوَحْيَ:رَاعِنَا (أيْ تَمَهَّلْ عَلَينا فِي التّلاوَةِ حَتّى نَعِيَ مَا تَقْرَؤُهُ عَلَينا) .وَكَانَ اليَهُودُ يَسْتَعْمِلُونَ هذا التَّعْبِيرَ فِي مَخَاطَبَتِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ وَهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أنْ يَقُولُوا لَهُ:(ارْعِنَا سَمْعَكَ) .

تَعَالَى مِنْهُ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:سَيَكُونُ أَقْوَامٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِمُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ فَخُذُوهُمْ بِالسُّنَنِ،فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

[٢٢٤٦] - الطرق الحكمية (ص:٢٣٥)

وَلكنَّهُمْ كَانُوا يُميلُونَ الكَلِمَات بَعْضَ الشَّيء،وَيُورُونَ بِهَا عَنِ الرُّعُونَة.(وَرَاعِينُو فِي العِبْرِيَّـةِ مَعْنَاهَا شِرِّيرٌ) .فَنَبَّهَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ وَالمُؤمنينَ إلى ذَلِكَ،وَنَهَاهُمْ عَنِ اسْتِعْمَالِ هذه الكَلِمَـةِ فِي مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ.وَأمَرَهُمْ بِأنْ يَسْتَعْمِلُوا بَدَلاً مِنْ كَلِمَةِ (رَاعِنَا)،كَلِمَةَ (انْظُرْنا) .
وَيَتَوَعَّدُ اللهُ تَعَالَى اليَهُودَ الكَافِرِينَ بِالعَذَابِ الأليمِ الذِي أعَدَّهُ لَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ،وِسُوءِ أدَبِهِمْ بِحَقِّ الرَّسُولِ الكَرِيمِ.
إنَّ الذِينَ عَرَفْتُمْ حَالَهُمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ،هَمْ حَسَدَةٌ لَكُمْ لاَ يُرِيدُوُنَ أَنْ يصِـيبَكُمْ خَيْرٌ مِنْ رَبكُمْ،وَلاَ أَنْ يَتَرَسَّخْ دِينُكُمْ،وِلاَ أَنْ تَتَثَبَّتَ أَرْكَانُهُ،وَالْمُشْرِكُونَ مِثْلُ أَهْلِ الكِتَابِ فـِي كُرْهِهِمْ لَكُمْ،وَحَسَدِهِمْ إِيَّاكُمْ،وَتَمَنِّيهِمْ أَنْ تَدُورَ عَلَى المُسْلمينَ الدَّوائِرُ،وَأَنْ يَنْتَهِي أَمْرُ الإِسْلاَمِ وَالمُسْلمينَ.وَحَسَدُ الحَاسِد يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سَاخِطٌ عَلَى رَبِّهِ،مُعْتَرِضٌ عَلَى حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ،لأَنَّـهُ أَنْعَمَ عَلَى المَحْسُودِ بِمَا أَنْعَمَ،وَاللهُ لاَ يُضِيرُهُ سَخَطُ السَّاخِطِينَ،وَلاَ يُحوِّلُ مَجَارَي نِعْمَتِهِ حَسَدُ الحَاسِدِينَ،فَهُوَ يَخْتَصُّ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ وَهُوَ صَاحِبُ الفَضْلِ العَظِـيمِ عَلَـى مَـنِ اخْتَـارَهُ لِلنُّبُوَّةِ،وَهُوَ صَاحِبُ الإِحْسَانِ وَالمَنَّةِ عَلَى عِبَادِهِ.[٢٢٤٧]
فلا تذكر مصطلحاهم دون تفصيل،كالإرهاب،والحرية،ونحوها،وإنما تذكر مع تبيين حقيقـة هذه الألفاظ التي يرددها الكفار،وتفصيل الحكم الشرعي في معانيها دون خوف ولا وجل إلا من الله تعالى وحده .

ركائز إعلام الكافرين:

هناك ركائز رئيسة وسمات عامة لإعلام الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم،ومن لحق هِـم وسار في ركاهم من المرتدين والمنافقين،ومن أهمها:

أولا:التهييج والإغراء بالكفر والمعاصي والتحريض:

وقد قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَـيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)} [مريم:٨٣،٨٤]

[٢٢٤٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١١،بترقيم الشاملة آليا)

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ سَلَّطَ الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ وَالُمشْرِكِينَ،لِيَغْوُوهُمْ،وَيُغْرُوهُمْ بِارْتِكَابِ المَعَاصِي،وَيَهيجُوهُمْ لِلْوُقُوعِ فِيهَا؟

وَلاَ تَسْتَعْجِلْ يَا مُحَمَّدُ إِهْلاَكَ هَؤُلاَءِ الكُفَّارِ،وَاسْتِئْصَالِهِمْ بِعَذَابِ اللهِ،فَإِنَّهُمْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلاَّ أَيَّامٌ مَعْدُودَات،وَاللهُ تَعَالَى يُحْصِي عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَأَنْفَاسَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ فِي الحَيَاةِ،ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى المَوْتِ ثُمَّ إِلَى عَذَابِ اللهِ.[٢٢٤٨]

وهذا من عقوبة الكافرين أنهم -لما لم يعتصموا بالله،ولم يتمسكوا بحبل الله،بل أشركوا به ووالوا أعداءه،من الشياطين- سلطهم عليهم،وقيضهم لهم،فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزا،وتزعجهم إلى الكفر إزعاجا،فيوسوسون لهم،ويوحون إليهم،ويزينون لهم الباطل،ويقبحون لهم الحق،فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشربها،فيسعى فيه سعي المحق في حقه،فينصره بجهده ويحارب عنه،ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل،وهذا كله،جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه،جعل له عليه سلطان،وإلا فلو آمن بالله،وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان،كما قال تعالى:{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}

{فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ} أي على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} أي أن لهم أياما معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر[٢٢٤٩]

الاستفهام هنا للأمر..وتقديره انظر كيف أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين..تؤزهم أزّا..أي تغريهم إغراء،وتدفعهم إلى الضلال دفعا..

فالمشركون- والحال كذلك- مدفوعون دفعا إلى هاوية مهلكة،لافكاك لهم منها..إن هناك قوى خفية تدفع بهم إلى الشر،وتغريهم به،وتوردهم موارده..وإذن،فلا تعجل عليهم،واصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم،وسترى قضاء الله فيهم..فإنهم مأخوذون بذنوبهم،التي تزداد كل يوم يمضى من حياتهم فى هذه الدنيا..وهذه الذنوب محصاة عليهم،معدودة فيما يعدّ لهم من

[٢٢٤٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٣٣٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٤٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٠٠)

سيئات وآثام..فكلما طالت أيامهم فى هذه الدنيا،كثرت أحمالهم من الذنوب،وضوعف لهم العذاب.[2250]

والأز هو التحريك،والتهييج،والإغراء،والإزعاج،والتحريض،فالشياطين تهيج الكفار وتغريهم بالكفر والمعاصي،وتزعجهم إليهم إزعاجا،وتحرضهم على محاربة الإسلام،وقتال المسلمين،ومن يعلم حقيقة إعلام الكفار كالأمريكان وغيرهم،ومن سار على خطاهم من العملاء يجد آثار أز الشياطين بادية في وسائل إعلامهم التي امتلأت بالتهييج والضجيج والإغراء بالكفر المسمى بالديمقراطية[2251]،وامتلأت بالتحريض على محاربة الإسلام والطعن فيه،وقتال المسلمين،وغزوهم في بلادهم،وقد أخرج ابن جرير عن ابْنِ عَبَّاسٍ:تَؤُزُّ الْكَافِرِينَ إِغْرَاءً فِي الشِّرْكِ:امْضِ امْضِ فِي هَذَا الْأَمْرِ،حَتَّى تُوقِعَهُمْ فِي النَّارِ،امْضُوا فِي الْغَيِّ امْضُوا" [2252]

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس قال:"تغويهم إغواءً"[2253]،وأخرج ابن جرير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:{أَزًّا} [مريم:٨٣] يَقُولُ:تُغْرِيهِمْ إِغْرَاءً[2254]

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله:" قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:تُغْوِيهِمْ إِغْوَاءً.وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْهُ:تُحَرِّضُهُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابه.وَقَالَ مُجَاهِدٌ:تُشليهم إِشْلَاءً .

وَقَالَ قَتَادَةُ:تُزْعِجُهُمْ إِزْعَاجًا إِلَى مَعَاصِي اللَّه.وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ:تُغْرِيهِمْ إِغْرَاءً وَتَسْتَعْجِلُهُمُ اسْتِعْجَالًا.وَقَالَ السُّدِّيُّ:تُطْغِيهِمْ طُغْيَانًا."[2255]

ثانيا:بغض الحق ومعاداته:

[2250] – التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٧٦٩)

[2251] – قلت:يجب التفريق بين الديموقراطية كعقيدة كاملة وبين بعض تطبيقاتها العملية ففرق كبير بينها،لأن الأول كفر والثاني جائز إن شاء الله بعد تجريده مما يخالف الإسلام .

[2252] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٥/ ٦٢٧) فيه انقطاع

[2253] – تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٢٦٢)

[2254] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٥/ ٦٢٦) حسن

[2255] – تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٢٦٢)

إن من أظهر سمات إعلامهم بغض الحق ومعاداته،وشن الحرب الإعلامية عليه لتنفير الناس منه،وصرفهم عنه،وقد قال تعالى:{وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} [الإسراء:٤٦]

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَغْطِيَّةً (أَكِنَّةً) تَغْشَى عَلَيْهَا فَلاُ يَفْقَهُونَ مِنَ القُرْآنِ الذي تَقْرَؤُهُ شَيْئاً،وَجَعْلَنَا فِي آذَانِهِمْ صَمَماً ثَقِيلاً يَمْنَعُهُمْ مِنَ السَّمْعِ،وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لاَ يَنْتَفِعُونَ بِهِ،وَإِذَا تَلَوْتَ مِنَ القُرْآنِ مَا يَتَّحَدَّثُ عَنْ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى أَدْبَرُوا رَاجِعِينَ نَافِرِينَ مِنْهُ،لأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ سَمَاعَ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ:اللاَّتِ وَالعُزَّى..[٢٢٥٦]

هو بيان لهذا الحجاب المستور،الذي جعله الله سبحانه وتعالى بين المشركين وبين النبىّ،وهو يقرأ القرآن،ويرفع منه للناس معالم الهدى..فهؤلاء المشركون قد جعل الله على قلوبهم أكنة،أي أغطية كثيفة،أشبه بالجحر الذي يستكنّ فيه الحيوان،ويعتزل فيه العالم الخارجي،فلا يرى أحدا،ولا يراه أحد..كذلك جعل على آذانهم «وقرا» أي ثقلا فى السّمع،فلا تسمع شيئا..فقد يحتجب الحيوان داخل كنّه عن العالم الخارجي،ولكن يظل مع ذلك متصلا به عن طريق السّمع..أما هؤلاء المشركون،فقد أخذ الله سمعهم وأبصارهم،وختم على قلوبهم..فهم أموات غير أحياء،وإن خيل إليهم أو للناس أنهم أحياء..يسمعون،ويبصرون،ويعقلون! - وفى قوله تعالى:«وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً» - إشارة إلى ما ركب المشركين من ضلال،فى تصورهم لمقام الألوهية..فهم يقبلون الاستماع إلى أي حديث يذكر فيه الله مع الآلهة التي يعبدونها..أما إذا ذكر الله وحده فى قرآن أو غيره،فذلك حديث بغيض إليهم،يلقونه منكرين،بل مذعورين،إذا وقع على آذانهم:«وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً» أي صدموا به،فارتدوا على أدبارهم كما ترتدّ الكرة،اصطدمت بحائط![٢٢٥٧]

والأكنة:الأغلفة التي تحول دون أن تتفتح هذه القلوب فتفقه والوقر:الصمم الذي يحول دون هذه الآذان أن تؤدي وظيفتها فتسمع ..وهذه النماذج البشرية التي تستمع ولكنها لا تفقه،كأن ليس لها قلوب تدرك وكأن ليس لها آذان تسمع ..نماذج مكرورة في البشرية في كل

[٢٢٥٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٧٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٥٧] - التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٤٩٥)

جيل وفي كل قبيل،في كل زمان وفي كل مكان ..إنهم أناسي من بني آدم ..ولكنهم يسمعون القول وكأنهم لا يسمعونه.كأن آذانهم صماء لا تؤدي وظيفتها.وكأن إدراكهم في غـــلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الآذان![2258]

،وقال تعالى {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُــمْ مُسْــتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) } [النحل]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ أَنَّ إِلهَهُمْ وَاحِدٌ،وَهُوَ اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ،أَمَّا الكَافِرُونَ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالآخِرَةِ،فَتَنْكُرُ قُلُوبُهُمْ وَحْدَانِيَّةَ اللهِ،وَتَسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ،وَتَجْحَدُ قُلُوبُهُمْ مَا آشَارَ إِلَيْهِ تَعَالَى مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَإِبْدَاعِهِ،وَفَضْلِهِ عَلَى العِبَادِ.

وَلاَ شَكَّ فِــي أَنَّ اللهَ يَعْلَــمُ مَــا يُسْــرِّهُ هَــؤُلاَءِ المُسْــتَكْبِرُونَ عَــنْ عِبَــادَةِ رَبِّهِمْ،مِــنْ كِبْرٍ،وَاسْتِكْبَارٍ،وَإِنْكَارٍ لِنِعَمِ اللهِ،وَيَعْلَمُ مَا يُعْلِنُونَ مِنْ كُفْرٍ وَافْتِرَاءٍ عَلَى اللهِ،لأَنَّهُ مَعَهُمْ حِينَمَــا كَانُوا،وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْ فِي الجَزَاءِ فِي الآخِرَةِ،وَهُوَ لاَ يُحِــبُّ مَــنِ اسْــتَكْبَرَ عَــنْ عِبَادَتِهِ،وَتَعَالَى عَمَّا خَلْقِهِ،وَتَجَبَّرَ فِي الأَرْضِ.[2259]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:مَعْبُودُكُمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْكُمُ الْعِبَادَةَ وَإِفْرَادَ الطَّاعَةِ لَهُ دُونَ سَائِرِ الْأَشْــيَاءِ مَعْبُودٌ وَاحِدٌ،لِأَنَّهُ لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ،فَأَفْرِدُوا لَهُ الطَّاعَةَ،وَأَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ،وَلَا تَجْعَلُوا مَعَهُ شَرِيكًا سِوَاهُ {فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِــرَةٌ} [النحــل:٢٢] .يَقُــولُ تَعَــالَى ذِكْرُهُ:فَالَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ وَلَا يُقِرُّونَ بِالْمَعَادِ إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَمَــاتِ {قُلُــوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ} [النحل:٢٢] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:مُسْتَنْكِرَةٌ لِمَا نَقُصُّ عَلَيْهِمْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّــهِ وَعَظَمَتِــهِ وَجَمِيلِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ،وَأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ،وَالْأُلُوهَةُ لَيْسَتْ لِشَــيْءٍ غَيْرِهِ،يَقُــولُ:وَهُــمْ مُسْتَكْبِرُونَ عَنْ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْأُلُوهَةِ،وَالْإِقْرَارِ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ،اتِّبَاعًا مِنْهُمْ لِمَا مَضَى عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ أَسْلَافُهُمْ،يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ:لَا جَرَمَ حَقًّا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِــنْ إِنْكَارِهِمْ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَنْبَاءِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ،وَاعْتِقَادِهِمْ نَكِيرَ قَوْلِنَا لَهُمْ:{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِــدٌ} [النحل:٢٢]،وَاسْتِكْبَارُهُمْ عَلَى اللَّهِ،وَمَا يُعْلِنُونَ مِنْ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَفِرْيَتِهِمْ عَلَيْهِ {إِنَّهُ لَا يُحِــبُّ

[2258] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٤٨٥)

[2259] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل:٢٣] يَقُولُ:إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ،وَيَخْلَعُوا مَا دُونَهُ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ[2260]

ويجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة.بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء.فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء.

«إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» وكل ما سبق في السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدي إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة،الواضحة الآثار في نواميس الكون وتناسقها وتعاونها كما سلف الحديث.فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة،ولا يؤمنون بالآخرة - وهي فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله - هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين،إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم.إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات،وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول.فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب!.

والله الذي خلقهم يعلم ذلك منهم.فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون.يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم.«إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ» فالقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلم.ومن ثم فهم مكروهون من الله لاستكبارهم الذي يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون.[2261]

وقال تعالى:{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر:٤٥]

وَإِذَا قِيلَ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،تَشْمَئِزُّ قُلُوبُهُمْ،وَتَنْقَبِضُ قَسَمَاتُ وُجُوهِهِمْ غَيْظاً وَأَلَماً،وَإِذَا ذُكِرَتِ الآلِهَةُ التِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ،اسْتَبْشَرُوا وَفَرِحُوا.[2262]

[2260] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ١٩٧)

[2261] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨٢٦)

[2262] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٨٢،بترقيم الشاملة آليا)

يذكر تعالى حالة المشركين،وما الذي اقتضاه شركهم أنهم {إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ} توحيدا لــه،وأمر بإخلاص الدين له،وترك ما يعبد من دونه،أنهم يشمئزون وينفرون،ويكرهــون ذلــك أشــد الكراهة.{وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} مــن الأصــنام والأنــداد،ودعا الــداعي إلى عبادتها ومدحها،{إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} بــذلك،فرحا بــذكر معبوداتهم،ولكــون الشــرك موافقــا لأهوائهم،وهذه الحال أشر الحالات وأشنعها،ولكن موعدهم يوم الجزاء.فهناك يؤخــذ الحــق منهم،وينظر:هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئا؟.[٢٢٦٣]

أي إذا أفرد الله تعالى بالذكر،فقيل لاإله إلا الله وحده،نفرت وانقبضت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة،وإذا ذكر الذين من دونه من الطواغيت والأنداد إذا هم يسرون ويفرحون،ومن يعلم حقيقة إعلام الكفار كالصليبيين وعملائهم في بلاد المسلمين يجد هذا جليا في مقدمي الــبرامج والكثير من المحللين والمتحدثين في وسائل إعلامهم،فإذا ذكر توحيد الله تعالى والتحــاكم إلى شريعته ووجوب طاعته وطاعة رسوله ﷺ أو ذكرت حرمة الفواحش،ومساوئ الأخلاق التي فشت في بلادهم،انقبضت ونفرت قلوبهم،وأماإذا ذكرت طواغيتهم كالديمقراطية وغيرهــا،أو ذكرت أقوال حكامهم الطواغيت من النصارى والمرتدين فإنهم يستبشرون ويسرون،قال سيد قطب رحمه الله:" وفي هذا الموقف الذي يتفرد فيه الله سبحانه بالملك والقهر يعرض كيف هم ينفرون من كلمة التوحيد ويهشون لكلمة الشرك،الذي ينكره كل ما حولهم في الوجود:«وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ،وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِــهِ إِذا هُــمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

والآية تصف واقعة حال على عهد النبي - ﷺ - حين كان المشركون يهشون ويبشــون إذا ذكرت آلهتهم وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد.ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر في شتى البيئات والأزمان.فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعــوا إلى الله وحده إلها،وإلى شريعة الله وحدها قانونا،وإلى منهج الله وحده نظاما.حتى إذا ذكرت المنــاهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث،وفتحوا صــدورهم للأخذ والرد.هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجا منهم في هذه الآية،وهم بذاتهم في كل

[٢٢٦٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٢٦)

زمان ومكان.هم الممسوخو الفطرة،المنحرفو الطبيعة،الضالون المضلون،مهما تنوعت البيئـات والأزمنة،ومهما تنوعت الأجناس والأقوام.[٢٢٦٤]

وقال تعالى:{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات تَعْرِفُ فِي وُجُوه الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَـرَ يَكَـادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [الحج:٧٢]

وَإِذَا قُرِئَتْ عَلَى هَؤُلاَءِ المُشْرِكِينَ،العَابِدِينَ غَيْرَ اللهِ،آيَاتُ القرآنِ البَيِّنَاتُ،وَذُكِّرُوا بِمَا فِيهَا مِـنْ حُجَجٍ وَبَرَاهِينَ،وَدَلاَئِلَ عَلَى وُجُودِ اللهِ وَوَحْدَانِيتِه،وَعَظَمَتِه،تَتَبَدَّلُ مَلاَمِـحُ وُجُوهِهِمْ،وَتَثُـورُ نُفُوسُهم وَيَهُمُّونَ بِالبَطْشِ بالذين يَقْرَؤُونَ عَلَـيْهِمْ آيَـاتِ اللهِ،وَيَـذُكِّرونَهُمْ بِهَا،وَيَكَـادُونَ يُبَادِرُونَهم بالضَّرْبِ والشَّتْمِ (يَسْطُونَ بِهِمْ) .فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلاَءِ:إِنَّ النَّارَ التِـي أَعَـدَّها اللهُ للكَافِرِينَ لِيُذِّبَهُمْ فِيهَا هِيَ أَشَدُّ وَأَقْسَى وَأَعْظَمُ مِمَّا تُخَوِّفُونَ بِـهِ أولِيـاءَ اللهِ المُـؤْمِنِينَ فِـي الدُّنْيَا؛وَبِئْسَ النَّارُ مَنْزِلاً وَمُقَاماً وَمَصِيراً،يَوْمَ القِيَامَةِ،للذين كَفَرُوا.[٢٢٦٥]

أي إذا تليت عليهم آيات القرآن واضحات بينات يظهر في وجوههم ما ينكره أهل الإيمـان من التغير لبغضهم وكراهيتهم للحق،حتى أنهم يكادون أن يبطشوا بالذين يتلون عليهم آيـات الله تعالى.

إنهم لا يناهضون الحجة بالحجة،ولا يقرعون الدليل بالدليل إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عندما تعوزهم الحجة ويخذلهم الدليل.وذلك شأن الطغاة دائما يشتجر في نفوسهم العتو،وتهيج فيهم روح البطش،ولا يستمعون إلى كلمة الحق لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ! ومن ثم يواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد:«قُلْ:أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ؟ » بشر من ذلكم المنكر الذي تنطوون عليه،ومن ذلك البطش الذي تهمـون بـه ..«النَّارُ» ..وهي الرد المناسب للبطش والمنكر «وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» ..[٢٢٦٦]

[٢٢٦٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٤٧)

[٢٢٦٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٤٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٦٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٦٦)

وقد وصف الله تعالى الكفار عند سماع آيات الله تعالى أو عند دعوتهم إلى الإيمان بالإعراض والهجر والنفور وغيرها من الصفات،فقال تعالى:{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} [السجدة:٢٢].

وَلاَ أَحَدَ أَكْثَرُ ظُلْماً مِنْ إِنسَانٍ ذَكَّرَهُ اللهُ تَعَالى بآياته،وَبَيَّنَها لَهُ وَوَضَّحَها،ثُمَّ جَحَدَها وَأَعْرَضَ عَنْها وَتَنَاسَاهَا كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا،وَلَمْ يَعْرِفْها.وَيَقُولُ اللهُ تَعَالى إِنَّهُ سَيَنْتَقِمُ مِنَ الُمجْرِمِينَ الذِينَ كَفَروا واجتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَشَدَّ الانْتِقَامِ.[٢٢٦٧]

المراد بالاستفهام هنا النفي..أي أنه لا أحد أكثر ظلما من ذلك الذي تعرض عليه آيات الله ليهتدى بها،ثم يعرض عنها..

وفي قوله تعالى:«ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ» إشارة إلى أن آيات الله التي يتلوها الرسول على الناس إنما هى لتذكرهم بما نسوه من الإيمان الذي كان في فطرتهم..فلما أهملوا فطرتهم،وأفسدوها بما ساقوا إليها من آفات الهوى والضلال، لم يعودوا يذكرون شيئا من هذا الإيمان،فكانت بعثة الرسول بآيات الله يتلوها عليهم تذكيرا لهم،بأصل فطرتهم،وإيقاظا لهم من غفلتهم..ومن أجل هذا،فقد كانوا أظلم الظالمين،لأنهم ظلموا أنفسهم مرتين،ظلموها أولا بإطفاء جذوة الإيمان التي أودعها الله فطرتهم،وظلموا أنفسهم ثانيا،إذ أبوا أن يستجيبوا لمن يدعوهم إلى تعاطى الدواء الذي يشفى هذا الداء الذي مكنوه منهم،فأفسد فطرتهم..

- وفي قوله تعالى:«إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ» .هو تهديد ووعيد لهؤلاء المعرضين عن آيات الله،وأنهم في معرض الانتقام من الله،لأنهم مجرمون،ظالمون..مجرمون في حق أنفسهم،ظالمون بإعراضهم عن الخير الممدود إليهم.[٢٢٦٨]

أي:لا أحد أظلم،وأزيد تعديًا،ممن ذكر بآيات ربه،التي أوصلها إليه ربه،الذي يريد تربيته،وتكميل نعمته على أيدي رسله،تأمره،وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية،وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية،التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم،والانقياد والشكر،فقابلها هذا

[٢٢٦٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٠٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٦٨] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٦٢٥)

الظالم بضد ما ينبغي،فلم يؤمن بها،ولا اتبعها،بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره،فهـذا مـن أكبر المجرمين،الذين يستحقون شديد النقمة،ولهذا قال:{إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}[٢٢٦٩]

وقال تعالى:{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)} [الفرقان:٣٠،٣١].

وَقَالَ الرَّسُولُ مُشْتَكِياً إِلَى رَبِّه:يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخُذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً،أَيْ أَنَّ قَـوْمِي الّذِينَ بَعَثْتَنِي إِلَيْهِمْ لأَدْعُـوَهُمْ إِلى تَوْحِيـدِكَ،وَأَمَرْتَنِي بِـإِبْلاَغِ القُـرْآنِ إِلَيْهِم،قَـدْ هَجَـرُوا كِتَابَكَ،وَتَرَكُوا الإِيمانَ بِكَ،وَلَمْ يَأْبَهُوا بِوَعِيدِكَ،بل أعْرَضُوا عن استماعه واتِّبَاعه.وكَمَا جَعَلْنَـا لَكَ أعْدَاءً من المُشْرِكينَ يَتَقَوَّلُونَ عليكَ التُرّهَاتِ والأَبَاطِيلَ،كذلكَ جعَلْنَا لكلِّ نَبِيٍّ من الأنبياءِ السَّابِقِينَ أعداءً لَهُمْ من شَياطِينِ الإِنسِ والجنِّ،يُقَاوِمُون دعْوَتَهم،ويُزْعِجُونَهم،ويُكَـذِّبُونَهُمْ،فلا تَحْوَنْ يَا مُحَمَّدُ عَلَيهِمْ،فَهَذا دَأْبُ الأنبياءِ قَبْلَكَ،فاصبرْ كما صَبَرُوا.وحَسْبُكَ بِرَبِّكَ هادياً لَكَ إلى مَصَالِحِ الدين والدُّنْيَا،وسينصرُك على أعدائكَ،ويُبَلِّغُكَ غايةَ ما تَطْلُبُ،ولا يَهُولَنَّكَ كَثْـرَةُ عَدَدِهم فإِنَّه تعالى جَاعِلٌ كلمتَه هي العُلْيا لا مَحَالَةَ.[٢٢٧٠]

وقال تعالى:{ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَـرَّتْ مِـنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)} [المدثر:٤٩ - ٥١]

فَمَا لِهَؤُلاَءِ المُشْرِكِينَ مُعْرِضِينَ عَنِ القُرْآنِ الذي يُـذَكِّرُهُم الرَّسُـولُ بِه،وَيَـدْعُوهُمْ إِلَيْـه؟ كَأَنَّهُمْ،فِي نِفَارِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الحَقِّ،حُمُرُ وَحْشٍ تَفِرُ نَافِرَةً.تفرُّ مِنْ أَسَدٍ يُرِيدُ صَيْدَهَا.[٢٢٧١]

وقال تعالى:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيـهِ لَعَلَّكُـمْ تَغْلِبُـونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِـكَ جَـزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨)} [فصـلت:٢٦ - ٢٨]

[٢٢٦٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٥٦)

[٢٢٧٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٧١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٤٢٢،بترقيم الشاملة آليا)

وَتَوَاصَى الذينَ كَفَرُوا فيمَا بَيْنَهُمْ بِأَلاَ يُؤْمِنُوا بالقُرْآن،وَأَلاَ يَنْقَادُوا إِلَيه،وَقَالَ بَعْضُهُمْ لبَعْض:إِذَا تُلِيَ القُرْآنُ لاَ تُنْصِتُوا لَهُ،وَعَارِضُوهُ باللَّغْوِ والبَاطلِ برَفْــع الصَّــوْت بالْشِّــعْر،أَو الكَــلاَم أَو الصَّفير..لَعَلَّكُمْ تَكُونُونَ أَنْتُمْ الغَالبينَ.وَيَتَهَدَّدُ اللهُ تَعَالَى هَؤُلاَءِ الكَافرينَ بِأَنَّهُ سَيُذيقُهُمْ عَذَاباً لاَ تُمْكنُ الإِحَاطَةُ بوَصْفه،وَسَيَجْزِيهِمْ بِأَسْوَأ أَعْمَالهمْ،لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ الصَّالحَةَ في الدُّنْيَا أَحْبَطَهَــا الشِّرْكُ وَأَهْلَكَهَا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ منْ أَعْمَالهمْ إِلاَّ القَبيحُ السَّيِّئُ وَلذَلكَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُجَازَوْنَ إِلاَّ عَلَى السَّيِّئَات.وَذَلكَ الجَزَاءُ الشَّديدُ،الذي أَعَدَّهُ اللهُ لأَعْدَائه،هُو النَّارُ يُعَــذَّبُونَ فيهَــا،وَيَبْقَوْنَ فــي العَذَاب خَالدينَ أَبَداً،وَهِيَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَجُحُودهمْ بآيَات الله،وَاسْــتكْبَارِهِمْ عَــنْ سَمَاعهَا.[2272]

وقال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْــمٍ وَيَتَّخِــذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَــأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)} [لقمان:٦،٧].

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ الذينَ يَهْتَدُون بكتَاب الله وآياته،وَيَنْتَفعُونَ بسَــمَاعها،ثَنَّى بذكْر حَال الأَشقياءِ الذينَ أَعْرَضُوا عَن الانْتفَاع بكلاَم الله وَآيَاته،وَأَقْبَلُوا عَلَى مَا لاَ فَائدَةَ منْهُ يَتَلَهَّوْنَ به منْ لَغْو الحَديث،ليُضلُّوا النَّاسَ عَن السَّبيلِ الذي يُوصلُ إلى الله.وهــؤُلاء يُجَــازيهمُ اللهُ،يَومَ القيامَة،بالعذاب المُخزي المُهين.وَإِذا قُرِئَتْ آيَاتُ القُرآن عَلَى هذَا الذي يَشْتَري لَهْــوَ الحَديث ليُضلَّ عَنْ سَبيلِ الله،فإِنهُ يُعرضُ عَنْها،وَيُولِّي مُسْتَكبراً غَيرَ مُهْتَمٍّ بها،وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْها لصَمَمٍ في أُذْنَيه،فَبَشِّر هذا المُعْرِضَ المُسْتَكبرَ،بأَنَّهُ سَيَلْقَى يَوْمَ القيَامَة عَذَاباً مؤلماً مُهيناً.[2273]

و قال تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْــرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَــذَا إِلَّــا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)} [الأنعام].

[2272] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٢٣،بترقيم الشاملة آليا)

[2273] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٥٦،بترقيم الشاملة آليا)

إنَّ أُولَئِكَ الكَافِرِينَ مِنْهُمْ فَرِيقٌ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَأَنْتَ تَتْلُو القُرْآنَ دَاعِياً إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ،وَمُبَشِّراً وَمُنْذِراً،وَلَكِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَغْطِيَةً،تَحُولُ دُونَ فَهْمِهِ،وَجَعَلَ فِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَصَمَماً وَثِقَلاً يَحُولُ دُونَ سَمَاعِهِ إِذَا أَرَادُوا تَدَبُّرَهُ،وَالوُصُولَ إِلى مَا فِيهِ مِنَ الهِدَايَةِ وَالرُّشْدِ.

وَهَؤُلاَءِ لا يُؤْمِنُونَ وَإِنْ رَأَوْا كُلَّ آيَةٍ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِكَ،وَصِدْقِ دَعْوَتِكَ،لأَنَّهُمْ لاَ يَفْقَهُونَهَا وَلا يُدْرِكُونَ المُرَادَ مِنْهَا،وَإِذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ فِي دَعْوَتِكَ قَالُوا:مَا هَذا الذي تَتْلُوهُ إِلاَّ قَصَصُ الأَوَّلِينَ وَخُرَافَاتُهُمْ،تُسَطَّرُ وَتُكْتَبُ كَغَيْرِهَا مِنَ الأَنْبَاءِ فَلا عِلْمَ فِيهَا وَلاَ فَائِدَةَ.

وَهؤُلاَءِ المُشْرِكُونَ،المُعَانِدُونَ للنَّبِيِّ ﷺ،الجَاحِدُونَ لِنُبُوَّتِهِ،يَتَبَاعَدُونَ عَنِ النَّبِيِّ،وَلاَ يَأْتُونَ إِلَيهِ (يَنْأَوْنَ عَنْهُ) كُرْهاً لَهُ،وَنُفُوراً مِنْهُ،وَاسْتِكْبَاراً عَلَى الحَقِّ.وَيَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ مَخَافَةَ أَنْ يُسْلِمُوا وَيَهْتَدُوا إِلَى الإِيمَانِ (وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ)،وَهُمْ فِي الحَقِيقَةِ لاَ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ بِهَذَا الضَّلاَلِ وَالإِضْلاَلِ،وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ،وَمَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ.[٢٢٧٤]

وقال تعالى:{ {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)} [الإسراء:٤٥،٤٦].

وَإِذَا قَرَأْتَ،يَا مُحَمَّدُ،القُرْآنَ عَلَى هَؤُلاَءِ المُشْرِكِينَ،جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَاباً مَسْتُوراً عَنِ الأَبْصَارِ،يَمْنَعُ وُصُولَ الهُدَى إِلَى قُلُوبِهِمْ،وَذَلِكَ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ،وَاقْتِرَافِهِمِ المُنْكَرِ وَالمَعَاصِي،التي تَجْعَلُ القُلُوبَ مُظْلِمَةً،وَتَضَعُ عَلَيْهَا أَغْشِيَّةً تَحْجبُ عَنْهَا الهُدَى.

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَغْطِيَّةً (أَكِنَّةً) تَغْشَى عَلَيْهَا فَلاَ يَفْقَهُونَ مِنَ القُرْآنِ الذي تَقْرَؤُهُ شَيْئاً،وَجَعْلَنَا فِي آذَانِهِمْ صَمَماً ثَقِيلاً يَمْنَعُهُمْ مِنَ السَّمْعِ،وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لاَ يَنْتَفِعُونَ بِهِ،وَإِذَا تَلَوْتَ مِنَ القُرْآنِ مَا يَتَّحَدَّثُ عَنْ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى أَدْبَرُوا رَاجِعِينَ نَافِرِينَ مِنْهُ،لأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ سَمَاعَ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ:اللاَّتِ وَالعُزَّى...[٢٢٧٥]

[٢٢٧٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٨١٥،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٧٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٧٥،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) } [الكهف]

وَلاَ أَحَدَ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَكْثَرُ ظُلْماً مِمَّنْ وُعِظَ بِآيَاتِ اللهِ،وَدَلَّ بِهَا عَلَى سَبِيلِ الهُدَى وَالرَّشَادِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يَتَدَبَّرْهَا،وَلَمْ يَكْتَرِثْ بِهَا،وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِي عَوَاقِبِ مَا ارْتَكَبَهُ مِنَ الظُّلْمِ،وَالكُفْرِ،وَالمَعَاصِي (نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)،فَلَمْ يُنِبْ إِلَى اللهِ،وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ تَائِباً مُسْتَغْفِراً. وَقَدْ كَانَ إِعْرَاضُ الكَافِرِينَ عَمَّا ذَكَرُوا لأَنَّ اللهَ جَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَغْطِيَةً وَأَغْلِفَةً لِكَيْلاَ يَفْقَهُوا مَا يُذَكَّرُونَ بِهِ (أَكِنَّةً) وَلأَنَّهُ جَعَلَ فِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَثِقَلاً لِكَيْلاَ يَسْمَعُوهُ.وَلِذَلِكَ فَإِنَّ دَعْوَتَكَ إِيَّاهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِلَى الهُدَى وَالإِيمَانِ بِاللهِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ،لَنْ تُؤَثِّرَ فِيهِمْ،وَلَنْ يَسْتَجِيبُوا لَهَا أَبداً.[٢٢٧٦]

وقال تعالى:{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) } [نوح]

فَلَمَّا كَذَّبَ نُوحاً قَوْمُهُ،وَهَدَّدُوهُ بِالرَّجْمِ،إِنْ لَمْ يَكُفَّ عَنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللهِ،وَعَنْ أَمْرِهِمْ بِالخَيْرِ،اشْتَكَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلَى رَبِّهِ مِمَّا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ خِلاَلَ مُدَّةِ لُبْثِهِ فِيهِمْ – وَهِيَ تِسْعِ مِئةٍ وَخَمْسُونَ عَاماً – فَقَالَ:يَا رَبِّ إِنَّنِي دَعَوْتُ قَوْمِي إِلَى عِبَادَتِكَ،وَالإِيْمَانِ بِكَ،لَيْلاً وَنَهَاراً،وَلَمْ أَكُفَّ عَنْ ذَلِكَ امْتِثَالاً لأَمْرِكَ.وَكُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَقْتَرِبُوا مِنَ الحَقِّ،فَرُّوا مِنْهُ وَابْتَعَدُوا عَنْهُ.وَإِنَّنِي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ إِلَى الإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَّتِكَ،وَإِلَى العَمَلِ بِمَا يُرْضِيكَ،لِتَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ،سَدُّوا آذَانَهُمْ بِأَصَابِعِهِمْ لِكَيْلاَ يَسْمَعُوا مَا أَقُولُهُ لَهُمْ مِنْ دَعْوَةِ الحَقِّ،وَتَغَطَّوْا بِثِيَابِهِمْ،لِكَيْلاَ يَنْظُرُوا إِلَيَّ كُرْهاً وَمَقْتاً،وَاسْتَرْسَلُوا فِي الكُفْرِ وَالمَعَاصِي،وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الإِذْعَانِ لِلْحَقِّ،وَقَبُولِ مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَيهِ مِنَ النُّصْحِ.[٢٢٧٧]

[٢٢٧٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٧٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٣٠٢،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}.

وقال تعالى{ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)}(سورة القلم).

وَهَؤُلاَءِ الْمُشْرِكُونَ يَنْظُرُونَ إِليكَ شَذَراً مِنْ شِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ،وَكُرْهِهِمْ لَكَ،حَتَّى لَيَكَادُونَ أَنْ يُزْلِقُوا قَدَمَكَ حَسَداً وَبُغْضاً،حِينَ سَمِعُوكَ تَتْلُو القُرْآنَ.وَيَقُولُونَ لِحيرَتِهِمْ فِي أَمْرِ هَذَا القُرْآنِ،وَجَهْلِهِمْ بِمَا فِيه:إِنَّ مُحَمَداً لَمَجْنُونٌ.وَالقُرْآنُ لَيْسَ إِلاَّ عِظَةً وَتَذْكِرَةً لِلْعَالَمِينَ.[٢٢٧٨]

وفى قوله تعالى:«وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» .هو حال من فاعل الفعل فى قوله تعالى:«وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ» ..والفاعل هو ضمير يعود إلى النبىّ- صلوات الله وسلامه عليه،المتلقّى لخطاب ربّه..أي فاصبر لحكم ربك،وإن كان قومك يرمونك بنظراتهم القاتلة.

فالله سبحانه وتعالى،إذ يدعو النبىّ إلى الصبر على المكاره التي يحملها من قومه،يدعوه إلى هذا فى حال بلغت فيه عداوة قومه غايتها،حتى إنهم ليكادون يزلقونه أي يسقطونه فزعا من نظراتهم المصوّبة إليه بسهام الحنق والغيظ والانتقام..فهم حين يستمعون إلى الذكر- وهو القرآن الكريم- تغلى مراجل غيظهم،فتنطلق من أعينهم نظرات ملتهبة كأنها السهام،فإذا رأى النبىّ ﷺ هذه النظرات تنوشه من كل جانب،فزع،وكرب وكاد يسقط من هول ما يطلع عليه من عداوة القوم!! وللعين قدرتها الخارقة على إظهار مكنون الإنسان،من حبّ أو بغض،ومن وعد أو وعيد،فهى المرآة التي تنعكس عليها مشاعر الإنسان،ويتجلى على صفحتها ما يعتمل فى كيانه من رضا أو سخط،ومن سكينة أو فزع،حتى ليبلغ الأمر أن تكون العين سلاحا قاتلا،يصيب مقاتل من يرمى بها..وفى هذا يقول الشاعر،فى أعداء التقوا بنظراتهم المتوعدة بالشر،قبل أن يلتقوا بسيوفهم المسلولة للقتال..يقول:

يتقارضون إذا التقوا فى موطن ...نظرا يزيل مواقع الأقدام

[٢٢٧٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٢٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

وفى النظرة الحاسدة شيء من هذا،فإنها ترمى المحسود،فى غفلة منه،فتصيب منه مقـتلا..لأنها نظرة منطلقة من قلب يغلى كمدا،وحسرة،على ما بيد المحسود من نعمة الله.

وليس هذا ما لقدرة العين وسلطانها فى الإنسان وحده،بل إنها عند كثير من الحيوانات تكـون سلاحا عاملا فى الصراع الدائر بينها..

فالحيّة،كثيرا ما تجد فى نفسها القدرة على إصابة عدوّها بنظرة منها،فإذا أرسلت إلى عـدوها نظرة والتقت عينه بعينها،شلت حركته وجمد فى مكانه،وربّما مات قبل أن تصل إليه..!

فالصبر الذي يدعى إليه النبيّ من ربه،هو فى تلك الحال،التي بلغت فيه عداوة القوم له غايتها،بما يرمونه به من نظرات ملتهبة،حين يسمعون آيات الله تتلى عليهم..وليس هذا النظر المشـحون بسـموم العـداوة وحسـب،بل إنهـم يرمونـه مـع هـذا بسـهام أخـرى مـن أفواههم،كقولهم:مجنون،وساحر...

وقوله تعالى:«وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» ..هو رد على هذه التهمة الفاجرة الظالمة التي تنطلـق بها أفواه هؤلاء المشركين،وهو تثبيت للنبى فى موقفه،وإلفات له إلى ما بين يديه مـن آيـات القرآن الكريم،الذي هو ذكر للعالمين،وحياة مجددة للناس،جيلا بعد جيل،وإنه لا ذكر،ولا قدر لمن فاته الاتصال بهذا الكتاب،وتلقّى عنه،وقطع مسيرة الحياة فى ظله،وهذا مثل قوله سـبحانه وتعالى:«وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ» (٤٤:الزخرف) .[٢٢٧٩]

فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول - ﷺ - فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها علـى الأرض وثباتها! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق وشر وحسد ونقمـة وضغن،وحمى وسم ..مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومـة بالسـب القبيح،والشـتم البذيء،والافتراء الذميم:«وَيَقُولُونَ:إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» ..وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في مكة.فهو لا يكون إلا في حلقة عامـة بـين كبـار المعانـدين المجرمين،الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم! يعقب عليه بالقول الفصل الذي ينهي كل قول:«وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ».والذكر لا يقوله مجنون،ولا يحملـه مجنون ..وصدق الله وكذب المفترون ..

[٢٢٧٩] - التفسير القرآني للقرآن (١٥/ ١١١٩)

ولا بد قبل نهاية الحديث من لفتة إلى كلمة «لِلْعالَمينَ» ..هنا والدعوة في مكة تقابل بذلك الجحود،ويقابل رسولها بتلك النظرات المسمومة المحمومة،ويرصد المشركون لحربها كل ما يملكون ..وهي في هذا الوقت المبكر،وفي هذا الضيق المستحكم،تعلن عن عالميتها.كما هي طبيعتها وحقيقتها.فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة – كما يدعي المفترون اليوم – إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى.لأنها حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها.كذلك أرادها الله.وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى.وكذلك تتجه إلى آخر الزمان.والله الذي أرادها كما أرادها هو صاحبها وراعيها.وهو المدافع عنها وحاميها.وهو الذي يتولى المعركة مع المكذبين.وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ..[٢٢٨٠]

ويتجلى هذا البغض للحق ومعاداته لمن تابع وسائل إعلام الصليبيين،وأبواق حملتهم الصليبية،كهيئة الإذاعة البريطانية " البي بي سي " التي لبست لباس الحرب،وشاركت بطريقة سافرة في الحرب النفسية والإعلامية للعدوان على أفغانستان والعراق،وقتل ما يزيد على مئة ألف مسلم،والترويج للكفر المسمى " بالديمقراطية " بديلا عن الإسلام،وقد استأجر القائمون عليها بعض المرتزقة من أبناء جلدتنا،وممن يتسمون بأسمائنا،ويتكلمون بألسنتنا لبث شرورها وسمومها،وإذاعة أخبارها بما يتوافق مع الأهداف الاستخبارية والاستعمارية لراعيتها بريطانيا،ومثل هذه الهيئة الكثير من وسائل إعلام الصليبيين وعملائهم في المنطقة.

ثالثا:زخرفة الأقوال والمصطلحات:

يستخدم أعداء الإسلام في إعلامهم الأقوال المزخرفة المزينة،التي ينتقونها بعناية كبيرة للتغطية على حقيقة باطلهم،وإظهاره بصورة محسنة مزينة،ثم تكرر وتردد هذه الأقوال ويروج لها في وسائل الإعلام،فينخدع ويغتر بها من لا يؤمن بالآخرة،كما قال تعالى:{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)} [الأنعام:١١٢،١١٣]

[٢٢٨٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٥٧٩)

وَكَمَا جَعَلْنَا هؤُلاَءِ وَأَمْثَالَهُمْ أَعْدَاءً لَكَ يَا مُحَمَّدُ،يُخَالِفُونَكَ وَيُعَانِدُونَكَ،وَيُعَادُونَكَ،كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَعْدَاءً مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ (شَيَاطِينُ الإِنْسِ هُمُ الكُبَرَاءُ وَمَنْ يُضِلُّونَ النَّاسَ عَنِ الهُدَى بِالوَسْوَسَةِ وَالإِغْرَاءِ وَالمُخَادَعَةِ)،وَيُلْقِي بَعْضُ هَؤُلاَءِ الشَّيَاطِينِ مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ إِلى بَعْضِ القَوْلِ المُمَوَّهِ الذي يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتُرُونَ بِهِ قُبْحَ بَاطِلِهِمْ،وَيُؤَدُّونَهُ بِطُرُقٍ خَفِيَّةٍ لاَ يَفْطَنُ إِلَى بَاطِلِهَا كُلُّ وَاحِدٍ،حَتَّى يَغُرُّوا النَّاسَ وَيَخْدَعُوهُمْ وَيُمِيلُوهُمْ إِلَى مَا يُرِيدُونَ،كَمَا وَسْوَسَ الشَّيْطَانُ لآدَمَ وَحَوَّاءَ لِلأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ التِي نَهَاهُمَا اللهُ عَنْهَا،وَكَمَا يُوَسْوِسُ شَيَاطِينُ الإِنْسِ لِمَنْ يَجْتَرِحُونَ السَّيِّئَاتِ،فَيُزَيِّنُونَ لَهُمْ مَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ اللَّذَّةِ،وَالتَّمَتُّعِ بِالحُرِّيَّةِ،وَيُمَنُّونَهُمْ بِعَفْوِ اللهِ.وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ لاَ يَفْعَلُوا ذَلِكَ لَمَا فَعَلُوهُ وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ إِذْ خَلَقَ النَّاسُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِقُبُولِ الحَقِّ وَالبَاطِلِ،وَالخَيْرِ وَالشَّرِّ.

وَيُوحِي هَؤُلاَءِ الشَّيَاطِينُ،بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ،القَوْلَ المُمَوَّهَ لِيَغُرُّوا بِهِ المُؤْمِنِينَ،وَيَصْرِفُوهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ،وَيَفْتِنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ،وَلِتَمِيلَ إِلَيهِ قُلُوبُ الكَافِرِينَ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ،لأَنَّهُ المُوَافِقُ لأَنْفُسِهِمْ إِذْ هُمْ يَمِيلُونَ إِلَى حُبِّ الشَّهَوَاتِ التِي مِنْ جُمْلَتِهَا الأَقَاوِيلُ المُزَخْرَفَةُ،وَالأَبَاطِيلُ المُمَوَّهَةُ،فَيَرْضَوْنَ ذَلِكَ لأَنْفُسِهِمْ بِلاَ بَحْثٍ وَلاَ تَمْحِيصٍ فِيهِ،وَيَرْتَكِبُونَ مِنَ المَآثِمِ وَالمَعَاصِي مَا هُمْ مُرْتَكِبُونَ بِغُرُورِهِمْ.[٢٢٨١]

فدلت الآية على أن أعداء الإسلام الذين يحاربونه في إعلامهم أنهم شياطين الإنس وأعداء الرسول،وأنهم متمردون قد أصبحت الشيطنة والتمرد سجية لهم،ودل قوله تعالى:{وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ}،على أن أقوالهم المزخرفة إنما يغتر بها ويميل إليها من لا يؤمن بالآخرة،كقوله تعالى:{فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)} [الصافات:١٦١ - ١٦٣] وقوله تعالى:{ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩)} [الذاريات:٨،٩] وقوله تعالى {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) } [الزخرف]

[٢٢٨١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٠٢،بترقيم الشاملة آليا)

فَاسْتَخَفَّ فِرْعَوْنُ عُقُولَ قَوْمِهِ بِهَذِهِ الحُجَجِ الوَاهِيةِ،وَدَعَاهُمْ إِلَى الضَّلاَلَةِ فَاسْتَجَابُوا لَهُ طَائِعِينَ،لأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً غَاوِينَ ضَالِّينَ،خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى.فَلَمَّا أَغْضَبُونَا بِعِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ وَبَغْيِهِمْ فِي الأَرْضِ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَعَجَّلْنَا لَهُم العُقُوبَةَ،وَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ.[2282]

أي أن فرعون استخف بعقول قومه،واستصغر أحلامهم،فتحدث إليهم بهذا الحديث الذي لا يقبله عقل،ولا يستسيغه عاقل..ومع هذا فقد تلقاه القوم بالتسليم والطاعة،ولم يقم من بينهم قائم ينكر هذا القول المنكر،ويسفه هذا المنطق السفيه..«إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ..» أي كانوا على ما كان عليه فرعون من سفاهة،وجهل،فراجت عندهم هذه البضاعة الفاسدة! وهكذا يستغلظ الضلال،وتنتشر سحبه القائمة فى المواطن التي تقبل الباطل،وتستجيب له..تماما كالبرك والمستنقعات،تتداعى عليها الهوامّ والحشرات،وتتوالد وتتكاثر فى أعداد لا تعدّ ولا تحصى..

وإنها ليست مسئولية داعية الضلال وحده،بل هى كذلك مسئولية..الذين يستجيبون له،ولا ينكرون عليه المنكر الذي يدعوهم إليه..ومن هنا كان الأمر بالمعروف،والنهى عن المنكر مسئولية منوطة بكل مجتمع إنسانىّ،فى أفراده وجماعاته،إذ كانت الجماعة أشبه بالجسد،فيما يعرض له من عوارض العلل والآفات..فأى عضو فى الجماعة،يعرض له عارض من عوارض الفساد،يهدد الجماعة كلها بتلك الآفة،التي إن لم تجد من يطبّ له منها،سرت عدواها فى المجتمع كله،وتهددت وجوده..قوله تعالى:«فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ» .وهكذا كانت عاقبة الجماعة كلها..داعية الضلال،ومن ضلّ بضلاله..لقد أخذهم الله جميعا بعذابه،فأغرقهم كما أغرق فرعون..

وفى قوله تعالى:«فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ» ..إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى،قد أمهل هؤلاء الضالين،ومدّ لهم فى ضلالهم،حتى يكون لهم فسحة من الوقت،يراجعون فيها أنفسهم،ويعدّلون موقفهم المنحرف..

فلما لم يكن لهم فى هذا الإمهال،وفى تلك المطاولة،إلا الإمعان فى الضلال،والإسراف فى العناد- أخذهم الله بذنوبهم،ولم يكن لهم من دون الله من ولى ولا نصير.فقوله تعالى:«آسَفُونا» أي أسخطونا عليهم..والله سبحانه وتعالى «حليم» فلا يغضب الله إلا على من أخذه بحمله ثم

[2282] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

لم يزده الحلم إلا سفها وجهلا..قوله تعالى:«فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ» .أي أن العذاب الذي أخذ به هؤلاء الضالون،المسرفون فى الضلال،كانا عذابا يضرب به المثل من بعدهم،ويرى الخلف عبرة وعظة فيما نزل بهذا السلف..[٢٢٨٣]

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة،ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها،ولا يعودوا يبحثون عنها ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة.ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك،ويلين قيادهم،فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق،ولا يمسكون بحبل الله،ولا يزنون بميزان الإيمان.فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح.ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول:«فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ.إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» ..ثم انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير وعلم الله أن القوم لا يؤمنون وعمت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهي في خيلاء،وعشت عن الآيات البينات والنور فحقت كلمة الله وتحقق النذير:«فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ،فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ» ..

يتحدث الله سبحانه عن نفسه في مقام الانتقام والتدمير إظهارا لغضبه ولجبروته في هذا المقام.فيقول:«فَلَمَّا آسَفُونا» ..أي أغضبونا أشد الغضب ..«انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ» ..يعني فرعون وملأه وجنده.وهم الذين غرقوا على إثر موسى وقومه وجعلهم الله سلفا يتبعه كل خلف ظالم «وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ» الذين يجيئون بعدهم،ويعرفون قصتهم،فيعتبرون.[٢٢٨٤]

فالطغاة إنما يستخفون ويتلاعبون بعقول الفاسقين الخارجين عن طاعة الله،ويحملونهم على طاعتهم والإنقياد لأنظمتهم وتشريعاتهم.

والآية تصفهم بالإصغاء إلى أقوالهم في وسائل الإعلام أو غيرها،والمحبة والرضى بباطلهم،واقتراف الذنوب والآثام بسبب هذا الإصغاء والميل،فهي ثلاثة أوصاف وصفهم الله

[٢٢٨٣] - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ١٤٦)

[٢٢٨٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٠٣)

بها في قوله تعالى:{وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [الأنعام:١١٣] أولها:الإصغاء،والميل إلى أقوالهم المزخرفة،والثاني:الرضى والمحبة،وهو الاعتقاد بالديمقراطية ونحوها من الكفر،والثالث:اقتراف الكفر والمعاصي المترتب على الإصغاء إلى أقوالهم،وهذا هو اتباع منهجهم،والسير على ما تقتضيه عقيدتهم،فتأمل هذا الخطوات يتبين لك كيف ارتكس المرتدون من الديمقراطيين،أو الشيوعيين أوالاشتراكيين أو غيرهم في الكفر والضلال.

رابعا:الكذب وقلب الحقائق:

من السمات البارزة لوسائل إعلامهم الكذب،وقلب الحقائق،وتسمية الأشياء بغير أسمائها لتضليل الناس،ولتحقيق أهدافهم وسياساتهم،اتباعا لقاعدتهم:"اكذب واكذب حتى يصدقك الناس" فنشر الكفر كالديمقراطية يسمونه إصلاحا،وإشاعة الفاحشة كالزنا واللواط والسحاق وما يسمونه بزواج المثليين وتفكك الأسرة وانحطاط المجتمع يسمونه حرية،والحملة الصليبية لمحاربة الإسلام والمسلمين يسمونها مكافحة الإرهاب،كما قال تعالى:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [غافر:٢٦]

وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِمَلَئِه:دَعُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلِيَسْتَنْجِدْ مُوسَى بِرَبِّهِ لَيُنْقِذَهُ إِنْ كَانَ صَادِقاً فِي قَوْلِهِ إِنَّ لَهُ رَبّاً أَرْسَلَهُ،وَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى حِمَايَتِه،لأَنَّ فِرْعَوْنَ يَخَافُ – عَلَى مَا قَالَهُ لَمَلَئِه – أَنْ يُفْسِدَ مُوسَى مُعْتَقَدَاتِ القِبْطِ،أَوْ أَنْ يَخْلُقَ بِدَعْوَتِهِ الاضْطِرابَاتِ والقَلاقِلَ فَتَتَعَطَّلَ الأَعْمَالُ فِي المَزَارِعِ والمَتَاجِرِ.[٢٢٨٥]

«وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى» ..أي دعوا موسى لا تقتلوه أنتم،بل إننى أنا الذي سأتولى قتله..

والسؤال هنا:إن أحدا لم يعرض لفرعون،ولم يحل بينه وبين ما يريد فى موسى..فما السر فى أن يقول هذا القول:«ذرونى» أي اتركونى؟

[٢٢٨٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٣٨،بترقيم الشاملة آليا)

وهل أراد فرعون شيئا يفعله بموسى ثم عرض له أحد دونه؟ وهل يجرؤ أحد أن يعترض طريق فرعون إلى ما يريد؟.

ما السرّ إذن فى قوله هذا:«ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى» ؟.

الجواب- والله أعلم- أن هذا القول من فرعون يكشف عن خوف كان مستوليا عليه من موسى،ومن أن خطرا داهما يتهدده من جهته..

فلقد كان يعلم- بعد أن رأى ما رأى من المعجزات- أن موسى يستند إلى قوة لا قبل لأحد بها،وأنه لو أراد بموسى شرّا لما استطاع،ولأصابه هو بلاء عظيم..إنه كان على يقين بأن موسى على حق،ولكن الغطرسة،والكبر،وحب التسلط والسلطان- كل أولئك قد جعله يؤثر ما هو فيه من ضلال على هذا الحق الذي يدعى إليه..

فقول فرعون:«ذرونى أقتل موسى» - يشير إلى أن شيئا ما بداخله،يمسك به،وأن مشاعر خفية تلقاه بالتخويف والتحذير كلما هم أن يبطش بموسى،ويخلص من هذا الخطر الذي يتهدده منه ومن سحره..وكأن فرعون بقوله:«ذرونى أقتل موسى» إنما يتحدث إلى هذه المشاعر التي تغلّ يده،وتحول بينه وبين ما يشتهى من الانتقام من هذا العدو المخيف!.

وفى قوله:«وَلْيَدْعُ رَبَّهُ» ما يشير إلى هذا الخوف الذي يملأ كيان فرعون،أكثر مما يشير إلى الاستخفاف،وعدم المبالاة.

وفى قوله:«إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ» - ما يكشف عن وجه من وجوه المخاوف التي تعيش مع فرعون من جهة موسى..ولهذا فإنه يريد أن يتحمل هذه المخاطرة،ويقدم على قتل موسى..أيّا كان الثمن الذي يقدمه من أجل هذا.[٢٢٨٦]

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد،يتكرر كلما التقى الحق والباطل،والإيمان

[٢٢٨٦] - التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٢٢٢)

والكفر.والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان.والقصة قديمة مكررة تعـــرض بين الحين والحين.[2287]

وقال تعالى:{ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]

لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ بِهَـــذَا المُلْك،وَبِـــالظُّهُور فِـــي الأَرْضِ بالكَلِمَـــة النَّافِـــذَة،وَالجَاه العَرِيض،فَرَاعُوا هذه النِّعْمَةَ،وَلاَ تُفْسِدُوا أَمْرَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ،وَلاَ تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِبَـــأْسِ اللهِ وَعَذَابِه بِقَتْله،فَإِنَّهُ لاَ قِبَلَ لَكُمْ بِذَلِكَ،وَإِذَا جَاءَكُمْ بَأْسُ اللهِ لَمْ يَمْنَعْكُمْ مِنْهُ أَحَدٌ.وَلَمَّـــا سَـــمِعَ فِرْعَوْنُ قَوْلَ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ:إِنَّهُ لاَ يَقُولُ لَهُمْ،وَلاَ يُشِيرُ عَلَيْهِم إِلاَّ بِمَا يَـــرَاهُ لِنَفْسِهِ،وَلاَ يَدْعُوهُمْ إِلاَّ إِلَى طَرِيق الحَقِّ والصِّدْقِ والرُّشْد.[2288]

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابا،وأعتقده نافعا.وإنه لهو الصواب والرشد بـــلا شـــك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا؟! وإلا فلم كانوا طغاة؟![2289]

وقال تعالى عن المنافقين { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْـــنُ مُصْـــلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)} [البقرة:١١،١٢]

فَإِذَا قِيلَ لِهؤلاءِ المُنَافقِينَ:لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ،وَلاَ تُثِيرُوا فِيها الفِتَنَ وَالحُرُوبَ،وَلاَ تُحَرِّضُـــوا الأَعدَاءَ عَلَى المُؤْمنِينَ،وَلاَ تُفْشُوا أَسْرارَ المُؤْمنِينَ لأَعْدَائِهِمْ،وَلاَ تَرتَكِبُوا المَعَاصِيَ وَغَيْرَ ذلكَ مِنْ فُنُون الشَّرِّ...قَالُوا:إِنَّنا نُرِيدُ الإِصْلاَحَ،فَنَحْنُ بَعيدُونَ عَنِ الإِفْسَاد وَشَوَائِبه.والمُفْسِدُونَ يَـــدَّعُونَ دَائماً أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الإِصْلاَحَ.وَلكنَّهُمْ فِي الحَقِيقَة هُمُ المُفْسِدُونَ،لأَنَّ مَا يَقُومُونَ بِه هُـــوَ عَـــيْنُ الفَسَاد،وَلكِنَّهُمْ لِجَهْلِهِمْ لا يَشْعُرونَ بِأَنَّهُ فَسَادٌ،وَلاَ يُدْرِكُونَ سُوءَ العَاقِبَة الـــذِي سَيَصِـــيرُون إِليهِ.[2290]

[2287] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٧٢)

[2288] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٤١،بترقيم الشاملة آليا)

[2289] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٧٤)

[2290] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨،بترقيم الشاملة آليا)

أي:إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض،وهو العمل بالكفر والمعاصي،ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين {قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض،وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح،قلبا للحقائق،وجمعا بين فعل الباطل واعتقاده حقا،وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية،مع اعتقاد أنها معصية فهذا أقرب للسلامة،وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم:{إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله:{ألا إنهم هم المفسدون} فإنه لا أعظم فسادا ممن كفر بآيات الله،وصد عن سبيل الله،وخادع الله وأولياءه،ووالى المحاربين لله ورسوله،وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح،فهل بعد هذا الفساد فساد؟ " ولكن لا يعلمون علما ينفعهم،وإن كانوا قد علموا بذلك علما تقوم به عليهم حجة الله،وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادا،لأنه يتضمن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار،والنبات،بما (٤) يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي،ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به،لهذا خلق الله الخلق،وأسكنهم في الأرض،وأدر لهم الأرزاق،ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]،فإذا عمل فيها بضده،كان سعيا فيها بالفساد فيها،وإخرابا لها عما خلقت له.[٢٢٩١]

إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع،بل يضيفون إليهما السفه والادعاء:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» ..لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد،بل يتجاوزوه إلى التبجح والتبرير:«قالُوا:إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ» ..والذين يفسدون أشنع الفساد،ويقولون:إنهم مصلحون،كثيرون جدا في كل زمان.يقولونها لأن الموازين مختلة في أيديهم.ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم.

[٢٢٩١] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٣)

والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم،لأن ميــزان الخــير والشــر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية،ولا يثوب إلى قاعدة ربانية ..ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق:«أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ،وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ» ..[٢٢٩٢]

ومن ذلك تسمية الصليبيين وعملائهــم للمســلمين المتمســكين بدينــهم بــالمتطرفين،أو الأصوليين،أو الإرهابيين أو غيرها من الأسماء الــتي يخترعونها،وينتقوهنــا بعناية،وقــد كــان المشركون يقولون عن خير المرسلين ﷺ:إنه ساحر،وكاهن،وشاعر،وكذاب،ومجنون،كما قــال تعالى:{فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَــرَبَّصُ بِــهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)} [الطور:٢٩ - ٣١].

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالى رَسُولَهُ الكَرِيمَ ﷺ بِأَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ إِلى النَّاسِ،وَبِأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ عَليــهِ وَيَقُولُ لَهُ تَعَالى:إِنَّكَ لَسْتَ،بِحَمْدِ اللهِ وَنِعْمَته عَلَيكَ،بِكَاهِنٍ مِنَ الكُهَّانِ،الذينَ يَــدَّعُونَ أَنَّهُــم يَتَّصِلُونَ بالجِنِّ،وَيَأْتُون بِأَسْرارِ الغَيبِ مِنْهُم،وَلَسْتَ بِمَجْنُونٍ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ المَسِّ.بَلْ هُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ شَاعِرٌ نَنْتَظِرُ أَنْ تَنْزِلَ بِهِ قَوارِعُ الدَّهْرِ فَيمُوتَ وَنَسْــتَرِيحَ مِنْــهُ.فَقُــلْ لَهُــمْ يَــا مُحَمَّدُ:انتَظِروا أَنْ يَنْزِلَ رَيْبُ المَنُونِ فَإِنِّي مُتَرَبِّصٌ مَعَكُم،مُنْتَظِرٌ قَضاءَ اللهِ فِيَّ وَفِيكُمْ،وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ العَاقِبَةُ الحَسَنَةُ والظَّفَرُ،في الدُّنيا وَالآخرة.[٢٢٩٣]

وقال تعالى:{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِــنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)} [الحاقة:٣٨ - ٤٣]

قَسَماً بِمَا تُشَاهِدُونَهُ فِي عَالَمِ المَرْئِيَّات.وَقَسَماً بِمَا غَابَ عَنْكُمْ مِنْ عَالَمِ الغَيْب.إِنَّ هَذَا القُرْآنَ هُوَ كَلاَمُ اللهِ وَوَحْيُهُ أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْده وَرَسُوله مُحَمَّد ﷺ،فَمَا يَقُولُهُ لَكُــمْ أَيُّهَــا الكَــافِرُونَ المُكَذِّبُونَ هُوَ قَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ،يُبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبِّه.وَمَا هُوَ بِقَــوْلِ شَــاعِرٍ،لأَنَّ مُحَمَّــداً لَــيْسَ شَاعِراً،وَإِنَّكُمْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ لاَ تُؤْمِنُونَ إِلاَّ إِيمَاناً قَليلاً.وَمَــا هُــوَ بِقَــوْلِ كَــاهِنٍ كَمَــا تَزْعُمُونَ،لأَنَّهُ سَبَّ الشَّيَاطِينَ،فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَا يَقُولُهُ إِلهَاماً مِنْهُمْ.وَلَكــنَّكُمْ لَمَّــا لَــمْ

[٢٢٩٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٣٩)

[٢٢٩٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٤٣،بترقيم الشاملة آليا)

تَسْتَطِيعُوا فَهْمَهُ قُلْتُمْ إِنَّهُ كَلاَمُ كُهَّانٍ،فَمَا أَقَلَّ تَذَكُّرَكُمْ وَتَدَبُّرَكُمْ.لَيْسَ القُرْآنُ قَوْلَ شَـــاعِرٍ،وَلاَ قَوْلَ كَاهِنٍ،وَإِنَّمَا هُوَ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ،عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُـــولِهِ سَـــيِّدِنَا مُحَمَّـــدٍ ﷺ،بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ الرُّوحِ الأَمِينِ،عَلَيهِ السَّلاَمُ.[٢٢٩٤]

وقال تعلى:{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَـــالُوا سَـــاحِرٌ أَوْ مَجْنُـــونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)} [الذاريات:٥٢،٥٣]

يُسَلِّي اللهُ تَعَالى رَسُولَهُ الكَرِيمَ ﷺ وَيُعْلِمُهُ أنَّ مَا قَالَه هؤُلاءِ المُشْرِكُونَ المُكَذبُونَ مِـــنْ كُفَّـــارِ قُرَيْشٍ،وَهُوَ سَاحِرٌ..أوْ مَجْنُونٌ،سَبَقَ أنْ قَالَـــهُ المُكَـــذِّبُونَ مِـــنَ الأمَـــمِ الأخْـــرى الخَالِيَـــةِ لِرُسُلِهِمْ،فَصَبُروا عَلَى إيذاءِ أقوامِهِمْ،حَتَّى جَاءَ نَصْـــرُ اللهِ.أأوْصَـــى بَعْضُـــهُم بَعْضـــاً بِهَـــذا القَوْلِ،فَتَنَاقَلَهُ الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ حَتَّى قَالَهُ المُكَذِّبُونَ مِنْ قَومِكَ؟ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ طُغَاةٌ تَشَـــابَهَتْ قُلُوبُهُمْ وَتَلاَقَتْ فِي الطَّعْنِ عَلَى الرُّسُلِ،فَقال مُتَأخِّرُهُمْ كَمَا قَالَ مُتَقَدِّمُهُمْ.[٢٢٩٥]

وقال تعالى:{ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَـــلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) } [ص]

وَتَعَجَّبُوا مِنْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ يَقُولُ لَهُمْ إِنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ مِنَ اللهِ لِيَدْعُوَهُمْ،مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مَا يُمَيِّزُهُ عَنْهُمْ لِيَخْتَصَّهُ اللهُ بِحَمْلِ رِسَالَتِهِ مِنْ دُونِهِمْ،وَقَالَ الكَافِرُونَ:إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَا هُوَ إلاَّ خَدَّاعٌ كَذَّابٌ فِيمَا يَنْسُبُهُ إِلَى اللهِ مِنْ إِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ رَسُولاً لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ.أَيَـــزْعُمُ أَنَّ المَعْبُودَ إِلَهٌ وَاحِدٌ،لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ؟ ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الإِقْلاَعِ عَنِ الشِّـــرْكِ الذِي أُشْرِبَتْهُ نُفُوسُهُمْ،وَتَلَقَّوْهُ عَنْ أَسْلاَفِهِمْ،وَقَالُوا:إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ يُثِيرُ العَجَبَ الشَّدِيدَ.[٢٢٩٦]

أي أن هؤلاء المشركين،قد عجبوا أن جاءهم رسول بشر منهم،وقال الكـــافرون عـــن هـــذا الرسول،«هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ» فرموه بالسحر،واتهموه بالكذب! وفى قوله تعالى:«وَعَجِبُـــوا» إسناد للعجب إليهم جميعا..فهذا العجب هو الذي استقبل به المشركون بعثة الرسول فيهم..ثم كانوا فريقين:فريقا لم يتلبث كثيرا فى عجبه من هذا الرسول البشر..فما هى إلا وقفة- طالت

[٢٢٩٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢٣٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٩٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٠٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٩٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٨٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

أو قصرت- ثم رجع إلى عقله،وثاب إلى رشده فآمن بالله..وفريقا ظل على عجبه هذا،فتولـــد منه الإنكار والكفر،وعلى حين قال المؤمنون:آمنا بالله،ورسول الله،قال الكافرون:هذا ســـاحر كذاب..قوله تعالى:«أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً؟ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ» ..هـــو مـــن مقولـــة المشركين،الذين قالوا هذا القول المنكر فى النبي:«ساحِرٌ كَذَّابٌ» ..وهم بقولهم:«أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً» هو تعجب من دعوة الرسول لهم إلى توحيد الله،ونبذ ما يعبدون من دونـــه مـــن آلهة..إنها دعوة غير معقولة وغير مقبولة عندهم..إذ كيف تكون الآلهة إلها واحدا؟ وكيف يترل كل إله منها عن سلطانه إن شيخ القبيلة،أو زعيم الجماعة،لا يقبل أن يترل عن مكانـــه مـــن الرياسة لزعيم آخر،ولو كان هذا معقولا ومقبولا،لكانت قريش مثلا تحت زعيم واحد.فـــإذا كان هذا غير ممكن فى مجتمع القبائل،فكيف يمكن هذا فى مجتمع الآلهـــة؟ «إِنَّ هـــذا لَشَـــيْءٌ عُجابٌ» ..أي مثير للعجب،الذي ليس وراءه عجب![2297]

فالكفار في زماننا على نهجهم سائرون،وبمثل أقوالهم يخوضون،ويفترون،كما قال تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [البقرة:١١٨]

وَقَالَ الكُفَّارُ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً عَنِ النُّبُوَّاتِ،وَعَمَّا يَصِحُّ أَنْ يُعطَاهُ الأَنْبِياءُ مِنَ الآيَاتِ:هَـــلاَّ يُكَلِّمُنَا اللهُ وَيَقُولُ لَنَا إِنَّكَ رَسُولُهُ حَقّاً،أَوْ يُرْسِلُ إِلَينا مَلَكاً فَيُخْبِرُنا بذلك،كَمَا كَلَّمَكَ،وَأَنْـــتَ بَشَرٌ مِثْلُنَا.وَهَلاَّ تَأْتِينَا بِبُرْهَانٍ عَلَى صِدْقِكَ فِي دَعْوَاكَ النُّبُوَّةَ.وَهُمْ إِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ والاسْتِكْبَارِ وَالتَّعْجِيزِ،لا لِلْوُصُولِ إِلَى الحَقِيقَةِ،وَجَلاَءِ الغَوَامِضِ،وَقَدْ قَالَ مِثْـــلَ هـــذِهِ الأَقْوالِ،التِي يُرادُ بِهَا التَّعَنُّتِ وَالعِنَادُ،مَنْ جَاءَ قَبْلَهُمْ مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ،فَسَأَلَ اليَهُودُ مُوسَى أَنْ يَرَوْا اللهَ جَهْرَةً،فَأَشْبَهَتْ قُلُوبُ مُشْرِكِي العَرَبِ قُلُوبَ مَنْ تَقَـــدَّمَهُمْ فِـــي الكُفْـــرِ وَالعُتُـــوِّ والعِنَادِ.وَقَدَ بَيَّنَ اللهُ الدَّلاَلاَتِ،وَأَقَامَ الحُجَجَ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ بِمَا لا يَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ مِـــنَ الأَدِلَّةِ،لِمَنْ كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ إِيمَانٌ.أَمَّا الذِينَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـــارِهِمْ،فَهؤلاءِ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ.[2298]

[2297] - التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٠٤٩)

[2298] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٥،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: {قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [الأنبياء:١١٢]

وهنا يتوجه الرسول - ﷺ - إلى ربه.وقد أدى الأمانة،وبلغ الرسالة.وآذنهم على سواء،وحذرهم بغتة البلاء ..يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين،ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم.وهو وحده المستعان:«قالَ:رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ،وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ» ..وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول.فهو الذي أرسله رحمة للعالمين،فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزءون.وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون.وبهذا المقطع القوي تختم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوي.فيتقابل طرفاها في إيقاع نافذ قوي مثير عميق.[٢٢٩٩]

هو حكاية لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه،الذي يعقّب به على هذا الموقف الذي بينه وبين المشركين،الذين يقفون منه هذا الموقف المنادي فيدعو ربّه أن يحكم بينه وبين هؤلاء المشركين،والضالين «بِالْحَقِّ» فيعطى كلّا حقّه..ماله،وما عليه.

والله سبحانه وتعالى لا يحكم إلا «بِالْحَقِّ» وفى قول النبيّ «احْكُمْ بِالْحَقِّ» تطمين لهؤلاء المشركين الضالين،وهو أنه إذ يدعوهم إلى الاحتكام إلى الله،فإنما يدعوهم إلى من يحكم بالحقّ،وهو لا يطلب من الله سبحانه محاباة له،إذ كان مؤمنا بالله وهم أعداء لله..إنه لا يريد غير الحق،من الحق جل وعلا وهذا شأن الواثق من الحق الذي فى يده..ويجوز أن يكون المراد «بِالْحَقِّ» هنا،الحقّ الذي يعلمه النبيّ،وينتظره من ربّه..فأل فى «الحق» للعهد،أي الحق المعروف،المعهود عند الله،وليس طلب النبيّ الحكم بالحق إلا إحالة للأمر الذي بينه وبين قومه إلى صاحب الأمر يقضى فيه بحكمه.

وقوله تعالى:«وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ» .هو خاتمة هذه السورة ...

وفى هذه الخاتمة ينهى النبيّ- صلوات الله وسلامه عليه- موقفه مع قومه،مع الضالين والمعاندين،بأن يتركهم لحكم الله فيهم،وقضائه بينه وبينهم،وهو حكم عدل،وقضاء حق..أما ما يجد النبيّ- صلوات الله وسلامه عليه- من خلافهم عليه،واتّهامهم له،ورميهم إياه بتلك

[٢٢٩٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١١٠)

الرّميات الطائشة،كقولهم عنه:إنه شاعر،وإنه مجنون،وإنه ساحر- فذلك مما يستعين الله على حمله منهم،من غير أن يحمل لهم ضغينة،أو يخرج به ذلك على غير ما يريده من الله لهم،من هداية،إلى أن يدعو عليهم،كما دعا كثير من الأنبياء على أقوامهم،فأخذوا بعذاب الله،ووقع بهم البلاء وهم ينظرون..فما جاء صلوات الله وسلامه عليه إلا رحمة للعالمين،وهو بهذه الرحمة حريص على أن ينال قومه وأهله حظّهم منها..فإن لم ينل المعاندين والمنكرين شيء من هذه الرحمة،فلا أقلّ من ألا يصيبهم عذاب فى هذه الدنيا،كما أصيبت الأمم الأخرى..أمّا فى الآخرة فأمرهم إلى الله،يحكم فيهم بما شاء،وهو أحكم الحاكمين..ولقد مضى النبيّ فى طريق دعوته،صابرا،مصابرا،يلقى المساءة بالإحسان والأذى بالمغفرة،حتى إنهم ليخرجونه من البلد الحرام،ويزعجونه من بيته وأهله..ثم يجمعون جموعهم فى جيش لجب،يريدون أن يدخلوا عليه المدينة موطنه الذي هاجر إليه،فيلقاهم النبيّ بهذا العدد القليل من أصحابه فى بدر،فتكون الدائرة عليهم،وينصر الله النبيّ وأصحابه نصرا عزيزا..ثم لا يأخذ القوم من هذا آية،ولا يتلقون منها عبرة وعظة،بل يعاودون الكرة فى العام التالي،ويجيئون إلى المدينة طالبين الثأر لبدر،وقد حشدوا للمعركة،ما يملكون من قوة..ويلتقى بهم النبي وأصحابه من المهاجرين والأنصار فى أحد..وينتصر المسلمون أولا،ثم يهزمون،ويصاب النبيّ ويسيل دمه،وتنكسر رباعيته،ويقتل نفر كرام من أهله وأصحابه،ومنهم عمّه حمزة،ويرفع رسول الله بصره إلى السماء،وفى قلبه أسى وحسرة،وكأنه يهمّ أن يسأل ربّه أن يأخذ له من هؤلاء المعتدين الآثمين..ولكن تغلبه عاطفة المودة والرحمة،وإذا هذه الكلمات الحانية الودود تدفع من طريقها تلك الكلمات الثائرة الغضبى،وإذا شفتاه المباركتان،الطيبتان،المحسنتان،تردّدان فى ضراعة ضارعة:«اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» ..فيا رسول الله،ويا خير خلقه،ويا صفوة أنبيائه،ويا خاتم رسله..عليك صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته..[٢٣٠٠]

خامسا:الإرهاب الإعلامي:

[٢٣٠٠] - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٦٧)

لقد أخبر الله تعالى في كتابه أن سحرة فرعون أرهبوا الناس وخوفوهم بسحرهم،فقال تعالى:{قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ } [الأعراف:١١٦]

قَالَ لَهُمْ مُوسَى:بَلْ أَلْقُوا أَنْتُمْ أَوْلاً،فَأَلْقُوا مَا مَعَهُمْ مِنْ حِبَالٍ وَعِصِيٍّ.وَلَمَّا أَلْقُوا سِحْرَهُمْ،سَحَرُوا بِه أَعْيُنَ النَّاسِ،فَتَخَيَّلُوا أَنَّ مَا يَرَوْنَهُ حَقِيقَةٌ،وَلَمْ يَكُنْ فِي الوَاقِعِ إلاَّ مُجَرَّدَ صَنْعَة وَخَيَال.وَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ الحِبَالَ التي أَلْقَاهَا السَّحَرَةُ،وَالعِصِيَّ،حَيَّاتٌ وَأَفَاعٍ تَتَحَرَّكُ فَخَافُوا،وَكَانَ ذلِكَ مِنْ ضَخَامَةِ مَا فَعَلَهُ السَّحَرَةُ.[٢٣٠١]

والبيان في الإعلام يصور للناس الحق باطلا والباطل حقا،ويصرف الناس ويستميلهم كالسحر،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ المَشْرِقِ فَخَطَبَا،فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا،أَوْ:إِنَّ بَعْضَ البَيَانِ لَسِحْرٌ " رواه البخاري[٢٣٠٢]

[٢٣٠١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٠٧١،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٣٠٢] - صحيح البخاري (٧/ ١٣٨)(٥٧٦٧)

[ش (رجلان) قيل هما عمرو بن الأهتم التميمي والزبرقان بن بدر التميمي رضي الله عنهما.(من المشرق) من جهة الشرق وكانت سكنى بني تميم من جهة العراق شرق المدينة]

قَالَ الْإِمَام:اخْتلف النَّاس فِي تَأْوِيل قَوْله:«إِن من الْبَيَان سحرًا»،فَمنهمْ من حمله عَلَى الذَّم،وَذَلِكَ أَنَّهُ ذمّ التصنع فِي الْكَلَام،والتكلف لتحسينه،ليروق السامعين قَوْله،ويشتمل بِهِ قُلُوبهم،وأصل السحر فِي كَلَامهم الصّرْف،وَسمي السحر سحرًا،لِأَنَّهُ مَصْرُوف عَن جِهَته،وَمِنْه قَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ:٨٩]،أَي:تصرفون عَن الْحق،وَقَوله عز وَجل:{إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا} [الْإِسْرَاء:٤٧] أَي:مصروفا عَن الْحق،فَهَذَا الْمُتَكَلّم بِبَيَانِهِ يصرف قُلُوب السامعين إِلَى قبُول قَوْله،وَإِن كَانَ غير حق.شرح السنة للبغوي (١٢/ ٣٦٣)

قَالَ:قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ) أَيْ:مِنْ جَانِبِهِ.قَالَ الْمَيْدَانِيُّ:هُمَا الزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ وَعَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ،وَكَذَا عَنِ الشَّيْخِ التُّورِبِشْتِيِّ عَلَى مَا سَيَأْتِي (فَخَطَبَا) أَيْ:بِكَلِمَاتٍ مُحَسَّنَاتٍ جَامِعَةٍ لِلْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ (فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا) أَيْ:وَلِفَصَاحَةِ لِسَانِهِمَا وَغَرَابَةِ شَأْنِهِمَا (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ") أَيْ:فِي اسْتِمَالَةِ الْقُلُوبِ كَالسِّحْرِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:وَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ - ﷺ- عِنْدَ قُدُومِ وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ،وَكَانَ فِيهِمُ الزِّبْرِقَانُ وَعَمْرٌو،«فَفَخَرَ الزِّبْرِقَانُ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَا سَيِّدُ تَمِيمٍ وَالْمُطَاعُ فِيهِمْ وَالْمُجَابُ،أَمْنَعُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَآخُذُ لَهُمْ بِحُقُوقِهِمْ،وَهَذَا يَعْلَمُ ذَلِكَ.فَقَالَ عَمْرٌو:إِنَّهُ لَشَدِيدُ الْعَارِضَةِ مَانِعٌ لِجَانِبِهِ مُطَاعٌ فِي إِذْنِهِ،فَقَالَ الزِّبْرِقَانُ:وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ مِنِّي غَيْرَ مَا قَالَ،وَمَا مَنَعَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَّا الْحَسَدُ،فَقَالَ عَمْرٌو:أَنَا أَحْسُدُكَ،فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَئِيمُ الْخَالِ حَدِيثُ الْمَالِ ضَيِّقُ الْعَطَنِ حَمِقُ الْوَلَدِ مُضَيَّعٌ فِي الْعَشِيرَةِ،وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتُ فِيمَا قُلْتُ أَوَّلًا،وَمَا كَذَبْتُ فِيمَا قُلْتُ آخِرًا،وَلَكِنِّي رَجُلٌ إِذَا رَضِيتُ قُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ،وَإِذَا غَضِبْتُ قُلْتُ أَقْبَحَ مَا وَجَدْتُ،وَلَقَدْ

فإذا كان فرعون قد استرهب الناس بسحره فكذلك الصليبيون يسعون بسحرهم الإعلامي إلى قلب الحقائق،وإرهاب المسلمين بكلمة الإرهاب لصرفهم عن الجهاد في سبيل الله،فيلوكـــون هذه الكلمة،ويرددونها ليلا ونهارا،ويتخللونها بألسنتهم كتخلل الباقرة لترويع المسلمين وإدخال

صَدَقْتُ فِي الْأُولَى وَالْأُخْرَى جَمِيعًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» قَالَ الْمَيْدَانِيُّ:يُضْرَبُ هَذَا الْمَثَلُ فِي اسْتِحْسَانِ الْمَنْطِقِ وَإِيرَادِ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ اهـــ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ ذُو وَجْهَيْنِ،وَالْمَعْنَى أَنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ بِمَنْزِلَةِ السِّحْرِ فِي مَيَلَانِ الْقُلُوبِ لَهُ،أَوْ فِي الْعَجْزِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ،وَهَذَا النَّوْعُ مَمْدُوحٌ إِذَا صُرِفَ إِلَى الْحَقِّ كَمَذَمَّةِ الْخَمْرِ مَثَلًا وَمَذْمُومٌ إِذَا صُرِفَ إِلَى الْبَاطِلِ كَمَدْحِهَا مَثَلًا.وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ،فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الذَّمِّ،وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَمَّ التَّصَنُّعَ فِي الْكَلَامِ وَالتَّكَلُّفَ لِتَحْسِينِهِ لِيَرُوقَ لِلسَّامِعِينَ قَوْلُهُ،وَلِيَسْتَمِيلَ بِهِ قُلُوبَهُمْ،وَأَصْلُ السِّحْرِ فِي كَلَامِهِمُ الصَّرْفُ،وَسُمِّيَ السِّحْرُ سِحْرًا؛لِأَنَّهُ مَصْرُوفٌ عَنْ جِهَتِهِ،فَهَذَا الْمُتَكَلِّمُ بِبَيَانِهِ يَصْرِفُ قُلُوبَ السَّامِعِينَ إِلَى قَبُولِ قَوْلِهِ،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ حَقٍّ،أَوِ الْمُرَادُ مِنْ صَرْفِ الْكَلَامِ فَضْلُهُ،وَمَا يَتَكَلَّفُ الْإِنْسَانُ مِنَ الزِّيَادَةِ فِيهِ مِنْ وَرَاءِ الْحَاجَةِ قَدْ يَدْخُلُهُ الرِّيَاءُ وَيُخَالِطُهُ الْكَذِبُ،وَأَيْضًا قَدْ يُحِيلُ الشَّيْءَ عَنْ ظَاهِرِهِ بِبَيَانِهِ وَيُزِيلُهُ عَنْ مَوْضِعِهِ لِلِسَانِهِ إِرَادَةَ التَّلْبِيسِ عَلَيْهِمْ،فَيَصِيرُ بِمَنْزِلَةِ السِّحْرِ الَّذِي هُوَ تَخْيِيلٌ! لَا حَقِيقَةَ لَهُ،وَقِيلَ:أَرَادَ بِهِ أَنَّ مِنَ الْبَيَانِ مَا يَكْتَسِبُ بِهِ صَاحِبُهُ مِنَ الْإِثْمِ مَا يَكْتَسِبُ السَّاحِرُ بِسِحْرِهِ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ الرَّجُلُ يَكُونُ عَلَيْهِ الْحَقُّ،وَهُوَ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ صَاحِبِ الْحَقِّ،فَيَسْحَرُ الْقَوْمَ بِبَيَانِهِ،فَيَذْهَبُ بِالْحَقِّ،وَشَاهِدُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ:«إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ» .الْحَدِيثَ.وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ مَدْحُ الْبَيَانِ،وَالْحَثُّ عَلَى تَحْسِينِ الْكَلَامِ وَتَحْبِيرِ الْأَلْفَاظِ؛لِأَنَّ إِحْدَى الْقَرِينَتَيْنِ وَهُوَ قَوْلُهُ:إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حُكْمًا عَلَى طَرِيقِ الْمَدْحِ،فَكَذَلِكَ الْقَرِينَةُ.الْأُخْرَى.وَقَالَ شَارِحٌ:هَذَا وَارِدٌ لِلذَّمِّ أَيْ:إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ نَوْعًا يَحِلُّ مِنَ الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ مَحَلَّ السِّحْرِ،فَإِنَّ السَّاحِرَ بِسِحْرِهِ يُزَيِّنُ الْبَاطِلَ فِي عَيْنِ الْمَسْحُورِ،حَتَّى يَرَاهُ حَقًّا،وَكَذَا الْمُتَكَلِّمُ بِمَهَارَتِهِ فِي الْبَيَانِ،وَتَفَنُّنِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَتَرْصِيفِ النَّظْمِ يَسْلُبُ عَقْلَ السَّامِعِ وَيَشْغَلُهُ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهِ وَالتَّدَبُّرِ لَهُ،حَتَّى يُخَيِّلَ إِلَيْهِ الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا،فَبَيَّنَ النَّبِيُّ - ﷺ- أَنَّ جِنْسَ الْبَيَانِ،وَإِنْ كَانَ مَحْمُودًا،كَانَ فِيهِ مَا يُذَمُّ لِلْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ،وَإِنَّ جِنْسَ الشِّعْرِ وَإِنْ كَانَ مَذْمُومًا فَإِنَّ فِيهِ مَا يُحْمَدُ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْحِكَمِ،وَهُوَ مَا فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَثَنَاءٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ،وَزُهْدٌ فِي الدُّنْيَا وَرَغْبَةٌ فِي الْآخِرَةِ.

قُلْتُ:وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْبَيَانَ فِي أَصْلِهِ مَحْمُودٌ قَوْلُهُ تَعَالَى {الرَّحْمَنُ - عَلَّمَ الْقُرْآنَ - خَلَقَ الْإِنْسَانَ - عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن:١ - ٤]،وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشِّعْرَ فِي أَصْلِهِ مَذْمُومٌ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ - أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ - وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} [الشعراء:٢٢٤ - ٢٢٦] وَقَدْ كَثُرَتِ الْأَحَادِيثُ فِي ذَمِّهِ،وَمِنْ ثَمَّ سَمُّوا الْأَدِلَّةَ الْكَاذِبَةَ شِعْرًا،وَقِيلَ:فِي الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ أَحْسَنُهُ؛وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِ الْكُفَّارِ لَهُ ﷺ:إِنَّهُ شَاعِرٌ يَعْنُونَ أَنَّهُ كَاذِبٌ؛لِأَنَّ مَا يَأْتِي الشَّاعِرُ أَكْثَرُهُ كَذِبٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّ رَجُلًا طَلَبَ إِلَيْهِ حَاجَةً كَانَ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ إِسْعَافُهُ بِهَا،فَاسْتَمَالَ قَلْبَهُ بِالْكَلَامِ،فَأَنْجَزَهَا لَهُ،ثُمَّ قَالَ:هَذَا هُوَ السِّحْرُ الْحَلَالُ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:مِنْ لِلتَّبْعِيضِ وَالْكَلَامُ فِيهِ تَشْبِيهٌ،وَحَقُّهُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ كَالسِّحْرِ،فَقُلْتُ وَجُعِلَ الْخَبَرُ مُبْتَدَأً مُبَالَغَةً فِي جَعْلِ الْأَصْلِ فَرْعًا وَالْفَرْعِ أَصْلًا،وَوَجْهُ الشَّبَهِ أَنَّهُ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ إِرَادَةِ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠١١)

الفزع والذعر في قلوبهم فلا يقوون على مواجهة جيوش الصليبيين الغازية،وقد أثر ســحرهم الإعلامي بضعفاء القلوب المهزومين،فآثروا الذلة والاستكانة للأعداء،ولم يُعقْهم مــا اســتولى عليهم من الفزع والخوف عن الجهاد فحسب،بل تجاوز ذلك إلى تحاشــي مــدح المجاهــدين وأمرائهم أو الدفاع عنهم حتى لا يقال عنهم في وسائل إعلام الصــليبيين وعملائهــم بــأهم يدعمون المجاهدين ويؤيدونهم.

ومثل كلمة الإرهاب كلمة (عقدة المؤامرة)،فيصورون من خلال سحرهم الإعلامي من يتكلم عن مخططاتهم ومؤامراتهم لمحاربة الإسلام والمسلمين بأنه مريض بعقــدة مــؤامرة،حتى تســير مخططاتهم دون تحذير منها وتحريض على مواجهتها،وحتى لا يجترئ أحد أن يتحــدث عــن إجرامهم ومؤامراتهم،وإلا فسوف يتهم بعقدة مؤامرة،وتنطلي حيلتهم أيضا ويستميل سحرهم مرضى القلوب المهزومين فيؤثرون سلامة دنياهم،ويلوذون بالصمت الذليل تحت تهديد ووعيد وإرهاب الإعلام الساحر.

وغير كلمة الإرهاب وعقدة المؤامرة الكثير من الكلمات والمصطلحات التي يستخدمها سحرة الإعلام لصرف الناس واستمالتهم إلى ما يريدون ويخططون.



المبحث الحادي والعشرون

القضاء والفتوى

تولية القضاة

يتولى الإمام تعيين القضاة إن كان له معرفة بمن يصلح لتولي القضاء،فإذا لم تكن له معرفة بالناس فيشاور حتى يتبين له الأصلح للقضاء،وإذا لم يجد من تتوفر فيه شروط من يتولى القضاء مجتمعة،فيقدم الأمثل فالأمثل،ولا يجوز للإمام أن يولي رجلا للقضاء لهوى في نفسه،وقد قال تعالى:{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص:٢٦] فنهى تبارك وتعالى عن اتباع الهوى الذي يضل عن سبيل الله،فإن الحاكم إذا اتبع هواه فقد عدل عن العدل والحق ووقع في الظلم والجور،فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ الأَشْعَرِيِّ،قَالَ :قَالَ عُمَرُ :وَيْلٌ لِدَيَّانِ أَهْلِ الأَرْضِ مِنْ دَيَّانِ أَهْلِ السَّمَاءِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ إلاَّ مَنْ أَمَّ الْعَدْلَ وَقَضَى بِالْحَقِّ،وَلَمْ يَقْضِ لِهَوًى،وَلاَ قَرَابَةٍ،وَلاَ لِرَغْبَةٍ،وَلاَ لِرَهْبَةٍ،وَجَعَلَ كِتَابَ اللهِ مِرْآةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ.خرجه ابن أبي شيبة في مصنفه[٢٣٠٣]

ومن اتباع الهوى أن يقدم الإمام رجلا على غيره للقضاء لأجل قرابة أو صداقة،أويولي قضاة جائرين موالين له في المحاكم المتخصصة بمحاسبة ومحاكمة المسؤولين التي تفصل النزاع بين الولاة وبين الولاة والرعية،وفي هذه الحالة،فلا يقر على جوره في التعيين ويرد التعيين المتنازع فيه إلى قضاة شرعيين من العلماء الذين عرفوا بالتقوى والصدع بالحق،وقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩]

فإذا بين القضاء الشرعي من الأولى بالتعيين في منصب القضاء من المرشحين،فيجب على الإمام أن ينقاد للحكم الشرعي ويعين الأولى لمنصب القضاء.

[٢٣٠٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ٥٩٤)(٢٣٤١٦) صحيح

عزل القاضي:

لاَ يَخْتَلفُ الْفُقَهَاءُ في أَنَّ لوَليِّ الأَمْر أَنْ يَعْزل الْقَاضيَ إذَا ظَهَرَ منْهُ خَلَلٌ كَفسْقٍ أَوْ مَرَضٍ يَمْنَعُهُ منَ الْقَضَاء،أَو اخْتَل فيه بَعْضُ شُرُوطه،لَكنَّهُمْ يَخْتَلفُونَ في حُكْم عَزْله للْقَاضي دُونَ مُوجب،فَيَرَى الْحَنَفيَّةُ وَالْمَالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَهُوَ قَوْل الْحَنَابلَة في أَحَد الْوَجْهَيْن أَنَّ الإْمَامَ إذَا عَزَل الْقَاضيَ وَقَعَ الْعَزْل،لَكنَّ الأَوْلَى عَدَمُ عَزْله إلاَّ لعُذْر،فَلَوْ عَزَلَهُ دُونَ عُذْرٍ فَإنَّهُ يَتَعَرَّضُ لإثْمٍ عَظيمٍ،وَاسْتَدَلُّوا عَلَى جَوَاز الْعَزْل بمَا رُويَ عَنْ عُمَرَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَال :" لأَعْزلَنَّ أَبَا مَرْيَمَ،وَأُولِّيَنَّ رَجُلاً إذَا رَآهُ الْفَاجرُ فَرقَهُ،فَعَزَلَهُ عَنْ قَضَاء الْبَصْرَة،وَوَلَّى كَعْبَ بْنَ سَوَّارٍ مَكَانَهُ،وَوَلَّى عَليٌّ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ أَبَا الأَسْوَد ثُمَّ عَزَلَهُ،وَقَدْ ذَكَرَ الْكَاسَانيُّ أَنَّ عَزْل الإْمَام للْقَاضي لَيْسَ بعَزْلٍ لَهُ حَقيقَةً،بَل بعَزْل الْعَامَّة لمَا ذُكرَ منْ أَنَّ تَوْليَتَهُ بتَوْليَة الْعَامَّة،وَالْعَامَّةُ وَلَّوْهُ الاسْتبْدَال دَلاَلَةً لتَعَلُّق مَصْلَحَتهمْ بذَلكَ،فَكَانَتْ ولاَيَتُهُ منْهُمْ مَعْنًى في الْعَزْل أَيْضًا فَهُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَزْل وَالْمَوْت،وَلاَ يَمْلكُ الْقَاضي عَزْل نَائبه الْمَأْذُون لَهُ في تَعْيينه لأَنَّهُ نَائبُ الإْمَام،فَلاَ يَنْعَزل بعَزْله مَا لَمْ يَكُن الإْمَامُ قَدْ أَذنَ لَهُ باسْتبْدَال مَنْ يَشَاءُ فَيَمْلكُ عَزْلَهُ،وَيَكُونُ ذَلكَ عَزْلاً منَ الْخَليفَة لاَ منَ الْقَاضي .

وَذَهَبَ الشَّافعيَّةُ إلَى أَنَّهُ إذَا ظَهَرَ منْهُ خَلَلٌ فَللإْمَام عَزْلُهُ،قَال في الْوَسيط :وَيَكْفي فيه غَلَبَةُ الظَّنِّ،وَإنْ لَمْ يَظْهَرْ خَلَلٌ نُظرَ إنْ لَمْ يَكُنْ مَنْ يَصْلُحُ للْقَضَاء،لَمْ يَجُزْ عَزْلُهُ،وَلَوْ عَزَلَهُ لَمْ يَنْعَزل،وَإنْ كَانَ هُنَاكَ صَالحٌ نُظرَ إنْ كَانَ أَفْضَل منْهُ جَازَ عَزْلُهُ وَانْعَزَل الْمَفْضُول بالْعَزْل،وَإنْ كَانَ مثْلَهُ أَوْ دُونَهُ،فَإنْ كَانَ في الْعُزْلَة به مَصْلَحَةٌ منْ تَسْكين فتْنَة وَنَحْوهَا،فَللإْمَام عَزْلُهُ به،وَإنْ لَمْ يَكُنْ فيه مَصْلَحَةٌ لَمْ يَجُزْ،فَلَوْ عَزَلَهُ نَفَذَ عَلَى الأَصَحِّ مُرَاعَاةً لطَاعَة السُّلْطَان،وَمَتَى كَانَ الْعَزْل في مَحَل النَّظَر،وَاحْتَمَل أَنْ يَكُونَ فيه مَصْلَحَةٌ،فَلاَ اعْترَاضَ عَلَى الإْمَام فيه،وَيُحْكَمُ بنُفُوذه،وَفي بَعْض الشُّرُوح أَنَّ تَوْليَةَ قَاضٍ بَعْدَ قَاضٍ هَل هيَ عَزْلٌ للأَوَّل ؟ وَجْهَان وَليَكُونَا مَبْنيَّيْن عَلَى أَنَّهُ هَل يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ في بَلَد قَاضيَان .

وَالْوَجْهُ الثَّاني عنْدَ الْحَنَابلَة أَنَّ الْقَاضيَ لاَ يَنْعَزل بعَزْل الإْمَام دُونَ مُوجبٍ لأَنَّ عَقْدَهُ كَانَ لمَصْلَحَة الْمُسْلمينَ فَلاَ يَمْلكُ عَزْلَهُ مَعَ سَدَاد حَاله،وَنَقَل الْقَاضي أَبُو يَعْلَى منَ الْحَنَابلَة الْقَوْل بأَنَّ الإْمَامَ لَيْسَ لَهُ عَزْل الْقَاضي مَا كَانَ مُقيمًا عَلَى الشَّرَائط لأَنَّهُ بالْولاَيَة يَصيرُ نَاظرًا

لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى سَبِيلِ الْمَصْلَحَةِ لاَ عَنِ الإِمَامِ،وَيُفَارِقُ الْمُوَكِّل،فَإِنَّ لَهُ عَزْل وَكِيلِهِ لأَنَّهُ يَنْظُرُ فِي حَقِّ مُوَكِّلِهِ خَاصَّةً .[٢٣٠٤]

هَل يَنْعَزِل الْقَاضِي إِذَا كَثُرَت الشَّكْوَى عَلَيْه ؟

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ إِلَى ثَلاَثَةِ مَذَاهِبَ :

الأَوَّل :وُجُوبُ عَزْلِهِ إِلاَّ إِذَا كَانَ مُتَعَيِّنًا لِلْقَضَاءِ،وَهُوَ مَا قَال بِهِ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلاَمِ .

الثَّانِي :جَوَازُ عَزْلِهِ،فَإِذَا حَصَل ظَنٌّ غَالِبٌ لِلإِمَامِ بِصِحَّةِ الشَّكَاوَى جَازَ لَهُ عَزْلُهُ وَهُوَ رَأْيُ الشَّافِعِيَّة .

وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِمَا رُوِيَ عَنِ السَّائِبِ بْنِ خَلَّادٍ،أَنَّ رَجُلًا أَمَّ قَوْمًا،فَبَصَقَ فِي الْقِبْلَةِ،وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَرَغَ:«لَا يُصَلِّي لَكُمْ» فَأَرَادَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُصَلِّيَ لَهُمْ،فَمَنَعُوهُ،وَأَخْبَرُوهُ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«نَعَمْ»،وَحَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ:«إِنَّكَ آذَيْتَ اللَّهَ».[٢٣٠٥]

وَجْهُ الاسْتِدْلاَل بِهِ هُوَ أَنَّهُ إِذَا جَازَ عَزْل إِمَامِ الصَّلاَةِ لِخَلَلٍ جَازَ عَزْل الْقَاضِي مِنْ بَابٍ أَوْلَى .

الثَّالِثُ :التَّفْصِيل،وَهُوَ رَأْيُ الْمَالِكِيَّةِ،إِنِ اشْتَهَرَ بِالْعَدَالَةِ،قَال مُطَرِّفٌ :لاَ يَجِبُ عَلَى الإِمَامِ عَزْلُهُ وَإِنْ وَجَدَ عِوَضًا مِنْهُ فَإِنَّ فِي عَزْلِهِ إِفْسَادًا لِلنَّاسِ عَلَى قُضَاتِهِمْ،وَقَال أَصْبَغُ :أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَعْزِلَهُ وَإِنْ كَانَ مَشْهُورًا بِالْعَدَالَةِ وَالرِّضَا إِذَا وَجَدَ مِنْهُ بَدَلاً ؛لأَنَّ فِي ذَلِكَ إِصْلاَحًا لِلنَّاسِ،يَعْنِي لِمَا ظَهَرَ مِنِ اسْتِيلاَءِ الْقُضَاةِ وَقَهْرِهِمْ فَفِي ذَلِكَ كَفٌّ لَهُمْ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَشْهُورٍ فَلْيَعْزِلْهُ إِذَا وَجَدَ بَدَلاً مِنْهُ وَتَضَافَرَ عَلَيْهِ الشَّكِيَّةُ،وَإِنْ لَمْ يَجِدْ بَدَلاً مِنْهُ كَشَفَ عَنْ حَالِهِ وَصِحَّةِ الشَّكَاوَى عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ رِجَالٍ ثِقَاتٍ يَسْتَفْسِرُونَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ فَإِنْ صَدَّقُوا ذَلِكَ عَزَلَهُ،وَإِنْ قَال أَهْل بَلَدِهِ :مَا نَعْلَمُ مِنْهُ إِلاَّ خَيْرًا،أَبْقَاهُ وَنَظَرَ فِي أَحْكَامِهِ الصَّادِرَةِ فَمَا وَافَقَ السُّنَّةَ أَمْضَاهُ،وَمَا خَالَفَ رَدَّهُ وَأَوَّل ذَلِكَ بِأَنَّهُ صَدَرَ عَنْهُ خَطَأً لاَ جَوْرًا .[٢٣٠٦]

[٢٣٠٤] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٣/ ٣٢١)

[٢٣٠٥] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٤/ ٥١٥)(١٦٣٦) حسن

[٢٣٠٦] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٣/ ٣٢٣)

شروط من يتولى القضاء وصفاته:

يشترط فيمن يتولى القضاء أن يكون فقيها مجتهدا عالما بالكتاب والسنة،عدلا تقيا مكلفا ذكرا،فعَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ،وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» متفق عليه[2307]

وهو يدل على أن القاضي لابد له من الاجتهاد والنظر في الأدلة وأقوال أهل العلم،وترجيح القول الذي دل عليه الدليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس الجلي،وقد قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:59]

[2307] - صحيح البخاري (9/ 108)(7352)

[ش (إذا حكم الحاكم فاجتهد) قال العلماء أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم أهل للحكم فإن أصاب فله أجران أجر باجتهاده وأجر بإصابته وإن أخطأ فله أجر اجتهاده وفي الحديث محذوف تقديره إذا أراد الحاكم فاجتهد قالوا فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم فإن حكم فلا أجر له بل هو إثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا لأن إصابته اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعي فهو عاص في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك]

إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ) عَطَفَ عَلَى الشَّرْطِ عَلَى تَأْوِيلِ:أَرَادَ الْحُكْمَ (فَأَصَابَ) عَطْفٌ عَلَى (فَاجْتَهَدَ) وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ بِالْوَاوِ؛أَيْ:وَقَعَ اجْتِهَادُهُ مُوَافِقًا لِحُكْمِ اللَّهِ (فَلَهُ أَجْرَانِ)؛أَيْ أَجْرُ الِاجْتِهَادِ وَأَجْرُ الْإِصَابَةِ وَالْجُمْلَةُ جَزَاءُ الشَّرْطِ (وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ) وَفِي نُسْخَةٍ وَأَخْطَأَ (فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ) قَالَ الْخَطَّابِيُّ:إِنَّمَا يُؤْجَرُ الْمُخْطِئُ عَلَى اجْتِهَادِهِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ؛لِأَنَّ اجْتِهَادَهُ عِبَادَةٌ؛وَلَا يُؤْجَرُ عَلَى الْخَطَأِ،بَلْ يُوضَعُ عَنْهُ الْإِثْمُ فَقَطْ،وَهَذَا فِيمَنْ كَانَ جَامِعًا لِآلَةِ الِاجْتِهَادِ،عَارِفًا بِالْأُصُولِ،عَالِمًا بِوُجُوهِ الْقِيَاسِ،فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مَحَلًّا لِلِاجْتِهَادِ فَهُوَ مُتَكَلِّفٌ وَلَا يُعْذَرُ بِالْخَطَأِ بَلْ يُخَافُ عَلَيْهِ الْوِزْرُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ وَاثْنَانِ فِي النَّارِ» " وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الْفُرُوعِ الْمُحْتَمِلَةِ لِلْوُجُوهِ الْمُخْتَلِفَةِ دُونَ الْأُصُولِ؛الَّتِي هِيَ أَرْكَانُ الشَّرِيعَةِ وَأُمَّهَاتُ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ الْوُجُوهَ وَلَا مَدْخَلَ فِيهَا لِلتَّأْوِيلِ؛فَإِنَّ مَنْ أَخْطَأَ فِيهَا كَانَ غَيْرَ مَعْذُورٍ فِي الْخَطَأِ،وَكَانَ حُكْمُهُ فِي ذَلِكَ مَرْدُودًا،قَالَ النَّوَوِيُّ:اخْتَلَفُوا فِي أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ؛أَمِ الْمُصِيبُ وَاحِدٌ،وَهُوَ مَنْ وَافَقَ الْحُكْمَ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ،وَالْآخَرُ مُخْطِئٌ،وَالْأَصْلُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ الثَّانِي؛لِأَنَّهُ سُمِّيَ مُخْطِئًا وَلَوْ كَانَ مُصِيبًا لَمْ يُسَمَّ مُخْطِئًا؛وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ أَخْطَأَ النَّصَّ،أَوِ اجْتَهَدَ فِيمَا لَا يُسَوَّغُ فِيهِ الِاجْتِهَادُ،وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى الْأَوَّلِ قَالَ:قَدْ جُعِلَ لِلْمُخْطِئِ أَجْرٌ،وَلَوْلَا إِصَابَتُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَجْرٌ،وَهَذَا إِذَا كَانَ أَهْلًا لِلِاجْتِهَادِ،وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ بِأَهْلِ حُكْمٍ؛فَلَا يَحِلُّ لَهُ الْحُكْمُ،وَلَا يَنْفُذُ سَوَاءٌ وَافَقَ الْحُكْمَ أَمْ لَا؛لِأَنَّ إِصَابَتَهُ اتِّفَاقِيَّةٌ،فَهُوَ عَاصٍ فِي جَمِيعِ أَحْكَامِهِ اهـ.وَمَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ فِيمَا لَا يُوجَدُ بَيَانُهُ فِي النُّصُوصِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ؛فَلَا إِمْكَانَ لَهُ إِلَّا الْقِيَاسُ؛فَيَكُونُ كَمُتَحَرِّي الْقِبْلَةِ فَإِنَّهُ مُصِيبٌ وَإِنْ أَخْطَأَ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (6/ 2425)

إِذَا قَلَّدَ الإِمَامُ قَاضِيًا وَشَرَطَ عَلَيْهِ أَلاَّ يَحْكُمَ إِلاَّ بِمَذْهَبٍ بِعَيْنِهِ،فَلاَ يَخْلُو ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ شَرْطًا فِي عَقْدِ التَّوْلِيَةِ،كَأَنْ يَشْتَرِطَ عَلَيْهِ أَنْ لاَ يَحْكُمَ إِلاَّ بِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ مَثَلاً،أَوْ يَكُونَ أَمْرًا كَقَوْلِهِ :احْكُمْ بِمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ،أَوْ نَهْيًا كَقَوْلِهِ :لاَ تَحْكُمْ بِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ،وَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حُكْمِ ذَلِكَ،فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ الْقَاضِيَ يَحْكُمُ بِمَذْهَبِهِ لاَ مَذْهَبِ غَيْرِهِ،إِذْ يُشْتَرَطُ عِنْدَهُمْ لِصِحَّةِ الْقَضَاءِ أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ الْقَاضِي – أَيْ لِمَذْهَبِهِ – مُجْتَهِدًا كَانَ أَوْ مُقَلِّدًا،فَلَوْ قَضَى بِخِلاَفِهِ لاَ يَنْفُذُ،لَكِنِ الْكَاسَانِيُّ قَال :إِنَّهُ إِذَا كَانَ مُجْتَهِدًا يَنْبَغِي أَنْ يَصِحَّ وَيُحْمَل عَلَى أَنَّهُ اجْتَهَدَ فَأَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى مَذْهَبِ الْغَيْرِ،لَكِنْ إِذَا قَيَّدَهُ السُّلْطَانُ بِصَحِيحِ مَذْهَبِهِ تَقَيَّدَ بِلاَ خِلاَفٍ،لِكَوْنِهِ مَعْزُولاً عَنْ غَيْرِ مَا قَيَّدَهُ بِهِ،وَهَذَا هُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مُتَأَخِّرُو الْحَنَفِيَّةِ [٢٣٠٨] .

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ :إِنِ اشْتَرَطَ الإِمَامُ ذَلِكَ الشَّرْطَ فِي جَمِيعِ الأَحْكَامِ فَالْعَقْدُ بَاطِلٌ وَالشَّرْطُ بَاطِلٌ،سَوَاءٌ قَارَنَ الشَّرْطُ عَقْدَ الْوِلاَيَةِ أَوْ تَقَدَّمَهُ ثُمَّ وَقَعَ الْعَقْدُ،أَمَّا إِذَا كَانَ الشَّرْطُ خَاصًّا فِي حُكْمٍ بِعَيْنِهِ فَلاَ يَخْلُو الشَّرْطُ أَنْ يَكُونَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا،فَإِنْ كَانَ أَمْرًا مِثْل أَنْ يَقُول :وَلَّيْتُكَ عَلَى أَنْ تَقْتَصَّ مِنَ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ،فَيَفْسُدُ الْعَقْدُ وَالشَّرْطُ،وَإِنْ كَانَ نَهْيًا فَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ :أَحَدُهُمَا :أَنْ يَنْهَاهُ عَنِ الْحُكْمِ فِي قَتْل الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ مَثَلاً،وَلاَ يَقْضِي فِيهِ بِقَوَدٍ وَلاَ بِإِسْقَاطِهِ،فَهُوَ جَائِزٌ لأَنَّهُ قَصَرَ وِلاَيَتَهُ عَلَى مَا عَدَاهُ،وَأَخْرَجَهُ مِنْ نَظَرِهِ .

الثَّانِي :أَنْ يَنْهَاهُ عَنِ الْحُكْمِ فِيهِ،وَيَنْهَاهُ عَنِ الْقَضَاءِ فِي الْقِصَاصِ،فَيَصِحَّ الْعَقْدُ،وَيَخْرُجَ الْمُسْتَثْنَى عَنْ وِلاَيَتِهِ فَلاَ يَحْكُمُ فِيهِ بِشَيْءٍ،قَال ابْنُ فَرْحُونَ :وَمِنَ الْفُقَهَاءِ مَنْ يَقُول :تَثْبُتُ وِلاَيَتُهُ عُمُومًا وَيَحْكُمُ فِيهِ بِمَا نَهَاهُ عَنْهُ بِمُقْتَضَى اجْتِهَادِهِ،كُل هَذَا إِذَا كَانَ شَرْطًا فِي الْوِلاَيَةِ،فَأَمَّا لَوْ أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَقَال :وَلَّيْتُكَ الْقَضَاءَ عَلَى أَنْ تَحْكُمَ بِمَذْهَبِ مَالِكٍ فَالْوِلاَيَةُ صَحِيحَةٌ وَالشَّرْطُ بَاطِلٌ،وَيَجِبُ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ،سَوَاءٌ وَافَقَ شَرْطَهُ أَوْ خَالَفَهُ،وَأَضَافَ ابْنُ فَرْحُونَ إِنَّ ذَلِكَ هُوَ فِيمَا إِذَا كَانَ الْقَاضِي مِنْ أَهْل الاجْتِهَادِ وَالنَّظَرِ،كَمَا هُوَ الْحَال فِي قُضَاةِ الزَّمَانِ السَّابِقِ،أَمْثَال الْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ،وَابْنِ رُشْدٍ،وَأَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ،وَعِيَاضٍ،وَقَدْ عُدِمَ هَذَا النَّمَطُ فِي زَمَانِنَا مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ،وَلِذَلِكَ نُقِل عَنْ وُلاَةِ قُرْطُبَةَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا وَلَّوْا رَجُلاً الْقَضَاءَ شَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لاَ يَخْرُجَ عَنْ قَوْل ابْنِ الْقَاسِمِ مَا

[٢٣٠٨] – ابن عابدين ٥ / ٤٠٧،والمادة ١٨١٠ من مجلة الأحكام العدلية .

وَجَدَهُ،وَإِنَّ سَحْنُونًا كَانَ يَشْتَرِطُ عَلَى مَنْ يُوَلِّيهِ الْقَضَاءَ أَنْ لاَ يَقْضِيَ إِلاَّ بِقَوْل أَهْل الْمَدِينَةِ وَلاَ يَتَعَدَّى ذَلِكَ .[2309]

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الشَّرْطُ عَامًّا،بِأَنْ قَال لَهُ :لاَ تَحْكُمْ فِي جَمِيعِ الأَْحْكَامِ إِلاَّ بِمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ مَثَلاً،كَانَ هَذَا الشَّرْطُ بَاطِلاً،وَهَل يَبْطُل عَقْدُ التَّوْلِيَةِ ؟ نُظِرَ،إِنْ كَانَ عَدَل عَنْ لَفْظِ الشَّرْطِ وَأَخْرَجَهُ مَخْرَجَ الأَْمْرِ كَقَوْلِهِ :احْكُمْ بِمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ،أَوْ مَخْرَجَ النَّهْيِ كَقَوْلِهِ :لاَ تَحْكُمْ بِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ صَحَّ التَّقْلِيدُ،أَمَّا إِنْ كَانَ التَّقْلِيدُ خَاصًّا فِي حُكْمٍ بِعَيْنِهِ،فَإِنْ كَانَ أَمْرًا كَقَوْلِهِ :أَقِدْ مِنَ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ،كَانَ هَذَا الشَّرْطُ بَاطِلاً،وَإِنْ قَرَنَهُ بِلَفْظِ الشَّرْطِ بَطَل التَّقْلِيدُ،وَإِنْ كَانَ نَهْيًا،نُظِرَ،إِنْ نَهَاهُ عَنِ الْحُكْمِ فِي قَتْل الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ،وَلاَ يَقْضِي فِيهِ بِوُجُوبِ قَوَدٍ وَلاَ بِإِسْقَاطِهِ،فَهَذَا الشَّرْطُ بَاطِلٌ وَالتَّقْلِيدُ صَحِيحٌ،وَإِنْ لَمْ يَنْهَهُ عَنِ الْحُكْمِ فِيهِ وَنَهَاهُ عَنِ الْقِصَاصِ فَفِيهِ وَجْهَانِ .

وَقَال الْمَاوَرْدِيُّ :إِذَا حَكَمَ بِمَذْهَبٍ لاَ يَتَعَدَّاهُ كَانَ أَنْفَى لِلتُّهْمَةِ،وَأَرْضَى لِلْخَصْمِ،هَذَا وَإِنْ كَانَتِ السِّيَاسَةُ تَقْتَضِيهِ فَأَحْكَامُ الشَّرْعِ لاَ تُوجِبُهُ،لأَِنَّ التَّقْلِيدَ فِيهَا مَحْظُورٌ وَالاِجْتِهَادَ فِيهَا مُسْتَحَقٌّ .[2310]

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَنْ يُقَلَّدَ الْقَضَاءُ لِوَاحِدٍ عَلَى أَنْ يَحْكُمَ بِمَذْهَبٍ بِعَيْنِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :{ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ} [ص:٢٦]،وَالْحَقُّ لاَ يَتَعَيَّنُ فِي مَذْهَبٍ،وَقَدْ يَظْهَرُ الْحَقُّ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ .فَإِنْ قَلَّدَهُ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ بَطَل الشَّرْطُ وَصَحَّتِ الْوِلاَيَةُ،وَحَكَى ابْنُ قُدَامَةَ وَجْهًا آخَرَ فِي صِحَّةِ الْوِلاَيَةِ .[2311]

قلت :الصواب الجواز،والأفضل أن يستنبط قانون شرعي من مجموع المذاهب،من خلال ما اتفقوا عليه،ومن خلال الأخذ برأي الجمهور،أو ما يكون دليله أقوى،أو ما كانت المصلحة

[2309] - تبصرة الحكام لابن فرحون ١ / ٢٢،٢٣،٥٧،٥٨ .

[2310] - أدب القضاء لابن أبي الدم ص ٩٦،٩٧،وأدب القاضي للماوردي ١ / ١٨٧ .والأحكام السلطانية للماوردي ص ٦٥ .

(٢) سورة ص / ٢٦ .

[2311] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٣/ ٣٠٠) وكشاف القناع ٦ / ٢٩٢،٢٩٣،وشرح منتهى الإرادات ٣ / ٤٦٣،والمغني لابن قدامة (١٠/ ٩٣)(٨٢٩٤)

الشرعية المعتبرة ظاهرة فيه،او ما كان فيه يسر على الناس،كما في قوانين الأحوال الشرعية في كثير من البلاد العربية،فهي مستنبطة من مجموع المذاهب الفقهية المعتبرة،وهذا في مسألة المعاملات،وأما في العبادات فلا يلزم الناس بمذهب معين بل يتركون في ذلك ضمن إطار المذاهب الفقهية المعتبرة ولاسيما المذاهب الأربعة .

ويمكن أن يجتهد القاضي في المسائل الجديدة،وفق الأصول الشرعية إذا كان أهلاً لذلك .

وما كان فيه نص قانوني مما ذكرنا فعليه الالتزام به حسما لأية فوضى دينية .

أما من يقول" كالمؤلف رحمه الله" :"لا يجوز إغلاق باب الاجتهاد أمام القضاة،وإلزامهم بمذهب معين أو بكتاب معين يكتبه بعض علماء الشريعة،ويسمونه بالقانون الجنائي أوالقانون المدني أو غيرهما من الأسماء التي يشابهون بها أسماء القوانين الوضعية"

قلت :هذا الكلام نظري أكثر منه عملي وغالب طلاب العلم ليسوا مجتهدين فكيف نطلب من القاضي والحاكم أن يكون مجتهد مطلق ولا يجوز إلزامه بمذهب معين ؟؟؟!!

فهذا تكليف لما لا يطاق،وإهدار لعمل آلاف العلماء الذين خدموا هذه المذاهب الفقهية المتبعة،فطلب الاجتهاد المطلق هو نسف لكل تلك الجهود الطيبة والنادرة لهؤلاء العمالقة .

وكل الذين ادعوا الاجتهاد المطلق في عصرنا هذا وقعوا بأخطاء فاحشة جدا لأنهم لم يملكوا أدوات الاجتهاد الحقيقية وإن ادعوا ما ادعوا ...

قال البغوي رحمه الله :" وَالْمُجْتَهِدُ مَنْ جَمَعَ خَمْسَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعِلْمِ:عِلْمَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَعِلْمَ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَأَقَاوِيلَ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنْ إِجْمَاعِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ،وَعِلْمَ اللُّغَةِ،وَعِلْمَ الْقِيَاسِ،وَهُوَ طَرِيقُ اسْتِنْبَاطِ الْحُكْمِ عَنِ الْكِتَابِ،وَالسُّنَّةِ إِذَا لَمْ يَجِدْهُ صَرِيحًا فِي نَصِّ كِتَابٍ،أَوْ سُنَّةٍ،أَوْ إِجْمَاعٍ.فَيَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ النَّاسِخَ،وَالْمَنْسُوخَ،وَالْمُجْمَلَ،وَالْمُفَسَّرَ،وَالْخَاصَّ،وَالْعَامَ،وَالْمُحْكَمَ،وَالْمُتَشَابِهَ،وَالْكَرَاهِيَةَ،وَالتَّحْرِيمَ،وَالإِبَاحَةَ،وَالنَّدْبَ.وَيَعْرِفَ مِنَ السُّنَّةِ هَذِهِ الأَشْيَاءَ،وَيَعْرِفَ مِنْهَا الصَّحِيحَ،وَالضَّعِيفَ،وَالْمُسْنَدَ،وَالْمُرْسَلَ،وَيَعْرِفَ تَرْتِيبَ السُّنَّةِ عَلَى الْكِتَابِ،وَتَرْتِيبَ الْكِتَابِ عَلَى السُّنَّةِ حَتَّى إِذَا وَجَدَ حَدِيثًا لَا يُوَافِقُ ظَاهِرُهُ الْكِتَابَ يَهْتَدِي إِلَى وَجْهِ مَحْمَلِهِ،فَإِنَّ السُّنَّةَ

بَيَانُ الْكِتَابِ،وَلا تُخَالِفُهُ،وَإِنَّمَا يَجِبُ مَعْرِفَةُ مَا وَرَدَ مِنْهَا فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ دُونَ مَا عَدَاهَا مِنَ الْقَصَصِ وَالأَخْبَارِ وَالْمَوَاعِظِ.

وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ مَا أَتَى فِي كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ فِي أُمُورِ الأَحْكَامِ دُونَ الإِحَاطَةِ بِجَمِيعِ لُغَاتِ الْعَرَبِ،وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَخَرَّجَ فِيهَا بِحَيْثُ يَقِفُ عَلَى مَرَامِزِ كَلامِ الْعَرَبِ فِيمَا يَدُلُّ عَلَى الْمُرَادِ مِنَ اخْتِلافِ الْمَحَالِ،وَالأَحْوَالِ،لأَنَّ الْخِطَابَ وَرَدَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ،فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ لَا يَقِفُ عَلَى مُرَادِ الشَّرْعِ.

وَيَعْرِفَ أَقَاوِيلَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي الأَحْكَامِ،وَمُعْظَمَ فَتَاوَى فُقَهَاءِ الأُمَّةِ حَتَّى يَقَعَ حُكْمُهُ مُخَالِفًا لأَقْوَالِهِمْ،فَيَكُونُ فِيهِ خَرْقُ الإِجْمَاعِ،وَإِذَا عَرَفَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الأَنْوَاعِ مُعْظَمَهُ،فَهُوَ مُجْتَهِدٌ،وَلا يُشْتَرَطُ مَعْرِفَةُ جَمِيعِهَا بِحَيْثُ لَا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْهَا،وَإِذَا لَمْ يَعْرِفْ نَوْعًا مِنْ هَذِهِ الأَنْوَاعِ،فَسَبِيلُهُ التَّقْلِيدُ،وَإِنْ كَانَ مُتَبَحِّرًا فِي مَذْهَبِ وَاحِدٍ مِنْ آحَادِ أَئِمَّةِ السَّلَفِ،وَلا يَجُوزُ لَهُ تَقَلُّدُ الْقَضَاءِ،وَلا التَّرَصُّدُ لِلْفُتْيَا،وَإِذَا جَمَعَ هَذِهِ الْعُلُومَ،وَكَانَ مُجَانِبًا لِلأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ،مُدَّرِعًا بِالْوَرَعِ،مُحْتَرِزًا عَنِ الْكَبَائِرِ،غَيْرَ مُصِرٍّ عَلَى الصَّغَائِرِ،جَازَ لَهُ أَنْ يَتَقَلَّدَ الْقَضَاءَ،وَيَتَصَرَّفَ فِي الشَّرْعِ بِالاجْتِهَادِ وَالْفَتْوَى،وَيَجِبُ عَلَى مَنْ لَمْ يَجْمَعْ هَذِهِ الشَّرَائِطَ تَقْلِيدُهُ فِيمَا يَعِنُّ لَهُ مِنَ الْحَوَادِثِ.

وَجَوَّزَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ لِلْعَامِّيِّ أَنْ يَتَقَلَّدَ الْقَضَاءَ،ثُمَّ يَقْضِي بِمَا يُفْتِي بِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ،وَقَالَ مَعْمَرٌ،عَنْ قَتَادَةَ:" كَانَ قُضَاةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ سِتَّةً:عُمَرُ،وَعَلِيٌّ،وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ،وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ،وَأَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ،وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ.

فَكَانَ قَضَاءُ عُمَرَ،وَابْنَ مَسْعُودٍ،وَالأَشْعَرِيِّ يُوَافِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا،وَكَانَ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ،وَكَانَ قَضَاءُ عَلِيٍّ،وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ،وَزَيْدٍ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا،وَكَانَ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ،وَكَانَ زَيْدٌ يَأْخُذُ مِنْ عَلِيٍّ وَأُبَيٍّ مَا بَدَا لَهُ."[٢٣١٢]

قلت :وهذه الشروط مجتمعة غير متوفرة بأحد في هذه الأيام على الصحيح .

[٢٣١٢] - شرح السنة للبغوي (١٠/ ١٢٠)

فالصواب من القول عمل لجنة مختصة تستخرج قانوناً من مجموع المذاهب الفقهيـــة وتلـــزم القاضي وغير القاضي به،ويبقى مجال الاجتهاد في القضايا المستجدة بشرط أن يكون جماعيـــا وليس فرديا ويد الله مع الجماعة ."

ومن الخصال التي ينبغي للقاضي أن يتصف بها أن يكون حليما عفيفا صليبا،لا يخاف في الحق لومة لائم،قويا من غير عنف،لينا من غير ضعف،عن مُزَاحِمَ بْنِ زُفَرَ قَالَ:قَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بْـــنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي وَفْدِ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَيَسْأَلُنَا عَنْ بَلَدِنَا وَأَمِيرِنَا وَقَاضِينَا.ثُمَّ قَالَ:خَمْـــسٌ إِنْ أَخْطَـــأَ الْقَاضِي مِنْهُنَّ خَصْلَةً كَانَتْ فِيهِ وَصْمَةٌ.أَنْ يَكُونَ فَهِيمًا وَأَنْ يَكُونَ حَلِيمًا وَأَنْ يَكُونَ عَفِيفًـــا وَأَنْ يَكُونَ صَلِيبًا وَأَنْ يَكُونَ عَالِمًا يَسْأَلُ عَمَّا لا يَعْلَمُ..[٢٣١٣]

ورواه ابن عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ:لا يَنْبَغِي لِلْقَاضِي أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا حَتَّى تَكُـــونَ فِيـــهِ خَمْسُ خِصَالٍ:عَفِيفٌ.حَلِيمٌ.عَالِمٌ بِمَا كَانَ قَبْلَهُ.يَسْتَشِيرُ ذَوِي الرَّأْيِ.لا يُبَالِي مَلامَةَ النَّاسِ[٢٣١٤].

فقوله:"كانت فيه وصمة" أي إذا فقد القاضي إحدى هذه الخصال كان فيـــه عيـــب،وهي أن يكون "فهما" وهي صيغة مبالغة من الفهم،و "حليما" فلا ينتقم لنفسه ويصبر على الأذى،وأن يكون "عفيفا" أي عن الحرام فإن التقوى والعدالة من شروط تولي القضاء،وقوله "صليبا" مـــن الصلابة أي أن يكون شديدا قويا في الحق،فلا يتبـــع الهـــوى بـــل يقضـــي بـــالحق ويرفـــع الظلم،ولايخاف في الله لومة لائم،وقوله "عالما سؤولا عن العلم" أي أن يكون عالما ويشـــاور ويسأل غيره من أهل العلم.

وعَنْ حُمَيْدٍ؛أَنَّ إِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ لَمَّا اسْتُقْضِيَ أَتَاهُ الْحَسَنُ فَبَكَى،قَالَ مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ يَـــا أَبَـــا سَعِيدٍ،بَلَغَنِي أَنَّ الْقُضَاةَ:رَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ،فَهُوَ فِي النَّارِ،وَرَجُلٌ مَالَ بِهِ الْهَـــوَى فَهُـــوَ فِـــي النَّارِ،وَرَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ.فَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:إِنَّ فِيمَا قَصَّ اللَّهُ مِنْ نَبَأِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ،عَلَيْهِمَا السَّلَامُ،وَالْأَنْبِيَاءِ حُكْمًا يَرُدُّ قَوْلَ هَؤُلَـــاءِ النَّـــاسِ عَـــنْ قَوْلِهِمْ،قَـــالَ اللَّـــهُ تَعَالَى:{وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّـــا لِحُكْمِهِـــمْ

[٢٣١٣] – صحيح البخاري (٩/ ٦٧) وشرح السنة للبغوي (١٠/ ١٢٠) ملعقا وتغليق التعليق (٥/ ٢٩٣) والطبقات الكبرى ط العلمية (٥/ ٢٨٧) صحيح

[٢٣١٤] – تغليق التعليق (٥/ ٢٩٣) والطبقات الكبرى ط العلمية (٥/ ٢٨٧) صحيح

شَاهدينَ} فَأَثْنَى اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَذُمَّ دَاوُدَ.ثُمَّ قَالَ -يَعْنِي:الْحَسَنَ-:إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ عَلَى الْحُكَمَاءِ ثَلَاثًا:لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا وَلَا يَتَّبِعُونَ فِيهِ الْهَوَى،وَلَا يَخْشَوْنَ فِيهِ أَحَدًا،ثُمَّ تَلَا {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } وَقَالَ:{فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} [الْمَائِدَة:٤٤]،وَقَالَ {وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا} [الْمَائِدَة:٤٤] [٢٣١٥].

وقال ابن قدامة رحمه الله:" وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْحَاكِمُ قَوِيًّا مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ،لَيِّنًا مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ،لَا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ،وَلَا يَيْأَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ،وَيَكُونَ حَلِيمًا،مُتَأَنِّيًا،ذَا فِطْنَةٍ وَتَيَقُّظٍ،لَا يُؤْتَى مِنْ غَفْلَةٍ،وَلَا يُخْدَعُ لِغِرَّةٍ،صَحِيحَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ،عَالِمًا بِلُغَاتِ أَهْلِ وِلَايَتِهِ،عَفِيفًا،وَرِعًا،نَزِهًا،بَعِيدًا مِنْ الطَّمَعِ،صَدُوقَ اللَّهْجَةِ،ذَا رَأْيٍ وَمَشُورَةٍ،لِكَلَامِهِ لِينٌ إذَا قَرُبَ،وَهَيْبَةٌ إذَا أَوْعَدَ،وَوَفَاءٌ إذَا وَعَدَ،وَلَا يَكُونُ جَبَّارًا،وَلَا عَسُوفًا،فَيَقْطَعُ ذَا الْحُجَّةِ عَنْ حُجَّتِهِ.
قَالَ عَلِيٌّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْقَاضِي قَاضِيًا حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ؛عَفِيفٌ،حَلِيمٌ،عَالِمٌ بِمَا كَانَ قَبْلَهُ،يَسْتَشِيرُ ذَوِي الْأَلْبَابِ،لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –،قَالَ:يَنْبَغِي لِلْقَاضِي أَنْ تَجْتَمِعَ فِيهِ سَبْعُ خِلَالٍ،إنْ فَاتَتْهُ وَاحِدَةٌ كَانَتْ فِيهِ وَصْمَةٌ:الْعَقْلُ،وَالْفِقْهُ،وَالْوَرَعُ،وَالنَّزَاهَةُ،وَالصَّرَامَةُ،وَالْعِلْمُ بِالسُّنَنِ،وَالْحِكَمِ.وَرَوَاهُ سَعِيدٌ.وَفِيهِ:يَكُونُ فَهِمًا،حَلِيمًا،عَفِيفًا،صُلْبًا،سَآَّلًا عَمَّا لَا يَعْلَمُ.
وَفِي رِوَايَةٍ:مُحْتَمِلًا لِلْأَئِمَّةِ؛وَلَا يَكُونُ ضَعِيفًا،مَهِينًا،لِأَنَّ ذَلِكَ يَبْسُطُ الْمُتَخَاصِمِينَ إلَى التَّهَاتُرِ وَالتَّشَاتُمِ بَيْنَ يَدَيْهِ،وَقَالَ عُمَرُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:لَأَعْزِلَنَّ فُلَانًا عَنْ الْقَضَاءِ،وَلَأَسْتَعْمِلَن رَجُلًا إذَا رَآهُ الْفَاجِرُ فَرَّقَهُ." [٢٣١٦]

تخصيص القاضي بقضايا معينة:

يجوز للإمام تخصيص القاضي الشرعي بقضايا معينة،فإن القضايا التي يحكم فيها القضاة منها ما هو متعلق بالجنايات والحدود،ومنها ما هو متعلق بالأنكحة،ومنها ما هو متعلق بالبيوع

[٢٣١٥] – أخرجه ابن أبي حاتم تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٣٥٦) صحيح

[٢٣١٦] – المغني لابن قدامة (١٠/ ٣٩)

والمعاملات،ومنها ما هو متعلق بقضايا الحسبة كقضايا الغش في التجارة والمجاهرة بـــالمنكرات والمخالفات،ومنها ما يتعلق بالمظالم التي يرتكبها أهل الشوكة والسلطة في البلاد من الأمـــراء والوزراء والمسؤولين ويقضي فيها قاضي المظالم،وقد قال ابن قدامة رحمـــه الله:" "وَيَجُـــوزُ أَنْ يُوَلِّيَ قَاضِيًا عُمُومَ النَّظَرِ فِي خُصُوصِ الْعَمَلِ،فَيُقَلِّدَهُ النَّظَرَ فِي جَمِيـــعِ الْأَحْكَـــامِ فِـــي بَلَـــدٍ بِعَيْنِه،فَيَنْفُذَ حُكْمَهُ فِيمَنْ سَكَنَهُ،وَمَنْ أَتَى إلَيْه منْ غَيْر سُكَّانه.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَلِّدَهُ خُصُوصَ النَّظَرِ فِي عُمُومِ الْعَمَلِ،فَيَقُولَ:جَعَلْت إلَيْك الْحُكْمَ فِي الْمُـــدَايَنَاتِ خَاصَّةً،فِي جَمِيعِ وِلَايَتِي.

وَيَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ حُكْمَهُ فِي قَدْرٍ مِنْ الْمَالِ،نَحْوَ أَنْ يَقُولَ:اُحْكُمْ فِي الْمِائَةِ فَمَا دُونَهَا.فَلَا يَنْفُذُ حُكْمُهُ فِي أَكْثَرَ مِنْهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يُوَلِّيَهُ عُمُومَ النَّظَرِ فِي عُمُومِ الْعَمَلِ،وَخُصُوصَ النَّظَرِ فِي خُصُوصِ الْعَمَلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُوَلِّيَ قَاضِيَيْنِ وَثَلَاثَةً فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ،يَجْعَلُ لِكُلٍّ وَاحِدٍ عَمَلًا،فَيُوَلِّيَ أَحَـــدَهُمْ عُقُـــودَ الْأَنْكِحَةِ،وَالْآخَرَ الْحُكْمَ فِي الْمُدَايَنَاتِ،وَآخَرَ النَّظَرَ فِي الْعَقَارِ.وَيَجُوزُ أَنْ يُوَلِّيَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عُمُومَ النَّظَرِ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْبَلَدِ،فَإِنْ قَلَّدَ قَاضِيَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ عَمَلًـــا وَاحِـــدًا،فِي مَكَـــانٍ وَاحِدٍ،فَفِيهِ وَجْهَانِ؛أَحَدُهُمَا،لَا يَجُوزُ.

اخْتَارَهُ أَبُو الْخَطَّابِ،وَهُوَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ لِأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ؛لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إلَى إيقَـــافِ الْحُكْـــمِ وَالْخُصُومَاتِ،لِأَنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ فِي الِاجْتِهَادِ،وَيَرَى أَحَدُهُمَا مَا لَا يَرَى الْـــآخَرُ.وَالْـــآخَرُ،يَجُوزُ ذَلِكَ.وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ.

وَهُوَ أَصَحُّ،إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَسْتَخْلِفَ فِي الْبَلْدَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَـــا،فَيَكُونَ فِيهَـــا قَاضِيَانِ،فَجَازَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا قَاضِيَانِ أَصْلِيَّانِ،وَلِأَنَّ الْغَرَضَ فَصْلُ الْخُصُومَاتِ،وَإِيصَالُ الْحَـــقِّ إلَى مُسْتَحِقِّهِ،وَهَذَا يَحْصُلُ،فَأَشْبَهَ الْقَاضِيَ.

وَلِأَنَّهُ يَجُوزُ لِلْقَاضِي أَنْ يَسْتَخْلِفَ خَلِيفَتَيْنِ فِي مَوْضِـــعٍ وَاحِـــدٍ،فَالْإِمَامُ أَوْلَى،لِـــأَنَّ تَوْلِيَتَـــهُ أَقْوَى.وَقَوْلُهُمْ:يُفْضِي إلَى إيقَافِ الْحُكُومَاتِ.غَيْرُ صَحِيحٍ؛فَإِنَّ كُلَّ حَاكِمٍ يَحْكُمُ بِاجْتِهَادِهِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمَيْنِ إلَيْهِ،وَلَيْسَ لِلْآخَرِ الِاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ،وَلَا نَقْضُ حُكْمِهِ فِيمَا خَالَفَ اجْتِهَادَهُ.""[٢٣١٧]

[٢٣١٧] - المغني لابن قدامة (١٠/ ٩٢)

وقاضي المظالم يجب أن يتصف بالشروط الواجب توفرها في القضاة ويتصف أيضـا بـالقوة والهيبة التي لا بد منها في مثل هذا النوع من القضاء لتعلقه بمحاكمة الولاة ورفع ظلمهم عـن الناس،ومنع عسفهم بالرعية وعزل من يستحق العزل منهم.

ويتصفح قاضي المظالم أحوال الولاة،ويتابع أعمالهم،وينظر في سـيرهم،فيقوي مـن عـدل منهم،ويقوم من أساء منهم،ويرد الغصوب إلى أهلها سواء كان الغاصـب مـن الـولاة أو غيرهم،وينفذ قاضي المظالم ما عجز القضاة عن تنفيذه،ويزيل المنكر الذي عجز المحتسبون عن رفعه،ويسمع دعاوى الناس في نقص أرزاقهم أو تأخرها وغيرها من القضايا.

الشورى في القضاء:

ينبغي للقاضي أن يشاور أهل العلم حتى يصل إلى الحق في القضـايا،التي يحكـم فيهـا،وعلى الحكومة توفير المستشارين العلماء الذين يمكن للقضاة التشاور معهم،وكذلك ينبغـي تـوفير مستشارين للقضاة في الأمور الهندسية والإدارية والطبية وغيرها،مما يساعد القضاة على معرفة الواقع،وتصور القضايا التي يقضون فيها،عَنِ صَالِحٍ يَعْنِي ابْنَ حَيٍّ قَالَ:قَالَ الشَّعْبِيُّ:" مَنْ سَـرَّهُ أَنْ يَأْخُذَ بِالْوَثِيقَةِ مِنَ الْقَضَاءِ فَلْيَأْخُذْ بِقَضَاءِ عُمَرَ فَإِنَّهُ كَانَ يَسْتَشِيرُ " رواه البيهقي في السـنن الكبرى[2318].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله:"(قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –) :أُحِـبُّ لِلْقَاضِـي أَنْ يُشَاوِرَ وَلَا يُشَاوِرَ فِي أَمْرِهِ إلَّا عَالِمًا بِكِتَابٍ وَسُنَّةٍ وَآثَارٍ وَأَقَاوِيلِ النَّاسِ وَعَاقِلًا يَعْرِفُ الْقِيَـاسَ وَلَا يُحَرِّفُ الْكَلَامَ وَوُجُوهَهُ وَلَا يَكُونُ هَذَا فِي رَجُلٍ حَتَّى يَكُونَ عَالِمًا بِلِسَانِ الْعَـرَبِ وَلَـا يُشَاوِرُهُ إذَا كَانَ هَذَا مُجْتَمِعًا فِيهِ حَتَّى يَكُونَ مَأْمُونًا فِي دِينِهِ لَا يَقْصِدُ إلَّا قَصْدَ الْحَقِّ عِنْدَهُ وَلَا يَقْبَلُ مِمَّنْ كَانَ هَكَذَا عِنْدَهُ شَيْئًا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ عَلَى حَالٍ حَتَّى يُخْبِرَهُ أَنَّهُ أَشَارَ بِهِ مِنْ خَبَرٍ يَلْزَمُ وَذَلِكَ كِتَابٌ أَوْ سُنَّةٌ أَوْ إجْمَاعٌ أَوْ مِنْ قِيَاسٍ عَلَى أَحَدِهِمَا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ وَإِنْ قَالَ هَذَا لَهُ حَتَّى يَعْقِلَ مِنْهُ مَا يَعْقِلُ فَيَقِفَهُ عَلَيْهِ فَيَعْرِفَ مِنْهُ مَعْرِفَتَهُ وَلَا يَقْبَلَهُ مِنْهُ وَإِنْ عَرَفَهُ هَكَذَا حَتَّى يَسْأَلَ هَلْ لَهُ وَجْهٌ يَحْتَمِلُ غَيْرَ الَّذِي قَالَ؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَجْهٌ يَحْتَمِلُ غَيْرَ الَّذِي قَالَ أَوْ كَانَتْ سُنَّةٌ فَلَمْ

[2318] – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٨٧)(٢٠٣٠٥) صحيح

يَخْتَلِفُ فِي رِوَايَتِهَا قَبْلَهُ وَإِنْ كَانَ لِلْقُرْآنِ وَجْهَانِ أَوْ كَانَتْ سُنَّةٌ رُوِيَتْ مُخْتَلِفَةً أَوْ سُنَّةٌ ظَاهِرُهَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ لَمْ يَعْمَلْ بِأَحَدِ الْوَجْهَيْنِ حَتَّى يَجِدَ دَلَالَةً مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ إجْمَاعٍ أَوْ قِيَاسٍ عَلَى أَنَّ الْوَجْهَ الَّذِي عَمِلَ بِهِ هُوَ الْوَجْهُ الَّذِي يَلْزَمُهُ وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْ الْوَجْهِ الَّذِي تَرَكَهُ وَهَكَذَا يَعْمَلُ فِي الْقِيَاسِ لَا يَعْمَلُ بِالْقِيَاسِ أَبَدًا حَتَّى يَكُونَ أَوْلَى بِالْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ أَوْ الْإِجْمَاعِ أَوْ أَصَحَّ فِي الْمَصْدَرِ مِنْ الَّذِي تَرَكَ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ بِغَيْرِ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ اسْتَحْسَنْت لِأَنَّهُ إذَا أَجَازَ لِنَفْسِهِ اسْتَحْسَنْت أَجَازَ لِنَفْسِهِ أَنْ يُشَرِّعَ فِي الدِّينِ وَغَيْرُ جَائِزٍ لَهُ أَنْ يُقَلِّدَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ دَهْرِهِ وَإِنْ كَانَ أَبْيَنَ فَضْلًا فِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ مِنْهُ وَلَا يَقْضِي أَبَدًا إلَّا بِمَا يَعْرِفُ وَإِنَّمَا أَمَرْته بِالْمَشُورَةِ لِأَنَّ الْمُشِيرَ يُنَبِّهُهُ لِمَا يَغْفُلُ عَنْهُ وَيَدُلُّهُ مِنْ الْأَخْبَارِ عَلَى مَا لَعَلَّهُ أَنْ يَجْهَلَهُ. فَأَمَّا أَنْ يُقَلِّدَ مُشِيرًا فَلَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ هَذَا لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَإِذَا اجْتَمَعَ لَهُ عُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ أَوْ افْتَرَقُوا فَسَوَاءٌ ذَلِكَ كُلُّهُ لَا يَقْبَلُهُ إلَّا تَقْلِيدًا لِغَيْرِهِمْ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ إجْمَاعٍ أَوْ قِيَاسٍ يَدُلُّونَهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْقِلَهُ كَمَا عَقَلُوهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي عَقْلِهِ مَا إذَا عَقَلَ الْقِيَاسَ عَقَلَهُ وَإِذَا سَمِعَ الِاخْتِلَافَ مَيَّزَهُ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْضِيَ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَقْضِيَهُ وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحَرَّى أَنْ يَجْمَعَ الْمُخْتَلِفِينَ لِأَنَّهُ أَشَدُّ لِتَقَصِّيهِ الْعِلْمَ وَلِيَكْشِفَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، يَعِيبُ بَعْضُهُمْ قَوْلَ بَعْضٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ عَلَى التَّقْلِيدِ أَوْ الْقِيَاسِ."[٢٣١٩]

وقال ابن قدامة رحمه الله:" قَالَ أَحْمَدُ: لَمَّا وَلِي سَعْدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ قَضَاءَ الْمَدِينَةِ، كَانَ يَجْلِسُ بَيْنَ الْقَاسِمِ وَسَالِمٍ يُشَاوِرُهُمَا، وَوَلِيَ مُحَارِبُ بْنُ دِثَارٍ قَضَاءَ الْكُوفَةِ، فَكَانَ يَجْلِسُ بَيْنَ الْحَكَمِ وَحَمَّادٍ يُشَاوِرُهُمَا، مَا أَحْسَنَ هَذَا لَوْ كَانَ الْحُكَّامُ يَفْعَلُونَهُ، يُشَاوِرُونَ وَيَنْتَظِرُونَ. وَلِأَنَّهُ قَدْ يَنْتَبِهُ بِالْمُشَاوَرَةِ، وَيَتَذَكَّرُ مَا نَسِيَهُ بِالْمُذَاكَرَةِ، وَلِأَنَّ الْإِحَاطَةَ بِجَمِيعِ الْعُلُومِ مُتَعَذِّرَةٌ. وَقَدْ يَنْتَبِهُ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ وَمَعْرِفَةِ الْحَادِثَةِ مَنْ هُوَ دُونَ الْقَاضِي، فَكَيْفَ بِمَنْ يُسَاوِيهِ أَوْ يَزِيدُ عَلَيْهِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، جَاءَتْهُ الْجَدَّتَانِ، فَوَرَّثَ أُمَّ الْأُمِّ، وَأَسْقَطَ أُمَّ الْأَبِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَقَدْ أَسْقَطْت الَّتِي لَوْ مَاتَتْ وَرِثَهَا، وَوَرَّثْت الَّتِي لَوْ مَاتَتْ لَمْ يَرِثْهَا. فَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَشْرَكَ بَيْنَهُمَا....

[٢٣١٩] - الأم للشافعي (٦/ ٢١٩)

إِذَا ثَبَتَ هَذَا،فَإِنَّهُ يُشَاوِرُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْأَمَانَةِ؛لِأَنَّ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَلَا قَوْلَ لَهُ فِي الْحَادِثَةِ،وَلَا يُسْكَنُ إلَى قَوْله.

قَالَ سُفْيَانُ:وَلْيَكُنْ أَهْلُ مَشُورَتِك أَهْلَ التَّقْوَى وَأَهْلَ الْأَمَانَةِ.وَيُشَاوِرُ الْمُوَافِقِينَ وَالْمُخَالِفِينَ،وَيَسْأَلُهُمْ عَنْ حُجَّتِهِمْ،لِيَبِينَ لَهُ الْحَقُّ.وَالْمُشَاوَرَةُ هَاهُنَا لِاسْتِخْرَاجِ الْأَدِلَّةِ،وَيَعْرِفُ الْحَقَّ بِالِاجْتِهَادِ،وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَلِّدَ غَيْرَهُ،وَيَحْكُمَ بِقَوْلِ سِوَاهُ،سَوَاءٌ"[٢٣٢٠]

النظر في أحوال المتصدرين للفتوى وتعليم الناس:

يجب على الحكومة الإسلامية النظر في أحوال المفتين والدعاة،فمن كان أهلا للفتوى ممن جمع العلم بالكتاب والسنة والتقوى والاستقامة فإنه يقر على تصدره للفتوى،وأما من لم يكن أهلا للفتوى لجهله أولكونه من طلبة العلم المبتدئين الجريئين على الفتوى بغير علم،أو عرف بالفسق أو الابتداع فيمنع،ولا يمكن من التصدر للفتوى،فعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،سَمِعْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ،وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ،حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا،اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا،فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ،فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» متفقٌ عليه[٢٣٢١].

[٢٣٢٠] - المغني لابن قدامة (١٠/ ٤٦)

[٢٣٢١] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٨)١٣ - (٢٦٧٣) وصحيح البخاري (١/ ٣١)(١٠٠)

" إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ ":الْمُرَادُ بِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا (انْتِزَاعًا):مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ عَلَى مَعْنَى يَقْبِضُ نَحْوَ:رَجَعَ الْقَهْقَرَى،وَقَوْلُهُ (يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ):صِفَةٌ مُبَيِّنَةٌ لِلنَّوْعِ كَذَا قَالَهُ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:انْتِزَاعًا مَفْعُولٌ لِلْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَهُ،وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ يَعْنِي لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ مِنَ الْعِبَادِ بِأَنْ يَرْفَعَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ (وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ) أَيْ:يَرْفَعُهُ (بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ) أَيْ:بِمَوْتِهِمْ وَرَفْعِ أَرْوَاحِهِمْ (حَتَّى):هِيَ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الْجُمْلَةِ وَهِيَ هُنَا الشَّرْطُ وَالْجَزَاءُ يَعْنِي (إِذَا لَمْ يُبْقِ):أَيِ:اللَّهُ (عَالِمًا):بِقَبْضِ رُوحِهِ مِنَ الْإِبْقَاءِ،وَفِي نُسْخَةٍ:حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالْقَافِ،وَعَالِمٌ بِالرَّفْعِ وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ:حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا (اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا) أَيْ خَلِيفَةً وَقَاضِيًا وَمُفْتِيًا وَإِمَامًا وَشَيْخًا " (جُهَّالًا):جَمْعُ جَاهِلٍ أَيْ جَهَلَةً بِمَا يُنَاسِبُ مَنْصِبَهُ.قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ:ضَبَطْنَاهُ فِي الْبُخَارِيِّ رُءُوسًا بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَالتَّنْوِينِ جَمْعُ رَأْسٍ،وَضَبَطُوهُ فِي مُسْلِمٍ هُنَا بِوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا هَذَا وَالثَّانِي رُؤَسَاءُ جَمْعُ رَئِيسٍ،وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ وَالْأَوَّلُ أَشْهَرُ (فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا) أَيْ:أَجَابُوا وَحَكَمُوا (بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا) أَيْ:صَارُوا ضَالِّينَ (وَأَضَلُّوا) أَيْ مُضِلِّينَ لِغَيْرِهِمْ فَيَعُمُّ الْجَهْلُ الْعَالَمَ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٩٠)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ ،وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ،فَإِذَا ذَهَبَ الْعُلَمَاءُ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا ،فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ،فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ»[٢٣٢٢]

وعَنْ مَسْرُوقٍ،قَالَ :بَيْنَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي الْمَسْجِدِ الأَعْظَمِ،قَالَ :إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ،نَزَلَ دُخَانٌ مِنَ السَّمَاءِ،فَأَخَذَ بِأَسْمَاعِ الْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ،وَأَخَذَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ،قَالَ مَسْرُوقٌ :فَدَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ،فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ،وَكَانَ مُتَّكِئًا،فَاسْتَوَى جَالِسًا،فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُ،فَقَالَ :يَا أَيُّهَا النَّاسُ،مَنْ سُئِلَ مِنْكُمْ عَنْ عِلْمٍ هُوَ عِنْدَهُ،فَلْيَقُلْ بِهِ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ،فَلْيَقُلْ :اللَّهُ أَعْلَمُ،فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ تَقُولَ لِمَا لاَ تَعْلَمُ :اللَّهُ أَعْلَمُ،إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ :{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}،إِنَّ قُرَيْشًا لَمَّا غَلَبُوا النَّبِيَّ ﷺ،وَاسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ،قَالَ :اللَّهُمَّ أَعِنِّي عليهم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ،قَالَ :فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ،أَكَلُوا فِيهَا الْعِظَامَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجَهْدِ،حَتَّى جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَرَى ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجُوعِ،فَقَالُوا :{رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ}،قَالَ :فَقِيلَ لَهُ :إِنَّا إِنْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَادُوا،فَدَعَا رَبَّهُ،فَكَشَفَ عَنْهُمْ،فَعَادُوا،فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ،فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} إِلَى قَوْلِهِ {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}،قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ فِي حَدِيثِهِ،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ :فَلَوْ كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،مَا كَشَفَ عَنْهُمْ.[٢٣٢٣]

وعَنْ مَسْرُوقٍ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ :يَا أَيُّهَا النَّاسُ،مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ،وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ،فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ اللَّهُ أَعْلَمُ،قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ ﷺ:{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ} [ص:٨٦] وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ

ويستفاد منه ما يأتي:أولاً:التحذير الشديد من الجرأة على الفتوى بغير علم،لما في ذلك من إضلال الناس،فإن المفتي الجاهل يتحمل وزر من أضلّه،بالإضافة إلى وزره هو،ويدخل في مصداق قوله تعالى:(وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم) .ثانياً:تحذير ولاة الأمور من تعيين الجهلاء في المناصب الدينية لهذا الحديث،وقد قال محمد بن سيرين من التابعين:" إن هذا العلم دين،فانظروا عمن تأخذون دينكم ".ثالثاً:أن موت العالم خسارة عظيمة،لأنَّ العلم يرفع بموت العلماء.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ١٩٨)

[٢٣٢٢] - السنن الواردة في الفتن للداني (٣/ ٥٩١)(٢٦٦) صحيح

[٢٣٢٣] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٢/ ١٣٧)(٤١٠٤- صحيح

الدُّخَان:إنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ دَعَا قُرَيْشًا إِلَى الإِسْلاَمِ،فَأَبْطَئُوا عَلَيْه،فَقَالَ:«اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ» فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ فَحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ،حَتَّى أَكَلُوا المَيْتَةَ وَالجُلُودَ،حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ دُخَانًا مِنَ الجُوعِ،قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الدخان:١١]،قَالَ:فَدَعَوْا:{رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ،أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى،وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ،ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ،وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ،إِنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلًا،إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} [الدخان:١٢] أَفَيُكْشَفُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ:فَكُشِفَ ثُمَّ عَادُوا فِي كُفْرِهِمْ،فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ} [الدخان:١٦] رواهُ البخاري[٢٣٢٤].

[٢٣٢٤] - صحيح البخاري (٦/ ١٢٥)(٤٨٠٩) وصحيح مسلم (٢/ ٩٩٤)٤٦٧ - (١٣٧٠)

[ش (يغشى الناس) يغيظهم ويعمهم.(أنى لهم الذكرى) من أين لهم أن ينفعهم الإيمان عند نزول العذاب.(مبين) بين الرسالة والدعوة يحذرهم من العذاب / الدخان ١٠،١٦ /]

(قَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ!):يَشْمَلُ الْعُلَمَاءَ وَغَيْرَهُمْ (مَنْ عَلِمَ شَيْئًا):مِنْ عُلُومِ الدِّينِ فَسَأَلَهُ عَنْهُ مَنْ هُوَ مُتَأَهِّلٌ لِفَهْمِ جَوَابِهِ (فَلْيَقُلْ بِهِ):أَيْ:بِذَلِكَ الشَّيْءِ الْمَعْلُومِ لِوَخِيمِ عَذَابِ سَتْرِهِ وَلِعَظِيمِ ثَوَابِ نَشْرِهِ (وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ):أَيْ:فِي الْجَوَابِ (اللَّهُ أَعْلَمُ):كَمَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} [البقرة:٣٢] وَلَا يَسْتَحْيِي فِي نَفْيِ الْعِلْمِ عَنْ نَفْسِهِ،فَإِنَّ جَهْلَ الْإِنْسَانِ أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِهِ،قَالَ تَعَالَى:{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:٨٥] فَمَعْنَاهُ:اللَّهُ أَكْثَرُ عِلْمًا.وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:أَعْلَمُ بِمَعْنَى عَالِمٍ لِاسْتِحَالَةِ الْمُشَارَكَةِ.قُلْتُ:الْمُشَارَكَةُ الاسْتِقْلَالِيَّةُ هِيَ الْمُسْتَحِيلَةُ،وَذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ،فِي الْأَبْرَارِ أَنَّ عَلِيًّا - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ؟ فَقَالَ:لَا أَدْرِي:فَقِيلَ:كَيْفَ تَقُولُ لَا أَدْرِي وَأَنْتَ طَلَعْتَ فَوْقَ الْمِنْبَرِ؟ فَقَالَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:إِنَّمَا طَلَعْتُ بِقَدْرِ عِلْمِي،وَلَوْ طَلَعْتُ بِمِقْدَارِ جَهْلِي لَبَلَغْتُ السَّمَاءَ (فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ):أَيْ:مِنْ آدَابِهِ الْوَاجِبِ رِعَايَتُهَا وُجُوبًا عَيْنِيًّا مُتَأَكِّدًا عَلَى كُلِّ مَنْ نُسِبَ لِلْعِلْمِ أَوِ التَّقْدِيرِ،فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْعِلْمِ وَهُوَ خَبَرُ إِنَّ وَاسْمُهُ (أَنْ تَقُولَ لِمَا لَا تَعْلَمُ):بِالْخِطَابِ فِيهِمَا،وَقِيلَ:بِالْغَيْبَةِ أَيْ لِأَجْلِهِ أَوْ عَنْهُ (وَاللَّهُ أَعْلَمُ) .أَيْ:وَنَحْوَهُ.قَالَ الْأَبْهَرِيُّ:فَإِنَّ تَمْيِيزَ الْمَعْلُومِ مِنَ الْمَجْهُولِ نَوْعٌ مِنَ الْعِلْمِ وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَا قِيلَ:لَا أَدْرِي نِصْفُ الْعِلْمِ.

وَيُقَالُ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ هَذَا التَّمْيِيزُ جَهْلُهُ مُرَكَّبٌ،وَمِنْ ثَمَّ اشْتَدَّ خَوْفُ السَّلَفِ مِنَ الْإِفْتَاءِ فَكَثُرَ امْتِنَاعُهُمْ مِنْهُ حَتَّى أَنَّ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ أَرْبَعِينَ مَسْأَلَةً فَأَجَابَ عَنْ أَرْبَعَةٍ:وَقَالَ فِي سِتٍّ وَثَلَاثِينَ:لَا أَدْرِي.ثُمَّ اسْتَدَلَّ ابْنُ مَسْعُودٍ لِمَا ذَكَرَهُ مِنَ امْتِنَاعِ التَّكَلُّفِ وَالتَّصَنُّعِ فِي الْجَوَابِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْإِفْتَاءِ بِالْبَاطِلِ بِقَوْلِهِ:(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ) وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ:{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} [ص:٨٦]:أَيْ:عَلَى التَّبْلِيغِ (مِنْ أَجْرٍ):أَيْ:آخُذُهُ مِنْكُمْ {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص:٨٦]:أَيْ:مِنَ الَّذِينَ يَتَصَنَّعُونَ وَيَتَحَلَّوْنَ بِمَا لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ،كَذَا قَالَهُ مِيرَكُ شَاهْ،وَمِنْ ثَمَّ لَمَّا سُئِلَ الصِّدِّيقُ عَنِ الْأَبِّ فِي:{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس:٣١] قَالَ:أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا عِلْمَ لِي بِهِ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣٣٥)

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:حَدَّثَنِي الْأَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُحَيٍّ أَبُو عَامِرٍ الْهَوْزَنِيُّ،قَالَ:حَجَجْتُ مَعَ مُعَاوِيَةَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ أُخْبِرَ أَنَّ بِهَا قَاصًّا يُحَدِّثُ بِأَشْيَاءَ تُنْكَرُ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَقَالَ:أُمِرْتَ بِهَذَا؟ قَالَ:لَا،قَالَ:فَمَا حَمَلَكَ عَلَيْهِ؟ قَالَ:عِلْمٌ نَنْشُرُهُ،فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ:لَوْ كُنْتُ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكَ لَفَعَلْتُ بِكَ،انْطَلِقْ فَلَا أَسْمَعُ أَنَّكَ حَدَّثْتَ شَيْئًا فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ قَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ،وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ،فَغَيْرُكُمْ مِنَ النَّاسِ أَحْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ إِلَّا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِينَا يَوْمًا فَقَالَ:«إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً – يَعْنِي الْأَهْوَاءَ – وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً،– يَعْنِي الْأَهْوَاءَ – اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ فَاعْتَصِمُوا بِهَا فَاعْتَصِمُوا بِهَا» [٢٣٢٥]

وقَالَ مَالِكٌ:أَخْبَرَنِي رَجُلٌ " أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَوَجَدَهُ يَبْكِي،فَقَالَ لَهُ:مَا يُبْكِيكَ؟ وَارْتَاعَ لِبُكَائِهِ فَقَالَ لَهُ:أَمُصِيبَةٌ دَخَلَتْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ:لَا،وَلَكِنِ اسْتُفْتِيَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ أَمْرٌ عَظِيمٌ،قَالَ رَبِيعَةُ:وَلَبَعْضُ مَنْ يُفْتِي هَا هُنَا أَحَقُّ بِالسَّجْنِ مِنَ السُّرَّاقِ " [٢٣٢٦]

وَقَال الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ :يَنْبَغِي لِلإِْمَامِ أَنْ يَتَصَفَّحَ أَحْوَال الْمُفْتِينَ،فَمَنْ صَلَحَ لِلْفُتْيَا أَقَرَّهُ،وَمَنْ لاَ يَصْلُحُ مَنَعَهُ وَنَهَاهُ وَتَوَاعَدَهُ بِالْعُقُوبَةِ إِنْ عَادَ،قَال :وَطَرِيقُ الإِْمَامِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْفُتْيَا أَنْ يَسْأَل عَنْهُ عُلَمَاءَ وَقْتِهِ،وَيَعْتَمِدَ إِخْبَارَ الْمَوْثُوقِ بِهِمْ . [٢٣٢٧]

وَقَال ابْنُ الْقَيِّمِ :مَنْ أَفْتَى وَلَيْسَ بِأَهْلٍ فَهُوَ آثِمٌ عَاصٍ،وَمَنْ أَقَرَّهُمْ مِنْ وُلاَةِ الأُْمُورِ فَهُوَ آثِمٌ أَيْضًا،وَنُقِل عَنِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ قَوْلُهُ :يَلْزَمُ وَلِيَّ الأَْمْرِ مَنْعُهُمْ،فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَدُل الرَّكْبَ وَلاَ يَعْلَمُ الطَّرِيقَ،وَبِمَنْزِلَةِ مَنْ يُرْشِدُ النَّاسَ إِلَى الْقِبْلَةِ وَهُوَ أَعْمَى،بَل أَسْوَأُ حَالاً،وَإِذَا تَعَيَّنَ عَلَى وَلِيِّ الأَْمْرِ مَنْعُ مَنْ لَمْ يُحْسِنِ الطِّبَّ مِنْ مُدَاوَاةِ الْمَرْضَى فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ . [٢٣٢٨]

[٢٣٢٥] – السنة للمروزي (ص:٢٠)(٥٠) حسن

[٢٣٢٦] – جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٢٢٥)(٢٤١٠) فيه جهالة

[٢٣٢٧] – المجموع شرح المهذب (١/ ٤١)

[٢٣٢٨] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٢/ ٤٦) وإعلام الموقعين ٤ / ٢١٧ .

وَقَالَ مَالِكٌ:مِنْ فِقْهِ الْعَالِمِ أَنْ يَقُولَ:" لَا أَعْلَمُ " فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُ الْخَيْرُ.وَقَالَ:سَمِعْت ابْنَ هُرْمُزَ يَقُولُ:يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يُوَرِّثَ جُلَسَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ " لَا أَدْرِي "،حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ أَصْلًا فِي أَيْدِيهِمْ يَفْزَعُونَ إلَيْهِ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ:" لَا أَدْرِي " نِصْفُ الْعِلْمِ.

وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ:وَيْلٌ لِمَنْ يَقُولُ لِمَا لَا يَعْلَمُ:إنِّي أَعْلَمُ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ:سَمِعْت ابْنَ عَجْلَانَ يَقُولُ:إذَا أَغْفَلَ الْعَالِمُ " لَا أَدْرِي " أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ،وَذَكَرَ ابْنُ عَجْلَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ:جَاءَ رَجُلٌ إلَى مَالِكٍ،فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَمَكَثَ أَيَّامًا مَا يُجِيبُهُ،فَقَالَ:يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إنِّي أُرِيدُ الْخُرُوجَ،فَأَطْرَقَ طَوِيلًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ:مَا شَاءَ اللَّهُ،يَا هَذَا إنِّي أَتَكَلَّمُ فِيمَا أَحْتَسِبُ فِيهِ الْخَيْرَ،وَلَسْت أُحْسِنُ مَسْأَلَتَك هَذِهِ.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ:سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ:الْعَجَلَةُ فِي الْفَتْوَى نَوْعٌ مِنْ الْجَهْلِ وَالْخُرْقِ،قَالَ:وَكَانَ يُقَالُ:التَّأَنِّي مِنْ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنْ الشَّيْطَانِ.وَهَذَا الْكَلَامُ قَدْ رَوَاهُ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ سِنَانٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«التَّأَنِّي مِنْ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنْ الشَّيْطَانِ»،وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَقَالَ ابْنُ الْمُنْكَدِرِ:الْعَالِمُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ،فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يَدْخُلُ بَيْنَهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ:قَالَ لِي مَالِكٌ وَهُوَ يُنْكِرُ كَثْرَةَ الْجَوَابِ فِي الْمَسَائِلِ:يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا عَلِمْت فَقُلْ،وَإِيَّاكَ أَنْ تُقَلِّدَ النَّاسَ قِلَادَةَ سُوءٍ.

وَقَالَ مَالِكٌ:حَدَّثَنِي رَبِيعَةُ قَالَ:قَالَ لِي أَبُو خَلْدَةَ وَكَانَ نِعْمَ الْقَاضِي:يَا رَبِيعَةُ،أَرَاك تُفْتِي النَّاسَ،فَإِذَا جَاءَك الرَّجُلُ يَسْأَلُك فَلَا يَكُنْ هَمُّك أَنْ تَتَخَلَّصَ مِمَّا سَأَلَك عَنْهُ.[٢٣٢٩]

تحريم الفتوى بما يخالف الكتاب والسنة:

لقد حرم الله تعالى القول في شرعه بغير علم،والإفتاء بما يخالف الكتاب والسنة من أقوال أهل العلم،أو القول بمجرد الرأي،أو تتبع رخص العلماء وزلاتهم،أو التخيير بين أقوال أهل العلم

[٢٣٢٩] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٢٨)

دون الرجوع إلى الكتاب والسنة،وقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) } [البقرة:١٦٨،١٦٩]

يَمْتَنُّ اللهُ تَعَالَى جَدُّهُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِنَ الأَكْلِ مِمَّا فِي الأَرْضِ مِنْ أَصْنَافِ المَأْكُولاَتِ حَلاَلاً طَيِّباً وَيَنْهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ سِيرَةِ الشَّيطَانِ فِي الإِغْوَاءِ وَالإِضْلاَلِ،وَالوَسْوَسَةِ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ،وَعَنِ اتِّبَاعِ مَسْلَكِهِ وَطَرَائِقِهِ فِيمَا أَضَلَّ بِهِ أَتْبَاعَهُ مِنْ تَحْرِيمِ البَحَائِرِ وَالسَّوائِبِ وَالوَصَائِلِ وَغَيرِهَا مِمَّا كَانَ زَيَّنَهُ لِلْمُشْرِكِينَ فِي الجَاهِلِيَّةِ،لأَنَّ الشَّيطَانَ عَدُوٌّ مُبِينُ العَدَاوَةِ للإِنْسَانِ.والشَّيطَانُ العَدُوُّ يُوَسْوِسُ لِلْكَفَرَةِ وَالمُشْرِكِينَ،وَيَحثُّهُمْ عَلَى الإتيانِ بالأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ المُنْكَرَةِ،وَالفَوَاحِشِ،وَالقَوْلِ عَلَى اللهِ فِي دِينِهِ مَا لا يُعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّهُ شَرَعَهُ للنَّاسِ،مِنْ عَقَائِدَ وَشَعَائِرَ دِينِيَّةٍ،أَوْ تَحْلِيلِ مَا الأَصْلُ فِيهِ التَّحْرِيمُ.[2330]

{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف:٣٣]

قُلْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهؤُلاَءِ المُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ،وَافْتَرُوْا عَلَى اللهِ الكَذِبَ،فَزَعَمُوا أَنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ كَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِم الزِّينَةَ:إِنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ إِلاَّ الأُمُ رَ التَّالِيَةَ.

أ - الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ (كَالزِّنَى وَالمَعَاصِي الأُخْرَى) .

ب - الإِثْمَ - وَهُوَ المَعْصِيَةُ.

ج - البَغْيَ عَلَى النَّاسِ،وَالتَّعَدِّي عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

د - وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُشْرِكُوا مَعَهُ أَحَداً فِي عِبَادَتِهِ.

هـ - وَأَنْ يَفْتَرُوا عَلَى اللهِ وَيَكْذِبُوا،وَأَنْ يَقُولُوا عَلَيْهِ مَا لا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ (كَقَوْلِهِمْ إِنَّ لَهُ وَلَداً أَوْ نَحْوَ ذلِكَ...) .[2331]

[2330] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٥،بترقيم الشاملة آليا)

[2331] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٨٨،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)} [النحل:١١٦،١١٧].

وَلاَ تَقُولُوا عَنْ شَيءٍ هَذَا حَرَامٌ،وَهَذا حَلاَلٌ،إِذَا لَمْ يَأْتِكُمْ حِلُّهُ وَتَحْرِيمُهُ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ،فَالَّذِي يُحَلِّلُ وَيُحَرِّمُ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ.

(وَيَدْخُلُ فِي هَذا ابْتِدَاعِ بِدْعَةٍ لَيْسَ لَهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ،أَوْ تَحْلِيلُ شَيءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ،أَوْ تَحْرِيمُ شَيءٍ مِمَّا أَحَلَّهُ اللهُ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالهَوَى) .

ثُمَّ يَتَوَعَّدُ اللهُ تَعَالَى الذِينَ يَفْتَرُونَ الكَذِبَ عَلَى اللهِ،وَيَقُولُ عَنْهُمْ:إِنَّهُمْ لاَ يُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا،وَلاَ فِي الآخِرَةِ.

فَالمَنَافِعُ التِي يَحْصُلُ عَلَيْهَا هؤُلاَءِ المُحَلِّلُونَ وَالمُحَرِّمُونَ مِنْ هَذا التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ الذِي لاَ مُسْتَنَدَ شَرْعِيّاً لَهُمْ فِيهِ مِنْ شَرْعِ اللهِ،هِيَ تَافِهَةٌ حَقِيرَةٌ،لاَ يَعْتَدُّ بِهَا عَاقِلٌ،إِذَا عَلِمَ أَنَّهَا سَتَكُونُ عَظِيمَةُ الضَّرَرِ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ،وَسَتَجْعَلُهُ يَدْخُلُ نَارَ جَهَنَّمَ لِيَلْقَى فِيهَا العَذَابَ الأَلِيمَ الذِي وَعَدَهُ اللهُ بِهِ.[٢٣٣٢]

وقال تعالى:{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء:٦٥]

يُقْسِمُ اللهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الكَرِيمَةِ المُقَدَّسَةِ عَلَى أنَّ أولَئِكَ الذِينَ رَغِبُوا عَنِ التَّحَاكُمِ إلى الرَّسُولِ،وَمَنْ مَاثَلَهُمْ مِنَ المُنَافِقِينَ،لاَ يُؤْمِنُونَ إِيمَاناً حَقّاً (أَيْ إِيمَانَ إِذْعَانٍ وَانْقِيَادٍ) إلاّ إذَا كَمُلَتْ لَهُمْ ثَلاثُ خِصَالٍ:

- أنْ يُحَكِّمُوا الرَّسُولَ فِي القَضَايَا التِي يَخْتَصِمُونَ فِيهَا،وَلاَ يَبِينُ لَهُمْ فِيهَا وَجْهُ الحَقِّ.

- ألاّ يَجِدُوا ضِيقاً وَحَرَجاً مِمَّا يَحْكُمُ بِهِ،وَأنْ تُذْعِنَ نُفُوسُهُمْ لِقَضَائِهِ،إِذْعَاناً تَامّاً دُونَ امْتِعَاضٍ مِنْ قَبُولِهِ وَالعَمَلِ بِهِ،لأَنَّهُ الحَقُّ وَفِيهِ الخَيْرُ.

[٢٣٣٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠١٧،بترقيم الشاملة آليا)

– أنْ يَنْقَادُوا وَيُسَلِّمُوا لِذَلِكَ الحُكْمِ،مُوقِنِينَ بِصِدْقِ الرَّسُــولِ فِــي حُكْمِهِ،وَبِعِصْــمَتِهِ عَــنِ الخَطَأ.[2333]

والآيات في هذا الأصل كثيرة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَــنْ أَفْتَــاهُ» زَادَ سُلَيْمَانُ الْمَهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ،«وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَــهُ» رواه أبو داود[2334] .

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ أَوْلَى بِالْمَسْــحِ مِــنْ أَعْلَاهُ،وَقَدْ «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ عَلَى ظَاهِرِ خُفَّيْهِ» رواه أبو داود[2335] .

[2333] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

[2334] – سنن أبي داود (٣/ ٣٢١)(٣٦٥٧) حسن

(مَنْ أُفْتَى):عَلَى صِيغَةِ الْمَجْهُولِ،وَقِيلَ:مَعَ الْمَعْلُومِ (بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ):قَالَ الْأَشْرَفُ:وَتَبِعَهُ زَيْنُ الْعَرَبِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (أَفْتَى) الثَّانِي بِمَعْنَى اسْتَفْتَى،وَأُفْتَى الْأَوَّلُ مَعْرُوفًا،أَيْ:كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنِ اسْتَفْتَاهُ،فَإِنَّهُ جَعَلَهُ فِي مَعْرِضِ الْإِفْتَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَجْهُولًا،أَيْ:فَإِثْمُ إِفْتَائِهِ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ،أَيِ:الْإِثْمُ عَلَى الْمُفْتِي دُونَ الْمُسْتَفْتِي اهـــ.وَالْأَظْهَرُ الثَّانِي وَهُوَ الْأَصَحُّ مِنَ النُّسَخِ يَعْنِي:كُلُّ جَاهِلٍ سَأَلَ عَالِمًا عَنْ مَسْأَلَةٍ فَأَفْتَاهُ الْعَالِمُ بِجَوَابٍ بَاطِلٍ،فَعَمِلَ السَّائِلُ بِهَا وَلَمْ يَعْلَمْ بُطْلَانَهُ فَإِثْمُهُ عَلَى الْمُفْتِي إِنْ قَصَّرَ فِي اجْتِهَادِهِ (وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ) ":قَالَ الطِّيبِيُّ:إِذَا عُدِّيَ " أَشَارَ " بِ " عَلَى " كَانَ بِمَعْنَى الْمَشُورَةِ،أَيِ:اسْتَشَارَهُ وَسَأَلَهُ كَيْفَ أَفْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ اهـــ.وَفِي الْقَامُوسِ:أَشَارَ عَلَيْهِ بِكَذَا أَمَرَهُ،وَاسْتَشَارَ:طَلَبَهُ الْمَشُورَةَ،فَالظَّاهِرُ مَا قَالَهُ بَعْضُ الشُّرَّاحِ مِنْ أَنَّ الْمَعْنَى:مَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ وَهُوَ مُسْتَشِيرٌ،وَأَمَرَ الْمُسْتَشِيرَ بِأَمْرٍ (يَعْلَمُ):وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ مَا يَشْمَلُ الظَّنَّ (أَنَّ الرُّشْدَ) أَيِ:الْمَصْلَحَةَ (فِي غَيْرِهِ) أَيْ غَيْرِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ (فَقَدْ خَانَهُ) أَيْ:خَانَ الْمُسْتَشَارُ الْمُسْتَشِيرَ إِذْ وَرَدَ:أَنَّ " «الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ» " وَ " «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ".(رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣١٨)

[2335] – سنن أبي داود (١/ ٤٢)(١٦٢) صحيح

(أَنَّهُ قَالَ:لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ) أَيْ:بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ دُونَ الرِّوَايَةِ وَالنَّقْلِ لَكَانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ) لِقُرْبِهِ مِنَ الْقَاذُورَاتِ وَالْأَوْسَاخِ (أَوْلَى بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ؛لِبُعْدِهِ مِنْهَا،(وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَمْسَحُ عَلَى ظَاهِرِ خُفَّيْهِ):مُرَادُهُ بِهِ أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِمَا،كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ كَلَامِهِ،وَإِلَّا لَجَازَ الْمَسْحُ عَلَى الْأَسْفَلِ لِشُمُولِ الظَّاهِرِ لَهُ؛وَلِأَنَّ قَوْلَهُ:لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ...إِلَخْ،صَرِيحٌ فِي امْتِنَاعِ الْأَسْفَلِ،فَتَعَيَّنَ أَنَّ مُرَادَهُ بِظَاهِرِ خُفَّيْهِ أَعْلَى ظَاهِرِهِمَا،فَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ تَابِعٌ لِلشَّرْعِ؛لِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ إِدْرَاكِ الْحِكَمِ الْإِلَهِيَّةِ،فَعَلَيْهِ التَّعَبُّدُ الْمَحْضُ بِمُقْتَضَى الْعُبُودِيَّةِ،وَمَا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْحُكَمَاءِ وَالْمُبْتَدِعَةِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ الْعَقْلِ،وَتَرْكِ مُوَافَقَةِ النَّقْلِ،وَقَدْ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ أَيْضًا:لَوْ قُلْتُ بِالرَّأْيِ لَأَوْجَبْتُ الْغُسْلَ بِالْبَوْلِ أَيْ:لِأَنَّهُ نَجِسٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ،وَالْوُضُوءُ بِالْمَنِيِّ؛لِأَنَّهُ نَجِسٌ مُخْتَلَفٌ فِيهِ،وَلَأَعْطَيْتُ الذَّكَرَ فِي الْإِرْثِ نِصْفَ الْأُنْثَى؛لِكَوْنِهَا أَضْعَفَ مِنْهُ،هَذَا وَقَالَ فِي النَّوَوِيَّةِ نَقْلًا عَنِ الْمَبْسُوطِ فِي قَوْلِ عَلِيٍّ:لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ مَسْحُ بَاطِنِ الْخُفِّ أَوْلَى مِنْ ظَاهِرِهِ؛لِأَنَّ بَاطِنَهُ لَا يَخْلُو عَنْ تَلَوُّثٍ عَادَةً فَيُصِيبُ يَدَهُ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَاطِنِ عِنْدَهُمْ مَحَلُّ الْوَطْءِ لَا مَا يُلَاقِي الْبَشَرَةَ،لَكِنْ بِتَقْدِيرِهِ لَا

وعَنْ ابْنِ شِهَاب،أَنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّه،حَدَّثَهُ،أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّام،وَهُوَ يَسْأَلُ عَبْدَ اللَّه بْنَ عُمَرَ عَنِ التَّمَتُّعِ بالعُمْرَة إِلَى الحَجِّ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ عُمَرَ:هِيَ حَلَالٌ،فَقَالَ الشَّامِيُّ:إِنَّ أَبَاكَ قَدْ نَهَى عَنْهَا،فَقَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ عُمَرَ:" أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَبِي نَهَى عَنْهَا وَصَنَعَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ،أَأَمْرَ أَبِي نَتَّبِعُ؟ أَمْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّه ﷺ؟،فَقَالَ الرَّجُلُ:بَلْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّه ﷺ،فَقَالَ:«لَقَدْ صَنَعَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ» رواه الترمذي[٢٣٣٦].

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله:" وَأَيْضًا؛فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْضِي إِلَى تَتَبُّعِ رُخَصِ الْمَذَاهِبِ مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ،وَقَدْ حَكَى ابْنُ حَزْمٍ٦ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ فِسْقٌ لَا يحل.

وَأَيْضًا؛فَإِنَّهُ مؤدٍّ إِلَى إِسْقَاطِ التَّكْلِيفِ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مُخْتَلَفٍ فِيهَا؛لِأَنَّ حَاصِلَ الْأَمْرِ مَعَ الْقَوْلِ بِالتَّخْيِيرِ أَنَّ لِلْمُكَلَّفِ أَنْ يَفْعَلَ إِنْ شَاءَ،وَيَتْرُكَ إِنْ شَاءَ وَهُوَ عَيْنُ إِسْقَاطِ التَّكْلِيفِ،بِخِلَافِ مَا إِذَا تَقَيَّدَ بِالتَّرْجِيحِ فَإِنَّهُ مُتَّبِعٌ لِلدَّلِيلِ؛فَلَا يَكُونُ مُتَّبِعًا لِلْهَوَى وَلَا مُسْقِطًا لِلتَّكْلِيفِ."[٢٣٣٧]

وعن الْأَوْزَاعِيَّ قَالَ:عَلَيْكَ بِآثَارِ مَنْ سَلَفَ وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ ،وَإِيَّاكَ وَرَأْيِ الرِّجَالِ ،وَإِنْ زَخْرَفُوهُ بِالْقَوْلِ ،فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْجَلِي وَأَنْتَ مِنْهُ عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ" [٢٣٣٨]

وَقَالَ الْفِرْيَابِيُّ:ثنا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنُ مَزِيدٍ أَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ:سَمِعْت الْأَوْزَاعِيَّ يَقُولُ:عَلَيْك بِآثَارِ مَنْ سَلَفَ وَإِنْ رَفَضَك النَّاسُ،وَإِيَّاكَ وَآرَاءَ الرِّجَالِ وَإِنْ زَخْرَفُوا لَك الْقَوْلَ وَقَالَ أَبُو

يَظْهَرُ أَوْلَوِيَّةُ مَسْحِ بَاطِنِهِ وَلَوْ كَانَ بِالرَّأْيِ،بَلِ الْمُتَبَادَرُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ الْأَسْفَلُ هُوَ الْمُعَيَّنُ الَّذِي قَالُوهُ،فَيَكُونُ تَفْسِيرًا لِقَوْلِ عَلِيٍّ السَّابِقِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ:وَجْهُ الْأَوْلَوِيَّةِ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَسْحِ هُوَ الطَّهَارَةُ،وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَسْفَلَ أَحْوَجُ إِلَى التَّطْهِيرِ؛فَإِنَّهُ أُجْمِعَ فِيهِ الْحَدَثُ وَالْخَبَثُ،وَفِي كَلَامِ عَلِيٍّ إِيمَاءٌ إِلَى الرَّدِّ عَلَى مَنْ جَوَّزَ الْمَسْحَ عَلَى الرِّجْلِ؛لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ الْمَسْحُ عَلَى الرِّجْلِ لَكَانَ فِي مُقْتَضَى الرَّأْيِ أَنْ يَكُونَ الْمَسْحُ عَلَى الْأَعْلَى لَا عَلَى الْأَسْفَلِ،فَتَأَمَّلْ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٤٧٩)

[٢٣٣٦] - سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ١٧٧)(٨٢٤) صحيح

وَقَد اخْتَارَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ،مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،وَغَيْرِهِمُ التَّمَتُّعَ بِالْعُمْرَةِ.وَالتَّمَتُّعُ أَنْ يَدْخُلَ الرَّجُلُ بِعُمْرَةٍ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ،ثُمَّ يُقِيمُ حَتَّى يَحُجَّ فَهُوَ مُتَمَتِّعٌ وَعَلَيْهِ دَمٌ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ،فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ،وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُتَمَتِّعِ إِذَا صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ،أَنْ يَصُومَ الْعَشْرَ وَيَكُونَ آخِرُهَا يَوْمَ عَرَفَةَ،فَإِنْ لَمْ يَصُمْ فِي الْعَشْرِ صَامَ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ،فِي قَوْلِ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،مِنْهُمُ ابْنِ عُمَرَ،وَعَائِشَةَ.وَبِهِ يَقُولُ مَالِكٌ،وَالشَّافِعِيُّ،وَأَحْمَدُ،وَإِسْحَاقُ.وَقَالَ بَعْضُهُمْ:لَا يَصُومُ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ.وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْكُوفَةِ.وَأَهْلُ الْحَدِيثِ يَخْتَارُونَ التَّمَتُّعَ بِالْعُمْرَةِ فِي الْحَجِّ.وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ

[٢٣٣٧] - الموافقات (٥/ ٨٢)

[٢٣٣٨] - الشريعة للآجري (١/ ٤٤٥)(١٢٧) والمدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:١٩٩)(٢٣٣) صحيح

زُرْعَةَ:ثنا أَبُو مُسْهِرٍ قَالَ:كَانَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إذَا سُئِلَ لَا يُجِيبُ حَتَّى يَقُولَ:لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ،هَذَا الرَّأْيُ،وَالرَّأْيُ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو يُوسُفَ وَالْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ قَالَ:عِلْمُنَا هَذَا رَأْيٌ،وَهُوَ أَحْسَنُ مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ،وَمَنْ جَاءَنَا بِأَحْسَنَ مِنْهُ قَبِلْنَاهُ مِنْهُ.

وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ:ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ ثنا أَشْهَبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ مَالِكٍ فَسُئِلَ عَنْ الْبَتَّةِ،فَأَخَذْتُ أَلْوَاحِي لِأَكْتُبَ مَا قَالَ،فَقَالَ لِي مَالِكٌ:لَا تَفْعَلْ،فَعَسَى فِي الْعَشِيِّ أَقُولُ إنَّهَا وَاحِدَةٌ.

وَقَالَ مَعْنُ بْنُ عِيسَى الْقَزَّازَ:سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ:إنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أُخْطِئُ وَأُصِيبُ،فَانْظُرُوا فِي قَوْلِي،فَكُلُّ مَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَخُذُوا بِهِ،وَمَا لَمْ يُوَافِقْ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَاتْرُكُوهُ فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ،وَجَزَاهُمْ عَنْ نَصِيحَتِهِمْ خَيْرًا،وَلَقَدْ امْتَثَلَ وَصِيَّتَهُمْ وَسَلَكَ سَبِيلَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ.[٢٣٣٩]

وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ:قَالَ أَبُو يُوسُفَ:لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَقَالَتَنَا حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ قُلْنَا.

وَقَدْ صَرَّحَ مَالِكٌ بِأَنَّ مَنْ تَرَكَ قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِقَوْلِ إبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ يُسْتَتَابُ،فَكَيْفَ بِمَنْ تَرَكَ قَوْلَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِقَوْلِ مَنْ هُوَ دُونَ إبْرَاهِيمَ أَوْ مِثْلِهِ؟،وَقَالَ جَعْفَرٌ الْفِرْيَابِيُّ:حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ الدَّوْرَقِيُّ حَدَّثَنِي الْهَيْثَمُ بْنُ جَمِيلٍ قَالَ:قُلْت لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ:يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إنَّ عِنْدَنَا قَوْمًا وَضَعُوا كُتُبًا يَقُولُ أَحَدُهُمْ:ثنا فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِكَذَا وَكَذَا وَفُلَانٌ عَنْ إبْرَاهِيمَ بِكَذَا،وَيَأْخُذُ بِقَوْلِ إبْرَاهِيمَ.

قَالَ مَالِكٌ:وَصَحَّ عِنْدَهُمْ قَوْلُ عُمَرَ؟ قُلْت:إنَّمَا هِيَ رِوَايَةٌ كَمَا صَحَّ عِنْدَهُمْ قَوْلُ إبْرَاهِيمَ،فَقَالَ مَالِكٌ:هَؤُلَاءِ يُسْتَتَابُونَ،وَاَللَّهُ أَعْلَمُ."[٢٣٤٠]

ومما أجمع سلف الأمة على تحريمه أن يقدم قول عالم على نصوص الكتاب والسنة،قال الإمام ابن القيم رحمه الله:" " فَإِنَّا نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ رَجُلٌ وَاحِدٌ اتَّخَذَ رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَلِّدُهُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ فَلَمْ يُسْقِطْ مِنْهَا شَيْئًا،وَأَسْقَطَ أَقْوَالَ غَيْرِهِ فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا

[٢٣٣٩] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٥٩)

[٢٣٤٠] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٤٠)

شَيْئًا.وَنَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِ التَّابِعِينَ وَلَا تَابِعِي التَّابِعِينَ،فَلْيَكْذِبْنَا الْمُقَلِّدُونَ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ الْوَخِيمَةَ فِي الْقُرُونِ الْفَضِيلَةِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –،وَإِنَّمَا حَدَثَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمَذْمُومِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –؛فَالْمُقَلِّدُونَ لِمَتْبُوعِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا قَالُوهُ يُبِيحُونَ بِهِ الْفُرُوجَ وَالدِّمَاءَ وَالْأَمْوَالَ،وَيُحَرِّمُونَهَا،وَلَا يَدْرُونَ أَذَلِكَ صَوَابٌ أَمْ خَطَأٌ،عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ،وَلَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ مَوْقِفٌ شَدِيدٌ يَعْلَمُ فِيهِ مَنْ قَالَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى شَيْءٍ.وَأَيْضًا فَنَقُولُ لِكُلِّ مَنْ قَلَّدَ وَاحِدًا مِنْ النَّاسِ دُونَ غَيْرِهِ:مَا الَّذِي خَصَّ صَاحِبَك أَنْ يَكُونَ أَوْلَى بِالتَّقْلِيدِ مِنْ غَيْرِهِ؟ فَإِنْ قَالَ:" لِأَنَّهُ أَعْلَمُ أَهْلِ عَصْرِهِ "

وَرُبَّمَا فَضَّلَهُ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ مَعَ جَزْمِهِ الْبَاطِلِ أَنَّهُ لَمْ يَجِئْ بَعْدَهُ أَعْلَمُ مِنْهُ،قِيلَ لَهُ:وَمَا يُدْرِيك وَلَسْت مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِشَهَادَتِك عَلَى نَفْسِك أَنَّهُ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ فِي وَقْتِهِ؟ فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يَعْرِفُهُ مَنْ عَرَفَ الْمَذَاهِبَ وَأَدِلَّتَهَا وَرَاجِحَهَا مِنْ مَرْجُوحِهَا فَمَا لِلْأَعْمَى وَنَقْدِ الدَّرَاهِمِ؟،وَهَذَا أَيْضًا بَابٌ آخَرُ مِنْ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ،وَيُقَالُ لَهُ ثَانِيًا فَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَعَائِشَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – أَعْلَمُ مِنْ صَاحِبِك بِلَا شَكٍّ،فَهَلَّا قَلَّدْتهمْ وَتَرَكْته؟ بَلْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَالشَّعْبِيُّ وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَأَمْثَالُهُمْ أَعْلَمُ وَأَفْضَلُ بِلَا شَكٍّ،فَلِمَ تَرَكْتَ تَقْلِيدَ الْأَعْلَمِ الْأَفْضَلِ الْأَجْمَعِ لِأَدَوَاتِ الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ وَرَغِبْت عَنْ أَقْوَالِهِ وَمَذَاهِبِهِ إلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ؟ فَإِنْ قَالَ:" لِأَنَّ صَاحِبِي وَمَنْ قَلَّدْته أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي،فَتَقْلِيدِي لَهُ أَوْجَبَ عَلَيَّ مُخَالَفَةَ قَوْلِهِ لِقَوْلِ مَنْ قَلَّدْته؛لِأَنَّ وُفُورَ عِلْمِهِ وَدِينِهِ يَمْنَعُهُ مِنْ مُخَالَفَةِ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَأَعْلَمُ مِنْهُ إلَّا لِدَلِيلٍ صَارَ إلَيْهِ هُوَ أَوْلَى مِنْ قَوْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ " قِيلَ لَهُ:وَمِنْ أَيْنَ عَلِمْت أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي صَارَ إلَيْهِ صَاحِبُك الَّذِي زَعَمْت أَنْتَ أَنَّهُ صَاحِبُك أَوْلَى مِنْ الدَّلِيلِ الَّذِي صَارَ إلَيْهِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ أَوْ هُوَ نَظِيرُهُ؟ وَقَوْلَانِ مَعًا مُتَنَاقِضَانِ لَا يَكُونَانِ صَوَابًا،بَلْ أَحَدُهُمَا هُوَ الصَّوَابُ،وَمَعْلُومٌ أَنَّ ظَفَرَ الْأَعْلَمِ الْأَفْضَلِ بِالصَّوَابِ أَقْرَبُ مِنْ ظَفَرِ مَنْ هُوَ دُونَهُ.فَإِنْ قُلْت:" عَلِمْت ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ " فَهَهُنَا إذًا قَدْ انْتَقَلْت عَنْ مَنْصِبِ التَّقْلِيدِ إلَى مَنْصِبِ الِاسْتِدْلَالِ،وَأَبْطَلْت التَّقْلِيدَ.ثُمَّ يُقَالُ لَك ثَالِثًا:هَذَا لَا يَنْفَعُك شَيْئًا أَلْبَتَّةَ فِيمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ،فَإِنَّ مَنْ قَلَّدْته وَمَنْ قَلَّدَهُ غَيْرُك قَدْ اخْتَلَفَا،وَصَارَ مَنْ قَلَّدَهُ غَيْرُك إلَى مُوَافَقَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَوْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَوْ عَائِشَةَ وَغَيْرِهِمْ دُونَ مَنْ قَلَّدْته،فَهَلَّا

نَصَحْت نَفْسَك وَهُدِيت لِرُشْدِك وَقُلْت:هَذَانِ عَالِمَانِ كَبِيرَانِ،وَمَعَ أَحَدِهِمَا مَنْ ذُكِرَ مِنْ الصَّحَابَةِ فَهُوَ أَوْلَى بِتَقْلِيدِي إيَّاهُ.وَيُقَالُ لَهُ رَابِعًا إمَامٌ بِإِمَامٍ،وَيَسْلَمُ قَوْلُ الصَّحَابِيِّ،فَيَكُونُ أَوْلَى بِالتَّقْلِيدِ.وَيُقَالُ خَامِسًا:إذَا جَازَ أَنْ يَظْفَرَ مَنْ قَلَّدْته بِعِلْمٍ خَفِيَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَذَوِيهِمْ فَأَحَقُّ وَأَحَقُّ وَأَجْوَزُ وَأَجْوَزُ أَنْ يَظْفَرَ نَظِيرُهُ وَمَنْ بَعْدَهُ بِعِلْمٍ خَفِيَ عَلَيْهِ هُوَ؛فَإِنَّ النِّسْبَةَ بَيْنَ مَنْ قَلَّدْته وَبَيْنَ نَظِيرِهِ وَمَنْ بَعْدَهُ أَقْرَبُ بِكَثِيرٍ مِنْ النِّسْبَةِ بَيْنَ مَنْ قَلَّدْته وَبَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالْخَفَاءُ عَلَى مَنْ قَلَّدْته أَقْرَبُ مِنْ الْخَفَاءِ عَلَى الصَّحَابَةِ."[٢٣٤١]

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله:" وَأَمَّا مَا لَيْسَ مِنَ التَّقْلِيدِ بِجَائِزٍ بِلَا خِلَافٍ،فَهُوَ تَقْلِيدُ الْمُجْتَهِدِ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ الْحُكْمُ بِاجْتِهَادِهِ،مُجْتَهِدًا آخَرَ يَرَى خِلَافَ مَا ظَهَرَ لَهُ هُوَ؛لِلْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدَ إِذَا ظَهَرَ لَهُ الْحُكْمُ بِاجْتِهَادِهِ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُقَلِّدَ غَيْرَهُ الْمُخَالِفَ لِرَأْيِهِ.

وَأَمَّا نَوْعُ التَّقْلِيدِ الَّذِي خَالَفَ فِيهِ الْمُتَأَخِّرُونَ الصَّحَابَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْخَيْرِ،فَهُوَ تَقْلِيدُ رَجُلٍ وَاحِدٍ مُعَيَّنٍ دُونَ غَيْرِهِ،مِنْ جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ.فَإِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ التَّقْلِيدِ،لَمْ يَرِدْ بِهِ نَصٌّ مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ،وَلَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْخَيْرِ.

وَهُوَ مُخَالِفٌ لِأَقْوَالِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ،فَلَمْ يَقِلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْجُمُودِ عَلَى قَوْلِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مُعَيَّنٍ دُونَ غَيْرِهِ،مِنْ جَمِيعِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

فَتَقْلِيدُ الْعَالِمِ الْمُعَيَّنِ مِنْ بِدَعِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ،وَمَنْ يَدَّعِي خِلَافَ ذَلِكَ،فَلْيُعَيِّنْ لَنَا رَجُلًا وَاحِدًا مِنَ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُوَلِ،الْتَزَمَ مَذْهَبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مُعَيَّنٍ،وَلَنْ يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ أَبَدًا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقَعِ الْبَتَّةَ.

وَسَنَذْكُرُ هُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ جُمَلًا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي فَسَادِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّقْلِيدِ وَحُجَجِ الْقَائِلِينَ بِهِ،وَمُنَاقَشَتِهَا،وَبَعْدَ إِيضَاحِ ذَلِكَ كُلِّهِ نُبَيِّنُ مَا يَظْهَرُ لَنَا بِالدَّلِيلِ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"[٢٣٤٢]

[٢٣٤١] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٤٥)

[٢٣٤٢] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٣٠٧)

قلت :هذا الكلام لا يسوغ إلا لمن ملك آلة الاجتهاد فقط،وما سواه واجب عليه اتباع أهل العلم،وأي واحد منهم قلده لا حرج عليه في ذلك وليس بآثم،وقد بينت ذلك بالتفصيل في كتابي " الخلاصة في أحكام الاجتهاد والتقليد "

بل هناك تدليس في النقل عن الأئمة الذين حرموا التقليد،وهم يقصدون بذلك من ملك آلة الاجتهاد وليس عامة الناس قطعا كما هو مبين من كلامهم وعلى رأسهم العلامة ابن حزم رحمه الله تعالى.

وقال الشنقيطي رحمه الله :" وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْأَئِمَّةَ الْأَرْبَعَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ نَهَوْا عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فِي كُلِّ مَا خَالَفَ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُمْ أَصْحَابُهُمْ،كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كُتُبِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ.وَكُتُبِ الشَّافِعِيَّةِ عَنِ الشَّافِعِيِّ الْقَائِلِ:إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي.وَكُتُبِ الْمَالِكِيَّةِ،وَالْحَنَابِلَةِ عَنْ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا.وَكَذَلِكَ كَانَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَفَاضِلِ الْعُلَمَاءِ يَمْنَعُونَ مِنْ تَقْلِيدِهِمْ فِيمَا لَمْ يُوَافِقِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَقَدْ يَتَحَفَّظُونَ مِنْهُ وَلَا يَرْضَوْنَ.

قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جَامِعِهِ:وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ حَارِثٍ فِي أَخْبَارِ سَحْنُونَ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَحْنُونَ،قَالَ:كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ،وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ،وَمُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ دِينَارٍ،وَغَيْرُهُمْ يَخْتَلِفُونَ إِلَى ابْنِ هُرْمُزَ،فَكَانَ إِذَا سَأَلَهُ مَالِكٌ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ أَجَابَهُمَا.

وَإِذَا سَأَلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ دِينَارٍ وَذَوُوهُ لَمْ يُجِبْهُمْ فَقَالَ لَهُ:يَسْأَلُكَ مَالِكٌ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ فَتُجِيبُهُمَا،وَأَسْأَلُكُ أَنَا وَذَوِيَّ فَلَا تُجِيبُنَا؟ فَقَالَ:أَوَقَعَ ذَلِكَ يَا ابْنَ أَخِي فِي قَلْبِكَ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ لَهُ:إِنِّي قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي وَرَقَّ عَظْمِي،وَأَنَا أَخَافُ أَنْ يَكُونَ خَالَطَنِي فِي عَقْلِي مِثْلُ الَّذِي خَالَطَنِي فِي بَدَنِي،وَمَالِكٌ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ عَالِمَانِ فَقِيهَانِ،إِذَا سَمِعَا مِنِّي حَقًّا قَبِلَاهُ،وَإِذَا سَمِعَا خَطَأً تَرَكَاهُ،وَأَنْتَ وَذَوُوكَ مَا أَجَبْتُكُمْ بِهِ قَبِلْتُمُوهُ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ حَارِثٍ:هَذَا وَاللَّهِ هُوَ الدِّينُ الْكَامِلُ،وَالْعَقْلُ الرَّاجِحُ،لَا كَمَنْ يَأْتِي بِالْهَذَيَانِ،وَيُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ الْقُلُوبِ مَنْزِلَةَ الْقُرْآنِ.انْتَهَى مِنْهُ."[٢٣٤٣]

قال المؤلف رحمه الله :" وقد نهى الأئمة الأربعة عن الأخذ بأقوالهم إذا خالفت الكتاب والسنة،فقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله:"إذا صح الحديث فهو مذهبي "،وقال:"لا يحل لأحد أن

[٢٣٤٣] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٣٤٧)

يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه"،وفي رواية:"حرام على من لم يعرف دليلي أن يُفتي بكلامي "،وفي رواية:"ويحك يا يعقوب لا تكتب كل ما تسمع مني،فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً،وأرى الرأي غداً وأتركه بعد غد"،وقال:"إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولي".[٢٣٤٤]

وقال الإمام مالك بن أنس رحمه الله:"إنما أنا بشر أخطئ وأصيب،فانظروا في رأيي؛فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه،وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"،وقال:"ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك؛إلا النبي ﷺ".[٢٣٤٥]

وقال الإمام الشّافعيّ رحمه الله:"ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه،فمهما قلتُ من قول،أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت؛فالقول ما قال رسول الله ﷺ،وهو قولي"،وقال:"أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد "،وقال:"إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ؛فقولوا بسنة رسول الله ﷺ،ودعوا ما قلت ".[٢٣٤٦]

وقال:"إذا صح الحديث فهو مذهبي"،وقال:"أنتم أعلم بالحديث والرجال مني،فإذا كان الحديث الصحيح؛فأعلموني به أي شيء يكون:كوفيّاً أو بصريّاً أو شاميّاً؛حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً "،وقال:"كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت؛فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي ".[٢٣٤٧]

[٢٣٤٤] - الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف للدهلوي (ص:١٠٤) ورفع الملام عن الإئمة الأعلام بتحقيقي (ص:٤٢) وعقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد (ص:٢٨)

[٢٣٤٥] - إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار (ص:٧٢) والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٦/ ٥٦) والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص:٤٢) والموافقات (٥/ ٣٣١) ومختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول (ص:٦١)

[٢٣٤٦] - إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار (ص:٦٣) ومختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول (ص:٥٨) وإعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٠٤)

[٢٣٤٧] - إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار (ص:٥٢) والإبهاج في شرح المنهاج (٣/ ٢٠٨) والإنصاف في بيان أسباب الاختلاف للدهلوي (ص:١٠٤) والعقد التليد في اختصار الدر النضيد = المعيد في أدب المفيد

وقال:"إذا رأيتموني أقول قولاً،وقد صح عن النبي ﷺ خلافه فاعلموا أن عقلي قد ذهب"،وقال "كل ما قلت؛فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح فحديث النبي أولى،فلا تقلدوني"،وقال:"كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي،وإن لم تسمعوه مني "،وقال:"مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري ".

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:"لا تقلدني،ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي،ولا الثوري،وخذ من حيث أخذوا"،وفي رواية:"لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء،ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به،ثم التابعين بعد الرجل فيهم مخير"،وقال:"الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه،ثم هو من بعد مع التابعين مخير"،وقال "رأي الأوزاعي،ورأي مالك،ورأي أبي حنيفة كله رأي،وهو عندي سواء،وإنما الحجة في الآثار"،وقال "من رد حديث رسول الله ﷺ؛فهو على شفا هلكة "،وقال " من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال " وقال" عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته،يذهبون إلى رأي سفيان،والله تعالى يقول:{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}،أتدري ما الفتنة،الفتنة:الشرك،لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك ".[٢٣٤٨]

قلت :" وهذا لا يسوغ إلا لمن ملك آلة الاجتهاد،وأما من لم يملكها فلا يجوز له ذلك .

وأما معنى أقوالهم هذه فهي موجهة لطلابهم الذين بلغوا مرتبة الاجتهاد المطلق،وليس لكل الأجيال .

كما أن معنى قولهم :" إذا صح الحديث فهو مذهبي" فهو إذا صح الحديث وفق القواعد والضوابط التي وضعها الإمام لصحة الحديث و لم يعارضه ما هو أقوى منه و لم يكن منسوخاً فهو مذهبه بلا ريب،لأنه لم يحط علماً بكل السنة النبوية،وإذا إذا صح الحديث وفق قواعد غيره فهو غير ملزم به أصلاً .

والمستفيد (ص:١٩٤) والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص:٥٧) والمدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية (ص:٢٧) ورفع الملام عن الإئمة الأعلام بتحقيقي (ص:٤٣) وعقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد (ص:٢٧)

[٢٣٤٨] - إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار (ص:١١٣) ورفع الملام عن الإئمة الأعلام بتحقيقي (ص:١٠٤) ووجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها (ص:٢٤)

ومن ثم مع الأسف الشديد فإن الذين يحتجون بهذا الكلام- دون الرجوع لمقاصـــد الأئمـــة أنفسهم – لرد أقوال الأئمة رضي الله عنهم بحجة مخالفته للسنة النبوية فهم مخطئون بيقين بل وآثمون لأنهم يقولون على الأئمة بغير علم ولا روية .

وقد فصلت القول في ذلك بكتابي " الخلاصة في أحكام الاجتهاد والتقليد "



المبحث الثاني والعشرون

الجنايات والحدود

القصاص:

لقد شرع الله تعالى القصاص حياة للناس وحفظا للأنفس من التعدي فقال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:١٧٩]

فِي القِصَاصِ رَاحَةُ البَالِ،وَصِيَانَةُ النَّاسِ مِنِ اعتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضِهِم الآخَرِ،لأَنَّ مَعْرِفَةَ النَّاسِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ يُعَاقَبُ بالقَتْلِ،تَحْمِلُهُمْ عَلَى الارتداعِ عَنِ القَتْلِ،فَتُصَانُ حَيَاةُ النَّاسِ،وَحَيَاةُ مَنْ يُفَكِّرُ بِالقَتْلِ.وَخَصَّ اللهُ تَعَالَى بِالنِّداءِ أَرْبَابَ العُقُولِ للدَّلاَلَةِ عَلَى أَنَّ الذِينَ يَفْهَمُونَ قِيمَةَ الحَيَاةِ،وَيُحَافِظُونَ عَلَيها هُمُ العُقَلاَءُ.وَإِذا تَدَبَّرَ أُولُو الأَلبَابِ الحِكْمَةَ مِنْ شَرْعِ القِصَاصِ حَمَلَهُمْ ذلكَ عَلَى اتِّقَاءِ الاعتِدَاءِ،وَالكَفِّ عَنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ.[٢٣٤٩]

بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} أي:تنحقن بذلك الدماء،وتنقمع به الأشقياء،لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل،لا يكاد يصدر منه القتل،وإذا رئي القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره وانزجر،فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر،الذي يحصل بالقتل،وهكذا سائر الحدود الشرعية،فيها من النكاية والانزجار،ما يدل على حكمة الحكيم الغفار،ونكَّر "الحياة "لإفادة التعظيم والتكثير.ولما كان هذا الحكم،لا يعرف حقيقته،إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة،خصهم بالخطاب دون غيرهم،وهذا يدل على أن الله تعالى،يحب من عباده،أن يعملوا أفكارهم وعقولهم،في تدبر ما في أحكامه من الحكم،والمصالح الدالة على كماله،وكمال حكمته وحمده،وعدله ورحمته الواسعة،وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب،وناداهم رب الأرباب،وكفى بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون.وقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم

[٢٣٤٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨٦،بترقيم الشاملة آليا)

البديعة والآيات الرفيعة،أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله،ويعظم معاصيه فيتركها،فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.[2350]

إن في القصاص الحياة الهنيئة،وصيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض،إذ من علم أنه إذا قتل نفسا يقتل بها،يرتدع عن القتل فيحفظ حياة من أراد قتله وحياة نفسه،والاكتفاء بالدية لا يردع كل أحد عن سفك دم خصمه إن استطاع،إذ من الناس من يبذل المال الكثير للإيقاع بعدوه.وقد أثر عن العرب كلمات تفيد معنى الآية كقولهم:القتل أنفى للقتل،وقولهم:قتل البعض إحياء للجميع،وقولهم:أكثروا القتل ليقلّ القتل،ولكن الآية أخصر من هذا كله،وفيها من الفوائد ما لا يوجد فيما أثر عنهم،إذ أن القتل ظلما لا يكون نافيا للقتل بل هو سبب في زيادته،وإنما النافي للقتل هو القتل قصاصا،وأمرهم بالقتل ليقلّ القتل أو ينتفى،يصدق باعتداء قبيلة على أخرى والإسراف في قتل رجالها لتضعف فلا تقدر على الأخذ بالثأر،ويكون المراد أن قتلنا لعدوّنا إحياء لنا وتقليل أو نفى لقتله إيانا.

(يا أُولِي الْأَلْبابِ) وخصّ أرباب العقول بالنداء للدلالة على أن الذي يفهم قيمة الحياة ويحافظ عليها هم العقلاء،كما أنهم هم الذين يفقهون سرّ هذا الحكم وما اشتمل عليه من المصلحة والحكمة،فعليكم أن تستعملوا عقولكم في فهم دقائق الأحكام.

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أي ولما كان في القصاص حياة لكم كتبناه عليكم وشرعناه لكم لعلكم تتقون الاعتداء وتكفّون عن سفك الدماء،إذ العاقل يحرص على الحياة،ويحترس من غوائل القصاص.[2351]

إنه ليس الانتقام،وليس إرواء الأحقاد.إنما هو أجل من ذلك وأعلى.إنه للحياة،وفي سبيل الحياة،بل هو في ذاته حياة ..ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة،ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله ..والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء.فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنا لحياة من يقتل ..جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد.كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل.شفائها من الحقد

[2350] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:85)

[2351] - تفسير المراغي (2/ 63)

والرغبة في الثأر.الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاما كما في حرب البسوس المعروفة عندهم.وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم،حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلا بعد جيل،ولا تكف عن المسيل ..وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم.فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها،واعتداء على كل إنسان حي،يشترك مع القتيل في سمة الحياة.فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة،فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها.وكان في هذا الكف حياة.حياة مطلقة.لا حياة فرد،ولا حياة أسرة،ولا حياة جماعة ..بل حياة ..ثم – وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة – استجاشة شعور التدبر لحكمة الله،ولتقواه:«لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ..

هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء.الاعتداء بالقتل ابتداء،والاعتداء في الثأر أخيرا ..التقوى ..حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه.

إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة،ولا يفلح قانون،ولا يتحرج متحرج،ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان! وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي – ﷺ – وعهد الخلفاء،ومعظمها كان مصحوبا باعتراف الجاني نفسه طائعا مختارا ..لقد كانت هنالك التقوى ..كانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر،وفي حنايا القلوب،تكفها عن مواضع الحدود ..إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب ..وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى،تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور.نظيف الحركة نظيف السلوك.لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير! «حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان،وسقط الإنسان سقطة،وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون،تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة،ووخزا لاذعا للضمير،وخيالا مروعا،لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام

القانون،ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة،ويتحملها مطمئنا مرتاحا،تفاديا من سخط الله،وعقوبة الآخرة» إنها التقوى ..إنها التقوى ..[2352]

فإذا قُتل مسلم أو مسلمة فإن لأولياء القتيل أن يختاروا القصاص،أو الدية،أو العفو،وهذا هو العدل الذي أمر الله تعالى به فلا يجوز الاعتداء على أقارب الجاني كما كان يفعله أهل الجاهلية،وهو ما يفعله بعض عصاة المسلمين،وقد قال الله تعالى:{وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا } [الإسراء:٣٣]

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ شَرعِيٍّ.وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ يُوجِبُ قَتْلَهُ،فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً وَسَلَّطَهُ عَلَى القَاتِلِ،إِنْ شَاءَ قَتْلَهُ قوَداً،وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ،وَأَخَذَ الدِّيةَ،وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ بِغَيْرِ دِيَة.ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى وَلِيَّ المَقْتُولِ بِأَلاَّ يَتَجَاوَزَ الحَدَّ المَشْرُوعَ بِأَنْ يَقْتُلَ اثْنَيْنِ مُقَابِلَ وَاحِد،أَوْ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْ غَيْرِ القَاتِلِ،كَإِخْوَتِه وَأَقْرِبَائِه.وَيُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ وَلِيَّ المَقْتُولِ مَنْصُورٌ عَلَى القَاتِلِ،بِأَنْ أَوْجَبَ لَهُ القِصَاصَ أَوِ الدِّيَةَ وَأَمَرَ الحُكَّامَ بِأَنْ يُعِينُوهُ فِي اسْتِيفَائِه حَقَّهُ.[2353]

وفى قوله تعالى:«إِلَّا بِالْحَقِّ» قيد وارد على النهى المطلق،وهو أنه وإن كان للنفس الإنسانية هذه الحرمة التي تعصمها من القتل،فإن هناك بعض النفوس ترفع عنها هذه العصمة فتستحق القتل،وذلك حين يستخفّ صاحبها بنفس غيره،ويستبيح دمه..هنا يكون القصاص،ويكون قتل القاتل،حقّا مشروعا..فذلك هو العدل الذي إن لم يستقم ميزانه بين الناس على هذا الوجه،اضطرب أمنهم،وشاع الفساد فيهم..والله سبحانه وتعالى يقول:«وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ» وتقتل النفس كذلك،وقتلها حق،فى حال الكفر بعد الإيمان،والزنا مع الإحصان.فالكفر بعد الإيمان عدوان على الله،وإهدار لآدمية النفس التي لبست الإيمان،ثم خلعت هذا اللباس وارتدت الكفر..إنها كانت حيّة بالإيمان،فأماتها صاحبها بالكفر،فكان

[2352] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٣)

[2353] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٦٣،بترقيم الشاملة آليا)

الحكم عليها بالموت تحقيقا لأمر هى فيه،فعلا..وكذلك الزاني المحصن،قد اعتدى علـــى حـــقّ غيره،وغرس فى مغارسه،التي يستنبت منها حياة إنسانية مثل حياته.
وفى قوله تعالى:«وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْــلِ إِنَّــهُ كـــانَ مَنْصُوراً» .
– الذي قتل مظلوما،هو الذي قتل عدوانا وبغيا من غير جريرة استحق عليها القتـــل،وهو أن يكون قاتلا لنفس بغير حق..
والولىّ،هو من يكون إليه أمر القصاص من القاتل،سواءا كان قريبا،أم سلطانا..والســـلطان،هو سلطان الحق،الذي فى يد ولىّ المقتول على القاتل..فهو بهذا الحق يقتل القاتل..ولـــيس لـــولىّ المقتول،أن يجاوز الحق الذي له على القاتل،فيقتل غير القاتل،أو يقتل مع القاتل غيره،كـــابن أو أخ..كما أنه ليس له أن يمثّل بالقاتل..وإنما هى ضربة بضربة..!
فهذا هو الإمام علىّ– كرم الله وجهه– حين طعنه ابن ملجـــم– لعنـــه الله– هـــذه الطعنـــة الغادرة،استدعى أبناءه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية– رضى الله عنهم– وأوصاهم فيمـــا أوصاهم به،فقال:«إن عشت فأنا صاحب الحق،إن شئت أخذت بحقّى،وإن شئت عفوت،وإن متّ فضربة بضربة،ولا تمثّلوا» ..فالتمثيل بالقاتل هو من الإسراف فى القتل الذي تضمنه النهى فى قوله تعالى.«فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ» ..هذا،السلطان،الحاكم،هو ولىّ دم كل قتيل يقتل ممـــن هم تحت سلطانه..وله أن يتولىّ قتل القاتل،أو أن يسلّمه إلى يد أوليـــاء القتيـــل،ليقتلوه هـــم بأيديهم،شفاء لما فى أنفسهم من حزن على قتيلهم،ومن نقمة على قاتله.[٢٣٥٤]
يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَــرَّمَ رَبُّكُــمْ عَلَــيْكُمْ أَلَّــا تُشْــرِكُوا بِــهِ شَــيْئًا} [الأنعام:١٥١]،{وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الأنعام:١٥١]،يَعْنِــي بِــالنَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا:نَفْسَ مُؤْمِنٍ أَوْ مُعَاهَدٍ.وَقَوْلُهُ:{إِلَّا بِالْحَقِّ} [الأنعام:١٥١] يَعْنِي:بِمَا أَبَــاحَ قَتْلَهَا بِهِ مِنْ أَنْ تَقْتُلَ نَفْسًا فَتُقْتَلَ قَوَدًا بِهَا،أَوْ تَزْنِيَ وَهِيَ مُحْصَنَةٌ فَتُرْجَمَ،أَوْ تَرْتَدَّ عَــنْ دِينِهَــا الْحَقِّ فَتُقْتَلَ،فَذَلِكَ الْحَقُّ الَّذِي أَبَاحَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ قَتْلَهَــا بِهِ.{ذَلِكُمْ} [البقرة:٤٩] يَعْنِي:هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي عَهِدَ إِلَيْنَا فِيهَا رَبُّنَــا أَنْ لَــا نَأْتِيَــهُ وَأَنْ لَــا

[٢٣٥٤] – التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٤٨٣)

نَدَعَهُ،هِيَ الْأُمُورُ الَّتِي أَوْصَانَا وَالْكَافِرِينَ بِهَا أَنْ نَعْمَــلَ جَمِيعًــا بِــهِ.{لَعَلَّكُــمْ تَعْقِلُــونَ} [البقرة:٧٣] يَقُولُ:وَصَّاكُمْ بِذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ مَا وَصَّاكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ"[٢٣٥٥]

أَيْ وَالْخَامِسُ مِمَّا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَصَايَا رَبِّكُمْ أَلَّا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا بِالْإِسْــلَامِ أَوْ عَقْدِ الذِّمَّةِ أَوِ الْعَهْدِ أَوِ الِاسْتِئْمَانِ،فَيَدْخُلُ فِي عُمُومِهَا كُلُّ أَحَدٍ إِلَّا الْحَرْبِيَّ.وَيُطْلَقُ الْعَهْــدُ عَلَى الثَّلَاثَةِ،وَمِنْهُ مَا وَرَدَ فِي النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الْمُعَاهَدِ وَإِيذَائِهِ،كَقَوْلِهِ ﷺ:" مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَــمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْــدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَقَوْلُهُ ﷺ " مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَقَدْ أَخْفَرَ بِذِمَّةِ اللَّهِ فَلَا يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِينَ خَرِيفًا " رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَــالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ،وَقَوْلُهُ:(إِلَّا بِالْحَقِّ) هُوَ مَا يُبِيحُ الْقَتْلَ شَــرْعًا كَقَتْلِ الْقَاتِلِ عَمْدًا بِشَرْطِهِ.

(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) الْإِشَارَةُ إِلَى الْوَصَايَا الْخَمْسِ الَّتِي تُلِيَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.وَاللَّامُ فِيهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى بُعْدِ مَدَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْوَصَايَا الْمُشَارُ إِلَيْهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْأَحْكَامِ وَالْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ – أَوْ بَعْدَهَا عَنْ مُتَنَاوَلِ أَوْضَاعِ الْجَهْــلِ وَالْجَاهِلِيَّــةِ وَلَــا سِــيَّمَا مَــعَ الْأُمِّيَّةِ.وَالْوَصِيَّةُ مَا يُعْهَدُ إِلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَــهُ مِــنْ خَيْــرٍ أَوْ تَــرْكِ شَــرٍّ بِمَــا يُرْجَــى تَأْثِيرُهُ،وَيُقَالُ:أَوْصَاهُ وَوَصَّاهُ.وَجَعَلَهَا الرَّاغِبُ عِبَارَةً عَمَّا يُطْلَبُ مِنْ عَمَلٍ مُقْتَرِنًا بِوَعْظٍ.وَأَصْــلُ مَعْنَى " وَصَى " الثُّلَاثِيِّ " وَصَلَ "،وَمُوَاصَاةُ الشَّيْءِ مُوَاصَلَتُهُ.وَهُوَ خَــاصٌّ بِالنَّــافِعِ كَــالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ.يُقَالُ:وَصَى النَّبْتُ اتَّصَلَ وَكَثُرَ،وَأَرْضٌ وَاصِيَةُ النَّبَاتِ.وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ فِي وَصْفِ صَيِّبِ الْمَطَرِ.

جَوْنٌ أَعَارَتْهُ الْجَنُوبُ جَانِبًا ...مِنْهَا وَوَاصَتْ صَوْبَهُ يَدُ الصَّبَا

أَيْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ إِعْدَادِكُمْ وَبَاعِثِ الرَّجَاءِ فِي أَنْفُسِكُمْ لِأَنْ تَعْقِلُوا مَــا فِيــهِ الْخَيْرُ وَالْمَنْفَعَةُ فِي تَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ وَفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا تُدْرِكُهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ بِأَدْنَى تَأَمُّلٍ،وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْحُسْنِ الذَّاتِيِّ وَإِدْرَاكِ الْعُقُولِ لَهُ بِنَظَرِهَا،وَإِذَا هِيَ عَقَلَتْ ذَلِكَ كَانَ

[٢٣٥٥] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٦٦١)

عَاقِلًا لَهَا وَمَانِعًا مِنَ الْمُخَالَفَةِ.وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَتَحْرِيمِ السَّوَائِبِ وَغَيْرِهَا،مِمَّا لَا تُعْقَلُ لَهُ فَائِدَةٌ،وَلَا تَظْهَرُ لِلْأَنْظَارِ الصَّحِيحَةِ فِيهِ مُصْلِحَةٌ.[٢٣٥٦]

والإسلام دين الحياة ودين السلام،فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله،فالله واهب الحياة،وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها.وكل نفس هي حرم لا يمس،وحرام إلا بالحق،وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه،وليس متروكا للرأي ولا متأثرا بالهوى.وقد جاء في الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِى،وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ» ..[٢٣٥٧]

فأما الأولى فهي القصاص العادل الذي إن قتل نفسا فقد ضمن الحياة لنفوس «وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ».

حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء.وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل،بل يمضوا في الثأر،ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل دماء ودماء.وحياة بأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص،فينطلق آمنا يعمل وينتج فإذا الأمة كلها في حياة.

وأما الثانية فهي دفع للفساد القاتل في انتشار الفاحشة،وهي لون من القتل على النحو الذي بيناه.

وأما الثالثة فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضى في الجماعة،ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها،ويسلمها إلى الفرقة القاتلة.والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الإسلام لم يجبر عليه،ودخل في جسم الجماعة المسلمة،واطلع على أسرارها،فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها.ولو بقي خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام.بل لتكفل الإسلام

[٢٣٥٦] – تفسير المنار (٨/ ١٦٦)

[٢٣٥٧] – صحيح البخارى- المكنز [٢٢/ ٤٤٥] (٦٨٧٨)

بحمايته إن كان من أهل الكتاب وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين.ولـــيس بعـــد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة.

«وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» ..«وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً» ..

تلك الأسباب الثلاثة هي المبيحة للقتل،فمن قتل مظلوما بغير واحد من تلـــك الأســـباب،فقد جعل الله لوليه - وهو أقرب عاصب إليه - سلطانا على القاتل،إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية،وإن شاء عفا عنه بلا دية.فهو صاحب الأمر في التصرف في القاتل،لأن دمه له.

وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالا لهذا الســـلطان الذي منحه إياه.

والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم - كمـــا يقـــع في الثـــأر الجاهلي الذي يؤخذ فيه الآباء والأخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل - ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل،والولي مسلط على دمه بلا مثلة.فالله يكـــره المثلـــة والرسول قد نهى عنها.

«فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً» يقضي له الله،ويؤيده الشرع،وينصره الحاكم.فليكن عادلا في قصاصه،وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه.وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل،وتجنيد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية،وتهدئة للغليـــان الذي تستشعره نفس الولي.الغليان الذي قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يمينا وشمـــالا في حمـــى الغضب والانفعال على غير هدى.فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل،وأن الحـــاكم مجند لنصرته على القصاص،فإن ثائرته تهدأ ونفسه تسكن ويقف عند حد القصـــاص العـــادل الهادئ.

والإنسان إنسان فلا يطالب بغير ما ركب في فطرته من الرغبة العميقة في القصـــاص.لـــذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبيها في الحدود المأمونة،ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضا.إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ويحبب فيه،ويأجر عليه.ولكن بعد أن يعطي الحق.فلولي الدم أن

يقتص أو يصفح.وشعور ولي الدم بأنه قادر على كليهما قد يجنح به إلى الصفح والتسامح،أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ويدفع به إلى الغلو والجماح![2358]

أي لا يمثل الولي بالجاني فيسرف في القتل،وقيل لا يقتل غير القاتل،وقد أخرج البيهقي في سننه عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،أَنَّ النَّاسَ،فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا قَتَلَ الرَّجُلُ مِنَ الْقَوْمِ رَجُلًا لَمْ يَرْضَوْا حَتَّى يَقْتُلُوا بِهِ رَجُلًا شَرِيفًا،إِذَا كَانَ قَاتِلُهُمْ غَيْرَ شَرِيفٍ لَمْ يَقْتُلُوا قَاتِلَهُمْ وَقَتَلُوا غَيْرَهُ،فَوُعِظُوا فِي ذَلِكَ بِقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء:٣٣].وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ:السَّرَفُ أَنْ يَقْتُلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ:قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} [البقرة:١٧٨] الْآيَةَ [2359]

وعَنْ طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ،{فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ} [الإسراء:٣٣] قَالَ:" لَا يَقْتُلْ غَيْرَ قَاتِلِهِ،وَلَا يُمَثِّلْ بِهِ"[2360]

وعَنْ طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ ؛فِي قَوْلِهِ :{فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ}،قَالَ :أَنْ تَقْتُلَ غَيْرَ قَاتِلِكَ،أَوْ تُمَثِّلَ بِقَاتِلِكَ.[2361]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ؛{فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ}،قَالَ :أَنْ يَقْتُلَ اثْنَيْنِ بِوَاحِدٍ.[2362]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:" أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلاَثَةٌ:مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ،وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ،وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ " أخرجه البخاري[2363].

[2358] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٩٠٢)

[2359] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٤٧)(١٥٨٨٩) صحيح مرسل

[2360] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٤٧)(١٥٨٨٨) صحيح

[2361] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٤/ ٣١٠)(٢٨٥١٦) صحيح

[2362] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٤/ ٣١٠)(٢٨٥١٧) صحيح

[2363] – صحيح البخاري (٩/ ٦)(٦٨٨٢)

[ش (أبغض الناس) أكثرهم عقابا منه وبعدا عن رحمته.(ملحد) ظالم مائل عن الحق والعدل بارتكاب المعصية.(مبتغ) طالب ومتبع.(سنة الجاهلية) طريقتها وعاداتها وأخلاق أهلها.(مطلب) متكلف للطلب وساع وراءه في كل مكان.(بغير حق) يستبيح دمه.(ليهريق دمه) ليسيله وهو كناية عن القتل]

والقصاص كما يشرع في النفس فكذلك يشرع في الجراح والأطراف مع المساواة،قال تعالى:{ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [المائدة:٤٥]

جَاءَت التَّوْرَاةُ بِشرْعَة القصَاص:فَالنَّفْسُ تُقْتَلُ بِالنَّفْسِ،وَلَكنَّ اليَهُودَ يُخَالِفُونَ هَذا الحُكْمَ عَمْداً وَعِنَاداً:فَقَدْ كَانَتْ قَبِيلَتَا بَنِي النَّضِيرَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ تَتَحَارَبَانِ وَتَتَقَاتَلاَن،وَكَانَتْ قَبْلَةَ بَنِي النَّضِيرِ قَوِيَّةً عَزِيزَةَ الجَانب،وَكَانَ بَنُو قُرَيْظَةَ ضُعَفَاءَ أَذلاَّءَ،فَكَانَ النَّضيريُّ إذَا قَتَلَ قُرَظِيّاً،لَمْ يَكُنْ لِيَقْتُلَ بِه،بَلْ يُعْدلُ فِيهِ إلى الدِّيَة.أَمَّا إذَا قَتَلَ القُرَظِيُّ نَضيرِيّاً،فَكَانَ يُقْتَلُ بِهِ،وَفِي ذَلِكَ مُخَالَفَةٌ لِحُكْمِ التَّوْرَاة.

(أَبْغَضُ النَّاسِ):هُوَ أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مِنَ الْمَفْعُولِ عَلَى الشُّذُوذِ،وَاللَّامُ فِي النَّاسِ لِلْعَهْدِ،وَالْمُرَادُ مِنْهُ عُصَاةُ الْمُسْلِمِينَ وَمَا قَالَهُ بَعْضٌ مِنْ أَنَّهَا لِلْجِنْسِ فَبَعِيدٌ،إِذْ لَا مَعْصِيَةَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُفْرِ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُحْمَلَ عَلَى التَّهْدِيدِ (إِلَى اللَّهِ) أَيْ:وَإِنْ كَانَ أَحَبَّهُمْ إِلَى غَيْرِهِ (ثَلَاثَةٌ)،أَيْ:أَشْخَاصٍ أَحَدُهُمْ أَوْ مِنْهُمْ (مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ)،أَيْ:ظَالِمٌ أَوْ عَاصٍ فِيهِ،فَإِنَّهُ عَاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَهَاتِكٌ حُرْمَةَ الْحَرَمِ،وَالْإِلْحَادُ الْمَيْلُ عَنِ الصَّوَابِ وَمِنْهُ اللَّحْدُ.قَالَ الْأَبْهَرِيُّ:فَإِنْ قُلْتَ:فَاعِلُ الصَّغِيرَةِ فِيهِ مَائِلٌ عَنِ الْحَقِّ فَيَكُونُ أَبْغَضَ مِنْ صَاحِبِ الْكَبِيرَةِ الْمَفْعُولَةِ فِي غَيْرِهِ.قُلْتُ:نَعَمْ مُقْتَضَاهُ ذَلِكَ بَلْ مُرِيدُهَا كَذَلِكَ.قَالَ تَعَالَى:{وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج:٢٥] وَالظُّلْمُ فَسَّرَهُ هُنَا بَعْضُ السَّلَفِ بِشَتْمِ الْخَادِمِ (وَمُبْتَغٍ)،أَيْ:طَالِبٌ (فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ):إِطْلَاقُ السُّنَّةِ عَلَى فِعْلِ الْجَاهِلِيَّةِ إِمَّا عَلَى أَصْلِ اللُّغَةِ أَوْ عَلَى التَّهَكُّمِ وَهِيَ مِثْلُ النِّيَاحَةِ وَالْمَيْسِرِ وَالنَّيْرُوزِ وَقَتْلِ الْأَوْلَادِ وَبُغْضِ الْبَنَاتِ وَجَزَاءِ شَخْصٍ بِجِنَايَةِ مَنْ هُوَ مِنْ قَبِيلَتِهِ (وَمُطَّلِبٍ):بِالتَّنْوِينِ (دَمَ امْرِئٍ):بِالنَّصْبِ،وَقِيلَ بِالْإِضَافَةِ وَهُوَ بِتَشْدِيدِ الطَّاءِ مِنَ الْإِطِّلَابِ،أَيْ:مُتَكَلِّفٌ فِي الطَّلَبِ.قَالَ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ،أَيْ:مُجْتَهِدٌ فِي الطَّلَبِ،وَأَصْلُهُ مُتَطَلِّبٌ فَحَذَفَ التَّاءَ وَشَدَّدَ الطَّاءَ إِيذَانًا بِالتَّاءِ وَأَدْغَمَ فِيهَا.كَذَا فِي " زَيْنِ الْعَرَبِ " وَ " الْأَزْهَارِ "،وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ اللَّامُ مُشَدَّدَةً يَعْنِي كَالْمُزَّمِّلِ لَكِنَّ الْمَسْمُوعَ مِنْ أَفْوَاهِ الْمَشَايِخِ تَشْدِيدُ الطَّاءِ دُونَ اللَّامِ اهـ.

فَيَكُونُ كَالْمُدَّكِرِ وَوَجْهُهُ أَنَّ مُطَّلِبَ أَصْلُهُ مُتَطَلِّبٌ عَلَى مُفْتَعِلٍ فَأُبْدِلَتِ التَّاءُ طَاءً وَأُدْغِمَتْ،وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلْقِيَاسِ دُونَ الْأَوَّلِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(مُسْلِمٍ):كَذَا فِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ صِفَةُ امْرِئٍ (بِغَيْرِ حَقٍّ):فَالْقَاتِلُ ارْتَكَبَ مَا كَرِهَهُ اللَّهُ مِنْ وَجْهَيْنِ.أَحَدُهُمَا ظُلْمٌ وَالثَّانِي أَنَّهُ يَسُوءُ الْعَبْدَ وَاللَّهُ يَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ (لِيُهْرِيقَ):بِفَتْحِ الْهَاءِ وَيَسْكُنُ (دَمَهُ):مِنْ هَرَاقَ الْمَاءَ إِذَا صَبَّهُ،وَالْأَصْلُ أَرَاقَ قُلِبَتِ الْهَمْزَةُ هَاءً وَفِيهِ لُغَةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَهْرَاقَ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْهَاءِ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ أَبْغَضَ عُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الذَّنْبِ وَمَا يَزِيدُ بِهِ قُبْحًا مِنَ الْإِلْحَادِ،وَكَوْنُهُ فِي الْحَرَمِ،وَإِحْدَاثِ الْبِدْعَةِ فِي الْإِسْلَامِ،وَكَوْنِهِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَقَتْلِ النَّفْسِ لَا لِغَرَضٍ صَحِيحٍ،بَلْ لِكَوْنِهِ قَتْلًا كَمَا يَفْعَلُ شُطَّارُ زَمَانِنَا،وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ لِيُهْرِيقَ دَمَهُ،وَمَزِيدُ الْقُبْحِ فِي الْأَوَّلِ بِاعْتِبَارِ الْمَحَلِّ،وَفِي الثَّانِي بِاعْتِبَارِ الْفَاعِلِ،وَفِي الثَّالِثِ بِاعْتِبَارِ الْفِعْلِ،وَفِي كُلٍّ مِنْ لَفْظَيِ الْمُبْتَغِي وَالْمُطَّلِبِ،مُبَالَغَةٌ،وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ إِذَا تَرَتَّبَ عَلَى الْغَالِبِ وَالْمُتَمَنِّي فَكَيْفَ بِالْمُبَاشِرِ؟ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٢٤)

كَمَا خَالَفُوا حُكْمَ التَّوْرَاةِ فِي تَرْكِ رَجْمِ الزَّانِي الُمحْصَنِ،كَمَا أمَرَتْ بِهِ التَّوْرَاةُ،وَعَدَلُوا عَنْهُ إلى الجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ.وَقَضَتِ التَّوْرَاةُ بأنْ تُفْقَأَ العَيْنُ بِالعَيْنِ،وَبِأنْ يُجْدَعَ الأَنْفُ بِالأَنْفِ،وَأنْ تُصْلَمَ الأذْنُ بِالأذْنِ،وَأنْ تُترعَ السِّنُّ بِالسِّنِّ.

أمَّا الجِرَاحُ فَيَتِمُّ فِيهَا القِصَاصُ إذا كَانَتْ فِي مِفْصَلٍ،فَتُقْطَعُ اليَدُ وَالرِّجْلُ وَالكَفُّ وَالقَدَمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ أمَّا إذَا كَانَ الجُرْحُ فِي عَظْمٍ وَلَيْسَ فِي مِفْصَلٍ،فَاخْتُلِفَ فِي كَيْفِيَّةِ التَّطْبِيقِ.

فَمَنْ عَفَا وَتَصَدَّقَ بِحَقِّهِ فِي القِصَاصِ عَلَى الجَانِي،كَانَ التَّصَدُّقُ كَفَّارَةً لَهُ يَمْحُو اللهُ بِهَا قَدْراً مِنْ ذُنُوبِهِ.ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى:وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كُتُبِهِ مِنْ شَرْعٍ،فَأولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ،لأنَّهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا المَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ،فِي أَمْرٍ أَمَرَ اللهُ بِالعَدْلِ وَالُمسَاوَاةِ فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِ خَلْقِهِ.[2364]

فكل عدوان على الإنسان،فى أية جارحة من جوارحه،أو عضو من أعضائه،جزاؤه عدوان مثله على المعتدى..إن قتل قتل،وإن فقأ عينا فقئت عينه،وإن جدع أنفا جدع أنفه،وإن صلم أذنا صلمت أذنه،وإن كسر سنّا كسرت سنّه! وقوله تعالى:«وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ» هو عطف على قوله تعالى:«أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» والجروح هى ما دون تلف هذه الأعضاء التي بينتها الآية الكريمة،مثل قطع إصبع،أو كفّ،أو قدم،ونحو هذا.

وقوله تعالى:«فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» هو خطاب للمعتدى عليه،أو وليّه فى القصاص،وهو أن يتصدق بالعفو على من اعتدى عليه،فهذا التصدق كفارة له،وحطّ من سيئاته بقدر ما تصدق به،والضمير فى «به» يعود إلى القصاص..أي:ومن تصدق بالقصاص فلم يقتص من خصمه فهو كفارة له.

وقوله تعالى «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» هو تحذير ووعيد لمن غيّر أو بدّل فى أحكام الله،فإن هذا عدوان على الله،وظلم للنفس،إذا أوقعها تحت غضب الله ونقمته،بالعدوان على ما شرع من أحكام.وقد وصف الذين يحكمون بما أنزل بوصفين،وصفوا

[2364] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧١٥،بترقيم الشاملة آليا)

أولا بأنهم «هم الكافرون»،ووصفوا ثانيا بأنهم «هم الظالمون» ..فهم كافرون ظالمون..قد جاوز كفرهم كل حدود الكفر،فكان كفرا وظلما معا.[٢٣٦٥]

وقد استبقيت هذه الأحكام التي نزلت بها التوراة في شريعة الإسلام،وأصبحت جزءا من شريعة المسلمين،التي جاءت لتكون شريعة البشرية كلها إلى آخر الزمان.وإن كانت لا تطبق إلا في دار الإسلام،لاعتبار ات عملية بحتة حيث لا تملك السلطة المسلمة أن تطبقها فيما وراء حدود دار الإسلام.وحيثما كان ذلك في استطاعتها فهي مكلفة تنفيذها وتطبيقها،بحكم أن هذه الشريعة عامة للناس كافة،للأزمان كافة،كما أرادها الله.

وقد أضيف إليها في الإسلام حكم آخر في قوله تعالى:«فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» ..

و لم يكن ذلك في شريعة التوراة.إذ كان القصاص حتما لا تنازل فيه،ولا تصدق به،ومن ثم فلا كفارة ..

ويحسن أن نقول كلمة عن عقوبات القصاص هذه على قدر السياق في الظلال.

أول ما تقرره شريعة الله في القصاص،هو مبدأ المساواة ..المساواة في الدماء والمساواة في العقوبة ..و لم تكن شريعة أخرى – غير شريعة الله – تعترف بالمساواة بين النفوس،فتقتص للنفس بالنفس،وتقتص للجوارح بمثلها،على اختلاف المقامات والطبقات والأنساب والدماء والأجناس ..

النفس بالنفس.والعين بالعين.والأنف بالأنف.والأذن بالأذن.والسن بالسن.والجروح قصاص ..لا تمييز.ولا عنصرية.ولا طبقية.ولا حاكم.ولا محكوم ..كلهم سواء أمام شريعة الله.فكلهم من نفس واحدة في خلقة الله.

إن هذا المبدأ العظيم الذي جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقي الكامل لميلاد «الإنسان» الإنسان الذي يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة ..أولا في التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد.وثانيا في المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة.

[٢٣٦٥] – التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١١٠٥)

وهو أول إعلان ..وقد تخلفت شرائع البشر الوضعية عشرات من القرون حتى ارتقت إلى بعض مستواه من ناحية النظريات القانونية،وإن ظلت دون هذا المستوي من ناحية التطبيق العملي.

ولقد انحرف اليهود الذين ورد هذا المبدأ العظيم في كتابهم – التوراة – عنه لا فيما بينهم وبين الناس فحسب،حيث كانوا يقولون:«لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» بل فيما بينهم هم أنفسهم.على نحو ما رأينا فيما كان بين بني قريظة الذليلة،وبني النضير العزيزة حتى جاءهم محمد – ﷺ – فردهم إلى شريعة الله – شريعة المساواة ..ورفع جباه الأذلاء منهم فساواها بجباه الأعزاء!

والقصاص على هذا الأساس العظيم – فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان – هو العقاب الرادع الذي يجعل من يتجه إلى الاعتداء على النفس بالقتل،أو الاعتداء عليها بالجرح والكسر،يفكر مرتين ومرات قبل أن يقدم على ما حدثته به نفسه،وما زينه له اندفاعه وهو يعلم أنه مأخوذ بالقتل إن قتل – دون نظر إلى نسبه أو مركزه،أو طبقته،أو جنسه – وأنه مأخوذ بمثل ما أحدث من الإصابة.إذا قطع يدا أو رجلا قطعت يده أو رجله وإذا أتلف عينا أو أذنا أو أنفا أو سنا،أتلف من جسمه ما يقابل العضو الذي أتلفه ..وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه هو السجن – طالت مدة السجن أو قصرت – فالألم في البدن،والنقص في الكيان،والتشويه في الخلقة شيء آخر غير آلام السجن ..على نحو ما سبق بيانه في حد السرقة ..

والقصاص على هذا الأساس العظيم – فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان – هو القضاء الذي تستريح إليه الفطرة والذي يذهب بحزازات النفوس،وجراحات القلوب،والذي يسكن فورات الثأر الجامحة،التي يقودها الغضب الأعمى وحمية الجاهلية ..وقد يقبل بعضهم الدية في القتل والتعويض في الجراحات.ولكن بعض النفوس لا يشفيها إلا القصاص ..وشرع الله في الإسلام يلحظ الفطرة – كما لحظها شرع الله في التوراة – حتى إذا ضمن لها القصاص المريح ..

راح يناشد فيها وجدان السماحة والعفو - عفو القادر على القصاص:«فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» من تصدق بالقصاص متطوعا ..سواء كان هو ولي الدم في حالة القتل (والصدقة تكون بأخذ الدية مكان القصاص،أو بالتنازل عن الدم والدية معا وهذا من حق الولي،إذ العقوبة والعفو متروكان له ويبقى للإمام تعزير القاتل بما يراه) أو كان هو صاحب الحق في حالة الجروح كلها،فتنازل عن القصاص ..من تصدق فصدقته هذه كفارة لذنوبه يحط بها الله عنه.

وكثيرا ما تستجيش هذه الدعوة إلى السماحة والعفو،وتعليق القلب بعفو الله ومغفرته.نفوسا لا يغنيها العوض المالي ولا يسليها القصاص ذاته عمن فقدت أو عما فقدت ..فماذا يعود على ولي المقتول من قتل القاتل؟ أو ماذا يعوضه من مال عمن فقد؟ ..إنه غاية ما يستطاع في الأرض لإقامة العدل،وتأمين الجماعة ..ولكن تبقى في النفس بقية لا يمسح عليها إلا تعليق القلوب بالعوض الذي يجيء من عند الله ..

روى الإمام أحمد عَنْ أَبِي السَّفَرِ،قَالَ:كَسَرَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ سِنَّ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ،فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ مُعَاوِيَةَ،فَقَالَ الْقُرَشِيُّ:إِنَّ هَذَا دَاقَّ سِنِّي،قَالَ مُعَاوِيَةُ:كَلاَّ إِنَّا سَنُرْضِيهِ،قَالَ:فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ الأَنْصَارِيُّ،قَالَ مُعَاوِيَةُ:شَأْنَكَ بِصَاحِبِكَ،وَأَبُو الدَّرْدَاءِ جَالِسٌ،فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ:مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ فِي جَسَدِهِ،فَيَتَصَدَّقُ بِهِ،إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً،وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً قَالَ:فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ:أَأَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -؟ قَالَ:نَعَمْ،سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ،وَوَعَاهُ قَلْبِي،يَعْنِي فَعَفَا عَنْهُ."..[٢٣٦٦]

وهكذا رضيت نفس الرجل واستراحت بما لم ترض من مال معاوية الذي لوح له به للتعويض ..

وتلك شريعة الله العليم بخلقه وبما يحيك في نفوسهم من مشاعر وخواطر،وبما يتعمق قلوبهم ويرضيها ويسكب فيها الاطمئنان والسلام من الأحكام.وبعد عرض هذا الطرف من شريعة التوراة،التي صارت طرفا من شريعة القرآن،يعقب بالحكم العام:

[٢٣٦٦] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٨/ ٨٩٤) (٢٧٥٣٤) ٢٨٠٨٤ - صحيح لغيره

«وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» ..والتعبير عام،ليس هناك ما يخصصه ولكن الوصف الجديد هنا هو «الظالمون».

وهذا الوصف الجديد لا يعني أنها حالة أخرى غير التي سبق الوصف فيها بالكفر.وإنما يعني إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله.فهو كافر باعتباره رافضا لألوهية الله – سبحانه – واختصاصه بالتشريع لعباده،وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس.وهو ظالم بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم،الصالحة المصلحة لأحوالهم.فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة،وتعريضها لعقاب الكفر.وبتعريض حياة الناس – وهو معهم – للفساد.

وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط:«وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ» ..فجواب الشرط الثاني يضاف إلى جواب الشرط الأول ويعود كلاهما على المسند إليه في فعل الشرط وهو «من» المطلق العام.[٢٣٦٧]

وكذلك يشرع في الضربة واللطمة واللكمة واللكزة أو السب مع المساواة في القصاص،وتفصيل ذلك في كتب الفقه[٢٣٦٨].

الحدود والتعزيرات:

الحدود هي العقوبات المقدرة شرعا وهي حد الزنا،وحد السرقة،وحد الخمر،وحد القذف،وحد الحرابة،وحد الردة،فإن المعاصي منها ما فيه حد وليس فيه كفارة كالمعاصي التي شرعت فيها الحدود،ومن المعاصي ما فيه كفارة ولا حد فيه كجماع الصائم في نهار رمضان،والجماع في الإحرام،ومن المعاصي ما ليس فيه حد ولا كفارة فيشرع فيه التعزير وهو العقوبة على كل معصية لا حد فيها ولا كفارة،فهو عقوبة غير مقدرة فيجتهد القاضي في قدرها بحسب كثرة الذنب في الناس وقلته فإذا كثر الذنب زاد في التعزير،وبحسب حال الجاني فيزيد في تعزير الجاني المصر على ارتكاب المعاصي والفجور أكثر من المقل في ذلك،وكذلك يختلف قدر التعزير بحسب كبر الذنب وصغره.

[٢٣٦٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٢٨٨)

[٢٣٦٨] – انظر الموسوعة الفقهية ففيها تفصيل عامة المذاهب المتبوعة

والتعزير ليس لأقله حد ولا يقيد أكثره بأقل الحدود،ولكن إذا كانت المعصية من جنس حد من الحدود فلا يبلغ بعقوبة الجاني قدر الحد كمن قبل امرأة أو مسها بيده فلا يبلغ تعزيره حد الزنا.

والتعزير أنواع:فيكون بالتوبيخ والزجر،ويكون بالحبس والسجن،ويكون بالنفي والتغريب،ويكون بالضرب،ويكون بالعقوبات المالية وهي أقسام فمنها ما هو إتلاف كتحريق موسى عليه السلام العجل،وكهمِّ النبي ﷺ بتحريق بيوت من يتخلفون عن صلاة الجماعة،وكهدم مسجد الضرار،وكحرق عمر رضي الله عنه حانوتا يباع فيه الخمر،وكأمر علي رضي الله عنه بتحريق قرية يباع فيها الخمر،ومن العقوبات المالية التغيير كتغيير الصور المجسمة وغير المجسمة،ومن العقوبات المالية التغريم كتغريم مانع الزكاة،وتغريم السارق من غير حرز.

وفي الموسوعة الفقهية :" إنَّ الْمُنْكَرَات منَ الأَعْيَان وَالصِّفَات يَجُوزُ إتْلاَفُ مَحَلِّهَا تَبَعًا لَهَا،فَالأَصْنَامُ صُوَرُهَا مُنْكَرَةٌ،فَيَجُوزُ إتْلاَفُ مَادَّتهَا،وَآلاَتُ اللَّهْوِ يَجُوزُ إتْلاَفُهَا عنْدَ أَكْثَر الْفُقَهَاء،وَبذَلكَ أَخَذَ مَالكٌ،وَهُوَ أَشْهَرُ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ .وَمنْ هَذَا الْقَبيل أَيْضًا أَوْعيَةُ الْخَمْر،يَجُوزُ تَكْسيرُهَا وَتَحْريقُهَا،وَالْمَحَل الَّذي يُبَاعُ فيه الْخَمْرُ يَجُوزُ تَحْريقُهُ،وَاسْتَدَل لذَلكَ بفعْل عُمَرَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ في تَحْريق مَحَلٍّ يُبَاعُ فيه الْخَمْرُ،وَقَضَاءُ عَليٍّ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ تَحْريقَ الْقَرْيَة الَّتي كَانَ يُبَاعُ فيهَا الْخَمْرُ،وَلأَنَّ مَكَانَ الْبَيْعِ كَالأَوْعيَة .وَقَال :إنَّ هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ في مَذْهَب أَحْمَدَ،وَمَالك،وَغَيْرهمَا .وَمنْ هَذَا الْقَبيل أَيْضًا :إرَاقَةُ عُمَرَ اللَّبَنَ الْمَخْلُوطَ بالْمَاء للْبَيْع .وَمنْهُ مَا يَرَاهُ بَعْضُ الْفُقَهَاء منْ جَوَاز إتْلاَف الْمَغْشُوشَات في الصِّنَاعَات،كَالثِّيَاب رَديئَة النَّسْجِ،بتَمْزيقهَا وَإِحْرَاقهَا،وَتَحْريق عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لثَوْبه الْمُعَصْفَر بأَمْر النَّبيِّ ﷺ .

وَقَال ابْنُ تَيْميَّةَ :إنَّ هَذَا الإِتْلاَفَ للْمَحَل الَّذي قَامَتْ به الْمَعْصيَةُ نَظيرُهُ إتْلاَفُ الْمَحَل منَ الْجسْمِ الَّذي وَقَعَتْ به الْمَعْصيَةُ،كَقَطْعِ يَد السَّارِق .وَهَذَا الإِتْلاَفُ لَيْسَ وَاجبًا في كُل حَالَة،فَإذَا لَمْ يَكُنْ في الْمَحَل مُفْسدٌ فَإنَّ إبْقَاءَهُ جَائزٌ،إمَّا لَهُ أَوْ يَتَصَدَّقُ به .وَبنَاءً عَلَى ذَلكَ أَفْتَى فَريقٌ منَ الْعُلَمَاء :بأَنْ يُتَصَدَّقَ بالطَّعَامِ الْمَغْشُوش .وَفي هَذَا إتْلاَفٌ لَهُ .

وَكَرِهَ فَرِيقٌ الإِتْلاَفَ،وَقَالُوا بِالتَّصَدُّقِ بِهِ،وَمِنْهُمْ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ،وَهِيَ الْمَشْهُورَةُ فِي الْمَذْهَبِ .وَقَدِ اسْتَحْسَنَ مَالِكٌ التَّصَدُّقَ بِاللَّبَنِ الْمَغْشُوشِ ؛لأَنَّ فِي ذَلِكَ عِقَابًا لِلْجَانِي بِإِتْلاَفِهِ عَلَيْهِ،وَنَفْعًا لِلْمَسَاكِينِ بِالإِعْطَاءِ لَهُمْ .وَقَال مَالِكٌ فِي الزَّعْفَرَانِ وَالْمِسْكِ بِمِثْل قَوْلِهِ فِي اللَّبَنِ إِذَا غَشَّهُمَا الْجَانِي .وَقَال ابْنُ الْقَاسِمِ بِذَلِكَ فِي الْقَلِيل مِنْ تِلْكَ الأَمْوَال ؛لأَنَّ التَّصَدُّقَ بِالْمَغْشُوشِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ هَذِهِ الأَمْوَال الثَّمِينَةِ تَضِيعُ بِهِ أَمْوَالٌ عَظِيمَةٌ عَلَى أَصْحَابِهَا،فَيُعَزَّرُونَ فِي مِثْل تِلْكَ الأَحْوَال بِعُقُوبَاتٍ أُخْرَى .وَعِنْدَ الْبَعْضِ :أَنَّ مَذْهَبَ مَالِكٍ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْقَلِيل وَالْكَثِيرِ .

وَرَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ مَنْعَ الْعُقُوبَاتِ الْمَالِيَّةِ،وَأَخَذَ بِهَذِهِ الرِّوَايَةِ كُلٌّ مِنْ مُطَرِّفٍ وَابْنِ الْمَاجِشُونِ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَذْهَبِ،وَعِنْدَهُمَا :أَنَّ مَنْ غَشَّ أَوْ نَقَصَ مِنَ الْوَزْنِ يُعَاقَبُ بِالضَّرْبِ،وَالْحَبْسِ،وَالإِخْرَاجِ مِنَ السُّوقِ،وَأَنَّ مَا غُشَّ مِنَ الْخُبْزِ وَاللَّبَنِ،أَوْ غُشَّ مِنَ الْمِسْكِ وَالزَّعْفَرَانِ لاَ يُفَرَّقُ وَلاَ يُنْهَبُ."[٢٣٦٩]

ويكون التعزير بالهجر وترك السلام على من ارتكب معصية حتى يتوب إذا ترجحت المصلحة في هذا،ويكون التعزير بالعزل من العمل كما عزل عمر رضي الله عنه أحد عماله حين بلغه أنه كان يتمثل بأبيات من الشعر فيها ذكر الخمر،قال الإمام ابن كثير رحمه الله " وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ،وَمُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ،وَالزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ فِي كِتَابِ الْفُكَاهَةِ:أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،اسْتَعْمَلَ النُّعْمَانَ بْنَ عَدِيٍّ بْنِ نَضْلَةَ عَلَى "مَيْسَانَ" – مِنْ أَرْضِ الْبَصْرَةِ –وَكَانَ يَقُولُ الشِّعْرَ،فَقَالَ:

أَلَا هَل أَتَى الحَسْنَاءَ أَنَّ حَليلَها ...بِمَيْسَانَ،يُسقَى فِي زُجاجٍ وَحَنْتَم ...

إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهاقِينُ قَرْيَة ...وَرَقَّاصَةٌ تَجذُو عَلَى كُلِّ مَنْسِم

فإنْ كُنتَ نَدْمانِي فَبالأَكْبرِ اسْقِنِي ...وَلا تَسْقِني بالأصْغَرِ الْمُتَثَلم

لَعَل أميرَ المؤمنينَ يَسُوءه ...تَنادُمُنا بالجَوْسَقِ الْمُتَهَدَم ...

فَلَمَّا بَلَغَ [ذَلِكَ] (٤) أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ:أَيْ وَاللَّهِ،إِنَّهُ لَيَسُوءُنِي ذَلِكَ،وَمَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ عَزَلْتُهُ.وَكَتَبَ إِلَيْهِ:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {حم.تَنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.غَافِرِ

[٢٣٦٩] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٢/ ٢٧٢) والحسبة ص ٤٣ – ٤٦،والطرق الحكمية ص ٢٤٧ – ٢٥٨،وتبصرة الحكام ٢ / ٢٠٢ – ٢٠٤ .والحسبة لابن تيمية ت الشحود (ص:٣٦٧)

الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [غَافِرٍ:١-٣] أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي قَوْلُكَ:

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤمنينَ يَسُوُءه ...تَنَادُمُنَا بالجَوْسق الْمُتَهَدّم ...

وَايْمُ اللَّهِ،إِنَّهُ لَيَسُوءُنِي وَقَدْ عَزَلْتُكَ.فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بَكَّتَه بِهَذَا الشِّعْرِ،فَقَالَ:وَاللَّهِ -يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ -مَا شَرِبْتُهَا قَطّ،وَمَا ذَاكَ الشِّعْرُ إِلَّا شَيْءٌ طَفح عَلَى لِسَانِي.فَقَالَ عُمَرُ:أَظُنُّ ذَلِكَ،وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا تَعْمَلْ لِي عَلَى عَمَلٍ أَبَدًا،وَقَدْ قُلتَ مَا قلتَ." [٢٣٧٠]

وقال بعض أهل العلم بجواز القتل تعزيرا كقتل الجاسوس المسلم[٢٣٧١].

مقاصد العقوبات الشرعية:

أولا:تحقيق الإيمان:

إن إيمان العبد لا يتحقق إلا بالتحاكم إلى شرع الله،واجتناب التحاكم إلى غير شرع الله من الطواغيت كالقوانين الوضعية وغيرها،وقد قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)} [النساء:٦٠،٦١].

يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَدَّعِي الإِيمَانَ بِاللهِ،وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ،وَهُوَ مَعْ ذَلِكَ يُرِيدُ أنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَصْلِ الخُصُومَاتِ إلى غَيْرِ كِتَابِ اللهِ،وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ.

وَيَذُمُّ اللهُ تَعَالَى الذينَ يَعْدِلُونَ عَنْ شَرْعِ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ،إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ البَاطِلِ (وَهُوَ المُرَادُ هُنَا بِالطَّاغُوتِ)،وَقَدْ أُمِرُوا بِأَنْ يَكْفُرُوا بِهِ،وَبِحُكْمِ الجَاهِلِيَّةِ،وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْعُوهُمْ الى اتِّبَاعِه لِيُضِلَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَشَرْعِهِمْ وَهُدَى رَبِّهِمْ،وَيُبْعِدَهُمْ عَنْهَا.وَإِذَا دُعِيَ هَؤُلاءِ - الذِينَ يَدَّعُونَ

[٢٣٧٠] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ١٧٤) و السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٦٦) والطبقات الكبرى لابن سعد (٤/١٤٠) .

[٢٣٧١] - انظر كتابي " الخلاصة في أحكام التجسس " ففيه تفصيل لذلك .

الإِيمَانَ،ثُمَّ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إلى الطَّاغُوتِ - إلى رَسُولِ الله لِلتَّحَاكُمِ لَدَيْه،وِفْقاً لِمَــا شَــرَعَ اللهُ،اسْتَكْبَرُوا وَأَعْرَضُوا وَرَغِبُوا عَنْ حُكْمِ رَسُولِ اللهِ إِعْرَاضاً مُتَعَمَّداً مِنْهُمْ.[٢٣٧٢]

أي انظر إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون أهم آمنوا بك وآمنوا بمن قبلك مــن الأنبيــاء ويأتون بما ينافى الإيمان،إذ الإيمان الصحيح بكتب الله ورسله يقتضى العمل بما شرعه الله علــى ألسنة أولئك الرسل وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير راسخ فى نفس مدّعيه فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله؟ فهؤلاء المنافقون إذ هربوا من التحــاكم إليــك وقبلــوا التحاكم إلى مصدر الطغيان والضلال من أولئك الكهنة والمشعوذين- سواء أكان أبــا بــرزة الأسلمى أم كعب بن الأشرف- دليل على أن الإيمان ليس له أثر فى نفوسهم،بل هى كلمات يقولوها بأفواههم لا تعبر عما تلجلج فى صدورهم،وكيف يزعمون الإيمان بك وكتابك المترل عليك يأمرهم بالكفر بالجبت والطاغوت فى نحو قوله «وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُــلِّ أُمَّــةٍ رَسُــولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» وقوله «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَــدِ اسْتَمْسَــكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى» وهم يتحاكمون إليه؟ فألسنتهم تدّعى الإيمــان بــالله وبمــا أنزلــه علــى رسله،وأفعالهم تدلّ على كفرهم بالله وإيماهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه.

ويدخل فى هؤلاء كل من يتحاكم إلى الدّجالين كالعرّافين وأصحاب المندل والرمل ومــدّعى الكشف والولاية.

وفى الآية إيماء إلى أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر الرســول ﷺ فهــو خــارج مــن الإسلام،سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد،ومن أجل هذا حكم الصــحابة بــردّة الذين منعوا الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم.

(وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً) أي ويريد الشيطان أن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة،فهم لشدة بعدهم عن الحق لا يهتدون إلى الطريق الموصلة إليه.

والخلاصة- إن الواجب على المسلمين ألا يقبلوا قول أحد ولا يعملوا برأيه فى شيء له حكــم فى كتاب الله أو سنة رسوله،وما لا حكم له فيهما فالعمل فيه برأى أولى الأمر،لأنه أقرب إلى المصلحة.

[٢٣٧٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

(وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً) أي وإذا قيل لأولئك الزاعمين للإيمان الذين يريدون التحاكم إلى الطاغوت:تعالوا إلى ما أنزل الله فى القرآن لنعمل به ونحكّمه فيما بيننا،وإلى الرسول ليحكم بيننا بما أراه الله،رأيتهم يعرضـــون عنك ويرغبون عن حكمك إعراضا متعمدا منهم،وهذه الآية مؤكدة لما دلت عليه الآية الـــتي قبلها من نفاق هؤلاء الذين يرغبون عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الطـــاغوت مـــن أصحاب الأهواء،لأن حكم الرسول لا يكون إلا حقا متى بينت الدعوى على وجهها وأمـــا حكم غيره بشريعته فقد يقع فيه الخطأ بجهل القاضي بالحكم،أو بجهل تطبيقه على الدعوى.

وهى أيضا دالة على أن من أعرض عن حكم الله متعمدا،ولا سيما بعد دعوته إليه وتـــذكيره به،فإنه يكون منافقا لا يعتقد ما يزعمه من الإيمان،ولا ما يدّعيه من الإسلام.

(فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّـــا إِحْســـاناً وَتَوْفِيقاً) أي فكيف يفعلون إذا أطلعك الله على شأنهم فى إعراضهم عـــن حكـــم الله وعـــن التحاكم إليك،وتبين أن عملهم يكذب دعواهم،وأن تلك الحال التي اختاروا فيها التحاكم إلى غير الرسول لا تدوم لهم،وأنه يوشك أن يقعوا فى مصاب بسبب ما قدمت أيديهم من هـــذه الأعمال وأمثالها،ثم اضطروا إلى الرجوع إليك لتكشفه عنهم،واعتذروا عن صدودهم بأنهم ما كانوا يريدون بالتحاكم إلى غير الرسول إلا إحسانا فى المعاملة وتوفيقا بينهم وبين خصـــومهم بالصلح أو بالجمع بين منفعة الخصمين ويحلفون بالله على ذلك وهم مخادعون.

وفى الآية وعيد شديد لهم على ما فعلوا،وأنهم سيندمون حين لا ينفعهم الندم،ويعتـــذرون ولا يغنى عنهم الاعتذار.

(أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ) هذا أسلوب يستعمل فيما يعظم من خير أو شر،مسرة أو حزن،فيقول الرجل لمن يحبه ويحفظ وده:الله يعلم ما فى نفسى لك،أي إنه لكثرته وقوتـــه لا يقدر على معرفته إلا الله تعالى،ويقول فى العدو الماكر المخادع:

الله يعلم ما فى قلبه،أي إن ما فى قلبه من الخبث والخديعة بلغ حدا كبيرا لا يعلمـــه إلا عـــلام الغيوب.فالمعنى هنا أن ما فى قلوبهم من الكفر والحقد والكيد وتربص الدوائر بالمؤمنين بلغ من الفظاعة مقدارا لا يحيط به إلا من يعلم السر وأخفى.

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً) طلب إليه سبحانه أن يعاملهم بثلاثة أشياء.

١) الإعراض عنهم وعدم الإقبال عليهم بالبشاشة والتكريم،إذ هذا يحدث فى نفوسهم الهواجس والخوف من سوء العاقبة،وهم لم يكونوا على يقين من أسباب كفرهم ونفاقهم،وكانوا يحذرون أن تنزل عليه سورة تنبئهم بما فى قلوبهم،وإذا استمر هذا الإعراض عنهم ظنوا الظنون،وقالوا لعله عرف ما فى نفوسنا،لعله يريد أن يؤاخذنا بما فى بواطننا.

٢) النصح والتذكير بالخير على وجه ترقّ له قلوبهم ويبعثهم على التأمل فيما يلقى إليهم من العظات والزواجر.

٣) القول البليغ المؤثر فى النفس الذي يغتمون به ويستشعرون منه الخوف بأن يتوعدهم بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق،ويخبرهم بأن ما فى نفوسهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على العليم بالسر والنجوى،وأنه لا فرق بينهم وبين الكفار،وإنما رفع الله عنهم السيف لأنهم أظهروا الإيمان وأسرّوا الكفر وأضمروه،فإن فعلوا ما ينكشف به غطاؤهم لم يبق إلا السيف،وفى الآية شهادة للنبى ﷺ بالقدرة على بليغ الكلام وتفويض أمر الوعظ والقول البليغ إليه،لأن لكل مقام مقالا،والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين،كما أن فيها شهادة له بالحكمة ووضع الكلام فى مواضعه،وهذا نحو ما وصف الله به نبيه داود «وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ» .[٢٣٧٣]

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ " الطَّاغُوتَ " مَصْدَرُ الطُّغْيَانِ،وَهُوَ يَصْدُقُ عَلَى كُلِّ مَنْ جَاءَتِ الرِّوَايَاتُ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ بِالتَّحَاكُمِ إِلَيْهِمْ كَمَا قَرَأْتَ آنِفًا،وَمَنْ قَصَدَ التَّحَاكُمَ إِلَى أَيِّ حَاكِمٍ يُرِيدُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالْبَاطِلِ وَيَهْرُبَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالطَّاغُوتِ،وَلَا كَذَلِكَ الَّذِي يَتَحَاكَمُ إِلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ،وَكُلُّ مَنْ يُتَحَاكَمُ إِلَيْهِ مِنْ دُونِ اللهِ وَرَسُولِهِ مِمَّنْ يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ فَهُوَ رَاغِبٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ،وَذَلِكَ عَيْنُ الطَّاغُوتِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الطُّغْيَانِ الْكَثِيرِ،وَيَدْخُلُ فِي هَذَا مَا يَقَعُ كَثِيرًا مِنْ تَحَاكُمِ الْمُتَخَاصِمِينَ إِلَى الدَّجَّالِينَ كَالْعَرَّافِينَ

[٢٣٧٣] - تفسير المراغي (٥/ ٧٥)

وَأَصْحَابِ الْمَنْدَلِ وَالرَّمْلِ وَمُدَّعِي الْكَشْفِ،وَيَخْرُجُ الْمُحَكَّمُ فِي الصُّلْحِ،وَكُلُّ مَا أَذِنَ بِهِ الشَّرْعُ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ.

أَقُولُ:وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:أَلَمْ تَرَ اسْتِفْهَامُ تَعْجِيبٍ مِنْ أَمْرِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَيَأْتُونَ بِمَا يُنَافِي الْإِيمَانَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ:أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ وَأَحْوَالُ الْأُمَمِ تَكُونُ مُتَشَابِهَةً؛لِأَنَّهَا مَظْهَرُ أَطْوَارِ الْبَشَرِ،فَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ بِكُتُبِ اللهِ وَرُسُلِهِ يَقْتَضِي الِاتِّبَاعَ وَالْعَمَلَ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَلْسِنَةِ تِلْكَ الرُّسُلِ،وَتَرْكُ الْعَمَلِ مَعَ الِاسْتِطَاعَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ رَاسِخٍ فِي نَفْسِ مُدَّعِيهِ،فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ بِضِدِّ مَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى؟ هَكَذَا كَانَ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمُوسَى وَالتَّوْرَاةِ جَمِيعُ الْيَهُودِ حَتَّى أُولَئِكَ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى،وَيَأْكُلُونَ السُّحْتَ وَيُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ،وَهَكَذَا كَانَ فِي مُسْلِمِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ـ ﷺ ـ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَرْغَبُونَ عَنِ التَّحَاكُمِ إِلَيْهِ إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ،وَهَكَذَا شَأْنُ النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ لَا يَكُونُونَ كُلُّهُمْ عُدُولًا صَادِقِينَ فِي مِلَّةٍ مِنَ الْمِلَلِ،وَلَا يَكُونُونَ كُلُّهُمْ مُنَافِقِينَ أَوْ فَاسِقِينَ فِي مِلَّةٍ مِنَ الْمِلَلِ،وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ رَأَوُا النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ كَانُوا عُدُولًا،وَالْقُرْآنُ يَصِفُ بَعْضَهُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ وَيُسَجِّلُ عَلَى بَعْضِهِمُ النِّفَاقَ.

وَالزَّعْمُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْقَوْلُ وَالدَّعْوَى،سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ حَقًّا أَمْ بَاطِلًا،قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ فِي شِعْرٍ لَهُ:

سَيُنْجِزُكُمْ رَبُّكُمْ مَا زَعَمَ،يُرِيدُ مَا وَعَدَ،وَأَرَى أَنَّ الْقَافِيَةَ اضْطَرَّتْهُ إِلَى اسْتِعْمَالِ هَذَا الْحَرْفِ هُنَا،وَمَا هُوَ بِمَكِينٍ،وَوَعْدُهُ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا حَقًّا،وَقَالَ اللَّيْثُ:سَمِعْتُ أَهْلَ الْعَرَبِيَّةِ يَقُولُونَ إِذَا قِيلَ:ذَكَرَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ لِأَمْرٍ يُسْتَيْقَنُ أَنَّهُ حَقٌّ،وَإِذَا شَكَّ فِيهِ فَلَمْ يَدْرِهِ لَعَلَّهُ كَذِبٌ أَوْ بَاطِلٌ،قِيلَ:زَعَمَ فُلَانٌ كَذَا،وَقِيلَ:الزَّعْمُ الظَّنُّ،وَقِيلَ:الْكَذِبُ،وَكُلُّ هَذَا مَأْخُوذٌ مِنَ اخْتِلَافِ الِاسْتِعْمَالِ بِنَظَرِ الْقَائِلِ إِلَى بَعْضِ كَلَامِ الْعَرَبِ دُونَ بَعْضٍ،وَالَّذِي يَنْظُرُ فِي مَجْمُوعِ اسْتِعْمَالَاتِهَا لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ يَجْزِمُ بِأَنَّ الْأَكْثَرَ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيمَا لَا يُجْزَمُ بِهِ،وَإِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ حَقًّا،وَقَالَ الرَّاغِبُ:الزَّعْمُ حِكَايَةُ قَوْلٍ يَكُونُ مَظِنَّةً لِلْكَذِبِ،وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ذَمُّ الْقَائِلِينَ بِهِ،وَأَشَارَ إِلَى بَعْضِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ،وَنَحْنُ نَزِيدُ عَلَيْهِ فِي بَيَانِهَا،قَالَ

تَعَالَى:زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ (٦٤:٧)،وَقَالَ:وَمَا نَـرَى مَعَكُـمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ،وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْـتُمْ تَزْعُمُـونَ (٦:٩٤)،وَقَالَ:قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ،فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًـا (١٧:٥٦)،وَقَالَ:بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (١٨:٥٢)،وَبَقِيَ آيَاتٌ أُخْرَى مُسْـتَعْمَلَةً هَذَا الاسْتِعْمَالَ،فَلُغَةُ الْقُرْآنِ أَنَّ الزَّعْمَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ،وَهُوَ يَرُدُّ عَلَى الزَّاعِمِينَ وَلَا يُقِرُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ.

وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ أَيْ:يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ فِي التَّنْزِيلِ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِهِ،فَهَذَا التَّنْزِيلُ قَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ بِنَصِّ الْخِطَابِ أَوْ فَحْوَاهُ،قَـالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ:وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولًا أَنِ اعْبُـدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُـوا الطَّاغُوتَ (١٦:٣٦)،الْآيَةَ،وَهِيَ نَصٌّ فِي أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ أَتْبَاعَهُ بِاجْتِنَـابِ الطَّاغُوتِ،وَقَالَ تَعَالَى:فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَـكَ بِـالْعُرْوَةِ الْـوُثْقَى (٢:٢٥٦)،إِلَخْ الْآيَتَيْنِ،وَالْمَعْنَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الزَّاعِمِينَ تَدَّعِي أَلْسِنَتُهُمُ الْإِيمَانَ بِاللهِ،وَبِمَا أَنْزَلَهُ عَلَـى رُسُلِهِ،وَتَدُلُّ أَفْعَالُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللهِ وَإِيمَانِهِمْ بِالطَّاغُوتِ وَإِيثَارِهِمْ لِحُكْمِهِ.

وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ:أَيْ أَنَّ الشَّيْطَانَ ــ الَّذِي هُوَ دَاعِيَـةُ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ــ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَقِّ مَسَـافَةً بَعِيـدَةً فَيَكُـونَ ضَلَالُهُمْ عَنْهُ مُسْتَمِرًّا؛لِأَنَّهُمْ لِشِدَّةِ بُعْدِهِمْ عَنْهُ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ.

قِيلَ لَهُ:فَمَا تَقُولُ فِي هَذِهِ الْمَحَاكِمِ الْأَهْلِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ؟ قَالَ:تِلْكَ عُقُوبَةٌ عُوقِبَ بِهَا الْمُسْـلِمُونَ أَنْ خَرَجُوا عَنْ هِدَايَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى:فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ فَإِذَا كُنَّا قَـدْ تَرَكْنَا هَذِهِ الْهِدَايَةَ لِلْقِيلِ وَالْقَالِ وَآرَاءِ الرِّجَالِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُبْتَلَى بِهَذِهِ الْقَوَانِينِ وَمُنَفِّـذِيهَا،فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ آرَاءِ فُلَانٍ وَآرَاءِ فُلَانٍ وَكُلُّهَا آرَاءٌ مِنْهَا الْمُوَافِقُ لِنُصُـوصِ الْكِتَـابِ وَالسُّـنَّةِ،وَمِنْهَا الْمُخَالِفُ لَهَا؟ وَنَحْنُ الْآنَ مُكْرَهُونَ عَلَى التَّحَاكُمِ إِلَى هَذِهِ الْقَوَانِينِ،فَمَا كَانَ مِنْهَا يُخَـالِفُ حُكْمَ اللهِ تَعَالَى يُقَالُ فِيـهِ،أَيْ:فِـي أَهْلِـهِ:إِلَّـا مَـنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَـئِنٌّ بِالْإِيمَـانِ (١٦:١٠٦)،الْآيَةَ،وَانْظُرْ إِلَى مَا هُوَ مَوْكُولٌ إِلَيْنَا إِلَى الْآنَ كَالْأَحْكَامِ الشَّخْصِـيَّةِ وَالْعِبَـادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ بَيْنَ الْوَالِدِينَ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَزْوَاجِ وَالزَّوْجَاتِ فَهَلْ نَرْجِعُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَى اللهِ

وَرَسُوله؟ إِذَا تَنَازَعَ عَالِمَان مِنَّا فِي مَسْأَلَة،فَهَلْ يَرُدَّانهَا إِلَى الله وَرَسُوله أَمْ يَرُدَّانهَا إِلَـــى قِيـــلٍ وَقَالَ؟ فَهَذَا يَقُولُ:قَالَ الْحَمَلُ،وَهَذَا يَقُولُ:قَالَ الصَّاوِي،وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ،انْتَهَى مَا كَتَبَهُ عَنْهُ فِـــي الدَّرْسِ وَكَتَبْتُ فِي آخره يَوْمَئذ " يُحَرَّرُ الْمَوْضُوعُ " وَمُرَادُهُ ظَاهِرٌ،فَإِنَّهُ يَقُولُ:إِنَّهُ لَا قَوْلَ لِأَحَد فِي قَضِيَّة أَوْ مَسْأَلَة مَعَ وُجُود نَصٍّ فِيهَا مِمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى رَسُوله،أَوْ مَا قَضَى به ـــ ﷺ ـــ بِإِذْن الله عَزَّ وَجَلَّ،وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ تَرَكُوا مَا جَرَى عَلَيْه السَّلَفُ مِنَ النَّظَرِ فِي كُلِّ قَضِيَّة فِي كِتَاب الله أَوَّلًا،ثُمَّ فِي سُنَّة رَسُوله وَفِي رَدِّ الْمُتَنَازَعِ فِيه إِلَيْهِمَا،بَلْ عَمِلُوا بِآرَاءِ النَّـــاسِ الَّـــذِينَ يَنْتَمُونَ إِلَيْهِمْ،وَيُسَمُّونَهُمْ عُلَمَاءَ مَذَاهِبِهِمْ،وَإِنْ وُجِدَ نَصُّ الْكِتَاب أَوِ السُّنَّة مُخَالِفًا لَهُ،وَيُحَرِّمُونَ الرُّجُوعَ إِلَى هَذه النُّصُوص؛لِأَنَّ ذَلكَ مِنَ الِاجْتِهَاد الْمَمْنُوعِ عِنْدَهُمُ الَّذِي يُعَدُّ الْمُتَصَـــدِّي لَـــهُ ضَالًّا مُضِلًّا فِي نَظَرِهِمْ،وَقَدْ تَرَتَّبَ عَلَى هَذَا الذَّنْبِ الَّذِي هُوَ اجْتِنَابُ تَقْدِيمِ الْكِتَـــابِ وَالسُّـــنَّة عَلَى كُلِّ قَوْلٍ وَرَأْيٍ أَنْ سَلسَ الْمُسْلِمُونَ لِحُكَّامِهِمْ فِي مِثْلِ مِصْرَ،حَتَّى انْتَقَلُوا بِهِمْ مِنَ الْحُكْمِ يَقُولُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنَ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمْ أَهْلَ الْفِقْه وَيَأْخُذُونَ بِمَا فِي كُتُبِهِمُ ابْتِـــدَاءً ـــ وَافَـــقَ نُصُوصَ الْكِتَاب وَالسُّنَّة،أَمْ خَالَفَهَا ـــ إِلَى الْحُكْمِ بِقَوْلِ فُلَان وَفُلَان مِنْ وَاضِعِي الْقَـــوَانِين،وَلَمْ يَكُنِ الْمُتَحَاكِمُونَ إِلَى رِجَالِ الْقَانُون أَسْوَأَ حَالًا مِنَ الْمُتَحَاكِمِينَ إِلَى أَقْوَالِ الْفُقَهَاء،وَهُمُ الْآنَ أَقْدَرُ عَلَى تَحْكِيمِ الْكِتَاب وَالسُّنَّة فِي عِبَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ،وَفِي مَحَاكِمِهِمُ الشَّرْعِيَّة مِنْهُمْ عَلَى تَحْكِيمِهَا فِي الْمُعَامَلَات الْمَدَنِيَّة وَالْعُقُوبَات ؛ لِأَنَّهُمْ فِي هَذَا تَحْتَ سَيْطَرَة الْأَجَانِب الْأَقْوِيَاء،وَأَمَّا فِي ذَاكَ فَلَيْسُوا تَحْتَ سَيْطَرَة أَجْنَبِيَّة،فَإِذَا أَرَادَ عُلَمَاؤُهُمْ وَأَهْلُ الرَّأْيِ وَالْمَكَانَـــة فِيهِمْ ذَلكَ نَفَذَ،وَلَكِنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ وَالَّذِينَ يَضَعُونَ هَذه الْقَوَانِينَ الْمِصْرِيَّةَ يُوَافِقُونَ فِي أَكْثَرِهَـــا الشَّرْعَ وَيَبْنُونَ رَأْيَهُمْ عَلَى الْمَصْلَحَة الْعَامَّة بِحَسَبِ مَا يَصِلُ إِلَيْه عِلْمُهُمْ،وَلَكِنَّهُمْ لَا يُلْصِـــقُونَ رَأْيَهُمْ بِالشَّرْعِ كَالْفُقَهَاء،وَمُرَاعَاةُ الْمَصْلَحَة مِنْ مَقَاصِد الشَّرْعِ فِي الْمَنْصُوص وَفِي الْمَوْكُـــولِ إِلَى الرَّأْيِ،وَالنَّاسُ يَقْبَلُونَ آرَاءَ الْمَنْسُوبِينَ إِلَى الْفِقْه،وَلَوْ فِيمَا يُخَالِفُ نُصُوصَ الْكِتَاب وَالسُّنَّة ؛ لِأَنَّهُمْ يُلْصِقُونَهَا بِالشَّرْعِ مِنْ حَيْثُ يَدَّعُونَ أَنَّهَا اجْتِهَادٌ صَحِيحٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أُصُـــوله،وَلَكِنْ لَـــا اجْتِهَادَ مَعَ النَّصِّ،وَرُبَّمَا كَانَ الْعَامِلُ بِالرَّأْيِ ـــ لَا يُسَمِّيه دِينًا ـــ أَقَلَّ جِنَايَةً عَلَى الشَّرْعِ مِمَّـــنْ يَعْمَلُ بِالرَّأْيِ يُسَمِّيه دِينًا،وَلَا سِيَّمَا مَعَ وُجُودِ النَّصِّ.

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ:أَنَّهُ مَا كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقْبَلُوا قَوْلَ أَحَدٍ،أَوْ يَعْمَلُوا بِرَأْيِهِ فِي شَيْءٍ لَهُ حُكْمٌ فِي كِتَابِ اللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ــ ﷺ ــ الثَّابِتَةِ،إِلَّا فِيمَا رَخَّصَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ مِنْ أَحْكَامِ الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ،وَمَا لَا حُكْمَ فِيهِمَا فَالْعَمَلُ فِيهِ بِرَأْيِ أُولِي الْأَمْرِ فِي كُلِّ زَمَنٍ بِشَرْطِهِ أَوْلَى مِنَ الْعَمَلِ دَائِمًا بِرَأْيِ بَعْضِ الْمُؤَلِّفِينَ لِكُتُبِ الْفِقْهِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَصْلَحَةِ،هَذَا هُوَ مَا كَانَ يُرِيدُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الْعِبَارَةِ الَّتِي قَالَهَا فِي دَرْسِهِ بِالْأَزْهَرِ،وَمَا كَانَ يَعْتَقِدُهُ،نَعَمْ إِنَّ مَنْ يَضَعُونَ الْأَحْكَامَ لِمَا لَا نَصَّ فِيهِ يُشْتَرَطُ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يَكُونُوا عَالِمِينَ بِالنُّصُوصِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ،وَعِلَلِهَا حَتَّى لَا يُخَالِفُوهَا وَلِيَتَيَسَّرَ لَهُمْ رَدُّ الْمُتَنَازَعِ فِيهِ إِلَيْهَا،وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ يَقُولُ بِهَذَا أَيْضًا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الَّتِي قَبْلَهَا مِنْ نِفَاقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ عَنْ حُكْمِ كِتَابِ اللهِ،وَحُكْمِ رَسُولِهِ إِلَى حُكْمِ الطَّاغُوتِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ،وَنَاهِيكَ بِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ــ ﷺ ــ،وَحُكْمُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا حَقًّا مَا بُنِيَتِ الدَّعْوَى عَلَى حَقِيقَتِهَا؛لِأَنَّ الْحُكْمَ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ،وَأَمَّا حُكْمُ غَيْرِهِ بِشَرِيعَتِهِ فَقَدْ يَقَعُ فِيهِ الْخَطَأُ بِجَهْلِ الْقَاضِي بِالْحُكْمِ،أَوْ بِتَطْبِيقِهِ عَلَى الدَّعْوَى،يَقُولُ تَعَالَى:وَإِذَا قِيلَ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَهُمْ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ:تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ لِنَعْمَلَ بِهِ وَنُحَكِّمَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَإِلَى الرَّسُولِ لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا بِمَا أَرَاهُ اللهُ،رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ أَيْ رَأَيْتَهُمْ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ــ جَاءَ بِالظَّاهِرِ بَدَلَ الضَّمِيرِ لِيُبَيِّنَ حَالَهُمْ وَحَالَ أَمْثَالِهِمْ بِالنَّصِّ وَيُبْنَى عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ وَهُوَ أَثَرُهُ ــ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا أَيْ:يُعْرِضُونَ عَنْكَ وَيَرْغَبُونَ عَنْ حُكْمِكَ إِعْرَاضًا مُتَعَمَّدًا مِنْهُمْ،وَهُوَ هُنَا مِنْ " صَدَّ " اللَّازِمِ،وَالْآيَةُ نَاطِقَةٌ بِأَنَّ مَنْ صَدَّ وَأَعْرَضَ عَنْ حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ عَمْدًا وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَيْهِ وَتَذْكِيرِهِ بِهِ،فَإِنَّهُ يَكُونُ مُنَافِقًا لَا يُعْتَدُّ بِمَا يَزْعُمُهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَمَا يَدَّعِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِ،وَهِيَ حُجَّةُ اللهِ الْبَالِغَةُ عَلَى الْمُقَلِّدِينَ لِبَعْضِ النَّاسِ فِيمَا اسْتَبَانَ حُكْمُهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،وَلَا سِيَّمَا إِذَا دُعُوا إِلَيْهِ وَوُعِظُوا بِهِ.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ:إِنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَى هَذَا الصُّدُودِ هُوَ اتِّبَاعُ شَهَوَاتِهِمْ،وَأُلْفَتُهُمْ لِلْبَاطِلِ،وَعَدُوُّ الْحَقِّ يُعْرِضُ عَنْهُ إِعْرَاضًا شَدِيدًا،قَالَ:ثُمَّ أَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُبَيِّنَ سَخَافَتَهُمْ وَجَهْلَهُمْ وَعَدَمَ طَاقَتِهِمْ

بالثَّبَات عَلَى هَذَا الصُّدُود،فَقَالَ:فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِلَخْ،أَيْ لَوْ عَقَلُوا لَالْتَزَمُوا مَا أَظْهَرُوا قَبُولَهُ مِنَ الْإِسْلَام وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى مَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْإِيمَان لَيَتمَّ لَهُمُ الاسْتِفَادَةُ مِنْهُ،لِأَنَّ الْعَاقِلَ يَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْحَالَ التِي اخْتَارُوا فِيهَا التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوت لَا تَدُومُ لَهُمْ،وَأَنَّهُ يُوشكُ أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنْهَا فَيَقَعُوا فِي مُصَاب يَضْطَرُّهُمْ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ لِيَكْشِفَهُ عَنْهُمْ،وَأَنْ يَعْتَذِرُوا عَنْ صُدُودهِمْ بِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ بِالتَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ الرَّسُول إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا،كَأَنَّهُ يَقُولُ:فَكَيْفَ يَفْعَلُونَ إِذَا أَطْلَعَكَ اللهُ عَلَى شَأْنِهِمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنْ حُكْمِ اللهِ وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْكَ وَتَبَيَّنَ أَنَّ عَمَلَهُمْ يُكَذِّبُ دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ؟ إِنَّهُمْ إِذَنْ يَسْتَحِقُّونَ الْعُقُوبَةَ وَالْإِذْلَالَ لِيَكُونُوا عِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ

فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ أَوْ حَالُهُمْ وَحَالُ أَمْثَالِهِمْ؟ أَوْ كَيْفَ يَكُونُ الشَّأْنُ فِي أَمْرِهِمْ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِسَبَبِ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ! أَيْ مَا عَمِلُوا مِنَ السَّيِّئَات بِبَاعِث النِّفَاق الظَّاهِرِ،وَالْخُبْث الْبَاطِنِ،فَإِنَّ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ تَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا آثَارٌ سَيِّئَةٌ،وَتَكُونُ لَهَا عَوَاقِبُ ضَارَّةٌ لَا يُمْكِنُ كِتْمَانُهَا،وَلَا يَسْتَغْنِي صَاحِبُهَا عَنِ الاسْتِعَانَة فِيهَا بِقَوْمِه وَأَوْلِيَاءِ أَمْرِه،فَالْآيَةُ تُنْذِرُ جَمِيعَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ بِأَعْمَال النِّفَاق مُبَيِّنَةٌ أَنَّ هَذِه الْأَعْمَالَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَيْهَا بَعْضُ الْمَصَائِب الَّتِي تَفْضَحُ أَمْرَهُمْ وَتَضْطَرُّهُمْ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى النَّبِيِّ وَالاعْتِذَار لَهُ وَالْحَلف عَلَى ذَلِكَ لِيُصَدِّقَهُ،فَإِنَّهُمْ يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ مُتَّهَمُونَ بِالْكَذِب،أَوْ كَيْفَ تُعَامِلُهُمْ فِي هَذِه الشِّدَّة أَيُّهَا الرَّسُولُ بَعْدَ عِلْمِكَ بِمَا كَانَ مِنْ صُدُودهِمْ عَنْكَ فِي وَقْت الاسْتِغْنَاء عَنْكَ،هَلْ تَعْطِفُ عَلَيْهِمْ وَتَقْبَلُ قَوْلَهُمْ إِذَا أَصَابَتْهُمُ الْمُصِيبَةُ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَهَا بِارْتِكَاب أَسْبَابِهَا؟ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا،أَيْ:يُخَادِعُونَكَ بِالْحَلف بِاللهِ إِنَّهُمْ مَا أَرَادُوا بِمَا عَمِلُوا مِنَ الصُّدُود أَوْ مِنَ الْأَعْمَال الْمُنْكَرَة وَالْمَعَاصِي الَّتِي تَرَتَّبَتْ عَلَيْهَا الْمُصِيبَةُ إِلَّا إِحْسَانًا فِي الْمُعَامَلَة وَتَوْفِيقًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَصْمِهِمْ بِالصُّلْحِ أَوِ الْجَمْعِ بَيْنَ مَنْفَعَة الْخَصْمَيْنِ،وَقَالُوا:نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَحْكُمُ إِلَّا بِمُرِّ الْحَقِّ لَا تُرَاعِي فِيه أَحَدًا،فَلَمْ نَرَ ضَرَرًا فِي اسْتِمَالَة خُصُومِنَا بِقَبُولِ حُكْمِ طَوَاغِيتِهِمْ،وَالتَّوْفِيق بَيْنَ مَنْفَعَتِنَا وَمَنْفَعَتِهِمْ.[٢٣٧٤]

[٢٣٧٤] - تفسير المنار (٥/ ١٨١)

إن هؤلاء المنافقين إنما يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم..وإنه إذا كانت أفواههم تردد كلمات الإيمان بالله،والولاء لرسوله،فإن قلوبهم منطوية على إيمان غير هذا الإيمان،وسرائرهم منعقدة على ولاء غير هذا الولاء..إيمان بالجبت،وولاء للطاغوت:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً» حيث يتصادم ظاهرهم مع باطنهم،ويغلب نفاقهم على إيمانهم،فيفرون من بين يدى هذه الدعوة التي يدعون فيها إلى الاحتكام إلى ما أنزل الله،وإلى ما يقضى به الرسول.

وقوله تعالى:«فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» تنديم لهؤلاء المنافقين بما يجرّ عليهم النفاق من شر وشؤم.وأن عاقبة هذا الالتواء الذي تجرى عليه حياتهم إنما هو الخزي والخذلان..وأنهم حين يحيق بهم مكرهم السيء،واحتكامهم إلى غير كتاب الله ورسول الله،يفزعون إلى الرسول بوجوه وقاح لا حياء فيها،ويحلفون- كذبا- ما أردنا فيما فعلنا من الاحتكام إلى غيرك إلّا معالجة الأمر على الوجه الذي نبغى به حسم الخلاف،والصلح بين المتخاصمين! وهذا عذر غير مقبول منهم،لأنهم لم يأخذوا طريقهم الذي سلكوه عن اجتهاد،وإنما كان عن خلاف متعمّد للرسول،ومنابذة له.

وقوله تعالى:«أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ» إشارة فاضحة لهؤلاء المنافقين،ممسكة بهم وهم متلبسون بنفاقهم..وهذه الإشارة تكاد تكون يدا آخذة بناصية كل منافق من هؤلاء المنافقين،يجد كل منافق مسّها،ويستشعر اشتمالها على وجوده.

وقوله تعالى:«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» دعوة للنبى الكريم بالإغضاء عنهم،وترك مماراتهم والجدل معهم..وذلك هو سبيل النبىّ فى موقفه من أهل الجدل والمراء،فى كل حال يلتقى فيها مع أصحاب النفوس المريضة،والطبائع السقيمة،حيث ينصح له الله سبحانه بقوله:«خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ» (١٩٩:الأعراف) .

وقوله تعالى:«وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» استيفاء لرسالة الرسول،واستكمال لكمالها..حيث لا تترك هؤلاء المرضى الذين يأبون أن يستطبّوا لدائهم،وأن يتناولوا ما يقدم لهم من دواء،بل إن واجب الرسالة أن تبالغ فى النصح لهم،وألا يحجزها هذا الضلال الذي يتخبطون فيه عن أن تسمعهم كلمات الله،وأن تشقّ طريقها إليهم من خلال هذا الضباب

الكثيف المنعقد على بصائرهم،وبهذا تقوم الحجة عليهم،وتنقطع أسباب معاذيرهم..«لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» (٤٢:الأنفال) وفى هذا ما فيه من رحمة الله،وما تحمل رسالة الإسلام من خير عميم للناس،تسوقه إليهم من كل وجه،وتلقاهم به فى كل سبيل،حتى ولو كانوا على طريق الضالين،المعاندين..إنها رحمة الله،تتلمس طريقها إلى كل قلب،وترسل شعاعها إلى كل إنسان..«فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها» (١٠٤:الأنعام) .

في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٣٨)

ألم تر إلى هذا العجب العاجب ..قوم ..يزعمون ..الإيمان.ثم يهدمون هذا الزعم في آن؟! قوم «يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ».ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر،وإلى منهج آخر،وإلى حكم آخر ..يريدون أن يتحاكموا إلى ..الطاغوت ..الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.ولا ضابط له ولا ميزان،مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ..ومن ثم فهو ..طاغوت ..طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية.وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضا!

وهم لا يفعلون هذا عن جهل،ولا عن ظن ..إنما هم يعلمون يقينا ويعرفون تماما،أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه:«وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» ..فليس في الأمر جهالة ولا ظن.بل هو العمد والقصد.

ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم.زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك! إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب ..

«وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً» ..فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت.وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت! هذا هو الدافع يكشفه لهم.لعلهم يتنبهون فيرجعوا.ويكشفه للجماعة المسلمة،لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك.

ويمضي السياق في وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله إلى الرسول وما أنزل من قبله ..ذلك الذي يزعمون أنهم آمنوا به:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ،رَأَيْتَ

الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً».يا سبحان الله! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري ..وإلا ما كان نفاقا ...

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان،أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به،وإلى من آمن به.فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليه.ثم دعي إلى هذا الذي آمن به،ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية.فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية.ويكشف عن النفاق.وينبىء عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله - سبحانه - أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله.ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله.بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودا! ثم يعرض مظهرا من مظاهر النفاق في سلوكهم حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت.ومعاذيرهم عند ذلك.وهي معاذير النفاق:«فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ - بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ - ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ:إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» ..وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة - يومذاك - حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء في الوسط المسلم.فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليه ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها ..إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان.وكل ما له من الإيمان زعم كزعم هؤلاء وكل ما له من الإسلام دعوى وأسماء! أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت في قضية من قضاياهم.أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم.لعلهم يتفكرون ويهتدون ..

وأياما كان سبب المصيبة فالنص القرآني،يسأل مستنكرا:فكيف يكون الحال حينئذ! كيف يعودون إلى الرسول - ﷺ -:«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» ...إنها حال مخزية ..حين يعودون شاعرين بما فعلوا ...غير قادرين على مواجهة الرسول - ﷺ - بحقيقة دوافعهم.وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين:أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت - وقد يكون

هنا هو عرف الجاهلية – إلا رغبة في الإحسان والتوفيق! وهي دائما دعوى كل من يحيـدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته:أهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصـاعب،التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفـة والعقائد المختلفة ..إنها حجة الذين يزعمون الإيمان – وهم غير مؤمنين – وحجـة المنـافقين الملتوين ..هي هي دائما وفي كل حين![٢٣٧٥]

وقال تعالى:{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء:٦٥]

هو بيان للإيمان الذي يقبل من هؤلاء الضالين الذين يريدون العودة إلى الله،فإنهم لا يحسبون فى المؤمنين،حتى يترلوا على حكم الله،فيما يكون بينهم من خلاف،فذلك هو الدستور الـذي لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يستقيم عليه،ويتقبل حكمه فيه،بقلب مطمئن،ونفس راضية،ولو كان ذلك مخالفا لهواه،مفوّتا لمصلحة خاصة له..أما أن يأخذ من حكم الله ما يرضيه،ويدع مـا لا يستجيب لهواه،ويلتقى مع رغباته،فذلك هو النفاق مع الله،ومع الرسول! إن الإيمان هو التسليم المطلق لأحكام الله،والولاء المطلق لرسوله،وما يقضى به..وبغير هذا لا يكون إيمان،ولا يعتـدّ بدعوى من يدعيه! وفى إضافة النبي الكريم إلى الله فى قوله تعالى:«فَلا وَرَبِّـكَ لا يُؤْمِنُـونَ» تشريف للنبى،واستدعاء له إلى الحضرة العلية ليشهد هذا القسم العظيم،وليكون شاهدا علـى هؤلاء الضالين المنافقين..و «لا» النافية فى قوله تعالى:«فَلا يُؤْمِنُونَ» هى توكيد للنفى السابق للقسم فى قوله سبحانه:«فَلا وَرَبِّكَ» ..وقد فصل القسم بينهما.[٢٣٧٦]

لقد أقسم تعالى بنفسه الكريمة أهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم،أي:في كل شيء يحصل فيه اختلاف،بخلاف مسائل الإجماع،فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة،ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق،وكونهم يحكمونه علـى وجـه الإغماض،ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر،وطمأنينة نفس،وانقياد بالظاهر والباطن.

[٢٣٧٥] – التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٢٤)

[٢٣٧٦] – التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٢٧)

فالتحكيم في مقام الإسلام،وانتفاء الحرج في مقام الإيمان،والتسليم في مقام الإحسان.فمَن استكمل هذه المراتب وكملها،فقد استكمل مراتب الدين كلها.فمَن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر،ومَن تركه،مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين.[٢٣٧٧]

هَذه الْآيَةُ مُتَّصلَةٌ بمَا قَبْلَهَا أَشَدَّ الاتِّصَال،وَالسِّيَاقُ مُحْكَمٌ مُتَّسقٌ وَإنْ ذَكَرُوا أَسْبَابًا خَاصَّةً لنُزُولهَا،أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى برُبُوبيَّته لرَسُوله ـــ ﷺ ـــ مُخَاطبًا لَهُ في ذَلكَ خطَابَ التَّكْريم،وَمنَ الْمَعْهُود في اللُّغَة أَنَّ مثْلَ هَذَا الْقَسَم يُعَدُّ تَكْريمًا،وَقَدْ كَانَتْ عَائشَةُ تُقْسمُ برَبِّ مُحَمَّد ـــ ﷺ ـــ فَلَمَّا غَضبَتْ مَرَّةً أَقْسَمَتْ برَبِّ إبْرَاهيمَ ـــ ﷺ ـــ فَكَلَّمَهَا النَّبيُّ ـــ ﷺ ـــ في ذَلكَ بَعْدَ رضَاهَا،فَقَالَتْ:" إنَّمَا أَهْجُرُ اسْمَكَ "،أَقْسَمَ تَعَالَى بأَنَّ أُولَئكَ الَّذينَ رَغبُوا عَن التَّحَاكُم إلَيْه ـــ ﷺ ـــ وَأَمْثَالَهُمْ،وَهُمْ منَ الْمُنَافقينَ الَّذينَ يَزْعُمُونَ الْإيمَانَ زَعْمًا كَمَا تَقَدَّمَ لَا يُؤْمنُونَ إيمَانًا صَحيحًا حَقيقيًّا ـــ وَهُوَ إيمَانُ الْإذْعَان النَّفْسيِّ ـــ إلَّا بثَلَاث:

الْأُولَى:أَنْ يُحَكِّمُوا الرَّسُولَ ـــ ﷺ ـــ فيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ،أَيْ:في الْقَضَايَا الَّتي يَخْتَصمُونَ فيهَا وَيَشْتَجرُونَ فَلَمْ يَتَبَيَّن الْحَقُّ فيهَا لَهُمْ،أَوْ لَمْ يَعْتَرفْ به كُلٌّ منْهُمْ،بَلْ يَذْهَبُ كُلٌّ مَذْهَبًا فيه،فَمَعْنَى شَجَرَ:اخْتَلَفَ وَاخْتَلَطَ الْأَمْرُ فيه،قيلَ:إنَّ شَجْرًا ـــ مَصْدَرُ شَجَرَ ـــ،وَالتَّشَاجُرُ وَالاشْتجَارُ مَأْخُوذٌ منَ الشَّجَر الْمُلْتَفِّ الْمُتَدَاخل بَعْضُهُ في بَعْض.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:بَلْ سُمِّيَ الشَّجَرُ شَجَرًا لاشْتجَار أَغْصَانه وَتَدَاخُلهَا ـــ وَقيلَ:منَ الشِّجَار ـــ كَكتَاب ـــ وَهُوَ خَشَبُ الْهَوْدَج لاشْتبَاك بَعْضه في بَعْض،وَقيلَ:منَ الشَّجْر ـــ بالْفَتْح ـــ وَهُوَ مَفْتَحُ الْفَم لكَثْرَة الْكَلَام في الْأُمُور الَّتي يَقَعُ النِّزَاعُ فيهَا،وَكُلُّ هَذه الْمَعَاني مُنَاسبَةٌ،وَتَحْكيمُهُ تَفْويضُ أَمْر الْحُكْم إلَيْه.

الثَّانيَةُ:قَوْلُهُ:ثُمَّ لَا يَجدُوا في أَنْفُسهمْ حَرَجًا ممَّا قَضَيْتَ الْحَرَجُ:الضِّيقُ،وَالْقَضَاءُ:الْحُكْمُ،وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُسْتَشْرقينَ منَ الْإفْرنْج أَنَّ لَفْظَ الْقَضَاء لَمْ يَكُنْ مُسْتَعْمَلًا في صَدْر الْإسْلَام الْأَوَّل بمَعْنَى الْحُكْم،وَهَذَا منْ دَعَاويهمُ الَّتي يَتَجَرَّءُونَ عَلَيْهَا منْ غَيْر اسْتقْصَاء وَلَا علْم،وَالْمَعْنَى:ثُمَّ تُذْعنُ نُفُوسُهُمْ لقَضَائكَ وَحُكْمكَ فيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ بحَيْثُ لَا يَكُونُ فيهَا ضيقٌ وَلَا امْتعَاضٌ منْ قَبُوله

[٢٣٧٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٨٥)

وَالْعَمَلِ بِهِ،وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ أَنْ يَسْبِقَ إِلَيْهَا الْأَلَمُ وَالْحَرَجُ إِذَا خَسِرَتْ مَا كَانَتْ تَرْجُو مِنَ الْفَوْزِ،وَالْحُكْمِ لَهَا بِالْحَقِّ الْمُخْتَصَمِ فِيهِ،عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْحَرَجِ يُفَاجِئُ النَّفْسَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى وَجَعَلَ هَذَا الشَّرْطَ عَلَى التَّرَاخِي فَعَطَفَهُ بِـ ثُمَّ وَالْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ الْإِيمَانِ يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ لِحُكْمِ الرَّسُولِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ الْحَقُّ،وَأَنَّ الْخَيْرَ لَهُ فِيهِ،وَالسَّعَادَةَ فِي الْإِذْعَانِ لَهُ،فَإِذَا كَانَ فِي إِيمَانِهِ ضَعْفٌ مَا ضَاقَ صَدْرُهُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى،ثُمَّ يَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ بِالذِّكْرَى وَيَنْحَى عَلَيْهَا بِاللَّوْمِ حَتَّى تَخْشَعَ وَتَنْشَرِحَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَإِيثَارِ الْحَقِّ الَّذِي حَكَمَ بِهِ الرَّسُولُ ــ ﷺ ــ عَلَى الْهَوَى،وَقِيلَ:الْمُرَادُ بِنَفْيِ وِجْدَانِ الْحَرَجِ عَدَمُ الشَّكِّ فِي حَقِّيَّةِ الْحُكْمِ بِأَنْ يَكُونَ مُوقِنًا بِأَنَّهُ قَضَاءٌ بِمُرِّ الْحَقِّ الَّذِي لَا شُبْهَةَ فِيهِ،قَالَ هَذَا مَنْ قَالَهُ وَهُوَ خِلَافُ الْمُتَبَادَرِ ؛ لِأَنَّ وِجْدَانَ الْقَلْبِ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ،وَقَدْ عَلِمْتَ مَا هُوَ الصَّوَابُ.

الثَّالِثَةُ:قَوْلُهُ تَعَالَى:وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا التَّسْلِيمُ هُنَا:الِانْقِيَادُ بِالْفِعْلِ،وَمَا كُلُّ مَنْ يَعْتَقِدُ حَقِّيَّةَ الْحُكْمِ وَلَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ ضِيقًا مِنْهُ يَنْقَادُ لَهُ بِالْفِعْلِ وَيُنَفِّذُهُ طَوْعًا،وَإِنْ لَمْ يَخْشَ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ مُؤَاخَذَةً فِي الدُّنْيَا.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ:قَوْلُهُ تَعَالَى:فَلَا وَرَبِّكَ إِلَخْ،تَفْرِيعٌ عَلَى مَا سَبَقَهُ وَهُوَ نَفْيٌ وَإِبْطَالٌ لِظَنِّ الظَّانِّينَ أَنَّهُمْ بِمُجَرَّدِ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ يَكُونُونَ صَحِيحِي الْإِيمَانِ مُسْتَحِقِّينَ لِلنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَالْفَوْزِ بِثَوَابِهَا،لَا وَرَبِّكَ لَا يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ حَتَّى يَكُونُوا مُوقِنِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مُذْعِنِينَ فِي بَوَاطِنِهِمْ،وَلَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ،وَاخْتَلَطَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ،ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَحْكُمَ بَيْنَهُمْ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمُ الضِّيقَ الَّذِي يَحْصُلُ لِلْمَحْكُومِ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ خَاضِعًا لِلْحُكْمِ فِي قَلْبِهِ،فَإِنَّ الْحَرَجَ إِنَّمَا يُلَازِمُ قَلْبَ مَنْ لَمْ يَخْضَعْ،ذَلِكَ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُنَازِعُ أَحَدًا فِي شَيْءٍ إِلَّا بِمَا عِنْدَهُ مِنْ شُبْهَةِ الْحَقِّ،فَإِذَا كَانَ كُلٌّ مِنَ الْخَصْمَيْنِ يَرْضَى بِالْحَقِّ مَتَى عَرَفَهُ وَزَالَتِ الشُّبْهَةُ عَنْهُ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِ فَحُكْمُ الرَّسُولِ يُرْضِيهِمَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛لِأَنَّهُ أَعْدَلُ مَنْ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ.[٢٣٧٨]

فنفى الله تعالى الإيمان،وأكد النفي بالقسم وتكرار أداة النفي،حتى يحكموا رسول الله ﷺ فيما شجر بينهم،و "ما" في قوله {فِيمَا} موصولة بمعنى الذي،وهي من صيغ العموم،فتعم كل ما

[٢٣٧٨] – تفسير المنار (٥/ ١٩١)

تشاجر فيه المتشاجرون،ولم يقتصر على مجرد التحاكم،بل ضم إليه انتفاء الحرج والضيق من الحكم،وأن يسلموا وينقادوا له انقيادا تاما،فلا يعارضون حكمه ظاهرا ولا باطنا،بل ينقادون لحكمه ظاهرا وباطنا.

ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحدّ الإسلام.يقرره الله سبحانه بنفسه.ويقسم عليه بذاته.فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحدّ الإسلام،ولا تأويل لمؤول.

اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام ..وهي أن هذا القول مرهون بزمان،وموقوف على طائفة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئا ولا يفقه من التعبير القرآني قليلا ولا كثيرا.فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام جاءت في صورة قسم مؤكد مطلقة من كل قيد ..وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله - ﷺ - هو تحكيم شخصه.إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه.وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته - ﷺ - وذلك قول أشد المرتدين ارتدادا على عهد أبي بكر - رضي الله عنه - وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين:بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير.وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله،في حكم الزكاة وعدم قبول حكم رسول الله فيها،بعد الوفاة!

وإذا كان يكفي لإثبات «الإسلام» أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله ..فإنه لا يكفي في «الإيمان» هذا،ما لم يصحبه الرضى النفسي،والقبول القلبي،وإسلام القلب والجنان،في اطمئنان! هذا هو الإسلام ..وهذا هو الإيمان ..فلتنظر نفس أين هي من الإسلام وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان!

يتحاكموا إلى الطاغوت:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ،يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ - وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ - وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً».

ويقول لها:إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ،رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً».

ويقول لها:إن منهجها الإيماني ونظامها الأساسي،أن تطيع الله – عز وجل – في هذا القرآن – وأن تطيع رسول الله – ﷺ – في سنته – وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان وحد الإسلام معكم:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ..
ويقول لها:إن المرجع،فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة،والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية ..إن المرجع هو الله ورسوله ..أي شريعة الله وسنة رسوله:«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شيء،فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» ..
وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك،أبد الدهر،في حياة الأمة المسلمة ..وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي،الذي لا تكون مؤمنة إلا به،ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه ..إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك،ورد المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله ..شرط الإيمان وحد الإسلام ..شرطا واضحا ونصا صريحا:«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ..[٢٣٧٩]

____

الثاني:سياسة الردع،وحفظ الضرورات،وإصلاح الناس:
من المقاصد الشرعية في إقامة العقوبات،تحقيق سياسة الردع،فإن هذا المقصد من أعظم المقاصد التي ينبغي للمسلم المعرفة بها ليزداد فقها وعلما في العقوبات الشرعية ومقاصدها،وهذه المعرفة بهذا المقصد من أهم المعارف في السياسة الشرعية التي يحتاجها ولاة الأمور لإصلاح المجتمع وطهارته،وردع أهل الفساد والإجرام،عن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ:أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:«لَمَا يَزَعُ السُّلْطَانُ النَّاسَ أَشَدُّ مِمَّا يَزَعُهُمُ الْقُرْآنُ»[٢٣٨٠]
وسياسة الردع في الشريعة الإسلامية تكون في حق الكفار المحاربين بالتنكيل بهم من خلال الجهاد في سبيل الله وتكون في حق من ارتكب جرما من المسلمين استحق عليه العقوبة الشرعية،وقد قال الله تعالى في شأن الكافرين المحاربين:{ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ

[٢٣٧٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٤١)

[٢٣٨٠] – تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١١١) والبداية والنهاية ط هجر (٢/ ٣٠١) والحسبة لابن تيمية ت الشحود (ص:٣٢٩) وتاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٩٨٨) وفيه انقطاع

مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [الأنفال:٥٧] أي نكل بهم نكالا يشــرد،ويبدد،ويردع مــن سواهم من الكفار،حتى لا يفعلوا فعلهم.

فَإِذَا مَا لَقِيتَهُم يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي الحَرْبِ،وَظَفِرْتَ بِهِمْ،فَنَكِّلْ بِهِمْ،وَأَثْخِنْ فِيهِمْ قَتْلاً،لِيَخَــافَ سِوَاهُمْ مِنَ الأَعْدَاءِ {فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ}،وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِغَيْــرِهِمْ،لَعَلَّهُمْ يُحَــاذِرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا أَيْمَانَهُمْ،وَيَخُونُوا عُهُودَهُمْ،فَيَحِلَّ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ.[٢٣٨١]

هو الجزاء الذي أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم أن يلقى به هؤلاء الكافرين،الذين لا يؤمنون بالله أبدا،والذين ينقضون عهدهم مع النبيّ،ويلقونه فى الجبهة المحاربة له كلما سنحت الفرصــة لهم،سواء أكان ذلك بأشخاصهم،أم بأموالهم وأسلحتهم،يمدّون بها أعداء المسلمين..

فهؤلاء الذين يقفون من النبيّ ودعوته،هذا الموقف اللئيم المخادع،لا عهد لهم،ولا ذمة لهم عند النبيّ والمسلمين،ما داموا قد غدروا ونكثوا..فليس لهم عند النبيّ والمسلمين إذا ظفروا بهــم فى حرب،أو أمكنتهم أيديهم منهم فى أي موقف- ليس لهم إلا الضربة القاصــمة القاضــية،وإلا البلاء ينصب عليهم انصبابا،ينالهم فى أنفســهم،وأموالهم وأهليهم،وذلــك ليكونــوا عــبرة لغيرهم،ومثلا سائرا فى الناس،لكل من ينقض العهد مع النبيّ والمسلمين..وهذا ما يشــير إليــه قوله تعالى:«فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» .

والتعبير بالظفر بهم،ووقوعهم ليد النبي بقوله تعالى «تَثْقَفَنَّهُمْ» إشارة إلى أن الحــرب ليســت كلّها انتقاما،واستئصالا للمغلوب،وإنما هى- فى صميمها- إصلاح له،وحيدة به عــن طريــق الضلال والغواية الذي يركبه،إلى طريق الحق والهدى،المدعوّ إليه..إذ كثيرا ما تنتهى الحرب بين المسلمين وأعدائهم،وإذا أعداد وفيرة من هؤلاء الأعداء،قد تحوّلوا إلى أولياء،ودخلوا فى ديــن الله،وكانوا من عباده المؤمنين.

وهذا هو السرّ فى التعبير بكلمة «تثقفنّهم» بدلا من كلمة تظفر بهم..إذ الثّقاف هو من يتولّي إصلاح الرماح،وتقويمها،بما يقتطع من أجزائها،وأطرافها،وبما يسوّى من نتوئها..فــالحرب فى الإسلام أشبه بالثّقاف للرماح،غايتها الإصلاح،والتقويم،ولكن الحرب هنا مع هذا الصنف من الناس،الذين يغدرون بالنبيّ،وينصبون المكايد له بالخديعة والختل،إذ يجيئــون إليــه مــوادعين

[٢٣٨١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢١٨،بترقيم الشاملة آليا)

مسالمين،ثم ينقلبون ذئابا محاربين- هؤلاء،لا يرجى لهم إصلاح،ولا يتوقع منهم خير «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» أبدا..وإذن فليس لهم إلا الضربة القاضية،التي لا تبقى منهم على دار ولا ديّار،حتى يكونوا فى ذلك عبرة لغيرهم..«فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ» أي فرّق بهذا الذي تأخذهم به من بلاء ونكال،كلّ مجتمع للضلال وتبييت السوء للمسلمين،ممن ينتظرون ما وراء كيد هؤلاء الكافرين بالمؤمنين.

فكلّ من تحدثه نفسه بخيانة عهد المسلمين من بعد تلك الضربة التي نزلت بهؤلاء الخائنين- سيجد أمام ناظرية مثلا حيّا لما ينتظره من بلاء ونكال فى هذا الذي أخذ به هؤلاء القوم،وبهذا تنحلّ عزائم الذين يدبرون الشرّ للمسلمين،ويتشتت جمعهم..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» ..إذ الضمير فى كلّ من «لعلهم» و «يذكرون» راجع إلى هؤلاء الذين يأتون بعد هؤلاء الذي نكّل بهم النبيّ وضربهم الضربة القاضية..ففى الضربة التي حلت بهؤلاء موعظة وذكرى لهؤلاء الذين لم يظهروا بعد على طريق الغدر والخيانة![2382]

وقال تعالى في القصاص:{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:١٧٩] فإن القصاص من القاتل يردع الكثير ممن يريدون ارتكاب جريمة القتل عن فعلها،فتصان حياة الناس،وتحفظ دماؤهم بسبب عقوبة القصاص الرادعة

يَقُولُ تَعَالَى:وَفِي شَرْعِ الْقِصَاصِ لَكُمْ -وَهُوَ قَتْلُ الْقَاتِلِ -حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ لَكُمْ،وَهِيَ بَقَاءُ الْمُهَجِ وصَوْنُهَا؛لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ القاتلُ أَنَّهُ يُقْتَلُ انْكَفَّ عَنْ صَنِيعه،فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَيَاةُ النُّفُوسِ.وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ:القتلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ.فَجَاءَتْ هَذه الْعِبَارَةُ فِي الْقُرْآنِ أَفْصَحُ،وَأَبْلَغُ،وَأَوْجَزُ.

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} قَالَ أَبُو الْعَالِيَة:جَعَلَ اللَّهُ الْقِصَاصَ حَيَاةً،فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يُرِيدُ أَنْ يقتُل،فَتَمْنَعُهُ مَخَافَةَ أَنْ يُقتل.وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهد،وَسَعِيد بْنِ جُبَيْر،وَأَبِي مَالك،وَالْحَسَنِ،وَقَتَادَةَ،وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ،وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ،{يَا أُولِي الألْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} يَقُولُ:يَا أُولِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالنُّهَى،لَعَلَّكُمْ تَنْزَجِرُونَ فَتَتْرُكُونَ مَحَارِمَ اللَّهِ وَمَآثِمَهُ،وَالتَّقْوَى:اسْمٌ جَامِعٌ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ.[2383]

[2382] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٤٥)

[2383] - تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٤٩٢)

فِي الْآيَةِ وُجُوهٌ الْأَوَّلُ:أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ نَفْسَ الْقِصَاصِ حَيَاةٌ لِأَنَّ الْقِصَاصَ إِزَالَةٌ لِلْحَيَاةِ وَإِزَالَةُ الشَّيْءِ يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ نَفْسَ ذَلِكَ الشَّيْءِ،بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ شَرْعَ الْقِصَاصِ يُفْضِي إِلَى الْحَيَاةِ فِي حَقِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ قَاتِلًا،وَفِي حَقِّ مَنْ يُرَادُ جَعْلُهُ مَقْتُولًا وَفِي حَقِّ غَيْرِهِمَا أَيْضًا،أَمَّا فِي حَقِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ قَاتِلًا فَلِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ قَتَلَ قُتِلَ تَرَكَ الْقَتْلَ فَلَا يَقْتُلُ فَيَبْقَى حَيًّا،وَأَمَّا فِي حَقِّ مَنْ يُرَادُ جَعْلُهُ مَقْتُولًا فَلِأَنَّ مَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ إِذَا خَافَ مِنَ الْقِصَاصِ تَرَكَ قَتْلَهُ فَيَبْقَى غَيْرَ مَقْتُولٍ،وَأَمَّا فِي حَقِّ غَيْرِهِمَا فَلِأَنَّ فِي شَرْعِ الْقِصَاصِ بَقَاءَ مَنْ هَمَّ بِالْقَتْلِ،أَوْ مَنْ يَهُمُّ بِهِ وَفِي بَقَائِهِمَا بَقَاءُ مَنْ يَتَعَصَّبُ لَهُمَا،لِأَنَّ الْفِتْنَةَ تَعْظُمُ بِسَبَبِ الْقَتْلِ فَتُؤَدِّي إِلَى الْمُحَارَبَةِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى قَتْلِ عَالَمٍ مِنَ النَّاسِ وَفِي تَصَوُّرِ كَوْنِ الْقِصَاصِ مَشْرُوعًا زَوَالُ كُلِّ ذَلِكَ وَفِي زَوَالِهِ حَيَاةُ الْكُلِّ.

الْوَجْهُ الثَّانِي:فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا أَنَّ نَفْسَ الْقِصَاصِ سَبَبُ الْحَيَاةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ سَافِكَ الدَّمِ إِذَا أُقِيدَ مِنْهُ ارْتَدَعَ مَنْ كَانَ يَهُمُّ بِالْقَتْلِ فَلَمْ يَقْتُلْ،فَكَانَ الْقِصَاصُ نَفْسُهُ سَبَبًا لِلْحَيَاةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ،وَاعْلَمْ أَنَّ الْوَجْهَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِالْقِصَاصِ الَّذِي هُوَ الْقَتْلُ،يَدْخُلُ فِيهِ الْقِصَاصُ فِي الْجَوَارِحِ وَالشِّجَاجِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ إِنْ جَرَحَ عَدُوَّهُ اقْتُصَّ مِنْهُ زَجَرَهُ ذَلِكَ عَنِ الْإِقْدَامِ فَيَصِيرُ سَبَبًا لِبَقَائِهِمَا لِأَنَّ الْمَجْرُوحَ لَا يُؤْمَنُ فِيهِ الْمَوْتُ وَكَذَلِكَ الْجَارِحُ إِذَا اقْتُصَّ مِنْهُ وَأَيْضًا فَالشَّجَّةُ وَالْجِرَاحَةُ الَّتِي لَا قَوَدَ فِيهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ الْآيَةِ لِأَنَّ الْجَارِحَ لَا يَأْمَنُ أَنْ تُؤَدِّيَ جِرَاحَتُهُ إِلَى زُهُوقِ النَّفْسِ فَيَلْزَمُ الْقَوَدُ،فَخَوْفُ الْقِصَاصِ حَاصِلٌ فِي النَّفْسِ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ:أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْقِصَاصِ إِيجَابُ التَّسْوِيَةِ فَيَكُونُ الْمُرَادُ أَنَّ فِي إِيجَابِ التَّسْوِيَةِ حَيَاةٌ لِغَيْرِ الْقَاتِلِ،لِأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ غَيْرُ الْقَاتِلِ بِخِلَافِ مَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ قَوْلُ السُّدِّيِّ.

وَالْوَجْهُ الرَّابِعُ:قَرَأَ أَبُو الْجَوْزَاءِ وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ أَيْ فِيمَا قَصَّ عَلَيْكُمْ مِنْ حُكْمِ الْقَتْلِ وَالْقِصَاصِ وَقِيلَ:الْقَصاصُ الْقُرْآنُ،أَيْ لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ كقوله:رُوحاً مِنْ أَمْرِنا [الشورى:٥٢] وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ [الْأَنْفَال:٤٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.[٢٣٨٤]

وَأخرج عبد بن حميد عَن قَتَادَة قَالَ:جعل الله هَذَا الْقصاص حَيَاة وعبرة لأولي الْأَلْبَاب وَفِيه عظة لأهل الْجَهْل والسفه كم من رجل قد هم بداهية لَوْلَا مَخَافَة الْقصاص لوقع بهَا وَلَكِن الله

٢٣٨٤ - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٥/ ٢٢٩)

حجز عباده بِهَا بَعضهم عَن بعض وَمَا أَمر الله بِأَمْر قطّ إِلَّا وَهُوَ أَمر إصْلَاح فِي الدُّنْيَا وَالْـآخِرَة وَمَا نهى الله عَن أَمر إِلَّا وَهُوَ أَمر فَسَاد وَالله أعلم بِالَّذِي يصلح خلقه[٢٣٨٥].

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله:" وَلَكُمْ يَا أُولِي الْعُقُولُ فِيمَا فَرَضْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْجَبْتُ لِبَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْقِصَاصِ فِي النُّفُوسِ،وَالْجِرَاحِ،وَالشِّجَاجِ مَا مُنِعَ بِهِ بَعْضُكُمْ مِنْ قَتْلِ بَعْضٍ وَقَدَعَ بَعْضَكُمْ عَنْ بَعْضٍ فَحَيِيتُمْ بِذَلِكَ فَكَانَ لَكُمْ فِي حُكْمِي بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ حَيَاةٌ."[٢٣٨٦]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" فَلَوْلَا الْقِصَاصُ لَفَسَدَ الْعَالَمُ،وَأَهْلَكَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ابْتِدَاءً وَاسْتِيفَاءً،فَكَانَ فِي الْقِصَاصِ دَفْعًا لِمَفْسَدَةِ التَّجَرُّؤِ عَلَى الدِّمَاءِ بِالْجِنَايَةِ وَبِالِاسْتِيفَاءِ.

وَقَدْ قَالَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا:" الْقَتْلُ أَنفَى لِلْقَتْلِ ".

وَبِسَفْكِ الدِّمَاءِ تُحْقَنُ الدِّمَاءُ؛فَلَمْ تُغْسَلْ النَّجَاسَةُ بِالنَّجَاسَةِ،بَلْ الْجِنَايَةُ نَجَاسَةٌ وَالْقِصَاصُ طُهْرَةٌ،وَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ مَوْتِ الْقَاتِلِ وَمَنْ اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ فَمَوْتُهُ بِالسَّيْفِ أَنْفَعُ لَهُ فِي عَاجِلَتِهِ وَآجِلَتِهِ،وَالْمَوْتُ بِهِ أَسْرَعُ الْمَوْتَاتِ وَأَوْحَاهَا وَأَقَلُّهَا أَلَمًا،فَمَوْتُهُ بِهِ مَصْلَحَةٌ لَهُ وَلِأَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ وَلِعُمُومِ النَّاسِ،وَجَرَى ذَلِكَ مَجْرَى إتْلَافِ الْحَيَوَانِ بِذَبْحِهِ لِمَصْلَحَةِ الْآدَمِيِّ،فَإِنَّهُ حَسَنٌ،وَإِنْ كَانَ فِي ذَبْحِهِ إضْرَارٌ بِالْحَيَوَانِ؛فَالْمَصَالِحُ الْمَرْتَبَةُ عَلَى ذَبْحِهِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَفْسَدَةِ إتْلَافِهِ،ثُمَّ هَذَا السُّؤَالُ الْفَاسِدُ يَظْهَرُ فَسَادُهُ وَبُطْلَانُهُ بِالْمَوْتِ الَّذِي حَتَمَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ وَسَاوَى فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِهِمْ،وَلَوْلَاهُ لَمَا هَنَأَ الْعَيْشُ،وَلَا وَسِعَتْهُمْ الْأَرْزَاقُ،وَلَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسَاكِنُ وَالْمُدُنُ وَالْأَسْوَاقُ وَالطُّرُقَاتُ،وَفِي مُفَارَقَةِ الْبَغِيضِ مِنْ اللَّذَّةِ وَالرَّاحَةِ مَا فِي مُوَاصَلَةِ الْحَبِيبِ،وَالْمَوْتُ مُخَلِّصٌ لِلْحَيِّ،وَالْمَوْتُ مُرِيحٌ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ،وَمُخْرِجٌ مِنْ دَارِ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ [وَ] بَابٌ لِلدُّخُولِ فِي دَارِ الْحَيَوَانِ.

جَزَى اللَّهُ عَنَّا الْمَوْتَ خَيْرًا فَإِنَّهُ ...أَبَرُّ بِنَا مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَأَعْطَفُ

يُعَجِّلُ تَخْلِيصَ النُّفُوسِ مِنْ الْأَذَى ...وَيُدْنِي إلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ

فَكَمْ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ فِي الْمَوْتِ مِنْ نِعْمَةٍ لَا تُحْصَى،فَكَيْفَ إذَا كَانَ فِيهِ طُهْرَةٌ لِلْمَقْتُولِ،وَحَيَاةٌ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ،وَتَشَفٍّ لِلْمَظْلُومِ،وَعَدْلٌ بَيْنَ الْقَاتِلِ

[٢٣٨٥] - الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١/ ٤٢١)

[٢٣٨٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ١٢٠)

وَالْمَقْتُولِ؛فَسُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَتْ شَرِيعَتُهُ عَنْ خِلَافِ مَا شَرَعَهَا عَلَيْهِ مِنْ اقْتِرَاحِ الْعُقُولِ الْفَاسِدَةِ وَالْآرَاءِ الضَّالَّةِ الْجَائِرَةِ."[2387]

وقال تعالى:{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النور:٢]

فَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ فِيهَا حُكْمُ الزَّانِي فِي الحَدِّ فَالزَّانِي إِذَا كَانَ بِكْراً - ذَكَراً كَانَ أَوْ أُنْثَى - وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ فَحَدُّهُ مِئَةُ جَلْدَةٍ كَمَا فِي الآيَةِ وَيَرَى جُمْهُورُ الفُقَهَاءِ أَنْ يُغَرَّبَ سَنَةً عَنْ مَوْطِنِهِ،إِنْ شَاءَ الإِمَامُ تَغْرِيبَهُ (أَيِ نَفْيَهُ مِنْ مَوْطِنِهِ) .أَمَّا إِذَا كَانَ الزَّانِي مُحْصَناً،وَهُوَ الذي سَبَقَ لَهُ الوَطْءُ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ،فَإِنَّهُ يُرْجَمُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى المَوْتِ.

وَحُكْمُ الزَّانِي المُحْصَنِ مَأْخُوذٌ مِنَ السُّنَّةِ،فَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرَجْمِ امْرَأَةٍ مُحْصَنَةٍ زَنَتْ.

وَيَثْبُتُ الزِّنَى بِالإِقْرَارِ،أَوْ بِحَبَلِ المَرْأَةِ بِلاَ زَوْجٍ مَعْرُوفٍ لَهَا،أو بِشَهَادَةِ أَرْبَعَةٍ مِنَ الشُّهُودِ العُدُولِ يَرَوْنَها فِي حَالَةِ الفِعْلِ.

وَيُنَبِّهُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ إِلى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِم أَلاَّ تَأْخُذَهُمْ رَأْفَةٌ بِالزُّنَاةِ فِي تَطْبِيقِ حُكْمِ اللهِ وَشَرْعِهِ،لأَنَّ مِنْ مُقْتَضَى الإِيْمَانِ إِيثَارَ مَرْضَاةِ اللهِ عَلَى مَرْضَاةِ النَّاسِ،فَإِذَا رُفِعَتِ الحُدُودُ إِلى السُّلْطَانِ فَتُقَامُ وَلا تُعَطَّلُ.فَإِذَا كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ،واليَوْمِ الآخِرِ،فَافْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ اللهُ مِنْ إِقَامَةِ الحَدِّ عَلَى الزُنَاةِ،وشَدِّدُوا عَلَيْهِم الضَّرْبَ عَلَى أَنْ لاَ يَكُونَ الضَّرْبُ مُبَرِّحاً،لِيَرْتَدِعَ مَنْ يَصْنَعُ مِثْلَهُمْ.ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِأَنْ يَكُونَ تَنْفِيذُ الحُدُودِ عَلاَنِيَةً،وَأَنْ يَشْهَدَهُ طَائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ لأَنَّهُ يَكُونُ أَبْلَغَ فِي زَجْرِ النَّاسِ،وَأَنْجَعَ فِي رَدْعِهِمْ،وَيَكُونُ تَقْرِيعاً وَتَوْبِيخاً وَفَضِيحَةً إِذَا كَانَ النَّاسُ حُضُوراً.[2388]

والرأفة المنهي عنها في الآية ليست الرأفة الطبيعية،إنما الرأفة التي تؤدي إلى تعطيل إقامة الحد أو تخفيف الضرب،فلا يكون موجعا رادعا،قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ إقَامَةَ الْحُدُودِ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ:فَيَكُونُ الْوَالِي شَدِيدًا فِي إقَامَةِ الْحَدِّ،لَا تَأْخُذُهُ رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ فَيُعَطِّلُهُ.

[2387] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٧٩)

[2388] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

وَيَكُونُ قَصْدُهُ رَحْمَةَ الْخَلْقِ بكف الناس عن المنكرات؛لا شفاء غيظه،وإرادة العلو على الخلق:بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ إذَا أَدَّبَ وَلَدَهُ؛فَإِنَّهُ لَوْ كَفَّ عَنْ تَأْدِيبِ وَلَدِهِ -كَمَا تُشِيرُ بِهِ الْأُمُّ رِقَّةً وَرَأْفَةً- لَفَسَدَ الْوَلَدُ،وَإِنَّمَا يُؤَدِّبُهُ رحمةً به،وإصلاحا لحاله؛مع أنه يَوَدُّ وَيُؤْثِرُ أَنْ لَا يُحْوِجَهُ إلَى تَأْدِيبٍ،وَبِمَنْزِلَةِ الطَّبِيبِ الَّذِي يَسْقِي الْمَرِيضَ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ،وَبِمَنْزِلَةِ قَطْعِ الْعُضْوِ الْمُتَآكِلِ،وَالْحَجْمِ،وَقَطْعِ الْعُرُوقِ بالفصاد،وَنَحْوِ ذَلِكَ؛بَلْ بِمَنْزِلَةِ شُرْبِ الْإِنْسَانِ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ،وَمَا يُدْخِلُهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ الْمَشَقَّةِ لِيَنَالَ بِهِ الرَّاحَةَ.فَهَكَذَا شُرِعَتْ الْحُدُودُ،وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ نِيَّةُ الْوَالِي فِي إقَامَتِهَا،فإنه مَتَى كَانَ قَصْدُهُ صَلَاحَ الرَّعِيَّةِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ،بِجَلْبِ الْمَنْفَعَةِ لَهُمْ،وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ عَنْهُمْ،وَابْتَغَى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى،وَطَاعَةَ أَمْرِهِ:أَلَانَ اللَّهُ لَهُ الْقُلُوبَ،وَتَيَسَّرَتْ لَهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ،وَكَفَاهُ الْعُقُوبَةَ الْبَشَرِيَّةَ،وَقَدْ يُرْضِي الْمَحْدُودَ،إذَا أَقَامَ عَلَيْهِ الْحَدَّ."[٢٣٨٩]

وقال:" وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَلَمَ الْعِلَاجِ النَّافِعِ أَيْسَرُ وَأَخَفُّ مِنْ أَلَمِ الْمَرَضِ الْبَاقِي .وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَك أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا أَدْوِيَةٌ نَافِعَةٌ يُصْلِحُ اللَّهُ بِهَا مَرَضَ الْقُلُوبِ وَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ الدَّاخِلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } فَمَنْ تَرَكَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ النَّافِعَةَ لِرَأْفَةٍ يَجِدُهَا بِالْمَرِيضِ فَهُوَ الَّذِي أَعَانَ عَلَى عَذَابِهِ وَهَلَاكِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُ إلَّا الْخَيْرَ إذْ هُوَ فِي ذَلِكَ جَاهِلٌ أَحْمَقُ كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ الْجُهَّالِ بِمَرْضَاهُمْ وَبِمَنْ يُرَبُّونَهُ مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَغَيْرِهِمْ فِي تَرْكِ تَأْدِيبِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ عَلَى مَا يَأْتُونَهُ مِنْ الشَّرِّ وَيَتْرُكُونَهُ مِنْ الْخَيْرِ رَأْفَةً بِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ فَسَادِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ .وَمِنْ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ الرَّأْفَةُ بِهِمْ لِمُشَارَكَتِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَرَضِ وَذَوْقِهِ مَا ذَاقُوهُ مِنْ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ وَبُرُودَةِ الْقَلْبِ وَالدِّيَاثَةِ فَيَتْرُكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ وَهُوَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ وأديثهم فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَنُظَرَائِهِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ جَمَاعَةٍ مِنْ الْمَرْضَى قَدْ وَصَفَ لَهُمْ الطَّبِيبُ مَا يَنْفَعُهُمْ فَوَجَدَ كَبِيرُهُمْ مَرَارَتَهُ فَتَرَكَ شُرْبَهُ وَنَهَى عَنْ سَقْيِهِ لِلْبَاقِينَ .وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ الرَّأْفَةُ لِكَوْنِ أَحَدِ الزَّانِيَيْنِ مَحْبُوبًا لَهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِصُورَتِهِ وَجَمَالِهِ بِعِشْقٍ أَوْ غَيْرِهِ أَوْ لِقَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا أَوْ لِمَوَدَّةٍ أَوْ

[٢٣٨٩] – السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:١٢٠)

لِإِحْسَانِه إِلَيْهِ أَوْ لِمَا يَرْجُو مِنْهُ مِنْ الدُّنْيَا أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ أَوْ لِمَا فِي الْعَذَابِ مِنْ الْأَلَمِ الَّذِي يُوجِبُ رِقَّةَ الْقَلْبِ ."[2390]

فإن الإسلام دين الرحمة،ومن مقتضى الرحمة بعموم المسلمين وبالجاني أن تقام الحدود كما أمر الله تعالى ليحفظ الدين،وتصان الأعراض،والدماء،والأموال،والعقول،وأما القوانين الوضعية،فغلبت الرأفة بالجاني وخففت من عقوبته و لم ترأف بالمجتمع المهدد بمثل هذه الجرائم والأخطار،مما جعل المجرمين يتمادون في إجرامهم،وعدوانهم على الناس بعد أن ضعف الرادع الذي يكفهم ويردعهم.

وتأمل عقوبة ارتكاب الفاحشة كالزنا واللواط،حيث أوجب الله تعالى رجم الزاني المحصن،وهي عقوبة مغلظة،ناسبت قوة الداعي في النفوس إلى الزنا،الذي هو أقوى في كثير من النفوس من دواعي العدوان الأخرى كالقتل،والسرقة ونحوها،مع وجود المغريات والمهيجات الكثيرة التي تقرب منها وتدعو إليها،كدعوة المفسدين من النصارى واليهود وغيرهم في وسائل إعلامهم إليها بدعوى الحرية،أو كالنظر المحرم إلى النساء،أو الاختلاط أو التبرج أو غيرها.

وهذا الدعي إلى الزنا وهو الشهوة وحب الفاحشة،قد وصفه الله تعالى بأنه سكرة،وهي سكرة أعظم من سكرة الخمر،فإن سكرة الخمر لا تدوم،وأما سكرة الفاحشة فهي دائمة إلا من أفاقه الله تعالى منها،قال الله تعالى:{وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَة يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)} [الحجر:٦٧ - ٧٥]

شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى يَقصُّ مَا صَدَرَ مِنْ قَوْمِ لُوط،حِينَما عَلِمُوا بِقُدُومِ أَضْيَافٍ صِبَاحِ الوُجُوهِ إِلَى دَارِ لُوْط،وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مِنْ دَمَارِهِمْ كَمَا أَشَارَ إِلَيْه تَعَالَى سَابِقاً.فَقَالَ تَعَالَى:إِنَّ أَهْلَ القَرْيَةِ جَاؤُوا إِلَى دَارِ لُوْطٍ مُسْرِعِينَ مُسْتَبْشِرِينَ بِأَنَّهُمْ سَيَنَالُونَ بُغْيَتَهُمْ،بِفِعْلِ الفَاحِشَةِ،مِنْ هَؤُلاَءِ الضُّيُوفِ.

[2390] - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية- دار الوفاء (١٥/ ٢٩٠)

وَقَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ لُوطٌ أَنَّ أَضْيَافَهُ هُمْ رُسُلُ رَبِّهِ إِلَيْهِ،أَخَذَ يُدَافِعُ قَوْمَهُ عَنْهُمْ،وَيَقُولُ لَهُمْ:إِنَّهُمْ أَضْيَافُهُ،وَرَجَاهُمْ أَنْ لاَ يَخْذُلُوهُ،وَيُهِينُوهُ بِالاعْتِدَاءِ عَلَى أَضْيَافِهِ وَخَفْرِ ذِمَّتِهِ.وَأَرَادَ لُوطٌ،عَلَيْهِ السَّلاَمُ،أَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِحَقِّهِ عَلَيْهِمْ،وَيَرْجُوَهُمْ أَنْ لاَ يُخْزُوهُ أَمَامَ ضُيُوفِهِ،فَنَاشَدَهُمُ اللهَ،وَذَكَّرَهُمْ بِمَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَقْوَى اللهِ،وَمُرَاعَاةِ جَانِبِهِ تَعَالَى.فَقَالُوا لَهُ:أَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ اسْتِضَافَةِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِي قَرْيَتِنَا،فَقَدْ كَانُوا يَتَعَرَّضُونَ لِكُلِّ غَرِيبٍ بِالسُّوءِ،وَكَانَ لُوطٌ يُدَافِعُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ارْتِكَابِ الفَوَاحِشِ،وَيُدَافِعُهُمْ عَنْ أَضْيَافِهِ.

فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ لَهُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ،وَحَثَّهُمْ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْ نِسَاءِ القَرْيَةِ،وَنَهَاهُمْ عَنْ إِتْيَانِ الرِّجَالِ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ.- فَقَالَتِ المَلاَئِكَةُ لِلُوطٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:وَحَيَاتِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ،إِنَّ قَوْمَكَ لَفِي ضَلاَلَتِهِمْ التِي جَعَلَتْهُمْ حَيَارَى لاَ يَعْرِفُونَ مَا أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ البَلاَءِ،وَلاَ مَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنَ العَذَابِ،لِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ عَمَى البَصِيرَةِ (يَعْمَهُونَ) .(أَوْ أَنَّ القَسَمَ بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى) .

فَنَزَلَ بِهِم العَذَابُ المُنْتَظَرُ،وَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ،وَقتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ،وَكَانَ ابْتِدَاؤُهَا مِنَ الصُّبْحِ،وَانْتِهَاؤُهَا حِينَ الشُّرُوقِ،لِذَلِكَ قَالَ أَوْلاً (مُصْبِحِينَ) وَقَالَ هُنَا (مُشْرِقِينَ) .فَهَدَمَ اللهُ بَلَدَهُمْ،وَقَلَبَهَا فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ،زَلْزَلَ أَرْضَهُمْ،وَجَعَلَ عَالِيَ بَلَدِهِمْ سَافِلَهَا،وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ أَثْنَاءَ ذَلِكَ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مَشْوِيٍّ،أَوْ مُتَحَجِّرٍ،(سِجِّيلٍ)،فَقَتَلَتْ مِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ الزِّلْزَالُ،وَهَدَمَت البُيُوتَ.وَإِنَّ فِيمَا فَعَلْنَاهُ بِقَوْمِ لُوطٍ،مِنَ الهَلاَكِ وَالعَذَابِ،لَدَلاَلاَتٍ لِمَنْ يَتَفَكَّرُونَ فِي الكَوْنِ فَيَعْتَبِرُونَ بِمَا يَحْدُثُ فِيهِ مِنَ العِظَاتِ وَالعِبَرِ،وَلِمَنْ يَتَأَمَّلُونَ ذَلِكَ وَيَتَوَسَّمُونَهُ،وَيَنْظُرُونَهُ بِعَيْنِ البَصِيرَةِ وَالبَصَرِ.[2391]

وهذه آيات عظيمة تدل على شناعة الفاحشة وخطرها على المجتمع،وفتكها بالأخلاق والأعراض،ففيها وصف حب الفاحشة بالسكرة،وهو يدل على أنها تذهب عقل صاحبها،كما يذهب الخمر عقل السكران،ولهذا فلا يميز من سكر بالشهوة بين الصواب والخطأ وهذا هو العمه،كما قال تعالى:{لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} أي يترددون ويتحيرون في غوايتهم فلا يميزون بين معروف ومنكر،بل يهرعون إلى شهواتهم دون نظر في العواقب،وهذا بين في انفعالهم

[2391] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨٧٠،بترقيم الشاملة آليا)

واندفاعهم كما قال تعالى:{ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ } [الحجر:٦٧] أي يستبشــرون بمجيئ ضيف إلى لوط عليه السلام،أملا منهم أن يفعلوا الفاحشة بهم،وقال تعــالى { وَجَــاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ } [هود:٧٨] أي لفرحهم بهم يهرولون ويسرعون.

وفيها أن سكرة الشهوة التي تذهب العقل تصد صاحبها عن قبول النصح فلا يلتفت إلى لــوم اللائمين ونصح الناصحين،وهذا بين في إعراض قوم لوط عن نصح لوط عليه الصلاة والسلام.

وفيها أن سكرة الشهوة تجعل صاحبها لا يبالي بانتهاك أعــراض الناس،ومــا يلحــق بهــم وبأقاربهم،أو من هم ضيف عنده من الفضــيحة والخــزي والإهانــة،كما قــال الله تبــارك وتعالى:{قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَــحُونِ (٦٨) وَاتَّقُــوا اللَّــهَ وَلَــا تُخْــزُونِ (٦٩)} [الحجر:٦٨،٦٩]،وتأمل هذا الحديث العظيم وكيف بين فيــه الــنبي ﷺ بشــاعة فاحشــة الزنا،وشدة وقعها على أقارب المزني بها لمن جاء يستأذنه بفعلها،فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَــالَ:إِنَّ فَتًــى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ:يَا رَسُــولَ اللهِ،ائْــذَنْ لِــي بِالزِّنَا،فَأَقْبَــلَ الْقَــوْمُ عَلَيْــهِ فَزَجَــرُوهُ وَقَالُوا:مَهْ.مَهْ.فَقَالَ:" ادْنُهْ،فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ".قَالَ:فَجَلَسَ قَالَ:" أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ " قَــالَ:لَــا.وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.قَالَ:" وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ ".قَالَ:" أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ " قَالَ:لَا.وَاللهِ يَــا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ:" وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ ".قَــالَ:" أَفَتُحِبُّــهُ لِأُخْتِــكَ؟ " قَالَ:لَا.وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.قَالَ:" وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ ".قَالَ:" أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِــكَ؟ " قَالَ:لَا.وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.قَالَ:" وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ ".قَالَ:" أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِــكَ؟ " قَالَ:لَا.وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.قَالَ:" وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ ".قَالَ:فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ:" اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ،وَحَصِّنْ فَرْجَهُ " قَالَ :فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِــكَ الْفَتَــى يَلْتَفِــتُ إِلَــى شَيْءٍ.رواه أحمد[٢٣٩٢].

وفي الآيات أن سكرة الفاحشة تصدُّ عن الطهارة والطيبات،كالزواج،وتفتح أبواب الفواحش والرذائل،وانتهاك الحرمات في المجتمع،كما قال تعالى {قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْــتُمْ فَــاعِلِينَ} [الحجر:٧١]،وقال تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِــي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا

[٢٣٩٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٥٤٥)) (٢٢٢١١) صحيح

نُرِيدُ (٧٩)} [هود:٧٨،٧٩]،فحثهم لوط عليه الصلاة والسلام على التزوج بالنساء،وذكر أهن بناته،لأن النبي في أمته بمكانة الوالد كما قال الله تعالى عن لوط عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه:{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)} [الشعراء:١٦٥،١٦٦].

ولما كانت سكرة الشهوة بهذه القوة،والاندفاع الأعمى الجارف الذي ينتهك الأعراض والحرمات،ويفسد المجتمعات،جاءت الشريعة بحد الرجم،لردع هذه السكرة،وكبح جماحها،وكف عدوانها عن الناس،مع ما في الرجم من التذكير بعقوبة قوم لوط.

ثالثا:حصول البركات وزيادة الأرزاق للعباد:

ابتعاد الناس عن المعاصي،وفعلهم للطاعات من أسباب حصول البركات من السماء والأرض،وزيادة الأرزاق،ومن أعظم ما يكف الناس عن ارتكاب المعاصي ويردعهم،إقامة الحدود الشرعية،وقد قال الله تعالى:{ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم:٤١]

ظَهَرَ الفَسَادُ فِي العَالَمِ بالفتَنِ والحُروبِ والاضْطِرابَات..وذَلكَ بِسَبَبِ مَا اقتَرَفَهُ النَّاسُ مِنَ الظُّلمِ،وانتِهَاكِ الحُرُمَاتِ،والتَّنَكُّرِ للدِّينِ،وَنسيَانِ يومِ الحِسَابِ فانْطَلَقَتِ النُّفُوسُ مِنْ عِقَالِها،وَعَاثَتْ فِي الأَرضِ فَسَاداً بِلاَ وَازِعٍ وَلا رَقيبٍ مِنْ ضَميرٍ أَوْ وُجدَانٍ أو حَيَاءٍ أَو حِسَابٍ لدينٍ،فأَذَاقَهُم اللهُ جزاءَ بعضِ ما عَمِلُوا مِنَ المَعَاصِي والآثَامِ،لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إلى الحَقِّ،وَيَكُفُّونَ عَنِ الضَّلالِ والغِوايةِ،وَيَتَذَكَّرُونَ يومَ الحِسَابِ.[٢٣٩٣]

هذا الفساد الذي ظهر على هذه الأرض،وشمل برّها وبحرها،هو من صنع الناس،لأنهم هم الخلفاء عليها،وهم أصحاب الإرادات العاملة،فيها..إن كل ما على هذه الأرض من كائنات،إنما تتحرك حركة منبعثة من طبيعتها التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيها،دون أن تخرج عليها..

ولهذا كان كل نوع من الكائنات على طريق واحد،لا اختلاف فيه بين فرد وفرد..والإنسان وحده،هو الذي يعيش في الجماعة الإنسانية ذاتا مستقلة،لها تفكيرها،ولها أسلوبها في الحياة..

[٢٣٩٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٣١،بترقيم الشاملة آليا)

ومن هنا كان التغيير والتبديل في المجتمعات الإنسانية،وكانت الحروب الدائرة بينـــها،وكانت هـــــذه الانحرافــــات والضــــلالات في العقائـــــد والمعـــــاملات،من كفـــــر بالله،وكذب،وغش،وخداع،ونفاق..إلى غير ذلك مما تمتلىء به دنيــا النـــاس مـــن مســـاوئ ومقابح..

وفي قوله تعالى:«ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» - إشارة إلى أن هذا الفساد طارئ على هـــذه الأرض،لم تكن تعرفه قبل ظهور الإنسان فيها..

فلما ظهر الإنسان،ظهر الفساد..وليس معنى هذا أن الإنسان هو عنصــر الفســاد في هـــذه الأرض،إذ لو كان ذلك كذلك،لما استحق أن يكون خليفة الله فيها..ولكن هذا يشـــير إلى أن أصل الخلقة الموجودات كلها،ومنها الأرض،قائم على الصحة والسلامة،شأنها في هـــذا شـــأن الإنسان في أصل خلقه،وما أودع فيه الخالق- جل وعلا- من فطرة سليمة..وكما أفسد كثير من الناس فطرتهم،أفسد الناس كذلك فطرة الطبيعة،واتخذوا كثيرا من أدواتها الصالحة النافعـــة أدوات للإفساد،والتدمير..وإلى هذا المعنى يشير المتنبي بقوله:

كلّما أنبت الزمان قناة ...ركّب المرء في القناة سنانا

ومع هذا،فإنه لا ينكر فضل الإنسان وآثاره العظيمة في هذه الـــدنيا،وما أقـــام علـــى وجـــه الأرض،من عمران،وما أحدث،من حضارات.

وقوله تعالى:«بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» - إشارة إلى أن هذا الفساد والاعوجاج الذي ظهـــر على هذه الأرض،هو مما كسبته أيـــدى النـــاس،فهو مـــن صـــنعهم،ومن فعـــل إرادتهـــم الحرة..ولهذا،فهم محاسبون عليه،مؤاخذون به..فالباء هنا للسببية،أي بسبب ما كسبت أيديهم ...

وفي قوله تعالى:«لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» - تقرير لتلك الحقيقـــة،وهى أن مـــا يعملـــه الناس،هو محسوب عليهم،مجزيّون به،من خير أو شر ...

وليس كذلك ما تعمله الكائنات الأخرى التي تعيش مع الناس على هذه الأرض..إن ما تعمله لا إرادة لها فيه،شأنها في هذا شأن البذرة تدفن في الثرى،فيخرج منها ما في طبيعتها من زهـــر وثمر..ومن هنا كانت مسئولية الإنسان عن كل عمل يعمله،ليذوق ثمر ما يعمل،حلوا كان أو

مرا..«وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى» (٣٩:النجم) .والآية هنا،إنما تنبه إلى الأعمال السيئة،التي من شأنها،الإفساد في الأرض،والتي كان من شأن الإنسان العاقل أن يتجنبها،ويعمل مـــا هـــو خير،وما هو حسن ...

وفي قوله «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى- فضلا منه وكرمـــا وإحسانا- لم يجز الناس بكل ما عملوا من شر،بل ببعض ما كسبوا منه،حتى يكون،لهم مـــن ذلك زاجر يزجرهم،وأدب سماوى يأخـــذون منـــه العـــبرة والعظـــة،وليرجعوا إلى الله مـــن قريب،ويستقيموا على طريق الخير والإحسان ...ولو آخذ الله الناس بمـــا كســـبوا،لأهلكهم جميعا،بل وأهلك معهم كل دابة تدب على ظهر الأرض،وفي هذا يقول سبحانه:«وَلَوْ يُؤاخِـــذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ» (٤٥:فاطر) وإنه ليكفى أن يدين بعـــض الناس بغير دين الله،وأن يتخذوا من دونه أولياء،وأن يدعوا له ولدا،أو شريكا..فـــذلك ذنـــب عظيم:«تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا» (٩٠:مريم) .[٢٣٩٤]

أي ظهر الفساد فى العـــالم بـــالحروب والغـــارات،والجيوش والطائرات،والســـفن الحربيـــة والغواصات،بما كسبت أيدى الناس من الظلم وكثره المطامع،وانتهاك الحرمات،وعدم مراقبـــة الخلاق،وطرح الأديـــان وراء ظهورهم،ونســـيان يـــوم الحســـاب،وأطلقت النفـــوس مـــن عقالها،وعاثت فى الأرض فسادا،إذ لا رقيب من وازع نفسى،ولا حسيب مـــن ديـــن يـــدفع عاديتها،ويمنع أذاها،فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام،لعلهم يرجعون عـــن غيهم،ويثوبون إلى رشدهم،ويتذكرون أن هناك يوما يحاسب الناس فيه على أعمالهم،إن خـــيرا فخير،وإن شرا فشر،فيخيّم العدل على المجتمع البشرى،ويشفق القوىّ على الضـــعيف،ويكون الناس سواسية فى المرافق العامة،وحاج المجتمع بقدر الطاقة البشرية.[٢٣٩٥]

وهو يواجههم بواقع أمرهم وحقائق حالهم التي لا يملكون أن يمـــاروا في أن الله وحـــده هـــو موجدها أو التي لا يملكون أن يزعموا أن لآلهتهم المدعاة مشاركة فيها.يواجههم بأن الله هـــو الذي خلقهم.وأنه هو الذي رزقهم.وأنه هو يميتهم.وأنه هو يحييهم.فأما الخلق فهـــم يقـــرون

[٢٣٩٤] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٥٢٩)

[٢٣٩٥] - تفسير المراغي (٢١/ ٥٥)

به.وأما الرزق فهم لا يملكون أن يزعموا أن آلهتهم المدعاة ترزقهم شيئا.وأما الإماتة فلا حجة لهم على غير ما يقرره القرآن فيها.بقي الإحياء وكانوا يمارون في وقوعه.وهو يسوقه إليهم ضمن هذه المسلمات ليقرره في وجدانهم بهذه الوسيلة الفريدة،التي تخاطب فطرتهم من وراء الانحراف الذي أصابهم.وما تملك الفطرة أن تنكر أمر البعث والإعادة.

ثم يسألهم:«هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ » ولا ينتظر جوابا منهم،فهو سؤال للنفي في صورة التقريع غير محتاج إلى جواب! إنما يعقب عليه بتنزيه الله:«سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد،ويملؤها برا وبحرا بهذا الفساد،ويجعله مسيطرا على أقدارها،غالبا عليها:«ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» ..

فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثا،ولا يقع مصادفة إنما هو تدبير الله وسنته ..«لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» من الشر والفساد،حينما يكتوون بناره،ويتألمون لما يصيبهم منه:«لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فيعزمون على مقاومة الفساد،ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم.[٢٣٩٦]

وقال تبارك وتعالى:{ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } [المائدة:٦٦]

وَلَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الكِتَابِ الذي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ،كَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ،دُونَ تَحْرِيفٍ وَلا تَبْدِيلٍ،لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إلى اتِّبَاعِ الحَقِّ،وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ،لأنَّ كُلاً مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ بَشَّرَ بِنَبِيٍّ يَكُونُ مِنْ أَوْلاَدِ إِسْمَاعِيلَ.وَلَوْ أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا الحَقَّ،وَآمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ الذي بَشَّرَ بِهِ كِتَابُهُمْ،لَوَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ،وَلأَغْدَقَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَطَرَها وَبَرَكَاتِهَا،وَلأخْرَجَتْ لَهُمْ خَيْرَاتِهَا.وَلَكِنَّ قِلَّةً مِنْهُمْ مُؤْمِنَةٌ مُلْتَزِمَةٌ بِأَحْكَامِ مَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ،وَأَكْثَرُهُمْ طُغَاةٌ مُجَاوِزُونَ لأَوَامِرِ اللهِ،وَسَاءَ عَمَلُهُمْ.[٢٣٩٧]

[٢٣٩٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٢٥)

[٢٣٩٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

إِقَامَةَ التَّوْرَاة وَالْإِنْجيلِ:الْعَمَلُ بهِمَا عَلَى أَقْوَمِ الْوُجُوه وَأَحْسَنهَا؛سَوَاءٌ فيه عَمَلُ النَّفْسِ – وَهُـــوَ الْإِيمَانُ وَالْإِذْعَانُ – وَعَمَلُ الْقُوَى وَالْجَوَارِحِ ؛ أَيْ لَوْ أَقَامُوا مَا في التَّوْرَاة وَالْإِنْجيلِ الْمُنَزَّلَيْنِ منْ قَبْلُ بنُورِ التَّوْحيد وَالْفَضَائلِ،الْمُبَشِّرَيْنِ بالنَّبيِّ الَّذي يَأْتي منْ أَبْنَاءِ أَخيهِمْ إِسْمَاعيلَ ؛ كَمَا قَـــالَ مُوسَى:وَالْبَارَقْليطُ رُوحُ الْحَقِّ الَّذي يُعَلِّمُهُمْ كُلَّ شَيْءٍ ؛ كَمَا قَالَ عيسَى (عَلَـــيْهِمُ السَّـــلَامُ) .وَأَقَامُوا،بَعْدَ ذَلكَ،مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ منْ رَبِّهِمْ عَلَى لسَانِ هَذَا النَّبيِّ الَّذي بَشَّرَتْ به كُتُبُهُمْ،وَهُـــوَ الْفُرْقَانُ الَّذي أَكْمَلَ اللهُ به الدِّينَ،لَوْ أَقَامُوا جَميعَ ذَلكَ،وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ رُسُلِ الله وَكُتُبه،لَوَسَّـــعَ اللهُ عَلَيْهِمْ بالتَّبَعِ لذَلكَ مَا يُهِمُّهُمْ منْ مَوَارِد الرِّزْق ؛ فَأَكَلُوا منَ الثَّمَرَات وَالْبَرَكَات الَّتي تَنْتجُ منْ أَمْطَارِ السَّمَاءِ وَنَبَات الْأَرْضِ،وَتَمَتَّعُوا بمَا وَعَدَ اللهُ به هَذَا النَّبيَّ وَأُمَّتَهُ منْ سعَة الْمُلْك.

وَقيلَ:إِنَّ الْمُرَادَ بمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ منْ رَبِّهِمْ سَائرَ مَا أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَنْبيَائهِمْ منْ أَمْرِ الـــدِّينِ وَآدَابه وَالْبشَارَة بالنَّبيِّ الْأَخيرِ ﷺ ؛ كَزَبُورِ دَاوُدَ،وَحكَمِ سُـــلَيْمَانَ،وَكُتُبِ دَانْيَـــالَ وَأَشْـــعَيَا وَغَيْرِهمَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،وَفي مُجَلَّدَات الْمَنَارِ بَيَانٌ لكَثيرٍ منْ هَذه الْبشَارَات،وَإِقَامَةُ هَذه الْكُتُب منْ أَسْبَابِ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ،فَلَوْ أَقَامَهَا قَبْلَ الْبعْثَة الْمُحَمَّديَّة أَهْلُ الْكتَابِ لَمَا غَلَبَ عَلَيْهِمْ مَا عَزَاهُ الْمُؤَرِّخُونَ إِلَيْهِمْ منَ الطُّغْيَانِ وَالْفَسَاد،وَلَمَا عَانَدُوا النَّبيَّ – الْمُبَشِّرَةُ به – ذَلكَ الْعنَـــادَ ؛ ذَلكَ بأَنَّهُمْ لَمْ يُقيمُوهَا،وَلَا تَدَبَّرُوهَا؛وَإِنَّمَا كَانَ الدِّينُ عنْدَهُمْ أَمَانيَّ يَتَمَنَّوْنَهَا،وَبدَعًا وَتَقَاليـــدَ يَتَوَارَثُونَهَا ؛ فَهُمْ بَيْنَ غُلُوٍّ وَتَقْصيرٍ،وَإِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ،وَالْمُرَادُ أَنَّ دَهْمَاءَهُمْ وَسَـــوَادَهُمُ الْـــأَعْظَمَ كَانَ كَذَلكَ كَمَا يُعْلَمُ منْ تَوَاريخهمْ

وَتَوَاريخ غَيْرِهمْ،وَمنْ دقَّة الْقُرْآنِ وَعَدْله تَمْحيصُ الْحَقيقَة في ذَلكَ بقَوْله:(منْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصـــدَةٌ وَكَثيرٌ منْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) أَيْ منْهُمْ جَمَاعَةٌ مُعْتَدلَةٌ في أَمْرِ الدِّين.لَا تَغْلُو بالْإِفْرَاط،وَلَا تُهْملُ بالتَّقْصير.قيلَ:هُمُ الْعُدُولُ في دينهمْ.وَقيلَ:هُمُ الَّذينَ أَسْلَمُوا منْهُمْ،وَالْمُعْتَدلُونَ لَا تَخْلُو مـــنْهُمْ أُمَّةٌ،وَلَكنَّهُمْ يَكْثُرُونَ في طَوْرِ صَلَاحِ الْأُمَّة وَارْتقَائهَا،وَيَقلُّونَ في طَوْرِ فَسَادهَا وَانْحطَاطهَـــا – وَهَلْ تَهْلَكُ الْأُمَمُ إِلَّا بكَثْرَة الَّذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ منَ الْأَشْرَارِ،وَقلَّة الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحَات مَنَّ الْأَخْيَارِ – وَهَؤُلَاءِ الْمُعْتَدلُونَ في الْأُمَمِ هُمُ الَّذينَ يَسْبقُونَ إِلَى كُلِّ صَلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ يَقُـــومُ بـــه الْمُجَدِّدُونَ منَ الْأَنْبيَاءِ في عُصُورِهمْ،وَمنَ الْحُكَمَاءِ في عُصُورِهمْ،وَلَمَّا جَاءَ الْإِصْلَاحُ الْإِسْلَاميُّ عَلَى لسَانِ خَاتَمِ النَّبيِّينَ وَالْمُرْسَلينَ ﷺ قَبلَهُ الْمُقْتَصدُونَ منْ أَهْلِ الْكتَابِ وَمَنْ غَيْرِهمْ،فَكَـــانُوا

مَعَ إِخْوَانِهِمُ الْعَرَبِ مِنَ الْمُجَدِّدِينَ لِلتَّوْحِيدِ وَالْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ،وَالْمُحْيِينَ لِلْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْعُمْرَانِ؛فَهَلْ يَعْتَبِرُ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ الْآنَ وَيَعُودُونَ إِلَى إِقَامَةِ الْقُرْآنِ،وَأَخْذِ الْحِكْمَةِ مِنْ حَيْثُ يَجِدُونَهَا،وَعُدَدِ الْإِصْلَاحِ وَالسِّيَادَةِ مِنْ حَيْثُ يَرَوْنَهَا،أَمْ يَفْتَئُونَ يَسْلُكُونَ سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ طَوْرِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ،شِبْرًا بِشِبْرٍ،وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ،وَمِنْهُ الْغُرُورُ بِدِينِهِمْ مَعَ عَدَمِ إِقَامَةِ كِتَابِهِ،وَالتَّبَجُّحِ بِفَضَائِلِ نَبِيِّهِمْ عَلَى تَرْكِهِمْ لِسُنَنِهِ وَآدَابِهِ؟ !

عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ وَهُوَ،يَقُولُ:«قَدْ ذَهَبَ أَوَانُ الْعِلْمِ» قُلْتُ:بِأَبِي وَأُمِّي،وَكَيْفَ يَذْهَبُ أَوَانُ الْعِلْمِ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُعَلِّمُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُعَلِّمُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ؟ فَقَالَ:«ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ لَبِيدٍ،إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ،أَوَلَيْسَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَلَا يَنْتَفِعُونَ مِنْهُمَا بِشَيْءٍ؟»[2398]

وَالشَّاهِدُ فِيهِ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْعَمَلِ بِمَا فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ،وَالاهْتِدَاءِ بِهِدَايَتِهَا،وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ أَبْعَدَ مَا كَانُوا عَنْ هِدَايَةِ دِينِهِمْ،مَعَ شِدَّةِ عَصَبِيَّتِهِمُ الْجِنْسِيَّةِ لَهُ،كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ،عَلَى أَنَّ عَصَبِيَّتَهُمُ الْجِنْسِيَّةَ لَهُ قَدْ ضَعُفَتْ أَيْضًا،وَاسْتَبْدَلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِهَا جِنْسِيَّةَ اللُّغَةِ أَوِ الْوَطَنِ.[2399]

إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي،ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية.ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل،وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم والعقل البشري،والموازين البشرية،والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج،بإزاء هذا الأمر الخطير ..إن الله – سبحانه – يقول لأهل الكتاب – ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب – إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم – وهذا جزاء الآخرة.وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم – كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل – لصلحت حياتهم الدنيا،ونمت وفاضت عليهم

[2398] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٦٨١)(٦٥٠٠) صحيح

[2399] – تفسير المنار (٦/ ٣٨١)

الأرزاق،ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فـيض الرزق،ووفـرة النتـاج وحسـن التوزيع،وصلاح أمر الحياة ..ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله – إلا قلـة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها «وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ».
وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشـرية في هذه الحياة الدنيا،لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده – وإن كان هو المقدّم وهو الأدوم – ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا،ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة ..وفرة ونمـاء وحسـن توزيع وكفاية ..يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله:«لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» ..
وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريـق آخـر مسـتقل لصلاح الحياة في الدنيا.إنما هو طريق واحد،تصلح به الدنيا والآخرة،فإذا تنكب هذا الطريـق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة ..هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا ..
وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب،ولكنه كـذلك – وتبعـا لذلك – منهج حياة إنسانية واقعية،يقام،وتقام عليه الحياة ..وإقامته – مع الإيمان والتقـوى – هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية،وفيض الرزق،ووفرة النتاج،وحسن التوزيع،حتى يأكـل الناس جميعا – في ظل هذا المنهج – من فوقهم ومن تحت أرجلهم.
إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ولا يجعل سعادة الآخرة بـديلا مـن سعادة الدنيا،ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا ..وهذه هي الحقيقة الغائمـة اليـوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية.
لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم.بحيث أصبح الفـرد العادي – وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة – لا يرى أن هنالك سـبيلا للالتقـاء بـين الطريقين.ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه وإمـا أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصـور ولا واقـع ..لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان تـوحي بهـذا ..حقيقـة:إن

أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله،وعن منهجه للحياة،اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة،وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع،والكسب في مضمار المنافع الدنيوية،أن يتخلوا عن طريق الآخرة وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف،الذي يحض عليه الدين.كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة،والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع،والكسب في مضمار المنافع،لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق،ولا مرضية لله سبحانه ..ولكن ..تراها ضربة لازب!

ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس؟ ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة؟

كلا ..إنها ليست ضربة لازب! فالعداء بين الدنيا والآخرة والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة،ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل ..بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا.إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارئ!

إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا.وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي ..هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية ..ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضيه للناس ..فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة،وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة.والخلافة عمل وإنتاج،ووفرة ونماء،وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم،كما يقول الله في كتابه الكريم.

إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله،بإذن الله،وفق شرط الله ..

ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر،وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها – بل الخامات والموارد الكونية كذلك – هو الوفاء بوظيفة الخلافة.ويعتبر قيام

الإنسان بهذه الوظيفة - وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف - طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها الله له ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه،كما يصور التعبير القرآني الجميل!

ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض،ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له،عاصيا لله،ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها،وهو يقول للملائكة:«إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».وهو يقول كذلك للناس:«وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ»،ومعطلا لرزق الله الموهوب للعباد ..وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا! والمنهج الإسلامي - بهذا - يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق.فلا يفوّت على الإنسان دنياه لينال آخرته،ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه.فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي.هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة،وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج الله ..فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف ..إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة - في المنهج الإسلامي - لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان ..فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج وأن يبتغي في العمل والإنتاج وجه الله،فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون،ولا يأكل من سحت،ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئا يملكه - مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع - والمنهج يسجل للفرد عمله - في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبار ات - عبادة لله يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة ..

ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطا أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة،وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان،وفي العمر كله بحج بيت الله.وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة ..

ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي.إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة.وهي قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج،الذي

ينظم أمر الحياة كلها،ويتولى شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقــاتهم وفي خلافاتهم.ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل،والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حــين تقف في الطريق ..وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شئون العمــل والإنتــاج والتوزيع والحكم والقضاء،والجهاد لإقرار منهج الله في الأرض،وتقرير سلطانه في حياة النــاس ..إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج،المعين على أداء شطره الآخر ..وهكــذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله في الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض.كما يعــد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين ..

إن التصور الإسلامي،وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه،لا يقدم الحياة الآخرة بــديلا مــن الحياة الدنيا – ولا العكس – إنما يقدمهما معا في طريق واحد،وبجهــد واحــد.ولكنــهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة – دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله،أو مأخوذة من تصــوراته الذاتيــة التي لم تضبط بهذا المنهج – ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل.

والتصور الإسلامي – وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه – لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى،بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية ..وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه بينما يدع للناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا – كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان! – فالعمل والإنتــاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي – والمنــهج الإســلامي – فريضة الخلافة في الأرض.والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى،تمثل الارتباطــات والضــوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس ..وهذه وتلك معا هي مــؤهلات الفــردوس الأرضي والفردوس الأخروي معا والطريق هو الطريق،ولا فصام بين الدين والحيــاة الواقعيــة المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم.والتي منــها يقــوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة،ولا يجمعــوا بينــهما في تصور أو في واقع ..لأنهما لا تجتمعان ..!

إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس،وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة،وبين العبادة الروحية والإبداع المادي،وبين النجاح في الحياة الدنيا،والنجاح في الحياة الأخرى ..إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية! إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج الله،وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها،معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه ..وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا،فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى ..

إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر،من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه،إذا هم آثروا اطراح الدين كله،على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة،والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي! ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم،يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب،ولا تطيق الفراغ والخواء.وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية،أو فلسفية،أو فنية ..على الإطلاق ..لأنها جوعة النزعة إلى إله ..

وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر،إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في الله،وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته،وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله،وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني،والسلوك الديني،مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود.

وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء،سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية،أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية ..وتتصور – أو يصور لها أعداء البشرية – أن الدين لله،وأن الحياة للناس! وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق،والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل! وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة ..ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء ..لأنها لا تهتدي إلى منهج الله الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة،بل ينسق ..ولا يجوز أن تخدعنا

ظواهر كاذبة،في فترة موقوتة،إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي،ولا تقيم منهج الله في حياتها،وهي موفورة الخيرات،كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء ...إنه رخاء موقوت،حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت.وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني ..والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى:

تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم،مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء،وحافلا بالأحقاد،وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة ..وهو بلاء على رغم الرخاء! ..

وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعا من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر،لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع ..وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام! وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره – إن عاجلا أو آجلا – إلى تدمير الحياة المادية ذاتها.

فالعمل والإنتاج والتوزيع،كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق.والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان! وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم – وبخاصة أشدها رخاء ماديا – مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال.ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج،وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء! وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار! وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة في هذا العالم المضطرب الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة ..وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ..ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء! وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار – وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي – وليس هذا إلا مثلا للآخرين،في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني وافتراق الدنيا

والآخرة،وافتراق الدين والحياة أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله،واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس!

وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة،نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس،وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب - ولكل جماعة من الناس - أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا،وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي - بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة - وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان ..ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية ..فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة ..فضلا على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ويرفع كل قيم الحياة ويقوّم كل موازين الحياة ..

فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي،وكل شيء فيه يجيء تبعا له،ومنبثقا منه ومعتمدا عليه ..ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق.

وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة ..كل أولئك ثمرته للإنسان،وللحياة الإنسانية.فالله - سبحانه - غني عن العالمين ..وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس،وجعلها مناط العمل والنشاط ورد كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها،وعده باطلا لا يقبل،وحابطا لا يعيش،وذاهبا مع الريح ..فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة ..ولكن لأنه - سبحانه - يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج ..في الحديث القدسي:عَنْ أَبِي ذَرٍّ؛عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،أَنَّهُ قَالَ:يَا عِبَادِي،إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي،كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ،فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ،يَا عِبَادِي،كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ،فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ،يَا عِبَادِي،كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ،فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ،يَا عِبَادِي،إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ

جَميعًا،فَاسْتَغْفرُوني أَغْفرْ لَكُمْ،يَا عبَادي،إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني،وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعي فَتَنْفَعُوني،يَا عبَادي،لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجنَّكُمْ،كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْب رَجُلٍ وَاحد منْكُمْ،مَا زَادَ ذَلكَ في مُلْكي شَيْئًا،يَا عبَادي،لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجنَّكُمْ،كَانُوا عَلَى أَفْجَر قَلْب رَجُلٍ وَاحد،مَا نَقَصَ ذَلكَ منْ مُلْكي شَيْئًا،يَا عبَادي،لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخرَكُمْ،وَإِنْسَكُمْ وَجنَّكُمْ،قَامُوا في صَعيد وَاحد فَسَأَلُوني،فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَان مَسْأَلَتَهُ،مَا نَقَصَ ذَلكَ ممَّا عنْدي،إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمخْيَطُ إِذَا أُدْخلَ الْبَحْرَ،يَا عبَادي،إِنَّمَا هيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصيهَا لَكُمْ،ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا،فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا،فَلْيَحْمَد اللهَ،وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلكَ،فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ ...(رواه مسلم)[٢٤٠٠]

وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله ..فهي كلها لحسابنا نحن ..لحساب هذه البشرية ..في الدنيا والآخرة جميعا ..وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا ..

ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول:إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب.

فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل.وما أنزل إليهم من ربهم – وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة – فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن ..أولى بالشرط الذين يقولون:إنهم مسلمون ..فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص:الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل،والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم ..وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد ..وقد انتهى إليه كل دين قبله و لم يعد هناك دين يقبله الله غيره ..أو يقبل من أحد غيره.

[٢٤٠٠] – صحيح مسلم– المكتر – (٦٧٣٧)

الصعيد:وجه الأرض،وقيل:هو التراب وحده.=المخيط:بكسر الميم،وإسكان الخاء:الإبرة.

فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم ..وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم،وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا ..

إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي – أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح – وشرط الله قائم والطريق إليه معروف ..لو كانوا يعقلون ..[٢٤٠١]

وعن أبي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرأَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا ثَلَاثِينَ صَبَاحًا»[٢٤٠٢].

وَهَذَا لِأَنَّ الْمَعَاصِيَ سَبَبٌ لِنَقْصِ الرِّزْقِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ،كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.فَإِذَا أُقِيمَتْ الْحُدُودُ،ظَهَرَتْ طَاعَةُ اللَّهِ وَنَقَصَتْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى،فَحَصَلَ الرِّزْقُ وَالنَّصْرُ.[٢٤٠٣]

رابعا:التطهير:

ومن مقاصد العقوبات تطهير الجاني من إثم المعصية،وقد بوب البخاري في صحيحه فقال " بَابٌ:الحُدُودُ كَفَّارَةٌ " ثم روى بإسناده عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَبُو إِدْرِيسَ عَائِذُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ،وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ:«بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا،وَلاَ تَسْرِقُوا،وَلاَ تَزْنُوا،وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ،وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ،وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ،فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ،وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ،وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ،إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ» فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ" [٢٤٠٤]

[٢٤٠١] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٢٦)

[٢٤٠٢] – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩)(٧٣٥٠) صحيح

[٢٤٠٣] – السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:٨٣)

[٢٤٠٤] – صحيح البخاري (١/ ١٣)(١٨) ومستخرج أبي عوانة (٤/ ١٥٣)(٦٣٤٢)

[ش (شهد بدرا) حضر غزوة بدر.(النقباء) جمع نقيب وهو عريف القوم وناظرهم والمراد الذين اختارهم الأوس والخزرج نقباء عليهم بطلب من النبي ﷺ وأقرهم على ذلك (ليلة العقبة) الليلة التي بايع فيها ﷺ الذين آمنوا من الأوس والخزرج على

(عِصَابَةٌ) :بِالْكَسْرِ اسْمُ جَمْعٍ كَالْعُصْبَةِ،لِمَا بَيْنَ الْعَشَرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ،مِنَ الْعَصْبِ وَهُوَ الشَّدُّ،كَأَنَّ بَعْضَهُمْ يَشُدُّ بَعْضًا،أَوْ مِنَ الْعَصَبِ لِأَنَّهُ يَشُدُّ الْأَعْضَاءَ،وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ (مِنْ أَصْحَابِهِ) :صِفَةٌ لِعِصَابَةٍ (بَايِعُونِي) أَيْ عَاقِدُونِي وَعَاهَدُونِي تَشْبِيهًا لِنَيْلِ الثَّوَابِ فِي مُقَابَلَةِ الطَّاعَةِ بِعَقْدِ الْبَيْعِ الَّذِي هُوَ مُقَابَلَةُ مَالٍ بِمَالٍ،وَوَجْهُ الْمُفَاعَلَةِ أَنَّ كُلًّا مِنَ الْمُتَبَايِعَيْنِ يَصِيرُ كَأَنَّهُ بَاعَ مَا عِنْدَهُ مِنْ صَاحِبِهِ وَأَعْطَاهُ خَالِصَةَ نَفْسِهِ وَطَاعَتَهُ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ} [التوبة:١١١] الْآيَةَ (عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا) :مَفْعُولٌ بِهِ أَوْ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ،قِيلَ:الصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الرِّيَاءُ (وَلَا تَسْرِقُوا) وَهُوَ أَخْذُ مَالِ الْغَيْرِ مُحْرَزًا بِخُفْيَةٍ (وَلَا تَزْنُوا،وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ) :بِدَفْنِهِمْ أَحْيَاءً،فَصِبْيَانَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ وَافْتِقَارٍ،وَبَنَاتِكُمْ خَوْفَ لُحُوقِ عَارٍ وَعَيْبٍ (وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ) :الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ وَهُوَ الْكَذِبُ الَّذِي يَبْهَتُ سَامِعَهُ،الْمُرَادُ بِهِ الْقَذْفُ (تَفْتَرُونَهُ) أَيْ تَخْتَلِقُونَهُ وَتَخْتَرِعُونَهُ صِفَةُ بُهْتَانٍ (بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ) أَيْ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ،وَعُبِّرَ بِهِمَا عَنِ الذَّاتِ وَالنَّفْسِ؛لِأَنَّ مُعْظَمَ الْأَفْعَالِ تُزَاوَلُ وَتُعَالَجُ بِالْيَدِ وَالرِّجْلِ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ:لَا تَبْهَتُوا النَّاسَ بِالْعُيُوبِ كِفَاحًا وَشِفَاهًا كَيْ لَا يُشَاجِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا،كَمَا يُقَالُ:فَعَلْتُ هَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ أَيْ بِحَضْرَتِكَ،وَهَذَا النَّوْعُ أَشُدُّ الْبَهْتِ،أَوْ لَا تَنْسِبُوهُ مَبْنِيًّا عَلَى ظَنٍّ فَاسِدٍ وَغَيْرِ مُبْطِنٍ مِنْ ضَمَائِرِكُمْ وَقُلُوبِكُمُ الَّتِي هِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ:وَلَا تُلْحِقُوا بِالرِّجَالِ الْأَوْلَادَ مِنْ غَيْرِ أَصْلَابِهِمْ،فَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ تَلْتَقِطُ الْمَوْلُودَ وَتَقُولُ لِزَوْجِهَا:هُوَ وَلَدِي مِنْكَ،فَعُبِّرَ بِالْبُهْتَانِ الْمُفْتَرَى بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا عَنِ الْوَلَدِ الَّذِي تُلْحِقُهُ بِزَوْجِهَا كَذِبًا؛لِأَنَّ بَطْنَهَا الَّذِي يَحْمِلُهُ بَيْنَ يَدَيْهَا،وَفَرْجَهَا الَّذِي تَلِدُ مِنْهُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا.(وَلَا تَعْصُوا) بِضَمِّ الصَّادِ – تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ (فِي مَعْرُوفٍ) :مَا عُرِفَ فِي الشَّرْعِ حُسْنُهُ،أَوْ قُبْحُهُ (فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ) :بِالتَّخْفِيفِ وَيُشَدَّدُ (فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) قَالَ الطِّيبِيُّ:لَفْظُ " وَفَى " دَلَّ عَلَى أَنَّ الْأَجْرَ إِنَّمَا يُنَالُ بِالْوَفَاءِ بِالْجَمِيعِ؛لِأَنَّ الْوَفَاءَ هُوَ الْإِتْيَانُ بِجَمِيعِ مَا الْتَزَمَهُ مِنَ الْعُهُودِ وَالْحُقُوقِ،وَأَمَّا الْعِقَابُ فَإِنَّهُ يُنَالُ بِتَرْكِ أَيِّ وَاحِدٍ كَانَ اهـ.

النصرة وهي بيعة العقبة الثانية وكان ذلك عند جمرة العقبة بمنى والعقبة من الشيء الموضع المرتفع منه.(عصابة) الجماعة من الناس وهم ما بين العشرة إلى الأربعين.(بايعوني) عاهدوني.(بهتان) كذب فظيع يدهش سامعه.(تفترونه) تختلقونه.(بين أيديكم وأرجلكم) من عند أنفسكم.(ولا تعصوا في معروف) لا تخالفوا في أمر لم ينه عنه الشرع.(وفى) ثبت على العهد.(أصاب من ذلم شيئا) وقع في مخالفة مما ذكر.(فعوقب) نفذت عليه عقوبته من حد أو غيره.(ستره الله) لم يصل أمره إلى القضاء]

وَفِيهِ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْأَجْرِ كَمَالَهُ فَالْأَمْرُ كَذَلِكَ،وَإِلَّا فَلَا يَتَوَقَّفُ أَجْرُ امْتِثَالِ طَاعَةٍ أَوِ اجْتِنَابِ مَعْصِيَةٍ عَلَى الْآخَرِ،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَذْهَبُ الصَّحِيحُ أَنَّ التَّوْبَةَ عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ صَحِيحَةٌ خِلَافًا لِلْخَوَارِجِ.(وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ) أَيِ الْمَذْكُورِ (شَيْئًا فَعُوقِبَ) أَيْ (بِهِ) كَمَا فِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ،يَعْنِي أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ (فِي الدُّنْيَا فَهُوَ) أَيِ الْحَدُّ وَالْعِقَابُ (كَفَّارَةٌ لَهُ) وَزَادَ فِي نُسْخَةٍ،وَطَهُورٌ – بِفَتْحِ الطَّاءِ – أَيْ يُكَفِّرُ إِثْمَ ذَلِكَ،وَلَمْ يُعَاقَبْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ،وَهَذَا الْخَاصُّ بِغَيْرِ الشِّرْكِ،وَأَخَذَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحُدُودَ كَفَّارَاتٌ،وَخَبَرُ:" «لَا أَدْرِي الْحُدُودُ كَفَّارَاتٌ أَمْ لَا» " أَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّهُ قَبْلَ هَذَا الْحَدِيثِ؛لِأَنَّهُ فِيهِ نَفْيُ الْعِلْمِ،وَفِي هَذَا إِثْبَاتُهُ،وَالْمَعْنَى:لَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ بَلْ عَلَى عَدَمِ التَّوْبَةِ مِنْهُ إِنْ مَاتَ قَبْلَهَا؛لِأَنَّ تَرْكَهَا ذَنْبٌ آخَرُ غَيْرُ مَا وَقَعَ الْعِقَابُ عَلَيْهِ؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات:١١] وَيُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ الْخِلَافُ لَفْظِيًّا،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(«وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ») أَيْ ذَلِكَ الشَّيْءَ الْمُصَابَ أَيْ (عَلَيْهِ) :كَمَا فِي نُسْخَةٍ:وَعَلَى غَيْرِهَا،أَيْ سَتَرَ اللَّهُ ذَلِكَ الْمُصِيبَ أَيْ ذَنْبَهُ بِأَنْ لَمْ يُقِمِ الْحَدَّ عَلَيْهِ (فَهُوَ) أَيِ الْمَسْتُورُ (إِلَى اللَّهِ) أَيْ أَمْرُهُ وَحُكْمُهُ مِنَ الْعَفْوِ وَالْعِقَابِ مُفَوَّضٌ إِلَيْهِ،فَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ عِقَابُ عَاصٍ كَمَا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ ثَوَابُ مُطِيعٍ عَلَى الْمَذْهَبِ الْحَقِّ (إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ) قُدِّمَ لِسَبْقِ رَحْمَتِهِ (وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ) رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ (فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ) وَتُسَمَّى بَيْعَةُ النِّسَاءِ كَمَا فِي سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ؛وَلِذَا قِيلَ:عَلَيْكُمْ بِدِينِ الْعَجَائِزِ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[٢٤٠٥]

ويستفاد منه ما يأتي:أولاً:أنَّ التوحيد أساس الإيمان وشرط لقبول جميع الأعمال،وهو كذلك في سائر الأديان السماويّة،ولذلك بدأ به في المبايعة فقال:" بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ".ثانياً:أن هذه البيعة كانت أول ميثاق إسلامي،بل أول ميثاق عالمي لحماية حقوق الإنسان في دينه وماله ونفسه وعرضه،فهي ميثاق عظيم لحماية جميع الحقوق الإنسانية.

ثالثاً:أن دين الإسلام ليس دين عبادة فقط،وإنما هو دين عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاق وغير ذلك من المبادىء والقيم،وهذه المبايعة الإسلامية الخالدة ضَمَّتْ كل هذا.رابعاً:مدى قبح الكذب وخطورته على المجتمع،ولذلك خصه بالذكر دون سائر الأخلاق الذميمة،لأنه يفسد

[٢٤٠٥] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٩١)

أكثر المعاملات،ولأنه أساس كل رذيلة وخطيئة،وأم الخبائث الأخلاقية:من خيانة وغدر ونفاق،وتدليس وشهادة زور وقذف ونحوها.خامساً:أن الحد الشرعي كفارة للمحدود لقوله – ﷺ -:" ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له " وهو مذهب الجمهور خلافاً لأبي حنيفة حيثُ يرى أنه لا يسقط عنه عقوبة الآخرة.سادساً:أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار لقوله – ﷺ -:" ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله،فهو إلى الله إن شاء عفا عنه،وإن شاء عاقبه " أي عاقبه ثم أدخله الجنة.سابعاً:مشروعية المبايعة لولي الأمر إذا توفرت فيه شروط الإمامة،وهي الإسلام والذكورة والبلوغ والعقل والأهلية للقيام بمصالح المسلمين.[٢٤٠٦]

وَيُسْتَفَادُ مِنْ الْحَدِيث أَنَّ إقَامَةَ الْحَدِّ كَفَّارَةٌ لِلذَّنْبِ وَلَوْ لَمْ يَتُبْ الْمَحْدُودُ.قَالَ فِي الْفَتْحِ:وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ.وَقِيلَ:لَا بُدَّ مِنْ التَّوْبَةِ وَبِذَلِكَ جَزَمَ بَعْضُ التَّابِعِينَ وَهُوَ قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ وَوَافَقَهُمْ ابْنُ حَزْمٍ،وَمِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْبَغَوِيّ وَطَائِفَةٌ يَسِيرَةٌ.[٢٤٠٧]

فقوله ﷺ "**فعوقب به**" يشمل كما ذكر ابن رجب رحمه الله أنواع العقوبات الشرعية كالعقوبات المقدرة وهي الحدود،أو غير المقدرة كالتعزيرات ويشمل أيضا العقوبات القدرية كالمصائب والأسقام وغيرها،وقد جاء ماعز بن مالك والغامدية رضي الله عنهما يطلبان من النبي ﷺ إقامة الحد للتطهير من الذنب،وأما العقوبات في القوانين الوضعية فلا يحصل بها التطهير من الذنوب وإنما هي من العدوان على الناس وظلمهم وتعذيبهم .

خامسا:العدل والقصاص:

العقوبات الشرعية هي من شريعة الله التي هي عدل الله تعالى في الأرض بين عباده،وقد قال الله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]،وقال تعالى:{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ

[٢٤٠٦] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ٩٩)

[٢٤٠٧] – نيل الأوطار (٧/ ٦٦)

وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [المائدة:٤٥]

فكل من حكم بغير شرع الله فهو ظالم،وكل تشريع وحكم غير شرع الله تعالى وحكمه كالقوانين الوضعية وغيرها فهو ظلم محض وإن سماه أصحابه عدلا،فهو ظلم عظيم في حق الله تعالى لأنه شرك بالله تعالى كما قال تعالى:{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:١٣] وهو ظلم في حق العباد لفشو الفاحشة والفساد في المجتمع،وشيوع الجرائم وانتشارها،بسبب تعطيل العقوبات الشرعية التي تكف وتردع المجرمين والمعتدين الذين يروعون الناس ويعتدون عليهم،وهي ظلم على المجني عليه وأوليائه بحرمانهم من حقهم في القصاص من الجاني،وهي ظلم للجاني بحرمانه من التطهير بالعقوبات الشرعية،والعدوان عليه وتعذيبه بالعقوبات القانونية الباطلة،واستبدال ما فيه تأديبه وصلاحه من العقوبات الشرعية بما فيه إفساده وتعليمه أنواع الإجرام في السجون التي جعلها أصحاب القوانين الوضعية العقوبة الأساسية في قوانينهم.

اختلاف الشريعة الإسلامية عن القوانين الوضعية :

تختلف الشريعة الإسلامية عن القوانين الوضعية اختلافاً أساسياً من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول:أن القانون من صنع البشر،أما الشريعة فمن عند الله،وكلٌّ من الشريعة والقانون يتمثل فيه بجلاء صفات صانعه،فالقانون من صنع البشر ويتمثل فيه نقص البشر وعجزهم وضعفهم وقلة حيلتهم،ومن ثمَّ كان القانون عرضة للتغيير والتبديل،أو ما نسميه التطور،كلما تطورت الجماعة إلى درجة لم تكن متوقعة أو وجدت حالات لم تكن منتظرة.فالقانون ناقص دائماً ولا يمكن أن يبلغ حد الكمال ما دام صانعه لا يمكن أن يوصف بالكمال،ولا يستطيع أن يحيط بما سيكون وإن استطاع الإلمام بما كان.

أما الشريعة:فصانعها هو الله،وتتمثل قدرة الخالق وكماله وعظمته وإحاطته بما كان وما هو كائن؛ومن ثمَّ صاغها العليم الخبير بحيث تحيط بكل شئ في الحال والاستقبال حيث أحاط علمه بكل شئ،وأمر جل شأنه أن لا تغير ولا تبدل حيث قال:{لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ}

[يونس:٦٤] ؛لأنها ليست في حاجة للتغيير والتبديل مهما تغيرت الأوطان والأزمان وتطـور الإنسان.

وقد يصعب على بعض الناس بأن يؤمنوا بهذا القول لأنهم لا يؤمنون قبل كل شئ بأن الشريعة من عند الله،ولست أهتم من أمر هؤلاء إلا بأن يؤمنوا بأن الشريعة تتوفر فيها الصفات الـتي ذكرتها،وعلى أن أقيم لهم الدليل على توافرها وعليهم هم بعد ذلك أن يبحثوا إن شاءوا عـن سبب توفر هذه الصفات في الشريعة دون غيرها،وأن يبحثوا عن صـانعها،ولينتظروا مـني أن أقدم لهم الدليل عند الكلام على مميزات الشريعة،وإن كان في كل فصل مـن فصـول هـذا الكتاب الدليل على ما أقول.

أما الذين يؤمنون بأن الشريعة من عند الله فليس يصعب عليهم أن يؤمنوا بتوفر الصفات الـتي ذكرناها في الشريعة ولو لم يقدم لهم الدليل المادي على ذلك،لأن منطقهم يقضي علـيهم أن يؤمنوا بتوفر بهذه الصفات فمن كان يؤمن بأن الله هو خلق السموات والأرض،وسير الشمس والقمر والنجوم،وسخر الجبال والرياح والماء،وأنبـت النبات،وصـور الأجنـة في بطـون أمهاتهم،وجعل لكل مخلوق خلقه من الحيوان ونبات وجماد نظاماً دائماً لا يخـرج عليـه،ولا يحتاج لتغيير ولا تبديل ولا تطور.من كان يؤمن بأن الله وضع قوانين ثابتة تحكم طبائع الأشياء وحركاتها واتصالاتها،وأن هذه القوانين الطبيعية بلغت من الروعة والكمال ما لا يسـتطيع أن يتصوره الإنسان.من كان يؤمن بهذا كله وبأن الله أتقن كل شئ خلقه،فأولى به أن يؤمن بأن الله وضع الشريعة الإسلامية قانوناً ثابتاً كاملاً لتنظيم الأفراد والجماعـات والدولـة،ولتحكم معاملاتهم،وأن الشريعة بلغت من الروعة والكمال حداً يعجز عن تصوره الإنسان.

ومن كان يؤمن بهذا كله ولكنه يريد أن يرى الدليل عليه ليطمئن قلبه فلينتظر مع الفريق الأول حتى يرى الدليل في موضعه،بل لعله يرى في كل مكان من هذا الكتاب ما يطمئن قلبه ونفسه إن شاء الله.

الوجه الثاني:أن القانون عبارة عن قواعد مؤقتة تضـعها الجماعـة لتنظـيم شـئونها وسـد حاجاتها.فهي قواعد متأخرة عن الجماعة،أو هي في مستوى الجماعـة اليوم،ومتخلفـة عـن

الجماعة غداً،لأن القوانين لا تتغير بسرعة تطور الجماعة،وهي قواعد مؤقتة تتفق مـــع حـــال الجماعة المؤقتة،وتستوجب التغير كلما تغيرت حال الجماعة.

أما الشريعة فقواعد وضعها الله تعالى على سبيل الدوام لتنظيم شئون الجماعة،فالشريعة تتفـــق مع القانون في أن كليهما وضع لتنظيم الجماعة.ولكن الشريعة تختلـــف عـــن القـــانون في أن قواعدها دائمة ولا تقبل التغيير والتبديل.وهذه الميزة التي تتميز بها الشريعة تقتضي من الوجهة المنطقية:

أولاً:أن تكون قواعد الشريعة ونصوصها من المرونة والعموم بحيث تتسع لحاجـــات الجماعـــة مهما طالت الأزمان،وتطورت الجماعة،وتعددت الحاجات وتنوعت.

ثانياً:أن تكون قواعد الشريعة ونصوصها من السمو والارتفاع بحيث لا يمكـــن أن تتـــأخر في وقت أو عصر ما عن مستوى الجماعة.

والواقع أن ما يقتضيه المنطق متوفر بوجهيه في الشريعة،بل هو أهم ما يميز الشريعة الإســـلامية عن غيرها من الشرائع السماوية والوضعية،فقواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها جاءت عامة ومرنة إلى آخر حدود العموم والمرونة،كما أنها وصلت من السمو درجة لا يتصور بعدها سمو.

ولقد مر على الشريعة الإسلامية أكثر من ثلاثة عشر قرناً،تغيرت في خلالها الأوضاع أكثر من مرة،وتطورت الأفكار والآراء تطوراً كبيراً،واستُحدث من العلوم والمخترعات ما لم يكن على خيال إنسان،وتغيرت قواعد القانون الوضعي ونصوصه أكثر من مرة لتتلاءم مـــع الحـــالات الجديدة والظروف الجديدة،بحيث انقطعت العلاقة بين القواعد القانونية الوضعية التي نطبقهـــا اليوم وبين القواعد القانونية الوضعية التي كانت تطبق يوم نزلت الشريعة،وبالرغم مـــن هـــذا كله،ومع أن الشريعة الإسلامية لا تقبل التغيير والتبديل؛ظلت قواعد الشريعة ونصوصها أسمى من مستوى الجماعات،وأكفل بتنظيم وسد حاجاتهم،وأقرب إلى طبـــائعهم،وأحفظ لأمنـــهم وطمأنينتهم.

هذه هي شهادة التاريخ الرائعة يقف بها في جانب الشريعة الإسلامية،وليس ثمة ما هـــو أروع منها إلا شهادة النصوص ومنطق النصوص،وخذ مثلاً قول الله تعالى:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨]،أو اقرأ قول الرسول:"لا ضرر ولا ضرار في الإسلام"،فهذان نصان من القرآن

والسنة بلغا من العموم والمرونة واليسر ما لا يمكن أن يتصور بعده عموم أو مرونة أو يسر،وهما يقرران الشورى قاعدة للحكم على الوجه الذي لا يضر بالنظام العام ولا بمصلحة الأفراد أو الجماعة،وبتقرير مبدأ الشورى على هذا الوجه بلغت الشريعة من السمو حده الأقصى الذي لا يتصور أن يصل إليه البشر في يوم من الأيام،إذ عليهم أن يجعلوا أمرهم شورى بينهم بحيث لا يحدث ضرر ولا ضرار،وهيهات أن يتحقق ذلك بين الناس.

ولو تتبعنا نصوص الشريعة لوجدناها على غرار النصين السابقين من العموم والمرونة والسمو،ومن السهل علينا أن نتبين هذه المميزات لأول وهلة في أي نص نستعرضه،فنصوص الشريعة كلها تصلح أمثلة على ما نقول؛ويكفي أن نسوق للقارئ مثلاً آخر قوله تعالى:{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥]،فهذا النص تدل صياغته على أنه بلغ حد العموم والمرونة،أما المبدأ الذي جاء به النص فلم يُعرف بعدُ أن هناك ما هو خير منه،ولا يمكن أن يتصور العقل البشري أن هناك طريقاً لأصحاب الدعوات يسلكونها في نشر دعواهم خيراً من طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.ويستطيع القارئ أن يقرأ قوله تعالى:{وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر:١٨]،وقوله:{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقرة:٢٨٦]،وقوله:{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ} [النحل:٩٠]،وقوله:{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ} [النساء:٥٨]،وقوله:{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة:٨]،وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ} [النساء:١٣٥]،يستطيع القارئ أن يستعرض هذه النصوص وغيرها ليرى كيف بلغت من العموم والمرونة كل مبلغ،وليرى أن المبادئ التي جاءت بها هذه النصوص قد بلغت من السمو ما ليس بعده زيادة لمستزيد،أو خيال لمتخيل.

الوجه الثالث:أن الجماعة هي التي تصنع القانون،وتلونه بعاداتها وتقاليدها وتاريخها،والأصل في القانون أنه يوضع لتنظيم شئون الجماعة،ولا يوضع لتوجيه الجماعة،ومن ثم القانون متأخراً عن الجماعة وتابعاً لتطورها،وكان القانون من صنع الجماعة،ولم تكن الجماعة من صنع القانون.

وإذا كان هذا هو الأصل في القانون من يوم وجوده،فإن هذا الأصل قـد تعـدل في القـرن الحالي،وعلى وجه التحديد بعد الحرب العظمى الأولى،حيث بدأت الدول التي تدعو لدعوات جديدة أو أنظمة جديدة تستخدم القانون لتوجيه الشعوب وجهات معينـة،كما تسـتخدمه لتنفيذ أغراض معينة،وقد كان أسبق الدول إلى الأخذ بهذه الطريقة روسيا الشـيوعية،وتركيا الكمالية،ثم تلتهما إيطاليا الفاشيستية وألمانيا النازية،ثم اقتبست بقية الدول هذه الطريقة،فأصبح الغرض اليوم من القانون تنظيم الجماعة وتوجيهها الوجهات التي يرى أولياء الأمـور أنهـا في صالح الجماعة.

أما الشريعة الإسلامية فقد علمنا أنها ليست من صنع الجماعة،وأنها لم تكـن نتيجـة لتطـور الجماعة وتفاعلها كما هو الحال في القانون الوضعي،وإنما هي من صنع الله الذي أتقـن كـل شئ خلقه.وإذا لم تكن الشريعة من صنع الجماعة،فإن الجماعة نفسها من صنع الشريعة.

إذن الأصل في الشريعة أنها لم توضع لتنظيم شئون الجماعة فقط كما كان الغرض من القانون الوضعي،وإنما المقصود من الشريعة قبل كل شئ هو خلـق الأفـراد الصـالحين والجماعـة الصالحة،وإيجاد الدولة المثالية،والعالم المثالي،ومن أجل هذا جاءت نصوصها أرفع من مسـتوى العالم كله وقت نزولها،ولا تزال كذلك حتى اليوم،وجاء فيها من المبادئ والنظريـات مـا لم يتهيأ العالم غير الإسلامي لمعرفته والوصول إليه إلا بعد قرون طويلة،وما لم يتهيأ هـذا العـالم لمعرفته أو يصل إليه حتى الآن.ومن أجل هذا تولى الله جل شأنه وضع الشـريعة،وأنزلها علـى رسوله نموذجاً من الكمال ليوجه الناس إلى الطاعات والفضـائل،ويحملهم علـى التسـامي والتكامل؛حتى يصلوا أو يقتربوا من مستوى الشريعة الكامل.وقد حققت الشريعة ما أراده لها العليم الخبير،فأدت رسالتها أحسن الأداء،وجعلت من رعاة الإبل سادة للعـالم،ومن جهـال البادية معلمين وهداة للإنسانية.ولقد أدت الشريعة وظيفتها طالما كان المسلمون متمسكين بها عاملين بأحكامها.تمسك بها المسلمون الأوائل وعملوا بها وهم قلـة مستضـعفة يخـافون أن يتخطفهم الناس،فإذا هم في عشرين سنة سادة العالم وقادة البشر،لا صـوت إلا صـوتهم،ولا كلمة تعلو كلمتهم،وما أوصلهم لهذا الذي يشبه المعجزات إلا الشريعة الإسلامية التي علمتهم وأدبتهم،ورققت نفوسهم،وهذبت مشاعرهم،وأشعرتهم العزة والكرامة،وأخـذتهم بالمسـاواة

التامة،والعدالة المطلقة،وأوجبت عليهم أن يتعاونوا على البر والتقوى،وحرمت عليهم الإثم والعدوان،وحررت عقولهم ونفوسهم من نير الجهالات والشهوات،وجعلتهم يعتقدون أنهم خير أمة أخرجت للناس؛يأمرون بالمعروف،وينهون عن المنكر،ويؤمنون بالله.كان ذلك حال المسلمين طالما تمسكوا بشريعتهم،فلما تركوها وأهملوا أحكامها تركهم الرقي وأخطأهم التقدم،ورجعوا القهقري إلى الظلمات التي كانوا يعمهون فيها من قبل،فعادوا مستضعفين مستبعدين لا يستطيعون دفع معتد ولا الامتناع من ظالم.

وقد خيل للمسلمين وهم في غمرتهم هذه أن تقدم الأوروبيين راجع لقوانينهم وأنظمتهم،فذهبوا ينقلونها وينسجون على منوالها،فلم تزدهم إلا ضلالاً على ضلالهم،وخبالاً على خبالهم،وضعفاً على ضعفهم،بل جعلتهم أحزاباً وشيعاً كل حزب بما لديهم فرحون،بأسهم بينهم شديد،تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.

ولو أراد الله بالمسلمين خيراً لعلموا أن الشريعة الإسلامية – وقد جاءت كاملة لا يشوبها نقص،حاملة في طياتها وسائل التقدم والتطور المستمر للمجتمع – هي أصلح الشرائع لعصور التقدم وعصور التأخر على السواء،لأنها في كل الأحوال ترمي إلى تكون الجماعة الصالحة وتوجيهها دائماً للتقدم المستمر والتطور الصالح،ولا تقنع من ذلك بما هو دون الكمال التام.

وإن في تاريخ المسلمين لآية،وإنه لعبرة لمن كان له قلب،وإن فيه الدليل الحاسم على أن الشريعة الإسلامية هي التي خلقت المسلمين من العدم،وجعلتهم أمة فوق الأمم،ودفعتهم إلى الأمام،وسلطتهم على دول العالم،وإن فيه الدليل الحاسم على أن حياة المسلمين وتقدمهم ورقيهم متوقف على تطبيق الشريعة الإسلامية،فالمسلمون من صنع الشريعة كيانهم تابع لكيانها،ووجودهم مرتبط بوجودها،وسلطانهم تابع لسلطانها.[٢٤٠٨]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٢٤٠٨] – التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي (١/ ١٧)

المبحث الثالث والعشرون

الجهاد والإعداد

الجهاد في سبيل الله

لقد خلق الله تعالى الخلق لغاية واحدة،وهي عبادته وحده لا شريك له،كما قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:٥٦]

هو دعوة للناس إلى أن يستجيبوا لما يدعوهم الرسول إليه،وأن يقوموا على الأمر الذي خلقهم الله سبحانه وتعالى له،وهو عبادته..فما خلق الإنسان إلا ليكون عبد الله،عابدا له،مظهرا بعبوديته وعبادته جلال المعبود،وعظمته،وسلطانه..

وليس الجنّ والإنس وحدهما،هما اللذان خلقا لعبادة الله،بل إن كل مخلوق،وكل موجود،خلق لهذه الغاية،حيث تتجلّى فى المخلوقات جميعها ألوهة الإله،وقدرته،وعظمته..والله سبحانه وتعالى يقول:«إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً» (٩٣:مريم) ويقول جل شأنه:«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ» (١٥:الرعد) ..ويقول سبحانه:«وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (٤٤:الإسراء) ..

فالكافر الذي لا يؤمن بالله،ولا يسبح بحمده،هو مؤمن بالله كرها ومسبّح بحمده قسرا..فكل ذرة فيه،وكل جارحة من جوارحه،تسبح بحمد الله،وتؤدى وظيفتها على الوجه الذي أقامها الله سبحانه وتعالى فيه..فالخلايا التي يبنى منها الكيان الجسدى للإنسان تسبّح بحمد ربها فى عملها الذي تؤديه بناء أو هدما فى الكيان الإنسانى،والقلب بخفقاته،والدم بجريانه فى العروق،والعروق بحملها للدم،وتغذيتها الجسم به،والعين فى نقلها المرئيات،والأذن بتلقيها للمسموعات..وهكذا كل ما فى الإنسان- ظاهرا أو باطنا- يسبح بحمد الله..وكذلك الشأن فى كل موجودات الوجود،ما نعلم منها وما لا نعلم،تسبح بحمد الله،وتقوم بما خلقها الله له..

وفى اختصاص الجن والإنس من بين المخلوقات،بالذكر،إشارة إلى أنهما هما المخلوقان اللـــذان لهما إرادة عاملة،وهما بهذه الإرادة يعملان،فيؤمنان أو يكفران،ويطيعان أو يعصيان،ومن هنـــا وقع عليها التكليف،وحقّ عليهما الحساب والجزاء،بمقتضى ما يعملان من خير أو شر..

وقد تكون هناك مخلوقات أخرى لها إرادة،وعليها تكليف وحساب وجزاء،ولكن الذي يقع فى محيط الإدراك الإنسانى،هو ما يعلمه الإنسان من نفسه،وما بلغه من رسالات الرسل،كما كان علمه بالجنّ،وأنهم مكلفون،ومنهم المؤمنون،ومنهم القاسطون..كمـــا أخـــبر بـــذلك رســـل الله..[2409]

"هذه الغاية،التي خلق الله الجن والإنـــس لها،وبعـــث جميـــع الرســـل يـــدعون إليهـــا،وهي عبادته،المتضمنة لمعرفته ومحبته،والإنابة إليه والإقبال عليه،والإعراض عما سواه،وذلك يتضـــمن معرفة الله تعالى،فإن تمام العبادة،متوقف على المعرفة بالله،بـــل كلمـــا ازداد العبـــد معرفـــة لربه،كانت عبادته أكمل،فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجلـــه،فما خلقهـــم لحاجـــة منـــه إليهم"[2410]

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود.هي العبادة لله.أو هي العبوديـــة لله ..أن يكون هناك عبد ورب.عبد يعبد،ورب يعبد.وأن تستقيم حياة العبد كلها على أســـاس هذا الاعتبار.

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة،ويتبين أن مدلول العبادة لا بـــد أن يكـــون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر.فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر والله لا يكلفهم هذا.وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم.وقد لا نعرف نحـــن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان.نعرفها مـــن القرآن من قول الله تعالى:«وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ:إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـــةً» ..فهـــي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني.وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيـــوي في عمارة الأرض،والتعـــرف إلى قواهـــا وطاقاتها،وذخائرهـــا ومكنوناتهـــا،وتحقق إرادة الله في

[2409] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٥٣٧)

[2410] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨١٣)

استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها.كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام.

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى،أوسع وأشمل من مجرد الشعائر وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعا.وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين:

الأول:هو استقرار معنى العبودية لله في النفس.أي استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا.عبدا يعبد،وربّا يعبد.وأن ليس وراء ذلك شيء وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار.ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود وإلا رب واحد والكل له عبيد.

والثاني:هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير،وكل حركة في الجوارح،وكل حركة في الحياة.

التوجه بها إلى الله خالصة،والتجرد من كل شعور آخر ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ويصبح العمل كالشعائر،والشعائر كعمارة الأرض،وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله،والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله ..كلها عبادة وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى،جاء لينهض بها فترة،طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها،ولا غاية له من ورائها،إلا الطاعة،وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله،ومن أنس برضى الله عنه،ورعايته له.ثم يجده في الآخرة تكريما ونعيما وفضلا عظيما.وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقا.يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة.

ويكون قد تحرر بهذا الفرار.تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال.وخلص لله،واستقر في الوضع الكوني الأصيل:عبدا لله.خلقه الله لعبادته.وقام بما خلق له.وحقق غاية وجوده.فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض،وينهض بتكاليفها،ويحقق أقصى ثمراتها وهو

في الوقت ذاته نافض يديه منها خالص القلب من جواذبها ومغرياتها.ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها.

ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها،ثم الفرار إلى الله منها! ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها.فلتكن النتائج ما تكون.فالإنسان غير معلق بهذه النتائج.إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ولأن جزاءه ليس في نتائجها،إنما جزاؤه في العبادة التي أداها ..ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيرا كاملا تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال.فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها.ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته.ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك.فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه،وليست من شأنه.إنما هو قدر الله ومشيئته.وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته.

ومتى نفض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد وشعر أنه أخذ نصيبه،وضمن جزاءه،بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد،فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة.فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف.

ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض،وثمرات هذا النشاط.فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته.

والقرآن يغذي هذا الإحساس ويقويه.بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهمّ الرزق ومن شح النفس.فالرزق في ذاته مكفول.تكفل به الله تعالى لعباده.وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه – سبحانه – أو يرزقوه.حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه،والقيام بحق المحرومين فيه:«ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ.إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» ..

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق.بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة،الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة.ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقا بتحقيق معنى العبادة في الجهد،طليقا من التعلق بنتائج الجهد ..وهي مشاعر

كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصور الكريم.وإذا كانت البشرية لا تدرك هـذه المشـاعر ولا تتذوقها،فذلك لأنها لم تعش – كما عاش جيل المسلمين الأول – في ظلال هذا القـرآن.ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم.وحين يرتفع الإنسان إلى هـذا الأفـق.أفـق العبادة.أو أفق العبودية.ويستقر عليه،فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيـق غاية كريمة.ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا.

فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم.ومن جهة أخرى فهو لا يعـني نفسه ببلوغ الغايات،إنما يعني نفسه بأداء الواجبات،تحقيقا لمعنى العبادة في الأداء.أما الغايـات فموكولة لله،يأتي بها وفق قدره الذي يريده.ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله،وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله.

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير،وطمأنينة النفس،وصلاح البال،في جميع الأحوال.سـواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها.تحققت كما قدرها أم على عكس ما قـدرها.فهـو قـد أنهـى عمله،وضمن جزاءه،عند تحقق معنى العبادة.واستراح.وما يقع بعد ذلك خارج عـن حـدود وظيفته ..وقد علم هو أنه عبد،فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد.وعلم أن الله رب،فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب.

واستقرت مشاعره عند هذا الحد،ورضي الله عنه،ورضي هو عن الله.

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة،التي تقررها آية واحدة قصيرة:«وَمـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» ..وهي حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلـها عنـدما تستقر حقا في الضمير ...[٢٤١١]

وختم الرسالات بدين الإسلام،الذي لا يقبل من أحد سواه،كما قال تعالى:{ إِنَّ الدِّينَ عِنْـدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُـرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران:١٩]

ذلكم الدين هو «الإسلام» الذي حمله رسل الله،إلى عباد الله،من آدم إلى محمد،عليهم جميعـا الصلاة والسلام.يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم:«إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُـوحٍ

[٢٤١١] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٢٣٧)

وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً» (١٦٣:النساء) .

فالذى أوحاه الله إلى رسله،هو دينه الذي ارتضاه لعباده،وهو الإسلام.وفى هذا يقول سبحانه وتعالى:«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (١٣:الشورى) وفى قوله تعالى:«وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» إشارة إلى ما وقع بين أصحاب الكتب السماوية من خلاف،وأنه خلاف لم يقم على عقل،ولم يستند إلى منطق،لأن الكتب التي يختلفون فيها تجىء من مصدر واحد،وتتجه نحو غاية واحدة،فيلتقى بعضها ببعض،ويصدّق بعضها بعضا،فكيف يقع بينها خلاف أو يدور عليها اختلاف؟ وكيف يؤمن الإنسان ببعض الشيء ثم يكفر ببعضه الآخر؟ إن ذلك لم يكن إلا عن بغى وعدوان بين أصحاب هذه الكتب..فاختلاف من اختلف من أهل الكتاب،وزيغ من زاغ منهم،إنما هو عن علم،وذلك هو البغي على الحق،والعدوان على العقل! وقوله تعالى:«وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» تهديد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى،ونذير لهم إذا اختلفوا،وكفّر بعضهم بعضا،ثم هو تحذير لهم من أن يكون شأنهم مع الكتاب الذي نزل على محمد كشأنهم فيما كان منهم مع الكتب التي نزلت على الأنبياء من قبله،وخاصة النبيين الكريمين،موسى وعيسى عليهما السّلام..إن يفعلوا «فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» ..لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.[٢٤١٢]

ألوهية واحدة ..وإذن فدينونة واحدة ..واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجا عن سلطان الله.

ألوهية واحدة ..وإذن فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها وفي تطويعهم لأمرها وفي إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها وفي وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها وفي إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التي ترضاها ..ألوهية واحدة ..وإذن فعقيدة واحدة هي التي

[٢٤١٢] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٤٢٠)

يرضاها الله من عباده.عقيدة التوحيد الخالص الناصع ..ومقتضيات التوحيد هذه التي أسلفنا:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ»

الإسلام الذي هو ليس مجرد دعوى،وليس مجرد راية،وليس مجرد كلمة تقال باللسان ولا حتى تصورا يشتمل عليه القلب في سكون ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام ..لا.فهذا ليس بالإسلام الذي لا يرضى الله من الناس دينا سواه.إنما الإسلام الاستسلام.الإسلام الطاعة والاتباع.الإسلام تحكيم كتاب الله في أمور العباد ..كما سيجيء في السياق القرآني ذاته بعد قليل.

والإسلام توحيد الألوهية والقوامة ..بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات الله - سبحانه - وذات المسيح - عليه السلام - كما يخلطون بين إرادة الله وإرادة المسيح أيضا ..ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافا عنيفا يصل في أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال ..هنا يبين الله لأهل الكتاب وللجماعة المسلمة علة هذا الاختلاف:«وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ.بَغْياً بَيْنَهُمْ».إنه ليس اختلافا عن جهل بحقيقة الأمر.فقد جاءهم العلم القاطع بوحدانية الله،وتفرد الألوهية.وبطبيعة البشرية،وحقيقة العبودية ..ولكنهم إنما اختلفوا «بَغْياً بَيْنَهُمْ» واعتداء وظلما حينما تخلوا عن قسط الله وعدله الذي تتضمنه عقيدته وشريعته وكتبه.

وقد رأينا فيما نقلناه عن المؤلف المسيحي الحديث كيف كانت التيارات السياسية تخلق هذه الاختلافات المذهبية.وليس هذا إلا نموذجا مما تكرر وقوعه في حياة اليهودية والمسيحية.وقد رأينا كيف كانت كراهية مصر والشام وما إليهما للحكم الروماني سببا في رفض المذهب الروماني الرسمي والتمذهب بمذهب آخر! كما كان حرص بعض القياصرة على التوفيق بين أجزاء مملكته سببا في ابتداع مذهب وسط،يظن أنه يوفق بين الأغراض جميعا!! كأنما العقيدة لعبة تستخدم في المناورات السياسية والوطنية! وهذا هو البغي أشنع البغي.

عن قصد وعن علم! ومن ثم يجيء التهديد القاصم في موضعه المناسب:«وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» ..وقد عد الاختلاف على حقيقة التوحيد كفرا وهدد الكافرين

بسرعة الحساب كي لا يكون الإمهال - إلى أجل - مدعاة للجاجة في الكفر والإنكار والاختلاف ..

ثم لقن نبيه - ﷺ - فصل الخطاب في موقفه من أهل الكتاب والمشركين جميعا.ليحسم الأمر معهم عن بينة،ويدع أمرهم بعد ذلك لله،ويمضي في طريقه الواضح متميزا متفردا:«فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ:أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ.وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا.وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ.وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» ..

إنه لا سبيل إلى مزيد من الإيضاح بعد ما تقدم.فإما اعتراف بوحدة الألوهية والقوامة،وإذن فلا بد من الإسلام والاتباع.وإما مماحكة ومداورة.وإذن فلا توحيد ولا إسلام.ومن ثم يلقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - كلمة واحدة تبين عقيدته كما تبين منهج حياته:«فَإِنْ حَاجُّوكَ» - أي في التوحيد وفي الدين - «فَقُلْ:أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ» أنا «وَمَنِ اتَّبَعَنِ» ..والتعبير بالاتباع ذو مغزى هنا.فليس هو مجرد التصديق.إنما هو الاتباع.كما أن التعبير بإسلام الوجه ذو مغزى كذلك.فليس هو مجرد النطق باللسان أو الاعتقاد بالجنان.إنما هو كذلك الاستسلام.استسلام الطاعة والاتباع ..

وإسلام الوجه كناية عن هذا الاستسلام.والوجه أعلى وأكرم ما في الإنسان.فهي صورة الانقياد الطائع الخاضع المتبع المستجيب.

هذا اعتقاد محمد - ﷺ - ومنهج حياته.والمسلمون متبعوه ومقلدوه في اعتقاده ومنهج حياته ..فليسأل إذن أهل الكتاب والأميين سؤال التبين والتمييز ووضع الشارة المميزة للمعسكرين على وضوح لا اختلاط فيه ولا اشتباه:«وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ:أَأَسْلَمْتُمْ؟ » فهم سواء.هؤلاء وهؤلاء.المشركون وأهل الكتاب هم مدعوون إلى الإسلام بمعناه الذي شرحناه.مدعوون للإقرار بتوحيد ذات الله،ووحدة الألوهية ووحدة القوامة.مدعوون بعد هذا الإقرار إلى الخضوع لمقتضاه.وهو تحكيم كتاب الله ونهجه في الحياة.

«فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا» ..فالهدى يتمثل في صورة واحدة.هي صورة الإسلام.بحقيقته تلك وطبيعته.وليس هنالك صورة أخرى،ولا تصور آخر،ولا وضع آخر،ولا منهج آخر يتمثل فيه الاهتداء ..إنما هو الضلال والجاهلية والحيرة والزيغ والالتواء ..

«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ» ..فعند البلاغ تنتهي تبعة الرسول وينتهي عمله.وكان هـذا قبل أن يأمره الله بقتال من لا يقبلون الإسلام حتى ينتهوا:إما إلى اعتناق الـدين والخضـوع للنظام الذي يتمثل فيه.وإما إلى التعهد فقط بالطاعة للنظام في صورة أداء الجزية ..حيـث لا إكراه على الاعتقاد ..«وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» ..يتصرف في أمرهم وفق بصره وعلمه.وأمـرهم إليه على كل حال.[٢٤١٣]

وقال تعالى:{ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِـرِينَ } [آل عمران:٨٥]

أي:من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده،فعمله مردود غير مقبول،لأن ديـن الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله،إخلاصا وانقيادا لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه،وكل دين سواه فباطل[٢٤١٤]

وفي ظل هذا العهد الساري يقرر أن الذي يبتغي دينا غير ديـن الله ..الإسـلام ..يخـرج في الحقيقة على نظام الكون كله كما أراده الله:«أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ،وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَـنْ فِـي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً؟ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ؟ » ..فيبدو هؤلاء الذين يخرجون عن إسلام أمرهم لله كله،والطاعة والاتباع لمنهج الله في خضوع واستسلام ..يبدو هؤلاء شذاذا خارجين على نظام الوجود الكبير! هنا يوجه الرسول – ﷺ – والمسلمين معه إلى إعلان الإيمان بـدين الله الواحد،ممثلا في كل ما جاء به الرسل أجمعين.وأن الله لا يقبل من البشر جميعـا إلا هـذا الدين:«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ،وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ» ..فأما الذين لا يؤمنون بهذا الدين فلا مطمع لهم في هداية الله.ولا في النجاة من عقابه.إلا أن يتوبوا.وأمـا الذين يموتون وهم كفار فلن ينفعهم أن يكونوا قد بذلوا ما بذلوا،ولن ينجيهم أن يفتدوا بملء الأرض ذهبا!

[٢٤١٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٦٤٤)

[٢٤١٤] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٣٧)

وبمناسبة البذل والفداء يحبب للمسلمين أن ينفقوا مما يحبون من مال في هذه الدنيا،ليجدوه عند الله مدخرا يوم القيامة:«لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ.وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ»[2415]

إنه لا سبيل – مع هذه النصوص المتلاحقة – لتأويل حقيقة الإسلام،ولا لليّ النصوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ما عرفه به الله،الإسلام الذي يدين به الكون كله.في صورة خضوع للنظام الذي قرره الله له ودبره به.

ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين،دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها.وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة.ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه.ودون أن يتبع شهادة أن محمدا رسول الله معناها وحقيقتها.وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة،واتباع الشريعة التي أرسله بها،والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد.

ولن يكون الإسلام إذن تصديقا بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله ..دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي،وحقيقته الواقعية التي أسلفنا ..ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات،أو إشراقات وسبحات،أو تهذيبا خلقيا وإرشادا روحيا ..دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر،والإشراقات والسبحات،والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد ..فإن هذا كله يبقى معطلا لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف الوضيء.[2416]

فالخلق خلق الله تعالى وعبيده،والأرض أرض الله،كما قال الله تعالى:{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)} [الأعراف:١٢٧،١٢٨]

[2415] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٦٧٩)

[2416] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٦٩٤)

وَسَأَلَ جُمْهُورُ السَّادَةِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ،عَمَّا يَنْوِي فِرْعَوْنُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِمُوسَى وَهَارُونَ وَقَوْمِهِمَا،وَهَلْ سَيَتْرُكُهُمْ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ،وَيُضِلُّونَ الرَّعِيَّةَ،وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ،وَإِلى تَرْكِ عِبَادَةِ فِرْعَوْنَ وَآلِهَتِهِ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ قَائِلاً:إِنَّهُ سَيَقْتُلُ الذُّكُورَ مِنْ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرائِيلَ،وَيَسْتَبْقِي النِّسَاءَ عَلَى قَيدِ الحَيَاةِ،وَإِنَّهُ سَيُخْضِعُهُمْ جَمِيعاً لِلْقَهْرِ وَالإِذْلالِ،فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ إِفْسَاداً فِي الأَرْضِ.وَلَمَّا سَمِعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هذا التَّهْدِيدَ خَافُوا مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ،فَطَمْأَنَهُمْ مُوسَى،وَقَالَ لَهُمْ:اسْتَعِينُوا بِاللهِ عَلَى رَفْعِ ذلكَ الوَعِيدِ عَنْكُمْ،وَاصْبِرُوا وَلاَ تَحْزَنُوا فَإِنَّ الأَرْضَ هِيَ للهِ،الذِي بِيَدِهِ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيءٍ،يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.وَالعَاقِبَةُ الحُسْنَى لِمَنْ يَتَّقُونَ اللهَ،وَيُرَاعُونَ سُنَنَهُ فِي أَسْبَابِ إِرْثِ الأَرْضِ:اتِحَادَ الكَلِمَةِ،وَالاعْتِصَامَ بِالحَقِّ،وَإِقَامَةَ العَدْلِ،وَالصَّبْرَ عَلَى الشَّدَائِدِ،وَالاسْتِعَانَةَ بِاللهِ عَلَى المَكَارِهِ.[٢٤١٧]

إنها رؤية «النبي» لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه.ولحقيقة الواقع الكوني والقوى التي تعمل فيه.

ولحقيقة السنة الإلهية وما يرجوه منها الصابرون ..إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد،وهو الملاذ الحصين الأمين،وإلا ولي واحد وهو الولي القوي المتين.وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه.

وألا يعجلوا،فهم لا يطلعون الغيب،ولا يعلمون الخير ..وإن الأرض لله.وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها.والله يورثها من يشاء من عباده – وفق سنته وحكمته – فلا ينظر الداعون إلى رب العالمين،إلى شيء من ظواهر الأمور التي تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مزحزح عنها ..فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها! وإن العاقبة للمتقين ..طال الزمن أم قصر ..فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير.

ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد،فيحسبونهم باقين ..

إنها رؤية «النبي» لحقائق الوجود الكبير ..ولكن إسرائيل هي إسرائيل! «قالُوا:أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا»:إنها كلمات ذات ظل! وإنها لتشي بما وراءها من تبرم! أوذينا قبل

[٢٤١٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٠٨٢،بترقيم الشاملة آليا)

مجيئك وما تغير شيء بمجيئك.وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية! ويمضي النبي الكريم على نهجه.يذكرهم بالله،ويعلق رجاءهم به،ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم.

واستخلافهم في الأرض.مع التحذير من فتنة الاستخلاف.«قالَ:عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ،وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ،فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ».إنه ينظر بقلب النبي فيرى سنة الله،تجري وفق وعده،للصابرين،وللجاحدين! ويرى من خلال سنة الله هلاك الطاغوت وأهله،واستخلاف الصابرين المستعينين بالله وحده.فيدفع قومه دفعا إلى الطريق لتجري بهم سنة الله إلى ما يريد ..وهو يعلمهم – منذ البدء – أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم.ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه – كما زعموا – فلا يعذبهم بذنوبهم! وليس جزافا بلا غاية.وليس خلودا بلا توقيت.إنه استخلاف للامتحان:«فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» ..وهو سبحانه يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون.ولكنها سنة الله وعدله ألا يحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان،ما هو مكشوف من الغيب لعلمه القديم.[٢٤١٨]

وقال تعالى {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء:١٠٥]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ حَتْمِه وَقَضَائه لعبَاده الصَّالحِينَ بالسَّعَادَة،في الدُّنْيا والآخرَة،وَوِرَاثَة الأَرْضِ فِي الدُّنْيا والآخرَة،فَقَالَ تَعَالَى:إِنَّهُ قَضَى فِي الكُتُبِ التي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُله (الزَّبُورِ) كَمَا قَضَى فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ وَهُوَ أُمُّ الكتَابِ (الذِّكْرِ) أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها الصَّالحُونَ منْ عبَاده؛وَقَدْ جَعَلَ سُنَّةً وَمَنْهَاجاً.(والصَّالحُونَ الذين عَنَاهُم اللهُ تَعَالَى هُمُ الَّذينَ جَمَعُوْا الإِيْمَانَ والعَمَلَ الصَّالحَ،فإِذَا اجْتَمَعَ إِيْمَانُ القَلْبِ،وَنشاطُ العَمَلِ في أُمَّةٍ فَهِيَ الوَارِثَةُ للأَرْضِ.وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ،وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ أبداً) .[٢٤١٩]

لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها،وتنميتها وتحويرها،واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها،واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة،والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله.

[٢٤١٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٨٢٢)

[٢٤١٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٩٥،بترقيم الشاملة آليا)

ولقد وضع الله للبشر منهجا كاملا متكاملا للعمل على وفقه في هذه الأرض.منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح.وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج،وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته.في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواها والانتفاع بطاقاها هو وحده المقصود.ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان،ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة.فلا ينتكس حيوانا في وسط الحضارة المادية الزاهرة ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة.

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة.وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة.وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة.وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاها استغلالا ماديا ..ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق.والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين،الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح.فلا يفترق في كيافهم هذان العنصران ولا في حياقم.

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ.ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح.وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان،وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح،وإلى عمارة الأرض،والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمافهم،وهو العمل الصالح،والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله،وتجري سنته:«أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» ..فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون ..[2420]

وليست الأرض ملكا وحقاً للطواغيت الذين يتسلطون على قطعة من الأرض هنا أو هناك،ويستعبدون أهلها.

[2420] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣١٠٦)

فقارة أمريكا الشمالية مثلا،أو قارة أمريكا الجنوبية،أو غيرها من القارات هي أرض لله تعالى الذي له ملك السماوات والأرض،ومن يسكن في هذه القارات من الناس هم خلق الله تعالى،خلقهم لعبادته وحده لا شريك له،و لم يخلقهم لتستعبدهم الأحزاب السياسية الكافرة،فإذا تيقن المسلم بهذا الأصل من أصول الاعتقاد تبين له نعمة الله تعالى على العباد،ورحمته بهم إذ شرع جهاد الطلب وهو قتال الكفار في عقر دارهم لتكون كلمة الله هي العليا،وتحرر الأرض من استيلاء الطواغيت عليها،ويحرر الناس من العبودية لغير الله تعالى.

وقد دل على جهاد الطلب،وابتداء الكفار بالقتال،الكتاب والسنة والإجماع،فأما الكتاب،فقال الله تعالى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) } [الأنفال:٣٩،٤٠]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُقَاتِلُوا الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ حَتَّى لاَ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ يَسْتَطِيعُ فِتْنَةَ المُؤْمِنِينَ،عَنْ دِينِهِمْ بِالعَذَابِ وَالإِيذَاءِ وَالتَّهْدِيدِ،وَحَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ.فَإذا انْتَهَى المُشْرِكُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ،وَكَفُّوا عَنْهُ (وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بِوَاطِنَهُمْ) فَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَكِلُوا بِوَاطِنَهُمْ إِلَى اللهِ،فَهُوَ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.وَإِن اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلاَفِهِمْ لَكُمْ،وَمُحَارَبَتِهِمْ إِيَّاكُم فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِكُمْ،وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّاصِرُ،فَأَيْقِنُوا بِنَصْرِ اللهِ لَكُمْ،وَهُوَ مُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ،فَلاَ تُبَالُوا بِهِمْ،وَلاَ تَخْشَوْهُمْ.[٢٤٢١]

لقد جاء الإسلام – كما سبق في التعريف بالسورة – ليكون إعلانا عاما لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد – ومن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية الله وحده – سبحانه – وربوبيته للعالمين ..وأن معنى هذا الإعلان:الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها،والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض،الحكم فيه للبشر في صورة من الصور ...إلخ .

ولا بد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين:

[٢٤٢١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

أولهما:دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين،ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان،ويرجعون بعبوديتهم لله وحده،ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال ..وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام،وتنفذه في عالم الواقع،وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على معتنقي هذا الدين،أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه ..
وثانيهما:تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر – في صورة من الصور – وذلك لضمان الهدف الأول،ولإعلان ألوهية الله وحدها في الأرض كلها،بحيث لا تكون هناك دينونة إلا لله وحده – فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله – وليس هو مجرد الاعتقاد ..

ولا بد هنا من بيان الشبهة التي قد تحيك في الصدور من هذا القول،على حين أن الله سبحانه يقول:«لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» ..
ومع أن فيما سبق تقريره عن طبيعة الجهاد في الإسلام – وبخاصة فيما اقتطفناه من كتاب:«الجهاد في سبيل الله» للأستاذ أبي الأعلى المودودي،ما يكفي للبيان الواضح ..إلا أننا نزيد الأمر إيضاحا،وذلك لكثرة ما لبس الملبسون ومكر الماكرون من أعداء هذا الدين! إن الذي يعنيه هذا النص:«ويكون الدين كله لله» ..هو إزالة الحواجز المادية،المتمثلة في سلطان الطواغيت،وفي الأوضاع القاهرة للأفراد،فلا يكون هناك – حينئذ – سلطان في الأرض لغير الله،ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله ..فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفرادا يختارون عقيدتهم أحرارا من كل ضغط.على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين،ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى،ويفتن بها الذين يتحررون فعلا من كل سلطان إلا سلطان الله ..إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم،على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفرادا،فلا يكونون سلطة قاهرة يدين لها العباد.فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد.

ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها الله،ولن يتحرر «الإنســـان» في «الأرض»،إلا حـــين يكون الدين كله لله،فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه.ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة:«حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» ..فمن قبل هذا المبدأ وأعلـــن استســـلامه له،قبل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه،ولم يفتشوا عن نيته وما يخفي صدره،وتركوا هذا لله:«فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ..ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتلـــه المسلمون معتمدين على نصرة الله:«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ.نِعْـــمَ الْمَـــوْلى وَنِعْـــمَ النَّصِيرُ» ..

هذه تكاليف هذا الدين وهذه هي جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاته في عـــالم الواقع ولتقرير ألوهية الله وحده في دنيا الناس ..

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب للترف الذهني والتكاثر بـــالعلم والمعرفـــة! وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى! كما أنه ليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه!

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان ..وهو منهج حركي واقعي،يواجه واقـــع النـــاس بوسائل مكافئة ..يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان ..ويواجه حواجز الأوضـــاع والسلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان الله ..والحركة بهذا الـــدين حركة في واقع بشري.والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل بنظريـــة! إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة،ولا بد – كي يقابلها هذا الدين بوسائل مكافئة – أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة.ولا بد بعد ذلك أن يجاهد ليكون الدين كله لله،فـــلا تكـــون هناك دينونة لسواه.هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين ..لا ما يقوله المهزومون والمخدوعون ..ولو كانوا مـــن المخلصـــين الطيـــبين الـــذين يريـــدون أن يكونـــوا مـــن «المسلمين»،ولكن تغيم في عقولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين! ..والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ..[٢٤٢٢]

[٢٤٢٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٤٨)

وقال تعالى: { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩]

بَعْدَ أَن اسْتَقَامَت الأمُورُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ،بِدُخُولِ النَّاسِ فِي الإِسْلاَمِ،أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِقِتَالِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،وَذَلِكَ سَنَةَ تِسْعٍ لِلْهِجْرَةِ،لِذَلِكَ تَجَهَّزَ الرَّسُولُ ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ،وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ،وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ،وَنَدَبَ المُؤْمِنِينَ إِلَى الجِهَادِ،وَتَخَلَّفَ بَعْضُ المُنَافِقِينَ،وَكَانَ ذَلِكَ العَامُ عَامَ جَدْبٍ،وَالْوَقْتُ فِي شِدَّةِ الحَرِّ،وَخَرَجَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ إِلَى تَبُوكَ،فَنَزَلَ بِهَا،وَأَقَامَ فِيهَا قُرَابَةَ عِشْرِينَ يَوْماً،ثُمَّ رَجَعَ لِضِيقِ الحَالِ،وَضَعْفِ النَّاسِ.

فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالإِسْلاَمِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ،فَرَضَ اللهُ عَلَى المُسْلِمِينَ قِتَالَهُ،حَتَّى يُعْطِيَ الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ مَقْهُورَةٍ مَغْلُوبَةٍ،وَهُوَ خَاضِعٌ صَاغِرٌ.

وَيَجِبُ قِتَالُ أَهْلِ الكِتَابِ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِمْ أَرْبَعُ صِفَاتٍ هِيَ العِلَّةُ فِي عَدَاوَتِهِمْ لِلإِسْلاَمِ وَالمُسْلِمِينَ:

- أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ،لأَنَّهُمْ هَدَمُوا التَّوْحِيدَ فَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ مُشَرِّعِينَ،وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ المَسِيحَ وَعُزَيْراً.

- أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاليَوْمِ الآخِرِ،إِذْ يَقُولُونَ إِنَّ الحَيَاةَ الآخِرَةَ هِيَ حَيَاةٌ رُوحَانِيَّةٌ يَكُونُ فِيهَا النَّاسُ كَالمَلاَئِكَةِ

- أَنَّهُمْ لاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ،وَلاَ يَلْتَزِمُونَ العَمَلَ بِمَا حَرَّمَ عَلَيهِمْ.

- أَنَّهُمْ لاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ الذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ،وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ دِيناً وَضَعَهُ لَهُمْ أَحْبَارُهُمْ وَأَسَاقِفَتُهُمْ.[٢٤٢٣]

الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ اسْتِينَافٌ ابْتِدَائِيٌّ لَا تَتَفَرَّعُ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا،فَالْكَلَامُ انْتِقَالٌ مِنْ غَرَضِ نَبْذِ الْعَهْدِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَأَحْوَالِ الْمُعَامَلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى غَرَضِ الْمُعَامَلَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،إِذْ كَانَ الْفَرِيقَانِ مُسَالِمَيْنِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ بَدْءِ الْإِسْلَامِ،وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ فِي مُدَافَعَةِ الْمُشْرِكِينَ لِلْمُسْلِمِينَ مَا يَكْفِيهِمْ أَمْرَ التَّصَدِّي لِلطَّعْنِ

[٢٤٢٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٥،بترقيم الشاملة آليا)

فِي الْإِسْلَامِ وَتَلَاشِي أَمْرِهِ فَلَمَّا أَخَذَ الْإِسْلَامُ يَنْتَشِرُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ يَوْمًا فَيَوْمًا،وَاسْتَقَلَّ أَمْرُهُ بِالْمَدِينَةِ،ابْتَدَأَ بَعْضُ الْيَهُودِ يُظْهِرُ إِحَنَهُ نَحْوَ الْمُسْلِمِينَ،فَنَشَأَ النِّفَاقُ بِالْمَدِينَةِ وَظَاهَرَتْ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ أَهْلَ الْأَحْزَابِ لَمَّا غَزُوا الْمَدِينَةَ فَأَذْهَبَهُمُ اللَّهُ عَنْهَا.

ثُمَّ لَمَّا اكْتَمَلَ نَصْرُ الْإِسْلَامِ بِفَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَعُمُومِهِ بِلَادَ الْعَرَبِ بِمَجِيءِ وُفُودِهِمْ مُسْلِمِينَ،وَامْتَدَّ إِلَى تُخُومِ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ،أَوْجَسَتْ نَصَارَى الْعَرَبِ خِيفَةً مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَيْهِمْ،وَلَمْ تَغْمُضْ عَيْنُ دَوْلَةِ الرُّومِ حَامِيَةِ نَصَارَى الْعَرَبِ عَنْ تَدَانِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ مِنْ بِلَادِهِمْ،فَأَخَذُوا يَسْتَعِدُّونَ لِحَرْبِ الْمُسْلِمِينَ بِوَاسِطَةِ مُلُوكِ غَسَّانَ سَادَةِ بِلَادِ الشَّامِ فِي مُلْكِ الرُّومِ.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ:«كَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا وَأَنَّهُمْ يَنْعَلُونَ الْخَيْلَ لِغَزْوِنَا فَإِذَا صَاحِبِي الْأَنْصَارِيِّ يَدُقُّ الْبَابَ فَقَالَ:افْتَحِ افْتَحْ.فَقُلْتُ:أَجَاءَ الْغَسَّانِيُّ.قَالَ:بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ اعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ.

فَلَا جَرَمَ لَمَّا أَمِنَ الْمُسْلِمُونَ بَأْسَ الْمُشْرِكِينَ وَأَصْبَحُوا فِي مَأْمَنٍ مِنْهُمْ،أَنْ يَأْخُذُوا الْأُهْبَةَ لِيَأْمَنُوا بَأْسَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،فَابْتَدَأَ ذَلِكَ بِغَزْوِ خَيْبَرَ وَقُرَيْظَةَ

وَالنَّضِيرِ وَقَدْ هُزِمُوا وَكَفَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بَأْسَهُمْ وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ فَلَمْ يَقَعْ قِتَالٌ مَعَهُمْ بَعْدُ ثُمَّ ثَنَّى بِغَزْوَةِ تَبُوكَ الَّتِي هِيَ مِنْ مَشَارِفِ الشَّامِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ:أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْأَمْرِ بِغَزْوَةِ تَبُوكَ فَالْمُرَادُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ خُصُوصُ النَّصَارَى،وَهَذَا لَا يلاقي مَا تظافرت عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ مِنْ أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ تَبُوكَ.

ومِنَ بَيَانِيَّةٌ وَهِيَ تُبَيِّنُ الْمَوْصُولَ الَّذِي قَبْلَهَا.

وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ الْقَوْمَ الْمَأْمُورَ بِقِتَالِهِمْ ثَبَتَتْ لَهُمْ مَعَانِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَعَاطِفَةِ فِي صِلَةِ الْمَوْصُولِ،وَأَنَّ الْبَيَانَ الْوَاقِعَ بَعْدَ الصِّلَةِ بِقَوْلِهِ:مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ رَاجِعٌ إِلَى الْمَوْصُولِ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِ صَاحِبَ تِلْكَ الصِّلَاتِ،فَيَقْتَضِي أَنَّ الْفَرِيقَ الْمَأْمُورَ بِقِتَالِهِ فَرِيقٌ وَاحِدٌ،انْتَفَى عَنْهُمُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَتَحْرِيمُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ،وَالتَّدَيُّنُ بِدِينِ الْحَقِّ.

وَلَمْ يَعْرِفْ أَهْلُ الْكِتَابِ بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مُثْبِتُونَ لِوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الْجَزَاءِ.

وَبِهَذَا الاعْتِبَارِ تَحَيَّرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فَلِذَلِكَ تَأَوَّلُوهَا بِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى،وَإِنْ أَثْبَتُوا وُجُودَ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،فَقَدْ وَصَفُوا اللَّهَ بِصِفَاتٍ تُنَافِي الْإِلَهِيَّةَ فَكَأَنَّهُمْ مَا آمَنُوا بِهِ،إِذْ أَثْبَتَ الْيَهُودُ الْجِسْمِيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى وَقَالُوا:يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ [الْمَائِدَة:٦٤] .وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ:عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ [التَّوْبَة:٣٠] .

وَأَثْبَتَ النَّصَارَى تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِالتَّثْلِيثِ فَقَارَبُوا قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ فَهُمْ أَبْعَدُ مِنَ الْيَهُودِ عَنِ الْإِيمَانِ الْحَقِّ،وَأَنَّ قَوْلَ الْفَرِيقَيْنِ بِإِثْبَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَدْ أَلْصَقُوا بِهِ تَخَيُّلَاتٍ وَأُكْذُوبَاتٍ تُنَافِي حَقِيقَةَ الْجَزَاءِ:كَقَوْلِهِمْ:لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً [الْبَقَرَة:٨٠] فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.وَتَكَلَّفَ الْمُفَسِّرُونَ لِدَفْعِ مَا يَرِدُ عَلَى تَأْوِيلِهِمْ هَذَا مِنَ الْمَنُوِّعِ وَذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي تَفْسِيرِ الْفَخْرِ وَكُلُّهُ تَعَسُّفَاتٌ.

وَالَّذِي أَرَاهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَهَمَّ مِنْهَا قِتَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ النَّصَارَى كَمَا عَلِمْتَ وَلَكِنَّهَا أَدْمَجَتْ مَعَهُمُ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ أَحَدٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقْتَضِي التَّفَرُّغَ لِقِتَالِهِمْ وَمُتَارَكَةِ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ.فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ هُوَ الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ:الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ- إِلَى قَوْلِهِ- وَرَسُولُهُ فَإِدْمَاجٌ.فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ اقْتِصَارَ الْقِتَالِ عَلَى مَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِمُ الصِّفَاتُ الْأَرْبَعُ بَلْ كُلُّ الصِّفَةِ الْمَقْصُودَةِ هِيَ الَّتِي أَرْدَفَتْ بِالتَّبْيِينِ بِقَوْلِهِ:مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَمَا عَدَاهَا إِدْمَاجٌ وَتَأْكِيدٌ لِمَا مَضَى،فَالْمُشْرِكُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لِأَنَّهُمْ لَا شَرِيعَةَ لَهُمْ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ حَلَالٌ وَحَرَامٌ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَأَمَّا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَحْرِمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي دِينِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَيَلْحَقُ بِهِمُ الْمَجُوسُ فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَدْيَانُ هِيَ الْغَالِبَةَ عَلَى أُمَمِ الْمَعْرُوفِ مِنَ الْعَالَمِ يَوْمَئِذٍ،فَقَدْ كَانَتِ الرُّومُ نَصَارَى،وَكَانَ فِي الْعَرَبِ النَّصَارَى فِي بِلَادِ الشَّامِ وطي وَكَلْبٍ وَقُضَاعَةَ وَتَغْلِبَ وَبَكْرٍ،وَكَانَ الْمَجُوسُ بِبِلَادِ الْفُرْسِ وَكَانَ فِرَقٌ مِنَ الْمَجُوسِ فِي الْقَبَائِلِ الَّتِي

تَتْبَعُ مُلُوكَ الْفُرْسِ مِنْ تَمِيمٍ وَبَكْرٍ وَالْبَحْرَيْنِ،وَكَانَتِ الْيَهُودُ فِي خَيْبَرَ وَقُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَأَشْتَاتٌ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ وَقَدْ تَوَفَّرَتْ فِي أَصْحَابِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ مِنْ أَسْبَابِ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ مَا أَوْمَأَ إِلَيْهِ اخْتِيَارُ طَرِيقِ الْمَوْصُولِيَّةِ لِتَعْرِيفِهِمْ بِتِلْكَ الصِّلَاتِ لِأَنَّ الْمَوْصُولِيَّةَ أَمْكَنُ طَرِيقٍ فِي اللُّغَةِ لِحِكَايَةِ أَحْوَالِ كُفْرِهِمْ.

وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ عَطْفَ جُمَلٍ عَلَى جُمْلَةِ الصِّلَةِ يَقْتَضِي لُزُومَ اجْتِمَاعِ تِلْكَ الصِّلَاتِ لِكُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْمَوْصُولِ،فَإِنَّ الْوَاو لَا تقيد إِلَّا مُطْلَقَ الْجَمْعِ فِي الْحُكْمِ فَإِنَّ اسْمَ الْمَوْصُولِ قَدْ يَكُونُ مُرَادًا بِهِ وَاحِدٌ فَيَكُونُ كَالْمَعْهُودِ بِاللَّامِ،وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ جِنْسًا أَوْ أَجْنَاسًا مِمَّا يَثْبُتُ لَهُ مَعْنَى الصِّلَةِ أَوِ الصِّلَاتِ،عَلَى أَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ نَائِبٌ عَنِ الْعَامِلِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ إِعَادَةِ اسْمِ الْمَوْصُولِ سَوَاءٌ وَقَعَ الِاقْتِصَارُ عَلَى حَرْفِ الْعَطْفِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ،أَمْ جُمِعَ بَيْنَ حَرْفِ الْعَطْفِ وَإِعَادَةِ اسْمِ الْمَوْصُولِ بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً،وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً،وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً،وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ [الْفرْقَان:٦٣– ٦٨] فَقَدْ عُطِفَتْ فِيهَا ثَمَانِيَةُ أَسْمَاءٍ مَوْصُولَةٍ عَلَى اسْمِ الْمَوْصُولِ وَلَمْ يَقْتَضِ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَوْصُولٍ مُخْتَصٌّ الْمَاصَدَقَ عَلَى طَائِفَةٍ خَاصَّةٍ بَلِ الْعِبْرَةُ بِالِاتِّصَافِ بِمَضْمُونِ إِحْدَى تِلْكَ الصِّلَاتِ جَمِيعِهَا بِالْأُولَى،وَالتَّعْوِيلُ فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى الْقَرَائِنِ.

وَقَوْلُهُ:مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بَيَانٌ لِأَقْرَبِ صِلَةٍ مِنْهُ وَهِيَ صِلَةُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ وَالْأَصْلُ فِي الْبَيَانِ أَنْ يَكُونَ بِلَصْقِ الْمُبَيَّنِ لِأَنَّ الْبَيَانَ نَظِيرَ الْبَدَلِ الْمُطَابِقِ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ فُرُوعِ مَسْأَلَةِ الصِّفَةِ وَنَحْوِهَا الْوَارِدَةِ بَعْدَ جُمَلٍ مُتَعَاطِفَةٍ مُفْرَدٌ وَلَيْسَ بَيَانًا لِجُمْلَةِ الصِّلَةِ عَلَى أَنَّ الْقَرِينَةَ تَرُدُّهُ إِلَى مَرَدِّهِ.وَفَائِدَةُ ذِكْرِهِ التَّنْدِيدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ وَلَمْ يَدِينُوا دِينَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ كِتَابُهُمْ،وَإِنَّمَا دَانُوا بِمَا حَرَّفُوا مِنْهُ،وَمَا أَنْكَرُوا مِنْهُ،وَمَا أَلْصَقُوا بِهِ،وَلَوْ دَانُوا دِينَ الْحَقِّ لَاتَّبَعُوا الْإِسْلَامَ،لِأَنَّ كِتَابَهُمُ الَّذِي أُوتُوهُ أَوْصَاهُمْ بِاتِّبَاعِ النَّبِيءِ الْآتِي مِنْ بَعْدُ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْناكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ

أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّه تبغون [آل عمران:٨١- ٨٣] .
وَقَوْلُهُ:وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.بِمَعْنَى لَا يَجْعَلُونَ حَرَامًا مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ فَإِنَّ مَادَّةَ فَعَّلَ تُسْتَعْمَلُ فِي جَعْلِ الْمَفْعُولِ مُتَّصِفًا بِمَصْدَرِ الْفِعْلِ،فَيُفِيدُ قَوْلُهُ:وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَهُ غَيْرَ حَرَامٍ وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَهُ مُبَاحًا.وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا تَشْنِيعُ حَالِهِمْ وَإِثَارَةُ كَرَاهِيَتِهِمْ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَبِيحُونَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ وَلَمَّا كَانَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ قَبِيحًا مُنْكَرًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ [الْأَعْرَاف:١٥٧] لَا جَرَمَ أَنَّ الَّذِينَ يَسْتَبِيحُونَهُ دَلُّوا عَلَى فَسَادِ عُقُولِهِمْ فَكَانُوا أَهْلًا لِرَدْعِهِمْ عَنْ بَاطِلِهِمْ عَلَى أَنَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ شَامِلٌ لِكُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ الضَّرُورِيَّاتِ كَحِفْظِ النَّفْسِ وَالنَّسَبِ وَالْمَالِ وَالْعِرْضِ وَالْمُشْرِكُونَ لَا يُحَرِّمُونَ ذَلِك.
وَالْمرَاد (بِرَسُولِهِ) مُحَمَّدٌ ﷺ كَمَا هُوَ مُتَعَارَفُ الْقُرْآنِ وَلَوْ أُرِيدَ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ لَقَالَ وَرُسُلُهُ لِأَنَّ اللَّهَ مَا حَرَّمَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ إِلَّا مَا هُوَ حَقِيقٌ بِالتَّحْرِيمِ.
وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ تَهْيِئَةً لِلْمُسْلِمِينَ لِأَنْ يَغْزُوا الرُّومَ وَالْفُرْسَ وَمَا بَقِيَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَسْتَظِلُّونَ بِنَصْرِ إِحْدَى هَاتَيْنِ الْأُمَّتَيْنِ الَّذِينَ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُمْ مِثْلِ قُضَاعَةَ وَتَغْلِبَ بِتُخُومِ الشَّامِ حَتَّى يُؤْمِنُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ.وحَتَّى غَايَةٌ لِلْقِتَالِ،أَيْ يَسْتَمِرُّ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ.وَضَمِيرُ يُعْطُوا عَائِدٌ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ.وَالْجِزْيَةَ اسْمٌ لِمَالٍ يُعْطِيهِ رِجَالُ قَوْمٍ جَزَاءً عَلَى الْإِبْقَاءِ بِالْحَيَاةِ أَوْ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالْأَرْضِ،بُنِيَتْ عَلَى وَزْنِ اسْمِ الْهَيْئَةِ،وَلَا مُنَاسَبَةَ فِي اعْتِبَارِ الْهَيْئَةِ هُنَا،فَلِذَلِكَ كَانَ الظَّاهِرُ.هَذَا الاسْمِ أَنَّهُ مُعَرَّبٌ عَنْ كَلِمَةِ (كِزْيَت) بِالْفَارِسِيَّةِ بِمَعْنَى الْخَرَاجِ نَقَلَهُ الْمُفَسِّرُونَ عَنِ الْخُوَارَزْمِيِّ،وَلَمْ أَقِفْ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَيْهَا الرَّاغِبُ فِي «مُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» .وَلَمْ يَذْكُرُوهَا فِي «مُعَرَّبِ الْقُرْآنِ» لِوُقُوعِ التَّرَدُّدِ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا مَادَّةَ الاشْتِقَاقِ الْعَرَبِيِّ صَالِحَةً فِيهَا وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَانَتْ مَعْرُوفَةَ الْمَعْنَى لِلَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بَيْنَهُمْ وَلِذَلِكَ عُرِّفَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.
وَقَوْلُهُ:عَنْ يَدٍ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى يُعْطُوا لِلتَّنْصِيصِ عَلَى الْإِعْطَاءِ وعَنْ فِيهِ لِلْمُجَاوَزَةِ.أَيْ يَدْفَعُوهَا بِأَيْدِيهِمْ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ إِرْسَالُهَا وَلَا الْحَوَالَةُ فِيهَا،وَمَحَلُّ الْمَجْرُورِ الْحَالُ مِنَ الْجِزْيَةِ.وَالْمُرَادُ يَدُ

الْمُعْطِي أَيْ يُعْطُوهَا غَيْرَ مُمْتَنِعِينَ وَلَا مُنَازِعِينَ فِي إِعْطَائِهَا وَهَذَا كَقَوْلِ الْعَرَبِ «أَعْطَى بِيَــــدِهِ» إِذَا انْقَادَ.وَجُمْلَةُ وَهُمْ صاغِرُونَ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ يُعْطُوا.وَالصَّاغِرُ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ صَغِرَ- بِكَسْــــرِ الْغَيْنِ- صَغَرًا بِالتَّحْرِيكِ وَصَغَارًا.إِذَا ذَلَّ،وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الصَّغَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:سَيُصِيبُ الَّـــذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ [١٢٤]،أَيْ وَهُمْ أَذِلَّاءُ وَهَذِهِ حَالٌ لَازِمَـــةٌ لِإِعْطَــاءِ الْجِزْيَةِ عَنْ يَدٍ:وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ تَعْظِيمُ أَمْرِ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ،وَتَحْقِيرُ أَهْلِ الْكُفْرِ لِيَكُــونَ ذَلِــكَ تَرْغِيبًا لَهُمْ فِي الِانْخِلَاعِ عَنْ دِينِهِمُ الْبَاطِلِ وَاتِّبَاعِهِمْ دِينَ الْإِسْلَامِ.وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنَ الْمَجُوسِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَنُقِلَ عَنِ ابْنِ الْمُنْذِرِ:لَا أَعْلَمُ خِلَافًا فِي أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ،وَخَالَفَ ابْنَ وَهْبٍ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ مَجُوسِ الْعَرَبِ.وَقَالَ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ جِزْيَةٌ وَلَا بُدَّ مِنَ الْقَتْلِ أَوِ الْإِسْلَامِ كَمَا دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَخْــذِ الْجِزْيَـــةِ مِــنْ نَصَــارَى الْعَرَبِ،دُونَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ:لِأَنَّ حُكْمَ قِتَالِهِمْ مَضَى فِي الْآيَاتِ السَّالِفَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ فِيهَا إِلَـــى الْجِزْيَةِ بَلْ كَانَتْ نِهَايَةُ الْأَمْرِ فِيهَا قَوْلَهُ:فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَـــبِيلَهُمْ [التَّوْبَة:٥]- وَقَوْلَهُ- فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ [التَّوْبَة:١١]- وَقَوْلَـــهُ- وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ [التَّوْبَة:١٥] .وَلِأَنَّهُمْ لَوْ أُخِذَتْ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ لَاقْتَضَى ذَلِكَ إِقْرَارَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُشَرِّعْ إِجْلَاءَهُمْ عَنْ دِيَارِهِمْ وَذَلِكَ لَمْ يَفْعَلْه النبيء ﷺ.[٢٤٢٤]

هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من {الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـــونَ بِاللَّـــهِ وَلا بِـــالْيَوْمِ الآخِرِ} إيمانا صحيحا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم.ولا يحرمون ما حرم الله،فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات،{وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ} أي:لا يدينون بالدين الصحيح،وإن زعموا أنهم على دين،فإنه دين غير الحق،لأنه إما بين دين مبدل،وهو الذي لم يشرعه الله أصلا وإما دين منسوخ قد شرعه الله،ثم غيره بشريعة محمد ﷺ،فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك،لأنهم يدعون إلى ما هم عليه،ويحصل الضرر الكثير منـــهم للناس،بسبب أنهم أهل كتاب.

وغيَّى ذلك القتال {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} أي:المال الذي يكـــون جـــزاء لتـــرك المســـلمين قتالهم،وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم،بين أظهر المسلمين،يؤخذ منهم كل عام،كلٌّ على

[٢٤٢٤] - التحرير والتنوير (١٠/ ١٦٢)

حسب حاله،من غني وفقير ومتوسط،كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره،من أمراء المؤمنين.

وقوله:{عَنْ يَدٍ} أي:حتى يبذلوها (١) في حال ذلهم،وعدم اقتدارهم،ويعطونها بأيديهم،فلا يرسلون بها خادما ولا غيره،بل لا تقبل إلا من أيديهم،{وَهُمْ صَاغِرُونَ}

فإذا كانوا بهذه الحال،وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية،وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم،وحال الأمن من شرهم وفتنتهم،واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم،ويوجب ذلهم وصغارهم،وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

وإلا بأن لم يفوا،ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية،بل يقاتلون حتى يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون:لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب،لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا،وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين،المجوس،فإن النبي ﷺ،أخذ الجزية من مجوس هجر،ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل:إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم،لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين،والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم،فيكون هذا القيد إخبارا بالواقع،لا مفهوما له.ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب،ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث:إما الإسلام،أو أداء الجزية،أو السيف،من غير فرق بين كِتَابِيٍّ وغيره.[٢٤٢٥]

ومن أجل أن يحدد السياق القرآني في هذا المقطع من السورة طبيعة هذه العلاقات،حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ونص على أنه «شرك» و «كفر» و «باطل» وقدم الوقائع التي يقوم عليها هذا الحكم،سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب والتوافق والتضاهي بينها وبين معتقدات «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ».أو من سلوكهم وتصرفهم الواقعي كذلك.

[٢٤٢٥] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٤)

والنصوص الحاضرة تقرر:

أولا:أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ثانيا:أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

ثالثا:أنهم لا يدينون دين الحق.

رابعا:أن اليهود منهم قالت:عزير ابن الله.وأن النصارى منهم قالت:المسيح ابن الله وأنهم في هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل سواء من الوثنيين الإغريق،أو الوثنيين الرومان،أو الوثنيين الهنود،أو الوثنيين الفراعنة،أو غيرهم من الذين كفروا (وسنفصل فيما بعد أن التثليث عند النصارى،وادعاء البنوة لله منهم أو من اليهود مقتبس من الوثنيات السابقة وليس من أصل النصرانية ولا اليهودية).

خامسا:أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله.كما اتخذوا المسيح ربا.وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينونة له وحده،وأنهم لهذا «مشركون»! سادسا:أنهم محاربون لدين الله يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم،وأنهم لهذا «كافرون»! سابعا:أن كثيرا من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتاب،قرر الأحكام النهائية التي تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بدين الله،القائمين على منهج الله ..

ولقد يبدو أن هذا التقرير لحقيقة ما عليه أهل الكتاب،مفاجئ ومغاير للتقريرات القرآنية السابقة عنهم كما يحلو للمستشرقين والمبشرين وتلاميذهم أن يقولوا،زاعمين أن رسول الله - ﷺ - قد غير أقواله وأحكامه عن أهل الكتاب عندما أحس بالقوة والقدرة على منازلتهم! ولكن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية - المكية والمدنية - عن أهل الكتاب،تظهر بجلاء أنه لم يتغير شيء في أصل نظرة الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدهم عليها،وانحرافها وبطلانها وشركهم وكفرهم بدين الله الصحيح - حتى بما أنزل عليهم منه وبالنصيب الذي أوتوه من قبل - أما التعديلات فهي محصورة في طريقة التعامل معهم ..وهذه - كما قلنا مرارا - تحكمها الأحوال والأوضاع الواقعية المتجددة.

أما الأصل الذي تقوم عليه – وهو حقيقة ما عليه أهل الكتاب – فهو ثابت منذ اليـــوم الأول في حكم الله عليهم.

ونضرب هنا بعض الأمثلة من التقريرات القرآنية عن أهل الكتاب وحقيقة ما هم عليـــه ..ثم نستعرض مواقفهم الواقعية من الإسلام وأهله،تلك المواقف التي انتـــهت إلى هـــذه الأحكـــام النهائية في التعامل معهم:

في مكة لم تكن توجد جاليات يهودية أو نصرانية ذات عدد أو وزن في المجتمع ..إنمـــا كـــان هناك أفراد،يحكي القرآن عنهم أنهم استقبلوا الدعوة الجديدة إلى الإسلام بـــالفرح والتصـــديق والقبول ودخلوا في الإسلام،وشهدوا له ولرسوله بأنه الحق المصدق لما بين أيديهم ..ولا بد أن يكون هؤلاء ممن كان قد بقي على التوحيد من النصارى واليهود وممن كان معهم شيء مـــن بقايا الكتب المنزلة ..وفي أمثال هؤلاء وردت مثل هذه الآيات:«الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ.وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا:آمَنَّا بِهِ،إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا،إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِـــهِ مُسْـــلِمِينَ» ...(القصص:٥٢ – ٥٣).

«قُلْ:آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا،إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَـــيْهِمْ يَخِـــرُّونَ لِلْأَذْقـــانِ سُجَّداً،وَيَقُولُونَ:سُبْحانَ رَبِّنا،إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا.وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُـــونَ وَيَزِيـــدُهُمْ خُشُوعاً» ...(الإسراء:١٠٧ – ١٠٩).

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ،وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلـــى مِثْلِـــهِ،فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ،إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» ...(الأحقاف:١٠).

«وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ،فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ،وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ،وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ» ...(العنكبوت:٤٧).

«أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ،فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» ...(الأنعام:١١٤).

«وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ،وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ.قُـــلْ:إِنَّمـــا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ،إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ» ...(الرعد:٣٦).

وقد تكررت هذه الاستجابة من أفراد كذلك في المدينة حكى عنهم القرآن بعض المواقف في السور المدنية مع النص في بعضها على أنهم من النصارى،ذلك أن اليهود كانوا قد اتخذوا موقفا آخر غير ما كان يتخذه أفراد منهم في مكة،عندما أحسوا خطر الإسلام في المدينة:

«وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ،خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا،أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ،إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» ...(آل عمران:١٩٩).

«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا،وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا:إِنَّا نَصارى.ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً،وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ.وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ،يَقُولُونَ:رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ.وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ؟ فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها،وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ» ...(المائدة:٨٢ – ٨٥).

ولكن موقف هؤلاء الأفراد لم يكن يمثل موقف الغالبية من أهل الكتاب في الجزيرة – ومن اليهود منهم بصفة خاصة – فقد جعل هؤلاء يشنون على الإسلام،منذ أن أحسوا خطره عليهم في المدينة،حربا خبيثة،يستخدمون فيها كل الوسائل التي حكاها القرآن عنهم في نصوص كثيرة كما أنهم في الوقت ذاته رفضوا الدخول في الإسلام طبعا وأنكروا وجحدوا ما في كتبهم من البشارة بالرسول – ﷺ – – ومن تصديق القرآن لما بين أيديهم من بقايا كتبهم الحقة،مما كان أولئك الأفراد الطيبون يعترفون به ويقرونه ويجاهرون به في وجه المنكرين الجاحدين! ..كذلك أخذ القرآن يتنزل بوصف هذا الجحود وتسجيله وبتقرير ما عليه أهل الكتاب هؤلاء من الانحراف والفساد والبطلان في شتى السور المدنية ..على أن القرآن المكي لم يخل من تقريرات عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب.نذكر من ذلك:

«وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ:قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ،وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ،فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ،هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ.فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ،فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ» ..(الزخرف:٦٣ – ٦٥) «وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا

مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ – بَغْياً بَيْنَهُمْ» ...«وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ،وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ» ...(الشورى:١٤).
«وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ:اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ،وَقُولُوا:حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ.فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ،فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ.وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ،إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ،كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» ...(الأعراف:١٦١ – ١٦٣).
«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ،إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» ...(الأعراف:١٦٧).
«فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ:سَيُغْفَرُ لَنا،وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ.أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ،وَدَرَسُوا ما فِيهِ؟ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ،أَفَلا تَعْقِلُونَ؟ » ...(الأعراف:١٦٩).
أما القرآن المدني فقد تضمن الكلمة الأخيرة في حقيقة ما عليه أهل الكتاب كما حكى عنهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق في حرب هذا الدين وأهله في قطاعات طويلة من سور البقرة،وآل عمران،والنساء،والمائدة،وغيرها.قبل أن يقرر الكلمة النهائية في أمرهم كله في سورة التوبة.وسنكتفي هنا بنماذج محدودة من هذه التقريرات القرآنية الكثيرة:
«أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ،وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ،ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟ وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا:آمَنَّا.وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا:أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ؟ أَفَلا تَعْقِلُونَ؟ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ؟ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ،وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ.فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ:هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا،فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ،وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» ...(البقرة:٧٥ – ٧٩).
«وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ،وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ،وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ،أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ،فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً

تَقْتُلُونَ؟ وَقالُوا:قُلُوبُنا غُلْفٌ.بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ.وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ،وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا،فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ،فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ.بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ – بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ – فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ،وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ.وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ،قالُوا:نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا،وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ.قُلْ:فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ! » ...(البقرة:٨٧ – ٩١).

«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ؟ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ.قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ؟ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» ...(آل عمران:٩٨ – ٩٩).

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ،وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا؟ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ،وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً» ...(النساء:٥١ – ٥٢).

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا:إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ.وَقالَ الْمَسِيحُ:يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ،إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ،وَمَأْواهُ النَّارُ،وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ.لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا:إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ،وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ،وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ،وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ،كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ.انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ،ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ! » ...(المائدة:٧٢ – ٧٥).

من مراجعة هذه النصوص القرآنية وأمثالها – وهو كثير في القرآن المكي والمدني على السواء – يتبين أن النظرة إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من الانحراف عن دين الله الصحيح لم يتغير فيها شيء في التقريرات الأخيرة الواردة في السورة الأخيرة.وأن وصمهم بالانحراف والفسوق والشرك والكفر ليس جديدا،ولا يعبر عن اتجاه جديد فيما يختص بحقيقة الاعتقاد ..وذلك مع

ملاحظة أن القرآن الكريم ظل يسجل للفريق المهتدي الصالح من أهل الكتاب هداه وصلاحه.فقال تعالى منصفا للصالحين منهم:

«وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» ...(الأعراف:١٥٩).

«وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ،وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً،ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا:لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ،وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» ...(آل عمران:٧٥).

«ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ،وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ،وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ،ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ،وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ،ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ.لَيْسُوا سَواءً:مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ.يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ،وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» ...(آل عمران:١١٢ - ١١٥).

أما الذي وقع فيه التعديل فعلا فهو أحكام التعامل مع أهل الكتاب.فترة بعد فترة.ومرحلة بعد مرحلة.

وواقعة بعد واقعة.وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين في مواجهة أحوال أهل الكتاب وتصرفاهم ومواقفهم مع المسلمين.

ولقد جاء زمان كان يقال فيه للمسلمين:

«وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ - وَقُولُوا:آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ،وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ،وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» ...(العنكبوت:٤٦).

«قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ،وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ،لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ،وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا،وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ،فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ،وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ...(البقرة:١٣٦ - ١٣٧).

«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ:أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً،وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ.فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا:اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» ...(آل عمران:٦٤).

«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ،فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ،إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ...(البقرة:١٠٩).

ثم أتى الله بأمره الذي وكل المؤمنين إليه فوقعت أحداث،وتعدلت أحكام،وجرى المنهج الحركي الواقعي الإيجابي في طريقه حتى كانت هذه الأحكام النهائية الأخيرة،في هذه السورة،على النحو الذي رأينا ..

إنه لم يتغير شيء في نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من فساد العقيدة ومن الشرك بالله والكفر بآياته ..إنما الذي تغير هو قاعدة التعامل ..وهذه إنما تحكمها تلك الأصول التي أسلفنا الحديث عنها في مطلع هذا الفصل التمهيدي لهذا المقطع من سياق السورة،في هذه الفقرات:

«وهذا التعديل الأخير في قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته،إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية.ثم لطبيعة المنهج الحركي الإسلامي ومراحله المتعددة،ووسائله المتجددة،المكافئة للواقع البشري المتغير،من الناحية الأخرى ...إلخ».

والآن نأخذ في شيء من استعراض طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم سواء من الناحية الموضوعية الثابتة،أو من ناحية المواقف التاريخية الواقعة ...فهذه هي العناصر الرئيسية التي انتهت إلى هذه الأحكام النهائية.

إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها

أولا:في تقريرات الله - سبحانه - عنها،باعتبار أن هذه هي الحقيقة النهائية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وباعتبار أن هذه التقريرات - بسبب كونها ربانية - لا تتعرض لمثل ما تتعرض له الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء ..

وثانيا:في المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات الله سبحانه!

إن الله سبحانه يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين في عدة مواضع من كتابه الكريم ..وهو تارة يتحدث عنهم - سبحانه - وحدهم،وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين باعتبار أن هنالك وحدة هدف - تجاه الإسلام والمسلمين - تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين.

وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركي لمواجهة الإسلام والمسلمين ..والنصوص التي تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق ..وهذه نماذج منها ..

«ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» ...(البقرة:١٠٥).

«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ،مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» ...(البقرة:١٠٩).

«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ...(البقرة:١٢٠).

«وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ» ...(آل عمران:٦٩).

«وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ:آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ،وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» ...(آل عمران:٧٢ - ٧٣).

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ» ...(آل عمران:١٠٠) ...

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ ...» ...(النساء:٤٤ - ٤٥).

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ،وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» ...(النساء:٥١).

وفي هذه النماذج وحدها ما يكفي لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين ...فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.وهم

يحددون موقفهم النهائي من المسلمين بالإصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى،ولا يرضون عنهم ولا يسالمونهم إلا أن يتحقق هذا الهدف،فيترك المسلمون عقيدتهم نهائيا.وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين! ...إلخ.

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها الله – سبحانه – في قوله تعالى:

«وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ...(البقرة:٢١٧).

«وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً» ...(النساء:١٠٢).

«إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» ...(الممتحنة:٢).

«وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» ...(التوبة:٨).

«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» ...(التوبة:١٠).

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين،وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين،هي بعينها – وتكاد تكون بألفاظها – هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك ..مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين.

وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد في صيغ نهائية،تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة،لا على وصف حالة مؤقتة،كقوله تعالى في شأن المشركين:«وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ..

وقوله تعالى في شأن أهل الكتاب:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..

إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى أي تأويل للنصوص،أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة! فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخي لهذه العلاقات،متمثلة في مواقف أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – من الإسلام

وأهله،على مدار التاريخ،تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة،و لم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة.
إننا إذا استثنينا حالات فردية - أو حالات جماعات قليلة - من التي تحدث القرآن عنها وحواها الواقع التاريخي بدت فيها الموادة للإسلام والمسلمين والاقتناع بصدق رسول الله - ﷺ - وصدق هذا الدين.ثم الدخول فيه والانضمام لجماعة المسلمين ..وهي الحالات التي أشرنا إليها فيما تقدم ..فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة،إلا تاريخا من العداء العنيد،والكيد الناصب،والحرب الدائبة،التي لم تفتر على مدار التاريخ ..
فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة! وليست هذه الظلال مجالا لعرض هذا التاريخ الطويل.ولكننا سنشير فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ ..
لقد استقبل اليهود رسول الله - ﷺ - ودينه في المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوي رسولا يعرفون صدقه،ودينا يعرفون أنه الحق ..
استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن يلقونها في الصف المسلم في المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود ..شككوا في رسالة رسول الله - ﷺ - وهم يعرفونه واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشبهات التي ينشرونها في الجو وبالتهم والأكاذيب.وما فعلوه في حادث تحويل القبلة،وما فعلوه في حادث الإفك،وما فعلوه في كل مناسبة،ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم ..وفي مثل هذه الأفاعيل كان يتنزل القرآن الكريم.وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والأحزاب والتوبة وغيرها تضمنت من هذا الكثير (١):«وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ - وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا - فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ،فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ.بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ - بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ - فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ،وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ» ...(البقرة:٨٩ - ٩٠).

«وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتــابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» ...(البقرة:١٠١).
«سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ:ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها.قُلْ:لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْــرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ...(البقرة:١٤٢).
«يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُــونَ الْحَــقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ » ...(آل عمران:٧٠ – ٧١).
«وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ:آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ...(آل عمران:٧٢).
«وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ،وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّــهِ الْكَــذِبَ وَهُــمْ يَعْلَمُــونَ».(آل عمران:٧٨).
«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ؟ قُلْ يا أَهْلَ الْكِتــابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُــونَ» ...(آل عمران:٩٨ – ٩٩).
{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:١٥٣]
{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَــوْ كَــرِهَ الْكَــافِرُونَ} [التوبة:٣٢].

كذلك شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة وتحرشــهم بالمســلمين،مما أدى إلى وقائع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وخيبر.كما شهد تأليــب اليهــود للمشــركين في الأحزاب،مما هو معروف مشهور.

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ ..كانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير ..

وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي – رضي الله عنه – ومعاوية ..وقادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير ..وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية ..

فأما في التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي وهم حماة كل وضع من الأوضاع التي تتولى هذه المحاولة في كل أرجاء العالم الإسلامي! ذلك شأن اليهود،فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب،فهو لا يقل إصرارا على العداوة والحرب من شأن اليهود! لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون ..ولكن ما إن ظهر الإسلام في الجزيرة وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هي بأيديها وسمته «المسيحية» وهو ركام من الوثنيات القديمة،والأضاليل الكنسية،متلبسا ببقايا من كلمات المسيح – عليه السلام – وتاريخه..حتى رأينا الرومان والفرس ينسون ما بينهم من نزاعات تاريخية قديمة وعداوات وثارات عميقة،ليواجهوا هذا الدين الجديد.

ولقد أخذ الروم يتجمعون في الشمال هم وعمالهم من الغساسنة لينقضوا على هذا الدين.وذلك بعد أن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله – ﷺ – إلى عامل بصرى من قبل الروم – وكان المسلمون يؤمنون الرسل ولكن النصارى غدروا برسول النبي – ﷺ – وقتلوه – مما جعل رسول الله – ﷺ – يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة:زيد بن حارثة،وجعفر بن أبي طالب،وعبد الله بن رواحة في غزوة «مؤتة» فوجدوا تجمعا للروم تقول الروايات عنه:إنه مائة ألف من الروم ومعه من عملائهم في الشام من القبائل العربية النصرانية مائة ألف أخرى وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل.وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ثم كانت غزوة تبوك التي يدور عليها معظم هذه السورة ثم كان جيش أسامة بن زيد الـــذي أعده رسول الله – ﷺ – قبيل وفاته ثم أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر – رضي الله عنـــه – إلى أطراف الشام لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التي تستهدف القضاء على هـــذا الـــدين! ثم اشتعل مرجل الحقد الصليبي منذ موقعة اليرموك الظافرة،التي أعقبها انطلاق الإسلام لتحريـــر المستعمرات الإمبراطورية الرومانية في الشام ومصر وشمال إفريقية وجزر البحر الأبيض.ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة في الأندلس في النهاية.

إن «الحروب الصليبية» المعروفة بهذا الاسم في التاريخ،لم تكن هي وحدها التي شنتها الكنيسة على الإسلام ..لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير ..لقد بدأت في الحقيقـــة منذ ذلك التاريخ البعيد ..

منذ أن نسي الرومان عداواتهم مع الفرس وأخذ النصارى يعينون الفـــرس ضـــد الإســـلام في جنوب الجزيرة.

ثم بعد ذلك في «مؤتة».ثم فيما تلا موقعة اليرموك الظافرة ..ثم تجلت ضراوتها ووحشـــيتها في الأندلس عندما زحفت الصليبية على القاعدة الإسلامية في أوربة،وارتكبت من الوحشـــية في تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظيرا من قبل ..وكذلك تجلت في الحروب الصليبية في الشرق بمثل هذه البشاعة التي لا تتحرج ولا تتذمم ولا تراعي في المسلمين إلّا ولا ذمة.

ومما جاء في كتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون – وهو فرنسي مسيحي –:

«كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين،ثلاثة آلاف أســـير سلموا أنفسهم إليه،بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم.ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب،مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل،الذي رحم نصارى القـــدس،فلم يمســـهم بأذى،والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد،أثناء مرضهما» (١).

كذلك كتب كاتب مسيحي آخر (اسمه يورجا) (٢) يقول:«ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع،فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها.وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون،ويبحثون عن الـــدنانير في الأمعـــاء! أمـــا صـــلاح

الدين،فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين،ووفى لهم بجميع عهوده،وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم،حتى أن الملك العادل،شقيق السلطان،أطلق ألف رقيق من الأسرى،ومنّ على جميع الأرمن،وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة،وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن».

ولا يتسع المجال في الظلال لاستعراض ذلك الخط الطويل للحروب الصليبية - على مدار التاريخ - ولكن يكفي أن نقول:إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب الصليبية.ويكفي أن نذكر ماذا حدث في زنجبار حديثا.حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم،فقتل منهم اثنا عشر ألفا وألقي الأربعة الآلاف الباقون في البحر منفيين من الجزيرة! ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص،حيث منع الطعام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا جوعا وعطشا،فوق ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد!

ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في اريترية وفي قلب الحبشة،وما تزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي،ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال! ويكفي أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية في السودان الجنوبي! ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي صدر سنة ١٩٤٤ يقول فيه.

«لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة.ولكننا بعد اختبار، لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ..لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودي،والخطر الأصفر،وبالخطر البلشفي.إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه.إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا،وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا.أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها.ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام،وفي قوته على التوسع والإخضاع،وفي حيويته ..إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي (٣)».

ولا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك في استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التي أعلنتها الصليبية على الإسلام وما تزال ..وقد تحدثنا من قبل مرارا في أجزاء الظلال السابقة - بمناسبة النصوص القرآنية الكثيرة - عن طبيعة هذه المعركة،الطويلة،ومسائلها وأشكالها.فحسبنا هذه الإشارات السريعة هنا بالإحالة على بعض المراجع الأخرى القريبة (١)

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع - بالإضافة إلى ما قلناه من قبل عن طبيعة الإعـــلان الإسلامي العام بتحرير الإنسان،وتحفز الجاهلية في الأرض كلها لسحق الحركة التي تحمل هذا الإعلان العام وتنطلق به في الأرض كلها - أن هذه الأحكـــام الأخـــيرة الـــواردة في هـــذه السورة،هي المقتضى الطبيعي لهذه الحقائق كلها مجتمعة وأنها ليست أحكاما محددة بزمـــان،ولا مقيدة بحالة.وإن كان هذا في الوقت ذاته لا ينسخ الأحكام المرحلية السابقة النسخ الشـــرعي الذي يمنع العمل بها في الظروف والملابسات التي تشابه الظروف والملابســـات الـــتي تترلـــت فيها.فهناك دائما طبيعة المنهج الإسلامي الحركية،التي تواجـــه الواقـــع البشـــري مواجهـــة واقعية،بوسائل متجددة،في المراحل المتعددة.

وحقيقة أن هذه الأحكام النهائية الواردة في هذه السورة كانت تواجه حالة بعينها في الجزيرة وكانت تمهيدا تشريعيا للحركة المتمثلة في غزوة تبوك،لمواجهة تجمع الروم على أطراف الجزيرة مع عمالهم للانقضاض على الإسلام وأهله - وهي الغزوة التي يقوم عليها محـــور الســـورة - ولكن وضع أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله لم يكن وليد مرحلة تاريخية معينة.إنما كان وليـــد حقيقة دائمة مستقرة كما أن حربهم للإسلام والمسلمين لم تكن وليدة فترة تاريخية معينة.فهي ما تزال معلنة ولن تزال ..إلا أن يرتد المسلمون عن دينهم تماما! ..

وهي معلنة بضراوة وإصرار وعناد،بشتى الوسائل على مدار التاريخ! ومن ثم فهذه الأحكـــام الواردة في هذه السورة أحكام أصيلة وشاملة وغير موقوتة بزمان ولا مقيدة بمكان ..ولكـــن العمل بالأحكام إنما يتم في اطار المنهج الحركي الإسلامي،الذي يجب أن يتم الفقه بـــه،قبل أن يتحدث المتحدثون عن الأحكام في ذاتها.

وقبل أن يحمل واقع ذراري المسلمين - الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان - وضـــعفهم وانكسارهم على دين الله القوي المتين! إن الأحكام الفقهية في الإسلام كانت - وستظل دائما - وليدة الحركة وفق المنهج الإسلامي.والنصوص لا يمكن فهمها إلا باستصحاب هذه الحقيقة ..وفرق بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب في فراغ والنصوص في صـــورتها الحركيـــة وفق المنهج الإسلامي.ولا بد من هذا القيد:«الحركة وفق المنهج الإسلامي» فليســـت هـــي الحركة المطلقة خارج المنهج بحيث نعتبر «الواقع البشري» هو الأصل أيا كانت الحركة الـــتي

أنشأته،ولكن «الواقع البشري» يصبح عنصرا أساسيا في فقه الأحكام إذا كان قد أنشأه المنهج الإسلامي ذاته.

وفي ظل هذه القاعدة تسهل رؤية تلك الأحكام النهائية في العلاقات بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم وهي تتحرك الحركة الحية في مجالها الواقعي وفق ذلك المنهج الحركي الواقعي الإيجابي الشامل.[٢٤٢٦]

وهذه الآية - والآيات التالية لها في السياق - كانت تمهيدا لغزوة تبوك ومواجهة الروم وعمالهم من الغساسنة المسيحيين العرب ..وذلك يلهم أن الأوصاف الواردة فيها هي صفات قائمة بالقوم الموجهة إليهم الغزوة وأنها إثبات حالة واقعة بصفاتها القائمة.وهذا ما يلهمه السياق القرآني في مثل هذه المواضع ..فهذه الصفات القائمة لم تذكر هنا على أنها شروط لقتال أهل الكتاب إنما ذكرت على أنها أمور واقعة في عقيدة هؤلاء الأقوام وواقعهم وأنها مبررات ودوافع للأمر بقتالهم.ومثلهم في هذا الحكم كل من تكون عقيدته وواقعه كعقيدتهم وواقعهم ..

وقد حدد السياق من هذه الصفات القائمة:

أولا:أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ثانيا:أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

ثالثا:أنهم لا يدينون دين الحق.

ثم بين في الآيات التالية كيف أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر،ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق.وذلك بأنهم:

أولا:قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وأن هذا القول يضاهئ قول الذين كفروا من قبلهم من الوثنيين.فهم مثلهم في هذا الاعتقاد الذي لا يعد صاحبه مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر.

[٢٤٢٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢١٩٩)

(وسنين بالضبط كيف أنه لا يؤمن باليوم الآخر)،ثانيا:اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله،والمسيح ابن مريم.وأن هذا مخالف لدين الحق ..وهو الدينونة لله وحده بلا شركاء ..فهم بهذا مشركون لا يدينون دين الحق ..

ثالثا:يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.فهم محاربون لدين الله.ولا يحارب دين الله مؤمن بالله واليوم الآخر يدين دين الحق أبدا.

رابعا:يأكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل.فهم إذن لا يحرمون ما حرم الله ورسوله (سواء كان المقصود برسوله رسولهم أو محمد - ﷺ -):

وهذه الصفات كلها كانت واقعة بالقياس إلى نصارى الشام والروم.كما أنها واقعة بالقياس إلى غيرهم منذ أن حرفت المجامع المقدسة دين المسيح عليه السلام وقالت ببنوة عيسى عليه السلام،وبتثليث الأقانيم - على كل ما بين المذاهب والفرق من خلاف يلتقي كله على التثليث! - على مدار التاريخ حتى الآن! وإذن فهو أمر عام،يقرر قاعدة مطلقة في التعامل مع أهل الكتاب،الذين تنطبق عليهم هذه الصفات التي كانت قائمة في نصارى العرب ونصارى الروم ..ولا يمنع من هذا العموم أن الأوامر النبوية استثنت أفرادا وطوائف بأعيانها لتترك بلا قتال كالأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الأديرة ...بوصفهم غير محاربين - فقد منع الإسلام أن يقاتل غير المحاربين من أية ملة - وهؤلاء لم تستثنهم الأوامر النبوية لأنهم لم يقع منهم اعتداء بالفعل على المسلمين.ولكن لأنه ليس من شأنهم أصلا أن يقع منهم الاعتداء.فلا محل لتقييد هذا الأمر العام بأن المقصود به هم الذين وقع منهم اعتداء فعلا - كما يقول المهزومون الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام الاتهام! - فالاعتداء قائم ابتداء.الاعتداء على ألوهية الله! والاعتداء على العباد بتعبيدهم لغير الله! والإسلام حين ينطلق للدفاع عن ألوهية الله - سبحانه - والدفاع عن كرامة الإنسان في الأرض،لا بد أن تواجهه الجاهلية بالمقاومة والحرب والعداء ..ولا مفر من مواجهة طبائع الأشياء!

إن هذه الآية تأمر المسلمين بقتال أهل الكتاب «الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» ..والذي يقول ببنوة عزير لله أو بنوة المسيح لله لا يمكن أن يقال عنه:إنه يؤمن بالله.وكذلك

الذي يقول:إن الله هو المسيح ابن مريم.أو إن الله ثالث ثلاثة.أو إن الله تجسد في المسيح ...إلى آخر التصورات الكنسية التي صاغتها المجامع المقدسة على كل ما بينها من خلاف! ..والـذين يقولون:إنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودات مهما ارتكبوا من آثام بسبب أنهـم أبنـاء الله وأحباؤه وشعب الله المختار،والذين يقولون:إن كل معصية تغفر بالاتحـاد بالمسـيح وتنـاول العشاء المقدس وأنه لا مغفرة إلا عن هذا الطريق! هؤلاء وهؤلاء لا يقال:إنهم يؤمنون بـاليوم الآخر ..

وهذه الآية تصف أهل الكتاب هؤلاء بأنهم «لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».وسواء كـان المقصود بكلمة «رسوله» هو رسولهم الذي أرسل إليهم،أو هـو الـنبي - ﷺ - فـالفحوى واحدة.ذلك أن الآيات التالية فسرت هذا بأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل.وأكـل أمـوال الناس بالباطل محرم في كل رسالة وعلى يد كل رسول ..وأقرب النماذج لأكل أموال النـاس بالباطل هو المعاملات الربوية.وهو ما يأخذه رجال الكنيسة مقابل «صك الغفـران»! وهـو الصد عن دين الله والوقوف في وجهه بالقوة وفتنة المؤمنين عن دينهم.وهو تعبيد العباد لغير الله وإخضاعهم لأحكام وشرائع لم يترلها الله ..فهذا كله ينطبق عليه:«وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ» ..وهذا كله قائم في أهل الكتاب،كما كان قائما يومذاك! كذلك تصـفهم الآيـة بأنهم «لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» ..وهذا واضح مما سبق بيانه.فليس بدين الحق أي اعتقاد بربوبية أحد مع الله.كما أنه ليس بدين الحق التعامل بشريعة غير شريعة الله،وتلقي الأحكام من غـير الله،والدينونة لسلطان غير سلطان الله.وهذا كله قائم في أهل الكتاب،كما كان قائما فـيهم يومذاك ..

والشرط الذي يشترطه النص للكف عن قتالهم ليس أن يسلموا ..فلا إكراه في الدين.ولكن أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ..فما حكمة هذا الشرط،ولماذا كانت هذه هي الغاية التي ينتهي عندها القتال؟

إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقادا وسلوكا كما أنهم حـرب علـى المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله ومنهج الجاهلية الممثلة في عقيدة أهل الكتاب وواقعهم - وفق ما تصوره هذه الآيات - كما أن الواقع التـاريخي قـد

أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم وعدم إمكان التعايش بين المنهجين وذلك بوقوف أهل الكتاب في وجه دين الله فعلا،وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية (وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضا!).

والإسلام – بوصفه دين الحق الوحيد القائم في الأرض – لا بد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار،بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك.

وإذن فإن الوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية،وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام في الوقت نفسه،هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق حتى تستسلم وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلا.

وعندئذ تتم عملية التحرير فعلا،بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع.فإن لم يقتنع بقي على عقيدته،وأعطى الجزية.لتحقيق عدة أهداف:

أولها:أن يعلن بإعطائها استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الله الحق.

وثانيها:أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة (الذين يؤدون الجزية فيصبحون في ذمة المسلمين وضمانتهم) ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

وثالثها:المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل،بما في ذلك أهل الذمة،بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعي الزكاة.

ولا نحب أن نستطرد هنا إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم.ولا عن مقادير هذه الجزية.ولا عن طريق ربطها ومواضع هذا الربط ..ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم،كما كانت معروضة على عهود الفقهاء الذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم في وقتها.

إنها قضية تعتبر اليوم «تاريخية» وليست «واقعية» ..إن المسلمين اليوم لا يجاهدون! ..ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون! ..

إن قضية «وجود» الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج! والمنهج الإسلامي – كما قلنا من قبل مرارا – منهج واقعي جاد يأبى أن يناقش القضايا المعلقة في الفضاء ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تطبق في عالم الواقع – لأن الواقع لا يضم مجتمعا مسلما تحكمه شريعة الله،ويصرّف حياته الفقه الإسلامي – ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذه المباحث في أقضية لا وجود لها بالفعل ويسميهم «الأرأيتيين» الذين يقولون:«أرأيت لو أن كذا وقع فما هو الحكم؟ » إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام ..أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا إله إلا الله،وأن محمدا رسول الله ..ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة ..ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان ..ويومئذ – ويومئذ فقط – سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية في مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات ..ويومئذ – ويومئذ فقط – يجوز الدخول في تلك المباحث الفقهية،والاشتغال بصياغة الأحكام،والتقنين للحالات الواقعة التي يواجهها الإسلام بالفعل،لا في عالم النظريات! وإذا كنا قد تعرضنا لتفسير هذه الآية – من ناحية الأصل والمبدأ – فإنما فعلنا هذا لأنها تتعلق بمسألة اعتقادية وترتبط بطبيعة المنهج الإسلامي.وعند هذا الحد نقف،فلا نتطرق وراءه إلى المباحث الفقهية الفرعية احتراما لجدية المنهج الإسلامي وواقعيته وترفعه على هذا الهزال![٢٤٢٧]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ،وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ،وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» رواه البخاري ومسلم[٢٤٢٨].

[٢٤٢٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٢١٢)

[٢٤٢٨] – صحيح البخاري (١/ ١٤)(٢٥) وصحيح مسلم (١/ ٥٣)(٣٦ – (٢٢)

[ش (أقاتل الناس) أي بعد عرض الإسلام عليهم.(يشهدوا) يعترفوا بكلمة التوحيد أي يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى.(عصموا) حفظوا وحقنوا والعصمة الحفظ والمنع.(إلا بحق الإسلام) أي إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا.(وحسابهم على الله) أي فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا،وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا،وَصَلُّوا صَلَاتَنَا،فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ،لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ»[2429]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي،وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي،وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ " رواه أحمد[2430]،وغيرها من الأحاديث

وقد أجمع علماء الأمة على جهاد الطلب،وهو من أظهر الإجماعات وأبينها.

فقد تواترت على جهاد الطلب نصوص الكتاب والسنة ودلت عليه غزوات النبي ﷺ وسيرته،كما دلت عليه أقوال الصحابة رضي الله عنهم وتابعيهم وجهادهم وفتوحاتهم،ومضى على هذا من اتبعهم بإحسان إلى يومنا هذا،فمن تدبر أقوال الصحابة رضي الله عنهم وتابعيهم،وغزواتهم وفتوحاتهم،،وتدبر آثار فتوحاتهم التي لا تزال باقية وشاهدة إلى اليوم،ودخول الناس في دين الله أفواجا من أطراف الصين إلى المغرب،حصل له بمجموع ذلك علم ضروري أن هذا الإجماع من أبين الإجماعات وأظهرها،قال ابن النحاس رحمه الله:"اعلم أن جهاد الكفار في بلادهم فرض كفاية باتفاق العلماء.وحكي عن ابن المسيب وابن شبرمة أنه فرض عين"[2431]

قلت :الْقصْدُ من الْجهادِ دعْوةُ غيْرِ الْمُسْلمِين إلى الإسْلامِ،أوِ الدُّخُول فِي ذِمّةِ الْمُسْلمِين ودفْعِ الْجزْيةِ،وجريانُ أحْكامِ الإسْلامِ عليْهِمْ،وبِذلِك ينْتهِي تعرُّضُهُمْ للْمُسْلمِين،واعْتداؤُهُمْ على بِلادِهِمْ،ووُقُوفُهُمْ فِي طرِيقِ نشْرِ الدّعْوةِ الإسْلامِيّةِ،وينْقطِعُ دابِرُ الْفسادِ،قال تعالى:{وقاتِلُوهُمْ حتّى لا تكُون فِتْنةٌ ويكُون الدِّينُ لِلّهِ فإِنِ انْتهوْا فلا عُدْوان إِلّا على الظّالِمِين} [البقرة:١٩٣].

[2429] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٣/ ٢١٥)(٥٨٩٥) صحيح

[2430] - مسند أحمد ط الرسالة (٩/ ١٢٦)(٥١١٥) صحيح لغيره

[2431] - مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق (١/ ٣٨)

وقال عزّ وجل:{هُو الّذي أرْسل رسُولهُ بِالْهُدى ودِينِ الْحقِّ لِيُظْهِرهُ على الدِّينِ كُلِّهِ ولوْ كرِه الْمُشْرِكُون} [التوبة:٣٣].

وقدْ مضتْ سُنّةُ رسُول اللّه – ﷺ – وسِيرتُهُ،وسِيرةُ الْخُلفاءِ الرّاشِدِين مِنْ بعْدِه على جِهادِ الْكُفّارِ،وتخْيِيرِهِمْ بيْن ثلاثةِ أُمُورٍ مُرتّبةٍ وهِي:قبُول الدُّخُول فِي الإِسْلامِ،أوِ الْبقاءُ على دِينِهِمْ مع أداءِ الْجِزْيةِ،وعقْدُ الذِّمّةِ.فإِنْ لمْ يقْبلُوا،فالْقِتال.ولا ينْطبِقُ هذا على مُشْرِكِي الْعربِ[2432].

وهذا الجهاد فرض كفاية،إن قام به من تحصل بهم مقاصد هذا النوع،سقط التكليف به عن سائر أهل الإسلام،وإن لم يقم به أحد،أثموا جميعا،وسلّط الله عليهم الهوان،وعوقبوا بزوال النعم،وحلول النقم،وظهور الأعداء،وذهاب ما هم فيه من العزِّ،عياذا بالله تعالى.[2433]

وهدف هذا النوع هو:قتالُ من يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله تعالى،وهذا التعريف أوضح وأبين وأدل على مقصود جهاد الطلب،من قول من عرفه بأنه قتال من يمنع انتشار الدعوة الإسلامية.

ذلك أن الله تعالى شرع الجهاد لتكون كلمة الله تعالى هي العليا في الأرض كلها كما قال تعالى:{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٣٩) سورة الأنفال،وبتعبير عصري:يكون النظام الدولي خاضعا لشريعة الله تعالى،بمعنى أن يكون لدين الإسلام اليدُ العليا على العالم أجمع،وإنما يكون ذلك،إذا كانت دولة الإسلام هي الظاهرة في الأرض على سواها،وشأنها هو الأعلى على كلِّ ما عداها،هذا هو مقصد جهاد الطلب قال تعالى:{ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (١٣٩) سورة آل عمران.

فمن قاتلنا ليمنعنا من تحقيق هذا المقصد الإلهي،قاتلناه،وذلك في الأرض كلها.

والدليل على هذا الحكم الإلهي:قوله تعالى:{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٣٩) سورة الأنفال،وقوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

[2432] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٢)

[2433] – المفصل في فقه الجهاد – ط٢ (ص:١٤٢٥)

آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (١٢٣) سورة التوبة.

كما يدلُّ عليه الإجماعُ القديم،فقد عمل الصحابة رضي الله عنهم بهذه الآية،فقاتلوا من يليهم من الكفار حتى بلغوا أقاصي الأرض،فلم يذروهم حتى يسلموا أو يؤتواالجزية،وإنما هي — أعني الجزية — تعبيرٌ عن الإقرار منهم بعلو كلمة الإسلام عليهم،وظهور شريعة الله تعالى على دولتهم،وبهذا تذلُّ راية الكفر ويكون شأنها خاسرا،وينقلبُ دين الشيطان صاغرا،وتنجو البشريةُ من كيد إبليس الرجيم،وتنعم بالهدى والرحمة في ظلال هذا الدين القويم.

ومما يدلُّ على ذلك أيضا ما روي عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[٢٤٣٤]

[٢٤٣٤] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧) ٣ – (١٧٣١)

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ - رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْه - لَمَّا بَعَثَ الْجُيُوشَ نَحْوَ الشَّامِ،يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ،فَلَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ - رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْه مَعَهُمْ يُوَدِّعُهُمْ،حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَا ع،ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ يَقُولُ:عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّه،اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّه،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّه،فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ بِه،فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ - فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاث خِصَال،فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمُ ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ فَعَلُوا فَاخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا عَلَيْهِمْ،فَإِنِ اخْتَارُوادَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمُ حُكْمُ اللَّه الَّذِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَلَا فِي الْغَنِيمَة شَيْءٌ،حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَام،فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَة،فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ،وَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّه عَلَيْهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ -.[٢٤٣٥]

ومما ينبغي التنبيه عليه،أنَّ هذا النوع لا يسقط إنْ رفضَ الحاكمُ نصبَ رايته،بل هو شريعةٌ ماضيةٌ إلى يوم القيامة،عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»،غير أنه يسقطُ في حالة العجز فقط،لقوله تعالى:{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا..} (٢٨٦) سورة البقرة.[٢٤٣٦]

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا

(في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا (ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة (ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل(ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ(ذمة الله) الذمة هنا العهد(أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

[٢٤٣٥] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٧٨) (٧٥٩) صحيح لغيره

[٢٤٣٦] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٧٠) (٣٨١) صحيح لغيره

ويجبُ على المسلمين أن يعدُّوا العدة للقيام بهذا الواجب،ويرفعوا عنهم حالة العجز عن القيام به،فإنْ فرَّطوا في ذلك أثموا جميعا،لأنَّ في تفريطهم إعانةً منهم على سقوط هيبة دينهم،وغلبة الكفار عليهم.

قال في مغني المحتاج:(وَأَمَّا بَعْدَهُ) - ﷺ - (فَلِلْكُفَّارِ حَالَانِ:أَحَدُهُمَا يَكُونُونَ بِبِلَادِهِمْ) مُسْتَقِرِّينَ بِهَا غَيْرَ قَاصِدِينَ شَيْئًا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ (فَفَرْضُ كِفَايَةٍ) كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَرُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ،وَحَكَى الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ فِيهِ الْإِجْمَاعَ"[٢٤٣٧]

وقال ابن قدامة في المغني:(وَالْجِهَادُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،إذَا قَامَ بِهِ قَوْمٌ،سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ) مَعْنَى فَرْضِ الْكِفَايَةِ،الَّذِي إنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ مَنْ يَكْفِي،أَثِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ،وَإِنْ قَامَ بِهِ مَنْ يَكْفِي،سَقَطَ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ.

فَالْخِطَابُ فِي ابْتِدَائِهِ يَتَنَاوَلُ الْجَمِيعَ،كَفَرْضِ الْأَعْيَانِ،ثُمَّ يَخْتَلِفَانِ فِي أَنَّ فَرْضَ الْكِفَايَةِ يَسْقُطُ بِفِعْلِ بَعْضِ النَّاسِ لَهُ،وَفَرْضُ الْأَعْيَانِ لَا يَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ بِفِعْلِ غَيْرِهِ وَالْجِهَادُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ،فِي قَوْلِ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ.وَحُكِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّهُ مِنْ فُرُوضِ الْأَعْيَانِ؛لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة:٤١] ثُمَّ قَالَ:{إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [التوبة:٣٩].وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} [البقرة:٢١٦] وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ،وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ،مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[٢٤٣٨].

وَلَنَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:{لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [النساء:٩٥].

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَاعِدِينَ غَيْرُ آثِمِينَ مَعَ جِهَادِ غَيْرِهِمْ،وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا} [التوبة:١٢٢] وَلِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ يَبْعَثُ السَّرَايَا،وَيُقِيمُ هُوَ وَسَائِرُ أَصْحَابِهِ.فَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا،فَقَدْ جاء عَنِ

[٢٤٣٧] - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٨)

[٢٤٣٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧) ١٥٨ - (١٩١٠)

ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:" {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [التوبة:٣٩] وَ {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ} [التوبة:١٢٠]،إِلَى قَوْلِه:{يَعْمَلُونَ} [التوبة:١٢١] نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي تَلِيهَا:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [التوبة:١٢٢] "[٢٤٣٩].

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ حِينَ اسْتَنْفَرَهُمْ النَّبِيُّ - ﷺ - إلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ،وَكَانَتْ إجَابَتُهُمْ إلَى ذَلِكَ وَاجِبَةً عَلَيْهِمْ،وَلِذَلِكَ هَجَرَ النَّبِيُّ - ﷺ - كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَأَصْحَابَهُ الَّذِينَ خُلِّفُوا،حَتَّى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ،وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى مَنْ اسْتَنْفَرَهُ الْإِمَامُ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ،وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا».مُتَّفَقٌ عَلَيْه[٢٤٤٠].وَمَعْنَى الْكِفَايَةِ فِي الْجِهَادِ أَنْ يَنْهَضَ لِلْجِهَادِ قَوْمٌ يَكْفُونَ فِي قِتَالِهِمْ؛إمَّا أَنْ يَكُونُوا جُنْدًا لَهُمْ دَوَاوِينُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ،أَوْ يَكُونُوا قَدْ أَعَدُّوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ تَبَرُّعًا بِحَيْثُ إذَا قَصَدَهُمْ الْعَدُوُّ حَصَلَتْ الْمَنَعَةُ بِهِمْ،وَيَكُونُ فِي الثُّغُورِ مَنْ يَدْفَعُ الْعَدُوَّ عَنْهَا،وَيُبْعَثُ فِي كُلِّ سَنَةٍ جَيْشٌ يُغِيرُونَ عَلَى الْعَدُوِّ فِي بِلَادِهِمْ.[٢٤٤١]

وقال الشوكاني:(أما غزو الكفار ومناجزة أهل الكفر وحملهم على الإسلام أو تسليم الجزية أو القتل فهو معلوم من الضرورة الدينية ولأجله بعث الله رسله وأنزل كتبه ومازال رسول الله ﷺ منذ بعثه الله سبحانه إلى أن قبضه إليه جاعلا لهذا الأمر من أعظم مقاصده ومن أهم شئونه وأدلة الكتاب والسنة في هذا لا يتسع لها المقام ولا لبعضها وما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق المسلمين بما ورد من إيجاب المقاتلة لهم على كل حال مع ظهور القدرة عليهم والتمكن من حربهم وقصدهم إلى ديارهم.)[٢٤٤٢]

[٢٤٣٩] - سنن أبي داود (٣/ ١١) (٢٥٠٥) صحيح

[٢٤٤٠] - صحيح البخاري (٤/ ١٥) (٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٧)٨٥ - (١٣٥٣)

[ش (لا هجرة) من مكة أو غيرها من البلدان التي يستطيع فيها إقامة شعائر الدين.(الفتح) فتح مكة (وإذا استنفرتم فانفروا) معناه إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فاخرجوا وهذا دليل على أن الجهاد ليس فرض عين بل فرض كفاية إذا فعله من تحصل بهم الكفاية سقط الحرض عن الباقين وإن تركوه كلهم أثموا كلهم]

[٢٤٤١] - الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٣٦٤) والمغني لابن قدامة (٩/ ١٩٦)

[٢٤٤٢] - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص:٩٤٥)

وعامةُ العلماء على أن هذا الواجب يتحقق بأن يغزوَ المسلمون الكفار في عقر دارهم مـــرة في العام على الأقل،قال في مغني المحتاج:"أَقَلُّ الْجِهَاد مَرَّةٌ فِي السَّـــنَة كَإِحْيَـــاء الْكَعْبَة،وَلقَوْلـــه تَعَالَى:{أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} [التوبة:١٢٦] قَالَ مُجَاهدٌ:نَزَلَتْ فِي الْجِهَاد وَلفعْله – ﷺ – مُنْذُ أُمرَ به،وَلأَنَّ الْجزْيَةَ تَجبُ بَدَلًا عَنْهُ وَهيَ وَاجبَةٌ فِي كُلِّ سَـــنَة فَكَذَا بَدَلُهَا،وَلأَنَّهُ فَرْضٌ يَتَكَرَّرُ،وَأَقَلُّ مَا وَجَبَ الْمُتَكَرِّرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ كَالزَّكَاة وَالصَّوْم.فَإِنْ زَادَ عَلَى مَرَّة فَهُوَ أَفْضَلُ،وَيَحْصُلُ فَرْضُ الْكفَايَة بأَنْ يَشْحَنَ الْإِمَامُ الثُّغُورَ بمُكَافئينَ للْكُفَّـــار مَـــعَ إحْكَام الْحُصُون وَالْخَنَادق وَتَقْليد الْأُمَرَاء،أَوْ بأَنْ يَدْخُلَ الْإِمَامُ أَوْ نَائبُهُ دَارَ الْكُفْـــر بـــالْجُيُوش لقتَالهمْ،وَوُجُوبُ الْجهَاد وُجُوبُ الْوَسَائل لَا الْمَقَاصد،إذَا الْمَقْصُودُ بالْقتَال إنَّمَا هُوَ الْهدَايَـــةُ وَمَا سوَاهَا منْ الشَّهَادَة،وَأَمَّا قَتْلُ الْكُفَّار فَلَيْسَ بمَقْصُودٍ حَتَّى لَوْ أَمْكَنَ الْهدَايَة بإقَامَة الـــدَّليل بغَيْر جهَاد كَانَ أَوْلَى منْ الْجهَاد"[٢٤٤٣]

وقال بعض العلماء،يجبُ كلما أمكن– ذلك –،قال الحافظ ابن حجر:" وَيَتَأَدَّى فَرْض الْكفَايَة بفعْله فِي السَّنَة مَرَّة عنْد الْجُمْهُور،وَمنْ حُجَّتهمْ أَنَّ الْجزْيَة تَجب بَدَلًا عَنْهُ وَلَا تَجبُ فِي السَّنَة أَكْثَر منْ مَرَّة اتِّفَاقًا فَلْيَكُنْ بَدَلهَا كَذَلكَ،وَقيلَ يَجب كُلَّمَا أَمْكَنَ وَهُوَ قَويّ،وَالَّذي يَظْهَر أَنَّـــهُ اسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْه فِي زَمَن النَّبيّ – ﷺ – إلَى أَنْ تَكَامَلَتْ فُتُوح مُعْظَم الْبلَاد وَانْتَشَـــرَ الْإسْلَام فِي أَقْطَار الْأَرْض ثُمَّ صَارَ إلَى مَا تَقَدَّمَ ذكْره،وَالتَّحْقيق أَيْضًا أَنَّ جنْس جهَاد الْكُفَّـــار مُتَعَيِّنٌ عَلَى كُلّ مُسْلم إمَّا بيَده وَإمَّا بلسَانه وَإمَّا بمَاله وَإمَّا بقَلْبه وَاَللَّه أَعْلَم."[٢٤٤٤]

وقال الإمام النووي :" قَدْ يَكُونُ فَرْضَ كفَايَة،وَقَدْ يَتَعَيَّنُ كَمَا سَيَأْتي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.وَهَلْ كَانَ فَرْضَ كفَايَةٍ فِي عَهْد رَسُول اللَّه – ﷺ –،أَمْ فَرْضَ عَيْنٍ؟ فيه وَجْهَان،أَصَـــحُّهُمَا:فَـــرْضُ كفَايَة لقَوْله تَعَالَى:(لَا يَسْتَوي الْقَاعدُونَ) الْآيَةَ،وَأَمَّا الْيَوْمُ فَهُـــوَ ضَـــرْبَان،أَحَدُهُمَا:أَنْ يَكُـــونَ الْكُفَّارُ مُسْتَقرِّينَ فِي بُلْدَانهمْ،فَهُوَ فَرْضُ كفَايَةٍ،فَإن امْتَنَعَ الْجَميـــعُ منْـــهُ،أَثمُوا،وَهَلْ يَعُمُّهُـــمُ الْإثْمُ،أَمْ يَخْتَصُّ بالَّذين يَدْنُوَا إلَيْه؟ وَجْهَان.

[٢٤٤٣] – مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٨)

[٢٤٤٤] – فتح الباري لابن حجر – (ج ٦ / ص ٣٨)

قُلْتُ:الْأَصَحُّ أَنَّهُ يَأْثَمُ كُلُّ مَنْ لَا عُذْرَ لَهُ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُ الْأَعْذَارِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.وَاللَّهُ أَعْلَمُ[2445].

وَإِنْ قَامَ مَنْ فِيهِ كِفَايَةٌ،سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ.وَتَحْصُلُ الْكِفَايَةُ بِشَيْئَيْنِ.

أَحَدُهُمَا:أَنْ يَشْحَنَ الْإِمَامُ الثُّغُورَ بِجَمَاعَةٍ يُكَافِئُونَ مَنْ بِإِزَائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ،وَيَنْبَغِي أَنْ يَحْتَاطَ بِإِحْكَامِ الْحُصُونِ وَحَفْرِ الْخَنَادِقِ وَنَحْوِهِمَا،وَيُرَتِّبُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ أَمِيرًا كَافِيًا يُقَلِّدُهُ الْجِهَادَ وَأُمُورَ الْمُسْلِمِينَ.

الثَّانِي:أَنْ يَدْخُلَ الْإِمَامُ دَارَ الْكُفْرِ غَازِيًّا بِنَفْسِهِ،أَوْ بِجَيْشٍ يُؤَمِّرُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَصْلُحُ لِذَلِكَ،وَأَقَلُّهُ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي كُلِّ سَنَةٍ،فَإِنْ زَادَ فَهُوَ أَفْضَلُ،وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَبْدَأَ بِقِتَالِ مَنْ يَلِي دَارَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكُفَّارِ،فَإِنْ كَانَ الْخَوْفُ مِنَ الْأَبْعَدِينَ أَكْثَرَ،بَدَأَ بِهِمْ،وَلَا يَجُوزُ إِخْلَاءُ سَنَةٍ عَنْ جِهَادٍ إِلَّا لِضَرُورَةٍ،بِأَنْ يَكُونَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَفِي الْعَدُوِّ كَثْرَةٌ،وَيَخَافُ مِنَ ابْتِدَائِهِمُ الِاسْتِئْصَالَ،أَوْ لِعُذْرٍ بِأَنْ يَعِزَّ الزَّادُ وَعَلْفُ الدَّوَابِّ فِي الطَّرِيقِ،فَيُؤَخِّرُ إِلَى زَوَالِ ذَلِكَ،أَوْ يَنْتَظِرُ لِحَاقَ مَدَدٍ،أَوْ يَتَوَقَّعُ إِسْلَامَ قَوْمٍ،فَيَسْتَمِيلُهُمْ بِتَرْكِ الْقِتَالِ،هَذَا مَا نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ،وَجَرَى عَلَيْهِ الْأَصْحَابُ – رَحِمَهُمُ اللَّهُ – وَقَالَ الْإِمَامُ:الْمُخْتَارُ عِنْدِي فِي هَذَا مَسْلَكُ الْأُصُولِيِّينَ،فَإِنَّهُمْ قَالُوا:الْجِهَادُ دَعْوَةٌ قَهْرِيَّةٌ،فَيَجِبُ إِقَامَتُهُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا مُسْلِمٌ أَوْ مُسَالِمٌ،وَلَا يَخْتَصُّ بِمَرَّةٍ فِي السَنَةِ،وَلَا يُعَطَّلُ إِذَا أَمْكَنَت الزِّيَادَةُ،وَمَا ذَكَرَهُ الْفُقَهَاءُ حَمَلُوهُ عَلَى الْعَادَةِ الْغَالِبَةِ،وَهِيَ أَنَّ الْأَمْوَالَ وَالْعَدَدَ لَا تَتَأَتَّى لِتَجْهِيزِ الْجُنُودِ فِي السَنَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ،ثُمَّ إِنْ تَمَكَّنَ الْإِمَامُ مِنْ بَثِّ الْأَجْنَادِ لِلْجِهَادِ فِي جَمِيعِ الْأَطْرَافِ،فَعَلَ،وَإِلَّا فَيَبْدَأُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ،وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْعَى النِّصْفَةَ بِالْمُنَاوَبَةِ بَيْنَ الْأَجْنَادِ فِي الْإِغْزَاءِ،وَيَسْقُطُ الْوُجُوبُ فِي هَذَا الضَّرْبِ بِأَعْذَارٍ.

مِنْهَا:الصِّغَرُ وَالْجُنُونُ وَالْأُنُوثَةُ،وَلِلْإِمَامِ أَنْ يَأْذَنَ لِلْمُرَاهِقِينَ وَالنِّسَاءِ فِي الْخُرُوجِ،وَأَنْ يَسْتَصْحِبَهُمْ لِسَقْيِ الْمَاءِ وَمُدَاوَاةِ الْمَرْضَى وَمُعَالَجَةِ الْجَرْحَى،وَلَا يَأْذَنُ لِلْمَجَانِينِ بِحَالٍ،وَلَا جِهَادَ عَلَى الْخُنْثَى.

وَمِنْهَا:الْمَرَضُ،فَلَا جِهَادَ عَلَى مَنْ بِهِ مَرَضٌ يَمْنَعُهُ مِنَ الْقِتَالِ وَالرُّكُوبِ عَلَى دَابَّةٍ،وَلَا عَلَى مَنْ لَا يُمْكِنُهُ الْقِتَالُ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ،وَلَا اعْتِبَارَ بِالصُّدَاعِ وَوَجَعِ الضِّرْسِ وَالْحُمَّى الْخَفِيفَةِ وَنَحْوِهَا.

[2445] – المفصل في فقه الجهاد – ط٢ (ص:١٤٢٦)

وَمِنْهَا:الْعَرَجُ،فَلَا جِهَادَ عَلَى مَنْ بِهِ عَرَجٌ بَيِّنٌ وَإِنْ قَدَرَ عَلَى الرُّكُوبِ وَوَجَدَ دَوَابَّ،وَقِيلَ:يَلْزَمُهُ الْجِهَادُ رَاكِبًا،وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ،وَسَوَاءٌ الْعَرَجُ فِي رِجْلٍ أَوْ رِجْلَيْهِ،وَلَا اعْتِبَارَ بِعَرَجٍ يَسِيرٍ لَا يَمْنَعُ الْمَشْيَ،وَلَا جِهَادَ عَلَى أَشَلِّ الْيَدِ،وَلَا مَنْ فَقَدَ مُعْظَمَ أَصَابِعِهِ بِخِلَافِ فَاقِدِ الْأَقَلِّ.

وَمِنْهَا:الْعَمَى،فَلَا جِهَادَ عَلَى أَعْمَى،وَيَجِبُ عَلَى الْأَعْوَرِ وَالْأَعْشَى وَعَلَى ضَعِيفِ الْبَصَرِ إِنْ كَانَ يُدْرِكُ الشَّخْصَ،وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَتَّقِيَ السِّلَاحَ.

وَمِنْهَا:الْفَقْرُ،فَلَا جِهَادَ عَلَى مَنْ عَجَزَ عَنْ سِلَاحٍ وَأَسْبَابِ الْقِتَالِ،وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَجِدَ نَفَقَةَ طَرِيقِهِ ذِهَابًا وَرُجُوعًا،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَهْلٌ وَلَا عَشِيرَةٌ،فَفِي اشْتِرَاطِ نَفَقَةِ الرُّجُوعِ وَجْهَانِ سَبَقَا فِي الْحَجِّ،فَإِنْ كَانَ الْقِتَالُ عَلَى بَابِ الْبَلَدِ،أَوْ حَوَالَيْهِ،سَقَطَ اشْتِرَاطُ نَفَقَةِ الطَّرِيقِ،وَيُشْتَرَطُ وِجْدَانُ رَاحِلَةٍ إِنْ كَانَ سَفَرُهُ مَسَافَةَ الْقَصْرِ،وَيُشْتَرَطُ كَوْنُ جَمِيعِ ذَلِكَ فَاضِلًا عَنْ نَفَقَةِ مَنْ يَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ،وَسَائِرُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْحَجِّ،وَكُلُّ عُذْرٍ يَمْنَعُ وُجُوبَ الْحَجِّ،يَمْنَعُ وُجُوبَ الْجِهَادِ إِلَّا أَمْنَ الطَّرِيقِ،فَإِنَّهُ شُرِطَ هُنَاكَ وَلَا يُشْتَرَطُ هُنَا؛لِأَنَّ مَبْنَى الْغَزْوِ عَلَى رُكُوبِ الْمَخَاوِفِ،هَذَا إِنْ كَانَ الْخَوْفُ مِنْ طَلَائِعِ الْكُفَّارِ،وَكَذَا لَوْ كَانَ مِنْ مُتَلَصِّصِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّحِيحِ،وَلَوْ بَذَلَ لِلْفَاقِدِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ،لَمْ يَلْزَمْهُ قَبُولُهُ،إِلَّا أَنْ يَبْذُلَهُ الْإِمَامُ،فَيَلْزَمُهُ أَنْ يَقْبَلَ وَيُجَاهِدَ؛لِأَنَّ مَا يُعْطِيهِ الْإِمَامُ حَقُّهُ،وَلَا يَلْزَمُ الذِّمِّيَّ الْجِهَادُ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْجِهَادَ لَا يَجِبُ إِلَّا عَلَى مُسْلِمٍ بَالِغٍ عَاقِلٍ ذَكَرٍ حُرٍّ مُسْتَطِيعٍ،وَلَا جِهَادَ عَلَى رَقِيقٍ وَإِنْ أَمَرَهُ سَيِّدُهُ؛إِذْ لَيْسَ الْقِتَالُ مِنَ الِاسْتِخْدَامِ الْمُسْتَحَقِّ لِلسَّيِّدِ،وَلَا يَلْزَمُهُ الذَّبُّ عَنْ سَيِّدِهِ عِنْدَ خَوْفِهِ عَلَى رُوحِهِ إِذَا لَمْ نُوجِبُ الدَّفْعَ عَنِ الْغَيْرِ،بَلِ السَّيِّدُ فِي ذَلِكَ كَالْأَجْنَبِيِّ،وَلِلسَّيِّدِ اسْتِصْحَابُهُ فِي سَفَرِ الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ لِيَخْدُمَهُ وَيَسُوسَ دَوَابَّهُ،وَالْمُدَبَّرُ وَالْمُكَاتَبُ وَمَنْ بَعْضُهُ حُرٌّ لَا جِهَادَ عَلَيْهِمْ."[2446]

فكل من قرأ من صغار المسلمين أو كبارهم سيرة النبي ﷺ،وسيرة الصحابة رضي الله عنهم،وجهادهم وفتوحاتهم،تيقن بداهة أن جهادهم لإقامة دين الله في الأرض وإبلاغ الدعوة للناس،ولا يتبادر إلى ذهن أحدهم عندما يقرأ في فتوحات الأندلس مثلا،أن المسلمين فتحوها دفاعا عن دولة الإسلام،لأن ساكنيها كانوا يشكلون خطرا وتهديدا للدولة الإسلامية،ولو تحاشى ساكنوها تهديد المسلمين ودولتهم لما فتحها المسلمون.

[2446] - روضة الطالبين وعمدة المفتين (١٠/ ٢٠٨)

فجهاد الطلب من الأمور الواضحة البينة،ومن المقررات عند علماء المسلمين وعوامهم،وقد مضى المسلمون على هذا،حتى أظهر في زماننا بعض المهزومين المبتدعة القول بإنكار جهاد الطلب وأن الجهاد في الإسلام إنما هو جهاد دفع فقط،وخالفوا بهذا كتاب الله تعالى،وسنة نبيه ﷺ،والإجماع،واتبعوا المتشابه وحرفوا الكلم عن مواضعه وافتروا على الله الكذب وأنكروا فريضة من فرائض الله،وجعلوا لله شركاء في أرضه وخلقه،فغاية قولهم أن طواغيت الكفار وأحزابهم السياسية من حقهم أن يتسلطوا على أجزاء من أرض الله ويحكموا فيها،ومن حقهم أن يستعبدوا الشعوب التي تحت تسلطهم وقهرهم،كقول الذين قال الله تعالى عنهم:{وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام:١٣٦]

يَذُمُّ اللهُ تَعَالَى المُشْرِكِينَ،وَيُوَبِّخُهُمْ عَلَى مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ بِدَعٍ وَكُفْرٍ وَشِرْكٍ،وَعَلَى مَا جَعَلُوهُ للهِ،مِنْ أَنْدَادٍ وَشُرَكَاءَ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ.فَقَدْ جَعَلُوا لَهُ نَصِيباً مِمَّا خَلَقَ (ذَرَأَ) مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ (مِنَ الحَرْثِ)،وَمِنَ البَهَائِمِ وَالأَنْعَامِ،وَجَعَلُوا لِمَنْ أَشْرَكُوهُمْ فِي العِبَادَةِ مَعَ اللهِ،مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ،نَصِيباً آخَرَ فَقَالُوا:- فِيمَا زَعَمُوا وَلَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ عَلَيهِ - فِي النَّصِيبِ الأَوَّلِ هَذَا للهِ نَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيهِ.وَقَالُوا فِي النَّصِيبِ الثَّانِي:هَذَا لِمَعْبُودَاتِنَا (لِشُرَكَائِنَا)،نَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهَا،فَكَانُوا يُنْفِقُونَ نَصِيبَ اللهِ عَلَى قِرَى الأَضْيَافِ،وَإِكْرَامِ الصِّبْيَانِ،وَالتَّصَدُّقِ عَلَى المَسَاكِينِ.أَمَّا نَصِيبُ آلِهَتِهِمْ فَكَانُوا يُنْفِقُونَهُ عَلَى سَدَنَتِهَا،وَعَلَى القَرَابِينِ إِلَيْهَا.فَمَا خَصُّوا مَعْبُودَاتِهِمْ بِهِ،مَا كَانَ لِيَصْرِفَ شَيءٌ مِنْهُ فِي الوُجُوهِ التِي جَعَلَهَا للهِ،بَلْ يَهْتَمُونَ بِحِفْظِهِ عَلَى السَّدَنَةِ،وَعَلَى ذَبْحِ القَرَابِينِ إِلَيْها.وَمَا خَصُّوا بِهِ اللهَ،وَجَعَلُوهُ لَهُ،فَكَانُوا يُحَوِّلُونَهُ أَحْيَاناً إِلَى الأَصْنَامِ.وَقَدْ ذَمَّهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى تَصَرُّفِهِمْ هَذَا فَقَالَ:(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)،إِذْ أَنَّهُمْ أَخْطَؤُوا أَوْلاً فِي القَسَمِ وَالتَّخْصِيصِ،لأَنَّ اللهَ تَعَالَى رَبُّ كُلِّ شَيءٍ،فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَاسَ بِهِ أَحَدٌ.ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمَّا قَسَمُوا هَذِهِ القِسْمَةَ الفَاسِدَ لَمْ يُحَافِظُوا عَلَيْهَا،بَلْ جَارُوا فِيهَا وَتَجاوَزُوا الحَدَّ.[٢٤٤٧]

[٢٤٤٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

فتأمل قوله تعالى {مِمَّا ذَرَأَ}،أي مما خلق،فهو تبارك وتعالى خالق كل شيء،والمشركون يجعلون له من خلقه جزءا،كما قال تعالى {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ} [الزخرف:١٥].

وَجَعَلَ المُشْرِكُونَ للهِ تَعَالَى وَلَداً (جُزْءاً) (عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ الوَلَدَ جـزْءٌ مـنَ الوَالـد)،إِذْ قَالَ المُشْرِكُونَ مِنَ العَرَبِ:إِنَّ المَلاَئِكَةَ بَنَاتُ اللهِ،فَخَصُّوا أَنْفُسَهُمْ بِالذُّكُورِ مِنَ الأَبْنَاءِ وَجَعَلُوا للهِ البَنَاتِ،وَهُمْ يَكْرَهُونَ البَنَاتِ لأَنْفُسِهِمْ،فَجَعَلُوا للهِ أَدْنَى النَّصِيبَيْنِ.

وَالإِنْسَانُ جَحُودٌ بِنِعَمِ اللهِ رَبِّهِ عَلَيْهِ،وَهُوَ شَدِيدُ الكُفْرَانِ لَهَا،وَجُحُودُهُ بِالنِّعَمِ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ لِمَنْ تَأَمَّلَ فِي ذَلِكَ وَتَدَبَّرَ.[٢٤٤٨]

وقد زل أيضا في هذا القول المنكر،والفرية العظيمة بعض أهل العلم الذين يظن فيهم الخير والدعوة إلى الحق حين استمعوا إلى شبهات المهزومين المفترين،وأعرضوا عن الكتاب والسنة والإجماع،فحصل لهم الضلال بحسب إعراضهم.

قلت :وأما جهاد الدفع فهو الذي يدفع به عدوان الكفار على أرض الإسلام،أو على دماء المسلمين أو أعراضهم أو حرماتهم،وهو فرضُ عينٍ على كلِّ قادر محتاج إليه لردِّ العدوان،والدليلُ عليه قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٧٢) سورة الأنفال،فلا يجوز لأحد في موضع عدوان الكفار على المسلمين[٢٤٤٩]،أنْ يتخلفَ عن بذل مهجته لدفع عدوان الكافرين على المسلمين،فإن لم يغنِ أهلُ ذلك الموضع،واحتيج إلى مدد آخر،وجبَ على من يليهم إعانتهم على عدوهم،فإن لم يُغنوا،وجب على من يليهم،وهكذا حتى يجبَ ذلك على آخر نفسٍ من المسلمين[٢٤٥٠].

[٢٤٤٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢١٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٤٤٩] - كما في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان وكشمير وغيرها

[٢٤٥٠] - كما هو الحال اليوم تماماً

ولا يجوز للمسلمين بإجماع العلماء،أنْ يسلِّموا أمرهم طواعيةً إلى الكفار[٢٤٥١]،أو أن يرضوا بعلو الكافرين على المسلمين،أو يقروُّهم على احتلال الأرض التي ظهرت عليها يدُ الإسلام،فإنْ لم يكن للمسلمين طاقة بقتال الكفار،هادنوهم ريثما تحصل لهم القوة على عدوهم،ويجبُ عليهم في هذه الحال،أن يعدُّوا العُدَّة للجهاد للخلاص مما هم فيه من ظهور كلمة الكفار عليهم،فإن لم يفعلوا وركنوا إلى ما هم فيه من الذلِّ والهوان،تحت حكم الكافرين،يحكمون فيهم بشريعة الكفر،بدلَ شريعة الإسلام،عوقبوا بسبب خذلانهم للإسلام،بألوانِ الفتنِ والفساد،وشتت اللهُ أمرهم،وضربَ قلوبَ بعضهم ببعض،وظهرت عليهم الذلةٌ والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله تعالى،كما عاقب الله تعالى بني إسرائيل على الذنب نفسه،وحكي ذلك في القرآن العظيم،في غير موضع،قال تعالى:{ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} (١١٣) سورة هود

قال الإمام النووي:" قَالَ أَصْحَابنَا:الْجِهَاد الْيَوْم فَرْض كِفَايَة،إِلَّا أَنْ يَنْزِل الْكُفَّار بِبَلَد الْمُسْلِمِينَ فَيَتَعَيَّن عَلَيْهِمْ الْجِهَاد،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَهْل ذَلِكَ الْبَلَد كِفَايَة وَجَبَ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ تَتْمِيم الْكِفَايَة "[٢٤٥٢]

وقال أبو بكر الجصاص:"قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَمَالِكٌ،وَسَائِرُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ:"إنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،إلَّا أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إذَا قَامَ بِهِ بَعْضُهُمْ كَانَ الْبَاقُونَ فِي سَعَةٍ مِنْ تَرْكِهِ".،وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ كَانَ يَقُولُ:لَيْسَ بِفَرْضٍ،وَلَكِنْ لَا يَسَعُ النَّاسَ أَنْ يُجْمِعُوا عَلَى تَرْكِهِ،وَيَجْزِي فِيهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،فَإِنْ كَانَ هَذَا قَوْلَ سُفْيَانَ فَإِنَّ مَذْهَبَهُ أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِ أَصْحَابِنَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.وَمَعْلُومٌ فِي اعْتِقَادِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ إذَا خَافَ أَهْلُ الثُّغُورِ مِنْ الْعَدُوِّ،وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمْ مُقَاوِمَةٌ لَهُمْ فَخَافُوا عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ"[٢٤٥٣].

[٢٤٥١] - قد فصلت القول في ذلك في كتابي ((تحريم الاستسلام للكفار))

[٢٤٥٢] - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٩)

[٢٤٥٣] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١٤٦)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَإِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهُ عَلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إذْ بِلَادُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَلْدَةِ الْوَاحِدَةِ،وَأَنَّهُ يَجِبُ النَّفِيرُ إلَيْهِ بِلَا إذْنِ وَالِدٍ وَلَا غَرِيمٍ،وَنُصُوصُ أَحْمَدَ صَرِيحَةٌ بِهَذَا وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا فِي الْمُخْتَصَرَاتِ.

لَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَكَانِ النَّفِيرُ إذَا نَفَرَ إلَيْهِ الْكِفَايَةُ كَلَامُ أَحْمَدَ فِيهِ مُخْتَلِفٌ وَقِتَالُ الدَّفْعِ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ كَثِيرًا لَا طَاقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ لَكِنْ يُخَافُ إنْ انْصَرَفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ عَطَفَ الْعَدُوُّ عَلَى مَنْ يُخَلَّفُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُنَا قَدْ صَرَّحَ أَصْحَابُنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مُهَجَهُمْ وَمُهَجَ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ فِي الدَّفْعِ حَتَّى يَسْلَمُوا وَنَظِيرُهَا أَنْ يَهْجُمَ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَتَكُونَ الْمُقَاتِلَةُ أَقَلَّ مِنْ النِّصْفِ فَإِنْ انْصَرَفُوا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْحَرِيمِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ قِتَالُ دَفْعٍ لَا قِتَالُ طَلَبٍ لَا يَجُوزُ الِانْصِرَافُ فِيهِ بِحَالٍ وَوَقْعَةُ أُحُدٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ" [٢٤٥٤]

مَتَى يَصِيرُ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ ؟

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ يَصِيرُ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ فِي كُلٍّ مِنَ الْحَالاَتِ الآْتِيَةِ:

أ - إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ،وَتَقَابَل الصَّفَّانِ،حَرُمَ عَلَى مَنْ حَضَرَ الاِنْصِرَافُ،وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْمُقَامُ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) [الأنفال/٤٥-٤٦]}.

ب - إِذَا هَجَمَ الْعَدُوُّ عَلَى قَوْمٍ بَغْتَةً،فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمُ الدَّفْعُ وَلَوْ كَانَ امْرَأَةً أَوْ صَبِيًّا،أَوْ هَجَمَ عَلَى مَنْ بِقُرْبِهِمْ،وَلَيْسَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى دَفْعِهِ،فَيَتَعَيَّنُ عَلَى مَنْ كَانَ بِمَكَانٍ مُقَارِبٍ لَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوا مَعَهُمْ إِنْ عَجَزَ مَنْ فَجَأَهُمُ الْعَدُوُّ عَنِ الدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ،وَمَحَل التَّعَيُّنِ عَلَى مَنْ بِقُرْبِهِمْ إِنْ لَمْ يَخْشَوْا عَلَى نِسَائِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ مِنْ عَدُوٍّ بِتَشَاغُلِهِمْ بِمُعَاوَنَةِ مَنْ فَجَأَهُمُ الْعَدُوُّ،وَإِلاَّ تَرَكُوا إِعَانَتَهُمْ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ يُعْتَبَرُ مَنْ كَانَ دُونَ مَسَافَةِ الْقَصْرِ مِنَ الْبَلْدَةِ كَأَهْلِهَا،وَمَنْ عَلَى الْمَسَافَةِ يَلْزَمُهُ الْمُوَافَقَةُ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ إِنْ لَمْ يَكْفِ أَهْلُهَا،وَمَنْ يَلِيهِمْ.وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَفْجَأْهُمُ الْعَدُوُّ فَلاَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ،يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْمُقِل مِنْهُمْ وَالْمُكْثِرُ.وَمَعْنَاهُ:أَنَّ النَّفِيرَ يَعُمُّ جَمِيعَ النَّاسِ مِمَّنْ كَانَ مِنْ

[٢٤٥٤] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٩)

أَهْلِ الْقِتَالِ حِينَ الْحَاجَةِ لِمَجِيءِ الْعَدُوِّ إِلَيْهِمْ،وَلاَ يَجُوزُ لأَِحَدٍ التَّخَلُّفُ إلاَّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى تَخَلُّفِهِ لِحِفْظِ الْمَكَانِ وَالأَْهْل وَالْمَال،مِنَ الْخُرُوجِ،أَوْ مَنْ لاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الْخُرُوجِ أَوِ الْقِتَال [٢٤٥٥].

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ أَرَادُوا الرُّجُوعَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ يَوْمَ الأَْحْزَابِ فَقَال :{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) } [الأحزاب:١٣ - ١٥] .

ج - إِذَا اسْتَنْفَرَ الإِْمَامُ قَوْمًا لَزِمَهُمُ النَّفِيرُ مَعَهُ إلاَّ مَنْ لَهُ عُذْرٌ قَاطِعٌ ؛لِقَوْل اللَّهِ تَعَالَى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) } [التوبة] .

وعنِ ابْنِ عبّاسٍ رضي اللّهُ عنْهُما،قال:قال رسُولُ اللّهِ - ﷺ -:«لا هِجْرة بعْد الفتْحِ،ولكِنْ جِهادٌ ونِيّةٌ،وإِذا اسْتُنْفِرْتُمْ فانْفِرُوا».مُتّفقٌ عليْهِ [٢٤٥٦] .

وَذَلِكَ لأَِنَّ أَمْرَ الْجِهَادِ مَوْكُولٌ إِلَى الإِْمَامِ وَاجْتِهَادِهِ،وَيَلْزَمُ الرَّعِيَّةَ طَاعَتُهُ فِيمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ [٢٤٥٧] .

[٢٤٥٥] - ابن عابدين ٣ / ٢٢١،وفتح القدير ٥ / ١٩٠،والدسوقي ٢ / ١٧٤،وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٣،وروضة الطالبين ١ / ٢١٥،ومغني المحتاج ٤ / ٢١٩،والمغني ٨ / ٣٤٧،٣٤٦،وكشاف القناع ٣ / ٣٧ .

[٢٤٥٦] - صحيح البخاري (٤/ ١٥) (٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٧) ٨٥ - (١٣٥٣)

[ش (لا هجرة) من مكة أو غيرها من البلدان التي يستطيع فيها إقامة شعائر الدين.(الفتح) فتح مكة (وإذا استنفرتم فانفروا) معناه إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فاخرجوا وهذا دليل على أن الجهاد ليس فرض عين بل فرض كفاية إذا فعله من تحصل بهم الكفاية سقط الحرض عن الباقين وإن تركوه كلهم أثموا كلهم]

[٢٤٥٧] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥،وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢،والمغني ٨ / ٣٥٢،والمحلى ٧ / ٢٩١ .

وَنَصَّ الْمَالِكِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ الْجِهَادُ بِتَعْيِينِ الإِمَامِ وَلَوْ لِصَبِيٍّ مُطِيقٍ لِلْقِتَالِ أَوِ امْرَأَةٍ،وَتَعْيِينُ الإِمَامِ إِلْجَاؤُهُ إِلَيْهِ وَجَبْرُهُ عَلَيْهِ،كَمَا يَلْزَمُ بِمَا فِيهِ صَلاَحُ حَالِهِ،لاَ بِمَعْنَى عِقَابِهِ عَلَى تَرْكِهِ،فَلاَ يُقَالُ:إِنَّ تَوَجُّهَ الْوُجُوبِ لِلصَّبِيِّ خَرْقٌ لِلإِجْمَاعِ "[2458]

قلت :وإذا اعتدى الكفار على بلد من بلاد المسلمين،ففي هذه الحالة يتعين الجهاد بالإجماع(كما مرَّ معنا)،وهو من أعظم الواجبات وآكدها وهو جهاد الدفع،فيجب الجهاد على أهل البلد التي اعتدى عليها الكفار أو المرتدون،ويتوسع الوجوب على الأقرب فالأقرب،حتى تحصل الكفاية ويدفع العدو،فإن بلاد المسلمين بمترلة الأرض الواحدة،فلا عبرة في زماننا هذا بالحدود المصطنعة في بلاد المسلمين التي اختطها الصليبيون المستعمرون وعملاؤهم لتمزيق الأمة وإضعافها،وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية " فَأَمَّا إذَا أَرَادَ الْعَدُوُّ الْهُجُومَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ يَصِيرُ دَفْعُهُ وَاجِبًا عَلَى الْمَقْصُودِينَ كُلِّهِمْ،وَعَلَى غَيْرِ الْمَقْصُودِينَ،لِإِعَانَتِهِمْ:كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال:72] وَكَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺبِنَصْرِ الْمُسْلِمِ،وَسَوَاءٌ أَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ لِلْقِتَالِ[2459] أَوْ لَمْ يَكُنْ،وَهَذَا يَجِبُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ،مَعَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ،وَالْمَشْيِ وَالرُّكُوبِ،كَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ،لَمَّا قَصَدَهُمْ الْعَدُوُّ عَامَ الْخَنْدَقِ وَلَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ فِي تَرْكِهِ أَحَدًا كَمَا أَذِنَ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ابْتِدَاءً لِطَلَبِ الْعَدُوِّ،الَّذِي قَسَّمَهُمْ فِيهِ إلَى قَاعِدٍ وَخَارِجٍ.بَلْ ذَمَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيَّ ﷺ{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15) } [الأحزاب:13 - 15]

[2458] - انظر:الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج 16 / ص 130) فما بعد والفقه الإسلامي وأدلته - (ج 8 / ص 6) وحاشية الدسوقي 2 / 175،وجواهر الإكليل 1 / 252 .

[2459] - المرتزقة للقتال أي المتطوعون في الجيش وياخذون راتبا دائما من الدولة المسلمة

فَهَذَا دَفْعٌ عَنِ الدِّينِ وَالْحُرْمَةِ وَالْأَنْفُسِ،وَهُوَ قِتَالُ اضْطِرَارٍ،وَذَلِكَ قِتَالُ اخْتِيَارٍ[2460] ؛ لِلزِّيَادَةِ فِي الدِّينِ وَإِعْلَائِهِ وَلِإِرْهَابِ الْعَدُوِّ،كَغُزَاةِ تَبُوكَ وَنَحْوِهَا،فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْعُقُوبَةِ،هُوَ لِلطَّوَائِفِ الْمُمْتَنِعَةِ.[2461]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وإذا دخل الْعدُوُّ بلاد الْإِسْلامِ فلا ريْب أنّهُ يجِبُ دفْعُهُ على الْأقْربِ فالْأقْربِ إذْ بلادُ الْإِسْلامِ كُلُّها بِمنْزِلةِ الْبلْدةِ الْواحِدةِ،وأنّهُ يجِبُ النّفِيرُ إليْهِ بِلا إذْنِ والِدٍ ولا غرِيمٍ،ونُصُوصُ أحْمد صرِيحةٌ بِهذا وهُو خيْرٌ مِمّا فِي الْمُخْتصراتِ.

لكِنْ هلْ يجِبُ على جمِيعِ أهْلِ الْمكانِ النّفِيرُ إذا نفر إليْهِ الْكِفايةُ كلامُ أحْمد فِيهِ مُخْتلِفٌ وقِتالُ الدّفْعِ مِثْلُ أنْ يكُون الْعدُوُّ كثِيرًا لا طاقة لِلْمُسْلِمِين بِهِ لكِنْ يُخافُ إنْ انْصرفُوا عنْ عدُوِّهِمْ عطف الْعدُوُّ على منْ يُخلّفُون مِنْ الْمُسْلِمِين فهُنا قدْ صرّح أصْحابُنا بِأنّهُ يجِبُ أنْ يبْذُلُوا مُهجهُمْ ومُهج منْ يُخافُ عليْهِمْ فِي الدّفْعِ حتّى يسْلمُوا ونظِيرُها أنْ يهْجُم الْعدُوُّ على بِلادِ الْمُسْلِمِين وتكُون الْمُقاتِلةُ أقلّ مِنْ النِّصْفِ فإِنْ انْصرفُوا اسْتوْلوْا على الْحرِيمِ فهذا وأمْثالُهُ قِتالُ دفْعٍ لا قِتالُ طلبٍ لا يجُوزُ الِانْصِرافُ فِيهِ بِحالٍ ووقْعةُ أُحُدٍ مِنْ هذا الْبابِ"[2462]

وقال ابن عبد البر رحمه الله:" فرض عام متعين على كل أحد ممن يستطيع المدافعة والقتال وحمل السلاح من البالغين الأحرار وذلك ان يحل العدو بدار الإسلام محاربا لهم فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار ان ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا وشبابا وشيوخا ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكثر وان عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم ان يخرجوا قلوا أو كثروا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضا الخروج اليهم فالمسلمون كلهم يد على من سواهم حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط

[2460] - يقصد جهاد الطلب

[2461] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢ (ص:١٦٣)

[2462] - المفصل في فقه الجهاد - ط٢ (ص:١٤٣٣) والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٩)

الفرض عن الآخرين ولو قارب العدو دار الإسلام و لم يـدخلوها لـزمهم أيضـا الخـروج إليه."[2463]

والجهاد في وقتنا في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وغيرها هو من جهاد الـدفع،وهو من آكد الواجبات وأعظمها،فيجب على أهل البلد التي اعتدى عليها الكفـار أن يجاهـدوا المعتدين ويدفعوهم ويتوسع الوجوب على الأقرب فالأقرب ممن حولهم من المسلمين.

ومن أخطر أنواع العدوان التي تواجهها الأمة في وقتنا هذا الحملة الصـليبية الـتي تقودهـا الولايات المتحدة التي احتلت أفغانستان والعراق،وهي راغبة في المزيد مـن العـدوان علـى المسلمين في دينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأراضيهم،وكل من عرف حقيقة هذه الحملة يعلم أن أهدافها تتجاوز العراق فهي تستهدف فرض الكفر على الأمة من خلال مشـروعها المسمى " بالشرق الأوسط الكبير"،واستباحة بلاد المسلمين ونهب خيراتها ونفطها،وهي ساعية إلى تحقيق أهدافها بالترهيب العسكري والترهيب الاقتصـادي والترهيـب الإعلامـي،إلا أن مخططات الصليبين أصيبت بنكسة عظيمة في العراق بفضل الله تعالى حيـث قـام لجهـادهم ولدفعهم المجاهدون الصادقون الذين تصدوا لعدوانهم وألحقوا بهم هزائم وخسائر كبيرة.

فالجهاد في العراق فرصة تاريخية عظيمة يجب على المجاهدين وأهل العلم الصـادقين انتـهازها والظفر بها،فإن هزيمة الصليبيين في العراق لها آثارها الكبيرة والتاريخية على المنطقـة والأمـة كلها،ومنها إيقاف الزحف الصليبي الشامل الذي يهدف إلى اكتساح الأمة واستباحتها،ومنها طردهم من العراق وتطهيره من رجسهم وكفرهم،ومنها إقامـة دولـة الإسـلام في بـلاد الرافدين،ومنها أن هزيمة الصليبيين في العراق لها تداعياتها الكبيرة وآثارها العظيمـة في نصـرة المسلمين المجاهدين في فلسطين وأفغانستان.

قلت :والآن الجهاد في سورية ضد الطاغية الصنم بشار الأسد وعصابته المجرمة،وهو من آكـد الواجبات،فالنصيرية يحملون خبث جميع الأمم،وكل العالم يسـاعدهم في إجهـاض ثورتنـا المباركة لأنهم يعلمون أهمية الشام الدينية والجغرافية وغيرها والتي تفردت بها عن بقيـة بـلاد الإسلام،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَوَالَةَ الْأَزْدِيِّ،أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ خِرْ لِي بَلَدًا أَكُـونُ فِيـهِ فَلَـوْ

[2463] - الكافي في فقه أهل المدينة (1/ 462)

عَلِمْتُ أَنَّكَ تَبْقَى لَمِ اخْتَرْ عَلَى قُرْبِكَ قَالَ:«عَلَيْكَ بِالشَّامِ ثَلَاثًا» .فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ كَرَاهِيَتَهُ إِيَّاهَا قَالَ:" هَلْ تَدْرِي مَا يَقُولُ اللَّهُ فِي الشَّامِ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:«يَا شَامُ أَنْتِ صَفْوَتِي مِنْ بِلَادِي أُدْخِلُ فِيكِ خَيْرَتِي مِنْ عِبَادِي ،أَنْتِ سَوْطُ نِقْمَتِي وَسَوْطُ عَذَابِي ،أَنْتِ الَّذِي لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرْ ،[أَنْتِ الْأَنْدَرُ] وَإِلَيْكِ [عَلَيْكِ] الْمَحْشَرُ» ،وَرَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَمُودًا أَبْيَضَ كَأَنَّهُ لُؤْلُؤَةٌ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ قُلْتُ:«مَا تَحْمِلُونَ؟» قَالَ:عَمُودُ الْإِسْلَامِ أَمَرَنَا أَنْ نَضَعَهُ بِالشَّامِ وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ الْكِتَابَ اخْتُلِسَ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي ،فَظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَخَلَّى مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي فَإِذَا هُوَ نُورٌ بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى وُضِعَ بِالشَّامِ ،فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَقْ بِيَمَنِهِ [وَلْيَسْتَقِ] مِنْ غُدُرِهِ ،فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ "[٢٤٦٤]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَوَالَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«سَيَكُونُ جُنْدٌ بِالشَّامِ وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ» فَقَالَ رَجُلٌ:فَخِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِذَا كَانَ ذَلِكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«عَلَيْكَ بِالشَّامِ،عَلَيْكَ بِالشَّامِ،فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَقْ بِيَمَنِهِ وَلْيَسْقِ مِنْ غُدُرِهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ» .[٢٤٦٥]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ،عَنْ أَبِيهِ.عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ،لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» .[٢٤٦٦]

وسوف يتحقق النصر على هذا الفرعون قريبا بإذن الله تعالى .فعن عُمَيْرَ بْنِ هَانِئٍ،أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:«لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ،لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ،وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» قَالَ عُمَيْرٌ:فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ:قَالَ مُعَاذٌ:وَهُمْ بِالشَّأْمِ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ:وَهُمْ بِالشَّأْمِ "[٢٤٦٧]

[٢٤٦٤] - مسند الشاميين للطبراني (١/ ٣٤٥)(٦٠١) صحيح لغيره

[٢٤٦٥] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٨٩٧)(١٧٠٧) صحيح لغيره

[٢٤٦٦] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٩٠٣)(١٧٢٢) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٢٩٢)(٧٣٠٣) صحيح

[٢٤٦٧] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠٧)(٣٦٤١)

" لَا تَزَالُ "):وَفِي نُسْخَةٍ بِالْفَوْقِيَّةِ (" مِنْ أُمَّتِي ")،أَيْ:مِنْ جُمْلَةِ أُمَّتِي بِالْإِجَابَةِ (" أُمَّةٌ ")،أَيْ:طَائِفَةٌ (" قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ ")،أَيْ:بِأَمْرِ دِينِهِ وَأَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ مِنْ حِفْظِ الْكِتَابِ وَعِلْمِ السُّنَّةِ وَالِاسْتِنْبَاطِ مِنْهُمَا،وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ،وَالنَّصِيحَةِ لِخَلْقِهِ وَسَائِرِ

فمن أمضوا العقود في التحسر على فلسطين والمسجد الأقصـــى،والعجز عـــن الوصـــول إلى الأرض المباركة فها هي الفرصة قد حانت،فالصهاينة من النصارى البروستانت واليهود بمتناول اليد في بلاد الرافدين،فهاهم دونكم فخذوهم واحصروهم وأكثروا فيهم من التقتيل والإثخان. ومنها أن الشبكة من الدويلات العميلة التي أسسها الصليبيون من خلال اتفاقية "سايكس بيكو " ومثيلاتها لحماية أطماعهم وأهدافهم في المنطقة،وحماية دولة اليهـــود في فلســـطين وحفـــظ حدودها من أي محاولة للدفاع عن الأقصى ونصرة المسلمين المستضعفين،سوف تهتز أنظمتـــها الحاكمة هزة عظيمة بإذن الله تعالى إذا رأوا آمرهم وحاميتهم الولايات المتحدة قـــد هزمـــت هزيمة ساحقة ومدمرة على أرض الرافدين،[٢٤٦٨] واهتزاز هذه الدويلات ضرورة لكسر طـــوق الحماية حول دولة اليهود في فلسطين،ونصرة المسلمين هناك،وربما كانت تلك الهزة بـــإذن الله

فُرُوضِ الْكِفَايَةِ،كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران:١٠٤] (" لَا يَضُرُّهُمْ ")،أَيْ:لَا يَضُرُّ دِينَهُمْ وَأَمْرَهُمْ (" مَنْ خَذَلَهُمْ ")،أَيْ:مَنْ تَرَكَ عَوْنَهُمْ وَنَصْرَهُمْ،بَلْ ضَرَّ نَفْسَهُ وَظَلَمَ عَلَيْهَا بِإِسَاءَتِهَا (" وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ ")،أَيْ:لَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ (" حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ ")،أَيْ:مَوْتُهُمْ أَوِ انْقِضَاءُ عَهْدِهِمْ (" وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ") .أَيْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ،وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ وَجْهَ الْأَرْضِ لَا يَخْلُو مِنَ الصُّلَحَاءِ الثَّابِتِينَ عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ الْمُتَبَاعِدِينَ عَنْ نَوَاهِيهِ حَافِظِينَ لِأُمُورِ الشَّرِيعَةِ يَسْتَوِي عِنْدَهُمْ مُعَاوَنَةُ النَّاسِ وَمُخَالَفَتُهُمْ إِيَّاهُمْ،وَفَسَّرَ شَارِحٌ أَمْرَ اللَّهِ بِالْقِيَامَةِ،وَيَشْكُلُ عَلَيْهِ حَدِيثُ:" «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يَكُونَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ:اللَّهُ» ".وَقَالَ شَارِحٌ:قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ أَيْ مُتَمَسِّكَةٌ بِدِينِهِ،قِيلَ:هُمُ الْأُمَّةُ الْقَائِمَةُ بِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَحِفْظِ الْحَدِيثِ لِإِقَامَةِ الدِّينِ،وَقِيلَ:هُمُ الْمُقِيمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ الْمُدِيمُونَ لَهُ مِنْ قَامَ الشَّيْءُ دَامَ،وَالْبَاءُ فِي بِأَمْرِ اللَّهِ بِمَعْنَى " مَعَ " أَوْ لِلتَّعْدِيَةِ أَيْ:دَائِمَةٌ مَعَ أَمْرِ اللَّهِ أَوْ مُدِيمَةٌ إِيَّاهُ،وَقِيلَ:يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَنَّ شَوْكَةَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تَزُولُ بِالْكُلِّيَّةِ،فَإِنَّ ضَعُفَ أَمْرِهِ فِي قُطْرٍ قَوِيَ وَعَلَا فِي قُطْرٍ آخَرَ وَقَامَ بِإِعْلَائِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.وَقَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:الْأُمَّةُ الْقَائِمَةُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَإِنِ اخْتُلِفَ فِيهَا فَإِنَّ الْمُعْتَدَّ بِهِ مِنَ الْأَقَاوِيلِ أَنَّهَا الْفِئَةُ الْمُرَابِطَةُ بِثُغُورِ الشَّامِ نَضَّرَ اللَّهُ بِهِمْ وَجْهَ الْإِسْلَامِ،لِمَا فِي بَعْضِ طُرُقِ هَذَا الْحَدِيثِ وَهُمْ بِالشَّامِ،وَفِي بَعْضِهَا حَتَّى تُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ،وَفِي بَعْضِهَا قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَّى هُمْ؟ قَالَ:" بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ".فَإِنْ قِيلَ:مَا وَجْهُ هَذَا الْحَدِيثِ،وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الشَّامِ،وَقَدْ عَاشَتِ الذِّئَابُ فِي الْقَطِيعِ،وَعَبَرَتِ الْجُنُودُ الْعَاتِيَةُ عَنِ الْفُرَاتِ،وَأَبَاحَتْ عَلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْبِلَاءِ كَنَبِيحَ وَسَرُوجَ وَحَلَبَ وَمَا حَوَالَيْهَا قُلْتُ:إِنَّمَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ لَا يَضُرُّهُمْ كُلَّ الضَّرَرِ،وَقَدْ أَضَرَّ الْكُفَّارَ يَوْمَ أُحُدٍ بِأَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ- وَلَمَّا كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى لَمْ يَعُدْ ذَلِكَ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ،مَعَ أَنَّ الْفِئَةَ الْمَوْعُودَةَ لَهُمْ بِالنَّصْرِ هُمُ الْجُيُوشُ الْغَازِيَةُ بِهَا وَلَمْ يُصِبْهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى الْيَوْمِ غَضَاضَةٌ وَلَا هَوَانٌ،بَلْ كَانَ لَهُمُ النُّصْرَةُ وَعَلَى عَدُوِّهِمُ الدَّبْرَةُ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٤٠٤٧)

[٢٤٦٨] – قلت:وفي الشام أيضا سوف تسقط جميع هذه العروش الباطلة والمتفرعنة على الأمة قريبا بإذن الله تعالى .

البداية التاريخية لزوال هذه الدويلات العميلة أو بالأحرى المستعمرات التي أصبحت قواعد انطلاق للحملة الصليبية على الإسلام والمسلمين.

إن تاريخ الأمة خطَّ بهدي الإسلام وبدماء المجاهدين والشهداء،ولو كان الإسلام مجرد كلمات حق تقال دون قوة تحمي كلمة الحق وتنصرها لما قامت للإسلام دولة،بل الإسلام دين واقعي قد جمع بين الكتاب الهادي والجهاد الذي ينصر شريعة الكتاب،فهذه حقيقة يجب أن يدركها كل مسلم فعندما تكون عالما أو طبيبا أو مهندسا لا يمكن أن تبني حضارة إن لم تكن قبل ذلك مسلما صادقا مجاهدا،عندها فقط تستطيع أن تقيم دولة وتبني حضارة إذا كنت مجاهدا عالما أو مجاهدا طبيبا أو مجاهدا مهندسا،فإذا كان المسلمون يجاهدون في سبيل الله وفيهم العالم والطبيب والمهندس وغيرهم من أهل الاختصاص بعد ذلك فقط يقيمون دولة الإسلام ويبنون حضارة حقيقية،لأنهم بجهادهم في سبيل الله يحمون دولتهم وحضارتهم،وأما بدون الجهاد في سبيل الله فسوف يتخطفهم الأعداء،ويحكمون بلادهم،ويتداعون عليهم من كل صوب،ويستبيحون نفطهم ومعادنهم وخيراتهم.فعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»،فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ،وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ،وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:«حُبُّ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[٢٤٦٩]

وعنْ أبِي هُرَيْرة،قال:سمِعْتُ رسُول اللهِ – ﷺ – يقُولُ لِثوْبان:" كيْف أنْت يا ثوْبانُ،إذْ تداعتْ عليْكُمُ الْأُممُ كتداعِيكُمْ على قصْعةِ الطّعامِ تُصِيبُون مِنْهُ؟ " قال ثوْبانُ:بِأبِي وأُمِّي يا رسُول اللهِ،أمِنْ قِلّةٍ بِنا؟ قال:" لا،بلْ أنْتُمْ يوْمئِذٍ كثِيرٌ،ولكِنْ يُلْقى فِي قُلُوبِكُمُ الْوهنُ " قالُوا:وما الْوهنُ؟ يا رسُول اللهِ؟ قال:" حُبُّكُمُ الدُّنْيا وكراهِيتُكُمُ الْقِتال "[٢٤٧٠]

[٢٤٦٩] – سنن أبي داود (٤/ ١١١)(٤٢٩٧) صحيح

[٢٤٧٠] – مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ٣٣٢) (٨٧١٣) صحيح لغيره

" يُوشِكُ الْأُممُ) أيْ:يقْرُبُ فِرقُ الْكُفْرِ والضّلالةِ (" أنْ تداعى ")":حذف إِحْدى التّاءيْنِ،أيْ:تتداعى (عليْكُمْ):بِأنْ يدْعُو بعْضُهُمْ بعْضًا لِمُقاتلتِكُمْ وكسْرِ شوْكتِكُمْ وسلْبِ ما ملكْتُمُوهُ مِن الدِّيارِ والْأمْوالِ (كما تداعى) أيْ:تتداعى (الْأكلةُ) بِالْمدِّ،وهِي الرِّوايةُ على نعْتِ الْفِئةِ والْجماعةِ أوْ نحْوِ ذلِك،كذا روى لنا عنْ كِتابِ أبِي داوُد،وهذا الْحدِيثُ مِنْ أفْرادِهِ،ذكرهُ

والواجب على المجاهدين وعموم المسلمين أن يستبينوا سبيل المجرمين الصليبيين،وأن يعرفوا أساليبهم في المكر بالشعوب وتطويعها والسيطرة عليها واستباحة خيراتها،وهي أساليب مكررة استخدمها البريطانيون وغيرهم من المستعمرين في الماضي،ويستخدمها الآن الصليبيون من الأمريكان والبريطانيين وحلفائهم في أفغانستان والعراق وغيرها،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ» متفق عليه[٢٤٧١] .

الطِّيبِيُّ – رحمهُ اللّهُ –.ولوْ رُوِي الْأكلةُ بفتْحتيْنِ على أنّهُ جمْعُ آكِلٍ اسْمِ فاعِلٍ لكان لهُ وجْهٌ وجيهٌ،والْمعْنى:كما يدْعُو أكلةُ الطّعامِ بعْضُهُمْ بعْضًا (إلى قصْعتها) أي:الّتي يتناولُون منْها بلا مانِعٍ ولا مُنازِعٍ،فيأْكُلُونها عفْوًا صفْوًا،كذلك يأْخُذُون ما في أيْديكُمْ بلا تعبٍ ينالُهُمْ،أوْ ضررٍ يلْحقُهُمْ،أوْ بأْسٍ يمْنعُهُمْ.

(فقال قائلٌ:ومِنْ قِلّةٍ):خبرُ مُبْتدأٍ محْذُوفٍ،وقوْلُهُ:(نحْنُ يوْمئذٍ):مُبْتدأٌ وخبرٌ صفةٌ لها،أي:أذلك التّداعي لأجْلِ قِلّةٍ نحْنُ عليْها يوْمئذٍ (قال:" بلْ أنْتُمْ يوْمئذٍ كثْرةٌ ") أيْ:عددًا وقليلٌ مددًا،وهذا معْنى الاسْتدْراك بقوْله:(" ولكنّكُمْ غُثاءٌ ") بالضّمِّ ممْدُودًا.

قال الطِّيبِيُّ – رحمهُ اللّهُ –:(" كغُثاءِ السّيْلِ "):قال الطِّيبِيُّ بالتّشْديدِ أيْضًا ما يحْملُهُ السّيْلُ منْ زبدٍ ووسخٍ،شبّههُمْ به لقِلّةِ شجاعتهِمْ،ودناءةِ قدْرِهِمْ،وخِفّةِ أحْلامِهِمْ،وخُلاصتُهُ:ولكنّكُمْ تكُونُون مُتفرِّقِين،ضعيفِي الْحالِ،خفيفِي الْبالِ،مُشتّتِي الْآمالِ،ثُمّ ذكر سببهُ بعطْفِ الْبيانِ فقال:(وليَنْزعنّ) أيْ:ليُخْرجنّ (اللّهُ منْ صُدُورِ عدُوِّكُمُ الْمهابة) أي:الْخوْف والرُّعْب (منْكُمْ) أيْ:منْ جهتكُمْ (" وليقْذفنّ ") بضمِّ الْياءِ أيْ:وليرْمينّ أي:اللّهُ (" في قُلُوبِكُمُ الْوهْن ") أي:الضّعْف،وكأنّهُ أراد بالْوهْنِ ما يُوجبُهُ؛ولذلك فسّرهُ بحُبِّ الدُّنْيا وكراهةِ الْموْتِ حيْثُ قال:(قال قائلٌ:يا رسُول اللّه – ﷺ – وما الْوهْنُ)؟ أيْ ما سببُهُ وما مُوجبُهُ؟ قال الطِّيبِيُّ – رحمهُ اللّهُ –:سُؤالٌ عنْ نوْعِ الْوهْنِ،أوْ كأنّهُ أراد منْ أيِّ وجْهٍ يكُونُ ذلك الْوهْنُ (قال:" حُبُّ الدُّنْيا وكراهةُ الْموْتِ ") وهُما مُتلازِمان فكأنّهُما شيْءٌ واحدٌ،يدْعُوهُمْ إلى إعْطاءِ الدّنِيّةِ في الدِّينِ من الْعدُوِّ الْمُبِينِ،ونسْألُ اللّه الْعافية فقد ابْتُلينا بذلك،فكأنّما نحْنُ الْميِّتُون بما ذُكر هُنالك.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٦٥)والمفصل في فقه الجهاد – ط٢ (ص:٢٤٤٦)

[٢٤٧١] – صحيح البخاري (٨/ ٣١)(٦١٣٣) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥)٦٣ – (٢٩٩٨)

[ش(لا يلدغ..) اللدغ هو العض والإصابة من ذوات السموم كالعقرب والحية والجحر الثقب والمعنى أن المؤمن ينبغي أن يكون حذرا بحيث لا يخدع من جهة واحدة مرتين]

أَيْ:لِيَكُنْ الْمُؤْمِن حَازِمًا حَذِرًا ، لَا يُؤْتَى مِنْ نَاحِيَة الْغَفْلَة فَيُخْدَع مَرَّة بَعْد أُخْرَى،وَقَدْ يَكُون ذَلِكَ فِي أَمْر الدِّين كَمَا يَكُون فِي أَمْر الدُّنْيَا ، وَهُوَ أَوْلَاهُمَا بِالْحَذَرِ،وَقَال أَبُو عُبَيْد:مَعْنَاهُ وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ إِذَا نُكِبَ مِنْ وَجْه أَنْ يَعُود إِلَيْهِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الْأَكْثَر ، وَمِنْهُمْ الزُّهْرِيّ رَاوِي الْخَبَر،فَأَخْرَجَ اِبْن حِبَّان مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن عَبْد الْعَزِيز قَالَ:" قِيلَ لِلزُّهْرِيِّ لَمَّا قَدِمَ مِنْ عِنْدَ هِشَام بْن عَبْد الْمَلِك:مَاذَا صَنَعَ بِك؟ ، قَالَ:أَوْفَى عَنِّي دَيْنِي،ثُمَّ قَالَ:يَا اِبْنَ شِهَاب تَعُود تُدَان؟ ، قُلْت:لَا " وَذَكَرَ الْحَدِيث ، قَالَ اِبْن بَطَّال:وَفِيهِ أَدَب شَرِيف أَدَّبَ بِهِ النَّبِيّ ﷺ أُمَّته وَنَبَّهَهُمْ كَيْف يَحْذَرُونَ مِمَّا يَخَافُونَ سُوء عَاقِبَته،وَفِي مَعْنَاهُ حَدِيث " الْمُؤْمِن كَيِّس حَذِر " أَخْرَجَهُ صَاحِب " مُسْنَد الْفِرْدَوْس " مِنْ حَدِيث أَنَس بِسَنَدٍ ضَعِيف.فتح الباري لابن حجر – (ج ١٧ / ص ٣٢١)

فمن أساليب الغزاة المحتلين أن يستخدموا الشعارات المزخرفة المزينة المضللة:كالديمقراطية والحرية[٢٤٧٢] وغيرها كغطاء لأهدافهم الشريرة اللئيمة،وإجرامهم المبيت الدفين وقد قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)} [آل عمران:١١٨ - ١٢٠]،فيتوصلون من خلال صنيعتهم الديمقراطية إلى السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية على بلاد المسلمين.

ومن أساليبهم أن يستخدوا الديمقراطية لتمزيق الأمة وإضعافها من خلال الأحزاب اللادينية المرتبطة بالغزاة المحتلين،التي تنادي بالردة البواح والعصبية القومية المقيتة،فهذا الحزب ينادي بالاشتراكية بديلا عن الإسلام،وذاك ينادي بالشيوعية،والآخر ينادي بالديمقراطية،والرابع ينادي بالقومية،وهلم جرا من الشعارات والمسميات،التي أدت بالأمة إلى التمزق والتشرذم والضعف،وشتت صف المسلمين،وصدت عن الإيمان والجهاد في سبيل الله،وهي بهذا هيأت البلاد ومهدتها للاحتلال ثم تعاونت مع المحتلين في تضليل الناس وإشغالهم - بالديمقراطية وشعاراتها وانتخاباتها واستفتاءاتها العامة وغيرها من الضلالات وتوافه الأمور- عن واقع الاحتلال وخطره عن الأمة،وتبرر هذه الأحزاب جرائم المحتلين،وتقوم بالدعاية والترويج لبرامجهم وأهدافهم،وتدافع عن عملاء الاحتلال المرتدين من سياسيين أو إعلاميين أو عسكريين،وتشن حربا جائرة على كل مسلم يسعى لدفع الصليبيين(وأعوانهم) وتطهير البلاد من كفرهم وخبثهم ثم بعد جلاء الاحتلال عن البلاد تتولى هذه الأحزاب مواصلة ما بدأه الغزاة.

[٢٤٧٢] - انظر كتابي " مفهوم الحرية بين الإسلام والجاهلية "

ومن أساليب الغزاة أن يقدموا عملاءهم كوزراء ومسؤولين ثم يوجهون في الخفاء من خـــلال المستشارين وغيرهم من اليهود والنصارى الذين يملون عليهم سياسة البلاد.
ومن أساليب الغزاة المستعمرين:أن يفرضوا على الشعب الذي تحت الاحتلال النظام اللاديني (العلماني) بالقوة والقهر،وبعد أن يستقر النظام الذي ارتضوه وجاءوا به،يـــدعون النـــاس أن ينتخبوا رئيسا لهم من المرشحين الديمقراطيين بعد أن ضمنوا أن اختيار الشعب لن يخرج عـــن النظام العلماني الذي جاءوا به،وعن عملائهم المرشحين للرئاسة.
ومن أساليب الغزاة:أن يستخدموا الديمقراطية التي هي من أغلظ أنواع الكفر بالله وبرسوله ﷺ لمحاربة المسلمين في دينهم الذي هو مصدر عزتهم وقوتهم،فتحت شعار الديمقراطية والحرية تفتح أبواب الكفر على مصراعيها،وتستباح الفواحش كالزنا واللواط والسحاق وما يسمونه بزواج المثليين وغيرها من القبائح والرذائل.[٢٤٧٣]
ومن أساليب الغزاة المستعمرين:أن يستخدموا الطوائف المعادية للأمـــة المتغلغلـــة في داخلـــها لتحقيق أهدافهم كالرافضة السبئية والنصيريين والدروز والنصارى كالموارنة والأقباط والأنظمة والأحزاب العميلة المرتدة،ويستخدمون شعار حقوق الأقليات للتدخل في شؤون الآخرين.
"ولن تحصل هذه الأقليات على حقوقها الحقيقية إلا في ظل الإسلام،والإســـلام وحـــده،قال تعالى:{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } [آل عمران:٨٣]"[٢٤٧٤]

[٢٤٧٣] - قلت:الديموقراطية لا يجوز أخذها في بلاد الإسلام كما هي عليه في بلاد الكفر قطعاً ؛لأنها كما قال المؤلف رحمه،ولكن يستفاد من تطبيقاتها العملية بعد أسلمتها وحذف ما يخالف شرعنا الحنيف،والذين يريدون فرض الديموقراطية على المسلمين بعجرها وبجرها هؤلاء لا يفقهون شيئا،بل هم عملاء لأعداء الإسلام بيقين عرفوا أم لم يعرفوا،بل تصادر الديموقراطية إذا كانت للمسلمين فيها منفعة كما حدث في الجزائر عام ١٩٩٢ بعد الانتخابات البلدية ......

[٢٤٧٤] - إنه لا يتولى عن اتباع هذا الرسول إلا فاسق.ولا يتولى عن دين الله إلا شاذ.شاذ في هذا الوجود الكبير.ناشز في وسط الكون الطائع المستسلم المستجيب.إن دين الله واحد،جاءت به الرسل جميعا،وتعاقدت عليه الرسل جميعا.وعهد الله واحد أخذه على كل رسول.والإيمان بالدين الجديد واتباع رسوله،ونصرة منهجه على كل منهج،هو الوفاء بهذا العهد.فمن تولى عن الإسلام فقد تولى عن دين الله كله،وقد خاس بعهد الله كله.

والإسلام - الذي يتحقق في إقامة منهج الله في الأرض واتباعه والخلوص له - هو ناموس هذا الوجود.وهو دين كل حي في هذا الوجود.

ومن أساليب الغزاة الصليبيين:أن يزجوا بعملائهم المرتدين في المواجهات والمعارك مع المجاهدين لتقليل الخسائر في صفوفهم،فلا ضير عندهم أن تسيل دماء العملاء الرخيصة إذا كان هـــذا في حماية جنودهم.

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام.صورة كونية تأخذ بالمشاعر،وترتجف لها الضمائر ..

صورة الناموس القاهر الحاكم،الذي يرد الأشياء والأحياء إلى سنن واحد وشرعة واحدة،ومصير واحد.

«وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» ..فلا مناص لهم في نهاية المطاف من الرجوع إلى الحاكم المسيطر المدبر الجليل ..

ولا مناص للإنسان حين يبتغي سعادته وراحته وطمأنينة باله وصلاح حاله،من الرجوع إلى منهج الله في ذات نفسه،وفي نظام حياته،وفي منهج مجتمعه،ليتناسق مع النظام الكوني كله.فلا ينفرد بمنهج من صنع نفسه،لا يتناسق مع ذلك النظام الكوني من صنع بارئه،في حين أنه مضطر أن يعيش في اطار هذا الكون،وأن يتعامل بجملته مع النظام الكوني ..والتناسق بين نظامه هو في تصوره وشعوره،وفي واقعه وارتباطاته،وفي عمله ونشاطه،مع النظام الكوني هو وحده الذي يكفل له التعاون مع القوى الكونية الهائلة بدلا من التصادم معها.وهو حين يصطدم بها يتمزق وينسحق أو لا يؤدي – على كل حال – وظيفة الخلافة في الأرض كما وهبها الله له.وحين يتناسق ويتفاهم مع نواميس الكون التي تحكمه وتحكم سائر الأحياء فيه،يملك معرفة أسرارها،وتسخيرها،والانتفاع بها على وجه يحقق له السعادة والراحة والطمأنينة،ويعفيه من الخوف والقلق والتناحر ..الانتفاع بها لا ليحترق بنار الكون،ولكن ليطبخ بها ويستدفئ ويستضيء! والفطرة البشرية في أصلها متناسقة مع ناموس الكون،مسلمة لربها إسلام كل شيء وكل حي.فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس لا يصطدم مع الكون فحسب،إنما يصطدم أولا بفطرته التي بين جنبيه،فيشقى ويتمزق،ويحتار ويقلق.ويحيا كما تحيا البشرية الضالة النكدة اليوم في عذاب من هذا الجانب – على الرغم من جميع الانتصارات العلمية،وجميع التسهيلات الحضارية المادية! إن البشرية اليوم تعاني من الخواء المرير.خواء الروح من الحقيقة التي لا تطيق فطرتها أن تصبر عليها ..حقيقة الإيمان ..وخواء حياتها من المنهج الإلهي.هذا المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون الذي تعيش فيه.

إنها تعاني من الهجير المحرق الذي تعيش فيه بعيدا عن ذلك الظل الوارف الندي.ومن الفساد المقلق الذي تتمرغ فيه بعيدا عن ذلك الخط القويم والطريق المأنوس المطروق! ومن ثم تجد الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب وتحس الخواء والجوع والحرمان وتهرب من واقعها هذا بالأفيون والحشيش والمسكرات وبالسرعة المجنونة والمغامرات الحمقاء،والشذوذ في الحركة واللبس والطعام! وذلك على الرغم من الرخاء المادي والإنتاج الوفير والحياة الميسورة والفراغ الكثير ..لا بل إن الخواء والقلق والحيرة لتتزايد كلما تزايد الرخاء المادي والإنتاج الحضاري واليسر في وسائل الحياة ومرافقها.إن هذا الخواء المرير ليطارد البشرية كالشبح المخيف.يطاردها فتهرب منه.ولكنها تنتهي كذلك إلى الخواء المرير! وما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية في الأرض حتى يكون الانطباع الأول في حسه أن هؤلاء قوم هاربون! هاربون من أشباح تطاردهم.هاربون من ذوات أنفسهم ..وسرعان ما يتكشف الرخاء المادي والمتاع الحسي الذي يصل إلى حد التمرغ في الوحل،عن الأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والقلق والمرض والجنون والمسكرات والمخدرات والجريمة.وفراغ الحياة من كل تصور كريم! إنهم لا يجدون أنفسهم لأنهم لا يجدون غاية وجودهم الحقيقية ..إنهم لا يجدون سعادتهم لأنهم لا يجدون المنهج الإلهي الذي ينسق بين حركتهم وحركة الكون،وبين نظامهم وناموس الوجود ..إنهم لا يجدون طمأنينتهم لأنهم لا يعرفون الله الذي إليه يرجعون ..في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٦٩١)

ومن أساليب المحتلين وأخطرها وأخفاها:أن الغزاة يستعدون لجميع الاحتمالات ومنها إخراجهم بالقوة من البلاد التي اغتصبوها،ولهذا فهم يستعدون لهذه المرحلة بمحاولة إبراز شخصيات تتوافق معهم عقائديا وفكريا،ويظهروها في وسائل الإعلام كقيادات للمقاومة وللشعب،حتى يضمنوا قبول الكثير من الناس لها والتفافهم حولها،ثم يتفاوضون معها ويسلموها السلطة في البلاد،وقد يذهبون إلى أبعد من هذا فيبحثون عن بعض المنافقين المندسين بين صفوف المجاهدين ليسلموهم البلاد بعد أن يضمنوا قيامهم بتحقيق أهدافهم ومحاربتهم للإسلام وغدرهم بالمجاهدين الصادقين.

والغزاة لهم من أساليب المكر والدهاء التي قد تنطلي على البعض لشق صف المجاهدين والتفريق بينهم،ومن ذلك أن يسموا البعض بالمقاومة أو بالمقاومة الوطنية ويسموا بقية المجاهدين بالإرهابيين حتى يستميلوا من يسموهم بالمقاومة إليهم ويبعدوهم عن المجاهدين،وسوف يجدون من المذبذبين الخائفين من الوصف بالإرهاب من يستجيب لمكرهم ويرضى لنفسه أن يكون أضحوكة وألعوبة للصليبيين الغزاة.

ومن أساليب الصليبيين أن يسعوا لحصر المعركة في بلاد المسلمين،وهو ما دعا إليه قائدهم جورج بوش،ومن جاء بعده،والواجب على المجاهدين ألا يقتصروا على جهاد الصليبيين في بلاد المسلمين فحسب،بل لا بد أيضا من جهادهم في دولهم ونقل المعركة إلى مدنهم،وهذا من أعظم ما يخشاه الصليبيون الذين اعتادوا حياة التنعم والمتعة،فلا يتحملون أن ينغص عليهم عيشهم،وأن يسيطر عليهم في تصرفاتهم وتقلباتهم اليومية الشعور بالرعب والخوف والترقب.

فنقل المعركة إلى أرض العدو،ومسهم بلظى الحرب في دارهم له آثاره الكبيرة والمزلزلة للأعداء التي تصيبهم في مناحي حياتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية والأمنية والنفسية.

وعلى المجاهدين أن يجتهدوا في دعوة المسلمين إلى التوبة والاستقامة،فإن الشدة والابتلاء تقرب الكثير من الناس في أرض الجهاد من الخير والصلاح،فيجب أن تكون دعوتهم أولا إلى توحيد الله تعالى واجتناب الشرك بأنواعه ومنها تحكيم غير شرع الله تعالى في البلاد،فإن من أهم الأمور أن يلتف المسلمون حول المجاهدين في السعي لإقامة شرع الله تعالى في الأرض حتى لا يجد المجاهدون أنفسهم بعد النصر على الأعداء دون مؤيدين وأنصار على إقامة دولة

الإسلام،وحتى لا يخطف المرتدون ثمرة النصر ويقيموا حكومة كافرة بالله تعالى،وهذا يؤكـد ضرورة نفير الكثير من أهل العلم إلى أرض الجهاد لاسيما في العراق وغيرها لنصرة المسـلمين ولدعوتهم وتبيين الحق لهم والدفاع عن قضيتهم.

الإعداد

لقد أمر الله تعالى بالإعداد للجهاد،والأخذ بجميع أساليب وأسباب القوة التي تخيف الأعـداء وترهبهم وتردعهم،كما قال تعالى:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِـنْ رِبَـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُـوا مِـنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠]

يَأْمُرُ اللهُ المُسْلمينَ بالاسْتعْدَاد للْحَرْب،وَبإعْدَاد آلاتهَا لمُقَاتَلَة الكُفَّـار،وَدَفْع العُـدْوَان،وَحفْظ الأَنْفُس،وَالحَقِّ وَالفَضيلَة،حَسَبَ الطَّاقَة وَالاسْتطَاعَة:منْ خَيْلٍ وَسلاَحٍ وَعُدَدٍ وَمُؤَنٍ وَتَـدْريبٍ وَعلْمٍ وَكُلَّ مَا يَدْخُلُ فِي تَعْرِيفِ القُوَّة التي تُمَكِّنُ الأُمَّةَ منْ مُقَاوَمَة خُصُومهَا،بحَسَب مَفْهُوم العَصْر،وَذَلكَ لإرْهَاب الكُفَّار - منْ قُرَيْشٍ وَمنْ غَيْـرهمْ - أَعَـدَاء الله،وَأَعْـدَاء الإسْـلاَم وَالمُسْلمينَ،وَلإرْهَاب الأَعْدَاء الآخَرينَ منْ مُنَافقينَ وَيَهُود يُجَاورُونَ المُسْلمينَ في المَدينَة وَمَـنْ حَوْلَهَا وَغَيْرهمْ،ممَّنْ لاَ يَعْلَمُهُمْ رَسُولُ الله وَالمُسْلمُونَ،وَلَكنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُـمْ.وَيُخْبِـرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ أَنَّ كُلَّ نَفَقَة يُنْفقُونَهَا في الجهَاد وَالاسْتعْدَاد للْحَرْب،سَـتُوَفَّى إلَـيْهمْ بالتَّمَـام وَالكَمَال،وَلاَ يَبْخَسُ اللهُ أَحَداً منْهُمْ شَيْئاً.[٢٤٧٥]

إن المجتمع الإسلامى ـــ كأي مجتمع في الحياة ـــ له ذاتيته المتميزة،وله وجهتـه وفلسـفته في الحياة ..وطبيعي أن تقوم في ظلّ هذه المعـاني عصـبية،هي الـتي تجتمـع عليهـا الأمـم والشعوب،وتقيم منها وحدة مميزة في مشاعرها،ومنازع أفكارها،ومتجه سلوكها ..كما كان لا بد أيضا أن يتعصب على هذه الأمم وتلك الشعوب أعداء يخافون قوتهـا،أو يطمعـون في ضعفها،ومن هنا يكون الصراع الذي لا بد منه في الحياة،والذي لا بد له من قوة،ولا بد لهذه

[٢٤٧٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٢١،بترقيم الشاملة آليا)

القوة من سيف،بل ومن سيوف! ونعود فنذكّر من نسى،فنقول:إن اليوم الـــذي تخلّـــى فيـــه المسلمون عن القوة،كان هو اليوم الذي فيه حينهم ومصرعهم،بأيدي من يملكون القوة ..
ثم لم يكـــن للمســـلمين مـــن قـــوة يســـتندون إليهـــا إلا الإســـلام،الذي مـــنحهم الإيمان،والصبر،والعزم،وعمر قلوبهم باليقين بأن شاطىء النجاة قريب منهم،إن هـــم تمسّـــكوا بدينهم،وقاموا على شريعته،وأخذوا بهديه،والتمسوا أسباب القوة المادية التي أمرهم الله بهـــا فى قوله تعالى:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» إلى جانب القوة الروحية التي عمر الإسلام قلوبهم بها ..ومن خلال هذه المشاعر كانت تنقدح فى صدور المسلمين شـــرارات الأمـــل والرجاء،فيشـــتدّ عزمهم،ويقـــوى إيمانهم،وتـــذهب وحشتهم،وهم فى صحبة دينهم،وفي ظلّ مما يفيء عليهم من خيره الكثير.التفســـير القـــرآني للقرآن ـــ دار الفكر العربي – القاهرة [٥/ ٦٦٤]

من أساليب الحرب النفسية ـــ تخويف العدو وإرهابه،بما يرى فى جيش المجاهدين من أمـــارات القوة،ووسائل الغلب ..وشبيه بهذا ما تقوم به الأمم من عـــرض قوتهـــا فى تلـــك العـــروض العسكرية،التي تكشف بها عن بعض عددها وعتادها،على حين أنها إذ تكشـــف عـــن بعـــض قوتها،فإنها تشير إلى أن وراء هذا الذي أعلنته قوى كثيرة خفية،أشد أثرا،وأقوى فتكا،من هذا الذي عرف الناس أمره،وأن ذلك سرّ من أسرارها الحربية،التي لا تظهر إلا عند الحرب!!.
ولهذا الجانب من الحرب النفسية أثر كبير فى كسر شوكة العدو،وفى قتل مطامعه فى النّيل من عدوه،فلا يقدم على العدوان وهو يرى هذه القوى المهيأة للحرب،الراصدة لكل عدو ..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَـــدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» (٦٠:الأنفال).كل هذا الذي يراه العدو في جيش المســـلمين،من اســـتخفاف بالموت،وإيثار للموت فى سبيل الله على الحياة،والثبات في ميدان المعركـــة حـــتى النصـــر أو الموت،والإعداد الدائم لعدد الحرب ورجالها ـــ كل هذا يبعث الرعب فى قلوب الأعداء الذين يواجهون مثل هذا الجيش،الذي لا يرجع من المعركة إلا منتصرا،أو مستشهدا ..وإلى هذا يشير الرسول – ﷺ – فى قوله فى مقام تعداد فضل الله سبحانه وتعالى عليه،إذ يقـــول:«ونصـــرت بالرعب مسيرة شهر» أي أن أعداءه المحـــيطين به،يجـــدون فى أنفســـهم رهبـــة لـــه،ولجيش

المسلمين،وذلك على امتداد مسيرة شهر بينه وبينهم،لما يتناقل الناس مـن أخبـار المجاهـدين المسلمين،واسترخاصهم لنفوسهم فى ميدان القتال،حتى ليكون ذلك حـديث الـدنيا كلـها فالاستعداد[٢٤٧٦] بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد والنص يأمر بإعـداد القـوة علـى اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند مـن كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة ..ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين ممـا سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - والمهـم هـو عموم التوجيه:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلـق بهـا في «الأرض» لتحرير «الإنسان» ..

وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة:أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها،ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها ..

والأمر الثاني:أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسـلام» الـتي تحميها تلك القوة ..

والأمر الثالث:أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعـداء أن لا يفكـروا في الوقـوف في وجـه المـد الإسلامي،وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها ..

والأمر الرابع:أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية،فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه ..

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب،وتنظيما للشـعائر،ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية.فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الرباني - من تحطيم تلك القـوى المادية،وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى،وتقاوم المنهج الرباني ..

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة ..ينبغـي ألا يستشـعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني.ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلـق

[٢٤٧٦] - التفسير القرآني للقرآن ـــ دار الفكر العربي - القاهرة [١٣/ ٣٨٤]

لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير سلطان زعيم،أو دولة،أو طبقة،أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية ..إنما ينطلق بمنهج من صنع الله العليم الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعبيد ..

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي.

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة.فالنص يقول:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها.بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها.

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة:«تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ،وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» ..

فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض.الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم،أو لم يجهروا لهم بالعداوة،والله يعلم سرائرهم وحقائقهم.وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم.والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء،وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة الله هي العليا،وليكون الدين كله لله.

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالا،وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل،فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله:«وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ» ..

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله،من كل غاية أرضية،ومن كل دافع شخصي ومن كل شعور قومي أو طبقي،ليتمحض خالصا لله «في سبيل الله» لتحقيق كلمة الله،ابتغاء

رضوان الله.واحدا من الحركة ..حركة الجهاد في سبيل الله ..والله – سبحانه – لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب.إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته.وهو غني عن العالمين.ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.

ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه – منذ الوهلة الأولى – كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول.

وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق.وكل حرب تقوم للقهر والإذلال.وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن،أو قوم على قوم،أو جنس على جنس،أو طبقة على طبقة ..ويستبقي نوعا واحدا من الحركة ..حركة الجهاد في سبيل الله ..والله – سبحانه – لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب.إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته.وهو غني عن العالمين.ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.[٢٤٧٧]

قال المؤلف رحمه الله :"وقد جعل الله تعالى علة الحكم إرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين،فالعلة هي الإرهاب،والحكم وجوب إعداد القوة،والحكم يدور مع علته وجودا وعدما،أي أن كل ما يحصل به إرهاب الأعداء من أسباب القوة،فالأمة مأمورة بتحصيله،وهذا يختلف باختلاف الزمان،فكل زمان له ما يناسبه من الأسلحة،وأسباب القوة التي ترهب الأعداء.

فالحكم عام لعموم العلة،فيجب على الأمة أن تتخذ من الأسلحة،وأسباب القوة ما يرهب الأعداء ويخيفهم،كالرشاشات الصغيرة والكبيرة،والدبابات،والمدرعات،والطائرات،والسفن الحربية،وجميع الأسلحة البرية،والجوية،والبحرية،وكذلك الأسلحة النووية،والكيماوية،والجرثومية،لما فيها من إرهاب الأعداء،وردعهم عن العدوان على المسلمين بمثل هذه الأسلحة وغيرها،وقد بين تعالى في قوله:{تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ} أن هذا الإرهاب موجه إلى أعداء الله وأعداء المسلمين من

[٢٤٧٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٨٧)

الكفار،وآخرين مختفين غير ظاهرين،وهم المنافقون،وليس موجهـا للمسـلمين،كما يحـاول الصليبيون وعملاؤهم المفترون أن يصوروه للناس في وسائل إعلامهم لغرض صد المسلمين عن الجهاد في سبيل الله ونصرة المجاهدين،وإرهابهم بمصطلح الإرهاب.

والحق أن الأمة مقصرة في إعداد العدة الواجبة التي ترهب الأعداء،فلو كانت الأمة مرهوبة من أعدائها،لما استباحها الصليبيون واليهود وحلفاؤهم،وتداعوا من كل صوب علـى محاربتـها واقتسام أراضيها،ونهب نفطها وخيراتها.

ومن وسائل الإعداد الواجبة التصنيع العسكري،وقد قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد:٢٥]

لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ بِالمُعْجِزَاتِ وَالحُجَجِ الدَّالَّةِ عَلَى إِرْسَـالِ الرُّسُـلِ مِـنَ اللهِ إِلَـى أَقْوَامِهِمْ،وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الكُتُبَ وَالشَّرَائِعَ،فِيهَا الهِدَايَةُ لِلنَّاسِ،وَفِيهَا صَلاَحُ أُمُورِهِمْ،وَأَمَرَهُمْ بِـأَنْ يَتَعَامَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالعَدْلِ،وَبِأَلاَّ يَظْلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَداً.وَلَمَّا كَانَ لاَ بُدَّ لإِقَامَةِ العَدْلِ مِنْ سُلْطَةٍ وَقُوَّةٍ وَسِلاَحٍ،لِذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الحَدِيدَ تُصْنَعُ مِنْهُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ وَالدُّرُوعُ وَعُـدَدُ الحُرُوبِ،التي تَرْدَعُ مَنْ يَتَجَاوَزُ الحُدُودَ،وَيَأْبَى إِقَامَةَ العَدْلِ،بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.كَمَا جَعَـلَ اللهُ فِي الحَدِيدِ مَنَافِعَ لِلنَّـاسِ،يَنْتَفِعُونَ بِـهِ فِـي أُمُـورِ دُنْيَاهُمْ،وَمَعَايِشِـهِمْ،كَأَدَوَاتِ العَمَـلِ وَالحَرْثِ...وَالسِّلاَحِ والسُّفُنِ...وَإِنَّمَا فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ مَنْ يَنْوِي اسْتِعْمَالَ السِّلاَحِ فِي نَصْرِ دِينِ اللهِ،وَمَنْ يَنْوِي اسْتِعْمَالَهُ فِي الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَاللهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْـرِ احْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى الخَلْقِ،وَإِنَّمَا شَرَعَ الجِهَادَ لِيَبْلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.[٢٤٧٨]

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيته.

{وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ} وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلهـا الله لهدايـة الخلـق وإرشادهم،إلى ما ينفعهم في دينـهم ودنيـاهم،{وَالْمِيـزَانَ} وهـو العـدل في الأقـوال والأفعال،والدين الذي جاءت به الرسل،كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معـاملات

[٢٤٧٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٧٨،بترقيم الشاملة آليا)

الخلق،وفي الجنايات والقصاص والحدود [والمواريث وغير ذلك]،وذلك {لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} قياما بدين الله،وتحصيلا لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها،وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع،وهو القيام بالقسط،وإن اختلفت أنواع العدل،بحسب الأزمنة والأحوال،{وَأَنزلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} من آلات الحرب،كالسلاح والدروع وغير ذلك.

{وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف،والأواني وآلات الحرث،حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.{وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} أي:ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد،فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب،التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة،التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها،لأنه حينئذ يكون ضروريا.

{إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} أي:لا يعجزه شيء،ولا يفوته هارب،ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية،ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه،ولكنه يبتلي أولياءه بأعدائه،ليعلم من ينصره بالغيب،وقرن تعالى في هذا الموضع بين الكتاب والحديد،لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه،ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله،وكلاهما قيامه بالعدل والقسط،الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،[ص:٨٤٣] وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله.[٢٤٧٩]

نظر أكثر المفسرين إلى «الحديد» هنا،على أنه إنما ذكر فى معرض التعداد لنعم الله على عباده،وأنه إذا كان بعث الرسل نعمة من أجلّ النعم،فإن الحديد كذلك نعمة من النعم العظيمة،التي يدفع به الناس عدوان بعضهم على بعض،كما يتخذون منه أدوات كثيرة غير أدوات الحرب والقتال.عند هذه النظرة وقف المفسرون..ولم نر أحدا- فيما بين أيدينا من كتب التفاسير- قد جاوز هذه النظرة،وجعل للحديد شأنا غير هذا الشأن الذي له فى حياة الناس،كمعدن من المعادن التي بين أيديهم..وأول ما يلفت النظر من أمر الحديد هنا،هو أنه خصّ بالذكر من بين المعادن كلها،وهو ليس أكثرها فائدة،ولا أعظمها نفعا.ثم إنه مع الاختصاص بهذا الذكر من بين المعادن،قد ازداد شرفا وعظم قدرا بأن سميت سورة كريمة من

[٢٤٧٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٤٢)

سور القرآن الكريم به..وإذا كان الأمر كذلك،فإنه لا بد أن يكون للحديد هنا شأن غير شأنه المعروف،بمعنى أن ذكره فى مواجهة ذكر بعثة الرسل،وما يحملون من آيات الله وكلماته،لا بد أن يكون مقصودا لأكثر من معنى غير المعنى المعروف له..

والذي وقع لمفهومنا من ذكر الحديد هنا- والله أعلم- هو أنه يشير إلى ما يحمل الرسل إلى الناس من وعد،ووعيد،ومن يد تمتد بالخير والنجاح،والسلامة لمن يستجيبون لهم،وينضوون تحت أجنحتهم،ويد تمتد بالبلاء،والهلاك لمن يلقونهم بالعناد،ويرجمونهم بالسفاهات والضلالات..

فمع كل رسالة كل رسول من رسل الله،بشريات ومهلكات،بشريات للمؤمنين،ومهلكات للمكذبين،وفى أعقاب كل دعوة من دعوات الرسل حصاد كثير،بعضه للصون والحفظ،وبعضه للضياع والانحلال..فالناس قبل بعثة الرسول إليهم يتركون لما هم فيه،من خير وشر،ومن هدّى وضلال،فإذا جاءهم رسول من رسل الله،وبلغهم رسالة ربه،قامت عليهم الحجة،وأخذوا بما أنذروا به،كما يقول سبحانه:«وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (١٥:الإسراء) .

فآيات الله التي يترلها للناس على يد رسله هى أشبه بالحديد،فيه بأس شديد ومنافع للناس..ولهذا أشير إلى الحديد هنا بقوله تعالى:و «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» فالحديد هنا هو البأس الذي يترل مع آيات الله،وهو الزواجر التي تحلّ بالمكذبين المحاربين لله ولرسله..والحديد أيضا هو هذا الخير الكثير الذي تتلقاه النفوس المهيأة للإيمان من آيات الله وكلماته المترلة على الرسل..وهذا لا يمنع من أن تبقى للحديد صفته المادية التي يعرف بها،فيتخذ منه فيما يتخذ أدوات الحرب للجهاد فى سبيل الله،وأنه كما يجاهد الرسل والمؤمنون معهم،أعداء الله بألسنتهم،فإنهم يجاهدون بأيديهم،ويدفعون بغيهم وعدوانهم بسيوفهم.وقدّم ما فى الحديد من بأس شديد على ما فيه من منافع،لأن أكثر ما تنجلى عنه دعوة رسل الله،هو هلاك الأكثرين،ونجاة القليلين.كما يقول سبحانه عن دعوة نوح عليه السلام:«وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» (٤٠:هود) وكما يقول سبحانه مخاطبا النبي الكريم.«وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» (١٠٣:يوسف) .

قوله تعالى:«وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ» – هو معطوف على قوله تعالى «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» ..فهو تعليل آخر يكشف عن وجه ثان من وجوه الحكمة فى بعثة الرسل،وما يضع الله سبحانه وتعالى فى أيديهم من معجزات،وما يترل عليهم من آياته وكلماته..

والحكمة الأولى من بعثة الرسل هى هداية الناس،وإقامتهم على طريق الحق والعدل..

والحكمة الثانية،هى أن تنكشف بدعوة الرسل أحوال الناس،وما يكونون عليه من إيمان وكفر..فيحاسب كل بما انكشف منه،وإنه لا حساب ولا جزاء إلا عن ابتلاء واختيار..فقوله تعالى «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ،بِالْغَيْبِ» – بيان لما ينكشف عنه أمر الناس من دعوة رسل الله إليهم،فعلى ضوء هذه الدعوة يعرف من هم أعداء الله،ومن هم أولياؤه،ومن يحارب دعوة الله،ومن ينتصر لها،ويدافع عنها.

وفى اختصاص الذين يؤمنون بالله،وينصرون دعوته،ويؤازرون رسله– فى اختصاص هؤلاء بالذكر– إشارة إلى أنهم هم أصحاب هذه الدعوة،وأنها فى حقيقتها إنما جاءت لتقودهم إلى الله،وقد انقادوا فعلا..أما أولئك الذين كذبوا بآيات الله،وأبوا أن يستجيبوا لدعوته،فإنهم إنما كانوا شيئا عارضا فى طريق الدعوة الموجهة إلى من هم أهل لإجابتها،وإن كانت قد وجهت إليهم الدعوة ضمنا..إن ذلك أشبه بمن يبذر بذرا،ثم يسوق إليه الماء،فإذا ظهر الزرع على وجه الأرض،ظهرت معه بعض الحشائش الضارة،التي لا يجد الزارع بدّا من اقتلاعها حتى يسلم ما زرع..!

وعلم الله سبحانه علم قديم أزلىّ،وهو غيب عن الناس،فإذا وقع من هذا العلم شىء فى الحياة وعلمه الناس،كان علما للناس،وهو فى الوقت نفسه من علم الله،وعلم الله تعالى حينئذ،علم لما وقع،وهو فى علم الله قبل أن يقع..فعلم الله سبحانه واقع على الأمور فى كل حال من أحوالها،وفى كل زمان من أزمانها.وقوله تعالى «بالغيب» متعلق بالفعل فى قوله تعالى:«مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ» أي وليعلم الله من ينصره ورسله فى غير مشهد من الناس،أي عن إيمان قد استقر فى القلب،واستولى على المشاعر..وخص النصر لله ولرسله بالذكر فى تلك الحال– حال الغيب– لأنه هو النصر الذي يصدر عن صدق،وعن يقين،وهو النصر الذي لا ينقطع أبدا فى سر أو جهر،وفى قول أو عمل..أما النصر الذي يكون بمشهد من الناس فقد يكون عن

إيمان،وقد يكون عن نفاق،ورياء،ومصادفة..ولهذا فإن المعوّل عليه،هو مـــا فى القلـــوب مـــن إيمان،وما انعقدت عليه النيات من إخلاص..فإذا صدقت القلوب وأخلصت النيات،صـــحت الأعمال،ووقعت موقع الرضا والقبول عند الله.

وقوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» – إشارة إلى أن نصر المؤمنين لله،ولرسل الله،ليس لحاجة الله سبحانه إلى من ينصره وينصر رسله،فهو سبحانه القوى الذي لا يملك معه أحـــد قوة،وهـــو العزيز الذي يملك العزة جميعا،فلا يدخل على عزته- جل شأنه- ضيم أو جور،تعالى الله عـــن ذلك علوّا كبيرا..وأن ما يطلبه سبحانه من المؤمنين من نصره ونصر رسله،هو فضل من فضل الله على المؤمنين،إذ ندبهم لأمر هو فى غنى عنه،وذلك لينالوا أجرا،وليكسبوا خيرا..وهذا مثـــل قوله تعالى فى دعوته إلى الإنفاق فى سبيل الله،وفى التعقيب على هذا بقوله:«وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» [2480].

فقوله تعالى:{وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} أي آلات الحرب والصناعات العسكرية بجميع أنواعها التي تصنع من الحديد،وقوله تعالى:{وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} أي سائر الصناعات النافعـــة مـــن آلات وسيارات وأواني وغيرها،ثم قال تعالى:{وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ}،فـــأنزل الله تعالى الكتاب والحديد ابتلاءً للعباد حتى يتبين من ينصر الله تعالى ورسله علـــيهم الصـــلاة والسلام بالكتاب الهادي وبالسلاح الذي ينصـــر،فالكتاب يتضـــمن شـــرع الله والأوامـــر والنواهي،والجهاد يقيم شرع الله تعالى في الأرض وينصره،ولا تقوم دولة الإسلام إلا بالكتاب والجهاد،وهذا ما كان عليه نبينا ﷺ وسار عليه صحابته رضي الله عنهم من بعـــده،ومن أراد نصرة الإسلام بغير هذا الطريق فقد ضل سواء السبيل.

فالرسالة واحدة في جوهرها،جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها،ومعظمهم جاء بـــالمعجزات الخوارق.وبعضهم أنزل عليه كتاب.والنص يقول:«وَأَنْزَلْنـــا مَعَهُـــمُ الْكِتـــابَ» بوصـــفهم وحدة،وبوصف الكتاب وحدة كذلك،إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها.«وَالْمِيزانَ» ..مع الكتاب.فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانـــا ثابتـــا ترجـــع إليـــه البشرية،لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال وتقيم عليه حياها في مأمن من اضطراب

[2480] – التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٧٨٧)

الأهواء واختلاف الأمزجة،وتصادم المصالح والمنافع.ميزانا لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع،ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف،ومصطخب المنافسة وحب الذات.فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر،فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة.«لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» ..فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته،لا يهتدي الناس إلى العدل،وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه،وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء! «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ،وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ» ..

والتعبير (بأنزلنا الحديد) كالتعبير في موضع آخر بقوله:«وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ».كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث،فهي متزلة بقدره وتقديره.فوق ما فيه هنا من تناسق مع جو الآية،وهو جو تتريل الكتاب والميزان،فكذلك ما خلقه الله من شيء مقدر تقدير كتابه وميزانه.أنزل الله الحديد «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» ..وهو قوة في الحرب والسلم «وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ» ..وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد.«وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ».وهي إشارة إلى الجهاد بالسلاح تجيء في موضعها في السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال.ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب،عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم لله ورسله،فهو نصر لمنهجه ودعوته،أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر:«إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ».[٢٤٨١]

ومن الإعداد الواجب الإعداد الإيماني والتربوي بدعوة المسلمين إلى التوبة والاستقامة على طاعة الله تعالى،فإن المعاصي من أسباب الهزيمة كما قال الله تعالى:{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:١٦٥]

[٢٤٨١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٣٧٠)

لاَ تَعْجَبُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ممَّا حَلَّ بكُمْ فِي مَعْرَكَة أحُد،فإنَ خذْلاَنَكُمْ فيها لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ ظَفَركُمْ فِي بَدْر،فَقد كَانَ ظَفَرُكُمْ فِي بَدْر ضعْفَيْ نَصْرِهم في أحُد،فَقَدْ قُتل منْكُمْ سَبْعُونَ رجلاً في أحُد،وَقَتَلْتُمْ منَ الْمُشْركينَ سَبْعينَ رَجُلاً في بَدْر وَأَسَرْتُمْ سَبْعينَ رَجلاً،أيْ مثْلَي مَا أصَبْتُم،وَأنتم الآنَ تَتَسَاءَلُونَ كَيْفَ حَدَثَ هذا؟ فَأَنْتُمْ تُدَافعُونَ عَنِ الإسلامِ،وَهُمْ يُدَافعُونَ عَن الشِّرْك.فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ:إنَّ مَا حَدَثَ كَانَ منْ عنْد أنْفُسكُمْ،إذَ كَانَ سَبَبَهُ فَشَلُكُمْ،وَتَنَازُعُكُمْ فِي الأمْرِ،وَمُخَالَفَتُكُمْ أمْرَ رَسُولكُمْ،فَقَدْ كَانَ منْ رَأي الرَّسُول ﷺ عَدَمُ الخُرُوجِ منَ المَدينَة،فَإذا جَاءَ الْمُشْركُونَ إلَيْكُمْ قَاتَلْتُمُوهُمْ عَلَى أبْوَابهَا،وَظُهُورُكُمْ مَحْميَّةٌ،فَطَالَبَ بَعْضُكُمْ بالخُرُوجِ،وَرَجَعَ ثُلْثُ الجَيْشِ الإسْلاَميِّ مَعَ عَبْد الله بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُول،وَهَمَّتْ طَائفَتَان منْكُمْ أنْ تَفْشَلا.ثُمَّ إنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَمَرَ الرُّمَاةَ بلُزُوم أمَاكنهمْ،وَبعَدَم تَرْكهَا مَهْمَا كَانَتْ نَتيجَةُ المَعْرَكَة،فَتَرَكُوهَا حينَما لاَحَتْ بَشَائرُ النَّصْر للْمُسْلمينَ،فَكَانَ هُجُومُ فُرْسَان الْمُشْركينَ منَ الخَلْف،فَتَبَدَّلَ نَصْرُ الْمُسْلمينَ إلَى هَزيمَة.وَاللهُ قَديرٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ،وَهُوَ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَلاَ مُعَقِّبَ عَلَى حُكْمه،فَهُوَ القَادرُ عَلَى نَصْركُمْ،إنْ أطَعْتُمْ وَثَبَتُّمْ وَصَبَرتُمْ،وَهُوَ القَادرُ عَلَى التَّخَلِّي عَنْكُمْ إنْ خَالَفْتُمْ وَعَصَيْتُمْ،وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ رَبَطَ الْمُسَببات بالأسْبَاب،وَلاَ يَشُذُّ عَنْ ذَلكَ مُؤْمنٌ وَلاَ كَافرٌ.[٢٤٨٢]

هذه مواجهة أخرى للمؤمنين الذين شهدوا أحدا،ورأوا ما أصيبوا به فى أنفسهم وفى إخوانهم هناك،ثم ما وقع فى نفوسهم من وساوس وظنون،كلّما خبت جذوتها،وبردت نارها،نفخ فيها المنافقون،والكافرون،فازداد ضرامها،وتسعّرت نارها..

وفى هذه المواجهة يجد المؤمنون عتابا رقيقا من الله،وعودا باللائمة عليهم فيما وقع لهم..كما يجدون فيما بين العتاب واللوم عزاء وتسرية.

فإذا كان المسلمون قد أصيبوا يوم أحد،فقد كان لهم فى عدوهم الذي رماهم بما أصيبوا به،نكاية وجراحات فى يوم بدر ضعف ما أصابهم به فى يوم أحد..«وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ» .

[٢٤٨٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

وإذن فلا يصح للمسلمين أن يقفوا بنظرهم عند ما أصيبوا به،دون أن يمتد هذا النظر إلى ما كان لهم فى عدوّهم،وهنا يستقيم النظر على الواقع كله،فيرون أنهم أرجح كفّة،وأربح صفقة..وإذن فما ينبغى لهم أن يعجبوا،وأن ينكروا هذا الذي حدث لهم،ويقولوا:«أنّى هذا؟» تلك القولة التي يكادون يهلكون بها أنفسهم وما اشتملت عليه من إيمان.ثم إنه إذا صح للمسلمين أن يعجبوا ويستنكروا هذا الحدث،فليكن ذلك مقصورا على ذات أنفسهم وحدها،بمعزل عن الدّين الذي آمنوا به وأضيفوا إليه! فإنه إذا كان ثمة خلل فى جماعة المسلمين مكّن لعدوّهم أن ينال منهم ما نال،فذلك الخلل إنما هو فى ذات أنفسهم،لا فى الدين الذي يجاهدون فى سبيله:«قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» أي بما أحدثتم فى هذا اليوم من أمور،عزلت كثيرا منكم عن موقف الجهاد،وباعدت بينهم وبين الله! لقد تغيّرتم أنتم أيها المسلمون،وتغيّر ما بأنفسكم،فغيّر الله مكانكم من النصر الذي كان دانيا لكم،قريبا من أيديكم.

أمّا الله- سبحانه وتعالى- فحاشا أن يتغيّر أو يتبدّل،فترونه قويّا عزيزا يوم بدر،ولا ترونه على تلك الصفة يوم أحد..ذلك مما يتزّه الله عنه:«إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» قدرة مطلقة دائمة،لا تحول ولا تزول أبدا.[٢٤٨٣]

والمسلمون الذين أصيبوا في أحد بما أصيبوا والذين فقدوا سبعين من شهدائهم غير الجراح والآلام التي عانوها في هذا اليوم المرير والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم،وهم المسلمون،وهم يجاهدون في سبيل الله،وأعداؤهم هم المشركون أعداء الله ..المسلمون الذين أصيبوا بهذه المصيبة،كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها:أصابوا مثلها يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش.وأصابوا مثلها يوم أحد في مطلع المعركة،حينما كانوا مستقيمين على أمر الله وأمر رسوله - ﷺ - وقبل أن يضعفوا أمام إغراء الغنائم.وقبل أن تهجس في أنفسهم الخواطر التي لا ينبغي أن تهجس في ضمائر المؤمنين! ويذكرهم الله هذا كله،وهو يرد على دهشتهم المتسائلة،فيرجع ما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب:«قُلْ:هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» ..

أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر.وأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله - ﷺ - وأنفسكم هي التي خالجتها الأطماع والهواجس.وأنفسكم هي التي

[٢٤٨٣] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٣٦)

عصت أمر رسول الله وخطته للمعركة ..فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم،وتقولون:كيف هذا؟ هو من عند أنفسكم،بانطباق سنة الله عليكم،حين عرّضتم أنفسكم لها.فالإنسان حين يعرّض نفسه لسنة الله لا بد أن تنطبق عليه،مسلما كان أو مشركا،ولا تنخرق محاباة له،فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سنة الله ابتداء! «إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..
ومن مقتضى قدرته أن تنفذ سنته،وأن يحكم ناموسه،وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته،وألا تتعطل سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث.
ومع هذا فقد كان قدر الله من وراء الأمر كله لحكمة يراها.وقدر الله دائما من وراء كل أمر يحدث،ومن وراء كل حركة وكل نأمة،وكل انبثاقة في هذا الكون كله:«وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ...» ..لم يقع مصادفة ولا جزافا،ولم يقع عبثا ولا سدى.فكل حركة محسوب حسابها في تصميم هذا الكون ومقدر لها علتها ونتائجها وهي في مجموعها - ومع جريانها وفق السنن والقوانين الثابتة التي لا تنخرق ولا تتعطل ولا تحابي - تحقق الحكمة الكامنة وراءها وتكمل «التصميم» النهائي للكون في مجموعه! إن التصور الإسلامي يبلغ من الشمول والتوازن في هذه القضية،ما لا يبلغه أي تصور آخر في تاريخ البشرية هنالك ناموس ثابت وسنن حتمية ..وهناك وراء الناموس الثابت والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة طليقة.
وهناك وراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمة مدبرة يجري كل شيء في نطاقها ..والناموس يتحكم والسنن تجري في كل شيء - ومن بينها الإنسان - والإنسان يتعرض لهذه السنن بحركاته الإرادية المختارة،وبفعله الذي ينشئه حسب تفكيره وتدبيره،فتنطبق عليه،وتؤثر فيه ..ولكن هذا كله يقع موافقا لقدر الله ومشيئته ويحقق في الوقت ذاته حكمته وتقديره ..وإرادة الإنسان وتفكيره وحركته وفاعليته هي جزء من سنن الله وناموسه يفعل بها ما يفعل،ويحقق بها ما يحقق في نطاق قدره وتدبيره.فليس شيء منها خارجا على السنن والناموس.ولا مقابلا لها ومناهضا لفعلها،كما يتصور الذين يضعون إرادة الله وقدره في كفة،ويضعون إرادة الإنسان وفاعليته في الكفة المقابلة ..كلا.ليس الأمر هكذا في التصور الإسلامي ..فالإنسان ليس ندا لله،ولا عدوا له كذلك.والله - سبحانه - حين وهب الإنسان كينونته وفكره وإرادته وتقديره وتدبيره وفاعليته في الأرض،لم يجعل شيئا من هذا كله

متعارضا مع سنته – سبحانه – ولا مناهضا لمشيئته،ولا خارجا كذلك عن الحكمة الأخـــيرة وراء قدره في هذا الكون الكبير ..ولكن جعل من سنته وقدره أن يقدر الإنسان ويـــدبر وأن يتحرك ويؤثر وأن يتعرض لسنة الله فتنطبق عليه وأن يلقى جزاء هذا التعرض كاملا من لـــذة وألم،وراحة وتعب،وسعادة وشقاوة ..وأن يتحقق من وراء هذا التعـــرض ونتيجته،قـــدر الله المحيط بكل شيء،في تناسق وتوازن ..

وهذا الذي وقع في غزوة أحد،مثل لهذا الذي نقوله عن التصور الإسلامي الشامل الكامل.فقد عرف الله المسلمين سنته وشرطه في النصر والهزيمة.فخالفوا هم عن سنته وشرطه،فتعرضوا للألم والقرح الذي تعرضوا له ..ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد،فقد كـــان وراء المخالفـــة والألم تحقيق قدر الله في تمييز المؤمنين من المنافقين في الصف،وتمحيص قلوب المؤمنين وتجلية ما فيهـــا من غبش في التصور،ومن ضعف أو قصور ..وهذا بدوره خير ينتهي إليه أمر المسلمين – مـــن وراء الألم والضر – وقد نالوه وفق سنة الله كذلك.فمن سنته أن المسلمين الـــذين يســـلمون بمنهج الله ويستسلمون له في عمومه،يعينهم الله ويرعاهم،ويجعل من أخطائهم وسيلة لخيرهـــم النهائي – ولو ذاقوا مغبتها من الألم – لأن هذا الألم وسيلة من وسائل التمحـــيص والتربيـــة والإعداد.

وعلى هذا الموقف الصلب المكشوف تستريح أقدام المسلمين وتطمئن قلوبهم،بلا أرجحـــة ولا قلق ولا حيرة،وهم يواجهون قدر الله،ويتعاملون مع سنته في الحياة وهم يحسون أن الله يصـــنع بهم في أنفسهم وفيمن حولهم ما يريده،وأنهم أداة من أدوات القدر يفعل بها الله ما يشـــاء،وأن خطأهم وصوابهم – وكل ما يلقونه من نتائج لخطئهم وصوابهم – متســـاوق مـــع قـــدر الله وحكمته،وصائر بهم إلى الخير ما داموا في الطريق[٢٤٨٤]

كما يجب تحريض المسلمين على الجهاد،وطلب الاستشهاد في سبيل الله وتربيتهم على العـــزة والصبر والقوة والشدة على الكفار،كما قال تعالى:{ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًـــا وَأَشَـــدُّ تَنْكِيلًـــا } [النساء:٨٤]

[٢٤٨٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٨٢٤)

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ بِأَنْ يُبَاشِرَ القِتَالَ بِنَفْسِه،وَمَنْ نَكَلَ فَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ مِنْهُ شَيءٌ،كَمَا يَأمُرُهُ بِأَنْ يُحَرِّضَ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ،وَيُرَغِّبَهُمْ فِيه،وَيُشَجِّعَهُمْ عَلَيه،لِتَنْبَعِثَ هِمَمُهُمْ عَلَى مُنَاجَزَةِ الأَعْدَاءِ،وَمُدَافَعَتِهِمْ عَنْ حَوْزَةِ الإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ،وَمُقَاوَمَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ،وَبِذَلِكَ يَكُفُّ اللهُ بَأْسَ المُشْرِكِينَ وَأَذَاهُمْ عَنِ المُسْلِمِينَ،وَاللهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ البَأْسِ،قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَكِّلَ بِهِمْ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ.[2485]

هذه الحالة أفضل أحوال العبد،أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره،ويحرض غيره عليه،وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما فلهذا قال لرسوله:{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ} أي:ليس لك (١) قدرة على غير نفسك،فلن تكلف بفعل غيرك.{وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} على القتال،وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم،من تقويتهم والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم،وبما أُعد للمقاتلين من الثواب،وما على المتخلفين من العقاب،فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

{عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي:بقتالكم في سبيل الله،وتحريض بعضكم بعضًا.{وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا} أي:قوة وعزة {وَأَشَدُّ تَنْكِيلا} بالمذنب في نفسه،وتنكيلا لغيره،فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته و لم يجعل لهم باقية.[2486]

فهذا هو طريق النبيّ..القتال فى سبيل الله والاتجاه إليه بكل قوته،والعمل فيه جهد طاقته..ولا عليه أن يتخاذل المتخاذلون،ويبطّىء المبطّئون..إنه لا يكلّف إلا ما يملك،وهو لا يملك إلّا نفسه.

وقوله تعالى:«حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ» هو استدعاء سماوىّ للمؤمنين الذين صدقوا إيمانهم أن يكونوا مع النبيّ،وأن يأخذوا طريقه الذي أخذه..وفى هذا ما فيه من تكريم لهم،ورفع لقدرهم.

وقوله سبحانه:«عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» هو رجاء يتعلق به النبىّ والمجاهدون معه..فالنبيّ والمؤمنون الذين يجاهدون معه على رجاء من عون الله لهم،ونصرهم على

[2485] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٧،بترقيم الشاملة آليا)

[2486] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٠)

أعدائهم..وأن هؤلاء الأعداء إن كانوا أولى قوة وأولى بأس شديد،فالنبيّ والمسلمون يشـدّون رجاءهم إلى قوة فوق هذه القوة،وإلى بأس أعظم من هذا البأس..قوة الله،وبأس الله..«وَاللَّـهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا» .[2487]

ومن خلال هذه الآية - بالإضافة إلى ما قبلها - تبرز لنا ملامح كثيرة في الجماعة المسلمة يومذاك.كما تبرز لنا ملامح كثيرة في النفس البشرية في كل حين:

«أ» يبرز لنا مدى الخلخلة في الصف المسلم وعمق آثار التبطئة والتعويق والتثبيط فيه حتى لتكون وسيلة الاستنهاض والاستجاشة،هي تكليف النبي - ﷺ - أن يقاتل في سبيل الله - ولو كان وحده - ليس عليه إلا نفسه مع تحريض المؤمنين.غير متوقف مضيه في الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم! ولو أن عدم استجابتهم - جملة - أمر لا يكون.ولكن وضع المسألة هذا الوضع يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة.فوق ما يحمله النص - طبعا - من حقيقة أساسية ثابتة في التصور الإسلامي.وهي أن كل فرد لا يكلف إلا نفسه ..

«ب» كما يبرز لنا مدى المخاوف والمتاعب في التعرض لقتال المشركين يومذاك ..حتى ليكون أقصى ما يعلق الله به رجاء المؤمنين:أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا فيكون المسلمون ستارا لقدرته في كف بأسهم عن المسلمين ..مع إبراز قوة الله - سبحانه - وأنه أشد بأسا وأشد تنكيلا ..وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك والمخاوف المبثوثة في الصف المسلم ..وربما كان هذا بين أحد والخندق.فهذه أحرج الأوقات التي مرت بها الجماعة المسلمة في المدينة بين المنافقين،وكيد اليهود،وتحفز المشركين! وعدم اكتمال التصور الإسلامي ووضوحه وتناسقه بين المسلمين!

«ج» كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية وهي تدفع إلى التكاليف التي تشق عليها،إلى شدة الارتباط بالله وشدة الطمأنينة إليه وشدة الاستعانة به وشدة الثقة بقدرته وقوته ..فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجدي حين يبلغ الخطر قمته.وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الرباني والله هو الذي خلق هذه النفوس.

[2487] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٤٨)

وهو الذي يعلم كيف تربي وكيف تقوّى وكيف تستجاش وكيف تستجيب ..[٢٤٨٨]

وقال تعالى :{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح:٢٩].

إن مُحمداً ﷺ رَسُولُ الله حَقّاً وَصِدْقاً،بلاَ شَكٍّ وَلاَ رَيب،وَإنَّ أصْحَابَهُ يَتَّصِفُونَ بالصِّفَات الجَميلة الحَسَنة،فَهُمْ أشدَّاءٌ غِلاَظُ القُلُوبِ عَلَى الكُفار،وَهُمْ رُحَماءُ مُتَوَادُّونَ فيما بَيْنَهم يَرَاهُم النَّاظِرُ إليهِمْ دَائبينَ عَلَى أدَاءِ الصَّلاة،مُخْلصِينَ فيها لله،مُحْتَسِبينَ أجْرَهَا عِنْدَ الله،يَبْتَغُونَ بصَلاتِهِمْ رِضَا الله وَرِضْوَانَهُ،تَتْرُكُ نُفُوسُهُمُ المُطْمَئِنَّةُ أَثَراً عَلَى وُجُوهِهِمْ،فَهي هَادِئَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ مَسْتَبْشرَةٌ،وَهَذه هيَ صفَاتُ المُؤمنينَ المُخْلصينَ في التوراَة.وَجَاءَ وَصْفُهُمْ في الإنجيلِ أَنَّ أتْبَاعَ مُحَمَّد سَيَكُونُونَ قَليلينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلظُونَ كَزَرْعٍ أخْرَجَ مُحَمَّد سَيَكُونُونَ قَليلينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلظُونَ كَزَرْعٍ أخْرَجَ فُروعَهُ (شَطْأَهُ) التي تَتَفَرَّعُ مِنْهُ عَلَى جَوَانبه،فَيَقْوى وَيَتَحَوَّلُ من الدِّقَّة إلى الغِلْظَة،وَيَسْتَقيمُ عَلَى أصُولِه فَيُعْجَبُ بِه الزُّرَّاع لخصْبِه،وَقُوَّته،وَحُسْنِ مَظْهَرِه،وَقَدْ نَمَّاهُمُ اللهُ وأكْثَرَ عَدَدَهُم لِيَغيظَ هِم الكُفَّارَ،وَقَدْ وَعَدَ اللهُ المُؤْمنينَ بالله وَرَسُوله،العَاملينَ للصَّالحَات،بأن يَغْفرَ لَهُمْ ذُنُوبَهِمْ،وَأنْ يُجْزِلَ لَهُمُ الأجْرَ والعَطَاءَ،وبأنْ يُدْخلَهُمْ جَنَّاته،وَاللهُ لاَ يُخْلفُ وَعْدَهُ أبَداً.[٢٤٨٩]

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع.صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة،حالاتها الظاهرة والمضمرة.فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم:«أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم:«تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» ..ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها:«يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً» ..ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم:«سِيماهُمْ فِي

[٢٤٨٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٧٩)

[٢٤٨٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٩١،بترقيم الشاملة آليا)

وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» ..«ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ» ..وهذه صفتهم فيهـا ..ولقطـات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل ..«كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» «فَآزَرَهُ» ..«فَاسْتَغْلَظَ» «فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ».«يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» ..:«لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» ..

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد - ﷺ - صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين:«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» ..ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع.والمؤمنون لهم حالات شتى.ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياهم،ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة.وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة ..وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات،وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها.التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.إرادة التكريم واضحة،وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم:«أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» ..أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم،ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا.رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين.فهي الشدة لله والرحمة لله.وهي الحمية للعقيدة،والسماحة للعقيدة.فليس لهم في أنفسهم شيء،ولا لأنفسهم فيهم شيء.وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم،كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها.يشتدون على أعدائهم فيها،ويلينون لإخوتهم فيها.قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى،ومن الانفعال لغير الله،والوشيجة التي تربطهم بالله.

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم،هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة:«تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» ..والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم.ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة،وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم فعبر عنها تعبيرا يثبتها كذلك في زمانهم،حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا.

واللقطة الثالثة مثلها.ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم:«يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً» ..فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة.كل ما يشغل بالهم،وكل ما تتطلع إليه أشواقهم،هو فضل الله ورضوانه.ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم،ونضحها على سماتهم:«سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» ..سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية،ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف.وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله:«مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» ..فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة.واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها.فهو أثر هذا الخشوع.أثره في ملامح الوجه،حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة.ويحل مكانها التواضع النبيل،والشفافية الصافية،والوضاءة الهادئة،والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة.إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة:«ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ» ..وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى،وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها.

«وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» ..وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه،أنهم:«كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» ..فهو زرع نام قوي،يخرج فرخه من قوته وخصوبته.ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده.«فَآزَرَهُ».أو أن العود آزر فرخه فشده.«فَاسْتَغْلَظَ» الزرع وضخمت ساقة وامتلأت.«فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ» لا معوجا ومحنيا.ولكن مستقيما قويا سويا ..

هذه صورته في ذاته.فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع،العارفين بالنامي منه والذابل.المثمر منه والبائر.فهو وقع البهجة والإعجاب:«يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ».وفي قراءة يعجب «الزارع» ..وهو رسول الله - ﷺ - صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج ..وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس.فهو وقع الغيظ والكمد:«لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» ..وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله.أو زرعة رسوله،وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله! وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا،فهو ثابت في صفحة القدر.ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى هذه الأرض.ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون.وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة ..صحابة رسول الله - ﷺ - ..فتثبت في صلب الوجود كله،وتتجاوب بها

أرجاؤه،وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود.وتبقى نموذجا للأجيال،تحاول أن تحققهـــا،لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله،وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم:«وَعَدَ اللَّهُ الَّـــذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً» ..وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعد ما تقـــدم من صفتهم،التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة.مغفرة وأجـــر عظـــيم ..وذلـــك التكريم وحده حسبهم.وذلك الرضى وحده أجر عظيم.ولكنه الفيض الإلهي بلا حـــدود ولا قيود،والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنا أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجـــال الســـعداء وقلوبهم.وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم.وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله،وفي ميزان الله،وفي كتاب الله.وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية،وقـــد نزلت هذه السورة،وقد قرئت عليهم.وهم يعيشون فيها بـــأرواحهم وقلـــوبهم ومشـــاعرهم وسماهم.وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه ..ولكن أنى لبشـــر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه.إلا من بعيد؟! اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم:فيقرب لـــه البعيد؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد!!![٢٤٩٠]

ومن الإعداد الواجب الإعداد البدني والتدريب العسكري لكل مسلم بالغ قـــادر حتى،يـــتعلم المسلم الرماية وفنون القتال واستعمال الأسلحة،فعَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَـــةَ بْنَ عَامِرٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ،يَقُولُ:" {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال:٦٠]،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ "[٢٤٩١]..

[٢٤٩٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٦٦)

[٢٤٩١] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢)١٦٧ - (١٩١٧)

[ش (وأعدوا لهم ما استطعتم) قوله ﷺ في تفسير قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ألا أن القوة الرمي قالها ثلاثا هذا تصريح بتفسيرها ورد لما يحكيه المفسرون من الأقوال سوى هذا وفيه وفي الأحاديث بعده فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى وكذلك المثاقفة وسائر أنواع استعمال السلاح وكذا المسابقة بالخيل وغيرها والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدرب والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ،أَنَّ فُقَيْمًا اللَّخْمِيَّ،قَالَ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ:تَخْتَلِفُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْغَرَضَيْنِ وَأَنْتَ كَبِيرٌ يَشُقُّ عَلَيْكَ،قَالَ عُقْبَةُ:لَوْلَا كَلَامٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ أُعَانِيهِ،قَالَ الْحَارِثُ:فَقُلْتُ لِابْنِ شِمَاسَةَ:وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ:إِنَّهُ قَالَ:«مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ،ثُمَّ تَرَكَهُ،فَلَيْسَ مِنَّا» أَوْ «قَدْ عَصَى»رواه مسلم[٢٤٩٢].

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ:رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ وَجَابِرَ بْنَ عُمَيْرٍ الْأَنْصَارِيَّيْنِ يَرْمِيَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا:لِصَاحِبِهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ فَهُوَ لَهْوٌ وَلَعِبٌ إِلَّا أَرْبَعَ،مُلَاعَبَةُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ،وَتَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ،وَمَشْيُهُ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ،وَتَعْلِيمُ الرَّجُلِ السَّبَّاحَةَ» رواه النسائي[٢٤٩٣].و" الغرضين" أي الهدفين.

وعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«عَلَيْكُمْ بِالرَّمْيِ،فَإِنَّهُ خَيْرٌ لَعِبِكُمْ» " رواه والطبراني في الأوسط [٢٤٩٤]

وأخرج ابن أبي شيبة عَنْ رَافِعِ بْنِ سَالِمٍ الْفَزَارِيِّ قَالَ:مَرَّ بِنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،فَقَالَ:«ارْمُوا،فَإِنَّ الرَّمْيَ عُدَّةٌ وَجَلَادَةٌ»[٢٤٩٥].

وعَنْ بِلَالِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:«أَدْرَكْتُهُمْ يَشْتَدُّونَ بَيْنَ الْأَغْرَاضِ،وَيَضْحَكُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ،فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ كَانُوا رُهْبَانًا» [٢٤٩٦]

[٢٤٩٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢)١٦٩ - (١٩١٩)

[ش (أعاينه) هكذا هو في معظم النسخ لم أعاينه بالياء وفي بعضها لم أعانه بحذفها وهو الفصيح والأول لغة معروفة سبق بيانها مرات]

«مَنْ عُلِّمَ الرَّمْيَ،ثُمَّ تَرَكَهُ،فَلَيْسَ مِنَّا»):أَيْ:لَيْسَ بِمُتَّصِلٍ مِنَّا وَمَعْدُود فِي زُمْرَتِنَا،وَهُوَ أَشَدُّ مِمَّا لَمْ يَتَعَلَّمْ؛لِأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي زُمْرَتِهِمْ،وَهَذَا دَخَلَ،ثُمَّ خَرَجَ،كَأَنَّهُ رَأَى النَّقْصَ فِيهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ،وَكُلُّ ذَلِكَ كُفْرَانٌ لِتِلْكَ النِّعْمَةِ الْخَطِيرَةِ ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ.(أَوْ قَدْ عَصَى):الظَّاهِرُ أَنَّهُ شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلتَّنْوِيعِ عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ تَرَكَهُ تَكَاسُلًا وَتَهَاوُنًا،وَالثَّانِي عَلَى أَنَّهُ رَأَى فِيهِ نُقْصَانًا وَامْتِهَانًا.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٩٩) .

[٢٤٩٣] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ١٧٦)(٨٨٩٠) صحيح

[٢٤٩٤] - المعجم الأوسط (٢/ ٣٠٤)(٢٠٤٩) حسن

[٢٤٩٥] - الأدب لابن أبي شيبة (ص:١٦٩)(٨١) حسن

[٢٤٩٦] - الأدب لابن أبي شيبة (ص:١٧٣)(٨٨) صحيح

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:" سَابَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الخَيْلِ الَّتِي قَدْ أُضْمِرَتْ،فَأَرْسَلَهَا مِنَ الحَفْيَاءِ،وَكَانَ أَمَدُهَا ثَنِيَّةَ الوَدَاعِ - فَقُلْتُ لِمُوسَى:فَكَمْ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ؟ قَالَ:سِتَّةُ أَمْيَالٍ أَوْ سَبْعَةٌ - وَسَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضَمَّرْ،فَأَرْسَلَهَا مِنْ ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ وَكَانَ أَمَدُهَا مَسْجِدَ بَنِي زُرَيْقٍ " قُلْتُ:فَكَمْ بَيْنَ ذَلِكَ؟ قَالَ:مِيلٌ أَوْ نَحْوُهُ،وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ مِمَّنْ سَابَقَ فِيهَا متفق عليه[٢٤٩٧].

وعَنْ عَائِشَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَتْ:فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ،فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ:«هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ» رواه أبو داود[٢٤٩٨].

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ :أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ،أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي سَفَرٍ وَهِيَ جَارِيَةٌ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :" تَقَدَّمُوا " ثُمَّ قَالَ :" تَعَالَيْ أُسَابِقْكِ،فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلِي،فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي سَفَرٍ " فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :" تَقَدَّمُوا " ثُمَّ قَالَ :" تَعَالَيْ

[٢٤٩٧] - صحيح البخاري (٤/ ٣١)(٢٨٧٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩١)٩٥ - (١٨٧٠)

[ش (فقلت) القائل هو أبو إسحاق] [ش (أضمرت) يقال أضمرت وضمرت وهو أن يقلل علفها مدة وتدخل بيتا كنينا وتجلل فيه لتعرق ويجف عرقها فيجف لحمها وتقوى على الجري(من الحفياء) قال سفيان بن عيينة بين ثنية الوداع والحفياء خمسة أميال أو ستة وقال موسى بن عقبة ستة أو سبعة(ثنية الوداع) هي عند المدينة سميت بذلك لأن الخارج من المدينة يمشي معه المودعون إليها والمعنى أن مبدأ السباق كان من الحيفاه ومنتهاه ثنية الوداع]

[٢٤٩٨] - سنن أبي داود (٣/ ٢٩)(٢٥٧٨) صحيح

أَيْ غَالَبْتُهُ فِي السَّبْقِ أَيْ فِي الْعَدْوِ وَالْجَرْيِ (فَسَبَقْتُهُ):أَيْ:غَلَبْتُهُ وَتَقَدَّمْتُ عَلَيْهِ (عَلَى رِجْلَيَّ):أَيْ:لَا عَلَى دَابَّةٍ قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهَا عَلَى رِجْلَيَّ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ فِي سَابَقْتُهُ أَيْ عَدْوًا عَلَى رِجْلَيَّ وَفَائِدَتُهُ زِيَادَةُ بَيَانِ الْمُدَاعَبَةِ كَمَا يُقَالُ أَخَذْتُ بِيَدِي،وَمَشَيْتُ بِرِجْلِي،وَنَظَرْتُ بِعَيْنِي وَفِيهِ بَيَانُ حُسْنِ خُلُقِهِ وَتَلَطُّفِهِ بِنِسَائِهِ،يُقْتَدَى بِهِ،(فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ):أَيْ:سَمِنْتُ (سَابَقْتُهُ):أَيْ:مَرَّةً أُخْرَى (فَسَبَقَنِي قَالَ:هَذِهِ):أَيِ:السَّبْقَةُ (بِتِلْكَ السَّبْقَةِ):بِفَتْحِ الْكَافِ وَكَسْرِهَا أَيْ تَقَدُّمِي عَلَيْكِ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ فِي مُقَابَلَةِ تَقَدُّمِكِ فِي النَّوْبَةِ الْأُولَى وَالْمُرَادُ حُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ،قَالَ قَاضِي خَانْ:يَجُوزُ السِّبَاقُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ فِي الْخُفِّ يَعْنِي الْبَعِيرَ،وَفِي الْحَافِرِ يَعْنِي الْفَرَسَ،وَفِي النَّصْلِ مِنَ الرَّمْيِ،وَالْمَشْيِ بِالْأَقْدَامِ يَعْنِي بِهِ الْعَدْوَ وَيَجُوزُ إِذَا كَانَ الْبَدَلُ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ بِأَنْ قَالَ إِنْ سَبَقْتُكَ فَلِي كَذَا وَإِنْ سَبَقْتَنِي فَلَا شَيْءَ لَكَ،وَإِنْ شُرِطَ الْبَدَلُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ فَهُوَ حَرَامٌ لِأَنَّهُ قِمَارٌ إِلَّا إِذَا أَدْخَلَا مُحَلِّلًا بَيْنَهُمَا فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ إِنْ سَبَقْتَنِي فَلَكَ كَذَا وَإِنْ سَبَقْتُكَ فَلِي كَذَا وَإِنْ سَبَقَ الثَّالِثُ فَلَا شَيْءَ لَهُ فَهُوَ جَائِزٌ وَحَلَالٌ،وَالْمُرَادُ مِنَ الْجَوَازِ الطِّيبُ وَالْحِلُّ دُونَ الِاسْتِحْقَاقِ فَإِنَّهُ لَا يَصِيرُ مُسْتَحَقًّا،وَمَا يَفْعَلُهُ الْأُمَرَاءُ فَهُوَ جَائِزٌ أَيْضًا بِأَنْ يَقُولَ لِاثْنَيْنِ أَيُّكُمَا سَبَقَ فَلَهُ كَذَا وَإِنَّمَا جُوِّزَ السَّبْقُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْأَرْبَعَةِ لِوُجُودِ الْآثَارِ فِيهَا وَلَا أَثَرَ فِي غَيْرِهَا (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢١٢٤)

أُسَابِقْكِ " وَنَسِيتُ الَّذِي كَانَ وَقَدْ حَمَلْتُ اللَّحْمَ فَقُلْتُ :كَيْفَ أُسَابِقُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَـــا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ؟ فَقَالَ :" لَتَفْعَلِنَّ،فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي " فَقَالَ :" هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ[2499]

وينبغي للحكومة الإسلامية أن توجه الرياضة إلى تحقيق المقاصد الشرعية العالية فعَنْ سَهْلِ بْـــنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَـــاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا» رواه الحاكم[2500]

فيربى رجال الأمة على أن الرياضة من وسائل إعداد المجاهدين في سبيل الله الـــذين يحملـــون رسالة الإسلام،ويدافعون عن الإسلام والمسلمين،وليست كالرياضة في الحكومات الجاهلية التي جعلتها أداة للهزل واللعب والغفلة وإضاعة الأموال والأوقات.

فقد استخدم أعداء الإسلام اللاعبين والمفسدين من المغنين والمغنيات والممـــثلين والممـــثلات وغيرهم،كأداة لإبعاد الناس عن التمسك بدينهم وإشغالهم بالمعاصي والموبقات وبتوافه الأمور وسفسافها،ويروجون في وسائل إعلامهم لهؤلاء المفسدين ويقدمونهم للناس كأبطال ونجـــوم وغيرها من الأقوال والأوصاف المزخرفة المضللة،لترسيخ الإعراض عن الإســـلام والغفلـــة في المجتمع،وبهذا يحسب الطواغيت وأعوانهم أنهم قد أمنوا حكمهم من الزوال،وأن الجموع الغافلة طيعة وسهلة الانقياد لهم.

والحكومة الإسلامية لا يجوز لها إضاعة المال العام في الرياضة التي الغرض منها مجـــرد اللعـــب وإضاعة الأوقات،وإنما عليها أن توجه الرعية إلى الرياضة النافعة التي تربي جيلا جادا صـــالحا مجاهدا.

ومع التوجيه الصحيح للرياضة فلا بأس أن يتخللها بعض اللعب المباح الذي تميل إليه بعـــض النفوس ولا يشغل عن طاعة الله تعالى ولا يحصل به إضاعة للمال العام،فإن هذا من السياســـة الشرعية التي تراعي تفاوت الناس،وجاءت بما فيه تسكينهم وبما يقربهم من الصلاح.

والكلام الذي تقدم عن الرياضة هو متعلق بسياسة الحكومة الإسلامية،وأما أفراد الرعية فمـــن مارس منهم لعبا مباحا و لم ينشغل به عن طاعة الله فلا إنكار عليه.

[2499] - عشرة النساء للإمام للنسائي - الطبعة الثالثة (ص:٦٥)(٥٦-٧٧١١- صحيح

[2500] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ١١١)(١٥١) صحيح

الأخلاق والآداب في الجهاد

وفي هذا الفصل تذكر بعض الأخلاق والآداب في الجهاد على سبيل الاختصار.

أولها:الإحسان إلى الكفار الذين لم يقاتلوا المسلمين في دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم:

لقد نهى الله تعالى المسلم عن موالاة الكفار ومودتهم فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة:٥١]،فقوله تعالى:{وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} أي كافر مثلهم:كالذين يعاونون الصليبيين ويظاهرونهم على المسلمين في العراق أو أفغانستان أو غيرهما،وقال تعالى:{ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)} [المائدة:٨٠،٨١]،فدلت الآيتان على انتفاء الإيمان عن الذين يوالون الكفار كالأمريكان وغيرهم،فانتفاء الشرط يدلُّ على انتفاء المشروط وهو الإيمان.

وقال تعالى في تحريم مودتهم:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة:٢٢]

لاَّ تَجِدُ قَوْماً يَجْمَعُونَ بَيْنَ الإِيْمَان بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخرِ،وَبَينَ مُوَادَّة أَعْدَاءِ اللهِ وَأَعْدَاءِ رَسُوله،لأَنَّ المُؤْمنينَ حَقّاً لاَ يُوَالُونَ الكَافِرينَ،وَلَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ الكَافِرُونَ هُمْ أَهْلَهُمْ،وَأَقْرِبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ الذينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيهِمْ،وَالمُؤْمنُونَ الذينَ يَمْتَنِعُونَ عَنْ مُوَادَّة الكَافِرينَ،وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَاءَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ،هُمُ الذينَ ثَبَّتَ اللهُ الإِيْمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ،وَزَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى،وَقَوَّاهُمْ بِطُمَأْنِينَةِ القَلْبِ،وَالثَّبَات عَلَى الحَقِّ {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ}،وَسَيُدْخِلُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة فِي جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ،وَيَبْقَوْنَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَداً،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ،وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ،فَأَدْخَلَهُمْ

الجَنَّات،وَرَضُوا بِمَا آتَاهُم اللهُ عَنْهُمْ،وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِه،فَأَدْخَلَهُمُ الجَنَّات،وَرَضُوا بِمَا آتَاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِه،وَبِمَا عَوَّضَهُمْ بِهِ لاسْخَاطِهِم الأَقَارِبَ وَالأَبْنَاءَ.وَهَؤُلاَءِ هُم أَنْصَارُ اللهِ،وَجُنْدُهُ،وَحِزْبُهُ،وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ،وَهُمْ أَهْلُ الفَلاَحِ وَالسَّعَادَةِ والنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.[2501]

وأجاز الله تعالى للمسلم أن يحسن إلى الكفار من أقاربه أو غيرهم ويصلهم إذا لم يقاتلوا المسلمين في دينهم و لم يخرجوهم من ديارهم،فقال تعالى:{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) } [الممتحنة]

إنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَنْهَاكُمْ عَنِ الإِحْسَانِ إِلَى الكُفَّارِ الذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ،وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ،وَلَمْ يُعَاوِنُوا فِي إِخْرَاجِكُمْ مِنْهَا،وَلاَ يَمْنَعُكُمْ مِنْ إِكْرَامِهِمْ،وَمَنْحِهِمْ صِلَتَكُمْ،لأَنَّ اللهَ يُحِبُّ أَهْلَ البِرِّ والتَّوَاصُلِ.إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ مُوَالاَةَ الكُفَّارِ الذِينَ نَاصَبُوكُمُ العِدَاءَ فِي الدِّينِ فَقَاتَلُوكُمْ،وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ وَدِيَارِكُمْ،وَأَعَانُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ،فَهَؤُلاَءِ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنْ مُوَالاَتِهِمْ،وَعَنْ اتِّخَاذِهِمْ أَنْصَاراً،وَيَأْمُرُكُمْ بِمُعَادَاتِهِمْ.وَيُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى الوَعِيدَ عَلَى مُوَالاَتِهِمْ فَيُبَيِّنُ:أَنَّ الذِينَ يَتَوَلَّوْنَ هَؤُلاَءِ الكُفَّارَ المُؤْذِينَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأَنَّهُمْ خَالَفُوا أَمْرَ اللهِ فَوَالَوْا أَعْدَاءَهُ وَأَعْدَاءَهُمْ.[2502]

قال ابن جرير:" وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ:عُنِيَ بِذَلِكَ:{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ} [الممتحنة:٨] مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتَصِلُوهُمْ،وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ،إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّ بِقَوْلِهِ:الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ جَمِيعَ مَنْ كَانَ ذَلِكَ صِفَتَهُ،فَلَمْ يُخَصِّصْ بِهِ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ،وَلَا مَعْنَى لِقَوْلِ مَنْ قَالَ:ذَلِكَ مَنْسُوخٌ،لِأَنَّ بِرَّ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ مِمَّنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَرَابَةُ نَسَبٍ،أَوْ

[2501] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٠٤،بترقيم الشاملة آليا)

[2502] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

مِمَّنْ لَا قَرَابَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَلَا نَسَبٌ غَيْرُ مُحَرَّمٍ وَلَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ لَهُ،أَوْ لِأَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى عَوْرَةٍ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ،أَوْ تَقْوِيَةٌ لَهُمْ بِكُرَاعٍ أَوْ سِلَاحٍ.[2503]

وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَتْ:قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قُلْتُ:وَهِيَ رَاغِبَةٌ،أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ:«نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ» متفق عليه[2504]

وقال ابن القيم رحمه الله:" فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا نَهَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ عَنِ اتِّخَاذِ الْمُسْلِمِينَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَقَطْعِ الْمَوَدَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ،تَوَهَّمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ بِرَّهُمْ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُوَالَاةِ وَالْمَوَدَّةِ،فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الْمُوَالَاةِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا،وَأَنَّهُ لَمْ يَنْهَ عَنْ ذَلِكَ بَلْ هُوَ مِنَ الْإِحْسَانِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ،وَكَتَبَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،وَإِنَّمَا الْمَنْهِيُّ عَنْهُ تَوَلِّي الْكُفَّارِ وَالْإِلْقَاءُ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ،وَلَا رَيْبَ أَنَّ جَعْلَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِ رَسُولِهِ مُوجِبًا وَشَرْطًا فِي الِاسْتِحْقَاقِ مِنْ أَعْظَمِ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا فَلَا يَصِحُّ مِنَ الْمُسْلِمِ وَلَا يَجُوزُ لِلْحَاكِمِ تَنْفِيذُهُ مِنْ

[2503] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٥٧٤)

[2504] - صحيح البخاري (٣/ ١٦٤)(٢٦٢٠) وصحيح مسلم (٢/ ٦٩٦)٥٠ - (١٠٠٣)

[ش (راغبة) أي في الإسلام وقيل عنه أي كارهة له]

أي جاءت إليَّ أمي من النسب والولادة على الأصح لا من الرضاعة،وذلك لما رواه عبد الله بن الزبير في حديثه قال:قدمت قتيلة على بنتها أسماء بنت أبي بكر من مكة -وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية- بهدايا وزبيب وحسن وقرظ فأبت أسماء أن تقبل هديتها،أو أن تدخلها بيتها،فأرسلت إلى عائشة سلي رسول الله - ﷺ - فقال:لتدخلها،واختلفوا في اسمها فقيل قُتيلة بضم القاف وفتح التاء وقال الزبير بن بكار:قَتْلة بفتح القاف وسكون التاء والصحيح الأول " في عهد رسول الله - ﷺ - " أي في المدة التي ما بين صلح الحديبية وفتح مكة،أو في زمن النبي - ﷺ - " فاستفتيت رسول الله - ﷺ - قلت:إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي " أي فسألت رسول الله - ﷺ - عنها فقلت:قدمت عليَّ أمي وهي لا تزال على كفرها،وهي راغبة،أي راغبة في بر ابنتها،أو مؤملة طامعة في أن أصلها وأحسن إليها بالهبات والهدايا وحسن الضيافة والقرى " أفأصل أمي " بضيافتها وإهدائها " قال:نعم صليها " ولو كانت كافرة.

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:جواز الهدية للمشركين لا سيما إذا كانوا من ذوي القربى.ثانياً:مشروعية صلة الرحم الكافرة كالرحم المسلمة.ثالثاً:استدل به بعضهم على وجوب النفقة للأب الكافر.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١٩)

أَوْقَاف الْكُفَّار،فَأَمَّا إِذَا وَقَفُوا ذَلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَمْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيْنَا وَلَا اسْتَفْتَوْنَا عَنْ حُكْمِهِ لَـــمْ يُتَعَرَّضْ لَهُمْ فِيهِ،وَحُكْمُهُ حُكْمُ عُقُودِهِمْ وَأَنْكِحَتِهِمُ الْفَاسِدَةِ."[2505]

وقال تعالى في بر المسلم لأبويه الكافرين:{ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِــهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُـــمَّ إِلَـــيَّ مَـــرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان:١٥]

وَإِذا أَلَحَّ عَلَيكَ وَالِدَاكَ لِيَحْمِلاَكَ عَلَى أَنْ تَكْفُرَ باللهِ رَبِّكَ،وَعَلى أَنْ تُشْرِكَ مَعَهُ بالعِبَادَةِ غَيْـــرَهُ مِنْ أَصْنامٍ وَأَنْدَادٍ،وَأَنْتَ لا تَعْلَمُ لِهؤُلاءِ الأَصْنَامِ والأَنْدَادِ شَرِكَةً مَعَ اللهِ في الخَلْقِ والأُلُوهِيَّةِ،فَلا تُطِعْهُما فيما أَمَراك به،ولكِنَّ ذَلِكَ يَجبُ أَنْ لا يَمْنَعَكَ مِنَ الإِحسَـــانِ إِليهما،وَمُصَـــاحَبَتِهما بالمَعْرُوفِ خِلاَلَ أيامِ هذه الدُّنيا القَليلة الفَانِيَـــة كَإِطْعَامِهِمَـــا وكِســـوَتِهِمَ،والعِنَايَةِ بِهِمـــا إذا مَرَضا...واتَّبعْ في أُمُورِ الدِّينِ سَبِيلَ الذينَ أَخْلَصُوا العِبَادَةَ للهِ مِنَ المُؤْمِنينَ،وأَنَابُوا إِليـــه بـــدُون وَهَنٍ وَلاَ تَرَدُّد،فَإِنَّكُمْ رَاجِعُونَ إِليهِ تَعَالى جَميعاً يومَ القِيَامَةِ،فَيُخبِرُكُمْ بِمَ كُنتُم تَعمَلُونَ مِنْ خَيرٍ وَشَرٍّ ويُجازِيكُمْ بِهِ.[2506]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ،اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ،فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا،فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ،فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ،يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ،فَقَالَ الرَّجُلُ:لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي،فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَـــكَهُ بِفِيهِ،فَسَـــقَى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ " قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ:«نَعَمْ،فِـــي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» متفقٌ عليه.[2507]

والكبد الرطبة أي الحية كالحيوان،ويدخل في عموم الحديث الكافر الذمي والمعاهد والأســـير كما قال تعالى {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا } [الإنسان:٨]

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ،مَعَ شَهْوَتِهِمْ لَهُ،وَرَغْبَتِهِمْ فِيهِ،لِلْفَقِيرِ العَاجِزِ عَنِ الكَسْبِ (المِسْكِين)،وَاليَتِـــيمِ الذِي مَاتَ أَبُوهُ،وَهُوَ دُونَ سِنِّ البُلُوغِ وَالأَسِيرِ العَانِي الذِي لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ قُوتاً.[2508]

[2505] - أحكام أهل الذمة (١/ ٦٠٢)

[2506] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٦٥،بترقيم الشاملة آليا)

[2507] - صحيح البخاري (٨/ ٩)(٦٠٠٩) وصحيح مسلم (٤/ ١٧٦١)١٥٣ - (٢٢٤٤)

[2508] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٤٧٧،بترقيم الشاملة آليا)

الثاني:حكم قتل نساء الكفار المحاربين وأطفالهم وشيوخهم:

لا يجوز في الإسلام قتل نساء الكفار المحاربين أو أطفالهم أو شيوخهم قصدا،وكذا لا يجوز قتل الزمن أوالأعمى أوالمعتوه أو الراهب الذي يعتزل أهل دينه في صومعته،ولا يعينهم على المسلمين،ولذا فلا يعرف بفضل الله تعالى في تاريخ المسلمين المجاهدين،وفي الفتوحات الإسلامية أن ارتكبت إبادات جماعية في حق نساء الكفار المحاربين وأطفالهم وشيوخهم،وأما الصليبيون واليهود فتاريخهم مليء بالجرائم والإبادات الجماعية إلى وقتنا هذا،كما في أفغانستان والبوسنة وكوسوفا وفلسطين والشيشان والعراق وسورية وغيرها،وقد قال تعالى:{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠]

هذه الآيات،تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله،وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة،لما قوي المسلمون للقتال،أمرهم الله به،بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم،وفي تخصيص القتال {فِي سَبِيلِ اللَّهِ} حث على الإخلاص،ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين.

{الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} أي:الذين هم مستعدون لقتالكم،وهم المكلفون الرجال،غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال.والنهي عن الاعتداء،يشمل أنواع الاعتداء كلها،من قتل من لا يقاتل،من النساء،والمجانين والأطفال،والرهبان ونحوهم والتمثيل بالقتلى،وقتل الحيوانات،وقطع الأشجار [ونحوها]،لغير مصلحة تعود للمسلمين.ومن الاعتداء،مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها،فإن ذلك لا يجوز.[٢٥٠٩]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى الْغَسَّانِيِّ،قَالَ " كَتَبْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،أَسْأَلُهُ عَنْ قَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠] قَالَ:فَكَتَبَ إِلَيَّ أَنَّ ذَلِكَ فِي النِّسَاءِ،وَالذُّرِّيَّةِ وَمَنْ لَمْ يَنْصُبْ لَكَ الْحَرْبَ مِنْهُمْ "[٢٥١٠]

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله" وَقَوْلُهُ:{وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} أَيْ:قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ ارْتِكَابُ الْمَنَاهِي -كَمَا قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -مِنَ الْمُثْلَةِ،والغُلُول،وَقَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالشُّيُوخِ الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا قِتَالَ فِيهِمْ،وَالرُّهْبَانِ

[٢٥٠٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٩)

[٢٥١٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٢٩٠) حسن

وَأَصْحَابِ الصَّوَامِعِ،وَتَحْرِيقِ الْأَشْجَارِ وَقَتْلِ الْحَيَوَانِ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ،كَمَا قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ،وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ،وَغَيْرُهُمْ.[2511]

لقد جاءت هذه العقيدة في صورتها الأخيرة التي جاء بها الإسلام لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض من بعدها،ولتكون منهجا عاما للبشرية جميعها ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق اللّه وفق هذا المنهج،المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ولغاية الوجود الإنساني،كما أو ضحهما القرآن الكريم،المنزل من عند اللّه.قيادتها إلى هذا الخير الذي لا خير غيره في مناهج الجاهلية جميعا،ورفعها إلى هذا المستوي الذي لا تبلغه إلا في ظل هذا المنهج،وتمتيعها بهذه النعمة التي لا تعدلها نعمة،والتي تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها،ولا يعتدي عليها معتد بأكثر من حرمانها من هذا الخير،والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال.

ومن ثم كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل،وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال.

ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحرارا في اعتناق هذا الدين لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة.فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان،لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها.وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان ..

فإذا اعتنقها من هداهم اللّه إليها كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة.لا بالأذى ولا بالإغراء.ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة.وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة.ضمانا لحرية العقيدة،وكفالة لأمن الذين هداهم اللّه،وإقرارا لمنهج اللّه في الحياة،وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام.

وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجب آخر على الجماعة المسلمة وهو أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية،أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس

[2511] - تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٥٢٤)

عنها.وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين باللّه غير ممكنة لقوة في الأرض،ويكون الدين للّه ..لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان.ولكن بمعنى استعلاء دين اللّه في الأرض،بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين اللّــه أن يبلغــه،وأن يستجيب له،وأن يبقى عليه.وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور اللّه وهــداه عن أهله ويضلهم عن سبيل اللّه.بأية وسيلة وبأية أداة.

وفي حدود هذه المبادئ العامة كان الجهاد في الإسلام.

وكان لهذه الأهداف العليا وحدها،غير متلبسة بأي هدف آخر،ولا بأي شارة أخرى.

إنه الجهاد للعقيدة.لحمايتها من الحصار وحمايتها من الفتنة وحماية منهجها وشريعتها في الحياة وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء وبحيث يلجأ إليهــا كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام،ويقره ويثيب عليه ويعتبر الذين يقتلــون فيــه شهداء والذين يحتملون أعباءه أولياء.

وهذه الآيات من سورة البقرة في هذا الدرس كانت تواجه وضع الجماعة المسلمة في المدينة مع مشركي قريش الذين أخرجــوا المــؤمنين مــن ديــارهم،وآذوهم في دينــهم،وفتنوهم في عقيدتهم،وهي – مع هذا – تمثل قاعدة أحكام الجهاد في الإسلام:

وتبدأ الآيات بأمر المسلمين بقتال هؤلاء الذين قاتلوهم وما يزالــون يقاتلونهم،وبقتــال مــن يقاتلهم في أي وقت وفي أي مكان،ولكن دون اعتداء:«وَقَاتِلُوا فِــي سَــبِيلِ اللَّــهِ الَّــذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ،وَلا تَعْتَدُوا،إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» ..

وفي أول آية من آيات القتال نجد التحديد الحاسم لهدف القتال،والراية الــتي تخــاض تحتــها المعركة في وضوح وجلاء:«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ»..

إنه القتال للّه،لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة.القتال في سبيل اللّه.لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض،ولا في سبيل المغــانم والمكاســب ولا في سبيل الأسواق والخامات ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس ..إنما هــو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام،القتال لإعلاء كلمة اللّــه

في الأرض،وإقرار منهجه في الحياة،وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عـــن دينـــهم،أو أن يجـــرفهم الضلال والفساد،وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام،وليس لمن يخوضـــها أجر عند اللّه ولا مقام.

ومع تحديد الهدف،تحديد المدى:«وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» ..والعدوان يكـــون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لا يشكلون خطرا علـــى الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة،كالنساء والأطفال والشيوخ والعبـــاد المـــنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين ..كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام،ووضع بها حدا للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة علـــى الســـواء ..تلـــك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام،وتأباها تقوى الإسلام.

وهذه طائفة من أحاديث الرسول – ﷺ- ووصـــايا أصحابه،تكشـــف عـــن طبيعـــة هـــذه الآداب،التي عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رضى الله عنهما – قَالَ وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِى بَعْضِ مَغَازِى رَسُولِ اللَّـــهِ – ﷺ-،فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ[٢٥١٢] .

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ- قَالَ « إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْـــهَ » .(أخرجه الشيخان)[٢٥١٣] .

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّهُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- فِى بَعْـــثٍ فَقَـــالَ « إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ « إِنِّى أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا،وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلاَّ اللَّهُ،فَإِنْ وَجَـــدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَـــا » ..[٢٥١٤]

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:إِنَّ أَعَفَّ النَّاسِ قِتْلَةً أَهْلُ الإِيمَانِ[٢٥١٥] .

[٢٥١٢] – أخرجه الجماعة المسند الجامع [١٠ /١٢٢٠](٨١٢٩) وصحيح البخارى- المكنز [١١ /٥٦]

[٢٥١٣] – صحيح البخارى- المكنز [٩ /٢٩٣](٢٥٥٩) وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٧ /١١٦٧](١٤١٠٠)

[٢٥١٤] – صحيح البخارى- المكنز [١١ /٥٨](٣٠١٦) والمسند الجامع [١٨ /٨١](١٤٦٣٣)

[٢٥١٥] – صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٣ /٣٣٥](٥٩٩٤) صحيح

وعن عَدِيَّ بْنِ ثَابِتٍ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ يَزِيدَ الأَنْصَارِيَّ – وَهُوَ جَدُّهُ أَبُو أُمِّهِ – قَالَ نَهَى النَّبِيُّ – ﷺ– عَنِ النُّهْبَى وَالْمُثْلَةِ .(أخرجه البخاري)[٢٥١٦] .

وعَنْ عُبَيْدِ بْنِ تِعْلَى،أَنَّهُ قَالَ :غَزَوْنَا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،فَأُتِيَ بِأَرْبَعَةِ أَعْلاَجٍ مِعَ الْعَدُوِّ،فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُتِلُوا صَبْرًا بِالنَّبْلِ،فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا أَيُّوبَ،فَقَالَ :سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَنْهَى عَنْ قَتْلِ الصَّبْرِ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةٌ مَا صَبَرْتُهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَالِدٍ،فَأَعْتَقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ.(أخرجه أبو داود)[٢٥١٧] .

عَنْ مُسْلِمِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمٍ التَّمِيمِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺفِي سَرِيَّةٍ،فَلَمَّا بَلَغْنَا الْمُغَارَ،اسْتَحْثَثْتُ فَرَسِي،فَسَبَقْتُ أَصْحَابِي،فَتَلَقَّانِي الْحَيُّ بِالرَّنِينِ،فَقُلْتُ:قُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُحَرَّزُوا،فَقَالُوهَا،فَلاَمَنِي أَصْحَابِي،وَقَالُوا:حُرِمْنَا الْغَنِيمَةَ بَعْدَ أَنْ رُدَّتْ بِأَيْدِينَا،فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،أَخْبَرُوهُ بِمَا صَنَعْتُ،فَدَعَانِي،فَحَسَّنَ لِي مَا صَنَعْتُ،وَقَالَ:أَمَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَكَ بِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا.[٢٥١٨]

وعن مُسْلِمَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمٍ التَّمِيمِيِّ،أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺأَرْسَلَهُمْ فِي سَرِيَّةٍ،قَالَ فَلَمَّا بَلَغْنَا الْمُغَارَ،اسْتَحْثَثْتُ فَرَسِي،فَسَبَقْتُ أَصْحَابِي،قَالَ:وَاسْتَقْبَلْنَا الْحَيَّ بِالرَّنِينِ،فَقُلْتُ لَهُمْ:قُولُوا:لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُحْرَزُوا،فَقَالُوهَا،وَجَاءَ أَصْحَابِي فَلَامُونِي،وَقَالُوا:حَرَمْتَنَا الْغَنِيمَةَ بَعْدَ أَنْ بَرَدَتْ فِي أَيْدِينَا،قَالَ:فَلَمَّا قَفَلْنَا،ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺفَدَعَانِي،فَحَسَّنَ مَا صَنَعْتُ،وَقَالَ:" أَمَا إِنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ لَكَ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا "،قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَإِذَا نَسِيتُ ذَلِكَ،قَالَ:ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَمَا إِنِّي سَأَكْتُبُ لَكَ كِتَابًا وَأُوصِي بِكَ مَنْ يَكُونُ بَعْدِي مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ " فَفَعَلَ،وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَدَفَعَهُ إِلَيَّ،قَالَ:وَقَالَ لِي:" إِذَا صَلَّيْتَ

[٢٥١٦] – صحيح البخارى– المكتز [٩ /١٥٦](٢٤٧٤)

[٢٥١٧] – سنن أبي داود – المكتز [٣ /١٣] (٢٦٨٩) وصحيح ابن حبان– ط٢ مؤسسة الرسالة [١٢ /٤٢٤](٥٦١٠) وفتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار الفكر [٩ /٦٤٤] وهو حسن والمتن المرفوع صحيح

الأعلاج:جمع العلج وهو الشديد القوى على العمل =قتل الصبر:القتل بصفحة السيف لا بشفرته.وفيه نوع من التعذيب بالموت البطيء ..وأعتق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أربع رقاب وهي كفارة القتل الخطأ.

[٢٥١٨] – صحيح ابن حبان– ط٢ مؤسسة الرسالة [٥ /٣٦٦](٢٠٢٢) حسن وضعفه بعضهم لاضطراب في سنده

أي مكان الإغارة على العدو.– تحفظوا وتصانوا وتحرم دماؤكم وأموالكم.

الْغَدَاةَ فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَدًا:اللهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ،فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ مِنْ يَوْمِكَ ذَلِكَ كَتَبَ اللهُ لَكَ جِوَارًا مِنَ النَّارِ،وَإِذَا صَلَّيْتَ الْمَغْرِبَ،فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَدًا:اللهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ،فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ،كَتَبَ اللهُ لَكَ جِوَارًا مِنَ النَّارِ " قَالَ فَلَمَّا قَبَضَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ،أَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ بِالْكِتَابِ،فَفَضَّهُ فَقَرَأَهُ،وَأَمَرَ لِي وَخَتَمَ عَلَيْهِ،ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ عُمَرَ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ،ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ عُثْمَانَ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ .قَالَ مُسْلِمُ بْنُ حَارِثٍ فَتُوُفِّيَ الْحَارِثُ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ،فَكَانَ الْكِتَابُ عِنْدَنَا حَتَّى وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ،فَكَتَبَ إِلَى عَامِلٍ قِبَلَنَا أَنْ أَشْخِصْ إِلَيَّ مُسْلِمَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمٍ التَّمِيمِيَّ بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺالَّذِي كَتَبَهُ لِأَبِيهِ،قَالَ:فَشَخَصْتُ بِهِ إِلَيْهِ فَقَرَأَهُ،وَأَمَرَ لِي،وَخَتَمَ عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:أَمَا إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ إِلَّا لِتُحَدِّثَنِي بِمَا حَدَّثَكَ بِهِ أَبُوكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ عَلَى وَجْهِهِ "[2519]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ،وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ،قَالَ :لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُوَدِّعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ،فَقَالُوا :يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ،أَتَمْشِي وَنَحْنُ رُكْبَانٌ ؟ فَقَالَ :" إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " .ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ،فَقَالَ :" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ،اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَجْبُنُوا،وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ،وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ،فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنَائِمِ شَيْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ،فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلَا

[2519] - معرفة الصحابة لأبي نعيم [٢ /٧٩٤](٢٠٩٨) وقد حسن الحافظ ابن حجر الحديث كما ذكره عنه ابن علان في الفتوحات الربانية وهو كما قال- هذا

تَحْرِقُنَّهَا،وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً،وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ،وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً،وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا الشُّيُوخَ وَلَا النِّسَاءَ،وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ،وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِي رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا،فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ " ..[2520]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَمَّرَ عَلَى الْأَجْنَادِ :يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى جُنْدٍ،وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جُنْدٍ،وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ عَلَى جُنْدٍ،وَأَمَّرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى جُنْدٍ،ثُمَّ جَعَلَ يَزِيدَ عَلَى الْجَمَاعَةِ،وَخَرَجَ مَعَهُ يُشَيِّعُهُ وَيُوصِيهِ،وَيَزِيدُ رَاكِبٌ،وَأَبُو بَكْرٍ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ،فَقَالَ يَزِيدُ :يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ وَأَمْشِيَ مَعَكَ،فَقَالَ :إِنِّي لَسْتُ بِرَاكِبٍ،وَلَسْتُ بِتَارِكِكَ أَنْ تَنْزِلَ ،إِنِّي أَحْتَسِبُ هَذَا الْخَطْوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،يَا يَزِيدُ إِنَّكُمْ سَتَقْدَمُونَ أَرْضًا يُقَدَّمُ إِلَيْكُمْ فِيهَا أَلْوَانُ الْأَطْعِمَةِ،فَسَمُّوا اللَّهَ إِذَا أَكَلْتُمْ،وَاحْمَدُوهُ إِذَا فَرَغْتُمْ،يَا يَزِيدُ،إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ قَوْمًا قَدْ فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ فَهِيَ كَالْعَصَائِبِ،فَفَلَقُوا هَامَهُمْ بِالسُّيُوفِ،وَسَتَمُرُّونَ عَلَى قَوْمٍ فِي صَوَامِعَ لَهُمْ،احْتَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا،فَدَعْهُمْ حَتَّى يُمِيتَهُمُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ،يَا يَزِيدُ لَا تَقْتُلْ صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً،وَلَا صَغِيرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا دَابَّةً عَجْمَاءَ،وَلَا بَقَرَةً،وَلَا شَاةً إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ،وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ،وَلَا تَجْبُنْ "[2521]

[2520] - السنن الكبرى للبيهقي - حيدر آباد [٩ /٨٥](١٨٥٩٢) ومُوَطَّأُ مَالِكٍ (٩٧٦) مرسلا حسن لغيره

الغلول:الخيانة والسرقة =التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به = الخصال:جمع خصلة وهي خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رزيلة = الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب = أبى:امتنع ورفض =الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد للْكِتابي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جَزَت عن قتله،والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:قَوْلُهُ:فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا،يَعْنِي مِنْ،دَارِ التَّعَرُّبِ إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ،يَقُولُ:إِنْ لَمْ يُهَاجِرُوا،فَهَذَا حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرُهُ فِي الْفَيْءِ،أَنَّهُ لَمْ يَرَ لِمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِالْمُهَاجِرِينَ وَيُعِينُهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَيُجَامِعُهُمْ فِي أُمُورِهِمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ حَقًّا ثُمَّ رَوَى النَّاسُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ شُرَكَاءُ ".الْأَمْوَالُ لِابْنِ زَنْجُوَيْهِ (٥٧٩)

[2521] - سُنَنُ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ (٢٢٠٧) حسن لغيره –

فهذه هي الحرب التي يخوضها الإسلام وهذه هي آدابه فيها وهذه هي أهدافه منـــها ..وهـــي تنبثق من ذلك التوجيه القرآني الجليل:«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ،وَلا تَعْتَـــدُوا،إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» ..[2522]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ،أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّاسِ حِـــينَ وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ قَالَ:" إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ قَوْمًا مُحَوَّقَةً رُءُوسِهِمْ فَاضْرِبُوا مَقَاعِدَ الشَّيْطَانِ مِنْهُمْ بِالسُّيُوفِ فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَقْتُلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّـــهَ يَقُولُ:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} [التوبة:١٢] "[2523]

وعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ الشَّمَامِسَةَ مِنَ الْعَدُوِّ،وَيَقُولُ:" لَأَنْ أَقْتُـــلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ،وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:{فَقَـــاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ} [التوبة:١٢] "[2524]

وفي شرح السير :" وَسَتَلْقَى أَقْوَامًا قَدْ حَلَقُوا أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ،فَافْلِقُوهَا بِالسَّـــيْفِ.وَالْمُـــرَادُ الشَّمَامِسَةُ،وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَلَوِيَّةِ فِينَا.وَهُمْ أَوْلَادُ هَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -.فَقَدْ أَشَارَ فِـــي هَـــذَا الْحَدِيثِ بِطَرِيقٍ آخَرَ:وَتَرَكُوا شُعُورًا كَالْعَصَائِبِ.يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِمْ فِي الْقِتَالِ وَيَحُثُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ،فَمِنْهُمْ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ،قَتْلُهُمْ أَوْلَى مِنْ قَتْلِ غَيْرِهِمْ.وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِطَرِيـــقٍ آخَرَ فَقَالَ:فَاضْرِبُوا مَقَاعِدَ الشَّيَاطِينِ مِنْهَا بِالسُّيُوفِ أَيْ فِي أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ الْمَحْلُوقَةِ.وَاَللَّـــهِ لَأَنْ أَقْتُلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَقَـــاتِلُوا أَئِمَّـــةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ} [التوبة:١٢] وَالْمُرَادُ بِمَقَاعِدِ الشَّيَاطِينِ شَعْرُ رُءُوسِهِمْ،وَذَلِكَ يَكُونُ فِي الرَّأْسِ،كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي إقَامَةِ الْحَدِّ:اضْرِبُوا الرَّأْسَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ فِي الرَّأْسِ."[2525]

وهم الشمامسة من رؤساء النصارى فهؤلاء أمر بقتلهم وحرض عليه،وقال ابن عبد الـــبر:" الشَّمَامِسَةُ هُمْ أَصْحَابُ الدِّيَانَاتِ،وَالرُّهْبَانُ الْمُخَالِطُونَ لِلنَّاسِ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ،وَفِـــيهِمُ الـــرَّأْيُ

[2522] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٩)

[2523] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٦/ ١٧٦١) فيه انقطاع

[2524] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٨٣)(٢٦٣٥) صحيح

[2525] - شرح السير الكبير (ص:٤١)

وَالْمَكِيدَةُ،وَالْعَوْنُ بِمَا أَمْكَنَهُمْ،وَلَيْسُوا كَالرُّهْبَانِ الْفَارِّينَ عَنِ النَّاسِ الْمُعْتَزِلِينَ لَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ."[2526]

ومثل هؤلاء من أئمة الكفر المأمور بقتلهم من رافقوا الحملة الصليبية التي تقودها الولايات المتحدة لتحريض الجنود على قتال المسلمين في العراق أو للدعوة إلى النصرانية.

وأما إذا قاتلت المرأة من أهل الحرب أو قاتل الصبي أو الشيخ الهرم فيقتلون في هذه الحالة،وكذا إذا حرضوا الكفار المحاربين على القتال أو شاركوا بالرأي،وقال ابن قدامة رحمه الله:" وَلَوْ وَقَفَتْ امْرَأَةٌ فِي صَفِّ الْكُفَّارِ أَوْ عَلَى حِصْنِهِمْ،فَشَتَمَتْ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ تَكَشَّفَتْ لَهُمْ،جَازَ رَمْيُهَا قَصْدًا؛فعَنْ عِكْرِمَةَ،قَالَ:لَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ أَشْرَفَت امْرَأَةٌ فَكَشَفَتْ قُبُلَهَا،فَقَالَتْ:هَا دُونَكُمْ فَارْمُوا،فَرَمَاهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَمَا أَخْطَأَ ذَلِكَ مِنْهَا،وَفِي حَدِيثِ وُهَيْبٍ فَمَا أَخْطَأَهَا أَنْ قَتَلُوهَا،فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تُوَارَى." [2527].

وَيَجُوزُ النَّظَرُ إلَى فَرْجِهَا لِلْحَاجَةِ إلَى رَمْيِهَا؛لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ ضَرُورَةِ رَمْيِهَا.وَكَذَلِكَ يَجُوزُ رَمْيُهَا إذَا كَانَتْ تَلْتَقِطُ لَهُمْ السِّهَامَ،أَوْ تَسْقِيهِمْ،أَوْتُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ؛لِأَنَّهَا فِي حُكْمِ الْمُقَاتِلِ.وَهَكَذَا الْحُكْمُ فِي الصَّبِيِّ وَالشَّيْخِ وَسَائِرِ مَنْ مُنِعَ مِنْ قَتْلِهِ مِنْهُمْ."[2528]

وإذا لم يتمكن المجاهدون من قتل الكفار المحاربين إلا بقتل نسائهم وأطفالهم وشيوخهم،كما لو كانوا مختلطين بهم،ولا يمكن التمييز بينهم،كما في البيات،أو قصف مواقعهم وحصونهم،أولتترسهم بهم،وكذا العمليات الاستشهادية التي تستهدف المحاربين منهم وقد يصاب فيها من يخالطهم من نسائهم أو أطفالهم أو شيوخهم،ففي كل هذه الحالات يجوز قتل نساء المحاربين وأطفالهم وشيوخهم تبعا لاقصدا،ويقصد في مثل هذه الحالات قتل المقاتلين دون

[2526] - الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ٤٦٣ (١٤/ ٧١)

[2527] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤٠)(١٨١٠٦) والمراسيل لأبي داود (ص:٢٤٧) (٣٣٤) وسنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٦١) (٢٨٦٥) صحيح مرسل

[2528] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٨٨) والمفصل في فقه الجهاد - ط٢ (ص:١٥٦٨)

غيرهم،فعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ،قَالَ:سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؟ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ "،فَقَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ» [2529]

والبيات هو الغارة ليلا فلايمكن التمييز بين الكفار المقاتلين وبين نسائهم وذراريهم.

الثالث:الوفاء بالعهود:

لقد جاءت الشريعة الإسلامية بوجوب الوفاء بالعهود والعقود،وحرمة الغدر،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } [المائدة:١]

يَا أيُّها الذِينَ آمَنُوا التَزِمُوا الوَفَاءَ بِجَمِيعِ العُهُودِ التِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ،وَالعُهُودِ المَشْرُوعَةِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ،فَاللهُ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي هَذِهِ الآيَةِ المُؤْمِنينَ بِالوَفَاءِ بِمَا عَقَدُوهُ،وَارْتَبَطُوا بِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى،مَا لَمْ يَكُنْ يُحَرِّمُ حَلاَلاً،أَوْ يُحَلِّلُ حَرَاماً:كَالعَقْدِ عَلَى الرِّبا،أَوْ أَكَلِ مَالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ (كَالرَّشْوَةِ وَالقِمَارِ) . [2530]

وقال تعالى:{وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } [الإسراء:٣٤]،وقال تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون:٨]

وَالذِينَ إِذَا ائْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا أَمَانَاتِهِم،بَلْ يُؤَدُّونَها إِلى أَهْلِهَا،وإِذَا عَاهَدُوا أو عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلِكَ،وَلَمْ يَخُونُوا وَلَمْ يَغْدُرُوا،وَبقوا مُحَافِظِينَ عَلَى عُهُودِهِمْ وأَمَانَاتِهِمْ وعُقُودِهِمْ. [2531]

[2529] - صحيح البخاري (٤/ ٦١) (٣٠١٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤) ٢٦ - (١٧٤٥) انظر:الموسوعة الفقهية١٠/ ١٢٥،١٢٦.

[ش (الذراري) بتشديد الياء وتخفيفها لغتان التشديد أفصح وأشهر والمراد بالذراري هنا النساء والصبيان(سئل النبي ﷺ عن الذراري من المشركين) هكذا هو في أكثرنسخ بلادنا سئل عن الذراري وفي رواية عن أهل الدار من المشركين ونقل القاضي هذه عن رواية جمهور رواة صحيح مسلم قال وهي الصواب وأما الرواية الأولى فقال ليست بشيء بل هي تصحيف قال وما بعده يبين الغلط فيه قلت (أي الإمام النووي) وليست باطلة كما ادعى القاضي بل لها وجه وتقديره سئل عن حكم صبيان المشركين الذين يبيتون فيصاب من نسائهم وصبيانهم بالقتل فقال هم من آبائهم أي لا بأس بذلك لأن أحكام آبائهم جارية عليهم في الميراث وفي النكاح وفي القصاص والديات وغير ذلك والمراد إذا لم يتعمدوا من غير ضرورة(يبيتون) معنى يبيتون أن يغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من المرأة والصبي ومنه البيات]

[2530] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٧٠،بترقيم الشاملة آليا)

[2531] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٦١،بترقيم الشاملة آليا)

وقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ:مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ،قَالَ:فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ،قَالُوا:إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا،فَقُلْنَا:مَا نُرِيدُهُ،مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ،فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ،وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ،فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ،فَقَالَ:«انْصَرِفَا،نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ،وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ» رواه مسلم[٢٠٣٢]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا،وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ،وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ،وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " متفقٌ عليه[٢٠٣٣]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،يُقَالُ:هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ "[٢٠٣٤]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ الْخُزَاعِيِّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ آمَنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ،فَإِنَّهُ يُحْمَلُ لِوَاءَ غَدْرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢٠٣٥].

[٢٠٣٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤١٤)٩٨ - (١٧٨٧)

[٢٠٣٣] - صحيح البخاري (١/ ١٦)(٣٤) وصحيح مسلم (١/ ٧٨)١٠٦ - (٥٨)

[ش (منافقا خالصا) قد استجمع صفات النفاق.(خصلة) صفة.(يدعها) يتركها ويخلص نفسه منها.(غدر) ترك الوفاء بالعهد.(خاصم) نازع وجادل.(فجر) مال عن الحق واحتال في رده]

(أَرْبَعٌ) أَيْ خِصَالٌ أَرْبَعٌ،أَوْ أَرْبَعٌ مِنَ الْخِصَالِ،فَسَاغَ الِابْتِدَاءُ بِهِ (مَنْ كُنَّ فِيهِ) قِيلَ بِتَأْوِيلِ اعْتِقَادِ اسْتِحْلَالِهِنَّ (كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا) وَيُمْكِنُ أَلَّا يَجْتَمِعْنَ فِي مُؤْمِنٍ خُصُوصًا عَلَى وَجْهِ الِاعْتِيَادِ،وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ:(وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ) أَيْ مِنْ تِلْكَ الْخِصَالِ الْأَرْبَعِ (كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا) أَيْ يَتْرُكَهَا (إِذَا اؤْتُمِنَ) بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَيْ وُضِعَ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ (خَانَ) أَيْ بِالتَّصَرُّفِ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ (وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ) أَيْ عَمْدًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ (وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ) أَيْ يَنْقُضُ الْعَهْدَ ابْتِدَاءً،وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ:إِذَا حَالَفَ تَرَكَ الْوَفْدَ (وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) أَيْ شَتَمَ وَرَمَى بِالْأَشْيَاءِ الْقَبِيحَةِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:مَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ وَاسْتَمَرَّتْ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ مُنَافِقًا،وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ الْمَفْتُونُ بِهَا فَإِنَّهُ لَا يُصِرُّ عَلَيْهَا،وَإِنْ وُجِدَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهَا عَدِمَ الْأُخْرَى،قِيلَ:وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ كَالْمُنَافِقِ بِحَذْفِ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ مِثْلَ " زَيْدٌ أَسَدٌ "،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُخْتَصًّا بِأَهْلِ زَمَانِهِ،فَإِنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَرَفَ بِنُورِ الْوَحْيِ بَوَاطِنَ أَحْوَالِهِمْ،وَمَيَّزَ بَيْنَ مَنْ آمَنَ بِهِ صِدْقًا وَمَنْ أَذْعَنَ لَهُ نِفَاقًا،وَأَرَادَ اطِّلَاعَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِمْ لِيَحْذَرُوا مِنْهُمْ،وَلَمْ يُصَرِّحْ بِأَسْمَائِهِمْ؛لِعِلْمِهِ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ يَتُوبُ،فَلَمْ يَفْضَحْهُمْ بَيْنَ النَّاسِ؛وَلِأَنَّ تَرْكَ التَّصْرِيحِ أَوْقَعُ فِي النَّصِيحَةِ،وَأَدَلُّ عَلَى الشَّفَقَةِ،وَأَجْلَبُ إِلَى الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ،وَأَبْعَدُ عَنِ النُّفُورِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالِالْتِحَاقِ بِالْمُخَالِفِينَ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٢٨)

[٢٠٣٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٦٠)١٢ - (١٧٣٦)

[٢٠٣٥] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٧٧)(٨٦٨٦) صحيح

وعَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:«مَنْ آمَنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ ،وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا» [٢٥٣٦]

والكفار إما أهل حرب،وإما أهل عهد،وأهل العهد ينقسمون إلى ثلاثة أقسام،أهل هدنة،وأهل أمان،وأهل ذمة.

فأما أهل الهدنة فهم الذين يقيمون في دارهم وصالحوا الدولة الإسلامية على وقف الحرب إلى أجل،وهذه المصالحة أو المعاهدة ليست مؤبدة،ولا يقدم عليها الإمام إلا إذا اقتضت المصلحة الشرعية ذلك كما لو كان بالمسلمين ضعف،وأما في حال القوة فلا يجوز للإمام أن يقدم على المصالحة،وقد قال تعالى: { فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } [محمد:٣٥]

فَلا تَضْعُفُوا يَا أَيُّها المُؤْمِنُونَ عَنِ الجِهَادِ،وَقِتَالِ الكُفَّارِ وَالمُشْرِكِينَ،وَلا تَدْعُوا إلى المُهَادَنَةِ وَالمُسَالَمةِ وَوَضْعِ القِتَالِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ،وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ الغَالِبُونَ بِقُوَّةِ الإِيمَانِ،وَاللهُ مَعَكُمْ يَنْصُرُكُمْ عَلَيهِم،وَلاَ يَظْلِمُكُمْ شَيْئاً مِنْ ثوابِ أعْمَالِكُمْ. [٢٥٣٧]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" {فَلا تَهِنُوا} أَيْ:لَا تَضْعُفُوا عَنِ الْأَعْدَاءِ،{وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ} أَيِ:الْمُهَادَنَةِ وَالْمُسَالَمَةِ،وَوَضْعِ الْقِتَالِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ فِي حَالِ قُوَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِكم وعُدَدِكُمْ؛وَلِهَذَا قَالَ:{فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأعْلَوْنَ} أَيْ:فِي حَالِ عُلُوِّكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ،فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ فِيهِمْ قُوَّةٌ وَكَثْرَةٌ (٢) بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ،وَرَأَى الْإِمَامُ فِي الْمُعَاهَدَةِ وَالْمُهَادَنَةِ مَصْلَحَةً،فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ،كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَدَّهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَنْ مَكَّةَ،وَدَعَوْهُ إِلَى الصُّلْحِ وَوَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَشْرَ سِنِينَ،فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ.وَقَوْلُهُ:{وَاللَّهُ مَعَكُمْ} فِيهِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ،{وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} أَيْ:وَلَنْ يُحْبِطَهَا وَيُبْطِلَهَا وَيَسْلُبَكُمْ إِيَّاهَا،بَلْ يُوَفِّيكُمْ ثَوَابَهَا وَلَا يُنْقِصُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا." [٢٥٣٨].

[٢٥٣٦] - المعجم الصغير للطبراني (١/ ٣٥٠)(٥٨٤) والمعجم الأوسط (٧/ ١٣٦)(٧٠٩٠) حسن

[٢٥٣٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٥٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥٣٨] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٣٢٣)

وأما أهل الأمان فهم الذين يعطون الأمان،ليدخلوا دولة الإسلام دون أن يستوطنوا فيها:كالرسل،والتجار،ومن له غرض من زيارة قريب أو نحوها،ومن يعرض عليه الإسلام والقرآن كما قال تعالى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة:٦].

وَإِذَا اسْتَجَارَ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الذِينَ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بِقِتَالِهِمْ) بِالرَّسُولِ ﷺ وَاسْتَأْمَنَهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤَمِّنَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ،وَيَقْرَأَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ القُرْآنَ،وَيَذْكُرَ لَهُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الدِّينِ،لِيُقِيمَ عَلَيْهِ الحُجَّةَ،ثُمَ يُبْلِغَهُ مَأمَنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ،وَيُوصِلَهُ إِلَى مَكَانٍ يَكُونُ فِيهِ آمِناً،لأنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يَعْلَمُونَ أَمْرَ الدِّينِ،وَلَمْ يُعْرِضُوا عَنِ الإِسْلاَمِ إلاَّ عَنْ جَهْلٍ وَعَصَبِيَّةٍ،وَاغْتِرارٍ بِالقُوَّةِ،وَقَدْ شَرَعَ اللهُ أَمَانَهُمْ لِيَعْلَمُوا دِينَ اللهِ،وَلِتَنْتَشِرَ الدَّعْوَةُ بَيْنَ عِبَادِهِ،وَلِهَذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُعْطِي أَمَانَهُ مُسْتَرْشِداً بِالآيَةِ،وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ هِدَايَةِ الكَثِيرِينَ مِنْهُمْ.[٢٥٣٩]

وأما أهل الذمة فهم المقيمون في دولة الإسلام،وتجري عليهم أحكام الإسلام،وتؤخذ منهم الجزية،كما قال تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩]،والجزية تؤخذ من الرجال الأحرار البالغين،فعَنْ مُعَاذ:«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عِدْلَهُ مَعَافِرَ،وَمِنَ الْبَقَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ تَبِيعًا أَوْ تَبِيعَةً،وَمِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ مُسِنَّةً»[٢٥٤٠]

ويجوز برهم والإحسان إليهم من غير موالاهم ومودهم،وتجب حمايتهم،ومنع التعدي عليهم في أنفسهم أو أعراضهم أو أموالهم أو تعذيبهم،وقد قال تعالى:{ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الممتحنة:٨]

[٢٥٣٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٤٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥٤٠] - سنن النسائي (٥/ ٢٥)(٢٤٥٠) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٢٤٤)(٤٨٨٦) صحيح

وعَنْ مُجَاهِد،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَغُلَامٌ لَهُ يَسْلُخُ شَاةً،فَقَالَ:«يَا غُلَامُ إِذَا فَرَغْتَ فَأَبْدَأْ بِجَارِنَا الْأَدْنَى» .حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ:كَمْ تَذْكُرُ الْيَهُودِيَّ؟ قَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «يُوصِي بِالْجَارِ حَتَّى حَسِبْنَا أَوْ رَأَيْنَا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[٢٠٤١]

وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – وَغُلَامُهُ يَسْلُخُ شَاةً – فَقَالَ:يَا غُلَامُ،إِذَا فَرَغْتَ فَابْدَأْ بِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ،فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ:الْيَهُودِيُّ أَصْلَحَكَ اللَّهُ؟ قَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُوصِي بِالْجَارِ،حَتَّى خَشِينَا أَوْ رُئِينَا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ " أخرجه البخاري في الأدب المفرد[٢٠٤٢]

وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:كُنَّا نَأْتِي عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو وَعِنْدَهُ غَنَمٌ لَهُ ،فَكَانَ يَسْقِينَا لَبَنًا سُخْنًا ،فَسَقَانَا يَوْمًا لَبَنًا بَارِدًا ،فَقُلْنَا:مَا شَأْنُ اللَّبَنِ بَارِدًا؟ قَالَ:إِنِّي تَنَحَّيْتُ عَنِ الْغَنَمِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا الْكَلْبَ ،وَغُلَامُهُ يَسْلُخُ شَاةً ،فَقَالَ:يَا غُلَامُ ،إِذَا فَرَغْتَ فَابْدَأْ بِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثًا،فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ عَرَفَهُ مُجَاهِدٌ:كَمْ تَذْكُرُ الْيَهُودِيَّ ،أَصْلَحَكَ اللهُ؟ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ " يُوصِي بِالْجَارِ حَتَّى خَشِينَا أَوْ رِبْنَا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ "[٢٠٤٣]

وعَنْ جِسْرٍ أَبِي جَعْفَرٍ،قَالَ:شَهِدْتُ كِتَابَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ،قُرِئَ عَلَيْنَا بِالْبَصْرَةِ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَمَرَ أَنْ تُؤْخَذَ الْجِزْيَةُ مِمَّنْ رَغِبَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَاخْتَارَ الْكُفْرَ عِتِيًّا وَخُسْرَانًا مُبِينًا،فَضَعِ الْجِزْيَةَ عَلَى مَنْ أَطَاقَ حَمْلَهَا وَخَلِّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِمَارَةِ الْأَرْضِ،فَإِنَّ فِي ذَلِكَ صَلَاحًا لِمَعَاشِ الْمُسْلِمِينَ وَقُوَّةً عَلَى عَدُوِّهِمْ،وَانْظُرْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ قَدْ كَبِرَتْ سِنُّهُ،وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ،وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ،فَأَجْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُصْلِحُهُ،فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ كَبِرَتْ سِنُّهُ وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ كَانَ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِ أَنْ يَقُوتَهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ عِتْقٌ،وَذَلِكَ أَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ مَرَّ بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَسْأَلُ عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ،فَقَالَ:«مَا أَنْصَفْنَاكَ،أَنْ كُنَّا

[٢٠٤١] - البر والصلة للحسين بن حرب (ص:١١٢)(٢١٦) صحيح

[٢٠٤٢] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٥٨)(١٢٨) صحيح

[٢٠٤٣] - شرح مشكل الآثار (٧/ ٢٢٠)(٢٧٩٢) صحيح

أَخَذْنَا مِنْكَ الْجِزْيَةَ فِي شَبِيبَتِكَ ثُمَّ ضَيَّعْنَاكَ فِي كِبَرِكَ،» قَالَ:ثُمَّ أَجْرَى عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يُصْلِحُهُ"[٢٠٤٤]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ،وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» رواه البخاري[٢٠٤٥]

وعَنْ صَعْصَعَةَ،قَالَ:سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ،فَقُلْتُ:إِنَّا نَسِيرُ فِي أَرْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَنُصِيبُ مِنْهُمْ،فَقَالَ:بِغَيْرِ ثَمَنٍ؟ قُلْتُ بِغَيْرِ ثَمَنٍ،قَالَ فَمَا تَقُولُونَ؟ قُلْتُ:نَقُولُ:حَلَالًا لَا بَأْسَ بِهِ،فَقَالَ:أَنْتُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ:{لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران:٧٥] [٢٠٤٦]

وعَنْ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ،قَالَ:قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ:«لَا تَمْشِ ثَلَاثَ خُطًى لِتَأَمَّرَ عَلَى ثَلَاثَةِ نَفَرٍ،وَلَا تَرْزَأْ مُعَاهِدًا إِبْرَةً فَمَا فَوْقَهَا،وَلَا تَبْغِ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ غَائِلَةً»[٢٠٤٧]

[٢٠٤٤] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٥٧)(١١٩) ضعيف

[٢٠٤٥] - صحيح البخاري (٤/ ٩٩)(٣١٦٦)

[ش (معاهدا) ذميا من أهل العهد أي الأمان والميثاق.(لم يرح) لم يجد ريحها و لم يشمها.(مسيرة) مسافة يستغرق سيرها هذه المدة]

(قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا "):بِكَسْرِ الْهَاءِ،مَنْ عَاهَدَ الْإِمَامَ عَلَى تَرْكِ الْحَرْبِ ذِمِّيًّا أَوْ غَيْرَهُ،وَرُوِيَ بِفَتْحِهَا وَهُوَ مَنْ عَاهَدَهُ الْإِمَامُ.قَالَ الْقَاضِي:يُرِيدُ بِالْمُعَاهِدِ مَنْ كَانَ لَهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَهْدٌ شَرْعِيٌّ،سَوَاءٌ كَانَ بِعَقْدِ جِزْيَةٍ أَوْ هُدْنَةٍ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ أَمَانٍ مِنْ مُسْلِمٍ،وَقَوْلُهُ:" لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ "،فِيهِ رِوَايَاتٌ ثَلَاثٌ بِفَتْحِ الرَّاءِ مِنْ رَاحَ يَرَاحُ،وَبِكَسْرِهِ مِنْ رَاحَ يَرِيحُ،وَبِضَمِّ الْيَاءِ مِنْ أَرَاحَ يُرِيحُ.وَقَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ:بِفَتْحِ الرَّاءِ وَالْيَاءِ هُوَ أَجْوَدُ،وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُ ثُمَّ الْمَعْنَى وَاحِدٌ،وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَجِدْ رِيحَهَا،وَلَمْ يُرِدْ بِهِ أَنَّهُ لَا يَجِدُهَا أَصْلًا،بَلْ أَوَّلُ مَا يَجِدُهَا سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَقْتَرِفُوا الْكَبَائِرَ تَوْفِيقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَعَاضَدَتْ بِهِ الدَّلَائِلُ النَّقْلِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ،عَلَى أَنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ إِذَا كَانَ مُوَحِّدًا مَحْكُومًا بِإِسْلَامِهِ لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ،وَلَا يُحْرَمُ مِنَ الْجَنَّةِ.وَقِيلَ:الْمُرَادُ التَّغْلِيظُ:(" وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ "):جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ أَيْ وَالْحَالُ أَنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ تُوجَدُ (" مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا ") .أَيْ عَامًا كَمَا فِي رِوَايَةٍ.قَالَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:وَفِي رِوَايَةٍ سَبْعِينَ عَامًا،وَفِي الْأُخْرَى مِائَةَ عَامٍ،وَفِي الْفِرْدَوْسِ أَلْفُ عَامٍ،وَجَمَعَ بِأَنَّ ذَلِكَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَعْمَالِ،وَتَفَاوُتِ الدَّرَجَاتِ،فَيُدْرِكُهَا مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ،وَمَنْ شَاءَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا،وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ قَالَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُ.قُلْتُ:وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْكُلِّ طُولَ الْمَسَافَةِ لَا تَحْدِيدَهَا.(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٢٦١)

[٢٠٤٦] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٩٧)(٤١٥) صحيح

[٢٠٤٧] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٣)(١٥) صحيح

وعَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ،قَالَ:مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أُنَاسٍ،وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ،وَصُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمِ الزَّيْتُ،فَقَالَ:مَا هَذَا؟ قِيلَ:يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ،فَقَالَ:أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا» رواه مسلم[٢٥٤٨]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أُتِيَ بِمَالٍ كَثِيرٍ - قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:أَحْسَبُهُ،قَالَ:مِنَ الْجِزْيَةِ - فَقَالَ:«إِنِّي لَأَظُنُّكُمْ قَدْ أَهْلَكْتُمُ النَّاسَ»،قَالُوا:لَا وَاللَّهِ مَا أَخَذْنَا إِلَّا عَفْوًا صَفْوًا قَالَ:«بِلَا سَوْطٍ وَلَا نَوْطٍ؟» قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ عَلَى يَدَيَّ وَلَا فِي سُلْطَانِي»[٢٥٤٩].

الرابع:العدل مع الأعداء:

إن المسلم يجاهد في سبيل الله،ويبتغي بذلك إقامة حكم الله في الأرض،وهو في سعيه وجهاده لتحقيق هذه الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها يتمسك بشريعة الله العادلة،ولا يخرج عن العدل والإنصاف مع الصديق أو العدو فإن الظلم لا يحل مطلقا،حتى ولو اعتدى عليه الظالمون المعتدون من الصليبيين أو اليهود أو غيرهم،وقد قال الله تعالى:{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا } [المائدة:٢]،أي لا يحملبكم بغض الكفار لأجل ظلمهم وعدوانهم عليكم إذ صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم وتطلبوا الانتقام منهم عدوانا وظلما،بل الزموا الإنصاف مع أعدائكم،وعاملوهم بالعدل الذي شرعه الله لكم،وقال الله تبارك وتعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة:٨]،أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل،ولكن الزموا العدل فإن العدل أقرب إلى التقوى،وقال تعالى:{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠]

[٢٥٤٨] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠١٧)١١٧ - (٢٦١٣)

[ش (إن الله يعذب الذين يعذبون) هذا محمول على التعذيب بغير حق فلا يدخل فيه التعذيب بحق كالقصاص والحدود والتعزير وغير ذلك]

[٢٥٤٩] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٥٤)(١١٤) حسن

وعَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ،قَالَ :سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ يَقُولُ :ضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْثَالاً وَاحِدًا وَثَلاَثَةً،وَخَمْسَةً وَسَبْعَةً،وَتِسْعَةً وَأَحَدَ عَشَرَ،قَالَ :فَضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا مَثَلاً وَتَرَكَ سَائِرَهَا،قَالَ :إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ قَاتَلَهُمْ أَهْلُ تَجَبُّرٍ وَعِدَاءٍ،فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ،فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ،فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ.رواه أحمد[٢٥٥٠].

فالجهاد في سبيل الله شريعة ربانية غايتها:أن تكون كلمة الله هي العليا،ومنهجها وطريقها الذي يسلكه المجاهدون في جهادهم هو شرع الله تبارك وتعالى وحكمه.

وأما الصليبيون واليهود فغاية حروبهم التي يسعرونها في الأرض أن يستعبدوا الشعوب،ويخضعوها لطاعتهم،والتحاكم لطواغيتهم كما قال تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦]

الذينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ،وَنَشْرِ دِينِهِ،لاَ يَبْتَغُونَ غَيْرَ رِضْوَانِ اللهِ.أَمَّا الذِينَ كَفَرُوا،فَإِنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوتِ)،الذِينَ يُزَيِّنُ لَهُمُ الكُفْرَ،وَيُمَنِّيهِمُ النَّصْرَ.وَكَيْدُ الشَّيْطَانِ ضَعِيفٌ،وَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَوْلِيَائِهِ.أَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَهُمُ الأَعِزَّةُ،لأَنَّ اللهَ حَامِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُعِزُّهُمْ،وَلِذَلِكَ فَعَلَى المُؤْمِنِينَ،أَوْلِيَاءِ اللهِ،أنْ لاَ يَخَافُوا أَعْدَاءَهُمُ الكُفَّارَ،لأَنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ.[٢٥٥١]

ويحرضهم ويغريهم ما في نفوسهم من إرادة العلو في الأرض،والتجبر والاستطالة على الآخرين،والسطو على خيراتهم،ونهب ثرواتهم ومعادنهم ونفطهم،وإيجاد أسواق لبضائعهم،ولتحقيق أهداف حروبهم وبواعثها الإجرامية،فإنهم يسلكون جميع المسالك والأساليب الملتوية الجائرة،عملا بقاعدتهم الشيطانية (الغاية تبرر الوسيلة)،وما يحدث من

[٢٥٥٠] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٧/ ٧٥٢)(٢٣٤٦٢) ٢٣٨٥٥- حسن

هَذَا حَدِيثٌ حَسَنُ الْإِسْنَادِ.وَمَعْنَاهُ:أَنَّ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءَ لَمَّا قَدَرُوا عَلَى الْأَقْوِيَاءِ،فاعتدوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِيمَا لَا يَلِيقُ بِهِمْ،أَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ هَذَا الِاعْتِدَاءِ.وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٥٢٤)

[٢٥٥١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٩،بترقيم الشاملة آليا)

جرائم في حق المسلمين في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وفي سجن أبو غريب وغونتنامو وغيرها شاهد على ذلك.

قتال الطائفة الممتنعة

إذا امتنعت طائفة تنتسب إلى الإسلام عن شعيرة من شعائر الإسلام الظاهرة: كالصلاة أو الزكاة أو صيام رمضان أو الحج أو الجهاد في سبيل الله أوغيرها من الشعائر، فإنها تقاتل حتى يكون الدين كله لله، وقد قال تعالى: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣]، وقد قاتل الصحابة رضي الله عنهم من امتنعوا عن أداء الزكاة فعَنِ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ " فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا " قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ» رواه البخاري ومسلم[٢٥٥٢]

وأمر النبي ﷺ بقتال الخوارج، ففي الصحيحين عن سُوَيْدَ بْنِ غَفَلَةَ: قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ

[٢٥٥٢] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٥)(١٣٩٩) وصحيح مسلم (١/ ٥١) ٣٢ - (٢٠)

[ش (عناقا) الأنثى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة.(شرح الله صدر أبي بكر) لقتالهم.(فعرفت أنه الحق) بما ظهر من الدليل الذي أقامه أبو بكر رضي الله عنه]

البَرِيَّة،لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّين،كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّة،فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَة»[2553].

وعن زَيْدَ بْنِ وَهْبٍ الْجُهَنِيِّ،أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ،فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:«يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ،لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ،وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ،وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ،لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»،لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ،مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ،لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ،«وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ،وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ،عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ،عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ» فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ،وَالله،إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ،فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ،وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ،فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ الله.قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ:فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا،حَتَّى قَالَ:مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ،فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ الله بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ،فَقَالَ:لَهُمْ أَلْقُوا الرِّمَاحَ،وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا،فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ،فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ،وَسَلُّوا السُّيُوفَ،وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ،قَالَ:وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ،فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ،فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ،فَقَامَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،قَالَ:أَخِّرُوهُمْ،فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ،فَكَبَّرَ،ثُمَّ قَالَ:صَدَقَ اللهُ،وَبَلَّغَ رَسُولُهُ،قَالَ:فَقَامَ إِلَيْهِ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،أَللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،لَسَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ

[2553] - صحيح البخاري (٩/ ١٦)(٦٩٣٠) وصحيح مسلم (٢/ ٧٤٦)١٥٤ - (١٠٦٦)

[ش (فلأن أخر من السماء) أي أسقط منها على الأرض فأهلك وهو في تأويل الاسم مبتدأ مصدر بلام الإبتداء بعدها أداة المصدر خبره قوله أحب والجملة جواب إذا أي فخروري من السماء أحب إلي من أن أكذب على رسول الله ﷺ (وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة) معناه أجتهد رأيي وقال القاضي وفيه جواز التورية والتعريض في الحرب فكأنه تأول الحديث على هذا وقوله خدعة بفتح الخاء وإسكان الدال على الأفصح ويقال بضم الخاء ويقال خدعة ثلاث لغات مشهورات]

رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ:إِي،وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا،وَهُوَ يَحْلِفُ لَــهُ " رواه مسلم[٢٥٥٤]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" كُلُّ طائفة خرجتْ عنْ شريعةٍ منْ شرائعِ الْإِسْــلامِ الظّاهِرةِ الْمُتواترةِ فإنّهُ يجبُ قتالُها باتّفاقِ أئمّةِ الْمُسْلمين،وإنْ تكلّمتْ بالشّهادتيْن،فإذا أقــرُّوا بالشّهادتيْنِ وامْتنعُوا عنْ الصّلواتِ الْخمْسِ،وجب قتالُهُمْ حتّــى يُصــلُّوا،وإنْ امْتنعُــوا عــنْ الزّكاةِ،وجب قتالُهُمْ حتّى يُؤدُّوا الزّكاة،وكذلك إنْ امْتنعُوا عنْ صِيامِ شهْرِ رمضان،أوْ حــجِّ الْبيْتِ الْعتيقِ،وكذلك إنْ امْتنعُوا عنْ تحْرِيمِ الْفواحِشِ،أوْ الزّنا،أوْ الْميْسرِ،أوْ الْخمْرِ،أوْ غيْرِ ذلك مِــنْ مُحرّمــاتِ الشّــرِيعةِ وكــذلك إنْ امْتنعُــوا عــنْ الْحُكْــمِ فِــي الــدِّماءِ،والْأمْوالِ والْأعْراضِ،والْأبْضاعِ،ونحْوِها بحُكْمِ الْكِتابِ والسُّنّةِ،وكذلك إنْ امْتنعُوا عنْ الْأمْرِ بِــالْمعْرُوفِ والنّهْيِ عنْ الْمُنْكرِ،وجِهادِ الْكُفّــارِ إلى أنْ يُسْــلِمُوا ويُــؤدُّوا الْجِزْيــة عــنْ يــدٍ وهُــمْ صاغِرُون.وكذلك إنْ أظْهرُوا الْبِدع الْمُخالِفة لِلْكِتابِ والسُّنّةِ،واتِّباعِ سلفِ الْأُمّــةِ وأئمّتِهــا مِثْلُ:أنْ يُظْهِرُوا الْإِلْحاد فِي أسْماءِ اللّهِ وآياتِهِ،أوْ التّكْذِيب بِأسْماءِ اللّهِ وصِفاتِهِ،أوْ التّكْــذِيب بِقدرِهِ وقضائِهِ أوْ التّكْذِيب بِما كان عليْهِ جماعةُ الْمُسْلمِين على عهْدِ الْخُلفــاءِ الرّاشِــدِين،أوْ الطّعْنِ فِي السّابِقِين الْأوّلِين مِنْ الْمُهاجِرِين والْأنْصارِ والّذِين اتّبعُــوهُمْ بِإِحْســانٍ أوْ مُقاتلــةِ الْمُسْلِمِين حتّى يدْخُلُوا فِي طاعتِهِمْ الّتِي تُوجِبُ الْخُرُوج عنْ شرِيعةِ الْإِسْلامِ وأمْثــالِ هــذِهِ

[٢٥٥٤] - صحيح مسلم (٢/ ٧٤٨)١٥٦ - (١٠٦٦)

[ش (لا تجاوز صلاتهم تراقيهم) المراد بالصلاة هنا القراءة لأنها جزؤها (وأغاروا في سرح الناس) السرح والسارح والسارحة الماشية أي أغاروا على مواشيهم السائمة (فترلني زيد بن وهب مترلا) هكذا هو في معظم النسخ مترلا مرة واحدة وفي نادر منها مترلا مترلا مرتين وهو وجه الكلام أي ذكر لي مراحلهم بالجيش مترلا مترلا حتى بلغ القنطرة التي كان القتال عندها (وسلوا سيوفكم من جفونها) أي أخرجوهامن أغمادها جمع جفن وهو الغمد (فإني أخاف أن يناشدوكم) يقال نشدتك الله وناشدتك الله أي سألتك بالله وأقسمت عليك (فوحشوا برماحهم) أي رموا بها عن بعد منهم ودخلوا فيهم بالسيوف حتى لا يجدوا فرصة (وشجرهم الناس برماحهم) أي مدوها إليهم وطاعنوهم بها ومنه التشاجر في الخصومة وسمي الشجر شجرا لتداخل أغصانه والمراد بالناس أصحاب علي (حتى استحلفه ثلاثا) قال الإمام النووي وإنما استحلفه ليسمع الحاضرين ويؤكد ذلك عندهم ويظهر لهم المعجزة التي أخبر بها رسول الله ﷺ ويظهر لهم أن عليا وأصحابه أولى الطائفتين بالحق وأنهم محقون في قتالهم]

الْأُمُورِ قال اللّهُ تعالى:{وقاتِلُوهُمْ حتّى لا تكُون فِتْنةٌ ويكُون الدِّينُ كُلُّهُ للّه} [الأنفــال:٣٩] فإِذا كان بعْضُ الدِّينِ لِلّهِ وبعْضُهُ لِغيْرِ اللّهِ وجب الْقِتالُ حتّى يكُون الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه."[٢٥٥٥]



[٢٥٥٥] - المفصل في فقه الجهاد - ط٢ (ص:٧٥٩) ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية- دار الوفاء (٢٨/ ٥١٠)

المبحث الرابع والعشرون

العلاقات الخارجية

تتحاكم الحكومة الإسلامية في جميع سياساتها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،ومن ذلك السياسة الخارجية للدولة الإسلامية،وفي هذا الباب تذكر بعض المعالم الأساسية في السياسة الخارجية للدولة الإسلامية.

أولها عقيدة الولاء والبراء:

من أعظم الواجبات على الحكومة الإسلامية التي لا يصح إسلامها إلا بها،أن تحقق عقيدة الولاء والبراء بموالاة المسلمين ومحبتهم ونصرتهم،والبراءة من الشرك والمشركين،وإبداء العداوة والبغضاء لهم،وقد أوجب الله تعالى على المسلمين أن يتأسوا بإبراهيم والذين آمنوا معه في براءتهم من المشركين ومما يعبدون من دون الله،فقال تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [الممتحنة:٤].
أَفَلاَ تَأَسَّى هَؤُلاَءِ الذينَ يُوَادُّونَ الكَافِرينَ بِأَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ،وَأَصْحَابِهِ المُؤْمِنينَ،حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِم الذينَ كَفَرُوا بِاللهِ:إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الآلِهَةِ وَالأَنْدَادِ،وَجَحَدْنَا ما أَنْتُمْ عَلَيهِ مِنَ الكُفْرِ،وَأَنْكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ،وَقَدْ أَعْلَنَّا الحَرْبَ عَلَيْكُمْ،فَلاَ هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ،وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تُؤمِنُوا بِاللهِ وَتُوَحِّدُوهُ،وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَلاَ صَاحِبَةَ وَلاَ وَلَدَ،وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ.
وَلَكُمْ فِي أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَأَسَّوْنَ بِهَا،وَتَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي مَسْلَكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ،وَلاَ تَسْتَثْنُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ التِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلاَّ اسْتِغْفَارَهُ لأَبِيهِ الذِي بَقِيَ مُقِيماً عَلَى الكُفْرِ،فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ:إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللهَ،وَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ،فَالأَمْرُ مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ،إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ.وَلَكِنَّ هَذَا القَوْلَ صَدَرَ عَنْ

إِبْرَاهِيمِ حِينَمَا وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللهِ،وَيَتْبَعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ.فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوٌ للهِ تَبَـرَّأَ مِنْهُ.

وَحِينَمَا فَارَقَ إِبْرَاهِيمُ وَالمُؤْمِنُونُ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَجَؤُوا إِلَى اللهِ مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ:رَبَّنَا إِنَّنَا اعْتَمَـدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا)،وَرَجَعْنَا إِلَيكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا،وَإِلَيكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعَثُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالحِسَابِ.فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ،وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ.[٢٥٥٦]

ينظر المسلم فإذا له نسب عريق،وماض طويل،وأسوة ممتدة على آماد الزمان.وإذا هو راجع إلى إبراهيم،لا في عقيدته فحسب،بل في تجاربه التي عاناها كذلك.فيشعر أن لـه رصـيدا مـن التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه.إن هذه القافلـة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله،الواقفين تحت راية الله،قد مرت بمثل مـا يمـر به،وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته.فليس الأمر جديدا ولا مبتدعا ولا تكليفا يشق علـى المؤمنين ..ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها،إذا أنبتت الـروابط بينه وبين أعداء عقيدته.فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال ..الشجرة التي غرسها أول المسلمين ..إبراهيم ..مر إبراهيم والذين معه بالتجربة الـتي يعانيها المسلمون المهاجرون.وفيهم أسوة حسنة:«إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ:إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ،كَفَرْنا بِكُمْ،وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ» .. فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم.وهو الكفر بهم والإيمان بالله.وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده.وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئا مـن الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان.وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل.وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم مـن المسلمين إلى يوم الدين.

ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه - وهو مشرك - ثغـرة تنفـذ منـها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين.فجاء القرآن ليشرح لهـم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه:«لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» ..فلقد قال هذا قبل أن يسـتيقن مـن

[٢٥٥٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٣٢،بترقيم الشاملة آليا)

إصرار أبيه على الشرك.قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه:«فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَــرَّأَ مِنْــهُ» ..كما جاء في سورة أخرى.

ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله،وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال:«وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» ..

وهذا التسليم المطلق لله،هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلــوب أبنائه المسلمين.كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه،وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم (١).

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه:«رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا» .. فلا تسلطهم علينا.فيكون في ذلك فتنة لهم،إذ يقولون:لو كان الإيمان يحمي أهله مــا ســلطنا عليهم وقهرناهم! وهي الشبهة التي كثيرا ما تحيك في الصدور،حين يــتمكن الباطــل مــن الحق،ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان – لحكمة يعلمها الله – في فترة من الفتــرات.والمــؤمن يصبر للابتلاء،ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور.وبقية الدعاء:«وَاغْفِرْ لَنا» ..يقولها إبراهيم خليل الرحمن.إدراكا منه لمستوى العبــادة التي يستحقها منه ربه،وعجزه ببشريته عن بلوغ المســتوي الــذي يكــافئ بــه نعــم الله وآلاءه،ويمجد جلاله وكبرياءه فيطلب المغفرة من ربه،ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده.

ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء:«رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيــزُ الْحَكِيمُ» ..العزيز:القادر على الفعل،الحكيم:فيما يمضي من تدبير.وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه،وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين:«لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ.وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» ..

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.هؤلاء هــم الــذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم،ويجــدون فيهــا أســوة تتبع،وســابقة تهدي.فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة ..وهو تلميح موح للحاضرين مــن

المؤمنين.فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج.من يريد أن يحيد عن طريق القافلة.من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق.فما بالله من حاجة إليه – سبحانه – «فَإِنَّ اللَّـهَ هُـوَ الْغَنِـيُّ الْحَمِيدُ» ..[٢٥٥٧]

وقال تعالى في وصف حزب الله تعالى:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَـنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَـبَ فِـي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة:٢٢].

إنها المفاضلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان،والانحياز النهائي للصف المتميز،والتجـرد من كل عائق وكل جاذب،والارتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد.«لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» ..فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه،وما يجمع إنسان في قلب واحد ودّين:ودّا لله ورسوله وودا لأعداء الله ورسوله! فإما إيمـان أو لا إيمان.أما هما معا فلا يجتمعان.

«وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ» ..فروابط الدم والقرابة هذه تتقطـع عند حد الإيمان.إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين:لواء الله ولواء الشيطان.والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حـرب بـين حزب الله وحزب الشيطان.فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعـت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد.ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يـوم بدر.وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن.وقتل مصعب بن عمير أخـاه عبيـد بـن عمير.وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم.متجردين من علائق الـدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة.وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله.

«أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ» ..فهو مثبت في قلوبهم بيد الله مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن.فلا زوال له ولا اندثار،ولا انطماس فيه ولا غموض! «وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» ..

[٢٥٥٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٢٤)

وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله.وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمدهم بالقوة والإشراق،ويصلهم بمصدر القوة والإشراق.

«وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها» ..جزاء ما تجردوا في الأرض من كل رابطة وآصرة ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية.

«رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» ..وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة،ترسم حالة المؤمنين هؤلاء،في مقام عال رفيع.وفي جو راض وديع ..ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم.انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به فتقبلهم في كنفه،وأفسح لهم في جنابه،وأشعرهم برضاه.فرضوا.رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه ..«أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ» ..فهم جماعته.المتجمعة تحت لوائه.المتحركة بقيادته.المهتدية بهديه.المحققة لمنهجه.الفاعلة في الأرض ما قدره وقضاه.فهي قدر من قدر الله.

«أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون؟

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين:حزب الله وحزب الشيطان.وإلى رايتين اثنتين:راية الحق وراية الباطل.فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق،وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل ..وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان!! لا نسب ولا صهر،ولا أهل ولا قرابة،ولا وطن ولا جنس،ولا عصبية ولا قومية ..إنما هي العقيدة،والعقيدة وحدها.فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله.تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم،وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم،ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله،فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة.ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل،فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة.لا من أرض،ولا من جنس،ولا من وطن ولا من لون،ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر ..لقد أنبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فانبتت هذه الوشائج جميعا ..ومع إيحاء هذه الآية بأنه كان هناك في الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصداقة،مما تعالجه هذه الآية في النفوس،وهي تضع ميزان الإيمان بهذا

الحسم الجازم،والمفاصلة القاطعة ..إلا أنها في الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك في الجماعة المسلمة،ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام.[٢٥٥٨]

وقال تعالى:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) [المائدة]

هكذا على وجه القصر الذي لا يدع مجالا للتمحل أو التأول ولا يترك فرصة لتمييع الحركة الإسلامية أو تمييع التصور ..

و لم يكن بد أن يكون الأمر كذلك! لأن المسألة في صميمها - كما قلنا - هي مسألة العقيدة.ومسألة الحركة بهذه العقيدة.وليكون الولاء لله خالصا،والثقة به مطلقة،وليكون الإسلام هو «الدين».وليكون الأمر أمر مفاصلة بين الصف المسلم وسائر الصفوف التي لا تتخذ الإسلام دينا،ولا تجعل الإسلام منهجا للحياة.

ولتكون للحركة الإسلامية جديتها ونظامها فلا يكون الولاء فيها لغير قيادة واحدة وراية واحدة.ولا يكون التناصر إلا بين العصبة المؤمنة لأنه تناصر في المنهج المستمد من العقيدة ..

ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان،أو مجرد راية وشعار،أو مجرد كلمة تقال باللسان،أو مجرد نسب ينتقل بالوراثة،أو مجرد وصف يلحق القاطنين في مكان! فإن السياق يذكر بعض

[٢٥٥٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٣٩٢)

السمات الرئيسية للذين آمنوا:«الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ،وَهُمْ راكِعُونَ» ..فمن صفتهم إقامة الصلاة – لا مجرد أداء الصلاة – وإقامة الصلاة تعني أداءها أداء كاملا،تنشأ عنه آثارها التي يقررها قوله تعالى:«إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ» ..والذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يقم الصلاة فلو أقامها لنهته كما يقول الله! ومن صفتهم إيتاء الزكاة ..أي أداء حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة،فليست الزكاة مجرد ضريبة مالية،إنما هي كذلك عبادة.أو هي عبادة مالية.وهذه هي ميزة المنهج الإسلامي.الذي يحقق أهدافا شتى بالفريضة الواحدة.وليس كذلك الأنظمة الأرضية التي تحقق هدفا وتفرط في أهداف ..

إنه لا يغني في إصلاح حال المجتمع أن يأخذ المجتمع المال ضريبة (مدنية!) أو أن يأخذ المال من الأغنياء للفقراء باسم الدولة،أو باسم الشعب،أو باسم جهة أرضية ما ..فهي في صورتها هذه قد تحقق هدفا واحدا وهو إيصال المال للمحتاجين ..

فأما الزكاة ..فتعني اسمها ومدلولها ..إنها قبل كل شيء طهارة ونماء ..إنها زكاة للضمير بكونها عبادة لله.وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الإخوان الفقراء،بما أنها عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة،كما يرجو منها نماء المال في الحياة الدنيا بالبركة وبالنظام الاقتصادي المبارك.ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم في أموال الأغنياء ولا يشعرون معها بالحقد والتشفي من إخوانهم الأغنياء (مع تذكر أن الأغنياء في النظام الإسلامي لا يكسبون إلا من حلال ولا يجورون على حق أحد وهم يجمعون نصيبهم من المال) ..وفي النهاية تحقق هدف الضريبة المالية في هذا الجو الراضي الخير الطيب ..جو الزكاة والطهارة والنماء ..

وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة الله في شئون الحياة فهي إقرار منهم بسلطان الله في أمرهم كله ..وهذا هو الإسلام ..

«وَهُمْ راكِعُونَ» ..ذلك شأنهم،كأنه الحالة الأصلية لهم ..ومن ثم لم يقف عند قوله:«يُقِيمُونَ الصَّلاةَ» ..فهذه السمة الجديدة أعم وأشمل.إذ أنها ترسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم.فأبرز سمة لهم هي هذه السمة،وبها يعرفون ..وما أعمق إيحاءات التعبيرات القرآنية في

مثل هذه المناسبات! والله يعد الذين آمنوا – في مقابل الثقة به،والالتجاء إليه،والولاء له وحده – ولرسوله وللمؤمنين بالتبعية ..

ومقابل المفاصلة الكاملة بينهم وبين جميع الصفوف إلا الصف الذي يتمحض لله.يعدهم النصر والغلبة:«وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» ..وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان في ذاتها ..وأنها هي الولاء لله ورسوله وللمؤمنين وبعد التحذير من الولاء لليهود والنصارى واعتبار هـ خروجا من الصف المسلم إلى صف اليهود والنصارى،وارتدادا عن الدين ..

وهنا لفتة قرآنية مطردة ..فالله – سبحانه – يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير! لا لأنه سيغلب،أو سيمكن له في الأرض فهذه ثمرات تأتي في حينها وتأتي لتحقيق قدر الله في التمكين لهذا الدين لا لتكون هي بذاتها الإغراء على الدخول في هذا الدين ..والغلب للمسلمين لا شيء منه لهم.لا شيء لذواتهم وأشخاصهم.وإنما هو قدر الله يجريه على أيديهم،ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم! فيكون لهم ثواب الجهد فيه وثواب النتائج التي تترتب عليه من التمكين لدين الله في الأرض،وصلاح الأرض بهذا التمكين ..

كذلك قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم – وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة – فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة وتخطي العقبة،والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد الله للأمة المسلمة،فيكون لهم ثواب الجهاد،وثواب التمكين لدين الله،وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين.

كذلك يشي ورود هذا النص في هذا المجال،بحالة الجماعة المسلمة يومذاك،وحاجتها إلى هذه البشريات.بذكر هذه القاعدة من غلبة حزب الله ..مما يرجح ما ذهبنا إليه عن تاريخ نزول هذا القطاع من السورة.

ثم تخلص لنا هذه القاعدة التي لا تتعلق بزمان ولا مكان ..فنطمئن إليها بوصفها سنة من سنن الله التي لا تتخلف.وإن خسرت العصبة المؤمنة بعض المعارك والمواقف.فالسنة التي لا تنقض هي أن حزب الله هم الغالبون ..ووعد الله القاطع أصدق من ظواهر الأمور في بعض مراحل

الطريق! وأن الولاء لله ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المؤدي لتحقق وعد الله في نهاية الطريق!

وبعد فلقد سلك المنهج القرآني في هذا السياق طرقا منوعة،لنهي الذين آمنوا عن تولي المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب والمشركين،ولتقرير هذه القاعدة الإيمانية في ضمائرهم وإحساسهم وعقولهم.مما يدل على أهمية هذه القاعدة في التصور الإسلامي وفي الحركة الإسلامية على السواء ..وقد رأينا من قبل أنه سلك في النداء الأول طريق النهي المباشر،وطريق التخويف من أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده،فينكشف ستر المنافقين ..وسلك في النداء الثاني طريق التحذير من الردة بموالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين وطريق التحبيب في أن يكونوا من العصبة المختارة.ممن يحبهم الله ويحبونه وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب ..[2559]

لقد بين الله تعالى في هذه الآيات أن الغلبة والنصر لحزب الله الذين يتولون الله تعالى ورسوله ﷺ والذين آمنوا،وأما أهل الردة فحسبوا أن التحصن من الدوائر،وأن العزة والغلبة وثبات الملك تنال بموالاة اليهود والنصارى،فسارعوا في موالاتهم،والدخول في حلفهم،وظاهروهم على المسلمين،فارتدوا بذلك وخرجوا من الإسلام كما دل عليه قوله تعالى:{وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}،وقوله تعالى {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}،وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة:٥٤] أي من يرتد منكم عن دينه بسبب موالاته للكفار أو بغيرها من نواقض الإسلام فسوف يأتي الله تعالى بقوم يحبهم ويحبونه،وهم الذين ظهر برهان محبتهم وصدق إيمانهم في أقوالهم وأعمالهم،فقد اتصفوا بالرحمة والذلة للمؤمنين،والعزة والشدة على الكافرين،وجاهدوا في سبيل الله و لم يخفهم لوم اللائمين ولا صد الصادين،و لم تحرك أقوال أعداء الله وافتراءاتهم في صدورهم،و لم تصدهم حملاتهم الإعلامية عن إقامة شريعة الله تعالى،ونصرة دينه والجهاد في سبيله،وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه،قال العلامة السعدي رحمه

[2559] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٣١٥)

الله:" بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين،وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم،فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة،تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين،وتفتر قوته عند عذل العاذلين.وفي قلوبهم تعبد لغير الله،بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله،فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله،حتى لا يخاف في الله لومة لائم."[2560]

وقد وعد الله تعالى في هذه الآيات أن يأتي بالمجاهدين الذين يحبهم ويحبونه عند ارتداد طائفة عن دينها وموالاتها لليهود والنصارى،وهذا ظاهر في الحملة الصليبية الجديدة في زماننا هذا،فعندما سارع فئام من المرتدين إلى موالاة الصليبيين والدخول في حلفهم،أتى الله تعالى بالمجاهدين الصادقين فجاهدوا الأمريكان،وحلفاءهم من الكفار والمرتدين.

وقال تعالى:{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) } [النساء]

عَدَّ اللهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ الْمُتَرَدِّدِ مِنَ النَّاسِ،آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا،فَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ،وَقَدْ بَشَرَّهُمُ اللهُ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً فِي الآخِرَةِ.ثُمَّ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى هَؤُلاءِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ الْمُعَادِينَ لِلإِيمَانِ وَالْمُؤْمِنِينَ،أَوْلِيَاءَ لَهُمْ يُلْقُونَ إِلِيهِمْ بِالْمَوَدَّةِ.وَيُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ هَذا الْمَسْلَكَ فِي مُوَالاَةِ الكَافِرِينَ.وَيَسْأَلُ اللهُ مُسْتَنْكِراً:هَلْ يَبْتَغِي هَؤُلاءِ الْمُنَافِقُونَ العِزَّةَ وَالغَلَبَةَ وَالْمَنَعَةَ عِنْدَ الكَافِرِينَ؟ ثُمَّ يُنَبِّهُهُمْ إِلَى أَنَّ العِزَّةَ كُلَّها للهِ وَحْدَهُ،وَلا شَرِيكَ لَهُ فِيها،ثُمَّ تَكُونُ العِزَّةُ لِمَنْ جَعَلَهَا اللهُ لَهُ.ثُمَّ يَحُثُّهُمُ اللهُ عَلى الإِقْبَالِ عَلَى إِعْلاَنِ عُبُودِيَّتِهِم للهِ وَحْدَهُ،وَالانْتِظَامِ فِي جُمْلَةِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الذِينَ لَهُمُ النَّصْرُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا،وَلَهُمُ الفَوْزُ بِرِضْوَانِ اللهِ وَجَنَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ.[2561]

البشارة تستعمل في الخير،وتستعمل في الشر بقيد كما في هذه الآية.يقول تعالى:{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ} أي:الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر،بأقبح بشارة وأسوئها،وهو العذاب الأليم،وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم،وتركهم لموالاة المؤمنين،فأي شيء حملهم على ذلك؟ أيبتغون عندهم العزة؟

٢٥٦٠ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٣٦)

٢٥٦١ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٣١،بترقيم الشاملة آليا)

وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين،ساء ظنهم بـــالله وضـــعف يقينـــهم بنصـــر الله لعبـــاده المؤمنين،ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين،وقصر نظرهم عمّـــا وراء ذلك،فاتخـــذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون.والحال أن العـــزة لله جميعا،فـــإن نواصـــي العبـــاد بيده،ومشيئته نافذة فيهم.وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين،ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين،وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة،فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين،وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين؛وترك موالاة المـــؤمنين،وأن ذلـــك مـــن صـــفات المنافقين،وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم،وبغض الكافرين وعداوتهم.[٢٥٦٢]

والكافرون المذكورون هنا هم – على الأرجح – اليهود الذين كان المنافقون يـــأوون إلـــيهم ويتخنسون عندهم،ويبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد.والله – جل جلاله – يسأل في استنكار: لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمـــون الإيمـــان؟ لم يضـــعون أنفســـهم هـــذا الموضع،ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين؟ لقد اســـتأثر الله – عز وجل – بالعزة فلا يجدها إلا من يتولاه ويطلبها عنده ويرتكن إلى حمـــاه.وهكـــذا تكشف اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين،وصـــفتهم الأولى،وهـــي ولايـــة الكـــافرين دون المؤمنين،كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى وعن تجرد الكافرين من العزة والقـــوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون.وتقرر أن العزة لله وحده فهي تطلب عنده وإلا فلا عـــزة ولا قوة عند الآخرين! ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة،فإن ارتكنـــت إليـــه استعلت على من دونه.وألا إنما لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررهـــا ..العبوديـــة لله ..فإن لا تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى وأشخاص شتى واعتبار ات شـــتى،ومخاوف شتى.و لم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل اعتبار ..وإنه إما عبوديـــة لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق.وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال ..ولمن شاء أن يختار ..وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن.وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعـــداء الله وهو يؤمن بالله.وما أحوج ناسا ممن يدعون الإسلام ويتسمون بأسماء المسلمين،وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض،أن يتدبروا هذا القرآن ..إن كانت بهـــم رغبـــة في أن يكونـــوا

[٢٥٦٢] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٠٩)

مسلمين ..وإلا فإن الله غني عن العالمين! ومما يلحق بطلب العزة عند الكفار وولايتهم من دون المؤمنين:الاعتزاز بالآباء والأجداد الذين ماتوا على الكفر واعتبار أن بينهم وبين الجيل المسلم نسبا وقرابة! كما يعتز ناس بالفراعنة والأشوريين والفينيقيين والبابليين وعرب الجاهلية اعتزازا جاهليا،وحمية جاهلية ..ذلك أن آصرة التجمع في الإسلام هي العقيدة.وأن الأمة في الإسلام هي المؤمنون بالله منذ فجر التاريخ.في كل أرض،وفي كل جيل.وليست الأمة مجموعة الأجيال من القدم،ولا المتجمعين في حيز من الأرض في جيل من الأجيال.[٢٥٦٣]

فالمنافقون يوالون الكفار من النصارى واليهود وغيرهم،لينالوا بموالاتهم والدخول في حلفهم العزة والقوة،ويطمعون برضاهم واعترافهم بدويلاتهم،وحمايتهم لها،وهم في حقيقة الأمر لم ينالوا إلا الصغار والذلة والتبعية للصليبيين والردة عن الإسلام،فحالهم كحال المشركين الذين قال الله تعالى عنهم:{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } [مريم:٨١].

فإن العزة إنما تنال من الله تعالى بطاعته واتباع مرضاته،فهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء،وهذا ما لا يفقهه المنافقون وقد قال تعالى:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر:١٠]

مَنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عَزِيزاً فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ،فَلْيَلْزَمْ طَاعَةَ اللهِ،فَإِنَّهُ يُدْرِكُ بِذَلِكَ مَا يُرِيدُ،لأَنَّ اللهَ مَالِكُ الدُّنيا والآخِرَةِ،سوَلَهُ العِزَّةُ جَمِيعاً.واللهُ تَعَالَى يَقْبَلُ طَيِّبَ الكَلامِ (كَالتَّوحِيدِ وَالذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ القُرآنِ) .وَالعَمَلُ الصَّالِحُ الذي أَخْلَصَ العَبْدُ فِيهِ النِّيَّةَ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ إِلى اللهِ،لِيُثِيبَ العَبْدَ عَلَيهِ (أَوْ وَاللهُ يَرْفَعُ العَمَلَ الصَّالِحَ فَيَقْبَلُهُ) أَمَّا العَمَلُ الذي لا إخلاصَ فِيهِ فَلاَ ثَوَابَ عَليهِ.والذينَ يَمْكُرُونَ المَكْرَ السَّيِّءَ بالمُسْلمينَ،وَيَعْمَلُونَ مَا يُسِيءُ إِلَيْهِمْ،وَمَا يُضْعِف أَمْرَهُمْ وَيُشَتِّتُ جَمْعَهُمْ وَيُفَرِّقُ كَلِمَتَهُمْ،فَإِنَّ اللهَ يُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أليماً وَمَكْرُهُمْ يَذْهَبُ وَيَضْمَحِلُّ،وَلا يُحَقِّقُ غَرَضاً،لأَنَّهُ سَيَنْكَشِفُ عَمَّا قَرِيبٍ.[٢٥٦٤]

وقال تعالى:{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [المنافقون:٨]

[٢٥٦٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١١٥٠)

[٢٥٦٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٥١،بترقيم الشاملة آليا)

إنَّ العِزَّةَ للهِ وَحْدَهُ،فَهُوَ ذُو الجَلاَلِ والعِزَّةِ،ثُمَّ تَكُونُ العِزَّةُ مِنْ بعْدِه لِرَسُولِه الكَرِيمِ ﷺ،ثُمَّ لِلْمُؤْمنِينَ الذينَ يَسْتَعِزُّونَ بعِزِّ اللهِ،وَبِنَصْرِه،فَهُمْ أَعِزَةٌ بِذَلِكَ،وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَيَظُنُّونَ أَنَّ العِزَّةَ بوَفْرَةِ المَالِ وكَثْرَةِ النَّاصِرِ.[2565]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ،وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ،فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا،تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ،وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ،وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ،فَقَالَ عُمَرُ:«أَوَّهْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ» . أخرجه الحاكم[2566].

وللحكومة الإسلامية مع قيامها بعقيدة الولاء والبراء أن تصالح بعض الدول إذا اقتضت ذلك المصلحة الشرعية،وتعقد معها صفقات تجارية،وتحسن إلى الكفار الذين لم يقاتلوا المسلمين،ولم يخرجوهم من ديارهم،كما تخاطب الكفار غير المحاربين وتجادلهم بالتي هي أحسن،وتلين في مخاطبتهم ودعوتهم حتى تبلغ لهم الرسالة وتبين لهم الحق.

الثاني:حكم التحاكم إلى الهيئات والمؤسسات والمحاكم الدولية:

من المعلوم من الدين بالضرورة أن التحاكم إلى غير شرع الله من الكفر والشرك بالله تعالى كما قال تعالى:{ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف:٢٦]،فمن تحاكم إلى الهيئات الدولية كهيئة الأمم المتحدة،ودخل في عضويتها،وتحاكم إلى قوانينها ومحاكمها فقد تحاكم إلى الطاغوت وَمِنْ أَصْرَحِ الْأَدِلَّةِ فِي هَذَا:أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فِي «سُورَةِ النِّسَاءِ» بَيَّنَ أَنَّ مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ،وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ مَعَ إِرَادَةِ التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ بَالِغَةٌ مِنَ الْكَذِبِ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ الْعَجَبُ ؛

[2565] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٧٤،بترقيم الشاملة آليا)

[2566] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ١٣٠)(٢٠٧) صحيح

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)} [النساء:٦٠،٦١].

وَبِهَذِهِ النُّصُوصِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا يَظْهَرُ غَايَةَ الظُّهُورِ:أَنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْقَوَانِينَ الْوَضْعِيَّةَ الَّتِي شَرَعَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى أَلْسِنَةِ أَوْلِيَائِهِ مُخَالَفَةً لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ،أَنَّهُ لَا يَشُكُّ فِي كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ إِلَّا مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ،وَأَعْمَاهُ عَنْ نُورِ الْوَحْيِ مِثْلَهُمْ.[٢٥٦٧]

وقال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } [النساء:١٤٠]

كَانَ بَعْضُ الُمسْلِمِينَ يَجْلِسُونَ مَعَ الُمشْرِكِينَ،وَهُمْ يَخُوضُونَ فِي الكُفْرِ وَذَمِّ الإِسْلاَمِ،وَالاسْتِهْزَاءِ بِالقُرْآنِ،وَلا يَسْتَطِيعُونَ الإِنْكَارَ عَلَيهِمْ لِضَعْفِهِمْ،وَلِقُوَّةِ الُمشْرِكِينَ،فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالإِعْرَاضِ عَنْهُمْ.

وَيَقُولُ تَعَالَى:إِنَّهُ أَنْزَلَ فِي القُرْآنِ أَمْراً إلى جَمِيعِ مَنْ يُظْهِرُونَ الإِيمَانَ،أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا أُنَاساً يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ،أَوْ يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا فَعَلَيهِمْ أَلاَّ يَقْعُدُوا مَعَهُمْ إلى أَنْ يُقْلِعُوا عَنْ هَذَا الُمنْكَرِ،وَيَأْخُذُوا فِي حُدِيثٍ آخَرَ،وَأَنَّ الُمؤْمِنِينَ إِذَا قَعَدُوا مَعَ مَنْ يَسْتَهْزِئُونَ بِآيَاتِ اللهِ،وَيَكْفُرُونَ بِاللهِ،فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ مِثْلَهُمْ فِي ذَلِكَ.وَكَمَا أَشْرَكُوهُمْ فِي الكُفْرِ،كَذَلِكَ يُشْرِكُهُمُ اللهُ مَعَهُمْ فِي الخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَداً،وَيَجْمَعُ اللهُ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ العُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ.[٢٥٦٨]

فسوى الله تعالى بين الخائضين الذين يكذبون بالحق ويطعنون فيه وبين القاعدين معهم،فإن الرضى بالكفر كفر،وهذا كالقعود في مجالس هيئة الأمم المتحدة أو مجالس الكفار والمرتدين عموما التي يكذب بها بآيات الله تعالى،روى ابن أبي حاتم عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ ،قَوْلَهُ: {أَنْ إِذَا

[٢٥٦٧] -أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٢٥٩)

[٢٥٦٨] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٣٣،بترقيم الشاملة آليا)

سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا} [النساء:١٤٠] فَنَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْأَنْعَامِ فَكَانَ هَذَا الَّذِي أُنْزِلَ بِالْمَدِينَةِ وَخَوَّفَهُمْ فَقَالَ:إِنْ قَعَدْتُمْ وَرَضِيتُمْ بِخَوْضِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ"[2569]

وأخرج ابن جرير عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ ،قَالَ:أَخَذَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَوْمًا عَلَى شَرَابٍ ،فَضَرَبَهُمْ وَفِيهِمْ صَائِمٌ ،فَقَالُوا:إِنَّ هَذَا صَائِمٌ فَتَلَا:{فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ [ص:٦٠٤] حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النساء:١٤٠] [2570]

وقال القرطبي في قوله تعالى:(إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ) فَدَلَّ بِهَذَا عَلَى وُجُوبِ اجْتِنَابِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ،لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَجْتَنِبْهُمْ فَقَدْ رَضِيَ فِعْلَهُمْ،وَالرِّضَا بِالْكُفْرِ كُفْرٌ،قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:(إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ).فَكُلُّ مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسِ مَعْصِيَةٍ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ يَكُونُ مَعَهُمْ فِي الْوِزْرِ سَوَاءً،وَيَنْبَغِي أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ إِذَا تَكَلَّمُوا بِالْمَعْصِيَةِ وَعَمِلُوا بِهَا،فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النَّكِيرِ عَلَيْهِمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ عَنْهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ.[2571]

وقوله تعالى في الآية { إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } [النساء:١٤٠] أي كما اجتمع الكفار والمنافقون في الدنيا على الكفر والباطل والطعن بالحق،وفي مجالس التآمر والكيد فإن الله تعالى سيجمع بينهم جميعا في نار جهنم،قال ابن جرير وَقَوْلُهُ:{إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ} [النساء:١٤٠] يَقُولُ:إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ فِي الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ،فَمُوَفِّقٌ بَيْنَهُمْ فِي عِقَابِهِ فِي جَهَنَّمَ وَأَلِيمٌ عَذَابُهُ،كَمَا اتَّفَقُوا فِي الدُّنْيَا فَاجْتَمَعُوا عَلَى عَدَاوَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَوَازَرُوا عَلَى التَّخْذِيلِ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَعَنِ الَّذِي ارْتَضَاهُ وَأَمَرَ بِهِ أَهْلَهُ."[2572].

وقال تعالى:{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [الأنعام:٦٨]

[2569] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١٠٩٣)(٦١٢٥) حسن

[2570] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ٦٠٣) صحيح

[2571] - تفسير القرطبي (٥/ ٤١٨)

[2572] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ٦٠٤)

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْلِسُونَ إلى النَّبِيِّ ﷺ يُحِبُّونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ،فَإِذَا سَمِعُوا اسْتَهْزَؤُوا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ إذَا اسْتَهْزَؤُوا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِمْ فَحَذِرُوا،وَقَالُوا لاَ تَسْتَهْزِئُوا فَيَقُومُ.وَالْمُخَاطَبُ بِهَذِهِ الآيَةِ الرَّسُولُ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ،فَإِذَا رَأَى الْمُؤْمِنُ الذينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللهِ الْمُنْزَلَةِ،مِنَ الكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ،وَأَهْلَ الأَهْوَاءِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَصُدَّ عَنْهُمْ بِوَجْهِهِ،وَأَنْ لاَ يَجْلِسَ مَعَهُمْ حَتَّى يَأْخُذُوا فِي حَدِيثٍ آخَرَ غَيْرَ حَدِيثِ الكُفْرِ وَالاسْتِهْزَاءِ بِآيَاتِ اللهِ أَوْ تَأْوِيلِهَا بِالبَاطِلِ مِنْ جَانِبِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ،وَإِذَا أَنْسَاكَ الشَّيْطَانُ،أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ،هَذَا النَّهْيَ،وَقَعَدْتَ مَعَهُمْ،وَهُمْ عَلَى تِلْكَ الحَالِ،ثُمَّ ذَكَرْتَ فَقُمْ عَنْهُمْ،وَلاَ تَقْعُدْ مَعَ هؤُلاَءِ الظَّالِمِينَ لأَنْفُسِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللهِ،وَالاسْتِهْزَاءِ بِهَا.[2573]

فنهى الله تعالى على القعود مع الذين يخوضون في آيات الله تعالى،وخوضهم فيها هو تكذيبهم واستهزاؤهم وطعنهم فيها،وقد أخرج ابن أبي حاتم وعَنْ مُجَاهِدٍ ،قَوْلَهُ:{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [الأنعام:٦٨] قَالَ:هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ،نُهِيَ أَنْ يَقْعُدَ مَعَهُمْ إِذَا سَمِعَهُمْ يَقُولُونَ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ الْحَقِّ"[2574]

فالتحاكم إلى الطاغوت المسمى إفكا وزورا بالشرعية الدولية والإعراض عن شرع الله تعالى من الكفر الأكبر المخرج من الملة،وقد قال تعالى { { أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) } [الصافات]

أَتَتَّخِذُونَ أَصْنَاماً تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ،وَتَزْعُمُونَ إِفْكاً وَكَذِباً أَنَّهَا آلِهَةٌ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ حُجَّةٌ أَو دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ؟ إنَّ هَذَا لَخَطَأٌ جَسِيمٌ.أَعَلِمْتُمْ أيَّ شيءٍ هُوَ رَبُّ العَالَمِينَ حَتَّى جَعَلْتُمُ الأَصْنَامَ وَالأَنْدَادَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي العِبَادَةِ.[2575]

وقال تعالى:{وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ

[2573] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٥٨، بترقيم الشاملة آليا)

[2574] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١٣١٥)(٧٤٣٣) صحيح

[2575] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٧٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

إذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) } [النحل]

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لعِبَاده:لاَ تُشْرِكُوا فِي العِبَادَة مَعَ الله أَحَداً،وَلاَ تَعْبُدُوا آلَهَيْن اثْنَيْن،فَإِنَّهُ وَاحدٌ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ،وَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغي أَنْ تَتمَّ العِبَادَةُ إِلاَّ لَهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،فَإِنَّهُ مَالكُ كُلِّ شَيءٍ وَخَالقُهُ وَرَبُّهُ،وَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ الذي يَسْتَحقُّ أَنْ يَخْشَاهُ النَّاسُ وَيَرْهَبُوهُ.وَلله مَا فِي السَّمَاوَات وَالأَرْضِ منْ شَيءٍ،لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي شَيءٍ منْ ذَلكَ،وَهُوَ الذي خَلَقَهُمْ.وَهُوَ الذي يَرْزُقُهُمْ وَبِيَده حَيَاتُهُمْ وَمَوْتُهُمْ،وَلَهُ العبَادَةُ وَاجبَةٌ دَائماً،أَفَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ،وَيَتَّقُونَ سوَاهُ،وَقَدْ عَلمُوا كُلَّ ذلكَ؟ وَإِلَيْه يَعُودُ الفَضْلُ فيمَا أَنْتُمْ فيه منَ النِّعَم وَالرِّزْق وَالعَافيَة وَالنَّصْر وَالإِحْسَان،وَحينَمَا يَمَسُّكُم الضُّرُّ وَالسَّقَمُ،وَيَحلُّ بكُمُ البَلاَءُ،تَلْجَؤُونَ إِلَيْه،وَتَرْفَعُونَ أَصْوَاتَكُمْ بالدُّعَاء إِلَيْه مُسْتَغيثينَ به،مُلحِّينَ في الرَّجَاء،لاَ تَدْعُونَ غَيْرَهُ،وَلاَ تَلْجَؤُونَ إِلَى سوَاهُ.وَقَدْ فَعَلُوا ذَلكَ لتَكُونَ عَاقبَةُ أَمْرِهمْ الكُفْرَ وَالجُحُودَ بأَنْعُمِ الله عَلَيْهمْ،مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ المُتَفَضِّلُ عَلَيْهمْ بالنِّعَم،وَبكَشْف البَلاَء وَالضُّرِّ عَنْهُمْ،وَالذي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذا الكُفْر وَالجُحُود هُوَ خَبْثُ طَوِيَّتهمْ،وَمَا رَانَ عَلَى قُلُوبهمْ منَ الكُفْر وَالجُحُود وَالعصْيَان.ثُمَّ يَتَوَعَّدُهُمْ تَعَالَى وَيَقُولُ لَهُمْ:اعْمَلُوا مَا شئْتُمْ،وَتَمَتَّعُوا بمَا أَنْتُمْ فيه قَليلاً،فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عَاقبَةَ ذَلكَ.[٢٥٧٦]

وقال تعالى:{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) } [يوسف]

وَسَأَلَ يُوسُفُ،عَلَيْه السَّلاَمُ،الفَتَيَيْنِ،وَهُوَ يَدْعُوهُمَا إِلَى الإِيمَان بالله وَحْدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ:هَلْ عبَادَة أَرْبَابٍ مُتَفَرِّقينَ لاَ يَمْلكُونَ لأَنْفُسهمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً،خَيْرٌ أَمْ عبَادَةُ الله وَحْدَهُ،وَهُوَ الإِلهُ الوَاحدُ الذي لاَ يُقْهَرُ وَلاَ يُغَالَبُ،وَقَدْ ذَلَّ لعزَّته وَجَلاَله كُلُّ شَيءٍ.- ثُمَّ قَالَ لَهُمَا:إِنَّ مَا يَعْبُدُونَهُ هُمْ وَآبَاؤُهُمْ منْ دُون الله الحَقِّ منْ آلهَة أُخْرَى،كَالأَصْنَام وَالأَوْثَان...هيَ أَسْمَاءٌ سَمَّوْهَا منْ تلْقَاء أَنْفُسهمْ،تَلَقَّاهَا خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفهمْ،وَلَيْسَ لذلكَ مُسْتَندٌ عنْدَ الله،وَلاَ حُجَّةٌ وَلاَ بُرْهَانٌ.ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الحُكْمَ وَالمَشيئَةَ وَالمُلْكَ،كُلُّ ذَلكَ لله وَحْدَهُ،وَقَدْ أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ عبَادَهُ

[٢٥٧٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

قَاطِبَةً،أَنْ لاَ يَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ.ثُمَّ قَالَ لِلْغُلاَمَيْنِ:إِنَّ مَا يَدْعُوهُمَا إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ،هُوَ الدِّينُ القَوِيمُ الُمسْتَقِيمُ الذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ،وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ هَذِهِ الحَقِيقَةَ لِذلِكَ كَانُوا مُشْرِكِينَ.[2577]

فإن الذين أعرضوا عن اتباع مرضات الله تعالى والتحاكم إلى شرعه في الشؤون الخارجية،وقعوا في عبودية النصارى واتباع مرضاهم،فإن هذه المنظمة لا يصدر عنها قرار إلا بموافقة الدول الخمس الدائمة العضوية التي تملك ما افتروه وسموه بحق النقض " الفيتو "،وهي أربع دول نصرانية وهي أمريكا وبريطانيا وفرانسا وروسيا والخامسة الصين الشيوعية،وهذه سنة الله تعالى في عباده فمن استكبر عن عبودية الله تعالى وقع في عبودية العبيد،ومن حاد عن اتباع ما يحبه الله ويرضاه اتبع ما يحبه ويرضاه النصارى واليهود وغيرهم من شياطين الإنس والجن.

فهذه المنظمة الطاغية تسعى لبث العقيدة الغربية المسماة بالديمقراطية في العالم،كما تشكل بزعهم غطاءً شرعيا- بحسب شريعتهم الكافرة - للاحتلال الصليبي اليهودي لبلاد المسلمين،فهي التي جعلت لليهود نصيبا في فلسطين،وهي التي أعطت ما يسمى بالشرعية المفتراة للاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق،وساعدت الولايات المتحدة في احتلالها وتنفيذ مخططاها،وهي التي تدعي أن الشيشان جزء من روسيا النصرانية.

ومن تناقضات الصليبيين أن هيئة الأمم المتحدة التي تروج للديمقراطية - التي حقيقتها التمرد على عبودية الله- هي منظمة دكتاتورية بحسب وصفهم وتقسيماهم للأنظمة،فإن قرارات مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة هي النافذة فيها والملزمة لأعضائها،وهو مجلس دكتاتوري وليس ديمقراطيا بحسب عقيدهم،حيث تسيطر عليه الدول الخمس التي تملكماافتروه وسموه بحق النقض " الفيتو "،وأما الجمعية العمومية فهي مجلس ديمقراطي بحسب تعريفاهم،ولكن قراراها ليست بملزمة،فنخلص إلى أن هذه المنظمة التي تروج للكفر المسمى بالديمقراطية هي في حقيقتها بحسب عقيدهم تنتهج نظاما دكتاتوريا.

[2577] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٦٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

والسبب في هذا التناقض أن الديمقراطية التي يسمونها " لعبة " هي بالفعل كذلك يتلاعبون من خلالها بالشعوب،ويستخدمون الدعوة إلى نشرها،ونشر الانفلات من دين الإسلام ومن أخلاقه الذي يسمونه بالحرية،والمناداة بحقوق الإنسان أو المرأة أو غيرها من الشعارات المضللة،للتسلط على الآخرين والتدخل في شؤونهم،والسيطرة على بلادهم وخيراتهم،كما هو ظاهر في المشروع الأمريكي المسمى بالشرق الأوسط الكبير،وإذا ما عارضت هذه العقائد والمصطلحات كالديمقراطية والحرية ونحوها أطماعهم الدنيوية ورغباتهم بالتسلط والتجبر على الآخرين في هيئة الأمم أو غيرها،فإنهم يتخلون عن آلهتهم المسماة بالديمقراطية وعن شعاراتها.

التفريق ما يخالف الشريعة وما لا يخالفها

اعْلَمْ،أَنَّهُ يَجِبُ التَّفْصِيلُ بَيْنَ النِّظَامِ الْوَضْعِيِّ الَّذِي يَقْتَضِي تَحْكِيمُهُ الْكُفْرَ بِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،وَبَيْنَ النِّظَامِ الَّذِي لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ.

وَإِيضَاحُ ذَلِكَ أَنَّ النِّظَامَ قِسْمَانِ:إِدَارِيٌّ،وَشَرْعِيٌّ،أَمَّا الْإِدَارِيُّ:الَّذِي يُرَادُ بِهِ ضَبْطُ الْأُمُورِ وَإِتْقَانُهَا عَلَى وَجْهٍ غَيْرِ مُخَالِفٍ لِلشَّرْعِ،فَهَذَا لَا مَانِعَ مِنْهُ،وَلَا مُخَالِفَ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ،فَمَنْ بَعْدَهُمْ،وَقَدْ عَمِلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مَا كَانَتْ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ،كَكَتْبِهِ أَسْمَاءَ الْجُنْدِ فِي دِيوَانٍ لِأَجْلِ الضَّبْطِ،وَمَعْرِفَةِ مَنْ غَابَ وَمَنْ حَضَرَ كَمَا قَدَّمْنَا إِيضَاحَ الْمَقْصُودِ مِنْهُ فِي سُورَةِ «بَنِي إِسْرَائِيلَ» فِي الْكَلَامِ عَلَى الْعَاقِلَةِ الَّتِي تَحْمِلُ دِيَةَ الْخَطَأِ،مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ،وَلَمْ يَعْلَمْ بِتَخَلُّفِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَصَلَ تَبُوكَ ﷺ،وَكَاشْتِرَائِهِ – أَعْنِي عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – دَارَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَجَعْلِهِ إِيَّاهَا سِجْنًا فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ،مَعَ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَتَّخِذْ سِجْنًا هُوَ وَلَا أَبُو بَكْرٍ،فَمِثْلُ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْإِدَارِيَّةِ الَّتِي تُفْعَلُ لِإِتْقَانِ الْأُمُورِ مِمَّا لَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ لَا بَأْسَ بِهِ،كَتَنْظِيمِ شُئُونِ الْمُوَظَّفِينَ،وَتَنْظِيمِ إِدَارَةِ الْأَعْمَالِ عَلَى وَجْهٍ لَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ،فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْأَنْظِمَةِ الْوَضْعِيَّةِ لَا بَأْسَ بِهِ،وَلَا يَخْرُجُ عَنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ مِنْ مُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ.

وَأَمَّا النِّظَامُ الشَّرْعِيُّ الْمُخَالِفُ لِتَشْرِيعِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَتَحْكِيمُهُ كُفْرٌ بِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،كَدَعْوَى أَنَّ تَفْضِيلَ الذَّكَرِ عَلَى الْأُنْثَى فِي الْمِيرَاثِ لَيْسَ بِإِنْصَافٍ،وَأَنَّهُمَا يَلْزَمُ اسْتِوَاؤُهُمَا فِي الْمِيرَاثِ.وَكَدَعْوَى أَنَّ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ ظُلْمٌ،وَأَنَّ الطَّلَاقَ ظُلْمٌ لِلْمَرْأَةِ،وَأَنَّ الرَّجْمَ وَالْقَطْعَ وَنَحْوَهُمَا أَعْمَالٌ وَحْشِيَّةٌ لَا يَسُوغُ فِعْلُهَا بِالْإِنْسَانِ،وَنَحْوَ ذَلِكَ.

فَتَحْكِيمُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ النِّظَامِ فِي أَنْفُسِ الْمُجْتَمَعِ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ كُفْرٌ بِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،وَتَمَرُّدٌ عَلَى نِظَامِ السَّمَاءِ الَّذِي وَضَعَهُ مَنْ خَلَقَ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مُشَرِّعٌ آخَرُ عُلُوًّا كَبِيرًا أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ [٤٢ \ ٢١]،قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ [١٠ \ ٥٩]،وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [١٦ \ ١١٦]،وَقَدْ قَدَّمْنَا جُمْلَةً وَافِيَةً مِنْ هَذَا النَّوْعِ فِي سُورَةِ «بَنِي إِسْرَائِيلَ» فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الْآيَةَ [١٧ \ ٩] .[٢٥٧٨]

الثالث:الدعوة إلى الله تعالى:

لقد أرسل الله تعالى نبيه محمدا ﷺ لعموم الإنس والجن،كما قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِهَذَا وَأَمْثَالِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ والأَحْكَامِ إِلاَّ لِرَحْمَةِ النَّاسِ،وَهِدَايَاهِمْ فِي شُؤُونِ دِينِهِمْ وَدُونْيَاهُمْ،وَلاَ يَهْتَدِي بِهِ إِلاَّ الْمُتَهَيِّئُوْنَ لِتَقَبُّلِ الهُدَى.[٢٥٧٩]

الخطاب للنبيّ صلوات الله وسلامه عليه،وأن الله سبحانه وتعالى إنما أرسله رحمة للناس جميعا..كما يقول صلوات الله وسلامه عليه:«أنا رحمة مهداة» ..ويسأل سائل:

[٢٥٧٨] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٢٦٠)

[٢٥٧٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٩٦،بترقيم الشاملة آليا)

كيف يكون النبيّ صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين جميعـــا.النـــاس كلّهـــم أســـودهم وأحمرهم،وما بين أسودهم وأحمرهم،وقليل من كثيرهم أولئك الـــذين آمنـــوا بـــه واهتـــدوا بهديه،وانتفعوا برسالته؟ كيف هذا،وقوله تعالى «لِلْعالَمِينَ» يفيد العموم والشمول؟

والجواب على هذا- والله أعلم- من وجوه:

أولا:أن الهدى الذي جاء به- صلوات الله وسلامه عليه- هو خير ممدود للنـــاس جميعـــا،وهو رحمة غير محجوزة عن أحد،بل إنها مبسوطة لكل إنسان،أيّا كان لونه وجنسه..وفى هذا يقول الله تعالى لنبيه الكريم:«قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ..» (١٥٨:الأعراف) فهو صلوات الله وسلامه عليه رحمة مهداة،يطرق بها باب كل إنسان،من غير أن يطلب لذلك أجرا،وليس على النبي- بعـــد هـــذا- أن يـــرغم المتأبّين عليه أن يقبلوا ما يقدمه هدية لهم..إنه أشبه بالشمس،وهى رحمة عامة لكل حيّ..ولكنّ كثيرا من الأحياء يعشون عن ضوئها،وكثير من الأحياء،إذا آذنهم ضوؤها انجحـــروا وقضـــوا يومهم فى ظلام دامس..فآية النهار قائمة،ولكنها بالنسبة لهم منسوخة غير عاملة.

وثانيا:أن الذين آمنوا بهذا النبيّ،والذين يؤمنون به فى كل جيل من أجيال الناس،وفى كل أمـــة من الأمم،وفى كل جماعة من الجماعات،هم رحمة فى هذه الدنيا على أهلها جميعا،إذ كانوا- بما معهم من إيمان- عناصر خير،وخمائر رحمة،ومصابيح هدى..وبهم تنكسر ضراوة الشـــر،وتخفّ وطأة الظلم،وترقّ كثافة الظلام.

وثالثا:هذا الكتاب الذي تلقّاه النبي- صلوات الله وسلامه عليه- وحيا من ربّه،وهذه الآيـــات المضيئة التي نطق بها،والتي وعتها الآذان،وسلجتها الصحف..كل هذا رحمة قائمـــة فى النـــاس جميعا،وميراث من النور والهدى،يستهدى به الناس،ويصيبون منه ما يسع جهدهم،وما تطـــول أيديهم من خير..وعلى هذا،فالمراد بالعالمين،الناس جميعا،منذ مبعث الـــنبيّ،إلى أن يـــرث الله الأرض ومن عليها..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«أَرْسَلْناكَ» الذي يفهم منه أن الرحمة كانت منذ إرساله ومبعثه،صلوات الله وسلامه عليه..[٢٥٨٠]

[٢٥٨٠] - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٦٣)

أي وما أرسلناك بهذا وأمثاله من الشرائع والأحكام التي بها مناط السعادة فى الدارين- إلا لرحمة الناس وهدايتهم،فى شئون معاشهم ومعادهم.بيان هذا أنه عليه الصلاة السلام أرسل بما فيه المصلحة فى الدارين،إلا أن الكافر فوّت على نفسه الانتفاع بذلك،وأعرض عما هنالك،لفساد استعداده وقبح طويّته،و لم يقبل هذه الرحمة،و لم يشكر هذه النعمة،فلم يسعد لا فى دين ولا دنيا،كما قال «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّه كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ:جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ» وقال فى صفة القرآن «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ»[٢٥٨١]

ولقد كانت رسالة محمد – ﷺ – رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادئ التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية،لبعد ما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة.ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئا فشيئا من آفاق هذه المبادئ.فتزول غرابتها في حسها،وتتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى.

لقد جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية.لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد ..وكان هذا غريبا على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك.والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد ..ولكن ها هي ذي البشرية في خلال نيف وثلاثة عشر قرنا تحاول أن تقفو خطى الإسلام،فتتعثر في الطريق،لأنها لا تهتدي بنور الإسلام الكامل.ولكنها تصل إلى شيء من ذلك المنهج – ولو في الدعاوى والأقوال – وإن كانت ما تزال أمم في أوربا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التي حاربها الإسلام منذ نيف وثلاث مائة وألف عام.

ولقد جاء الإسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون.في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات،وتجعل لكل طبقة قانونا.بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدي الرق والإقطاع ..فكان غريبا على ضمير البشرية يومذاك أن ينادي ذلك المنهج السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء ..ولكن ها هي ذي شيئا فشيئا تحاول أن تصل – ولو نظريا – إلى شيء مما طبقة الإسلام عمليا منذ نيف وثلاث مائة وألف عام.وغير هذا وذلك

[٢٥٨١] – تفسير المراغي (١٧/ ٧٨)

كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمدا - ﷺ - إنما أرسل رحمة للعالمين.من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء.فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة،شاعرة أو غير شاعرة وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة،لمن يريد أن يستظل بها،ويستروح فيها نسائم السماء الرخية،في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام.

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها.وهي قلقة حائرة،شاردة في متاهات المادية،وجحيم الحروب،وجفاف الأرواح والقلوب ..[2582]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[2583] .

وعَنْ أَبِي صَالِحٍ قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ:«يُنَادِيهِمْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[2584]

وقال تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف:158]

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ جَمِيعاً:إِنِّي رَسُولُ اللهِ تَعَالَى إِلَى جَمِيعِ البَشَرِ،وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الذِي أَرْسَلَنِي،وَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَالِكُهُمَا،وَهُوَ مُدَبِّرُهُمَا وَمُصَرِّفُهُما حَسْبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ،فَهُوَ المَعْبُودُ وَحْدَهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ،وَهُوَ الذِي يَخْلُقُ الكَائِنَاتِ،وَهُوَ الذِي يَقْضِي بِفَنَائِهَا.فَآمِنُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ جَمِيعاً بِاللهِ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ،وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الذِي أَرْسَلَهُ إِلى النَّاسِ كَافَّةً،وَهَذا الرَّسُولُ يُؤْمِنُ بِتَوْحِيدِ اللهِ،وَيُؤْمِنُ بِكَلِمَاتِهِ التِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ.

وَاتَّبِعُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ طَرِيقَ الرَّسُولِ الأُمِّيِّ،وَاقْتَفُوا أَثَرَهُ،فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ،لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إِلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُكُمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.[2585]

[2582] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 - ت- علي بن نايف الشحود (ص:3108)

[2583] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 91)(100) والشريعة للآجري (3/ 1477)(1000) صحيح

(«إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ») .بِضَمِّ الْمِيمِ أَيْ:مَا أَنَا إِلَّا رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ أَهْدَاهَا اللَّهُ إِلَيْهِمْ،فَمَنْ قَبِلَ هَدِيَّتَهُ أَفْلَحَ وَظَفِرَ،وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ خَابَ وَخَسِرَ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:107]

مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (9/ 3709)

[2584] - سنن الدارمي (1/ 166)(15) صحيح لغيره

وعن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي:نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ،وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا،فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ،وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي،وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ،وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً " متفق عليه[٢٥٨٦]

[٢٥٨٥] -

أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١١٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥٨٦] - صحيح البخاري (١/ ٧٤)(٣٣٥) وصحيح مسلم (١/ ٣٧٠)٣ - (٥٢١)

[ش (نصرت بالرعب) هو الخوف يقذف في قلوب أعدائي.(مسيرة شهر) أي بيني وبينه مسيرة شهر.(المغانم) جمع مغنم وهو الغنيمة وهو كل ما يحصل عليه المسلمون من الكفار قهرا]

أُعْطِيتُ خَمْسًا أَيْ:مِنَ الْخَصَائِلِ وَالْفَضَائِلِ (لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي) أَيْ:مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يُعْطَى أَحَدٌ بَعْدَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ (نُصِرْتُ) أَيْ:نَصَرَنِي رَبِّي عَلَى أَعْدَائِي (بِالرُّعْبِ):بِضَمٍّ فَسُكُونٍ وَبِضَمَّتَيْنِ أَيْ بِخَوْفِ الْعَدُوِّ مِنِّي (مَسِيرَةَ) أَيْ:فِي قَدْرِ مَسِيرَةِ.شَهْرٍ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنْ قُدَّامٍ أَوْ وَرَاءٍ،وَفِي شَرْحِ الطِّيبِيِّ الرُّعْبُ الْفَزَعُ وَالْخَوْفُ،وَقَدْ أَوْقَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ - ﷺ- الْخَوْفَ مِنْهُ،فَإِذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةَ شَهْرٍ هَابُوا وَفَزِعُوا مِنْهُ (وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا):فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:أَرَادَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تُبَحْ لَهُمُ الصَّلَاةُ إِلَّا فِي بِيَعِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ،وَأَبَاحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الصَّلَاةَ حَيْثُ كَانُوا تَخْفِيفًا عَلَيْهِمْ وَتَيْسِيرًا،ثُمَّ خَصَّ مِنْ جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ:الْحَمَّامَ وَالْمَقْبَرَةَ وَالْمَكَانَ النَّجِسَ،وَقَوْلُهُ طَهُورًا أَرَادَ بِهِ التَّيَمُّمَ اه.وَفِي الْحَمَّامِ وَالْمَقْبَرَةِ تَفْصِيلٌ قَدَّمْنَاهُ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُصَلُّونَ إِلَّا فِيمَا تَيَقَّنُوا طَهَارَتَهُ مِنَ الْأَرْضِ،وَخُصِصْنَا بِجَوَازِ الصَّلَاةِ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ إِلَّا فِيمَا تَيَقَّنَّا نَجَاسَتَهُ،ثُمَّ صَرَّحَ بِعُمُومِ هَذَا الْحُكْمِ وَفَرَّعَ عَلَى مَا قَبْلَهُ بِقَوْلِهِ:(فَأَيُّمَا رَجُلٍ) أَيْ:شَخْصٍ (مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ) أَيْ:وَجَبَتْ عَلَيْهِ وَدَخَلَ وَقْتُهَا فِي أَيِّ مَوْضِعٍ (فَلْيُصَلِّ) أَيْ:فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ بِشُرُوطِهِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي صِحَّةِ الصَّلَاةِ (وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ) أَيِ:الْغَنَائِمُ وَهِيَ الْأَمْوَالُ الْمَأْخُوذَةُ مِنَ الْكُفَّارِ (وَلَمْ تَحِلَّ):وَفِي نُسْخَةٍ:بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ:لَمْ تُبَحِ الْغَنَائِمُ (لِأَحَدٍ قَبْلِي) أَيْ:مِنَ الْأَنْبِيَاءِ،بَلْ غَنَائِمُهُمْ تُوضَعُ فَتَأْتِي نَارٌ تَحْرِقُهَا،هَكَذَا أَطْلَقَهُ بَعْضُ الشُّرَّاحِ - مِنْ عُلَمَائِنَا،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ أَيْ:مِنْ قَبْلِنَا مِنَ الْأُمَمِ إِذَا غَنِمُوا الْحَيَوَانَاتِ يَكُونُ مِلْكًا لِلْغَانِمِينَ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ،فَخُصَّ نَبِيُّنَا - ﷺ- بِأَخْذِ الْخُمُسِ وَالصَّفِيِّ،وَإِذَا غَنِمُوا الْحَيَوَانَاتِ غَيْرَهَا جَمَعُوهُ فَتَأْتِي نَارٌ فَتَحْرِقُهُ.أَقُولُ:وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي إِحْرَاقِ الْغَنِيمَةِ تَحْصِيلُ تَحْسِينِ النِّيَّةِ وَتَزْيِينُ الطَّوِيَّةِ فِي مَرْتَبَةِ الْإِخْلَاصِ فِي الْجِهَادِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعِبَادِ وَرَءُوفٌ بِالْعِبَادِ.(وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ):الْ فِيهِ لِلْعَهْدِ أَيِ:الشَّفَاعَةَ الْعَامَّةَ لِلْإِرَاحَةِ مِنَ الْمَحْشَرِ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ الَّذِي يَغْبِطُهُ عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ (وَكَانَ النَّبِيُّ) أَيِ:اللَّامُ فِيهِ لِلِاسْتِغْرَاقِ أَيْ:وَكَانَ كُلُّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِي (يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ) أَيْ:إِلَى أَقْوَامٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ مُخْتَصٍّ بِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ (عَامَّةً) أَيْ:شَامِلَةً لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:التَّعْرِيفُ فِي النَّبِيِّ لِاسْتِغْرَاقِ الْجِنْسِ،وَهُوَ أَشْمَلُ مِنْ لَوْ جُمِعَ لِمَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي أَنَّ اسْتِغْرَاقَ الْمُفْرَدِ أَشْمَلُ مِنِ اسْتِغْرَاقِ الْجَمْعِ،لِأَنَّ الْجِنْسِيَّةَ فِي الْمُفْرَدِ قَائِمَةٌ فِي وِحْدَانِهِ فَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ.وَفِي الْجَامِعِ فِيمَا فِيهِ الْجِنْسِيَّةُ مِنَ الْمَجْمُوعِ،فَيَخْرُجُ مِنْهُ وَاحِدٌ أَوِ اثْنَانِ عَلَى الْخِلَافِ فِي أَنَّ أَقَلَّ الْجَمْعِ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ اه.وَقِيلَ:اللَّامُ فِيهِ لِلْجِنْسِ عِنْدَ النَّحْوِيِّينَ وَلِلْعَهْدِ عِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ،وَهُوَ لِبَيَانِ الْمَاهِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالذِّهْنِيِّ لَا لِتَعْيِينِ الذَّاتِ وَتِلْكَ الْمَاهِيَّةُ هِيَ النُّبُوَّةُ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٦٧٤)

وقد قام النبي ﷺ بإبلاغ الرسالة إلى الحكام وإلى القبائل والشعوب وإلى عموم الناس،فعَنْ أَنَسٍ:«أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى،وَإِلَى قَيْصَرَ،وَإِلَى النَّجَاشِيِّ،وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى»،وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ رواه مسلم[2587]

فمن أعظم الواجبات على الحكومة الإسلامية أن تدعو جميع الحكومات والشعوب في العالم إلى الإسلام،فإن أمة الإسلام أمة رسالة وهداية لجميع الناس كما قال تعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } [آل عمران:١١٠]

أنتم - يا أمة محمد - خير الأمم وأنفع الناس للناس،تأمرون بالمعروف،وهو ما عُرف حسنه شرعًا وعقلا وتنهون عن المنكر،وهو ما عُرف قبحه شرعًا وعقلا وتصدقون بالله تصديقًا جازمًا يؤيده العمل.ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وما جاءهم به من عند الله كما آمنتم،لكان خيرا لهم في الدنيا والآخرة،منهم المؤمنون المصدقون برسالة محمد ﷺ العاملون بها،وهم قليل،وأكثرهم الخارجون عن دين الله وطاعته.[2588]

كما يجب على الحكومة الإسلامية إعداد الدعاة والمعلمين وإرسالهم لإبلاغ الدعوة الإسلامية كما يجب اتخاذ وسائل الاعلام المتنوعة - المقروؤة والمسموعة والمرئية - سبلا لمخاطبة الناس ودعوتهم إلى الإسلام.[2589]

[2587] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٧)٧٥ - (١٧٧٤)

[ش (كسرى) بفتح الكاف وكسرها وهو لقب لكل من ملك من ملوك الفرس(قيصر) لقب من ملك الروم(النجاشي) لقب لكل من ملك الحبشة]

كَتَبَ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ):فِي إِعَادَةِ الْعَامِلِ إِفَادَةُ الِاسْتِقْلَالِ (وَإِلَى النَّجَاشِيِّ):بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ وَبِتَخْفِيفِهَا أَفْصَحُ وَكَسْرُ نُونِهَا وَهُوَ أَفْصَحُ،أَصْحَمَةَ مَلِكِ الْحَبَشَةِ كَذَا فِي الْقَامُوسِ.(وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ):أَتَى بِهِ اخْتِصَارًا؛أَيْ:كِسْرَى وَأَمْثَالِهِ (يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ):فِي الْمَوَاهِبِ:أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى الْمُقَوْقِسِ مَلِكِ مِصْرَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَإِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى،وَإِلَى مَلِكِ عُمَانَ،وَإِلَى صَاحِبِ الْيَمَامَةِ،الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شِمْرٍ،وَلِأَهْلِ جَرْبَا وَأَذْرُجَ،وَإِلَى أَهْلِ وَجٍّ وَلِأُكَيْدِرٍ،وَصُورَةُ الْمَكَاتِيبِ مَكْتُوبَةٌ فِيهِ (وَلَيْسَ):أَيِ:النَّجَاشِيُّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْهِ (بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ - ﷺ -)،يَعْنِي وَقَدْ وَهِمَ مَنْ قَالَ:إِنَّهُ النَّجَاشِيُّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ - ﷺ- وَقَدْ خَلَطَ رَاوِيهِ،فَإِنَّهُمَا اثْنَانِ وَكِلَاهُمَا مُسْلِمَانِ.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٢٧).

[2588] - التفسير الميسر (١/ ٦٤)

[2589] - يمكن الرجوع لكتابي " الخلاصة في فقه الدعوة "

الرابع:الجهاد في سبيل الله ونصرة المسلمين:

من السياسة الخارجية الواجبة على الحكومة الإسلامية نصرة المسلمين والدفاع عن قضاياهم وقد قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال:٧٢]

إنَّ المُهَاجِرِينَ الذينَ تَرَكُوا دِيَارَهُمْ،وَجَاهَدُوا مَعَ الرَّسُولِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،وَالأَنْصَارِ الذِينَ آوَوُا الرَّسُولَ وَنَصَرُوهُ،هَؤُلاَءِ جَمِيعاً بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ،وَكُلٌّ مِنْهُمْ أَحَقُّ بِالآخَرِ مِنْ كُلِّ أَحَد.لِذَلِكَ آخَى الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ،كُلَّ اثْنَيْنِ أَخَوَانِ فِي اللهِ،فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ إِرْثاً مُقَدَّماً عَلَى القَرَابَةِ،حَتَّى نَسَخَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِآيَةِ المَوَارِيثِ.

أَمَّا الذينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا،بَلْ أَقَامُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ فَهَؤُلاَءِ لاَ يَثْبُتُ لَهُمْ شَيءٌ مِنْ وَلاَيَةِ المُسْلِمِينَ وَنُصْرَتِهِمْ،إِذْ لاَ سَبِيلَ إِلَى وَلاَيَتِهِمْ حَتَّى يُهَاجِرُوا،وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ المَغَانِمِ نَصِيبٌ وَلاَ فِي خُمْسِهَا إِلاَّ مَا حَضَرُوا فِيهِ القِتَالَ.وَإِذَا اسْتَنْصَرَ هَؤُلاَءِ،الذينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا،إِخْوَانَهُمُ المسْلِمِينَ فِي قِتَالٍ دِينِي عَلَى عَدُوٍ لَهُمْ،فَعَلَيْهِمْ نَصْرَهُمْ،لأَنَّهُمْ إِخْوَانٌ فِي الدِّينِ.أَمَّا إِذَا كَانَ الاسْتِنْصَارُ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ مِيثَاقٌ وَمُهَادَنَةٌ إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ،فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ الاَّ يَخْفِرُوا ذِمَّتَهُمْ وَلاَ أَنْ يَنْقُضُوا أَيْمَانَهُم مَعَ الذينَ عَاهَدُوهُمْ.[٢٥٩٠]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَخْبَرَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ،وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ،وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً،فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ،وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» متفق عليه[٢٥٩١]

[٢٥٩٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٣٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥٩١] - صحيح البخاري (٣/ ١٢٨)(٢٤٤٢) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٦)٥٨ - (٢٥٨٠)

[ش (يسلمه) يتركه إلى الظلم.(كان في حاجة أخيه) سعى في قضائها.(كان الله في حاجته) أعانه الله تعالى وسهل له قضاء حاجته.(كربة) مصيبة من مصائب الدنيا توقعه في الغم وتأخذ بنفسه]

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»)،فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْمُسْلِمَ وَالْمُؤْمِنَ وَاحِدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات:١٠]،وَهُوَ مُجْمَلٌ تَفْصِيلُهُ مَا بَعْدَهُ،وَلِهَذَا وَرَدَ مُنْقَطِعًا عَمَّا بَعْدَهُ عَلَى مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ سُوَيْدِ بْنِ حَنْظَلَةَ،وَابْنِ عَسَاكِرَ عَنْ وَاثِلَةَ،وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ،وَالْأَخُ لَا يَضُرُّ أَخَاهُ،بَلْ يَنْفَعُهُ فِي كُلِّ مَا يَرَاهُ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ التَّرْكِيبُ مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ مُبَالَغَةً،كَمَا وَرَدَ:" «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» " (لَا يَظْلِمُهُ)،نَفْيٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ،وَالْمَعْنَى:لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَظْلِمَهُ،وَفِي حُكْمِ الْمُسْلِمِ الذِّمِّيُّ وَالْمُسْتَأْمَنُ،ثُمَّ إِنَّهُ لَا مَفْهُومَ لَهُ،فَإِنَّ الظُّلْمَ لَا يُتَصَوَّرُ فِي حَقِّ الْكَافِرِ،وَهُوَ اسْتِئْنَافُ بَيَانٍ لِلْمُوجَبِ أَوْ لِوَجْهِ الشَّبَهِ،فَإِنَّ الظَّالِمَ يَنْحَطُّ أَوَّلًا عَنْ رُتْبَةِ النُّبُوَّةِ:{لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة:١٢٤]،وَثَانِيًا عَنْ دَرَجَةِ الْوَلَايَةِ:{أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود:١٨]،وَثَالِثًا عَنْ مَزِيدِ السَّلْطَنَةِ:لَبَيْتُ الظَّالِمِ خَرَابٌ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ،وَرَابِعًا:عَنْ نَظَرِ الْخَلَائِقِ:جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا،وَخَامِسًا:عَنْ حِفْظِ نَفْسِهِ:" وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ".

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا ...فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بِالنَّدَمِ

نَامَتْ عُيُونُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ ...يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمِ

(وَلَا يُسْلِمُهُ)،بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَكَسْرِ اللَّامِ أَيْ:لَا يَخْذُلُهُ،بَلْ يَنْصُرُهُ،فَفِي النِّهَايَةِ يُقَالُ:أَسْلَمَ فُلَانٌ فُلَانًا:إِذَا أَلْقَاهُ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَلَمْ يَحْمِهِ مِنْ عَدُوِّهِ،وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ أَسْلَمْتَهُ إِلَى شَيْءٍ،لَكِنْ دَخَلَهُ التَّخْصِيصُ وَغَلَبَ عَلَيْهِ الْإِلْقَاءُ فِي التَّهْلُكَةِ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:الْهَمْزَةُ فِيهِ لِلسَّلْبِ أَيْ:لَا يُزِيلُ سِلْمَهُ،وَهُوَ بِكَسْرِ السِّينِ وَفَتْحِهَا الصُّلْحُ (وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ) أَيْ:سَاعِيًا فِي قَضَائِهَا (كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ) هُنَا مِنْ قَبِيلِ الْمُشَاكَلَةِ،وَقَدْ وَرَدَ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَلَفْظُهُ:" «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» "،وَفِيهِ تَنْبِيهٌ نَبِيهٌ عَلَى فَضِيلَةِ عَوْنِ الْأَخِ عَلَى أُمُورِهِ،وَإِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُكَافَأَةَ عَلَيْهَا بِجِنْسِهَا مِنَ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ،سَوَاءٌ كَانَ بِقَلْبِهِ أَوْ بَدَنِهِ أَوْ بِهِمَا لِدَفْعِ الْمَضَارِّ،أَوْ جَذْبِ الْمَنَافِعِ إِذِ الْكُلُّ عَوْنٌ (وَمَنْ فَرَّجَ) بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَيُخَفَّفُ،وَفِي رِوَايَةٍ مَنْ نَفَّسَ بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ،وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ أَيْ:أَزَالَ وَكَشَفَ (عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً) أَيْ:مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا كَمَا فِي نُسْخَةٍ،وَهِيَ كَذَلِكَ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،وَالْكُرْبَةُ بِضَمِّ الْكَافِ فُعْلَةٌ مِنَ الْكَرْبِ،وَهِيَ الْخَصْلَةُ الَّتِي يَحْزَنُ بِهَا وَجَمْعُهَا كُرَبٌ بِضَمٍّ فَفَتْحٍ،وَالتَّنْوِينُ فِيهَا لِلْإِفْرَادِ وَالتَّحْقِيرِ أَيْ:هَمًّا وَاحِدًا مِنْ هُمُومِهَا أَيُّ هَمٍّ كَانَ صَغِيرَهُ أَوْ كَبِيرَهُ عَرْضَهُ وَعِرْضَهُ عَدَدَهُ وَعُدَدَهُ،وَقَوْلُهُ مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا أَيْ:بَعْضِ كُرَبِهَا أَوْ كُرْبَةٌ مُبْتَدَأَةٌ مِنْ كُرَبِهَا (فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) بِضَمِّ الْكَافِ وَالرَّاءِ،وَفِي رِوَايَةٍ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيِ الَّتِي لَا تُحْصَى؛لِأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ،وَتَنْفِيسُ الْكُرَبِ إِحْسَانٌ لَهُمْ،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠]،وَلَيْسَ هَذَا مُنَافِيًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام:١٦٠]،لِمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهَا تُجَازَى بِمِثْلِهَا وَضِعْفِهَا إِلَى عَشَرَةٍ إِلَى مِائَةٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى غَيْرِ حِسَابٍ،عَلَى أَنَّ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تُسَاوِي عَشْرًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ تَنْوِينُ التَّعْظِيمِ وَتَخْصِيصُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ دُونَ يَوْمٍ آخَرَ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُضَاعَفَةَ إِمَّا فِي الْكَمِّيَّةِ أَوْ فِي الْكَيْفِيَّةِ (وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا) أَيْ:بَدَنَهُ أَوْ عَيْبَهُ بِعَدَمِ الْغِيبَةِ لَهُ وَالذَّبِّ عَنْ مَعَايِبِهِ،وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ لَيْسَ مَعْرُوفًا بِالْفَسَادِ،وَإِلَّا فَيُسْتَحَبُّ أَنْ تُرْفَعَ قِصَّتُهُ إِلَى الْوَالِي،فَإِذَا رَآهُ فِي مَعْصِيَةٍ فَيُنْكِرُهَا بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ،وَإِنْ عَجَزَ يَرْفَعُهَا إِلَى الْحَاكِمِ إِذَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ؛كَذَا فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ (سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَفِي رِوَايَةٍ:سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَفِيهِ إِشَارَةٌ خَفِيَّةٌ صُوفِيَّةٌ صَفِيَّةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ وَقَفَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَقَامَاتِ أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَكَرَامَاتِ ذَوِي الْإِيقَانِ أَنْ يَحْفَظَ سِرَّهُ وَيَكْتُمَ أَمْرَهُ،فَإِنَّ كَشْفَ الْأَسْرَارِ عَلَى الْأَغْيَارِ يَسُدُّ بَابَ الْعِنَايَةِ وَيُوجِبُ الْحِرْمَانَ وَالْغِوَايَةَ.مَنْ أَطْلَعُوهُ عَلَى سِرٍّ فَبَاحَ بِهِ ...لَمْ يَأْمَنُوهُ عَلَى الْأَسْرَارِ مَا عَاشَ "(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣١٠٤)

وعن إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَشِيرٍ مَوْلَى بَنِي مَغَالَةَ قال :سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَــهْلٍ الأَنْصَارِيَّيْنِ يَقُولاَنِ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَءًا مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُنْتَهَــكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ،وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ امْرَءًا مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ.رواه أحمد[٢٥٩٢]

فلا يجوز خذلان المسلمين والتقاعس عن نصرهم،وإسلامهم لأعدائهم.

والواجب على الدولة الإسلامية مع القدرة أن تجاهد جهاد الطلب وتفتح بلاد الكفار لتكـــون كلمة الله هي العليا،وكذلك تجاهد جهاد الدفع عن عموم بلاد المسلمين فهـــو مـــن أعظـــم الواجبات التي يقام بها بحسب الإمكان ولا يشترط لها شرط،وقد تقدم الكلام في هذا " بـــاب الجهاد والإعداد ".

الخامس:الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن الآخرين:

لقد جاءت الشريعة الإسلامية بما فيه عزة المسلم وكرامته،واستغناؤه عن الناس،ورهبت مـــن الطمع والحرص على الدنيا وسؤال الناس ما في أيديهم،فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ قَـــالَ:جَـــاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:عِظْنِي وَأَوْجِزْ،فَقَالَ:" إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ،وَلَــا

[٢٥٩٢] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٦٠١)(١٦٣٦٨) ١٦٤٨٢- وسنن أبي داود (٤/ ٢٧١)(٤٨٨٤) حسن
(ما من امرئ يخذل) بذال معجمة مضمومة قال تعالى {وإن يخذلكم} (امرءا مسلما) أي لم يحل بينه وبين من يظلمه ولا ينصره (في موضع ينتقص فيه من عرضه) بكسر العين (وينتهك فيه من حرمته) بأن يتكلم فيه بما لا يحل والحرمة هنا ما لا يحل انتهاكه قال الجوهري:انتهك عرضه بالغ في شتمه (إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته) أي في موضع يكون فيه أحوج لنصرته وهو يوم القيامة فخذلان المؤمن حرام شديد التحريم دنيويا كان مثل أن يقدر على دفع عدو يريد البطش به فلا يدفعه أو أخرويا كأن يقدر على نصحه من غيه بنحو وعظ فيترك (وما من أحد ينصر مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته) وهو يوم القيامة ومما ورد في الوعيد على ترك نصرة المظلوم ما في الطبراني عن ابن عمر مرفوعا أدخل رجل قبره فأتاه ملكان فقالا له إنا ضاربوك ضربة فقال:علام تضربانى فضربوه ضربة فامتلأ القبر نارا فتركاه حتى أفاق وذهب عنه الرعب فقال:علام تضربانى فقالا:إنك صليت صلاة وأنت على غير طهور ومررت برجل مظلوم فلم تنصره" فيض القدير (٥/ ٤٧١)

تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا،وَاجْمَعِ الْإِيَاسَ مِمَّا فِي يَدَيِ النَّاسِ " رواه أحمد[2593] أي صمم واجمع العزم على اليأس وقطع الأمل مما في أيدي الناس

[2593] - مسند أحمد ط الرسالة (38/ 484)(23498) وسنن ابن ماجه (2/ 1396)(4171) وصحيح الجامع (742) حسن

[ش - (وأوجز) أي اقتصر على خلاصة الأمر ليكون أسهل للضبط.أو أد ذلك العلم المطلوب بكلام مختصر موجزلفظا جامع للعلم الكثير معنى.(مودع) أي كن كأنك تصلى آخر صلاتك.(يعتذر منه) أي يحتاج منه إلى الاعتذار.(وأجمع) أي اعتقد واعزم.]

فَقَالَ:عِظْنِي وَأَوْجِزْ») أَيِ اخْتَصِرْ وَعَلَى الْمُهِمِّ اقْتَصِرْ (فَقَالَ:" إِذَا قُمْتَ ") أَيْ:شَرَعْتَ (" فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ "):بِكَسْرِ الدَّالِ الْمُشَدَّدَةِ أَيْ:مُوَدِّعٍ لِمَا سِوَى اللَّهِ بِالِاسْتِغْرَاقِ فِي مُنَاجَاةِ مَوْلَاكَ،أَوِ الْمَعْنَى صَلِّ صَلَاةَ مَنْ يُوَدِّعُ الصَّلَاةَ،وَمِنْهُ حَجَّةُ الْوَدَاعِ أَيِ:اجْعَلْ صَلَاتَكَ آخِرَ الصَّلَاةِ فَرْضًا فَحَسِّنْ خَاتِمَةَ عَمَلِكَ،وَأَقْصِرْ طُولَ أَمَلِكَ لِاحْتِمَالِ قُرْبِ أَجَلِكَ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْ:فَأَقْبِلْ عَلَى اللَّهِ بِشَرَاشِرِكَ،وَوَدِّعْ غَيْرَكَ لِمُنَاجَاةِ رَبِّكَ (" وَلَا تَكَلَّمْ "):بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ وَفِي نُسْخَةٍ بِإِثْبَاتِهِمَا أَيْ:" لَا تَتَحَدَّثْ (" بِكَلَامٍ تَعْذِرُ "):بِفَتْحِ التَّاءِ وَكَسْرِ الذَّالِ أَيْ:تَحْتَاجُ أَنْ تَعْتَذِرَ (" مِنْهُ ") أَيْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْكَلَامِ (" غَدًا ") أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَهُوَ الْمَعْنَى لِقَوْلِهِ:" «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» ".(" وَأَجْمِعِ الْإِيَاسَ "):بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الْمِيمِ وَيَجُوزُ عَكْسُهُ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ} [طه:64] فَقَدْ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو بِوَصْلِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِ الْمِيمِ مِنْ جَمَعَ يَجْمَعُ،وَالْبَاقُونَ بِقَطْعِهَا وَالْكَسْرُ مِنْ أَجْمَعَ.بِمَعْنَى عَزَمَ عَلَى الْأَمْرِ أَوْ هُمَا لُغَتَانِ بِمَعْنَى الْجَمْعِ فَالْمَعْنَى اعْزِمْ عَلَى قَطْعِ الْيَأْسِ أَوْ أَجْمِعْ خَاطِرَكَ عَلَى قَصْدِ الْيَأْسِ وَتَرْكِ الطَّمَعِ (" مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ") أَيْ قَنَاعَةً بِالْكِفَايَةِ الْمُقَدَّرَةِ بِالْقِسْمَةِ الْمُحَرَّرَةِ الْمُقَرَّرَةِ.فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الزخرف:32] إِلَى أَنْ قَالَ:{وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف:35] وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الِاسْتِئْنَاسَ بِالنَّاسِ مِنْ عَلَامَةِ الْإِفْلَاسِ،وَأَنَّ الْغِنَى الْقَلْبِيَّ هُوَ الْإِيَاسُ مِمَّا أَبْدَى النَّاسُ.

وَقَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْ:أَجْمِعْ رَأْيَكَ عَلَى الْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ،وَصَمِّمْ عَلَيْهِ وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ} [طه:64] قَالَ:وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْإِيَاسَ وَقَعَ مَوْقِعَ الْيَأْسِ سَهْوًا مِنَ الْكَاتِبِ؛لِأَنَّ الْإِيَاسَ مَصْدَرُ أَسَهُ إِذَا أَعْطَاهُ،وَلَيْسَ مَصْدَرَ أَيِسَ مَقْلُوبِ يَئِسَ،لِأَنَّ مَصْدَرَ الْقُلُوبِ يُوَافِقُ الْفِعْلَ الْأَصْلِيَّ لَا الْمَقْلُوبَ،وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّهُ مَنْ آيَسَ نَفْسَهُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ إِيئَاسًا فَخَفَّفَ الْهَمْزَةَ أَيْ بِالنَّقْلِ وَالْحَذْفِ انْتَهَى.وَفِي الْقَامُوسِ أَيِسَ مِنْهُ كَسَمِعَ إِيَاسًا قَنِطَ،فَبَطَّلَ تَخْطِئَةُ الرِّوَايَةِ الْحُفَّاظَ الْمُعْتَمَدِينَ عَلَى ذَوَاتِ الصُّدُورِ لَا عَلَى مَا فِي السُّطُورِ،خُصُوصًا وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُصَحَّحَةٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِيرَكُ نَقْلًا عَنِ الْمُنْذِرِيِّ بَعْدَ قَوْلِ الْمُؤَلِّفِ:(رَوَاهُ أَحْمَدُ) أَيْ:عَنْ أَبِي أَيُّوبَ وَلِهَذَا الْحَدِيثِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ:«جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْصِنِي.قَالَ:" عَلَيْكَ بِالْإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ،وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ،وَصَلِّ صَلَاتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ» ".رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الزُّهْدِ،وَقَالَ الْحَاكِمُ:وَاللَّفْظُ لَهُ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ،وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ نَحْوَهُ اه.

وَمِنَ الْمُحَالِ اتِّفَاقُ الْحُفَّاظِ وَالْأَصْحَابِ عَلَى سَهْوٍ وَقَعَ مِنْ أَحَدِ الْكُتَّابِ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (8/ 3270)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،وَالدِّرْهَمِ،وَالقَطِيفَةِ،وَالخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[2594]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ،تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ،تَعِسَ وَانْتَكَسَ،وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ،طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَشْعَثُ رَأْسُهُ،مُغْبَرَّةٌ قَدَمَاهُ،وَإِنْ كَانَتِ الْحِرَاسَةُ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ،وَإِنْ كَانَتِ السَّاقَةُ كَانَ فِي السَّاقَةِ،إِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ،وإِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ»[2595]

وفى الصحيح وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ،وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ،تَعِسَ وَانْتَكَسَ،وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ،طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَشْعَثَ رَأْسُهُ،مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ،إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ،إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»،وَقَالَ:فَتَعْسًا:كَأَنَّهُ يَقُولُ:فَأَتْعَسَهُمُ اللَّهُ،طُوبَى:فُعْلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ،وَهِيَ يَاءٌ حُوِّلَتْ إِلَى الوَاوِ وَهِيَ مِنْ يَطِيبُ "[2596]

[2594] - صحيح البخاري (٨/ ٩٢)(٦٤٣٥)

قَوْلُهُ:«تَعِسَ» أَي:انْكَبَّ وَعَثَرَ،وَمَعْنَاهُ الدُّعَاءُ عَلَيْهِ،أَيْ:أَتْعَسَهُ اللَّهُ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{فَتَعْسًا لَهُمْ} [مُحَمَّد:٨] أَيْ:عِثَارًا وَسُقُوطًا،وَإِذَا سَقَطَ السَّاقِطُ بِهِ،فَأُرِيد بِهِ الاسْتِقَامَةُ قِيلَ:لعا لَهُ،وَإِذَا لَمْ يُرِدْ بِهِ الانْتِعَاشَ،قِيلَ:تَعْسًا لَهُ،قَوْلُهُ:«وَانْتَكَسَ»،يُقَالُ:نَكَسْتُ الشَّيْءَ إِذَا قَلَبْتُهُ،وَالشَّيْءُ مَنْكُوسٌ،وَالانْتِعَاشُ:الارْتِفَاعُ،وَسُمِّيَ نَعْشُ الْجِنَازَةِ نَعْشًا لارْتِفَاعِهِ،قَوْلُهُ:«فَلا انْتَعَشَ» أَيْ لَا ارْتَفَعَ،وَيُقَالُ:انْتَعَشَ الْعَلِيلُ:إِذَا أَفَاقَ.

وَقَوْلُهُ:«شِيكَ فَلا انْتَقَشَ» أَيْ:لَا أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي دَخَلَهُ،وَلا قَدِرَ عَلَى إِخْرَاجِهِ،وَنَقْشُ الشَّوْكَةِ:اسْتِخْرَاجُهَا،يُقَالُ:شَاكَهُ الشَّوْكُ يَشُوكُهُ:إِذَا أَصَابَهُ،وَشَاكَ يُشَاكُ:إِذَا دَخَلَ فِي الشَّوْكِ.

القطيفة:كساء أو فراش له أهداب.= الخميصة:ثوب أسود أو أحمر له أعلام.= انتكس:انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران.= شيك أَيْ:شَاكَتْهُ شَوْكَة.=انتقش أَيْ:إذا دخلت في جلده شوكة فلا أخرجها من موضعها.شرح السنة للبغوي (١٤/ ٢٦٢)

[2595] - المعجم الأوسط (٣/ ٩٤)(٢٥٩٥) صحيح

[2596] - صحيح البخاري (٤/ ٣٤)(٢٨٨٦و٢٨٨٧)

[ش (تعس) سقط على وجهه أو شقي وهلك.(عبد الدينار) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له.(القطيفة) دثار مخمل والدثار ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد

فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ – ﷺ – عَبْدَ الدِّرْهَمِ،وَعَبْدَ الدِّينَارِ،وَعَبْدَ الْقَطِيفَةِ،وَعَبْدَ الْخَمِيصَةِ.

وَذِكْرُ مَا فِيهِ دُعَاءٌ وَخَبَرٌ،وَهُوَ قَوْلُهُ:«تَعِسَ وَانْتَكَسَ،وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ» وَالنَّقْشُ:إخْـــرَاجُ الشَّوْكَةِ مِنْ الرِّجْلِ،وَالْمِنْقَاشُ:مَا يُخْرَجُ بِهِ الشَّوْكَةُ،وَهَذِهِ حَالُ مَنْ إذَا أَصَابَهُ شَرٌّ لَمْ يَخْـــرُجْ مِنْهُ،وَلَمْ يَفْلَحْ لِكَوْنِهِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ.

فَلَا نَالَ الْمَطْلُوبَ وَلَا خَلَصَ مِنْ الْمَكْرُوهِ،وَهَذِهِ حَالُ مَنْ عَبَدَ الْمَالَ،وَقَدْ وَصَفَ ذَلِـــكَ بِأَنَّـــهُ «إذَا أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِذَا مُنِعَ سَخِطَ» كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّـــدَقَاتِ فَـــإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْـــخَطُونَ} [التوبـــة:٥٨] فَرِضَـــاهُمْ لِغَيْـــرِ اللَّهِ،وَسُخْطُهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ،وَهَكَذَا حَالُ مَنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِرِئَاسَةِ أَوْ بِصُورَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَهْـــوَاءِ نَفْسِهِ إنْ حَصَلَ لَهُ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ سَخِطَ،فَهَذَا عَبْدُ مَا يَهْوَاهُ مِنْ ذَلِـــكَ،وَهُوَ رَقِيـــقٌ لَهُ،إذْ الرِّقُّ وَالْعُبُودِيَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ رِقُّ الْقَلْبِ وَعُبُودِيَّتُهُ،فَمَا اسْتَرَقَّ الْقَلْبَ وَاسْتَعْبَدَهُ فَهُـــوَ عَبْدُهُ.

وَلِهَذَا يُقَالُ:

الْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنَعَ ...وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمَعَ

وَقَالَ الْقَائِلُ:

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي ...وَلَوْ أَنِّي قَنَعْت لَكُنْت حُرًّا

وَيُقَالُ:الطَّمَعُ غُلٌّ فِي الْعُنُقِ قَيْدٌ فِي الرِّجْلِ،فَإِذَا زَالَ الْغُلُّ مِنْ الْعُنُقِ زَالَ الْقَيْدُ مِنْ الرِّجْلِ.

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ فِي خُطْبَةٍ:«تَعْلَمُونَ أَنَّ الطَّمَعَ فَقْـــرٌ،وَأَنَّ الْيَـــأْسَ غِنًى،وَأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا يَئِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ»[٢٥٩٧]

من الثياب.(الخميصة) كساء أسود مربع له خطوط.(أعطي) من المال.(رضي) عن الله تعالى وعمل العمل الصالح.(انتكس) انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران.(شيك) أصابته شوكة.(فلا انتقش) فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه.(طوبى) من الطيب أي كانت له حياة طيبة وجزاء طيب.(بعنان) لجام.(أشعث) متفرق الشعر غير مسرح.(إن كان في الحراسة) جعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو.(كان في الحراسة) قام بها راضيا.(الساقة) مؤخرة الجيش.(تعسا) اللفظ من / محمد ٨ /.(طوبى) اللفظ من / الرعد ٢٩ /.وقيل هو اسم للجنة]

[٢٥٩٧] – الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٢٢٣) (٦٣١) والجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٥٢٦)(٤١٨) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٥٠) صحيح لغيره

وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ؛فَإِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَيْأَسُ مِنْهُ لَا يَطْلُبُهُ وَلَا يَطْمَعُ بِهِ،وَلَا يَبْقَى قَلْبُهُ فَقِيرًا إلَيْهِ،وَلَا إلَى مَنْ يَفْعَلُهُ،وَأَمَّا إذَا طَمِعَ فِي أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ وَرَجَاهُ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ،فَصَارَ فَقِيرًا إلَى حُصُولِهِ؛وَإِلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ سَبَبٌ فِي حُصُولِهِ،وَهَذَا فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالصُّوَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَالَ الْخَلِيلُ – ﷺ –:{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت:١٧] .

فَالْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ رِزْقٍ،مُحْتَاجٌ إلَى ذَلِكَ،فَإِذَا طَلَبَ رِزْقَهُ مِنْ اللَّهِ صَارَ عَبْدًا لِلَّهِ،فَقِيرًا إلَيْهِ،وَإِنْ طَلَبَهُ مِنْ مَخْلُوقٍ صَارَ عَبْدًا لِذَلِكَ الْمَخْلُوقِ فَقِيرًا إلَيْهِ.

وَلِهَذَا كَانَتْ " مَسْأَلَةُ الْمَخْلُوقِ " مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ،وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ.."[٢٥٩٨]

وعَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ،وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ»[٢٥٩٩] .

وعَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ،قَالَ:حَدَّثَنِي الْحَبِيبُ الْأَمِينُ،أَمَّا هُوَ فَحَبِيبٌ إِلَيَّ،وَأَمَّا هُوَ عِنْدِي،فَأَمِينٌ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً،فَقَالَ:«أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ،فَقُلْنَا:قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» فَقُلْنَا:قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» قَالَ:فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا:قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ،فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ:«عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ،وَتُطِيعُوا – وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً – وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا» فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ،فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ" رواه مسلم[٢٦٠٠] .

[٢٥٩٨] – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٧٩)

[٢٥٩٩] – صحيح مسلم (٢/ ٧٢٠)١٠٣ – (١٠٤٠)

[ش (مزعة لحم) أي قطعة قال القاضي قيل معناه يأتي يوم القيامة ذليلا لا وجه له عند الله وقيل هو على ظاهره فيحشر ووجهه عظم لا لحم فيه عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه]

[٢٦٠٠] – صحيح مسلم (٢/ ٧٢١)١٠٨ – (١٠٤٣)

(فقال ألا تبايعون رسول الله) فِيهَا الْتِفَاتٌ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ (فَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ إِلَخْ) قَالَ النَّوَوِيُّ فِيهِ التَّمَسُّكُ بِالْعُمُومِ لِأَنَّهُمْ نُهُوا عَنِ السُّؤَالِ فَحَمَلُوهُ عَلَى عُمُومِهِ،وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى التَّنَزُّهِ عَنْ جَمِيعِ مَا يُسَمَّى سُؤَالًا وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا اهـ عون المعبود وحاشية ابن القيم (٥/ ٣٩)

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:"سِتَّةَ أَيَّامٍ،ثُمَّ اعْقِلْ يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَقُولُ لَكَ بَعْدُ " فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ،قَالَ:"أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ،وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ،وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا شَيْئًا وَإِنْ سَقَطَ سَوْطُكَ،وَلَا تَقْبِضْ أَمَانَةً،وَلَا تَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ " رواه أحمد[2601].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:«أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ،بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ،وَأَنْ أَدْنُوَ مِنْهُمْ،وَأَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنِّي،وَلَا أَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي،وَأَنْ أَصِلَ رَحِمِي،وَإِنْ جَفَانِي،وَأَنْ أُكْثِرَ مِنْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ،وَأَنْ أَتَكَلَّمَ بِمُرِّ الْحَقِّ،وَلَا تَأْخُذُنِي فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ،وَأَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا»[2602]

[2601] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٤٥٢)(٢١٥٧٣) حسن

(وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ لِي)؛أَيْ خُصُوصًا،أَوْ خِطَابًا (رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- سِتَّةَ أَيَّامٍ) ظَرْفُ الْقَوْلِ،وَالْمَقُولُ قَوْلُهُ:(اعْقِلْ يَا أَبَا ذَرٍّ مَا يُقَالُ لَكَ)؛أَيْ تَفَكَّرْ وَتَأَمَّلْ وَاحْفَظْ وَاعْمَلْ بِمُقْتَضَى مَا أَقُولُ لَكَ؛(بَعْدُ)؛أَيْ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:٤٣] وَقِيلَ:(سِتَّةَ أَيَّامٍ) ظَرْفُ (اعْقِلْ)؛وَقَوْلُهُ:مَا يُقَالُ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ أَيْ شَيْءٌ أَعْقِلُ بِسِتَّةِ أَيَّامٍ،وَالْأَوَّلُ هُوَ الظَّاهِرُ،(«فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ قَالَ:أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ») قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ؛لِيُنَبِّهَ أَنَّ مَا يَقُولُهُ بَعْدُ مَعْنًى يَجِبُ تَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ،وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ،وَلَعَمْرِي إِنَّ الْكَلِمَةَ الْأُولَى لَوْ أَدَّى حَقَّهَا لَكَفَى بِهَا كَلِمَةً جَامِعَةً،قُلْتُ:وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} [النساء:١٣١] وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:(«إِنِّي أَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِهَا لَكَفَتْهُمْ {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا - وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:٢ - ٣] الْآيَةَ فَمَا زَالَ يَقْرَأُهَا وَيُعِيدُهَا») وَجَاءَ فِي حَدِيثٍ («أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ») وَفِي رِوَايَةٍ («فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ») قَالَ الطِّيبِيُّ:وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران:١٠٢]؛أَيْ تُنَزِّهُ عَمَّا يَشْغَلُ سِرَّكَ عَنِ الْحَقِّ وَتُوَجِّهُ بِسَرَائِرِكَ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا،وَهَذِهِ هِيَ التَّقْوَى الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا،وَقَوْلُهُ:(وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَجْبُولٌ عَلَى الشَّهَوَاتِ،وَمُقْتَضَى الْبَهِيمِيَّةِ،وَالسَّبُعِيَّةِ،وَالْمَلَكِيَّةِ،فَإِذَا ثَارَتْ مِنْ تِلْكَ الرَّذَائِلِ رَذِيلَةٌ يُطْفِئُهَا بِمُقْتَضَى الْمَلَكِيَّةِ،كَمَا قَالَ - ﷺ-:(«وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا») وَهُوَ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ؛أَحَدُهُمَا:أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ مَعْصِيَةً يُحْدِثُهَا تَوْبَةً،أَوْ طَاعَةً،وَإِذَا أَسَاءَ إِلَى شَخْصٍ أَحْسَنَ إِلَيْهِ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [فصلت:٣٤] الْآيَةَ (وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا)؛أَيْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ (شَيْئًا) فِيهِ انْتِهَاءُ دَرَجَةِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ،وَتَفْوِيضُ الْأُمُورِ إِلَيْهِ،وَقَوْلُهُ:(وَإِنْ سَقَطَ سَوْطُكَ) تَتْمِيمٌ لَهُ،وَوَجْهُهُ أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ ذُلٌّ،وَلَا يَجُوزُ إِلَّا لِلْعَزِيزِ الْكَرِيمِ،وَقِيلَ:إِنَّهُ حَرَامٌ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ،لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الشِّكَايَةِ مِنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ،وَلِذَا كَانَ يَقُولُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي دُعَائِهِ:اللَّهُمَّ كَمَا صُنْتَ وَجْهِي عَنْ سُجُودِ غَيْرِكَ فَصُنْ وَجْهِي عَنْ مَسْأَلَةِ غَيْرِكَ.وَفِي حَدِيثٍ:«إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ سَائِلًا فَسَلِ الصَّالِحِينَ» .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤١٦)

[2602] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٥٦)(١٦٤٩) والترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين (ص:١٠٤)(٣٤٣) وأمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:٥٨)(٨٦) وأمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:٢٩١)(٦٦٧) والدعاء للطبراني (ص:٤٧٠)(١٦٤٨ و١٦٤٩و١٦٥٠و١٦٥١) والسنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٥٥)(٢٠١٨٦) صحيح

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْد قَالَ:جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:«يَا مُحَمَّدُ،عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ،وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ،وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ،وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ،وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ» رواه الطبراني في الأوسط[٢٦٠٣]

[٢٦٠٣] - المعجم الأوسط (٤/ ٣٠٦)(٤٢٧٨) حسن

(أتاني جبريل فقال) لي (يا محمد) خاطبه به دون رسول الله أو النبي ﷺ لأنه المناسب لمقام الوعظ والتذكير والإيذان بفراق الأحباب والخروج من الدنيا ودخول الآخرة والحساب والجزاء وبدأ بذكر الموت لأنه أفظع ما يلقاه الإنسان وأبشعه فقال (عش ما شئت فإنك ميت) بالتشديد والتخفيف أي آيل إلى الموت عن قرب فهو مجاز باعتبار ما يكون في المستقبل قريبا قطعا (وأحبب) بفتح الهمزة وكسر الموحدة الأولى (من شئت) من الخلق (فإنك مفارقه) بموت أو غيره وما من أحد في الدنيا إلا وهو ضعيف وما بيده عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة قال الغزالي للقصد بهذا تأديب النفس عن البطر والأشر والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايله بالموت فإنه إذا علم أن من أحب شيئا يلزمه فراقه ويشقى لا محالة بفراقه شغل قلبه بحب من لا يفارقه وهو ذكر الله فإن ذلك يصحبه في القبر فلا يفارقه وكل ذلك يتم بالصبر أياما قلائل فالعمر قليل بالإضافة إلى حياة الآخرة وعند الصباح يحمد القوم السرى فلا بد لكل إنسان من مجاهدة فراق ما يحبه وما فيه فرحه من أسباب الدنيا وذلك يختلف باختلاف الناس فمن يفرح بمال أو جاه أو بقبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية أو بكثرة الإتباع في التدريس والإفادة يترك أولا ما به فرحه ثم يراقب الله حتى لا يشتغل إلا بذكر الله والفكر فيه ويكف عن شهواته ووساوسه حتى يقمع مادتها ويلزم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا الموت.قيل صاح طوطي بحضرة سليمان فقال تدرون ما يقول قالوا الله ورسوله أعلم قال يقول كل حي ميت وكل جديد بال.وقال النسر يقول في صياحه يا ابن آدم اعمل ما شئت آخرك الموت (واعمل ما شئت) من خير (فإنك مجزي به) بفتح الميم وسكون الجيم وكسر الزاي وشد المثناة تحت أي مقضى عليك بما يقتضيه عملك وبضم الميم وفتح الزاي منونا أي مكافأ عليه.ولما ذكر الموت والمجازاة وخوف بما علم منه أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره أردفه ببيان أعظم نافع من تلك الأهوال فقال (واعلم) بصيغة الأمر إفادة لغير ما علم للدلالة على أنه تعلم وعلم لأن العلم لا يتم حتى يصل إلى الغير فيجمع فضل العلم والتعليم ذكره الحراني (أن شرف المؤمن) رفعته قال الزمخشري من المجاز لفلان شرف وهو علو المترلة (قيامه بالليل) أي علاه ورفعته إحياء الليل بدوام التهجد فيه والذكر والتلاوة وهذا بيان لشيء من العمل المشار إليه بقوله اعمل ما شئت ولما كان الشرف والعز أخوين استطرد ذكر ما يحصل به العز فقال (وعزه) قوته وعظمته وغلبته على غيره (استغناؤه) اكتفاؤه بما قسم له (عن الناس) أي عما في أيديهم ولهذا قال حاتم لأحمد وقد سأله:ما السلامة من الدنيا وأهلها؟ قال:أن تغفر لهم جهلهم وتمنع جهلك عنهم وتبذل لهم ما في يدك وتكون مما في أيديهم آيسا قال الغزالي:ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان ففي القناعة العز والحرية ولذلك قيل استغن عمن شئت فأنت نظيره واحتج إلى من شئت فأنت أسيره وأحسن إلى من شئت فأنت أميره وقال بعضهم:الفقر لباس الأحرار والغنى بالله لباس الأبرار والقيام انتصاب القامة ولما كانت هيئة الانتصاب أكمل هيآت من له القامة وأحسنها استعير ذلك للمحافظة على استعمال الإنسان نفسه في الصلاة ليلا فمعنى قيام الليل المحافظة على الصلاة فيه وعدم تعطيله باستغراقه بالنوم أو اللهو قال الزمخشري:قام على الأمر دام وثبت.وقد تضمن الحديث التنبيه على قصر الأمل والتذكير بالموت واغتنام العبادة وعدم الاغترار بالاجتماع والحث على التهجد وبيان جلالة علم جبريل وغير ذلك قال الغزالي:جمعت هذه الكلمات حكم الأولين والآخرين وهي كافية للمتأمل فيها طول العمر إذ لو وقف على معانيها

والحديث يدل على اقتران العزة بالاستغناء عن الناس،وأن الطمع بما في أيدي الناس،وسؤالهم أموالهم نوع من أنواع الذل للناس الذي يجب على المسلم تجنبه.

فإذا كان المسلم لايحل له أن يتذلل للناس ويسألهم ما في أيديهم فكذلك الحكومة الإسلامية لا يحل لها أن تتطلع إلى ما في أيدي الدول الأخرى،وأن تسألهم ما في أيديهم وتتذلل لهم،فإن سؤال الدول الكافرة أعظم ظلما وأشنع مذلة ومهانة من سؤال المسلمين،لاسيما وأن الأعداء عادة ما يستخدمون أعطياتهم ومساعداتهم وسيلة للتدخل في شؤون الدولة الإسلامية،ومحاولة صرفها عن الإسلام.

فالواجب على الحكومة الإسلامية أن تسعى إلى الاكتفاء الذاتي،وأن تتجنب الطمع بدنيا الكافرين،والتطلع لما في أيديهم،وأن تتخلق بالقناعة والتعفف والعزة والاستغناء عن الآخرين،وقد قال تعالى:{ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر:٨٨]

لَقَدْ آتَيْنَاكَ،يَا مُحَمَّدُ،القُرْآنَ العَظِيمَ،وَالسَّبْعَ المَثَانِيَ،فَقَدْ أُوتِيتَ النِّعَمَ العَظِيمَةَ التِي لاَ تُدَانِيهَا نِعَمٌ فِي الدُّنْيا،فَلاَ تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى الدُّنْيَا،وَلاَ تَنْظُرْ إِلَى زِينَتِهَا وَزُخْرُفِهِا،وَلاَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَهْلَهَا مِنْ زَهْرَتِهَا الفَانِيَةِ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ،فَلا تَغْبِطْهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ،وَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ حُزْناً عَلَيْهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ،وَمُخَالَفَتِكَ فِيمَا أَتَيْتَهُمْ بِهِ،وَأَلِنْ جَانِبَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ.[٢٦٠٤]

وقال تعالى:{ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه:١٣١].

وقوله تعالى:«وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ» نهى يراد به النصح والإرشاد،وذلك بألا يلتفت النبىّ والمؤمنون إلى ما بين أيدى هؤلاء المشركين من أموال وبنين وألا يقع فى نفسه،أو أنفس المؤمنين،أن ذلك الذي أمدّ الله بعض المشركين،به،من نعمة،هو تكريم لهم،وإحسان منه سبحانه وتعالى إليهم..بل هو ابتلاء وامتحان لهم،ليرى منهم سبحانه أيشكرون أم يكفرون؟

وغلبت على قلبه غلبة يقين استغرقته وحالت بينه وبين النظر إلى الدنيا بالكلية والتلذذ بشهواتها وقد أوتي المصطفى ﷺ جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة"فيض القدير (١/ ١٠٢)

[٢٦٠٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨٩١،بترقيم الشاملة آليا)

..وها هم أولاء قد كفروا به،وحادّوه،وحاربوا رسوله،وبهذا تحولت هذه الـنعم إلى سـيئات وأوزار،تضاف إلى رصيدهم مما كسبوا من سيئات وأوزار..

– وفى قوله تعالى:«أَزْواجاً مِنْهُمْ» إشارة إلى أن ما يتمتع به المشرك من عطاء الله هو شـركة بينه وبين زوجه،التي هى متعة من متعه وهو متعة لها..

فالمرأة كالرجل هنا،فى أنها مبتلاة بنعم الله،ومحاسبة عليها..فإن شكرت،وآمنت،وعملت صالحا أخذت بحظها من رضوان الله،وإن جحـدت وكفرت،وخالطـت الآثام،فعليهـا وزر مـا عملت،وستلقى جزاءها من عذاب الله.

– وفى قوله تعالى:«زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا» إشارة إلى أن ذلك المتاع الذي فى أيـدى النـاس،هو زهرة من زهرات الحياة الدنيا،يبهج العين،ويسرّ القلب..ولكنّه لا يعمّر طويلا،بل سرعان مـا يذبل ويجفّ،ثم يصير حطاما..تماما كالزهرة.تملأ العين بهجة ومسرّة،ثم تمـوت وشـيكا!! و «زهرة» منصوب على أنه مفعول ثان للفعل:«متّعنا» لتضمنه معنى «أعطينا» .

– وفى قوله تعالى:«وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى» – إشارة إلى ما بين يدى النبىّ الكريم مـن رزق عظيم..هو القرآن الكريم،ثم تلك الرسالة الشريفة التي اصطفاه الله لها،وتخيّره لتبليغها عنـه إلى عباده! فأى رزق خير من هذا الرزق؟ وأي عطاء أكرم وأوفر من هذا العطاء؟ إنـه أشـرف قدرا،وأعظم أثرا،وأخلد ذكرا من كلّ ما فى هذه الدنيا من مال ومتاع![٢٦٠٥]

أي:لا تمد عينيك معجبا،ولا تكرر النظر مستحسنا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها،من المآكـل والمشارب اللذيذة،والملابس الفاخرة،والبيوت المزخرفة،والنساء المجملة،فإن ذلك كلـه زهـرة الحياة الدنيا،تبتهج بها نفوس المغترين،وتأخذ إعجابا بأبصار المعرضين،ويتمتع بها – بقطع النظر عن الآخرة – القوم الظالمون،ثم تذهب سريعا،وتمضـي جميعا،وتقتـل [ص:٥١٧] محبيهـا وعشاقها،فيندمون حيث لا تنفع الندامة،ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة،وإنما جعلها الله فتنة واختبارا،ليعلم من يقف عندها ويغتر بها،ومن هو أحسن عملا كما قال تعالى:{إِنَّـا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَـا صَـعِيدًا جُرُزًا} {وَرِزْقُ رَبِّكَ} العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة والآجل من النعيم

[٢٦٠٥] – التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٨٤٠)

المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم {خير} مما متعنا به أزواجـا في ذاتـه وصـفاته {وَأَبْقَى} لكونه لا ينقطع أكلها دائم وظلها كما قال تعالى {بَلْ تُـؤْثِرُونَ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحا إلى زينـة الدنيا وإقبالا عليها أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه وأن يوازن بين هذا وهذا[٢٦٠٦]

وقال تعالى:{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَـا تَعْـدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْـرُهُ فُرُطًا } [الكهف:٢٨]

وَاجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ،وَيَحْمَدُونَهُ وَيُسَبِّحُونَهُ،وَيَسْأَلُونَهُ مِنْ فَضْلِهِ بُكْرَةً وَعَشِـيَّةً،وَهُمُ المُؤْمِنُونَ مِنْ عِبَادِ اللهِ،سَوَاءً كَانُوا أَغْنِيَاءَ أَوْ فُقَرَاءَ (وَيُقَالُ إِنَّ هذه الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ حِينَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْلِسَ مَعَهُمْ وَحْدَهُمْ،وَأَنْ لاَ يُجَالِسَ الفُقَـرَاءَ وَالضُّـعَفَاءَ مِـنَ المُسْلِمِينَ) .ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ الكَرِيمَ بِأَنْ لاَ يُجَاوِزَ هؤُلاَءِ المُؤْمِنِينَ إِلَـى غَيْـرِهِمْ مِـنْ أَصْحَابِ الشَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ،وَبِأَنْ لاَ يُطِيعَ مَنْ شُغِلَ بِالدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ،وَعَنْ عِبَادَةِ اللهِ،وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي أَعْمَالِهِ حُدُودَ اللهِ،وَتَمَادَى فِي ارْتِكَابِ المَعَاصِي وَالآثَامِ،وَكَانَ مُفْرِطاً سَفِيهاً فِي أَمْرِهِ.[٢٦٠٧]

فأمره الله تعالى أن يصبر نفسه مع المؤمنين،ونهاه عن أمرين،أولهما:أن تعدو عيناه عـن أهـل الإيمان إلى أصحاب الثروة والجاه من الكفار،والنهي الثاني:عن طاعة من شغل قلبه بالكفر عن الإيمان واتبع هواه،وكان أمره تفريطا وضياعا.

فالواجب على الحكومة الإسلامية أن تتتره عن الطمع بما في أيدي الكافرين من زينـة الحيـاة الدنيا،والتطلع إليها،وأن لا تطيع الكافرين الـذين شـغلوا بكفـرهم عـن الإيمـان،واتبعوا أهواءهم،وأصبح التفريط والضياع والسفه هو السمة التي تتسم بها سياساتهم وأحوالهم.

وعلى الحكومة الإسلامية أن تتوكل على الله تعالى في طلب الرزق وفي أمورها كلها،مع بـذل ما في الطوق لتنمية اقتصاد الدولة،والاستفادة من طاقاتها ومواردها لتحقيق الاكتفاء الذاتي في جميع المجالات الصناعية والزراعية وغيرها،وقد قال تعالى {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)

[٢٦٠٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥١٦)

[٢٦٠٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٦٩،بترقيم الشاملة آليا)

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّـــهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } [الطلاق:٢،٣]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمنينَ أَنَّهُ مَنِ اتَّقَى مِنْهُمُ اللهَ بِمُراعاةِ ما فُرِضَ عَليه فِي أَمْرِ الْمُطلَّقَـــاتِ والمُعْتَدَّاتِ،جَعَلَ لَهُ مَخْرَجاً مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ مِنَ الغَمِّ،وَيُفَرِّجُ عَنْهُ ما يَعْتَرِيـــهِ مِـــنَ الهَـــمِّ والكَرْبِ.

وَمَنِ اتَّقَى اللهَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخرَجاً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ،وَلاَ يَخْطُرُ لَهُ عَلَـــى بالٍ،وَمَنْ يَكل أَمْرَهُ إِلَى اللهِ،وَيُفوّضْهُ إِلَيه كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ وَأَغَمَّهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخرَته،وَاللهُ مُنْفذُ أَمْرِهِ وَأَحْكَامِه فِي خَلْقِه وَقَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيءٍ مِقْدَاراً وَوَقْتاً،فَلاَ تَحْزَنْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُ إِذَا فَاتَكَ شَيءٌ مِمّا كُنْتَ تَرْجُو وَتُؤمَلُ،فَالأُمُورُ مُقَدَّرَةٌ بِمَقَادِيرَ خَاصَّةٍ،{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنـــدَهُ بِمِقْـــدَارٍ}[2608].

وعَنْ أَبِي تَمِيمٍ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" لَوْ أَنَّكُمْ تَـــوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ،لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛تَغْدُو خِمَاصًا،وَتَرُوحُ بِطَانًا "[2609]

[2608] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

[2609] - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٤٣٨)(٣٧٠) صحيح

" لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ ") وَفِي رِوَايَةِ الْجَامِعِ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائَيْنِ أَيْ:تَعْتَمِدُونَ (" عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِه ") أَيْ:بِأَنْ تَعْلَمُوا يَقِينًا أَنْ لَا فَاعِلَ فِي الْوُجُودِ مَوْجُودٌ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مِنْ خَلْقٍ وَرِزْقٍ،وَعَطَاءٍ وَمَنْعٍ،وَضُرٍّ وَنَفْعٍ،وَفَقْرٍ وَغِنًى،وَمَرَضٍ وَصِحَّةٍ،وَمَوْتٍ وَحَيَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْمَوْجُودِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى،ثُمَّ يُسْتَعْمَلُ فِي الطَّلَبِ عَلَى الْوَجْهِ الْجَمِيلِ،وَيَشْهَدُ بِذَلِكَ تَشْبِيهُهُ بِالطَّيْرِ،فَإِنَّهَا تَغْدُو خِمَاصًا،ثُمَّ تَسْرَحُ فِي طَلَبِ الْقُوتِ فَتَرُوحُ بِطَانًا (" لَرَزَقَكُمْ ") وَلَوْ تَرَكْتُمُ الْأَسْبَابَ فَإِنَّهُ يَرْزُقُ الْبُطَّالَ وَالْعُمَّالَ،وَقَدْ يَرْزُقُ الضَّعِيفَ بِحَيْثُ يَتَعَجَّبُ الْقَوِيُّ (" كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ "):بِصِيغَةِ الْفَاعِلِ (" تَغْدُو ") أَيْ:تَذْهَبُ أَوَّلَ النَّهَارِ (" خِمَاصًا "):بِكَسْرِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ،جَمْعُ خَمِيصٍ أَيْ:جِيَاعًا (" وَتَرُوحُ ") أَيْ:تَرْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ (بِطَانًا):بِكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ،جَمْعُ بَطِينٍ وَهُوَ عَظِيمُ الْبَطْنِ،وَالْمُرَادُ شِبَاعًا،وَفِي قَوْلِهِ:تَغْدُو إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ السَّعْيَ بِالْإِجْمَالِ لَا يُنَافِي الِاعْتِمَادَ عَلَى الْمَلِكِ الْمُتَعَالِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:{وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} [العنكبوت:٦٠] فَالْحَدِيثُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْكَسْبَ لَيْسَ بِرَازِقٍ،بَلِ الرَّازِقُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى،لَا لِلْمَنْعِ عَنِ الْكَسْبِ فَإِنَّ التَّوَكُّلَ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ فَلَا يُنَافِيهِ حَرَكَةُ الْجَوَارِحِ،مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَرْزُقُ أَيْضًا مِنْ غَيْرِ حَرَكَةٍ،بَلْ بِتَحْرِيكِ غَيْرِهِ إِلَيْهِ يَصِلُ رِزْقُ اللَّهِ بِبَرَكَتِهِ كَمَا يُسْتَفَادُ الْعُمُومُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود:٦] .

قَدْ حُكِيَ أَنَّ فَرْخَ الْغُرَابِ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْضَتِهِ يَكُونُ أَبْيَضَ،فَيَكْرَهُهُ الْغُرَابُ فَيَتْرُكُهُ وَيَذْهَبُ وَيَبْقَى الْفَرْخُ ضَائِعًا،فَيُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ الذُّبَابَ وَالنَّمْلَ،فَيَلْتَقِطُهُمَا إِلَى أَنْ يَكْبَرَ قَلِيلًا يَسْوَدَّ فَيَرْجِعَ إِلَيْهِ الْغُرَابُ،فَيَرَاهُ أَسْوَدَ فَيَضُمَّهُ إِلَى نَفْسِهِ فَيَتَعَهَّدَهُ،فَهَذَا يَصِلُ إِلَيْهِ رِزْقُهُ بِلَا سَعْيٍ،وَالْحِكَايَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَالرِّوَايَاتُ بِهِ شَهِيرَةٌ.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلَا تَظَالَمُوا،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ،فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ،إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ،فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ،يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ،إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ،فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ،يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا،فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ،يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي،فَتَنْفَعُونِي،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ،مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ،مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا،يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ،مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ،يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ،ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا،فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا،فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ،فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» قَالَ سَعِيدٌ:كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ،إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ،جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ." رواه مسلم[٢٦١٠]

وَمِنْ غَرَائِبِ مَا حُكِيَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لِعِزْرَائِيلَ:هَلْ رَحِمْتَ عَلَى أَحَدٍ عِنْدَ نَزْعِ الْأَرْوَاحِ؟ فَقَالَ:نَعَمْ يَا رَبِّ! حِينَ غَرِقَ أَهْلُ سَفِينَةٍ وَبَقِيَ بَعْضُ أَهْلِهِ عَلَى الْأَلْوَاحِ،وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بِوَلَدِهَا تُرْضِعُهُ فَوْقَ لَوْحٍ،فَأُمِرْتُ بِقَبْضِ رُوحِهَا فَرَحِمْتُ حِينَئِذٍ عَلَى وَلَدِهَا.قَالَ تَعَالَى:فَأَلْقَيْتُهُ عَلَى جَزِيرَةٍ وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ أَسَدًا تُرْضِعُهُ إِلَى أَنْ كَبِرَ قَلِيلًا،ثُمَّ قَيَّضْتُ لَهُ بَعْضًا مِنَ الْجِنِّ لِيُعَلِّمَهُ لِسَانَ الْإِنْسِ إِلَى أَنْ نَشَأَ نَشْأَةً كَامِلَةً،وَدَخَلَ فِي الْعِمَارَةِ،وَحَصَلَ لَهُ الْإِمَارَةُ،وَوَصَلَ إِلَى مَرْتَبَةِ السَّلْطَنَةِ،وَأَحَاطَ بِجَمِيعِ الْمَمْلَكَةِ فَادَّعَى الْأُلُوهِيَّةَ،وَنَسِيَ الْعُبُودِيَّةَ وَحُقُوقَ الرُّبُوبِيَّةِ،وَاسْمُهُ شَدَّادٌ،وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ،فَالرَّحِيمُ الَّذِي يَرْزُقُ أَعْدَاءَهُ كَيْفَ يَنْسَى أَحِبَّاءَهُ؟

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –:قَدْ يُظَنُّ أَنَّ مَعْنَى التَّوَكُّلِ تَرْكُ الْكَسْبِ بِالْبَدَنِ،وَتَرْكُ التَّدْبِيرِ بِالْقَلْبِ،وَالسُّقُوطُ عَلَى الْأَرْضِ كَالْخِرْقَةِ الْمُلْقَاةِ أَوْ كَلَحْمٍ عَلَى وَضَمٍ،وَهَذَا ظَنُّ الْجُهَّالِ فَإِنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فِي الشَّرْعِ،وَالشَّرْعُ قَدْ أَثْنَى عَلَى الْمُتَوَكِّلِ،فَكَيْفَ يُنَالُ مَقَامٌ مِنْ مَقَامَاتِ الدِّينِ بِمَحْظُورٍ مِنْ مَحْظُورَاتِ الدِّينِ؟ بَلْ نَكْشِفُ عَنِ الْحَقِّ فِيهِ،فَنَقُولُ:إِنَّمَا يَظْهَرُ تَأْثِيرُ التَّوَكُّلِ فِي حَرَكَةِ الْعَبْدِ وَسَعْيِهِ بِعَمَلِهِ إِلَى مَقَاصِدِهِ.وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ:اعْلَمْ أَنَّ التَّوَكُّلَ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ،وَأَمَّا الْحَرَكَةُ بِالظَّاهِرِ فَلَا تُنَافِي التَّوَكُّلَ بِالْقَلْبِ بَعْدَ مَا يَحِقُّ الْعَبْدُ أَنَّ الرِّزْقَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى،فَإِنْ تَعَسَّرَ شَيْءٌ فَبِتَقْدِيرِهِ،وَإِنْ تَيَسَّرَ شَيْءٌ فَبِتَيْسِيرِهِ."مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٢٠)

[٢٦١٠] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)٥٥ - (٢٥٧٧)

[ش (إلا كما ينقص المخيط) قال العلماء هذا تقريب إلى الإفهام ومعناه لا ينقص شيئا أصلا كما قال في الحديث الآخر لا يغيضها نفقة أي لا ينقصها نفقة لأن ما عند الله لا يدخله نقص وإنما يدخل النقص المحدود الفاني وعطاء الله تعالى من رحمته

(وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِيمَا يَــرْوِي) أَيْ:بِوَاسِــطَةٍ أَوْ بِغَيْرِهَا،يَقَظَــةً أَوْ مَنَامًا،بِاللَّفْظِ أَوِ الْمَعْنَى (عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ) أَيْ:تَكَاثَرَ خَيْرُهُ وَظَهَرَ فِــي هَــذَا الْخَيْــرِ بَعْــضُ أَثَرِهِ،(وَتَعَالَى) أَيْ:عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ فِي الرِّوَايَةِ وَغَيْرِهَا (أَنَّهُ) :ضُــبِطَ بِفَــتْحِ الْهَمْــزَةِ وَكَسْرِهَا،فَتَأَمَّلْ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا (قَالَ:" يَا عِبَادِي) :قَالَ الطِّيبِيُّ:الْخِطَابُ لِلثَّقَلَــيْنِ لِتَعَاقُــبِ التَّقْوَى وَالْفُجُورِ فِيهِمْ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُمَّ الْمَلَائِكَةَ فَيَكُونُ ذِكْرُهُمْ مُدْرَجًا فِي الْجِــنِّ لِشُــمُولِ الِاجْتِنَانِ لَهُمْ،وَتَوَجُّهُ هَذَا الْخِطَابِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى صُدُورِ الْفُجُورِ،وَلَا عَلَى إِمْكَانِهِ.اهــ.وَكَذَا الْجُوعُ وَالْعُرْيُ،لَكِنَّ الْأَوْلَى الْحَمْلُ عَلَى الْإِمْكَانِ الْعَقْلِيِّ،أَوْ يُحْمَلُ عَلَى الْخِطَابِ التَّغْلِيبِــيِّ («إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي») أَيْ:تَقَدَّسْتُ عَنْهُ وَتَعَالَيْتُ،فَهُوَ فِي حَقِّي كَالْمُحَرَّمِ فِي حَقِّ النَّاسِ،إِذْ لَا يُتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ ظُلْمٌ،سَوَاءٌ قُلْنَا:إِنَّ الظُّلْمَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَحِلِّهِ،أَوْ أَنَّهُ التَّعَدِّي فِي مِلْكِ الْغَيْرِ،وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي كُلِّ أَفْعَالِهِ مِنْ غَيْــرِ فَصْــلٍ،لِأَنَّ فِعْلَــهُ إِمَّــا عَــدْلٌ،وَإِمَّا فَضْلٌ.(وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا) :قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:أَيْ تَحْرِيمًا غَلِيظًا جِدًّا،فَهُوَ آكَدُ مِــنْ حُرْمَتِــهِ عَلَيْكُمْ،فَلِذَا عَدَلَ إِلَيْهِ.اهــ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْعُدُولَ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ الْمُشَارَكَةَ فِي مَعْنَى التَّحْرِيمِ السَّابِقِ،(فَلَا تَظَالَمُوا) :بِفَتْحِ التَّاءِ حُذِفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ تَخْفِيفًا أَيْ:لَا يَظْلِمْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا،فَإِنِّي أَنْتَقِمُ لِلْمَظْلُومِ مِنْ ظَالِمِهِ كَمَــا فِي الْحَدِيثِ:" «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ لَأَنْتَصِرَنَّ لِلْمَظْلُومِ وَلَــوْ بَعْــدَ حِــينٍ» ".وَقَــالَ تَعَالَى:{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَــارُ} [إبراهيم:٤٢] فَهُوَ يُمْهِلُ وَلَا يُهْمِلُ (يَا عِبَادِي) :كَرَّرَهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَخَامَتِهِ وَالِاعْتِنَاءِ بِشَأْنِهِ.قَالَهُ ابْنُ حَجَرٍ.وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ إِيمَاءٌ إِلَى مُقْتَضَى الْعُبُودِيَّةِ مِنَ الِافْتِقَارِ إِلَى مُرَاعَاةِ حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ (كُلُّكُــمْ ضَالٌّ) أَيْ:عَنْ كُلِّ كَمَالٍ وَسَعَادَةٍ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَوِيَّةٍ (إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ) :قِيلَ:الْمُرَادُ بِهِ وَصْفُهُمْ بِمَــا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ - ﷺ - لَا أَنَّهُمْ خُلِقُوا فِي الضَّلَالَةِ،وَالْأَظْهَرُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُمْ لَوْ تُرِكُــوا بِمَا فِي طِبَاعِهِمْ لَضَلُّوا،وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -:" «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِــي

وكرمه وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص فضرب المثل بالمخيط في البحر لأنه غاية ما يضرب به المثل في القلة والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه فإن البحر من أعظم المرئيات عيانا وأكبرها والإبرة من أصغر الموجودات مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء]

ظُلْمَة ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ» "،وَهُوَ لَا يُنَافِي قَوْلَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -:" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ " فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالْفِطْرَةِ التَّوْحِيدُ،وَالْمُرَادَ بِالضَّلَالَةِ جَهَالَةُ تَفْصِيلِ أَحْكَامِ الْإِيمَانِ وَحُدُودِ الْإِسْلَامِ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَوَجَدَكَ ضَالًّا} [الضحى:٧] وَقِيلَ:مَعْنَاهُ عَاشِقًا (فَاسْتَهْدُونِي) أَيِ:اطْلُبُوا الْهِدَايَةَ مِنِّي أَيَّ نَوْعٍ مِنْهَا (أَهْدِكُمْ) :إِذْ لَا هَادِيَ إِلَّا اللَّهُ،وَلَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا،وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الِامْتِنَانِ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ شَرَعَ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ تَكْمِيلًا لِلْمَرْتَبَتَيْنِ،مُقْتَصِرًا عَلَى الْأَمْرَيْنِ الْأَهَمَّيْنِ مِنْهَا،وَهُوَ الْأَكْلُ وَاللُّبْسُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْجَنَّةِ:{إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى - وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [طه:١١٨ - ١١٩] وَلَعَلَّ تَرْكَ الظَّمَأِ اكْتِفَاءٌ بِدَلَالَةِ الْمُقَابَلَةِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل:٨١] أَيْ:وَالْبَرْدَ،وَتَرْكُ الْمَأْوَى لِشُمُولِ الْكُسْوَةِ الَّتِي هِيَ السُّتْرَةُ لَهُ إِيمَاءٌ أَوْ إِشَارَةٌ (يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ) أَيْ:مُحْتَاجٌ إِلَى الطَّعَامِ (إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ) أَيْ:مَنْ أَطْعَمْتُهُ وَبَسَطْتُ عَلَيْهِ الرِّزْقَ وَأَغْنَيْتُهُ،فَلَا يَشْكُلُ أَنَّ الْإِطْعَامَ عَامٌّ لِلْجَمِيعِ،فَكَيْفَ يَسْتَثْنِي (فَاسْتَطْعِمُونِي) أَيِ:اطْلُبُوا الطَّعَامَ مِنْ جَنَابِي وَتَيْسِيرَ الْقُوتِ وَالْقُوَّةَ مِنْ بَابِي،(أُطْعِمْكُمْ.يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ) أَيْ:مُحْتَاجٌ إِلَى سَتْرِ عَوْرَتِهِ وَإِلَى التَّنَعُّمِ بِأَنْوَاعِ لِبَاسِهِ وَزِينَتِهِ (إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ،فَاسْتَكْسُونِي) أَيِ:اطْلُبُوا مِنِّي الْكُسْوَةَ (أَكْسُكُمْ) :بِضَمِّ السِّينِ أَيْ:أُيَسِّرْ لَكُمْ حَالَاتِكُمْ،وَأُزِيلُ عَنْكُمْ مَسَاوِئَ كَشْفِ سَوْآتِكُمْ.

قَالَ الطِّيبِيُّ،فَإِنْ قُلْتَ:مَا مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ:إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ وَكَسَوْتُهُ،إِذْ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَحْرُومًا مِنْهُمَا قُلْتُ:الْإِطْعَامُ وَالْكُسْوَةُ لَمَّا كَانَا مُعَبِّرَيْنِ عَنِ النَّفْعِ التَّامِّ وَالْبَسْطِ فِي الرِّزْقِ وَعَدَمُهُمَا عَنِ التَّقْتِيرِ وَالتَّضْيِيقِ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ} [الرعد:٢٦] سَهَّلَ التَّخَيُّلَ عَنِ الْجَوَابِ،فَظَهَرَ مِنْ هَذَا أَنْ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ إِثْبَاتِ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ فِي الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ نَفْيَ الشِّبَعِ وَالْكُسْوَةِ بِالْكُلِّيَّةِ،وَلَيْسَ فِي الْمُسْتَثْنَى إِثْبَاتُ الشِّبَعِ وَالْكُسْوَةِ مُطْلَقًا،بَلِ الْمُرَادُ بَسْطُهُمَا وَتَكْثِيرُهُمَا،وَيُوَضِّحُهُ الْحَدِيثُ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الْفَصْلِ الثَّانِي،أَنَّهُ وَضَعَ قَوْلَهُ:كُلُّكُمْ فُقَرَاءُ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُهُ فِي مَوْضِعِهِ.اهـ.وَهُوَ فِي غَايَةٍ مِنَ الْبَهَاءِ،وَهُوَ عَيْنُ مَا أَخَذَهُ ابْنُ حَجَرٍ عَنْهُ،ثُمَّ أَغْرَبَ وَقَالَ:وَهَذَا الَّذِي قَرَّرْتُهُ أَوْلَى مِمَّا سَلَكَهُ شَارِحٌ فَتَأَمَّلْهُ.

(يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ) :بِضَمِّ التَّاءِ وَكَسْرِ الطَّاءِ وَفَتْحِهِمَا،وَقِيلَ يَجُوزُ ضَمُّهُمَا تَخْفِيفًا بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ.فِي الْقَامُوسِ:خَطَأَ فِي ذَنْبِهِ وَأَخْطَأَ:سَلَكَ سَبِيلَ الْخَطَأِ عَامِدًا أَوْ غَيْرَهُ،أَوِ

الْخَاطِئُ مُتَعَمِّدُهُ،وَأَخْطَيْتُ لُغَةٌ أَوْ لُثْغَةٌ،هِيَ تَحَوُّلُ اللِّسَانِ مِنْ حَرْفٍ إِلَى حَرْفٍ،وَالْمَعْنَى تُذْنِبُونَ بِالْفِعْلِ،بِاعْتِبَارِ أَكْثَرِهِمْ،وَبِالْقُوَّةِ بِاعْتِبَارِ أَقَلِّهِمْ،وَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ:غَيْرُ الْمَعْصُومِينَ إِذْ لَيْسُوا مُرَادِينَ بِهَذَا فَهُوَ خَطَأٌ ظَاهِرٌ لِعُمُومِ عِبَادِي الشَّامِلِ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ فِي السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ،نَعَمْ حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ،وَاسْتِغْفَارُهُمْ غَيْرُ اسْتِغْفَارِ الْمُذْنِبِينَ.(بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أَيْ:فِي هَذَيْنِ الزَّمَانَيْنِ،وَأَمَّا تَخْصِيصُ النَّهَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام:٦٠] لِغَلَبَةِ الذَّنْبِ فِيهِ.(وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) أَيْ:بِالتَّوْبَةِ أَوْ مَا عَدَا الشِّرْكَ إِنْ شَاءَ جَمْعًا بَيْنَ آيَتِي الزُّمَرِ وَالنِّسَاءِ،أَوْ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالْأَذْكَارِ وَنَحْوِهِمَا.(فَاسْتَغْفِرُونِي) أَيِ:اطْلُبُوا الْمَغْفِرَةَ مِنِّي (أَغْفِرْ لَكُمْ.يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي) :بِفَتْحِ الضَّادِ وَضَمِّهِ (فَتَضُرُّونِي،وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي) :حَذْفُ نُونِ الْإِعْرَابِ مِنْهُمَا فِي نَصْبِهِمَا عَلَى جَوَابِ النَّفْيِ،أَيْ:لَا يَصِحُّ مِنْكُمْ ضُرِّي وَلَا نَفْعِي،فَإِنَّكُمْ لَوِ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى عِبَادَتِي أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مَا نَفَعْتُمُونِي فِي مُلْكِي،وَلَوِ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى عِصْيَانِي أَقْصَى مَا يُمْكِنُ لَمْ تَضُرُّونِي،بَلْ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا،وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ:(يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ) أَيْ:مِنَ الْمَوْجُودِينَ (وَآخِرَكُمْ) :مِمَّنْ سَيُوجَدُ،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَيْ:مِنَ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ،وَالْمُرَادُ جَمِيعُكُمْ (وَإِنْسَكُمْ،وَجِنَّكُمْ) :تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ لِلتَّأْكِيدِ،أَوْ تَفْصِيلٌ وَتَبْيِينٌ (كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ) أَيْ:لَوْ كُنْتُمْ عَلَى غَايَةِ التَّقْوَى بِأَنْ تَكُونُوا جَمِيعًا عَلَى تَقْوَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ.

وَقَالَ الْقَاضِي:أَيْ:عَلَى تَقْوَى أَتْقَى أَحْوَالِ قَلْبِ رَجُلٍ،أَيْ:كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ التَّقْدِيرَيْنِ لِيَسْتَقِيمَ أَنْ يَقَعَ أَتْقَى خَبَرًا لِكَانَ،ثُمَّ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنَّ كُلَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ هُوَ أَتْقَى النَّاسِ،بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْجَمْعِ بِمَنْزِلَتِهِ لِأَنَّ هَذَا أَبْلَغُ كَقَوْلِكَ:رَكِبُوا فَرَسَهُمْ،وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} [البقرة:٧] فِي وَجْهِ إِضَافَةِ أَفْعَلَ إِلَى نَكِرَةٍ مُفْرَدَةٍ تَدُلُّ أَنَّكَ لَوْ تَقَصَّيْتَ قَلْبَ رَجُلٍ مِنْ كُلِّ الْخَلَائِقِ لَمْ تَجِدْ أَتْقَى قَلْبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ.اهـ.

وَلِهَذَا فُسِّرَ بِقَلْبِ نَبِيِّنَا - ﷺ - وَقَلْبُ الْأَشْقَى بِقَلْبِ إِبْلِيسَ.(مَا زَادَ ذَلِكَ) أَيْ:مَا ذُكِرَ (فِي مُلْكِي شَيْئًا) :إِمَّا مَفْعُولٌ بِهِ أَوْ مَصْدَرٌ،وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى (لَنْ يَبْلُغُوا) فَفِي (فَتَنْفَعُونِي) نَشْرٌ

مُشَوَّشٌ اعْتِمَادًا عَلَى فَهْمِ السَّامِعِ،وَلِمُقَارَبَةِ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْمُتَوَسِّطِينَ وَيُسَمَّى تَرَقِّيًا وَتَدَلِّيًا وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ} [آل عمران:١٠٦] الْآيَةَ.(يَا عِبَادِي،لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ) أَيْ:فُجُورِ أَفْجَرِ،أَوْ عَلَى أَفْجَرِ أَحْوَالِهِمْ (قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ،مَا نَقَصَ) :بِالتَّخْفِيفِ (ذَلِكَ) أَيْ:مَا ذُكِرَ (مِنْ مُلْكِي شَيْئًا) :قَالَ الطِّيبِيُّ:يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ.إِنْ قُلْنَا:إِنَّ (نَقَصَ) مُتَعَدٍّ،وَمَفْعُولًا مُطْلَقًا إِنْ قُلْنَا:إِنَّهُ لَازِمٌ أَيْ نَقَصَ نُقْصَانًا قَلِيلًا،وَالتَّنْكِيرُ فِيهِ لِلتَّحْقِيرِ،بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآتِي بَدَلَهُ:(جَنَاحَ بَعُوضَةٍ) وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ:لَنْ يَبْلُغُوا ضُرِّي فَيَضُرُّونِي،وَأَغْرَبَ ابْنُ حَجَرٍ بِقَوْلِهِ:(نَقَصَ) مُتَعَدٍّ إِلَى مَفْعُولَيْنِ فِي الْأَفْصَحِ،وَ (شيئًا) مَفْعُولُهُ الثَّانِي نَحْوُ:لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا.اهـ.وَوَجْهُ غَرَابَتِهِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ مَفْعُولٌ آخَرُ حَتَّى يَكُونَ (شَيْئًا) مَفْعُولَهُ الثَّانِي،وَلَعَلَّهُ تَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ وَهُوَ خَطَأٌ لِفَسَادِ الْمَعْنَى،وَالصَّوَابُ أَنَّهُ فَاعِلُ نَقَصَ،فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَتَعَيَّنَ مَا قَالَهُ الطِّيبِيُّ،مَعَ أَنَّ اسْتِدْلَالَهُ بِالْآيَةِ غَيْرُ صَحِيحٍ،لِأَنَّ (شَيْئًا) فِيهَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ أَيْ:شَيْئًا مِنَ النَّقْصِ،وَيُحْتَمَلُ أَنَّ نَصْبَهُ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ أَيْ:شَيْئًا مِنْ شُرُوطِ الْعَهْدِ،وَحِينَئِذٍ يُحْتَمَلُ كَوْنُ (يَنْقُصُوكُمْ) مِنْ بَابِ الْحَذْفِ وَالْإِيصَالِ،أَيْ:لَمْ يَنْقُصُوا مِنْكُمْ أَيْ مِنْ عُهُودِكُمْ شَيْئًا.قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ:الْجُمْهُورُ بِالصَّادِ،وَقُرِئَ بِالضَّادِ أَيْ:عُهُودُكُمْ فَحَذَفَ الْمُضَافَ وَ (شَيْئًا) فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ (يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ،وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا) أَيْ:وَقَفُوا أَوِ اسْتَمَرُّوا (فِي صَعِيدٍ) أَيْ:مَقَامٍ (وَاحِدٍ) :قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:الصَّعِيدُ يُطْلَقُ عَلَى التُّرَابِ وَعَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا.قُلْتُ:فَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ أَيْضًا مُطَابَقَةً لِمَا بَيْنَهُمَا،لِأَنَّ بَعْضَهُمَا يُفَسِّرُ بَعْضًا (فَسَأَلُونِي) أَيْ:كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ.قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:قَيَّدَ السُّؤَالَ بِالِاجْتِمَاعِ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ،لِأَنَّ تَزَاحُمَ السُّؤَالِ وَازْدِحَامَهُمْ مِمَّا يُدْهِشُ الْمَسْئُولَ وَيُهِمُّ وَيَعْسُرُ عَلَيْهِ إِنْجَاحُ مَآرِبِهِمْ وَإِسْعَافُ مَطَالِبِهِمْ،(فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ) أَيْ:فِي آنٍ وَاحِدٍ،وَفِي مَكَانٍ وَاحِدٍ (مَا نَقَصَ ذَلِكَ) أَيِ:الْإِعْطَاءُ (مِمَّا عِنْدِي) :قَالَ تَعَالَى:{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} [الحجر:٢١] (إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ) أَيْ:كَالنَّقْصِ أَوِ الشَّيْءِ الَّذِي يَنْقُصُهُ (الْمِخْيَطُ) :بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْخَاءِ أَيِ:الْإِبْرَةُ (إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ) :بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِلْإِدْخَالِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:لَمَّا لَمْ يَكُنْ مَا يَنْقُصُهُ الْمِخْيَطُ مَحْسُوسًا

وَلَا مُعْتَدًّا بِهِ عِنْدَ الْعَقْلِ،بَلْ كَانَ فِي حُكْمِ الْعَدَمِ كَانَ أَقْرَبَ الْمَحْسُوسَاتِ وَأَشْبَهَهَا بِإِعْطَاءِ حَوَائِجِ الْخَلْقِ كَافَّةً،فَإِنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِمَّا عِنْدَهُ شَيْئًا.وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَوْ يُقَالُ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ،يَعْنِي لَوْ فُرِضَ النَّقْصُ فِي مُلْكِ اللَّهِ لَكَانَ بِهَذَا الْمِقْدَارِ (يَا عِبَادِي،إِنَّمَا هِيَ) أَيِ:الْقِصَّةُ (أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا) أَيْ:أَحْفَظُهَا وَأَكْتُبُهَا (عَلَيْكُمْ) :كَذَا فِي الْأُصُولِ الْمُعْتَمَدَةِ بِلَفْظِ:عَلَيْكُمْ،وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْمَقَامِ،وَوَقَعَ فِي أَصْلِ ابْنِ حَجَرٍ:لَكُمْ.وَقَالَ وَفِي نُسْخَةٍ:عَلَيْكُمْ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ جَزَاءُ أَعْمَالِكُمْ،تَفْسِيرٌ لِلضَّمِيرِ الْمُبْهَمِ،وَقِيلَ:هُوَ رَاجِعٌ إِلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ:عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ،وَعَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ،وَهُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ وَالطَّالِحَةُ،أَيْ:لَيْسَ نَفْعُ أَعْمَالِكُمْ رَاجِعًا إِلَيَّ بَلْ إِلَيْكُمْ (ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا) :التَّوْفِيَةُ إِعْطَاءُ حَقٍّ وَاحِدٍ عَلَى التَّمَامِ أَيْ:أُعْطِيكُمْ جَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ وَافِيًا تَامًّا،إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.(فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا) أَيْ:تَوْفِيقَ خَيْرٍ مِنْ رَبِّهِ وَعَمَلَ خَيْرٍ مِنْ نَفْسِهِ (فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ) أَيْ:عَلَى تَوْفِيقِهِ إِيَّاهُ لِلْخَيْرِ لِأَنَّهُ الْهَادِي (وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ) أَيْ:شَرًّا أَوْ أَعَمَّ مِنْهُ (فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) :لِأَنَّهُ صَدَرَ مِنْ نَفْسِهِ،أَوْ لِأَنَّهُ بَاقٍ عَلَى ضَلَالِهِ الَّذِي أُشِيرَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ:كُلُّكُمْ ضَالٌّ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:هَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْخَيْرَ مِنَ اللَّهِ،وَالشَّرَّ مِنَ النَّفْسِ.وَهَذَا غَرِيبٌ وَعَجِيبٌ مِنْهُ إِذْ تَقَرَّرَ فِي الْمُعْتَقَدِ،وَتَحَرَّرَ فِي الْمُعْتَمَدِ،أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ مِنَ اللَّهِ خَلْقًا،وَمِنَ الْعَبْدِ كَسْبًا،خِلَافًا لِلْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعَةِ،نَعَمْ يُنْسَبُ الشَّرُّ إِلَى النَّفْسِ أَدَبًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى،كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ:{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء:٨٠] وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ – ﷺ –:" «الْخَيْرُ بِيَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ".وَكَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ تَعْظِيمًا.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)[٢٦١١].

التَّوْفِيقُ بَيْنَ كَسْبِ الرِّزْقِ وَبَيْنَ التَّوَكُّلِ :

جَاءَ فِي الْمَبْسُوطِ :الْمَذْهَبُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الْكَسْبَ بِقَدْرِ مَا لاَ بُدَّ مِنْهُ فَرِيضَةٌ .

وَتَقْصِيرُ الْإِنْسَانِ عَنْ طَلَبِ كِفَايَتِهِ – كَمَا قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ – قَدْ يَكُونُ عَلَى ثَلاَثَةِ أَوْجُهٍ :فَيَكُونُ تَارَةً كَسَلاً،وَتَارَةً تَوَكُّلاً،وَتَارَةً زُهْدًا وَتَقَنُّعًا .فَإِنْ كَانَ تَقْصِيرُهُ لِكَسَلٍ فَقَدْ حُرِمَ ثَرْوَةَ النَّشَاطِ

[٢٦١١] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦١١)

وَمَرَحَ الاغْتِبَاطِ،فَلَنْ يُعْدَمَ أَنْ يَكُونَ كَلًّا قَصِيًّا أَوْ ضَائِعًا شَقِيًّا .وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرُهُ لِتَوَكُّلٍ فَذَلِكَ عَجْزٌ قَدْ أَعْذَرَ بِهِ نَفْسَهُ،وَتَرْكُ حَزْمٍ قَدْ غَيَّرَ اسْمَهُ ؛لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالتَّوَكُّلِ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْحِيَلِ وَالتَّسْلِيمِ إِلَى الْقَضَاءِ بَعْدَ الإِْعْذَارِ،[2612] فعَنْ أَبِي قِلَابَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُرَافِقُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ رُفَقَاءَ،فَجَاءَتْ رُفْقَةٌ يَهْرِفُونَ بِرَجُلٍ يَقُولُونَ:مَا رَأَيْنَا مِثْلَ فُلَانٍ،إِنْ نَزَلْنَا فَصَلَاةٌ،وَإِنْ رَكِبْنَا فَقِرَاءَةٌ،وَلَا يُفْطِرُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ كَانَ يَرْحَلُ لَهُ؟ وَمَنْ كَانَ يَعْمَلُ لَهُ؟» وَذَكَرَ سُفْيَانُ أَشْيَاءَ فَقَالُوا:نَحْنُ،فَقَالَ:«كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ»[2613] .



[2612] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٤/ ٢٣٧) والكسب ص ٤٤،والمبسوط ٣٠ / ٢٥٠وأدب الدنيا والدين للماوردي ص٣٤٤ - ٣٤٥ ط .دار ابن كثير .

[2613] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٨٠)(٢٩١٩) صحيح غيره =يُهْرَفُونَ:أي يمدحونه ويطنبون في الثناء عليه .

المبحث الخامس والعشرون

الأوامر والأنظمة

الأوامر والتعليمات والتوجيهات من الأمراء والمسؤولين إلى من تحت إمرقم أو مسؤوليتهم ضرورة،لابد منها لقيام الدولة وسياستها،وضبط أعمالها،وتدبير شؤونها،لكي لا يحصل الخلل والفوضى والارتجال في أعمال الحكومة وفي إدارة شؤونها،وقد قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبِنَاءِ فِي زَمَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ عُمَرُ:«يَا مَعْشَرَ الْعُرَيْبِ،الْأَرْضَ الْأَرْضَ،إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ،وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ،وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ،فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفِقْهِ،كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ،وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ،كَانَ هَلَاكًا لَهُ وَلَهُمْ» رواه الدارمي[2614] .

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ قَالَ:" تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ الْأَرْضَ الْأَرْضَ إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ،أَلَا فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى فِقْهٍ كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ كَانَ ذَلِكَ هَلَاكًا لَهُ وَلِمَنِ اتَّبَعَهُ "[2615]

وفي زماننا هذا الذي تشعبت فيه وتوسعت سبل العيش وأساليب التعامل وشؤون الحياة،وتوسعت معها أعمال الحكومة،وتنوعت إداراها ووزاراها،تحتاج الحكومة إلى كتابة الأوامر والأنظمة حتى تدار أعمال الحكومة بانتظام وإتقان.

والواجب أن تكون الأوامر والأنظمة مستنبطة من الشريعة الإسلامية،وتحقق المصالح التي تقتضيها مقاصد الإسلام وقواعده العامة،ولايجوز أن يستمد شيء منها من الطواغيت

[2614] - سنن الدارمي (١/ ٣١٥)(٢٥٧) فيه انقطاع

[2615] - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٦٤)(٣٢٦) فيه انقطاع

كالقوانين الوضعية وغيرها[٢٦١٦]،فإن هذا من التحاكم إلى الطاغوت والشرك بالله تعالى،كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)} [النساء: ٦٠،٦١].

ويتولى كتابة أنظمة الحكومة الإسلامية من جمع بين العلم الشرعي،والاختصاص بالعمل الذي يكتب فيه،فإذا لم يتوفر الذين يجمعون بين العلم الشرعي والاختصاص،ففي هذه الحالة يتولى أهل العلم الشرعي كتابة الأنظمة،ويستعينون عند الحاجة بأهل الاختصاص لمعرفة تفصيل ما يكتب عنه،دون أن يشارك المختصون الذين ليسوا من علماء الشريعة في كتابة الأوامر والأنظمة.

والواجب في كتابة أنظمة الدولة وكتابة التعليمات والأوامر تجنب محاكاة أساليب الكفار في كتابة قوانينهم،وتجنب التشبه بهم في صياغة الألفاظ والمصطلحات أو في التقسيمات والتفريعات،فإن الدولة الإسلامية تتميز بالصبغة الإسلامية في سياستها الداخلية والخارجية وعلاقتها الدولية،وفيما يصدر عنها من عهود أوأنظمة وأوامر وتعليمات،فلا يشوبها ويخالط نورها شيء من ظلمات الكفار،وما أوحته إليهم شياطينهم من قوانين وأنظمة ومصطلحات،وقد قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام: ١٢١].

وفى قوله سبحانه: «وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ» تحذير للمؤمنين،مما يراودهم عليه أهل الضلال،ويجادلونهم به فى حلّ هذا وحرمة هذا،فذلك مما ألقى به إليهم الشياطين..أما الحلال وأما الحرام فهما ما بيّنه الله،وليس لأحد أن يحل أو يحرم غير ما أحل الله وحرّم الله.[٢٦١٧]

[٢٦١٦] – قلت:لا يمنع الإسلام الاستفادة من التجارب البشرية فيما لا يخالف نصا من نصوص الإسلام المحكمة،وإذا لم يكن في المسألة صريح صحيح،فلا بأس من الاستفادة مما عند الآخرين كما استفاد المسلمون من قبل كتدوين الدواوين وغيرها ....

[٢٦١٧] – التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٣٠٤)

إن المشركين –حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتةَ،وتحليله للمذكاة،وكانوا يستحلون أكل الميتة– قالوا –معاندة لله ورسوله،ومجادلة بغير حجة ولا برهان– أتأكلون ما قتلتم،ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك:الميتة.

وهذا رأي فاسد،لا يستند على حجة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعا لها لفسدت السماوات والأرض،ومن فيهن.

فتبا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه،الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة.ولا يستغرب هذا منهم،فإن هذه الآراء وأشباهها،صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين،الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم،ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

{وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} في شركهم وتحليلهم الحرام،وتحريمهم الحلال {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله،ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين،فلذلك كان طريقكم،طريقهم.ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف،التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم،لا تدل –بمجردها على أنها حق،ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.[٢٦١٨]

وقال تعالى:{ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام:١٣٧]

وَكَمَا زَيَّنَت الشَّيَاطِينُ لِهَؤُلاَءِ أَنْ يَجْعَلُوا للهِ نَصِيباً مِمَّا خَلَقَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ،وَلِلأَوْثَانِ نَصِيباً آخرَ،كَذَلِكَ زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ،خَشْيَةَ الفَقْرِ وَالإِمْلاَقِ،وَوَأْدَ البَنَاتِ خَشْيَةَ العَارِ (وَالشُّرَكَاءُ،هُنَا،هُمُ الشَّيَاطِينُ) .وَقَدْ زَيَّنَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ،لِيُهْلِكُوهُمْ بِالإِغْوَاءِ،وَيُفْسِدُوا عَلَيْهِمْ فِطْرَتَهُمْ،فَتَنْقَلِبَ عَوَاطِفَ وِدِّ الوَالِدَينِ،مِنْ رَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ،إِلَى قَسْوَةٍ وَوَحْشِيَّةٍ،فَيَنْحَرَ الوَالِدُ وَلَدَهُ،وَيَدْفُنَ الأَبُّ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ.وَقَدْ لَبَسَت الشَّيَاطِينُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَدَّعُونَهُ مِنَ التَّمَسُّك بِدِينِ أَبِيهِمْ إِسْمَاعِيلَ،وَجَدِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ،عَلَيهِمَا السَّلاَمُ.وَقَدْ اخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَقَالِيدِ الشِّرْكِ،حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ مَا هُوَ الأَصْلُ،وَمَا هُوَ المُبْتَدَعُ فِيهِ.وَلُوَ شَاءَ اللهُ أَلاَّ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مَا فَعَلُوهُ،وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ وَحِكْمَتَهُ قَضَتَا بِجَعْلِهِمْ مُسْتَعِدِينَ لِلتَّأَثُّرِ بِكُلِّ مَا يَرِدُ عَلَى

[٢٦١٨] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٧١)

أَنْفُسِهِمْ مِنَ الأَفْكَارِ وَالآرَاءِ،وَاخْتِيَارِ مَا يَتَرَجَّحُ لَدَيْهِمْ.فَذَرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَمَا يَتَقَوَّلُونَ وَمَا يَفْتَرُونَ وَيَبْتَدِعُونَ.[٢٦١٩]

والآيتان وغيرهما من الآيات تدل على أن مصدر قوانينهم وأنظمتهم وتشريعاتهم هو وحي الشياطين وتزيينهم.

قلت :ما ذهب إليه المؤلف رحمه الله فيه نظر كبير،فليس هناك من دليل شرعي معتبر يمنع من تقنين القوانين في دولة الإسلام،على نمط الدول الأخرى،بل الصواب استحباب ذلك إن لم نقل بوجوبه

ويكون على الشكل التالي :

ينص على ما أجمع عليه أهل العلم أولا،وهو خط أحمر غير قابل للنقاش،وأما ما اختلفوا فيه من أحكام شرعية،فيؤخذ من حيث المبدأ برأي الجمهور (الأغلبية) من الفقهاء،وإذا تساوت الأدلة فما كان فيه مصلحة عامة معتبرة يؤخذ به وهكذا،ولكن يكون ذلك مستنبطاً من المذاهب الأربعة وأتباعهم والظاهرية والشوكاني ونحوهم ممن هم أهل للاقتداء والفتوى ....ويمكن أن يراعى الأيسر على الناس إذا لم يوجد فيه نص صحيح صريح،فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّهَا قَالَتْ:«مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا،مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا،فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ،وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ،فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا»[٢٦٢٠]

[٢٦١٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٢٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٦٢٠] - صحيح البخاري (٤/ ١٨٩)(٣٥٦٠) وصحيح مسلم (٤/ ١٨١٣)٧٧ - (٢٣٢٧)

[ش (أمرين) من أمور الدنيا ويمكن حمله على أمور الدنيا والدين.(إثما) أي ما يؤد الأيسر إلى معصية الله تعالى.(تنتهك حرمة الله) تتجاوز حدوده ويخالف أمره أو نهيه.(فينتقم لله بها) ينتصر لله تعالى بؤاخذة من ارتكبها بعقوبتها]

قَالَتْ:مَا خُيِّرَ) أَيْ:مَا جُعِلَ مُخَيَّرًا (رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ) أَيِ:اخْتَارَ كَمَا فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ (أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ) أَيِ:الْأَمْرُ الْأَيْسَرُ (إِثْمًا) أَيْ:ذَا إِثْمٍ.وَفِي رِوَايَةِ.التِّرْمِذِيِّ مَا لَمْ يَكُنْ مَأْثَمًا أَيْ إِثْمًا أَوْ مَوْضِعَ إِثْمٍ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ،أَوِ اسْمُ مَكَانٍ،وَإِلَى هُنَا انْتَهَتْ رِوَايَةُ التِّرْمِذِيِّ.(فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ)،أَيْ:وَكَانَ حِينَئِذٍ يَأْخُذُ أَرْشَدَهُمَا وَلَوْ أَعْسَرَهُمَا وَأَشَدَّهُمَا.قَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ:أُبْهِمَ فَاعِلُ خَيْرٍ لِيَكُونَ أَعَمَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ قِبَلِ الْمَخْلُوقِينَ،أَوْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى،لَكِنَّ التَّخْيِيرَ يُبَيِّنُ مَا فِيهِ إِثْمٌ وَيُبَيِّنُ مَا لَا إِثْمَ فِيهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ مُشْكِلٌ،لِأَنَّ التَّخْيِيرَ بِمَا يَكُونُ بَيْنَ جَائِزٍ إِلَّا إِذَا حَمَلْنَا عَلَى مَا يُفْضِي إِلَى الْإِثْمِ،فَذَلِكَ مُمْكِنٌ بِأَنْ يُخَيَّرَ بَيْنَ أَنْ يُفْتَحَ عَلَيْهِ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ مَا يَخْشَى مِنَ الِاشْتِغَالِ بِهِ أَنْ لَا يَتَفَرَّغَ

بل ينبغي تقنين القوانين الشرعية جنائية كانت أو مدنية لتكون جاهزة للتطبيـــق عنـــد أهـــل الاختصاص حتى لا يكون هناك لبس ولا غموض فيها،لكن يجب أخذها من مجموع المذاهب وليس من مذهب واحد ....وليس ذلك فيه ذلك تقليد للغرب أو للشرق،بل هذا من الحكمة التي أمرنا بأخذها من أي مكان جاءت،والتقليد المذموم هو الذي فيه مخالفة للشريعة مخالفـــة صريحة وما سوى ذلك ليس حراماً،ولا ممنوعاً ...وقد اقتبس المسلمون بعد الفتح الإســـلامي كثير من أمور الحياة من تجارب الأمم الأخرى إدارية كانت أو سياسية..."

قال المؤلف رحمه الله :"والأنظمة والأوامر والتعليمات في الدولة الإسلامية تتضـــمن أحكامـــا شرعية من وجوب وتحـــريم ونـــدب وكراهيـــة وإباحة،وأســـباب الأحكـــام وشـــروطها وموانعها،وتتضمن تنظيمات وترتيبات إدارية وأوامر إجرائية ونحوها مما يتعلق بسياسة الدولـــة وإدارة شؤونها بما تقتضية القواعد الشرعية العامة،ويحقق مقاصد الإسلام."

المباحات:

لا يجوز للولاة أن يحرموا على الناس ما أحل الله تعالى أو يحلوا لهم مـــا حـــرم الله تعالى،فـــإن التحريم والتحليل من خصائص الألوهية،فمن ادعاه لنفسه فقد جعلها طاغوتا وندا لله تعـــالى وقد قال تعالى:{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [التوبة:٣١].

لِلْعِبَادَةِ،وَبَيْنَ أَنْ لَا يُؤْتِيَه لَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا الْكَفَافَ،وَإِنْ كَانَ السَّعَةُ أَسْهَلَ فَالْإِثْمُ عَلَى هَذَا أَمْرٌ نِسْبِيٌّ لَا مَا يُرَادُ بِه الْخَطِيئَةُ لِثُبُوتِ الْعِصْمَةِ.(وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ) أَيْ:مَا غَاضَبَ أَحَدًا لِنَفْسِه) أَيْ:لِأَجْلِ حَظِّهَا (فِي شَيْءٍ) أَيْ:يَتَخَلَّقُ بِنَفْسِه)،أَيْ أَبَدًا (إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّه):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ يُرْتَكَبُ (فَيَنْتَقِمُ):بِالرَّفْعِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ أَيْ:فَيُعَاقِبُ حِينَئِذٍ (اللَّهُ) أَيْ:لَا لِغَرَضٍ آخَرَ (بِهِمْ) .أَيْ بِسَبَبِ تِلْكَ الْحُرْمَةِ ثُمَّ انْتِهَاكُ الْحُرْمَةِ تَنَاوُلُهَا بِمَا لَا يَحِلُّ.يُقَالُ:فُلَانٌ انْتَهَكَ مَحَارِمَ اللَّهِ أَيْ:فَعَلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِعْلَهُ عَلَيْه.

قَالَ الطِّيبِيُّ:اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ أَيْ:مَا عَاقَبَ أَحَدًا لِخَاصَّةِ نَفْسِه بِجِنَايَةٍ جَنَى عَلَيْه،بَلْ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا فَعَلَ شَيْئًا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ امْتِثَالًا لِقَوْلِه تَعَالَى:{وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّه} [النور:٢] .قَالَ الْعَسْقَلَانِيُّ:الْمَعْنَى مَا انْتَقَمَ لِحَاجَةِ نَفْسِه،فَلَا يُرَدُّ أَمْرُهُ - ﷺ- بِقَتْلِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَطَلٍ وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَنْتَهِكُونَ حُرُمَاتِ اللَّه.وَقِيلَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ السَّبِّ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الْكُفْرِ،وَقِيلَ:يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِالْمَالِ،وَأَمَّا الْعِرْضُ فَقَدِ اقْتَصَّ مِمَّنْ نَالَ مِنْهُ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْه) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧١٥)

اتَّخَذَ أَهْلُ الكِتَابِ،مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،كِبَارَ رِجَالِ دِينِهِمْ أَرْبَاباً وَمُشَرِّعِينَ،فَأَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ،وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلاَلَ،فَاتَّبَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ،وَهَذِهِ الْمُتَابَعَةُ هِيَ المَقْصُودَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً} ؛وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ للهِ وَلَداً عَبَدُوهُ مَعَ اللهِ،كَعُزَيْرٍ وَالْمَسِيحِ،لاَ إِلَهَ غَيْرُ اللهِ،تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنِ الشِّرْكِ وَالوَلَدْ وَالصَّاحِبَةِ،وَعَنِ النُّظَرَاءِ وَالأَعْوَانِ،وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ.وَهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِذَلِكَ،وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِأَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ.[٢٦٢١]

هو اتهام جديد لأهل الكتاب،وكشف عن وجه من وجوه الضلال الذي ركبوه،وهو أنهم انقادوا لأحبارهم ورهبانهم،وجعلوا لهم الكلمة فيهم،والعقل المدبّر لهم،فكلمة الأحبار والرهبان لهم،هى الكلمة التي لا معقّب عليها عندهم،حتى لكأنها كلمات الله عند المؤمنين بالله..

وقد تأول الأحبار والبرهبان كلمات الله،وأخرجوها عن مفهومها الذي لها،إلى المفهوم الذي يرونه..ومن هنا كان للأحبار والرهبان هذا السلطان المبسوط على أتباعهم،بحيث جعلوا إلى أيديهم أمر هؤلاء الأتباع،فيما هو من صميم العقيدة..فيغفرون لمن شاءوا من المذنبين،ويحرمون من شاءوا من هذا الغفران..وقد أدّى ذلك إلى أن أصبح الأحبار والرهبان آلهة يطلب رضاها،ويتقرب إليها بالقربات،حتى تنال منهم المغفرة والرضوان..

وهذا وضع شبه بالوضع الذي يقوم بين المؤمن وربّه..ومن هنا كان قوله تعالى:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» مصورا لهذه الحال القائمة بين عامة اليهود والنصارى وبين أحبارهم ورهبانهم،أدقّ تصوير وأتمّة..

والأحبار:جمع حبر،وهو عالم اليهود،ورجل الدين فيهم..والرهبان:جمع راهب،وهو عالم المسيحيين،وصاحب الكلمة فى معتقدهم وشريعتهم.

وأما قوله سبحانه:«وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» فهو معطوف على قوله سبحانه:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» أي واتخذوا المسيح ربّا من دون الله..وفى عطف المسيح بعد الفصل بقوله تعالى «أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» إشارة إلى أن المسيح فى ربوبيته عند أتباعه،يأخذ وضعا خاصا،غير الوضع الذي للأحبار عند اليهود،وللرهبان عند النصارى..فهؤلاء الأحبار

[٢٦٢١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

والرهبان ليسوا أربابا عند أتباعهم بصورة قاطعة،وإنما هم أشبه بالأرباب..أما المسيح فهو عند أتباعه- النصارى- ربّ بكل معنى الكلمة للفظة ربّ..

وقوله تعالى:«وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» ..الضمير فى «أمروا» يعود إلى هؤلاء المخاطبين من أهل الكتاب- من يهود ونصارى- كما أنه يشمل الأرباب الذين اتخذوهم،من الأحبار والرهبان،والمسيح ابن مريم..فهؤلاء وأولئك جميعا مطالبون بأن يعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو..فهذا هو الإيمان الذي لا يدخل إنسان فى عداد المؤمنين إلا به،وهو الإيمان الذي أمر الله سبحانه وتعالى به رسله،وجاءت به كتبه التي أنزلها عليهم..وقد تنزه الله تعالى عن الشرك الذي يدين به المشركون..«سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» [٢٦٢٢].

وقال تعالى:{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة:٣٧].

النَّسِيءُ لُغَةً هُوَ التَّأْخِيرُ،وَالنِّسِيءُ هُنَا يُقْصَدُ بِهِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ،إِذْ يُحِلُّونَ أَحَدَ الأَشْهُرِالحُرُمِ،فَيُقَاتِلُونَ فِيهِ،ثُمَّ يَتَّفِقُونَ عَلَى جَعْلِ أَحَدِ أَشْهُرِ الحِلِّ مُحَرَّماً مَكَانَهُ ذَلِكَ العَامَ،لِيَجْعَلُوا عِدَّةَ الشُهُورِ الحُرُمِ أَرْبَعَةً كَمَا أَمَرَ اللهُ.

وَيَذُمُّ اللهُ تَعَالَى المُشْرِكِينَ لِتَصَرُّفِهِمْ بِشَرْعِ اللهِ بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ،وَبِآرَائِهِم الفَاسِدَةِ،فَكَانُوا يَقُولُونَ:إِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ كَمَا أَمَرَ اللهُ،وَلاَ بَأْسَ عِنْدَهُمْ فِي تَأْخِيرِ التَّحْرِيمِ أَوْ تَقْدِيمِهِ،فَالُمهِمُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيهِمْ أَنْ تَكُونَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ أَرْبَعَةً فِي السَّنَةِ،لاَ تَخْصِيصَ أَشْهُرٍ بِعَيْنِهَا تَقَرَّرَتْ حُرْمَتُهَا،وَإِذْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فَقَد اسْتَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ،وَقَدْ حَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الُمضِلُّ عَمَلَهُمُ السَّيِّىءَ هَذا بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ البَاطِلَةِ،إِذِ اكْتَفَوْا بِالعَدَدِ،وَلَمْ يُدْرِكُوا حِكْمَةَ التَّخْصِيصِ.وَاللهُ تَعَالَى لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ إِلَى الحَقِّ وَالْهُدَى.[٢٦٢٣]

[٢٦٢٢] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٤٣)

[٢٦٢٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)} [الأنعام:١٤٣،١٤٤].

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى هُنَا جَهْلَ العَرَبِ،قَبْلَ الإِسْلاَمِ،فِيمَا كَانُوا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الأَنْعَامِ،وَجَعَلَوهَا أَجْزَاءً وَأَنْوَاعاً (بَحِيرةً وَسَائِبةً وَحَامِياً..) وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا ابْتَدَعُوهُ فِي الأَنْعَامِ وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ،فَيُبَيِّنُ اللهُ أَنَّهُ أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ،وَأَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً،ثُمَّ بَيَّنَ أَصْنَافَ الأَنْعَامِ فَقَالَ تَعَالَى:إِنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ،وَلاَ شَيْئاً مِنْ أَوْلاَدِهَا،بَلْ جَعَلَهَا كُلَّهَا مُسَخَّرَةً لِبَنِي آدَمَ،أَكْلاً وَرُكُوباً وَحَمُولَةً وَحَلْباً،وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الانْتِفَاعِ.

وَيَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ خَلَقَ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الأَنْعَامِ:مِنَ الضَّأْنِ (الغَنَمِ) زَوْجَيْنِ ذَكَراً وَأُنْثَى وَمِنَ المَاعِزِ زَوْجَيْنِ ذَكَراً أَوْ أُنْثَى،وَلَمْ يُحَرِّمْ مِنْهَا شَيْئاً لاَ الذُّكُورَ وَلاَ الإِنَاثَ،فَلِمَ تُحَرِّمُونَ أَنْتُمْ بَعْضاً،وَتُحِلُّونَ بَعْضاً؟ وَهَلْ يَشْتَمِلُ الرَّحِمُ عِنْدَ الحَمَلِ إِلاَّ عَلَى الذَّكَرِ وَالأُنْثَى؟ وَإِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ كُلَّهُ حَلاَلاً.فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ:أَخْبِرُونِي عَنْ يَقِينٍ (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ) كَيْفَ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمْ مَا زَعَمْتُمْ تَحْرِيمَهُ؟[٢٦٢٤]

وقال تعالى: { قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام: ١٥٠].

وَقُلْ لَهُمْ أَحْضِرُوا شُهَدَاءَكُمُ الذِينَ تَقُولُونَ إِنَّهُم يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الذي حَرَّمْتُمُوهُ أَنْتُمْ كَذِباً وَافْتِرَاءً عَلَى اللهِ،فَإِنْ حَضَرَ هَؤُلاَءِ الشُّهُودُ وَشَهِدُوا فَلاَ تُصَدِّقْهُمْ،وَلاَ تَقْبَلْ لَهُمْ شَهَادَةً،وَلاَ تُسَلِّمْ لَهُمْ بِالسُّكُوتِ عَلَى كَذِبِهِمْ،لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ بِالكَذِبِ وَالبَاطِلِ،وَلاَ تَتَّبِعْ

[٢٦٢٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٣٣،بترقيم الشاملة آليا)

أَهَوَاءَ الكَافِرِينَ الذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ،وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ،وَيُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ،وَيَجْعَلُونَ لَهُ مَنْ يُمَاثِلُهُ مِنَ المَعْبُودَاتِ البَاطِلَةِ،فِي جَلْبِ الخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ.[٢٦٢٥]

وقال تعالى:{فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) } [النحل:١١٤ - ١١٧].

فَكُلُوا يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ التي أَحَلَّهَا لَكُمْ،وَذَرُوا مَا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الخَبَائِثِ،وَاشْكُرُوا رَبَّكُمْ عَلَى نِعَمِهِ وَآلاَئِهِ،إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِهِ،وَلاَ تُشْرِكُونَ مَعَهُ فِي العِبَادَةِ أَحَداً،فَهُوَ المَعْبُودُ المُنْعِمُ.

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى مَا حَرَّمَ عَلَى المُؤْمِنِينَ مِنَ الطَّعَامِ مِمَّا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ،وَدُنْيَاهُمْ،مِنَ المَيْتَةِ وَلَحْمِ الخِنْزِيرِ وَالدَّمِ المَسْفُوحِ،وَمَا ذُبِحَ عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللهِ.فَمَنْ اضْطُرَّ إِلَى أَكْلِ شَيءٍ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ المُحَرَّمَةِ،فَأَكَلَ مِنْهَا،فِي حُدُودِ إِزَالَةِ الضَّرُورَةِ،لِيَقِيَ نَفْسَهُ الهَلاَكَ،وَدُونَ أَنْ يَكُونَ مُتَعَمِّداً العُدْوَانَ وَالبَغْيَ،وَتَجَاوُزَ مَا حَرَّمَ اللهُ،فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ ذَلِكَ،لأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَلاَ تَقُولُوا عَنْ شَيءٍ هَذَا حَرَامٌ،وَهَذا حَلاَلٌ،إِذَا لَمْ يَأْتِكُمْ حِلُّهُ وَتَحْرِيمُهُ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ،فَالَّذِي يُحَلِّلُ وَيُحَرِّمُ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ.

(وَيَدْخُلُ فِي هَذا ابْتِدَاعِ بِدْعَةٍ لَيْسَ لَهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ،أَوْ تَحْلِيلُ شَيءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ،أَوْ تَحْرِيمُ شَيءٍ مِمَّا أَحَلَّهُ اللهُ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِّ وَالهَوَى) .ثُمَّ يَتَوَعَّدُ اللهُ تَعَالَى الذينَ يَفْتَرُونَ الكَذِبَ عَلَى اللهِ،وَيَقُولُ عَنْهُمْ:إِنَّهُمْ لاَ يُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا،وَلاَ فِي الآخِرَةِ.

فَالمَنَافِعُ التي يَحْصُلُ عَلَيْهَا هؤُلاَءِ المُحَلِّلُونَ وَالمُحَرِّمُونَ مِنْ هَذا التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ الذي لاَ مُسْتَنَدَ شَرْعِيّاً لَهُمْ فِيهِ مِنْ شَرْعِ اللهِ،هِيَ تَافِهَةٌ حَقِيرَةٌ،لاَ يَعْتَدُّ بِهَا عَاقِلٌ،إِذَا عَلِمَ أَنَّهَا سَتَكُونُ

[٢٦٢٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٤٠،بترقيم الشاملة آليا)

عَظِيمَةُ الضَّرَرِ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ،وَسَتَجْعَلُهُ يَدْخُلُ نَارَ جَهَنَّمَ لِيَلْقَى فِيهَا العَذَابَ الأَلِيمَ الذِي وَعَدَهُ اللهُ بِهِ.[2626]

وهناك حالات أجازت الشريعة الإسلامية تدخل الحكومة فيها بالمنع من مباح أو الإلزام به لتحقيق مصلحة شرعية،فهو منع أو إلزام بحكم شرعي وليس بحسب أهواء الناس،وقد جاء في مذكرة النصيحة ذكر هذه الحالات " .

الحالة الأولى:أن يكون المباح مؤدياً إلى ضرر أو إلى حرام،فللدولة أو الإمام التدخل في هذه الحالة لمنع حصول الضرر والمحرم،وذلك نحو منع من كان مريضاً بالإيدز أو الجذام المعدي – عياذاً بالله– من الزواج لمنع نقل العدوى،ونحو منع من كف أو ضعف بصره من قيادة المركبات في الطرق للضر الحاصل.وهذه القاعدة ثابتة بأحاديث منع الضرر والإضرار[2627] وقاعدة منع مايوصل إلى حرام نحو المنع من سب آلهة المشركين إذا ظن أنهم يسبون الله عدواً بغير علم[2628]،ونحو منع الرسول عليه الصلاة والسلام في أول الأمر المسلمين من ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث لضرر المجاعة[2629]،ونحو فعل عثمان رضي الله عنه بالإلزام بالمصحف الإمام بلهجة قريش عند خشية المحرم من فرقة المسلمين وفتنتهم في الأمصار إذا لم يفعل ذلك[2630]،ونحو منع عمر رضي الله عنه بعض الصحابة من الخروج من المدينة للضرر الحاصل

[2626] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠١٥،بترقيم الشاملة آليا)

[2627] – فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:" إِنَّ مِنْ قَضَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَضَى أَنْ لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ " السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٢٥٨)(١١٨٧٧) صحيح لغيره

[2628] – قال تعالى:{ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام:١٠٨]

[2629] – فعَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،حَدَّثَتْهُ قَالَتْ:سَمِعْتُ عَائِشَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ:دَفَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ،حَضْرَةَ الْأَضَاحِيِّ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«ادَّخِرُوا لِثَلَاثٍ،وَتَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ»،قَالَتْ:فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،لَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَنْتَفِعُونَ مِنْ ضَحَايَاهُمْ،وَيَجْمِلُونَ مِنْهَا الْوَدَكَ،وَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا الْأَسْقِيَةَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَمَا ذَاكَ»،أَوْ كَمَا قَالَ:فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،نَهَيْتَ عَنْ إِمْسَاكِ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ،بَعْدَ ثَلَاثٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ،الَّتِي دَفَّتْ،فَكُلُوا،وَادَّخِرُوا،وَتَصَدَّقُوا»مستخرج أبي عوانة (٥/ ٧٩)(٧٨٥٩) صحيح

[2630] – عن أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ،قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَةَ،وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ العِرَاقِ،فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ فِي القِرَاءَةِ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ:يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ،أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ،قَبْلَ [ص:١٨٤] أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلاَفَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ:«أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ،ثُمَّ نَرُدُّهَا

بذهاب أهل الفقه والاجتهاد الذين يرجع إليهم في النوازل ومعضلات الأمـــور مـــن قاعـــدة الإسلام[2631].وموضوع الضرر أو المحرم هذا أمر يمكن إدراكه والتحقق من واقعه وليس أمـــراً مبهماً كالمصلحة العامة،ولهذا إذا تدخلت الدولة لمنع أمر مباح أصلاً بحجة الضرر أو حصـــول المحرم،فإن عليها إثبات الدليل على وجود الضرر أو الحرام حتى يكون عملها وفق الشـــرع في ذلك.

"قلت :ومن ذلك التسعير الجبري العادل عند فساد الذمم والغش،ومنع الاحتكار ونحو ذلـــك مما يضر بعامة الناس ."

الحالة الثانية:أن يكون أمر المباح متعلقاً بشؤون الدولة الخاصة بها كشؤون جيشها وموظفيها ونحوه فلها حينئذ الإلزام والمنع لمن يتعلق به ذلك من موظفيها وجنودها لتحقيق مقصد شرعي وذلك كإلزام موظفي الدولة بدوام مخصوص (ولباس مخصوص ونحو ذلك)...ومن هذا الباب كان عمر رضي الله عنه يقاسم عماله أموالهم ويشترط عليهم في ذلك،[2632] ومنع عماله مـــن وضع أبواب أو حجب مغلقة دون رعيتهم[2633] ...

الحالة الثالثة:تنظيم المرافق والأموال العامة،حيث ثبت بالسنة أن ما كان من مرافق المســـلمين يشتركون فيه نحو الماء والكلأ والنار[2634] والطرق العامة،وما كان من الأموال العامة كـــالفيء

إِلَيْك»،فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ،فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِت،وَعَبْدَ اللَّه بْنَ الزُّبَيْر،وَسَعيدَ بْنَ العَاص،وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارث بْنِ هشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي المَصَاحف "،وَقَالَ عُثْمَانُ للرَّهْط القُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَة:«إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابت فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بلسَان قُرَيْش،فَإِنَّمَا نَزَلَ بلسَانهمْ» فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي المَصَاحف،رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ،وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بمُصْحَفٍ ممَّا نَسَخُوا،وَأَمَرَ بمَا سوَاهُ منَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ،أَنْ يُحْرَقَ"صحيح البخاري (٦/ ١٨٣)(٤٩٨٧)

[2631] – تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي نعيم الأصبهاني (ص:٣٢٤)(١٢٧)

[2632] – نيل الأوطار (٥/ ٣١٨)

[2633] – عَنْ أَبِي مَرْيَمَ،أَنَّهُ مَرَّ بمُعَاوِيَةَ فَقَالَ:إِنِّي لَمْ آتكَ إِلَّا لَأُحَدِّثَكَ حَديثًا يُرَغِّبُ،سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَاحْتَجَبَ عَنْهُمْ حَجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ أَبْوَابَ رَحْمَته يَوْمَ الْقِيَامَة»الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٥/ ٣٣١)(٢٨٧٩) صحيح لغيره

[2634] – عَنْ رَجُلٍ،مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثًا أَسْمَعُهُ،يَقُولُ:" الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ:فِي الْكَلَإِ،وَالْمَاءِ،وَالنَّارِ " سنن أبي داود (٣/ ٢٧٨)(٣٤٧٧) صحيح

فإن تنظيمه متروك للدولة لتحقيق المقصد الشرعي بعدم اختصاص أحد بــه دون أحــد،ولها عندئذ الإلزام أو المنع من بعض أفراد المباح على هذا الوجه الشرعي.حيــث أن الــنبي عليــه الصلاة والسلام حمى النقيع[٢٦٣٥]،واسترجع إقطاع أبيض بن حمال لمنجم الملح لحاجــة النــاس إليه[٢٦٣٦]،ووزع أبوبكر رضي الله عنه أموال الفيء بالتساوي بين الناس،بينما وزعهــا عمــر

[ش - (المسلمون شركاء في ثلاث في الماء والكلأ والنار) ذهب قوم إلى ظاهر الحديث فقالوا إن هذه الأمور الثلاثة لا تملك ولا يصح بيعها مطلقا.والمشهور بين العلماء أن المراد بالكلأ الكلأ المباح الذي لا يختص بأحد.وبالماء ماء السماء والعيون والأنهار التي لامالك لها.وبالنار الشجر الذي يحتطبه الناس من المباح فيوقدونه.وقال الخطابي الكلأ هو الذي ينبت في موات الأرض يرعاه الناس.وليس لأحد أن يختص به.]

وعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا حِمًى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ» قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَتَأْوِيلُ الْحِمَى الْمَنْهِيِّ عَنْهُ فِيمَا نَرَى،وَاللَّهُ أَعْلَمُ،أَنْ تُحْمَى الْأَشْيَاءُ الَّتِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فِيهَا شُرَكَاءَ،وَهِيَ الْمَاءُ،وَالْكَلَأُ،وَالنَّارُ،وَقَدْ جَاءَتْ تَسْمِيَتُهَا فِي غَيْرِ حَدِيثٍ وَلَا اثْنَيْنِ" الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٧٢) صحيح

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ الْكَلَأُ» قَالَ سُفْيَانُ:وَثَلَاثٌ لَا يُمْنَعُهُنَّ:الْمَاءُ وَالْكَلَأُ وَالنَّارُ "المنتقى لابن الجارود (ص:١٥٣)(٥٩٦) صحيح

قَالَ الْقَاضِي:" لَمَّا كَانَتِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ أَنَّثَهَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَقَالَ فِي ثَلَاثٍ (فِي الْمَاءِ) بَدَلٌ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ وَالْمُرَادُ الْمِيَاهُ الَّتِي لَمْ تَحْدُثْ بِاسْتِنْبَاطِ أَحَدٍ وَسَعْيِهِ كَمَاءِ الْقِنِيِّ وَالْآبَارِ وَلَمْ يُحْرَزْ فِي إِنَاءٍ أَوْ بِرْكَةٍ أَوْ جَدْوَلٍ مَأْخُوذٍ مِنَ النَّهْرِ (وَالْكَلَأِ) مَا يَنْبُتُ فِي الْمَوَاتِ (وَالنَّارِ) يُرَادُ مِنْ الِاشْتِرَاكِ فِيهَا أَنَّهُ لَا يَمْنَعُ مِنَ الِاسْتِصْبَاحِ مِنْهَا وَالِاسْتِضَاءَةِ بِضَوْئِهَا لَكِنْ لِلْمُسْتَوْقِدِ أَنْ يَمْنَعَ أَخْذَ جَذْوَةٍ مِنْهَا لِأَنَّهُ يُنْقِصُهَا وَيُؤَدِّي إِلَى إِطْفَائِهَا،وَقِيلَ:الْمُرَادُ بِالنَّارِ الْحِجَارَةُ الَّتِي تُورِي النَّارَ لَا يَمْنَعُ أَخْذَ شَيْءٍ مِنْهَا إِذَا كَانَتْ فِي مَوَاتٍ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢٠٠٠)

[٢٦٣٥] - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ،قَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لاَ حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ» وَقَالَ:بَلَغَنَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ»،وَأَنَّ عُمَرَ «حَمَى السَّرَفَ وَالرَّبَذَةَ»صحيح البخاري (٣/ ١١٣)(٢٣٧٠)

[ش (حمى) هو موضع فيه الكلأ والعشب يحميه الإمام من الناس فلا يرعى فيه أحد ولا يقربه أحد والمعنى لا يحمي شيء من الأرض إلا ما يرصد لرعي خيل الجهاد وإبلها وإبل الزكاة وما في معنى هذا.(النقيع) عين قريبة من المدينة.(الشرف) موضع من أعمال المدينة.(الربذة) قرية بينها وبين المدينة ثلاث مراحل]

[٢٦٣٦] - عَنْ أَبْيَضَ بْنِ حَمَّالٍ،قَالَ:اسْتَقْطَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعْدِنَ الْمِلْحِ الَّذِي بِمَأْرِبَ فَأَقْطَعَنِيهِ،فَقِيلَ:إِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ الْعِدِّ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«فَلَا إِذًا»السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٣٢٧)(٥٧٣٥) صحيح

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يُحَدِّثُهُ الصَّعْبُ بْنُ جَثَّامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَحْمِيَ مَا كَانَ لِلَّهِ،مِثْلُ حِمَى النَّبِيِّ ﷺ وَمِثْلُ مَا حَمَى عُمَرُ،يَقُولُ:هَذَا كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْحِمَى لِلَّهِ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَإِلَى هَذَا انْتَهَى تَأْوِيلُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَنَا فِي اشْتِرَاكِ النَّاسِ فِي الْمَاءِ وَالْكَلَأِ،الَّذِي يَكُونُ عَامًّا،وَتَأْوِيلُ اسْتِثْنَائِهِ فِيمَا يَكُونُ خَاصًّا.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَأَمَّا قَوْلُهُ:لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ فَضْلُ الْكَلَأِ فَغَيْرُ ذَلِكَ،وَهُوَ عِنْدِي فِي الْأَرْضِ الَّتِي لَهَا رَبٌّ وَمَالِكٌ،وَيَكُونُ فِيهَا الْمَاءُ الْعِدُّ الَّذِي وَصَفْنَاهُ،وَالْكَلَأُ الَّذِي تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّفَ لَهَا رَبُّهَا لِذَلِكَ غَرْسًا وَلَا بَذْرًا،فَأَرَادَ أَنَّهُ لَيْسَ يَطِيبُ لِرَبِّهَا مِنْ هَذَا الْمَاءِ

رضي الله عنه بحسب الأسبقية في الإسلام[٢٦٣٧]،وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بجعل الطريق سبعة أذرع لتنظيم السير فيه[٢٦٣٨]،وقضى بحكمه في السيل بأن يُرسِلَ الأعلى على الأسفل[٢٦٣٩]،وحمى عمر رضي الله عنه الشرف والربذة[٢٦٤٠]..إلى غير ذلك من أمثلة تدل على

وَالْكَلَأَ وَإِنْ كَانَ مِلْكَ يَمينه إِلَّا قَدْرَ حَاجَته،لِشَفَته،وَمَاشيَته،وَسَقْيِ أَرْضه،ثُمَّ لَا يَحلُّ لَهُ أَنْ يَمْنَعَ مَا وَرَاءَ ذَلكَ.وَممَّا يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّهُ أَرَادَ بِهَذه الْمَقَالَة أَهْلَ الْمُلْك:ذكْرُهُ فَضْلَ الْمَاء وَالْكَلَأ،فَرَخَّصَ ﷺ في نَيْلِ مَا لَا غَنَاءَ لَهُ به عَنْهُ،ثُمَّ حَظَرَ عَلَيْه مَنْعَ مَا سوَى ذَلكَ،وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مَالكٍ لَهُ مَا كَانَ لذكْرِ الْفُضُول هَاهُنَا مَوْضعٌ،وَلَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ في قَليله وَكَثيره شَرْعًا سَوَاءً.وَعَلَى هَذَا مَذْهَبُ حَديث أَبْيَضَ بْنِ حَمَّال الَّذي ذَكَرْنَاهُ:أَنَّهُ سَأَلَهُ:مَا يُحْمَى منَ الْأَرَاك؟ فَقَالَ:مَا لَمْ تَنَلْهُ أَخْفَافُ الْإِبلِ.قَالَ أَبُو عُبَيْد:فَلَيْسَ لهَذَا وَجْهٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلكَ في أَرْضٍ يَمْلكُهَا،وَلَوْلَا الْملْكُ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَحْميَ شَيْئًا دُونَ النَّاس،مَا نَالَتْهُ الْإِبلُ أَوْ لَمْ تَنَلْهُ،فَلهَذَا كَرهَت الْعُلَمَاءُ ثَمَنَ الْكَلَأ وَالْمَاء" الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٧٨)

[٢٦٣٧] – وعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْد الله ، مَوْلَى غفرَةَ ، قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ، وَوُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، قَدمَ عَلَيْه مَالٌ منَ الْبَحْرَيْنِ ، فَقَالَ:مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى رَسُول الله ﷺعدَةٌ فَلْيَأْتني ، وَلْيَأْخُذْ ، فَأَتَى جَابرُ بْنُ عَبْد الله فَقَالَ:وَعَدَني رَسُولُ الله ﷺإذَا أَتَاهُ مَالٌ منَ الْبَحْرَيْنِ ، أَعْطَاني هَكَذَا وَهَكَذَا ، وَهَكَذَا ثَلَاثَ مَرَّات ، ملْءَ كَفَّيْه قَالَ:خُذْ بيَدكَ ، فَأَخَذَ بيَده ، فَوَجَدَهَا خَمْسَمائَة فَقَالَ:اعْدُدْ إِلَيْهَا أَلْفًا.ثُمَّ أَعْطَى مَنْ كَانَ وَعَدَهُ رَسُولُ الله ﷺشَيْئًا ، ثُمَّ قَسَمَ بَيْنَ النَّاس مَا بَقيَ ، فَأَصَابَ كُلُّ إِنْسَانٍ منْهُمْ عَشَرَةَ دَرَاهمَ ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبلُ ، جَاءَهُ مَالٌ كَثيرٌ أَكْثَرُ منْ ذَلكَ ، فَقَسَمَهُ بَيْنَ النَّاس ، فَأَصَابَ كُلُّ إِنْسَانٍ عشْرُونَ درْهَمًا ، وَفَضَلَ منَ الْمَال فَضْلٌ ، فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ فَضَلَ فَضْلٌ،وَلَكُمْ خَدَمٌ يُعَالجُونَ لَكُمْ ، وَيَعْمَلُونَ لَكُمْ ، فَإِنْ شئْتُمْ رَضَخْنَا لَهُمْ ، فَرَضَخَ لَهُمْ خَمْسَةَ دَرَاهمَ ، خَمْسَةَ دَرَاهمَ ، فَقيلَ:يَا خَليفَةَ رَسُول الله ﷺلَوْ فَضَّلْتَ الْمُهَاجرينَ وَالْأَنْصَارَ بفَضْلهمْ ، قَالَ:إِنَّمَا أُجُورُهُمْ عَلَى الله ، إِنَّمَا هَذَا مَعَانمُ ، وَالْأُسْوَةُ في الْمَغَانم أَفْضَلُ منَ الْأَثَرَة ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، وَاسْتُخْلفَ عُمَرُ ، فُتحَتْ عَلَيْه الْفُتُوحُ ، وَجَاءَهُمْ مَالٌ أَكْثَرُ منْ ذَلكَ فَقَالَ كَانَ لأَبي بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ في هَذَا الْمَال رَأْيٌ وَلي رَأْيٌ آخَرُ ، رَأَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَقْسمَ بالسَّويَّة ، وَرَأَيْتُ أَنْ أُفَضِّلَ الْمُهَاجرينَ وَالْأَنْصَارَ ، وَلَا أَجْعَلُ مَنْ قَاتَلَ رَسُولَ الله ﷺكَمَنْ قَاتَلَ مَعَهُ ، فَفَضَّلَ الْمُهَاجرينَ وَالْأَنْصَارَ ...."شرح معاني الآثار (٣/ ٣٠٤)(٥٤٣٤) صحيح

[٢٦٣٨] – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«اجْعَلُوا الطَّرِيقَ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ»سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٦٢٩)(١٣٥٥) صحيح

[٢٦٣٩] – عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ الزُّبَيْرِ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّهُ حَدَّثَهُ:أَنَّ رَجُلًا منَ الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عنْدَ النَّبيِّ ﷺ في شرَاجِ الحَرَّة،الَّتي يَسْقُونَ بهَا النَّخْلَ،فَقَالَ الأَنْصَاريُّ:سَرِّحِ المَاءَ يَمُرُّ،فَأَبَى عَلَيْه؟ فَاخْتَصَمَا عنْدَ النَّبيِّ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ للزُّبَيْر:«أَسْقِ يَا زُبَيْرُ،ثُمَّ أَرْسلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ»،فَغَضبَ الأَنْصَاريُّ،فَقَالَ:أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُول اللَّه ﷺ،ثُمَّ قَالَ:«اسْقِ يَا زُبَيْرُ،ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجعَ إِلَى الجَدْرِ»،فَقَالَ الزُّبَيْرُ:" وَاللَّه إِنِّي لَأَحْسبُ هَذه الآيَةَ نَزَلَتْ في ذَلكَ:{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء:٦٥] "صحيح البخاري (٣/ ١١١)(٢٣٥٩) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٢٩)١٢٩ - (٢٣٥٧)

[ش (شراج) جمع شرج وهو مسيل الماء من المرتفع إلى السهل.(الحرة) الأرض الصلبة الغليظة ذات الحجارة السوداء وفي المدينة حرتان.(سرح) أرسله وسيبه.(أن كان ابن عمتك) لأنه كان ابن عمتك حكمت له بذل قال ذلك عند الغضب وكان

أن للإمام أو الدولة التدخل لتنظيم المرافق والأموال العامة التي يشترك فيها المسلمون لتحقيق مقصد شرعي.

الحالة الرابعة:تنفيذ فروض الكفاية المنوطة بالدولة،حيث جعل الشرع تنفيذ بعض فروع الكفاية منوطاً بالدولة كجمع الزكاة والجهاد ونحو ذلك.فللدولة حينئذ وضع تنظيم إجرائي لتنفيذ هذه الفروض المناطة بها،ومن ذلك أن عثمان رضي الله عنه كان يحدد شهراً معيناً لجمع الزكاة كما ورد في الموطأ[٢٦٤١].

ومن هذا العرض للشواهد الشرعية التي تبين الأحوال المخصوصة التي أذن الشارع للدولة بالتدخل فيها بالمنع أو بالإلزام من بعض أفراد المباح بهدف تحقيق مقصود شرعي يظهر جلياً أن الأصل في غير هذه الأحوال أن ليس للدولة تحريم المباح والمنع منه،أو إيجابه،أوقصر فعله على من حصل على ترخيص منها،لأن الإباحة حكم من خالق العباد وربهم تعالى،ومتى ثبت بالدليل الشرعي إباحة الفعل فليس لمخلوق المنع أو الإلزام به على وجه الإطلاق،كمايدل على ذلك حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ.فَقَالَ:«يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ»،وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ

زلة منه رضي الله عنه.(يرجع) يصل.(الجدر) الحواجز التي تحبس الماء والمعنى حتى تبلغ تمام الشرب.(لا يؤمنون) لا يتم إيمانهم.(شجر) حصل بينهم من خلاف واختلط عليهم أمره والتبس عليهم حكمه./ النساء ٦٥ /]

[٢٦٤٠] – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ،قَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لاَ حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ» وَقَالَ:بَلَغَنَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ»،وَأَنَّ عُمَرَ «حَمَى االشُّرَفَ وَالرَّبَذَةَ» صحيح البخاري (٣/ ١١٣)(٢٣٧٠)

[ش (حمى) هو موضع فيه الكلأ والعشب يحميه الإمام من الناس فلا يرعى فيه أحد ولا يقربه أحد والمعنى لا يحمي شيء من الأرض إلا ما يرصد لرعي خيل الجهاد وإبلها وإبل الزكاة وما في معنى هذا.(النقيع) عين قريبة من المدينة.(الشرف) موضع من أعمال المدينة.(الربذة) قرية بينها وبين المدينة ثلاث مراحل]

[٢٦٤١] – عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ قُدَامَةَ،عَنْ أَبِيهَا أَنَّهُ قَالَ:كُنْتُ إِذَا جِئْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَقْبِضُ عَطَائِي،سَأَلَنِي:«هَلْ عِنْدَكَ مِنْ مَالٍ وَجَبَتْ عَلَيْكَ فِيهِ الزَّكَاةُ؟» قَالَ:فَإِنْ قُلْتُ:نَعَمْ.«أَخَذَ مِنْ عَطَائِي زَكَاةَ ذَلِكَ الْمَالِ».وَإِنْ قُلْتُ:لَا.«دَفَعَ إِلَيَّ عَطَائِي»موطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ٢٤٦)(٥) صحيح

وعَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ،أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ كَانَ يَقُولُ:«هَذَا شَهْرُ زَكَاتِكُمْ.فَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَلْيُؤَدِّ دَيْنَهُ.حَتَّى تَحْصُلَ أَمْوَالُكُمْ فَتُؤَدُّونَ مِنْهُ الزَّكَاةَ»موطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ٢٥٣)(١٧) صحيح

دُون اللَّه} [التوبة: ٣١]،قَالَ:«أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ،وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ،وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[٢٦٤٢]

\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-

مبدأ تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي للأفراد:

١ – رقابة الدولة على أعمال الأفراد:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ،وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ،وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ،وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ،أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٢٦٤٣]

في هذا الحديث دلالة واضحة على أن الدولة مسؤولة عن كل شيء يجري في داخلها.فلها الإشراف على نشاط الأفراد العام،ولها حق التدخل بالمصالح الخاصة لحماية المصالح العامة وكفالة تطبيق وتنفيذ الشريعة،ولها محاسبة الموظفين وأصحاب الولاية والسلطة في نواحي الدولة.ويمكنها أن تحاكمهم على أساس المبدأ القائل:(من أين لك هذا).ليتبين الوجه المشروع لكسب المال.ولقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه يحاسب ولاته ويشاطر عماله كما فعل مع عمرو بن العاص عامله على مصر،حينما شك في ماله وكسبه وطريقة إنمائه،وشاطر خالد بن الوليد أمواله،حتى زوجي نعله،وللدولة أن تراقب أرباب الأموال في كيفية استثمار أموالهم،فإذا جنحوا إلى تعطيل استثمار المال،جاز اتخاذ التدابير التي تحمي المصلحة العامة،فإذا وضع امرؤ يده على أرض موات بقصد إحيائها وتعميرها واستصلاحها وهو ما يعرف بالاحتجار،ثم لم يقم بواجبه جاز سلخها عنه وإعطاؤها لغيره،فعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ،وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ»[٢٦٤٤]

[٢٦٤٢] – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٧٨)(٣٠٩٥) حسن

[٢٦٤٣] – صحيح البخاري (٣/ ١٥٠)(٢٥٥٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٥٩)٢٠ – (١٨٢٩)

[٢٦٤٤] – سنن أبي داود (٣/ ١٧٨)(٣٠٧٣) صحيح

«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً» ") أَيْ:غَيْرَ مَمْلُوكَةٍ لِمُسْلِمٍ،وَلَمْ يَتَعَلَّقْ لِمَصْلَحَةِ بَلَدَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ بِأَنْ يَكُونَ مَرْكَضَ دَوَابِّهِمْ مَثَلًا (" فَهِيَ لَهُ ")،أَيْ:صَارَتْ تِلْكَ الْأَرْضُ مَمْلُوكَةً لَهُ،لَكِنَّ إِذْنَ الْإِمَامِ شَرْطٌ لَهُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ –،وَخَالَفَهُ صَاحِبَاهُ وَالشَّافِعِيُّ

وعَنْ يَحْيَى بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ،وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ» قَالَ:قَالَ عُرْوَةُ:وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي الَّذِي حَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ أَنَّ رَجُلًا غَرَسَ فِي أَرْضِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي بَيَاضَةَ نَخْلًا،فَاخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَضَى لِلرَّجُلِ بِأَرْضِهِ،وَقَضَى عَلَى الْآخَرِ:أَنْ يَنْزِعَ نَخْلَهُ،قَالَ:فَلَقَدْ رَأَيْتُهَا يُضْرَبُ فِي أُصُولِهَا بِالْفُئُوسِ،وَإِنَّهَا لَنَخْلٌ عُمٌّ "[٢٦٤٥]

لأنه لا بد من مداومة استثمار المال،حتى لا يؤدي الإهمال إلى فقر المال والإضرار بمصالح المجتمع وإفقار الأمة وخسارة الدخل القومي العام وضآلة الإنتاج.

وإذا حاول الناس تركيز استثمار أموالهم في نشاط اقتصادي معين،كان لولي الأمر حق التدخل بما يراه من إجراءات لتوزيع الناس أموالهم بين مختلف مصادر الإنتاج (وهي الأرض والعمل والمال)،وعندئذ تضمن الدولة الحد الأدنى من إنتاج السلع الضرورية،والحد الأعلى الذي لا يجوز التجاوز عنه.وإذا تضخمت الثروة في أيدي فئة قليلة من المواطنين،ثم ثبت عجز أصحابها عن استثمارها،كان للحاكم أن يتدخل في استثمار الأموال أو وضعها تحت ولاية الدولة بما يدرأ الضرر العام عن المجتمع،كإلزامهم باتباع الأساليب الرشيدة في استثمار الأموال،ووضعها تحت ولاية الدولة لضمان تشغيلها بما ينفع البلاد.

وَأَحْمَدُ مُحْتَجِّينَ بِإِطْلَاقِ الْحَدِيثِ،وَفِيهِ أَنَّ قَوْلَهُ - ﷺ -:" «لَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُ إِمَامِهِ» " يَدُلُّ عَلَى اشْتِرَاطِ الْإِذْنِ فَيُحْمَلُ الْمُطْلَقُ عَلَيْهِ؛لِأَنَّهُمَا فِي حَادِثَةٍ وَاحِدَةٍ،كَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْمَلَكِ،قَالَ الْقَاضِي:" الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ الْخَرَابُ الَّذِي لَا عِمَارَةَ فِيهِ،وَإِحْيَاؤُهَا عِمَارَتُهَا،شُبِّهَتْ عِمَارَةُ الْأَرْضِ بِحَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَتَعَطُّلُهَا وَخُلُوُّهَا عَنِ الْعِمَارَةِ بِفَقْدِ الْحَيَاةِ وَزَوَالِهَا عَنْهَا " (" وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ") بِكَسْرِ الْعَيْنِ (" ظَالِمٍ ") بِالتَّنْوِينِ فِيهِمَا صِفَةٌ وَمَوْصُوفٌ (" حَقٌّ ") قِيلَ:مَعْنَاهُ مَنْ غَرَسَ أَوْ زَرَعَ فِي أَرْضٍ أَحْيَاهَا غَيْرُهُ لَمْ يَسْتَحِقِّ الْأَرْضَ،وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَغْرُوسُ سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ الظَّالِمُ أَيْ:لِأَنَّ الظُّلْمَ حَصَلَ بِهِ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ،وَيُرْوَى بِالْإِضَافَةِ،فَالْمُرَادُ بِهِ الْغَارِسُ سَمَّاهُ ظَالِمًا؛لِأَنَّهُ تَصَرَّفَ فِي مِلْكِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ،وَهَذَا الْمَعْنَى أَوْفَقُ لِلْحُكْمِ السَّابِقِ،وَقِيلَ:" مَعْنَاهُ مَنْ غَرَسَ أَوْ زَرَعَ فِي أَرْضِ غَيْرِهِ بِلَا إِذْنِهِ فَلَيْسَ لِغَرْسِهِ وَزَرْعِهِ حَقُّ إِبْقَاءٍ،بَلْ لِمَالِكِهَا قَلْعُهُمَا بِلَا ضَمَانٍ،ذَكَرَهُ ابْنُ الْمَلَكِ تَبَعًا لِلطِّيبِيِّ،وَقَالَ السُّيُوطِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مُخْتَصَرِ النِّهَايَةِ:" الرِّوَايَةُ فِي لِعِرْقٍ بِالتَّنْوِينِ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ أَيْ:لِذِي عِرْقٍ ظَالِمٍ،فَجَعَلَ الْعِرْقَ نَفْسَهُ ظَالِمًا،وَالْوَصْفُ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ أَحَدُ عُرُوقِ الشَّجَرَةِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٧٣)

[٢٦٤٥] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٦٤)(٧٠٧) صحيح

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَهَذَا الْحَدِيثُ مُفَسِّرٌ لِلْعِرْقِ الظَّالِمِ،وَإِنَّمَا صَارَ ظَالِمًا لِأَنَّهُ غَرَسَ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا مِلْكٌ لِغَيْرِهِ فَصَارَ بِهَذَا الْفِعْلِ ظَالِمًا غَاصِبًا،فَكَانَ حُكْمُهُ أَنْ يَقْلَعَ مَا غَرَسَ،وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حُكْمِ الزَّرْعِ غَيْرُ هَذَا"

٢ – إقرار الملكية الجماعية:

عَنْ رَجُلٍ،مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثًا أَسْمَعُهُ،يَقُولُ:" الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ:فِي الْكَلَإِ،وَالْمَاءِ،وَالنَّارِ "[٢٦٤٦]

والنص على هذه الأمور فقط لأنها كانت من ضروريات الحياة في بيئة العرب،فهي مباحة لجميع الناس،والدولة هي التي تمثل مصالح الجماعة،فلها وضع اليد عليها،وعلى كل الأشياء الضرورية التي تعتبر من قبل الثروات الطبيعية الخام،والصناعات الاستخراجية وإنتاج المواد الأولية،والاستيلاء على المرافق العامة والتي تتغير وتتبدل وتتطور بحسب البيئات والعصور،مثل مختلف الأنهار العامة،والمعادن والنفط ولو وجدت في أرض مملوكة ملكية خاصة،والكهرباء،والمنشآت العامة ونحوها من المرافق الحيوية الأساسية لمصلحة الجماعة.ومما يؤيد وجود الملكية الجماعية:أن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين قد اعتبروا بعض الأراضي كالنقيع والرَّبذَة (موضعين قرب المدينة) حمىً في سبيل الله لترعى فيها خيل المسلمين،أي من أجل الصالح العام وهو المعروف بـ (الحمى)،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:حَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّقِيعَ – وَهُوَ مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ بِالْمَدِينَةِ – لِخَيْلِ الْمُسْلِمِينَ وَالْوَجْهُ الْآخَرُ،أَنْ تُحْمَى الْأَرْضُ لِنَعَمِ الصَّدَقَةِ إِلَى أَنْ تُوضَعَ مَوَاضِعَهَا وَتُفَرَّقَ فِي أَهْلِهَا،وَقَدْ عَمِلَ بِذَلِكَ عُمَرُ"[٢٦٤٧]

[٢٦٤٦] – سنن أبي داود (٣/ ٢٧٨)(٣٤٧٧) صحيح

قال الشيخ هذا معناه الكلأ ينبت في موات الأرض يرعاه الناس ليس لأحد أن يختص به دون أحد ويحجزه عن غيره،وكان أهل الجاهلية إذا غزا الرجل منهم حمى بقعة من اللأرض لماشيته ترعاها يذود الناس عنها فأبطل النبي ﷺ ذلك وجعل الناس فيها شرعاً يتعاورونه بينهم. فأما الكلأ إذا نبت في أرض مملوكة لمالك بعينه فهو مال له ليس لأحد أن يشركه فيه إلاّ بإذنه.وأما قوله والنار فقد فسره بعض العلماء وذهب إلى أنه أراد به الحجارة التي توري النار يقول لا يمنع أحد أن يأخذ منها حجراً يقتدح به النار،فأما التي يوقدها الإنسان فله أن يمنع غيره من أخذها.وقال بعضهم ليس له أن يمنع من يريد يأخذ منها جذوة من الحطب التي قد احترق فصار جمراً وليس له أن يمنع من أراد أن يستصبح منها مصباحاً أو أدنى منها ضغثاً يشتعل بها لأن ذلك لا ينقص من عينها شيئاً والله أعلم.معالم السنن (٣/ ١٢٩)

[٢٦٤٧] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٧٥)(٧٤٠) حسن

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ يَأْخُذُ بِالْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي فِي النَّقِيعِ،قَالَ:السُّنَّةُ أَنْ يُحْمَى النَّقِيعُ لِخَيْلِ الْمُسْلِمِينَ،إِذَا احْتَاجُوا إِلَى ذَلِكَ،وَلَا يُحْمَى لِغَيْرِهَا،قِيلَ لَهُ:فَلِإِبِلِ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ:لَا وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ لَحَجَرْتُ الْأَحْمَاءَ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَأَمَّا سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ فَيُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:قَدْ أُبِيحَتِ الْأَحْمَاءُ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يُحَدِّثُهُ الصَّعْبُ بْنُ جَثَّامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَحْمِيَ مَا كَانَ لِلَّهِ،مِثْلُ حَمَى النَّبِيُّ ﷺ وَمِثْلُ مَا حَمَى عُمَرُ،يَقُولُ:هَذَا كُلُّهُ دَاخِلٌ

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ لِلْخَيْلِ،وَحَمَى الرَّبَذَةَ لِلصَّدَقَة "[2648]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ وَهُوَ يَقُولُ لِهَنِّي حِينَ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى حِمَى الرَّبَذَةِ:يَا هَنِيُّ،اضْمُمْ جَنَاحَكَ عَنِ النَّاسِ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهَا مُجَابَةٌ،وَأَدْخِلْ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ وَالْغَنِيمَةِ،وَدَعْنِي مِنْ نَعَمِ ابْنِ عَفَّانَ،وَنَعَمِ ابْنِ عَوْفٍ،فَإِنَّهُمَا إِنْ هَلَكَتْ مَاشِيَتُهُمَا رَجَعَا إِلَى نَخْلٍ وَزَرْعٍ،وَإِنَّ هَذَا الْمِسْكِينُ إِنْ هَلَكَتْ مَاشِيَتُهُ جَاءَ يَصْرُخُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،أَفَالْكَلَأُ أَهْوَنُ عَلَيَّ أَمْ غُرْمُ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ؟ وَإِنَّهَا لَأَرْضُهُمْ،قَاتَلُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ،وَأَسْلَمُوا عَلَيْهَا فِي الْإِسْلَامِ،وَإِنَّهُمْ لَيَرَوْنَ أَنَّا نَظْلِمُهُمْ،وَلَوْلَا النَّعَمُ الَّتِي يُحْمَلُ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا حَمَيْتُ عَلَى النَّاسِ شَيْئًا مِنْ بِلَادِهِمْ أَبَدًا.قَالَ أَسْلَمُ:فَسَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ يَقُولُ لَهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،حَمَيْتَ بِلَادَنَا،قَاتَلْنَا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَسْلَمْنَا عَلَيْهَا فِي الْإِسْلَامِ،يُرَدِّدُهَا عَلَيْهِ مِرَارًا،وَعُمَرُ وَاضِعٌ رَأْسَهُ،ثُمَّ إِنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ،فَقَالَ:الْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ وَتُحْمَى لِنَعَمِ مَالِ اللَّهِ،يُحْمَلُ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[2649]

وعَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ – قَالَ:أَتَى أَعْرَابِيٌّ عُمَرَ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،بِلَادُنَا،قَاتَلْنَا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ،وَأَسْلَمْنَا عَلَيْهَا فِي الْإِسْلَامِ،عَلَامَ تَحْمِيهَا؟ قَالَ:فَأَطْرَقَ عُمَرُ،وَجَعَلَ يَنْفُخُ وَيَفْتِلُ شَارِبَهُ – وَكَانَ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ فَتَلَ شَارِبَهُ وَنَفَخَ – فَلَمَّا رَأَى الْأَعْرَابِيُّ

فِي الْحِمَى لِلَّهِ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَإِلَى هَذَا انْتَهَى تَأْوِيلُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَنَا فِي اشْتِرَاكِ النَّاسِ فِي الْمَاءِ وَالْكَلَأِ،الَّذِي يَكُونُ عَامًّا،وَتَأْوِيلُ اسْتِثْنَائِهِ فِيمَا يَكُونُ خَاصًّا.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَأَمَّا قَوْلُهُ:لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ فَضْلُ الْكَلَأِ فَغَيْرُ ذَلِكَ،وَهُوَ عِنْدِي فِي الْأَرْضِ الَّتِي لَهَا رَبٌّ وَمَالِكٌ،وَيَكُونُ فِيهَا الْمَاءُ الْعِدُّ الَّذِي وَصَفْنَاهُ،وَالْكَلَأُ الَّذِي تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّفَ لَهَا رَبُّهَا لِذَلِكَ غَرْسًا وَلَا بَذْرًا،فَأَرَادَ أَنَّهُ لَيْسَ يَطِيبُ لِرَبِّهَا مِنْ هَذَا الْمَاءِ وَالْكَلَأِ وَإِنْ كَانَ مِلْكَ يَمِينِهِ إِلَّا قَدْرَ حَاجَتِهِ،لِشَفَتِهِ،وَمَاشِيَتِهِ،وَسَقْيِ أَرْضِهِ،ثُمَّ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَمْنَعَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ .وَمِمَّا يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّهُ أَرَادَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ أَهْلَ الْمُلْكِ:ذِكْرُهُ فَضْلَ الْمَاءِ وَالْكَلَأِ،فَرَخَّصَ ﷺ فِي نَيْلِ مَا لَا غَنَاءَ لَهُ بِهِ عَنْهُ،ثُمَّ حَظَرَ عَلَيْهِ مَنْعَ مَا سِوَى ذَلِكَ،وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مَالِكٍ لَهُ مَا كَانَ لِذِكْرِ الْفُضُولِ هَاهُنَا مَوْضِعٌ،وَلَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ شَرْعًا سَوَاءً.وَعَلَى هَذَا مَذْهَبُ حَدِيثِ أَبْيَضَ بْنِ حَمَّالٍ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ:أَنَّهُ سَأَلَهُ:مَا يُحْمَى مِنَ الْأَرَاكِ؟ فَقَالَ:مَا لَمْ تَنَلْهُ أَخْفَافُ الْإِبِلِ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَلَيْسَ لِهَذَا وَجْهٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي أَرْضٍ يَمْلِكُهَا،وَلَوْلَا الْمِلْكُ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَحْمِيَ شَيْئًا دُونَ النَّاسِ،مَا نَالَتْهُ الْإِبِلُ أَوْ لَمْ تَنَلْهُ،فَلِهَذَا كَرِهَتِ الْعُلَمَاءُ ثَمَنَ الْكَلَأِ وَالْمَاءِ"

[2648] - تاريخ المدينة لابن شبة (١/ ١٥٥) حسن

[2649] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٧٧)(٧٤١) صحيح

مَا بِهِ،جَعَلَ يُرَدِّدُ ذَلِكَ عَلَيْهِ،فَقَالَ عُمَرُ:«الْمَالُ مَالُ اللَّهِ،وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ،وَاللَّهِ لَوْلَا مَا أَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا حَمَيْتُ مِنَ الْأَرْضِ شِبْرًا فِي شِبْرٍ»[2650]

وعَنْ رَجَاءِ بْنِ جَمِيلٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَمَى وَادِيَ نَخِيلٍ لِلْخَيْلِ الْمُضَمَّرَةِ"[2651]

وعنِ الصَّعْبِ بنِ جَثَّامَةَ:-أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ:«لاَحمَى إلاَّ للَّه ولِرَسُوله» .[2652]

وعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :لاَ حِمَى إلاَّ للَّه وَرَسُوله.[2653]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ،قَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لاَ حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ» وَقَالَ:بَلَغَنَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ»،وَأَنَّ عُمَرَ «حَمَى السَّرَفَ وَالرَّبَذَةَ»[2654]،أي لا حمى لأحد الأشخاص العاديين.

[2650] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٧٨) صحيح

[2651] - تاريخ المدينة لابن شبة (١/ ١٥٦) صحيح مرسل

[2652] - مسند الشافعي - ترتيب السندي (٢/ ١٣٢)(٤٣٣) صحيح

[2653] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ٦٦٨)(٢٣٦٥١) صحيح

[2654] - صحيح البخاري (٣/ ١١٣)(٢٣٧٠)

[ش (حمى) هو موضع فيه الكلأ والعشب يحميه الإمام من الناس فلا يرعى فيه أحد ولا يقربه أحد والمعنى لا يحمي شيء من الأرض إلا ما يرصد لرعي خيل الجهاد وإبلها وإبل الزكاة وما في معنى هذا.(النقيع) عين قريبة من المدينة.(الشرف) موضع من أعمال المدينة.(الربذة) قرية بينها وبين المدينة ثلاث مراحل]

(قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- يَقُولُ:لَا حِمَى) بِكَسْرِ الْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ الْمَفْتُوحَةِ بِمَعْنَى الْمَحْمِيِّ وَهُوَ مَكَانٌ يُحْمَى مِنَ النَّاسِ وَالْمَاشِيَةِ لِيَكْثُرَ كَلَؤُهُ (إِلَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) أَيْ:لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكَانَ النَّبِيُّ - ﷺ- يَحْمِي لِخَيْلِ الْجِهَادِ وَإِبِلِ الصَّدَقَةِ،قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:" كَانَتْ رُؤَسَاءُ الْأَحْيَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَحْمُونَ الْمَكَانَ الْخَصِيبَ لِخَيْلِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَسَائِرِ مَوَاشِيهِمْ فَأَبْطَلَهُ - ﷺ- وَمَنَعَهُ أَنْ يَحْمِيَ إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ " وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:" كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- لِخَاصَّةِ نَفْسِهِ لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْهُ،وَإِنَّمَا حَمَى النَّقِيعَ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَلِلْخَيْلِ الْمُعَدَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَالَ الشَّافِعِيُّ:" وَإِنَّمَا لَمْ يَجُزْ فِي بَلَدٍ لَمْ يَكُنْ وَاسِعًا فَتَضِيقُ عَلَى أَهْلِ الْمَوَاشِي وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ بَعْدَهُ - ﷺ- أَنْ يَحْمِيَ لِخَاصَّةِ نَفْسِهِ وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُ هَلْ يَحْمِي لِلْمَصَالِحِ؟ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُجَوِّزْ لِلْحَدِيثِ،وَمِنْهُمْ مَنْ جَوَّزَهُ عَلَى نَحْوِ مَا حَمَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ لَا يَتَبَيَّنُ ضَرَرُهُ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:" الْمَعْنَى لَا حِمَى لِأَحَدٍ عَلَى الْوَجْهِ الْخَاصِّ بَلْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي حَمَاهُ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ " وَفِي النِّهَايَةِ قِيلَ:" كَانَ الشَّرِيفُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا نَزَلَ أَرْضًا فِي حَيِّهِ اسْتَعْوَى كَلْبًا فَحَمَى مَدْعُوَاءَ الْكَلْبِ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ وَهُوَ يُشَارِكُ الْقَوْمَ فِي سَائِرِ مَا يَرْعَوْنَ فِيهِ،فَنَهَى النَّبِيُّ - ﷺ- عَنْ ذَلِكَ وَأَضَافَ الْحِمَى إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ أَيْ إِلَّا مَا يُحْمَى لِلْخَيْلِ الَّتِي تُرْصَدُ لِلْجِهَادِ وَالْإِبِلِ الَّتِي يُحْمَلُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِبِلِ الزَّكَاةِ وَغَيْرِهَا كَمَا حَمَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ النَّقِيعَ لِنَعَمِ الصَّدَقَةِ وَالْخَيْلِ الْمُعَدَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٩٦)

٣ – التأميم أو نزع الملكية الخاصة:

إذا كان المبدأ العام في الإسلام هو الاعتراف بالملكية الفردية وبالحرية الاقتصادية كما أوضحت،فإنه لا مانع من تدخل الدولة لحماية مصلحة الأمة في وقت معين،بأن تتخذ من التدابير ماتجده محققاً للصالح العام،بناء على المبدأ المعروف في الإسلام بالاستحسان والمصالح المرسلة،وقواعد دفع الضرر العام،وأنه يتحمل الضرر الخاص من أجل دفع الضرر العام،وأنه يجب على الجماعة كفاية الجائع والعريان عملاً بالمبدأ الشرعي القائل:(إذا بات مؤمن جائعاً فلا مال لأحد) ولكن بشرط دفع الثمن.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ،قَالَ:فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ"[٢٦٥٥]

[٢٦٥٥] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٤)١٨ – (١٧٢٨)

[ش (فجعل يصرف بصره) فهكذا وقع في بعض النسخ وفي بعضها يصرف فقط بحذف بصره وفي بعضها يضرب ومعنى قوله فجعل يصرف بصره أي متعرضا لشيء يدفع به حاجته(من كان معه فضل ظهر) أي زيادة ما يركب على ظهره من الدواب وخصه اللغويون بالإبل وهو التعين(فليعد به) قال في المقاييس عاد فلان بمعروفه وذلك إذا أحسن ثم زاد]

(عَلَى رَاحِلَة):أَيْ:ضَعِيفَة (فَجَعَلَ):أَيْ:شَرَعَ وَطَفِقَ (يَضْرِبُ):أَي:الرَّاحِلَةَ (يَمِينًا وَشِمَالًا):أَيْ:بِيَمِينِه وَشِمَالِه،أَوْ يَمِينَهَا وَشِمَالَهَا لِعَجْزِهَا عَنِ السَّيْرِ،وَقِيلَ:يَضْرِبُ عَيْنَيْه إِلَى يَمِينِه وَشِمَالِه؛أَيْ:يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمَا طَالِبًا لِمَا يَقْضِي لَهُ حَاجَتَهُ.(فَقَالَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ–:مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ):أَيْ:زِيَادَةُ مَرْكُوبٍ عَنْ نَفْسِه (فَلْيَعُدْ بِه):أَيْ:فَلْيَرْفُقْ بِه (عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ):وَيَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِه؛مِنْ عَادَ عَلَيْنَا بِمَعْرُوفٍ؛أَيْ:رَفَقَ بِنَا،كَذَا فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَة (وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَاد):أَيْ:مِنْهُ وَمِنْ دَابَّتِه (فَلْيَعُدْ بِه عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ):أَيْ:مِقْدَارَ كِفَايَتِه،وَلَعَلَّهُ – ﷺ– اطَّلَعَ عَلَى أَنَّهُ تَعْبَانُ مِنْ قِلَّة الزَّاد؛أَيْضًا،أَوْ ذَكَرَهُ تَتْمِيمًا وَقَصْدًا إِلَى الْخَيْرِ تَعْمِيمًا.قَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ:طَفِقَ يَمْشِي يَمِينًا وَشِمَالًا؛أَيْ:يَسْقُطُ مِنَ التَّعَبِ إِذْ كَانَتْ رَاحِلَتُهُ ضَعِيفَةً لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَرْكَبَهَا فَمَشَى رَاجِلًا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ رَاحِلَتُهُ قَوِيَّةً إِلَّا أَنَّهُ قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا زَادَهُ وَأَقْمِشَتَهُ،وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَرْكَبَهَا مِنْ ثِقَلِ حِمْلِهَا،فَطَلَبَ لَهُ – ﷺ– مِنَ الْجَيْشِ فَضْلَ ظَهْرٍ؛أَيْ:دَابَّةً زَائِدَةً عَلَى حَاجَة صَاحِبِهَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:فِي تَوْجِيهِه إِشْكَالٌ؛لِأَنَّ عَلَى رَاحِلَتِه صِفَةُ رَجُلٍ؛أَيْ:رَاكِبٍ عَلَيْهَا،وَقَوْلُهُ:" فَجَعَلَ " عَطْفٌ عَلَى " جَاءَ " بِحَرْفِ التَّعْقِيبِ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُتَمَحَّلَ وَيُقَالَ:إِنَّهُ عَطْفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ؛أَيْ:فَنَزَلَ فَجَعَلَ يَمْشِي.أَقُولُ:الْأَظْهَرُ أَنْ يُقَالَ التَّقْدِيرُ حَامِلٌ مَتَاعَهُ عَلَى رَاحِلَتِه،أَوْ عَلَى بِمَعْنَى (مَعَ) كَقَوْلِه تَعَالَى:{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّه} [البقرة:١٧٧] قَالَ الطِّيبِيُّ:الْأَوْجَهُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ " يَضْرِبُ " مَجَازٌ عَنْ " يَلْتَفِتُ " لَا عَنْ " يَمْشِي "،وَهَذَا أَيْضًا يُسْقِطُ الاحْتِمَالَ الثَّانِيَ الَّذِي يَأْبَاهُ الْمَقَامُ،وَيَشْهَدُ لَهُ مَا رُوِيَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ،قَالَ النَّوَوِيُّ:جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ فَجَعَلَ يَضْرِبُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،هَكَذَا فِي بَعْضِ النُّسَخِ،وَفِي بَعْضِهَا يَصْرِفُ يَمِينًا وَشِمَالًا،وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:«لَو اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَأَخَذْتُ فُضُولَ الْأَغْنِيَاءِ،فَقَسَمْتُهَا فِي فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ»[٢٦٥٦]

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:«لَئِنْ بَقِيتُ لَآخُذَنَّ فَضْلَ مَالِ الْأَغْنِيَاءِ وَلَأَقْسِمَنَّهُ فِي فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ»[٢٦٥٧]

وعَنْ عُمَرَ ،فِي قِصَّةٍ ذَكَرَهَا،قَالَ:ثُمَّ قَرَأَ عُمَرُ هَذِهِ الْآيَةَ " {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة:١١١] الْآيَةَ،فَجَعَلَ لَهُ الصَّفْقَتَيْنِ جَمِيعًا،وَاللهِ لَوْلَا أَنَّ اللهَ أَمَدَّكُمْ بِخَزَائِنَ مِنْ قِبَلِهِ لَأَخَذْتُ فَضْلَ مَالِ الرَّجُلِ عَنْ نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فَقَسَمْتُهُ بَيْنَ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ "[٢٦٥٨]

وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حُجَّاجًا،فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أُتِيَ بِمَالٍ،فَقَسَمَهُ بَيْنَ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ثُمَّ قَالَ:إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالْجَنَّةِ،فَأَعْطَاهُمُ الشُّفْعَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَغْنَاكُمْ بِخَزَائِنَ مِنْ عِنْدِهِ لَجَعَلْتُ آتِيَ الرَّجُلَ فَآخُذَ فَضْلَ مَالِهِ مِنْ عِنْدِهِ فَأَقْسِمَهُ بَيْنَ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ "[٢٦٥٩]

وهذا ما يجعل النظام الاقتصادي الإسلامي أبعد عن النظام الرأسمالي القائم في أصله على أساس من الحرية الفردية المطلقة.

لذا فإنه يحق للدولة التدخل في الملكيات غير المشروعة،كالملكية الحادثة بالسلب والقهر أو الاغتصاب،فترد الأموال إلى أصحابها أو تصادرها،وتستولي عليها بغير تعويض،سواء أكانت

بَصَرِهِ،وَفِي بَعْضِهَا يَضْرِبُ بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ،وَالْمَعْنَى يَصْرِفُ بَصَرَهُ مُتَعَرِّضًا بِشَيْءٍ يَدْفَعُ بِهِ حَاجَتَهُ،وَفِيهِ حَثٌّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الرُّفْقَةِ وَالْأَصْحَابِ،وَالِاعْتِنَاءُ بِمَصَالِحِهِمْ وَالسَّعْيُ فِي قَضَاءِ حَاجَةِ الْمُحْتَاجِ بِتَعَرُّضِهِ لِلْعَطَاءِ،وَتَعْرِيضِهِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ،وَإِنْ كَانَ لَهُ رَاحِلَةٌ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ،أَوْ كَانَ مُوسِرًا فِي وَطَنِهِ،فَيُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ فِي هَذَا الْحَالِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(قَالَ):أَيْ:أَبُو سَعِيدٍ (فَذَكَرَ):أَي:النَّبِيُّ - ﷺ- (مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ):كَالثَّوْبِ وَالنِّعَالِ وَالْقِرْبَةِ وَالْمَاءِ وَالْخَيْمَةِ وَالنُّقُودِ وَنَحْوِهَا.(حَتَّى رَأَيْنَا):أَيْ:ظَنَنَّا (أَنَّهُ):أَيِ:الشَّأْنَ (لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ.رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٠١٣)

[٢٦٥٦] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٧٨٩)(١٣٦٤) صحيح

[٢٦٥٧] - مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٤٦٦)(٣٢٩٧٥) صحيح

[٢٦٥٨] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٣٣١)(١٢١٣١) صحيح

[٢٦٥٩] - تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٤٦) صحيح

منقولة أم عقارية،فعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذَتْ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ "[2660]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ،وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ "[2661]

وعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ زَرَعَ فِي أَرْضِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ،فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الزَّرْعِ شَيْءٌ وَلَهُ نَفَقَتُهُ»[2662]

[2660] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٣/ ٢٧٧)(٢٠٠٨٦) صحيح

(على اليد ما أخذت حتى تؤديه) من غير نقص عين ولا صفة قال الطيبي:ما موصول مبتدأ وعلى اليد خبره والراجع محذوف أي ما أخذته اليد ضمان على صاحبها والإسناد إلى اليد على المبالغة لأنها هي المنصرمة فمن أخذ مال غيره بغصب أو غيره لزمه رده وأخذ بظاهره المالكية فضمنوا الأجراء مطلقا"فيض القدير (٤/ ٣٢١)٥٤٥٥ -

[2661] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٦٤)(١١٥٣٨) صحيح

وقوله ليس لعرق ظالم حق هو أن يغرس الرجل في غير أرضه بغير إذن صاحبها فإنه يؤمر بقلعه إلاّ أن يرضى صاحب الأرض بتركه.معالم السنن (٣/ ٤٧)

وَقَوله:«لَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ» هُوَ أَن يغصب أَرض الْغَيْر،فيغرس فِيهَا أَو يزرع،فَلَا حق لهُ،ويقلعَ غراسه وزرعه.

قَالَ الإِمَامُ:وإحياءُ الْموَات يكون بالعمارة،وَذَلِكَ يخْتَلف باخْتلَاف مَقْصُود المحيي من الأَرْض،فَإِن أَرَادَ دَارا،فَلَا يملك حَتَّى يَبْني حواليه ويسقف،وَإِن أَرَادَ بُستانًا،فبأن يحوّط ويشق الْأَنْهَار ويغرس ويرتب لَهُ مَاء،وَإِن أَرَادَ الزِّرَاعَة،فبأن يجمع التُّرَاب محيطًا بهَا ويحرث أَو يزرع،وَيعْتَبر فِي جَمِيع مقاصده عرف النَّاس.

وَإِذا ملك أَرضًا بِالْإِحْيَاء يملك حواليها قدر مَا يحْتَاج إِلَيْهِ العامر للمرافق،فَلَا يملكهُ غيرهُ بِالْإِحْيَاء،وَيملك مَا وراءَهُ،وَإِن كَانَ قَرِيبا من العامر،فَإِن النَّبِيَّ ﷺ أقطع لعبد اللَّه بْن مَسعود،الدورَ بِالْمَدِينَة وَهِي بَين ظهراني عمَارَة الْأَنْصَار من الْمنَازل والنخيل،فَقَالَ بَنو عبد بْن زهرَة:نَكِّبْ عَنَّا ابْن أم عبد،فَقَالَ لَهُم رَسُولُ اللَّه ﷺ:«فَلمَ ابْتَعَثَنِي اللَّهُ إِذا،إِنَّ اللَّهَ لَا يُقَدِّسُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ للضَّعِيف فيهمْ حَقُّهُ» قَوْله:نكب عَنَّا،أَي:نحِّه عنَّا،وَقَوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:إِنَّهُمْ {عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ:٧٤] أَي:عادلون عَنِ الْقَصْد،وَقَوله:«لَا يُقَدِّسُ أُمَّةً» أَي:لَا يطهرها.شرح السنة للبغوي (٨/ ٢٧١)

[2662] - سنن أبي داود (٣/ ٢٦١)(٣٤٠٣) صحيح

" «مَنْ زَرَعَ فِي أَرْضِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ» ") أَيْ:أَمْرِهِمْ وَرِضَاهُمْ (فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الزَّرْعِ شَيْءٌ) يَعْنِي مَا حَصَلَ مِنَ الزَّرْعِ يَكُونُ لِصَاحِبِ الْأَرْضِ وَلَا يَكُونُ لِصَاحِبِ الْبَذْرِ إِلَّا بَذْرُهُ،إِلَيْهِ ذَهَبَ أَحْمَدُ.وَقَالَ غَيْرُهُ:مَا حَصَلَ مِنَ الزَّرْعِ فَهُوَ لِصَاحِبِ الْبَذْرِ وَعَلَيْهِ نُقْصَانُ الْأَرْضِ،كَذَا ذَكَرَهُ بَعْضُ عُلَمَائِنَا،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:عَلَيْهِ أُجْرَةُ الْأَرْضِ مِنْ يَوْمِ غَصْبِهَا إِلَى يَوْمِ تَفْرِيغِهَا،وَكَذَا ذَكَرَهُ الْمُظَّهَرُ (وَلَهُ نَفَقَتُهُ) أُجْرَةُ عَمَلِهِ،وَقِيلَ:خَرْجُهُ بَعْدَ الْحَاصِلِ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٨٩)

قَالَ الإِمَامُ:مَنْ غَصَبَ أَرْضًا فَزَرَعَهَا أَوْ غَرَسَهَا،قُلِعَ زَرْعُهُ وَغِرَاسُهُ،وَلا شَيْءَ لَهُ،وَعَلَيْهِ أَجْرُ مِثْلِ الأَرْضِ مِنْ يَوْمِ أَخْذِهَا،وَضَمَانُ نُقْصَانِ دَخْلِ الأَرْضِ بِالْغَرْسِ أَوِ الْقَلْعِ،وَإِنْ أَدْرَكَ الزَّرْعَ،فَهُوَ لِمَنْ كَانَ الْبَذْرُ لَهُ،لأَنَّهُ تَوَلَّدَ مِنْ عَيْنِ مَالِهِ،عَلَى قَوْلِ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ،وَحُكِيَ عَنْ أَحْمَدَ،أَنَّهُ قَالَ:إِذَا حُصِدَ الزَّرْعُ،فَهُوَ لِصَاحِبِ الأَرْضِ،وَلِلزَّارِعِ الأُجْرَةُ،وَاحْتَجَّ بِمَا رَوَى شَرِيكٌ،عَنْ أَبِي

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاطر بعض ولاته الذين وردوا عليه من ولاياتهم بأموال لم تكن لهم،استجابة لمصلحة عامة،وهو البعد بالملكية عن الشبهات،وعن اتخاذها وسيلة للثراء غير المشروع،وكذلك يحق للدولة التدخل في الملكيات الخاصة المشروعة لتحقيق العدل في التوزيع،[٢٦٦٣]

سواء في حق أصل الملكية،أو منع المباح،أو في تقييد حرية التملك الذي هو من باب تقييد المباح،والملكية من المباحات قبل الإسلام وبعده إذا أدى استعمال الملك إلى ضرر عام.وعلى هذا فيحق لولي الأمر العادل أن يفرض قيوداً على الملكية الزراعية،فيحددها بمقدار مساحة معينة،أو ينتزعها من أصحابها إذا عطلها أو أهملها حتى خربت،أو يترع ملكيتها من أي شخص مع دفع تعويض عادل عنها،إذا اقتضت المصلحة العامة أو النفع العام ذلك.

كماحدث في وقتنا الحاضر من تأميم المصارف والشركات الكبرى،وكما فعل عمر بن الخطاب في سبيل توسعة المسجد الحرام حينما ضاق على الناس،فأجبر الناس المجاورين للمسجد على بيع دورهم المحيطة به،فعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:كَانَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ لَيْسَ عَلَيْهِ جُدُرَاتٌ مُحَاطَةٌ،إِنَّمَا كَانَت الدُّورُ مُحْدقَةً به مِنْ كُلِّ جَانب،غَيْرَ أَنَّ بَيْنَ الدُّورِ أَبْوَابًا يَدْخُلُ مِنْهَا النَّاسُ مِنْ كُلِّ نَوَاحيه فَضَاقَ عَلَى النَّاسِ،فَاشْتَرَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُورًا فَهَدَمَهَا،وَهَدَمَ عَلَى مَنْ قَرُبَ مِنَ الْمَسْجِدِ وَأَبَى بَعْضُهُمْ أَنْ يَأْخُذَ الثَّمَنَ،وَتَمَنَّعَ مِنَ الْبَيْعِ،فَوُضِعَتْ أَثْمَانُهَا فِي خِزَانَةِ الْكَعْبَةِ حَتَّى أَخَذُوهَا بَعْدُ،ثُمَّ أَحَاطَ عَلَيْهِ جِدَارًا قَصِيرًا،وَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ:إِنَّمَا نَزَلْتُمْ عَلَى الْكَعْبَةِ فَهُوَ فِنَاؤُهَا،وَلَمْ تَنْزِلِ الْكَعْبَةُ عَلَيْكُمْ،ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَسَّعَ الْمَسْجِدَ،وَاشْتَرَى مِنْ قَوْمٍ،وَأَبَى آخَرُونَ أَنْ يَبِيعُوا،فَهُدِمَ عَلَيْهِمْ فَصَيَّحُوا بِهِ فَدَعَاهُمْ،فَقَالَ:«إِنَّمَا جَرَّأَكُمْ عَلَيَّ حِلْمِي عَنْكُمْ،فَقَدْ فَعَلَ بِكُمْ عُمَرُ هَذَا فَلَمْ

إِسْحَاقَ،عَنْ عَطَاءٍ،عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ زَرَعَ فِي أَرْضِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ،فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الزَّرْعِ شَيْءٌ،وَلَهُ نَفَقَتُهُ»،وَهَذَا حَدِيثٌ ضَعَّفَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ،وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ:لَا أَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي إِسْحَاقَ إِلا بِرِوَايَةِ شَرِيكٍ،وَيُحْكَى،عَنْ أَحْمَدَ،أَنَّهُ قَالَ:زَادَ أَبُو إِسْحَاقَ فِيهِ «بِغَيْرِ إِذْنِهِ» وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرُهُ هَذَا الْحَرْفَ.شرح السنة للبغوي (٨/ ٢٣١) قلت:الصواب صحة الحديث

[٢٦٦٣] -نيل الأوطار (٥/ ٣١٨)

يَصِحْ بِهِ أَحَدٌ فَاحْتَذَيْتُ عَلَى مِثَالِهِ فَصَيَّحْتُمْ بِي»،ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ إِلَى الْحَبْسِ حَتَّى كَلَّمَهُ فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ فَتَرَكَهُمْ "[2664]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَوْبَانَ قَالَ:إِنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ وَسَّعَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ،وَاشْتَرَى مِنْ قَوْمٍ،وَأَبَى آخَرُونَ أَنْ يَبِيعُوا،فَهَدَمَ عَلَيْهِمْ،فَصَيَّحُوا بِهِ عِنْدَ الْبَيْتِ،فَدَعَاهُمْ فَقَالَ:" إِنَّمَا جَرَّأَكُمْ عَلَيَّ حِلْمِي عَنْكُمْ ،فَعَلَ هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ " فَلَمْ يُصَيِّحْ بِهِ أَحَدٌ وَاتَّبَعْتُ أَثَرَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ فَصِحْتُمْ،ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ إِلَى السِّجْنِ،فَكَلَّمَ فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدٍ"[2665]

مما يدل على جواز نزع الملكية الفردية لمصلحة المرافق العامة كتوسيع الطرق والمقابر وإقامة المساجد وإنشاء الحصون والمرافئ والمؤسسات العامة كالمشافي والمدارس والملاجئ ونحوها؛لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة.

ثم إن فقهاء المذاهب قرروا أن لولي الأمر أن ينهي إباحة الملكية بحظر يصدر منه لمصلحة تقتضيه،فيصبح ما تجاوزه أمراً محظوراً،فإذا منع من فعل مباح صار حراماً،وإذا أمر به صار واجباً.والدليل على إعطاء ولي الأمر مثل هذه الصلاحيات في غير المنصوص على حكمه صراحة هو قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩] وأولو الأمر في السياسة والحكم:هم الأمراء والحكام والعلماء،كما تبين سابقاً.

ولكن ليس كل مايتوهم من ضرر،أو يتخيل من مصلحة يكون مسوغاً لتقييد الملكية أو مصادرتها بالتعويض،وإنما ينبغي أن تكون المصلحة العامة محققة الحدوث،أو الضرر العام محقق الوقوع،أو غالب الوقوع،لا نادراً ولا محتملاً،ويكفي عند فقهاء المالكية والحنابلة أن يكون

[2664] - أخبار مكة للأزرقي (٢/ ٦٨) معضل

[2665] - أخبار مكة للفاكهي (٢/ ١٥١)(١٣٥٠) من طريق الواقدي

احتمال وقوع الضرر مسوغاً لمنع الفعل أخذاً بقاعدة:«دفع المضار والمفاسد مقدم على جلب المصالح».[2666]

وقال ابن حزم رحمه الله :

عَلَى الْأَغْنِيَاء مِنْ أَهْلِ كُلِّ بَلَد أَنْ يَقُومُوا بِفُقَرَائِهِمْ

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَفُرِضَ عَلَى الْأَغْنِيَاء مِنْ أَهْلِ كُلِّ بَلَد أَنْ يَقُومُوا بِفُقَرَائِهِمْ،وَيُجْبِرُهُمْ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ،إنْ لَمْ تَقُمْ الزَّكَوَاتُ بِهِمْ،وَلَا فِي سَائِرِ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَيُقَامُ لَهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ مِنْ الْقُوتِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ،وَمِنْ اللِّبَاسِ لِلشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ بِمِثْلِ ذَلِكَ،وَبِمَسْكَنٍ يَكُنُّهُمْ مِنْ الْمَطَرِ،وَالصَّيْفِ وَالشَّمْسِ،وَعُيُونِ الْمَارَّةِ.

وَبُرْهَانُ ذَلِكَ:قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [الإسراء:٢٦] .وَقَالَ تَعَالَى:{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء:٣٦] .فَأَوْجَبَ تَعَالَى حَقَّ الْمَسَاكِينِ،وَابْنِ السَّبِيلِ،وَمَا مَلَكَتْ الْيَمِينُ مَعَ حَقِّ ذِي الْقُرْبَى وَافْتَرَضَ الْإِحْسَانَ إلَى الْأَبَوَيْنِ،وَذِي الْقُرْبَى،وَالْمَسَاكِينِ،وَالْجَارِ،وَمَا مَلَكَتْ الْيَمِينُ،وَالْإِحْسَانُ يَقْتَضِي كُلَّ مَا ذَكَرْنَا،وَمَنْعُهُ إسَاءَةٌ بِلَا شَكٍّ؟ وَقَالَ تَعَالَى:{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [المدثر:٤٢] {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [المدثر:٤٣] {وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} [المدثر:٤٤] .فَقَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى إطْعَامَ الْمِسْكِينِ بِوُجُوبِ الصَّلَاة.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ فِي غَايَةِ الصِّحَّةِ أَنَّهُ قَالَ:«مَنْ لَا يَرْحَمْ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ اللَّهُ» .

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَمَنْ كَانَ عَلَى فَضْلَة وَرَأَى الْمُسْلِمَ أَخَاهُ جَائِعًا عُرْيَانَ ضَائِعًا فَلَمْ يُغِثْهُ –:فَمَا رَحِمَهُ بِلَا شَكٍّ.وَهَذَا خَبَرٌ رَوَاهُ نَافِعُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ،وَقَيْسُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ،وَأَبِي ظَبْيَانَ وَزَيْدِ

[2666] – انظر:الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي (٧/ ٤٩٨٥) والفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي (٧/ ٤٩٨٩) وفتاوى الشبكة الإسلامية (٧/ ٢٤٢)طاعة ولي الأمر في تقييد المباح إنما تجب إذا تعينت فيه المصلحة أو غلبت وفتاوى واستشارات الإسلام اليوم (١٠/ ٢٠٤)السكنى فيما استردته الدولة من مواطنيها ومجلة مجمع الفقه الإسلامي (٢/ ١٩٨٤) ومجلة مجمع الفقه الإسلامي (٢/ ٧٠٠٢) ومجلة مجمع الفقه الإسلامي (٢/ ١٠٧٣٣) وموقع الإسلام سؤال وجواب (٥/ ٤٨٩٥) وقفات شرعية مع الأزمة المالية

بْنِ وَهْبٍ،وَكُلُّهُمْ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –.رَوَى أَيْضًا مَعْنَاهُ الزُّهْرِيُّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –.

وَحَدَّثَنَاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدٍ ثنا إبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَدَ ثنا الْفَرَبْرِيُّ ثنا الْبُخَارِيُّ ثنا مُوسَى بْنُ إسْمَاعِيلَ هُوَ التَّبُوذَكِيُّ – ثنا الْمُعْتَمِرُ هُوَ ابْنُ سُلَيْمَانَ – عَنْ أَبِيهِ ثنا أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ حَدَّثَهُ «أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا نَاسًا فُقَرَاءَ،وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ،وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ» أَوْ كَمَا قَالَ فَهَذَا هُوَ نَفْسُ قَوْلِنَا.

وَمِنْ طَرِيقِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عُقَيْلِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ أَنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ» .قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:مَنْ تَرَكَهُ يَجُوعُ وَيَعْرَى – وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إطْعَامِهِ وَكِسْوَتِهِ – فَقَدْ أَسْلَمَهُ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ ثنا أَحْمَدُ بْنُ فَتْحٍ ثنا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عِيسَى ثنا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ثنا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ ثنا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ ثنا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ ثنا أَبُو الْأَشْهَبِ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ،حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ» .قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:وَهَذَا إجْمَاعُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – يُخْبِرُ بِذَلِكَ أَبُو سَعِيدٍ،وَبِكُلِّ مَا فِي هَذَا الْخَبَرِ نَقُولُ.وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ –:«أَطْعِمُوا الْجَائِعَ وَفُكُّوا الْعَانِيَ» .

وَالنُّصُوصُ مِنْ الْقُرْآنِ،وَالْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ فِي هَذَا تَكْثُرُ جِدًّا.

وَرُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْت لَأَخَذْت فُضُولَ أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ فَقَسَّمْتُهَا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ هَذَا إسْنَادٌ فِي غَايَةِ الصِّحَّةِ وَالْجَلَالَةِ.وَمِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ عَنْ أَبِي شِهَابٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ

يَقُولُ:إنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَكْفِي فُقَرَاءَهُمْ،فَإِنْ جَاعُوا أَوْ عَرُوا وَجَهَدُوا فَمَنَعَ الْأَغْنِيَاءُ،وَحَقٌّ عَلَى اللَّه تَعَالَى أَنْ يُحَاسِبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة،وَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْه؟ وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:فِي مَالِكَ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاة.وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ،وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ،وَابْنِ عُمَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا كُلُّهُمْ لِمَنْ سَأَلَهُمْ:إنْ كُنْت تَسْأَلُ فِي دَمٍ مُوجِعٍ،أَوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ فَقَدْ وَجَبَ حَقُّكَ.وَصَحَّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَثَلَاثِمِائَةٍ مِنْ الصَّحَابَة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – أَنَّ زَادَهُمْ فَنِيَ فَأَمَرَهُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ فَجَمَعُوا أَزْوَادَهُمْ فِي مِزْوَدَيْنِ،وَجَعَلَ يَقُوتُهُمْ إيَّاهَا عَلَى السَّوَاءِ؟ فَهَذَا إجْمَاعٌ مَقْطُوعٌ بِه مِنْ الصَّحَابَة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –،لَا مُخَالِفَ لَهُمْ مِنْهُمْ.

وَصَحَّ عَنْ الشَّعْبِيِّ،وَمُجَاهِد،وَطَاوُسٍ،وَغَيْرِهِمْ،كُلُّهُمْ يَقُولُ:فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاة.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَمَا نَعْلَمُ عَنْ أَحَد مِنْهُمْ خِلَافَ هَذَا،إلَّا عَنْ الضَّحَّاك بْنِ مُزَاحِمٍ،فَإِنَّهُ قَالَ:نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ حَقٍّ فِي الْمَال.قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَمَا رِوَايَةُ الضَّحَّاك حُجَّةٌ فَكَيْفَ رَأْيُهُ.وَالْعَجَبُ أَنَّ الْمُحْتَجَّ بِهَذَا أَوَّلُ مُخَالِفٍ لَهُ فَيَرَى فِي الْمَالِ حُقُوقًا سِوَى الزَّكَاة،مِنْهَا النَّفَقَاتُ عَلَى الْأَبَوَيْنِ الْمُحْتَاجَيْنِ،وَعَلَى الزَّوْجَة،وَعَلَى الرَّقِيق،وَعَلَى الْحَيَوَان،وَالدُّيُون،وَالْأُرُوشِ،فَظَهَرَ تَنَاقُضُهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ:فَقَدْ رَوَيْتُمْ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ:ثنا أَبُو الْأَحْوَصِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:مَنْ أَدَّى زَكَاةَ مَالِه فَلَيْسَ عَلَيْه جُنَاحٌ أَنْ لَا يَتَصَدَّقَ.وَمِنْ طَرِيقِ الْحَكَمِ عَنْ مِقْسَمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْله تَعَالَى:{وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِه} [الأنعام:١٤١] نَسَخَتْهَا:الْعُشْرُ،وَنِصْفُ الْعُشْرِ.فَإِنَّ رِوَايَةَ مِقْسَمٍ سَاقِطَةٌ لِضَعْفِه ؛وَلَيْسَ فِيهَا وَلَوْ صَحَّتْ خِلَافٌ لِقَوْلِنَا؟ وَأَمَّا رِوَايَةُ عِكْرِمَةَ فَإِنَّمَا هِيَ أَنْ لَا يَتَصَدَّقَ تَطَوُّعًا؛وَهَذَا صَحِيحٌ؟ وَأَمَّا الْقِيَامُ بِالْمَجْهُودِ فَفَرْضٌ وَدَيْنٌ،وَلَيْسَ صَدَقَةَ تَطَوُّعٍ.

وَيَقُولُونَ:مَنْ عَطِشَ فَخَافَ الْمَوْتَ فَفَرْضٌ عَلَيْه أَنْ يَأْخُذَ الْمَاءَ حَيْثُ وَجَدَهُ وَأَنْ يُقَاتِلَ عَلَيْه.قَالَ أَبُو مُحَمَّد:فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ مَا أَبَاحُوا لَهُ مِنْ الْقِتَالِ عَلَى مَا يَدْفَعُ بِه عَنْ نَفْسِه الْمَوْتَ مِنْ الْعَطَشِ،وَبَيْنَ مَا مَنَعُوهُ مِنْ الْقِتَالِ عَنْ نَفْسِه فِيمَا يَدْفَعُ بِه عَنْهَا الْمَوْتَ مِنْ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ.وَهَذَا خِلَافٌ لِلْإِجْمَاعِ،وَلِلْقُرْآن،وَلِلسُّنَنِ،وَلِلْقِيَاسِ.قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ اُضْطُرَّ أَنْ يَأْكُلَ مَيْتَةً،أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ وَهُوَ يَجِدُ طَعَامًا فِيهِ فَضْلٌ عَنْ صَاحِبِه،لِمُسْلِمٍ أَوْ

لذمِّيٍّ؛لِأَنَّ فَرْضًا عَلَى صَاحِبِ الطَّعَامِ إطْعَامُ الْجَائِعِ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إلَـى الْمَيْتَةِ وَلَا إلَى لَحْمِ الْخِنْزِيرِ – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

وَلَهُ أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ ذَلِكَ،فَإِنْ قُتِلَ فَعَلَى قَاتِلِهِ الْقَوَدُ،وَإِنْ قَتَلَ الْمَانِعَ فَإِلَى لَعْنَـةِ اللَّهِ؛لِأَنَّـهُ مَنَـعَ حَقًّا،وَهُوَ طَائِفَةٌ بَاغِيَةٌ،قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّـى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ} [الحجرات:٩] وَمَانِعُ الْحَقِّ بَاغٍ عَلَى أَخِيهِ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ؛وَبِهَذَا قَاتَلَ أَبُـو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مَانِعَ الزَّكَاةِ – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.تَمَّ كِتَابُ الزَّكَاةِ بِحَمْـدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُسْنِ عَوْنِهِ.[٢٦٦٧]



[٢٦٦٧] - المحلى بالآثار (٤/ ٢٨١)(٧٢٥) والموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة (٣/ ١٧٢) وفتاوى الأزهر (١/ ١٦٦)الزكاة و الضرائب ومجلة مجمع الفقه الإسلامي (٢/ ٦٩٤٣) ومجلة مجمع الفقه الإسلامي (٢/ ٧٣٦٨) ومجلة مجمع الفقه الإسلامي (٢/ ٢٤٤٠٢) ومجلة مجمع الفقه الإسلامي (٢/ ٢٤٥٤٥)

المبحث السادس والعشرون

الشرطة

جميع الولايات ومنها ولاية الشرطة المقصود منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وإقامة دين الله في الأرض،قال تعالى:{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [الحج:٤١]

إِنَّهُمُ الذينَ إِذَا مَكَنَّ اللهُ لَهُمْ فِي الأَرْضِ،وَحَقَّقَ لَهُمُ النَّصْرَ والغَلَبَةَ،وَجَعَلَ لَهُمُ العَاقِبَةَ،عَمِلُوا بِأَمْرِ اللهِ،وَاجْتَنُبوا مَا نَهَاهُم عَنْهُ،فَأَقَامُوا الصَّلاَةَ،وأَدَّوهَا حَقَّ أَدَائِها،وَدَفَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ،وَأَمَرُوا بالمعْرُوفِ،وَحَثُّوا النَّاسَ عَلَى فِعْلِ الخَيْرِ وَمَا يُرْضِي اللهَ،وَنَهَوْا المُتَجَاوِزِينَ عَلَى حُدُودِ اللهِ عَنْ فِعْلِ المُنْكَرِ .وَعِنْدَ اللهِ حِسَابُ النَّاسِ جَمِيعاً فِي نِهَايَةِ المَطَافِ،وَلَهُ عَاقِبَةُ الأُمُورِ،فَيجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِه .[٢٦٦٨]

"وَجَمِيعُ الْوِلاَيَاتِ إِنَّمَا مَقْصُودُهَا الأْمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ،سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ وِلاَيَةُ الْحَرْبِ الْكُبْرَى مِثْل نِيَابَةِ السَّلْطَنَةِ،وَالصُّغْرَى مِثْل وِلاَيَةِ الشُّرْطَةِ،وَوِلاَيَةِ الْحُكْمِ،وَوِلاَيَةِ الْمَال – وَهِيَ وِلاَيَةُ الدَّوَاوِينِ الْمَالِيَّةِ – وَوِلاَيَةِ الْحِسْبَةِ .لَكِنَّ مِنَ الْمُتَوَلِّينَ مَنْ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الشَّاهِدِ الْمُؤْتَمَنِ،وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ الصِّدْقُ،مِثْل الشُّهُودِ عِنْدَ الْحَاكِمِ،وَمِثْل صَاحِبِ الدِّيوَانِ الَّذِي وَظِيفَتُهُ أَنْ يَكْتُبَ الْمُسْتَخْرَجَ وَالْمَصْرُوفَ،وَالنَّقِيبِ وَالْعَرِيفِ الَّذِي وَظِيفَتُهُ إِخْبَارُ ذِي الأْمْرِ بِالأْحْوَال،وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الأْمِينِ الْمُطَاعِ،وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْعَدْل،مِثْل الأْمِيرِ وَالْحَاكِمِ وَالْمُحْتَسِبِ .وَبِالصِّدْقِ فِي كُل الأْخْبَارِ،وَالْعَدْل فِي الإْنْشَاءِ مِنَ الأْقْوَال وَالأْعْمَال تَصْلُحُ جَمِيعُ الأْحْوَال ."[٢٦٦٩]

فمن واجبات الشرطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وحفظ أمن البلاد والعباد،والأخذ على أيدي الجناة والمعتدين،وإقامة الحدود وتنفيذ أحكام القضاء،وتنظيم الناس وكفهم عن

[٢٦٦٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥١٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٦٦٩] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٤٥/ ١٤٨) ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية– دار الوفاء (٢٨/ ٦٦) والفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي (٨/ ٦٣٧٢)

التزاحم والفوضى والتعدي في مجالس القضاء،وحراسة الأمراء،وغيرها من الأعمال التي يتـــولى الإمام أو من ينوبه تفصيلها وتبيينها لهم،وما يخصهم من عمل دون غيرهـــم مـــن أصـــحاب الولايات الأخرى.

وهذا التفصيل في اختصاصهم من الأعمال،وتنظيم أعمالهم الإدارية يتولى تبيينها وتنظيمها لهم ولاة الأمر في نطاق الشريعة الإسلامية قواعدها وأصولها العامة،فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَـــالَ:«إِنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ كَانَ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ،بِمَنْزِلَةِ صَـــاحِبِ الشُّـــرَطِ مِـــنَ الأَمِـــيرِ» رواه البخاري[٢٦٧٠]،وذكره ابن حبان في باب ذِكْرُ احْتِرَازِ الْمُصْطَفَى ﷺ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ[٢٦٧١].

وعَنْ حَنَشِ بْنِ أَبِي الْمُعْتَمِرِ،أَنَّ عَلِيًّا،بَعَثَ صَاحِبَ شُرْطَهِ فَقَالَ:أَبْعَثُكَ لِمَا بَعَثَنِي لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا تَدَعْ قَبْرًا إِلا سَوَّيْتَهُ،وَلا تِمْثَالًا إِلا وَضَعْتَهُ " رواه أحمد[٢٦٧٢].

وعَنِ ابْنِ مُعَيْزٍ السَّعْدِيِّ،قَالَ :خَرَجْتُ أَسْقِي فَرَسًا لِي فِي السَّـــحَرِ،فَمَرَرْتُ بِمَسْـــجِدِ بَنِـــي حَنِيفَةَ،وَهُمْ يَقُولُونَ :إِنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولُ اللهِ،فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ،فَأَخْبَرْتُـــهُ،فَبَعَثَ الشُّـــرْطَةَ،فَجَاؤُوا بِهِمْ،فَاسْتَتَابَهُمْ،فَتَابُوا فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ،وَضَرَبَ عُنُقَ عَبْدِ اللهِ بْنِ النَّوَّاحَةِ،فَقَالُوا :آخَذْتَ قَوْمًا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ،فَقَتَلْتَ بَعْضَهُمْ،وَتَرَكْتَ بَعْضَهُمْ ؟ قَالَ :إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،وَقَدِمَ عَلَيْهِ هَـــذَا

[٢٦٧٠] - صحيح البخاري (٩/ ٦٥)(٧١٥٥)

[ش (قيس بن سعد) بن عبادة الأنصاري الخزرجي رضي الله عنهما (صاحب الشرط) جمع شرطة وهم أول الجيش ونخبته.سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات وصاحبهم كبيرهمقال في الفتح وفي الحديث تشبيه ما مضى بما حدث بعده.لأن صاحب الشرطة لم يكن موجودا في العهد النبوي عند أحد من العمال وإنما حدث في دولة بني أمية فأراد أنس بن مالك تقريب حال قيس بن سعد عند السامعين فشبهه بما يعهدونه]

كَانَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ)؛أَيِ ابْنِ عُبَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ،سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَابْنُ سَيِّدِهَا،أَحَدُ دُهَاةِ الْعَرَبِ،وَأَهْلِ الرَّأْيِ وَرِيَاسَةِ الْبُيُوتِ،وَكَانَ مِنْ ذَوِي النَّجْدَةِ،وَالْبَسَالَةِ،وَالْكَرَمِ،وَالسَّخَاءِ،وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ جَسِيمًا طَوِيلًا،وَكَانَ مُنْتَصِبًا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛لِتَنْفِيذِ مَا يُرِيدُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ (بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشُّرَطِ) بِضَمٍّ فَفَتْحٍ (مِنَ الْأَمِيرِ) قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:وَهُوَ جَمْعُ شُرْطِيٍّ،وَهُوَ الَّذِي يَتَقَدَّمُ بَيْنَ يَدَيِ الْأَمِيرِ،وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَى الشُّرَطِ لِلْأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ،سُمُّوا بِذَلِكَ؛لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ عَلَامَةً يُعْرَفُونَ بِهَا (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٥)

[٢٦٧١] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٣٦٦)

[٢٦٧٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٢/ ٣٩٩)(١٢٣٩) صحيح لغيره

وَابْنُ أُثَالِ بْنِ حَجَرٍ،فَقَالَ :أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟ فَقَالاَ :نَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولُ اللهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِه،لَوْ كُنْتُ قَاتِلاً وَفْدًا،لَقَتَلْتُكُمَا،فَلِذَلِكَ قَتَلْتُهُ.رواه أحمد[2673].

وعن عُقْبَةَ بْنِ حُرَيْث،قَالَ :سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ،وَجَاءَ رَجُلٌ قَاصٌّ وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِه فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ :قُمْ مِنْ مَجْلِسِنَا،فَأَبَى أَنْ يَقُومَ،فَأَرْسَلَ ابْنُ عُمَرَ إِلَى صَاحِبِ الشُّرَطِ :أَقِمَ الْقَاصَّ،فَبَعَثَ إِلَيْه فَأَقَامَهُ."[2674]

وقال محمد بن خلف بن حبان في أخبار القضاة " حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن منصور الرمادي،قال:حَدَّثَنَا سليمان بْن حرب قال:حَدَّثَنَا حماد بْن زيد،عَن ابن عون،قال:لما ولي الْحَسَن كانوا يدنون منه حتى يضعوا أيديهم على كتفيه،فقال:ما يصلح هؤلاء الناس إِلَّا وزعة.

أَخْبَرَنِي مُحَمَّد بْن الْحَسَن الصغاني،قال:حَدَّثَنَا عفان بْن مسلم،قال:حَدَّثَنَا سليم بْن أخضر،عَن ابن عون،قال:لما استقضى الْحَسَن ازدحموا عليه،فَقَالَ:ما يصلح الناس إِلَّا وزعة.

أَخْبَرَنَا عَبْد اللهِ بْن أَحْمَد بْن حنبل،عَن أبيه،عَنْ عَبْدِ الصمد،عَن شعبة،قال:رأيت الْحَسَن وقال:فتكالبوا عليه فَقَالَ:لا بد لهؤلاء من وزعة وكان يقعد إِلَى المنارة العتيقة في آخر المسجد،قال:يعني للقضاء."[2675].

فالشرطة من أسباب قوة الدولة الإسلامية،واستتباب الأمن فيها،والواجب أن يتولى الأمناء القيام بأعمالها وتنظيمها،وقيادة جنودها،وقد قال تعالى:{وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ } [ص:٢٠] أي قوينا ملكه بالنصر والهيبة والحرس والجند،قال العلامة السعدي رحمه الله " أي:قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة الْعَدَد والْعُدَدِ التي بها قوّى الله ملكه،ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال:{وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ} أي:النبوة والعلم العظيم،{وَفَصْلَ الْخِطَابِ} أي:الخصومات بين الناس."[2676]

[2673] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٢/ ٧٧)(٣٨٣٧) صحيح لغيره

[2674] - البدع لابن وضاح (١/ ٤٩)(٤٠) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٣٦١)(٢٦٧١٩) صحيح

[2675] - أخبار القضاة (٢/ ٦)

[2676] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧١١)

فكان ملكه قويا عزيزا.وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا.وفصل الخطاب قطعه والجزم فيه برأي لا تردد فيه.وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان.[2677]

فالجند والحرس كالشرطة ونحوهم من أعظم الأسباب التي تقوى بها الحكومة ويشد سلطانها،ويبسط نفوذها على نواحي البلاد وأطرافها.

حكم الالتحاق بالشرطة:

الجنود من الشرطة وغيرهم هم من أعوان الحاكم،فإذا أعانوا الحاكم المسلم على إقامة دين الله ونصرته،وصبروا وصابروا ورابطوا في أطراف البلاد وفي داخلها،يدافعون عن دين الله تعالى،ويذودون عن دولة الإسلام،فعملهم من الجهاد في سبيل الله،ومن التعاون على البر والتقوى،وقد قال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:2].

وأما جنود الطواغيت والظلمة من الشرطة وغيرهم فهؤلاء الذين جاءت النصوص الشرعية في ذمهم،والتحذير من عملهم،والوعيد على إجرامهم وظلمهم،قال تعالى:{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) } [القصص]

لَقَدْ تَكَبَّرَ فِرعَونُ في أَرْضِ مِصْرَ،وَتَجَبَّرَ،وَجَعَلَ أَهْلَهَا فِرَقاً وأَصْنَافاً وأَحزَاباً مَتَعَدِّدَةً (شيَعاً)،وأَغْرَى بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ،لكَيلاَ يَتَّفِقُوا عَلَى أَمرٍ،وَلاَ يُجْمِعُوا عَلَى رَأْيٍ،وَيَسْتَغِلُّ بَعْضَهُمْ لِلْكَيدِ لِبَعْضٍ،فَلا يَصْعُبُ عَلَيهِ خُضُوعُهُم واسْتِسْلامُهُمْ واستَضْعَفَ بَني إِسْرَائِيلَ (طائفةً

[2677] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 - ت- علي بن نايف الشحود (ص:3804)

منهمُ)،وكَانُوا أَهلَ الإيمانِ في ذلكَ الزَّمَانِ،واستَذَلَّهُم،فَأَخَذَ يَسْتَعْمِلُهُمْ في أَحَطِّ الأَعمَالِ وأَشقِّها،وَيَقتُلُ الذُّكُورَ منْ أَوْلادهمْ حينَ يُولَدُونَ،لأَنَّهُ كَانَ يَخَافُ منْ بَني إِسْرَائيلَ أَنْ يَسْتَولَوا عَلَى المَرافقِ العَامَّة،وأَنْ يَغْلبُوا الأَقْباطَ إذا تَكَاثَرُوا وتَنَاسَلُوا،وَقَدْ كَانَ فرعَونُ مِنَ الضَّالينَ المُفْسدينَ.

ولكنَّ قَضَاءَ اللهِ لاَ مَهْرَبَ منْهُ،وَلاَ يَنْفَعُ حَذَرٌ منْ قَدَرٍ،فَوُلدَ مُوسَى وَتَرَبَّى عَلَى بَني إسرائيلَ الذينَ كَانَ يَسْتَضْعِفُهُمْ فِرعَوْنُ في أرْضِ مصْرَ،فَجَعَلَهُمْ أَئمَّةً،وقُدْوَةً للنَّاسِ في زَمَانهمْ،وَأَوْرَاثَهُمُ الأَرضَ المُقَدَّسَةَ التي وَعَدَهُمُ اللهُ بالسُّكْنَى فيها عَلى لِسَانِ إبراهيمَ وَيَعقُوبَ.

وَمَكَّنَ اللهُ لبني إسرَائيلَ في الأرضِ المُقَدَّسَة وأَنقَذَهُمْ من عَسَف فِرعَوْنَ وطُغيَانه،فَخَرَجَ فِرْعَونُ وَهَامَانُ وجُنُودُهُما،يَتبَعُونَ آثَارَ بَني إسرَائيلَ،لِضْطَرُّوهُمْ إلى العَودَة إلى أَرْضِ مصْرَ،فَأَغْرَقَهُمُ اللهُ تَعَالى وَأَذَاقَهُمْ مَا كَانُوا يَحذَرُونَ منَ الهَلاك،وضَياعِ المُلْك عَلى يَد وَلَد يُولَدُ منْ بَني إسرَائيلَ.

لَمَّا أَكثرَ فرعَونَ القَتْلَ في بَني إسرائيلَ خَافَ الأَقباطُ أَن يَفْنَى بَنُو إسرائيلَ،فَيُضْطَرُّ القِبطُ،إلى القيامِ بمَا يَقُومُ به بَنُو إسْرائيلَ منَ الأَعمَالِ الشَّاقة،فَقَالُوا لفرعَوْنَ ذَلكَ،فَأَمرَ بقَتْلِ الوِلْدَان عَاماً،وَتَركهمْ عَاماً،فَوُلدَ هارُونُ في السَّنَة التي يَتْركُونَ فيها الذُّكُورَ،وَوُلدَ مُوسَى في السَّنَة التي يَقْتُلُونَ فيها الذُّكُورَ فَخَافَتْ أُمهُ عَلَيه،وَضَاقَتْ به ذَرْعاً،وَقَدْ أَحَبَّتْهُ حُبّاً شَديداً (فَقَدْ أَلقَى اللهُ تَعَالى مَحَبَّتَهُ في قَلْب كُلِّ مَنْ رَآهُ كَمَا جَاءَ في حُبّاً شَديداً (فَقَدْ أَلقى اللهُ تَعَالَى مَحَبَّتَهُ في قَلْب كُلِّ مَنْ رَآهُ كَمَا جَاءَ في آية أُخْرى) فَأَلْهَمَهَا اللهُ أَنْ تَضعَهُ في تَابُوت،وَتَقْذفَهُ في المَاء حينَمَا يَدْخُلُ عَلَيها أَحَدٌ تَخَافُهُ.وَرَبَطَت التَّابُوتَ بحَبْلٍ فإذا ذَهَبَ مَا تَحْذَرُهُ جَذَبَت الحَبلَ وأَخْرَجَتْ مُوسَى منَ التَّابُوت.وذَات يوم دَخَلَ عَلَيها مَنْ تَحْذَرُهُ،فَوَضَعَتْ مُوسَى في المَهْد،وَنَسيَتْ رَبطَ الحَبْلِ،فَذَهَبَ به المَاءُ،واحتَمَلَهُ حَتَّى مَرَّ به أَمامَ دارِ فرعَونَ.وَقَدْ وَعَدَ اللهُ أُمَّ مُوسَى بمَا يُسلِّيها،ويُطْمئنُ قَلبَها،وَهُوَ أَنَّهُ سَيَحفَظُهُ لَهَا،وَسَيَرُدُّهُ إليها لتكُونَ مُرضعَتَهُ،وأَنَّهُ سيَجعَلُهُ مُرْسَلاً إلى فِرْعوْنَ الطَّاغيَة،وسَيَجْعَلُ على يَدَيه هَلاَكَ فرعَونَ،ونَجَاةَ بَني إسْرائيلَ ممَّا هُمْ فيه.

فَالتَقَطَتْهُ الجَوَاري،وَحَمَلْنَهُ إلى امْرَأَة فرْعَوْنَ،وَكَأَنَّهُ لُقَطَةٌ،فَأَوْقَعَ اللهُ مَحبَّتَهُ في قَلْبها،وَقَدْ قَدَّرَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتربَّى مُوسَى في دَارِ فِرْعَوْنَ،وَعَلَى فِراشه،ليكُونَ عُدُوّاً لفرعَونَ وقَومه،ولِتَحلَّ بهم

المُصيبةُ عللا يديه،فَقَد كَـــانَ فرعَـــونُ،وَوَزيرُهُ هَامَانُ،وجُنُودُهُمـــا الـــذينَ لاَحَقُـــوا بـــني إسْرائيلَ،والذينَ كَانُوا أداةَ الظُّلْمِ والإرْهَابِ فِي يَدِ فِرْعَونَ،جَميعاً مِنْ مُرتكبي الخَطَايا.[2678]

وقال تعالى:{وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُـــونَنَّ ظَهِـــيرًا لِلْكَافِرِينَ } [القصص:٨٦]

ومَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ تَظُنُّ – قَبلَ إنزَالِ الوَحيِ عَلَيكَ – أَنَّهُ سَيَتزِلُ عَليكَ،فَتَعْلَمُ أَخبارَ المَاضِـــينَ منْ قَبلكَ،وَمَا سَيَحدُثُ منْ بَعدكَ،وما فيه تَشْرِيعٌ وسَعَادَةٌ للبَشَرِ في مَعَاشِهِم ومَعَادِهِمْ،ثُمَّ تَتلُو ذَلكَ عَلى قَومكَ،وأن اللهَ أَنْزَلَهُ عَليكَ رَحمةً منهُ بكَ وبالعبَاد،فإذا حَبَـــاكَ اللهُ بهـــذهِ النِّعمَـــةِ العَظِيمة،فَلا تَكُونَنَّ مُعيناً للْكَافِرينَ،ولَكنْ فَارِقْهُمْ وخَالِفْهُمْ.[2679]

وقال تعالى:{الَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ } [القصص:١٧]

قَالَ مُوسى:رَبِّ بما جَعَلْتَ لِي منَ الجَاه والعزِّ،وَبما أَنْعَمْتَ عَليَّ بعفُـــوكَ عَـــنْ قَتْـــلِ هـــذه النَّفْسِ،لأَمْتَنعَنَّ عَنْ مثْلِ هذا الفعْلِ،وَلَنْ أَكُونَ عَوْنـــاً للمُجْـــرِمينَ الكَـــافِرينَ بكَ،المُخَـــالِفينَ لأمْرِك،وَلَنْ أُظَاهِرَهُمْ عَلَى الإِثمِ والعُدْوَان.[2680]

وعن عُبَيْد اللَّه بْنِ الْوَليد الرُّصَافِيِّ قَالَ قُلْتُ لعَطَاءِ أَخٌ لَهُ صَاحِبُ سُلْطَان يَكْتُبُ مَـــا يَـــدْخُلُ (وَيَخْرُجُ) أَمينٌ عَلَى ذَلكَ إنْ تَرَكَ قَلَمَهُ صَارَ عَلَيْه دَيْنٌ وَإنْ أَخَذَ بقَلَمه كَانَ لَهُ غنًى وَلعيَالـــه قَالَ الرَّأْسُ مَنْ قُلْتُ خَالدُ بْنُ عَبْد اللَّه قَالَ أَوَ مَا تَقْرَأُ هَذه الْآيَةَ رَبِّ بمَا أَنْعَمْتَ عَلَـــيَّ فَلَـــنْ أَكُونَ ظَهيرًا للْمُجْرِمينَ صَاحِبُ الْقَلَمِ عَوْنٌ لَهُمْ وَمَنْ أَقَلُّ منْ صَاحِب قَلَمٍ (عَوْنٌ لَهُـــمْ) ليَـــرْمِ بقَلَمه فَإنَّ اللَّهَ آتيه بغنًى أَوْ رزْق وَرُوِّينَا عَنْ رَجَاء بْنِ حَيْوَةَ قَالَ كُنْتُ وَاقفًا ببَاب سُلَيْمَانَ بْنِ عبد المالك فَأَتَاني آت لَمْ أَرَهُ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ فَقَالَ يَا رَجَاءُ إنَّكَ قَدْ بُليتَ بهَذَا (أَوْ بُليَ) بكَ وَفي دُنُوِّكَ منْهُ فَسَادُ دينكَ يَا رَجَاءُ فَعَلَيْكَ بالْمَعْرُوف وَعَوْن الضَّعيف يَا رَجَاءُ إنَّهُ مَنْ رَفَعَ حَاجَـــةً لضَعيف إلَى سُلْطَان لَا يَقْدرُ عَلَى رَفْعهَا ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاط يَوْمَ تَزِلُّ فيه الْأَقْدَامُ "[2681]

وقال تعالى:{ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الأعراف:١١١]

[2678] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣١٣٨،بترقيم الشاملة آليا)

[2679] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٢٠،بترقيم الشاملة آليا)

[2680] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣١٥١،بترقيم الشاملة آليا)

[2681] – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٣/ ٥٥)

وَبَعدْ أَنْ قَلَّبُوا أَوْجُهَ الرَّأْيِ،قَالُوا لِفِرْعَونَ:أَخِّرِ البَتَّ فِي أَمْرِهِ،وَاسْتَبْقِهِ،وَأَرْسِلْ فِي مَدَائِنِ مَمْلَكَتِكَ مَنْ يَجْمَعُ لَكَ السَّحَرَةَ.وَكَانَ السَّحَرَةُ كَثِيرينَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ.[2682]

«أرجه» أي أنظره وأخّر الأمر فيه إلى أن نجمع ما فى المدن من السحرة،أصحاب العلم،والتخصص فى هذا الباب،وبهذا نلقى سحره بسحر مثله،يستند إلى علم ومعرفة.

والحاشرون:هم الذين يتولّون جمع السحرة وحشدهم،وحشرهم إلى ساحة فرعون..والتعبير بالحشر هنا،يشير إلى أن الأمر عظيم،وأنه لا بد له من حشر الناس إليه،وبعثهم سراعا من كل أفق،ليلقوا موسى،ويقفوا فى وجه هذا الخطر الذي دهمهم به.وحشر السحرة على عجل،وأقبلوا من كل أفق،وغصّت بهم ساحة فرعون..وما كانوا قد رأوا رأى العين ما كان من فعل موسى بعصاه ويده،مع فرعون،وإن كانوا قد سمعوا به،وتصوروه على ما روى لهم..

ومن هنا وقع فى أنفسهم أنه ساحر مثلهم،وأنّه إذا كان على شيء من القوة بالنسبة لهم،فإن فى جمعهم هذا ما يتغلب على كل قوة..ومن هنا أيضا وقع فى أنفسهم أنهم أصحاب الموقف المنتظر بينهم وبين موسى،فكانت لهم بذلك دالّة على فرعون،وقد أطمعهم فيه،ما وجدوه عليه من ذلّة وانكسار،فجاءوا إليه يسألونه الأجر مقدّما،ويسألونه الجزاء الذي لهم عنده،بعد أن يكون لهم الغلب!![2683]

وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْ مَشُورَةِ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ عَلَى فِرْعَوْنَ،أَنْ يُرْسِلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ،يَحْشُرُونَ كُلَّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ.وَفِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ اكْتُفِيَ بِدَلَالَةِ الظَّاهِرِ مِنْ إِظْهَارِهِ،وَهُوَ:فَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَحْشُرُونَ السَّحَرَةَ،فَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ {قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا} [الأعراف:١١٣] يَقُولُ:إِنَّ لَنَا لَثَوَابًا عَلَى غَلَبَتِنَا مُوسَى عِنْدَكَ،{إِنْ كُنَّا} [الأعراف:١١٣] يَا فِرْعَوْنُ {نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [الأعراف:١١٣][2684]

[2682] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٠٦٦،بترقيم الشاملة آليا)

[2683] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٤٥٢)

[2684] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٠/ ٣٥٢)

عَنْ مُجَاهِدٍ:" {وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الأعراف:١١١] قَالَ:الشُّرَطُ " وعَنِ السُّدِّيِّ:" {[ص:٣٥٢] وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الأعراف:١١١] قَالَ:الشُّرَطُ "وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،فِي قَوْلِهِ:" {فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الأعراف:١١١] قَالَ:الشُّرَطُ " [٢٦٨٥].

وقال تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} [هود:١١٣]

وَلاَ تَسْتَعِينُوا بالظَّالمينَ،وَلاَ تَعْتَمِدُوا عَلَيْهِمْ،وَلاَ تَعْتَزُّوا بِهِمْ،وَلاَ تَسْتَحْسِنُوا طَرِيقَتَهُمْ (لاَ تَرْكَنُوا) فَتَكُونُوا كَأَنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِأَعْمَالِهِمْ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ أَصَابَتْكُمُ النَّارُ التِي هِيَ جَزَاءُ الظَّالمِينَ،وَلَنْ تَجِدُوا يَوْمَئِذٍ مَنْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ.(وَالآيَةُ عَامَّةٌ تَشْمَلُ الظَّالمِينَ دُونَ تَفْرِيقٍ بَيْنَ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ)[٢٦٨٦]

أي:لا تميلوا {إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} فإنكم،إذا ملتم إليهم،ووافقتموهم على ظلمهم،أو رضيتم ما هم عليه من الظلم {فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} إن فعلتم ذلك {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ} يمنعونكم من عذاب الله،ولا يحصلون لكم شيئا،من ثواب الله.{ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ} أي:لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم،ففي هذه الآية:التحذير من الركون إلى كل ظالم،والمراد بالركون،الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك،والرضا بما هو عليه من الظلم.وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة،فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟!! نسأل الله العافية من الظلم.[٢٦٨٧]

وعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَوْلُهُ:وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قَالَ:تَرْضَوْا أَعْمَالَهُمْ.

وسُئِلَ سُفْيَانُ،عَنْ قَوْلِهِ:وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قَالَ:لَا تَدْنُوا مِنْهُمْ ثُمَّ قَرَأَ:لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا.

وسئل فُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ،عَنْ قَوْلِ اللَّهِ:وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قَالَ:مِمَّنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا،وَمَنْ كَانُوا،وَفِي أَيِّ زَمَانٍ كَانُوا.

[٢٦٨٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٠/ ٣٥١) وتفسير ابن أبي حاتم - محققا (٨/ ٢٧٦١)(١٥٦١٠) صحيح

[٢٦٨٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٥٨٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٦٨٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٩١)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ يَعْنِي الرُّكُونَ إِلَى الشِّرْكِ.
وعَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ:وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ أَيْ لَا تَلْحَقُوا بِالشِّرْكِ وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي تَابُوا مِنْهُ.
وعَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ:وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الذين ظلموا فتمسكم النار ويقول لَا تَلْحَقُوا بِالشِّرْكِ وَهُوَ الَّذِي خَرَجْتُمْ مِنْهُ وَلَيْسَتْ وَاللَّهِ كَمَا تَأَوَّلَهَا أَهْلُ الشُّبُهَاتِ وَالْبِدَعِ وَالْفِرَايَةِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى كِتَابِهِ.
وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ:وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قَالَ:لَا تَرْكَنُوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ قَالَ:الإِرْكَانُ:الإِدْهَانُ وَقَرَأَ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ قَالَ:تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ وَلا تُنْكِرُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا،وَالرُّكُونُ أَنْ يَقُولَهُ بِمَا قَالَ الْإِدْهَانُ.[٢٦٨٨]

لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا.إلى الجبارين الطغاة الظالمين،أصحاب القوة في الأرض،الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبّدونهم لغير الله من العبيد ..لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه.ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير.«فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» ..جزاء هذا الانحراف.«وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ» ..[٢٦٨٩]

وقال القرطبي رحمه الله " قَوْلُهُ تَعَالَى:(إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) قِيلَ:أَهْلُ الشِّرْكِ.وَقِيلَ:عَامَّةٌ فِيهِمْ وَفِي الْعُصَاةِ،عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى:" وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا" [الأنعام:٦٨] الْآيَةَ.وَقَدْ تَقَدَّمَ.وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ،وَأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى هِجْرَانِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَغَيْرِهِمْ،فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ كُفْرٌ أَوْ مَعْصِيَةٌ،إِذِ الصُّحْبَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ مَوَدَّةٍ،وَصُحْبَةُ الظَّالِمِ عَلَى التَّقِيَّةِ مُسْتَثْنَاةٌ مِنَ النَّهْيِ بِحَالِ الِاضْطِرَارِ.وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى:(فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) أَيْ تُحْرِقَكُمْ.بِمُخَالَطَتِهِمْ وَمُصَاحَبَتِهِمْ وَمُمَالَأَتِهِمْ عَلَى إِعْرَاضِهِمْ وموافقتهم في أمورهم."[٢٦٩٠]

[٢٦٨٨] - تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٦/ ٢٠٩٠)(١١٢٥٦ -١١٢٦٢)
[٢٦٨٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٥٧٢)
[٢٦٩٠] - تفسير القرطبي (٩/ ١٠٨)

وعَنْ أَبِي سَعِيد،وَأَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَا:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُقَرِّبُونَ شِرَارَ النَّاسِ،وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا،فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَا يَكُونَنَّ عَرِيفًا،وَلَا شُرْطِيًّا،وَلَا جَابِيًا،وَلَا خَازِنًا» رواه ابن حبان[2691].

وعَنْ عَوْف بْنِ مَالِك،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" أَخَافُ عَلَيْكُمْ سِتًّا:إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ،وَسَفْكُ الدِّمَاءِ،وَبَيْعُ الْحُكْمِ،وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ،وَنَشْوٌ يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ،وَكَثْرَةُ الشُّرَطِ " رواه الطبراني[2692]،وكثرة الشرط المذمومة هي المقترنة بالظلم ومعاونة الظلمة.

وعَنْ عَابِسٍ الْغِفَارِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ:" يَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّته سِتَّ خِصَالٍ:إِمْرَةُ الصِّبْيَانِ،وَكَثْرَةُ الشُّرَطِ،وَالرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ،وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ،واسْتِخْفَافُ بِالدَّمِ،وَنَشْوٌ يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ يُقَدِّمُونَ الرَّجُلَ لَيْسَ بِأَفْقَهِهِمْ وَلَا أَفْضَلِهِمْ يُغَنِّيهِمْ غِنَاءً "[2693]

محاسبة الشرطة ومحاكمتهم:

والواجب على الشرطة أن يقيموا العدل بين الناس،وأن يتجنبوا الظلم والتعدي عليهم،فإذا تعدَّى أحدهم على الناس بضرب أوغيره،أو أخذ أموال الناس بغير حق من رشا وغيرها،فعلى ولاة الأمر محاسبته ومحاكمته وتنفيذ حكم الله فيه،فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مغفلٍ،قَالَ :كُنْتُ جَالِسًا عَندَ عَلِيٍّ،فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَسَارَّهُ،فَقَالَ عَلِيٌّ :يَا قَنْبَرُ،فَقَالَ النَّاسُ :يَا قَنْبَرُ،قَالَ :أَخْرِجْ هَذَا فَاجْلِدْهُ،ثُمَّ جَاءَ الْمَجْلُودُ،فَقَالَ :إِنَّهُ قَدْ زَادَ عَلَيَّ ثَلاَثَةَ أَسْوَاطٍ،فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ :مَا يَقُولُ ؟ قَالَ :صَدَقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،قَالَ :خُذَ السَّوْطَ فَاجْلِدْهُ ثَلاَثَةَ أَسْوَاطٍ،ثُمَّ قَالَ :يَا قَنْبَرُ،إِذَا جَلَدْتَ فَلاَ تَعْدُ الْحُدُودَ.[2694].

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ ؛أَنَّ جِلْوَازًا قَنَعَ رَجُلاً بِسَوْطٍ،فَأَقَادَهُ مِنْهُ شُرَيْحٌ.[2695]

[2691] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٤٦)(٤٥٨٦) حسن

[2692] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ٥٧)(١٠٥) حسن لغيره

[2693] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ٣٧)(٦٢ و٦٣) صحيح

[2694] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٣٣٧)(٢٨٥٩٥) حسن

[2695] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٣٣٧)(٢٨٥٩٤) صحيح

وعَن إِبْرَاهِيم قَالَ جَاءَ رجل إِلَى شُرَيْح فَقَالَ أقدني من جلوازك هَذَا الْقَائِم على رَأسك فَقَالَ لجلوازه مَا أردْت لهَذَا الرجل قَالَ ازدحموا عَلَيْك فضربته سَوْطًا فأقاده مِنْهُ"[٢٦٩٦] والجلواز الشرطي.

وعَنْ كَرْدَمِ بْنِ يَزِيدَ الْفَزَارِيِّ،قَالَ:قَالَ لِي سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُب:«يَا ابْنَ أَخِي ،أَرَاكَ شَابًّا حَرِيصًا عَلَى الْعَمَلِ ،فَالْزَمِ الْعَفَافَ يَلْزَمْكَ الْعَمَلُ ،وَكُلْ قَلِيلًا تَعْمَلْ طَوِيلًا ،وَإِيَّاكَ وَالرَّشْوَةَ تَشُدَّ ظَهْرَكَ عِنْدَ الْخُصُومَةِ»[٢٦٩٧]

حفظ حقوق الناس:

حفظ الأمن لايعني التعدي على حقوق الناس وخصوصياهم التي حرم الله تعالى هتكها والاطلاع عليها،فإن الشريعة الإسلامية جاءت بحفظ حقوق الناس،وحماية خصوصياهم،وصون كرامتهم،وقد نهى الله تعالى عن التجسس،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } [الحجرات:١٢] يَنْهى اللهُ تَعَالى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ عَن الظَّنِّ السَّيِّءِ بإخوانِهِمْ المُؤْمنِينَ،لأنَّ ظَنَّ المُؤْمِنِ السَّوْءَ إِثْمٌ،لأنَّ اللهَ نَهَى عَنْ فِعْلِهِ،فَإذا فَعَلَهُ فَهُوَ آثِمٌ..ثُمَّ نَهَى اللهُ تَعَالى المُؤْمِنِينَ عَنْ أن يَتَجَسَّسَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،كَمَا نَهَاهُمْ عَنْ أنْ يَتَتَبَّعَ بَعْضُهُم عَوْرَاتِ بَعْضٍ،وَعَنْ أنْ يَبْحَث الوَاحِدُ مِنْهُمْ عَنْ سَرَائِرِ أخِيهِ،وَهُوَ يَبْتَغِي بذلِكَ فَضْحَهُ،وَكَشْفَ عُيُوبِه.

ثُمَّ نَهَاهم عَنْ أنْ يَغْتَابَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً،وَعَنْ أنْ يَذْكُرَ أحَدُهُمْ أخَاهُ بما يَكْرَهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَخَلْقِهِ وَخُلُقِهِ وَأهلِهِ وَمَالِهِ وَزَوْجِهِ وَوَلَدِه..(كَما عَرَّفَ رَسُولُ اللهِ الاغتِيَابَ) .

وَشَبَّه تَعَالى اغْتِيَابَ المُؤْمِنِ لأخِيهِ المؤمنِ بأكْلِهِ لَحمَهُ بَعْدَ موتِه،وَقَالَ للمُؤمنينَ إنَّهم إذا كَانَ أَحَدُهُمْ يَكْرَهُ أكْلَ لَحْمِ أخِيهِ بَعْدَ مَوتِهِ،وَإذا كَانَتْ نَفْسُهُ تَعَافُ ذَلِكَ فَعَلَيهِمْ أنْ يَكْرَهُوا أنْ يَغْتَابُوهُ فِي حَيَاتِهِ.

[٢٦٩٦] - تغليق التعليق (٥/ ٢٥٤) صحيح

[٢٦٩٧] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٤٥) حسن

وَلِلْغيبَة ثَلاثَةُ وُجُوه:
الغيبَةُ – وَهيَ أنْ يَقُولَ الإنسَانُ في أخيه مَا هُوَ فيه ممَّا يَكْرَهُهُ.
الإفْكُ – أنْ يَقُولَ فيه مَا بَلَغَهُ عَنْهُ ممَّا يَكْرَهُهُ.
البُهْتَانُ – أنْ يَقُولُ فيه مَا لَيسَ فيه ممّا يَكْرَهُهُ.
ثُمَ حَثَّ اللهُ تَعَالى المُؤْمنينَ عَلى تَقْوى الله،وَعَلَى تَرْك الغيبَة،وَمُرَاقَبته تَعَالى في السِّرِّ والعَلن،فإذا تَابُوا وانتَهَوا واستَغْفَروا رَبَّهم عَمّا فَرَطَ منْهُم،اسْتَجَابَ لَهُم رَبُّهُمْ،فَتَابَ عَلَيهمْ،لأنَّه تَعَالى كَثيرُ التَّوْب عَلَى عبَاده،كَثيرُ الرَّحمة بهمْ.[٢٦٩٨]
وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ،فَإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَديث،وَلاَ تَحَسَّسُوا،وَلاَ تَجَسَّسُوا،وَلاَ تَنَاجَشُوا،وَلاَ تَحَاسَدُوا،وَلاَ تَبَاغَضُوا،وَلاَ تَدَابَرُوا،وَكُونُوا عبَادَ اللَّه إخْوَانًا» رواه البخاري ومسلم[٢٦٩٩].
قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ) أَي:احْذَرُوا اتِّبَاعَ الظَّنِّ في أَمْر الدِّين الَّذي مَبْنَاهُ عَلَى الْيَقين قَالَ تَعَالَى:{وَمَا يَتَّبعُ أَكْثَرُهُمْ إلَّا ظَنًّا إنَّ الظَّنَّ لَا يُغْني منَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس:٣٦] قَالَ الْقَاضي:التَّحْذيرُ عَن الظَّنِّ فيمَا يَجبُ فيه الْقَطْعُ أَو التَّحَدُّثُ به عنْدَ الاسْتغْنَاء عَنْهُ أَوْ عَمَّا يُظَنُّ كَذبُهُ اهـ.أَو اجْتَنبُوا الظَّنَّ في التَّحْديث وَالْإخْبَار،وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ:(فَإنَّ الظَّنَّ) :في مَوْضع الظَّاهر زيَادَةُ تَمْكين في ذهْن السَّامع حَثًّا عَلَى الاجْتنَاب (أَكْذَبُ الْحَديث) :وَيُقَوِّيه حَديثُ:" «كَفَى بالْمَرْء كَذبًا أَنْ يُحَدِّثَ بكُلِّ مَا سَمعَ» " وَقيلَ أَيْ أَكْذَبُ حَديث النَّفْس؛لأَنَّهُ يَكُونُ بإلْقَاء الشَّيْطَان أَو اتَّقُوا سُوءَ الظَّنِّ بالْمُسْلمينَ قَالَ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اجْتَنبُوا كَثيرًا منَ الظَّنِّ} [الحجرات:١٢] وَهُوَ مَا يَسْتَقرُّ عَلَيْه صَاحبُهُ دُونَ مَا يَخْطُرُ بقَلْبه أَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ – وَهُوَ أَنْ يَظُنَّ وَيَتَكَلَّمَ – إثْمٌ،فَلَا تَجَسَّسُوا،وَهُوَ الْمُلَائمُ لقَوْله:(وَلَا تَحَسَّسُوا،وَلَا تَجَسَّسُوا) :بحَاء مُهْمَلَة في الْأَوَّل وَبالْجيم في الثَّاني فَقَالَ ابْنُ الْمَلَك:أَيْ لَا تَطْلُبُوا التَّطَلُّعَ عَلَى خَيْر أَحَد وَلَا عَلَى شَرِّه،وَكلَاهُمَا مَنْهيٌّ عَنْهُ لأَنَّهُ لَو اطَّلَعْتَ عَلَى خَيْر أَحَدٍ رُبَّمَا يَحْصُلُ لَكَ حَسَدٌ بأَنْ لَا يَكُونَ

[٢٦٩٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٦٩٩] – صحيح البخاري (٨/ ١٩)(٦٠٦٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٨٥)٢٨ – (٢٥٦٣)

[ش (لا تناجشوا) من النجش وهو أن يزيد في ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ليوهم غيره بنفاستها]

ذَلكَ الْخَيْرُ فيكَ،وَلَو اطَّلَعْتَ عَلَى شَرِّه تَعيبُهُ وَتَفْضَحُهُ،وَقَدْ وَرَدَ:طُوبَى لمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوب النَّاس.وَفي شَرْحِ مُسْلم للنَّوَويِّ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاء:التَّحَسُّسُ بِالْحَاء الاسْتمَاعُ لحَديث الْقَوْمِ عَنْ بَوَاطنِ الْأُمُور،وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ في الشَّرِّ.وَقيلَ بِالْجيم التَّفْتيشُ عَنْ بَوَاطنِ الْأُمُور.وَقيلَ:هُمَا بِمَعْنًى وَهُوَ طَلَبُ مَعْرِفَة الْأَخْبَار الْغَائبَة وَالْأَحْوَال.قُلْتُ:هَذَا أَقْرَبُ الْأَقْوَال،لَكنَّ الْأَنْسَبَ أَنْ يُقَيَّدَ بِالْأَخْبَار الَّتي تَقْضي إلَى سُوء الظَّنِّ،كَمَا يُفيدُهُ الْآيَةُ الشَّريفَةُ،وَقَدْ قُرِئَ فيهَا بِالْحَرْفَيْن،لَكنَّ الْحَاءَ شَاذٌّ.

قَالَ الْبَيْضَاويُّ:أَيْ لَا تَبْحَثُوا عَلَى عَوْرَات الْمُسْلمينَ.تَفَعُّلٌ منَ الْجَسِّ باعْتبَار مَا فيه منْ مَعْنَى الطَّلَب كَالتَّلَمُّس،وَقُرِئَ بِالْحَاء منَ الْحسِّ الَّذي هُوَ أَثَرُ الْجَسِّ وَغَايَتُهُ،وَلذَلكَ قيلَ للْحَوَاسِّ الْجَوَاسُّ اهـ.وَقيلَ بِالْجيمِ التَّفْتيشُ عَنْ بَوَاطنِ الْأُمُور بتَلَطُّف وَمنْهُ الْجَاسُوسُ،وَبِالْحَاء تَطَلُّبُ الشَّيْءَ بِالْحَاسَّة كَاسْتِرَاق السَّمْع،وَإِبْصَار الشَّيْء خُفْيَةً.وَقيلَ:الْأَوَّلُ التَّفَحُّصُ عَنْ عَوْرَات النَّاس وَبَوَاطنِ أُمُورهمْ بنَفْسه أَوْ غَيْره،وَالثَّاني بنَفْسه،وَقيلَ الْأَوَّلُ مَخْصُوصٌ بالشَّرِّ وَالثَّاني أَعَمُّ.(وَلَا تَنَاجَشُوا) :منَ النَّجْش بالْجيم وَالْمُعْجَمَة.قيلَ الْمُرَادُ به طَلَبُ التَّرَفُّع وَالْعُلُوِّ عَلَى النَّاس وَهُوَ الْمُنَاسبُ لسَابقه وَلَاحقه.وَقيلَ:أَنْ يُغْرِيَ بَعْضٌ بَعْضًا عَلَى الشَّرِّ وَالْخُصُومَة،وَهُوَ منْ نَتَائجِ التَّجَسُّس.وَقيلَ:هُوَ الزِّيَادَةُ في الثَّمَن بغَيْر رَغْبَة في السِّلْعَة،بَلْ ليَخْدَعَ الْمُشْتَري بالتَّرْغيب منَ النَّجْش رَفْع الثَّمَن،وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَشْهُورُ عنْدَ الْفُقَهَاء،وَقيلَ:منَ النَّجْش مَعْنَى التَّنْفير أَيْ لَا يُنَفِّرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بأَنْ يُسْمعَهُ كَلَامًا أَوْ يَعْمَلَ شَيْئًا يَكُونُ سَبَبَ نُفْرَته (وَلَا تَحَاسَدُوا) أَيْ:لَا يَتَمَنَّى بَعْضُكُمْ زَوَالَ نعْمَة بَعْضٍ سَوَاءٌ أَرَادَهَا لنَفْسه أَوْ لَا.قَالَ تَعَالَى:{وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ به بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء:٣٢] إلَى أَنْ قَالَ:" {وَاسْأَلُوا اللَّهَ منْ فَضْله} [النساء:٣٢] " أَيْ مثْلَ تلْكَ النِّعْمَة أَوْ أَمْثَلَ منْهَا،وَهَذَا الْحَسَدُ الْمَحْمُودُ الْمُسَمَّى بالْغبْطَة،كَمَا تَقَدَّمَ في حَديث " «لَا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْن» " الْحَديثَ.(وَلَا تَبَاغَضُوا) أَيْ:لَا تَخْتَلفُوا في الْأَهْوَاء وَالْمَذَاهب ؛ لأَنَّ الْبدْعَةَ في الدِّين وَالضَّلَالُ عَن الطَّريق الْمُسْتَقيم يُوجبُ الْبُغْضَ كَذَا قيلَ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ النَّهْيَ عَن التَّبَاغُض تَأْكيدٌ للْأَمْر بالتَّحَابُب مُطْلَقًا إلَّا مَا يَخْتَلُّ به الدِّينُ،فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ حينَئذٍ التَّحَابُبُ،وَيَجُوزُ التَّبَاغُضُ لأَنَّ غَرَضَ الشَّارِعِ اجْتمَاعُ كَلمَة الْأُمَّة لقَوْله

تَعَالَى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران:١٠٣] وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّحَابُبَ سَبَبُ الِاجْتِمَاعِ وَالتَّبَاغُضُ مُوجِبُ الِافْتِرَاقِ،فَالْمَعْنَى لَا يُبْغِضْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ:أَيْ لَا تَشْتَغِلُوا بِأَسْبَابِ الْعَدَاوَةِ إِذِ الْعَدَاوَةُ وَالْمَحَبَّةُ مِمَّا لَا اخْتِيَارَ فِيهِ،فَإِنَّ الْبُغْضَ مِنْ نِفَارِ النَّفْسِ عَمَّا مَا يُرْغَبُ عَنْهُ،وَأَوَّلُهُ الْكَرَاهَةُ،وَأَوْسَطُهُ النُّفْرَةُ،وَآخِرُهُ الْعَدَاوَةُ،كَمَا أَنَّ الْحُبَّ مِنِ انْجِذَابِ النَّفْسِ إِلَى مَا يَرْغَبُ فِيهِ،وَمَبْدَؤُهُ الْمَيْلُ،ثُمَّ الْإِرَادَةُ،ثُمَّ الْمَوَدَّةُ وَهُمَا مِنْ غَرَائِزِ الطَّبْعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.وَقِيلَ:لَا تُوقِعُوا الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،فَيَكُونُ نَهْيًا عَنِ النَّمِيمَةِ لِمَا فِيهِ مِنْ تَأْسِيسِ الْفَسَادِ،وَهَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِمَصْلَحَةٍ،فَإِذَا دَعَتْ كَمَا لَوْ أُخْبِرَ أَنَّ إِنْسَانًا يُرِيدُ الْفَتْكَ بِهِ،أَوْ بِأَهْلِهِ أَوْ بِمَالِهِ،فَلَا مَنْعَ،بَلْ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا.(وَلَا تَدَابَرُوا) :بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِيهِ،وَفِيمَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْخَمْسَةِ،وَيَجُوزُ تَشْدِيدُ التَّاءِ وَصْلًا كَمَا قَرَأَ بِهِ الْبَزِّيُّ رَاوِي ابْنِ كَثِيرٍ مِنْ نَحْوِ:لَا تَيَمَّمُوا أَيْ:لَا تُقَاطِعُوا،وَلَا تُوَلُّوا ظُهُورَكُمْ عَنْ إِخْوَانِكُمْ،وَلَا تُعْرِضُوا عَنْهُمْ مَأْخُوذٌ مِنَ الدُّبُرِ،لِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْمُتَقَاطِعَيْنِ يُوَلِّي دُبُرَهُ صَاحِبَهُ وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تَغْتَابُوا.(وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) :خَبَرٌ آخَرُ أَوْ بَدَلٌ،أَوْ هُوَ الْخَبَرُ وَعِبَادُ اللَّهِ مَنْصُوبٌ عَلَى الِاخْتِصَاصِ بِالنِّدَاءِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:وَهَذَا الْوَجْهُ أَوْقَعُ.قُلْتُ:بَلْ وُقُوعُهُ خَبَرًا وَاقِعًا تَحْتَ الْأَمْرِ أَوْجَهُ،لِكَوْنِ هَذَا الْوَجْهِ مُشْعِرًا بِالْعِلِّيَةِ مِنْ حَيْثُ الْعُبُودِيَّةُ،وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ فِي رِوَايَةٍ ضُبِطَ عِبَادٌ بِالنَّصْبِ وَلِلَّهِ بِاللَّامِ الْأَجَلِّيَّةِ،وَالْمَعْنَى أَنْتُمْ مُسْتَوُونَ فِي كَوْنِكُمْ عُبَيْدَ اللَّهِ وَمِلَّتُكُمْ وَاحِدَةٌ،وَالتَّحَاسُدُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّقَاطُعُ مُنَافِيَةٌ لِحَالِكُمْ،فَالْوَاجِبُ أَنْ تُعَامِلُوا مُعَامَلَةَ الْأُخُوَّةِ وَالْمُعَاشَرَةِ فِي الْمَوَدَّةِ وَالْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالنَّصِيحَةِ بِكُلٍّ حَسَنَةٍ.قِيلَ:الْأَخُ النَّسَبِيُّ يُجْمَعُ عَلَى الْإِخْوَةِ.قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} [النساء:١١] وَالْمَجَازِيُّ عَلَى الْأَخَوَانِ قَالَ تَعَالَى:{إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر:٤٧] .فَقَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات:١٠] لِلْمُبَالَغَةِ وَالْمَفْهُومُ مِنَ الْقَامُوسِ عَدَمُ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(وَفِي رِوَايَةٍ:وَلَا تَنَافَسُوا) :ظَاهِرُهُ أَنَّ مَحَلَّهُ بَعْدَ الْكُلِّ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا عَنْ إِحْدَى صِيَغِ النَّهْيِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ لَا تَحَاسَدُوا وَهُوَ الْأَظْهَرُ،وَلِذَا قَالَ الشُّرَّاحُ:التَّنَافُسُ وَالتَّحَاسُدُ فِي الْمَعْنَى وَاحِدٌ،وَإِنِ اخْتَلَفَا فِي الْأَصْلِ.قُلْتُ:لَكِنَّ التَّنَافُسَ يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ الَّتِي قَدْ تُفْضِي إِلَى الْمُنَازَعَةِ،فَالْمَعْنَى لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَازَعُوا فِي الْأُمُورِ الْخَسِيسَةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ،بَلْ يَنْبَغِي أَنْ

يَكُونَ تَنَافُسُكُمْ فِي الْأَشْيَاءِ النَّفْسِيَّةِ الْمَرَضِيَّةِ الْأُخْرَوِيَّةِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين:٢٦] وَمَا أَنْفَسَ نَفْسُ الشَّاطِبِيِّ حَيْثُ يَذْكُرُ مَضْمُونَ هَذَا الْكَلَامِ الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ:

عَلَيْكَ بِهَا مَا عِشْتَ فِيهَا مُنَافِسًا ...وَبِعْ نَفْسَكَ الدُّنْيَا بِأَنْفَاسِهَا الْعُلَى[٢٧٠٠].

وعن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ،أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،يَقُولُ:إِنِّي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،كَلَامًا نَفَعَنِي اللهُ بِهِ،سَمِعْتُهُ يَقُولُ:«أَعْرِضُوا عَنِ النَّاسِ،أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ الرِّيبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ تُفْسِدُهُمْ؟»[٢٧٠١]

وعَنْ مُعَاوِيةَ رضي اللَّه عنْهُ قالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:"**إنَّكَ إن اتَّبعْتَ عَوْرات الْمُسْلمينَ أفسَدْتَهُمْ،أوْ كِدْتَ أنْ تُفسِدَهُمَ**"،وعَنْ مُعَاوِيَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ،أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ» فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:«كَلِمَةٌ سَمِعَهَا مُعَاوِيَةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا» رواهُ أبو داود[٢٧٠٢]

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ،وَكَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ،وَعَمْرِو بْنِ الْأَسْوَدِ،وَالْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ،وَأَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الْأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ» رواه أبو داود[٢٧٠٣]

[٢٧٠٠] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٤٧)

[٢٧٠١] - المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٣٦٥)(٨٥٩) صحيح

[٢٧٠٢] - سنن أبي داود (٤/ ٢٧٢)(٤٨٨٨) صحيح

إِنَّكَ إِذَا اتَّبَعْتَ) مِنَ الِاتِّبَاعِ؛أَيْ تَتَبَّعْتَ (عَوْرَاتِ النَّاسِ)؛أَيْ عُيُوبَهُمُ الْخَفِيَّةَ،وَفِي نُسْخَةِ ابْتَغَيْتَ؛أَيْ طَلَبْتَ ظُهُورَ مَعَايِبِهِمْ وَخَلَلِهِمْ (أَفْسَدْتَهُمْ)؛أَيْ حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِالْفَسَادِ،أَوْ أَفْسَدْتَ أَمْرَ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ،وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ،قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:وَإِنَّمَا عَمَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِالْخِطَابِ بِقَوْلِهِ:إِنَّكَ؛وَخَصَّ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ بِقَوْلِهِ:إِنَّ الْأَمِيرَ؛لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ النَّهْيَ مُخْتَصٌّ بِالْأَمِيرِ،بَلْ لِكُلِّ مَنْ يَتَأَتَّى مِنَ اتِّبَاعِ الْعَوْرَاتِ مِنَ الْأَمِيرِ وَغَيْرِهِ،لَوْ قُلْنَا إِنَّ الْمُخَاطَبَ مُعَاوِيَةُ؛عَلَى إِرَادَةِ أَنَّهُ سَيَصِيرُ أَمِيرًا فَيَكُونُ مُعْجِزَةً لَكَانَ وَجْهًا وَيَنْصُرُ هَذَا الْوَجْهَ الْحَدِيثُ الْخَامِسُ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ،رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ،فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤١٤)

[٢٧٠٣] - سنن أبي داود (٤/ ٢٧٢)(٤٨٨٩) صحيح لغيره

إِنَّ الْأَمِيرَ) وَفِي مَعْنَاهُ الْوَزِيرُ (إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ) بِكَسْرِ أَوَّلِهِ؛أَيِ التُّهْمَةَ (فِي النَّاسِ)،بِأَنْ طَلَبَ عُيُوبَهُمْ وَتَجَسَّسَ ذُنُوبَهُمْ وَاتَّهَمَهُمْ فِي تَفَحُّصِ أَحْوَالِهِمْ،(أَفْسَدَهُمْ)؛أَيْ أَفْسَدَ عَلَيْهِمْ أُمُورَ مَعَاشِهِمْ،وَنِظَامَ مَعَادِهِمْ؛لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَلَّمَا يَخْلُو عَنْ ذَمٍّ،فَلَوْ أَدَّبَهُمْ لِكُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ بِهِمْ لَشَقَّ الْحَالُ عَلَيْهِمْ،بَلْ يَنْبَغِي لَهُ مَا أَمْكَنَهُ أَنْ يَسْتُرَ عَلَيْهِمْ،أَلَا تَرَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْحُدُودِ مِنْ تَلْقِينِ الْمُعْتَرِفِ بِالذَّنْبِ دَفْعًا لِدَرْءِ الْحَدِّ عَنْهُ،وَقَدْ قَالَ - ﷺ-:" «مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» " رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ وَفِي

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،قَالَ:أُتِيَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقِيلَ هَذَا فُلَانٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا،فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:«إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ» رواه أبو داود[٢٧٠٤]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ،فَقَالَ:«يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ،لَا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ،فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ،وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ» قَالَ:وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى البَيْتِ أَوْ إِلَى الكَعْبَةِ فَقَالَ:«مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ،وَالمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكِ» رواه الترمذي[٢٧٠٥]

حَدِيثٍ آخَرَ " «مَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَةً فَكَأَنَّمَا أَحْيَا مَيِّتًا» " رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالضِّيَاءُ عَنْ شِهَابٍ (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤١٣)

[٢٧٠٤] - سنن أبي داود (٤/ ٢٧٢)(٤٨٩٠) صحيح

[٢٧٠٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٧٨)(٢٠٣٢) صحيح

صَعِدَ):بِكَسْرِ الْعَيْنِ أَيْ طَلَعَ (رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- الْمِنْبَرَ،فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ) أَيْ:عَالٍ (فَقَالَ):بَيَانٌ لِقَوْلِهِ فَنَادَى (يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ):يَشْتَرِكُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ (وَلَمْ يُفْضِ):مِنَ الْإِفْضَاءِ أَيْ لَمْ يَصِلِ (الْإِيمَانُ) أَيْ:أَصْلُهُ وَكَمَالُهُ (إِلَى قَلْبِهِ) فَيَشْمَلُ الْفَاسِقَ،وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ:تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ وَلَا أُخُوَّةَ بَيْنَ الْمُنَافِقِ وَالْمُسْلِمِ،فَمَا اخْتَارَهُ الطِّيبِيُّ مِنْ حَصْرِ حُكْمِ الْحَدِيثِ عَلَى الْمُنَافِقِ خِلَافَ الظَّاهِرِ الْمُوَافِقِ،وَالْحُكْمُ بِالْأَعَمِّ هُوَ الْوَجْهُ الْأَتَمُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ) أَيِ:الْكَامِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ،وَهُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِلِسَانِهِمْ وَآمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ (وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ) مِنَ التَّعْيِيرِ وَهُوَ التَّوْبِيخُ وَالتَّعْيِيبُ عَلَى ذَنْبٍ سَبَقَ لَهُمْ مِنْ قَدِيمِ الْعَهْدِ،سَوَاءٌ عَلَى تَوْبَتِهِمْ مِنْهُ أَمْ لَا.وَأَمَّا التَّعْيِيرُ فِي حَالِ الْمُبَاشَرَةِ أَوْ بُعَيْدَهُ قَبْلَ ظُهُورِ التَّوْبَةِ،فَوَاجِبٌ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ،وَرُبَّمَا يَجِبُ الْحَدُّ أَوِ التَّعْزِيرُ،فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.(وَلَا تَتَّبِعُوا):مِنْ بَابِ الِافْتِعَالِ أَيْ لَا تَجَسَّسُوا (عَوْرَاتِهِمْ) فِيمَا تَجْهَلُونَهَا وَلَا تَكْشِفُوهَا فَمَا تَعْرِفُونَهَا (فَإِنَّهُ) أَيِ:الشَّأْنُ (مَنْ يَتَّبِعْ):بِتَشْدِيدِ التَّاءِ مَجْزُومًا،وَقِيلَ مَرْفُوعًا.وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ الْمَقْرُوءَةِ عَلَى الْمَشَايِخِ ضُبِطَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي الْمَعْلُومِ مِنْ بَابِ التَّفَعُّلِ هُنَا،وَفِيمَا بَعْدُ مِنَ الْمَوْضِعَيْنِ أَيْ مَنْ يَطْلُبُ (عَوْرَةَ أَخِيهِ) أَيْ:ظُهُورَ عَيْبِ أَخِيهِ (الْمُسْلِمِ) أَيِ:الْكَامِلِ بِخِلَافِ الْفَاسِقِ،فَإِنَّهُ يَجِبُ الْحَذَرُ وَالتَّحْذِيرُ عَنْهُ (يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ) ذَكَرَهُ عَلَى سَبِيلِ الْمُشَاكَلَةِ أَيْ:يَكْشِفُ عُيُوبَهُ،وَمِنْ أَقْبَحِهَا مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ الْأَخِ الْمُسْلِمِ وَهَذَا فِي الْآخِرَةِ (وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ):مِنْ فَضَحَ كَمَنَعَ أَيْ يَكْشِفُ مَسَاوِيَهُ (وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ) أَيْ لَوْ كَانَ فِي وَسَطِ مَنْزِلِهِ مَخْفِيًّا مِنَ النَّاسِ قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور:١٩]

قَالَ الْغَزَالِيُّ:التَّجَسُّسُ وَالتَّتَبُّعُ ثَمَرَةُ سُوءِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ،وَالْقَلْبُ لَا يَقْنَعُ بِالظَّنِّ وَيَطْلُبُ التَّحْقِيقَ فَيُؤَدِّي إِلَى هَتْكِ السِّتْرِ وَحَدُّ الِاسْتِتَارِ أَنْ يُغْلَقَ بَابُ دَارِهِ وَيَسْتَتِرَ بِحِيطَانِهِ،فَلَا يَجُوزُ اسْتِرَاقُ السَّمْعِ عَلَى دَارِهِ لِيَسْمَعَ صَوْتَ الْأَوْتَارِ،وَلَا الدُّخُولُ عَلَيْهِ لِرُؤْيَةِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ بِحَيْثُ يَعْرِفُهُ مَنْ هُوَ خَارِجُ الدَّارِ كَأَصْوَاتِ الْمَزَامِيرِ وَالسَّكَارَى بِالْكَلِمَاتِ الْمَأْلُوفَةِ بَيْنَهُمْ،وَكَذَلِكَ إِذَا

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ،وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ،لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ،وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ،فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ،وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ» رواه أبو داود[٢٧٠٦].

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ،قَالَ:كَانَ رَجُلٌ يَنْقُلُ الْحَدِيثَ إِلَى الْأَمِيرِ،فَكُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ:الْقَوْمُ هَذَا مِمَّنْ يَنْقُلُ الْحَدِيثَ إِلَى الْأَمِيرِ،قَالَ:فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْنَا فَقَالَ حُذَيْفَةُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ» [٢٧٠٧]

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ،قَالَ:كُنَّا جُلُوسًا مَعَ حُذَيْفَةَ فِي الْمَسْجِدِ،فَجَاءَ رَجُلٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْنَا فَقِيلَ لِحُذَيْفَةَ:إِنَّ هَذَا يَرْفَعُ إِلَى السُّلْطَانِ أَشْيَاءَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ إِرَادَةَ أَنْ يُسْمِعَهُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[٢٧٠٨]

اشْتَرَوْا أَوَانِيَ الْخَمْرِ وَظُرُوفَهَا وَآلَاتِ الْمَلَاهِي فِي الْكَمِّ وَتَحْتَ الذَّيْلِ فَإِذَا رَأَى لَمْ يَجُزْ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُ،وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَنْشِقَ لِيُدْرِكَ رَائِحَةَ الْخَمْرِ،وَلَا أَنْ يَسْتَخْبِرَ مِنْ جِيرَانِهِ لِيُخْبِرُوهُ بِمَا جَرَى فِي دَارِهِ،وَأُنْشِدَ فِي مَعْنَاهُ شِعْرٌ:

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا ...فَيَهْتِكَ اللَّهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا

وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا ...وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَا

وَفِي قَوْلِهِ:(وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ مَا لَمْ يَصِلِ الْإِيمَانُ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ،وَلَمْ يُؤَدِّ حُقُوقَهُ،فَإِذًا عِلَاجُ جَمِيعِ أَمْرَاضِ الْقَلْبِ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى لِتُؤَدِّيَ إِلَى أَدَاءِ حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ،فَلَا يُؤْذِي وَلَا يَضُرُّ وَلَا يُعَيِّرُ وَلَا يَتَجَسَّسُ أَحْوَالَهُمْ اهـ.كَلَامُ الْإِمَامِ وَحَصَلَ تَمَامُ الْمَرَامِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٥٧)

[٢٧٠٦] - سنن أبي داود (٤/ ٢٧٠)(٤٨٨٠) صحيح

[٢٧٠٧] - صحيح مسلم (١/ ١٠١)١٦٩ - (١٠٥) وصحيح البخاري (٨/ ١٧)(٦٠٥٦)

[ش (لا يدخل الجنة نمام وفي أخرى قتات) فالقتات هو النمام قال الجوهري وغيره يقال نم الحديث ينمه وينمه نما والرجل نمام وقته يقته قتا قال العلماء النميمة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم]

[٢٧٠٨] - صحيح مسلم (١/ ١٠١)١٧٠ - (١٠٥)

لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ) أَيْ:مَعَ الْفَائِزِينَ (قَتَّاتٌ) .بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ التَّاءِ أَيْ:نَمَّامٌ،وَالنَّمِيمَةُ نَقْلُ الْكَلَامِ عَلَى وَجْهِ الْفَسَادِ فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى مَا قَالَهُ ابْنُ الْمَلَكِ مِنْ أَنَّ هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْإِصْلَاحِ فَلَوْ كَانَ لَهُ جَازَ؛لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ مُصْلِحًا،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:١١٤]،وَفِي النِّهَايَةِ:الْقَتَّاتُ هُوَ النَّمَّامُ،يُقَالُ:قَتَّ الْحَدِيثَ إِذَا زَوَّرَهُ وَهَيَّأَهُ وَسَوَّاهُ،وَقِيلَ:النَّمَّامُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَعَ الْقَوْمِ يَتَحَدَّثُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ،وَالْقَتَّاتُ هُوَ الَّذِي يَتَسَمَّعُ عَلَى الْقَوْمِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ،ثُمَّ يَنِمُّ.قَالَ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ:قِيلَ:النَّمِيمَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْكَذِبِ وَالْحَسَدِ وَالنِّفَاقِ،وَهِيَ أَثَافِي الذُّلِّ،فَيَنْبَغِي أَنْ يُبْغَضَ النَّمَّامُ،وَلَا يُوثَقُ بِهِ وَبِصَدَاقَتِهِ،حُكِيَ

وحرم الله تعالى دخول البيوت دون إذن أهلها،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) } [النور]

يُؤَدِّبُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ فَيَأْمُرُهُم بِأَلاَّ يَدْخُلُوا بُيوتاً غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ (يَسْتَأنِسُوا)،وَيُسَلِّمُوا بَعْدَ الاسْتِئْذَانِ،وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِنُوا ثَلاثَ مَرَّاتٍ،فَإِذَا أُذِنَ لَهُمْ دَخُلُوا وَإِلاَّ انْصَرَفُوا،فَالاسْتِئْذَانُ خَيْرٌ لِلمُسْتَأذِنِ وَلأَهْلِ البَيْتِ،فالبيْتُ سَكَنٌ يَفِيءُ إِلَيْهِ النَّاسُ فَتَسْكُنُ أَرْوَاحُهُمْ،وَيَطْمَئِنُّونَ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ وَحُرُمَاتِهِم،وَيُلْقُونَ عَنْهُمْ أَعْبَاءَ الحِرْصِ والحَذَرِ المُرْهِقَة لِلنُّفُوسِ والأَعْصَابِ،والبُيُوتُ لاَ تَكُونُ كَذَلِكَ إِلاَّ تَكُونُ حَرَمَاً آمناً لاَ يَسْتَبِيحُهُ أَحَدٌ إِلاَّ بِعِلْمِ أَهْلِه وإِذْنِهِمْ فِي الوَقْتِ الذي يُرِيدُونَ هُمْ.(وَكَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ يَدْخُلُونَ بِدُونِ اسْتِئْذَانٍ) ثُمَّ يَقُولُونَ لَقَدْ دَخَلْنَا) .

فَإِذَا لَمْ يَجِدُوا فِي هَذِه البُيُوتِ أَحَداً يَأْذَنُ لَهُمْ بِالدُّخُولِ إِلَيْهَا،كَانَ عَلَيْهِمْ أَلاَّ يَدْخُلُوهَا،وَإِذَا كَانَ أَهْلُ البَيْتِ فِيه،وَلَمْ يَأْذَنُوا بالدُّخُولِ،كَانَ عَلَى الزَّائِرِ الانْصِرَافُ،وَلَيْسَ لَهُ الدُّخُولُ،وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَغَضبَ،أو يَسْتَشْعِرَ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ الإِسَاءَةَ إِلَيْه،أو النُّفْرَةَ مِنْهُ،فَلِلنَّاسِ،أسْرَارُهم وَأَعْذَارُهُم وَيَجِبُ أَنْ يُتْرَكَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ حَقُّ تَقْدِيرِ ظُرُوفِهِمْ.وَاللهُ هُوَ المُطَّلِعُ عَلَى خَفَايَا القُلُوبِ،وهُوَ العَلِيمُ بالدَّوافِعِ.

أَنَّ حَكِيمًا زَارَهُ أَحَدٌ وَأَخْبَرَهُ عَنْ غَيْرِهِ بِخَبَرٍ فَقَالَ:أَبْطَلْتَ زِيَارَتِي ثُمَّ أَتَيْتَنِي بِثَلَاثِ جِنَايَاتٍ:بَغَّضْتَ إِلَيَّ أَخِي،وَشَغَلْتَ قَلْبِي الْفَارِغَ،وَاتَّهَمْتَ نَفْسَكَ الْأَمِينَةَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٢٩)

والمعنى:لا يدخل الجنة شخص نمّام ينقل الحديث من شخص إلى شخص،أو من جماعة إلى أخرى بقصد الإفساد،وغرس بذور العداوة والبغضاء في النفوس،فمن فعل ذلك مستحلاً لما يفعله فقد حرّم الله عليه الجنة،ومن فعله وهو يعلم أنه حرام تحت تأثير نزعة شيطانية فهو فاسق عاص،لا يدخل الجنة حتى يعاقب على جريمته هذه بالنار،إلاّ أن يعفو الله عنه،أو يتوب من جريمته.

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:أن النميمة كبيرة من الكبائر،لأن هذا الوعيد الشديد لا يترتب إلّا على ارتكاب كبيرة،وذلك لأن " النميمة " ظاهرة عدوانية خطيرة تفكك المجتمع،وتقطع العلاقات وهي وليدة الحقد والحسد،ولهذا كان النمّام بغيضاً إلى نفوس العقلاء منبوذاً عندهم،لا يرتاحون إليه،منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٢٤٤)

وَلاَ بَأسَ عَلَيْكُم أَيَّها المُؤْمِنُونَ فِي أَنْ تَدْخُلوا بُيوتاً غَيْرَ مُعَدَّةٍ لِسُكْنَى قَوْمٍ مُعَيِّنِينَ،وَلَكُمْ فِيها مَتَاعٌ،كالحَمَّامَات،والفَنَادق،والخَانَات المُعَدَّة لاسْتِقْبَال العَامَّةِ،فإذَا أُذِنَ للزَّائِرِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَفَى،وَرَقَابَتُهُ عَلَى سَرَائِرِكُم وَعَلانِيتِكم،وَفِي هَذِهِ الرَّقَابَةِ ضَمَانَةٌ لِطَاعَةِ القُلُوبِ وامْتِثالِهَا للأَدَبِ الذي يُؤَدِّبُها به الله.[2709]

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْد،قَالَ:اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النَّبِيِّ ﷺ،وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ،فَقَالَ:«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ،لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ،إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ» رواه البخاري ومسلم[2710].

فإن إنكار المنكر معلق بالرؤية،فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ.فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».رواه مسلم[2711]

[2709] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

[2710] - صحيح البخاري (٨/ ٥٤)(٦٢٤١) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٩٨)٤٠ - (٢١٥٦)

[ش (تنتظر) وفي بعض النسخ (تنظر) قال القاضي عياض الصواب تنظر ويحمل الأول عليه]

دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:مشروعية الاستئذان ووجوبه،وقد تظاهرت به دلائل القرآن والسنة،قال الحافظ:ويؤخذ منه أنه يشرع الاستئذان على كل أحد حتى المحارم،فقد تكون منكشفة (١) العورة،وقد أخرج البخاري في " الأدب المفرد " عن نافع:كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم لم يدخل عليه إلاّ بإذن ومن طريق علقمة سألت ابن عباس:أأستأذن على أختي؟ قال:نعم،قلت إنها في حجري! قال:أتحب أن تراها عريانة.اهــ.ويظهر لنا من ذلك أن الحكمة في الاستئذان أن لا ينظر الداخل إلى البيت إلى شيء لا يحل له النظر إليه،أو شيء يكره صاحب المنزل أن يطلع أحد عليه.كما يدل عليه قوله - ﷺ - في حديث الباب:" إنما جعل الاستئذان من أجل البصر " قال الطيبي " والأفضل أن يجمع بين السلام والاستئذان،واختلفوا:هل يستحب تقديم السلام أو الاستئذان؟ والصحيح تقديم السلام،فيقول السلام عليكم أأدخل.ثانياً:دل هذا الحديث على أن للبيوت قداسة وحرمة،فلا يجوز لأحد أن يسترق النظر إلى عورات المسلمين في بيوتهم وينتهك حرمتهم،ويحرم عليه أن ينظر من ثقب الباب وغيره.ولو فعل ذلك عمداً وطعن في عينه فذهبت فإنها هدر لا دية لها.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٢٥٩)

[2711] - صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ - (٤٩)

مَنْ رَأَى) أَيْ:عَلِمَ (مِنْكُمْ مُنْكَرًا) أَيْ:فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَالْخِطَابُ لِلصَّحَابَةِ أَصَالَةً وَلِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ تَبَعًا،وَفِي الْإِتْيَانِ بِمِنَ التَّبْعِيضِيَّةِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ،وَإِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يُبَاشِرُهُ إِلَّا مَنْ يَعْرِفُ مَرَاتِبَ الْإِحْسَانِ وَتَفَاوُتَ الْمُنْكَرَاتِ،وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَالْمُخْتَلَفِ فِيهِ مِنْهَا،وَهَذَا الْمَعْنَى مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران:١٠٤] وَخُلَاصَةُ الْكَلَامِ:مَنْ أَبْصَرَ مَا أَنْكَرَهُ الشَّرْعُ (فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ) أَيْ:بِأَنْ يَمْنَعَهُ بِالْفِعْلِ بِأَنْ يَكْسِرَ الْآلَاتِ وَيُرِيقَ الْخَمْرَ وَيَرُدَّ الْمَغْصُوبَ إِلَى مَالِكِهِ،(فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ) أَيِ:التَّغْيِيرَ بِالْيَدِ وَإِزَالَتَهُ بِالْفِعْلِ،لِكَوْنِ فَاعِلِهِ أَقْوَى مِنْهُ (فَبِلِسَانِهِ) أَيْ:فَلْيُغَيِّرْهُ بِالْقَوْلِ وَتِلَاوَةِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَيْهِ،وَذِكْرِ الْوَعْظِ وَالتَّخْوِيفِ وَالنَّصِيحَةِ (فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ) أَيِ:التَّغْيِيرَ بِاللِّسَانِ أَيْضًا (فَبِقَلْبِهِ):بِأَنْ لَا يَرْضَى بِهِ وَيُنْكِرَ فِي بَاطِنِهِ عَلَى مُتَعَاطِيهِ،فَيَكُونُ تَغْيِيرًا مَعْنَوِيًّا إِذْ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ إِلَّا هَذَا الْقَدْرُ مِنَ التَّغْيِيرِ،وَقِيلَ:التَّقْدِيرُ فَلْيُنْكِرْهُ بِقَلْبِهِ لِأَنَّ التَّغْيِيرَ لَا يُتَصَوَّرُ بِالْقَلْبِ،فَيَكُونُ التَّرْكِيبُ مِنْ بَابِ:عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا.وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} [الحشر:٩] (وَذَلِكَ) أَيِ:الْإِنْكَارُ بِالْقَلْبِ وَهُوَ الْكَرَاهِيَةُ (أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) أَيْ:شُعَبِهِ أَوْ خِصَالِ أَهْلِهِ،وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَقَلُّهَا ثَمَرَةً،فَمَنْ غَيَّرَ الْمَرَاتِبَ مَعَ الْقُدْرَةِ كَانَ عَاصِيًا،وَمَنْ تَرَكَهَا بِلَا قُدْرَةٍ أَوْ يَرَى الْمَفْسَدَةَ أَكْثَرَ وَيُكَرِّرُ مُنْكِرًا لِقَلْبِهِ،فَهُوَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.وَقِيلَ:مَعْنَاهُ وَذَلِكَ أَضْعَفُ زَمَنِ الْإِيمَانِ،إِذْ لَوْ كَانَ إِيمَانُ أَهْلِ زَمَانِهِ قَوِيًّا لَقَدَرَ عَلَى الْإِنْكَارِ الْقَوْلِيِّ أَوِ الْفِعْلِيِّ،وَلَمَا احْتَاجَ إِلَى الِاقْتِصَارِ عَلَى الْإِنْكَارِ الْقَلْبِيِّ،أَوْ ذَلِكَ الشَّخْصُ الْمُنْكِرُ بِالْقَلْبِ فَقَطْ أَضْعَفُ أَهْلِ الْإِيمَانِ،فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ قَوِيًّا صُلْبًا فِي الدِّينِ لَمَا اكْتَفَى بِهِ،وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ:" «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» " وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة:٥٤] هَذَا وَقَدْ قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا:الْأَمْرُ الْأَوَّلُ لِلْأُمَرَاءِ،وَالثَّانِي لِلْعُلَمَاءِ،وَالثَّالِثُ لِعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ.وَقِيلَ:الْمَعْنَى إِنْكَارُ الْمَعْصِيَةِ بِالْقَلْبِ أَضْعَفُ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ،لِأَنَّهُ إِذَا رَأَى مُنْكَرًا مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ فَلَمْ يُنْكِرْهُ وَلَمْ يَكْرَهْهُ،وَرَضِيَ بِهِ وَاسْتَحْسَنَهُ كَانَ كَافِرًا،وَلَعَلَّ الْإِطْلَاقَ الدَّالَّ عَلَى الْعُمُومِ لِإِفَادَةِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ.

قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَإِنْ قُلْتَ:هَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ،كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَمَا تَأْوِيلُهُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ؟ قُلْنَا:مَعْنَاهُ أَضْعَفُ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ وَالْإِنْكَارِ بِالْقَلْبِ مِنْهَا.فَإِنْ قُلْتَ:لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَزِمَ أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الْإِيمَانِ لِانْتِفَائِهِ،وَلَيْسَ كَذَلِكَ لِمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ.قُلْتُ:أَرَادَ بِهِ أَنَّ الثَّمَرَاتِ الْقَوِيَّةَ وَالضَّعِيفَةَ إِذَا انْتَفَتْ كَانَ الْإِيمَانُ كَالْمَعْدُومِ اهـ.وَفِيهِ أَنَّهُ حِينَئِذٍ يَرْجِعُ الْحَدِيثُ دَلِيلًا لِلْخَصْمِ،فَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ:التَّقْدِيرُ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ أَوْ مِنَ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ،لَا يُقَالُ هَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى تَحَقُّقِ الْكَمَالِ وَالنُّقْصَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِيمَانِ،فَإِنَّا نَقُولُ:الْخِلَافُ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَهُوَ التَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ،هَلْ هُوَ قَابِلٌ لِلزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ أَمْ لَا؟ بَلِ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ أَيْضًا عَلَى أَنَّ النِّزَاعَ لَفْظِيٌّ،فَإِنَّ نَفْسَ الْإِيمَانِ وَجَوْهَرَهُ لَا يَتَجَزَّأُ،أَوْ إِنَّمَا كَمَالُهُ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَيْهِ وُجُودُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَيْثُ مَدَحَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ عَطَفَ الْأَعْمَالَ عَلَى الْإِيمَانِ،وَقَالَ:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة:٢٧٧] وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعَطْفِ التَّغَايُرُ،وَأَمَّا كَوْنُ الْأَعْمَالِ جُزْءَ الْإِيمَانِ حَقِيقَةً،فَإِنَّمَا هُوَ مَذْهَبُ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ،وَأَمَّا الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ،فَإِمَّا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا،وَإِمَّا بِالنَّظَرِ إِلَى تَعَدُّدِ الْمُؤْمِنِ بِهِ،وَهَذَا بَحْثٌ طَوِيلُ الذَّيْلِ مَحَلُّهُ كُتُبُ الْعَقَائِدِ وَمَبَاحِثُ الْكَلَامِ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْمَرَامِ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمُنْكَرُ حَرَامًا وَجَبَ الزَّجْرُ عَنْهُ،وَإِذَا كَانَ مَكْرُوهًا نُدِبَ،وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ أَيْضًا تَبَعٌ لِمَا يُؤْمَرُ بِهِ،فَإِنْ وَجَبَ فَوَاجِبٌ،وَإِنْ نُدِبَ فَمَنْدُوبٌ،وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ فِي الْحَدِيثِ لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ شَامِلٌ لَهُ،إِذِ النَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ،وَضِدُّ الْمَنْهِيِّ إِمَّا وَاجِبٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ مُبَاحٌ وَالْكُلُّ مَعْرُوفٌ،وَشَرْطُهُمَا أَنْ لَا يُؤَدِّيَ إِلَى الْفِتْنَةِ،كَمَا عُلِمَ مِنَ الْحَدِيثِ،وَأَنْ يُظَنَّ قَبُولُهُ،فَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ فَيُسْتَحْسَنُ إِظْهَارُ شِعَارِ الْإِسْلَامِ،وَلَفْظُ مَنْ لِعُمُومِهِ شَمِلَ كُلَّ أَحَدٍ رَجُلًا أَوِ امْرَأَةً،عَبْدًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ صَبِيًّا مُمَيِّزًا إِذَا كَانَ،وَإِنْ كَانَ يُسْتَقْبَحُ ذَلِكَ فِي الْفَاسِقِ قَالَ تَعَالَى:{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة:٤٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:{لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف:٢] وَأَنْشَدَ:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ...طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ مَرِيضُ

فلا يكشف الشرطي أو المحتسب ما كان مستورا أو يفتش بيتا إلا إذا خشي انتهاك حرمة لا يمكن استدراكها كالاعتداء بالقتل أو الزنا.

وكذلك لايجوز الاطلاع على الرسائل إلا إذا كان صاحب الرسالة متهما،وقد احتوت رسالته على ما فيه ضرر على المسلمين يفوق مفسدة النظر إلى الرسالة والكشف عما فيها،وقد بوب البخاري في صحيحه فقال:بَابُ مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ مَنْ يُحْذَرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِيَسْتَبِينَ أَمْرُهُ[2712] ثم ذكر باسناده عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ وَأَبَا مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ،وَكُلُّنَا فَارِسٌ،فَقَالَ:«انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ»،فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ المُشْرِكِينَ،مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى المُشْرِكِينَ،قَالَ:فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى جَمَلٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:قُلْنَا:أَيْنَ الكِتَابُ الَّذِي مَعَكِ؟ قَالَتْ:مَا مَعِي كِتَابٌ،فَأَنَخْنَا بِهَا،فَابْتَغَيْنَـــا

قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ قَوْلُهُ:" فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ " هُوَ أَمْرُ إِيجَابٍ،وَقَدْ تَطَابَقَ عَلَى وُجُوبِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ،وَهِيَ أَيْضًا مِنَ النَّصِيحَةِ الَّتِي هِيَ الدِّينُ،وَلَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا بَعْضُ الرَّوَافِضِ،وَلَا يُعْتَدُّ بِخِلَافِهِمْ.قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْمَعَالِي:لَا نَكْتَرِثُ بِخِلَافِهِمْ،وَوُجُوبُهُ بِالشَّرْعِ لَا بِالْعَقْلِ خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ،فَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ وَفَعَلَهُ وَلَمْ يَمْتَثِلِ الْمُخَاطَبُ،فَلَا عَتْبَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ،وَمَا عَلَيْهِ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ،وَمَنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ وَتَرَكَهُ بِلَا عُذْرٍ أَثِمَ،وَقَدْ يَتَعَيَّنُ كَمَا إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا هُوَ،أَوْ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ،وَكَمَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ غُلَامَهُ عَلَى مُنْكَرٍ.قَالُوا:وَلَا يَسْقُطُ عَنِ الْمُكَلَّفِ لِظَنِّهِ أَنْ لَا يُفِيدَ،بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ،فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ،وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ،وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْآمِرِ وَالنَّاهِي أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْحَالِ مُمْتَثِلًا مَا يَأْمُرُ بِهِ مُجْتَنِبًا مَا يَنْهَى عَنْهُ،بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ مُطْلَقًا،لِأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ شَيْئَانِ أَنْ يَأْمُرَ نَفْسَهُ وَيَنْهَاهَا وَيَأْمُرَ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ،فَإِذَا أَخَلَّ بِأَحَدِهِمَا كَيْفَ يُبَاحُ لَهُ الْإِخْلَالُ بِالْآخَرِ؟ قَالُوا:وَلَا يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِأَصْحَابِ الْوِلَايَاتِ،بَلْ هُوَ ثَابِتٌ عَلَى آحَادِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ كَانُوا يَأْمُرُونَ الْوُلَاةَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ،مَعَ تَقْرِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ وَتَرْكِ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى التَّشَاغُلِ بِهِ،ثُمَّ إِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ وَيَنْهَى مَنْ كَانَ عَالِمًا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ،وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الشَّيْءِ فَإِنْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَالزِّنَا وَالْخَمْرِ وَنَحْوِهَا،فَكُلُّ الْمُسْلِمِينَ عَالِمٌ بِهَا،وَإِنْ كَانَ مِنْ دَقَائِقِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ،وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالِاجْتِهَادِ لَمْ يَكُنْ لِلْعَوَامِّ مُدْخَلٌ فِيهِ،لِأَنَّ إِنْكَارَهُ عَلَى ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ،ثُمَّ الْعُلَمَاءُ إِنَّمَا يُنْكِرُونَ مَا أُجْمِعَ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ،وَأَمَّا الْمُخْتَلَفُ فِيهِ فَلَا إِنْكَارَ فِيهِ،لِأَنَّ عَلَى أَحَدِ الْمَذْهَبَيْنِ كُلُّ مُجْتَهِدٍ نَصِيبٌ،وَيَنْبَغِي لِلْآمِرِ وَالنَّاهِي أَنْ يَرْفُقَ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ،فَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ:مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ نَصَحَهُ وَزَانَهُ،وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ فَضَحَهُ وَشَانَهُ.قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ:إِنَّ هَذَا الْبَابَ بَابٌ عَظِيمٌ فِي الدِّينِ بِهِ قِوَامُ الْأَمْرِ وَمِلَاكُهُ،فَإِذَا فَسَدَ عَمَّ الْعِقَابُ الصَّالِحَ وَالظَّالِمَ.قَالَ تَعَالَى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال:٢٥] (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٠٨)

[2712] - صحيح البخاري (٨/ ٥٧)

فِي رَحْلِهَا فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا،قَالَ صَاحِبَايَ:مَا نَرَى كِتَابًا،قَالَ:قُلْتُ:لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ،لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ،قَالَ:فَلَمَّا رَأَتِ الجِدَّ مِنِّي أَهْوَتْ بِيَدِهَا إِلَى حُجْزَتِهَا،وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ،فَأَخْرَجَتِ الكِتَابَ،قَالَ:فَانْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ» قَالَ:مَا بِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَمَا غَيَّرْتُ وَلاَ بَدَّلْتُ،أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ لِي عِنْدَ القَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي،وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِكَ هُنَاكَ إِلَّا وَلَهُ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ،قَالَ:«صَدَقَ،فَلاَ تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا» قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ:إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ،فَدَعْنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ،قَالَ:فَقَالَ:" يَا عُمَرُ،وَمَا يُدْرِيكَ،لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ:اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ،فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ " قَالَ:فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ"[٢٧١٣]

ولايجوز للشرط أو غيرهم أن يعتدوا على الناس بالتعذيب أو الضرب أو الحبس في غير العقوبات الشرعية،وقد قال تعالى:{ {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا } [الأحزاب:٥٨]

والذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ،بِأَنْ يَنْسبُوا إِليهِمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلُوهَا عَلَى سَبِيلِ العَيْبِ والتَّنَقُّصِ،فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ قَدِ اجْتَرَحُوا كَذِباً فَظِيعاً،وَذَنباً عَظِيماً وَاضِحاً،فَالذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ،وَالذِينَ يُؤْذُونَ الرَّسُولَ يُؤْذُونَ اللهَ.[٢٧١٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا،قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ،وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ،رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ،لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ،وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا،وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» رواه مسلم[٢٧١٥]،والذين معهم سياط هم الجلادون أعوان والي الشرطة.

[٢٧١٣] - صحيح البخاري (٨/ ٥٧)(٦٢٥٩)

[ش (والذي يحلف به) أي والله لأن المسلم لا يحلف بغير الله تعالى(حجزتها) معقد إزارها.(وجبت) ثبتت واستحقت]

[٢٧١٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٧٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧١٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٠)١٢٥ - (٢١٢٨)

[ش (صنفان الخ) هذا الحديث من معجزات النبوة فقد وقع هذان الصنفان وهما موجودان وفيه ذم هذين الصنفين

وعَن أَبِي هُرَيْرَة قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يُوشِكُ،إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ،أَنْ تَرَى قَوْمًا فِي أَيْدِيهِمْ مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ،يَغْدُونَ فِي غَضَبِ اللهِ،وَيَرُوحُونَ فِي سَخَطِ اللهِ» رواه مسلم[٢٧١٦]

(كاسيات عاريات) قيل معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارا لجمالها ونحوه وقيل معناه تلبس ثوبا رقيقا يصف لون بدنها(مميلات) قيل يعلمن غيرهن الميل وقيل مميلات لأكتافهن(مائلات) أي يمشين متبخترات وقيل مائلات يمشين المشية المائلة وهي مشية البغايا ومميلات يمشين غيرهن تلك المشية(البخت) قال في اللسان البخت والبختية دخيل في العربية أعجمي معرب وهي الإبل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج (والفالج البعير ذو السنامين وهو الذي بين البختي والعربي سمي بذلك لأن سنامه نصفان) الواحد بختي جمل بختي وناقة بختية ومعنى رؤسهن كأسنمة البخت أي يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها]

صِنْفَانِ):هُوَ مُبْتَدَأٌ (مِنْ أَهْلِ النَّارِ):صِفَةٌ (لَمْ أَرَهُمَا):خَبَرٌ،وَفِي رِوَايَةٍ:لَمْ أَرَهُمَا بَعْدُ،الْمُرَادُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَرَهُمَا فِي عَصْرِهِ لِطَهَارَةِ ذَلِكَ الْعَصْرِ بَلْ حَدَثَا بَعْدَهُ قَالَ النَّوَوِيُّ:هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ،وَفِيهِ ذَمُّ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ (قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ):جَمْعُ سَوْطٍ فَأُبْدِلَتِ الْوَاوُ يَاءً لِتَحَرُّكِهَا وَانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا (كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ):أَيْ:بِغَيْرِ حَقٍّ (وَنِسَاءٌ):هُوَ وَقَوْمٌ بَيَانٌ أَوْ بَدَلٌ لِقَوْلِهِ:صِنْفَانِ وَمَا بَعْدَهَا صِفَاتٌ لَهُمَا (كَاسِيَاتٌ):أَيْ:فِي نِعْمَةِ اللَّهِ (عَارِيَاتٌ):مِنْ شُكْرِهَا،وَقِيلَ:يَسْتُرْنَ بَعْضَ بَدَنِهِنَّ وَيَكْشِفْنَ بَعْضَهُ إِظْهَارًا لِجَمَالِهِنَّ وَإِبْرَازًا لِكَمَالِهِنَّ،وَقِيلَ:يَلْبَسْنَ ثَوْبًا رَقِيقًا يَصِفُ بَدَنَهُنَّ وَإِنْ كُنَّ كَاسِيَاتٍ لِلثِّيَابِ عَارِيَاتٍ فِي الْحَقِيقَةِ،أَوْ كَاسِيَاتٍ بِالْحُلَى وَالْحُلِيِّ،عَارِيَاتٍ مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَى وَمِنْهُ حَدِيثُ:(«رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْعُقْبَى») قَالَ الطِّيبِيُّ:أَثْبَتَ لَهُنَّ الْكُسْوَةَ ثُمَّ نَفَاهَا؛لِأَنَّ حَقِيقَةَ الِاكْتِسَاءِ سَتْرُ الْعَوْرَةِ،فَإِذَا لَمْ يَتَحَقَّقِ السَّتْرُ فَكَأَنَّهُ لَا اكْتِسَاءَ،وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِمَكْرُمَةٍ ...فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا

رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ ...فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

(مُمِيلَاتٌ):أَيْ:قُلُوبَ الرِّجَالِ إِلَيْهِنَّ،أَوِ الْمَقَانِعَ عَنْ رُءُوسِهِنَّ لِيَظْهَرَ وُجُوهُهُنَّ،وَقِيلَ:مُمِيلَاتٌ بِأَكْتَافِهِنَّ،وَقِيلَ:يُمِلْنَ غَيْرَهُنَّ إِلَى فِعْلِهِنَّ الْمَذْمُومِ (مَائِلَاتٌ):أَيْ:إِلَى الرِّجَالِ بِقُلُوبِهِنَّ أَوْ بِقَوَالِبِهِنَّ،أَوْ مُتَبَخْتِرَاتٌ فِي مَشْيِهِنَّ،أَوْ زَائِغَاتٌ عَنِ الْعَفَافِ،أَوْ مَائِلَاتٌ إِلَى الْفُجُورِ وَالْهَوَى،وَقِيلَ:مَائِلَاتٌ يَمْتَشِطْنَ مِشْطَةَ الْمَيْلَاءِ،وَقِيلَ:مِشْطَةَ الْبَغَايَا مُمِيلَاتٌ يُمَشِّطْنَ غَيْرَهُنَّ بِتِلْكَ الْمِشْطَةِ.(رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ):بِضَمٍّ مُوَحَّدَةٍ وَسُكُونِ مُعْجَمَةٍ.فِي النِّهَايَةِ:الْبُخْتِيُّ مِنَ الْجِمَالِ،وَالْأُنْثَى بُخْتِيَّةٌ جَمْعُ بُخْتٍ وَبَخَاتِيٍّ جِمَالٌ طِوَالُ الْأَعْنَاقِ،وَاللَّفْظَةُ مُعْرَبَةٌ أَيْ:يُعَظِّمْنَهَا وَيُكَبِّرْنَهَا بِلَفِّ عِصَابَةٍ وَنَحْوِهَا،وَقِيلَ:يَطْمَحْنَ إِلَى الرِّجَالِ لَا يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ،وَلَا يُنَكِّسْنَ رُءُوسَهُنَّ (الْمَائِلَةِ):صِفَةٌ لِلْأَسْنِمَةِ،وَهِيَ جَمْعُ السَّنَامِ،وَالْمَائِلَةُ مِنَ الْمَيْلِ؛لِأَنَّ أَعْلَى السَّنَامِ يَمِيلُ لِكَثْرَةِ شَحْمِهِ،وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ نِسَاءِ مِصْرَ (لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ):صِفَةٌ لِلنِّسَاءِ،وَلَمْ يَذْكُرْ لِلرِّجَالِ مِثْلَهَا اخْتِصَارًا وَإِيجَازًا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ (وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا،وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ):جُمْلَةٌ حَالِيَةٌ (مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا):أَيْ:مِائَةِ عَامٍ مَثَلًا قَالَ الْقَاضِي:مَعْنَاهُ أَنَّهُنَّ لَا يَدْخُلْنَهَا وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا حِينَ مَا يَدْخُلُهَا وَيَجِدُ رِيحَهَا الْعَفَائِفُ الْمُتَوَرِّعَاتُ،لَا أَنَّهُنَّ لَا يَدْخُلْنَ أَبَدًا لِقَوْلِهِ ﷺفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ:(«وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ») ثَلَاثًا.أَقُولُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَحْمُولًا عَلَى الِاسْتِحْلَالِ،أَوِ الْمُرَادُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالتَّغْلِيظُ،وَيُمْكِنُ أَنَّهُنَّ لَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنْ دَخَلْنَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ،(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠٢)

[٢٧١٦] - صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٣)٥٣ - (٢٨٥٧)

وعَنْ أَنَس،عَنِ النَّبيِّ ﷺ،قَالَ:" مَنْ رَوَّعَ مُؤْمِنًا لَمْ يُؤَمِّنِ اللهُ رَوْعَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَـــةِ،وَمَنْ سَـــعَى بِمُؤْمِنٍ أَقَامَهُ اللهُ مَقَامَ خِزْيٍ وَذُلٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[٢٧١٧]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ شَرَطَةٌ،يَغْدُونَ فِي غَضِبِ اللهِ،وَيَرُوحُونَ فِي سَخَطِ اللهِ،فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ بِطَانَتِهِمْ» رواه الطبراني[٢٧١٨]

(يُوشِكُ):أَيْ:يَقْرُبُ (إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ):أَيْ:حَيَاةٌ (أَنْ تَرَى):اسْمُ يُوشِكُ أَيْ تُبْصِرُ (قَوْمًا فِي أَيْدِيهِمْ):خَبَرٌ مُقَدَّمٌ مُبْتَدَؤُهُ (مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ):أَيْ:سِيَاطٌ كَمَا فِي رِوَايَةٍ،وَالْجُمْلَةُ صِفَةُ قَوْمًا،وَتُسَمَّى تِلْكَ السِّيَاطُ فِي دِيَارِ الْعَرَبِ بِالْمَقَارِعِ جَمْعُ مَقْرَعَةٍ،وَهِيَ جِلْدَةٌ طَرَفُهَا مَشْدُودٌ عَرْضُهُ كَعَرْضِ الْأُصْبُعِ الْوُسْطَى يَضْرِبُونَ السَّارِقِينَ عُرَاةً،وَقِيلَ:هُمُ الطَّوَّافُونَ عَلَى أَبْوَابِ الظَّلَمَةِ السَّاعُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ كَالْكَلْبِ الْعَقُورِ وَيَطْرُدُونَ النَّاسَ عَنْهَا بِالضَّرْبِ (يَغْدُونَ):أَيْ:يُصْبِحُونَ (فِي غَضَبِ اللَّهِ وَيَرُوحُونَ):أَيْ:يُمْسُونَ (فِي سَخَطِ اللَّهِ):أَيِ:الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ لِتَكْرَارِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ،وَاسْتِمْرَارِ صُدُورِ هَذَا الْفِعْلِ عَنْهُ.(وَفِي رِوَايَةٍ:وَيَرُوحُونَ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ):أَيْ:إِبْعَادِهِ عَنْ رَحْمَتِهِ فَإِنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ أَمْرَ أَمِيرِهِمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ:(يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ) إِمَّا الدَّوَامُ وَالِاسْتِمْرَارُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الأنعام:٥٢] يَعْنِي هُمْ أَبَدًا فِي غَضَبِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ لَا يَحْلُمُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَرْضَى عَنْهُمْ،وَإِنْ أُرِيدَ بِهِمَا الْوَقْتَانِ الْمَخْصُوصَانِ،فَالْمَعْنَى يُصْبِحُونَ يُؤْذُونَ النَّاسَ وَيُرَوِّعُونَهُمْ وَلَا يَرْحَمُونَ عَلَيْهِمْ،فَغَضِبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ،وَيُمْسُونَ يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا لَا يُرْضِي عَنْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْإِيذَاءِ وَالرَّوْعِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠١)

[٢٧١٧] - شعب الإيمان (١٣/ ٤٤٩)(١٠٦٠٥) ضعيف

(من روع مؤمنا) أي أفزعه فأخافه كأن أشار إليه بنحو سيف أو سكين ولو هازلا أو أشار إليه بحبل يوهمه أنه حية (لم يؤمن الله تعالى روعته) أي لم يسكن الله تعالى قلبه (يوم القيامة) حين يفزع الناس من هول الموقف وإذا كان هذا في مجرد الروع فما ظنك بما فوقه بل يخيفه ويرعبه جزاءا وفاقا يقال أمن زيد الأسد وأمن منه سلم منه وزنا ومعنى قال في المصباح وغيره:والأصل أن يستعمل في سكون القلب اه.ومنه أخذ الشافعية أن المالك يحرم عليه أخذ وديعته من تحت يد المودع بغير علمه لأنه فيه إرعابا له بظن ضياعها قال بعض الأئمة:ولا فرق في ذلك بين كونه جدا أو هزلا أو مزحا وجرى عليه الزركشي في التكملة نقلا عن القواعد فقال:ما يفعله الناس من أخذ المتاع على سبيل المزح حرام وقد جاء في الخبر لا يأخذ أحدكم متاع صاحبه لاعبا ومن ثم اتجه جزم بعضهم بحرمة كل ما فيه إرعاب للغير مطلقا"فيض القدير (٦/ ١٣٩)

[٢٧١٨] - المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٣٦)(٧٦١٦) حسن

في النهاية:الشرطي واحد الشرطة للسلطان وهم نخبة أصحابه الذين يقدمهم على سائر الجند سموا بذلك لأن لهم علامة يعرفون بها وأشراط الساعة علاماتها (يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله) أي يغدون بكرة النهار ويروحون آخره وهم في غضبه وسخطه (فإياك أن تكون من بطانتهم) أي احذر أن تكون منهم وبطانة الرجل صاحب سره وداخلة أمره وصفيه الذي يقضي حوائجه ثقة به شبه ببطانة الثوب كما يقال فلان شعاري قال في الفردوس عقب سياق هذا الحديث:وفي رواية يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوما في أيديهم أسواط مثل أذناب البقر يغدون في غضب الله"فيض القدير (٤/ ١٢٨)

وعَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ،قَالَ:مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أُنَاسٍ،وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ،وَصُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمِ الزَّيْتُ،فَقَالَ:مَا هَذَا؟ قِيلَ:يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ،فَقَالَ:أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا»[٢٧١٩]

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ،وَجَدَ رَجُلًا وَهُوَ عَلَى حِمْصَ يُشَمِّسُ نَاسًا مِنَ النَّبْطِ فِي أَدَاءِ الْجِزْيَةِ،فَقَالَ:مَا هَذَا؟ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»رواه مسلم[٢٧٢٠]

وعَنْ عُرْوَةَ،أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ،مَرَّ بِعُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ وَهُوَ يُعَذِّبُ النَّاسَ فِي الْجِزْيَةِ فِي الشَّمْسِ،فَقَالَ:يَا عُمَيْرُ،إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»،قَالَ:اذْهَبْ فَخَلِّ سَبِيلَهُمْ.[٢٧٢١]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ:كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ،فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي،«اعْلَمْ،أَبَا مَسْعُودٍ»،فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ،قَالَ:فَلَمَّا

[٢٧١٩] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠١٧)١١٧ - (٢٦١٣)

[ش (إن الله يعذب الذين يعذبون) هذا محمول على التعذيب بغير حق فلا يدخل فيه التعذيب بحق كالقصاص والحدود والتعزير وغير ذلك]

(أَنَّ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ):أَي:ابْنَ الْحِزَامِ الْقُرَشِيَّ الْأَسَدِيَّ أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ،وَكَانَ مِنْ فُضَلَاءِ الصَّحَابَةِ وَخِيَارِهِمْ مِمَّنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ،رَوَى عَنْهُ نَفَرٌ مِنْهُمْ:عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ وَأَبُوهُ يُكَنَّى أَبَا خَالِدٍ الْقُرَشِيَّ الْأَسَدِيَّ،وَهُوَ ابْنُ أَخِي خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ،وُلِدَ فِي الْكَعْبَةِ قَبْلَ الْفِيلِ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَوُجُوهِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَتَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ إِلَى عَامِ الْفَتْحِ وَمَاتَ بِالْمَدِينَةِ فِي دَارِهِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ،وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً،سِتُّونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَسِتُّونَ فِي الْإِسْلَامِ،وَكَانَ عَامِلًا فَاضِلًا تَقِيًّا،حَسُنَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ،أَعْتَقَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ رَقَبَةٍ،وَحَمَلَ عَلَى مِائَةِ بَعِيرٍ،رَوَى عَنْهُ نَفَرٌ ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ (مَرَّ):أَي:ابْنُ حَكِيمٍ (بِالشَّامِ عَلَى أُنَاسٍ):جَمَاعَةٍ (مِنَ الْأَنْبَاطِ):بِفَتْحِ أَوَّلِهِ.فِي النِّهَايَةِ:النَّبَطُ وَالنَّبِيطُ جَبَلٌ مَعْرُوفٌ،كَانُوا يَنْزِلُونَ بِالْبَطَائِحِ بَيْنَ الْعِرَاقَيْنِ أَيْ:بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ.وَقَالَ النَّوَوِيُّ:الْأَنْبَاطُ فَلَّاحَةُ الْأَعَاجِمِ.(وَقَدْ أُقِيمُوا):أَيْ:أُوقِفُوا (فِي الشَّمْسِ وَصُبَّ):أَيْ:كُبَّ (عَلَى رُءُوسِهِمْ):أَيْ:فَوْقَهَا (الزَّيْتُ):أَيِ:الْحَارُّ (فَقَالَ):أَي:ابْنُ حَكِيمٍ (مَا هَذَا؟):أَيْ:مَا سَبَبُ هَذَا الْأَمْرِ؟ (قِيلَ:يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ):أَيْ:فِي تَحْصِيلِهِ وَأَدَائِهِ مِمَّا بَقِيَ عِنْدَهُمْ (فَقَالَ هِشَامٌ):أَي:ابْنُ حَكِيمٍ (أَشْهَدُ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ):اللَّامُ جَوَابُ الْقَسَمِ لِمَا فِي أَشْهَدُ مِنْ مَعْنَاهُ («إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ»):أَيْ:بِمَا يُعَذِّبُ اللَّهُ بِهِ فِي الْعُقْبَى (فِي الدُّنْيَا):أَيْ:بِغَيْرِ حَقٍّ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠١)

[٢٧٢٠] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠١٨)١١٩ - (٢٦١٣) [ش (يشمس) في القاموس التشميس بسط الشيء في الشمس]

[٢٧٢١] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٤٢٩)(٥٦١٣) صحيح

دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَإِذَا هُوَ يَقُولُ:«اعْلَمْ،أَبَا مَسْعُودٍ،اعْلَمْ،أَبَا مَسْعُودٍ»،قَالَ:فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي،فَقَالَ:«اعْلَمْ،أَبَا مَسْعُودٍ،أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»،قَالَ:فَقُلْتُ:لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا"

وفي رواية عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ،قَالَ:كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي،فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا:«اعْلَمْ،أَبَا مَسْعُودٍ،لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»،فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ،فَقَالَ:«أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ»،أَوْ «لَمَسَّتْكَ النَّارُ»

وفي رواية:فقُلْتُ:يَا رسُول اللَّه هُو حُرٌّ لوجْهِ اللَّه تعالى فَقَال "**أمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ،لَلَفَحَتْكَ النَّارُ،أوْ لَمَسَّتكَ النَّارُ**" رواه مسلم [٢٧٢٢].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَجِيبُوا الدَّاعِيَ،وَلَا تَرُدُّوا الْهَدِيَّةَ،وَلَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ»[٢٧٢٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَنْ ضَرَبَ بِسَوْطٍ ظُلْمًا اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[٢٧٢٤].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ،وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»[٢٧٢٥]

[٢٧٢٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٨٠)٣٤ - (١٦٥٩)

(وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي،فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا):أَيْ كَلَامًا لِقَائِلٍ يَقُولُ:(اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ):أَيْ يَا أَبَا مَسْعُودٍ (لَلَّهُ):بِفَتْحِ اللَّامِ (أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ) أَيْ أَتَمُّ وَأَبْلَغُ مِنْ قُدْرَتِكَ عَلَى عَبْدِكَ.قَالَ الطِّيبِيُّ:عُلِّقَ عَمَلُ اعْلَمْ بِاللَّامِ الِابْتِدَائِيَّةِ،وَلَلَّهُ مُبْتَدَأٌ وَأَقْدَرُ خَبَرُهُ وَعَلَيْكَ صِلَةُ أَقْدَرَ،وَمِنْكَ مُتَعَلِّقُ أَفْعَلَ،وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ أَقْدَرُ؛لِأَنَّهُ أَخَذَ مَالَهُ،وَلَا بِمَصْدَرٍ مُقَدَّرٍ عِنْدَ قَوْلِهِ مِنْكَ أَيْ مِنْ قُدْرَتِكَ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُظْهِرُ؛لِأَنَّ الْمَعْنَى يَأْبَاهُ،بَلْ هُوَ حَالٌ مِنَ الْكَافِ أَيْ أَقْدَرُ مِنْكَ حَالَ كَوْنِكَ قَادِرًا عَلَيْهِ (فَالْتَفَتُّ):أَيْ نَظَرْتُ (إِلَى خَلْفِي فَإِذَا هُوَ):أَيْ مِنْ خَلْفِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ مِنْ خَلْفِي (رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- فَقُلْتُ):أَيْ بِبَرَكَةِ نَظَرِهِ الْإِكْسِيرِ وَنُصْحِهِ الْأَثِيرِ (يَا رَسُولَ اللَّهِ! هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ) .أَيْ لِابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ (فَقَالَ:" أَمَا "):بِالتَّخْفِيفِ لِلتَّنْبِيهِ (لَوْ لَمْ تَفْعَلْ):أَيْ لَوْ مَا فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ مِنَ الْإِعْتَاقِ (لَلَفَحَتْكَ النَّارُ):أَيْ أَحْرَقَتْكَ (أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ):أَيْ أَصَابَتْكَ إِنْ ضَرَبْتَهُ ظُلْمًا وَلَمْ يَعْفُ عَنْكَ.قَالَ النَّوَوِيُّ:فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الرِّفْقِ بِالْمَمَالِيكِ وَحُسْنِ صُحْبَتِهِمْ وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ عِتْقَهُ هَذَا لَيْسَ وَاجِبًا،وَإِنَّمَا هُوَ مَنْدُوبٌ وَجَاءَ كَفَّارَةَ ذَنْبِهِ فِيهِ،وَإِزَالَةَ إِثْمِ ظُلْمِهِ عَنْهُ.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢١٩٦)

[٢٧٢٣] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٤١٨)(٥٦٠٣) صحيح

[٢٧٢٤] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٨٢)(١٦٠٠٤) حسن

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» رواه مسلم[٢٧٢٦]

وعَنْ أَبِي فِرَاسٍ،قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ:إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ عُمَّالِي لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ،وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ،فَمَنْ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ أُقِصُّهُ مِنْهُ،قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ:لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ أَتُقِصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ:إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أُقِصُّهُ،وَقَدْ «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقَصَّ مِنْ نَفْسِهِ» رواه أبو داود[٢٧٢٧]

وعَنْ أَبِي فِرَاسٍ،قَالَ :خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ :يَا أَيُّهَا النَّاسُ،أَلاَ إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ،وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ،وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ،أَلاَ وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَد انْطَلَقَ وَقَد انْقَطَعَ الْوَحْيُ،وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ،مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ،وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ،سَرَائِرُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ،أَلاَ إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأَنَا أَحْسِبُ أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللَّهَ وَمَا عِنْدَهُ،فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرَةٍ،أَلاَ إِنَّ رِجَالاً قَدْ قَرَؤُوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ،فَأَرِيدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ،وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ،أَلاَ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ،وَلاَ لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ،وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ،فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ،فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذَنْ لأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ،فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَقَالَ :يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،أَوَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ،فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ،أَئِنَّكَ لَمُقْتَصُّهُ مِنْهُ ؟ قَالَ :إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ

[٢٧٢٥] - صحيح البخاري (١/ ١١)(١٠) وصحيح مسلم (١/ ٦٥)٦٤ - (٤٠)

[ش (المسلم) أي الكامل الإسلام.(المهاجر) أي الحقيقي اسم فاعل من الهجرة وهي في الأصل مفارقة الأهل والوطن في سبيل الله تعالى وأريد بها هنا ترك المعاصي]

(«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»):تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ (وَالْمُؤْمِنُ) أَيِ الْكَامِلُ (مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ):كَعَلِمَهُ أَيِ ائْتَمَنَهُ،يَعْنِي جَعَلُوهُ أَمِينًا وَصَارُوا مِنْهُ عَلَى أَمْنٍ (عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) لِكَمَالِ أَمَانَتِهِ وَدِيَانَتِهِ،وَعَدَمِ خِيَانَتِهِ،وَحَاصِلُ الْفِقْرَتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ التَّنْبِيهُ عَلَى تَصْحِيحِ اشْتِقَاقِ الِاسْمَيْنِ،فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ يُطَالِبَ نَفْسَهُ بِمَا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْهُ،فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ فِيهِ فَهُوَ كَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ كَرِيمٌ وَلَا كَرَمَ لَهُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٠٧)

[٢٧٢٦] - صحيح مسلم (١/ ٦٦)٦٦ - (٤٢)

[٢٧٢٧] - سنن أبي داود (٤/ ١٨٣)(٤٥٣٧) حسن

(أبشاركم):جمع بشرة،وهي ظاهر جلد الإنسان.=(أُقصُّه):آخذ منه القصاص بما فعل به.

بِيَده،إِذَا لأُقصَّنَّهُ منْهُ،أني لأُ أقصَّنَّهُ منْهُ،وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُقصُّ منْ نَفْسه،ألا لاَ تَضْرِبُوا الْمُسْلمينَ فَتُذلُّوهُمْ،وَلاَ تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتنُوهُمْ،وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ،وَلاَ تُنْزِلُــوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ[٢٧٢٨].

وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" إِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَته يَوْمَ خَلَقَ اللَّــهُ السَّمَوَات وَالأَرْضَ،السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا،منْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ،ثَلاَثٌ مُتَوَالِيَــاتٌ:ذُو القَعْــدَة،وَذُو الحجَّة،وَالمُحَرَّمُ،وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ،أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ " قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُــولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيْرِ اسْمه،قَالَ:«أَلَيْسَ ذَا الحجَّة؟» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«أَيُّ بَلَد هَذَا؟» قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيْر اسْمه،قَالَ:«أَلَيْسَ البَلْــدَةَ؟» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَــمِّيه بغَيْــرِ اسْمه،قَالَ:«أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:" فَإِنَّ دمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ مُحَمَّدٌ:وَأَحْسِــبُهُ قَالَ - وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ،كَحُرْمَة يَــوْمكُمْ هَــذَا،في بَلَــدكُمْ هَــذَا،في شَــهْرِكُمْ هَذَا،وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ،فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالكُمْ،أَلاَ فَلاَ تَرْجعُوا بَعْدي ضُلَّالًا،يَضْــرِبُ بَعْضُــكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ،أَلاَ ليُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغَائبَ،فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ منْ بَعْضِ مَــنْ سَمعَهُ - وَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا ذَكَرَهُ قَالَ:صَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ،ثُمَّ قَالَ - أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ،أَلاَ هَلْ بَلَّغْــتُ مَرَّتَيْنِ " متفقٌ عليه[٢٧٢٩].

(عَنْ أَبِي بَكْرَةَ) :أَيِ:الثَّقَفِيِّ (قَالَ:خَطَبَنَا) :أَيْ:وَعَظَنَا (النَّبِيُّ - ﷺ - يَوْمَ النَّحْرِ) :يُسْــتَحَبُّ الْخُطْبَةُ عنْدَ الشَّافعيِّ في أَوَّلِ أَيَّامِ النَّحْرِ،وَعنْدَنَا في الثَّاني منْ أَيَّامه،وَتَقْييدُهُ فــي الْأَحَاديــث الصَّحيحَة يُؤَيِّدُ مَذْهَبَنَا،وَبه اسْتَشْكَلَ النَّوَوِيُّ مَا اتَّفَقَ عَلَيْه أَصْحَابُ الشَّافعيِّ منْ قَوْلهمْ:يُسَــنُّ أَنْ يَخْطُبَ الْإِمَامُ،أَوْ نَائبُهُ النَّاسَ بَعْدَ صَلَاة الظُّهْرِ يَوْمَ النَّحْرِ بمنًى خُطْبَــةً فَــرْدَةً،يُعَلِّمُ فيهَــا الْمَنَاسكَ إِلَى أَنْ قَالَ:فَقَوْلُهُمْ بَعْدَ صَلَاة الظُّهْرِ مُخَالفٌ لمَا في الْأَحَاديث الصَّحيحَة أَنَّهَا كَانَتْ تُضَحِّي اهـــ.

[٢٧٢٨] - مسند أحمد (عالم الكتب) (١/ ١٦٣)(٢٨٦) حسن

[٢٧٢٩] - صحيح البخاري (٧/ ١٠٠)(٥٥٥٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٠٥)٢٩ - (١٦٧٩)

فَالصَّوَابُ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ كَانَتْ خُطْبَةَ مَوْعِظَةٍ،وَأَنَّ الْخُطْبَةَ الْمَعْرُوفَةَ كَانَتْ ثَانِيَ يَوْمِ النَّحْرِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ (قَالَ:إِنَّ الزَّمَانَ) :هُوَ اسْمٌ لِقَلِيلِ الْوَقْتِ وَكَثِيرِهِ،وَالْمُرَادُ هُنَا السَّنَةُ.(قَد اسْتَدَارَ) :أَيْ:دَارَ (كَهَيْئَتِهِ) :قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:الْهَيْئَةُ صُورَةُ الشَّيْءِ وَشَكْلُهُ وَحَالَتُهُ،وَالْكَافُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَيِ:اسْتَدَارَ اسْتِدَارَةً مِثْلَ حَالَتِهِ (يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ) :أَيْ:وَمَا فِيهَا مِنَ النَّيِّرَيْنِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا تُعْرَفُ الْأَيَّامُ،وَاللَّيَالِي،وَالسَّنَةُ وَالْأَشْهُرُ،وَفِي نُسْخَةٍ:" كَهَيْئَةِ يَوْمِ " بِالْإِضَافَةِ،وَهُوَ خِلَافُ الرِّوَايَةِ وَالدِّرَايَةِ (وَالْأَرْضَ) :أَيْ:عَادَ وَرَجَعَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي ابْتَدَأَ مِنْهُ،يَعْنِي:الزَّمَانَ فِي انْقِسَامِهِ إِلَى الْأَعْوَامِ،وَالْأَعْوَامَ إِلَى الْأَشْهُرِ عَادَ إِلَى أَصْلِ الْحِسَابِ،وَالْوَضْعِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ – تَعَالَى – وَوَضَعَهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَائِنَا:أَيْ:دَارَ عَلَى التَّرْتِيبِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ،وَوَضَعَهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ،وَهُوَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ عَامٍ اثْنَى عَشَرَ شَهْرًا،وَكُلُّ شَهْرٍ مَا بَيْنَ تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ إِلَى ثَلَاثِينَ يَوْمًا،وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ غَيَّرُوا ذَلِكَ ؛ فَجَعَلُوا عَامًا اثْنَى عَشَرَ شَهْرًا،وَعَامًا ثَلَاثَةَ عَشَرَ،فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُنْسِئُونَ الْحَجَّ فِي كُلِّ عَامَيْنِ مِنْ شَهْرٍ إِلَى شَهْرٍ آخَرَ بَعْدَهُ،وَيَجْعَلُونَ الشَّهْرَ الَّذِي أَنْسَئُوهُ مُلْغًى،فَتَصِيرُ تِلْكَ السَّنَةُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ،وَتَتَبَدَّلُ أَشْهُرُهَا،فَيُحِلُّونَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ،وَيُحَرِّمُونَ غَيْرَهَا،كَمَا قَالَ – تَعَالَى:{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} [التوبة:٣٧] الْآيَةَ.فَأَبْطَلَ اللَّهُ – تَعَالَى – ذَلِكَ،وَقَرَّرَهُ عَلَى مَدَارِهِ الْأَصْلِيِّ،فَالسَّنَةُ الَّتِي حَجَّ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – حَجَّةَ الْوَدَاعِ هِيَ السَّنَةُ الَّتِي وَصَلَ ذُو الْحِجَّةِ إِلَى مَوْضِعِهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ – (إِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ) يَعْنِي أَمَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يَكُونُ ذُو الْحِجَّةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ،فَاحْفَظُوهُ،وَاجْعَلُوا الْحَجَّ فِي هَذَا الْوَقْتِ،وَلَا تُبَدِّلُوا شَهْرًا بِشَهْرٍ كَعَادَةِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ اهـ.

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ:كَانُوا إِذَا جَاءَ شَهْرٌ حَرَامٌ،وَهُمْ مُحَارِبُونَ أَحَلُّوهُ،وَحَرَّمُوا مَكَانَهُ شَهْرًا آخَرَ،حَتَّى رَفَضُوا خُصُوصَ الْأَشْهُرِ،وَاعْتَبَرُوا مُجَرَّدَ الْعَدَدِ اهـ.فَكَأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ فِي النَّسِيءِ،وَاللَّهُ – تَعَالَى – أَعْلَمُ.(السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) :جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُبَيِّنَةٌ لِلْجُمْلَةِ الْأُولَى،قَالَهُ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) :قَالَ – تَعَالَى:(فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) .

قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:أَيْ:بِهَتْكِ حُرْمَتِهَا،وَارْتِكَابِ حَرَامِهَا،وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ حُرْمَةَ الْمُقَاتَلَةِ فِيهَا مَنْسُوخَةٌ،وَأَوَّلُوا الظُّلْمَ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي فِيهِنَّ،فَإِنَّهُ أَعْظَمُ وِزْرًا كَارْتِكَابِهَا فِي الْحَرَمِ،وَحَالَ الْإِحْرَامِ.وَعَنْ عَطَاءٍ:لَا يَحِلُّ لِلنَّاسِ أَنْ يَغْزُوا فِي الْحَرَمِ وَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ،إِلَّا أَنْ يُقَاتَلُوا،وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ مَا رُوِيَ أَنَّهُ – ﷺ – حَاصَرَ الطَّائِفَ،وَغَزَا هَوَازِنَ بِحُنَيْنٍ فِي شَوَّالٍ وَذِي الْقَعْدَةِ (ثَلَاثٌ) :أَيْ:لَيَالِي (مُتَوَالِيَاتٌ) :أَيْ:مُتَتَابِعَاتٌ.

قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:اعْتَبَرَ ابْتِدَاءَ الشُّهُورِ مِنَ اللَّيَالِي،فَحَذَفَ التَّاءَ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ تَغْلِيبٌ لِلَّيَالِي هُنَا كَمَا فِي " أَرْبَعَةٌ " تَغْلِيبٌ لِلْأَيَّامِ.(ذُو الْقَعْدَةِ) :بِفَتْحِ الْقَافِ،وَيُكْسَرُ (وَذُو الْحِجَّةِ) :بِكَسْرِ الْحَاءِ،وَقَدْ يُحْذَفُ مِنْهَا ذُو (وَالْمُحَرَّمُ) :عَطْفٌ عَلَى " ذُو الْقَعْدَةِ " كَانَ الْعَرَبُ يُؤَخِّرُونَ الْمُحَرَّمَ إِلَى صَفَرٍ مَثَلًا،لِيُقَاتِلُوا فِيهِ،وَهُوَ النَّسِيءُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ،وَهَكَذَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي كُلِّ سَنَةٍ،فَيَدُورُ الْمُحَرَّمُ فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ،فَفِي سَنَةِ حَجَّةِ الْوَدَاعِ عَادَ الْمُحَرَّمُ إِلَى أَصْلِهِ قَبْلُ،فَلِذَلِكَ أَخَّرَ النَّبِيُّ – ﷺ – الْحَجَّ إِلَى تِلْكَ السَّنَةِ اهـ.

لَكِنْ يُشْكِلُ حَيْثُ أَمَّرَ النَّبِيُّ – ﷺ – أَبَا بَكْرٍ،وَأَمَرَهُ بِالْحَجِّ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ،مَعَ أَنَّ الْحَجَّ لَا يُصْبِحُ فِي غَيْرِ الْحَجَّةِ بِالْإِجْمَاعِ،وَقَدْ كَتَبْتُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ رِسَالَةً مُسْتَقِلَّةً،ثُمَّ رَأَيْتُ ابْنَ حَجَرٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ – وَافَقَنِي فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ حَيْثُ قَالَ:وَمِمَّا يَتَعَيَّنُ اعْتِقَادُهُ أَنَّ الْحَجَّ سَنَةَ ثَمَانٍ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ أَمِيرُ مَكَّةَ،وَسَنَةَ تِسْعٍ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ،إِنَّمَا كَانَتْ فِي الْحِجَّةِ،كَانَ الزَّمَانُ اسْتَدَارَ فِيهِمَا لِاسْتِحَالَةِ أَمْرِهِ – ﷺ – لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ فِي غَيْرِ الْحِجَّةِ،وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا يُنَافِي ذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَهُ:" قَدِ اسْتَدَارَ " صَادِقٌ بِهَذِهِ الْحِجَّةِ وَمَا قَبْلَهَا،فَتَعَيَّنَ حَمْلُهُ عَلَى الْعَامِلِينَ قَبْلَهَا أَيْضًا،كَمَا قَطَعَتْ بِهِ الْقَوَاعِدُ الشَّرْعِيَّةُ.(وَرَجَبُ مُضَرَ) :عَلَى وَزْنِ عُمَرَ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ.قَبِيلَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْعَرَبِ أُضِيفَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ فَوْقَ مَا يُعَظِّمُونَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَشْهُرِ،وَكَانُوا يُعَظِّمُونَهُ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ،وَلَا يُوَافِقُونَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ فِي اسْتِحْلَالِهِ،وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى " ثَلَاثٌ " وَأَمَّا تَعْرِيفُهُ بِقَوْلِهِ:(الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى) :بِضَمِّ الْجِيمِ وَفَتْحِ الدَّالِ وَبَعْدَهُ أَلِفٌ،وَرَسْمُهُ بِالْيَاءِ (وَشَعْبَانَ) :فَلِإِزَاحَةِ الِارْتِيَابِ الْحَادِثِ فِيهِ مِنَ النَّسِيءِ.

وَقَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:لِزِيَادَةِ الْبَيَانِ (وَقَالَ:" أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟) :أَرَادَ بِهَذَا الِاسْتِفْهَامِ أَنْ يُقَرِّرَ فِي نُفُوسِهِمْ حُرْمَةَ الشَّهْرِ،وَالْبَلْدَةِ،وَالْيَوْمِ لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ مَا أَرَادَهُ (قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) :رِعَايَةً لِلْأَدَبِ،وَتَحَرُّزًا عَنِ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَتَوَقُّفًا فِيمَا لَا يُعْلَمُ الْغَرَضُ مِنَ السُّؤَالِ عَنْهُ (فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ.فَقَالَ:أَلَيْسَ) :أَيْ:هَذَا الشَّهْرُ أَوِ اسْمُهُ (ذَا الْحِجَّةِ) قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:" أَيُّ بَلَدٍ هَذَا " قُلْنَا:(اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،قَالَ) :بِلَا فَاءٍ (أَلَيْسَ) :أَيِ:الْبَلَدُ (الْبَلْدَةَ) :قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ:غَلَبَتِ الْبَلْدَةُ عَلَى مَكَّةَ كَالْبَيْتِ عَلَى الْكَعْبَةِ اهـ.وَقَالَ بَعْضُهُمْ:أَيِ:الْبَلْدَةَ الَّتِي تَعْلَمُونَهَا مَكَّةَ،وَقِيلَ:هِيَ اسْمُ مَكَّةَ اهـ.

وَالْأَظْهَرُ:أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَلَدِ الْأَرْضُ بِقَرِينَةِ الْإِشَارَةِ بِهَذَا فِي مِنًى،وَالْبَلْدَةُ وَإِنْ كَانَتِ اسْمَ مَكَّةَ لَكِنْ قَدْ تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا أَرْضُ الْحَرَمِ كُلُّهَا مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ الْجُزْءِ،وَإِرَادَةِ الْكُلِّ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ – تَعَالَى:{إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا} [النمل:٩١] وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّحْرِيمَ يَعُمُّ مَوَاضِعَ الْحَرَمِ كُلَّهَا (وَقُلْنَا:بَلَى.قَالَ:" فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ " قُلْنَا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ:" أَلَيْسَ) :أَيْ:هَذَا الْيَوْمُ (يَوْمَ النَّحْرِ؟) قُلْنَا:(بَلَى) :وَلَعَلَّ فَائِدَةَ السُّؤَالِ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ مَعَ تَكَرُّرِ الْحَالِ ؛ لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي الْقَلْبِ،وَأَحْفَظَ فِي النَّفْسِ (قَالَ:" فَإِنَّ دِمَائَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ) :أَيْ:تَعَرُّضَكُمْ لِبَعْضِكُمْ فِي دِمَائِكُمْ،وَأَمْوَالِكُمْ،وَأَعْرَاضِكُمْ:الْعِرْضُ – بِالْكَسْرَةِ – مَوْضِعُ الْمَدْحِ،وَالذَّمِّ مِنَ الْإِنْسَانِ،سَوَاءٌ كَانَ فِي نَفْسِهِ،أَوْ سَلَفِهِ (عَلَيْكُمْ حَرَامٌ) :أَيْ:مُحَرَّمٌ حُرْمَةً شَدِيدَةً (كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا) :وَالْمُشَبَّهُ بِهِ قَدْ لَا يَكُونُ أَقْوَى بِأَنْ يَكُونَ أَشْهَرَ،وَأَظْهَرَ،وَكَانَ كَذَلِكَ سُنَّةُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ (وَفِي بَلَدِكُمْ هَذَا) :فَالْمَعْصِيَةُ بِهِ عَظِيمَةٌ،كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ،وَجَمْعٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ بِمُضَاعَفَةِ السَّيِّئَاتِ بِمَكَّةَ كَمَا تُضَاعَفُ الْحَسَنَاتُ بِهَا،لَكِنَّ الْمُعْتَمَدَ أَنَّ السَّيِّئَةَ بِهَا تُضَاعَفُ كَيْفِيَّةً لَا كَمِّيَّةً،لِئَلَّا يُخَالِفَ حَصْرَ قَوْلِهِ:{وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} [الأنعام:١٦٠] :وَأَمَّا قَوْلُهُ – تَعَالَى:{وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج:٢٥] فَلَا يَصْلُحُ دَلِيلًا لِلتَّعَدُّدِ الَّذِي ادَّعُوهُ،بَلْ لِلْعِظَمِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ (فِي شَهْرِكُمْ هَذَا) :إِنَّمَا شَبَّهَهَا فِي الْحُرْمَةِ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ،لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرَوْنَ اسْتِبَاحَةَ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ،وَانْتِهَاكَ

حُرْمَتِهَا بِحَالٍ (وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ) :أَيْ:يَوْمَ الْقِيَامَةِ (فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ) :أَيِ:الْقَلِيلَةِ وَالْكَثِيرَةِ (أَلَا) :لِلتَّنْبِيهِ (فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي) :أَيْ:لَا تَصِيرُوا بَعْدَ وَفَاتِي (ضُلَّالًا) :بِضَمِّ الضَّادِ،وَتَشْدِيدِ اللَّامِ جَمْعُ ضَالٍّ.

قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:وَيُرْوَى كُفَّارًا أَيْ:مُشَبَّهِينَ بِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ (يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) اسْتِئْنَافٌ مُبَيِّنٌ أَوْ حَالٌ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالْجَزْمِ عَلَى جَوَابِ النَّهْيِ (أَلَا) :لِلتَّنْبِيهِ (هَلْ بَلَّغْتُ؟) :بِتَشْدِيدِ اللَّامِ،أَيْ:أَعْلَمْتُكُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي؟ (قَالُوا) :نَعَمْ قَالَ:" اللَّهُمَّ اشْهَدْ) :أَيْ:لِي وَعَلَيْهِمْ (فَلْيُبَلِّغِ) :بِالتَّشْدِيدِ،وَيُخَفَّفُ،أَيْ:لِيُخْبِرِ (الشَّاهِدُ) :أَيِ:الْحَاضِرُ (الْغَائِبَ) :أَيْ:حَقِيقَةً،أَوْ حُكْمًا (فَرُبَّ مُبَلَّغٍ) :بِتَشْدِيدِ اللَّامِ الْمَفْتُوحَةِ،أَيْ:مَنْ يَبْلُغُهُ الْحَدِيثُ (أَوْعَى) أَيْ:أَحْفَظُ لِمَبْنَاهُ،وَأَفْهَمُ لِمَعْنَاهُ (مِنْ سَامِعٍ) :فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلْغَائِبِينَ،وَتَقْوِيَةٌ لِلتَّابِعِينَ،وَإِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ بَابَ اللَّهِ مَفْتُوحٌ لِلسَّالِكِينَ،وَلَا يَطْرُدُ عَنْ بَابِهِ إِلَّا الْهَالِكِينَ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .[٢٧٣٠]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ،عَنْ أَبِيهِ،ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ،وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ - أَوْ بِزِمَامِهِ - قَالَ:«أَيُّ يَوْمٍ هَذَا»،فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ،قَالَ:«أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،فَقَالَ:«أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ،وَأَمْوَالَكُمْ،وَأَعْرَاضَكُمْ،بَيْنَكُمْ حَرَامٌ،كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا،فِي شَهْرِكُمْ هَذَا،فِي بَلَدِكُمْ هَذَا،لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ،فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»[٢٧٣١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا:الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ،فَقَالَ:«إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ،وَصِيَامٍ،وَزَكَاةٍ،وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا،وَقَذَفَ هَذَا،وَأَكَلَ مَالَ هَذَا،وَسَفَكَ دَمَ هَذَا،وَضَرَبَ هَذَا،فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ،وَهَذَا

[٢٧٣٠] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٨٣٥)

[٢٧٣١] - صحيح البخاري (١/ ٢٤)(٦٧)

[ش (إنسان) قيل هو بلال وقال في الفتح لكن الصواب أنه هنا أبو بكرة.(بخطمه أو بزامه) هما بمعنى واحد وهو خيط تشد فيه حلقة تجعل في أنف البعير.(يوم النحر) أي اليوم الذي تنحر فيه الأضاحي أي تذبح وهو اليوم العاشر من ذي الحجة.(حرام) يحرم عليكم المساس بها والاعتداء عليها.(كحرمة) كحرمة تعاطي المحظورات في هذا اليوم.(في بلدكم هذا) مكة وما حولها.(الشاهد) الحاضر.(أوعى له) أفهم للحديث المبلغ]

مِنْ حَسَنَاته،فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ،ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» رواه مسلم [٢٧٣٢].

[٢٧٣٢] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٧)٥٩ - (٢٥٨١)

[ش (إن المفلس من أمتي) معناه أن هذا حقيقة المفلس أما من ليس له مال ومن قل ماله فالناس يسمونه مفلسا وليس هو حقيقة المفلس لأن هذا الأمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث فهو الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللَّه - ﷺ- قَالَ:أَتَدْرُونَ) أَيْ:(أَتَعْلَمُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟) كَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَكِتَابِ الْحُمَيْدِيِّ وَجَامِعِ الْأُصُولِ وَشَرْحِ السُّنَّةِ،فَعَلَى هَذَا السُّؤَالُ عَنْ وَصْفِ الْمُفْلِسِ لَا عَنْ حَقِيقَتِهِ،وَمِنْ ثَمَّ أَجَابَ ﷺبِوَصْفِهِ فِي قَوْلِهِ:شَتْمٌ وَأَكْلٌ وَقَذْفٌ،وَفِي مَشَارِقِ الْأَنْوَارِ فِي بَعْضِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ فِي الْمُفْلِسِ،وَهَذَا سُؤَالُ إِرْشَادٍ لَا اسْتِعْلَامٍ،وَلِذَلِكَ قَالَ:إِنَّ الْمُفْلِسَ كَذَا وَكَذَا.قُلْتُ:الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ مَا الْمُفْلِسُ مَنِ الْمُفْلِسُ،بِدَلِيلِ مَا بَعْدَهُ فِي جَوَابِ الصَّحَابَةِ،وَفِي كَلَامِهِ - ﷺ- أَيْضًا مِنَ التَّعْبِيرِ بِمَنْ (قَالُوا) أَيْ:بَعْضُ أَصْحَابِهِ (الْمُفْلِسُ فِينَا) أَيْ:فِيمَا بَيْنَنَا (مَنْ لَا دِرْهَمَ) أَيْ:مِنْ نَقْدٍ (لَهُ):أَيْ:مِلْكًا (وَلَا مَتَاعَ) أَيْ:مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ النَّقْدُ وَيَتَمَتَّعُ بِهِ مِنَ الْأَقْمِشَةِ وَالْعِقَادِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْمَوَاشِي وَالْعَبِيدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ،وَالْحَاصِلُ أَنَّهُمْ أَجَابُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِحَسَبِ عُرْفِ أَهْلِ الدُّنْيَا كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ فِينَا وَغَفَلُوا عَنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ كَانَ حَقُّهُمْ أَنْ يَقُولُوا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ لِأَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرُوهُ كَانَ وَاضِحًا عِنْدَهُ - ﷺ- فَلَمَّا أَجَابُوهُ بِمَا أَجَابُوهُ.(فَقَالَ:إِنَّ الْمُفْلِسَ) أَيِ:الْحَقِيقِيُّ أَوِ الْمُفْلِسُ فِي الْآخِرَةِ (مِنْ أُمَّتِي) أَيْ:كُلِّ:أُمَّةِ الْإِجَابَةِ وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا فِي الدُّنْيَا بِالدِّرْهَمِ وَالْمَتَاعِ (مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ) أَيْ:مَقْبُولَاتٍ وَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ أَيْ:مَصْحُوبًا بِهَا (وَيَأْتِي) أَيْ:وَيَحْضُرُ أَيْضًا حَالَ كَوْنِهِ (قَدْ شَتَمَ هَذَا) أَيْ:وَقَعَ لَهُ شَتْمٌ لِأَحَدٍ (وَقَذَفَ هَذَا) أَيْ:بِالزِّنَا وَنَحْوِهِ (وَأَكَلَ مَالَ هَذَا) أَيْ:بِالْبَاطِلِ (وَسَفَكَ) أَيْ:أَرَاقَ (دَمَ هَذَا) أَيْ:بِغَيْرِ حَقٍّ (وَضَرَبَ هَذَا) أَيْ:مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أَوْ زِيَادَةٍ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّهُ،وَالْمَعْنَى مَنْ جَمَعَ بَيْنَ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ وَهَذِهِ السَّيِّئَاتِ،وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ بِمَعْنَى " أَوْ " وَلَكِنْ لَفْظُ الْمُفْلِسِ يُلَائِمُ كَثْرَةَ الْمَعَاصِي الْمُوجِبَةِ لِإِفْلَاسِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(فَيُعْطَى):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ (هَذَا) أَيِ:الْمَظْلُومُ (مِنْ حَسَنَاتِهِ) أَيْ:بَعْضِ حَسَنَاتِ الظَّالِمِ (وَهَذَا) أَيْ:وَيُعْطِي الْمَظْلُومَ الْآخَرَ (مِنْ حَسَنَاتِهِ،فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ):بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ أَيْ:يُؤَدِّي (مَا عَلَيْهِ) أَيْ:مِنَ الْحُقُوقِ (أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ) أَيْ:مِنْ سَيِّئَاتِ أَصْحَابِ الْحُقُوقِ (فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ):أَوْ وُضِعَتْ عَلَى الظَّالِمِ (ثُمَّ طُرِحَ) أَيْ:أُلْقِيَ وَرُمِيَ (فِي النَّارِ):وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ لَا عَفْوَ وَلَا شَفَاعَةَ فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ يَرْضَى خَصْمُهُ بِمَا أَرَادَ.قَالَ النَّوَوِيُّ:يَعْنِي حَقِيقَةَ الْمُفْلِسِ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُ،وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ مَالٌ وَمَنْ قَلَّ مَالُهُ،فَالنَّاسُ يُسَمُّونَهُ مُفْلِسًا،وَلَيْسَ هَذَا حَقِيقَةَ الْمُفْلِسِ،لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ يَزُولُ وَيَنْقَطِعُ بِمَوْتِهِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ بِيَسَارٍ يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ الْمُفْلِسِ،فَإِنَّهُ يَهْلِكُ مِنَ الْهَلَاكِ التَّامِّ.قَالَ الْمَازِرِيُّ:زَعَمَ بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مُعَارِضٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام:١٦٤] وَهُوَ بَاطِلٌ وَجَهَالَةٌ بَيِّنَةٌ لِأَنَّهُ إِنَّمَا عُوقِبَ بِفِعْلِهِ وَوِزْرِهِ،فَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ حُقُوقٌ لِغُرَمَائِهِ،فَدُفِعَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ حَسَنَاتِهِ،فَلَمَّا فَرَغَتْ حَسَنَاتُهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ خُصُومِهِ،فَوُضِعَتْ عَلَيْهِ،فَحَقِيقَةُ الْعُقُوبَةِ مُسَبَّبَةٌ عَنْ ظُلْمِهِ وَلَمْ يُعَاقَبْ بِغَيْرِ جِنَايَةٍ مِنْهُ.

ولكي تحفظ حقوق الناس وتصان من التعدي،يجب على الشرطة والمحتسبين ألا يقدموا على سجن أحد وتوقيفه أو ضربه أو تفتيشه إلا بحكم من القضاء الشرعي،والوجب على الولاة من أمراء وعلماء أن يبينوا للشرطة حدود عملهم،وما يجوز لهم فعله،وما لايجوز،حتى يكونوا على بصيرة وعلم بما يقومون به من إحقاق الحق وإبطال الظلم،وأن تربط أعمالهم بالقضاء الشرعي وفتاوى أهل العلم،وقد قال تعالى:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل:٤٣]

وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم،وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المترل.فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث،وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم،وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة،فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتتريله،وأهم مأمورون بتزكية أنفسهم،والاتصاف بصفات الكمال.وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم،فإهم أهل الذكر على الحقيقة،وأولى من غيرهم بهذا الاسم[٢٧٣٣]

وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم و لم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه[٢٧٣٤]

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لَقَدْ أَتَانِي اليَوْمَ رَجُلٌ،فَسَأَلَنِي عَنْ أَمْرٍ مَا دَرَيْتُ مَا أَرُدُّ عَلَيْهِ،فَقَالَ:أَرَأَيْتَ رَجُلًا مُؤْدِيًا نَشِيطًا،يَخْرُجُ مَعَ أُمَرَائِنَا فِي المَغَازِي،فَيَعْزِمُ عَلَيْنَا فِي أَشْيَاءَ لاَ نُحْصِيهَا؟ فَقُلْتُ لَهُ:وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ،إِلَّا أَنَّا «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَعَسَى أَنْ لاَ يَعْزِمَ عَلَيْنَا فِي أَمْرٍ إِلَّا مَرَّةً حَتَّى نَفْعَلَهُ،وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَزَالَ بِخَيْرٍ مَا اتَّقَى اللَّهَ،وَإِذَا شَكَّ فِي نَفْسِهِ

قُلْتُ:وَهَذَا مِنْ ضَرُورَةِ قَضِيَّةِ الْعَدْلِ الثَّابِتِ لَهُ تَعَالَى بِالنَّقْلِ وَالْعَقْلِ،فَإِنَّ الظَّالِمَ إِذَا أَكْثَرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ مِنْهَا وَغَلَبَتْ عَلَى سَيِّئَاتِهِ،فَإِنْ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ يَبْقَى حَقُّ الْمَظْلُومِ ضَائِعًا،وَإِنْ أُدْخِلَ النَّارَ يُنَافِي قَوْلَهُ تَعَالَى:{فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف:٨] وَسَيَأْتِي أَنَّ حُقُوقَ الْعِبَادِ مِمَّا لَا يُتْرَكُ اللَّهُ تَعَالَى،فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّ الْأَمْرَيْنِ إِمَّا أَخْذَ الْحَسَنَاتِ وَإِمَّا وَضْعَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ خِفَّةُ مِيزَانِ عَمَلِهِ،فَيَدْخُلُ النَّارَ فَيُعَذَّبُ بِقَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِ،ثُمَّ يَخْرُجُ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِسَبَبِ الْحَسَنَاتِ الْبَاقِيَةِ إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ،وَإِلَّا بِبَرَكَةِ الْإِيمَانِ،فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا،وَهَذَا مِنَ الْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ الْمُؤَيِّدَةِ بِالشَّوَاهِدِ وَالْأَدِلَّةِ اللَّائِحَةِ.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٠١)

[٢٧٣٣] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٤١)

[٢٧٣٤] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥١٩)

شَيْءٌ سَأَلَ رَجُلًا،فَشَفَاهُ مِنْهُ،وَأَوْشَكَ أَنْ لاَ تَجِدُوهُ،وَالَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أَذْكُرُ مَا غَبَرَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَالثَّغْبِ شُرِبَ،صَفْوُهُ وَبَقِيَ كَدَرُهُ»رواه البخاري[٢٧٣٥]

وعَن الربيع بْن سُلَيْمان،قال:كَانَ لأبي يعقوب البويطي من الشافعي مترلة،وكان الرجل ربما سأله عَن المسألة،فيقول:سل أَبَا يعقوب،فإذا أجاب أخبره،فيقول:هو كما قال.قال:وربما جاء إلى الشافعي رَسُول صاحب الشرطة،فيوجه الشافعي أَبَا يعقوب البويطي ويقول:هذا لساني.[٢٧٣٦].



[٢٧٣٥] - صحيح البخاري (٤/ ٥١)(٢٩٦٤)

[ش (مؤديا) ذا أداة للحرب كاملة وقيل معناه قويا متمكنا.(نشيطا) يخف ويسرع للأمر الذي يريد فعله.(فيعزم علينا) يشدد علينا من العزم وهو الأمر الجازم الذي لا تردد فيه.(لا نحصيها) لا نطيقها.(شك في نفسه شيء) شكت نفسه في شيء وتردد فيه أجائز أم لا.(فشفاه منه) أزال مرض تردده عنه بإجابته له بالحق.(أوشك أن لا تجدوه) كاد أن لا تجدوا من يفتي بحق ويشفي القلوب من الشبه والشكوك.(غبر) مضي أو بقي من الغبور وهو من الأضداد يستعمل في المضي والبقاء.(كالثغب) الماء المستنقع في الموضع المنخفض.(صفوه) الماء الصافي منه.(كدره) المختلط منه]

[٢٧٣٦] - تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٢/ ٤٧٤)

المبحث السابع والعشرون

تأسيس الدولة الجديدة

إن بناء الدولة الإسلامية وتثبيت أركانها ليحكم الإسلام في جميع شؤونها،يتطلب جهودا كبيرة،وأعمالا منظمة لكي تبسط الحكومة قوتها على جميع البلاد وتحكم السيطرة الكاملة عليها،وتحول دون أي نوع من الانفلات والفوضى التي اعتادها البعض في أثناء الحرب.
وفي هذا الباب بعض المعالم المهمة التي تجب العناية بها في هذه المرحلة التأسيسية للدولة.

أولها:الصبر على الابتلاء:

من سنن الله تعالى ابتلاء أهل الإيمان حتى يميز الصادقين من الكاذبين،كما قال تعالى:{ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [العنكبوت:٢،٣]
هَلْ ظَنَّ النَّاسُ أنْ نَتْرَكَهُمْ وشَأْنَهُمْ بِمُجَرَّد نُطْقِهِمْ بالشَّهادَتَيْنِ،وَقَوْلِهِمْ آمنَّا باللهِ وَرَسُوله،دُونَ أَنْ يَبْتَلِيَهُم اللهُ،ويَخْتَبِرَ صِدْقَ إِيمَانِهِمْ:بالهجْرَة،والتَّكَاليف الدِّيْنِية الأُخرى،والجِهَاد،والمَصَائب؟ كلاَّ،فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ المُؤْمنِينَ،بحَسَب مَا عِنْدَهُمْ مِنْ إيمانٍ.وَلَقَد امتَحَنَ اللهُ المُؤمنينَ السَّالفِينَ،وَعَرَّضَهُمْ للفِتْنَة والاخْتِبَار،وغَايَتُهُ سُبحَانَهُ وَتَعالى مِنْ هذا الابتِلاءِ والاخْتِبارِ هيَ أَنْ يُمَحِّصَهُم فَيَعْلَمَ الذينَ صَدَقُوا في دَعوى الإِيمانِ،ممَّنْ هُمْ كاذبون في دَعواهُم،وليُجَازِيَ كُلاًّ بمَا يَسْتَحِقُّهُ.[٢٧٣٧]

فالمؤمنون،الذين لقيتهم هذه الآيات في أول الدعوة الإسلامية- كانوا فى وجه محنة قاسية،حيث انخلعوا عن أهليهم،وانعزلوا عن مجتمعهم،وكانوا قلة قليلة في مواجهة عاصفة عاتية،تسوق إليهم البلاء بغير حساب،حتى هاجروا من ديارهم،وخرجوا من أموالهم..فلما اجتمع لهم في موطنهم الجديد،شيء من القوة،وأذن الله لهم في القتال- كان أول لقاء لهم،مع آبائهم،وأبنائهم،وإخوتهم،فعملت سيوفهم في رقاب المشركين من أهليهم وذوى رحمهم،فما

[٢٧٣٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

نكل أحد منهم عن أن يضرب بسيفه من كان- قبل الإسلام- يفديه بنفسه،ويلقى الموت دونه..وقد حدّث التاريخ أن أبا بكر لقى ابنه فى معركة بدر،وقد عرفه ابنه و لم يعرفه..فلما كان بعد زمن،ودخل ابنه فى الإسلام،قال لأبيه:لقد عرضت لى يوم بدر،فأعرضت عنك،فقال له أبو بكر،لو عرضت لى يومئذ،وأمكننى الله منك،لما رددت سيفى عنك!! ولا شك أن هذه كانت تجربة ثقيلة على نفوس المؤمنين،وقد احتملوها صابرين،وكانت آيات الله تتنزل عليهم،فتبعث في نفوسهم المضطربة،سكنا،وتسوق إلى قلوبهم الملتهبة،بردا وسلاما.

ونجد في قوله تعالى:«أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ» تصحيحا لما يقع في بعض النفوس المؤمنة من انزعاج أو استثقال لهذا العبء الذي حملوه من الإيمان بالله..كما نجد في الآية والآيات التي بعدها إجابات قاطعة على تلك التساؤلات التي كانت تتردد في الخواطر: لم يكون الإيمان هكذا غالى الثمن،باهظ التكاليف؟ و لم يحملنا إيماننا بالله على هذا المركب الوعر؟ ألسنا على الهدى،وعلى الصراط المستقيم؟ وهل هذا الطريق هكذا وعر المسالك،مزدحم العقبات؟

ونعم..إن الإيمان هكذا غالى الثمن،باهظ التكاليف،وإن طريقه وعر المسالك جمّ العقبات!! إنه الطريق إلى الجنة،وإن طريق الجنة محفوف بالمكاره! وإن هذا البلاء الذي يلقاه المؤمن على طريق إيمانه،هو ابتلاء له،وتمحيص لما عنده من صبر ومصابرة..وهل يصفّى الذهب من الغثاء الذي علق به،إلا إذا صهر بالنار؟ «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ»

(٣١:محمد) .«ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» (١٧٩:آل عمران) .

وهل انكشف وجه النفاق،وعرف المنافقون إلا في بوتقة الابتلاء،وفي مقام التضحية والبذل؟

إن الناس جميعا على سواء في حال الأمن والعافية..فإذا كانت المحن والشدائد،فهم أنماط وأشكال،وهم معادن مختلفة،بين غث وثمين! والاستفهام في الآية الكريمة،للإنكار،والنفي..أي ليس الأمر على ما يظن الناس وما يقدرون،من أنهم إذا قالوا آمنا كانوا مؤمنين..كلّا،إن ذلك لا يكون حتى يفتنوا،وحتى يبتلوا..وعندئذ ينكشف ما عندهم من إيمان..

قوله تعالى:«وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ» هكـذا حكم الله في عباده..فكما امتحن الله المؤمنين في الأمم السابقة،يمتحن سبحانه الذين أسلموا،بما يفتنهم،فى دينهم مما يلقاهم من شدائد ومحن..

فمن كان صادق الإيمان،سليم العقيدة،خالص النية،أمسك إيمانه في قلبه،وثبت عليه،ومن كان على غير تلك الصفة انخلع عن دينه،وألقى به لأول مسة تمسه من بلاء،وباعه بأبخس ثمن!.

- وفي قوله تعالى:«فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ» - بهذا الأمر المؤكد- إعلان للمؤمنين بأنهم في وجه ابتلاء،وفي مواجهة فتن،لا بد لهم منها..إن لم تكن واقعة بهم فعلا،فإنها ستقع حتما..هكذا يجب أن يتقرر في نفوسهم من أول الطريق..فمـن شـاء أن يكـون في المؤمنين،فليوطن نفسه على هذا،وليستعد لحمل أفدح الضربات..وإلا فليأخذ طريقا غير هـذا الطريق،وأمامه أكثر من طريق فسيح.!

والمؤمنون الأولون الذين دخلوا في الإسلام،ورسخت أقدامهم فيه،هم- كما شهد التـاريخ- أصفى الناس جوهرا،وأكرمهم معدنا..فقـد كـانوا خلاصـة مجتمعهم،وثاقـة عزم،وقـوة يقين..فاحتملوا من الشدائد والمحن ما تتصدع به الجبال الراسيات..«فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا..وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» «١٤٦:آل عمران» ومن أجـل هذا،فقد شهد القرآن الكريم لهذه الصفوة المتخيرة من عباد الله أكرم شـهادة،وجعل ميـزان الواحد منهم يعدل عشرة من غير المؤمنين،فقال تعالى:«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَـى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» (٦٥:الأنفال) ..وأنت ترى أن الصفة التي فرق بها القرآن بـين هؤلاء المؤمنين،والمشركين،هى «الفقه» ..وهو ليس ذلك العلم النظري،وإنما هو الحق الـذي يملأ القلوب نورا،فيكشف لصاحبه من آيات الله،ودلائل قدرته،وعلمه،وحكمته،ما يصغر بـه كل شيء،إزاء عظمة الخالق وجلاله..[٢٧٣٨]

يخبر تعالى عن [تمام] حكمته وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال " إنه مـؤمن " وادعـى لنفسه الإيمان،أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن،ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم

[٢٧٣٨] - التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٤٠٠)

إيمانهم وفروعه،فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب،والمحق من المبطل،ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة،أن يبتليهم بالسراء والضراء،والعسر واليسر،والمنشط والمكره،والغنى والفقر،وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان،ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن،التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة،والشهوات المعارضة للإرادة،فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل،ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب،أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله،يعمل بمقتضى الإيمان،ويجاهد شهوته،دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكا وريبا،وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات،دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله،فمستقل ومستكثر،فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة،وأن يثبت قلوبنا على دينه،فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير،يخرج خبثها وطيبها.[٢٧٣٩]

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر،وجهد يحتاج إلى احتمال.فلا يكفي أن يقول الناس:آمنا.وهم لا يتركون لهذه الدعوى،حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم.كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به - وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه - وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت،وسنة جارية،في ميزان الله سبحانه:«وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ،فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ» ..

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله،مغيب عن علم البشر فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم.وهو فضل من الله من جانب،وعدل من جانب،وتربية للناس من

[٢٧٣٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٢٦)

جانب،فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعلن من أمره،وبما حققه فعله.فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه!.

ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين.

إن الإيمان أمانة الله في الأرض،لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة،وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص.وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة،وعلى الأمن والسلامة،وعلى المتاع والإغراء.وإنها لأمانة الخلافة في الأرض،وقيادة الناس إلى طريق الله،وتحقيق كلمته في عالم الحياة.فهي أمانة كريمة وهي أمانة ثقيلة،وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء.

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه،ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان.وهذه هي الصورة البارزة للفتنة،المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة.ولكنها ليست أعنف صور الفتنة.فهناك فتن كثيرة في صور شتى،ربما كانت أمر وأدهى.

هناك فتنة الأهل والأحياء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه،وهو لا يملك عنهم دفعا.وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم وينادونه باسم الحب والقرابة،واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك.وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير.

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين،ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين،تهتف لهم الدنيا،وتصفق لهم الجماهير،وتتحطم في طريقهم العوائق،وتصاغ لهم الأمجاد،وتصفو لهم الحياة.وهو مهمل منكر لا يحس به أحد،ولا يحامي عنه أحد،ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئا.

وهنالك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة،حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقا في تيار الضلالة وهو وحده موحش عريب طريد.

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام.فتنة أن يجد المؤمن أمما ودولا غارقة في الرذيلة،وهي مع ذلك راقية في مجتمعها،متحضرة في حياتها،يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان.ويجدها غنية قوية،وهي مشاقة لله! وهنا لك الفتنة الكبرى.أكبر من هذا كله وأعنف.فتنة النفس والشهوة.وجاذبية الأرض،وثقلة اللحم والدم،والرغبة في المتاع والسلطان،أو في الدعة والاطمئنان.وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه،مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس،وفي ملابسات الحياة،وفي منطق البيئة،وفي تصورات أهل الزمان! فإذا طال الأمد،وابطا نصر الله،كانت الفتنة أشد وأقسى.وكان الابتلاء أشد وأعنف.ولم يثبت إلا من عصم الله.وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان،ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى،أمانة السماء في الأرض،وأمانة الله في ضمير الإنسان.وما بالله – حاشا لله – أن يعذب المؤمنين بالابتلاء،وأن يؤذيهم بالفتنة.ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة.

فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات،وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام،وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه،على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث،وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع.وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل.وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات،فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا وأقواها طبيعة،وأشدها اتصالا بالله،وثقة فيما عنده من الحسنيين:النصر أو الأجر،وهؤلاء هم الذين يسلّمون الراية في النهاية.مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن وبما بذلوا لها من الصبر على المحن وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات.والذي يبذل من دمه وأعصابه،ومن راحته واطمئنانه،ومن رغائبه ولذاته.ثم يصبر على الأذى والحرمان يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام.

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله.وما يشك مؤمن في وعد الله.فــإن أبطأ فلحكمة مقدرة،فيها الخير للإيمان وأهله.وليس أحد بــأغير علــى الحــق وأهلــه مــن الله.وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة،ويقع عليهم البلاء،أن يكونوا هم المختــارين مــن الله،ليكونوا أمناء على حق الله.وأن يشهد الله لهم بأن في دينــهم صــلابة فهــو يختــارهم للابتلاء:[٢٧٤٠]

جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ،عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ،فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِــدَّةِ مَــا يَجِــدُ مِــنْ حَــرِّ الْحُمَّى،قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،لَوْ دَعَوْتَ اللهَ فَشَفَاكَ،فَقَالَ:رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَــاءً الْأَنْبِيَاءَ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ".[٢٧٤١]

وعَنْ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نِسَاءٍ نَعُودُهُ فَإِذَا بِسِقَاءٍ مُعَلَّقٍ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنَ الْحُمَّى قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،لَوْ دَعَوْتَ اللهَ فَكَشَفَ عَنْكَ قَالَ:«إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[٢٧٤٢]

فلابد أن تبتلى الحكومة الإسلامية الجديدة في بداية نشأتها وفي مسيرتها كلها بأعداء يتربصون بها ويسعون لإزالتها بشتى الوسائل،وهذا يحتم على ولاة الأمر أن يكونوا على حذر دائم،وأن يعدوا العدة اللازمة لمواجهة الأعداء والتصدي لمخططاتهم ومكائدهم،وقد قال تعــالى:{ فَلَــا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُــمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة:٤٤]

وَكُلُّ مَنْ يَرْغَبُ عَنِ الحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ شَرْعٍ،وَيُخفِيهِ وَيَحْكُمُ بِغَيْرِهِ (كَحُكْمِ اليَهُودِ فِي الزَّانِيَيْنِ المُحْصَنَيْنِ بِالتَّحْمِيمِ وَالجَلْدِ،وَكِتْمَانِ الرَّجْمِ،وَقَضَائِهِمْ فِي بَعْضِ قَتْلاَهُمْ بِدِيَةٍ كَامِلَةٍ،وَفِي بَعْضِهِمْ بِنِصْفِ دِيَةٍ،مَعْ أَنَّ اللهَ قَدْ سَوَّى بَيْنَ الجَمِيعِ فِي الحُكْمِ)،فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ الــذِينَ سَتَرُوا الحَقَّ الذِي كَانَ عَلَيهِم كَشْفُهُ وَتَبْيِينُهُ لِلنَّاسِ.[٢٧٤٣]

[٢٧٤٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٤٧٠)

[٢٧٤١] - مسند أحمد ط الرسالة (٤٥/ ١٠)(٢٧٠٧٩) صحيح

[٢٧٤٢] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٥٣)(٧٤٥٤) صحيح

[٢٧٤٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧١٤،بترقيم الشاملة آليا)

والآية تحذر من نوعين من الأساليب التي يستخدمها الأعداء للصد عن إقامة حكم الله في الأرض،وأولها التهديد والتخويف،ولهذا نهى الله تعالى عن خشيتهم،فقال تعالى:{فَلاَ تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ}،والثاني:الترغيب بشيء من الدنيا حتى يتراجع ولاة الأمر عن إقامة حكم الله في الأرض،وقد يسمون هذا الشيء من متاع الدنيا بالمساعدات الاقتصادية أو أن يهددوا بالحصار الاقتصادي أو غيره،وقد حذر الله تعالى من هذا فقال تعالى:{وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً}،وقال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } [الأنفال:٣٦]

فِي هَذِهِ الآيَةِ يَقُولُ تَعَالَى:إِنَّ إِنْفَاقَكُمْ المَالَ فِي سَبِيلِ قِتَالِ المُسْلِمِينَ،وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ،وَمَنْعِ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ لَنْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ حَسْرَةً،وَلَنْ يُجْدِيَكُمْ نَفْعاً،فَإِنَّكُمْ سَتُغْلَبُونَ مَرَّةً أُخْرَى،وَسَيَحْشُرُكُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى جَهَنَّمَ،إِذَا مَا أَصْرَرْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ،وَعَلَى مُعَانَدَةِ الرَّسُولِ وَالمُؤْمِنِينَ.[٢٧٤٤]

ومن ضلالات هؤلاء المشركين أنهم ينفقون أموالهم فيما يكيدون به لأنفسهم،ويصرفونها به عن الخير،ويوردونها به موارد الهلكة والبوار.ومن عادة العقلاء ألا ينفقوا أموالهم ألا فيما يعود عليهم منه خير،يجدونه فى أنفسهم،أو فى أهليهم،أو فى المجتمع الإنسانىّ،خاصة أو عامة.أما أن يشترى الإنسان بماله ما يفسد حياته،ويغتال إنسانيته،ويدمّر وجوده،فذلك هو الذي لا يرى إلا فى عالم المجانين والحمقى.وهؤلاء المشركون قد بذلوا أموالهم فى سخاء،وقدموها فى رضى وغبطة،ليطفئوا بها نور الله الذي أرسله إليهم،وليخفتوا بها صوت الحق الذي بعثه الله ليؤذّن فيهم بآياته،فاشتروا بهذا المال الرجال والعتاد،وجعلوا من هذا جيشا جرارا ساروا به إلى النبىّ الكريم يوم بدر،يريدون القضاء عليه،وعلى الجماعة التي استجابت له،وآمنت بالله وبرسوله..

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» ..هكذا فعل المشركون،وهكذا وجهوا المال الذي جعله الله فى أيديهم..«فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً» ..وفى التعبير بفعل المستقبل عما فعلوه فى الماضي،تهديد ووعيد لهم،بأن الأموال التي سينفقونها فيما بعد على هذا الوجه الذي أنفقوه فيها فى موقعة بدر- ستكون عليهم حسرة،وستجرّ عليهم الخزي

[٢٧٤٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

والبلاء كما جرته عليهم أموالهم التي أنفقوها فى تلك الموقعة..حيث تذهب هذه الأموال من أيديهم،ثم تعود إليهم على هيئة رزايا ونكبات..«ثُمَّ يُغْلَبُونَ» هو نذير لهم بما يلقاهم من مصير مشئوم،من هذا المال الذي أنفقوه،وانتظروا الثمر الجنىّ الطيب منه،بالنصر على المسلمين،واستئصالهم،وهذا ما لا يكون أبدا،ولن يكون إلا الهزيمة،وسوء المنقلب للمشركين.«وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» ..وليست الهزيمة وحدها هى التي تنتظر هؤلاء المشركين،بل سيكون العذاب الأليم فى الآخرة هو مصير أولئك الذين يمضون فى طريقهم هذا إلى النهاية،فلا يرجعون إلى الله،ولا ويؤمنون به وبرسوله..وفى العطف «بثم» التي تفيد التراخي فى قوله تعالى:«فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً» وفى قوله سبحانه:«ثُمَّ يُغْلَبُونَ» إشارة إلى أن الحسرة والهزيمة قد لا يكونان بعد كل مال ينفقونه،فقد يقع للمشركين فى بعض مواقفهم من المسلمين ما يحسبونه نصرا،ويرونه وجها نافعا مثمرا لهذا المال الذي أنفقوه،كما كان فى موقعة «أحد» ..ولكن العبرة فى هذا بالموقعة الفاصلة،التي تنكس فيها راية الشرك إلى الأبد،ويخفت صوت المشركين إلى يوم الدين..وذلك ما انتهى إليه الأمر بين المسلمين والمشركين،فقد دخل رسول الله- صلوات الله وسلامه عليه- يقود جيش الإسلام- دخل على الشرك فى حصنه فاتحا مظفرا،فأجلى عن البيت الحرام ما احتشد فيه من أصنام وأنداد،وألقى بها فى مسالك مكة ودروبها،تدوسها الأقدام،وتحيلها أشلاء ممزقة،يمر بها الناس كما يمرون بالجثث المتعفنة،يتساقط عليها الذباب،وترعى فيها الهوام والحشرات..

قوله تعالى:«لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» .أي أن هذا الصراع الذي يقع بين الحق والباطل،ويدور بين المحقين والمبطلين،هو ابتلاء واختبار،تتبين به مواقف الناس،وتعرف به وجوههم،حيث يجتمع المؤمنون إلى المؤمنين،وينحاز المشركون إلى المشركين والضالين،ويوفى كلّ حسابه وجزاءه..وفى قوله تعالى:«وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ»

إشارة إلى أن مجتمع الكفر والضلال،مجتمع فاسد ليس لإنسان فيه ذاتية،يتميز فيها إنسان عن إنسان،بعقله،ومدركاته،ومشاعره،كما يتميز عقلاء الناس،كلّ بإدراكه وإحساسه

وشعوره..فهم أشبه بقطيع من الحيوان،ليس لأحدها فى حقيقته ما يميزه عن غيره،إلا باللون أو الحجم،أما ما وراء ذلك فهى جميعها سواء فيه..ومن هنا كان التعبير القرآنى:

«وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ» أي يخلط بعضه ببعض خلطا لا حساب فيه لشىء،ولا تقديم لشىء على شىء،وإنما حكمها جميعا حكم حزمة الحطب يحتويها حبل واحد..ثم كان التعبير القرآن «فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ» أي أن غاية هذا الجمع لتلك الجماعات الضالة هو إعدادها للوقود،وإلقاؤها فى جهنم.هكذا يفعل بالحطب حين يجمع،وحين يقدّم للوقود! وهكذا الخبيث من الأشياء،والنفاية من كل شىء،يلقى به..بلا حساب ولا تقدير![2745]

وقال تعالى:{ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} [المنافقون:٧].

وَهَؤُلاَءِ الْمُنَافِقُونَ هُمُ الذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ:لاَ تُنْفِقُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَيَتَحوَّلُوا عَنْكُمْ إِلَى مَكَانٍ آخرَ،وَيَنْفَضَّ عَنْ مُحَمَّدٍ مَنْ حَوْلَهُ إِذَا عَضَّهُمْ الجُوعُ.وَهَؤُلاَءِ الْمُنَافِقُونَ جَاهِلُونَ لاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ مَالِكُ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ،وَبِيده مَفَاتِيحُ أَرْزَاقِ العِبَادِ فَلاَ يَصِلُ شَيءٌ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ،وَلِذَلِكَ قَالُوا هَذَا القَوْلَ.[2746]

ومن وسائل الأعداء قتال المسلمين لصدهم عن دينهم،كما هو مشاهد في هذه الحملة الصليبية،وقد قال تعالى:{ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢١٧]

وَهُمْ مَا زَالُوا مُقِيمِينَ عَلَى الكُفْرِ،وَعَلَى مُحَاوَلَةِ فِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ لِيَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا،وَعَلَى مُحَاوَلَةِ مَنْعِ الإِسْلاَمِ مِنَ الانْتِشَارِ وَالقَضَاءَ عَلَيهِ،إِنْ أَمْكَنَهُم ذلِكَ،لاسْتِحْكَامِ عَدَاوَتِهِمْ لِلمُسْلِمِينَ.وَيُهَدِّدُ اللهُ مِنْ يَضْعُفُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَمَامَ هَجَمَاتِهِمْ،وَمُحَاوَلاتِهِمْ

[2745] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٠٦)

[2746] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

وَإِغْرَاءَاتِهِمْ فَيَرْتَدُّ عَنْ دِينِهِ،ثُمَّ يَمُوتُ وَهُوَ كَافِرٌ،بِالعَذَابِ الأَلِيمِ الأَبَدِيِّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَبِحُبُوطِ عَمَلِهِ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ.[٢٧٤٧]

ومن وسائل كيدهم شن الحملات الإعلامية المضللة لمحاربة الاسلام وصد المسلمين عن دينهم،وقد قال تعالى:{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [التوبة:٣٢]

يُرِيدُ الكُفَّارُ مِنَ المُشْرِكِينَ،وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ،أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ،وَهُوَ دِينُ الإِسْلاَمِ الذي شَرَعَهُ لِهِدَايَةِ عِبَادِهِ،وَأَنْ يُخْفُوا مَابَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ بِهِ،مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ،فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ،أَوْ نُورَ القَمَرِ،بِنَفْخَةٍ مِنْ فَمِهِ.وَبِمَا أَنَّ هَذَا لاَ سَبِيلَ إِلَيْهِ،كَذَلِكَ لاَ سَبِيلَ إِلَى إِخْفَاءِ نُورِ النُّبُوَّةِ،وَلاَ بُدَّ لِمَا أَرْسَلَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ مِنْ أَنْ يَتِمَّ وَيَظْهَرَ،وَاللهُ يَأْبَى إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ،وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ذَلِكَ.[٢٧٤٨]

وقال تعالى:{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [آل عمران:١٨٦]

يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ،وَيَقُولُ لَهُ:إِنَّهُ وَأَصْحَابَهُ سَيَلْقَوْنَ مِنَ الكُفَّارِ أَذًى كَثِيراً فِي النَّفْسِ وَالمَالِ،كَمَا لَقُوهُ مِنْهُمْ مِنْ أَذًى يَوْمَ أُحُد،وَعَلَى المُؤْمِنِينَ أنْ يُوَطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ،إِذْ لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَ اللهُ المُؤْمِنَ فِي شَيءٍ مِنْ مَالِهِ،أَوْ نَفْسِهِ أو وَلَدِهِ أوْ أَهْلِهِ...وَابْتِلاءُ المُؤْمِنِ يَكُونُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ،فَإِنْ كَانَ فِيهِ صَلاَبَةٌ فِي دِينِهِ زِيدَ فِي بَلاَئِهِ.وَنَبَّهَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ الكَرِيمُ وَالمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمْ إِلَى المَدِينَةِ (وَقَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ) إِلَى أَنَّهُمْ سَيَسْمَعُونَ مِنَ اليَهُودِ وَمِنَ المُشْرِكِينَ أَذًى كَثِيراً:مِنَ التَّقَوُّلِ وَالإِرْجَافِ،وَنَقْضِ العُهُودِ وَبَثِّ الشَّائِعَاتِ،وَمُحَاوَلَةِ الإِيذَاءِ...وَيَأمر اللهُ نَبِيَّهُ وَالمُؤْمِنِينَ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالعَفْوِ حَتَّى يُفَرِّجَ اللهُ،وَلا يَصْبِرُ عَلَى احْتِمَالِ ذَلِكَ إِلاَّ أولُو العَزْمِ الأَقْوِيَاءُ.[٢٧٤٩]

[٢٧٤٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٤٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٤٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٧٩،بترقيم الشاملة آليا)

وغيرها من صنوف الأذى والكيد والمكر والعدوان الذي لا يفتر ولا يكل ليلا ولا نهارا،كما قال تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ:٣٣].

فَقَالَ الأَتباعُ المُسْتَضْعَفُونَ لِلسَّادَةِ:بَلْ أَنْتُمُ الذِينَ كُنْتُمْ تُوَسْوِسُونَ لَنَا بِالكُفْرِ لَيلاً وَنَهَاراً،وَتُغْوِنَنا بِالّثَّبَاتِ عَلَى الكُفْرِ،وَالإِقَامَةِ عَلَيه،وَتُخْبِرُونَنا أَنَّنا عَلَى هُدىً فِيمَا نَعْبُدُهُ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَوْثَانٍ وَأَنداد.وَيَتَوَقَّفُ الحِوَارُ بَيْنَ الأَتْبَاعِ المُسْتَضْعَفِينَ وَبَينَ السَّادَةِ المَتْبُوعِينَ،وَيُسِرُّ كُلٌّ فَرِيقٍ فِي نَفْسِهِ ما يَشْعُرُ بِهِ مِنْ حَسْرَةٍ وَنَدَمٍ عَلَى ما فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللهِ،وَمَا قَصَّرَ فِي طَاعَتِهِ،حِينَ يَرَى العَذابَ الذي أَعَدَّهُ اللهُ لِلْكَفَرةِ المُجْرِمِينَ.ثُمَّ تُوضَعُ الأَغْلالُ وَسلاسِلُ الحَديدِ فِي أَعْنَاقِ هؤلاءِ،وَهُمْ فِي النَّارِ.والعَذَابُ الذي يَلْقَوْنَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِنذَما هُوَ الجَزَاءُ الذِي يَسْتَحِقُّونَهُ عَلى مَا اجْتَرَحُوا مِنَ الكُفْرِ وَالآثامِ والسَّيِّئَاتِ فِي الدُّنيا.[٢٧٥٠]

وقال تعالى:{وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا } [نوح:٢٢].

وَمَكَرُوا مَكْراً كَبِيراً بَالِغَ النِّهَايَةِ،وَصَدُّوا النَّاسَ عَنِ الدِّينِ بِحِيَلٍ وَأَسَالِيبَ شَتَّى.[٢٧٥١]

وقال تعالى:{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } [إبراهيم:٤٦].

فِي تَفْسِيرِ هذه الآيَةِ قَوْلاَنِ:

الأَوَّلُ – إِنَّ الذي فَعَلُوهُ بِأَنْفَسِهِمْ مِنْ شِرْكٍ بِاللهِ،وَكُفْرٍ بِآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ،مَا ضَرَّ الجِبَالَ شَيْئاً،وَلاَ أَثَّرَ فِيها.وَآيَاتُ اللهِ وَشَرْعُهُ وَدِينُهُ هِيَ كَالجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ رُسُوخاً وَثَبَاتاً،وَلِذلِكَ فَلَنْ يُؤَثِّرَ فِيهَا مَكْرُهُمْ شَيْئاً لِتَفَاهَتِهِ،وَضَعْفِ أَثَرِهِ،وَقَد اسْتُعْمِلَتْ (إن) بِمَعْنَى (مَا) .

وَالثَّانِي – إِنَّ مَكْرَهُمْ وَكُفْرَهُمْ تَكَادُ الجِبَالُ لِتَزُولِ مِنْهُ لِدقَّةِ تَدْبِيرِهِ،وَقُوَّةِ إِحْكَامِهِ،أَوْ لِضَخَامَةِ مَا فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَعُتُوٍّ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً.}[٢٧٥٢]

[٢٧٥٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٢٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٥١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٣١٩،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } [الأنعام:١٢٣]

وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ أَكَابِرَ مِنَ الُمجْرِمِينَ الذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الكُفْرِ،وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ،وَيَدْعُونَ إِلَى مُخَالَفَتِكَ وَمُعَادَاتِكَ..كَذَلِكَ كَانَتِ الرُّسُلُ قَبْلَكَ يُبْتَلَوْنَ بِذَلِكَ،ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ.وَيَقُومُ هَؤُلاَءِ الُمجْرِمُونَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الضَّلاَلَةِ بِزُخْرُفٍ مِنَ القَوْلِ وَالفِعْلِ (يَمْكُرُونَ) .وَفِي الحَقِيقَةِ إِنَّهُمْ لاَ يَمْكُرُونَ إلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ،لأنَّ مَكْرَهُمْ يَعُودُ وَبَالاً عَلَيْهِمْ،لأَنَّ اللهَ يُهْلِكُهُمْ بِالعَذَابِ،وَيُبْطِلُ مَكْرَهُمْ،وَيَنْصُرُ رُسُلَهُ،وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ.[٢٧٥٣]

وقال تعالى: { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)} [الأنعام:٣٣،٣٤]

يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَيَقُولُ لَهُ:إِنَّنَا نَعْلَمُ تَكْذِيبَ قَوْمِكَ لَكَ،وَنَعْلَمُ حُزْنَكَ وَأَسَفَكَ لِمَا يَقُولُونَ.

وَلَكِنَّ الظَالِمِينَ الكَافِرِينَ يُعَانِدُونَ الحَقَّ،وَيَدْفَعُونَهُ بِصُدُورِهِمْ،وَلَيْسَتْ غَايَتُهُمْ تَكْذِيبَكَ أَنْتَ،وَلَكِنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللهِ.(كَمَا يَقُولُ أَبُو جَهْلٍ لِلْنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:إِنَّنَا لا نُكَذِّبُكَ،وَلَكِنْ نُكَذِّبُ مَا جِئْتَ بِهِ) .

وَيَوْمَ بَدْرٍ جَاءَ الأَخْنَسُ بْنُ شُرَيقٍ إلى أَبِي جَهْلٍ وَاخْتَلَى بِهِ،وَقَالَ لَهُ:لَيْس بَيْنَنَا أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ،أَخْبِرْنِي يَا أَبَا الحَكَمِ عَنْ مُحَمَّدٍ أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ:وَيْحَكَ وَاللهُ إنَّ مُحَمَّداً لَصَادِقٌ،وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ،وَلكِنْ إذَا ذَهَبَتْ بَنُو قُصَيٍّ بِاللِّوَاءِ وَالسِّقَايَةِ وَالحِجَابَةِ وَالنُّبُوَّةِ فَمَاذَا يَبْقَى لِسَائِرِ قُرَيْشٍ؟

يَلْفِتُ اللهُ تَعَالَى نَظَرَ رَسُولِهِ إلى مَا لاَقَاهُ الرُّسُلُ قَبْلَهُ مِنْ تَكْذِيبِ أَقْوَامِهِمْ لَهُمْ،فَصَبَرُوا عَلَى الإِيذَاءِ وَالتَّكْذِيبِ،حَتَّى جَاءَ نَصْرُ اللهِ.ثُمَّ يَقُولُ لَهُ:فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ أنْ تَتَأَسَى بِهِمْ،وَتَصْبِرَ،فَكَمَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ مَنْ سَبَقَكَ مِنَ الرُّسُلِ،كَذَلِكَ سَيَنْصُرُكَ اللهُ عَلَى أَعْدَائِكَ

[٢٧٥٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٥٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩١٣،بترقيم الشاملة آليا)

الكَافِرِينَ،وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ التي قَضَى فِيهَا أنَّ النَّصْرَ وَالعَاقِبَةَ سَتَكُونَانِ لِلْمُـــؤْمِنِينَ فِـــي الدُّنيا وَالآخِرَةِ.وَلَقَدْ جَاءَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ نَبَأُ نَصْرِ اللهِ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ وَعَـــادَاهُمْ مِـــنْ أَقْوَامِهِمْ،فِيمَا قَصَّهُ عَلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ،وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لَكَ،وَتَثْبِيتٌ.[٢٧٥٤]

وقال تعالى:{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)} [يس:٧٤ - ٧٦]

واتَّخَذَ هَؤُلاَءِ الْمُشْرِكُونَ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ،طَمَعاً فِـــي أَنْ تَنْصُـــرَهُمْ،وَتَدْفَعَ عَـــنْهُم العَذَابَ،وَأَنْ تُقَرِّبَهم إِلَى اللهِ زُلْفَى.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الآلِهَةَ التِي اتَّخَذُوهَا وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ،لاَ تَسْتَطِيعُ نَصْـــرَهُمْ وَلاَ رِزْقَهُـــمْ وَلاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُقَرِّبَهم إِلَى اللهِ،وَهَذِهِ الأَصْنَامُ والمَعْبُودَاتُ سَتُحْشَـــرُ يَـــوْمَ القِيَامَـــةِ،وَهِيَ ذَلِيلَـــةٌ حَقِيرَةٌ،وَسَتَحْضُرُ مَعَ عَابِدِيهَا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ تَعَالَى،وَبِذَلِكَ يَزِيدُ اللهُ حُزْنَ عَابِدِيهَا وَأَلَمَهُـــمْ،إِذْ إِنَّهُمْ عَبَدُوا مَالاَ يَضُرُّ وَلاَ يَنْفَعُ،وَتَرَكُوا عِبَادَةَ الوَاحِدِ القَهَّارِ.وَقَدْ كَانَ هَؤُلاَءِ الْمُشْرِكُونَ كَالجُنْدِ حَوْلَ هَذِهِ الآلِهَةِ يَذُبُّونَ عَنْهَا،وَيَدْفَعُونَ عَنْهَا مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِهَا شَرّاً،وَهِيَ فِي الآخِرَةِ لاَ تَنْفَعُهُمْ وَلاَ تَنْصُرُهُمْ.فَلاَ يَحْزُنْكَ مَا يَقُولُهُ هَؤُلاَءِ الْمُكَذِّبُونَ مِـــنْ قَـــوْلِهِمْ عَنْـــكَ:سَـــاحِرٌ وَشَـــاعِرٌ وَمَجْنُونٌ..وَلاَ تَحْزَنْ مِنْ كُفْرِهِمْ بِاللهِ وَبِآيَاتِهِ،فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا يَقُولُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ،وَمَا يُسِرُّونَهُ فِي ضَمَائِرِهِمْ وَمَا يَخْفُونَهُ،وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ جَمِيعاً الجَزَاءَ الأَوْفَى.[٢٧٥٥]

والمسلمون من الولاة وغيرهم يجب عليهم أمام مؤامرات الأعداء أن يثبتوا علـــى الحـــق،وأن يصبروا ويصابروا ويرابطوا في جهاد الأعداء،وأن يتصدوا لكيدهم ومكرهم،وأن يتيقنوا بوعد الله ونصره لعباده،وأن يتوكلوا على الله حق التوكل في أمورهم كلها،وقد قال تعالى:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤]

[٢٧٥٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٨٢٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٥٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٦٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

وَجَعَلَ اللهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَئِمَّةً فِي الدُّنيا،يَهْدُونَ أَتْبَاعَهُمْ إِلى الخَيْرِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ،لأَنَّهُم صَبَروا عَلى طَاعَتِهِ،وَعَزَفَتْ نُفُوسُهُمْ عَنْ لَذَّاتِ الدُّنيا وَشَهَواتِها،وَكَانُوا مُؤْمِنينَ بآياتِ اللهِ وَحُجَجِه،وَبِمَا اسْتَبَانَ لَهُمْ مِنَ الحَقِّ.[٢٧٥٦]

{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ} أي:من بني إسرائيل {أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} أي:علماء بالشرع،وطرق الهداية،مهتدين في أنفسهم،يهدون غيرهم بذلك الهدى،فالكتاب الذي أنزل إليهم،هدى،والمؤمنون به منهم،على قسمين:أئمة يهدون بأمر الله،وأتباع مهتدون بهم.والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة،وهي درجة الصديقين،وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم،والدعوة إلى الله،والأذى في سبيله،وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي،واسترسالها في الشهوات.{وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} أي:وصلوا في الإيمان بآيات الله،إلى درجة اليقين،وهو العلم التام،الموجب للعمل،وإنما وصلوا إلى درجة اليقين،لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا،وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.فما زالوا يتعلمون المسائل،ويستدلون عليها بكثرة الدلائل،حتى وصلوا لذاك،فبالصبر واليقين،تُنَالُ الإمامة في الدين.[٢٧٥٧]

وفيه إيحاء للقلة المسلمة يومذاك في مكة أن تصبر كما صبر المختارون من بني إسرائيل،وتوقن كما أيقنوا،ليكون منهم أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبني إسرائيل.ولتقرير طريق الإمامة والقيادة،وهو الصبر واليقين.[٢٧٥٨]

فالإمامة في الدين إنما تنال بالصبر واليقين،وقال تعالى:{إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [آل عمران:١٢٠]

وَلِشِدَّةِ عَدَاوَةِ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُمْ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ - نَصْرٌ أَوْ رِبْحٌ أَوْ خَصْبٌ - كَمَا يَسُرُّهُمْ مَا يَنْزِلُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَلاَءٍ وَسُوْءٍ وَهَزِيْمَةٍ.وَيَنْصَحُ

[٢٧٥٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٠٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٥٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٥٦)

[٢٧٥٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٧١)

اللهُ المؤْمنِينَ بِالتَّحَلِّي بالصَّبْرِ والتَّقْوى،وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ لِلنَّجَاةِ مِنْ كَيْدِهِمْ وَأَذَاهُمْ،لأَنَّهُ مُحِيطٌ بِما يَعْمَلُونَ،وَكُلُّ شَيءٍ بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ.[2759]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" وقال الله تعالى لنبيه ﷺ:{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} [النمل:79]،فأمر [رسوله] بالتوكل عليه،وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه،وهو قوله تعالى:"إنَّك على الحقِّ المبين فإن كون العبد على الحق يقتضى تحقيق مقام التوكل على الله،والاكتفاء به،والإيواءَ إلى ركنه الشديد،فإن الله هو الحق،وهو ولى الحق وناصره ومؤيده،وكافى من قام به،" [مخلصاً للحق] أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم:{وَمَا لَنَآ أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} [إبراهيم:12]،فعجبوا من تركهم التوكل على الله [وهو] هداهم،[وأقروا] أن ذلك لا يكون أبداً.وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان:فصادف الحق- لعلمه بالحق [وليقينه] بأن الله ولى الحق وناصره- مضطر إلى توكله على الله لا يجد بداً من توكله.فإن التوكل يجمع أصلين:علم القلب وعمله.أما علمه:فيقينه بكفاية وكيله،وكمال قيامه بما وكله إليه،وأن غيره لا يقوم مقامه فى ذلك.وأما عمله:فسكونه إلى وكيله،وطمأْنينته إليه،وتفويضه وتسليمه أَمره إليه،وأن غيره لا يقوم مقامه فى ذلك.ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.فبهذين الأصلين يتحقق التوكل،وهما جُماعه،وإن كان التوكل دخل فى عمل القلب من عمله،كما قال الإمام أحمد:التوكل عمل القلب،ولكن لا بد فيه من العلم،وهو إما شرط فيه،وإما جزءٌ من ماهيته."[2760]

الثاني:الزهد في الدنيا:

يجب على المجاهدين ألا يركنوا إلى الدنيا بعد تحقق النصر،بل عليهم أن يواصلوا سعيهم وجهادهم لتحقيق المقصود من الجهاد وهو إقامة شريعة الله تعالى في البلاد،وأن يعدوا العدة ويتخذوا ما يستطيعون من وسائل القوة لمواجهة الأعداء المتربصين في الخارج والأعداء

[2759] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:4213،بترقيم الشاملة آليا)

[2760] - طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:257)

المتربصين في الداخل من المرتدين والمنافقين الذين سوف يسعون إلى الفتنة وإعاقة إقامة شريعة الله في البلاد،وقد قال تعالى عن المنافقين:{ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [التوبة:٩٨]

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَعُدُّونَ مَا يُنْفِقُونَهُ مِنْ مَالٍ فِي سَبِيلِ اللهِ غُرْماً وَخَسَاراً،يَحْتَمِلُونَهما مُكْرِهِينَ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْتَقِدُونَ فِي ثَوَابِ اللهِ تَعَالَى عَنِ الجِهَادِ،وَأَعْمَالِ الخَيْرِ،وَيَنْتَظِرُونَ أَنْ تَحِلَّ بِكُمُ المَصَائِبُ وَالكَوَارِثُ،وَأَنْ تَدُورَ عَلَيْكُمُ الدَّوَائِرُ فِي الحَرْبِ.وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلاَءِ قَائِلاً:عَلَيْهِمْ هُمْ دَائِرةُ السَّوْءِ وَالبَوَارِ،وَاللهُ سَمِيعٌ لِدُعَاءِ عِبَادِهِ المُخْلِصِينَ،عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الخِذْلاَنَ.[٢٧٦١]

وقال تعالى:{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) } [التوبة]

وَلَوْ أَنَّهُم أَرَادُوا الخُرُوجَ مَعَكَ إِلَى الجِهَادِ،وَصَحَّتْ نِيَّتُهُمْ لِلْخُرُوجِ مَعَكَ،لَكَانُوا تَأَهَّبُوا لَهُ،وَأَعَدُّوا الحَرْبَ وَالسَّفَرِ،وَلَكِنَّ اللهَ كَرِهَ خُرُوجَهُم مَعَكَ،فَثَبَّطَهُمْ،وَثَنَى عَزَائِمَهُمْ عَنْ ذَلِكَ،وَقِيلَ لَهُمْ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ مِنَ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ وَالمَرْضَى وَالْعَجَزَةِ وَالشُّيُوخِ.يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ أَسْبَابَ كَرَاهِيَتِهِ لِخُرُوجِ هَؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ إِلَى الجِهَادِ مَعَ رَسُولِهِ ﷺ،فَيَقُولُ:لَوْ أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ المُسْلِمِينَ لَزَادُوهُمُ اضْطِرَاباً وَضَعْفاً (خَبَالاً) لأَنَّهُمْ جُبَنَاءُ مَخْذُولُونَ،وَلأَخَذُوا بِالسَّعْيِ بَيْنَكُمْ فِي الدَّسِّ وَالنَّمِيمَةِ وَإِثَارَةِ الْفِتْنَةِ،وَيُوجَدُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ،وَيَسْتَمِعُ إِلَى قَوْلِهِمْ،مِنْ ضِعَافِ الإِيمَانِ،وَضِعَافِ العَزَائِمِ،فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى وُقُوعِ الشَّرِّ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ.وَاللهُ يَعْلَمُ الظَّالِمِينَ،وَمَا يُبَيِّتُونَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ لَوْ خَرَجُوا مَعَهُمْ إِلَى الغَزَاةِ.

يُحَرِّضُ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ عَلَى هَؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ فَيَقُولُ لَهُ:لَقَدْ أَعْمَلُوا رَأْيَهُمْ فِي الكَيْدِ لَكَ،وَلأَصْحَابِكَ وَلِدِينِكَ،مُدَّةً طَوِيلَةً،فِي بَدْءِ مَقْدَمِكَ إِلَى المَدِينَةِ،وَتَأَلَّبَ عَلَيْكَ أَهْلُ الشِّرْكِ،وَالمُنَافِقُونَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ،وَيَهُودُ الْمَدِينَةِ،فَلَمَّا نَصَرَكَ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ،وَأَعْلَى كَلِمَةِ

[٢٧٦١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

الإِسْلاَمِ،قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُول لِجَمَاعَتِه:هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ.فَـدَخَلُوا فِـي الإِسْـلاَمِ ظَاهِراً،وَكَانُوا كُلَّمَا زَادَ اللهُ الإِسْلاَمَ عِزَّةً،زَادَهُمْ ذَلِكَ غَيْظاً وَحَنَقاً.وَقَد ابْتَغَى هَؤُلاَءِ المُنَـافِقُونَ إِثَارَةَ الفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،وَتَفْرِيقَ شَمْلِهِمْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الغَزْوَةِ،فِي غَزْوَةِ أُحُد،حِينَ اعْتَـزَلَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بِثُلُثِ الجَيْشِ،وَصَارَ يَقُولُ:أَطَاعَ النَّبِيُّ الْوِلْدَانَ وَمَنْ لاَ رَأْيَ لَـهُ،فَعَلاَمَ نَقْتُـلُ أَنْفُسَنَا؟[٢٧٦٢]

وقال تعالى:{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُـمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيـهِ رِجَـالٌ يُحِبُّـونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَـوْمَ الظَّـالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّـهُ عَلِـيمٌ حَكِـيمٌ (١١٠)} [التوبة:١٠٧ - ١١٠].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:إِنَّ هَؤُلاَءِ هُمْ أُنَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ بَنُوا مَسْجِداً،فَقَالَ لَهُمْ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ (وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الخَزْرَجِ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ،وَأَبَى الإِسْلاَمَ،وَأَخَذَ يَكِيدُ لِلْمُسْلِمِينَ،وَيَتَآمَرُ عَلَيْهِمْ مَـعَ قُرَيشٍ،وَمَعَ أَعْدَائِهِمْ،وَأَلَّبَ المُشْرِكِينَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي وَقْعَةِ أُحُد،وَحَاوَلَ اسْتِمَالَةَ الأَنْصَارِ فِي المَعْرَكَةِ فَسَبُّوهُ) :ابْنُوا مَسْجِداً يَكُونُ مَرْصَداً لَهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ.ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِـأَنْ يَسْـتَعِدُوا،وَأَنْ يَجْمَعُوا مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَسِلاَحٍ،وَقَالَ لَهُمْ:إِنَّهُ ذَاهِبٌ إِلى قَيْصَرِ الرُّومِ فَآتٍ بِجُنُودٍ مِـنَ الرُّومِ لإِخْرَاجِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِه،فَأَخَذُوا فِي بِنَاءِ المَسْجِدِ قُرْبَ مَسْجِدِ قَباءٍ،وَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ بِنَائِه أَتَوْا إِلى الرَّسُولِ ﷺ فَقَالُوا لَهُ:لَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ بِنَاءِ مَسْجِدِنَا فَنُحِبُّ أَنْ تُصَلِّيَ فِيهِ،وَتَـدْعُو لَنَـا بِالبَرَكَةِ.وَكَانَ الرَّسُولُ خَارِجاً إِلى غَزْوَةِ تَبُوك،فَأَرْجَأَ ذَلِكَ إِلى حِينِ عَوْدَتِه.وَحِينَ عَـادَ نَـزَلَ عَلَيه جِبْرِيلُ،عَلَيْهِ السَّلاَمُ،يُخْبِرُهُ بِغَايَةِ بُنَاةِ المَسْجِدِ وَقَصْدِهِمْ،وَأَمَرَهُ بِأَنْ لاَ يُصَلِّيَ فِيهِ أَبَداً.وَيَقُولُ تَعَالَى:إِنَّ الذِينَ بَنُوا هَذَا المَسْجِدَ سَيَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا أَرَادُوا بِبِنَائِه الخَيْـرَ وَالإِحْسَـانَ إِلَـى النَّاسِ،وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا قَالُوهُ،وَفِيمَا قَصَدُوهُ،وَفِيمَا نَوَوْهُ؛فَهُمْ إِنَّمَا بَنَـوْهُ ضِـرَاراً

[٢٧٦٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٨٢،بترقيم الشاملة آليا)

لِمَسْجِدِ قِبَاءٍ،وَكُفْراً بِاللهِ،وَتَفْرِيقاً لِلْمُؤْمِنِينَ (الَّذِينَ كَانُوا يُصَلُّونَ جَمِيعاً فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ هُوَ مَسْجِدُ قِبَاءٍ،وَفِي ذَلِكَ يَحْصُلُ التَّعَارُفُ وَالتَّآلُفُ،وَتُجْمَعُ الكَلِمَةُ)،وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهُ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ بِنَاءِ هَذا المَسْجِدِ.

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ لاَ يَقُومَ فِي مَسْجِدِ الضِّرَارِ هَذا،وَحَثَّهُ عَلَى الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ قِبَاءِ الذي أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى التَّقْوَى (وَهِيَ طَاعَةُ اللهِ،وَطَاعَةُ رَسُولِهِ،وَجَمْعُ كَلِمَةِ المُؤْمِنِينَ)،وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الحَدِيثِ:" صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِ قِبَاءٍ كَعُمْرَةٍ "

وَيَقُولُ تَعَالَى:إِنَّ مَسْجِدَ قِبَاءٍ فِيهِ رِجَالٌ يَعْمُرُونَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلاَةِ،وَذِكْرِ اللهِ،وَتَسْبِيحِهِ؟،وَيُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا بِذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالآثَامِ.وَيُثْنِي اللهُ تَعَالَى عَلَى الأَنْصَارِ فِي تَطَهُّرِهِمْ،وَفِي عِنَايَتِهِمْ بِنَظَافَةِ أَبْدَانِهِمْ،لأَنَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ.

لاَ يَسْتَوِي فِي عَقِيدَتِهِ،وَلاَ فِي عَمَلِهِ،مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوًى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ،مَعْ مَنْ بَنَى مَسْجِداً لِلضِّرَارِ وَالكُفْرِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ،فَهَذَا الأَخِيرُ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ يَبْنِي بُنْيَانَهُ عَلَى طَرَفِ حُفْرَةٍ فِي أَرْضٍ رِخْوَةٍ فِي جَانِبِ جَهَنَّمَ،انْهَارَتْ بِهِ،وَبِبُنْيَانِهِ،فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَاللهُ لاَ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَالعَدْلِ،القَوْمَ الظَّالِمِينَ المُتَجَاوِزِينَ طَاعَةَ اللهِ.فَالإِيمَانُ ثَابِتٌ رَاسِخٌ قَوِيٌّ،وَأَهْلُهُ سُعَدَاءُ بِرِضْوَانِ رَبِّهِمْ،وَالبَاطِلُ مُضْمَحِلٌّ وَاهٍ سَرِيعُ الانْهِيَارِ،وَأَهْلُهُ أَشْقِيَاءُ مُتَرَدِّدُونَ حَائِرُونَ.وَسَيَظَلُّ البُنْيَانُ،الذي بَنَاهُ هَؤُلاَءِ المُنَافِقُونَ،يُورِثُهُمْ شَكّاً فِي قُلُوبِهِمْ،وَنِفَاقاً حَتَّى مَوْتِهِمْ،بِسَبَبِ إِقْدَامِهِمْ عَلَى هَذا الفِعْلِ القَبِيحِ،وَاللهُ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِ النَّاسِ،حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ.[٢٧٦٣]

فإن الركون إلى الدنيا بعد النصر،والميل إلى الدعة والراحة وترك الجهاد،والغفلة عن الأخطار التي تهدد الإسلام والمسلمين من الإلقاء بالأنفس إلى التهلكة،فعَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ:غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ،وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ،فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ،فَقَالَ النَّاسُ:مَهْ مَهْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ:" إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ،وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ قُلْنَا:هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا "،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فَالْإِلْقَاءُ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا

[٢٧٦٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٤٣،بترقيم الشاملة آليا)

وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ "،قَالَ أَبُو عِمْرَانَ:«فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ» رواه أبو داود[٢٧٦٤].

كما أن في تربية الولاة والمجاهدين تربية جهادية،وصبغ حياقم ومشاعرهم في جميع الأوقات بفريضة الجهاد في سبيل الله،ومداومة الاستعداد والرباط،صلاحا لقلوبهم من الميل إلى الدنيا وزينتها،وأطهر لقلوبهم من التباغض والشحناء التي عادة ما تقع إذا ركنوا إلى الدنيا وتنافسوا عليها،وفي الصحيح عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ،قَالَ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ:عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ،ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ،فَقَالَ:«إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ،وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ،إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي،وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا،وَتَقْتَتِلُوا،فَتَهْلِكُوا،كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» قَالَ عُقْبَةُ:«فَكَانَتْ آخِرَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ»[٢٧٦٥]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ خَزَائِنُ فَارِسَ وَالرُّومِ،أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ»؟ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ:نَكُونُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَتَنَافَسُونَ،ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ،ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ،ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ،ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ إِلَى مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ،فَتَحْمِلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ»[٢٧٦٦]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أُتِيَ بِكُنُوزِ كِسْرَى،فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَرْقَمَ:أَتَجْعَلُهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ حَتَّى تُقَسِّمَهَا؟ فَقَالَ عُمَرُ:«لَا وَاللَّهِ،لَا أُووِيهِ إِلَى سَقْفٍ حَتَّى أُمْضِيَهَا»،فَوَضَعَهَا فِي وَسَطِ الْمَسْجِدِ،فَبَاتُوا عَلَيْهَا يَحْرُسُونَهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ،كَشَفَ عَنْهَا فَرَأَى مِنَ الْحَمْرَاءِ وَالْبَيْضَاءِ مَا يَكَادُ يَتَلَأْلَأُ،فَبَكَى عُمَرُ،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ:وَمَا يُبْكِيكَ يَا

[٢٧٦٤] - سنن أبي داود (٣/ ١٢)(٢٥١٢) صحيح

[٢٧٦٥] - صحيح مسلم (٤/ ١٧٩٦)٣١ - (٢٢٩٦)

[ش (على قتلى أحد ثم صعد المنبر) معناه خرج إلى قتلى أحد ودعا لهم دعاء مودع ثم دخل المدينة فصعد المنبر فخطب الأحياء خطبة مودع (أيلة) هي مدينة معروفة في طرف الشام على ساحل البحر متوسطة بين مدينة الرسول ﷺ ودمشق ومصر بينها وبين المدينة نحو خمس عشر مرحلة وبينها وبين دمشق نحو ثنتي عشرة مرحلة وبينها وبين مصر نحو ثمان مراحل قال الحازمي قيل هي آخر الحجاز وأول الشام (الجحفة) هي بنحو سبع مراحل من المدينة بينها وبين مكة]

[٢٧٦٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ٨٢)(٦٦٨٨) صحيح

أَميرَ الْمُؤْمنينَ؟ فَوَاللَّه إِنَّ هَذَا لَيَوْمُ شُكْرٍ،وَيَوْمُ سُرُورٍ،وَيَوْمُ فَرَحٍ،فَقَالَ عُمَرُ:«وَيْحَكَ،إِنَّ هَذَا لَمْ يُعْطَهُ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا أُلْقيَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ»[٢٧٦٧]

و عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،أَنَّهُ دَخلَ عَلَيْه،وَعنْدَهُ نَفَرٌ منَ الْمُهَاجرينَ الْأَوَّلينَ،فَأَرْسَلَ إِلَى سَفَطٍ أُتيَ به منْ قَلْعَة منَ الْعرَاق،وَكَانَ فيه خَاتَمٌ،فَأَخَذَهُ بَعْضُ بَنيه،فَأَدْخَلَهُ في فيه فَانْتَزَعَهُ منْهُ.ثُمَّ بَكَى عُمَرُ،فَقَالَ بَعْضُ مَنْ عنْدَهُ:لمَ تَبْكي،وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ لَكَ وَأَظْفَرَكَ عَلَى عَدُوِّكَ،وَأَقَرَّ عَيْنَكَ؟ قَالَ:إِنِّي سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«لَا تُفْتَحُ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَلْقَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقيَامَة»،فَأَنَا أَشْفَقُ عَلَى ذَلكَ "[٢٧٦٨]

وعَنِ إِبْرَاهيمَ بْنِ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:لَمَّا أُتيَ عُمَرُ بكُنُوزِ كسْرَى،قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّه بْنُ الْأَرْقَمِ الزُّهْريُّ:أَلَا تَجْعَلُهَا في بَيْت الْمَالِ حَتَّى تَقْسمَهَا؟ قَالَ:«لَا يُظلُّهَا سَقْفٌ حَتَّى أُمْضيَهَا»،فَأَمَرَ بهَا،فَوُضعَتْ في صَرْحِ الْمَسْجد،فَبَاتُوا يَحْرُسُونَهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ أَمَرَ بهَا فَكُشفَ عَنْهَا،فَرَأَى فيهَا منَ الْحَمْرَاء وَالْبَيْضَاء مَا يَكَادُ يَتَلَأْلَأُ منْهُ الْبَصَرُ،قَالَ:فَبَكَى عُمَرُ،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْف:مَا يُبْكيكَ يَا أَميرَ الْمُؤْمنينَ؟ فَوَاللَّه إِنْ كَانَ هَذَا لَيَوْمَ شُكْرٍ،وَيَوْمَ سُرُورٍ،وَيَوْمَ فَرَحٍ،فَقَالَ عُمَرُ:«كَلَّا،إِنَّ هَذَا لَمْ يُعْطَهُ قَوْمٌ إِلَّا أُلْقيَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ،ثُمَّ قَالَ:أَنَكيلُ لَهُمْ بالصَّاعِ أَمْ نَحْثُوَ؟»،فَقَالَ عَليٌّ:بَلِ احْثُوا لَهُمْ،ثُمَّ دَعَا حَسَنَ بْنَ عَليٍّ أَوَّلَ النَّاسِ فَحَثَا لَهُ،ثُمَّ دَعَا حُسَيْنًا ثُمَّ أَعْطَى النَّاسَ،وَدَوَّنَ الدَّوَاوينَ،وَفَرَضَ للْمُهَاجرينَ لكُلِّ رَجُلٍ منْهُمْ خَمْسَةَ آلَاف درْهَمٍ في كُلِّ سَنَة،وَللْأَنْصَارِ لكُلِّ رَجُلٍ منْهُمْ أَرْبَعَةَ آلَاف درْهَمٍ،وَفَرَضَ لأَزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ لكُلِّ امْرَأَة منْهُنَّ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ درْهَمٍ،إِلَّا صَفيَّةَ وَجُوَيْريَةَ،فَرَضَ لكُلِّ وَاحدَة منْهُمَا ستَّةَ آلَاف درْهَمٍ "[٢٧٦٩]

الثالث:أداء الأمانات إلى أهلها:

[٢٧٦٧] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٢٦٥)(٧٦٨) صحيح

[٢٧٦٨] - الزهد للمعافى بن عمران الموصلي (ص:١٨٢)(٨) حسن

[٢٧٦٩] - جامع معمر بن راشد (١١/ ١٠٠)(٢٠٠٣٦) صحيح

من أداء الأمانات إلى أهلهاأن تسند الوظائف والأعمال إلى أهلها من المجاهدين الصادقين،كما قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:٥٨] فلا يجوز أن تسند الولايات إلى القاعدين من المنافقين ومرضى القلوب،فإن هؤلاء ليسوا من أهل الولايات العامة في الإسلام.

فلم يكن النبي ﷺ يسند الولايات لأحد من المنافقين،وإنما كان يولي أصحابه رضي الله عنهم الذين جاهدوا في الله حق الجهاد،ونصحوا لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين،وأما أهل النفاق فليسوا من أهل النصح للإسلام والمسلمين،وإنما دأبهم المكر والغش وإلحاق الأذى والضرر بالمسلمين،ولهذا نهى الله عن اتخاذهم بطانة فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) } [آل عمران:١١٨ - ١٢٠].

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الكُفَّارِ وَاليَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ بِطَانَةً وَخَوَاصَّ لَهُمْ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ،يُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سِرِّهِمْ،وَمَا يُضْمِرُونَ لأعْدَائِهِمْ.لأنَّ هَؤُلاءِ لاَ يَأْلُونَ جُهْداً،وَلاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْ عَمَلٍ فِيهِ إِيْذَاءٌ وَإِضْرَارٌ بِالْمُؤْمِنِينَ،فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ وُقُوعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الضِّيقِ وَالْمَشَقَّةِ.وَلَقَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ وَالعَدَاوَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بِمَا يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ كَلِمَاتِ الحِقْدِ،وَصُدُورُهُمْ تُخْفِي حِقْداً أَكْبَرَ،وَبُغْضاً أَعْظَمَ لِلإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ،وَهُوَ أَمْرٌ لاَ يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ،وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى الدَّلاَلاَتِ الوَاضِحَةَ التِي يُعْرَفُ بِهَا الوَلِيُّ مِنَ العَدُوِّ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ:إِنَّكُمْ تُحِبُّونَ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ الذِينَ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَكُمْ،وَلاَ يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِكُمْ،وَتَمَنِّي عَنَتِكُمْ.وَيُظْهِرُونَ لَكُمُ العَدَاوَةَ وَالغِشَّ،وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ رَيْبَ المَنُونِ،فَكَيْفَ تُوادُّونَهُمْ وَتُواصِلُونَهُمْ،وَهُمْ لاَ يُحِبُّونَكُمْ لا ظَاهِراً وَلاَ بَاطِناً،وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ

الذي أنْزِلَ عَلَيْكُمْ،وَبالكُتُبِ التِي أُنْزِلَتْ قَبْلَهُ،وَلَيْسَ لَدَيْكُمْ شَيءٌ مِنَ الشَّكِّ فِي شَيءٍ مِنْهَا،وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بكِتَابكُمْ،وَعِنْدَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَكٌّ وَحَيرَةٌ،فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِبُغْضِهِمْ مِنْهُمْ لَكُمْ،فَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا:آمَنَّا إرْضَاءً لَكُمْ،وَحَذَراً مِنْهُمْ عَلَى أنْفُسِهِمْ مِنْكُمْ.وَإِذَا فَارَقُوكُمْ،وَاخْتَلَوا بِأَنْفُسِهِمْ،عَضُّوا عَلَيْكُمْ أَطْرَافَ أصَابِعِهِمْ مِنْ غَيْظِهِمْ مِنْكُمْ،فَقُلْ لَهُمْ:مُوتُوا بغَيْظِكُمْ فَلَنْ يَضُرَّنَا ذَلِكَ شَيئاً،وَاللهُ مُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَى المُؤْمنِينَ،وَاللهُ هُوَ الذي يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ مِنَ البَغْضَاءِ وَالحَسَدِ وَالغِلِّ لِلْمُؤْمنِينَ.وَلِشِدَّةِ عَدَاوَةِ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُمْ مَا يُصِيبُ المُؤْمنِينَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ - نَصْرٌ أَوْ رِبْحٌ أَوْ خَصْبٌ - كَمَا يَسُرُّهُمْ مَا يَنْزِلُ بِالمُؤْمنِينَ مِنْ بَلاَءٍ وَسُوْءٍ وَهَزِيْمَةٍ.وَيَنْصَحُ اللهُ المؤْمنِينَ بالتَّحَلِّي بالصَّبْرِ والتَّقْوى،وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ لِلنَّجَاةِ مِنْ كَيْدِهِمْ وَأَذَاهُمْ،لأَنَّهُ مُحِيطٌ بما يَعْمَلُونَ،وَكُلُّ شَيءٍ بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِه. [٢٧٧٠]

وبعد انتصار المجاهدين والتمكين لهم،سوف يسعى المنافقون إلى الإمارة والوزارة،ويظهرون من حسن الكلام،والتشدق بالعبارات،وادعاء الأعذار الكاذبة عن تخلفهم عن الجهاد،ليرضى عنهم أهل الإيمان ويقبلوا عذرهم،كما قال تعالى:{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المنافقون:٤]

وَإِذَا رَأَيْتَ هَؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ تُعْجِبُكَ صُوَرُهُمْ،وَإِذَا تَكَلَّمُوا تُعْجِبُكَ أَقْوَالَهُمْ لأَنَّهُمْ ذَوُو صُوَرٍ مُتَنَاسِقَةٍ،وَذَوُو لَسَنٍ وَفَصَاحَةٍ،وَلَكِنَّهُمْ فِي الحَقِيقَةِ أَشْبَاحٌ بِلاَ أَرْوَاحٍ،وَقُلُوبُهُمْ فَارِغَةٌ مِنَ الإِيْمَانِ فَكَأَنَّهُمْ خُشُبٌ جَوْفَاءُ قَدْ نَخَرَ السُّوسُ دَاخِلَهَا،وَهُمْ فِي غَايَةِ الهَلَعِ وَالجَزَعِ،يَحْسَبُونَ كُلَّ صَوْتٍ يَقَعُ أَنَّ البَلاَءَ قَدْ جَاءَهُمْ،وَأَنَّ أَمْرَهُمْ قَدِ افْتَضَحَ،وَأَنَّهُمْ هَالِكُونَ لاَ مَحَالَةَ.

وَهَؤُلاَءِ هُمُ الأَعْدَاءُ الحَقِيقِيُّونَ لِلاسْلاَمِ وَالمُسْلِمِينَ فَلاَ تَأْمَنْهُمْ عَلَى سِرٍّ،لأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُتَحَرِّقَةٌ حَسَداً وَبُغْضاً،لَعَنَهُمُ اللهُ وَطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ،فَمَا أَقْبَحَ حَالَهُمْ،وَمَا أَشَدَّ غَفْلَتَهُمْ،فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الحَقِّ إِلَى البَاطِلِ،وَعَنِ الإِيْمَانِ إِلَى الكُفْرِ؟[٢٧٧١]

[٢٧٧٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١١،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٧١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٧٠،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)} [الأحزاب:١٨ - ٢٠]

إنَّ اللهَ يَعْلَمُ حَقَّ العِلْمِ الذينَ يَقُومُونَ بِتَثْبِيطِ هِمَمِ النَّاسِ عَنِ القِتَالِ والثَّبَاتِ مَعَ رَسُولِ اللهِ،ويَصْرِفُونَهُمْ عَنْ شُهُودِ الحَربِ مَعَهُ،وَيَعْلَمُ الذينَ يَقُولُونَ لأَصْحَابِهِمْ وَعُشَرَائِهِمْ:أَسْرِعُوا إلينا،وأَقبِلُوا عَلَى مَا نَحْنُ فيه مِنْ طَيبِ المَقَامِ فِي الظِّلالِ والثِّمَارِ (هَلُمَّ إلينا)،وَهُمْ لاَ يَحْضُرُونَ إلى مُعْسَكَرِ المُسْلمينَ إلا وَقْتاً قَصيراً يُثْبِتُونَ فيه وُجُودَهُم أمَامَ النَّاسِ،ثُمَّ يَختَفُونَ مُتَسَلِّلِينَ إذا غَفَلَ النَّاسُ عَنْهُمْ.وَهُمْ بُخَلاء شَحيحُونَ،لا يَمُدُّونَ المُؤْمنينَ بالنَّفَقَةِ وَالمَالِ،وَلا يُقَدِّمُونَ لَهُمُ العَوْنَ والنُّصْرَةَ بالنَّفْسِ.فَإذا بَدَأَت الحَرْبُ،والتَحَمَ المُقَاتِلُونَ رَأَيْتَهُمْ وَقَد اعْتَراهُم الخَوْفُ والهَلَعُ يَنْظُرُونَ إليكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَعْيُنُهُمْ تَدُورُ خَوْفاً وَفَرَقاً،كَدَوَرانِ عَيْنِ الذي غَشِيَهُ المَوْتُ،وَقَرُبَ منْهُ،فَتَجْمدُ عَيْنُهُ وَلا تَطْرِفُ.

أَمَّا إذَا ذَهَبَ الخَوْفُ وَأَسْبَابُهُ،وَعَادَ الأَمْنُ إلى النُّفُوسِ،فَإِنَّهُمْ يَرْفَعُونَ أَصْواتَهُمْ،وَيَتَكَلَّمُونَ عَنِ النَّجْدَةِ والشَّهَامَةِ،والبُطُولاتِ التي أَظْهَرُوها في مَيدَانِ المَعْرَكَةِ،وَهُمْ في هذا كَاذِبُونَ.وَإذا ظَهَرَ المُؤْمنُونَ في الحَرْبِ فهُمْ بُخَلاَءُ حَرِيصُونَ عَلَى أَلاَّ يَفُوتَهُمْ نَصيبٌ منَ المَغَانمِ،فَهُمْ حينَ البَأْسِ جُبَنَاءُ،وَحِينَ الغَنِيمَةِ أَشِحَّاءٌ (وَقِيلَ بَلِ المَعْنَى هُو:فَإذا ذَهَبَ الخَوْفُ بَالُوا فِي شَتْمِكُمْ وَذَمِّكُمْ بِأَلْسنَةٍ حِدَادٍ مَشْحُوذَةٍ قَاطِعَةٍ) .وَهؤُلاءِ،الذينَ بَسَطَ اللهُ تَعَالى أَوْصَافَهُمْ،لَمْ يُؤْمِنُوا باللهِ وَرَسُولِه إيمَاناً صَادِقاً،وَلَمْ يُخْلِصُوا العَمَلَ لأَنَّهُمْ أَهْلُ نِفَاقٍ فَأَهْلَكَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ،وَأَبْطَلَها،وَأَذْهَبَ ثَوَابَهَا وأُجُورَها،وَجَعَلَهَا هَبَاءً مَنْثُوراً،وَكَانَ إِحْبَاطُ أَعْمَالِهِمْ أَمراً يَسيراً عَلَى اللهِ.وَهُمْ مِنْ شِدَّةِ دَهْشَتِهِمْ،وَضَعْفِ إيمَانِهِمْ لاَ يَزَالُونَ يَظُنُّونَ أَنَّ الأَحزابَ مِنْ قُرَيشٍ وغَطَفَانَ..لَمْ يَرْحَلُوا عَنِ المَدينةِ،وَقَدْ هزَمَهُمُ اللهُ وَرَحَلُوا.وإذا عَادَ الأَحْزَابُ مَرَّةً أُخْرى لِقِتَالِ المُسْلمينَ فِي المَدينةِ وَحِصَارِها،تَمَنَّوا لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُقِيمِينَ فِي البَادِيةِ بينَ الأعرابِ بَعِيداً عن المَدينةِ،حَتَّى لا يَلْحَقَ

بِهِمْ مَكْرُوهٌ،وَيَكْتَفُونَ بالسُّؤَالِ عنْ أَخْبَارِكُمْ كُلَّ قَادِمٍ إليهِمْ مِنْ جِهَةِ المَدينة.وَلَوْ أَنَّ هؤُلاءِ المُنَافقِينَ كَانُوا بَيْنَكُمْ أَثْنَاءَ القِتَالِ لَمَا قَاتَلُوا مَعَكُمْ إِلاَّ قِتَالاً يَسيراً رِيَاءً وَخَوْفاً مِنَ المَعْرَكَةِ،لا قِتَالاً يَرْجُونَ بِهِ ثَوابَ اللهِ فِي الآخِرَةِ.[2772]

وقال تعالى: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)} [التوبة:٩٤ - ٩٦].

أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِالجَيْشِ إِلَى المَدِينَةِ،فَإِنَّ المُنَافِقِينَ الذِينَ قَعَدُوا عَنِ الجِهَادِ،وَهُمْ أَغْنِيَاءُ أَصحَّاءُ،سَيَأْتُونَ إِلَيْهِ مُعْتَذِرِينَ.وَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ:لاَ حَاجَةَ بِكُم لأنْ تَعْتَذِرُوا فَلَنْ نُصَدِّقَكُمْ،وَلَنْ نَثِقَ بِكُمْ،لأنَّ اللهَ أَعْلَمَنَا بِأَحْوَالِكُمْ وَأَخْبَارِكُم،وَسَيَرَى اللهُ وَرَسُولُهُ عَمَلَكُمْ فِيمَا بَعْدُ،وَهُوَ الذي سَيُبَيِّنُ حَقِيقَةَ حَالِكُمْ:إِمَّا إِصْرَارٌ عَلَى النِّفَاقِ،وَإِمَّا تَوْبَةٌ وَإِنَابَةُ إِلَى اللهِ.أَمَّا قَوْلُكُمْ بِاللِّسَانِ فَلاَ يُعْتَدُ بِهِ مَهْمَا أَكَّدْتُمُوهُ بِالإِيمَانِ.ثُمَّ يَتَوَلَّى اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِخْبَارَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِها وَشَرِها،وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهَا بِمَا تَسْتَحِقُونَ.إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى المَدِينَةِ مِنْ غَزَاتِكُمْ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ الذينَ تَخَلَّفُوا مَعَ الخَوَالِفِ فِي المَدِينَةِ،وَقَعَدُوا عَنِ الجِهَادِ،وَهُمْ أَغْنِيَاءُ أَصحَّاءُ،سَيَأْتُونَ إِلَيْكُمْ مُعْتَذِرِينَ،وَسَيُؤَكِّدُونَ اعْتِذَارَهُمْ بِالأَيْمَانِ الكَاذِبَةِ،وَهُمْ يَرْجُونَ أَنْ تُعْرِضُوا عَنْهُمْ،وَتَكُفُّوا عَنْ تَوْبِيخِهِمْ،وَتَقْرِيعِهِمْ عَلَى قُعُودِهِمْ،فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِعْرَاضَ الاحْتِقَارِ وَالاسْتِصْغَارِ،لاَ إِعْرَاضَ الصَّفْحِ،وَقَبُولِ العُذْرِ،إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَدَنَسٌ مُؤْذٍ لِلنُّفُوسِ المُؤْمِنَةِ الكَرِيمَةِ،يَجبُ الاحْتِرَاسُ مِنْهُمْ،وَالابْتِعَادُ عَنْهُمْ،لِكَيْلاً تَلْحَقَ عَدْوَاهُمْ بِالمُؤْمِنينَ.وَسَتَكُونُ نَارُ جَهَنَّمَ مُسْتَقَرَّهُمْ،وَجَزَاءَهُمْ،وَمَأْوَاهُمُ الأَخيرُ.

وَهُمْ إِنَّمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ،وَلَكِنْ إِذَا خُدِعْتُمْ أَنْتُمْ بِأَيْمَانِهِمْ،وَرَضِيتُمْ أَنْتُمْ عَنْهُمْ،فَهذا الرِّضَا لاَ يَنْفَعُهُمْ فِي شَيءٍ،لأنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ،الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ،وَطَاعَةِ رَسُولِهِ.[2773]

[2772] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٣٢،بترقيم الشاملة آليا)

ومنهم من قد يدعي كذبا وزورا بأنه قد جاهد مع المجاهدين،أو قام بنصرهم ومعاونتـــهم،حتى يحمد بما لم يفعل،كما قال تعالى:{ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [آل عمران:١٨٨]

يُنَبِّهُ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ إلى حَالٍ آخَرَ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الكِتَـابِ،وَهُوَ أَنَّهُـمْ كَـانُوا يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا مِنَ التَّأوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ لِلكِتَابِ،وَيَرَونَ لأَنْفُسِهِمْ،شَرَفاً وَفَضْلاً بِـأَنَّهُمْ أئِمَّـةٌ يُقْتَدَى بِهِمْ.وكَانُوا يُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدُوا بِأَنَّهُمْ حُفَّاظُ الكِتَابِ وَمُفَسِّرُوهُ.وَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ،وَإِنَّمَا فَعَلُوا نَقِيضَهُ،إذْ حَوَّلُوهُ مِنَ الهِدَايَةِ إلى مَا يُوافِقُ أهْوَاءَ الحُكَّامِ وَالعَامَّةِ.

(وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي اليَهُودِ إذْ سَأَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ شَـيءٍ فِـي كِتَـابِهِمْ،فَكَتَمُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ،فَخَرَجُوا قَدْ أرَوْهُ أنَّهُمْ أخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ،وَاسْتَحْمَدُوهُ بِذَلِكَ،وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوا مِنْ كِتْمَانِ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ) .

(وَقِيلَ إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَعْضِ المُنَافِقِينَ الذِينَ كَانُوا يَتَخَلَّفُونَ عَـنْ رَسُـولِ اللهِ ﷺ إذا غَزَا،فَإِذا عَادَ مِنَ الغَزْوِ اعْتَذَرُوا إليهِ،وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) .وَيَقُولُ تَعَـالَى إنَّ هَؤُلاءِ الذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لَيْسُوا نَاجِينَ مِنَ العَذَابِ،بَلْ لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يُعَـذِّبَهُمُ اللهُ عَـذَاباً أَلِيماً.[٢٧٧٤]

وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّـهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) } [العنكبوت:١٠ – ١١]

هُنَاكَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ يَدَّعُونَ الإِيمَانَ بِأَلسِنَتِهِمْ،فَإِذا آذاهُ المُشْرِكُونَ لإِيمَانِهِ باللهِ،جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ في الدُّنيا كَعَذَابِ اللهِ في الآخرَةِ،فَارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ،وَرَجَعَ عَن إِيمَانِهِ إلى الكُفْرِ،مَعَ أَنَّهُ لَـو صَـبَرَ لَكَانَ خَيراً لهُ،لأنَّ عَذَابَ النَّاسِ لهُ دافعٌ يدفَعُه عنهُ،ولهُ نهايةٌ،ويُثَابُ المُؤمنُ،عليه.وعَـذَابُ اللهِ ليسَ لهُ مَنْ يَدْفَعُهُ عنْهُ،ولا نِهَايَةَ لَهُ،وَيَترتَّبُ عليه العِقَابُ الأَليمُ.

[٢٧٧٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٣٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٧٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٨١،بترقيم الشاملة آليا)

أَمَّا إذا جاءَ نَصْرُ مِنَ اللهِ للنَّبيِّ ﷺ وَالْمُؤْمنينَ،وَفَتْحٌ وَمَغَانمُ فَيَقُولُ هؤلاء الْمُتَظَاهرُونَ بالإيمان:إنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبيِّ والمؤمنينَ يَنْصُرونَهُم،وإنَّهُمْ إخْوانُهُم في الدِّين،وطَالبُوا بنَصيبهِمْ مِنَ الْمَغْنَم.ثُمَّ يَقُولُ تَعَالى:إنَّهُمْ لا يُمْكنُ أَن يَخدَعُوا اللهَ بهذه الدَّعوى فَهُوَ عَالمٌ بما في قُلُوبهِمْ مِنْ نفاق،وَبما تُكنُّهُ ضَمَائرُهُمْ،وإن أَظْهَرُوا الإيمَانَ للمُؤْمنينَ،فَهُوَ تَعالى لا تَخْفَى عَلَيه خَافيَةٌ.ولَيَخْتَبرَنَّ اللهُ تَعَالى عبَادَهُ بالسَّراء والضَّرَّاء،ليُمَيِّزَ الْمُؤْمنَ الصَّادقَ في إيمَانه،منَ الْمُنَافق الْمُتَشَكِّك،وَليُظْهرَ مَنْ يُطيعُ اللهَ فيصْبرُ على الأذى إنْ مَسَّهُ في سَبيلِ الله،وَمَنْ يَعصيه،ويَنْكصُ عَلى عَقبَيه إنْ مَسَّهُ ضَرٌ {إنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن به وَإِنْ أَصَابَتْهُ فتْنَةٌ انقلب على وَجْهه.}[٢٧٧٥]

وقال تعالى :{الَّذينَ يَتَرَبَّصُونَ بكُمْ فَإنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ منَ اللَّه قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإنْ كَانَ للْكَافرينَ نَصيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ منَ الْمُؤْمنينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقيَامَة وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ للْكَافرينَ عَلَى الْمُؤْمنينَ سَبيلًا } [النساء:١٤١]

يُخْبرُ اللهُ تَعَالَى:أنَّ هَؤُلاء الْمُنَافقين يَتَرَبَّصُونَ بالْمُؤْمنينَ دَوَائرَ السَّوْء،وَيَنْتَظرُونَ زَوَالَ دَوْلَة الإسْلاَم،وَظُهُورَ الكُفْر عَلَيهمْ،وَذَهَابَ ملَّتهمْ.فإذَا نَصَرَ اللهُ الْمُؤْمنينَ،وفَتَحَ عَلَيهم،واسْتَحْوَذُوا عَلَى الغَنَائم،قَالُوا للْمُؤْمنينَ مُتَوَدِّدينَ إلَيْهمْ:أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَإذاً فَنَحْنُ نَسْتَحقُّ نَصيباً منَ الْمَغْنَم الذي حُزْتُمُوهُ.وَإذَا كَانَ النَّصْرُ وَالغَلَبَةُ للْكَافرينَ عَلَى الْمُؤْمنينَ كَمَا وَقَعَ في غَزْوَة أُحُد،قَالُوا للْكَافرينَ الْمُنْتَصرينَ:أَلَمْ نُسَاعدْكُمْ في البَاطن وَنَحْمكُمْ،وَنُخَذِّل الْمُؤْمنينَ عَنْ قتَالكُمْ حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيهم (أَلَمْ نَسْتَحْوذْ عَلَيْكُمْ) ؟ فَاعْرفُوا لَنَا هَذَا الفَضْلَ،وَأَعْطُونَا نَصيباً ممَّا أَصَبْتُمْ منَ الْمَغْنَم.

وَيَتَوَعَّدُ اللهُ تَعَالَى الْمُنَافقينَ بأَنَّهُ سَيُحَاسبُهُمْ حسَاباً عَسيراً عَلَى بَوَاطنهمْ يَوْمَ القيَامَة،وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ تَظَاهُرُهُمْ بالإسْلاَم وَالإيمَان وَنفَاقُهُمْ،وَأَنَّهُ سَيَحْكُمُ في ذَلكَ اليَوْم بَيْنَ الْمُؤْمنينَ الصَّادقينَ،وَبَيْنَ الْمُنَافقينَ،الذينَ يُبْطنُونَ الكُفْرَ،وَيُظْهرُونَ الإيمَانَ،وَيُجَازي كُلا بمَا يَسْتَحقُّهُ.وَيَقُولُ تُعُالَى:إنَّهُ لَنْ يَجْعَلَ للْكَافرينَ عَلَى الْمُؤْمنينَ سُلْطَاناً وَسَبيلاً في الحَيَاة الدُّنْيا،مَا دَامُوا مُتَمَسِّكينَ بدينهمْ،قَائمينَ بأَوَامره وَنَوَاهيه،وَإنْ حَقَّقَ الكَافرُونَ بَعْضَ الظَّفر،في بَعْض الأَحْيَان،فَالعَاقبَةُ للْحَقِّ

[٢٧٧٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٣٢،بترقيم الشاملة آليا)

دَائِماً،وَالبَاطِلُ إلى زَوَالٍ.كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى لَنْ يَجْعَلَ لِلْكَـافِرِينَ سُـلْطَاناً عَلَـى الُمـؤْمِنِينَ فِـي الآخِرَةِ.[٢٧٧٦]

وغيرها من الوسائل المخادعة التي يسلكها المنافقون للتوصل إلى الإمرة والولايـة العامة،وقـد أوجب الله معاداهم وأمر بأخذ الحذر منهم،ونهى عن اتخاذهم بطانة،فإن تغلغلهم في أجهـزة الدولة وتبوأهم المناصب المهمة يشكل خطرا على الدولة الإسلامية،ومرضا فتاكا يهدد بقاءها واستمرارها.

ومن السبل لتمييز المجاهدين من غيرهم،أن تقوم الحكومـة بإحصـاء المجاهـدين وتسـجيل أسمائهم،لمعرفتهم وتقديمهم على غيرهم في الولايات العامة،وقد بوب البخـاري رحمـه الله في صحيحه فقال " بَابُ كِتَابَةِ الإِمَامِ النَّاسَ "[٢٧٧٧]ثم روى عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلاَمِ مِنَ النَّاسِ»،فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ رَجُلٍ،فَقُلْنَا:نَخَـافُ وَنَحْنُ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ،فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ابْتُلِينَا،حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي وَحْدَهُ وَهُوَ خَائِفٌ.حَـدَّثَنَا عَبْدَانُ،عَنْ أَبِي حَمْزَةَ،عَنِ الأَعْمَشِ فَوَجَدْنَاهُمْ خَمْسَ مِائَةٍ.قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ:مَا بَيْنَ سِتِّ مِائَـةٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ"[٢٧٧٨].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنِّي كُتِبْـتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا،وَامْرَأَتِي حَاجَّةٌ،قَالَ:«ارْجِعْ،فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ»[٢٧٧٩]

ـــــــــــــــــــ

الرابع:تربية الشباب:

يجب على ولاة الأمر دعوة جميع أفراد الرعية من الرجال والنساء،وتربيتهم تربيـة إسـلامية كاملة،مع العناية بالشباب المسلم عناية كبيرة،لما يملكون من قوة الشباب والطاقة التي تسـاهم

[٢٧٧٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٧٧] - صحيح البخاري (٤/ ٧٢)

[٢٧٧٨] - صحيح البخاري (٤/ ٧٢)(٣٠٦٠)

[ش (فقلنا) كان هذا القول عند حفر الخندق.(ابتلينا) من الابتلاء وهو الاختبار والامتحان ومراده ما أصاب المسلمين بعد رسول الله ﷺ من الفتن]

[٢٧٧٩] - صحيح البخاري (٤/ ٧٢)(٣٠٦١)

وتساعد بإذن الله في بناء الدولة الإسلامية وتقويتها والدفاع عنها،كما أن الاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ فيهم أكثر من الكبارالذين ألفوا الكثير من المنكرات وهرموا فيها،وقد قال تعالى:{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) } [الكهف]

نَحْنُ نُخْبِرُكَ بِنَبإِ هَؤُلاَءِ الفِتْيَةِ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الكَهْفِ كَمَا وَقَعَ،وَلاَ مَحَلَّ فِيهِ لِلرِّيبَةِ أَوِ الشَّكِّ. إِنَّهُمْ شُبَّانٌ فِي مُقْتَبَلِ العُمْرِ (فِتْيَةٌ)،اهْتَدُوا إِلَى الإِيمَانِ بِرَبِّهِمْ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ،فَعَبَدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،ثُمَّ زَادَهُمْ رَبُّهُمْ هُدًى عَلَى هُدَاهُمْ،بِتَثْبِيتِهِمْ عَلَى الإِيمَانِ،وَتَوْفِيقِهِمْ إِلَى العَمَلِ الصَّالِحِ وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا.

وَيُقَالُ إِنَّ هَؤُلاَءِ الفِتْيَةَ نَظَرُوا إِلَى مَا يَعْبُدُهُ قَوْمُهُمْ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَوْثَانٍ فَنَفَرُوا مِنْهَا،فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ مَكَاناً يَتَعَبَّدُونَ اللهَ فِيهِ،فَعَلِمَ بِهِمْ قَوْمُهُمْ،فَرَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى المَلِكِ،وَكَانَ مَلِكاً جَبَّاراً عَنِيداً،فَاسْتَحْضَرَهُمْ وَسَأَلَهُمْ عَنْ حَالِهِمْ،وَمَا يَعْبُدُونَ،فَأَلْهَمَهُمُ اللهُ قُوَّةَ العَزِيمَةِ،وَشَدَّدَ قُلُوبَهُمْ بِنُورِ الإِيمَانِ،فَقَامُوا بَيْنَ يَدَي المَلِكِ،فَاعْتَرَفُوا لَهُ بِنُفُورِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ،وَبِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ.ثُمَّ دَعَوْهُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ،فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ} .وَلَمَّا أَرَادَ المَلِكُ أَنْ يُقْنِعَهُمْ بِالعَوْدَةِ إِلَى دِينِ قَوْمِهِمْ قَالُوا لَهُ:إِنَّ دِينَهُمْ هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحُ الحَقُّ،وَلَنْ يَرْجِعُوا إِلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ أَبَداً،لأَنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ بُهْتَاناً وَبَاطِلاً (لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً) .[٢٧٨٠]

إن الشباب دائما،هو مطلع الثورات،ومهبّ ريحها،حيث التفتّح للحياة،والقدرة على التفاعل معها..فإذا ولّى الشباب فهيهات أن تتحرك فى الإنسان رغبة إلى اتجاه غير الاتجاه الذي قطع فيه هذه المرحلة الممتدة من عمره..

وفى وصف القرآن الكريم لهم:«إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً»،إشارة إلى أنهم اتجهوا إلى الله،ووضعوا أقدامهم على الطريق إليه،فاستقبلهم الله سبحانه وتعالى بألطافه على الطريق،ودفع بهم إلى مرفأ الأمن والسلامة..وهذا يعنى أنه مطلوب من الإنسان أن يتحرك نحو

[٢٧٨٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٥٤،بترقيم الشاملة آليا)

الغاية التي يقصدها،فإن كانت حركته على طريــق الخير،وجــد مــن الله ســبحانه العــون والسداد،وإن كان على طريق الضلال والفساد،تركه الله لهواه،وأسلمه لشيطانه..!

– وفى قوله تعالى:«وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً» – فى هذا توكيد للعون الذي أمدّهم الله به،منذ أن اتجهــت قلوبهم إليه،وانعقدت نيّاتهم على الإيمان به.

– وفى قوله تعالى:«إِذْ قامُوا» إشارة إلى أن ما تتجه إليه القلوب،وتنعقد عليــه النيّــات– وإن كان مقدّمة طيبة من مقدمات الفوز والنجاح– ســيظلّ جســدا هامــدا،حتى تــنفخ فيــه الإرادة،وينضحه العمل،فإذا هو كائن سوىّ الخلق،دانى القطوف.

وهؤلاء الفتية، لم يقفوا عند حدّ النيّة،بل «قاموا» أي تحركوا،وعملوا،فربط الله علــى قلــوبهم تلك التي اتجهت إليه،وشدّ على هذه النيّات التي انعقدت على الإيمان به..وإذ يتجه الفتيــة إلى الله هذا الاتجاه القوىّ الخالص من شوائب الشرك،وإذ تفيض قلوبهم إيمانا يباعد بينــهم وبــين قومهم،فلا يشاركونهم فيما هم فيه من ضلال الوثنية وسخافاتها– عندئذ يجدون أنهم غرباء فى قومهم،معرضون للسخط،والإزدراء،ثم القطيعة،ثم الطرد،وربما القتل! إنهم قلة صالحة فى مجتمع فاسد..فليطلبوا لهم وجها فى الأرض..والا ساءت العاقبة،ووقع البلاء،وتعرضــوا للفتنــة فى دينهم،الذي ارتضوه وآمنوا به.[٢٧٨١]

ولقد تبين الطريقان،واختلف المنهجان،فلا سبيل إلى الالتقاء،ولا للمشاركة في الحياة.ولا بــد من الفرار بالعقيدة.إنهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصــحيحة ويــدعوهم إليها،ويتلقوا ما يتلقاه الرسل.إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر،ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها،وهم لا يطيقون كــذلك أن يــداروا القــوم ويداروهم،ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبــادتهم لله.والأرجــح أن أمرهم قد كشف.فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله،وأن يختاروا الكهف علــى زينــة الحياة.[٢٧٨٢]

[٢٧٨١] – التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٥٩٧)

[٢٧٨٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٩٥٢)

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:" ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ فِتْيَةٌ -وَهُمُ الشَّبَابُ-وَهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ،وَأَهْدَى لِلسَّبِيلِ مِنَ الشُّيُوخِ،الَّذِينَ قَدْ عَتَوْا وعَسَوا فِي دِينِ الْبَاطِلِ؛وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ شَبَابًا.وَأَمَّا الْمَشَايِخُ مِنْ قُرَيْشٍ،فَعَامَّتُهُمْ بَقُوا عَلَى دِينِهِمْ،وَلَمْ يُسْلِمْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ.وَهَكَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْيَةً شَبَابًا.

قَالَ مُجَاهِدٌ:بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ فِي آذَانِ بَعْضِهِمُ الْقِرَطَةُ يَعْنِي:الحَلَق فَأَلْهَمَهُمُ اللَّهُ رُشْدَهُمْ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ.فَآمَنُوا بِرَبِّهِمْ،أَيْ:اعْتَرَفُوا لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ،وَشَهِدُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.{وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} :اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ كَالْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ،وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:{وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} كَمَا قَالَ {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [مُحَمَّد:١٧]،وَقَالَ:{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [التَّوْبَة:١٢٤]،وَقَالَ {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الْفَتْحِ:٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ."[٢٧٨٣]

وقال تعالى:{ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ } [يونس:٨٣]

وَأَظْهَرَ اللهُ الحَقَّ عَلَى الباطِلِ،فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَالْتَقَفَتْ جَمِيعَ مَا أَلْقَاهُ السَّحَرَةُ،وَمَوَّهُوا بِهِ عَلَى النَّاسِ.وَكَانَ ذَلِكَ نَصْراً عَظِيماً لِمُوسَى مِنْ رَّبِهِ،وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَمَرُّوا فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.وَلَمَّا أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ للهِ اسْتِغْفَاراً وَتَوْبَةً،وَرَجَاءً أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ،قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ:إِنَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِتَقْطِيعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلاَفٍ،وَسَيَصْلِبَهُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ،لأَنَّهُمْ آمَنُوا لِمُوسَى قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ هُوَ لَهُمْ بِذَلِكَ - كَمَا جَاءَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ - .وَيُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ لِمُوسَى إِلاَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّبَابِ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،وَقَدْ آمَنُوا بِهِ وَهُمْ خَائِفُونَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنْ يَضْطَرُّوهُمْ بِالعَذَابِ وَالنَّكَالِ إِلَى الرُّجُوعِ عَنِ الإِيمَانِ بِرَبِّهِمْ (يَفْتِنَهُمْ)،وَذَلِكَ لأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ مُسْتَكْبِراً مُتَعَالِياً فِي الأَرْضِ،مُسْرِفاً فِي كُفْرِهِ،وَفِي أَمْرِهِ كُلِّهِ،وَمُبَالِغاً فِيهِ،فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَخَافَ مِنْهُ.[٢٧٨٤]

[٢٧٨٣] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١٤٠)

[٢٧٨٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٤٨،بترقيم الشاملة آليا)

ويفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بني إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار،لا مجموعة الشعب الإسرائيلي.وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى،خوفا من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان،والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل.وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت،كما كان مسرفا في الطغيان،لا يقف عند حد،ولا يتحرج من إجراء قاس.[٢٧٨٥]

قال العلامة السعدي رحمه الله:" والحكمة -والله أعلم- بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه،أن الذرية والشباب،أقبل للحق،وأسرع له انقيادًا،بخلاف الشيوخ ونحوهم،ممن تربى على الكفر فإنهم -بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة- أبعد من الحق من غيرهم."[٢٧٨٦]

ومما يبين أهمية مرحلة الشباب وفضل الاستقامة فيها فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" مَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ:عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ،وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ،وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ،وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ " رواه البيهقي[٢٧٨٧].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ،يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:إِمَامٌ عَادِلٌ،وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ،وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فِي خَلاَءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ،وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسْجِدِ،وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ،وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا،قَالَ:إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ،وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ "[٢٧٨٨].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ:" اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ:شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ،وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ،وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ،وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ،وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ" رواه الحاكم[٢٧٨٩].

[٢٧٨٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٤٥٧)

[٢٧٨٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٧١)

[٢٧٨٧] - شعب الإيمان (٣/ ٢٨٠)(١٦٤٨) صحيح لغيره

[٢٧٨٨] - صحيح البخاري (٨/ ١٦٣)(٦٨٠٦)

[٢٧٨٩] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٣٤١)(٧٨٤٦) صحيح

الخامس:أصحاب الاختصاص:

الدولة الإسلامية في بداية نشأتها بحاجة إلى الأمناء الأتقياء من أصحاب الاختصاص في شتى المجالات القضائية والسياسية والاقتصادية والإعلامية وغيرها.

وإيجاد جميع أهل الاختصاص من بين المجاهدين قد يتطلب أولا سنوات في إعدادهم وتعليمهم وتأهيلهم،لاسيما في بعض البلاد التي يقل فيها أهل الإختصاص من بين المجاهدين بسبب انشغالهم بالجهاد ومدافعة الأعداء.

وهذا يحتم على ولاة الأمر أن يستدعوا أهل الاختصاص الأتقياء الأمناء من بلاد المسلمين الأخرى للاستفادة من علمهم وخبرتهم ومشورتهم في بناء الدولة وتقويتها،فإن هذا من التعاون على البر والتقوى الذي أمر الله به في كتابه فقال تعالى:{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [المائدة:٢]،ودولة الإسلام الأولى التي أسسها النبي ﷺ جمعت الأنصار من المدينة والمهاجرين الذين هاجروا إليها.

السادس:الاجتماع على الحق:

المسلمون أمة واحدة،وصفهم النبي ﷺ بالبنيان يشد بعضه بعضا،وبالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى،ووصفهم بأنهم يد على من سواهم عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِه".متفق عليه[٢٧٩٠]

(" اغْتَنِمْ "):مِنَ الِاغْتِنَامِ،هُوَ أَخْذُ الْغَنِيمَةِ (" خَمْسًا ") أَيْ:مِنَ الْأَحْوَالِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْحَالِ (" قَبْلَ خَمْسٍ ") أَيْ:مِنَ الْعَوَارِضِ الْمُتَوَقَّعَةِ فِي الِاسْتِقْبَالِ (" شَبَابَكَ ") أَيْ:زَمَانَ قُوَّتِكَ عَلَى الْعِبَادَةِ (قَبْلَ هَرَمِكَ):بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ:قَبْلَ كِبَرِكَ وَضَعْفِكَ عَنِ الطَّاعَةِ (وَصِحَّتَكَ) أَيْ:وَلَوْ فِي هَرَمِكَ (قَبْلَ سَقَمِكَ) بِفَتْحَتَيْنِ وَبِضَمٍّ فَسُكُونٍ أَيْ:مَرَضِكَ وَ (" غِنَاكَ ") أَيْ:قُدْرَتَكَ عَلَى الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ وَالْخَيْرَاتِ وَالْمَبَرَّاتِ الْأُخْرَوِيَّةِ فِي مُطْلَقِ الْأَحْوَالِ،وَمِنْ أَعَمِّ الْأَمْوَالِ (" قَبْلَ فَقْرِكَ ") أَيْ:فَقْدِكَ إِيَّاهُ بِالْحَيَاةِ أَوِ الْمَمَاتِ،فَإِنَّ الْمَالَ فِي صَدَدِ الزَّوَالُ (" وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ "):سَبَقَ بَيَانُ مَبْنَاهُ وَمَعْنَاهُ (" وَحَيَاتَكَ "):وَلَوْ فِي الْكِبَرِ الْمَقْرُونِ بِالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ الْمُمْكِنِ فِيهِ الْإِتْيَانُ بِذِكْرِ اللَّهِ (" قَبْلَ مَوْتِكَ ") أَيْ:وَقْتِ إِتْيَانِ أَجَلِكَ وَانْقِطَاعِ عَمَلِكَ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٣٩)

[٢٧٩٠] - صحيح البخاري (٣/ ١٢٩)(٢٤٤٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٥ - (٢٥٨٥)

وعَـــنِ النُّعْمَـــانِ بْـــنِ بَشِـــيرٍ،قَالَ:قَـــالَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ:" مَثَـــلُ الْمُـــؤْمِنِينَ فِـــي تَوَادِّهِمْ،وَتَرَاحُمِهِمْ،وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" متفقٌ عليه[٢٧٩١]

وعَنْ أَبِي حَسَّانَ،أَنَّ عَلِيًّا،كَانَ يَأْمُرُ بِالْأَمْرِ فَيُؤْتَى،فَيُقَالُ:قَدْ فَعَلْنَا كَذَا وَكَذَا،فَيَقُولُ:صَـدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ،قَالَ:فَقَالَ لَهُ الْأَشْتَرُ:إِنَّ هَذَا الَّذِي تَقُولُ قَدْ تَفَشَّغَ فِي النَّاسِ،أَفَشَيْءٌ عَهِدَهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ عَلِيٌّ:مَا عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا خَاصَّةً دُونَ النَّاسِ،إِلا شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهُوَ فِي صَحِيفَةٍ فِي قِرَابِ سَيْفِي،قَالَ:فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَخْرَجَ الصَّحِيفَةَ،قَالَ:فَـإِذَا فِيهَـا:" مَـنْ أَحْدَثَ حَدَثًا،أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ " قَالَ:وَإِذَا فِيهَا:" إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ،وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ،حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَحِمَاهَا كُلُّهُ،لَا يُخْتَلَى خَلاهَا،وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا،وَلا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا،إِلا لِمَنْ أَشَارَ بِهَا،وَلا تُقْطَـعُ مِنْهَـا شَجَرَةٌ إِلا أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ،وَلا يُحْمَلُ فِيهَا السِّلَاحُ لِقِتَالٍ " قَالَ:وَإِذَا فِيهَـا:" الْمُؤْمِنُـونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،أَلا لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَـافِرٍ،وَلا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ "[٢٧٩٢] .

فلا يجوز في الدولة الإسلامية التفرق وتشكيل الأحزاب ولو كانت بمسميات إسلامية.....

قَالَ:الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ) التَّعْرِيفُ لِلْجِنْسِ،وَالْمُرَادُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِ لِلْبَعْضِ ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلاسْتِغْرَاقِ أَيْ:كُلُّ مُؤْمِنٍ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ لِلْعَهْدِ الذِّهْنِيِّ فِي الْأَوَّلِ،وَلِلْجِنْسِ فِي الثَّانِي أَيِ:الْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ لِمُطْلَقِ الْمُؤْمِنِ (كَالْبُنْيَانِ) أَيِ:الْبَيْتِ الْمَبْنِيِّ (يَشُدُّ بَعْضُهُ) أَيْ:بَعْضُ الْبُنْيَانِ (بَعْضًا) وَالْجُمْلَةُ حَالٌ أَوْ صِفَةٌ أَوِ اسْتِئْنَافُ بَيَانٍ لِوَجْهِ الشَّبَهِ،وَهُوَ الْأَظْهَرُ،ثُمَّ لَا شَكَّ أَنَّ الْقَوِيَّ هُوَ الَّذِي يَشُدُّ الضَّعِيفَ وَيُقَوِّيهِ،وَحَاصِلُ مَعْنَاهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَتَقَوَّى فِي أَمْرِ دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ إِلَّا بِمَعُونَةِ أَخِيهِ،كَمَا أَنَّ بَعْضَ الْبِنَاءِ يُقَوِّي بَعْضَهُ (ثُمَّ شَبَّكَ) أَيِ:النَّبِيُّ - ﷺ- أَبُو مُوسَى (بَيْنَ أَصَابِعِهِ) أَيْ:أَدْخَلَ إِحْدَى يَدِهِ بَيْنَ أَصَابِعِ الْيَدِ الْأُخْرَى قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ (ثُمَّ شَبَّكَ) كَالْبَيَانِ لِوَجْهِ الشَّبَهِ أَيْ:شَدًّا مِثْلَ هَذَا الشَّدِّ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣١٠٢)

[٢٧٩١] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٦ - (٢٥٨٦) وصحيح البخاري (٨/ ١٠)(٦٠١١)

[ش (تداعى له سائر الجسد) أي دعا بعضه بعضا إلى المشاركة في ذلك ومنه قوله تداعت الحيطان أي تساقطت أو قربت من التساقط]

[٢٧٩٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٢/ ٢٦٨)(٩٥٩) صحيح لغيره

جواز إنشاء الأحزاب الإسلامية:

قلت :

الصواب الجواز ولا يوجد دليل شرعي يمنع من ذلك،بشرط أن تكون متفقة في الأصول التي يجب أن ينص علهيا الدستور أما الأشياء القابلة للاجتهاد والمختلف فيها فلا حرج من الأخذ بها،ولا حرج في ذلك ....

بل إن وجود الأحزاب الإسلامية التي تجعل الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة من أسباب منع الحاكم من الاستبداد والتفرد بالرأي ....

وطالما أنها تعمل وفق الدستور الإسلامي ولا تخالفه ولا تخالف مبادئ وقيم الإسلام فلا بأسبها .

وأما إذا كان فيها ما يناقض الدستور الإسلامي فترفض،ولا يمكن قبولها حتى تصحح مسارها،وأن تعمل بالعلانية وليس بالسر،وأن تقوم على أساس قوله تعالى :{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة:١٤٨]

وقال تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [المائدة:٤٨]

والآيات التي يحتج بها المانعون كلها في غير محلها وهي واردة على الكفار والفجار كقوله تعالى :{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)} [المؤمنون:٥٢،٥٣]

إِنَّ دِينَكُم،يَا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ،دِينٌ وَاحِدٌ،وَمِلَّتَكُمْ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ،وَدِينَكُمْ هُوَ الدَّعْوَةُ إلى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ.ثُمَّ قَالَ لَهُم اللهُ تَعَالَى إِنَّهُ رَبُّهُمْ فَعَلَيْهِم أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ،وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِه.

لَقَدْ مَضَى الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلامُ أُمَّةً وَاحِدَةً،أَصْحَابَ عِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ،فَإِذَا بِالنَّاسِ مِنْ بَعْدِهِمْ أَحْزَابٌ وَفِرَقٌ وجَمَاعَاتٌ مُتَنَازِعَةٌ لاَ تَلْتَقِي عَلَى مَنْهجٍ وَلاَ طَرِيقٍ،وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُم يَحْسِبُ نَفْسَهُ مِنَ المُهْتَدِينَ فَيَفْرَحُ بِذَلِكَ،وَيُعْجَبُ بِهِ.[٢٧٩٣]

وقد وجدت التيارات الإسلامية منذ العهد النبوي ثم أخذت تتبلور وتزداد يوما بعد يوم،فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّ حِزْبَيْنِ،فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ،وَالحِزْبُ الآخَرُ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ المُسْلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَائِشَةَ،فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَحَدِهِمْ هَدِيَّةٌ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،أَخَّرَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ،بَعَثَ صَاحِبُ الهَدِيَّةِ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ،فَكَلَّمَ حِزْبُ أُمِّ سَلَمَةَ فَقُلْنَ لَهَا:كَلِّمِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُكَلِّمُ النَّاسَ،فَيَقُولُ:مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهْدِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَدِيَّةً،فَلْيُهْدِهِ إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ مِنْ بُيُوتِ نِسَائِهِ،فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ،فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا،فَسَأَلْنَهَا،فَقَالَتْ:مَا قَالَ لِي شَيْئًا،فَقُلْنَ لَهَا،فَكَلِّمِيهِ قَالَتْ:فَكَلَّمَتْهُ حِينَ دَارَ إِلَيْهَا أَيْضًا،فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا،فَسَأَلْنَهَا،فَقَالَتْ:مَا قَالَ لِي شَيْئًا،فَقُلْنَ لَهَا:كَلِّمِيهِ حَتَّى يُكَلِّمَكِ،فَدَارَ إِلَيْهَا فَكَلَّمَتْهُ،فَقَالَ لَهَا:«لاَ تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّ الوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ،إِلَّا عَائِشَةَ»،قَالَتْ:فَقَالَتْ:أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،ثُمَّ إِنَّهُنَّ دَعَوْنَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَقُولُ:إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللَّهَ العَدْلَ فِي بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ،فَكَلَّمَتْهُ فَقَالَ:«يَا بُنَيَّةُ أَلاَ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟»،قَالَتْ:بَلَى،فَرَجَعَتْ إِلَيْهِنَّ،فَأَخْبَرَتْهُنَّ،فَقُلْنَ:ارْجِعِي إِلَيْهِ،فَأَبَتْ أَنْ تَرْجِعَ،فَأَرْسَلْنَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ،فَأَتَتْهُ،فَأَغْلَظَتْ،وَقَالَتْ:إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللَّهَ العَدْلَ فِي بِنْتِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ،فَرَفَعَتْ صَوْتَهَا حَتَّى تَنَاوَلَتْ عَائِشَةَ وَهِيَ قَاعِدَةٌ فَسَبَّتْهَا،حَتَّى إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [ص:١٥٧] لَيَنْظُرُ إِلَى عَائِشَةَ،هَلْ تَكَلَّمُ،قَالَ:فَتَكَلَّمَتْ عَائِشَةُ تَرُدُّ عَلَى زَيْنَبَ حَتَّى أَسْكَتَتْهَا،قَالَتْ:فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى عَائِشَةَ،وَقَالَ:«إِنَّهَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ»"[٢٧٩٤]

[٢٧٩٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٠٥،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٩٤] - صحيح البخاري (٣/ ١٥٦)(٢٥٨١)

قال المؤلف رحمه الله :"وأما الأحزاب اللادينية (العلمانية) فإن إقرارها والرضا بها مروق وخروج من الإسلام،فالواجب في حق هؤلاء العلمانيين أن يعاملوا معاملة المرتدين الذين يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا،فإن الناس إما مسلمون موالون لله تعالى ولرسوله ﷺ فهم حزب الله[2795]،وإما كفار أومرتدون أو منافقون مخالفون لدين الله تعالى وهؤلاء حزب الشيطان الذين أمرنا الله تعالى بجهادهم ومدافعتهم،وقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)} [آل عمران:١٠٢ - ١٠٧]

وقال تعالى:{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى:١٣]

شَرَعَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا شَرَعَ لِنُوحٍ،وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَرْبَابِ الشَّرَائِعِ وَأُوْلِي العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ،وَأَمْرَهُمْ أَمْراً مُؤَكَّداً مِمَّا هُوَ أَصْلُ الإِيْمَانِ،وَأَصْلُ الشَّرَائِعِ،مِمَّا لاَ يَخْتَلِفُ بِاخْتَلاَفِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ:كَالإِيْمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَالإِيْمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ،وَالإِيْمَانِ بِالمَلاَئِكَةِ

[ش (حزبين) تثنية حزب وهو الطائفة والجماعة.(ينشدنك الله العدل) يسألنك بالله العدل بأن تسوي بينهن في كل شيء من المحبة وغيرها وهذا مما لا يملكه أحد ولا يكلف به وإنما يؤمر بالعدل في الأفعال والأمور المادية.(تناولت عائشة) تعرضت لها بالقول.(فسبتها) نالتها بالكلام ضمن الحدود الشرعية.(إنها بنت أبي بكر) إنها شريفة عاقلة عارفة كأبيها]

[2795] - قلت:لا يشترط أن يكون حزب الله تعالى كتلة واحدة كأنه خلية نحل،فهذا لم يوجد في الأرض وإنما تجمعهم أهداف واحدة وهي التي جاءت بذكر صفات حزب الله تعالى

وَالكُتُبِ والرُّسُلِ.وَقَدْ أَوْصَاهُمْ تَعَالَى جَمِيعاً بِإِقَامَةِ دِينِ التَّوْحِيدِ والتَّمْسُّكِ بِهِ،وَبِحِفْظِهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِيهِ زَيغٌ أَوِ اضْطِرَابٌ،وَبِأَلاَّ يَتَفَرَّقُوا فِي أُصُولِ الشَّرِيعَةِ وَمَبَادِئِهَا.

(أَمَّا فِي التَّفَاصِيلِ فَقَدْ جَاءَ كُلُّ مُرْسَلٍ بِمَا يُنَاسِبُ قَوْمَهُ وَزَمَانَهُ (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) .

وَقَدْ شَقَّ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ،وَتَرْكِ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ،وَمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ،وَاللهُ يَصْطَفِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيُقَرِّبُهُمْ إِلَيهِ،وَيُوَفِّقُهُمْ لِلعَمَلِ بِطَاعَتِهِ،وَأتِّبَاعِ رُسُلِهِ.[2796]

وقال تعالى في بيان حزب الشيطان وحزب الله تعالى:{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) } [المجادلة:١٩ - ٢١]

استَوْلَى الشَّيْطَانُ عَلَى قُلُوبِهِمْ،وَسَيْطَرَ عَلَيهَا بِوَسْوَسَتِهِ،حَتَّى أَنْسَاهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ،وَأَنْ يَتَّبِعُوا أَوَامِرَهُ،وَأَنْ يَجْتَنِبُوا نَوَاهِيَهُ،بِمَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ الشَّهَوَاتِ،فَهَؤُلاَءِ هُمْ جُنُودُ الشَّيْطَانِ وَحِزْبُهُ وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمْ الخَاسِرُونَ لأَنَّهُمْ فَوَّتُوا عَلَى أَنْفُسِهِم النَّعِيمَ،وَأَوْصَلُوهَا إِلَى الجَحِيمِ وَعَذَابِهِ.إِنَّ الذينَ يُخَالِفُونَ أَوَامِرَ اللهِ،وَيُعَادُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَمْتَنِعُونَ عَنِ القِيَامِ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ،هُمْ فِي جُمْلَةِ أَهْلِ الذِّلَّةِ،لأَنَّ الغَلَبَةَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ،وَسَيُلاَقُونَ الذِّلَّةَ فِي الدُّنْيَا بِالقَتْلِ والأَسْرِ وَالإِخْرَاجِ،وَفِي الآخِرَةِ بِالخِزْيِ وَالنَّكَالِ وَالعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَقَدْ قَضَى اللهُ تَعَالَى،وَحَكَمَ فِي أُمِّ الكِتَابِ،بِأَنَّ النَّصْرَ والغَلَبَةَ سَتَكُونُ لَهُ تَعَالَى،وَلِرَسُولِهِ وَلِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ،فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ،وَقَضَاءُ اللهِ نَافِذٌ لاَ مَحَالَةَ،وَلاَ رَادَّ لَهُ،وَاللهُ قَوِيٌّ لاَ يُقْهَرُ،عَزِيزٌ لاَ يُغَالَبُ.

[2796] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

لاَّ تَجدُ قَوْماً يَجْمَعُونَ بَيْنَ الإِيْمَان بالله وَاليَوْمِ الآخرِ،وَبَينَ مُوَادَّة أَعْدَاءِ الله وَأَعْدَاء رَسُوله،لأَنَّ المُؤْمنينَ حَقّاً لاَ يُوَالُونَ الكَافِرينَ،وَلَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ الكَافِرُونَ هُمْ أَهْلَهُمْ،وَأَقْربَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ الذينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيهِمْ،وَالمُؤْمنُونَ الذينَ يَمْتَنعُونَ عَنْ مُوَادَّة الكَافِرينَ،وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَاءَهُمْ وَعَشيرَتَهُمْ،هُمُ الذينَ ثَبَّتَ اللهُ الإِيْمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ،وَزَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى،وَقَوَّاهُمْ بطُمَأْنينَة القَلْبِ،وَالثَّبَات عَلَى الحَقِّ {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ}،وَسَيُدْخلُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة فِي جَنَّات تَجْري منْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ،وَيَبْقَوْنَ فيهَا خَالدينَ أَبَداً،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ،وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَته،فَأَدْخَلَهُمُ الجَنَّات،وَرَضُوا بمَا آتَاهُم اللهُ عَنْهُمْ،وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَته،فَأَدْخَلَهُمُ الجَنَّات،وَرَضُوا بمَا آتَاهُمُ اللهُ منْ فَضْله،وَبِمَا عَوَّضَهُمْ به لاسْخَاطهم الأَقَارِبَ وَالأَبْنَاءَ.وَهَؤُلاَءِ هُم أَنْصَارُ الله،وَجُنْدُهُ،وَحزْبُهُ،وَأَهْلُ كَرَامَته،وَهُمْ أَهْلُ الفَلاَحِ وَالسَّعَادَة والنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالآخرَة.[2797]

وقال تعالى:{فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّه الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْه وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) } [الروم:٣٠ - ٣٢]

فَوَجِّهْ وَجْهَكَ إِلى الدِّينِ شَرَعَهُ اللهُ لَكَ،وَهُوَ الحَنِيفيّةُ ملَّةُ إبراهيمَ التي هَدَاكَ اللهُ إليها،وَفَطَرَكَ عَليها،كَمَا فَطَرَ الخَلْقَ عَلَيهَا،وهذه الفطرِ السَّليمة يَهْتَدي البَشَرُ إلى مَعرفَة رَبِّهِمْ وخَالقهمْ تَعَالى وَتَقَدَّسَ،وأَنَّهُ وَاحدٌ لا شَريكَ لهُ.

وَقَدْ سَاوَى اللهُ تَعَالى بينَ خَلْقه كُلِّهِمْ فِي الفطْرَة،لا تَفَاوُتَ بينَ النَّاسِ فِي ذَلكَ،وَلذَلكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مَعْنَى (لاَ تَبْديلَ لخَلْقِ الله) :إن ذَلكَ يَعني لاَ تبديلَ لدينِ الله.ثُمَّ قَالَ تَعالى:إنَّ التّمَسُّكَ بالشَّريعَة،وبالفطْرَة السَّلمَة،هُوَ الدِّينُ القَيِّمُ المُستَقيمُ،وَلكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْرِفُونَ ذَلكَ فَهُمْ عَنْهُ نَاكبُونَ فَلأَقِمْ وَجْهَكَ

فَأَقِمْ وَجْهَكَ أَيُّها الرَّسُولُ أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ للدِّينِ الصَّحيحِ،حُنَفَاءَ مُنيبينَ إلى الله تَعَالَى،وَخَافُوهُ،وحَاذرُوا أَن تُفَرِّطُوا فِي طَاعَته،وتَرْتَكبُوا مَعْصيَتَهُ،ودَاوِمُوا عَلى إقَامَة الصَّلاة في أَوقَاتها،وأَتمُّوهَا بخُشُوعها وسُجُودهَا وَرُكُوعهَا وَبحُضُورِ القَلْبِ،فَهِي عَمُودُ الدِّينِ،وهِيَ

[2797] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٠١،بترقيم الشاملة آليا)

تُذكِّرُ المُؤمنَ بربِّهِ في كُلِّ حِينٍ،وتَحُولُ بينَهُ وبَينَ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ،وأَخْلِصُوا العِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ،وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ،وَغَيَّرُوا فِيهِ،وآمَنُوا بِبَعضٍ،وكَفَرُوا بِبَعْضٍ،فَأَصْبَحُوا فِرَقاً وشِيَعاً،وَظَنَّ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ أنهُ عَلَى شَيءٍ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ،والهُدَى،فَفَرِحَ بِذَلِكَ كَانُوا شِيعاً - فِرَقاً.[2798]

وقال تعالى:{ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) } [المؤمنون:]

إنَّ دِينَكُم،يَا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ،دِينٌ وَاحِدٌ،وَمِلَّتَكُمْ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ،وَدِينَكُمْ هُوَ الدَّعْوَةُ إلى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ.ثُمَّ قَالَ لَهُم اللهُ تَعَالَى إِنَّهُ رَبُّهُمْ فَعَلَيْهِم أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ،وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ.

لَقَدْ مَضَى الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلاَمُ أُمَّةً وَاحِدَةً،أَصْحَابَ عِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ،فَإذَا بالنَّاسِ مِنْ بَعْدِهِمْ أحْزَابٌ وَفِرَقٌ وجَمَاعَاتٌ مُتَنَازِعَةٌ لاَ تَلْتَقِي عَلَى مَنْهجٍ وَلاَ طَرِيقٍ،وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُم يَحْسَبُ نَفْسَهُ مِنَ المُهْتَدِينَ فَيَفْرَحُ بِذَلِكَ،وَيُعْجَبُ بِهِ.(والمَعْنَى أَنَّهُمْ تَنَازَعُوا الأَمْرَ وَتَجَاذَبُوهُ حَتَّى مَزَّقُوهُ بَيْنَهُمْ مِزَقاً،وَقَطَّعُوهُ فِي أَيْدِيهِمْ قِطعاً،ثُمَّ مَضَى كُلُّ حِزْبٍ بِالمِزْقَةِ التِي خَرَجَتْ بِيَدِهِ فَرِحاً وَهُوَ لاَ يُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ آخَرَ)[2799]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ:إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِينَا فَقَالَ:«أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ،وَلَا يُسْتَحْلَفُ،وَحَتَّى يَشْهَدَ وَلَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ،وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ،فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ،لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ ثَلَاثَ مِرَارٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا شَيْطَانٌ،مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ،مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»[2800]

[2798] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٢١،بترقيم الشاملة آليا)

[2799] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٠٥،بترقيم الشاملة آليا)

[2800] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٢٨٦)(٩١٨١) صحيح

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَــى الــيَمَنِ قَالَ:«يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا،وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا،وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»أخرجه البخاري ومسلم[2801]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فَقَالَ:«الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ،وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»[2802]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أَلَا أُخْبِرُكُمْ،بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَــةِ الصِّــيَامِ،وَالْقِيَامِ؟»،قَالُوا:بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«إِصْــلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ،وَفَسَــادُ ذَاتِ الْبَــيْنِ هِــيَ الْحَالِقَــةُ»[2803]والحالقة أي التي تحلق وتستأصل الدين.

[2801] - صحيح البخاري (٤/ ٦٥)(٣٠٣٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٩)٧ - (١٧٣٣)

[ش (يسرا) خذا بما فيه من التيسير.(ولا تعسرا) من التعسير وهو التشديد.(بشرا) من التبشير وهو إدخال السرور.(ولا تنفرا) من التنفير أي لا تذكرا شيئا يهربون منه.(تطاوعا) تحابا وليطع كل منكما الآخر]

[2802] - السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٤٣٥)(٨٩٥) صحيح

[2803] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٤٨٩)(٥٠٩٢) صحيح

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ) أَيْ:بِعَمَلٍ أَفْضَلَ دَرَجَةً وَأَكْثَرَ مَثُوبَةً.(مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ) أَيْ:نَفْلًا بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ:(وَالصَّدَقَةِ):فَإِنَّهَا لِلْمَنْدُوبَةِ غَالِبًا (وَالصَّلَاةِ) .لَعَلَّ تَأْخِيرَهَا لِلتَّرَقِّي،وَظَاهِرُ الْوَاوِ أَنَّهُ لِلْجَمْعِ،فَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ فِعْلِ مَجْمُوعِهَا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى " أَوْ " فَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلٍّ مِنْهَا،وَالْأَوَّلُ أَبْلَغُ فِي مَقَامِ التَّرْغِيبِ كَمَا لَا يَخْفَى.قَالَ الْأَشْرَافُ:الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ النَّوَافِلُ دُونَ الْفَرَائِضِ.قُلْتُ:وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمُرَادِ إِذْ قَدْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ الْإِصْلَاحُ فِي فَسَادٍ يُتَفَرَّعُ عَلَيْهِ سَفْكُ الدِّمَاءِ،وَنَهْبُ الْأَمْوَالِ،وَهَتْكُ الْحُرَمِ أَفْضَلُ مِنْ فَرَائِضَ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ الْقَاصِرَةِ مَعَ إِمْكَانِ قَضَائِهَا عَلَى فَرْضِ تَرْكِهَا فَهِيَ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ أَهْوَنُ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ،فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ،فَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ هَذَا الْجِنْسُ مِنَ الْعَمَلِ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ،لِكَوْنِ بَعْضِ أَفْرَادِهِ أَفْضَلَ كَالْبَشَرِ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَكِ وَالرَّجُلِ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ.(قَالَ) أَيْ:أَبُو الدَّرْدَاءِ (قُلْنَا:بَلَى) أَيْ أَخْبِرْنَا وَفِي نُسْخَةٍ زِيَادَةُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ (قَالَ:إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ)،أَيْ:هُوَ هَذَا قِيلَ يُرِيدُ بِذَاتِ الْخَصْلَةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْقَوْمِ مِنْ قَرَابَةٍ وَمَوَدَّةٍ وَنَحْوِهِمَا.وَقِيلَ:الْمُرَادُ بِذَاتِ الْبَيْنِ الْمُخَاصَمَةُ وَالْمُهَاجَرَةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ بِحَيْثُ يَحْصُلُ بَيْنَهُمَا بَيْنٌ أَيْ:فُرْقَةٌ،وَالْبَيْنُ:مِنَ الْأَضْدَادِ الْوَصْلُ وَالْفَرْقُ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَيْ أَحْوَالِ بَيْنِكُمْ،يَعْنِي مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ أُلْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَاتِّفَاقٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١٥٤] وَهِيَ مُضْمَرَاتُهَا.وَلَمَّا كَانَتِ الْأَحْوَالُ مُلَابَسَةً لِلْبَيْنِ قِيلَ لَهَا:ذَاتُ الْبَيْنِ كَقَوْلِهِمْ:اسْقِنِي ذَا إِنَائِكَ يُرِيدُونَ مَا فِي الْإِنَاءِ مِنَ الشَّرَابِ،كَذَا فِي الْكَشَّافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال:١] اهـــ.

وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ السَّابِقُ فِي قُوَّةِ صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْخَصْلَةُ الصَّادِقَةُ قَالَ:(وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ) أَيِ:الْمَاحِيَةُ وَالْمُزِيلَةُ لِلْمَثُوبَاتِ وَالْخَيْرَاتِ،وَالْمَعْنَى يَمْنَعُهُ شُؤْمُ هَذَا الْفِعْلِ عَنْ تَحْصِيلِ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ،وَقِيلَ:الْمُهْلِكَةُ مِنْ حَلَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَيْ:قَتَلَ مَأْخُوذٌ مِنْ حَلْقِ الشَّعْرِ،وَفِي النِّهَايَةِ هِيَ الْخَصْلَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْلِقَ أَيْ:تَهْلِكَ،وَتَسْتَأْصِلَ الدِّينَ كَمَا يَسْتَأْصِلُ الْمُوسُ الشَّعْرَ،وَقِيلَ:هِيَ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ وَالتَّظَالُمُ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:فِيهِ حَثٌّ وَتَرْغِيبٌ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَاجْتِنَابٍ عَنِ الْإِفْسَادِ فِيهَا؛لِأَنَّ الْإِصْلَاحَ سَبَبٌ لِلِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ،وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ ثُلْمَةٌ فِي الدِّينِ،فَمَنْ تَعَاطَى

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ،يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ،إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ:النَّفْسُ بِالنَّفْسِ،وَالثَّيِّبُ الزَّانِي،وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ " متفق عليه[2804]

وتأمل هذا الحديث حيث قرن ترك الدين بمفارقة جماعة المسلمين والخروج من جملتهم،وهـذا ما يشاهده المسلمون اليوم من أفعال المرتدين الذين فارقوا جماعة المسلمين وانحازوا إلى صليبيين يظاهروهم على المسلمين ويعاونوهم في حرهم العسكرية والإعلامية التي تستهدف محاربة الإسلام،واتخاذ المسلمين عبيدا لطاغوقم المسمى بالديمقراطية،واستباحة دماء المسلمين وبلادهم ونفطهم وخيراقم.

السابع:حسم الفتن والتصدي للأخطار في أولها:

يجب على الحكومة الإسلامية القضاء على الفتنة في بدايتها،والتصدي للساعين في نشرها والمتسببين فيها،فكل خطر يتهدد الدولة الإسلامية يجب القضاء عليه واستئصاله بمجرد الشعور به قبل أن يكبر ويعظم شره،فعَنِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،إِلَى خَالِدِ بْنِ سُفْيَانَ الْهُذَلِيِّ،وَكَانَ نَحْوَ عُرَنَةَ وَعَرَفَاتٍ،فَقَالَ:«اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ»،قَالَ:فَرَأَيْتُهُ وَحَضَرَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ،فَقُلْتُ:إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا إِنْ أُؤَخِّرِ الصَّلَاةَ،فَانْطَلَقْتُ أَمْشِي وَأَنَا أُصَلِّي أُومِئُ إِيمَاءً،نَحْوَهُ،فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ،قَالَ لِي:مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ:رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَجْمَعُ لِهَذَا الرَّجُلِ،فَجِئْتُكَ فِي ذَاكَ،قَالَ:إِنِّي لَفِي ذَاكَ،فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً حَتَّى إِذَا أَمْكَنَنِي عَلَوْتُهُ بِسَيْفِي حَتَّى بَرَدَ" رواه أبو داود[2805]

إِصْلَاحَهَا وَرَفَعَ فَسَادَهَا نَالَ دَرَجَةً فَوْقَ مَا يَنَالُهُ الصَّائِمُ الْقَائِمُ الْمُشْتَغِلُ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِهِ،فَعَلَى هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ عَلَى الْإِطْلَاقِ،وَالْحَالِقَةُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَمْرُ الدِّينِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٥٣)

[2804] - صحيح البخاري (٩/ ٥)(٦٨٧٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٠٢)٢٥ - (١٦٧٦)

[ش(لا يحل دم امرئ) لا يباح قتله(النفس بالنفس) تزهق نفس القاتل عمدا بغير حق بمقابلة النفس التي أزهقها(الثيب الزاني) الثيب من سبق له زواج ذكرا أم أنثى فيباح دمه إذا زنى(المفارق) التارك المبتعد وهو المرتد.وفي رواية (والمارق من الدين) وهو الخارج منه خروجا سريعا(التارك للجماعة) المفارق لجماعة المسلمين]

[2805] - سنن أبي داود (٢/ ١٨)(١٢٤٩) حسن

فهذا المشرك الذي كان يسعى إلى جمع الجموع من المشركين على محاربة النبي ﷺ،قـــد أمـــر النبي ﷺ بقتله قبل أن يحقق ما يريد من جمع المشركين ومحاربة المسلمين،وهكذا يجب التعامـــل مع من يسعى إلى تأليب الناس،ويحرضهم على محاربة الدولة الإسلامية قبل أن تعظـــم فتنتـــه ويستشري خطرها.



المبحث الثامن والعشرون

سياسات احترازية

الاحتراز من انحراف الولاة:

إذا كانت العقوبات الشرعية لا يجوز إنزالها بأحد من الناس إلا ببينة،فإن الاحتراز من الأخطاء المتوقعة والخيانات المحتملة يكتفى فيه بالقرائن والاعتبار بالخيانات المتكررة في القرون والأعوام الماضية،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ» متفق عليه[2806]

فالمؤمن يتعلم من التجارب الماضية ويأخذ الدروس والعبر منها،فإذا لدغ من جحر واحد مرة احترز منه،حتى لا يلدغ منه مرة أخرى.

[2806] - صحيح البخاري (٨/ ٣١)(٦١٣٣) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥)٦٣ - (٢٩٩٨)

[ش(لا يلدغ..) اللدغ هو العض والإصابة من ذوات السموم كالعقرب والحية والجحر الثقب والمعنى أن المؤمن ينبغي أن يكون حذرا بحيث لا يخدع من جهة واحدة مرتين]

لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ):بِرَفْعِ الْغَيْنِ عَلَى النَّفْيِ،وَيُرْوَى بِكَسْرِ الْغَيْنِ عَلَى النَّهْيِ،وَالْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ فِي عَقْلِهِ (مِنْ جُحْرٍ):بِضَمِّ جِيمٍ وَسُكُونِ حَاءٍ أَيْ ثُقْبٍ وَخَرْقٍ (وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ) أَيْ:كَرَّتَيْنِ أَوْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.قَالَ الْخَطَّابِيُّ:هَذَا يُرْوَى عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهَا:عَلَى الْخَبَرِ،وَهُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمَمْدُوحَ هُوَ الْمُتَيَقِّظُ الْحَازِمُ الَّذِي لَا يُؤْتَى مِنْ نَاحِيَةِ الْغَفْلَةِ،فَيُخْدَعُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَلَا يُفْطَنُ هُوَ بِهِ،وَقَدْ قِيلَ:إِنَّهُ الْخِدَاعُ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ دُونَ أَمْرِ الدُّنْيَا.وَثَانِيهُمَا:عَلَى النَّهْيِ أَيْ:لَا يُخْدَعَنَّ الْمُؤْمِنُ وَلَا يُؤْتَيَنَّ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَفْلَةِ،فَيَقَعُ فِي مَكْرُوهٍ،وَهَذَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.فَقَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:وَأَرَى أَنَّ الْحَدِيثَ لَمْ يَبْلُغِ الْخَطَّابِيَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ،وَهُوَ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَهْلِ السِّيَرِ،وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ- مَرَّ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ مَكَّةَ،وَهُوَ أَبُو غُرَّةَ الشَّاعِرُ الْجُمَحِيُّ،وَشَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَحْرِصَ عَلَيْهِ،فَلَمَّا بَلَغَ مَا مِنْهُ عَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فَأُسِرَ تَارَةً أُخْرَى،فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ فَكَلَّمَهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي الْمَنِّ عَلَيْهِ فَقَالَ:" لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ " الْحَدِيثَ.وَرَوَى النَّوَوِيُّ عَنِ الْقَاضِي عِيَاضٍ هَذِهِ الْقِصَّةَ وَقَالَ:سَبَبُ هَذَا الْحَدِيثِ مَعْرُوفٌ،وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ- أَسَرَ أَبَا غُرَّةَ الشَّاعِرَ يَوْمَ بَدْرٍ،فَمَنَّ عَلَيْهِ وَعَاهَدَهُ أَنْ لَا يُحَرِّضَ عَلَيْهِ وَلَا يَهْجُوَهُ،فَأَطْلَقَهُ فَلَحِقَ بِقَوْمِهِ،ثُمَّ رَجَعَ إِلَى التَّحْرِيضِ وَالْهِجَاءِ،ثُمَّ أُسِرَ يَوْمَ أُحُدٍ فَسَأَلَهُ الْمَنَّ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ " الْحَدِيثَ.وَهَذَا السَّبَبُ يُضَعِّفُ الْوَجْهَ الثَّانِي ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ،وَلَمْ يَظْهَرْ لِي وَجْهُ ضَعْفِهِ عَلَى أَنَّهُ قَدْ يُقَالُ الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ،وَإِلَّا لَكَانَ الْمُؤْمِنُ مُخْتَصًّا بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ،لِكَوْنِهِ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ،وَقَدْ أَطْنَبَ الطِّيبِيُّ فِي نُصْرَةِ الْخَطَّابِيِّ إِلَى أَنْ قَالَ:فَظَهَرَ أَنَّ الْقَوْلَ بِالنَّهْيِ أَوْلَى وَالْمَقَامَ لَهُ أَدْعَى اهـ.وَبُعْدُهُ لَا يَخْفَى (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٦٢)

ومن أعظم ما يجب الاحتراز منه انحراف الولاة عن الصراط المستقيم الذي يعد أحد أخطر الأسباب المؤدية إلى هدم الإسلام وزوال دولته،فعَنْ شَدَّاد بْنِ أَوْسٍ،قَالَ:قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ:«إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ،وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2807]

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»،قَالَ:وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ »[2808]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ هُبَيْرَةَ،أَخْبَرَنِي أَبُو تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيُّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَبُو ذَرٍّ،قَالَ:كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ:"لَغَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَى أُمَّتِي " قَالَهَا ثَلَاثًا.قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،مَا هَذَا الَّذِي غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ:"أَئِمَّةً مُضِلِّينَ " واه أحمد[2809]

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ» - أَوْ قَالَ:- " إِنَّ رَبِّي زَوَى لِي الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ،وَلَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ لِي:يَا مُحَمَّدُ،إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً،فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَلَا أُهْلِكُهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ،وَلَا أُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ بِأَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَحَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَسْبِي بَعْضًا،وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ،وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ،وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ،وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ،كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ،وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي،وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ - قَالَ ابْنُ عِيسَى:«ظَاهِرِينَ» ثُمَّ اتَّفَقَا - لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ "[2810]

[2807] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٣١)(٤٥٧٠) صحيح

[2808] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٠٤)(٢٢٢٩) صحيح

[2809] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٢٢٢)(٢١٢٩٦) حسن

[2810] - سنن أبي داود (٤/ ٩٨)(٤٢٥٢) صحيح

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا "[2811]

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ،قَالَ:قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ:«إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ،وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2812]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً،فَكُلَّمَا انْتُقِضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا،فَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا:الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ»[2813]

وقال أَبُو الْمُخَارِقِ زُهَيْرُ بْنُ سَالِمٍ،أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ سَعْدٍ الأَنْصَارِيَّ،كَانَ وَلاَّهُ عُمَرُ حِمْصَ،فَذَكَرَ الْحَدِيثَ،قَالَ عُمَرُ،يَعْنِي لِكَعْبٍ :إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرٍ فَلا تَكْتُمْنِي،قَالَ :وَاللَّهِ لاَ أَكْتُمُكَ شَيْئًا أَعْلَمُهُ،قَالَ :مَا أَخْوَفُ شَيْءٍ تَخَوَّفُهُ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ قَالَ :أَئِمَّةً مُضِلِّينَ،قَالَ عُمَرُ :صَدَقْتَ،قَدْ أَسَرَّ ذَلِكَ إِلَيَّ وَأَعْلَمَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ." رواه أحمد[2814]

وعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،قَالَ:قَالَ لِي عُمَرُ:«هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟» قَالَ:قُلْتُ:لَا،قَالَ:«يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ،وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ»[2815]

[2811] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)١٩ - (٢٨٨٩)

[ش (زوى) معناه جمع (الكنزين الأحمر والأبيض) المراد بالكنزين الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (فيستبيح بيضتهم) أي جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام]

[2812] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٣١)(٤٥٧٠) صحيح

[2813] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ١١١)(٦٧١٥) صحيح

[2814] - مسند أحمد (عالم الكتب) (١/ ١٦٥)(٢٩٣) فيه انقطاع

[2815] - سنن الدارمي (١/ ٢٩٥)(٢٢٠) صحيح

لقد استبد الكثير من الحكام بالحكم في القديم والحاضر،بعد أن تحققوا من ولاء الجيش وسائر القوات العسكرية لهم،وثبتوا أعوانهم وأنصارهم في الولايات والوزارات والقضاء والقيادة العسكرية،ولم يعد في البلاد سلطة قضائية تحكم عليهم أو تحاسبهم على أعمالهم،فأظهروا الجور والظلم،وجاهروا بالمعاصي والفسق،وانغمسوا في شهوات الدنيا وترفها،ومنهم من كفر بالله واستبدل شريعة الإسلام بالقوانين الوضعية.

وما كان لهؤلاء الحكام أن يخرجوا عن شيء من شريعة الإسلام أو كلها إذا كان ولاء الأمراء والوزراء والقضاة والقادة والجيش لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين،كما قال تعالى:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } [المائدة:٥٥،٥٦]

وغايتهم إقامة حكم الله تعالى في الأرض والدفاع عن دولة الإسلام،وتنفيذ أحكام الله تعالى على القوي والضعيف والإمام والرعية.

ولكي لا يلدغ أهل الإسلام من هذا الجحر مرة أخرى،فلا بد من اتخاذ سياسات احترازية،وسد الطرق والذرائع التي تؤدي إلى استبداد الحاكم بالحكم،وانحراف الحكومة عن الحق ووقوعها في الظلم والفسق وفي بعض الأحيان الكفر،فعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:«إِنَّهُ سَيَكُونُ أُمَرَاءُ يَدعُونَ مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَ هَذِهِ،فَإِنْ تَرَكْتُمُوهَا جَعَلُوهَا مِثْلَ هَذِهِ،فَإِنْ تَرَكْتُمُوهَا جَاءُوا بِالطَّامَّةِ الْكُبْرَى» أخرجه الطبراني في الكبير[2816].

(وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ):بِضَمِّ الْحَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِ الْمُهْمَلَتَيْنِ بَعْدَهَا تَحْتِيَّةٌ سَاكِنَةٌ بَعْدَهَا رَاءٌ كَذَا فِي الْأَسْمَاءِ لِلْمُصَنِّفِ.قَالَ فِي جَامِعِ الْأُصُولِ:تَابِعِيٌّ سَمِعَ عُمَرَ وَعَلِيًّا (قَالَ):قَالَ لِي عُمَرُ:هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ أَيْ:يُزِيلُ عِزَّتَهُ،وَالْهَدْمُ فِي الْأَصْلِ إِسْقَاطُ الْبِنَاءِ:(قُلْتُ:لَا!) .أَيْ:لَا أَعْرِفُ (قَالَ:يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ):أَيْ عَثْرَتُهُ بِتَقْصِيرٍ مِنْهُ (وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ):الَّذِي يُظْهِرُ السُّنَّةَ وَيُبْطِنُ الْبِدْعَةَ (بِالْكِتَابِ):وَإِنَّمَا خُصَّ لِأَنَّ الْجِدَالَ بِهِ أَقْبَحُ،إِذْ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ (وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ):بِالْهَمْزَةِ وَالْيَاءِ (الْمُضِلِّينَ):قَالَ الطِّيبِيُّ:الْمُرَادُ بِهَدْمِ الْإِسْلَامِ تَعْطِيلُ أَرْكَانِهِ الْخَمْسَةِ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» " الْحَدِيثَ.وَتَعْطِيلُهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ زَلَّةِ الْعَالِمِ وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى،وَمِنْ جِدَالِ الْمُبْتَدِعَةِ،وَغُلُوِّهِمْ فِي إِقَامَةِ الْبِدَعِ بِالتَّمَسُّكِ بِتَأْوِيلَاتِهِمُ الزَّائِفَةِ وَمِنْ ظُهُورِ ظُلْمِ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ وَحُكْمِ الْمُزَوِّرِينَ،وَإِنَّمَا قُدِّمَتْ زَلَّةُ الْعَالِمِ لِأَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ فِي الْخَصْلَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ،كَمَا جَاءَ:زَلَّةُ الْعَالِمِ زَلَّةُ الْعَالَمِ (رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣٣٤)

[2816] – المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٩٨)(٩٤٩٧) صحيح

فمن السياسات الاحترازية لحماية شريعة الإسلام وضمان عدم خروج أحد من الولاة عنها:أن يكون ولاء الأمراء والقادة والجيش وسائر الجند لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين،وعملهم إقامة شريعة الله تعالى،وتنفيذ حكم الله في الإمام والرعية،وهذا يستدعي نظر أهل الشورى والقضاة فيمن يعينهم الإمام من الأمراء والوزراء وقادة القوات العسكرية،فإذا تبين أن الإمام قد عين أميرا أو قائدا عسكريا ليس أهلا للإمرة والقيادة،وإنما عينه لولائه له وقد وجد من هو أولى منه،ففي هذه الحالة لا يقرُّ الإمام على جوره في تعيين غير المستحق،ويفصل النزاع في أولى الناس بالتعيين أمام القضاء الشرعي.

ومن السياسات الاحترازية:ضمان استقلال القضاء عن الولاء الخاص للحاكم أو لغيره،بل الواجب أن يقضي القاضي على الإمام وسائر الرعية دون محاباة لأحد منهم.

ومن السياسات الاحترازية:ألا يكون تعيين أهل الشورى بحسب الولاء والتبعية للإمام أو غيره من الأمراء،بل لا يعين في أهل الشورى إلا من توفرت فيه الشروط الشرعية التي تقدمت في باب الشورى،"وأن يكون ذلك عن طريق الانتخاب المباشر،وليس عن طريق التعيين،فالتعيين لا قيمة له أصلاً،ولن يعين الحاكم إلا من يواليه،كما أنه لا يجوز للحاكم حل مجلس الشورى المنتخب أبدا "،

وأن يتولى أهل الشورى مراقبة أعمال الحكومة،ومحاسبة الإمام والأمراء وتقويمهم بعدل وصرامة،والمطالبة بعزل من يستحق العزل،وفصل النزاع مع الإمام أو الأمراء أمام القضاء الشرعي،لعموم قول الله تعالى:{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩].

ومن السياسات الاحترازية:ألا يستبد الإمام بالأمر وينفرد بسياسة الدولة،فإن الاستبداد من سياسات الملوك والحكام الجائرة،بل الواجب أن تكون الشورى من قواعد وأسس الحكومة الإسلامية.

ومن السياسات الاحترازية:نشر الوعي السياسي الشرعي بين المسلمين،وتربيتهم على قول الحق ومناصحة الولاة والشجاعة،وإنكار الفساد والجور والاستبداد،ومنع الولاة من الظلم،وقد وصف عمرو بن العاص رضي الله عنه هذه الخصلة بالحسن والجمال،قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ

الْقُرَشِيُّ،عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو:أَبْصِرْ مَا تَقُولُ،قَالَ:أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ،إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا:إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ،وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ،وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ،وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ:وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ" وفي رواية سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» قَالَ:فَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فَقَالَ:مَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تُذْكَرُ عَنْكَ أَنَّكَ تَقُولُهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوْرِدُ:قُلْتُ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:فَقَالَ عَمْرٌو:لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ،إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ،وَأَجْبَرُ النَّاسِ عِنْدَ مُصِيبَةٍ،وَخَيْرُ النَّاسِ لِمَسَاكِينِهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ"[٢٨١٧]

"قلت :وأهم هذهالاحترازات إنشاء الأحزاب الإسلامية والتي توقف الحاكم عند حده وتمنعه من الاستبداد،وهي أقوى الاحترازات على الاطلاق فيما نرى "

ولا يعني قيامنا بهذه السياسات الاحترازية وترسيخها في نظام الدولة الإسلامية أننا قد سلبنا الحاكم حقا من حقوقه،بل إن هذه السياسات الاحترازية ومقاصدها قد جاءت بها الشريعة الإسلامية،وجعلتها أساسا في الحكم،فقد جاءت الشريعة بالولاء لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمين،وجاءت بوجوب إقامة شرع الله على الحاكم والرعية،وجاءت بالشورى ومنع الاستبداد،وجاءت بمساواة الناس أمام القضاء،وأن القاضي يجب أن يحكم بما أنزل الله وألا يحابي أحدا من الناس،وجاءت بمحاسبة الإمام والولاة والإنكار عليهم ومنعهم من الظلم والجور،وجاءت بعزل الحاكم إذا طرأ عليه الكفر البواح والخروج عليه مع القدرة،وجاءت الشريعة بوجوب تعيين الأمراء والقادة والقضاة وأهل الشورى وغيرهم من المسؤولين أو الموظفين في الحكومة بالأهلية فيقدم في كل عمل الأفضل والأقدر على تأديته،وجاءت بحرمة التعيين لهوى أو لعصبية أو لقرابة أو لحزبية،وجعلت هذا التعيين خيانة للأمانة،وقد قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ

[٢٨١٧] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢٢)٣٥ - (٢٨٩٨)

[ش (وأجبر الناس عند مصيبة) هكذا في معظم الأصول وأجبر بالجيم وكذا نقله القاضي عن رواية الجمهور وفي رواية بعضهم وأصبر بالصاد قال القاضي والأول أولى لمطابقة الرواية الأخرى وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة وهذا بمعنى أجبر وفي بعض النسخ أخبر بالخاء المعجمة ولعل معناه أخبرهم بعلاجها والخروج منها]

اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]،ومـــن الأمانـــات الوظـــائف والأعمال التي يجب أن تسند إلى أهلها.

الحذر والاحتراز من الأعداء:

لقد بين الله تعالى في كتابه سبيل المجرمين،للتحذير من سبيلهم الجائرة،وتجنب الوقوع في شرها وأمر بأخذ الحذر من مكائدهم ومكرهم فقال تعالى:{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:٥٥]

هو بيان لما تحمله دعوة الإسلام من آيات بينات،وبيان مبين،بحيث ينفضح على أضوائها أولئك الذين يسلكون طريقا غير طريقها،إذ يرى كل عاقل أنهـــم يمشـــون فى ظلام،ويعيشـــون فى ضلال.[٢٨١٨]

فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت،أمكن اجتنابها،والبعد منها،بخلافما لو كانت مشتبهة ملتبسة،فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.[٢٨١٩]

.بمثل هذا المنهج،وبمثل هذه الطريقة،وبمثل هذا البيان والتفصيل ..نفصل الآيات،التي لا تدع في هذا الحق ريبة ولا تدع في هذا الأمر غموضا ولا تبقى معها حاجة لطلب الخـــوارق فـــالحق واضح،والأمر بين،بمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك النموذج ..

على أن كل ما سبق في السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ومن بيان للحقائق وتقرير للوقائع،يعتبر داخلا في مدلول قوله تعالى:«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ» ..

أما ختام هذه الآية القصيرة:«وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ..

فهو شأن عجيب! ..إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة! إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب.إنما يعـــنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضـــا ..إن اســـتبانة ســـبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين.وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريـــق! إن

[٢٨١٨] - التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٩٧)

[٢٨١٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٥٨)

هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله – سبحانه – ليتعامل مع النفوس البشرية ..ذلـك أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطـل والشر والتأكد من أن هذا باطل ممحض وشر خالص وأن ذلك حق ممحض وخـير خـالص ..كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحـق ولكـن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل ..

وأنه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جعل لكـل نـبي عـدوا منـهم «وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» ..ليستقر في نفس النبي ونفوس المـؤمنين،أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون عن ثقة،وفي وضوح،وعن يقين.

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح.واسـتبانة سـبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات.ذلك أن أي غبش أو شـبهة في موقـف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المـؤمنين وفي سـبيلهم.فهمـا صـفحتان متقابلتان،وطريقان مفترقتان ..ولا بد من وضوح الألوان والخطوط ..

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين.يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ووضع العنوان المميز للمؤمنين.والعنوان المميز للمجرمين،في عالم الواقع لا في عالم النظريات.فيعرف أصحاب الدعوة الإسـلامية والحركـة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون.بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنـهجهم وعلامتهم،وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم.بحيث لا يختلط السـبيلان ولا يتشـابه العنوانان،ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين ..وهذا التحديد كان قائما،وهذا الوضوح كان كاملا،يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربيـة.فكانـت سـبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول – ﷺ – ومن معه.وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين ..ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يـتترل وكان الله – سبحانه – يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السـورة – ومنها ذلك النموذج الأخير – لتستبين سبيل المجرمين! وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنيـة والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعـد مـا بدّلتـها

وأفسدها التحريفات البشرية ..حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة،وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك ..لا يجدي معها التلبيس!
ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا ..إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين،في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام،يسيطر عليها دين الله،وتحكم بشريعته ..ثم إذا هذه الأرض،وإذا هذه الأقوام،تهجر الإسلام حقيقة،وتعلنه اسما.
وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا.وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ..وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه.وأن الله – وحده – هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله.وأن الله – وحده – هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ..وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد.كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه.وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فهي أرض لم تدن بدين الله،ولم تدخل في الإسلام بعد ..
وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين.وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام ..ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول ..
وهذا أشقى ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام!
أشقى ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله،ومدلول الإسلام في جانب وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر ..
أشقى ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين،وطريق المشركين المجرمين واختلاط الشارات والعناوين والتباس الأسماء والصفات والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق! ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة.فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا.حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! ..تهمة تكفير «المسلمين»!!!

ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف النـــاس واصـــطلاحهم،لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله! هذه هي المشقة الكبرى ..وهذه كذلك هي العقبـــة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل! يجـــب أن تبـــدأ الـــدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ..ويجب ألا تأخذ أصحاب الـــدعوة إلى الله في كلمـــة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة.وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومـــة لائم،ولا صيحة صائح:انظروا! إنهم يكفرون المسلمين! إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن والكفر بيّن ..الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو،فحكم الله ورســـوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين ..المجرمين ..

«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ،وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ..أجل يجب أن يجتاز أصحاب الـــدعوة إلى الله هذه العقبة وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة،ولا يعوّقها غبش،ولا يميعها لبس.فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقـــين أنهم هم «المسلمون» وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن ســـبيل الله هم «المجرمون» ..كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنهـــا قضـــية كفـــر وإيمان.وأنهم وقومهم على مفرق الطريق،وأنهم على ملة وقومهم على ملـــة.وأنهـــم في ديـــن وقومهم في دين:«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ....وصدق الله العظـــيم [٢٨٢٠] ..

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا } [النساء:٧١] يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الحَذَرِ مِنَ الأَعْدَاءِ،وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّعَرُّفَ عَلَـــى أَحْـــوَالِ هَـــؤُلاءِ الأَعْدَاءِ،وَمَعْرِفَةِ أَرْضِهِمْ،وَعَدَدِهِمْ،وَسِـــلاَحِهِمْ،وَأَحْلاَفِهِمْ،وَثَرْوَتِهِمْ،كَمَا يَسْـــتَلْزِمُ التَّأَهُّـــبَ لَهُمْ،وَإِعْدَادَ الرِّجَالِ لِلْحَرْبِ وَتَدْرِيبَهُمْ وَتَسْلِيحَهُمُ،وَجَمْعَ السِّلاَحِ وَالمُـــؤَنِ وَوَسَـــائِلِ النَّقْـــلِ وَالرُّكُوبِ،وَالاسْتِعْدَادَ لِلنَّفِيرِ لِلْقِتَالِ،حِينَمَا يَدْعُو دَاعِيَ الجِهَادِ،وَالخُرُوجَ جَمَاعَـــاتٍ مُتَلاَحِقَـــةً

[٢٨٢٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٥٣٦)

(ثُبَات)،أَوْ خُرُوجَ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ جَمِيعاً،حَسْبَ حَالِ العَدُوِّ،وَخَطَرِهِ وَقُوَّتِهِ،وَالخَطَرِ الذي يَتَهَدَّدُ الأمَّةَ.[2821]

وعن حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قَالَ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» رواه البخاري ومسلم[2822].

(قَالَ:كَانَ النَّاسُ) أَيْ:أَكْثَرُهُمْ (يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْخَيْرِ)،أَيْ:عَنِ الطَّاعَةِ لِيَمْتَثِلُوهَا،أَوْ عَنِ السَّعَةِ وَالرَّخَاءِ ؛ لِيَفْرَحُوا بِهِ وَيَسْتَعِينُوا بِالدُّنْيَا عَلَى الْأُخْرَى (وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ) أَيْ:عَنِ الْمَعْصِيَةِ أَوِ الْفِتْنَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى التَّوْسِعَةِ (مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)،أَيْ:خَشْيَةَ أَنْ يَلْحَقَنِي الشَّرُّ نَفْسُهُ أَوْ بِسَبَبِهِ،وَهَذَا الطَّرِيقُ هُوَ مُخْتَارُ الْحُكَمَاءِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْفُضَلَاءِ أَنَّ رِعَايَةَ الاحْتِمَاءِ أَوْلَى فِي دَفْعِ الدَّاءِ مِنِ اسْتِعْمَالِ الدَّوَاءِ،وَأَنَّ التَّخْلِيَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى التَّحْلِيَةِ،وَفِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ حَيْثُ نَفَى السِّوَى ثُمَّ أَثْبَتَ الْمَوْلَى،بَلْ مَدَارُ جُلِّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى النُّعُوتِ التَّنْزِيهِيَّةِ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}

[2821] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

[2822] - صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ - (١٨٤٧)

[ش(أسأله عن الشر) أستوضحه عنه.(مخافة أن يدركني) خوفا من أن أقع فيه أو أدرك زمنه.(دخن) من الدخان أي ليس خيرا خالصا بل فيه ما يشوبه ويكدره وقيل الدخن الأمور المكروهة.(تعرف منهم وتنكر) أي ترى منهم أشياء موافقة للشرع وأشياء مخالفة له.(جلدتنا) من أنفسنا وقومنا وقيل هم في الظاهر مثلنا ومعنا وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم وشؤونهم وجلدة الشيء ظاهره.(جماعة المسلمين) عامتهم التي تلتزم بالكتاب والسنة.(إمامهم) أميرهم العادل الذي اختاروه ونصبوه عليهم.(تعض بأصل شجرة) أي حتى ولو كان الاعتزال بالعض على أصل شجرة والعض هو الأخذ بالأسنان والشد عليها والمراد المبالغة في الاعتزال]

[الشورى:١١] دُونَ الصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ لِظُهُورِ وُجُودِهَا فِي خَالِقِ الْأَشْيَاءِ بِالضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:الْمُرَادُ بِالشَّرِّ الْفِتْنَةُ،وَوَهَنُ عُرَى الْإِسْلَامِ،وَاسْتِيلَاءُ الضَّلَالَةِ،وَفُشُوُّ الْبِدْعَةِ،وَالْخَيْرُ عَكْسُهُ،يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا نَقَلَهُ الرَّاوِي عَنْهُ.

(قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ) أَيْ أَيَّامٍ غَلَبَ فِيهَا الْجَهْلُ بِالتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَمَا يَتْبَعُهُمَا مِنْ سَائِرِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ،فَقَوْلُهُ:(وَشَرٍّ) عَطْفٌ تَفْسِيرِيٌّ،أَوِ الْمَعْنِيُّ بِهِ الْكُفْرُ،فَهُوَ تَخْصِيصٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ،(فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ)،أَيِ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ،وَهُوَ الْإِسْلَامُ بِبَرَكَةِ بِعْثَتِكَ،وَمَفْهُومُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ بِالشَّرِّ عَنَّا بِهَدْمِ قَوَاعِدِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ؛ وَلَعَلَّهُ حَذَفَ وَجَعَلَهُ مِنْ بَابِ الِاكْتِفَاءِ،لَا سِيَّمَا وَهُمَا ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ،(فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ) أَيِ:الثَّابِتُ (مِنْ شَرٍّ؟) أَيْ مِنْ حُدُوثِ بَعْضِ شَرٍّ (قَالَ:" نَعَمْ ".قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:" نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ ") بِفَتْحَتَيْنِ،أَيْ:كُدُورَةٌ إِلَى سَوَادٍ،وَالْمُرَادُ أَنْ لَا يَكُونَ خَيْرًا صَفْوًا بَحْتًا،بَلْ يَكُونُ مَشُوبًا بِكُدُورَةٍ وَظُلْمَةٍ،(قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:" قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ ") بِتَشْدِيدِ النُّونِ الْأُولَى أَيْ:يَعْتَقِدُونَ (" بِغَيْرِ سُنَّتِي،وَيَهْدُونَ ") أَيْ:يَدُلُّونَ النَّاسَ (بِغَيْرِ هَدْيِي) أَيْ:بِغَيْرِ طَرِيقَتِي،وَيَتَّخِذُونَ سِيرَةً غَيْرَ سِيرَتِي (" تَعْرِفُ مِنْهُ وَتُنْكِرُ ") قَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ:تَرَى فِيهِمْ مَا تَعْرِفُهُ أَنَّهُ مِنْ دِينِي،وَتَرَى أَيْضًا مَا تُنْكِرُ أَنَّهُ دِينِي،قَالَ الْأَشْرَفُ:يُعْرَفُ مِنْهُمُ الْمُنْكَرُ بِأَنْ يَصْدُرَ الْمُنْكَرُ عَنْهُمْ،وَتُنْكِرُ هُوَ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ،أَيْ:أَنْكِرْ عَلَيْهِمْ صُدُورَ الْمُنْكَرِ عَنْهُمْ.

قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:الْوَجْهُ الْأَوَّلُ رَاجِعٌ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِ:" نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ " أَيْ:تَعْرِفُ فِيهِمُ الْخَيْرَ فَتَقْبَلُ وَالشَّرَّ فَتُنْكِرُ،فَهُوَ مِنَ الْمُقَابَلَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ،وَالْوَجْهُ الثَّانِي رَاجِعٌ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِ:" يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي " فَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْطُوفُ وَالْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ كِلَاهُمَا فِي مَعْنَى الْأَمْرِ،أَيِ:اعْرِفْ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَأَنْكِرْ،وَالْخِطَابُ فِي - تَعْرِفُ وَتُنْكِرُ - مِنَ الْخِطَابِ الْعَامِّ.أَقُولُ:وَفِيهِ نَظَرٌ لَا يَخْفَى ؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ لَهُ قَابِلِيَّةُ مَعْرِفَةِ الْمَعْرُوفِ وَإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ،فَالْخِطَابُ خَاصٌّ لِحُذَيْفَةَ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّيَانَةِ.قِيلَ:الْمُرَادُ بِالشَّرِّ الْأَوَّلِ الْفِتَنُ الَّتِي وَقَعَتْ عِنْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - وَمَا بَعْدَهُ،وَبِالْخَيْرِ الثَّانِي مَا وَقَعَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَبِالَّذِينَ تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ الْأُمَرَاءُ بَعْدَهُ،فَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَتَمَسَّكُ بِالسُّنَّةِ وَالْعَدْلِ،وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو إِلَى الْبِدْعَةِ وَيَعْمَلُ بِالْجَوْرِ،أَوْ وَمِنْهُمْ مَنْ

يَعْمَلُ بِالْمَعْرُوفِ تَارَةً وَيَعْمَلُ بِالْمُنْكَرِ أُخْرَى،بِحَسَبِ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ تَتَبُّعِ الْهَوَى،وَتَحْصِيلِ غَرَضِهِمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا،لَا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَحَرِّي الْأَحْرَى وَرِعَايَةَ الدَّارِ الْأُخْرَى،كَمَا عَلَيْهِ بَعْضُ أُمَرَاءِ زَمَانِنَا.وَقِيلَ:الْمُرَادُ مِنَ الشَّرِّ الْأَوَّلِ فِتْنَةُ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَمَا بَعْدَهُ،وَبِالْخَيْرِ الثَّانِي مَا وَقَعَ مِنْ صُلْحِ الْحَسَنِ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَالْإِجْمَاعِ عَلَيْهِ،وَبِالدَّخَنِ مَا كَانَ فِي زَمَنِهِ مِنْ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ كَزِيَادٍ بِالْعِرَاقِ،وَخِلَافُ مَنْ خَالَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوَارِجِ.(قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:" نَعَمْ،دُعَاةٌ ") :جَمْعُ دَاعٍ (عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ) قَالَ الْأَشْرَفُ:أَيْ جَمَاعَةٌ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الضَّلَالَةِ وَيَصُدُّوهُمْ عَنِ الْهُدَى بِأَنْوَاعٍ مِنَ التَّلْبِيسِ،وَمِنَ الْخَيْرِ إِلَى الشَّرِّ،وَمِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ،وَمِنَ الزُّهْدِ إِلَى الرَّغْبَةِ.جَعَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَعْوَةَ الدُّعَاةِ وَإِجَابَةَ الْمَدْعُوِّينَ سَبَبًا لِإِدْخَالِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي جَهَنَّمَ،وَدُخُولِهِمْ فِيهَا،وَجَعَلَ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّلْبِيسِ مَنْزِلَةَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ (مَنْ أَجَابَهُمْ) أَيِ الدُّعَاةَ (" إِلَيْهِ ") أَيْ:إِلَى جَهَنَّمَ،يَعْنِي:إِلَى الضَّلَالَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهَا (" قَذَفُوهُ فِيهِ ")،أَيْ:رَمَوْهُ وَصَارُوا سَبَبًا لِقَذْفِهِ فِي جَهَنَّمَ.قِيلَ:الْمُرَادُ بِالدُّعَاةِ مَنْ قَامَ فِي طَلَبِ الْمُلْكِ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ،وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ لَمْ يُوجَدْ فِيهِمْ شُرُوطُ الْإِمَارَةِ وَالْإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ،وَجُعِلُوا دُعَاةً عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ بِاعْتِبَارِ الْمَآلِ،نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [النساء:١٠]،وَقِيلَ:هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ - وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار:١٣ - ١٤]،فَكَأَنَّهُمْ كَائِنُونَ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،دَاعِينَ النَّاسَ إِلَى الدُّخُولِ فِي ضِيَافَتِهِمْ ؛ أَوْ لِأَنَّ الْمُبَاشِرَ بِسَبَبِ شَيْءٍ،فَكَأَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِ دَاخِلٌ فِيهِ.

(قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! صِفْهُمْ لَنَا)،أَيْ:إِنَّهُمْ مِنَّا أَوْ مِنْ غَيْرِنَا؟ (قَالَ:" هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ")،أَيْ:مِنْ أَنْفُسِنَا وَعَشِيرَتِنَا،كَذَا فِي النِّهَايَةِ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا،ذَكَرَهُ الْأَشْرَفُ،وَهُوَ الْأَلْطَفُ،وَقِيلَ:مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِنَا،وَفِيهِ أَنَّ الْجِلْدَةَ أَخَصُّ مِنَ الْجِلْدِ،وَجِلْدُ الشَّيْءِ ظَاهِرُهُ،وَهُوَ فِي الْأَصْلِ غِشَاءُ الْبَدَنِ.(" وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا ") أَيْ:بِالْعَرَبِيَّةِ،أَوْ بِالْمَوَاعِظِ وَالْحِكَمِ،أَوْ بِمَا قَالَ اللَّهُ وَقَالَ رَسُولُهُ،وَمَا فِي قُلُوبِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ،يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ،(قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي) أَيْ:أَنْ أَفْعَلَ بِهِ فِيهِمْ (إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟) أَيْ ذَلِكَ الزَّمَانُ (قَالَ:" تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ ") أَيْ:طَرِيقَتَهُمْ وَحُضُورَ جُمْعَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ (" وَإِمَامَهُمْ ") أَيْ:وَرِعَايَةَ إِمَامِهِمْ

وَمُتَابَعَتَهُمْ وَمُسَاعَدَتَهُمْ،(قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ) أَيْ:مُتَّفِقَةٌ (وَلَا إِمَامٌ؟) أَيْ:أَمِيرٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ،وَهُوَ يَحْتَمِلُ فَقْدَهُمَا أَوْ فَقْدَ أَحَدِهِمَا (قَالَ:" فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا ")،أَيِ:الْفِرَقُ الضَّالَّةُ الْوَاقِعَةَ عَلَى خِلَافِ الْجَادَّةِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ،(" وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ ") أَيْ:وَلَوْ كَانَ الِاعْتِزَالُ بِالْعَضِّ،وَأَنْ:مَصْدَرِيَّةٌ،وَتَعَضَّ:مَنْصُوبٌ فِي النُّسَخِ الْمُصَحَّحَةِ وَالْأُصُولِ الْمُعْتَمَدَةِ،وَقِيلَ:إِنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الْمُثَقَّلَةِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:أَيْ:تَمَسَّكْ بِمَا يُصَبِّرُكَ وَتَقْوَى بِهِ عَلَى اعْتِزَالِكَ،وَلَوْ بِمَا لَا يَكَادُ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَسَّكًا.قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:هَذَا شَرْطٌ يُعَقَّبُ بِهِ الْكَلَامُ تَتْمِيمًا وَمُبَالَغَةً،أَيِ:اعْتَزِلِ النَّاسَ اعْتِزَالًا لَا غَايَةَ بَعْدَهُ،وَلَوْ قَنَعْتَ فِيهِ بِعَضِّ أَصْلِ الشَّجَرِ افْعَلْ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لَكَ،(" حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ ") أَيْ:عَلَى مَا ذَكَرْتُ مِنَ الِاعْتِزَالِ أَوِ الْعَضِّ أَوِ الْخَيْرِ.(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ)،قَالَ مِيرَكُ:أَخْرَجَ مُسْلِمٌ هَذِهِ الرِّوَايَةَ عَقِبَ الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَّامٍ عَنْ حُذَيْفَةَ،وَذَكَرَ الدَّارَقُطْنِيُّ أَنَّ أَبَا سَلَّامٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ حُذَيْفَةَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِ قَالَ حُذَيْفَةُ ؛ فَيَكُونُ الْحَدِيثُ مُنْقَطِعًا،وَقَالَ بَعْضُ الْحُفَّاظِ:إِنَّمَا لَمْ يُخَرِّجِ الْبُخَارِيُّ لِأَبِي سَلَّامٍ شَيْئًا فِي صَحِيحِهِ لِأَنَّ رِوَايَاتِهِ مُرْسَلَةٌ،اهـ.وَأَبُو سَلَّامٍ:اسْمُهُ مُمْطِرٌ الْأَسْوَدُ الْحَبَشِيُّ.وَقَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ:مَا قَالَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ صَحِيحٌ،وَلَكِنَّ الْمَتْنَ صَحِيحٌ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِ،وَإِنَّمَا أَتَى مُسْلِمٌ بِهَا مُتَابَعَةً ؛ فَإِنَّ الْمُرْسَلَ إِذَا أَتَى مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ تَبَيَّنَ بِهِ صِحَّةُ الْمُرْسَلِ،وَجَازَ بِهِ الِاحْتِجَاجُ،وَيَصِيرُ فِي الْمَسْأَلَةِ حَدِيثَانِ صَحِيحَانِ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.أَقُولُ:هَذَا الْإِشْكَالُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى قَوْلِ الشَّافِعِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ أَنَّ الْمُرْسَلَ لَيْسَ بِحُجَّةٍ،وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ بِأَنَّهُ حُجَّةٌ وَمَعَهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْهُ فَلَا شُبْهَةَ فِيهِ.

(قَالَ) أَيِ:النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (" يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ ") بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ وَتَسْهِيلِهَا وَإِبْدَالِهَا:جَمْعُ إِمَامٍ عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ أَئِمَّةٌ عَلَى وَزْنِ أَفْعِلَةٍ أَيْ:جَمَاعَةٌ يُطْلَقُ عَلَيْهِمُ الْأَئِمَّةُ (" لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ ")،أَيْ:مِنْ حَيْثُ الْعِلْمِ (" وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي ")،أَيْ:مِنْ حَيْثُ الْعَمَلِ،وَالْمَعْنَى:أَنَّهُمْ لَا يَأْخُذُونَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،(" وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ،قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ ") أَيْ:كَقُلُوبِهِمْ فِي الظُّلْمَةِ،وَالْقَسَاوَةِ،وَالْوَسْوَسَةِ،وَالتَّلْبِيسِ وَالْآرَاءِ الْكَاسِدَةِ وَالْأَهْوَاءِ الْفَاسِدَةِ (" فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ ") بِضَمِّ الْجِيمِ،أَيْ:فِي جَسَدِهِ،وَالْمُرَادُ بِهِ جِنْسُ الْإِنْسِ فَيُطَابِقُ

الْجَمْعَ السَّابِقَ،(قَالَ حُذَيْفَةُ:قُلْتُ:كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟) أَيْ:ذَلِكَ الْوَقْتُ،أَوْ مَا ذُكِرَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ (قَالَ:" تَسْمَعُ ") أَيْ:مَا يَأْمُرُكَ الْأَمِيرُ،خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ،وَكَذَا قَوْلُهُ (" وَتُطِيعُ ") فِيمَا لَا مَعْصِيَةَ فِيهِ (" الْأَمِيرُ ") :مَفْعُولٌ تَنَازَعَ فِيهِ الْفِعْلَانِ (" وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ ") بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ،أَيْ:لَوْ ضُرِبْتَ (" وَأَخَذَ مَالَكَ ") وَفِي نُسْخَةٍ بِصِيغَةِ الْمَعْلُومِ فِيهِمَا،فَفِيهِمَا ضَمِيرٌ لِلْأَمِيرِ،وَالْإِسْنَادُ حَقِيقِيٌّ أَوْ مَجَازِيٌّ،وَتَخْصِيصُ الظَّهْرِ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ غَالِبًا،وَقَوْلُهُ:(" فَاسْمَعْ وَأَطِعْ ") جَزَاءُ الشَّرْطِ أَتَى لِمَزِيدِ تَقْرِيرٍ وَاهْتِمَامِ تَحْرِيرٍ بِشَأْنِهِ،وَإِلَّا فَمَا قَبْلَ الشَّرْطِ أَغْنَى عَنْهُ،قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:إِلَّا إِذَا أَمَرَكَ بِإِثْمٍ فَلَا تُطِعْهُ،لَكِنْ لَا تُقَاتِلْ،بَلْ فِرَّ مِنْهُ.[٢٨٢٣]

وقد بين الله تعالى كفر الكافرين وشركهم،وكيدهم للإسلام والمسلمين،وبين أساليبهم في محاربة الإسلام وما تكنه صدوره من الحقد والبغضاء للإسلام وأهله كما قال تعالى:{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [البقرة:١٢٠].

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْجُو أَنْ يُبَادِرَ أَهْلُ الكِتَابِ إِلَى الإِيْمَانِ بِهِ قَبْلَ غَيْرِهِمْ،لِذلكَ كَبُرَ عَلَيهِ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ،وَإِلحَافُهُمْ فِي مُجَاحَدَتِهِ،فَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى فِي هذهِ الآيَةِ أَنْ يُيْئِسَهُ مِنَ الطَّمَعِ فِي إِسْلاَمِهِمْ،إِذْ عَلَّقَ رِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَكُونَ،فَقَالَ لَهُ:إِنَّ اليَهُودَ وَالنَّصارَى لَنْ يَرْضَوْا عَنْكَ أَبداً مَا لَمْ تَتْبَعْ مِلَّتَهُمْ وَشَرِيعَتَهُمْ،لِذلكَ عَلَيكَ تَرْكُ طَلَبِ مَرْضَاتِهِمْ،وَالاتِّجَاهُ إلى طَلَبِ مَرْضَاةِ اللهِ فِي دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إلى مَا بَعَثَكَ اللهُ بِهِ مِنَ الحَقِّ.وَقُلْ لَهُمْ:إِنَّ الدِّينَ الذي جِئْتُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَالذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ (هُدَى اللهِ) هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحِ.وَيَتَوَعَّدَ اللهُ المُؤْمِنينَ الذينَ يَتَّبِعُونَ طَرَائِقَ اليَهُودِ والنَّصَارَى وَيَقْبلُونَ مَا أَضَافُوهُ إلى دِينِهِمْ مِنْ عِنْدِ أنفُسِهِمْ،بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ وَغَايَاتِهِمْ،وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّهُمْ لَنْ يَكُونَ لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ،لأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنَ الحَقِّ بَعْدَ مَا عَلِمُوهُ مِنَ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ،(وَالخِطَابُ هُنَا لِلرَّسُولِ وَالتحذيرُ لأُمَّتِهِ،لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَعْصُومٌ) .[٢٨٢٤]

[٢٨٢٣] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٨٠)

[٢٨٢٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٧،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى:{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة:١٠٩].

يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ،وَهُمُ الْيَهُودُ هُنا،يَكْرَهُونَ الْمُسْلمِينَ،وَيُبْطِنُونَ لَهُم العَدَاوَةَ،وَهُمْ يَعْمَلُونَ جَاهِدِينَ عَلَى رَدِّ الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ،وَعَلَى إِعَادَتِهِمْ إِلَى الكُفْرِ،وَذلكَ بِسَبَبِ حَسَدِهِمْ للْمُسْلمِينَ،وَخَوْفِهِمْ مِنْ أَنْ يَنْتَقِلَ السُّلْطَانُ إِلَى الْمُسْلمِينَ،بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدُوا مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ صَادِقٌ فِي رِسَالَتِه،وَأَنَّ مَا أُنزِلَ إليهِ هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللهِ.ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأنْ يُعْفُوا عَنْ هؤلاءِ الكُفَّارِ الحُسَّادِ،وَبِأَنْ يَصْفَحُوا عَنْهُمْ،وَبِأَنْ يَحْتَمِلُوا أَذَاهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ بالنَّصْرِ أَوِ الفَتْحِ،وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ.(هذا المَقْطَعُ مِنَ الآيةِ:{فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ} مَنْسُوخٌ بآيَةِ السَّيْفِ،{فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى {قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلاَ باليوم الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.}[2825]

وقال تعالى:{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [التوبة:٣٢]

يُرِيدُ الكُفَّارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ،أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ،وَهُوَ دِينُ الإِسْلاَمِ الذي شَرَعَهُ لِهِدَايَةِ عِبَادِهِ،وَأَنْ يُخْفُوا مَابَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ بِهِ،مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ،فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ،أَوْ نُورَ القَمَرِ،بِنَفْخَةٍ مِنْ فَمِهِ.وَبِمَا أَنَّ هَذَا لاَ سَبِيلَ إِلَيْهِ،كَذَلِكَ لاَ سَبِيلَ إِلَى إِخْفَاءِ نُورِ النُّبُوَّةِ،وَلاَ بُدَّ لِمَا أَرْسَلَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ مِنْ أَنْ يَتِمَّ وَيَظْهَرَ،وَاللهُ يَأْبَى إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ،وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ذَلِكَ.[2826]

وقال تعالى:{وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا

[2825] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٦،بترقيم الشاملة آليا)

[2826] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٨،بترقيم الشاملة آليا)

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } [النساء:١٠٢]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ النَّصَّ المُجْمَلَ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ فِي مَشْرُوعِيَّةِ قَصْرِ الصَّلاَةِ،وَيُبَيِّنُ هُنَا كَيْفِيَّةَ أَدَاءِ صَلاةِ الخَوْفِ.

وَالأَئِمَّةُ مُتَّفِقُونَ عَلى أنَّ صَلاَةَ الخَوْفِ مَنْسُوخَةٌ مِنْ أَسْبَابِ تَأخيرِ الصَّلاَةِ.وَفِي صَلاةِ الخَوْفِ،إذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِي الجَمَاعَةِ وَأَمَّ المُسْلِمِينَ فَي الصَّلاَةِ،تَأْتِي طَائِفَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فَتأتَمُّ بالرَّسُولِ وَهُمْ بِأَسْلِحَتِهِمْ،وَكَامِلِ عُدَّتِهِمْ،وَتُصَلِّي مَعَهُ الرَّكْعَةَ الأُولَى مِنْ صَلاَتِهِ،وَيَسْتَمِرُّ النَّبِيُّ وَاقِفاً يُصَلِّي،وَتُتِمُّ الطَائِفَةُ المُؤْتَمَّةُ بِهِ صَلاَتَهَا بِأَدَاءِ الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ لِنَفْسِهَا،وَتُسَلِّمُ وَتَقُومُ إلى مَكَانِ الحِرَاسَةِ،وَتَأْتِي الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ التِي لَمْ تُصَلِّ،وَالتِي كَانَتْ فِي مَكَانِ الحِرَاسَةِ،فَتَأتَمُّ بِالنَّبِيِّ،وَتُصَلِّي مَعَهُ الرَّكْعَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ صَلاَتِهِ،ثُمَّ تُتِمُّ الرَّكْعَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ صَلاَتِهَا لِنَفْسِهَا وَتُسَلِّمُ.وَيُحَذِّرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ مِنْ غَدْرِ الكُفَّارِ،وَيُنَبِّهُ المُسْلِمِينَ لِيَأخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ،وَلِيَكُونُوا عَلَى أُهْبَةِ الاسْتِعْدَادِ لِمُقَارَعَةِ الأَعْدَاءِ إِذَا أَرَادُوا الغَدْرَ بِالمُسْلِمِينَ،وَهُمْ فِي صَلاَتِهِمْ،وَاغْتِنَامِ الفُرْصَةِ فِيهِمْ،وَهُمْ مُنْشَغِلُونَ بِهَا.ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ لا حَرَجَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَطَرٌ،أَوْ كَانَ بِالمُسْلِمِينَ مَرَضٌ أَنْ يَضَعُوا أَسْلِحَتَهُمْ،وَلَكِنْ عَلَيهِمْ أَنْ يَحْذَرُوا وَيَحْتَاطُوا لِتَكُونَ أَسْلِحَتُهُمْ قَرِيبَةً مِنْهُمْ لأَخْذِهَا إِذَا احْتَاجُوا إِلى اسْتِعْمَالِهَا عَلَى عَجَلٍ.وَيُذَكِّرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ وَلِيُّهُمْ،وَأَنَّهُ نَاصِرُهُمْ وَمُخْزِي الكَافِرِينَ،وَأَنَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابا مُهيناً يَوْمَ القِيَامَةِ.[٢٨٢٧]

والآيات في تبيين سبيل المجرمين والتحذير من مكائدهم كثيرة،ليحذر المسلمون منهم ويدفعوا شرورهم،وقد سميت سورة التوبة بالفاضحة لأنها فضحت المنافقين وبينت أوصافهم.

فالواجب على الحكومة الإسلامية أن تتعرف على سبيل المجرمين،وأن تدرس أساليبهم ومخططاتهم في محاربة الإسلام والمسلمين،لكي تتصدى لأعدائها الذين يسعون في حربها عسكريا وفكريا وإعلاميا.

[٢٨٢٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٥،بترقيم الشاملة آليا)

فليس من صفات المسلم أن يكون مغفلا جاهلا بما عليه الكفار من الخبث،والمكر الشيطاني والتخطيط الإجرامي،لمحاربة الإسلام وأهله،فإنه في هذه الحالة سوف يفاجأ بعدوانهم،وأساليبهم الملتوية الماكرة التي لم يستعد لمواجهتها،ولم يحترز ويحذر من خطرها،وقَالَ:قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ – وَوَصَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –؛فَقَالَ:كَانَ وَاللهِ عُمَرُ أَعْقَلَ مِنْ أَنْ يَخْدَعَ،وَأَفْطَنَ مِنْ أَنْ يُخْدَعَ"[2828]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" "وَالْفرق بَين سَلامَة الْقلب والبله والتغفل أَن سَلامَة الْقلب تكون من عدم إِرَادَة الْبشر بعد مَعْرفَته فَيسلم قلبه من إِرَادَته وقصده لَا من مَعْرفَته وَالْعلم بِهِ وَهَذَا بِخِلَاف البله والغفلة فَإِنَّهَا جهل وَقلة معرفَة وَهَذَا لَا يحمد إِذْ هُوَ نقص وَإِنَّمَا يحمد النَّاس من هُوَ كَذَلِك لسلامتهم مِنْهُ والكمال أَن يكون الْقلب عَارِفًا بتفاصيل الشَّرّ سليما من إِرَادَته قَالَ عمر بن الْخطاب رَضِي الله عَنهُ لست بخب وَلَا يخدعني الخب وَكَانَ عمر أَعقل من أَن يخدع وَأَورَع من أَن يخدع وَقَالَ تَعَالَى {يَوْم لَا ينفع مَال وَلَا بنُون إِلَّا من أَتَى الله بقلب سليم} فَهَذَا هُوَ السَّلِيم من الْآفَات الَّتِي تعتري الْقُلُوب الْمَرِيضَة من مرض الشُّبْهَة الَّتِي توجب اتِّبَاع الظَّن وَمرض الشَّهْوَة الَّتِي توجب اتِّبَاع مَا تهوى الْأَنْفس فالقلب السَّلِيم الَّذِي سلم من هَذَا وَهَذَا""[2829]

وَكَمَا يَذُمُّ النَّاسُ أَرْبَابَ الْحِيَلِ فَهُمْ يَذُمُّونَ أَيْضًا الْعَاجِزَ الَّذِي لَا حِيلَةَ عِنْدَهُ لِعَجْزِهِ وَجَهْلِهِ بِطُرُقِ تَحْصِيلِ مَصَالِحِهِ،فَالْأَوَّلُ مَاكِرٌ مُخَادِعٌ،وَالثَّانِي عَاجِزٌ مُفَرِّطٌ،وَالْمَمْدُوحُ غَيْرُهُمَا،وَهُوَ مَنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِطُرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ خَفِيِّهَا وَظَاهِرِهَا فَيُحْسِنُ التَّوَصُّلَ إلَى مَقَاصِدِهِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِأَنْوَاعِ الْحِيَلِ،وَيَعْرِفُ طُرُقَ الشَّرِّ الظَّاهِرَةِ وَالْخَفِيَّةِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إلَى خِدَاعِهِ وَالْمَكْرِ بِهِ فَيَحْتَرِزَ مِنْهَا وَلَا يَفْعَلُهَا وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهَا،وَهَذِهِ كَانَتْ حَالُ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –،فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ النَّاسِ قُلُوبًا،وَأَعْلَمَ الْخَلْقِ بِطُرُقِ الشَّرِّ وَوُجُوهِ الْخِدَاعِ،وَأَتْقَى لِلَّهِ مِنْ أَنْ يَرْتَكِبُوا مِنْهَا شَيْئًا أَوْ يُدْخِلُوهُ فِي الدِّينِ،كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:لَسْتُ بِخِبٍّ وَلَا يَخْدَعُنِي الْخِبُّ،وَكَانَ حُذَيْفَةُ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالشَّرِّ

[2828] – فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (1/ 327)(462) والمجالسة وجواهر العلم (2/ 291)(443) فيه انقطاع

[2829] – الروح (ص:243)

وَالْفِتَنِ،وَكَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ الْخَيْرِ،وَكَانَ هُوَ يَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ،وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ لَيْسَ هُوَ الْجَاهِلُ بِالشَّرِّ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ،بَلْ الَّذِي يَعْرِفُهُ وَلَا يُرِيدُهُ،بَلْ يُرِيدُ الْخَيْرَ وَالْبِرَّ،وَالنَّبِيُّ - ﷺ - قَدْ سَمَّى الْحَرْبَ خُدْعَةً،وَلَا رَيْبَ فِي انْقِسَامِ الْخِدَاعِ إلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِلَى مَا يُبْغِضُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ،وَكَذَلِكَ الْمَكْرُ يَنْقَسِمُ إلَى قِسْمَيْنِ:مَحْمُودٌ،وَمَذْمُومٌ؛فَالْحِيلَةُ وَالْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ تَنْقَسِمُ إلَى مَحْمُودٍ وَمَذْمُومٍ.[2830]

فينبغي للحكومة الإسلامية أن تتابع وتدرس مخططات الأعداء،وأن تتجسس عليهم للحذر من كيدهم وعدوانهم.



[2830] - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١٨٩)

المبحث التاسع والعشرون

بذل المعروف والإحسان إلى الناس وتقديم الخدمات لهم

من المقاصد العظيمة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية الإحسان إلى الناس،وبذل الصدقات والأوقاف والمعروف بأنواعه إليهم،وتقديم العون والخدمات لهم،وتفريج كربهم،وقضاء حوائجهم،وكف الأذى عنهم،وقد دلَّ على هذا الأصل نصوص الكتاب والسنة،فقال تعالى:{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم:٤] وقال تعالى:{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)} [آل عمران:١٣٣،١٣٤]

يَنْدُبُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ إِلَى القِيَامِ بالأَعْمالِ الصَّالِحَةِ،وَإِلى المُسَارَعَةِ فِي فِعْلِ الخَيْرَاتِ،لِيَنَالُوا مَغْفِرَةَ اللهِ وَرِضْوَانَهُ،وَجَنَّتَهُ الوَاسِعَةَ العَرِيضَةَ التي أَعَدَّهَا اللهُ لعِبَادِه المُتَّقِينَ،الذِينَ يَمْتَثِلُونَ أَمْرَهُ.يَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِه الآيَةِ صِفَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَقُولُ:إِنَّهُمُ الذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ اللهِ،فِي الرَّخَاءِ (السَّرَاءِ)،وَفِي الشِّدَّةِ (الضَرَّاءِ)،وَفِي الصِّحَّةِ وَالمَرَضِ،وَفِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ،لاَ يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللهِ،وَالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِه،وَإِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ إِذَا ثَارَ،وَيَعْفُونَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيهِمْ.وَاللهُ يُحِبُّ الذِينَ يَتَفَضَّلُونَ عَلَى عِبَادِهِ البَائِسِينَ،وَيُوَاسُونَهُمْ شُكْراً للهِ عَلَى جَزِيلِ نِعَمِه عَلَيْهِمْ.[2831]

وقال تعالى:{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)} [الماعون:١ - ٣]

هَلْ تُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ الذِي يَكْفُرُ بِالقِيَامَةِ وَالبَعْثِ وَالنُّشُورِ؟

[2831] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

وَهُنَا يَصِفُ تَعَالَى ذَلِكَ الكَافِرَ بِالبَعْثِ وَالنُّشُورِ فَيَقُولُ:إِنَّهُ هُوَ الذي يَدْفَعُ اليَتِيمَ دَفْعاً،وَيَزْجُرُهُ زَجْراً عَنِيفاً إِنْ جَاءَهُ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيئاً أَوْ حَاجَةً،وَذَلِكَ احْتِقَاراً لِشَأْنِهِ وَاسْتِعْلاَءً عَلَيْهِ.فَهُوَ بَخِيلٌ لاَ يُطْعِمُ الفَقِيرَ المِسْكِينَ الذي لاَ يَجِدُ مَا يَأْكُلُ،وَلاَ يَحُثُّ غَيْرَهُ عَلَى إِطْعَامِهِ.[2832]

وقال تعالى:{ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) } [الفجر]

يَرُدُّ تَعَالَى عَلَى هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ زَاجِراً وَرَادِعاً (كَلاَّ) قَائِلاً:إِنَّهُ لَمْ يَبْتَلِ الغَنِيِّ بِالغِنَى لِكَرَامَتِهِ عِنْدَهُ،وَلَمْ يَبْتَلِ الفَقِيرَ بِالفَقْرِ لِهَوَانِهِ عَلَيْهِ،وَلَكِنَّهُ يُوسِعُ عَلَى الغَنِيِّ لِيَخْتَبِرَهُ أَيَشْكُرُ أَمْ يَكْفُرُ؟ وَقَدْ يُضَيِّقُ عَلَى الفَقِيرِ لِيَخْتَبِرَهُ أَيَصْبِرُ أَمْ يَضْجَرُ،فَمَدَارُ الأَمْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ.وَيَقُولُ تَعَالَى،لِهَؤُلاَءِ إِنَّ لَهُمْ أَعْمَالاً شَرٌّ مِنْ أَقْوَالِهِمْ تَدُلُّ عَلَى تَهَالُكِهِمْ عَلَى المَالِ،فَقَدْ يُكَرِمُهُمْ رَبُّهُمْ بِالمَالِ الكَثِيرِ فَلاَ يُؤَدُّونَ مَا يَجِبُ عَلَيهِمْ مِنْ إِكْرَامِ اليَتِيمِ وَالبِرِّ بِهِ.وَلاَ يَحُثُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَلَى إِطْعَامِ المَسَاكِينِ،فَإِذَا لَمْ يُكْرِموا اليَتِيمَ،وَلَمْ يَتَحَاضُّوا عَلَى إِطْعَامِ المِسْكِينِ،فَقَدْ كَذَبَتْ مَزَاعِمُهُمْ فِي أَنَّهُمْ قَوْمٌ صَالِحُونَ.وَإِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ المِيرَاثَ (التُّرَاثُ) الذي يَتْرُكُهُ مَنْ يُتَوَفَّى أَكْلا شَدِيداً،أَيْ مِنْ أَيَّةِ جِهَةٍ حَصَلَ لَهُمْ،مِنْ حَلاَلٍ أَوْ حَرَامٍ،فَيَحُولُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ مِنَ النِّسَاءِ وَالأَوْلاَدِ.[2833]

وقال تعالى:{ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)} [البلد:١١ - ١٨]

أَفَلاَ جَاهَدَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ لِلوُصُولِ إِلَى غَايَتِهِ فِي فِعْلِ الخَيْرَاتِ.وَقَدْ شَبَّهَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الجِهَادَ بِاقْتِحَامِ العَقَبَةِ.وأَيُّ شَيءٍ يُدْرِيكَ مَا اقْتِحَامُ العَقَبَةِ؟ ثُمَّ أَرْشَدَ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ إِلَى أَنَّ اقْتِحَامَ العَقَبَةِ يَكُونُ بِالقِيَامِ بِأَفْعَالِ الخَيْرِ،وَمِنْهَا مَا وَرَدَ فِي الآيَاتِ التَّالِيَةِ.وَأَوَّلُ أَفْعَالِ الخَيْرِ وَأَكْثَرُهَا قُرْباً مِنَ اللهِ،عِتْقُ رَقَبَةٍ وَتَحْرِيرُها مِنَ الرِّقِّ،وَالإِعَانَةُ عَلَى عِتْقِهَا.

[2832] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٧٥،بترقيم الشاملة آليا)

[2833] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٨٨٧،بترقيم الشاملة آليا)

(وَقَدْ وَرَدَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ وَالأَحَادِيث كَثِيرٌ مِنَ الآَيَاتِ وَالأَحَادِيثِ التِي تُرَغِّبُ فِي إِعْتَاقِ الرِّقَابِ وَتَحُثُّ عَلَيْه.وَقَدْ عَدَّ اللهُ تَعَالَى الإِعْتَاقَ أَحَبَّ القُرُبَاتِ إِلَيه) .أَوْ إِطْعَامُ نَفْسٍ جَائِعَةٍ فِي أَيَّامِ الشِّدَّةِ وَالضِّيقِ.أَيْ إِطْعَامُ شَخْصٍ يَتِيمٍ مِنَ الأَقَارِبِ،وَفِيهِ جَمْعٌ لَحقَّينَ هُمَا:حَقُّ اليَتِيمِ،وَحَقُّ القَرَابَةِ.أَوْ إِطْعَامُ مِسْكِينٍ فَقِيرٍ جداً،لاَ وَسِيلَةَ إِلَى كَسْبِ العَيْشِ.

ثُمَّ اشْتَرَطَ اللهُ تَعَالَى لإِثَابَةِ الإِنْسَانِ عَلَى اقْتِحَامِ العَقَبَةِ بِفِعْلِ الخَيْرَاتِ،التِي دَلَّ اللهُ العِبَادَ عَلَيْهَا،أَنْ يَجْمَعَ الفَاعِلُ ثَلاَثَ صِفَاتٍ:

- أَنْ يَكُونَ مِنَ الصَّابِرِينَ عَلَى الأَذَى وَالمَكَارِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ.
- أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَرْحَمُونَ عِبَادَ اللهِ،وَيُوَاسُونَهُمْ،وَيُسَاعِدُونَهُمْ عِنْدَ الحَاجَةِ.

وَهَؤُلاَءِ الذينَ فَكُّوا الرَّقَبَةَ،وَأَطْعَمُوا المِسْكِينَ فِي الجُوعِ وَالشِّدَّةِ،وَكَانُوا مُؤْمِنِينَ صَابِرِينَ رُحَمَاءَ..هُمْ أَصْحَابُ اليَمِينِ الذينَ يُفُوزُونَ بِحُسْنِ الجَزاءِ عِنْدَ اللهِ تَعَالى،وَيَدخُلُونَ جَنَّتَهُ،وَهُمُ الذين عَنَاهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الوَاقِعَةِ:{وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ}[٢٨٣٤]

وقال تعالى:{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)} [الضحى:٩،١٠]

كَانَ عَلَيْكَ أَنْ لاَ تَقْهَرَ اليَتِيمَ وَتَسْتَذِلَّهُ،بَلِ ارْفَعْ مِنْ شَأْنِه بالأَدَبِ،وَهَذِّبْ نَفْسَهُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ لِيَكُونَ عُضْواً نَافِعاً فِي جَمَاعَتِكَ،وَمَنْ ذَاقَ مَرَارَةَ اليُتْمِ وَالضِّيقِ فِي نَفْسِه،فَمَا أَجْدَرَهُ بِأَنْ يَسْتَشْعِرَهَا فِي غَيْرِه.وَلاَ تَزْجُرْ سَائِلاً مُسْتَجْدِياً يَطْلُبُ مِنْكَ إِحْسَاناً بَلْ تَفَضَّلْ عَلَيْهِ بِشَيءٍ،وَأَحْسِنْ مُخَاطَبَتَهُ.[٢٨٣٥]

وقال تعالى:{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) } [الزلزلة]

فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ خَيْرٍ فَإِنَّهُ سَيَجِدُ ثَوَابَهُ مَهْمَا كَانَ حَقِيراً،حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي وَزْنِ الذَّرَّةِ.وَمَنْ عَمِلَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ سُوءٍ فَإِنَّهُ وَاجِدٌ جَزَاءَهُ عِنْدَ رَبِّهِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ.[٢٨٣٦]

[٢٨٣٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩١١،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٨٣٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٦٥،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٨٣٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٢٢،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة:١٧٧]

بَعْدَ أَن حَوَّلَ اللهُ قِبْلَةَ المُسْلمينَ منْ بَيْت المَقْدسِ إلى البَيتِ الحَرام،شَقَّ ذلكَ عَلَى نُفُوسِ طَائفَةٍ منَ المُسْلمينَ،وَأَخَذَ اليَهُودُ في الدَّسِّ والنَّقْد بُغْيَةَ زَعْزَعَة ثقة المُسلمين برِّبهمْ وَنَبيِّهمْ ﷺ،فَأَوْضَحَ اللهُ في عَدَد منَ الآيَات حكْمَته منْ ذلكَ،وَهيَ:أَنَّ المُرَادَ أَسَاساً هُوَ طَاعَةُ الله عَزَّ وَجَلَّ،وَامْتثَالُ أَوَامره،وَالتَّوَجُّه حَيثُما أَمَرَ وَوَجَّهَ،فَهذا هُوَ البرُّ وَالتَّقوَى وَالإيمَانُ الكَاملُ،وَليسَ في التَّوجُّه نَحْوَ المَشْرقِ أَو المَغْرب بحَدِّ ذَاته طَاعَةٌ ولا برٌّ إنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ شَرْعِ الله وَأَمْره.فَالبرُّ يَقُومُ بالإيمَان بالله،وَاليَوم الآخرِ وَالمَلائكَة،وَالكتَاب المُنْزَل منْ عنْد الله،وَالإيمَان بالنَّبيِّينَ الذينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ إلى النَّاس،وَبإنْفَاق المَال في طَاعَته - وَالإنْسَانُ حَيٌّ سَليمٌ صَحيحٌ يَأْملُ العَيْشَ،وَيَخْشَى الفَقْرَ - عَلَى ذَوي قُرْبَاهُ،وَعَلَى اليَتَامَى الذينَ مَاتَ آبَاؤُهُمْ،وَهُمْ صغَارٌ غَيْرُ قَادرينَ عَلَى الكَسْب،وَعَلى المَسَاكين الذينَ لاَ يَجدُونَ مَا يَكْفيهمْ في قُوتهمْ وَمَسْكَنهمْ وَكُسْوَتهمْ،وَعَلَى ابن السَّبيلِ - وَهُوَ المُسَافرُ المُجْتَازُ الذي نَفدَتْ نَفقَتُهُ - وَعَلَى مَنْ يُريدُ سَفَراً في طَاعَة الله فَيُعطَى مَا يَكْفيه في ذَهَابه وَإيَّابه،وَعَلَى السَّائلينَ الذينَ يَتعرَّضُونَ للسُّؤال،وَعَلَى العَبيد المُكَاتَبينَ الذين لاَ يَجدُونَ مَا يُؤَدُّونَهُ في كتَابَتهمْ.

كَمَا أَنَّ البرَّ يَقُومُ:بإقَامَة الصَّلاَة (وَإتمَام أَفْعَالهَا بخُشُوعٍ تَامٍّ في أَوْقَاتهَا وَإتْمَام رُكُوعها وَسُجُودها)،وَبدَفْعِ الزَّكَاة،وَبالتَّمسُّك بالعُهُود والمَواثيق وَعَدَم النَّكْث بها،وَبالصَّبر في البَأْسَاء - أَيْ في حَال الفَقْر - وَفي الضَّرَّاء - أَيْ في حَال المَرَض -،وَالصَّبر حينَ البَأْس - أَيْ في حَالَة القتال وَلقَاء الأَعْدَاء-.فَالذينَ اتَّصَفُوا بالصِّفَات المُتَقَدِّمَة هُمُ البَرَرَةُ الذينَ صَدقُوا في إيمَانهمْ،وَفَازُوا برضَا الله.(وَقَدْ نَصَبَ اللهُ تَعَالَى الصَّابرينَ عَلَى المَدْحِ والثَّناء عَلَى الصَّبر،وَالحَثِّ عَليه لشدَّته،وَصُعُوبَة احتمَاله عَلَى النُّفُوس) .[٢٨٣٧]

[٢٨٣٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨٤،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى:{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } [النساء:٣٦]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ،وَبِعَدَمِ الإِشْرَاكِ بِهِ،وَبِالعَمَلِ بِمَا أَمَرَ بِهِ،ثُمَّ أَوْصَاهُمْ بِالإِحْسَانِ إِلَى الوَّالِدَينِ،فَقَدْ جَعَلَهُمَا اللهُ سَبباً لِخُرُوجِ الإِنْسَانِ من العَدَمِ.ثُمَّ أَمَرَ بِالإِحْسَانِ إِلى ذَوِي القُرْبَى،مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ،ثُمَّ أَمَرَ بِالإِحْسَانِ إِلى اليَتَامَى الذِينَ فَقَدُوا آبَاءَهُمْ،وَمَنْ يُنْفِقُونَ عَلَيْهِمْ،ثُمَّ بِالإِحْسَانِ إِلَى المَسَاكِينِ (وَهُمُ المُحْتَاجُونَ الذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَنْ يَقُومُ بِكِفَايَتِهِمْ)،فَأَمَرَ اللهُ بِمُسَاعَدَتِهِمْ بِمَا تَتِمُّ بِهِ كِفَايَتُهُمْ.ثُمَّ أَمَرَ بِالإِحْسَانِ إِلى الجَارِ الجُنُبِ،وَهُوَ الجَارِ الذِي لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ،كَمَا أَمَرَ تَعَالَى بِالإِحْسَانِ إِلَى الصَّاحِبِ بِالجَنْبِ،وَهُوَ الرَّفِيقُ الصَّالِحُ فِي الحِلِّ وَالسَّفَرِ،وَابْنِ السَّبِيلِ وَهُوَ الضَّيْفُ عَابِرُ السَّبِيلِ مَارّاً بِكَ فِي سَفَرٍ فَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ.كَمَا أَمَرَ اللهُ النَّاسَ بِالإِحْسَانِ إِلى الأَرِقَّاءِ الذِين تَحْتَ أَيْدِيهِمْ.

ثُمَّ أَضَافَ تَعَالَى إِلى ذَلِكَ،أَنَّهُ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فِي نَفْسِهِ،مُعْجَباً مُتَكَبِّراً فَخُوراً عَلَى النَّاسِ،يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ،فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَقِيرٌ.[٢٨٣٨]

وقال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل:٩٠]

قال ابن عبد البر رحمه الله:" قَالَتِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ لِلْبِرِّ وَالْفَضْلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ،وَرُوِّينَا عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،تَقُولُ:" مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ عَشَرَةٌ وَقَدْ تَكُونُ فِي الرَّجُلِ وَلَا تَكُونُ فِي وَلَدِهِ،وَتَكُونُ فِي وَلَدِهِ وَلَا تَكُونُ فِي أَبِيهِ،وَتَكُونُ فِي الْعَبْدِ وَلَا تَكُونُ فِي سَيِّدِهِ،وَيَقْسِمُهَا اللَّهُ لِمَنْ أَحَبَّ:صِدْقُ الْحَدِيثِ،وَصِدْقُ

[٢٨٣٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢٩،بترقيم الشاملة آليا)

البَاءِ،وَإِعْطَاءُ السَّـــائِلِ،وَالْمُكَافَأَةُ،وَحِفْظُ الْأَمَانَةِ،وَصِـــلَةُ الرَّحِمِ،وَتَــذَمُّمٌ لِلصَّـــاحِبِ،وإِقْرَاءُ الضَّيْفِ،وَالْحَيَاءُ رَأْسُهَا "[٢٨٣٩]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«كُــلُّ مَعْــرُوفٍ صَـــدَقَةٌ» رواه البخاري ومسلم[٢٨٤٠]،والحديث عام في كل أنواع المعروف والإحسان

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ،إِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَـى أَخَـاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ،وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ»[٢٨٤١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[٢٨٤٢]

[٢٨٣٩] - الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٥٩٥)(٤٩٦) والزهد لهناد بن السري (٢/ ٥٠٨) والمجالسة وجواهر العلم (٥/ ٧١) (١٨٧٣) حسن لغيره

[٢٨٤٠] - صحيح البخاري (٨/ ١١)(٦٠٢١) وصحيح مسلم (٢/ ٦٩٧)٥٢ - (١٠٠٥)

[ش (معروف) اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه وكل ما ندب إليه الشرع من وجوه الإحسان وترك ما نهى عنه من القبائح(صدقة) له أجر صدقة]

[٢٨٤١] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١١٤)(٣٠٤) حسن

" «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ،وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ» ") أَيِ الْمُسْلِمَ (بِوَجْهٍ) بِالتَّنْوِينِ (طَلْقٍ) بِفَتْحِ الْأَوَّلِ وَسُكُونِ الثَّانِي،وَقِيلَ:بِتَثْلِيثِ الْأَوَّلِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ وَبِفَتْحٍ وَكَسْرٍ،وَيُقَالُ:طَلِيقٌ أَيْ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ (وَأَنْ تُفْرِغَ) مِنَ الْإِفْرَاغِ أَيْ تَصُبَّ (مِنْ دَلْوِكَ) أَيْ عِنْدَ اسْتِقَائِكَ (فِي إِنَاءِ أَخِيكَ) لِئَلَّا يَحْتَاجَ إِلَى الِاسْتِقَاءِ أَوْ لِاحْتِيَاجِهِ إِلَى الدَّلْوِ وَالدِّلَاءِ" مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٤١)

[٢٨٤٢] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٠٤)(٢٧٣) صحيح

(قَالَ:بُعِثْتُ):بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ أَيْ:أُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ (لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ):بِضَمِّ حَاءٍ وَسُكُونِ سِينٍ،أَيِ:الْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ وَالْأَفْعَالُ الْمُسْتَحْسَنَةُ،وَفِي نُسْخَةٍ:بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ لِأَنْ أَجْعَلَ حُسْنَهَا أَحْسَنَهَا قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ:وَكَانَتِ الْعَرَبُ أَحْسَنَ أَخْلَاقًا بِمَا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،وَكَانُوا ضَلُّوا بِالْكُفْرِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا:فَبُعِثَ - ﷺ- لِيُتَمِّمَ مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ،ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ،وَالتَّحْقِيقُ مَا قَدَّمْنَاهُ فِيمَا سَبَقَ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ:لِأُتَمِّمَ إِلَخْ.يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ أَنَّهُ كَمَّلَهَا بَعْدَ النُّقْصَانِ وَأَنَّهُ جَمَعَهَا بَعْدَ التَّفْرِقَةِ،وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه} [الأنعام:٩٠] قَالَ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ:الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى فَضْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،لِأَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُ بِالِاقْتِدَاءِ بِهُدَاهُمْ،وَلَا بُدَّ لَهُ مِنِ امْتِثَالِهِ لِذَلِكَ الْأَمْرِ،فَوَجَبَ أَنْ يَجْتَمِعَ فِيهِ جَمِيعُ خِصَائِلِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمُ الْمُتَفَرِّقَةِ،وَإِلَى مَعْنَى الْأَوَّلِ أَشَارَ ﷺبِقَوْلِهِ:" «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أُحْسِنَ بُنْيَانُهُ وَتُرِكَ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ مِنْهُ " إِلَى أَنْ قَالَ:" لَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ حَتَّى تَمَّ بِيَ الْبُنْيَانُ» اهـــ.وَلَا مَنْعَ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ لِأَنَّهُ - ﷺ- كَانَ فِي مَرْتَبَةِ جَمْعِ الْجَمْعِ،اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا فِي الْمَسِيرِ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٨٣)

جَمْعُ مَكْرُمَةٍ خَصْلَةٌ يَسْتَحِقُّ الشَّخْصُ بِهَا أَنْ يَكُونَ كَرِيمًا،وَالْمُرَادُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْأَحْوَالُ،وَلِذَا قُوبِلَ بِقَوْلِهِ:(وَكَمَالُ مَحَاسِنِ الْأَفْعَالِ) .لِلْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْأَقْوَالِ،وَالْمَحَاسِنُ جَمْعُ حَسَنٍ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ،وَحَاصِلُهُ أَنَّ شَرِيعَتَهُ أَفْضَلُ

وبذل المعروف والإحسان إلى الخلق من صالح الأخلاق،فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ،وَتَرَاحُمِهِمْ،وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" متفقٌ عليه[2843]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ،وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ،وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»رواه الطبراني في الكبير[2844]

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوْءِ،وَالصَّدَقَةُ خَفِيًّا تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ،وَصِلَةُ الرَّحِمِ زِيَادَةٌ فِي الْعُمُرِ،وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ،وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ،وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ،وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ»[2845]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْمَعْرُوفُ إِلَى النَّاسِ يَقِي صَاحِبَهَا مَصَارِعَ السُّوءِ،وَالْآفَاتِ،وَالْهَلَكَاتِ،وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ»[2846]

والصنائع جمع صنيعة وهي ما اصطنعته من خير

الْأَفْعَالِ،وَطَرِيقَتَهُ أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ أَيْ:أَرْسَلَنِي إِلَى الْعَالَمِ لِيُتَمِّمَ بِوُجُودِي مَكَارِمَ أَخْلَاقِ عِبَادِهِ،وَلِيُكْمِلَ مَحَاسِنَ أَفْعَالِهِمْ.قَالَ الطِّيبِيُّ:الْإِضَافَةُ فِيهِمَا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ.قَالَ الرَّاغِبُ:كُلُّ شَيْءٍ يَشْرُفُ فِي بَابِهِ فَإِنَّهُ يُوصَفُ بِالْكَرَمِ قَالَ تَعَالَى:{وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [ق:٧]،{وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} [الشعراء:٥٨] وَ {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} [الواقعة:٧٧] وَإِذَا وُصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ،فَهُوَ اسْمٌ لِإِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ الْمُتَظَاهِرِ،وَإِذَا وُصِفَ بِهِ الْإِنْسَانُ اسْمٌ لِلْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي تَظْهَرُ مِنْهُ،وَلَا يُقَالُ:هُوَ كَرِيمٌ حَتَّى يَظْهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ اه.وَكَلَامُهُ يَنْظُرُ إِلَى أَنَّ الْعَطْفَ لِلتَّأْكِيدِ،وَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوْلَى لِكَوْنِهِ مِنَ التَّأْسِيسِ وَالتَّقْيِيدِ لِلتَّأْيِيدِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ،وَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ:(مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ) إِلَى قَوْلِهِ:(أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ اللَّبِنَةِ) يَلْتَقِيَانِ فِي مَعْنَى إِتْمَامِ النَّاقِصِ اه.وَالَّذِي تَقَدَّمَ فِي الْمَعْنَى أَتَمُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٦٩١)

[2843] – صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٦ – (٢٥٨٦) وصحيح البخاري (٨/ ١٠)(٦٠١١)

[ش (تداعى له سائر الجسد) أي دعا بعضه بعضا إلى المشاركة في ذلك ومنه قوله تداعت الحيطان أي تساقطت أو قربت من التساقط]

[2844] – المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٦١)(٨٠١٤) ومسند الشهاب القضاعي (١/ ٩٤)(١٠٢) والأموال لابن زنجويه (٢/ ٧٦٠)(١٣١١) والمعجم الأوسط (١/ ٢٨٩)(٩٤٣) صحيح لغيره

[2845] – المعجم الأوسط (٦/ ١٦٣)(٦٠٨٦) حسن لغيره

أَيْ:من بذل معروفه للناس في الدنيا آتاه الله جزاء معروفه في الآخرة.فيض القدير – (ج ٣ / ص ٧٧٢)

[2846] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٢١٣)(٤٢٩) حسن

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ،كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ،يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ،وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا،أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ،وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ،وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» متفق عليه[2847]

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ فَرُّوخَ،أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ،تَقُولُ:إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ،فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ،وَحَمِدَ اللهَ،وَهَلَّلَ اللهَ،وَسَبَّحَ اللهَ،وَاسْتَغْفَرَ اللهَ،وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ،أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ،وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ،عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى،فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ» قَالَ أَبُو تَوْبَةَ:وَرُبَّمَا قَالَ:«يُمْسِي»[2848]

[2847] - صحيح البخاري (٤/ ٥٦)(٢٩٨٩) وصحيح مسلم (٢/ ٦٩٩)٥٦ - (١٠٠٩)

«كُلُّ سُلَامَى») وَهُوَ بِضَمِّ السِّينِ وَهُوَ عَظْمُ الْإِصْبَعِ " مِنَ النَّاسِ " أَيْ:مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ " عَلَيْهِ " أَيْ:عَلَى كُلِّ سُلَامَى،وَالْمَعْنَى عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ بِعَدَدِ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْ أَعْضَائِهِ " صَدَقَةٌ " أَوْجَبَ الصَّدَقَةَ عَلَى السُّلَامَى مَجَازًا وَفِي الْحَقِيقَةِ عَلَى صَاحِبِهِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:قِيلَ:سُلَامَى جَمْعُ سُلَامِيَّةٍ وَهِيَ الْأُنْمُلَةُ مِنَ الْأَصَابِعِ،وَقِيلَ:وَاحِدَةٌ وَجَمْعُهُ سَوَاءٌ وَيُجْمَعُ عَلَى سُلَامَيَاتٍ وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ كُلِّ مَفْصِلَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الْإِنْسَانِ،وَالْمَعْنَى عَلَى كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْ أَعْضَائِهِ صَدَقَةٌ شُكْرًا لِلَّهِ - تَعَالَى - عَلَى أَنْ جَعَلَ فِي أَعْضَائِهِ مَفَاصِلَ تَقْدِرُ بِهَا عَلَى الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ،قِيلَ:وَخَصَّ مَفَاصِلَ الْأَصَابِعِ لِأَنَّهَا الْعُمْدَةُ فِي الْأَفْعَالِ قَبْضًا وَبَسْطًا " كُلَّ يَوْمٍ " بِالنَّصْبِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ أَيْ فِي كُلِّ يَوْمٍ " تَطْلُعُ الشَّمْسُ " صِفَةٌ تَخُصُّ الْيَوْمَ عَنْ مُطْلَقِ الْوَقْتِ بِمَعْنَى النَّهَارِ " يَعْدِلُ " بِالْغَيْبَةِ وَالْخِطَابِ بِتَقْدِيرِ أَنْ يَعْدِلَ مُبْتَدَأٌ وَقَوْلُهُ " بَيْنَ الِاثْنَيْنِ " ظَرْفٌ لَهُ وَالْخَبَرُ " صَدَقَةٌ " أَيْ عَدْلُهُ وَإِصْلَاحُهُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ وَدَفْعُهُ ظُلْمَ الظَّالِمِ عَنِ الْمَظْلُومِ صَدَقَةٌ " وَيُعِينُ الرَّجُلَ " أَيْ:إِعَانَتُهُ الرَّجُلَ " عَلَى دَابَّتِهِ " أَيْ:دَابَّةِ الرَّجُلِ أَوِ الْمُعِينِ " فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا " أَيْ:نَفْسَهُ أَوْ مَتَاعَهُ " أَوْ يَرْفَعُ " شَكٌّ أَوْ تَنْوِيعٌ " «عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ،وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ» " أَيْ:مُطْلَقًا أَوْ مَعَ النَّاسِ " «صَدَقَةٌ،وَكُلُّ خَطْوَةٍ» " بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ وَبِالضَّمِّ مَا بَيْنَ الْقَدَمَيْنِ " «يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ» " أَوْ مَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الطَّوَافِ وَالْعِيَادَةِ وَتَشْيِيعِ الْجِنَازَةِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ وَنَحْوِهَا " «صَدَقَةٌ،وَيُمِيطُ الْأَذَى» " أَيْ:يُزِيلُهُ عَنِ الطَّرِيقِ كَالشَّوْكَةِ وَالْعَظْمِ وَالْقَذَرِ،وَقِيلَ:الْمُرَادُ أَذَى النَّفْسِ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنِ النَّاسِ " صَدَقَةٌ " أَيْ صَدَقَةٌ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٣٧)

[2848] - صحيح مسلم (٢/ ٦٩٨)٥٤ - (١٠٠٧)

[ش (مفصل) ملتقى العظمين في البدن (عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى) قد يقال وقع هنا إضافة ثلاثة إلى مائة مع تعريف الأول وتنكير الثاني والمعروف لأهل العربية عكسه وهو تنكير الأول وتعريف الثاني أما السلامى فبضم السين وتخفيف اللام وهو المفصل وجمعه سلاميات بفتح الميم وتخفيف الياء وفي القاموس السلامى كحبارى عظام صغار طول الإصبع في اليد والرجل وجمعه سلاميات]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّهُ قَالَ:«يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ،فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ،وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ،وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ،وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى» رواه مسلم[٢٨٤٩]

" «خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ» ") بَيَانٌ لِإِفَادَةِ التَّعْمِيمِ " «عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثمِائَةِ مَفْصِلٍ» " بِالْإِضَافَةِ وَهُوَ بِكَسْرِ الصَّادِ وَيُفْتَحُ مُلْتَقَى الْعَظْمَيْنِ فِي الْبَدَنِ " فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ " أَيْ:عَظَّمَهُ أَوْ قَالَ:اللَّهُ أَكْبَرُ " وَحَمِدَ اللَّهَ " أَيْ:أَثْنَى عَلَيْهِ أَوْ شَكَرَهُ " وَهَلَّلَ اللَّهَ " أَيْ:وَحَّدَهُ أَوْ قَالَ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " وَسَبَّحَ اللَّهَ " أَيْ:نَزَّهَهُ عَنْ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ أَوْ قَالَ:سُبْحَانَ اللَّهِ " وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ " أَيْ:بِالتَّوْبَةِ أَوْ بِاللِّسَانِ " وَعَزَلَ " أَيْ:بَعَّدَ وَنَحَّى " حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكًا أَوْ عَظْمًا " أَوْ لِلتَّنْوِيعِ،وَلَعَلَّ فِي تَرْكِ ذِكْرِ نَحْوِ الرَّوْثِ حُسْنَ الْأَدَبِ " أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ " أَيْ:بِالْيَدِ أَوْ بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْإِنْكَارِ بِالْجَنَانِ " عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ " أَيْ:بِعَدَدِهَا نُصِبَ بِنَزْعِ الْخَافِضِ مُتَعَلِّقٌ بِالْأَذْكَارِ وَمَا بَعْدَهَا أَوْ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ يَعْنِي مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ الْمَذْكُورَةِ وَنَحْوِهَا عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ " وَالثَّلَاثمِائَةِ " قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:أُضِيفَ الثَّلَاثُ وَهِيَ مَعْرِفَةٌ إِلَى مِائَةٍ وَهِيَ نَكِرَةٌ وَاعْتُذِرَ بِأَنَّ اللَّامَ زَائِدَةٌ فَلَا اعْتِدَادَ بِهَا،وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ التَّعْرِيفَ بَعْدَ الْإِضَافَةِ كَمَا فِي الْخَمْسَةَ عَشَرَ بَعْدَ التَّرْكِيبِ لَكَانَ وَجْهًا حَسَنًا اهـ.يَعْنِي فَمَنْ فَعَلَ الْخَيْرَ بِعَدَدِ تِلْكَ الْمَفَاصِلِ جَزَاؤُهُ " فَإِنَّهُ يَمْشِي " بِالْمُعْجَمَةِ،قَالَهُ الْقَاضِي،وَفِي نُسْخَةٍ بِالْمُهْمَلَةِ،قَالَ فِي الْأَزْهَارِ:وَكَذَا فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ يُمْسِي مِنَ الْإِمْسَاءِ أَوْ مِنَ الْمَشْيِ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ " يَوْمَئِذٍ " أَيْ:وَقْتَ إِذْ فَعَلَ ذَلِكَ " وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ " أَيْ:أَبْعَدَهَا وَنَحَّاهَا " عَنِ النَّارِ " وَفِي نُسْخَةٍ عَلَى صِيغَةِ الْمَفْعُولِ وَرَفْعِ النَّفْسِ وَالْجُمْلَةُ حَالٌ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٣٧)

[٢٨٤٩] - صحيح مسلم (١/ ٤٩٨)٨٤ - (٧٢٠)

[ش (على كل سلامى) قال النووي أصله عظام الأصابع وسائر الكف ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله (ويجزئ) ضبطناه ويجزئ بفتح أوله وضمه فالضم من الإجزاء والفتح من جزى يجزي أي كفى ومنه قوله تعالى لا تجزي نفس]

" يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ:بِضَمِّ السِّينِ وَفَتْحِ الْمِيمِ،أَيْ:عِظَامِ الْأَصَابِعِ وَالْمُرَادُ بِهَا الْعِظَامُ كُلُّهَا،فِي النِّهَايَةِ:السُّلَامَى جَمْعُ السُّلَامِيَّةِ وَهِيَ الْأُنْمُلَةُ مِنْ أَنَامِلِ الْأَصَابِعِ،وَقِيلَ:وَاحِدَةٌ وَجَمْعُهُ سَوَاءٌ،وَيُجْمَعُ عَلَى سُلَامَيَاتٍ،وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ كُلِّ مَفْصِلَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الْإِنْسَانِ.(صَدَقَةٌ):وَ " عَلَى " هُنَا لِلتَّأْكِيدِ،نَدَبَ التَّصَدُّقَ بِمَعْنَى الْوُجُوبِ الْمُصْطَلَحِ،قَالَ الطِّيبِيُّ:اسْمُ يُصْبِحُ إِمَّا صَدَقَةٌ،أَيْ:تُصْبِحُ الصَّدَقَةُ وَاجِبَةً عَلَى كُلِّ سُلَامَى،وَإِمَّا مِنْ أَحَدِكُمْ عَلَى تَجْوِيزِ زِيَادَةِ " مِنْ " وَالظَّرْفُ خَبَرُهُ،وَصَدَقَةٌ:فَاعِلُ الظَّرْفِ،أَيْ:يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهُ صَدَقَةٌ،وَإِمَّا ضَمِيرُ الشَّأْنِ،وَالْجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ بَعْدَهَا مُفَسِّرَةٌ لَهُ،قَالَ الْقَاضِي:يَعْنِي أَنَّ كُلَّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِ ابْنِ آدَمَ يُصْبِحُ سَلِيمًا عَنِ الْآفَاتِ بَاقِيًا عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي تَتِمُّ بِهَا مَنَافِعُهُ،فَعَلَيْهِ صَدَقَةٌ شُكْرًا لِمَنْ صَوَّرَهُ وَوَقَاهُ عَمَّا يُغَيِّرُهُ وَيُؤْذِيهِ اهـ.

وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" فِي الْإِنْسَانِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مَفْصَلًا " تَارَةً ذَكَرَ الْعِظَامَ؛لِأَنَّهَا بِهَا قِوَامُ الْبَدَنِ،وَتَارَةً ذَكَرَ الْمَفَاصِلَ؛لِأَنَّ بِهَا يَتَيَسَّرُ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ وَالتَّرَدُّدُ وَالنُّهُوضُ إِلَى الْحَاجَاتِ،(فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ):قَالَ الطِّيبِيُّ:الْفَاءُ تَفْصِيلِيَّةٌ،تَرَكَ تَعْدِيدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفَاصِلِ لِلِاسْتِغْنَاءِ بِذِكْرِ تَعْدِيدِ مَا ذَكَرَ مِنَ التَّسْبِيحِ وَغَيْرِهِ اهـ.أَوْ؛لِأَنَّ تَعْدِيدَ الْمَفَاصِلِ يَجُرُّ إِلَى الْإِطَالَةِ،وَفِي تَرْكِهِ إِيمَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [إبراهيم:٣٤] الْمَقْصُودُ مَا بِهِ الْقِيَامُ

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ:يَا رَسُولَ اللهِ،ذَهَبَ أَهْلُ الــدُّثُورِ بِالْأُجُورِ،يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ،وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ،قَالَ:" أَوَلَــيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً،وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَــدَقَةً،وَكُلِّ تَحْمِيــدَةٍ صَدَقَةً،وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً،وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ،وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ،وَفِي بُضْعِ أَحَــدِكُمْ صَدَقَةٌ،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ:«أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ» رواه مسلم[٢٨٥٠]

بِشُكْرِهَا عَلَى أَنْ جَعَلَ لَهُ مَا يَكُونُ بِهِ مُتَمَكِّنًا عَلَى الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ،وَلَيْسَ الصَّدَقَةُ بِالْمَالِ فَقَطْ،بَلْ كُلُّ خَيْرٍ صَدَقَةٌ.(وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ):وَكَذَا سَائِرُ الْأَذْكَارِ،وَبَاقِي الْعِبَادَاتِ صَدَقَاتٌ عَلَى نَفْسِ الذَّاكِرِ،وَخَيْرَاتٌ وَمَبَرَّاتٌ عَلَيْهِ.(وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ،وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ)؛لِأَنَّ مَنْفَعَتَهُمَا رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَلَعَلَّ تَرْكَ ذِكْرِ (كُلٍّ) هُنَا اسْتِغْنَاءٌ بِذِكْرِهِ أَوَّلًا.

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ لِلْإِشَارَةِ إِلَى نُدْرَةِ وُقُوعِهِمَا بِالنِّسْبَةِ لِمَا قَبْلَهُمَا لَا سِيَّمَا مِنَ الْمُعْتَزِلِ عَنِ النَّاسِ اهـــ.وَلِظُهُورِ الْكُلِّيَّةِ فِيهِمَا؛لِأَنَّهُمَا أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمَا،وَفِي تَرْكِ ذِكْرِ الصَّدَقَةِ الْحَقِيقِيَّةِ تَسْلِيَةٌ لِلْفُقَرَاءِ وَالْعَاجِزِينَ عَنِ الْخَيْرَاتِ الْمَالِيَّةِ.(وَيُجْزِئُ):بِالتَّذْكِيرِ أَوِ التَّأْنِيثِ،قَالَ النَّوَوِيُّ:ضَبَطْنَاهُ بِالضَّمِّ،أَيْ ضَمِّ الْيَاءِ مِنَ الْإِجْزَاءِ،وَبِالْفَتْحِ مِنْ جَزَى يَجْزِي،أَيْ يَكْفِي (مِنْ ذَلِكَ):هِيَ بِمَعْنَى " عَنْ "،أَيْ:يَكْفِي عَمَّا ذَكَرَ مِمَّا وَجَبَ عَلَى السُّلَامَى مِنَ الصَّدَقَاتِ (رَكْعَتَانِ)؛لِأَنَّ الصَّلَاةَ عَمَلٌ بِجَمِيعِ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ،فَيَقُومُ كُلُّ عُضْوٍ بِشُكْرِهِ،وَلِاشْتِمَالِ الصَّلَاةِ عَلَى الصَّدَقَاتِ الْمَذْكُورَةِ وَغَيْرِهَا،فَإِنَّ فِيهَا أَمْرًا لِلنَّفْسِ بِالْخَيْرِ وَنَهْيًا لَهَا عَنْ تَرْكِ الشُّكْرِ،وَأَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى)،أَيْ مِنْ صَلَاةِ الضُّحَى،أَوْ فِي وَقْتِ الضُّحَى،فَيَنْبَغِي الْمُدَاوَمَةُ عَلَيْهِمَا،وَلِذَا كَرِهَ جَمَاعَةٌ تَرْكَهَا،وَأَقَلُّهَا رَكْعَتَانِ،وَفِيهِ إِشَارَةٌ خَفِيَّةٌ إِلَى نَهْيِ الْبُتَيْرَاءِ،وَلَعَلَّ وَجْهَ تَخْصِيصِهِمَا بِالْإِجْزَاءِ أَنَّهُ وَقْتُ غَفْلَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ الطَّاعَةِ،وَالْقِيَامِ بِحَقِّ الْعُبُودِيَّةِ،وَلِذَا فُسِّرَ الشَّفْعُ وَالْوَتْرُ فِي الْآيَةِ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ،وَالْوِتْرُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ،لِكَوْنِهِمَا وَقْتَ الِاسْتِرَاحَةِ.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٧٨)

[٢٨٥٠] - صحيح مسلم (٢/ ٦٩٧)٥٣ - (١٠٠٦)

[ش (الدثور) جمع دثر وهو المال الكثير (بكل تسبيحة صدقة ٠٠ الخ) قال القاضي يحتمل تسميتها صدقة أن لها أجرا كما للصدقة أجر وإن هذه الطاعات تماثل الصدقات في الأجور وسماها صدقة على طريق المقابلة وتجنيس الكلام وقيل معناه أنها صدقة على نفسه (وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة) فيه إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة في كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولهذا نكره والثواب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منه في التسبيح والتحميد والتهليل لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وقد يتعين ولا يتصور وقوعه نفلا والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل (وفي بضع أحدكم) هو بضم الباء ويطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصح إرادته هنا وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به أو طلب ولد صالح أو إعفاف نفسه أو إعفاف زوجته ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة (أجرا) ضبطناه أجرا بالنصب والرفع وهما ظاهران]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ:«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا،وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ» رواه مسلم[2851]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَيْسَ مِنْ نَفْسِ ابْنِ آدَمَ إِلَّا عَلَيْهَا صَدَقَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ»،قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمِنْ أَيْنَ لَنَا صَدَقَةٌ نَتَصَدَّقُ بِهَا؟،فَقَالَ:«إِنَّ أَبْوَابَ

" «إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً،وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ» ") بِالرَّفْعِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرُ " صَدَقَةٌ " قَالَ النَّوَوِيُّ:رُوِيَ صَدَقَةٌ بِالرَّفْعِ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ وَبِالنَّصْبِ عَطْفٌ عَلَى اسْمِ إِنَّ،وَعَلَى النَّصْبِ يَكُونُ كُلُّ تَكْبِيرَةٍ مَجْرُورًا فَيَكُونُ مِنَ الْعَطْفِ عَلَى عَامِلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فَإِنَّ الْوَاوَ قَامَتْ مَقَامَ الْبَاءِ اهـ.وَكَذَا قَوْلُهُ " «وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ» " إِلَخْ،قَالَ الطِّيبِيُّ:جَعَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ صَدَقَةً تَشْبِيهًا لَهَا بِالْمَالِ فِي إِثْبَاتِ الْجَزَاءِ وَعَلَى الْمُشَاكَلَةِ،وَقِيلَ:إِنَّهَا صَدَقَةٌ عَلَى نَفْسِهِ " «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ» " أَسْقَطَ الْمُضَافَ هُنَا اعْتِمَادًا عَلَى مَا سَبَقَ،ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ " «وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ» " وَفِي نُسْخَةٍ بِصِيغَةِ الْمُنْكَرِ " صَدَقَةٌ " أَيْ:صَدَقَةٌ عَلَى صَاحِبِ النَّصِيحَةِ وَإِرَادَةِ الْمَنْفَعَةِ سَوَاءٌ قَبِلَهَا أَمْ لَا " «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ» " بِضَمِّ الْمُوَحَّدَةِ الْفَرْجُ أَيْ:فِي مُجَامَعَةِ أَحَدِكُمْ حَلَالَهُ " صَدَقَةٌ " وَقَالَ الطِّيبِيُّ:الْبُضْعُ الْجِمَاعُ وَفِي إِعَادَةِ الظَّرْفِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ثَابِتَةٌ وَهِيَ بِمَعْنَى فِي،وَإِنْ نُزِعَتْ مِنْ بَعْضِ النُّسَخِ،وَإِنَّمَا أُعِيدَتْ لِأَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الصَّدَقَةِ أَغْرَبُ،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ بِبُضْعِ أَحَدِكُمْ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ صَدَقَةً إِذَا نَوَى فِيهِ عَفَافَ نَفْسِهِ أَوْ زَوْجَتِهِ أَوْ حُصُولَ وَلَدٍ صَالِحٍ اهـ.وَهُوَ كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَكِنَّ الْإِشَارَةَ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ وَلِعَدَمِ ظُهُورِ هَذَا الْمَعْنَى " قَالُوا " أَيْ:بَعْضُ الصَّحَابَةِ («يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ») أَيْ:أَيَقْضِيهَا وَيَفْعَلُهَا («وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ») وَالْأَجْرُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي الْمُبَاحِ (" قَالَ "):" أَرَأَيْتُمْ " أَيْ:أَخْبِرُونِي " لَوْ وَضَعَهَا " أَيْ:شَهْوَةَ بُضْعِهِ " فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهِ " أَيْ:فِي الْوَضْعِ " وِزْرٌ؟ " قَالَ الطِّيبِيُّ:أَقْحَمَ هَمْزَةَ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ بَيْنَ لَوْ وَجَوَابِهَا تَأْكِيدًا لِلِاسْتِخْبَارِ فِي أَرَأَيْتُمْ " فَكَذَلِكَ " أَيْ:فَعَلَى ذَلِكَ الْقِيَاسِ " «إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ» " وَعَدَلَ عَنِ الْحَرَامِ مَعَ أَنَّ النَّفْسَ تَمِيلُ إِلَيْهِ وَتَسْتَلِذُّ بِهِ أَكْثَرَ مِنَ الْحَلَالِ،فَإِنَّ لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةً،وَالنَّفْسُ بِالطَّبْعِ إِلَيْهَا أَمْيَلُ وَالشَّيْطَانُ إِلَى مُسَاعَدَتِهَا أَقْبَلُ وَالْمُؤْنَةُ فِيهَا عَادَةً أَقَلُّ " كَانَ لَهُ أَجْرٌ " وَفِي نُسْخَةٍ أَجْرًا بِالنَّصْبِ،فَالْأَجْرُ لَيْسَ فِي نَفْسِ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ بَلْ فِي وَضْعِهَا فِي مَوْضِعِهَا كَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْإِفْطَارِ فِي الْعِيدِ وَكَأَكْلِ السَّحُورِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الشَّهَوَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْمُوَافِقَةِ لِلْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ،وَلِذَا قِيلَ:الْهَوَى إِذَا صَادَفَ الْهُدَى فَهُوَ كَالزُّبْدَةِ مَعَ الْعَسَلِ وَيُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ} [القصص:٥٠] هَذَا مَا سَنَحَ لِي وَخَطَرَ بِبَالِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٣٨)

[2851] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٦)١٤٤ - (٢٦٢٦)

[ش (طلق) روي طلق على ثلاثة أوجه إسكان اللام وكسرها وطليق ومعناه سهل منبسط]

لَا تَحْقِرَنَّ) أَيْ:أَنْتَ " «مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا» " قَالَ الطِّيبِيُّ:الْمَعْرُوفُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا عُرِفَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ وَهُوَ مِنَ الصِّفَاتِ الْغَالِبَةِ أَيْ:أَمْرٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يُنْكِرُوهُ،وَمِنَ الْمَعْرُوفِ النَّصَفَةُ وَحُسْنُ الصُّحْبَةِ مَعَ الْأَهْلِ وَغَيْرِهِمْ وَتَلَقِّي النَّاسِ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ " «وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ» " ضِدُّ الْعُبُوسِ،وَهُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَشَاشَةُ وَالسُّرُورُ فَإِنَّهُ يَصِلُ إِلَى قَلْبِهِ سُرُورٌ،وَلَا شَكَّ أَنَّ إِيصَالَ السُّرُورِ إِلَى قَلْبِ مُسْلِمٍ حَسَنَةٌ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٣٦)

الْخَيْرِ لَكَثِيرَةٌ:التَّسْبِيحُ،وَالتَّحْمِيدُ،وَالتَّكْبِيرُ،وَالتَّهْلِيلُ،وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ،وَتُسْمِعُ الْأَصَمَّ،وَتَهْدِي الْأَعْمَى،وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَتِهِ،وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ مَعَ اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ،وَتَحْمِلُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ،فَهَذَا كُلُّهُ صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» رواه ابن حبان[٢٨٥٢]

وقَالَ أَبُو ذَرٍّ:عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ.قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،مِنْ أَيْنَ أَتَصَدَّقُ وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالٌ؟ قَالَ:"لِأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ التَّكْبِيرَ،وَسُبْحَانَ اللهِ،وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ،وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ،وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ،وَتَعْزِلُ الشَّوْكَةَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالْعَظْمَ وَالْحَجَرَ،وَتَهْدِي الْأَعْمَى،وَتُسْمِعُ الْأَصَمَّ وَالْأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ،وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا،وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ،وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ،كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ،وَلَكَ فِي جِمَاعِكَ زَوْجَتَكَ أَجْرٌ " قَالَ أَبُو ذَرٍّ:كَيْفَ يَكُونُ لِي أَجْرٌ فِي شَهْوَتِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ وَلَدٌ فَأَدْرَكَ وَرَجَوْتَ خَيْرَهُ فَمَاتَ،أَكُنْتَ تَحْتَسِبُ بِهِ؟ " قُلْتُ:نَعَمْ.قَالَ:"فَأَنْتَ خَلَقْتَهُ؟ " قَالَ:بَلِ اللهُ خَلَقَهُ.قَالَ:"فَأَنْتَ هَدَيْتَهُ؟ " قَالَ:بَلِ اللهُ هَدَاهُ.قَالَ:"فَأَنْتَ تَرْزُقُهُ؟ " قَالَ:بَلِ اللهُ كَانَ يَرْزُقُهُ.قَالَ:"كَذَلِكَ فَضَعْهُ فِي حَلَالِهِ وَجَنِّبْهُ حَرَامَهُ،فَإِنْ شَاءَ اللهُ أَحْيَاهُ،وَإِنْ شَاءَ أَمَاتَهُ،وَلَكَ أَجْرٌ "[٢٨٥٣]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ،وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ،وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ،وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ،وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ،وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[٢٨٥٤]

وعَنْ عَقِيلِ بْنِ طَلْحَةَ،قَالَ:حَدَّثَنِي أَبُو جُرَيٍّ الْهُجَيْمِيُّ،قَالَ:أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَعَلِّمْنَا شَيْئًا يَنْفَعُنَا اللَّهُ بِهِ،فقَالَ:«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ

[٢٨٥٢] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٨/ ١٧١)(٣٣٧٧) صحيح

[٢٨٥٣] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٣٨٣)(٢١٤٨٤) صحيح

[٢٨٥٤] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٣٩)(١٩٥٦) صحيح

شَيْئًا،وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي،وَلَوْ أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ،وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ،فَإِنَّهُ مِنَ الْمَخِيلَةِ،وَلَا يُحِبُّهَا اللَّهُ وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ،فَلَا تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ،فَإِنَّ أَجْرَهُ لَكَ،وَوَبَالَهُ عَلَى مَنْ قَالَهُ». [٢٨٥٥]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا،وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ،فَإِذَا صَنَعْتَ مَرَقَةً،فَأَكْثِرْ مَاءَهَا،وَاغْرِفْ لِجِيرَانِكَ مِنْهَا». [٢٨٥٦]

وعَنِ الْهُجَيْمِيِّ،أَنَّهُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَلَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ أَزِقَّةِ الْمَدِينَةِ فَوَافَقَهُ،فَإِذَا هُوَ مُتَّزِرٌ بِإِزَارٍ قَطَرِيٍّ قَدِ انْتَثَرَتْ حَاشِيَتُهُ وَقَالَ:«عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللهِ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى» فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ:أَوْصِنِي،فَقَالَ:«لَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَأْتِيَهُ،وَلَوْ أَنْ تَهِبَ صِلَةَ الْحَبْلِ،وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي،وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ الْمُسْلِمَ وَوَجْهُكَ بَسْطٌ إِلَيْهِ،وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوُحْشَانَ بِنَفْسِكَ،وَلَوْ أَنْ تَهِبَ الشِّسْعَ» [٢٨٥٧].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ:قُلْتُ:أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ:قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ:«تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ:«تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» متفقٌ عليه [٢٨٥٨]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ» قِيلَ:أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ «يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قَالَ قِيلَ:أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ:«يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ» قَالَ قِيلَ لَهُ:أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ:«يَأْمُرُ

[٢٨٥٥] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٨١)(٥٢٢) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:الْأَمْرُ بِتَرْكِ اسْتِحْقَارِ الْمَعْرُوفِ أَمْرٌ قُصِدَ بِهِ الْإِرْشَادُ وَالزَّجْرُ عَنْ إِسْبَالِ الْإِزَارِ زَجْرُ حَتْمٍ لِعِلَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَهِيَ الْخُيَلَاءُ،فَمَتَى عُدِمَتِ الْخُيَلَاءُ،لَمْ يَكُنْ بِإِسْبَالِ الْإِزَارِ بَأْسٌ وَالزَّجْرُ عَنِ الشَّتِيمَةِ إِذَا شُوتِمَ الْمَرْءُ،زَجْرٌ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ،وَقَبْلَهُ،وَبَعْدَهُ،وَإِنْ لَمْ يُشْتَمْ.

[٢٨٥٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٨٢)(٥٢٣) صحيح

[٢٨٥٧] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٤٣٣)(٩٦١٤) حسن

[٢٨٥٨] - صحيح مسلم (١/ ٨٩)(١٣٦ - (٨٤) وصحيح البخاري (٣/ ١٤٤)(٢٥١٨)

[ش (أنفسها عند أهلها) معناه أرفعها وأجودها قال الأصمعي مال نفيس أي مرغوب فيه (تصنع لأخرق) الأخرق هو الذي ليس بصانع يقال رجل أخرق وامرأة خرقاء لمن لا صنعة له]

بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ» قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ:«يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ،فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ» متفقٌ عليه[2859]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ،قَالَ :لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ،قَالَ :فَقُلْتُ :يَا رَسُولَ اللهِ،مَا نَجَاةُ الْمُؤْمِنِ ؟ قَالَ :يَا عُقْبَةُ،احْرُسْ لِسَانَكَ،وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ،وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ،قَالَ :ثُمَّ لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَابْتَدَأَنِي فَأَخَذَ بِيَدِي،فَقَالَ :يَا عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،أَلاَ أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلاَثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ ؟ قَالَ :قُلْتُ :بَلَى،جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ .قَالَ :فَأَقْرَأَنِي {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}،وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}،وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} ثُمَّ قَالَ :يَا عُقْبَةُ،لاَ تَنْسَاهُنَّ،وَلاَ تَبِتْ لَيْلَةً حَتَّى تَقْرَأَهُنَّ قَالَ :فَمَا نَسِيتُهُنَّ قَطُّ مُنْذُ قَالَ :لاَ تَنْسَاهُنَّ،وَمَا بِتُّ لَيْلَةً قَطُّ حَتَّى أَقْرَأَهُنَّ.قَالَ عُقْبَةُ :ثُمَّ لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ :يَا رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الأَعْمَالِ .فَقَالَ :يَا عُقْبَةُ،صِلْ مَنْ قَطَعَكَ،وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ،وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.رواه أحمد[2860]

[2859] - صحيح البخاري (٢/ ١١٥)(١٤٤٥) وصحيح مسلم (٢/ ٦٩٩)٥٥ - (١٠٠٨)

[ش (أرأيت) أي أخبرني ما حكم من لم يجد من لم يجد ما يتصدق به (يعتمل) الاعتمال افتعال من العمل (يعين ذا الحاجة الملهوف) الملهوف عند أهل اللغة يطلق على المتحسر وعلى المضطر وعلى المظلوم وقولهم يا لهف نفسي على كذا - كلمة يتحسر بها على ما فات ويقال لهف يلهف لهفا أي حزن وتحسر وكذلك التلهف (يمسك عن الشر فإنها صدقة) معناه صدقة على نفسه والمراد أنه إذا أمسك عن الشر لله تعالى كان له أجر على ذلك كما أن للمتصدق بالمال أجر] [ش (الملهوف) المظلوم والعاجز المضطر الذي يستغيث بك]

" عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ") أَيْ:يَجِبُ عَلَيْهِ " صَدَقَةٌ " أَيْ:شُكْرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَيْهِ " قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَجِدْ " أَيْ:مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ " قَالَ:فَلْيَعْمَلْ بِيَدَيْهِ " أَيْ:فَلْيَكْتَسِبْ مَالًا يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ " فَيَنْفَعَ نَفْسَهُ " وَيَدْفَعَ ضَرَرَهُ عَنِ النَّاسِ " وَيَتَصَدَّقَ " أَيْ:إِنْ فَضَلَ عَنْ نَفْسِهِ " «قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ» " شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي أَيْ:فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْعَمَلِ " قَالَ:«فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ» " صِفَةُ ذَا أَيِ:الْمُتَحَيِّرَ فِي أَمْرِهِ الْحَزِينَ أَوِ الضَّعِيفَ أَوِ الْمَظْلُومَ الْمُسْتَغِيثَ،ثُمَّ إِنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْإِعَانَةُ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالْمَالِ أَوْ بِالْجَاهِ أَوْ بِالدَّلَالَةِ أَوِ النَّصِيحَةِ أَوِ الدُّعَاءِ " «قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ؟ قَالَ:فَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ» " وَهُوَ يَشْمَلُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْإِفَادَةَ الْعِلْمِيَّةَ وَالنَّصِيحَةَ الْعَمَلِيَّةَ " «قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ:فَيُمْسِكُ» " أَيْ:نَفْسَهُ أَوِ النَّاسَ " عَنِ الشَّرِّ " بِالِاعْتِزَالِ وَغَيْرِهِ " فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ " أَيْ:فَإِنَّ الْإِمْسَاكَ عَنِ الشَّرِّ لَهُ تَصَدُّقٌ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ لِأَنَّهُ إِذَا أَمْسَكَ عَنِ الشَّرِّ كَانَ لَهُ أَجْرٌ كَالتَّصَدُّقِ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٣٧)

[2860] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٨٩٦)(١٧٣٣٤) ١٧٤٦٧- حسن لغيره

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَصَابَ عُمَرُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ،فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ،لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ هُوَ أَنْفَسُ عِنْدِي مِنْهُ،فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ؟ قَالَ:«إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا،وَتَصَدَّقْتَ بِهَا»،قَالَ:فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ،أَنَّهُ لَا يُبَاعُ أَصْلُهَا،وَلَا يُبْتَاعُ،وَلَا يُورَثُ،وَلَا يُوهَبُ،قَالَ:فَتَصَدَّقَ عُمَرُ فِي الْفُقَرَاءِ،وَفِي الْقُرْبَى،وَفِي الرِّقَابِ،وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَابْنِ السَّبِيلِ،وَالضَّيْفِ،لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ،أَوْ يُطْعِمَ صَدِيقًا غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ قَالَ:فَحَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ مُحَمَّدًا،فَلَمَّا بَلَغْتُ هَذَا الْمَكَانَ:غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ،قَالَ مُحَمَّدٌ:غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا،قَالَ ابْنُ عَوْنٍ:وَأَنْبَأَنِي مَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ أَنَّ فِيهِ:غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا.[2861]والحديث في الوقف،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً،فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ،وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[2862]

(الْإِيمَانُ)] أَيْ:ثَمَرَاتُهُ،وَفُرُوعُهُ فَأُطْلِقَ الْإِيمَانُ - وَهُوَ التَّصْدِيقُ وَالْإِقْرَارُ - عَلَيْهَا مَجَازًا؛لِأَنَّهَا مِنْ حُقُوقِهِ وَلَوَازِمِهِ [(بِضْعٌ وَسَبْعُونَ)]،وَفِي رِوَايَةٍ:بِضْعَةٌ،وَالْبَاءُ مَكْسُورَةٌ فِيهِمَا وَقَدْ تُفْتَحُ،وَهِيَ الْقِطْعَةُ،ثُمَّ اسْتُعْمِلَا فِي الْعَدَدِ لِمَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ وَالْعَشَرَةِ.وَفِي " الْقَامُوسِ ":هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ أَوْ إِلَى الْخَمْسِ،أَوْ مَا بَيْنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْأَرْبَعَةِ،أَوْ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى تِسْعٍ،أَوْ هُوَ سَبْعٌ اهـ.وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ،وَالَّذِي فِي الْأَصْلِ هُوَ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ،جَرَى عَلَيْهَا أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ،وَرِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ بِضْعٌ وَسِتُّونَ،وَرَجَّحْتُ بِأَنَّهَا الْمُتَيَقَّنُ،وَصَوَّبَ الْقَاضِي عِيَاضٌ الْأُولَى بِأَنَّهَا الَّتِي فِي سَائِرِ الْأَحَادِيثِ،وَرَجَّحَهَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمُ النَّوَوِيُّ بِأَنَّ فِيهَا زِيَادَةَ ثِقَاتٍ،وَاعْتَرَضَهُ الْكِرْمَانِيُّ بِأَنَّ زِيَادَةَ الثِّقَةِ أَنْ يُزَادَ لَفْظٌ فِي الرِّوَايَةِ،وَإِنَّمَا

[2861] - صحيح مسلم (3/ 1255)15 - (1632)

[ش (أصاب عمر أرضا) أي أخذها وصارت إليه بالقسم حين فتحت خيبر عنوة وقسمت أرضها(يستأمره) أي يستشيره طالبا في ذلك أمره(هو أنفس عندي منه) أنفس معناه أجود والنفيس الجيد وقد نفس نفاسة(غير متأثل) معناه غير جامع وكل شيء له أصل قديم أو جمع حتى يصير له أصل فهو مؤثل ومنه مجد مؤثل أي قديم وأثلة الشيء أصله]

[2862] - صحيح مسلم (1/ 63)58 - (35)

[ش (إماطة الأذى) أي تنحيته وإبعاده والمراد بالأذى كل ما يؤذى من حجر أو مدر أو شوك أو غيره]

هَذَا مِن اخْتِلَاف الرِّوَايَتَيْنِ مَعَ عَدَمِ تَنَاف بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى؛إذْ ذِكْرُ الْأَقَلِّ لَا يَنْفِي الْأَكْثَرَ،وَأَنَّهُ – ﷺ – أَخْبَرَ أَوَّلًا بِالسِّتِّينَ،ثُمَّ أُعْلِمَ بِزِيَادَة فَأَخْبَرَ بِهَا،وَيُجَابُ بِأَنَّ هَذَا مُتَضَمِّنٌ لِلزِّيَادَة كَمَا اعْتَرَفَ بِهِ الْكِرْمَانِيُّ،فَصَحَّ مَا قَالَهُ النَّوَوِيُّ،وَالْأَظْهَرُ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ التَّكْثِيرُ لَا التَّحْدِيدُ،وَيُحْمَلُ الاخْتِلَافُ عَلَى تَعَدُّد الْقَضِيَّة،وَلَوْ مِنْ جِهَة رَاوٍ وَاحِد،وَقَوْلُهُ:[(شُعْبَةً)] هِيَ فِي الْأَصْلِ غُصْنُ الشَّجَرِ وَفَرْعُ كُلِّ أَصْلٍ،وَأُرِيدَ بِهَا هُنَا الْخَصْلَةُ الْحَمِيدَةُ أَيْ:الْإِيمَانُ ذُو خِصَالٍ مُتَعَدِّدَة،وَفِي رِوَايَة صَحِيحَة:بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا،وَفِي أُخْرَى:أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ بَابًا،أَيْ نَوْعًا مِنْ خِصَالِ الْكَمَال،وَفِي أُخْرَى:ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ شَرِيعَةً،مَنْ وَافَى اللَّهَ بِشَرِيعَة مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ،وَرَوَى ابْنُ شَاهِينَ أَنَّ لِلَّه تَعَالَى مِائَةَ خُلُق،مَنْ أَتَى بِخُلُق مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ،وَفُسِّرَتْ بِنَحْوِ الْحَيَاءِ،وَالرَّحْمَة،وَالسَّخَاءِ،وَالتَّسَامُحِ،وَغَيْرِهَا مِنْ أَخْلَاقه تَعَالَى الْمَذْكُورَة فِي أَسْمَائه الْحُسْنَى،وَصِفَاته الْعُلْيَا.[(فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)] أَيْ:هَذَا الذِّكْرُ فَوُضِعَ الْقَوْلُ مَوْضِعَهُ،وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَرَدَ بِلَفْظ:أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،لَا مَوْضِعَ الشَّهَادَة ؛ لِأَنَّهَا مَنْ أَصْلِه لَا مَنْ شُعَبِه،وَالتَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ خَارِجٌ عَنْهَا بِالْإِجْمَاعِ،كَذَا قِيلَ،وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى جَعْلِ الْإِقْرَارِ شَطْرَ الْإِيمَان،وَأَمَّا عَلَى الْقَوْل بِأَنَّهُ شَرْطٌ فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْقَوْل الشَّهَادَةَ لِإِنْبَائه عَنِ التَّوْحِيد الْمُتَعَيَّنِ عَلَى كُلِّ مُكَلَّف الَّذِي لَا يَصِحُّ غَيْرُهُ إِلَّا بَعْدَ صِحَّته،فَهُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْه سَائِرُ الشُّعَب،أَوْ لِتَضَمُّنه شَرْعًا مَعْنَى التَّوْحِيد الَّذِي هُوَ التَّصْدِيقُ وَالْتِزَامُهُ عُرْفًا سَائِرَ الْعِبَادَات عَلَى التَّحْقِيق،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ أَفْضَلُهَا مِنْ وَجْه،وَهُوَ أَنَّهُ يُوجِبُ عِصْمَةَ الدَّمِ وَالْمَال لَا أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ الْوُجُوه،وَإِلَّا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاة،وَلَيْسَ كَذَلِكَ،وَيَجُوزُ أَنْ يُقْصَدَ الزِّيَادَةُ الْمُطْلَقَةُ لَا عَلَى مَا أُضِيفَ إِلَيْه أَيْ:الْمَشْهُورُ مِنْ بَيْنِهَا بِالْفَضْلِ فِي الْأَدْيَان قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.[(وَأَدْنَاهَا)] أَيْ:أَقْرَبُهَا مَنْزِلَةً وَأَدْوَنُهَا مِقْدَارًا وَمَرْتَبَةً،بِمَعْنَى أَقْرَبُهَا تَنَاوُلًا وَأَسْهَلُهَا تَوَاصُلًا،مِنَ الدُّنُوِّ بِمَعْنَى الْقُرْب،فَهُوَ ضِدُّ:فُلَانٌ بَعِيدُ الْمَنْزِلَة،أَيْ:رَفِيعُهَا،وَمِنْ ثَمَّ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مَكَانَ أَفْضَلهَا بِلَفْظ:فَأَرْفَعُهَا،وَفِي رِوَايَة:فَأَقْصَاهَا،أَوْ مِنَ الدَّنَاءَة أَيْ أَقَلُّهَا فَائِدَةً ؛ لِأَنَّهَا دَفْعُ أَدْنَى ضَرَرٍ [(إِمَاطَةُ الْأَذَى)] أَيْ:إِزَالَتُهُ،وَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمُؤْذِي،أَوْ مُبَالَغَةٌ،أَوِ اسْمٌ لِمَا يُؤْذِي بِه كَشَوْكَة أَوْ حَجَرٍ أَوْ قَذَر.قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْأَبْرَار:هُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْذُونَ الذَّرَّ،وَلَا يَرْضَوْنَ الضُّرَّ،وَفِي رِوَايَة:إِمَاطَةُ الْعَظْمِ أَيْ:مَثَلًا [

(عَنِ الطَّرِيقِ)] :وَفِي طَرِيقِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ أُرِيدَ بِالْأَذَى النَّفْسُ الَّتِي هِيَ مَنْبَعُ الْأَذَى لِصَاحِبِهَا وَغَيْرِهِ،فَالشُّعْبَةُ الْأُولَى مِنَ الْعِبَادَاتِ الْقَوْلِيَّةِ،وَالثَّانِيَةُ مِنَ الطَّاعَةِ الْفِعْلِيَّةِ،أَوِ الْأُولَى فِعْلِيَّةٌ وَالثَّانِيَةُ تَرْكِيَّةٌ،أَوِ الْأُولَى مِنَ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الْحَقِّ وَالثَّانِيَةُ مِنَ الْمُجَامَلَةِ مَعَ الْخَلْقِ،أَوِ الْأُولَى مِنَ التَّعْظِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالثَّانِيَةُ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ،أَوِ الْأُولَى مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ وَالثَّانِيَةُ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّ الْعِبَادِ،فَمَنْ قَامَ بِهِمَا صِدْقًا كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ حَقًّا [(وَالْحَيَاءُ)] :بِالْمَدِّ [(شُعْبَةٌ)] أَيْ:عَظِيمَةٌ [(مِنَ الْإِيمَانِ)] أَيْ:مِنْ شُعَبِهِ،وَالْمُرَادُ بِهِ الْحَيَاءُ الْإِيمَانِيُّ،وَهُوَ خُلُقٌ يَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الْفِعْلِ الْقَبِيحِ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ؛كَالْحَيَاءِ مِنْ كَشْفِ الْعَوْرَةِ وَالْجِمَاعِ بَيْنَ النَّاسِ،لَا النَّفْسَانِيُّ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ فِي النُّفُوسِ،وَهُوَ تَغَيُّرٌ وَانْكِسَارٌ يَعْتَرِي الْمَرْءَ مِنْ خَوْفِ مَا يُلَامُ وَيُعَابُ عَلَيْهِ،وَإِنَّمَا أُفْرِدَ مِنْ سَائِرِ الشُّعَبِ ؛ لِأَنَّهُ الدَّاعِي إِلَى الْكُلِّ ؛ فَإِنَّ الْحَيِيَّ يَخَافُ فَضِيحَةَ الدُّنْيَا وَفَظَاعَةَ الْعُقْبَى فَيَنْزَجِرُ عَنِ الْمَنَاهِي وَيَرْتَدِعُ عَنِ الْمَلَاهِي،وَلِذَا قِيلَ:حَقِيقَةُ الْحَيَاءِ أَنَّ مَوْلَاكَ لَا يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ،وَهَذَا مَقَامُ الْإِحْسَانِ الْمُسَمَّى بِالْمُشَاهَدَةِ النَّاشِئُ عَنْ حَالِ الْمُحَاسَبَةِ،وَالْمُرَاقَبَةِ،فَهَذَا الْحَدِيثُ الْجَلِيلُ مُجْمَلُ حَدِيثِ جِبْرِيلَ،فَأَفْضَلُهَا مُشِيرٌ إِلَى الْإِيمَانِ،وَأَدْنَاهَا مُشْعِرٌ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَالْحَيَاءُ مُوصِلٌ إِلَى الْإِحْسَانِ،وَمِنْ ثَمَّ قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - («اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ) قَالُوا:إِنَّا لَنَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،قَالَ:(لَيْسَ ذَلِكَ،وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ يُحْفَظَ الرَّأْسُ وَمَا حَوَى،وَالْبَطْنُ وَمَا وَعَى،وَيُذْكَرُ الْمَوْتُ،وَالْبِلَى،وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الْأُولَى،فَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَى مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ») .رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ،وَصَحَّ:الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ.قَالَ ابْنُ حِبَّانَ:تَتَبَّعْتُ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مُدَّةً وَعَدَدْتُ الطَّاعَاتِ فَإِذَا هِيَ تَزِيدُ عَلَى الْبِضْعِ وَالسَّبْعِينَ شَيْئًا كَثِيرًا،فَرَجَعْتُ إِلَى السُّنَّةِ فَعَدَدْتُ كُلَّ طَاعَةٍ عَدَّهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنَ الْإِيمَانِ فَإِذَا هِيَ تَنْقُصُ فَضَمَمْتُ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِذَا هِيَ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ،فَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْمُرَادُ.قَالَ السُّيُوطِيُّ:قَدْ تَكَلَّفَ جَمَاعَةٌ عَدَّهَا بِطَرِيقِ الِاجْتِهَادِ - يَعْنِي الْبَيْضَاوِيَّ وَالْكِرْمَانِيَّ وَغَيْرَهُمَا - وَأَقْرَبُهُمْ عَدًّا ابْنُ حِبَّانَ حَيْثُ ذَكَرَ كُلَّ خَصْلَةٍ سُمِّيَتْ فِي الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ إِيمَانًا،وَقَدْ تَبِعَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ وَتَبِعْنَاهُمَا،وَذَلِكَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ،وَصِفَاتِهِ،وَحُدُوثِ مَا دُونَهُ،وَبِمَلَائِكَتِهِ،وَكُتُبِهِ،وَرُسُلِهِ،وَالْقَدَرِ،وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَمَحَبَّةُ

اللَّه،وَالْحَبُّ فِي اللَّه،وَالْبُغْضُ فِيه،وَمَحَبَّةُ النَّبِـــيِّ - ﷺ - وَاعْتِقَـــادُ تَعْظِيمِه،وَفِيـــه الصَّـــلَاةُ عَلَيْـــــــــــــه،وَاتِّبَاعُ سُـــــــــــــــنَّتِه،وَالْإِخْلَاصُ فِيـــــــــــــــــه،وَتَرْكُ الرِّيَاءِ،وَالنِّفَاقِ،وَالتَّوْبَةُ،وَالْخَوْفُ،وَالرَّجَاءُ،وَالشُّكْرُ،وَالْوَفَاءُ،وَالصَّبْرُ،وَالرِّضَـــــــــــــــــا بِالْقَضَاءِ،وَالْحَيَاءُ،وَالتَّوَكُّلُ،وَالرَّحْمَةُ،وَالتَّوَاضُـــعُ،وَفِيه تَـــوْقِيرُ الْكَبِيرِ،وَرَحْمَـــةُ الصَّـــغِيرِ،وَتَرْكُ الْكِبْرِ،وَالْعُجْبِ،وَتَرْكُ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ،وَتَرْكُ الْغَضَبِ،وَالنُّطْقُ بِالتَّوْحِيدِ،وَتِلَاوَةُ الْقُـــرْآنِ،وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمُهُ،وَالدُّعَاءُ،وَالذِّكْرُ،وَفِيه الِاسْتِغْفَارُ،وَاجْتِنَابُ اللَّغْوِ،وَالتَّطَهُّرُ حِسًّـــا وَحُكْمًا،وَفِيـــه اجْتِنَـــابُ النَّجَاسَاتِ،وَسَـــتْرُ الْعَوْرَةِ،وَالصَّـــلَاةُ فَرْضًـــا وَنَفْلًا،وَالزَّكَـــاةُ كَـــذَلِكَ،وَفَكُّ الرِّقَابِ،وَالْجُودُ،وَفِيه الْإِطْعَامُ،وَالضِّيَافَةُ،وَالصِّـــيَامُ فَرْضًـــا وَنَفْلًا،وَالِاعْتِكَافُ،وَالْتِمَـــاسُ لَيْلَـــةِ الْقَدْرِ،وَالْحَجُّ،وَالْعُمْرَةُ،وَالطَّوَافُ،وَالْفِرَارُ بِالدِّينِ،وَفِيه الْهِجْرَةُ،وَالْوَفَاءُ بِالنَّـــذْرِ،وَالتَّحَرِّي فِـــي الْإِيمَانِ،وَأَدَاءُ الْكَفَّـــارَاتِ،وَالتَّعَفُّفُ بِالنِّكَـــاحِ،وَأَدَاءُ حُقُـــوقِ الْعِيَـــالِ،وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ،وَتَرْبِيَـــةُ الْأَوْلَادِ،وَصِلَةُ الرَّحِمِ،وَطَاعَةُ السَّـــادَةِ،وَالرِّفْقُ بِالْعَبِيـــدِ،وَالْقِيَامُ بِالْـــإِمْرَةِ مَـــعَ الْعَدْلِ،وَمُتَابَعَـــةُ الْجَمَاعَةِ،وَطَاعَةُ أُولِي الْأَمْرِ،وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ،وَفِيه قِتَالُ الْخَوَارِجِ وَالْبُغَاةِ،وَالْمُعَاوَنَةُ عَلَـــى الْبِرِّ،وَفِيه الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ،وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ،وَالْجِهَادُ،وَفِيـــه الْمُرَابَطَـــةُ،وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ،وَمِنْهَا الْخُمُسُ،وَالْقَرْضُ مَعَ وَفَائِه،وَإِكْرَامُ الْجَارِ،وَحُسْنُ الْمُعَامَلَةِ،وَفِيه جَمْعُ الْمَالِ مِـــنْ حِلِّه،وَإِنْفَاقُ الْمَالِ فِي حَقِّه،وَفِيه تَرْكُ التَّبْذِيرِ وَالسَّرَفِ،وَرَدُّ السَّلَامِ،وَتَشْمِيتُ الْعَـــاطِسِ،وَكَفُّ الضَّرَرِ عَنِ النَّاسِ،وَاجْتِنَابُ اللَّهْوِ،وَإِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ اهـــ.

مَا ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي كِتَابِه " النُّقَايَة "،وَأَدِلَّتُهَا مَذْكُورَةٌ فِي شَرْحِهَا " إِتْمَام الدِّرَايَة "،وَتَجِيءُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مُتَفَرِّقَةً،وَلَكِنْ ذَكَرْتُهَا لَكَ مُجْمَلَةً لِتَتَأَمَّلَ فِيهَا مُفَصَّلَةً،فَمَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ مُتَّصِفَةً بِهَا فَاشْكُرِ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ،وَمَا رَأَيْتَ عَلَى خِلَافِهَا فَاطْلُبْ مِنَ اللَّه التَّوْفِيقَ عَلَى تَحْصِـــيلِ مَـــا هُنَالِكَ؛لِأَنَّ مَنْ وُجِدَتْ فِيه هَذِه الشُّعَبُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ كَامِلٌ،وَمَنْ نَقَصَ مِنْهُ بَعْضُهَا فَهُوَ مُـــؤْمِنٌ نَاقِصٌ،وَأَغْرَبَ النَّوَوِيُّ حَيْثُ قَالَ:الْحَدِيثُ نَصٌّ فِي إِطْلَاقِ اسْـــمِ الْإِيمَـــانِ الشَّـــرْعِيِّ عَلَـــى الْأَعْمَالِ.وَتَعَقَّبَهُ ابْنُ حَجَرٍ وَقَالَ:تَمَسَّكَ بِه الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْإِيمَانَ فِعْلُ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالتَّصْدِيقِ وَالْعَمَلِ،وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوا؛لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ لَا فِي

ذَاته،إِذ التَّقْديرُ:شُعَبُ الْإِيمَان؛حَتَّى يَصِحَّ الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِسَبْعِينَ شُعْبَةً،إِذْ يَرْجِعُ حَاصِلُهُ فِي الْحَقِيقَة إِلَى أَنَّ شُعَبَ الْإِيمَانِ كَذَا،وَشُعَبُ الشَّيْءِ غَيْرُهُ اهـ.

وَفِي الْحَديث تَشْبِيهُ الْإِيمَان بِشَجَرَة ذَات أَغْصَان وَشُعَب،كَمَا أَنَّ فِي الْقُرْآن تَشْبِيهَ الْكَلِمَة الدَّالَّة عَلَى حَقِيقَة الْإِيمَان بِشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء،أَيْ:أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي الْقَلْب،وَفَرْعُهَا أَيْ:شُعَبُهَا مَرْفُوعَةٌ فِي السَّمَاء.(مُتَّفَقٌ عَلَيْه) .قَالَ ميرَكُ:وَفيه نَظَرٌ؛لأَنَّ قَوْلَهُ:" بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً " منْ أَفْرَاد مُسْلمٍ،وَفِي الْبُخَارِيِّ:" بِضْعٌ وَستُّونَ شُعْبَةً "،وَكَذَا قَوْلُهُ:" فَأَفْضَلُهَا " إِلَى قَوْله:" عَنِ الطَّرِيق " منْ أَفْرَاد مُسْلم،فَلَا يَكُونُ مُتَّفَقًا عَلَيْه،وَرَوَاهُ الْأَرْبَعَةُ أَيْضًا إِلَّا أَنَّ التِّرْمذيَّ أَسْقَطَ قَوْلَهُ:وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ منَ الْإِيمَان اهـ.

وَذَكَرَ الْعَيْنِيُّ أَنَّ قَوْلَهُ:" بِضْعٌ وَسَبْعُونَ " منْ طَرِيق أَبِي ذَرٍّ الْهَرَوِيِّ،وَقَالَ السُّيُوطِيُّ:بِضْعٌ وَستُّونَ،أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً،رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ هَكَذَا عَلَى الشَّكِّ منْ حَديث أَبِي هُرَيْرَةَ،وَرَوَاهُ أَصْحَابُ السُّنَنِ الثَّلَاثَة بِلَفْظ:بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بِلَا شَكٍّ،وَأَبُو عَوَانَةَ فِي صَحِيحه بِلَفْظ:ستٌّ وَسَبْعُونَ،أَوْ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ،وَالتِّرْمذيُّ بِلَفْظ أَرْبَعٌ وَستُّونَ اهـ.[٢٨٦٣]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا،فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ،وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِد،لَا تُدْفَنُ» رواه مسلم[٢٨٦٤]

وعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْد،عَنْ أَبِيه قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«طَهِّرُوا أَفْنِيَتَكُمْ،فَإِنَّ الْيَهُودَ لَا تُطَهِّرُ أَفْنِيَتَهَا» رواه الطبراني[٢٨٦٥] قلت:لأن عدم تطهير الأفنية يؤذي الجيران

[٢٨٦٣] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٦٩)

[٢٨٦٤] - صحيح مسلم (١/ ٣٩٠)٥٧ - (٥٥٣)

(عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي) أَيْ:إِجْمَالًا منْ غَيْرِ بَيَانِ عَامِليهَا،وَيَحْتَملُ تَفْصيلًا،وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ (حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا):بِالرَّفْعِ بَدَلٌ منْ أَعْمَالِ (فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا):جَمْعِ حُسْنٍ بِالضَّمِّ وَالسُّكُون عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ (الْأَذَى):أَيِ:الْمُؤْذَى يَعْنِي إِزَالَتَهُ،وَاللَّامُ فِيه لِلْعَهْد الذِّهْنِيِّ،وَقِيلَ لِلْجِنْسِ (يُمَاطُ) أَيْ:يُزَالُ (عَنِ الطَّرِيقِ):صِفَةُ الْأَذَى قَالَهُ الطِّيبِيُّ " (وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا) جَمْعِ سُوءٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ،وَالْيَاءُ مُنْقَلِبَةٌ عَنِ الْهَمْزَةِ (النُّخَاعَةَ):بِضَمِّ النُّونِ أَيِ:الْبُزَاقَةَ الَّتِي تَخْرُجُ منْ أَصْلِ الْفَمِ،وَالْمُرَادُ بِهَا إِلْقَاؤُهَا،وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهَا الْبُصَاقُ،وَالنُّخَامَةُ هِيَ الْبَلْغَمُ (تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ) صِفَةُ النُّخَاعَةِ (لَا تُدْفَنُ):قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:الْجُمْلَتَانِ صِفَتَانِ أَوْ حَالَانِ أَيْ مُتَدَاخِلَتَانِ أَوْ مُتَرَادِفَتَانِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٥٩٩)

وعَنِ أَبِي مُوسَى،قَالَ:«إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ أُعَلِّمُكُمْ كِتَابَ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ وَسُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ،وَأُنَظِّفُ لَكُمْ طُرُقَكُمْ»[٢٨٦٦].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ،اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ،فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا،فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ،فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ،يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ،فَقَالَ الرَّجُلُ:لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي،فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ،فَسَقَى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ " قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ :وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ:«نَعَمْ،فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» متفقٌ عليه[٢٨٦٧]

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً،وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ،وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ،وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ،وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ» رواه مسلم[٢٨٦٨]

وعن عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمِّ مَعْبَدٍ حَائِطًا،فَقَالَ:«يَا أُمَّ مَعْبَدٍ،مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ؟ أَمُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟» فَقَالَتْ:بَلْ مُسْلِمٌ،قَالَ:«فَلَا يَغْرِسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا،فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ،وَلَا دَابَّةٌ،وَلَا طَيْرٌ،إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٢٨٦٩]

[٢٨٦٥] - المعجم الأوسط (٤/ ٢٣١)(٤٠٥٧ وصحيح الجامع (٣٩٣٥) حسن

[٢٨٦٦] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٥٧) والأدب لابن أبي شيبة (ص:٢٨٩)(٢٧٥) وسنن الدارمي (١/ ٤٦٣)(٥٧٩) صحيح لغيره

[٢٨٦٧] - صحيح البخاري (٨/ ٩)(٦٠٠٩) وصحيح مسلم (٤/ ١٧٦١)١٥٣ - (٢٢٤٤)

قَوْلُهُ:(يَلْهَثُ) قَالَ فِي الْقَامُوسِ:اللَّهْثَانُ:الْعَطْشَانُ،وَبِالتَّحْرِيكِ الْعَطَشُ كَاللَّهَثِ وَاللُّهَاثِ،وَقَدْ لَهِثَ كَسَمِعَ وَكَغُرَابٍ:حَرُّ الْعَطَشِ وَشِدَّةُ الْمَوْتِ قَالَ:وَلَهَثَ كَمَنَعَ لَهْثًا وَلُهَاثًا بِالضَّمِّ:أَخْرَجَ لِسَانَهُ عَطَشًا وَتَعَبًا أَوْ إعْيَاءً كَالْتَهَثَ وَاللُّهْثَةُ بِالضَّمِّ:التَّعَبُ وَالْعَطَشُ انْتَهَى.قَوْلُهُ:(الثَّرَى) هُوَ التُّرَابُ النَّدِيُّ كَمَا فِي الْقَامُوسِ.قَوْلُهُ:(فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ) الرَّطْبُ فِي الْأَصْلِ ضِدُّ الْيَابِسِ،وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا الْحَيَاةُ لِأَنَّ الرُّطُوبَةَ فِي الْبَدَنِ تُلَازِمُهَا،وَكَذَلِكَ الْحَرَارَةُ فِي الْأَصْلِ ضِدُّ الْبُرُودَةِ،وَأُرِيدَ بِهَا هُنَا الْحَيَاةُ لِأَنَّ الْحَرَارَةَ تُلَازِمُهَا.وَقَدْ اُسْتُدِلَّ بِأَحَادِيثِ الْبَابِ عَلَى وُجُوبِ نَفَقَةِ الْحَيَوَانِ عَلَى مَالِكِهِ،وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ الْمُدَّعَى.نيل الأوطار (٧/ ٧)

[٢٨٦٨] - صحيح مسلم (٣/ ١١٨٨)٧ - (١٥٥٢) [ش (ولا يرزؤه) أي لا ينقصه ويأخذ منه]

[٢٨٦٩] - صحيح مسلم (٣/ ١١٨٩)١٠ - (١٥٥٢)

وعَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ،قَالَ [ص:٧٠٥]:فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ،مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ،عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ،بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ،فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ،فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ،فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء:١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ،{إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء:١] وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ:{اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ} [الحشر:١٨] «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ،مِنْ دِرْهَمِهِ،مِنْ ثَوْبِهِ،مِنْ صَاعِ بُرِّهِ،مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ:فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا،بَلْ قَدْ عَجَزَتْ،قَالَ:ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ،حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ،حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ،كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً،فَلَهُ أَجْرُهَا،وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ،مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ،وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً،كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ،مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» رواه مسلم[٢٨٧٠].

(وَعَنْ جَرِيرٍ) :هُوَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو عَمْرٍو،أَسْلَمَ فِي السَّنَةِ الَّتِي تُوُفِّيَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -.قَالَ جَرِيرٌ:أَسْلَمْتُ قَبْلَ مَوْتِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا،وَنَزَلَ الْكُوفَةَ وَسَكَنَهَا

[ش (عمرو بن دينار) قال أبو مسعود الدمشقي هكذا وقع في نسخ مسلم في هذا الحديث عمرو بن دينار أنه سمع جابر بن عبد الله والمعروف فيه أبو الزبير عن جابر]

٢٨٧٠ - صحيح مسلم (٢/ ٧٠٤)٦٩ - (١٠١٧)

[ش (مجتابي النمار) نصب على الحالية أي لابسيها خارقين أوساطها مقورين يقال اجتبت القميص أي دخلت فيه والنمار جمع نمرة وهي ثياب صوف فيها تنمير وقيل هي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض أراد أنه جاءه قوم لابسي أزر مخططة من صوف (العباء) بالمد وبفتح العين جمع عباءة وعباية لغتان نوع من الأكسية (فتمعر) أي تغير (كومين) هو بفتح الكاف وضمها قال القاضي ضبطه بعضهم بالفتح وبعضهم بالضم قال ابن سراج هو بالضم اسم لما كوم وبالفتح المرة الواحدة قال والكومة بالضم الصبرة والكوم العظيم من كل شيء والكوم المكان المرتفع كالرابية قال القاضي فالفتح هنا أولى لأن مقصوده الكثرة والتشبيه بالرابية (يتهلل) أي يستنير فرحا وسرورا (مذهبة) ضبطوه بوجهين أحدهما وهو المشهور وبه جزم القاضي والجمهور مذهبة والثاني ولم يذكر الحميدي في الجمع بين الصحيحين غيره مدهنة وقال القاضي عياض في المشارق وغيره من الأئمة هذا تصحيف وذكر القاضي وجهين في تفسيره أحدهما معناه فضة مذهبة فهو أبلغ في حسن الوجه وإشراقه والثاني شبهه في حسنه ونوره بالمذهبة من الجلود وجمعها مذاهب وهي شيء كانت العرب تصنعه من جلود وتجعل فيها خطوط مذهبة يرى بعضها إثر بعض]

زَمَانًا،ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى قَرْقِيسِيَا وَمَاتَ بِهَا سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ،رَوَى عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ.(قَالَ:كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ) أَيْ:أَوَّلِه (عِنْدَ رَسُولِ اللَّه - ﷺ - فَجَاءَهُ قَوْمٌ عُرَاةٌ) أَيْ:يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْعُرْيُ حَالَ كَوْنِهِمْ (مُجْتَابِي) :هُوَ بِالْجِيمِ وَبَعْدَ الْأَلِف بَاءٌ أَيْ لَابِسِي (النِّمَارِ) :بِكَسْرِ النُّونِ وَهِيَ أَكْسِيَةٌ مِنْ صُوف مُخَطَّطَة.وَاحِدَتُهَا نَمِرَةٌ بِفَتْحِ النُّونِ كَذَا قَالَهُ الطِّيبِيُّ (أَوِ الْعَبَاءِ) :وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي أَوْ لِلتَّنْوِيعِ،فَفِي الْقَامُوسِ أَنَّهُ كِسَاءٌ مَعْرُوفٌ،وَالنَّمِرَةُ:شَمْلَةٌ فِيهَا خُطُوطٌ بِيضٌ وَسُودٌ،أَوْ بُرْدَةٌ مِنْ صُوف يَلْبَسُهَا الْأَعْرَابُ،فَعَلَى الْأَوَّلِ حَالٌ مُتَدَاخِلَةٌ أَوْ مُتَرَادِفَةٌ،وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ مُتَقَلِّدُونَ لِلسُّيُوفِ مِنْ جَوَانِبِهِمْ (وَمُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ) :كَذَا فِي نُسْخَةِ السَّيِّدِ جَمَالِ الدِّينِ بِالْوَاوِ،وَعَلَيْهِ صَحَّ بِالْحُمْرَةِ،لَكِنْ فِي بَعْضِ النُّسَخِ هَذِهِ الْوَاوُ غَيْرُ مَوْجُودَة،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ اخْتِلَافُ الرُّوَاةِ فِي حَدِيث وَاحِد (عَامَّتُهُمْ) أَيْ:أَكْثَرُهُمْ (مِنْ مُضَرَ) :كَعُمَرَ،قَبِيلَةٌ عَظِيمَةٌ (بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ) أَيْ مُبَالَغَةً (فَتَمَعَّرَ) :بِالتَّشْدِيدِ أَيْ:فَتَغَيَّرَ (وَجْهُ رَسُولِ - ﷺ -)،وَظَهَرَ عَلَيْهِ آثَارُ الْحُزْنِ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ) :أَيِ:الْفَقْرِ الشَّدِيدِ،وَمِنْ بَيَانٌ لِ " مَا "،يَعْنِي:لِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ مَا يُجْبِرُ كَسْرَهُمْ وَيُغْنِي فَقْرَهُمْ وَيَكْسِبُهُمْ وَيُعْطِيهِمْ مَا يُغْنِيهِمْ،وَهَذَا مِنْ كَمَالِ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ خُصُوصًا فِي حَقِّ أُمَّتِهِ (فَدَخَلَ) أَيْ فِي بَيْتِهِ لَعَلَّهُ يَلْقَى شَيْئًا مِنْ زِيَادَةِ النَّفَقَةِ أَوْ لِتَجْدِيدِ الطَّهَارَةِ وَالتَّهْيِئَةِ لِلْمَوْعِظَةِ (ثُمَّ خَرَجَ،فَأَمَرَ بِلَالًا) أَيْ بِالْأَذَانِ (فَأَذَّنَ،وَأَقَامَ فَصَلَّى) أَيْ:إِحْدَى الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ بِدَلِيلِ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا الظُّهْرُ أَوِ الْجُمُعَةُ لِقَوْلِهِ:فِي صَدْرِ النَّهَارِ (ثُمَّ خَطَبَ) أَيْ:وَعَظَ وَهُوَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا فَوْقَ الْمِنْبَرِ أَوْ دُونَهُ (فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ} [النساء:١] :أَيِ:الْمُؤْمِنُونَ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ مِنْ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ خِطَابٌ لِلْكُفَّارِ غَالِبِيٌّ {اتَّقُوا رَبَّكُمُ} [النساء:١] أَيْ:عَذَابَهُ أَوْ مُخَالَفَتَهُ {الَّذِي خَلَقَكُمْ} [النساء:١] أَيْ:بِالْوَاسِطَةِ {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء:١] :وَهِيَ آدَمُ (إِلَى آخِرِ الْآيَةِ) :وَتَمَامُهَا {وَخَلَقَ مِنْهَا} [النساء:١] أَيْ:مِنْ ضِلْعِهَا زَوْجَهَا أَيْ:حَوَّاءَ،وَالْوَاوُ لِمُطْلَقِ الْجَمْعِ أَوْ لِلْحَالِ،وَقَدْ تُقَدَّرُ أَوْ لَا تُقَدَّرُ {وَبَثَّ مِنْهُمَا} [النساء:١] أَيْ:فَرَّقَ مِنْ أَوْلَادِهِمَا بِوَسَطٍ أَوْ غَيْرِ وَسَطٍ.رُوِيَ أَنَّ بَنِي آدَمَ لِصُلْبِهِ أَرْبَعُونَ فِي عِشْرِينَ بَطْنًا.وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:وُلِدَ لِآدَمَ أَرْبَعُونَ وَلَدًا عِشْرُونَ غُلَامًا وَعِشْرُونَ جَارِيَةً " رِجَالًا " كَثِيرًا " وَنِسَاءً " أَيْ كَثِيرَةً،فَاكْتَفَى بِوَصْفِ الرِّجَالِ بِالْكَثْرَةِ عَنْ وَصْفِ النِّسَاءِ بِهَا،إِذِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُنَّ

أَكْثَرَ،وَتَذْكِيرُ الْكَثِيرِ حَمْلُ الْجَمْعِ دُونَ الْجَمَاعَةِ وَلِأَنَّ الْفِعِلَ يَسْتَوِي فِيهِ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ. {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ} [النساء:١] بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ " بِهِ " أَيْ:بِاللَّهِ وَالْأَرْحَامَ بِالنَّصْبِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ عَطْفًا عَلَى الْجَلَالَةِ،أَي:اتَّقُوا قَطْعَهَا وَبِالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةِ الْجَارِّ وَهُوَ جَائِزٌ فَصِيحٌ،وَأَخْطَأَ مَنْ ضَعَّفَهُ،وَكَانَ الْعَرَبُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ وَبِالرَّحِمِ كَذَا. {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء:١] أَيْ:مُطَّلِعًا عَلَى أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ فَرَاقِبُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا (وَالْآيَةَ) :قَالَ الطِّيبِيُّ:بِالنَّصْبِ عَطْفًا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى عَلَى قَوْلِهِ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا} [النساء:١] عَلَى تَأْوِيلِ " قَالَ " ب " قَرَأَ " أَيْ:قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ (الَّتِي فِي الْحَشْرِ) .اهـ.وَأَوَّلُهَا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحشر:١٨] وَبَعْدَهُ {اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ} [الحشر:١٨] وَهِيَ نَكِرَةٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ أَيْ:كُلُّ نَفْسٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{عَلِمَتْ نَفْسٌ} [الانفطار:٥] {مَا قَدَّمَتْ} [الانفطار:٥] :وَأَخَّرَتْ أَيْ:لِتَتَفَكَّرْ وَتَتَأَمَّلِ النُّفُوسُ مَا قَدَّمَتْ،أَيْ:أَيَّ شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْخَيْرَاتِ أَرْسَلَتْهُ إِلَى الْآخِرَةِ (لِغَدٍ) أَيْ:لِنَفْعِ الْغَدِ مِنَ الزَّمَانِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَتَمَامُهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ.وَهُوَ تَكْرِيرٌ لِلتَّأْكِيدِ،وَالْأَوَّلُ مَعْنَاهُ اتَّقُوا مُخَالَفَتَهُ،وَالثَّانِي اتَّقُوا عُقُوبَتَهُ أَوْ بِالْعَكْسِ،وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِقَوْلِهِ:{إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر:١٨] أَيْ:عَالِمٌ بِأَعْمَالِكُمْ فَيُخْبِرُكُمْ بِهَا وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ،وَفِيهِ جَوَازُ تَقْطِيعِ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ بِأَنْ يُؤْتَى بِبَعْضٍ كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى حَسَبِ الْحَاجَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ " تَصَدَّقَ رَجُلٌ ":بِفَتْحِ الْقَافِ وَتُسَكَّنُ قَالَ الطِّيبِيُّ:لَعَلَّ الظَّاهِرَ لِيَتَصَدَّقْ رَجُلٌ،وَلَامُ الْأَمْرِ لِلْغَائِبِ مَحْذُوفٌ،وَجَوَّزَهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ،وَنَقَلَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنْ نَبْكِ فِي:قِفَا نَبْكِ مَجْزُومٌ عَلَى تَأْوِيلِ الْأَمْرِ أَيْ:فَلْنَبْكِ،وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا} [الحجر:٣] أَيْ:فَلْيَأْكُلُوا،وَقَوْلِهِ تَعَالَى:{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا} [الجاثية:١٤] أَيْ:فَلْيَغْفِرُوا وَلَوْ حَمَلَ " تَصَدَّقَ " عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِي لَمْ يُسَاعِدْهُ قَوْلُهُ:" وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ " إِذِ الْمَعْنَى لِيَتَصَدَّقَ رَجُلٌ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ،كَذَا قَوْلُهُ:فَجَاءَ رَجُلٌ..إِلَخْ:لِأَنَّهُ بَيَانٌ لِامْتِثَالِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَقِيبَ الْحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ،وَلِمَنْ يُجْرِيهِ عَلَى الْإِخْبَارِ وَجْهٌ،لَكِنْ فِيهِ تَعَسُّفٌ غَيْرُ خَافٍ اهـ.

قَالَ الْأَبْهَرِيُّ:وَيَأْبَى عَنِ الْحَمْلِ عَلَى حَذْفِ اللَّامِ عَدَمُ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ اهـ.فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لَفْظًا وَأَمْرٌ مَعْنًى،وَإِتْيَانُ الْإِخْبَارِ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ كَثِيرٌ فِي الْكَلَامِ،فَلَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ فَضْلًا

عَنْ تَعَسُّف،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [الصف:١١] :قِيلَ:إِنَّهُمَا بِمَعْنَى آمِنُوا وَجَاهِدُوا،وَمِنْهُ مَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ " تَعْبُدُ اللَّهَ " بِمَعْنَى اعْبُدِ اللَّهَ،بَلْ قِيلَ:إِنَّهُ أَبْلَغُ فَكَأَنَّهُ أَمَرَهُ وَامْتَثَلَ بِهِ فَأَخْبَرَ عَنْهُ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا يُقَالُ هَذَا الْإِخْبَارُ مُضَارِعٌ وَالْكَلَامُ فِي الْمَاضِي،لِأَنَّ الْخَبَرَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَبَرٌ لَا تَفَاوُتَ فِيهِ مَاضِيًا أَوْ مُضَارِعًا مَعَ أَنَّ الْأَغْلَبِيَّةَ الْمَذْكُورَةَ أَظْهَرُ فِي الْمَاضِي لِدَلَالَتِهِ عَلَى تَحَقُّقِ وُقُوعِهِ،لِأَنَّ الْحَدِيثَ الْآتِيَ:" فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ " حَمَلَ بَعْضُهُمْ " أَخَذَ " الثَّانِيَ عَلَى مَعْنَى الْأَمْرِ.(مِنْ دِينَارِهِ،مِنْ دِرْهَمِهِ،مِنْ ثَوْبِهِ،مِنْ صَاعِ بُرِّهِ) :بِضَمِّ الْمُوَحَّدَةِ،أَيْ:مِنْ قَمْحِهِ وَحِنْطَتِهِ وَفِي مَعْنَاهُ مِنْ شَعِيرِهِ (مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ) :وَإِعَادَةُ الْعَامِلِ تُفِيدُ الِاسْتِقْلَالَ وَتَدْفَعُ أَنْ يَكُونَ الصَّاعُ مِنْهُمَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:رَجُلٌ نَكِرَةٌ وُضِعَتْ مَوْضِعَ الْجَمْعِ الْمَعْرُوفِ لِإِفَادَةِ الِاسْتِغْرَاقِ فِي الْإِفْرَادِ،وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ كَشَجَرَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ} [لقمان:٢٧] فَإِنَّ شَجَرَةً وَقَعَتْ مَوْقِعَ الْأَشْجَارِ،وَمِنْ ثَمَّ كَرَّرَ فِي الْحَدِيثِ مِرَارًا بِلَا عَطْفٍ أَيْ:لِيَتَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ،وَرَجُلٌ مِنْ دِرْهَمِهِ وَهَلُمَّ جَرًّا.وَ " مِنْ " فِي:" مِنْ دِينَارٍ "،إِمَّا تَبْعِيضِيَّةٌ،أَيْ:لِيَتَصَدَّقْ مِمَّا عِنْدَهُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ،وَإِمَّا ابْتِدَائِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْفِعْلِ فَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى اللَّامِ أَيْ:لِيَتَصَدَّقْ بِمَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِهِ وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر:٩] (حَتَّى قَالَ) :أَيِ النَّبِيُّ - ﷺ - لِيَتَصَدَّقْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ (وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) :أَيِ:الرَّاوِي (فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ) :بِالضَّمِّ،أَيْ:رَبْطَةٍ مِنَ الدَّرَاهِمِ أَوِ الدَّنَانِيرِ (كَادَتْ كَفُّهُ) أَيْ قَارَبَتْ (تَعْجِزُ) :بِكَسْرِ الْجِيمِ وَتُفْتَحُ (عَنْهَا) أَيْ:عَنْ حَمْلِ الصُّرَّةِ لِثِقَلِهَا لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا (بَلْ قَدْ عَجَزَتْ) :بِفَتْحِ الْجِيمِ وَتُكْسَرُ (ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ) أَيْ:تَوَالَوْا فِي إِعْطَاءِ الْخَيْرَاتِ وَإِتْيَانِ الْمَبَرَّاتِ (حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ) :الْكَوْمَةُ:بِالْفَتْحِ الصُّبْرَةُ (مِنْ طَعَامٍ) :الظَّاهِرُ أَنَّهُ هُنَا حُبُوبٌ،وَلَعَلَّ الِاقْتِصَارَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ النُّقُودِ لِغَلَبَتِهِ (وَثِيَابٍ،حَتَّى رَأَيْتُ) :بَدَلٌ مِنْ حَتَّى الْأُولَى أَوْ غَايَةٌ لَهَا أَيْ:حَتَّى أَبْصَرْتُ (وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَتَهَلَّلُ) أَيْ:يَسْتَنِيرُ وَيَظْهَرُ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ السُّرُورِ (كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ) :بِضَمِّ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْمُعْجَمَةِ وَفَتْحِ الْهَاءِ،بَعْدَهُ مُوَحَّدَةٌ،فِي مَا مُوِّهَ بِالذَّهَبِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالْمُهْمَلَةِ وَضَمِّ الْهَاءِ وَالنُّونِ،وَهُوَ مَا يُجْعَلُ فِيهِ الدُّهْمُ.قَالَ النَّوَوِيُّ:هُوَ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ وَفَتْحِ الْهَاءِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ.وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ:صَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ

فَقَالَ:مُدْهُنَةٌ بِدَالٍ مُهْمَلَةٍ وَضَمِّ الْهَاءِ وَبِالنُّونِ،وَكَذَا ضَبَطَهُ الْحُمَيْدِيُّ،وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ الصَّفَاءُ وَالِاسْتِنَارَةُ،كَذَا ذَكَرَهُ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ -:(«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً») أَيْ:أَتَى بِطَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ يُقْتَدَى بِهِ فِيهَا (فَلَهُ أَجْرُهَا) أَيْ:أَجْرُ تِلْكَ السُّنَّةِ،أَيْ:ثَوَابُ الْعَمَلِ بِهَا.وَفِي نُسْخَةٍ:أَجْرُهُ،أَيْ:أَجْرُ مَنْ سَنَّ،يَعْنِي أَجْرَ عَمَلِهِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ فِي عَامَّةِ نُسَخِ الْمَصَابِيحِ:فَلَهُ أَجْرُهَا،وَهُوَ غَيْرُ سَدِيدٍ رِوَايَةً وَمَعْنًى إِنَّمَا الصَّوَابُ أَجْرُهُ،وَالضَّمِيرُ لِصَاحِبِ الطَّرِيقَةِ،أَيْ:لَهُ أَجْرُ عَمَلِهِ وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِسُنَّتِهِ،وَظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الضَّمِيرَ رَاجِعٌ إِلَى السُّنَّةِ.(وَقَدْ وَهِمَ فِيهِ بَعْضُ النَّاسِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ رُوَاةِ الْكِتَابَيْنِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ رِوَايَةِ الشَّيْخَيْنِ فِي شَيْءٍ.قَالَ الْمُؤَلِّفُ:هَذَا الْحَدِيثُ لَمْ يُورِدْهُ الْبُخَارِيُّ إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَفْرَادِ مُسْلِمٍ،وَوُجِدَ فِي نُسَخٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ مُسْلِمٍ:أَجْرُهَا.وَعَلَى هَذَا شَرْحُ الْإِمَامِ النَّوَوِيِّ وَالْإِضَافَةُ لِأَدْنَى مُلَابَسَتِهِ،فَإِنَّ السُّنَّةَ سَبَبُ ثُبُوتِ الْأَجْرِ فَجَازَتِ الْإِضَافَةُ،كَذَا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ.قُلْتُ:وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ اتِّفَاقُ النُّسَخِ عَلَى وِزْرِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا) أَيْ:بِتِلْكَ الْحَسَنَةِ (مِنْ بَعْدِهِ) :مِنْ بَيَانِ مِنْ،وَفِي الْمَصَابِيحِ:وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بَعْدَهُ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ أَيْ بَعْدَ مَمَاتِ مَنْ سَنَّهَا قُيِّدَ بِهِ لِمَا يُتَوَهَّمُ أَنَّ ذَلِكَ الْأَجْرَ يُكْتَبُ لَهُ مَا دَامَ حَيًّا اهـ.

قُلْتُ:وَفِيهِ أَنَّهُ يُتَوَهَّمُ حِينَئِذٍ أَنَّ الْأَجْرَ لَا يُكْتَبُ لَهُ وَهُوَ حَيٌّ،فَالْأَحْسَنُ أَنْ يُقَالَ مِنْ بَعْدِ مَا سَنَّهُ (مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ) :عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ،وَجَوَّزَ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا لِأَنَّهُ مُتَعَدٍّ وَلَازِمٌ (مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ) أَيْ:مِنَ النَّقْصِ (وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً) أَيْ:بِدْعَةً مَذْمُومَةً عَمِلَ بِهَا (كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا) أَيْ:إِثْمُهَا (وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ) أَيْ:مِنْ جِهَةِ تَبَعِيَّتِهِ (مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ) :تَقَدَّمَ (مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ) :جَمَعَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِاعْتِبَارِ مَعْنَى " مِنْ " كَمَا أَفْرَدَ فِي " يَنْقُصَ " بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) . [٢٨٧١]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ،قَالَ:لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ،وَقِيلَ:قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ،فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ

[٢٨٧١] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٩٢)

بوَجْه كَذَّاب وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ به أَنْ قَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،أَفْشُوا السَّلَامَ،وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ،وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نيَامٌ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بسَلَامٍ» رواه الترمذي[٢٨٧٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه أَخْبِرْني بشَيْءٍ إذَا عَملْتُهُ أَوْ عَملْتُ به دَخَلْتُ الْجَنَّةَ،قَالَ:«أَفْشِ السَّلَامَ،وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ،وَصِلِ الْأَرْحَامَ،وَقُمْ باللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ،تَدْخُلِ الْجَنَّةَ بسَلَامٍ».[٢٨٧٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ :قُلْتُ :يَا رَسُولَ اللهِ،إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي،فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ .فَقَالَ :كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ،قَالَ :قُلْتُ :أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ .قَالَ :أَفْشِ السَّلاَمَ،وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ،وَصِلِ الأَرْحَامَ،وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ،ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ.[٢٨٧٤]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:احْتُبِسَ عَنَّا رَسُولُ اللَّه ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ منْ صَلَاة الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ،فَخَرَجَ سَرِيعًا فَثُوِّبَ بالصَّلَاة،فَصَلَّى رَسُولُ اللَّه ﷺ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاته،فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْته فَقَالَ لَنَا:«عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ» ثُمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ:" أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الغَدَاةَ:أَنِّي قُمْتُ منَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي فَاسْتَثْقَلْتُ،فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ قُلْتُ:لَبَّيْكَ رَبِّ،قَالَ:فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ:لَا أَدْرِي رَبِّ،قَالَهَا ثَلَاثًا " قَالَ:" فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ

[٢٨٧٢] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٥٢)(٢٤٨٥) صحيح

(عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ سَلَامٍ قَالَ:«لَمَّا قَدمَ النَّبِيُّ - ﷺ- الْمَدِينَةَ جِئْتُ») أَيْ:إِلَيْه لِأَطَّلعَ عَلَيْه وَأُسْلِمَ لَدَيْه " «فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ») أَيْ:أَبْصَرْتُ وَجْهَهُ ظَاهِرًا وَقِيلَ:تَأَمَّلْتُ وَتَفَرَّسْتُ بِأَمَارَات لَائحَة فِي سيمَاهُ،وَأَصْلُ مَعْنَاهُ تَكَلَّفْتُ فِي الْبَيَانِ («عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْه كَذَّابٍ») بِالْإِضَافَة وَيُنَوَّنُ أَيْ:بِوَجْه ذِي كَذِبٍ فَإِنَّ الظَّاهِرَ عُنْوَانُ الْبَاطِنِ (فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَالَ) بِالرَّفْعِ وَيُنْصَبُ " يَا أَيُّهَا النَّاسُ " خِطَابٌ عَامٌّ بِكَلِمَات جَامِعَة لِلْمُعَامَلَة مَعَ الْخَلْقِ وَالْحَقِّ " «أَفْشُوا السَّلَامَ» " أَيْ:أَظْهِرُوهُ وَأَكْثِرُوهُ عَلَى مَنْ تَعْرِفُونَهُ وَمَنْ لَا تَعْرِفُونَهُ " «وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ» " أَيْ:لِنَحْوِ الْمَسَاكِينِ وَالْأَيْتَامِ " «وَصِلُوا الْأَرْحَامَ» " أَيْ:وَلَوْ بِالسَّلَامِ " «وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ» " أَيْ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ " وَالنَّاسُ نِيَامٌ " لِأَنَّهُ وَقْتُ الْغَفْلَة،فَلِأَرْبَاب الْحُضُورِ مَزِيدُ الْمَثُوبَة أَوْ لِبُعْده عَنِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ («تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ») أَيْ مِنَ اللَّهِ أَوْ مِنْ مَلَائِكَته مِنْ مَكْرُوهٍ أَوْ تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٣٤٠)

[٢٨٧٣] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٦١)(٥٠٨) صحيح

[٢٨٧٤] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٣/ ١٧٤)(٧٩٣٢) ٧٩١٩- صحيح

كَتفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامله بَيْنَ ثَـدْيَيَّ،فَتَجَلَّى لِـي كُـلُّ شَـيْءٍ وَعَرَفْتُ،فَقَـالَ:يَـا مُحَمَّدُ،قُلْتُ:لَبَّيْكَ رَبِّ،قَالَ:فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ:فِي الكَفَّارَاتِ،قَـالَ:مَـا هُـنَّ؟ قُلْتُ:مَشْيُ الأَقْدَامِ إِلَى الجَمَاعَاتِ،وَالجُلُوسُ فِي المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ،وَإِسْبَاغُ الوُضُوءِ فِـي المَكْرُوهَاتِ،قَالَ:ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْـتُ:إِطْعَـامُ الطَّعَـامِ،وَلِينُ الكَلَامِ،وَالصَّـلَاةُ بِاللَّيْـلِ وَالنَّـاسُ نِيَامٌ.قَالَ:سَلْ.قُلْتُ:اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ،وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ،وَحُبَّ المَسَاكِينِ،وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي،وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْـرَ مَفْتُونٍ،وَأَسْـأَلُكَ حُبَّـكَ وَحُـبَّ مَـنْ يُحِبُّكَ،وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ "،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا» [٢٨٧٥]

(وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:احْتَبَسَ) :بِصِيغَةِ الْمَعْلُومِ،وَرُوِيَ مَجْهُولًا (عَنَّا رَسُولُ اللَّـهِ - ﷺ - ذَاتَ غَدَاةٍ) أَيْ يَوْمًا أَوْ صَاحِبَةَ غَدَاةٍ،وَهِيَ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى الزَّوَالِ،أَيْ:سَاعَةً مِنْ أَوَّلِهَا (عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ) :بَدَلُ اشْتِمَالٍ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ (حَتَّى كِدْنَا)،أَيْ:قَارَبْنَا (نَتَرَاءَى عَـيْنَ الشَّـمْسِ) :وُضِعَ مَوْضِعَ نَرَى لِلْجَمْعِ قَالَ الطِّيبِيُّ،وَالْأَظْهَرُ مَا قَالَهُ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّهُ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى ذَلِكَ لِمَـا فِيهِ مِنْ كَثْرَةِ الِاعْتِنَاءِ بِالْفِعْلِ،وَسَبَبُ تِلْكَ الْكَثْرَةِ خَوْفُ طُلُوعِهَا الْمُفَوِّتِ لِأَدَاءِ الصُّبْحِ (فَخَرَجَ سَرِيعًا)،أَيْ:مُسْرِعًا أَوْ خُرُوجًا سَرِيعًا (فَثُوِّبَ)،أَيْ:أُقِيمَ (بِالصَّلَاةِ) :وَقَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ،أَيْ:أَقَامَهَا مُوهِمٌ (فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَتَجَوَّزَ)،أَيْ:خَفَّفَ وَاقْتَصَرَ عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ - سِيَّمَا فِي الصُّبْحِ - لِمَا يَقْتَضِيهِ الْوَقْتُ (فِي صَلَاتِهِ)،أَيْ:مَعَ أَدَاءِ الْأَرْكَانِ (فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَـا)،أَيْ:نَـادَى (بِصَوْتِهِ فَقَالَ لَنَا)،أَيْ:رَفَعَ صَوْتَهُ بِقَوْلِهِ لَنَا (عَلَى مَصَافِّكُمْ)،أَيِ:اثْبُتُوا عَلَيْهَا جَمْعُ مَصَفٍّ،وَهُوَ مَوْضِعُ الصَّفِّ (كَمَا أَنْتُمْ)،أَيْ:عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ،أَوْ ثُبُوتًا مِثْلَ الثُّبُوتِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ قَبْلَ النِّدَاءِ مِنْ غَيْرِ تَغَيُّرٍ وَتَقَدُّمٍ وَتَأْخِيرٍ (ثُمَّ انْفَتَلَ)،أَيِ:انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ،أَوْ أَقْبَلَ مِنَ الْقِبْلَـةِ [إِلَيْنَـا،ثُمَّ قَالَ:(أَمَا) بِالتَّخْفِيفِ لِلتَّنْبِيهِ (إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ) :السِّينُ لِمُجَرَّدِ التَّأْكِيدِ (مَـا حَبَسَـنِي عَـنْكُمْ) مَا:مَوْصُولَةٌ (الْغَدَاةَ) :نُصِبَ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ (إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ)،أَيْ:بَعْضَهُ (فَتَوَضَّأْتُ وَصَـلَّيْتُ مَا قُدِّرَ)،أَيْ:مِقْدَارَ مَا قُدِّرَ أَوْ يُسِّرَ (لِي) :مِنْ صَلَاةِ (" فَنَعَسْتُ ")،بِالْفَتْحِ مِنَ النُّعَاسِ،وَهُوَ النَّوْمُ الْقَلِيلُ التَّهَجُّدِ (فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَثْقَلْتُ) :بِصِيغَةِ الْمَعْلُومِ أَوِ الْمَجْهُولِ،أَيْ:غَلَبَ عَلَيَّ النُّعَاسُ

[٢٨٧٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٣٦٨)(٣٢٣٥) صحيح

أَوْ بِرَجَاءِ الْوَحْيِ (فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي) :إِذْ لِلْمُفَاجَأَةِ،أَيْ:فَاجَأَ اسْتِثْقَالِي رُؤْيَتِي (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) :فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّنْزِيهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ (فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ)،أَيْ:صِفَةٍ،أَوْ كَانَ التَّجَلِّي صُورِيًّا أَوْ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ،حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ كَمَا سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ،وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَةَ فِي النَّوْمِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ (فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ! قُلْتُ لَبَّيْكَ)،أَيْ:إِجَابَةً بَعْدَ إِجَابَةٍ،وَإِطَاعَةً بَعْدَ إِطَاعَةٍ،إِيمَاءً إِلَى دَوَامِ الْعُبُودِيَّةِ،وَالْقِيَامِ بِالْعِبَادَةِ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ (رَبِّ) :بِحَذْفِ النِّدَاءِ وَيَاءِ الْإِضَافَةِ (قَالَ:فِيمَ) :مَا الاسْتِفْهَامِيَّةُ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا حَرْفُ الْجَرِّ حُذِفَ أَلِفُهَا (يَخْتَصِمُ)،أَيْ:يَبْحَثُ (الْمَلَأُ الْأَعْلَى)،أَيِ:الْأَشْرَافُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ (قُلْتُ:لَا أَدْرِي قَالَهَا ثَلَاثًا)،أَيْ:قَالَ تَعَالَى هَذِهِ الْمَقُولَةَ الْمُتَرَتِّبَ عَلَيْهَا جَوَابُهَا ثَلَاثًا،وَأَجَبْتُ عَنْهَا:بِلَا أَدْرَى تَأْكِيدًا لِلاعْتِرَافِ بِعَدَمِ الْعِلْمِ،وَفِي تَأْخِيرِ " قَالَهَا ثَلَاثًا " إِلَى مَا قَرَّرْنَاهُ (قَالَ:فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ) :يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنْ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ (حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ)،أَيْ:لَذَّةَ آثَارِهِ (بَيْنَ ثَدْيَيَّ)،أَيْ:فِي صَدْرِي أَوْ قَلْبِي (فَتَجَلَّى)،أَيِ:انْكَشَفَ وَظَهَرَ (لِي كُلُّ شَيْءٍ)،أَيْ:مِمَّا أَذِنَ اللَّهُ فِي ظُهُورِهِ لِيَ مِنَ الْعَوَالِمِ الْعُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ مُطْلَقًا،أَوْ مِمَّا يَخْتَصِمُ بِهِ الْمَلَأُ الْأَعْلَى خُصُوصًا (وَعَرَفْتُ) :حَقِيقَةَ الْأَمْرِ،وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ،وَقَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ،أَيْ:عَرَفْتُهُ عِيَانًا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ (فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ! قُلْتُ:لَبَّيْكَ رَبِّ)،أَيْ:أَوَّلًا وَآخِرًا («قَالَ:فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ:فِي الْكَفَّارَاتِ»)،أَيْ:لِلسَّيِّئَاتِ (قَالَ:مَا هُنَّ؟)،وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ:(وَمَا هُنَّ)،بِزِيَادَةِ الْوَاوِ (قُلْتُ:مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ)،أَيْ:لِلصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ (وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ) أَيِ الَّتِي هِيَ رَوْضَاتُ الْجَنَّاتِ (بَعْدَ الصَّلَوَاتِ)،أَيِ:الْمُقْتَضَيَاتُ (وَإِسْبَاغُ الْوَضُوءِ) بِفَتْحِ الْوَاوِ وَيُضَمُّ،أَيْ:إِكْمَالُهُ (حِينَ الْكَرِيهَاتِ)،أَيْ:وَقْتَ الْمَكْرُوهَاتِ مِنْ أَيَّامِ الْبُرُودَاتِ أَوْ أَزْمِنَةِ الْغَلَاءِ فِي ثَمَنِ الْمَاءِ (قَالَ:ثُمَّ فِيمَ؟) :أَيْ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى أَيْضًا وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَقْدِيمِ الْكَفَّارَاتِ،(قُلْتُ:) وَفِي نُسْخَةٍ قَالَ:قُلْتُ:(فِي الدَّرَجَاتِ)،أَيْ:فِي دَرَجَاتِ الْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ (قَالَ:وَمَا هُنَّ؟) بِالْوَاوِ (قُلْتُ) :وَفِي نُسْخَةٍ:قَالَ:قُلْتُ (إِطْعَامُ الطَّعَامِ)،أَيْ:إِعْطَاؤُهُ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ (وَلِينُ الْكَلَامِ)،أَيْ:لِلَّهِ مَعَ الْأَنَامِ (وَالصَّلَاةُ)،أَيْ:بِاللَّيْلِ كَمَا فِي نُسْخَةٍ (وَالنَّاسُ نِيَامٌ) الْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ وَالنِّيَامُ جَمْعُ نَائِمٍ (قَالَ) :وَفِي نُسْخَةٍ:ثُمَّ قَالَ (سَلْ) :وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الدَّعَوَاتُ بَعْدَ الطَّاعَاتِ.(قُلْتُ) وَفِي نُسْخَةٍ،قَالَ:قُلْتُ:(

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ») :بِكَسْرِ الْفَاءِ وَقِيلَ بِفَتْحِهَا أَيِ الْمَأْمُورَاتِ (وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ) – ﷺ – أَيِ:الْمَنْهِيَّاتِ (وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ) :يَحْتَمِلُ الْإِضَافَتَيْنِ،وَالْأَنْسَبُ بِمَا قَبْلَهُ إِضَافَتُهُ إِلَى الْمَفْعُولِ (وَأَنْ تَغْفِرَ لِي) :مَا فَرَطَ مِنِّي مِنْ السَّيِّئَاتِ (وَتَرْحَمَنِي) :بِقَبُولِ مَا صَدَرَ عَنِّي مِنَ الْعِبَادَاتِ (وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً)،أَيْ:ضَلَالَةً أَوْ عُقُوبَةً (فِي قَوْمٍ)،أَيْ:جَمْعٍ أَوْ قَبِيلَةٍ (فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ)،أَيْ:وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى طَلَبِ الْعَافِيَةِ وَاسْتِدَامَةِ السَّلَامَةِ إِلَى حُسْنِ الْخَاتِمَةِ (وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ) قَالَ الطِّيبِيُّ:يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ:أَسْأَلُكَ حُبَّكَ إِيَّايَ،أَوْ حُبِّيَ إِيَّاكَ،أَقُولُ:وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَوَّلَ أَكْمَلُ فَعَلَيْهِ الْمُعَوَّلُ،قَالَ تَعَالَى:{يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة:٥٤] قَالَ الطِّيبِيُّ:وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُهُ:(وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ) :وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْإِضَافَةَ هُنَا إِلَى الْمَفْعُولِ أَنْسَبُ لِأَنَّهُ إِلَى التَّوَاضُعِ أَقْرَبُ،قَالَ الطِّيبِيُّ:وَأَمَّا قَوْلُهُ (وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ) :فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ طَالِبٌ لِمَحَبَّتِهِ لِيَعْمَلَ حَتَّى يَكُونَ وَسِيلَةً إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ إِيَّاهُ،فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ الْحَدِيثَ عَلَى أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنَ الْمَحَبَّةِ فِي الطَّرَفَيْنِ،وَلَعَلَّ السِّرَّ فِي تَسْمِيَتِهِ بِحَبِيبِ اللَّهِ لَا يَخْلُو مِنْ هَذَا الْقَوْلِ اهـ. وَقَوْلُهُ:لَا يَخْلُو ظَاهِرٌ،وَلَا يَخْلُو مِنِ احْتِمَالٍ آخَرَ،[فَـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – (إِنَّهَا) أَيْ:هَذِهِ الرُّؤْيَا (حَقٌّ)،رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ،فَادْرُسُوهَا،أَيْ فَاحْفَظُوا أَلْفَاظَهَا الَّتِي ذَكَرْتُهَا لَكُمْ فِي ضِمْنِهَا،أَوْ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَقٌّ فَادْرُسُوهَا،أَيِ:اقْرَءُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا أَيْ مَعَانِيَهَا الدَّالَّةَ هِيَ عَلَيْهَا،قَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ:لِتَعْلَمُوهَا فَحَذَفَ اللَّامَ أَيْ لَامَ الْأَمْرِ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ،أَيْ لِذَاتِهِ،صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:مَعْنَاهُ:أَوْ صَحِيحٌ عَلَى حَذْفِ حَرْفِ التَّرْدِيدِ،أَيْ لِلتَّنْوِيعِ يَعْنِي هُوَ عِنْدَ قَوْمٍ حَسَنٌ،وَعِنْدَ آخَرِينَ صَحِيحٌ،وَيُؤَيِّدُهُ سُؤَالُهُ الْبُخَارِيَّ وَجَوَابُهُ الْآتِي.

وَقَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ لَهُ إِسْنَادَانِ،هُوَ بِأَحَدِهِمَا حَسَنٌ وَبِالْآخَرِ صَحِيحٌ،أَوْ أَرَادَ بِالْحُسْنِ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيَّ وَهُوَ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ،وَلَا تَأْبَاهُ،وَسَأَلْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ أَيِ الْبُخَارِيَّ صَاحِبَ الصَّحِيحِ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَيْ إِسْنَادِهِ فَقَالَ:هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.[٢٨٧٦]

وعنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَطْعِمُوا الجَائِعَ،وَعُودُوا المَرِيضَ،وَفُكُّوا العَانِيَ» رواه البخاري[٢٨٧٧].

[٢٨٧٦] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٦٢٥)

وعَن أَنَس،قَالَ:قَالَ رَسُول الله ﷺ:سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِه،وهُو فِي قَبْرِه:مَــنْ عَلَّمَ عِلْمًا،أَوْ كَرَى نَهْرًا،أَوْ حَفَرَ بِئْرًا،أَوْ غَرَسَ نَخْلا،أَوْ بَنَى مَسْجِدًا،أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا،أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِه.رواه البزار.[٢٨٧٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِــهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ،وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ،وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ،أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ،أَوْ بَيْتًا لِــابْنِ السَّــبِيلِ بَنَاهُ،أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ،أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ،يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»[٢٨٧٩]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَخْبَرَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّــهِ ﷺ قَالَ:«المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ،وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّــهُ فِــي

[٢٨٧٧] – صحيح البخاري (٧/ ١١٥)(٥٦٤٩)

" أَطْعِمُوا الْجَائِعَ) أَيِ:الْمُضْطَرَّ وَالْمِسْكِينَ وَالْفَقِيرَ.(وَعُودُوا الْمَرِيضَ):أَمْرٌ مِنَ الْعِيَادَةِ.(وَفُكُّوا الْعَانِيَ) أَيِ:الْأَسِيرَ،وَكُلُّ مَنْ ذَلَّ وَاسْتَكَانَ وَخَضَعَ فَقَدْ عَنَى كَذَا فِي النِّهَايَةِ،وَقِيلَ:أَيْ:أَعْتِقُوا الْأَسِيرَ أَيِ:الرَّقِيقَ،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَيْ:خَلِّصُوا الْأَسِيرَ مِنْ يَدِ الْعَدُوِّ،وَهَذِهِ الْأَوَامِرُ لِلْوُجُوبِ عَلَى الْكِفَايَةِ،فَإِذَا امْتَثَلَ بَعْضٌ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ١١٢٠)

[٢٨٧٨] – مسند البزار = البحر الزخار (١٣/ ٤٨٣)(٧٢٨٩) وصحيح الجامع (٣٦٠٢) حسن لغيره

[٢٨٧٩] – سنن ابن ماجه (١/ ٨٨)(٢٤٢) حسن

(إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ):خَبَرُ إِنَّ:أَيْ كَائِنٌ مِمَّا يَلْحَقُهُ،وَاسْمُهَا عِلْمًا وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ،وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ تَبْعِيضِيَّةً لِأَنَّهُ يُنَافِي الْحَصْرَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:يَنْقَطِعُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ " (مِنْ عَمَلِهِ):بَيَانٌ لَهُ (وَحَسَنَاتِهِ):عَطْفُ تَفْسِيرٍ (بَعْدَ مَوْتِهِ):ظَرْفٌ يَلْحَقُ (عِلْمًا عَلَّمَهُ):بِالتَّخْفِيفِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالتَّشْدِيدِ (وَنَشَرَهُ):هُوَ أَعَمُّ مِنَ التَّعْلِيمِ،فَإِنَّهُ يَشْمَلُ التَّأْلِيفَ وَوَقْفَ الْكُتُبِ (وَوَلَدًا صَالِحًا):أَيْ:مُؤْمِنًا (تَرَكَهُ):أَيْ:خَلَّفَهُ أَيْ " بَعْدَ مَوْتِهِ احْتِرَازًا عَنِ الْفَرَطِ (أَوْ مُصْحَفًا):بِتَثْلِيثِ الْمِيمِ،وَالضَّمُّ أَشْهَرُ (وَرَّثَهُ):أَيْ:تَرَكَهُ لِلْوَرَثَةِ وَلَوْ مِلْكًا وَفِي مَعْنَاهُ:كُتُبُ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ فَيَكُونُ لَهُ ثَوَابُ التَّسَبُّبِ (أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ):وَفِي مَعْنَاهُ مَدْرَسَةُ الْعُلَمَاءِ وَرِبَاطُ الصُّلَحَاءِ (أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ):أَيِ الْمُسَافِرِ وَالْغَرِيبِ (بَنَاهُ):حَقِيقَةً أَوْ حُكْمًا (أَوْ نَهَرًا):بِفَتْحِ الْهَاءِ وَيُسَكَّنُ (أَجْرَاهُ):أَيْ:جَعَلَهُ جَارِيًا لِيَنْتَفِعَ بِهِ الْخَلْقُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:الْجُمَلُ الْمُصَدَّرَةُ بِأَوْ مِنْ قِسْمِ الصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ،وَأَوْ فِيهَا لِلتَّنْوِيعِ وَالتَّفْصِيلِ،وَأَمَّا قَوْلُهُ (أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ):فَدَاخِلٌ فِي الصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ وَلِإِرَادَةِ هَذَا الْمَعْنَى أَتْبَعَهُ بِقَوْلِهِ:(تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ) .وَفِي عَطْفِ حَيَاتِهِ عَلَى صِحَّتِهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فِي جَوَابِ مَنْ قَالَ:«أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى» .الْحَدِيثَ اهــ.وَفِيهِ أَنَّ هَذِهِ الْإِشَارَةَ مَفْهُومَةٌ مِنْ نَفْسِ قَوْلِهِ وَصِحَّتِهِ لَا مِنَ الْعَطْفِ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ:إِنَّهَا مَفْهُومَةٌ مِنْ تَقَدُّمِ الصِّحَّةِ عَلَى الْحَيَاةِ،وَمَعْنَى قَوْلِهِ:" وَحَيَاتِهِ " أَيْ:وَلَوْ فِي مَرَضِهِ.فَالْوَاوُ بِمَعْنَى (أَوْ) وَقَوْلُهُ أَخْرَجَهَا أَيْ بِالْوَصِيَّةِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣٢٦)

حَاجَته،وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً،فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ،وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢٨٨٠]

[٢٨٨٠] - صحيح البخاري (٣/ ١٢٨)(٢٤٤٢)

[ش(يسلمه) يتركه إلى الظلم.(كان في حاجة أخيه) سعى في قضائها.(كان الله في حاجته) أعانه الله تعالى وسهل له قضاء حاجته.(كربة) مصيبة من مصائب الدنيا توقعه في الغم وتأخذ بنفسه]

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»)،فيه إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْمُسْلِمَ وَالْمُؤْمِنَ وَاحِدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات:١٠]،وَهُوَ مُجْمَلٌ تَفْصِيلُهُ مَا بَعْدَهُ،ولِهَذَا وَرَدَ مُنْقَطِعًا عَمَّا بَعْدَهُ عَلَى مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ سُوِيدَ بْنِ حَنْظَلَةَ،وَابْنِ عَسَاكِرَ عَنْ وَاثِلَةَ،وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ،وَالْأَخُ لَا يَضُرُّ أَخَاهُ،بَلْ يَنْفَعُهُ فِي كُلِّ مَا يَرَاهُ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ التَّرْكِيبُ مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ مُبَالَغَةً،كَمَا وَرَدَ:" «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» " (لَا يَظْلِمُهُ)،نَفْيٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ،وَالْمَعْنَى:لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَظْلِمَهُ،وَفِي حُكْمِ الْمُسْلِمِ الذِّمِّيُّ وَالْمُسْتَأْمَنُ،ثُمَّ إِنَّهُ لَا مَفْهُومَ لَهُ،فَإِنَّ الظُّلْمَ لَا يُتَصَوَّرُ فِي حَقِّ الْكَافِرِ،وَهُوَ اسْتِئْنَافُ بَيَانٍ لِلْمُوجِبِ أَوْ لِوَجْهِ الشَّبَهِ،فَإِنَّ الظَّالِمَ يَنْحَطُّ أَوَّلًا عَنْ رُتْبَةِ النُّبُوَّةِ:{لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة:١٢٤]،وَثَانِيًا عَنْ دَرَجَةِ الْوَلَايَةِ:{أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود:١٨]،وَثَالِثًا عَنْ مَزِيدِ السَّلْطَنَةِ:لَبَيْتُ الظَّالِمِ خَرَابٌ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ،وَرَابِعًا:عَنْ نَظَرِ الْخَلَائِقِ:جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا،وَخَامِسًا:عَنْ حِفْظِ نَفْسِهِ:" وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ".

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا ...فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بِالنَّدَمِ

نَامَتْ عُيُونُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ ...يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمِ

(وَلَا يُسْلِمُهُ)،بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَكَسْرِ اللَّامِ أَيْ:لَا يَخْذُلُهُ،بَلْ يَنْصُرُهُ،فَفِي النِّهَايَةِ يُقَالُ:أَسْلَمَ فُلَانٌ فُلَانًا:إِذَا أَلْقَاهُ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَلَمْ يَحْمِهِ مِنْ عَدُوِّهِ،وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ أَسْلَمْتَهُ إِلَى شَيْءٍ،لَكِنْ دَخَلَهُ التَّخْصِيصُ وَغَلَبَ عَلَيْهِ الْإِلْقَاءُ فِي التَّهْلُكَةِ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:الْهَمْزَةُ فِيهِ لِلسَّلْبِ أَيْ:لَا يُزِيلُ سِلْمَهُ،وَهُوَ بِكَسْرِ السِّينِ وَفَتْحِهَا الصُّلْحُ (وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ) أَيْ:سَاعِيًا فِي قَضَائِهَا (كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ) هُنَا مِنْ قَبِيلِ الْمُشَاكَلَةِ،وَقَدْ وَرَدَ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَلَفْظُهُ:" «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» "،وَفِيهِ تَنْبِيهٌ نَبِيهٌ عَلَى فَضِيلَةِ عَوْنِ الْأَخِ عَلَى أُمُورِهِ،وَإِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُكَافَأَةَ عَلَيْهَا بِجِنْسِهَا مِنَ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ،سَوَاءٌ كَانَ بِقَلْبِهِ أَوْ بَدَنِهِ أَوْ بِهِمَا لِدَفْعِ الْمَضَارِّ،أَوْ جَذْبِ الْمَنَافِعِ إِذِ الْكُلُّ عَوْنٌ (وَمَنْ فَرَّجَ) بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَيُخَفَّفُ،وَفِي رِوَايَةٍ مَنْ نَفَّسَ بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ،وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ أَيْ:أَزَالَ وَكَشَفَ (عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً) أَيْ:مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا كَمَا فِي نُسْخَةٍ،وَهِيَ كَذَلِكَ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،وَالْكُرْبَةُ بِضَمِّ الْكَافِ فُعْلَةٌ مِنَ الْكَرْبِ،وَهِيَ الْخَصْلَةُ الَّتِي يَحْزَنُ بِهَا وَجَمْعُهَا كُرَبٌ بِضَمٍّ فَفَتْحٍ،وَالتَّنْوِينُ فِيهَا لِلْإِفْرَادِ وَالتَّحْقِيرِ أَيْ:هَمًّا وَاحِدًا مِنْ هُمُومِهَا أَيُّ هَمٍّ كَانَ صَغِيرَهُ أَوْ كَبِيرَهُ عَرْضَهُ وَعِرْضَهُ عَدَدَهُ وَعُدَدَهُ،وَقَوْلُهُ مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا أَيْ:بَعْضِ كُرَبِهَا أَوْ كُرْبَةٌ مُبْتَدَأَةٌ مِنْ كُرَبِهَا (فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) بِضَمِّ الْكَافِ وَالرَّاءِ،وَفِي رِوَايَةٍ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيِ الَّتِي لَا تُحْصَى؛لِأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ،وَتَنْفِيسُ الْكُرَبِ إِحْسَانٌ لَهُمْ،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠]،وَلَيْسَ هَذَا مُنَافِيًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام:١٦٠]،لِمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهَا تُجَازَى بِمِثْلِهَا وَضِعْفِهَا إِلَى عَشْرَةٍ إِلَى مِائَةٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى غَيْرِ حِسَابٍ،عَلَى أَنَّ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تُسَاوِي عَشْرًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ تَنْوِينُ التَّعْظِيمِ وَتَخْصِيصُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ دُونَ يَوْمٍ آخَرَ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُضَاعَفَةَ إِمَّا فِي الْكَمِّيَّةِ أَوْ فِي الْكَيْفِيَّةِ (وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا) أَيْ:بَدَنَهُ أَوْ عَيْبَهُ بِعَدَمِ الْغِيبَةِ لَهُ

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا،نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ،يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا،سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ،وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا،سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ،يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ،وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ،إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ،وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ،وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ،وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ،لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» رواه مسلم [2881]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ،وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٍ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ،أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً،أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا،أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا،وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ،يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ،شَهْرًا،وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ،وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ،وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ،مَلَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ» [2882]

وَالذَّبِّ عَنْ مَعَايِبِهِ،وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ لَيْسَ مَعْرُوفًا بِالْفَسَادِ،وَإِلَّا فَيُسْتَحَبُّ أَنْ تُرْفَعَ قِصَّتُهُ إِلَى الْوَالِي،فَإِذَا رَآهُ فِي مَعْصِيَةٍ فَيُنْكِرُهَا بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ،وَإِنْ عَجَزَ يَرْفَعُهَا إِلَى الْحَاكِمِ إِذَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ؛كَذَا فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ (سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَفِي رِوَايَةٍ:سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَفِيهِ إِشَارَةٌ خَفِيَّةٌ صُوفِيَّةٌ صَفِيَّةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ وَقَفَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَقَامَاتِ أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَكَرَامَاتِ ذَوِي الْإِيقَانِ أَنْ يَحْفَظَ سِرَّهُ وَيَكْتُمَ أَمْرَهُ،فَإِنَّ كَشْفَ الْأَسْرَارِ عَلَى الْأَغْيَارِ يَسُدُّ بَابَ الْعِنَايَةِ وَيُوجِبُ الْحِرْمَانَ وَالْغَوَايَةَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣١٠٤)

[2881] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤)٣٨ - (٢٦٩٩)

[ش (ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) معناه من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل]

[2882] - المعجم الأوسط (٦/ ١٣٩)(٦٠٢٦) حسن لغيره

وعَنْ كَثِيرِ النَّوَّاءِ قَالَ:حَدَّثَنِي أَبُو مَرْيَمَ الْأَنْصَارِيُّ،وَكَانَ ابْنَ خَمْسِينَ ومِائَةِ سَنَةٍ قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،يَقُولُ:سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«إِدْخَالُكَ السُّرُورَ عَلَى مُؤْمِنٍ أَشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ،أَوْ كَسَوْتَ عُرْيَهُ،أَوْ قَضَيْتَ لَهُ حَاجَةً» رواه الطبراني في الأوسط[٢٨٨٣]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ لِلَّهِ عَبَّادًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ،يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا،فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ،فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ» " رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط[٢٨٨٤]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَأَسْبَغَهَا عَلَيْهِ،ثُمَّ جَعَلَ شَيْئًا مِنْ حَوَائِجِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَتَبَرَّمَ،فَقَدْ عَرَّضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ» رواه الطبراني[٢٨٨٥]

وعَنْ سَهْلٍ،قَالَ:رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَأَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى،وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا" رواه البخاري[٢٨٨٦]

[٢٨٨٣] - المعجم الأوسط (٥/ ٢٠٢)(٥٠٨١) ضعيف

[٢٨٨٤] - المعجم الأوسط (٥/ ٢٢٨)(٥١٦٢) والمعجم الكبير للطبراني جـ ١٣،١٤ (ص:٢٠٧)(١٣٩٢٥) حسن لغيره

[٢٨٨٥] - المعجم الأوسط (٧/ ٢٩٢)(٧٥٢٩) وشعب الإيمان (١٠/ ١١٦)(٧٢٥٤) و(٧٢٥٨) حسن

[٢٨٨٦] - صحيح البخاري (٧/ ٥٣)(٥٣٠٤)

[ش (كافل اليتيم) القائم بأمره ومصالحه والحافظ لأمواله واليتيم من مات أبوه ولم يبلغ.(وأشار) لبيان شدة قرب كافل اليتيم منه ﷺ.(السبابة) هي المسبحة وفي نسخة (بالسباحة).(فرج) فرق قليلا لبيان التفاوت بين الأنبياء وغيرهم]

(وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ) أَيِ:السَّاعِدِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - (قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ) أَيِ:الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ أَيْ:مُرَبِّيهِ (لَهُ)،أَيْ:كَائِنًا لِذَلِكَ الْكَافِلِ كَوَلَدِ وَلَدِهِ،وَإِنْ أَسْفَلَ،أَوِ ابْنِ أَخِيهِ وَنَحْوِهِ (وَلِغَيْرِهِ)،الْوَاوُ بِمَعْنَى:" أَوْ " أَيْ أَوْ كَائِنًا لِغَيْرِهِ فَيَكُونُ أَجْنَبِيًّا مِنْهُ (فِي الْجَنَّةِ) خَبَرُ أَنَا وَمَعْطُوفَةٌ (هَكَذَا) إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ الْقُرْبِ (وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ) أَيِ:الْمُسَبِّحَةُ (وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ) بِالتَّشْدِيدِ أَيْ:فَرَّقَ (بَيْنَهُمَا شَيْئًا) أَيْ:قَلِيلًا لِعَدَمِ تَصَوُّرِ الْكَثِيرِ،وَكَأَنَّهُ أَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى عُلُوِّ مَرْتَبَةِ النُّبُوَّةِ وَإِنْ تَلَاهَا رُتْبَةُ الْفُتُوَّةِ وَالْمُرُوَّةِ،هَذَا وَفِي النِّهَايَةِ:الْكَافِلُ هُوَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الْيَتِيمِ الْمُرَبِّي لَهُ،وَهُوَ مِنَ الْكَفِيلِ بِمَعْنَى:الضَّمِينِ،وَالضَّمِيرُ فِي لَهُ وَلِغَيْرِهِ رَاجِعٌ إِلَى الْكَافِلِ أَيْ:أَنَّ الْيَتِيمَ سَوَاءٌ كَانَ لِلْكَافِلِ مِنْ ذَوِي رَحِمِهِ وَأَنْسَابِهِ،أَوْ كَانَ أَجْنَبِيًّا لِغَيْرِهِ وَتَكَفَّلَ بِهِ.قَالَ الطِّيبِيُّ قَوْلُهُ:(فِي الْجَنَّةِ) خَبَرُ (أَنَا) وَهَكَذَا نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ مِنْ مُتَعَلِّقِ الْخَبَرِ،وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى أَيْ:أَشَارَ بِهِمَا إِلَى مَا فِي ضَمِيرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَعْنَى الِانْضِمَامِ وَهُوَ بَيَانُ (هَكَذَا) .اهـ.وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ - ﷺ- ضَمَّ أُصْبُعَيْهِ عِنْدَ قَوْلِهِ:هَكَذَا،فَعَبَّرَ الرَّاوِي عَنْ فِعْلِهِ - ﷺ- بِقَوْلِهِ:وَأَشَارَ إِذِ الْإِشَارَةُ عَمَّا فِي ضَمِيرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَيْرُ مُتَصَوَّرٍ لِلرَّاوِي،قِيلَ:الْيَتِيمُ مِنَ النَّاسِ مَنْ مَاتَ أَبُوهُ،وَمِنَ الدَّوَابِّ مَنْ مَاتَ أُمُّهُ،وَكَافِلُ الْيَتِيمِ مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِهِ وَيَعُولُهُ وَيُرَبِّيهِ،وَيُنْفِقُ عَلَيْهِ،وَلَوْ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .وَفِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ:" «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» ".رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ،عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ.اهـ.وَظَاهِرُهُ أَنَّ قَوْلَهُ فِي الْمِشْكَاةِ:(لَهُ وَلِغَيْرِهِ) مِنْ

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ،فَقَالَ:" امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ،وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ " رواه أحمد[٢٨٨٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ،كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ» متفقٌ عليه[٢٨٨٨]

كَلَامِ سَهْلٍ،أَوْ مَنْ بَعْدَهُ أُدْرِجَ فِي الْحَدِيثِ،أَوْ هُوَ رِوَايَةٌ أُخْرَى،وَفِيهَا زِيَادَةٌ مَقْبُولَةٌ،وَأَمَّا قَوْلُهُ:(وَأَشَارَ) فَهُوَ مِنْ كَلَامِ سَهْلٍ،وَلَعَلَّهُ تَرَكَهُ صَاحِبُ الْجَامِعِ اخْتِصَارًا،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣١٠١)

[٢٨٨٧] - مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ٥٥٨)(٩٠١٨) حسن لغيره

(وَعَنْهُ):أَيْ:عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنَّ رَجُلًا شَكَا):يَنْبَغِي أَنْ يَكْتُبَ بِالْأَلِفِ كَدَعَا وَعَفَا،وَيَجُوزُ كِتَابَتُهَا بِالْيَاءِ أَيْضًا؛لِأَنَّ (شَكَيْتُ) لُغَةٌ فِي شَكَوْتُ (إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ- قَسْوَةَ قَلْبِهِ) أَيْ:قَسَاوَتَهُ وَشِدَّتَهُ وَقِلَّةَ رِقَّتِهِ وَعَدَمَ أُلْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ («قَالَ:امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ»):لِتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ فَيَغْتَنِمَ الْحَيَاةَ،فَإِنَّ الْقَسْوَةَ مَنْشَؤُهَا الْغَفْلَةُ.(«وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ»):لِتَرَى آثَارَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ حَيْثُ أَغْنَاكَ،وَأَحْوَجَ إِلَيْكَ سِوَاكَ فَيَرِقَّ قَلْبُكَ وَيَزُولَ قَسْوَتُهُ،وَلَعَلَّ وَجْهَ تَخْصِيصِهِمَا بِالذِّكْرِ أَنَّ الرَّحْمَةَ عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مُوجِبَةٌ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ الْمُتَخَلِّقِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ،فَيُنْزِلُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ،وَيَرْفَعُ عَنْهُ الْقَسْوَةَ،وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنِ ارْتِكَابِ أَسْبَابِ تَحْصِيلِ الْأَخْلَاقِ بِالْمُعَالَجَةِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ بِالْعَمَلِيَّةِ،أَوْ بِالْمَعْجُونِ الْمُرَكَّزِ مِنْهُمَا عَلَى مَا بَيَّنَهُ فِي الْإِحْيَاءِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ تَلْمِيحًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد:١٤]،وَمُرَاعَاتُهُمَا مِنِ اقْتِحَامِ الْعَقَبَةِ الشَّاقَّةِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مُعَانَاةِ الْمَشَقَّةِ وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ،فَمَنِ اقْتَحَمَ تِلْكَ الْعَقَبَةَ يَرِقُّ قَلْبُهُ وَتَسْمَحُ نَفْسُهُ فِي تَعَاطِي كُلِّ خَيْرٍ،وَفِيهِ أَنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بِدَاءٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ يَكُونُ تَدَارُكُهُ بِمَا يُضَادُّهُ مِنَ الدَّوَاءِ فَالتَّكَبُّرُ يُدَاوَى بِالتَّوَاضُعِ،وَالْبُخْلُ بِالسَّمَاحَةِ،وَقَاسِي الْقَلْبِ بِالتَّعَطُّفِ وَالرِّقَّةِ.(رَوَاهُ أَحْمَدُ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٣٠)

[٢٨٨٨] - صحيح البخاري (٧/ ٦٢)(٥٣٥٣) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٦)٤١ - (٢٩٨٢)

[ش(الساعي) الذي يسعى ليحصل ما ينفقه على من ذكر.(الأرملة) التي مات عنها زوجها غنية كانت أم فقيرة.(المسكين) الذي ليس له من المال ما يسد حاجته.(كالمجاهد) له أجر كأجر المجاهد أو القائم الصائم]

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ) بِفَتْحِ الْمِيمِ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا.قِيلَ:سَوَاءٌ كَانَتْ غَنِيَّةً أَوْ فَقِيرَةً،وَفِيهِ بُعْدٌ،وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ إِطْلَاقِ الْحَدِيثِ يَعُمُّهُمَا (وَالْمِسْكِينِ) وَفِي مَعْنَاهُ:الْفَقِيرُ،بَلْ بِالْأَوْلَى عِنْدَ بَعْضِهِمْ (كَالسَّاعِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ:ثَوَابُ الْقَائِمِ بِأَمْرِهِمَا وَإِصْلَاحِ شَأْنِهِمَا وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمَا،كَثَوَابِ الْغَازِي فِي جِهَادِهِ،فَإِنَّ الْمَالَ شَقِيقُ الرُّوحِ،وَفِي بَذْلِهِ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ وَمُطَالَبَةُ رِضَا الرَّبِّ.قَالَ النَّوَوِيُّ:الْمُرَادُ بِالسَّاعِي الْكَاسِبُ لَهُمَا الْعَامِلُ لِمُؤْنَتِهِمَا،وَالْأَرْمَلَةُ مَنْ لَا زَوْجَ لَهَا،سَوَاءٌ تَزَوَّجَتْ قَبْلَ ذَلِكَ أَمْ لَا،وَقِيلَ:الَّتِي فَارَقَهَا زَوْجُهَا.قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ:سُمِّيَتْ أَرْمَلَةً لِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الْإِرْمَالِ،وَهُوَ الْفَقْرُ وَذَهَابُ الزَّادِ بِفَقْدِ الزَّوْجِ.يُقَالُ:أَرْمَلَ الرَّجُلُ:إِذَا فَنِيَ زَادُهُ،قُلْتُ:وَهَذَا مَأْخَذٌ لَطِيفٌ فِي إِخْرَاجِ الْغَنِيَّةِ مِنْ عُمُومِ الْأَرْمَلَةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَإِنَّمَا كَانَ مَعْنَى السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ مَا قَالَهُ النَّوَوِيُّ؛لِأَنَّهُ - ﷺ- عَدَّاهُ بِـ (عَلَى) مُضَمَّنًا فِيهِ مَعْنَى الْإِنْفَاقِ.(وَأَحْسِبُهُ) بِكَسْرِ السِّينِ وَفَتْحِهَا أَيْ:أَظُنُّهُ (قَالَ:كَالْقَائِمِ) قِيلَ:قَائِلُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَمَةَ الْقَعْنَبِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ الرَّاوِي عَنْ مَالِكٍ،كَمَا صُرِّحَ بِهِ فِي الْبُخَارِيِّ،وَمَعْنَاهُ أَظُنُّ أَنَّ مَالِكًا قَالَ:كَالْقَائِمِ،وَظَاهِرُ الْمِشْكَاةِ أَنَّ قَائِلَهُ أَبُو

وعن أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ» رواه الطبراني[2889]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُسَاوِرِ قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُخْبِرُ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ» رواه البخاري في الأدب المفرد[2890]

والأدلة على هذا الأصل كثيرة،فينبغي على الحكومة الإسلامية أن يكون من أصول سياستها للرعية الإحسان إليهم وبذل المعروف بأنواعه لهم،وتقديم الخدمات لهم،وإصلاح المرافق العامة،وتفريج كربهم من مرض أو جوع أو غيره،وتنظيف طرقهم وإزالة الأذى عنها.

وهذا الأصل العام في بذل كل ما هو معروف وإحسان إلى الناس،لا يحتاج معه ولاة الأمر إلى أن ينص على أن ذلك المعروف بعينه،يجب على ولاة الأمر القيام به،مادام أن ذلك المعروف قد جاءت نص شرعي بالترغيب فيه،أو دلت عليه النصوص العامة،ودلَّ عليه مجموع الأدلة على هذا الأصل العام – وهو بذل كل ما هو معروف وإحسان إلى الناس – التي لو جمعت لاحتجنا مصنفا كاملا،ويبقى على ولاة الأمر أمام هذا الباب الواسع من أبواب الخير

هُرَيْرَةَ،فَالتَّقْدِيرُ أَحْسَبُ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ أَيْضًا:كَالْقَائِمِ،أَوْ وَقَعَ لَهُ الشَّكُّ فِي التَّشْبِيهِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي،وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِرِوَايَةِ أَحْمَدَ وَالشَّيْخَيْنِ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ بِلَفْظِ:«السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ،عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ» " أَوْ " بِمَعْنَى " بَلْ " وَاللَّهُ أَعْلَمُ،فَقَوْلُهُ:كَالْقَائِمِ أَيْ بِاللَّيْلِ لِلْعِبَادَةِ (لَا يَفْتُرُ)،مِنَ الْفُتُورِ وَهُوَ الْمَلَلُ وَالْكَسَلُ،وَهُوَ مِنْ بَابِ نَصَرَ كَمَا فِي الْمَفَاتِيحِ،وَمِنْ بَابِ ضَرَبَ أَيْضًا عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ،وَأَكْثَرُ النُّسَخِ عَلَى الْأَوَّلِ فَهُوَ الْمُعَوَّلُ،وَالْمَعْنَى:لَا يَضْعُفُ عَنِ الْعِبَادَةِ (وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ) أَيْ:فِي نَهَارِهِ،بَلْ يَصُومُ الدَّهْرَ كُلَّهُ قَالَ الْأَشْرَفُ:الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي كَالْقَائِمِ وَالصَّائِمِ غَيْرُ مُعَرِّفَيْنِ،وَلِذَلِكَ وُصِفَ كُلٌّ وَاحِدٍ بِجُمْلَةٍ فِعْلِيَّةٍ بَعْدَهُ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي "وَقَالَ الطِّيبِيُّ:هُمَا عِبَارَتَانِ عَنِ الصَّوْمِ بِالنَّهَارِ وَالْقِيَامِ بِاللَّيْلِ،كَقَوْلِهِمْ:نَهَارُهُ صَائِمٌ وَلَيْلُهُ قَائِمٌ،يُرِيدُونَ الدَّيْمُومَةَ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣١٠١)

[2889] – المعجم الكبير للطبراني (١/ ٢٥٩)(٧٥١) صحيح لغيره

[2890] – الأدب المفرد مخرجا (ص:٥٢)(١١٢) والمعجم الكبير للطبراني (١٢/ ١٥٤)(١٢٧٤١)صحيح

(لَيْسَ الْمُؤْمِنُ) أَيِ:الْكَامِلُ (بِالَّذِي):الْبَاءُ زَائِدَةٌ قَدْ تَدْخُلُ فِي خَبَرِ لَيْسَ وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ الَّذِي (يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ) الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ يَشْبَعُ أَيْ:وَهُوَ عَالِمٌ بِحَالِ اضْطِرَارِهِ،وَقِلَّةِ اقْتِدَارِهِ،وَفِي ذِكْرِ الْجَنْبِ إِشْعَارٌ بِكَمَالِ غَفْلَتِهِ عَنْ تَعَهُّدِ جَارِهِمرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٢٦)

والإحسان إلى الناس،أن يجتهدوا في الترتيب والتنظيم الإداري لهذه الأعمال- من إنشاء المرافق وتقديم الخدمات العامة وغيرها- بما يحقق المقاصد الشرعية.



المبحث الثلاثون

الأخوة الإيمانية

إن الدولة الإسلامية تتميز عن غيرها من الدول الجاهلية بأنها تقوم على الأخوة الإيمانية والحب في الله والبغض في الله،فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ،وَأَبْغَضَ لِلَّهِ،وَأَعْطَى لِلَّهِ،وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»أخرجه أبو داود[2891]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ،وَأَبْغَضَ لِلَّهِ،وَأَعْطَى لِلَّهِ،وَمَنَعَ لِلَّهِ،فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ،وَإِنَّ أَفْضَلَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلاقًا،وَإِنَّ مِنَ الإِيمَانِ حُسْنَ الْخُلُقِ»[2892]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي ذَرٍّ:" أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ - أَظُنُّهُ قَالَ:- أَوْثَقُ؟ " قَالَ:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«الْمُوَالَاةُ فِي اللهِ،وَالْمُعَادَاةُ فِي اللهِ،وَالْحُبُّ فِي اللهِ،وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»[2893]

[2891] - سنن أبي داود (٤/ ٢٢٠)(٤٦٨١) صحيح

(وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -):بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَتَفْخِيمِ الْمِيمِ،بَاهِلِيٌّ سَكَنَ بِمِصْرَ،ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى حِمْصَ وَمَاتَ بِهَا،وَكَانَ مِنَ الْمُكْثِرِينَ فِي الرِّوَايَةِ،وَأَكْثَرُ حَدِيثِهِ عَنِ الشَّامِيِّينَ،رَوَى عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ،مَاتَ بِسَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ،وَلَهُ إِحْدَى وَسَبْعُونَ،وَهُوَ آخِرُ مَنْ مَاتَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالشَّامِ (قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:مَنْ أَحَبَّ) أَيْ شَيْئًا أَوْ شَخْصًا،فَحُذِفَ الْمَفْعُولُ لِيَذْهَبَ الْوَهْمُ كُلَّ مَذْهَبٍ (لِلَّهِ):لَا لِغَرَضٍ سِوَاهُ،وَلَا لِشَهْوَةِ طَبْعِهِ وَهَوَاهُ (وَأَبْغَضَ لِلَّهِ) كَذَلِكَ (وَأَعْطَى لِلَّهِ،وَمَنَعَ لِلَّهِ) وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَعْمَالِ،فَتَكَلَّمَ لِلَّهِ،وَسَكَتَ لِلَّهِ،وَاخْتَلَطَ بِالنَّاسِ لِلَّهِ،وَاعْتَزَلَ عَنِ الْخَلْقِ لِلَّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حَاكِيًا:{إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ} [الأنعام:١٦٢] وَإِنَّمَا خَصَّ الْأَفْعَالَ الْأَرْبَعَةَ لِأَنَّهَا حُظُوظٌ نَفْسَانِيَّةٌ،إِذْ قَلَّمَا يُمَحِّضُهَا الْإِنْسَانُ لِلَّهِ،فَإِذَا مَحَّضَهَا مَعَ صُعُوبَةِ تَمْحِيضِهَا كَانَ تَمْحِيضُ غَيْرِهَا بِالطَّرِيقِ الْأَوْلَى؛وَلِذَا أَشَارَ إِلَى اسْتِكْمَالِ الدِّينِ بِتَمْحِيضِهَا بِقَوْلِهِ:(فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ) بِالنَّصْبِ أَيْ أَكْمَلَهُ،وَعُدِّيَ إِلَيْهِ لِلْمُبَالَغَةِ لِزِيَادَةِ السِّينِ الْمُسْتَدْعِيَةِ لِتَجْرِيدِهِ مِنْ نَفْسِهِ شَخْصًا آخَرَ يُطْلَبُ مِنْهُ إِكْمَالُ الْإِيمَانِ،وَنَظِيرُهُ:{وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا} [البقرة:٨٩] أَيْ يَطْلُبُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْفَتْحَ عَلَيْهِمْ،وَقِيلَ بِالرَّفْعِ أَيْ تَكَمَّلَ إِيمَانُهُ.(رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٠٦)

[2892] - شرح السنة للبغوي (١٣/ ٥٤)(٣٤٦٩) حسن

[2893] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٢١٥)(١١٥٣٧) حسن

(وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِأَبِي ذَرٍّ:يَا أَبَا ذَرٍّ! أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ»):بِضَمِّ عَيْنٍ وَفَتْحِ رَاءٍ جَمْعُ عُرْوَةٍ وَهِيَ فِي الْأَصْلِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ طَرَفِ الدَّلْوِ وَالْكُوزِ وَنَحْوِهِمَا فَاسْتُعِيرَ لِمَا يُتَمَسَّكُ بِهِ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَيَتَعَلَّقُ بِهِ مَنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ وَقَوْلُهُ:(أَوْثَقُ؟) أَيْ:أَحْكَمُ (قَالَ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ):وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي السُّؤَالِ بِأَنْ يَقَعَ الْجَوَابُ فِي حَالِ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ،وَإِقْبَالِ الْفِكْرِ عَلَيْهِ،فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّأْكِيدِ لَدَيْهِ (قَالَ:الْمُوَالَاةُ فِي اللَّهِ) أَيِ:الْمُعَاوَنَةُ وَالْمُحَابَبَةُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ (وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ) أَيْ:لِأَجْلِهِ

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،قَالَ:كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:" أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ؟ "،قَالُوا:الصَّلَاةُ،قَالَ:" حَسَنَةٌ،وَمَا هِيَ بِهَا؟ " قَالُوا:الزَّكَاةُ،قَالَ:" حَسَنَةٌ،وَمَا هِيَ بِهَا؟ " قَالُوا:صِيَامُ رَمَضَانَ.قَالَ:" حَسَنٌ،وَمَا هُوَ بِهِ؟ " قَالُوا:الْحَجُّ،قَالَ:" حَسَنٌ،وَمَا هُوَ بِهِ؟ " قَالُوا:الْجِهَادُ،قَالَ:"حَسَنٌ،وَمَا هُوَ بِهِ؟ " قَالَ:" إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ،وَتُبْغِضَ فِي اللهِ "[٢٨٩٤]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ " أَتَدْرُونَ أَيَّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ قُلْنَا:الصَّلَاةُ قَالَ:«فَإِنَّ الصَّلَاةَ حَسَنَةٌ وَمَا هِيَ بِهَا» فَقُلْنَا:الزَّكَاةُ قَالَ:«إِنَّ الزَّكَاةَ حَسَنَةٌ وَمَا هِيَ بِهَا» قُلْنَا:الْحَجُّ قَالَ:«إِنَّ الْحَجَّ حَسَنَةٌ وَمَا هِيَ بِهَا» قُلْنَا:الصِّيَامُ قَالَ:«إِنَّ الصِّيَامَ لَحَسَنٌ وَمَا هُوَ بِهَا» قُلْنَا:الْجِهَادُ قَالَ:«إِنَّ الْجِهَادَ حَسَنٌ وَمَا هُوَ بِهِ» فَذَكَرْنَا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ فَلَمَّا رَآهُمْ لَا يُصِيبُونَ قَالَ:«إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ وَأَنْ تُبْغِضَ فِي اللَّهِ»[٢٨٩٥]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :«أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ» قَالَ:قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:" الْوَلَايَةُ فِي اللَّهِ،وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ،وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ،يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَدْرِي أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ؟ فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ أَعْلَمُهُمْ بِالْحَقِّ إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ وَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ وَإِنْ كَانَ يَزْحَفُ عَلَى اسْتِهِ "[٢٨٩٦]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ:«يَا ابْنَ مَسْعُودٍ» قُلْتُ:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«هَلْ تَدْرِي مَا أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ؟» .قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«الْوَلَايَةُ فِي اللَّهِ،وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ،وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»،ثُمَّ قَالَ:يَا ابْنَ مَسْعُودٍ " ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،كُلُّ ذَلِكَ أَقُولُ:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«هَلْ تَدْرِي أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟» قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«إِذَا مَا هُمْ عَرَفُوا الَّذِينَ أَحْسَنُهُمْ عَمَلًا»،ثُمَّ قَالَ:«يَا ابْنَ مَسْعُودٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،كُلُّ

وَلَوْ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ كَحُبِّنَا لِبَعْضِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِمَّنْ لَمْ يَرَنَا وَلَا نَرَاهُ،(وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ):أَيْ:فِي سَبِيلِهِ.قَالَ تَعَالَى:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} [المجادلة:٢٢] الْآيَةَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٤٠)

[٢٨٩٤] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٤٨٨)(١٨٥٢٤) حسن لغيره

[٢٨٩٥] - مسند الروياني (١/ ٢٧٠)(٣٩٩) حسن لغيره

[٢٨٩٦] - المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٤٤٦) فيه جهالة

ذَلكَ أَقُولُ:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه،قَالَ:«هَلْ تَدْرِي أَيُّ الْمُؤْمنينَ أَعْلَمُ؟» قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«إِذَا اخْتَلَفُوا،وَشَبَّكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَصَابعَهُ،أَبْصَرَهُمْ بالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ فِي علْمه تَقْصيرٌ،وَإِنْ كَانَ يَزْحَفُ عَلَى استه زَحْفًا»،ثُمَّ قَالَ:«يَا ابْنَ مَسْعُود» ثَلَاثَ مَرَّات،كُلُّ ذَلكَ أَقُولُ:لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه،قَالَ:" هَلْ سَمعْتَ أَنَّ بَني إِسْرَائيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعينَ فرْقَةً،لَمْ يَنْجُ منْهُمْ إِلَّا ثَلَاثُ فرَق،فرْقَةٌ منْهُمْ قَامَتْ في الْمُلُوك وَالْجَبَابرَة بَعْدَ عيسَى بْن مَرْيَمَ،فَدَعَتْ إِلَى دين اللَّه وَدين عيسَى بْن مَرْيَمَ عَلَيْه السَّلَامُ،فَصَبَرَتْ حَتَّى لَحقَتْ باللَّه فَنَجَتْ.ثُمَّ قَامَتْ طَائفَةٌ أُخْرَى لَمْ تَكُنْ لَهَا قُوَّةٌ بالْقتَال،فَقَامَتْ في الْمُلُوك وَالْجَبَابرَة بالْقسْط،وَدَعَتْ إِلَى دين اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَدين عيسَى بْن مَرْيَمَ عَلَيْه السَّلَامُ،فَأُخذَتْ فَقُطعَتْ بالْمَنَاشير،وَحُرِّقَتْ بالنِّيرَان،فَصَبَرَتْ حَتَّى لَحقَتْ باللَّه عَزَّ وَجَلَّ فَنَجَتْ.ثُمَّ قَامَتْ طَائفَةٌ أُخْرَى لَمْ تَكُنْ لَهَا قُوَّةٌ بالْقتَال،وَلَمْ تُطق الْقيَامَ بالْقسْط،فَلَحقَتْ بالْجبَال فتعَبَّدَتْ وَترَهَّبَتْ،فَهُمُ الَّذينَ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،فَقَالَ:{وَرَهْبَانيَّةً ابْتَدَعُوهَا،مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهمْ} [الحديد:٢٧] إِلَى {الَّذينَ آمَنُوا منْهُمْ أَجْرَهُمْ} [الحديد:٢٧] فَهُمُ الَّذينَ آمَنُوا بي وَصَدَّقُوني،{وَكَثيرٌ منْهُمْ فَاسقُونَ} [الحديد:١٦] الَّذينَ لَمْ يُؤْمنُوا بي وَلَمْ يُصَدِّقُوني،وَهُمُ الَّذينَ لَمْ يَرْعَوْهَا حَقَّ رعَايَتهَا،وَهُمُ الَّذينَ فَسَّقَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ "[٢٨٩٧]

فأكرم الناس أتقاهم لله تعالى،فالتقوى هي ميزان التفضيل وليس العصبيات الجاهلية كالقومية أو القبلية أو الإقليمية أوغيرها،وقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ منْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائلَ لتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عنْدَ اللَّه أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ } [الحجرات:١٣]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالى في هذه الآية أنَّ النَّاسَ جَميعاً إخوةٌ لأمٍّ وأب،وَلذَلكَ فَلَيسَ لأحَد منْهُمْ أنْ يَسْتَعْليَ عَلَى أحَد منْ إخْوَته،وَلا أنْ يُسيءَ إليه،وَلا أنْ يَنْتَقصَهُ،وَلا أنْ يَغْتَابَهُ.وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى البَشَرَ بالتَّكَاثُر شُعُوباً وَقَبَائلَ مُخْتَلفَةً ليَتَمَكَّنَ بَعْضُهُم منْ مَعْرفَة بَعْض،كأنْ يُقَالَ هَذا فُلانُ بنُ فَلاَن منْ قَبيلَة كَذَا منْ بَطْن كَذَا.وَلاَ فَضْلَ لأحَد عَلَى أحَد إلا بالتَّقْوى،وَالأتْقَى هُوَ الأكْرمُ عنْدَ الله،وَالأرْفَعُ مَنْزلَةً،وَلاَ قيمَةَ في ميزَان الله للأمْوال والأحْسَاب وَالأولاد،وَإنَّما القيمَةُ

[٢٨٩٧] - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:٣٣٢)(٧٧٤) حسن

للتُّقى وَالصَّلاحِ وَطَهَارَةِ القَلْبِ،وَالخَوفِ مِنَ اللهِ،وَالإِخْلاَصِ فِي مَحَبَّةِ النَّاسِ،وَالنُّصْحِ لَهُمْ.وَاللهُ عَليمٌ بما تَنْطَوِي عَلَيهِ الصُّدُورُ،خَبيرٌ بِأُمُورِ العِبَادِ.[٢٨٩٨]

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ،فَقَالَ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا،فَالنَّاسُ رَجُلَانِ:بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ،وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ،وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ،وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ "،قَالَ اللَّهُ:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣].رواه الترمذي[٢٨٩٩]

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:لَيَنْتَهِيَنَّ) :بِلَامٍ مَفْتُوحَةٍ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مُقَدَّرٍ أَيْ:وَاللَّهِ لَيَمْتَنِعَنَّ عَنِ الِافْتِخَارِ («أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا») أَيْ:عَلَى الْكُفْرِ،وَهَذَا الْوَصْفُ بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ لَا مَفْهُومَ لَهُ،وَلَعَلَّ وَجْهَ ذِكْرِهِ أَنَّهُ أَظْهَرُ فِي تَوْضِيحِ التَّقْبِيحِ،وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رَيْحَانَةَ مَرْفُوعًا " «مَنِ انْتَسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَكَرَمًا كَانَ عَاشِرَهُمْ فِي النَّارِ» ".(وَإِنَّمَا هُمْ) أَيْ:آبَاؤُهُمْ (فَحْمٌ مِنْ جَهَنَّمَ) :حَالًا وَمَآلًا.قَالَ الطِّيبِيُّ:حَصَرَ آبَاءَهُمْ عَلَى كَوْنِهِمْ فَحْمًا مِنْ جَهَنَّمَ لَا يَتَعَدُّونَ ذَلِكَ إِلَى فَضِيلَةٍ يُفْتَخَرُ بِهَا.(أَوْ لَيَكُونُنَّ) :بِضَمِّ النُّونِ الْأُولَى عَطْفًا عَلَى لَيَنْتَهِيَنَّ،وَالضَّمِيرُ الْفَاعِلُ الْعَائِدُ إِلَى أَقْوَامٍ وَهُوَ وَاوُ الْجَمْعِ مَحْذُوفٌ مِنْ لَيَكُونُنَّ،وَالْمَعْنَى أَوْ لَيَصِيرُنَّ.(أَهْوَنَ) أَيْ:أَذَلَّ (عَلَى اللَّهِ) أَيْ:عِنْدَهُ،وَفِي حُكْمِهِ (مِنَ الْجُعَلِ) :بِضَمِّ جِيمٍ وَفَتْحِ عَيْنٍ،وَهُوَ دُوَيْبَّةٌ سَوْدَاءُ تُرِيدُ الْغَائِطَ،يُقَالُ لَهَا الْخُنْفُسَاءُ فَقَوْلُهُ:(الَّذِي يُدَهْدِهُ الْخِرَاءَ) أَيْ:يُدَحْرِجُهُ (بِأَنْفِهِ) :صِفَةٌ كَاشِفَةٌ لَهُ،وَالْخَرَاءُ بِفَتْحِ الْخَاءِ وَالرَّاءِ مَقْصُورًا.وَفِي نُسْخَةٍ بِالْمَدِّ،وَفِي نُسْخَةٍ مُصَحَّحَةٍ بِكَسْرِ الْخَاءِ مَمْدُودًا وَهُوَ الْعَذِرَةُ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِالْفَتْحِ الْمَصْدَرَ وَبِالْكَسْرِ الِاسْمَ،فَفِي بَابِ الْغَرِيبَيْنِ أَنَّ الْخَرْءَ الْعَذِرَةُ وَجَمْعُهُ خُرُوءٌ،كَجُنْدٍ وَجُنُودٍ،وَفِي الْقَامُوسِ:خَرِيَ كَفَرِحَ خِرَاءً أَوْ خِرَاءَةً وَيُكْسَرُ وَالِاسْمُ مِنْهُ الْخِرَاءُ بِالْكَسْرِ،وَفِي شَرْحِ الْمَصَابِيحِ:أَنَّ الْخَرْءَ بِفَتْحِ الْخَاءِ وَضَمِّهَا وَاحِدُ الْخُرُوءِ،مِثْلَ قُرْءٍ وَقُرُوءٍ وَالْقُرْءُ بِفَتْحِ الْقَافِ وَضَمِّهَا الْحَيْضُ،وَكُتِبَ الْخَرْءُ فِي الْحَدِيثِ بِالْأَلِفِ إِمَّا لِأَنَّهَا

[٢٨٩٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٨٩٩] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٣٨٩)(٣٢٧٠) صحيح لغيره

مَفْتُوحَةٌ،فَكُتِبَتْ بِحَرْفِ حَرَكَتِهَا،وَإِمَّا لِأَنَّهُ نُقِلَتْ حَرَكَتُهَا إِلَى الرَّاءِ وَقُلِبَتْ أَلِفًا عَلَى لَفْظِ الْعَصَا،وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ - ﷺ - شَبَّهَ الْمُفْتَخِرِينَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْجُعَلِ،وَآبَاءَهُمُ الْمُفْتَخَرَ بِهِمْ بِالْعَذِرَةِ،وَنَفْسُ افْتِخَارِهِمْ بِهِمْ بِالدَّهْدَهَةِ بِالْأَنْفِ،وَالْمَعْنَى أَنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ وَاقِعٌ الْبَتَّةَ،إِمَّا الِانْتِهَاءُ عَنِ الِافْتِخَارِ أَوْ كَوْنُهُمْ أَذَلَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْجُعَلِ الْمَوْصُوفِ،وَأَغْرَبَ الْقَاضِي ؛ حَيْثُ قَالَ:(أَوْ) هُنَا لِلتَّخْيِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ،وَالْمَعْنَى:أَنَّ الْأَمْرَيْنِ سَوَاءٌ فِي أَنْ يَكُونَ حَالُ آبَائِهِمُ الَّذِينَ يَفْتَخِرُونَ بِهِمْ وَأَنْتَ مُخَيَّرٌ فِي تَوْصِيفِهِمْ بِأَيِّهِمَا شِئْتَ.اهـ.

وَالصَّوَابُ مَا قَدَّمْنَاهُ.وَقَدْ رَاعَى الْأَدَبَ مَعَهُ الطِّيبِيُّ ؛ حَيْثُ قَالَ:الظَّاهِرُ أَنَّهُ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ:لَيَنْتَهِيَنَّ،وَالضَّمِيرُ فِيهِ ضَمِيرُ الْقَوْمِ ؛ لِأَنَّ اللَّامَ فِي الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ لَامُ الِابْتِدَاءِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [الأعراف:٨٨]،كَأَنَّهُ - ﷺ - حَلَفَ عَلَى أَنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ،ثُمَّ أَغْرَبَ الطِّيبِيُّ فِي سُؤَالِهِ ؛ حَيْثُ قَالَ:فَإِنْ قُلْتَ:هَبْ أَنَّهُ - ﷺ - عَرَفَ أَنَّهُ تَعَالَى يُعَذِّبُهُمْ بِسَبَبِ الْمُفَاخَرَةِ بِآبَائِهِمْ،فَأَقْسَمَ عَلَيْهِ فَبِمَ عَرَفَ انْتِهَاءَهُمْ عَنْهَا؟ قُلْتُ:لَمَّا نَظَمَهُمَا بِأَوْ فِي الْحُكْمِ الَّذِي هُوَ الْحَلِفُ آلَ كَرَمُهُ إِلَى قَوْلِكَ،لَيَكُونَنَّ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ يَعْنِي:إِنْ كَانَ الِانْتِهَاءُ لَمْ تَكُنِ الْمَذَلَّةُ،وَإِنْ لَمْ تَكُنْ كَانَتْ،كَذَا حَقَّقَهُ صَاحِبُ الْكَشَّافِ فِي النَّمْلِ،فَكَأَنَّهُ قِيلَ:أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ لَا بُدَّ مِنْهُ إِمَّا الِانْتِهَاءُ عَمَّا هُمْ فِيهِ،أَوْ إِنْزَالُ الصَّغَارِ وَالْهَوَانِ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.اهـ.وَهُوَ ظَاهِرُ الْمَرَامِ،لَكِنْ وَقَعَ بَسْطٌ فِي الْكَلَامِ.

ثُمَّ إِنَّهُ - ﷺ - اسْتَأْنَفَ لِبَيَانِ عِلَّةِ الِانْتِهَاءِ عَنِ الِافْتِخَارِ بَعْدَ زَوَالِ زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ،وَكَمَالِ الْقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِقَوْلِهِ:(إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ) أَيْ:أَزَالَ وَرَفَعَ (عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) :بِضَمِّ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَكَسْرِهَا وَكَسْرِ مُوَحَّدَةٍ فَتَحْتِيَّةٍ مُشَدَّدَتَيْنِ أَيْ:نَخْوَتَهَا وَكِبْرَهَا.(وَفَخْرَهَا) أَيْ:وَافْتِخَارَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي زَمَانِهِمْ (بِالْآبَاءِ) :قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:يُقَالُ:رَجُلٌ فِيهِ عُبِّيَّةٌ بِضَمِّ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَكَسْرِهَا أَيْ:كِبْرٌ وَتَجَبُّرٌ،وَالْمَحْفُوظُ عَنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ تَشْدِيدُ الْيَاءِ،وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ الْهَرَوِيُّ أَنَّهُ مِنَ الْعَبْءِ بِمَعْنَى الْحِمْلِ الثَّقِيلِ،ثُمَّ قَالَ:وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ:بَلْ هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْعَبْءِ وَهُوَ النُّورُ وَالضِّيَاءُ يُقَالُ:هَذَا عَبُّ الشَّمْسِ وَأَصْلُهُ عَبْؤُ الشَّمْسِ،وَعَلَى هَذَا فَالتَّشْدِيدُ فِيهِ كَمَا فِي الذُّرِّيَّةِ مِنَ الذَّرْءِ بِالْهَمْزَةِ،وَالْجَوْهَرِيُّ أَدْخَلَهُ فِي بَابِ الْمُضَاعَفِ.قُلْتُ:وَكَذَا فَعَلَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ ؛

حَيْثُ قَالَ:الْعُبِّيَّةُ بِالْكَسْرِ الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالنَّخْوَةُ.وَقَالَ أَيْضًا:عَبُّ الشَّمْسِ وَيُخَفَّفُ ضَوْءُهَا،وَذَكَرَهُ فِي الْمَهْمُوزِ أَيْضًا وَقَالَ:الْعَبْءُ بِالْفَتْحِ ضِيَاءُ الشَّمْسِ (إِنَّمَا هُوَ) أَيِ:الْمُفْتَخِرُ الْمُتَكَبِّرُ بِالْآبَاءِ لَا يَخْلُو عَنْ أَحَدِ الْوَصْفَيْنِ،فَإِمَّا هُوَ (مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ) :فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى أَحَدٍ ؛ لِأَنَّ مَدَارَ الْإِيمَانِ عَلَى الْخَاتِمَةِ،وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (أَوْ فَاجِرٌ) أَيْ:مُنَافِقٌ أَوْ كَافِرٌ (شَقِيٌّ) أَيْ:غَيْرُ سَعِيدٍ،فَهُوَ ذَلِيلٌ عِنْدَ اللَّهِ،وَالذَّلِيلُ لَا يُنَاسِبُهُ التَّكَبُّرُ،وَلَا يُلَائِمُهُ التَّجَبُّرُ،فَالتَّكَبُّرُ لَا يَلِيقُ بِالْمَخْلُوقِ،فَإِنَّهُ صِفَةٌ خَاصَّةٌ لِلْخَالِقِ،وَلِذَا قَالَ:" «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظْمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ» "،ثُمَّ أَشَارَ - ﷺ - إِلَى دَلِيلٍ آخَرَ يَنْتَفِي بِهِ التَّكَبُّرُ عَنِ الْإِنْسَانِ بِقَوْلِهِ:(«النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ،وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ») أَيْ:فَلَا يَلِيقُ بِمَنْ أَصْلُهُ التُّرَابُ النَّخْوَةُ وَالتَّجَبُّرُ،أَوْ إِذَا كَانَ الْأَصْلُ وَاحِدًا،فَالْكُلُّ إِخْوَةٌ،فَلَا وَجْهَ لِلتَّكَبُّرِ ؛ لِأَنَّ بَقِيَّةَ الْأُمُورِ عَارِضَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا حَقِيقَةً،نَعَمِ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وَهِيَ مُبْهَمَةٌ،فَالْخَوْفُ أَوْلَى لِلسَّالِكِ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِهَذِهِ الْمَسَالِكِ،هَذَا مَا اخْتَرْنَاهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنْ خُلَاصَةِ الْمُرَامِ،وَتَكَلَّفَ الطِّيبِيُّ فَقَالَ:فِي ضَمِيرِ (هُوَ) وُجُوهٌ،أَحَدُهَا:أَنَّ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا فَقَوْلُهُ:النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ مُقَدَّمٌ ؛ لِأَنَّهُ مُجْمَلٌ وَذَلِكَ تَفْصِيلُهُ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ:النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ أَبُوهُمْ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ

فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ فِي أَصْلِهِمْ شَرَفٌ ...يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ ...عَلَى الْهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ.

وَوَحَّدَ الضَّمِيرَ نَظَرًا إِلَى الْجِنْسِ،أَوْ عَلَى تَأْوِيلِ الْإِنْسَانِ.وَثَانِيهَا:أَنَّهُ ضَمِيرٌ مُبْهَمٌ يُفَسِّرُهُ الْخَبَرُ،كَذَا قَرَّرَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الجاثية:٢٤]،وَقَوْلُهُمْ:هِيَ الْعَرَبُ تَقُولُ مَا شَاءَتْ.وَثَالِثُهَا:أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى اسْمِ الْإِشَارَةِ،فَيَرْجِعُ إِلَى الْمَذْكُورِ السَّابِقِ مَنْطُوقًا وَمَفْهُومًا،وَبَيَانُهُ أَنَّ قَوْلَهُ:(أَقْوَامٌ) مِنْ بَابِ سَوْقِ الْمَعْلُومِ مَسَاقَ غَيْرِهِ،وَهُمْ قَوْمٌ مَخْصُوصُونَ نَكَّرَهُمْ وَجَعَلَهُمْ غَائِبِينَ،ثُمَّ الْتَفَتَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ:قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ،وَهَذَا يُشْعِرُ بِغَضَبٍ شَدِيدٍ وَسُخْطٍ مُتَتَابِعٍ.كَانَ أُنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَفَاخَرُوا بِأَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ،كَالْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ وَأَضْرَابِهِ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ:فَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي مَجْمَعِ

فَوَبَّخَهُمْ وَزَجَرَهُمْ وَسَفَّهَ رَأْيَهُمْ،وَالْمَعْنَى:لِيَنْتَهِ مَنْ شَرَّفَهُ اللَّهُ وَخَلَعَ عَلَيْهِ حُلَلَ الْإِسْلَامِ،وَرَفَعَهُ مِنْ حَضِيضِ الْكُفْرِ إِلَى يَفَاعِ الْإِيمَانِ عَنْ هَذِهِ الشَّنْعَاءِ،وَإِلَّا فَيَحُطُّهُ مِنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ،وَيَرُدُّهُ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ مِنَ الْكُفْرِ وَالذُّلِّ،فَإِنَّ تَشْبِيهَهُمْ بِأَخَسِّ الْحَيَوَانَاتِ فِي أَخَسِّ أَحْوَالِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ،فَالْمَعْنَى:مَا ذَاكَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ تَقِيٌّ،وَمَا ذَاكَ الذَّلِيلُ الدَّنِيءُ عِنْدَهُ إِلَّا فَاجِرٌ شَقِيٌّ،ثُمَّ رَجَعَ - ﷺ - مِنْ ذَاكَ الْعُنْفِ إِلَى اللُّطْفِ،وَمِنَ التَّوْبِيخِ إِلَى إِسْمَاعِ الْحَقِّ قَائِلًا:وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات:١٣]،إِلَى قَوْلِهِ:{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات:١٣]،وَفِي ذِكْرِ التُّرَابِ إِشَارَةٌ إِلَى نُقْصَانِهِمْ،وَأَنَّهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ طُفُّ الصَّاعِ بِالصَّاعِ.[٢٩٠٠]

وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :«كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ،وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ يَفْخَرُونَ بِآبَائِهِمْ أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ» [٢٩٠١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ،مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ،أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ،وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ،لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ،أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ»[٢٩٠٢]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:لَا أَرَى أَحَدًا يَعْمَلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات:١٣] حَتَّى بَلَغَ:{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات:١٣]،فَيَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ:أَنَا أَكْرَمُ مِنْكَ،فَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْرَمَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ" أخرجه البخاري في الأدب المفرد[٢٩٠٣]

وعَنْ يَزِيدَ قَالَ:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:مَا تَعُدُّونَ الْكَرَمَ؟ وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ الْكَرَمَ،فَأَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ،مَا تَعُدُّونَ الْحَسَبَ؟ أَفْضَلُكُمْ حَسَبًا أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا" أخرجه البخاري في الأدب المفرد[٢٩٠٤].

[٢٩٠٠] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٧٢)

[٢٩٠١] - مسند البزار = البحر الزخار (٧/ ٣٤١)(٢٩٣٨) حسن

[٢٩٠٢] - الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٧١)(٣٠) صحيح

[٢٩٠٣] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٣٠٩)(٨٩٨) صحيح

[٢٩٠٤] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٣٠٩)(٨٩٩) صحيح

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ:خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ،فَقَالَ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ،وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ،أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ،وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ،وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ،وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ،إِلَّا بِالتَّقْوَى،إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ،أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ "،قَالُوا:بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:" فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " رواه البيهقي[2905].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ:"انْظُرْ،فَإِنَّكَ لَيْسَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى " رواه أحمد[2906].

وليست الأخوة الإيمانية كلمة تقال دون أن تكون حقيقة عملية،بل يجب أن تكون منهجا يسلكه المسلمون في حياتهم،فتسود بينهم الأخلاق الحسنة والإحسان والتراحم،ويؤدي بعضهم إلى بعض الحقوق والواجبات.

[2905] - شعب الإيمان (٧/ ١٣٢)(٤٧٧٤) حسن لغيره

[2906] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٣٢١)(٢١٤٠٧) صحيح لغيره

(عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ:" إِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ ") أَيْ:بِأَفْضَلَ (" مِنْ أَحْمَرَ ") أَيْ:جِسْمًا (" وَلَا أَسْوَدَ ") أَيْ:لَوْنًا،وَالْمُرَادُ أَنَّ الْفَضِيلَةَ لَيْسَتْ بِلَوْنٍ دُونَ لَوْنٍ،وَإِنَّمَا خُصَّا بِالذِّكْرِ مَثَلًا لِكَوْنِهِمَا أَكْثَرَ وُجُودًا،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا لَوْنُ السَّيِّدِ وَالْعَبْدِ،كَمَا هُوَ الْغَالِبُ،وَأَغْرَبَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ جَزَمَ وَقَالَ:الْمُرَادُ بِالْأَحْمَرِ الْعَجَمُ،وَبِالْأَسْوَدِ الْعَرَبُ،(" إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ "):بِضَمِّ الضَّادِ أَيْ:تُرِيدُ أَنْتَ أَحَدَهُمَا (" بِتَقْوَى "):بِالْقَصْرِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالتَّنْوِينِ،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ} [التوبة:١٠٩] فَفِي قِرَاءَةٍ شَاذَّةٍ بِالتَّنْوِينِ،وَالْمَعْنَى أَنَّ الْفَضِيلَةَ لَيْسَتْ بِالصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ،وَلَا بِالنِّسْبَةِ الْبَاهِرَةِ،بَلْ بِالتَّقْوَى،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات:١٣] إِلَى أَنْ قَالَ:{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات:١٣] قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:وَالضَّمِيرُ فِي تَفْضِيلِهِ عَائِدٌ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَوَّلُهُمَا بِتَأْوِيلِ الْإِنْسَانِ،وَالِاسْتِثْنَاءُ مُضِرٌّ،وَالتَّقْدِيرُ لَسْتَ بِأَفْضَلَ مِنْهُمَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِالتَّقْوَى،وَقَوْلُهُ:أَنْ تَفْضُلَهُ تَكْرِيرُ تَأْكِيدٍ اه.فَتَأَمَّلْ فِيهِ،فَإِنَّ جَعْلَ الضَّمِيرِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعَ دَلَالَتِهِمَا عَلَى الْعُمُومِ مِنَ الْجِنْسِ الَّذِي وَقَعَ الْمُخَاطَبُ فَرْدًا مِنْهُ عَنْ صَحِيحٍ،وَكَذَا تَأْوِيلُهُمَا بِالْإِنْسَانِ الْمُرَادِ بِهِ الْجِنْسُ فَتَدَبَّرْ.(رَوَاهُ أَحْمَدُ):ثُمَّ الظَّاهِرُ أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مُفَرَّغٌ مِنْ أَعَمِّ الْأَحْوَالِ،أَيْ:لَسْتَ بِأَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدِ النَّوْعَيْنِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا حَالَ زِيَادَتِكَ عَلَيْهِ بِتَقْوَى مُعْتَبَرَةٍ فِي الشَّرْعِ،وَهِيَ لَهَا مَرَاتِبُ:أَدْنَاهَا:التَّقْوَى عَنِ الشِّرْكِ الْجَلِيِّ،وَأَوْسَطُهَا:عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَنَاهِي وَالْمَلَاهِي،وَعَنِ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ،وَهُوَ الرِّيَاءُ وَالسُّمْعَةُ فِي الطَّاعَةِ،وَأَعْلَاهَا:أَنْ يَكُونَ دَائِمَ الْحُضُورِ مِنَ اللَّهِ غَائِبًا عَنْ حُضُورِ مَا سِوَاهُ،وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ فِيمَا رُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" «مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ» " ذَكَرَهُ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ.وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ:لَمْ أَجِدْهُ مَرْفُوعًا وَهُوَ عِنْدَ الْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ،وَالنَّوَادِرِ مِنْ قَوْلِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٥٥)

لقد تميز مجتمع الصحابة رضي الله عنهم بأنه كان مجتمعا فريدا متآخيا متماسكا،فسادت فيه الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة،كالإيثار والانفاق مما يحبون،فكان أحدهم يقدم حاجة أخيه على حاجته،ويحب لأخيه من الخير مايحب لنفسه،وقد قال تعالى:{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر:٩]

أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَى الأَنْصَارِ مُبِيِّناً فَضْلَهُمْ وَشَرَفَهُمْ وَكَرَمَهُمْ،حِينَ جَعَلَ اللهُ الفَيءَ لإِخْوَانِهِم المُهَاجِرِينَ دُونَهُمْ،فَقَالَ تَعَالَى:والذِينَ سَكَنُوا دَارَ الهِجْرَةِ قَبْلَ المُهَاجِرِينَ،وَآمَنُوا قَبْلَ كَثِيرٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ،يُحِبُّونَ المُهَاجِرِينَ،وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُمْ الخَيْرَ،كَمَا يَتَمَنَّوْنَهُ لأَنْفُسِهِمْ،وَقَدْ أَسْكَنُوا المُهَاجِرِينَ فِي دُورِهِمْ،وَأَشْرَكُوهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضِ نِسَائِهِ لِلْمُهَاجِرِينَ.وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ وَنُفُوسُهُمْ طَيِّبَةٌ،وَأَعْيُنُهُمْ قَرِيرَةٌ بِمَا يَفْعَلُونَ،لاَ يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَداً لِلْمُهَاجِرِينَ.وَلاَ ضِيقاً بِهِمْ لِمَا فَضَّلَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ المَنْزِلَةِ والشَّرَفِ وَالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ والرُّتْبَةِ،وَلِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ مَغْنَمِ بَنِي النَّضِيرِ دُونَهُمْ.وَهُمْ يُقَدِّمُونَ أَهْلَ الحَاجَةِ مِنَ المُهَاجِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ،وَيَبْدَؤُونَ بِالنَّاسِ قَبْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي حَالِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى ذَلِكَ.[٢٩٠٧]

وقال تعالى:{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران:٩٢]

لَنْ تَنَالُوا يَا أَيُّها المُؤْمِنُونَ الخَيْرَ وَالجَنَّةَ حَتَّى تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ أَحَبِّ أَمْوالِكُم إِلَيْكُمْ،وَاللهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيءٍ يُنْفِقُهُ العَبْدُ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ رَبِّهِ.[٢٩٠٨]

وفى هذه الآية يبين الله تعالى أن المال الذي يبذل،وللأنظار مطمح فيه،وللقلوب علقة به،وللنفوس هوى إليه- هو المال الذي يدفع به الشر،ويجلب به الخير.وإذ كان ذلك كذلك،فإن المال المبذول فى سبيل الله لا يبلغ بصاحبه منزلة الأبرار المقبولين عند الله،حتى يكون هذا المال أحبّ شىء عنده وآثره.إذ هنا يكون صاحب المال قد جاهد نفسه،وغلب هواه،وقهر دواعى الأثرة عنده،حتى نزل عن هذا الشيء المحبوب عنده،وأنفقه فى وجوه

[٢٩٠٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠١٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٩٠٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٨٥،بترقيم الشاملة آليا)

الخير،طمعا فى مرضاة الله،وابتغاء رضوانه..وبهـذا ينـال ثـواب المجاهـدين،ويعطى أجـر العاملين..والله سبحانه وتعالى يقول:«وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنا وَإِنَّ اللَّـهَ لَمَـعَ الْمُحْسِنِينَ» (٦٩:العنكبوت)[٢٩٠٩]

هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات،فقال {لن تنالوا} أي:تدركوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة،{حـتى تنفقوا مما تحبون} أي:من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم،فإنكم إذا قدمتم محبة الله علـى محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته،دل ذلك على إيمانكم الصـادق وبـر قلـوبكم ويقـين تقواكم،فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال،والإنفاق في حـال حاجـة المنفـق إلى مـا أنفقه،والإنفاق في حال الصحة،ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره،وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك،ولما كان الإنفاق على أي:وجه كـان مثابـا عليـه العبد،سواء كان قليلا أو كثيرا،محبوبا للنفس أم لا وكان قوله {لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممـا تحبون} مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع،احترز تعالى عن هذا الوهم بقولـه {ومـا تنفقوا من شيء فإن الله به عليم} فلا يضيق عليكم،بل يثيبكم عليه علـى حسـب نيـاتكم ونفعه.[٢٩١٠]

وقد فقه المسلمون وقتها معنى هذا التوجيه الإلهي،وحرصوا على أن ينالوا البر – وهو جمـاع الخير – بالنزول عما يحبون،ويبذل الطيب من المال،سخية به نفوسهم في انتظار ما هو أكـبر وأفضل.

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ – رضى الله عنه – يَقُولُ كَانَ أَبُـو طَلْحَـةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً،وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بِيْرُ حَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْـجِدَ،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ فَلَمَّا نَزَلَتْ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ- فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِى كِتَابِهِ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِى إِلَىَّ بِيْرُ حَاءَ،وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ

[٢٩٠٩] – التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٥٢٣)

[٢٩١٠] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٣٨)

أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ شِئْتَ،فَقَالَ « بَخٍ،ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ،ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ .قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا،وَأَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِى الأَقْرَبِينَ » .قَالَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِى أَقَارِبِهِ وَبَنِى عَمِّهِ [2911].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ مَلَكَ مِائَةَ سَهْمٍ مِنْ خَيْبَرَ فَاسْتَجْمَعَهَا فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺفَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنِّي أَصَبْتُ مَا لَمْ أُصِبْ مِثْلَهُ قَطُّ،وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَتَقَرَّبَ بِهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،فَقَالَ لَهُ:" احْبِسِ الْأَصْلَ وَسَبِّلِ الثَّمَرَةَ "[2912]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَصَابَ عُمَرُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ،فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺفَاسْتَأْمَرَهُ فِيهَا،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ ؟ فَقَالَ:" إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا " قَالَ:فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يُبَاعُ أَصْلُهَا،وَلَا يُوهَبُ،وَلَا يُورَثُ " فَتَصَدَّقْ بِهَا فِي الْفُقَرَاءِ،وَذَوِي الْقُرْبَى وفِي وَالرِّقَابِ،وَفِي سَبِيلِ اللهِ،وَابْنِ السَّبِيلِ وَالضَّيْفِ،لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ،ويُطْعِمَ صَدِيقًا غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ "[2913] ..

وعلى هذا الدرب سار الكثيرون منهم يلبون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البر كله،يوم هداهم إلى الإسلام.ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال،ومن شح النفس،ومن حب الذات ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحرارا خفافا طلقاء ..[2914]

فهذا الأثر وما قبله دلائل واضحات على حسن السياسة الدينية لرسول الله ﷺ ومعرفة ما يختلج في القلوب،فقد رأى أن أبا طلحة وزيدا قد خرجا عن أحب أموالهما إليهما بعاطفة الدين،فجعل ذلك في الأقربين ليثبّت قلوبهما ويكمل إيمانهما،ولا يجعل للشيطان سبيلا ينفذ به إلى ما بين الجوانح فيندمان إذا هما رأيا أموالهما فى أيدى الغرباء،إذ كثيرا ما يفارق المرء شيئا محبوبا لديه باختياره لعاطفة الدين،أو للجود به على غيره،ثم لا يلبث إلا قليلا حتى يعاوده

[2911] - صحيح البخارى- المكنز [8 /380](2318)

[2912] - شرح مشكل الآثار [2 /140](661) صحيح

[2913] - شعب الإيمان [5 /119](3172) صحيح

[2914] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 - ت- علي بن نايف الشحود (ص:695)

الحنين إليه،ومن ثمّ كان النبي ﷺ يأمر عمّال الصدقة باتقاء كرائم الأموال،والبعد عنها حين جباية الصدقات.[٢٩١٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:إِنِّي مَجْهُودٌ،فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ،فَقَالَتْ:وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ،مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ،ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى،فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ،حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ:لَا،وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ،مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ،فَقَالَ:«مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟»،فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ،فَقَالَ:أَنَا،يَا رَسُولَ اللهِ،فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ،فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ:هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ:لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي،قَالَ:فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ،فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ،وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ،فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ،فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ،قَالَ:فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ،فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:«قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»[٢٩١٦]

[٢٩١٥] - تفسير المراغي (٣/ ٢١٢)

[٢٩١٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٢٤)١٧٢ - (٢٠٥٤)

[ش (إني مجهود) أي أصابني الجهد وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع]

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ:إِنِّي مَجْهُودٌ) .أَيْ فَقِيرٌ أَصَابَهُ الْجُهْدُ،وَهُوَ الْمَشَقَّةُ وَالْحَاجَةُ أَوِ الْجُوعُ فَأَرْسَلَ)،أَيِ:النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - (إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ)،أَيْ:مِنَ الْأَزْوَاجِ الطَّاهِرَاتِ (فَقَالَتْ:وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي)،أَيْ:مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ (إِلَّا مَاءٌ،ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ) .أَيْ وَهَكَذَا حَتَّى أَرْسَلَهُ إِلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ (وَقُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ)،وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْحَالِ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ خَيْبَرَ وَغَيْرَهَا،وَيَحْصُلَ الْغَنَائِمَ وَالْأَمْوَالَ (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:" مَنْ يُضِيفُهُ ") ؟ مِنْ بَابِ التَّفْعِيلِ،وَفِي نُسْخَةٍ مِنْ بَابِ الْإِفْعَالِ وَهُوَ مَرْفُوعٌ،فَمَنْ مَوْصُولَةٌ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ جُمْلَةُ قَوْلِهِ:(" يَرْحَمْهُ اللَّهُ " فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو طَلْحَةَ)،وَهُوَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيُّ،زَوْجُ أُمِّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَسَبَقَ ذِكْرُهُ.(فَقَالَ:أَنَا)،أَيْ:أُضِيفُهُ (يَا رَسُولَ اللَّهِ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ)،أَيْ:مَنْزِلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ:وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ) ؟ أَيْ مِنَ الطَّعَامِ (قَالَتْ:لَا،إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي):بِالرَّفْعِ،وَقِيلَ بِالنَّصْبِ أَيْ:إِلَّا قُوتَ الصِّغَارِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُمْ يَجُوعُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَإِلَّا فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِجَاعَةُ الصِّبْيَانِ وَإِضَاعَتُهُمْ وَإِطْعَامُ الضِّيفَانِ وَإِطَاعَتُهُمْ.(قَالَ:فَعَلِّلِيهِمْ)،أَيْ:سَكِّنِيهِمْ مِنْ عَلَّلَهُ بِشَيْءٍ أَيْ أَلْهَاهُ (وَنَوِّمِيهِمْ)،أَيْ رَقِّدِيهِمْ،وَكَأَنَّهُ قَصَدَ أَنَّهُمْ إِنْ يَرَوْا أَكْلَ الضَّيْفِ فَيَشْتَهُوا كَمَا هُوَ عَادَةُ الْأَوْلَادِ (فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَرِيهِ)،أَيْ:فَأَحْضِرِيهِ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَجُوزًا،وَالْقَضِيَّةُ قَبْلَ الْحِجَابِ،وَأَظْهِرِيهِ (أَنَّا)،أَيْ:جَمِيعَنَا (نَأْكُلُ)،أَيْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ،فَإِنَّ الضَّيْفَ إِذَا رَأَى أَنَّ أَحَدًا امْتَنَعَ مِنَ الْأَكْلِ رُبَّمَا تَشَوَّشَ خَاطِرُهُ (فَإِذَا أَهْوَى)،أَيْ:قَصَدَ الضَّيْفُ وَمَدَّ (بِيَدِهِ لِيَأْكُلَ،فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ كَيْ تُصْلِحِيهِ)،أَيْ:لِإِصْلَاحِهِ فَكَيْ تَعْلِيلِيَّةٌ (فَأَطْفِئِيهِ)،أَيْ لِيَقَعَ الظَّلَامُ فَلَا يَطَّلِعُ عَلَى امْتِنَاعِنَا مِنْ أَكْلِ الطَّعَامِ (فَفَعَلَتْ،فَقَعَدُوا)،أَيْ ثَلَاثَتُهُمْ (وَأَكَلَ الضَّيْفُ،وَبَاتَا طَاوِيَيْنِ)،أَيْ جَائِعَيْنِ (فَلَمَّا أَصْبَحَ)،أَيِ:الضَّيْفُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:هِيَ هَاهُنَا تَامَّةٌ وَقَوْلُهُ (غَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ):جَوَابُ لَمَّا

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :«إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ،أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ،فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»متفقٌ عليه[٢٩١٧] .

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ المَدِينَةَ فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ،فَقَالَ:عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ،فَرَبِحَ شَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ،فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ،بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مَهْيَمْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟» قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ

وَضَمَّنَ فيه مَعْنًى.الْإِقْبَالِ أَيْ:لَمَّا دَخَلَ فِي الصَّبَاحِ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - غَادِيًا اهـ.وَفِي أَكْثَرِ النُّسَخِ الْمُصَحَّحَةِ:إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَالْمَعْنَى ذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي الْغَدْوَةِ (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)،أَيْ:بِنُورِ الْكَشْفِ أَوْ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ (" لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ أَوْ ضَحِكَ اللَّهُ):وَالْمَعْنَى رَضِيَ (" مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ ") .أَيْ أَبِي طَلْحَةَ وَامْرَأَتِهِ.(وَفِي رِوَايَةٍ مِثْلَهُ) بِالرَّفْعِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ أَيْ مِثْلَ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ (وَلَمْ يُسَمِّ أَبَا طَلْحَةَ) أَيْ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ (وَفِي آخِرِهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:وَيُؤْثِرُونَ،أَيْ:أَضْيَافَهُمْ أَوْ غَيْرَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ،أَيْ:عَلَى حُظُوظِهَا وَلَوْ كَانَ،أَيْ:وَقَعَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ أَيْ حَاجَةٌ وَمَجَاعَةٌ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ،وَلَوْ بِمَعْنَى الْفَرْضِ أَيْ يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَفْرُوضَةً خَصَاصَتُهُمْ"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٤٠٢٩)

[٢٩١٧] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٨)(٢٤٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٤)١٦٧ - (٢٥٠٠)

[ش(أرملوا) من الإرمال وهو فناء الزاد وقلة الطعام أصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل من القلة.(في إناء واحد) أي اقتسموه بمكيال واحد حتى لا يتميز بعضهم عن بعض.(بالسوية) متساوين.(فهم مني وأنا منهم) طريقتي وطريقتهم واحدة في التعاون على البر والتقوى وطاعة الله عز وجل ولذلك لا أتخلى عنهم]

فقه الحديث:استدل البخاري بهذا الحديث على جواز الشركة في النهد أو في الطعام،والنهد كما قلنا أن ينثر الرفقة زادهم على سفرة فيأكلوا جميعاً،أو يجمعوه ويقتسموه بينهم قسمة متساوية،كما في هذا الحديث أو غير متساوية.

قال العيني:وذلك جائز في جنس واحد أو في الأجناس.وإن تفاوتوا في الأكل،وليس هذا من الربا في شيء وإنما هو من باب الإباحة.وقال في " فيض الباري ":ليست هذه من باب المعاوضات التي تجري فيها المماكسة أو تدخل تحت الحكم،وإنما هي من باب التسامح،وقد جرى بها التعامل من لدن عهد النبوة.وأما الشركة في الطعام وكل ما يملك فقد قال الحافظ:والجمهور على صحة الشركة في كل ما يتملك -يعني من طعام وغيره- والأصح عند الشافعية اختصاصها بالمثلي،وعند المالكية تكره الشركة في الطعام.هذا ومما يستفاد من الحديث استحباب خلط الطعام والمشاركة فيه حضراً وسفراً،لأن النبي - ﷺ - أثنى على الأشعريين ومدحهم بعملهم هذا،لما يترتب عليه من حلول البركة في الطعام،وكفايته للعدد الكثير من الناس،وانتفاع الأبدان به،وغير ذلك من المؤانسة والمباسطة أثناء تناوله،ولهذا كان هذا العمل من سنته - ﷺ -.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٧٨)

الأَنْصَارِ قَالَ:«فَمَا سُقْتَ فِيهَا؟» فَقَالَ:وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :«أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»[2918].

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،ذَهَبَ الْأَنْصَارُ بِالْأَجْرِ كُلِّهِ؟ قَالَ:«لَا،مَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ لَهُمْ،وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ بِهِ»[2919]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:قَالَتِ الْمُهَاجِرُونَ:يَا رَسُولَ اللهِ،ذَهَبْتِ الْأَنْصَارُ بِالْأَجْرِ كُلِّهِ،مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَحْسَنَ بَذْلًا لِكَثِيرٍ،وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ مِنْهُمْ،وَلَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ؟ قَالَ:«أَلَيْسَ تُثْنُونَ عَلَيْهِمْ بِهِ،وَتَدْعُونَ اللهَ لَهُمْ؟» قَالُوا:بَلَى قَالَ:«فَذَاكَ بِذَاكَ»[2920].

وعَنْ أَنَسٍ،قَالَ:قَالَ الْمُهَاجِرُونَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ،وَلَا أَحْسَنَ بَذْلًا مِنْ كَثِيرٍ،كَفَوْنَا الْمَئُونَةَ،وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَأِ،حَتَّى لَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ قَالَ:لَا،«مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ،وَدَعَوْتُمْ لَهُمْ»[2921]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَتِ الأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ :اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ،قَالَ:«لاَ» فَقَالُوا:تَكْفُونَا المَئُونَةَ،وَنَشْرَكْكُمْ فِي الثَّمَرَةِ،قَالُوا:سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" رواه البخاري[2922] .

[2918] - صحيح البخاري (٥/ ٦٩)(٣٩٣٧)

[2919] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٨٥)(٢١٧) صحيح

[2920] - السنن الكبرى للنسائي (٩/ ٧٩)(٩٩٣٨) صحيح

[2921] - مكارم الأخلاق للخرائطي (ص:١٩٠)(٥٧٤) صحيح

[2922] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٤)(٢٣٢٥)

[ش (تكفوننا المؤونة) تقومون بما يحتاج إليه من عمل كالسقي وغيره والقائل هم الأنصار.(قالوا) أي المهاجرون والأنصار.(سمعنا وأطعنا) امتثالا لما أمر به رسول الله ﷺ]

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَتِ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -):أَيْ:حِينَ هَاجَرَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ بِمَكَّةَ وَغَيْرِهَا (اقْسِمْ):بِهَمْزَةِ وَصْلٍ مَكْسُورَةٍ وَكَسْرِ ثَالِثِهِ (بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا):أَيِ:الْمُهَاجِرِينَ (النَّخِيلَ):أَيْ:أَصْلَ نَخِيلِنَا (قَالَ:" لَا "):أَيْ:لَا أُقَسِّمُهَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ (تَكْفُونَنَا الْمَئُونَةَ):خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ (وَنَشْرَكْكُمْ):بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ:نَكُونُ شُرَكَائَكُمْ وَفِي نُسْخَةٍ بِضَمٍّ ثُمَّ كَسْرٍ أَيْ:نَجْعَلُكُمْ شُرَكَاءَ (" فِي الثَّمَرَةِ "):أَيْ:فِي ثَمَرَتِهَا،وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَبَى مِنَ الْقِسْمَةِ اسْتِبْقَاءً عَلَيْهِمْ رَقَبَةَ نَخِيلِهِمُ الَّتِي عَلَيْهَا قِوَامُ أَمْرِهِمْ وَأَخْرَجَ الْكَلَامَ عَلَى وَجْهٍ تَخَيَّلَ لَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ التَّخْفِيفَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ لَا الشَّفَقَةَ وَالْإِرْفَاقَ بِهِمْ تَلَطُّفًا وَكَرَمًا وَحُسْنَ مُخَالَفَةٍ،وَاخْتِيَارُ التَّشْرِيكِ لِأَنَّهُ أَيْسَرُ وَأَرْفَقُ بِالْقَبِيلَيْنِ وَالْمَعْنَى ادْفَعُوا

وعَنْ مَالِكٍ الدَّارِيِّ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَذَ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ فَجَعَلَهَا فِي صُرَّةٍ،فَقَالَ لِلْغُلَامِ:اذْهَبْ بِهَا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ثُمَّ تَلَبَّثْ سَاعَةً فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ فَذَهَبَ الْغُلَامُ إِلَيْهِ،وَقَالَ:يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ:اجْعَلْ هَذَا فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ قَالَ:وَصَلَهُ اللَّهُ وَرَحِمَهُ ثُمَّ قَالَ:تَعَالَيْ يَا جَارِيَةُ اذْهَبِي بِهَذِهِ السَّبْعَةِ وَبِهَذِهِ الْخَمْسَةِ إِلَى فُلَانٍ وَبِهَذِهِ الْخَمْسَةِ إِلَى فُلَانٍ حَتَّى أَنْفَذَهَا فَرَجَعَ الْغُلَامُ إِلَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ فَوَجَدَهُ قَدْ أَعَدَّ مِثْلَهَا لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فَقَالَ:اذْهَبْ بِهَا إِلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَتَلَبَّثْ فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ فَذَهَبَ بِهَا إِلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،فَقَالَ:يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ:اجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ فَقَالَ:رَحِمَهُ اللَّهُ وَوَصَلَهُ تَعَالَيْ يَا جَارِيَةُ اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ فُلَانٍ بِكَذَا فَاطَّلَعَتْ امْرَأَةُ مُعَاذٍ فَقَالَتْ:وَاللَّهِ نَحْنُ مَسَاكِينُ فَأَعْطِنَا وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخِرْقَةِ إِلَّا دِينَارَانِ فَرَمَى بِهِمَا إِلَيْهَا وَرَجَعَ الْغُلَامُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ

عَنَّا أَيْ:عَنِ الْمُهَاجِرِينَ مُئُونَةَ الْعِمَارَةِ،فَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ لَا يُطِيقُونَ عِمَارَةَ النَّخِيلِ مِنَ التَّأْبِيرِ وَالسَّقْيِ وَغَيْرِهِمَا،بَلِ احْفَظُوا نَخِيلَكُمْ وَأَصْلِحُوهَا،وَاعْمَلُوا إِلَيْهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهَا مِنَ الْعِمَارَةِ فَمَا حَصَلَ مِنَ الثِّمَارِ نُقَسِّمُهُ بَيْنَكُمْ (قَالُوا:سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا):فِي الْحَدِيثِ نَدْبُ مُعَاوَنَةِ الْإِخْوَانِ وَدَفْعُ الْمَشَقَّةِ عَنْهُمْ،وَلِبَيَانِ صِحَّةِ الشَّرِكَةِ.وَفِي الْحَدِيثِ:الْمَعُونَةُ تَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْمَئُونَةِ:قِيلَ:هِيَ فَعُولَةٌ،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ:مَأَنَهُمْ أَمْأَنُهُمْ مَأْنًا،إِذَا احْتَمَلْتُ مُؤْنَتَهُمْ،وَقِيلَ مُفْعَلَةٌ بِالضَّمِّ مِنَ الْأَيْنِ وَهُوَ التَّعَبُ وَالشِّدَّةُ،وَقِيلَ مِنَ الْأَوْنِ وَهُوَ الْحَرَجُ،لِأَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى الْإِنْسَانِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٦٦)

فقه الحديث:دل هذا الحديث على مشروعية " المساقاة " لقول الأنصار:" تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمر " قال القسطلاني:أي ويكون الحصيل من الثمر بيننا وبينكم،وهو ما يعرف عند الفقهاء بالمساقاة.قال في " تيسير العلام ":وهي دفع شجر لمن يسقيه ويعمل عليه بجزء معلوم من ثمره،قال:والمساقاة والمزارعة من عقود المشاركات التي مبناها العدل بين الشريكين فإن صاحب الشجر والأرض كصاحب النقود التي يدفعها للمضارب في التجارة،فالغنم بينهما،والغرم عليهما،وبهذا يعلم أنّها أبعد عن الضرر والجهالة من الإجارة.وأقرب إلى القياس والعدل.اهـ.وقد أجازها مالك والشافعي وأحمد والظاهرية وأكثر أهل العلم.وذهب أبو حنيفة إلى أنّها لا تجوز بحال،لأنها إجارة بثمره لم تخلق،أو بثمرة مجهولة فهي راجعة إلى التصرف بالثمرة قبل بدو صلاحها،أو راجعة إلى جهالة العوض -أي المبيع وكلاهما ممنوع شرعاً.وقد اتفق الجمهور على جوازها إجمالاً لما جاء في حديث الباب من اتفاق المهاجرين والأنصار عليها.قال العيني:ثم ظاهر الحديث يقتضي عملهم على النصف مما يخرج من الثمرة.لأن الشركة إذا أبهمت ولم يكن فيها حد معلوم كانت نصفين،والحديث حجة للجمهور على جواز المساقاة شرعاً.وأما قول من قال:إنها لا تجوز لأنها إجارة بثمرة لم تخلق ولما فيها من جهالة العوض،فالجواب عنه من وجهين الأول:أنه لا اجتهاد مع النص،والنص موجود،وهو حديث الباب.الثاني:أن المساقاة ليست إجارة حتى تطبق عليها أحكامها،وإنما هي شركة مضاربة والشريكان يشتركان في الغرم والغنم معاً.واختلفوا هل تختص بالنخيل التي ورد الحديث فيها فقط،أو تقاس عليها الأشجار الأخرى،فذهب الظاهرية إلى أنها لا تجوز إلّا في النخيل خاصة وقال الشافعي:تجوز في النخل والكرم خاصة،وقال:أحمد تجوز في كل ما له ثمر مأكول،بل ألحق كثير من أصحابه كل ما له ورق أو زهر ينتفع به.وقال مالك:تجوز في كل ما له أصل ثابت فهي رخصة عامة،منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٣١)

اللَّهُ عَنْهُ فَأَخْبَرَهُ فَسُرَّ بِذَلِكَ وَقَالَ:«إِنَّهُمْ أُخْوَةٌ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» رواه الطبراني في الكبير[2923].

إن من مقاصد الشريعة الإسلامية أن تسود المحبة بين المسلمين،وألا تقع بينهم العداوة والبغضاء،ولهذا جاءت بالنهي عما يؤدي إلى التباغض والشحناء والعداوة والتصارم،وجاءت بالأمر والترغيب بما يزيد في المحبة والتآلف من الخصال الكريمة،والأخلاق الصالحة،والآداب النبيلة،وقد قال تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } [المائدة:٩١]

إنَّ الشَّيْطَانَ يُرِيدُ لَكُمْ شُرْبَ الخَمْرِ،وَلَعِبَ المَيْسِرِ،لِيُعَادِيَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً،وَيَبْغُضَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً،فيتَشَتَّتَ أمْرُكُمْ بَعْدَ أنْ أَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بالإِيمَانِ،وَجَمَعَ بِأخُوَّةِ الإِسْلاَمِ،ويُرِيدُ الشَّيْطَانُ أنْ يَصْرِفَكُمْ بالسُّكْرِ وَالاشْتِغَالِ بالمَيْسِرِ عَنْ ذِكْرِ الله الذي به صَلاَحُ أمْرِكُمْ،فِي دُنْيَاكُمْ وَآخِرَاتِكُمْ،وَعَنِ الصَّلاَةِ التي فَرَضَهَا اللهُ عَلَيْكُمْ،تَزْكِيَةً لِنُفُوسِكُمْ،وَتَطْهِيراً لِقُلُوبِكُمْ.

وَالخَمْرُ تُفْقِدُ الإِنْسَانَ عَقْلَهُ الذي يَمْنَعُهُ عَنْ إِتْيَانِ الأَفْعَالِ القَبِيحَةِ،وَعَنْ تَوْجِيهِ الأقْوَالِ الشَّائِنَةِ إلى النَّاسِ،فَإِذَا شَرِبَهَا الإِنْسَانُ أقْدَمَ عَلَى مَا لاَ يُقْدِمُ عَلَيهِ وَهُوَ صَاحٍ مَتَمَالِكٌ قواهُ فَيُسِيءُ إلى أصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ،وَيُؤْذِيهِمْ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إلى الشَّحْنَاءِ وَالبَغْضَاءِ.وَالمَيْسِرُ يُثِيرُ البَغْضَاءَ وَالشَّحْنَاءَ بَيْنَ اللاعِبِينَ وَالحَاضِرِينَ،وَكَثِيراً مَا يُفرِّطُ المُقَامِرُ فِي حُقُوقِ الوَالِدَيْنِ وَالزَّوْجِ وَالأوْلاَدِ،حَتَّى يُوشِكُ أنْ يَمْقُتَهُ كُلُّ وَاحِدٍ.ثُمَّ يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بأنْ يَنْتَهُوا عَنْ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ لِيُفَوِّتُوا عَلَى إبْلِيسَ غَرَضَهُ.[2924]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» رواه مسلم[2925].

[2923] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٢٢٢)(١٥٦٢) والزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ١٧٨)(٥١١) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٣٧) حسن،ومالك الدار معروف من كبار التابعين وكان رجلا في عهد عمر رضي الله ووضعه خازنا لبيت المال .

[2924] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٦١،بترقيم الشاملة آليا)

[2925] - صحيح مسلم (١/ ٧٤)٩٣ - (٥٤)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ:«تَهَادُوا تَحَابُّوا» رواه البخاري في الأدب المفرد[2926].

فإن من أسباب زوال الدولة الإسلامية،ومن أعظم التهديدات لها،أن تبقى رواسب جاهلية عند ولاة الأمر أو بعضهم كالقومية أو القبلية أو الإقليمية التي رسخها الاحتلال الصليبي (الاستعمار) من خلال الحدود المصطنعة والدويلات الزائفة الفاقدة للشرعية.

وهذه الرواسب الجاهلية من الأمراض الفتاكة التي يجب أن يحذر منها المجاهدون في ساحات الجهاد في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وغيرها،وأن يطهروا قلوبهم من العصبيات الجاهلية كالقومية والإقليمية التي تباعد بين القلوب،وتفرق الصف،وتمنع النصر،وتمكن لفتنة الكفار ولفسادهم في الأرض،كما قال تعالى:{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [الأنفال:٤٦] وقال تعالى:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [الأنفال:٧٣]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَّامٍ،أَنَّ أَبَا سَلَّامٍ،حَدَّثَهُ أَنَّ الحَارِثَ الأَشْعَرِيَّ،حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا،وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا،فَقَالَ عِيسَى:إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا،فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ،وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ،فَقَالَ يَحْيَى:أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ،فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ،فَامْتَلَأَ المَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ،فَقَالَ:إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ،وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ:أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ،فَقَالَ:هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ،فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ،فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ،فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ،وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ،فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ،فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا،[ص:١٤٩] وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ

[ش (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره وهي لغة معروفة صحيحة وأما معنى الحديث فقوله ﷺ ولا تؤمنوا حتى تحابوا معناه لا يكمل ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب (أفشوا السلام بينكم) فيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف]

[2926] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٢٠٨)(٥٩٤) حسن

أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ،وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ،فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ،فَقَالَ:أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ،فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ،وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ،كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ "،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :«وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ،السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالجِهَادُ وَالهِجْرَةُ وَالجَمَاعَةُ،فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ،وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ»،فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ:«وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ،فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ،عِبَادَ اللَّهِ» رواه الترمذي [٢٩٢٧]

فقوله ﷺ " وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ ":أي نادى في الإسلام بنداء الجاهلية وعصبيتها.



[٢٩٢٧] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٤٩)(٢٨٦٣) صحيح

(العصابة):الجماعة من الناس،قيل:تبلغ الأربعين.=(الرِّبْقَة) في الأصل:حَبْلٌ فيه عُرى كثيرة تُشَدّ به الغنم،الواحدة منها رِبْقة،فاستعار للإسلام ربقَة،يعني بها:العروة يَشُدُّ بها المسلم نفسه من عُرى الإسلام.=(جُثى) جمع جثوة بالضم،وهي الشيء المجموع من جماعات جهنم،هذا فيمن رواها مخففة،ومن رواها «جُثِّي» - مشددة - فإنه أراد الذين يجثون على الركب،واحدها:جاثٍ،من قوله تعالى:{حَوْلَ جهنم جِثِيّاً} [مريم:٦٨] قال الهروي:وهذا أحب إلى أبي عبيد.جامع الأصول (٥٤٧ /٩)

المبحث الحادي والثلاثون

الوعد بالتمكين وعودة الخلافة

إن من خصال أهل الإيمان أن يوقنوا بوعد الله ونصره لعباده المؤمنين المجاهدين، كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)} [غافر:٥١،٥٢]

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى، إِنَّهُ سَيَجْعَلُ رُسلَهُ هُمُ الغَالِبِينَ لأَعْدَائِهِمْ وَمُعَانِدِيهِمْ، وَإِنَّهُ سَيَنْصُرُ مَعَهُمُ المُؤْمِنِينَ بِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالطُّرُقِ التَّالِيةِ:

- إِمَّا بِجَعْلِهِمْ غَالِبِينَ عَلَى مَنْ كَذَّبَهم، كَمَا فَعَلَ بِدَاوُدَ وَسُلَيمَانَ وَمُحَمَّد، عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ.
- وإِمَّا بِالانْتِقَامِ مِمَّنْ عَادَاهُمْ وَآذَاهُمْ، وَإِهْلاَكِهِ إِيَّاهُمْ، وَإِنْجَائِهِ الرُّسُلَ والمُؤْمِنِينَ، كَمَا فَعَلَ بِنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَمُوسَى وَلُوط.
- وَإِمَّا بِالانْتِقَامِ مِمَّنْ آذَى الرُّسُلَ بَعْدَ وَفَاةِ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ، بِتَسْلِيطِ بَعْضِ خَلْقِ اللهِ عَلَى المُكَذِّبِينَ المُجْرِمِينَ لِيَنْتَقِمُوا مِنْهُمْ، كَمَا فَعَلَ مَعَ زَكَرِيا وَيَحْيَى، عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ.

وَكَمَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْصُرُ رَسُلَهُ والمُؤْمِنِينَ بِدَعْوَتِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَذَلِكَ يَنْصُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهُوَ اليومُ الذي يَقُومُ فِيهِ الأشْهَادُ مِنَ المَلاَئِكَةِ والأَنْبِيَاءِ والمُؤْمِنِينَ، بالشَّهَادَةِ عَلَى الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ بِأَنَّ الرُّسُلَ قَدْ أَبْلَغُوهُمْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ.

وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العِبَادِ يُؤَدُّونَ شَهَادَاتِهِمْ، فِي ذَلِكَ اليَوْمِ لاَ يَنْفَعُ أَهْلَ الشِّرْكِ اعْتِذَارُهُمْ لأَنَّ أَعْذَارَهُمْ بَاطِلَةٌ، مَرْدُودَةٌ، وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ اللَّعْنَةُ والطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَهُمْ سُوءُ العَاقِبَةِ والقَرَارِ فِي جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ المُسْتَقَرُّ وَالمَأْوَى.[٢٩٢٨]

وقال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} [الصافات:١٧١ - ١٧٣]

[٢٩٢٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

وَلَقَدْ سَبَقَ وَعْدُ اللهِ فِي الكِتَابِ الأَوَّلِ أَنَّ العَاقِبَةَ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِم الْمُخْلِصِينَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ.وَأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُمْ وَيُؤَزِّرُهُمْ وَيُذِلُّ أَعْدَاءَهُمْ وَأَعْدَاءَ اللهِ.وَإِنَّ جُنْدَ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا،سَتَكُونَ لَهُمْ الغَلَبَةُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فِي الحَرْبِ.[٢٩٢٩]

والوعد واقع وكلمة الله قائمة.ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان،على الرغم من جميع العوائق،وعلى الرغم من تكذيب المكذبين،وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين.ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار.وذهبت سطوتهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل.تسيطر على قلوب الناس وعقولهم،وتكيف تصوراتهم وأفهامهم.وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض.وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل،وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل.باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعث منها.وحقت كلمة الله لعباده المرسلين.إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون.هذه بصفة عامة.وهي ظاهرة ملحوظة.في جميع بقاع الأرض.في جميع العصور.

وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله،يخلص فيها الجند،ويتجرد لها الدعاة.إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق،وقامت في طريقها العراقيل.ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار،وقوى الدعاية والافتراء،وقوى الحرب والمقاومة،وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها.ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله.والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه.الوعد بالنصر والغلبة والتمكين.هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية.سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء ..ولكنها مرهونة بتقدير الله،يحققها حين يشاء.ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة.

ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة،ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين! ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله.ويريد الله صورة أخرى

[٢٩٢٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٨٣٨،بترقيم الشاملة آليا)

أكمل وأبقى.فيكون ما يريده الله.ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون ..ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوقهم القافلة الرابحة الهينة وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة.وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام.وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك،وتدور عليهم الدائرة،ويقسو عليهم الابتلاء لأن الله يعدهم للنصر في معركة أكبر.ولأن الله يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع،وفي خط أطول،وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة الله،ومضت إرادته بوعده،وثبتت سننه لا تتخلف ولا تحيد:«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ».[2930]

وأما التكذيب والشك بوعد الله ونصره فهو من صفات المنافقين الهالكين الذين قال الله تعالى عنهم:{ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال:٤٩]

لَمَّا اقْتَرَبَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَلاَحَظَ الْمُشْرِكُونَ قِلَّةَ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ،اسْتَخَفُّوا بِهِمْ،وَظَنُّوا أَنَّهُمْ هَازِمُوهُمْ لاَ مَحَالَةَ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينَهُمْ حَتَّى أَقْدَمُوا عَلَى قِتَالِ قُرَيْشٍ مَعْ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّهِمْ.وَلكِنَّ النَّصْرَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ العَدَدِ،فَإِنَّ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ،وَيُسَلِّمُ أَمْرَهُ إِلَيهِ،فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدِ الْتَجأَ إِلَى جَانِبٍ عَزِيزٍ مَنِيعٍ لاَ يُضَامُ.وَاللهُ حَكِيمٌ يَعْرِفُ وَضْعَ الأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا،فَيَنْصُرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ.[2931]

{غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ} أي:أوردهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها،ولا استطاعة لهم بها،يقولونه احتقارا لهم واستخفافا لعقولهم،وهم - والله - الأخِفَّاءُ عقولا الضعفاء أحلاما.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام،فإن المؤمن المتوكل على الله،الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله

[2930] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٧٨٨)

[2931] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢١٠،بترقيم الشاملة آليا)

تعالى،وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه،ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه،وعلم أنه على الحق،وأن الله تعالى حكيم رحـــيم في كل ما قدره وقضاه،فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة،وكان واثقـــا بربـــه،مطمئن القلب لا فزعا ولا جبانا،.ولهذا قال {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ} لا يغالـــب قوتـــه قوة.{حَكِيمٌ} فيما قضاه وأجراه.[2932]

وَإِنَّمَا قَالُوا هَذَا لِمُشَارَكَتِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُجَاهِرِينَ بِالْكُفْرِ فِي الْجَهْلِ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَبِمَـــا يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةِ،فَلَمْ يَجِدُوا تَعْلِيلًا لِإِقْدَامِ الْمُؤْمِنِينَ الْقَلِيلِينَ الْعَادِمَيْنِ لِلْقُوَى الْمَادِّيَّةِ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعْتَزِّينَ بِكَثْرَتِهِمْ وَقُوَاهُمْ إِلَّا الْغُرُورَ بِـــدِينِهِمْ،وَمَا كَـــانُوا مَغْـــرُورِينَ بِأَنْفُسِهِمْ،بَلْ وَاثِقِينَ بِوَعْدِ رَبِّهِمْ،مُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ،وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ ذَلِكَ فِي الـــرَّدِّ عَلَـــى أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ،بِقَوْلِهِ:وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "[2933]

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض قيل:إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإســـلام في مكـــة - ولكن لم تصح عقيدتهم و لم تطمئن قلوبهم - خرجوا مع الـــنفير مزعزعين،فلمـــا رأوا قلـــة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة! والمنافقون والذين في قلوبهم مـــرض لا يـــدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة فهم يرون ظواهر الأمور،دون أن تهـــديهم بصـــيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة،والثقة في الله،والتوكـــل عليه،واستصـــغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحها القوة الحقيقية ..فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم،مغرورين بدينهم،واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها! إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنـــة وعند القلوب الخاوية من الإيمان.

ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر ..فالقلوب الخاوية تـــراه ولا ترى شيئا وراءه والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من «الواقع» الحقيقي! الواقع الـــذي يشـــمل جميع القوى،ويوازن بينها موازنة صحيحة:«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..

[2932] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢٣)

[2933] - تفسير المنار (١٠/ ١٢٠)

هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه! وهذا ما يرجح الكفة،ويقرر النتيجة،ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان.

وقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض،عن العصبة المسلمة يوم بدر:«غر هؤلاء دينهم» ..هي قولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض كلما رأوا العصبة المسلمة تتعرض لجحافل الطاغوت في عنفوانه وعدتها الأساسية التي تملكها هي هذا الدين وهي هذه العقيدة الدافعة الدافقة وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمات الله وهي التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه.

إن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا والعصبة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت،وفي نفوسهم سخرية من هذه العصبة التي تتصدى للخطر،وتستخف بالخطر! وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة في اقتحام العصبة المسلمة للمكاره الظاهرة،وللأخطار الواضحة ..إنهم هم لا يعرفون مبررا لهذا التهور – كما يسمونه – وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة! ..إنهم يحسبون الحياة كلها – بما فيها الدين والعقيدة – صفقة في سوق التجارة.إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى! ..إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن،ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان ..إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائما فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين:النصر والغلب،أو الشهادة والجنة ..ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف فهناك الله ..وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض! والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه،وأن ترى بنور الله وهداه،وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة،وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله،وأن تلقي بالها دائما إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين:«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ....وصدق الله العظيم ..[٢٩٣٤]

،وقال تعالى:{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا } [الأحزاب:١٢]

[٢٩٣٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٧٤)

أَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَظَهَرَ نِفَاقُهُمْ،فَقَالَ مُعْتِبُ بْنُ قُشَيْرٍ مَا قَالَ،وَقَالَ ضِعَافُ الإِيمَانِ وَالذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ رِيبَةٌ وَشَكٌ،لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالإِسْلامِ - {الذينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} :{مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً} ،أَيْ لَمْ يكَنْ مَا وَعَدَنا بِهِ اللهُ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِالعَدُوِّ إِلا وَعْداً يَغُرُّنَا وَيَخْدَعُنا.[2935]

فهذه حال من تلك الأحوال التي عرضت للمسلمين يومئذ،وهي أن المنافقين ومن في قلوبهم مرض من المؤمنين،قد كانوا من الذين ظنوا بالله ظن السوء..فكان قولهم في مواجهة هذا الابتلاء،هو الكفر الصريح:«ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً» ..أي أكاذيب وأباطيل،وأمانيّ من من الخداع،والتغرير..وهكذا تكشف الشدائد والمحن عن معادن الناس،وعن مطويات الضمائر،وما تخفى الصدور..[2936]

أي وحين قال المنافقون كمعتّب بن قشير،والذين فى قلوبهم ضعف فى الإيمان لقرب عهدهم بالإسلام:ما وعدنا الله ورسوله من الظفر والنصر على العدو إلا وعدا باطلا بغرّنا به ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به،ويسلخنا عن دين آبائنا،ويقول:إن هذا الدين سيظهر على الدين كله،وإنه سيفتح لنا فارس والروم،وها نحن أولاء قد حصرنا هاهنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته.[2937]

فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل،والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله،وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون.فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك.وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل،وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين! ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء.

[2935] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

[2936] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٦٦٤)

[2937] - تفسير المراغي (٢١/ ١٤١)

فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان! «وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ:يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا» ..فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف،والعودة إلى بيوتهم،بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا،لا موضع لها ولا محل،وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم ..وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها،ثغرة الخوف على النساء والذراري.والخطر محدق والهول جامح،والظنون لا تثبت ولا تستقر![2938]

وقال تعالى:{ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} [الفتح:١٢]

فَقَدْ كَانَ سَبَبَ قُعُودِكُمْ هُوَ اعْتِقَادُكُم أَنَّ الرَّسُولَ والمُؤْمنينَ سَيُقْتَلُونَ،وَسَتُستَأْصَلُ شَأْفَتُهُمْ،وَلَنْ يَعُودَ مِنْهُمْ أَحَدٌ مِنْ هَذِه الغَزْوَةِ إلى أَهْلِيهِم،وَزَيَّنَ لَكُمُ الشَّيْطَانُ ذلِكَ الظَّنَّ السَّيِّئَ.فَقَعدْتُمْ عَنْ صُحْبَتِه،وَظَنَنْتُم أَنَّ اللهَ لَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ وَالمُؤْمنينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فَصِرْتُمُ بِهذِهِ المَقَالَةِ قَوْماً هَالِكينَ،مُسْتَوجِبينَ سُخْطَ اللهِ وَعَذَابَهُ.[2939]

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين،وجها لوجه أمام ما أضمروا من نية،وما ستروا من تقدير،وما ظنوا بالله من السوء.وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم،فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة وقالوا:يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة،وقتلوا أصحابه فيقاتلهم! - يشيرون إلى أحد والأحزاب - ولم يحسبوا حسابا لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده.كما أنهم - بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة - لم يقدروا أن الواجب هو الواجب،بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت وأن طاعة رسول الله - ﷺ - يجب أن تكون بدون النظر إلى الربح الظاهري والخسارة الشكلية،فهي واجب مفروض يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه.لقد ظنوا ظنهم،وزين هذا الظن في قلوبهم،حتى لم يروا غيره،ولم يفكروا في سواه.وكان هذا هو ظن السوء بالله،الناشئ من أن قلوبهم بور.وهو تعبير عجيب موح.فالأرض البور ميتة جرداء.وكذلك قلوبهم.وكذلك هم بكل كيانهم.بور.لا حياة ولا خصب ولا إثمار.وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟

[2938] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٦٠٢)

[2939] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٧٤،بترقيم الشاملة آليا)

لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بورا.ميتا أجرد نهايته إلى البوار والدمار.
وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة.الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله.البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة.هكذا يظنون دائما بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة،وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال وأن المؤمنين قلة في العدد،أو قلة في العدة،أو قلة في المكان والجاه والمال.هكذا يظن الأعراب وأشباههم في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبدا إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة.ومن ثم يتجنبون المؤمنين حبا للسلامة ويتوقعون في كل لحظة أن يستأصلوا وأن تنتهي دعوتهم فيأخذون هم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو،وبتدبيره هو،وحسب ميزان القوى الحقيقية.الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية،فيخفض به قوما ويرفع به آخرين،من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين![٢٩٤٠]
وما أكثر هؤلاء المخذلين المهزومين في زماننا الذين يرجفون في البلاد،ويخذلون المسلمين عن جهاد الصليبيين واليهود،و ينادون بأن يسلم المسلمون البلاد والعباد للغزاة من خلال وسائل إعلامهم المخذلة المفسدة.
فدأبهم التهويل من قوة الأعداء،وبث الرعب والهزيمة والخور في قلوب الناس،وتصوير شراذم اليهود في فلسطين بالقوة الكبرى في المنطقة،وإظهار الصليبيين الأمريكان المهزومين في العراق وأفغانستان بأنهم أكبر قوة في العالم.
إن الواجب على المسلمين المجاهدين ألا يعبأوا بأراجيف المرجفين،وألا يحيك تخذيلهم في صدورهم،وألا تحزنهم وتخيفهم أكاذيبهم وافتراءاتهم ولومهم في وسائل إعلامهم،أو غيرها،وقد قال الله تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [يونس:٦٥]
لاَ يُحْزِنُكَ مَا يَقُولُهُ المُشْرِكُونَ بِحَقِّكَ،وَلاَ تَهْتَمَّ بِهِ،وَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَيْهِمْ،وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ،فَإِنَّ العِزَّةَ وَالقَهْرَ وَالغَلَبَةَ للهِ وَحْدَهُ،وَلاَ يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ شَيْئاً مِنْهَا،وَهُوَ يَهَبُهَا لِمَنْ يَشَاءُ،وَقَدْ وَعَدَ

[٢٩٤٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٤٧)

بِهَا رُسُلَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ،وَهُوَ السَّمِيعُ لِمَا يَقُولُونَهُ مِنْ تَكْذِيبِ الحَقِّ،وَهُوَ العَلِيمُ بِمَا يَفْعَلُونَ مِنْ إِيذَاءٍ وَكَيدٍ،وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ أَوْفَى الجَزَاءِ.[2941]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة:٥٤]

إن التحالف الإجرامي الآثم الذي يجمع الصليبيين واليهود والمرتدين والمنافقين على حرب الإسلام،ليس عدوانا وظلما للمسلمين فحسب بل هو ظلم للبشرية كلها،التي لا خلاص لها ولا نجاة ولا سعادة إلا بالدخول في دين الإسلام وإخلاص العبودية لله تعالى.

إن هؤلاء الصليبيين وحلفاءهم لا يعادون المجاهدين لعرض من أعراض الدنيا،وإنما يعادونهم لإيمانهم بالله تعالى وإخلاصهم العبودية والطاعة والخضوع لله تبارك وتعالى،كما قال تعالى:{ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [البروج:٨]

وَلَمْ يَكُنْ لِهَؤُلاَءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَنْبٍ يُسَبِّبُ نِقْمَةَ الطُّغَاةِ عَلَيْهِمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِرَبِّهِم العَزِيزِ،الذِي يُخْشَى عِقَابُهُ الْمُنْعِمِ،الذِي يُرْجَى ثَوَابُهُ.[2942]

أي أنه ليس بين أصحاب الأخدود هؤلاء،وبين المؤمنين،من ذنب يأخذونهم به،إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد..إنهم يؤمنون بالله الذي لاقوة إلا قوته،ولا عزة إلا عزته،وأن ما يملكه أصحاب الأخدود من قوة،وما يجدونه فى أنفسهم من عزة،هو شىء محقر مهين إلى جانب عزة الله،التي يلوذ بها المؤمنون..وهم- أي المؤمنون- يحمدون الله على السراء كما يحمدونه على الضراء،فهو سبحانه المستحق وحده للحمد فى جميع الأحوال..وهو سبحانه،له ملك السموات والأرض وما فيهن،من عتاة وجبارين ومتكبرين،وهو يرى ويعلم كل شىء،فينتقم لأوليائه،ويأخذ لهم بحقهم ممن اعتدى عليهم..

ولقد انتقم الله لأوليائه،وهاهم أولاء المجرمون قد سيقوا إلى ساحة قضائه العادل،وقد صب الله عليهم لعنته،وألقى بهم فى عذاب الحريق! وفى التعبير عن إيمان المؤمنين بفعل المستقبل:«إِلَّا أَنْ

[2941] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٣٠،بترقيم الشاملة آليا)

[2942] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٩٤،بترقيم الشاملة آليا)

يُؤْمِنُوا»،بدلا من الفعل الماضي،الذي يقتضيه المقام،والذي بسبب وقوعه كانت نقمة الناقمين عليهم- فى هذا إشارة إلى أن هذا الإيمان الذي فى قلوب هؤلاء المؤمنين،هو إيمـــان ثابـــت فى قلوبهم،مصاحب لهم،لا يتحولون عنه،ولا يجليه عن قلوبهم وعد أو وعيد.[٢٩٤٣]

هنالك حقيقة أخرى يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة الأخدود في قوله تعالى:{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} ..حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل.إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركـــة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق.وإن خصومهم لا ينقمـــون منـــهم إلا الإيمـــان،ولا يسخطون منهم إلا العقيدة ..إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصـــادية،ولا معركـــة عنصرية ..ولو كانت شيئاً من هذا لسهل وقفها،وسهل حل إشكالها.ولكنـــها في صـــميمها معركة عقيدة - إما كفر وإما إيمان ..إما جاهلية وإما إسلام!

ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله - ﷺ - المال والحكم والمتاع في مقابـــل شيء واحد،أن يدع معركة العقيدة وأن يدهن في هذا الأمر!

ولو أجابهم - حاشاه - إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق!

إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة ..وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهـــوا عـــدواً لهم.فإنه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة " إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " ويخلصـــوا لـــه وحده الطاعة والخضوع!

وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة،راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية،كي يموِّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة،ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيـــدة.فمـــن واجب المؤمنين ألا يُخدَعوا،ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيـــت.وأن الـــذي يغيِّر راية المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها،النصر في أية صورة مـــن الصور،سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخـــدود،أو في صورة الهيمنة - الناشئة من الانطلاق الروحي - كما حدث للجيل الأول من المسلمين.

[٢٩٤٣] - التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٥١٤)

ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخـدعنا عـن حقيقـة المعركة،وأن تزور التاريخ،فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار ..كلا ..إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السـفور كما كانت في القرون الوسطى! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شـتى العناصر،وفيهم صلاح الدين الكردي،وتوران شاه المملوكي،العناصر التي نسـيت قوميتـها وذكرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة! {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيدِ}.

وصدق الله العظيم،وكذب المموهون الخادعون![٢٩٤٤]

وقال تعالى:{قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) } [الأعراف]

فَقَالَ السَّحَرَةُ يَرُدُّونَ عَلَى تَهْدِيدِ فِرْعَوْنَ:إِنَّنَا نَعْلَمُ يَقيناً أَنَّنَا سَنَرْجِعُ إِلى اللهِ رَبِّنَا،وَعَذَابُهُ تَعَـالَى أَشَدَّ مِنْ عذَابِكَ،وَنَكَالُهُ عَلَى مَا أَكْرَهْتَنا عَلَيه مِنْ مُمَارَسَةِ السِّحْرِ لِمُعَارَضَةِ الحَقِّ مِـنْ عِنْـدِ اللهِ،أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ،لِذلكَ فَإِنَّنَا سَنَصْبِرُ عَلَى أَذَاكَ لِنَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ.وَنَحْنُ لَمْ نَرْتَكِبْ إِثْماً أَوْ جُرْماً تَنْقِمُ بِهِ عَلَينا،وَالشَّيءُ الوَحِيدُ الذِي تُؤاخِذُنَا عَليه هُوَ أَنَّنَا آمَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّـا جَاءَتْنَا آيَاتُهُ.ثُمَّ اتَّجَهَ السَّحَرَةُ بِالدُّعَاءِ إلى اللهِ تَعَالَى قَائِلِينَ:اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى دِينِكَ،وَاجْعَلْنَا مِـنَ الصَّابِرِينَ عَلَـى الأَذَى الـذِي سَـيُلْحِقُهُ فِرْعَـوْنُ بِنا،وَتَوَفَّنَـا وَنَحْـنُ مُتَّبِعُـونَ دِينَـكَ وَنَبِيَّكَ،مُسْتَسْلِمُونَ لِقَضَائِكَ.[٢٩٤٥]

هذا هو عزاء المؤمنين فى ساعة العسرة،وفى مواجهة البلاء وتحدّيه..

إنهم منقلبون إلى الله،راجعون إليه،نازلون فى ضيافته..فليس يفزعهم الموت،ولا ترهبهم المثلات التي يأخذهم بها الظالمون..

[٢٩٤٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٨١٥) ومعالم في الطريق بتحقيقي [ص ١٦٣] وما بعدها

[٢٩٤٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٠٨٠،بترقيم الشاملة آليا)

إن حياتهم إذا انتهت بتلك النهاية،فإنها ستبدأ مرحلة جديدة،فى عالم أرحب،وفى رحاب ربّ كريم،عرفوه،وآمنوا به،فلا ينكرهم يوم لقائه،ولا يحجب عنهم فضله ورحمته،بل يلقاهم برحمة منه ورضوان،وجنات لهم فيها نعيم مقيم..

إن هذا الانتقام الذي يأخذهم به فرعون،لم يكن عن جناية جنوها عليه،وإنما كل ذنبهم أنهم رأوا النور فاهتدوا به،وعرفوا الحق فاتبعوه..إنهم قد اختاروا لأنفسهم الخير،وليس لأحد سلطان عليهم فى أن يترع الإيمان من قلوبهم،وإن كان لسلطانه أن يترع أرواحهم من أجسادهم،فذلك شىء لا يلتفتون إليه،بعد أن أخذوا خير ما في هذه الدنيا،وهو الإيمان..

فليكن الموت،وليكن التمثيل والتنكيل بهم،إنهم لصابرون على المحنة،موطنون النفس على البلاء،يرجون من الله أن يمدهم بأمداد من الصبر والعزم:«رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ» .وإفراغ الصبر:صبّه صبّا عليهم،حتى يمتلىء كيانهم به..فإن المحنة قاسية،والبلاء شديد،وذلك أمر يحتاج إلى كثير من أمداد الصبر من ربّ العالمين.[٢٩٤٦]

إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع.كما أنه لا يخضع أو يخنع.الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها،ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره:«قالُوا:إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ» ..والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت ..وأنها معركة العقيدة في الصميم ..لا يداهن ولا يناور ..ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة،لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة:«وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا» ..

والذي يعرف أين يتجه في المعركة،وإلى من يتجه لا يطلب من خصمه السلامة والعافية،إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام:«رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ» ..

ويقف الطغيان عاجزا أمام الإيمان،وأمام الوعي،وأمام الاطمئنان ..يقف الطغيان عاجزا أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام.فإذا هي مستعصية عليه،لأنها من أمر الله،لا يملك أمرها إلا الله ..وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟ وماذا يملك الجبروت إذا

[٢٩٤٦] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٤٥٩)

اعتصمت القلوب بالله؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان! إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية.هذا الذي كان بين فرعون وملئه،والمؤمنين من السحرة ..السابقين ..

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية.بانتصار العقيدة على الحياة.وانتصار العزيمة على الألم.وانتصار «الإنسان» على «الشيطان»! إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية.بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية.فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة.والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح.ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب.

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية! فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز،وتمنى بالقرب من السلطان ..هي ذاتها التي تستعلي على فرعون وتستهين بالتهديد والوعيد،وتقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب.وما تغير في حياتها شيء،ولا تغير من حولها شيء- في عالم المادة – إنما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى.وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت،وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد ..وقعت اللمسة التي تحوّل الإبرة،فيلتقط القلب إيقاعات القدرة،ويتسمع الضمير أصداء الهداية،وتتلقى البصيرة إشراقات النور ..وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغيير في الواقع المادي ولكنها هي تغير الواقع المادي وترفع «الإنسان» في عالم الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمح إليها الخيال! ويذهب التهديد ..ويتلاشى الوعيد ..ويمضي الإيمان في طريقه.لا يتلفت،ولا يتردد،ولا يحيد! ويسدل السياق القرآني الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد ..إن روعة الموقف تبلغ ذروتها وتنتهي إلى غايتها.وعندئذ يتلاقى الجمال الفني في العرض مع الهدف النفسي للقصة،على طريقة القرآن في مخاطبة الوجدان الإيماني بلغة الجمال الفني،في تناسق لا يبلغه إلا القرآن.[٢٩٤٧]

[٢٩٤٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٨١٦)

وقال تعالى:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة:٥٩]

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لهؤلاءِ الذينَ يَتَّخِذُونَ دِينَكُمْ هُزْواً وَلَعِباً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ:هَلْ لَكُمْ مَطْعَنٌ عَلَيْنَا،وَمَا الذي تَعِيبُونَهُ عَلَيْنَا،وَتَنْقِمُونَهُ مِنّا،غَيْرَ إِيمَانِنَا بِرَبِّنَا،وَبِمَا أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ قَبْلِنَا،وَغَيْرَ إِيْمَانِنَا – يَا أَهْلَ الكِتَابِ – بِأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ،وَعَنْ طَرِيقِ الهُدْى؟[٢٩٤٨]

هو نداء مطلق لأهل الكتاب،وخاصة اليهود،وليس المراد بهذا القول أن يلقاهم النبىّ به،وأن يبلغهم إيّاه،وإنما هو قول موجّه إلى النبىّ وإلى المؤمنين.تنكشف به حال أهل الكتاب،وموقفهم العنادىّ من المؤمنين..وليس يمنع من هذا أن يستمع اليهود إلى هذا القول،وأن يعرفوا رأى القرآن فيهم،إذ كانوا دائما يتتبعون أخبار النبىّ وما يترل عليه من كلمات ربّه،ليبحثوا فيها عن شبهة،يضلّون بها المؤمنين،ويفتنونهم فى دينهم..

وفى هذه الآية يرى المؤمنين أن هذا الموقف العنادىّ من أهل الكتاب الذي يقفونه منهم،لا سبب له،إلا إيمان المؤمنين بالله،وما أنزل عليهم من قرآن،وما أنزل على النبيين قبلهم من كتب الله..ذلك فى حين أن أكثر أهل الكتاب «فاسقون» أي خارجون على دين الله،منكرين أو متنكرين لرسل الله وكتب الله..

تلك إذن هى أسباب هذه الحرب الخبيثة التي يعلنها اليهود على المؤمنين..إنها عداوة بين المؤمنين وغير المؤمنين،بين من استجاب لله ورسله،ومن حادّ الله ورسله.

وقوله تعالى:«قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ» الإشارة هنا إلى موقف أهل الكتاب هؤلاء،ونقمتهم على المؤمنين،لا لشىء إلا لأنهم مؤمنون..وهذا موقف يورد صاحبه موارد البوار والهلاك،وهذا هو المصير الذي سيصير إليه المعاندون من أهل الكتاب،الذين وقفوا من النبىّ ومن دعوته إلى الإيمان بالله،هذا الموقف..ثم إذ يعرض القرآن اليهود المعاصرين للنبوة فى هذا المعرض،ينتقل بهم فى لمحة خاطفة تردّهم إلى الماضي البعيد،وتشرف بهم على آبائهم وأجدادهم،الذين كان لهم موقف من رسل الله كهذا الموقف الذي يقفونه هم من رسول

[٢٩٤٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٢٩،بترقيم الشاملة آليا)

الله،ومن المكر بآيات الله،فكان عقابهم أليما شديدا،إذ جعل الله منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت،بهذه اللعنة التي رماهم الله بها،فمسخت آدميتهم،ونسخت طبيعتهم،فإذا هم قردة وخنازير فى صور آدمية،يعبدون الطاغوت،ويوالون الشيطان..والأبناء يعرفون عن يقين خبر هذا البلاء الذي حلّ بآبائهم،فكانوا مثلة فى الناس.فإذا كان هؤلاء الأبناء لم يمسخوا بعد قردة وخنازير وعبدة للطاغوت،فإنهم على الطريق الذي يقودهم إلى هذا البلاء،إذا هم ظلّوا على هذا الموقف من النبىّ،ومن دعوته،ولم يفيئوا إلى السلامة والعافية،بموادعة النبىّ أو متابعته على دينه.وفى التعبير عن العقاب الأليم هنا بلفظ المثوبة،التي يعبّر بها فى مقام الجزاء الحسن- فى هذا ما يشير إلى أن هذا العقاب هو الجزاء الحسن الذي يحلّ باليهود،إذا هو قيس بما وراءه من ألوان العقاب والنّكال،الراصد لهم![٢٩٤٩]

وهذه الحقيقة التي يقررها الله سبحانه في مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين،هي التي يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب،وكثيرون ممن يسمون أنفسهم «مسلمين» ..باسم تعاون «المتدينين» في وجه المادية والإلحاد كما يقولون! أهل الكتاب يريدون اليوم تمييع هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها،لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامي – أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح – وتخدير الوعي الذي كان قد بثه فيهم الإسلام بمنهجه الرباني القويم.ذلك أنه حين كان هذا الوعي سليما لم يستطع الاستعمار الصليبي أن يقف للمد الإسلامي،فضلا على أن يستعمر الوطن الإسلامي ..ولم يكن بد لهؤلاء – بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة،وفي حرب التبشير السافرة كذلك – أن يسلكوا طريق الخداع والتخدير،فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين،أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت! وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعا! ثم تنور العالم و «تقدم» فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة ..وإنما الصراع اليوم على المادة! على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب! وإذن فما يجوز للمسلمين – أو ورثة المسلمين – أن يفكروا في الدين ولا في صراع الدين! وحين يطمئن أهل الكتاب – وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين – إلى استنامة هؤلاء لهذا التخدير وحين

[٢٩٤٩] – التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١١٢٨)

تتميع القضية في ضمائرهم فإن المستعمرين يأمنون غضبة المسلمين لله وللعقيدة ..الغضبة التي لم يقفوا لها يوما ..ويصبح الأمر سهلا بعد التنويم والتخدير ..ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها.بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والخامات ويغلبون في معركة «المادة» بعد ما يغلبون في معركة «العقيدة» ..فهما قريب من قريب ..وعملاء أهل الكتاب في الوطن الإسلامي،ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو في خفية،يقولون القول نفسه ..لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود ..وهؤلاء يقولون عن «الحروب الصليبية» ذاتها:إنها لم تكن «صليبية»!!! ويقولون عن «المسلمين» الذين خاضوها تحت راية العقيدة:إنهم لم يكونوا «مسلمين» وإنما هم كانوا «قوميين»! وفريق ثالث مستغفل مخدوع يناديه أحفاد «الصليبيين» في الغرب المستعمر:أن تعالوا إلينا.تعالوا نجتمع في ولاء لندفع عن «الدين» غائلة «الملحدين»! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخدوع ناسيا أن أحفاد الصليبيين هؤلاء وقفوا في كل مرة مع الملحدين صفا واحدا،حينما كانت المواجهة للمسلمين! على مدار القرون! وما يزالون! وأنهم لا يعنيهم حرب المادية الالحادية قدر ما تعنيهم حرب الإسلام.ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإلحادية المادية عرض طارئ وعدو موقوت وأن الإسلام أصل ثابت وعدو مقيم! وإنما هذه الدعوة المموهة لتمييع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامي وللانتفاع بجهد المستغفلين المخدوعين – في الوقت ذاته – ليكونوا وقود المعركة مع الملحدين لأنهم أعداء الاستعمار السياسيون! وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين ..حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعي الذي يربيه عليه المنهج الرباني القويم ..

إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق،فيحسبون أهل الكتاب جادين إذ يدعونهم للتضامن والولاء في دفع الإلحاد عن «الدين» إنما ينسون واقع التاريخ في أربعة عشر قرنا – لا استثناء فيها – كما ينسون تعليم ربهم لهم في هذا الأمر بالذات،وهو تعليم لا مواربة فيه،ولا مجال للحيدة عنه،وفي النفس ثقة بالله ويقين بجدية ما يقول! إن هؤلاء يجتزئون فيما يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية،والأحاديث النبوية،التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب وأن يتسامحوا معهم في المعيشة والسلوك.ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم والتقريرات الواعية عن بواعثهم،والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية،وخطة

التنظيم،التي تحرم التناصر والموالاة،لأن التناصر والموالاة لا يكونان عند المسلم إلا في شأن الدين وإقامة منهجه ونظامه في الحياة الواقعية،وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقي عليها المسلم مع أهل الكتاب في شأن دينه - مهما يكن هناك من تلاق في أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها - إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين،ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين ..كما يقول رب العالمين ..

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين يجزئونه ويمزقونه،فيأخذون منه ما يشاءون - مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها - ويدعون منه ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب! ونحن نؤثر أن نسمع كلام الله،في هذه القضية،على أن نسمع كلام المخدوعين أو الخادعين! وكلام الله - سبحانه - في هذه القضية حاسم واضح صريح مبين ..

سبب نقمة أهل الكتاب على المسلمين هو إسلامهم وإيمانهم

ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى - بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل - أن بقية السبب:«وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ» فهذا الفسق هو شطر الباعث! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم ..وهي قاعدة نفسية واقعية تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة ..إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم ..إن وجوده يشعره دائما بفسقه وانحرافه.إنه يتمثل له شاهدا قائما على فسقه هو وانحرافه ..ومن ثم يكرهه وينقم عليه.يكره استقامته وينقم منه التزامه ويسعى جاهدا لجره إلى طريقه أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده! إنها قاعدة مطردة،تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة،إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة.إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة ..والحرب المشبوبة دائما على الخيرين في مجتمع الأشرار،وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين،وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين ..

هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب ..

ولقد علم الله – سبحانه – أن الخير لا بد أن يلقى النقمة من الشر،وأن الحق لا بد أن يواجــه العداء من الباطل،وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفساق،وأن الالتزام لا بد أن يجــر حقــد المنحرفين.

وعلم الله – سبحانه – أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفســها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف.وأنها معركة لا خيــار فيهــا،ولا يملك الحق ألا يخوضها في وجه الباطل.لأن الباطل سيهاجمه،ولا يملك الخــير أن يتجنبــها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه ..

وغفلة – أي غفلة – أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكــون مــن الباطل والشر والفسق والانحراف وأنهم يملكون تجنب المعركة وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة! وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة من أن يستســلموا للــوهم والخديعة ..وهم يومئذ مأكولون مأكولون![٢٩٥٠]

إن هؤلاء الصليبيين يعادون الإسلام لأنه جاء بإنكار العبودية والخضوع والطاعــة لغــير الله والكفــر بهــا،وهم يريــدون اســتعباد الشــعوب المقهــورة وإخضــاعها لأنظمتــهم وقوانينهم:كالديمقراطية وغيرها.

وهم يبغضون الإسلام لأنه دين الطهارة والعفة والحياء،وهم فاسدون مفســدون،قد اعتــادوا العفن والرذيلة والانحطاط،فلا يطيقون العيش في الأجواء الطاهرة والحياة الصالحة،وقد قال الله تعالى عن قوم لوط:{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَــرْيَتِكُمْ إِنَّهُــمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [النمل:٥٦]

فَلَمْ يَجِدْ هؤلاءِ المُفْسِدُونَ مَا يَرِدُّونَ بــهِ عَلَــى دَعــوةِ لُــوطٍ لَهُمْ،واســتِنْكَارِهِ،لأَعمالِهِم وفَسَادِهِم،إلا أَنْ قَالُوا:إنَّ لُوطاً وأهلَهُ أُناسٌ يَتَطَهَّرُون،وَيَتَوَرَّعُونَ عَــنْ مُجَــارَاتِكم في فِعْــلِ المُنْكَرِ،فَأَخْرِجُوهُمْ من قَرَيَتِكُم،لأَنَّهُمْ لا يَصْلُحُونَ لُمجَاوَرتِكُمْ.[٢٩٥١]

[٢٩٥٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٣٢٠)

[٢٩٥١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٠٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

فكأنه قيل:ما نقمتم منهم وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج،فقالوا:{إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} أي:يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور.فقبحهم الله جعلوا أفضل الحسنات بمترلة أقبح السيئات،و لم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به حتى وصلوا إلى إخراجه،والبلاء موكل بالمنطق فهم قالوا:{أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} .ومفهوم هذا الكلام:" وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة المقتضي لترول العقوبة بقريتكم ونجاة من خرج منها "[٢٩٥٢]

وقولهم هذا قد يكون تهكما بالتطهر من هذا الرجس القذر.وقد يكون إنكارا عليه أن يسمى هذا تطهرا،فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة.وقد يكون ضيقا بالطهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ!![٢٩٥٣]

فقد انتكست فطرهم،وأصبحوا يعيبون على المؤمنين طهارتهم وتترههم عن الفاحشة.

والإسلام يوجب الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا،ويدفع الفساد في الأرض،وينصر المستضعفين المظلومين،كما قال تعالى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣] وقال تعالى:{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء:٧٥]

وهذا يعني التصدي لما تسميه الولايات المتحدة (بنشر الديمقراطية)،وإيقاف نهبها وسطوها على خيرات المسلمين ونفطهم،ولهذا يرى الصليبيون الإسلام القوة الأكبر،التي تقف أمام أطماعهم ومخططاتهم،وتستأصل بنيانهم الهاري من أصوله الفاسدة المتهالكة.

إن على المسلمين أن يستعدوا لمعركة شرسة طويلة مع الأعداء،وأن يتخلقوا بالأخلاق والأوصاف التي بتحقيقها ينصرهم الله على أعدائهم،وقد قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) } [الأنفال].

[٢٩٥٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٠٧)

[٢٩٥٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٣٩٣)

وعلى المسلمين أن يوقنوا بوعد الله ونصره،وأن يصبروا ويصابروا ويثبتوا،وأن يحــذروا مــن الضعف والضجر واستعجال النتائج،وقد قال تعالى:{ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَــاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون } [الأنبياء:٣٧]

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُسْتَهْزِئِينَ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ السَلاَمُ،وَقَعَ فِي بَعْضِ النُفُوسِ سُرْعَةُ الانْتِقَامِ مــنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ،وَاسْتَعْجَلَتْ ذَلِكَ.واللهُ تَعَالَى يُمْلِي للظَّالِمِينَ،وَيُمْهِلُهُمْ وَيَمُدُّ لَهُمْ،حَتَّى إِذَا أَخَــذَهُمْ لَمْ يُفْلِتْهُمْ،إِنَّهُ تَعَالَى يُؤَجِّلُ ثُمَّ يُعَجِّلُ،وَيُنْظِرُ ثُمَّ لا يُؤَخِّرُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:سَأُرِيكُمْ نِقَمِي وَحِكَمِي وقُدْرَتِي عَلَى مَنْ عَصَانِي (آيَاتِي)،فَلاَ تَسْتَعْجِلُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ.[٢٩٥٤]

أي سأريكم حكمي واقتداري وانتقامي من الكفــار فــلا تســتعجلون،وعَنْ خَبَّــابِ بْــنِ الأَرَتِّ،قَالَ:شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا:أَلاَ تَسْتَنْصِــرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ:«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ،يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَــهُ فِــي الأَرْضِ،فَيُجْعَــلُ فِيهَا،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ،مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ،فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ،حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَــنْعَاءَ إِلَــى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» رواه البخاري[٢٩٥٥]

وعن قَيْسَ،قال:سَمِعْتُ خَبَّابًا،يَقُولُ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً،وَهُوَ فِي ظِلِّ الكَعْبَــةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّــهِ،أَلاَ تَــدْعُو اللَّهَ،فَقَعَــدَ وَهُــوَ مُحْمَــرٌّ وَجْهُهُ،فَقَالَ:«لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيــدِ،مَا دُونَ عِظَامِــهِ مِــنْ لَحْــمٍ أَوْ عَصَبٍ،مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،مَا يَخَــافُ إِلَّــا اللَّهَ»،زَادَ بَيَانٌ:«وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ»[٢٩٥٦]

[٢٩٥٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٦١،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٩٥٥] - صحيح البخاري (٩/ ٢٠)(٦٩٤٣)

[٢٩٥٦] - صحيح البخاري (٥/ ٤٥)(٣٨٥٢)

(وَعَنْ خَبَّابٍ):بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ الْمُوَحَّدَةِ الْأُولَى (بْنِ الْأَرَتِّ):بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَالرَّاءِ وَتَشْدِيدِ الْفَوْقِيَّةِ.قَالَ الْمُؤَلِّفُ:يُكَنَّى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيَّ،وَإِنَّمَا لَحِقَهُ سَبْيٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَاشْتَرَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خُزَاعَةَ وَأَعْتَقَتْهُ،أَسْلَمَ قَبْلَ دُخُولِ النَّبِيِّ -

إن الأمة الإسلامية أمة منصورة ومبشرة بالنصر والتمكين في كتاب ربها تبارك وتعالى وفي سنة رسوله ﷺ،وقد تحقق لها في الواقع ما أخبر الله به ورسوله ﷺ من النصر والتمكين والبشارة بالانتصار على الفرس وعلى الروم وفتح القسطنطينية وغيرها من البشائر،وهناك بشائر سوف تتحقق في المستقبل كفتح روما وعودة الخلافة على منهاج النبوة وغيرها،وقد قال تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة:٣٣] وقال تعالى:{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

ﷺ - دَارَ الْأَرْقَمِ،وَهُوَ مِمَّنْ عُذِّبَ فِي اللَّهِ عَلَى إِسْلَامِهِ فَصَبَرَ،نَزَلَ الْكُوفَةَ،وَمَاتَ بِهَا،رَوَى عَنْهُ جَمَاعَةٌ.(قَالَ:شَكَوْنَا) أَيِ:الْكُفَّارَ (إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ) أَيْ:كِسَاءً مُخَطَّطًا،وَالْمَعْنَى جَاعِلٌ الْبُرْدَةَ وِسَادَةً لَهُ مِنْ تَوَسَّدَ الشَّيْءَ جَعَلَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ (وَقَدْ):وَفِي نُسْخَةٍ وَلَقَدْ (لَقِينَا) أَيْ:رَأَيْنَا وَحَصَلَ لَنَا (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أَيْ:مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ (شِدَّةً)،أَيْ:مِحْنَةً شَدِيدَةً (فَقُلْنَا:أَلَا تَدْعُو اللَّهَ)،أَيْ:لَنَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُمْ يُؤْذُونَنَا (فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ):مِنِ احْمَرَّ بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ إِذَا اشْتَدَّ حَرَارَتُهُ (وَقَالَ:(كَانَ الرَّجُلُ):اللَّامُ لِلْعَهْدِ الذِّهْنِيِّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَعْنَى نَكِرَةٌ (فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ يُجْعَلُ لَهُ حُفْرَةٌ (فِي الْأَرْضِ)،قَيْدٌ وَاقِعِيٌّ اتِّفَاقًا (فَيُجْعَلُ فِيهِ،فَيُجَاءُ بِمِنْشَارٍ)،بِالنُّونِ وَيُرْوَى بِالْهَمْزَةِ وَإِبْدَالِهَا يَاءً،وَهُوَ آلَةٌ يُشَقُّ بِهَا الْخَشَبَةُ (فَيُوضَعُ فَوْقَ رَأْسِهِ لِيُشَقَّ بِاثْنَيْنِ) أَيْ:فَيَنْقَطِعُ نِصْفَيْنِ (فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ) أَيْ:فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ (عَنْ دِينِهِ،وَيُمْشَطُ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ مُخَفَّفًا وَالْمَعْنَى يُشَوَّكُ (بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ):بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ جَمْعُ الْمُشْطِ وَهُوَ مَا يُتَمَشَّطُ بِهِ الشَّعْرُ (مَا دُونَ لَحْمِهِ) أَيْ:مَا تَحْتَ لَحْمِ ذَلِكَ الرَّجُلِ أَوْ غَيْرِهِ،وَهُوَ الظَّاهِرُ (مِنْ عَظْمٍ وَعَصَبٍ) بِفَتْحَتَيْنِ قَالَ الطِّيبِيُّ مِنْ بَيَانٍ لَهُ وَفِيهِ مُبَالَغَةٌ بِأَنَّ الْأَمْشَاطَ لِحَدِّهَا وَقُوَّتِهَا كَانَتْ تَنْفُذُ مِنَ اللَّحْمِ إِلَى الْعَظْمِ،وَمَا يَلْتَصِقُ بِهِ مِنَ الْعَصَبِ.(وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ):جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ (وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ):بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ التَّاءِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ أَيْ:لَيَكْمُلَنَّ (هَذَا الْأَمْرُ) أَيْ:أَمْرُ الدِّينِ وَفِي نُسْخَةٍ بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ،وَفِي أُخْرَى بِضَمِّ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ وَكَسْرِ التَّاءِ عَلَى أَنَّ الْفَاعِلَ هُوَ اللَّهُ،وَقَوْلُهُ:هَذَا الْأَمْرَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ،وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ - هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة:٣٢ - ٣٣] (حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ) أَيْ:رَجُلٌ أَوِ امْرَأَةٌ وَحْدَهُ (مِنْ صَنْعَاءَ):بَلَدٍ بِالْيَمَنِ (إِلَى حَضْرَمَوْتَ):مَوْضِعٍ بِأَقْصَى الْيَمَنِ وَهُوَ بِفَتْحِ الْمِيمِ غَيْرَ مُنْصَرِفٍ لِلتَّرْكِيبِ وَالْعَلَمِيَّةِ،وَقِيلَ اسْمُ قَبِيلَةٍ،وَقِيلَ مَوْضِعٌ حَضَرَ فِيهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَمَاتَ فِيهِ،وَحَضَرَ جِرْجِيسُ فَمَاتَ فِيهِ ذَكَرَهُ شَارِحٌ،وَتَبِعَهُ ابْنُ الْمَلَكِ وَفِي الْقَامُوسِ:حَضْرَمَوْتُ وَبِضَمِّ الْمِيمِ بَلَدٌ وَقَبِيلَةٌ،وَيُقَالُ هَذَا حَضْرَمَوْتُ،وَيُضَافُ فَيُقَالُ:حَضْرُمَوْتٍ بِضَمِّ الرَّاءِ وَإِنْ شِئْتَ لَا تُنَوِّنِ الثَّانِيَ (لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ):وَفِي نُسْخَةٍ بِالْوَاوِ،وَهُوَ مُحْتَمِلٌ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى أَوْ يَكُونَ (أَوْ) بِمَعْنَى الْوَاوِ لِلْجَمْعِ أَوْ لِلشَّكِّ،وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ،فَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي حُصُولِ الْأَمْنِ،وَزَوَالِ الْخَوْفِ،فَانْدَفَعَ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ سِيَاقَ الْحَدِيثِ إِنَّمَا هُوَ لِلْأَمْنِ مِنْ عُدْوَانِ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ،كَمَا هُوَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا الْأَمْنُ مِنْ عُدْوَانِ الذِّئْبِ،فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.(وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) .أَيْ:سَيَزُولُ عَذَابُ الْمُشْرِكِينَ فَاصْبِرُوا عَلَى أَمْرِ الدِّينِ كَمَا صَبَرَ مَنْ سَبَقَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَشَدِّ مِنْ عَذَابِكُمْ لِقُوَّةِ الْيَقِينِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧٤٧)

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]

قال ابن كثير رحمه الله:" هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ .بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ،أَيْ:أئمةَ النَّاسِ والولاةَ عَلَيْهِمْ،وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ،وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادُ،وليُبدلَنّ بَعْدَ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ،وَقَدْ فَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ.وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ،فَإِنَّهُ لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَخَيْبَرَ وَالْبَحْرَيْنِ،وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَرْضَ الْيَمَنِ بِكَمَالِهَا.وَأَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ،وَمِنْ بَعْضِ أَطْرَافِ الشَّامِ،وَهَادَاهُ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ وَصَاحِبُ مِصْرَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ -وَهُوَ الْمُقَوْقِسُ -وَمُلُوكُ عُمَانَ وَالنَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ،الَّذِي تَملَّك بَعْدَ أَصْحَمة،رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَكْرَمَهُ.

ثُمَّ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ،قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ خَلِيفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ،فَلَمّ شَعَث مَا وَهَى عِنْدَ مَوْتِهِ،عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأطَّدَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَمَهَّدَهَا،وَبَعَثَ الْجُيُوشَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى بِلَادِ فَارِسَ صُحْبَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَفَتَحُوا طَرَفًا مِنْهَا،وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنْ أَهْلِهَا.وَجَيْشًا آخَرَ صُحْبَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ،وَثَالِثًا صُحْبَةَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،إِلَى بِلَادِ مِصْرَ،فَفَتَحَ اللَّهُ لِلْجَيْشِ الشَّامِيِّ فِي أَيَّامِهِ بُصرى وَدِمَشْقَ ومَخَاليفهما مِنْ بِلَادِ حَوران وَمَا وَالَاهَا،وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَاخْتَارَ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ.ومَنّ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِأَنْ أَلْهَمَ الصِّدِّيقَ أَن اسْتَخْلَفَ عُمَرَ الْفَارُوقَ،فَقَامَ فِي الْأَمْرِ بَعْدَهُ قِيَامًا تَامًّا،لَمْ يَدُرِ الْفَلَكُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ [عَلَيْهِمُ السَّلَامُ] عَلَى مِثْلِهِ،فِي قُوَّةِ سِيرَتِهِ وَكَمَالِ عَدْلِهِ.وَتَمَّ فِي أَيَّامِهِ فَتْحُ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ بِكَمَالِهَا،وَدِيَارِ مِصْرَ إِلَى آخِرِهَا،وَأَكْثَرِ إِقْلِيمِ فَارِسَ،وَكَسَّرَ كِسْرَى وَأَهَانَهُ غَايَةَ الْهَوَانِ،وَتَقَهْقَرَ إِلَى أَقْصَى مَمْلَكَتِهِ،وقَصَّرَ قَيْصَرَ،وَانْتَزَعَ يَدَهُ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ فَانْحَازَ إِلَى قُسْطَنْطِينَةَ،وَأَنْفَقَ أموالهما في سبيل الله،كما أخبر بِذَلِكَ وَوَعَدَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ،عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَتَمُّ سَلَامٍ وَأَزْكَى صَلَاةٍ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ،امْتَدَّتِ الْمَمَالِيكُ الْإِسْلَامِيَّةُ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا،فَفُتِحَتْ بِلَادُ الْمَغْرِبِ إِلَى أَقْصَى مَا هُنَالِكَ:الْأَنْدَلُسُ،وَقُبْرُصُ،وَبِلَادُ الْقَيْرَوَانِ،وَبِلَادُ

سَبْتَةَ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ الْمُحِيطَ،وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ إِلَى أَقْصَى بِلَادِ الصِّينِ،وَقُتِلَ كِسْرَى،وَبَادَ مُلْكُهُ بِالْكُلِّيَّةِ.وَفُتِحَتْ مَدَائِنُ الْعِرَاقِ،وَخُرَاسَانُ،وَالْأَهْوَازُ،وَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ التُّرْكِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا،وَخَذَلَ اللَّهُ مَلِكَهُمُ الْأَعْظَمَ خَاقَانَ،وجُبِيَ الْخَرَاجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلَى حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ تِلَاوَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَجَمْعِهِ الْأُمَّةَ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ؛وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:"إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِيَ مِنْهَا" فَهَا نَحْنُ نَتَقَلَّبُ فِيمَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْإِيمَانَ بِهِ،وَبِرَسُولِهِ،وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا."[٢٩٥٧]

وتأمل كيف كان النبي ﷺ يبشر أصحابه بفتح الشام وفتح بلاد الفرس وفتح اليمن،وأحزاب الكفار قد اجتمعت للقضاء على الإسلام والمسلمين في المدينة،فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ:لَمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَحْفِرَ الْخَنْدَقَ عَرَضَ لَنَا فِيهِ حَجَرٌ لَا يَأْخُذُ فِيهِ الْمِعْوَلُ فَاشْتَكَيْنَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَلْقَى ثَوْبَهُ،وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ:«بِسْمِ اللهِ،فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الصَّخْرَةِ» قَالَ:«اللهُ أَكْبَرُ،أُعْطِيتُ مَفَاتِحَ الشَّامِ،وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ الْآنَ مِنْ مَكَانِي هَذَا» قَالَ:ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَقَالَ:«بِسْمِ اللهِ،وَكَسَرَ ثُلُثًا آخَرَ» وَقَالَ:«اللهُ أَكْبَرُ،أُعْطِيتُ مَفَاتِحَ فَارِسَ،وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنَ الْأَبْيَضَ الْآنَ،ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ» وَقَالَ:«بِسْمِ اللهِ،فَقَطَعَ الْحَجَرَ» قَالَ:«اللهُ أَكْبَرُ،أُعْطِيتُ مَفَاتِحَ الْيَمَنِ،وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ بَابَ صَنْعَاءَ»[٢٩٥٨] .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:احْتَفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْخَنْدَقَ وَأَصْحَابُهُ قَدْ شَدُّوا الْحِجَارَةَ عَلَى بُطُونِهِمْ مِنَ الْجُوعِ،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ:«هَلْ دُلِلْتُمْ عَلَى رَجُلٍ يُطْعِمُنَا أَكَلَةً؟» قَالَ رَجُلٌ:نَعَمْ،قَالَ:«أَمَا لَا فَتَقَدَّمْ فَدُلَّنَا عَلَيْهِ» فَانْطَلَقُوا إِلَى الرَّجُلِ فَإِذَا فِي الْخَنْدَقِ يُعَالِجُ نَصِيبَهُ مِنْهُ،فَأَرْسَلَت امْرَأَتُهُ أَنْ جِئْ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَتَانَا،فَجَاءَ الرَّجُلُ يَسْعَى،فَقَالَ:بِأَبِي وَأُمِّي وَلَهُ مَعْزَةٌ وَمَعَهَا جَدْيُهَا،فَوَثَبَ إِلَيْهَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :«الْجَدْيُ مِنْ وَرَائِنَا» فَذَبَحَ

[٢٩٥٧] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٧٧)

[٢٩٥٨] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ١٣٤)(٨٨٠٧) صحيح

الْجَدْيَ،وعَمَدَت الْمَرْأَةُ إِلَى طَحِينَة لَهَـا فَعَجَنَتْهـا وَخَبَـزَتْ فَأَدْرَكَـت الْقِـدْرَ فَثَـرَدَتْ قَصْعَتَهَا،فَقَرَّبَتْها إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابه،فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِصْبَعَهُ فيهَا،فَقَالَ::«بِسْمِ الله اللـهُمَّ بَارِكْ فيهَا اطْعَمُوا» فَأَكَلُوا منْهَا حَتَّى صَدَرُوا وَلَمْ يَأْكُلُوا منْهَا إِلَّا ثُلُثَهَا وَبَقِـي ثُلُثَاهَا،فَسَـرَّحَ أُولَئكَ الْعَشَرَةَ الَّذينَ كَانُوا مَعَهُ أَن اذْهَبُوا وسَرِّحُوا إِلَيْنَا بعدَّتكُمْ فَذَهَبُوا وَجَاءَ أُولَئكَ الْعَشَـرَةُ مَكَانَهُمْ فَأَكَلُوا منْهَا حَتَّى شَبِعُوا،ثُمَّ قَامَ وَدَعَا لرَبَّة الْبَيْت وَسَمَّتَ عَلَيْهَا وَعَلَى أَهْلِ بَيْتهَـا،ثُمَّ تَمَشَّوْا إِلَى الْخَنْدَق فَقَالَ:اذْهَبُوا بنَا إِلَى سَلْمَانَ فَإِذَا صَخْرَةٌ بَيْنَ يَدَيْه قَدْ ضَعُفَ عَنْهَا،فَقَالَ نَبيُّ الله ﷺ لأَصْحَابه:«دَعُوني فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَهَا» فَقَالَ:«بِسْمِ الله» فَضَرَبَهَا فَوَقَعَتْ فلْقَـةٌ ثُلُثُهَا فَقَالَ:«اللهُ أَكْبَرُ قُصُورُ الرُّومِ وَرَبِّ الْكَعْبَة» ثُمَّ ضَرَبَ بِأُخْرَى فَوَقَعَتْ فلْقَةٌ فَقَـالَ:«اللهُ أَكْبَرُ قُصُورُ فَارِسَ وَرَبِّ الْكَعْبَة» فَقَالَ عنْدَهَا الْمُنَافقُونَ:نَحْنُ نُخَنْدقُ عَلَى أَنْفُسنَا وَهُوَ يَعِـدُنا قُصُورَ فَارِسٍ وَالرُّومِ"[٢٩٥٩]

وعَنْ عَديِّ بْنِ حَاتمٍ،قَالَ:بَيْنَا أَنَا عنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْه الفَاقَةَ،ثُمَّ أَتَـاهُ آخَـرُ فَشَكَا إِلَيْه قَطْعَ السَّبِيلِ،فَقَالَ:«يَا عَديُّ،هَلْ رَأَيْتَ الحيرَةَ؟» قُلْتُ:لَمْ أَرَهَا،وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا،قَالَ «فَإِنْ طَالَتْ بكَ حَيَاةٌ،لَتَرَيَنَّ الظَّعينَةَ تَرْتَحلُ منَ الحيرَة،حَتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَة لاَ تَخافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ،– قُلْتُ فيمَا بَيْني وَبَيْنَ نَفْسي فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذينَ قَدْ سَعَّرُوا البلاَدَ –،وَلَئنْ طَالَتْ بِـكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كسْرَى»،قُلْتُ:كسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ:" كسْرَى بْنِ هُرْمُزَ،وَلَئنْ طَالَتْ بكَ حَيَاةٌ،لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ ملْءَ كَفِّه منْ ذَهَبٍ أَوْ فضَّةٍ،يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ منْهُ فَلاَ يَجدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ منْهُ،وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ،وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجمُ لَهُ،فَلَيَقُولَنَّ لَهُ:أَلَـمْ أَبْعَـثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ:بَلَى،فَيَقُولُ:أَلَمْ أُعْطكَ مَالًا وَأُفْضلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ:بَلَى،فَيَنْظُرُ عَنْ يَمينه فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ،وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَاره فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ " قَالَ عَـديٌّ:سَـمعْتُ النَّبِـيَّ ﷺ،يَقُولُ:«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بشقَّة تَمْرَة فَمَنْ لَمْ يَجدْ شقَّةَ تَمْرَة فَبكَلمَة طَيِّبَة» قَالَ عَديٌّ:فَرَأَيْتُ الظَّعينَةَ تَرْتَحلُ منَ الحيرَة حَتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَة لاَ تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،وَكُنْتُ فيمَنِ افْتَـتَحَ كُنُـوزَ

[٢٩٥٩] – المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٧٦)(١٢٠٥٢) حسن

كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ،لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو القَاسِمِ:ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ " رواه البخاري.[2960]

(وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ:بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ - ﷺ) أَيْ:حَاضِرًا وَقَاعِدًا (إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا) :بِالْأَلِفِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالْيَاءِ عَلَى أَنَّهُ لُغَةٌ فِي الْوَاوِ كَمَا فِي الْقَامُوسِ (إِلَيْهِ الْفَاقَةَ)،أَيِ:الْفَقْرَ وَشِدَّةَ الْحَاجَّةِ (ثُمَّ أَتَاهُ الْآخَرُ) :وَفِي نُسْخَةٍ آخَرُ وَهُوَ الْأَظْهَرُ (فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ) .أَيْ:بِسَبَبِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ،أَوْ لِقِلَّةِ الزَّادِ وَعَدَمِ عَلَفِ الدَّوَابِّ،وَطَمَعِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَتَعَرُّضِهِمْ لِلْقَافِلَةِ (فَقَالَ:(يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ) ؟ بِكَسْرِ الْحَاءِ،وَهُوَ الْبَلَدُ.الْقَدِيمُ بِظَهْرِ الْكُوفَةِ وَمَحَلَّةٌ مَعْرُوفَةٌ بِنَيْسَابُورَ عَلَى مَا فِي النِّهَايَةِ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْأَوَّلُ لِأَنَّهُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْعَرَبِ،وَلِذَا اقْتَصَرَ عَلَيْهِ شَارِحٌ،وَإِنْ كَانَ الثَّانِي أَغْرَبَ أَوْ أَعْذَبَ.قِيلَ:وَأَجَابَ عَدِيٌّ مَا رَأَيْتُهَا،لَكِنْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا،أَقُولُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ رَأَيْتُ بِمَعْنَى عَلِمْتُ،وَأَنْ لَا يَتَوَقَّفَ الْكَلَامُ عَلَى جَوَابِهِ حَيْثُ قَالَ:" (فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ فَلَتَرَيَنَّ) :بِفَتَحَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ أَيْ:فَلَتُبْصِرَنَّ (الظَّعِينَةَ) أَيِ:الْمَرْأَةَ الْمُسَافِرَةَ،وَقِيلَ لَهَا ذَلِكَ لِأَنَّهَا تَظْعَنُ مَعَ الزَّوْجِ حَيْثُمَا ظَعَنَ،أَوْ أَنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الرَّاحِلَةِ إِذَا ظَعَنَتْ،وَقِيلَ:الظَّعِينَةُ الْمَرْأَةُ فِي الْهَوْدَجِ،ثُمَّ قِيلَ لِلْهَوْدَجِ بِلَا امْرَأَةٍ وَلِلْمَرْأَةِ بِلَا هَوْدَجٍ،كَذَا فِي النِّهَايَةِ.وَقَالَ شَارِحٌ:الظَّعِينَةُ الْمَرْأَةُ مَا دَامَتْ فِي الْهَوْدَجِ،فَإِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَلَيْسَتْ بِظَعِينَةٍ،وَالْمُرَادُ هُنَا الْمَرْأَةُ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي الْهَوْدَجِ أَوْ لَا.أَقُولُ:كَوْنُهَا فِي الْهَوْدَجِ أَبْلَغُ فِي الْمَعْنَى الْمُرَادِ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:(تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ) أَيْ:وَحْدَهَا (حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) :رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ عَدِيٌّ قُلْتُ فِي نَفْسِي:فَأَيْنَ رُعَاةُ طَيِّئٍ؟ (وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ) :بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ مِنَ الْفَتْحِ،وَفِي نُسْخَةٍ مِنْ بَابِ الِافْتِعَالِ يُقَالُ:افْتَتَحْتَ وَاسْتَفْتَحْتَ طَلَبْتَ الْفَتْحَ،وَالْمَعْنَى لَتُؤْخَذَنَّ (كُنُوزُ كِسْرَى) أَيْ:عَلَى وَجْهِ الْغَنِيمَةِ.قَالَ عَدِيٌّ:كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ قَالَ - ﷺ :كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ،وَفِي الْقَامُوسِ:كِسْرَى وَيُفْتَحُ مَلِكٌ مُعَرَّبُ خِسْرُو،أَيْ:وَاسِعُ الْمُلْكِ.(وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يَخْرُجُ مِلْءَ كَفِّهِ) أَيْ:مَثَلًا

[2960] - صحيح البخاري (٤/ ١٩٧)(٣٥٩٥)

[ش (الفاقة) الفقر.(الحيرة) بلد معروف قديما مجاور للكوفة.(الظعينة) هو في الأصل اسم الهوج ثم قيل للمرأة في الهودج وقد تقال للمرأة مطلقا.(دعار) جمع داعر وهو الخبيث المفسد الفاسق والمراد بهم قطاع الطرق.(سعروا البلاد) أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها]

(مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ) أَيْ:مِنْ نَوْعَيِ النَّقْدَيْنِ،يَعْنِي تَارَةً مِنْ هَذَا وَمَرَّةً مِنْ هَذَا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (أَوْ) بِمَعْنَى الْوَاوِ أَوْ لِلشَّكِّ (يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ) أَيْ:وَاحِدًا مِنْهُمَا أَوْ مَا ذَكَرَ (فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ)،أَيْ:لِعَدَمِ الْفُقَرَاءِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ،أَوْ لِاسْتِغْنَاءِ قُلُوبِهِمْ وَالِاكْتِفَاءِ بِمَا عِنْدَهُمْ وَالْقَنَاعَةِ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ،فَقِيلَ:إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى مَا وَقَعَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِمَّا يُصَدِّقُ الْحَدِيثَ،وَبِذَلِكَ جَزَمَ الْبَيْهَقِيُّ.قِيلَ:وَلَا شَكَّ فِي رُجْحَانِ هَذَا الِاحْتِمَالِ لِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ:(وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ) قُلْتُ:لَا شَكَّ فِي رُجْحَانِ الْأَوَّلِ لِقَوْلِ عَدِيٍّ الْآتِي:وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوْنَ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ قَضِيَّةَ الشَّرْطِيَّةِ لَا تَسْتَلْزِمُ الْوُقُوعَ.(وَلَيَلْقَيَنَّ) :عَطْفٌ عَلَى صَدْرِ الْحَدِيثِ وَقَوْلُهُ:(اللَّهَ) :مَفْعُولٌ مُقَدَّمٌ قُدِّمَ لِلِاهْتِمَامِ وَتَعْظِيمِ الْمَقَامِ وَفَاعِلُهُ (أَحَدُهُمْ) :وَظَرْفُهُ قَوْلُهُ (يَوْمَ يَلْقَاهُ) :وَهُوَ يَحْتَمِلُ إِعْرَابَيْنِ كَمَا لَا يَخْفَى فِي الضَّمِيرَيْنِ،وَكَذَا الْحَالُ فِي قَوْلِهِ:(وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ) .بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَضَمِّ الْجِيمِ وَيُضَمَّانِ وَيُفْتَحَانِ كَمَا فِي نُسْخَتَيْنِ أَيْ:مُتَرْجِمٌ يُتَرْجِمُ لَهُ،يَعْنِي بَلْ يَكُونُ التَّلَقِّي وَالْكَلَامُ بِلَا وَاسِطَةٍ.قَالَ صَاحِبُ الْمَشَارِقِ هُوَ بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ الْجِيمِ وَضَبَطَهُ الْأَصِيلِيُّ بِضَمِّهِمَا اهـ.

وَفِي النِّهَايَةِ:التَّرْجُمَانُ بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ الَّذِي يُتَرْجِمُ الْكَلَامَ أَيْ:يَنْقُلُهُ مِنْ لُغَةٍ إِلَى أُخْرَى،وَالتَّاءُ وَالنُّونُ زَائِدَتَانِ.وَفِي الْقَامُوسِ:التَّرْجُمَانُ كَعُنْفُوَانٍ وَزَعْفَرَانٍ وَرَيْهُقَانٍ الْمُفَسِّرُ لِلِّسَانِ،وَقَدْ تَرْجَمَهُ وَعَنْهُ،وَالْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى أَصْلِهِ التَّاءُ،وَفِي الْمَفَاتِيحِ هُوَ عَلَى وَزْنِ زَعْفَرَانٍ،وَيَجُوزُ بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ الْجِيمِ وَبِضَمِّهِمَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(فَلَيَقُولَنَّ) أَيِ:اللَّهُ سُبْحَانَهُ (أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغُكَ) ؟ بِالنَّصْبِ مُشَدَّدًا وَيُخَفَّفُ (فَيَقُولُ:بَلَى،فَيَقُولُ:أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ) ؟ بِالْجَزْمِ مِنَ الْإِفْضَالِ أَيْ:أَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ،وَأَلَمْ أُنْعِمْ عَلَيْكَ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ يَعْنِي أَعْطَيْتُكَ الْمَالَ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْكَ بِالْكَمَالِ،وَمَكَّنْتُكَ مِنْ إِنْفَاقِهِ وَالِاسْتِمْتَاعِ مِنْهُ،وَالصَّرْفِ عَلَى أَهْلِ اسْتِحْقَاقِهِ؟ (فَيَقُولُ:بَلَى،فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ)،لِتَرْكِهِ الطَّاعَاتِ (وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ)،لِارْتِكَابِهِ السَّيِّئَاتِ،وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمَا كِنَايَتَانِ عَنِ الْإِحَاطَةِ،وَأَنَّ الْخَلَاصَ مِنْهَا لَيْسَ إِلَّا بِالْمُرُورِ عَلَيْهَا،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا - ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا} [مريم:٧١ - ٧٢] أَيْ:بِالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ،وَلِذَا قَالَ:(«اتَّقُوا النَّارَ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»)،أَيْ:بِنِصْفِهَا أَوْ بِبَعْضِهَا (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) أَيْ:مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ،وَهِيَ

أَنْوَاعُ الْأَذْكَارِ وَالدَّعَوَاتِ أَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ لِلسَّائِلِ بِقَرِينَةِ مَا قَبْلَهُ،وَهُوَ الْوَعْدُ عَلَى قَصْدِ الْوَفَاءِ،أَوِ الدُّعَاءُ مَعَ حُسْنِ الرَّجَاءِ،وَهَذَا الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَوْلًا مَيْسُورًا.قَالَ الطِّيبِيُّ،فَإِنْ قُلْتَ:مَا وَجْهُ نَظْمِ هَذَا الْحَدِيثِ؟ قُلْتُ:لَمَّا اشْتَكَى الرَّجُلُ الْفَاقَةَ وَالْخَوْفُ وَهُوَ الْعُسْرُ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح:٦] وَهُوَ مَا كَانَتِ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِ قَبْلَ فَتْحِ الْبِلَادِ.أَجَابَ عَنِ السَّائِلِ فِي ضِمْنِ بِشَارَةٍ لِعَدِيٍّ وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْيُسْرِ وَالْأَمْنِ،ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ هَذَا الْيُسْرَ وَالْغِنَى الدُّنْيَوِيَّ عُسْرٌ فِي الْآخِرَةِ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ سَلَّطَهُ عَلَى إِنْفَاقِهِ فَيَصْرِفُهُ فِي مَصَارِفِ الْخَيْرِ،وَنَظِيرُهُ حَدِيثُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ،وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ إِلَى قَوْلِهِ:أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ.وَقَدْ سَبَقَ فِي بَابِ تَغَيُّرِ النَّاسِ.

(قَالَ عَدِيٌّ:فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ)،أَيْ:كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - (وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ)،بِضَمِّ الْهَاءِ وَالْمِيمِ زَادَ فِي الْمَصَابِيحِ الَّذِي فِي الْأَبْيَضِ.قَالَ شَارِحٌ لَهُ:أَرَادَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ الَّذِي كَانَ بِالْمَدَائِنِ يُقَالُ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ يَغْدُكُوشَكُ (وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ) أَيْ:مُؤَدَّى مَا قَالَ (النَّبِيُّ) :وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَخْرُجُ مِلْءَ كَفِّهِ إِلَخْ فَقَوْلُهُ:(أَبُو الْقَاسِمِ) :بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ لِلنَّبِيِّ،وَقَوْلُهُ:(يَخْرُجُ مِلْءَ كَفِّهِ) .بَدَلٌ أَوْ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ مَا قَالَ،وَالْمَعْنَى يَخْرُجُ الرَّجُلُ كَمَا فِي نُسْخَةٍ،فَهُوَ نَقْلٌ بِالْمَعْنَى مُخْتَصَرًا أَوِ الرَّجُلُ يَخْرُجُ عَلَى مَا سَبَقَ فِي الْأَصْلِ فَهُوَ نَقْلٌ بِاللَّفْظِ مُقْتَصِرًا.(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .[٢٩٦١]

وعَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ،قَالَ:قَالَ الْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ إِلَيْنَا فِي الصُّفَّةِ وَعَلَيْنَا الْحَوْتَكِيَّةُ[٢٩٦٢]،فَيَقُولُ:" لَوْ تَعْلَمُونَ مَا ذُخِرَ لَكُمْ مَا حَزِنْتُمْ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْكُمْ،وَلَيُفْتَحَنَّ لَكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ "[٢٩٦٣].

[٢٩٦١] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧٤٥)

[٢٩٦٢] - قيل:هي عِمَامةٌ يَتَعَمَّمُها الأعراب يُسَمُّونَها بهذا الاسم ، وقيل:هُو مضاف إلى رجل يُسَمَّى حَوْتَكاً كان يَتَعَمَّم هذه العِمَّة.النهاية في غريب الأثر - (ج ١ / ص ٨٨٤)

[٢٩٦٣] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ٣٩٣)(١٧١٦١) فيه انقطاع

وعَنْ عَائشَةَ،قَالَتْ:سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:«لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى» فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله إنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حينَ أَنْزَلَ اللهُ:{هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى وَدينِ الْحَقِّ ليُظْهرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٣] أَنَّ ذَلكَ تَامًّا قَالَ «إنَّهُ سَيَكُونُ منْ ذَلكَ مَا شَاءَ اللهُ،ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً،فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ في قَلْبه مثْقَالُ حَبَّة خَرْدَلٍ منْ إيمَانٍ،فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فيه،فَيَرْجعُونَ إلَى دينِ آبَائهمْ» رواه مسلم.[٢٩٦٤]

وعَنْ تَميمٍ الدَّاريِّ،قَالَ :سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ :لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ،وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ،بعزِّ عَزيزٍ،أَوْ بذُلِّ ذَليلٍ،عزًّا يُعزُّ اللَّهُ به الإسْلاَمَ،وَذُلاًّ يُذلُّ اللَّهُ به الْكُفْرَ.وَكَانَ تَميمٌ الدَّاريُّ،يَقُولُ :قَدْ عَرَفْتُ ذَلكَ في أَهْلِ بَيْتي،لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ منْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعزُّ،وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ منْهُمْ كَافرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجزْيَةُ.رواه أحمد[٢٩٦٥].

وَعَنْ حُيَيٍّ بن هانئ المعافري قَالَ::كُنَّا عنْدَ عَبْد الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصي،وَسُئلَ :أَيُّ الْمَدينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلاً :الْقُسْطَنْطينيَّةُ،أَوْ رُوميَّةُ ؟ فَدَعَا عَبْدُ الله بصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ،قَالَ :فَأَخْرَجَ منْهُ كتَابًا،قَالَ :فَقَالَ عَبْدُ الله :بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ نَكْتُبُ،إذْ سُئلَ رَسُولُ الله ﷺ :أَيُّ الْمَدينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلاً :قُسْطَنْطينيَّةُ،أَوْ رُوميَّةُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ :مَدينَةُ هرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلاً،يَعْني قُسْطَنْطينيَّةَ." رواه أحمد[٢٩٦٦]

[٢٩٦٤] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٠)٥٢ - (٢٩٠٧)

[ش (لا يذهب الليل والنهار) أي لا ينقطع الزمان ولا تأتي القيامة (فتوفى) أصله تتوفى حذفت إحدى التاءين أي تأخذ الأنفس وافية تامة]

[٢٩٦٥] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٧٨٤)(١٦٩٥٧) ١٧٠٨٢- صحيح

قال السندي:قوله:"ليبلغنَّ هذا الأمر"،أي:أمر الدين وحكمه من الإيمان،أو قبول الجزية.="بعز عزيز" أي:مقروناً بعز من أراد الله تعالى له أن يكون عزيزاً،وهو بأن أراد له الإيمان لا قبول الجزية.

[٢٩٦٦] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٢/ ٦٢٦)(٦٦٤٥) صحيح

قال الألباني:و (رومية) هي روما كما في " معجم البلدان " وهي عاصمة إيطاليا اليوم ، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف،وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي - ﷺ - بالفتح،وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولابد،{وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص/٨٨] ، ومن فوائد الحديث أن فيه دليلا على أن الحديث كُتب في عهده - ﷺ - خلافا لما يظنه بعض الخَرَّاصين.أ.هـ الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١/ ٧٩٣،بترقيم الشاملة آليا)

وقد فتحت القسطنطينية أولا في زمن الخلافة العثمانية،وستفتح روما كما أخبر بذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :" إنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا " رواه مسلم[٢٩٦٧].

[٢٩٦٧] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)١٩ - (٢٨٨٩)

[ش (زوى) معناه جمع (الكنزين الأحمر والأبيض) المراد بالكنزين الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (فيستبيح بيضتهم) أي جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام]

(وَعَنْ ثَوْبَانَ):وَهُوَ مَوْلَى النَّبِيِّ - ﷺ - (قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ) أَيْ:جَمَعَهَا لِأَجْلِي.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:زَوَيْتُهُ جَمَعْتُهُ وَقَبَضْتُهُ،يُرِيدُ بِهِ تَقْرِيبَ الْبَعِيدِ مِنْهَا حَتَّى اطَّلَعَ عَلَيْهِ اطِّلَاعَهُ عَلَى الْقَرِيبِ مِنْهَا،وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ طَوَى لَهُ الْأَرْضَ وَجَعَلَهَا مَجْمُوعَةً كَهَيْئَةِ كَفٍّ فِي مِرْآةِ نَظَرِهِ،وَلِذَا قَالَ:(فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا أَيْ:جَمِيعَهَا («وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»:قَالَ الْخَطَّابِيُّ:تَوَهَّمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ " مِنْ " فِي " مِنْهَا " لِلتَّبْعِيضِ،وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا تَوَهَّمَهُ،بَلْ هِيَ لِلتَّفْصِيلِ لِلْجُمْلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ،وَالتَّفْصِيلُ لَا يُنَاقِضُ الْجُمْلَةَ،وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْأَرْضَ زُوِيَتْ لِي جُمْلَتُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،ثُمَّ هِيَ تُفْتَحُ لِأُمَّتِي جُزْءًا فَجُزْءًا حَتَّى يَصِلَ مُلْكُ أُمَّتِي إِلَى كُلِّ أَجْزَائِهَا.أَقُولُ:وَلَعَلَّ وَجْهَ مَنْ قَالَ بِالتَّبْعِيضِ هُوَ أَنَّ مُلْكَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا بَلَغَ جَمِيعَ الْأَرْضِ،فَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضُ الْإِسْلَامِ،وَإِنَّ ضَمِيرَ مِنْهَا رَاجِعٌ إِلَيْهَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِخْدَامِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمَرَامِ.(«وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ:الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ»):بَدَلَانِ مِمَّا قَبْلَهُمَا أَيْ:كَنْزَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:يُرِيدُ بِالْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ خَزَائِنَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ،وَذَلِكَ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى نُقُودِ مَمَالِكِ كِسْرَى الدَّنَانِيرُ،وَالْغَالِبَ عَلَى نُقُودِ مَمَالِكِ قَيْصَرَ الدَّرَاهِمُ («وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ») أَيْ:بِقَحْطٍ شَائِعٍ لِجَمِيعِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ.قَالَ الطِّيبِيُّ:السَّنَةُ الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ،وَهِيَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْغَالِبَةِ،(وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا):وَهُمُ الْكُفَّارُ وَقَوْلُهُ:(مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ):صِفَةُ عَدُوًّا أَيْ:كَائِنًا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،وَإِنَّمَا قَيَّدَهُ بِهَذَا الْقَيْدِ لَمَّا سَأَلَ أَوَّلًا ذَلِكَ فَمُنِعَ عَلَى مَا يَأْتِي فِي الْحَدِيثِ الْآتِي (فَيَسْتَبِيحَ) أَيِ:الْعَدُوُّ،وَهُوَ مِمَّا يَسْتَوِي فِيهِ الْجَمْعُ وَالْمُفْرَدُ (بَيْضَتَهُمْ):أَرَادَ بِالْبَيْضَةِ أَيْ:مُجْتَمَعَهُمْ مَوْضِعَ سُلْطَانِهِمْ،وَمُسْتَقَرَّ دَعْوَتِهِمْ،وَبَيْضَةُ الدَّارِ أَوْسَطُهَا وَمُعْظَمُهَا،أَرَادَ عَدُوًّا يَسْتَأْصِلُهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ جَمِيعَهُمْ،وَقِيلَ:أَرَادَ إِذَا هَلَكَ أَصْلُ الْبَيْضَةِ كَانَ هَلَاكُ كُلِّهَا فِيهِ مِنْ طُعْمٍ أَوْ فَرْخٍ،وَإِذَا لَمْ يَهْلِكْ أَصْلُ الْبَيْضَةِ رُبَّمَا سَلِمَ بَعْضُ فِرَاخِهَا،وَالنَّفْيُ مُنْصَبٌّ عَلَى السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ مَعًا،فَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا،لَكِنْ لَا يَسْتَأْصِلُ شَأْفَتَهُمْ،(وَإِنَّ رَبِّي قَالَ:يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً)

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ،وَالنَّصْرِ،وَالتَّمْكِينِ،فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»[٢٩٦٨].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ :كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ :يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ،فِي الْأُمَرَاءِ ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ :أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ

أَيْ:حَكَمْتُ حُكْمًا مُبْرَمًا (فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ) أَيْ:بِشَيْءٍ بِخِلَافِ الْحُكْمِ الْمُعَلَّقِ بِشَرْطِ وُجُودِ شَيْءٍ أَوْ عَدَمِهِ،كَمَا حُقِّقَ فِي بَابِ الدُّعَاءِ وَرَدِّ الْبَلَاءِ،(وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ) أَيْ:عَهْدِي وَمِيثَاقِي (لِأُمَّتِكَ) أَيْ:لِأَجْلِ أُمَّةِ إِجَابَتِكَ (أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ) أَيْ:بِحَيْثُ يَعُمُّهُمُ الْقَحْطُ وَيُهْلِكُهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:اللَّامُ فِي أُمَّتِكَ هِيَ الَّتِي فِي قَوْلِهِ سَابِقًا:سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي،أَيْ:أَعْطَيْتُ سُؤَالَكَ لِدُعَائِكَ لِأُمَّتِكَ،وَالْكَافُ هُوَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ،وَقَوْلُهُ:أَنْ لَا أُهْلِكَهُمُ الْمَفْعُولُ الثَّانِي كَمَا هُوَ فِي قَوْلِهِ:سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا هُوَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي،(وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ) أَيِ:الَّذِينَ هُمْ (بِأَقْطَارِهَا) أَيْ:بِأَطْرَافِهَا جَمْعُ قُطْرٍ،وَهُوَ الْجَانِبُ وَالنَّاحِيَةُ،وَالْمَعْنَى فَلَا يَسْتَبِيحُ عَدُوٌّ مِنَ الْكُفَّارِ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَى مُحَارَبَتِهِمْ مِنْ أَطْرَافِ بَيْضَتِهِمْ،وَجَوَابُ لَوْ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ (حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَيَسْبِي):كَيَرْمِي بِالرَّفْعِ عَطْفٌ عَلَى يُهْلِكُ أَيْ:وَيَأْسِرُ (بَعْضُهُمْ):بِوَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ (بَعْضًا) أَيْ:بَعْضًا آخَرَ.فِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى يَكُونُ.

قَالَ الطِّيبِيُّ:حَتَّى.بِمَعْنَى كَيْ أَيْ:لِكَيْ يَكُونَ بَعْضُ أُمَّتِكَ يُهْلِكُ بَعْضًا،فَقَوْلُهُ:" «إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَلَا يُرَدُّ» " تَوْطِئَةٌ لِهَذَا الْمَعْنَى،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ:«إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ ثَلَاثًا:فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً،سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا» .قَالَ الْمُظْهِرُ:اعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ قَضَاءَيْنِ مُبْرَمًا وَمُعَلَّقًا بِفِعْلٍ،كَمَا قَالَ:إِنْ فَعَلَ الشَّيْءَ الْفُلَانِيَّ كَانَ كَذَا وَكَذَا،وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ فَلَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا مِنْ قَبِيلِ مَا يَتُوقُ إِلَيْهِ الْمَحْوُ وَالْإِثْبَاتُ،كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ:{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرعد:٣٩] وَأَمَّا الْقَضَاءُ الْمُبْرَمُ؟ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا قَدَّرَهُ سُبْحَانَهُ فِي الْأَزَلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعَلِّقَهُ بِفِعْلٍ؟ فَهُوَ فِي الْوُقُوعِ نَافِذٌ غَايَةَ النَّفَاذِ بِحَيْثُ لَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ،وَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْمَقْضِي عَلَيْهِ وَلَا الْمُقْتَضِي لَهُ،لِأَنَّهُ مِنْ عِلْمِهِ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَخِلَافُ مَعْلُومِهِ مُسْتَحِيلٌ قَطْعًا،وَهَذَا مِنْ قَبِلِ مَا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْمَحْوُ وَالْإِثْبَاتُ.قَالَ تَعَالَى:{لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} [الرعد:٤١] وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ:«لَا مَرَدَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مَرَدَّ لِحُكْمِهِ» .فَقَوْلُهُ - ﷺ - " «إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَلَا يُرَدُّ» " مِنَ الْقَبِيلِ الثَّانِي وَلِذَلِكَ لَمْ يُجِبْ إِلَيْهِ،وَفِيهِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مُسْتَجَابُو الدَّعْوَةِ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٦٧٦)

[٢٩٦٨] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٣٠)(١٧٧) والمجالسة وجواهر العلم (٥/ ٣٥٩)(٢٢٢١) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٣٤٦)(٧٨٦٢) وشعب الإيمان (٩/ ١٥٥)(٦٤١٤)وشعب الإيمان (١٢/ ٥٣٧)(٩٨٥٢) ومسند أحمد (عالم الكتب) (٧/ ١٢١)(٢١٢٢٠) ٢١٥٣٩- صحيح

عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَــا،ثُمَّ تَكُــونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَــاءَ أَنْ يَرْفَعَهَــا،ثُمَّ تَكُــونُ مُلْكًــا جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ ثُمَّ سَكَتَ.رواه أحمد[٢٩٦٩] .



[٢٩٦٩] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٦/ ٢٨٥)(١٨٤٠٦) ١٨٥٩٦- صحيح

المبحث الثاني والثلاثون

الثورات العربية من الاستبداد إلى الخلافة الراشدة

أولاً-(الثورة العربية والحكم الراشد):

تعد الثورة العربية أجل حدث وأعظمه في تاريخ العرب المعاصر،بل هي من الملاحم الكبرى التي لا عهد للأمة بمثله إلا في ثوراتها على الاستعمار الأجنبي في القرن الماضي،وتكمن خطورة الثورة العربية المعاصرة في اتساع خريطتها الجغرافية فهي تمتد من الخليج إلى المحيط في مساحة ١٤ مليون كيلو متر مربع،وفي اتساعها الديمغرافي فهي ليست ثورة شعب في قطر كما حصل في السودان ضد النميري،إذ ظلت ثورة سودانية قطرية،بل هذه الثورة ثورة أمة يبلغ تعدادها نحو أربعمائة مليون نسمة،كما إنها تقع في منطقة هي الأهم والأخطر عالميا من حيث سيطرتها على الممرات والمضائق المائية،ومن حيث كونها الأغنى بمواردها وثرواتها خاصة النفطية،فهي شريان النفط للعالم كله،ومن حيث إنها منطقة تحد حضاري تاريخي للغرب الاستعماري!

وما زالت الثورة العربية في بداياتها حتى في الدول التي جرت فيها ونجحت كتونس ومصر،أو التي ما تزال تجري فيها كليبيا واليمن وسوريا والمغرب والجزائر،أو التي تعيش إرهاصاتها ومخاضها كالسعودية والأردن وعمان ودول الخليج الأخرى..

وتحتاج هذه الثورة إلى عقد من الزمن حتى تؤتي ثمارها وتحقق أهدافها المرحلية..

وإذا كانت هذه الثورة قد أشغلت العرب بل والعالم كله إعلاميا وسياسيا وثقافيا،فإن ما بعد الثورة سيكون الأشد خطرا والأعظم أثرا،ألا وهو تشكل النظام العربي البديل بعد سقوط النظام القديم برمته..

وإذا كانت هذه الثورة شعبية جماهيرية قامت بها الأمة بكل مكوناتها وفئاتها وطبقاتها وتياراتها،وشارك الجميع في صناعتها،فإن لكل ذلك استحقاقاته التاريخية التي لا يمكن تجاوزها،فليست كالثورات العربية التي قامت في وسط القرن الماضي،إذ تلك انقلابات عسكرية لم يكن للشعوب يد فيها،فكان لها استحقاقات لمن بادروا بها وكان للقوى الدولية آنذاك يد فيها،وكانت الأمة خارج نطاق التأثير في مجرياتها ومآلاتها التي انتهت إليها..

إن الثورة اليوم تواجه تحديات تاريخية كبرى،وإرثا خلفته لها أنظمة حكم فاسدة،بل عصابات إجرامية،اختزلت الشعب ومصالحه والدولة كلها بمؤسسة الحكم،ثم اختزلت السلطة بالحزب والمجموعة والجماعة والقبيلة الحاكمة،ثم اختزلت كل ذلك بأسرة الرئيس والملك والشيخ،وانتهت إلى استفراد مطلق بأيدي طغاة كانوا أشد خطرا على الأمة من عدوها الخارجي،حيث فرطوا في سيادتها وكرامتها واستقلالها وثرواتها واستقرارها مقابل بقائهم في السلطة!

لقد قامت الثورة وما تزال وستظل إلى أمد تتأجج بكل عنفوانها حتى تستقر على شاطئ الحرية والكرامة والعدالة التي ثار الجميع من أجل تحقيقها،وهو ما يوجب على الجميع بلورة رؤية مشتركة للنظام البديل،يحقق لها ما تصبو إليه من إصلاح أنظمة الحكم،وإقامة حكومات راشدة..

١- الحكم الراشد ومعاييره:

إن هناك إجماعا شعبيا عربيا على ضرورة أن يكون البديل هو إقامة نظام حكم راشد،إلا إن للرشد ملامحه ومواصفاته التي يمكن تحديدها بكل دقة للحكم على النظام القادم البديل بأنها توفرت فيه أم لا،وما مدى الرشد الذي تحقق في آلياته وممارساته..

كما إن من حق كل تيار سياسي وفكري أن يطرح تصوره للرشد بحسب المرجعية التي يؤمن بها،وأن يعرضها على الأمة التي اشتركت كلها في صناعة الثورة،ولها الحق في القبول أو الرفض.

وقد حدد الإسلام في خطابه السياسي القرآني والنبوي والراشدي معايير للحكم الراشد،وأوجب على الأمة التمسك بها،فهي في حق المسلمين واجب يجب عليهم الإيمان بها والعمل من أجل تحقيقها،كما في الحديث عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ،وَحُجْرِ بْنِ حُجْرٍ،قَالَا:أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة:٩٢] فَسَلَّمْنَا،وَقُلْنَا:أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ،فَقَالَ الْعِرْبَاضُ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ

مُودِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ،تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ،فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» [٢٩٧٠]

وهي بحق غير المسلمين من الأمة تجربة عربية إنسانية يمكن الاستفادة منها،فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسننهم في العدل وإدارة شئون الأمة إرث للإنسانية كلها عامة،وإرث للعرب كلهم مسلمهم ومسيحيهم خاصة،فإذا ذكر العدل ذكر عمر،ويمكن للعقل البشري أن يحكم بصحة هذا السنن أو عدم صحتها،وبصلاحيتها أو عدم صلاحيتها،فهي مما يتوافق عليه العقول البشرية والشرائع السماوية!

فليست سنن الحكم الراشد أمرا دينيا محضا لا يمكن أن يستفيد منه إلا المسلمون،بل هي سنن معقولة المعنى،يمكن اختبارها وتجربتها،ومن ثم الحكم لها أو عليها،فهي تجربة سياسية واقعية وليست خيالية،ولها أسسها وممارساتها علمها من علمها وجهلها من جهلها!

وكونها سننا يعني أنه يمكن تطبيقها والعمل بها كلها أو بعضها بحسب الإمكان كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [٢٩٧١]

٢- أهم ملامح الحكم الراشد:

ومن أهم ملامح الحكم الراشد تحقيق الأهداف التي جاءت الثورة لتحقيقها وهي الحرية والكرامة والحياة الكريمة للإنسان العربي وذلك من خلال:

الأول:تجلّي إرادة الأمة الحرة في اختيار نظام الحكم وطبيعته:

[٢٩٧٠] - سنن أبي داود (٤/ ٢٠٠)(٤٦٠٧) صحيح

[٢٩٧١] - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٨) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٥)٤١٢ - (١٣٣٧)

ومن يحكم وكيف يحكم،وأن تمثل السلطة فيه اختيار الأمة ابتداء وانتهاء،فلا يحكمها إلا من انتخبته الأمة انتخابا حرا مباشرا،ولا يسوس شئونها إلا من ارتضته ورضيت به،وأن يكون ذلك عن أمر جلي لا يكون عرضة للعبث،وهو ما يقتضي:

١- الاتفاق على عقد اجتماعي وسياسي جديد يعبر عن الثورة وتطلعات الأمة،من خلال وضع دساتير جديدة،تنظم عملية الوصول للسلطة بكل شفافية،وتصون الحقوق والحريات العامة والخاصة،كما فعل النبي صلى الله عليه حين دخل يثرب بعد بيعة العقبة الثانية،فكان أول عمل قام به أن كتب صحيفة المدينة التي حفظ فيها الحقوق لكل مكونات الدولة الجديدة،وحدد المرجعية السياسية،وصان الحرية الدينية،وكفل الحقوق الفردية..الخ ثم حصن ذلك كله بقوله:(وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،وَأَنَّ بَيْنَكُمُ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالنَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ،) [٢٩٧٢]

فلا مجال لتفريغ الوثيقة من مضمونها،أو الاحتجاج بها على نقيض مقصودها من إقامة العدل والقسط،بالتعسف أو التأويل أو التحريف!

كما قام النبي ﷺ بالإعلان عن مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ليؤكد بأن العلاقة بين مكونات المجتمع الجديد تقوم على أساس الأخوة وعلى أساس المواطنة وتساوي الجميع في الحقوق وأمام القضاء،لا كما كان عليه الحال في المجتمع الجاهلي الطبقي،فلا عصبية جاهلية ولا طبقية ولا عنصرية قومية فسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي كعمر القرشي!

وسيكون اليهود أمة مع المؤمنين للمسلمين دينهم ولليهود دينهم،على أساس من الحرية والمواطنة {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦]،فقد كان النبي ﷺ يفتتح بذلك عصرا جديدا للعرب خاصة،وللعالم كافة،هو عصر (المدينة) بعد (يثرب)،حيث سيقوم مجتمع المدينة والمدنية والحضارة والإنسانية،فلا استبداد ولا طغيان ولا ظلم للإنسان،بل عصر جديد يفتتح بصحيفة المدينة أول دستور وعقد اجتماعي عرفته الإنسانية!

[٢٩٧٢] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٦٦)(٧٥٠) صحيح لغيره وهو مطول

إن الدساتير العربية اليوم أعجز من أن تفي بغرض المجتمع العربي المعاصر،بل هي منذ تم وضعها وهي تستلب الأمة أحق حقوقها السياسية،باسم الإسلام تارة كما في نظام الحكم والدستور السعودي،الذي يجعل حق اختيار رئيس الدولة حكرا على الأسرة الحاكمة دون الشعب كله باسم الإسلام والسنة،أو الدستور الكويتي الذي يكرس كل صلاحيات السلطة في يد رئيس الدولة فهو رئيس السلطتين التنفيذية والتشريعية باسم (نظام الحكم ديمقراطي والأمة مصدر السلطة)،أو الدستور السوري الذي يجعل السلطة حكرا على حزب البعث باسم الشعب وطليعته الثورية..الخ

وكلها دساتير تكرس الاستبداد وحكم الفرد تحت ذرائع باطلة تجاوزها العصر،فليس أمامها إلا الإصلاح أو السقوط!

٢- إقرار التعددية السياسية والتداول السلمي للسلطة لا من خلال النص عليها بالدساتير فقط،بل من خلال الممارسة الحقيقية لها على أرض الواقع،ليكون الواقع أصدق شاهد على مدى التزام السلطة بإرادة الأمة،واحترامها للدستور والعقد الذي بينها وبين الأمة،وإلا ستبقى الدساتير حبرا على ورق لا تغني ولا تسمن من جوع،ما لم يكن هناك تداول سلمي للسلطة،وهو ما تقرر في أصول الخطاب السياسي الراشدي،بإجماع الأمة،لقوله تعالى:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [الشورى:٣٨]،وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ عُمَرُ:" اعْقِلْ عَنِّي ثَلَاثًا:الْإِمَارَةُ شُورَى،وَفِي فِدَاءِ الْعَرَبِ مَكَانُ كُلِّ عَبْدٍ عَبْدٌ،وَفِي ابْنِ الْأَمَةِ عَبْدَانِ،وَكَتَمَ ابْنُ طَاوُسٍ الثَّالِثَةَ"[٢٩٧٣]

وقال أيضاً:" مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ،"[٢٩٧٤]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ فَقَالَ:" قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ:إِنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً،وَلَكِنْ وَقَى اللهُ شَرَّهَا وَإِنَّهُ لَا خِلَافَةَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ،وَأَيُّمَا رَجُلٍ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ

[٢٩٧٣] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٦)(٩٧٦٠) صحيح

[٢٩٧٤] - صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠) وهو طويل

غَيْرِ مَشُورَةٍ،لَا يُؤَمَّرُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا " قَالَ شُعْبَةُ:قُلْتُ لِسَعْدٍ:مَـــا تَغِـــرَّةً أَنْ يُقْتَلَـــا؟ قَالَ:عُقُوبَتُهُمَا أَنْ لَا يُؤْمَرَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا.."[2975]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:«مَنْ دَعَا إِلَى إِمَارَةِ نَفْسِهِ،أَوْ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْـــلِمِينَ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقْتُلُوهُ»[2976]

فكل اغتصاب للسلطة باطل ومحرم وغير مشروع،ولا شرعية لنظام لا تختاره الأمة عن طريـــق التعددية والتنافس المشروع،وقد تنافس الستة الذين رشحتهم الأمة لعمر رضي الله عنه،وكان الحكم والفيصل بينهم إرادة الأمة آنذاك حتى قال عبد الرحمن بن عوف وقد استشار النـــاس ثلاثة أيام حتى سأل النساء في خدورهن في شأن عثمان وعلي،ما جاء عَنِ الزُّهْرِيِّ،أَنَّ حُمَيْـــدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَخْبَرَهُ أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ،أَنَّ الرَّهْطَ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ عُمَـــرُ اجْتَمَعُـــوا فَتَشَاوَرُوا،فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:«لَسْتُ بِالَّذِي أُنَافِسُكُمْ عَلَى هَذَا الأَمْرِ،وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِـــئْتُمُ اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنْكُمْ»،فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ،فَلَمَّا وَلَّوْا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَمْرَهُمْ،فَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ،حَتَّى مَا أَرَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَتْبَعُ أُولَئِكَ الرَّهْطَ وَلاَ يَطَأُ عَقِبَهُ،وَمَالَ النَّـــاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي،حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَصْـــبَحْنَا مِنْهَـــا فَبَايَعْنَـــا عُثْمَانَ،قَالَ المِسْوَرُ:طَرَقَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْـــدَ هَجْـــعٍ مِـــنَ اللَّيْلِ،فَضَـــرَبَ البَـــابَ حَتَّـــى اسْتَيْقَظْتُ،فَقَالَ:«أَرَاكَ نَائِمًا فَوَاللَّهِ مَا اكْتَحَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِكَبِيرِ نَوْمٍ،انْطَلِـــقْ فَـــادْعُ الزُّبَيْـــرَ وَسَعْدًا»،فَدَعَوْتُهُمَا لَهُ،فَشَاوَرَهُمَا،ثُمَّ دَعَانِي،فَقَالَ:«ادْعُ لِي عَلِيًّا»،فَدَعَوْتُهُ،فَنَاجَاهُ حَتَّى ابْهَـــارَّ اللَّيْلُ،ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ،وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَـــيْئًا،ثُمَّ قَالَ:«ادْعُ لِي عُثْمَانَ»،فَدَعَوْتُهُ،فَنَاجَاهُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا المُؤَذِّنُ بِالصُّـــبْحِ،فَلَمَّا صَـــلَّى لِلنَّـــاسِ الصُّبْحَ،وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ عِنْدَ المِنْبَرِ،فَأَرْسَلَ إِلَى مَـــنْ كَـــانَ حَاضِـــرًا مِـــنَ المُهَـــاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ،وَأَرْسَلَ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ،وَكَانُوا وَافَوْا تِلْكَ الحَجَّةَ مَعَ عُمَرَ،فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَشَهَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ،فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَـــانَ،فَلاَ

[2975] – السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٠٨)(٧١١٣) صحيح

[2976] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٥) (٩٧٥٩) والسنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٤٣)(١٠٦) صحيح

تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا»،فَقَالَ:أُبَايِعُكَ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَالخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ،فَبَايَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ،وَبَايَعَهُ النَّاسُ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ،وَأُمَرَاءُ الأَجْنَادِ وَالْمُسْلِمُونَ"[2977]

وكل الخلفاء الراشدين تولوا السلطة باختيار الأمة وإرادها بلا إكراه ولا إجبار،بل و لم يكن أحد منهم يستطيع ذلك،بمحضر الأنصار وهم أهل المدينة وأصحاب الشوكة والكلمة،فكان أمر السلطة بالشورى والرضا،لا بالتفويض الإلهي،ولا بالسيف والقوة،ولا بالمال السياسي،فالسلطة في النظام الراشدي سلطة مدنية،تختارها الأمة بإرادتها ورضاها وشوراها،فعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَلِمْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى»،شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ،قَالَ:وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ:التُّقَى - «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[2978]

٣- وأن يتم إصلاح مؤسسات الدولة التنفيذية والتشريعية والقضائية حتى تعبر فعلا عن إرادة الأمة ونفوذ سلطانها على الجميع،فقد غابت مؤسسات الدولة في أعرق نظام عربي وهو النظام المصري،فتم اختطاف السلطة التشريعية وتزوير إرادة الشعب المصري،حتى وصل التزوير نسبة ٩٧% فجاءت الثورة المصرية لتكشف مدى الفساد الذي استشرى في مؤسسات الدولة العريقة،وغاب القضاء المصري العريق،وشلت يده وقدرته عن محاسبة المفسدين مدة ثلاثين سنة،في مشهد يؤكد بأن الحديث عن استقلال القضاء والفصل بين السلطات،حديث خرافة في ظل فساد الحكم،وفي ظل غياب إرادة الأمة،إذ كل السلطات تختزل في عصور الاستبداد لتصبح أداة في يد الطاغية باسم الشعب وباسم الدستور وباسم صناديق الاقتراع!{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]

[2977] - صحيح البخاري (٩/ ٧٨)(٧٢٠٧)

[2978] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨) صحيح لغيره

إن الفصل بين السلطات هو سنة راشدة ابتدأها أبو بكـــر الصـــديق فجعـــل عمـــر علـــى القضاء،وجعل أبا عبيدة على بيت المال،لتشترك الأمة كلـــها في إقامـــة العـــدل في القضـــاء والعطاء،والرقابة على بيت المال!

٤- سيادة النظام على الجميع،ووقوف الجميع أمام القضاء على قدم المساواة،لا فـــرق بـــين حاكم ومحكوم،وشريف ووضيع،وغني وفقير،حتى لا يشعر أحد بأي تمييز أو تهميش،كمـــا في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّ قُرَيْشًـــا أَهَمَّهُـــمْ شَـــأْنُ الْمَـــرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّـــةِ الَّتِـــي سَرَقَتْ،فَقَالُوا:وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّـــهِ،ثُمَّ قَـــامَ فَاخْتَطَبَ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ،أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّـــرِيفُ تَرَكُـــوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ،وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا [٢٩٧٩]"

فالغاية من الإصلاح السياسي ابتداء من وضع عقد اجتماعي ودستور جديد،وإقرار للتعدديـــة والتداول السلمي للسلطة،والفصل بين السلطات واستقلال القضاء،وســـيادة النظـــام علـــى الجميع،كل ذلك هو من أجل صون حرية الإنسان وحقه في اختيار مـــن يمثلـــه في الســـلطة التنفيذية والتشريعية،دون وصاية من أحد على أحد،ودون تدخل من أحد،وكذا ضمان حقـــه في العدل والمساواة،فإن تحقق ذلك وإلا كانت كل تلك الآليات وسائل لا معنى لها في غيـــاب الهدف والغاية وهو صون الحرية للإنسان وللأمة!

الثاني- استعادة سيادة الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبي:

فقد بلغ الحال في العالم العربي أن أصار المواطن من المحيط إلى الخليج يشعر بوصـــمة عـــار في جبينه حين يرى دوله لا وزن لها في العالم من حوله،بل تحولت إلى أدوات لتنفيـــذ مشـــاريع القوى الدولية والإقليمية المتصارعة في المنطقة،ففقد الموطن العربي الشعور بالفخر الذي هو أهم أسس الشعور بالمواطنة،وهو ما جعل العرب في كل قطر يعيشون في حالة اغتراب غير مسبوقة

[٢٩٧٩] - صحيح البخاري (٤/ ١٧٥)(٣٤٧٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥)٩ - (١٦٨٨)

في أوطانهم،فمن يحكمهم لا يمثل إرادتهم بل يمثل إرادة الأجنبي،ولا يشرفهم الانتماء إليه ولا إلى الوطن الذي تحكمه هذه الأنظمة العميلة الخائنة لشعوبها وأوطانها،دون أن تشعر حتى بخيانتها لهم!

وقد تجلى ذلك في أبشع صوره في موقف نظام حسني مبارك ودول الاعتدال التي شاركت في حصار وحرب غزة،حتى خرجت وزيرة الخارجية الإسرائيلية لتقول للعالم بأن إسرائيل وعرب الاعتدال في خندق واحد لمواجهة التطرف!

وقد بلغ الحال من فقدان الدول العربية لسيادتها واستقلالها أن اعترف بعض الرؤساء بأنهم عبارة عن موظفين صغار للولايات المتحدة! كما اعترف بذلك الرئيس اليمني للمشايخ والوجهاء في جلسة خاصة لتبرير تعاونه مع الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب!

إن أهم ملامح الحكم الراشد هو استعادة السيادة المفقودة،تلك السيادة التي يمثل غيابها نتيجة طبيعية في ظل تنامي الفجوة بين الشعوب وحكوماتها،وشعور الحكومات بحاجتها للأجنبي لحماية عروشها غير الشرعية،وهذا بخلاف الأنظمة التي تختارها الشعوب وتقف خلفها لمواجهة أي نفوذ خارجي،فهي تستمد شرعيتها من الأمة لا من العدو!

إن حماية الدولة وصيانة سيادة الأمة هو أول واجبات السلطة كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ،يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ،وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ،كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ،وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ» [٢٩٨٠]

فالسلطة درع وجنة تقف الأمة من ورائها وتقاتل معها وعنها.

ولهذا السبب عرف الفقهاء قديما دار الإسلام بالشوكة لا بالأحكام،فالدار التي تكون الشوكة فيها للأمة والكلمة واليد العليا فيها لها هي وطن ودار للإسلام،كما كانت المدينة النبوية،فكانت دار إسلام بتحقق الشوكة والمنعة للأمة فيها،لتقيم فيها أحكام دينها والعدل الذي جاء به نبيها.

[٢٩٨٠] - صحيح البخاري (٤/ ٥٠)(٢٩٥٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٣ - (١٨٤١)

وكما قال ابن تيمية رحمه الله:(وَأَمَّا قِتَالُ الدَّفْعِ فَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ دَفْعِ الصَّائِلِ عَنْ الْحُرْمَةِ وَالدِّينِ فَوَاجِبٌ إجْمَاعًا فَالْعَدُوُّ الصَّائِلُ الَّذِي يُفْسِدُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَا شَيْءَ أَوْجَبَ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ دَفْعِهِ فَلَا يُشْتَرَطُ لَهُ شَرْطٌ بَلْ يُدْفَعُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.)[٢٩٨١]

فالعناية بقوة الدولة أولى وأوجب،فإذا قويت الأمة قوي الإسلام،وإذا ضعفت ضعف،وما كان لتركيا أن تعود إلى المسرح الدولي من جديد بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى،لولا استعادتها لقوتها وسيادتها واستقلال قرارها،وما كان ذلك ليتم لها لو كانت ضعيفة عسكريا واقتصاديا،كما قال تعالى:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠]..

فكان من أهم ملامح الحكم الراشد قدرته على حماية سيادة الدولة واستقلالها،والاستغناء عن أي دعم خارجي عسكريا كان أو اقتصاديا أو سياسيا.

ثالثا:تحقيق النهضة والتنمية في جميع المجالات:

وهو حجر أساس مشروعية استمرار السلطة حتى وإن كانت شرعية في إدارة شئون الدولة،إذ المقصود من انتخاب السلطة هو إدارتها لشئون الدولة،فإذا فشلت في ذلك فقد استحقت العزل والتغيير!

والإمارة ولاية ومسئولية كما قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]

وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ الله،أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ:فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي،ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنَّكَ ضَعِيفٌ،وَإِنَّهَا أَمَانَةُ،وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا،وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[٢٩٨٢]

[٢٩٨١] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٨) والمستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٥) وقد ذكرها الدكتور بالمعنى وليس باللفظ المذكور

فسمى الإمارة أمانة إذ هي أصل الأمانات!
وقد فقدت الحكومات العربية الفاعلية السياسية،لغياب الكفاءات القادرة علـــى إدارة شـــئون المجتمع،كفاءة القوة والقدرة وكفاءة الأمانـــة والنزاهـــة،وهو مـــا أدى إلى تخلـــف الـــدول العربية،وانهيارها في كل المجالات،حتى باتت دولا فاشلة،أو آيلة إلى الفشل والســـقوط،وزادت نسبة الفقر والمرض والبطالة والأمية حتى تجاوزت معدلاتها حدا غير مسبوق،ولهذا كان مـــن أهم ملامح الحكم الراشد لتحقيق النهضة والتنمية:

١- حماية المال العام وصيانته من النهب والإهدار،فلا يمكن تحقيق تنمية في ظل النهب المـــنظم للمال العام،وفي ظل تحول ثروة الأمة ودولها إلى الخارج بأسماء أفراد الأسر الحاكمة.

وقد كان الصحابة هم من حدد راتب أبي بكر من بيت المال فلما حضرته الوفاة رد مـــا زاد عنده،عنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما،قَالَ:لَمَّا احْتُضِرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«يَـــا عَائِشَةُ انْظُرِي اللِّقْحَةَ الَّتِي كُنَّا نَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا،وَالْجِفْنَةَ الَّتِي كُنَّا نَصْطَبِحُ فِيهَا،وَالْقَطِيفَةَ الَّتـــي كُنَّا نَلْبَسُهَا،فَإِنَّا كُنَّا نَنْتَفِعُ بِذَلِكَ حِينَ كُنَّا فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِذَا مِتُّ فَارْدُدِيهِ إِلَى عُمَرَ،فَلَمَّـــا مَاتَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَى عُمَرَ رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْـــهُ،فَقَالَ عُمَـــرُ رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُ:رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ أَتْعَبْتَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكَ"[٢٩٨٣]

وكذا فعل عمر!

فليس لهم أن يتصرفوا قي مال الأمة إلا بإذنها ورضاها،فعَنْ عَطِيَّةَ بْنِ قَيْسٍ قَالَ:سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ [بْنَ أَبِي سُفْيَانَ] يَخْطُبُنَا يَقُولُ:إِنَّ فِي بَيْتِ مَالِكُمْ فَضْلًا بَعْدَ أُعْطِيَاتِكُمْ،وَإِنِّي قَاسِمُهُ بَيْنَكُمْ،فَإِنْ كَانَ يَأْتِينَا فَضْلٌ عَامًا قَابِلًا قَسَّمْنَاهُ عَلَيْكُمْ،وَإِلَّا فَلَا عَتَبَةَ عَلَيَّ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَالِي،وَإِنَّمَا هُوَ مَالُ اللَّهِ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ.[٢٩٨٤]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ:أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ وَقَدْ حُبِسَ الْعَطَاءُ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً فَقَالَ لَهُ أَبُـــو مُسْلِمٍ:يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِكَ وَلَا مَالَ أَبِيكَ وَلَا مَالِ أُمِّكَ فَأَشَارَ مُعَاوِيَةُ إِلَى النَّاسِ

[٢٩٨٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧)١٦ - (١٨٢٥)

[٢٩٨٣] - المعجم الكبير للطبراني (١/ ٦٠)(٣٨) حسن

[٢٩٨٤] - تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٩/ ١٧٠) ومختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٥١) ومنهاج السنة النبوية (٦/ ٢٣٤) فيه ضعف

أَن امْكُثُوا وَنَزَلَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِي وَلَا بِمَالِ أَبِي وَلَا أُمِّي وَصَدَقَ أَبُو مُسْلِمٍ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالشَّيْطَانُ مِنَ النَّارِ وَالْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ» اغْدُوا عَلَى عَطَايَاكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2985]

وعَنْ سَعْدٍ،قَالَ:جَاءَ الْحَارِثُ بْنُ الْبَرْصَاءِ وَهُوَ فِي السُّوقِ،فَقَالَ لَهُ:يَا أَبَا إِسْحَاقَ،إِنِّي سَمِعْتُ مَرْوَانَ يَزْعُمُ أَنَّ مَالَ اللَّهِ مَالُهُ مَنْ شَاءَ أَعْطَاهُ،وَمَنْ شَاءَ مَنَعَهُ،فَقَالَ لَهُ:«أَنْتَ سَمِعْتَهُ يَقُولُ ذَلِكَ؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ سَعِيدٌ:فَأَخَذَ بِيَدِي سَعْدٌ وَبِيَدِ الْحَارِثِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى مَرْوَانَ،فَقَالَ:«يَا مَرْوَانُ،أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ مَالَ اللَّهِ مَالُكَ،مَا شِئْتَ أَعْطَيْتَهُ وَمَنْ شِئْتَ مَنَعْتَهُ؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«فَأَدْعُو» وَرَفَعَ سَعْدٌ يَدَيْهِ،فَوَثَبَ إِلَيْهِ مَرْوَانُ وَقَالَ:أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَنْ تَدْعُوَ هُوَ مَالُ اللَّهِ مَنْ شَاءَ أَعْطَاهُ وَمَنْ شَاءَ مَنَعَهُ"[2986]

فلا يؤخذ منه شيء ولا يتصرف فيه إلا بإذن الأمة.

وليس لهم أخذ هدية وهم في الوظيفة العامة بل يجب رد حتى الهدية للرئيس إلى بيت المال..

ولا يقاس أحد على النبي ﷺ،وقد كان الخلفاء الراشدون يردون ما أهدي إليهم لبيت المال،فعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ:أُهْدِيَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ تُفَّاحٌ وَفَاكِهَةٌ،فَرَدَّهَا وَقَالَ:" لَا أَعْلَمَنَّ أَنَّكُمْ قَدْ بَعَثْتُمُ الَى أَحَدٍ مِنَ أَهْلِ عَمَلِي بِشَيْءٍ،قِيلَ لَهُ:أَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ،قَالَ:بَلَى،وَلَكِنَّهَا لَنَا وَلِمَنْ بَعْدَنَا رِشْوَةٌ "[2987]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مُهَاجِرٍ قَالَ:اشْتَهَى عُمَرُ تُفَّاحًا فَقَالَ:" لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا مِنَ تُفَاحٍ،فَإِنَّهُ طَيِّبٌ،فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهِ فَأَهْدَى إِلَيْهِ تُفَّاحًا،فَلَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ قَالَ:مَا أَطْيَبَهُ وَأَطْيَبَ رِيحَهُ،وَأَحْسَنَهُ،ارْفَعْ يَا غُلَامُ،وَاقْرَأْ عَلَى فُلَانٍ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ:إِنَّ هَدِيَّتَكَ قَدْ وَقَعَتْ عِنْدَنَا بِحَيْثُ تُحِبُّ،قَالَ عَمْرُو بْنُ مُهَاجِرٍ:فَقُلْتُ لَهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،ابْنُ عَمِّكَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ،وَقَدْ

[2985] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٣٠) حسن

[2986] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٥٧٢)(٦١٢٤) صحيح

[2987] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٩٤) صحيح

بَلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ،قَالَ:«إِنَّ الْهَدِيَّةَ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَدِيَّةً،وَهِيَ لَنَا رِشْوَةٌ»[2988]

وعن فرات بن مسلم،قال:اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحاً،فطلب له فلم يوجد،فركب وركبنا معه،فتلقاه غلمانٌ من الديارنة بأطباقٍ فيها تفاحٌ؛فوقف على طبقٍ منها،فتناول تفاحةً [فشمها ثم أعادها] في الطبق،ثم قال:ادخلوا ديركم،لا أعلم أنكم بعثتم إلى أحدٍ من أصحابي بشيء.قال:فحركت بغلتي،فلحقته،فقلت:يا أمير المؤمنين،اشتهيت التفاح فطلب لك فلم يوجد،ثم أهدي لك [فرددته،ألم يكن] رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟ قال:إنها لرسول الله ﷺ وأبي بكرٍ وعمر هديةٌ،وللعمال بعدهم رشوةٌ.[2989]

٢- العمل على استرجاع كل ما تم نهبه طوال العقود السابقة من البنوك الخارجية،وهي ثروة تقدر بالترليونات،وهي أخطر مشكلة ستواجهها أنظمة الحكم الراشد بعد الثورة العربية،فليست هذه الثروة بالأمر الذي يمكن تعويضه لغض الطرف عنه،ولهذا كان استرجاعها أول خطوة على طريق الإصلاح الاقتصادي والتنمية الشاملة.

وقد رد الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز مظالم بني أمية وما أخذه أمراء الجور إلى أصحابه إن عرفهم،أو إلى بيت المال،مع أن بعضه مضى عليه نصف قرن،فعن الْفُرَاتَ بْنِ السَّائِبِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ لِامْرَأَتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ – وَكَانَ عِنْدَهَا جَوْهَرٌ أَمَرَ لَهَا أَبُوهَا بِهِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ –:اخْتَارِي،إِمَّا أَنْ تَرُدِّي حُلِيَّكِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ،وَإِمَّا تَأْذَنِي لِي فِي فِرَاقِكِ،فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَنْتِ وَهُوَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ،قَالَتْ:لَا بَلْ أَخْتَارُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ،وَعَلَى أَضْعَافِهِ لَوْ كَانَ لِي،قَالَ:فَأَمَرَ بِهِ فَحُمِلَ حَتَّى وُضِعَ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَلَمَّا هَلَكَ عُمَرُ وَاسْتُخْلِفَ يَزِيدُ قَالَ لِفَاطِمَةَ:إِنْ شِئْتِ يَرُدُّونَهُ عَلَيْكِ،قَالَتْ:فَإِنِّي لَا أَشَاؤُهُ،طِبْتُ عَنْهُ نَفْسًا فِي حَيَاةِ عُمَرَ،وَأَرْجِعُ فِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ؟ لَا وَاللهِ أَبَدًا،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَسَمَهُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ"[2990]

[2988] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٩٤) صحيح

[2989] – تاريخ الرقة (ص:١٠٣) (١٨٠) صحيح

[2990] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٨٣)

فالحقوق لا تسقط بالتقادم،فعنْ سَعِيد بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً،فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ»[2991]

وعَنْ عُرْوَةَ،أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ اخْتَصَمَا فِي أَرْضٍ غَرَسَ أَحَدُهُمَا فِيهَا نَخْلًا وَالْأَرْضُ لِلْآخَرِ،فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَرْضِ لِصَاحِبِهَا،وَأَمَرَ صَاحِبَ النَّخْلِ أَنْ يُخْرِجَ نَخْلَهُ،وَقَالَ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لِمَنْ أَحْيَاهَا،وَلَيْسَ لِعَرَقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ».قَالَ:فَلَقَدْ أَخْبَرَنِي الَّذِي حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَأَى النَّخْلَ وَهِيَ عَمٌّ،تُقْلَعُ أُصُولُهَا بِالْفُؤُوسِ.قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:الْعَمُّ:الشَّبَابُ،«وَلَيْسَ لِعَرَقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ» قَالَ:«أَنْ تَأْتِيَ أَرْضَ غَيْرِكَ فَتَزْرَعَ فِيهَا»[2992]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ وَالْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ فَمَنْ أَحْيَا مِنْ مَوَاتِ الْأَرْضِ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ»[2993]

ولهذا كان إعفاء الرئيس اليمني عما سلف منه من جرائم خاصة ما نهبه من مال الشعب جريمة لا تغتفر بحق من وقعوا المصالحة لفقدهم الشرعية للتنازل عن حقوق الشعب!

وليست الدماء كالأموال فإن الدم حق خاص لأولياء المقتول فإذا عفوا عنه فلهم ذلك بخلاف المال العام للأمة لا يصلح التنازل عنه بل يجب رده للأمة.

٣- توجيه الطاقات لتطوير الاقتصاد وفتح أبواب الاستثمار لنقل وتوطين الصناعة،وتدارك ما فات الدول العربية خلال نصف قرن من فرص تاريخية للنهضة الصناعية والتكنولوجية،التي وصلت إليها دول إسلامية أخرى كتركيا وماليزيا واندونيسيا،فضلا عن دول العالم المتقدم صناعيا.

٤- تطوير البنية التحتية،وتأمين الطرق والمواصلات والطاقة،وتوفير الرعاية السكنية والصحية والخدمات للجميع.

٥- تأمين فرص العمل ومعالجة مشكلة البطالة،واستثمار الإنسان وتنمية قدراته ومهاراته وتوفير فرص التعليم والتدريب والإعداد لسوق العمل.

[2991] - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٣٢٥)(٥٧٢٩) صحيح

[2992] - سنن الدارقطني (٣/ ٤٤٤)(٢٩٣٨) صحيح

[2993] - مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٥٥)(١٥٤٣) صحيح

وقد حدد الخطاب الإسلامي السياسي النبوي والراشدي أهم مسئوليات السلطة والدولة تجاه مواطنيها،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ،وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَإِلَيْنَا»[2994]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الْمُسْتَوْرِدُ وَعَمْرُو بْنُ غَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ،فَقَالَ الْمُسْتَوْرِدُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَّخِذْ زَوْجَةً،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَتَّخِذْ مَسْكَنًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً»،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَكْثَرْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَمَنْ أَصَابَ سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ سَارِقٌ»[2995]

وعَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ الْفِهْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:مَنْ وَلِيَ لَنَا شَيْئًا،فَلَمْ تَكُنْ لَهُ امْرَأَةٌ فَلْيَتَزَوَّجِ امْرَأَةً،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَتَّخِذْ مَسْكَنًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَرْكَبٌ فَلْيَتَّخِذْ مَرْكَبًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا،فَمَنِ اتَّخَذَ سِوَى ذَلِكَ:كَنْزًا،أَوْ إِبِلًا،جَاءَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَالًّا أَوْ سَارِقًا.[2996]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ،آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ،فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا».[2997]

فدلَّ كل ذلك على الحد الأدنى الذي يجب على السلطة توفيره للإنسان،لتحقيق الحياة الإنسانية الكريمة له،ابتداء من توفير فرص العمل له،وتيسير الحياة الزوجية والأسرية لكل شاب وأعزب،وتأمين السكن لكل أسرة،وتأمين الغذاء والدواء والرعاية الصحية،وتوفير وسائل النقل،وتحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي والأسري لكل فرد في المجتمع.

[2994] - صحيح البخاري (٣/ ١١٨)(٢٣٩٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٣٨)١٧ - (١٦١٩)

[ش (كلا) عيالا لا نفقة لهم أو دينا لا وفاء له.(فإلينا) يرجع أمره والقيام به]

[2995] - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:٧٧)(١٤٠) ومسند ابن أبي شيبة (٢/ ٢٨١)(٧٧٨) والمعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٣٠٤) (٧٢٥) صحيح

[2996] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٣٨)(٦٥٣ - ٦٥٥) صحيح لغيره

[2997] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٤٤٥)(٦٧١) صحيح لغيره

الرابع– تحقيق حالة السلم والأمن الاجتماعي لجميع مكونات المجتمع:

على اختلاف فئاته،دينية كانت أو قومية،وقد أججت الأنظمة العربية الفتن الداخلية في كل مجتمع عربي،لحماية نفسها على حساب استقرار شعوبها،وقد كان نظام حسني مبارك وراء الفتن بين المصريين مسلميهم وأقباطهم،وكان النظام اليمني وراء الفتن بين جنوب اليمن وشماله،وكان النظام العراقي العميل للاحتلال وراء تفجير الداخل العراقي وإثارة الفتن الطائفية بين مكونات الشعب العراقي الذي لم يعرف طوال تاريخ العراق الحديث فتنة بين السنة والشيعة،وتقوم دول الخليج اليوم بإثارة الفتن الطائفية لقطع الطريق على الإصلاحات الداخلية..الخ

فأصبحت المجتمعات العربية في ظل الأنظمة الفاسدة في حالة استنفار دائم وافتقاد للسلم الأهلي،حيث تم تلغيم المجتمعات بألغام تقضي حين تفجيرها على الأخضر واليابس،مما يؤكد خطورة بقاء الاستبداد وسياساته الفرعونية التي تقوم على تمزيق المجتمع من الداخل:{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [القصص:٤]،وعلى ادعاء استحقاق الحكم {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف:٥١]،وعلى استبداده وطغيانه { يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]،وعلى إرهابه للمجتمع {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } [الشعراء:٢٩]،وعلى مصادرة حرية الرأي وحرية الاعتقاد {قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) } [الأعراف:١٢٣ – ١٢٦]؟! {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ

عَذَابًا وَأَبْقَى} [طه:٧١]{ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } [الشعراء:٤٩]

بينما تقوم سياسة الحكم الراشد على تعزيز وحدة المجتمع واستقراره {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات:١٣] {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:١]،وعلى احترام كرامة الإنسان {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء:٧٠]،وعلى أساس حرية الاعتقاد والرأي { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦]،وعلى أساس الشورى في الحكم {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [الشورى:٣٨]،وعلى أساس العدل بين الجميع {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:٥٨]،وعلى أساس توزيع الثروة العادل{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر:٧]..الخ

وهذا موقف عظيم من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه،فعَنِ الْأَحْنَفِ،أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا فِي رَهْطٍ عَلَى بَابِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَخَرَجَتْ عَلَيْهِمْ جَارِيَةٌ،فَقَالُوا:سَرِيَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ:إِنَّهَا لَيْسَتْ سَرِيَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ؛إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللَّهِ قَالَ:فَتَذَاكَرْنَا مَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ،فَبَلَغَهُ ذَلِكَ،فَدَعَانَا فَقَالَ:مَا قُلْتُمْ؟ فَقُلْنَا:خَيْرًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،خَرَجَتْ عَلَيْنَا جَارِيَةٌ،فَقُلْنَا:سَرِيَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ:لَيْسَتْ سَرِيَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ،إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللَّهِ،فَتَذَاكَرْنَا مَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ قَالَ:وَقُلْنَا:أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ قَالَ:فَرَدَّدَهَا عَلَيْنَا ثَلَاثَ مِرَارٍ،فَقُلْنَا:أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ:أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا أَسْتَحِلُّ مِنْ هَذَا الْمَالِ:حُلَّةٌ لِلشِّتَاءِ وَحُلَّةٌ

لِلْقَيْظِ،وَمَا أَحُجُّ عَلَيْهِ وَأَعْتَمِرُ مِنَ الظَّهْرِ،وَقُوتُ أَهْلِي مِثْلُ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ،لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ وَلَا أَفْقَرِهِمْ،ثُمَّ أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ "[2998]

وقد تجلَّى مفهوم حماية السلم الأهلي والاستقرار الداخلي في أوضح صوره في موقف الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه حين رفض رفضا قاطعا قمع الخارجين على سلطته،وأمر من حاولوا الدفاع عنه كف أيديهم

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الدَّارِ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ طَابَ أَمْ ضَرْبٌ؟ – قَالَ:يَعْنِي طَابَ الْقِتَالُ – فَقَالَ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَيَسُرُّكَ أَنْ تَقْتُلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَقَالَ:لَا،فَقَالَ:«إِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَ إِنْسَانًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلْتَ النَّاسَ جَمِيعًا»[2999]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ لَنَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«أَقْسَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا أَلْقَيْتُمُ السِّلَاحَ،فَأَلْقَيْتُ سَيْفِي فَمَا تَقَلَّدْتُهُ بَعْدُ»[3000]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الدَّارِ فَجَاءَ سَهْمٌ عَائِرٌ فَأَصَابَ إِنْسَانًا فَقَتَلَهُ،فَقُلْتُ:طَابٌ أَمْ ضِرَابٌ؟ فَقَالَ:«أَعْزِمُ عَلَيْكَ،فَإِنَّمَا يُرَادُ نَفْسِي وَسَأَقِي الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِي»[3001]

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ:انْتَضَى أَبُو هُرَيْرَةَ سَيْفَهُ،فَقَالَ:الْآنَ طَابٌ أَمْ ضِرَابٌ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِيَ عَلَيْكَ حَقًّا؟» قَالَ:بَلَى،قَالَ:«فَأَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَا أَغْمَدْتَ سَيْفَكَ وَكَفَفْتَ يَدَكَ؟» قَالَ:فَقَامَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَامَ تَمْنَعُ النَّاسَ مِنْ قِتَالِهِمْ؟ فَقَالَ:«أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ أَخِي لَمَا كَفَفْتَ يَدَيْكَ،وَلَحِقْتَ بِأَهْلِكَ فَلَا حَاجَةَ لِي فِي هِرَاقَةِ الدِّمَاءِ».فَقَامَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَامَ تَمْنَعُ النَّاسَ

[2998] – تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٦٩٨) صحيح

[2999] – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٦) صحيح

[3000] – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٧) صحيح

[3001] – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٧) صحيح لغيره

مِنْ قِتَالِهِمْ،فَقَدْ وَاللَّه حَلَّ قِتَالُهُمْ.وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعَكَ فِي الدَّارِ إِلَّا مَنْ مَعَكَ مِنْ وَلَـدِ أَبِيـكَ – يَعْنِي بَنِي أُمَيَّةَ – لَامْتَنَعْتَ بِهِمْ،قَالَ:«أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا كَفَفْتَ يَدَكَ»[3002]

وعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ بِالْبَابِ عِصَابَةً مُسْتَبْصِرَةً قَدْ يَنْصُرُ اللَّهُ بِأَقَلَّ مِنْهُمْ.فَقَالَ:«أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلًا يَـرَى لِلَّـهِ عَلَيْـهِ حَقًّا،وَيَرَى لِي عَلَيْهِ حَقًّا أَنْ يُهْرِيقَ دَمِي،أَوْ يُهْرِيقَ لِي دَمًا»[3003]

وعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ:حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مَحْصُورٌ،فَقَالَ:قَدْ نَزَلَ بِكَ مَا تَرَى وَإِنَّا مُخَيِّرُوكَ بَيْنَ خِصَالٍ ثَلَـاثٍ،إِنْ شِـئْتَ خَرَقْنَا لَكَ بَابًا فِي الدَّارِ سِوَى الْبَابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ فَتَقْعُدُ عَلَى رَوَاحِلِكَ فَتَلْحَقُ بِمَكَّـةَ،فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّوكَ وَأَنْتَ بِهَا،أَوْ تَلْحَقُ بِالشَّامِ،فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ،أَوْ تَخْرُجُ بِمَنْ مَعَكَ فَتُقَاتِلُهُمْ فَإِنَّ مَعَكَ عَدَدًا وَقُوَّةً،وَأَنْتَ عَلَى حَقٍّ،وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ.فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَمَّا قَوْلُكَ:نَخْرِقُ لَكَ بَابًا سِوَى الْبَابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ فَأَقْعُدُ عَلَى رَوَاحِلِي وَأَلْحَقُ بِمَكَّةَ،فَإِنَّهُمْ لَـنْ يَسْتَحِلُّونِي وَأَنَا بِهَا،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«يُلْحَدُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكَّـةَ عَلَيْـهِ نِصْفُ عَذَابِ الْعَالَمِ» فَلَنْ أَكُونَ إِيَّاهُ،وَأَمَّا قَوْلُكَ:الْحَقْ بِالشَّامِ فَـإِنَّهُمْ أَهْـلُ الشَّـامِ وَفِـيهِمْ مُعَاوِيَةُ،فَلَنْ أُفَارِقَ دَارَ هِجْرَتِي وَمُجَاوَرَةَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِيهَا،وَأَمَّا قَوْلُكَ:أَخْرُجُ بِمَنْ مَعِي عَدَدًا وَقُوَّةً وَأَنَا عَلَى حَقٍّ،عَلَى بَاطِلٍ،فَلَنْ أَكُونَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِإِهْرَاقِ دَمِ مُسْـلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ "

وفي رواية قَالَ:فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ النَّبِيَّ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِإِهْرَاقِ مِحْجَمَةٍ مِنْ دَمٍ" [3004]

كما سنَّ علي رضي الله عنه سنن الرحمة في الخوارج الذين كفروه،قَـالَ الشَّـافِعِيُّ رَحِمَـهُ اللَّهُ:بَلَغَنَا أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،بَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ إِذْ سَمِعَ تَحْكِيمًا مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ:لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِـلٌ،لَكُمْ

[3002] - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٨) صحيح

[3003] - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٩) صحيح

[3004] - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢١٢) صحيح

عَلَيْنَا ثَلَاثٌ:لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللهِ،وَلَا نَمْنَعُكُمُ الْفَيْءَ مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا،وَلَا نَبْدَؤُكُمْ بِقِتَالٍ "[٣٠٠٥]

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ نَمِرٍ،قَالَ:بَيْنَا أَنَا فِي الْجُمُعَةِ،وَعَلِيٌّ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ،إِذْ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ:لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ:لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،ثُمَّ قَامُوا مِنْ نَوَاحِي الْمَسْجِدِ،فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِيَدِهِ اجْلِسُوا:نَعَمْ،لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،كَلِمَةٌ يُبْتَغَى بِهَا بَاطِلٌ،حُكْمُ اللهِ نَنْظُرُ فِيكُمْ،أَلَا إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي ثَلَاثَ خِصَالٍ:مَا كُنْتُمْ مَعَنَا لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللهِ،وَلَا نَمْنَعُكُمْ فَيْئًا مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا،وَلَا نُقَاتِلُكُمْ حَتَّى تُقَاتِلُوا.."[٣٠٠٦]

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ نَمِرٍ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْخَوَارِجِ إِلَى عَلِيٍّ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنِّي وَجَدْتُ هَذَا يَسُبُّكَ،قَالَ:«فَسُبَّهُ كَمَا سَبَّنِي» قَالَ:وَيَتَوَاعَدُكَ،قَالَ:«لَا أَقْتُلُ مَنْ لَمْ يَقْتُلْنِي» قَالَ:ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ:" لَهُمْ عَلَيْنَا حَسِبْتُهُ قَالَ:ثَلَاثٌ لَا نَمْنَعُهُمُ الْمَسَاجِدَ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا،وَلَا نَمْنَعُهُمُ الْفَيْءَ مَا دَامَتْ أَيْدِيهِمْ مَعَ أَيْدِينَا،وَلَا نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُونَا ".[٣٠٠٧]

وكل ذلك قائم على أساس احترام حرية الإنسان وكرامته وإنسانيته فرادا كان أو مجموعة كما قال عمر دفاعا عن القبطي المصري:(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)![٣٠٠٨]

الخامس – كيف تتحقق حالة السلم والأمن الأهلي ؟

إن حالة السلم والأمن الأهلي تتحقق من خلال:

١- إلغاء كافة قوانين الطوارئ والمحاكم الاستثنائية التي أشاعت حالة من الخوف في المجتمعات العربية،حتى افتقد المواطن العربي الأمن والطمأنينة،وصار جهاز الأمن مصدر الرعب والخوف،والعدو الأول للشعب،وقد تجلى ذلك فيما جرى من مواجهات بين الشعب المصري

[٣٠٠٥] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣١٨) بلاغا

[٣٠٠٦] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣١٩)(١٦٧٦٣) حسن

[٣٠٠٧] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥١٧)(٨٢٩) حسن

[٣٠٠٨] - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١/ ٣٠٥) ومحض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٤٧٣) وفيه مفصلا،لكن لم يرد من مصدر مسند

والأمن المركزي،وحالة العداء الشديد التي تراكمت خلال ثلاثة عقود من طغيـان السـلطة وأجهزة أمنها،حتى أن الشعب المصري لم يعرف الأمن إلا حين انهار جهاز الأمن!
" وهذا في سائر الدول العربية أيضاً "
وهو خلل خطير يحتاج إلى إعادة تأسيس كل أجهزة الأمن وهيكلتـها مـن جديد،وتحديـد أهدافها ومسئولياتها،لتكون في خدمة الشعب لا في خدمة السلطة!

٢- تكريس مبدأ تكافؤ الفرص أمام الجميع،وإلغاء ما يتعارض مع مبدأ العدل والمساواة العامة.

٣- تقرير حق الأقليات الدينية والعرقية في المحافظة على هويتها ولغتها وثقافتـها،وتعزيز روح المواطنة والانتماء للأمة لدى الأقليات،حتى لا يشعر إنسان ولا مكون اجتمـاعي في الـدول العربية في حالة من الاغتراب في وطنه،ففي المشتركات الدينية والقوميـة والإنسـانية بـين مكونات المجتمع في العالم العربي ما يمكن أن يعزز ويحقق الانتماء للفرد مهما كانت قوميته أو دينه أو ثقافته.

٤- احترام حق الأكثرية في المحافظة على قيمها وهويتها،وإنهاء حالة الاستلاب التي تعرضـت لها المجتمعات العربية في ظل أنظمة حكم علمانية،تجاوزت على أحق حقوق الأمة في التحاكم إلى شريعتها،وفرضت عليها قوانين تصطدم مع دينها وقيمهـا وهويتـها،وهو مـا يقتضـي استكمال العمل بالفقه الإسلامي في كل مجالات الحياة السياسية والاقتصـادية والاجتماعيـة والتشريعية،وأن يتصدى لذلك عباقرة القانون والفقه القادرون علـى الجمـع بـين معرفـة مشكلات العصر ونوازله،وأحكام الإسلام ومقاصده،لحل الأزمة التاريخية والصراع الـدائم في المجتمعات العربية منذ سقوطها تحت الاستعمار الغربي إلى اليوم بين النخب العلمانية من جهـة والأمة من جهة أخرى،ولن تستقر هذه المجتمعات ولن يتحقق السلم الأهلـي مـا لم يـتفهم الجميع ضرورة احترام إرادة الأكثرية والاعتراف بحقها في العيش وفق قيمها ودينها وهويتـها الدينية والقومية،مع ضمان حق الأقلية في التمتع بحقوقها الدينية والثقافية،دون حرمانهـا مـن كافة حقوق المواطنة.

السادس- تعزيز الوحدة والاتحاد بين كل دولة قطرية،والدول العربية المحيطة بها:

وتعزيز التكامل السياسي والاقتصادي والعسكري بينها،للوصول إلى اتحاد بين دول العالم العربي،والاستفادة من تجربة الاتحاد الأوربي،للخروج من حالة الضعف والتشرذم التي وصلت لها الدول العربية في ظل الأنظمة الفاسدة،حيث فرطت بأهم ما كانت تطمح له شعوب العالم العربي من الوحدة والاتحاد والقوة،لاسترجاع حقوقها المسلوبة وعلى رأسها أرض فلسطين والمسجد الأقصى والقدس الشريف.

السابع- بلورة مشروع سياسي،ورسالة إنسانية يستعيد العالم العربي من خلالها دوره الحضاري على المسرح العالمي:

يزاوج بين الهويتين الرئيسيتين للعرب كأمة،وهم الإسلام كدين وحضارة وقيم إنسانية:{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:" لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ الشَّامَ أُتِيَ بِبِرْذُونٍ فَرَكِبَهُ،فَهَزَّهُ فَنَزَلَ عَنْهُ،فَعَرَضَتْ لَهُ مَخَاضَةٌ فَنَزَلَ عَنْ بَعِيرِهِ،وَأَخَذَ بِخِطَامِهِ وَنَزَعَ مُوقَيْهِ فَأَخَذَهُمَا بِيَدَيْهِ وَخَاضَ الْمَاءَ،فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:صَنَعْتُ الْيَوْمَ صَنِيعًا عَظِيمًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ،فَصَكَّ عُمَرُ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ:إِنَّهُ لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُ هَذَا،إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَقَلَّ النَّاسِ وَأَذَلَّ النَّاسِ وَأَضْعَفَهُ،فَأَعَزَّكُمُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ،فَمَهْمَا تَطْلُبُوا الْعِزَّ بِغَيْرِهِ يُذِلُّكُمْ.[٣٠٠٩]

وقَالَ سَيْفٌ عَنْ شُيُوخِهِ:وَلَمَّا تَوَاجَهَ الْجَيْشَانِ بَعَثَ رُسْتُمُ إِلَى سَعْدٍ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ عَالِمٍ بِمَا أَسْأَلُهُ عَنْهُ.فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جَعَلَ رُسْتُمُ يَقُولُ لَهُ:إِنَّكُمْ جِيرَانُنَا وَكُنَّا نُحْسِنُ إِلَيْكُمْ وَنَكُفُّ الْأَذَى عَنْكُمْ،فَارْجِعُوا إِلَى بِلَادِكُمْ وَلَا نَمْنَعُ تُجَّارَكُمْ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بِلَادِنَا.فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ:إِنَّا لَيْسَ طَلَبُنَا الدُّنْيَا،وَإِنَّمَا هَمُّنَا وَطَلَبُنَا الْآخِرَةُ،وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا قَالَ لَهُ:إِنِّي قَدْ سَلَّطْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدِنْ بِدِينِي،فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ،وَأَجْعَلُ لَهُمُ الْغَلَبَةَ مَا دَامُوا مُقِرِّينَ بِهِ،وَهُوَ دِينُ الْحَقِّ لَا يَرْغَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا ذَلَّ،وَلَا يَعْتَصِمُ بِهِ إِلَّا عَزَّ.فَقَالَ لَهُ رُسْتُمُ:فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ:أَمَّا عَمُودُهُ الَّذِي لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا بِهِ،فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ

[٣٠٠٩] - الزهد لأبي داود (ص:٨٢)(٦٦) صحيح

اللَّه.فَقَالَ:مَا أَحْسَنَ هَذَا! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ:وَإِخْرَاجُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّه.قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا،وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ:وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ،فَهُمْ إِخْوَةٌ لِأَبٍ وَأُمٍّ.قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا،ثُمَّ قَالَ رُسْتُمُ:أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلْنَا فِي دِينِكُمْ،أَتَرْجِعُونَ عَنْ بِلَادِنَا؟ قَالَ:إِي وَاللَّهِ،ثُمَّ لَا نَقْرَبُ بِلَادَكُمْ إِلَّا فِي تِجَارَةٍ أَوْ حَاجَةٍ.قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا.قَالَ:وَلَمَّا خَرَجَ الْمُغِيرَةُ مِنْ عِنْدِهِ ذَاكَرَ رُسْتُمُ رُؤَسَاءَ قَوْمِهِ فِي الْإِسْلَامِ،فَأَنِفُوا مِنْ ذَلِكَ وَأَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ،قَبَّحَهُمُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُمْ،وَقَدْ فَعَلَ.

قَالُوا:ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ سَعْدٌ رَسُولًا آخَرَ بِطَلَبِهِ،وَهُوَ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ،فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ الْمُذَهَّبَةِ وَالزَّرَابِيِّ الْحَرِيرِ،وَأَظْهَرَ الْيَوَاقِيتَ وَاللَّآلِئَ الثَّمِينَةَ،وَالزِّينَةَ الْعَظِيمَةَ،وَعَلَيْهِ تَاجُهُ،وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْتِعَةِ الثَّمِينَةِ،وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ،وَدَخَلَ رِبْعِيٌّ بِثِيَابٍ صَفِيقَةٍ وَسَيْفٍ وَتُرْسٍ وَفَرَسٍ قَصِيرَةٍ،وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّى دَاسَ بِهَا عَلَى طَرَفِ الْبُسَاطِ،ثُمَّ نَزَلَ وَرَبَطَهَا بِبَعْضِ تِلْكَ الْوَسَائِدِ،وَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ سِلَاحُهُ وَدِرْعُهُ وَبَيْضَةٌ عَلَى رَأْسِهِ،فَقَالُوا لَهُ:ضَعْ سِلَاحَكَ.فَقَالَ:إِنِّي لَمْ آتِكُمْ،وَإِنَّمَا جِئْتُكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُونِي،فَإِنْ تَرَكْتُمُونِي هَكَذَا وَإِلَّا رَجَعْتُ.فَقَالَ رُسْتُمُ:ائْذَنُوا لَهُ.فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَى رُمْحِهِ فَوْقَ النَّمَارِقِ فَخَرَّقَ عَامَّتَهَا،فَقَالُوا لَهُ:مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ:اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ،وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا،وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ،فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ،فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ،وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ.قَالُوا:وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ:الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى،وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ.فَقَالَ رُسْتُمُ:قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ،فَهَلْ لَكَمَ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا؟ قَالَ:نَعَمْ،كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ أَيَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ؟ قَالَ:لَا،بَلْ حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا.فَقَالَ:مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ،فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ،وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ بَعْدَ الْأَجَلِ.فَقَالَ:أَسَيِّدُهُمْ أَنْتَ؟ قَالَ:لَا،وَلَكِنَّ الْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلَاهُمْ.[٣٠١٠]

والعروبة كثقافة ولغة وآداب وفنون ووعاء حاضن للإسلام ورسالته للعالمين..

[٣٠١٠] - البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٦٢١) وهو حديث مشهور

إن العالم المادي اليوم يحتضر بماديته وانحلاله وجنونه،وهو في حاجة للعرب من جديد ليعيدوا للعالم روحه وقيمه الأخلاقية والروحية،وحين تنهض بذلك دولة عربية مركزية،يحكمها نظام حكم راشد،فسيكون لها أكبر الأثر في استعادة العرب لدورهم الحضاري،وإسهامهم في خدمة الإنسانية كما فعلوا من قبل مدة سبعة قرون،كان لهم الفضل على العالم كله وحضارته التي ولدت من رحم الحضارة العربية الإسلامية!

إن كل ما سبق بيانه هو من أهم ملامح وشروط قيام أنظمة حكم راشدة بديلة عن النظام العربي الحالي الذي تعصف به الثورة العربية المجيدة من المحيط إلى الخليج،ونجاح الثورة مرهون بقدرتها على إقامة بديل ناجح يحقق هذه الأهداف المرحلية في:

١- استعادة الإنسان العربي لحريته وكرامته وإنسانيته وهويته.

٢- واستعادة الدولة القطرية لسيادتها واستقلالها.

٣- واستعادة الشعوب لحقها في اختيار من يمثلها ويعبر عن إرادتها.

٤- واستعادة مؤسسات السلطة لهيبتها ومسئولياتها ودورها.

٥- واستعادة الأمة لوحدتها وقوتها.

٦- واستعادة العرب لشهودهم السياسي والإنساني والحضاري.

وتحتاج الأمة لتحقيق ذلك إلى عقد أو عقدين،لتبدأ بعد ذلك المرحلة الثانية لتحقيق هدفها الاستراتيجي الذي تتطلع إليه الأمة من عقود وهو أن تعود (أمة واحدة وخلافة راشدة)،لتستأنف دورها على المسرح العالمي من جديد ولتكون {رحمة للعالمين} {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:١١٠]}،وكما بشر بذلك النبي ﷺ بعد سقوط الملك الجبري الذي يتهاوى اليوم،فعن حَبِيبَ بْنِ سَالِمٍ قَالَ:سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ فِي حَدِيثٍ ذَكَرَهُ قَالَ:فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ:يا بشير ابن سَعْد أَتَحْفَظُ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ.وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ فَقَالَ حُذَيْفَةُ،أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ! إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ تَكُونُ مَا شَاءَ

اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً تَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ "[٣٠١١]

ثانيا– من الحكومات الراشدة إلى الخلافة الراشدة:

١–مقدمة تاريخية

تمثل التجربة الديمقراطية اليونانية في أثينا النموذج الذي يراود خيال دعاة الليبرالية منذ بداية عصر النهضة في أوربا إلى اليوم،وما زالت سهام النقد توجه للديمقراطية الحديثة،لكونها لم تصل إلى ذلك النموذج الذي كان قبل ألفي سنة،و لم يتجاوز حدود (الدولة المدينة) في اليونان،ومع كون حقوق المواطنة وحقوق المشاركة السياسية تقتصر على الرجال الأحرار،و لم تتجاوز مدتها في أفضل عصورها نصف قرن!

وتعد تلك التجربة هي النموذج،حيث كان الشعب في أثينا يمارس الحكم من خلال الديمقراطية المباشرة،لا الديمقراطية البرلمانية،فكان جميع الشعب في (الدولة المدينة) كأثينا،يجتمعون في الساحة العامة ليناقشوا قضاياهم ويتخذوا قراراتهم بالأغلبية،وقد نعى روجيه جارودي على الديمقراطية المعاصرة،التي لا تمثل إلا أصحاب رؤوس الأموال الذين يستطيعون بأموالهم خوض الانتخابات،وشراء الأصوات،فقال:(كل نيابة هي تضليل فالديمقراطية تكون مباشرة أو لا تكون)!

فلم يمنع دعاة الديمقراطية والليبرالية من جعل الديمقراطية اليونانية نموذجا ومعيارا – يحتذى به،ويتطلع إليه – قصر مدتها التي لا تتجاوز نصف قرن،ولا قدم عهدها إذ لم تشهد أوربا منذ ألفي سنة إلا تلك التجربة،التي جاءت بعدها الدولة الرومانية العسكرية،فقضت عليها،ولا صغر مساحتها الجغرافية،حيث لم تتجاوز تلك التجربة حدود بعض المدن اليونانية،التي كان يسهل فيها جمع السكان في مكان واحد للتشاور والتصويت على القرارات فيها!

[٣٠١١] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٦/ ٤٩١) صحيح

وانظر:-http://www.dr-

hakem.com/Portals/Content/?info=TnpJekpsTjFZbEJoWjJVbU١RPT٠

rdQ==.jsp

فقد ظلت التجربة اليونانية الديمقراطية مع كل هذه العيوب النموذج والمعيار الذي تقاس عليه التجارب الديمقراطية المعاصرة في أوربا،مع تطورها بما يتناسب وظروف العصر!

كما حاولت الشيوعية أن تجعل من المجتمع الإنساني الأول حيث المشاعية والمساواة هو النموذج التي كانت تطمح إلى عودته حيث تزول الملكية والطبقية والصراع بين الإنسان والإنسان!

و لم يمنع الإشكاليات التي تتعرض لها الديمقراطية والليبرالية والنقد الذي يوجه لهما من أن تصبحا واقعا سياسيا،وما زال مفكرو أوربا إلى اليوم لم يجيبوا عن أشد إشكال يواجه الديمقراطية والليبرالية،وهو كيف يكون النظام السياسي ديمقراطيا تتجلى فيه إرادة الأكثرية،ويحكم فيه الشعب نفسه بنفسه،وليبراليا في الوقت ذاته تتجلى فيه حرية الفرد،دون أي قيود نفرضها عليه الأكثرية،حتى قيل بأن دكتاتورية الجماعة أشد خطرا من دكتاتورية الفرد!

وما زالت أوربا إلى اليوم تتأرجح بين حكم الشعب واحترام إرادة الأكثرية كما تقتضيه الديمقراطية،ومحاولة احترام حرية الفرد وخصوصيتها كما تقتضيه الليبرالية،ولهذا تم مصادرة حق الطالبة المسلمة في ارتداء حجابها في فرنسا وبقرار من الأكثرية في البرلمان،دون احترام لليبرالية التي تحمي خصوصية الفرد الشخصية،فضلا عن حريته الدينية!

كما تم محاكمة روجيه جارودي وغيره من مفكري أوربا في باريس ولندن،لكونهم أثاروا الشك في الأرقام المبالغ فيها عن محارق اليهود في عصر هتلر،وخالفوا قوانين منع العداء للسامية،و لم تشفع حرية الرأي وحرية البحث العلمي،لهؤلاء المؤرخين والمفكرين في بلدان الحرية والليبرالية،من تطبيق القوانين التي تسنها الأكثرية في البرلمان!

إنها الأزمة الأشد تعقيدا في حل الجدلية بين حرية الفرد وحقوقه،وحرية الجماعة وحقوقها،وأيهما يقدم على الآخر عند التعارض،فكلما كان النظام أكثر ليبرالية كان أشد حماية ونزوعا لتعزيز حرية الفرد وحقوقه،وكلما كان ديمقراطيا كان أشد نزوعا لاحترام إرادة الأكثرية،ولا يمكن أن يكون النظام السياسي ديمقراطيا ليبراليا في آن واحد،إلا عند من لا يعرف الديمقراطية،ولا يعرف الليبرالية!

فإذا ما تم إضافة الإشكالات الأخرى ازداد الأمر تعقيدا،كتحديد طبيعة النظام السياسي الديمقراطي،وهل الملكية الدستورية في بريطانيا والنرويج وهولندا وأسبانيا وغيرها من الملكيات في أوربا تمثل أنظمة حكم ديمقراطية؟ حيث لا دستور في بريطانيا،وحيث تملك الملكة دون وجه حق أرض إنجلترا وتوابعها،وتمتاز الأسرة الملكية وأفرادها بحقوق مالية وأدبية وامتيازات دون وجه حق بما لا يتمتع به غيرهم من أفراد الشعب البريطاني،وهو ما يتصادم مع مبدأ العدل والمساواة بين أفراد الشعب!

ولماذا يكون ملك بريطانيا وحسب النظام السياسي فيها هو حامي وراعي الكنيسة البروتستانتية؟ وأين هي القيم الليبرالية التي تساوي بين جميع الأديان والمذاهب لكونها كلها تدخل في إطار الحرية الدينية للأفراد؟!

وكيف يعقل أن تعيش بريطانيا وأيرلندا صراعا دينيا وإلى اليوم بين الكاثوليك والبروتستانت!

ولماذا يتم تصنيف فرنسا وهي أول جمهورية ديمقراطية كدولة كاثوليكية تربطها علاقات خاصة بألمانيا وإيطاليا وأسبانيا،دون بريطانيا والولايات المتحدة البروتستانتيتين،ودون روسيا وصربيا والدول السلافية الأرثوذكسية!

إن كل هذه الإشكالات لم تمنع من قيام أنظمة حكم في أوربا تتمتع شعوبها بالحرية والعدل واحترام القانون،ولم ينتظر السياسيون حتى يحل المفكرون والمتفلسفون هذه الإشكاليات والتناقضات الفكرية بين الديمقراطية والليبرالية من جهة،والعلمانية والدينية من جهة أخرى،لأنه أصلا لا يمكن حلها،وما تزال أوربا منذ نهضتها تتأرجح بين توجهات الرأي العام من جهة،والقوى السياسية والاجتماعية المؤثرة من جهة أخرى،والأزمات الداخلية والأخطار الدولية من جهة ثالثة،فقد اضطرت الحرب العالمية أوربا وشعوبها للتروع نحو النظم العسكرية،كما أدت الظروف الاقتصادية إلى الثورات الشيوعية،والتروع نحو النظم الاشتراكية الاجتماعية،كما أدت أحداث ١١ سبتمبر إلى نزوع حكومة الولايات المتحدة نحو الاستبداد وتقليص هامش الحرية الفردية لتحقيق الأمن الداخلي...الخ

٢-عدم الاكتراث بالمشككين بالمشروع الإصلاحي الإسلامي

هذه مقدمة ضرورية لتدرك القوى الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي عدم الوقوف عند المشاغبات التي يثيروها أعداء الإصلاح وأعداء المشروع الإصلاحي،والأسئلة السفسطائية التي يريدون من القوى الإصلاحية الإجابة عنها قبل أن تصل إلى السلطة في عالمنا العربي،فلا يشترط أن يكون للقوى الإصلاحية برامج عمل سياسية في ظل أنظمة غير شرعية! إذ برامج العمل السياسي إنما تقدمها قوى المعارضة في ظل نظام سياسي تعددي يفتح الطريق للمعارضة أن تطرح برامجها وتصل من خلال الشعب وإرادته للوصول إلى السلطة،أما في ظل أنظمة غير دستورية أو غير شرعية فالمعارضة عادة تطرح تصورا عاما للإصلاح،لا برنامجا تفصيليا!

كما لا ينشغل الإصلاحيون الراشدون بالشبه الذي يثيرها المنهزمون والموسوسون الذين يظنون أن التاريخ توقف،فإن وعد الله حق،قال تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥]

وسيعود الإسلام كما بدأ حتى يحكم الأرض فعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَبْلَغَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ،أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ،يُعِزُّ بِعِزِّ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ،وَيُذِلُّ بِهِ فِي الْكُفْرِ» وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:«قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَفَ وَالْعِزَّ،وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ كَافِرًا الذُّلَّ وَالصَّغَارَ وَالْجِزْيَةَ»[٣٠١٢]

وتفتح روما كما فتحت القسطنطينية،فعن أَبِي قَبِيلٍ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي،وَسُئِلَ:أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا:الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَدَعَا عَبْدُ اللهِ بِصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ،قَالَ:فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا،قَالَ:فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَكْتُبُ،إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا:قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا " يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ "[٣٠١٣]

[٣٠١٢] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٧٧)(٨٣٢٦) صحيح

[٣٠١٣] - مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٢٢٤)(٦٦٤٥) صحيح لغيره

وسيعود المسجد الأقصى،قال تعالى:{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) } [الإسراء:٤ – ٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ،فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ،فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ:يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي،فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ،إِلَّا الْغَرْقَدَ،فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ "[٣٠١٤]

وكل ذلك على يد الأمة نفسها بأبطالها ورجالها،

فهم من صنع التاريخ منذ أبي بكر وعمر وصلاح الدين ومحمد الفاتح،وما زالوا يصنعونه إلى اليوم،والأمة هي المخاطبة بذلك،ولن تنتظر الأمة حتى يأتي المهدي قبل قيام الساعة في عهد نزول المسيح!،عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»،قَالَ:" فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ،فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ:تَعَالَ صَلِّ لَنَا،فَيَقُولُ:لَا،إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ "[٣٠١٥]

كما لا ينبغي الاشتغال بالهوس الذي يثيره الفارغون للجدل حول الخلافة وكيف يتم اختيار الخليفة؟ وهل تشترط له القرشية؟..الخ فإن الأمة التي سادت العالم ألف وثلاثمائة سنة بالخلافة ونظامها السياسي،وواكبت كل التطورات والتغيرات والتحديات،حتى عرفت كل أشكال النظم الدستورية كالخلافة المركزية العربية في العهد الأموي،والخلافة والسلطنة غير المركزية في العهد العباسي،والخلافة والوزارة،والخلافة غير العربية والصدارة والبرلمان في العهد العثماني،لن

[٣٠١٤] – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٩)٨٢ – (٢٩٢٢)

[٣٠١٥] – صحيح مسلم (١/ ١٣٧)٢٤٧ – (١٥٦)

تعجز حين تتحرر إرادتها من الاحتلال الأجنبي،وعميله الاستبداد الداخلي،أن تعيد النظام السياسي الإسلامي من جديد بحسب ما يناسب العصر وتطوره!

٣- أهم الأمور التي يجب الاهتمام بها:

إن على القوى الإصلاحية الراشدة في عالمنا العربي أن تولي أهمية قصوى لما يلي:

ا- تحديد الهوية والمرجعية السياسية للمشروع السياسي الإصلاحي:

فإن قوة أي مشروع سياسي تكمن في وضوح هويته السياسية،وقوة أساسه العقائدي من جهة،ومدى حاجة الأمة له من جهة أخرى،ولا شك بأن الأمة ومنذ سقوط الخلافة العثمانية،وهي تعيش أزمة هوية ومرجعية سياسية،إذ قام الاستعمار والاحتلال الأجنبي بتشكيل هذا الواقع السياسي،وخلق هوية وطنية مصطنعة،وقد وصلت الأمة بعد عقود من التيه إلى طريق مسدود في كل بلد،بعد أن جربت الأمة كل الأنظمة السياسية المستوردة الليبرالية والقومية والشيوعية والاشتراكية،ومن هنا كان لا بد من استدعاء الخطاب السياسي الإسلامي الراشدي لتمتعه بكل أسباب القوة والصلاحية وذلك للتالي:

١- كونه النموذج والمعيار الشرعي للحكم الإسلامي،كما في قوله تعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران:١١٠]،والمخاطب به ابتداء وأصلا هم أصحاب النبي ﷺ.

وقوله تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]،وقد تحقق الاستخلاف للصحابة رضي الله عنهم كما وعدهم الله،.

وقوله تعالى:{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [يوسف:١٠٨]،والمقصود بهم أصحابه ابتداء.

وكما في الحديث الصحيح عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،قَالَ:صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ

اللَّه،كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا،قَالَ:أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَة،وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّة الْخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَة ضَلَالَةٌ" [3016]

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ:وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ بَعْدَ صَلَاة الْغَدَاة مَوْعِظَةً بَلِيغَةً،ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابه:يَا رَسُولَ اللَّه،إِنَّ هَذه مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ:«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه،وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَة،وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا؛فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ بَعْدِي يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَات الْأُمُورِ؛فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ،وَمَنْ أَدْرَكَتْهُ مِنْكُمْ فَعَلَيْه بِسُنَّتِي وَسُنَّة الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» [3017]

وعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«اقْتَدُوا بِالَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي».يُشِيرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهماُ وَأَرْضَاهُمَا.

وَرَوَاهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعِيد،عَنْ سُفْيَانَ،عَنْ عَبْد الْمَلك،عَنْ هِلَالٍ مَوْلَى الرِّبْعِيِّ،عَنْ حُذَيْفَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَهُ،ثَنَا عَبْدُ اللَّه،ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ،حَدَّثَنَا ابْنُ كَاسِب،حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بِه.وَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ:«إِنْ يُطِعِ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَرْشُدُوا» [3018]

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ،قَالَ:كنا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِي سَفَرٍ،فَقَالَ:«إِنَّكُمْ إِنْ لَا تُدْرِكُوا الْمَاءَ غَدًا تَعْطَشُوا».فَانْطَلَقَ سَرَعَانُ النَّاسِ يُرِيدُونَ الْمَاءَ وَلَزِمْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ،فَمَالَتْ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ رَاحِلَتُهُ فَنَعَسَ.فَنِمْنَا فَمَا أَيْقَظَنَا إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ،فَقَالَ:أَصْبَحَ النَّاس وَقَدْ فَقَدُوا نَبِيَّهُمْ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:إِنَّ نَبِيَّ اللَّه ﷺ بِالْمَاءِ،وَفِي الْقَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَقَالَا:«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ،لَمْ يَكُنْ لِيَسْبِقَكُمْ إِلَى الْمَاءِ وَيُخَلِّفَكُمْ،وَإِنْ يُطِعِ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا» قَالَهَا ثَلَاثًا" [3019]

[3016] - الاعتقاد للبيهقي (ص:٢٢٩) صحيح

[3017] - البدع لابن وضاح (١/ ٦٥)(٧٣) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٤)(٢٦٧٦) صحيح

[3018] - تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي نعيم الأصبهاني (ص:٢٥٣)(٤٨) صحيح

[3019] - تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي نعيم الأصبهاني (ص:٢٥٤)(٤٩) صحيح

وعن سَعِيدَ بْنِ جُمْهَانَ قالَ:سَمِعْتُ سَفِينَةَ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً»[٣٠٢٠]

وعَنْ سَفِينَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا» ثُمَّ قَالَ:أَمْسِكْ،خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ سَنَتَان،وَعُمَرُ عَشْرٌ،وَعُثْمَانُ اثْنَتَا عَشْرَةَ،وَعَلِيٌّ سِتٌّ " قَالَ أَبُو عُمَرَ:" قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:حَدِيثُ سَفِينَةَ فِي الْخِلَافَة صَحِيحٌ وَإِلَيْه أَذْهَبُ فِي الْخُلَفَاء"[٣٠٢١]

وعَنْ سَفِينَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«خِلَافَةُ النُّبُوَّة ثَلَاثُونَ سَنَةً،ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ أَوْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ» قَالَ سَعِيدٌ قَالَ لِي سَفِينَةُ:«أَمْسِكْ عَلَيْكَ أَبَا بَكْرٍ سَنَتَيْنِ،وَعُمَرُ عَشْرًا،وَعُثْمَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ،وَعَلِيٌّ كَذَا»[٣٠٢٢]

وعن حَبِيبَ بْنِ سَالِمٍ قَالَ:سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرِ بْنِ سَعْد فِي حَدِيث ذَكَرَهُ قَالَ:فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ:يا بشير ابن سَعْد أَتَحْفَظُ حَدِيثُ رَسُول الله ﷺ فِي الْأُمَرَاء.وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعدًا مَعَ بَشِيرٍ فَقَالَ حُذَيْفَةُ،أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ! إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّة مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّة تَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً تَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّة "[٣٠٢٣]

ولوضوح هذا الأصل العقائدي السياسي – وهو وجوب لزوم سنن الخلفاء الراشدين في الحكم وسياسة شئون الأمة إذ هي التطبيق البشري المحض للخطاب السياسي القرآني والنبوي – اشترط الصحابة رضي الله عنهم على عثمان وعلي حين تنافسا في الخلافة الالتزام بسنن الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر في سياسة شئون الأمة،فبايع الصحابة عثمان،عَنْ أَبِي وَائِلٍ،قَالَ:قُلْتُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ:كَيْفَ بَايَعْتُمْ عُثْمَانَ وَتَرَكْتُمْ عَلِيًّا؟ قَالَ:مَا ذَنْبِي؟ قَدْ

[٣٠٢٠] – السنة لأبي بكر بن الخلال (٢/ ٤٢٧)(٦٤٧) صحيح

[٣٠٢١] – جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٩)(٢٣١٣) صحيح

[٣٠٢٢] – سنن أبي داود (٤/ ٢١١)(٤٦٤٦) صحيح

[٣٠٢٣] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٦/ ٤٩١) صحيح

بَدَأْتُ بِعَلِيٍّ،فَقُلْتُ:أُبَايِعُكَ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،وَسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.قَالَ:فَقَالَ:فِيمَا اسْتَطَعْتُ.قَالَ:ثُمَّ عَرَضْتُهَا عَلَى عُثْمَانَ،فَقَبِلَهَا "[٣٠٢٤]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«اقْضُوا كَمَا كُنْتُمْ تَقْضُونَ،فَإِنِّي أَكْرَهُ الِاخْتِلاَفَ،حَتَّى يَكُونَ لِلنَّاسِ جَمَاعَةٌ،أَوْ أَمُوتَ كَمَا مَاتَ أَصْحَابِي» [٣٠٢٥]

٢- كما إن هذا النموذج محل إجماع الفقهاء والمصلحين على اختلاف عصورهم،فلا خلاف بين طوائف الأمة ومذاهبها وأئمتها في كون الخلافة الراشدة هي النموذج الأكمل الذي يجب الاقتداء به،بخلاف المحدثات السياسية سواء القديمة التي رفضها الصحابة أنفسهم،ثم رفضها من جاء بعدهم من الأئمة وعلماء الأمة،أو الجديدة سواء كانت بثوب إسلامي كولاية الفقيه،أو مستوردة كالديمقراطية والليبرالية والاشتراكية..الخ.

٣- أن النموذج الراشدي له بريق وصدى في المخيال الشعبي عند عامة الأمة،فما يزال العدل يذكر إلا ويذكر عمر الفاروق! وما زالت الأمة تتوق لعدل الخلفاء الراشدين وسيرهم وسننهم في سياسة الأمة،وهو ما يجعل النموذج الراشدي أقرب لمخاطبة وجدان الرأي العام الإسلامي من أي نموذج آخر،هذا في الوقت الذي لم يجد النموذج الديمقراطي الأثيني أي صدى في المخيال الشعبي الأوربي،بل ظل محصورا في دائرة المفكرين والسياسيين في عصر النهضة الأوربية!

٤- كما إن النموذج السياسي الراشدي قام كنظام حكم على دولة قارية - امتدت في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان،من جزيرة العرب إلى حدود الهند في آسيا شرقا،ومنها إلى حدود المغرب الأقصى في أفريقيا غربا - ليسوس أمما وحضارات وشعوبا على اختلاف قومياتها وأديانها وثقافاتها ولغاتها،بينما لم تتجاوز ديمقراطية أثينا حدود أسوارها!

٥- ثم إن النموذج الراشدي ظل هو المعيار طوال عصور الخلافة الإسلامية،الأموية والعباسية والعثمانية،ولم يستطع أحد أن يتجاوزه كأنموذج للحكم الإسلامي،ولهذا تكرر في كثير من العصور،كما في عهد عمر بن عبد العزيز،وعهد المعتضد العباسي الذي كان يعد من الخلفاء

[٣٠٢٤] - مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٥٦٠)(٥٥٧) حسن

[٣٠٢٥] - صحيح البخاري (٥/ ١٩)(٣٧٠٧)

الراشدين،وعهد المستضيء العباسي وابنه الناصر،وكانوا خلفاء صالحين،وكان صلاح الـدين الأيوبي هو السلطان في عصرهما،وكما في عهد نور الدين زنكي،وكما في عهد يوسف بن تاشفين المرابطي،ومحمد الفاتح العثماني،وغيرهم من الخلفاء والأمراء،ممن حاولوا الاقتداء بالخلفاء الراشدين وسننهم في سياسة الأمة،واشتهروا بالعدل والشورى،بينما لم تعرف أوربا في تاريخها منذ سقوط أثينا،وقيام الإمبراطورية الرومانية إلا الطغيان السياسي مدة ألفي عام تقريبا!

٦- كما إن الانحراف السياسي في عصور الخلافة الإسلامية العامة،لم يتجاوز كل الأصول القطعية للخطاب الراشدي،وإن تراجع عن بعضها كالشورى ورقابة الأمة على الأموال،إذ ظل عامة الخلفاء والأمراء يلتزمون بالمرجعية القضائية والتشريعية للنظام السياسي الإسلامي،وهو أحد أسباب شيوع العدل في عامة العصور،حيث حد القضاء من طغيان السلطة،التي كانت تحرص على شرعيتها من خلال احترام القضاء،كما لم يفرط الخلفاء في سيادة الأمة واستقلالها وحماية بيضتها،ووحدتها،وحافظوا على (الرسالة) والمهمة للأمة والدولة والخلافة وهو إعلاء كلمة الله والدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيله،حتى في أضعف عصور الخلافة!

٧- أن حاجة الأمة إلى بعث الخطاب الراشدي وأصوله أشد ما تكون في هذا العصر،حيث تعيش الأمة أزمات سياسية أدت إلى ضعفها وسقوطها على نحو غير مسبوق،وقد استطاعت شعوب العالم من حولها أن تستلهم تجاربها التاريخية لتعيد بناء نفسها من جديد،حتى أعادت أوربا اليوم تشكيل واقعها السياسي على أساس (الديمقراطية اليونانية)،و(القوة والوحدة الرومانية)،و(القيم الدينية المسيحية)،فجاء الاتحاد الأوربي اليوم ليستعيد وحدة أوربا التي وحدتها الإمبراطورية الرومانية،واشترط لوحدته أن يقوم على أسس الديمقراطية اليونانية،وأن تظل أوربا ناديا مسيحيا! بينما لا تزال الأمة الإسلامية اليوم تبحث عن هويتها وذاتها،مما يجعل الخطاب الراشدي هو الحل (الأمثل) لمشروع سياسي جديد!

فالمشروع السياسي الإسلامي العقائدي يجب أن يقوم على هذا الأصل الشرعي،وهو الإيمان بضرورة سنن الخلفاء الراشدين – التي كانت التطبيق البشري المحض للخطاب السياسي القرآني والنبوي – واتخاذها النموذج والمعيار للحكم الإسلامي الراشد،ونبذ كل ما خالفها من سنن

القياصرة والأكاسرة،والمحدثات السياسية على اختلاف ألوانها وأشكالها،سواء كانت دخيلة على الأمة،أو مما أحدثته الأمة نفسها وابتليت به من محدثات وانحرافات في عصورها المختلفة.

ــــــــــــــــــــــــ

ب- هل المقصود بسنن الخلفاء الراشدين اجتهاداتهم ؟

وليس المقصود بسنن الخلفاء الراشدين هنا اجتهاداتهم،بل المقصود الأصول والمبادئ والأحكام التي أجمعوا عليها،وأجمع الصحابة معهم عليها،فيما يخص سياسة شئون الأمة والدولة،ومن ذلك إجماعهم على:

١- أن نظام الحكم في الإسلام خلافة راشدة،وإمارة للمؤمنين واحدة،نيابة عن النبي ﷺ في أمته،فلا توارث فيها،ولا ملك ولا ملوك،ولا جبروت،ولا كسروية ولا قيصرية.

٢- وأن دار الإسلام واحدة،والأمة واحدة،والإمارة والخلافة واحدة،كما قال تعالى:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } [الحجرات:١٠]،{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [آل عمران:١٠٣]، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ،فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»[٣٠٢٦] أنّ الخلافة والإمارة شورى بين المسلمين،وأنه لا تنازع فيها ولا اغتصاب،كما قال تعالى:{ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨] وفي حديث البيعة المتواتر عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ،وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ،وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا،لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» [٣٠٢٧]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ فَقَالَ:" قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ:إِنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً،وَلَكِنْ وَقَى اللهُ شَرَّهَا وَإِنَّهُ لَا خِلَافَةَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ،وَأَيُّمَا رَجُلٍ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ

[٣٠٢٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦١ - (١٨٥٣)

[٣٠٢٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠) ٤١ - (١٧٠٩)

غَيْرِ مَشُورَةٍ،لَا يُؤَمَّرُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا " قَالَ شُعْبَةُ:قُلْتُ لِسَعْدٍ:مَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا؟ قَالَ:عُقُوبَتُهُمَا أَنْ لَا يُؤْمَرَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا "[3028]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عم عمر رضي الله عنه،قَالَ:إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ:وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلاَنًا،فَلاَ يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ:إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ،أَلاَ وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ،وَلَكِنَّ اللَّهَ وَقَى شَرَّهَا،وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ،مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ.."[3029]

فلا شرعية لكل بيعة صورية،أو بيعة على الإكراه والخوف،أو بيعة بالقوة والسيف!

٤- وأن الأمة رقيب على الإمام بعد اختياره بالرضا والشورى،فلا يقطع أمرا في شئونها دون إذنها،ولا يتصرف في أموالها ومصالحها دون رضاها،كما قال ﷺ في الصحيح عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ،وَالمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،أَخْبَرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ حِينَ أَذِنَ لَهُمُ المُسْلِمُونَ فِي عِتْقِ سَبْيِ هَوَازِنَ:«إِنِّي لاَ أَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ،فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ»،فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ،فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا"[3030]

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحُنَيْنٍ،فَلَمَّا أَصَابَ مِنْ هَوَازِنَ مَا أَصَابَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَسَبَايَاهُمْ أَدْرَكَ وَفْدُ هَوَازِنَ بِالْجِعْرَانَةِ وَقَدْ أَسْلَمُوا،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،لَنَا أَصْلٌ وَعَشِيرَةٌ،وَقَدْ أَصَابَنَا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ،فَمُنَّ عَلَيْنَا مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" نِسَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ؟ " فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،خَيَّرْتَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَبَيْنَ أَمْوَالِنَا،أَبْنَاؤُنَا وَنِسَاؤُنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ،وَإِذَا أَنَا صَلَّيْتُ بِالنَّاسِ فَقُومُوا وَقُولُوا:إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُسْلِمِينَ،وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فِي أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا،فَسَأُعْطِيكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَأَسْأَلُ لَكُمْ ".فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ الظُّهْرَ

[3028] - السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٠٨)(٧١١٣) صحيح

[3029] - صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠)

[3030] - صحيح البخاري (٩/ ٧١)(٧١٧٦)

قَامُوا فَقَالُوا مَا أَمَرَهُمْ به رَسُولُ الله ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِب فَهُوَ لَكُمْ "،فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ:فَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُول الله ﷺ،وَقَالَت الْأَنْصَارُ:وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُول الله ﷺ،فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابس:أَمَّا أَنَا وَبَنُو تَميمٍ فَلَا،وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مرْدَاس:أَمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا،فَقَالَتْ بَنُو سُلَيْم:بَلْ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُول الله ﷺ،وَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْر:أَمَّا أَنَا وَبَنُو فَزَارَةَ فَلَا،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" مَنْ أَمْسَكَ منْكُمْ بحَقِّه فَلَهُ بكُلِّ إِنْسَان ستَّةُ فَرَائضَ منْ أَوَّل فَيْءٍ نُصيبُهُ "،فَرَدُّوا إِلَى النَّاس نسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ،ثُمَّ رَكبَ رَسُولُ الله ﷺ وَاتَّبَعَهُ النَّاسُ يَقُولُونَ:يَا رَسُولَ الله،اقْسمْ عَلَيْنَا فَيْئَنَا،حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى شَجَرَة فَانْتُزعَتْ عَنْهُ ردَاءُهُ،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ،رُدُّوا عَلَيَّ ردَائي،فَوَالَّذي نَفْسي بيَده لَوْ كَانَ لَكُمْ عَدَدُ شَجَر تهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ،ثُمَّ مَا أَلْفَيْتُمُوني بَخيلًا وَلَا جَبَانًا وَلَا كَذَّابًا "،ثُمَّ قَامَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى جَنْب بَعير وَأَخَذَ منْ سَنَامه وَبَرَةً فَجَعَلَهَا بَيْنَ أُصْبُعَيْه فَقَالَ:" أَيُّهَا النَّاسُ،وَالله مَا لي منْ فَيْئكُمْ وَلَا هَذه الْوَبَرَة إِلَّا الْخُمُسَ،وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ؛فَأَدُّوا الْخيَاطَ وَالْمَخيطَ؛فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى أَهْله يَوْمَ الْقيَامَة "،فَجَاءَهُ رَجُلٌ منَ الْأَنْصَار بكُبَّة منْ خُيُوط شَعَر فَقَالَ:يَا رَسُولَ الله،أَخَذْتُ هَذَا لِأَخيطَ به بَرْذَعَةَ بَعير لي دَبَرَ،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" أَمَّا حَقِّي منْهَا لَكَ "،فَقَالَ الرَّجُلُ:أَمَّا إِذَا بَلَغَ الْأَمْرُ هَذَا فَلَا حَاجَةَ لي بهَا،فَرَمَى بهَا منْ يَده"[٣٠٣١]

فالأمة فوق الإمام تراقبه وتحاسبه،كما في حديث البيعة المتواتر عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامت،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّه ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَة في الْمَنْشَط وَالْمَكْرَه،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا،لاَ نَخَافُ في اللَّه لَوْمَةَ لائمٍ»[٣٠٣٢]

٥- وأن للأمة الاشتراط على الإمام وتقييد صلاحياته بما شاءت من الشروط الصحيحة،كما اشترطوا على عثمان عند البيعة فرضي بذلك،وكما اشترط من أنكر عليه من أهل العراق ومصر وكتبوا بينهم وبينه عقدا،وشرطوا عليه شروطا فرضي،وكان ذلك بمحضر كبار الصحابة.

[٣٠٣١] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٤٨)(١٢٩٣٣) صحيح

[٣٠٣٢] - صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧١٩٩)

٦- وأن الأمة هي التي تفرض للإمام من بيت المال قدر حاجته،وأنه ليس له أن يشتغل بالتجارة،ولا أن يستخدم السلطة للإثراء له أو لأهل بيته.

عَنِ الْحَسَنِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:" إِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التَّقْوَى،وَأَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ،أَلَا وَإِنَّ الصِّدْقَ عِنْدِي الْأَمَانَةُ،وَالْكَذِبَ الْخِيَانَةُ،أَلَا وَإِنَّ الْقَوِيَّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ،وَالضَّعِيفَ عِنْدِي قَوِيٌّ حَتَّى آخُذَ لَهُ الْحَقَّ،أَلَا وَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِأَخْيَرِكُمْ " قَالَ الْحَسَنُ:هُوَ وَاللهِ خَيْرُهُمْ غَيْرُ مُدَافَعٍ،وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَهْضِمُ نَفْسَهُ.ثُمَّ قَالَ:" وَلَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَفَانِي هَذَا الْأَمْرَ أَحَدُكُمْ " - قَالَ الْحَسَنُ:صَدَقَ وَاللهِ - وَإِنْ أَنْتُمْ أَرَدْتُمُونِي عَلَى مَا كَانَ اللهُ يُقِيمُ نَبِيَّهُ مِنَ الْوَحْيِ مَا ذَلِكَ عِنْدِي،إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ،فَرَاعُونِي.فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى السُّوقِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" أَيْنَ تُرِيدُ؟ " قَالَ:السُّوقَ.قَالَ:" قَدْ جَاءَكَ مَا يَشْغَلُكَ عَنِ السُّوقِ "،قَالَ:سُبْحَانَ اللهِ يَشْغَلُنِي عَنْ عِيَالِي.قَالَ:تُعْرِضُ بِالْمَعْرُوفِ،قَالَ:" وَيْحَ عُمَرَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا يَسَعُنِي أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْئًا " قَالَ:فَأَنْفَقَ فِي سَنَتَيْنِ وَبَعْضِ أُخْرَى ثَمَانِيَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ.فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ:قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لِعُمَرَ:إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا يَسَعَنِي أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْئًا،فَغَلَبَنِي فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَخُذُوا مِنْ مَالِي ثَمَانِيَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَرُدُّوهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ.قَالَ:فَلَمَّا أُتِيَ بِهَا عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:" رَحِمَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ،لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ تَعَبًا شَدِيدًا "[٣٠٣٣]

وعَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ،أَنَّ عُمَرَ قِيلَ لَهُ فِي أَمَةٍ مَرَّتْ،فَقَالَ:" إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِي،إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللَّهِ،وَقَالَ:أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَسْتَحِلُّ مِنْ مَالِ اللَّهِ،أَوْ قَالَ:بِمَا تَحِلُّ لِي،اسْتَحَلَّتْ مِنْهُ حُلِيَّائِي،حُلَّةُ الشِّتَاءِ،وَحُلَّةُ الْقَيْظِ،وَمَا أحْجُجُ عَلَيْهِ وَأَعْتَمِرُ،وَقُوتِي وَقُوتُ عِيَالِي كَقُوتِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ،لَا مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ،وَلَا مِنْ فُقَرَائِهِمْ،ثُمَّ أَنَا بَعْدُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،يُصِيبَنِي مَا أَصَابَهُمْ ".[٣٠٣٤]

٧- وأن أهم واجبات السلطة وأعظمها إقامة الدين وأحكامه،والحكم بين الناس بما أنزل الله من العدل والقسط،وأن تكون كلمة الله هي العليا،فيقضي القضاة بحكم الله بالعدل لا سلطان لأحد عليهم،إلا سلطان الله وكتابه { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا

[٣٠٣٣] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٧٥)(١٣٠٠٩) حسن لغيره

[٣٠٣٤] - معرفة السنن والآثار (٩/ ٢٨٧)(١٣١٩٢) صحيح

حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨].

٨- وحفظ البيضة وحماية الدولة ووحدتها الداخلية،والدفاع عنها وحمايتها من الأخطار الخارجية،وأن تكون الشوكة في دار الإسلام للأمة ظاهرة عزيزة منيعة { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء:١٤١].

٩- وأن تقسم الأموال بالسوية،وتؤخذ الزكاة من الأغنياء وترد إلى الفقراء { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة:١٠٣] { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } [الحشر:٧]،

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى اليَمَنِ،فَقَالَ:«ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»[٣٠٣٥]

وتوفر الدولة للجميع على حد سواء الفرص للاستثمار،وإحياء الموات،واستخراج المعادن..الخ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ،فَقَالَ:«أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟» قَالَ:بَلَى،حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ،وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ،قَالَ:«ائْتِنِي بِهِمَا»،قَالَ:فَأَتَاهُ بِهِمَا،فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ،وَقَالَ:«مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟» قَالَ رَجُلٌ:أَنَا،آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ،قَالَ:«مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ،أَوْ ثَلَاثًا»،قَالَ رَجُلٌ:أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ،وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ،وَقَالَ:«اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ،وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ،»،فَأَتَاهُ بِهِ،فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ،ثُمَّ قَالَ لَهُ:«اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ،وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا»،فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ،فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ،فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا،وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

[٣٠٣٥] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٤)(١٣٩٥) وصحيح مسلم (١/ ٥٠) ٢٩ - (١٩)

ﷺ:" هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ:لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ،أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ،أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ "[٣٠٣٦]

١٠- وأن تصان الحقوق والحريات الدينية والسياسية والفكرية والاقتصادية العامة والخاصة،للأفراد والجماعات،فلا إكراه في الدين،ولا إجبار في الرأي،ولا يؤخذ مال إلا عن طيب نفس من صاحبه..الخ.

فهذه الأصول والمبادئ للحكم وغيرها من الأصول والأحكام،بما في ذلك الأحكام التفصيلية الجزئية كمشروعية التصويت على الآراء عند الاختلاف،والترشح والترشيح للإمارة والخلافة،وحصر الترشيح بعدد،والترجيح بالأصوات،والأخذ برأي الأكثرية،وتحديد مدة فراغ السلطة بثلاثة أيام،وتحديد مدة الولاية على المناطق بأربع سنين،والاستفادة من النظم والوسائل لدى الأمم الأخرى..الخ كل ذلك مما ثبت عن الخلفاء الراشدين ثبوتا قطعيا كما فصلته في (الحرية أو الطوفان) و(تحرير الإنسان)،و(أهل السنة والجماعة والأزمة السياسية)،و(الفرقان)،فمنها ما هي أصول قطعية بإجماع الخلفاء والأمة معهم،فيجب لزومها ويحرم الخروج عنها،كحق الأمة في اختيار الإمام بلا إجبار ولا إكراه،وتحريم التوريث في السلطة..الخ ومنها ما هو اجتهادات من بعضهم فجائز ومشروع الأخذ بها،وسننهم فيها خير من سنن من جاء بعدهم.

وما من سنة من هذه السنن السياسية إلا والأمة اليوم في حاجة إليها بعد فساد أحوالها فسادا لا حل له إلا بنبذ المحدثات،وتغيير هذا الواقع،وإقامة أنظمة حكم راشدة قائمة على هذه الأصول السياسية،والأحكام الشرعية!

وكل ما سبق ذكره هي حقوق سياسية للأمة،لها أحكامها الشرعية،التي يجب إقامتها والمحافظة عليها سواء وجدت الخلافة أم لم توجد،وسواء أمكن تحقيقها كلها أو بعضها،أما آليات تحقيق ذلك ووسائله،فهو بحسب كل عصر وتطوره،وبالإمكان الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى،كما استفاد عمر الدواوين والنظم الإدارية من فارس والروم عملا بحديث

[٣٠٣٦] - سنن أبي داود (٢/ ١٢٠)(١٦٤١) حسن

عَائِشَةَ،وأَنَس،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ،فَقَالَ:«لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ» قَالَ:فَخَرَجَ شِيصًا،فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ:«مَا لِنَخْلِكُمْ؟» قَالُوا:قُلْتَ كَذَا وَكَذَا،قَالَ:«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[٣٠٣٧]

ت- تحديد الرؤية السياسية لتحقيق المشروع الإصلاحي

وإذا كان تحديد الهوية والمرجعية السياسية والعقائدية لمشروع الحركة الإصلاحية أمرا في غاية الأهمية،لإقناع الأمة بالمشروعية الدينية والأخلاقية للمشروع الإصلاحي وضرورته،لتتفاعل وتتجاوب معه،من أجل تحقيق التغيير المنشود،فإن تحديد الرؤية السياسية التنفيذية لا تقل أهمية وخطورة،إذ لا بد من المواءمة بين المثالية والأهداف النهائية من جهة التي تتمثل في (إقامة أمة واحدة وخلافة راشدة)،والواقعية السياسية حيث الأمة اليوم تقع تحت نفوذ الاحتلال الأجنبي،الذي قسمها إلى خمسين دولة وشعب،مما يصبح معه تحقيق الشعار والهدف النهائي ضربا من الخيال،ما لم تحدد الحركة الإصلاحية أهدافا مرحلية للمشروع يمكن تحقيقها من جهة،وتحقق الهدف النهائي في آخر المطاف من جهة أخرى،فيجب تجزئة المشروع على أساس نظرية (من الحكومات الراشدة إلى الخلافة الراشدة)،فالواجب قيام الحركة الإصلاحية في كل بلد بالعمل للوصول إلى السلطة من أجل إقامة الحكومة الراشدة فيها،ويكون المعيار للحكم عليها بأنها حكومة راشدة هو مدى التزامها بأصول الخطاب السياسي الراشدي،ومن ذلك:

١- أن تمثل الحكومة خيار الأمة في ذلك البلد،وأن تقيم نظامها السياسي على أساس حق الأمة في اختيار السلطة التي تحكمها وتسوس شئونها بالرضا والاختيار،بلا إكراه ولا إجبار،وأن تكون خيارا حقيقيا للأمة،لا خيارا صوريا.

٢- أن تكون المرجعية الدستورية والتشريعية للدولة هي الشريعة كتابا وسنة،وتطبيقها وفق أصول الخطاب الراشدي،فلا تعطل النصوص،ولا تهدر المقاصد،فالغاية تحقيق العدل والقسط الذي جاء به القرآن على أكمل وجه،ورعاية حقوق الإنسان،وصيانة حريته وكرامته.

٣- المحافظة في ذلك البلد على سيادة الأمة والدولة واستقلالها عن أي نفوذ أجنبي،وتعزيز قدراتها الاقتصادية والعسكرية لتتحمل مسئولياتها على مستوى الأمة حسب إمكاناتها.

[٣٠٣٧] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٣٦)(١٤١ - (٢٣٦٣)

٤- تعزيز التكامل والوحدة والاتحاد مع الـدول الإسـلامية المجاورة،للوصـول إلى توحيـد الأمة،وتحقيق الهدف النهائي (أمة واحدة وخلافة راشدة).

٥- تحقيق التنمية والنهضة الشاملة في جميع المجالات على مستوى الفرد والأسـرة والمجتمـع والدولة،وأن تثبت فاعلية سياسية متميزة،وأداء سياسيا ناجحا.

فكل حكومة تحقق هذه الشروط هي (حكومة راشـدة)،والفـرق بينـها وبـين (الخلافـة الراشدة)،هو أن الحكومة الراشدة خاصة في القطر الذي تقوم فيه،بينما الخلافة الراشدة عامـة تشترك الأمة كلها أو أكثر دولها في إقامتها،بعد أن تتحرر أقطارها،وتصل إلى السـلطة فيهـا حكومات راشدة،أو إلى الدول الرئيسة المؤثرة فيها،بحيث تكون قادرة على توحيـد الأمـة وحمايتها،كما توحدت أوربا اليوم في الاتحاد الأوربي باختيار شـعوبها وبـإرادة حكوماتهـا المنتخبة،حتى استطاعت بعد حربين عالميتين بينها لم يمض عليها نصف قرن أن توحد عملتـها وبرلمانها ودستورها!

وحين تقوم الحكومات الراشدة التي تمثل خيار الأمة في كل الأقطار،أو في أكثرها،أو في الدول الرئيسة المركزية فيها،فستكون قادرة على الإعلان عن اتحادها ووحدتها،واختيار مجلس رئاسة لدولها،يختار رئيسه بشكل دائم أو دوري،بحسب مـا يحقـق حكـم الشـارع ومصـلحة الأمة،ويكون هذا المجلس الرئاسي هو مؤسسة (الخلافة الراشدة)،التي تشترك الأمة من خـلال حكوماتها المنتخبة في اختيارها،لتستأنف الأمة حياتها السياسية من جديد في ظـل (مؤسسـة الخلافة الراشدة)،كما بشر بذلك النبي ﷺ

فعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْد،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجد مَعَ رَسُول اللَّه ﷺ،وَكَـانَ بَشِـيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَديثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْد،أَتَحْفَظُ حَديثَ رَسُول اللَّه ﷺ فـي الْأُمَرَاءِ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُـو ثَعْلَبَـةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّة مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُـونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَـا إِذَا شَـاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خلَافَةٌ عَلَى منْهَاجِ النُّبُوَّة،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَـاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَـاءَ أَنْ يَرْفَعَهَـا،ثُمَّ

تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»[٣٠٣٨]

حيث سيأتي بعد عصر الطواغيت – الذي تغيب فيه الخلافة وهو هذا العصر – عصر جديد تعود فيه الأمة من جديد لوحدهّا وقوهّا وشريعتها وخلافتها في الأرض!

إن هذه التجزئة للمشروع مع كونها متوائمة مع الواقعية السياسية التي تفرضها الظروف الموضوعية،فإنها متوافقة مع الأحكام الشرعية فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ،وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ،فَانْتَهُوا،وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ،فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٣٠٣٩]

فعدم قدرة الأمة اليوم على إقامة الخلافة الراشدة،لا يسقط وجوب إقامة الحكومة الراشدة في كل بلد تستطيع الأمة فيه إقامتها،كما إن عدم قدرهّا على إقامة حكومة راشدة هنا أو هناك،لا يسقط وجوب إصلاح الأوضاع السياسية الحالية،وتقويم أود الحكومات القائمة الآن،إذ الواجب شرعا الإصلاح حسب الإمكان في كل حال،ولا تتعطل الواجبات الشرعية،والفروض الكفائية بدعوى عدم وجود الخلافة الراشدة،أو عدم وجود حكومة راشدة!

ث– معرفة مكامن القوة الأمة ومكامن الضعف

كما إن من الواقعية السياسية معرفة مكامن القوة في الأمة ومكامن الضعف،ويمثل العالم العربي الحلقة الأضعف في منظومة شعوب الأمة،حيث التشرذم بين دوله العشرين،وحيث النفوذ الاستعماري الذي يسيطر عليه ويتحكم في شئونه،وحيث الفساد والاستبداد الذي لا يوجد مثله في أي بلد إسلامي آخر،كما إن العالم العربي وفي الوقت ذاته يمثل الحلقة الأهم والأشد خطرا،فهو يمتاز بما يلي:

[٣٠٣٨] – مسند أبي داود الطيالسي (١/ ٣٥٠)(٤٣٩) صحيح

[٣٠٣٩] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ١٩٨)(١٨) صحيح

أولا:يمثل العرب أكبر قومية في العالم الإسلامي،حيث يقدر عددهم في العالم العربي وفي أطرافه المحيطة به كما في تركيا وإيران وإرتيريا وتشاد ومالي والنيجر ونيجيريا..الخ نحو أربعمائة وخمسين مليون نسمة تقريبا،وهو ما يعادل ثلث العالم الإسلامي تقريبا.

ثانيا:كما يمتد جغرافيا على مساحة عشرة ملايين ميل مربع،أو أربعة عشر مليون كيلو متر مربع تقريبا،تمتد من الخليج العربي شرقا،إلى المحيط الأطلسي غربا،ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا،إلى المحيط الهندي والمحيط الهادي جنوبا حيث جزر القمر،كما يقع البحر الأحمر،والبحر الميت ضمن حدوده الجغرافية،ويسيطر على مضيق هرمز،وباب المندب،وقناة السويس.

ثالثا:يمثل العالم العربي حلقة الوصل بين العالم الإسلامي،فهو الرابط بين دول مسلمي آسيا،ودول مسلمي أفريقيا،كما إنه نقطة عبور بين الشرق والغرب،فلا يمكن تحقق وحدة أو اتحاد إسلامي عام دون العالم العربي.

رابعا:كما يمثل العالم العربي روح العالم الإسلامي،حيث مكة والمدينة والقدس،وحيث أماكن الحج والزيارة،وحيث تمثل لغة القرآن وهي اللغة العربية وعلومها وآدابها،الرابط الثقافي المشترك بين شعوب العالم الإسلامي،كما يكن المسلمون على اختلاف قومياتهم تقديرا للعرب لمكانتهم في الإسلام،كما يمثل تاريخ العرب الإسلامي تاريخا لكل المسلمين.

خامسا:يعدُّ العالم العربي الأكثر ثراء بموارده الطبيعية ومعادنه ونفطه،وهو ما يؤهله لدور عالمي في حال حدوث التغيير السياسي فيه.

إن كل هذه الظروف تجعل من التركيز على العالم العربي أولى الأولويات للحركة الإصلاحية الراشدة،كما إن في العالم العربي دولا رئيسة مركزية في المشرق والمغرب،هي أكثر أهمية،ثم تأتي الدول الثانوية،ثم الدول الهامشية،وكلها يجب العمل على تحقيق الإصلاح السياسي فيها،إلا أن المشروع الإصلاحي بالنسبة للدول الرئيسة يجب أن يكون (مشروع أمة)،بينما المشروع الإصلاحي للدول الثانوية هو (مشروع دولة) فقط،حتى لا تحمل هذه الدول وشعوبها الصغيرة ما لا تطيق حمله من أعباء لا يستطيع القيام بها وتحقيقها إلا دول مركزية رئيسية،كما يمكن الاقتصار في الدول الهامشية على (مشروع سلطة)،بحيث تكون الحركة الإصلاحية فيها مشاركة أو مؤثرة في السلطة وتوجهاتها بما يخدم مشروع الأمة النهائي.

وقد كان النبي ﷺ يراعي هذه السياسة في دعوته قبل فتح مكة،حيث كان يقبل مـــن بعـــض القبائل الدخول في الإسلام،دون أي تكليف آخر،بينما كان يحمّل أهل المدينة ومن حولها من المسئوليات ويقيم لهم من الشرائع والأحكام ما هم له أهل،مراعاة لقدرة كل قبيلة وبلد،إلى أن تم الفتح ودخل العرب في دين الله أفواجا!

ومن هنا يجب على الحركة الإصلاحية أن تعمل من خلال تنظيم سياسي أممي راشـــد،يكرس وجوده في كل قطر عربي وإسلامي،من أجل الوصول للســـلطة وفـــق رؤيـــة راشـــدة،ليقيم حكومات راشدة،تعيدها من جديد كما أمر وكما بشر ﷺ (أمة واحدة وخلافـــة راشـــدة)! ٣٠٤٠



٣٠٤٠ http://www.dr--hakem.com/Portals/Content/?info=TmpVekpsTjFZbEJoWjJVbURPT١rdQ==.jsp

المبحث الثالث والثلاثون

التنظيم الراشدي وشروط النصر

إذا كان من شرط استعادة الخلافة الراشدة قيام حكومات راشدة،تحمل على عاتقها تحقيق هذا المهمة التاريخية على مستوى الأمة،فإن إقامة حكومات راشدة في كل قطر يشترط أن يسبقه وجود تنظيمات سياسية راشدة،تسعى لتحقيق هذه المهمة في كل بلد إسلامي،وهو ما يقتضي أن يتنادى المصلحون الراشدون إليها،وأن يتداعوا عليها،ليكملوا النقص،ويسدوا الخلل،ويتداركوا ما فات الحركات الإصلاحية الأخرى،على أساس التكامل والتعاون معها في تحقيق مشروع نهضة الأمة.

وهنا لا بد أن يتوفر لهذه التنظيمات السياسية الراشدة شروط ومواصفات في قياداتها وأنصارها وأحزابها ومشروعها السياسي لتحقيق النصر المنشود.

وقد صف القرآن الجيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم بالرشد،فقال تعالى عنهم:{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات:٧]،وجعل الرشد غاية الإيمان وثمرة الاستجابة فقال تعالى:{ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة:١٨٦]،وأمر النبي ﷺ من جاء بعدهم بلزوم هديهم ليرشدوا مثلهم،فقال كما في الحديث الصحيح «إِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ،وَعُمَرَ يَرْشُدُوا»[٣٠٤١]

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» [٣٠٤٢]

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ،وَحُجْرِ بْنِ حُجْرٍ،قَالَا:أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة:٩٢] فَسَلَّمْنَا،وَقُلْنَا:أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ،فَقَالَ الْعِرْبَاضُ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ

[٣٠٤١] - مستخرج أبي عوانة (١/ ٥٦٥)(٢١٠١) صحيح

[٣٠٤٢] - السنة للمروزي (ص:٢٧)(٧٢) صحيح

يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ،تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ،فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٣٠٤٣]

فكان الرشد أشرف صفات أهل الإيمان،وهو غاية طاعتهم وعبادهم واستجابتهم لله ولرسوله،وذلك بأن يتحقق لهم الرشد وهو الاهتداء والاستقامة،وبلوغهم درجة الكمال روحا وعقلا،وصلاح أحوالهم قولا وفعلا،فلا يتحرون إلا الحق،ولا يفعلون إلا الصواب،ولا يريدون إلا الخير،ولا يحبون إلا العدل.

ولهذا كان على الجيل الراشدي الجديد الذي يحمل على عاتقه مهمة إعادهًا من جديد (**أمة واحدة وخلافة راشدة**)[٣٠٤٤]،أن يترسم خطاهم فيما هو بسبيله،إذ لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[٣٠٤٥]،وهذا معنى الاقتداء بهم كما في الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اقْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ»[٣٠٤٦]

فالاقتداء يشمل حتى التشبه بهم وبأحوالهم وأفعالهم وهديهم،وهو أعم من اتباع سننهم!

إن معرفة ذلك كله،ومعرفة أسباب النصر وشروطه التي تحقق لهم بها التمكين والاستخلاف في الأرض،كل ذلك شرط لتحقق النصر للراشدين والمصلحين الجدد،فقد أخبر النبي ﷺ عن غربة ثانية،وعودة للإسلام ثانية فعن عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيِّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الدِّينَ لَيَأْزِرُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْزِرُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا،وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ

[٣٠٤٣] - سنن أبي داود (٤/ ٢٠١)(٤٦٠٧) صحيح –

[٣٠٤٤] - قال تعالى:{ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٩٢]

[٣٠٤٥] - قَالَ مَالِكٌ:كَانَ وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ يَقْعُدُ إِلَيْنَا،ثُمَّ لا يَقُومُ أَبَدًا حَتَّى يَقُولَ لَنَا:إِنَّهُ لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا،قُلْتُ لَهُ:يُرِيدُ مَاذَا؟ قَالَ يُرِيدُ التُّقَى" مسند الموطأ للجوهري (ص:٥٨٤)(٧٨٣) صحيح

[٣٠٤٦] - فضائل الخلفاء الراشدين لأبي نعيم الأصبهاني (ص:٩٤)(٩٤) صحيح

الْجَبَلِ،إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[٣٠٤٧]

وهناك شروط وصفات يجب أن تتوفر لقيادات العمل الراشدي اليوم لتكون أهلا للنصر،كما يجب أن تتوفر في أنصارهم وأشياعهم صفات الرشد التي تجعلهم أهلا للقيام بالمهمة:

أولا–صفات القيادة الراشدة:

ليس المقصود هنا الصفات العامة التي تحققت في أهل الإيمان كما فصَّل فيها القرآن كالإيمان والتقوى والصلاح،وإنما المراد الصفات الخاصة التي توفرت في الخلفاء الراشدين قبل أن يصبحوا خلفاء،والتي أهلتهم للاستخلاف في الأرض،تلك الصفات التي تحلوا بها قبل أن يكونوا خلفاء،والتي اشتهروا بها منذ آمنوا وأسلموا،إذ كانوا جميعا قادة الدعوة مع النبي ﷺ في مكة،إلى أن أقاموا الدولة في المدينة،ثم أقاموا الخلافة بعد وفاته ﷺ،ومن ينظر في أبرز صفات الخلفاء الراشدين يجدها تتمثل في:

١– صديقية أبي بكر وعقائديته:

التي لا يطرأ عليها شك،ولا يخالطها ريب،ولا يعيقها تردد،وهو إيمانه المطلق بأن الله حق،والرسول حق،وأن ما جاء عنهما هو الحق،ووعدهما الحق،وهي الصفة التي شهرت أبا بكر حتى لقب بالصديق،كما وصفه القرآن { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [الزمر:٣٣]

ومنزلة الصديقية هي التالية لمنزلة النبوة من حيث تحقق الإيمان واليقين كما قال تعالى:{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } [النساء:٦٩]

لقد كان أبو بكر قبل خلافته وبعدها النموذج في عقائديته،فكان أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال،وأول من صدَّق حادثة الإسراء والمعراج،حين كذَّب بها من كذب،وشك من شك،حتى إذا هرعت قريش لأبي بكر تسأله فإذا جوابه جواب الصديقين فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:" لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ،فَارْتَدَّ

[٣٠٤٧] – المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ١٦)(١١) حسن لغيره

نَاسٌ فَمَنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ،وَسَمِعُوا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ،فَقَالُوا:هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ،قَالَ:أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ،قَالُوا:أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ:نَعَمْ،إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ،فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ »[٣٠٤٨]

وقَالَ ابْنُ شِهَابٍ:قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:فَتَجَهَّزَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا لَهُ:هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ،ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا:نَعَمْ.قَالَ:فَأَشْهَدُ،لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ.قَالُوا:فَتُصَدِّقُهُ بِأَنْ يَأْتِيَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ،ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ:نَعَمْ،إِنِّي أُصَدِّقُهُ بِأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ،أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ"[٣٠٤٩]

إنه الإيمان المطلق بالغيب والتصديق بأخبار الوحي عما مضى من الأحداث،وعما يستقبل منها كأنه يراها رأي العين!

لقد ضعفت عرى الإيمان لدى أكثر المسلمين ودعاهم وعلمائهم اليوم حتى أصبح كثير منهم على (دين بلا يقين) فهم في شك من دينهم،وفي شك من كمال شريعتهم،وفي شك من سنن النبي ﷺ وخلفائه في سياسة الأمة،وفي شك من وجوب اتباعها،وفي شك من صلاحيتها لعصرهم،وفي شك من بطلان هذه الجاهلية التي تحكمهم وتسوس شئوهم،وفي شك من وعد الله لهم بالنصر إن هم نصروه،وفي شك من عودها خلافة راشدة كما أخبر بذلك ﷺ[٣٠٥٠]،{ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } [يونس:٣٩]

[٣٠٤٨] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٦٥)(٤٤٠٧) صحيح

[٣٠٤٩] - دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (٢/ ٣٦٠) صحيح مرسل – زيادة

[٣٠٥٠] - عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ،أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الأُمَرَاءِ ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،ثُمَّ سَكَتَ "مسند أبي الطيالسي -طبعة دار هجر - مصر (١/ ٢٤٩)(٤٣٩) صحيح

ففقدوا بهذه الشكوك المتراكمة – التي ثبطتهم عن القيام لله بالقسط والحق – درجة الصديقية!
لقد تجلى إيمان أبي بكر العميق الراسخ رسوخ الجبال في مواقف تاريخية كبرى،وكان أولها حين دخل على النبي ﷺ بعد وفاته عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ،- قَالَ:إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي بِالعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ:وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَتْ:وَقَالَ عُمَرُ:وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ،وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ،فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ،فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ " فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ،قَالَ:بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي،طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ اللَّهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا"
وخرج على الناس وهم في المسجد وقد أصابهم هول المصيبة حتى طاشت عقولهم،وعمر يهذي ويقول:والله ما مات رسول الله وإنما ذهب يناجي ربه كما ذهب موسى!
فخَرَجَ(أبو بكر) فَقَالَ:أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ،فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ،فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،وَقَالَ:أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ،وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ،وَقَالَ:{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر:٣٠]،وَقَالَ:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:١٤٤]،قَالَ:فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ"[٣٠٥١]

لقد وقف أبو بكر موقف الصديقين الموقنين،فثاب المسلمون إلى رشدهم،وأدركوا أن الواجب عليهم في هذه اللحظة ليس البكاء بل نصر رسول الله ﷺ بعد وفاته كنصره في حياته،وذلك بنصر دينه،وحمل رسالته،وحماية دولته،وإكمال مهمته،فبادروا إلى السقيفة في اليوم ذاته ليتشاوروا في أمر الخلافة واختيار السلطة،ومن يسوس شئون الأمة بعد رسول الله ﷺ،فلما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة،اختلفوا واضطربوا حتى كادوا أن يقتتلوا،فإذا الصديقية تتجلى من جديد في أعظم حادثة تمر على الأمة وفي أشد أيامها،فانبرى لهم أبو بكر بثباته وإيمانه وخاطبهم بقوله للأنصار(فَقَالَ:مَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ،وَلَنْ يُعْرَفَ هَذَا الأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ،هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا،وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ

[٣٠٥١] - صحيح البخاري (٥/ ٦)(٣٦٦٧- ٣٦٦٨)

الرَّجُلَيْنِ،فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ،فَأَخَذَ بِيَدِي وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ،وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا،فَلَمْ أَكْرَهْ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا،كَانَ وَاللَّهِ أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي،لاَ يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ،أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسَوِّلَ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ المَوْتِ شَيْئًا لاَ أَجِدُهُ الآنَ.فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الأَنْصَارِ:أَنَا جُذَيْلُهَا المُحَكَّكُ،وَعُذَيْقُهَا المُرَجَّبُ،مِنَّا أَمِيرٌ،وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ،يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.فَكَثُرَ اللَّغَطُ،وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ،حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الاخْتِلاَفِ،فَقُلْتُ:ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ،فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْتُهُ،وَبَايَعَهُ المُهَاجِرُونَ ثُمَّ بَايَعَتْهُ الأَنْصَارُ.[٣٠٥٢]

كأن لم يختلفوا فيها قبل قليل حتى كادوا أن يتفرقوا!

ثم خطب فيهم من الغد خطبته التاريخية ليبين لهم سنن الإمامة والخلافة الراشدة فعَنْ قَيْسٍ،قَالَ:خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ:وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي،فَإِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِيلَا أذَا رَأَيْتُمُونِي غَضِبْتُ فَاجْتَنِبُونِي،لَا أُؤْثِرُ فِي أَجْسَادِكُمْ وَلَا أَبْشَارِكُمْ"[٣٠٥٣]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى»،شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ،قَالَ:وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ:التُّقَى – «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[٣٠٥٤]

ثم كانت أول قضية واجهها الصديق بصديقيته وإيمانه المطلق قضية أهل الردة،فقد اضطرب الصحابة في حكم من بقوا منهم على إسلامهم ومنعوا أداء الزكاة للدولة والخليفة بعد رسول الله فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ

[٣٠٥٢] – صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠)

[٣٠٥٣] – الزهد لأبي داود (ص:٥٦)(٣١) صحيح

[٣٠٥٤] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨و٩) صحيح لغيره

العَرَب،قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ،إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ،وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ،فَقَالَ عُمَرُ:«فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[3055]

إنه التسليم من عمر لا عن تقليد لأبي بكر،بل عن اعتراف له بالصديقية التي ثبتت له بنص القرآن وبشهادة رسول الله ﷺ له،وبالأمر النبوي بلزوم هدي أبي بكر،فكان عمر مع رفضه لقتال مانعي الزكاة ومجادلته أبا بكر فيهم،أول من رجع عن رأيه لرأي أبي بكر،حتى أجمع الصحابة على قتالهم،عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:لَمَّا جَمَعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَهْلَ الرِّدَّةِ قَالَ:«اخْتَارُوا مِنِّي حَرْبًا مُجْلِيَةً أَوْ سِلْمًا مُخْزِيَةً» قَالُوا:أَمَّا الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ،قَالَ:«تَدُونَ قَتْلَانَا وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ» فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ:قَتْلَانَا قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يُودَوْنَ،وَنَنْزِعُ عَنْكُمُ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ،يَعْنِي السِّلَاحَ وَالْخَيْلَ،قَالَ ابْنُ مَاهَانَ قَالَ:وَتَلْزَمُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَا شَاءَ "[3056]

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ،قَالَ:لَمَّا ارْتَدَّ مَنِ ارْتَدَّ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ،أَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يُجَاهِدَهُمْ،فَقَالَ عُمَرُ:أَتُقَاتِلُهُمْ وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ،حَرُمَ مَالُهُ إِلاَّ بِحَقٍّ،وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَنَّى لاَ أُقَاتِلُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا حَتَّى أَجْمَعَهُمَا،قَالَ عُمَرُ:فَقَاتَلْنَا مَعَهُ فَكَانَ رَشْدًا،فَلَمَّا ظَفِرَ بِمَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ،قَالَ:اخْتَارُوا مِنِّي خَصْلَتَيْنِ؛إِمَّا حَرْبٌ مُجْلِيَةٌ،وَإِمَّا الْخِطَّةُ الْمُخْزِيَةُ.قَالُوا:هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا،فَمَا الْخِطَّةُ الْمُخْزِيَةُ ؟ قَالَ:تَشْهَدُونَ عَلَى قَتْلاَنَا أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ،وَعَلَى قَتْلاَكُمْ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ،فَفَعَلُوا.[3057]

[3055] - صحيح البخاري (9/ 93)(7284) وصحيح مسلم (1/ 51)(32 - (20)

[3056] - جامع بيان العلم وفضله (2/ 960)(1829 و1830) صحيح

[3057] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (14/ 584)(29548) صحيح مرسل

لقد كان أبو بكر رجلا عقائديا إيمانيا لا يقبل أن يطرأ على دين الحق شك وريب،ولا أن يخالط الإيمان شبهة رأي،فأراد منهم قبل كل شيء،وقبل أن يعودوا إلى صفوف المؤمنين،أن يجددوا إيمانهم بالله ورسوله وبدينه،حتى لا تتكرر ردة باسم الإسلام،ولا يختلط الحق بالباطل،وحتى لا يزعم زاعم أنه قاتلهم اجتهاداً!

ثم كانت الحادثة الثالثة في الأيام الأولى من وفاة النبي ﷺ،والتي واجهها أبو بكر بإيمان وطمأنينة،إنفاذ جيش أسامة بن زيد،وكان النبي ﷺ قد أمر الجيش بالاستعداد للتوجه للشام،فتوفي ﷺ قبل أن يخرج الجيش،فأشار بعض الصحابة على أبي بكر أن يؤجل خروج الجيش،حتى يحمي المدينة من أهل الردة الذين يحاصرونها،فما كان من الصديق إلا أن وقف الموقف الذي يقتضيه مقام الصديقية فَلَمّا بَلَغَ الْعَرَبَ وَفَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَارْتَدّ مَنْ ارْتَدّ عَنْ الْإِسْلَامِ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِأُسَامَةَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ:اُنْفُذْ فِي وَجْهِك الّذِي وَجّهَك فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.وَأَخَذَ النّاسُ بِالْخُرُوجِ وَعَسْكَرُوا فِي مَوْضِعِهِمْ الْأَوّلِ،وَخَرَجَ بُرَيْدَةُ بِاللّوَاءِ حَتّى انْتَهَى إلَى مُعَسْكَرِهِمْ الْأَوّلِ،فَشَقّ عَلَى كِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوّلِينَ،وَدَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ عُمَرَ،وَعُثْمَانَ،وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقّاصٍ،وأبو عبيدة بن الجرّاح،وسعيد ابن زَيْدٍ،فَقَالُوا:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ،إنّ الْعَرَبَ قَدْ انْتَقَضَتْ عَلَيْك مِنْ كُلّ جَانِبٍ،وَإِنّك لَا تَصْنَعُ بِتَفْرِيقِ هَذَا الْجَيْشِ الْمُنْتَشِرِ شَيْئًا،اجْعَلْهُمْ عِدّةً لِأَهْلِ الرّدّةِ،تَرْمِي بِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ! وَأُخْرَى،لَا نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يُغَارَ عَلَيْهَا وَفِيهَا الذّرَارِيّ وَالنّسَاءُ،فَلَوْ اسْتَأْنَيْت لِغَزْوِ الرّومِ حَتّى يَضْرِبَ الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ،وَتَعُودَ الرّدّةُ إلَى مَا خَرَجُوا مِنْهُ أَوْ يُفْنِيَهُمْ السّيْفُ،ثُمّ تَبْعَثُ أُسَامَةَ حِينَئِذٍ فَنَحْنُ نَأْمَنُ الرّومَ أَنْ تَزْحَفَ إلَيْنَا! فَلَمّا اسْتَوْعَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْهُمْ كَلَامَهُمْ قَالَ:هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا؟

قَالُوا:لَا،قَدْ سَمِعْت مَقَالَتَنَا.فَقَالَ:وَاَلّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْ ظَنَنْت أَنّ السّبَاعَ تَأْكُلُنِي بِالْمَدِينَةِ لَأَنْفَذْت هَذَا الْبَعْثَ،وَلَا بَدَأْت بِأَوّلَ مِنْهُ،وَرَسُولُ اللهِ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنْ السّمَاءِ يَقُولُ:أَنْفِذُوا جَيْشَ أُسَامَةَ!

وَلَكِنْ خَصْلَةً،أُكَلّمُ أُسَامَةَ فِي عُمَرَ يَخْلُفُهُ يُقِيمُ عِنْدَنَا،فَإِنّهُ لَا غَنَاءَ بِنَا عَنْهُ.وَاَللهِ،مَا أَدْرِي يَفْعَلُ أُسَامَةُ أَمْ لَا،وَاَللهِ إنْ رَأَى لَا أُكْرِهُهُ! فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ عَزَمَ عَلَى إنْفَاذِ بَعْثِ

أُسَامَةَ.وَمَشَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى أُسَامَةَ فِي بَيْتِه،وَكَلّمَهُ أَنْ يترك عمر،ففعل أُسَامَةُ،وَجَعَلَ يَقُولُ لَهُ:أَذِنْت وَنَفْسَك طَيِّبَةٌ؟ فَقَالَ أُسَامَةُ:نَعَمْ! وَخَرَجَ وَأَمَرَ مُنَادِيَهُ يُنَادِي:عَزْمَةٌ مِنّي أَلّا يَتَخَلّفَ عَنْ أُسَامَةَ مِنْ بَعْثِه مَنْ كَانَ أُنْتُدِبَ مَعَهُ فِي حَيَاةِ رسول الله ﷺ،فَإِنِي لَنْ أُوتَى بِأَحَد أَبْطَأَ عَنْ الْخُرُوجِ مَعَهُ إلّا أَلْحَقْته بِه مَاشِيًا.وَأَرْسَلَ إلَى النّفَرِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ الّذِينَ كَانُوا تَكَلّمُوا فِي إمَارَةِ أُسَامَةَ،فَغَلّظَ عَلَيْهِمْ وَأَخَذَهُمْ بِالْخُرُوجِ،فَلَمْ يَتَخَلّفْ عَنْ الْبَعْثِ إنْسَانٌ وَاحِدٌ.

وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُشَيّعُ أُسَامَةَ وَالْمُسْلِمِينَ،فَلَمّا رَكِبَ أُسَامَةُ مِنْ الْجُرْفِ فِي أَصْحَابِه- وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافِ رَجُلٍ وَفِيهِمْ أَلْفُ فَرَسٍ- فَسَارَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلَى جَنْبِ أُسَامَةَ سَاعَةً،ثُمّ قَالَ:أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَك وَأَمَانَتَك وَخَوَاتِيمَ عَمَلِك،إنّي سَمِعْت رَسُولَ الله ﷺ يُوصِيك،فَانْفُذْ لِأَمْرِ رسول الله ﷺ،فَإِنِي لَسْت آمُرُك وَلَا أَنْهَاك عَنْهُ،وَإِنّمَا أَنَا مُنْفِذٌ لِأَمْرٍ أَمَرَ بِه رَسُولُ الله ﷺ.فَخَرَجَ سَرِيعًا فَوَطِئَ بِلَادًا هَادِئَةً لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ الْإِسْلَامِ- جُهَيْنَةَ وَغَيْرَهَا مِنْ قُضَاعَةَ- فَلَمّا نَزَلَ وَادِي الْقُرَى قَدِمَ عَيْنًا لَهُ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ يُقَالُ لَهُ حُرَيْثٌ،فَخَرَجَ عَلَى صَدْرِ رَاحِلَته أَمَامَهُ مُغِذّا حتى انتهى إلى أبنى،فنظر إلَى مَا هُنَاكَ وَارْتَادَ الطّرِيقَ،ثُمّ رَجَعَ سَرِيعًا حَتّى لَقِيَ أُسَامَةَ عَلَى مَسِيرَةِ لَيْلَتَيْنِ مِنْ أُبْنَى،فَأَخْبَرَهُ أَنّ النّاسَ غَارُون وَلَا جُمُوعَ لَهُمْ،وَأَمَرَهُ أَنْ يُسْرِعَ السّيْرَ قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ الْجُمُوعُ،وَأَنْ يُشِنّهَا غَارَةً "[٣٠٥٨]

وأمضى الجيش إلى وجهته للشام،وترك المدينة بلا حماية،إيمانا منه بأن أمر رسول الله نافذ على الجميع في حياته وبعد موته ﷺ،وأن طاعته هي سبب النصر والتوفيق والهداية {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [النور:٥٤]!

وعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ عَلَى جَيْشٍ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَالزُّبَيْرُ،فَقُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ،قَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ ذَلِكَ الْجَيْشُ،فَقَالَ أُسَامَةُ لِأَبِي بَكْرٍ حِينَ بُويِعَ لَهُ – وَلَمْ يَبْرَحْ أُسَامَةُ حَتَّى بُويِعَ لِأَبِي بَكْرٍ فَقَامَ فَقَالَ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَّهَنِي لِمَا وَجَّهَنِي لَهُ،وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَرْتَدَّ الْعَرَبُ،فَإِنْ شِئْتَ كُنْتُ قَرِيبًا مِنْكَ حَتَّى تَنْظُرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:«مَا كُنْتُ لَأَرُدَّ أَمْرًا أَمَرَ

[٣٠٥٨] - حياة الصحابة (٢/ ٢٠) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٦/ ٢٤٩) والروض الأنف ت الوكيل (٧/ ٥٨٣) ومغازي الواقدي (٣/ ١١٢١)

به رَسُولُ اللَّه ﷺ،وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لِعُمَرَ فَافْعَلْ» فَأَذِنَ لَهُ،فَانْطَلَقَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْد حَتَّى أَتَى الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ قَالَ:فَأَخَذَتْهُمُ الضَّبَابَةُ،حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَا يَكَادُ يُبْصِرُ صَاحِبَهُ قَالَ:فَوَجَدُوا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ قَالَ:فَأَخَذُوهُ يَدُلُّهُمُ الطَّرِيقَ حَيْثُ أَرَادُوا،وَأَغَارُوا عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي أُمِرُوا قَالَ:فَسَمِعَ بِذَلِكَ النَّاسُ فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ:تَزْعُمُونَ أَنَّ الْعَرَبَ قَد اخْتَلَفَتْ،وَخَيْلُهُمْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ:فَرَدَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذَلِكَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ،فَكَانَ يُدْعَى بِالْإِمَارَةِ حَتَّى مَاتَ،يَقُولُونَ:بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَنْزِعْهُ حَتَّى مَاتَ"[٣٠٥٩]

فكانت طاعته لرسول الله ﷺ بعد وفاته،كما هي في حياته،إنها تسليم مطلق،وانقياد تام،فهو النبي والإمام والقائد العام،حيا وميتا ﷺ!

ثم كان الموقف التاريخي الآخر للصديق حين رجع العرب إلى الإسلام،بعد حرب داخلية استمرت سنة كاملة،جيّش لها الصديق أحد عشر جيشا لمواجهة الردة وأهلها،وأخذ يشاور الصحابة في جهاد هرقل الروم أو كسرى الفرس وبأيهما يبدأ،وكان كلا الفريقين يتربص بالمسلمين ودولتهم الفتية الدوائر،فقال بعضهم دع الناس حتى يستجموا ويستعيدوا عافيتهم بعد حروب الردة،وقال آخرون بل نبدأ بالفرس،وقال بعضهم بل نبدأ بالروم،فأجابهم أبو بكر بكل ثقة بالله ووعده ونصره (بل نبدأ بالطائفتين معا)[٣٠٦٠] استجابة للأمر الإلهي:{يَا أَيُّهَا

[٣٠٥٩] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٨٢)(٩٧٧٧) صحيح مرسل

[٣٠٦٠] - لم أجد هذه الجملة فيما بين يدي من مصادر،ولكن النبي ﷺ قد أخبرهم أنهم سوف يفتحون فارس والروم،وقد راسلهم النبي ﷺ قبل موته فرفضوا دعوة الإسلام وهذه بعضها:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْخَنْدَقِ،فَخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا وَجَدْنَا صَفَاةً،لَا نَسْتَطِيعُ حَفْرَهَا،فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ،وَقُمْنَا مَعَهُ،فَلَمَّا أَتَى أَخَذَ الْمِعْوَلَ،فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً وَكَبَّرَ،فَسَمِعْتُ هَدَّةً لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ،فَقَالَ:«فُتِحَتْ فَارِسُ» ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَكَبَّرَ،فَسَمِعْتُ هَدَّةً،لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ،فَقَالَ:«فُتِحَتِ الرُّومُ» ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَكَبَّرَ،فَسَمِعْتُ هَدَّةً لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ،فَقَالَ:«جَاءَ اللهُ بِحِمْيَرَ،أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا» المعجم الكبير للطبراني (١٣/ ٢٧)(٥٤) حسن

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ،وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»صحيح البخاري (٤/ ٨٥)(٣١٢٠) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٦)٧٥ - (٢٩١٨)

الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:١٢٣]![٣٠٦١]

ليبدأ الصديق عصر الفتوح التي غيرت وجه التاريخ الإنساني إلى اليوم،وليتحقق موعود الله لعباده المؤمنين الراشدين{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]

فبدأ أبو بكر رضي الله عنه مهمة الفتح التاريخي،ورحل بعد سنتين ونيف من استخلافه،ليصنع في تينك السنتين تاريخ الإسلام وخلافته ووحدته وفتوحاته كلها،فإذا كل الملايين من المسلمين على اختلاف قومياتهم منذ ذلك التاريخ إلى اليوم هم من حسنات أبي بكر وفي ميزان أعماله يوم القيامة،كما جاء في الحديث عَنِ الْهُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلَ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ:«لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِ»[٣٠٦٢]

وعَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ ﷺ:«وَدِدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي صَدْرِ أَبِى بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -»[٣٠٦٣]

وعَنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:فَارِسُ نَطْحَةٌ،أَوْ نَطْحَتَانِ،ثُمَّ لاَ فَارِسَ بَعْدَهَا أَبَدًا وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ أَصْحَابُ بَحْرٍ وَصَخْرٍ كُلَّمَا ذَهَبَ قَرْنٌ خَلَفَه قَرْنٌ مَكَانَهُ،هَيْهَاتَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ،هُمْ أَصْحَابُكُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ.مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٥٦)(١٩٦٨٨) صحيح مرسل

[٣٠٦١] - يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الطَّرِيقَ الأَمْثَلَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْدَؤُوا بِقِتَالِ الأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ مِنْهُمْ إلى أَرْضِ الإِسْلاَمِ،وَبِذلِكَ لاَ يَبْقَى مَجَالٌ لأنْ يُؤْخَذَ المُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِمْ،إِذَا تَرَكُوا مَنْ هُمْ قُرْبَهُمْ وَذَهَبُوا لِيُقَاتِلُوا مَنْ خَلْفَ أَعْدَائِهِمْ،وَلِهَذَا بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ بِقِتَالِ المُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ العَرَبِ شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ،لأَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ.وَهَكَذَا كَانَ المُسْلِمُونَ كُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ هُمْ بَعْدَهُمْ،ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ العُتَاةِ الفُجَّارِ وَهَكَذَا.

وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَشِدّاءَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَأَنْ يُظْهِرُوا لَهُمْ غِلْظَةً وَشِدَّةً وَخُشُونَةً فِي القِتَالِ،لِيُدْخِلُوا الوَهَنَ إِلَى نُفُوسِهِمْ،وَنُفُوسِ مَنْ خَلْفَهُمْ.وَمِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفَّارِ،رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ.وَيُخْبِرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ مَعَهُمْ يُثَبِّتُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ إِذَا اتَّقَوْهُ وَأَطَاعُوهُ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٥٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٦٢] - السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣٧٨)(٨٢١) صحيح

[٣٠٦٣] - المتمنين لابن أبي الدنيا (ص:٥٨) فيه انقطاع

وعن جَعْفَرَ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا عِمْرَانَ الْجَوْنِيَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ:«وَدِدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي جَنْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ»[٣٠٦٤]

كل ذلك بسبب صديقيته وإيمانه ويقينه،وفي الحديث مرفوعا«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَفْضُلْكُمْ بِصَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ» [٣٠٦٥]

٢- العبقرية العمرية:

التي اشتهر بها الفاروق عمر كما وصفه النبي ﷺ في الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،عَنْ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ قَالَ:«رَأَيْتُ النَّاسَ اجْتَمَعُوا فَنَزَعَ أَبُو بَكْرٍ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ فِيهِ ضَعْفٌ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ،ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَنَزَعَ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرْيَهُ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ» [٣٠٦٦].

والإلهام والتحديث كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ،فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ،فَإِنَّهُ عُمَرُ» وفي رواية «لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ،يُكَلَّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ،فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ»[٣٠٦٧]

فإذا كانت إقامة الخلافة،ومواجهة الردة بعد وفاة النبي ﷺ،وبدأ الفتوحات،مواقف تاريخية تحتاج إلى قائد عقائدي لا يتزعزع كأبي بكر الصديق،فإن اتساع دولة الإسلام لتضم إمبراطورية كسرى في الشرق،وقيصر في الغرب،وما كانتا عليه من حضارة ونظم،وما تعانيه

[٣٠٦٤] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٩٠)(٥٦٠) فيه انقطاع

[٣٠٦٥] - بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص:٢٧٨) ضعيف

[٣٠٦٦] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٤١)(٢٢٨٩) صحيح

(يفري فريه) أَيْ:يَعْمَلُ عَمَلَهُ،وَيُقْوَى قُوَّتَهُ،وَيَقْطَعُ قَطْعَهُ،يُقَالُ:تَرَكْتُهُ يَفْرِي الْفَرِيَّ:إِذَا عَمِلَ عَمَلا فَأَجَادَ وَهَذَا كُلُّهُ إِشَارَةٌ إِلَى مَا أَكْرَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،مِنَ امْتِدَادِ مُدَّةِ خِلافَتِهِ،ثُمَّ الْقِيَامُ فِيهَا بِإِعْزَازِ الإِسْلامِ،وَحِفْظِ حُدُودِهِ،وَتَقْوِيَةِ أَهْلِهِ،شرح السنة للبغوي (١٤/ ٩٢)

[٣٠٦٧] - صحيح البخاري (٥/ ١٢)(٣٦٨٩) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٦٤)٢٣ - (٢٣٩٨)

[ش (محدثون) اختلف تفسير العلماء للمراد بمحدثون فقال ابن وهب ملهمون وقيل مصيبون إذا ظنوا فكأنهم حدثوا بشيء فظنوه وقيل تكلمهم الملائكة وقال البخاري يجري الصواب على ألسنتهم]

شعوبهما من قهر وظلم،تحتاج إلى قائد عبقري فذ كعمر رضي الله عنه،ليسوس شئونها بكل ذكاء وحنكة وكفاءة،ليبسط الأمن ويحقق العدل للجميع،فكانت نتيجة تلك العبقرية فهم غايات ومقاصد الإسلام في إقامة الأحكام،فأوقف الأرض المغنومة ورفض أن تقسم على الفاتحين،وجعلها وقفا على الدولة والأمة كلها،ليمنع أن تكون الأموال والأرض،عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ أَسْلَمَ قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ:" اجْتَمِعُوا لِهَذَا الْمَالِ،فَانْظُرُوا لِمَنْ تَرَوْنَهُ "،ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:" إِنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَجْتَمِعُوا لِهَذَا الْمَالِ فَتَنْظُرُوا لِمَنْ تَرَوْنَهُ،وَإِنِّي قَدْ قَرَأْتُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر:٨]،وَاللهِ مَا هُوَ لِهَؤُلَاءِ وَحْدَهُمْ،{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا} الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ الْآيَةَ،وَاللهِ مَا هُوَ لِهَؤُلَاءِ وَحْدَهُمْ،{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} الْآيَةَ،وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَلَهُ حَقٌّ فِي هَذَا الْمَالِ،أُعْطِيَ مِنْهُ أَوْ مُنِعَ،حَتَّى رَاعٍ بِعَدَنَ "[٣٠٦٨]

ودون الدواوين واستفادها من فارس والروم عملا بحديث «إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ،وَإِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ»[٣٠٦٩].

وحين رفض نصارى تغلب أن يدفعوا الجزية وقالوا نحن عرب ندفع كما يدفع العرب،قال افرضوا عليهم الصدقة،فعنْ عُبَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ التَّغْلِبِيِّ،أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّ بَنِي تَغْلِبَ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ شَوْكَتَهُمْ،وَإِنَّهُمْ بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ،فَإِنْ ظَاهَرُوا عَلَيْكَ الْعَدُوَّ اشْتَدَّتْ مُؤْنَتُهُمْ،فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعْطِيَهُمْ شَيْئًا.قَالَ:فَافْعَلْ.قَالَ:فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ لَا

[٣٠٦٨] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٧١)(١٣٠٠٢) صحيح

[٣٠٦٩] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٢٠١)(٢٢) صحيح

قلت:ومثله حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ،فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا» سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥١)(٢٦٨٧) ضعيف جدا والصواب وقفه

يَغْمسُوا أَحَدًا منْ أَوْلَادهمْ فِي النَّصْرَانيَّة،وَتُضَاعَفَ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ.قَالَ:وَكَانَ عُبَادَةُ يَقُولُ:قَــدْ فَعَلُوا وَلَا عَهْدَ لَهُمْ"[3070]

وأمر أن يفرض من بيت مال المسلمين للمحتاجين،من المسلمين وغير المسلمين،وأن يفــرض للأطفال الرضع وأمهاتهم ما يغنيهم،وسن للأمة سنن الهدى في باب سياسة الأمة،حتى ضـــرب به المثل في العدل،كل ذلك بذكاء وعبقرية هي أهم ما تحتاجه سياسة الأمـــم بعـــد الإيمـــان والصلاح والتقوى،فكان عمر إمام الراشدين في هذا الباب!

٣-القديسية بحلمها وحيائها ورحمتها وسخائها(عثمان رضي الله عنه)

والتي تجلت في أوضح صورها بالخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنـــه،فكان منـــذ أن آمن وهو يحوط الدعوة بماله ونفسه وأهله،فهاجر الهجرتين،عَنْ يُونُسَ،قَالَ ابْنُ شِهَابٍ:أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ،أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الخِيَارِ،أَخْبَرَهُ أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الأَسْـــوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ،وفيه قال عثمان رضي الله عنه:" إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالحَقِّ،وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ،وَكُنْتَ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ،فَهَاجَرْتَ الهِجْرَتَيْنِ،وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،وَرَأَيْتَ هَدْيَهُ وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي شَأْنِ الوَلِيدِ،قَالَ:أَدْرَكْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قُلْتُ:لاَ،وَلَكِنْ خَلَصَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِهِ مَا يَخْلُصُ إِلَى العَذْرَاءِ فِي سِتْرِهَا،قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّـــدًا ﷺ بِالحَقِّ،فَكُنْتُ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ،وَآمَنْتُ بِمَا بُعِـــثَ بِـــهِ،وَهَاجَرْتُ الهِجْرَتَيْنِ،كَمَـــا قُلْتَ،وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَبَايَعْتُهُ،فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلاَ غَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّـــاهُ اللَّـــهُ عَـــزَّ وَجَلَّ،ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ مِثْلُهُ،ثُمَّ عُمَرُ مِثْلُهُ،ثُمَّ اسْتُخْلِفْتُ،أَفَلَيْسَ لِي مِنَ الحَقِّ مِثْـــلُ الَّـــذِي لَهُـــمْ؟ قُلْتُ:بَلَى،..." [3071]

وبذل ماله في سبيل الله والإسلام أحوج ما يكون للبذل والإنفاق،حتى اشترى الجنـــة بمالـــه مرتين،حين اشترى بئر رومة وأوقفها على المسلمين،بعد أن سمع النبي ﷺ يقول من يشـــتريها وله الجنة،وحين جهز جيش العسرة في غزوة تبوك وهو أكبر جيش خرج فيه النبي ﷺ،وبلـــغ

[3070] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٦٣)(١٨٧٩٦) ضعيف،والصواب أنه مثلهم مثل غيرهم يدفعون الجزية

[3071] - صحيح البخاري (٥/ ١٤)(٣٦٩٦)

عدده نحو أربعين ألف،فعَنْ عُمَرَ بْنِ جَاوَانَ،رَجُلٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ – وَذَاكَ أَنِّي قُلْتُ لَهُ:أَرَأَيْتَ اعْتِزَالَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ مَا كَانَ؟ – قَالَ:سَمِعْتُ الْأَحْنَفَ،يَقُولُ:أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ وَأَنَا حَاجٌّ،فَبَيْنَا نَحْنُ فِي مَنَازِلِنَا،نَضَعُ رِحَالَنَا إِذْ أَتَى آتٍ فَقَالَ:قَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ،فَاطَّلَعْتُ فَإِذَا – يَعْنِي – النَّاسَ مُجْتَمِعُونَ،وَإِذَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ نَفَرٌ قُعُودٌ،فَإِذَا هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ،وَالزُّبَيْرُ،وَطَلْحَةُ،وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ،فَلَمَّا قُمْتُ عَلَيْهِمْ قِيلَ:هَذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ،قَدْ جَاءَ،قَالَ:فَجَاءَ وَعَلَيْهِ مُلَيَّةٌ صَفْرَاءُ،فَقُلْتُ لِصَاحِبِي:كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَنْظُرَ مَا جَاءَ بِهِ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ:أَهَاهُنَا عَلِيٌّ؟ أَهَاهُنَا الزُّبَيْرُ؟ أَهَاهُنَا طَلْحَةُ؟ أَهَاهُنَا سَعْدٌ؟ قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ يَبْتَاعُ مِرْبَدَ بَنِي فُلَانٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ؟» فَابْتَعْتُهُ،فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقُلْتُ:إِنِّي ابْتَعْتُ مِرْبَدَ بَنِي فُلَانٍ،قَالَ:«فَاجْعَلْهُ فِي مَسْجِدِنَا وَأَجْرُهُ لَكَ»،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ؟» فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ:قَدِ ابْتَعْتُ بِئْرَ رُومَةَ،قَالَ:«فَاجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ»،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ يُجَهِّزُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ؟» فَجَهَّزْتُهُمْ حَتَّى مَا يَفْقِدُونَ عِقَالًا وَلَا خِطَامًا،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:اللَّهُمَّ اشْهَدْ،اللَّهُمَّ اشْهَدْ،اللَّهُمَّ اشْهَدْ "[٣٠٧٢]

وكان المسلمون في حال عسرة وحاجة وشدة،فجاء بالأموال فصبها بين يدي رسول الله صبا طاعة لله ولرسوله ونصرة لدينه،فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ،قَالَ:جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ – قَالَ الحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ:وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي،فِي كُمِّهِ – حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ.قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ:«مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ»[٣٠٧٣]

كما اشتهر عثمان بالحياء،فكان أشد حياء من البكر في خدرها،فعَنْ عَطَاءٍ،وَسُلَيْمَانَ،ابْنَيْ يَسَارٍ،وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ عَائِشَةَ،قَالَتْ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي

[٣٠٧٢] – سنن النسائي (٦/ ٢٣٣)(٣٦٠٦) صحيح

[٣٠٧٣] – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٦٢٦)(٣٧٠١) صحيح

بَيْتِي، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ،أَوْ سَاقَيْهِ،فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ،وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ،فَتَحَدَّثَ،ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ،فَأَذِنَ لَهُ،وَهُوَ كَذَلِكَ،فَتَحَدَّثَ،ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ،فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَسَوَّى ثِيَابَهُ – قَالَ مُحَمَّدٌ:وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ – فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ،فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ:دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ،ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ،ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقَالَ:«أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»[٣٠٧٤]

فجمع هذا القديس الطاهر بين السخاء والحياء،كما اشتهر بالرحمة وهي صفة لا تنفك عن صفة السخاء والحياء،حتى بلغ به الحال أن آثر أن يضحي بنفسه ولا يسفك بسببه قطرة دم،فعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ:حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ:لَمَّا حُصِرَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛دَخَلَ عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ،فَقَالَ:إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِكَ مَا تَرَى،وَأَنَا أَعْرِضُ عَلَيْكَ خِصَالًا ثَلَاثًا:إِنْ شِئْتَ خَرَقْنَا لَكَ بَابًا مِنَ الدَّارِ سِوَى الْبَابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ،فَنُقْعِدُكَ عَلَى رَوَاحِلِكَ؛فَتَلْحَقُ بِمَكَّةَ،فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّوكَ وَأَنْتَ بِهَا،أَوْ تَلْحَقُ بِالشَّامِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ،وَإِنْ شِئْتَ خَرَجْتَ بِمَنْ مَعَكَ فَقَاتَلْتَهُمْ،فَإِنَّ مَعَكَ عُدَّةً وَقُوَّةً،وَإِنَّكَ عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ،فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَمَّا قَوْلُكَ:أَنْ نَخْرِقَ لَكَ مِنَ الدَّارِ بَابًا،فَأَقْعُدُ عَلَى رَوَاحِلِي فَأَلْحَقُ بِمَكَّةَ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّونِي وَأَنَا بِهَا،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«يُلْحِدُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ عَلَيْهِ نِصْفُ عَذَابِ الْعَالَمِ» فَلَنْ أَكُونَ إِيَّاهُ وَأَمَّا قَوْلُكَ أَنْ أَلْحَقَ بِالشَّامِ فَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ،قُلْتُ:أُفَارِقُ دَارَ هِجْرَتِي وَمُجَاوَرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا،وَأَمَّا قَوْلُكَ:إِنَّ مَعِي عِدَّةً وَقُوَّةً فَأَخْرُجُ فَأُقَاتِلُهُمْ؛فَإِنِّي عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ،فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِإِهْرَاقِهِ مِلْءِ مِحْجَمٍ مِنْ دَمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ"[٣٠٧٥]

[٣٠٧٤] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٦٦)٣٦ - (٢٤٠١)

[ش (فلم تهتش) هكذا هو في جميع نسخ بلادنا تهتش وفي بعض النسخ الطارئة تهش وكذا ذكره القاضي وعلى هذا فالهاء مفتوحة قال هش يهش كشم يشم وأما الهش الذي هو خبط الورق من الشجر فيقال منه هش يهش بضمها قال الله تعالى وأهش بها على غنمي قال أهل اللغة الهشاشة والبشاشة بمعنى طلاقة الوجه وحسن اللقاء (لم تباله) لم تكترث به وتحتفل لدخوله (ألا أستحي من رجل تستحي) هكذا هو في الرواية أستحي بياء واحدة في كل واحدة منهما قال أهل اللغة يقال استحيا يستحي بياء واحدة لغتان الأولى أفصح وأشهر وبها جاء القرآن]

[٣٠٧٥] - الشريعة للآجري (٤/ ١٩٥٤)(١٤٢٧) فيه انقطاع

فأبى أن يجابه المعارضة بالقوة حين جاءته تنكر على بعض ولاته تجاوزاتهم،ورفض أن يضربهم أو يؤذيهم بل أكرمهم وفاوضهم وصالحهم والتزم لهم بما شرطوا عليه،فلما رجعوا وحاصروه أقسم على كل من كان يحرس داره أن يتركوه ولا يقاتلوا دونه،ولزم داره يقرأ القرآن الذي حفظه صدرا وسطرا،حتى قتل شهيدا،وهو خليفة المسلمين الذي كانت جيوشه قد وصلت أطراف الهند،وكان باستطاعته بكلمة واحدة أن يقضي على مخالفيه ومعارضيه،إلا أن قديسيته وسخاء نفسه وخلقه وحيائه وشمائله الكريمة أبت عليه إلا أن يكف يده عن رعيته حتى لو ذهبت نفسه!

فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ عُثْمَانَ ﷺ وَهُوَ مَحْصُورٌ فِي الدَّارِ،وَكَانَ مَدْخَلٌ فِي الدَّارِ مَنْ دَخَلَهُ سَمِعَ كَلَامَ مَنْ عَلَى الْبَلَاطِ،فَدَخَلَهُ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَخَرَجَ وَهُوَ مُتَغَيِّرٌ لَوْنُهُ وَقَالَ:إِنَّهُمْ لَيَتَوَعَّدُونَنِي بِالْقَتْلِ آنفًا.قُلْنَا:يَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.قَالَ:لِمَ يَقْتُلُونِي؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ،أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ "،فَوَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا فِي إِسْلَامٍ قَطُّ،وَلَا أَحْبَبْتُ أَنَّ لِي بِدِينِي بَدَلًا مُذْ هَدَانِي اللَّهُ بِهِ،وَلَا قَتَلْتُ نَفْسًا،فَبِمَ يَقْتُلُونِي؟"[٣٠٧٦]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشْرَفَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:عَلَامَ تَقْتُلُونَنِي؟ وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ فَيُرْجَمُ،وَرَجُلٌ ارْتَدَّ بَعْدَ إِسْلَامِهِ فَعَلَيْهِ الْقَتْلُ،وَرَجُلٌ قَتَلَ مُتَعَمِّدًا فَعَلَيْهِ الْقَوَدُ "،وَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ،وَلَا قَتَلْتُ مُتَعَمِّدًا،وَلَا ارْتَدَدْتُ مُذْ أَسْلَمْتُ،إِنِّي أَشْهَدُ أَنَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ "[٣٠٧٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الدَّارِ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ طَابٌ أَمْ ضَرْبٌ؟ – قَالَ:يَعْنِي طَابَ الْقِتَالُ – فَقَالَ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَيَسُرُّكَ أَنْ تَقْتُلَ

[٣٠٧٦] – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١١٨٧) صحيح

[٣٠٧٧] – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١١٨٧) صحيح

النَّاسَ كُلَّهُمْ وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَقَالَ:لَا،فَقَالَ:«إِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَ إِنْسَانًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلْتَ النَّاسَ جَمِيعًا»[٣٠٧٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ لَنَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«أَقْسَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا أَلْقَيْتُمُ السِّلَاحَ،فَأَلْقَيْتُ سَيْفِي فَمَا تَقَلَّدْتُهُ بَعْدُ»[٣٠٧٩]

وعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ بِالْبَابِ عِصَابَةً مُسْتَبْصِرَةً قَدْ يَنْصُرُ اللَّهُ بِأَقَلَّ مِنْهُمْ.فَقَالَ:«أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلًا يَرَى لِلَّهِ عَلَيْهِ حَقًّا،وَيَرَى لِي عَلَيْهِ حَقًّا أَنْ يُهْرِيقَ دَمِي،أَوْ يُهْرِيقَ لِي دَمًا»[٣٠٨٠]

وعن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ:كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مَحْصُورٌ فِي الدَّارِ،فَقَالَ:«أَعْزِمُ عَلَى مَنْ كَانَ لَنَا عَلَيْهِ سَمْعٌ وَطَاعَةٌ لَمَا كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ،فَإِنَّ أَعْظَمَكُمْ عِنْدِي غَنَاءً الْيَوْمَ مَنْ كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ»[٣٠٨١]

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ:قَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنِّي هَوَيْتُ آنِفًا فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ».فَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي أُقْتَلُ فِيهِ.قَالَ:فَدَخَلُوا فَقَتَلُوهُ "[٣٠٨٢]

٤- الفدائية والطهورية:

وكان النموذج فيها الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه،فكان فدائي الإسلام الأول،حين نام في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة،وقد أحاط المشركون بالدار،وقد عزموا على قتل النبي ﷺ على فراشه[٣٠٨٣]،وحين خرج يوم الخندق لعمرو بن ود وهو فارس

[٣٠٧٨] - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٧) صحيح

[٣٠٧٩] - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٧) صحيح

[٣٠٨٠] - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٩) صحيح

[٣٠٨١] - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٨) صحيح

[٣٠٨٢] - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٢٧) صحيح من طرق

[٣٠٨٣] - الهجرة النبوية - دراسة وتحليل- (ص:١٧٦) والسيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٢٧٠) والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤)

العرب،حين دعا رسول الله لمبارزته فخـــرج لـــه الليـــث الغالـــب وقـــد بـــاع نفســـه لله ولرسوله[٣٠٨٤]،وحين حمل الراية يوم خيبر وهو مريض يوعك طاعة لله ورســـوله،فلا يـــدعوه رسول الله ﷺ لنائبة إلا أتـــاه،ولا لملحمـــة إلا كفاه،فكـــان الجنـــدي الفـــدائي،عَنْ أَبِـــي حَازِمٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ:«لَـــأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ،يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»،قَالَ:فَبَـــاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا،فَقَالَ:«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».فَقِيلَ:هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ،قَالَ:«فَأَرْسَـــلُوا إِلَيْهِ».فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ،فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ،فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ،فَقَالَ عَلِيٌّ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ:«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا،خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٣٠٨٥]

حتى إذا وقعت الفتنة واحتاجته الأمة لسياسة شئونها،فإذا الطهورية تتجلى في أبهى صـــورها فإذا هو الخليفة الزاهد العادل الذي بلغ من طهوريته وورعه ونزاهته أن قسم الأبزار بين الناس بالسوية،فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،قَالَ:" جَاءَهُ ابْنُ النَّبَّاجِ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ امْتَلَأَ بَيْتُ مَـــالِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ،فَقَالَ:اللهُ أَكْبَرُ فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى ابْنِ النَّبَّاجِ حَتَّى قَامَ عَلَى بَيْـــتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ:" هَذَا جَنَايَ وَخِيَارُهُ فِيهِ وَكُلُّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ يَا ابْنَ النَّبَّاجِ:عَلَيَّ بِأَشْبَاعِ الْكُوفَةِ " قَالَ:فَنُودِيَ فِي النَّاسِ،فَأَعْطَى جَمِيعَ مَا فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَقُولُ:«يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غُرِّي غَيْرِي،هَا وَهَا» حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ،ثُمَّ أَمَرَهُ بِنَضْحِهِ،وَصَلِّي فِيـــهِ رَكْعَتَيْنِ "[٣٠٨٦]

[٣٠٨٤] - المقتفى من سيرة المصطفى (ص:١٥٩) وحياة محمد ورسالته (ص:١٦٨) والروض الأنف ت السلامي (٦/ ٢١٠)

[٣٠٨٥] - صحيح البخاري (٥/ ١٣٤)(٤٢١٠)

[٣٠٨٦] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٨١) حسن

وعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ،وَمَيْسَرَةَ،قَالَا:إِنَّ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَسَمَ مَا فِي بَيْتِ الْمَالِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا أَرْبَعَةُ آلَافٍ،فَأَمَرَ بِهَا فَقُسِمَتْ،فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ،فَقَالَ:«لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَبْعَرَ فِيهِ الْغَنَمُ»[3087]

ورفض أن يداهن أحدا على شيء في أمور الإمامة والسلطة وكان أحوج ما يكون إلى تأليفهم،فحملته طهوريته على رفض كل مساومة حتى وإن كان على حساب سلطانه ونفوذ أمره وطاعته!

لقد كانت هذه الصفات توفرت في الخلفاء الأربعة جميعا،إلا أن كل واحد منهم كان أشهر ببعضها من بعض،كما كان أبو عبيدة بن الجراح وهو من قيادة الدعوة في مكة،ومن قيادة الدولة في المدينة،ومن العشرة المبشرين،قد اشتهر بصفة الأمانة،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[3088]

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ،وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ،وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ،وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ،وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ،وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ،أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا،أَلَا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[3089]

وعَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ،قَالَ:قِيلَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ عَهِدْتَ؟ قَالَ:" لَوْ أَدْرَكْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ لَوَلَّيْتُهُ،فَإِنْ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَقَالَ لِي:مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ:سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ:«لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ،وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» وَلَوْ أَدْرَكْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ،ثُمَّ وَلَّيْتُهُ ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَقَالَ لِي:مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ:إِنِّي سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ:«يَأْتِي بَيْنَ الْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَتْوَةٍ»،وَلَوْ

[3087] - الزهد لابن أبي الدنيا (ص:١٦٦)(٣٦٠) حسن

[3088] - الشريعة للآجري (٥/ ٢٣٠٨)(١٧٩٣) صحيح

[3089] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٣٤٥)(٨١٨٥) صحيح

أَدْرَكْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ثُمَّ وَلَّيْتُهُ،ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَسَأَلَنِي مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّـةِ مُحَمَّـدٍ؟ لَقُلْتُ:سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ:«سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ سَلَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ»[٣٠٩٠]

إن هذه الصفات التي اشتهر بها الخلفاء الراشدون ومن معهم من قيادات الصحابة رضـي الله عنهم – العقائدية والعبقرية والقديسية والفدائية والطهورية والأمانة – هي أهم صفات القيادة الراشدة الجديدة،فإذا اجتمع للقيادات الراشدة:

١- إيمان القلوب وصفاؤها.

٢- وعبقرية العقول وذكاؤها.

٣- وطهورية الأرواح وزكاؤها.

٤- وكرم النفوس وشجاعتها ورحمتها وسخاؤها وحياؤها.

فقد استجمعت كل ما تحتاجه من شروط النجاح وتحقق النصر والاستخلاف في الأرض!

فالأمة اليوم أحوج ما تكون إلى قيادات راشدة،تجمع بين العلم والفهم،والحلم والحزم،والأمانة والزهد،حتى إذا ما مكن الله لها في الأرض كانت رحمة للعالمين،تنصر الحق،وترحم الخلق،وتسوسهم بإيمان أبي بكر وصديقيته،وكفاءة عمر وعبقريته،ورحمة عثمان وقديسيته،وزهادة علي وطهوريته،وصيانة أبي عبيدة وأمانته!

إن الأمة اليوم تتطلع إلى قيادات سياسية تعفُّ عن أموالها،وتكفُّ عن دمائها،وتلمُّ شعثها،وتوحد كلمتها،وتحسن سياستها،وتحررها من عبوديتها،بعد أن أترعت الدماء على أيدي الطغاة،وأهدرت الأموال،وانتهكت الأعراض،وامتلأت السجون بالمظلومين،ببغي المجرمين،فإذا كانت قيادات الحركاتِ السياسيةَ الإصلاحيةَ لم تعدَّ نفسها إعدادا روحيا وأخلاقيا للتصدي لمهمة الإصلاح،فإن تأخر النصر خير لها وللأمة من فجر كاذب،وبرق خالب!

ثانيا– صفات الأعضاء والأنصار:

[٣٠٩٠] – تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٨٦) حسن

فكما للقيادة الراشدة صفاها التي يجب أن تتمتع بها،ولو بالحـــد الأدنى منـــها،فإن للأنصـــار وأعضاء التنظيم الإصلاحي الراشدي صفاهم التي يجب أن يتصفوا بها ليكونوا أهلا للنصر،ومن أهمها:

١- الإيمان بالله،علما وعملا:

كما قال تعالى:{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم:٤٧]،وكما قال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [المؤمنون:١]،والفلاح هو الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة،والمراد بالإيمان هـو الإيمان الذي يورث العمل الصالح { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ } [العنكبوت:٩]،ويدخل في الصالحات القيام بالواجبات والمندوبات،وترك المحرمات..الخ.

وقد جعل الله الإيمان به،واليقين بآياته ووعده،والصبر عليه،سببا من أسباب الاستخلاف في الأرض فقال:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة:٢٤]..

٢- الاستقامة على الحق والإصلاح في الأرض:

والصبر عليه،وتجنب الطغيان،وعدم الركون للظالمين،أو الميل للمجرمين والمترفين،وقد أوصى النبي ﷺ بالإيمان والاستقامة على الحق،ففي صحيح مسلم عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ:" قُلْ:آمَنْتُ بِاللهِ،فَاسْتَقِمْ "[٣٠٩١]

وكما قال تعالى:{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ

[٣٠٩١] - صحيح مسلم (١/ ٦٥)٦٢ - (٣٨)

[ش (قل آمنت بالله فاستقم) قال القاضي عياض رحمه الله هذا من جوامع كلمه ﷺ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا أي وحدوا الله وآمنوا به ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن توفوا على ذلك]

ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) } [هود:١١٢ - ١١٧].

فأمر الله نبيه والمؤمنين معه بالاستقامة ولزوم سبيل الرشاد والإصلاح في الأرض،والثبات والصبر عليه مهما لقوا من الشدة،وحذرهم من الطغيان وتجاوز العدل والقسط،ونهاهم عن الركون للذين ظلموا،إذ هو من أعظم موانع النصر والفلاح في الدنيا والآخرة {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]،وأمرهم في مقابل ذلك بالإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض إذ هو سبيل النجاة،وهو خلاف سبيل الذين ظلموا،وخلاف سبيل الذين يركنون إليهم،وخلاف سبيل المترفين منهم،وخلاف سبيل المجرمين!

فمتى ركن المؤمنون أو مالوا للظالمين أو المترفين أو المجرمين فقد أصابهم شؤم الظلم والترف والإجرام،فحرموا النصر والفلاح،إذ للمظلومين من ضحايا الملأ المجرمين دعوات تضج بها السماء،قد وعدها الله بالانتقام والعقوبة ممن ظلمها وأجرم بحقها،فإذا نزلت إلى الأرض سهامها أصابت الظالمين وكل من ركن إليهم {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء:١٦]،وأول ما يصيب الصالحين من شؤم الركون إلى الظالمين مخالطتهم لهم،فيهون في نظرهم ما هم فيه أو عليه من الفساد أو الطغيان أو الترف،فيطمس الله على قلوبهم،فتستحسن القبيح،وتستقبح الحسن،وتشمئز ممن يأمرهم بمعروف،أو ينهاهم عن منكر!

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنِ اقْلِبْ مَدِينَةَ كَذَا وَكَذَا عَلَى أَهْلِهَا قَالَ:فَقَالَ:يَا رَبِّ إِنَّ فِيهَا عَبْدَكَ لَمْ يَعْصِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ،فَقَالَ:اقْلِبْهَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ،فَإِنَّ وَجْهَهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ"[٣٠٩٢]

ولهذا كان الإصلاح والاستقامة تتنافى مع الظلم والإفساد في الأرض { إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ } [يونس:٨١]،{ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ

[٣٠٩٢] - معجم ابن الأعرابي (٣/ ٩٤٨)(١٩٦٣) ضعيف وصح وقفه من قول مالك بن دينار شعب الإيمان (١٠/ ٧٤)(٧١٨٨) وهو

سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف:١٤٢]،{وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)} [الشعراء:١٥١،١٥٢]..

فالاستقامة هي السير على الهدى،والثبات على الحق،والصبر عليه،وعدم الطغيان في حال القوة،وعدم تجاوز العدل والقسط،وعدم الميل عنه أو الركون للظالمين في حال الضعف،مهما اشتدت الملمات،أو تراكمت المدلهمات،أو تعاظمت الشهوات،فإن المصلحين يرضيهم في هذه الحياة أن تتحقق لهم السعادة والحياة الطيبة التي يجدونها بالإيمان وصلاح نفوسهم ورضاهم عن ذواتهم،{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:٩٧] في الدنيا والآخرة،والحياة الطيبة الراضية هو ما يجده الصالحون من رضا نفوسهم،وسعادة أرواحهم،وطيب عيشهم،وهذا يغنيهم عن متاع الدنيا وغرورها،وأكدارها وأوزارها!

وقد أخبر النبي ﷺ عن حقيقة الغنى فقال – كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ،وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[٣٠٩٣].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَعْطَاهُمْ،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَأَعْطَاهُمْ،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ،فَقَالَ:«مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ،وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ،وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ،وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[٣٠٩٤]

فإذا استغنت النفوس بما كتب الله لها من الدنيا عظمت همتها،وشرفت غايتها،وعرفت حقيقة وجودها،وغاية انتهائها،وأقبلت على معالي الأمور وتركت سفاسفها،فعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ،وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ،وَيُبْغِضُ سَفْسَافَهَا،وَإِنَّ مِنْ إِكْرَامِ جَلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ثَلَاثَةٍ ذِي الشَّيْبَةِ فِي الْإِسْلَامِ،وَالْحَامِلِ لِلْقُرْآنِ غَيْرِ

[٣٠٩٣] – صحيح البخاري (٨/ ٩٥)(٦٤٤٦) وصحيح مسلم (٢/ ٧٢٦)١٢٠ – (١٠٥١)

[ش(الغنى) الحقيقي الذي يملأ نفس الإنسان ويكفه عن حاجة غيره.(كثرة العرض) حطام الدنيا من الأمتعة ونحوها أو ما يصيبه الإنسان من حظوظ الدنيا]

[٣٠٩٤] – صحيح البخاري (٢/ ١٢٣)(١٤٦٩) وصحيح مسلم (٢/ ٧٢٩)١٢٤ – (١٠٥٣)

[ش(فلن أدخره عنكم) لن أحبسه وأمنعكم منه.(يستعفف) يظهر العفة ويكف عن السؤال]

الْجَافِي عَنْهُ وَلَا الْغَالِي،وَالْإِمَامِ الْمُقْسِطِ»[3095] وإنما يصنع المجد من يبذل المال لا من يجمعه،ومن يركب الخطر لا من يحاذره!

وكما قال الشاعر:

ومن ينفق الأوقات في جمع ماله مخافة فقر فالذي يفعل الفقر !

وإن فتنة هذه الأمة هو في المال وعبادته كما جاء عَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ،وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ»[3096]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ،وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ،تَعِسَ وَانْتَكَسَ،وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ،طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَشْعَثَ رَأْسُهُ،مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ،إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ،إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[3097]

فكم فتن المال من عالم وداعية،وكم ألهى من حركات وأحزاب،فدخلوا الأسواق لنصر الدعوة،فنصروا الأسواق وتركوا الدعوة!

وقد حذر الله نبيه ﷺ من فتنة الدنيا وزينتها فقال له:{ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [طه:131]!

[3095] - الزهد لهناد بن السري (2/ 423) حسن لغيره

[3096] - صحيح ابن حبان - مخرجا (8/ 17)(3223) صحيح

[3097] - صحيح البخاري (4/ 34)(2886 -2887)

[ش (تعس) سقط على وجهه أو شقي وهلك.(عبد الدينار) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له.(القطيفة) دثار مخمل والدثار ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد من الثياب.(الخميصة) كساء أسود مربع له خطوط.(أعطي) من المال.(رضي) عن الله تعالى وعمل العمل الصالح.(انتكس) انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران.(شيك) أصابته شوكة.(فلا انتقش) فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه.(طوبى) من الطيب أي كانت له حياة طيبة وجزاء طيب.(بعنان) لجام.(أشعث) متفرق الشعر غير مسرح.(إن كان في الحراسة) جعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو.(كان في الحراسة) قام بها راضيا.(الساقة) مؤخرة الجيش.(تعسا) اللفظ من / محمد 8 /.(طوبى) اللفظ من / الرعد 29 /.وقيل هو اسم للجنة]

وإنما تتعطل الدعوات عن سـيرها في طريـق التغـيير والإصـلاح بالانشـغال في المـال وجمعه،والاستمتاع بفتنة الدنيا وزخرفها،وإنما يقود حركة التغيير المؤمنون المخلصون،وينصرها المعدمون المستضعفون،فهم أتباع الرسل وأنصارهم!

٣- الجهاد في سبيل الله بمفهومه الشامل:

ابتداء بجهاد النفس على الطاعة وفعل الخير وترك الشر،{ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت:٦]،

وعَنِ الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ،قَالَ:سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ:أَيُّ الْمُـؤْمِنِينَ أَفْضَـلُ إِسْلَامًا؟ قَالَ:«مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»،قَالَ:فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ»،قَالَ:فَأَيُّ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«مَنْ جَاهَدَ لِنَفْسِهِ وَهَـوَاهُ فِـي ذَاتِ اللَّهِ»،قَالَ:أَنْتَ قُلْتَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو أَوْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ:قَالَ:«بَلْ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ قَالَهُ»[٣٠٩٨]

أو جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّـهُ وَاسِـعٌ عَلِـيمٌ } [المائدة:٥٤]

أو جهاد الكلمة أمام أئمة الجور - كما في سنن النسائي عَنْ طَارِقِ بْنِ شِـهَابٍ،أَنَّ رَجُلًـا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْـدَ سُـلْطَانٍ جَائِرٍ»[٣٠٩٩]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ وَرَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يَرْمِـي الْجَمْرَةَ الْأُولَى فَأَعْرَضَ عَنْهُ،ثُمَّ قَالَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى فَأَعْرَضَ عَنْهُ،فَلَمَّا رَمَـى جَمْـرَةَ

[٣٠٩٨] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٦٠٠)(٦٣٩) صحيح

[٣٠٩٩] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

الْعَقَبَةَ،وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ قَالَ:«أَيْنَ السَّائِلُ؟» قَالَ:أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:«أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ قَالَ كَلِمَةَ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[3100]

أو الجهاد بالأموال والأنفس لنصر دين الله وإعلاء كلمته في الأرض،وجهاد أعدائه قال تعالى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة:٤١]

فكل ما سبق من صور الجهاد تدخل في عموم قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت:٦٩][3101]

وقد وعد الله المؤمنين ووعده الحق وقوله الصدق أن ينصر من نصره منهم،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد:٧]،وقال نعالى:{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِي} [الحج:٤٠]،وقال تعالى:{ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٦٠]..

" إن التصور الإسلامي يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله – سبحانه – وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله..إن سنة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب.

ولكن الأسباب ليست هي التي «تنشئ» النتائج.فالفاعل المؤثر هو الله.والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته..ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه،وأن يبذل جهده،وأن

[3100] – مسند ابن الجعد (ص:٤٨٠)(٣٣٢٦) حسن

[3101] – أَمَّا الذينَ قَاتَلُوا في سَبيلِ اللهِ،وَجَاهَدُوا الكُفَّارَ،وَبَذَلُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ في سَبيلِ نُصْرَةِ دِينِ اللهِ،فإِنَّ اللهَ يَعِدُهُم بأَنْ يَزِيدَهُمْ هِدَايةً إِلى سَبِيلِ الخَيْرِ،وَتَوفِيقاً لِسُلُوكِها.واللهُ تَعَالى مَعَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ،يُعِينُه وَيَنْصُرُهُ "أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٩١،بترقيم الشاملة آليا)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ مُوجِبًا لِلْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ الْعِلْمِ.كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِه تَعَالَى؛وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامَانِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا:إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثَّغْرِ فَإِنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ؛لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}.مجموع الفتاوى [٢٨/ ٤٤٢]

يفي بالتزام اته.وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها..وهكذا تظـــل النتـــائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره.هو وحده الذي يأذن لها بالوجود حـــين يشـــاء،وكيفما يشاء..وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله.فهو يعمل ويبذل ما في طوقه وهو يتعلق في نتيجـــة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته.ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب.فهو لا يحتم أمـــرا بعينه على الله! وهنا في قضية النصر والخذلان،بوصفهما نتيجتين للمعركة - أية معركة - يرد المسلمين إلى قدر الله ومشيئته ويعلقهم بإرادة الله وقدرته:إن ينصرهم الله فلا غالب لهـــم.وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من بعده..وهي الحقيقة الكلية المطلقة في هذا الوجود.حيث لا قـــوة إلا قوة الله،ولا قدرة إلا قدرته،ولا مشيئة إلا مشيئته.

وعنها تصدر الأشياء والأحداث..ولكن هذه الحقيقة الكلية المطلقة لا تعفي المسلمين من اتباع المنهج،وطاعة التوجيه،والنهوض بالتكاليف،وبذل الجهد،والتوكل بعـــد هـــذا كلـــه علـــى الله:«وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»..وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عنـــد غير الله ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود فينفض يده من كل الأشباح الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحمايـــة والالتجـــاء ويتوكـــل علـــى الله وحـــده في إحـــداث النتائج،وتحقيق المصاير،وتدبير الأمر بحكمته،وتقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنان أيا كان.إنه التوازن العجيب،الذي لا يعرفه القلب البشري إلا في الإسلام."[٣١٠٢]

٤-الأخوة بين المؤمنين من الأعضاء والأنصار:

التي تقوم على الحب والتعاطف والتراحم كما قال تعالى:{وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَـــإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَـــا فِـــي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّـــفَ بَيْـــنَهُمْ إِنَّـــهُ عَزِيـــزٌ حَكِـــيمٌ (٦٣) } [الأنفال:٦٢ - ٦٣]،فالنصر كما تؤكد هذه الآية إنما تحقق بالمؤمنين بالأمرين معـــا كـــونهم مؤمنين،وكونهم متحابين متآلفين،وكما في صحيح مسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ

[٣١٠٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٠٩)

اللهِ ﷺ:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ،وَتَرَاحُمِهِمْ،وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[٣١٠٣]

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[٣١٠٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَحَاسَدُوا،وَلَا تَنَاجَشُوا،وَلَا تَبَاغَضُوا،وَلَا تَدَابَرُوا،وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ،وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ،وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ،كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ،دَمُهُ،وَمَالُهُ،وَعِرْضُهُ»[٣١٠٥]

فالأخوة والمحبة هي سرُّ النصر ومفتاحه،فإذا تحققتا بين المؤمنين والمصلحين الراشدين فقد انتصروا،إذ حاجة النفوس الكريمة الشريفة إلى المحبة أشد من حاجتها إلى ما سواها من حظوظ النفس وشهواتها،فهي تحيا بالحب،وتقاتل بالحب،وتموت بالحب،ولهذا كانت أشرف مراتب العبودية لله المحبة كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة:٥٤]،

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ".[٣١٠٦]

[٣١٠٣] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٦ - (٢٥٨٦)

[ش (تداعى له سائر الجسد) أي دعا بعضه بعضا إلى المشاركة في ذلك ومنه قوله تداعت الحيطان أي تساقطت أو قربت من التساقط]

[٣١٠٤] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٥ - (٢٥٨٥)

[ش (المؤمن كالبنيان) وفي الحديث الآخر مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم الخ هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه]

[٣١٠٥] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦)٣٢ - (٢٥٦٤)

[ش (ولا يخذله) قال العلماء الخذل ترك الإعانة والنصر ومعناه إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي (ولا يحقره) أي لا يحتقره فلا ينكر عليه ولا يستصغره ويستقله (التقوى ههنا) معناه أن الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته]

[٣١٠٦] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٦٣١)(٣١٠٨٣) صحيح لغيره

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:أَتَدْرُونَ أَيُّ عُرَى الإِيمَانِ أَوْثَقُ ؟ قُلْنَا:الصَّلاَةُ قَالَ:الصَّلاَةُ حَسَنَةٌ وَلَيْسَ بِذَاكَ قُلْنَا:الصِّيَامُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى ذَكَرْنَا الْجِهَادَ،فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحَبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ.[3107]

ولهذا أمر النبي ﷺ بإشاعة الحب،ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[3108]

وعَنْ يَعِيشَ بْنِ الوَلِيدِ،أَنَّ مَوْلًى لِلزُّبَيْرِ،حَدَّثَهُ أَنَّ الزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ،حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ:الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ،هِيَ الحَالِقَةُ،لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ "[3109]

وكذا أمر النبي ﷺ بالتعبير عن مشاعر الحب تجاه الآخرين،فعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ،وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَهُ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعْلِمْهُ أَنَّهُ أَحَبَّهُ»[3110]،لما في إشاعة الحب من تأليف القلوب،وتهذيب النفوس،وسعادة الأرواح،ولحاجة الجماعة لروح التضحية من أجل الدعوة التي تؤمن بها،ولا تتحقق التضحية إلا حين تتآلف القلوب،وتتحاب الأرواح قبل الأشباح،فيرى العضو سعادته في سعادة الجماعة،وحياته في حياتها،وفوزه في فوزها،فتبذل الأرواح والأموال رخيصة من أجلها،أخوة ومحبة ومودة وتضحية وإيثارا!

[3107] - مسند أبي الطيالسي -طبعة دار هجر - مصر (٢/ ١٣)(٧٨٣) صحيح لغيره

[3108] - صحيح مسلم (١/ ٧٤)(٩٣ - (٥٤)

[ش (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره وهي لغة معروفة صحيحة وأما معنى الحديث فقوله ﷺ ولا تؤمنوا حتى تحابوا معناه لا يكمل ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب (أفشوا السلام بينكم) فيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف]

[3109] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٤)(٢٥١٠) حسن

[3110] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٩١)(٥٤٢) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٩٩)(٢٣٩٢) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٣٣٠)(٥٧٠) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ٤٠٨)(١٧١٧١) صحيح

وليس المقصود بالأخوة ما يتظاهر به المظاهرون من تـرابط وقلـوبهم متنـافرة،ومن تعـانق وأرواحهم متباغضة،بل الأخـوة خلـة شـريفة كريمـة نبيلـة أساسـها الحـب والـود والإخلاص،وعنوانها الاحترام والتكريم والتوقير،وسقفها التضحية والإيثار والفداء!

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ،حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٣١١١]

٥-الرحمة بالعالمين والإحسان إلى الخلق أجمعين:

كما قال تعالى عن سبب إرسال رسوله محمد ﷺ:{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّـا رَحْمَـةً لِلْعَـالَمِينَ } [الأنبياء:١٠٧] عامة،{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [التوبة:٦١] خاصة،وكذلك يجب أن يكون أتباعه رحمة للعالمين،وقد وصف القـرآن أهـل الإيمان بأخص صفاتهم وأشرفها كما بشر بها في التوراة والإنجيل {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّـذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ **رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِـنَ اللَّـهِ وَرِضْـوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيـلِ كَـزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح:٢٩].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ،«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْـأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» "[٣١١٢]

وفي الصحيحين عَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ قَالَ:قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَـابِسٍ التَّمِيمِـيُّ جَالِسًـا،فَقَالَ الأَقْرَعُ:إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا،فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ:«مَـنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»[٣١١٣]

[٣١١١] - صحيح البخاري (١/ ١٢)(١٣) وصحيح مسلم (١/ ٦٧)٧١ - (٤٥)

[ش (لا يؤمن أحدكم) الإيمان الكامل.(ما يحب لنفسه) من فعال الخير]

[٣١١٢] - سنن أبي داود (٤/ ٢٨٥)(٤٩٤١) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٢٣)(١٩٢٤) ومسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٣٣)(٦٤٩٤) صحيح

[٣١١٣] - صحيح البخاري (٨/ ٧)(٥٩٩٧) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٠٨)٦٥ - (٢٣١٨)

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ،وَأَنَا أَرْحَمُهَا – أَوْ قَالَ:إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا – فَقَالَ:" وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ " وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ "[3114]

وقد أوصى الله بالأرحام التي يتراحم به العالمون فقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:١].

وجعل قطعها كالإفساد في الأرض { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)} [محمد:٢٢،٢٣].

وقد أوصى النبي ﷺ بأهل مصر خيرا،فعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ،فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا،فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» أَوْ قَالَ «ذِمَّةً وَصِهْرًا"[3115]

وعلل ذلك بقوله (فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا)،أي لكون هاجر أم إسماعيل جد العرب منهم؟

فدل على أن الأرحام مهما بعدت يجب تعظيمها،كما قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات:١٣]..

ولهذا أمر القرآن بالإحسان إلى الخلق كافة { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ **بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ** وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل:٩٠] {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } [البقرة:٨٣] {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى **التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ**

[3114] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٣٥٩)(١٥٥٩٢) صحيح

[3115] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٧٠)٢٢٧ - (٢٥٤٣)

[ش (القيراط) قال العلماء القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به (ذمة) الذمة هي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام (ورحما) الرحم لكون هاجر أم إسماعيل منهم (وصهرا) الصهر لكون مارية أم إبراهيم منهم]

الْمُحْسِنِينَ } [البقرة:١٩٥]،{ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا } [الإسراء:٥٣]،{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)} [فصلت:٣٤،٣٥]..

وقال عن رحمة أهل الإيمان:{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) } [الإنسان:٨ - ١٠]..

بل إن حسن الخلق وإكمال مكارمه من أسباب بعثته ﷺ،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ "[٣١١٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[٣١١٧]

وإنما يتحقق حسن الخلق بهاتين الخلتين الرحمة والإحسان إلى بني الإنسان،على اختلاف أجناسهم وأديانهم،وقد جعل القرآن حقيقة الدين الإحسان إلى الخلق كما قال تعالى أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)(سورة الماعون).

فجعل حقيقة التكذيب بالدين،وبالحساب والجزاء يوم القيامة،طرد اليتيم،وحرمان المساكين،ومنع العون للمحتاجين،إذ لا يتصور أن تصدر هذه الأفعال ممن يؤمن بيوم الدين والجزاء،ويخشى الحساب والعقاب!

إن هذه الصفات والخلال - الإيمان بالله،والجهاد في سبيل الله،والاستقامة على دين الله،والأخوة بين المؤمنين في الله،والرحمة والإحسان إلى الخلق لوجه الله - هي أهم ما يجب على المصلحين الراشدين التحلي بها،ومجاهدة النفس عليها،ليتأهلوا للاستخلاف في الأرض كما وعدهم الله { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

[٣١١٦] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٢٣)(٢٠٧٨٢) صحيح

[٣١١٧] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٠٤)(٢٧٣) صحيح

كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥].

وليس المقصود مما ذكر في صفات القيادة والأعضاء أنه لا يقع منهم خطأ وقصور،أو ذنب أو فجور،بل كل ذلك يقع منهم،عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[٣١١٨]

وإنما الواجب توافر الحد الأدنى من هذه الصفات في الجميع والمجموع،لتحقيق الهدف ونجاح المشروع،فليس مشروع استعادة الخلافة الراشدة،وإقامة الحكومات الراشدة مشروعا سياسيا فقط،بل هو أيضا حركة إحياء روحية وأخلاقية واجتماعية وفكرية تعيد للإنسان المؤمن شهوده الحضاري من جديد،وتبعث الحياة في المجتمع الإسلامي من جديد،بعد أن فسدت التصورات والسلوكيات حتى بين كثير من دعاة الإصلاح،فانغمسوا في الدنيا،وركنوا للظالمين،وداهنوا المجرمين،وخالطوا المسرفين والمترفين،وعبدوا الدينار والدرهم،وافتتنوا فيها وفتنوا الآخرين،حتى يئس المسلمون من إصلاح الأحوال إذا كان هذا حال كثير من علمائهم ودعاقم وحركاقم الدينية!

الثالث- شروط نجاح التنظيم الراشدي:

إذا كان للقيادات الراشدة مواصفاقم،وللأعضاء والأنصار صفاقم،فإن للتنظيم شروطا ضرورية لنجاحه ومن أهم ما يجب مراعاته:

١- أن يعرف التنظيم الراشدي حق المعرفة ماذا يريد،وكيف يصل إلى ما يريد،فيعرف عقيدته السياسية بأدلتها الشرعية،ومشروعه السياسي،وما يحتاجه من زمن وجهد،وما يعترضه من عوائق،وما لديه من إمكانات،ويعرف أهدافه النهائية والمرحلية،والفرص القريبة والبعيدة،وكيف يتم تحضير المشهد السياسي لها.

[٣١١٨] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٥٩)(٢٤٩٩) حسن

٢- وأن يعلم بأن مهمته هي من الأمة وبالأمة وإلى الأمة،فليس الهدف أن يصل التنظيم للسلطة،بل أن تصل الأمة إلى السلطة،وأن يتحقق الإصلاح الشامل،لتتحرر من كل عبودية (إلا عبودية الله تعالى وحده)،ولتسوس شئونها بنفسها،كما أراد الله لها،وإنما سيشاركها التنظيم في المضي معها نحو تحقيق هذا الهدف،ومن هنا يجب عليه أن يدرك بأنه سيكون جزءا من مشروع النهضة يتكامل مع كل القوى الإصلاحية التي تسعى إلى الإصلاح التعليمي والتربوي والأخلاقي والخيري والجهادي والسياسي،وهو ما يقتضي أن يكون التنظيم مفتوحا لكل من يريد الإصلاح،وقادرا على التعاون مع الجميع بلا استثناء..[٣١١٩]

٣- وأن يكون التنظيم النموذج في إدارة شئونه بالشورى،وهو ما يقتضي أن يكون تنظيما أفقيا يتساوى فيه الجميع،وتتجلى فيه الشورى عند اتخاذ القرار،وتتحقق فيه قبل الحزم والعزم،الأخوة والمحبة،فلا أغلبية تفرض رأيها على أقلية،ولا كبير يفرض وجهة نظره على صغير،عَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ،قَالَ:«بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا،وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»[٣١٢٠]

وعَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا،وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ:" بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا،وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا،وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا " قَالَ:فَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فُسْطَاطًا يَكُونُ فِيهِ يَزُورُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ "[٣١٢١]

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يختلفون في الرأي،فما يزالون يتحاورون حتى يتفقوا على رأي واحد،ويتطاوعوا عليه،ويترك بعضهم رأيه لبعض،ليخرج الرأي باتفاق منهم جميعا،ويلين

[٣١١٩] - على قاعدة (نتعاون مع بعضنا في ما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا عليه من أمور قابلة للاجتهاد،وكانت أدلتها ظنية) انظر فتاوى الشبكة الإسلامية (٧/ ٥٣٨)معنى:"نتعاون فيما اتفقنا عليه.."

[٣١٢٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٨)٦ - (١٧٣٢)

[ش (بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا) إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضده لأنه قد يفعلهما في وقتين فلو اقتصر على يسروا لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات وعسر في معظم الحالات فإذا قال ولا تعسروا انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه وهذا هو المطلوب وكذا يقال في بشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا لأنهما قد يتطاوعان في وقت ويختلفان في وقت وقد يتطاوعان في شيء ويختلفان في شيء وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير]

[٣١٢١] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٢/ ٤٧٢)(١٩٦٩٩) صحيح

بعضهم لبعض،كما في الحديث وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ وَسُدُّوا الْخَلَلَ وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ،وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللَّهُ،وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللَّهُ»[٣١٢٢]..

لقد كان من أسباب نجاح الدعوة النبوية تحقق الأخوة بين الجيل الأول بتعزيز أواصرها بالمحبة من جهة،وتحقق المساواة بينهم من جهة أخرى،حتى أن القادم إليهم لا يعرف من هو رسول الله ﷺ من بينهم،فعَنْ جَابِرِ بْنِ سُلَيْمٍ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَحْتَبِي بِشَمْلَةٍ قَدْ وَقَعَ هُدْبُهَا عَلَى قَدَمِهِ فَقُلْتُ:أَيُّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى نَفْسِهِ ﷺ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَفِيَّ جَفَاؤُهُمْ فَأَوْصِنِي قَالَ:«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ،وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي،وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ،فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وِزْرُهُ،وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ،وَلَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا» فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ أَحَدًا وَلَا شَاةً وَلَا بَعِيرًا"[٣١٢٣]

وكذا كان الخلفاء من بعده،فلا شارات،ولا ترتيبات،تميز بين أعضاء التنظيم،إلا ما كان من توقير وتقدير ورحمة،فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا،وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا»[٣١٢٤]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا،وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا،وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»[٣١٢٥]

فلا يتحدث صغير في السِّنِّ بحضور كبير إلا بإذنه،كما في الصحيحين عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ،قَالَ:انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ،وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ زَيْدٍ،إِلَى خَيْبَرَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صُلْحٌ،فَتَفَرَّقَا فَأَتَى مُحَيِّصَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ وَهُوَ يَتَشَمَّطُ فِي دَمِهِ قَتِيلًا،فَدَفَنَهُ ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ،فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ،وَمُحَيِّصَةُ،وَحُوَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَذَهَبَ عَبْدُ

[٣١٢٢] - سنن أبي داود (١/ ١٧٨)(٦٦٦) صحيح

[٣١٢٣] - الدعاء للطبراني (ص:٥٧٠)(٢٠٥٩) حسن

[٣١٢٤] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٣٣)(٣٦٣) صحيح

[٣١٢٥] - مكارم الأخلاق للطبراني (ص:٣٦٧)(١٤٧) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٤١٦)(٢٢٧٥٥) حسن

الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ،فَقَالَ:«كَبِّرْ كَبِّرْ» وَهُوَ أَحْــدَثُ القَوْمِ،فَسَــكَتَ فَتَكَلَّمَا،فَقَــالَ:«تَحْلِفُــونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ،أَوْ صَاحِبَكُمْ»،قَالُوا:وَكَيْفَ نَحْلِفُ وَلَمْ نَشْهَدْ وَلَمْ نَرَ؟ قَالَ:«فَتُبْرِيكُمْ يَهُودُ بِخَمْسِينَ»،فَقَالُوا:كَيْفَ نَأْخُذُ أَيْمَانَ قَوْمٍ كُفَّارٍ،فَعَقَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِــنْ عِنْــدِهِ "[3126] أي اتــرك الحديث للأكبر منك سنا.

ولا يتحدث غير مختص في العلم أو الفن بحضور المختصين والعلماء فيه.

٤- وأن يتألف التنظيم الأمة على مشروعه،ويبث فيها دعاته،ويستقطب رجاله مــن أبطالهــا وأفذاذها وأذكيائها،ويستميل قلوبهم وعقولهم،وأن يسع دعاته النــاس بــأخلاقهم،فعَنْ أَبِــي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وَجْهٍ،وَحُسْــنُ خُلُقٍ. [3127]

فلن تنجح دعوة اتخذت من الجدل سبيلا،ولا من الطعن في الآخرين دليلا،وإنما تنجح الدعوة حين تجعل المحبة حبلها الممدود بينها وبين الآخرين،وحين تتخذ من الدليل حجة لهــا علــى المخالفين،قال تعالى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِــيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [النحل:١٢٥].

وحين تعرف الأمة منها صدق الدعوة،وإخلاص القصد،وأنها إنما تناضل من أجلها،وفي سبيل دينها وحريتها وكرامتها،لا للعلو في الأرض للوصول إلى السلطة،والفساد فيها،أو الاستئثار بها عليها!(تستجيب لها)،قال تعالى:{ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:٨٣]

٥- وأن يكون الدعاة في التنظيم الراشدي في تغلغلهم في المجتمع وبين فئاته كالماء الذي يــترل من السماء،ويجري في الأرض،وينبع منها،فيصل لكل أرض،ويشرب منه كل ظمآن،لا يستطيع

[3126] - صحيح البخاري (٤/ ١٠١)(٣١٧٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٩٤)٦ - (١٦٦٩)

[ش (يتشحط) يتخبط ويتمرغ ويضطرب.(تستحقون) يثبت حقكم عليه.(فتبرئكم) أي تبرأ إليكم من دعواكم.(بخمسين) يمينا يحلفونها.(فعقله) أدى ديته.(من عنده) من خالص ماله أو من بيت مال المسلمين المعد لمصالحهم العامة]

[3127] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٣٨)(٢٥٨٤٢) والجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٥٩٨)(٤٩٩) وشعب الإيمان (١٠/ ٤٠٢)(٧٦٩٦) والتواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص:٢٣٩)(١٩٠) حسن لغيره

أن يوقفه أحد،ولا أن يحول بينه وبين الأمة أحد،فلا تصده السدود،ولا تحدُّ من حركته الحدود،حتى يروي كل سهل وجبل،ثم يبارك الله نباته وزرعه حيث شاء الله ظهوره!

٦- وعلى التنظيم في كل قطر أن يختار ما يناسبه من الأساليب،فقد يكون التنظيم الحزبي أوالتنظيم الافتراضي أنسب لبلد دون بلد،وقد يكون العمل السري أفضل في وقت دون آخر،وقد عرفت الدعوة النبوية في مكة التنظيم الافتراضي،حيث لا رابط بين الأعضاء إلا إيمانهم بالدين،والأخوة فيما بينهم،فكان كل من يسلم يكون جزءا من الدعوة وأهلها،وربما أسلم الرجل فيخرج إلى قبيلته وبلده يدعو إلى الإسلام واتباع النبي ﷺ،فتنتشر الدعوة،دون أي ارتباط تنظيمي بين من كانوا يسلمون في كل مكان قبل أن يروا النبي ﷺ أو يبايعوه،كما عرفت الدعوة النبوية التنظيم الحزبي حيث البيعة ودار ابن الأرقم والجماعة،ثم لما بايع الأنصار النبي ﷺ اختار منهم اثني عشر نقيبا عليهم،يمثلون من وراءهم من قومهم من الأوس والخزرج،فالتنظيم الحزبي هم العصابة الذين ورد الحديث بها،فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ،وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ،مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،وَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ"[٣١٢٨]

وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة:٢٢].وقوله تعالى:{

[٣١٢٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣)٥٨ - (١٧٦٣)

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)} [المائدة:٥٥،٥٦].

وقد فرق القرآن في الأحكام بين المؤمنين المهاجرين والأنصار ومن يجاهد معهم في سبيل الإسلام،والمسلمين الذين لم يهاجروا و لم يجاهدوا،فليسوا سواء في الجهاد ولا في الإنفاق،فلم يكونوا سواء في الولاية وفي الاستحقاق {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [الحديد:١٠]!

كما دعا النبي ﷺ ثلاث سنين سرا[٣١٢٩] حتى قويت الدعوة،واشتد عودها،وعرف المؤمنون فيها حقيقة رسالتهم ودعوتهم التي سيحملونها للعالمين،قبل أن يخرجوا للدعوة ومواجهة الجاهلية العالمية وطواغيتها!

٧- وأن يدرك التنظيم في كل بلد أنه قد يتعرض لفتنة وشدة،وأنه قد يضيق عليه ويحارب،وقد يحال بينه وبين الوصول للأمة في مساجدها ومحافلها،وهو ما فرضه العدو المحتل على الأمة من خلال حكوماته التي أقامها منذ سيطرته على شئونها قبل قرن،إلا إن ذلك كله هو سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل مع كل دعوة للإصلاح والتغيير،كما قال تعالى { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)} [العنكبوت:٢،٣].

بل إن الدعوات أحوج إلى الشدة لتمحيص صفوفها منها إلى الرخاء حيث يكثر الطامعون والمتسلقون والوصوليون { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [آل عمران:١٧٩]!

" مَا كَانَ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبَادِهِ أَنْ يَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ امْتِحَانٍ وَتَمْحِيصٍ،لِيَظْهَرَ لَهُ الْمُؤْمِنُ الصَابِرُ،وَيَنْكَشِفَ الْمُنَافِقُ الفَاجِرُ،وَيَبِينَ وَلِيُّ اللهِ،وَيَفْتَضِحَ عَدُوُّهُ،فَامْتَحَنَهُمُ اللهُ يَوْمَ أُحُدٍ،فَظَهَرَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ،وَهَتَكَ أَسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ،بِإِظْهَارِ مُخَالَفَتِهِمْ،وَنُكُولِهِمْ عَنِ الجِهَادِ،وَخِيَانَتِهِمْ

[٣١٢٩] - انظر:السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٨٤)

لِلْرَّسُولِ،فَعَرَفَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ،وَأَخَذُوا يَحْذَرُونَهُمْ.وَأَنْتُمْ أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ لاَ تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللهِ فِي خَلْقِهِ،وَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُطْلِعَ عَامَّةَ خَلْقِهِ عَلَى غَيْبِهِ.وَلِذَلِكَ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ تُمَيِّزُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ،وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ،وَهَذِهِ الوَسِيلَةُ تَبْتَدِئُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ،فَيُؤْمِنُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ،وَيَكْفُرَ مَنْ يَكْفُرُ،ثُمَ يَقُومُ الرُّسُلِ بِالجِهَادِ فَيَبْتَلِي الرُسُلُ أَصْحَابَهُمْ بِهِ،وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَتِمُّ أَمْرُ اللهِ وَيَتَمَيَّزُ الخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ،وَتَطْهُرُ القُلُوبُ وَالنُّفُوسُ.ثُمَّ يَدْعُو اللهُ تَعَالَى النَّاسَ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرُسُلِه – وَمِنْهُمْ مُحَمَّدُ ﷺ – وَمَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ فَقَدْ آمَنَ بِالرُّسُلِ السَّابِقِينَ جَمِيعاً،لأَنَّهُ جَاءَ مُصَدِّقاً الرُّسُلَ السَّابِقِينَ."[٣١٣٠]

" ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله – سبحانه – وليس من مقتضى ألوهيته،وليس من فعل سنته،أن يدع الصف المسلم مختلطا غير مميز يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان،ومظهر الإسلام،بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان،ومن روح الإسلام.فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دورا كونيا كبيرا،ولتحمل منهجا إلهيا عظيما،ولتنشئ في الأرض واقعا فريدا،ونظاما جديدا..وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك،ويقتضي ألا يكون في الصف خلل،ولا في بنائه دخل..وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الأرض وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة..

وكل هذا يقتضي أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث.وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة.وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر..ومن ثم كان شأن الله – سبحانه – أن يميز الخبيث من الطيب،ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة! كذلك ما كان من شأن الله – سبحانه – أن يطلع البشر على الغيب،الذي استأثر به،فهم ليسوا مهيئين بطبيعتهم التي فطرهم عليها للاطلاع على الغيب،وجهازهم البشري الذي أعطاه الله لهم ليس «مصمما» على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار.وهو مصمم هكذا بحكمة.مصمم لأداء وظيفة الخلافة في الأرض.

وهي لا تحتاج للاطلاع على الغيب.ولو فتح الجهاز الإنساني على الغيب لتحطم.لأنه ليس

[٣١٣٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٧٢،بترقيم الشاملة آليا)

معدا لاستقباله إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه،ويصل كيانه بكيان هذا الكون.وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها،ألا يحرك يدا ولا رجلا في عمارة الأرض،أو أن يظل قلقا مشغولا بهذه المصائر،بحيث لا تبقى فيه بقية لعمارة الأرض! من أجل ذلك لم يكن من شأن الله سبحانه،ولا من مقتضى حكمته،ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على الغيب.

إذن كيف يميز الله الخبيث من الطيب؟ وكيف يحقق شأنه وسنته في تطهير الصف المسلم،وتجريده من الغبش،وتمحيصه من النفاق،وإعداده للدور الكوني العظيم،الذي أخرج الأمة المسلمة لتنهض به؟

«وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ»..وعن طريق الرسالة،وعن طريق الإيمان بها أو الكفر،وعن طريق جهاد الرسل في تحقيق مقتضى الرسالة،وعن طريق الابتلاء لأصحابهم في طريق الجهاد..عن طريق هذا كله يتم شأن الله،وتتحقق سنته،ويميز الله الخبيث من الطيب،ويمحص القلوب،ويطهر النفوس..ويكون من قدر الله ما يكون..وهكذا يرفع الستار عن جانب من حكمة الله،وهي تتحقق في الحياة وهكذا تستقر هذه الحقيقة على أرض صلبة مكشوفة منيرة.."[3131]

وقد كان النبي ﷺ يثبت أصحابه بقصص الأولين وتضحياتهم وصبرهم،كما فعل حين جاءه الصحابة في مكة يشتكون شدة ما يلقون من العذاب – كما في الصحيح عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ،قَالَ:شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ،قُلْنَا لَهُ:أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا،أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ:«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ،فَيُجْعَلُ فِيهِ،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ،حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[3132]

[3131] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 – ت- علي بن نايف الشحود (ص:838)

[3132] – صحيح البخاري (4/ 201)(3612)

[ش (متوسد بردة) جعلها وسادة له.(تستنصر) تطلب النصرة من الله تعالى.(ليتمن) من الإتمام والكمال.(هذا الأمر) وهو الإسلام.(تستعجلون) النتائج والثمرات]

كما قد تتعرض الدعوة لفتن الترغيب أشد من فتن الترهيب،فتتعرض لفتنة المشاركة في السلطة والثروة على حساب أهدافها الرئيسة،كما عرضت قريش على النبي ﷺ أن يسودوه حتى لا يقطعوا أمرا دونه على أن يتركهم وشأنهم وظلمهم وطواغيتهم!

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَالْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ لَقَدِ انْتَشَرَ عَلَيْنَا أَمْرُ مُحَمَّدٍ،فَلَوِ الْتَمَسْتُمْ رَجُلًا عَالِمًا بِالسِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالشِّعْرِ،فَكَلَّمَهُ،ثُمَّ أَتَانَا بِبَيَانٍ مِنْ أَمْرِهِ،فَقَالَ عُتْبَةُ:لَقَدْ سَمِعْتُ بِقَوْلِ السَّحَرَةِ وَالْكِهَانَةِ وَالشِّعْرِ وَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ عِلْمًا،وَمَا يَخْفَى عَلَيَّ إِنْ كَانَ كَذَلِكَ،فَأَتَاهُ فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ لَهُ عُتْبَةُ:يَا مُحَمَّدُ،أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ هَاشِمٌ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللَّهِ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ قَالَ:فِيمَ تَشْتُمُ آلِهَتَنَا،وَتُضَلِّلُ آبَاءَنَا،فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بِكَ الرِّئَاسَةُ عَقَدْنَا أَلْوِيَتَنَا لَكَ،فَكُنْتَ رَأْسَنَا مَا بَقِيتَ،وَإِنْ كَانَ بِكَ الْبَاءَةُ زَوَّجْنَاكَ عَشْرَ نِسْوَةٍ تَخْتَارُ مِنْ أَيِّ أَبْيَاتِ قُرَيْشٍ شِئْتَ،وَإِنْ كَانَ بِكَ الْمَالُ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَسْتَغْنِي بِهَا أَنْتَ وَعَقِبُكَ مِنْ بَعْدِكَ،وَرَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – سَاكِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ،فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ – فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ – أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ عَلَى فِيهِ وَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ عَنْهُ،وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى أَهْلِهِ وَاحْتَبَسَ عَنْهُمْ.فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،وَاللَّهِ مَا نَرَى عُتْبَةَ إِلَّا قَدْ صَبَا إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَعْجَبَهُ طَعَامُهُ،وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ أَصَابَتْهُ،انْطَلِقُوا بِنَا إِلَيْهِ فَأَتَوْهُ،فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ:وَاللَّهِ يَا عُتْبَةُ،مَا حَسِبْنَا إِلَّا أَنَّكَ صَبَوْتَ إِلَى مُحَمَّدٍ،وَأَعْجَبَكَ أَمْرُهُ،فَإِنْ كَانَتْ بِكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا يُغْنِيكَ عَنْ طَعَامِ مُحَمَّدٍ،فَغَضِبَ وَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَا يُكَلِّمُ مُحَمَّدًا أَبَدًا.قَالَ:وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا،وَلَكِنِّي أَتَيْتُهُ فَقَصَّ عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ:فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسِحْرٍ وَلَا شِعْرٍ وَلَا كِهَانَةٍ قَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قَالَ يَحْيَى:كَذَا قَالَ يَعْقِلُونَ حَتَّى بَلَغَ،فَقَالَ:أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ فَأَمْسَكْتُ بِفِيهِ وَنَاشَدْتُهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ،وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ،فَخِفْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ "[٣١٣٣]

[٣١٣٣] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ٢٠٣)حسن

وقد سقطت كثير من الدعوات في هذه الفتنة حتى تخلت عن دينها ودعوتها وقضيتها،فصارت عونا للظالمين،بل ونصيرا للمحتلين،وظهيرا للمجرمين!

وقد حذر القرآن النبي ﷺ من أن يستخفه الذين لا يوقنون،أو يستفزه الذين لا يؤمنون،فقال تعالى:{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } [الروم:٦٠]

إنه الصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحيانا بلا نهاية! والثقة بوعد الله الحق،والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك..الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين،ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله.ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين.فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين.مهما يطل هذا الطريق،ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم![٣١٣٤]

وقال تعالى:{وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) } [الإسراء]

"يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ تَأْيِيدِهِ لِرَسُولِهِ الكَرِيمِ،وَعَنْ تَثْبِيتِهِ إِيَّاهُ،وَعِصْمَتِهِ لَهُ مِنْ شَرِّ الأَشْرَارِ،وَكَيْدِ الفُجَّارِ،وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَوَلِّي أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ،فَقَدْ حَاوَلَ الْمُشْرِكُونَ فِتْنَتَهُ عَمَّا أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ،لِيَفْتَرِيَ عَلَى اللهِ غَيْرَهُ،وَهُوَ الصَّادِقُ الأَمِينُ،فَقَدْ سَاوَمُوهُ عَلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ رَبَّهُ،مُقَابِلَ أَنْ يَتْرُكَ التَّنْدِيدَ بِآلِهَتِهِمْ،وَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ.وَسَاوَمُوهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لِبَعْضِ كُبَرَائِهِمْ مَجْلِساً غَيْرَ مَجْلِسِ الفُقَرَاءِ،وَلَوْ أَنَّهُ رَضِيَ مُسَايَرَتِهِمْ فِيمَا أَرَادُوا لاتَّخَذُوهُ خَلِيلاً،وَلَكَفُّوا عَنْ إِيذَائِهِ وَتَكْذِيبِهِ.

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى ثَبَّتَ رَسُولَهُ ﷺ،وَعَصَمَهُ عَنِ الانْحِرَافِ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.وَلَوْلاَ عِصْمَةُ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ لَرَكَنَ إِلَى الكُفَّارِ بَعْضَ الشَّيءِ.وَالانْحِرَافُ الطَّفِيفُ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ يَنْتَهِي إِلَى الانْحِرَافِ الكَامِلِ فِي نِهَايَتِهِ.

[٣١٣٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٣١)

وَلَوْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَكَنَ إِلى الكُفَّار،وَلَوْ قَلِيلاً،لَعَاقَبَهُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ الرُّكُونِ بِإِذَاقَتِهِ عَذَابَ الدُّنْيا،وَعَذَابَ الآخِرَةِ مُضَاعَفَيْنِ،وَبِإِفْقَادِهِ المُعِينَ وَالنَّصِيرَ.وَلأَنَّ الرَّسُولَ العَظِيمَ قُدْوَةٌ لِلمُؤْمِنِينَ يَقْتَدُونَ بِهِ،فَأَيُّ تَصَرُّفٍ مِنْهُ يُتَابِعُهُ المُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ،وَيَتَّخِذُونَهُ سُنَّةً.

وَلَمَّا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ إِمْكَانِ اسْتِدْرَاجِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الانْحِرَافِ بِالدَّعْوَةِ عَمَّا أَوْحَى اللهُ بِهِ إِلَيْهِ،أَرَادُوا أَنْ يُزْعِجُوهُ،وَيَسْتَخِفُّوهُ (يَسْتَفِزُّونَكَ)،لِيُخْرِجُوهُ مِنْ مَكَّةَ (مِنَ الأَرْضِ)،فَضَيَّقُوا عَلَيْهِ،وَعَلَى بَنِي هَاشِمَ،وَأَلْجَؤُهُمْ إِلَى الشُّعَبِ ثَلاَثَ سِنِينَ.وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ مُهَاجِراً،لِمَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَنْ يُهْلِكَ قُرَيْشاً بِالإِبَادَةِ.وَلَوْ أَنَّ قُرَيْشاً أَخْرَجَتْ رَسُولَ اللهِ عَنْوَةً وَقَسْراً،لَحَلَّ بِهِمُ الهَلاَكُ (وَإِذَا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَ قَلِيلاً)."[٣١٣٥]

فثبات الدعوة على عقيدتها وقضيتها،وعدم استعجالها للوصول إلى أهدافها،على حساب مبادئها،وعدم سهولة استفزازها من قبل أعدائها لقطع الطريق عليها،كل ذلك من أهم أسباب قوتها ونصرها.

وربما ارتد عن الدعوة من يرتد،وقد يبيع بعضهم دينه بعرض من الدنيا قليل،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ،يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا،أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا،يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[٣١٣٦]

وقد ارتد عن الدعوة في مكة والمدينة وبعد وفاة النبي ﷺ أكثر ممن ثبت على الإيمان،فما زاد الإسلام إلا قوة،ولا زاد المؤمنين إلا عزيمة!

ولا يخش الدعاة إلى هذا المشروع الراشدي عدوهم وبأسه،فقد وعدهم الله بالنصر عليه،بل عليهم أن يخشوا من فساد ذات بينهم،وحظوظ نفوسهم،وتنافسهم على الدنيا وزخرفها،وقد حذر النبي ﷺ أمته — كما في عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ،وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ،وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ إِلَى البَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ

[٣١٣٥] - أيسر التفاسير —

[٣١٣٦] - صحيح مسلم (١/ ١١٠)(١٨٦ - (١١٨)

[ش (بادروا بالأعمال فتنا) معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر]

الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ،فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ،فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ،فَوَافَوْا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ،فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ،ثُمَّ قَالَ:«أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ» قَالُوا:أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ،فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ،وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا،وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[٣١٣٧]

٨- كما على التنظيم الراشدي ألا يبخس المصلحين الآخرين حقهم،ولا يجحد سابقة جهادهم،وأن يتعاون معهم،فإن في الأمة طوائف لا تزال على الحق حتى في حال الاستضعاف والاغتراب وشيوع الجاهلية العالمية وهم:

أولا:المجاهدون في سبيل الله – فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ،حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَّالَ»[٣١٣٨]

ثانيا:المجددون لدين الله – كما في سنن أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[٣١٣٩] ويدخل في ذلك كل من أسهم في تجديد الدين من العلماء المجددين،والدعاة المصلحين،أفرادا كانوا أو جماعات..

ثالثا:المصلحون – كما في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ،وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ،كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»[٣١٤٠]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا،وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»،قِيلَ:مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»[٣١٤١]

[٣١٣٧] - صحيح البخاري (٥/ ٨٥)(٤٠١٥) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣)٦ - (٢٩٦١)

[٣١٣٨] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٩٧)(٨٣٩١) صحيح

[٣١٣٩] - سنن أبي داود (٣/ ٤)(٤٢٩١) صحيح

[٣١٤٠] - صحيح مسلم (١/ ١٣١)(١٤٦) [ش (يأرز) أي ينضم ويجتمع]

[٣١٤١] - السنن الواردة في الفتن للداني (٣/ ٦٣٣)(٢٨٨) حسن

وقال أَبُو الدَّرْدَاءِ،وَأَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ،وَوَاثِلَةُ بْنُ الْأَسْقَعِ -:خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا،وَسَيَعُودُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ:«الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ،وَلَا يُمَارُونَ فِي دِينِ اللَّهِ،وَلَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ»[3142]

وعن كَثِيرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الدِّينَ لَيَأْزِرُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْزِرُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا،وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ،إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[3143]

فيدخل في عمومهم كل مصلح سياسي،أو زعيم إصلاحي يعمل من أجل إصلاح حال الأمة وعودها لقوها وعزها ودينها.

رابعا:العابدون والزاهدون والأبدال الصالحون وأهل الطاعة والخير الذين يذكرون الأمة برها ودينها -كما في صحيح ابن عن بَكْرَ بْنِ زُرْعَةَ الْخَوْلَانِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيَّ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،مِمَّنْ صَلَّى لِلْقِبْلَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا وَأَكَلَ الدَّمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ بِغَرْسٍ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ».[3144]

فالواجب على التنظيم الراشدي أن يكون لهؤلاء جميعا ردءا وظهيرا،ومؤيدا لهم ونصيرا،كما قال تعالى:{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [آل عمران:١٠٣]،{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]..

٩- أن يجعل التنظيم من مشروع «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[3145] عقيدة ودينا ومنهجا ودعوة يؤمن بها كل عضو فيه،ويتثقف

[3142] - الزهد الكبير للبيهقي (ص:١١٤)(١٩٩) ضعيف

[3143] - المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ١٦)(١١) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٨)(٢٦٣٠) حسن لغيره

[3144] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٣٢)(٣٢٦) حسن

[3145] - السنة للمروزي (ص:٢٧)(٧٢) صحيح

فيها،ويدعو إليها،ويحيا عليها،وأن توضع له المقررات والدورات لتدارس سيرة النبي ﷺ،في إقامة الدولة،وسيرة خلفائه الراشدين،ودراسة سننهم في إقامة الخلافة،وباب سياسة الأمة،ومعرفة هديهم وسمتهم للاقتداء بهم،وتدارس أحكام الخلافة الشرعية،وتاريخ الخلافة ومراحلها،وما طرأ عليها من تراجعات،وما جرى لها من تطورات،وما أصاب الأمة بعد سقوطها،حتى يتحول مشروع نحو (**أمة واحدة وخلافة راشدة**) مشروعا للأحرار في الأمة كلها،تحشد له الطاقات،وتوظف له الخبرات،وتوقف عليه الأموال،وينظم له الرجال،حتى لا يمضي عقد أو عقدين من السنين إلا وقد قامت (حكومة أو حكومات راشدة)،تكون قاعدة لمشروع (**الخلافة الراشدة**)..

عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ،أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ» [٣١٤٦]

١٠- أن يكون التنظيم على مستوى المسئولية التاريخية التي تصدى لها،فيجمع ولا يفرق،ويبشر ولا ينفر،وييسر ولا يعسر،وأن يحيط علما بالعصر وتطوره،وكيفية مواكبته،واستيعاب حضارته وتقدمه سياسيا واقتصاديا ومعرفيا،وأن يختار للقيادة أفذاذ الرجال،علما وخلقا وعزما وذكاء،وأن ينتقيهم كما ينتقى التمر،ويختبرهم كما يختبر الذهب،فإنما أوتي العمل الإسلامي من بعض قياداته،فسقطت وسقط معها مشروعها،وإن أشد ما في الإصلاح السياسي خطورة تداخل العامل الاجتماعي بالسياسي،فللمجتمعات ونظمها الاجتماعية قواعدها وأصولها التي تستعصي على من أراد تجاهلها،فليس كل فئة تستطيع قيادة المجتمع،أو يتقبل المجتمع قيادتها مهما اجتمع لها من الصفات،فالناس معادن كمعادن الذهب

[٣١٤٦] - مسند أبي داود الطيالسي (١/ ٣٤٩)(٤٣٩) صحيح

والفضة،ففي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ،فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا،وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ فِي هَذَا الْأَمْرِ،أَكْرَهُهُمْ لَهُ،قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ،وَتَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ،الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ» [٣١٤٧]

وأكرم معادن العرب آل البيت النبوي الشريف وبنو هاشم وقريش،ثم العرب على معادنهم ففي كل قبيلة معادنها من الذهب والفضة،وفي كل الأمم من غير العرب معادنها من الذهب والفضة،ولبعض الفئات من القبول ما ليس لغيرهم،وفي بعضهم من القوة والحمية والأنفة ما ليس في غيرهم،وربما وجد هذا التفاوت في القبيلة الواحدة،وفي الأسرة الواحدة،وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء،كما فاضل الله بينهم في الأرزاق فاضل بينهم في الأخلاق والأعراق،فيجب مراعاة ذلك كله،فإن الإنسان يرجع إلى معدنه وطبعه،وربما ثبت الإنسان على موقفه مروءة وحفاظا على شرفه أكثر مما يقفه طاعة وحفاظا على دينه،فقد يجد في الدين رخصة عند الإكراه رحمة وتخفيفا وتيسيرا،ولا يجدها في قاموس الشرف وناموس المجد! [٣١٤٨]

❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊

[٣١٤٧] - صحيح البخاري (٤/ ١٤٠)(٣٣٥٣) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٥٨)(١٩٩ - (٢٥٢٦) واللفظ له

[ش (معادن) المعادن الأصول وإذا كانت الأصول شريفة كانت الفروع كذلك غالبا والفضيلة في الإسلام بالتقوى لكن إذا انضم إليها شرف النسب ازدادت فضلا (وتجدون من خير الناس في هذا الأمر الخ) قال القاضي يحتمل أن المراد به الإسلام كما كان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وغيرهم من مسلمة الفتح وغيرهم ممن كان يكره الإسلام كراهية شديدة ثم دخل فيه أخلص وأحبه وجاهد فيه حق جهاده قال ويحتمل أن المراد بالأمر هنا الولايات لأنه إذا أعطيها من غير مسألة أعين عليها (من شرار الناس) سببه ظاهر لأنه نفاق محض وكذب وخداع وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها ويظهر لها أنه منها في خير أو شر وهي مداهنة محرمة]

[٣١٤٨] - http://www.dr-hakem.com/
http://www.dr-hakem.com/Portals/Content/?info=TmpVNUpsTjFZbEJoWjJVbU١RPT،rdQ==.jsp

الفهرس العام